جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ - يناير (كانون الثاني) ١٩٨٩ م

العربي



نجيب محفوظ
رحلة الحارة من المعاناة إلى المسرات

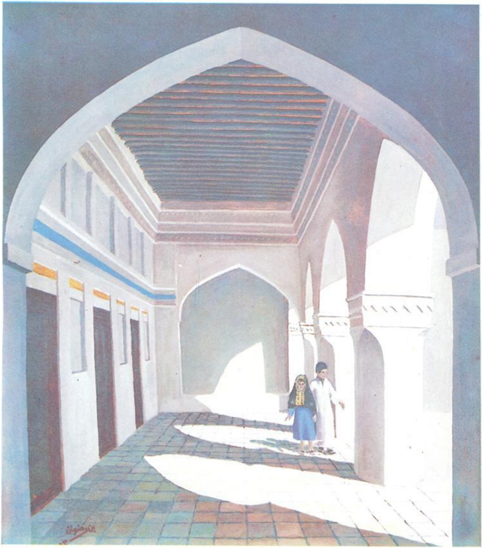


. فيتنام
شعب التحديات

. النفط والتنمية والبيئة في الكويت

. عُمَان
عين على التاريخ وأخرى على المستقبل

مع العدد هدية مفكرة عام ١٩٨٩



متحف الكويت (بيت البدر)

للفنان محمود رضوان

العــــدد ٣٦٢ الســنة الثانيـة والثـلاثـون يـنـايـر ١٩٨٩

العربي

مجـلـة ثقـافيـة مصـورة
تصـدر شهـريًا عـن وزارة الإعـلام بـدولـة الكـويت
للوطـن العـربي ولكل قـارئ للعـربيـة في العـالـم

رئـيس التحـريـر
د. محمـّد الرميـحي

AL - ARABI
Issue No. 362 Jan. 1989 - P.O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

عنـوان المجـلة
العـربي
ص. ب: ٧٤٨ ـ الصفـاة
الرمـز البريـدي **13008** الكـويت
تـلفـون: ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيـا: "العـربي" - الكـويت
تلفون فاكسملى: ٢٤٢٤٣٧٥ - تـلكس: MITR. 44041 KT
المراسـلات بـاسـم رئـيس التحـريـر

الاعلانات يتفـق عليهـا مـع الإدارة ـ قسـم الاعـلانـات

الاشتراكات تُرسَل الطلبـات إلى: قسـم الاشـتراكات ـ المكتب الفـني
وزارة الإعـلام ـ ص.ب: ١٩٣ الكويت
علـى طالـب الاشـتراك تحويل القيمة بموجب حوالـة
مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

ثمـن النسخـة

الكـويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العـراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسًا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا: جنيه استرليني ونصف
مصر ٣٥ قرشًا	سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ٢٥ فرنكًا
السودان ٢٥ قرشًا	لبنان ٥٠ ليرة	أمريكا ٣ دولارات

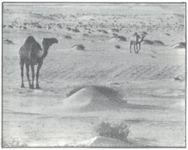
محتويات العدد

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

استطلاعات مصورة :

طب وعلوم :



● النفط والتنمية والبيئة في الكويت .... ص ١٠٠

أدب وفنون :

منتدى العربي :

تربية وعلم نفس :





المجلة
غير ملتزمة
بإعادة أي مادة
تتلقاها للنشر
والوزارة
غير مسؤولة
عما ينشر
فيها من آراء.

اجـــــــتـــــــماع :

تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :



صورة الغلاف

كانت « العربي » أول مطبوعة تستطلع فيتنام التي واجه شعبها التحديات والذي انتصر بالصبر حتى على الفقر .. بعد سلسلة حروب دموية متلاحقة .. من أجل اعادة البناء .

[طالع الاستطلاع ص ٣٦]

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

على طريق استشراف المستقبل العربي

كل عام وأنت بخير ، نستهل عامنا الجديد للسنة الثانية والثلاثين من مجلة العربي وعيوننا على المستقبل ، لم يعد يفصلنا عن القرن الواحد والعشرين إلا بضع سنوات لاتزيد عن عقد إلا بقليل ، والعالم من حولنا يتغير بعمق وبسرعة ، والبشرية مقدمة على مشارف مرحلة جديدة ، ليست مادية فقط ولكن معنوية أيضا .

في إطار الثقافة سوف نضاعف جهدنا في « العربي » باتجاه استكشاف واقع الثقافة العربية ومستقبلها ، وسوف نسبر واقع الرواية العربية ، وواقع الشعر العربي المعاصر ، وواقع القصة القصيرة ، وواقع المسرح ، وما يتفرع من هذه النشاطات الإنسانية ، وما يجاورها ، حتى نعرف على وجه الدقة واليقين ماذا عن حالتنا الثقافية الراهنة .

وسوف تتابع « العربي » بداية من هذا العدد استشراف المستقبل العربي في مجالاته المتعددة ، فلم نعد قادرين على أن نشاهد التحولات الكبرى وهي تجري في العالم ولا نرصد نتائجها علينا نحن العرب .

العالم يتغير استراتيجيا ، فالقوتان العظميان تكادان تصبحان قوة واحدة باتجاه تأمين مصالحهما المشتركة ، وقوى جديدة تبرز على الساحة العالمية ، كالقوة الصفراء مثل الصين واليابان وغيرهما ، وهي قوة شرقية لها بعدها الحضاري القديم وطموحها المشروع ، لتتبوأ مركزها في العالم ، وهي غير متأثرة بتعقيدات الارتهان مع القوى الغربية ، ولها موقفها المتوازن بالنسبة لقضايانا العربية ، لها مصالح محددة وتنظم نفسها باتجاه هذه المصالح بوضوح ودون تردد ، وتشكل علاقاتها الدولية على هذا الأساس ، فما موقفنا نحن العرب من كل ذلك ؟

العلم والتقنية في تغير جذري ، فثورة المعلومات التي كنا نتحدث عنها منذ زمن هي بين أيدينا الآن ، واحتكار هذه المعلومات واستخداماتها تعني احتكار المستقبل . فالمعلومات تهيىء للأشخاص والمؤسسات والدول قدرة على التحرك طرديا مع حجم هذه المعلومات ، والخبراء يتوقعون ألا تقتصر التقنية في استخدام « الكمبيوتر » فقط لتخزين المعلومات وتحليلها ، بل سوف تتضاعف عشر مرات من الآن حتى مطلع القرن الواحد والعشرين ، وسوف تتضاعف مائة مرة من الآن حتى العقد الأول من القرن الواحد والعشرين .

إن المستقبل يحمل في طياته الكثير من عناصر التقدم للبشرية ، وعلينا أن نسبر هذه العناصر ونتعرف عليها عن قرب و « العربي » ستحاول جاهدة أن تفعل ذلك .

« المحرر »

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

قراءة في أحداث عقد مضى

نحن الآن في يناير ١٩٨٩ ، ولم يبق سوى أحد عشر شهراً ويمضي عقد الثمانينيات بكل ماحمل من سلبيات وإيجابيات للعالم بعامة ، ولنا في الوطن العربي بخاصة ، لندخل في العقد الأخير من القرن العشرين ، مشرفين على قرن جديد هو القرن الواحد والعشرين .

لقد شهد هذا العقد تحولات جوهرية على الساحة العالمية . والتحولات العالمية - وكما هي التحولات في الحياة الانسانية - لا تأتى من فراغ ولا تبرز فجأة ، ولكنها تبدأ مثل أى شيء آخر - من جراء تفاعلات صغيرة غير مرئية ، تتكثف كى تحول التغير الكمى البسيط وغير المنظور إلى تغير كيفى وهائل ، يفاجأ به السذج والبسطاء من الناس ، ويعرفه أهل الدراية والخبرة والعلم .

لقد نضجت بعض التحولات في العلاقات الدولية في السنوات الأخيرة ، وشهد عقد الثمانينيات - الذي يكاد يذهب - مجموعة من تلك التحولات التي ستصبح ذات تأثير كبير طويل المدى على قضايا كثيرة في العالم ، وعلى قضايانا نحن العرب أيضاً .

■ ماهي صورة العالم الجديد الذي نوشك أن ندخله ؟

ولكن كيف يمكن رصد جذور هذه التغيرات ؟ وماهي احتمالات مساراتها على العلاقات الدولية وعلى الدول والمجتمعات المختلفة ؟

لو قررنا أن نبسط أسباب هذه التحولات والتغيرات ، ونسبر نتائجها على العالم وعلينا ، ترى بماذا نبدأ ؟ وماهي نقطة الانطلاق ؟

باديء ذي بدء ، لابد من النظر إلى عقد الثمانينيات على أنه العقد الذى بدأ فيه تطبيق (العقلانية الجديدة) في العلاقات الدولية . بدأ العقد المذكور بشيء أشبه مايكون بالصراع السياسى الحاد على الساحة الدولية ، ثم انتهى أشبه مايكون بوفاق لم يؤثر فقط على القوتين العظميين ـ طرفى هذا الصراع اللتين بدأتا الوفاق بعد ذلك ـ بل أثر أيضا على قضايا كثيرة في هذا العالم المشبع بالصراعات الإقليمية ، والاختلاف في الاجتهادات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ولكن لو أردنا أن نلخص نتائج هذا الصراع ثم الوفاق ، فماذا عسانا قائلين ؟

زمن آخر ، وعصر آخر :

قد نقول : إن هنا فهماً أعمق لإحلال (التعاون) محل (المواجهة) التي صبغت العلاقات الدولية فترة طويلة ، وقد نقول : إن هناك تحولات هيكلية أساسية في العلاقات الدولية والإقليمية ، وقد نقول : إننا مقدمون على حضارة عالمية جديدة لها مواصفات جديدة تدخل بنا القرن الواحد والعشرين ، وأننا سنصبح كلا متكاملاً على هذا الكوكب بدلاً من أجزاء متناثرة .

إذا كانت تلك هي النتائج فما هي الأسباب ؟ وكيف وصلنا إلى تلك النتائج خلال عقد واحد فقط من السنين ، وكان الوفاق قبل ذلك أبعد من الممكن ، وخارج التفكير المستقيم ؟

حجر الزاوية وجوهر العلاقة في النظام الدولى الجديد تلك التفاعلات المستجدة بين كل من واشنطن وموسكو ، وقد أخذ هذا التفاعل يعكس نفسه بشدة على قضايا أخرى مهمة في الشرق الأوسط وفي أفريقيا وآسيا وأمريكا الوسطى ، في أماكن التماس والصراع الكامن أو المشتعل ، وقد تغيرت هذه العلاقة أيضا إبان عقد الثمانينيات من علاقات متنافرة تصادمية كانت قمتها وصف الرئيس رونالد ريجان ـ رئيس الولايات المتحدة في معظم سنوات الثمانينيات ـ للاتحاد السوفيتي بأنه «امبراطورية الشر» ، ومالبث في النصف الثاني من العقد أن وجد نفسه يعقد خمسة اجتماعات مع جورباتشوف . . وتوجت هذه الاجتماعات في ربيع العام الماضي ، بسير الزعيمين معاً على الأقدام في الساحة الحمراء في موسكو ، حيث تناول جورباتشوف أحد الأطفال السوفيت من أمه الواقفة مع آلاف المواطنين السوفيت يحيون الرئيس ووضعه بين يدي الرئيس ريجان وقال له :



■ أدرك العملاقان أن الحرب النووية لا يمكن كسبها ولا ينبغي خوضها

سلم على جدك رونالد ! بعد ذلك بفترة قصيرة سأل أحد الصحفيين المشاغبين رونالد ريجان بعد عودته من تلك الجولة إلى مقر إقامته : هل مازلت تعتقد أن الاتحاد السوفيتي هو (امبراطورية الشر) ؟ قال ريجان : لا ، كنت أتكلم عن زمن آخر وعصر آخر . . !

لقد بدأ عقد الثمانينيات كما رأينا والدولتان العظميان أبعد ماتكونان في المواقف ، وبعد خمسة لقاءات قمة - بدأت بجنيف في نوفمبر ١٩٨٥ وانتهت أو قل كان آخرها في نيويورك في ديسمبر ١٩٨٨ مروراً بريكافيك وواشنطن وموسكو - تمخضت هذه اللقاءات عن مجموعة كبيرة من القرارات الوفاقية بدءاً بنزع أنواع من السلاح النووي - القصير والمتوسط - وجعل أوربا خالية تماماً من هذا السلاح المدمر ، وانتهى العقد بالاتفاق كما نصت إحدى الوثائق على (البحث الدائب عن الحلول التي سوف تطور استقلال الشعوب وحريتها وأمنها) ، وذكرت بعد ذلك مناطق الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا وأمريكا الوسطى كمناطق لها أولوية في بحث القوتين العظميين عن استقرار فيها !

ولقد شاهد العالم بعد ذلك بعثات عسكرية وفنية في كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، قادمة من إحداهما إلى الأخرى ، لمشاهدة عملية تدمير الصواريخ والتفتيش المتبادل على أكثر الأسلحة تطوراً وتعقيداً ، تأكيداً لعزم العملاقين على أهداف نزع السلاح .

الوفاق بين القوتين العظميين أسمع وأيقظ أيضاً أطرافاً أخرى شاهدت الطريق فبدأت تسير عليه باتجاه الاعتماد المتبادل . فقد شهد عقد الثمانينيات تجمع اوربا الجديدة «أوربا الموحدة» ، وكذلك شهد هذا العقد ظهور قوة اقتصادية منيعة في جنوب شرق آسيا مركزها اليابان . وحتى الصين تبعت هذا الطريق فأوفدت في الأيام الأخيرة من سنة ١٩٨٨ وزير خارجيتها في زيارة إلى موسكو بعد قطيعة امتدت ثلاثين سنة ، من أجل بناء جديد للعلاقات ولقاء قمة جديد في القريب العاجل بين الأصدقاء الأعداء ولأول مرة في التاريخ الحديث والمعاصر تظهر قوة هي القوة الصفراء القادمة من الشرق تنافس القوة البيضاء الغربية المسيحية التي سيطرت على العالم في الأربعمائة سنة الأخيرة .

إنه عالم جديد يتكون كما تنبئنا أحداث الثمانينيات . هذا العالم سيتحقق في التسعينيات مع انتهاء القرن العشرين ، ويؤثر سنوات طويلة على بداية القرن الواحد والعشرين ، وهو عالم يختلف عن الشكل التقليدي الذي ألفناه ، فقد ظهرت فيه قوى جديدة ومراكز ثقل لم تكن موجودة من قبل . . فما هي منطلقات وركائز هذا العالم الجديد الذى نوشك أن نلجه ؟

الحقيقة غير مسلحة :

الحقيقة لاتحتاج إلى سلاح كي تؤكد وجودها ، وهكذا هو التغير العظيم الذي نشهده اليوم ، فالعالم يتجه إلى إحلال (التنمية) بكل ماتعنيه لسعادة الانسان وتقدمه مكان الإنفاق على السلاح ، ولم يتوصل الانسان إلى هذه الحقيقة طوعاً ، فلم تعد لعبة سباق التسلح لعبة يمكن الاستمرار فيها دون تضحيات تفوق قدرة أي دولة بما فيها الدول العظمى على خوضه وتحمل تبعاته الاقتصادية والسياسية .

لقد فرض عدم الاستقرار الاقتصادي على الشعوب والقادة نوعاً من التفكير الجديد ، فلم تعد فكرة (عسكرة العلاقات الدولية) بقادرة على العيش والاستمرار ، وواجهت عقبات كأداء لامخرج منها . لقد أصبح سباق التسلح مركز أعصاب العالم ، وتراكمت حوله مجموعة مشكلات في معادلة صعبة الحل بين استراتيجية التسلح والهاجس الأمني من جهة ، وبين المشكلة الاقتصادية المعيشية من جهة أخرى . فالإنفاق على الأول يعني تقليص الإنفاق على الثاني .

وسباق التسلح ، مثله مثل أي ظاهرة اقتصادية أو سياسية أخرى ، يظهر في زمن ويعطي فوائده المعقولة عند نقطة ما ، ثم يصبح لاحقاً مفرغاً من أي فائدة ، بل مضراً ، وإذا استمر فلابد من البحث عن بديل له .

وهذا ماحدث بالضبط لسباق التسلح في العالم ، ويرجع البعض نقطة ظهور فكرة سباق التسلح إلى مابعد الحرب الفرنسية البروسية في الثلث الأخير من القرن الماضي (١٨٧١) . بعد تلك الحرب دخلت فرنسا ، وألمانيا ، وبريطانيا وروسيا سباق تسلح كبير فيما بينها من أجل تكديس أنواع مختلفة من الأسلحة ، لأجل التفوق على أعدائها المحتملين ، ليس من حيث حجم السلاح فقط ، ولكن من حيث تقنيته وتطويره أيضا . ومنذ ذلك الوقت ارتبطت القوة العسكرية للدولة بالقوة الاقتصادية لها ، فكلما كانت الدولة متطورة تقنياً واقتصادياً ، كانت ملكيتها للسلاح الأكثر فعالية أقرب إلى الممكن . وكلما تقدمت تقنية السلاح وإبدال جيل منه بآخر ، أدخل المجمع العلمي والتقني في المجتمع في دورة إنتاج السلاح ، لذلك أمست السيطرة على العلم والتقنية ، وبالتالي تطوير السلاح لدولة ما ، ضرورة مسبقة لغرض سيطرة تلك الدولة على العلاقات الدولية .



من هنا كان الصراع الدولي على المستعمرات في بداية هذا القرن مصحوباً دائماً بالتفوق في هذا السباق .

هكذا كان الأمر حتى بعد الحرب العالمية الثانية ، لقد كان هناك توازن دقيق بين الكم والكيف في سباق التسلح ، إلا أن هذا التوازن انقلب رأسا على عقب فبعد الحرب العالمية الثانية ، أصبح (الكيف) هو نقطة الانطلاق خاصة بعد تفجير القنبلة الذرية الأمريكية الأولى سنة١٩٤٥ .

التفوق التقني والعلمي سمة للعصر وهو أداة للسيطرة وسبب للتبعية

لقد أصبح التفوق التقني والنوعي - بما يعنيه من بحث علمي واسع وإنفاق أموال طائلة ، وتحويل مصادر الثروة إلى هذا الاتجاه - هو العلامة البارزة للتفوق ، ودخل سباق التسلح بدءاً من «القنابل الذرية» وحتى حرب النجوم في طريق يحتاج إلى إمكانيات اقتصادية وبشرية هائلة لم تعد في نطاق حدود وإمكانيات الاقتصاديات القائمة ، لا في الولايات المتحدة ولا في الاتحاد السوفيتي ولا في دول أوربا الغربية . إنه طريق تبين أنه مسدود . وأصبحت الشعوب المرفهة من جهة أخرى هي الشعوب التي لا تنفق على شراء السلاح أو تطويره - كما حددته اتفاقيات ما بعد الحرب الثانية لكل من ألمانيا الغربية واليابان - وبدأت الشعوب الأخرى تعي أن الإنفاق على السلاح لم يعد مقبولاً اقتصاديا ، كما لم يعد متسامحاً معه سياسياً واجتماعياً .

في وقت ما ، كان هذا الإنفاق الكبير على سباق التسلح يُبرر للشعوب بأشكال مختلفة ، منها على سبيل المثال أن البحوث العلمية في الشؤون العسكرية يمكن تطبيق نتائجها على الصناعات المدنية . كان ذلك صحيحا في بداية الأمر ، ولكن صحة ذلك القول بدأت تتقلص وتنعدم حيث أصبح ما يحتاج إليه في الصناعة العسكرية ، لا يُحتاج إليه في الصناعة المدنية ، فقد أصبحت للتطبيقات العسكرية خصائص ليس لها بالضرورة علاقة بالنشاط المدني ، كما أصبح البحث العلمي فيها بحد ذاته باهظ الثمن .

في وقت ما ظهرت نظرية أخرى تقول : إن تجارة السلاح مهمة في التجارة الدولية ، إلا أن هذه النظرية سرعان ما تضاءلت لسببين : الأول أن تصدير السلاح لا يكون مربحاً إلا إذا تم إنتاجه بكميات كبيرة - وذلك مقدور عليه نظرياً - والثاني وهو الأهم أن ما ينفق على البحث العلمي من أموال فادحة يصبح تصديره بعد ذلك إما غير اقتصادي أو ضارا بالأسرار التقنية للبلاد المصدرة .

لماذا سباق السلاحف ؟

ثمت ذيول اجتماعية واقتصادية عديدة بدأت تظهر وتؤثر سلباً على السباق المحموم لتكديس السلاح ، بجانب الأموال الضخمة التي تحرم منها قطاعات المجتمع المختلفة كي تذهب إلى إنتاج سلاح جامد . ظهرت أضرار اجتماعية جانبية منها على سبيل المثال انتقال العقول أو هجرة العقول إلى الصناعة العسكرية ، فقد قدر أن ٣٠٪ من المهندسين في الولايات المتحدة و ٣٠٪ من خريجي الجامعات يعملون في الصناعة العسكرية . من هذه الحقائق وأمثالها بدأت برامج الإنفاق على الصناعات العسكرية تلقى مقاومة شديدة من المؤسسات التشريعية ، وذوي الرأي ، في الوقت الذي تعاني فيه قطاعات كبيرة من هذه المجتمعات من العوز ومن نقص في الغذاء والسكن والعلاج . وفي الوقت الذي

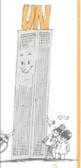
بدأت فيها صيحات تقول : لماذا نريد أن نحطم العالم أكثر من مرة ؟ لدينا قوة تدميرية الآن لنسف العالم كله رأساً على عقب !

هذا النوع من التفكير تصادف مع مجموعة من المتغيرات الاستراتيجية ، على رأسها أن الوضع العالمي الجديد لا يحتاج إلى (قوات) لاحتلال (أراض) كما حدث في القرن الماضي وبداية هذا القرن ، فهذه القوات لا تستطيع بالضرورة أن تبقى هناك في الأرض المحتلة إلى الأبد دون مضايقة ، كما شاهدنا في فيتنام بالنسبة للولايات المتحدة ، وفي أفغانستان بالنسبة للاتحاد السوفيتي ، وقد نشاهدها في أماكن أخرى ، وفي الوقت الذي تطورت فيه وسائل الهيمنة الاقتصادية والايديولوجية التي تضمن التبعية دون تدخل عسكري !

تلك هي بعض النقاشات التي تقال وتقبل بشكل واسع أيضاً ضد سباق التسلح على النطاق العالمي ، ولكن هذا النوع من التفكير ينسحب على القوى العظمى وحلفائها ، ولا ينسحب على كثير من دول العالم الثالث ، فلا زالت تلك الدول في سباق ، ولكنه سباق سلاحف ، باتجاه جمع السلاح وتخزينه . قلنا سباق سلاحف على أساس أن مصادر هذا السباق التقنية والصناعية ليست من داخل تلك الدول ، إلا أن ما يتفق عليه الكبار قد يفرضونه على الصغار ، وهذا ما تم في مناطق اشتعال كثيرة في العالم .

المسؤولية الجماعية والمفاهيم الجديدة :

بقي أن نعرف أن الاتحاد السوفيتي وكذلك الصين ، هما الأكثر حاجة لتخفيف سرعة هذا السباق ، حيث أن الغذاء والمسكن والخدمات الصحية ـ وهي الحاجات الأولية لسكان هذين البلدين العملاقين ـ من أكثر الحاجات إلحاحاً ، إلا أن مبدأ تخفيف أو تخفيض الإنفاق على السلاح يجد آذانا صاغية لأسباب موضوعية ومصلحية لمجموعة الدول الكبيرة في الغرب أيضاً .



لذلك نسمع مفاهيم تردد مثل « الاعتماد المتبادل » و « المسئولية الجماعية » على كل المستويات ، وتقدم أطروحات كثيرة تدعم هذا النوع من التفكير ، تبدأ بأهمية الانفتاح والاندماج ، وتنتهي بالتخويف من نفاد مصادر الطاقة والمواد الخام في بعض البلدان ، بل ومن نفاد صبر الجماهير على العنت وشظف العيش . كل ذلك يصب في النهاية باتجاه محاولات تحجيم الضرر الذي يسببه سباق التسلح على الاقتصاد العالمي وعلى رفاهية شعوب الدول الكبرى والمتقدمة ، ففي مؤتمر نيويورك الذي عقد في اغسطس / سبتمبر ١٩٨٧ تحت شعار « نزع السلاح والتنمية » وشارك فيه عدد كبير من دول الشمال ، قرر المؤتمرون في وثيقته النهائية أن (سباق التسلح كابح للتطور الاقتصادي والاجتماعي) ، كما قالت تلك الوثيقة المهمة : (إن استخدام مصادر الثروة المتاحة للانسان اليوم للانفاق على تصنيع

السلاح ، يقلل بشكل خطير استخدام هذه المصادر للانفاق على المناشط المدنية الأكثر أهمية لبقاء الإنسان).

أما الأرقام التي قدمتها تلك الوثيقة فهي مذهلة ، بعضها يقول : إن تزايد الانفاق على صنع السلاح منذ الحرب العالمية الثانية قد ارتفع إلى خمسة أمثاله (تزايد حقيقي) وأنه يمثل ٦٪ من الانتاج العالمي .

باختصار لم يعد بالإمكان التسامح بتفاقم وازدياد الانفاق على السلاح بأرقام فلكية ، وإن كان لابد من وضع حد لكل ذلك ، فلابد أن « تتفاهم » و « تتعاون » الدولتان الكبيرتان ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وكذلك حلفاؤهما ، لوضع حد لهذا السباق الجنوني .

هذا التفاهم والتعاون له صدى في أماكن أخرى ، له صدى عند هذه الشعوب داخلياً ، وله صدى في أماكن الصراع العديدة في العالم ، والتي مثلت بشكل أو بآخر نقاط التنافس الدولي حتى هذا الوقت .

من التسرع والبعد عن الواقعية ، بل من الخطورة بمكان القول : إن الخلافات السوفيتية / الأمريكية سوف تتلاشى من عالمنا ، إن اختلاف الخبرة والفلسفة الاقتصادية والاجتماعية ومخلفات الحرب الباردة سوف تبقى على بعض الخلافات ، ولكن الواقعية الجديدة دفعت الطرفين لانتهاز الفرص المتاحة لردم هوة الخلاف ، عندما وصل الطرفان إلى اتفاق لا يمكن التفكير خارجه ، وهو أن الحرب النووية لا يمكن كسبها ولا ينبغي خوضها .

الغائب دائماً مخطئ :

الغائب عن هذا الوفاق الدولي سوف يكون هو المخطىء ، فنتائج هذا الوفاق الذي تمخضت عنه السنوات الأخيرة من عقد الثمانينيات الذي يكاد ينصرم ظاهرة للعيان ، فهناك تعاون مفتوح بين الدولتين الكبيرتين في المجالات العلمية والفنية والزراعية ، التي كانت قد فرضت عليها قيود في بداية العقد ، وأصبحت العلاقات الاقتصادية بين دول الكتلة الغربية والكتلة الشرقية علاقات قريبة إلى الاعتماد المتبادل ، فحجم التبادل التجاري تجاوز تسعين بليون دولار في السنوات الأخيرة لصالح الغرب ، والتفكير بإغلاق هذا المجال يعني على أقل تقدير اضطرار الدول الصناعية الغربية إلى إعادة هيكلة صناعتها مما يعني احتمال ظهور مشكلات اقتصادية واجتماعية جديدة .

وفي المجال الدولي يتضح الوفاق أو الواقعية الجديدة بشكل أفضل . ففي جنوب غرب أفريقيا - التي كانت منطقة بلا سلام مدة عقدين من السنين ، فمن جهة جنوب افريقيا العنصرية ومصالح الدول الاستعمارية البيضاء ، ومن جهة أخرى أنجولا والتدخل الكوبي المساند من الاتحاد السوفيتي ، وفي وسط المشكلة

■ إعادة الاعتبار إلى الامم المتحدة يُحيي قرارات جُمّدت لعشرات السنوات

■ الانفراج الدولي يمتد من تدمير الصواريخ إلى الرياضة

استقلال ناميبيا ـ كانت هذه المنطقة جرحاً ينزف ويحتمل إمكانية الصدام بين القوتين ، وفجأة يشهد العام الماضي إنهاء مشكلة انجولا ، والاتفاق على خروج الكوبيين منها ، وبرمجة استقلال ناميبيا في منتصف هذا العام ، فعلى أي قاعدة تم كل ذلك ؟

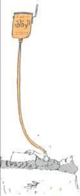
كل ذلك تم على قاعدة قرار لمجلس الأمن وضع قبل عشر سنوات تقريبا (١٩٧٨) يحمل رقم (٤٣٥). لقد كان القرار الذي يضع قاعدة لإحلال السلام في ذلك الإقليم المضطرب قائماً منذ عشر سنوات . ولكنه كان قراراً فاقداً الروح ، تم إحياؤه مرة أخرى ، وانتعشت فيه الروح بسبب الوفاق الدولي الجديد .

وعندما نلتفت إلى منطقة أخرى ، هي أفغانستان ، نرى هذا الوفاق متجسماً بشكل أوضح ، فقد كانت الادارات الامريكية المتعاقبة الى وسط الثمانينيات ، لا تعتقد مهما جنح بها الخيال ، أن الآلة العسكرية السوفيتية يمكن أن تخرج من ذلك البلد المنكوب ، ولكن الوفاق الجديد يسارع بالأحداث إلى نتائج كان من الصعب تخيلها ، وهي خروج القوات السوفيتية من ذلك البلد ، وفي غضون فترة وجيزة . ومن المفروض أن يخرج آخر جندي سوفيتي من الأرض الأفغانية بعد أشهر قليلة . هذا الاتفاق يبدو أن البعض من اللاعبين الثانويين حاولوا العبث به ، وذهبوا بعد ذلك ضحية ذاك العبث في تطور غير متوقع أيضاً .

هذه الأحداث ، مروراً بحرب الخليج ، التي شهدت طلقاتها الأخيرة قبل انقضاء الصيف الماضي ، ومروراً بما حدث ويحدث في باكستان والسودان وتطورات القضية الفلسطينية ، بل بما يحدث في داخل حدود الصين والاتحاد السوفيتي نفسه . كل هذه المشكلات قبل سنوات قليلة لا تجد حلولا في الأفق ، وأكثر الاجتهادات واقعية حولها كانت تتوقع الاستمرارية والتدهور بدلاً من التوقف والخروج بحلول مرضية .

إن أعمق ما يحدث من جراء هذا الوفاق في تقديري هو إعادة الهيكلة الاقتصادية والسياسية وحتى الايديولوجية في الاتحاد السوفيتي وفي الصين . سوف تكون الانتخابات في الاتحاد السوفيتي في المستقبل بالطريقة السرية ويختار الناخبون ممثليهم من بين أكثر من مرشح ، وسيكون للاتحاد السوفيتي رئيس يتمتع بصلاحيات تشابه صلاحيات رئيس الولايات المتحدة ، مروراً « بحرية الأديان » ، وسيكون هناك مؤتمر خاص قريب للقوميات ، وتغير في هيكل النظام القانوني ، بل إنه لأول مرة في الاتحاد السوفيتي تنشر خريطة لهذه الدولة الكبيرة وعليها بالضبط الأماكن والأنهار كما هي في الواقع ! حيث كانت هذه المواقع حتى فترة قريبة تحور على الخريطة عن مكانها الصحيح حفاظاً على الأمن القومي !!

ولا يمكن لمراقب أن تفوته ملاحظة أن هذا الانفراج أثر حتى في الرياضة ، فلأول مرة منذ السبعينيات يشارك هذا العدد الكبير من اللاعبين في اولمبياد سيول



١٩٨٨ ، فقد شاركت فيه ١٦١ دولة ، أكثر بدولتين من عدد الدول المنتمية للأمم المتحدة ، وأكثر من ٢١ دولة من أي دورة أولمبية سابقة .

ولعلنا نقول فقط للتذكير : إن اولمبياد ١٩٧٦ في مونتريال قاطعته دول افريقية ، واولمبياد موسكو ١٩٨٠ قاطعته أكثر من خمسين دولة بما فيها الولايات المتحدة ، واولمبياد ١٩٨٤ في لوس انجلوس قاطعته أكثر من ثلاثين دولة بما فيها الاتحاد السوفيتي . إن الانفراج والاعتماد المتبادل والواقعية الجديدة في نهاية الثمانينيات قد وصلت الى كل الأنشطة بما فيها الرياضة .

العلاقات الأوروبية / الأوروبية :

عند ذكر ظهور قوى جديدة - خارج إطار العملاقين الدوليين الكبيرين مباشرة - نجد أن اوربا الموحدة هي إحدى تلك القوى ، فلقد أصبحت الخطوات التي تتخذ باتجاه « اوربا التسعينيات الواحدة » خطوات غير قابلة للتراجع ، بعد سنوات قليلة فقط سوف نجد نتائج الجهود التي بذلت في الثمانينيات في أوربا بارزة للعيان - أوربا موحدة بدءاً من سنة ١٩٩٢ ، وسوف يجري بعد ذلك تحرك البضائع والمال والبشر في داخل إطار اثنتي عشرة دولة اوربية وكأنها دولة واحدة ، مع احتمال التفكير في عملة واحدة وبنك مركزي واحد - إنها دولة الولايات الاوربية المتحدة . إن مجمل العائد من الانتاج القومي لهذه الدول الاثنتي عشرة الموحدة يساوي الدخل القومي الامريكي ، ويزيد عن الدخل القومي لليابان ودول جنوب شرق آسيا الصناعية . المجموعة الاوربية الجديدة كقوة عظمى تداعب خيال الاقتصاديين الاوربيين ، إن لم نقل السياسيين حتى الآن ، وبمجموع مستهلكين يقدر بحوالي ٣٢٠ مليون نسمة ، ومع دخل مثل الدخل الاوربي فمن يستطيع أن يعارض فكرة القوة العظمى . هذه الكتلة كمجموع توثق علاقاتها في مرحلة الوفاق الدولي مع جانبين ، مع السوق الاوربية للدول الاشتراكية (كوميكون) وكذلك مع الولايات المتحدة .



■ القــوة الصفــراء القــادمــة مــن الشــرق بــدأت تنــافس القــوة البيضــاء !

وتجتمع بعض الدول الاوربية الغنية مع اليابان والولايات المتحدة في نادي الأغنياء ، والمكون من خمس دول بجانب امريكا واليابان والرئيس الاداري للسوق الاوربية المشتركة . هذه الاجتماعات تعقد بشكل دوري للتنسيق الاقتصادي والسياسي ، وكان قد اتفق في آخر اجتماع لهم في تورنتو في شهر يوليو الماضي على برنامج التنسيق فيما بينهم للسبع سنوات القادمة !

وهناك قوة جديدة أخرى تبرز في جنوب شرق آسيا وتتعاضد أيضا في حلقات مستقلة بشروط الوفاق الدولي والانفراج من أجل دفع مصالح شعوبها إلى الأمام ، إنه العملاق الأصفر الذي أخذ يتثاءب ويكسر احتكار القوة الغربية في أكثر من مكان ، على رأس ذلك تصدير السلاح الجديد الذي شهدت منطقتنا

بعض العينات منه . . !

وفي هذا الوفاق يبرز دور المنظمات الدولية وفاعليتها ، فقد لعبت الأمم المتحدة دورا حيوياً - عندما أريد لها أن تلعبه - بعد اتفاق الجبارين ، فأحيت مجموعة من مناشطها لحفظ السلام الدولي أو لتطبيق قرارات كانت قد اتخذتها في أوقات سابقة ، بل لقد نشط دور الأمم المتحدة الثقافي والطبي والاجتماعي والانساني من خلال مجموعة من البرامج المعلنة . لقد أعادت الواقعية الجديدة الأمل في إحياء الجهود الجماعية في مواجهة المشاكل المشتركة ، وذلك أهم دروس الثمانينيات .

العقلانية الدولية الجديدة . . . ماذا تحمل بالنسبة لنا نحن العرب ؟

من الواضح حتى الآن أن ما خلفته الثمانينيات من وفاق على المستوى الدولي ليس بالضرورة أن ينعكس كله خيراً وبركة لصالحنا ، صحيح أن بعض المشكلات التي تم التغلب عليها نتيجة ذلك الوفاق قد أفادتنا أو قد تفيدنا في المستقبل ، ولكن بدون أن يكون لنا واقعيتنا الجديدة العربية مع الاستفادة من كل المتغيرات حولنا ، فقد يكون بعض هذا الوفاق بغير جدال على حسابنا .

فالجروح العربية المفتوحة ، بجانب كونها عربية هي أيضاً دولية ، تهتم بها الدول الكبرى . . وإذا لم يكن لنا رأي واقتراحات وأفعال لالتئام هذه الجروح بالطريقة التي نقبلها ، قد يفرض علينا دواء له مرارة العلقم .

أول الجروح هو الجرح الاقتصادي ، ويتمثل في مشكلة أسعار المواد الخام - وخاصة النفط - التي يعتمد معظم شعبنا العربي من أدناه إلى أقصاه بشكل مباشر أو غير مباشر على مداخيلها ، إن الخلافات العميقة في هذه المشكلة هي بيننا كعرب وكمسلمين في الأساس ، وبدون واقعية جديدة تقدم فيها الحلول من عندياتنا واضعين مصالحنا على قمة الأولويات ، قد تفرض علينا حلولا لا نرضاها ولكن لن نستطيع رفضها .

ولعل المشكلة الأخرى التي تواجهنا هي الانفراج الداخلي ، والاجابة عن سؤال مهم : ما هو شكل الهياكل الاقتصادية والسياسية التي نرتضيها وتشكل طموحات شعبنا ، والتقلصات من حولنا كثيرة أساسها اقتصادي وتعبر عن نفسها بأشكال ايديولوجية وسياسية كثيرة ؟ سؤال مركزي علينا الإسراع في الاجابة عنه .

على المستوى العربي ، لا يستطيع منصف أن يتجاهل المحاولات العربية الجادة لوقف التدهور في النظام العربي . ولعل أهم هذه المحاولات في السنوات الأخيرة من العقد الماضي هو مؤتمر قمة عمان ١٩٨٧ . والذي بدأ بشكل مؤسسي سلسلة عودة العلاقات العربية المصرية ، لقد كانت العقلانية العربية الجديدة تبذر بذورها في الثمانينيات ولكن ببطء ، لعل أهمها وأكثرها ملاحظة هو إنشاء مجلس التعاون الخليجي في بداية ذاك العقد ، والذي طرح صيغة للتعاون « مؤسسية » من جهة « ومرنة » من جهة أخرى ، هذه الصيغة بدأ التفكير في نقلها الى دول

■ مجلس التعاون الخليجي ثمرة من ثمار العقلانية العربية الجديدة



المغرب العربي التي تحتاج هي أيضاً لصيغة تحتوي الخلافات الثنائية الجانبية .

إن أهم ما ظهرت به العقلانية العربية الجديدة هو أن الصراعات العنيفة في الوطن العربي - بين قطر وآخر - قد تحولت الى مواقف عبثية لا طائل من ورائها غير صرف المجهود العربي والموارد العربية بعيداً عن الأهداف الحقيقية ، هذه الموارد التي أصبحت أكثر ندرة بمرور الوقت ، بل أصبحت بعض الأقطار العربية غارقة في الديون ، وتستقطب منطقتنا حوالي ٥٠٪ من تجارة السلاح إلى العالم الثالث وتزيد ديوننا وتوترنا !

وفي قراءة سريعة للوضع الاقتصادي والاجتماعي العربي في نهاية الثمانينيات نخرج بصورة لا تسر الخاطر ، إنها صورة قاتمة ، فقد توجهت الاقتصاديات العربية بشكل متسارع نحو ما يصفه التقرير الاستراتيجي العربي الذي نشره مركز الدراسات الاستراتيجية في الاهرام إلى « التكيف السلبي » ، وارتكز هذا الاقتصاد إلى خانة (المفعول به) على حد تعبير التقرير .

لقد زادت تكلفة الغذاء والسلاح والمواد الأولية القادمة لنا من الخارج بشكل عكسي مع تدني أسعار موادنا الأولية وعلى رأسها النفط ، وجرت مجموعة من التقلصات الشعبية الشديدة ، في هذا القطر العربي أو ذاك من جراء ذلك ، خرجت في بعضها القطاعات الشعبية الأكثر تضرراً الى الشارع ، باحثة عن حل .

لقد بدأت تأثيرات الإنفاق الواسع من جراء حقبة الرخاء النفطي في السبعينيات تسمع صداها السلبي في الثمانينيات على مجمل الوضع العربي . فالتوسع في التعليم وخطط التحديث الطموحة وبرامج الإسكان قد خلقت قوى اجتماعية جديدة وطموحات جديدة لم يكن الاقتصاد القطري بقادر على تلبيتها بالنجاح الذي كان قد حققه في السابق .

وبعد . . . .

دروس الثمانينيات تقول لنا بوضوح : إن عقلانية جديدة يجب أن تسود بيننا نحن العرب ، عقلانية تضع مصلحة المواطن العربي على قمة خياراتها ، وبالتالي يصبح التعاون والوفاق مطلباً حياتياً ، ويتحول الاعتماد المتبادل بين العرب إلى حقيقة غير قابلة للنقض .

أعوام قليلة ويطل علينا القرن الجديد ، وستحمل إلينا السنوات القليلة الباقية من قرننا هذا كثيرا من التغيرات . وإذا لم نكن جميعاً على وعي بهذه التغيرات وقادرين على التعامل معها ، فسيطوينا القرن الذي سيمر كما طويت حضارات كثيرة ، ولم تخلف أثراً ولا ذكراً ، فهل ستحملنا عقلانية عربية جديدة إلى العصر الجديد ، أم سنظل أسرى العقل الجامد ، والأفق الضيق والمصالح الضائعة ، والإمكانيات المهدرة ! ؟

محمد الرميحي

من دفتر

الذكريات





بقلم : الدكتور زكي نجيب محمود

ذات يوم في أواخر شهر ديسمبر (كانون أول) من سنة ١٩٥٣ ، قصدت إلى مكتبة كبرى في مدينة نيويورك ، لأجول بالبصر فيما استحدث من كتب ، لعلي أقع بينها على شيء مما أهتم به ، وكنت عندئذ أقضي العام الجامعي استاذاً زائراً في جامعات الولايات المتحدة ، فما كدت أدخل المكتبة حتى وقع البصر على قائمة خشبية مستقلة بذاتها عن سائر الرفوف ، رصت عليها مجموعة منوعة من مجلات فيها يرد على خاطري وما لا يرد ، كانت بينها مجلة اسمها « آداب أجنبية » وألقيت نظرة على محتواها ، فإذا هي تشتمل على موضوعين مترجمين عن الأدب العربي ، أحدهما مأخوذ عن طه حسين ، والآخر مأخوذ عن توفيق الحكيم ، فاشتريت المجلة مصمما على العودة بها إلى حيث أقيم ، لأقرأ الموضوعين قبل أن أستأنف نشاط النهار ، وقد كنت حينئذ أقضي عطلة عيد الميلاد في مدينة ناطحات السحاب ، لكن فرحتي بأن أجد اشعاعا لشيء مما يكتبه أدباؤنا ، غلبتني حتى اقتضت تلك اللهفة على القراءة . قرأت الموضوعين ، فدارت في رأسي خواطر كثيرة تلاحقت تلاحقا سريعا ، منبثقة كلها من وقع الترجمة الانجليزية لما جرت به أقلام عربية ، وإني لأذكر جيدا كيف كان الانطباع العام عندي ، شعوراً بالغرابة ، وكأنني كنت أقرأ شيئا مبتور الصلة بحياتي وثقافتي ، على أن « الغرابة » لم تكن من نوع واحد في الموضوعين ، فغرابة الموضوع المترجم عن طه حسين ، وأظنه كان ذا صلة بالنقد الأدبي ، فوجه الغرابة فيه هو أنني - بكل بساطة - لم أجد طه حسين ، وإلا فأين ذهبت تلك الحلاوة والطلاوة التي تحدث النشوة عند قارىء طه حسين ؟ أين ذهب ذلك السلسبيل السلس المتدفق المنغوم ؟

إنك في الترجمة الانجليزية أمام سرد بارد تحس إزاءه أنه في مستطاع الأواسط من حملة الأقلام . إذن فلا عجب أن أحسست بشيء من خيبة الأمل ! وأما الموضوع الثاني وهو المترجم عن توفيق الحكيم ، فكان خاصا ببيعة أبي بكر الصديق تحت السقيفة ، فوجه الغرابة فيه هو أن المترجم قد وجد نفسه مضطرا لشروح مستفيضة في الهوامش ، يبين فيها لقارئه الخلفية التاريخية والثقافية الكامنة وراء اللفظ الوارد في العبارة المترجمة . وإلا لما سهل على القارىء أن يتابع المعنى .

كان أول خاطر عندي بعد القراءة هو أن من

يتجاهل « خصوصية » الثقافة لشعب معين ، يكون كمن أسقط من حسابه روح الإنسان ونفسه وتاريخه ، ولم يبق منه إلا بدنا كالذي يوضع على منضدة التشريح ، وهنا تذكرت الجاحظ في تلك الصفحات القليلة من المجلد الأول في كتابه الموسوعي « الحيوان » وأعني الصفحات التي أورد فيها رأيه في ترجمة الثقافة المعينة من لغتها الأصلية إلى لغة أخرى ، وكان ذلك حين انتقل الجاحظ من البصرة إلى بغداد في أوائل القرن الثالث الهجري ، وهناك وجد عملية الترجمة عن اليونان قائمة على قدم وساق في بيت الحكمة ، فتساءل الرجل عن القيمة الحقيقية لأية ترجمة من هذا الطراز ، وهنا فرق بين موضوع وموضوع ، قائلا ما معناه إنه ربما كانت ترجمة المأثور اليوناني ممكنة ، لكن ماذا نقول عن المأثور العربي إذا أراد شعب آخر أن يترجمه إلى لغته ؟ إنه إذا تميز اليوناني « بالكتاب » وهذه هي الكلمة التي استخدمها ، ولعله يقصد بها الأفكار العقلية ، فإن العربي يتميز « بالشعر » ، وإنه لضرب من المحال أن يترجم الشعر إلى غير لغته ويظل شعراً ، ومعنى ذلك عند الجاحظ هو أنه لا أمل في أن يعرف الغرباء حقيقة العربي ؟ ولقد صدق الجاحظ ، فتعريف الشعر عند « فروست » الذي هو من أعظم الشعراء في الولايات المتحدة الأمريكية خلال الثلث الأوسط من هذا القرن ، هو أنه الجزء الذي تستحيل ترجمته من أي تركيب لغوي ، وأشرح ذلك قليلا فأقول إن الجملة الواحدة في أية لغة ، حتى إذا كانت مما تعد ممكنة الترجمة ، فهي كذلك تحتوي على أجزاء تقتضيها لغتها الأصلية ، ولا يمكن ترجمتها إلى لغة أخرى ، لأنها على الأرجح تشير إلى حالة باطنية عند قائلها ، لا إلى مرئي أو مسموع مما يتلقاه كل إنسان على السواء ، ومثل هذه الأجزاء المستعصية على الترجمة هي أدخل في باب الشعر لخصوصيتها ، وخذ مثلا هذه الجملة « إن السماء صافية » فكلمة « إن » هنا لا ترجمة لها إلى الانجليزية اللهم إلا إذا شرحت مضمونها في عبارة مستقلة ، فالمترجم إذ ينقلها إلى الانجليزية ، يكتفي منها بالجزء القائل السماء صافية ، وأما كلمة « إن » فتضيع ، مع أن قائلها العربي قد أراد بها بيان ما يشعر به في باطنه من « يقين » . بصدق ما يرويه .

هنالك ـ اذن ـ في كل لغة مزيج من أجزاء مستطاعة الترجمة الى لغات أخرى ، وأجزاء أخرى مستحيلة أو مستعصية ، ومن نسج النوعين معا تجري اللغة أيا كانت ، إلا أن اللغات ربما تفاوتت في النسبة بين النوعين ، وأرجح الظن عندي هو أن اللغة العربية تزيد فيها نسبة الأجزاء التي تشير إلى الحالة الباطنية عند قائلها ، ومن ثم تكون ـ بصفة عامة ـ أعسر في الترجمة الى غيرها ، من ترجمة غيرها إليها ، فما أيسر أن يقول العربي ـ مثلا ـ « لقد عاقب الوالد ولده عقاباً شديداً » ، فإذا ترجمتها إلى الانجليزية سقط منها جزءان هما « لقد » و « عقابا » وهما جزءان مهمان في قوة التعبير العربي لكنهما يستعصيان على الترجمة ، بل إن الثاني منهما ، وهو المفعول المطلق « عقابا » مستحيل نقله إلى لغة أخرى مما نعرفه من اللغات الأوروبية ، وعلى ضوء هذا الذي ذكرناه ، ينشأ لنا سؤال له خطورته في حاضر الثقافة العربية هو : ترى إلى أي حد تمنعنا هذه الخصوصية الثقافية من نقل ثقافة الآخرين إلينا ، ومن العمل على عرض ثقافتنا على الآخرين ؟

والجواب عندي هو أن مالا يدرك كله لا يترك كله ـ كما يقال ـ فعلى الرغم من تلك الخصوصية التي تجعل ثقافة الشعب معبرة عن شخصيته بحيث يتعذر قبولها كاملة عند شعب آخر له شخصية أخرى ، فإن ما يمكن نقله حتى وإن قل ، له فائدته عند المنقول إليه ، نتيجة للتفاعل مع الثقافة المحلية ، وما عساها تؤديه من خصوبة وغنى ، وإلا لما أحدث ما نقل من الأدب العربي إلى أوروبا (وحسبنا أن نذكر منه ألف ليلة وليلة) ما أحدثه من روائع الفن هناك ، والعكس وارد كذلك ، فكم أحدثه ما ترجمناه من أدب الغرب الى اللغة العربية من اضافة إلى الأدب العربي ، ويكفينا أن نشير إلى أجناس أدبية بأسرها أضيفت الى أدبنا ، كالرواية والقصة والمسرحية عموما ، والمسرحية الشعرية خصوصا .

على هذا النحو جرت خواطري ، عندما صدمتني غرابة ما وجدته في قطعتين من أدبنا العربي الحديث ، مترجمتين إلى الانجليزية ، لكنها غرابة لا تزيل فرحتي بأن يتلقى العالم الخارجي شعاعا مما يكتبه المبدعون منا . فبعد أن يضيع منه ما يضيع سيبقى ما يكفي . □



الحب والحنين سمتان بارزتان في شعر ابن زيدون: حبه لولّادة بنت المستكفي التي هام بها في مطلع صباه، وحبه لقرطبة المدينة التي أنبتته وقضى فيها أهنأ أيام عمره، ثم حنينه الشديد إليهما بعد فراقهما. لقد تجلت عبقريته الشعرية، وأصالته الفنية في قصائد حبه وحنينه التي بوأته مكان الزعامة بين شعراء الأندلس في القرن الحادي عشر الميلادي.

ابن زيدون

شاعرُ الحبّ والحنين

بقلم: سلمى الحفار الكزبري

إن لشعر ابن زيدون الغزلي صبغة رومنسية، لأن الطبيعة أثارت أشجانه، وحركت لواعجه، إبان جولاته في ربوع الأندلس العامرة، وهو هارب من السجن في قرطبة، وملتجيء الى بني عبّاد في اشبيلية، حيث كان يرسل للحبيبة الأميرة ولقرطبة الأثيرة مناجيات وجدانية، أبدع فيها أيما إبداع. لقد بدا في تلك المناجيات متحدا مع الطبيعة في مختلف مشاهدها، فتخيل أن الرياض البهية، والنسائم العليلة، والمياه المترقرقة، تشاطره اللوعة على فراق من يُحب، لا سيما عندما توقف في مدينة الزهراء، عقب فراره من السجن وأنشد يقول:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً
والأفق طلقٌ ومرأى الأرضِ قَدْ رَاقا
وللنسيم اعتلالٌ في أصائله
كأنما رَقَّ لي فاعْتَلَّ إشْفَاقا

والروضُ عن مائِهِ الفضي مبتسمٌ
كما شَقَقْتَ عن اللَّبَّاتِ أطْواقَا
كأنّ أعْيُنَه اذ عايَنَتْ أرقي
بَكَتْ لِمَا بِي فَجَالَ الدمعُ رَقْراقَا !

الحب الأسطورة

كانت غربة ابن زيدون عن قرطبة وولّادة حافزاً قوياً لمناجاتها ولتصوير عواطفه المشبوبة نحوهما ، وشوقه المبرّح إليها ، بأسلوب سلس تفرّد به ، واتسم بجرس موسيقي عذب ، وديباجة رشيقة ، مما حدا بمعاصريه - ومنهم ابن بسام صاحب «الذخيرة» - إلى تشبيهه بالبحتري. في حين أن الاستاذ كامل الكيلاني الذي حقق ديوان ابن زيدون ونشره في مصر سنة ١٩٣٢ ، قدمه للقراء بدراسة قيّمة ، فشبه شعره بشعر العباس بن الأحنف والشريف الرضى ، ومجنون ليلى ، فقال :

« الفن وحده هو الذي أكسب ابن زيدون زعامة الشعر في عصره ، وأغرى فحول الشعراء في زمنه وبعده بمحاكاته ، والانضواء تحت رايته ».

وإني لأذكر بالمناسبة معارضة أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة ابن زيدون الخالدة في الوداع :

وَدَّعَ الصبرَ حبيبٌ ودَّعَك
ذائعٌ من سره ما استَودَعَك
يَقرعُ السِنَّ على أنْ لَمْ يَكُنْ
زادَ في تلك الخُطا إذ وَدَّعَكْ
يا أخا البدر سناءً وسنىً
حفظ الله زماناً أطلَعَكْ
إن يطُلْ بَعْدَكَ ليلى فلكم
بتُّ أشكو قِصَرَ الليلِ مَعَكْ

وهي قصيدة جميلة ، لحنها الأستاذ محمد عبدالوهاب ، وغنّاها ، ومطلعها :

رُدَّتْ الروُحُ عَلَى المُضنَى مَعَكْ
أحسنُ الأيامِ يومُ أرْجَعَكْ

وقد أضحى حب ابن زيدون لولّادة أسطورة في تاريخ أدبنا العربي ، مازالت تحث الكتاب والشعراء في المشرق والمغرب على استلهامها وسواء أكانت ولّادة حبّهُ الأوحد في حياته أم لم تكن ، فلا ريب في أن حبه الكبير لها كان الجذوة التي أججت عواطفه ، وفجّرت موهبته ، وأوْحَتْ إليه روائع شعرية ، لا تمل قراءتها ، ولا يصعب حفظها .
ومن أجودها وأشهرها قصيدته النونية :

أضْحَى التّنائي بديلاً مِنْ تَدانينا
ونابَ عَنْ طيبِ لقيانا تَجافينا
مَنْ مُبْلغ المُلبسينا بانتزاحِهِمُ
حُزْناً مَعَ الدَّهْرِ لا يَبْلَى وَيُبْلِينا
أن الزَّمَان الذي مازال يضحكنا
أُنساً بقربهم قَدْ عَادَ يُبْكِينا ؟
غِيظَ العِدا مِنْ تَساقينا الهَوَى فَدَعوا
بأن نغصَّ ، فقالَ الدَّهْرُ آمينا
فانحلَّ ما كانَ معقوداً بأنفسِنَا
وَانْبَتَّ ما كانَ موصولاً بأيدينا
وقد نكونُ وما يُخْشَى تفرقُنا
فاليومَ نحنُ وما يُرْجَى تَلاقينا
لم نَعْتَقِدْ بَعْدَكُم إلاّ الوفَاءَ لكم
رَأْياً ، ولم نتقلّدْ غيرَهُ دِينا
بِنْتُم وبِنّا ، فما ابتلَّتْ جوانِحُنَا
شوقاً إليكم ، ولا جَفَّتْ مآقينا
نكَادُ حينَ تُناجيكم ضمائِرُنَا
يَقْضِي علينا الأسَى لولا تأسِّينَا

وهذه القصيدة آية من آيات الشعر العربي ، بل والعالمي ، ولو لم يكتب ابن زيدون غيرها لاعترف له مؤرخو الأدب بالابداع سبكا ولغة وإلهاما ، وهي ليست قصيدة حب وحنين فقط ، بل هي لوحة وجدٍ وشوق ، ومن أشهر القصائد التي تناقلتها المحافل الأدبية منذ ولادتها ، فلقد ذكر المقري في «نفح الطيب» بأن حفظها كان من شروط التحلي بالظرف والأدب عند الأندلسيين ، إلى جانب التختّم بالعقيق ، ولُبس البياض ، والتفقه للشافعي ، ودراسة أدب الجاحظ .

ومما يسترعي الانتباه في شعر ابن زيدون الوجداني طابع الحزن واللوعة ، لأن أيّام الصَّفَاء في حبه لولّادة لم تدم طويلا ، ولو لم يحصل الجفاء بينهما ، ومن ثم الهجر والفراق ، لما حظينا بتلك الروائع التي بثّ فيها أَلَمُهُ وعتبه، ووجده وشكواه . وأنا لا آتي بشيء جديد إذ أقول : إن افتراق العشاق كان ومازال يفجر مواهب الأدباء والشعراء منهم في تاريخ الأدب العالمي . ولقد ترجم التونية المستعرب الاسباني الأستاذ « اميليو غارثيا غوميث » ونشرها في كتاب قيّم أعده عن شعراء الأندلس ، فوجدها ملائمة للذوق الغربي ، وعلق على البيت التالي منها :

حَـالَتْ لفقدكم أيـامُنَـا فَغَـدَتْ
سوداً وكـانت بكم بيضًا ليالينا

فكتب مايلي : (يخيل إليك وأنت تُمعن النظر في هذا البيت أن ابن زيدون جالس أمام رقعة شطرنج ، يتصرف بتحريك حجارتها البيض والسود ، وكأنه يخوض شوطا يائسا حيال حبه العظيم !).

ما الحــــب ؟

الحب في رأي ابن زيدون عاطفة نبيلة ، والخضوع فيه للمحبوب عز ، وليس إذلالا ، ومع أنه كان ينحدر من قبيلة بني مخزوم القرشية فقد وجد نفسه دون حبيبته الأميرة الأموية شرفا في النسب ، وأكد لها أن حبه الكبير ، وكل حب عظيم ، يزيل الفوارق بين المحبين .

مَـاضَرَّ إنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَـاءَهُ شَـرَفًـا
وفي المَـوَدَّةِ كـافٍ مِنْ تَكَـافِينَا ؟

إن مناجيات ابن زيدون لولّادة في غربته عنها تنبيء عن صفاته الإنسانية الجميلة ، ومن أهمها الوفاء والإخلاص ، وتنبيء عن آلامه وخشيته من غدرها به ، لعلمه بأن خصومه في قرطبة ، وعلى رأسهم ابن عبدوس ، قد أوغروا صدرها عليه ،



طمعا في استمالتها إليهم ، ومن هذه المناجيات المؤثرة نذكر مخاطبته لها عندما بعث إليها بالأبيات

أَيُوحِشُني الـزمَـانُ وأَنْتِ أُنْسِي ؟
ويُـظْلِمُ لِي النهارُ وأَنْتِ شمسي ؟
وأَغْـرِسُ في مَحَـبَّتِـكِ الأمـاني
فَـأَجْني الموتَ مِنْ ثَمَـرَاتِ غرسي
لَـقَـد جـازيتِ غـدراً عـن وفـائي
وبِـعْـتِ مـودّتي ظـلماً بِـبَـخْس
ولـو أنّ الـزمـانَ أطـاعَ حُكْمِي
فَـدَيْتُـكِ مِنْ مكـارِهِـهِ بنفسي

كما أن حسن اختياره للأوزان الخفيفة والقوافي الجزلة من أهم مزايا تلك المناجيات ، ومنها :

مَـتَى أَبُـثُّـكِ مـا بي
يـا راحـتي وعـذابي ؟
مـا البـدرُ شَفَّ سَنَـاهُ
عَـلَى رقيقِ السَّحَـابِ

إلا كوجهك لما
أضاء تحت النقاب

قصائد الحنين

أما قصائد حنينه لقرطبة بعد نزوحه عنها فإننا نجد فيها لوعة الذين يغتربون عن أوطانهم وأحبّتهم ومرابع طفولتهم ، فالإنسان خُلق ألوفا ، ولا أحسب أن شيئا يضنيه أكثر من فراق الأرض التي أنبتته ، والأماكن التي قضى فيها صباه ، إذ مهما امتد به العمر يظل حبها متأججا في ضلوعه ، ويبقى حنينه إليها مشتعلا في قلبه . لقد عاش ابن زيدون نصف عمره في الغربة ، ولقي كل حفاوة وتكريم في بلاط بني العباد باشبيلية كما هو معروف ، وتولى الوزارة فيه ، كما أحيط برعاية بالغة في زياراته المتعاقبة لملوك الطوائف وأمرائها ، أمثال بني الأفطس في بطليموس ، والامير إدريس بن المظفر في ملقة ، ولكن المجد الأدبي والمناصب الرفيعة لم تُنسه حبه الأول ، وهيامه بقرطبة ، فظل ينشد القصيد تلو القصيد ، دامي القلب ، دامع العين :

يا دمعُ صُب ما شئتَ أنْ تصوبا
ويا فؤادي آن أنْ تذوبا
قد ملأ الشوقُ الحشا نُدوبا
في الغرب إذْ رَحتُ به غريبا
عليلُ دهر سامني تعذيبا
أدنَى الضَّنى إذْ أبْعدَ الطبيَا !

وعندما طالعه العيدان ، عيد الفطر وعيد الأضحى المباركان ، وهو في ضيافة الأمير العالم المظفر بن الأفْطسْ أنشد قصيدةً عبَّر فيها عن حنينه الشديد ، هذا مطلعها :

خليليَّ لا فِطْرٌ يَسُرُّ ولا أضْحَى
فما حالُ مَنْ أمْسَى مَشُوقاً كَمَا أضْحَى ؟

كما أن له مخمسة رائعة صب فيها هيامه بديار صباه ، وشوقه لموطن هواه ، وضمنها وصفا لتلك الديار ، اطلّعنا بفضله على ماكانت عليه قرطبة من بهاء وازدهار ، فذكر مواقع ومنتزهات كانت عامرة في عصره ، منها الرصافة ، وهي المنتجع الصيفي الذي بناه الخليفة عبدالرحمن الثالث بجوار قرطبة ، حيث ولد شاعرنا ، ومنها العقيق ، وعين شهدة ، أما العقيق فقد كان جدولا ضمن بستان ، يقع بالقرب من أحد أبواب قرطبة الواقع في شمالها ، وأما عين شهدة ، فقد كانت ينبوعا ثرًّا ينبجس من سفح الجبل المجاور لقرطبة ، يقصده الناس للتنزه والسمر في الليالي المقمرة . ولابد من الإشارة إلى أن المخمسة التي ذكرها تكاد تكون ملحمة في شعر الشوق والحنين ، ومطلعها :

أقرطبةُ الغراءُ هل فيكِ مطمعُ ؟
وهل كَبِدٌ حَرَّى لِبَيْنِكِ تنقعُ ؟
وهل للياليكِ الحميدةِ مرجعُ ؟
إذ الحسنُ مُرأى فيكِ واللهوُ مُسْمَعُ
وإذ كنفُ الدنيا لديكِ مُوطَّأ ؟

وقبل أن توافيه المنية ببضعة أشهر قرَّت عين ابن زيدون بالرجوع إلى قرطبة مظفراً بصحبة حملة عسكرية أرسلها المعتمد بن عباد لإنقاذها من هجوم جيش ملك طليطلة عليها، المأمون بن ذي النون سنة ٤٦٤هـ . ولكن الحظ لم يسعف شاعرنا إذ اضطر للعودة إلى اشبيلية بأمر من المعتمد بن عباد للإسهام في إخماد فتنة شبّت فيها. كان مريضا حينذاك فاشتدت به العلة ومات ودفن غريبا عن مسقط رأسه ، وهو دون السبعين من العمر ، فقد ولد سنة ١٠٠٣م ، وتوفي سنة ١٠٧٠م.

كان نبوغه في الشعر مواكبا لنهضة أدبية وفنية كبيرة في الأندلس ، ومع أنه لم يكن شاعر الحب الأوحد في القرن الحادي عشر الميلادي فيها ، فقد كان المجلّي في ميدانه ، لأنه أبدع قصائد رائعة ، نابعة من تجربته العاطفية المثيرة ، ومعاناته الصادقة في الاغتراب عن مدينته الأثيرة قرطبة ، ولولا تفرده بعذوبة السبك ، وجزالة الأسلوب ، ورقة النبرات وصدقها لما كُتب الخلود لشعره في الحب والحنين الذي مازال يطربنا ويشجينا بعد انقضاء تسعة قرون على زمن إنشاده . □

الإسلاميون المعاصرون وثقافة الغرب

بقلم : الدكتور فؤاد زكريا

يناقش الكاتب توجهات بعض ملامح الخطاب الإسلامي المعاصر تجاه القضايا المعاصرة المطروحة ، وفي الوقت الذى يقر بعض ما جاء في ذلك الخطاب ، إلا أنه يقف أمام إشكالية رأي هذا الخطاب في العلم الغربي الحديث .

مهما كانت المواقف مختلفة ، إلا أن الموضوع الذي يطرح هنا يستحق إعمال الفكر والتأمل فيه ، فما هو الموضوع ياترى ؟

لا تكتفي الحركة الإسلامية المعاصرة بالدعوة إلى مبادئها التراثية والأصولية الخاصة ، وتأكيد مزاياها ، وترغيب الناس في قبولها ، وإنما تبذل قدرا كبيرا من طاقتها في الصراع مع الخصم الذي تراه عدوها اللدود ، وهو الحضارة الغربية بكل جوانبها . فمسار هذه الحركة الإسلامية المعاصرة يمكن أن يُعد مسارا جدليا ، لأنها تشق طريقها من خلال معركة مع (الضد) ، ذلك (الضد) الذي يقدم في مجتمعاته الخاصة نموذجا ناجحا للتقدم والعصرية ، يغري الكثيرين في المجتمعات الإسلامية بالسير على نهجه ، فيصبح لزاما على أي دعوة إسلامية جادة أن تواجهه في معارك فكرية لاتنقطع ، وتكتسب لنفسها الأنصار ، لا عن طريق اجتذابهم إلى تعاليمها فحسب ، بل عن طريق إبعادهم عن النموذج الآخر في الوقت ذاته .

وهذا معناه أن الصراع ضد الغرب والتغريب ، بوصفه الخصم الأكبر ، أداة رئيسية من أدوات الدعوة في الحركة الإسلامية المعاصرة . ويمتد هذا الصراع إلى كافة ميادين الحياة والفكر : فهو لا يقتصر على التنديد بسياسة الغرب وتاريخه غير المشرف في التعامل مع شعوب العالم الثالث ، والشعوب الاسلامية بوجه خاص ، وإنما يمتد إلى مهاجمة الغرب في أسلوب حياته ، وطريقة تنظيم مجتمعه ، ونوع القيم السائدة لديه . لكن جانبا لايستهان به من هذه المعركة الفكرية ضد الغرب يدور على ساحة العلم . فالعلم الغربي متهم لدى الإسلاميين المعاصرين ، بأنه الأداة الكبرى التي أتاحت للأوربيين استعباد شعوب العالم وفرض السيطرة الاستعمارية عليها ، بعد أن سخّره أصحابه لاختراع الأسلحة الأشد فتكا ، التي تغلبت بها أوربا

بسهولة على مقاومة الشعوب المسالمة في كافة أرجاء العالم ، مما أتاح لأوربا أن تصبح ، منذ القرن السادس عشر ، أقوى مراكز الحضارة في العالم الحديث .

العلم الغربي في الميزان الإسلامي

ليس من شك في أن لهذا الرأي جانبا من الصواب ، غير أن الصواب الجزئي الذي يغفل كثيرا من عناصر الصورة الكلية ، كثيرا ما ينزلق إلى مستوى الخطأ ، ذلك لأن تجاهل العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في تحول الغرب نحو السيطرة ، وتوسيع نطاق استعماره للعالم الثالث ، منذ أوائل العصر الحديث حتى أواسط القرن الحالي على الأقل ، يؤدي إلى تحميل العلم فوق طاقته ، وتوجيه الاتهام إليه كما لو كان هو المذنب الأكبر في ظاهرة السيطرة والاستعمار ، مع أنه ليس إلا أداة توجهها القوى المتحكمة في أي اتجاه تشاء .

والأمر الذي نود التركيز عليه في هذا كله أن الحركة الإسلامية المعاصرة ، في صراعها المستمر ضد ثقافة الغرب ، تخوض معارك كثيرة ضد العلم الغربي ، وتبذل في مهاجمة هذا العلم جهدا لايقل أحيانا عما تبذله في الدفاع عن تراثها الإسلامي . ومثل هذا الموقف يستلزم إلماما واسعا بالعلم الغربي ، ودراسة متمكنة له ، واطلاعا دائما على أحدث تطوراته ، وإلا لكانت هذه الحركة تقيم دعواها على أسس واهية ، وتوجه سهام نقدها الحادة إلى خصم لا تعرف حقيقته ، فتكون المحصلة النهائية لهذا الهجوم على العلم ، بغير سلاح من العلم ، في صالح الخصم الذي تسعى إلى مهاجمته .

ومع ذلك فإن الغالبية الساحقة مما يكتبه الإسلاميون المعاصرون عن ثقافة الغرب ،* وبخاصة في ميدان العلم ، لا يعدو أن يكون قشورا سطحية ، وتعبيرات محفوظة مكررة ، ومعلومات مغلوطة ، وقوالب تنقل بحذافيرها من كتاب إلى كتاب ، ومن خطيب إلى خطيب ، ومن شيخ إلى مريد ، دون أن يكلف أحد نفسه عناء مراجعتها أو نقدها أو تجديدها : وإني لأجزم بأننا لا نكاد نجد داعية واحدا من الإسلاميين المعاصرين قرأ نصاً واحدا ، بلغته الأصلية ، لأولئك الغربيين الذين لايمل الحديث عنهم باستخفاف وازدراء . فهل يعقل أن تخوض الحركة الإسلامية المعاصرة معركة حاسمة ضد ثقافة نشطة متجددة كثقافة الغرب ، بمثل هذه الأسلحة المتهالكة ؟

فلنتأمل ، على سبيل المثال ، ذلك التناقض الصارخ بين مهاجمة العلم الغربي ، واتهامه بالمادية والإلحاد ، وبخدمة أهداف الاستعمار ، وبين ما تنادي به مدرسة « التفسير العلمي للقرآن » . إن المدرسة الأخيرة التي ظهر روادها منذ أول عهود اتصالنا بالثقافة الغربية في القرن الماضي ، والتي تزايد ممثلوها تزايدا هائلا في السنوات الأخيرة ، تسعى إلى أن تثبت أن جميع الحقائق الرئيسية التي أثبتها العلم الحديث لها أصل في القرآن ، وتبذل جهدا شاقا لاستنباط الآيات القرآنية التي تشير إلى أحدث النظريات في مختلف فروع العلم الحديث . أما التناقض فيكمن في أنه لو كان العلم الغربي بالفعل ماديا الحاديا يستهدف تخريب ديار المسلمين وإخضاعهم لسيطرة أعدائهم ، فكيف أشارت الآيات القرآنية إلى أحدث نظرياته ، وأضفت على هذا العلم بالتالي ضمانا إلهيا ؟ وبعبارة أخرى ينبغي لكل من يوجهون أبشع الاتهامات إلى العلم الغربي ، وهم في الحركة الإسلامية المعاصرة كثيرون ، أن يتوصلوا إلى تفاهم مع أولئك الذين يجدون في الآيات القرآنية إشارات إلى أهم النظريات العلمية الحديثة ، وهم أيضا كثيرون في الحركة الإسلامية المعاصرة ، لأنه لو كان أي من الفريقين على صواب لوجب أن يكون الفريق الآخر على خطأ .

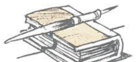
الداروينية كمثال

لكن المشكلة الأشد خطرا ، في موقف الإسلاميين المعاصرين من الثقافة الغربية بعامة ، والعلم الغربي بوجه خاص ، هي ضحالة المعلومات والأخطاء الفادحة التي ترتكب عند تقديم الأفكار العلمية

والفلسفية الغربية إلى القراء ، توطئة لمهاجمتها .
وتحت يدي الآن نموذج واضح ، يمتاز أولا بأن كاتبه مفكر إسلامي بارز ، هو الدكتور محمد عمارة الذي يتمتع بقدر كبير من الاستنارة الفكرية ، وإن كان قد أخذ يجنح في السنوات الأخيرة إلى تبني شعارات أقرب إلى الطابع التقليدي المحافظ من تلك التي كان يدافع عنها في مراحله الفكرية السابقة . كما يمتاز هذا النموذج بأنه حديث العهد ، لأنه ظهر في إبريل (نيسان) عام ١٩٨٨ ، وذلك في مقال نشرته مجلة « الهلال » المصرية بعنوان « الداروينية في ميزان الإسلام » . وقد اخترت هذا النموذج لأن كاتبه - كما قلت - باحث مدقق ، يتوقع منه المرء ألا يعرض الرأي الذي ينقده إلا بعد استيعاب عميق ، ولأنه في موقع أفضل من معظم كتاب الحركة الإسلامية المعاصرة من حيث علاقته بالثقافة الغربية ، وأخيرا لأن هذا الكاتب نفسه هو الذي كان - ومايزال - يدعو إلى أن تكون ثقافة الداعية الإسلامي شاملة ، أي أنها - على حد تعبيره هو ذاته - يجب ألا تقتصر على الأمور الفقهية ، بل تمتد لتشمل العلوم الإنسانية والكونية . (جريدة الأهرام المصرية - عدد ٢/٥/٨٨) .

فلنتأمل إذن إلى أي حد تحقق هذا المطلب في المقال الذي أشرنا إليه .

إن عنوان المقال ذاته يثير إشكالا : الداروينية في ميزان الإسلام ، أي أن نظرية علمية نشأت أصلا في ميدان البيولوجيا ، تتعرض للاختبار والنقد بمقياس دين سماوي . ولا شك أن هذا العنوان وحده يوحي بوجود منافسة بين الاثنين ، وبأن من مهام الدين السماوي أن يختبر النظريات العلمية ويقيسها بميزانه ، وهذا رأي خطير يعبر عن الانحياز لصف



أولئك الذين يرون القرآن كتابا يحوي رأيا نهائيا في كافة المسائل العلمية ، ولا تقتصر مهمته على هداية البشر ، وهو رأي لايوافق عليه كثير من المشتغلين بأمور الدين ، فضلا عن معظم المشتغلين بالعلم .

ولكن الأخطر من ذلك أنه يعيد إلى الذاكرة عهد التنافس بين العلم والدين في عصر النهضة الأوربية ، فقد كان الأساس الذي بنت عليه محكمة التفتيش البابوية إدانتها « لجاليليو » ، هو اعتناقه نظرية كبرنيكوس الفلكية التي تؤكد أن الأرض تدور ، وأنها ليست مركز الكون . وقد حدثت المحاكمة والإدانة لأن الكنيسة نظرت إلى «الكبرنيكية» بميزان المسيحية » . ومن ناحية أخرى فإن الدعاة الإسلاميين المعاصرين لا يكفون عن تنبيهنا إلى الفارق بين تاريخ المسيحية وتاريخ الاسلام : فالمسيحية عارضت العلم ، واضطهدت العلماء في مطلع العصر الحديث ، أما الإسلام فلم يعرف شيئا من ذلك . وهم يستنتجون من هذا أن العلمانية ، أي فصل الدين عن الدولة ، كان لها مايبررها في أوربا المسيحية ، لأن رجال الدين فيها حاولوا الوقوف في وجه التطور العلمي ، أما في الإسلام فلا مبرر للعلمانية ، لأن رجال الدين لم يخوضوا معركة ضد العلم ، ولم يعترضوا طريق تقدمه . هذه هي الحجة التي يكررها الدعاة الإسلاميون المعاصرون بلا انقطاع ، ويعدونها تفنيدا حاسما لفكرة العلمانية . ولكن ألسنا نرى الآن أن وضع الداروينية في مواجهة الإسلام ، وقياسها بميزانه ، لا يختلف كثيرا عن قياس الكبرنيكية بميزان المسيحية ، وما ترتب عليه من اضطهاد وتعسف . . ؟ أليس المبدأ واحدا في الحالتين ، وهو مواجهة نظرية علمية بدين سماوي ؟ فكيف نصدق إذن أن العلمانية لم يكن لها مايبررها إلا في ظروف أوربا وحدها ، إذا كان الإسلاميون المعاصرون يكررون الأساليب نفسها التي قامت العلمانية من أجل تجنبها وتصحيحها ؟

ولنترك عنوان المقال جانبا ، ولننتقل إلى مضمونه . إن الكاتب - الذي لا أشك في أنه من أكثر الدعاة الإسلاميين المعاصرين استنارة ومن أوسعهم



ثقافة ـ يقع في أخطاء مذهلة عن « الداروينية » . ففي رأيه أن « الداروينية » زعمت أن قانون الحياة والأحياء هو صراع الأضداد على البقاء ، وأن البقاء في هذا الصراع ، ومن ثم الارتقاء ، هو للأقوى ، لأن هذا الأقوى هو الأصلح . فكان أن أعطت هذه الفكرة الداروينية للحضارة الغربية في عصر الكشوف الجغرافية والمد الاستعماري التبرير والمشروعية لكل ما مارسه الغرب ضد الأمم والحضارات التي ابتليت باستعماره من قهر ونهب . . . « فاذا استرق الغرب الشعوب الملونة استرقاقا جماعيا ، فأقام رخاءه المادي على جماجمهم . . فذلك مشروع لأنه هو الأقوى ، فهو الأصلح للبقاء ، وفقا لهذا القانون « العلمي » الذي زعمته الداروينية « فالقوة هي الصلاح ، والقوي هو الأصلح والأجدر بالبقاء » لقد منحت هذه النظرية المشروعية لقانون الغابة » .

في جميع هذه الاقتباسات نجد فهما عجيبا للداروينية ، يؤكد أنها نظرية تُبْنَى على القوة ، بحيث أن الكائن الأقوى هو الذي يكتب له البقاء ، لأن الأقوى هو الأصلح ، والبقاء للأصلح . ومصدر العجب هو أن « الداروينية » من حيث هي نظرية علمية ، لم تقل كلمة واحدة عن القوة ، ولم تزعم قط أن الأقوى هو الأصلح ، وإنما قالت إن الأقدر على التكيف مع البيئة والظروف الطبيعية هو الأصلح ، وهو الأقدر على البقاء . ولكي ندرك الفارق الشاسع بين فهم كاتبنا للداروينية وبين ما تقوله النظرية نفسها ، يكفينا أن نشير إلى ذلك المثال المشهور الذي تستشهد به معظم الكتب حين تتناول هذا الموضوع ، وهو مثال الديناصور . فقد كان الديناصور في عصره أضخم الكائنات الحية ، وكان يفوق في قوته أي نوع نعرفه الآن أضعافا مضاعفة . ومع ذلك فقد انقرض لأنه كان على الرغم من قوته عاجزا عن التكيف مع البيئة ، بينما استمرت حشرات ضعيفة ، ضئيلة الحجم ، لأنها كانت أخف حركة ، وأقدر على الانتقال والتلاؤم مع الظروف المحيطة . هذا هو المثل « الكلاسيكي » الذي تشير إليه الكتب ، لكي تؤكد أن كلمة « الأصلح » في الداروينية لا تعني « الأقوى » بأي حال من الأحوال . ومع ذلك فقد كان هذا الفهم الواضح البطلان هو محور مقال كاتبنا بأكمله .

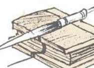
وعلى أساس هذا الفهم الباطل يشيد الكاتب بناءه ، فينظر إلى « الداروينية » على أنها الفلسفة التي أعطت المبرر للاستعمار الأوروبي ، ويقتبس أقوالا لمؤلفين غربيين برروا المشروع الفرنسي الاستعماري في شمال أفريقيا ، ومحاولة فرنسا صبغ الجزائر الإسلامية بالصبغة المسيحية ، مؤكدا أن الداروينية هي التي بررت لهم « إفناء الإنسان الأقوى للأضعف ، وبررت لهم ذلك أيضا في « صراع الحضارات » ، ومع أن الداروينية لم تكن قد عرفت إلا بعد ظهور الكتابات التي يشير إليها ، والتي يرجع تاريخها إلى عامي ١٨٣٠ و١٨٤٨ ، بوقت طويل (لم يظهر كتاب « أصل الأنواع » الذي يتضمن أول عرض للداروينية إلا عام ١٨٥٩) .

ولا بأس أن نشير في هذا الصدد إلى أن مفهوم « البقاء للأصلح » لم يرد على لسان دارون نفسه ، وإنما كان الذي أشاعه هو الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر الذي تحمس لآراء دارون ، وحولها من نظرية في علم الأحياء إلى مذهب شامل ، يسري على تطور المجتمعات والنظم الأخلاقية والتعليمية ، إلخ ، لا على التطور « البيولوجي » للكائنات الحية فحسب . ولا بأس أيضا من أن نشير إلى أن بعضا من أشهر الداروينيين ، وعلى رأسهم هكسلي ، يؤكدون ضرورة التمييز بين ما يحدث في الطبيعة وما يحدث في الميدان الاجتماعي والأخلاقي ، ويرون أن للميدان الأخير قوانينه الخاصة التي لا تخضع لمبدأ الصراع من أجل البقاء .

ما يجب الاحتجاج عليه

إن الفكر الغربي ، وبخاصة في القرن الماضي ، حافل بالنماذج العنصرية والاستعمارية البغيضة التي تطفح أنانية وكراهية للشعوب المسالمة . والهجوم على هذا الفكر وفضحه واجب على كل مثقف جاد في العالم الثالث . ولكن ارجاع هذه النزعة العنصرية الاستعلائية لدى الأوربيين إلى تأثير الداروينية ، واستغلال كراهية القارىء العربي للعنصرية والاستعمار من أجل مهاجمة نظرية علمية ، تتهم بأنها المحرض الأكبر على كافة الرذائل السياسية والعسكرية الأوربية ، هو الأمر الذي ينبغي أن نرفع صوتنا احتجاجا عليه . وليس معنى ذلك أبدا أن الداروينية منزهة عن الخطأ ، فقد تعرضت النظرية ، وما تزال ، للكثير من الانتقادات ، وفي وسع أي عالم أن يوجه إليها من الاعتراضات ما يشاء ، بشرط أن يدعم انتقاداته بالحجج العلمية الكافية ، ولا يستخدم السياسة أو الدين ميزانا في نقد نظرية علمية .

والمشكلة الكبرى في هذا النقد ، إلى جانب أخطائه الداخلية ، هي أنه يتجاهل العوامل الرئيسية ، ويمسك بتلابيب عامل ثانوي . فحتى لو سلمنا من أجل الجدل وحده ، بأن « الداروينية » تشجع على استخدام القوة للسيطرة على الضعفاء ، فإن من حق المرء أن يتساءل : هل كانت هذه النظرية وحدها كافية لإحداث المد الاستعماري الجارف في القرن الماضي ؟ ألم يكن السبب الرئيسي لهذا المد هو التوسع الاقتصادي المترتب على الثورة الصناعية في أوربا ، وحاجة البلاد الصناعية الكبرى إلى مواد خام ، وإلى أسواق لتصريف منتجاتها ؟ إن المتأمل لأوضاع أوروبا في القرن الماضي يدرك بسهولة أنها



كانت ستسير في الطريق الاستعماري حتى لو لم تكن الداروينية قد ظهرت ، وأنها ما كانت لتعجز عن إيجاد مبرر آخر لتوسعها على حساب الشعوب الضعيفة . وعلى أية حال فإن ما يحسم هذا الموضوع على أرض الواقع نفسه ، هو أن أهم الغزوات الاستعمارية الأوروبية للبلاد الأفريقية والآسيوية قد حدثت قبل أواسط القرن التاسع عشر ، أي قبل أن يعرف العالم شيئا اسمه نظرية التطور ، وقبل أن يظهر الكتاب الرائد الذي شيدت عليه الداروينية .

من أضرار المعرفة الناقصة

أعود في نهاية هذا المقال إلى ما قلته في بدايته ، وهو أن الإسلاميين المعاصرين في حاجة ملحة إلى معرفة إنجازات الحضارة الغربية معرفة وثيقة ومباشرة ، ومستمدة من مصادرها الأصلية ، لأنهم يشعرون دائما بأن دعوتهم الخاصة لن تنجح إلا إذا مهدوا لها الأرض بمهاجمة ذلك الخصم العنيد الآتي من الغرب . أما المعرفة الراهنة التي ترتكز على قشور ومعلومات مغلوطة فإنها تضر بقضية الإسلاميين إضرارا بالغا . (هل يصدق القارىء أنني ، مع كل مجموعة جديدة من طلابي ، أبذل جهدا كبيرا لإقناع المنتمين إلى الحركة الإسلامية منهم ، بأن دارون لم يكن يهوديا ، لأنهم يسمعون كل يوم في منتدياتهم عن مؤامرة يهودية لتخريب عقول الناس في العالم أجمع ، أبطالها هم الثلاثي : دارون وماركس وفرويد !)

إننا لا نكف في السنوات الأخيرة عن مهاجمة المستشرقين ، متهمين إياهم بتشويه تراثنا والجهل بخصوصية حضارتنا . ولو قارنا أخطاءنا في فهم الحضارة الغربية بأخطائهم في فهم الحضارة الإسلامية لما كانت المقارنة في صالحنا على الإطلاق . ذلك لأن معظم أخطاء المستشرقين تفسيرية واستنتاجية ، بينما نخطىء نحن في معرفة أبسط الحقائق عن حضارتهم .

فكيف كنا سنحكم على المستشرقين ، لو قال قائل منهم ان الحج يكون في رمضان ، أو أن الغزالي من شعراء الجاهلية ؟!□



التعليم الفني وقضية التقنية

بقلم : الدكتور عبدالعظيم أنيس

في هذه الأيام تطرح قضية التعليم الفني في البلدان غير النفطية ـ وفي مقدمتها مصر ـ بإلحاح شديد ، ويتم التأكيد على أهميته وضرورة التوسع فيه على حساب التعليم العام الذي يوصل إلى الجامعة ، وفي ظاهر الأمر يبدو هذا الإلحاح مرتبطا بتأكيدات السياسات العليا في تلك الأقطار على زيادة الانتاج والتصدير ، لأنها الطريق الصحيح لحل مشاكل تلك الأقطار ، فضلا عن أهمية تطوير تقنية الانتاج .

وصلت الأمور بوزارة التعليم المصرية إلى حد إعادة فتح المدارس الاعدادية الفنية التي تعلم التلاميذ بعض الحرف ، مع أن هذا النظام كان قد سبق الغاؤه منذ سنوات عديدة لأنه مناقض لمبدأ ديمقراطية التعليم ، ولأهمية دعم الوحدة الوطنية من خلال التعليم .

ولا جدال في أهمية التعليم الفني في أي مجتمع يتطلع إلى تطوير إنتاجه ، وتحقيق قدر أكبر من الاستقلال الاقتصادي والاعتماد على الذات ، ولا جدال أيضا في أن توافر تعليم فني صحيح هو أحد الشروط الضرورية ـ وإن كانت غير كافية ـ لاستزراع تقنية محلية ، ولفتح آفاق الابداع الوطني في الصناعة والزراعة . وانما المشكلة الاساسية هنا هي أهمية المعالجة المنهجية للموضوع ، قبل الدخول في عديد من التفاصيل التي يمكن ان تغرق أي باحث فيه .

فلنبدأ أولا بالسؤال : لماذا هذا الالحاح من جديد ، بل في بلد مثل مصر على قضية التعليم الفني ؟ هناك أسباب مباشرة وأسباب قديمة .

وفي مقدمة الأسباب المباشرة أن كثيرا من الأقطار العربية غير النفطية ـ ومنها مصر ـ مثقلة بخدمة دين خارجي كبير ، بحيث ان خدمة هذا الدين من فوائد وأقساط ترهق الأداء الاقتصادي للبلاد ، وتقتطع نسبة كبيرة من حصيلة الصادرات ، وفي كثير من الأحيان تعجز هذه الأقطار عن ملاحقة كل هذه الأعباء ، فتتوقف عن السداد ، وتطالب الدائنين بإعادة جدولة خدمة الدين ، لكن هذا لا يمكن أن يتم إلا من خلال الاتفاق مع المؤسسات المالية الدولية (أساسا صندوق النقد الدولي والبنك الدولي) على ما يسمى سياسة للاصلاح الاقتصادي المحلي ، أي اتباع « روشتة » الاصلاح الاقتصادي التي يضعها الصندوق لدول العالم الثالث ، وفي مقدمتها خفض

الانفاق الحكومي على الخدمات . ومن هنا يبدأ الحديث عن سياسة تضييق القبول في الجامعات ، وفي التعليم الثانوي العام ، وفتح أبواب التعليم الفني على مصراعيها ، تحت وهم أن التعليم الفني أقل تكلفة من التعليم العام ، وأن خريجي المدارس الفنية لا يواجهون مشكلة البطالة التي يواجهها خريجو الجامعات .

أما الاسباب القديمة فتتعلق بقضية تخلف التقنية المحلية ، وتزايد الاعتماد على التقنية الاجنبية التي قد لا يلائم بعضها ظروف الانتاج المحلية وخصوصياته .

لقد بدأت مصر في المرحلة الناصرية نهضة صناعية ، كانت تبشر بحل قضية التقنية ، إلا أن التعليم الفني ظل في تلك المرحلة قاصرا عن مواجهة الاحتياجات ولم تستطع تباشير تلك النهضة أن تغوص بالتقنية الملائمة في أعماق التربة المصرية ، بحيث تصبح سمة دائمة من سمات النشاط الوطني الصناعي والزراعي . والسؤال هنا : لماذا لم تنجح ، بينما نجحت دولة مثل اليابان منذ أيام حكومة « الميجى » في القرن التاسع عشر في تحقيق هذا الإنجاز ؟

ربما كانت هناك أسباب عديدة لذلك ، لكن في مقدمتها في رأيي غياب النظرة المنهجية لقضية التعليم الفني ، وتطوير التقنية المحلية . وأود أن أطرح في هذا المقال بعض الأفكار المنهجية العامة التي أعتقد أنه من الضروري أن يتأملها المسئولون بمزيد من الاهتمام والتفكير .

أولا : من رأيي أنه لابد من وجود مرحلة واحدة من التعليم الأساسي ، يلتحق بها كل أبناء القطر من بنين وبنات دون استثناء ، وتكون فيها المناهج موحدة ، وتركز على ما يتعلق بالوطن من تاريخ وجغرافيا وخواص البيئة المحلية فضلا عن اللغة والحساب . وهذه المرحلة هي السنوات التسع الأولى (المرحلة الابتدائية والاعدادية) ، بحيث لا يتفرع التعليم في تلك السنوات إلى تعليم ديني وتعليم مدني أو فني وتعليم أجنبي كما يحدث في عديد من الأقطار العربية ، ومنها مصر .

فإن هذا التوحيد في سنوات التعليم الأساسي ضروري في دعم الوحدة الوطنية المحلية ، وخلق ثقافة وطنية ، وفي ايجاد أساس صحيح للتشعيب بعد ذلك . وقديما قال نابليون : إن الوحدة الوطنية في فرنسا تتدعم من خلال المدرسة والجيش . ولقد ألح طه حسين في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » عام ١٩٣٨ على هذه القضية ، وبدا بعد الحرب العالمية الثانية وبعد عام ١٩٥٢ أننا نتجه في هذا الاتجاه ثم إذ بنا نعود اليوم إلى فتح المدارس الفنية الاعدادية !

ثانيا : أن قضية تطوير تقنية ملائمة في أي مجتمع مرتبطة بوجود مشروع وطني عام للتقدم الاجتماعي والسياسي والاستقلال الاقتصادي ، وبوجود فئات اجتماعية حاكمة ، راغبة في هذا التطوير ، وحريصة عليه خصوصا في ميدان الصناعة .

إن هذا هو ما حدث في اليابان مثلا ، فالابداع الوطني الياباني نشأ على الأخص من خلال هذا المشروع الوطني الذي قادته حكومة الميجي لمواجهة التهديد الغربي لليابان بالغزو ، وقد أمكن تعبئة كل الطاقات الوطنية في هذا الميدان بفضل أشياء عديدة ، في مقدمتها التقاليد اليابانية العتيقة التي تمثلت في قدسية العرش الامبراطوري سليل الشمس ، وفي نشأة حكومة قامت على أنقاض الاقطاعيين عام ١٨٦٨ .

ثالثا : أن المشاركة النشيطة لكل الفئات والشرائح الاجتماعية في المجتمع في جهود تطوير التقنية ذات أهمية قصوى في تحقيق النجاح . ومعنى هذا أن قضية التعليم الفني وتطوير التقنية ليست مسألة تخص فقراء المجتمع وحدهم دون الفئات والشرائح الأخرى . إنني أشير بهذا إلى أن التعليم الفني في مصر - في الغالب الأعم - قدر ونصيب لأبناء الفقراء الذين لم يحصلوا على درجات كافية في امتحان الاعدادية ، وهذا الفقر ليس من الناحية الاجتماعية فقط ، وإنما من الناحية العلمية أيضا ، مع أن التعليم الفني في حاجة إلى تفوق في الرياضيات والفيزياء والكيمياء على وجه الخصوص .

لقد تطوع العلماء اليابانيون بأعداد كبيرة بتدريب «الأسطوات» على التقنية الغربية الجديدة، وكانت أول مدرسة ذات برامج متكاملة لتدريب «الاسطوات» هي «مدرسة تدريب عمال طوكيو» التي أنشأت عام ١٨٨١، وتحولت بعد خمسين سنة إلى «معهد طوكيو للتكنولوجيا». وقد لعبت هذه المدرسة دورا أساسيا في إيجاد تطبيق أوسع للتقنية وفي تحسينها، وقام خريجو هذه المدرسة بالتدريس في عشرات المدارس المماثلة التي أنشئت على نفس الطراز بطول البلاد وعرضها.

إن قضية تطوير التقنية في اليابان كانت جهدا قوميا موحدا، شارك فيه أثرياء المجتمع قبل فقرائه، وأساتذة جامعاته قبل تلاميذه ولهذا تحقق النجاح.

رابعا: أن جذور التقنية في المجتمع تصبح أقوى بكثير إذا استخدمت اللغة الوطنية وسيطا في التعليم، سواء أكان هذا التعليم متوسطا أم عاليا، فإن هذه القاعدة التي وضحت صحتها في تجارب البلدان المختلفة تطرح بطبيعة الحال قضية التعريب في هذا الميدان الذي مازلنا متخلفين فيه بشدة، ومع الأسف الشديد، مازال هناك أساتذة في الجامعات العربية يقفون ضد التعريب، مع أنه لا أمل في تطوير التقنية الملائمة دون جهد كبير وطني وعربي كحل هذه المشكلة.

خامسا: أن المصادر المحلية في المهارات والمعرفة المتراكمة لدى أي شعب لا يمكن أن تستغل لخدمة عملية التطوير التقني بالكامل إلا عن طريق مهندسين وفنيين وطنيين لا أجانب.

لقد أجرت جامعة الأمم المتحدة دراسة مهمة حول موضوع التقنية في الدول النامية، مسترشدة بالتجربة اليابانية. واشترك في هذه الدراسة ١١٤ باحثا، وقامت الجامعة بنشر ملخص لهذه الدراسة في مجلتها بعدد يونيو سنة ١٩٨٤، وكانت هذه النقطة على الأخص محل تأكيد التقرير.

إننا لسنا ضد الاستفادة من الخبراء الأجانب من ناحية المبدأ، لكن جهل هؤلاء الخبراء بالظروف والخبرات المحلية، فضلا عن اللغة، يقف عقبة أمامهم في القيام بأي دور أساسي في تطوير التقنية المحلية، وإثرائها على النطاق الوطني.

سادسا: أن التعليم الفني في حقيقته (سواء المتوسط أو العالي) أعلى تكلفة من التعليم العام، هذا إذا أردنا تعليما فنيا حقيقيا، يدفع الصناعة والزراعة دفعات حقيقية.

وفي تجربة مصر توضح الاحصاءات أن مايقرب من ثلثي تلاميذ التعليم الفني هم الملتحقون بالتعليم التجاري، وهو تعليم لا يمت للانتاج الصناعي والزراعي بصلة، كما يوضح تقرير اللجنة المصرية الامريكية عن التعليم، الصادر عام ١٩٨٠، أن طالب التعليم الصناعي يكلف الوزارة سنويا في المتوسط ١٢٢ جنيها، وطالب التعليم الزراعي ١٥٦ جنيها، بينما يكلف طالب الثانوي العام ١٠١ جنيه. ومعنى هذا أن التعليم الفني - في مستواه المتواضع الحالي - أكثر تكلفة من التعليم العام. ولقد قدرت وزارة التعليم عام ١٩٧٩ أنها في حاجة إلى ٢٠٠ مليون جنيه لتطوير التعليم الثانوي الفني بالأسعار القائمة آنذاك، وهو مايصل إلى أكثر من ٥٠٠ مليون جنيه بأسعار اليوم.

وهذه الحقائق توضح أن تصور التعليم الفني حلا لمشكلة الحد من الإنفاق في التعليم - وفق نصائح صندوق النقد الدولي - هو بمثابة الجرى وراء أوهام.

تلك بعض الأفكار والمبادىء العامة التي أعتقد أنها أساسية في مواجهة هذه المشكلة التي تطرح بإلحاح في العديد من الأقطار العربية غير النفطية، وفي مقدمتها مصر، التي تدعو في رأيي المسئولين عن التعليم الفني إلى مراجعة موقفهم وتوجهاتهم الحالية، وهذه الأفكار والمبادىء العامة يمكن أن تفيد أيضا المسئولين عن التعليم الفني في الأقطار العربية الأخرى.

وأخيرا فإنني أنتهز هذه الفرصة لمناشدة الجامعة العربية منح هذه القضية المزيد من الاهتمام، من خلال ندوات عربية مشتركة، إذ أن كل جهد في اتجاه التكامل الاقتصادي العربي يصبح ناقصا إذا لم نواجه ضمن إطاره مسألة التعليم الفني وتطوير التقنية. □



رمادية

شعر : يعقوب السبيعي

أَدِيري وَجْهَكِ الحاني إِلَيْنَا   وَمُدّي نَحْوَنَا قلباً وعَيْنَا
تَرَيْنَ العِشْقَ في الأحداقِ دَمْعاً   سعيداً في تميمتِهِ عَلَيْنَا
تُنَادِي ظِلَّكِ النادِي دُرُوبٌ   بها اشتبكتْ أصابعُ رَاحَتَيْنَا
تسابقتِ الجهاتُ إليكِ شوقاً   لتحملَ خَطْوَ مَنْ تمشي الهُوَيْنَى
أَعِيدي نظرةً في ما تَوَلَّى   تَرَيْنَ عليكِ للعشاقِ دَيْنَا

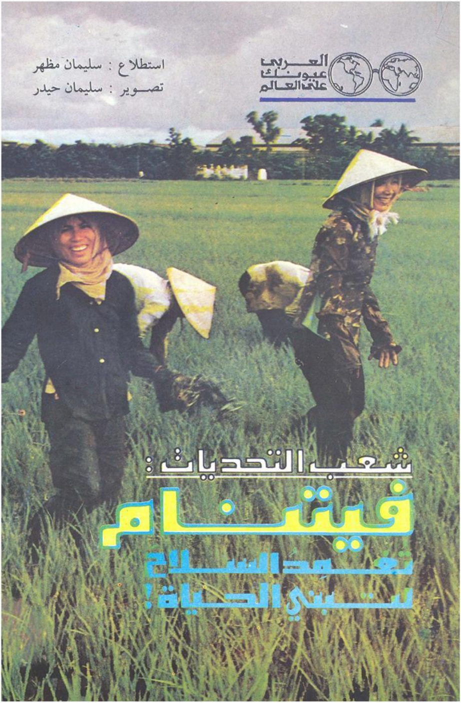
* * *

هيَ الأيامُ تَطْغَى إنْ تَشَكَّى   بها الأحبابُ ما مِنْهُ اشتكينا
فَذاكَ الصبرُ يأبَى إنْ رضينا   وهذا الحزنُ يرضَى إنْ أَبَيْنَا
تُعَانِدُنَا الليالي فَهْي جَمْرٌ   نَضِيجٌ في تَطاوُلِهِ اكتوَيْنَا
أَزِيحي بابتسامَتِكِ الليالي   لنُبْصِرَ ما تَبَقَّى في يَدَيْنَا
لقد كانَ الفراقُ وما افترقنا   وقد حانَ اللقاءُ وما التقينا
رماديُّ الصدودِ مَضَى وهذا   رماديُّ الوصالِ أتى إلَيْنَا
سَلِمْتِ حبيبتي مِنْ كُلِّ ماضٍ   وآتٍ ، إنْ مَضَيْنَا أوْ أَتَيْنَا

* * *

أَدِيري وَجْهَكِ الحاني لندري   أضِعْنَا في الحياةِ أم اهْتَدَيْنَا
أَيُخْبِرُنَا الجفافُ لديه ظَمْأى   وهذا الخصبُ والسُّقيا لَدَيْنَا
وفي صدري وصدرِكِ عنفوانٌ   يُذَلِّلُ كُلَّ ما استعصَى عَلَيْنَا
فهيّا نملأ الأعوامَ حُبًّا   ونبدأُ بالهَوَى حيثُ انْتَهَيْنَا

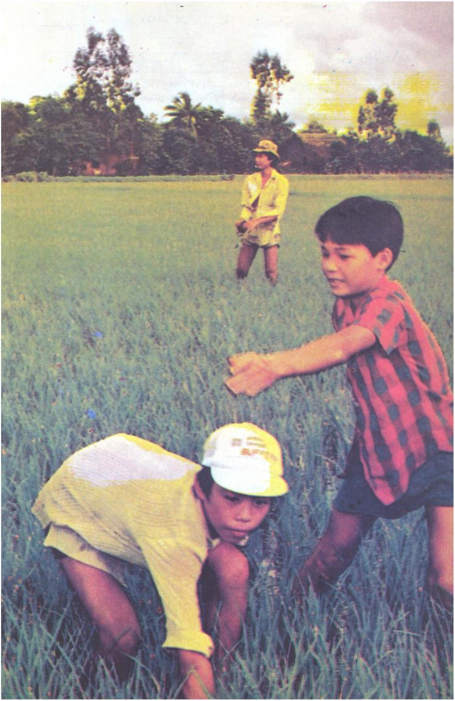
استطلاع : سليمان مظهر
تصوير : سليمان حيدر



شعب التحديات :

فيتنام

تغمد السلاح لتبني الحياة !



على إمتداد ألف ميل، من الجبال الغارقة وسط أمواج السحب بطول الحدود الصينية، إلى السهول الخضراء المنبسطة في دلتا نهر «الميكونج»، تستلقي فيتنام، أجمل الدول في شبه جزيرة الهند الصينية. وعلى مدى أكثر من خمسين عاماً من الحروب المستمرة، لم يكن من الممكن للسائحين والزائرين التجول في المدن والقرى. ومع ذلك، فمنذ أواخر عام ١٩٧٥، وبانتهاء الحروب الدموية المتلاحقة، بدأت فيتنام تتجه ـ بخطوات بطيئة حذرة ـ إلى العالم الخارجي.

وكانت «العربي» أول مطبوعة عربية تخترق حدود جمهورية فيتنام الاشتراكية، تستطلع بالعدسة والقلم، حياة شعب واجه التحديات وانتصر، وأغمد السيف دون أن يلقيه، متحديا بالصبر كل شيء حتى الفقر، من أجل إعادة البناء.

قال لنا وهو ينحي المذراة جانباً، ويطيل النظر إلى الفلاحات والفلاحين المنتشرين في حقول الأرز الواسعة الممتدة كبساط أخضر يغطي وجه الأرض:

ـ أنتم تبالغون حين تصفوننا بالشعب المعجزة، فلسنا أكثر من فلاحين بسطاء، نحرث الأرض لنزرعها، ونحمل السلاح لنحميها.

قلنا له: ذلك هو منبع الإعجاز فيكم، ومبعث الاعتزاز بكم، وما زلنا في أوطاننا نتعلم منكم كيف يكون الصمود الصلب والمقاومة التي لا تلين.

انفرجت شفتاه عن ابتسامة شبه ساخرة، وهو يقول:

ـ أتتعلمون من الفلاحين.. وفيكم العلماء والمخترعون وغزاة الفضاء..!؟

ابتلعنا سخريته ونحن نجيب:

ـ لولا الفلاحين ما كان كل هؤلاء، فكلهم مثلكم أبناء الأرض.

ـ ولكنهم يدمرون الحياة، بينما نحن نصنع الحياة..!

قال ذلك وهو ينقل بصره بين مجموعة من بقايا المدافع والدبابات المحترقة، وبين أكوام من حصاد الأرز.

كانت المفارقة واضحة، ألزمتنا الصمت، ومد الفلاح يده إلى مذراته يداعب أسنتها المشطية. ثم فجأة، أدار قصبة المذراة، فإذا في الطرف الآخر سكين يشبه «سونكي البندقية» وقال باعتزاز:

ـ هكذا كان سلاح الفلاحين، بأحد الطرفين يحصدون زرعهم، وبالطرف الآخر يقتلون عدوهم..!

تساءلنا وقد زال عنا الاستغراب:

ـ ألهذا كانت جماهير الفلاحين في فيتنام على استعداد دائماً لحمل السلاح والثورة ضد الفرنسيين والأمريكيين؟!

سمعنا الاجابة من «تران فوك تاش» مساعد مدير إدارة الصحافة:

ـ بل ضد كل المعتدين، فالمسألة ليست حديثة عهد، فطوال الاحتلال الصيني كان الفلاحون يحاربون ويقاومون سيطرة الاقطاعيين الصينيين، بل إن الاقطاعيين الفيتناميين الذين كانوا يستندون على العون الصيني لقهر الشعب، كانوا يضمون الى الفلاحين من أجل التحرر والاستقلال.

التضحية سمات الشعب

إن جموع الفلاحين كانت هي المحرك الحقيقي للتاريخ الفيتنامي، فهي إذ تساق الى الموت جوعاً كلما ساءت حال المحصول، لم يكن أمامها سوى أن

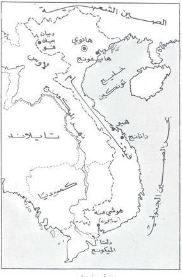
تندفع قدماً في الطريق الوحيد المفتوح أمامها، طريق الانتفاضة المسلحة. ومن صفوف الفلاحين خرج هؤلاء الجنود والمناضلون الذين خاضوا من أجل التحرير ورد عدوان الغزاة عديداً من المعارك البطولية المعجزة. . . وكانت التضحية هي أبرز سمات الفلاحين . . بل والشعب الفيتنامي كله. فالتضحية بالنفس والحياة ليست غريبة على الشعب الفيتنامي حتى في أيامه الحاضرة.

ولم يكن غريباً على هذا الشعب أن يواصل التحديات حتى بعرق جبينه، فلم يجد ما يمنعه من مشاركة حكومته للوفاء بديون البلاد الخارجية. وقد كان ذلك بأسلوب جديد لم تقم به دولة أخرى من قبل، فمع استجابة الفيتناميين لما قررته حكومتهم، اندفع ٦٣ ألفا من العاملين للسفر الى الدول الدائنة ليؤدوا الأعمال المطلوبة منهم لسداد بعض ديون الدولة، وخاصة للاتحاد السوفيتي وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية، وكانوا يدركون أنهم يعملون دون أن يتقاضوا سوى جزء ضئيل من المرتبات المقررة، على أن تذهب بقية الأجور لسداد ديون فيتنام للدول التي يعملون بها. . !

هل هناك تضحية أكثر من هذه التضحية، يبذلها الفيتنامي عن قناعة ورضا من أجل تحرير بلده هذه المرة أيضاً من الدين الخارجي . . ؟ أوليس مثلاً يجب أن تحتذيه الدول المدينة الغارقة في الديون؟!

المكان والزمان والإنسان

تمتد فيتنام من الشمال إلى الجنوب بطول ١٧٥٠كم، وباتساع من الشرق إلى الغرب يتراوح بين ٦٠٠ و ٥٠كم، وتحدها الصين من الشمال ولاوس وكمبوديا من الغرب، وتطل من الشرق على بحر الصين الجنوبي. ومن الجنوب الشرقي على خليج سيام، وتضم فيتنام ثلاثة أقسام: «باك بو» وهو القسم الشمالي الذي كان يطلق عليه قبل الوحدة اسم فيتنام الشمالية، ويشكل مع دلتا النهر الأحمر منطقة غنية بالامكانات الزراعية والصناعية، ثم «نام بو» وهو القسم الجنوبي الذي كان يطلق عليه اسم فيتنام الجنوبية، ويشكل سهلاً غرينياً تشقه فروع نهر الميكونج، وهو منطقة صالحة للزراعة على الأخص، أما القسم الثالث فيسمى



موقع فيتنام . .

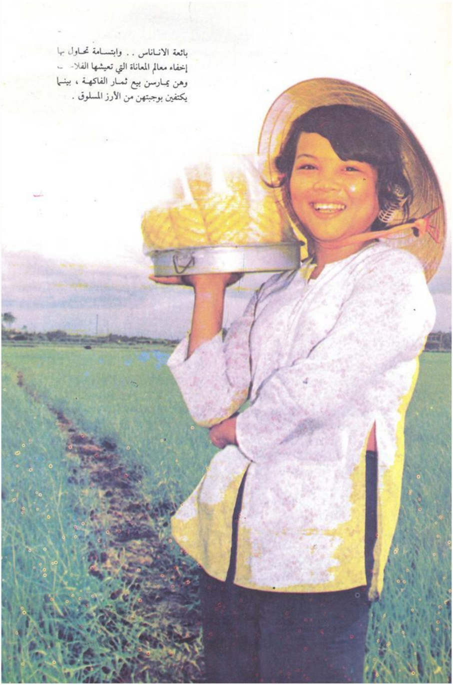
«ترانج بو» أي وسط فيتنام، وهو حزام ضيق طويل من الأرض، يصل بين الشمال والجنوب.

وعندما يصف الفيتناميون شكل بلادهم يتذكرون صورة مألوفة لديهم . . صورة قصبة على كتف في أقصى طرفيه سلتا أرز.

أرض فيتنام تمتد على مساحة تقرب من ٣٣١ ألف كم٢، يعيش عليها من السكان حوالي ٦٣ مليون نسمة، حسب تعداد ١٩٨٧. لا يتجاوز دخل الفرد فيها أكثر من ١٥٠ دولاراً في السنة، حسب تقديرات عام ١٩٨٦. أما أهم المدن فهي العاصمة هانوي وسكانها حوالي ثلاثة ملايين نسمة، ومدينة هوشي منه التي كانت تحمل اسم سايجون قبل التحرير وسكانها ٣,٥ ملايين نسمة، وهايفونج وسكانها مليون و٣٧٠ ألف نسمة، بالإضافة إلى دانانج، ونام دنه، وهوى.

الوجه الحقيقي للشعب

إن وجه أي بلد يبدو من خلال وجوه أبنائه . . وحين كنا نتنقل بين مدن فيتنام وقراها كنا



بائعة الانـانـاس . . وابتسـامة تحـاول بها
إخفاء معالم المعاناة التي تعيشها الفلا-
وهن يمـارسن بيع ثمـار الفاكهـة ، بينما
يكتفين بوجبتهن من الأرز المسلوق .




وجبة الفلاح الفيتنامي واحدة فقط في اليوم مع كثرة عدد الأبناء ، وبعد انتهاء العمل في حقول الأرز تنشغل الفتيات بالأشغال اليدوية ، بينما الصغار يلعبون أمام البيوت البسيطة المقامة من البوص وسعف النخيل وقش الأرز .



نعجب بمدى المفارقة في مظاهر السكان وملامح حياتهم. وكنا كلما ابتعدنا جنوباً أو شمالاً أو الى الشرق أو الغرب، بل حتى في شوارع هانوي وهوشي منه، أحسسنا أننا نتنقل بين عدة بلاد بعاداتها القومية ولغاتها وأزيائها المتباينة.

عمال صناعيون في قبعاتهم الواسعة من القش عائدين الى بيوتهم على دراجات هوائية مستهلكة، أطفال يتضاحكون حاملين حقائبهم وهم ينطلقون في فرح عائدين من المدرسة، طالبات يسرن حاملات كتبهن في مزيج من الجد والعبث، جنود يتحركون بتثاقل في أزيائهم التي تتراوح ألوانها بين مختلف درجات اللون الأخضر، فلاحات يتطلقن في أرديتهن المتشابهة بين بلوزات رمادية اللون وسراويل زرقاء فضفاضة، تحمل كل واحدة منهن على كتفها سلتين من القش المشغول، تتدليان بحمولتها من طرفي قصبة الخيزران، بينما تسير نساء أخريات في أزياء حديثة، وملابس مرفهة، هن بعض الموظفات أو العاملات في شركات ومؤسسات حكومية أو دولية.

آلاف من الوجوه متباينة الملامح، لكنها كلها تحمل سمات المعاناة، وشيء ما يتضح في خطوط التجاعيد حول الفم، أو الحزن المستقر في العيون المتراخية الجفون. إنها كلها علامات تركتها سنوات الحرب، ونضالات المقاومة على وجوه الفيتناميين.

إن وجه فيتنام هو وجه النضال والكفاح، وجه الخسائر والمكاسب، وجه معاناة اليوم وآمال الغد.

ومع ذلك... شهدنا هنا وهناك وفي كل مكان، إن «فيتنام» و«هوشي منه» وجهان لعملة واحدة. ففيتنام هي بلاد هوشي منه. وهوشي منه هو رمز فيتنام، وقد كان يقول: «لا يوجد شيء في الوجود أعز من الحرية والاستقلال».

وتقديراً لجهود هوشي منه، وارتباط اسمه بفيتنام الحرة المستقلة، لا تكاد تخلو مدينة من نصب أو رمز أو متحف يحمل اسم الزعيم ويحيي ذكراه، أبرز هذه النصب التذكارية ذلك الذي رأيناه يتوسط ميدان «بادن» في هانوي، حيث الضريح الفخم الذي أقيم أمام الموقع الذي كان يضم بيته، وهو مزار للمواطنين والسائحين، يضم غرفة مكتبه وحديقته الصغيرة، والبحيرة التي كان يتمتع بمائها وهدوئها، بعد أن طالما خاض معارك التحرير القاسية. للنصب التذكاري واجهة مرتفعة، قائمة على أعمدة رخامية ستة في كل واجهة، بينما تغمر الزهور الضريح في الداخل، وتمر من أمامه طوابير آلاف من المواطنين لتحيي البطل العظيم.

هانوي... مدينة الصبر

حين وصلنا مطار هانوي كان الوقت ليلا، وقطعت السيارة بنا المسافة بين المطار والمدينة في أكثر من ساعة، على الرغم من أنها لا تزيد على أربعين كيلومتراً. فالطريق ضيق، والمطر ينهمر، والسيارات واللوريات والدراجات وعربات النقل التي تجرها الثيران تنطلق بلا قيود، وهي تسير في الظلام الذي لا يقطعه سوى أضواء كشافات السيارات بين حين وآخر. وحين بلغنا المدينة كانت الأضواء الخافتة الضئيلة تلقي بصيصا من الضوء على جوانب الطرقات. قال لنا مرافقنا:

- إننا نعيش مشكلة الطاقة، وذلك هو سر ضعف الإنارة في الطرقات والبيوت، وإذا كان ذلك يجعل هانوي في الليل تبدو لكم قاتمة، إلا أنكم سترونها على حقيقتها في ضوء النهار.

ونزلنا في فندق «تونجات»، أكبر فنادق المدينة، ورواده من ممثلي هيئات الامم المتحدة وجاناتها العاملة والسائحين وأغلبهم من الدول الاشتراكية وبعض أهل البلاد الذين اغتربوا في الخارج ويجيئون للزيارة بين الحين والآخر. أسقف الغرف تزحف عليها عشرات «الأبراص» وقال مرافقنا:

- لا تضيركم الأبراص، ولا تحاولوا أن تؤذوها، فهي تربي لتلتهم البعوض، وبسببه لن تستطيعوا النوم إلا في ظل «الناموسية» التي تغطي الفراش..!

كان مطعم الفندق قد أغلق أبوابه قبل وصولنا، وقد عادت السيارة التي أقلتنا من المطار أدراجها. قال صاحبنا:

- لا بأس، سآخذكم إلى أكبر وأنظف مطعم في هانوي.

وتزاحم حولنا قادة «الركشو»، فلا وجود لسيارات أجرة في المدينة.. وركبنا الركشو ويسمونها «السايكو» وهي دراجة ذات عجلات ثلاث، يقودها صاحبها من الخلف، وأمامه بين

العجلتين الأماميتين صندوق لـه مقعد يغطيه غطاء من البلاستيك ليحمي الركاب من رذاذ المطر الذي لا ينقطع . . !

كان الرجل يدفع الركشو ونحن نستشعر مدى القسوة والمعاناة التي يعانيها وهو يدفعها في الظلام والمطر ينهمر على رأسه وجسده دون أن يحميه شيء . قال مرافقنا ونحن نتخاطب وكل واحد منا في الركشو الذي يستقله :

ـ لا تضيقوا بما يعانيه الرجل، فقد تعود على هذا، وهو جلد صبور، فقد كان وأمثاله يفعلون أكثر من ذلك في ميادين الحرب المفتوحة طوال سنوات وهم يخوضون المستنقعات والأنهار، ويزحفون على سفوح الجبال تحت الأمطار والقنابل والرصاص.

قلنا ونحن نريد التوقف، ومغادرة الركشو:

ـ الأمر ليس سهلاً، وهم يرتعدون تحت المطر .

قال : يكفيهم أنهم يجدون عملاً بدلاً من البطالة . . !

في النهار، رأينا هانوي على حقيقتها . .

مدينة من أكثر المدن جاذبية في جنوب شرق آسيا . الشوارع واسعة تظللها الأشجار الاستوائية على الجانبين، البيوت ومباني الحكومة والمؤسسات لا تتجاوز طابقين أو ثلاثة ، وهي مبنية من الحجر مطلية باللون الأصفر البرتقالي، كما كانت منذ أيام الإستعمار الفرنسي.

البحيرات التي تتوسط المدينة بشواطئها المظللة ومقاعدها الحجرية، تضفي عليها جمالاً وجاذبية حيث يسهر الناس لياليهم على الرغم من العتمة، مكتفين بانعكاسات نجوم السماء، وخاصة في الليالي المقمرة على صفحة الماء . . !

مدينة التنين الطائر

تاريخ هانوي يبدأ بعام ١٠١٠م حين كان الملك «لي ثاي تو» يبحث عن مكان يشيد فيه عاصمته، ويقال أنه عندما بلغ جانب النهر الأحمر، شاهد تنيناً يطير في السماء، مضفياً على صفحتها نوراً متلألئاً .

وقرر الملك أن يبني عاصمته في هذا المكان المقدس، وأطلق عليها اسم «ثان لونج» ومعناه «مدينة التنين الطائر»، ومع مرور السنين راحت العاصمة تنمو لتصبح مركزاً سياسياً وثقافياً في البلاد، ثم تحول اسمها بعد ذلك الى «هانوي».

تتمتع هانوي بمعالم تاريخية وطبيعية كثيرة، تكاد تكون هي المتعة الوحيدة للأهالي البسطاء والترويح عنهم، خاصة وأنهم مغرمون برواية الحكايات والأساطير حول هذه المعالم، وهم يجلسون أمام هيكل الباجودا ذات العمود. ويحكون أن الامبراطور «لي شان تون» الذي تولى الحكم في القرن ١٢م قد حلم ذات ليلة بأن الإلهة الأم «كوان آم» كانت تجلس هناك وهي تدعو إليها الراغبين في الحصول على الإستنارة الروحية التي بلغها بوذا .

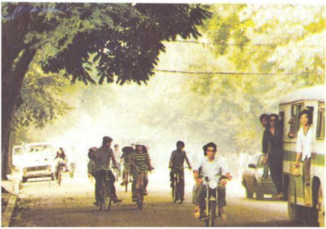
وقرر الملك أن يشيد هذه الباجودا في هيئة بوذا جالساً وسط زهرة اللوتس في نفس المكان، وأقام مهندسوه الهيكل على عمود من صخرة واحدة، تقوم وسط البحيرة، ويمثل العمود ساق الزهرة بينما تمثل المياه المحيطة آلام الإنسانية، وعند إنسحاب الفرنسيين دمروا الهيكل المقدس، لكن الحكومة أعادت إصلاحه وترميمه . . !

أما جسر «هيو» المعروف بجسر «شعاع الشمس» فيربط شاطىء بحيرة «السيف العائد» مع معبد «باجودا السلحفاة»، المقام في وسطها، أبسط البسطاء من سكان هانوي وأطفالها يعرفون قصة المعبد . تقول الحكاية الشعبية : إنه خلال سيطرة حكم أسرة مينج الصينية، كان أحد الصيادين من رجال الجنرال الوطني «لي لو» يرمي شباك صيده في البحيرة، وبدلا من أن تخرج الشباك مليئة بالأسماك وجد داخلها نصلاً يحمل على أحد حديه عبارة تقول: «أطع أوامر السماء»، ولفت النصل أنظار القائد الوطني الذي لم يدرك معنى العبارة إلا حين رأى في اليوم التالي شيئاً لامعاً يتدلى من غصن إحدى الأشجار المطلة على البحيرة. وحين تأمله وجده مقبض سيف بدون نصل، وأمسك القائد بالمقبض والنصل فإذا بهما متطابقين، يشكلان سيفاً صلباً، وأصبح السيف في يد القائد الوطني سلاحاً خارقاً، أرعب به الأعداء، وشق صفوفهم، ومزق شملهم حين استخدمه في مواجهتهم، وبمساعدة هذا السيف الخارق في يد القائد الوطني انتصر الفيتناميون، وحرروا أرضهم من الغازي الصيني المحتل، ونصبوا بطلهم ملكاً عليهم، وذات يوم





شوارع هانوى باتساعاتها وأشجارها وظلالها الوارفة ، حيث وسيلة الانتقال الرئيسية هي الدراجات الهوائية والراكشو ، بينما الفلاحة تنطلق الي السوق وعلى كتفها قصبة البامبو تتدلى من طرفيها سلتان مليئتان بالفاكهة والخضراوات وعلى رأسها قبعة القش .. لباس الرأس التقليدى البسيط .





بينما كان «لي لو» يستقل قارباً في ماء البحيرة، رفعت سلحفاة ذهبية رأسها من وسط الماء وقالت له: «يا صاحب الجلالة.. لقد حان الوقت لتعيد السيف الى ملك التنانين». وقرر لي لو أن يعيد السيف، فأقام «باجودا السلحفاة» وسط البحيرة، وعلق بداخل الهيكل السيف الخارق، وسميت البحيرة تبعاً لذلك بحيرة «السيف العائد».. !

وتوالت القرون وظلت بحيرة «السيف العائد» شاهداً على عديد من الحروب والمعارك والانتصارات، وفي يوم انتصار الثورة الفيتنامية خرجت جموع الشعب في طوابير طويلة تسير على شاطىء البحيرة أمام الباجودا لتهاجم مقر الحاكم الفرنسي. وفي المناسبات الوطنية تقام مسابقات التجديف في مياه البحيرة، بينما تطلق الألعاب النارية، ويستعيد سكان هانوي المحتفلون ذكريات انتصاراتهم المتوالية على الغزاة الصينيين والفرنسيين والأمريكيين.

نصب آخر شاهدناه في هانوي له أهميته عند الشعب الفيتنامي الذي يفتخر بأبطاله. ففي معبد «الشقيقات» القائم في شارع «رونج نـاهان» وقفنا أمام الباجودا التي أقيمت إحياء لـذكرى «الأخوات ترنج» اللاتي قمن بقيادة الثوار ضد الصينيين عام ٤٠ ميلادية، فقد خاضت الشقيقات حرباً من أكثر الحروب شهرة على سيطرة الاقطاعيين الصينيين، وكانت الأخوات زوجات لبعض حكام دلتا النهر الأحمر، وحين قمع الصينيون الثورة - وحتى لا يقعن في أسر الأعداء - إنتحرت الشقيقات اللاتي عدهن الفيتناميون من أبرز أبطال الشعب، حتى أن «شو إن لاي» رئيس وزراء الصين عندما زار فيتنام عام ١٩٥٦ جعل في برنامجه زيارة معبد «الأخوات ترنج» ووضع إكليلاً من الزهور لابراز الروابط القديمة بين الصين وفيتنام.. !

ديان بيان فو

لعل أبرز ظواهر التضحية والفدائية هي بعض ما شهدناه في المتحف الحربي في هانوي، حين زرناه لمشاهدة المعروض عن معركة «ديان بيان فو»، وجسنا خلال قاعاته بين أعداد كبيرة من أبناء الشعب وتلاميذ المدارس، الذين لم يعيشوا فترة المقاومة فجاءوا ليطلعوا على ماضي بلادهم القريب، ومدى ماعاناه الآباء وعاشوه من أجل التحرير.

كان في خطتنا أن نلتقي بالجنرال نيجوين فون جياب، الرجل الأسطورة، الذي هزم جحافل الفرنسيين بجيش من رجال العصابات الحفاة، ووضع نهاية للاستعمار الفرنسي في موقعة «ديان بيان فو». لكن حين وصلنا كان جياب في زيارة لكوبا، وعوضنا عن عدم وجوده لقاء أحد رجال قيادته الذين شاركوا في المعارك، وهو الميجور جنرال «تران كون مان» الذي يرأس الآن تحرير المجلة العسكرية «كوان دينهان».

من خلال اللقاء وبعد زيارة المتحف الحربي خرجنا بتفاصيل كثيرة عن المعركة التي دارت على مسافة ٦٠٠ كم غربي هانوي بين شتاء ١٩٥٣ وربيع ١٩٥٤.

وأمام نموذج كبير مجسم للساحة وعليها تفاصيل مجسمة بالتماثيل والصور والرسوم، رحنا نسترجع ما حدثنا عنه القائد العسكري لاحدى أشهر ملاحم التاريخ، وهو انتصار أسهم إسهاماً حاسماً في نجاح مؤتمر جنيف الذي أعاد السلام إلى الهند الصينية، واستخلص العالم منه درساً لخصه الزعيم هوشي منه في كلمات قليلة: «إن الأمة الضعيفة الصغيرة، تستطيع بتضامن الشعب والجيش للنضال والقتال في سبيل الحرية والاستقلال، أن تدحر أي قوة معتدية مهما تعاظمت، مادامت تملك الإيمان والإصرار على القتال حتى النصر».

اللوحات تحكي تفاصيل كثيرة. مقاتلون يزحفون تحت وابل قنابل الطائرات ونيران المدفعية ويحفرون عبر الجبال والغابات طرقاً تصلح لسير الشاحنات. آلاف الحمالين يكدحون وهم يسحبون بأذرعهم وعضلاتهم وفوق ظهورهم الأسلحة والإمدادات وينقلون المدافع عشرات الكيلومترات، من موقع الى موقع، للصعود الى القمم عبر السفوح. فلاحون يحفرون الخنادق الطولية وهم منبطحون على الأرض ليتحاشوا النابالم وقذائف المدفعية. مناضلون يفاجئون في ظلام الليل وفي وضح النهار قوات العدو المحصنة ويردون الهجمات المضادة ويحكمون الطوق على العدو.

ومن خلال اللوحات نشهد بعض قمم الفدائية والتضحية . .

الفتى «توفنه دين» يلقي نفسه تحت عجلات مدفع ليمنعه من الإنزلاق الى الخلف فيموت ليستمر التقدم. الفدائي «فان دنه» يرمي نفسه فوق فوهة مدفع فرنسي فيخرسه . وحدات الإمدادات تزحف أكثر من مائتي كيلومتر بين سلاسل الجبال، لتشارك في القتال. طوابير متراصة من الفلاحين تعمل على بعد مئات الكيلومترات لتأمين إمدادات الأطعمة والذخائر على الرغم من قذائف المدفعية والطائرات . سائقو الشاحنات وراكبو الدراجات يقضون عشرات الليالي بلا نوم، متحدين الصعوبات، لتوصيل المؤن. حتى الطهي والنقل والتطبيب تشارك فيها النساء والرجال في قلب الخنادق وتحت قصف المدافع ولهيب النيران.

بمثل هذه التضحيات انتصر الفيتناميون وتقررت الهزيمة المذلة على الفرنسيين وهي الصورة التي أكدتها لنا إطلالتنا المبهورة على نموذج ميدان المعركة، وماشاهدناه في الساحة الخارجية للمتحف الحربي، حيث ماتزال بقايا المدافع والدبابات المحروقة والطائرات المحطمة متناثرة، وبينها حطام عدد من الطائرات والمدافع الأمريكية التي ضربت خلال المعارك التالية مع الأمريكيين، في معركة التحرير بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧٥ التي انتهت بسقوط سايجون وإنسحاب القوات الأمريكية من فيتنام كلها.

هكذا تجري الحياة

وانطلقنا بعيدا عن هانوي، لنخترق القرى والمدن والمرتفعات الجبلية في فيتنام. على امتداد كل هذه الارض الشاسعة أدركنا كيف تجري حياة الأغلبية الساحقة . كيف يعيشون ويأكلون ويشربون . كيف يمارسون حياة الفقر والتخلف من خلال الازمات الحياتية القاسية والضيق الاقتصادي والمعيشي والافتقار الى الغذاء الكافي في ظل بطالة وتضخم لا يشملان الريف وحده، بل حتى المدن الكبيرة بما فيها العاصمة.

الفلاحون الفيتناميون يعيشون في مجموعات متناثرة وتزرع الأسرة المتوسطة مابين ستة أفدنة واثني عشر فدانا من الأرض أغلبها يزرع أرزا.

ودخلنا بعض بيوت الفلاحين.

البيوت مقامة على دعامات من الطين، وإطارها من الخشب أو فروع الشجر، يغطي بسعف النخيل أو قش الأرز. وقد لا يضم بيت الفلاح الفقير أكثر من حجرة أو حجرتين. كما تستخدم حجرة الطعام وحجرة المعيشة في الغالب غرفا للنوم أيضا، وهناك مطبخ خارجي صغير، يلحق بالبيت ومخزن صغير تخزن به أدواتهم، وقد يوضع فيه ثور أو أنواع قليلة من الماشية والخنازير والبط والدجاج. وقد توجد في البيت ألواح خشبية توضع فوق دعامات من الحديد تستخدم فراشا للفلاح وأسرته. وبه منضدة خشبية غير مصقولة، وبعض مقاعد بغير مساند وقد يكون هناك دولاب . وذلك هو كل أثاث البيت المتوسط للفلاحين.

الأرز أولا . . والأرز دائما

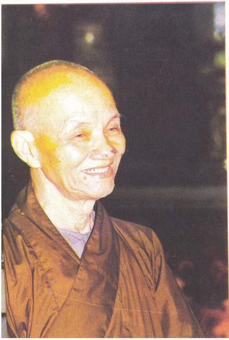
ترتبط دورة حياة فلاح الأرز ارتباطا وثيقا بالمناخ الاستوائي، خاصة حين تغير الرياح اتجاهها لتهب من الجنوب الغربي. في ذلك الوقت يعد الفلاح شتلات أرزه، ويستخدم ثوره - إذا كان هناك ثور - لحرث جزء صغير من حقله، ويستخدم فأسه وفئوس زوجه وأبنائه في شق الأحواض شقاً دقيقاً، ثم ينثرون البذور. . وفي مدى خمسة وأربعين يوما تغرس الشتلات في الحقل. والأرض والمناخ والامطار لها تأثيرها على محصول الارز وزراعته. ومع نفس هذه الظروف الثلاثة يستطيع الفلاح الحصول على ثلاثة محاصيل في السنة.

بين السهول والجبال

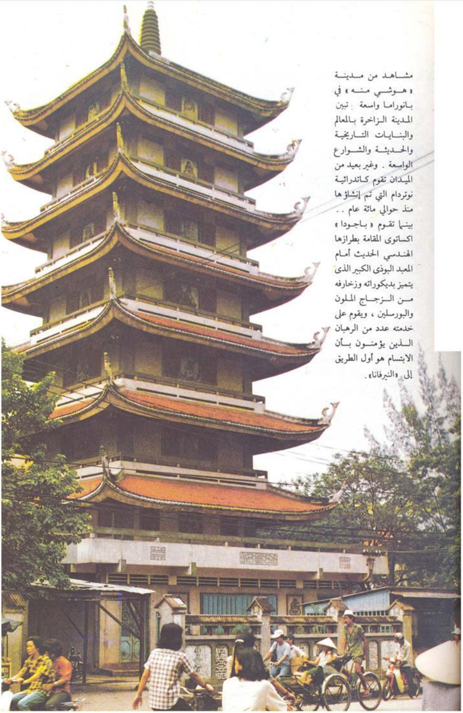
حياة الفلاح العادي تتركز كلها في اسرته وفي حقل ارزه. وقد لا يزور الفلاحون، لاسيما النساء، المدينة الا مرة واحدة، وتكون في الغالب زيارة العمر.وكثير من الفلاحين يملكون دراجة. أما الذين يعيشون الى جوار النهر فقد يملكون زوارق خفيفة، ذات أحجام متباينة. وقد يملك الفلاح الميسور الحال جهاز تسجيل أو «راديو ترانزستور». !

يجري ذلك في مناطق السهول، أما المناطق التي يسكنها الجبليون فيبدو ان بعضهم مرتبط ببعض،









مشاهد من مدينة «هوشي منه» في بانوراما واسعة . تبين المدينة الزاخرة بالمعالم والبنايات التاريخية والحديثة والشوارع الواسعة . وغير بعيد من الميدان تقوم كاتدرائية نوتردام التي تم إنشاؤها منذ حوالي مائة عام . . بينما تقوم «باجودا» اكساتوى المقامة بطرازها الهندسي الحديث أمام المعبد البوذى الكبير الذى يتميز بديكوراته وزخارفه من الزجاج الملون والبورسلين ، ويقوم على خدمته عدد من الرهبان الذين يؤمنون بأن الابتسام هو أول الطريق إلى «النيرفانا» .

في جماعات شبه قبلية. وهم يرتبطون أيضا إرتباطا وثيقا بقراهم وعلى الأخص بقبور أجدادهم القريبة، وقد أنشأ الجبليون أسوارا خشبية عالية حول مواقع تجمعاتهم حواجز تمنع غارات النمور المتجولة.

في مدينة هوشي منه

كل هذه الصور التي شهدناها لواقع حياة الناس في هانوي والقرى والمرتفعات، رأينا بدلا منها شيئا مختلفا تماما في مدينة «هوشي منه» التي كانت تسمى سايجون قبل التحرير وإعادة توحيد البلاد.

هنا تتضح المفارقة الغريبة بين الشمال والجنوب، وعلى الأخص بين مدينة هانوي العاصمة التي كانت من قبل عاصمة فيتنام الشمالية، واستمرت عاصمة للجمهورية الموحدة ومازال حياتها قاتمة تعيش آثار الحروب المدمرة التي لم تتح لها التطور والنهوض والإعمار إلا في السنوات الأخيرة.. وبين هوشي منه التي كانت - وهي عاصمة للجنوب قبل التحرير - تحظى بالاغداق الامريكي من خلال الاستثمارات والمساعدات بملايين الدولارات الامريكية لتشجيعها على التمسك بالتقسيم، والوقوف في وجه الشمال الاشتراكي مما جعلها تكتسب صورة اخرى من خلال التطور بالتقنية المتقدمة والاعمار والانفتاح على الغرب.. مع بعض صور الانحلال والصخب الليلي الذي يصاحب عادة الوجود الامريكي بقواته ودولاراته وبذخه المخطط المرسوم.

ولعل ذلك هو ماجعل أحد السياح الغربيين ونحن في فندق «كولونيج» بمدينة هوشي منه يقول لنا وقد علم أننا قادمون من هانوي:

- هل صحيح أن العاصمة هانوي هي الوجه القاتم لفيتنام، بينما مدينة هوشي منه هي الوجه المشرق؟ لقد علمت أن سكان هانوي في الشمال ممنوعون من زيارة هوشي منه خوفا عليهم من الاحباط اذا شهدوا ما تتمتع به المدينة الجنوبية من حياة متفتحة صاخبة مرحة. وقيل: إنه لا يصرح لأحد من أهل العاصمة بالقيام بهذه الزيارة الا بتصريح خاص من وزارة الداخلية، وهذا لا يحدث الا فيما ندر، وفي حالة الضرورة التي لا مفر منها.

ولم نكن نعرف ذلك، فكل معلوماتنا أن فيتنام قد توحدت، فلا شمال ولا جنوب ولا وسط، فكلها ضمن جمهورية واحدة منذ التحرير عام ١٩٧٥، لكنها كانت الحقيقة التي عرفناها بالفعل فيما بعد وتذكرنا لماذا لم يستطع مرافقنا في هانوي الذهاب معنا الى هوشي منه!

مدينة هوشي منه تبدو جميلة متطورة نظيفة بشكل عام، والسكان تبدو على وجوههم علامات الراحة، بعكس مارأيناه في هانوي. الناس متفتحون لايكاد أغلبهم يستشعر بقايا المآسي التي مر بها الشعب الفيتنامي خلال الحروب الطويلة. جلسات المرح تعقد في الشوارع والبيوت. أما ليالي هوشي منه فصاخبة، خاصة في الشوارع المضيئة وفي صالات الغناء والموسيقى والرقص في الفنادق التي تسهر طوال الليل، وروادها يرتدون أحدث الملابس وبخاصة النساء، بينما رقصات الدسكو والفالس مستمرة حتى ساعة متأخرة من الليل.

بانوراما زاخرة بالمعالم

من شرفة الطابق الثاني عشر لفندق «دونج خوي» المطل على الشارع الممتد أمام الجمعية الوطنية، ألقينا نظرة شاملة على المدينة، بعد أن زرنا بعض معالمها قبل أن نطل عليها من هذا الارتفاع الشاهق.

بانوراما المدينة تبدو واضحة زاخرة بالمشاهد الجميلة للمعالم والبنايات التاريخية التقليدية والحديثة. مركز المدينة يطل على الجانب الغربي لنهر سايجون، ويمتد الى الجنوب الغربي على طول الشاطيء الغربي لقناة «بن ينه» حتى الحي الصيني المسمى «كولون». الفنادق الرئيسية ترتفع في شوارع تودو ونجويان هيو الممتدين متوازيين. كاتدرائية نوتردام صورة طبق الأصل من «نوتردام دي باري» إحدى المعالم البارزة في المدينة تقوم في نهاية تودو منذ إنشائها عام ١٨٨٣ وعبر الطريق الى الشمال يقع مكتب البريد العام ببنائه الذي يمتد عمره الى مائة عام مضت. وغير بعيد يقع قصر جيالونج وقاعة المدينة في شارع لوي. وعند ملتقى شارعي لي ليو وتودو تقع الجمعية الوطنية وكانت من قبل هي المسرح الوطني. وعلى مسافة قصيرة تبدو ساحة السوق المركزي القريب من محطة السكة الحديد.

غير بعيد في أقصى الشمال تبدو المدينة الشقيقة لهوشي منه «كولون» التي أحسسنا ونحن نستطلع أنحاءها وطرقها الضيقة أنها أكثر ضوضاء وازدحاما وأقل جمالا وبخاصة مع ذلك التزاحم من الباعة والمشترين الذين يجيئون من جميع أنحاء المدينة وضواحيها وقراها للشراء من البازار أو السوق الشعبي الذي يعرض كل أنواع البضائع والملابس والمأكولات والخضراوات والفاكهة بأثمان لاتتجاوز نصف أسعارها في محلات المدينة. ذلك هو الحي الصيني، حيث مجموعة كبيرة من المعابد، أبرزها معبد «مارشال لي فان دويت» الذي يضم ضريح البطل العسكري الذي كان في خدمة امبراطور نيجوين «جيالونج»، وهو يقع على بعد حوالي ميلين من قلب مدينة هوشي منه.

عندما زرنا هذا المعبد أثار إعجابنا بواجهته المتميزة بالديكورات والزخارف من الزجاج الملون والبورسلين، وبما يحتويه من الآثار المعروضة في القاعة الرئيسية. هذا المعبد قد دمره الامبراطور مين مان عام ١٨٣١، ثم أعاد خلفه «ثيوتري» بناءه. في كل عام يشهد هذا المعبد احتفالات عيد «تيت»، حيث يحضر الجميع ليس للعبادة ولكن لرؤية المشهد الكبير الذي يعطي منظرا جيلا للثقافة التقليدية الفيتنامية للأجداد. وفي ساحة المعبد تقدم الاطباق التقليدية، وأهمها فطيرة من الأرز والخضراوات واللحم المطبوخ، ملفوفة في ورقة من أوراق النباتات المائية.

في قلب معبد «تي ميو» لفت نظرنا موائد القرابين، تومض بالألوان الحمراء والذهبية. ان كلا منها قد اعد لعبادة أحد أرواح الأسلاف.

والتقينا عجوزا في زي رمادي يضيء شموعا، ويشعل أعوادا من البخور عند موائد القرابين، وتابعناه فهمس لنا كمن يحدث نفسه:

ـ عندما نضيء الشموع، فاننا ندعو أرواح أسلافنا لتكون بيننا.

قالت مرافقتنا الجامعية «هي آن» التي صحبتنا في مدينة «هوشي منه»:

ما تزال في أعماق الكثيرين معتقداتهم القديمة، فأغلبية الفيتناميين، سواء المتعلمين أوغير المتعلمين، يعتقدون تماما ـ وبخاصة في مدينة هوي العاصمة الامبراطورية في وسط فيتنام ـ بما كان يعتقد به الأباطرة. انهم يؤمنون بتعاليم كونفوشيوس الاخلاقية وهم مازالوا في خوف من غموض البوذية. وفوق كل ذلك فهم يحترمون ذكر الأرواح سواء أرواح أسلافهم أو أرواح الأبطال الأقدمين وأرواح مظاهر الطبيعة والسماء والحقول والأشجار والحيوانات سواء كانت خيرة أو شريرة أو بين بين، وفي كل شئون الحياة المهمة وفي حياتهم الشخصية. وهم يستشيرون المنجمين والعارفين بالغيب والسحرة والمشعوذين في كل شيء..

وقد شاهدنا في جولتنا ان أغلب البيوت القديمة التي يتمسك أهلها بالتقاليد لا تخلو من هياكل أو موائد للقرابين، تتوسط قاعة الجلوس، وعليها أنواع مختلفة من الاطعمة التي يتقربون بها الى أسلاف العائلة. وقد قال لنا أحدهم شارحا الامر:

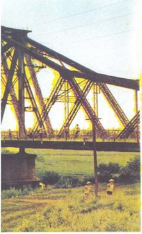
ـ كما ترون نحن مازلنا نعتقد أن أرواح أجدادنا مازالت تعيش بيننا. وبالنسبة لنا فذلك ليس من قبيل الخرافة بل انها حقيقة نؤمن بها. فالمستقبل المشرق والسعادة والرخاء داخل الاسرة تعتمد على ابقاء أرواح الأسلاف سعيدة راضية.

تحرق نفسها في سبيل المبدأ

في ساحة احد المعابد البوذية على اطراف مدينة سايجون القديمة حيث كان مقر حكم الدكتاتور «دييم» الذي كان يأتمر بأوامر الامريكيين ويهاجم البوذيين الذين كانوا يعارضون سياسته أبصرنا أمام الباجودا صورة فتاة صغيرة في عمر الزهور. الصورة تحكي قصة لعلها تمثل طبيعة الشعب الفيتنامي وإيمانه بالمثل العليا والحرية والتضحية.. فلا قيمة لاي شيء حتى الحياة اذا كان في الأمر ما يتصل بالمبادىء. كانت هناك مائدة للقرابين امام الباجودا البوذية، امتلأت بأكوام من الزهور والورود والاواني المليئة بالارز والفاكهة. وعلى جدار الباجودا علقت صورة الطالبة الجامعية ذات الثمانية عشر ربيعا.

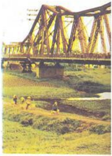
قال لنا الراهب البوذي الذي يقف أمام الباجودا:

ـ كان اسمها «نيجوين تيفان»، طالبة في الجامعة، وقد صبت على جسدها صفيحتين من





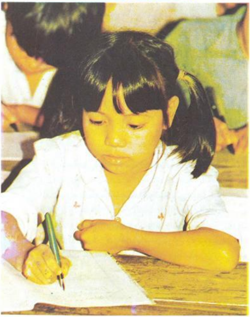






الامطار الموسمية تسقط فجأة بغزارة فتملأ الشوارع ، ولا يعبأ الناس بهطولها ويواصلون مسيرهم سواء على الأقدام أو وهم يركبون دراجاتهم الهوائية . وينتحى الفتيان العاطلون ليمارسوا ألعاب الورق على جوانب الطريق ، غير بعيد من « جسر هوى » الذى شهد معارك طاحنة خلال حرب التحرير وتبادل الامريكيون والفيتناميون تدميره عدة مرات لقطع الامدادات (الصور الى اليمين) أما الصورتان الي اليسار فالعليا لرقصة شعبية تؤديها فتيات القبائل . . والسفلى لفتيات الجيل الجديد على طريق التعليم من أجل مستقبل أفضل .





الجازولين، واشعلت في نفسها النار. كانت حكومة ديم في سايجون تضطهد البوذيين، مما أدى الى ثورتهم. حينئذ قررت الفتاة ان تعلن احتجاجها بطريقة لا يمكن ان يتجاهلها احد، أحرقت نفسها حية في سبيل مبادئها.

ورحنا نتأمل صورة الفتاة في صمت. انها رقيقة كالنسيم، جميلة كالزهرة اليانعة، يطل من عينيها بريق يوحي انها ماتزال حية، واستغربنا كيف لم يمنعها احد من احراق نفسها، وقد أدرك الراهب البوذي مانتساءل عنه فقال وهو يهز رأسه:

- لم تكن وحدها، حاول كثيرون ان يفعلوا مثلها، لكننا منعناهم. حاولنا منعها هي ايضا، لكن الامر كان قد خرج من ايدينا.

وأشار الراهب الى ثوب ابيض مرفوع كأنه العلم في الساحة: ذلك هو ثوبها مازلنا نحتفظ به تخليدا لذكراها. ويأبى أبوها الا أن يزور المكان كل يوم، فيقف هناك قرب الثوب، يتذكر ولا يبكي، وهو يحاول النسيان ليس نسيانها هي، ولكن نسيان الحزن عليها، فهي رمز لا يمكن ان ينسى.. !

إن هذه الفتاة في الحقيقة مثل رائع لفتيات فيتنام المتمسكات بالمبادىء والتقاليد، العاشقات لزهور اللوتس رمز النقاء، حتى أنهن يغلين أوراقها مع الشاي، ويطبخن بذورها مع الأرز.

الفن والحياة

الآن.. عادت فتيات فيتنام وفتيانها يعيشون حياة طبيعية، بعيدا عن أجواء الحرب وذكرياتها، حتى لم يعد لديهم ما يمنعهم من ممارسة كل ما هو معبر عن جمال الحياة واشراقات الامل. عادوا الى عالم الثقافة والفن، بكل أشكاله التقليدية التي عرفوها طوال مئات السنين، ثم مزجوها بالاشكال الحديثة المتطورة في مختلف المجالات.

أبرز ما عادوا الى ممارسته الاشتغال بالصناعات اليدوية التي كانت ذات يوم أجمل ما ينتجه الشعب الفيتنامي، كصناعة القبعات القمعية العريضة من القش، وهو لباس الرأس التقليدي للرجال والنساء في المدن والقرى، وصناعة السلال وأدوات المطبخ وأثاث المنزل من اسرة ومقاعد وفرش وصناديق وخزانات لحفظ الملابس وتخزين الطعام، وهم يستغلون في ذلك المواد المتاحة لهم من قش الارز وقشور البامبو والفخار والخزف وأخشاب الشجر.

فالشعب الفيتنامي كما شهدناه لم يعد يعيش غارقا في معاناته على طول الخط. والفنون الشعبية ترتبط عادة بالاعياد والمناسبات التي يفرج الشعب خلالها عن نفسه، فيتبادل باقات الورود والزخارف الورقية ويجهز عربات مواكب الزهور، وهي كلها عامل مشترك في الاحتفالات الوطنية والدينية، وعلى رأسها «عيد تيت» رأس السنة القمرية، حيث تعد الورود والزهور والتفنن في تشكيلها وابراز مواكبها تعبيرا عن البهجة والتمنيات الطيبة بالعام الجديد. واروع المهرجانات التي يشارك فيها الشعب بالزهور والغناء والموسيقى واطلاق البالونات والالعاب الورقية والعاب العرائس ومسارح الطفل، هو الاحتفال الكبير بعيد الاستقلال وانتصار الثورة. وفي مهرجان هذا العام الذي اقيم في ميدان «بادن» شاركت قوات الجيش وطوابير العمال والفلاحين وصفوف طويلة من الطلاب والطالبات في مواكب زهور اطلقت خلالها آلاف من حمائم السلام طوال المسيرة.

الشعب الفيتنامي بالرغم من المعاناة يمارس كل أنواع الفنون فهو يؤمن بان الفن للحياة. والفنون الشعبية وألعاب الأكروبات والرقص التقليدي والتمثيل على المسرح وتقديم الأوبرا التقليدية والحديثة، أمثلة بارزة للمظاهر الثقافية التي ماتزال الجماهير تتمسك بها وتمارسها.

الفخار والخزف من أهم الأعمال اليدوية التي يتم انتاجها للاستهلاك المحلي والتصدير الخارجي، وتنتشر مصانع الخزفيات المختلفة الأحجام داخل المدن وخارجها ويستفيد أغلبها من وسائل الانتاج العريقة. غير أننا لاحظنا بالمقارنة ان الصناعات الخزفية الفيتنامية لا ترقي الى مستوى الخزف والبورسلين الصيني، فنوعية الفخار والخزف تتوقف على ماهية الصلصال المستعمل في صناعته. ولذلك فصناعاتها تختلف أيضا من منطقة الى منطقة. وقد تم تطوير الصناعات الخزفية خلال السنوات الاخيرة اذ أصبح هناك نظام كامل لصناعة الخزفيات عبر جهود مضنية لضمان حسن نوعية الصادرات، وتوجد مجموعة كاملة من المرافق من

شأنها إنجاز عمليات المسح الجيولوجي واستخراج الموارد الخزفية ومعالجة المواد وتشكيل الاواني والتماثيل وحرقها داخل القمائن، كما ان هناك مؤسسات من شأنها صناعة أو معالجة ما يحتاج اليه الانتاج الخزفي من الآلات والمواد الكيماوية وقوالب الخزف الجصية.

فنون اللاك..!

نوع آخر من أعمال الفن اليدوي الإبداعي شاهدناه في مدينة «هوشي منه»، أروعها اللوحات المرسومة والمصنعة باللاك والأصداف..

في معرض خاص بهذا الفن الراقي يديره الفنان المتخصص «هون تان نهان» تجولت بنا مساعدته وابنته «هون تي أورانج» بين أنحاء المعرض الذي تملأ لوحاته قاعات طوابق ثلاثة في مبنى كبير، يكاد يكون متحفاً راقياً للفنون الجميلة. هنا شاهدنا أعمالا فنية رائعة من لوحات مرسومة بالزيت ولوحات أبدعت باللاك والأصداف الملونة والقشور العاجية والأواني الخزفية، تمزج بين القديم والحديث، من عمل الفنان «لي شان» وغيره من كبار الفنانين. لوحات اللاك تقدم أنواعا كثيرة متميزة، بعضها استخدمت فيه عروق اللآلي الملبسة بين مسطحات اللاك الأسود، والبعض الآخر استخدمت في رسومه الأصداف البحرية البيضاء والملونة. ويضم المعرض أنواعاً من الأثاث الخشبي الملبس بقشور أصداف السلاحف والعاج. هذا اللون من الفنون يجد سوقاً رائجة بين السائحين والمستوردين الأجانب وبخاصة في هوشي منه التي يوجد بها أكثر من ٣٠ مركزاً كبيراً للفنون، وما لا يقل عن الفين من الفنانين هم مقصد محبي الفنون من السياح الذين يبلغ متوسط عددهم السنوي حوالي ٦٠ ألف سائح.

ثقافة مسرحية وسينمائية

عن الألوان الأخرى من الثقافة وجدنا أن المسرح الفيتنامي الذي يمتد تاريخه الى حوالي ألف سنة مازال يمارس مهمته بنشاط كبير. واذا كانت المسرحيات التقليدية قد لعبت باستمرار دور انتصار الضعفاء على الاقوياء، إلا أن المسرح الحديث يمزج بين القديم والجديد والأصالة والمعاصرة. ذلك هو مالاحظناه عندما حضرنا على مسرح «كوتونج» بها نوى مسرحية تحمل اسم «ليس بالأرز وحده». كانت المسرحية تمجد البطولة على الانهزامية، والقلوب الخيرة على الشريرة، والأعمال الطيبة على الوحشية. وهي تقدم القصة في شكل أوبرالي يعتمد على الأساطير القديمة التي تعمل على احياء ذكريات الماضي مع اسقاطها على الحاضر.

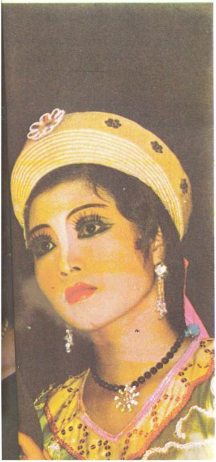
الأجمل من ذلك مسرحيات «العرائس» التي تقدم بعد الظهر وتتخذ سطح ماء البحيرة مسرحا لها. يختفي محركو «العرائس» وراء ستار أسود من خيوط الخيزران. وبأعواد البامبو يحركون ممثليهم بينما المتفرجون يستمتعون بالمشاهدة، وهم جلوس على الارض عند جوانب البحيرة. أغلب العرائس مصنوعة من البلاستيك وبعضها من الطين المحروق بحيث يمكن ان تطفو على سطح الماء أثناء العرض. قال لنا مرافقنا ان هذا الفن يمارسه الفيتناميون منذ مئات السنين ويوجد اليوم حوالي ثلاثين مسرحا للعرائس في مختلف أنحاء البلاد.

السينما أيضا ميدان آخر من ميادين الفن الفيتنامي. وقد ذكر لنا المخرج ونحن نشاهد احدى اللقطات التي كان يتم تصويرها في الشارع انه خلال السنوات العشر الماضية أنتجت استوديوهات سينما الدولة ٢٥٠ فيلما. وفي مختلف أنحاء البلاد يوجد أكثر من ألفي دار عرض سينمائي. ولكن أغلب هذه الأفلام من النوع الوثائقي. وهي تحكي انتصارات المقاومة على جيوش الغزاة الامبرياليين، وتستند في أحيان كثيرة على لقطات حية تم التقاطها أيام الحرب، وبعضها مأخوذ من الأفلام الأجنبية التي أخرجت عن فيتنام. وهي بالفعل وثائق حية لأن أغلبها كان يتم تصويره برؤى محايدة.

أمريكا تغرق في الوحل

عندما زرنا «جامعة الطب» في هوشي منه وقفنا نتابع الفتيات الريفيات القادمات من مختلف المدن والقرى، وهن يواصلن التعليم والدراسة بعد أن تركن جانبا عملهن الشاق في حرث الحقول وزراعة الأرز. إنهن بنات الأمهات اللاتي جعلتهن الحرب يتركن مدارسهن ويهجرن أعمالهن اليدوية التي اشتهرن بها، من إنتاج القبعات وحقائب اليد من





قش الخيزران، وينسين نزهاتهن اليومية على شاطىء النهر وتحت أشجار جوز الهند والأماكن الخلوية التي تحيط بمدينتهن. من أجل ان يقفن وراء قوات جبهة التحرير الفيتنامية وقوات فيتنام الشمالية، وهي تقاوم المعتدين الأمريكيين وحكام سايجون وربما ليس من أجل ذلك فقط، بل لأن الأشجار وزهور اللوتس أيضا قد دمرت وماتت، اقتلعتها نيران الحرب، وقتلتها القنابل والمدافع التي لم ترحم ولم تفرق بين جماد وبشر، أو بين شجرة وامرأة. في تلك الأيام اختفت البنات من الشوارع. اختفين بملابسهن الجميلة وزيهن التقليدي الذي يسمى «اوداي» والمنسوج من الحرير المفتوح من الجانبين وتحته سروال من الحرير الأبيض، ليواجهن مع الفلاحين الثائرين هؤلاء الذين جاءوا ينشرون الموت، ويحولون البلاد الى خرائب ويقضون على كل مظاهر الحياة، ويدمرون المباني والبيوت.

حول ذكريات تلك الحرب ضد الأمريكيين حدثنا «هون نجوك آن» رئيس مكتب العلاقات الصحفية في هوشي منه، وكان واحداً من المناضلين في صفوف ثوار الجنوب وقوات التحرير «الفيتكونج»:

- لقد خاض الثوار حربا لا هوادة فيها على القوات الأمريكية المعتدية حتى أتموا تحرير أرضهم في الجنوب من الغاصبين الأمريكيين، بعد أن حررها «الفيت منه» في الشمال من الفرنسيين..

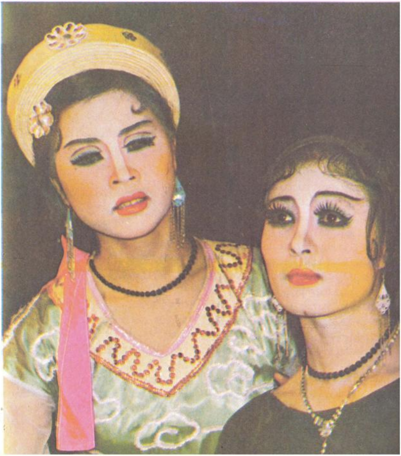
قضت اتفاقية جنيف التي وقعت في ٢١ يوليو ١٩٥٤ بتقسيم الهند الصينية الى فيتنام ولاوس وكمبوديا. وبالنسبة لفيتنام تم تقسيمها بخط عرض ١٧ الى «شمالية» مع زعيمها هوشي منه، وسكانها البالغ عددهم ١٤ مليون نسمة، والى «جنوبية» ومعها زعيمها الكاثوليكي، الألعوبة الأمريكية نجو دينه ديم عدو الشيوعية وخصم البوذية، وتحت حكمه ١١ مليونا من السكان.

ومضى هوشي منه يثبت مكانة فيتنام الشمالية واستقلالها بالاصلاح الزراعي، ومضى ديم يثبت مكانة فيتنام الجنوبية بدستور يجعل منه حاكما مطلقا ويجعل من بلاده محمية من محميات الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن اتفاقية جنيف قد قضت باستفتاء فيتنام شمالها وجنوبها في مسألة



ثلاثة مشاهد تبرز تمسك الشعب الفيتنامي بتراثه الثقافي . (إلى اليمين) مسرح العرائس حيث تقدم مسرحيات الطفل فوق سطح البحيره . (والى اليسار) فنون أعمال اللاك تعرضها الفنانة هون تي أورانج . . (وفي الصورة السفلى) ثلاث فنانات يقدمن مشهدا على مسرح الأوبرا لقصة أسطورية تقليدية .





ضمها في دولة واحدة، إلا أن دييم رفض أن يكون هناك استفتاء، وبلغة أخرى رفض الامريكيون وبدأت موجات من الصدامات بين قوات حكومة سايجون مع البوذيين الذين احتجوا وتظاهروا، وأطلقت الشرطة الرصاص عليهم في الوقت الذي كان الامريكيون قد بدأوا مرحلة جديدة من مراحل تدخلهم، وهي مرحلة الاستعداد للحرب

قصة الفيتكونج

القضية لها تكملة تتبعنا أحداثها في المتحف الوطني في هوشي منه، الذي يحكي بالصور تفاصيل الأحداث. ففي ظل حكومة دييم عاد الاقطاع واغتصبت حقوق الفلاحين الذين بدأوا يتساقطون بالالاف وهم يحاولون الاحتفاظ بالأرض التي كانت قد اعطيت لهم. . . فلأول مرة في التاريخ يظهر قانون للاصلاح الزراعي من ابتداع دييم يرضي كبار الملاك الاقطاعيين على حساب الفلاحين. وتجاوزت حملات القمع والارهاب التي نظمتها حكومة سايجون في عنفها كل ماعاناه الشعب أثناء الاحتلال الاستعماري الفرنسي.

وخاضت جبهة التحرير الوطنية معارك بغير هواده على حكومة دييم ومسانديهم الأمريكيين الذين بدأوا يدخلون الحرب بشكل سافر في عام ١٩٦٥ بأوامر من الرئيس ليندون جونسون. . ثم بأوامر من الرئيس نيكسون وليسقط الأمريكيون على مدى عشر سنوات في نفس الوحل الذي سبقهم اليه الفرنسيون.

وسيطرت حكومة هانوي على الجنوب بسقوط حكومة سايجون في ٣٠ أبريل ١٩٧٥. وخلال عام واحد جرى الاستفتاء من أجل وحدة الشمال والجنوب في يوليو ١٩٧٦، وأعلن بنتيجتها وحدة فيتنام في دولة واحدة باسم جمهورية فيتنام الاشتراكية.

لقد أحدثت القنابل والقذائف الامريكية مايزيد على ١٠ ملايين حفرة، وهي حفر كبيرة عميقة أوجدت آباراً هائلة، كما ضربت شبكات الري في البلاد، وامتلأت بالمياه الجوفية، وأصبحت مستنقعات هائلة ملأت الجو بالبعوض، وفرشت الارض بالأعشاب الضارة التي ماتزال أرض فيتنام متأثرة بها على الرغم من مرور أكثر من عشر سنوات على وضع حد لهذه الحرب المدمرة، مما كان له تأثيره الذي لا يمكن إنكاره في المعاناة الاقتصادية التي يعيشها الناس حتى الآن في البلاد.

السلام والسنوات الصعبة

صعوبة الحياة التي يعانيها الناس في فيتنام ترجع الى المعاناة الاقتصادية التي تمر بها البلاد، وهي تحاول أن ترفع رأسها خلال السنوات الثلاث عشرة الأخيرة بعد انتهاء الحروب الرهيبة التي قضت على الأخضر واليابس. كانت الحكومة تحاول إدارة عجلة الإنتاج، سواء الزراعي أو الصناعي، وكانت الأرض المحروقة المخربة المليئة بالحفر العميقة لا تستطيع أن تعطي كمية الحاصلات التي تضمن الاكتفاء الذاتي وتنتج ما يمكن البلاد من التصدير في مقابل احتياجات الاستيراد. ولم تكن هناك مصانع سليمة قائمة إلا ما ندر بعد التدمير تحت وابل القنابل الأمريكية الرهيبة، كما ان إنتاجها لا يستطيع أن يحقق المستوى المطلوب بسبب التدني التقني والعلمي لدى العمال، سواء القدامى الذين شغلتهم الحرب عن إمكانية الابداع والتطوير، أو الجدد الذين لم يبدأ تدريبهم وجهدهم العملي إلا مع بداية السلام، بمعدات وآلات مجهدة، يفتقر أغلبها الى قطع الغيار.

وكان لابد من تعويض هذا التدهور الاقتصادي باللجوء الى الديون الخارجية التي يصعب سدادها حتى تجاوزت ٧ آلاف مليون دولار أمريكي.

وأمكن حل جزء من المشكلة من خلال تلقي المعونات الاقتصادية والمساعدات الغذائية من الدول المجاورة والبعيدة، بما في ذلك فرنسا وانجلترا وأوروبا الشرقية والغربية، بل حتى من ثلاثي الصين والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة.

الآن، وخلال العامين الاخيرين، بدأت بوادر جديدة لسياسة إصلاحية، تمثلت في قرارات الزعيم «فان لينه» القاضية بزيادة مساحة الأراضي الزراعية، وتوزيع أراض إضافية على الفلاحين، وإتاحة الفرصة أمام النشاطات الخاصة والفردية وبعض الملكيات. وبدأت الجهود الجديدة في المدن تثمر لتخفيف الحياة الصعبة وحدة البطالة والارتفاع ما أمكن بمستوى الانتاج.

ومع بداية سنة ١٩٨٧ انبثق خيط من الشعاع المبشر عندما تم تصدير النفط الخام الذي اكتشف بمساعدة السوفيت الى اليابان . وأعلن المسئولون ان الانتاج سيصل الى مليوني برميل مع نهاية العام، والى ١٧ مليون برميل مع نهاية سنة ١٩٩٠ . ومن علامات التغيير الواضحة ان مديري المصانع منحوا مزيدا من الاستقلال والحرية في توزيع الارباح على العاملين . واستمتعت مدينة هوشي منه بسوق حرة منتعشة، لعلها أكثر انتعاشا من هانوي، كما أعلن عن خطط طموحة للسياحة الأجنبية مع ازالة القيود أمام الذين يعودون للزيارة بطريق البحر .

المشكلة التي لاحظناها خلال جولاتنا في هانوي وهوشي منه هي كثرة عدد المتسولين، وبخاصة الصغار الذين كانوا يلاحقوننا في كل لحظة بشكل مبالغ فيه ولاشك أن صعوبات الحرب وآثارها التي مازالت مؤثرة وراء هذه المحنة التي جعلت هناك بطالة وصلت باعتراف المسئولين الى حوالي ١١٪ .

وفي الوقت نفسه وعلى الرغم من اشراف الجنرال جياب نفسه فقد أعلنت اللجنة الوطنية للشئون الداخلية التي يتولاها أن عدد السكان سيصل الى ٨٥ مليون نسمة بحلول عام ٢٠٠٠، وان نسبة الزيادة تفوق ٢,٥٪ وكانت الزيادة حوالي ١,٥ مليون نسمة سنويا ما بين ١٩٨٢ و١٩٨٦ .

وقد وقع اللوم على «كوادر» الحزب، لتجاهلهم قانون تحديد النسل بطفلين فقط . وعلى الرغم من بناء قاعدة صحية عريضة في أنحاء البلاد إلا أن الأرقام الحكومية أظهرت أن نسبة ٣٠٪ من الاطفال يعانون من سوء تغذية حاد ، وأن حوالي ٦٪ منهم تعد حالات خطيرة .

وحسب تقديرات «اليونيسيف» فإن ٩٨ من كل ١٠٠٠ طفل يموتون قبل سن الخامسة.أما الصناعة الثقيلة فقد نمت على قاعدة غير واقعية، فاقت امكانات الدولة الحقيقية، فلم يستطع هذا البناء الصناعي أن يتحمل الإعانات الحكومية والبيروقراطية المسيطرة، وتعرضت المساعدات السوفيتية والشرق أوروبية للضياع، فازدادت بذلك نسبة البطالة، وارتفعت الأسعار، وأصبح هناك خوف من المستقبل، خاصة مع عدم اكتمال مشروعات الحكومة لإنتاج السكر والمنسوجات والورق والصابون والمنظفات مما اضطر العمال للاعتماد على الإعانات الحكومية أو القيام بممارسات غير مشروعة للاستعانة بها على أعباء الحياة .

في حوار مع «السفير فوهابونج» مدير العلاقات الخارجية في هوشي منه ـ وكان من قبل سفيرا في موريتانيا ـ قال لنا :

«إن عملية الإصلاح تسير بشكل جديد يتفق مع الاتجاهات التي أعلنتها القيادة السياسية برئاسة رئيس مجلس الدولة لجمهورية فيتنام الاشتراكية .

وحسب ما قاله «نجوين فان لينه» السكرتير العام للحزب في خطاب مايو الماضي : «إننا لم نعد نتحمل بين صفوفنا من يسعون من خلال السلطة والنفوذ الى تحقيق مصالحهم الشخصية ويجعلونها هدفا أساسيا . انهم يحققون الشهرة والثراء ويعيشون حياة مظهرية ، ويكذبون على رؤسائهم ، ويغشون مؤيديهم ويكبحون الجماهير . بينما هم ينعمون بحياة الترف، مستخدمين مصادر دخل غير مشروعة» .

إنه الإتجاه الإصلاحي نفسه الذي يسير عليه جورباتشوف من خلال البيروسترايكا التي بدأت تعيد تنظيم سياسة الحكم في الدول الاشتراكية وهو ما شهدناه بأنفسنا حتى في الصين . ولقد كان هذا الاتجاه وراء تخلي عدد من القيادات الرئيسية عن سواقعها لتشغل مناصب شرفية بدرجة مستشار للمكتب السياسي . وفي عام ١٩٨٧ أعيد تكوين الحكومة بقيادة أكثر تفتحا باتجاه الاصلاح ووصفت التغيرات بأنها تجديد من أجل إيجاد قادة أكفاء من القاعدة حتى القمة .

وفي الأيام الأخيرة اعتاد قراء صحيفة «نهان وان» أن يفتحوا عيونهم على عمود تحت عنوان «أشياء يجب عملها فورا»، وظهرت مقالات تحمل أسماء لها قيمتها وتشير مباشرة الى الفساد والغش وتدعو للتدخل الفوري للحل الذي غالبا ما كان يتم في أيام قليلة ليعلم به القراء وكانت أبرز القضايا متعلقة بمسئول الضرائب في هوشي منه الذي اكتشف أنه كان يأخذ الرشاوي ويغوي النساء!

وقد لعبت شخصية كاتب هذا العمود دورا مهما في نجاحه، وكان توقيعه بحروف (ن . ف . ل) وهي تشير بسهولة الى اسم رئيس مجلس الدولة الزعيم الإصلاحي الجديد نيجوين فان لين . . . □





نجيب محفوظ

رحلة الحارة
من المعاناة إلى المسرّات

بقلم : الدكتور سليمان الشطي

أخيرا جاء دور العربُ للحصول على جائزة نوبل في الأدب . هذه الجائزة التي أرسيت دعائمها منذ بداية هذا القرن ، والتي توزعت على كتّاب من جنسيات وقوميات وشعوب مختلفة استنادا إلى اعتبارات عديدة .

وابداع نجيب محفوظ الروائي والقصصي لاشك أنه يتجاوز في قيمته أعمال عشرات ممن منحوا هذه الجائزة قبله ، لكن اعتبارات عديدة كانت تحول دائما دون وصوله إليها ، أو وصول غيره من المبدعين العرب الذين يستحقونها عن جدارة . المهم أن الجائزة جاءت أخيراً . وها هي إضاءات على بعض نتاج محفوظ . سجلها كاتب متخصص في أدبه .

في البدء يحسن أن نستعيد سؤالا قديما تفصلنا عنه سبعة وأربعون عاما ، ففي أغسطس - آب سنة ١٩٣٩ نشرت (المجلة الجديدة) دراسة كان عنوانها : « جائزة نوبل العالمية ، وهل تنالها مصر يوما ؟ » . وفي العدد التالي مباشرة سبتمبر - ايلول من السنة نفسها ، خصصت المجلة عددا كاملا لنشر رواية نجيب محفوظ الاولى « عبث الأقدار » ، فهل هذه كانت مصادفة قدرية ؟ .

من المؤكد أن تلك المجلة لم تكن تبعثر أمامها الرمال باحثة عن الحظ ، ولكنها خطت أولى خطوات الوصول الى الجائزة باحتضانها هذا الكاتب المبدع المتميز الذي كان وقتها أحد كتابها شبه الدائمين . وها نحن ، بعد هذه السنوات ، وقبل أن تكتمل دائرة نصف القرن نشهد كاتبنا وهو يسجل اسمه بين الرواد الذين حفروا مجدهم بأيديهم ، وأهم من هذا كله أن ظفرت المكتبة العربية بأضخم انتاج روائي أهداه أديبنا لها .

ولعل السؤال القديم وجد جوابه أخيراً !

مدخل لجنة الجائزة

إن اجتياز الباب الاول للدخول في عالم نجيب محفوظ يمكن أن يبدأ من القمة السامقة التي تواجه فضاء المعرفة حيث الرؤية أشمل وأعظم . ولتأتي من تلك المقولات التي رأت فيها لجنة جائزة نوبل مدخلا لتقول كلمتها وهي تعلن اسمه على دنيا البشر : « لقد رأت فيه مطورا للغة في الأدب والثقافة العربية » وأضافت ، مستدركة « ان أعماله تتحدث الى العالم كله ، أما أدبه فمنذ المرحلة التاريخية وهو يومىء الى المجتمع الحديث ، فكانت رواياته مصورة للبيئة الشعبية ، فزقاق المدق مسرح يجمع حشداً متباينا من الشخوص ، أما الثلاثية فقد تناولت أحوال وتقلبات اسرة مصرية ، جامعة بين العناصر الذاتية ، وارتباط تصوير الاشخاص بالظروف والفكرة الاجتماعية والسياسية . وتقدم (أولاد حارتنا) البحث الأولي عن القيم الروحية ، بينما قدمت (ثرثرة فوق النيل) محاورات فنية



ميتافيزيقية على حافة الحقيقة والوهم ويأخذ النص شكل تعليق على المناخ الفكري في البلاد » .

ويشيد البيان بالكاتب الذي نقل عنه : أن الكتابة حياته ، وعند التوقف عنها يكون الموت أمنية له .

إن هذا مدخل أولي يحاول أن يوجز ما يستعصي على الايجاز ، لأن وراء هذا كله رحلة كبرى ، امتدت زمنا فأوشكت أن تلامس الستين عاما ، واقتربت من حيث الكم الى الخمسين كتابا ، أما الصفحات فقد دخلت حيز الآلاف ، وشخصيات بالعشرات تحركت على الورق فأصبحت خلقا ينبض ويتحرك ويقول ويوحي .

ليس هذا فقط !

لقد حملت هذه الرحلة معها أمورا ، وقدمت نقلة نوعية ضخمة في مسار الرواية العربية ، فقد أسهم في اعطائها مكانة متميزة وأدخلها في صلب التيار الأدبي العربي المعترف به ، فانتقلت من كونها نشاطا هامشيا في حياة الأديب - وفي أحسن الظروف تكون جانبا من جوانب عدة - الى البؤرة لتصبح محورا لحياة أديب كاملة ، لقد كتب فن القصة قبله ومعه ادباء كبار يأتي في مقدمتهم محمد حسين هيكل صاحب رواية (زينب) وكذلك طه حسين وتوفيق الحكيم وميخائيل نعيمة والعقاد الذي دخل بقصة وحيدة ، ولكن مجد هؤلاء وأسس تفكيرهم لم يكن يشغله تأصيل هذا الفن ، فهمومهم تتنازعها مجالات أخرى .

وحده ، نجيب محفوظ ، الذي نقل الهمَّ الروائي من الهامش ليجعله محورا لحياته كلها ، ولم يكن اختيارا عشوائيا ، ولكنه اختيار عقلاني ، فقد كان وقتئذ يكتب بعض الدراسات بل يستعد لتقديم رسالة « الماجستير » في الفلسفة ، وفي لحظة صفاء وحسم ألقى كل هذا جانبا وملك شجاعة تحدي الحيرة ، وتلك المفاضلة هي التي حددت سلوكه وطريقة تعامله مع الحياة من حوله ، لم يكن مغامرا أو متحديا يقف على أرض العناد ، ولكنه الوعي الذي أكده بتلك الحياة المنظمة التي ميزته ، ومكنت اصابعه من أن تخط هذا التراث العظيم .

ليس هذا فقط ، فالاختيار وحده لا يصنع أدبا أو يخلق التميز ، ولكن ومن تحصيل الحاصل أن نقول الموهبة اذا لم نضف الى هذا الاخلاص الواعي . لقد تضافرت هذه كلها لتجعل منه المعبر الدقيق عن وجدان هذه الأمة في نصف قرن ، لقد رصد وعايش وشكل تصوره ازاء التغيرات السياسية والأزمات الفكرية والنفسية والقضايا الاجتماعية ، لقد كان مؤرخا من نوع خاص ، ولو أراد أحد أن يكوّن صورة واضحة وحيَّة عن هذه المرحلة ، واستعرض هذه الغاية كل الصحف والمجلات وعاد الى السجلات المدونة ، لو فعل هذا لما خرج بفكرة دقيقة لنبض الحياة المتكاملة تساوي ماتقدمه اعمال نجيب محفوظ . اقول هذا وفي الذهن تلك الكلمة التي قالها (بلزاك) ذلك الروائي الاول الذي أراد أن يضع بيانا بالرذائل والفضائل لعله يستطيع كتابة التاريخ الذي نسيه كثير من المؤرخين ، « تاريخ الطباع » .

لم يكتب نجيب محفوظ « تاريخ الطباع » ، كما كان يريده (بلزاك) ، ولكنه أحسن تجسيده ومزجه بشيء من ذاته ، وراقب ما حوله بهدوء وتؤدة ، وكانت هذه المراقبة الفاحصة واقعية متفاعلة ومستحضرة معها تجارب كثيرة مختزنة ، واستطاع أن ينتقل في مراحل تطوره من حلم التاريخ حتى وصل الى روح جزئيات الواقع ، واصلا معها الى مرحلة التأمل . لقد صور البيئة ووعى قضاياها ، وتمثل نماذجها البشرية بعد مشاركة صحيحة ، وتمكن بدقته وحساسيته أن يصل الى نقل النكهة الخاصة التي تميز تلك البيئة ، وعندما نقول عبق التاريخ فإن هذا التعبير يصدق على أدبه الذي اذا اقبلنا عليه شعرنا أن هذا المؤلف راقب الطبقة الوسطى مراقبة فاحصة دقيقة ناقدة ، فتوغل في قضاياها ورصد مرحلتها وحدد صلاتها وتطلعاتها وأزماتها وسقوطها ، وربطها بالحارة التي راح يتحدث عنها ، فأدخلنا أزقتها ، وجعلنا نصافح شخصياتها ، ونطرب لتعبيراتها ونستطعم فكاهتها ونشاركها همومها . وفي الوقت نفسه يقدم لنا فكرا مستشرفا يرتفع ويوحد جزئيات المعالجة واصلا بها الى كلية الفكرة .

لاشك أنها كانت رحلة طويلة مضنية ومتعددة في مساراتها ، يصعب أن نحصرها في حيز ضيق من الحديث ، ولكن ثمة وجهين يطلان علينا بوضوح يمكن أن يكونا بداية للمجتهد الذي يريد أن يصل الى الخطوط الاولى .

الوجه الأول للرحلة :

إن كلمات من نجيب محفوظ نفسه قد تكون أفضل وأصدق مدخل لهذه الرحلة ، نجدها في مفتتح روايته « رحلة ابن فطومة » (١٩٨٣) ، التي يشير فيها الى الحياة والموت ، الحلم واليقظة

ومحطات الروح الحائرة يقطعها مرحلة بعد مرحلة ، ولكن « مهما نبا بيَ المكانُ فسوف يقطر ألفةً ، ويسدي ذكريات لا تنسى ، ويحفر أثره في شغاف القلب باسم الوطن . سأعشق ما حييت نفثات العطارين والقباب ، والوجه الصبيح يضيء الزقاق ، وبغال الحكم وأقدام الحفاة ، وأناشيد الممسوسين وأنغام الرباب ، . » . .

نحن ، اذن ، مع انسان في حالة التجربة ، ومتابعة الجانب النابض بالحياة ، القلق المتألم والدافيء ، مجاورة الواقع والاكتواء به ، التطلع الى الأعلى ولحظة الاطمئنان الممكنة الحدوث ، ويبقى بعد ذلك العشق المستمر الذي حوله معشوقه الى ملموس محسوس .

إن تلمس خطوط هذا النوع من الرحلات والجري وراءها يحتاج الى مرافقتها منذ البداية ، وانها لبداية جديرة بأن ينظر اليها ، وينفض الغبار عنها لتكون مدخلا أولياً وهادياً ، فالبذرة الفكرية بدأت معه منذ أن أمسك قلما وأسقط نقطة فوق حرف ، ففي تلك اللحظة البعيدة في أوائل الثلاثينيات ، سعى الى الدخول من بوابة المعرفة ، وكان مشدودا الى مجالين : الدراسة العلمية في حقل الفلسفة ، والكتابة الابداعية ، وقد مارس الاثنين في آن واحد ، وعاش موزعا بينهما فكتب آنذاك عن الفن والثقافة ، وكان يرى : « ان الفن هو التقاء وجدان الفرد بوجدان الجماعة الانسانية في شعور واحد ، وانه يسلك شخصية الانسان في وحدة عامة تضم اليها أعماق الأرض وطبقات السماء ، وان مهمة الفنان أن يؤاخي بين نفسه والعلم والفلسفة » (المجلة الجديدة اغسطس ١٩٣٦) .

هذه المقالة تنير لنا جانبا أساسيا سيرافقه في مسيرته الفنية بعد ذلك ، وتضع أمامنا البذرة التي تتوثب أمامه وهو يواجه المصير الانساني ، فقد حدد فيها وبدقة المدخل الفكري الرئيسي لأدبه ، والمتمثل بهذا التقابل بين الارض والسماء ، أو ما يمكن أن نسميه بمشكلة الانسان السماوية والارضية .

ويؤكد هذا المدار ، أو هذا الهم الذي يشغله في مقالتين كتبهما في يناير ومارس ١٩٣٦ في المجلة نفسها ، حيث يستعرض مشكلة السماء ونظرات الفلسفة الاجتماعية والصوفية المناقشة لفكرة الالوهية ، وجاء تعليقه الأخير كاشفاً ومنبئا عن دخيلته وموقفه حينما رأى أن البراهين العقلية ، - مع حسنها - لا تبلغ بالانسان الى درجة الاعتقاد الحقيقي ، وإنه ، اي نجيب محفوظ ، بعد الاطلاع عليها ظل كما هو أو حيث كان من القلق والاضطراب ، أما الرأي الصوفي فإن الانسان يقف حياله مكتوف الأيدي لأنه حياة لا يشعر بها إلا من يحياها ، ولكن تجربته - أي الصوفي - تشمل الحياة بأسرها ، وهي أعز من أن يجازف بها . وستجد ، بعد ذلك ، أن (الحمزاوي) في ختام رواية (الشحاذ) سيغيب تماما في هذا العالم باحثا أو منساقا وراء تجربته ، مضحيا بحياته ، وهو الثمن الذي حدده نجيب محفوظ لهذه المعرفة ، ولعل حيرة (كمال) آتية من كونه وقف عند الدليل العقلي .

وفي ختام تلك المقالة يؤكد أن الله فوق كل برهان ، ولا دليل ولا حيلة للانسان في الايمان أو الانكار له ، ولكن يبقى ايماننا الطبيعي الذي يجعلنا نقدس ونقدر كل جليل وجميل في النفس والكون .

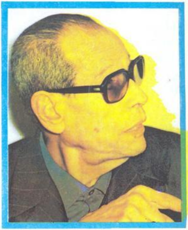
لقد قال نجيب محفوظ هذا سنة ١٩٣٦ ، ليهجر الكتابة المباشرة الى الابداع ، ولكنها كانت معه ترافقه وتساكنه في رحلته ، وتندس في خلايا اعماله التي اصبحت ذائعة شائعة ، لقد كانت هذه ركيزة أساسية يُفهم من خلالها ، بجانب أزمة كمال والحمزاوي في رواية (أولاد حارتنا) ، (والطريق) وغيرهما ، دون أن ننسى بعض تلك القصص القصيرة (زعبلاوي في دنيا الله) (وحكاية بلا بداية ولا نهاية) والحديث حول هذا الموضوع طويل .

الايمان والعلم والاشتراكية

ولكن لدائرة الرأي السابق تكملة ناضجة تؤكده ، يطرحها ليس كما قالها أولا وهو يضع قدمه

على أول الطريق ، أو أنها تصور لحياة آتية في المستقبل ، وانما يقدم شهادة وهو على قمة رحلته ، ففي رسالة يخاطب فيها الباحث الدكتور محمد حسن عبدالله (مجلة البيان ـ مارس ١٩٧٣) يقول مشخصا رحلته الباحثة عن طريق (إن قلبي يجمع بين التطلع لله والايمان بالعلم والايثار للاشتراكية » ، إن هذه الثلاثية : التطلع لله والايمان بالعلم وايثار الاشتراكية ، تقدم المرتكز الفكري الذي يجهز لنا المفتاح الذهبي للدخول في حيز الفهم الدقيق لاعماله ، لقد دار حول هاتين القضيتين الأساسيتين اللتين تحدان حياة الانسان ، الأرض بمشكلاتها ، وقد جسدتها كل أعماله الواقعية ، ونزوع الانسان نحو المطلق ، وتجوهرت في أعماله الاخرى ، ولا يعني هذا أن هذين متجاوران ، ولكنهما متداخلان بشكل لا يمكن الفصل بينهما ، ويتحدان أحيانا في النفس الواحدة ، (سعيد مهران) في (اللص والكلاب) وصابر في (الطريق) على سبيل المثال لا الحصر .

إن هذه الهموم جسدها في شخصيات وأحداث ، ورصد معها التاريخ المتحرك ولذلك لنا أن نضيف مستشهدين بقول آخر له مؤكد لما سبق



قبل أن نتابع الرحلة معه ، فقد أكد في حديث له (جريدة المساء ١٩٦٢/١٠/٢١) انه مهتم بالمواطن المحلي والانساني ، وتشغله القيم الاجتماعية ، وثمة نزوع نحو الميتافيزيقية ، ومحاولة التوفيق بين المعنى المطلق والقيم الاجتماعية .

إن هاتين الركيزتين يمكنهما تسهيل مهمة النظر في أدب نجيب محفوظ والوصول الى دقائقه ، وتصبح الرؤية اليه ليست محصورة في المسار التاريخي الذي سنتحدث عنه في السطور القادمة ، ولكن في تمثل الأرضية الفكرية التي سار عليها ، والتي تجاورت

في هذه المراحل كلها ، واذا كانت القضية الاجتماعية كانت هي الأبرز والأوضح في الشطر الكبير من مسيرته الفنية وظلت راسخة باقية فيما تلاها ، فإن الوجه الآخر والمكمل والمتعلق بالقضية الميتافيزيقية كان متواجدا يتوارى قليلا ولكنه لا يتلاشى ، ويطل برأسه حتى وهو غارق في خضم الواقع .

الوجه الثاني للرحلة

ثمة تقسيمات معروفة حددها الناظرون في أدب نجيب محفوظ ، فميزوا بين محطات ذات خطوط واضحة ، وقد جرت العادة على هذا وليس من حاجة لنقضها مادام الحديث ينزع نحو التعريف ورسم الاطار الأولى .

وهذه التقسيمات كانت تلاحظ أنه بدأ كتابته الروائية من استيحاء التاريخ ، فكانت رواياته : عبث الأقدار ـ رادوبيس ـ كفاح طيبة ، وحولها بعض قصص المجموعة الاولى : « همس الجنون » ، وهذه الروايات كانت تستحضر التاريخ القديم لتأكيد الشعور الوطني ، وتدعو للحرص على الروح العامة ، وهذا المنزع لافت للنظر في الرواية الثالثة ـ كفاح طيبة ـ التي ركزت على فكرة تحرير الارض ، وهو الهم السياسي الأول في تلك الفترة ـ أواخر الثلاثينيات ـ وكان له صداه الاجتماعي والعضبي ، فنجد في هذه الرواية اشارات

واضحة تبدو امامنا عندما نسمع خطاب الغزاة وهم يعرضون شروط الاستسلام على المصريين ، فقد قالوا : نحن بيض وانتم سمر ونحن سادة وانتم فلاحون ، فالعرش والحكومة والامارة والارض لنا » ويتابع بعد ذلك عرضه لكفاح طيبة حتى يتحقق النصر .

الواقعية ... كموضوع واطار

وينتقل من الجو التاريخي الى الواقع في صورته المباشرة ، وتبدأ مرحلة الواقعية موضوعا واطارا ، فقد كانت اولى روايات هذه المرحلة هي (القاهرة الجديدة) (١٩٤٥) ، تقدم المقابل الحديث للعالم القديم ، فالتسمية ليست فقط عنوانا لهذه الرواية وحدها ، ولكنها دالة على المرحلة الجديدة ، فالمدينة الكبيرة كانت ميدانا لرواياته الاخرى . خان الخليلي ، زقاق المدق - بداية ونهاية - ويكتمل العقد ، بالعمل الضخم (الثلاثية) .

قدمت (القاهرة الجديدة) ثلاثة من الجيل الجديد ، وهم ايضا من الطبقة الوسطى التي أخذت تبحث لها عن طريق ، وهم لا يواجهون المحتل فقط ولكنهم يقدمون طبقة اجتماعية ازاء طبقة ويحملون معهم فكـرة النضال الاجتـماعي والسياسي ، فتواجه المتقابلون فكرا ، الاشتراكي والاسلامي - ومن حولهم نلمح المتساقطين بحكم الوضع الاجتماعي المعقد : محجوب عبد الدايم ، والفتاة احسان ، ومعهم كذلك الذين تتذبذب مواقفهم ، إن هذه النماذج وهذه الهندسية في ترتيب الاحداث ورسم الشخصيات ثم وضعها في أتون الواقع ستكون ركيزته التي سيعتمد عليها وهو يقدم أوسع وأعمق تجربة في الرواية العربية .

في « خان الخليلي » (١٩٤٦) ، يركز عدسة الرؤية مختارا من المدينة الكبيرة أحد أشهر احيائها القديمة ، ومن نماذجها أحمد عاكف ابن الطبقة الوسطى ، الموظف الذي سحقه واقع المدينة الكبرى ، فلاذ بالحي الشعبي ، وهناك يتحرك فيه من جديد نبض الحياة من خلال حبه للفتاة نوال ، ولكن انطوائيته تجعله لا يخرج عن حيز السلبية ، وتكون النتيجة أنه تاه في وهم قراءة لا فائدة منها تماما كما أن اعتكافه وانطوائيته آضاعا عمره .

واذا كانت سلبيته وانحساره واستسلامه للضغوط غالبة عليه فان نغمة اليأس والموت تحيطان جو الرواية بينما كان ايقاع الحرب العالمية يمثل اطارا لها .

تقدم رواية (بداية ونهاية) ١٩٤٩ حلقة من حلقات معالجة الواقع وتشخيص علله وأمراضه ، فنحن مع مأساة اسرة كامل أفندي الموظف الذي مات فجأة وترك اسرته لتخوض معركتها منفردة في هذه المدينة الكبيرة ولم يؤمن لها شيئا يساعدها على الاستمرار ، وتبدأ بداية ونهاية هذه الأسرة من خلال اتجاهين متناقضين ، هبوط وارتفاع في آن واحد ، كانت الأم وابناؤها يصارعون للبقاء على وجه الأرض ، وبينما كان الابن الاصغر يرتفع الى الاعلى ، كان الأخ الاكبر والأخت ينحدران الى قاع الاجرام والرذيلة ، لقد كان الضابط اللامع مَدينًا ببدلته الرسمية لمومس وتاجر مخدرات .

بدايتها موت ونهايتها انتحار : ولكن لماذا ؟ ان المقدمة المنطقية تؤدي الى هذه النتيجة ، فمجتمع مثل هذا خليق بالنقد والتعرية ، وهذا الجانب المأساوي اشارة للخطر يرفعها المؤلف محذرا ، لذلك حق لنا أن نؤمِّن على تشخيصه لأدبه حينما اشار الى أنه ناقد للطبقة الوسطى ووسائلها ، مؤكدا أن الفرد الضائع لا يصنع مجتمعا متماسكا ، والواقع البشع والفقر يقودان الى الهاوية ، فهو يريد أن يضع اليد على الجرح ، ويدعو الى ضمان الحياة الشريفة حتى لا يكون السقوط مصيرا محتما .

ضاق المكان واتسعت الرؤية

في (زقاق المدق) ١٩٤٧ تبرز لنا الطبقة الشعبية ، يلقي نظرة على مجتمع زقاق كامل ، لقد ضاق المكان واتسعت الرؤية وكبرت دائرة الشخصيات لتشمل سكان هذا الزقاق الذي كان يضج بحياته الخاصة ، حياة تتصل في أعماقها



* محفوظ بين أم كلثوم وتوفيق الحكيم ، كل قمة في مجاله .

بجذور الحياة الشاملة ، وتحتفظ - الى ذلك - بقدر من أسرار العالم المنطوي . من خلاله يقدم العالم الراحل الذي غربت شمسه وهو يواجه العالم الجديد الذي كان يبدو ايضا في أبشع صوره ، ففي الخارج الحرب والاحتلال والفساد ، ولكن الزقاق في داخله يجمع عناصر الهدم وبعض اشارات البناء ، والصراع على أشده ، ولكن كل شيء يتغير ، فيتجاوز سقوط فتاة الزقاق حميدة مع عودة عباس الحلو بعد رحلة ناجحة ، ويكون موته دالا على أن ثمة واقعا يحتاج الى اصلاح ، ولكن دائما ثمة بارقة أمل ، نحس بها ونحن ننتهي من قراءة الرواية .

ويختم هذا الخط ، بالثلاثية : بين القصرين - قصر الشوق - السكرية (١٩٥٦ - ١٩٥٨) وتمثل لنا قدرته على تقديم التنوع والتناسق والشمول في الحدث والشخصية وسط زمن متعدد الدلالة والاشكال ، ففي صفحاتها التي تجاوزت الالف بمائتين تجسد لنا حركة ثلاثة أجيال ، وفي مرحلة حرجة من مراحل تاريخنا الحديث .

إن القارىء الذي يستطيع أن يتخيل الرواية ذهنا ، ويعايشها شعورا يستطيع أن يتمثل مع فصولها تلك الفترة منفعلا ومفكرا ، فالرواية تعرض لثلاث مراحل من حياة اسرة احمد عبد الجواد التاجر بالنحاسين ، تقدمها لنا أصلا وفرعا وعلاقات ، وما مر بها من احداث وشخصيات ، وامتدت زمنا حتى غطت ما يقارب ثلث قرن ، وقد اختار المؤلف فترة وسطى من حياة الشخصية الاولى الرئيسية ليصل الماضي بالحاضر .

غطى زمن القسم الاول - بين القصرين - الفترة من ١٩١٧ - ١٩١٩ وفيها تبدو الاسرة وهي تعيش الماضي بقيمه السلبية والايجابية ، فالعلاقة بالماضي تقوم على أساس سيطرة الأب الذي يمثل التمسك بحرفية التقاليد بالنسبة لأهل بيته ، ولكنه في الوقت نفسه يعيش انقساما داخليا بين التزمت والمجون ، الوطنية وايثار السلامة ، العاطفة والجنس ، ولكنه استطاع أن يوازن بين المتناقضات مسيطرا عليها ،

فتبع هذا احكام سيطرته على ما حوله .

وفي « قصر الشوق » متابعة للجيل الثاني ، حيث تبرز شخصية الأبناء بوضوح وخاصة كمال ، إنه جيل متوتر وقلق لا يملك الثبات والتوازن الذي تحلى به الجيل السابق ، فكمال يغوص في دروب الفكر والعاطفة ويظل خاضعا لحيرته التي عكست لنا مراحل الانفعال الحادة .

ويأتي الثبات والوضوح ، أو على الاقل تبرز بعض الطرق الواضحة مع الجيل الثالث في (السكرية) ، لقد تحرر هذا الجيل من سيطرة الماضي ، وتجاوز القلق الفكري والتذبذب الاجتماعي ، ومنه يخرج الجيل السياسي في المسارين الأساسيين الديني والاجتماعي .

إن ثمة مستوى آخر لهذه المتابعة ، فالرابطة واضحة بين الأحداث ، التي تمر بالأسرة وخارجها ، فالرواية تابعت احداث المجتمع العامة ، وأقامت موازاة دقيقة بين الاثنين ، وأهم من هذا أنها عمقت تلك الرابطة العاطفية الجامعة بين الاثنين ، والكاتب كان يعتمد في اثراء هذه الرابطة على المحصول الثقافي والمعايشة الممكنة لحوادث هذا التاريخ الحديث ، وأقام رابطة حميمة بين أحداث الرواية الداخلية والخاصة ، ومعاناة الشخصيات والتطورات من حولها ، نلمس هذا من اهتمام الأب بمتابعة الاحداث السياسية ، وهذه المتابعة كانت تشغل حيزا من حياته ولكنها لا تستغرقها ، وأول حديث بينه وزوجته يشير الى كابوس الاحتلال ومضايقة الجنود له ، ولكن هذه النظرة الهامشية يقف بجانبها تلهف الابن فهمي الذي سيكون ضحية بعد ذلك،وتأملات كمال في القسم الثاني تغطي وتتفاعل مع الحركة العامة ، ولكننا نجد أن الجيل الثالث لا يكتفي بالمشاهدة او التعاطف او المعاناة النفسية ، إنه يصنع الاحداث السياسية .

إن الثلاثية عالم زاخر لا يُلخص ولكنه يُعايش ، ولا يشار اليه ولكن يحتاج الى الاقتراب منه ، والاحساس المباشر بما تحمله أو تقدمه لنا ، فعظمتها تأتي وتتضح من تكامل تلك الجزئيات الكثيرة جدا والدالة ، فالحركة السياسية والاجتماعية والعاطفية تعاضدت لترتبط بالقضايا الكلية بالحياة والموت ، بالزمن وتقلباته وحركته ، الصعود بالهبوط ، الخيبة بالنجاح ، الضياع بالامل ، إنها حياة تتحرك وتمشي وتؤثر .

كانت الثلاثية تاريخا في الرواية والرواية أصبحت تاريخا .

نقلة جديدة :

إن انجاز عمل مثل هذا كان يستدعي التوقف ؟ ويستحث على الصمت والتأمل ، وخاصة بعد أن تغيرت طبيعة الحياة السياسية مع ثورة ١٩٥٢ وكانت تلك الروايات معنية بالحياة الممتدة ما بين الحربين ، وآثار الحرب الاخيرة على مصر . وقد أعقب هذا كله واقع جديد يتطلب تفهما ومواكبة ، بل وطريقة جديدة .

وهذا ما حدث فعلا ، فبعد صمت بدأت الانطلاقة التالية التي لم تتوقف الى يومنا هذا ، وفيها دفع الى السطح الجانب الآخر المكمل للقضية العامة التي ظلت ترافقه وتساكنه ، فإذا كانت الروايات السابقة قد طرحت الموضوع الاجتماعي فإن ما لحقها يستكمله بالمشكلة الميتافيزيقية ، ان الفكر الذي تشكل مع دارس الفلسفة يبرز بوضوح ممتزجا ومقدما وجها من وجوه الصراع الانساني .

إن رواية « أولاد حارتنا » ١٩٥٩ التي اشارت اليها لجنة جائزة نوبل في بعض حيثياتها مثلت انعطافة في طريقة المعالجة ، وفي الزاوية التي التقطها الكاتب فتكون محلا لروايته ، لقد عاد مرة اخرى الى التاريخ ولكنه تجاوز الجو المعهود للروايات التاريخية ، لقد التقط رؤية التاريخ والمساحة الكبيرة التي تمنحها له ومزجها بنكهة الواقع ، فاستعار جو الحارة جاعلا منها مستودعا واطارا لمستوى العرض التاريخي ، ان قارىء الرواية يحس أن زمنها ليس حاضرا ، ولكنه ايضا ليس ماضيا مفصولا عنا ، فهو لم يغادر أو يبتعد عن دنيا الحارة الماثلة أمامنا ، على الأقل في ماضيها

القريب جدا . وفي الوقت نفسه تحولت هذه الجزئيات الملموسة لتقدم مكانا غير مقيد لجهة معينة .

وعندما أوصل نجيب محفوظ الحارة الى هذا المستوى المتميز، تمكن من تقديم رؤيته لنا لتتابع المسيرة البشرية من خلال تمثل التاريخ الديني ، فصور رحلة الانسان العقائدية ، ليدمج في الختام ، خط العقيدة أو مسيرة القيم العليا بنهضة العلم وسيطرته في العصر الحديث .

ان الجبلاوي ، هذا الأب الساكن في البيت الكبير هو الأصل الذي تُرد اليه هذه الحارة - والبداية كانت من لحظة اختيار (ادهم) لادارة الوقف ، ومع أنه جعل الامانة شعارا له ، الا ان محنة الاختيار كانت قدره ، فقد تسلل ليلا على حجة (الوقف) ، وكانت النتيجة ان رافقه الاخفاق وكان عقابه الطرد من البيت الكبير لتبدأ بعد ذلك رحلة الشقاء له ولأبنائه . وتتابع الرواية هذه الرحلة، وكلما اقتربت الحارة من القاع يتم انتشالها بفضل ابنائها الذين حاول كل واحد منهم أن يؤصل قيمة من قيم الحياة ، وأول هؤلاء كان (جبل) الذي أراد ان يهب الحارة القوة العادلة ، ولكن العدل صفة انسانية داخلية لا تكون الا اذا صلحت الذات ، وهذه كانت مهمة (رفاعة) الذي دعا الى اصلاح النفس . ولكن القيم المنفردة او المقسمة كالغرف المتجاورة لا تحقق عالما ناضجا متفاعلا ، لذلك يأتي (قاسم) ، ثالث الثلاثة ، يحمل معه فكرة التكامل أو النظرة الشاملة الجامعة بين الذات وخارجها .

لقد كان الثلاثة يبدأون وينتهون عند الجبلاوي ، لأنهم كانوا يسعون الى (غاية) هي ترسيخ القيم العليا ، أما رابع أبناء هذه الحارة فهو يبدأ بداية مختلفة ، إن (عرفه) الذي حمل معه فكرة (العلم) أراد أن يقدم لنا (الوسيلة) التي اذا ملكها أهل هذه الحارة (الدنيا) ، سعدوا ، لقد أراد أن يجعل كل الناس سحرة (علماء) ، ورغب في القضاء على كل الطقوس والخرافات .

والتخلص من ذلك الحلم المتعلق بالجبلاوي أحد الجوانب التي حاولها . ويقتحم المنزل الكبير رغبة في معرفة الوصية ، وتكون النتيجة اعلان موت الجبلاوي .

ان رضى الجبلاوي كان يمثل مرحلة ختام كل جهد يبذله أبناء الحارة المتميزون وحتى (عرفه) الذي أُتهم بانه قاتل الجبلاوي يحظي بهذا فقد قالت له الخادمة إن جده مات وهو راضٍ عنه .

لقد حاول نجيب محفوظ في هذه الرواية الكبيرة أن يجسد هذه الرحلة الشاقة التي خاضتها البشرية ، وهي لم تكن رحلة تتحدث عن الماضي ، لأن الحوار حول القيم والعلم أصل من أصول الثقافة المعاصرة ، لقد جسد تصوره من خلال هذه القضية ، وكانت المأساة الكبرى أن الانسان الحديث قد خرج بمشكلة كبرى ، هي تلك التي سيتمثلها ويتابعها بنضج في اعماله التالية ، نلاحظها في بعض قصص (دنيا الله) - (زعبلاوي) ويتجوهر البحث في رواية (الطريق) فبطلها صابر أمله معلق بالعثور على والده سيد سيد الرحيمي ، فهو الفكرة السامية التي ستنقذه من قاع الجريمة ، والحمزاوي في (الشحاذ) تستبد به لحظة استيقاظ فيغيب باحثا عن معنى فيوصله بحثه الى غيبوبة التصوف ، وكان سعيد مهران في (اللص والكلاب) واحدا من الذين افتقدوا اطّراد القيم العليا في الحياة .

واقعية جديدة

كان لبروز وسيطرة (الفكرة) وتجوهرها لتكون المحور الأساسي في هذه المرحلة أثره الواضح على طبيعة التناول الفني ، فقد ادخلت في واقعيته سمات جديدة تعتمد على الرمز والاختزال وحذف التفاصيل الدقيقة مع الالحاح على جانب واحد في الشخصية ، وجعلها مسيطرة على الجو العام ، فسعيد مهران ، مثلا ، هو الأبرز والأوضح ، تلاصقنا شخصيته الداخلية ، ليس فقط لأن البطل هو الذي يرويها لنا ، أو لأننا نرى بعينه ، ولكن كل شيء تلون بلونه ، الكلمات والعبارات

والصور ، كلها تدل على نفسية واحدة وعالمها الداخلي وموقفها مما يحيط بها ، فأصبحت الفكرة واجزاؤها ومغزاها كلاً واحدا يتبدى لنا ، ولنا هنا أن نُذكّر بشخصية أنيس في (ثرثرة فوق النيل) ، الذي راح في غيبوبته الظاهرة وأدخلنا الى عالمه الذي فَتّت فيه الزمان والاحداث والاشياء والشخصيات التاريخية ، وحاول أن يعيد تقديمها بتلوينه الخاص .

وعندما يتنازع الحادثة اكثر من شخص واحد يقدمها لنا من خلال رؤية كل واحد منهم - كما فعل في (ميرامار) التي روى حدثها الواحد أربعة أشخاص ، كل واحد قدمها ليس من وجهة نظره فقط ، ولكن بلغته وطريقة تعامله مع الحياة سلوكا ومعاناة ورؤية .

إن هذه هي الواقعية الجديدة التي أدركت كلية الفكرة عند الشخصية الانسانية ولم تعد نموذجا أو نمطا تُحقق فيه صفات الآخرين ، فقد هضمت هذه الواقعية التيارات الأدبية الحديثة ، ومزجت الواقع بالرمز واستخدمت اللغة التعبيرية ، تلك اللغة التي تصل الى حد الصوفية وتكررت شخصياتها ولغتها في عدد من أعمال هذه المرحلة (كالجنيدي) في (اللص والكلاب) .

انقطاع السلسلة !

وقُدّر لهذه المرحلة المتماسكة أن تنقطع سلسلتها ، ففي سنة ١٩٦٧ اهتزت الأمة كلها ، فمن الطبيعي أن يهتز معها هذا الخط المتصاعد ، فالنكسة ، وفي يوم واحد ، عزلت عالمين عن بعضهما ، وكان من البديهي ان يصل هذا الى نجيب محفوظ ، فاذا كانت الحروب العالمية حين حطمت التماسك العقلي قد افسحت المجال لتهشيم البنية الفنية الواضحة وضوح المنطق العقلي ، فان أدب نجيب محفوظ لا يخرج عن هذه القاعدة ، فالأعمال التي أعقبت النكسة ، وخاصة المجموعات القصصية : (تحت المظلة) و (حكاية بلا بداية ولا نهاية) و (شهر العسل) ، جاءت لتقدم لنا عالما محددا ، اللغة واضحة ، ولكنها غير مفهومة ، إنه قد يعود الى بعض قضاياه الاجتماعية والفكرية السابقة ، ولكن من خلال هذا العالم المرتبك ، لقد اختفت عبارات الشرح والتعليق وحل محلها الحوار ، بل وصل فيها الى كتابة الشكل المسرحي ، وكأن المؤلف يشعرنا أن حاجة ملحة تدعو الى المكاشفة .

ولعل أهم ما يميز هذه المرحلة أنه قدم فيها قمته الثالثة (ملحمة الحرافيش) ١٩٧٧ إنها عودة الى جو الحارة الممتزج بالتاريخ يطل علينا من جديد بعالم [أولاد حارتنا] ولكن من منظور آخر ، تتلاقى بعض الخطوط ، فالجبلاوي في الأولى يقابله في الثانية عاشور الناجي ، الأول يتصل بالفكرة السماوية والثاني جاء من العدم ، لقيط تسور المجد . إنّ التساؤل الذي تصدر رواية (أولاد حارتنا) يحدد مسار المشكلة ، فالاشارة دائما الى (الوقف) الخاص بالأبناء ، إن البيت الكبير كما يقولون هو بيت جدهم وجميعهم من صلبه وهم مستحقون اوقافه ، فلماذا نجوع وكيف نُضام ؟

والروايتان تحكيان قصة الأبناء الذين تشتت بهم السبل ، واذا كانت الأولى نلمح فيها بوضوح تطور الفكرة الدينية ، فان الثانية تستكمل هذا مركزة على تقلبات الانسان في الحياة ، وصراعه مع القوة والبطش ، وتطلعه الى العدل والسعادة معتمدا في هذا على افكاره النابعة منه .

براءة الاطفال وطموح الملائكة

هذه أطراف من رحلة عظيمة ، تتابعت مراحلها التي نجد من اللازم التأكيد على أنها لم تكن حلقات تتواصل فيما بينها تواصل تلامس أو مجاورة أو أن بعضها يُسلم الى الآخر ، ولكنها تتداخل وتتمازج لأنها خصائص وتوجيهات بدأت معه ونمت ونضجت فقدمت لنا نظرة شاملة ومتكاملة .

ولا نجد في الختام تحية مناسبة نسوقها اليه خيرا من كلماته التي ختم بها روايته الحرافيش .

« وانتفض ناهضاً ثملاً بالالهام والقدرة ، فقال له قلبه لا تجزع فقد ينفتح الباب ذات يوم تحية لمن يخوضون الحياة ببراءة الأطفال وطموح الملائكة » .

وأظنه قد انفتح !□



الصعلكة والهمبتة

تشابه واختلاف !

بقلم : مبارك الصادق

الخروج عن الجماعة ومألوفها ظاهرة معروفة في المجتمعات كافة ، لكن مجتمع الجزيرة العربية تميز بظاهرة الصعاليك المتمردين على نمط حياة قبائلهم ، وكانوا ينشدون بعض العدل الاجتماعي المفتقد بأخذهم من الغني لمساعدة الفقير ، وكان منهم الموهوبون في صياغة الشعر الجيد الذي خلدهم في التاريخ ، والهمبتة ظاهرة سودانية تشبه الصعلكة في تمردها وخصائصها ، وحبها للشعر .

الهمباتة هم جماعة من البدو كانت تمارس السلب والنهب في بوادي السودان ، وعلى وجه الخصوص في باديتي كردفان بأواسط غرب السودان ، والبطانة التي تمتد من أواسط السودان حتى نهر العطبرة شمالا ، وشرقا حتى الأصقاع المتاخمة لحدود السودان مع اثيوبيا .

وكردفان والبطانة هما منطقتان مرعتان واسعتان ، تقطنهما قبائل عربية مختلفة ، تتخذ من الرعي وتربية الماشية أسلوبا لحياتها ، ولا يقيمون وزنا كبيرا للزراعة ، حيث انهم يحصلون على ما يحتاجون اليه من حاصلات زراعية عن طريق الشراء .

وإذا ما أجبرت الظروف بعضهم على امتهان الزراعة فإنهم سرعان ما يملونها ويتركونها غير آسفين ، ذلك أنهم يرون أن العمل في الحرث والبذر أمر غير مجد ، فيما الماشية ترعى الكلأ في السهول المنبسطة ، وتعطى عائدها من أوبار وألبان ودهون ،

فضلا عن نموها وتكاثرها ، وبالجملة فإن الماشية هي أساس الثروة البدوية ، ولهذا يستهجنون الزراعة وامتهانها . وفي هذا المعنى قال أحد شعراء الهمباتة :

عقدنا الشُوره صَدِرْ القَوز قُصَاد القاعَة
البَكْـرَه الـعَلِيَهـا الـطُّقَّة والـطُّبَـاعَـة
بَسْ عِيشْتنا فيها وسِيبَكْ من هُمُومْ وزْرَاعَة

أي أننا تشاورنا بجوار القاعة « مكان بعينه » ، وقر قرارنا على « البكار » الإبل الموسومة « بالـطُّقَّة والـطُّبَاعة » أوسام قبائل معروفة ، فهي أسلوب معيشتنا فمالنا والزراعة وهمومها ؟؟ .

أصل التسمية

كلمة همباتة يعرّفها « قاموس اللهجة العامية في السودان » لمؤلفه د . عون الشريف قاسم بقوله :

« الهمبتة طريقة في الحياة ، تقوم على سلب أموال الأغنياء ، كما كان يفعل صعاليك العرب . ومفردها همباتي ، والجماعة همباتة ، وهي تطلق على من يتخذ هذه الحرفة ، وخاصة سرقة الجمال . وهناك قبائل في وسط السودان وفي غربه مشهورة في وصف الهمبتة . لعل اللفظة من نهب قُلبت من نهباته الى همباته ، أو لعلها من كلمة الهمبتة العربية الفصحى وهي الأمر الشديد والداهية . »

والى جانب كلمة همبتة وهمباتي فإن هنالك مسميات أخرى للجماعة نفسها ، تختلف من إقليم الى آخر ، فأصل كلمة همباتة مثلا من غرب السودان ، وفي البطانة علاوة على استعمالهم للفظة همباتي فإنهم يستعملون أيضا كلمة (المهاجرة) . وفي القاموس نفسه المشار إليه آنفا يجيء تعريفها :

المهاجرة أو المهاجراوي . والمهاجراوي هو الذي يهاجر طلبا للسلب والنهب . كذلك يطلقون عليهم لفظة « السُّرَّاجة » وهم لصوص الابل ، لأنهم يركبون السرج دائما . ويقولون عنهم « السروجية » ، واللفظ مشتق من السرج وهو الرحل . قالت المغنية الحمرية (من قبائل حمر) :

نِـبَـاري الـسُّـرَّاجَـة
كَـانْ مُتْ مِشْ حـاجَـة

وأخيرا يطلقون عليهم لفظة « النهاض » ، ومصدرها « النهيض » أي القيام لسفر أو لغارة .

جملة القول أن هنالك أسماء شتى لجماعة واحدة ولفعل واحد هو سلب الابل ونهبها ، فتارة يطلقون عليهم الهمباتة ، وتارة المهاجرة ، وأخرى السراجة أو النهاض ، على أن أشهر تلك الألفاظ دون شك هو لفظ الهمباتة ، ولعل لأجهزة الإعلام الضلع الأكبر في ذلك ، لأنها درجت على استعمال ذلك اللفظ دون غيره .

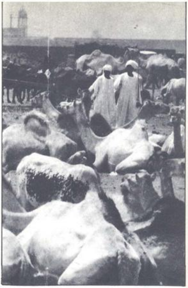
الصعلكة والصعاليك :

إن تاريخنا العربي يغص ويمتلىء بحكايات الصعاليك والشطار والزعار والدعار ، على أن حديثنا هنا سوف يكون مقصوراً بشكل خاص على طائفة الصعاليك التي ظهرت في المجتمع العربي الجاهلي ، لما نراه من أواصر ووشائج تجمع بينهم وبين جماعة الهمباتة ، وذلك لتشابه الظروف الموضوعية ، والبواعث التي أدت الى نشوء تلك الجماعات ، سواء كانت تلك الظروف والبواعث قبلية أو اجتماعية أو اقتصادية أو غيرها . صحيح أن الدوافع قد تكون مختلفة متباينة في كثير من الحالات بين جماعة وأخرى ، إلا أنه في النهاية تبقى ثمة آصرة قوية تربط بين الجماعتين ، وهي أنهما تتخذان من السلب والنهب دون غيره وسيلة لحياتهما .

والصعلكة في مفهومها اللغوي كما يرى د . يوسف خليف أنها « الفقر الذي يجرد الإنسان من ماله ، ويظهره ضامرا هزيلا بين الأغنياء المترفين الذين أتخمهم المال وسمّنهم » ، كما يرى د . يوسف خليف أيضا أن الصعاليك :

(هم أولئك المغيرون ، أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم في النهب والسلب والإغارة ، بينما ينعم الخليون المترفون المسالمون بالنوم والهدوء) .

نخلص الى أن الجماعتين تعتمدان على السلب



والنهب والإغارة على الآخرين ، وسلب مالهم ، وتلك وسيلتهم الوحيدة لكسب العيش .

البيئـة

إن البيئة البدوية في الجزيرة العربية عرفت بتقلب مناخها ، وبالتناقض الضدي الذي يكتنفها ، من حر وقر ، وجفاف وخضرة .

فبادية شبه جزيرة العرب شديدة الحرارة ، شديدة البرودة ، شديدة الجفاف ، كثيرة الخضرة ، والماء فيها كثير جدا وقليل جدا ، كما أن عيشها رغد جدا وشظف جدا .

وهذه صفات بوادي السودان المختلفة ، سواء كانت في سهل البطانة أو بادية كردفان ، ولهذا وجد العرب النازحون الى الديار السودانية هذا التطابق في البيئتين ، فطاب لهم المكان .

من هنا يبدو أن ثمة تطابقا في الظروف المناخية بين بادية السودان حيث نشوء الهمباتة وبين بادية شبه الجزيرة العربية مكان نشوء ظاهرة الصعلكة والصعاليك ، أي أن مسرح الأحداث في الحالتين هو البادية بظروفها الرعوية وبعدها عن الحضر ، ووعورة دروبها ومسالكها ، وترامي أطرافها ، وسهولها الشاسعة . ولما توفره من فرص الابتعاد والتوغل والتنائي عن موقع الحدث ومكان الخطر ، حتى يتم تأمين المسلوب والمنهوب بعيدا عن طلبة الفزع الساعي وراءه .

البواعث والأسباب

ينقسم المجتمع العربي الجاهلي الى وحدات قبلية مختلفة ، وقد وفد العرب الى السودان وهم يحتفظون بنفس تلك الوحدة القبلية العشائرية التي تربط بين الفرد وبين القبيلة .

ولكي يظل ذلك الشخص يتمتع بدفء العشيرة وينعم ببسط حمايتها عليه فإنه ينبغي والحالة كذلك ألا يخرج عن أعرافها وتقاليدها ، وبما أن الهمبتة كما جاء في تعريفها هي « طريقة في الحياة تقوم على السلب والنهب » فما هو موقف القبيلة من تلك العملية ، وما هي نظرتها للهمباتي ؟

الواقع أن الهمبتة اعتبرت في المجتمع البدوي السوداني ضربا من ضروب الشجاعة والفروسية ، وقوة الشكيمة والجسارة ، وأن من لا يمارس الهمبتة لا يعد فارسا ، وفي بعض المجتمعات القبلية في البادية كانت الهمبتة هى السلوك الذي يبرهن به الفرد على بلوغه قدر الرجال .

ولهذا تنظر القبيلة العربية في السودان للهمباتي نظرة إعجاب وتقدير ، وترى فيه بطلها المغوار وفارسها الذي لا يشق له غبار . وهذا على نقيض نظرة القبيلة العربية في العصر الجاهلي للصعلوك الذي هو في الأصل ليس في حالة تصالح مع الهيئة الاجتماعية والسياسية ، بل من المتمردين عليها والخارجين على أعرافها ، ولهذا خلعتهم قبائلهم وتخلت عنهم .

وبما أن الصعلكة هي الفقر وضيق ذات اليد فقد ظل الدافع المادي والاقتصادي هو أحد الدوافع المحركة للسلب والنهب ، سواء كان بالنسبة للصعاليك أو الهمباتة .

كما أن هنالك عوامل أخرى ، منها البطولة وحب المغامرة ، والخروج على رتابة الحياة الرعوية

الساكنة ، والسعي لإرضاء المرأة والفوز بودها وذلك بالإتيان بالمال وبالأعمال الخارقة .

إن باعث الفقر قد كان عند صعاليك الجاهلية أشد أثرا وأقوى حضورا لكنه في حالة الهمباتة ليس بتلك الحدة أو القوة ، بل إن أحد أشهر الهمباتة وأشعرهم وهو الطيب ودضحوية ، من الجعليين ، كان من أسرة ثرية عريقة ، وكان والده يتميز بالثراء الفاحش ، وعندما انخرط ودضحوية مع جماعة الهمباتة انزعج والده ، لما في حياة الهمبتة من مخاطر .

القواعد المرعية

للهمباتة قواعدهم المرعية ، وأعرافهم ، وتكافلهم الاجتماعي ، سواء كان فيما بينهم ، أو بينهم وبين المجتمع الذي يعيشون فيه ، فهم يتميزون بالكرم والأريحية والمروءة ، ولكل تلك الصفات فإن عائد كسبهم وسلبهم يتم صرفه في مناح شتى ، فيعطون الضعيف والبائس واليتيم ، كما يرعون أسرة زميلهم المقبوض عليه أو المسجون ، كما أنهم يصرفون المال ويبعثرونه في شرب الخمر ، ومع النساء ، ويرون أنه من العيب أن يكنزوا المال ويدخرونه وهناك من هو بحاجة اليه . وهذا شاعرهم يقول :-

مـاني التِّنْبَـلْ القَـاعِـدْ يَقُـولْ سَـوِيّتْ
ويشْهَـدْ خَـالِقِي كَـانْ يُـومْ السُّؤَال قَـرِيتْ
ان بـرَدَن نُقـود مـاني البخيـل صَـرّيتْ
وان حَـرن بَكَّـار مـاهِنْ صفـايـح زِيتْ

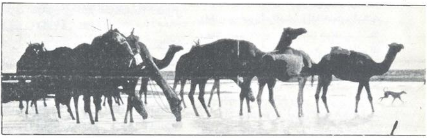
أي أنني لست بذلك المتفاخر الذي يقول صنعت وفعلت وأعطيت ، كما أنني - ويشهد خالقي بذلك - لست بالجبان الذي يقر ويعترف عند القبض عليه وسؤاله ، حتى اذا استخلصت ما نهب (بردن) لست كالبخيل الذي يكنز (صرَّيت) ، بل معطاء متلاف ، حتى وإن قبض علي وسجنت (حرن) ، فما يهمني ، فلست بسارق يسرق صفايح زيت ، وإنما أنا قاطع طريق وناهب ابل . ومن ناحية العطاء هذه يلتقي الهمباتي والصعلوك ، فثمة فريق من الصعاليك كان يسعى الى ترسيخ العدالة الاجتماعية المفقودة من منظور رؤيته لها ، حيث يرى التفاوت الطبقي المريع ، فهناك من يملك كل شيء ، ومن لا يملك أي شيء ، كما أن للصعلوك فهمه الذي يرى من خلاله أن صاحب المال هو في الأصل ليس بصاحبه إلا مجازا ، إذ أنه ليس إلا وكيلا على ذلك المال ، فالمال مال الله . وعلى الوكيل أن يتصرف في ذلك المال بالانفاق العادل لا أن يكنزه .

وقد قال أحد الشعراء الصعاليك :

وإني لأستحيي من الله أن أرى
أُجَـرجِـرُ حبـلاً ليس فيـه بعـيرُ
وأن أسـألَ الخبَّ اللـئيمَ بعـيرَهُ
وبعـران ربي في البـلادِ كـثيرُ

ومن ثم فقد كان الصعاليك ينفقون على الفقراء في إغداق ، وليس بخاف في هذا المقام ماورد عن زعيمهم عروة بن الورد وجمعه للفقراء والقعداء والمعدمين وقيامه على حاجتهم .

ومن القواعد المرعية لدى الهمباتة أنهم لا يسطون إلا على الابل ، ولا يلتفتون الى سواها من أنواع



الماشية أو المال ، كما أنهم لا يسلبون (الزاملة أو الهاملة) ، أي الجمل الوحيد لدى صاحبه ، أو الجمال السارحة بعيدا عن صاحبها (هاملة) . ولاقتصارهم على نهب الابل وحدها أسبابه الموضوعية ، حيث أن الابل هي الأغلى ثمنا ، والأشد قوة وتحملا ، والأقدر على قطع المسافات الطويلة دون كلل ، وهي الوسيلة الوحيدة للابتعاد بالمسلوب والمنهوب عن « الفزع » في طلبته ، فيما لا يجعل صعاليك الجاهليات نهبهم وقفا على الابل ، بل كانوا يسلبون كل ما تصل اليه أيديهم من مال ، وينهبون كل من تقوده ظروفه الى مواقع ترصدهم .

الشجاعة

مما ورد عن الصعاليك أنهم يسلبون وينهبون عنوة واقتدارا ، ويفخرون بقوتهم وشجاعتهم ، وقد سئل قديما أحدهم : أتسرق بالنهار ؟؟ فرد بقوله : « معاذ الله أن أسرق بليل ، ولكني أجاهر بالنهار »

ولعله يرى أن سرقة الليل لصوصية وجبن ، فهو إذن ينهب في وضح النهار ، وعلى رءوس الأشهاد ، معتمدا على قوة زنده ، وشجاعة قلبه ، وكذلك الهمباتي الذي قلنا عنه لا ينهب إلا الابل التي يحرص عليها أصحابها ، ويضربون عليها سياجا قويا ، ويبنون لها -حظائر من أغصان الشوك التي يصعب اختراقها إلا بمشقة ، والحظائر عادة محروسة بأصحابها وأعوانهم .

والحظيرة أو « الزريبة » كما يطلقون عليها تبنى بشكل دائري ، ويكون لها مدخل واحد ، يسد بشجرة كبيرة تسمى الكبرة . قال الطيب ودضحوية :

وازَمَنْ هَجْري يا امْ شلاَّخ بلُوكْ في العَبْره
لَّما انظُر السادراتْ غُربْ لي جبْره
ولا السيدها في الدِنْدر مقوى الكَبْره

الشعر

لعل مما يلاحظ بالنسبة للصعاليك أو الهمباتة أنهم إما أن يكونوا شعراء وإما أن يكونوا من الحفظة الرواة لأشعار غيرهم .

ومن خصائص شعر الصعاليك أنه جاء ترجمانا لحياتهم ، وما أحاط بتلك الحياة من قلق وعدم استقرار ، وجاء نفثة لما في صدورهم من معاناة وضيق من حياة العوز والمسغبة ، كما جاء معبرا عن التمرد والخروج عن الأعراف . ومن خواصه كذلك أنه جاء قصيرا مبتوراً خال من التطويل ، والمقدمات الطللية ، والتشبيب وكل صنوف الشعر السائد حينذاك .

وقد علل بعضهم أن أسباب ذلك هو طبيعة الحياة التي يعيشها الصعاليك ، تلك الحياة التي تنحو نحو السرعة والاختلاس ، وتفتقر الى التأني والانتظار ، ومن الطبيعي أن تنميق الشعر وتزويقه بحاجة الى وقت ، وبحاجة الى نظر وتمعن . ويمكن القول انهم إنما كتبوا بتلك الطريقة بوعي وتصميم ، إمعانا في الخروج والتمرد على كل ما هو سائد ، وبنفس مستوى خروجهم على القبيلة . وكل ما ذكرناه لا يتعارض مع قول د . يوسف خليف الذي يرى فيهم أنهم (رواة القصة الشعرية في الأدب العربي) .

كذلك فيما يتعلق بشعر الهمباتة فإنه يلاحظ خلوه من النمط السائد حينذاك في بوادي السودان ، مثل المسادير الطويلة ، والمسدار هو القصيدة الطويلة التي يصف فيها الشاعر رحلته في الزمان والمكان لديار المحبوبة ، ويجنح للتطويل ، ووصف كل معاناته وما يلاقيه في سبيل الوصول الى ديار المحبوبة ، كما في قصائد الشاعر البدوي الفحل (الحاردلو) .

لقد اقتصر شعر الهمباتة على الدوبيت والرباعيات ، ومع ذلك كان يعبر عن حياتهم تعبيرا صادقا أمينا ، يتحدثون فيه بصدق عن نجاحاتهم واخفاقاتهم دون مداراة أو خوف .

واجمالا ، ذلك ما عنَّ لنا الوقوف عنده من ملامح الشبه والاختلاف بين الصعلكة والهمبتة . وغني عن القول ان المجموعتين لم يعد لهما وجود في حياتنا المعاصرة ، وإن كانت سيرتاهما ستظلان باقيتين بما خلفتاه في المجتمع من أثر وقيم وأدب جدير بالدراسة والبحث . □

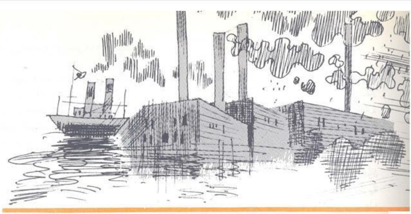


النفايات السامة والصفقات المشبوهة

بقلم : الدكتور سمير رضوان

تستثمر شركات غربية - عاملة في مجال تخزين النفايات السامة - فقر بعض دول العالم الثالث ، فتعقد معها صفقات مشبوهة ، تستقبل الدول الفقيرة بمقتضاها النفايات في مقابل ترضية مادية متواضعة.ولن تقتصر المخاطر الناجمة عن هذه السياسة القصيرة النظر على الدول الفقيرة ، بل سوف تشمل كوكب الأرض برمته .

تواترت الأنباء في الشهور الأخيرة عن فضائح تتعلق بتخزين النفايات الخاصة في بعض دول العالم الثالث . ولهذه الفضائح جذور تمتد إلى سنوات مضت . فعلى سبيل المثال كانت الصحف الغربية قد أوردت في منتصف السبعينيات أخبارا مفادها أن الرئيس المصري - في ذلك الوقت - أبدى استعداده لتخزين نفايات الغرب المشعة في الصحارى المصرية . ولاشك أن الرئيس السابق كان يسعى من وراء ذلك لكسب تعاطف العالم الغربي - وهو مقبل على مفاوضات صعبة مع الجانب « الاسرائيلي » ، ولا يعلم إلا الله مدى جديته في هذا العرض . على أن هذه الأخبار أثارت الرأي العام المصري في ذلك الوقت ، فلم يكرر الرئيس المصري عرضه بعد ذلك قط .



حجم النفايات الخاصة في تزايد

لقد أردت بالإشارة إلى وقائع السبعينيات أن أدلل على أن مشكلة تخزين النفايات الخاصة في الدول الغنية ليست « بنت الساعة » . لقد نمت هذه المشكلة وشبّت في كنف التقدم الصناعي الجبار الذي تحقق في العقود الأخيرة . وإذا أردت أن تعرف حجم النفايات في دولة ما فما عليك إلا أن تستعلم عن مدى التقدم الصناعي فيها . ولقد أصبح حجم النفايات في الدول الصناعية الغنية يؤرق الحكام والمحكومين فيها على حد سواء ، ويتردد التساؤل باستمرار : إلى أين بكل هذا الكم الهائل من النفايات ؟ وأصبحت تعقد حول هذه المشكلة صفقات ومزايدات ومضاربات دولية . هناك اتفاق مبرم بين حكومة المانيا الغربية والحكومة الفرنسية يقضي بأن تجمع الدولتان نفاياتهما المشعة معا تخزنها في إحداهما فترة زمنية ، تنقل النفايات بعدها إلى دولة أخرى . وقد ظلت النفايات المشعة حتى اليوم مخزونة في الأراضي الفرنسية . وكلما حان موعد نقلها للأراضي الالمانية نشطت سوق المساومة بينهما ، وفي كل مرة ترضى المانيا بدفع ترضية مالية أكبر من سابقتها مقابل أن تبقى النفايات في الأراضي الفرنسية . وقد دخل الاتحاد السوفيتي مؤخرا في هذه المضاربة ، وقدم عرضا للحكومة الالمانية في شهر أغسطس الماضي باستعداده لخزن النفايات الالمانية المشعة مقابل ترضية مالية . ومازال هذا العرض محل دراسة في المانيا .

النفايات الخاصة تعبير حديث ، يستعمله المعنيون بالبيئة ، ويقصدون ضربا من النفايات على جانب كبير من الخطورة وهي تكتسب خصوصيتها من صفتين أساسيتين أولاهما أنها تستعصي على التحلل البيولوجي ، أو هي تتحلل ببطء شديد ، فتتراكم في البيئة يوما بعد يوم . وثانيتهما أنها مواد ذات سمية عالية ، تفضي إلى الأمراض والموت إذا تسربت إلى أجسام بني الإنسان والحيوان . لذلك وجبت الحيطة الشديدة عند التخلص من هذه النفايات الخاصة ، إذ أنها إذا ألقي بها في البيئة مباشرة فهي سوف تصل حتما إلى مصادر طعام الإنسان وشرابه ، فتلوثها ، متسببة في كوارث محققة .

ومعظم النفايات الخاصة غير مشعة ، والقليل منها يصدر إشعاعا . أما النفايات غير المشعة فتنجم عن أعمال التنقيب في المناجم ومعالجة المجاري ، ومن مخلفات البناء ، ومن المصانع التى تنتج مبيدات الأعشاب والحشرات، والادوية والأنسجة ، ومواد الصباغة والدهان وغيرها . وهذه القائمة يصعب حصرها لفرط طولها ، أما النفايات المشعة فتعد أخطر النفايات الخاصة على الإطلاق ، لذلك سوف نسهب في الحديث عنها بعض الشيء .

تحتوي الكرة الأرضية بطبيعتها على قدر من العناصر المشعة . وكان العالم الفرنسي بيكاريل هو أول من اكتشف ظاهرة الإشعاع في خام يحتوي على الراديوم عام ١٨٩٦ م . والإشعاع صورة من صور الطاقة ، لذلك فبمجرد الاعلان عن هذا الكشف

الجديد وجه العلماء جهودهم لدراسة أسلوب لاستثمار طاقة الاشعاع هذه . وكان من الطبيعي أن ينصب اهتمام العلماء أولا على طريقة يستطيعون بها تحويل العناصر غير المشعة الموجودة على الأرض إلى عناصر مشعة لايحتوي كوكبنا منها إلا على كميات محدودة . وقد كانت العالمة الفرنسية السيدة كوري التي ماتت بسبب تعرضها أثناء بحوثها للإشعاع ، هي أول من نجح في إنتاج عنصر مشع من آخر غير مشع ، وذلك عام ١٩٣٤ م . ومنذ ذلك التاريخ وكميات المواد المشعة على كوكب الأرض في ازدياد مستمر . وقد نجحت السيدة كوري في تحويل عنصر

التفاعلات العادية ، بل إنه سرعان ما يضرب ذرات جديدة ، مشعة وغير مشعة ، فتنتج عناصر جديدة ، وتحرر نيوترونات جديدة ، وقدر جديد من الطاقة ، وتعاود النيوترونات المحررة فعلها في كل مرة بصورة أقوى وأعتى . ويرافق ذلك كله تحرر قدر جديد من الطاقة الكامنة في الذرات ، فإذا لم يسيطر الإنسان على هذه الطاقة ، وتركها تفعل فعلها في البيئة دون ضابط أو ربط ، كانت هذه الطاقة قوة تدميرية مركبة ، وهذا هو الأساس العلمي الذي بنيت عليه فكرة القنبلة الذرية ، أما إذا تمكن الإنسان من السيطرة على هذه الطاقة ، وروضها ووجهها وجهة



* الباخرة السورية « زنوبيا » ظلت سائحة عاما كاملا بين موانيء أوربا وهي محملة بحوالي ١٥٠٠ برميل من النفايات السامة .

البورون غير المشع الى نيتروجين مشع بضرب ذراته بما يسمى « جسيمات الفا » وارتبط هذا التحول بتحرر نيوترون واحد من كل ذرة بورون . ولم يكن أحد يحسب حساباً لطبيعة التفاعلات النووية التي تنشأ من مثل هذه المعالجات . وأصبحنا نعلم اليوم أن التفاعلات النووية ذات طبيعة سلسلية ، بمعنى أن نواتج المعالجة تستحث تفاعلات جديدة بصورة ذاتية . وهذه تستحث بدورها تفاعلات جديدة وهكذا دواليك . فالنيوترون الذي تحرر في التفاعل المذكور لايقف خاملا ، كما هي الحالة في معظم

محسوبة بدقة ، بمعدلات بطيئة ، أصبح في مقدوره اختزان الطاقة المتحررة ، وتحويلها إلى صور أخرى من الطاقة المقيدة ، وهذا هو الأساس العلمي الذي تعتمد عليه المفاعلات النووية ، من أجل تحويل الطاقة الإشعاعية إلى كهرباء . وما يهمنا هنا هو أن كل هذه التطبيقات التي أصبحت يومية في حياة الإنسان المعاصر ، قد أفرزت أعداداً أو كميات متزايدة من النفايات المشعة ، وأصبح من اللازم التخلص منها بأسلوب يجنب البيئة والإنسان مخاطرها ، وهي جمة .

ونوجز بعض مخاطر الإشعاع على الإنسان ، فنذكر أنه يهاجم كل أجزاء الجسم بلا استثناء ، ويدمر الكريات البيضاء بإلحاقه الأضرار بنخاع العظام ، حيث تتولد هذه الخلايا ، كما يدمر الطحال والعقد اللمفاوية ، ويتسبب في سرطان الرئة ، وسرطان الجلد ، ويؤدي إلى العقم ، ويشوه الأجنة ، ويحور العوامل الوراثية . وغالبا ما يفضي في النهاية إلى الموت المقترن بآلام مبرحة .

معالجة النفايات الخاصة وخزنها

على ضوء ما أوجزناه عن خصوصية النفايات المشعة وغير المشعة يمكن للقارىء أن يستنبط أن التعامل معها ينبغي أن يجرى طبقا لخطط دقيقة مدروسة ، إذ ينبغي علينا أن نعالج هذه النفايات ، وأن نحفظها بأساليب تجنبنا شرورها المستطيرة ، وتمثل هذه الأساليب في الواقع تقنية قائمة بذاتها ، وخبرة مبنية على دراسات وبحوث مركزة . ولا تتوافر مثل هذه التقنية إلا لعدد محدود من الدول الصناعية الغنية.والطريقة المتبعة بصورة مشروعة تتلخص في تركيز هذه النفايات بأساليب شتى ، وتحويلها إلى صور صلبة ، ثم حقنها في جوف الأرض في طبقة جيولوجية معروفة بجفافها وثباتها . ويحبذا لو كانت غنية بملح الطعام لضمان الجفاف عبر عشرات الألوف من السنين . ولزيادة الأمان تلجأ بعض المؤسسات إلى عزل هذه النفايات المركزة بصب غلاف من الأسمنت أو غيره من المواد حولها بإحكام ، وذلك قبل حقنها في جوف الأرض .

ومن الواضح أن مثل هذه التقنية مكلفة للغاية ، خاصة مع ازدياد كميات النفايات بصفة مستمرة . آخر الأرقام التي نشرت في الصيف الماضي في بروكسل عن حجم النفايات الخاصة لدول السوق الأوربية المشتركة وحدها تقول إن هذه النفايات بلغت ١١٠٠ مليون طن في العام الواحد . ولا يشمل هذا الرقم ما ينتجه عملاقان صناعيان هما الولايات المتحدة واليابان ، إضافة إلى دول الكتلة الشرقية الصناعية .

خزن النفايات في قارة النكبات

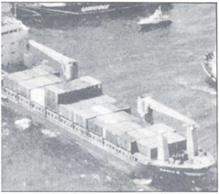
لم تعد ترد من افريقيا إلا الأخبار الحزينة في الغالب . من هذه الأخبار ما يتعلق بالجفاف والجوع ، ومنها ما يتعلق بالفيضانات والجراد والأوبئة ، ناهيك عن أخبار الفقر والديون المتراكمة . ولقد لعب الغرب الصناعي الدور الرئيسي في النكبات التي حلت بهذه القارة خلال القرون الماضية . نكبات الاستعمار ، وسرقة الثروات الطبيعية . ولم يتورع الغرب الغني عن المتاجرة بالانسان الافريقي في سوق الرق والنخاسة . ونكبات افريقيا المعاصرة مرجعها أيضا - كما كان في الماضي - إلى دول الغرب الغنية . يشاع أن فيروس الايدز قد استنبط باستعمال الهندسة الوراثية في مختبرات وزارة الدفاع الامريكية كأحد أساليب الحرب البيولوجية ، فلما أرادوا تجربته على الانسان الافريقي فقدوا السيطرة عليه تماما . وقد لا يتوافر الدليل أبدا على صدق هذه الادعاءات ، بل قد تكون مختلقة من أساسها ، ولكن هذا لايمنع أن يكون المعنى الكامن وراءها صادقا كل الصدق ، ويؤيد ذلك أن لدى البشرية الآن الأدلة الدامغة على تورط الغرب الصناعي في تلويث القارة السوداء بالنفايات لتحقيق مكاسب مادية . وكثيرا ما كررت صحف الغرب خلال الصيف الماضي تساؤلات حول « هل تصبح افريقيا سلة قمامة للدول الغنية ؟ » . وقد تزامنت هذه التساؤلات مع تكشف أبعاد الفضيحة التي تورطت فيها شركات ايطالية وبريطانية والمانية غربية وأوربية أخرى ، المتمثلة في تفريغ شحنات من النفايات السامة في نيجيريا . وقد بلغ الأمر بالشركة الايطالية التي تصدت للعملية نيابة عن الشركات الأخرى أن زورت أوراقا تموه فيها على كنه هذه النفايات التي بلغت حوالي ٣٠٠٠ طن ، معبأة في علب صفيح رقيق ، وضمنها مواد مسرطنة وأخرى مشعة . وأفرغت الشركة الايطالية عبوتها السامة في إحدى المزارع في قرية كوكو الساحلية ، بعد ترضية مالية متواضعة لصاحب المزرعة ، ولم تحاول الشركة

حتى مجرد دفن هذه النفايات السامة تحت التربة ، بل تركتها عرضة للأمطار والرطوبة وعبث صغار القرية . والمنازل لا تبعد إلا عشرات الأمتار عن مزرعة السموم هذه . ولقد أسهمت الصحف النيجيرية في الكشف عن هذه الفضيحة ، فتدخلت الحكومة النيجيرية ، وطلبت من الشركة الايطالية سحب نفاياتها من أراضيها .

وأبدت السلطات الايطالية استجابة فورية ، وذلك تحت أنظار الصحافة الغربية ، وأرسلت سفينة شحن المانية غربية اسمها « كارين ب » سحبت شحنة النفايات بالكامل من كوكو . وكان من المتوقع أن تعود السفينة لتفرغ حمولتها من النفايات في ايطاليا ، أو في أي دولة من الدول الأوربية المشتركة معها في الفضيحة ، كي تعالج هذه النفايات وتحفظها طبقا للتقنية المكلفة التي تهربت منها في البداية ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل ظلت السفينة بشحنتها تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط ، تنتقل من ميناء أوربي إلى آخر . ثم أعلن أخيرا أنها رست في أحد الموانىء الايطالية بعد طول المراوغة ، وأن مجلس الوزراء الايطالي - وياللعجب - مازال يتدارس تفريغ شحنة النفايات لمعالجتها في ايطاليا . وعلى ذكر ايطاليا نشير إلى أن السفينة السورية « زنوبيا » المحملة بحوالي ١٥٠٠ برميل فيها نفايات سامة ، قد ظلت أيضا سائحة بين موانيء أوربا على مدى عام كامل ، قبل أن تسمح لها السلطات الايطالية بالرسو في ميناء جنوة ، حيث انتظرت شهرين كاملين قبل أن تتكرم الحكومة الايطالية بالموافقة على تفريغ جزء من هذه الحمولة لمعالجته وحفظه في ايطاليا .

قمة جبل الثلج

ولا يحسبن أحد أن فضيحة نفايات نيجيريا كانت الفضيحة الوحيدة في القارة الافريقية ، بل هي في الواقع لا تعدو أن تكون قمة جبل الثلج الهائل الذي مازال معظمه خافيا . على أن فضيحة نيجيريا حثت الصحفيين والمهتمين بشئون البيئة في الدول الغربية على التنقيب والبحث ، حتى توافرت لديهم أدلة



* تزايدت في السنوات الأخيرة أعداد السفن المحملة بالنفايات التي ترفض الدول تفريغ حمولتها في موانيها .

وقرائن مذهلة ، تشير إلى أن شركات أمريكية وأوربية قد أبرمت عقودا مع ما لا يقل عن ١٧ دولة افريقية أخرى لتفريغ النفايات الخاصة بها . وغني عن الذكر أن هذه الشركات تمارس أعمالا غير مشروعة ، بعد أن أضفت عليها ستارا مصطنعا من الشرعية ، من خلال التعاقد مع المسئولين في الدول الافريقية . وتحصل هذه الشركات أجورها بالكامل من المؤسسات المتعاقدة معها ، مقابل أن تخلصها من نفاياتها السامة . وكل ما تفعله بعد ذلك هو أنها تلقي بالفتات من هذه الأموال لدول افريقيا الفقيرة . وقد نشرت صحيفة « وست أمريكا » في الصيف الماضي أن دولا مثل الكونغو وغينيابيساو وغينيا الاستوائية وبنين قد تعهدت فيما بينها على استقبال حوالي عشرة ملايين طن من النفايات الخاصة سنويا . ولكن لا يعلم أحد حتى اليوم حجم ما استقبلته هذه الدول حتى الآن من نفايات . وقد أدت مشاكل الفقر المدقع والديون المتراكمة إلى تكثيف حجم هذه الصفقات المشبوهة ، وذلك خلال العامين الماضيين . ومما يوضح بجلاء مدى الظلم الواقع على الدول الفقيرة ، أن الشركات المذكورة ، تدفع حوالي ١٠٠٠ دولار لكل طن من النفايات إذا هي أنجزت عملياتها في أوربا ، بيد أن شركتين

بريطانيتين وشركة سويسرية لا تدفع لغينيا بيساو - طبقـا للعقـود المشبـوهـة - إلا ٤٠ دولارا للطن الواحد ، ومع ذلك فهذا المبلغ المتواضع ينجم عنه مضاعفة الدخل القومي لهذه الدولة الفقيرة ، كما يمثل عشرة أضعاف دخلها من التصدير ، لذلك فقد التزمت غينيا بيساو أمام هذه الشركات بأن تستقبل ١٥ مليون طن من النفايات الخاصة على مدى ٥ سنوات . وهناك من الدول الافريقية الفقيرة من ترضى بأقل من هذا السعر بكثير ، إذ أن شركة « سيسكو » - ومقرها في جبل طارق - لاتدفع لحكومة بنين إلا « ٢ر٥ » دولارين ونصف للطن الواحد ، إضافة إلى نصف دولار « بقشيشا » بنص العقد . ولقد كافأت الحكومة الفرنسية بنين على هذه الصفقة بأن ضمنت لها معونات اقتصادية على مدى ٣٠ عاما مقبلا . أما إحدى المؤسسات البريطانية فقد دفعت لحكومة غينيا الاستوائية مقدما ٦ر١ مليون دولار ، مقابل أن تحظى بترخيص يسري مدة ١٠ سنوات ، ويخول لها تخزين ما مجموعه ٥ ملايين طن من النفايات السامة في جزيرة « أنوبن » . وطبقا لصحيفة « آفريكان بزنس » لا تصلح أرض الجزيرة المذكورة جيولوجيا لتخزين هذه النفايات السامة ، إذ أنها تتكون من صخور مسامية . وتساور المعنيين بالبيئة مخاوف جمة من أن تتسرب السموم إلى المحيط الهادي ، فتتسبب في كوارث بيئية لايمكن التكهن بأبعادها .

فضائح أخرى غير أفريقية

إن كانت الشركات الغربية التي تعاقدت مع الدول الافريقية قد أضفت على أعمالها قدرا من الشرعية الزائفة ، وذلك بعقود مشبوهة ، فكثيرا ما تلجأ شركات أخرى إلى أساليب غير مشروعة للتخلص من النفايات الخاصة . ومازالت فضيحة السفينة « بترسبرج » ماثلة في الأذهان ، وهي سفينة المانية ، استأجرتها إحدى الشركات النمساوية في الصيف الماضي ، وحملت عليها حوالي ١٣٠٠ طن من مخلفات بعض الأبنية التي تهدمت . ولم تكن هذه أبنية عادية ، والا لما نشأت هناك مشكلة ، لكنها - وهذا ما أخفته الشركة النمساوية في البداية - كانت بقايا لمؤسسات صناعية كيميائية . وقد أبحرت السفينة عبر نهر الدانوب من النمسا يوم ١٨ مايو الماضي في طريقها إلى تركيا ، حيث كان من المفروض التخلص من هذه النفايات هناك . وفي الميناء التركي اكتشفت السلطات أن الشحنة ملوثة بالإشعاع ، بمقدار ١٤٠ بيكاريل لكل كيلو غرام ، فامتنعت عن تفريغ هذه الشحنة ، وأمرت السفينة بمغادرة المياه الإقليمية التركية ، ومنعتها من الرجوع مرة أخرى إلى الدانوب .

وثمة فضيحة أخرى قريبة منا . فقد قامت إحدى الشركات الايطالية بنقل نفايات خاصة إلى الأراضي اللبنانية منذ شهور ، ثم اكتشفت السلطات اللبنانية بعد ذلك أن الشحنة غير مرغوب فيها ، فطالبت الشركة الايطالية باسترجاعها ، وبعد مفاوضات استجابت الشركة لمطلب السلطات ، وأرسلت السفينة « جامبونز ست » فحملت الشحنة ، وأبحرت من لبنان . وقد حذرت السلطات اللبنانية بأن السفينة قد تسعى إلى التخلص من الشحنة في البحر بصورة غير مشروعة . وتحققت مخاوف المسئولين اللبنانيين ، إذ سرعان ما أوردت الصحف نبأ اشتراك ست وزارات مصرية في منع السفينة المذكورة من إغراق شحنتها السامة أمام السواحل المصرية ، وذلك بعد أن فشلت السفينة في محاولات مشابهة أمام دول أخرى من دول البحر المتوسط .

وبعد ، فهذا بعض مما كشفت عنه التقارير الصحفية ، وينم عن ان المشكلة قد بلغت أبعادا مخيفة ، والضحية - للوهلة الأولى - دول العالم الثالث ، الشديدة الفقر ، إلا أن النظرة المدققة سرعان ما تدرك أن الخطر في الواقع يتهدد الكرة الأرضية برمتها ، فحينما تتسرب السموم ، ويتسرب الاشعاع إلى المياه والهواء والتربة ، فسوف يعود التلوث حتى إلى مصدريه في عقر دارهم ، وذلك على هيئة أطعمة وأشربة ومواد أولية . ولك الله ياكوكب الأرض . □

قطع غيار حيوانية للإنسان

بقلم :
الدكتور محيي الدين لبنيه *

اتسمت العقود الثلاثة الأخيرة بالابتكارات العلمية المبهرة وتطبيقاتها ، حيث تمكن الانسان من تحقيق كثير من أحلام الأسلاف . واستبدال الأعضاء التالفة من جسم الانسان ، ببدائل حيوانية ، وهو واحد من الإنجازات العلمية التي مايزال العلماء والأطباء يسعون لتطويرها وتحسينها ، لتصبح في متناول الجميع .

منذ أمد بعيد راودت العقل البشري فكرة زرع أعضاء حيوانية في جسم الإنسان ، وكان الطبيب العربي أبو القاسم الزهراوي الملقب بأبي الجراحة (٩٣٦م - ١٠١٣م) أول من حاول زراعة أسنان بعض الحيوانات في الفم ، وجرب استعمال غضاريف حيوانية كحاجز أنفي . واستمرت عملية زرع قطع غيار حيوانية في الإنسان مجرد أمنية وحلم ، إلى أن تهيأت للعلماء حديثا معلومات دقيقة عن تركيب الخلية الحية ، ووظائفها ، وعن الجهاز المناعي ، وآلية عمله في الجسم ، ناهيك عن التطورات الكبيرة في الأجهزة والأدوات الجراحية . وقد أصبح ممكنا الآن أن يعيش الإنسان بأعضاء تنقل إليه من بعض الحيوانات من رتبة الثدييات كالأبقار والكلاب والخنازير ، وتهيأت طرق خاصة لتحضير قطع الغيار الحيوانية بشكل يناسب استعمالها ثم تخزينها في ظروف مناسبة حتى تحين الحاجة لزراعتها في الجسم .



* طبيب بمستشفى الملك فهد بالمدينة المنورة

تفاعلات الجسم

درس العلماء الظواهر الخاصة برد فعل الجسم ضد الأجزاء الحيوانية المزروعة فيه ، ولاحظوا أن قطع الغيار الحيوانية باستثناء عضلة القلب تتصف بأنها ليست ذات قدرة على الحياة بعد زراعتها في جسم الإنسان ، وأنها خاملة حيويا ومناعيا أي لايؤدي وجودها في الجسم إلى تكوين أجسام مضادة لها ، بل يتقبلها جسم الإنسان دون ظهور أعراض رفض لزراعتها ، كما لايؤدي وجودها في الجسم إلى حدوث التهابات حادة في مكان زراعتها نتيجة غياب رد فعل مناعي ضدها ، بل يمتص الجسم تدريجيا مركب الكولاجين السائل في صورة زيدرم عند حقنه في الجلد .

ولكن قد تحدث أحيانا تفاعلات حساسية بسيطة لدى بعض المرضى عند حقن الكولاجين الحيواني السائل لأنه بروتين غريب عن الجسم ، كما يتكون نسيج ليفي متين في منطقة ررع شريحة محضرة من الكولاجين الحيواني في الجراحة الترميمية .

ويستخدم العلماء في تجاربهم لزراعة قطع حيوانية في جسم الإنسان ، الجلد ، وقرنية العين ، وعظام وغضاريف ، وعضلة القلب ، وأوعية دموية ، ودسامات القلب (يسميها العامة صمامات القلب وهو اسم غير دقيق) ، وأغشية جنينية من الأبقار ، وخيوط جراحية محضرة من الأمعاء الدقيقة للأغنام ، ومستخلصات بروتين الكولاجين من الجلد . وسنتناول بعض هذه الاستخدامات بالتفصيل .

جلد حيواني

أحيانا يستعمل أطباء قسم علاج الحروق طعوما من الجلد الحيواني ، غطاء حيوياً لسرير الجروح ، في حالات الإصابة بالحروق الواسعة ، ذات السماكة القليلة ، عندما لا يوجد غطاء كافٍ لها من جلد المريض نفسه ، أو من أحد أقاربه . وتعمل الطعوم الجلدية المستعملة غطاء مؤقتاً ، وهي تنفصل تلقائيا إذا لم تستبدل ، ويفيد استعمالها في تقليل معدل فقد السوائل المحتوية على بروتينات ، وأملاح معدنية ، وماء من جسم المريض ، ويكون لها تأثير وقائي ضد حدوث الجفاف فيه ، لكنها لا تقلل من حدة الإصابة الميكروبية التي تحدث قبل زرعها . وقد استخدمت جلود الخنازير - من نوع غيانا - والكلاب ، بعد معاملتها كيماويا بطرق خاصة ، ثم تجفيفها بعد تجميدها . وحظيت الجلود المأخوذة من الخنازير بمعظم اهتمام الأطباء ، ويوجد منها تجاريا شرائح جافة ، تعامل بطريقة خاصة ، في ظروف معقمة ، قبل زراعتها في سرير الجروح المتخلفة عن الحروق .

عظام وغضاريف

كان أبو القاسم الزهراوى أول من حاول زراعة أسنان مأخوذة من الخراف في فم الإنسان ، وجرب أيضا استخدام غضاريف حيوانية في تشكيل حاجز أنفي . وعلى نطاق تجريبي قام فريق من الأطباء ، بزراعة بعض العظام الحيوانية المأخوذة من عجول صغيرة السن ، بعد ان تصبح جافة ، وعرفت هذه الزراعة بطعوم كييل ، نسبة إلى مكتشفها ، واستعملوها في إصلاح إصابات بعض عظام الجسم ، كما جرب علماء آخرون زراعة غضاريف مأخوذة من الثيران لإصلاح عيوب في الأنف .

وجرب العلماء حديثا مصدرا آخر للطعوم العظمية ، وهو جثث الموتى ، وكانت نتائجها أفضل ، وخاصة عند حفظ عظام الموتى معقمة ، قبل زرعها في جسم الإنسان ، خلال فترة لاتزيد على ثلاثة شهور . وتتركز حاليا جهود الأطباء على زرع طعوم عظمية مأخوذة من جسم المريض نفسه ، بأخذ عظم صغير ، أو جزء من عظم ، أو غضروف لإصلاح عيوب عظمية ، أو غضروفية في عمليات الجراحة التجميلية الترميمية ، وهي أفضل الطرق ، ونتائجها جيدة .

قطع غيار للقلب وأوعيته

قام الجراح هاردي، عام ١٩٦٤ ، بأول عملية نقل قلب قرد (من نوع شمبانزي) إلى رجل مريض عمره ٦٨ سنة ، ثم أجرى الطبيب الجراح كريستان

برنارد عام ١٩٦٧ أول عملية زرع قلب بشري في جسم مريض . ثم أنجز الأطباء عام ١٩٦٨ خلال موجة الحماس التي واكبت نجاح أول عملية زراعة للقلب ، ما يزيد عن مائة عملية زرع ، وتكررت عملية زرع قلب حيوان للإنسان ، قبل سنوات قليلة ، حين قام فريق من الأطباء بزراعة قلب مأخوذ من قرد - من نوع البابون - في جسم طفلة ، لإنقاذ حياتها المهددة بخطر الموت ، ولم يكن أمامهم في ذلك الوقت خيار آخر ، لعدم وجود قلب بشري يناسبها .

ولسوء الحظ لم تحقق عمليات زراعة قلب حيواني في جسم الإنسان نتائج جيدة ، بسبب وجود خاصية عدم التوافق النسيجي بين الإنسان والحيوان ، ومن ثم رفض الجسم للعضو المزروع فيه . كما أن القلب البشري لايعمل فقط كمضخة للدم ، وإنما له وظائف حيوية أخرى ، فقد اكتشف العلماء حديثا أن القلب يفرز هرمونات تلعب أدوارا في حياة الإنسان .

ولقد جرب بعض العلماء ، زرع طعوم أوعية دموية مأخوذة من الحيوانات ، بدائل للأجزاء التالفة من بعض الأوعية الدموية في جسم الإنسان ، لكن جهود الأطباء تركزت حاليا على استعمال طعم وريدي من جسم المريض نفسه ، مثل الوريد الصافن ، أو الوريد الثديي الداخلي . ولقد تأكدت فوائد تلك الطعوم ومزاياها على الطعوم الأخرى ، كما ظهرت حديثا في الأسواق طعوم وعائية مصنوعة من اللدائن ، يمكن استعمالها في إصلاح التلف الذى قد يصيب أي وعاء من الأوعية الدموية الكبيرة في الجسم .

كما نجح العلماء في زرع دسامات (صمامات) مأخوذة من الأبقار أو الخنازير في قلب الإنسان ، واستخدمت على نطاق واسع الدسامات المأخوذة من الخنازير ، ونجحت في علاج أمراض دسامات القلب . ولها مزايا عديدة على الأنواع الأخرى من الدسامات الصناعية . وتقوم حاليا مصانع متخصصة بانتاج دسامات من الخنازير ، وهي مرتفعة الثمن .

ويؤدي زرع الدسام الحيواني إلى انخفاض معدل تكوين الصمامة الخثرية فيه ، كما يمكنه العمل جيدا في السنوات الخمس الأولى من زرعه ، ثم تتناقص قدرته تدريجيا على أداء عمله بعد ذلك لدى المرضى الذين تزيد أعمارهم عن ٣٥ سنة .

الأغشية والأمعاء من الحيوانات

إن استعمال الأغشية الرقيقة المحيطة بأجنة الأبقار في التغطية المؤقتة للجروح المتخلفة عن الحروق ، قد حظي حديثا باهتمام عديد من العلماء ، الذين جربوا زراعة تلك الأغشية في سرير الجروح ، بهدف تقليل فقد مصل الدم ، بما يحتويه من عناصر غذائية ، وتقليل فرصة حدوث الالتهابات الجرثومية في الجروح المكشوفة ، إلى أن تتوافر طعوم جلدية من جسم المريض نفسه ، تقوم بالتغطية الدائمة للجروح ، واستعمل الباحثون الطبقتين الرقيقتين المحيطتين بالجنين داخل المشيمة بعد فصلها من البقرة عقب الولادة ، ومعاملتها كيماويا بطريقة خاصة :

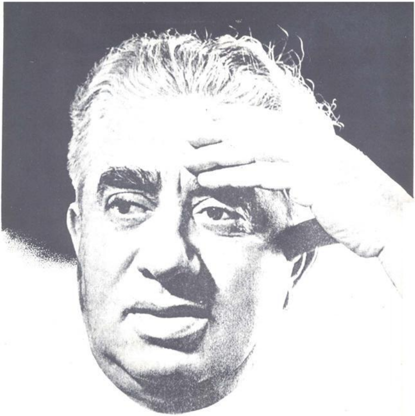
١ - طبقة الأمنيون وهو الغشاء الداخلي المبطن للمشيمة .

٢ - طبقة الكوريون وهو الغشاء المحيط بالجنين .

منذ زمن طويل استخدمت أمعاء الخراف في تجهيز الخيوط الجراحية ، وذلك بأن تعامل الأمعاء الدقيقة بطريقة خاصة لسحب الألياف العضلية منها ، ثم حفظها بالتجفيف بعد التجميد حتى حين استعمالها . ويستطيع جسم الانسان امتصاص تلك الخيوط تدريجيا ، مما لايستدعى إزالتها بعد شفاء الجروح .

الكولاجين المستخلص من جلد

تمكن العلماء حديثا من فصل مركب الكولاجين من جلد بعض الحيوانات كالأبقار والخنازير ، ثم عولج كيماويا بطرق خاصة لاعداده للاستعمال البشري . والكولاجين هو بروتين خامل حيويا ، لايسبب وجوده تفاعلات حساسية في الجسم ، وتتحمله الأنسجة الحية ، تحملا جيداً والكولاجين سهل التشكيل ، مما يهيء مجالات واسعة لاستعمالاته . ويستخدم سائلا وجافا . □



في الذكرى العاشرة لوفاة

آرام خاتشاتوريان

صوت القوقاز الموسيقي

بقلم : الدكتورة سمحة الخولي

بعد عشر سنوات من وفاة خاتشاتوريان الموسيقي السوفيتي الشهير :

هل انحسرت شعبية موسيقاه ؟ وهل هو

حقا لسان حال أرمينيا الموسيقي أم القوقاز كلها ؟

في أي بقعة في العالم تقيم فيها جالية أرمينية يحاط اسم خاتشاتوريان بهالة من التمجيد والإعزاز، فهو عندهم «بطل قومي»، وليس مجرد مؤلف موسيقي محبوب.

لموسيقا خاتشاتوريان رصيد طيب لدى المستمع العربي، فهو يقبل عليها مستسيغا طابعها الشرقي الشجي المزخرف، لكن هذا المستمع العربي لا يعرف إلا القليل عن جذور خاتشاتوريان ونشأته، ولا يعرف عن حقيقة علاقته بأرمينيا، ولا المصادر التي استقى منها عناصر التلوين الفولكلوري الذي أضفى على موسيقاه طابعها المحبب، ولا كيف عاش وأنتج في ظل «الاشتراكية الواقعية» في الموسيقا في بلاده. ولعل المستمع العربي الذي طرب لموسيقا باليه «جايانيه» يجد في السطور التالية ما يقربه من خاتشاتوريان وموسيقاه، وما يقدم له مزيدا من المعرفة بأسلوبه الموسيقي الخاص الذي تزيده الأعوام انتشارا ورسوخا.

مولده ونشأته:

على الرغم من أن آرام خاتشاتوريان من أسرة أرمينية فانه لم يولد في أرمينيا، — عكس الفكرة الشائعة — بل ولد في عام ١٩٠٣، ويحتمل أن يكون مولده في عام ١٩٠٤ بمدينة تبليسي، عاصمة جمهورية جورجيا التي تشكل مع أرمينيا وأذربيجان الجمهوريات الاتحادية التي يضمها القوقاز، فقد كان والده يعمل بها مجلدا للكتب، لكن تلك الأسرة الفقيرة كانت غنية بمواهب فنية، أغدقتها الطبيعة على أبنائها، وكانت الموسيقا والرقص الشعبي يؤنسان حياة الأسرة، مما أذكى الموهبة الطبيعية للطفل آرام ايليتش، فأخذ يعلم نفسه عزف البيانو «بالسماع»، ثم في المدرسة التجارية الثانوية في تبليسي، وظهر حبه للموسيقا عندما تعلم عزف آلات النفخ النحاسية، ليشارك في الفرقة النحاسية للمدرسة.

وكان أخوه الكبير يتمتع بموهبة مسرحية، وقد سافر إلى موسكو، وهناك بدأ يسهم في إنشاء قسم للدراما بقصر الثقافة الأرمني في العاصمة. وكلفته السلطات السوفيتية بانتخاب مجموعة من «الكوادر» الفنية الشابة، من جمهوريات القوقاز، لتدريبها في موسكو في مجالات الفنون. وكان أخوه آرام من بينها. وهكذا سافر الفتى إلى موسكو، وبدأ أول دراسة حقيقية للموسيقا في سن متأخرة جدا، فقد كان في التاسعة عشرة عندما التحق سنة ١٩٢٢ بمعهد جنيسين، وكان عليه أن يختار الآلة التي يرغب في تعلمها، فاختار آلة تشللو، دون أن تكون لديه أدنى فكرة عنها!

وسايرت دراسة الموسيقا دراسته بجامعة موسكو (البيولوجيا والرياضيات)، ولكنه لم يوفق في الجامعة، فتركها، وقرر أن يكرس نفسه للموسيقا، فدرس التأليف في فصل ميخائيل جنيسين نفسه. وكانت محاولاته الأولى في التأليف تنطق بشغفه بالموسيقا الشعبية القوقازية، ولفتت موهبته اهتمام أستاذه، فعاونه على الدراسة بكونسرفتوار موسكو سنة ١٩٢٩، وهناك درس التأليف على جنيسين نفسه مدة عام، ثم انضم لفصل نيكولاي مياسكوفسكي - وهو من المؤلفين السمفونيين السوفييت الذين اشتهروا بغزارة الانتاج (٢٥ سيمفونية) وهو يكتب بأسلوب عاطفي أقرب لتشايكوفسكي ويشاطره بعض نزعاته التشاؤمية - وقد لمس موهبته المبتكرة، فترك له بعض الحرية في وجهته، وفي تكوين أسلوبه الموسيقي الشخصي. وبدأ خاتشاتوريان يستكشف آفاقا موسيقية أرحب، واجتذبته موسيقا الانطباعيين Impressionists وبخاصة رافيل، وبهرته كتابات بروكوفييف، العائد من الغرب إلى وطنه، واهتم ببعض تجديدات سكريابين الهارمونية. وقد بدأ أسلوبه يتبلور منذ سنوات الدراسة، وكان شغفه بالتلوين «الفولكلوري» من أبرز ملامحه، وهو ما سنعود إليه فيما بعد.

ونقش اسمه، عند التخرج، في لوحة الشرف سنة ١٩٣٤. وظل يتابع دراسته العليا للتأليف على مياسكوفسكي، وعمل مساعدا له في التدريس مدة

ثلاث سنوات . وفي فصله التقى بزميلته نينا ماكاروفا التي أصبحت زوجته فيا بعد .

وطرقت الشهرة بابه مبكرة بنجاح كونشرتو البيانو الشهير سنة ١٩٣٦ الذي لفت أنظار العالم الموسيقي لهذا الشاب الموهوب ، ليس في روسيا السوفيتية وحدها ، بل في الغرب أيضا ، بأسلوبه المتميز ، وألحانه الشرقية الطابع ، الوثيقة الصلة بالموسيقا الشعبية ، وبتدفقه الايقاعي المنعش ، وتلوينه « الاركسترالي » الباهر . ووجدت السلطات السوفيتية الرسمية في هذا المؤلف خير تأكيد وتدعيم لسياستها التي تهدف لتشجيع التعبير الموسيقي القومي ، لشعوب الاقليات العديدة التي تقطن الاتحاد السوفيتي ، فقد كان من أبرز أهداف السياسة الموسيقية توفير كل وسائل الدراسة والأداء الموسيقي في جمهوريات الاتحاد السوفيتي ، سعيا لتنشيط تعبيرها عن ذاتها موسيقيا ، بأسلوب متطور ، نابع من دراستها ، قادر على التعبير عن معان ومشاعر « قومية » ، تغذي حاجة الشعب الفنية ، وتؤكد هوية كل قومية من الجنسيات العديدة المكونة للاتحاد . وهكذا بدأ تسليط الأضواء على خاتشاتوريان ، بعدّه مؤلفا قوميا أرمينيا .

خاتشاتوريان وأرمينيا :

وجد خاتشاتوريان نفسه موجها نحو أرمينيا ، وأصبحت أصوله الأرمينية موضع اهتمام مركز ، ولعله لم يكن يقصد ذلك في أول الأمر ، فهو لم يكن حريصا على استخدام اسمه الاصلي ، بصيغته الأرمينية ، بل كان يسمي نفسه عندما ذهب إلى موسكو « كلوموف » ! ، وقد ذكر هذا الاسم في برنامج حفلة العزف الأول لكونشرتو البيانو بقاعة الكونسرفتوار ، حيث أعلن أن الكونشرتو تعزفه بيرتا كازيل وآليكس كلوموف ، وكان هو نفسه الذي يعزف البيانو الثاني ، المصاحب للبيانو الانفرادي الذي يحل أحيانا محل الاركسترا ، وفي مجال آخر ذكر اسمه في صيغة أكثر روسية ، هي خاتشاتوروف !

لعل نجاح كونشرتو البيانو قد لعب دورا في توثيق صلة خاتشاتوريان بأرمينيا التي لم تطأها قدماه لأول مرة ، إلا وهو في سن السادسة والثلاثين . لقد طلب منه على كل حال أن يكتب موسيقا ذات طابع أرميني قومي لمهرجان الموسيقا الارمينية بموسكو سنة ١٩٣٨ ، فكتب باليه السعادة . وهكذا بدأت صلته بأرمينيا تتخذ شكلا رسميا ، وبدأت تلك الجمهورية تخطب وده ، وتغدق عليه آيات التكريم ، لتبتعد به عن منافستها جورجيا التي ولد ونشأ فيها . وهكذا أصبح اسم خاتشاتوريان مرتبطا بأرمينيا في أنحاء العالم ، ولذلك يعتز به مواطنوه الأرمن كأحد أبطالهم القوميين .

حياته العملية ومؤلفاته :

مارس خاتشاتوريان حياة المؤلف الموسيقي ممارسة كاملة ، فكان يقود الاركسترا في عزف مؤلفاته (وكان قائدا ممتازا لها) ، سواء في الاتحاد السوفيتي أو في الخارج ، وعندما توطدت مكانته دوليا ، بعد كونشرتو البيانو وكونشرتو الفيولينة وباليه جايانيه ، كثرت أسفاره إلى الخارج ، وأصبح من أنجح « سفراء » الموسيقا السوفيتية في العالم الغربي ، فقد كانت موسيقاه تجد طريقها إلى الغرب ، وتستقبل بكثير من الحفاوة والاعجاب . وانهالت عليه الدعوات لزيارة أمريكا اللاتينية بصفة خاصة ، وقد كان يقود أعماله فيها بنجاح متصاعد . وفي عام ١٩٦٨ زار الولايات المتحدة ، في جولة كبيرة ، قاد فيها ست عشرة اركسترا من أهم اركستراتها في ولايات مختلفة (وهذا رقم يكاد يكون قياسيا له دلالة عميقة على مدى انتشار موسيقاه) . ودعته وزارة الثقافة المصرية سنة ١٩٦١ لزيارة القاهرة ، حيث قاد اركسترا القاهرة السيمفوني (بدار الأوبرا القديمة) ، في حفلات غاية في النجاح ، ثم سافر على رأس هذا الاركسترا المصري إلى بيروت ، حيث قاد بها بعض حفلات من مؤلفاته .

وليس معنى هذا النجاح الدولي أن حياة خاتشاتوريان الفنية قد كانت دائما محفوفة بالورد، فقد تعرض كغيره من كبار المؤلفين السوفييت لنقد لاذع من «الحزب»، بسبب اتجاهات سماها جدانوف (المتحدث باسم اللجنة المركزية سنة ١٩٤٨) اتجاهات رجعية غربية منحلة، تدل على ابتعاد هؤلاء المؤلفين عن الشعب وتقليدهم «موضات» الغرب الموسيقية المناقضة للاشتراكية الواقعية السوفيتية. ومن المؤلفين الذين وجه إليهم هذا النقد العلني عام ١٩٤٨ شوستاكوفتش، وبروكوفييف، وخاتشاتوريان، ومراد يلي، وبوبوف، وغيرهم.

وكان الهجوم عليه هو على الأخص بسبب عمل ألفه سنة ١٩٤٧ بمناسبة الذكرى الثلاثين للثورة، وهو «القصيدالسيمفوني» للاركسترا والأرغن والنحاسيات الذى استخدم فيه خمس عشرة آلة طرمبيت في مزيج غير مألوف من الأرغن والنحاسيات والاركسترا، والذي أمعن فيه في «التنافر» وعند عزفه للمرة الأولى كان هناك إجماع على استهجانه. ولذلك ربما كانت تهمة «الشكلية» التي ووجه بها خاتشاتوريان لأول مرة في حياته الموسيقية غير منافية للحقيقة، فقد صرح في مجال الاعتذار عن المنحى المتطرف الذي اتخذه في ذلك العمل، بأنه أراد فيه أن يكون «عالميا»، فابتعد أكثر مما ينبغي عن جذوره السوفيتية وعن جمهوره، وأعرب عن نيته في مراجعة اتجاهه الجمالي في أعماله المقبلة.

ومن حسن الحظ أن تلك الأزمة الشهيرة لم تترك في نفسه آثارا غائرة، مثل تلك التي خلفتها عند شوستاكوفتش، إذ سرعان ما استعاد توازنه النفسي، ومكانته الرسمية والفنية، لكن انعكاس تلك الأزمة قد ظهر في تحوله، بكل طاقاته، في أوائل الخمسينيات نحو الموسيقا التصويرية للمسرح والسينما (ولعله وجد فيها مجالا خصبا للإبداع «الوظيفى» الذي يربطه بأرض الواقع ويقربه للجمهور)، فكتب موسيقا لعدد من مسرحيات شكسبير، ولوبيزدي فيجا، وليرمونتوف الذي ألف الموسيقا التصويرية لمسرحيته «ماسكاراد» وأعد منها متتابعة ناجحة للاركسترا. أما للسينما فقد كتب موسيقا لعدد من الأفلام، منها فيلم بيبو، وصراع ستالينجراد، وفيلم لينين الذي ضمت موسيقاه نشيدا جنائزيا «إلى لينين»، انتشر جماهيريا على نطاق واسع في الاتحاد السوفيتي لما فيه من استخدام بارع لعدد من الألحان المستمدة من مناطق مختلفة (من القوقاز وأوكرانيا وازبكستان الخ).

وفي الخمسينيات كذلك بدأت صلته بالتدريس لأول مرة، فعاد إلى كونسرفتوار موسكو، ولمعهد جنيسين، أستاذا للتأليف الموسيقي بهما، كما أسندت إليه عمادة معهد جنيسين.

وقد تناولت مؤلفات خاتشاتوريان كل أنواع التأليف للآلات والاركسترا، ولكنه لم يؤلف أوبرات ولم يؤلف أيضا للغناء. ومن مؤلفاته الاركسترالية نشيد لسيمفونيته الثانية (وكانت الأولى منها عملا كتبه للتخرج)، وقد قلد فيها رنين الأجراس، ويسود فيها جو تفاؤلي، أراد به رفع الروح المعنوية إبان الحرب العالمية (١٩٤٣)، كونشرتو البيانو سنة ١٩٣٦ الذي انتشر في الغرب، بعد تأليفه بقليل، وجلب لمؤلفه شهرة عالمية، ثم أتبعه سنة ١٩٤٠ بكونشرتو الفيولينه والاركسترا، وهو من أوسع كونشرتات الفيولينه في هذا القرن انتشارا، أما الثالث وهو كونشرتو التشللو (سنة ١٩٤٧) فهو أقل الثلاثة انتشارا، لكن المجال الأكبر لنجاح خاتشاتوريان الذي وجدت فيه مواهبه فرصتها الحقيقية للانطلاق هو بلاشك موسيقا الباليه. وقد كانت أولى جولاته في هذا المجال باليه موسيقا بعنوان «السعادة»، ألفها خصيصا في عام ١٩٣٨ لتقدم في مهرجان الموسيقا الأرمينية بموسكو، وقد استخدم فيها عددا من الالحان والايقاعات الشعبية القوقازية، وأعد من هذه الموسيقا متتابعتين للاركسترا. وألف بعد ذلك باليه «جايانية» واختتم أعماله للباليه بموسيقا

سبارتاكوس ، لكن أعظمها وأصدقها تمثيلا لأسلوب خاتشاتوريان الناضج هو باليه جايانية الذي نما وتطور بصورة شيقة تستحق أن يخصص لها بعض السطور لطرافتها .

باليه جايانيه :

كانت قصة باليه السعادة بسيطة ، تدور في مزرعة جماعية ، يشتبك فيها البطل آرمين مع المهربين في معركة يصاب فيها ، لكنه يعود للمزرعة فيتزوج حبيبته ، ويعيشان سعيدين في المزرعة .

لكن المؤلف لم يقنع بهذه القصة الساذجة ، فعاد لمراجعة موسيقا هذا الباليه ، بالتعاون مع كاتب القصة درجافين ، وقاما بتوسيع القصة وتطويرها ، لتبرز مزيدا من عناصر الصراع الدرامي ، ومن معاني الوطنية (أثناء الحرب العالمية الثانية) . وقد ألف أيضا عددا مهما من الفقرات والرقصات الجديدة للباليه الذي اطلق عليه بعد تطويره . اسم « جايانيه » أما تصميم الرقصات فقد قامت به الراقصة آنيسيموفا التي أدت دور البطولة فيه أثناء عرضه للمرة الأولى سنة ١٩٤٢ في الاورال ، وقد استقبل بحماس هائل ، وعده النقاد والجمهور عملا وطنيا جماهيريا ممتازا ، ومنح المؤلف بهذه المناسبة جائزة ستالين للمرة الثانية .

وأغرت خاتشاتوريان الامكانات الموسيقية والمسرحية التي يقدمها هذا الباليه ، فعاد مرة أخرى لمراجعة موسيقاه ، وأضاف إليها ما يوازي ثلث المدونة ، بعد تعديل القصة وتوسيعها مرة أخرى . وقد عرض الباليه الموسع ، بعد هذه المراجعة ، في لينينجراد سنة ١٩٥٢ بنجاح كبير ، لكنه عندما أعد للعرض على مسرح البولشوي بموسكو لأول مرة سنة ١٩٥٧ كان المؤلف قد راجع الموسيقا مرة رابعة وهكذا نمت موسيقا باليه جايانيه على مراحل ، امتدت من عام ١٩٣٩ حتى سنة ١٩٥٧ وقد ألف أيضا متتابعتين للاركسترا ، من أشهر رقصات باليه « جايانيه » مازالتا من أحب أعماله وأوسعها انتشارا في كل مكان ، حتى أن رقصة السيوف الشهيرة أصبحت تعزف في أنحاء العالم في « صور » مختلفة ، منها ما هو للبيانو أو لآلات الايقاع أو للجاز .

قصة الباليه :

تدور أحداث قصة هذا الباليه بعد أن استقرت بعد كل هذه التعديلات في مزرعة جماعية أرمينية قرب حدود تركيا ، مما يتيح الفرص لمشاركة جنسيات عديدة في القصة ، تقوم بينها صلات عاطفية متشابكة . ويرتفع الستار عن مشهد « جني القطن » وترقص الفتيات رقصة القطن ، ونرى البطلة « جايانيه » جالسة مستغرقة في التفكير في زواجها التعس من جيكو السكير القاسي ، وعندما يدخل للمسرح يسيء لزوجته فيتصدى له أخوها آرمين ، وفي هذه اللحظة يدخل ضابط حرس الحدود كازالوف . ومعه جنوده فيختبيء جيكو ويعود الفلاحون لاحتفالاتهم ، وترقص « جايانيه » ابتهاجا بلقائها بكازاكوف وفي المشهد التالي في المساء ، نرى جايانيه وفتيات المزرعة وهن يعملن في نسج السجاد الملون ، ويحضر والدها ويرقص معهن ، فتصحو طفلتها على الضجة . فتهدهدها جايانيه في رقصة « أغنية المهد الرقيقة » . وفي الليل تسمع جايانيه زوجها ، وهو يتآمر مع ثلاثة من المهربين ، على حرق مخزن القطن بالمزرعة ، فتثور وتطارد المهربين فيتصدى لها زوجها بعنف فتسقط على الأرض . ثم يرتفع الستار في المشهد التالي ، في الفجر ، في معسكر الأكراد في الجبال ، حيث تجلس « عائشة » ابنة الراعي جمال ، وعندما تشرق الشمس ترقص عائشة ، وينضم اليها الأكراد ، وبعد قليل يصل آرمين المفتون بعائشة (ويسمع اللحنان الدالان عليه وعلى عائشة في الموسيقا) ، ولكن اسماعيل ، غريمه في حبها ، يريدها أن تتخلى عن آرمين ، فتغضب الفتاة وتقوم مشادة بين الغريمين ، يسحب فيها اسماعيل خنجرا فتحاول عائشة فض المشاجرة ، وهنا يتدخل والدها فيأخذ الخنجر ويعطيه لآرمين ليعاقب اسماعيل على خرقه

لتقاليد الضيافة ، ولكن آرمين يقذفه بعيدا فهو لا يريد معاداة اسماعيل .

وبعد رقصة « الشبان الأكراد » المتدفقة حيوية ، يقبل المهربون بعد أن ضلوا طريقهم ، فيحتجزهم آرمين ويرسل بخبرهم لحرس الحدود ، ويسارعون بمغادرة المعسكر طالبين دليلا يرشدهم ، فيتطوع آرمين لذلك ، ولكن جمال يرسل وراءه اسماعيل ومعه راعيان . ويهاجم المهربون آرمين ، وفي هذه اللحظة يصل جنود الحرس فيلقون القبض عليهم ، وتسمع أجراس الانذار ، وعندما تتعالى ألسنة النيران من مخزن القطن ، يهرع الجنود والمزارعون لاخماد الحريق ، بينما يظهر جيكو قرب المبنى المحترق ، مسارعا بدق الاجراس ، وتقبل جايانيه ومعها طفلتها وتوجه الاتهام الى جيكو أمام الحاضرين فيندفع اليها محاولا قتل الطفلة ولكنه يصيب جايانية ، ويحاول الهرب ، وعندئذ يصل آرمين والحرس ويقبضون عليه .

وفي المشهد الأخير يظهر الفلاحون عند شاطىء البحيرة ، بعد إعادة بناء المزرعة وتظهر جايانيه مع كازاكوف ، بعد أن سمحت لهما الظروف باعلان حبهما وخطبتهما وتبدأ احتفالات ضخمة ، تقدم فيها كل مجموعة « قومية » مختلفة (الأرمن والأكراد والروس الخ . .) رقصاتها القومية الشيقة ، ومن بينها « رقصة السيوف » الشهيرة ويختتم الباليه ختاما براقا منعشا فخما (كعادة أغلب الأعمال السوفيتية المتفائلة) .

ومن أجمل رقصات هذا الباليه « الأداجيو » الناعمة العاطفية ورقصة « هدهدة الطفلة » ورقصة عائشة ، ورقصة الشبان الاكراد ، ورقصة السيوف ، ففيها جميعا يتألق اسلوب خاتشاتوريان في أجمل صوره التي حقق فيها اندماجا فنيا موفقا للعناصر اللحنية والايقاعية الشعبية المتنوعة ، في نسيج هارموني دسم ، وتلوين اركسترالي فريد في بريقه وتنوعه .

وفي هذا الباليه تجلت أهم ملامح أسلوب خاتشاتوريان التي سوف نعرض لها فيما بعد ولكن لا تفوتنا الاشارة خاصة لمؤلفاته للبيانو ، فهو بتمكنه من هذه الآلة وفهمه لها ، قد استطاع أن يكتب لها أعمالا محدودة العدد ، ولكنها بارعة في استغلال امكانات آلة البيانو ، منها مجلده من المقطوعات الوصفية التعليمية السهلة للأطفال ومنها كذلك مقطوعة التوكاتة (ويعتمد هذا النوع من المقطوعات على لمسات سريعة بارعة ، ويتطلب عزفا لامعا) . وكان لآلة الفيوليز حظ في كتاباته إذ كتب لها عملا مبكرا سنة ١٩٢٩ اهداه للآشوج ، وهم طوائف من الرواة والشعراء المنشدين الذين قاموا بدور هام في الحفاظ على التقاليد الشعرية والموسيقية للقوقاز ، وهم ينشدون أشعارا كلاسيكية باسلوب أقرب لشاعر الربابة عندنا في ارتجاله ، ولكنهم يصاحبون أداءهم بآلات وترية وايقاعية ، وقد تأثر خاتشاتوريان تأثرا ملحوظا بالاسلوب الارتجالي المسترسل لانشاد هؤلاء الفنانين الشعبيين المنتشرين في القوقاز (وخاصة في أذربيجان) ليس في أعمال الفيوليز فقط ، بل وفي صميم اسلوبه اللحني والبنائي .□

هل تعلم ؟

* أن العالم الفلكي « جاليليو » استكشف أهم استكشافاته بواسطة التلسكوب وهو شيخ في التاسعة والستين !
* وأن « فولتير » نشر روايته المشهورة « أيرين » وهو في سن الثمانين !
* وأن « فيكتور هوجو » ألف كتابه « تاريخ جريمة » الذي يعد تحفة تاريخية وهو في السادسة والسبعين !

أرقام

بقلم : محمود المراغي

وبعضهم يتقدّم إلى الخلف!

الدول النامية تشكو من تزايد السكان، وتتبنى البرامج اللازمة لضبط هذه الزيادة التي تسابق الموارد وكل الإمكانيات.

لكن هناك في الوقت نفسه مجموعة دولية تواجه عكس ذلك، فالسكان لا يتزايدون، بل تسجل مؤشرات بعض الدول أنهم في تناقص!

والمجموعة الدولية التي نعنيها هي ما يسمى الدول الصناعية، تسع عشرة دولة، تتركز في أوربا الغربية وأمريكا الشمالية، ونجد امتدادا لها في استراليا واليابان.

تسع عشرة دولة يتوقع البنك الدولي ألا يتجاوز معدل زيادة السكان فيها ٠,٤ في المائة خلال سنين (١٩٨٦ - ٢٠٠٠)، أي أنها أقل من نصف بالمائة سنويا، وهي بالضبط نصف المعدل الذي تحتسبه الدول نفسها في الفترة الواقعة بين (١٩٦٥ - ١٩٨٠).

ويوضح البنك الدولي المؤشرات بالارقام، فنجده يقول: إن كل ما سوف تزيده هذه الدول في العقد الأخير من هذا القرن (٢٦) مليون نسمة لاغير. وذلك مقابل (١٢) مليون نسمة في قطر عربي واحد هو مصر ومقابل (٤٦) مليون نسمة في بلد أفريقي واحد هو نيجيريا.

وبكلمات أخرى فإن سكان نيجيريا سوف يزيدون نحو ضعف ما سوف تزيد به كل الدول الصناعية المنتشرة في أربع قارات.

المفاجأة أن بعض هذه الدول سوف يشهد تراجعا في عدد السكان، فسوف ينخفض سكان المانيا الغربية من ستين مليون نسمة عام (١٩٩٠) إلى (٥٩) مليونا في نهاية هذا القرن، ثم (٤٠) مليونا عام (٢٠٣٠) الذي تسميه بعض المنظمات الدولية عام ثبات السكان، حيث لايزيدون ولا ينقصون بعد ذلك.

وسوف يتناقص سكان النمسا أيضا من (٨) إلى (٧) ملايين نسمة في السنوات السابقة نفسها، وتتناقص الدنمارك وبلجيكا، وتقف سويسرا والسويد دون حراك.

إنها ظاهرة جديرة بالتأمل إذن، ليس لأنها نقيض ما يحدث في العالم الثالث الذي يسجل أربعة أضعاف نسبة النمو في السكان، لكن لأن عدد السكان في النهاية يحكم حجم النشاط الاقتصادي، وحجم الاستهلاك، بل ويحدد - إلى حد كبير - شكل المجتمع وعلاقاته.

** هذا الوجه الايجابي :

وابتداء لا بد أن يكون للظاهرة وجهها الايجابي، فنحن أمام قدر محدود من السكان (٧٥٦

مليونا عام ١٩٩٠)، يتمتعون بقدر وفير من الموارد.

وفي تقدير صندوق السكان التابع للامم المتحدة أن الدول الصناعية التي لايصل تعداد سكانها إلى ربع العالم تستهلك ٧٥٪ من الطاقة المستخدمة في العالم كله، كما تستهلك ٨٥٪ من خشب العالم و٧٢٪ بالمائة من حديده. وذلك ينعكس على مستوى الناتج المحلي الذي ينمو بأربعة أضعاف معدل نمو السكان، كما ينعكس على الاستهلاك ومستوى المعيشة.

وتسجل الأرقام أن ١٠٢٪ من الأطفال في سن المرحلة التعليمية الابتدائية يدخلون المدرسة، وأن نسبة الذين يصلون للمرحلة الثانوية ٩٢٪ من المجموعة العمرية المعنية.

والشيء نفسه بالنسبة للخدمات الأخرى كالصحة، بينما يبلغ نصيب كل (٤٩٤٠) مواطنا في الدول المتوسطة الدخل طبيبا واحدا، ويهبط هذا المتوسط إلى (٥٥٠) مواطنا في الدول الصناعية.

وهكذا في كل نواحي الحياة، إنسان الشمال أكثر حظا، إنه يأكل ويتعلم ويلقى رعاية صحية وخدمات ترفيهية وحياة ثقافية أفضل، إنه يحقق إنسانيته في كل مظاهرها المادية، وكثيرا من مظاهرها المعنوية أيضا، إنه الأكثر ثراء، والأكثر قدرة. أحد أسباب ذلك أعداد السكان الذين يعيشون في هذا الجزء من العالم.

** ووجهه السلبي:

لكن الأكيد أن هناك الوجه السلبي لذلك، والعاجل من الأمر هو ما تنبهت له منظمات البيئة، من أن هذا النمط من الحياة لايمكن أن يستمر، فمع التقدم، ومع استخدام هذا المعدل المرتفع من الطاقة، يزداد التلوث وتزداد مخاطر البيئة.

في أرقام إجمالية يسجل صندوق السكان أن أوربا وأمريكا الشمالية وحدهما تفقدان (٣١) مليون هكتار من الأرض الخضراء كل عام، أما السبب فهو تلك الأحماض التي تتزايد في الجو والتربة بسبب الصناعة.

والحديث عن أخطار ما يسميه رجال العلم «تناقص الأوزون» في الطبقات العليا من الجو، وحدوث ثقب تعبر منه اشعاعات ضارة تقتل كل شيء، حديث لايتوقف، وأساسه نمط الحياة التي يعيشها هذا القدر المحدود من السكان.

لكن المشكلة السكانية التي ستفرز في المستقبل القريب شيئا آخر هو نقص العمالة المتاحة.

بين عامي ١٩٦٥، ١٩٨٠، كانت القوى العاملة بالدول الصناعية تنمو بنسبة (١,٣) بالمائة سنويا.

لكن في خمسة عشر عاما أخرى (١٩٨٥ - ٢٠٠٠) من المتوقع أن تهبط نسبة نمو القوى العاملة إلى نصف بالمائة، بل وتتراجع في بلد مثل المانيا الاتحادية بنسبة نصف في المائة تحت الصفر.

معنى ذلك أن التحدي أمام أوربا الغربية وأمريكا الشمالية واستراليا واليابان ما زال قائما، فما زالت لديها رحلة جديدة لانتاج تقنية أكثر تقدما، لتلعب دورين في وقت واحد:

** الأول: لتستخدم قدرا أقل من الأيدي العاملة.

** والثاني: لتنتج قدرا أقل من التلوث.

لذلك ليس غريبا أن تكون الثروة المتزايدة في هذه الدول هي التقنية وحق المعرفة، وليس غريبا أن تكون معظم القيمة في بعض الصناعات - مثل الحاسوب «الكمبيوتر» - ناتجا عن «سر الصنعة»، وليس ناتجا عن كمية الخامات أو كمية العمل اللذين دخلا في العملية الانتاجية.

ومنذ سنوات والدول الصناعية تختار الصناعة والفنون الانتاجية الأكثر تقدما.

** هذا المستقبل؟

حول المستقبل، وفي ضوء هذه الحقائق، لابد أن يثار عدد من القضايا المهمة.

إن عددا أقل من السكان، وعددا أقل من العمالة الجديدة، وقدرا أكبر من التقدم التقني لابد

أن يصحبه تغيرات أساسية .

سوف يزيد دون شك مستوى المهارة ، وتزيد الحاجة للفنيين وللمراكز العلمية ، وسوف تزيد الحاجة للتعليم ، وسوف تقل الحاجة للعمل اليدوي والعضلي .

ومع تركيب السكان الذي تتزايد فيه نسبة الاناث لتفوق نسبة الرجال بنسبة (٤) بالمائة فإنه من الطبيعي أن تطرح قضية المرأة ، وأن تصبح فكرة الارتداد إلى المنزل ، وهو ما بدا في بعض المجتمعات فكرة تناقض احتياجات المجتمع ، بل ويصبح منطقيا أن تزايد تسهيلات العمل وإغراءاته بالنسبة للمرأة ، لتمثل مكانها تماما في سوق العمل ، يجذبها الاحتياج الاقتصادي العام ، كما يشجعها الحجم الصغير للأسرة ، بعد أن تراجع معدل الانجاب .

الأهم أن تاريخ العلاقات الصناعية سوف يسجل صفحة جديدة بتوازن جديد بين قوى العمل وقوى رأس المال .

من الطبيعي أن تتزايد كثافة رأس المال ، وأن تنتشر المشروعات ذات التكلفة العالية والعمالة القليلة ، ومن الطبيعي أن تتغير طبيعة هذه العمالة ، فلن يصبح عمال الفحم أو عمال الصلب أو عمال الموانىء قوة ضاربة ، تفرض شروطها ، ولن تصبح علاقات العمل كما هي بأي حال ، وإن كان السؤال الذي يثار : أيهما سيكسب الجولة ، رأس المال بتزايد تركزه وتغير حجم العمالة التي يستخدمها وطبيعتها ، أم يكون الفوز لقوى العمل بعد أن أصبح العامل « نصف الهندسي » مطلوبا على نطاق واسع ؟

الأيام سوف تحسم ذلك ، لكن على نطاق آخر ، هو عالمنا الثالث ، فإن التغيرات سوف تأخذ مسارا آخر .

إن تقدم فنون الانتاج في الشمال لايعني الاستغناء عن الاكثر تخلفا أو الأكثر تلوثا بالكامل ، ولكن قد يعني تصدير ذلك الى دول الجنوب .

سوف يعاد ـ وما هو ما يحدث من فترة أيضا ـ تقسيم العمل الدولي، فبدلا من أن يكون العالم دولا تنتج الخامات، وأخرى تنتج المواد المصنوعة، فسوف تكون هناك دول تنتج الصناعات المتقدمة، وأخرى تنتج الصناعات المتخلفة أو الملوثة للبيئة .

وعلى غرار ما حدث طوال القرن الماضي فإن الدول النامية سوف تزيد تبعيتها التقنية للعالم المتقدم أيضا ، وقد تلهث ـ كما حدث ـ وراء الأكثر تقدما .

وهنا تطرح القضية ، فإذا كان للتقدم التقني قضية في الغرب يفرضها التطور وتفرضها قضية السكان والعمالة ، فهل نحتاج القدر نفسه من الاساليب الانتاجية في ظل تزايد السكان والعمالة ؟ وبكلمات أخرى : هل سيقودنا التطور إلى محطة الوصول نفسها ، بينما طبيعة مشكلتنا هي عكس ما يجري في العالم المتقدم ؟ وهل يكون هناك حل حضاري واحد لمشكلتين متناقضتين ؟

ذلك هو السؤال ، وتلك هي التداعيات للحقيقة البسيطة : السكان في الشمال يزحفون للأمام ببطء شديد وبعضهم يزحف أو يتقدم الى الخلف . إنها أمم تنكمش سكانيا وإن تعاظم شأنها اقتصاديا . □

* أفضل أن يموت المرء واقفا على قدميه .. على أن يعيش جاثيا على ركبتيه .
(اميليوزاباتا)

* فيا وطني لقيتُكَ بعدَ لأيٍ .. كأني قَدْ لقيتُ بكَ الشبابا . (شوقي)



ت. س. اليوت في ذكراه المئوية

بقلم : الدكتور على شلش

لم يقتصر تأثير ت . س إليوت في الشعر والنقد على أدباء جيله ومن تلاهم من أجيال في أوربا واميركا .

بل تعدى ذلك الى أدباء العالم الثالث أيضا ، ومن بينهم الأدباء في وطننا العربي ، خصوصا بعد أن ترجمت معظم أعمال إليوت الى العربية وعلى رأسها قصيدته المشهورة « الأرض الخراب »

في ذكرى مرور مائة عام على ولادته .. هذه بعض الأضواء على مراحل من حياته والمؤثرات البارزة التي لعبت دورها فيها :

في ٢٦ سبتمبر الماضي احتفلت بريطانيا بذكرى مرور مائة عام على ميلاد الشاعر توماس ستيرنز إليوت ، المعروف باسم ت . س . إليوت ، مع أنه ولد وتعلم في امريكا فقد أنتج كل أعماله الناضجة بعد هجرته الى بريطانيا قبيل الحرب العالمية الاولى .. ومن خلال هذه الاعمال امتد تأثيره الى كثير من بلدان العالم ولغاته ، بما في ذلك امريكا نفسها .

ومع حلول الذكرى المئوية لميلاد إليوت أخرجت دور النشر الانجليزية بعض الكتب والدراسات المهمة حول حياته وأدبه . وكشف الباحثون النقاب عن بعض الجوانب الغامضة في تاريخه . ولم يبق شيء من أعماله غير منشور سوى جزأين من رسائله الخاصة إلى أهله وأصدقائه ، سيصدران في العامين القادمين على التوالي ، بعد أن ظهر الجزء الأول بالفعل . وكذلك لم يبق سوى رسائله الخاصة الى صديقته الأمريكية إميلي هيل التي أوصى بعدم نشرها قبل مرور ٥٠ عاما على وفاته ووفاتها ، أي في عام ٢٠٢٠ .

أول سيرة شاملة

يأتي على رأس هذه الكتب والدراسات الجديدة عن إليوت كتابان مهمان أولهما يضم سيرة إليوت من تأليف الشاعر والقاص الانجليزي الباحث بيتر

اكرويد ، والآخر يضم رسائل إليوت الشخصية لأهله وأصدقائه ومعارفه من إعداد زوجته الثانية فاليري إليوت التي كانت سكرتيرة له قبل زواجها عام ١٩٥٧ .

أما سيرة إليوت فتكتسب أهميتها من كونها أول سيرة ضافية شاملة تؤلف عنه . فمن المعروف أنه يكره السيرَ ، ولا يهتم بوضع سيرة لحياته حتى لوكانت هذه السيرة ذاتية بقلمه . ومن المعروف أيضا أنه كان يفصل بين حياة الأديب وإنتاجه ، ولا يرى الأدب جزءا من حياة منتجه ، بل يرى الإبداع هروبا من شخصية مبدعه . ولذلك بذل اكرويد جهودا مضنيا في سبيل جمع مادة هذه السيرة الإليوتية ، فتنقل بين بريطانيا وأمريكا ، ونقب في آلاف الأوراق ، وقلب في عشرات الكتب والصحف ، وقابل الباقين على قيد الحياة من أهل إليوت وأصدقائه ومعارفه ، حتى خرجت السيرة في ثوب محكم ، بعد ان استكملت عدتها من البحث والاستقصاء .

ويتبين من هذه السيرة أن إليوت عاش ٧٧ عاما (١٨٨٨ - ١٩٦٥) توزعت بين مراحل وأطوار مختلفة ، فقد قضى الثلث الأول من حياته في نعيم وهناء بين أسرة ثرية ، وفرت له أفضل أنواع التعليم ، وألحقته بجامعة هارفارد التي تخرجت فيها الصفوة ذات النفوذ في أمريكا ، وأعدته - حسب استعداده وميوله - لدراسة الأدب والتاريخ والفلسفة ، ليكون استاذا جامعيا بعد ذلك ، بل يسرت له السفر الى أوربا ، وقضاء عام دراسي في فرنسا قبل إنهاء الماجستير . ولكن حرفة الأدب كانت قد أدركته . ومع أن أمه كانت تنظم الشعر ، وترعى محاولاته المبكرة في كتابته ، فقد كان يهمها أن يصبح استاذا في الفلسفة ، وأن يكتب الشعر في وقت فراغه . ومع أنه أبدى تفوقا في دراسته الجامعية ، وأنهاها في ثلاث سنوات بدلا من أربع ، فلم يعقه ذلك عن الاستمرار في كتابة القصائد ، ولا عن قراءة أصعب شعر كتبه الفرنسيون قبل ولادته وبعدها ، وهو الشعر الرمزي المحفوف بالغموض في الصور والمعاني . وفتح له هذا الشعر نافذة هبت عليه منها ريح الاصرار على تتبعه واستكناه أغواره . وكان العام الذي قضاه في باريس (١٩١٠ - ١٩١١) تجربة لا تنسى ، أتقن خلاله الفرنسية حتى كتب بها شعراً ، واطلع على مالم يطلع عليه من شعرها وشعر الإيطالية والألمانية ، وعرف شابا من أذكى شباب جيله كان يدرس الطب ويكتب الشعر ، وهو جان فيردينال الذي اهدى اليه بعد ذلك ، قصيدته المشهورة « اغنية حب ج . الفرد بروفروك » وقد قتل فيردينال وهو يطبب الجرحى على إحدى جبهات القتال أثناء الحرب الاولى .

ولكن أهم ما خرج به إليوت من تجربة تلك « السنة الرومانتيكية » كما سماها ، هو أنه عقد العزم على أن يُخلِص للشعر ، وأن يستجيب لذلك الطُّعم » الاوربي الذي تسلل الى أعماقه ، ولم يمض عليه في هارفارد بعد عودته ثلاثة أعوام ، حتى هبطت عليه فرصة ذهبية ، حين عرضت عليه الجامعة منحة دراسية لإعداد اطروحة دكتوراه عن فلسفة ف . هـ . برادلي (١٨٤٦ - ١٩٢٤) الفيلسوف الانجليزي الذي تأثر بأسلوبه . وكانت المنحة تقضي بالسفر الى جامعة اوكسفورد لمدة سنة قابلة للتجديد ، فسافر على الفور . وفي انجلترا أو في لندن على وجه التحديد ، قابل محرك الحداثة في عصره الشاعر الناقد عزرا باوند . وكان يكبر إليوت بثلاث سنوات فقط ، وقد سبقه الى عالم النشر بخمسة دواوين من الشعر ، فضلا عن أنه ضاق بأمريكا والتعليم في الجامعة ، وجاء مهاجرا يسعى وراء المغامرة والحيوية اللتين تميزت بهما اوربا في ذلك الوقت .

مضت السنة الاولى بإليوت في انجلترا دون أن يكتب اطروحته ، فلما تجددت المنحة سنة أخرى بدأ في كتابتها . ولكنه كان قد وقع تحت تأثير باوند الذي أعجبه شعره ، وشرع في السعي الى نشره . وحين انتهى إليوت من اطروحته كان قد قرر البقاء والهجرة النهائية ، فأرسل الاطروحة الى الجامعة ،

وبقي هو . وعندما جاءه خبر قبول الجامعة لبحثه ودعوتها اياه للعودة والانتظام في سلك التدريس ، كان قراره بالبقاء أقوى من أي إغراء .

وهنا تبدأ مرحلة أخرى تستغرق الثلث الأوسط من حياته ، وتستمر حتى اشتعال الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ .

في هذه المرحلة يتحول «ابن الذوات» الأمريكي الى « كادح » انجليزي يحاول أن يكسب عيشه بعرق جبينه من الكتابة للصحف والتعليم بالمدارس ، وسط دمار الحرب وانتشار البطالة في انجلترا . وينشر بعض شعره الباكر ، ويتزوج من فتاة انجليزية . ولكن هذه الزوجة الاولى تنغص عليه حياته بأمراضها المتعددة المزمنة التي انتهت بها الى الجنون . ويضطر الى العمل بأحد البنوك لمدة تسع سنوات . وفي عام ١٩٢٠ ينشر كتابا نقديا ناجحا بعنوان « الغابة المقدسة » ثم ينشر أهم قصائده وأطولها بعد سنتين ، بعنوان « الأرض الخراب » وفي عام ١٩٢٥ يترك البنك ليعمل مستشارا ومديرا للنشر بدار فيبر وفيبر **Faber & Faber** . ثم يضطر الى الانفصال عن زوجته ، ويعيش بمفرده تارة ، أو مع بعض أصدقائه تارة أخرى ويكتسب الجنسية البريطانية ، ويتحول الى الكنيسة الانجليزية ، وينادي بأنه كلاسيكي في الأدب ، ملكي في السياسة ، انجلو كاثوليكي في الدين . بل يصبح متعصبا للدين ، وضرورته في تطهير حياة الفرد وقيم المجتمع . ولكنه يصبح ايضا على رأس شعراء عصره وأكثرهم نفوذا . ويؤسس لنفسه مكانة مرموقة في النقد والشعر على السواء ، وهي مكانة أسهمت في ترسيخها مجلة ادبية اسمها « المعيار » **Criterion** وكان قد أسس هذه المجلة عام ١٩٢٢ بتمويل من سيدة محبة للأدب ، ثم نقلها الى دار النشر التي عمل بها . وعن طريقها - مع دار النشر - قدم العديد من الأصوات والمواهب الشعرية الجديدة .

وقبل أن تنتهي تلك المرحلة الثانية ، كان إليوت قد نزل إلى ميدان التأليف المسرحي الذي استمر على ساحته الى النهاية ، مثلما استمر في عمله بدار النشر . ومع بداية الحرب العالمية الثانية ، تبدأ المرحلة الأخيرة في حياته . وفيها توقفت مجلته المرموقة ، وازداد إقبالا على الشعر المسرحي وإقلالاً من الشعر الغنائي . وفي عام ١٩٤٧ ماتت زوجته بإحدى المصحات وأصبح شيخا شبه محطم على مشارف الستين . ولكن سرعان ما تجددت حيويته فور فوزه بجائزة نوبل عام ١٩٤٨ . وصار يتلقى النياشين وشهادات الدكتوراة الفخرية التي انهالت عليه من جامعات امريكا واوربا . وازدادت تنقلاته وأسفاره ، ولا سيما الى امريكا ، بعد زواجه الثاني ، وعن طريق هذا الزواج وجد السعادة الشخصية لأول مرة ، وعوض نفسه عن تعاسات زواجه الأول . وظل مقبلا على الحياة حتى وفاته . وقبيل موته عام ١٩٦٥ أوصى بإحراق جثته ، ودفن رماده بقرية « ايست كوكر » الانجليزية الصغيرة التي خرج منها جده الأكبر مهاجرا الى امريكا في القرن السابع عشر .

ملامح وخصال

من هذه المراحل الثلاث في حياة إليوت يخرج قارىء سيرته ببعض الملامح البارزة في شخصيته وأدبه على السواء . فقد غرست فيه تربيته الصارمة الكثير من الانضباط والنظام والشدة على النفس . واذا كانت هذه من خصائص المشتغلين بالفكر والعلم لا الشعر ، فقد أنتجت كتاباته النثرية والنقدية ، ولكنها لم تقض على حساسيته الأصيلة التي كانت وراء ابداعاته الشعرية ، فضلا عن أن نقده كان نوعا من التبرير النظري لشعره من جهة ، ومحاولة لفهمه وتطويره من جهة أخرى . ومع ذلك فشعره من النوع العادي اليسير على الفهم والاستجابة الفورية ، ففيه طبقات فوق طبقات من المعاني والاشارات ، وفيه أيضا تيار من الفكر والوعي بالتراث الانساني ، يسري في أوصاله فيكسبه فرادة وعمقا . ولولا أن حساسيته بعيدة الغور ، لما استطاع أن يفلت من قبضة العقل

وتجريد الفلسفة .

وقد كان من أهم الاتهامات النقدية التي وجهت الى شعر إليوت أنه عقلاني تطغى عليه الثقافة ، وهو اتهام سبق أن فنده مريده الشاعر الناقد ستيفن سبندر ، وعلق بأن أصحابه ظنوا ان العقل بارد بالضرورة ، وأضاف : « لو كان إليوت باردا لما انسقنا وراءه » وأشار الى غنى قصيدة « الأرض الخراب » بالموسيقا واللغة الطيعة ، مما يندر وجوده في الشعر ، الأمر الذي يجعل شعر إليوت قريبا من العواطف .

واذا كان إليوت حاول كثيرا في حياته الشخصية وكتاباته النقدية أن يفصل بين الأديب وإبداعه ، وأن يتخفى ويتكتم ، فلم يكن شعره منفصلا عن حياته ولا كان نقده منفصلا عن شعره . وهذا ما تظهره سيرته بجلاء . ولو أخذنا « الأرض الخراب » كمثال ، وطابقناها على ظروفه الشخصية وأحوال عصره ، لوجدناها من غرس هذه الظروف وتلك الأحوال . فقد كانت حياته خلال السنوات التي سبقتها ـ منذ انتهاء الحرب الاولى عام ١٩١٨ على الأقل ـ جحيما من المنغصات والأزمات والأمراض كما كانت انجلترا ـ بل كانت أوربا بأسرها ـ خراباً روحياً فوق الخراب المادي . وفي هذا وذاك خرجت « الأرض الخراب » لتعبر عن حالة خاصة وأخرى عامة سواء بسواء .

تظهر في السيرة ـ بعد ذلك ـ مجموعة من الخصال التي تميز بها إليوت نفسه ، وأهمها القلق ذو السطح الهادىء إذا صح التعبير ، أي ذلك القلق الداخلي المثير للإبداع والتأمل ، حتى حين ركن الى الدين كنوع من الخلاص على المستوى الشخصي ، لكن هذا القلق المبدع الذي يميز كبار المبدعين كان مصحوبا بالتناقض أحيانا في السلوك والأقوال ، مثلما كان مغلفا بضبط النفس والكتمان والتحفظ .

واذا تناقض هذا كله مع الوفاء للأصدقاء والسعي لتشجيع الشباب فذلك هو التناقض المحبوب على أي حال . فقد كان إليوت وفيا لأصدقائه لا سيما عزرا باوند الذي وقع في مشكلته المشهورة مع



● ت . س . اليوت

بلاده ، بسبب آرائه الفاشية ومناصرته لموسوليني ، وكاد يتعرض للإعدام بتهمة الخيانة الوطنية ، لولا سعي الكثيرين وعلى رأسهم إليوت الذي ظل يدافع عنه ، ويتوسط له ، ويزوره حتى آخر حياته .

وكان إليوت أيضا حفيا بالمواهب الشابة الجديدة ، ولم يدخر وسعا في سبيل تشجيع أصحابها ونشر أعمالهم في مجلته ودار النشر التي عمل بها . ولعل أبرز هؤلاء الشباب ـ في جيله ـ ثلاثة ، هم ستيفن سبندر وويستان هيو أودن ، ولويس ماكنيس ، الذين وجدوا في تشجيعه وعطفه عونا على الظهور والتقدم في ساحة الشعر .

الرسائل مثل النشرات

وأما رسائل إليوت الشخصية الى أهله وأصدقائه التي جمعتها زوجته الثانية فتلقى أضواء كثيرة على

سيرته وخصاله وكتاباته ، ولكنها - على كثرتها - لا تقدمه ككاتب رسائل من طراز عال مثل بعض معاصريه ، ولا سيا برناردشو ، وفرجينا وولف ، ومن الطريف أن إليوت يكتب في إحدى رسائله ، لزميل دراسته الشاعر والناقد الامريكي كونراد ايكن : « يجب أن تكون الرسائل صريحة لا تعرف الكتمان والا صارت مجرد نشرات رسمية » ، ومع ذلك جاءت معظم رسائله في هذا المجلد الكبير (٦٣٩ ص) أقرب الى النشرات الرسمية ، كما لاحظ أحد المعلقين الانجليز . ويبدو أن السر في هذا التناقض الصغير ، يرجع الى أن معظم هذه الرسائل كان أقرب الى أداء الواجب ، بمعنى أن إليوت درج في الفترة من ١٨٩٨ إلى ١٩٢٢ ، التي يشملها المجلد ، على كتابة الرسائل « الإخبارية » لا الرسائل التعبيرية . فهو يروي أخباراً أو يرد على أخبار . ولكنه حين يعبر عن نفسه ، ولا سيا في رسائله التي كتبها أثناء سنته الرومانتيكية في باريس ، يفعل ذلك بانفعال وعاطفة وحماسة .

ومن الأضواء التي تلقيها رسائله على سيرته وخصاله أنها تؤكد اصراره المبكر على الشعر وتمرده على الفلسفة . فهو يكتب أثناء دراسته في أوكسفورد : « أوكسفورد جميلة جدا ، ولكني لا أحب أن أموت » كما تؤكد قلقه وتأثره بفترة الحرب الأولى ، فهو يقول في رسالة أخرى : « لقد غيرتنا جميعا هنا السنوات الثلاث الماضية بشكل لا يقاس عليه ولا دواء فيه » بل تؤكد هذه الرسائل عناءه مع زوجته الاولى ، وشظف العيش الذي تعرض له ، وقبضه على وظيفة البنك بيد من حديد ، حتى يرضي أهله على مستقبله ، وينسى همومه المتراكمة . ثم يأتي بعد ذلك تصويرها لشكواه من الناس والزمان التي اشارت اليها سيرته في أكثر من مرحلة ، وتعاونه مع أصدقائه - ولا سيا أيكن وباوند - عند كتابة قصيدة جديدة ، فقد درج على عرض المخطوطة على من يصطفي رأيه . ولعل أوضح مثال لهذا الاصطفاء هو ما قام به باوند من جهد في صقل « الأرض الخراب » واختصارها وإنهائها على نحو غامض ، وقد لازمت هذه العادة إليوت حتى النهاية . فمن النادر أن كتب شيئا من الشعر بعدها دون ان يستشير فيه اصدقاءه .

هل كان معاديا لليهود ؟

في غمرة الاحتفال بمرور قرن من الزمان على مولده أثار يهود بريطانيا مشكلة قديمة تتعلق بشعره وشخصه . فقد انقسم الرأ ي العام اليهودي حول مشاركة الطائفة اليهودية في ذلك الاحتفال . وظهرت ادعاءات بأن إليوت أسهم بكتاباته المبكرة - خلال العشرينيات والثلاثينيات - في إذكاء نار العداوة لليهود ، التي انتهت بالابادة الجماعية (الهولوكوست) على يد هتلر . ولكن مشكلة عداء إليوت المزعوم لليهود ليست جديدة في الحقيقة وقد تعرض لها مؤلف سيرته على أي حال . كما مستها رسائله الشخصية . وهي ترجع الى عام ١٩٥١ ، حين حضر ندوة شعرية في لندن ، القى فيها شاعر يهودي شاب - وقتها - قصيدة هجاء لموقفه من اليهود . وعند ذاك تكهرب جو الندوة ، ولكن إليوت علق بقوله : « انها قصيدة جيدة قصيدة جيدة جدا » ونشرت الصحف الحادث في اليوم التالي ، وحاولت أن تستقصي أبعاده من إليوت نفسه ولكنه رفض الكلام في الموضوع ، واكتفت سكرتيرته بتصريح نشرته الصحف قالت فيه : « لقد كتب اليه كثيرون من اليهود يتهمونه بالعداء للسامية . وهذا غير صحيح » .

ومع ذلك كان لإليوت أصدقاء كثيرون من اليهود ، تماما مثلما كان لعزرا باوند الذي كان ينكر عداءه لليهود في الوقت الذي يهاجمهم فيه . ويبدو أن إليوت تأثر بصديقه باوند في هذا المجال . ولكن الأثر الأكبر جاءه من المناخ المعادي لليهود وسط المثقفين الاوروبيين خلال ذلك الربع الأول من القرن . فمن المعروف أن سنته الرومانتيكية في باريس ، قربته من أفكار الشاعر الفرنسي ذي الافكار المعادية للديموقراطية واليهود شارل مورا (١٨٦٨ - ١٩٥٢) ، وكان مورا يرى أن الحرية

أدت الى الفوضى والعدمية ، وأن الديموقراطية لم تعد صالحة لحفظ النظام الاجتماعي ، وأن المموِّلين اليهود مثل آل روتشيلد يمثلون شرا اجتماعيا مستطيرا ، وأن اليهود أنفسهم خطرون لأنهم وضعوا ثقافتهم - منذ زمن الكتاب المقدس - على أساس مبدأ المساواة مع البشر ، وهو مبدأ سام . وبسبب هذه الأفكار التي لم تكن جريئة في عصره شكل مورا حزب « العمل الفرنسي » اليميني المعادي لليهود ، وساند حكومة بيتان التي تعاونت مع هتلر اثناء الحرب الثانية ، وحكم بالسجن عند انتصار الحلفاء . ولم يكن مورا وحده في هذا الموقف الفكري من اليهود والنازية ، فقد شاركه بعض أدباء جيله ومفكريه مثل لوي فرديناند سيلين وجورج سوريل . كما شاركه بعض أدباء انجلترا من أصدقاء إليوت بعد ذلك ، ولا سيما الشاعر الرسام ويندم لويس . ولكن أثر مورا في إليوت الشاب كان أقوى . وكان قد سبق إليوت بثلاثيته التي أعلنها عام ١٩١٣ حول « الكلاسيكية والكاثوليكية والملكية » .

كان يكره الذكرى المئوية

روى ستيفن سبندر في ذكرياته عن إليوت عقب وفاته عام ١٩٦٥ ، انه تلقى منه رسالة في مارس ١٩٣٢ ، أثناء الاحتفال بذكرى مرور مئة عام على وفاة الأديب الألماني جيته . وفي هذه الرسالة علق إليوت على الذكرى بقوله : « لست أكره لجيته سوى أن تقام له ذكرى مئوية . فأنا دائما أكره أي شخص عند الاحتفال بذكراه المئوية » . وها هو الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد إليوت قد مر دون ضجيج في وطنه الأول ووطنه الثاني معا ، فهل يأتي الاحتفال بالذكرى المئوية لوفاته وقد نسيه الناس ، وربما كرهوه ؟ يبدو أن ما سيبقى منه هو الشعر الذي نجح - بموهبته وثقافته - في جعله ذكرى لعذاب القلب والروح ، ولغة للتفاهم بين القلب والعقل . أما نقده فسيبقى منه انضباط الرؤية ، ودقة التحليل ، ووضوح المصطلح . وأما صيته الذي انحدر في السنين الأخيرة ولا سيما في أوساط الشباب ، فينطبق عليه تعليل الناقد دريك ترافرسي في مقدمة كتابه « ت . س إليوت : القصائد الطويلة » الصادر في لندن عام ١٩٧٦ .

يقول ترافوسي :

« لاشك أن هذا (الانحدار في الصيت) رد فعل طبيعي - الى حد ما - للاعجاب المبالغ فيه ، وغير النقدي ، الذي حظي به انتاجه بين قراء كثيرين منذ ثلاثين سنة أو اكثر . ولاشك أن شعر إليوت له ضعفه الذي يستمر قراء المستقبل في الوعي به على الأرجح . ومع ذلك فالحق أن معظم الأدباء المهمين تقريبا في عصرنا ، قد عانوا من الانحدار المؤقت في صيتهم ، خلال السنوات التي أعقبت وفاتهم » . □

■ مادام لك ركن فى القلب فستجد لك ركنا فى البيت . (انيتا اكبرج)

■ لا تناقش غبيا لأن الناس لن يعرفوا أيكما الغبى (سلفادور دالي)

■ يبدو لنا عمل غيرنا دائما أسهل من عملنا . وكلما أحسن غيرنا القيام به بدا لنا أكثر سهولة . (والت ديزنى)

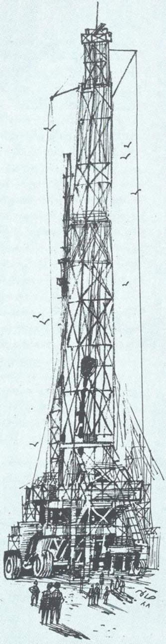
■ أعطنى عددا قليلا من الشرفاء ، وأنا أحطم لك جيشا من اللصوص (جان جاك روسو)



جان جاك روسو

النفط والتنمية والبيئة في الكويت

بقلم :
المهندس حامد شعيب *

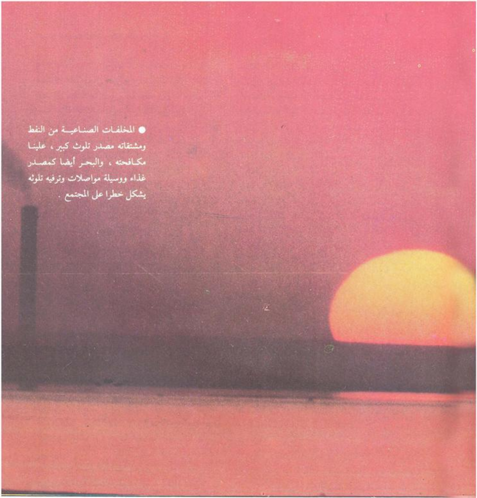


« أصبحت قضيتا البيئة والتنمية من أكثر قضايا العالم إلحاحا ، وشُغِلَ العالم كله بحل التناقض بينهما ، كيف يمكن استمرار التنمية دون أن يؤثر ذلك على سلامة البيئة ؟

وفي الكويت كانت التنمية تحديا حقيقيا ، وحاجة لاخياراً .

وهذه قصة مسيرة حافلة بالتحديات والتوازن بين أهداف التنمية وسلامة البيئة » .

* رئيس جمعية حماية البيئة الكويتية .



● المخلفات الصناعية من النفط ومشتقاته مصدر تلوث كبير ، علينا مكافحته ، والبحر أيضا كمصدر غذاء ووسيلة مواصلات وترفيه تلوثه يشكل خطرا على المجتمع .





لامفر لنا من أن نبدأ بالجغرافيا ، فالمكان - جغرافيا - يتحكم في صياغة شكل الحياة ، فهناك اختلافات في الظروف والبيئة والمناخ . والنشاط الاقتصادى نتيجة لخصوصية الوضع الجغرافي . وبلد ما يقع في سهل غير بلد يقع في جبل ، وآخر يقع في واد غير ذلك الذى يقع في صحراء ، والبلدان التي تقع في حزام الزلازل والبراكين غير تلك التي تقع في حزام النفط .

وكذلك موقع البلد من خطى العرض والطول ، وأثر ذلك على الرياح والمناخ والأمطار ، وهذه كلها عوامل تتحكم في الثروة والموارد الطبيعية وتحدد بالتالى شبكة العلاقات الاجتماعية .

الكويت . . الجغرافيا والثروة

تغطى مساحة الكويت نحو ١٧,٨٠٠ كلم² من الأرض الواقعة في الجزء الشمالي من الخليج العربي . معظم هذه المساحة عبارة عن صحراء قاحلة تدب فيها الحياة عقب فصل الشتاء الذى يمتد من شهر اكتوبر وحتى شهر ابريل . يبلغ معدل سقوط الأمطار السنوى في الكويت نحو ١٠٠ ملم . وتتفاوت طبيعة المناطق الساحلية فيه من شواطىء ضحلة مكسوة بالطمى في الجزء الشمالي من البلاد الى كثبان رملية وشواطىء أكثر عمقا وبرودة في الجنوب . ولهذا تتركز التنمية العمرانية في مساحة على شكل حرف L (بالانجليزية) حول جون الكويت والحدود الجنوبية المحاذية للمملكة العربية السعودية . تزدهر في المناطق الساحلية أنواع مختلفة من الحيوانات والنباتات المحلية ، ومجموعة متباينة من الطيور المقيمة والمهاجرة ، علاوة على الثروة السمكية الهائلة بما فيها الروبيان ومحار اللؤلؤ اللذان اشتهر بهما الخليج العربي .

ان اكتشاف النفط واستثماره في أواخر الأربعينيات دفع شعب الكويت الى اقتحام الاقتصاد العالمي ورفده بمصدر جديد هائل من الثروة . ولقد أظهرت الكويت منذ بداية عهدها بانتاج النفط ، العزم على استخدام عوائدها لتحقيق أفضل تنمية تلبى طموحات شعبها ، فشرعت الحكومة في التخطيط لاقامة مناطق صناعية ، وسكنية ، وتجارية جديدة في محاولة منها لبناء اقتصاد ثابت يمكنه البقاء والاستمرار حتى بعد نضوب النفط .

وفي الوقت الذى قامت فيه الكويت بتحديث اقتصادها ونقله الى التصنيع واجه شعبها عددا من التحديات البيئية ، فقد تعرضت الصحراء والنظام البيئي الساحلي في الكويت للتهديد نتيجة للتحديث السريع والزيادات المفاجئة في اعداد السكان ، ولذا تشكلت في السنوات الخمس عشرة الماضية هيئات حكومية ومنظمات أهلية لتطوير استراتيجيات بيئية ، وتشجيع الحفاظ على الموارد البيئية ، ومقاومة التلوث والنهوض بالوعي البيئي لدى عامة الناس . وتقوم هذه المنظمات بالعمل على تشجيع التعاون الاقليمي فيما يتعلق بالموضوعات البيئية ، وعلى التأكد من أن برامج التنمية على جميع المستويات - المحلية ، والاقليمية ، والدولية - ليست مجدية اقتصاديا فحسب ، بل وسليمة من الناحية البيئية أيضا .

الصحراء في مرحلة انتقالية

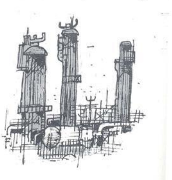
بلغ عدد سكان الكويت قبل اكتشاف النفط واستثماره ١٥٠ الف نسمة تقريبا ، سكن معظمهم مدينة الكويت ، بينما توزع الباقي في القرى الساحلية وواحة الجهراء . كان بدو الصحراء الرحل يرعون أغنامهم وجمالهم حيثما توافرت المراعي ومياه الأمطار . وكانت مدينة الكويت بسفنها الشراعية (الداو) التي تجوب البحار ، وبأسطولها الخاص بصيد اللؤلؤ تمثل ميناء تجاريا مزدهرا في الخليج .

ونظرا للعدد المحدود من السكان ، ومن مصادر العيش المتوافرة كذلك ، فإن بإمكان المرء القول إن الموارد كانت في ذلك الوقت تكفى لفترات طويلة وتفى بحاجات السكان . وكان بوسع الطبيعة أن تجدد مخزونها في كل فصل ، فلم يكن هناك صيد جائر ، ولارعى جائر ، ولا اتلاف للبيئة ، عن طريق السيارات أو غيرها من مصادر التلوث الاخرى ، وحتى أواخر الاربعينيات كانت الغزلان والارانب البرية والطيور المهاجرة تتوافر بكثرة ، وكانت الأزهار البرية خلال فصل الربيع تحول الصحراء الى جنة طبيعية تدوم الى أن يأتي فصل الصيف بحره الشديد وعواصفه الترابية .

وفي الخمسينيات بدأت الحكومة نتيجة لتزايد

عائدات النفط في تنفيذ خطة شاملة للتنمية والتطوير ، وقد ترتب على ذلك زيادة سريعة في عدد السكان المحليين والوافدين حيث ارتفع العدد من ٢٠٦,٠٠٠ عام ١٩٥٧ الى ما يربو على مليون ونصف المليون عام ١٩٨٥ ، وكان من أصعب الأمور التى نتجت عن التنمية الحاجة الى توفير مياه تكفي لتلبية حاجات الأعداد المتزايدة من السكان ، وكان الكثير من الماء المتوافر يعتمد على فصل الأمطار ، وعلى طرائق بدائية لجمع ماء المطر وخزنه ، أما كمية مياه الأمطار التى كانت تخزن في (برك) تحت الارض بعد جمعها من اسطح المنازل فلم تكن تفى بحاجة السكان طوال العام ، ولذا كان يتم استغلال مياه جميع (القلبان) المعروفة ، وفي بعض **الأماكن** كان يتم بناء سدود لتجميع أكبر قدر ممكن من المياه في كل مرة تهطل فيها الامطار ، وأما نقل الماء الى المدينة فكان يشكل معضلة أخرى ، نظرا لعدم توافر وسائل نقل غير الجمال والحمير ، وقد تغلب اسطول السفن الشراعية الكويتي في بادىء الأمر على هذه المشكلة فقام بنقل المياه العذبة الى الكويت من مصب **شط** العرب في البصرة ، وكانت الرحلة تستغرق نحو ثلاثة أيام كحد أدنى ذهابا وايابا عندما تكون الرياح مؤاتية .

غير أن الكويت وجدت في نهاية الأمر حلا تقنيا لمشكلة نقص المياه لديها ، فتفاوضت في عام ١٩٥٣ على اقامة المحطة الأولى لتقطير مياه البحر وانتاج الطاقة الكهربائية ، وقد بلغت الطاقة القصوى لانتاج هذه المحطة من الماء نحو مليون جالون



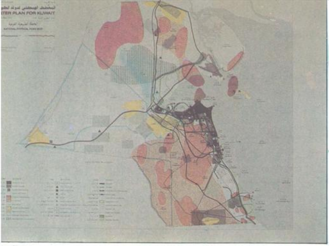
امبراطوري يوميا . ومنذ ذلك الحين بدأت الكويت في زيادة تسهيلات انتاج المياه العذبة بشكل منتظم الى حد تمكنت معه في عام ١٩٨٦ من انتاج ١٦٠ مليون جالون يوميا من أصل ٢١٥ مليون جالون يمكن انتاجها .

وفي نفس الوقت فإن مشروعات البحث عن المياه الجوفية التى بدأت منذ الخمسينيات ، **أسفرت** عن اكتشاف مخزون كبير من المياه عالية الملوحة في منطقة الصليبية الى الغرب من مدينة الكويت ، حيث تم سحب هذه المياه واستخدامها في الاغراض غير المنزلية ، ثم اكتشف بعد ذلك في الروضتين **والشقايا مستودعان آخران كبيران لنوعية أفضل من** المياه الصليبية . (يضاف الماء الصليبي الى المياه المقطرة بنسبة ١ الى ٩ وذلك لجعل ماء الشرب سائغ **المذاق) واكتشفت** مياه عذبة في المنطقتين السابقتين . وقد بلغ منتوج المياه الجوفية نحو ٩٦ مليون جالون يوميا . أما مشروع استثمار أهم مصدر للمياه من شط العرب الذي يبعد بضع مئات من الكيلومترات فقط عن مدينة الكويت فهو مازال قيد الدراسة .

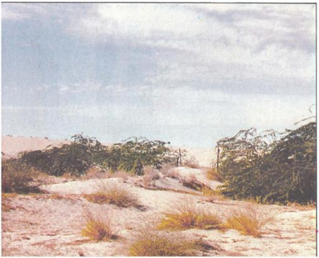
ضبط التنمية

بذلت حكومة الكويت منذ الأيام الاولى لاستثمار النفط جهوداً ملحوظة لضبط عمليات التنمية الطبيعية في البلاد . فقد سعت الحكومة الى تحديث اقتصادياتها فاتجهت الى استثمار عائدات النفط في مشاريع الاسكان ، والخدمات الصحية ، والتعليم ، وفي تحسين البنية التحتية للبلاد . وقد أدرك حاكم الكويت آنذاك المغفور له الشيخ عبد الله السالم الصباح ، ومجموعة من المستشارين الوطنيين المرموقين ، الحاجة الى هيئة خاصة لإقرار ومتابعة تنفيذ خطط التنمية المبنية على ما هو متوافر من مصادر ، وعلى وضع الخطط التي تلبى حاجات المستقبل ومتطلباته .

وقد مرت عملية ضبط التنمية في الكويت بثلاث مراحل بدأت المرحلة الاولى منها بإنشاء (مجلس الانشاء) وكان برئاسة المغفور له الشيخ فهد السالم الصباح ورؤساء عدة ادارات (التعليم ، والصحة ، والمالية وسواها) علاوة على بعض الخبراء

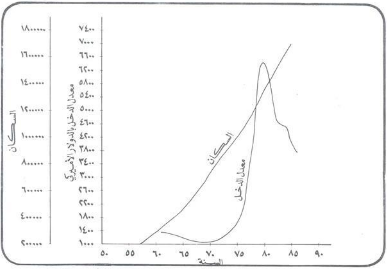






● الزحف الصحراوي مشكلة تهدد التنمية العمرانية والبيئة في الكويت كما تبين الخارطة والمناطق المحمية تبقى خضراء طوال العام حتى بدون مطر ، وإلى (أقصى اليسار) نوع من نباتات البيئة المحلية وهي غذاء للماشية ومصدر للوقود وتعمل على تثبيت التربة .





● تطور زيادة سكان دولة الكويت بالمقارنة مع معدل دخل الفرد السنوي (٥٥ - ١٩٨٥).

من الخارج ، وذلك في عام ١٩٥٢ ، وكانت المهمة الرئيسية للمجلس هي الاشراف على التنمية الطبيعية لمدينة الكويت ، وضواحيها ، وسواها من المناطق السكنية الاخرى .

وقد أقر المجلس الخطة الهيكلية الرئيسة لعام ١٩٥٢ وهي الخطة التي شكلت فيما بعد الأساس لخطط التنمية التي تلتها . وفي عام ١٩٦٠ صدر مرسوم بإنشاء هيئة اخرى للتخطيط تحت اسم مجلس الانشاء والتعمير الذي تشكل من ستة أعضاء وثلاثة مستشارين ليس لهم حق التصويت علاوة على رئيس مهندسي وزارة الاشغال العامة .

اما المرحلة الثانية من الخطة فبدأت بإنشاء مجلس التخطيط في عام ١٩٦٢ ، وهو المجلس الذي حظي بسلطات أوسع كثيرا من الهيئتين السابقتين ، كما حظي بمشاركة شعبية أوسع ، وفي عام ١٩٧٠ شهدت الخطة تعديلا ازدادت بموجبه المشاركة الشعبية واكتسب القطاع الخاص دورا مساويا لدور الحكومة في التخطيط ، وأما المرحلة الثالثة من خطة التنمية فقد بدأت مع انشاء وزارة التخطيط في عام ١٩٧٦ التي ضم اليها مجلس التخطيط ، وأصبحت مسئولة عن جميع عمليات التخطيط الاقتصادي ، والاجتماعي ، والعمراني .

وبعد ذلك تشكل في مايو من عام ١٩٨٧ المجلس الأعلى للتخطيط برئاسة سمو ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء لتلبية هدف الحكومة الجديد المتمثل في اشراك القطاع الخاص في خطط التنمية .

لقد اضطلعت الكويت منذ استحداث خطة التنمية الوطنية الرئيسة عام ١٩٥٢ بدور طليعي رائد في منطقة الخليج من حيث ضبط التنمية واخضاعها للسيطرة بهدف المحافظة على البيئة . وكان ذلك يتم بمراجعة الخطة وتعديلها مرة كل خمس سنوات تقريبا لكي تتمشى مع النمو السكاني السريع ، ومع تزايد الأنشطة الاقتصادية حيث كان التعديل يعتمد على بيانات حول النشاطات السكانية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، ومتطلباتها المستقبلية .

ولقد جاءت الخطة الهيكلية الوطنية الأخيرة ، التي اعتمدت في عام ١٩٨٣ لتغطي جميع أرجاء الكويت ، وتواجه التنافس على طلبات استغلال

رقعة الأرض المتوافرة ، بحيث أصبحت مساحة الأرض المخصصة اليوم للنفط والغاز الطبيعي ومايتصل بهما من نشاطات ، تزيد على خمسين بالمئة من مساحة البلاد .

آثار خطط التنمية على البيئة

إذا نظرنا الى القضايا البيئية ، والأضرار الملموسة في البيئة ، وجدنا صناعة النفط مسئولة عن معظم حالات التلوث الشديد سواء على اليابسة أو في الغلاف الجوي ، أو في البحر حيث تشكل هذه الصناعة تحديا متزايدا للبيئة . ولذا فهناك حاجة ملحة الى المزيد من السيطرة والتحكم بأمور البيئة ، ولعل ارتفاع تكلفة حلول مشكلات التنمية التي تؤثر على البيئة هي التي تؤخر اتخاذ اجراءات ضبط وقائي فعال . ويعد تلوث مياه البحر والمناطق الساحلية من أخطر القضايا في هذا الشأن ، حيث أنه من الأهمية بمكان الإبقاء على مياه البحر بعيدة عن التلوث لا لحماية الثروة السمكية وأماكن الترويح فحسب ، بل لحماية مياه البحر التي تؤخذ من المناطق القريبة جدا من أماكن القاء مخلفات المصانع أو من محطات تصدير النفط لتقطيرها وتحويلها الى مياه صالحة للاغراض المنزلية .

دور القطاع الخاص

قام المؤتمر الأول للبيئة البشرية الذي عقدته الامم المتحدة في ستوكهولم عام ١٩٧٢ بغرس بذور الوعي البيئي في العالم كله . وقد أدرك عدد من الكويتيين المهتمين بقضايا البيئة حينذاك حاجة المعاهد والمؤسسات الحكومية الى دعم القطاع الخاص للمساعدة في تحقيق وتنفيذ السياسات المتعلقة بحماية البيئة . وقد استهلت هذه المجموعة التي ضمت وزراء وأطباء ورجال تخطيط ومهندسين وعلماء نشاطها بإنشاء جمعية حماية البيئة الكويتية ، التي تم اشهارها رسميا من قبل الحكومة في عام ١٩٧٤ .

وكان من ضمن أهداف الجمعية توعية الجمهور وحثه على حماية البيئة وتشجيع الجهود الجماعية لحل المشكلات البيئية الحالية والمستقبلية ، علاوة على تنمية التفكير العلمي ، وسن القوانين ، وارساء



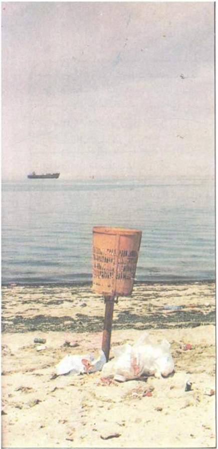
المعايير الادارية حول سلامة البيئة ، وحماية موارد الكويت الطبيعية من أجل خير ورفاهية الأجيال في الحاضر والمستقبل ، ولقد نادت الجمعية ـ من منطلق **التأكيد** على مسئوليتها في صيانة البيئة الطبيعية والحفاظ على ميراث الحياة البرية بحيواناتها ونباتاتها ـ بأن حماية البيئة هي مسئولية كل مواطن .

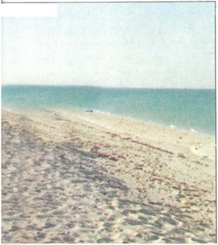
وفي عام ١٩٨٧ اختار برنامج الأمم المتحدة للبيئة الجمعية الكويتية عضواً في مجموعة الخمسمائة النخبة ، وكان ذلك تشريفاً لعمل الجمعية المميز في المساعدة على حماية البيئة وتطويرها .

وفي العام نفسه منحت المنظمة الاقليمية لحماية البيئة البحرية الجمعية جائزتها السنوية ، وتنظم الجمعية التي تضم اليوم في عضويتها أكثر من ٦٠٠ عضو بما في ذلك ٦٠ منظمة أو هيئة حكومية وغير حكومية ، ندوات ومحاضرات ومعارض حول موضوعات بيئية محلية ، وقد شرعت الجمعية في عام ١٩٨١ باصدار مجلة شهرية (البيئة) لابراز نشاطاتها كما أصدرت كتيباً بعنوان « قضايا بيئية » مرة في كل شهرين ، وأصدرت كذلك ابتداء من عام ١٩٨٥ سلسلة من كتيبات الاطفال ضمت حتى **الآن** خمسة اعداد .

مبادرات القطاع العام

في عام ١٩٨٠ أنشأت الحكومة « مجلس حماية البيئة » (مرسوم قانون حماية البيئة رقم ٦٢ لعام ١٩٨٠) لتطبيق قانون حماية البيئة وقد تمثلت في هذا المجلس الوزارات المعنية بالتنمية الاقتصادية ،





والصناعية ، والعمرانية ، كما تمثل القطاع الخاص فيه بجمعية حماية البيئة الكويتية ، ويرأس المجلس وزير الصحة العامة ، وقد تمثل في المجلس أيضا بلدية الكويت ، ومنطقة الشعيبة الصناعية ، ومعهد الكويت للأبحاث العلمية .

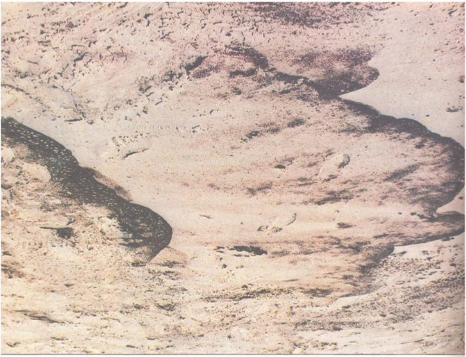
ويقوم المجلس بإعداد استراتيجيات حماية البيئة ، ويشرف على تنفيذها ككل ، كما يعد تقريرا سنويا عن حالة البيئة في الكويت ، ويقترح السياسة العامة لحماية البيئة بما في ذلك الشروط الصحية للتنمية الصناعية ، والمناطق السكنية ، واستخدامات الموارد الطبيعية ، هذا ويبادر المجلس ، تشجيعا للمواطنين على المشاركة في حماية بيئتهم ، الى تثقيف العامة واعداد برامج التدريب حول طرائق وأساليب الحماية البيئية . كما أنه يعد أيضا النظم والتشريعات ويساعد في اتخاذ القرارات المتعلقة بمشاركة الكويت في الاتفاقيات البيئية الاقليمية والدولية .

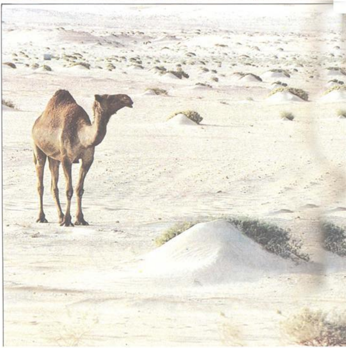
وكنتيجة اخرى لقانون حماية البيئة لعام ١٩٨٠ - وللحاجة الى مؤسسة فنية متخصصة في الحماية البيئية - تم انشاء ادارة حماية البيئة في وزارة الصحة العامة . وتقوم هذه الادارة بتنفيذ توصيات مجلس حماية البيئة ، وبتنسيق العمل بين مختلف الهيئات المعنية بحماية البيئة ، وهي تدرب كذلك الكوادر الفنية الحكومية وتنجز برامج التثقيف الجماهيري .

لقد وضعت ادارة حماية البيئة معايير بيئية للمشروعات العمرانية والصناعية الجديدة ، وذلك للحد من الملوثات ومنع حدوث اي تغير بيئي قد يضر بصحة المواطنين او بالاتزان البيئي ككل .

ولمجلس حماية البيئة الحق ، بعد دراسة تقارير الادارة في أن يوقف العمل في أية مؤسسة أو يحظر استخدام اية أداة أو آلة ، أو مادة تهدد سلامة البيئة . كما قد يطلب المجلس اتخاذ اجراءات علاجية أو وقائية خلال فترة التأجيل ، ويستطيع مستعينا بالقضاء ، جعل أي توقيف قرارا دائما اذا لزم الامر .

ولقد أقامت ادارة حماية البيئة حتى الآن ثلاث محطات مراقبة دائمة في المناطق السكنية لقياس التلوث في الهواء ، وقياس تأثيره في صحة الانسان والبيئة . وقد زودت كل محطة بأجهزة حساسة





● النفايات الشخصية لا تقل خطرا على البيئة من النفايات الصناعية ، كذلك الشواطيء الطبيعية من الضرورة المحافظة عليها كمركز حيوي للترفيه . (وإلى أعلى) نجد آثار تلوث البحر واضحة بالعين المجردة ، وكذلك النبات الصحراوي مصدر غذاء رئيسي لتنمية الثروة الحيوانية (إلى اليمين) .

تقيس باستمرار كميات ثاني اكسيد الكبريت ، وأكاسيد النيتروجين ، والهيدروكربونات ، والاوزون ، وأول اكسيد الكربون ، كما تعمل قياسات الأرصاد في الوقت نفسه على قياس سرعة الرياح واتجاهها ، ودرجات الحرارة ، والرطوبة النسبية ، والضغط الجوى ، وهناك عدة مختبرات متنقلة ، ومجهزة لأخذ قياسات مماثلة ، تستخدم للقيام بأبحاث خاصة او للتحقيق في الشكاوى والتأكد من صحتها ، وهناك أيضا مختبر خاص يستخدم لدراسة مستويات الضجيج ، وآخر لقياس التحولات الحرارية .

أما هيئة منطقة **الشعيبة** الصناعية ، وهي هيئة حكومية تشرف على ادارة المشروعات الصناعية الكبيرة في المنطقة وتقرها ، فتقوم بمراقبة مآخذ مياه التحلية وترفع تقاريرها الى حماية البيئة . وقد نظمت الهيئة أيضا برنامجا لفحص العينات وقياس مستوى الملوثات النفطية وغير النفطية في الماء .

ومن المؤسسات الحكومية التى تساعد مجلس حماية البيئة وغيره من المؤسسات المعنية بالمشكلات البيئية ، معهد الكويت للأبحاث العلمية الذي تأسس سنة ١٩٧٣ .

اسهام علمي

ويقدم المعهد الدراسات العلمية في مجال البيئة البحرية ، وتحديد مقدار الملوثات وتغيراتها المستمرة ، وأثر ذلك على البيئة البحرية . وقد طور المعهد نموذجا رقميا للتنبؤ بتحركات بقع الزيت في المياه الساحلية على المدى البعيد والمدى القريب . وهناك دراسات تحت الاعداد حول مقدار التلوث بالزيت في أعماق البحر ، وتأثير ذلك على المياه والثروة السمكية .

كما أسهمت نشاطات الهندسة البيئية في المعهد بدراسة حول أثر تدفق مياه المجارى الصحية في الكويت على البيئة .

ولأن مشكلة الرمال المتحركة في الكويت من المشكلات ذات الأهمية العظمى - حيث إنها تؤثر في المنشآت العمرانية ، والصناعية ، والدفاعية والزراعية - فهي تحظى باهتمام متزايد من قبل المعنيين في الكويت . ووفقا لدراسة قامت بها منظمة الصحة العالمية ، وشملت ٤١ مدينة في العالم ، تبين - على مدى خمس سنوات - أن في مدينة الكويت أعلى مستوى من المواد المعلقة المحمولة جزئيا بفعل العواصف الترابية والرملية .

هذا ، وقد قام معهد الكويت للأبحاث العلمية بانجاز مشروع علمي كبير حول عوامل مكافحة الرمال المتحركة وتثبيتها ، اشتمل على حساب معدل هجرة الكثبان الرملية وانتقالها . كما قام المعهد كذلك بتقييم الاساليب المستخدمة لمقاومة الرمال المتحركة في البلدان الاخرى - بما في ذلك الأساليب الميكانيكية ، والبيولوجية ، وتثبيت السطح - وبتشجيع التخطيط المتكامل للتحكم في هذه الظاهرة وضبطها في الكويت . ويدرس المعهد حاليا قابلية موارد التربة للتآكل والترسيب في المناطق المعرضة للتعرية ، ويبحث في استخدام أنواع مناسبة من النباتات بما في ذلك الأعشاب ، والشجيرات ، والأشجار لتثبيت الكثبان الرملية .

وقد تم انجاز مشروعين في مجال مكافحة تلوث الهواء ، تناول المشروع الاول دراسة وتقييم الدخان المنبعث من الشاحنات والحافلات التي تستخدم الديزل كوقود ، بينما تناول المشروع الثاني محاولات القضاء على تلوث الهواء في منطقة الشعيبة الصناعية .

ويجرى المعهد أيضا ضمن برامج مشروعاته البيئية بحثا حول مشكلة الرعى الجائر ، وتشتمل مشروعاته كذلك على انماء الغطاء النباتي ، واقامة متنزه وطني ومحميات ، علاوة على حماية ورعاية الحياة البرية مع اجراء التجارب على النباتات لأغراض التجميل ، واعادة تخضير البلاد . كما تشتمل كذلك على تطوير الانتاج الحيوانى والنباتى ، ومدى التحمل البيئي ، والمحافظة على التربة ومصادر المياه .

النشاطات الاقليمية

وتبذل الكويت نشاطا اقليميا ملحوظا في مجال حماية البيئة ، كما تلعب من خلال بعض المنظمات كمجلس التعاون الخليجي ، والجامعة العربية ، والمنظمات العالمية ، دورا طليعيا في انشاء المعاهد والمنظمات ، وابرام البروتوكولات التي تهدف الى

تعزيز الحماية البيئية ، ففى عام ١٩٧٣ - **بعد** عام واحد من انعقاد مؤتمر الامم المتحدة في **ستوكهولم** - شرعت الكويت في مناقشات مكثفة مع الدول الاخرى المحيطة بالخليج العربي لإنشاء منظمة اقليمية لحماية البيئة . وكانت جميع هذه الدول من البلدان المنتجة للبترول التى تعتمد على هذا الخليج الضيق شبه المغلق لشحن بترولها وأحيانا لاستخراجه من مياهه . كما أن معظمها لديه على شواطىء الخليج مناطق صناعية ومحطات تقطير للمياه ، بل وتستغل نفس المياه لاغراض الصيد ، والنقل ، والترويح .

لهذا فقد عقد المؤتمر الاقليمي الاول في الكويت عام ١٩٧٨ لبحث الصلاحيات اللازمة لحماية البيئة البحرية والمناطق الشاطئية وتنميتها . وقد تبنى المؤتمر خطة عمل لحماية البيئة البحرية والمناطق الساحلية وتطويرها ، كما تبنى بروتوكولا للتعاون الاقليمي في حالات الطوارىء لمكافحة التلوث الناتج من النفط وغيره من المواد الضارة . وتم الاتفاق كذلك على انشاء منظمة اقليمية للتنسيق فيما يتعلق بحماية البيئة البحرية في منطقة الخليج .

وبالفعل أنشئت المنظمة الاقليمية لحماية البيئة البحرية بالكويت في يوليو من عام ١٩٧٩ ، وفق اتفاقية تم اقرارها في المؤتمر الاقليمي لعام ١٩٧٨ ، وقد ضمت المنظمة الاقليمية لحماية البيئة البحرية في عضويتها ثماني دول هي البحرين ، وايران ، والعراق ، والكويت ، وعُمان ، وقطر ، والمملكة العربية السعودية ، والامارات العربية المتحدة ، وتم تعيين وزير الصحة العامة الكويتي سكرتيرا عاما للمنظمة ، هذا وتضطلع المنظمة الاقليمية لحماية البيئة البحرية بتنظيم الامور المالية المتعلقة بحماية البيئة البحرية ، وترد على استفسارات الدول الاعضاء ، وتعد التقارير وتوزع أحدث النصوص والتعديلات في القوانين الدولية المتعلقة بحماية البيئة البحرية . كما وتقدم المنظمة أيضا مساعدة فنية لمخططات التشريعات البيئية الوطنية ، وتشرف على ادارة برامج التدريب لمساعدة الدول الاعضاء في تنفيذ سياساتها البيئية .

وقد تم اعداد خطة عمل ، عرفت بخطة عمل الكويت ، لمواجهة الحاجات البيئية ، وتعزيز قدرات الحماية البيئية للدول الاعضاء في المنظمة الاقليمية لحماية البيئة البحرية من خلال برامج التعاون الوطنية والاقليمية ، وقد عدّت الخطة حماية **البيئة البحرية من أهم اولوياتها ، واعتبار** النهوض بمستوى الصحة العامة للانسان ، وتوفير الرفاهية له **غاية** نهائية تسعى الخطة الى تحقيقها .

كما هدفت الخطة ايضا الى تقييم حالة البيئة . بما في ذلك نشاطات التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، وحاجات المنطقة بغرض مساعدة الحكومات في مواجهة المشكلات البيئية وخاصة تلك المتعلقة بالبيئة البحرية . كما أنها تقدم الارشادات المتطورة حول النشاطات التى لها تأثير على **التوعية** البيئية أو على الحماية ، والاستخدام الدائم للموارد البحرية المتجددة ، وتقدم تعليمات حول الأدوات القانونية اللازمة لتوفير اطار من التعاون لحماية وتطوير المنطقة على اسس ثابتة ، وتدعم الاجراءات المتعلقة بالترتيبات المالية الوطنية والاقليمية ، وبالمؤسسات التي يتطلبها انجاز خطة العمل بنجاح .

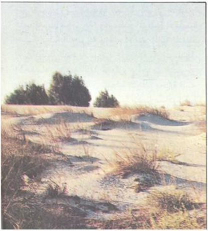
مركز المساعدة المتبادلة

قامت المنظمة **الاقليمية** لحماية البيئة البحرية - نتيجة لبروتوكول عام ١٩٧٨ حول التعاون الاقليمي لمكافحة التلوث البحرى في الحالات الطارئة - بإنشاء مركز المساعدة المتبادلة للطوارىء البحرية في البحرين عام ١٩٨٢ ، وقد هدف المركز الى مساعدة الدول المتعاقدة في تطوير قدراتها الوطنية لمكافحة التلوث بالنفط والمواد الضارة الاخرى ، وفي تنسيق تبادل المعلومات والتعاون التقني والتدريب ، وهناك هدف اضافي تمثل في تشجيع البدء بعمليات مكافحة التلوث على المستوى الاقليمي ، وقد اضطلع المركز بدور رائد في مكافحة بقعة الزيت اثناء كارثة تسرب النفط من حقل (نوروز) في عام ١٩٨٣ ، وكارثة تسرب النفط ايضا من احدى الناقلات عام ١٩٨٥ .

والمركز معد - بشكل خاص - **لجمع** المعلومات المتعلقة بالخطط البحرية المحتملة في الحالات الطارئة ، وتوزيعها على الدول الاعضاء من جهة ، ولاقامة نظام اتصالات لتبادل المعلومات الفورية فيما يتعلق بالمجالات البحرية الطارئة من جهة ثانية .



● (إلى أعلى) أحد الطيور المهاجرة التي تمر بالكويت في مواسم الربيع . (واسفل) أحد مظاهر الربيع الزاهية .





وفي محاولة لمساعدة الدول المتعاقدة في الاعداد للخطط المحتملة ، يقوم المركز باعتماد اجراءات يتم **بموجبها نقل الكوادر البشرية ، والمعدات والمواد المطلوبة في الحالات البحرية الطارئة من الدول واليها وعبرها ، كما ويشجع برامج التدريب الخاصة بمكافحة التلوث . ويعد المركز كذلك قوائم بالهيئات ، والمواد ، والسفن والطائرات المتوافرة وغيرها من المعدات المتخصصة اللازمة في الحالات البحرية الطارئة .**

ولقد قامت سكرتارية المنظمة الاقليمية لحماية البيئة البحرية منذ عام ١٩٨٢ بانجاز عدة برامج لحماية البيئة البحرية من التلوث ، كما نظمت هذه المنظمة دورات تدريبية جماعية ، وورش عمل وندوات للدول الأعضاء بهدف زيادة القدرات العلمية والتقنية لدى شعوب المنطقة . وقد تدرب حتى الآن اكثر من ٥٠٠ متدرب في مجالات عدة مثل أخذ العينات الملوثة بالنفط وغير الملوثة ، وتحليلها ومثل تداول المعلومات ، وصيانة المعدات ، علاوة على مكافحة التلوث البحري وضبطه ومعالجته ، وعلى تشغيل معدات مكافحة التلوث بالنفط ، وصيانتها ، وتخزينها .

ضمان اقتصاد ثابت

واذا كان العالم اليوم من خلال برنامج الامم المتحدة لحماية البيئة ، يطرح سؤالا هاما مفاده ماذا بعد الموارد الطبيعية ؟ وبدأ مفهوم التنمية المستمرة يلح على ذهن العالم بمعنى دراسة الموارد والثروات لضمان استمرار التنمية واستمرار الحياة في البلدان التي تعتمد على نوع واحد من الثروات الطبيعية كالبلدان التي تعتمد على الآبار فقط كمصدر للمياه ، او بلدان النفط .. الخ . وينظم المجتمع الدولي حملة علمية تحت اسم التنمية المستمرة لتوصيل هذا المفهوم ، والاهتمام بموارد الثروة والحياة ، فإن الكويت قد بدأت - منذ وقت مبكر جدا - في طرح سؤال ماذا سيحدث للاقتصاد والبيئة عندما ينضب النفط والغاز الطبيعي ؟ تشير التقديرات الى أن موارد النفط والغاز الطبيعي سوف تدوم اكثر من ٢٠٠ سنة اذا استمر الانتاج على معدله الحالي . أما المعدل الحالي لانتاج البترول فيقدر بنحو ٧٥٠,٠٠٠ برميل يوميا . ويقدر معدل انتاج الغاز بنحو ٥٠٠ مليون قدم مكعب في اليوم ، حيث يصدر ٤٠ بالمائة من النفط على هيئة بترول خام و ٦٠ بالمائة على هيئة بترول مكرر ، كما ويضخ الى الكويت فائض الغاز من الحقول العراقية المجاورة لاستخدامه في انتاج الطاقة حيث انه يغطي ثلاثين بالمائة من الاستهلاك المحلي .

هذا وقد وسعت الكويت قدر استطاعتها من استثماراتها في محطات تكرير البترول وتوزيعه في الخارج في محاولة منها لايجاد أسواق جديدة لتصدير نفطها . كما قامت باستثمارات واسعة في صناعات البتروكيماويات على المستويين المحلي والخارجي . وتم استثمار جزء من عوائد النفط من قبل هيئة للاستثمار تدر اليوم على الكويت دخلا يوازي ، بل ويفوق أحيانا الدخل السنوي من موردي النفط والغاز الطبيعيين ، والحكومة تشجع أيضا القطاعين - الخاص وشبه الخاص - على الاستثمار لجعل الكويت مركزا للاستثمار والتجارة في المنطقة .

ومن المؤمل التحكم بالتأثيرات البيئية الناتجة من الاستثمارات المتزايدة للنفط والغاز ، ومن الاستثمار في الصناعة ، وفي التوسع العمراني ، وذلك عن طريق التخطيط الفعال والمناسب للتنافس على استخدام الارض لأغراض شتى مثل التوسع العمراني ، والانتاج الزراعي ، وأماكن الترويح والاستجمام ، وعن طريق سن تشريعات وأنظمة عصرية لحماية البيئة . ولقد ازداد الوعي العام بهذه المسائل منذ انشاء مجلس حماية البيئة ، وجمعية حماية البيئة الكويتية ، ومنذ بدأ التعاون بين القطاع العام والقطاع الخاص لتحقيق هدف مشترك .

ووفق تقارير الأمم المتحدة فإن الكويت بفضل سياستها الاقتصادية العاقلة والرشيدة سوف تتمكن من الصمود - حتى لو نضب النفط - دون أن يتأثر مستوى الحياة . غير أنها ستظل تواجه مشكلات بيئية خطيرة على اليابسة وفي المناطق البحرية خارج حدودها . ولذا يتعين على دولة الكويت العمل مع جيرانها لتحقيق مزيد من السيطرة الاقليمية على البيئة ، وذلك من خلال خطة شاملة تقوم بتنفيذها المنظمات الاقليمية والدولية . □

أفكار الأقوون

(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

الفن الجميل

إنما يقاس نصيب الفن الجميل من الدين بنظرة الدين إلى الحياة . . فلا يقال عن دين انه يحيي الفنون الجميلة أو يتقبل إحياءها إذا كانت له نظرة زرية إلى الحياة وكان ينظر اليها كأنها وصمة زرية ، وإلى الجسد ومتاعه كأنها رجس مرذول وانحراف بالانسان عن عالم الروح والكمال .

ولا يقال عن دين انه يزدري الفن الجميل إذا كان الجمال من مطالبه وكانت نعمة الحياة مقبولة في شرعة المتدين به بل واجبة عليه . .

والاسلام بين الأديان قد انفرد بقبول نعمة الحياة وتزكيتها والحض عليها وحسبانها من نعمة الله التي يحرم على المسلم رفضها ويؤمر بشكرها .

وغيره من الأديان بين اثنتين : فإما السكوت عن التحريم والايجاب معاً أو التصريح القاطع بالتحريم والتأثيم . .

أما الاسلام فانه يحل الزينة ويزجر من يحرمها ، ويصف الله بالجمال ويحسب الجمال من آيات قدرته وسوابغ نعمته على عباده . .

ففي خلق الأرض زينة وفي خلق السماء زينة . .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَملا) .

(سورة الكهف)

وكل من حرَّم هذه الزينة على الناس فهو آثم لا يقضي في تحريمه بأمر الدين . .

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ) .

(سورة الاعراف)

والزينة والعبادة تتفقان ولا تفترقان ، بل تجب الزينة في محراب العبادة كأنها قربان إلى الله حيث لا قربان في الإسلام . .

« يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » .

(سورة الاعراف)

والسنّة النبوية فيما روي عنه عليه السلام وفيما أثر عن حياته مرددة كلها لمعاني الآيات القرآنية في تزكية النعمة واباحة الزينة والنهي عن تحريم الأخذ بنصيب من الحياة الدنيا والتعبد لله بتعظيم محاسن خلقه ومحبة آيات الجمال في أرضه وسمائه .. قال عليه السلام : ان الله جميل يحب الجمال ..

وقال فيما ورد من تفسير قوله تعالى : « وَيَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ » .

انه هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن .. وقال : من له شعر فليكرمه ..

وقال : ان الله يحب كل جيد الريح ، كل جيد الثياب ..

وأخبره بعض أصحابه أنه يقوم الليل ويصوم النهار فقال له : « لا تفعل .. صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقاً .. »

وقد تواترت أمثال هذه الأحاديث في الأثر واختلفت فيها الروايات ولكنها لم تختلف قط في معناها ومؤداها . لأن حياة النبي الكريم كلها مصداق للإيمان بحق الجسد مع حق الروح ..

والدين الذي ينظر إلى الحياة والجمال هذه النظرة القويمة السوية لا يسوغ لأحد أن يظن به تحريماً لشيء من الفن الجميل أو نهياً عن شيء يجمل الحياة ويحسن وقعاً في الأبصار والأسماع . وإنما سبقت الظنة إلى هذا الخطأ لتشديد الاسلام في منع عبادة الأوثان ومنع ما يصنع لعبادتها من التماثيل والأنصاب . ولم ترد في الكتاب كلمة تنهى عن عمل من أعمال الفن الجميل . ولم يثبت عن النبي عليه السلام قول قاطع في تحريم صنعة غير ما يصنع للعبادة الوثنية أو ما تخشى منه النكسة إليها في نفوس أتباعها ومن يفتنون بجهالتها ..

روى الأزرقي في أخبار مكة : « أن النبي عليه السلام لما دخل الكعبة بعد فتح مكة قال لشيبة بن عثمان : يا شيبة .. امح كل صورة فيه إلا ما تحت يدي .. قال فرفع يده عن عيسى بن مريم وأمه . »

وهذه الرواية يقابلها ان النبي عليه السلام لم يدخل الكعبة الا بعد أن أزيلت منها الصور القائمة فيها أو المنقوشة عليها ، فان حقت الرواية وصح انه عليه السلام قد ترك بعض الصور وأمر بازالة بعضها فليس في ذلك تحريم للصور على اطلاقها ، وان حقت الرواية الاخرى وكانت الصور قد أزيلت من الكعبة بأمره عليه السلام قبل دخوله اليها فما فعله صلوات الله عليه فهو الحكمة التي تقضي بها ضرورة الحيطة في أوائل كل دعوة تخشى فيها النكسة إلى ما سلفها من دعوات محظورة . وما من دعوة في عصرنا هذا تستغني عن مثل هذه الحيطة الواجبة فيما تحذره من نكسات العهود الغابرة ..

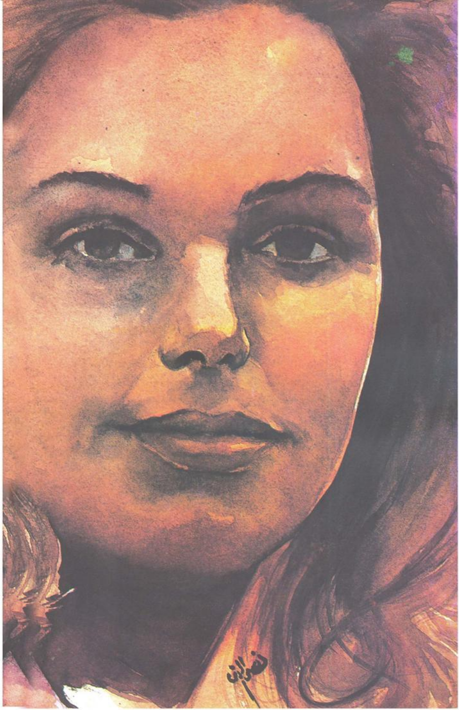
والقاعدة العامة في الاسلام انه لا تحريم حيث لا ضرر ولا خشية من الضرر . فأما مع المنفعة المحققة فلا تحريم ولا جواز للتحريم ، لأنه فوات للمصلحة ونهيٌ عن المباح ..

ولا نعلم أحداً من المسلمين خاصتهم وعامتهم يزوي وجهه أمام تحفة من تحف الفن حيث تؤمن النكسة إلى العبادات الوثنية ، وقد كان الشيخ محمد عبده - الامام المصلح المجتهد - يزور معاهد الفن ويكتب عنها ويستحسن حفظ آثارها النادرة وتحفها النفيسة لأنها من قبيل حفظ العلم وتصوير خفايا النفس الانسانية .

على ان شبهة العبادة الوثنية تزول عند النظر الى فن السماع - أو فن الغناء والموسيقا - لأنه من الفنون التي لا غبار عليها ولا تحريم لشيء منها الا ما كان ممتزجاً بالخلاعة أو مثيراً للشهوات ، فالتحريم هنا لا يخص الفن الجميل بل يعم الخلاعة والشهوة وكل ما يمتزج بالمحظورات على اختلافها ، وقد يحرم اللباس الخليع أو الحديث الخليع فلا يقال ان هذا التحريم يمنع الكساء أو يمنع الكلام ، ولكنه يمنع ما هو ممنوع ويبيح ما عداه ..

عباس محمود العقاد

من كتاب (التفكير فريضة اسلامية)



قصة قصيرة



الشيطان ليس بيننا

بقلم : هاديا سعيد*

ضحك زميلها وقال :

- أرجو اعفائي من حكاية « الأخوة » هذه !!

يختار الصداقة ، الحنان ، الـ .. أي مصطلح آخر يحل بينهما بغموض في ذلك المكتب الضيق والشركة الصغيرة .

زملاؤها ثلاثة : نبيل وكمال وصالح . لكنهم لم يحضروا بعد . منذ مدة ، أكثر من ثلاثة أشهر ، أعلنتها معركة تطويع صامتة بينها وبينهم .

اختارت الضفاف واختاروا الجموح .

يأتي أحدهم بزهرة ، ويأتي الآخر بابتسامة ، ويحمل ثالثهم تحية الصباح مغلفة بدعوة مشبوهة ، « فالمرأة » التي غادرت بيتها أو بيت أهلها إلى المكتب ، ينبغي أن تمتحن وتؤدب في المعارك الخفية والمنزلقات .

فكرت ، يحدث هذا كل يوم ، كل يوم ، بألف شكل وألف عبارة . وألف وجه ، مستعد للتشكل حسب اللحظة والظروف . المكتب صارم والعمل صارم وكل شيء صارم ، حتى الشهادة علمية وصارمة : أوراق تزدحم بالقياسات والأرقام ، ومناضد ومساطر ومثلثات وانكباب مسئول فوق بيوت وفنادق وعمارات وإدارات من ورق .

تعبت حتى وصلت إلى هنا . البلد يسبح بالبطالة ، وشهادتها العالية بامتياز في الهندسة ، انتظرت أعواما وأهوالا لأن عينها كانت بصيرة ويد أهلها قصيرة !

* كاتبة وقاصة من القطر اللبناني .

لكنها حصلت على المنحة ، وعاشت مثل غيرها سنوات السفر والغربة ، وعادت لتتعب في خطوبة فاشلة وانتظار حزين ، ثم جاءت الى ذلك المكتب بثوب ريفي وابتسامة طفلة وعمر بدأ يعرف مدى الشجن .

لا يهمهم هذا ، وجهها يكفي ، ثوبها يكفي ، رشاقتها أو اكتنازها يكفي ، صمتها أو فرحها يكفي ، أسئلتها البريئة أو الغامضة تكفي . يكفي أن تكون الوحيدة أو العاشرة أو الألف ، حتى تشن الحروب عليها بتدبير أو بارتجال .

وحاولت ، حاولت ألا ترى الشيطان بينها وبينهم .

قالت : « الشيطان ليس بيننا . من يضعه بيننا ؟ وأنا أجيء الى المكتب محملة بحكمة أب وسماحة أم وحنان أخوة يقطر فرحه دمعا ؟ أجيء طيبة ، مؤدبة ، دمثة . . »

تجيء هكذا ، فيدخل صالح :

- أوه ، الجو جميل ، ما رأيك في قهوة ؟ نزهة ؟ سهرة ؟

ويجيء نبيل :

- يا للهول ! . . هل بقي من الراتب شيء بعد كل هذه الأناقة ؟!

ويجيء كمال ، صامتا فترتاح لكنه يقتنص أي سهو أو تأخير في تسليم تصميم ليشيح برأسه ويهمس بصوت مسموم :

- الجماعة عقلهم في مكان آخر ، لماذا ؟

قالت : اليوم ، سأفاجئهم :

ستقول لهم كل هذا ، وستطالبهم أن يكونوا أكثر عدلا وأكثر براءة ، لماذا لا تكون أختهم ؟ لماذا لا تكون القريبة ؟ لماذا تُراقَب وتُتَّهم وتُنْصَب لها فخاخ الكلام والنظرات ؟

ستنتظر آخر ساعة من الدوام وتبدأ . ستتحدث ببساطة عن العمل ومفاهيم الزمالة والأخلاق ، ستحكي عن سفرها إلى ذلك البلد وما تعلمته من سلوك حضاري ومساواة ، ستقول لنبيل : إن بامكانه الاعتماد عليها في مشاكله العائلية ، فقد تصبح صديقة لأخته وأمه ، وهذا لا يعني أبدا أنها تخطط للزواج منه .

وستُفهم صالحا أن من يفكر في الزواج بأكثر من امرأة يهلك ، ومن الضروري أن يفهم كمال أن ابتسامتها لا تعني أبدا ميوعة أو خفة ، وأن سماحها له بتحيتها خارج المكتب لا يؤكد اصابتها بمرض الاجنبيات المنطلقات .

ستكمل قياس أعمدة هذا الجزء من التصميم ، وتطلب منهم بلطف وأدب أن يقتربوا قليلا من مكتبها ويصغوا إليها . هذا اليوم مناسب جدا لمثل هذا الحديث ، سيكون محطة مهمة لتحويل مسار نظراتهم وكلامهم . ستبدأ بكلام جديد مليء بمشاعر الأخوة والود . هذا يوم دافيء ، الشمس في زيارة ودية ، ربما سيجيء نبيل مبتسما بقميصه الأزرق الهادي ، وربما ارتدى صالح سترته القطنية التي حاكتها له زوجته بعد صلحهما الأخير .

ويا ليت صمت كمال يكون اليوم أقل تجهما ، هذا يوم معقول للتفاهم . الراتب ما يزال طازجا في الجيوب ، والخرائط جديدة لم ترتفع بالأعمدة والزوايا ، ولم يحن وقت التوتر خوفا من الأخطاء الصغيرة . لسعات البرد الخفيفة تحفز الكلام وتدعو لانسجام وتقارب ، هذا سيساعدها أن تتحدث اليهم بغير ارتباك . بهدوء ، بأدب ، ولكن بحزم أيضا . فهي في النهاية تريد أن تستفيد من خبرتهم ، من اطلاعهم ، تريد حديثا ببساطة ، بلا نوايا ولا تأويل .

ستبدأ بلا مقدمات ، لا داعي لأن تتحدث عن السفر وتلك البلاد المتحضرة ، فسوف يجدها نبيل مدعية ومستعرضة ، وسوف يقود صالح الحديث ليعرف معلومات أكثر عن البنات هناك والفنادق ،



وسوف يهز كهال رأسه ويسخر من معرفتها الهزيلة ! الأفضل أن تبدأ الحديث مباشرة وتذكرهم بتصرفاتهم الأخيرة وتنتقدها ببساطة . ستقول لصالح : صحيح أنها تجاهلت تلميحاته كلها عن الزوجة المناسبة والاختيار المتسرع الخاطىء لكن الصحيح أيضا أنه لم يحك لها عن خلافاته مع زوجته إلا وفي ذهنه نصب فخ جديد يبدأ بالشكوى ، ويتصاعد إلى مشاعر الود والارتياح ! أما نبيل فينبغي عليه ألا يحسب اهتمامها بأمه ـ عندما زارته قبل أسبوعين ـ سعيا للتقرب منه . وهو بنفسه حاول ذلك في الفترة الأولى من التحاقها بالمكتب ، ثم عدل بعد أن سئم وسمع بأنها خطبت وفشلت خطوبتها .

وينبغي لهم أن يفهموا أنها تود ببساطة شديدة أن تكون قريبة منهم ومحترمة . تفضل أن تكون أختا على أن تكون مشروعا غامضا لنزواتهم ، يسرها ألا تسمع كلمة اطراء كاذبة أو ملغومة . فلماذا لا يكونون جميعا في تلك الساعات الجميلة من العمل الجميل عائلة ؟؟ لماذا لا يكونون إخوة لها وأقارب ؟ لماذا يُسكنون الشيطان بين أعينهم وطلتها ؟ لماذا يطالبونها بصمت أن تعود إلى بيتها لكي تحظى بنظرات التقدير والتكريم ؟ لماذا لا تكون محترمة وكريمة إلا عندما تقبع معطلة داخل البيت ؟ لماذا يحولون هم وغيرهم الشارع إلى مسرح بغيض ؟ والرصيف إلى مقهى لعيونهم وتعليقاتهم ومراقبتهم لها ولغيرها كأنهن فضائح ؟ !!

من قال لهم ان أباها قادر بعد على ملء سلة العشاء ؟ ومن قال لهم أن أمها قادرة على أن تصبر على جوع إخوتها الصغار ؟ وكيف لا يخطر على بالهم أن أختها تحلم بفستان العيد ، وأن أخاها الطفل يتمنى لعبة طالما سرقت فرح عينيه في الواجهات الزجاجية ؟ وأنه لولا راتبها لنامت عائلة بلا عشاء ، وازدادت آلام المفاصل المزمنة لأمها ، لماذا ينبغي أن تشرح لهم أن راتبها يصلح نافذة الدار والحنفية ويجعل من « البيت المستور » حقيقة لا كلاما فارغا يقرأ في القصص ؟!

لماذا يفترضون أن مستقبلها سيضيئه بيت يقفل عليها ؟ أو رجل مثلهم يخاصم زوجته أو يتصل بصديقاته أو يتحرش بزميلته أو يشتم الدنيا وما فيها ؟؟

مر المدير قبل وصولهم . توقفت للحظة ، تأهبت لتحيته بابتسامة وجلة ، فرد تحيتها مشجعا بضحكة ونكتة عن الغائبين الذين يغادرون المكتب قبل الحضور اليه ! ثم ألقى نظرة على ثوبها الجديد وابتعد .

منذ ثلاثة أشهر وهي تنوي شراء هذا الثوب ، تصادقت بعيونها والعارضة التي ترتديه في واجهة المحل . أربع مرات كانت تبادله التحية كل يوم ، وتتفق أن ينتظرها وأن توفر . و . . وعدها بالصبر ووعدته بالوفاء ، بالأمس أطلقت البائعة سراحه من سجن الزجاج واليوم ارتدته وفرحت واتجهت به الى المكتب كأنها في عيد .

لا بد وأنهم سينتبهون وسيعلقون ، لكنها اليوم تتمتع بصفاء وقدرة على التسامح . الثوب لها ، لم تستعره من أمل أو غيرها . جديد . سيبقى فوق أكتافها وفي خزانتها : جديد مثل أول أسابيع لها في هذا المكتب ومثل ابتسامة أخيها الصغير .

لن ترفض أن يعلقوا قليلا على الثوب ، ولن تتردد في سرد حكاية صبرها وتوفيرها ، وكم تتمنى لو أن الأمر يتوقف عند هذا الحد ولا يمتد إلى الاحتفال به ، وتقديم الدعوات عبر إشارات وغمزات ، صحيح أن عالمها يصغر حتى يصبح ثوبا جديدا لكنها أيضا قادرة أن تقرأ وتسمع وتناقش . فكيف يحدث أن تذكرهم بحادثة أو تواصل معهم نقاشا أو تعلن رأيا أو . . أو . . فيصل حديثها باردا سمجا في الوقت الذي تلمع فيه العيون ويندفع الحماس حين تبدأ تفاهات مثل الأسرار الخاصة والرجل المجهول والنميمة على الزميلات .

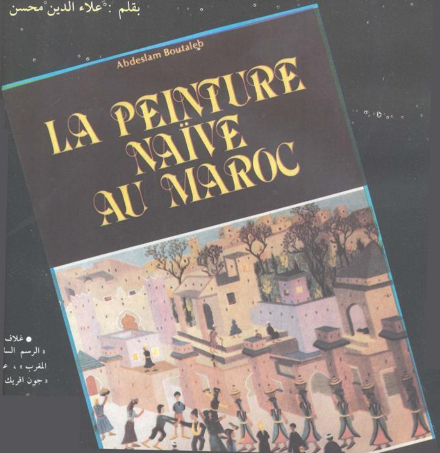
طيب طيب ستنتظرهم بالتأكيد ، وستحكي كل هذا ، وما قد يستجد من كلام .

عندما دخلوا ، كانت مستعدة أن تبدأ كالتالي : زملائي الأعزاء : إليكم أقصر خطاب في العالم : « الشيطان ليس بيننا ، فمن يضعه بيننا ؟ » □



الفن الفطري في المغرب: واقع ومستقبل

بقلم: علاء الدين محسن



● غلاف
« الرسم السا
المغرب » ، ع
« جون افريك



● امرأة من زمور « أحمد الورديغي »

الابداع بالفطرة الذي يتجسد في لوحة لاتتناسب مقاييسها وألوانها وخطوطها ، مع مقاييس الفن بنظرياته المعروفة ، هل له مكان في ساحة الابداع الانساني ؟ هذه هي مشكلة جماعة الفنانين التلقائيين في القطر المغربي ، وهي مشكلة فنية عامة ، أثارت في تاريخ الفن كثيرا من المناقشات والقضايا .

يطلق المغاربة على الرسوم التي ينتجها رسامون لم يتلقوا دراسة فنية تشكيلية، ويرسمون بتلقائية، وبالفطرة، اسم «الرسم الساذج»، وهي تسمية تقابل في المشرق العربي تسمية «الرسم الفطري».

والرسم الساذج في المغرب، هو أحد المواضيع الاكثر إثارة للجدل، والاختلاف في الرأي، عند مناقشة وضع الحركة التشكيلية المغربية، فالرسم الساذج اتجاه حاضر بقوة في هذه الحركة، إلى جانب الاتجاه التشكيلي المعاصر الذي يتبنى المدارس الفنية الغربية المعروفة اليوم. والاختلاف حول الرسم الساذج يتمحور حول القيمة الفنية لاعمال الرسامين الفطريين المغاربة، وتأريخ هذا الاتجاه، والطريقة التي ظهر فيها ليحتل مكانة على الساحة، وكذلك آفاقه.

مواقف ثلاثة

ويمكن تحديد ثلاثة مواقف من هذا الاتجاه كما تتجلى في الكتابات النقدية التشكيلية في المغرب:

فهناك موقف يرفض كلية عد الاعمال المدرجة ضمن اتجاه الرسم الساذج متضمنة لأي قيمة فنية تستحق الذكر، على أساس أن وجود هذه الاعمال اليوم هو من مخلفات المرحلة التي كان يعيش فيها المغرب تحت نير الاستعمار الفرنسي الذي شجع هذا الاتجاه في الرسم بقوة، وتبناه، لأنه أراد تقديم المغرب على أنه مجرد متحف لاشكال بدائية متخلفة في التعبير، ولا يرى من يتبنون هذا الموقف ـ بالتالي ـ أي ضرورة للحديث عن مستقبل هذا الاتجاه، على اعتبار أن المغرب، وظهور الحركة التشكيلية المعاصرة فيه وتناميها من شأنه أن يؤدي إلى التلاشي الحتمي لاتجاه الرسم الساذج. ولا يفوتهم هنا الاشارة إلى أن معارض الرسامين الفطريين لم تعد تقدم بالزخم نفسه الذي كانت عليه قبل الاستقلال «١٩٥٦» أو خلال السنوات الاولى التي تلته.

وثمة موقف ثان، مخالف تماما للموقف السابق، يرى أنه كيفما كانت الطريقة والاسباب التي ساعدت على ظهور الرسم الساذج في المغرب، فلا يمكن اليوم تجاهل كونه أحد الاتجاهات الحاضرة بقوة على الساحة التشكيلية، وأن الحد الادنى من الجدية يفرض التعامل مع «هذا الواقع» دون حساسية مفرطة، وأن الموقف المضاد للاستعمار الفرنسي، وسياسته الثقافية، غير البريئة، ينبغي أن لاينعكس بصيغة موقف مضاد للرسم الساذج، وهو في النهاية جزء من الثقافة الشعبية، له جذوره، وامتداداته في فنون شعبية أخرى، لها طابع بصري، كنقوش السجاد، والرسم على الخشب، وتزويقه التي تشكل في مجموعها جزءا مهما من الهوية الثقافية المغربية.

وهناك موقف ثالث يتبنى بحماس اتجاه الرسم الساذج، ويعده الممثل الحقيقي الصادق للحركة التشكيلية المغربية. ويرى المدافعون عن هذا الموقف أن هذا الاتجاه لو كان مجرد وهم أعده المستعمر لما أمكنه الاستمرار بعد الاستقلال دون أن تضعف جذوته. ويلاحظون أن معارض الرسم الساذج قد قلت بعد الاستقلال، لكن هذا لايعني أن الرسامين توقفوا عن الانتاج، إضافة إلى أن الجمهور يتواصل مع لوحاتهم البسيطة الخالية من التعقيد، والغموض، والادعاء، أكثر من تواصله مع أعمال الفنانين التجريديين المغاربة الآخرين و إقباله عليها ويختتمون دفاعهم بالاشارة إلى الشهرة العالمية التي حظي بها عدد من الرسامين الفطريين المغاربة.

معرض وكتاب

الواقع أن القوة والضعف يتساويان في المواقف الثلاثة السابقةمما يجعل قبولها أو رفضها غاية في الصعوبة، ولعل هذا هو ما يجعل النقاش والاختلاف حول الرسم الساذج محتدما بقوة كلما كانت هناك مناسبة لمناقشة الوضع التشكيلي المغربي.

كانت آخر مناسبتين صدور كتاب بالفرنسية لمؤلف مغربي، هو «عبد السلام بو طالب» بعنوان

« الرسم الساذج في المغرب » ، عن دار « جون افريك » التي تصدر اسبوعية سياسية بالاسم نفسه في باريس ، وتنظيم معرض بالرباط لأحد رواد هذا الاتجاه ، وهو « محمد بن علال » ، بعد سنوات طويلة انقطع خلالها عن قاعات العرض .

والكتاب الجديد له أهميته من عدة نواح ابرزها : أن هناك قلة ملحوظة في الكتب والمراجع التي تتناول الفن التشكيلي المغربي بعامة ، فليس هناك سوى أربعة أو خمسة مؤلفات في هذا الميدان ، جلها بالفرنسية ، وصدور كتاب يتناول أحد الاتجاهات في الحركة التشكيلية في هذا البلد فيه إغناء للمكتبة الفنية المغربية ، هذا من ناحية ، أما من الناحية الاخرى فالكتاب الجديد يتبنى موقف الدفاع عن اتجاه الرسم الساذج ، بعد سنوات طويلة ، لم يظهر خلالها سوى كتابات تناولت هذا الاتجاه بالنقد .

وقبل أن نتعرض بتفصيل للكتاب الجديد نجد أنه من الضروري تقديم لمحة عن بدايات الاتجاه الذي يشكل موضوعه ومحوره ، وكذلك عن بدايات الحركة التشكيلية الحديثة في المغرب ، لعلها تقدم صورة عن خلفيات هذا الخلاف في الموقف من «الرسم الساذج» ، بين «قبول ورفض وتحفظ» الذي حددنا معالمه بالتلخيص السابق .

مدرستان فنيتان

يمكن وضع الرسم الساذج بأنه الأب غير الشرعي للتشكيل المغربي المعاصر ، ونقول : غير الشرعي من زاوية الرفض الذي قوبل به هذا الاتجاه من طرف النقاد والفنانين الذين ظهروا بعد استقلال المغرب .

فوفقا لعديد من الكتابات التي أرخت للفن التشكيلي المغربي المعاصر تعود أقدم اللوحات التي انجزها الرسامون المغاربة إلى عام ١٩١٠ ، بيد رسام فطري هو «بن علي الرباطي» الذي يوصف ظهوره بأنه كان نتيجة تشجيع من إحدى العائلات البريطانية في الخليج العربي . والكتابات حول هذا الرسام قليلة ومبتسرة ، لاتسمح برواية تاريخه ، وحياته الفنية بدقة . وقد كرمته الحكومة المغربية بإصدار إحدى لوحاته على طابع بريدي .

ويلاحظ « محمد أديب السلامي في كتابه التشكيل المغربي بين التراث والمعاصرة — دمشق ١٩٨٣ » أن جميع الرسامين المغاربة الذين ظهروا في فترة ١٩١٠ — ١٩٤٠ كانوا تلاميذ لرسامين أجانب ، وفدوا مع الاستعمار . ويقدم بهذا الصدد مثالين أحدهما من شمال المغرب الذي كان تحت الاستعمار الاسباني ، والآخر من جنوب المغرب الذي كان تحت الاستعمار الفرنسي .

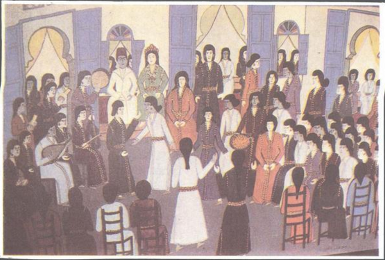
ففي الشمال كلفت الحماية الاسبانية مواطنها الرسام « بيرطوتشي » بالاهتمام بالفنون الجميلة ، فأسس مدرسة الفنون الجميلة بتطوان ومدرسة الفنون الاسلامية .

ومن مدرسة تطوان تخرجت مجموعة من الاسماء الفنية في ميداني الرسم ، والنحت ، مازال معظمها يرفد الساحة الفنية بعطاء ، في حين أحيت مدرسة الفنون الاسلامية فنون الحفر على الخشب والمعدن والجبس والفسيفساء .

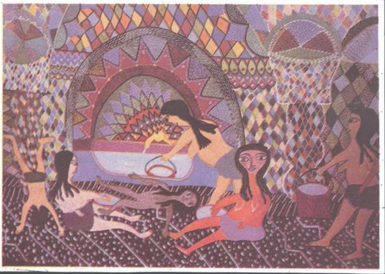
وفي جنوب المغرب قام الرسام الفرنسي « ماجوريل » بمراكش برعاية عدد من الرسامين المغاربة ، شكلوا فيها بعد الصورة النهائية للاتجاه الساذج في الرسم المغربي .

ومنذ تنظيم أول معرض تشكيلي في المغرب عام ١٩١٨ حتى السنوات الأولى بعد الاستقلال في ١٩٥٦ كان حضور الرسم الساذج طاغيا على الساحة التشكيلية ، نظرا للتشجيع الكبير الذي كان يلقاه رسامو هذا الاتجاه من الفرنسيين ، والاسبان ، والأجانب عموما .

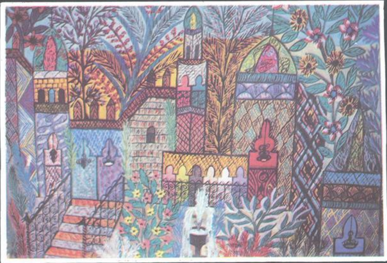
لكن هذا العهد الذهبي للرسم الساذج لم يستمر طويلا ، فقد خضع للمراجعة ، وإعادة التقييم ، والنقد بعد الاستقلال ، مثلما خضعت مخلفات أخرى للاستعمارين الفرنسي والاسباني في إطار تعزيز الدولة الفتية لمقومات أصالتها وشخصيتها الوطنية . وكانت حصيلة المراجعة الرفض الكامل .



● العرس « مولاي علي العلوي » .



● الحمام « الزكري لحسن » .



● المسجد الصغير « احمد الورديغي »



● أحلام النساء « فاطمة حسن » .

فالدكتور «حسن المنيعي»، وهو أحد ابرز النقاد المغاربة المعروفين بتعدد اهتماماتهم، يرى «أن هذا الاتجاه قد بقي تشجيعا من لدن الاستعمار الاجنبي، لأنه عده حصيلة مكتسبات فنية تقليدية، تعبر عن انهاكات مجتمع جاهل، ولهذا فقد نظر الاستعمار بازدراء إلى تراثنا الفني، حتى يجعله منضغطا في جوانب عميقة، لاتتعدى التزويق الذي كان ميزة الرسوم الفطرية التي عرفتها أوروبا خلال العصور الوسطى». (من مقالة للدكتور المنيعي ضمن وثائق معرض الستين العربي الذي أقيم في ١٩٧٦).

هذه النبرة الرافضة بحزم نجدها أيضا لدى «محمد شبعة» أحد الوجوه المتميزة في الحركة التشكيلية المغربية اليوم، يقول: «إن ظاهرة الرسم الساذج ـ في المغرب ـ تطابق تخطيطا ثقافيا استعماريا متعمدا، يرمي إلى التأكيد بأنه ليس بإمكان بلد متخلف سوى أن ينتج فنا متخلفا، وأنه لن يتأتى للفنان في هذا البلد ـ المغرب ـ أن يشارك أو يسهم في الحركات التشكيلية العالمية، أو أن يتوفر على زاد ثقافي، وتكون له انهاكات «استتيكية» معاصرة». (من كتاب السلاوي السالف الذكر).

الرباط ليس فطريا

كتاب «الرسم الساذج ـ أو الفطري ـ في المغرب» لعبد السلام بو طالب، الصادر حديثا في باريس، له موقف مختلف عن موقف المنيعي وشبعة، لأنه يقف إلى صف هذا الاتجاه، وحقه في أن يكون حاضرا على الساحة التشكيلية، ومتفاعلا مع اتجاهاتها الاخرى.

والكتاب ـ ١٢٨ صفحة من الحجم الكبير ـ أشبه «بألبوم» يقدم متعة بصرية، لايمكن تجاهلها، لأنه يتضمن مقدمة قصيرة، وتعريفا بعشرة رسامين فطريين، مع نماذج بالألوان لأعمالهم، وإحاطة بتاريخهم الفني، ومعارضهم، بطباعة راقية.

ومؤلفه ليس ناقدا فنيا أو رساما، لكنه استاذ للرياضيات، اهتم منذ السبعينيات بالرسم الفطري في بلاده وحرص على اقتناء ما يقع بين يديه، من لوحات تندرج ضمن هذا الاتجاه، كما امضى وقتا طويلا في دراسة هذه اللوحات، ومقارنة الرسم الفطري بالمغرب بالرسم الفطري في أقطار عربية وأجنبية، وسافر كثيرا ليلتقي بعدد من الرسامين المغاربة الذين أصبحوا يعملون بصمت بعيدا عن قاعات العرض، بعدما رفضتهم الساحة الثقافية. واكتشف في النهاية أنه أصبح يملك من المعرفة والمعلومات ـ إضافة إلى اللوحات الأصلية التي اقتناها ـ ما يؤهله لتقديم هذا الكتاب.

ويتفق «عبد السلام بوطالب» مع الكتابات التي سبقت ظهور كتابه، والتي أعادت ظهور الفن الساذج في المغرب إلى سنوات العشرينيات والثلاثينيات، لكنه يعد سنوات الخمسينيات فترة شهدت ازدهار هذا الاتجاه، أما ما كان يقدم قبلها فيصفه بأنه مجرد محاولات.

أما «بن علي الرباطي» الذي يعد أول رسام مغربي فيرى أن ثمة سوء فهم يتعلق بالرسام «بو طالب»، إذ أنه قد صنف مدة طويلة رساما فطريا، لكن الدراسة المتأنية لأعماله كشفت أنه كان حقا رساما تشخيصيا.

ويرجع أسباب ازدهار الاتجاه الساذج في أواخر الخمسينيات، والسنوات الأولى بعد الاستقلال، وبروزه تيارا واضح المعالم، إلى تأسيس مشغلين لتعليم فن الصباغة «ما بين ١٩٥٥ و ١٩٥٦» في مدينتي الرباط ومراكش، أشرفت عليهما وزارة الشبيبة والرياضة. ومن هذين المشغلين ظهرت مجموعتان للرسم الساذج، شكلت الأسماء المكونة لها أعمدة هذا الاتجاه إلى اليوم.

فمن مجموعة الرباط ظهر «الكزولي» و «فاطمة حسن»، «وحسن الفروج»، و «مولاي على العلوي» و الرسام الراحل «الورديغي»، ولحق بهذه المجموعة «الناصري»، و «الحسن الزكري»، وفاطمة ابنة

الورديغي » .
أما مجموعة مراكش التي رعاها الفنان الفرنسي « أزيما » فقد قدمت « محمد بن علال » و « مولاي أحمد الادريسي » ، و « وآيت يوسف سعيد » .

تأثيرات عائلية

وهناك عوامل مشتركة بين هؤلاء الرسامين ، دفعت بهم إلى اكتشاف الرسم واحترافه ، فقد كانوا جميعا على صلة وثيقة برسامين أجانب ، فمحمد بن علال كان طبيبا لدى الرسام الفرنسي « أزيما » ، ومولاي أحمد الادريسي كان نادلا في مقهى ، وقد شجعته مجموعة من السويسريين على الرسم ، وساعدته عن بعد على العرض والسفر إلى فرنسا وسويسرا ، أما آيت يوسف سعيد فكان لديه ابن يرعاه « أزيما » ، خلال وجوده في الحرب الصينية التي عندما عاد منها آيت يوسف تأثر بأزيما وتوجه للرسم .

وبعض هؤلاء الرسامين الفطريين أثروا على أصدقائهم وأبنائهم ، ودفعوهم للرسم ، فابنة الورديغي أصبحت رسامة ، ومولاى على العلوي كان نقاشا على الخشب وتأثر به أحد الصناع العاملين لديه الذي أصبح بعد ذلك رساما معروفا هو « الناصري » وفاطمة حسن » التي تحمل اسم زوجها « حسن الفرج » والرسام الفطري ، وكذلك ابنتها نعيمة .

ولا ينبغي أن نهمل هنا عاملا اقتصاديا اسهم في صنع هذه الفورة من اندفاع نحو احتراف الرسم الساذج ، فقد كان الاجانب المقيمون بالمغرب ، وكذلك السياح ، يقبلون على شراء اللوحات الفطرية ، ويرى « بوطالب » أن تشابه العوامل التي دفعت بهؤلاء الرسامين إلى ولوج ميدان الرسم جعلت ثمة مميزات مشتركة تطبع أعمالهم ، غير انخراطها في اطار الرسم الساذج ، فمجموعتا الرباط ومراكش قد تبادلتا التأثير احداهما على الاخرى ، إضافة إلى تأثير رسامي مجموعة على رسامين آخرين ضمن مجموعتهم .

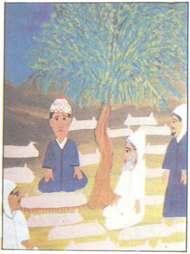
فاللوحات الأولى لفاطمة حسن والكزولي تتشابه وأعمال « الناصري » تقارب أعمال أستاذه مولاي علي ، وألوان ابن علال تقارب ألوان آيت يوسف سعيد ، إلا ان ذلك لاينفي — يستدرك بو طالب — وجود خصوصية لأعمال كل من مجموعتي الرباط ومراكش ، تتجلى في التفاصيل الصغيرة التي تنهض عليها لوحات الرسامين .

ويتساءل المؤلف عمن هو الرسام الفطري ، ويجيب بأن من الصعب اليوم إعطاء تعريف دقيق للفن الفطري بصفة عامة . ولهذا فهو يفضل الحديث عن المقومات والخصائص التي تميز هذا الاتجاه عن الاتجاهات التشكيلية الأخرى ، ويرى أن أبرز هذه الخصائص تتمثل في اختيار الفنان الفطري مواضيعه من واقعه البيئي ، فمواضيع كالمسجد والحمام والعرس والختان وكناوه — رقصة شعبية مغربية — وأضرحة الاولياء الصالحين ، هي الاكثر شيوعا لدى الفطريين المغاربة . ويضيف بأن الرسامين الفطريين يرسمون دون شك بتأثير هواجس غامضة ، تتجلى أحيانا في تلك المسحة السريالية التي تطبع أعمالهم . ويقدم أعمال فاطمة حسن مثالا واضحا على هذا ، فتكويناتها اللونية ، وطريقة توزيعها ، تقدمان عالما لايمكن اخضاعه لمنطق بصري مألوف ، على الرغم من أن موضوعها دائما غاية في الألفة و الاعتيادية ، فهي ترسم باستمرار دون أن تثير الملل لدى المشاهد باعمالها خاصة لدى بنات جنسها من النساء .

ويلاحظ « بوطالب » أن جزءا من أهمية أعمال الرسامين الفطريين المغاربة يتمثل في كونها قد قدمت توثيقا لعادات وتقاليد اندثرت في الواقع ، وظلت حية في لوحاتهم .

ألوان زاهية

إنهم رسامون يرسمون بتلقائية وبساطة البيئة المحيطة بهم ، بألوان زاهية نقية ، نادرا ما تخضع للمسات احترافية من الخلط والتركيب والمؤلف يلفت انتباهنا إلى مفارقة تتمثل في أن أعمال



● الطلبة « آية يوسف سعيد » .

الرسامين الفطريين المغاربة على الرغم من أنها تعبر عن رغبة في نقل الواقع وتصويره ، إلا أنها ليست أعمالا واقعية ، والسر وراء هذه المفارقة يكمن في أن هؤلاء الرسامين يعانون من مشكلة التعامل مع المنظور الذي لايجيدون استعماله حسب القوانين الهندسية المعروفة ، وعندما يهملون المنظور ، ويقدمون رؤيا مستوية للمشاهد التي يرسمونها تظهر أعمالهم غير واقعية ، بل قريبة من السريالية ، إلا أنهم ينجحون على الرغم من ذلك في إعطاء أعمالهم توازنا ، يجعلها لاتخدش البصر ، وهنا تكمن مهارتهم . ويستغرب « ابو طالب » من حالة التجاهل التي أصبح يعيشها هذا الاتجاه بعد الاستقلال ، ورد فعل المثقفين تجاهه ، ويذكر بهذا الصدد أن الاهتمام بالفن الفطري في أوروبا قد بدأ في أوائل القرن العشرين وابرز من اهتم بهذا الاتجاه في العالم هو الناقد السويسري « وليم أود » الذي ناضل ـ على حد تعبيره ـ من أجل إدخال لوحات الرسامين الفطريين إلى المتاحف . وقد حرصت أقطار كثيرة في العالم بعد استقلالها على الاهتمام بالفن الساذج ـ عكس المغرب ـ لعده جزءا لايمكن تجاهله من ثقافتها الشعبية . وفي الوطن العربي مثلا لايواجه الرسم الفطري في العراق ومصر وتونس بنفس ما يواجه به في المغرب من انتقاد ومعارضة وتجاهل .

ويقول : ان اسماء قليلة في المغرب قد لحقت بالاسماء التي كان لها دور الريادة في هذا الاتجاه . إن كتابه يهدف الى طرح تساؤل حول مصير الفن الساذج في المغرب بعد وفاة هؤلاء الرواد . □

■ إننا نعرف كيف نصبر على المكاره ، ولكننا لا نعرف التسليم في حقوقنا ولا التنازل عن مطالبنا . (محمد فريد)

■ يهب الله كل طائر رزقه ، ولكن لا يضعه له ، في عشه !! (جولاند)

■ الرجل لايبكى إلا مرة واحدة ، ولكن دموعه تكون حينئذ من دم !! (بلشفيلد)

■ حسبك من السعادة فى هذه الدنيا ضمير نقي ، ونفس هادئة ، وقلب شريف ، وان تعمل بيدك ! (مصطفى المنفلوطى)



مصطفى المنفلوطى

وجهاً لوجه





د. مصطفى طلبة و د. اسامة الخولي

- استمرار الإنتاج الصناعي بوسائله الحالية يهدّد الكون بالفناء.
- نجحنا في وقف اغتيال طبقة الأوزون، على الرغم من معارضة الشركات العالميّة.
- الخطر القادم ارتفاع درجة حرارة الجو واختلال نسب الأمطار.
- الفرق بين درجة حرارة العصر الجليدي وعصرنا هذا خمس درجات فقط!
- الارتفاع المتوقع في درجة حرارة العالم يهدّد باختفاء بلدان بأكملها.

« في العشرين عاماً الأخيرة ازداد الحديث عن البيئة ومشكلاتها ، وبدأت تتوالى أبحاث العلماء عن المخاطر التي تهدد البيئة ، وبدأ العالم كله يسمع عن المخاطر التي تهدده ، والتي تصل إلى حد فناء الحياة البشرية » .

والمسئول الأول عن حماية البيئة عالم عربي مصري ، يشغل منصب وكيل السكرتير العام للأمم المتحدة والمدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة ، ومنذ فترة طويلة كانت « العربي » تحاول أن ترتب معه موعداً ، حتى تم الاتفاق معه في نيروبي ، حيث مقر برنامج الأمم المتحدة ، وجرى اللقاء في الكويت . وعندما جاء الرجل طلبت « العربي » من الصديق العالم الجليل د. أسامة الخولي أن يدير الحوار مع الرجل ، فكل من المتحاورين عالم وله سمعة علمية طيبة ، ولديه كثير مما سيطرحه في هذا المجال .

* أعتقد أن أفضل مدخل للحوار مع المسئول الأول عن البيئة في العالم هو الحديث عن التطورات التي حدثت عبر السنين الماضية لمفهوم البيئة ، وتحديداً من قبل مؤتمر استكهولم ، وحتى ظهور برنامج الأمم المتحدة لحماية البيئة ، لأنه في تصوري لو استطعنا ايجاز هذا التطور فإنه يعد مدخلاً لقضايا أكثر خصوصية وأهمية في مجال البيئة .

أعتقد أن هذا الاقتراح هو الأكثر مناسبة لحديث حول البيئة ، واذا تحدثنا عن بداية ظهور ما يسمى بفكر البيئة فاننا نلحظ أن هناك اتجاهين محددين هما :-

أولاً : أنه لم يبدأ في الدول النامية ، لكنه بدأ في الدول الصناعية المتقدمة في أواخر الستينيات .

ثانياً : أنه لم يبدأ من الحكومات ، لكنه بدأ من الشعوب ، ممثلة في الجمعيات غير الحكومية ، والتجمعات الشبابية ، وغيرها من المعبرين عن مشاعر الناس . وكانت المشاعر وقتئذ تتمحور حول الأخطار التي تهدد صحة الانسان من عمليات تلوث البيئة ، سواء تلوث الهواء أو الماء بما لها من آثار ضارة على صحة الانسان وكفاءة الحياة .

في ذلك الوقت ، في أواخر الستينيات ، وتحديداً في عام ١٩٦٩ تقرر نتيجة لضغط الشعوب إقامة مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة الإنسانية ، وحدد عام ١٩٧٢ موعداً لعقده في استكهولم عاصمة السويد ، وقد أصبح بعد ذلك يعرف باسم مؤتمر استكهولم تاريخياً ، فيقال ما قبل استكهولم وما بعد استكهولم ، في ذلك الوقت كانت الدول النامية - غالبيتها تحديداً - قد بدأت في الأخذ ببرامج التنمية ذات الأنشطة الصناعية ، وكانت التنمية الصناعية تمثل تحدياً حقيقياً للدول النامية للخلاص من أسر التبعية ، ولذلك عندما قالت الدول الصناعية المتقدمة إن التلوث الناتج من التصنيع يعد خطراً على البيئة الانسانية ، نظرت المجتمعات النامية إلى الدعوة للمؤتمر بريبة شديدة ، وأن المقصود هو ابقاؤها في حالة تبعية عن طريق مهاجمة مشروعاتها الصناعية ، وحرمان الدول النامية من حق التصنيع ، وقد بدأ في ذلك الوقت يتوالد لدى الدول النامية إحساس

بالضيق من المؤتمر ، وبدأ يتبلور اتجاه لعدم حضور المؤتمر ، إلى أن بدأ التطور في الغرب من خلال القائمين على المؤتمر أنفسهم الذين بدءوا نتيجة لهذا الموقف الذي اتخذته الدول النامية التفكير بأن للدول النامية مصالح أخرى ، وأن القضية ليست مجرد تلوث ناتج عن دخان المصانع فقط ، فبدأ التفكير في البيئة على أنها مفهوم شامل ، فما هي البيئة ؟ هل هي الهواء والماء وما يحدث فيهما من تلوث ، أم هي مفهوم أوسع من ذلك ؟ وتوصل القائمون على المؤتمر لحسن الحظ إلى ربط عملية التنمية باستغلال مكوناتها ، وهي البشر والمال ومصادر الثروة الطبيعية . وتبلور الفكر على أن البيئة ليست قضية منفصلة ، لكنها قضية متكاملة ، من خلال ربط هدف التنمية ـ وهو الانسان ـ بعملياتها ومكوناتها ، وأن هذا لا يمكن أن يتم بمعزل عن قضايا البيئة . وكان هذا هو المدخل الكبير الذي دخل من خلاله العالم النامي إلى مؤتمر استكهولم ، وانتقلت الصورة من الحديث عن تلوث الماء والهواء إلى الحديث عن استغلال مصادر الثروة الطبيعية وحمايتها ، وأصبح هذا المفهوم هو القضية الأساسية ، وللأسف ما زال هناك تصور لدى كثيرين في البلدان النامية بأن البيئة هي المحافظة على الماء والهواء من التلوث والمحافظة على الحيوانات البرية والحياة الطبيعية ، أو التصور الخاطيء الآخر الذي يرى أن الحفاظ على البيئة هو إيقاف عمليات النمو . وفي الحقيقة أن كلا التصورين خاطئان ، لا يعكسان فهما سليما لقضية البيئة .



العالم الثالث اهتمام أكثر :

* هذه النقطة تأخذنا مباشرة إلى أن نسأل : هل ترى ـ من خلال موقعك ـ أن موقف الدول النامية قد تغير تجاه قضية التلوث ، خصوصاً بعد بعض الحوادث ، مثل حادثة بوبال في الهند ، وما يبدو في السنوات الأخيرة من تراجع عن المفهوم الشامل للبيئة وعودة إلى التركيز على مشكلة التلوث حتى في الدول النامية ؟

ـ أرى أن هذا السؤال يثير نقطتين : ـ

النقطة الأولى : هل تغير مفهوم الدول النامية عن البيئة ؟

والنقطة الثانية : هل هناك عودة للوراء ، خاصة بعد الحوادث التي تشير إليها ؟ وهنا أستطيع أن أقرر أن هناك تغيراً واضحاً في مفهوم الدول النامية حول قضية البيئة وعلاقتها بالتنمية ، وهو واضح تماماً من مؤشرين :

المؤشر الأول : في مؤتمر ستكهولم عام ١٩٧٢ كان عدد الدول التي لديها وزارات أو مجالس أو أجهزة للبيئة ١١ دولة فقط في العالم كله ، ولم تكن بينها دولة واحدة نامية . أما اليوم فهناك ١١٢ دولة لديها أجهزة لحماية البيئة ، سواء وزارات أو أجهزة أو مجالس .

والمؤشر الثاني : في عام ١٩٧٢ عندما كانت المنظمات غير الحكومية المهتمة بقضية البيئة ٢٥٠٠ منظمة غير حكومية ، ولم يكن في العالم النامي غير ثلاث منظمات أو أربع ، أما اليوم فهناك أكثر من ٢٠٠٠ منظمة غير حكومية في العالم النامي وحده ،

وهذان مؤشران يوضحان التغير في النظر إلى مفهوم البيئة وارتباطها بالتنمية .

* إذا أذنت لي دعني أوضح ما أقصده من النقطة الثانية في السؤال قبل الاجابة عنه ، أقصد بالتحديد أن الدول النامية اليوم نتيجة لتسارع عمليات التصنيع فيها قد أصبح لديها اهتمام ملحوظ بقضية التلوث .

- هذا صحيح تماماً ، فقد حدث تنبه شديد في الدول النامية ، خاصة أن في غالبيتها اليوم عمليات تصنيع ، وقد بدأت عمليات التصنيع هذه قبل ظهور مفهوم حماية البيئة ، وهي للأسف مصانع تفتقر إلى القدر الكافي من معدات الحماية ، وبعضها يستخدم طرق تصنيع قديمة ، ولها آثار سلبية على البيئة والانسان تفوق آثارها الايجابية .

* في ضوء هذا الفهم ، هل هناك اختلاف في مفهوم البيئة بين العالم النامي والعالم الصناعي ؟

- في العالم الصناعي لا يدور الحديث عن استخدام مصادر الثروة الطبيعية على أنها قضية رئيسية للبيئة ، لكن الحديث والهم الحقيقي هو الملوثات ، لماذا ؟ لأن العالم الصناعي بدأ يربط بين عملية التلوث وعمليات الإنتاج في الدولة ككل . دعني أضرب مثالاً لذلك ، حادثة وقعت مؤخرا في إحدى المصانع السويسرية التي تتخصص بالانتاج الكيمائي ، فقد طفحت من مواسير التصريف بالشركة كمية من السوائل السامة ، وتسربت إلى نهر الراين ، لم تكن المسألة أن النهر تلوث ، لكن أصبحت المسألة أن النهر يستخدم مصدرَ مياه شرب ، ومصدر مياه للزراعة ، ولم يتوقف الخطر على حدود سويسرا فقط ، بل امتد فشمل المانيا الغربية وفرنسا وهولندا ، وثارت أزمة هددت العلاقات بين هذه الدول ، وحدث خلاف شديد حول تحديد المسئولية ، وتحديد الطرف الذى سيتكفل بدفع التعويضات للمتضررين ، ومن سيتكفل بتنقية النهر ومعالجته . ثم اتجاه آخر في العالم الصناعي ، وهو بداية التفكير في المواد الكيماوية السامة ، التي تستخدم في حفظ الأغذية مثلاً وغيرها من الصناعات الوثيقة الصلة بالاستخدامات البشرية ، وما أثير أن هذه المواد تسبب الإصابة بمرض السرطان ، وبدأت المخاوف من إنتاج هذه المواد ، وانتقالها من بلد إلى بلد ، وهي مصابة بهذه الملوثات ، وآثار هذه الأغذية على صحة الإنسان ، ثم آثارها على إنتاجية الانسان ، ثم الآثار المترتبة على إصابة الإنسان ، والأموال التي ستنفق على علاجه ، وأنه من الممكن توفير هذه النفقات العلاجية ، وتوجيهها إلى قطاع خدمات آخر ، أو إلى تمويل عمليات تنموية .

هم بلا حدود

* الواقع يقول الآن إن الأمر البيئي لم يعد أمراً داخلياً يخص دولة بعينها ، لكنه أصبح أمراً له بعد عالمي ، فالبيئة لا تعرف حدوداً ، وأصبح لزاماً على دول المجتمع الدولي أن تتعامل خارج إطار الحدود والأطر السياسية . والنقطة المهمة هنا أن شركات الإنتاج الضخمة ، لكي تضع الأضرار التي تصيب البيئة في حسبانها ، فإن ذلك يستتبع أن تعيد النظر في نظم إنتاجها بالكامل ، مما يعني تكلفة كبيرة ، والشركات الكبرى ورأس المال عموماً بلا قلب ، فما حل هذه الإشكالية ؟

هذا صحيح ، فالشركات الكبرى العالمية لا تهتم بالبلدان النامية ، ولا بالاضرار التي قد تصيب هذه البلدان ، لكن اتضح الآن أن عملية حماية البيئة من الممكن أن تتم بإعادة استخدام ما كان يسمى



بالنفايات ، وأصبح هناك مفهوم جديد لكلمة النفاية ، فبدأ النظر إليها على أنها مادة أولية ، موجودة في المكان الخطأ وفي الوقت الخطأ ، فإذا استخدمت هذه المادة في المكان المناسب ، وفي الوقت المناسب ، فإنها تتحول إلى رأسمال ، فأصبحت عملية إعادة تدوير النفايات ، ومن ثم استخدامها مادة أولية ، تدر على الشركات عائداً اقتصادياً يعوضها الإنفاق الذي أنفقته على تعديل النظم في فترات لا تتجاوز ٣ ـ ٤ سنوات ، وبعد ذلك تحصل على عائد صافٍ ، وهناك أمثلة محددة عن الشركات الكبرى ، منها مثلاً إحدى الشركات الأمريكية التي استعادت ما أنفقته على تعديل النظم في ٤ سنوات فقط ، فقد حققت في العام الماضي أرباحاً صافية قدرها ٢٠٠ مليون دولار من إعادة تدوير واستخدام ما كان يسمى نفايات .

والأمر الثاني هو ما حدث في عام ١٩٧٣ ، فبعد ارتفاع سعر النفط أصبحت تكلفة الصناعة في البلدان المتقدمة عالية جداً مما أدى إلى رفع أسعار منتجاتها على المستهلك الداخلي أو الخارجي ، فبدأت هذه الشركات تسعى لتخفيض استهلاكها للطاقة ، واضطرت إلى تعديل وتغيير في تقنية الإنتاج ، بحيث أصبح استخدام هذه التقنية الجديدة لإنتاج الكم نفسه من المنتجات يستهلك كميات أقل من الطاقة ، وكان الحافز في هذا هو الضغط الاقتصادي الذي حدث على حسابات التكلفة ، وبالتالي عجز المستهلك عن أن يقتني هذه السلع ، مما هدد هذه الشركات بكساد منتجاتها . وانتهت المسألة بتغيير مفهوم شائع وقديم ، وهو أن مقياس النمو والمدنية والتحضر بارتفاع معدل استهلاك الفرد والمجتمع ، وكان معدل استهلاك الطاقة في المجتمعات مؤشراً من المؤشرات الكمية لقياس النمو ، هذا المفهوم تغير تماماً . وهنا دعني أوضح هذا الأمر ، فقد كان من المتعارف عليه أن أي بلد يريد أن يحقق نمواً في الدخل القومي مقداره ١٪ عليه أن يرفع معدل استهلاك الطاقة بمعدل ٢٪ ، مع ما يعنيه ذلك من إيجاد خطوط إنتاج جديدة ، ومصانع ، وعمالة ، وإنتاج . أما الآن ، وبعد الضرورة الاقتصادية التي عاشها العالم بعد ارتفاع أسعار الطاقة فقد أصبح المعدل ممكناً ، لكن بنسبة ١ : ١ ، بل لقد استطاعت ألمانيا الغربية مثلاً أن تصل إلى زيادة في الدخل القومي بنسبة ١٪ مقابل ٠,٨٪ زيادة في معدل استهلاك الطاقة . والرسالة التي نوضحها هنا أن الاهتمام بالبيئة والحفاظ عليها لا يعني وقف عمليات التنمية ، بل يعني عائدا اقتصاديا واجتماعيا واضحا ، من الممكن أن يحس به ، ويرصد ، نتيجة عمليات الإقلال من الأضرار بالبيئة المحيطة بالإنسان .

عن البيئة والتنمية

* برنامج الأمم المتحدة يؤكد دائماً مفهوم التنمية المتواصلة أو المستمرة . في تصورك ما التطور الذي تتوقعه في فكرة الترابط بين البيئة والتنمية في نظرة مستقبلية ؟

ـ دعني أوضح لك بمثال : عندما ذهبت إلى زيارة أوغندا اصطحبونا إلى البلدة التي دمرت بالحرب

الأهلية ، وبدءوا يطلعوننا على برنامج إعادة الإعمار الذي يتم باشراف رئيس الدولة ورعايته ، وعندما وصلت إلى هناك قال لي المحافظ بسعادة بالغة وهو يشير إلى بئر ماء : هذا هو البئر رقم ٢٤٣ . ثم أخذ يشرح لي كيف يخططون لحفر مزيد من الآبار لتسكين أكبر عدد من المواطنين في هذه البلد بعد أن دمرت ، فشكرت المحافظ ، ثم سألت وزير البيئة : هل لديكم معلومات عن مقدار الماء الجوفي الموجود الذي يتم سحبه ؟

فقال الوزير : لا ، وطرحت نفس السؤال على رئيس الجمهورية بعد ذلك ، وقلت له : المأزق الآن أنكم تروجون لهذا البلد ، لإعادة إعمارها ، وتستقدمون لها المواطنين الذين ـ من المفترض ـ سيقيمون فيها ، ويزرعون أرضها ، وسوف يتم إنفاق أموال ضخمة في البناء والاستثمار ، ثم إذا اتضح بعد خمس سنوات مثلاً ، وبعد كل هذا البناء والاستثمار والقروض أن المخزون الجوفي من المياه قد انتهى ، فما الذي سيحدث وقتئذ ؟ كان من البديهي أن يسأل رئيس الجمهورية عن الحل ، فقلت له : الحل هو قياس مستوى المياه الجوفية وحجمها .

وبعيداً عن التفاصيل الفنية التي دارت بعد ذلك ، فإن ما أريد قوله من ذكر هذه الواقعة هو أنه من الطبيعي جداً لأي إنسان أن يعرف مصادر الثروة الطبيعية الموجودة ، وظروف هذه الثروة ، ومقدارها ، وإلى أي مدى يمكن استخدامها ، لكي نضمن استمرار عملية التنمية وضمان الاستقرار .

فالهدف الأساسي الذي نركز عليه أن دراسة البيئة ليست عملاً منفصلاً عن جهد التنمية ، وليست عملية استعراض علمي ، لكنها دراسات مرتبطة ارتباطا عضويا بالتنمية ، ومرتبطة باستمرار الحياة نفسها ، وهذه هي الصورة التي نربط فيها بين التنمية والبيئة ، وهذا هو التغير الذي حدث في مفهوم البيئة في العالم ، ولم يعد الأمر متوقفاً على الهواء الملوث أو المياه غير النقية ، بل أصبح الأمر أن الحياة نفسها مرتبطة بالبيئة .

ثمن الرفاهية

* استطراداً في الحديث عن المستقبل ما هي الاهتمامات الحديثة في مجال البيئة ؟ وما التغيرات التي حدثت في مجال البيئة وأبعادها التي أصبحت شبه كونية ؟

ـ الاهتمامات الحديثة كلها تكاد تكون منصبة على الجو ، على مستوى العالم كله ، بمفهوم أن كل فرد منا ، فوق سطح الأرض وتحت هذه الشمس ، يتأثر ويدفع الثمن ، ولا فرق بين دول الشمال أو دول الجنوب ، فالكل سوف يدفعون ثمناً غالياً ، وتحديداً فالاهتمام بالجو يدور حول محورين :

المحور الأول : المواد الكيماوية التي تستخرج لتستخدم في عمليات التنمية والانتاج الصناعي والتي أصبح استخدامها ضرورة من ضرورات العصر ،

فلا أتصور مثلاً أن هناك في أقطار الخليج العربي ، ذات المناخ الحار والامكانيات المادية الجيدة ، رجعة عن استخدام مكيفات الهواء ، وذلك لكي يستطيع البشر أن ينتجوا ويفكروا ، وهذا ليس نوعاً من الترف ، ولا رجعة الآن عن استخدام ثلاجة تحفظ المأكولات ، فلا يكاد يخلو منزل منها ، ومعظم النساء الآن عاملات ، وحاجتهن للثلاجة أكثر ، لأنهن لا يستطعن طهو طعامهن يومياً ولا رجعة عن عملية حفظ الأغذية وتعليبها ، ولا رجعة عن أجهزة التلفاز والفيديو والمذياع وكل هذه الأدوات والمنتجات تستخدم في صناعتها مواد كيماوية خطيرة تؤثر تأثيرات ضارة في الغلاف الجوي .

وهذه المواد الكيماوية التي تسمى « كلورو فلورو

كربونات » متعددة ، بيد أن هناك خمسة أنواع من هذه العائلة تسبب تآكل طبقة الأوزون في الجو التي خلقها وأبدعها الله سبحانه وتعالى ، على ارتفاع يتراوح بين ١٠ كم و ٥٠ أو ٦٠ كم أو أعلى ، والتركيز الأكبر منها على ارتفاع من ٢٠ إلى ٤٠ كم ، وقدرة الخالق العظيم أنه جعل كميات صغيرة جداً من هذا الغاز منتشرة هكذا ، وهذه الكميات لو افترضنا جمعها وضغطها بمكبس لوجدنا حجمها ٥ ـ ٦ سم مكعب ، نعم من خمسة إلى ستة سنتيمترات فقط ، وهذا سمكها كله ، لكنها هي التي تحجب عنا الأشعة الكونية القادمة من الشمس ، وبخاصة الأشعة فوق البنفسجية ، وهناك نوع من الأشعة فوق البنفسجية قاتل ، أي أنه لو تعرضت له الأرض لقتل الزرع والضرع والإنسان ، لكن طبقة الأوزون تحجب هذا النوع القاتل من الأشعة بالكامل .

وهناك نوع آخر من الأشعة فوق البنفسجية لو زاد تأثيره عن حد معين فإنه يسبب إصابة العيون بالكاتراكت (المياه البيضاء) ، ويسبب الإصابة بسرطان الجلد ، ونقص المناعة المكتسبة في جسم الإنسان كالايدز ، ونقص الانتاج في المحاصيل . وتأثيره أشد وضوحاً في كثير من المحاصيل المهمة مثل الذرة لا سيما الذرة الصيفية ، وفول الصويا والقمح .

الخطر القادم

لقد تأكد العلماء من خلال الأبحاث العلمية التي تمت منذ أواخر الستينيات أن هناك علاقة بين هذه المواد الكيماوية وبين تآكل طبقة الأوزون ، وقد ظللنا مدة عشر سنوات ندق جرس الإنذار ، ونثير الانتباه ، خاصة أن كل الدراسات قد أجمعت على أنه إذا نقصت طبقة الأوزون بمعدل ١٪ فإن الأشعة فوق البنفسجية ستزيد بمعدل ٢٪ ، ونسبة ٢٪ هذه تؤدي إلى ٤٪ زيادة في معدل الإصابة بسرطان الجلد ، وأضافت التقديرات أنه إذا استمر انتاج هذه المواد الكيماوية بنفس المعدل والكم الحادثين ، فإنها تصعد إلى ارتفاعات ٣٠ ـ ٤٠ كم ، ولا تنكسر ولا تتحطم بل تبقى قروناً ، وتتجمع بنفس التركيب الكيماوي وتسبب تكسير طبقة الأوزون .

والقلق العالمي قد بدأ عندما ارتبط هذا بالحديث عن السرطان ، فكلمة « السرطان » ما زال لها وقع الانذار والرعب لدى البشر كافة ، وعندما ارتبطت هذه القضية بالسرطان بدأ الناس يطالبون بإجراء ما ، وزاد الاهتمام أكثر عندما شاعت لدى العامة آثار فقدان المناعة « الايدز » ، وأدركوا أنه من الممكن أن يصابوا بالسرطان وبفقدان المناعة إذا تعرضوا للأشعة فوق البنفسجية .

العالم قد تأكد الآن أن هناك فجوة فوق القطب الجنوبي مصابة بنقص في كمية الأوزون ، وتتضح هذه الفجوة أكثر في شهور الربيع (سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر) في القطب الجنوبي ، بما مقداره من ٤٠ إلى ٥٠٪ من الكمية المفترضة ، وقد استغللنا هذه الفرصة ، وبدأنا نتفاوض مع الدول لوضع اتفاقية دولية ، يتم بمقتضاها وقف إنتاج المواد الكيماوية التي تسبب تحطيم مادة الأوزون واستهلاكها ، وبدأنا في مفاوضات ، ولم يحدث خلاف إطلاقاً حول خطورة الأمر وعلاقته بصحة الإنسان وبالكون وبالحياة نفسها ، لكن عندما دخلت المفاوضات إلى مجال الحديث عن وضع اتفاقية لتنظيم ذلك انتقلت القصة من حوار حول الآثار البيئية والواجب الإنساني لحماية الحياة إلى معالجة القضية الاقتصادية .

* سؤال عرضي : أليس ممكناً تخليق غاز الأوزون ؟

ـ معملياً لا يمكن ، لكنه يتخلق كونياً باتحاد ذرتي أوكسجين ، ثم تتدخل ذرة أوكسجين ثالثة ، فيتكون الأوزون (ببساطة) ، وهذا المركب يتكسر

بأشعة الشمس ، لكن العناية الإلهية جعلت معدل التكسير مساوياً لمعدل التخليق ، لكن عندما تدخلت هذه المواد الكيماوية حدث خلل هائل ، إذ أصبح معدل التكسير أكبر من معدل التخليق ، واختل بذلك النظام الكوني الموضوع للحفاظ على حياة البشر .

ولذلك عندما ناقشنا دقة المفهوم العلمي والآثار السلبية لهذا الأمر وأهمية الحفاظ على البيئة وحياة الانسان ، لم يختلف معنا أحد ، لكننا اصطدمنا بالشركات الكبرى التي تنتج هذه المواد الكيماوية ، وهي مجموعة شركات يبلغ حجم انتاجها من هذه المواد ٢٠٠٠ مليون دولار سنوياً (ألفي مليون دولار) فقط ، هي قيمة انتاج هذه المواد الكيماوية ، لكن لو حسبنا إجمالي تكلفة الإنتاج الذي تدخل أو تستخدم هذه المواد في صناعته (كالثلاجات والتلفازات وأجهزة المذياع والفيديو) لفوجئنا برقم يصل إلى آلاف آلاف الملايين من الدولارات ، وتكاد تكون كل صناعات العالم مرتبطة به .

وأصبحت القضية : كيف نجد البديل ؟ وهل نوقف الصناعات ؟ وبدأ الخلاف بين الدول والشركات على الأسواق ، بمعنى لو توصلت شركة ما أو دولة ما إلى بديل ، وسبقت بذلك شركة أخرى منافسة ، فإن الشركة التي توصلت إلى البديل ستستغل السوق الذي كان يبيع فيه الطرف الآخر . وأصبحت المفاوضات حول التجارة ، وليس حول مصير الكون ، إلى أن توصلنا إلى صيغة تقدم حلاً مرضياً لكل الأطراف ، وتضمن لكل طرف حقوقه ، لكن بقيت مشكلة الدول النامية ، التي رأت أنها لو أوقفت الانتاج أو قللته ، فإنها لن تستطيع إنتاج أي سلعة تدخل فيها هذه المواد الكيماوية أو أن تحصل عليها . وقد تغلبنا على هذا بأن أعطينا الدول النامية في الاتفاقية مهلة عشر سنوات ، كما اشترط أن تقدم الدول الصناعية المنتجة قدراً من الإنتاج إلى الدول النامية في حالة عدم توصلها الى بديل .

وبعد ذلك أعددنا صياغة الاتفاقية ، واشترطنا أن لا تدخل الاتفاقية مرحلة التنفيذ إلا بعد أن يوقع عليها عدد من الدول التي يكون حجم استغلالها لهذه المواد الكيماوية لا يقل عن ٦٧٪ من إجمالي ما ينتج عالمياً ، وهذا ضمان لكي لا توضع الاتفاقية موضع التنفيذ دون أن يكون الكبار قد وقعوا عليها ، لأن أكبر المستهلكين في العالم هو دول السوق الأوروبية المشتركة (٢٨٪) ، الولايات المتحدة ٢٩٪ ، الاتحاد السوفيتي ١٠٪ ، اليابان ١٠٪ ، وكان لا بد أن يكون كل هؤلاء في دائرة التنفيذ في وقت واحد لأنهم كبار المنتجين ، وبالتالي فان الاتفاقية مطبقة على كل من ينتج ، ولن يحقق أحد مكسباً على حساب الآخر .

واشترطنا أيضاً أن تدخل الاتفاقية نطاق التنفيذ ابتداء من يناير ١٩٨٩ ، وقد وقعت أمريكا ، وصدق الكونجرس الأمريكي في خلال ستة أشهر فقط ، ووقعت دول أوربا الغربية ، وصدقت برلماناتها ، وكذلك اليابان والاتحاد السوفيتي . وفي تقديري أن الاتفاقية حاولت أن تنقذ العالم ، وحققت انجازاً مهماً في وقت قصير ، فقد دخلت حيز التنفيذ بعد عام ونصف عام فقط بعد إعلانها ، وهي سابقة في مثل هذه الاتفاقات الدولية .

عالم أكثر سخونة

المحور الثاني هو ارتفاع درجة حرارة الجو المستمر الذي يعرف علميا بتأثير الصوبة (Greenhous effect) وهناك شبه إجماع في الدراسات العلمية على أن العالم سيشهد في خلال ٣٠ - ٤٠ سنة القادمة (وأؤكد أن ذلك سيحدث خلال هذه السنين وليس في نهايتها) ارتفاعاً في درجة حرارة الجو ، مقداره من درجة ونصف إلى أربع درجات ونصف ، ونتيجة لهذا ستتغير أنماط الرياح والأمطار في مختلف أجزا

العالم . والأمر غير المؤكد لنا علمياً - حتى الآن - هو شدة التأثير في الأمطار كمّاً وموعداً ومكاناً . . الخ ، لكن الدلائل المرصودة خلال العشرين عاماً الماضية تؤكد هذا ، فأفريقيا مثلاً في خلال العشرين عاماً الماضية قلت فيها نسبة الأمطار بانتظام ، بينما ازدادت في أوربا الغربية بالمعدل نفسه . أما درجات الحرارة فهناك تقديرات مبدئية تقول إنها سوف تزيد في البلدان الواقعة حول خط الاستواء بمعدل ١,٥ - ٢,٥ ، بينما ستزيد في الشمال بمعدل ١٠ - ١٥ درجة ، إذن نحن أمام تغيرات حادة في الرياح والأمطار ، ستسبب اختلالاً خطيرا في حياة العالم ، مثل اختلاف نوعي في المحاصيل ، وتوقف إنتاج أراض . . الخ .

والأمر الآخر أن ارتفاع درجة الحرارة إذا لم يتسبب في ذوبان الجليد الموجود بالقطبين فإنه سوف يؤدي إلى تمدد المياه في المحيطات ، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا المعدل ١,٥ درجة إلى ٤ درجات أمر هين ، لا يمثل خطورة ما . ولتوضيح حجم الخطر أشير إلى حقيقة علمية ، هي أن عصر الجليد السابق - عندما كان العالم كله تحت الجليد - كان معدل درجة حرارة العالم أقل من المعدل الحالي بخمس درجات فقط . ومن هنا يمكننا أن نتخيل ماذا يمكن أن يحدث لو ارتفعت درجة حرارة العالم خمس درجات فقط عما هو موجود الآن . سوف يحدث تمدد في حجم المياه الموجودة في المحيطات فيؤدي ذلك إلى ارتفاع سطح المياه في البحار والمحيطات بدرجة تتراوح بين ١٢٠ و ١٤٠ سم ، والمعدل المتوقع للزيادة المتفق عليه بالنسبة لكل العلماء هو في حدود متر واحد ، وهو ما تجمع عليه الدراسات .

ماذا يعني ارتفاع سطح المياه في البحار والمحيطات بمقدار متر واحد ؟ يعني هذا أننا في دولة مثل مصر لو ارتفعت المياه بمقدار متر فسوف تغرق الدلتا ، وتهدد بفقدان ١٠ ملايين شخص ، وتهدد في بنجلاديش بفقدان ١٥ مليون شخص ، وستختفي جزر المالديف من الخريطة ، إذا ارتفع الماء مقدار نصف متر فقط ، ونتيجة لهذا يتبادر إلى الذهن أن العالم مطالب بوضع حواجز على المدن الساحلية والنهرية ، لحمايتها من الأخطار المحتملة ، لكن حساب التكلفة يقول إن تنفيذ مشروع حماية المدينة الواحدة من ارتفاع سطح الماء بمقدار ٨٠ سم إلى متر سيكلف ٢٠٠٠ بليون دولار (ألفي بليون دولار) .

إذن ما هو مصدر الخطر ، أو ما هو السبب في طرح هذه الاحتمالات ؟

السبب ببساطة هو ارتفاع درجة الحرارة الذي تتلخص أسبابه في الانتاج الصناعي والمداخن الصناعية ، وعوادم السيارات والغازات الناتجة من هذه العوادم ، وبعض الغازات التي قلنا سابقاً إنها تؤدي إلى تآكل طبقة الأوزون ، وتأثير السحب التي تحولت إلى حاجز يمنع انتشار حرارة الشمس عندما تنعكس من الأرض ، فتوقف هذا التسرب المفروض للحرارة ، فتزيد درجة حرارة الأرض ، وثاني أكسيد الكربون وحده يسبب ٥٠٪ من زيادة درجة الحرارة .

ومن الخطأ التصور أن بمقدور أحد بمفرده أن يقوم بعلاج هذه الظواهر ، فهي فوق قدرة أي عالم أو مجتمع أو دولة أو منظمة ، لأنها تحتاج إلى جهد العالم كله ، ولذا فإن ريجان وجورباتشوف عندما التقيا في العام الماضي كان من أحد الموضوعات التي اتفقا عليها - وقد أعلنا هذا رسمياً - هو تضافر جهود البلدين وتنسيقها في مجال ظاهرة تغير الجو . كبحوث مشتركة بين الدولتين العظميين ، لأن الوسائل المتاحة محدودة الأثر ، ومحصورة في تقليل استخدام هذه الغازات ، وهو أمر يؤثر على الانتاج الصناعي العالمي ، وقد كان مطروحا للعمل على استخلاص هذه الغازات من الجو ، ثم تذويبها في المحيط . لكن ما تأثير هذا على المحيط ، وعلى الكائنات البحرية ؟

حتى الآن لا توجد إجابة محددة ، لكن هذا حل مطروح لكسب الوقت .

والمطروح عالمياً من وسائل التحكم في أسباب ارتفاع درجة حرارة الجو هو الاستغلال الرشيد للطاقة ، وهناك تجربة في السويد ، وهي أن كل مصنع لديهم يعيد تدوير كل النفايات بما فيها الحرارة ، بحيث لا يخرج في النهاية عادم على الإطلاق ، ولا حتى نفايات .

ومطروح أيضاً التقليل من استخدام السيارات بتشجيع استخدام المركبات العامة بدلاً عن السيارة الفردية ، والعودة إلى وسائل نقل عامة تعمل بالكهرباء مثل « الترام » لتقليل وجود العوادم ، وتجريب أنواع جديدة من الطاقة كالطاقة الشمسية أو طاقة الرياح أيضاً .

وهكذا فإنه علينا بحكم الضرورة الملحة أن نعرف تأثير ارتفاع درجة الحرارة ، وارتفاع مستوى سطح المياه على المناطق الجغرافية المختلفة ، خشية أن يحدث هذا التغير فجأة ، وبالتالي على الإنسان أن يخطط لحياته ، وماذا سيفعل لو حدث هذا في خلال ١٠ - ١٥ سنة ، وليس ٣٠ - ٤٠ سنة ؟ ولدينا برنامج في المنظمة لبحث هذا الأمر مع بعض البلدان في مناطق جغرافية متنوعة ، بحيث نفكر معاً في مستقبل الإنسان في ظل هذا التغير البيئي الحاد لو حدث ، ومع استمرار جهودنا لمحاولة وقف حدوثه .

* إذا كانت قضية الأوزون قد تم حسمها على المستوى العلمي ، وإذا كانت الدول ستكف عن استخدام المواد التي تسبب اغتيال طبقة الأوزون ، فما البدائل ؟

- لم تكن الصناعة غائبة عن متابعة تطورات قضية الأوزون ، ولعلك تذكر أن أول اجتماع أثير فيه موضوع الأوزون كان في عام ١٩٧٤ ، ثم في اجتماع للحكومات في عام ١٩٧٧ ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت المجموعات الصناعية تحرك علماءها وأجهزة البحث فيها للبحث عن البدائل ، وفي الفترة من ابريل إلى سبتمبر ١٩٨٧ - وهي فترة ما قبل توقيع اتفاقية الأوزون - التقيت بممثلي كل الشركات المنتجة لهذه المواد ، وقلت لهم ما توصلنا إليه ، وسألتهم عن موقفهم الحقيقي ، وقد أجابوا بجواب موضوعي مفاده أن معامل أبحاثهم قد توصلت الى بدائل ، وأن هذه البدائل ستكون متاحة للانتاج بشكل تجاري في الأسواق العالمية خلال فترة (من ٧ - ٨ سنوات) ، فصدرت الاتفاقية في ضوء هذا الموقف ، حيث تقضي الاتفاقية بتجميد الانتاج بعد دخول الاتفاقية عامها الأول ، وخفضه بمقدار ٢٠٪ بعد عامين ، وبمقدار ٥٠٪ بعد ست سنوات (أي بعد انتهاء كل المدة وهي ٨ سنوات ، الشاملة للمدد التي طلبتها الشركات الصناعية) والهدف من هذا التسلسل إعطاء الصناعة إشارة واضحة بأن عملية الانتاج الصناعي ستصبح مهددة ، لأن المصنع الذي كان ينتج عشر وحدات سيجد نفسه مطالباً بعد فترة بانتاج خمس فقط ، وهي عملية غير مجدية بالنسبة لحسابات التكلفة . وقد فوجئت بعد خمسة شهور فقط من توقيع الاتفاقية أن الأمر على غير ما كنت أتوقع ، ففي أثناء اجتماع عقدناه مع ممثلي الشركات الصناعية المنتجة لهذه المواد سألناهم عن وضع البدائل ، فسمعناهم يذكرون كماً من البدائل الجاهزة لديهم معملياً ، وقد أخبرونا أنهم يتوقعون قبل مرور خمس سنوات أنهم سيتمكنون من الانتاج التجاري والتصدير وتشغيل مصانع أخرى ، أي قبل المدة التي كنا نتوقعها من قبل ، وهي ٧ - ٨ سنوات .

وهذه الخبرة في التعامل توضح لنا موقف العلماء من القضايا البيئية ، وكيف أن المجمع الصناعي العالمي عندما يشعر بجدية الضغوط الواقعة عليه فإنه يطلق باحثيه لسبق الزمن والتعامل مع المتغيرات . □

التخلص من الشيخوخة وهمٌ أم معجزة؟



بقلم : الدكتور سامي عزيز

بعد فترة من العمر ، يحل الضعف بالكائنات الحية ، وينتهي بها الحال إلى الموت . حول التغييرات التي تحدث في الجسم ، وتتسبب في حدوث الشيخوخة ، تجري محاولات العلماء والباحثين لتحديد كنهها ، ومعرفة الوسائل الطبية لتأخير سن الشيخوخة ، والحد من متاعبها .

فإلى أي مدى وصلت هذه المحاولات العلمية ؟

تشير الأبحاث التي أجريت مؤخرا إلى أن عديداً من التغيرات الكيميائية التي تحدث في خلايا الجسم المختلفة تعد المسئول الأول عن حدوث الشيخوخة ، فالخلايا لدى متقدمي العمر تكتفي فقط بالعمليات المهمة التي تهيء الجسم للقيام بوظائفه اليومية ، مثل : تمثيل الغذاء ، والعمليات الإخراجية ، وتصنيع البروتينات وغيرها ، لكنها تتوقف عن القيام بعديد من العمليات الحيوية الأخرى التي كانت تقوم بها في فترة الشباب .

ويؤكد علماء طب المسنين أن هذه الحالة يمكن تسميتها « الفشل الخلوي » ، وهي في ذلك تماثل الفشل الكلوي ، أو الفشل الكبدي ، ولكن نظرا لأننا في أول الطريق ، ولا تتوافر لدينا حتى الآن الفحوصات الدقيقة للكشف عن تفاصيل هذا الخلل الخلوي ، فإننا نستطيع أن نقول : إن معظم النظريات المتوافرة حاليا تنقصها الأدلة العلمية

المؤكدة لها ، ومن هذه النظريات المعروفة حاليا :

(١) نظرية التمزق والبلى ، وهي تفترض حدوث عطب في المادة الوراثية P.N.S ، مع تقدم العمر ، مما يؤثر على بروتينات الخلية ، وبالتالي على وظائف الخلية المختلفة .

(٢) نظرية الجينات : وهي تفترض حدوث اضطراب في جينات الخلية ، مما يؤدي إلى تصنيع بروتينات ضارة داخل الخلية ، فتضطرب وظائفها المختلفة

هل مادة P.N.S هي السبب ؟

إحدى النظريات - كما أشرنا - تفترض أن السبب يكمن في بعض التمزق والبلى الذي يحدث مع تقدم العمر للمواد الوراثية التي تتحكم في تصنيع بروتينات الخلية - مادة P.N.S - ومع تكرار هذه العيوب ومواضع الخطأ في هذه المادة عدة مرات ، نتيجة تعرض الخلايا للإشعاعات وبعض المواد الكيماوية السامة ، تقل كفاءة الخلايا في تأدية وظيفتها .

ولكن هذه النظرية - مع الأسف - أهملت قدرة خلايا الجسم على إصلاح أي إصابة تحدث فيها . والمؤكد لنا الآن أن الخلايا البشرية تستطيع أن تعيد بناء أي عطب يصيبها ، وذلك بتكوين قطع غيار بديلة ، وإعادتها إلى موضعها الأصلي داخل الخلية ، مما يجعلها تقوم بنفس الوظائف التي كانت تقوم بها دون أي تأثر .

ويؤكد البروفيسور « تاكاتوشي اسكارا » ، رئيس معهد السرطان بطوكيو باليابان ، قدرة خلايا الجسم على إصلاح أي خلل يحدث فيها ، فيقول : « تقدر عدد الإصلاحات التي تحدث في خلايا الجسم عند بلوغ سن السبعين بأكثر من ١٢٨ بليون عملية إصلاح ، وهذا الرقم دون شك يفوق كل تخيل !!

من هنا يتضح لنا أن النظرية التي تفترض أن تحطم جزيء P.N.S داخل الخلية مسئول عن ظهور الشيخوخة مع مرور العمر نظرية غير مقبولة ، فالجزيء منها يُصلح نفسه ، ويستعيد تركيبه الأصلي بلايين المرات .

الجديد الذي يطرحه البروفيسور ستريهلر - الباحث المعروف في علوم بيولوجيا الخلية - في هذا المجال يختص بجينات الخلية . يقول : « ربما تحدث الشيخوخة نتيجة فقد بعض جينات الخلية أو إصابتها ببعض الخلل ، ففقد إحدى الجينات مثلا قد يعطل إنتاج بعض أنزيمات الخلية ، وبالتالي يحدث الاضطراب الخلوي » .

وهذا الخطأ الخلوي المميت - كما يلقبه العلماء حاليا - قد يؤثر بالتالي على إنتاج بروتينات الخلية مع مرور العمر . وتشير الأبحاث التي قام بها البروفيسور « روبرت جراس » ، من جامعة شمال تكساس بأمريكا ، إلى إمكانية حدوث ثلاثة اضطرابات في أنزيمات الخلية عند حدوث الشيخوخة :

(١) نقص القدرة على الثبات .

(٢) نقص الكفاءة .

(٣) نقص الكمية المنتجة .

والجديد في الموضوع أن هذه التغيرات في الجينات وأنزيمات الخلية ربما لا تؤثر على جزيء P.N.S ، بل يحتمل أن يكون تأثيرها بطريقة أخرى مختلفة تماما .

ويؤكد ذلك البروفيسور « جيمس سميث » ، عالم الفيروسات بجامعة بيلور بهيوستون بأمريكا ، فهو يرى أن الجينات المصابة قد تنتج بعض البروتينات الضارة بالخلية ، مما يؤثر على انقسامها ، ويعجل حدوث الشيخوخة . أما آخر الأبحاث في هذا المجال فتشير إلى أن بعض المواد الكيماوية الموجودة في الجسم قد تعجل ظهور الشيخوخة ، وأهم هذه المواد : (١) مادة الليبوفيوسين (تنتج عن تحلل المواد الدهنية) . (٢) مادة السكر .

المعروف أن مادة « الليبوفيوسين » تنتج عن تحلل المواد الدهنية ، وتزيد مع تقدم العمر ، وهي تنتج داخل خلايا الجسم المختلفة ، وربما يؤدي وجودها بكميات كبيرة إلى تعطيل بعض العمليات الحيوية ، وبالتالي إلى ظهور الشيخوخة .

أما مادة السكر فتمثل - حسب ما يرى معظم العلماء حاليا - المسئول الأول عن الشيخوخة . يؤكد ذلك البروفيسور « ريتشارد بوكلا » ، من جامعة

روكفلر بنيويورك الذي توصل إلى أن جزيء الجلوكوز - أحد أنواع السكر - يؤدي إلى إصابة بروتينات الخلية المختلفة بعديد من الأعطاب ، مما يؤثر على كفاءة الخلية في القيام بوظائفها المختلفة .
والمؤكد حاليا أيضا أن الجلوكوز يعمل على ارتباط ألياف الكولاجين بعضها ببعض ، وحدوث هذا الارتباط معروف مع تقدم العمر منذ عدة سنوات ، لكن التفسير العلمي لهذه الظاهرة لم نتوصل إليه إلا بعد اكتشافات البروفيسور بوكلا .

وبالإضافة إلى ذلك ثبت حاليا أن جزيء الجلوكوز يمكن أن يتحد مع جزيء P.N.S ، مما يؤدي إلى خداع الجهاز الوراثي ، ودفعه لإنتاج بروتينات غريبة ، قد تكون ضارة بالخلية .

هل يمكن إطالة العمر ؟

المؤكد لنا حاليا أن الشيخوخة في جوهرها مشكلة على مستوى الجزيء الكيميائي ، وأن الشق الحر الذي يقوم بدور المادة الغروية - كما شرحنا - هو أحد أساسيات المشكلة !

لذلك يفكر العلماء حاليا في مجموعة من المواد الكيميائية ، تعرف باسم « مضادات التأكسد » ، وهذه المواد من شأنها معادلة التأثير السام للشق الحر ، وجعله أكثر ثباتا ، وأقل نشاطا كيميائيا . ففيتامين E مثلا يأتي في مقدمة المواد المضادة للتأكسد ، وكذلك مادة الكاروتين التي تتحول في الجسم إلى فيتامين « أ » . فهل يمكن باستخدام فيتامين E أو مادة الكاروتين القضاء على زحف الشيخوخة وإطالة العمر ؟

والوسيلة الأخرى التي يبحثها العلماء حاليا لإطالة العمر هي الصيام المتقطع ، فالصوم يحد من نسبة تركيز الشق الحر بالخلية ، وبالتالي يزيد متوسط عمر الخلايا . يؤكد ذلك العالم الشهير « ولفرد » الذي توصل إلى أن إنقاص السعرات الحرارية في الغذاء المقدم لحيوانات المعمل بنسبة ٣٠٪ إلى ٤٠٪ يصاحبه زيادة في متوسط العمر تصل إلى ٤٠٪ ، وهذه التجارب قد ثبتت صحتها أيضا في جامعة تكساس ، وبالتحديد في المركز الصحي التابع لهذه الجامعة بسانت أنطونيو ، إذ بعد تجارب عديدة ، قادها البروفيسور « إدوارد ماسورو » ، تبين أن عدم الإسراف في الغذاء ، وإنقاص السعرات الحرارية ، يطيل عمر حيوانات المعمل .

هرمون الموت :

تساؤلات جديدة تثيرها الأبحاث الطبية حاليا في موضوع الشيخوخة : هل الموت الخلوي يحدث نتيجة برنامج زمني محدد ، أم أنه عملية اعتباطية ، لا تتبع أي نظام أو ترتيب ؟ وما الذي يحدد لحظة موت الخلية ؟ وهل هي إشارات خاصة من الخلية نفسها أم من الجهاز العصبي أم منهما كليهما ؟ وهل التوقف عن الانقسام يعني موت الخلية ، أم أن ذلك عملية بيولوجية ، تحدث قبل توقف الخلية عن الانقسام ؟

يؤكد الدكتور « دونر دنكل » ، رئيس قسم الكيمياء الحيوية السابق بجامعة كامبريدج ، أن موت الخلايا يحدث نتيجة إفرازات خاصة ، تخرج من الغدة النخامية ، أطلق عليها اسم « هرمون الموت » ، وهذه الإفرازات تبدأ في الظهور مع سن البلوغ ، ويستمر إفرازها بكميات متفاوتة فيما بعد . وقد تمكن دونر من استخلاص « هرمون الموت » سنة ١٩٨٠ ، وعند حقن حيوانات المعمل بهذه المادة بدأت علامات الشيخوخة في الظهور عليها بصورة مبكرة .



وحتى يؤكد « دونر » دور الغدة النخامية في إفراز هرمون الموت ، المتهم الجديد في حدوث الشيخوخة ، قام بإزالة الغدة النخامية من بعض الحيوانات ، وحقنها بالهرمونات البديلة ، حتى تستمر الحياة فيها ، وقد تبين أن هذه الحيوانات عاشت فترات أطول من الحيوانات الأخرى التي لم تجر عليها هذه العملية ، مما يؤكد دور الغدة النخامية في تفجير موت الخلايا وحدوث الشيخوخة .

وتؤكد الأبحاث الحديثة أن موت الخلايا يسير حسب برنامج زمني محدد ، وأنها عملية مرتبة ولا تسير بطريقة اعتباطية ، وأن هناك عوامل كثيرة ، تتحكم في هذه العملية ، لكن الصورة الكاملة لها مازالت غير واضحة المعالم .

الاقتصاد « الفسيولوجي »

تحدثنا عن هرمون الموت ، ودور الغدة النخامية ، في حدوث الشيخوخة . ترى هل توجد مراكز أخرى تتحكم في هذه العملية ؟ وهل الشيخوخة تعود إلى أسباب وراثية ، أم أنها تعود بالدرجة الأولى إلى العوامل البيئية ؟

يجيب عن هذه الأسئلة الأستاذ الدكتور « كالب فينس » ، أستاذ طب الأعصاب بالمركز الأمريكي للشيخوخة ، بقوله : « هناك عوامل كثيرة متداخلة ، تؤدي إلى تغير الخلية ، وظهور علامات الشيخوخة فيها ، لكننا لا نستطيع - حتى الآن - أن نتهم عضوا معينا بالجسم بتفجير هذه العملية ، فخلايا الجسم تصاب بالشيخوخة على مراحل مختلفة ، كما أننا لا نستطيع أن نبرىء عاملا معينا من المشاركة في هذه العملية » .

لقد أشارت بعض التجارب إلى وجود علاقة بين الغدة النخامية والمبيضين ، فعند إزالة الغدة النخامية من فئران التجارب تبين أن الشيخوخة تصيب خلايا المبيض في وقت متأخر . ومن هذه النتائج قام العالم « فينس » بافتراض نظريته الجديدة التي أطلق عليها اسم « الاقتصاد الفسيولوجي » ، وهذه النظرية الجديدة تفترض :

(١) وجود أكثر من مركز في الجسم للتحكم في عملية الشيخوخة .

(٢) أن خلايا الجسم المختلفة تصاب بالشيخوخة على مراحل ، وليس هناك عمر ثابت لها .

(٣) أن هناك خطة محكمة تسير على ضوئها عملية الشيخوخة ، وهذه الخطة تتأثر بالوضع الفسيولوجي للجسم ، والتغيرات الباثولوجية (المرضية) التي يواجهها .

(٤) تمثل هذه الخطة أعلى مستوى للاقتصاد ، بمعنى أن الجسم يعمل على تأخير شيخوخة خلايا بعض أعضائه لمواجهة بعض التحديات التي يتعرض لها .

من هنا يتضح لنا أن الغدة النخامية ليست وحدها المتهم الأساسي في حدوث الشيخوخة ، بل إن هناك مراكز أخرى كثيرة ، تشارك في اكتمال هذه العملية ، وأن نظرة العلماء حاليا تؤكد وجود خطة محكمة ، تسير على أساسها مراحل الشيخوخة ، وهذه الخطة تمثل أرقى مستوى للنظم الاقتصادية التي تهدف أولا وأخيرا إلى قيام خلايا الجسم المختلفة بوظائفها الأساسية ، وتأخير شيخوخة بعض الأعضاء لمواجهة خطة ليست ثابتة ، لكنها تختلف باختلاف الظروف التي تواجهها أعضاء الجسم

في النهاية نحب أن نقول : إن العلم - في وقتنا الحالي - لا يستطيع أن يصف لنا إكسيرا معينا ، يعيد لنا الشباب ، أو مضادًا يساعدنا على وقف زحف الشيخوخة . فنحن حتى الآن لم نفك ألغاز الشيخوخة ورموزها ، وهدف العلماء حاليا ليس إطالة العمر بقدر ما هو رفع مستوى الصحة ، فليس المهم كم من السنوات عشت ، بل كيف كانت حياتك على الأرض .

لذلك فأبحاث طب المسنين لن تتوقف ، ولكن على العكس ، فالمنتظر أن تأخذ نصيب الأسد بين الأبحاث الطبية الأخرى خلال العشرين سنة القادمة . ويرى العلماء أن هذه الأبحاث ستكرس ليس لمعرفة أسرار الخلود ، وكيفية إطالة العمر ، بقدر ما ستكرس لتحسين مستوى الصحة عند المسنين . □



التساؤل عن أسباب الهوة المتعاظمة بين البلدان المتقدمة والمتخلفة تساؤل غدا مكرورا ، والجواب عنه أخذ مائة شكل وشكل ، وملأ من صفحات الورق مايكاد يفضي إلى الغرق . ومع ذلك يظل التساؤل قديما أبدا ، جديدا أبدا ، مادام التخلف قائما ومادام البون بينه وبين التقدم متعاظما . وليس يصح أن نقول في هذا المجال قولة الشعراء العرب القدامى : « ماترك الأول للآخر » أو أن نقول مع الكاتب الفرنسي لابروير : « وكل شي قد قيل ونحن لانعدو أن نلملم بقايا ما خلّفه الأقدمون وما تركه البارعون من المحدثين » .

تلك الهوة بين التقدّم والتخلف !

بقلم : الدكتور عبدالله عبدالدائم

على أننا منذ البداية نود أن ندحض ظنا قوامه أن البحث عن مصدر الهوة بين التخلف والتقدم يعني البحث عن العلة الأولى ، على حد تعبير أرسطو ، وأن القول بأولوية العامل التنظيمي الإداري على نحو ما نود أن نذهب إليه في هذه الكلمة يعني ضربا من تبسيط الأمور ، ورد الظواهر المعقدة المتشابكة إلى خيط رائد وحيد .

ذلك أننا ننكر التفسير الأحادي للأمور ، ولانقول بالصلة « الخطية » بين الأشياء ، بحيث يبدو تاليها معلولا لسابقها . ومنهجنا هو المنهج العلمي الذي يأخذ بالصلة الدائرية بين الأشياء ، بحيث يرى في كل منها سببا ونتيجة في آن واحد ، وبحيث يدرسها في ترابطها وتكاملها وتعانقها . وحكايتنا مع الحقيقة ليست على أي حال حكاية الأعمى والفيل ، ونحن ندرك تمام الإدراك أن التخلف جملة من العوامل المتداخلة ، منها التاريخي ومنها الاجتماعي ومنها الثقافي ومنها الاقتصادي ومنها ما فوق ذلك .

لكن وجود العوامل العديدة التي تفسر التخلف أو تفسر أي ظاهرة لا ينفي أن يختلف وزن كل منها

ودوره في توليد ذلك التخلف أو تلك الظاهرة ، كما أن علاج التخلف ، وإن يكن من اللازم أن يكون شاملا ، لا ينفي أن يحتل علاج بعض عوامله مكان الصدارة ، وأن تكون له أولوية على سواه . وإلا كان من المتعذر أن نخرج من دائرة التخلف .

وما نزعمه هو أن ثمة عاملا من عوامل التخلف له مثل هذه الصدارة ، وينبغي أن تكون له مثل هذه الأولوية في علاج التخلف ، ونعني به عامل الإدارة والتنظيم الإداري . ويدلنا معظم ما كتب حول التخلف وعوامله على أن هذا العامل قد أهمل شأنه إلى حد كبير ، ولم يمنح ما يستحق من عناية ، لاسيما في الأقطار العربية وفي البلدان النامية بوجه عام .

ولا أدل على ذلك من أننا كثيرا ما نرى لدى الباحثين في عوامل تخلفنا الناشدين دروب خلاصنا ، من بين المربين بوجه خاص ، دعوة إلى تفتيح إمكانات الفرد العقلية والجسدية والخلقية ، وعناية خاصة بتفتيح قوى الخلق والإبداع والابتكار لديه ، والاهتمام بتكوين المواقف والمهارات والتريث عند ضرورة رعاية الحكم والمحاكمة وسوى ذلك .

ولسنا ممن ينكر دور مثل هذه الجهود في تفتيح العقول وتهذيب النفوس ، غير أن عجبنا ينصب على ما نراه في مقابل ذلك ، من إهمال المربين وسواهم لتكوين القدرات الإدارية والتنظيمية على الرغم من شأنها الكبير في عصرنا الحديث .

الأزمة التربوية والعلاج الإداري

لقد تحدث في الغرب وسواه من تحدث عن الأزمة التربوية أيام اشتداد هذه الأزمة (وقوامها تقصير الموارد المالية والبشرية عن الوفاء بحاجات التوسع الكبير في التعليم والتزايد المتسارع في أعداد الطلاب) . وفي علاج الأزمة ظهرت صيحات تقليدية ، وظهرت إلى جانبها صيحات نراها مجددة حقا، ترى في تطوير الإدارة التربوية وزيادة نجعها وفاعليتها السبيل الأول للخروج من الأزمة ، وتدعو فيما تدعو إليه إلى الاستخدام الأمثل للموارد المتاحة ، بل ذهب بعضهم إلى حد القول : إن ما نحتاج إليه من أجل الإصلاح ليس هو العقل وحده ، فالعقل على حد تعبير ديكارت أعدل الأشياء قسمة بين الناس ، أما الابداع كل الابداع فهو وليد التنظيم .

وتحدث منذ سنوات جان سرفان شريبر (في كتابه الأول الشهير : التحدي الأميركي) عن الهوة بين أوربا وبين الولايات المتحدة في شتى المجالات، لاسيما في مجال الاقتصاد والتصنيع والعلم والتقنية ، فرد ذلك بحق إلى هوة إدارية تسييرية ، وصاح بصوت عال : ليست الهوة بين التقدم والتخلف تفاوتا في مستوى المادة الرمادية (الدماغ) ، وإنما الهوة هي التفاوت في الإعداد والتنظيم .

الأتمتة والثورة الإدارية

و « جان سرفان شريبر » وأمثاله ينطلقون في هذا من ظاهرة حديثة مهمة تسم العصر الحديث ، وهي حلول الآلة (والآلة المؤتمتة) أكثر فأكثر محل الإنسان . وحلول الآلة محل الانسان - في الثورة العلمية التقنية ، بل في ثورة ما بعد الصناعة ، يحمل معنيين يتصلان اتصالا وثيقا بالشأو الجديد للإدارة والتنظيم :

فهو يعني أولا أن تضطلع الآلة المؤتمتة بالأعمال الآلية التي كان يقوم بها الانسان مرغما ، والتي ليست من طبيعته ، نعني الأعمال التي تعتمد على الجسد ، والتي تجعل العامل جزءا من الآلة ، يسير بإيقاعها (كما في نظام تايلور الشهير) . ونتيجة ذلك تحرير الإنسان من الاعمال « الروتينية » الآلية اللاإنسانية واشتغاله بما هو أقرب إلى طبيعته كإنسان ، وترجمة هذا فيما يتصل بالإنتاج الصناعي بوجه خاص ، انصراف الانسان إلى المرحلة السابقة على الإنتاج (البحث العلمي ، تخطيط الانتاج وتنظيمه ، البحث عن وسائل زيادة مردوده وتجويد مخرجاته إلخ) ، وإلى المرحلة التالية على الانتاج (تسويق الانتاج ، استخلاص الدروس اللازمة بعد بيعه ، إقامة العلاقات الضرورية مع الشركات الأخرى والبلدان الأخرى إلخ) . وهذا كله كما نرى يحتاج أولا وقبل

كل شيء إلى مجهود إداري تنظيمي .

والمعنى الثاني لحلول الآلة محل الإنسان هو استخدامها من أجل تجويد العملية الإدارية التنظيمية ، وينطبق هذا بوجه خاص على الحاسبات الألكترونية التي تلعب دورا أساسيا في إدارة الإنتاج وإدارة التنمية بوجه عام التي يتعاظم دورها بمقدار تزايد جودتها وكفاءتها . وهكذا لم يعد من الغريب أن تقاس قوة الدول بمقدار ما تملكه من الحاسبات الألكترونية ومن أجيالها المتعاقبة التي بلغت الجيل الخامس في السنوات الأخيرة (بعد جهود اليابان في هذا السبيل منذ عام ١٩٨٥) .

على أن تجويد العملية الإدارية لا يقتصر على الاستعانة بالحاسبات الالكترونية أو بالآلات بوجه عام . بل يتسع ليشمل كل ما يعرف باسم التقنيات الإدارية الحديثة ، وهي ليست جميعها تقنيات آلية ، بل أكثرها تقنيات منطقية (كطريقة بيرت وطريقة دلفي وكالتنظيم العلمي للعمل) .

نمو العاملين في قطاع الخدمات

من هنا ندرك معنى ما نجده في البلدان الأكثر تقدما من تناقص نسبة القوى العاملة في قطاع الزراعة ، وفي قطاع الصناعة (مع زيادة الإنتاج في كليهما) ، ومن تزايد نسبة العاملين في قطاع الإدارة . وتدل الإحصاءات على أن نسبة القوى العاملة في الزراعة في البلدان المتقدمة قد تناقصت من ٣٨٪ من جملة القوى العاملة عام ١٩٥٠ إلى ١٠٪ عام ١٩٨١ ، وأن نسبة القوى العاملة في الصناعة قد تناقصت بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٨١ من ٣٨٪ إلى ٣٤٪ وأن نسبة القوى العاملة في قطاع الخدمات (الإدارية بالدرجة الأولى) قد تزايدت بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٨١ ، من ٣٢٪ الى ٣٦٪ . وقد يقول قائل إن نسبة العاملين في قطاع الزراعة في البلدان النامية (ومنها الأقطار العربية) قد تناقصت أيضا ، وأن نسبة العاملين في قطاع الخدمات قد تزايدت بدورها . ولا حاجة إلى القول إن التناقص في نسبة العاملين في الزراعة لم يرافقه ارتفاع في الإنتاج (كما في الدول المتقدمة) ، بل رافقه هبوط واضح فيه ، أما قطاع الخدمات فلا حاجة إلى القول إن تزايد نسبة العاملين فيه ليس نتيجة من نتائج النمو الاقتصادى وانتشار الآلة والأتمتة ، وإنما هو على العكس ظاهرة مرضية تشير إلى أن قطاع الخدمات أصبح مستودعا للعمالة الفائضة والطفيلية (كما هى الحال في كثير من الأقطار العربية) .

من تجارب الماضي

حتى إذا تركنا تجربة العصر التي ولدت من خلال بنيتها الجديدة مزيدا من الحاجة إلى الإدارة والتنظيم ، وعدنا أدراجنا إلى الماضى وجدنا أمثلة كثيرة تشهد على دور الإدارة والتنظيم في تقدم الشعوب (أو في زيادة ثروتها حسب التعبير الذي شاع منذ أيام «آدم سميث») . وحسبنا للتدليل على هذا مثالان تاريخيان يذكرهما مؤرخو الاقتصاد . مثال الدنمارك في الثلاثينيات من هذا القرن ، ومثال اليابان بعد عصر « ميجي » الشهير بدءا من عام ١٨٦٨ . أما الدنمارك فقد استطاعت أن تتخلص من أزمة القمح التي اجتاحت أوربا كلها في الثلاثينيات (بسبب غزو القمح القادم من العالم الجديد) عن طريق حل إداري تنظيمي قبل أن يكون أي شيء آخر



وذلك بأن غيرت نمط إنتاجها كله وانتقلت سريعا من زراعة القمح إلى صناعة الألبان وغدت متفوقة فيها[1].

أما اليابان في عصر « ميجي » فمن أهم عوامل تقدمها السريع تنظيم نقل الصناعة الغربية إلى اليابان ، عن طريق البعوث العلمية العديدة التي أرسلتها إلى الغرب بشكل منظم مدروس ، مصحوب بمتابعة إدارية دقيقة ، وعن طريق جلب مجموعة من الخبراء الأوربيين في ميدان الصناعة بخاصة وإلحاقهم بالمؤسسات الصناعية القائمة في اليابان وتنظيم إفادة اليابانيين منهم عن طريق خطط للتدريب محكمة الربط .

الثورة العلمية والوطن العربي

وبعد ، إذا تريثنا بوجه خاص عند الأقطار العربية ، كفانا للتدليل على دور الإدارة والتنظيم في تجاوز تخلفها مثالان اثنان (من بين أمثلة كثيرة) ، أولهما يتصل بدخول الأقطار العربية عصر العلم والتقنية . ولقد قيل في هذا كثير . ومع ذلك فما تزال الأقطار العربية عاجزة في هذا الميدان عن أن تبلغ الشأو الذي بلغته بعض الدول النامية (مثل كوريا وتايوان والهند والصين والبرازيل وسواها) . وقد يحسب بعضهم أن المسألة مسألة زمن ، وأن علينا أن ندع للزمن زمنا . وقد تكون المسألة مسألة زمن إذا نحن وضعنا الآلية اللازمة لسير القطار ، لكن هذه الآلية مفقودة ، وهي في جوهرها آلية إدارية تنظيمية قبل أي شيء آخر . وحسبنا للاقتناع بذلك أن نلخص ما قاله مايكل سمبسون[2] حول متطلبات التقدم العلمي التقني ، إذ ردها إلى متطلبات أربعة : أولها وجود قوة اجتماعية (طبقة أو نخبة) قادرة على تحديد أهداف تقنية واقعية ، وتنظيم الموارد البشرية والمادية للقطر ، من أجل تحقيق هذه الأهداف

وثانيها الوصول إلى جمهرة فاعلة (حشد كبير نسبيا) من العلماء ، ومن قوة العمل الماهرة . وثالثها أن يمتلك البلد موارد كافية ، مالية أو على شكل مواد خام . ورابعها أن تتوافر سوق لمنتجات التقنية المتقدمة .

وواضح أن المطلبين الأولين (على الأقل) مطلبان تنظيميان إداريان في جوهرهما ، وقد يكون من نافلة القول أن نضيف بأن المطلب الأساسي لتطوير العلم والتقنية في الأقطار العربية هو التنظيم المؤسسي . ولا أدل على ذلك من أن السياسات المتصلة بالعلم والتقنية لايقوم تنسيق كاف بينها وبين السياسات الاقتصادية والانتاجية وبينها وبين السياسات المتصلة بالقوى العاملة إلخ ، ولقد جرت محاولات عديدة في الأقطار العربية لربط التربية بالعلم والتقنية ، لكن هذه المحاولات ظلت يتيمة ، لأن التربية تركت وحدها في الساحة ، ولم يتوافر التنظيم الإداري الذي ينسق ويربط والذي يقدم لنظام التربية من الشروط المادية ما ييسر نجاح مهمتها هذه .

مشكلة التربية العربية

وهذا ينقلنا توا إلى المثال الثاني الذي نود من خلاله أن نبين أهمية الإدارة والتنظيم في مسيرة التقدم العربية المنشودة :

لقد قيل الكثير عن أهداف التربية وعن فلسفتها . وقد زين لبعضهم أن علة النظم التربوية في الأقطار العربية غياب الفلسفة التربوية الواضحة . وعندنا أن قوانين التربية وخطط التربية والسياسات التربوية في الأقطار العربية لا تشكو من نقص في الأهداف الكبرى ، بل قد تشكو من توالدها وتكاثرها . ومسألة المسائل هي أن نترجم هذه الأهداف الكبرى إلى خطط تربوية ، وإلى مشروعات وبرامج ، وأن نحيلها إلى مناهج وطرائق

(١) ذهب عالما الاقتصاد الانكليزيان بيتي وفيشر في الربع الأول من هذا القرن إلى أن من أهم أسباب ثروة الشعوب انتقالها دونما إبطاء وجمود ، وفي الوقت المناسب ، من شكل من أشكال الإنتاج إلى شكل آخر .

(٢) مايكل سمبسون في « العقد العربي القادم ، المستقبلات البديلة » منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ومركز الدراسات العربية المعاصرة في جامعة جورج تاون : صور في بيروت/ ١٩٨٦ (الفصل التاسع) .

وبنى مدرسية ، بحيث نجعلها في النهاية تصل إلى الطالب في غرفة الصف ، وبحيث يمتصها الطالب في اتجاهاته ومواقفه وقدراته ومعارفه ويتمثلها فعلا . وهذا النقل للأهداف الكبرى إلى واقع الحياة المدرسية وإلى مستوى الطالب والصف هو سمة الإدارة التربوية أولا وقبل كل شي .

وما يقال عن الأهداف التربوية الكبرى ، وعن الحاجة الملحة إلى ترجمتها عن طريق الإدارة والتنظيم إلى مناهج وأساليب وحياة تربوية ، يقال عن الخطط التربوية وأهدافها ومراميها الكمية والنوعية . ولا نغلو إذا قلنا ان الخطط (تربوية كانت أو غير



تربوية) تنقلب غالبا إلى مراجع قلما يرجع إليها ، بينما يقود العمل الإداري العملية التربوية على شاكلته دون أن يعبأ غالبا بأي خطة .

بل إن المسألة في ميدان التربية أعمق من هذا وأدهى ، فالنظم التربوية في العالم وفي الأقطار العربية في حاجة إلى تجديد . والتجديد في حاجة إلى إدارة مجددة . أما ما يحصل في الأقطار العربية غالبا فهو أن الإدارة أقرب إلى أن تكون إدارة « تسيير » منها إلى أن تكون إدارة تطوير ، وأنها ما تزال تعمل بالوسائل اليدوية والحرفية القديمة في عصر الحاسبات الالكترونية ، وأنها لم تعرف التقنيات الحديثة في الإدارة إلا لماماً ، وأخطر من هذا كله أن الصلة تكاد تكون مفقودة داخل هذه الإدارة التقليدية بين الإداريين والفنيين .

على أن الادارة التربوية جزء من الإدارة العامة للدولة ، ولابد أن يسير تطوير الإدارة التربوية (أو سواها) جنبا إلى جنب مع تطوير الإدارة العامة في أي بلد . ومن هنا تأتي أهمية الجهود التي بذلتها دولة الكويت منذ عام ١٩٨٤ من أجل تحديث الجهاز الإداري ، والتي كان من أهم نتائجها صدور تقرير اللجنة العليا لتطوير الجهاز الاداري وتحديثه عام ١٩٨٧ .

مشكلة الإدارة

ويشط بنا الحديث إن نحن تريثنا عند هذه الأمثلة وسواها . وما قصدنا إليه هو أن ندرك حقيقة قلما نمنحها شأنها ، وهي أن أهم أسباب التخلف في الأقطار العربية وسواها التخلف في الإدارة والتنظيم ، وأن المشكلة الأم التي ينبغي أن نتصدى لمعالجتها في أي موقع هي إحكام التنظيم والعمل الإداري إحكاما يؤدي إلى أن تصل القرارات والسياسات والخطط إلى مستقرها ، ويزيد فاعلية الجهود التي تبذل في سبيل التنمية في شتى الميادين ، ويقلل الهدر والضياع ، بل الضلال ، فيما نرسم ونعمل ، على أننا نعود فنستدرك مرة أخرى دفعا لأي لبس ، فنقول : إننا ندرك أن مجابهة مشكلة الإدارة في الأقطار العربية لاتتم في معزل عن مواجهة مشكلات التخلف الأخرى ، وأن من أسباب عجز الإدارة ، البنية الاجتماعية المتخلفة ، والبنية الاقتصادية الضعيفة ، والبنية السياسية المقصرة عن الشأو المطلوب ، والبنية الثقافية التي تشكو الكثير من الجمود ، وفي هذه المجالات كلها لابد من أهداف وخطط وتنظير ، فهذه كلها صوى تهدينا عبر الطريق ، لكننا لن نقوى على أن ندخل الطريق ، وسنقف دونه عاجزين مقعدين إن لم يحملنا عمل تنظيمي وإداري فاعل ، يحيل الأهداف والخطط والأنظار واقعا حيا . وقديما قال بيكون : « إن تجربة واحدة من تجارب الطبيعة تعدل عندي ألف دليل عقلي » ، واليوم نقول نحن : إن فكرة واحدة تجد سبيلها إلى التطبيق وتسري إلى أرض الواقع خير من ألف فكرة لاتجد من يحملها ويبلغ بها منتهاها . □

ليست الأعمال الأدبية مرايا للعصور التي كتبت فيها فقط بل للعصور التي قرئت فيها أيضا . وشخصية المرابي اليهودي شيلوك في مسرحية تاجر البندقية لشكسبير هي المثال الذي يختاره الكاتب ليتابع تطور نظرة النقاد إليه عبر عصور مختلفة .

محاولة لتبييض وجه شيلوك!

بقلم: الدكتور أمين العيوطي

في بداية النصف الثاني من عام ١٩٨٨م أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب أحدث ترجمة بقلم أ . د . محمد عناني لمسرحية شكسبير الخالدة « تاجر البندقية » . والترجمة تثبت بلا شك أنه في مجال الترجمة ، كما في فنون الأدب الأخرى ، هناك دائما مجال لاضافة جديدة ، مهما تعددت الترجمات السابقة للنص نفسه . فهنا إضافة جديدة حقا .

إن د . عناني يثير في المقدمة التي صدّر بها ترجمته قضية شديدة الحيوية والأهمية ، تستحق منا أن نتوقف عندها . ففي تفسيره للمسرحية على أنها ليست من « كوميديات » شكسبير السعيدة ، يقدم تفسيراً جديداً لشخصية المرابي اليهودي ، أو « أحدث نظرة لليهودي والربا في المسرحية في ظل الاطار التاريخي الواقعي » ، فيذهب مع كريستوفر باري في رأيه الذي صدّر به طبعة دار ماكميلان للمسرحية في عام ١٩٧٦ ، إن شكسبير لا يعد شيلوك شراً مطلقا ، بل إنسانا به من العيوب والمحاسن ما بباقي شخصيات المسرحية ، وأن شكسبير كان يقدم شيلوك لنا إنسانا إلى أبعد الحدود ، إنسانا يجمع بين براءة الطفولة في تعلقه بأشيائه الثمينة ، وبين اليهودي الذي تحركه ميول الشر الكامنة فيه . فهو كما يقول باري : « إنسان مثلنا تماما ، يعاني مثلما نعاني ، ويمكر مثلما نمكر » .

والحقيقة أن مثل هذا التفسير ليس حديثا كل الحداثة ، فهو لا يرجع فقط الى ١٩٧٦ ، بل يرجع إلى أبعد من ذلك في الخمسينيات على وجه التحديد ، بل ويمتد إلى العشرينيات . وقد كان تفسيراً وليد ظروف تاريخية محددة . وسوف نستعرض فيما يلي بعض هذه التفسيرات ، قديمها

وحديثها ، قبل أن نتعرض للظروف التاريخية التي أدت إليها ، ونتعرف على مدى صحتها من خلال استعراض بعض الأعمال التي ظهرت في الفترة نفسها التي كتب فيها شكسبير مسرحيته ، وتناولت شخصية اليهودي .

أكثر من مدخل :

وقد اتخذت هذه التفسيرات مداخل مختلفة في طرح هذه الرؤية . فكان هناك مدخل تاريخي ، أو مدخل إنساني ، أو عرقي ، أو ديني . بين هذه المداخل ينحو كريستوفر باري منحى تاريخيا في تفسيره لشخصية اليهودي على هذا النحو في قوله :

وكانت شرور اليهود مألوفة لجمهور شكسبير ، مع أنه لم يكن يعيش في إنجلترا في وقت كتابة المسرحية - بين منتصف عام ١٥٩٦م ومنتصف عام ١٥٩٨ - إلا عدد قليل من اليهود . إذ أن الملك ادوارد الأول كان قد طردهم رسميا من البلاد عام



١١٩٠ . ولكن بضع مئات من اليهود (من أصل أسباني وبرتغالي) كانوا يعيشون في لندن ، ويعتنقون الدين المسيحي اعتناقا اسميا لتفادي الوقوع تحت طائلة قوانين الاقامة . وكان هؤلاء يعيشون ويعملون في سلام ، وبصفة عامة يحظون بالاحترام لأنهم ينتمون الى المجتمع . أما العداء للسامية بالتحديد فلم تشتعل ناره إلا مرة واحدة في عام ١٥٩٤ عندما حُوكِم الدكتور رودريجو لوبيز . وكان لوبيز طبيبا يهوديا من البرتغال ، استطاع أن يحقق لنفسه نجاحاً كبيراً في مهنته على مدى عشرين عاماً ، عين بعدها طبيباً خاصاً للملكة . وربما كانت الضجة المثارة حول التهم الموجهة إليه ترجع إلى أسباب سياسية ، منها تهمة الشروع في دس السم لصاحبة الجلالة ، ولكنه أدين على أي حال بتهمة الخيانة العظمى ، وأدت محاكمته إلى إثارة العداء لليهود بصفة عامة ، بعدّهم أشراراً يتآمرون في الخفاء على إيذاء المسيحيين . ولم تكن هذه الكراهية قائمة في عقول العامة على أسس الحقائق الواقعية ، بل على المخاوف والمواقف المتوارثة ، والخلفية الثقافية التي تتضمن الأساطير والقصائد الشعبية (البالادات) والقصص ، وإلى حد ما عددا من المسرحيات التي تصور اليهود في هذه الصورة .

وعلى الرغم من محاولة باري نفى كراهية الانجليز لليهود ، إلا أنه يقع في كثير مِنَ المتناقضات ، فهو يعترف بمَعْرِفَة جمهور شكسبير لشرور اليهود ، وأنهم طُردوا رَسْميا من انجلترا في أواخر القرن الثاني عشر ، وأن فئة منهم اضطرت الى اعتناق المسيحية اسميا لتضمن حق الإقامة ، وأن نار العداء للسامية استعرت في عام ١٥٩٤ ، وهي الفترة التي كانت « يهودي مالطة » لكريستوفر مارلو تحظى فيها بجماهيرية منقطعة النظير . كما أنه لا ينفي تماما كراهية العامة لهم ، وإن كان يعزو ذلك الى الأعمال الفنية التي طبعت صورتهم الشريرة

في أذهان الناس ، وهو تبرير يلغي تماماً حقيقة أن الأعمال الفنية لا تجد صدى لدى الجماهير ما لم تمس عصباً حقيقياً في بنائها العاطفي والفكري .

عموماً ، لم يكن كريستوفر باري أول من خرج بهذا التفسير ، ولا بمحاولة تغيير صورة شيلوك في أذهان الناس ، فقد سبقه الى هذا كثيرون ، تورد طبعة اكسفورد وكيمبريدج لمسرحية شكسبير آراءهم في مقدمة الكتاب . وفي تناوله لهذه النقطة ينحو كاودن كلارك منحى إنسانياً في تفسيره قصد شكسبير من كتابة مسرحيته فيقول :

« يبدو أن الشاعر ، في تصويره لشخصية شيلوك ومسلكه ، كما في تصويره لخصومه المسيحيين ، قد أعطى بحكمته الواسعة موعظة من الظلم الواقع على كل طائفة وفئة ، من أصحاب الأديان ، بقوة ووضوح حجة ، وبمعرفة بالطبيعة البشرية بتعصباتها السوداوية أيضا ، حتى أن نزاهته وتوزيعه للعدالة ، كما تتكشف للعيان في هذه « الدراما » ، تضعه - في رأيي - في مكانه سابقا لعصره بقرون . وإن كان لدى أي قارىء شك في حس الشاعر بالعدالة تجاه القبيلة التي لحقت بها أسوأ معاملة ، فليقرأ الأعمال الأخرى التي كتبها كتاب آخرون في الفترة التي قدمت فيها شخصية اليهودي ، صحيح أن شيلوك قد ناله العقاب من أجل دافعه الى الانتقام - وبحق ، ولكن من ذا الذي لا يتعاطف مع شيلوك في نهاية الأمر ؟ من ذا الذي يستمد أي رضا ، وهو يدين بالأفكار الأكثر اعتيادية عن الصواب والخطأ ، من خروج انطونيو منتصرا عن طريق ليّ عنق القانون ، وهو قانون ظالم ، حكم بتدمير كل ثروة اليهودي وممتلكاته ؟ لقد أثبت شكسبير قضية لصالح شيلوك - ولابد أنها كانت قضية مروعة حقا للعامة في زمنه . . »

أما أ . ح . هيلز فيدخل مدخلاً عرقياً الى هذا الموضوع في تحليله لشخصية شيلوك ، فيقول : « إن المسيحي الذي ينظر بصراحة وأمانة إلى هذا العمل لن يجد فيه أمراً يدعو إلى الابتهاج أو السخرية ، ولكن أمراً يدعو الى الشعور بالعار والحزن : فقد جعل القهر القاسي الذي دام طويلا من شيلوك ، ذلك المخلوق القاسي ، الوحشي ، العديم الشفقة الذي نراه . فقد ورث طبيعة ذاقت مرارة قرون من الإهانة والإساءة ، وزادت تجربته التعسة نفسها من حدة مرارتها . ولقد كان الشقاء ، ومايزال ، الشارة التي تميز قبيلته كلها ، وكأنها شارته المميزة . إن شكسبير يمقت هذا المخلوق البشع بحق ، لكننا نراه يتأمل كيف أصبح على هذا النحو . لقد كان يوما ما رجلا وكانت يوما ما - على الأقل - سلالته بشرية . وحين تعرف شكسبير في اليهودي على إمكانيات وطاقات رائعة ، في حدود معرفته بهذه السلالة ، أسيء استخدامها وانحطت ، إلا أنه كان مبهورا بشخصية لها مثل هذه القوة المتميزة والقومية التي لا يمكن استئصالها » .

ويخاطب ناثان دريك حس القراء الديني . فعلى الرغم من أنه يرى في شيلوك تجسيداً للشيطانية وللشر نفسه ، إلا أنه يمضي إلى قول :

« غير أن تصوير هذه الشخصية الشيطانية كان تصويراً بالغ القوة والبراعة ، كما أنه كان بالغ التناغم الى زمن قريب مع تعصب العالم المسيحي ، الى حد أنه لا توجد بين مسرحيات شكسبير مسرحية نالت قدرا أعظم من النجاح الجماهيري . ولحسن الحظ أن الوقت قد حان حيث يستطيع المسيحي واليهودي أن يلتقيا ، وقد أحاطت بهما كل المشاعر الإنسانية ، وهي حالة اجتماعية نحسب أنها قادرة ، أكثر من غيرها ، على تحقيق ذلك التحول الذي يضرع من أجله ، بكل تأكيد ، كل من ينتمي الى ديننا المبارك » .

مثل هذه النبرة الجديدة في الدراسات النقدية لمسرحية تاجر البندقية لم تكن بهذه الدرجة من الوضوح إلا بعد الحرب العالمية الثانية على وجه

المبكرة جدا للرواية الانجليزية رواية توماس ناسن « المسافر السيء الحظ أو حياة جاك ويلتون » (١٥٩٤) التي يعدها الناقد الانجليزي وولتر الن « أكثر الروايات الخيالية النثرية الاليزابثية إمتاعا ».

الحكاية هنا ليست إلا واحدة من عدة حكايات مشابهة ، تكشف شرور إيطاليا في عصر النهضة . ومنها شرور اليهودي . وهي تكشف في ثناياها عن نظرة الى اليهودي بصفته شرا مطلقا ، يتلذذ بالتآمر والتعذيب والقتل ، ولاشك انها كانت تجد صدى لدى القاريء الانجليزي ، لأنها كانت تمس في أعماقه وتر كراهية اليهود وعدهم شرا مطلقا .

على هذا الوتر نفسه عزف كريستوفر مارلو في مسرحيته « يهودي مالطة » ، وهي أحد المصادر التي أخذ عنها شكسبير رائعته « تاجر البندقية » .

ولم تكن شخصية باراباس في مسرحية مارلو من نسج الخيال . وقد حدد ل . كيلنر المصدر الذي أخذ عنه مارلو مسرحيته . فهي ترتكز على مغامرات يهودي برتغالي ، اكتسب سمعة سيئة في القرن السادس عشر ، وذاعت شهرته في مختلف بلدان أوروبا التي كانت ترى فيه خطرا عليها .

بين شيلوك وباراباس :

ولا شك أن شيلوك شكسبير يختلف عن باراباس مارلو ، كما تختلف « تاجر البندقية » عن « يهودي مالطة » في فنيات البناء والنظرة الإنسانية الأوسع والأعمق والأحلى . فقد أضاف شكسبير الى الحبكة قصة بورشيا والصناديق المغلقة التي استلهمهما من مصادر فارسية وبيزنطية وعربية وأوروبية متشابهة ، وربط بينها وبين فكرة الجشع والطمع وحب المال والانخداع بالمظهر البراق ، كما حذف الخلفية التاريخية منذ الحرب بين الأتراك والمالطيين التي استغلها باراباس مارلو لصالحه في التآمر على الاثنين معا ، حتى وقع في الشراك التي نسجها للجانبين ، وكذلك الكراهية بين الأديان الثلاثة ،



الخصوص ، حين تحرك ضمير أوروبا لما نال اليهود على أيدي النازية ، فراحت أوروبا تتسابق الى محو وصمة العداء للسامية من على جبينها ، وتبرئة لنفسها من الاضطهاد الذي تعرض له اليهود ، سواء في روسيا القيصرية أو في أوروبا أو في انجلترا قرونا طويلة . ومثل هذه التفسيرات لا تأتي إذن لتبييض وجه شيلوك ، فكلها لا تنكر شيطانية الرجل ، بقدر ما هي محاولات لتبييض وجه أوروبا ، ونفى تهمة العداء للسامية عنها ، وتبرئة ضميرها . ولكن هل كان شكسبير يقصد هذا حقا في تصويره شخصية شيلوك ؟ وللاجابة عن هذا السؤال لابد أن نرى مسرحية شكسبير في سياق أعمال فنية أخرى ، ظهرت في الفترة نفسها ، كما لابد أن نلقي نظرة على القيم الأخلاقية التي يلقي بها شكسبير في خضم الصراع الذي يجري في المسرحية نفسها .

والحقيقة أننا لو عدنا الى القرن السادس عشر في انجلترا لوجدنا أعمالا فنية أخرى ، تتناول الشخصية اليهودية ، من منطلق العداء للسامية ، والكراهية للجنس اليهودي . فقد شهدت البدايات

مع الإبقاء على الكراهية بين اليهود والمسيحيين. فشيلوك منذ البداية يكشف عن خبيئة نفسه، وعن الحقد الذي يأكل قلبه تجاه أنطونيو، وهو حقد يقوم على أساسين: الملة والمال.

وتواتيه الفرصة حيث يطلب منه أنطونيو قرضاً لصديقه باسانيو، فيمكر به مكرا أسود حين ينص في العقد على رطل من لحمه إن لم يوف له الدين في حينه، وهو شرط بكل المقاييس خبيث شيطاني ينأى به عن كل المشاعر الإنسانية، ويحيله سفاحا يأكل قلبه روح الحقد. والحقد الذي يأكل قلبه ينبع أيضا من جشعه وحبه للربا الذي يحرمه منه أنطونيو، إذ يقرض الناس قرضا حسنا. إن كل هم شيلوك حين يسمع عن هرب ابنته مع لورنزو هو ما حملته معها من جواهر، وحين يسمع عن مصير تجارة أنطونيو وأنه سينال منه أخيرا، ويخلص منه البندقية ليعقد الصفقات كيفما يشاء.

وفي مشهد المحاكمة الشهير يضع شكسبير القيم الإنسانية النبيلة التي ينطق بها أنطونيو والدوق من محبة ورحمة وشفقة أمام قسوة القلب والتعطش للدماء. فالدوق - كما يقول أنطونيو - لا يمكنه إلا أن يطبق القانون: «إذ أنا إن أنكرنا حق الغرباء فلسوف نحطم قيم العدل السمحة في هذه الدولة». والدوق لا يجد مفراً من تنفيذ القانون، فالخصم ذو قلب كالصخر، لا يعرف معنى الإنسانية والشفقة والرحمة. وفي المقابل نجد شيلوك مدفوعا بما يمليه عليه مزاجه وميوله الفطرية التي توجه دفة إحساسه نحو المقت والبغض. واستدرار الرحمة والشفقة أمر مستحيل، والضراعة لا تنفذ لفؤاد قُدَّ من صخر، بل حتى استرداد أمواله مضاعفة لا يرضيه. لم يبق إذن إلا الحقد الأعمى كقيمة إنسانية منحطة. وحين تكون قيم الحب والرحمة وقيمة الحقد الدنيء في كفتي ميزان في عمل فني طرفين يجري بينهما الصراع، فإن ما ينزل بشيلوك على يدي بورشيا ليس فيه، كما يقول كاودن كلارك «لي عنق القانون، وهو قانون ظالم، حكم بتدمير كل ثروة اليهودي وممتلكاته». فالرحمة لا تنزل إلا بمن يستحقها. وكيف يمكن أن نفسر سماحة أنطونيو ودرجة عفوه عن اليهودي، وعودة تجارته سالمة من البحر؟ هل يمكن أن تكون هذه عدالة شعرية، أو نتهم شكسبير الشهير في نزاهته في سبيل أن يدغدغ مشاعر جمهوره؟ إن المشهد ينتصر للمشاعر الإنسانية السمحة التي خلا منها قلب شيلوك، إلا إذا كان كلارك يرى أن يعقد النصر للغل والحقد والبغض والتعطش للدماء. بل إن ناثان دريك حين يدعو إلى الحب والتسامح اللذين يجب أن يجمعا المسيحي واليهودي لا يملك إلا أن يرى في شيلوك تجسيداً للشيطانية والشر نفسه. وقد تكون قبيلة شيلوك قد تعرضت للمذلة والإهانة. وقد يكسبنا هذا فهما لطبيعتها، لكنه لا يمكن أن يكسبنا تعاطفا معها.

لم يكن شكسبير في الحق يصور شخصية إنسانية بها جانبان متناقضان من براءة طفولية وحقد دموي، ولا أن يجعل من شيلوك في نظرنا إنساناً إلى أبعد الحدود، كما يذهب إلى ذلك باري. فليس معنى أن شيلوك يختلف عن سائر شخصيات المسرحية في أنه يتجه إلى الجمهور ليكشف عن خبيئة نفسه أن شكسبير أكسبه مسحة إنسانية، يتميز بها عن باقي الشخصيات، وإلا لكان ياجو عُطيل وأدموندلير، وهما مثالان آخران على الشر - يتوجهان إلى الجمهور على الدوام بخبيئة ضميريهما العفنتين - موضع تعاطفنا.

ويبقى في النهاية سؤال: إذا كانت أوروبا اليوم مدفوعة إلى أن تبريء ذمتها وضميرها من كراهية اليهود وإضطهادهم، في حين كانت الأمة العربية هي الأمة الوحيدة التي أحسنت معاملة اليهود على امتداد التاريخ، فما الذي يدفعنا نحن اليوم الى اعتناق تفسير مشبوه؟ ألنبريء «إسرائيل» من دم العرب؟ ولماذا الآن؟ □



«العتب على النظر»

مجموعة قصصية من تأليف يوسف ادريس

بقلم : أبو المعاطي أبو النجا

تضم هذه المجموعة ست قصص قصيرة ، هي أحدث ما كتبه الكاتب الكبير يوسف ادريس في السنوات الأخيرة ، وهي بترتيبها في المجموعة : « العتب على النظر » ، « أمه » ، « الخروج » ، « الختان » ، « الرجل والنملة » ، « أبو الرجال » . ولست أشك في أن عشاق أدب يوسف إدريس قد تلقوا هذه المجموعة بلهفة المشوق إلى إبداع كاتب طالت غيبته عنهم ، فكلنا يعرف أنه قد آثر في السنوات الأخيرة كتابة المقالات المتفجرة التي تستجيب لمشكلات اجتماعية أو سياسية آنية وحادة !

بغض النظر عن التفسيرات التى قدمها يوسف ادريس في العديد من تصريحاته الصحفية عن أسباب ايثاره كتابة المقالات في الفترة الأخيرة ، فإن قارىء هذه المجموعة الأخيرة سوف يجد نفسه ـ ربما دون قصد ـ يتساءل وهو يتأمل القصص التي تقدمها : هل ثمة علاقة مابين قلة إنتاج هذا الكاتب للقصة القصيرة وبين نوعية التجارب التى يرى الآن أنها وحدها تستحق الكتابة في القصة القصيرة ؟! بعبارة أخرى : هل أصبحت كتابة القصة القصيرة عند يوسف ادريس نوعا من البحث عن لؤلؤة نادرة ، مهما اقتضى البحث من جهد وزمن ؟! من المعروف أن تطور الكاتب ـ أى كاتب ـ يأخذ مسالك متعددة ، فقد يكون في صورة ارتياد مواقع جديدة على خريطة المجتمع أو النفس أو الحياة ، وقد

يأتي ثمرة طبيعية لتنامي الخبرة والمعرفة ، وما يعنيه ذلك من تغير في طريقة إدراك الخبرة الإنسانية وتمثلها وصياغتها فنيا ، ولو كانت على المواقع القديمة نفسها !

فما الجديد الذي تحمله لنا مجموعة « العتب على النظر » مهما يكن طريقه ؟! وهل يقدم ذلك نوعا من التفسير لقلة إنتاج الكاتب للقصة القصيرة ، وهو الذى بنى مجده الأدبي على إبداعه فيها ؟!

ملامح عامة لرحلة متميزة :

يمكن لمن تابع رحلة يوسف إدريس القصصية التى بدأت بمجموعته « أرخص ليالي » في الخمسينيات ، ثم تطورت خلال مجموعات متميزة ، من أهمها :

« حادثة شرف » ، « آخر الدنيا » ، « العيب » ، « لغة الآي آي » ، «النداهة » ، « بيت من لحم » ، « اقتلها » . . . إلخ . أن يلاحظ أن الرؤية الفنية

لديه التي بدأت من شعوره القوي المتفجر بعمق تأثير المشكلات الاجتماعية على سلوك أبطاله وتحديد مصائرهم ، قد اتسعت آفاقها في بقية المجموعات

فأسفرت عن تأثير المشكلات النفسية والكونية على سلوك هؤلاء الأبطال ، وتطورت بالتالي تقنيته من التحليل الصارم للمشكلات الاجتماعية المعتمد على رؤية فيها قدر كبير من اليقين ، إلى تقنية تنأى عن

هذه الدرجة من اليقين فأمام مشكلات النفس الغائرة والرؤى الكونية والفكرية الكبيرة أصبحت هذه

التقنية تؤثر أن توحي وتشف وتومىء ، وتستخدم لغة الصور والرموز أحيانا دون أن تخرج بذلك كله عن الرؤية الواقعية الملتزمة إذا صح التعبير !

وأتوقع لمن تابع هذه الرحلة ، سواء في قصص يوسف ادريس القصيرة أو مسرحه أو رواياته ، وهى رحلة واحدة مهما تنوعت أشكالها ، أن يشعر أمام

ثراء الرحلة واتساع مداها وعمقها بخطورة التحدى الذي يواجه كاتبا يريد دائما أن يتجاوز نفسه في كل عمل جديد يقدمه ! فهل وقع يوسف إدريس في

مأزق هذا التحدى ؟! هل وجد نفسه في كل مرة يهم بكتابة قصة جديدة أو يقترب من لحظة قصصية جديدة يتذكر أنه قد كتب مثل هذه القصة أو اقترب من مثل هذه اللحظة بشكل أو بآخر ؟!

هل شعر في لحظة أن كل القصص الجيدة قد تمت كتابتها ، سواء كتبها هو أو غيره ؟! وأن البحث عن ينابيع جديدة في أعماق النفس أو في آفاق المجتمع أو الكون أو الطبيعة هو مأزق شبيه بذلك المأزق الذي واجه بطل قصته الرائعة في هذه المجموعة « الخروج » ؟!

يقول الكاتب عن بطل هذه القصة :

« من زمن طويل والاحساس عنده بالحياة لم يعد مرادفا للاحساس بالسعادة ، منذ زمن بعيد جدا حدث هذا بعد أن ذاق كل أوليات الاشياء ، أول نجاح ، أول جنيه ، أول نظرة حب . أول ليلة مع امرأة » .

« ذات مرة كان أقصى أحلام حياته أن يكون ايراده الشهري مائة وخمسين جنيها ، حين أصبح يصرف مثلها في اليوم أصبح الهدف خمسة آلاف ، أن يخلف ولدا ، أصبحوا ثلاثة وبنتا ، أن يتعلموا ويتخرجوا ، تخرجوا ، وأصبح الهدف جديدا ، أن يتزوجوا ، أن يكون له أحفاد . . »

وكان له كل ما أراد ، لكن لم يعد الاحساس عنده بالحياة مرادفا للاحساس بالسعادة ، « كان يستطيع أن يواجه الدنيا بجيب ليس به سوى قروش ، الآن يرعبه لو نقص الحساب رقما ، حين كان يهدد أن يترك البيت كان يفعل هذا بإحساس من هو على يقين مطلق أنه يستطيع من جديد أن يبدأ حياة جديدة ، الآن يرعبه مجرد أن يبتعد عن البيت »

هذا هو المأزق الوجودي الخطير الذي واجه بطل « الخروج » : كيف يسترد رجل تجاوز الخمسين من عمره قدرته على الاحساس بالدهشة والثقة في الوقت نفسه ؟ فخلف كل جديد يختبره ويعيشه يختفي شبح القديم ، ويتعلم الدرس من فرخ ينقر جدار بيضته ، إنه ينقر ، يواصل النقر من فرط ضيقه بما هو فيه ، دون أن يعلم أن وراء هذا السجن الضيق



الذي يحيط به من جميع الأقطار كونا فسيحا هائلا مذهلا ! وينجح البطل في اتخاذ قراره حين يدرك أنه لن يلتقي بهذا الجديد المدهش ، حيث يصبح الاحساس بالحياة مرادفا للإحساس بالسعادة ، إلا حين يكون قادرا على أن يستجيب لهذا النداء الداخلي الذي استجاب له الفرخ ، فيواصل النقر حتى يكسر جدران السجن ، سجن الأسرة ، أو سجن المجتمع ، أو حتى سجن الطبيعة ، حين تصبح الطبيعة سجنا !

لست أدرى لماذا استبد بي ، وأنا أقرأ هذه القصة ، شعور قوى بأن الكاتب في كل قصص هذه المجموعة يقف عند الحدود القصوى للأشياء ، ينقر جدران المستحيل ، بحثا عن فرجة على هذا الكون الهائل الفسيح ، حيث يصبح الاحساس بالحياة مرادفا للإحساس بالسعادة ! لست أزعم أنني أعرف سر انقطاع كاتب كبير عن الكتابة بعض الوقت ، بل ولا سر الكتابة نفسها ، ومع ذلك فلنحاول أن نلقي نظرة شاملة على قصص هذه المجموعة ، لنرى هل حاول الكاتب حقا في هذه القصص أن ينقر جدران المستحيل ، وأن يقف عند بدايات الأشياء أو نهاياتها ، بحثا عن الدهشة أو عن فرجة تطل على كون هائل فسيح ، لانكاد نراه ، مع أنه لايفصل بيننا وبينه سوى قشرة ، يجب أن نحطمها ، فأنت لن تكسب كل شيء إلا إذا كنت قادرا في لحظة الحسم على أن تضحي بكل شيء !

تجارب غير عادية :

في قصة « العتب على النظر » يلتقي الراوى بصديقه الفلاح القديم الذي يطلب منه المساعدة لعمل نظارة لحماره ، لأن نظره قد ضعف ، والمسألة التي تبدأ مزحة تنتهي بحقيقة ، فمن الناحية النظرية البحتة يمكن للحمار الضعيف النظر أن يرى أفضل لو أمكن تثبيت منظار مناسب على عينيه ، ولكن من الناحية العملية كيف يمكن تحديد درجة ضعف نظر الحمار بدون علامات وحوار بيننا وبينه ؟ هنا مربط الفرس أو مربط الحمار لافرق ، وينبع الحل من قلب المشكلة ، فالسبب الذي جعل صاحب الحمار يدرك ضعف نظر حماره أنه أصبح لايستجيب لرؤية حمارة جاره ، كما كان يفعل في الماضى ، ولو أوقفنا الحمار على مسافة من حمارة الجار ، وبدأنا في تجريب أحجار النظارة أمام عيني الحمار فإن الحجر المناسب هو الذي يبدأ عنده الحمار بالاستجابة لرؤية الحمارة ! وطبعا يحدث هذا كله أمام حشد من الصغار والكبار في القرية ، وهكذا يستدرجنا الكاتب من خلال تطور هذه القصة التي تبدأ مزحة ممعنة في الغرابة إلى اكتشاف لحظة تفجر الجنس بشكل تلقائي ليس لدى حيوان لاعلاقة له بمواضعاتنا الاجتماعية حول الجنس فقط ، بل لدى الحشد نفسه ، يقول الكاتب وهو يرصد تأثير المفاجأة على الحشد :

« الطبيعة بصراحة وبلا خجل تتكلم بأعلى صوت ، تضع في أجسادنا الزلازل ، وداخلنا تفجر البراكين ، لحظة اختلال كون أم انتظامه ، منتهى عقله أم منتهى (جنانه) ، (يقصد جنونه) ، الاجساد ثائرة فائرة تدفق رحيقها بكل بدائية تفجرات الشمس ، ومد القمر ، ووحشية الإعصار » .

ـ مادامت نظارات الانسان تنفع الحمير ، ياترى نظارات الحمير تنفع « البنى آدمين » ؟

والكاتب هنا ينقر جدران المواضعات

الاجتماعية ، ليفتح ثغرة على كون الجنس الفسيح ، إنه يقف عند الحدود القصوى بين اجتماعية الانسان وطبيعته ، والسؤال في عمقه متى فقد الانسان الاجتماعي بكارة الاحساس بالجنس ، ولماذا ؟ ولكن يبقى سؤال آخر ، أو سؤالان : هل كان اختيار هذه الحادثة الغرائبية لتبليغ رسالة هذه القصة أمرا لامفر منه لغير الفكاهة ؟ وهل كانت اللهجة العامية التي كتبت بها القصة أمرا لاغنى عنه لتجربة تقف على الحدود القصوى بين اجتماعية الانسان وطبيعته !؟

« أُمُّه » :

في هذه القصة نقترب من لحظة نادرة في علاقة غير عادية بين صبي مشرد وشجرة ، فقد الصبي أباه ، ثم فقد أمه حين تزوجت رجلا آخر ، ولم يكن الجوع ألد أعدائه ، فدائما كان يجد في صناديق القمامة مايسد جوعه ، كان أقسى الأعداء ليل الشتاء الطويل البارد الممطر ، حيث كان يطرد من كل مكان يأوى إليه ، فكل مكان له صاحب ، حتى عربات السكك الحديدية الصدئة المتروكة كان يطرده منها رجال الشرطة ، إلى أن التقى ذات ليلة بهذه الشجرة ، اسمها أم الشعور ، وهي شجرة ضخمة غير مثمرة ، تتدلى فروعها الطويلة لتلتحم في أسفلها صانعة جذعا للشجرة ، ومن طبيعة هذا الجذع أن تكون به فتحات ، وأن يكون مجوفا من الداخل . فأوى إلى هذا التجويف الداخلي ، واكتشف أنه ليس لهذه الشجرة صاحب يطرده منها ، فأصبح هو صاحبها ، وأصبح له بيت في المدينة الكبيرة ، وربما لو كتب يوسف ادريس هذه القصة ، في الخمسينيات لاكتفى بالتصوير الرائع لمأساة طفل مشرد ، وقدم لنا بذلك قصة ممتازة ، ولكن هذه المأساة تأتي هنا في هذه القصة مجرد خلفية ، أما القصة الحقيقية فتبدأ حين يشعر الصبي أن الشجرة أصبحت أيضا صاحبته ، كأنها كانت أما بلا أطفال ، ثم وجدت طفلها ، كان يخشى أن يعود ذات ليلة فيجد شخصا آخر يحتل مكانه في جوفها ، فأزالت عنه الشجرة هذا الخوف حين تدلت فروعها الجديدة لتخفي الفتحة التي يمكن أن يراها غيره ، كانت تدفئه بقدر ماكانت تستدفيء بأنفاسه ، لأن جوفها بارد ، وتحولت النتوءات الحادة في داخلها إلى براعم ، لتصبح مخدعا ناعما يتلمس الكاتب هذه العلاقة النادرة بين طفل وشجرة . ذلك التواصل الأخاذ بين مستويات الحياة المختلفة ينم عن أواصر القربى بين هذه المستويات . ينمو الصبي ويشتد عوده ، حتى تضيق به الفجوة ، فيخرج إلى المجتمع ، بعد أن أصبح قادرا على مجادلته . يصبح له بيت وعمل ، ويمر ذات يوم بالشجرة ، فيجدها قد جفت وذبلت أوراقها ، فيقف أمامها لحظات يبكى أمه !

إننا هنا أيضا نقف عند حافة مجتمع ، لامكان فيه لصبي عاجز عن حماية نفسه . وينقر الصبي فينفتح ثقب في جدار الطبيعة ، عن كون فسيح من الحنان ، كان يختبىء في جوف شجرة !

أبو الرجال :

هذه القصة هي درة المجموعة إذا كانت قصة « الخروج » الرائعة تمثل مفتاحها ، إنها قصة رجل يبدأ من القاع ، ليصل إلى قمة لم يكن يحلم بها ، وكانت كلمة السر في هذه الرحلة هي قدرة الرجل على التحدي واتخاذ القرار . وطوال الرحلة التي تجاوزت الخمسين عاما « كان يمضى كالمهر الأصيل



لايتعب ولايكل ، لا من أجل هدف محدد وضعه لنفسه ، بل مُضِيٌّ وكأنما للمضى ذاته ، لا المال كان هدفه ، ولا الطموح السياسي كان محركه ، ولا مكانة في التاريخ يطمع فيها ، قد يأتي بعض ذلك أو كله نتيجة لدأبه وإصراره من أجل أن يكون مجتمعه عادلا لايمتلىء بمظلومين لايمتلك الواحد منهم سوى جلباب واحد مثل أبيه » .

متى بدأ أول انكسار في حياته ؟ « لايذكر الوقت ، المؤكد كان هناك وقت لايتذكره الآن ، وكان هناك رجل ، وكانت هناك استغاثة ، يدرك صاحبها أنه لم يتوجه إلى الانسان الخطأ ، وكان لابد أن يتخذ قرارا في ومضة ، وفي لاوقت يكون قد حسبها وحسمها ، الحكمة عنده لم تكن التصرف الوقور المتزن ، وإنما أحيانا أكثر القرارات جنونا وخروجا عن المألوف إذا كان الواجب يقتضي ذلك » .

« كان العدوان قد حدث أمام الملأ ، وكأن من قاموا به مجانين ، فقد كان الكل يعلم أن الرد سيكون فوريا وقاسيا » .

ومع ذلك ولأول مرة طال سكوته ، وكثرت في داخله الحسابات ، وبدلا من زعقته الشهيرة خرج صوته واهنا : « أنا رأيي أن نرضخ هذه المرة ، ونختار نحن بعد ذلك وقت المواجهة ومكانها الصحيح ، مع أن الجميع يعلم ، وهو على رأسهم ، أن هذه الساعة من الظهيرة بالذات ، وقد تذكرها الآن تماما ، هي أنسب وقت ، والاحتشاد للمواجهة لحظتها هو أقوى احتشاد » .

كيف حدث ما حدث ؟ أيام وليال وبضع سنين ظل يحلل ويفتش خبايا نفسه ، وبخبث يستدرج محدثيه ، ليعرف لماذا فعل ما فعل في رأيهم ؟

لنترك الآن ذلك السؤال الذى كان يشكل العصب المحوري في القصة ، لنتابع رحلة السقوط . لقد هبط درجات من القمة التي وصل إليها ، فبعد أن كان زعيما على مستوى العاصمة الكبيرة عاد سلطان ، وهذا هو اسمه ، إلى مسقط رأسه ، ليصبح مجرد « أبو رجال » زعيما أصغر لعصابة من رجال أقل شأنا ، عصابة خارجة على القانون ، ولكن وجودها من حوله كان كافيا على الاقل للمحافظة على الهيبة ، وعلى مظهر الزعامة .

ثم تأتى السقطة العظمى في قريته ، بين أهله وعزوته ، فالتحدى هذه المرة يأتيه من شاب صغير ، لايكاد يعرفه ، ولايعرف شيئا عن أسطورة قوته وجبروته . رفض الشاب أن يعيره سلطان بعمه الذى تلوك سمعته ـ كرجل شاذ ـ ألسنة الناس في القرية ، فاشتبك مع سلطان ، كانت المعركة محسومة هذه المرة ، فهي بين شاب في العشرين ورجل فوق الخمسين ، وطرحه أرضا ، ووضع طرف منجله الحاد فوق عنقه ، وأقسم ألا يتركه إلا حين يعترف أمام الناس بأنه امرأة . . ! وأنه سوف يغرس المنجل في عنقه لو اقترب أحد منه !

ثم تأتى النهاية ، أو فلنقل بداية القصة ، حين نجد سلطان يتحول ـ ربما تحت تأثير اعترافه المعلن لينقذ حياته ـ إلى نوع من النساء ، ولايجد أقرباؤه وسيلة للتخلص من فضائحه سوى قتله .

بناء القصة :

كيف قدم يوسف ادريس هذه القصة التي تكاد تروى قصة حياة كاملة ، رحلة صعود وهبوط في قصة قصيرة ؟ لقد بدأها من النهاية ، من اللحظة التي بدأ فيها سلطان يلامس الحضيض ، من بداية شعوره بالرغبة في أن يصبح بالفعل نوعا من النساء ، من اكتشافه لهذا الشعور المزلزل أمام أكثر شباب الأسرة افتتانا بشخصية عمه سلطان ، كان سلطان يدعوه بالثور ، لما فيه من قوة وعنفوان ، وحين دعاه في تلك الليلة لم يكن يعرف لماذا ؟

وجلس الشاب قبالة عمه في صمت ، بانتظار مايأمره به . وأحداث القصة تبدأ في هذه الجلسة وتكاد تنتهى فيها ، حيث يقاوم سلطان مشاعره المهلكة ، ومن خلال حركة المد والجزر لهذه المشاعر ، وعلى ايقاع هاتين الحركتين يقوم بناء القصة . . !

فمع حركة المقاومة لمشاعره الشاذة نعيش لمحات مع لحظات صعود سلطان ، ومع حركة الاستسلام

نعيش لحظات الهبوط ، نتأمل أسرارها كما يراها سلطان نفسه ، وكما يبثها يوسف ادريس بمهارة فائقة ليرى القارىء ، ربما أبعد مما يرى سلطان نفسه في مأساة سقوطه . . !

مغزى السقوط :

شخصية سلطان هى شخصية الدكتاتور النبيل أو المستبد العادل الذي تصعد به إلى القمة قوة تمرد هائلة ، ولأنه قادم من القاع ، ولأن الرحلة طويلة وشاقة لم تكن أمامه أية فرصة لالتقاط الانفاس أو النظر لمن حوله . نقطة الضعف الأولى القاتلة أن قوته لم تتحاور مع ضعفه ومخاوفه ، ولم تتحاور مع قوة من حوله ومخاوفهم ، ولم تتحاور مع التفاصيل الصغيرة والاهداف المرحلية ! كانت فقط مندفعة إلى الأمام « كأنما المضي للمضي وراء هدف بعيد غامض اسمه العدالة » .

نقطة الضعف الثانية أنه استراح للقوة النابعة من أسطورة قوته ، وليس من قوته الداخلية التى أنهكها الاعتماد على الذات وإلغاء الآخرين ، وحين ووجه لأول مرة بمن اعتقد لحظة أنهم لايرهبون أسطورته ، بل بمن توجس أنهم يرون داخله المنهك المرعوب ، سقط سقطته الأولى ، وفشل في اتخاذ القرار .

بعد السقطة الأولى لم يعد ذلك الدكتاتور النبيل أو المستبد العادل ، بل أصبح مجرد دكتاتور يدارى قبحه الداخلي بإهانة شاب بريء بما لاذنب له فيه حين يعيره بشذوذ عمه !

بعد السقطة الثانية أدرك أنه تعرى تماما ، ولم يعد أمامه سوى أن يعاقب نفسه ، عقابا عادلا تماما ، بأن يصبح مثل العم الذى سخر منه وأظهر سوءته !

بين خروجين :

ألم تكن رحلة « سلطان » « أبو الرجال » هى أيضا نوع من الخروج من القاع إلى القمة ؟!

لماذا نجح بطل قصة « الخروج » باتخاذ قراره بالخروج من سجن الأسرة ، ومن دور الأب ، الذي اكتشف فجأة أنه لم يعد أبا ، ولم يعد له دور حقيقي ، وفشل خروج سلطان ، وعاد إلى ما دون القاع الذى خرج منه ، ربما لأن بطل « الخروج » - مع أنه شخصية عادية - كان طول الوقت يسمح لنفسه بنوع من الحوار ، تارة مع نفسه ، وتارة مع من حوله ، وحين وقعت الواقعة لم تكن مفاجئة له تماما ، كان يلمح بوادرها من قديم ، وكان يتحاور معها ، ولم تكن قواه قد أنهكت إلى حد الإعياء ، « فخرج » لينال أثمن جوائز الحياة - وهو أيضا فوق الخمسين - حيث يصبح الإحساس بالحياة مرادفا للاحساس بالسعادة .

أما سلطان فقد آثر « كدكتاتور » أن يتحمل وحده عبء الصعود ، أو الخروج ، فأبهظه العبء ، وكانت انتصاراته الأولى التى كان ينال غارها وحده تمنحه قوة استثنائية ، وحين حدث أول انكسار وجد نفسه - منطقيا - يتحمل العار وحده ، فناء بثقله ، وبدأت رحلة السقوط ، ثم دفعته محاولاته لتغطية ضعفه إلى إظهار ضعف الآخرين والزراية بهم ، حتى ولو لم يكونوا مسئولين عن هذا الضعف ، (سخريته من ابن شقيق الطحان) ففجر - دون أن يدرى - القوة الكامنة في الشاب البريء - وهي شبيهة بالقوة التي كانت فيه - وفجرتها سخرية الناس من أبيه في طفولته ، فسقط في حضيض لم ينقذه منه سوى قتله بيد أقرب أقربائه ! . □

■ الكلام كالدواء ، إن قللت منه نفع وإن أكثرت منه قتل .

(عمرو بن العاص) .

الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوي

خشب مبتكر جديد



لعل الأجهزة والآلات أكثر مايبهرنا من المخترعات ، فهي تبهرنا إلى حد نكاد نغفل معه عما يبتكره العلماء من مواد أولية وخامات ، على الرغم من أهمية هذه وخطورة تلك .

فقد شهدت شهور الصيف الماضي (١٩٨٨) ظهور خشب جديد مصنع نجحت في تطويره إحدى شركات الأحراج والأخشاب في كندا ، بعد عشرين عاما من البحوث والتجارب وقد صرفت الشركة على أعمال التطوير هذه ٤٢ مليون دولار ، فظفرت لابتكار هذا الخشب سنة ١٩٨٧ بجائزة والنبرغ السويدية التي تمنح سنويا لأصحاب المستجدات في صناعة الأحراج والأخشاب .

على أن الخشب المبتكر ، ويسمونه بارللام **Parallam (Psl)** ، ليس مبتكرا بالمعنى الدقيق ، فهو مصنع من الخشب الطبيعي ، خشب الشجر الذي نعرف ، وقوامه القشرة الخشبية التي تغطى بها سطوح قطع الأثاث الخشبي ، بقصد التزين ،فالخشب المبتكر الجديد لايعدو كونه مجموعة من رقائق القشرة المذكورة ، يلصق بعضها ببعض بصمغ خاص ، ثم تعالج بالموجات القصيرة المتواصلة لتلتحم وتصبح كلا واحدا قويا .

فالخشب المصنع الجديد أقوى من الأخشاب الطبيعية المألوفة ، من هنا كان استعماله مفضلا في صناعة البناء ، وثمة عامل آخر يحمل المهندسين والبنائين على تفضيله في أعمال الطرق والانشاءات ، إذ أن في الامكان الحصول عليه بمقاييس كبيرة جدا ، لانتاج الخشب الطبيعي ، كأن تبلغ الشجرة من العمر مئات السنين ، وتبلغ من الأبعاد مايجعلها بحق شجرة عملاقة . فالعوارض الخشبية التي يمكن صنعها من الخشب الجديد قد تبلغ ١٧×١٢ بوصة ، بطول ٦٦ قدما !

ويتميز الخشب المصنع أيضا بالانتظام والتناسق اللذين يفتقر إليهما الخشب الطبيعي ، ثم إنه غير قابل للتقوس والانثناء أو الانطواء كالخشب الطبيعي ، أضف إلى ذلك أن صنع الخشب المصنع لايستهلك من خشب الشجر إلا القليل ، أقل بكثير مما يستهلكه صنع الخشب الطبيعي ، ويقدر هذا بحوالي ٥٠٪ .

والظاهر أن قشرة خشب السوح هي الخامة المفضلة لصنع الخشب الجديد ، علما بأن قشرة سائر أنواع الخشب الأخرى تصلح لتصنيعه .

■■□□

بطارية القرن الواحد والعشرين

مارأيك في بطارية لسيارتك يطول عمرها أكثر من سنتين أوثلاث سنوات ، بل أكثر من عشر سنوات ، تعمر مائة سنة كاملة ؟ إنها تعمر أكثر من السيارة نفسها ، ولابد أن يتوارثها الخلف عن السلف ، وتنقل من السيارة القديمة البالية إلى السيارة الجديدة ، أي من سيارة إلى أخرى . ولاعجب ، فهي بطارية نووية أو ذرية ، قوامها ذرات البلوتونيوم ٢٣٨ المشبعة بالطاقة ، وهي تحتوي على ٧٨٠ كليواط / ساعة ، أي مايعادل ١٦٠٠ ضعف الطاقة التي تحتوى عليها بطارية السيارة العادية التي تزن ٣٠ رطلا أو أكثر .

أما مخترعها فاسمه بول براون ، كان طالبا من طلاب الفيزياء في جامعة بركلي بكاليفورنيا في السبعينيات ، حين تسنى له العمل في تطوير بطاريته . وقد استكمل صنعها واستوفى تجربتها ، وتقدم في الصيف الماضي بطلب الحصول على براءة اختراعها .

على أن هذه ليست البطارية الذرية الأولى ، فثمة بطارية ذرية أخرى أقدم منها ، تستعمل في سفن الفضاء ، إلا أن الفرق كبير بين البطاريتين من حيث الفاعلية ، فالطاقة المتوافرة للبطارية القديمة لاتزيد على ٥٪ من الطاقة الكامنة ، ولاتعادل أكثر من ١٠٠ شمعة ، ويعزى ذلك إلى مبدأ العمل ، فالبطارية الأولى تعتمد على الكهرباء لتوليد المجال المغناطيسي ، وتستغل الحرارة التي يولدها الارتطام بين الجزيئات ذات الشحنة الموجبة — وهي بروتونات ونيوترونات — والجزيئات ذات الشحنة السالبة — وهي الكترونات — وتستعمل المزدوجات الحرارية لتوليد التيارات الكهربائية ، تبعا للفروق في درجات الحرارة ، فالبطارية إذن عبارة عن مولد حراري كهربائي .

وعلى النقيض من ذلك فبطارية براون لا تستغل مايولده الارتطام بين الجزيئات من حرارة ، لكنها تستفيد مما يؤدي إليه من مجالات مغناطيسية منهارة وقد نجح براون حيث فشل غيره من العلماء ، وتمكن من التحكم في المجالات المنهارة أثناء انهيارها ، وتوجيهها في اتجاه واحد بدلا من تبعثرها على غير هدى ، وإلغاء بعضها لبعض آخر ، ونجح بالتالي في تحويلها إلى كهرباء . أما كيف استطاع التحكم في المجالات المنهارة حتى نجح في تحويلها إلى كهرباء فهذا هو السر الذي لايبوح به المخترع في الوقت الحاضر على الأقل .

ولا يخفى أن مجالات استعمال بطارية براون كثيرة ، لاتقف عند السيارات ، فهناك سفن الفضاء والأقمار الصناعية ، وهناك الهواتف والغواصات ، فهذه كلها وأمثالها تنتظر هذه البطارية بفارغ الصبر .



انسولين جديد حسب الطلب

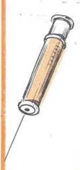
إن المرض الخبيث هو مرض السكري وليس السرطان ، فهو المرض الذي يصيب الانسان خلسة ، ومن حيث لايدري ، ويفتك به خلسة أيضا ، قبل أن تتاح له فرصة اكتشافه ، ناهيك من معالجته . ولعل مرضى السكر الذين يجهلون أنهم مصابون أكبر عددا من الذين يعرفون ، ولعل هؤلاء الذين يعرفون قد اكتشفوا إصابتهم به بطريق الصدفة ، كأن تدفعهم آلامهم الروماتزمية أو سواها إلى إجراء التحاليل الشاملة الضرورية ، فلا تلبث هذه أن تفاجئهم بأن نسبة محتويات السكر في دمائهم تبلغ ٣٠٠ ملغم أو أكثر .

على أن خبث مرض السكري ومكره لايقفان عند ذلك الحد ، فحتى الذين اكتشفوا إصابتهم به في الوقت المناسب ، ومضوا في تناول الانسولين بانتظام ، والتزموا بالحمية وفق تعليمات الطبيب ، حتى هؤلاء قد لاينجون من شر مرض السكري ، فلطالما فتك بيصر بعضهم أو شل أعصاب بعضهم الآخر أو أتلف الكلى في بعض ثالث ، على الرغم من تناول الأنسولين المناسب الذي يحقنون به مرة في اليوم أو أكثر .

لكن الأطباء لم يغفلوا عن أن العلة في كثير من هذه الحالات إنما تعزى للانسولين على الأخص ، فهو بطيء الامتصاص ، قد لايصل إلى مجرى الدم إلا متأخرا . فلو حقن المريض به قبل الوجبة الدسمة بنصف ساعة لما أمكن وصوله إلى الدم وبلوغه المستوى المطلوب فيه إلا بعد مضي ٧٠ — ٨٠ دقيقة ، على تلك الوجبة ، وعندئذ يكون وصول الانسولين متأخرا ، إذ أن حاجة الجسم إليه تبلغ أقصى الحاحها بعد تلك الوجبة بنصف ساعة فقط وهذا التفاوت في التوقيت هو الذي يؤدي في كثير من الحالات إلى مضاعفات مرض السكري السالفة الذكر . من هنا كان حرص العلماء على تصنيع صنوف من الأنسولين ، تكون أسرع امتصاصا ووصولا إلى الدم من الأصناف المتاحة .

والظاهر أن علماء إحدى الشركات الدانمركية قد نجحوا في تصنيع الأنسولين المطلوب ، بل لعلهم نجحوا في تصنيع أصناف عديدة منه مختلفة ، حسب الطلب ووفق حاجة الجسم .

ونذكر من تلك الأصناف صنفا يشبه الأنسولين الطبيعي الذي يفرزه البنكرياس ، وهو أنسولين بطيء الامتصاص لاريب ، لكنه يتميز بالمفعول التدريجي المتواصل ، والحاجة إليه ماسة بسبب المضخات الصغيرة التي تمد الجسم بحاجته من الانسولين ، وذلك حسب التحليل الذي تجريه المضخة من محتويات السكر في دم المريض . هذه المضخات تعلق على بطن المريض ، وتزرع ابرتها الدقيقة في جسمه ، وتقوم بتحليل الدم ، وبمده بالأنسولين المطلوب ذاتيا .



أما كيف نجح هؤلاء العلماء في تصنيع الأنسولين السريع الامتصاص الذي سبق الحديث عنه فحسبنا الاشارة إلى جزيئاته التي تتكتل بطبيعتها لتكون مجموعات سداسية ، أوشبه جزيئات . بيد أن أصناف الأنسولين الجديدة لم تخرج بعد من مرحلة التجارب الميدانية ، علما بأنها تجاوزت مرحلة التجارب المخبرية وقد يمضي وقت قبل أن تصبح متاحة للبيع والاستعمال . ■■□□■

معركة ضارية تشهدها القارة القطبية الجنوبية

مما يثير العجب التعارض الطبيعي القائم بين التنمية الاقتصادية والتصنيع واستثمار الموارد من جهة ، وبين حماية البيئة ومكافحة التلوث وتوفير الموارد والمحافظة على الكائنات البرية من جهة أخرى ، فالمعركة كانت ومازالت ضارية بين الشعارين ، شعار التنمية ، وشعار البيئة ، على أن الساحة التى ستبلغ تلك المعركة ذروة ضراوتها عليها هى — دون أدنى ريب — القارة القطبية الجنوبية ، فقد أثبتت الأبحاث والدراسات الأخيره وجود ثروات خام خيالية في تلك القارة . واتجهت الدول مؤخرا إلى الأخذ بسياسة استغلال تلك الثروات ، خلافا للسياسة التي التزمت بها منذ اكتشاف القارة حتى الآن .

أما ثروات القارة القطبية الجنوبية فتشمل البلاتين والكروم وعددا من المعادن الأخرى ، في المناطق الغربية منها وهى تشمل أيضا ماهو أهم من ذلك كله ، النفط والغاز ، تحت الرف القاري . تلك هى نتائج الأبحاث الميدانية التي قامت بها سفينة الأبحاث المعروفة (جلومار) ، منذ مطلع السبعينيات . وقد عثرت تلك السفينة على الاثيلين والإثين في قاع بحر روس ، ووجودهما غالبا يدل على وجود النفط في موقع قريب من موقعهما . وقد بلغت كميات الزيت الخام حسب تقدير هيئة المسح الجيولوجي (في الولايات المتحدة) ٤٥ ألف مليون برميل في غرب القارة وحده .

لاعجب إذن إن شهدت ولنجتون عاصمة نيوزيلندة في الأسبوع الأول من شهر حزيران الماضي (١٩٨٨) التوقيع على اتفاقية القطب الجنوبي الجديدة وتنص هذه الاتفاقية التي وقعتها ٣٣ دولة على استغلال نفط القارة الجنوبية ومعادنها وقد جاءت مناقضة للاتفاقية السابقة التي وقعتها ١٢ دولة (سنة ١٩٥٩) ، والتى نصت على عدم استثمار القارة اقتصاديا ، والوقوف عند حدود النشاط العلمي ، وإقامة محطات للابحاث والتجارب العلمية فيها .

ومما يذكر أن بعض الدول اعترضت على الاتفاقية الجديدة ، وطالبت بوضع ثروات القارة في عهدة هيئة الأمم المتحدة .

أما هيئة (الجرينبيس) (Greenpeace) فقد أوفدت إلى ولنجتون فريق عمل ، راقب المؤتمر ، وتابع أبحاثه ومناقشاته عن كثب ، في الوقت الذي انطلقت فيه حملتها الخاصة تطوف المنطقة طوال أربعة شهور ، من أجل الدعوة إلى تحويل القارة القطبية الجنوبية إلى حديقة عالمية ، محظورة على كل أعمال التعدين وحفر الآبار ، من الآن وإلى الأبد .

قضايا البيئة في ساحة القضاء

قبل نحو عشر سنوات ، وعلى مقربة من شواطىء بريتاني ، في شمال فرنسا ، تحطمت ناقلة النفط العملاقة (اموكو كاديز) وتدفق من الناقلة مالايقل عن ٦٨ مليون جالون من النفط الخام ، وأدى ذلك إلى تلوث الشواطىء ، ثم الى الحاق أضرار بالغة بالثروة السمكية وبالمواسم السياحية في تلك المنطقة . وتظلم صيادو الأسماك وأصحاب الفنادق والمطاعم إلى حكومتهم — الحكومة الفرنسية — فلجأت إلى القضاء ، ورفعت الدعوى في المحاكم الأمريكية — محكمة (شيكاجو) بالتحديد — على شركة (اموكو) الأمريكية التي تملك الناقلة .

وصدر قرار المحكمة في النصف الثاني من شهر يناير الماضي (١٩٨٨) ، أي بعد إقامة الدعوى بعشر سنوات وقد حكمت المحكمة على شركة (اموكو) بدفع غرامة قدرها ٨٥,٢ مليون دولار .

ورحب البيئيون بالحكم ، وقد عدّ بحق أكبر حكم صدر في قضية بيئية على الاطلاق ، لكن الحكومة الفرنسية لم تكن راضية ، فقد طالبت بغرامة أكبر بكثير مما حكمت به المحكمة ، طالبت بألف مليون دولار ، لتعويض جموع المتضررين من الفرنسيين . لا عجب إذن إن قررت حكومة باريس الاستئناف .

■□□

للاقلاع عن التدخين

ابتكر العلماء السويديون علكة تساعد المدخنين على الاقلاع عن التدخين ، أو هذا هو مايؤكده الامريكيون ، فالعلكة وإن كانت سويدية الصنع فإنها امريكية الاستعمال والانتشار .

ومع أنها انتشرت في ٤٠ بلدا من بلدان العالم فإن مبيعاتها في الولايات المتحدة أضخم بكثير من مبيعاتها في غيرها ، وهي في ازدياد وقد بلغت نسبة تزايدها ٣٠٪ خلال الشهور الستة الماضية (من فبراير إلى يوليو ١٩٨٨) .

اسم هذه العلكه (نيكورت) (Nicorette) ولايعرف إن كان المقصود بالتسمية الاشعار باحتواء العلكة على مادة النيكوتين أم الاشعار بأنها ضمان للتخلص من طغيانه .

ومهما يكن من أمر فالاحصاءات الامريكية تؤكد أن هذه العلكة قد ساعدت حوالي (١,٠٠٠,٠٠٠) مليون مدخن أمريكي على الاقلاع عن التدخين ، وهذا إنجاز ضخم ، وخاصة في الولايات المتحدة التي يزداد عدد المدخنين فيها بحوالي (١٠٠,٠٠٠) مدخن جديد شهريا بالمتوسط .

أما المدة التي يحتاجها المدخن ، بل تحتاجها العلكة لمساعدته على الاقلاع عن التدخين فستة شهور ، على أن يمضغ العلكة بمعدل ٨ مرات يوميا ، أو يمضغ قطعة واحدة منها كل ساعة من ساعات اليقظة . ويشترط أن توضع العلكة بين اللثة والخد حينا ، وتمضغ حينا آخر . والغريب أن شراءها يتطلب وصفة طبية ، لكنه من الممكن بل السهل دون وصفة ، لاسيما أن ثمن العلبة « الباكيت » (٨ قطع) يتراوح بين ٢٥ — ٣٥ دولارا .

■□□



عُمان..

عَين عَلى التاريخ وأخرى عَلى المستقبل

استطلاع : علي عتمان/تصوير : سليمان حيدر



عُمان بلاد المفارقات تمتلىء وديانها بالخصوبة والأساطير ، وجبالها التي تشكل مع الصحراء معالم تضاريسها ، تجمع بين الوعورة والنماء ، وتحفل شواطئها المشرعة على العالم بالانتصارات والانكسارات . امتدت حركتها الى العالم المعروف قديماً ، وأقامت ممالك على غير أرضها عددا من القرون ، ثم انحسر نفوذها ، فكمنت في حدودها تصد الطامعين . تتداخل على أرضها المناخات ، فتكسبها تنوعاً فريداً .

وبعد عزلة طويلة تنهض متلمسة طريق المستقبل ، بعنفوان الرغبة في الحياة .

أفصحنا عن رغبتنا في الالتقاء بنماذج من الجيل العُماني الجديد ، فأشاروا علينا بزيارة النادي الثقافي كبداية ، حتى يهيئوا لنا زيارات لمواقع أخرى .

× سألنا : وأين مكانه ؟

- في ضاحية القرم ، وهي *ضاحية حديثة جميلة* .

في مساء ليلة من شهر أغسطس كنا في مكتب المسئول عن النادي ، قدمنا له أنفسنا ، وشرحنا له مهمتنا ، فرحب بنا ثم قال : « سأصحبكم في جولة داخل النادي ، لتتعرفوا على أنشطته ، وتلتقوا مع من تشاؤون من الأعضاء الموجودين ، وكنا نأمل أن تكون زيارتكم متزامنة مع موسم نشاط النادي ، لأن معظم الأعضاء ، وأعضاء مجلس الإدارة ، خارج عُمان لقضاء إجازتهم السنوية ، ولذلك فنشاطنا الآن محدود » .

× قلنا : لابأس ، سنحاول الاستفادة من الموجودين .

صورة أولى :

النادي الثقافي هو الوحيد بمسقط ، وليس له نظير بعُمان ، افتتح عام ١٩٨٤ على الرغم من أن تكوينه أسبق من هذا التاريخ ، فقد كان اسمه « النادي الجامعي » لأن عضويته كانت مقصورة على خريجي الجامعات ، والنادي بتكوينه ونشاطاته وعضويته يكاد يكون مرآة للثقافة الحديثة في عُمان ، بكل تياراتها وأجيالها ورموزها ، ويقام في النادي ، بالإضافة إلى المحاضرات والندوات ، أنشطة تعليمية مختلفة ، وتعقد فيه ندوة شهرية باسم « ندوة الثلاثاء » .

وفي جولتنا بالنادي رأينا قاعة للمحاضرات ، ومكتبة ، ومرسماً *يمارس فيه محبو الفنون التشكيلية* من أعضاء النادي هواياتهم ، وقاعة موسيقية ، ومثلها للتدريب والتعليم على الحاسوب (الكمبيوتر) ، أبرز علوم العصر .

في المرسم شاهدنا فتاتين مستغرقتين في توقيع الألوان بدرجاتها المختلفة وتداخلاتها على أرضية اللوحة ، الفتاة الأولى تكمل بفرشاتها ملامح وجه صياد ، يستعد بشباكه وأدواته للعمل . أرضية اللوحة تحمل درجة مياه البحر الزرقاء بأمواجه الهادئة ، إنه البحر الذى دفع العُمانيين إلى الانفتاح على العالم قديما وحديثا ، والذى أطمع فيها الغزاة . طافت بذهني حكايات السندباد البحري في ألف ليلة وليلة ، وهو يبدأ رحلاته السبع من عُمان ، ببحارة عُمانيين ، ويجذب السندباد من الذاكرة التاريخية أحمد بن ماجد البحّار العربي الشهير الذي استفاد من صحبته وكتبه « فاسكو دا جاما » في وصوله إلى الهند ، وابن ماجد عُماني . وتتدافع الصور ، والأخيلة ، والمعلومات التي زخرت بها كتب التاريخ عن الدور البحري العُماني في سنوات القوة والصعود بمراحلها المختلفة ، كالوصول بتجارة اللبان قديما

حتى ميناء كانتون الصيني ، واستيطان شرقي أفريقيا منذ القرن الثامن الميلادي حتى استقلال زنجبار عام ١٩٦٠ . وهزيمة البرتغاليين في منتصف القرن السابع عشر ، بعد احتلال دام ١٤٠ عاما .

إنها سيمفونية البحر الذي تملك عُمان ١٧٠٠ كيلومتر من الشواطىء المطلة عليه ، كما أنه عنصر من أهم مكونات اللوحة العُمانية ، منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، توظفه فتاة في لوحة ، توحي بمدى الارتباط بين الإنسان والطبيعة بعناصرها المختلفة .

وعدت من خواطري لأستأذن الفتاة في حوار قصير ، فتوقفت عن مزج الألوان ، ورفعت رأسها مرحبة ، وكذلك فعلت الفتاة الأخرى .

أجابت « ياسمين بنت محمد سالم » رئيسة قسم المختبرات بوزارة التربية التي لم تتجاوز الخامسة والعشرين : « تخرجت في كلية العلوم بجامعة كراتشي ، وقد بدأت هوايتي في الرسم منذ كنت طالبة بالمرحلة الإعدادية ، ولم تتوافر لي إمكانات الدراسة المنهجية للفنون ، لكنني أستعين بالخبرة والإحساس والممارسة المستمرة في تطوير أعمالي . معرضي الأول نال إقبالا كبيرا ، وبيعت جميع لوحاته ، بعضها اقتنته أجهزة حكومية ، وبعضها الآخر اشتراه أفراد . هناك نشاط كبير في مجال الفنون التشكيلية في عُمان ، لكننا نحتاج إلى مزيد من التشجيع والاهتمام » .

وفي قاعة التدريب والتعليم على الحاسوب توحي صورة العُمانيات اللائي يتعلمن دروس الحاسوب بالاشتراك مع زملائهن الشباب ، بمقارنة موحية مهمة ، بين واقع كان متخلفا ، وحاضر ينمو ويتطور ، ففي عام ١٩٧٠ لم يكن موجودا بعُمان كلها من المدارس إلّا ثلاث فقط تضم ٩٩٠ طالبا ، أما في العام الدراسي ١٩٨٧ - ١٩٨٨ فقد بلغ عدد المدارس على اختلاف مستوياتها ٦٦٩ مدرسة تضم ٢٥٠,٠٦٢ طالبا ، منهم ١٠٠,٨٤٧ طالبة ، هذا عدا كلية عُمان الفنية الصناعية ، وجامعة السلطان قابوس ، والبعثات التعليمية الموفدة إلى دول العالم المختلفة . إنها صورة أولى من المشهد العُماني الحديث .

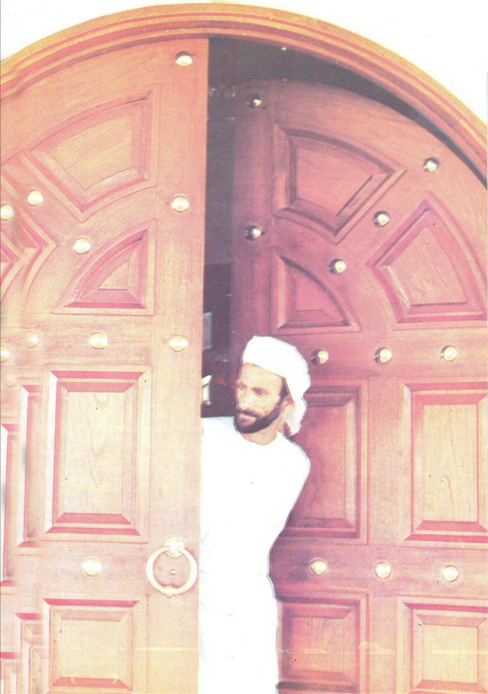


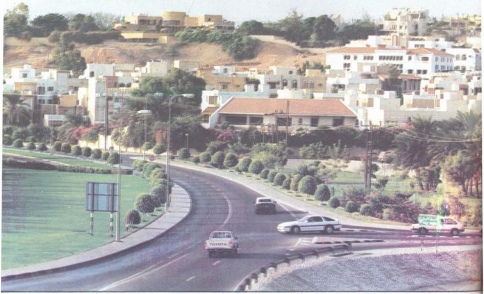
● خريطة تبين موقع سلطنة عُمان

انطباعات سريعة :

خرجنا - أنا وزميلي المصور - نتفرس في وجوه المستقبلين في صالة المطار ، الوجوه توحي بالألفة ، فأشعر أني التقيت بها في غير هذا المكان . أين ؟ ربما في بغداد ، أو القاهرة ، أو الكويت ، أو دمشق ، معظمها وجوه شابة ، ترتدي الزي العُماني الذي يشترك مع الزي الخليجي في اللون والتفصيل ، ماعدا الربطة المتدلية من العنق التي عَرفتُ - فيما بعد - أنها تضمخُ بالعطور والطيب ، حتى يستعين بها صاحبها في التغلب على ما يصادفه من روائح كريهة ، وهذا تقليد قديم مستمر . ويعلو الرؤوس الغطاء العُماني بألوانه الزاهية ، ونماذجه المتعددة .

في الطريق إلى الفندق - والسيارة تطوي الشوارع الواسعة النظيفة ، وعبارات الترحيب من مرافقنا تمسح عنّا عناء السفر - رحنا عبر زجاج السيارة نحاول اكتشاف مايتاح لنا من معالم العاصمة مسقط ، مدخلنا الى عُمان .









● « على اليمين » عماني يفتح الأبواب على المستقبل - « على اليسار » جزء من حي القرم بالعاصمة مسقط - « تحت يمين » برج الصحوة ، في الطريق إلى مطار « السيب » وعلى جوانب قاعدته رسوم تحكي صورا من التاريخ العماني - « تحت يسار » فتاة عمانية تضع لمساتها الأخيرة في لوحة الصياد بالنادي الثقافي .

الشوارع الخالية من الحركة ، تمتد بانسياب رقيق ، تعلو وتهبط حسب تضاريس المكان ، منبسطة في الأودية والسهول ، ملتوية كحركة الثعبان عند التفافها حول المرتفعات ، أو اختراقها للجبال التي شُقَّت « بالديناميت » ، ومُهدت للطرق ، بقدر محسوب ، صَنَعَ من جوانبها المتدرجة رأسيا أمكنةً لزراعة النباتات المتسلقة والأشجار ، تجميلا لها وللنظر .

حاولنا - على طول الطريق - استيعاب ملامح الطبيعة المحيطة التى تُكسب مسقط شخصيتها المتميزة ، وإنجازات الإنسان في تطويع هذه الطبيعة والسيطرة عليها . جسور تمتد فوق الأودية استكمالا للطرق المزدوجة الاتجاه ، مبان متعددة الطوابق ، «فيلات» على سفوح المرتفعات ، نُصُب مختلفة الرموز والدلالات مقامة في الميادين ، جُهد بشري ومقدرة فائقان . وانتزعنى صوت مرافقنا من نهمي الشديد للرؤية على الرغم من سرعة السيارة وخفوت الأضواء حول الأماكن البعيدة التى تنسج حولها هالة من الغموض المحببَ الأليف .

- هذه المبانى حديثة جدا ، أقدمها بُني منذ خمسة عشر عاما فقط ، وهذه ضاحية « القرم » ، وهذا ميناء « الفحل » بمصفاته لتكرير النفط ، نحن الآن في « مطرح » الكبرى .

وأدركنا كما يدرك كل زائر لعُمان أن مسقط العاصمة مدينة شابة ، بشوارعها الحديثة ، ومبانيها ، وأشجارها ، فكل مكوناتها تجسّم دفقة الشباب بانطلاقته وحيويته ونضارته . ولكن اندفاعاتها الشبابية محكومة بالموقع الجغرافي ، بتضاريسه الجبلية ، وبالتاريخ ، وكلا العنصرين لهما حضور قوي ودائم ، تستشعره من الوهلة الأولى ، ويصاحبك أينما حل بك الترحال في أرجاء عُمان .

وحضورهما هذا يمثل للإنسان العُماني المعاصر وأجياله القادمة تحدّيا ، يتوقف نجاحه في مواجهته والتغلب عليه على مقدرته في استغلال غنى الموقع « الاستراتيجي » ، وتعدد تضاريسه ، ومناخه ، وكذلك استخدام عناصر التاريخ الحية والكامنة في الواقع والتفاعلة معه .

فعُمان بلاد المفارقات : النور الحارق والظلال الساكنة ، صخور ناتئة جرداء ، تحيط ببحر زاخر بالأسماك ، وقمم شاهقة ، تطل على وديان منحدرة ، حيث الينابيع التي لا تتوقف عن التدفق لتمنح الحياة للبساتين ومزارع النخيل ، وجبال منتشرة هنا وهناك ، تترامى وراءها رمالٌ بلا نهاية .

تحتل عُمان معظم الركن الجنوبي من شبه الجزيرة العربية ، وهي أشبه ما تكون بجزيرة من الجبال ، لكنها جزيرة تسيطر على أقدم الطرق التجارية البحرية في العالم ، وهو الطريق البحري بين الخليج والمحيط الهندي ، وتتحكم في مضيق هرمز عند مدخل الخليج ، حيث يمر نصف نفط العالم .

سلطنة عُمان الدولة الثانية في المساحة بمنطقة شبه الجزيرة العربية تبلغ مساحتها حوالي ٣٠٠ ألف كيلومتر مربع من الأراضي الشديدة التباين التي تغطي المنطقة الواقعة في أقصى الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة ، وتمتد سواحلها ١٧٠٠ كيلومتر ، ويغلب على المنطقة الداخلية وجود الجبال الوعرة التي يطلق عليها اسم « حجر » ، ويبلغ أعلاها ارتفاعا ٣٠٧٥ مترا ، وهو الجبل الأخضر المدرج بين السهول والبحر ، أو الهضاب والكثبان الرملية في الداخل .

وهناك الأراضي البور التى يغلب عليها طابع الأزقة البحرية في المناطق المطلة على مضيق هرمز في الشمال - حيث شبه جزيرة مسندم - الى سهل الباطنة الخصب تجاه مسقط ، ومن صحراء الربع الخالي الشاسعة عبر الجبال إلى سهل صلالة الأخضر ، شبه الاستوائي ، في الجنوب حيث منطقة ظفار .

وجه من وجوه التاريخ :

في المتحف الوطني الذى اقترح علينا الأستاذ محمد بن سالم المرهون ، مدير الإعلام بوزارة الإعلام ، أن نبدأ رحلتنا بزيارته ، كنا نعيش بالصورة واللوحة والمجسمات ، والنماذج مشاهد من تاريخ عُمان .



في البداية نلمح تأثر تصميم المبنى من الخارج بنمط العمارة المستخدمة في تصميم القلاع والحصون ممزوجا بمفردات العمارة الإسلامية ، وبخاصة الأقواس والعقود التي في أعلى فتحات الأبواب والنوافذ ، والمبنى مكون من طابقين ، ويتميز ببساطة تذكرنا بحياة الصحراء والبداوة ، ولقد تم افتتاحه في العيد الوطني لعُمان عام ١٩٧٤ .

عند المدخل استقبلنا الأخ إبراهيم بن صالح بن أحمد مسئول المتحف بزيه العُماني والخنجر معلق بالحزام في وسطه ، وصحبنا في جولتنا بالمتحف معلقا على مقتنياته : الطابق الأرضي يضم التاريخ القديم والأسلحة ونماذج مجسدة لطبيعة الأرض والإنسان . وتحدثنا الصخور وبقايا الآنية الخزفية عن الوجود العُماني القديم ، والصور واللوحات عبرت عن التاريخ المسجل المعروف لعُمان ، ومازالت بعثات التنقيب عن الآثار تكتشف الجديد : مدافن حجرية اكتُشفت في مدينة (بات) القديمة ، يقدر أنّ بناءها قد تم في فترة ٣٢٠٠ - ٢٨٠٠ قبل الميلاد ، ونقوش حجرية عثر عليها في جبال (فنجة) ووادي (سمائل) - في وسط عُمان - تعود الى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد .

وتابعنا معه مسار رحلة اللبان والبخور في العصور القديمة التي اشتهرت بها منطقة ظفار في الجنوب ، حيث كانت ترسو السفن في موانئها المزدهرة آنذاك التي لم يبق منها إلّا بعض الأطلال ، كميناء سمهرم ، المعروف الآن باسم « خور روري » ، وميناء ظفار (البليد) ، لتقل منها حمولتها ، وتتجه بها الى الصين شرقا ، وروما شمالا .

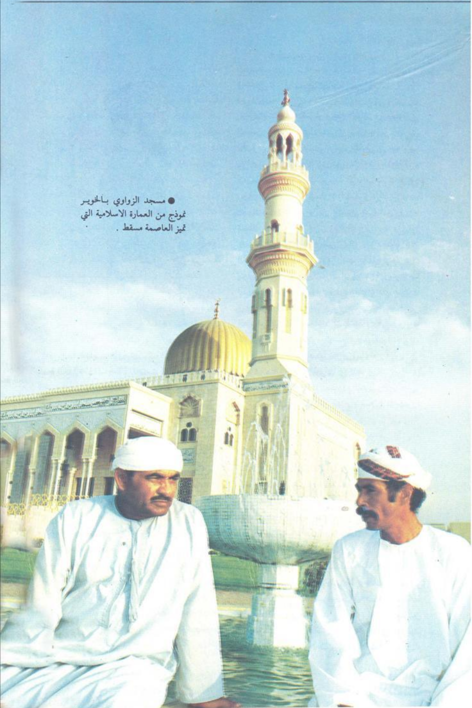
وتعرفنا على الأفلاج التي تشكل عماد نظام الري الذي تشتهر به عُمان ، ومن أشهرها فلج (دارس) بنزوى ، إحدى عواصم عُمان القديمة ومركزها الديني ، وصور لقلعة من قلاع عُمان ، وفي عُمان ما يربو على خمسمائة قلعة وبرج دفاعي ، وعلى سفن الصيد القديمة المسماة « الشاشة » وهي قوارب تقليدية لصيد السمك ، تصنع من سعف النخيل ، يطفو القارب منها ونصفه غارق في المياه .

وشرعنا نستكمل جولتنا في الطابق الثاني الذى يضم صوراً ونماذج من العمارة والفنون والأسلحة ، فرأينا بعض الفخار من إنتاج « بهلا » المشهورة بصناعة الفخار .

وجذبنا صوت الدليل الى نماذج من الأزياء العُمانية التي تختلف باختلاف المناطق في التفاصيل والألوان ، ويغلب على ملابس النساء الألوان الصريحة الزاهية ، وعلقت : إن في هذه الألوان تأثيرات وافدة من الهند وشرقي إفريقيا ، حيث كان للعُمانيين حضور كثيف ، عن طريق التجارة مع الهند ، والإقامة الدائمة والحكم في شرقي إفريقيا .

دلالة السيوف والخناجر :

وعند جناح الأسلحة البيضاء ، طلبنا من مدير المتحف أن يزيد الشرح حول هذه الأسلحة واستخداماتها ، حتى نستجلي ظاهرة تمسك العُمانيين باستخدام الحزام المعلق به خنجر على لباسهم الخارجي في وسط الجسم ، وبخاصة في المهام



● مسجد الزواوي بالخوير نموذج من العمارة الاسلامية التي تميز العاصمة مسقط .



● بهو الاستقبال في فندق قصر البستان ، ويبدو تأثر تصميمه ، بلمساته الفنية ، بالعمارة الاسلامية (أعلى) « وإلى اليمين » الواجهة الرئيسية لمبنى وزارة الخارجية العمانية التي نالت جائزة اليونسكو في التصميم المعماري لعام ١٩٨٧ .



الرسمية والاجتماعية . وهذه الظاهرة لا يشاركهم فيها إلا اليمنيون ، وإن اختلفت نوعية الأداة المستخدمة عند كلٍّ منهم ، واستخدامهم لها الآن يقتصر على مدلولها الرمزي أكثر من استخدامهم العملي لها .

إن لدلالتها عندهم أهمية بالغة ، بدليل اختيارها شعارا للسلطنة « سيفين متقاطعين يتوسطهما خنجر » .

قال مسئول المتحف : « لقد كان الإنسان العُماني يعيش ويتجول في الجبال والوديان والبراري ، يصطاد الحيوانات ، فكان لابد له أن يستخدم أداة أو سلاحا يدافع به عن نفسه ، حتى أصبح السلاح ملازما له ، وجزءاً متمماً لحاجاته الشخصية الضرورية » .

وأضفتُ استكمالا لحديثه - إن القلاقل والاضطرابات والصراعات فيما بين القبائل ، بالإضافة إلى الغزو الخارجي الذي تعرضت له عُمان على مدى تاريخها الطويل ، أجبر الأفراد على استخدام السلاح المتاح لهم آنذاك ، فكانت السيوف والخناجر والسكاكين التي قامت لها في عُمان صناعة حرفية ، مازال بقاياها موجودة في « نزوى » وإن كان الاستيراد من الخارج قد هيأ منافسة حادة لها ، لأنه أسهل وأرخص .

وقال : « إن السيوف لابد أن تكون مستقيمة ، وحادة النصل من الجهتين ، وتتميز بالرهافة الى حد الاهتزاز قبل القطع بها ، ولها مقبض إما من الجلد أو من الفضة ، وأغمادُ السيوف مكسوّة بالجلد ، وعليها زخارف مختلفة ، محلاة بالخيوط الفضية أو الذهبية » .

أما الخناجر فمعقوفة ، حادة النصل ، ولكل منطقة طابع خاص بالخناجر ، ويوجد منها نوعان : الأول هو الخنجر السعيدي ، ويرمز للعائلة السعيدية ، ويزخرف بنقوش كاملة . أما النوع الثاني - العادي - فله تسميات مختلفة ، ولا يحمل أي نقوش ، ويُصنع من العظم المستورد من إفريقيا ، وأغلى أنواعه عظم الزرافة ويصنع حاليا من مادة الشمع .

وثمن الخنجر - حاليا - يتراوح ما بين ألف الى ألفين من الريالات العُمانية (الريال العُماني يساوي ما يقرب من ٢,٦ دولارين وستة أعشار دولار) ولذلك يقتصر استخدام هذا النوع على الأسر الميسورة الحال .

والحزام الذى يعلق به الخنجر إما من القماش أو الفضة ، والموروث من السيوف والخناجر تحتفظ به العائلة كإرث تتفاخر به ، ولا يباع . وحتى يتعوَّد الصبيةُ استخدامَ الخناجر عندما يشبون عن الطوق يعطون خنجرا من الخيوط الصوفية ، لأن الصبى عندما يبلغ سن الرشد يطلب الخنجر والعروس .

رؤية للتاريخ :

وفي الأماكن التى زرناها بعُمان شعرنا بخطى التاريخ تدب على أرض الحاضر ، من خلال نشاطات وزارة التراث القومي والثقافة ، الوزارة الوحيدة في الوطن العربي المنشأة للعناية بالتراث ، حيث تجعل له الأقطار العربية إدارة تختص به في إحدى الوزارات ، ولكن التراث في عُمان له أهمية بالغة ، لذلك تسعى وزارة التراث القومي والثقافة ، بخطة متعددة المسارات ، للكشف عن هذا التاريخ من خلال تحقيق المخطوطات ونشرها ، والعُمانيون يملكون منها الكثير ، وترميم الأبنية الأثرية والحصون والقلاع المنتشرة في ربوع عُمان وصيانتها ، أو جمع الفنون الشعبية من أغانٍ وأهازيج ورقصات وأزياء ، وهى كثيرة ومتنوعة . وتعكس - بوجه من الوجوه - مكوّنات الإنسان في عُمان في ماضيه وفي حاضره ، وكذلك تدعيم الصناعات التقليدية ، كصناعة السيوف والخناجر والمشغولات الفضية ، وصناعة الفخار ، أو تكثيف عمليات التنقيب والبحث عن الآثار خلال العصور التاريخية المختلفة .

إنه عشق مشبوب للتراث كملاذ يُحتمى به من تأثيرات الأفكار والسلوكيات الوافدة التى تدافعت بقوة الى الداخل بعد الانفتاح على العالم منذ عام

١٩٧٠ ، ولأنه من أهم مقوّمات الشخصية الوطنية التى تسعى إلى تأكيد ذاتها في عالم اليوم .

وفي مبنى وزارة التراث القومي والثقافة سألت الأستاذ مال الله حبيب مستشار الوزارة عند لقائنا به : من المعروف أن تفاعل عناصر التاريخ مع الحاضر يؤدي الى إحدى نتيجتين ، إما أن يضغط على الحاضر فيوقف تطوره ، ويجذبه للانزواء والتقوقع ، وإما أن يدفعه إلى اقتحام آفاق المستقبل ، فماهي فلسفة استخدامه في نشاطات الوزارة ؟ .

ـ فقال : « إن من الميزات التى تتمتع بها عُمان ـ بحكم كونها شبه جزيرة يعزلها البحر عن المناطق النائية الأخرى ـ بقاء القيم والتقاليد والعادات الشعبية على أصالتها ، على الرغم من الغزو الحضاريّ المعاصر ، لأنني أظن أن معظم بلاد العالم التى جرى فيها الانفتاح على العصر الحاضر قد دفعت ضريبة من عاداتها وقيمها وتقاليدها ، لتكتسب المميزات والخصائص الجديدة ، الآتية مع الغزو الحضاري وانتشار المدنية ، بينما نرى هذه الظاهرة السلبية أقل نفوذا وانتشارا في المناطق العُمانية ، لذلك يضع المسئولون نصب أعينهم الحفاظ على الأصالة والقيم بجميع ما يحفظونه بمشاريع عمرانية وثقافية ، ولقد أنشئت وزارة التراث القومي والثقافة في عام ١٩٧٦ بهدف تعميق مالدى العُمانيين من معرفة بتراثهم الثقافي وتاريخهم العريق » .

وغادرنا مبنى وزارة التراث لنرى مشهدا آخر من مشاهد عُمان الحديثة .

التمدد في حضن الجبل :

وخرجنا من رحاب التاريخ الذى سيظل باسطا هيمنته على كل مكونات الحياة في عُمان ، بعد أن استأذناه في دخول الحاضر بحيويته ، وسخونة إيقاعاته ، فاحتوتنا العاصمة « مسقط » بمعالمها ، وشخصيتها المتميزة .

أخذت من العاصمة القديمة اسمها ، وتركت لها الموقع والبداية وبعض الآثار التاريخية ، بعدما حطمت السور الذي كان يعزلها وسكانها عن داخل عُمان ، حيث لم يكن يسمح لهم الاتصال بالآخرين حتى عام ١٩٧٠ إلا بإذن خاص .

كانت العامة تسميها قديما « مَسْكَد » ، ولكنها اشتهرت باسمها الذي عرفت به « مسقط » ومعناه مكان السقوط .

العاصمة مدينة تتمدد في حضن الجبال التى تحيط بها من جهات ثلاث ، تاركة لها الجهة الرابعة « الشرق » تعانق منها البحر بمياهه الزرقاء ، وهى إن اشتركت مع العاصمة القديمة في النمط الدفاعي الذي فرضته الأطماع الخارجية والنزاعات الداخلية ـ فأقيمت القلاع والأبراج على قمم مرتفعاتها ـ ولكنها تختلف عنها في الامتداد والاتساع والتنوع .

فمسقط الحديثة تبدأ من قصر البستان جنوبا ، حتى قصر السيب السلطاني شمالا ، وتضم بين جنباتها العديد من الضواحي الجديدة التى تنهض على سفوح المرتفعات أو في الأودية : مدينة قابوس ، والخوير ، والوطية ، والوادي الكبير ، إلى جانب القرى القديمة التى نمت وتطورت مع النمو الحديث الذى تشهده سلطنة عُمان ، كقرية « القرم » التي تحولت إلى ضاحية رائعة الجمال بخضرتها الزاهية ، وتصميمات مبانيها ، وقرية مطرح بأسواقها القديمة ، وقلعتها الشهيرة التى فقدت مكانتها القديمة كمركز مالي وتجاري لصالح الحي التجاري الجديد « رُوي » بأسواقه الحديثة ، ومبانيه المرتفعة . وتضم العاصمة كذلك مينائي قابوس ، والفحل ، بالإضافة إلى المنطقة الصناعية في « الرسيل » غرب « السيب » بمصانعها العديدة .

وعند تجوالنا في أحياء العاصمة وضواحيها ، لفت نظرنا نظافتها ، وهدوؤها ، على الرغم من ازدحام طرقاتها بالسيارات ، وخلوها من التلوث ـ وعُمان هو القطر العربي الوحيد الذى أنشأ وزارة لحماية البيئة ـ كما أن مبانيها التى يغلب عليها اللون الأبيض أو الترابي الخفيف تصنع لوحة متناسقة الألوان ، وتشكل الجبال بألوانها البنية المتدرجة خلفية رائعة لها .

وتمتاز «مسقط» بشبكة طرق حديثة ، تربط







● على شاطىء «مرباط» بظفار المشهورة بشواطئها الجميلة، وأسماكها المتنوعة، عماني يتطلع للبحر آملاً في استعادة الأمجاد البحرية لعمان.

«الصورة العليا» جزء من شاطىء صلالة.

شجرة اللبان وعماني يقطع لحاءها ليستخرج اللبان.

أقصاها بأقصاها ، متجاوزة الموانع الطبيعية التي كانت تجعل الحركة بين أجزاء العاصمة صعبة ، فالجبال شقت ومُهدت للطرق ، وعلى الأودية أنشئت الجسور ، وزُوِّدت الطرق المزدوجة الاتجاه بكل الإمكانات التي تجعلها مأمونة الاستخدام ، ففيها حواجز على الجانبين ، وإشارات ضوئية تساعد على انسياب الحركة ، ومسارب لمياه الأمطار من المرتفعات إلى الأودية ، ولذلك فالحوادث المرورية في عُمان أقل من البلاد الأخرى بسبب انضباط السائقين ، والصرامة في تطبيق القانون .

وعلى جوانب الطرق وفي قلب الميادين تنتشر الأشجار والزهور ، فتبسط للرؤية منظراجميلا . إن شبكة الطرق الحديثة ، بالإضافة إلى أنها ربطت أطراف العاصمة ، ويسرت الحركة فيها ، مكنت الحركة الإنشائية والعمرانية من التمدد والانتشار ، بحيث تحولت الأراضي المهجورة الى ضواح تعج بحركة الإنسان وحيويته .

جائزة من اليونسكو :

من السمات التي لاحظناها في مسقط العاصمة غلبة نمط العمارة الإسلامية بخطوطها المنسرحة ، وأقواسها ، وعقودها « المخموسة » والنصف دائرية « البيكار » أعلى فتحات الأبواب والنوافذ والمنمنمات ذات الوحدات المتكررة ، المنفذة على الخشب أو الألمونيوم أو الجص في الواجهات والأسوار والقلائد « الكرانيش » وأسلحة المباني ، ويبدو المشهد المعماري في غالب المناطق - والحديثة منها بوجه خاص وعلى جوانب الشوارع - كأنه لوحة مجسمة من خطوط معمارية منسابة بليونة ، وانطلاقة ، وشاعرية . ومَثَّل كل مبنى وحدة متناسقة مع باقي الوحدات في إطار اللوحة الكلية التي توشيها الأشجار والنباتات بنضرتها الزاهية ، وتكسبها الأضواء المبعثرة ليلا حزماً من الضوء والظلال ، فتكمل عناصر اللوحة التشكيلية الفائقة الجمال ، التي تمثل الطبيعة بعناصرها المختلفة من بحر وجبال خلفياتٍ لها .

ولقد جذبت هذه اللوحة انتباهنا ليلة وصولنا مسقط ، فسألنا مرافقنا : « هل التكرار والتشابه في المباني ، حكومية وخاصة ، اختيار حر من أصحابها أم هو التزام بنمط معماري فرضته الجهاتُ المختصة ؟ » .

فأجابنا : « إنه مزج بين الاثنين ، لأن إدارة « الإباحة » في بلدية العاصمة قدمت للملاك وشركات المقاولات ، نماذج مستوحاة من العمارة الإسلامية في عُمان ، للاسترشاد بها عند تصميم مبانيهم ، وتركت لهم حرية الابتداع » .

وأكد لنا المهندس عبد الله بن عباس نائب رئيس الديوان للشئون الفنية هذه المعلومات عندما التقيناه في مبنى بلدية العاصمة بمنطقة « رُوِي » : « نعم إننا مهتمون بضرورة الالتزام بالنمط المعماري الإسلامي في كل تصميمات الأبنية الحديثة ، حكومية أو خاصة ، حتى لا تضيع ملامح شخصيتنا التي تحددت معالمها على مدى تاريخنا الطويل ، في الفوضى المعمارية والإنشائية التي يجلبها الأفراد بتأثرهم بالعمارة الأوربية على وجه التحديد ، وكما نراها في أغلب المدن العربية ، ونحن حريصون على الاستفادة من كل التجارب العربية - وغيرها - التي سبقتنا منذ مدة طويلة .

ولذلك وُجِّه إلى كل القطاعات الإنشائية ، والمكاتب الاستشارية الهندسية ، في مطلع ١٩٨٥ كتيبٌ يتضمن أنماطا من العمارة الإسلامية في عُمان ، ليتم الاسترشاد بها عند تصميم أي مبنى ، وبخاصة الواجهات والأسوار والأبواب ، ولعلك تعرف أن لعُمان شهرة في فنون الزخرفة والنقوش التي مزجت مع فنون العمارة الإسلامية وعناصرها» .

على عتبات العصر :

وفي الطريق إلى جامعة السلطان قابوس تذكرت صبيا لم يتجاوز عمره الثانية عشرة ، كان يبيع لنا ثمار النارجيل (جوز الهند) على قارعة طريق بين مزارع « صلالة » في منطقة ظفار ، وهو يجيب عن سؤالي - بعدما عرفت أنه طالب - عما يتمناه لنفسه إذ قال :



سأكون مهندسا ؟ فسألته : وكيف ؟ رد بسرعة : سألتحق بجامعة السلطان قابوس في مسقط ، لحظتها قلت لنفسي : إن هذا الصبي بتفكيره وطموحاته يقدم ملمحا مُهِمًا من ملامح تكوّن الإنسان الجديد في القطر العُماني .

وتذكرت حواراً دار بيننا وبين السيد مهدي عبد القادر ، مدير عام التخطيط بمجلس التنمية ، حول قطاع التعليم ومكانه في الخطة الخمسية الثالثة ٨٦ ـ ١٩٩٠ ، فقد قال : « إن المسئولين العُمانيين يولون هذا القطاع أهمية متزايدة ، لأن التعليم هو البداية الصحيحة لمواكبة العصر ، والإمساك بطريق المستقبل الوعر ، وحتى نعوض آثار العزلة الطويلة بنتائجها السيئة ، ولذلك فالتعليم الابتدائي والإعدادي إجباري ، ومنذ الخطة الخمسية الأولى أرسيت قاعدةُ تنوع التعليم والاهتمام بالتعليم التطبيقي الذي يوفر العناصر الفنية الماهرة ، حتى نتمكن من الوفاء باحتياجات خطة التنمية من العناصر البشرية المدربة ، وتطبيق سياسة « التعمين » ، أي إحلال العمالة الوطنية العُمانية محل الوافدة ، ولقد بلغت تقديرات الخطة الخمسية الثالثة ٨٦/ ١٩٩٠ للإنفاق على قطاع التعليم بجميع مستوياته ـ بما فيه الجامعة ـ ١٧٦ مليون ريال عُماني ، بنسبة ١١,٥٪ من إجمالي توزيع تقديرات إنفاق الخطة » .

وفي الكتاب الإحصائي نقرأ أن عدد مدارس التعليم العام بجميع مستوياتها قد بلغ ٦٦٩ مدرسة حكومية وخاصة في عام ١٩٨٧ ، وهناك ثلاث مدارس فنية ثانوية ، وتسع مدارس للتدريب المهنى للمرحلتين الإعدادية والثانوية ، بالإضافة إلى معهد للعلوم الصحية ، وآخر للعلوم المصرفية ، وهناك كلية عُمان الصناعية الفنية .

وجاء افتتاح جامعة السلطان قابوس في ١٩٨٦ ليكمل هيكل التعليم بالسلطنة ، ففي منطقة « الخوض » على بعد ٤٥ كيلومترا غربي مدينة مسقط ، أنشئت الجامعة على مساحة ١٢ كيلو مترا مربعا .

ووصلنا الجامعة ، الواجهةُ الخارجية تجمع بين المهابة والنعومة ، والرصانة والانطلاق ، واجتزنا الممرات ، وتنقلنا من مبنى الى آخر بسهولة ويسر ، وجذب انتباهنا الاتساع ، والجمال ، والهدوء ، والترابط بين عناصر الجامعة ووحداتها . والتقينا بالشاعرة سعيدة بنت خاطر ، وهى شخصية نسائية معروفة في عُمان ، من خلال أنشطتها المتعددة ، بجانب موقعها كمساعدة عميد الجامعة لشئون الطالبات .

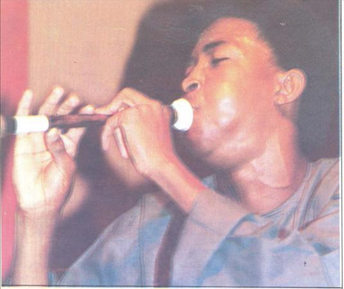
وطرحنا عليها تساؤلاتنا حول نظام الدراسة بالجامعة ، وعدد الطالبات ، والهيئة التدريسية ، فقالت : « لقد بدأت الجامعة عامها الدراسى الأول ٨٦/ ١٩٨٧ بخمس كليات فقط ، هى الطب ، والهندسة ، والعلوم ، والزراعة ، بالاضافة إلى كلية التربية والعلوم الإسلامية ، وهي ـ كما هو واضح ـ كليات عملية ، وكان القصد من هذه البداية ، تلبية حاجة المجتمع من خريجي هذه الكليات ، وليس إضافة أعداد جديدة إلى حاملي الشهادات ، فنحن نعاني نقصا شديدا في العناصر العُمانية المؤهلة والمدربة في القطاعات التى تخدمها هذه







● يعبر العمانيون عن مشاعرهم في مناسباتهم الاجتماعية والوطنية بالرقص والغناء - العريس بين أهله وأصدقائه متجهون إلى بيت العروس بالرقص والأهازيج «الصورة العليا يمين» «أعلى يسار» نافخ المزمار «تحت يمين» ضارب البونجز ثم رقصة الهبوت المصاحبة للعريس - «تحت يسار» إيمان الحميدي ممثلة عمانية واعدة.






التخصصات ، كقطاع الصحة والمجالات الهندسية المختلفة والعلمية ، وقطاع التدريس ، ولذلك فنحن نستعين بالخبرة الوافدة في هذه المجالات وفي العام الدراسى الثانى ٨٧/ ١٩٨٨ أضيفت الكلية السادسة ، وهي كلية الآداب ، بفروعها المختلفة » .

وأضافت : « ولقد روعي عند التخطيط لإنشاء الجامعة أن تتوافر لها كل الإمكانات البشرية والمادية ، لمواجهة احتمالات التوسع في القبول مستقبلا » .

ونعرف أن للجامعة مراكز علمية مساندة ، وهى مركز اللغات ، ومركز الحاسوب (الكمبيوتر) ، ومركز التقنيات العلمية ، بالإضافة إلى مكتبة ضخمة ، تضم ٢٠ ألف عنوان من الكتب ، وتتسع لحوالي ٢٥٠ ألف عنوان ، والمكتبة مزودة بحاسوب (كمبيوتر) ، ومتصلة بالقمر الصناعى الذي يربطها بمكتبة الكونجرس في واشنطن .

كما أن بحوث الجامعة توجه لخدمة البيئة العُمانية ، ولذلك فكلية الزراعة مرتبطة بثلاثة مراكز للبحوث بالتنسيق مع وزارة الزراعة والأسماك ، ولها مزرعة خاصة بها ، ملحقة بالجامعة ، وهناك مستشفى تعليمى مرتبط بكلية الطب .

وهيئة التدريس في الجامعة تعتمد على أساتذة مصريين وسودانيين وأردنيين ، وبريطانيين وأساتذة من أمريكا وكندا ، واستراليا ، والدراسة فيها باللغة الانجليزية ماعدا الدراسات الإسلامية والعربية .

جنة المناظر الخضراء :

دفعنى الفضول إلى النظر من نافذة الطائرة وهى تقترب من مطار « صلالة » عاصمة المنطقة الجنوبية « ظفار » فأحسست أننا نعوم فوق أمواج كثيفة من السحب التى يتحول لونها بالتدريج - كلما قلّلت الطائرة ارتفاعها تمهيدا للهبوط - من اللون الأبيض الناصع إلى اللون الرمادي الداكن . إنها تمطر بالتأكيد ، وستكون نسبة الرطوبة مرتفعة . وفجأة اقتحمت الخضرة اليانعة المنبسطة على مساحة الأرض تحتنا قلب المشهد ، مرتفعاتٌ ومنخفضات متداخلة الحدود والمعالم في اللون الأخضر . وتداخلت الأحاسيس من المتعة والدهشة إلى الرغبة في سرعة الوصول إلى هذه الأماكن للاقتراب منها تكوينا ، وتاريخا ، وحضارة .

وفي طريقنا إلى الفندق ، كان يشدنا صوت شجّي بكلمات ممزوجة بشجن آسر منساب من مذياع السيارة :

«يا أرض اللبان اشربي من دموع السحايب .
ذكّريني بأهلي بعد ذكرى الحبايب
مَحْلَى سفوحك يا أحقاف
شواطيء فيك وأرياف
ظفار ربي سقاها ، والخير غطّى رباها
تاج الخليج المرصع ، يا عروس الجزيرة» .

وجعلتني كلمات الأغنية أتشوق إلى معرفة بداية اكتشاف تلك المنطقة التى تحدث عنها كثير من الرحالة ، ومن جنسيات مختلفة : ماركو بولو الرحالة الشهير ، ابن بطوطة الرحالة العربي العظيم ، ووصفها « ويندل فليبس » « بأنها جنة المناظر الخضراء » .

أما « برترام توماس » فقد وصفها في كتابه « البلاد السعيدة » بقوله : « إذا كانت هناك منطقة في شبه الجزيرة العربية تصدق عليها هذه التسمية - البلاد السعيدة - إذا استثنينا اليمن بأمجاده التاريخية ، فهي بحق المنطقة التي تسمى « ظفار » التى تشكل في مجموعها خميلة من الغابات الخضراء»، ثم قال : « في هذه البلاد - كما جاء في سفر التكوين - حدّد الرب العالَم ذاكرا أنها تبدأ من جبل سفار (أي ظفار) ، وإلى هذه البلاد جاء المصريون القدماء ، بحثا عن اللبان ، ليستعملوه في تحنيط فراعنتهم ، وربما كانت أعمدة النبي سليمان مدفونة في مكان ما بهذه المنطقة ، هذا إذا لم تكن ظفار هي نفس الجنة التى ورد ذكرها في التوراة » .

عندما وصلنا صلالة في شهر أغسطس كانت درجة الحرارة ٢٤ درجة مئوية ، الضباب يغطي المدينة والجبال المحيطة بها ، نسبة الرطوبة مرتفعة الى

حدٍّ ما ، رذاذ خفيف يستقبلنا ، سألت مرافقنا : « ألم ينته موسم الأمطار ؟ فأجاب : لا ، تنقطع الأمطار مع نهاية موسم الخريف ، في منتصف شهر سبتمبر (أيلول) ، ثم أضاف : « لا تندهشا لكون فصل الصيف عندكم ، وفي معظم الوطن العربي ، هو فصل الخريف عندنا ، لأن الرياح الموسمية التي تهب علينا من المحيط الهندى ، في أواسط شهر يونيو (حزيران) إلى أواسط شهر سبتمبر (أيلول) ، تسبب سقوط الأمطار التي يستمر هطولها حتى منتصف سبتمبر ، كما يتكون الضباب الكثيف الذي تشاهدونه اليوم ، وتحتجب الشمس في معظم أيام هذه الفترة ، لذلك نسميه الخريف » .

ووصلنا الى الفندق ، واسترحنا قليلا ، ثم ألقينا نظرة على الشاطيء برماله البيضاء الناعمة ، ثم بدأنا جولتنا في الجبال . على جانبي الطريق ، مزارع صلالة المشهورة بأشجار النارجيل السامقة (جوز الهند) التي تتخللها أشجار الموز المثقلة بثمارها ، والخضراوات ، وأشجار (الفافاي) .

وخرجنا من دائرة المدينة إلى الجبال ، وكانت السيارة تصعد المرتفعات ، والأشجار والخضرة النضرة الرائعة الجمال تنبسط على المرتفعات والأودية ، كأن الأرض قد فرشت بسندس أخضر ، منظر خلاب أينما يمتد بك البصر ترى اللون الأخضر بدرجاته مندمجا مع ألوان ما يظهر من أرضية وصخور الجبال البنية بدرجاتها المختلفة ، والضباب تحركه الرياح فتظهر أجزاء من المرتفعات ثم تأتي طبقات منه لتخفيها عن النظر ، وتخفي معها الأودية ، ولا تبقى إلا درجات اللون الرمادي المحملة ببخار الماء الذى يتحول إلى رذاذ من المياه يغمر الطرق والنبات .

وواصلنا الصعود ، وأوقف السيارة قطيعٌ من الأبقار كان يعبر الطريق على مهل ، ويجبرنا على الانتظار ، ثم ذهبنا إلى قرية « حجيف اتين » في منطقة الجبل الأوسط الخصب التربة ، الكثيف الأشجار ، ومنها إلى مركز « قيرون حيرتي » ، وطلبنا زيارة عين من العيون ، فيضيع الطريق من السائق لندخل الصحراء في الغرب ، وترتفع درجة الحرارة قليلا ، وتبرز الشمس ، وتصبح الألوان شديدة الوضوح ، ونعود مرة ثانية إلى الجنوب ، حيث مرتفعات « نميز » . العُمانيون وبعض الأسر الخليجية تنصب مخيماتها على سفوح المرتفعات ، وفي الأودية ، ترتمي في حضن الطبيعة ، حيث الهدوء ، والصفاء ، ونقاء الهواء ووضوح الرؤية . وتوقفنا عند وادى « نميز » فغمرنا الضباب ، وغمت الرؤية ، وغادرنا المكان الذي كنا نود الا نبرحه .

شجون سياحية :

وظفار التي يقال إنها منطقة الأحقاف التى ورد ذكرها في القرآن الكريم ، مساحتها ثلث مساحة عُمان (١٢٠ ألف كيلو متر) وتقع في الجزء الجنوبي الغربي في سلطنة عمان ، وتحدها من الشرق سهول عمان الوسطى ، ومن الغرب جمهورية اليمن الديمقراطية ، ومن الشمال المملكة العربية السعودية (صحراء الربع الخالي) ، ومن الجنوب بحر العرب ، وقبالة ساحلها تقع جزر « كوريا موريا » .

ويسودها مناخ معتدل طوال العام ، ولاتتعدى درجة الحرارة ٣٣ درجة مئوية في فصل الصيف ، وبها إمكانات رائعة لصناعة السياحة : الطبيعة الخلابة ، المناخ المعتدل ، الشواطيء الجميلة برمالها الناعمة النظيفة ، عيون ومتنزهات رائعة (عين أرزات ، عين حمران ، عين حرزيز ، عين صحفوت) ، طرق حديثة سهلت الحركة ، آثار قديمة مثل آثار مدينة (البليد) ، وميناء (سمهرم) الذى اشتهر بتصدير اللبان عند (خور روري) ، وبها كذلك قبور الأنبياء هود ، وأيوب وصالح .

وشاهدنا في الفندق ، والجبل ، وشوارع مدينة صلالة عددا من الأسر الخليجية التي جاءت للسياحة ، ولكنها ماتزال أسرا محدودة ، ولم تدخل إلا العام الماضي ، بعدما ألغيت تأشيرات الدخول عن أبناء مجلس التعاون لدول الخليج العربية .

ولقد أثارت هذه الإمكانات الكثير من الشجون : لماذا يذهب العرب للسياحة في أوربا صيفا ، ولا يستمتعون بهذه الطبيعة ؟ ولماذا لا يستغل العُمانيون هذه المنطقة بتوفير متطلبات صناعة

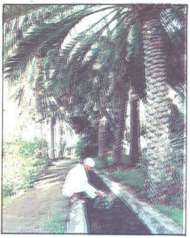
السياحة لتجذب العرب إليها ؟ .

طرحت هذه التساؤلات ضمن استفساراتنا عن التنمية في « ظفار » أمام السيد مسلم بن علي البوسعيدي ، وزير الدولة ، ووالي ظفار ، عندما قابلناه في مكتبه ، فقال : « إن السياحة في المنطقة الجنوبية تمثل موضوع الساعة ، من حيث تطويرها واستيعابها في الاقتصاد العُماني كقطاع اقتصادي جديد .

فلقد أدى إلغاء تأشيرات الدخول لمواطني دول مجلس التعاون إلى توافد الكثيرين من الأشقاء من تلك الأقطار للاستمتاع بالطبيعة الفريدة للمنطقة الجنوبية ، خلال موسم الخريف ، ولقد تم رصد ٨ آلاف أسرة دخلت خلال العام المنصرم ، لاعتدال الجو ، واكتساء الجبل والسهل - بفعل رذاذ الخريف - بغطاء سندسي ، لا يستطيع وصفه إلا من شاهده .

ومع ازدياد موجات المد السياحي إلى المنطقة ، صار واجبا على كل الجهات المعنية تهيئة وتطوير السبل الكفيلة بتمكين السائح الأجنبي من الاستمتاع ، ليس بالمناظر الطبيعية فقط ، بل وبتراث هذا البلد العريق وثقافته . أما الآن فتتوافر الفنادق الراقية ، والوحدات السكنية المفروشة ، الجاهزة لاستقبال سياحة الأفراد وسياحة العائلات ، كما تم إنشاء العديد من المطاعم السياحية ، والاستراحات الجبلية ، وتُخطط الجهات المعنية ، بوزارة التجارة والصناعة ، لانشاء المزيد من المنتجعات في الجبل والسهل ، وعلى الشواطىء الممتدة ، كما تتأهب مؤسسات القطاع الخاص الآن للاستثمار المكثف في قطاع السياحة المزدهر بالمنطقة ، وهناك مخططات لإنشاء المزيد من الحدائق والمتنزهات ، وتنظيم المهرجانات الشعبية والعروض الفنية والموسيقية ، ومعارض الحرف التقليدية ، وسباقات الجمال . كل ذلك خلال الموسم السياحي » .

وأضاف : « وعلينا أن ندرس كل شيء قبل الإقدام على مامن شأنه تطوير هذا القطاع الحيوى ، ذى الكفاءة العالية في تنمية الدخل ، لكنه مثلما تعلم قطاع حساس » .



● فلاح عُماني يهيىء مياه الفلج لري أرضه

جولة في صلالة :

في الطريق إلى قلب مدينة « صلالة » ، قرأنا لوحة أمام منطقة مسورة تحمل اسم « البليد » ، سألنا دليلنا عنها ، قال : « إن هذا السور يحيط بالآثار الباقية من مدينة « ظفار » التى كانت قائمة في العصور الوسطى في محيط مدينة « صلالة الحديثة » ، وكانت البليد - نطق جبّالي لكلمة البلد العربية - أحد موانىء تصدير اللبان ، والمنطقة الجنوبية أخذت اسمها « ظفار » من هذه المدينة القديمة » .

ودخلنا سوق « الحصن » ، أحد أسواق المدينة الأربعة : محلات تبيع العطور التى تشتهر بها ظفار ، ويقبل على شرائها أبناء الخليج ، لرائحتها النفاذة المركزة التى تذكرنا بعالم ألف ليلة وليلة ، ومحلات لبيع البخور واللبان .

وهذه محلات لبيع الخضراوات والفواكه ، وهي من نتاج البيئة المحلية ، كجوز الهند ، والجوافة ،

والفافاى ، ثمرة شبيهة إلى حد ما بثمار المانجو ولكنها أكبر في الحجم .

في السوق صدمتنا ظاهرة سيطرة الهنود والباكستانيين على حركة البيع والشراء ، وغياب العنصر العُماني تماما ، إلا إذا كان مشتريا ، وهذه الظاهرة نفسها صدمتنا في جميع أسواق العاصمة مسقط ، وسألنا : لماذا يتعالى التاجر ، مالك المحل ، عن ممارسة دوره الذى اشتهرت به عُمان طوال تاريخها الطويل ، كموقع يتوسط طرق التجارة ؟ وهل تَفَجّر النفط من باطن الأرض يدفع المواطنين إلى الاعتماد على العمالة الأجنبية في كل الأعمال بما فيها تجارة التجزئة ؟ ونعرف أن المسئولين قد فطنوا لهذه الظاهرة . قال الأخ محمد بن سالم المرهون ، مدير وكالة أنباء عُمان بالوكالة : « لقد كان العام الماضى عام الحرفيين ، حيث رصدت جوائز للحرفيين الذين لا يستعينون بعمالة وافدة » ، ولكن ظاهرة تكاثر العمالة الوافدة ماتزال في حاجة إلى علاج حاسم .

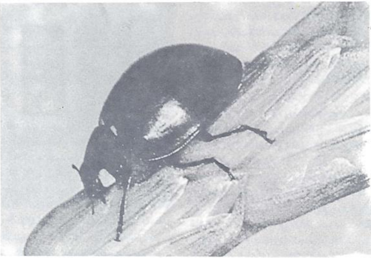
في أحد الشوارع شاهدنا جمعا من الرجال والنساء ، قال سائق السيارة : هناك حفل زواج الليلة ، فأثار فضولنا ، وتوقفنا لنتفرج ، الرجال يرتدون ملابسهم البيضاء ، وبعضهم يلبس (البشت) ، والجميع يتمنطقون بأحزمتهم التي تتدلى منها الخناجر ، وفي أيدي بعضهم البنادق أو السيوف ، فعلقت : هل هذا استعراض للقوة أمام أهل العروس ؟ فضحك الحاضرون ، وقال السائق : إنه تكريم لأهل العروس ، الجميع يتحركون بإيقاع راقص على أنغام الموسيقا ذات الإيقاع الخاص ، وينشدون أهازيج يرددها الجميع ، يتحركون على هيئة صفوف ، في الصف الأول يحيط بالعريس أهله ، وأصدقاؤه . قال السائق : إن هذه الرقصة اسمها « الهبوت » ، وتقدم زميلي المصور ليلتقط لهم بعض الصور ، فدعانا شقيق العريس لحضور عقد القران الذي لا تختلف إجراءاته عما هو متبع في الأقطار العربية الأخرى .

وأثار العرس مناقشة كنا قد بدأناها مع مرافقينا في مسقط حول مشكلة المهور التى تمثل للشباب العُماني من الجنسين مشكلة حادة ، لأن زيادة وتنوع الأدوات والأنماط الاستهلاكية المصاحبة للطفرة النفطية ، دفعت بالمهور إلى التصاعد ، حتى وصلت في بعض المناطق - وبخاصة الجبل ، حيث مايزال للعلاقات القبلية آثارها ، وفي الشمال كذلك - إلى أربعة عشر ألفا من الريالات العُمانية (الريال العُماني يساوى ٢,٦ دولارين أمريكيين) ، هذا بالإضافة لإعداد المسكن الذي يتكفل به العريس ، وأدنى مهر ثلاثة آلاف ريال عُماني ، مما أعجز الشباب عن الإقبال على الزواج .

وهناك دعوة من المسئولين - على رأسهم السلطان - لتخفيض هذه الأرقام ، لتصبح ما بين ألف إلى ألف وخمسمائة ريال عُماني في صلالة وفي مسقط ، وأكثر من ذلك في مناطق الداخل . قال مرافقنا : « إن تحديد المهر تحكمه عوامل كثيرة ، ولا يمكن أن يكون مُوحَّدا » ، ولكن الجميع يدرك آثار هذه المشكلة التى لم تنته كما يقول الشباب .

ودعانا أهل العريس لحضور حفل المساء ، وكنا هناك في الموعد المحدد ، الحفل يقام في أرض فضاء بين البيوت ، المدعوون يجلسون على الأبسطة والحُصُر ، جلسنا بينهم نتطلع إلى الوجوه ، نتابع فقرات الحفل ، لا يختلف عن أي حفل في أي قطر عربي ، إلا في الرقصات التي يؤديها الشباب بالتوالى ، وفي أيديهم الخناجر - جزء من التراث - والمصحوبة بالغناء على العود . ولاحظنا أن الكثير من المدعوين يتفاهمون بلهجة صعبة على إدراكنا ، فأنصتنا لنفهم مفرداتها ، ضحك مرافقنا من محاولاتنا وقال : « إنها اللهجة الجَبَّالية » ، وهي لغة قديمة ، يقال : إنها لغة الحميريين ، وموطنهم اليمن ، وهذه اللهجة مستخدمة في المنطقة الجنوبية وحدها .

وفي صلالة ومدينة « طاقة » الواقعة على البحر شرقي « صلالة » لاحظنا وجود كثافة من العُمانيين ذوي البشرة الأفريقية السمراء ، فأطل علينا التاريخ ليذكرنا بالامبراطورية العُمانية في شرق أفريقيا ، وزنجبار (المملكة التى كانت) . □



من الحشرات المفترسة المهمة ، الحشرة المسماة (أم علي) أو (أم عمر) .

حشرات تأكل حشرات !

بقلم : الدكتور خالد رويشدي*

تشكل الحشرات ثلثي الكائنات الحيوانية الحية ، وهذه الكائنات تتكاثر بشكل خيالي ، لكن أعدادها مع ذلك تبقى ضمن ما يعرف بالتوازن الطبيعي للكائنات الحية ، إذ تهلك منها أعداد كبيرة ، وتأكل أعداداً من هذه الحشرات حشرات أخرى كما سنرى في هذا المقال .

* دكتوراة دولة في علوم وقاية النبات - من القطر العربي السوري

تشكل الحشرات أحد أكبر صفوف المملكة الحيوانية ، إذ تزيد أعدادها عن ثلثي الكائنات الحية الحيوانية من أبقار وأسماك وطيور وديدان وغيرها . وتعيش الحشرات في أماكن ومواطن مختلفة من العالم ، فهي تستطيع أن تعيش في أي مكان يتوافر فيه الغذاء ، لما لها من قابلية كبيرة على التكيف مع البيئات المختلفة ، فقد وجد أن لبعضها قابلية المعيشة في الثلوج ، وبعضها الآخر يعيش على أملاح خالصة أو على خل وحده . والأغرب من ذلك ما وجد في ولاية كاليفورنيا الأمريكية ، وهو أن بعض الحشرات تعيش على النفط فقط .

وبسبب هذا الانتشار الواسع للحشرات وقدرتها الفائقة على التأقلم مع مختلف البيئات ، فقد لازمت الانسان منذ أن وجد ، فأثرت وتأثرت بوجوده . ومن هنا نرى أن الحشرات تعد إحدى المكونات المهمة لبيئة الانسان . ويختلف تأثير الحشرات على الانسان بحسب مجاميعها ، فالعديد منها يهاجم ضرعه وزرعه ، ويحدث الكثير من الأضرار والخسائر ، إلى حد أنه يحرمه من جزء مهم من قوته ، بل يقضي عليه تماما في بعض الأحيان . فكلنا يسمع بنزوات الجراد الصحراوي للمنطقة العربية وما تحدثه من ويلات للمزروعات التي تمر بها . ولايخفى على أحد الأضرار الأخرى التي تسببها الحشرات ، فعديد منها ينقل المسببات المرضية . ومن أشهر الأمثلة على ذلك حشرات البعوض الناقلة لأمراض الملاريا ، وذبابة التسي تسي الناقلة لمرض النوم ، وغير ذلك . ولا يقتصر نقل الحشرات على مسببات أمراض الانسان ، بل يتعداه إلى تلك التي تصيب الحيوانات الأليفة منها والبرية ، وكذلك التي تصيب النباتات ، ناهيك عن الازعاج المباشر للحشرات .

الكائنات والتوازن الطبيعي

وتمتاز الحشرات بقدرة فائقة على التكاثر بأعداد كبيرة جدا ، فلو تهيأت الظروف الملائمة لتزاوج ذكر وأنثى من الذباب المنزلي **Musca** في بداية شهر نيسان (ابريل) ، وأمكن لنتاج هذا التزاوج أن يحيا بأكمله إلى شهر آب (أغسطس) ، لأصبح عدد الذباب خلال هذه الفترة (١,٩١ × ١٠^٢٠) فردا ، وهذه الأعداد تكفي لتغطية سطح الأرض بارتفاع ٤٧ قدما . ويمكن لأنثى واحدة من حشرات المن (Aphidae) أن تنتج عدة آلاف من الحشرات في مدة شهر واحد ، وعدة ملايين في شهرين ، وعدة مليارات في ثلاثة أشهر .

ولكن لم يحدث أن وصلت أعداد إحدى الحشرات إلى هذا العدد ، بسبب وجود عوامل طبيعية تحول دون ذلك ، أي أن هناك ما نسميه بالتوازن الطبيعي للكائنات الحية ، ويعد العالم الانكليزي تشارلز دارون من أوائل الذين أشاروا إلى حدوث هذه الظاهرة في كتابه (أصل الأنواع) ، حيث يقول : إن لكل كائن حي قدرة على إنتاج نسل بأعداد كبيرة يمكن أن تغطي سطح الأرض ، إذا لم تعقه عقبات تحول دون ذلك .

ترى ما الأسلحة التي تستخدمها الطبيعة للحد من تكاثر الحشرات ومنع زيادة أعدادها إلى هذه الحدود المخيفة ؟ هنا لابد من النزول إلى أرض الواقع ، والتأمل والتحليل الدقيقين . هناك أولا العوامل البيئية الفيزيائية : من حرارة ورطوبة ورياح و غيرها ، فمن المعروف أن أعدادا كبيرة جدا من الحشرات تهلك خلال فصل الشتاء بسبب درجات الحرارة المنخفضة ، كما أن موجة من الحرارة العالية صيفا يمكن أن تؤدي إلى موت أعداد كبيرة من حشرات المن وغيرها ، وكذلك الحال بالنسبة للرياح القوية والأمطار وغيرها . لكن هل تقتصر أسلحة الطبيعة على ذلك ؟ كلا ، هناك سلاح آخر قوي وفعال ، إنه مجموعة الكائنات الحية التي تهاجم الحشرات وتتغذى عليها ، وهنا نجد (لكل كائن حي أعداؤه) ، ولربما هذا ماعبر عنه الشاعر العربي عندما قال :

ولكـل شيءٍ آفـةٌ مِنْ جِنْسِـهِ
حتى الحـديـد سَطَا عليـه المبردُ

فالانسان مثلا يتعرض لمهاجمة عديد من المسببات المرضية ، والحيوانات الشرسة ، بالاضافة لعدوانية







المصائد الأرضية التي تصنعها حشرات أسد النمل حيث تسقط حشرات النمل وتلتقطها اليرقات (الصورة العليا) بأجزاء فمها الحادة .

حشرة فرس النبي تتغذى على احدى الحشرات الضارة



مهاجمة حشرات البق المفترسة لاحدى اليرقات الضارة



٥

في الأعلى : احدى الطفيليات لحشرة المن
في الأسفل : خروج الطفيل من حشرة المن بعد أن أتم تطوره داخلها ، لاحظ انتفاخ جسم حشرة المن وتحوله إلى ما نسميه « المومياء » ، والنتيجة موت حشرة المن الضارة بسبب الطفيل الذي سيذهب ليبدأ بالبحث عن فرد آخر ٠

أخيه الانسان . والحشرات كائنات حية تهاجمها عديد من الكائنات الحية الأخرى . ومن المسببات المرضية البكتريا ، والفطريات ، والفيروسات ، ووحيدات الخلية ، وغيرها ، ومن الحيوانات العديدة التي تهاجم الحشرات وتتغذى عليها القطط والطيور والزواحف والأسماك والضفادع والخفافيش وغيرها . والحقيقة أن من أشد أعداء الانسان هو الانسان نفسه ، ومن أهم أعداء الحشرات هي الحشرات نفسها . والحشرات التي تتغذى على الحشرات الضارة نسميها الحشرات المفيدة ، التي تقصر غذاءها غالبا على الحشرات ، ولا تحدث أضرارا للنباتات ، وتلعب بذلك دورا مهما في التوازن « البيولوجي » للحشرات الضارة . ولو دققنا النظر جيدا في مستعمرات حشرات المن ، وبخاصة في الربيع ، لوجدنا بينها حشرات أخرى تتغذى عليها ، ومن أشهر تلك الحشرات المفيدة الحشرة التي يطلق عليها اسم (أم علي) أو (أم عمر) أو (أم العبد) ذات اللون الأحمر الزاهي مع بعض البقع السوداء ، التي يمكن لكل واحدة منها أن تلتهم عشرات من حشرات المن وغيرها . ويلفت انتباهنا أيضا ما نسميه حشرات « أسد المن » **Chrysopidae** ، ذات اللون الأخضر والعيون الذهبية اللامعة التي تضع بيضها غالبا قرب مستعمرات المن والحشرات القشرية وغيرها ، ويمتاز بيضها باللون الأخضر ، وبوجوده على طرف خيوط حريرية . وهذا البيض يفقس عن يرقات ذات قدرة فائقة على اصطياد الحشرات الضارة ، فهي مسلحة بفكوك قوية حادة قادرة على اختراق جسم الفريسة مهما كان صلبا بما تفرزه من مواد كيماوية تذيب جدار جسم الفريسة ، وتقطع ما قد يحيط بها من أنسجة حريرية ، كما تساعد في تخديرها ومنعها من الحركة ، مما يسهل السيطرة عليها .

فرس النبي والحوريات

ومن المناظر الممتعة جدا في الطبيعة أن نراقب ما نسميه حشرة (فرس النبي) **Mantidae** التي تفترس الحشرات الأخرى ، وهي تمتاز بأرجلها الأمامية الطويلة المتحورة للقنص ، وبرأسها القادر على الحركة في كل الاتجاهات ، وقد تقف هذه الحشرة عدة ساعات دون حراك بانتظار فريسة ، فاذا ما عبرت انقضت عليها وأمسكتها بأرجلها الأمامية ، ثم تبدأ بالتهامها رويدا رويدا . ولمعرفة شراسة هذه الحشرة المفترسة يكفي ملاحظة ما يقع تحتها من بقايا الحشرات المصطادة كالأرجل والأجنحة وغيرها .

ومن خلال تجوالنا على جوانب السواقي يمكن ملاحظة حشرات ذات ألوان جميلة زاهية تسمى الرعاشات **OdOnata** ، وهي تلاحق حشرات الذباب والبعوض وغيرها لتصطادها وتتغذى عليها ، وتساعدها على ذلك عيونها المتطورة جدا ، وما تمتاز به من حقل واسع للرؤية . وتعيش صغارها (الحوريات) داخل المياه ، حيث تتغذى على يرقات البعوض وغيرها . ومن منا لا يلاحظ في البراري تلك المصائد المعروفة التي تهيئها يرقات الحشرات المسماة أسد النمل **Myrmeleonidae** ، حيث تعيش اليرقة في التربة أسفل حفرة على شكل قمع مكون من التراب الناعم ، وهكذا اذا ما اعترضت هذه المصيدة طريق نملة فان الأخيرة تقع ضمن القمع ، حيث تنتظر اليرقة المفترسة التي تتلقاها بمخارزها القوية الحادة ثم تمتص محتويات جسمها . ولنراقب الدبابير العادية ، فهي على الرغم من مهاجمتها للانسان وللثمار الناضجة فإنها تهاجم عديداً من الحشرات الضارة ، وتصطاد حشرات الذباب خلال طيرانها ، ثم تأخذها إلى عشها ، بعد أن تخدرها بإفرازاتها ، وببضع ضربات بالفكوك تقطع رأس الفريسة وأرجلها وأجنحتها وبطونها ، و لاتحتفظ إلا بالصدر الغني بالعضلات الذي تقدم منه غذاء لصغارها .

الحشرات المفيدة التي تحدثنا عنها والتي تسمى الحشرات المفترسة **Predators** تتغذى على الحشرات الضارة مباشرة ، لكن ثمة مجموعة أخرى من الحشرات المفيدة تسمى الحشرات الطفيلية **Parasites** وهي تهاجم الحشرات الضارة بوضع بيضها على أجسامها أو بجوارها ، ويفقس بيضها عن يرقات

(أو ديدان) تتغذى على محتويات جسم العائل ، مما يؤدي إلى موته في النهاية . وتمتاز الحشرات المتطفلة بقدرة فائقة على اكتشاف مكان وجود الحشرة العائل ، لما تحمله من زوائد حسية على الرأس (قرون الاستشعار) ، فهي تكتشف بيض الحشرات الصغيرة جدا ، وتضع بيضها في داخله ، مما يؤدي إلى موت بيض العائل ، ونمو المتطفل على حساب محتوياتها . وتستطيع الطفيليات أن تحدد بدقة فائقة مكان وجود يرقات الحشرات الضارة داخل الثمار أو داخل الفروع النباتية ، والوصول إليها باستخدام ما نسميه آلة وضع البيض ، وهذه (الآلة) قاسية جدا ، وحادة في طرفها ، بحيث تستطيع اختراق طبقات الخشب بسهولة لتصل إلى أعماقها حيث توجد يرقات العائل . ولو عدنا إلى مستعمرات المن لوجدنا عديدا منها قد بدا بشكل منتفخ ، وبلون نحاسي دون حراك ، وهذه الأفراد نسميها المومياتات Mummies ، وهي تضم الطفيل بداخلها ، وهو الذي قد قتلها وجعلها بالشكل واللون المميزين لها . ولو وضعنا ورقة نباتية تحمل عديداً من هذه المومياتات ضمن أنبوب زجاجي وأغلق بقطعة من القطن ، للاحظنا بعد عدة أيام خروج حشرات صغيرة جدا ذات لون مسود غالبا ، وهذه هي الحشرات المتطفلة ، وستذهب لتبحث عن حشرات المن وتتطفل عليها ، وهكذا . ولدى تجولنا في حقول الملفوف - مثلا - يلفت نظرنا وجود عديد من الديدان الصغيرة المعلقة بيرقات (أبو دقيق الملفوف) Pierris التي تلتهم بشراهة أوراق هذا النبات ، وهذه اليرقات الصغيرة طفيليات أتمت حياتها داخل جسم العائل ، والتهمت محتوياته ، ثم تخرج منه لتتحول إلى طور العذراء في شرانق بيضاء أو صفراء ، ثم تصبح حشرات كاملة تبحث عن يرقات آفة الملفوف .

المكافحة البيولوجية

تنتشر الحشرات المفيدة في كل الأوساط الزراعية والحراجية والبرية ، وتقوم بدور فعال في الحد من انتشار الآفات الزراعية الضارة . وقد حاول الانسان تفهم طبيعة حياة هذه الكائنات المفيدة وأقلمتها وإكثارها في المختبرات ، ودراسة احتياجاتها البيئية والغذائية ، ومن ثم زيادة أعدادها في الطبيعة ، وهو ما نسميه المكافحة البيولوجية وهو السائد في كثير من بلدان العالم . لكن من المؤسف أن نشير إلى أن تدخل الانسان قد أساء كثيرا إلى دور هذه « الخامات الثمينة » ، وخاصة بما يستخدمه من سموم ومواد كيماوية لمكافحة الحشرات (المبيدات Pesticids) ، فهذه المواد إضافة إلى تأثيراتها على البيئة والانسان والحيوان والنبات ، فإنها تؤدي إلى هلاك الحشرات المفيدة ، وخاصة أنها أكثر حساسية لهذه السموم من الحشرات الضارة ، نظرا لرهافة أجسامها ، وعلى ذلك يخطيء كل من يعتقد أن كثرة استخدام المبيدات الزراعية يفيد في مكافحة الآفات ، بل إنه يزيد أعدادها بتحريض المناعة لديها من جهة ، وقتل أعدائها من جهة أخرى ، ناهيك عن التكاليف الباهظة لمثل هذه الكيماويات ، وما أحدثته من نكبات صحية . □

عجائب الحب :



تقول جورج صاند : اعطاني الأول عقدا من اللؤلؤ يعدل مدينة بأسرها : معابدها ، وعبيدها ، وقصورها .

ونظم الثاني من اجلي ديوانا من الشعر قال فيه : ان شعري اشد سوادا من الليل .. وأن عيني اصفى من زرقة السماء ... اما انت .. يامن احبك ... فلم تعطني شيئا ... ولم تقل لي شيئا .. ولست جيلا .. ولكن انت الذي احبك .

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

يناير
١٩٨٩



رئيس التحرير: د. محمد الرميحي



يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

في هذا العدد



- الكويت في حلتها الخضراء.
- مسلسل "همام في عيد ميلاده".
- دعوة مفتوحة لزيارة "باريس".
- المسلسل التاريخي "هدى شعراوي".
- "الفراولة" من أساطير الهنود الحمر.
- استطلاع عن مهرجان راية السلام.

إضافة للأبواب الثابتة

- إسلاميات
- كمبيوتر
- ٨ صفحات لأخيك الصغير وأختك الصغيرة
- دائرة معارف العربي الصغير



نتيجة مسابقة العدد ٣٤

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



■ حتى لا تتمزّق صُورة العُرس !

■ طفل بلا شهيّة .

جلد الطفل
في شهوره الأولى

حتى لا تتمزق صورة العرس

بقلم : نجوى قلعجي

إن كان الزواج هو الختام المنطقي لأي قصة حب ، فإنه في الوقت نفسه لحظة الحقيقة ، فكثيرا مايكتشف الزوجان أن علاقتهما كانت قائمة على كثير من الخيال وقليل من الحقيقة ، مما يؤدي في كثير من الأحيان الى فشل الحياة الزوجية .

ذات يوم شتوي لمح الكاتب الفرنسي الكبير ستاندال ، في حديقة سالزبورغ ، غصنا غطته الثلوج ، فبدا مثل ثريا من البلور ، ثم مر في يوم مشمس فرآه أجرد يابسا ، فاتقد خيال الروائي الكبير مؤلف « الأسود والأحمر » ، فشبه الحب بهذا الغصن قائلا : « إن عين الحب تجمل الحبيب كما يجمل الثلج هذا الغصن » .

ومن هذا التشبيه ننطلق لننظر في مسألة الشحوب الذي يصيب العلاقة الزوجية ويهددها بالانهيار أو بالكدر ، فللخيال كما يبدو أثر كبير في تكوين الحقيقة ، وفي طمسها أيضا . ففي بدء الحياة الزوجية يضفي الخيال على الآخر أو على الزواج توهجا بلوريا ، ينسحب تدريجيا مع الأيام ، ليظهر الآخر كما هو مجردا من كل تزويق ، وليظهر أن الحياة الزوجية مثقلة بالمسئوليات ، وليست شهر عسل طويل ، وسفرا على هالة قوس قزح . وتحت وهج الأحلام الوردية يتغاضى في البدء الشريكان ، ويتسامحان ، ويغفر كل منهما عثرات صاحبه وأخطاءه ، وبعد حين يبدأ كل واحد منهما بمحاسبة الشريك على أقل هفوة ، وربما - بل غالبا - على نظرة لايقصد بها التجريح ، وعلى حركة عفوية يستنتج منها لامبالاة أو تحقيرا . فأين يكمن الخطأ ؟

نادرة كل امرأة

لعل ذلك نابع من الانجراف مع الأحلام ، وعدم تقدير مسئوليات الحياة الزوجية ، وعدم رؤية الآخر كما هو ، دون تنميق وتزويق خيالي ، وعدم قبوله ومحبته كما هو ، دون زيادة أو نقصان ، ويعد ترك الأمور الحياتية للمزاج خطأ كبيرا ، يعقد المشاكل ، ولايحلها ، ويبهت الحياة ولايلونها ، ويحول أغنية الفرح الى مجرد طنين . والذي يحدث



غالبا أن لدى كثير من المتزوجين الجدد أحلاما وتصورات تبالغ في محاسن الآخر وقدراته ، كما يحملون توقعات عن الحياة الزوجية غالبا ما يكون الآخر عاجزا عن تحقيقها لكونها خيالية . ومن عالم النوادر نقتطف هذه الكلمة الطريفة التي تعبر بشكل «كاريكاتيري» عن هذا الوضع : ، تقول النادرة : «كل امرأة تعرف رجلا أكثر ذكاء من اينشتاين ، وأكثر جاذبية من كلارك جيبل ، وأكثر لباقة من برنارد شو ، وأغنى من أوناسيس ، وزوجها يعرف هذا الرجل لأنها تحدثه عنه دائما ، فهو الرجل الذي خطبها قبله» ولكن الأمر ليس على هذه الصورة «الكاريكاتيرية» على الرغم من أنه أحيانا لايبتعد عنها كثيرا بل يزيد . لكن مما يصح قوله ان ثمة مبالغات في توقعات الحياة الزوجية التي لايصيبها الكدر إلا لأن توقعاتها كانت مبالغات خيالية ، بعيدة عن حاجات الحياة الواقعية ، وعن معنى الألفة السليم .

فماذا نقول ، وهل من علاج إلا وقاية أولية حسبما اجتهد ، فإن على الانسان ان لايرتفع كثيرا في خياله ، حتى لايهبط بأجنحة متكسرة ، لأن مشكلة الخجل في العلاقة الزوجية تبدأ دون وعي منذ أول يوم ، وذلك عندما يتغاضى أحدهما أو كلاهما عن زلات الآخر ، ويظل يتعامل مع صورته الوهمية ، فيكتم غيظه أو غضبه أو اشمئزازه ، إلى أن يأتي يوم لايتأخر كثيرا فيذوب فيه الثلج البلوري عن غصن «سالزبورغ» ، ليرفض الشريك أن يتعامل مع شريكه كما هو ، وليعلن خيبة أمله ، وليحاسبه على أنفاسه كما يقال . فهل خيّب الآخر أمله حقا ؟

صورة وهمية

الواقع أنه لم يره أصلا كما هو ، ولم يعرفه بصفاته وأذواقه وآرائه كما هو ، بل تعامل مع صورة





وهمية ، صنعها حبه ولهفته للحياة الجديدة ، فهل ثمة طريقة للحفاظ على صورة العرس دون تمزيق لإطار جميل دافىء ؟ لعل الأمر لايحتاج الى كثير من النقاش ، بل الى قليل من المحبة واللباقة ، فالحياة الزوجية تحتاج الى الثقة لا الى الأحلام ، فلم لايتصارح الزوجان منذ البداية بما يرضي كلا منهما ، حتى لاتتراكم أسباب النفور فتصبح سدا يصعب تجاوزه ؟

وهذا لايعني الفجاجة والنقد الجارح ، فبوسع الشريكين أن يعبرا عن تذمرهما دون مس كرامة الآخر وجرح كبريائه ، كأن يقول أحدهما للآخر : « إن زوج صديقتي أفضل منك ، يأخذها كل مساء الى نزهة » ، « أنت لاتفهمني » ، « أنت مقصرة في ترتيب المنزل » ، « ليتك تكونين بنظافة أمي » ، « لاتبدين جميلة في هذا الثوب ، هيا بدليه ... الخ » .

يكفي أن يقول أحدهما مايحب ويكره دون أن يبقي طلسما للآخر ، ويحاسبه على كل صغيرة وكبيرة ، فإن المعالجة الذكية الدمثة لكل سوء تفاهم وازعاج تبعد شبح المناقشات العقيمة التي تنمو بشكل كبير في الحياة الزوجية ، فتحطم إطار الألفة ، وتحطم إطار صورة العرس ، حيث يقف العروسان متكاتفين معا ، ينظران الى الأفق بأمل .

تقول المرأة غالبا : « لقد فعلت هذا بقصد ازعاجي » ، فيرد عليها : « بل انك تتكلمين هكذا وتريدين فتح شجار بقصد الانتقام مني وازعاجي لأنني لم أحضر ماطلبته بالأمس » .

الصراحة راحة

سوء التفاهم الذي ينفجر المناقشات والمشاجرات العقيمة ، إعلان خيبة أمل ، التذمر في وجه الآخر والأهل والأصدقاء الذي يهدد إن لم يكن بانهيار الحياة الزوجية فبكدر دائم ، ليس الا نتيجة عدم رؤية الآخر كما هو ، وقبوله كما هو منذ البداية ، وعدم ادراك حقيقة معنى الحياة الزوجية ومسؤولياتها نتيجة لعدم الصراحة في الحوار المفيد منذ البداية . فهذه الصراحة التي تعرف أحدهما على



الآخر ذوقا وفكرا وطبعا ، بالتعبير المجدي منذ البدايات ، حينها يكون الحب شمسا ، وكل كلمة ونظرة وحركة شمعة ، وليس عندما يصبح الحب غروبا ، وكل كلمة دمعة ، وينتقل الفكر من ظن الى ظن ، ومن توهم الى توهم ، فيكبر الشجار ، بحيث لايعود في اشجار جنة الحب الا الحطب ، ان اللوم والتقريع والنقد الجارح الذي يأتي بعد فترة شهر العسل حيث الموافقة والثناء والاطراء انما يدل على تهور وسلوك أحمق . ومن أهم الأخطاء الفادحة في الحياة الزوجية توجيه اللوم والتقريع الى الشريك ، وغالبا ماتكون الانتقادات مضخمة جدا ، وليس هناك أجمل من علاقة يشعر فيها احد الزوجين بأن الآخر محق في شكواه ويعترف له بخطئه ويعده بإصلاح الأمر بالحسنى .

روميو وجوليت

وغالبا مايكون أحد الطرفين ضحية هجوم عدائي من شريك متضخم الخيال ، يحول الحبة الى قبة فيتصور محبوبته « جوليت » ، وهو « روميو » ، فيبادر الآخر الى رد فعل خاطىء ايضا ، فيطلب من الآخر مالا يستطيع أن يعطيه ، أو يحاسبه على مالم يفعله ، أو مالايقدر عليه ، فيشعر بخيبة امل ، وينطوي على نفسه ، ويزول كل جو حميم . ولعل المحبة والتفاهم ، وإدراك المسؤوليات من أساسات العلاقة الزوجية . كما ان تضخيم المحاسن يقود الى تضخيم المساوىء ، وينقلب حلم السعادة الى كابوس مرارة لذا فانه يجب على كل زوج أن يبذل جهدا لاقامة لقاء عميق ، وهذا يستوجب نضوجا نفسيا وعاطفيا وعقليا . واذا ماكانت الجاذبية أو التوافق الجسدي والنفسي ضرورة ، فان الصداقة بين الزوجين هي وحدها القادرة على انماء الحياة الزوجية ، وانقاذ الحب والألفة من الرتابة والصعوبات اليومية . في البدء ، يكون الحب جميلا ، لكن الصعوبات تبرز في الحياة ، والأزواج الذين لم يبالغوا كثيرا في أحلامهم يمكنهم أن يقيموا حياة زوجية سوية ، فيها مشاكلها وخلافاتها ، لكنها المشاكل والخلافات العادية التي يمكن امتصاصها وعلاجها ، وجعلها وسيلة خبرة لتفادي مشاكل مشابهة أخرى قد تأتي بها الأيام .



مصطفى صادق الرافعي

* إننا لن ندرك روعة الجمال في الطبيعة الا اذا كانت النفس قريبة من طفولتها ومرح الطفولة ولعبها وهذيانها . (مصطفى صادق الرافعي)

* إن عظائم الأمور تتطلب إما الصمت والسكون ، أو التحدث عنها باطراء ونقاوة وبراءة . (نيتشة)

جلد الطفل في شهوره الأولى



بقلم : الدكتور سامي محمود علي

عندما يولد الطفل يواجه عالما غريبا عليه ، فهو خلال تسعة أشهر قضاها في بطن أمه لم يتعرض للأضواء أو تقلبات الطقس وعليه أن يواجه ظروفا لم يألفها ، وأحداثا لم يعرفها ، وعلى جسمه الصغير أن يتكيف مع هذه الظروف الجديدة . ولعل جلد الطفل هو أكثر أعضاء الطفل المولود تفاعلا مع ظروف البيئة الجديدة ، بل إن على جلد الطفل أن يواجه تحديا مستمرا خلال الشهور الأولى من عمره .

يكاد ينفرد الطفل البشرى بخاصية تميزه عن صغار بقية الحيوانات عند ولادتها ، فالطفل البشرى يولد ضعيفا عاريا ، ينتظر من أبويه العناية الشديدة ، فبدون هذه العناية لايكتب له في الغالب أي حياة . والطفل البشري في الوقت نفسه يولد بأعضاء ناقصة في تطورها ، تتطور خلال الشهور والأعوام التالية لمولده ، وهذا التطور ضروري حيوي لملاءمة الحياة التى تختلف - دون شك - عن الحياة في بطن الأم ، والجلد أحد هذه الأعضاء التي تتغير على مدى الأيام التالية للولادة ، فالطبقة السطحية من جلد المولود تتقشر وتنسلخ عن الجسم ، لتبرز الطبقة الأكثر عمقا من الجلد ، لتحتل مكانها على السطح ، وهذه الطبقة ناعمة ، وهذا ما يميز جلد المولود ، وعلى مدار السنة الأولى أو السنتين الأولیین من عمر الطفل يظل جلده ناعما رقيقا ، ثم يزداد سمكا وخشونة بعد ذلك مع النمو .

هذا الانسلاخ الذى يحدث لجلد المولود في الأيام الأولى من عمره عملية حيوية ، لأنه يتيح للطبقة

المرنة أن تحتل سطح الجلد ، وهي قادرة على التكيف مع النمو السريع الذي يصادف الطفل في عاميه الأولين .

وإذا نظرنا إلى طفل قد ولد تواً في حجرة الولادة فإننا سنلاحظ أن جلده يكاد يكون شاحبا ، يميل قليلا إلى زرقة خفيفة خاصة لحظة ولادته ، ويرجع ذلك إلى قلة كمية الدم والاكسجين التي تسري في أوعية جلده الدموية ، وبعد لحظات قليلة مع بداية تنفسه تنفسا طبيعيا يبدأ جلده في اكتساب اللون الوردي الدافيء ، كما يلاحظ أن جسمه عند الولادة مغطى بمادة لزجة بيضاء واقية ، هي خليط من خلايا جلدية منفصلة ، وإفراز دهني من غدد موجودة بجلده .

والآن قد أصبح المولود كائنا حيا يصرخ ويتحرك أمام أبويه ، وهما يتطلعان إليه بلهفة وشوق كشوق العائد من رحلة طويلة قضاها في ظلمات ثلاث ، ثم كان عليه أن ينهي رحلته بعناء ليقول للجميع : إن الحياة جميلة ، تستحق كل هذا العناء وكل هذه المعاناة .

إن الشيء الذى قد يلفت الانتباه أن جلد المولود ليس ورديا كله ، وأن هناك بقعاً ملونة ، قد تظهر هنا وهناك ، وأن هذه البقع قد تثير الخوف لدى الأبوين ، وقد يدور في خلديهما سؤال حول هذه البقع وهل وجودها دليل مرض قد أصاب الصغير ؟

الحقيقة أن هذه البقع الملونة لاتظهر عند كل الأطفال حديثي الولادة ، لكن من الممكن أن تظهر أعراض لأمراض جلدية لدى بعض الأطفال في الشهور الأولى من أعمارهم ، مما يجعلنا نلقي بعض الأضواء على هذا الموضوع الذي يهم الكثيرين ، والذى نعرف أنه يحمل في طياته بعضاً من قلق وبعضاً من حيرة .

بقع على جلد المولود

ينظر الأبوان بشيء من الخوف إلى طفلهما إذا ما بدا لهما أن هناك شيئاً غريباً يظهر على جلده ، وقد يصل بهما الخوف إلى الاسراع إلى أقرب طبيب لاستشارته . فما حقيقة هذه الأعراض ، أو فلنقل هذه البقع التي يمكن أن تصيب الصغير عقب ولادته مباشرة ؟

الحقيقة أن الولادة ليست عملية سهلة ، بل هي في حد ذاتها حدث له دلالاته ، ويعتقد بعض علماء النفس - فرويد في مقدمتهم - بأن لحظة الولادة نفسها التى يطلقون عليها « صدمة الولادة » هى الاساس النفسي لكل ما يصيب المرء بعد ذلك ، من خوف وقلق ، والمهم أن لحظة الولادة هذه قد تنتج عنها أعراض جسمية نتيجة بعض العنف - إذا جاز التعبير - والضغط الذي يتعرض له المولود أثناء الولادة يأخذ في أغلب الأحيان صور أعراض جلدية ، فجلد المولود الرقيق قد يتعرض للضغط والجذب مما قد يؤدي إلى تمزق بعض الشعيرات الدموية ، أو بروز جزء من الجلد ، أو تجمع بعض الخلايا معا ، مما يؤدي إلى ظهور بقع لونية . وفي كلمة قصيرة نتناول بعض هذه الأعراض بتفصيل أكثر :

١ - الأورام الدموية : وهى تجمعات دموية في شكل لطع أو بقع ، تختلف في حجمها ، وتظهر على الرقبة أو الرأس أو أعلى الأنف ، وهي بقع حمراء مسطحة أو مرتفعة قليلا فوق سطح الجلد ، وبعضها عميق يمتد إلى الداخل ، لكن معظمها لايسبب أي ضرر ، وقد يختفي في الشهور الأولى من عمر الطفل . بدون أي علاج ، فتدفق الدم يتوقف من الشعيرات الممزقة ، كما يتم امتصاص ما نزف منه دون أي تدخل طبي .

٢ - النمش والكلف : وهما يتشابهان مع ما يسمى « الشامة » ، وكلاهما عبارة عن تجمع خلوي ، يكتسب صبغة لونية ، تزداد عند التعرض للشمس ، وأكثر ذلك لا يحتاج إلى أي علاج ، ما عدا ما قد يستمر إلى ما بعد فترة الطفولة . ويكون الهدف من التدخل الطبي التجميل في المقام الأول .

٣ - البقع المنجولية : وهي بقع لونية تظهر أسفل الظهر ، ويميل لونها إلى الأزرق الرمادي ، وتظهر في مجموعات يتراوح عددها بين واحد وخمسة ، ومساحة الواحدة منها حوالي سنتميترين ، وتختفى غالبا مع الوقت ، ولاتحتاج إلى أي علاج أيضا .

٤ - بروز الجلد ، يحدث هذا البروز في جلد الجذع أو عند انثناءات الجلد تحت الابط مثلاً . ولايتسبب هذا البروز غالبا في حدوث أي ألم أو ضرر للطفل ، وإذا لم يزل تلقائيا فإنه قد يحتاج إلى ازالته جراحيا ، ويتم ذلك باستخدام التخدير الموضعي لمكان البروز ، ويتم ذلك عادة عندما يكبر الطفل ويشب عن الطوق .

هذه الأعراض التي يمكن ملاحظتها على جلد المولود عقب ولادته أعراض مؤقتة - كما ذكرنا - يزول معظمها تلقائيا ، دون أي علاج ، بيد أن هناك ظواهر جلدية أخرى يمكن أن تتحول إلى أمراض حقيقية إذا لم تتسلمها يد الرعاية الصحيحة .

الطفح الجلدي لمؤخرة الطفل

يظهر هذا الطفح بين الشهر الثاني والخامس عشر من عمر الطفل ، وبه يصبح الجلد متهيجا محمرا ، ويكون سببا في عدم راحة الطفل ، وصراخه المستمر ، وإذا أهمل يمكن أن يتحول إلى التهاب جلدي يصعب علاجه ، وقد يستغرق علاجه وقتا طويلا .

أما السبب الرئيسي الذى يؤدى إلى ظهور هذا



الطفح فهو ترك حفاظات الطفل المبللة مدة طويلة ملامسة للجلد دون تغيير ، مما يؤدي إلى تحلل البول ، فتظهر مادة النوشادر التى تعمل على تهييج جلد الطفل . كما يحدث هذا الطفح أيضا نتيجة ترك بقايا الصابون أو المنظفات الصناعية على الحفاظات أثناء غسلها . إن آثار الصابون أو المنظفات الصناعية المتبقية على الحفاظات يمكن أن تهيج جلد الطفل وتؤدي في نهاية الامر إلى ظهور الطفح .

إن العلاج بل الوقاية في المحافظة على النظافة والإسراع في تغيير حفاظات الطفل كلما ابتلت ، مع غسل المنطقة التي بين الفخذين وحول فتحة الشرج بالماء الفاتر ، ثم تجفيف الجلد بعد ذلك جيدا ، وقبل تغيير الحفاظات يجب وضع قليل من « البودرة » الملطفة على المنطقة المصابة بالطفح ، كما يمكن استخدام زيت اللوز أو زيت الزيتون لترطيب الجلد وتقليل تهيجه .

وبصفة عامة إذا لم يصاحب هذا الطفح ارتفاع في درجة الحرارة فإن ذلك يعني أن شبح الالتهاب الجلدي ما يزال بمنأى عن الطفل ، وهذا هو الأمر الذى يجب على الأبوين فيه بذل المزيد من الجهد للتخلص من هذا الطفح وتجنب حدوثه .

كيف يصاب الطفل بالاكزيما ؟

إن « اكزيما » الأطفال الرضع من أكثر الأمراض الجلدية انتشارا في مرحلة الطفولة المبكرة ، تظهر أعراضها خلال الشهر الثاني من عمر الطفل ، لكنها نادرا ما تظهر بعد الشهر التاسع . وتلك الأعراض غير ثابتة في شدتها ، فتارة تأتى خفيفة ، وتارة أخرى تكون شديدة . وتستمر حتى تختفى تماما في نهاية الشهر الثامن عشر إلى نهاية السنتين تقريبا . وتختفى فجأة كما ظهرت فجأة . وقد تحير الأطباء في معرفة الأسباب الحقيقية لإصابة الاطفال الرضع بالاكزيما ، بيد أن هناك فروضا ترجع بعض الأسباب إلى تغذية الطفل نفسها .

فقد لوحظ أن حالات الإصابة بالاكزيما تزداد عندما تكثر الدهنيات أو البروتينات الحيوانية في غذاء الطفل ، سواء كان الطفل يتغذى طبيعيا من ثدي أمه أو بالرضاعة الصناعية ، بينما دأب بعض الأطباء على الربط بين حدوث الإصابة بالاكزيما وبين العوامل الوراثية التى يرثها الطفل عن أبويه أو عن أحدهما . إذن فهذه كلها مجرد فروض لاترقى إلى حد اليقين . وبعيدا عن أسباب حدوث المرض نتساءل عن أعراضه ، وكيف يمكن تجنبها ؟

وبداية نقول : إن الاكزيما مرض غير معدٍ ، فلا خوف إذن من أن يتلامس الأطفال المصابون مع أطفال آخرين من نفس الأسرة . وأعراض الاكزيما عند الطفل تبدأ باحمرار الجلد ، وسرعان ما يتحول إلى بثور وحويصلات وقشور ، وعادة تبدأ هذه الأعراض في الوجه ، ثم تمتد إلى فروة الرأس وبقية الجسم والأطراف ، وعند ظهور الاكزيما يأخذ الطفل في حك جلده بشدة ، مما يحرمه من النوم وينهك قواه . وأعراض هذا المرض الجلدي قد تكون مصحوبة في الوقت نفسه بأعراض حساسية تصيب الجهاز التنفسي ، مما يجعل الطفل عرضة لضيق التنفس وهو ما يعرف « بالأزمة » .

ان الاكزيما وإن كانت تترك الأبوين فريسة للخوف إلا أنها ليست بالحالة الخطيرة أو التى تستدعى كل هذا الخوف ، فعلاجها يكمن أولا في العناية بجلد الطفل الرضيع ، والاهتمام المستمر بنظافته ، ثم يأتى بعد ذلك الإقلال من الدهنيات . وفى هذا المقام نود أن نقول : إن من المفضل إعطاء الطفل المواد النشوية كالبطاطس المهروسة ، والارز ، ابتداء من الشهر السادس من عمره ، وإقلال كمية الرضاعة . وقد قام بعض الأطباء بحقن الطفل تحت الجلد في المنطقة المصابة بلبن من ثدي الأم بمعدل مرتين أو ثلاث كل أسبوعين ، وقد أتت هذه الطريقة بنتائج إيجابية ، أما العلاج الدوائي فيقوم على إعطاء الطفل المصاب الأدوية المضادة للحساسية . □

شهادة ميلاد : لكل بقرة في سويسرا شهادة ميلاد ، وتسجل في دفاتر الحكومة كما يسجل الناس ، واذا حدث لها حادث تولت الحكومة التحقيق فيه ، بالضبط كما يحدث في حالات الأفراد من أبناء آدم !

هو.. هي

مشكلة بلا حل!

لا أدري كيف بدأت المشكلة ، لكن ذلك سؤال ثانوي لا أهمية له ، فهناك مشكلة ، وكفى .

قبل زواجنا بقليل كان زوجي يحدثني كثيرا عن نفسه ، وعن حياته ، وعن عائلته ، وأصدقائه ، ولأنه كان - وما زال - محدثا بارعا فقد رسم لنفسه صورة فيها كثير من الاثارة عن حياته السابقة للزواج ، وعن نشاطاته ، واهتماماته ، وعن أصدقائه ، الحميمين الكثيرين الذين ما زال يحتفظ بعلاقات حميمة معهم .

وعندما حدثني عن أصدقائه رسم لكل منهم صورة مثيرة للإعجاب ، فهم مثقفون ، أذكياء ، ناجحون في أعمالهم ، موضوعيون في أحكامهم ، يستثمرون وقتهم استثمارا جيدا . وهذا أمر لم أجد ما ينقضه ، ولم أكتشف عكسه خلال الشهور الأولى من زواجنا ، لكن الاكتشاف الذي تحول إلى مشكلة جاء فيما بعد .

فبعد أقل من سنة من زواجنا بدأ زوجي يتغيب عن المنزل فترات أطول من المعتاد ، وكنت كلما حاولت معرفة المكان الذي يذهب إليه أثناء غيابه اكتشفت أنه يقضي معظم الوقت مع أصدقائه . وقد حاولت أن أتذكر إن كنت أسأت التصرف معه في شيء أو قصرت في بعض واجباتي ليتركني ويقضي وقته في صحبة أصدقائه ، لكنه عندما يعود فإنه يعود دون أن تبدو عليه آثار غضب أو انزعاج ، فتهدأ نفسي ، وأشعر بالراحة .

لكن عندما تكرر غيابه ، وكثرت زياراته لأصدقائه ، أصبح الغضب يستبد بي ، وما كان يغيظني أكثر هو أنني كلما فاتحته بالمشكلة أبدى دهشة كبيرة ، وتساءل عن أي مشكلة أتحدث ، وعندما أخبره بأمر أصدقائه ، والوقت الذي يقضيه معهم ، يبادر إلى القول بأن تلك ليست مشكلة ، ثم يبدأ ببراعة في تحويل الأمر الى مجرد طرفة كبيرة ، وتتردد على لسانه عبارات فيها كثير من الظرف ، لكنها لا تحل مشكلتي التي يزعم أنها ليست مشبكلة . إنني أعترف أنني أفكر أحيانا بالأمر فأجده بسيطا ، فزوجي لا يخونني ، ولا يهملني ، ولا يقصر في واجبات البيت ، ويكرم معاملتي ، ويحترم أهلي ، ويمنحني حرية فعل ما يرضيني ، ويخصص لي ولأبنائنا وقتا للخروج والزيارة والنزهة ، لكنني مع ذلك كله لست راضية ، وكثيرا ما أفكر بأن أهدده بأن عليه أن يختار بيني وبين أصدقائه ، لكنني أخشى دائما أن يحول الأمر إلى طرفة ، ثم تبقى المشكلة بلا حل .

.. هي

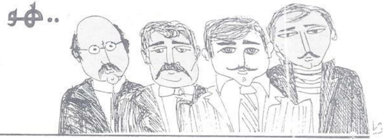


حل بلا مشكلة

عجيب أمر النساء ، بعضهن مضطهدات ، وبعضهن مزعجات ، وأخريات رائعات ، وغيرهن طيبات وساذجات ، لكنهن جميعا فيما يبدو لا يستغنين عن المشاكل ، لذا فإن بعضهن يخلقن المشاكل إن لم تكن موجودة ، وتلك هي حالة زوجتي التي أعدها من النساء الرائعات .

فأنا مثلا أعد نفسي رب عائلة جيدا ، وزوجا ناجحا ، وأبا مثاليا ، وحتى أقطع الطريق على أي ظن بأنني أبدي في نفسي رأيا متحيزا فانني أبادر قائلا : إن هذا هو رأي زوجتي أيضا ، بل ورأي أهلها كذلك . فأين المشكلة إذن ؟

المشكلة هي عدم وجود مشكلة على الاطلاق ، فلدى زوجتي - سامحها الله - فكرة ليست صائبة صوابا تاما ، إذ أنها ترى أن الزواج نهاية مرحلة في الحياة وبداية مرحلة أخرى ، نهاية مرحلة كان فيها للشاب حياته واهتماماته وعمله وأصدقاؤه ، أما بعد الزواج فللشاب حياته الجديدة واهتماماته الجديدة ، وله عائلته . صحيح أن للأصدقاء نصيبا من اهتمامات الشاب الذي أصبح زوجا ، لكنه نصيب محدود بسيط ، لذا بدأت تفتعل المشاكل ، لأنني ما زلت على علاقة طيبة حميمة بأصدقائي في مرحلة ما قبل الزواج ، وحين أسألها إن كان اهتمامي بأصدقائي قد أثر على واجباتي الزوجية أو على حياتنا العائلية تصمت مغلوبة على أمرها ، فهي ليست من النوع الذي يجادل في الحق ، وحتى لا تتحول حوارات هذه إلى جدل فانني أنهي المسألة بقولي مازحا : إن الصداقة نوع من أنواع الحب ، إلا أن حب الرجل للمرأة « ينتهي » بالزواج ، أما الصداقة فهي خالدة لا تنتهي . وعند ذلك يعلو وجه زوجتي عبوس لا يزول إلا إذا وعدتها بوضع حد للمشكلة التي لا أعتقد أبدا أنها مشكلة . □





طبيب الأسرة
قضايا منزلية

طفل بلا شهية

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

أمران يسعدان الأمهات لأنهن يتوهمن أنهما معيار الصحة والعافية ، أولهما : أن ترى إحداهن طفلها مقبلا على التهام الطعام دون حدود .

وثانيهما : أن ترى إحداهن طفلها بدينا سمينا يزيد وزنا وحجما عن أقرانه .

ربما كان الحديث عن السمنة لا يحتاج الى جدل يطول ، أو نقاش يحتدم ، حول أخطار البدانة ، أو حول تأكيد أن الطفل البدين سيكون بعد سنين إنسانا بدينا ، يعاني من قائمة أمراض ، يتصدرها مرض



السكر وارتفاع ضغط الدم وأمراض القلب والمفاصل وغيرها .

أما الحديث عن الشهية فلابد أن نتناوله ببصيرة علمية ، فالشهية ليست مرضا بقدر ما هي عرض يصاحب أمراضا عدة ، منها الحميات والالتهابات التي تصاحبها غالبا أعراض وعلامات تهدي الطبيب الى التشخيص السليم ، ثم الى العلاج الأنسب .

أما العلاج لفتح الشهية فأمر سطحي ، لا يجوز في عرف الطبابة الحديثة . بعض الأمهات قد يتوهمن أن عدم إقبال أطفالهن على الطعام ظاهرة خطيرة ، لا مفر من علاجها بما يقويها ويفتحها ، وقد يجدن من يتجاوب معهن فيصف لأطفالهن المقويات والمشهيات وأشربة الفيتامينات .

وربما تلجأ بعض الأمهات الى إجبار الطفل بالتهديد تارة أو بالإغراء تارة أخرى لتناول مزيد من الطعام ، وكأنهن يمارسن الرشوة المقنعة على الأطفال مما يغريهم بابتزاز عواطف الأم والأب عندما يلمحون الإلحاح المصحوب بالقلق والتوتر ، فيطلبون أشياء لا حاجة لهم بها .

بعض الأمهات لديهن قناعة أن الطعام هو ما كان في مواعيده المحددة ، متغافلات أو متناسيات ما يتناوله الأطفال بين الوجبات من العصير والمياه الغازية والشوكلاته والآيس كريم مما لا يترك في المعدة فراغا ، ولا يعطي للشهية فرصة .

لهذا لا غرابة أن يعزف الأطفال عن تناول وجبات الطعام في مواعيدها المحددة ، مما تترجمه الأمهات على أنه فقدان للشهية .

يقدر أهل الاختصاص أن الطفل في شهوره الثلاثة الأولى يزداد وزنا بمعدل يتراوح بين ١٧٠ جراما ، و ٢٠٠ جرام في كل أسبوع وهو على هذا يكون ذا شهية مفتوحة ، يستوعب الطعام اللازم لهذه الزيادة المطردة .

غير أن هذه المعدلات في زيادة الوزن تتراجع فيما بعد تدريجيا ، حتى تصل الى حوالي ٧١ جراما في الأسبوع الواحد ، بين الشهر التاسع من العمر وتمام السنة الأولى منه ، وعلى هذا يكون طبيعيا أن تقل الحاجة الى الطعام ، وبالتالي تقل شهية الطفل دونما مرض أو علة ، لكن قناعة الأم التي لا تقوم على العلم سوف توحي لها بأن وراء تراجع شهية ابنها مرضا كامنا حتى لو لم تظهر له أعراض أو يشكو طفلها من علة .

ومن هنا تعود الأم الى التلويح بالعقاب تارة أو بالإغراء والترغيب تارة أخرى ، وهنا تتملك الطفل نوبة من عناد ، تدفعه الى الإقلاع عن الطعام ، وذلك لسببين :

أولهما : سلبية الأطفال التي يتميزون بها بين عمر تسعة شهور وثلاث سنوات ، إذ نجد الطفل لا مباليا سلبيا غير مستجيب .

ثانيهما : أنه إذا ارتبطت دعوة الطفل الى الطعام بتهديده بالعقاب فإن مواعيد الطعام ترتبط في ذهنه بتجربة غير سارة ، فيصبح الطفل شخصا كارها للطعام ، لا يطيق رؤيته ، فكيف يتناوله !



عندما يبدأ الطفل محاولاته لإطعام نفسه بنفسه دون اعتماد على أمه في العمر بين ٩ شهور و ١٨ شهرا يبدو كأنه يعبث بالطعام ويلهو ، وهذا ما قد يوحي للأم أنه غير جائع ، وأنه عديم الشهية ، فتبدأ حلقة جديدة من الصراع الذي يتأرجح بين التهديد والإغراء .

من الظلم أن يقارن طفل بآخر مادام الناس مختلفين طبعا وتركيبا ، ومن الواجب أن تتجنب الأم مقارنة هذا الطفل بذاك ، وإلا أصبح ذلك ظلما وعدوانا على طبائع البشر .

إن الطفل النحيف أكثر إقبالا على الطعام ، وأقوى شهية من الطفل البدين ، لهذا فإن المقياس العادل للشهية هو ملاحظة نشاط الطفل وحيويته فذلك يتناسب طرديا مع الشهية على الأغلب .

من المفيد أن تعلم الأمهات أن بعض العقاقير تثبط

الشهية ، مما يؤدى الى عزوف الطفل عن الطعام كما هو الحال مع العقاقير الكابحة للشهية . وقد لوحظت هذه الظاهرة نفسها مع البنسلين وفيتاميني (م) و (د) . إن شعور الطفل بالاضطهاد ، وبالمعاملة غير العادلة بينه وبين إخوته ، وبانعدام الشعور بالأمن أمور تسبب معاناة نفسية ، تتجسد في صورة فقدان للشهية . والأمهات اللواتي يبحثن عن العقاقير القوية الفاتحة للشهية المنشطة يبحثن عن سراب وسط صحراء ، وينفقن المال سدى ، ويضيعن الوقت دون طائل .

على ضوء التجربة تبين أن غالبية الأمهات القلقات على شهية أطفالهن هن من الأمهات اللواتي رزقن بالأطفال بعد طول انتظار ، أو هن من اللواتي رزقن بطفل وحيد .

ومن هنا تكون النصيحة أن يترك الطفل دون إجبار على تناول الطعام ، ودون إغراء بتناوله . وإذا ما كان هناك مرض قد أدى الى فقدانه شهيته ، فعلاج المرض له الأولوية قبل علاج الشهية الضائعة . □



ردود سريعة

● السيد على حرب الشقيرات - الشوبك - الأردن

عرق النسا له أكثر من سبب ، ولا بد له من فحص دقيق واختبارات ، ولعل أفضل من تستشيره هو طبيب مختص في الأعصاب لاكتشاف السبب وعلاجه .

● السيد بدوي أحمد محمد - سوهاج - جرجا - مصر

من الأفضل أن تستشير طبيبا مختصا في الأمراض الجلدية لفحص رأسك ، حتى يتبين السبب ويعالجه .

● السيد ص . ع . ج . ز . م - المغرب

لماذا لا تستشير اختصاصيا في التغذية بالإضافة إلى جراح تجميل ؟

● السيد م . ع . ف - خميس مشيط - السعودية .

ما ذهبت إليه في رسالتك ليس صحيحا أبدا ، فالأمر مجرد فورة عابرة ، تهدأ عند اكتمال البلوغ ، فلا تقلق .

● السيد هانى صيرفي - حلب - سوريا

تشققات اللسان قد تكون أمرا خلقيا أو قد تكون ظاهرة مرضية ، ولهذا لابد من فحص وكشف طبي لدى اختصاصي الأمراض الباطنية .

● الأخت ر . م . ز - ادلب - سوريا

رسالتك لا تحتوي على أي تفصيل يمكن به الاستدلال على طبيعة مشكلتك ، لكنها تبدو لأول وهلة مشكلة بسيطة ، لا خطر منها ، لكن حسم الأمر يكون باستشارة طبيب أمراض النساء المختص الذي يمكنه تشخيص المرض بعد الفحص الطبي والتحليلات أو الأشعة اللازمة .

● السيد ي . هـ . - مصر

لو كنت مكانك لاستشرت جراح تجميل مختص للفحص والنصيحة .

عزيزي القارىء : إننا نجد في بعض الأوقات حرجا في نشر كل الأسئلة الموجهة « للباب » ، خصوصا الشخصية منها ، فالرجاء من الإخوة والأخوات كتابة الاسم والعنوان كاملين بوضوح ، حتى يتسنى لنا مخاطبتهم مباشرة والإجابة عن أسئلتهم .

مساحة ود!

نهاية وبداية

ها نحن في عام ١٩٨٩ ، في السنة الأخيرة من عقد الثمانينيات . هي مسألة عقد من السنين إذن ويلملم القرن العشرون نفسه ، ويسلم كشف حسابه للتاريخ ، ويمضي دون رجعة ، كما مرت من قبله القرون والسنون والأيام التي تشكل بمجموعها ذلك الشيء الغامض الساحر الذي يسمى الزمن .

في نهاية كل عام أستسلم لحالة من الحزن الوديع ، وأتساءل حول تلك الاحتفالات التي تقام في نهاية كل عام ، هل هي وداع للعام الذي مضى بكل ما فيه من مآس وويلات وانتصارات وانجازات وخيبات أمل ، أم هي احتفاء بالعام الجديد الذي سيكون له سجله الجديد ، وهو سجل لن يختلف كثيراً عن سجل العام الذي مضى وانقضى ، أم أن تلك الاحتفالات تعبير عصري عن حالات الخروج الجماعي للناس قديماً لرصد ظاهرة من ظواهر الطبيعة الكثيرة غير المرئية ، أم هي امتداد لطقس قديم ، ما زالت ذكراه تبث فينا سحراً جماعياً لا نستطيع رده ، ولا عدم المبالاة به ، ولا الاستسلام له ، فنخرج لنكون كمن خرج ليشهد على نفسه وعلى حياته وعلى حزنه وألمه وفرحه ؟. إن للبشرية سنيها التي تمضي دون رجعة ، ونحن أيضاً لنا كأفراد سنواتنا الخاصة التي تمضي بالألم والحزن وبالفرح والانتصار ، لكنها لا تبقينا هكذا مجردين من انتصاراتنا وأفراحنا وآلامنا . إنه السحر الكامن في فكرة الزمن ، وما السنة سوى تكثيف للزمن وللحياة ، وما الحياة الخاصة لكل فرد منا سوى إحدى المكونات الصغيرة للزمن الذي احتوانا بخلوده ، فحاولنا احتواءه بتقسيمه إلى قرون وسنين وشهور وأيام ، فمن الذي انتصر ؟ ومن احتوى من ؟

أسئلة لا إجابة عنها ، تضاف إلى تلك الأسئلة المتعلقة بالاحتفال الذي يقام في نهاية كل عام ، وهي أسئلة خالدة خلود الزمن ، منذ كان سنين وأشهراً وأياماً ، أسئلة لا تنقطع مع قدوم كل عام ، وسوف تظل تتكرر ، وستستمر الحياة ، وتستمر الأفراح والأحزان والهزائم والانتصارات التي تأخذ قيمتها من الزمن وبه ، وسوف تمضي السنون وتستمر الاحتفالات برأس السنة وغيرها ، فنحن أخيراً لا نملك إلا أن نكون شهوداً عليها . □

صلاح حزين

البُكاءُ بينَ يدَيْ صنعاءَ القديمة

شعر :
عبدالرحمن الوزير*

اَلْمَدِينَةُ تَرْسُمُ تأْرِيخَ وَجْهِي الآخر
ما غَابَ مِنْهُ ، وَمَا سيجيُء
اَلْمَدِينَةُ وَجْهِي
وَقُبَّةُ نَجْوايَ

وَدَمْعَةُ أَزْمَنَةٍ تَتلأْلأُ بالبَؤْسِ والْعِشْقِ
سَالتْ قَدِيماً ، ولَمّا تَقِفْ بَعْد
ظَلَّتْ تُقَاوِمُ عُمْرَ انكساراتها
ببهاءٍ مِنَ الْقَلْبِ

مِنْ أولِ النَّزْفِ حتى حوافِّ الخُلودِ
اَلْمَدِينَةُ تُحْفَةُ فَنِّ الْعَذابِ الْفَرِيدِ
وَوَشْمُ الضلوعِ الأسيرةِ
ظَلَّتْ بوجهِ الحصاراتِ
تُشْرِعُ أَبْوابَها وَنَوافِذَها كالمدى
وَتُقَهْقِهِ للرعبِ والْمَوتِ وَالْقُبْحِ
تَمْتَدُّ قَامَتُها الْعَربيةُ

وَعداً ، وحريةً ، وجمالاً
تَصُوغُ الْجُنُونَ قَصائدَ
والانتظارَ نقوشاً ، مواويلَ ،
دوراً مُجَنْحةً ، وَقَناديلَ ،
حُزناً ، نبيلاً يَلِيقُ بِسَاحاتِها
هذي الْمَدِينةُ طولَ المدى
لاتُبدِّلُ عَادَاتِها :




* شاعر وكاتب من القطر اليمني

كُلّ مَطلعِ فَجْرٍ تَفيقُ
تَسيرُ بِدأبٍ إلى ذَاتِها
تَتَقَمّصُ هَيئةَ شَيْخٍ جَليلٍ
يَمُرُّ خِلالَ الأزِقّةِ
يطوي ظِلالَ مَنَازِلها المطمئناتِ
صَوتَ نِداءِ الأذانِ
وَكُلّ نَهارٍ تُعيدُ الْمدينةُ بعد
اكتشافَ الْمَدينةِ

تَخرجُ في صورةِ امرأةٍ ذاتَ عَيْنَيْنِ ساحرتينِ
تُفتِّشُ في زحمةِ السوقِ
أحجارَ كُلِّ الْعَقيقِ الْيمانيِّ
تَبْحَثُ عَنْ لَونِ أيامِها
تَتَخَيَّرُ لَوْناً :
تُضِيفُ لِمَعنىٰ الْمَدينةِ مَعْنىً
وَفي كُلِّ أُمْسِيَةٍ
تَتَلاشىٰ الْمُدينةُ خَلْفَ صباباتِها ،
تَتَسَلَّلُ حَافيةَ الْقَدَمينِ إلى الْبَحرِ
تَشْكُو إليه الْفِراقَ
وَتَسمَعُ مِنْه وَجيبَ مُنَاجاتِها
يا مَدينةَ عِشْقِي الْمَمُوجِ
تَاريخُ وَجْهِي ، مفاتيحُ عِشْقِي
مَخْبوءةٌ فِيكِ مُذْ كُنْتِ
لَكِنّي لا أزالُ أحِسُّكِ كاللغزِ
أو كسؤالٍ مديدٍ يُسافِرُ في زَمَنِ الأرْضِ
في زَمَنِ الشِّعْرِ
يا زهرةَ الاغترابِ الْمُسيَّجِ
ألفٌ وألفٌ مِنَ السنواتِ الطويلةِ
ناءٍ ، وعريانٌ
كالأبديةِ ، كالريحِ
مَا بَيْنَ مدٍّ وجزرٍ هُدُوبَتِكِ الأمّ
وَالْقَلْبُ مَازَالَ كالسائرِ الْمُتَرنّحِ

خَلْفَ شُقوقِ التّواريخِ والشّمسِ والدّمِ
أبعد مِنْ أنْ يَراكِ كَمَا كُنْتِ
أوْ مِثْلَما سَتكونينَ
أيّتها الْمُستَحيلةُ حتى عَلى الْحُلْمِ
مَازِلتُ لا أجِدُ الْكَلِمَاتِ ،
وَلاَ قَاعَ صَوْتَكِ
حَتى أُغَنّيَ فِيكِ الْمَدِينَةَ !
لَوْ كَانَ لِي عُنْفوانُكِ ،
عُمْقُ التَوحُدِ بالْبَحرِ
أو كَانَ لي يامَدِينَةُ
بَعْضُ الذي لَكِ مِنْ قُوّةِ الْحُبِّ وَالْصّبرِ ،
لَوْ أنّ لي شاعريةَ صمتك
مأساة ، روعة وقتك
إذن لامْتَلَكْتُ مَدىٰ الْبُوحِ
لاَمَسْتُ سِرَّ الْقَصيدةِ
لَوْ كَانَ لي مِثْلَمَا لَكِ
قَلْبٌ خفيٌّ مِنَ الْحَجَرِ الْحَيِّ
قاسٍ ، حَنُون
وَذاكرةٌ تتوغّلُ في الطينِ والدّمعِ حتى
النهاياتِ
ذاكرةٌ لا تَخُونُ
إذَنْ لَتعرّفْتُ بعد
إلىٰ أَلَمِ الأنْبِياءِ
إلىٰ الْحُلْمِ الشاسعِ الْمُتَناثِرِ
كَيْفَ يُشادُ ، وَكَيْفَ يُضاءُ
وَلكنني لا أزالُ بَعِيداً
وَرَاءَ رُكَامِ الزّخَارِفِ وَالْزيفِ
تَحْجبُني عَتمةُ اللّيلِ وَالْخَوفُ مَنْكِ ،
فكيف تكون القصيدة
إن لم أكُنْكِ أنا يا مدينةُ
كَيْفَ أكُونُ ؟

بقلم : د . حسن عباس

عودة إلى جابر والرتيلاء

كنا قد نشرنا في العدد ٣٥٧ (أغسطس ١٩٨٨) مقالا بعنوان «جابر والرتيلاء»، وقد أثار المقال اهتمام عدد من القراء الذين بعثوا إلينا بردود ومناقشات، نرى أنها تثري الحوار، وتجعل منه مادة نافعة، وتقيم جسرا بين «العربي» وقرائها الكرام. كانت أولى هذه الرسائل قد جاءتنا من العميد الركن عبد القادر زينل التحافي من بغداد في العراق، **وثانيتها** من الأستاذ سالم علي سالم، كبير مستشارين قانونيين في شركة نفط الكويت بالأحمدي، وثالثها من الاستاذ لحسن بنلفقيه بسيدي بنور في المغرب. وقد أجمع الكتاب الأفاضل على أن كلمة رتيلاء تعني «ضربا من العناكب» يقول الاستاذ لحسن بنلفقيه في هذا الصدد: «والمعروف عندنا في المغرب عند الخاص والعام هو أن الرتيلاء نوع من العناكب أو العنكبوت، وكلمة الرتيلاء شائعة الاستعمال حتى عند ربات البيوت والمزارعين والرعاة، وعند سكان القرى والمدن، ولا يختلف اثنان في مدلولها. وكلمة الرتيلاء كلمة عربية، ذكرتها كتب اللغة والحيوان والطب وغيرها، وعرفتها جميعها على أنها نوع من العناكب، وهي من الحيوانات السامة، ويقال لعضتها: «نهشة الرتيلاء» عند الأطباء أمثال جابر وغيره».

وكان كاتب المقال قد ذهب إلى أن الرتلاء هي بالضبط Rattlesnake وهي نوع من الأفاعي السامة، وأن الجحفل العسكرى المدجج بالسلاح والآليات يسمى «رتلا». ويتساءل الكاتب عن هذا الاستنتاج بقوله: «وهنا يمكن إثارة أكثر من نقطة جوهرية، تتعلق بأصل Rattle فهل أخذها الانجليز عن العرب كما هي، علما أن جابر بن حيان كان قد عاش في القرن الثاني الهجري (أي قبل أكثر من اثني عشر قرنا) ولا من مصدر يؤكد بداية استعمال الانجليز لهذه الكلمة؟».

ويرد العميد التحافي على ذلك بقوله: «أما توفيقه بين كلمة Rattle الانجليزية و «رتل الجندية»، والجحفل العسكرى، فلي فيه مقال.. لم أجد مصطلح (الجحفل العسكرى) فيما بين أيدينا من معاجم الجندية، لاسيما في العراق، ولم أسمع به منطوقا، ولكن جاء في معجم المصطلحات



الحية
ذات
الأجراس

العسكرية للجيش العراقي (ط بغداد دون تاريخ) عند الكلام على تنظيمات الجيش : Brigadegroup جحفل لواء .. وجاء في المعجم العسكري الموحد : grouping الجحفل ولم أحظ في أي من المراجع المذكورة آنفا بما يشير إلى وجود مصطلح يدعى التجحفل العسكري » .

وينكر الاستاذ سالم علي سالم أن تكون الحية ذات الأجراس قد عرفت في العالم القديم ، فلم تعرف « إلا مع اكتشاف أراضي أميركا في القرن السادس عشر ، وكان أول نص مأثور في الانجليزية ورد **فيها** اسمها يعود في التاريخ إلى سنة ١٦٣٠ م (معجم اكسفورد) و « يستحيل أن يكون ماأشار إليه جابر بن حيان باسم « الرتيلاء » هو الحية الأمريكية ذات الأجراس .

ثم يقول في موضع آخر : « فكلمة الرتيلاء معروفة في العربية قبل أن تعرف الحية ذات الأجراس بقرون عديدة ، **ولم** أعثر في أي من المراجع المتاحة· **على غير وزن التصغير** (رتيلاء) إطلاقا ، أو على وزن المذكر (أرتل) اسما لأي من الهوام عامة أو ذكور الحيات على التخصيص . واستعمال جابر بن حيان كلمة الرتيلاء في معرض حديثه عن سمِّها لا يعني أنه بنفسه استعار الاسم ووظفه لنوع من الأحياء معروف في زمانه بسمِّه دون اسمه ، بل الأرجح أنه اسم معروف مستقر المعنى قبله » وينفي أن تكون تسمية « الجحفل العسكري المدجج بالسلاح والآليات » من معاني كلمة Rattle الانجليزية .

وفي الوقت الذي نقدر فيه ماذهب إليه قراؤنا الكرام ، فإننا نود أن نعقب على تلك التعقيبات بقولنا :



نوع من العناكب

ـ إن الدكتور عدنان الظاهر لم يكن يجهل المعاني التي وردت أعلاه ، ولكن الذي شجعه على القول بأن كلمة رتيلاء تشير إلى نوع من الأفاعي السامة ورود هذه التسمية في كتاب لجابر بن حيان مازال مخطوطا ، وهو بعنوان « كتاب التجميع لأبي موسى جابر بن حيان الصوفي الطوسي الأزدي رحمه الله » .

ـ عندما وجد هذه التسمية في المخطوط المذكور حاول الربط بينها وبين ما شاهده من الأفاعي السامة ذات الأجراس التي تكثر في ولاية كاليفورنيا الامريكية .

ـ أغراه التشابه الظاهر بين كلمة « رتيلاء » العربية و Rattle الانجليزية ولعله اطلع على بعض المراجع الأخرى مثل المنجد الذي أوردها بوصفها اصطلاحا عسكريا يعني صفاً من الجنود عميقا ومتراصا ، وأضاف المنجد أن رتل السيارات : مجموعة من السيارات تسير في صف .

ومهما يكن من أمر فقد اجتهد الدكتور عدنان الظاهر ، ولكل مجتهد نصيب من صواب أو خطأ . □

■ أرى الرجل فيعجبني ، فإذا قيل : لاصناعة له ، سقط من عيني .

(عمر بن الخطاب)

■ خداع القلوب يظهر من كلمة على اللسان أو نظرة في العين

(لقمان الحكيم)

جمال العربية

- صفحة شعر
- هكذا غنى الآباء

في وَصْف الإيوَان

للبحتري

صُنْتُ نَفسِي عَمَّا يُدنسُ نَفْسِي   وتَـرفَّـعـتُ عن جَدا كلِّ جِبْسِ (١)
وَتَـمَاسَكْـتُ حِينَ زَعزَعَـنِـي الـدهـ   ـرُ التماسًا منهُ لتـعسي ونَـكسي (٢)
بُلَغٌ من صبابـةِ الـعَـيش عِنـدي   طَفَّـفَـتْـهـا الأيـامُ تطفـيـفَ بَخْس (٣)
وبَـعـيـدٌ ما بينَ واردِ رَفْـهٍ   عَلَلٍ شُرْبُـهُ ، ووارِدِ خِمْسِ (٤)
وكـأنَّ الـزمـانَ أصـبـحَ محـمـولاً   هـــواهُ مــع الأخَسِّ الأخَسِّ
واشـترائـي « الـعـراقَ » خطة غبـنٍ   بعـد بيـعـي « الشـآم » بيعـةَ وكْس (٥)
لاتَـرُزْنِي مزاولاً لاخـتـيـاري   بعـدَ هذي الـبـلوى فتـنـكـرَ مَسِّي (٦)
وقَـديـماً عهـدتَـنـي ذا هَنَـاتٍ   آبـيـات على الـدنـيّـاتِ شُمْسِ (٧)
وإذا ماجُـفـيـتُ كُنـتُ جديـراً   أَنْ أرَى غيرَ مُصـبـحٍ حيـثُ أُمسي
حَضَرَتْ رَحْـليَ الهـمـومُ فوجَّـهـتُ   إلى « أبـيضِ المـدائـنِ » عَنْسِي (٨)
أَتَـسَلَّى عن الحـظُوظ ، وآسـى   لِمَحَـلٍ من « آلِ ساسـانَ » دَرْسِ
أذكَـرَتْنِيهُـمُ الخطوبُ الـتـوالي   ولـقـدْ تُذكِـرُ الخـطوبُ وتُـنسي
وهـمُ خافـضـونَ فِي ظلِّ عالٍ   مشرفٍ يَحسِرُ الـعـيـونَ ويُـخْسي (٩)
فكـأنَّ « الجرمـازَ » من عدمِ الأُنسِ   وإخـلالـه بَنِـيَّـةُ رَمسِ (١٠)
لو تَراهُ علمـتَ أنَّ الـلـيـالي   جعـلتْ فيـهِ مأتـماً بعـدَ عُرْسِ
وهـو ينـبيـكَ عن عجـائـب قومٍ   لايَـشـابُ الـبـيـانُ فيـهـم بلَبْسِ (١١)
وإذا مارأيـتَ صورةَ « انـطاكيـةَ » ارتـعْـتَ بينَ رومٍ وفُـرْسِ (١٢)
والمـنـايـا مواثـلٌ ، وأنـوشِرْوانَ يُزجي الصفوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ (١٣)
فِي اخضرارٍ من الـلـبـاسِ على أصْـفَرَ يختـالُ في صبيغـةِ وَرْسِ (١٤)

وعراكُ الرِّجال بينَ يَديْهِ — في خفوتٍ منهم وإغماضِ جَرْسِ (١٥)
من مُشيحٍ يَهوي بعاملِ رمحٍ — ومُليحٍ من السنانِ بِتُرْسِ (١٦)
تصفُ العينُ أنهم جدُّ أحيا — ءٍ لهم بينهم إشارةُ خُرْسِ
يَغْتَلي فيهمُ ارتيابيَ حتّى — تَتَقرّاهُمْ يَدايَ بلمْسِ

تكشف هذه الأبيات التي اخترناها من قصيدة البحتري السينية الطويلة عن مقدرة عظيمة على الوصف والتصوير ، يكاد لايدانيه فيها شاعر غيره . ونظرا لطول القصيدة فقد اقتصرنا على موقفين اثنين : أولهما موقف يصف فيه الحال المزاجية التي رافقته في زيارته إلى إيوان كسرى ، وثانيهما وصفه للايوان نفسه وصفا بلغ ذروة الإبداع .

يستهل القصيدة بالتنوية بمآثره ، ومنها ترفعه ، وتوقيره لنفسه ، وتماسكه ، وثباته أمام النوائب والخطوب ، فالزمان لم يتح له رفه العيش ، بل إن **كل ما أتاح له بلغ من صبابة** ، أى قليل منه يقيم الأود ولا يزيد . ولقد ذهب إلى العراق أملا في نفع يصيبه أو مكانة يصبو إليها ، فلم يظفر بما كان يأمل ، وبخاصة بعد مقتل المتوكل ، فأدرك أن البقاء في دمشق كان أجدى ، ولكن هيهات ، فقد كان بعض الناس يحول بينه وبينها .

في زحام الهموم التي كانت تغشى نفسه ، وجه ناقته إلى إيوان كسرى ، ليأسى ويتسلى عن سوء الحظ . فالشاعر والايوان كلاهما قد أصابه من الدهر غير قليل ، فلعل رؤية مصائب الآخرين

---

١ ـ الجدا : العطاء ، الجبس : الجبان اللئيم .

٢ ـ النكس : انقلاب الرجل على رأسه .

٣ ـ البُلَغ : جمع بُلغَة ، وهي ماتبلغ به في العيش ولايفضل منه شيء ، الصبابة : البقية من الماء ، التطفيف : النقص في الوزن والتقدير .

٤ ـ الرفه : طيب العيش ، الخمس : إظماء الابل .

٥ ـ الوكس : النقصان والخسارة .

٦ ـ راز الشيء : جربه .

٧ ـ هنات : خصال الشر ، الشُّمس : العنيدة .

٨ ـ العنس : الناقة القوية .

٩ ـ خافضون : ناعمو العيش ، يحسر العيون ، ويخسي : يرد البصر كليلا .

١٠ ـ الجرماز : تعريب لكلمة كرمازى الفارسية ، ومعناها الايوان .

١١ ـ اَللُّبْس : الغموض .

١٢ ـ انطاكية : مدينة عربية سورية هي الآن جزء من تركيا .

١٣ ـ الدرفس : العلم الكبير ، والمعركة التى يشير إليها ، وهي مسجلة على جدران القصر ، وقعت بين الروم والفرس سنة ٥٤٠م .

١٤ ـ وَرْس : نبت أصفر باليمن ، وتقول المعاجم : ثوب وارس : أي أحمر .

١٥ ـ جَرْس : الصوت .

١٦ ـ المشيح : الحذر المجد ، عامل الرمح : صدره . المليح : الخائف الحذر ، السنان : نصل الرمح الترس : صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل للوقاية من السيف .

تخفف من شدة الوطء عليه؟أليست المصائب تجمع المصابين؟ ولكن كيف حال الايوان بعد أن هجره أهله قرونا **طويلة**؟ إنه أشبه بالقبر الذي يرين عليه صمت عميق، على أن مظهر الايوان ينبيء من يراه أن ساكنيه كانوا قوما يحفل زمانهم بالعجائب ومن عجائب ذلك الزمان - فضلا عن أشياء كثيرة أخرى - روعة التصوير. فهذه صورة انطاكية على جدران القصر تحكي قصة المعركة التي دارت بين الفرس والروم سنة ٥٤٠م. والصورة - لفرط اتقانها - تكاد تنطق بها يعجز اللسان عن الافصاح عنه.

هاهو أنوشروان وأمامه صفوف المقاتلين، وهم يقاتلون في ظل العلم، ويرتدون ملابس تتراوح ألوانها بين الأصفر والأحمر، إنك لتحسب أنهم أحياء يديرون العراك بينهم بصوت خافت، فهذا حذر، وذاك خائف يرفع الترس في وجه عدوه، يتقي به ضربة سيفه!.

ولاتملك العين إزاء ماترى إلا أن تخدع، فتعتقد أن الرجال أحياء يرزقون يتبادلون بينهم - في حمأة القتال - إشارة كتلك التي يشير بها الخرس، وتبلغ دقة الوصف ذروتها حين يقول الشاعر:

ويغـتلي فيـهـم ارتيـابي حتى
تتقراهم يـداي بلـمـس

فقد استسلمت العين للخداع، ولم تعد ترى فيها يعرض لها الإحقائق وأناس من لحم ودم، فيعمد الشاعر إلى أداة أخرى من أدوات الحس وهي اليد، فيمر بها على الرسم، ليوقن من أنه أمام صورة على جدار، وليس - كما تُوهم العين - أمام رجال أحياء يستعر بينهم قتال.

هل كانت رحلة الشاعر إلى الايوان لتسرية النفس فحسب؟ كلا، بل اتخذ الشاعر من الايوان وما آل إليه حاله مثالا شبيها يعكس عليه بعض حزنه، ويعرب - بوصفه له - عن بعض مايكدر صفوه. يقول الدكتور خليفة الوقيان في كتابه عن البحتري: «ويخرج الشاعر في رحلة صوب المدائن ليرى إيوان كسرى ثابتا على الزمن.. فتنعكس صورة حياته على الايوان، وتعكس صورة الايوان على نفسه، وتتآلف الصورتان» وهذا صحيح، فقد كان الايوان شامخا، لم تنل منه أحداث الزمن، وكان الشاعر وقورا مترفعا متماسكا أمام الشدائد. وقد توالت الخطوب على الايوان والشاعر معا، وكان كل منهما يعيش خافضا مترفا في زمن مضى. وهذه بعض أوجه الشبه في الحالين.

ويطول الحديث في شرح هذه القصيدة وتحليلها، ولكن هذه العجالة لاتسمح بأكثر مما أوجزنا. □

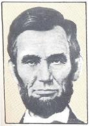
■ احبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وابغض بغيضك هونا ما، عسى أن يكون حبيبك يوما ما. (علي بن ابي طالب)

■ لأن أموت عطشا أحب إليّ من أن أخلف موعدا. (المثنى بن حارثة)

■ عندما ينتزع الراعي عنزة من براثن ذئب تعده العنزة بطلا، أما الذئب فيعده دكتاتورا. (لنكولن)

■ العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح. (ابو الحسن البصري)

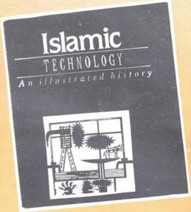
■ إن الذين لايذكرون الماضي مكتوب عليهم أن يجربوه مرة أخرى. (سانتيانا)



لنكولن

كتاب الشهر

مكتبة العربي



التقنية عند المسلمين

تأليف : أحمد الحسن ودونالد هيل

عرض : د. محمد عيسى صالحية

إن كان لكل عصر تقنيته الخاصة ، فقد كان للعصور القديمة مثل هذه التقنية ، وإن كانت لكل حضارة تقنيتها ، فقد كانت للحضارة الإسلامية تقنيتها التي تضمنها هذا الكتاب .

كتاب الشهر

بالتعاون بين منظمة اليونسكو ومطبعة جامعة كمبردج ، صدر كتاب التقنية عند المسلمين ، لمؤلفيه أحمد الحسن ودونالد هيل ، سنة ١٩٨٦ . وقد أسند العمل لاثنين من المتخصصين في حقل العلوم عند المسلمين ، حيث جاء الكتاب جامعا لجهود علماء الإسلام من القرن الأول الهجري حتى نهاية العصور الوسطى في مجالاته التقنية ، ووسائل انتقالها إلى الغرب وطرق ذلك .

يعد هذا الكتاب بحق متميزا في بابه ، لتنوع الموضوعات التي طرقها ، وتعدد المصادر التي اعتمد عليها ، وجدية الدراسة التي اتسم بها ، والملاحظات التي سجلت على فصوله وأبوابه .

يقع هذا الكتاب في ٣٠٤ صفحات من القطع الأكبر من العادي . وقد ضم أكثر من ١٤٠ منمنمة ، انتقاها المؤلفان من المخطوطات العربية والفارسية والتركية ، المحفوظة في المكتبات العربية والأجنبية ، وأرفقا ذلك بنماذج لجوانب من التقنية عند المسلمين . وقد بني الكتاب على أحد عشر فصلا .

تناول الباحثان مفهوم التقنية وانثيالها من الأمم السابقة على المسلمين ، وبخاصة عند اليونانيين ، حيث عرضا لأهمية الحقائق العلمية التقنية التي عرفها المسلمون من خلال اطلاعهم على العلوم عند اليونان في الهندسة المدنية والميكانيكية وآلات النفخ والزمر والساعات المائية . وأشار الباحثان إلى الابتكارات والابداعات في التقنية عند المسلمين ، والترابط بين مجالاتها المختلفة ، حتى في الصناعة والفلاحة ، ونوه الباحثان بالمناخ العلمي الذي كان يسود بلدان الإسلام بفضل العقيدة التي حركت كوامن الابداع عند العلماء ، ثم سياسة الدولة ونجاحها في نشر اللغة العربية ، وجعلها لغة العلم ، فاستوعبت المنجزات الحضارية للأمم السابقة ، من آرامية ويونانية ولاتينية وفارسية وسنسكريتية ومصرية قديمة وغيرها . وقرر الباحثان بأن المؤسسات الإسلامية قد نجحت في جعل التواصل الحضاري بين حضارة الإسلام وغيرها أمراً واقعا ، تمثل في إنشاء العديد من المدارس والمراصد والمكتبات ، مثل بيت الحكمة في بغداد ، ودار الحكمة في القاهرة ، إضافة إلى دور المساجد الكبرى التي تحولت إلى جامعات ، كالأزهر في القاهرة ، وجامع الزيتونة في تونس ، وجامع القرويين في فاس . وذهب الباحثان لمناقشة دور الخلفاء والسلاطين والأمراء في رعاية العلماء ، ليكرس العلماء جل وقتهم للبحث والدراسة .

وأنهيا الفصل الأول بعرض موجز لتطور العلوم الطبيعية من مرحلة النمو ، مرورا بالبحث التجريبي ، حتى الابداع . وقدر الباحثان أهمية حركة النقل والتفسير ثم الترجمة عن اللغات الأخرى . وكان تركيزها واضحا على علوم الرياضة والفلك والفيزياء والكيمياء .

وعرض الفصل الثاني من الكتاب لأهمية المياه في الأقطار الإسلامية ، ومصادرها ، والآلات التي ترفع المياه ، كالشادوف والساقية والناعورة . وأفرد المؤلفان مكانا للآلات التي وصفها الجزري في كتابه « الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل » ، والآلات التي وردت في كتاب « الحيل في الحروب وفتح المدن وحفظ الدروب » لمجهول ، و « الحيل » لبني موسى ، و « ميزان الحكمة » لعبد الرحمن الخازني .

كما أفرد الفصل الثاني للساعات المائية والساعات الميكانيكية التي زخر بها كتابا « الساعات والعمل بها » ، و « الهيئة السنية في الآلات الروحانية »

وكذلك « الالعاب الاوتوماتيكية » التي جاءت في كتاب « الحيل » لبني موسى ، والفوارات والينابيع وغيرها من الآلات التي وردت في كتاب « مفاتيح العلوم » للخوارزمي .

يرى مؤلفا الكتاب في الفصل الثالث أن النماذج الدالة على دقة تقنية البناء عند المسلمين ماتزال قائمة ، مبثوثة في مختلف أقطار الإسلام ، في القدس حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة ، وفي دمشق في الجامع الأموي ، وكذلك في الأندلس ، مثل قصر الحمراء وجامع قرطبة ومدينة الزهراء ، ومباني ابن طولون في القاهرة ،وغيرها في الهند . وأشار الباحثان إلى تنوع المواد المستخدمة في البناء من أحجار خشنة وآجر وخزف وتنك وأخشاب ، وتناولا كيفية البناء بالترصيف مع مراعاة المظهر الخارجي ، والرقابة المفروضة على المهندسين والبنائين من قبل المحتسب ، وقدما نماذج إنشائية لجسور وطرق وقنوات وآبار وسدود ، حيث كانت الأخيرة لجمع المياه ومعالجة الخراب بسبب الفيضانات .

الفروسية برسم الجهاد

مهد الباحثان بمقدمة ممتعة عن المقالات والمؤلفات التي اتصلت بالتقنية الحربية ، اقتطفا إشارات من المعارك التي وصفها كل من البلاذري في « فتوح البلدان » ، والطبري في « تاريخ الأمم والملوك » ، ونوها بحاجة المسلمين للتأليف المقتصر على الفنون الحربية غداة الهجمة الصليبية الأوربية على أقطار العالم الإسلامي ، وعرضا لمقالات الفروسية ، وقدما تلخيصا لمقالة « الفروسية برسم الجهاد » ، و « نهاية السؤل والأمنية » ، و « تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب » ، و « التذكرة الهروية في الحيل الحربية » . وتناولا صناعة السيوف وسنها وتجليخها ، وصناعة الرماح وأجزائها والأسهم والأقواس ، وعرجا على أدوات الحصار ، المناجيق بأنواعها الافرنجي والسلطاني والروماني ، والحصون وشروط بنائها وكيفيتها ، والخنادق والقلاع والأبراج والرباطات والخانقات ، والقنابر الحارقة (القنابل) ، والمدافع ، والبارود ووصوله إلى المسلمين ، وتطوير استعمالاته باستخدام القوى الدافعة ، وكذا تقنية الاتصالات بين المركز (العاصمة) والجيوش المنتشرة في مختلف أقطار العالم ، وذلك عن طريق وسائل البريد . وبعرض موجز تناولا السعاة والحمام الزاجل ومراكز التدخين ، كوسائل للاتصال ، والأخيرة تحتاج إلى دراسة أوسع .

تضمن الكتاب أفكاراً حول صناعة السفن وهي حرفة مهمة لبناء المراكب التجارية والسفن الحربية وسفن الشحن التي تحمل مواد البناء بأنواعها ، وقد بين الباحثان في فصل منه امكانيات الاقطار الاسلامية في إنشاء تلك الصناعة ، مستفيدة من شواطيء الأنهار والبحار ، وبخاصة في مصر والخليج والجزيرة ، وأشارا إلى المراكب الشراعية الصغيرة ذات المجداف ، والمراكب الحربية التي تحمل أكثر من ألف وخمسمائة رجل ، ثم بينا مزايا كل نوع من المراكب المشار إليها ، وفوائد الاشرعة التي كانت تستعملها ، كالشراع المثلث ، وعرضا إلى دور الصناعة في الأبلة والبصرة وشط العرب وصُحار ، وقررا اعتمادا على المراجع التي استخدماها بأن سنة ٥٤هـ / ٦٧٣م شهدت إنشاء أول حوض لبناء السفن ، وكان ذلك في جزيرة الروضة المصرية ، وأن أدوات البناء كانت تصل من عكا وصيدا ، ثم توسع المسلمون في بناء السفن في موانيء الاسكندرية ، ودمياط ، والفسطاط ، وطرابلس ، وتونس ، واشبيلية ، والمرية . وناقشا مسائل استعمال المسامير والأشرعة والمراسي وأدوات الوثق في الميناء . وحللا بموضوعية جهود المسلمين في تدعيم تلك الصناعة ، وبخاصة في عهد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م .

وجاء الفصل السادس جامعا في بابه ، حيث تناول فيه المؤلفان جهود العلماء المسلمين في الصناعات الكيماوية والنفطية والعطور والاصباغ

والاحبار والسكر والزجاج وغيرها . ودرسا مآثر كل من جابر بن حيان ، والرازي ، وابن سينا ، والكندي، العلمية ، وكدليل على مآثرهم ، فقد نظما جدولا بعمليات الرازي الكيماوية التي وردت في كتابه « سر الأسرار » من تدبير وصهر وتسخين وتقطير وتصعيد واستنزال وتشوية (من الشواء) .

وعمليات الطبخ والتلغيم والغسل والتشميع والتحليل (حل المواد) والتخريج والعقد ، وقرنا ذلك بما ورد عند الكندي من خلال كتابه (كيمياء العطور والتصعيدات) . وذكر الباحثان جملة من الأدوات التي وقع تكوينها لأشغال الكيمياء ، مثل الكور والمنفاخ والبوتقة والمسحاة والمغرفة والامبور والقرعة والقارورة والمكبة والتنور والمستوقد والكانون وغيرها .

ولما كان التقطير مهما في بابه فقد درسه المؤلفان لأنه وسيلة لانتاج العطور وماء الورد والزيوت الأساسية والكحول وتحول الباحثان إلى النفط واستخداماته عند العلماء ، وأماكن وجوده ، ونوعيه - الأسود والأبيض - مقتبسين إشارات بشأن النفط ، وردت عند الكندي ، وعند داود الانطاكي في « التذكرة » ، ثم درس المؤلفان بعض المواد التي أنتجها العلماء المسلمون كيميائيا ، كالاحماض بأنواعها ، والقلويات ، والنطرون ، والصابون ، والزجاج ، بل وتتبعا مراحل الزجاج ، والسيراميك والحبر والاصباغ .

الكاغد

وفي فصل آخر من الكتاب درس المؤلفان خيوط النسيج ، من صوف وقطن وكتان وحرير ، ودور الطراز في العالم الإسلامي ، وتأثيرها على الغرب . وقد عرضا للعمليات التي تسبق تهيئة الخيوط للغزل أو النسج .

أما الورق (الكاغد) وصناعته ، فقد تباينت الآراء حول مكان معرفته ، لكن صناعته في بلاد الإسلام تظل علاقة بارزة في تاريخ الانسانية . وقد نجح الباحثان في تتبع رحلة الورق وصناعته من سمرقند إلى دمشق وطبرية والجزيرة وطرابلس وافريقيا وصقلية وبلنسية ، وانتقاله إلى ايطاليا ، ووصفا أنواعه ، من بغدادي وشامي وحموي وطلحي ، وغيرها من الأنواع .

وكانت للباحثين وقفة عند الجلود ، وبخاصة المصنعة في الطائف ، واستخدامها في تسفير الكتب وتجليدها . وقد انتقيا معلوماتهما عن التجليد من كتابي « تسفير الكتب وحل الذهب للسفياني » و « عمدة الكتاب » للمعز بن باديس .

وقد تتبعا ثورة الفلاحة عند المسلمين ، منذ القرن الأول الهجري ، التي شملت الفلاحة والاقتصاد وتوزيع القوى العاملة والطعام والمحاصيل ، ثم عرضا للمحاصيل الزراعية ، من أرز وحبوب جافة وسكر وقطن وقصب سكر وبطيخ وباذنجان وسبانخ وذرة وفواكه وخضراوات وورود . وركزا على توسع تلك الزراعات والخبرات الحقلية الجديدة وانتشارها في ظل الإسلام التي اقترنت بأساليب جديدة للفلاحة ، شملت فصلي الشتاء والصيف ، فغدا المسلمون يستغلون الأرض في أربع دورات زراعية .

المعادن والتعدين

درس الباحثان حاجة العالم الاسلامي للمعادن ، وبخاصة الذهب والفضة والنحاس لسك النقود ،

والحديد والفولاذ لصناعة الأسلحة ، وقدما عرضا للمصادر التراثية التي أشارت إلى تلك المعادن ، وبخاصة في المكتبة الجغرافية العربية التي عرفتنا بأماكن وجود تلك المعادن . كما تتبع الباحثان أماكن وجود المعادن الأخرى ، من رصاص وتنك وحجارة كريمة .

أما تقنية المعادن فقد قدما عنها وصفا يوضح كيفيتها ووسائلها ، من حيث التفتيش عنها في الحصى والتراب المجروفة بفعل عوامل التعرية والانهيارات ، ووصفا طرق البحث عن المعادن ، كما وردت في بعض المصادر التراثية ، وبخاصة مؤلفات ابن حوقل .

وقد ذكر المؤلفان عدداً من آلات التنقيب والتعدين ، مثل المنقار والازميل والمجرفة والاسفين والروافع والبكرات .

ونوها عن وسائل العلماء المسلمين لمعالجة مسألة التهوية في أعماق الأرض عند الحفر .

ودرسا طرق استخراج الدر واللؤلؤ والمرجان وغيرها من الأحجار الكريمة بطرق الغوص ، وفصلا في أنواع المعادن الأخرى ، مثل القصدير والتنك والبرونز وأنواع الحديد .

كما درس الباحثان عددا من المصادر والمراجع ، مثل كتاب « مفاتيح العلوم » و « إحصاء العلوم » . و « رسائل إخوان الصفا » ، و « الفهرست » لابن النديم ، واستنتجا من ذلك أن العلماء المسلمين قد ثمنوا التقنية كفرع من العلوم المعتمدة على التجارب والخبرة العملية ، ووازنا بين مواصفات كل واحد منها ، وزودانا بأسماء عدد من المهندسين . وحين انتقلا لبحث الصناع توسعا في شرحها بدراستها لتشكل نقابات الصناع أو الأصناف ، حيث أشارا إلى دور حركة الفتوة والصوفية في تشكيل النقابات ودرجات تعلم الصنعة ، وترجما فصلا من كتاب « معالم القربة في أحكام الحسبة » متعلقا بالنجارين والبنائين والدهانين والمبيضين والجباسين ، والجيارين ، كما درسا أدوات النجارة والحدادة ، وتجارة المعادن وأهميتها في الحروب ، والرقابة عليها من قبل المحتسب .

وقد جاء الفصل الأخير من هذا الكتاب دعوة لإعادة النظر في منجزات التقنية عند المسلمين ، حيث أشار المؤلفان إلى عوامل النقص التي اعترت هذا الجانب من قبل الباحثين الغربيين ، وحاولا تبيان مراحل انتقال التقنية من العالم الإسلامي إلى الغرب ، ومن ثم أسباب تدني التقنية عند المسلمين ، ومستقبلها . وكان للباحثين اجتهاد حول معوقات التنمية ، وآفاق المستقبل ، حيث دعا المؤلفان في خاتمة الفصل إلى ضرورة توحيد الطاقات الاسلامية ، والمادية والبشرية ، وإيجاد نوع من التعاون والتكامل بين أقطار العالم الاسلامي . ومنها على سبيل المثال تكوين سوق عربية مشتركة ، وتمتين الروابط الاقتصادية والسياسية ، مما يسهم في دفع حركة التقدم في العالم الإسلامي .

لقد بذل الباحثان جهدا طيبا لإنجاز هذا العمل المتميز في موضوعه ، ومصادره ، وهو بمثابة دراسة جادة ، لجانب علمي مهم من تاريخ أمتنا ، يتناسب مع مكانة هذه الأمة العظيمة التي استحقت بجدارة قيادة ركب الحضارة الإنسانية . □



* ليس أمري وأمركم واحدا . اني أريدكم لله ، وأنتم تريدونني لأنفسكم .
(علي بن أبي طالب)

* التأخير في العدالة نوع من الظلم
(لاندور)

* خير لي أن أكون عبدا أطالب بحريتي . . . من أن أكون حرا أساوي العبيد .
(غاندي)

يصدر في ١٥ يناير ١٩٨٩

كتاب العربي

الثاني والعشرون

الإسلام والعروبة في عالم متغير

بقلم الدكتور عبد العزيز كامل

كتاب العربي مرآة العقل العربي



من المكتبة العربيّة

أسرار الفضاء

تأليف : سعد شعبان /عرض وتقديم : رءوف وصفي

الكون هوة مروعة لاقرار لها ، محيط تبصر فيه بلايين النجوم والمجرات والسدم ، راقب الانسان ظواهره في دهشة دون أن يستطيع تفسيرها ، فروى الاساطير والحكايات الخرافية عن رحلات خيالية تشق نسيج الفضاء ، ولقاءات مع مخلوقات غريبة فوق كواكب أخرى .

ويأتي عصر الفضاء ، ويطلق الانسان الصواريخ ، والأقمار الصناعية ، وسفن الفضاء ، فى محاولة للتعرف على الأسرار التي ظلت مغلقة عليه قرونا طويلة . وتتكشف له حقائق مذهلة عن الكون ، ويخضع العقل البشرى للقدرة الالهية مبدعة هذا النظام الكوني المتكامل .

شهدت العشرون سنة الماضية أحداثا فضائية مثيرة ، بلغت ذروتها بالهبوط فوق القمر ، وإرسال مركبات فضائية الى كواكب المجموعة الشمسية ، وانطلاق مكوك الفضاء ، والتخطيط لبناء محطات الفضاء الدائمة .

إن كتاب « أسرار الفضاء » للمهندس سعد شعبان الصادر عام ١٩٨٨ أحدث كتاب بالعربية يجيب عن أهم الأسئلة التي قد تتبادر إلى الأذهان حول الفضاء ، وأهم الانجازات التي تمت حتى الوقت الحاضر ، ويعد إضافة متميزة للمكتبة العلمية العربية .

يقع كتاب « أسرار الفضاء » في ٤٦٠ صفحة من القطع المتوسط ، ويضم أربعين موضوعا حيويا عن الفضاء ، تمثل في مجموعها موسوعة كونية ، بالإضافة إلى العديد من الصور الملونة عن أهم إنجازات الإنسان في الفضاء .

سفن الفضاء وأسرار الكواكب

دخل العالم عصر الفضاء عام ١٩٥٧ عندما أطلق أول قمر صناعي ، فانفتحت في الفضاء نوافذ جديدة ، لا تعتمد على الرؤية بالعدسات ، ولكن بالرصد بأجهزة مستحدثة في سفن الفضاء وعندما تحقق النصر التاريخي بالهبوط على سطح القمر في يوليو ١٩٦٩ انفتحت حلبة اخرى في الصراع بين الدول الكبرى إلى الفضاء الفسيح بين الكواكب .

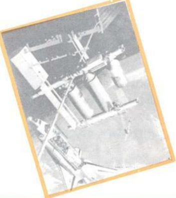
يسرد المؤلف بأسلوب مشوق تاريخ إطلاق سفن الفضاء ، والتنافس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في هذا المجال ، فقد أطلقت امريكا سفن الفضاء من طراز ماريتر وفايكنج وفوياجير ، بينما أطلق السوفيات سفن الفضاء فينوس وفيجا ومارس بهدف التعرف على أسرار كواكب المريخ والزهرة والمشترى وزحل واورانوس ونبتون ، والتقطت آلاف الصور « الفوتوغرافية » الدقيقة التي أضافت كثيراً إلى معلومات علماء الفلك عن كواكب المجموعة الشمسية .

يشير المهندس سعد شعبان إلى أهم هذه السفن الفضائية (فوياجير) التي أطلقتها الولايات المتحدة في عام ١٩٧٧ ، وقد حملت سفينتا الفضاء (فوياجير[1]) و (فوياجير[2]) أجهزة حديثة ، لم تشهدها سفن الفضاء الأخرى ، وتتمثل في مولدات القوى الكهربائية النووية ، ذلك أن المسافات الكبيرة التي تقطعها السفينتان حول الكواكب الأربعة - المشترى وزحل واورانوس ونبتون - تجعل عملية الاعتماد على الخلايا الكهروضوئية التي استعملت في سفن الفضاء السابقة أمرا متعذرا ، فضلا عن احتوائها على ستة حواسب الكترونية ، وأحد عشر جهازا للقيام بعمليات التصوير التلفزيوني والبانورامي ، كما تحمل السفينتان أجهزة إرسال واستقبال لاسلكية ذات حساسية فائقة ، لتستطيعا ارسال الصور المأخوذة لأسطح الكواكب الكترونيا إلى محطات المتابعة الأرضية .

ويتناول المؤلف أهم الاكتشافات الفلكية المذهلة التي اكتشفتها سفينتا الفضاء (فوياجير) ، والتي أذهلت علماء الفلك ، وبدلت عديداً من المفاهيم الفلكية التي سادت مئات السنين . كما تمثل سفينتا (فوياجير) حلقة من حلقات البحث عن وسيلة لمخاطبة أي عقلاء أو أذكياء أو ذوى حضارات على كواكب المشترى وزحل واورانوس ونبتون ، ومن ثم فقد انطلقت السفينتان وفوق متنهما تسجيلات صوتية متعددة وطريفة ، لكي تذاع في أجواء هذه الكواكب ، لعل بعض العقلاء هناك يسمعونها ، وتكون حافزا لهم على مخاطبة حضارتنا الأرضية .

الحياة داخل سفينة الفضاء

يقرر المؤلف أن غياب الجاذبية في سفينة الفضاء المأهولة لا يعني صعوبة الحركة وحدها ، لأن الأهم من ذلك أن السرعات العالية جدا التي تتحرك بها السفينة نفسها تشكل إجهاداً يقع على جسم رائد الفضاء . ومن ثم تكون ملابسه عبارة عن طبقات بعضها فوق بعض للحفاظ على الحرارة ، وللوقاية من الإشعاعات الكونية ، ولتوفير المكان لدفع أجهزة القياس التي يلتصق بعضها بأجسام الرواد ، وبخاصة المتعلق منها بالأجهزة الطبية . كما تخضع عملية انتقاء أطعمة رواد الفضاء لقواعد علمية



وصحية ، من أهمها توفير سعرات الحرارية اللازمة لما يتحملونه من جهد بدني ، كما تخلو هذه الأطعمة من الألياف السليولوزية التي يتخلف عنها كثير من الفضلات .

يؤكد المؤلف أن الركيزة الأساسية في حرب الفضاء المقبلة هي إقامة منصات فضائية ، يمكن منها توجيه أشعة الليزر (التي أطلق عليها أشعة الموت) إلى الأقمار الصناعية أو الصواريخ المعادية العابرة للقارات ، لمنعها من تحقيق الوصول إلى أهدافها وأشار المؤلف كذلك إلى الخواص الفريدة لأشعة الليزر ، من حيث تركيزها الشديد ، وقدرتها الخارقة على اختراق كتلة من الحديد الصلب وثقبها خلال ثوان وقد تمكن العسكريون من استغلال هذه القدرة لليزر في استخدامه سلاحا قادراً على تدمير الاقمار الصناعية العسكرية .

وقام المؤلف بعرض أسلحة حرب الفضاء ، كسلاح الليزر الكيماوي ، وسلاح المرايا العاكسة لأشعة الليزر ، وشعاع الجسيمات المشحونة بشحنات كهربائية عالية ، يمكن أن تحدث ما تحدثه الصواعق الطبيعية ، وسلاح المضخات النووية ، حيث تحدث انفجارا نوويا محدوداً ، تصدر عنه حزمة من الأشعة السينية ، توجه بواسطة شعاع الليزر نحو القذائف المعادية لتدميرها . كما بدأت الاستخدامات العسكرية للاقمار الصناعية في حقبة الستينيات ، وتوالت بعد ذلك ، وتعددت ، وكثرت مجالاتها ، حيث أمكن لها التقاط العديد من الصور لأدق التفاصيل الطبوغرافية فوق سطح الأرض ، وبالتالي أمكن تصوير كل المعدات الحربية ، ولم يعد بالامكان إخفاء المعدات العسكرية المعدنية أمام العدسات الدقيقة للأقمار الصناعية .

يصف المؤلف مكوك الفضاء بأنه مركبة ومجموعتين من الأجهزة : المجموعة الأولى تتمثل في صاروخين صغيرين ، يعملان بالوقود الجاف ، يشتعلان في الدقائق الأولى للمرحلة ، ولا يستغرق اشتعالها غير دقيقتين ، ثم يهبطان إلى الأرض ثانية بمظلات نجاة من ارتفاع يقارب ٤٦ كيلو متراً ، ويمكن انتشالها واعادة استخدامها مرة أخرى . أما المجموعة الثانية فتتمثل في مستودع ضخم الحجم ، مملوء بالوقود السائل ، يتعلق به جسم المكوك في وضع رأسي عند الإطلاق . وهذا المستودع يحوي قدرا هائلا من الوقود السائل ، يتكون من الهيدروجين والاوكسجين المسيل تحت ضغط عال ، وهذا القدر الكبير من المواد المشتعلة يجعل المكوك يتسارع إلى مدارات عالية في الفضاء ، خلال ما يقارب عشر دقائق للاحتراق داخل محركات المكوك ، فإذا انتهى بلوغ المكوك للمدار العالي في الفضاء انفصل عنه ليبدأ المكوك دورانه بسرعة منتظمة ، ثم يعود إلى الارض كأي طائرة عادية .

العرب وتقنية الفضاء

يؤكد المؤلف بأن التاريخ سيشهد أنه في عام ١٩٨٥ لحق العرب بركب تقنية الفضاء بحدثين مهمين ، فقد انطلق القمر العربي الأول للاتصالات (عربسات ـ ١) في الثامن من شهر فبراير من هذا العام بصاروخ دفع من طراز آريان . وانطلق الثاني (عربسات ـ ٢) بتقنية أخرى في شهر يونيو من نفس العام ، وكان انطلاقه من فوق متن مكوك الفضاء الامريكي . ويضيف المهندس شعبان بأنه أهم من هذين الحدثين طيران أول رائد فضاء عربي على متن نفس المكوك ، ومشاركته في عملية إطلاق القمر الصناعي ، وقد نال هذا الشرف الامير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز ، ومن المهام التي انجزها رائد الفضاء العربي رصد هلال شهر شوال المبارك وتصويره وإجراء التصوير الفضائي لمنطقة البحر الأحمر وبعض الاراضي السعودية من أجل اظهار طبيعة التكوينات الجيولوجية في منطقة حوض البحر الأحمر وقام كذلك باجراء تجارب عن تأين الغازات في الفضاء ، وتأثير ذلك على نقل الاشارات إلى الاقمار الصناعية . وتجارب أخرى عديدة .

انتقلت تقنية الفضاء من مرحلة البحث العلمي

واستكشاف المجهول في أغوار الفضاء إلى مجالات تطبيق كثيرة . ويلعب الدور ، الأساسي في هذا المضمار سيل منهمر من الأقمار الصناعية ، تقوم بالاتصالات والرصد الجوى والتصوير الدقيق المرئي للتفاصيل الطوبوغرافية فوق الأرض ، والتصوير الاشعاعي الذي يستعان به في اكتشاف المعادن والكنوز والآثار المطمورة تحت سطح الأرض .

ويشير المؤلف إلى أن التزاوج بين الحواسب الالكترونية والانجازات الفضائية قد وضع البشرية أمام عصر جديد ، تمثل فيه وفرة المعلومات كل معاني المدنية والتقدم ، ويعطي أمثلة كثيرة للتقدم في تقنية الفضاء ، منها التنبؤ الجوى من الفضاء بالأقمار الصناعية المتنوعة التي تتخذ لها مدارات عالية جدا خارج كل طبقات الغلاف الجوي ، لكي لا تحترق بالاحتكاك بالهواء . وتلتقط هذه الأقمار صوراً للسحب المحيطة بالكرة الأرضية من هذه الارتفاعات الشاهقة بآلات تصوير غاية في الدقة ، مزودة بعدسات بصرية أو بآلات تصوير تلفازية . ويستطيع المتنبئون الجويون تمييز أنواع السحب التي توضحها صور أقمار التنبؤات والاستدلال على الطقس المصاحب لها .

ويتطرق المؤلف إلى علم الفلك اللاسلكي الذي يعتمد على تحليل الأصوات المنبعثة من النجوم وأجرام الكون الأخرى التي تضاربت الأقوال في تعليل سببها . وأولى هذه النظريات تقول : إن هذه الاصوات سببها البقع الداكنة التي تظهر فوق قرص الشمس المضيء ، والتى عرف أن عددها يتزايد في دورات زمنية ، مدة كل منها ١١ عاما ، ولوحظ ان نشاطاً كهرومغناطيسياً غير عادى يصاحبها ويصدر من الشمس . ومن شدته عرف باسم (العواصف المغناطيسية) . وتقول ثاني هذه النظريات : إن غاز الهيدروجين في الفضاء تصدر عنه إشعاعات كهرومغناطيسية . أما ثالث النظريات فترى أن الاصوات تصدر عن اصطدام بعض المجرات ببعضها .



ويضيف المؤلف بأننا نجد في الوقت الحاضر على سطح الأرض ، وفي بقاع شتى فوق كل القارات ، عددا كبيرا من التلسكوبات اللاسلكية ، تلعب دورا متعاظما في الكشف عن الأجرام السماوية ، وقياس الاصوات الصادرة عنها ، وقد تمكنت من التغلغل إلى اعماق الكون مسافة تعادل ثلاثة أمثال ما كان متيسرا للتلسكوبات البصرية .

طاقة من الفضاء

يوضح المهندس شعبان أن العلماء يبحثون عن مصادر طاقة بديلة ، حيث إن مخزون النفط يتناقص في كثير من بقاع العالم ، ومن أهم هذه المصادر الطاقة الشمسية . ويعود الفضل للخلية الكهروضوئية التي تحول الطاقة الشمسية إلى كهرباء . وهي تصنع من وحدات من مواد تعرف باسم (أشباه الموصلات) التي لها القدرة على القيام بهذه التحويلات ، وأهمها مادة السليكون . وخلية السليكون غالبا ما تكون على شكل شرائح رقيقة دائرية الشكل ، بسمك رقيق قد لايزيد عن نصف ملليمتر . وتوضع الخلايا الكهروضوئية في

مصفوفات متصل بعضها ببعض كهربيا على التوالي أو على التوازى ، حسب الغرض المطلوب . وتتوقف الطاقة الكهربائية المأخوذة من هذه الخلايا على عدة عوامل ، أهمها زاوية سقوط أشعة الشمس عليها ، ولذلك غالبا ما توضع مصفوفاتها بحيث تكون مائلة بزاوية خط عرض المكان الموجودة فيه لضمان سقوط أكبر قدر من أشعة الشمس عليها ، وبالتالي أخذ قدر من الطاقة الكهربائية المتولدة عنها .

ويضيف المؤلف أن أغلب أراضي الوطن العربي تتمتع بأشعة الشمس الساطعة لذلك يصبح استخدام الطاقة الشمسية مسألة مهمة . وقد نجحت التجارب في عدد من الاقطار العربية ، منها الكويت والمملكة العربية السعودية ومصر والأردن ، لانتاج الطاقة الكهربائية ، وإيجاد الأفران الشمسية ، وتحلية المياه ، وتجفيف المنتجات الزراعية ، وتكييف الهواء بالتبريد والتسخين ، وفي أجهزة الاتصالات الالكترونية بديلا عن البطاريات الكهربائية .

تغير مناخ الكرة الارضية

طرأ على الطقس تغيرات لاعهد للبشرية بها ، سواء في التوقيت أو الشدة أو المظاهر . هذا التبدل قد زحف على حياتنا في بطء ، ولم يكن محسوسا منذ سنوات . ويرجع الكاتب أحد أسباب التغير في مناخ الكرة الأرضية إلى ازدياد نسبة ثاني اكسيد الكربون في الغلاف الجوى ، نتيجة لما تنفثه السيارات والمداخن والمصانع ، لأن ذلك يخل بالقدر المتوازن الذى يتبادل فيه النبات مع الإنسان كلا من غازي الاوكسجين وثاني اكسيد الكربون ، مع تعاقب الليل والنهار .

وحول نتائج هذا التغير في المناخ ، يقول المؤلف : إن الزيادة المطردة في درجة الحرارة لها آثارها التي بدأت منذ عدة سنوات . ولعل أهمها هو ذوبان ثلوج كبيرة في المناطق القطبية المتجمدة ، وبالتالي ارتفاع مستوى المياه في المحيطات ، واختلال التوازن المتبادل بين السطوح المائية والشواطىء في كثير من البلاد الساحلية ، وازدياد الفيضانات .

كما أشار المؤلف إلى الثقوب التي اكتشفت في طبقة الاوزون التى تحمي الكرة الارضية من الأشعة فوق البنفسجية التي تصدر عن الشمس ، وأرجع أسباب الثقوب إلى تكرار صعود الطائرات النفاثة وهبوطها وطيرانها عبر طبقة الاوزون ، وهذا الأمر يعرضها كل ساعة للتمزق وعدم الإلتئام ، بالإضافة إلى ما تحدثه الصواريخ التي تحمل الاقمار الصناعية وسفن الفضاء ، وكذلك بعض الغازات التي تستعمل في العلب المعبأة تحت ضغط والغازات المستخدمة في التبريد ، حيث إن لها قدرة على الصعود إلى أعالي الغلاف الجوى حيث طبقة الاوزون ، فتتفاعل معها ، ثم تتكون الثقوب التي تسبب سرطان الجلد للإنسان بسبب نفاذ الأشعة فوق البنفسجية إلى كوكب الأرض . □

* ليس في مقدور أية امرأة أو رجل أن يعرفا ماهو الحب الكامل قبل مضي ربع قرن على زواجهما . (مارك توين)

* أعظم اهانة تلحقها امرأة برجل . . قولها له : إنها تزوجت منه شفقة عليه . . لاحبا فيه . (جبران خليل جبران)

* الحب قبل الزواج : رواية . . وبعد الزواج : تاريخ .

(صبحي الشاروني)



مكتبة العربي

مختـــــارات

اسم الكتاب : الخروج من الدائرة
اسم المؤلف : خليفة الوقيان
الناشر : شركة الربيعان للنشر والتوزيع - الكويت
عدد الصفحات : ١٢٦ صفحة من القطع الصغير .
سنة النشر : ١٩٨٨

ديوان شعر جديد للشاعر د . خليفة الوقيان ، يقدم فيه أحدث إنتاجه . ففيه عشر قصائد جديدة ، تتسم كلها بمستوى جمالي وفكري عال، وتنوع فيه القصائد من الشعر التأملي إلى الوجدانيات ، إلى الشعر الوطني ، وعلى الرغم من تعدد الموضوعات والأغراض إلا أن قصائده كلها تعبر عن معاناة الشاعر وتفاعله مع قضايا وطنه وأمته ، ذلك التفاعل الخلاق الذي عبر عنه برصانة الموقف المحمل بالحس الساخر .

■■■

اسم الكتاب/الغرف الأخرى
المؤلف/جبرا ابراهيم جبرا
الناشر/المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت
عدد الصفحات/١١٢ من القطع المتوسط
سنة النشر/١٩٨٦ م

هذا الكتاب هو أحدث إنتاج للكاتب الكبير جبرا ابراهيم جبرا ، وهو رواية جديدة يمتزج فيها العقل بالجنون ، والواقع بالخيال ، والحلم باليقظة . ويطرح الكاتب في روايته في قالب فني بالغ التشويق أفكارا شديدة الثراء عن أزمة الانسان المعاصر . وعلى الرغم من جدية أفكار الرواية إلا أنها نوع من أنواع الكوميديا السوداء ، وهي رواية من روايات النفس الواحد ، حيث لا يستطيع القارىء أن يتركها بعد أن يبدأ قراءتها إلا بعد أن يتمها .

■■■

اسم الكتاب/سياسات الاتصال في دولة الكويت
المؤلف/د . حسين أبو شنب
الناشر/مطابع الرسالة - الكويت
عدد الصفحات/١٦٨ من القطع الكبير
سنة النشر/١٩٨٧

يقسم الكاتب دراسته التي تضمنها الكتابُ إلى ثلاثة أقسام ، الأول يختص بدراسة السياسة الاعلامية لدولة الكويت ، والثاني يعرض فيه المؤلف تطور الاذاعة والتلفزة وسياستها الاعلامية ، ودراسة تحليلية لبرامجها ، أما الثالث الأخير فخصصه لدراسة صحافة الكويت ، نشأتها وتطورها وخصائصها ، والعوامل المؤثرة في سياستها ، وقد اشتملت هذه الدراسة على استعراض سريع لتطور وكالة الأنباء الكويتية ، وتطور الحركة المسرحية ، وإدارة الصحافة بوزارة الخارجية . وفي نهاية الدراسة استعراض لاهتمام الكويت بالقضية الفلسطينية خلال نشاط مكتب الاعلام الفلسطيني بالكويت ، لما لهذه القضية من أهمية بين القضايا الإعلامية المطروحة .

اسم الكتاب/دراسات معمقة في الفقه الجنائي المقارن
المؤلف/د . عبدالوهاب حومد
الناشر/المطبعة الجديدة بدمشق - سوريا
عدد الصفحات/٨٣٢ من القطع الكبير
سنة النشر/١٩٨٧

دراسة قانونية فقهية مهمة ، يقدمها المؤلف في أبواب ثلاثة ، يناقش فيها عددا من القضايا الفرعية ، ويقدم في النهاية تصورا متكاملا ، يمثل إضافة حقيقية إلى المكتبة القانونية العربية ، ففي الباب الأول مناقشة لظاهرة الجريمة ومقاومتها خلال عرضه لتفاقم الإجرام في المجتمعات المعاصرة ، ثم الدفاع الاجتماعي ، ثم التعاون الدولي لمكافحة الجريمة ، وأخيرا عقوبة الإعدام وأزمة العدالة الجزائية . وفي الباب الثاني يناقش المسئولية الجزائية خلال تطور مفهوم المسئولية الجزائية ، ثم يعرض النظرية السببية في الفقه الجنائي ، فالمسئولية بفعل الغير ، والمسئولية الطبية الجزائية . وفي الباب الثالث يناقش الكاتب تطبيق القانون الجنائي ، فيعرض لأصول تفسير القوانين الجزائية ، ثم رقابة القضاء الجزائي على سلامة النصوص ، ثم السبب التلقائي في محكمة النقض ، وأخيرا القضاء الجزائي الاستثنائي .

■■■

اسم الكتاب/في النقد التحليلي للقصيدة المعاصرة
المؤلف/د . أحمد درويش
الناشر/مكتبة النهضة المصرية
عدد الصفحات/٢٠٤ من القطع الكبير
سنة النشر/١٩٨٨

يقدم الكاتب دراسات حول القصيدة العربية المعاصرة ، خلال نماذج شعرية مختلفة لعدد من شعراء العربية ، دراسة عن الصراع المحكم في قصيدة « مرثية لاعب سيرك » لصلاح عبد الصبور ، ودراسة عن الرمز والبناء في قصيدة « الخيول » لأمل دنقل ، و « ديوان الدائرة المحكمة » لفاروق شوشة ، وقصائد عدد آخر من شعراء العربية ، مثل محمد ابراهيم أبو سنة ، وحامد طاهر ، وعبدالفتاح شهاب الدين ، وناجي عبد اللطيف . والكتاب بدراساته المختلفة أنموذج جديد للنقد التحليلي للقصيدة العربية ، خلال دراسات محدودة لنماذج شعرية .

■■■

اسم الكتاب/البحر المتوسط في العالم المعاصر . دراسة في التطور المقارن
المؤلف/د . سمير أمين - د . فيصل ياشير
الناشر/مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت
عدد الصفحات/١٢٠ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر/١٩٨٨

يعرض الكتاب لثقافة منطقة البحر المتوسط ، شمالها الأوربي ، وجنوبها العربي والتركي في النظام الرأسمالي العالمي ، فيرصد التطورات المتنافرة التي حدثت على ضفتي المتوسط ، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، وهذه الطفرة المتقدمة التي حققتها دول الشمال ، والواقعة في جنوب أوربا ، وذلك التراجع في منطقة الجنوب ، في الدول الواقعة في شمال أفريقيا ، مما أدى الى تعميق الفجوة بين بلدان منطقة البحر المتوسط . ويشتمل الكتاب على ثلاثة فصول أساسية ، تناوب المؤلفان على كتابتها ، فكتب الفصل الأول د . أمين عن شروط الاستقلالية في منطقة البحر المتوسط ، وتناول فيه موضوع الجذور التاريخية ونظر في طبيعة التحديات لدوله ، وكتب الفصل الثاني الدكتور فيصل ياشير عن شروط الرأسمالية الحديثة في جنوب أوربا ومستقبلها ، وكتب الفصل الثالث الدكتور فيصل أيضا وعرض فيه لتركيا والوطن العربي من الدولة الى الرأسمالية وناقش فيه مصير التنمية الرأسمالية في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط .

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٦٢

يناير ١٩٨٩

جوائز المسابقة

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة . ترسل الاجابات على العنوان التالي :
مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٦٢ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ فبراير ١٩٨٩

ارفق الحل مع هذا الكوبون
كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٦٢

١ - عبد الرحمن الكواكبي ومحمد كرد علي اسمان لامعان في تاريخ سورية الحديث . اشتغل الأول في السياسة والثاني في العلوم ، ولكنهما اشتغلا أيضا في الصحافة ، فما اسم الصحيفة التي أسسها عبد الرحمن الكواكبي في حلب سنة ١٨٧٧ ؟ وما اسم الصحيفة التي أصدرها محمد كرد علي في دمشق سنة ١٩٠٨ ؟

٢ - أي الصحف التالية أكثر توزيعا في العالم ؟
* برافدا السوفياتية .
* يوميوري شمبان اليابانية .
* ازفستيا السوفياتية .

٣ - كان صدور أول جريدة أو نشرة إخبارية ظهرت في أوربا في سنة ١٤٧٠م . ترى في أي البلدان التالية صدرت ؟
* في لندن .
* في باريس .
* في كولن في ألمانيا .

٤ - جريدة الوقائع المصرية صدرت عام ١٨٢٨ ، وهي بحق من أقدم الصحف العربية إن لم نقل أقدمها . ترى برعاية من صدرت هذه الجريدة ؟
* نابليون بونابرت .
* محمد علي باشا .

٥ - درجت إحدى الصحف اليومية التالية على إصدار أعداد يومية ضخمة جداً . وقد بلغ أحد الأعداد اليومية التي أصدرتها

نحو ألف صفحة ، نعم ، ألف صفحة . فأي صحيفة تلك ؟
* تايمز اللندنية .
* نيويورك تايمز .
* برافدا .

٦ أي الدول التالية هي الأولى من حيث مجموع النسخ التي توزعها صحفها فيها يوميا ؟ وأيها تأتي في المرتبة الثانية ؟ وأيها تحتل المرتبة الثالثة ؟
* الولايات المتحدة .
* المملكة المتحدة .
* اليابان .

٧ صحف الجدران ليست مقتصرة على العصور الحديثة ، ولا على بلاد الصين ، فقد ظهرت في القرن الأول قبل الميلاد ، وكانت تكتب باليد ، وتعلق في الأماكن العامة ، ليطلع على محتوياتها الجمهور . ترى في أي المدن التالية ظهرت هذه الصحف القديمة ؟
* في رومة .
* في أثينا .
* في الإسكندرية .

٨ صور القمر التي التقطها رواد الفضاء في رحلة أبوللوا (١١) مالبثت الصحف العالمية أن نشرتها في غضون ساعات من التقاطها . ترى كم استغرق من الوقت نقل أخبار معركة الطرف الأغر (نقول الأخبار ولا نقول الصور) ، وهي معركة وقعت في ٧/١١/١٨٠٥ ، حتى نشرتها كبريات الصحف البريطانية ، علما بأن المعركة المذكورة كانت معركة مهمة وحاسمة جداً ؟
* اسبوعا واحداً .
* اسبوعين ونصف أسبوع .
* خمسة أسابيع .

٩ جائزة نوبل لا تشمل الصحفيين ، فأي جائزة تشملهم ؟
* جائزة اوسكار .
* جائزة بولِتْزر .
* جائزة إنريكو فرمي .

١٠ ما العامل المشترك بين جريدة المقطم التي صدرت في القاهرة ثم احتجبت وبين مجلة المقتطف التي ظهرت أول ما ظهرت في بيروت ؟

١١ جريدة « مرآة الأحوال » هي الجريدة العربية الأهلية الأولى ، وقد أصدرها رزق الله حسون الحلبي سنة ١٨٥٥ . ترى أين أصدرها ؟
* في اسطنبول .
* في باريس .
* في دمشق .

١٢ أي المجلات التالية أكثر توزيعا ورواجا في العالم ؟
* ناشيونال جيوغرافك .
* لايف .
* ريدرز دايجست .

حل مسابقة العدد ٣٥٩

اكتوبر ١٩٨٨

١ - من كتاب أطواق الذهب في المواعظ والخطب للزمخشري .

٢ - يقال في المكر والخلابة ، قال الشاعر :

إذا أراد امرؤ مكراً جنى عِللا
وظل يَضرب أخماسا لأسداس

٣ - ٢٨ يوما لا ثلاثون .. فقد تسلقت آخر ثلاث أقدام في اليوم الثامن والعشرين وبلغت القمة .

٤ - إنه جورج برنارد شو الكاتب المسرحي الايرلندي الشهير بأسلوبه الساخر الذي عاش بين ١٨٥٦ - ١٩٥٠ .



٥ - مجموع شجر البستان (١٥) شجرة لا (١٩) هذا اذا تجنبت الخطأ ولم تكرر تعداد شجر الزوايا مرتين .

٦ - القائل هو الكسندر جراهام بل مخترع الهاتف ، فالعبارة اذن أول عبارة نقلها الهاتف في التاريخ ، أما واطسون فكان مساعدا لجراهام بل وقد سجل اختراع الهاتف باسم الكسندر جراهام بل سنة ١٨٧٦ علما بأن ايطالياً باسم انطونيو موتشي ، كان قد سبق جراهام بل إلى الاختراع بنحو ١٠ سنوات !

٧ - تروي الأساطير الهولندية قصة بحار هولندي لعنته الآلهة ، وحكمت عليه بمواصلة ركوب البحر إلى الأبد دون السماح له بالتوقف عند أرض يابسة أبدا ، وتؤكد الأساطير أن أي بحار يرى البحار الهولندي الطائر يلقى حتفه لا محالة . ومما يذكر أن ريتشارد فاجنر لحن اوبرا كاملة على أساس هذه الاسطورة ، وقد أطلق الاسم (الرجل الهولندي الطائر) على هذه الاوبرا وعلى سفينة الأشباح التي نتحدث عنها .

٨ - في مدينة البندقية طبعا ، فهذا القارب المتميز يحل في تلك المدينة محل السيارات والعربات والباصات ، وذلك نظراً لأن الأقنية والممرات المائية تحل محل الشوارع والطرق اليابسة في البندقية .

٩ - سفينة ماري سلست هي السفينة المقصودة .

١٠ - أهل الصين هم الذين اكتشفوا النار ، وذلك قبل نحو ٤٠٠,٠٠٠ سنة ، فقد عثروا سنة ١٩٢٠ وبالقرب من بكين على بقايا مخلوق يشبه الانسان وعثروا على ما يدل على استعماله النار .

١١ - المسألة بسيطة حقا ، فالمرأة هي أم الشاب ، ذلك أن أمه ابنة أمها هي ومعنى هذا أن الشاب ابن المرأة التي أمامه أو ابن اختها ، ولما كانت المرأة ابنة امها الوحيدة ، أي بلا أخوات ، كان الشاب ابنها لا محالة .

١٢ - الصفدي ملغزاً في الخمرة .

□□□

الفائزون في مسابقة العدد ٣٥٩ أكتوبر ١٩٨٨

الجائزة الاولى : شعبان ريشة/ تل - سلحب - حماة - سوريا

الجائزة الثانية : صافيناز محمد احمد / كفر الزيات - جمهورية مصر العربية .

الجائزة الثالثة : فتحية عبد القادر محمود/ اربد - الاردن .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ - مرح مروان مراد/ الصفاة - الكويت .

٢ - محمد كنعان / ماغوسا - تركيا .

٣ - عبدالقادر عثمان البنا / كريتر - عدن - اليمن .

٤ - نزار سليم كينجيا/ المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية .

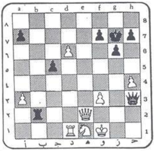
٥ - زين العابدين اكريم / سوق السباط - الرباط - المملكة المغربية .

٦ - فيصل عبدالغني عبدالوهاب / حي المثنى - بغداد - الجمهورية العراقية .

٧ - هشام بن حسن بن سعيد / سوسة - تونس .

٨ - رأفت عبدالعظيم ابوالعز/ الدوحة - دولة قطر .

معركة بلا سلاح



من الأحداث الشطرنجية المهمة التي جرت في الاتحاد السوفييتي منذ أواخر شهر يوليو الماضي بطولة الاتحاد السوفييتي الخامسة والخمسون للشطرنج ، ويتصدر كوكبة الأبطال الدوليين الكبار المشاركين في هذه البطولة بطل العالم الحالي جاري كاسباروف ، وثلاثة من أبطال العالم السابقين ، هم أناتولي كاربوف (١٩٧٥ - ١٩٨٥) ، وفاسيلي سميسلوف (١٩٥٧ - ١٩٥٨) ، وميخائيل تال (١٩٦٠ - ١٩٦١) ، ناهيك عن كبار أبطال الاتحاد السوفييتي ، والعديد من المرشحين لملاقاة بطل العالم للشطرنج أمثال أندريه سوكولوف ، وارتور يوسوبوف ، وميخائيل فاغانيان ، وكثير غيرهم من كبار اللاعبين .

قام بدور الرئاسة في تحكيم الدورة واحد من أهم مشاهير الشطرنج في العالم ، نعني ميخائيل بوتفينيك الذي حاز على بطولة العالم للشطرنج ثلاث مرات : ١٩٤٨ - ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ - ١٩٦٠ ، ١٩٦١ - ١٩٦٣ ، والذي قال معلقاً على هذه الدورة الفريدة : « لم نعهد مثل هذه المنافسة الحامية على بطولة الاتحاد السوفييتي للشطرنج منذ أمد بعيد » .

وكان أول الطامحين للفوز بتاج البطولة لهذه الدورة بطل العالم الحالي جاري كاسباروف الذي لم يجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، وقد سبق أن فاز بهذه البطولة عام ١٩٨٠ ، وكان الطامح الثاني للفوز ببطولة الدورة هو بطل العالم الأسبق أناتولي كاربوف الذي سبق أن حاز بطولة الاتحاد السوفييتي للشطرنج مرتين ، الأولى في عام ١٩٧٦ ، والثانية في عام ١٩٨٣ . ومن الطامحين للفوز بهذه البطولة أيضا الكسندر بليافسكي الذي فاز بها في العام السابق . وقد فاز بالمركز الأول في هذه الدورة أناتولي كاربوف ، وفاز بالمركز الثاني فيها جاري كاسباروف .

والدور التالي الذي اخترناه لكم من هذه البطولة بين بطل العالم الحالي (أسود) والاستاذ السوفييتي الكبير غوريفيتش (أبيض) .

□ غوريفيتش	■ كاسباروف
١) د ٤	ح - و ٦
٢) ح - و ٣	ز ٦
٣) جـ ٤	ف - ز ٧
٤) ح - جـ ٣	د ٥
٥) و - ب ٣	د × جـ ٤
٦) و × جـ ٤	ت
٧) هـ ٤	ح - أ ٦

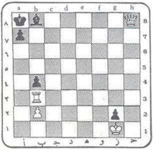
مربع سيىء للحصان عادة ولكنه هنا يخدم استراتيجية كاسباروف

٨) ف - هـ ٢	جـ ٥
٩) د ٥	هـ ٦
١٠) ت	هـ × د ٥
١١) هـ × د ٥	ر - هـ ٨

١٢) ف - و ٤	ف - و ٥
١٣) ر (أ) - د ١	ح - هـ ٤ ! (رائعة)
١٤) ف - د٣	ف × جـ٣
١٥) ب × جـ٣	ب ٥
١٦) و×ب ٥ (مضطرا)	ح × جـ٣
١٧) و × أ ٦	ف×د٣ !
١٨) و × د٣	ح-هـ٢+
١٩) م- حـ ١	ح × و ٤
	(ويخرج بقطعة زائدة)
٢٠) و - جـ ٤	و - د ٦
٢١) ر (و) - هـ١	ر×هـ١+
٢٢) ح × هـ ١	ر - ب ٨
٢٣) أ ٣	ر-ب٢ !
٢٤) و ٣	و-هـ ٥
تمهيداً لتثليث الهجوم على ز ٢	
٢٥) و - هـ ٤	و - ز ٥
٢٦) ز ٣	و - حـ ٥
٢٧) حـ ٤ (مضطرا)	ح - هـ ٢
٢٨) و - هـ ٨+	م - ز ٧
٢٩) د ٦ ؟	ح×ز٣+
(على أمل الترقية)	
٣٠) م - ز ١	ح-هـ٢+
(ليس باليد حيلة !)	
٣١) م - و ١	و - و ٥
٣٢) و × هـ ٢	و - حـ ٣+

ويستسلم الأبيض . □■□

مسألة العدد



مات ٣

من إهداء القارىء بسام عقيل (سوريا)

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج العدد ٣٥٩ ـ اكتوبر ١٩٨٨

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ . أشرف وليام شرقاوي ـ المنيا/ ج.م.ع
٢ . والفي عبد الفتاح ـ سطات/ المغرب
٣ . شرف بشير ـ بيروت/ لبنان
٤ . محمد ياسر الحمدو ـ أدلب/ سوريا
٥ . يوسف محمد يوسف ـ مكة المكرمة/ السعودية

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ . مرتضى حسين ـ صنعاء ـ الجمهورية العربية اليمنية
٢ . ماجد أحمد محمد ـ عمان/ الأردن
٣ . محمد أيمن أبو التوت ـ قونيه/ تركيا
٤ . محمد أحمد لحتر ـ حضرموت/ اليمن الديموقراطي
٥ . فهد العبيدي ـ تونس/ الجمهورية التونسية

حل مسألة عدد نوفمبر ٨٨ العدد رقم (٣٦٠)

١) ف - جـ ٦ ثم يأتي الوزير لتعزيز الفيل والتمهيد لكش مات في النقلة الثالثة

حوار القراء

العربي ـ ص. ب : ٧٤٨ الصفاة ـ الرمز البريدي : 13008 الكويت

عزيزي القارىء :

كل عام وأنتم بخير .

مع بداية عام جديد ، نزف إليكم تهنئة ، شاكرين لكل من كتب لنا . فرسائلكم هى احدى المؤشرات المهمة التي نعرف من خلالها نتائج أعمالنا هنا في العربي .

نحن لا نهمل أية رسالة تردنا ، لكننا لا نستطيع أن ننشر كل ما يردنا لأسباب لا تخفى عن اللبيب ، منها المساحة والموضوع ، بعضكم طلب كتبا أو مراجع أو عناوين شخصية ، كل ذلك نستجيب له بقدر طاقتنا على المستوى الشخصي ، وبعضكم اقترح أبوابا جديدة أو استطلاعات جديدة ندرسها بعناية .

□■□

رسالة الفكر والأدب

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● تحية إعجاب وإعتزاز وتقدير ،

إنني سعيد كل السعادة حين ألتقى بمجلتكم الغراء « العربي » في مطلع كل شهر ، حاملة معها رسالة الفكر والأدب والثقافة إلى أقطار الوطن العربي للناطقين بلغة الضاد ، وتزداد فرحتى كلما برق في الأفق معين ثقافي جديد ، لقد أصبحت « العربي » و « كتاب العربي » و « العربي الصغير » معين ثقافة وعلم لكل أبناء العروبة والناطقين بلسانها .

القارىء : طه حسين سليمان

عابدين ـ القاهرة

□■□

العربي والوحدة العربية

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● أنا أقرأ « العربي » منذ صدور العدد الأول ومازلت كذلك ، وأنا أجد فيها دائما جديدا ، ولعل استمرار المجلة حتى هذا اليوم وبهذا المستوى الراقي يعود الى مراعاتها أذواق القراء والتغيرات التى تطرأ على العالم ، والى محافظتها على الجوهر

والأصل . في العدد (٣٥٧) اغسطس ١٩٨٨ قرأت كلمة المحرر بتمعن ، ولمست الخيوط الجديدة في بعض المقالات ، وكذلك معالجتها موضوع « الوحدة العربية » ، والواقعية التي يعتمدها كتاب العربي . ونحن أحوج ما نكون الى ذلك في هذه الأيام ، كما أني أدركت أن « العربي » تقدم مقالاتها ومواضيعها بعيدا عن المغالاة والخيالات المجنحة ، إنني أرجو أن تتابع هذه المجلة نهجها ، وأن تستقطب الأفكار الجديدة النيرة .

القارىء : إسماعيل دنوسي
سلمية ـ الجمهورية العربية السورية

□■□

الوسواس القهري هل يزول ؟

● قرأت في عدد العربي رقم ٣٥٩ اكتوبر ١٩٨٨ موضوع « الوسواس القهرى هل له علاج ؟ » بقلم الدكتور دري حسن عزت ، وقد تفضل بتزويدنا بمعلومات نافعة وواقعية وصريحة ، استطاع خلالها الوصول إلى فكر القارىء بسهولة وإني أشكر المجلة على طرح مثل هذه الموضوعات المهمة ، لكن لدي سؤال أوجهه الى الدكتور دري حسن ، وهو : ماالذى يثبت أن للوسواس القهرى علاجا ؟ وهل زواله مؤكد أم لا ؟

القارىء : أحمد ناصر بلخدر
الاحساء ـ المملكة العربية السعودية

□■□

الباراسيكولوجي

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● لقد لفت نظرى كما لفت نظر العديد من القراء مقال نشر في العربي عدد (٣٥٨) سبتمبر ١٩٨٨ عنوانه « حرب الظواهر الخارقة » بقلم محمد حسن بيرقدار ، واستغربت أن مثل هذه المواضيع التى تدخل تحت بند ما يسمى الباراسيكولوجى ، أو علم ماوراء النفس البشرية مازال يروج له في بعض الأوساط العلمية ، وأنه يمكن للإنسان أن يستخدم بعض القدرات الخارقة في الحروب حسبما جاء في المقال . وكما أعلم فإن هذه الاطروحات قد أقيم الدليل على عدم مصداقيتها من قبل العلماء التجريبيين على الرغم من تورط بعضهم في تأكيد وجود أناس

حوار القراء

يملكون قوى خارقة خارج نطاق الحس .
كما أن المقال قد ذكر أن الاتحاد السوفيتي أول دولة بدأت البحث الجدي في كل « الظواهر الخارقة » ، وان هناك أدلة تقول : إن لدى السوفييت مجموعة من الناس الذين يتمتعون بقوى خارقة ، وأعتقد أن هذا غير صحيح لأنهم في الاتحاد السوفيتي لا يعتقدون بوجود الخوارق والغيبيات . كما أن عددا من العلماء العرب قد كتبوا ينفون هذه الظاهرة ، ومنهم د . عبدالمحسن صالح ، وهذه الأفكار المستوردة التي تبدو ظاهريا علمية يرفضها العقل والعلم .

القارىء : عبد السلام سالم عبد الله
مدينة خور مكسر/ جمهورية اليمن الشعبية

□■□

قفصة تبحث عن "العربي"

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،
● تحية عربية صادقة وثناء وفير من أرض الجمهورية التونسية الى أسرة مجلة « العربي » على الجهد الذى تبذله لخدمة القارىء في الوطن العربي الكبير ، فمجلتنا هذه تقدم للقارىء العربي مواضيع مختلفة ، علمية وثقافية وسياسية واقتصادية ، بأسلوب رفيع بسيط يسهل على كل قارىء أن يفهم مغزاه ، إننا في تونس وبالتحديد في ولاية قفصة « نعاني » من قلة نسخ أعداد مجلتنا ، وهذا ينسحب أيضا على عاصمة الجنوب « صفاقس » ، ومن هذا المنطلق أناشدكم أن تضاعفوا نسخ الأعداد التى ترسلونها الى تونس .

القارىء : عبد الملك بن على المكى
ولاية قفصة - الجمهورية التونسية

□■□

"العربي" في ليبيا

● فقدنا منذ فترة مجلتنا المحبوبة ، هنا في ليبيا ، وغابت عنا الجهود المتواصلة الرائعة التي جعلت مجلة العربي في أوج مجدها وفي موقعها الصحيح الذي نتمناه لها طوال الزمن .
فمنذ تسعة أشهر والمجلة تغيب عن القاريء العربي في ليبيا ، وغيابها في رأينا يسبب نقصا ثقافيا وفكريا واعلاميا لنا نحن القراء ، وقد فشلت جميع محاولاتنا في الحصول عليها عن طريق المراسلة . فهل هناك نية لإرسالها إلينا مرة أخرى ؟

القارىء / صلاح أحمد لساعدي
درنة / ليبيا

العربي

ـ نشكرك على الاهتمام والحس القومي بهذا الصرح الثقافي ، ونود أن نزف بشرى للقراء الأعزاء في ليبيا ، بأن الإشكال الذي حدث مع الموزع في طريقه للحل خلال الشهور القادمة ، وأن المجلة ستعود الى سابق عهدها مع القراء الأعزاء في كل مكان من الوطن العربي .

□■□

هل العرب غير معترف بهم عالميًا ؟

● كم حزنت وأنا أتابع مع الملايين ـ عبر الأقمار الصناعية ـ حفل الختام لدورة سيول الأولمبية ، وبقدر إعجابي وانبهاري بروعة حفل الختام وجماله الا أنني حزين جداً ، ليس لأن العرب لم يحققوا شيئا يذكر ، لكن لأنه لم تردد عبارات التحية والشكر في الختام باللغة العربية ، في الوقت الذى رددت فيه تلك العبارات بلغات كالانجليزية والفرنسية والإيطالية وغيرها من اللغات ، وهذا يعنى أن اللغة العربية غير معترف بها ، في الوقت الذى تمثل فيه أقطار الوطن العربي بسكانها ثقلا سياسيا واقتصاديا وبشريا له أثر كبير على سكان كثير من بقاع الكرة الأرضية ، هذا فضلا عن أن العرب قد شاركوا مشاركة فاعلة بكل الألعاب في هذه الدورة .

القارىء : حسين ابراهيم بيومى
السويس ـ جهورية مصر العربية

العربي

ـ إن عدم إذاعة عبارات التحية والشكر في حفل الختام باللغة العربية ، يرجع الى أن العربية ليس معترفا بها على صعيد اللجنة الأولمبية الدولية ، وهذه مهمة ملقاة على عاتق قياداتنا الرياضية التى نأمل أن تجعل العربية لغة رسمية ضمن اللغات المعترف بها من قبل هذه اللجنة .

□■□

الإسلام والشعر

● لقد قرأت مقال الدكتور مصطفى رجب « حقيقة موقف الإسلام من الشعر » في عدد ٣٥٧ اغسطس ١٩٨٨ ، وقد أعجبنى كثيراً لأنه يبين أخطاء كثيرة انتشرت حول موقف الإسلام من الشعر ، وقد أتى باستشهادات كثيرة من القرآن الكريم والسنة الشريفة . كنت أود أن تتضمن المقالة موقف الخلفاء الراشدين من الشعر وقد جاء ذكر موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المقال لكنه بأسطر قليلة ، ومما يجدر ذكره أن الخليفة الرابع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أكثر الخلفاء الراشدين الذين ينسب إليهم الشعر ، وفي النهاية أشكر الدكتور مصطفى على هذا الموضوع الجيد ، وأتمنى أن يكتب مقالاً آخر تكملة للموضوع .

القارىء : خالد ابراهيم أحمد محمد
الإسماعيلية/ جمهورية مصر العربية

□■□

مبيدات حيوية

● وردنا من السيد عمر همدر الطالب في كلية الزراعة في حلب رسالة مؤرخة ٨٨/٧/١٠ ، تتضمن تعقيبا مهما على موضوع الثورة الزراعية المرتقبة على الأبواب (باب البيئة العدد ٣٥٦) ، ويطيب للعربي أن تقدم لقرائها

حوار القراء

مقتطفات من رسالته .

الثورة الزراعية التي أشرتم اليها ، وقوامها بذور مهجنة لنباتات جديدة تتميز بغزارة الانتاج ، ومقاومة الحشرات ، وما إلى ذلك . وهذه الثورة ليست الوحيدة في هذه الأيام ، فهناك ثورات زراعية أخرى عديدة ، أود أن أذكر واحدة منها .

فقد أنتجت بعض الشركات العالمية في السنوات السابقة مبيدا حيويا يعرف باسم (Agrobacterium radiobactor 584) ، وهو عبارة عن بكتيريا أو جراثيم عرضت للأشعة ففقدت حيويتها . وقد استعمل هذا النوع من البكتيريا في بعض الحالات لعلاج المرض البكتيري المعروف (التدرن التاجي) ، وهو مرض يصيب الأشجار المثمرة كالتفاح والعنب ، ويصيب عددا كبيرا من النباتات الحولية كالطماطم .

ومما يذكر أن هذه الجراثيم - عند رش الأشجار بمحلولها - تدخل إلى الأنسجة النباتية وتتكاثر داخلها ، وبالتالي تنافس البكتيريا المتطفلة المسببة للمرض ، فتحل محلها ، وبما أنها فقدت حيويتها فإنها لا تفرز أي مواد سامة أو ضارة ، فلا تتضرر الأشجار باستعمالها ، فضلا عن أنها تكتسب الوقاية من البكتيريا المتطفلة الخبيثة باستعمال هذه الجراثيم الحميدة .

□■□

ردود قصيرة

* القارىء عدنان كامل كيلاني من حلب بالجمهورية السورية يبدى إعجابه (بحديث الشهر) لرئيس التحرير الذى يلمس فيه المتعة الشيقة والمفيدة .

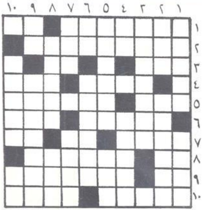
* القارىء حسنى مرسى من محافظة سوهاج من جمهورية مصر العربية يستفسر عن كيفية إرسال أجوبة مسابقات المجلة ، وكيفية ارسال جوائز الفائزين الى البلاد الأخرى من الكويت ، نقول له : إن ارسال الإجابات عن اسئلة المسابقة لابد أن يرفق مع « كوبون المسابقة » ، أما الجوائز فإنها ترسل بشيك صادر عن وزارة الإعلام ، أما الاشتراكات فإنها ترسل من المجلة الى المشتركين مباشرة .

* القارىء حسين محمد الهدار من البيضاء في الجمهورية العربية اليمنية أرسل إلينا يقول : لقد قرأت ما قامت به المجلة من الاستطلاع الخاص عن مدينة زنجبار في العدد رقم ٣٥٩ اكتوبر ١٩٨٨ وما كتب عن تلك القلعة التاريخية ، وما قامت به من أدوار عظيمة أسهمت بها في تاريخنا العربي والاسلامى . وبما أن كثيرا من القراء يجهلون مثل هذه الأدوار التاريخية لأمتنا فإننا نتوجه بالشكر الى الأخ الدكتور رئيس التحرير والإخوة العاملين بالمجلة على إبراز مثل هذا العلم للتعرف على ماضينا المجيد .

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .



كلمات أفقية

١ . عاصمة قارة تابعة للكومنولث ، تخم
٢ . عاصمة دولة افريقية متاخمة للسودان الشقيق
٣ . عاصمة ألمانية مبعثرة ، أهل
٤ . عاصمة دولة أطلسية الى الغرب من بريطانيا ، محصول زراعي شعبي مقلوبة .
٥ . مركز صناعي فرنسي مهم ، الوليد مبعثرة .
٦ . مناطق مستنقعية في دولة عربية ، من أواخر حروف الهجاء العربية .
٧ . مختف ، حرفان متشابهان ، عكسها بحر
٨ . أداة استفهام ، مدينة مقدسة من مدن العراق
٩ . تجدها في شوط ، نهر عربي كان مسرحاً لمعركة إسلامية فاصلة
١٠ . شنقيط مبعثرة ، عاصمة عربية الى الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية

كلمات رأسية

١ . عاصمة دولة إسلامية متاخمة لروسيا ، عاصمة دولة عربية من أقدم مدن التاريخ .
٢ . فعل أمر بمعنى اقترب ، صفة لنوع مشهور من البرتقال .
٣ . عاصمة دولة كبرى في جنوب القارة الآسيوية .
٤ . بمعنى كفى ، كانون غير مرتّبة .
٥ . يأكل للجمع ، رطل مبعثرة .
٦ . سيّد ، عاصمة افريقية على المحيط الهندي .
٧ . أحرف متشابهة ، ثعلب الصحراء مبعثرة .
٨ . مركز تجاري مهم في شمال الجزائر ، البارحة
٩ . تجدها في حاد ، القوباء مبعثرة
١٠ . جمع عشيرة ، حرفان متطرفان من كلمة طيرك

● حل مسابقة العدد الماضي ـ ديسمبر ١٩٨٨



عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت
يناير ١٩٨٩ م

العالم المعاصر
والصّراعات الدوليّة

تأليف
الدكتور عبدالخالق عبدالله

٥٠٠ فلس
الكتاب ١٣٣

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٣٢ أول يناير ١٩٨٩

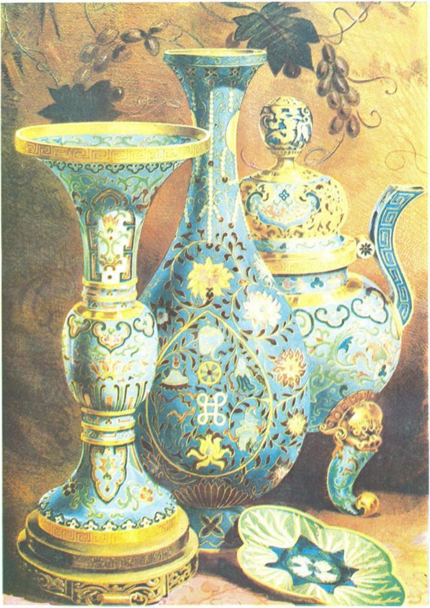
فاوست - ١

تأليف: جيته

ترجمة وتقديم : د. عبد الرحمن بدوي

الجزء الأول

المقدمة



منمنمات صينية

للفنان الانجليزي رجبى ويت "١٨٥٢"

جمادى الآخرة ١٤٠٩هـ - فبراير (شباط) ١٩٨٩م

العربي

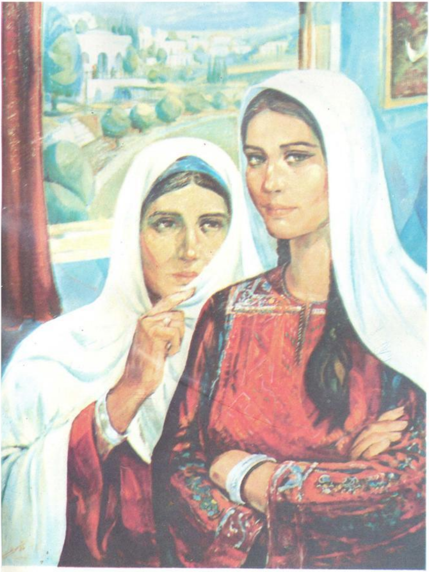


■ قوة الكويت المسلحة درع لحماية الوطن

■ كوبا .. بعيدا إلى طريق التبغ

■ مانديلا على طريق النضال الأفريقي





الأم والصبية
للفنان الفلسطيني اسماعيل شموط

العدد ٣٦٣ السنة الثانية والثلاثون فبراير ١٩٨٩

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهريًا عن وزارة الإعلام بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL - ARABI
Issue No. 363 Feb. 1989 - P.O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

عنوان المجلة
العربي
ص.ب: ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 الكويت
تلفون: ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيًا: "العربي" - الكويت
تلفون فاكسملي: ٢٤٢٤٣٧٥ - تلكس: MITR. 44041 KT
المراسلات باسم رئيس التحرير

الاعلانات يتفق عليها مع الإدارة - قسم الاعلانات

الاشتراكات ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الإعلام - ص.ب: ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة
مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

ثمن النسخة

الكويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسًا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا: جنيه استرليني ونصف
مصر ٣٥ قرشًا	سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ٢٥ فرنكًا
السودان ٢٥ قرشًا	لبنان ٥٠ ليرة	أمريكا ٣ دولارات

محتويات العدد

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

سياسة واقتصاد :

استطلاعات مصورة :

طب وعلوم :

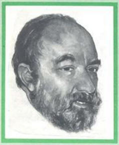


● موريتانيا صراع البداوة والحضارة ص ١٦٤



أدب وفنون :

منتدى العربي :



تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :



صورة الغلاف

« العربي » تمضي بك بعيدا إلى كوبا في أول رحلة لها إلى أمريكا اللاتينية ، إلى بلد السيجار والثوار الملتحين ، إلى بلد مزارع السكر والشواطيء التي لا تنتهي للسابحين .

[طالع الاستطلاع ص ١٠٠]

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

شعب واحد والوطن للجميع

العيد الوطني الثامن والعشرون للكويت يهل عليها وعلى مواطنيها هذا العام بالخير، فهو عام السلام الذي شهد وقف إطلاق نار الحرب العراقية الايرانية التي امتدت بين جارين كبيرين مسلمين فتواصلت ثمانية أعوام طوال. وقد صمدت فيها الكويت فتحدت أقسى وأطول تجربة في تاريخها المعاصر، وأثبتت السياسات التي اتخذها رجال الكويت أنهم بعيدو النظر، عميقو البصيرة، إذ نجحت هذه السياسات المثلى في تجنيب الكويت والمنطقة أتون حرب لاتبقى ولاتذر. وخرجت الكويت معافاة محافظة على سيادتها ووحدتها الوطنية كاملة غير منقوصة.

ويمر العيد الوطني الثامن والعشرون والكويت في منتصف فترة رئاستها لدورة منظمة المؤتمر الإسلامي، وقد شهدت هذه الدورة مجموعة متميزة من الإنجازات الكبيرة لصالح الأمة الإسلامية، على الصعيدين السياسي الدولي والعملي المحلي. فقد شهد الصراع الطويل في أفغانستان آفاق الوصول إلى حلول مرضية، كما شهدت حرب الخليج التوقف باتجاه السلام والمصالحة، وشهدت كذلك التئام جروح العرب السياسية التي طالما كانت دامية وغزيرة.

ومن هنا كانت دعوة سمو أمير الكويت في كلمته في افتتاح الدورة الخامسة لمجمع الفقه الاسلامي: « إن علينا بالجهد المشترك أن نتعاون على تشكيل الملامح الطيبة للوجود الاسلامي الذي ينتظم الصف فيه بعد أن كان أمره فرطا. وتمر يد المحبة على آثار التعصب والتباعد، ويمحو فيه ضياء العلم ظلمات التخلف، وتتلاقى العقول والأيدي على صياغة الآمال أعمالا تنفع الناس وتمكث في الأرض. »

ومن حق الكويت - قيادة وشعبا - أن تحتفل بعيدها الوطني الثامن والعشرين بفرح، ومن حق المواطن العربي أن يعرف أن الكويت قد دأبت - ومازالت - في محاولاتها الساعية دائما الى الخير. والشواهد كثيرة، لعل أعظمها وأجلها الخطاب الذي ألقاه أمير الكويت في الجمعية العامة للأمم المتحدة، والذي قال فيه: « إننا نؤمن بالوحدة الإنسانية الكبرى، وبحقوق الإنسان وكرامته، وأن الإنسان محور التقدم وغايته، ونؤمن بالعمل المشترك من أجل السلام، وباحترام حق كل شعب في تقرير مصيره، وإقامة دولته فوق أرضه، واختيار أسلوب حياته، دون أي تدخل خارجي ».

بهذه الخطوط العريضة، والسياسات الرشيدة، تستقبل الكويت عيدها الوطني بفرح وحبور، وأمل في مستقبل أفضل لشعب الكويت، وعلاقات إقليمية أرقى، وسلام عالمي دائم.

« والعربي » إذ تهنىء القيادة السياسية الحكيمة لتتابع مسيرة تقديم كل ما يعزز هذه الآمال الكبار، في القطاع الثقافي، وتواصل الإسهام في مختلف ميادينه.

ولعل بعض ذلك انطلاق بعثتها إلى كوبا، لإجراء أول استطلاع مصور لها في أمريكا اللاتينية، مع استطلاع آخر من داخل الكويت حول درعها الواقي، قواتها المسلحة. □

وكل عام وأنتم بخير ، ، ،

« المحرر »

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي



أزمة المجتمعات الغربية

بين يدي الآن كتاب يحمل عنوان « الصراع الاجتماعي في العصر الحديث » ، وهو في حقيقته بحث اجتماعي مطول عن أزمة المجتمعات الغربية الحديثة كما يراها المؤلف ، مجتمعات الولايات المتحدة ، وبريطانيا وألمانيا الغربية ، مع إشارات يقتضيها السرد لبعض المجتمعات والدول الأخرى سواء في الغرب أو الشرق . وعندما نسمع أو نقرأ عن (أزمة المجتمعات الغربية) يتشوق بعضنا كي يستكشف عناصر هذا الضعف وتلك الأزمة ، في محاولة منه ربما لإرضاء النفس أقرب من الاستفادة العلمية الحقيقية ، فها هي مجتمعاتهم - كما قد يقول بعضنا - يعتريها الضعف والانحدار والتدهور ، فهي ليست كاملة وقوية وغير قابلة للعطب ، ولاتصلح لاتخاذها مثلاً أعلى وهدفاً يرتجى الوصول اليه ، فهي من هذا المنطلق لا يجب - كما يعتقد البعض - أن تكون هدفاً مثالياً تسعى اليه المجتمعات الأخرى .

إلا أن للكتاب الذي صدر عام ١٩٨٨ أهدافا أخرى ، وكاتبه يتجه الى بر آخر ، فالكاتب - وهو « رالف داهرنروف » - ألماني ، درَّس في جامعات عديدة بألمانيا ، كما كان عضواً في البرلمان الألماني الغربي ، ووزيراً بعد ذلك ، كما أمضى سنوات في منصب المندوب الأوربي المفوض في بروكسل ، وشغل

■ محاولة متقدمة لفهم القوى المحركة للمجتمعات الحديثة

مناصب أكاديمية في أكثر من جامعة في بريطانيا . فهو بهذا المعنى شخصية قادرة على تشخيص أمراض المجتمعات الأوربية التي يعرفها جيداً ، وقادر على تصور العلاج لهذه الأمراض أيضا . والكتاب من جهة ثانية يتلمس المشكلات الاجتماعية/ السياسية/ الاقتصادية البارزة في المجتمعات الغربية ، كي يلقي عليها الأضواء محاولاً تقديم حلول ومقترحات لتخطي هذه المشكلات ، مبرزاً الآثار السلبية التي قد تنجم إن استمرت هذه المشكلات في التواجد دون حل ، والهدف هنا ليس تعرية المجتمعات الغربية المدروسة ، بل مساعدتها في تلمس حلول لمشكلاتها التي اختلفت في الكم والنوع .

فالكتاب إذن هو إحدى المحاولات الكثيرة التي تجتهد في استكشاف اتجاه التغيرات الاجتماعية والسياسية وأنماطها في الدول الغربية الرأسمالية من أجل إلقاء الضوء عليها تمهيداً لإيجاد حلول لها .

إنه دراسة لتطور (المجتمع المدني) ، حُدود هذا التطور ونواقصه . فهو يقول في المقدمة : (إنه لم يقصد من كتابه هذا أن يكون فتحاً جديداً في علم الاجتماع ، ولكنه محاولة لفهم القوى التي تحرك المجتمعات الحديثة ، والتعرف على الآمال المرجوة في المستقبل . . .) .

وعلى الرغم من تشديد الكاتب على أن كتابه هو كتاب (اجتماعي مدني) إلا أن منحاه السياسي واضح في كل سطر من سطوره ، ويمكن أن نستكشف ثلاثة محاور فكرية يقصدها الكاتب هي :

أولاً : واجبات المواطن وحقوقه وامتيازاته .

ثانياً : الفرص المتاحة له ـ طوال فترة حياته ـ لتحسين حالته الاجتماعية .

ثالثاً : معنى الحرية وحدودها .

بين النمو الاقتصادي والمساواة الاجتماعية :

يعتقد الكاتب أن تاريخ أوربا في العصر الحديث ـ ابتداء من القرن الثامن عشر ـ يمكن تلخيصه على أنه السير الجاد نحو موازنة النمو الاقتصادي مع المساواة الاجتماعية ، وأن كل ما حدث في أوربا من ثورات وقلاقل وتغيرات سياسية واجتماعية مرده إلى هذين العنصرين . فهو يعتقد أن الثورات أو الانتفاضات أو التغيرات الجذرية أحداث كئيبة في حياة الأمم . فالبشرية في سعيها الدائب للتخلص من البؤس والشقاء والألم والتحرر من الأوهام ، لا تجد أمامها من سبيل ـ أحياناً ـ سوى الثورة على الاستبداد والطغيان أملاً في التغلب على المظالم ، ولكن ما أن يصل أحد الأحزاب أو الفئات الى الحكم ، وينزع السلطة من الأيدي القديمة ويشعر بدفئها ونعيمها

لماذا تنقلب الأحزاب على مبادئها عندما تنتزع السلطة من يد من انقلبت عليهم؟!

حتى ينقلب - لأسباب شتى - على المبادىء التي نادى بها . والثورات بالضرورة لا تحقق الأهداف الاقتصادية والاجتماعية المبتغاة . وهكذا فإن الثورات تحدث عندما لا يكون هناك طريقة أخرى لتحقيق مطالب الشعب . إنها كالرعود أو الزلازل ، تحدث فجأة ، ولكن هل تحقق الثورة بهذا المعنى الهدفين اللذين يسعى إليهما الناس : النمو الاقتصادي والمساواة الاجتماعية ؟

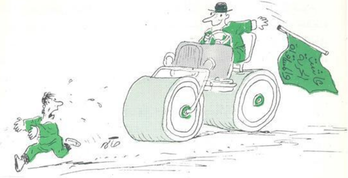
في رأي الكاتب أن الثورة السياسية ، الثورة الساخنة ، العنيفة ، لا تحقق ذلك الهدف . كلمة ثورة - كما يرى المؤلف - لها معنيان ومفهومان مختلفان تماماً ، فهي قد تعني تغيراً بطيئاً وعميق الجذور في البنية التحتية لأحد المجتمعات ، وهذه بطبيعة الحال تستغرق وقتاً طويلاً ، وتسمى هذه الثورة (الثورة الهادئة) ، وقد تعني الثورة بمعنى آخر أعمال عنف لرفع الظلم الواقع على طبقة اجتماعية معينة ، وهذه لا تستغرق وقتاً طويلاً ، وتتم بسرعة وتسمى (الثورة الساخنة) . الثورة - في رأي الكاتب في المعنى الأول - ثورة اجتماعية ، وفي المعنى الثاني ثورة سياسية .

كل ثورة اجتماعية هادئة وطويلة المدى تحقق أهداف النمو والمساواة ، ولكن ليس بالضرورة أن كل (ثورة ساخنة) تحقق تلك الأهداف .

وعلى هذا الأساس فإن الثورة الصناعية التي تمت في بريطانيا ، ثم في أوربا في وقت لاحق ، ثورة اجتماعية . أما الثورة الفرنسية - التي يحتفل العالم هذا العام بمرور مائتي سنة على قيامها - فإنها في رأيه ثورة سياسية ، ولكن هاتين الثورتين لم تقعا في مكان واحد ولا في زمان واحد ، وكذلك لم تحقق أي منهما على حدة نمواً اقتصادياً وعدالة اجتماعية في وقت قصير من الزمن . يقارن الكاتب كل ذلك بما قاله له وزير التجارة في نيكاراجوا سنة ١٩٨٦ عندما زارها ، فعندما لاحظ أن رفوف الأسواق المركزية تكاد تكون خالية من معظم أنواع الملابس والأغذية قال له الوزير النيكاراجوي :

« إنك تنتقد خلو رفوف أسواقنا من كثير من السلع ، وقد تكون محقاً في نقدك هذا ، ولكن دعني أوضح لك الأمر فقبل الثورة كانت أسواقنا مليئة بالسلع ، وكان المرء يستطيع أن يجد ما يطلبه فيها ، ولكن أغلبية الشعب لم تكن قادرة على شراء هذه البضائع ، فكان معظم الناس يكتفون بالنظر اليها والإعجاب بها ، ولكنهم كانوا يعرفون أنها لم تكن معروضة من أجلهم ، بل من أجل قلة من الناس الأثرياء ، أما الآن فقد غيرنا كل ذلك ، فكل ما هو معروض هنا هو في متناول الجميع » .

يقول الكاتب إنه (صُعق) عندما سمع هذا الكلام ، لأنه يحتوي على منطق متناقض ، بل يبعث على الضحك ، فالذي فعلته الثورة - في رأي الكاتب - أنها حولت عالم الرخاء الذي ينعم به القلة من الناس إلى عالم الفقر الذي يشمل كل الناس . . !



لقد انتقلت البلاد من حالة النمو دون توزيع عادل على السكان ، الى حالة التوزيع العادل على السكان دون نمو يذكر !

الثورة الاجتماعية طويلة المدى التي تحقق نمواً اقتصادياً ثم توزيعاً عادلاً لثمرات هذا النمو تحتاج الى زمن ، وتقود هذه الثورة فئات اجتماعية بعينها هي البرجوازية . وكل ما يحدث في أي مجتمع من تقلصات يسمى عادة ثورة وتحدث الثورة اضطراباً في شكل المجتمع ، ولا تستطيع في النهاية أن تحقق هدف « النمو الاقتصادي والمساواة الاجتماعية » دون عنصري الزمن والفئة القائدة (البرجوازية) .

فالبرجوازيون ـ أينما وجدوا في أوربا في القرنين الماضيين ـ كانوا يقضون على الحكم الاقطاعي والكنسي والرعوي ، ويعملون على القضاء على الروابط القديمة ، وكانوا يخلصون الناس من نشوة التعصب والحماس لاعمال الفروسية ، وقد قدموا للناس تحولات جوهرية تخلصهم من مخلفات الماضي ، وتبشرهم ببديل صالح للصمود أمام تقلبات الحياة . إنه النظام الرأسمالي بمضمونه الديمقراطي .

ولكن هل وصل المجتمع الحديث (الغربي) إلى أن يكون مجتمعاً رأسمالياً ديمقراطياً ؟

وبمعنى آخر هل وصل الى تحقيق النمو الاقتصادي والمساواة الاجتماعية في آن معاً ؟

■ فرق كبير بين "الثورة الباردة" و"الثورة الساخنة" في تحقيق أهداف النموّ والمساواة

أساس المساواة بين الناس :

يعتقد الكاتب أن المجتمع الغربي الحديث لمّا يصل بعد إلى العدل الاجتماعي ، فالتناقضات في العالم الثالث بين العدل الاجتماعي وبين حصول الناس على الرغيف تناقضات واضحة ، ولم تحلها حتى الآن ثورة أو

انقلاب ، ولكن التناقضات في المجتمعات الغربية قد لا تبدو بهذا الوضوح ، ولكنها موجودة ، يجِد الكاتب في الكشف عنها ، وهو يبدأ بترسيخ حقيقة مفادها (أن الفرص التي تتاح للأفراد في أي مجتمع ، قد لا تكون في العادة متساوية ولا موزعة توزيعاً عادلاً بشكل مطلق بينهم .. ولو كانت المساواة المطلقة بين الناس يمكن تحقيقها لما كانت هناك ضرورة لقيام سلطة الدولة ..) .

في وجود الدولة لابد إذن من وجود مجتمع مكون من أناس يختلف بعضهم عن بعض في القدرات والامكانات . ووجود المجتمع المدني ، هو في حقيقته تمكين لهؤلاء الأفراد والمجموعات ذات القدرات والمصالح المختلفة ، تمكينهم من خلق مؤسسات يكمل بعضها بعضاً ، وبالتالي يستطيعون أن يشكلوا وحدات اجتماعية لديها القدرة على التقدم والمنافسة ، ومن مجموع هذه الوحدات يتشكل المجتمع .

فالأفراد في المجتمع ليسوا متساوين على الاطلاق ، والمنافسة مشروعة بين الفئات والجماعات التي تشكل المجتمع . هذا الطراز من التفكير الذي كان موجوداً منذ أرسطو يعود إلينا من جديد في أواخر القرن العشرين ، بعد عشرات الثورات والانقلابات التي اجتهدت لمعرفة وتحديد شكل الدولة وحقوق المواطن في المجتمع . لقد أصبح التوجه الجديد هو التفكير بوضع حد أدنى لما يجب على الحكومة أن تلتزم به أمام الجمهور في ضمان الحفاظ على النظام وسيادة القانون النابع من الناس أنفسهم وتأكيد الحقوق المدنية ، أما الباقي فيترك للتنافس الشرعي أن يحله بين الجماعات المكونة للمجتمع .

لقد أصبح البحث عن عقد اجتماعي جديد مطلوبا ، ولكنه ليس العقد الاجتماعي الذي تحدث عنه المفكرون قبل ثلاثة أو أربعة قرون ، إنه عقد اجتماعي جديد ينظم العلاقة بين المواطنين والدولة ، ليس على أساس أنه الهيكل الأبدي لجسم الدولة لا يقبل التغير أو التبديل ، بل على أساس أنه قابل للتغير حسب ما تقتضيه المصلحة العامة والأحوال الاجتماعية الجديدة . هذا العقد الاجتماعي يجب أن يكتب وتعاد كتابته من جديد في كل جيل ، والتغير يتم في البناء الذي يقام على الأسس التي تظل ثابتة .

أول ما يقتضيه النظر في هذا العقد الاجتماعي هو الصياغة القانونية لواجبات المواطن . فالمواطن في الدولة الوطنية والدولة القومية اليوم ، ليس (مواطناً) في امبراطورية ، كما أنه ليس (تابعاً) لإقطاعي كما كان في الأيام الخوالي ، فهو مواطن تجمعه رابطة قوية ، قائمة بينه وبين من يحكمه ، ولكن مازال الخلاف قائماً ونحن في نهاية القرن العشرين وفي بلاد متقدمة ، كالبلاد التي يتعرض لها الكتاب (وهي للتذكير أمريكا وبريطانيا وألمانيا الغربية) ، مازال الخلاف قائماً حول تعريف المواطن ، بل إن بعض أوجه هذا الخلاف

مازال حتى الآن يستعصي على الحل ، مع أن لب تقدم الدولة هو خلق المجتمع المدني . وقد ظل مفهوم الناس للمجتمع المدني متفاوتاً بين الوضوح والغموض ، الى أن استقر نسبياً على أن المجتمع المدني هو الدولة والمجتمع (الذي يتمتع فيه المواطنون بحقوقهم ويقومون فيه بواجباتهم ، بالتساوي دون تمييز) أي التحول من المجتمع الفئوي Segregated Society الى المجتمع المندمج Integrated Society .

ولكن هذه الحقوق والواجبات لم تأت في المجتمعات الغربية في الوقت نفسه وبالدرجة نفسها ، كما أنها ليست نهائية حتى اليوم ، ولإثبات ذلك يستعرض الكاتب التدرج والانتقائية في إعطاء الحقوق المدنية لأفراد المجتمعات الغربية بمثال إعطاء المرأة حق التصويت ، فبعد نقاش طويل وأخذ ورد صدر أول تشريع يمنح المرأة **حق التصويت المتساوي مع الرجل في سنة ١٩١٨ في بريطانيا** ، غير أن بعض البلاد الأوربية - كسويسرا مثلا - لم تمنحها هذا الحق إلا بعد ذلك بزمن طويل ، ثم بدأت قضايا اللون والعنصرية وحرمان السود من حق التصويت تشق طريقها الى البحث ، وحتى قضية حقوق الأطفال في مساق حقوق وواجبات المواطن ماتزال موضع جدل ونقاش .

والسؤال المطروح - كما يرى الكاتب - في المجتمعات الغربية ، لا يدور حول تساوي جميع الرجال والنساء في الحقوق والواجبات بشكل مطلق ، لأن هذا لا يبدو في الأفق المنظور ، ولكنه يدور حول إمكانية الاستمرار في التقدم في هذا الميدان بشكل ثابت - حتى لو كان هذا التقدم بطيئاً - الى أن يصبح كل رجل وامرأة في المجتمع إنساناً محترماً وسيد نفسه . . ولكن متى ؟

لا أحد يدري متى ، حيث أن هناك نوعين من المساواة بين الناس في المجتمعات الغربية ، مساواة من حيث الكم أو (المساواة الكمية) ، وهذه المساواة يمكن أن تتحقق مع الزمن ، أما المساواة من حيث النوع ، أو (المساواة النوعية) فإن هناك مراتب متدرجة بين المواطنين ستظل موجودة ، لأن الأخيرة يحكمها طبع الناس وثقافتهم وما تعودوا عليه منذ زمن طويل في الاعتراف بالأنا ونكران الآخر .

■ هل يبدو في الأفق حل كامل للمشكلات التي تواجه المجتمع الصناعي الحديث ؟

فقط نجح التحديث بمعناه الشامل في فك الارتباط بين الحالة المدنية (الحقوق والواجبات للمواطن) والحالة الاقتصادية ، فقد سنت قوانين تحول دون تمكين عامل الثراء من أن يعطي لصاحبه قوة ونفوذا يمكنانه من التنكر للحقوق المدنية للآخرين . ويشير المؤلف هنا إلى قوانين الضرائب ، وقوانين فك الاحتكارات ، وقوانين منع التجمعات الضخمة للرساميل ، وقوانين لجان التحقيق البرلمانية . . . الخ هذا النوع من القوانين التي قادت في النهاية - كما يرى الكاتب - الى القول بتلاشي الطبقات الاجتماعية التي كانت معروفة في

القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولكن هل يعني كل ذلك الوصول الى المساواة الاجتماعية ؟

حقوق المواطنة :

المواطنة وحقوقها - وليس الصراع الطبقي الذي أصبح قديماً وغير ذي موضوع - هي التي سوف تثور المعركة الاجتماعية في كثير من المجتمعات حولها ، كما يرى الكاتب . ووجهة النظر التي يبديها تضيف مفهوماً جديداً لتاريخ المواطنة في العصر الحديث ، فالمتتبع لتاريخ المواطنة من بداية القرن التاسع عشر الى سبعينيات هذا القرن ، تتكشف له أمور وظواهر كثيرة :

(**الظاهرة الأولى**) : أن التطور في الحقوق والواجبات لم يكن يوماً يأخذ شكل التزايد التدريجي المنظم (التراكمي) ، بل كثيراً ما كان هذا التزايد متقلباً ومتسماً بالتغيرات المفاجئة والمتباعدة ، ويتم على شكل خطوات متلاحقة ، ولكن دون انتظام ، فكل تغير كبير في هذه الحقوق والواجبات (حقوق وواجبات المواطنة) يحدث في أعقاب حادثة بارزة ، وكمثل على ما يقول : **إعطاء حق التصويت للمرأة في بريطانيا للمرة الأولى عام ١٨٣٢** ، فالقانون الذي صدر بإعطائها هذا الحق قلل ووحد قيمة الدخل الذي يتيح للمرأة حق التصويت فقط ، ولم يتجاوز ذلك الى أمور أخرى ، وفي عامي ١٨٦٧ و ١٨٦٨ تم إنقاص المؤهلات المطلوب توافرها في المرأة حتى يحق لها التصويت . وفي عامي ١٨٨٤ و ١٨٨٥ جرى تخفيض آخر في المؤهلات المطلوبة ، وفي عام ١٩١٨ تمت المساواة بين المؤهلات المطلوب توافرها في المرأة فوق سن الثلاثين والرجل فوق سن الحادية والعشرين ، وفي عام ١٩٤٨ تمت المساواة بين الجنسين في القبول في الجامعات . المهم أن كل هذه السنوات والتواريخ هي سنوات أعقبت حوادث مشهورة .

(**والظاهرة الثانية**) : التي تبدت للباحث في هذا الصدد أن ما يتم تحقيقه من تقدم في نيل الحقوق المدنية يصبح ثابتاً ودائماً ، ونادراً ما يتم إلغاؤه أو تعطيل إنجاز ما تم الوصول اليه ، وحتى لو تم هذا الالغاء أو التعطيل في ظروف ما فإنها تعود للتطبيق من جديد ، وكمثال على بعض صور الالغاء والتعطيل ما قامت به الحكومة النازية في ألمانيا قبل الحرب العظمى الثانية حيث أنقصت بعض الحقوق السياسية لطائفة من الناس . إلا أن القاعدة تؤكد أن الحق المدني بعد أن يكتسب يبقى ثابتاً .



والكاتب يقدم في تحليله لهذا الموضوع ، الاكتشاف الأهم في رأيه ، فهو يعارض الرأي السائد الذي قبله كثير من الكتاب في الاجتماع السياسي ، بل أصبح قاعدة عندهم ، وهو القائل بأن الديمقراطية على صلة وثيقة بالتطور الاقتصادي ، أي أنه كلما كان المجتمع غنياً ، زادت فرص محافظته على هذا

النظام . اعتراض الكاتب على هذه الأطروحة أن الولايات المتحدة سنة ١٨٢٠ وفرنسا سنة ١٨٧٠ والسويد سنة ١٨٩٠ لم تكن دولاً غنية ولا متطورة ، ولكنها كانت بشكل ما ديمقراطية كما هي حال الهند في الوقت الحاضر . والكاتب تبنى عكس النظرية ، فالديمقراطية - كما يراها - تسمح للبلاد المعدمة من الناحية الاقتصادية أن تتخذ من الديمقراطية سلماً لنيل حريتها وزيادة ثروتها في آن معاً . والدليل على ذلك أن الطبقة الوسطى الوليدة في بريطانيا هي التي طالبت بتحطيم النظم الطبقية القديمة والسير في الطريق الديمقراطي . ويشير الكاتب هنا الى تجربة السيدة مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء البريطانية (التي لم تساورها أية مخاوف من التضحية بالحضارة الاجتماعية والسياسية البريطانية على مذبح الازدهار الاقتصادي ، وقد نجحت في تحويل اهتمام الناس من المطالبة بالحقوق المدنية الى زيادة الانتاج ، بعد أن أقنعتهم بأن هذه الزيادة هي التي سوف تحل لهم مشاكلهم . . .) .

■ الحلول التي نضعها لمشاكلنا اليوم ستصبح غداً مشاكل جديدة تبحث عن حلول.. !

إن حل المشكلات التي تواجه المجتمع الصناعي الحديث ليس فقط (بالديمقراطية) فالحل الوحيد المتكامل في رأي الكاتب هو سن التشريعات التي تضمن حريات الأفراد وحقوقهم . وحله هذا يشمل عنصرين رئيسين : **الأول** هو التسليم بضرورة وجود هذه التشريعات ، **والثاني** هو أن موضوع هذه التشريعات والحريات في رأيه يشمل ثلاثة عناصر :

العنصر الأول هو سيادة حكم القانون ، والثاني هو سيادة الديمقراطية ، والثالث هو وجود القيادة الواعية التي تستطيع التحكم بالعنصرين السابقين وتطبيقهما بشكل سليم . فسيادة حكم القانون تجعل من الأفراد مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات ، والديمقراطية تمكن المواطنين من إسماع صوتهم للقادة ، وتعطيهم الحق في إبداء آرائهم فيما يريدون أو يرفضون ، والقيادة الواعية تستطيع المحافظة على استمرارية العنصرين الأول والثاني ، وتبقي المجتمع في حالة حركة دائبة ، وتحول بينه وبين الركود تحت وطأة البيروقراطية والاستسلام لها (التي ينتقدها الكاتب بشدة) . في ظل هذا التفاعل تبقى المجتمعات المدنية متفتحة نحو التجديد .

حدود التقدم :

المحصلة التي يصل إليها الكاتب أن أي حلول تُقدم لمعالجة المشكلات التي يعاني منها المجتمع الغربي الصناعي يجب أن تكون بطبيعتها حلولا مؤقتة (فالحلول التي نضعها لمشاكلنا اليوم سوف تصبح مشاكل تتطلب التفكير بحلول جديدة لها بعد فترة طالت أو قصرت . . .) .

ولكن المشكلات حقيقية ومتفاقمة ، فإذا استمر المعدل الحالي في زيادة

السكان ، وفي التصنيع ، وفي تلوث البيئة ، وفي نقص الانتاج الغذائي ، وفي نضوب الموارد ، فإن حدود النمو فوق هذا الكوكب سوف تبلغ نهايتها .

ويسأل الكاتب نفسه سؤالاً : كيف يمكن التخلص من هذه العواقب الوخيمة ؟

ليس هناك خيار واضح أو طريقة مناسبة للتخلص من هذه العواقب ، فكلما جربت سياسات في السنوات الأخيرة ظهرت لها نتائج سلبية أكبر مما كان من المفترض أن يظهر ، فبعض الحكومات اختارت تنمية الثروة النباتية ، وبعضها اختار طريقة التنمية الصناعية والانتاج الكمي للسلع ، وقد جربت أنظمة أخرى طريقة الحوافز للمنتجين ، وتقديم المعونة للفنيين ، كل ذلك من أجل الوصول إلى نمو اقتصادي معقول تمهيداً لمساواة اجتماعية ، ولكن الجانب الهدام في هذه السياسات أكثر وضوحاً من الجانب البناء ، لذلك ينتظر العالم الآن بداية التسعينيات لظهور سياسات جديدة تعنى ، ليس بالقطاع الزراعي الذي تراجعت نسبة العمالة فيه في بعض هذه البلدان إلى ما دون العشرة في المائة من قوة العمل ، ولا بالقطاع الصناعي الذي تتراجع فيه نسبة العمالة أيضاً بشكل ملحوظ ، ولكن بقطاع جديد متنام هو قطاع الخدمات . إنه مجتمع ما بعد الصناعي ، فما هي مشكلات المجتمع ما بعد الصناعي ؟

أهم مشكلة نشأت في المجتمعات ما بعد الصناعية هي مشكلات البطالة ، فلم يعد التشغيل الكامل مطلباً سياسياً أو اقتصادياً ، وأصبحت هذه المجتمعات تستطيع أن تعيش وبداخلها ملايين قادرون على العمل ، ولكنهم لا يجدونه .

مشكلة البطالة كانت حتى منتصف هذا القرن تقيم حكومات وتسقط أخرى في المجتمعات الغربية ، وكانت نسبة البطالة ترتفع في حالة الركود الاقتصادي ، وتكاد تتلاشى في حالة النمو الاقتصادي . كان العمل هو المحرك الأساسي والدينامي للمجتمع ، أما اليوم فلم يعد كذلك ، بل لم تعد البطالة مرهونة بالركود أو الانتعاش الاقتصادي ، فقد أصبح من الممكن في المجتمع ما بعد الصناعي أن يحدث انتعاش اقتصادي مع وجود نسبة كبيرة من السكان عاطلين عن العمل .

يتساءل الكاتب (إن تفشي البطالة مع وجود ازدهار اقتصادي يبعث على التساؤ ل عن نوعية هذا الازدهار) .

وهل هذا الازدهار ازدهار حقيقي ؟

يجيب الكاتب على هذا السؤال بأن الازدهار المشاهد في المجتمعات الغربية الخدمية (ما بعد المجتمع الصناعي) هو ازدهار لاعب القمار ، إنه ازدهار يقوم على أساس التعامل في أسواق البورصات المالية ، انه أشبه ما يكون بلعبة الحظ ، يرضي اللاعب ويشبع رغبته في الثراء السريع أحياناً ،



■ الحاجة إلى عقد اجتماعي جديد ينظم العلاقة بين المواطنين والدولة

ويخذله في أحيان أخرى ، وما سقوط البورصات المتكرر وشبه الدوري إلا دليل على ذلك .

إن الازدهار الاقتصادي الصحي هو ما يكون ثمرة عمل وجهد وإنتاج لا ثمرة مغامرة وحظ ، ولقد قرع ناقوس الخطر أكثر من مرة تخوفاً من هذا الازدهار الظاهري ، لأنه ليس قائماً على أساس ، وبجانب وجود البطالة التي أصبحت تنقص أكثر وأكثر من حقوق المواطنة للمواطن ، يجري نقاش في أوربا الآن يدعو بعضه لفصل والغاء حق العمل كحق من حقوق المواطنة ، بل بحرمان المتعطلين من بعض حقوقهم المدنية الأخرى .

ولقد أصبحت قضية الفقر التي ينحدر اليها ملايين المتعطلين ، بل وملايين أخرى من ذوي الدخل المتدني ، تخلق طبقة جديدة في المجتمع الغربي مابعد الصناعي . إن هناك طبقة يتزايد عددها باستمرار ، يعيش أفرادها على حافة الفقر ، إما عاطلين عن العمل ، أو عاملين بأجور متدنية تحت خط الفقر ، أو عاملين في وظائف مؤقتة ، وقليل من هؤلاء الناس يستطيعون أن يشقوا طريقهم الى أعلى ، وأن يخرجوا من طوق طبقة الفقر الجديدة ، أو الفقر بالتلفاز الملون كما يسميه الكاتب .

إن مواصفات أفراد هذه الطبقة تكاد تتضح ، والعامل المشترك بينهم أنهم يعيشون في المدن الكبرى ، وأن معظمهم ينتمي الى الأقليات ، ويعيشون في أكثر الأماكن فقراً في المدينة ، وأغلبهم ـ وهذا هو الأهم ـ يتعاطون الخمر والمخدرات ويقومون بأعمال خارجة على القانون ، ومعظم أفراد هذه الفئة ـ كما يقول الكاتب ـ هم ممن يولدون خارج فراش الزواج الشرعي . . إن هؤلاء هم الذين تجتمع فيهم العلل الاجتماعية للمجتمع ما بعد الصناعي الغربي .

وهن الروابط الأسرية ، وظهور الاسرة التي تسودها المرأة (في غياب أو هروب الرجل) يتفشى في الفئات الدنيا من المجتمع الغربي . والملاحظة التي يذكرها الكاتب وتثير كثيراً من الانتباه ، أنه حتى الذين يتمكنون من هؤلاء من الافلات من حدود الطبقات الدنيا والانتقال إلى صفوف الطبقات المتوسطة يظلون على الحياد في نواح عديدة مهمة ، تتعلق بالنظم السائدة في المجتمع الجديد الذي انتقلوا إليه ، بعض هؤلاء ملكوا اليخوت والفلل ، ولكن جذورهم الثقافية ظلت ضحلة ولم تتغير ، وظل ولاؤهم (الثقافي) لطبقتهم السابقة !

كل هذه النتائج جعلت الدول الغربية الحديثة تفرق في الحقوق والامتيازات بين مواطنيها . ويقول الكاتب : (ان التفريق في الحقوق والامتيازات التي تمنحها الدولة بين شخص وآخر يعيشون على أرض البلاد ويساهمون في نهضتها وعمرانها وازدهارها يعد خطوة كبيرة إلى الخلف في تاريخ التطور الاجتماعي،ونكسة خطيرة تكلف الدولة كثيراً من الخسائر . وأول مثل

نسوقه على خسارة الدولة من مثل هذه المسالك هو النزاعات والأحقاد التي تنشأ بين سكان البلد الواحد والتي تستعصي على الحل . . .) .

ويسرد الكاتب تدليلاً على ما ذهب إليه ، مجموعة كبيرة من أعمال الشغب والعصيان التي حدثت في الثمانينيات في أكثر من قطر أوربي ، وعلى رأسها الأحداث التي تتم في ساحات كرة القدم !

عقــد اجتـماعي جـديـد :

ينتهي كاتب هذا الكتاب المثير إلى المطالبة بعقد اجتماعي جديد ، فالوضع القائم يقترب من خط النهاية ، وهناك قائمة طويلة يجب أن تدخل على التشريعات القائمة من أجل إصلاحها . ويخاطب الكاتب الشباب فيقول : .

(لـو قدر لي أن أوجه نصيحة للشباب في الأربعينيات لقلت لهم : حاربوا من أجل الحفاظ على حرياتكم التي منحتها لكم الطبيعة بأسنانكم وأظافركم . أما في الخمسينيات فكنت سأقول لهم : اعملوا بجد من أجل الحفاظ على حرياتكم ، فالعمل الجاد هو الذي سوف يوصلكم إلى مبتغاكم ، عليكم بالبحث عن العمل الذي يناسبكم . أما في السبعينيات فكنت سأقول لهم : لا تجعلوا الرفاهية المادية هي مطمحكم الوحيد ، فهناك أهداف أسمى وأنبل . . أما في الثمانينيات فإنني سأقول لهم : لا تضعوا اللوم على القدر ، بل على أنفسكم . . .) إن الكاتب يبحث عن عقد اجتماعي جديد لانقاذ المجتمع الغربي ما بعد الصناعي من أزمته .

إنه ينتهي إلى القول بأن كل التشريعات التي تبناها المجتمع الغربي ما بعد الصناعي قد فشلت حتى الآن في تكوين المجتمع المندمج ، بل خلفت وراءها مجتمعات أكثر فئوية وأعمق اختلافاً مما كانت عليه في السابق ، مجتمعات تفقد لأول مرة منذ أكثر من قرنين من الزمان قدرتها على تقديم حقوق مواطنة أفضل أو عدل اجتماعي أوسع .

وبعد . . .

هل الكاتب متشائم أكثر من اللازم ، أم أنه أراد أن يدق ناقوس الخطر في وقت مبكر ؟

قد يكون هذا أوذاك ، ولكن الأهم أنه اجتهد في تشريح مظاهر المرض الذي رآه ووصف بعض الدواء له وأتاح للآخرين أن يشاركوه أو يعارضوه فيما ذهب إليه ، فقد قام الجنس البشري في السابق بحل مشاكله بنفسه ، ولا شك أنه سيقوم بنفس المهمة الآن وفي المستقبل ، و علينا أن نعرف الحقائق فقط . □



محمد الرميحي





(الحياة مجموعة من الخبرات المتنوعة ، وليس بالضرورة أن تتشابه وتتكرر ، إنما كثير من الخبرات منفردة تضيف معنى جديدا للحياة ، وتعطيها لذة التراكم ، وقد اختارت العربي مجموعة من المتميزين العرب ليروي كل بطريقته الخاصة بعضا من ذكرياته التي أصبحت دروسا في الحياة) .

الحب المجنون

بقلم : حنا مينه

في روايتي « الربيع والخريف » ، التي تدور أحداثها في بودابست عاصمة المجر ، أرسم صورة قلمية لفتاة جامعية اسمها بيروشكا ، تحب بطل الرواية كرم المجاهدي . يستطيع القارىء الكريم أن يعود إليها ، ويتعرف على قصتها ، التي أخذتها نطفة من واقع الحياة ، وأضفت عليها من خيالي ماجعلها شخصية روائية ، تنمو مع السياق الروائي ، وتمتلك مقومات الخلق الأدبي ، لكونها حبيبة ، وعاشقة ، وانسانة .

حسناً ! حدثني كرم المجاهدي ، بطل روايتي قائلا : « هذه الفتاة عرفتها شخصيا حين كنت في المجر ، لظروف طارئة ، أعيش الغربة قهرا يوميا ، فيه مرارة ، ولوعة ، وفيه لذة مشبوهة ، تخالطها تلك النكهة التي قال عنها الشاعر التركي ناظم حكمت : إنها نكهة المنفى ، وإنها الأصعب مذاقا ، لأن مهنة العيش في المنفى أشقى المهن قاطبة » .

كانت بيروشكا تدرس الأدب المجري ، وتتكلم الفرنسية ، ومولعة بالشعر ، تذوقا ونظما ، وقد تعرفت عليها في إحدى المناسبات ، ومنذ ذلك الحين أصبحنا صديقين ، تجمعنا عاطفة غريبة ، هي عاطفة الحب بين رجل في خريف العمر ، وامرأة في ربيعه ، وتوحد بينهما رغبة مشتركة ، منسوجة من أشعة قمر في ليلة صيف ، ومكرسة للهوس الفني ، في أن نصنع أدبا ، أصابعه مأخوذة من زبد البحر ، حيث الموجة تحكي حكاية الأيام منذ الأزل إلى الأبد .

وتشاء الصدف أن تفرق بيننا استجابة لإرادة دفعتني إلى هجرانها ، لأنني في الكهولة ، وهي في الصبا ، ولأنني غريب ، لاينبغي لي أن أتلاعب بعواطف فتاة ، أعرف أنني مفارقها بعد قليل .

وقبل عودتي إلى الوطن بأيام ، التقيتها وبعض الصحب في الطريق ، فاندفعت إلي تعانقني

وتبكي ، وحكم من معنا بأن نجلس في أحد المقاهي جلسة وداع ، قدروا أنها لن تتكرر ، ولن يكون بعدها لقاء ، إذا ما سافرت فعلا .
أبلغتها ذلك لتكون على بينة من الأمر ، قلت لها : إنني عائد إلى الوطن ، وأن هذا اللقاء هو الأخير، وتركت لها أن تختار المكان الذي نجلس فيه ، فاختارت مقصفا صغيرا ، فيه أضواء خافتة ، موزعة توزيعا فنيا ، يعطيه جوا حالما ، طلبنا نبيذا ، ورحنا نستعيد ذكرياتنا ، ونستمتع بحلاوة الجو الحميمي ، السائد بين الجالسين من حولنا ، أو الراقصين على مقربة منا ، على أنغام الكمان والبيانو ، اللذين يعزفان مقطوعات غنائية ، بينها مقطوعة خفيفة ، لطيفة ، كانت شائعة تلك الأيام ، عنوانها « أسعد مساؤك عزيزتي بيروشكا » . وقد طربت صديقتي الصغيرة لهذه الأغنية ، ورغبت في استعادتها ، فنهضت وقدمت - كما هي العادة - شيئا من المال القليل الذي كان معي ، ووضعته على حافة البيانو ، وطلبت إعادة الأغنية .
أعيدت الأغنية ، وجاء عازف الكمان إلى طاولتنا محييا ، فدفعني ذلك إلى تكريمه ، ونهضت فوضعت مبلغا مضاعفا على حافة البيانو ، وقدمت للعازفين زجاجة نبيذ ، تحية تكريم لهما .
ولأنني فعلت ذلك - ونادراً مايحصل - فقد رد العازفان التحية ، وكررا الأغنية ، الأمر الذى بعث في نفسي نشوة غامرة ، فضاعفت المبلغ للمرة الثانية ، وطلبت لهما زجاجة نبيذ أخرى ، وجلست أستمتع بعذوبة النغم ، ودفء العاطفة ، وخدر الاحساس المتبادل بين رجل وامرأة ، مازالت لديهما بقية وجد قديم ، تفتح وأزهر مرة أخرى ، دون أن يتقصدا ذلك .
أشهد أنني لم أكن مدفوعا بكرم عربي ، ولم أفكر في الإقدام على لعبة إبهار ، ولم أتعمد الغرابة التي هي من طبع الأدباء والفنانين . كل ماهنالك أنني كنت سعيدا ، مسرورا ، لأن صديقتي الصغيرة مسرورة ، ولأن تكرار اسمها ، بتكرار الأغنية ، كان يمنحني غبطة . وهكذا دخلنا في مباراة : العازفان يعيدان ، بين فترة وأخرى ، عزف الأغنية ، وأنا أضاعف المبلغ المقدم إليهما ، حتى جاء عازف الكمان ورجاني أن أتوقف عن فعل ماأفعل ، وأعلن في الجمع ، بعد قليل ، أنه سيعزف أغنية « أسعد مساؤك عزيزتي بيروشكا » للمرة الأخيرة ، إكراما لضيف عزيز ، وسيدة جميلة ، موجودة بين الحاضرين ، مما لفت الانتباه إلينا ، وحفز أكثر من شاب إلى طلب صديقتي للرقص ، وهي تعتذر بأدب ، لأنها تفضل أن تبقى جالسة معي ، سارحة في عالم من التخييل « الرومانتيكي » الذى عرفته ضفاف الدانوب في مرحلة من زمن مضى .
وحين عزفت الأغنية للمرة الأخيرة ، وكانت بيروشكا تعرف ، أوهي لاحظت ، أنه لم يبق معي ما أكرم العازفين به ، بدأت تبكي .
سألتها :
- لماذا تبكين يا بيروشكا ؟
أجابت من بين الدموع :
- لأنك ستتركني وتعود إلى وطنك .
قلت مدارياً :
- ولكنك في ميعة الصبا ، وسيكون لك من الوقت ماتحبين خلاله رجلاً غيري .
قالت وهي تزداد بكاءً :
- أعرف ، هناك رجال كثيرون ، ولكن أين أجد رجلا مجنونا مثلك ! ؟
قلت ضاحكا :
- إذن أنت تحبين جنوني ؟
فتأملتني بعينيها اللوزيتين ، اللامعتين ببريق أنثوي مشبوب ، وقالت :
- الحب مجنونا يكون ، أو لايكون !
ونهضت مندفعة ، ثائرة ، حتى دون أن تقول لي « وداعا » .
خرجت دون أن تلتفت إلى الوراء ، كأنها تأبى أن تصدق أو ترضى ، بأن يكون لقاؤنا هذاهو اللقاء الأخير . وخرجت بدوري . □

إلغاء ديون العالم الثالث أو الكارثة

بقلم : الدكتور رمزي زكي

« في شهر سبتمبر الماضي ، أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، على سمع المجتمع الدولي طرح سمو أمير الكويت مبادرته لإلغاء ديون العالم الثالث . وسرعان ما تصاعدت ردود الفعل الايجابية حول هذه المبادرة » .

« والعربي » تفتح هذه الصفحات لواحد من أبرز الخبراء الاقتصاديين العرب في قضية الديون التي كان له فيها إسهامات فكرية كثيرة ، ليقدم للقراء صورة علمية عن حقيقة الأزمة وأبعادها ، والخطر الذي يهدد النظام العالمي ، إن استمر تجاهل هذه المشكلة فترة أطول .

وصلت أزمة الديون الخارجية إلى منعطف خطير في الآونة الراهنة ، خاصة بعد أن تطورت أحجامها وأعباؤها إلى المستوى الذي بلغته الآن .

وأهم معالم هذا المنعطف هو ذلك التناقض الذي نشب بين قدرة البلاد المدينة على دفع أعباء ديونها الخارجية ، وقدرتها على المحافظة على الحد الأدنى الضروري لمستوى معيشة البشر فيها . حيث أصبحت أعباء خدمة الديون (الفوائد + الأقساط) تفترس نسبة هامة من إجمالي حصيلة صادراتها ، ومن إجمالي ناتجها المحلي . وقد حاولت بعض الدول المدينة مواجهة هذا المأزق من خلال استنزاف احتياطياتها النقدية (الذهب والعملات الأجنبية) والضغط على مستوى الواردات . وقد أدى استنزاف هذه الاحتياطيات إلى تدهور القيمة الخارجية لعملاتها الوطنية . كما أنه لما كانت هناك علاقة ارتباط قوية بين مستوى الاستهلاك الجاري والإنتاج المحلي والاستثمار والنمو الاقتصادي من ناحية ، وبين مستوى الواردات من ناحية أخرى ، فإن استمرار الضغط على الواردات - بعد حد معين - لن يلبث أن ينعكس في شكل قوى انكماشية تخفض من مستوى المعيشة ، وتقلل من حجم الناتج المحلي ، وتوقف عجلات النمو الاقتصادي . من هنا ليس غريبا أن نشاهد في كثير من البلاد المدينة تدهورا شديدا في مستويات الاستهلاك الضرورية ، وارتفاعا فاحشا في الأسعار ، وتفاقما حادا في البطالة . وهي أمور تهدد النظم السائدة فيها باضطرابات اجتماعية وسياسية ، وباحتمالات متعاظمة لتفجر

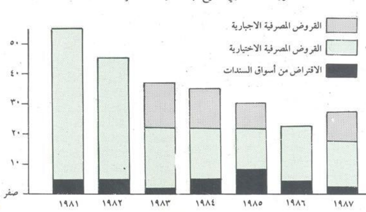
الأوضاع فيها . حقا ، إن أزمة الديون الخارجية أصبحت تشكل الآن كارثة حقيقية على شعوب البلاد المدينة في العالم الثالث ، كما أنها باتت أحد محاور الصراع والخلاف بين البلاد المدينة والبلاد الدائنة . ولهذا فقد خرجت من إطارها التقني ، المالي والنقدي ، لتتحول إلى مشكلة سياسية عالمية من الدرجة الأولى .

نقص ثم إفلاس

وحتى عام ١٩٨٢ كانت تلك الأزمة تشخص على أنها مشكلة نقص في السيولة ، بمعنى أنها تتمحور في مدى الملاءمة والكفاية لوسائل الدفع والاحتياطيات الدولية التي تملكها البلاد المدينة لمواجهة التزاماتها الخارجية في الأجل القصير . وحتى ذلك التاريخ لم تكن هناك مشكلة حقيقية ، طالما أن نظام الائتمان الدولي يضخ إلى البلاد المدينة تلك المقادير الكافية من السيولة لسد عجز الحسابات الجارية لموازين مدفوعاتها ، ولدفع أعباء ديونها الخارجية . وخلال عقد السبعينيات سارت الدول النامية على طريق الاستدانة المفرطة ، نظرا لسهولة الاقتراض الخارجي ، بسبب تخمة السيولة العالمية الموجودة آنئذ ، وانخفاض أسعار الفائدة الحقيقية ، دون الحاجة لوضع سياسات حازمة لمواجهة خطر العجز الزاحف ، ودونما حاجة للجوء إلى صندوق النقد الدولي بسياساته التقشفية وشروطه المجحفة وتدخلاته في الشئون الداخلية لها . بيد أن ديون هذه البلاد قد نمت بشكل فلكي ، وبمعدلات أكبر من معدلات نمو نواتجها المحلية ، وزادت أعباء خدمتها بمعدلات تفوق كثيرا معدلات نمو صادراتها . وكل ذلك كان يشير بوضوح أن الأزمة واقعة لا محالة ، طال الزمن أو قصر . وقد وقعت الأزمة بالفعل في خريف عام ١٩٨٢ حينما توقفت كبريات الدول المدينة (المكسيك والأرجنتين) عن دفع أعباء ديونها الخارجية المستحقة للمصارف الأمريكية . وهنا ، دخلت الأزمة إلى منعطف خطير .

فقد هبطت معدلات نمو الائتمان الدولي بشكل شديد من ناحية وتفاقمت أوضاع الاقتصاد الرأسمالي العالمي من ناحية أخرى . وتأثرت البلاد النامية المدينة من ذلك أيما تأثير . فقدرتها على تمويل عجز حساباتها الجارية قد انخفضت كثيرا ، مما اضطرها للضغط المستمر على وارداتها ، الأمر الذي فاقم أوضاعها الداخلية . كما أن قدرتها على الوفاء بأعباء ديونها

● تدهور الائتمان الدولي الممنوح للبلاد النامية خلال الفترة ١٩٨١ - ١٩٨٧



المتراكمة قد ضعفت إلى أدنى الحدود . عندئذ ، بات من الواضح أن أزمة الديون تحولت لتصبح أزمة إفلاس ، أي العجز الحقيقي لهذه الدول عن الوفاء بجبل ديونها الشاهق في الحاضر والمستقبل .

من يساعد من ؟

وزاد خطورة الموقف أن البلاد المدينة النامية قد ساء وضعها كثيرا في الاقتصاد العالمي من جراء أحوال الكساد العالمي في السنوات الأخيرة . يكفي في هذا الصدد أن نعلم بأن التدهور الذي حدث في أسعار المواد الأولية التي تصدرها هذه البلاد قد نجم عنه خسائر مالية تقدر بما لا يقل عن مائة بليون دولار في السنوات القليلة الماضية وهو ما يزيد عن ثلاثة أضعاف حجم ما تلقته هذه البلاد من « معونات » حكومية من الدول المتقدمة . وتعقد الموقف أكثر حينما أصبحت مدفوعات الفوائد والأقساط وتحويلات أرباح رؤوس الأموال المستثمرة في البلاد المدينة ، تزيد كثيرا عما ينساب إلى هذه البلاد من قروض واستثمارات جديدة . أي أن تلك البلاد قد أصبحت مصدرا صافيا للموارد إلى عواصم البلاد الدائنة . وطبقا للتقرير الأخير للبنك الدولي عن التنمية في العالم لسنة ١٩٨٨ تقدر الأموال الصافية التي خرجت من البلاد المدينة للعالم الخارجي بحوالي ٤٠ بليون دولار ، وهو الأمر الذي يدعونا لكي نتساءل : من الذي يساعد من ؟

على أيّ حال ، لو ألقينا الآن إطلالة سريعة على الحلول التي طبقت لمواجهة أزمة الديون الخارجية فسوف نجد أنها لا تخرج عن الحلول التي وضعها صندوق النقد الدولي ومعه الدائنون . وهي حلول باتت معروفة ولا داعي لسردها هنا . لكن من المؤكد أنه بعد أن ظهرت نتائج « حقول التجارب » في البلاد التي طبقت فيها ، تبين أن تلك الحلول مضرة أشد الضرر بالفقراء ومحدودي الدخل ، وأنها معادية للنمو الاقتصادي ، ومتحيزة لصالح الأغنياء ورأس المال الأجنبي . وحتى قروض التكيف الهيكلي التي يقدمها البنك الدولي لمؤازرة البلاد التي تطبق سياسات الصندوق ما زالت عاجزة تماما عن الارتفاع لمستوى الحل الحقيقي والجذري لتلك الأزمة ، لأنها تكمل وصايا الصندوق وتدعمها . فالهدف من هذه الحلول والسياسات يبقى في التحليل الأخير ، هو اعتصار البلاد المدينة بشتى الطرق ، ولآخر رمق ، حتى يمكن الوفاء بديونها الخارجية . ولهذا سرعان ما اكتسبت سياسات الصندوق والبنك موجة شديدة من النقد والعداء ، ليس فقط من رجال الاقتصاد وصانعي السياسة بالبلاد المدينة ، بل ومن جماهير هذه البلاد التي اكتوت بنيرانها . كما أن عددا كبيرا من المفكرين والاقتصاديين بالبلاد الدائنة نفسها أصبحوا يعارضون الصندوق وينتقدون صرامته الشديدة وقسوته الطاغية في تعامله مع البلاد المدينة .

حلول واقتراحات

ومع تزايد يأس الدائنين من تفاقم أوضاع البلاد المدينة ، وعدم فاعلية سياسات الصندوق ، راح بعض « الخبثاء » يطرحون مؤخرا حلا آخر ، أشد بأسا وخطورة من حلول الصندوق ، وهو تحويل الدين الخارجي لأصل إنتاجي ، وذلك من خلال السماح للدائنين بالمشاركة في ملكية بعض الأصول الانتاجية التي تملكها حكومات البلاد المدينة ، مثل المناجم ، والصناعات الاستهلاكية ، والانتاجية ، وشركات النقل (البحري والجوي والبري) ، والصناعات البتروكيماوية ، ومشروعات الطاقة ، والمزارع ، ومعامل تكرير النفط ، إلى آخره . وليس شرطا لتنفيذ هذا الاقتراح أن يتحول الدائن بنفسه إلى مشارك في ملكية هذه المشروعات ، ولكن من الممكن - إذا ما أعلنت الدولة المدينة نيتها لقبول هذا الحل - أن يبيع الدائن (بنكا كان أم حكومة) دينه المستحق على الدولة بسعر خصم معين لمستثمر ما ، ثم يقوم هذا المستثمر بتحويل دينه المستحق على هذه الدولة إلى العملة المحلية لتلك الدولة ، ثم يشتري بها بعض الأصول الانتاجية فيها . وهنا



يتحول الدائن إلى مستثمر مباشر، وتتحول أعباء الأقساط والفوائد إلى أرباح تحول للخارج. وحينئذ ينقلب الدين المالي إلى دين مؤبد. ولتمهيد بيع القطاع العام وفاء للدين الخارجي، ثمة ضجة عالية ولافتة للنظر في البلاد المدينة، ذات الديون الثقيلة، تتمثل في الهجوم الشديد على مؤسسات القطاع العام، والزعم بأنها أصبحت عبئا على الدولة.

وقد عارضنا بشدة هذا الحل، لأنه يهدد بعودة تحكم رأس المال الأجنبي في الحكم، ويعود بنا لعصر السيطرة «الكولونيالية» المباشرة على مقدرات هذه البلاد. ناهيك عما سيتمخض عنه في المدى المتوسط والبعيد من تزايد عجز موازين مدفوعات هذه البلاد من جراء نزح الأرباح للخارج، ومن تصاعد نصيب الأجانب في الناتج المحلي الإجمالي، وما سينجم عنه من تغيير دساتير البلاد المدينة وتشريعاتها على نحو يسلبها الكثير من المنجزات والمكتسبات التي حققتها في معارك الاستقلال الوطني والتحرر الاقتصادي. ناهيك عن أن الخبرة التاريخية في هذا الخصوص غنية ودامغة. ما بالنا نذهب بعيدا وخبرة مصر مع هذا الحل ما زالت غير بعيدة لا يمكن أن تغيب عن الذاكرة. فقد اضطر الخديوي اسماعيل تحت ضغط ديونه الخارجية الباهظة أن يبيع حصة مصر من أسهم قناة السويس، نظير تسديد جانب من هذه الديون، ومنذ ذلك الوقت خسرت مصر عوائدها المستحقة من رسوم المرور في القناة إلى أن جاء زعيم مصر الراحل جمال عبدالناصر وأممها في عام ١٩٥٦.

وكلها باءت بالفشل

وهكذا يمكن القول، ان جميع الحلول التي جربها الدائنون مع المدينين، مثل إعادة الجدولة، وشروط صندوق النقد الدولي، أو السياسات الانكماشية الاجبارية.. إلى آخره، كلها باءت بالفشل. وأدى التطبيق العملي لها إلى تفاقم أزمة الديون بدلا من التخفيف منها. من هنا تتصاعد الآن، أكثر من أي وقت مضى، الدعوة لالغاء هذه الديون. فليس هناك مستقبل أو أي آفاق لحلها على نحو يلغي التناقض الحاد القائم بينها وبين مصالح شعوب العالم الثالث. وقد لجأ الدائنون بالفعل إلى إلغاء بعض مستحقاتهم على بعض البلاد المدينة الفقيرة. ومن المؤكد أن دائرة الإلغاء سوف تتسع عاما بعد آخر، إما تحت الادراك المتزايد للدائنين باستحالة وفاء البلاد المدينة بالدفع، وإما بحكم الأمر الواقع حينما تتحرك جبهة العالم الثالث لتجبر الدائنين على قبول هذا الحل.

إن الأزمة الراهنة للديون الخارجية قد انطوت على درس بالغ الأهمية لدول العالم الثالث، وهو أنه يستحيل تحقيق التحرر الاقتصادي وبناء التنمية المستقلة ورفع مستوى المعيشة من خلال تزايد التبعية للخارج، وأن عبودية الدين شأنها تماما شأن عبودية الاستعمار، كلاهما يفقد البلد حريته وسيطرته على موارده وعلى مستقبله.

وهو درس بالغ الأهمية والدلالة حقا. □

العرب والسوق الأوربية الموحّدة



بقلم : الدكتور اسماعيل صبري عبد الله*

اثنتا عشرة دولة أوربية ستصبح موحدة بعد أقل من ثلاث سنوات من الآن ، وقد وضعت لبنات هذا التوحد على مر السنين السابقة لبنة لبنة ، وهناك مناطق أخرى من العالم تتقارب وتتكتل لمصالح شعوبها . ما تأثير ذلك علينا نحن العرب عندما يفاوض الأوربيون في التجارة والسياسة متحدين ، ونفاوض نحن فرادى متفرقين ؟ ذلك سؤال حاول الإجابة عنه علم من أعلام الاقتصاد العربي ، نقرؤه فنشعر بحسرة . فهل تدفعنا تلك الحسرة إلى التفكير في أنفسنا ومصالحنا ؟ .

سيكون عام ١٩٩٢ معلما مهما في تاريخ التجارة الدولية والتحولات الكبرى في تياراتها ، ففيه تتحول السوق الأوربية المشتركة إلى سوق موحدة . وفيه أيضا تنشأ منطقة تجارة حرة ، تشمل الولايات المتحدة وكندا (بعد تصديق البرلمان الكندي عليها) . واستعدادا لذلك الموعد تدور المفاوضات والاتصالات حاليا فيما يسمى مؤقتا إقليم آسيا والمحيط الهادي الذي تحتل اليابان موقع القيادة فيه ، بغية تطوير العلاقات الاقتصادية بين دوله ، الواقعة في شرقي آسيا وفي جنوبها الشرقي وفي المحيط الهادي (استراليا ونيوزيلندا ومجموعة الدول ـ الجزر المنتشرة في المنطقة) . كما أن حركة « إعادة البناء » البيروستريكا الدائرة حاليا في الاتحاد السوفيتي التي ينتظر أن تمتد إلى كل دول أوربا الاشتراكية ستحدد ـ ضمن ما ستحدده ـ مستوى علاقاتها مع الأسواق العظمى التي في سبيل النشأة والتكوين . وإذا مد الباحث طرفه إلى مبتدأ الألف الثالث يستطيع أن يرى ملامح تطورات أخرى مثيرة في

* وزير للتخطيط سابقا بالقطر المصري ورئيس منتدى العالم الثالث

العلاقات الاقتصادية الدولية .

ونقتصر في هذا المقال على السوق الأوروبية الموحدة ، وتأثيراتها المحتملة على العلاقات بين أعضائها وبين الأقطار العربية . ويسوغ هذا الاختيار واقع أن تلك الدول مجتمعة في السوق المشتركة هي أكبر شريك تجاري للأقطار العربية لها الأسبقية الواضحة على اليابان والولايات المتحدة . ووفقا للبيانات الاحصائية المتاحة دار نصيب دول الجماعة الاقتصادية الأوروبية ــ وهو الاسم الرسمي للسوق المشتركة ثم الموحدة ــ حول الثلث من إجمالي التجارة الخارجية للدول الأعضاء في جامعة الدول العربية . وكان الميزان التجاري بين المجموعتين لصالح العرب عندما كان سعر النفط مرتفعا ، وأصبح لصالح السوق المشتركة عند انخفاض سعر النفط ، وبعد تحديد الكميات المنتجة منه . وإذا أمعنا النظر في إحصائيات التجارة الخارجية وجدنا أن مجموعة أقطار مجلس التعاون الخليجي تصدر إلى السوق المشتركة حوالي ٢٣,٦٪ من إجمالي صادراتها ، وتستورد منها ٤٠٪ من إجمالي وارداتها . فإذا انتقل النظر الى المغرب العربي نجد أن صادرات أقطاره إلى السوق الأوروبية تتجاوز نصف صادرات تلك الأقطار . وتتراوح النسبة ما بين ٥٠,٦٪ في المملكة المغربية ، و ٦١٪ في ليبيا . أما من حيث الواردات فإن تونس والجزائر وليبيا تستورد أكثر من نصف وارداتها من تلك السوق ، في حين كانت تلك النسبة ٤١,٦٪ في موريتانيا ، و ٣٤,٥٪ في المملكة المغربية . وتعتمد تيارات التجارة بين السوق الأوروبية وكل من دول مجلس التعاون الخليجي والمغرب على أن تلك السوق مرتبطة باتفاقيات محددة ، مثل تلك التي تحكم التجارة في منتجات الصناعة البتروكيائية في دول الخليج ، والاتفاقات التي تربط معظم دول المغرب بالسوق الأوروبية . وخير تعبير عن تميز العلاقات العربية بالسوق الأوروبية هو عدد الأقطار العربية التي لها سفراء لدى مقر اللجان الأوروبية في بروكسل .

علاقات متشابكة

وغني عن الذكر أن التجارة في السلع ليست الصورة الوحيدة للعلاقات الاقتصادية فهناك التجارة في الخدمات (غير خدمات العمل ورأس المال) والتي يتضمنها في العادة الميزان التجاري ، مثل خدمات النقل البحري والجوي وخدمات التأمين والسياحة . . الخ . ثم تأتي حركة كل من العمل ورأس المال . وفيها يخص العمل يفد الأوربيون إلى الأقطار العربية في صورة « خبراء » ، يعدون بالألوف ، وتمتد إقامتهم أحيانا إلى بضع سنوات ، وهناك بعض المقيمين الدائمين في بعض دول المغرب . وفي الاتجاه العكسي شهدت عقود الخمسينيات والستينيات هجرة العمالة العربية من أقطار المغرب أساسا بالنسبة للعمالة اليدوية ، ولكن أيضا من سوريا ولبنان ومصر والعراق واليمن الشمالي والجنوبي في مستوى العمل المؤهل . ولكن الثمانينيات وضعت كل العقبات المتصورة في وجه هذه الهجرة ، بل وأخذت الدول الأوروبية في تقديم معونات مالية ، لتشجيع عودة العمال المهاجرين إلى أوطانهم . وعلى الرغم من أن عددا لايستهان به من المهاجرين قد اكتسبوا جنسية الدول التي يقيمون فيها ، فإنهم لم يتخلوا تماما عن دينهم وثقافتهم المتميزة . وهكذا أصبح الوجود العربي مشكلة في السياسة الداخلية في بعض الدول الأوروبية مثل فرنسا التي يبني فيها حزب الجبهة الوطنية اليميني المتطرف كل نجاحه السياسي تحت شعار « فرنسا للفرنسيين » ، أي ضرورة طرد العرب ، حتى لو كانوا يحملون الجنسية الفرنسية . أما فيما يتعلق برأس المال فإن أهم ما يميز حركته هو حجم الأموال العربية المستثمرة في أوربا وفي كل الدول الاثنتي عشرة التي تكوّن السوق المشتركة . والمظهر المادي لذلك هو عدد البنوك العربية والمشتركة التي تنتشر في بلدان السوق ، يليها بشيء من التدقيق العقارات المملوكة

للعرب . وكان الاستثمار الأوربي (في شكل شركات مشتركة في أغلب الأحوال) في الأقطار العربية غاية في التواضع بالمقارنة مع الاستثمار العربي في أوربا .

حريات أكثر

والآن من حق المواطن العربي أن يتساءل عن آثار قيام السوق الأوربية الموحدة على كل تلك العلاقات ؟ وفي عناصر الجواب نبدأ أولا بالتذكير بأن الدول الأعضاء في تلك السوق هي : فرنسا وألمانيا الاتحادية وبلجيكا وهولندا ولكسمبورغ ثم بريطانيا والدانمارك وايرلندا ، ثم اليونان ، وأخيرا أسبانيا والبرتغال ، وفقا لترتيب دخولها في عضوية السوق . ويتضح من ذلك أن بعض دول أوربا الغربية لم تشارك في السوق حتى الآن : السويد، النرويج ، فنلندا ، النمسا وسويسرا . والأمر الثاني الجدير بالاهتمام هو طبيعة السوق ، فهي تنظم علاقات اقتصادية في المقام الأول ، تتصل جميعا بمبدأ حركة التجارة في السلع والخدمات ، وحرية انتقال كل من عنصري العمل ورأس المال ، دون قيود ، عبر حدود الدول الأعضاء في السوق . ومن عدة سنوات أصبح بوسع مواطني تلك الدول التنقل بينها بدون جواز سفر أو تأشيرة دخول (تكفي بطاقة الهوية) . كما أن بوسعهم الحصول على تصريحات إقامة مددا طويلة أو بصفة دائمة بشروط سهلة للغاية . كما أن الاستثمارات المتقاطعة بين دول السوق **Cross investment** قد تكثفت بشكل كبير ، كجزء من ظاهرة التركز الرأسمالي التي عمت الدول الصناعية المتقدمة ، بهدف تكوين شركات متعدية الجنسية * ذات أحجام متنامية . وأهم وسائل الاستثمارات المتقاطعة (بين دول السوق ، أو بينها وبين شركات أمريكية أو يابانية) هي : الاستيلاء والاندماج . ويتم الاندماج باتفاق بين شركتين أو أكثر لتكوين شركة واحدة . أما الاستيلاء فيتمثل في شراء مجموعة مالية معينة أكبر عدد يعرض عليها من أسهم شركة معينة ، بثمن محدد سلفا (أعلى من سعر البورصة) ، بغية تملك نسبة في رأس المال ، تفوق النسبة التي تملكها المجموعة المسيطرة على الشركة وقت الاعلان العام عن شراء الأسهم . والحقيقة هي أن كلتا المشكلتين لايتأثر كثيرا بالحدود السياسية ، ولن يكون لتوحيد السوق أثر حاسم في زيادة الاستثمارات المتقاطعة ، إلا في حدود إصرار بعض الدول على ألا يقل ما يملكه مواطنوها في مجالات معينة عن نسبة معينة من رأس المال (٢٠٪ حاليا في فرنسا في الصناعات المتصلة بالدفاع) . ومن مقتضيات هذا التطور في بنية الرأسمالية العالمية الامتناع عن التأميم أو العدول عنه ، حيث تقف الملكية العامة عقبة في سبيل الاستيلاء أو حتى الاندماج . وفي مجال العمل سيتمتع مواطنو الدول الأعضاء بحرية ممارسة المهنة في أي دولة . ويبقى هذا الحق محكوما من الناحية العملية بمشكلة اختلاف اللغة .

* اختلف الكتاب العرب في تحديد المقابل العربي للتعبير الانجليزي **Transnational Corporation** ، فقد قال البعض ؛ الشركات متعددة القوميات . وفي رأينا أن هذا القول غلط شنيع ، لأن تعدد القوميات يقترن عادة بشكل الدولة والضمانات لكل قومية . وقال البعض الآخر : « متعددة الجنسيات » . وهذا أيضا بعيد عن الدقة ، فكل شركة في شبكة الشركة الأم لها جنسية موقعها في العادة ، كما أن الادارة العليا يمكن أن تكتسب جنسية لكسمبورج أو بهاما أو جزيرة جيرسي . وقال البعض الثالث : « الشركات دولية النشاط » ، ومن الوارد أن تقوم شركة وطنية واحدة بنشاط خارجي واسع . وصيغة **Trans** تفيد معنى عبور أو تعدي ، كما يرى مثلا في الفعل المتعدي **transtiv verb** في الدراسات النحوية . وأرى لذلك أن أدق ترجمة ـ لأنها تحمل معنى التجاوز والعدوان ـ هو الشركات متعدية الجنسية .



تعاون اقتصادي بلا توحيد سياسي

ومن الملاحظ أنه حتى الآن يتم توحيد الأوضاع القانونية في شروط ممارسة المهنة مثلا ، أو في مجال الضرائب غير المباشرة على إصدار تشريعات داخلية ، لتنفيذ ما يتفق عليه الاعضاء في بروكسل ، وليس لاتفاقياتهم أثر قانوني مباشر ، مما يعني الحرص على إعمال سيادة كل دولة حتى في إجراءات التوحيد . والبرلمان الأوروبي هيئة استشارية ، لاتشرع ، ولا تمنح ثقة لوزير أو تسحبها . وليس في الأفق الآن ما يوحي بتغيير هذه الأوضاع في ١٩٩٢ . وإزاء من يحلمون بأوربا موحدة سياسيا يقف أمثال السيدةمارجريت تاتشر منددين بوهم الفيديرالية الأوروبية . وأخيرا ليس للقاء القمة الدوري بين الدول الأعضاء أي وضع مؤسسي . وإنما هو اجتماع لتبادل الرأي والتفاهم ليس له صلاحية اتخاذ قرارات ملزمة ، حتى ولو أجمع الرؤساء ، ولاينفذ في أي دولة إلا ما تقرره المؤسسات الدستورية الخاصة بها . والاستثناء البارز في هذا الصدد هو محكمة حقوق الانسان الأوروبية التي أقرت لها الدول الأعضاء بصلاحية النظر فيما يمس الإعلان الأوربي لحقوق الانسان : الدعاوى التي يقيمها أي مواطن ضد حكومته (أو حكومة أخرى بالطبع) .

والأمر الثالث الذي يعنينا كعرب هو إدراك أن كل تكامل داخلي لسوق معينة هو في الوقت نفسه إبعاد لأطراف خارجية . « التجارة البينية » ــ على حد تعبير الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ــ يقع ابتداء على حساب علاقات العرب بالدول غير العربية . وحتى إذا أخذنا في الاعتبار أن النمو المطرد لابد أن يؤدي إلى تزايد الصادرات في مرحلة تالية ، فإن الوضع النسبي ــ بغض النظر عن القيمة في ذاتها ــ يسير بالضرورة في إتجاه عكسي . وقد ظهر في أوربا فعلا وقبل أن تقوم السوق الموحدة اتجاه واضح نحو تناقص نسبة تجارة دول جنوبي أوربا (إيطاليا واسبانيا على وجه الخصوص) مع دول الشاطىء العربي للبحر المتوسط ، وزيادة تجارتها مع المانيا وفرنسا وبريطانيا . فهذا البحر الذي يعد من أقدم مناطق التجارة الدولية حتى أثناء الحروب بين شماليه وجنوبيه والذي من شطآنه كانت السلع تنتشر شمالا وجنوبا في أوربا وأفريقيا وما يسمى بالشرق الأوسط ، أخذ منذ السبعينيات يخسر هذا الدور . وقد كانت فرنسا تتطلع دائما لموقع ممتاز في المغرب العربي ، تحافظ عن طريقه على علاقاتها بغربي ووسط أفريقيا ، ولكن لجان بروكسل ضاقت بمثل هذا الحل ، وبدأت العمل مباشرة مع تجمع أوسع يسمى دول أفريقيا والكاريبي والهادي . عقدت معهم معاهدات متوالية ، تحمل اسم لوميه (عاصمة داهومي) مرقمة من واحد إلى أربعة . ولهذا لايستغرب المرء حين يقرأ في جريدة « انترناشيونال هيرالد تريبون » العدد الصادر في ١٩٨٨/١١/٤ أن أكثر الدول تضررا بالسوق الموحدة هي تركيا ودول شمالي أفريقيا ثم دول جنوب شرقي آسيا واليابان . أما تركيا فهي دولة نامية بكل المقاييس ، ولكنها أصرت على الانعزال عن العالم الثالث والوقوف بباب أوربا ، فوجدت نفسها اليوم في العراء .

فالسوق الأوربية موصدة في وجهها إلى أمد طويل على الرغم من كل ما اصطنعته من روابط اقتصادية وسياسية وعسكرية معها ومع أمريكا ، وهي ليست عضوا في أي تنظيم من تنظيمات العالم الثالث : مجموعة السبع والسبعين ، دول عدم الانحياز أو في تجمع اقليمي منذ انهيار حلف « السنتو » سيء الذكرى .

العرب أكثر تضررا

وما نخلص إليه من ذلك هو أن السوق الموحدة تحمل في طياتها احتمالات ضيقها المتزايد أمام الصادرات العربية ، ولاسيما الزراعية منها (القطن ،زيت الزيتون ، الحمضيات . . . الخ) فضلا عن السلع المصنعة ، بل إن مدى اعتمادها على النفط العربي في مرحلة يزيد فيها العرض زيادة واضحة عن الطلب سيكون أقل بكثير مما كان عليه في السبعينيات . أما حركة العمل فإنها لن تتغير كثيرا من حيث وفود الخبراء الأوربيين ، وكذلك من حيث سد أبواب هجرة العمالة العربية إلى أوربا . فمشكلة العمالة المهاجرة في دول أوربية أخرى تشمل غير العرب مثل الأتراك واليوغسلافيين والأفارقة من جنوبي الصحراء الكبرى وأهل جزر البحر الكاريبي . والأرجح أن توحيد السوق سيضع اليونانيين والأسبان والبرتغاليين وأهل جنوبي إيطاليا في وضع أفضل في المنافسة مع العمالة العربية والتركية . وبعبارة أخرى ستزيد القيود على الهجرة ، وربما وصلت الأمور إلى حد « ترحيل » أعداد من العمال العرب إلى بلدانهم الأصلية باستخدام شتى أنواع الضغوط .

أما حركة رأس المال فإن وفوده إلى الأرض العربية من السوق الأوربية لابد أن يتناقص ، فذلك هو الاتجاه العالمي لحركة الاستثمار الاجنبي المباشر . ففي أحدث البيانات تحتل الاستثمار المتقاطعة بين الدول الرأسمالية المتقدمة ٧٨٪ من إجمالي حجم الاستثمار الاجنبي . كذلك تضم السوق الأوربية أقاليم متخلفة عن غيرها ستحاول جذب الاستثمارات بكل وسيلة ، مثال ذلك : جمهورية إيرلندا ، وجنوبي إيطاليا ، وغربي فرنسا ، وجزيرة كورسيكا . . الخ . وعلى العكس يجد رأس المال العربي فرصا أكبر للاستثمار في تلك السوق الواسعة ، وسيزيد ارتباطه بالشركات متعدية الجنسية . وقد أصبح من الثابت حاليا أن استثمارات العالم الثالث في أوربا وأمريكا والشرق الأقصى أصبحت أكبر بكثير من استثمارات الدول الصناعية المتقدمة في بلدان العالم الثالث ٤٩ مليار دولار مقابل ٢٢ مليارا في ١٩٨٥ .

ولا يملك الكاتب في النهاية إلا أن يتأمل كيف نجحت تلك الدول الأوربية في إنشاء سوق موحدة على الرغم من تاريخ حافل بالحروب بين بعضها البعض ، وعلى الرغم من خلافات سياسية واقتصادية متعددة ، ما زالت تعانيها الآن ، وستعانيها في المستقبل ، وكذلك على الرغم من تعدد اللغات . وربما كان في دراسة منهج التوحيد الأوربي من الخمسينيات الى التسعينيات دروس ثمينة لنا نحن الذين يحرقهم الشوق الى الوحدة العربية . □

المنافق: ● يقول الرسول صلوات الله عليه : «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» .

لاحدود لأرض

"إسرائيل"

بقلم : الدكتور عبدالوهاب المسيري

« ارتس يسرائيل » عبارة عبرية وردت في التوراة وفي الكتابات اليهودية الدينية والفقهية ، تعني حرفيا « أرض اسرائيل » ، وتستخدم للإشارة لأرض فلسطين ، وبعض المناطق المتاخمة لها . ومعنى العبارة غير واضح المعالم أو محدد الدلالة . والكاتب يحاول تعريف مجالها الدلالي المتناقض ، عن طريق تصنيف الاشارات المختلفة اليها ، واستخدامات العبارة المختلفة ، كما وردت في الكتب المقدسة والتراث الديني اليهودي .

تشير العبارة كما وردت في سفر صموئيل الأول (١٣/١٩) الى تلك الأرض التي كان يقطنها بنو « يسرائيل » بالفعل ، إبان حكم القضاة ، قبل ظهور مملكة داود (« ولم يوجد صانع في كل أرض يسرائيل ») . وأرض « يسرائيل » بهذا المعنى لا تضم « أورشليم » على سبيل المثال التي ظلت مدينة يبوسية حتى عهد داود التوراتي ، كما أنها لم تكن منطقة متصلة ، إذ كانت هناك جيوب في الشمال ، استوطنت فيها قبائل زبولون واشر وايساكار ، على بحيرة طبرية ، غير متصلة بالجيب الأكبر على البحر الميت ونهر الاردن ، كما كان هناك جيب ثالث في أقصى الشمال ، تشغله قبيلة دان وهو غير متصل بالجيبين الآخرين . وتشير العبارة أيضا الى مملكة « يسرائيل » الشمالية ، فقد ورد في سفر الملوك الثاني (٥/٢) « وكان الآراميون قد خرجوا غزاة ، فسبوا من أرض « يسرائيل » فتاة صغيرة » ، وهي منطقة تمتد من الطرف الشمالي للبحر الميت ، وتضم بحيرة طبرية وضفتي الأردن ، ولكنها لا تضم كل المنطقة الجنوبية بما في ذلك « أورشليم » بطبيعة الحال .

كما تشير العبارة أحيانا الى مملكة داود في أقصى اتساعها . فقد ورد في سفر التكوين (١٥/١٨) « لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات » ، وهي صياغة عامة للغاية ، لا يمكن أن يطلق عليها كلمة حدود ، وقد تم تأكيدها مرة أخرى في

نفس السفر (٢٣/٣) وهذه تسمى « حدود الآباء » وقد وردت في عدة مواضع من بينها سفر التثنية (١/٧-٨) « وارتحلوا ، وادخلوا جبل الأموريين وكل ما يليه من العربة والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر أرض الكنعاني ولبنان الى النهر الكبير نهر الفرات » . وفي نفس السفر (١١/٢٤) « يطرد الرب جميع هؤلاء الشعوب من أمامكم ، فترثون شعوبا أكبر وأعظم منكم . كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم من النهر ، نهر الفرات ، الى البحر الغربي ، يكون تخمكم » . وجاء في سفر يشوع (١/٣ - ٤) « كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى من البرية ولبنان الى هذا النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحيثيين والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس تخومكم » .

شمالا الى اللاذقية

والحدود هنا التي تسمى حدود الخارجين من مصر أكثر تحددا من خريطة الآباء ، ولكنها مع هذا غير واضحة ، وخاضعة للتفسيرات والاجتهادات . ويرى صبري جريس (استنادا لبعض المراجع الاسرائيلية) أن « ارتس يسرائيل » بهذا المعنى تضم تلك المنطقة التي يحدها من الغرب البحر المتوسط ، ومن الجنوب خط يبدأ من موقع العريش في سيناء ، ويتجه متعرجا ، حتى يصل العقبة (ايلات) . ومن



هناك يتجه شمالا حتى جنوب البحر الميت . ثم يستمر في الاتجاه شمالا بمحاذاة نهر الاردن (ولا يضم أيا من المناطق الواقعة شرق النهر) حتى يصل الى جبل الشيخ (الحرمون) . ومن هناك الى الشمال ، مارا غرب دمشق ، ثم غرب حمص ، حتى يصل الى محاذاة اللاذقية ، فينحرف شرقا حتى يصل الى أقرب نقطة في مجرى الفرات من البحر المتوسط . ومن هناك يتجه غربا الى البحر ، مارا بجنوب حلب . وبعبارة أخرى ، تضم « أرض الميعاد » ، بحسب حدودها هذه ، مساحة فلسطين أيام الانتداب بأسرها ، مع ذلك الجزء من سوريا ولبنان الذي يقع غرب خط (دمشق - حمص - حماة) ، بينما يحدها من الشمال خط يمر جنوب حلب . وتبلغ مساحتها نحو (١٦٠ - ١٧٠) ألف كيلو متر مربع .

ولكنه يضيف أنه من الواضح أيضا أن تلك الحدود لا تتلاءم أبدا مع حدود المناطق التي عاش اليهود فيها أو حكموها ، في أي فترة من الزمن . فعدا عن المناطق الممتدة بين «دان» (شمال طبرية) وبئر السبع في فلسطين التي تواجد اليهود فيها ، أو حكموا بعضها من فترة الى أخرى ، والتي لم يسيطروا عليها دائما كلها .

ولم يتواجدوا فيها وحدهم على أية حال ، فإن « بطون أقدامهم » - إذا استعملنا لغة التوراة - لم تدس باقي المناطق . يضاف الى ذلك أن اليهود أنفسهم لم يتجهوا ، في أي وقت من الأوقات ، لاحتلال هذه المناطق أو العيش فيها . وتفسير هذا التناقض ، هو أن المناطق الأخرى ، التي لم يصلها اليهود ، مخصصة لاستيطانهم في المستقبل ، عندما يتكاثرون - ومرة أخرى أسند هذا التفسير الى التوراة - « لا أطردهم من أمامك في سنة واحدة لئلا تصير الأرض خربة ، فتكثر عليك وحوش البرية . قليلا قليلا أطردهم من أمامك الى أن تثمر وتملك الأرض » (خروج ٢٣/٢٩ - ٣٠) . وكذلك : « ولكن

الرب إلهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك قليلا قليلا . لا تستطيع أن تفنيهم سريعا ، لئلا تكثر عليك وحوش البرية . ويدفعهم الرب إلهك أمامك ، ويوقع بهم اضطرابا عظيما حتى يفنوا . ويدفع ملوكهم الى يدك ، فتمحو اسمهم من تحت السماء . لا يقف انسان في وجهك حتى تفنيهم » (تثنية ٧/٢٢ ـ ٤) .

أرض « اسرائيل » الخامسة

لكن هناك « ارتس يسرائيل » خامسة ويمكن أن نطلق عليها أرض الأسباط الاثني عشر ، فقد ورد في سفر التثنية (٣٤/١ ـ ٤) : « وصعد موسى من عربات موآب الى جبل نبو الى رأس الفسحة التي قبالة أريحا فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد الى دان وجميع نتالي وأرض افرايم ومنسى وجميع أرض يهودا الى البحر الغربي والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل الى صوغر . وقال له الرب : هذه هي الأرض التي أقسمت لابراهيم واسحاق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها ، ثم قام موسى ، بحسب التوراة ، بتقسيم هذه الأراضي بين أسباط « اسرائيل » الاثني عشر : « إنما أقسمها بالقرعة ملكا « لاسرائيل » كما أمرتك . والآن أقسم هذه الارض ملكا للتسعة أسباط ونصف سبط منسي» (سفر يشوع ٦/١٣ ـ ٧) . وكانت الاسباط الباقية قد حصلت على حصصها قبل ذلك : « فهذه الأرض امتلكناها في ذلك الوقت أعطيت للراوبينيين والجاديين . وبقية . . أعطيت لنصف سبط منسي » (تثنية ١٢/٣ ـ ١٣) . أما حدود هذه الأرض فقد ذكرت مطولا في التوراة ، عند الحديث عن تقسيمها بين الأسباط الاثني عشر (سفر يشوع ، اصحاحات (١٥ ـ ٢٤) وهذه الحدود هي أكثرها شيوعا) . ولكن هذه الحدود أيضا ، مثل سابقتها ، غير واضحة . على الرغم من إسهاب التوراة في وصفها . ومرة أخرى



● لا حدود لأرض « اسرائيل »

واستنادا الى تفسيرات واجتهادات عديدة رسمت حدودها بشكل يضم المنطقة الواقعة بين البحر غربا والصحراء شرقا ، بما في ذلك كل القسم المأهول من شرقي الاردن . أما حدودها الجنوبية فتمتد على خط يصل بين العريش والعقبة ، بينما الحدود الشمالية غير واضحة ، وتشير الى جبل الشيخ (الحرمون) فقط . وتضم أرض « اسرائيل » ، بحسب هذه الحدود نحو ٤٣ ألف كيلومترمربع . ثم هناك « ارتس يسرائيل » أخرى ، حددتها « المشناة » ، وسمتها أرض العائدين من بابل ، وهي وحدها التي تنطبق عليها التشريعات اليهودية (الهالاخاه) بخصوص الأرض مثل السنة السبتية وسنة اليوبيل . وهذه مقاطعة صغيرة للغاية تطابق مقاطعة « يهود » الفارسية بعد العودة من بابل ، وهي منطقة تمتد من نقطة على البحر الميت من عين جري نحو البحر الأبيض المتوسط على حدود الخليل ، ولا تضمها ، ثم تتجه شمالا بمحاذاة ساحل البحر الأبيض وتضم اللد ، ثم تتجه شرقا حتى أسفل نهر الأردن ، أي أن حدودها تطابق حدود ما يسمى مقاطعة يهودا ، ولا يضم السامرة وليس لها أي منفذ على البحر الأبيض المتوسط ، ولا تزيد مساحتها على ١٢٠٠ ميل مربع .

ونتيجة لكل هذا التضارب اختلف المفسرون

(« السياسيون » والدينيون) في تعريف الحدود ، وهم يتأرجحون بين الحد الأقصى ، ويضم فلسطين وكل سيناء والأردن وسوريا ولبنان ، بل وأجزاء من تركيا ، وأحيانا قبرص ، وبين الحد الأدنى الذي يضع الحدود الشمالية في منتصف الطريق عبر سوريا ولبنان قرب حمص . وهناك من يرى أن الخارطة المنطقية هي مملكة داود في أقصى اتساعها وهكذا !

ويضيف صبري جريس أن هناك حدود « ارتس يسرائيل » الطبيعية - وتضم مزيدا من الأراضي - أكبر قليلا من الحدود الأصلية ، وتصل مساحتها الى نحو ٥٩ ألف كيلومترمربع ، منها حوالي النصف غربي نهر الأردن (« أرض اسرائيل الغربية ») والنصف الآخر شرقي النهر (أرض « اسرائيل الشرقية ») .

وتجدر الإشارة الى أن حدود المنطقة التي طلبت المنظمة الصهيونية العالمية ، من مؤتمر الصلح في باريس سنة ١٩١٩ الاعتراف بها على أنها « وطن قومي » لليهود متناسقة مع التعريف الأخير لحدود أرض « اسرائيل » .

ومفهوم الحدود الطبيعية لا شك نتاج لعملية علمنة المفهوم اللاهوتي القديم ، إذ ان الدفاع عن هذه الحدود الطبيعية المقدسة يمكن أن يتم من منظور ديني (بحسبانه ورد في التوراة) ، ومن منظور غير ديني ، بحسبانه أمرا طبيعيا .

الوعد الإلهي والقوة

ولكن بن جوريون حسم المسألة تماما حينما قال : ان الجيش « الاسرائيلي » هو خير مفسر للتوراة ، (وقال الحاخام كوك زعيم منظمة جوش ايمونيم : إنه هو القداسة بعينها) ، وبذا يندمج الديني باللاديني والمقدس بالزمني والحدود المقدسة بالحدود الطبيعية . وقد صرح شلومو افنيري بأن ما يحدد حدود الأرض الآن ليس الوعد الالهي ، وانما قوة « اسرائيل » العسكرية الذاتية على أن تقوم المؤسسة الدينية باقتباس الديباجات الدينية اللازمة بعد الفعل .

ومما هو جدير بالذكر أن اللغة العبرية لا تعرف كلمة « فلسطين » (وهذا يتفق مع التصور الديني اليهودي الذي يرى أن الأرض لا وجود لها الا بالاشارة لليهود « والتاريخ اليهودي ») ، ولهذا فأينما أشار يهودي الى فلسطين فانه يشير الى « آرتس يسرائيل » . ولعل هذا المفهوم الديني هو الأساس لبعض الشعارات الصهيونية المعادية للتاريخ ، مثل « أرض بلا شعب لشعب بلا أرض » باعتبار أن الارض هي « ارتس يسرائيل » التي لا وجود لها الا بالاشارة « للشعب اليهودي » الذي يهيم على وجهه ولا أرض له !

ويصر الصهاينة بما في ذلك مؤلفو الكتابات التي توصف بأنها علمية ، مثل **الموسوعة اليهودية** ، على عدم الاشارة الى فلسطين الا باعتبار أنها « ارتس يسرائيل » ، وكأنها مكان مقدس ، لم يطرأ عليه أية تغيرات تاريخية سكانية ، وما حدث من تغيرات فهي طارئة ، ولا تمس الجوهر الساكن المقدس الذي لا يتغير . وقد أكد مناحم بيجين هذه النقطة في حديث له في احدى مزارع الكيبوتس التابعة للمابام ، حيث أخبر أعضاء الكيبوتس أن اليهود لو تحدثوا عن « فلسطين » بدلا من « ارتس يسرائيل » فانهم يفقدون كل حق لهم في الارض ، لأنهم بذلك يعترفون ضمنا بأن هناك وجودا فلسطينيا .

ومما يجدر ذكره أن كلمة « يسرائيل » تستخدم للاشارة لأرض فلسطين ، وكذلك لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، لتأكيد الوحدة المقدسة بينها .

وتستخدم كلمة « صهيون » في بعض الكتابات الدينية للاشارة « لأرتس يسرائيل » . □

الكويت

ومنظمة المؤتمر الإسلامي

بقلم : الدكتور عبدالعزيز كامل

« إن منظمة المؤتمر الإسلامي هي ضمير العالم الإسلامي . وأنتم مسئولون عن هذا الضمير وناطقون باسمه في السنوات الثلاث القادمة » .

من خطاب صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الصباح إلى الشعب الكويتي بعد انتهاء أعمال مؤتمر القمة الإسلامي الخامس .

في ختام مؤتمر القمة الإسلامي لمنظمة المؤتمر الإسلامي الذي شهدته مدينة الدار البيضاء ، بالمملكة المغربية ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، وجه حضرة صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الصباح أمير دولة الكويت الدعوة إلى عقد مؤتمر القمة الخامس في الكويت ، ووافق المؤتمر على قبول الدعوة بكل الشكر والامتنان .

كانت القمة الأولى في الرباط ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م بعد الحريق الآثم للمسجد الأقصى . والقمة الثانية في لاهور (باكستان) بعد حرب رمضان ١٣٩٥هـ / اكتوبر ١٩٧٣م ، والثالثة في مكة الطائف مع استقبال القرن الهجري الخامس عشر ١٤٠١هـ / ١٩٨١م . وفيها تقرر أن تعقد مؤتمرات القمة دورية كل ثلاث سنوات .

وقد شاركت الكويت في هذه المؤتمرات جميعا : رأس صاحب السمو الأمير الراحل الشيخ صباح السالم الصباح (رحمه الله) وفد بلاده إلى المؤتمرين الأول والثاني . وحمل المسئولية من بعده صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الصباح ، فرأس وفد بلاده منذ المؤتمر الثالث .

وللكويت حضورها الإيجابي والدائم في أنشطة المنظمة واجهزتها العاملة . ولكل مؤتمر من هذه الخمسة ظروفه المكانية والزمانية ، وعلاقاته بنبض الحياة الإسلامية وأحداثها الكبيرة . وحديثنا هنا عن المؤتمر الخامس في الكويت وما بعده .

الكويت : المكان والسكان

من حيث الحجم السكاني ، تقرب الكويت من مليونين . المساحة الكلية نحو ثمانية عشر



● سمو أمير الكويت يرأس مؤتمر القمة الاسلامي الخامس بالكويت في يناير ١٩٨٧

ألف كيلو متر مربع ، تعادل نحو سبعة آلاف ميل مربع ، ولها جبهتها البحرية على رأس الخليج ، وجوارها واتصالها البحري والبري مع السعودية والعراق وايران . ولكل من هذه الثلاثة وزنها السكاني وامتدادها القاري ، وعمقها الدفاعي ، وثروتها المعتمدة على أكثر من مورد احدها النفط ، مع تنوع يضم الزراعة والتجارة والرعي والصناعة . وتقوم عواصمها في عمق الدولة ، لا على أطرافها ، تستوي في هذا الرياض في قلب الجزيرة العربية ، مع بغداد في خاصرة الرافدين ، مع طهران على متن جبال البُرْز جنوب بحر قزوين .

أما الأقطار العربية الخليجية الأخرى ، فلها عقد من العواصم الموانىء التي جعلت من الخليج مائدة حضارية ، تربط بين البحار الدافئة الجنوبية في عالم المحيط الهندي ، بشقيه الافريقي والآسيوي ، وبين الصحاري من شرق وغرب ، وبين الأودية النهرية الخصيبة في الشمال ، وهذه تنفتح على قلب آسيا وعالم البحر المتوسط ، بشواطئه الآسيوية والافريقية والأوربية . وهي بهذا - من قديم - ملتقى سفن البحر وقوافل البر ، وشهدت من حوار الحضارات ما زال مستمرا ومتكاثفا .

واستطاع أهل الخليج من خلال تجاربهم الطويلة في الاتصال ، أن يتمرسوا بالتوسط والوساطة والتوازن ، والقدرة على الحياة بين صراع القوى من حولهم . أليست أمواج السياسة وعواصفها شبيهة بأمواج البحر وعواصفه ؟ وقيادة السفن بين الموج شبيهة بقيادة أمة بين التيارات العالمية ؟ والقيادة في الأمرين ليست مجرد علم ومعرفة ، ولكنها الحكمة ، وهي درجة فوق العلم ، فالحكمة اختيار وتوظيف للمعرفة .

ولو وسعنا دائرة الرؤية ، وقارنا المؤتمر



● الشيخ جابر الأحمد الصباح يرأس الجلسة الخاصة لممثلي العالم الاسلامي التي عقدت في الأمم المتحدة .

الخامس في الكويت بالمؤتمرات الأربعة السابقة ، لرأينا الأول والرابع (الرباط والدار البيضاء) في مغرب العالم الإسلامي . والثاني (لاهور) في مشرقه في باكستان . والثالث في قلبه ، حيث مهوى أفئدة المسلمين في الأرض المقدسة (مكة والطائف) . ولكل من هذه المواقع حصانتها المادية أو الدينية ، وإمكاناتها الطبيعية والبشرية ، وتجاربها السابقة في عقد نظائر لهذا اللقاء ، مما تبدو معه استضافة المؤتمر الخامس في الكويت مسئولية خليجية رائدة وغير مسبوقة ، كان على إحدى دول الخليج أن تقوم بها .

أضف إلى هذا أن الخليج أرض لقاء بين حضارتين عريقتين : العربية والفارسية ، فضلا عن استقباله عناصر بشرية من الشرق والغرب . وقد جمع الإسلام بين الفرس والعرب ، كما جمع غيرهم من الشعوب والسلالات والألسنة ، تحت مظلته منذ خمسة عشر قرنا ، ولا يزال يجمع ألسنة وألوانا . ولقد اختار الله لرسالته نبيا عربيا ، وأنزل عليه القرآن بلسان عربي مبين ، ودعا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس بهذا اللسان العربي ، فارتبط اللسان بالدين من أول الأمر . وقامت الكعبة ومسجد المدينة والمسجد الأقصى في محور العالم العربي والإسلامي معا . ولكن لنذكر أن اختلاف الألسنة والألوان من آيات الله للعالمين ، وهي آفاق معرفة لا تفاخر فيها ولا تعصب . والله تعالى يقول : « اللهُ أَعْلَمُ حيثُ يَجْعَلُ رسالتَهُ » (الأنعام : من الآية ١٢٤) .

أحيانا تعبّر الجذور الحضارية عن نفسها ، بما تضيفه إلى الوحدة الإسلامية من عطاء وإخاء مادي وثقافي وعلمي . وأحيانا تعبّر عن ذاتها انطواء يرمي إلى تأكيد الهوية الإقليمية ولو على حساب الوحدة الكبرى . وقد شهد الخليج الأمرين معا .

هذا بعض ما يطلق عليه اسم « الظاهرات الطويلة الاستمرار » ولها عمقها واتساعها الذي يؤثر على المؤسسات الاجتماعية واختيارات السياسة . وإن تقديرها خير من تجاهلها . وهي من نقاط البدء في الدراسة الموضوعية ، وفي صناعة التاريخ .

وفي إطار من هذه الاعتبارات جميعا تقدمت الكويت لحمل مسئولية مؤتمر القمة الخامس .

يا نار كوني بردا وسلاما

كان موعد المؤتمر في جمادى الأولى ١٤٠٧هـ / يناير (كانون الثاني) ١٩٨٧م . في العقد التاسع من هذا القرن . ذلك العقد الملتهب بالحرب بين العراق وايران ، منذ مطلعه والمواجهة تمتد من مضيق هرمز جنوبا إلى جبال كردستان شمالا ، تشارك فيها قوات برية وبحرية وجوية . الألغام جائمة في أعماق الخليج وطافية على سطحه . السفن التجارية طرائد تلاحقها الطائرات المقاتلة وزوارق الطوربيد .

وانتشرت في مياه الخليج قطع جبارة من حاملات الطائرات وتوابعها وما دونها ، لحماية مصالح دولها . وتوازى مع التصاعد سلاح الإذاعات والمنشورات ، والإرهاب الظاهر والخفي ، وخطف الطائرات ، والسيارات المفخخة ، والعبوات الناسفة ، والتآمر والتجسس . وكأن الإقليم عاد إلى القرن السادس عشر حيث الصراع بين الصفويين والعثمانيين ، أو إلى ما قبل الإسلام حيث الصراع بين الفرس والعرب . (ولكن بأساليب العصر الحديث) ، مما جعل الكاتب الفرنسي « بول بالتا » يعطي لكتابه « ايران ـ العراق » عنوانا فرعيا هو « حرب الخمسة آلاف عام » . (وقد صدر كتابه هذا عام ١٩٨٧ عن دار أنثروبوس في باريس) .

وفي رأس الخليج حيث التقاء هذه العوامل كان المؤتمر في الكويت .

ولكن إذا قبلت الكويت مسئولية المؤتمر ، فهل تقبله الدول المشاركة ، ويقبله رؤساؤها ، وأصوات الحرب وأخطارها غير بعيد ؟!

إذا قبلوا فعلى أي مستوى يكون الحضور ؟ وهل تستطيع الكويت أن تسير بالوحدة الإسلامية خطوات إلى الأمام في نور من قول الله تعالى : « إنَّ هذه أُمَّتُكُم أُمَّةً واحدةً وأنا رَبُّكُم فاعبدون »؟ (الأنبياء : ٩٢) .

إذا استطاعت ، فهي بهذا تؤكد ـ عمليا ـ عوامل الوحدة على التفرق ، ومظلة الإسلام على ظلال القوميات الصغيرة ، وأنه لا عاصم من العصبيات إلا سفينة الإسلام .

وجرت سفينة المؤتمر في موج كالجبال ، واستطاعت بعون من الله أن ترسو على الجودي بسلام . ولكن كيف قابلت الكويت التحدي ؟ وكيف كان المؤتمر سلاما وسط نيران الحرب والتآمر ؟

التحدي المزدوج

ولنبدأ بالشق الأول من التحدي :

أن يكون للكويت في ظرف ثلاث سنوات ـ أو أقل ـ وعلى أرض خالية ، مدينة مؤتمرات كاملة بكل مبانيها وحدائقها وتجهيزاتها ، وأن يستطيع شعبها بقيادته ، ووحدته الوطنية ، وتعاون المخلصين أن يصدق وعده في الجانب الإنشائي .

والثاني : أن يصل الإعداد إلى مستوى من الإقناع مع توقيت سياسي ترضى عنه الدول الإسلامية ورؤساؤها ، ويعبرون عنه بالحضور المكثف على مستوى الرؤساء وأقرب المسئولين إليهم .

نعم . هناك رصيد سابق لدى الدول الإسلامية ، استطاعت الكويت خلال سنوات طويلة أن تنسج خيوطه في صبر ودأب . وكانت القيادة وتماسك الجبهة الداخلية ، وهذا الرصيد السابق من التأييد والمودة ، وقبل هذا وبعده

عون الله تعالى ، هي المدد الذي أعان على الإنجاز . وتم بناء قصر المؤتمرات الذي حمل بعد هذا الاسم « قصر بيان » في الموعد المنشود . وسافر ممثلو سمو الأمير يحملون دعواته إلى إخوته الملوك والقادة والرؤساء والأمراء ، وفي الخطاب ، دعوة إلى التشاور وإبداء الرأي . وكانت الاستجابات كريمة كالدعوة ، والحضور على مستوى كريم . وبقي مقعدا إيران وأفغانستان خاليين ، وإن شارك ممثلو مجاهدي الأفغان في الحضور والحديث من منبر المؤتمر .

ومن الشخصيات العالمية التي شاركت بالحضور والحديث الأمين العام للأمم المتحدة خافيير بيريز دي كويلار .

في المؤتمر الخامس

وفي جلسة الافتتاح انتخب المؤتمر بالإجماع الشيخ جابر الأحمد رئيسا للقمة الإسلامية الخامسة ، وألقى خطابا جامعا ، أشاد فيه بجهود الرؤساء السابقين ، ورحب بالحاضرين ، وتناول المشكلات التي تقابل العالم الإسلامي ، والإنسانية في شمولها ، وبين « أن مواجهة التحدي الحضاري المعاصر هو الميزان الأمثل لإرادتنا وقدرتنا » .

ومع تحديد المشكلات ، وفي مقدمتها قضايا فلسطين والحرب بين العراق وايران والحرب الأفغانية والصراع الداخلي في لبنان ، أشار إلى وجوب تحديد مجال المنظمة ، دون تداخل بينها وبين المنظمات الأخرى ، وإنما تعاون يرتفع فوق الخلافات ، من أجل كرامة الإنسان . ولكل إنسان كرامته ، وأمله في عالم أفضل . ثم ختم كلمته بقوله : « باسم الكويت ، وهي تعيش الإسلام دينا ، والعروبة وطنا ، والتعاون طريقا ، والسماحة شعارا ، والإخاء نورا ، والتشاور منهاجا ، والعدل ميزانا ، والتقدم مسئولية ، والسلام غاية ، لكم منا جميعا التحية والشكر والترحيب والحمد لله الذي جمعنا على الخير » .

ولقد جاءت كلمات الافتتاح وكلمات الرؤساء ، ومن قبلها لقاء وزراء الخارجية ، وتواكبت معها أعمال اللجان المختصة . . جاء كل هذا متساوقا ، ومؤديا إلى القرارات التي استهدفها المؤتمر : السعي الحثيث إلى حل مشكلات العالم الإسلامي ، وحقن دماء المسلمين ، وتقوية أجهزة منظمة المؤتمر الإسلامي ، ودعم صلاتها بالمنظمات الإقليمية والعالمية ، والسعي نحو السلام العادل والتعاون العالميين في إطار من حفظ الحقوق . وأقر المؤتمر اعتبار كلمة سمو الأمير من وثائق المؤتمر الرسمية ، كما قبل دعوة السنغال أن يكون مؤتمر القمة السادس في داكار في مطلع عام ١٩٩٠م .

ومتابعة لتنفيذ قرارات المؤتمر تم الاتصال عن طريق الوزراء والسفراء بدول السوق الأوروبية المشتركة ، وغيرها من دول العالم ، كما قام سمو ولي العهد رئيس مجلس الوزراء الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح بزيارات لوزارة الدفاع ورئاسة الحرس الوطني وقاعدة أحمد الجابر الجوية ، في يومي ٧ فبراير و ٢٥ مارس ١٩٨٨ لتوضيح منجزات المؤتمر أمام قادة الجيش والحرس الوطني ، أشاد فيها بالتعاون الوثيق بين أبناء الشعب الكويتي ، وفيها بين الرؤساء على إنجاح المؤتمر . هكذا كان يسير العمل الداخلي والعمل الخارجي متوازيين متعاونين ، ويتابع ذلك مكتب خاص بوزارة الخارجية ، له صلاته بالوزارات المعنية من ناحية ، والأمانة العامة للمنظمة في جدة ، والأنشطة الخارجية العالمية ، من ناحية أخرى ، ويرأسه وكيل وزارة الخارجية .

خطوات رئاسة المنظمة

في لقاء سمو الأمير مع رؤساء وفود الدول الإسلامية في الدورة الثالثة والأربعين للجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك عصر يوم الثلاثاء ٢٧ سبتمبر (أيلول) ١٩٨٨ ، في قاعة مجلس



● سمو أمير الكويت يلقي كلمته على منبر الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٨٨ .

الأمن : لخّص سموه إنجازات المنظمة منذ عقد المؤتمر الخامس :

والدول الإسلامية تمثل نحو ثلث أعضاء الجمعية العامة للأمم المتحدة ، مما يلقي عليهم مسئولية لا يستطيعون القيام بها إلا متفاهمين متعاونين .

وجاءت الإنجازات من شريحتين : أولاهما العمل الإسلامي الداخلي ، والثانية العمل الإسلامي العالمي . فعن العمل الداخلي قال سموه :

« أعتقد أن وجود منظمة المؤتمر الإسلامي في ذاته إنجاز : فهي أولا أرض اللقاء بين الدول الإسلامية التي تقوم على احترام استقلال كل دولة واختياراتها الداخلية في حياتها ، وهي تفتح آفاق التعاون الداخلي فيما بين المسلمين ، وفيما بينهم وبين العالم الكبير » . .

« فعلى الصعيد الداخلي أولا دعوتُ إلى اجتماع مكتب المنظمة ورؤساء لجانها الدائمة ، وسعدت بهم في الكويت في ابريل ١٩٨٨ . وكان لقاء استعرضنا فيه ما تم إنجازه من مقررات مؤتمر القمة الخامس ، وهي القرارات التي ارسلتها الأمانة العامة إلى الدول الإسلامية بعد أن تم إعدادها للنشر » .

واللجان الدائمة الأربع هي : اللجنة العلمية والاقتصادية والثقافية ولجنة القدس . وقد أراد سموه بهذا اللقاء أن يرسي مبدأ اللقاءات فيما بين القمتين : لقاءات المكتب ورؤساء اللجان الدائمة ، تمهيدا للقاء يجمع



● الشيخ جابر الأحمد في حفل وضع حجر الأساس لمئذنة مسجد نيويورك .

رؤساء اللجان والوحدات والمراكز المنبثقة من المنظمة حتى يتم بينهم حوار يساعد على تنسيق الجهود ، وإزالة الازدواج ، وتوثيق الصلة بين القائمين على هذه الأجهزة ، وخصوصا المتقاربة الاختصاصات .

وانتقل سموه بعد هذا إلى الجانب الإسلامي الإنساني فقال : « وقد شهد هذا العام وما قبله تقلبات واسعة بين الجفاف والفيضانات ، على جبهة تمتد من أقصى غرب افريقية إلى بنغلاديش شرقا . وإن أي تعاون يقدم في هذا السبيل إنما هو حق الإخاء وواجب الوفاء . والفضل لله من قبل ومن بعد . . ولقد أعانت على ذلك جهود متكاتفة من الدول الإسلامية القادرة ، ومن الهيئات والجمعيات الإسلامية . ومشكلات العالم الاسلامي متنوعة ، تجمع بين عون المجاهدين وعون المتضررين . كذلك اتجهت الجهود إلى التعاون مع المنظمات العالمية الإقليمية لإيقاف الحرب الايرانية . وأمكن بحمدالله أن تثمر هذه الجهود . وهذه الثمار محتاجة إلى صبر ورعاية حتى يستقر في الأذهان نداء السلام على أساس من العدل وحسن الجوار » .

وأشاد سموه بالنضال الفلسطيني الباسل ، ودعا إلى مؤازرته دون الوقوف عند حد الإعجاب به .

أما عن العلاقات بين المنظمة والعالم الكبير ، فلقد كان من أبرز أحداث هذه الفترة لقاء الرئيس رونالد ريجان والزعيم ميخائيل جورباتشيف ، في ديسمبر ١٩٨٧ ومايو ١٩٨٨

يقول سموه : « أرسلت إليهما خطابين نشرا عالميا في حينها ، وعرض الخطابان ، وهما متكاملان ، لقضايا عالمية وإنسانية وإسلامية . وقد تلقيت ردودا كريمة من الزعيمين . هذا إلى اتصال مع أعضاء مجلس الأمن والأمين العام للأمم المتحدة ، ومشاركة في الأيام العالمية الرئيسية : يوم فلسطين ، مقاومة التفرقة العنصرية في جنوب افريقية وناميبيا ».

هدايا الكويت

بقيت بعد هذا كلمة ختامية عن مشروعات أربعة تقوم بها الكويت هدية إلى العالم الإسلامي :

الأول : مشروع قاموس القرآن الكريم".

وهو أول قاموس يصدر باللغة العربية يجمع الجوانب التشريعية والتاريخية والأثرية والجغرافية والنباتية بالكلمة والصورة والخريطة ، وتقوم به الآن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، وسيترجم بعد هذا إلى لغات أخرى .

الثاني : أطلس الخدمات الإسلامية :

ويضع الأساس العلمي للخدمات في العالم الإسلامي ، ويبدأ بالجوانب الصحية والتعليمية والاجتماعية . وتشرف عليه وزارة التخطيط بالكويت متعاونة مع الوزارات المختصة ، ومتصلة بالدول الإسلامية وبالخبراء من هذه الجهات .

الثالث : الطب والقانون والأخلاق .

وهو حصاد عدد من الندوات التي قامت بها المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية ، جمعت فيها بين رجال الطب والتشريع الإسلامي والقانون والأخلاق ، لبيان اجتهادات المسلمين في المستجدات الطبية المعاصرة . وستنشر على مستوى عالمي باللغات العربية والانجليزية والفرنسية بالتعاون مع مؤسسة الكويت للتقدم العلمي . وهذه تجربة من تجديد الاجتهاد الإسلامي ، مع الاحتفاظ بأصوله السليمة ، والاستجابة لمقابلة قضايا العصر التي تفرض نفسها على الفكر الإنساني والإسلامي ، وتقابلها الجاليات التي تعيش في مجتمعات متقدمة .

الرابع : تعاون الشباب الرياضي الإسلامي في لقاء باستضافة كاملة في الكويت توثيقا للإخاء والمودة .

وبهذا تبدو مشروعات الكويت الأربعة شاملة الشباب والعلماء والقاعدة الإسلامية العريضة في لقاء مع المستقبل وقضايا الإسلام المعاصرة .

على منبر الأمم المتحدة

وفي صباح الأربعاء ٢٨ سبتمبر ١٩٨٨ ألقى سمو الأمير كلمته الإسلامية الإنسانية الجامعة من منبر الجمعية العامة للأمم المتحدة باسم ألف مليون مسلم بدأها بقوله :

« حين نبدأ حديثنا نحن المسلمين بأن نقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » فنحن نجدد بها عهدا مع الله أن نقول الحق ، وأن نحكم بالعدل ، وأن يكون التعامل بين الناس على أساس الرحمة . والرحمة مصدر الإخاء وحقوق الإنسان والتعاون على التقدم . ومن هذا العهد بين الإنسان وربه ، وبين الإنسان وأخيه الإنسان ، أتوجه بحديثي إليكم ».

وتحدث سموه عن تلاقي أهداف هيئة الأمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الإسلامي ، وحيا التقارب بين الدولتين الكبيرتين والأمل في أن يكون لذلك التأثير الإيجابي لا السلبي على مشكلات الشعوب الصغيرة . وانتقل بعد هذا إلى العلاقة بين الشمال والجنوب ، وقدم مشروعا من ثلاثة بنود ، كان له أعمق الأثر بين الدول الشمالية والجنوبية معا ، لما يحمل من حلول عملية إنسانية مستقبلية وهي :

أولا : أن تدعو الدول الدائنة إلى عقد اجتماع فيما بينها لبحث إلغاء الفوائد على ديونها المستحقة لدى الدول المدينة ، مع إسقاط جزء

من أصول الديون المستحقة لدى الدول الأشد فقرا . وإن الكويت كدولة دائنة على استعداد لحضور هذا الاجتماع ، والالتزام بما يصدر عنه من قرارات . وسيكون هذا عونا للدول المدينة على القيام بمشروعات التنمية ، وسينعكس أثر ذلك على كل من الدائن والمدين .

ثانيا : أن يعيد صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ، النظر في شروطهما القاسية على الدول التي تطلب المساعدة لتحسين أوضاعها مع مراعاة الفروق بين دولة وأخرى .

ثالثا : زيادة وتنظيم العون العلمي والتقني الذي يقدمه الشمال إلى الجنوب . وسيؤدي هذا إلى صيانة الموارد الطبيعية والبشرية ومحاربة التلوث ودعم مشروعات التنمية والتوسع فيها ، ويصبح العلم وسيلة للتعمير والتقدم، لا للتخريب والانحدار .

ثم تناول سموه موضوع الإرهاب فأدانه ، مع التفرقة بينه وبين الحق الطبيعي في السعي إلى الحقوق الوطنية المشروعة ، وهو ما كفلته المواثيق والقوانين الدولية . وأشاد بالاعلان العالمي لحقوق الإنسان بمناسبة مرور أربعين عاما على إعلانه ، وأنه « أنضج الثمار على شجرة الأمم المتحدة . ولكنها ثمار كثيرا ما تتعرض للعدوان . ولا بُدَّ لها من رعاية تستند إلى قوة الضمير وقوة القانون معا » . ومن هذا انتقل إلى القضايا الإقليمية على الصعيد العالمي ، والترحيب بقبول ايران لقرار مجلس الأمن ٥٩٨ والذي سبق أن وافق عليه العراق والأمل في تنفيذ جميع بنوده . وتحدث عن القضية الفلسطينية والانتفاضة ، من مدخل إنساني ، ووضعها في إطارها العالمي باعتبارها من مسارات الاستقلال التي مارستها بحق كثير من دول العالم ، وأن كل ما يطالب به الشعب الفلسطيني هو أن تكون له دولته المستقلة فوق أرضه ، وعاصمتها القدس ، بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، ممثله الشرعي والوحيد .

وأشاد بدور المجموعة الأوربية في إتاحتها الفرصة للسيد ياسر عرفات لشرح قضية بلاده على منبر البرلمان الأوربي . وعرض بعد هذا لقضايا لبنان وأفغانستان وجنوب افريقية وناميبيا في إطار من الوحدة الوطنية ، وحق تقرير المصير ، وشجب التفرقة العنصرية ، « وإن أصحاب الحق سيصلون إلى حقهم طال الزمن أو قصر » ، ونادى بإطلاق سراح الزعيم الافريقي « نلسون مانديلا » ، وتمنى الاستقرار للأقطار الآسيوية .

وتوجه بالشكر إلى الجمعية العامة ومجلس الأمن والإعلام العالمي والحاضرين ، باسم العالم الإسلامي ، وباسم الكويت ، وباسم سموه .

وقد شهدت هذه الرحلة لقاء سموه مع الرئيس ميتران في فرنسا ورئيس وزرائه في باريس ، كما شهدت لقاءه مع الرئيس ريجان وجورج شولتز وزير خارجيته في نيويورك ، ولقاءات مع الأمين العام للأمم المتحدة ، والكثير من ممثلي الدول الإسلامية ، كما شهدت وضع حجر الأساس في مئذنة مسجد نيويورك على نفقة الكويت فضلا عن مساهماتها السابقة في المشروع . وبعد : فقد شهدت هذه السنوات : الاتفاق على جدول زمني لانسحاب القوات الأجنبية من أفغانستان ، ووقف إطلاق النار بين ايران والعراق ، وإعلان قيام دولة فلسطين ، وتوالي الاعتراف بها ، والمزيد من التقارب بين الشرق والغرب ، ومبادرة جابر الأحمد للعلاقة بين الشمال والجنوب ، والاحتفال بمرور أربعين عاما على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، وخطوات إيجابية في انجولا وناميبيا .

وتلاقت في هذا جهود عالمية وإسلامية ، كان للكويت دورها الايجابي فيها . وفي المزيد من الإنجازات نأمل . .

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا » . □







قوة الكويت المسلحة

درع لحماية الوطن

استطلاع : أنور الياسين
تصوير : سليمان حيدر

كان هذا الاستطلاع في خطواته الأخيرة للنشر في المجلة عندما تفضل حضرة صاحب السمو أمير دولة الكويت بزيارة لعدد من القواعد العسكرية ، ضمن سلسلة زياراته الميدانية المستمرة لوحدات القوات المسلحة إيمانا منه بأهمية إعداد قوة الكويت المسلحة وتطويرها ، حيث وجه خطابا سياسيا تحدث فيه إلى اخوانه أفراد القوات المسلحة ضباطا وجنودا قال فيه : « إنه لو كان المسؤولون العرب عملوا بجد ومثابرة ، وصدقوا في وعودهم ، لتحررت فلسطين منذ زمن » . وأكد سموه وقوف الكويت إلى جانب دولة فلسطين المستقلة بكل إمكانياتها ، وأن خطر « اسرائيل » لا يشمل فلسطين فحسب ، وإنما يهدد الوطن العربي والعالم الاسلامي .

وعلى نفس الخط الثابت لمبادىء الكويت وسياستها المعلنة ، جدد سمو الأمير رسالة الكويت إلى السلام والاستقرار في منطقة الخليج فقال : « إننا لا نريد الحرب ، وإننا عملنا كل ما نستطيع لوقفها مع إيماننا الذي يفرض علينا كعرب بأن نقف مع الحق ضد أي اعتداء على أية دولة عربية ، وأن الكويت استطاعت بتكاتف أبنائها أن تجتاز هذه المحنة التي عشناها ثماني سنوات ، وأن علينا أن نأخذ دروسا بعد هذه الحرب ، ونعيد النظر في إمكانياتنا كقوات مسلحة ، بحيث تقوم هذه القوات بالدور الواقعي لهذا البلد ، صغير الحجم ، قليل العدد ، ولكنه يتمتع بإرادة قوية وطموحُه ليس له نهاية » .

« إذا أردت السلم فاستعد للحرب » هذه المقولة الشائعة هي محور سياسات التوازن ، وهي القاعدة التي ترتكز عليها قوات الكويت المسلحة التي تأخذ بأحدث ما في العصر من تقنية ومعدات ، وتعد الرجال وفق أرفع مستويات الإعداد والتدريب ، للدفاع عن مكتسبات الوطن وما حققه أبناؤه من تنمية ورفاهية .

كانت الكويت منذ القدم واحة سلام ، تقبع عند طرف الجزيرة العربية ، مستلقية على ضفاف الخليج العربي ، منصرفة إلى بناء نفسها بنفسها في زمن مضى . كانت التجارة وحمايتها وصيد اللؤلؤ هما النشاطين الرئيسين للسكان ، وهما مصدر الثروة ، ولم تسلم الكويت من مطامع الجيران . وحدثت المواقع التي دافع فيها الكويتيون عن أنفسهم ، وعن ازدهار الحياة على شاطىء الخليج . وحتى اليوم ، مازالت البوابات والأسوار التي شيدها الآباء في معارك الدفاع عن الوطن شاهدا على التاريخ ، ودليلا حيا على إيمان الآباء بالدفاع حتى الموت عن الحياة والإنسان ، هذا الايمان الذي أورثوه لجيل الأبناء ، فصارت هذه العقيدة هي إيمانهم .

سنوات النهضة

منذ فجر الاستقلال ، انصرفت الكويت إلى بناء نهضتها الحديثة التي شملت كل نواحي الحياة ، فارتفع عدد المتعلمين ، وتأسست المدارس والجامعة والمعاهد ، وازداد بناء

المستشفيات ، وشيدت الطرق والجسور ، وأقيمت المصانع ، وانطلق أهل الكويت في استثمار ثرواتهم التي وهبها الله لهم ، ليجعلوا الحياة أكثر رفقا ورفاهية لأبناء الوطن والمقيمين على أرضه الطيبة .

وفي نفس الوقت الذي انطلقت فيه أيادي الكويتيين للبناء والعمران كان أبناء الكويت في القوات المسلحة يعملون لبناء جيش قوي ، يناسب العصر ، ويواكب التطور والتغيير الذي يشهده العالم في مجالات التسليح والدفاع ، لكي يملك دوما القدرة الفعالة للدفاع عن إنجازات العمران والتنمية ، ومع كل تطور يحدث في العالم كانت الكويت متابعة ، فالتخلف عن هذا الميدان يعني العجز ، وعدم القدرة ، ويعني تهديد مصالح الوطن التي هي فوق كل اعتبار . وتحديث الإدارة القتالية للقوات المسلحة الكويتية وتطويرها تحكمه سياسة عامة وخطوط ثابتة ومبادىء أساسية .

الشيخ نواف الأحمد الجابر الصباح ، وزير الدفاع ، يوضح أسس سياسة تنويع مصادر التسليح فيقول :

« أود أن أوضح للجميع بأن سياسة الكويت في التسليح نابعة من القرار الكويتي الخالص ، دون تأثير من أحد ، وباستشارة الضباط الكويتيين المختصين بشئون الأسلحة ، كل في مجاله . وتحديد نوعية السلاح الذي نرغب باقتنائه يعتمد على ظروف استعماله وأين ومتى ، وتتدخل في ذلك عوامل كثيرة ، أهمها مدى حاجتنا لهذا السلاح أو ذاك على مدى سنوات قادمة ، كما أن اللجان العسكرية المختصة بالأسلحة لا يخفى عليها ما يصنع من أسلحة حديثة متطورة ذات تقنية عالية وكفاءة في الأداء بالدول المصنعة للسلاح ، وبعد أن تقوم بدراسة شاملة للسلاح ، ومدى حاجتنا إليه وفق خطتنا الزمنية المقبلة للتطوير ، نقوم بشراء ما يناسبنا منه كما وكيفا ، مع تحديد بعض المواصفات الفنية التي تلائم الكويت من ناحية المناخ والظروف الطبيعية المحيطة بنا . ولا شك أنه من حق كل جهة أن تضع يدها أينما وجدت مصالحها . ونحن كدولة مستقلة ذات سيادة كاملة ، نضع أيدينا أينما نجد مصلحة وطننا وشعبنا ، دون اتباع لشرق أو غرب ، وهذه سياسة ليست خافية على أحد ، وقد سارت عليها الكويت قديما وحديثا ، وسوف تستمر إن شاء الله منهجا لنا ومبادىء أساسية لا نحيد عنها » .

إعداد الرجال

ليس السلاح وحده هو الذي يحسم المعارك ، فالإعداد والتدريب للمقاتل الذي يقف خلف السلاح ، وكذلك توافر التموين للرجال في ساحات المعارك ، والرعاية الطبية الدقيقة والكاملة ، كلها عوامل تساعد في خوض المعارك وحسمها . اللواء مزيد عبدالرحمن الصانع ، رئيس الأركان العامة للجيش الكويتي ، يجيب عن تساؤلات « العربي » حول آثار تنويع مصادر السلاح على المستوى الفني ، وعن سياسة التدريب وإعداد الرجال ، وإمداد المؤسسة العسكرية بالرجال فيقول :

« لا شك أن سياسة تنويع مصادر السلاح التي تتبعها الكويت تؤتي ثمارها على المدى البعيد ، حيث إننا نؤكد رغبتنا بالاطلاع على جميع ما تنتجه مصانع الأسلحة في الدول المتقدمة ، وباطلاعنا هذا ، ودرايتنا بتلك الأسلحة ، نكون قد كونا فكرة عامة عن سياسة التسليح الشرقية والغربية على حد سواء ، وبالتالي اقتناء ما يناسبنا من أسلحة ، وبما يتلاءم مع طبيعة الكويت وأرضها والاستخدام التعبوي لهذا السلاح أو ذلك . أما فيما يتعلق بآثار التعددية في استخدامات الأسلحة الشرقية والغربية في آن واحد ، فأحب أن أنوه الى أنه من ضمن شروط اتفاقيات شراء الأسلحة بند خاص بالتدريب والصيانة والأداء ، سواء في الكويت أو أرض البلاد المصنعة للسلاح ، وهذا التدريب يكفل



١

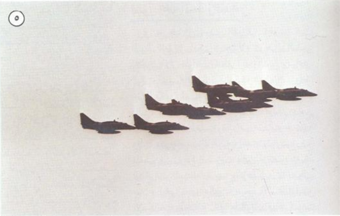


٢



٣







١ - الميراج (أ ف - ١) تستعد للإقلاع من إحدى القواعد الجوية الكويتية .
٢ - طائرة (غزال) العمودية الخفيفة التي تستخدم في مهاجمة الدروع .
٣ - الملازم طيار أحمد سعود الصباح : جاهزون فورا لتلبية نداء الواجب .
٤ - طائرة النقل الضخمة التي شاركت مؤخرا في الجسر الجوي لنقل مساعدات الإغاثة للأشقاء في السودان وبنغلادش التي قدمتها الكويت .
٥ - أسراب من طائرات القوة الجوية في سماء الكويت .
٦ - الطائرة العمودية من نوع (سوبر بيوما) إحدى أضخم طائرات النقل في أسراب الطائرات العمودية تستعد للإقلاع في مهمة جوية .

قدرا من الملاءمة ، والملاءمة في توظيف السلاح طبقا للحاجات التعبوية للقوات المسلحة التي تستفيد من أحسن ما في الغرب والشرق في آن واحد . ويستكمل اللواء مزيد الصانع حديثه فيقول : أما عن سياسات التدريب فلا شك أن العنصر البشري هو الأساس في كل جيوش دول العالم ، مع وجود الآلة الحربية الحديثة المتطورة ، ذات التقنية العالمية . . والجيش الكويتي اهتم اهتماما بالغا باستقطاب الشباب بمختلف مؤهلاتهم العلمية ، للانخراط بالسلك العسكري ، بمختلف صنوف الأسلحة ، ومن ثم الحاقهم بدورات تخصصية في مختلف العلوم العسكرية . وتتميز هذه الدورات العسكرية بالصقل التدريجي للعسكريين . . وهناك الدورات الخاصة بالضباط ، ذات المستوى العالي من التدريب والتأهيل . . كما أننا نقوم بإرسال الضباط وضباط الصف إلى دورات عسكرية ، ذات مستوى عال في الدول العربية الشقيقة والدول الأجنبية الصديقة ، ليطلعوا على أنظمة التدريب والتسليح والتأهيل هناك ، ومن ثم الاستفادة منها بتطبيق ذلك ، بما يتناسب مع ظروفنا البيئية والطبيعية ، والظروف المحيطة بنا ، ولا نزال في الوقت الحاضر نستقطب الشباب الكويتي المؤهل بمختلف المراحل الدراسية للعمل جنبا إلى جنب مع إخوانهم الضباط والعسكريين في الوحدات العسكرية المقاتلة والفنية والإدارية خدمة لوطننا الحبيب .

ولقد كانت ظروف الحرب العراقية الايرانية التي نرجو مخلصين أن يخرج الطرفان من مباحثاتها بنتيجة مشرفة ، تجنبها العودة للحرب ، وتحفظ المنطقة من التوتر الذي سادها طوال ثماني سنوات . . . أقول إنه نظرا لظروف الحرب ، وخصوصية وضع الكويت بالقرب من طرفيها ، وبالقرب من ساحات المعارك ، فإن منتسبي قواتنا المسلحة المختلفة من قوة برية أو جوية أو بحرية أو دفاع جوي لم تقصر بواجبها طوال سنوات الحرب العراقية الايرانية ، فقد قامت بواجبها خير قيام ، وأدت دورها كما يجب والحمد لله ، فقد سهر الرجال ، وظلوا في خنادقهم ، وفي أبراج دباباتهم ، وفي كبائن طائراتهم ، وخلف صواريخهم ومدافعهم ، وفي زوارقهم لمدة ثماني سنوات ، فرضتها عليهم الأوضاع بالمنطقة . . . قاموا بكل هذا لتبقى الكويت آمنة مستقرة ، محافظة على استقلالها وسيادة ترابها ، وليهنأ الشعب الكريم والمقيمون الشرفاء بحفظ الله أولا ثم بقيادة صاحب السمو أمير البلاد المفدى وبتوجيهات سمو ولي العهد رئيس مجلس الوزراء حفظهما الله .

نسور الجو المجد والفداء

في طريقنا إلى إحدى القواعد الجوية كنت طوال الطريق أفكر في هؤلاء الرجال الذين يلاقون أكثر المواقف خطورة ، والذين يساوي الوقت لديهم الكثير ، فالدقيقة لها ثمن ، وأقل خطأ يكون ثمنه الموت والشهادة . ولذلك فالطيارون هم أعلى تكلفة إعداد ، وأندر عنصر قتالي ، وذلك لضرورة توافر صفات جديدة وطبية ودرجات لياقة عالية وإعداد وتدريب رفيع المستوى . وقوة الكويت الجوية تتميز بتعدد الطائرات المستخدمة بها وتنوعها ، مما يعطي سلاح الجو كفاءة عالية ، نتيجة الاستفادة من الامكانات المختلفة لكل طائرة . قائد قوات الطيران والدفاع الجوي العميد ركن طيار داود شاهين الغانم يقول لنا :

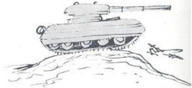
العقيدة القتالية لقوات الطيران والدفاع الجوي ثابتة لا تتغير باستخدام نوع معين من الطائرات ، سواء أمريكية أو انجليزية أو فرنسية . ومفهوم الاستخدام لدينا يركز على حاجتنا ، وليس على تجارب الآخرين ، فما هو جيد للآخرين قد لا يكون جيداً لنا والعكس صحيح . لقد أثبتت التجارب التي مرت بها قوات الطيران والدفاع الجوي خلال السنوات الماضية في الفترة القياسية التي كانت بها في حالة

جولة بالقاعدة

وفي القاعدة الجوية شاهدنا عرضا جويا من مختلف الأنواع ، وجميع الطائرات يقودها شباب كويتي مؤهل ومتعلم . التقينا بأحدهم ، المقدم طيار عبدالله المطوع ، تحدث إلينا فقال : « نحن نطير ساعات معينة ومحددة وفق أسس وجدول موضوع ومنظم . وساعات الطيران هذه تتم إما للحفاظ على مستوى الطيار وكفاءته أو أداء واجب عسكري ، والحمد لله فإن مستوى الطيار الكويتي مستوى يدعو للفخر والاعتزاز والشموخ ، ويشهد لنا الجميع بالكفاءة العالية والمقدرة والمهارة . وفي الحقيقة فإن الدولة ممثلة في وزارة الدفاع ورئاسة الأركان حريصة كل الحرص على رفع مستوى المقاتلين وتدريبهم ، ففتحت لنا أبواب الدراسة والبعثات العلمية والدورات التدريبية في الداخل والخارج ، للاطلاع على كل ما هو جديد ومتطور ومتقدم ، ومسايرة للعصر ، والحفاظ على مستوى الكفاءة العالي الذي وصلنا إليه ، وقد أثمرت سياسات التدريب هذه أن أصبح لدينا والحمد لله مدربون كويتيون ، يدربون إخوانهم الطيارين ، ويتحدثون معهم نفس اللغة ، ويشتركون معهم في نفس الأحلام والآمال والهموم » .

وفي موقع آخر حيث « دشمة » الإقلاع الفوري ، التقينا بعدد من الطيارين جالسين على أهبة الاستعداد ، مرتدين كامل ملابسهم العسكرية ، جاهزين للانطلاق في أي لحظة ، تلبية للأوامر : يحدثنا الملازم أول طيار أحمد يوسف سعود الصباح فيقول :

إن حب الوطن والدفاع عنه شعار وعقيدة وإيمان لدى كل من ينتسب إلى قواتنا المسلحة ، ونحن في هذا المركز (مركز الإقلاع الفوري) مهمتنا هي اعتراض أية طائرة معادية ، ونتواجد بالمركز طوال ٢٤ ساعة ، ونحن مستعدون بصورة دائمة لتلبية الأوامر ، وآلية العمل . إننا فور سماع صافرة الإنذار الخاصة بنا ننطلق إلى



استنفار كامل ، بسبب الحرب العراقية الايرانية ، مقدرة طيارينا على استيعاب الطيران على الطائرات الحديثة والمجهزة بأحدث الأنظمة « التكنولوجية » المتطورة ، إضافة إلى الكفاءة المميزة والعالية التي أشادت بها كافة دول مجلس التعاون ، من خلال التمارين الجوية المشتركة بين طياري دول المجلس . إن مقدرة الطيار على الاستيعاب تنبع من قوة التدريب الذي يمر فيه خلال تدريبه ، وطرق الاختيار التي نركز فيها على اختيار الأفضل ، ولهذا نجد أن طيارينا لم يواجهوا مشاكل في استيعاب المعدات الحديثة ، بل استطاعوا التعامل معها بسهولة ودقة نفخر بها جميعا . بالنسبة للمشاريع المستقبلية لتطوير قوات الطيران والدفاع الجوي ، فكما تعرفون فإن القوة الجوية في كافة أنحاء العالم تتطور يوما بعد يوم ، نتيجة المستجدات التي تطرأ على الطائرات والمعدات ، ونحن هنا نتابع كل ما يحدث في العالم ، لأننا نداوم على أن نكون الأفضل ، وعلى هذا الأساس فلدينا مشاريع بعضها تم الانتهاء منه والآخر على وشك الانتهاء ، والبعض في طور التنفيذ ، وهناك مشاريع مستقبلية ، فمثلا نحن الآن نعد العدة لاستقبال أحدث طائرة لدينا ، وهي طائرة (ال . ف . ١٨) التي ستحل محل طائرة السكاي هوك ، أيضا هناك مشروع الدفاع الجوي نظام (آمون) الذي سيكون أحدث سلاح دفاع جوي موجود لدينا ، وقريبا جدا سيتم الانتهاء من مبنى المعهد الجوي الذي سيكون خير معين لنا لتدريب « الكوادر » المختلفة في كافة التخصصات .







١ - سلاح الدروع سيد المعركة ، وهنا تظهر دبابات (تشيفتين) .

٢ - التدريبات العملية على السلاح في مدرسة الدروع .

٣ - قاعة المحاضرات بمدرسة الدروع ، حيث يتلقى أفراد القوات المسلحة الدروس النظرية على الأسلحة المستخدمة .

٤ - أحد الضباط المدرِّبين يشرح للطلبة المتخصصين في سلاح الدروع على نموذج لهيكل مدرعة .



طائراتنا ، وفي خلال دقيقة ونصف ، نكون على أهبة الاستعداد للانطلاق ، وأثناء وجودنا بالطائرة نتلقى التعليمات الخاصة بالهدف المطلوب اعتراضه ، وذلك لتوفير الوقت بأداء عمليتين في وقت واحد . وعن طائرته يقول لنا الملازم أول أحمد الصباح : « طائرة الميراج (ف - ١) اعتراضية ذات مستوى عالي الكفاءة ، فهي قادرة على التحليق بسرعة تزيد على ضعفي سرعة الصوت ، وعلى ارتفاع يصل إلى ١٦ ألف قدم ، وهي مزودة بنوعين من الصواريخ ، أحدهما قصير المدى وموجه بالأشعة الحمراء ، والآخر ذو مدى بعيد وموجه بالرادار ، وتتسلح الطائرة كذلك بمدفعين رشاشين ، عيار ٣٠ ملم ، يستخدمان في الاشتباكات الجوية المتقاربة ، كما تتمتع الطائرة بميزة توافر جهاز رادار متقدم بها ، قادر على رصد الأهداف العادية ، وكذلك ميزة توجيه الصواريخ ذاتيا . وتمتلك القوات الجوية الكويتية أنواعا متطورة ومختلفة من الطائرات ، بدءا من طائرات النقل « الهليوكبتر » إلى الطائرات المقاتلة الاعتراضية . وأحدث طائرة انضمت إلى سلاح الجو الكويتي هي الطائرة (اف - ١٨) الامريكية التي كانت الكويت أول دولة عربية تمتلكها » .

الدروع فرسان الصحراء

قبل ظهور الدبابات كانت الخيول هي وسيلة الحركة ، وكان سلاح الفرسان هو السلاح الذي انتهى مع التطور العلمي ليحل محله سلاح الدروع . وفي جلسة طويلة مع المقدم ركن سليمان العبدالرزاق ، سألناه عن مدى استفادة مدرسة الدروع من التحسينات التي يضيفها التطور العلمي والتقني المذهل عندما تشارك في اختيار نوعية الدروع التي تدخل في خدمة قواتنا المسلحة ، وأهمية تدريب العناصر البشرية عليها ، خاصة أن هذا السلاح هو المفضل في استراتيجيات الدول ذات الكثافة السكانية المنخفضة . وعن المهام الموكلة لمدرسة الدروع في الجيش ودورها في بناء القوات البرية ، قال قائد مدرسة الدروع : مدرسة الدروع تشارك مع اللجان المختصة في فحص وكفاءة الآليات المدرعة التي تدخل الخدمة ، في سبيل اختيار الأفضل منها لقواتنا المسلحة . ولا شك أن هناك تسابقا علميا في مجال التسليح وضعته المدرسة بعين الاعتبار ، حيث التطور العلمي في استخدام « مقدرات المدى » التي تستعمل لقياس المسافات ، والتي تعمل بأشعة ليزر ، حيث مكنت هذه المعدات من سرعة التعامل مع الأهداف المعادية ، وهي ما زالت في تطور مستمر ، وكذلك أنظمة الرماية التي تعمل بالعقول الألكترونية و« الكمبيوتر » والتي تحتاج إلى جهد بسيط في التعامل ، حيث تتميز بالسهولة في الاستعمال . ومن الأمور التي بدأنا نستفيد منها من جراء التطور العلمي التسابق في تطوير أجهزة الرؤية والمعدات الليلية التي تعتمد على نظريات علمية ، مثل الاستفادة من الكواكب في العمل ، أو من التكثيف الحراري . ومن الأمور المهمة كذلك في هذا المجال التطور الذي بدأ يظهر على نوعية الدروع المستخدمة في التسليح ، حيث تعتمد على نظريات علمية معقدة ، وتدخل بها عناصر مشعة مختلفة . وكذلك أنواع الذخائر المتطورة التي تعتمد على الطاقة الحركية الهائلة والتركيبات الكيميائية المختلفة .

كل هذه التطورات ليست ببعيدة عن الدراسة والتمحيص من قبل ضباط المدرسة وضباط اللجان المختصة في هذا المجال ، حيث توضع بعين الاعتبار جميع هذه التطورات والتحسينات عند اقتناء أي معدة جديدة في المستقبل . أما من ناحية الاستعمال والقدرة على تعامل العنصر البشري فنحن لا نعاني صعوبة في استيعاب هذه المعدات المتطورة التي يغلب على معداتها وأجهزتها التطور التقني ، حيث استطاع ضباطنا وضباط الصف والأفراد من التعامل معها بسهولة ويسر ، وأخذنا نعتمد على أنفسنا في جميع

المراحل التدريبية ، وبالتالي نستطيع أن نوجد السلاح الفعال ، وبدوره يؤدي إلى بناء القوة الضاربة التي تحمي كويتنا العزيز .

أما عن المهام الموكلة لمدرسة الدروع فقد ذكر لنا المقدم أحمد مطيران الفرحان ، أنها تتلخص بالآتي :

« تدريب وإعداد الضباط والضباط المجندين في الوحدات المدرعة لمختلف الوظائف القيادية من مستوى فصيل ولغاية سرية ، والعمل كركن في مختلف القيادات ، وكذلك إعداد وتأهيل الضباط وضباط الصف من مختلف الوحدات المدرعة كمدربين على مختلف أنواع الأسلحة والآليات والأجهزة في الوحدات المدرعة ، ليتمكنوا من تدريب وإعداد الجنود وضباط الصف والمجندين من مختلف الوحدات المدرعة ، كإعداد لهذه الآليات المدرعة ، كذلك تقوم المدرسة بتعليم وتخريج ضباط الصف كقادة مدرعات ودبابات ورقباء فصائل في الوحدات المدرعة ، وبالإضافة إلى ذلك تقوم بترجمة وإعداد مراجع التدريب المتعلقة بالدروع ، ومتابعة تطورها في الجيوش الصديقة ، وتعميمها على الوحدات المدرعة عن طريق المحاضرات والتدريب ، والاشتراك مع اللجان المختصة في فحص كفاءة الآليات المدرعة التي تدخل الخدمة حديثا في الجيش الكويتي .

ومن هذه المهام نستطيع القول ان المدرسة تساهم مساهمة فعالة في تزويد القوة البرية باحتياجها من « الكوادر » المتدربة ، سواء من وحدات الدبابات أو المدرعات أو المشاة الآلية والذي بالتالي يؤدي إلى تحسين المقدرة ، والارتقاء بمستوى قواتنا المسلحة بشكل عام » .

لضمان صحة المقاتلين

يعد فرع الخدمات الطبية في القوات المسلحة واحدا من أهم الفروع ، ويتوازى في أهميته مع الأفرع المختلفة ، لأن أهم الواجبات التي يقوم بها الطب العسكري تتمثل في إبقاء القوات المسلحة في حالة صحية جيدة ، في وقت السلم ، وكذلك في الحرب ، حتى تتمكن من القيام بمهمتها القتالية والمهمات الأخرى الملقاة عليها ، ولا شك في أن النجاح في توفير هذه الحالة الصحية الجيدة للمقاتل يشكل في أغلب الأحيان الفرق بين النصر والهزيمة ، ومن هذا المنطلق للوصول إلى المستوى الصحي الجيد جاء اهتمامنا بالناحية الوقائية والعلاجية والتأهيلية في الطب العسكري .

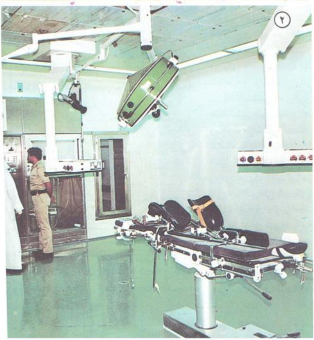
أما أهم عناصر الطب العسكري فهو طب الميدان ، وطب الطيران ، وطب الأعماق ، وكل منها قد وصل إلى درجة متطورة في إعداد « الكوادر » وتدريبها ، وفي توفير الأجهزة والمعدات الطبية ، وكذلك في طرق ووسائل الإخلاء إلى المستشفيات الميدانية .

وقبل الحديث عن المستشفى العسكري الجديد فإنه يجدر الإشارة إلى أن هناك خدمة طبية متواصلة ، تؤدى لمنتسبي قواتنا المسلحة في فروعها المختلفة ، سواء في الألوية والوحدات البرية أو في القواعد الجوية والبحرية ، إضافة إلى المركز الطبي الذي يتميز بوجود أجهزة طبية ووسائل فحص حديثة للقيام بواجباته الطبية للمتطوعين والمجندين وغيرهم .

أما المستشفى العسكري الجديد الذي سيفتتح هذا الشهر فهو يحتوي على (٢٥٨) سريرا ، ويتكون من ثماني أجنحة ، وكذلك جناح لكبار الشخصيات ، ويحتوي على جميع التخصصات الطبية فيما عدا تخصص النساء والولادة ، وقد روعي أن يكون التركيز على التخصصات الطبية التي تهم النواحي العسكرية كالجراحة والعظام ، وطب الحروق ، وجراحات التجميل .

وقد جرى تجهيزه بأحدث المعدات والأجهزة الطبية ، كجهاز المسح الإشعاعي للمخ ، وأجهزة الأشعة الحديثة ، وكذلك أجهزة فحص العيون والأنف والأذن والحنجرة ، كما أنه يحتوي على ست غرف للعمليات ، ووحدة للعناية





١ ـ سمو أمير الكويت مع أبنائه أفراد القوات المسلحة
٢ ـ داخل أحدث غرفة عمليات في المستشفى العسكري الجديد الذي « سيدشن » هذا الشهر .
٣ ـ زورق الصواريخ ، أحدث قطع القوات البحرية ،
٤ ـ أفراد الضفادع البشرية في مهمة تدريبية
٥ ـ النقيب بحري جاسم الأنصاري قائد زورق القيادة (الاستقلال) .



٣



٤



٥

المركزة التي يمكن رؤية ومخاطبة المريض فيها من الخارج عند زيارته ، دون الحاجة للدخول على المريض في غرفته ، وكذلك فإنه سيطبق فيه نظام الحاسب الآلي (الكومبيوتر) لتسجيل المريض ومعالجته وفحوصاته ، وكذلك عند التوصية له بعلاج .

إن المستشفى العسكري الجديد بموقعه الجيد وأجهزته الحديثة والعناصر الطبية الكفؤة التي اختيرت له ، ونظام العمل فيه ليؤهله أن يقوم بواجباته الطبية على أعلى المستويات ، وسيكون في مقدوره استقبال الحالات الطبية الحرجة وإعطاؤ ها كل ما تحتاج من معالجة ورعاية صحية بكل كفاءة ونجاح .

العلم والكفاءة في مهنة الأجداد

أثناء سيرنا في داخل إحدى القواعد البحرية ، أثار انتباهنا مبنى يتوسط القاعدة ، وعندما سألنا عنه مرافقنا قال : إنه مبنى يحتوي على عدة إدارات ، وأخذ يعددها لنا . . .

واستوقفنا قوله أن بها المركز الطبي بالقاعدة ، وبه أهم وحدات المركز ذات الصلة بالعمل بالقوات البحرية ، وهي وحدة طب الأعماق . عندما طلبنا معلومات أكثر أحالنا مرافقنا إلى الرائد طبيب ابراهيم خليل درويش ، فقال : أهم اختصاصات وحدة طب الأعماق هي متابعة الحالة الصحية والنفسية للغواصين والضفادع البشرية وأفراد الزوارق البحرية ، حيث يخضع هؤلاء لفحوصات نفسية وجسدية من قبل أطباء إخصائيين بطب الأعماق قبل عملية الغوص وبعدها وذلك لسبر لياقتهم لمهنة الغوص ، خاصة أن الغواص يتعرض أثناء الغوص لعوامل نفسية تؤثر على طبيعة أعضاء جسده ووظائفها وتصرفاته التي قد تكون سبباً لحوادث خطيرة .

(وتذكرت كل الآباء والأجداد الذين كانوا يمارسون الغوص بدون طب أو علم أو رعاية) .

يستكمل محدثنا الدكتور ابراهيم درويش حديثه ويقطع تسلسل أفكاري فيقول : ولأهمية هذا التخصص الطبي في القوات البحرية فقد زود بأحدث الأجهزة الطبية ، مثل غرفة الضغط التي تعد من أكثر الغرف تطوراً ، ومتابعة لأحدث التطورات العلمية في هذا المجال ، ومن أكثر الأمراض شيوعاً التي تصيب رجال البحرية أمراض متعلقة بالتغير في درجات الضغط ، فيتعرضون لأمراض تهتك الرئة ، وأمراض الجيوب الأنفية والأذن .



ولكن بفضل التطور الطبي فإن كثيرا من هذه الحالات يمكن تفاديها عند عملية اختيار الغواص في البداية ، ثم بعد ذلك باتباع توجيهات الطبيب والمدرب قبل كل عملية غوص ، وذلك يستتبع أن يكون الطبيب على معرفة بعمق الغوص ومكانه والغاز المستعمل في التنفس ، وكذلك مدة العمل تحت الماء ونوعيته ، وعدد مرات الغطس التي سوف يقوم بها الغواص ، ويقوم الطبيب أيضا باختبار اسطوانة الهواء التي سوف يستعملها الغواص ، لتحديد نسبة أول أكسيد الكربون وثاني أكسيد الكربون ونسبة الزيت ومدى التشبع وحساب تأثير ذلك على الغواص .

من صيد اللؤلؤ إلى اصطياد المخاطر

كان مجتمع الكويت يعرف مهنة الغوص من قديم الزمن ، وكان صيد اللؤلؤ احدى المهن

الرئيسية للسكان ، وبعد التطور الذي شهدته الكويت خلال الثلاثين عاماً الماضية اندثرت هذه المهنة ، ولم يبق من غواصين إلّا في القوات البحرية ، وداخل تشكيل القوات البحرية يعد جناح الغواصين والضفادع البشرية واحدا من أهم أجنحة القاعدة البحرية ، وقد تم تشكيله مع بداية تشكيل القوة البحرية ليواكب نهضة الجيش وتطوره ، ومنذ بداية نشأته وقيادة القوات البحرية تهتم به اهتماماً كبيراً ، فنظمت دورات تدريبية مكثفة لرجاله داخل الكويت وخارجها ،

كما اشترك رجاله في العديد من المناورات والتدريبات المستمرة والمشتركة مع وحدات الجيش الأخرى ، وهي مناورات تتم بالذخيرة الحية ، أثبت فيها رجال الغوص والضفادع مهارة وقدرة فائقة ، وفي لقاء مع قائد فصيل الضفادع البشرية الملازم أول جمال السلطان حدثنا عن طبيعة عمل الجناح فقال : ينقسم الجناح إلى قسمين : ركن الضفادع البشرية وركن الغواصين ، وقد أنيط بكل ركن عمل يقوم بإنجازه أثناء الحرب والسلم ، ويختلف عمل كل ركن عن الآخر ، فمثلاً ركن الضفادع البشرية جاء إنشاؤه بالقاعدة البحرية دليلاً واضحاً على أهمية وجود رجال متخصصين في عمليات السباحة لمسافات بعيدة في البحار ، لغرض تلغيم قطع بحرية عسكرية وإغراقها ، بالإضافة إلى مهاجمة المناطق البحرية للعدو ، مثل حقول النفط البحرية والموانىء ، والقواعد البحرية التي تشكل خطراً على قواتنا ، والعمل خلف خطوط قوات العدو ، ولقد اهتمت القوات البحرية بهذا الصنف من الفرق المقاتلة ، لبناء قوة بحرية بناء يتفق مع متطلبات الحمولة البحرية ، أما جناح الغواصين فإن عملياته كلها دفاعية ، حيث يقوم بأعمال الدفاع عن الموانىء والشواطىء ، ويقوم بأعمال حراسة السفن البحرية من المتسللين والمخربين بالإضافة لقيامه بأعمال الإنقاذ الخاصة بالوحدات البحرية ، أما عن نواحي التدريب فيقول الملازم أول جمال السلطان :

إن التدريب هو الطريق المؤدي إلى بناء جيش قوي ، ولهذا فالقوة البحرية لم تدخر جهداً في اتباع الأساليب الحديثة في التدريب خاصة للغواصين أو الضفادع البشرية ، كما أن مشاركتهم بالمناورات التدريبية مع القوات البحرية التابعة لدول مجلس التعاون تكسبهم الخبرة والكفاءة المطلوبة ، كما أن تاريخ الكويت البحري في مهنة الغوص والسفر والمتمثل في بطولات أجداد وآباء هذا الجيل ، جعل الرجال شديدي الحرص على الحفاظ على هذا التراث وتلك القدوة الحسنة .

راية الوطن والمجد

لقد ارتأت الكويت منذ وقت مبكر أن يكون لها جيش قوي قادر على حماية ترابها وأمنها واستقرارها ، وهي رؤية تتسم بالحكمة والواقعية وبعد النظر والالتزام المطلق بوجود الدولة وكرامتها ومصالحها الحيوية . وقد أخذ هذا الأمل يتحول تدريجياً إلى واقع حي يثبت وجوده على أرض الكويت الغالية ، ولكن النهضة العسكرية لا تتوقف عند خط معين ولا يحدها حد ، ولا يمكن تغطيتها في موضوع واحد ، فهي مهمة شاملة ومستمرة ، والجيش الكويتي الآن في مرحلة متقدمة على هذا الطريق ، وطموحات أبنائه لا تتوقف ، بل تنظر إلى المستقبل والتطور ، وأبناء الجيش الكويتي مؤمنون بأن الوطن وطنهم ، والجيش أداتهم ، والمسئولية مسئوليتهم للدفاع عن كرامة الوطن وحمايته .

وعبر التاريخ كله كان شعب الكويت أهلا لمواجهة الشدائد وهكذا نكون اليوم وغداً ، فالكويت لا تطلب من أبنائها اليوم إلّا ما طلبته بالأمس من آبائهم ، بناة الأسوار وحماة الديار ، الذين كتبوا تاريخهم بالعطاء والتضحية رافعين راية الوطن والمجد . □

مانديلا... زوجان على طريق النضال الأفريقي

اعداد : عادل البطوسي *

يحفل التاريخ بنماذج انسانية فذة ، صنعت من تضحياتها الاسطورية في سبيل حرية الانسان ، ودفع المظالم عنه ، وتحقيق العدل له ، جسرا انتقلت فيه البشرية الى مواقع انسانية متقدمة .

من هؤلاء يبرز المناضل الافريقي نيلسون مانديلا وزوجته اللذان مازالا يدفعان من حريتهما ضريبة انتمائهما لقضية شعبهما الأسود .

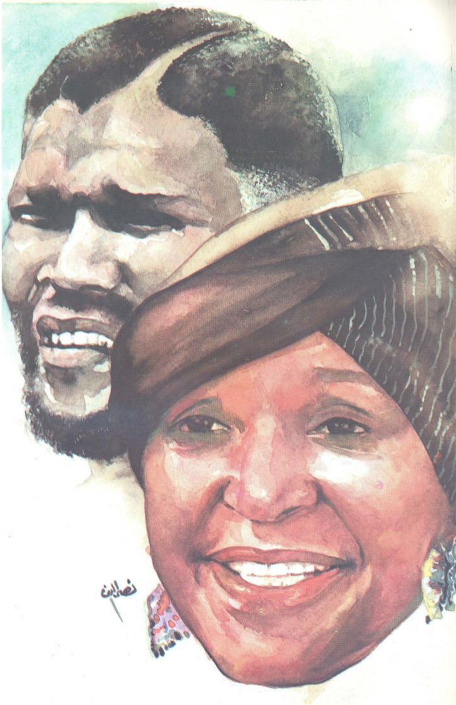
اتسعت رقعة الأصوات في المحافل الدولية للمطالبة بالإصلاحات الجذرية ، وفرض العقوبات على النظام العنصري في جنوب أفريقيا ، ومع تزايد هذه الأصوات ، تتزايد الرغبة الملحة في الانتخابات الحرة ، وتعدد الاحزاب ، بدل الحزب الواحد الحاكم ، ويزداد تأثير نيلسون مانديلا المحامي الثائر ، وزعيم منظمة المؤتمر الوطني الافريقي المناهض لسياسة التفرقة العنصرية في الملايين من الناس .

لم يعد نيلسون ، المناضل الأفريقي ، المعتقل منذ عام ١٩٦٢ في جزيرة « روبن » ، وحتى نقله في أغسطس الماضي الى المستشفى ، مجرد زعيم تحتجزه الحكومة العنصرية ، بل صار رمزا من رموز الثورة على الاضطهاد على أساس اللون ، أو الجنس ، أو العقيدة . وذلك بفضل صموده الثوري في معتقلة وتاريخه النضالي ، والكفاح البطولي لزوجته « ويني مانديلا » التي واصلت مسيرة النضال ضد الممارسات العنصرية الظالمة .

مانديلا والافراج :

الأسئلة التي تطرح نفسها على الساحة السياسية الآن ، وخاصة بعد تدهور صحة الزعيم الوطني « مانديلا » ، تنحصر في : هل

* كاتب من القطر العربي المصري .



تتخلى حكومة جنوب أفريقيا عن الممارسات الظالمة ضد السود ، وحرمانهم من أبسط حقوق الانسان وهي الحياة الحرة الكريمة فوق ارضه ووطنه ؟ وهل تطلق الأقلية البيضاء الحاكمة في جنوب أفريقيا سراح المناضل الوطني مانديلا السجين منذ ربع قرن ؟ وهل تتخلى عما أعلنه « بوتا » رئيس وزراء جنوب افريقيا كشروط للنظر في اطلاق سراح مانديلا ؟ وهي أن يتعهد بألايجعل من نفسه مدانا بالتخطيط ضد النظام ، أو أن يثير الشغب ، أو يقوم بأي حركات عنيفة لأهداف سياسية ، ويقدم التماسا للحكومة متعهدا بتجميد نشاطه ، وهذا ماأباه مانديلا الذي قال عقب تصريح بوتا إنه لايقبل أن يقدم تعهدا للحكومة طالما لايتمتع السود بحريتهم ، فحريته مرتبطة بحريتهم وهي وحدة لاتتجزأ ، ولن يساوم على حق الشعب في الحياة الحرة .

وظل نيلسون معتقلا حتى داهمه مرض السل الرئوي مصحوبا بمياه في الرئة ، مما استلزم نقله الى مستشفى « تيجربرج » الحكومي في « كيب تاون » يوم ٨٨/٨/٢ للعلاج ، لكن تحت مظلة الاعتقال ، ثم قامت السلطات في جنوب افريقيا بنقله الى مستشفى خاص ، وكان أكثر الدوافع لدى الحكومة في نقل مانديلا من المستشفى الذي كان يتلقى العلاج به ، الى منزل علاجي خاص ، هو ابعاده عن النشاط السياسي ومايشكله من خطورة . لكن الشعب الأسود يسعى الى اطلاق سراح زعيمه الوطني مانديلا ، واطلاق حرية « أم الشعب الأسود » كما يلقبون « ويني مانديلا » ، التي صارت رمزا من رموز المقاومة ، وتحدت النظام العنصري متحملة صنوف العذاب ، والقهر النفسي ، والروحي ، والجسدي حتى تجاوزت بكيانها حدود بلادها ليسمع العالم صوتها التحرري ، وهي تندد بالنظام العنصري ، وممارساته ، وتطالب بتحرير الانسان من قهر الجنس واللون .

بذور الكفاح :

تعود بذور الوعي السياسي لدى نيلسون المولود عام ١٩١٨ الى عام ١٩٤٤ ، حين انضم الى رابطة شباب المؤتمر الوطني الأفريقي ، وحصل على الليسانس في القانون من جامعة « جوهانسبرج » . وفي عام ١٩٤٨ وبعد أن استولى حزب الوطنيين البيض على السلطة ، اشترك في حركة المقاومة ضد التمييز العنصري . وقبض عليه مع عشرين من قادة المقاومة ، ثم انتخب رئيسا لحزب المؤتمر باقليم ترانسفال عام ١٩٥٢ ، فأصدرت الحكومة العنصرية قرارا بوقفه عن ممارسة المحاماة وعدم دخوله العاصمة . وفي ٢٦ يونيو عام ١٩٥٥ صدق المؤتمر الشعبي بمدينة « كيب تاون » على دستور الحرية ، واشترك في هذا المؤتمر الهام الآلاف من حزب المؤتمر الوطني الافريقي. وفي العام التالي حوكم مع ١٥٦ من رفاقه بتهمة الخيانة العظمى ، واستمرت محاكمته حتى ١٩٦١ ، ولكنه قبل ذلك وفي ١٩٥٨ اقترن بويني مانديلا **وأنجبت له (زيني - زيندزي) اثناء محاكمته .**

و « ويني » ضمن مناضلات كثيرات عرفهن **العمل الوطني الافريقي ، منذ طفولتها المبكرة قد تحملت المسئولية ، فبعد رحيل والدتها :** تركت - « نومزانو وينيفريدها ديز يكيلا » المعروفة بـ « ويني » والمولودة في قرية لوندولاند من قرى منطقة ترانسكاي بجنوب افريقيا في سبتمبر ١٩٣٤ - المدرسة لمدة عام ونصف لتربي شقيقها الرضيع ، وعملت في الحقول وحلب الأبقار .

واشتعل وعي ويني السياسي حين قص لها والدها عن حروب اكزوما التسع ، وحدثها عن « آدم كوك » احد الزعماء السود الذي شوهوا صورته في الكتب المدرسية ، ثم شب الحس النضالي عندها مع تدرجها في المراحل الدراسية . وفي المدرسة الثانوية عرفت جمعية أفريقيا الشابة الملتحمة بالجماهير وهي منظمة تنبثق من البروليتاريا ، ثم حضرت اجتماعات المؤتمر الذي كان نيلسون رائدها ومعه

« تامبو » ، و « نوكوى » ، ودرست في مدينة جوهانسبرج وكانت أول امراة سوداء تعمل في المجال الطبي ، حيث عملت اخصائية اجتماعية طبية .

التقت ويني برجلها نيلسون اول مرة في المحكمة الاقليمية بجوهانسبرج ، وكان يمثل زميلا له قبض عليه البوليس . ورأت ويني - حسب تعبيرها - هذا الرجل الشامخ المهيب الجليل حينما دخل الى القاعة وسط همس الموجودين باسمه ، ثم التقته ثانية وقد كان برفقة « اوليفر تامبو » وزوجته « ادولين » ، والتقى بها ثانية ليستفسر عن امكانية قيامها بجمع اموال لهدف نضالي معين . ثم تكررت لقاءاتهما حتى، تم زواجهما عام ١٩٥٨ **مع فرق السن** ، وشاركت في عمله السري السياسي . وكانت حياتها معه حياة بدونه - كما تقول ويني - فلم يكن لديه وقت حتى ليأكل ، فالوطن يأتي أولا ، وأي شي آخر لديه في المرتبة الثانية .

وسريعا كان الانفصال ، فقد قبض عليه وظلت هي معتقلة في منزلها بصفة مستمرة ، ولكنها **فجرت** منزلها متحدية السلطة فنقلت من « سويتو » الى « راندفورت » وحسب تعبير مجلة التايم الأسبوعية الأمريكية عدد ٥ يناير ٨٧ أن الصوتين نيلسون وويني لم يسكتا **وعلى الرغم** من قرار السلطات بمنعها من الالتقاء بأي شخص استطاعت الصحفية الانجليزية « ان بنجامين » أن تحصل على تصريح وقابلتها ، وبعدها سجلت السيرة الذاتية للمناضلة ، وأصدرتها في كتاب ضخم بالانجليزية بعنوان « جزء من روحي » وغزت هذه المذكرات الأسواق العالمية ، وأصبحت حديث الأوساط السياسية ، وبلغت المبيعات من هذا الكتاب **نحو ربع** مليون نسخة . وقد كان لويني مسئولياتها السياسية كعضو بارز في الاتحاد النسائي لجنوب افريقيا ، وفي رابطة نساء المؤتمر الافريقي القومي ، وفي الأنشطة السياسية والاجتماعية والثقافية ، وفي دار « مرجريت » للأطفال العميان والصم لدرجة انها تقول بعد زواجها بنيلسون (لم يحدث في اية مرحلة من مراحل عمري أن اجتمعنا انا وزوجي وابنتاي بمفردنا) وفي موضع آخر من سيرتها الذاتية تقول : (لقد ادركت أنني تزوجت قضية تحرير شعبنا حينما تزوجته)

القبض على نيلسون

بعد انضمام ويني الى مظاهرة استخراج تصاريح المرور للنساء عام ١٩٥٨ - وهو نفس العام الذي تم فيه زواجها - تم القبض عليها وفصلها من العمل . بعدها بعامين بدأت الحكومة العنصرية مذابحها الشهيرة ضد السود والملونين ، وأعلنت قانون الطوارىء للحد من المظاهرات ، واعتقل مانديلا مع عشرين الفا ، ولأن الحكومة منعت المحامين من الدفاع عنهم فقد تولى مانديلا وزملاؤه الدفاع عن أنفسهم ، **وفي الوقت نفسه** اصدرت الحكومة قرارا بحظر نشاط حزب المؤتمر الوطني . وفي نفس العام ، أعلنت الأمم المتحدة عام ١٩٦٠ عام افريقيا . ونادى الزعيم الأسود « لوتولى » الرئيس العام للمؤتمر الافريقي بمقاطعة دولية لبضائع جنوب افريقيا ، وأثناء ذلك أطلق البوليس في جنوب افريقيا الرصاص على جماعة مسالمة من الأفراد السود مما أسفر عن سقوط ٦٩ قتيلا و ١٧٦ جريحا . وعندئذ تفجرت ثورة الشعب في غضب عام ، وهزت المظاهرات الجماعية ثانية جنوب افريقيا ، وقبض البوليس على ١٢٠٠٠ أسود بعد اعلان حالة الطوارىء ، وعد المؤتمر الأفريقي خارجا على القانون . وفي العام التالي حصل مانديلا على البراءة من تهمة الخيانة العظمى بعد دفاعه عن نفسه وعن حقوق مواطنيه ، دفاعا تاريخيا ، أقلق ضمير المحكمة ، وبعد اطلاق سراحه اصدرت الحكومة امرا جديدا بالقبض عليه ، فاضطر الى الاختفاء والعمل السري . بعدها حضر مؤتمرا في مدينة « بيتر مارتزبرج » حضره ١٤٠٠ ممثل من جميع انحاء البلاد وألقى خطابا ضد اعلان جنوب افريقيا جمهورية بيضاء ، وسافر عام ١٩٦٢ خارج البلاد لحضور مؤتمر في أديس أبابا ، ثم سافر الى لندن فالجزائر ، ثم عاد سرا

الى جنوب افريقيا ، والقى القبض عليه في ٥ اغسطس١٩٦٢ وحوكم في جوهانسبرج بتهمة مغادرة البلاد بطريقة غير قانونية ، وحكم عليه بالسجن ٥ سنوات ، وقد جيء به الى المحكمة عام ١٩٦٤ لمحاكمته عن قيادة أعمال التخريب من داخل السجن ، وصدر عليه الحكم بالسجن مدى الحياة فانفجر بركانه الوطني (هناك وقت في حياة أي أمة حيث لايبقى امامك سوى احد خيارين : الاستسلام او الحرب ، ومن الضروري اذا لم نجد حلا أن نلجأ أخيرا الى الثورة ضد القهر والاستبداد ، لأن حقوق الانسان امر تجب حمايته بسيادة القانون) وكان لهذا الموقف صدى عالمي مدوٍّ . ففي الهند تعالت الصيحات التي عبرت عنها أنديرا غاندي : (اننا لم ولن نتوقف لحظة واحدة عن تأييدنا لكفاح شعب جنوب أفريقيا ، من أجل حرية الانسان وكرامته ومن أجل المساواة والعدل بين كل أجناس البشر) .

معاناة ويني

قبل انتهاء محاكمة مانديلا ورفاقه انطلقت أهازيج الحرية وشعارات « نحن نقف مع زعمائنا » و « تسقط العنصرية » و « يعيش مانديلا » ولكن ويني تقول : (**كان ذلك** يعني خطة جديدة للحياة ، ومفهوما جديدا للمظهر السياسي والتفكير بالنسبة للبيض . وقد رأيت نيلسون مرة واحدة قبل ارساله الى جزيرة « روبن » ، كان ذلك مؤلما لكنه كان يعرف الوسيلة المثلى ليبعث الطمأنينة في نفسي وينتزع منها الخوف) وقد كانت آخر كلماته « لويني » في يوم ٢٣ ابريل ١٩٦٤ (الحل الوحيد هو التعايش بين الأجناس والحرية للجميع بلا خوف من أحد) وأصبحت « ويني » مضطهدة ومراقبة باستمرار وعاشت في وحدة مع ابنتيها (زيني وزيندزي) ـ والأخيرة كاتبة وشاعرة متمكنة ، وقد نشرت عدة مقالات في صحف عديدة ، وصدر لها في امريكا ديوان شعر بالانـــجــليزية عام ١٩٧٧ عنــوانــه « سوداء مثلى » !!! وهي زوجة سفير وتحمل جواز سفر دبلوماسي يخولها وحدها زيارة والدها في السجن ـ وتكابد « ويني » عذابات الوحدة حيث تجتر ذكريات النضال مع نيلسون وتشرخ فؤادها ومسامعها عباراته الشهيرة (الارادة الحديدية تحول الفشل الى انتصار ـ القوانين الظالمة وضعت لنتحداها ـ الانسان الحر فقط هو الذي يتفاوض) وصرخته أثناء محاكمته في قصر العدالة ببريتوريا ١٩٦٣/١٠/٩ (يجب أن توضع الحكومة في القفص بدلا منى فأنا لست مذنبا) وأعانتها خطاباته الرائعة فلم يصرحوا لها برؤيته . فقد قال لها قبل سجنه بدقائق : (سيحقرون من شأنك توقعي أن يقال لك انك



● مانديلا .. زوجان على درب النضال الافريقي



مسئولة عن وجودي في السجن انت شابة ، والحياة بلا زواج مليئة بكل انواع الاهانات ، لكني أتوقع أن تعيشي حسب توقعاتي) . وهذا ماحدث فقد عملت ويني كعاملة في محل للأثاث ، وعاملة في محل تنظيف الملابس ، وفي محل أحذية . وكانت قوات الأمن كل مرة تذهب الى صاحب العمل لتهدده لفصلها ومن ثم ارغامها على الطلاق من نيلسون والتخلي عن التزاماتها السياسية . ولكن « ويني » آثرت الاضطهاد والوحدة والحرمان ، وتحملت الكثير في جلد وصبر ، وواجهت كافة صور الاتهامات التي يمكن ان تواجهها امرأة شابة حسناء تعيش بمفردها فقد وصل الأمر بهم الى حد أنهم صاروا يحاكمون كل من يقدم لها مساعدة . وكمثال فإن المصور « بيتر ماجوبان » الذي حاول ان يساعدها عدّوا عمله عملاً سياسيا ، وفي محاكمته حاولوا الاساءة الى ويني بصورة رخيصة اذ اتهمته المحكمة بأنه وجد في منزل مانديلا ، وصدرت الصحف بعنوان (العثور على رجل داخل منزل مانديلا) وكان نيلسون يتوقع هذا النوع من التشهير الرخيص ولكنه كان يثق في ويني (لقد ظنوا انهم بسبب فارق السن والظروف سينجحون في تدميري على مر السنوات لأترك كل شيء) . وكانت « ويني » تزداد صلابة ، وهي التي عاشت تجارب الطفولة القاسية ، وترعرعت في جو سياسي **مستنفر ، وعلى الرغم من كل شيء ظلت على موقفها النظالي حتى نالت مؤخراً جائزة « دي بوفار » التي تقدمها مجلة « M.S » وتختار اكثر امرأة نضالاً في العالم ، وتوجتها لجنة المرأة العالمية التابعة للامم المتحدة امرأة ١٩٨٧ ، وهي سجينة دارها سلوتها رسائل نيلسون المطمئنة ، والتي تحمل ترياق وشذى الكفاح .**

من رسائل مانديلا

هذه الرسالة كتبها نيلسون من منفاه الى زوجته ويني عام ١٩٧٦ : « عندما استيقظت في صباح ٢٥ فبراير افتقدتك أنت والاطفال افتقادا شديدا مثلما يحدث دائما ، فأنا أقضي غالبية وقتي هذه الأيام في التفكير فيكم . . ومالا تعرفينه هو مدى انشغالي بك . . وأتصور حاليا كل مايكدرك جسديا وروحيا . . من الملحوظات التي تأتيني يوميا . . والعين العمياء التي تبدينها دائما امام المشاكل الكثيرة التي كان من الممكن أن تحبط امرأة أخرى ، ولكنها أحيانا ماتكون تجربة رائعة ايضا . فكري في اللحظات الثمينة التي قضيناها معا ياحبيبتي ، يحدث ان أنسى أن أقول ان ثمة انتصارات تقوم عظمتها على حقيقة انه لايعرفها الا من يفوز بها ، ولكن ثمة **ايضاجروحاً** تترك ندوبا غائرة عندما تشفى ، فاذا ماعدت الى المنزل ووجدتك خارجة سأبحث عنك لأقدم اليك تقريري لما قمت به لأن هذا الشرف لك وحدك !! »

وبعث نيلسون الى ابنته زينذري في ٤ سبتمبر ١٩٧٧ .

« الارادة الحديدية تحول الفشل الى انتصار ، فكما قلت لي : اذا لم يكن هذا شعورنا لكانت والدتي قد تحطمت تماما الآن ، ولكن ثمة **شيئاً واحداً** أوصيك الا تفعليه وهو الا تسمحي لأي انسان ، وأيا كان عمق حبك له أن يحطمك ، لان هذا سيؤلمني كثيرا ، لأنني لم أحاول يوما أن أفعل هذا مع والدتك أو مع أي من أبنائي ، ولقد واجهنا المشاكل كندين متساويين . حاولي أن ترجئي زواجك لان والدتك في حاجة اليك وسوف تصدم اذا تزوجت الآن وسعادتها بين يديك ـ فالاولوية لدراستك والحصول على شهادة الانجليزية بأي ثمن وهذا مانحب أن نراه أنا ووالدتك » .

ولكن ماذا عن افكار الآخرين عن مانديلا بعيدا عن رسائله ؟

في الحفل الذي اقيم بنيودلهي في ١٤ نوفمبر ١٩٨٠ لمنح جائزة نهرو للتفاهم الدولي الى نيلسون ، ألقت رئيسة الوزراء حينذاك « انديرا غاندي » خطابا طويلا قالت فيه (أينما وجد نيلسون مانديلا وجد الكفاح له مكانا ، قد يقتل المناضلون أو يسجنون لكن فكرة الحرية لن تسحق ابدا .)

تقول عالمة الاجتماع « فاطمة مير » الاستاذة بجامعة « الناتال » بجنوب افريقيا ، التي صدر لها في جوهانسبرج كتاب عن المناضل الأفريقي نيلسون مانديلا بعنوان « أعظم من الأمل » (إن مانديلا هو الأمل في حرية الشعب الاسود ، ووينى الجميلة التي تزوجت القضية هي استمرار الأمل) وقد تمكنت « ويني » على الرغم من كل الاغلال والقيود العنصرية من حضور احتفال خاص اقيم بمناسبة صدور هذا الكتاب ، تخللته نداءات لزيادة **العقوبات** الاقتصادية ضد نظام « بريتوريا » العنصري بعد بروز مواقف بعض الحكومات المخزي في الوقوف الى جوار حكومة الاقلية العنصرية البيضاء .

وليس آخرا

لم يعد للمواطنين الزنوج القدرة على تحمل القوانين الظالمة ، وكافة اشكال القهر والاضطهاد من قبل النظام العنصرى ، فقاوموا هذا النظام العنصري وتعرضوا للتعذيب ، وانتشر التدمير داخل البلاد واندلع الصراع عدة مرات ابرزها « ثورة سويتو » التي انطلقت صباح الأربعاء ١٦ يونيو ١٩٧٦ حيث سار ٢٠ ألف تلميذ من سويتو في مظاهرة ضد صدور امر الحكومة باستخدام اللغة « الافريكانز » وفشل البوليس في ايقاف المسيرة ، فاستخدم العنف وأطلق الرصاص على تلميذ في الثالثة عشرة من عمره ، وقتل مجموعة من التلاميذ واستشرى أجيج الثورة واجتاحت الاضطرابات مدينة سويتو ، واستخدم البوليس كل أنواع الأسلحة



بوحشية اسفرت عن ٦٢٠ قتيلا - ان لم يكن اكثر - و ١٥٠٠ جريح معظمهم من تلاميذ المدارس .

وفي يونيو ١٩٧٧ قبض على ٢١٥٣٤ فردا وأدين **الآلاف** بتهمة العنف ، والآلاف بتهمة التخريب ، وآلاف أخرى بتهمة التمرد . وقبل ذلك بأيام كانوا قد أرسلوا « ويني مانديلا » الى المنفى . وتروي التفاصيل الجديدة للقبض عليها (في ليلة ١٦ مايو ١٩٧٧ كنت أكتب واجبي الدراسي في علم الاجتماع بينما كنت أعمل نهارا ، فقد اعتدت أن أؤدي واجباتي الدراسية ليلا - وفي الرابعة صباحا سمعت ضوضاء كثيرة ، كأن وابلا من الحجارة سقط فوق داري ، وكنت قد شيدت حائطا كبيرا من الخرسانة حول منزلي في مدينة (اورلاندو) وفي لحظات تضاعفت الطرقات في كل مكان ، ففهمت المغزى مدركة انهم جاءوا للقبض على ، ولما فتحت الباب وجدت جيشا كاملا في الفناء مدججا بكامل أسلحته ، أخذت حقيبتي المجهزة ببعض الأدوات تحسبا لمثل هذه الاجراءات ، وكانت ابنتي **«زينذي»** بصحبتي ، فاصطحبتها معي الى نقطة بوليس « بروتيا » لعدم علمي بالفترة المقررة لاعتقالي) .

ومن منفى الى منفى تصرح بأن الحل الوحيد ، هو تحقيق المبادىء التي يتضمنها ميثاق الحرية ، واطلاق سراح نيلسون مانديلا ورفاقه ، ومازال **صوتها** يعبر عن آمال الشعب الأفريقي الأسود في الحياة ، ومازال صوتها يندد بما يمارسه النظام العنصري من أساليب قمع ووحشية . □

نافثات السم

اعداد : عبد الرحمن حريتاني

الطبيعة الجميلة الهادئة

كثيرا ما يخالط هدوءها وسحرها

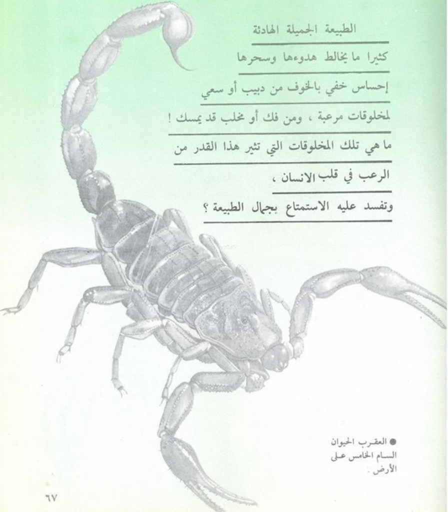
إحساس خفي بالخوف من دبيب أو سعي

لمخلوقات مرعبة ، ومن فك أو مخلب قد يمسك !

ما هي تلك المخلوقات التي تثير هذا القدر من

الرعب في قلب الانسان ،

وتفسد عليه الاستمتاع بجمال الطبيعة ؟



● العقرب الحيوان السام الخامس على الأرض .

السم سائل رائق سميك مبيض أو مصفر سريع الفساد، ما ان يصل الى جسم الضحية حتى يشلّها أو يميتها. ويتكون من مركّبات نوعيّة عديدة مختلط بعضها ببعض، وانزيمات مختلفة وخمائر، وتختلف المركّبات السّمية ذات التأثير العضلي والقلبي عن المركبات ذات التأثير العصبي، وتحتوي بعض المركبات السّمية ذات التأثير العصبي مثلا على سلاسل ببتيدية في كل منها حوالي (٧٠) حمضا أمينيّا.

أنواع السموم

والسموم على أنواع، وبحسب فصيلة الحيوان السام ونوعه يكون الفعل والتأثير للمركّبات والأنزيمات المختلفة التي يتركب منها السم، فمن السم ما يحتوي على مركبات ذات تأثيرات سمية دموية شديدة، فيحطم كريات الدم الحمراء، ويتلف الأوعية الدموية، وله تأثيرات دورانية حالّة، وتأثير على عمليات التخثر الدموية وما ينجم عنها من نزيف متكرر، ويرافق هذا هبوط ضغط شرياني حاد يؤدي الى الصدمة التي يصاحبها الألم والتورم والوذم والنخر والنزف، والوفاة. (حيّات الغدد السامة الخلفية).

ومن السم ما يحتوي على مركّبات ذات تأثيرات سمية عصبية (قلبية عضلية) فيتلف مراكز الدماغ الحساسة التي تتحكم في الجهاز التنفسي ويفضي الى الوفاة بالاختناق بعد حدوث الشلل التشنجي للعضلات التنفسية أو توقّف القلب (حيّات الكوبرا بأنواعها)، ومن السم ما يحتوي على مركّبات خلوية وانزيمات حالّة للنسج والخلايا، بعد أن تسبب توزعا سريعا للسموم ضمن الانسجة، ومن السم ما يؤثر في الدم والجهاز العصبي معا (فصيلة الأفاعي ذات الأجراس).

والتركيب الآلي لجهاز حقن السم يتكون من غدد سامة، مكانها أنسجة الرأس خلف مؤخرة العينين، أو من خلايا غدد السم في مؤخرة الفم أو في مقدّمته، ومن قناة صغيرة توصل ما بين الغدة المليئة بالسم والناب الأجوف في مقدمة الفك العلوي، وتوجد غدة لكل ناب، وتقدر كمية السم المقذوفة في كل عضّة بعشر مخزون السم الاحتياطي الموجود في الغدة السامة، ويتم الحقن بواسطة نابين أجوفين متصلين مع الفك العلوي وموجودين في مقدمته.

وفي الوضع الطبيعي يكون الناب الأخدودي الأجوف مطويا للخلف، وأثناء العضّ واللدغ



● كوبرا الملك الأسيوية .. تاسع حيوان سام على الأرض.

ينتصب الى الأمام خارجا من الفم بسرعة ليفرز السم في جسم الضحية ، ويتم ذلك بفعل تمفصل الناب مع عظم الجمجمة ومع العظام المتحركة الجناحية ، وأثناء اللدغ يميل عظم الفك السفلي إلى الأسفل والوراء ، وينتصب العظم الفكي العلوي والناب ، وفي لحظة العض يحدث ضغط على الغدد السامة من العضلات المحيطة ، فيسيل السم الى القناة الموصلة ومنها الى الناب الأجوف ، فموضع الجرح في جسم الضحية ، ويكون هذا العمل كعمل إبرة المحقن تماما . وجميع هذه العمليات من انقضاض وعض ودفع سم ، ثم عودة الرأس الى وضعه المتحفز استعدادا لانطلاقه ثانية لا تستغرق أكثر من نصف ثانية .

اختيار عسير

انتقاء الحيوانات العشر ذوات السموم الأشد فتكا وإهلاكا في العالم قد يكون عملا ليس بالسهل . ذلك ما يقوله عالم السموم من جامعة أريزونا الأميركية « فايندليي راسل » ، وذلك لتداخل التأثير السمي مع نوع الحيوان ، ولوجود أنواع من الحيوان لديها السم لكنها ليست سامة ، ولأن هناك أنواعا من الحيوان لديها السم ولا تستخدمه ، فضلا عن أن بعض الحيوان يهلك ضحاياه بتأثير حسيّ أكثر مما يهلكه بالسموم ، والطيور وحدها كمجموعة حيوان رئيسية خاصة يعتقد بأنه ليس لدى كل أنواعها سم ، وما عدا ذلك من أنواع الحيوان فأكثرها لديها السم ، ولنأخذ أمثلة : فعلى اليابسة من الارض وفي المياه هناك (٣٠٠٠٠) نوع من العناكب جميعها سامة ، وهناك أيضا نمل سام ، ونحل سام ، ودبابير سامة ، وكذلك أم أربع وأربعين واليساريع (يرقات الفراشات) والعظايا (السحالي) سامة ، بل إن لدى بعض القواقع البحرية وقناديل البحر (السمك الهلامي) سموما شديدة ، وهناك أيضا أسماك سامة مثل سمك الشفنين البحري ، وأسماك أخرى . ويستطيع البلاتبوس الذكر (منقار البطة وهو حيوان مائي ثديي بيوض من حيوانات استراليا منقاره كمنقار البطة) حقن السم المزعج بواسطة مهاميز مركّبة على قوائمه الخلفية .

ولكن أشد السموم سمّية - كما يقول العالم راسل - توجد في صنف الأفاعي التي يكون عشر أنواعها (٣٠٠٠ نوع) ساماً جدا ، وفي العقارب بعض الأنواع السامة المهلكة ، وكذلك بعض أنواع الأفاعي البحرية والسمك الهلامي والأخطبوط البحري . وعلى كل حال ، فإن الحيوانات السامة لا بد أن يكون لديها الأنياب أو المخالب ، أو الابر (الزباني) ، أو الشوك ، أو آليات أخرى تتمكن بواسطتها من نقل السم الى أجسام الكائنات الحية الأخرى .

قنديل البحر المرعب

استقر الرأي بين العلماء في النهاية على أن تتضمن قائمة الحيوانات العشرة الأشد سمًا على الأرض كل سام مؤثر بفاعلية شديدة ، وبكميات تكفي لقتل الانسان الحي بسرعة لا ينفع معها علاج ، وجاء على رأس هذه القائمة حيوان لا يخطر ببال ، إنه (قنديل البحر) أو صندوق الهلام الاسترالي ، وهو حيوان بحري شفاف عديم اللون ، يكون تقريبا بحجم ثمرة « الكريب فروت » ، ولا يطول أكثر من (٨) أقدام من قمة رأسه الى نهاية مجسّاته ، وهو حيوان قوي سبّاح ماهر ذو حركة سريعة في المياه يندفع خلالها كالسهم ، ويتواجد بشكل طبيعي في المياه الضحلة قليلة العمق على شواطىء ساحل كوينزلاند الاسترالي ، حيث يعيش على افتراس الأسماك الصغيرة ، وهو دائما يشل حركة السباحين الغافلين عنه وعن مدى خطورة سمّيته ، وتكسى مجسّاته بحمم (ابر ، زباني) تشبه الحريون وتدعى بالأكياس السلكيّة ، وهي حمم لاسعة في الحيوانات

اللاحشوية ، وتقدر أعدادها بـ (٥١٦٫٠٠٠) حمّة على كل انش مربع (الانش = ٢٫٥٤ سم) ، وهي تعمل وتلفظ سمومها متى حصل التلامس الفاعل بينها وبين جسم الضّحية ، وقد يكون من الممكن أن ينجو ضحايا عديدون من عضة سمك القرش ، ولكن نادرا جدا ما تنجو ضحية من لسعة قنديل البحر ، فالضحية لا يتّسع لها الوقت لتصرخ أو لتصل الى الشاطىء . يقول العالم (هالشتيد) : إن السم يوقف نبض القلب ، والموت يمكن أن يحدث للضحية خلال أقل من (٣٠) ثانية فقط ، وهي أسرع عملية موت بالسم يسببها كائن حي على الأرض .

أفعى البحر

وفي المياه الاسترالية أيضا يعيش الحيوان الثاني الأشد سميّة على الارض ، ففيها يعيش أكثر أصناف أفاعي البحر السامة وسم بعضها مميت جدا ، وأشد فاعلية وتأثيرا من سم حيّة المامبا السوداء الأفريقية ، وأفعى البحر المنقارية وهو النوع المسمى علميا بـ Enhydsira Schistosa وهي أخطرها ، وتقتل معظم ضحاياها ، ومثل معظم أفاعي البحر التي تنتشر في أعماق المياه من أفريقيا الى أميركا الجنوبية عبر الهند والمحيط الهادي ، فانها تعيش في المياه الساحلية المحمية ، وتتغذى من قاع المحيط ، وتخرج الى سطح المياه بين حين وآخر للتنفس ،

وبحسب ما يقول العالم (هارولد فوريس) من متحف شيكاغو الميداني للتاريخ الطبيعي ، فإن بإمكان أفاعي البحر كشف موقع الفريسة حتى لو كانت المياه هائجة مضطربة وموحلة ، على الرغم من أن هذا يحرمها من استخدام حاستي الابصار وشم الرائحة ، وهي تندفع من وقت الى آخر اندفاعات قوية من خلال المياه ، وكذلك فإن أفاعي البحر تستطيع أن تحدد موقع الفريسة بالسرعة الممكنة لها بكل دقة وضبط ، ربما بواسطة كشف الاهتزازات والاشارات الحسية الكيميائية ، وتستطيع أيضا أن تقدر حجمها بكل دقة ، وهي تحجم عن مهاجمة أي شيء كبير عليها لا يمكنها أن تلتهمه كالانسان مثلا ، وقد صدف مرة أن وجد صياد نفسه في وسط آلاف من أفاعي البحر في المحيط الهادي قرب قناة باناما ، ولكن أفاعي البحر لم تظهر أي اهتمام به ، ومعظم ضحاياها الانسانية تكون من صيادي جنوب شرق آسيا حيث يمكن أن تخرج في شبكة الواحد منهم حين يرفعها محمّلة بالاسماك من المياه أكثر من (١٠٠) أفعى ، وتحصل اللدغات السامة حين لا يهتم الصيادون بها ويحاولون أن يعيدوها الى مياه البحر بأيديهم ، وعادة تكون لدغة أفعى البحر دون ألم تقريبا ، لأن أسنانها هشّة سهلة الكسر ، وهي غالبا تتحطم عند العض ، ويعمد الصيادون أحيانا الى نزع أنيابها ليتأكدوا من أن العضّة قد حدثت فعلا ، والتيبس (الانقباض) العضلي يبدأ في الفكين بعد نصف ساعة أو ساعة من حصول اللدغة ، يتبعه ضعف في القوى ، ثم شلل تدريجي وغثيان وقيء ، ثم قصور تنفسي ، ثم الموت السريع .

الأخطبوط السام

أما الحيوان الثالث الأشد سمّية موطنه أيضا المياه الساحلية الاسترالية الضحلة قليلة العمق ، فهو الأخطبوط ذو الحلقات الزرقاء الذي يبلغ طوله من قمة الذراع الى قمة الذراع (٦) إنشات ، وسمّه في لعابه ، ويلدغ الأخطبوط بواسطة منقاره الشبيه بمنقار الببغاء ، حيث يحدث جرحا في جسم الضحية ، يدفع فيه لعابه السام الذي يؤثر على عمل الخلايا العصبية ، فيسبب الشلل ، ثم القصور التنفسي ، ثم الموت الذي يحدث بعد ساعتين فقط من اللدغة . ولدى الأخطبوط الواحد من هذا النوع سمّية تكفي لقتل (١٠) رجال كبار

دفعة واحدة ، ونادرا ما يلدغ الأخطبوط الأزرق الانسان ما لم يُثر ، وفرائسه النموذجية هي السرطانات الصغيرة التي يعتمد عليها في غذائه ، يمسكها من الخلف ثم يشل حركتها ويخدرها بدفع القليل من لعابه عليها .

الاستراليون والأسماك السامة

إن أكثر ما يسوء الاستراليين هو أن معظم الأسماك السامة على الارض تنتشر بكثرة على شواطىء بلادهم ، ومن هذه الأسماك السمكة المسماة « السمكة الحجر » التي تستخدم السبات والتخفّي وسيلة لقنص فرائسها ، والناظر إليها يحسبها صخرا في قاع البحر مغطى بالوحل ذا ثآليل ، وهذه الأسماك تقضي معظم وقتها متوضّعة بلا حراك في الصدوع الصخرية تحت سطح المياه ، أو تدفن نفسها في الوحل ، وبين الحين والحين تطلع من مكمنها لتلتقط الفرائس الغافلة التي تظنها حجرا أو وحلا مثالا .

إن وسائل السبات والتمويه والتخفي الحيوانية رائعة مشوقة ، فيها متعة للباحث وللمتطلّع لمعرفة أساليب الخداع في عالم الحيوان ، وكثيرا ما خدعت هذه الأساليب التمويهية السباحين الغافلين والخائضين في المياه ، وعندما تشعر « السمكة الحجر » بتهديد أو عندما تستثار ، تنثر (١٣) شوكة ظهرية ، يستطيع كل منها اختراق الأحذية ذات القماش الغليظ والنعل المطاطي السميك ثم اللحم الانساني ، وإذا لدغ الانسان في يده ، فإن هذا سيسبب الدوار والألم الشديد ، ويقول العالم (هالشتيد) : ومع ذلك فان لدغة « السمك الحجر » مميتة مهلكة ، ولكن الموت قد يحدث بعد ساعات من حدوثها ، أو بعد أيام ، أو حتى بعد أشهر ، وأحد العلماء الباحثين نجا من لدغتها على إبهام يده وبقي على قيد الحياة ، ولكنه لم يتمكن من استخدام يده إلا بعد (٨٤) يوما .



● قنديل البحر الاسترالى أخطر الزواحف فى نفث السم .

العقرب الخطرة

وعلى اليابسة من الأرض يعيش الحيوان ذو المرتبة الخامسة في قوة تأثير سامة على بني البشر . . والعقارب كانت دائما تشكل إحدى المخاوف الرئيسية للانسان ، لأنها تعيش في أماكن سكنه ، والعقارب من أقدم الحيوانات على الارض ، فقد عثر عليها منذ (٤٠٠) مليون عام بشكلها الحالي الذي لم يتطور ، وهي تنتسب لطائفة العنكبيات التي تضم قرابة (٦٠٠) نوع ، وتتبع شعبة مفصليات الأرجل . حجم العقرب يتراوح بين (١٣) ملم و (١٨) سم ، وهي حيوان ليلي لا تشعر بالضوء ، ولها عينان في وسط رأسها وخمس عيون جانبية ، سلاحها الدفاعي زوجان ضخمان من الكلابات (المخالب) أحدهما أصغر من الآخر ، يفصل بينهما ماصات شعرية هي شعيرات حواسية خاصة تنقب بها داخل الأرض وتستكشف بها الأشياء التي تلامسها ، وتعوض بها نقص قوى الإبصار ، فهي الرادار الدقيق الحجم الذي ينذرها بأي حركة ، وتتحرك العقرب على الأرض رافعة ذيلها ،

والزبان السام في مؤخرتها على استعداد للدغ ، وتستطيع أن تحني هذا الزبان حتى تصل به الى فمها ، فاذا ما صادفتها فريسة أمسكت بها بكلاباتها ثم حملتها الى المخالب ، ولا تلدغها بزبانها السامة الا اذا أبدت مقاومة أو حركة شديدة ، عند ذلك تخزها وخزتين أو ثلاثا فتشلّها ، ثم تطحنها المخالب ، ثم تفرز عليها بعض العصارات المذيبة لتسهيل عملية هضمها ، ثم تزدردها .

والعقارب حوالي (١٥٠٠) نوع ، منها (١٥) نوعا فقط تعد خطرة ، وواحد من أخطرها هو العقرب الفلسطيني التي تنتشر في فلسطين المحتلة وأجزاء أخرى من الشرق الاوسط ، وهي مثل العقارب الأخرى - لها غدّتان للسم في داخل الزبان (الابرة) على قمة ما ندعوه بالذيل ، التي تضرب الى الامام بسرعة كبيرة ودقة إحكام هدف ، والعقارب من أبغض الحيوانات عند الانسان ، فهو يكرهها لأنها تدخل بيته وقد تندس في فراشه ، ويحدث الموت بلدغتها بسبب السم الذي يسبب القصور القلبي أو التنفسي ، وقد يحدث خلال (٤ - ١٦) ساعة بعد اللدغ ، ولكن معظم الضحايا يبقون على قيد الحياة بعد المعالجة السريعة .

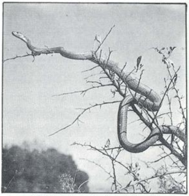
وماذا عن العناكب ؟

والعناكب سادسة الأوائل العشرة السامة على الارض ، من أحطّ المخلوقات قدرا ، فهي التي وصفها الله (جل جلاله) في كتابه الكريم بقوله تعالى : « وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » ، ويأتي العلم ليثبت أن بيتها وتكوينها الأسريّ وحياتها الاجتماعية واهنة ، بمعنى التفكك واحتواء هذا البيت لكل الصفات الدنيئة الخسيسة ، فالعنكبوت من أكثر الحيوانات وحشية وضراوة وقدرة على الغدر والافتراس ، طبعها دنيء ، ووفاؤها معدوم ، ولا تعرف معنى المروءة ! وجدت على الارض منذ حوالي (٣٠٠) مليون عام ، وهي حوالي (٣٠٠) ألف نوع ، منها (١٢) نوعا فقط يقتل سمّه الانسان ، ومنها ما هو سام وسمّه الزعاف يفوق في فاعليته السّمية سمّ الثعبان ذي الجرس ، فالعنكبوت تفترس العنكبوت ، بل إن العنكبوت تفترس صغارها اذا جاعت ، وحتى التزاوج لا يتم الا اغتصابا وبالقوة ، فتحاول الأنثى التهام الذكر قبل أن يبدأ ، فإن لم تتمكن ، ففي النهاية وبعد أن تخور قواه .

والعنكبوت ليست حشرة ، وهي محبة للانفراد والعزلة ، وليس لديها قاموس عواطف ، قصيرة النظر تعتمد على اللمس ، وليس لها عيون مركّبة كالحشرات ، شباكها وشراكها وكمائنها تنصبها في أي مكان ، وان كانت غاية في الدقة والاتقان والابداع ، ولها تقنية هندسية متكاملة ، بمقاييس تذهل بدقتها وروعة صنعها .

أفعى التيبان

ويبقى من قائمة أشهر الحيوانات العشرة السامة أربعة ، والأربعة من فصيلة الأفاعي الأرضية ويشير علماء الزواحف والبرمائيات



● أخر قائمة الحيوانات العشر السامة الأشهر على الارض .. أفعى المامبا السوداء الافريقية .

بشكل خاص الى التيبان : الأفعى الاسترالية الملونة التي تنتج سما ذا تأثير عصبي فاعل مهلك الى أبعد حد ، وتحقنه بأنياب مجوّفة طولها حوالي نصف « انش » ، وبدفعات سريعة متكررة . ميلها الفطري أو المكتسب الى الجرذان ، والفئران غذاؤها المفضل ، وهذا الميل يجعلها تتقابل أحيانا مع الانسان ، ولكنها لا تهاجم الانسان الا اذا استثيرت وحوصرت ، وقد تفر مذعورة منه ، ولكن إن لم تعط فرصة للهروب سطحت رأسها وعنقها ، ورفعتهما الى أعلى وأسندتهما على لفّة أو لفّتين من جسمها الطويل الذي يمتد حوالي (١١) قدما وتضرب بسرعة مباغتة لدرجة أن الضحية تتلقى ثلاث أو أربع لدغات أو ضربات قبل أن يحصل ردّ الفعل عندها .

الأفعى البنية استرالية أيضا

والأفعى البنية الاسترالية الشرقية الحيوان السام السابع أيضا . تتغذى على القوارض الصغيرة ، وتبحث عنها غالبا عند المباني الزراعية ، يبلغ معدل طولها حوالي (٤) أقدام ، تنتج كميات أقل من السم الذي تنتجه أفعى التيبان ، لكن سمّها (من أقوى السموم على الأرض فاعلية وتأثيرا وإهلاكا) ، وثلاثة ملليغرامات أو أقل منه تقتل انسانا ، وذلك مقارنة مع (١٥ ـ ٢٠) ملليغراما من سم أفعى الكوبرا الآسيوية ، وعندما تثار أو يتهددها الخطر تلوي عنقها حتى تجعله بشكل الحرف اللاتيني (ك) ، وتتركه يتجه عاليا بارتفاع عن الارض ، وتوجه ضربتها وهي على هذا الشكل ، وغالبا تصيب الناس فوق الركبة .

أفعى كوبرا الملك

والحيتان الأخيرتان من قائمة الحيوانات العشرة السامة المرعبة على الارض ، هما أفعى كوبرا الملك الأسيوية ، التاسعة على قائمة الترتيب ، التي لا تعد ممن يلدغ ويقتل الانسان ، وذلك لعدم احتمال تقابلها مع أناس كثيرين ، لعادات خاصة بها ، والناس على العموم يتقابلون مع الأنواع الأخرى أكثر ، مثل أفعى الكوبرا الآسيوية الشائعة ، والكريت (أفعى سامة من أفاعي آسيا الشرقية) والأفعى السامة راسل التي لها عادة السير على الممرات ودخول البيوت في عملية البحث عن الغذاء ، والأفعى النافثة الافريقية (الصل) وهي لا تنسحب أو تتراجع عندما تتقابل مع الانسان ، واذا ما أثيرت فان باستطاعتها أن تندفع بقوة لدرجة أن جسمها كله يرتفع عن الارض ، وقتلها للناس شائع جدا .

ولكن ما زلنا لا نفهم لماذا ضمت أفعى كوبرا الملك الآسيوية الى قائمة العشرة السامة على الارض من الحيوانات ، إنها على الرغم من عدم مهاجمتها الانسان يمكنها أن تدفع وتحقن كمية مذهلة من السم عندما تلدغ ، وتكفي هذه الجرعة كما يقول علماء السموم لقتل فيل بسرعة ، إضافة الى أن لديها مخزونا واسعا من السم الفتاك تستطيع استخدامه للدغات مميتات متواليات .

آخرها المامبا الافريقية

وأفعى المامبا الافريقية السوداء هي آخر العشرة السامة الأشد على الارض من الحيوانات ، وهي بعكس أفعى كوبرا الملك الآسيوية ، تنتج كميات أقل من السم ، ولكنه مؤثر ومهلك أكثر بكثير ، وبحسب تقديرات علماء السموم ، فإن نقطتين صغيرتين منه تكفيان لقتل انسان كبير ، ويمكن أن يستحلب أكثر من (١٥) نقطة منه من أفعى واحدة في كل مرة ، وينتشر السم داخل كل جسم الضحية ، ويتلف الاعصاب ، ويدمر الألياف العضلية ، ويسبب النزيف في الدماغ والكبد والرئتين ، ودون السرعة في الاسعاف والعلاج الماهر يصبح الموت المحصّلة الطبيعية □

أرقام

بقلم : محمود المراغي

الأيـــــدز.. يصيـبُ الأطفـال أيضـًا !

الأطفال يصابون أيضا بمرض نقص المناعة الشهير بالايدز ! ذلك هو آخر ما انتهى إليه تقرير صادر من الأمم المتحدة عن وضع الأطفال في العالم عام (٨٨).

الحقيقة مفزعة ، لكن التقرير يحاول أن يؤكدها بالأرقام ، حيث يتوقع وجود حالات في العديد من البلدان الافريقية ، وحيث يضرب مثلا بزامبيا التى تضم - وفقا للتوقع - (٦٠٠٠) طفل رضيع يحملون مرض الايدز !

قبلها ، كانت افريقيا تتعرض للعديد من المخاطر : من الجفاف إلى الفيضانات ، ومن نقص الغذاء إلى نقص الغابات وانتشار التصحر ، وقبلها - وحتى الآن - تحتل افريقيا موقعا متميزا ، وتمثل موقفا متدهورا في قضية الديون ، وتغزو كثيرا من بلدانها ظاهرة العودة للخلف ، أي انخفاض الدخل بدلا من زيادته ، وها هو خطر جديد يزحف اسمه : الايدز !

الأطفال لمـاذا ؟

عرف العالم الايدز في مجتمعات ينتشر فيها السلوك الجنسي غير السوي ، وكان - بالتالي - مرضا للكبار فقط ، ولكن ، وعندما أصبح الأمر ممتدا للأطفال بات في حاجة إلى تفسير .

إن هناك العديد من الأسباب ، فعلى عكس الدول الصناعية فإن عدد النساء المصابات بالايدز في الدول الافريقية يساوى عدد الرجال وهذا سبب أول .

أما السبب الثاني فهو أن نصف هؤلاء النسوة في سن الحمل ، ونصف من يحملنه ينتقل إليه المرض !

ثم يأتي سبب ثالث هو انتقال فيروس الايدز عن طريق الرضاعة ! ونظريا ، يقول الأطباء : العدوى تنتقل من ثدي الأم - وعمليا يعتقدون أن طفلين فقط في تاريخ العالم قد تعرضا لهذا الخطر بهذه الوسيلة - وهذا ما يضع علامات استفهام حول مدى صحة الفرض النظري .

وعلى العكس فإن الأطباء يقولون : إن الامتناع عن الرضاعة الطبيعية يزيد احتمال الإصابة بالمرض مرتين أو ثلاث مرات ، أي أن الطفل قد تقل مناعته إذا تلقى رضاعة صناعية !

ويبقى سبب رابع لانتقال الايدز إلى الأطفال ، وإن لم يثبت أيضا حتى الآن ، وهو انتقال الفيروس عن طريق إبر غير معقمة .

هناك إذن عدة أسباب ، ولكن على رأسها : إصابة الأم في فترة الحمل ، أي أن الجنين ينزل إلى الحياة وهو يحمل بذور فنائه !

بين النجاة والكارثة

ولكن ماذا عن الدائرة الأوسع ؟ ماذا عن أعمار أخرى غير الأطفال ، وقارات أخرى غير أمريكا ؟

يقف العالم بين النقيضين : انتشار المرض ، أو زواله تقريبا ، والاحتمالان في ظل غياب اكتشاف دواء ناجح أكيد.

يقول التقرير : إنه في ظل السلوك الحالي للبشر ، في ظل غياب تغير أساسي في السلوك الجنسي عند مجتمعات كثيرة ، يصبح خطر الإصابة كبيرا ، وتصبح الأرقام المتوقعة لمرضى الايدز خلال العقد المقبل تتراوح بين (٥) ملايين وثلاثين مليونا ، ولكن ، وعلى النقيض من ذلك فإن انتشار المرض يمكن أن يقل بنسبة تتراوح بين ٨٠٪ و٩٠٪ .

الاحتمال الأخير هو الاحتمال المتفائل ، لكنه احتمال يلزمه شرطان : الأول : معرفة واسعة بحقيقة المرض وطرق انتشاره ، إنها مهمة الإعلام التي يجرى انفاق مليارات الدولارات عليها .

أما الشرط الثاني فهو أن يؤتي ذلك الإعلام ثماره ، فيتجنب البشر تلك الوسائل التي يتحقق من خلالها المرض .

وكلا الشرطين يحاول العالم الوفاء بهما .

في يونيو (١٩٨٧) أصدر قادة العالم الصناعي نداء يدعو للوقاية من الايدز ، فالوقاية خير من العلاج ، وخاصة إذا كان العلاج حتى الآن متعذرا . أصدروا نداءهم وقالوا : « إن الوقاية من الايدز تكمن في استراتيجية تقوم على تعليم الجمهور الخطوات العملية التي يستطيع أن يقوم بها كل شخص ليتجنب التقاطه وانتشاره».

بعدها بدأت حملات في العديد من البلدان ، وبينما بدأت التوعية بالأمر في وسائل إعلام العالم الثالث ، ذهبت الولايات المتحدة الامريكية خطوة أبعد عندما وضعت على رأس البرنامج الصحي لها : مقاومة الايدز ، وفي خطة المقاومة : أنه بحلول عام (١٩٩٠) يكون كل طالب في المدرسة الثانوية قد تلقى معلومات حديثة ودقيقة عن الأمراض التي تنتقل من خلال الاتصال الجنسي !

المهمة إذن مستمرة ، وربما تلقى عناية أكبر في العالم المتقدم .

إن جهود البحث عن دواء جهود مستمرة أيضا ، وبينها ما يجرى في القاهرة من خلال أبحاث أستاذ جامعي هو « د . أحمد شفيق» الذي يؤكد أنه قد توصل إلى الدواء ، وإن لم تقره الدوائر العلمية المصرية حتى الآن .

على أي حال ، وإلى أن يتم ذلك ، فالأمل في سلوك الأفراد ، والخطر يتقدم الأمراض الرئيسية التي تهدد صحة الانسان : السرطان ، وأمراض القلب ، والجفاف ، والالتهابات التنفسية ، وسوء التغذية .

لكن الغريب في هذا المرض الجديد أن يكون متجها للطفل في بطن الأم ، وأن تكون التوعية للوقاية منه في المدرسة الثانوية ! □

معلومة طبية :

● دم الإنسان لونان ، الدم المزود بالأكسجين في الشرايين أحمر قان ، وكلما قل أكسجينه صار أحمر غامقا ، ويزداد اللون حتى يصبح أسود اللون ، وهو ما نراه في الأوردة بظاهر الجسم أزرق اللون .

قصة

فتاة عادية

بقلم : شوقي بغدادي

كانت الآنسة « فاطمة عوض » فتاة عادية ، فاطمة مثل ملايين الفاطمات أما العوض فعلى الله ، كما علّق أحد الظرفاء من زملائها ذات يوم .

كانت عادية لأنه لم يحدث قط أنها لفتت الأنظار إليها ذات مرة ، لأي سبب من الأسباب ، إلا في ذلك اليوم المشهود الذي سنأتي على ذكره فيما بعد .

لم تكن فاطمة قبيحة حتى تلفت إليها نظر موظف الاستعلامات مثلا ، حين تدخل مبنى الوزارة صباحا ، فيغمغم لنفسه كما يصنع حيال منظر الموظفات القبيحات : « لا حول ولا قوة إلاّ بالله ! . . . » ، كما أنها لم تكن جميلة أيضا إلى الدرجة التي تجعل إنسانا مثله ، لا عمل له سوى مراقبة الناس ، ينصب ظهره ويشد حيله كما كان يفعل حين تمر به الجميلات من الموظفات ، وقد اشتعلت عيناه وانفرجت أساريره كي يجيب على تحية الصباح بحماسة ما بعدها حماسة : « يا صباح الفل والياسمين » .

كانت فاطمة تدخل وتخرج دون أن يرفع رأسه أحيانا ، فهو كما يدعي يعرف نوع المرأة العابرة قبل وصولها ، دون أن يدقق فيها النظر . وإذا ما رفع رأسه أحيانا لدى مرورها لم يكن يبدو عليه أنه يرى أحدا معينا ، حتى لو سأل عنها هل دخلت أو خرجت ، فقد كان ممكنا ألاّ يتذكرها على الاطلاق .

كانت فاطمة باختصار خير نموذج للفتاة الشرقية العادية التي يمكن أن تصادف المئات والألوف من أمثالها في جولة واحدة في المدينة ، ومع ذلك فلا بد من الاعتراف إنصافا لها وللحق أن ابتسامتها كانت جميلة حقا ، ولعل السبب يعود إلى ترتيب أسنانها المدهش ، وبياضها الناصع ، وربما كانت هي الميزة الوحيدة التي جعلت شابا ساخرا بطبيعته من كل شيء - مثل زميلها في الغرفة « غسان صالحاني » - لا يدقق فيها النظر إلاّ حين تبتسم ، وبخاصة في وجود زميلتين جميلتين شقراوين مثل « منى فاضل » و« هالة محجوب » اللتين كانتا لا تأتيان للعمل إلاّ بأناقتهما الكاملة ، فتغطيان على وجود فاطمة عوض تغطية تامة . ومثله كان مختار طبال شريكهم في الغرفة ، والمشغول دائما بزميلته « هالة » ، والخوض في سير الناس وفضائحهم معها .

كان ثمة عدة حافلات صغيرة لنقل الموظفين ، وكانت فاطمة تأخذ الحافلة الصغيرة المخصصة لخط حيّ الميدان صباحا من الشارع الممتد وراء القصر العدلي ، حيث كانت تقف في وقت مبكر ثابت ، لم يحدث قط أن تخلفت عنه .

ولم يكن أحد من رفاق الغرفة يركب معها ، إذ كانت تأتي سيارة « مرسيدس » خاصة بأسرة منى فاضل إلى بيوتهم الواقعة باتجاه آخر يمر بالصالحية و« أبو رمانة » و« المالكي » وينتهي « بالمهاجرين » .

بدأ الحدث الذي يعنينا هنا بشكل مزاح أول الأمر ، إذ شرعت منى فاضل تنتقد بين الجد والهزل أهل الشام لأنهم محافظون ، ميالون



للحرص - وكادت تقول البخل - على الرغم من لطفهم الظاهرى ، والدليل - كما قالت - أنها منذ خمس سنوات - وهي الفترة التي مرت عليها بعد انتقال أسرتها إلى دمشق - لم تتلق دعوة واحدة لزيارة عائلة دمشقية ، مع أنها تعرف عددا لا بأس به من الفتيات الدمشقيات .

كان جميع من في الغرفة غرباء عن دمشق ، ماعدا فاطمة عوض ، وغسان صالحاني ، أمّا غسان - وهو بالمناسبة شاب نحيف البنية ، وأكثر الموجودين ثقافة كما يظهر - فقد تلقى الملاحظة باهتمام ، وبدا شبه موافق على اتهامات زميلته - أو حبيبته من يدرى - لأهل مدينته ، غير أنه فلسف المسألة كعادته معقبا .

- هذا صحيح ، لكنه الطابع العام السائد في كل المدن الكبرى ، وليس في دمشق وحدها .

أما الحسناء « هالة محجوب » التي كانت مشغولة بطلاء أظافرها بلون غريب بين الأخضر والأحمر فقد نفخت على الطلاء ، ثم قالت :

- هذا صحيح مائة فى المائة ، فأنا أسكن هذه المدينة منذ عشرين سنة ، وليس لي فيها صديقة واحدة شامية ، وكل صديقاتي أصلهن من حمص أو حلب أو اللاذقية .

ومثلها صنع « مختار طبال » لكن دون أن يطلي أظافره ، إلا أنه زاد على قولها مؤكدا :-

الشامي لا يدعوك إلى بيته إلّا لمصلحته .

بدا واضحا أن ملاحظته كانت أقسى مما كان متوقعا ، وأن الحديث قد انقلب بسببها إلى ما يشبه الجد الخالص ، وفجأة انتبه الجميع إلى وجود فاطمة ، كانت تحدق فيهم بوجه شاحب ، وقد توقفت عن العمل تماما ، وحين رأتهم ينظرون إليها كمن يترقب رأيا مهما ، قالت لهم وهي تلفظ كلماتها واحدة واحدة :

- أنتم مدعوون عندي في البيت على الغداء اليوم ، وأرجو أن توافقوا جميعا .

وما كادت تفرغ من كلامها حتى تحول لون وجهها تدريجيا من صفرة الليمون إلى احمرار الورد الجوري ، وبدا المنظر مذهلا ، كأن عملية سحرية لا تصدق قد وقعت أمامهم ، وأن عليهم احترامها والخشوع أمامها .

كان مختار أول من رد على الدعوة إذ قال :

- أنا شخصيا موافق .

ثم استدار نحو زملائه كأنه ينتظر منهم الموافقة على رأيه . وهكذا اندفع الجميع في حديث واحد أجمعوا فيه أخيرا على الموافقة ، لكن شريطة أن تؤجل الدعوة إلى يوم آخر ، فهذا عنده ارتباط ، والآخر لا يريد إحراج أحد ، حتى لانت فاطمة ، فوافقت على التأجيل يوما واحدا فقط ، وبين المزاح والجد قال لها غسان :

- لكن ألا ترين يا آنسة فاطمة أن عددنا كبير ، يكفي أن تدعي منى وهالة ، أما نحن الرجال فيكفينا أننا شهود .

ومرة أخرى عاد وجه فاطمة إلى الشحوب ، ثم إلى الحمرة القانية وهي تقول :

- هذا غير ممكن ، فأنا لا أصر على دعوة الزملاء في هذه الغرفة ، بل على دعوة حمولة حافلة كاملة ، ومن الجنسين . فهتف مختار :

لكن هذا يعني إطعام عشرين شخصا على الأقل ! وقالت منى :

- لا ، هذا كثير ، المسألة ليست مسألة تحدٍ ومزايدات ، يكفي نحن الأربعة .

وكانت هالة قد فرغت تماما من استكمال زينتها فأضافت : ولم لا ؟ دعونا نذهب في مظاهرة .

ومرة أخرى احتدم النقاش ، غير أن أحدا لم يستطع في هذه المرة ثني فاطمة عوض عن موقفها الأخير ، لابد أن يأتي أكبر عدد ممكن ، وأهلا وسهلا بكم جميعا . وثقوا أن المسألة غاية في البساطة ، وليس فيها إحراج لأحد .

وهكذا تم الاتفاق على اختيار عشرة زملاء آخرين معظمهم من الغرباء عن المدينة ، وأن يمضي الجميع معا في حافلة واحدة غدا بدعوة من فاطمة عوض . للغداء في منزلها الذي لا يعرفه أحد .

وفي الغد ، حين اعتذر المدعوون ، ثم انفجرت عجلة الحافلة التي كانت تقلهم في شارع قرب بيت أحد المسؤولين ، فصرخت النساء فزعا ، واعترض الجمع رجل مسلح غاضب ، لم يسمح لهم بالوقوف قريبا من محرسه الظليل ، بدا كأن مؤامرة مدبرة قد أحكمت خيوطها حول فاطمة عوض لإفشال دعوتها . لكن المدهش في الأمر أن فاطمة هي الوحيدة التي لم تعبأ بدوي انفجار العجلة ، إذ نهضت بكل هدوء وهي تحاول تخفيف وطأة الذعر عن زميلاتها وزملائها :

ـ لا تخافوا ، هذا صوت انفجار عجلة تم استبدال العجلة بسرعة قياسية ، تابعت بعدها « الحافلة »سيرها ، وحين وصلت إلى ما وراء القصر العدلي نزل المدعون ، وقد نقص عددهم ، لم يبق سوى أحد عشر ، بينهم ستة رجال وأربع نساء لم تكن بينهن هالة محجوب التي انسحبت بعد انفجار العجلة بقليل .

بدأت الرحلة على الأقدام من وسط الشارع الممتد وراء القصر العدلي ، وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر بقليل .

قالت فاطمة : انظروا إلى هذه التحفة .

فالتفت الجميع إلى حيث أشارت ، فوجدوا لافتة عريضة ، فوق مدخل بيت عربي مفتوح ، كتب عليها « مطبعة ابن زيدون » ، والمدخل يتألف من باب شامخ عريض من الخشب المضلع الثمين ، وقد جلله الغبار ، وزينت مصراعيه مطرقتان ضخمتان توأم من النحاس ، ودعمت جانبيه حجارة منحوتة ضخمة شبيهة بحجارة الأبنية الرومانية .

وقف الجميع معلقة أبصارهم بالمشهد الجليل يصغون إلى فاطمة التي كانت تقول :

ـ هذا هو منزل فخري البارودي ، لابد أنكم سمعتم باسم هذا الزعيم الوطني المعروف .

فهز بعضهم رأسه ، وبدا بعضهم الآخر وكأن الاسم المذكور لم يكن يعني شيئا بالنسبة لهم ، فلاحظتهم وأضافت على الفور :

ـ ماذا ؟ ألم تسمعوا بحضرات بفخري البارودي ؟ ثم تابعت شرحها دون أن تنتظر منهم جوابا :

ـ لقد باع الورثة البيت ، وتحول كما ترون إلى مطبعة . أما خلف المنزل من الجهة الغربية والجنوبية فتقع حديقة واسعة ، يقال إنها كانت مقرا لبيت القضاء ، وأن مياه أحد فروع بردى كانت تمر فيها .

تابعت فاطمة سيرها ، يتبعها الآخرون ، وقد خيم عليهم الصمت وهم منسجمون مع حديثها :

ـ هذا الزقاق يسمى « الشابكلية » ، وهو ينتهي عند هذه القنطرة الواطئة التي ترونها آخر الزقاق .

كانوا قد وصلوا إليها ، واضطر الجميع إلى الانحناء قليلا كي يمروا تحت القنطرة ، فأوقفتهم فاطمة هناك مشيرة إلى جوانب المكان :

ـ انظروا إلى نوع الحجر المنحوت الذي صنعت منه القنطرة والأرضية ، يقال : إن هذه القنطرة واحدة من سلسلة من القناطر المشابهة التي تهدمت مع الزمن ، أو تداخلت مع البيوت ، وكان أحد فروع بردى يمر من فوقها ، أما الآن فلا أثر للماء إطلاقا . تعالوا نخرج من تحتها .

وتبعوها وهي تصعد درجا حجريا قديما ، فإذا بهم ينتقلون من عتمة الظل إلى بهرة النور في زقاق طويل ، كان يبدو واضحا على جانبيه جهود الترميم التي كانت تبذل لصيانة تلك البيوت القديمة ، وإضفاء نوع من الرواء والتجانس على منظرها الخارجي ، إذ كان معظمها مطليا باللون الأبيض ، أما النوافذ فباللون البني الغامق .

كان غسان صالحاني منذ بداية « المشوار » صامتا مأخوذا بهذا الجو الذي لم يكن يجهله بالطبع ، بصفته من أبناء المدينة ، إلا أن سنين طويلة قد مرت دون أن يزور هذه الأحياء القديمة ، فقد كان يقطن في « المهاجرين » ، ولم

يكن من هواة المشي على الأقدام ، كان مأخوذا بالمكان ، وبالفتاة نفسها التي خيل إليه أنه يتعرف إليها الآن فقط ، وكأنها ليست إطلاقا الفتاة نفسها التي تشاركه غرفة عمل واحدة منذ أكثر من عام . كانت وجنتاها تتوهجان بحمرة خفيفة ، لا أثر فيها « للمكياج » ، وإنما كانت حمرة صاعدة من الأعماق مباشرة إلى الخدين

كانت فاطمة تزداد جمالا كلما أوغلت معهم في الأزقة التي تعرفها جيدا ، وتتحدث عنها باعتزاز حديث العارفين ، وشيئا فشيئا وجد غسان نفسه ينسى تماما أن زميلته منى فاضل كانت إلى جواره ، وأنها كانت تلقي عليه أحيانا بعض الاستفسارات ، إذ كان لا يجيب أو يكتفي بوضع سبابته على فمه ، مشيرا إلى فاطمة ، داعيا إياها إلى أن تشاركه متعة الإصغاء إلى تلك الفتاة العجيبة المتحولة في نظره من شكل إلى آخر ، حسب موضوع الحديث أو إطار المكان المحيط بشخصها ، وهي تقودهم بحماسة ورشاقة إلى أعماق المدينة .

وما كادوا يوغلون في « القنوات » حتى وجدوا فاطمة تقف في مطلع زقاق متفرع إلى يمين الطريق تدعوهم إلى خوضه وراءها ، وهم يتجمهرون للاقتراب منها وسماع صوتها :-

- يدعى هذا الزقاق بزقاق « التعديل » ، وقد سمي كذلك باسم المسجد الذي ترونه أمامكم والمسمى « مسجد التعديل » .

فقال لها غسان فجأة وقد لفت انتباهه منظر آخر :

- هل تعرفين يافاطمة لمن هذا البيت الكبير الذي تحتل واجهته قسما كبيرا من مدخل الزقاق على الجانبين ؟

- نعم ، هذا بيت « يغمور » ، وهي أسرة عريقة ، رحل معظم رجالها إلى الخارج أو إلى الآخرة ، وليس في المنزل الكبير الآن سوى بعض النسوة الطاعنات في السن ينتظرن عودة الغائبين . هل تريدون زيارتهن ؟ هذا ممكن جدا فإنهن سيدات لطيفات للغاية .

ولكن أحدا لم يوافق على ذلك ، إنما اكتفوا بهذا الشرح ، ثم عادوا إلى مدخل زقاق « التعديل » ، وغاصوا فيه وراء فاطمة التي كانت تمشي في طليعتهم باستمرار دون أن تبتعد عنهم .

كان الزقاق ضيقا فاضطروا إلى المشي مثنى أو فرادى ، بعضهم وراء بعض ، مثل تلاميذ صغار ، خلف معلمتهم ، وبخاصة حين كانت تتقارب جدران طرفي الزقاق ، فتتعانق النوافذ الخشبية ، وتتلامس جدران الطين ، ويخرج طفل من هنا أو امرأة محجبة من هناك ، فتنظر إليهم بفضول أول الأمر ، ثم سرعان ما تتابع طريقها غير عابئة .

كان ثمة نوع من السكينة والرطوبة والظلال الموحية تخيم على الأبواب والجدران « والشبابيك » والأرض ، بل حتى على البشر الذين يمرون بهم أحيانا ، وشيئا فشيئا وهم يتوغلون في الزقاق المتداخل الذي كان يتفرع منه كما في المتاهات أزقة أخرى متعددة متشابكة ، كانوا يزدادون ميلا إلى الصمت والتأمل ، وكأن عدوى المكان قد تسربت إليهم ، أو كأنهم يدخلون مدينة أخرى غير المدينة التي يعيشون فيها ، ولولا بعض التعليقات الضاحكة التي كان يطلقها « مختار طبال » أو غيره من حين لآخر إذن لخيل لمن يراهم أنهم مجموعة من السياح الأجانب المبهورين بنوع الحياة والتاريخ العريق الذي كانت توحي به تلك الأحياء القديمة التي هجروها منذ زمن بعيد ، أو أنهم لم يعرفوها إطلاقا

كان صوت فاطمة وحده هو الذي كان يذكرهم برنين الواقع الحي الذي يواجههم ، فيصغون إليها ، تشرح سبب تآكل في هذا الحائط ، أو وجود دعائم إضافية لقنطرة خشبية موشكة على الانهيار ، أو بروز أكثر مما يجب في تلك النافذة ، ولماذا كان ذلك الباب مفتوحا على مصراعيه ، وفيم هذه الضجة المكتومة من هنا ، وتلك الأصوات للأطفال طالعة من هناك ، حيث تحول أحد البيوت إلى مدرسة .

وفجأة طلبت إليهم أن يتوقفوا عند مدخل خشبي مسقوف واطيء ، بدا كما لو أنه فرع لزقاق جانبي ، ولكن سرعان ما تبين أنه مدخل مسدود ، وأن عليهم كما قالت فاطمة أن يخفضوا رؤوسهم قليلا خوف الاصطدام بإحدى العوارض الخشبية ، وعندئذ لم يجد « مختار طبال » بدا من أن يطرح سؤاله مستغربا :

ـ لقد كان ممكنا الدخول « بالحافلة » في زقاق القنوات إلى قرب مدخل زقاق « التعديل » ، وكنا اختصرنا كثيرا من المشي ، فلماذا لم تطلبي من السائق ذلك ؟ !

فأجابته فاطمة ضاحكة على الفور :

ـ هذا صحيح ، ولكن لو فعلت ذلك إذن لما مررتم ببيت فخري البارودي ولما اضطررتم إلى إحناء رؤوسكم مرتين ، مرة تحت القنطرة ، ومرة هنا . فضحك الجميع لما ظنوه مزاحا ، إلا غسان صالحاني الذي لم يشاركهم الضحك ، ذلك لأنه فهم كلامها على نحوآخر ، ياللفتاة الماكرة الرائعة ! إنها تدربنا بهذه الطريقة على احترام التاريخ .

ـ اخفضوا رؤوسكم جيدا حين تدخلون هذه الأمكنة أيها السادة ، قال ذلك وهو يتطلع بطرف عينه إلى فاطمة التي التفتت إليه ، فتلاقت عيونهما في نظرة خاطفة ، ولكنها كانت كافية للتعبير عن تفاهم خاص ، لم يلاحظه أحد غيرهما ، وانفتح باب إلى اليمين ، وقالت فاطمة : تفضلوا

وجد المدعوون أنفسهم حين اجتازوا الباب محشورين في ممر ضيق رطب ، وسمعوا مضيفتهم تقول :

ـ هذا هو الدهليز كما يسمونه في البيوت العربية ، وهذه الغرفة الواقعة وراء الباب تسمى « البراني » . والآن اتبعوني إلى أرض الديار .

وانفتحت أمامهم « أرض الديار » كما في القصص السحرية ساحة سماوية ، فسيحة الأرجاء ، تتوسطها بركة ماء ، وتحيط بها أشجار الليمون والنارنج والأكيدنيا والدوالي المعترشة الممتدة والمتدلية من هنا وهناك ، كما انتشرت أصص الزهر أنواعا وألوانا ، والنباتات المنزلية الخضراء . كان المكان نظيفا مغسولا ، يقطر منه الماء ، وينعش برطوبته القلوب والأجساد التي سخنت بعد « المشوار » الطويل ، فشهق الجميع وكأنهم يرون المنظر لأول مرة ، وحين سألت إحداهن عن اسم أحد النباتات أسرعت فاطمة تطوف بالجمع حول أرض الديار ، وهي تسمي لهم الأزهار والنباتات ، وتشرح مزاياها ، وأساليب العناية بها ، كأي خبير متمرس ، ثم قطعت حديثها مع ظهور أهلها ، فبدأت على الفور مهمة التعريف بهم :

ـ هذا هو أبي ـ وأشارت إلى رجل طويل القامة في جلباب منزلي ضاف ، يوحي وجهه الأسمر الدقيق الملامح بسكينة داخلية عميقة ـ وتلك هي أمي ـ وأشارت إلى امرأة نصف ممتلئة ، بيضاء البشرة ، ذات وجه بشوش صبوح ، يحيط به غطاء أبيض ـ وهذا هو فواز طالب بكالوريا ، وهذه سوسن وهي في الكفاءة ، أما هذه الحلوة « القمورة » فهي فدوى ، الأولى دائما في صفها السادس الابتدائي ، والوحيدة التي تشبه « ماما » ، أما الآخرون . والتفتت دونما كلام مبتسمة نحو أبيها ، وكأنها تنبه باعتزاز ضمني أن الآخرين كانوا كلهم يشبهون أباهم . ثم أضافت :

ـ هذه ليست الأسرة كلها ، فهناك أكبر إخوتي ، وهو متزوج ، وساكن وحده ، وأخت متزوجة ، أما ترتيبي بينهم فأنا كبرى البنات ، والثانية بعد أخي البكر . استريحوا الآن فقد أتخمتكم اليوم بالدروس والمعلومات ، وأثقلت عليكم ، وبقي أن أتخمكم بالطعام الطيب.ماذاطبخت لنا يا « ماما » ؟ استريحوا هنا في الليوان .

وفي دقائق توزع الجميع يستريحون من عناء « المشوار » ، وكان غسان قد اختار الزاوية الداخلية القصية في الليوان ، حيث استلقى ، ورفع رأسه وهو يتأمل النوافذ والخشب المحفور ، وقد امتلأت نفسه بمشاعر جديدة عليه تماما : ما هذا البيت الرائع ؟ وما فاطمة هذه العجيبة التي

تعـرف كـل شيء ؟ ولمـاذا تبـدو الآن أجمـل الموجودات ، كانت فاطمة قد أزاحت عن رأسها الغطاء مع دخولها ثم غابت قليلا وعادت بثوب خفيف لطيف رسمت عليه زهور كبيرة ملونة ، وقد نثرت شعرها على كتفيها ، فامتزجت تماما بهالة الزهور المحيطة بها ، وبدت فعلا للجميع ذات جمال خاص ساحر غير متوقع ؟!

كانت تجلس هنا ثواني كي تلاطف هـذا أو تلك ، ثم تنتقل خفيفة كفراشة إلى جوار شخص آخـر ، دون أن تنسى أحـدا من تـرحيبهـا وملاطفاتها ، ثم تغيب ثواني لتساعد أمها التي بدأت توزع كنوزها مع أولادها ، بادئة بأقداح « الليمـونـادة » اللذيـذة المنعشـة المعـطرة بمـاء الزهر ، لم تمض دقائق حتى بسطت الطاولات وصفت الكراسي ، وشرعت صحون المقبلات تتوارد ثم « الجاطات » الكبرى التي كانت تحوي ما لذ وطاب من أنواع « الكبـة » النيئة والمقلية والمشوية وباللبنية ، وأنواع المحاشي اليبرق مع السجق والكوسا وفتة المكدوس ، وكـان الأب يشرف على التوزيع ، والأولاد يتحركون بنشاط بين يديه ، وحين رفض الجميع أن يبدءوا الأكل إلا بحضـور الأم . أقبلت عليهم وهي ترحب بوجهها الصبوح البشوش قائلة :

- حلفتكم بالله أن تأكلوا ، لاتنتظروني ، مازال عندي شغل ، ولكنهم أصـروا ، فجلست على استحيـاء ، وجلس الأب إلى جـوارهـا ، إلا الأولاد فقد ظلوا يحومون لخدمة الجميع ، وهكذا افتتحت الوليمة .

حين عاد الجميع إلى بيوتهم مساء لم يكن ثمة شك في أنهم تغيروا كثيرا خلال هذه الساعات المعـدودة من بعد ظهـر ذلـك اليـوم الـذي لن ينسى . وكانوا جميعا مدركين تماما طبيعية هـذا التغير ، أما غسان صالحـاني ، الشاب السـاخر الذي لايثيره شيء ، ولا يدهشه أمر من الأمور ، فقد بدا في صبيحة اليوم التالي إنسانا جادا على غير عادته ، إذ مر الصباح بأكمله دون أن يطلق من إبداعاته الساخرة أية نكتة أو تشنيعة . لقد كان يسترق النظر طوال الدوام إلى فاطمة عوض التي عادت كما كانت فتاة عادية ، ولكن هيهات ذلك ، إنها لم تعد بـالنسبة لـه فتاة عـادية عـلى الإطـلاق ، وعند انتهـاء الدوام تـوقف أمامهـا مدفوعا برغبة لا تقاوم ، كي يقول لها كلاما فكر فيه طويلا :

- أي نوع من النساء أنت يا آنسة فاطمة ! وأية مـدينة تلك التي تنتمـين إليهـا ! لقـد حيـرتني بالأمس ، وها أنت تحيرينني اليوم ، أية فاطمـة يجب أن أرى ! ومـع أي منهـا يحسن بي أن أتعامل ؟!

كـان الآخرون قـد وقفـوا جميعـا استعـدادا للخروج ، أو على الأصح لسماع جواب الفتاة . وفي الـوقت نفسه لايـدرى أحد كيف امتـلأت الغرفة بعشرات الموظفين ، ممن حضروا وليمـة البارحة ، أو سمعوا بها ، وكأنهم بإيعـاز واحد جـاءوا كي يشاركـوا في الاستماع اليهـا ، وقد نهضت بكـل هدوء ، فـأحكمت ربـاط عقـدة « الايشارب » حول رأسها بحركة عفوية ، وهي تنظر إلى الحاضـرين فردا فرداءحتى استقرت عيناها السوداوان على غسان الذي ارتعش قليلا في مواجهة تلك النـظرة العميقة الثـاقبة ، وقـد تلامحت من ورائها في الوقت نفسه ظلال ابتسامة محيرة وهي تقول :

- ليس هناك سوى فاطمة واحدة ياسيد غسان ! ولكي تراني كذلك يجدر بك أنت أولا أن تقرر أي غســان أنت ، وإلى أي جـانب من مـدينتـك تنتمي ، وبعدها لن يبقى بيننا أي إشكال على ما أعتقد .

قالت كلامها ثم خرجت على الفور ، في حين كـان الآخرون مـا يزالـون جـامـدين ، كـأنهم يفكرون في مغزى ما سمعوه ، وحين تحركـوا أخيرا وراءها كانت قد سبقتهم بمسافة كـافية ، حتى لقد خيل لموظف الاستعلامات وهو يراقبها تخرج وحدهـا ومن خلفها مـوكب المـوظفـات والموظفين أنه يشاهد مظاهرة غير مألوفة ، تقودها فتاة يراها لأول مرة في حياته . □

الخلايا الساهرة

بقلم : الدكتور عبدالكريم جبر السلال *

عندما يهاجم الانسان بميكروبات ، فإن الجسم بمكوناته وخلاياه ، يقوم بعمليات دفاعية غاية في الدقة والتنظيم ، لمواجهة هذه الأجسام والتكوينات الغريبة على دقتها وتنوعها ، وعملية المواجهة هذه التي يعكف العلماء على استكناه اسرارها مثيرة للاعجاب ، ومحفزة للتفكير .

كل مخلوق له أعداء كثيرون يتهددونه بالموت ، فأعداء الانسان كثيرون منهم المرئي ، ومنهم غير المرئي الذي لايرى بالعين المجردة . فأما أعداؤه المرئيون فيمكن للانسان أن يأخذ حذره وحيطته منهم ، والدفاع عن نفسه بقوته العقلية والجسمانية ، ولكن الخطر الكامن والمحدق بالانسان هي تلك الأحياء الدقيقة التي تتهدده ، من حيث لايدري ، بالمرض والمتاعب وأحيانا بالموت ، حيث تختلط بطعامه أو في الهواء الذي يتنفسه . فهذه المخلوقات العجيبة منتشرة في هذا العالم ، وتتحين الفرص للانقضاض على الانسان ، ليس بحكم عدوانيتها ، وانما بحث عن غذاء يبقي لها الحياة ، فتقوم بافراز سمومها الفتاكة التي تقدر قوة بعضها بما هو أقوى من سم أفعى الكوبرا . وتوجد هذه البكتيريا أكثر ما توجد في التراب ، ومنها الأنواع العديدة التي تسبب مرض الخناق والغرغرينا ، وأيضا التسمم الغذائي الناجم عن تلوث الطعام بالتراب وهي لا تفرز السموم فحسب ، ولكنها تفرز أنزيمات كثيرة لمواجهة دفاعات جسم الانسان المتحفزة لمهاجمة أي ميكروب دخيل عندما يغزوه .

وليست البكتيريا فحسب من تلك الأعداء ، وانما هنالك ماهو أصغر من ذلك وما هو أكبر ، مثل الفيروسات بأنواعها ، وكذلك الفطريات والطفيليات . وحتى لايكون الحكم قاسيا على هذه الميكروبات ، فمنها الضار ومنها النافع ، فكثير منها يدخل في إعداد الطعام للإنسان ، كميكروبات التخمر اللازمة لصنع الأجبان ، وخمائر الخبز ، كما تدخل الميكروبات في كثير من الصناعات الغذائية ، حيث أن بعضها تربى بكميات كبيرة ، وتستخدم علفا حيوانيا ، وأحيانا أخرى تستخدم افرازات هذه الميكروبات لتحويل بعض المواد ذات القيمة الاقتصادية المتدنية ، الى أخرى ذات قيمة اقتصادية مرتفعة .

* قسم النبات والميكروبيولوجي ـ كلية العلوم ـ جامعة الكويت .

دفاعات جسم الانسان

دفاعات جسم الانسان أشبه ما تكون بدفاعات جيوش الدول ، مع فارق الدقة والتنظيم التي تتميز بها دفاعات الانسان التي لاتترك جزءا صغيرا يقدر بالميكرون ـ واحد على المليون من المتر ـ دون حراسة ودفاعات أولية . فهناك ثلاثة خطوط للدفاع ، خط الدفاع الأول يتمثل في الجلد وإفرازاته ، والعين ، والجهاز الهضمي ، والجهاز التنفسي وإفرازاتها ، وكل هذه الأشياء في وضع التماس مع الماء والطعام والهواء ، حيث تحتوي هذه المواد على العديد من الميكروبات .

فالجلد يقوم بافراز بعض الاملاح والأحماض التي من شأنها القضاء على معظم أنواع الميكروبات ، وابطال فاعليتها ، كحامض اللكتيك وكثير من الأحماض الدهنية المشبعة وغير المشبعة .

وهذه الأحماض المفرزة من قبل الجلد تطهره من كثير من العوالق الميكروبية ، وبخاصة الأحماض الدهنية التي يفرزها الجلد في منطقتي الابط والفرج ، حيث تكون فاعليتها كبيرة ضد كثير من الفطريات التي اذا ما تركت فانها تسبب العديد من الأمراض الجلدية للانسان ، وهي بالتالي تحتاج الى أسابيع أو أشهر لعلاجها . لذلك فإن نظافة الجسم المستمرة تتيح الفرصة للجلد وافرازاته للتخلص من أي ملوثات ميكروبية ، واذا ماتراكمت الأوساخ على الجلد فانها تؤدي الى انسداد نهايات الغدد العرقية ، وبالتالي فان هذه المضادات الميكروبية لن تتاح لها الفرصة لتطهر الجسم مما يعلق به .

وأما بالنسبة للعين فبالاضافة الى الأملاح الموجودة في الدموع فإن هناك أنزيما يدعى « لايسوزيم » ، يقضي على معظم أنواع البكتيريا « ذات صبغة غرام الموجبة » ، حيث ان هذه الميكروبات منتشرة في الجو أكثر بكثير من تلك البكتيريا « ذات صبغة غرام السالبة » . وفي الجهاز الهضمي يوجد « حامض الكلوريك » الذي لامجال لعيش الميكروبات في وسطه ، ولكن ربما تختبىء بعض الميكروبات العالقة بالطعام ببعض جزئياته ، فتحميها من تأثير هذا الحامض . ولكن سرعان ماتواجه هذه الميكروبات افرازات أخرى من خلايا البنكرياس ، فتذيب هذه الافرازات بعض الميكروبات كتلك المسماة « Pneumococci » ، ومن العجيب أن أنواعا من الميكروبات تفرز ـ اضافة لبعض الفيتامينات ـ مواد مضادة لأنواع أخرى من الميكروبات ، وتسمى هذه المواد « Bacteriocins » ، حيث تقضي على كثير من الميكروبات ، وخاصة المسببة للتسمم الغذائي .

ويملك الجهاز التنفسي دفاعات منتشرة على طول مكوناته ، ابتداء من الأنف وما يحتويه من شعيرات لتصفية العوالق الكبيرة ، والأغشية المخاطية المبطنة لهذا الجهاز التي تفرز العديد من المضادات الميكروبية ثم القصبة الهوائية بأهدابها ، والرئتان وماتحتويان من خلايا الدفاع المسماة « Alveolar Macrophages » ، والحركة الهدبية التي لها فائدة كبيرة في الدفاع عن الجسم ضد الميكروبات ، اذا ماقدر لبعضها أن يدخل الى القصبة الهوائية ، فإنها تعلق بهذه الأهداب التي تعمل مصفاة تالية لشعيرات الأنف ، فتحجز الأشياء الدقيقة التي تفشل شعيرات الأنف في وقف مسيرتها داخل الجهاز .

وتقوم هذه الأهداب بطرد العوالق جميعها الى البلعوم ، لتطردها حركة العطاس خارج الجسم . وهنا ننوه بأن للتدخين تأثيرا سلبيا على الحركة الهدبية للجهاز التنفسي ، حيث يضعفها ، ويقلل من فاعليتها ، مما يعرض المدخنين للاصابة بالعديد من الأمراض ، سواء في البلعوم أو القصبة الهوائية أو الرئتين ، وبالأخص في فصل الشتاء ، حيث تنجح بعض

الميكروبات في الوصول الى الرئتين وتسبب العديد من الأمراض للجهاز التنفسي ، وبخاصة من قبل الميكروب المسمى « Diplococcus pneumoniae » .

خط الدفاع الثاني

اضافة الى ماسبق ذكره عن دفاعات الخط الأول فان هناك العديد من هذه الدفاعات التي لم نتطرق اليها ، ولكن اذا ما استطاعت الميكروبات أن تنفذ من تلك الدفاعات ، كأن يجرح الانسان ، أو أن يكون هناك خلل كيميائي ، أو فيزيائيّ في تلك الدفاعات ، فان الميكروبات تجدها فرصة لغزو جسم الانسان ، ولكنها تواجه بنيران دفاعات الخط الثاني الخلوية منها والكيماوية .



فما أن يطأ الميكروب خلية داخل حدود الجلد ، حتى تستنفر دفاعات الجسم كلها ، وفي مقدمة دفاعات الخط الثاني الخلايا اللمفاوية التي تعمل على مدار الساعة « كشرطة الخفر أو النجدة » ، مع الفارق في التشبيه ، حيث تعمل مسحا شاملا للجسم ، للتعرف على أي جسم غريب للإخبار عنه ، أو القضاء عليه اذا كان ذلك ممكنا . فهذه الخلايا ، ولمجرد اكتشاف وجود الميكروب تقوم بالتهام هذه الميكروبات ، وافراز العديد من الأنزيمات لهضم الميكروبات أو الأجسام الغريبة على الجسم بجميع أنواعها . ومن جملة ماتفرزه الخلايا اللمفاوية مايسمى « بالانترفيرون » ، اذا كان الجسم الغريب من الفيروسات أو بكتيريا تعيش في داخل الخلايا اذا ما أمرضتها ، وهو مايعرف « Intracellular parasites » ، وهذا « الانترفيرون » عبارة عن مادة بروتينية ، توقف تكاثر الفيروسات ، وتحد من توسع الاصابة به الى حين اتخاذ « جهاز المناعة » للخطوات اللازمة للقضاء عليه ، كتحضير الأجسام المضادة لتلك الفيروسات ، أو تحفيز خلايا أخرى لمواجهة الفيروسات بنفسها . وتفرز الخلايا اللمفاوية أيضا العديد من المواد الكيماوية التي تدعى « Lymphokines » والتي يسهل بعضها هجرة الخلايا اللاقمة من الدم الى مكان وجود الميكروب ، أو الجسم الغريب ، كما أنها تفرز بعض المواد الكيماوية التي تزيد نشاط هذه الخلايا اللاقمة .

ومن العجيب أن الأنزيمات التي تفرزها الميكروبات للقضاء على دفاعات الجسم ، وكذلك الميكروبات الميتة ، والخلايا الميتة من جسم الانسان في موضع الالتهاب ، وعوامل تخثر الدم ، تكون جميعها « شبكة اتصالات

كيماوية » ، تحفز دفاعات الجسم الداخلية للتوجه الى حيث توجد الالتهابات . ومن ضمن دفاعات الخط الثاني ، مواد بروتينية قاتلة للميكروبات ، موجودة في دم الانسان ، مثل «Complement» «Properdin»وكذلك أجسام مضادة طبيعية . وتجدر الاشارة هنا الى أن بعض الميكروبات قد تمتص مع الطعام في الأمعاء لصغر حجمها ، وتصل الى الكبد ، حيث تتم عملية تصفية الغذاء الذي تم امتصاصه ، وتنقيته من أي شوائب غريبة ، عن طريق بعض خلايا الكبد اللاقمة ، ويتم التقاط الأجسام الغريبة والقضاء عليها . وكذلك الأمر بالنسبة للجهاز التنفسي اذ توجد في الرئتين خلايا لاقمة ، بإمكانها القضاء على اي ميكروبات قد تستطيع الوصول الى الرئتين ، مجتازة كل دفاعات الجسم السابقة في الجهاز التنفسي .

خط الدفاع الثالث

يتمثل هذا الخط الدفاعي بأن ترسل الخلايا اللاقمة بالتفاصيل الكاملة عن الجسم الغريب الى خلايا لمفاوية أخرى ، بعد أن تفرز هذه الخلايا العديد من الأنزيمات الفعالة لتحطيم الميكروب ، ولكن تحتفظ بأجزاء معينة منه ،

ومما ليس له أي تفسير علمي حتى الآن هو أن هذه الخلايا اللاقمة وأنواعا أخرى منها موجودة في أعضاء كثيرة من الجسم ، كالكبد ، والرئتين ، والطحال ، والمفاصل ، وغيرها ، تقوم بتحطيم الأجسام الغريبة تحطيما كاملا ، عدا أشياء معينة منها ، تعد حاوية لأسرار الجسم الغريب ، وهو مايدعى « Antigenic determinant groups » ، حيث ان هذه الخلايا تبقي على هذه الحاويات لكي تخبر عنها خلايا لمفاوية أخرى من أنواع خاصة ، وتدعى « T- cells and B- cells »تبعا لنوع الجسم الغريب ، ودرجة تعقيد تركيبه الكيماوي ، فتقوم هذه الخلايا اللمفاوية الأخيرة ـ وبعد وصول الرسالة



الخاصة من الخلايا اللاقمة عن ماهية الجسم الغريب ـ بعمل اللازم من افراز الأجسام المضادة « Antibodies » التي تفرزها الخلايا المسماة « B- cells » ، إما بصفة مستقلة أو بالتعاون مع الخلايا الأخرى «T- cells» تبعا للتعقيد الكيماوي للجسم الغريب ، وأحيانا أخرى تتطلب الرسالة المرسلة من الخلايا اللاقمة تحورات وتطورات جديدة في التركيب الخلوي لخلايا « T- cell » ، وهي التي تتصدى للجسم الغريب بنفسها . وهكذا تدور رحى معركة ضارية بين الميكروبات التي تنشد العيش على حساب جسم الانسان ، وبين دفاعات الجسم الحصينة التي تنتهي في غالب الأحيان بالانتصار لدفاعات الجسم ، والقضاء على الاجسام الغريبة ، والخلاص منها نهائيا من الجسم عن طريق تحضير أجسام مضادة ، أو تحفيز الخلايا المسماة « T- cells » ، ولكن خلال فترة التحضير هذه فان أعراض المرض تظهر على الجسم الى حين الانتهاء من تحضير مايلزم للقضاء على الميكروب ، وبذلك تكون النهاية السعيدة بالشفاء وليس الشفاء فحسب ، بل وفي بعض الأحيان وحسب نوعية الجسم يتم تخزين المعلومات الخاصة عن خصائص الميكروب الذي سبب المرض ويتم التخزين من

خلال خلايا تسمى « خلايا الذاكرة » . وهي خلايا لمقاوية من نوع « B – cells »التي تعطي الجسم مناعة مدى الحياة ، فإنها تعمل أفضل بكثير من جهاز « الكمبيوتر » ، حيث أنها تختزن المعلومات ، ولمجرد تعرض الجسم ثانية لهجوم من نفس النوع من الميكروبات ، فانها تتحول إلى خلايا منتجة للأجسام المضادة التي تدعي « Plasma cells » .

وهناك الاف عديدة من الميكروبات التي تسبب أمراضا عديدة للانسان ، بينما تقوم خلايا متخصصة من جسم الانسان بقتل أنواع خاصة من هذه الأجسام الغريبة ، وكذلك هنالك خلايا أخرى لها صفة الشمولية في قتل الميكروبات .

واذكر هنا أنه إذا مابقيت دفاعات الجسم سليمة ، فانها تقوم بواجبها على أكمل وجه ، ولكن اذا ماضعفت فان الجسم سيعاني من آلام المرض ، والانسان بيده الحفاظ على هذه الدفاعات حصينة منيعة وبيده أيضا اضعافها ، بل وحتى تدميرها ، وذلك باتباع الأساليب الجيدة في مأكله ومشربه ونظافة جسمه ، أو بعدم اتباعها .

فاذا ما أطلق الانسان العنان لنفسه باتباع المحرمات من مأكل ومشرب وغيرها فإن جهاز المناعة يضعف ، حتى يقوى عليه الأعداء الخارجيون من ميكروبات وغيرها ، وبالتالي يؤدي هذا الى أمراض لاسبيل للشفاء من بعضها ، كبعض أمراض السرطان والايدز وغيرها .

فاذا ما استطاعت الأجسام الغريبة ، والميكروبات بصفة خاصة ، التصدي لدفاعات الخط الثالث ، فانه يحصل للجسم أسوأ مما يحصل للدول التي تنهزم وتسقط عاصمتها في يد المعتدي ، وبالتالي فإن الجسم كله يعاني من الأمراض والفساد في أجهزته دون رادع من مناعة . □

كيف تصان البلاد:



● **قالوا: تصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيدة، والقلاع المنيعة، والجيوش العاملة، والأسلحة الجيدة. قلنا: نعم، هي أحرازوآلات لابدمنها للعمل فيها يقي البلاد، ولكنها لا تعمل بنفسها، ولا تحرس بذاتها، فلا صيانة بها، ولا حراسة، إلا أن** يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة وأولو رأي وحكمة، يتعهدونها بالاصلاح زمن السلم، ويستعملونها فيها قصدت له زمن الحرب.

«الشيخ محمد عبده»



منتدى العربي

نهـــاية العبث العسكري في العـــالم

بقلم : حافظ أحمد أمين

« حفلت السنوات الأخيرة بمتغيرات عديدة ، فتوارت أفكار تقليدية كثيرة ، وتضاءل أثر العقائد « الايديولوجية » وخفتت صراعات كثيرة ، وبدأ التعاون بين القوى المتصارعة لحل مشكلات أكثر إلحاحا ، وبدأت تنحسر حمى السباق العسكري بين قوى العصر التي لهث العالم وراءها كثيرا » .

ظلت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي أكثر من نصف قرن ، يتصوران أن التركيز على القوة العسكرية هو الذي سيضمن لهما استمرار السيطرة على العالم ، إلى أن أدركا - خلال السبعينيات - أن المبالغة في التركيز على القوة العسكرية ينهك اقتصادهما ، وأن الدول العظمى في الماضي قد فقدت مكانتها في آخر الأمر بسبب التفكير بمثل هذا المنطق .

فإن كانت القوة العسكرية للدول العظمى في الماضي لم تساعدها على الاحتفاظ بسيطرتها مدداً طويلة ، فإن قيمة القوة العسكرية في عصرنا - عصر الذرة والمعلومات ووحدة العالم - قد تضاءلت أكثر وأكثر .

ولعل التجارب الجديدة التي لمسها العالم أخيرا - وبخاصة في اليابان والصين والمانيا - هي التي جعلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يفيقان إلى المنزلق الذي يتجهان إليه إذا استمرا في مثل هذا الانفاق العسكري .

فبسبب هذا الانفاق وصل الدين الفيدرالي في الولايات المتحدة عام ١٩٨٥ إلى أكثر من ترليوني دولار ، كما وصل التدهور الاقتصادي في الاتحاد السوفيتي إلى حد أن أرغمت القيادة السوفيتية بالاتجاه إلى منحى جديد في السياسة والاقتصاد ، وهو ما يسمى عملية اعادة البناء (البيروسترويكا) .

وقد أدى التدهور الاقتصادي الأخير في

الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي إلى تدهور مماثل في العالم الثالث ، فبلغت ديونه عام ١٩٨٥ أكثر من ٨٠٠ بليون دولار ، مما أجبر العالم ـ وليس الاتحاد السوفيتي فقط ـ إلى التفكير في إعادة البناء ، وخاصة بعد أن أكدت بحوث العلماء أن العالم لم يعد يملك المصادر المالية التي تسمح باستمرار هذا العبث العسكري .

وقد تزايدت المصروفات العسكرية في العالم ـ في الفترة الأخيرة ـ من حوالي ٤٠٠ بليون دولار عام ١٩٦٠ إلى أكثر من ١٠٠٠ بليون دولار عام ١٩٨٥ (بمعدل ٦,١٪ سنويا) ، واستمر هذا التزايد حتى مع وجود الأزمات الاقتصادية العالمية الأخيرة ، وحتى مع عقد معاهدات وقف التسلح بين القوتين العظميين .

ومما يثير السخرية أنه في الوقت الذي لا تنفق اليابان على مؤسساتها العسكرية أكثر من ١٪ من ناتجها الإجمالي ـ بكل ضخامته ـ يصل الإنفاق العسكري في منطقة الشرق الأوسط ـ مع سوء حال شعوبها ـ إلى أكثر من ٢٠٪ من مصادرها الاقتصادية .

وقد أدى العبث العسكرى في الفترة الأخيرة ، إلى ظواهر عالمية خطيرة ، على رأسها استنزاف الموارد الطبيعية بطريقة مخيفة : تناقص المياه ، انحسار الغابات ، تلف المراعي . . إلخ ، مع تزايد في التلوث ، وتحول في المناخ ، يهددان حياة الإنسان وبقاءه .

تغيير الاهتمامات

مع تفاقم المشكلات ، وتزايد الإحساس بها ، تغيرت عقلية السياسيين في الدول الغنية تغيرا سريعا ملموسا ، وخاصة في السنوات الأخيرة :

فبعد أن كانت أهم أهدافهم الربح السريع ، وارتفاع متوسط الدخل لمواطنيهم ، وإشعال الحروب والفتن في العالم الثالث ، ليكون سوقا لأسلحتهم ، انتقلت الأهمية إلى أهداف أخرى مثل : استخدام الموارد الطبيعية دون إسراف ، وعلاج مشكلات الانفجار السكاني ، والارهاب وإفساد البيئة .

وبعد أن كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي مؤمنين بأن تزايد الإنتاج والانفاق العسكريين هما اللذان ينعشان اقتصادهما ، ويحفظان مركزيها ويحافظان على أمنها ، تحولا إلى الايمان بسياسات جديدة ، بدأنا نلاحظ نتائجها في السنوات الأخيرة .

فالاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة يعملان الآن على التخفف من التسلح ، ومن التعصبات « الايديولوجية » ، وعلى إشراك كل من اليابان والصين وأوربا في تحمل المسئولية لتنظيم العالم وإنقاذه .

ولم يعد العالم الغنى ينظر إلى العالم الفقير على أنه سوق يستنزف موارده ، ويبيع له أسلحته وبضائعه فقط ، وإنما هو راكب معهم على نفس السفينة ، ومن المهم خروجه من حالة التخلف ، أو على الأقل تعويمه .

وإذا أردنا أن ندرك كمية التغيرات العنيفة التي حدثت خلال ربع قرن فقط فلننظر كيف كان العالم في أوائل الستينيات ، وكيف أصبح في أواخر الثمانينيات :

كان العالم ينقسم إلى ثلاث كتل كبيرة ، شديدة التباين والاختلاف :

العالم الأول : الذي يدعى أنه وحده الذي يوفر لمواطنيه الحرية والرخاء .

العالم الثاني : الذي يدعى أنه وحده الذي يحقق العدالة ويدعو للسلام .

العالم الثالث : الذي يدعى أنه مظلوم لوقوعه تحت قبضة الاستعمار القديم أو الجديد .

فكيف أصبح العالم بعد ربع قرن من الزمان ؟

سفينة واحدة ، وإن اختلفت درجات

البحارة فيها ، إما أن تواصل مسيرتها ، أو تغرق بكل من عليها .

مشكلات الديمقراطية والدكتاتورية ، والرأسمالية والاشتراكية ، تراجعت أمام مشكلات أخرى مثل الأوزون والجفاف والمجاعات والديون وما إلى ذلك .

كان أكبر هموم الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي هو كيف يحافظان على سيطرتها على العالم . فأصبح أكبر همهما كيفية الإسراع بإشراك غيرهما في تحمل المسئولية .

كان أكبر هموم العالم الثالث هو كيفية التخلص من الاستعمار وأذنابه ، فأصبح أكبر همومه كيفية التخلص من حالة التخلف باكتساب المهارات والقيم الجديدة ، وتطبيق النظم والتقنيات الحديثة .

كان العناد والتعصب يسودان العالم كله : تعصب العالم الأول للراسمالية ، والثاني للماركسية ، والثالث للمذاهب القديمة ، ثم أدرك الجميع مقدار ما في هذا التعصب والعناد من سذاجة وضيق أفق .

أفكار جديدة لعصر جديد

في رأيي أن هذه التغيرات تفرض على إنسان العصر الحديث الإيمان بثلاث نظريات جديدة ، لم يعرفها العالم طوال تاريخه .

النظرية الأولى : أن الحضارة الجديدة حضارة عالمية ، بمعنى أن الذين سيقومون بها هم المتقدمون في كل مكان .

الحضارات السابقة كان يقوم بها مصريون أو هنود أو صينيون أو إغريق أو عرب أو أوربيون ، والعالم الآن أصبح عالما واحدا ، والذين يسهمون في خلق الحضارة الجديدة هم القادرون على اكتساب مهاراتها ، والتحلي بأخلاقياتها ، وأهم هذه الأخلاقيات والمهارات :

المرونة ، وعدم التعصب ، والنظرة الشاملة للأمور ، والقدرة على حل المعادلات الصعبة .

هذه النظرية الجديدة (إن الحضارة الجديدة حضارة عالمية) تبطل النظرية القديمة التي كانت تقسم العالم إلى عالم أول وعالم ثان وعالم ثالث ، النظرية الجديدة تقول : إن هناك نوعين من الناس ، قوم قادرون على التأقلم مع الحضارة الجديدة ، وهم موجودون في كل مكان ، بنسب مختلفة ، وقوم غير قادرين على التأقلم .

النظرية الثانية : ان العالم يقيم الآن حضارة جديدة ، تختلف كل الاختلاف عن الحضارات السابقة ، زراعية وصناعية ، وذلك لظهور تقنيات جديدة ، ستفرض انتقال معظم الأيدى العاملة من الزراعة والصناعة إلى مهن أخرى ، تتعلق بالخدمات والمعلومات ، ومن نظم وقيم وعادات غالبة (كما في الحضارات الزراعية التي فرضت نظم الزراعة وقيمها وعاداتها على الجميع ، وكما في الحضارة الصناعية التي فرضت نظم الصناعة وقيمها وعاداتها على الجميع) إلى نظم وقيم وعادات شديدة الاختلاف والتنوع .

النظرية الثالثة : ان الحضارة الجديدة ليست في حاجة إلى « بروليتاريا » ، ذلك أن الأجهزة الالكترونية الحديثة تقوم الآن بكل الأعمال العضلية و« الروتينية » .

هذه النظرية الجديدة تبطل نظما و« أيديولوجيات » كثيرة سابقة .

هذه النظريات الثلاث : لابد أن ندركها إدراكا كاملا ، إذا أردنا أن نعي كيف ينتهي العبث العسكرى في أيامنا ، وكيف يدخل العالم الآن في حضارته الجديدة ، فالجهل بهذه النظريات - أو بإحداها - يوقعنا في مشاكل عديدة . ومع ذلك فإن الوعى بها فقط لا يكفي ، كما أن فهم النظريات الهندسية وحفظها لا يكفى وحده لحل المسائل الهندسية ، بل لابد من التدريب الطويل على كيفية تطبيقها . □

ريتشارد فاينمان

إنجازات على حافة الشلل

بقلم : الدكتور محمد علي العمر

* قسم الفيزياء - كلية العلوم - جامعة الكويت .



بدأت ملامح عبقريته وهو في الحادية عشرة من عمره ، وساهم في مشروع إنتاج أول قنبلة ذرية في العالم ، وكشف سر كارثة مكوك الفضاء الأمريكي تشالنجر عام ١٩٨٦ .

لقد قيل : إنه « العقل الأكثر أصالة بين جيله من العلماء » . لكن كان لديه من روح المرح ما جعله يسمي مذكراته « بالتأكيد ، إنك تمزح ياسيد فاينمان » .

المقال محاولة لإلقاء ضوء على شخصية هذا العالم الذي رحل عن دنيانا في مثل هذا الشهر من العام الماضي .

في يوم ١٥ فبراير من العام الماضي توفي في مدينة لوس أنجلوس الأمريكية واحد من ألمع الفيزيائيين في العالم ، هو ريتشارد فاينمان بعد صراع مع سرطان المعدة ، عن عمر يناهز (٦٩) عاما . وكان عند وفاته أستاذا للفيزياء في معهد كاليفورنيا للتقنية ، المعروف باسم (كالتيك) ، والواقع في إحدى ضواحي (لوس أنجلوس) .

ساهم فاينمان في تأسيس نظريات « ميكانيك الكم » ، كما عمل في المشروع الذي أدى إلى إنتاج القنبلة الذرية . واخترع أيضا في الأربعينيات ما يسمى « برسوات فاينمان » التي تعد الآن أداة نظرية أساسية في وصف سلوك الجسيمات الذرية الصغيرة ، مثل الألكترون والبروتون وغيرها . وحصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٦٥ .

وفي السنوات الأخيرة من حياته ظهر أمام الجمهور الأمريكي بصفته عضوا في لجنة التحقيق في كارثة المركبة الفضائية (تشالنجر) التي تحطمت في الجو عام ١٩٨٦ . وأجرى خلال جلسة علنية أمام وسائل الإعلام تجربة بسيطة ، باستخدام الماء المثلج ، أثبتت أن الخاتم المطاطي للحلقة التي استخدمت في الدافع الصاروخي للمركبة لا يؤدي وظيفته بسبب فقدان مرونته عند درجات الحرارة الباردة . هذه التجربة البسيطة المتواضعة التي كانت تكلفتها أقل من دولار واحد شكلت نقطة الانعطاف في التحقيق الذي أدى إلى إعادة الهيكلة للبرنامج الفضائي الامريكي الضخم ، الذي تقدر تكاليفه بعشرات المليارات من الدولارات .

قال عنه أحد زملائه : (لقد كان العقل الأكثر أصالة بين جيله من العلماء) . وقال آخر : (إنه كان الفيزيائي النظري الأكثر إبداعا في عصره ، لقد كان عبقريا حقيقيا ، فقد لمس بإبداع متميز جميع المجالات الفيزيائية الحديثة .

عبقري في الحادية عشرة :

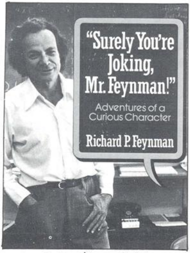
ولد (فاينمان) عام ١٩١٨ في إحدى ضواحي مدينة نيويورك الأمريكية ، ونشأ في عائلة صغيرة لأب كان يعمل في صناعة الملابس . وبسبب حاجته المادية كان يقوم - وهو فتى - ببعض الأعمال بعد الدوام الدراسي . ثم أسس مختبرا صغيرا في منزله لتصليح الأجهزة الألكترونية ، وليجري بعض التجارب البسيطة التي تشبع هوايته الشخصية . وقد سُمّي في حيه (الولد الذي يصلح المذياع بطريقة التفكير) ، إذ أن الفتى كان دائما يفكر جديا حول أسباب الخلل قبل أنْ يبدأ بتفكيك الجهاز . ولم يكن سنه حينذاك قد تجاوز الحادية عشرة .

بعد أن أنهى الدراسة الثانوية عام (١٩٣٥) ،

التحق بمعهد ماستشوتس للتقنية الشهير ، الواقع في مدينة (بوسطن) العريقة بمؤسساتها التعليمية . درس هناك الفيزياء ، وعاش حياة مليئة تخللها اللهو والعبث مما يقترن عادة مع مرحلة المراهقة والشباب . وبعد حصوله على شهادة البكالوريوس ، انتقل إلى جامعة (برينستون) الشهيرة حيث تابع دراسته في الفيزياء ، وحصل على شهادة الدكتوراة عام (١٩٤٢) ، وعندئذ انضم إلى ما يعرف بمشروع مانهاتن الذي كانت الحكومة الأمريكية قد أنشأته حديثا من أجل صنع القنبلة الذرية ، وذلك إبان الحرب العالمية الثانية ، بعد أن حصلت على معلومات سرية تفيد بأن ألمانيا تحاول صنع هذه القنبلة المخيفة التي قد تحدد مسار الحرب المستعرة آنذاك .

عندما انضم إلى المشروع انتقل فاينمان إلى مركز (لوس آلاموس) الواقع في منطقة شبه صحراوية في جنوب غرب الولايات المتحدة ، وفي تلك المنطقة النائية ، حشدت أمريكيا آنذاك أكبر مجموعة من العلماء في الفيزياء والكيمياء والهندسة ، من أجل تصنيع هذه القنبلة . وفي هذا الجو غير الرسمي سنحت الفرصة للعالم الشاب أن يقابل أشهر المشاهير من العلماء المخضرمين ، أمثال الفيزيائي النرويجي (نيل بوهر) ، مؤسس النظرية الذرية ، والرياضي العبقري (جون فون نويمان) ، مؤسس نظرية الحاسوب الألكتروني الحديث ، والفيزيائي (انريكو فيرمي)، الذي وضع أسس العصر النووي . وكان المركز تحت إدارة (روبرت أوبنهايمر) ، الفيزيائي الأمريكي المعروف الذي قاد الولايات المتحدة في عصر الفيزياء الحديثة التي كانت مزدهرة في أوروبا في ذلك الوقت .

عمل (فاينمان) في المركز تحت رئاسة الفيزيائي (هانز بيت) ، **وهو عالم** كان يحظى بمحبة زملائه العديدين واحترامهم في الولايات المتحدة وأوربا . وطور هذان العالمان معاً قانونا



ـــ صورة غلاف كتاب « بالتأكيد إنك تمزح يا سيد فاينمان » الذي تضمن سيرته الذاتية .

حول الطاقة التدميرية الكامنة في الأسلحة النووية المختلفة ، وهو قانون مازال يخضع للحظر في وثائق الحكومة الأمريكية . إضافة إلى ذلك كان (فاينمان) مسؤولا عن (مختبر الحسابات) ، حيث تجري الحسابات العددية للأنشطة البحثية المختلفة القائمة في المركز . ومع أن (الحاسوبات) المستعملة في ذلك المختبر تعد بدائية جدا بالمقارنة مع (الحاسوبات) المتوافرة الآن ، إلا أن (مختبر الحسابات) كان عندئذ أرقى جهاز حسابي في العالم .

فاتح الصناديق :

ومن الهوايات المفضلة التي مارسها (فاينمان) خلال فترة عمله في المركز فتح الصناديق الحديدية التي كانت تحتوي على أسرار القنبلة الذرية . لقد درب نفسه ليكون خبيرا في هذا الموضوع . وكان يأخذ بعض الوثائق من صندوق ما ، ويترك رسالة يقول فيها : (وثيقة

رقم كذا أخذها فاينمان ، فاتح الصناديق) . هذه الهواية أدت إلى إرهاق أعصاب المسؤولين عن الأمن في المركز .

وكللت جهود العلماء في مركز (لوس آلاموس) بالنجاح الباهر ، حيث فجرت القنبلة الذرية التجريبية الأولى في تاريخ البشرية في صحراء ولاية (نيومكسيكو) الامريكية ، عام (١٩٤٤) ، على مسافة ليست بعيدة عن المركز . وقد حققت هذه التجربة جميع الافتراضات والمفاهيم التي استخدمها العلماء في تصميم القنبلة . وكان التوافق تاما بين النظريات العلمية والنتائج التجريبية الميدانية .

بعد انتهاء مهمة فاينمان في مركز (لوس آلاموس) عند انتهاء الحرب العالمية الثانية ، قبل عرضا للعمل أستاذا في جامعة (كورنيل) ، وهي جامعة كبيرة معروفة ، تقع في ولاية نيويورك . وخلال أربع سنوات فقط أتم الأبحاث التي نال من أجلها جائزة (نوبل) فيما بعد ، في مجال الديناميك الكهربائي الكمي ، الذي كان من أكثر المواضيع الفيزيائية تعقيدا في ذلك الوقت ، فموضوع الديناميك الكهربائي الكلاسيكي (التقليدي) معروف في حياتنا العادية ، فمثلا نحن نصف حركة جسم مشحون (كهربائيا) تحت تأثير مجال كهرومغناطيسي باستخدام قوانين نيوتن الميكانيكية وقوانين المجالات الكهرومغنطيسية التي توجت باكتشاف معادلات ماكسويل . ولكن عندما نصف الجسيمات المشحونة الأساسية على المستوى الذري ، مثل حركة الألكترونات داخل الذرة الواحدة ، فإن النظرية الكلاسيكية تخفق كليا . فلقد كانت نبوءات النظرية مختلفة تماما عن نتائج التجارب . وكلما حاول الفيزيائيون زيادة الدقة ازدادت التناقضات إلى حدود لانهائية .

وناضل الفيزيائيون كثيرا من أجل تعديل النظرية وإصلاحها ، حتى توصل العلماء الثلاثة - (فاينمان) و (شوينغر) من الولايات المتحدة ، و (توموناغا) من اليابان - في أبحاث مستقلة ، إلى حل لهذه المعضلة في الوقت نفسه تقريبا . وتقاسم هؤلاء الثلاثة جائزة (نوبل) للفيزياء لعام (١٩٦٥) . لقد كانت طريقتا العالمين الآخرين (شوينغر وتوموناغا) متصلتين بنظرية الكم القديمة ، مما سهل استيعابها للفيزيائيين الآخرين . أما (فاينمان) فقد أدى عمله إلى إعادة بناء الميكانيك الكمي من الأساس ، فقد ابتكر طرقا جديدة غير مألوفة للحسابات ، مما ولد الريبة والشك لدى كثيرين من زملائه . يقول أحد زملائه المعروفين : (لقد حاول أن يعيد اكتشاف الفيزياء بكاملها بنفسه . وأصابته خيبة أمل عندما وجد أن النتائج التي حصل عليها متفقة مع نتائج الآخرين . لكنه قدمها بطريقته الخاصة ، وكانت النتيجة طريقة جديدة في فهم الطبيعة . إنها طريقة مثمرة حقا .

لقد مكنتنا طريقة (فاينمان) من القيام بحسابات لم يكن يستطيع القيام بها إلا النخبة النادرة ، فقد مثل الأحداث الفيزيائية بواسطة تفاعلات بين الجسيمات المختلفة ، وابتدع عملية لرسم هذه التفاعلات . وأخذ المعادلات الفيزيائية الرياضية البالغة التعقيد وحولها إلى أشكال و (صور) قابلة للتفهم والتخيل ، ففي (رسم فاينمان) تمثل الخطوط تاريخ الجسيمات وتمثل العقد الموجودة على هذه الخطوط ، التفاعلات الفيزيائية (شكل ١) . واكتسبت هذه التفاعلات حياة مثيرة حقا في هذه الرسوم . فالتنافر البسيط والعادي من الكترونين متحركين يتمثل الآن بتبادل قذائف من (الفوتونات) بينهما . مثلهما مثل لاعبين يتبادلان الكرات في لعبة رياضية . وباستخدام طريقة تجريدية جدا ، أصبح من الممكن تفهم أحداث معقدة ، كانت تتطلب قبل ذلك أسابيع وشهورا من الحسابات . والتنبؤات الناتجة عن هذه الطريقة أمكن إثبات صحتها تجريبيا لدرجة مذهلة من الدقة . ومع ذلك فإن الطريقة صدمت بعض الفيزيائيين



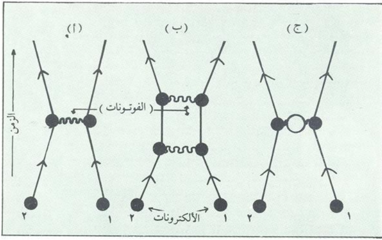
ـ فاينمان يجري تجربته عن خواص المطاط في درجات الحرارة الباردة أثناء التحقيق في كارثة (تشالنجر)

المعتادين على الطرق التقليدية . فبعض الرسوم تؤدي إلى نتائج مخالفة تماما للحس العام : مثلا ، الكترون يتحرك حسب زمن يجري باتجاه معاكس ، أي أن الزمن يجري إلى الوراء !

وفي عام (١٩٥٠) انتقل هذا العالم المشهور إلى معهد كاليفورنيا للتقنية حيث أمضى بقية حياته . وهناك بدأ تعاوناً مثمراً ، وتنافس مع نجم لامع آخر في هذا المعهد ، هو الفيزيائي (موري غيلمان) الذي يصغر (فاينمان) بـ (١١) عاما . وقد عملا معا في مجال (القوة الضعيفة) ، التي تلعب دورا في ترابط النواة الذرية ، وتتحكم في عملية انبعاث أشعة (بيتا) من هذه النواة . وقد كان الوضع مشوشا جدا عندئذ حول هذا الموضوع من الناحيتين النظرية والتجريبية على حد سواء . قدم العالمان (فاينمان وغيلمان) نظرية جديدة تعتمد في أساسها على البساطة الفيزيائية والأناقة الرياضية . واجهت النظرية مشكلة في الحال ، وهي اختلاف نبوءاتها على النتائج التجريبية المعروفة آنذاك . ولكن تبين بعد إعادة التجارب والتمحيص فيها أنها تتفق كليا مع النظرية الجديدة . قال (فاينمان) عندئذ حول هذا الوضع : (كانت النظرية بسيطة جدا ، ومباشرة جدا ، وجميلة جدا . إذن يجب أن تكون صحيحة . وكانت هكذا بالفعل . الخطأ كان في التجربة) . هكذا كانت ثقته قوية بالطبيعة وانحيازها إلى البساطة والأناقة والجمال .

المحقق فاينمان :

بعد كارثة المركبة الفضائية (تشالينجر) في يناير (١٩٨٦) قبل فاينمان دعوة من الرئيس (ريغان) ليتعاون مع لجنة رئاسية خاصة شكلت عندئذ للتحقيق في هذا الحادث الرهيب الذي هز الولايات المتحدة والعالم بأسره . وقد لوحظ منذ



بعض رسوم (فاينمان) التي تمثل التصادم بين الكترونين .
جزء (أ) يمثل تبادل (فوتون) واحد بين الكترونين .
وجزء (ب)يمثل تبادل فوتونين ، أحدهما تلو الآخر . أما في الجزء (ج) فإن الفوتون يتحرك مؤقتا إلى زوج من الالكترون بوزيترون ، اللذين يعودان فيشكلان الفوتون مرة أخرى .
وهناك أيضا رسوم عديدة أخرى ، تمثل هذا التصادم . جميع هذه الرسوم يجب أن تضاف معا لتعطي الصورة الكاملة للتصادم .
الزمن يجري إلى الأعلى (الأمام) بصورة طبيعية ، أما إذا عكسنا اتجاه السهام ، فإن الجسيمات تتحول إلى بوزيترونات (الكترونات مضادة) ، حيث يجري الزمن إلى أسفل (الوراء) .

ملاحظة :
ال(فوتون) هو الوحدة الأساسية للضوء .

البداية أن فاينمان كان كثيرا ما يتغيب عن جلسات لجنة التحقيق . لكن تبين فيما بعد ، أنه خلال ذلك التغيب ، كان يجري تحقيقه الميداني الخاص حول الموضوع ، حيث يقابل المهندسين والفنيين المسؤولين عن إطلاق المركبة ، ويتفحص الأجهزة التي جرى استخدامها في قاعدة (كيب كانافيرال) . هكذا كانت طريقته المميزة في الفيزياء كما هي في الحياة ـ يريد أن يستند إلى معلومات وحقائق أكيدة من صنعه الشخصي المباشر . وبعد أن تأكد من المعلومات التي لديه ، أجرى تجربته الشهيرة على حلقة الخاتم المطاطي المستعملة في دافع المحرك الصاروخي ، كما ذكرنا في بداية هذا الحديث . وقد سببت هذه التجربة إحراجا كبيرا للمهندس المسؤول عن برنامج الإطلاق الصاروخي ، الذي حضر جلسة التحقيق ، مما أدى إلى اقتناع لجنة التحقيق بأن الوكالة الفضائية كان بإمكانها تجنب الكارثة لو أنها أجرت هذه التجربة

البسيطة .

عقد (فاينمان) بعد ذلك مؤتمرا صحفيا منفردا ، حيث تحدى وكالات الفضاء الأمريكية بقوله : « إن وكالة الفضاء (ناسا) بالغت في اعتماد الثقة الزائدة في صلاحية المركبة الفضائية إلى درجة الوهم » . وعندما قال ذلك ، كان هذا العالم العجوز يبدأ معركته مع السرطان القاتل .

أنت تمزح بالتأكيد :

لقد طور فاينمان أسلوباً خاصاً في تدريس الفيزياء ، حيث كانت محاضرته تشبه عرضا للسيرك يشمل المفاهيم الفيزيائية والأدوار الحركية والأداءات الصوتية . لذا كانت محاضراته تكتظ بالطلبة دائما . وجمعت محاضراته عن (الفيزياء العامة) في كتاب متميز ، واسع الانتشار ، بعنوان (محاضرات فاينمان عن الفيزياء) . وقد ترجم هذا الكتاب إلى لغات عديدة ، بما فيها اللغة العربية . كما ألف عدة كتب متخصصة أخرى . وقام أيضا بتأليف كتاب عام عن حياته بعنوان (بالتأكيد ، أنت تمزح ، ياسيد فاينمان) . ولقى هذا الكتاب رواجا واسعا لدى الجمهور الأمريكي ، حيث ظهر على قوائم الكتب الأكثر رواجا في الولايات المتحدة .

قال فاينمان حول موضوع التدريس : (إن التدريس والطلبة يشكلون الحياة بالنسبة لي . ولن أقبل أي منصب مهما جعلني سعيدا ، إذا كان لا يشمل التدريس ، لن أقبل بذلك أبدا) .

شخصية فاينمان :

قضى فاينمان حياته في دراسة الفيزياء وتدريسها وفي خضم أبحاثها ، لكنه كان يحب الحياة واللهو أيضا ، ويمارسها خارج أوقات عمله . ولم يكن يهتم كثيرا بآراء الآخرين فيه ، ولا يحاول أن يتجنب تحدي الآخرين أو إحراجهم . كان شجاعا صريحا في آرائه إلى درجة التهور . وأصبح معروفا بالعالم الأكثر جدلا بين جميع زملائه من العلماء . وتذكرنا شخصيته كثيرا بالرياضي ، الفيلسوف البريطاني « بيرتراند رسل » الذي كان يتفاخر باتخاذ المواقف التي تتحدى التيارات الاجتماعية السائدة في عصره .

يروي فاينمان أن الرياضي فون نويمان قال له خلال إحدى غدواتهما في الجبال المحيطة بمركز لوس آلاموس : (اسمع يا فاينمان . لا يجب أن تعد نفسك مسؤولا عن الأخطاء والمشاكل الكثيرة الموجودة في هذا العالم) . هذه النصيحة كان لها ، على ما يبدو ، الأثر الكبير على نفس فاينمان الفتى الذي كان في العشرينيات عندئذ وعلى طريقة تفكيره وحياته فيما بعد ، ولقد نمت فيه الشعور الانفرادي واللامسؤولية الاجتماعية .

تزوج فاينمان للمرة الأولى عام ١٩٤١ ، وتوفيت زوجته بعد خمس سنوات من الزواج . ولم يستمر زواجه الثاني طويلا ، حيث تزوج مرة ثالثة سيدة انجليزية أنجبت له ولدين .

يترك فاينمان الفيزياء اليوم وهي معقدة وتجريدية وأبعد ما تكون عن حياة الإنسان العادية . وساهم هو ، أكثر من أي شخص آخر في جيله من العلماء ، في إيصالها إلى هذا الوضع . لقد ناضل الفيزيائيون الآخرون ، من أمثال أينشتاين ، طويلا كي يوفقوا بين حسهم البديهي من جهة ، وبين المعادلات الرياضية المجردة التي تصف الطبيعة من جهة أخرى ، أما فاينمان ، فقد تخلى بحماس عن هذه المحاولات .

ويعترف هذا العالم بأنه لا يفهم الأبحاث التي يقوم بها فهما حقيقيا . ويقول : (إنني أستطيع التعايش مع الشك والريبة . إنه أكثر إثارة أن تعيش بدون معرفة شيء ما من أن تكون لديك أجوبة خاطئة . إنني لا أشعر بالخوف من عدم معرفة الأشياء ، ومن الضياع في كون غامض ومحير وبدون هدف . إن ذلك لا يخيفني) . □



قصر الدنيا

● قال الجاحظ : « كان عندنا قاض يقال له أبو موسى كوش ، فأخذ يوما في ذكر قصر الدنيا وطول أيام الآخرة ، فقال : هذا الذي عاش خمسين سنة لم يعش شيئا ، وعليه فضل سنتين ! قالوا : وكيف ذاك ؟ قال : خمس وعشرون سنة ليل ، وهو فيها لايعقل قليلا ولا كثيرا ، وخمس سنين قائلة « نوم الظهيرة » ، وعشرون سنة إما أن يكون صبيا وإما أن يكون معه سكر الشباب فهو لايعقل . ولا بد من صبحة بالغداة ونعسة بين المغرب والعشاء ، وكالغشى الذي يصيب الانسان مرارا في دهره ، وغير ذلك من الآفات . فإذا حصّلنا ذلك فقد صح أن الذي عاش خمسين سنة لم يعش شيئا ، وعليه فضل سنتين »



كيف عرف الحليب ؟



● بينما كان اينشتاين في إحدى الحفلات اقتربت منه سيدة ، وطلبت أن يشرح لها النظرية النسبية ، فروى لها القصة التالية : كنت مرة مع رجل مكفوف البصر ، فذكرت له انني أحب الحليب ، فسألني : ما هو الحليب ؟

قلت : إنه سائل ذو لون أبيض .

فقال : إنني أعرف ما هو السائل ، ولكن ما هو اللون الابيض ؟

قلت : إنه لون ريش البجع .

فقال : أما الريش فإنني أعرفه ، ولكن ما هو البجع ؟

قلت : إنه طائر رقبته ملتوية .

قال : أما الرقبة فإنني أعرفها ، ولكن ما معنى ملتوية ؟

عندئذ أخذت ذراعه ومددتها ، ثم ثنيتها ، وقلت : هذا معنى الالتواء .

فقال الرجل : آه .. الآن عرفت ما هو الحليب .

ثم قال اينشتاين للسيدة : والآن يا عزيزتي أما زلت ترغبين في أن أشرح لك النظرية النسبية ؟

من القلب

زوجة مزعجة

خرج الزوجان من احدى كنائس نيويورك بعد أن أنهيا طقوس الزواج ، ثم تقبلا تهنئة الأقارب والأصدقاء ، واستقلا سيارة أجرة كانت تنتظرهما ، وما أن قطعت السيارة مسافة قصيرة حتى طلب الزوج من السائق الوقوف ، ونزل من السيارة بعد أن أوصى الزوجة والسائق بأن ينتظراه ، ودخل صالة بليارد . ومضت ساعة وساعتان ، ولم يعد الزوج ، وعندما نفد صبر العروس لحقت به ، فوجدته في صالة البليارد يلعب مع رجل آخر . واعترضت على هذا التصرف بشدة ، وقالت : إلى متى سنظل ننتظرك في السيارة ؟ فالتفت إليها وصاح بها : ما هذا ؟ هل ستبدئين مضايقاتك من الآن ؟

□ □ □

دقة التعبير

● عندما شاهد بائع الفاكهة الطفل ينظر الى التفاح باشتهاء سأله :

ـ هل تحاول أن تخطف تفاحة ؟

فرد عليه الطفل : كلا ، إنني أحاول منع نفسي من خطف تفاحة .

ضحكات عالمية

شهود الزور

● قال سهل بن دارم : « كان في البصرة أناس يشهدون الزور وشرط بعضهم درهم ، وآخرون يشهدون وشرطهم أربعة ، وآخرون شرطهم عشرون درهما . فسألت في ذلك فقالوا : أصحاب الدرهم يشهدون ولايحلفون ، وأصحاب الأربعة يشهدون ويحلفون ، أما أصحاب العشرين فيشهدون ويحلفون ويجادلون » .

□ □ □

في الصميم

● بلغ بي الشك مرحلة أصبحت فيها أشك في كثير من الأمور حتى في الشك نفسه .

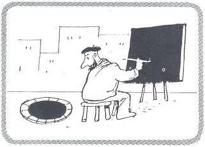
(الفريد كابو)

● لاينبغي انفاق الازدراء إلا بحرص ، وذلك لكثرة المحتاجين إليه .

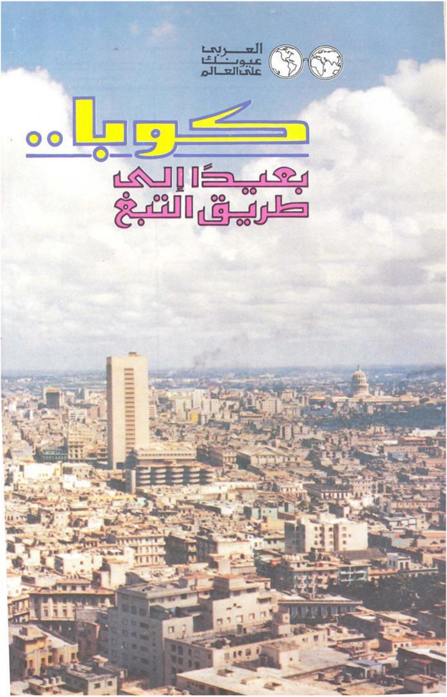
(شاتو بريان)

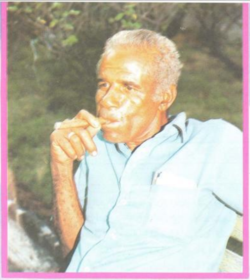
● ينقضي القسم الأول من الحياة في اشتهاء القسم الثاني ، وينقضي القسم الثاني في التأسف على الأول .

(شامفور)



كوبا.. بعيدًا إلى طريق التبغ





استطلاع :
صلاح حزين
تصـوير :
طالب الحسيني



هي لدى البعض سيجار،وقبعة عريضة،وبذلة بيضاء تناسب طقسها الاستوائي ، وهي لدى البعض الآخر بلد العنف والثوار الملتحين ، ولدى آخرين بلد مزارع لا تنتهي من قصب السكر ، ولغيرهم شواطيء لا تنتهي للسابحين .

« العربي » تمضي بك هذه المرة بعيداً إلى كوبا . . . في أول رحلة لها إلى أمريكا اللاتينية .

عندما رآها كريستوفر كولومبوس هتف قائلا : « هذه أجمل أرض رأتها عين إنسان » . ولم ينقل بعد ذلك أي قول آخر للمكتشف العظيم في أكبر جزر الكاريبي وأجملها ، إذ يبدو أن افتتانه باكتشافاته كان أكثر من افتتانه بتلك الجزر وجمالها الآسر ، فاستمر يتنقل بين بعض أجمل جزر العالم مزهوا باكتشافاته ، وترك للقادة العسكريين والمغامرين والهاربين من جور محاكم التفتيش الأسبانية ، أن يأتوا من بعده لاكتشاف ما وراء هذا الجمال الفتان ، وتجاوز « رومانسية » الرحالة الكبير إلى ما هو أكثر فائدة وأعظم جدوى بالنسبة لهم .

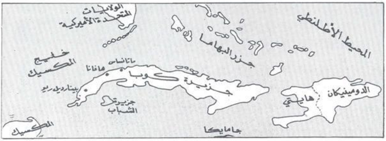
لذا فإن تاريخ كوبا الحقيقي يبدأ بعد نظرة كولومبوس المسحورة بثمانية عشر عاما ، عندما أتى دون دييغو فيلاسكيز وأقام على الفور سبع قلاع في سبعة مواقع « استراتيجية »، على محيط الجزيرة التي تبدو بشكلها المستطيل المقوس كأنها دولفين صغير يطل برأسه الفضولي مستكشفاً تجويف خليج المكسيك الكبير . ومن بين هذه المواقع السبعة كانت هافانا .

ومن هناك انطلقت طلائع المستوطنين الأسبان إلى الداخل ليكتشفوا أن خلف هذا الجمال الكامن في الأرض البكر محاصيل يمكن تحويلها إلى ثرواتٍ في أيدي السباقين للاكتشاف والتملك منهم ، وان سكان الجزيرة البدائيين ذوي الأجساد البرونزية القوية يمكن أن يكونوا القوة التي بها تستثمر المحاصيل الوفيرة الغريبة الأشكال والأسماء ، فحولوا القلاع إلى مدن ، وبنوا مدنا غيرها ، وأقاموا مزارع للسكر ، وأخرى للحمضيات والفواكه ، ومزارع لمحصول غريب اكتشفوا أن سكان البلاد ينفثونه دخانا من أفواههم وأنوفهم اسمه التبغ .

وبدأت قصة الاستعباد الرهيب لشعب ظل يقاوم أولئك البيض الأقوياء حتى أبيد عن آخره ليبدأ بعد ذلك تاريخ كوبا الحديث .

كانت السماء زرقاء

حين وصلنا هافانا كان قد مضى على اكتشاف كولومبوس لها خمسة قرون إلا أربعة أعوام ، فقد اكتشفت كوبا في ٢٧ اكتوبر عام ١٤٩٢ . لم ندهش كما دهش المكتشف الشهير من قبل ، ففي عصرنا لم يعد هناك مكان للدهشة ، بعد أن تحول العالم كله إلى قرية صغيرة ، واشتبكت البلدان في علاقات متداخلة متعددة . لكن زميلي المصور قال ونحن نستقل السيارة متوجهين من المطار نحو فندق « هافانا ليبري » ، مخترقين مساحات الخضرة على الجانبين . « تبدو الطبيعة هنا شبيهة بأفريقيا » . ولم أعلق على ملاحظة زميلي ، لأن خبرتي بأفريقيا لا تمكنني من التأكيد على ما يقول ، كما أنها لاتمكنني من نفيه ، لكنني تذكرت أن كثيرين من الكوبيين سود البشرة كالأفارقة تماما ، وأنني قرأت مرة أن سكان كوبا وجزر الكاريبي الأخرى قدموا منذ العصور القديمة من سواحل أفريقيا الجنوبيةالغربية ، ولم أنس أن لكوبا علاقات حميمة مع كثير من دول أفريقيا ، بل إن دولة أفريقية مثل انغولا تدين



تتكون كوبا من جزيرتين رئيسيتين هما جزيرة كوبا وجزيرة الشباب التي تقع في القسم الجنوبي الغربي من كوبا ، ونحو ٤١٩٥ جزيرة صغيرة ، معظمها مناسب للسباحة . وتبلغ مساحتها ١١٠٩٢٢ كم٢ . ويبلغ طول جزيرة كوبا ١٢٠٠ كم ، ويتراوح عرضها بين ٢٠٠ كم و ٣٢ كم .

لكوبا باستقلالها . وربما بوجودها .

ولم أواصل التفكير في جوانب العلاقات الكوبية الإفريقية ، فقد كانت نضارة المشهد المخضر على جانبي الطريق تأخذني بعيدا عن التفكير في مثل هذه العلاقات المعقدة ، وتشدني إلى هذا النوع الغريب من الجمال ؛ أشجار مثمرة غير صنوبرية ، تكاد تتساوى طولا ، تدكن خضرتها حينا ، وتخف حينا ، وتبهت أحيانا أخرى ، وقد استطالت من داخلها صفوف متوازية أو متعامدة من أشجار النخيل الباسقة ، وأشجار أخرى أقل طولا . وثبتت هذه الصورة في ذهني على أنها الصورة النموذجية للطبيعة الكوبية الجميلة ، لكن إلى حين ، فقد اقتربنا من العاصمة .

هذه هي هافانا إذن ، شوارع متواضعة ، لكنها نظيفة ، وسيارات قليلة نسبيا ، يلفت النظر أنها إما جديدة اشتراكية الصنع أو أمريكية قديمة الطراز ، مما يشكل متعة لهواة السيارات القديمة ذات الأشكال الغريبة التي لا تخلو من جمال خاص . كتل معدنية ضخمة الملامح ما زالت تدب على الشوارع بعد ثلاثين أو أربعين سنة من صنعها . وحين سألت عن قطع الغيار التي جعلت هذه السيارات تستمر حتى الآن ، عرفت أن معظم هذه القطع سوفيتية ، وببعض التعديلات يمكن تركيبها على السيارات الأمريكية القديمة ، لتصبح مجهزة بكل شيء ، بما في ذلك « مكيف الهواء » الذي يلزم في جو كوبا حيث تستمر الحرارة والرطوبة طوال معظم أشهر السنة .

شوارع مستقيمة متعامدة ، تقسم أجزاء المدينة إلى قطع هندسية مربعة أو مستطيلة أو مثلثة . على الجانبين ، منازل بسيطة متواضعة ، لكنها جميلة التصميم بطوابقها القليلة التي لا تزيد على ثلاثة أو أربعة . في الطابق الأول تمتد شرفة عريضة بين عمودين مربعين انتصبا على الجانبين ، وقد امتد بينها جدار منخفض ، كثيرا ما تكون عليه فتاة ألقت بخدها على باطن يدها تتأمل حركة الشارع أمامها . مشهد « رومانسي » في زمن غير « رومانسي » .

وفي الطابق الحادي والعشرين من فندق « هافانا ليبري » كانت إقامتنا .

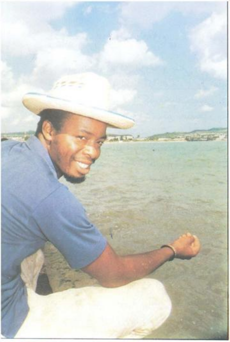
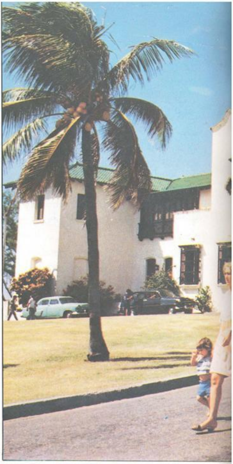
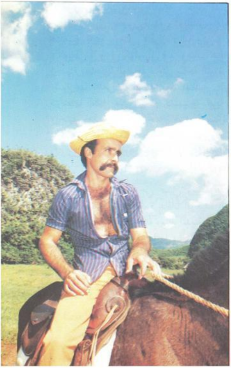
لم ننتظر - زميلي المصور وأنا - فتح حقائبنا حين أطللنا من باب شرفة غرفتنا المطلة على البحر . خرجت أرقب المشهد ، وخرج زميلي بأجهزة التصوير ، نملأ أنفسنا بالمشهد الساحر ، ونسينا أو تناسينا أن مرافقينا في رحلتنا كانوا في انتظارنا في صالة الفندق .







(أعلى)
فيلا آتابي على شاطيء البارادير و .
(يسار) :
- شاب وقبعة .
(للأسفل من اليسار) :
- فارس في وادي فينياليس
- منزل آخر مالكة لمصنع للسكر قرب هافانا .
- عربة وحصان بوسط هافانا .


بحر هادىء داكن الزرقة ، يلتقي في نهايته بسماء أقل زرقة ، لكنها أكثر صفاء ، ولم تفلح بضع غيمات أخذت شكل خراف ترعى في حقول السماء الزرقاء في تعكير صفوها .

وعلى الأرض امتدت بين البحر وبيننا ساحة مفروشة بالمباني المتفاوتة الارتفاع ، علت من بينها عمارات هنا وهناك فاقتها ارتفاعا ، أمكننا أن نميز من بينها كاتدرائية ضخمة ، وقبة بيضاء شبيهة بقبة الكابيتول الشهيرة في العاصمة الأمريكية . وتساءلت هل هذا معقول ؟!

ميرامار :

بعد تجوالنا في هافانا كونا فكرة أشمل حول نمطها الهندسي ، فما رأيناه في البداية لم يكن غير جزء من العاصمة الكوبية التي يسكنها مليونان من سكان كوبا العشرة ، لكن أثار انتباهنا أنه لم يكن هناك طراز معماري واحد يعطي المدينة شخصيتها الهندسية المميزة ، كما هو حال المدن الأخرى . فهناك هافانا القديمة ، ذات المباني التي تعود إلى عصور قديمة ، وبالتالي أنماط هندسية قديمة ، مثل الطراز « الباروكي » و « القوطي » و « الكولونيالي » ، وهناك هافانا الحديثة بساحاتها الواسعة ، مثل ساحة الثورة ، وشوارعها العريضة وحدائقها المنظمة التي تتوسطها تماثيل من الرخام تشتهر به كوبا . وإحدى هذه الحدائق تحمل اسم « سنترال بارك » ، وهو اسم أشهر حدائق نيويورك . ما دامت هناك قبة الكابيتول فلم لا تكون هناك حديقة سنترال بارك !؟

وفوق ذلك هناك حي صيني وبيت عربي ومقبرة صينية ، عدا مقبرة هافانا الوحيدة التي تشكل مساحة هادئة وادعة وسط المدينة ، بنيت قبورها من الرخام ، فجعلتها « أجمل مقبرة في العالم » .

مبان من الرخام وأخرى من الحجارة وغيرها من الاسمنت المسلح . خليط متنافر من الطرز المعمارية يمكن لزائر العاصمة الكوبية أن يجد تكثيفا له في حي يدعى ميرامار .

وميرامار واحد من أحياء هافانا الراقية ، لكن مشكلته أنه غير مميز هندسيا ، وإن كانت هناك ميزة له فهي أنه متنافر تماما : بيوت وقصور وفلل لكل منها هندسته الخاصة وطرازه الخاص وشكله المختلف تماما عن غيره من البنايات المجاورة .

في البداية لفت نظري اسم « ميرامار » الذي ذكرني بالرواية الشهيرة لأديبنا الكبير نجيب محفوظ . وهي كلمة تعني باللغة الأسبانية ـ اللغة الرسمية لكوبا ـ « مقابل البحر » . وحين سألت عن سر هذا التنافر الهندسي في « ميرامار » قيل لي : إن هذه المنطقة قد بنيت أثناء ما عرف بثورة السكر . فقلت : إنني أعرف عن ثورة كاسترو وغيفارا ، لكنني لا

التمساح الملتحي

يصدر في كوبا عدد كبير من الصحف والمجلات ، فبالإضافة إلى صحيفة « غرانما » الأسبوعية التي تنطق باسم الحزب الشيوعي الحاكم في كوبا ، هناك مجلات وصحف تصدرها الفئات الكوبية المختلفة ، مثل الشباب والطلبة والعمال . ويصدر اتحاد الأدباء الكوبيين مجلة خاصة به تحمل اسما طريفا هو (كايمان باربودو) ، وتعني بالعربية « التمساح الملتحي » .

كما تصدر كل مقاطعة من مقاطعات كوبا الأربع عشرة مجلة خاصة بها ، بالإضافة إلى جزيرة الشباب التي كانت قبل الثورة منفى قاسيا للسياسيين المعارضين ، فأصبحت الآن مكانا يؤمه الشباب من جميع أنحاء العالم .

أعرف عن ثورة السكر ، ولابد من توضيح .

كان ذلك في العشرينيات من هذا القرن ، عندما ازداد الطلب على السكر الذي تعد كوبا أكبر منتج له في العالم ، وعندها انتعشت زراعة السكر وصناعته وتجارته ، ودخلت المجال طبقات وفئات وشرائح اجتماعية جديدة اغتنت من تجارتها به ، وحاولت الانتماء إلى الطبقة الارستقراطية الكوبية ، لكن الطبقة الجديدة كانت بلا تراث فني ، وبلا شعور جمالي جمعي ، فبادر كل من أثرياء السكر الجدد إلى بناء منزله الخاص بالطراز والهندسة التي يريدهما ، فتكوّن هذا الحي الغريب الذي تمثل كل بناية منه عملا معماريا رائعا ، لكنه كحي يفتقد هذا الجمال لافتقاده التناسق بين بناياته ، مما جعله حيا خصوصيته التنافر اسمه ميرامار .

تلك هي العلاقة إذن بين العمارة والسكر . ثورة في السكر تؤدي إلى ثورة مضادة في الهندسة المعمارية ! يا للعلاقة الفريدة ! .

ولكن يبدو أن لكل شيء في كوبا علاقة بالسكر ، بل ويمكن اعتبار السكر مسئولا عن معظم التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية في كوبا ، فمنذ اكتشاف كوبا والسكر هو عصب اقتصاد هذه البلاد ،به نمت وتطورت ، ومن أجله استغلت واستثمرت واستعمرت ، ومن أجل إعادته إلى أصحابه تحررت ، ومن أجل السكر أباد المستوطنون الأسبان الهنود الحمر ، سكان البلاد الأصليين الذين لم يستطيعوا التكيف مع متطلبات العمل العبودي غير الإنساني في مزارع السكر .

ذهب الشعب الأصلي ، وبقي السكر في انتظار من يزرعه ويقلعه ويصنعه ، فاستحضر الأسبان عبيدا جددا من افريقيا ، فتغيرت التركيبة الاجتماعية للسكان تغيرا جذريا . أما كيف كان السكر مسؤولا عن الفن ، فنؤجله قليلا لنقوم بزيارة لحقول السكر ومواقع تصنيعه .

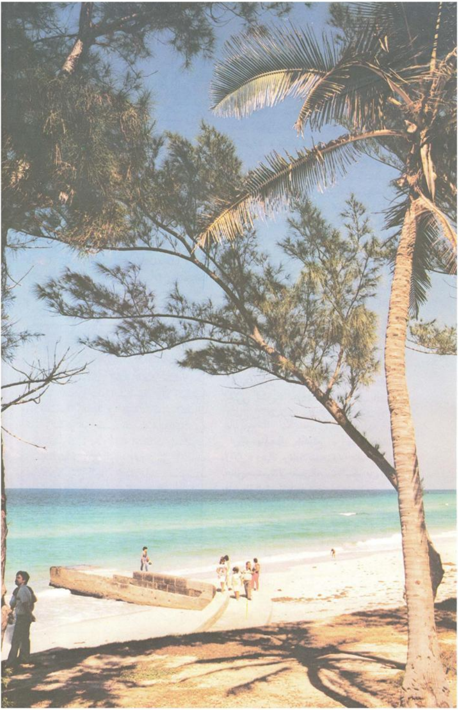
النخلة والخنازير

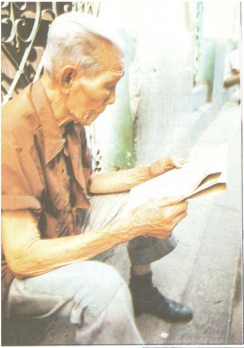
في موقع غير بعيد ، شرقي هافانا ، وعلى تلة غير مرتفعة ، يقوم أكبر مصنع للسكر في كوبا ، وسط حقول انتشرت على عشرات آلاف الهكتارات ، تنتصب فيها أعواد قصب السكر ، وقد شكلت بلونها الأخضر الفاتح وبأطوالها المتساوية بساطا امتد فوق التلال وفي المنخفضات والأراضي المستوية ، وكما هو الأمر في كل مكان نفرت بضع عشرات من أشجار النخيل الباسقة لتصنع تشكيلا جميلا على البساط الأخضر الذي ينتهي مع الأفق الأزرق الصافي . وبينما كان زميلي المصور منهمكا في التقاط الصور تأملت أشجار النخيل الشاهقة التي لا تشبه نخلنا العربي ، وسألت مرافقتنا عما إذا كانت الأشجار هذه تطرح بلحا فأجابت : لا ، بل تطرح ثمراً تأكله الخنازير .

واستنكرت أن يربط بين شجرتنا القومية وبين الخنازير ، وسألتها متحديا : وهل تحبون الخنازير كثيراً هنا في كوبا ؟ فأجابت ضاحكة : ولا خليجهم . في إشارة إلى خليج الخنازير في جنوبي الجزيرة حيث حاول بعض المتمردين الكوبيين الهجوم منه لإسقاط الثورة عام ١٩٦١ .

وتوجهنا إلى المصنع . أجهزة ومداخن وآلات وعمال وعاملات ، وشاحنات في دورة عمل مستمرة لإحضار قصب السكر من المزارع المحيطة ، ثم تقطيعه وتصنيفه وتصنيعه . وهي دورة عمل مستمرة منذ عام ١٩١٩ عندما بناه ملتون هيرشيز ، وعندما وسعه عام ١٩٢٩ بإضافة جزء آخر لتنقية السكر . سألت : - « إذن فهو ليس من منجزات الثورة الكوبية ؟ »

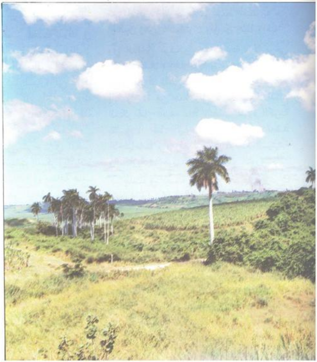
فجاء الجواب : « بل من أبرز منجزاتها ، فما تراه هنا ليس سوى جزء من المصنع ، وهو الجزء القديم . وصناعة السكر لم تبق كما كانت عليه في العشرينيات والثلاثينيات ، بل والأربعينيات







(يمين)
في الطريق إلى شواطيء البارادبرو
(أعلى) حديقة سنترال بارك بهافانا.
(أعلى) صيني وصحيفة صينية في الحي الصيني بهافانا
(أسفل) حقول لا تنتهي من قصب السكر ويشاهد عن بعد دخان مجمع سنفويغوس الصناعي.



والخمسينيات ، لقد تشعبت هذه الصناعة كثيرا لدينا ، ففي عهد الثورة توسعت صناعة تنقية السكر وتطورت ، وأضيفت للمصنع مواقع تصنيع العصير والصودا والجعة والعسل والسكاكر والكحول التي يتم إرسالها إلى مصنع الروم ، وهو المشروب القومي لكوبا تقريبا . »

ولكن هذا ليس كل شيء على أي حال ، فهناك صناعة « الباغاس » المهمة أيضا . ولم اعرف ما هو الباغاس بالطبع ، لكن بعد جهد وإشارات وكلمات بالانجليزية واللاتينية والأسبانية والعربية اشترك فيها مسؤول المصنع والمرافق والمترجمة والسائق وزميلي المصور ، أدركت أن « الباغاس » هو ما يبقى من القصب بعد عصره من لب وقشور ، ولكن حتى يقطع الشك باليقين أخذني المرافق إلى « كشك » صغير أصطف أمام نافذته طابور من العمال ، وأدخلني « الكشك » من الخلف ، حيث شاهدت عملية عصر عود من قصب السكر . قدم لي العصير وانتظر حتى أبديت إعجابي قائلا : إن هذا أشهى عصير قصب تذوقته في حياتي . ثم أراني بقايا العود المعصور وقال : هذا هو الباغاس ! . وقبل أن أسأل عما يمكن أن يصنع من « الباغاس » ركبنا السيارة التي دارت بنا حول المصنع لتصل إلى أحد أجزائه العديدة . وأضاف المرافق وكأنما يكمل جملة بدأها منذ قليل « وهذا هو مصنع الباغاس » . وبدأ مدير مصنع الباغاس يشرح : في الماضي كان الباغاس يلقى مع مخلفات السكر وبقاياه ، أما اليوم فإننا نستخدم قسما منه في صناعة علف للدجاج والحيوانات ، وهو الباغاس الثقيل ، أما الخفيف فقد طورنا صناعة جديدة منه هي صناعة ألواح الباغاس التي تستخدم في صناعة الأثاث وفي صناعات أخرى بدلا من الخشب ، فهو يجمع بين القوة والعملية وبين الوزن الخفيف ، كما أنه لا يتعرض للتآكل بفعل الحشرات التي تنخر الخشب . ودخلنا إلى مكتب المدير وجلسنا ، وقال مدير المصنع : هذه الغرفة مثلا ، جميع أثاثها مصنوع من ألواح الباغاس .

بقي أن نقول : إن هذا المصنع ، وهو نوع من المجمع الصناعي ، حمل اسم كاميلو سينفويغوس ، أحد أكثر رجال الثورة الكوبية شعبية ، وقد فقدته الثورة مبكرا حين سقطت طائرته في البحر بعد أشهر قليلة من انتصارها ، ولم يعثر على جثته ، ثم أضفى على اسمه طابعا اسطوريا . علاقة أخرى بين السكر والثورة ؟! لا بأس لكنها ليست الأخيرة .

بعد تلك الجولة بين الآلات والأجهزة والمحركات وحركة العمال التي لا تنقطع ، وجولة موازية في أماكن ترفيه وتسلية للعمال قريبة من المصنع ، اتجهنا نحو حديقة واسعة ، تتوسطها « فيلا » أنيقة بنيت من حجر وقرميد ، اتصل مدخلها المحتشد بالزهور وأشجار الزينة مع المدخل الخارجي بممر مبلط تحيط به من الجانبين زهور ذات ألوان وأوراق جميلة زاهية .

وفي الداخل غرف واسعة متعددة ، لا يوحي منظر « الفيلا » الخارجي بوجودها ، لأنها تبدو أصغر من أن تتسع لمثل هذه الغرف الواسعة . إنها واحدة من عدة فلل لآخر مالكة لمصنع السكر قبل تأميمه بعد انتصار الثورة الكوبية بقليل ، أما اليوم فهي مكان لعقد الاجتماعات ، وموقع لتصوير الأفلام السينمائية والتلفازية ، حول عهد ما قبل الثورة .

جلسنا في الصالة الفسيحة الجميلة ، وشربنا عصيرا قيل لنا : إنه المشروب القومي غير الكحولي لديهم ، وشعرت لدى تذوقي المشروب الأحمر اللون أن مذاقه ليس غريبا علي ، وإن يكن اللون غريبا ، وأخبرني المضيفون أن هذا عصير « وابافا » ، وعند مقارنة اللفظ المألوف بالمذاق المألوف عرفت دون ترجمة أنه عصير « جوافة » .

سياحة وسياسة :

سألت بلهجة الواثق وكأنني أقرر بديهية : بالطبع ما زال السكر هو مصدر الدخل الأساسي للبلاد ؟! فجاء الجواب بالنفي الرقيق ، حرصا على ثقتي التي اكتشفت أنها في غير محلها . ففي السنوات الأخيرة تقدمت السياحة على السكر كمصدر للدخل في كوبا ، وذلك على الرغم من الحظر الذي تفرضه الولايات المتحدة على رعاياها ، وتمنعهم من زيارة كوبا ، فمن المعروف أن كوبا كانت منتجع أثرياء أمريكا ومكان استجمامهم قبل تأميم جميع مصادر الدخل العامة بعد انتصار الثورة عام ١٩٥٩ ، وكثير من هذه المصادر كان يملكها أثرياء أمريكيون ، مما سبب توترا بين البلدين ، كاد يؤدي إلى حرب عالمية ثالثة عام ١٩٦٢ ، لكن الحرب لم تقع بفضل اتفاق سوفيتي أمريكي يضمن بقاء قاعدة « غوانتانامو » الأمريكية في الأرض الكوبية حتى تنتهي مدة تأجيرها في نهاية القرن . ويضمن في الوقت نفسه سيادة كوبا وحريتها في اختيار نظامها السياسي .

وتم الاتفاق الذي ما زال ساريا ، ولكن مافي القلب بقى في القلب ، وبقيت في نفس أمريكا مرارة من وجود دولة شيوعية لا تبعد عن فلوريدا أكثر من ١٨٠كم . وبقيت في نفس كوبا مرارة من الحصار الاقتصادي الذي ما زالت تفرضه الولايات المتحدة على الدول الكاريبية المتمردة ، ولم تنس لامريكا دعمها محاولة لغزوها قامت به عناصر كوبية عبر خليج الخنازير ، ومنذ تلك الأيام لم تهدأ الخواطر ، واستمر الحصار الأمريكي على كوبا ومن ضمنه الحصار السياحي .

معلوماتي السياحية عن كوبا لم تكن تتجاوز استعراض « التروبيكانا » الشهير ، وشواطيء « البارادیرو » الأكثر شهرة ، وبهذه الشواطيء بدأنا رحلتنا السياحية .

لكي تذهب من « هافانا » إلى شواطيء « البـاراديـرو » عليك أن تعـبر مـدينـة « ماتانساس » .

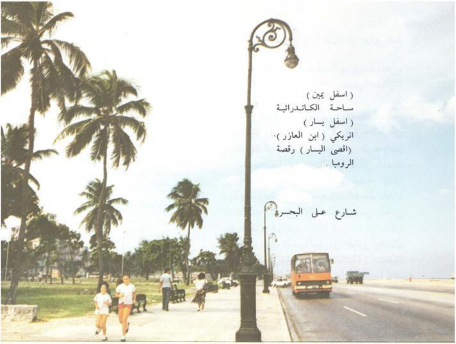
ولكي تصل « ماتانساس » عليك أن تعبر أكبر جسر في كوبا ، وهو قطعة هائلة من الاسمنت والحديد والاسفلت ، تربط بين تلتين ، تغطيها الأشجار الكثيفة ، التي أمتدت إلى الوادي السحيق الذي يفصل بينهما . وكان لابد وقد وصلنا الجسر وسحرتنا الطبيعة الخلابة المحيطة به أن نقف لالتقاط الصور وملء النفس بكل هذا الجمال .

وقفت فوق الجسر أنظر إلى الوادي والتلال التي غطتها تماما أشجار كثيفة متشابكة الأغصان . وقلت لنفسي : ها أنا أخيرا أرى أرضا عذراء لم تطأها قدم بشر . فقد كانت الأشجار من التشابك بحيث تمنع أي قدم بشرية من انتهاكها .

إلى البارادیرو عبر المذبحة

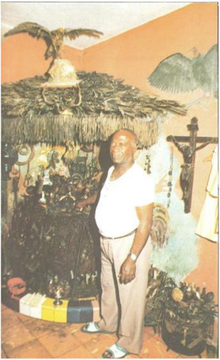
« ماتانساس » واحدة من أجمل مدن كوبا ، ترقد بدلال فوق خليج يحمل اسم المدينة المتعددة الأوصاف ، فهي مدينة الأنهار لكثرة الأنهار التي تخترقها متجهة صوب الخليج الهاديء ذي اللون الأزوري الرائع ، وهي مدينة الجسور لكثرة الجسور التي بنيت فوق أنهارها العديدة ، وهي أثينا كوبا لكثرة ما أنجبت من مثقفين وفنانين .

لكن قشعريرة سرت في جسدي عندما عرفت أن اسم المدينة يعني المذبحة ! نعم ، هذا ما تعنيه الكلمة بلغة الهنود الحمر الذين أبيدوا منذ قرون فوق هذه الأرض الجميلة الهادئة على أيدي المستوطنين الأسبان القساة . فقد ثار الهنود على مستعبديهم الذين أرادوهم قوة عمل لا أكثر . وفي هذه المدينة الجميلة حدثت مواجهة دامية بين الطرفين ، واكتملت المذبحة بانتصار الرصاصة على الأجساد الثائرة . إذن ، فهذا هو سر الحزن الذي يكمن



(اسفل يمين)
ساحة الكاتدرائية
(اسفل يسار)
انريكي (ابن العازر).
(اقصى اليسار) رقصة
الرومبا .

شارع على البحر






GALERIA
DE

خلف الجمال الساحر للمدينة الوادعة ! وكم كانت هناك في كوبا من أحزان !

قطعة معدنية ضخمة أخبرتنا أننا وصلنا الشواطيء الشهيرة ، قطعة كُتب عليها بأحرف لاتينية « VARADERO » . ومع أن الكلمة تبدأ بحرف « V » إلا أنها تلفظ « B » وهكذا هي « HAVANA » التي تكتب أيضا « HABANA » وتلفظ « آبانا » ، واسم الفندق الذي نزلنا فيه HAVANA LIBRE آبانا ليبري وهكذا .

عندما تصل إلى الشاطيء وتبدأ في التجول تصبح جميع الأسئلة حول حرف «V» وحرف «B» غير ذات أهمية ، المهم أنك هناك في تلك الشواطيء الأسطورية الشهرة . و« الباراديرو» هي القسم الأكثر شهرة من شبه جزيرة صغيرة تدعى ايجاكوس ، وهو اسم المدينة والشواطيء التي تمتد بطول ٢٠ كيلومترا .

رمال بيضاء ناعمة على حافة بحر صاف متغير اللون باستمرار بين الأزرق السماوي والآزوري . وقد امتدت على الجزء القريب من البحر المظلات المصنوعة من سعف النخيل الجاف ، وتمددت تحتها الأجساد هربا من شدة الشمس التي قد تخف في الربيع والخريف وتزداد في الصيف ، لكنها تبقى هناك طوال أشهر السنة .

وفي البحر تتحرك الأجساد التي انغمر الجزء الأكبر منها في مياه البحر الزرقاء القريبة من الشاطيء تاركة الأجزاء العميقة البعيدة لهواة مختلف أنواع الرياضة المائية ، وهناك جزء من الشاطيء يطلق عليه اسم « الرأس الأبيض » ، وهو رأس من الأرض بنيت على طوله منازل وفلل وبيوت للأثرياء الأمريكيين وغير الامريكيين الذين كانوا يستخدمونها ثلاثة أشهر في السنة ، ولكل بيت من هذه البيوت المجهزة بكل المتطلبات طراز معماري خاص ، ولكن يجمع بينها البذخ والفخامة والهندسة الرائعة ، ومع أن زيارة أحد هذه البيوت لا يغني عن البيت الآخر إلا أننا اكتفينا بواحد منها ، فقد كان مستحيلا زيارتها كلها .

دخلنا ساحة أحد هذه المنازل ، وهو يحتوي على ٢٣ غرفة ، وفيه أكثر من بركة للسباحة ، من بينها بركة التقت حافتها ببار يحتوي على كل ما يحتاجه السابحون ... والسابحات ، وخرجنا ولدينا فكرة تامة عن حياة أثرياء « البارادير و» السابقين .

الآن ، لهذا المجمع السياحي إدارة خدمة مركزية ، فقد حولت بعض هذه المنازل إلى فنادق ، وحول بعضها الآخر إلى مطاعم يؤمها السياح الذين يأتون من شتى أنحاء العالم لهذه البقعة الجميلة من الأرض .

تعاون طبي كوبي كويتي

تعد كوبا من البلدان الأكثر تقدما في مجال الصحة والرعاية الطبية . وبالإضافة إلى الإنجازات الكبيرة في مجال طب العائلة ، فقد أحرزت كوبا تقدما كبيرا في مجال مهم من مجالات الطب هو ما يعرف « بهندسة الجينات » ، و« التقنية الحيوية أو « البيوتكنولوجي » . لكن الإنجاز الأبرز لكوبا كان في مجال جراحة العظام .

وفي هذا الحقل المهم تطور منذ سنوات تعاون بين الكويت وكوبا ، حيث يحضر اخصائيون ومستشارون من كوبا إلى الكويت ليساعدوا في عمليات جراحة العظام ، وبخاصة في مستشفى الرازي بالكويت ، وللتعاون في مجال الأطراف الصناعية . كما أن بعض المرضى الكويتيين يذهبون للعلاج في كوبا . وهذا النوع من التعاون الطبي بين البلدين في تطور مستمر .

وجبة غداء في مكتبة :

واخترنا أن نتناول طعام الغداء في فيلا آتابي ، وآتابي هو المالك الامريكي السابق لهذه الفيلا التي تعد من أجمل بنايات «الباراديرو» . والآن تحولت هذه الفيلا إلى فندق ، وفي مطعم هذا الفندق تناولنا طعام الغداء . وما أن جلست حتى لفت نظري وجود أرفف مليئة بالكتب ، أعمال شكسبير الكاملة في مجلدات أنيقة ، اصطفت بجانبها أعمال جون شتاينيك ، وأعمال جون غالزورذي ، ووردزورث وهكذا ، ورق فاخر وتجليد قوي أنيق وأحجام متساوية .

فتلك كانت مكتبة آتابي الذي يعيش الآن في الولايات المتحدة ويعد من أغنى أغنيائها .

عند خروجنا من الفيلا توقفنا عند مشهد بدا غريبا وطريفا لنا ، لكنه بدا مليئا بالتحدي لزميلنا المصور ، فقد وقف رجل يحمل آلة تصوير ، ويوجه فتاة قَدَّرنا أنها في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها ، لاتخاذ الوضع المناسب للتصوير ، أما الفتاة فقد شد انتباهنا أنها على الرغم من صغرها الظاهر ترتدي ملابس نساء ناضجات وليس ملابس الفتيات في مثل سنها . وبينها كان زميلنا المصور منهمكا في مراقبة منافسه في المهنة ، كانت مرافقتنا تشرح لنا أن هذه الفتاة قد بلغت الخامسة عشرة ، وأنها تحتفل بهذه المناسبة بأن ترتدي ملابس النساء ، وتخرج لكي تتصور في الأماكن العامة ، وهي بقايا عادة قديمة تحتفل خلالها الفتاة وذووها ببلوغها سن النضج ، حيث تقدم للمجتمع على أنها فتاة ناضجة مكتملة الأنوثة . وقد تكرر هذا المشهد كثيراً فلم نعد بحاجة إلى مترجم يشرحه لنا . . . ولا مترجمة .

وإن كانت شواطيء « البارادير و » تمثل نموذجا سياحيا فإن وادي « فينياليس » يمثل نموذجا آخر ، ولمشاهدة وادي فينياليس كان علينا أن نذهب إلى مقاطعة بينار ديل ريو .

وهذه المقاطعة التي كانت الأفقر قبل الثورة ، وكان فلاحوها هم الأكثر انسحاقا ، تحتوي على شيء من كل ثروة من ثروات كوبا الرئيسية ، ففيها السكر والتبغ والرخام والنفط الذي يغطي ما يزيد عن ١٠٪ من احتياجات البلاد ، وكذلك السياحة والمزروعات التي تشكل الحمضيات والفواكه الجزء الرئيسي منها .

قبل الثورة كان يطلق عليها اسم سندريلا لشدة فقرها على الرغم من جمالها وثرواتها ، وفي محاولة لضرب أكثر من عصفور بحجر واحد مضينا على طريق التبغ نحو وادي فينياليس ، فهو إلى جانب كونه منطقة سياحية رائعة الجمال ، واحد من أشهر أماكن زراعة التبغ .

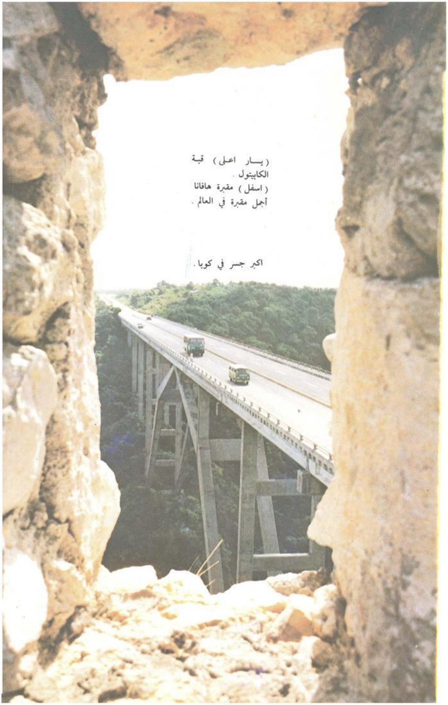
سرنا نحو الوادي الجميل ، عبر طرق متعرجة وسط غابات لا تنتهي ، حتى بلغنا الوادي الذي امتد أمامنا بساطاً تفاوتت درجات اللون الأخضر فيه من الداكن إلى الفاتح ، وقامت في أحد جوانبه غابة داكنة الخضرة ، فوق بساط أقل اخضرارا . وفي منتصف الوادي العظيم انتصبت تلال لم يغادرها اللون الأخضر لأشجار النخيل التي واصلت النمو على حوافها فبدت تكوينا جماليا بديعاً .

موعد مع الرومبا :

في إحدى الأمسيات كان لنا موعد مع الرومبا ، والرومبا الشهيرة تمثل حالة فريدة من الرقص الأفريقي الذي نشأ في كوبا ، فكوبا ليست بلد التبغ والسكر والثورات فقط ، بل هي بلاد « الرومبا » و « التشاتشاتشا » تلك الرقصة الشهيرة التي غزت العالم في الخمسينيات . وهي أيضا موطن الأغنية المعروفة ذات الإيقاع الافريقي المميز « كوانتانامبرا » .

هنا لن نتساءل من جديد حول علاقة افريقيا بكوبا ، بل سنلقي ضوءا على العلاقة بين الفن والسكر كما وعدنا من قبل .

ذكرنا أن المستوطنين الأسبان أبادوا سكان كوبا الأصليين تماما لفشلهم في حملهم على



(يسار اعلى) قبة الكابيتول.
(اسفل) مقبرة هافانا أجمل مقبرة في العالم.

اكبر جسر في كوبا.





العمل العبودي الشاق في مزارع السكر والتبغ وغيرها من الأعمال الأخرى . وبدأوا في استقدام العبيد الأفارقة ليقوموا بما عجز عنه الهنود الحمر ، وبدأت عملية استعباد بشعة للزنوج القادمين من شواطيء أفريقيا البعيدة في مزارع السكر والتبغ . وقد أتى هؤلاء ومعهم حضاراتهم البدائية المختلفة ، وثقافاتهم المختلفة ودياناتهم المختلفة . وبدأ الأسبان المسيحيون عملية تحويل هؤلاء الأفارقة الوثنيين إلى الدين المسيحي ، فمنعوهم من ممارسة طقوسهم الوثنية وعبادة آلهتهم التي نشأوا عليها في افريقيا ، لكن الأمر لم يكن يسيرا بالنسبة للأفارقة الذين لم يذعنوا تماما لأوامر سادتهم إلا أنهم لم يستطيعوا تحدي هؤلاء السادة القساة خوفا من مصير يشبه مصير الهنود الحمر ، فلجأوا إلى حيلة أنتجت لنا هذا الفن الجميل المسمى « الرومبا » ، فقد حولوا طقوسهم التي كانوا يمارسونها في أفريقيا إلى نوع من الرقص الجماعي كانوا يمارسونه في مزارع السكر. الأسبان يظنونه رقصا والعبيد الأفارقة يقصدونه طقوسا ، والاسم الذي عرفت به هذه الرقصات الطقوسية هو الرومبا . وقد بدأت رقصات ذكورية لا تشارك فيها النساء ، ولكن مع اشتداد بشاعة الاستغلال ، بدأ العبيد يهربون إلى الجبال ، ويقيمون فيها مواقع حصينة لهم ، ما تلبث أن تتحول إلى قرى بأكملها ، وهناك كانوا يرقصون الرومبا بحرية ، فتعددت أشكالها وأسماؤها وإيقاعاتها ، لكنها بقيت إفريقية تذكر الراقصين بالوطن الأول ، فألفوا أغاني الحنين له ورقصوا مع نسائهم على الإيقاع الأفريقي القديم ألحانا ورثوها من جيل لجيل .

ومع تحرير العبيد الذي بدأ عام ١٨٦٨ وهو عام بدء حرب الاستقلال عن أسبانيا ، فقد الرقص طابعه الطقسي ليصبح فنا خالصا من فنون الرقص ، واشتهر في العالم كله .

لكن هذا لم يكن كل ما يتعلق بالأثر



الأفريقي في كوبا ، فبعكس الكثير من دول أمريكا اللاتينية تعد ثقافة كوبا مزيجا من الثقافتين الأسبانية والأفريقية ، ولا أثر للهنود الحمر الذين أبيدوا دون أن تتاح لهم فرصة التأثير في الثقافة الجديدة .

وهذا المزيج يجد تعبيرا طريفا له في طائفة دينية ما زال لها أتباع في العاصمة الكوبية اسمها « سانتاريا » ، ولها زعيم ديني هو انريكي هرنانديز أرمنتيروس . وإله هذه الديانة هو « لازاروس » أو ألعازر الذي ورد ذكره في الكتب السماوية . وأتباع هذه الديانة التوفيقية يعتقدون أن القديسين في الديانة المسيحية يكملون الآلهة الوثنية في إفريقيا ، لذا فهناك إله إفريقي مقابل كل قديس مسيحي ، فهذه الديانة كما يقول أتباعها الذين يطلق عليهم اسم أبناء ألعازر تتسع للجميع ، بما في ذلك المسيح والملائكة السود والبيض ، وللديانة التي جاءت إلى الوجود في العصر العبودي لغة إفريقية

خاصة بالطقوس والصلوات ، ولها آلهتها . وللطائفة أيضا موسيقاها الخاصة التي يستمع إليها ويرقص على أنغامها أتباعها الذين يعتقدون أن ألعازر هو جدهم وهم أحفاده ، أما زعيم الطائفة ، أنريكي ، فهو ابن ألعازر .

في الواجهة المطلة على الشارع من منزل « إبن ألعازر » علقت لوحة كبيرة تمثل العازر الذي ذكر في الكتب السماوية أنه نام مدة طويلة ثم استيقظ في زمن غير زمنه ، هو وكلابه . وتحيط به ملائكة سود وبيض . وفي داخل المنزل المتعدد الغرف انتشرت داخل الأطر المنارة بأضواء النيون لوحات تمثل القديسين والقديسات في الدين المسيحي والأفريقي ، بينما انتشرت في الأركان آلهة إفريقية تكونت من حديد وصلبان وقنابل وأدوات معدنية ، وهي امتداد لآلهة قبائل اليوروبا المنتشرة في اوغندا ونيجيريا بافريقيا . وباختصار فإن الهدف من هذه الديانة كما قال زعيمها انريكي هو الحفاظ على الروح الأفريقية في كوبا .

سونيا :

غير أن هذا ليس المظهر الأبرز لامتزاج الثقافتين الأفريقية والأسبانية ، فالمظهر الأكثر وضوحا هو ملامح السكان ، إذ نتيجة لتزاوج العرقين الأبيض والأسود نشأت أجيال جديدة تحمل ملامح مزدوجة ، فأصبح هناك البيض الذين لم تختلط دماؤهم بالدماء الأفريقية ، وهناك أفارقة لم يتزوجوا إلا إفريقيات ، ولكن هناك من اختلطوا فكان المزيج مثيرا للتأمل بالفعل . لذا فإن من أصعب الأمور التورط في وصف الشخصية الكوبية النموذجية . ببساطة ليست هناك شخصية نموذجية واحدة ، بل شخصيات متعددة .

فقد ترى امرأة بيضاء البشرة لكن ملامحها افريقية وشعرها أجعد ، وقد ترى رجلا أسود البشرة ولكنه أحمر الشعر أو أزرق العينين ، وهكذا . وفي الواقع أن هذا المزيج لايخلو من جمال أحيانا . ولكن في حالات استثنائية يصبح هذا الجمال خارقا والدليل سونيا .

وسونيا هي أجمل راقصات ملهى التروبيكانا الشهير بعرضه الراقص الذي يحمل الاسم نفسه . فتاة فارعة الطول وبشرة بيضاء تشوبها صفرة خفيفة وملامح تحمل شيئا من كل جنس ، ترقص على ايقاع افريقي استوائي يوحي به اسم الاستعراض بخفة ورشاقة ، مع حشد كبير من الراقصات اللواتي ساوينها حجما وطولا ولكن ليس جمالا . وبالمناسبة فإنه يطلق على هذا المزيج البشري اسم « مولاتا » ، وهي كلمة عربية وصلت كوبا عن طريق الأسبانية ، وتعني « المولدة » . ولكن « المولدات » حظوظ ، فقد تأخذ المولدة ، أو المولد الأفضل من كل جنس ، فتكون رائعة الجمال مثل سونيا ، وقد تأخذ أسوأ مافي كل جنس فتكون مثل سواها .

في اليوم الأخير لنا في هافانا كان علينا أن نستيقظ مبكرين ، وهكذا كان ، لكنني اكتشفت أنني استيقظت مبكرا أكثر مما ينبغي ، فلم تكن الشمس أشرقت ، لكنها أعلنت عبر أشعتها الحمراء التي تخللت غيوما تراكمت في الأفق الشرقي أنها آتية في ميعادها . ومن الشرفة المطلة على هذا المشهد المهيب وقفت أرقب الشروق الذي لم يكن اكتمل ، وأنوار الشوارع التي لم تكن اطفئت تماما . لحظة معلقة بين الليل والنهار ، صعد بعدها قرص الشمس بلون أحمر كالعناب ، وأطفئت أنوار المدينة وبقي عدد من المصابيح مضيئا ليذكر الساهرين بأرق الليلة الماضية . وحين تجاوزت الشمس الغيوم وتوسطت سماء هافانا الصافية حولت نظري إلى البحر الذي لم تشب زرقته شائبة ، وتركت هافانا تستيقظ على صبح جديد . عندها كان علي أن أقول وداعا ، لكنني وجدت نفسي أقول : إلى اللقاء !

تعددت الأسماء والتبغ واحد

لم تأت شهرة كوبا بالتبغ من فراغ ، فأرضها تنتج أفضل أنواع التبغ في العالم ، ويعود ذلك بالدرجة بالأولى إلى المناخ الاستوائي للجزيرة الذي يوفر درجة الرطوبة المناسبة لزراعته ، بينما توفر الشمس الحرارة المناسبة لإنتاج تبغ له نكهة ولون السيجار الشهير ، الذي لا يمكن الحصول عليه إلا في مثل هذا المناخ . ويأتي بعد ذلك بالطبع التراث العريق الذي يمتد إلى بدايات استيطان الجزيرة الكوبية قبل نحو خمسة قرون .

وتستغرق النبتة ما بين ٤٥ - ٩٥ يوما لتكون جاهزة للقطاف الذي يتم ورقة ورقة ، حيث تجمع الأوراق وتؤخذ إلى بيوت التبغ المنتشرة قرب المزارع أو في وسطها . تراها بشكلها المميز المصنوع من جذوع الأشجار الخام . وداخل هذه البيوت تعلق أوراق التبغ رأسيا ، وقد ربط كل صف منها بخيط من القطن امتد بشكل أفقي ليشكل ما يشبه حبلا للغسيل علقت به أوراق التبغ . وتبقى هناك لتجف ، ثم توضع بعد ذلك في صناديق مصنوعة من سعف النخيل تمهيدا لشحنها إلى المصانع المنتشرة في كوبا . وتخزن الأوراق في الصناديق بحسب لونها وليونتها وجودتها . وهناك في المصنع تبلل الأوراق ، ثم تترك لتجف في غرفة خاصة ، لتكون جاهزة للتصنيع في صبيحة اليوم التالي .

وتبدأ عملية التصنيع بإزالة العروق التي تقسم الورقة طوليا إلى قسمين ، ثم يفرش كل من هذين القسمين فوق طاولة ليبدأ العامل بعد ذلك حشو كل منها بأوراق التبغ الأخرى . وأثناء عملية الحشو يحدد طول السيجار وسمكه ولونه ، وهي عملية تبدو سهلة في الظاهر ، إلا أنها عملية دقيقة تماما ، فأثناء عملية الحشو يؤخذ بعين الاعتبار ألا يكون السيجار مضغوطا ، بحيث لا يسحب الدخان بسهولة أثناء التدخين ، وألا يكون رخوا ، لأنه في هذه الحالة يعطي حرارة للفم ، تفسد متعة التدخين . وتكاد عملية لف رأس السيجار أن تكون العملية الأصعب والأكثر دقة ، بحيث يبدو رأس السيجار مدببا حسن المنظر .

وبعد ذلك يكون السيجار الكوبي جاهزا للتصنيف حسب الطول والسمك واللون ، وعندها يوزع لكي يوضع في صناديق مصنوعة من خشب خاص ، هو في الأغلب خشب الأرز ، ولكن حتى بعد وضعه في الصناديق وعرضه للبيع فإنه يجب أن يحفظ في درجة حرارة تتراوح بين ٦١ - ٦٥ درجة فهرنهايتية .

وتصدر كوبا ٣٠ نوعا من السيجار ، يجمع بينها اسم (سيجار هافانا) الذي يعطيها شهرة تستحقها ، وتلف في ٧٠٠ حجم مختلف ، وتباع في ٨٠ بلدا من بلدان العالم .

ومهما اختلفت الأسماء فإن سيجار هافانا الكوبي هو الأشهر والأفضل في العالم كله ، هكذا أكد لي الجميع في كوبا ، ومع أنني لست من المدخنين إلا أنني لم أسمع أحدا في كوبا أو خارجها يحاول نفي هذه المعلومة .





مقر الاتحاد العربي في كوبا.

رجالنا في هافانا

هناك اتفاق على أن الرحلة العربية الأولى إلى كوبا كانت عام ١٨٦٨ ، وهو عام يؤرخ له في كوبا بأنه العام الذي بدأت فيه حرب الاستقلال الكوبية ، ولكن هناك من يقول : إن علاقة العرب بكوبا بدأت قبل ذلك بكثير ، وبالتحديد مع لحظة اكتشاف الجزيرة ، إذ يقال : إن سفينة كريستوفر كولومبوس أثناء رحلته الأولى التي اكتشفت خلالها الجزيرة كانت تحمل بعض البحارة العرب ، وأن أولئك البحارة عندما تراءت لهم الجزيرة المقوسة الشكل أشبه بقبة من الأرض نهضت فوق البحر هتفوا : قبة .. قبة . وأن هذا الهتاف غير المفهوم بالنسبة للبحارة الأعاجم تحول إلى .. كوبا . وهكذا فإن كوبا مدينة للعرب بإسمها ، إن صحت الرواية .

وإن كان هناك شك في هذه الرواية فإن رحيل العرب الحديث إلى كوبا حقيقة تؤكدها كثير من الشواهد ، أهمها أن تلك هي نفس الفترة التي شهدت نزوحا عربياً من سوريا ولبنان وفلسطين بشكل أساسي نحو العالم الجديد . وإن توجه القسم الأغلب من المهاجرين إلى الولايات المتحدة . ومن المعروف أن بعض هؤلاء المهاجرين شاركوا في حرب الاستقلال الكوبية التي استمرت حتى عام ١٩٠٢ ، فقد وصل سالياس توما اللبناني الأصل إلى رتبة « كابتن » في جيش التحرير الكوبي .

إلا أن الجاليات العربية في كوبا لم تبدأ بتنظيم نفسها قبل عام ١٩١٨ ، وكانت الجالية السورية هي المبادرة لتجميع السوريين في جماعة منظمة تمارس كل خصوصياتها ، وتبعها الفلسطينيون الذين

أسسوا الجمعية العربية الفلسطينية في كوبا ، وفي السنة نفسها تأسست الجمعية اللبنانية في هافانا .

وفي عام ١٩٧٩ عقد اجتماع موسع ضم رؤساء مختلف الجمعيات العربية واتفق الجميع على إنشاء « الاتحاد العربي في كوبا » .

لم نخطط لزيارة مقر الاتحاد العربي في كوبا ، بل ذهبنا في زيارة شبه فجائية على الطريقة العربية ، ولكنهم وعلى الطريقة العربية نفسها كانوا مستعدين ، فقد كان استقبالنا جيدا تماما . طفنا بأرجاء المقر الذي ضم عددا من القاعات التي حملت أسماء عربية ، وصممت الجلسات فيها على الطريقة العربية ، لا مقاعد ولا أرائك بل فرش وحشايا ووسائد فرشت على الأرض ، حيث جلسنا وتناولنا العشاء ، ومن الغرف الأخرى ، كانت أصوات لاعبي الدومينو تصلنا مختلطة بالضحكات والتعليقات باللغة الأسبانية ، وبصوت أم كلثوم المنبعث من مكان مافي المقهى والمطعم الذي يقدم الوجبات العربية المتميزة بدسمها وبمذاقها الشهي .

وقد علمت من مضيفينا العرب الكوبيين ذوي الملامح المألوفة ، عبر مترجمتنا ومرافقتنا أنا ماريا ، أن ريع المطعم يكفي للإنفاق على الجمعية التي لا تتلقى الهبات من الإخوة العرب ولا تريدها ، وكل ما يريدونه هناك هو ألا تنعكس عليهم خلافاتنا .

وإن كان الاتحاد العربي يمثل الكوبيين ذوي الأصول العربية في الجزيرة فإن البيت العربي يمثل جانبا آخر من الوجود العربي في كوبا ، والبيت العربي هو منزل قديم بني على الطراز العربي ، حيث الباحة في الوسط ، فيها اصطفت الغرف المختلفة على الجوانب الأربعة للمنزل في طابقين . وكل غرفة من هذه الغرف العديدة تحتوي على أحد مكونات الثقافة العربية من تحف وأزياء ومصنوعات يدوية وملبوسات ولوحات تمثل الخط العربي ، بالإضافة إلى متحف عربي يضم جناحا للعملات العربية يحتوى على بعض العملات النادرة ، ومطعم يقدم الوجبات العربية ، ومسجد بني عام ١٩٨٥ ، أما البيت نفسه فقد افتتح عام ١٩٨٣ .

ومن الأنشطة التي يقدمها البيت العربي الاحتفال بالأعياد الوطنية لبعض الأقطار العربية ، وإقامة الروابط الثقافية معها ، والاحتفال ببعض المناسبات العربية أو العربية الكوبية . بقي أن نقول : إن هناك ١٥٠ ألف كوبي من أصل عربي ، ٧٥٪ منهم لبنانيون ، و ١٥٪ فلسطينيون ، و ١٠٪ سوريون ، وهم يشاركون في جميع جوانب الحياة الثقافية والاقتصادية والسياسية في البلاد . منهم المحامون ومنهم الأطباء والوزراء ، فمنهم مثلا وزير الخارجية الراحل راؤول روا ، وهو لبناني الأصل ، وهناك وزير المواد الصناعية ليفي فرح ، وهو لبناني الأصل أيضا ، وهناك أعضاء في المناصب المختلفة للحزب الشيوعي الكوبي ، بمن فيهم أعضاء في اللجنة المركزية للحزب . عدا عن آلاف الطلبة العرب من مختلف أنحاء الوطن العربي ممن ذهبوا إلى هناك لتلقي العلم .

وعندما وصلنا إلى هافانا صادفتنا بعض الصعوبات في المطار ، فبرز شاب يمني يدرس هناك ، وتطوع لإحضار سيارة لنا لتأخذنا إلى الفندق ، ولأنه قدر أننا لا نحمل نقودا كوبية دفع الأجرة للسائق ، ووعد بالاتصال بنا فيما بعد ، لكننا لم نره بعدها . وبقي له علينا دينان ، دين النقود التي لم يستردها ودين الشهامة الذي لا يرد .□

قصة مترجمة

رياح العنف

بقلم : فلور روميرو*

ترجمة : محمد صوف

لقد أثرت فيّ كلمات جدي عن الموت ، حتى أصبحت أشعر أنني مازلت حتى الآن أسمعه ينشد بهمس : « في هذه القرية ولدت ، وفيها سأدفن . لن أذهب إلى المستشفى إذا مرضت ، فالمؤكد أنهم يقتلونك بسرعة ليتخلصوا منك . أريد أن أودع في القبر دون تابوت ودون كفن كزوجتي ، لماذا نزيد في سمنة الديدان ؟ على أي حال سأتحول إلى غبار » .

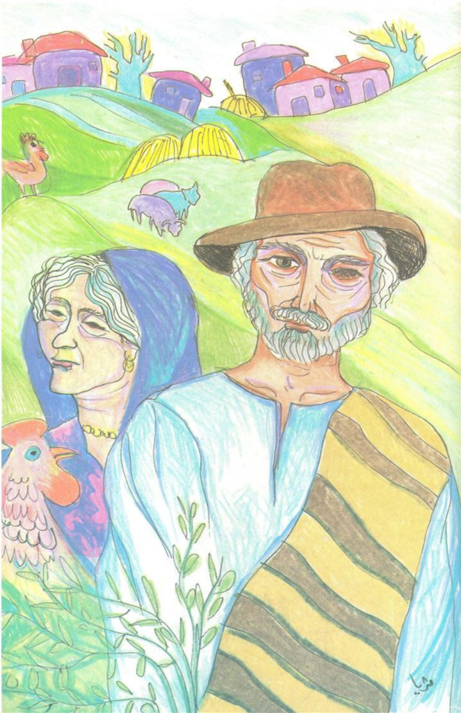
كان لا يجب أن ندخل عالمه . كان قاتما ، كتوما ، غريبا . وكانت تجاعيد جبينه ، وهو يفكر ، تدع أحيانا عدم الرضا يظهر وقد صب في صمت صارخ . كان يتجول متأبطا كتابا ويقرأ ، ثم يفكر مغمض العينين . كان قليل الكلام ، وفي أغلب الأحيان كان يردد جملا متقطعة أو «مونولوجات» . وحده « دون روكي » أخوه الأصغر ورفيق مغامراته وزميله في الحرب الذي كان يجرؤ على مقاطعته .

كنت أتساءل كيف استطاع أن يفتتح قلب جدتي الوديعة الرقيقة النشيطة والثرثارة ؟ كنت أتصور أن هناك أسرارا يتعذر سبر أغوارها . لربما كانت الرغبة في اقتلاع هاتين العينين الثاقبتين من عالمها القاتم حافزا لهذا الحب .

في كل وقت زوال كان يجلس على مقعد دائري من الجلد الخام ، يتكيء على إطار الباب ، يمتص « كهاقة » سيجارا أبديا ، وإلى جانبه دون روكي ، صموتا فطنا أعور ، فلقد فقد عينه اليسرى في معركة «بالو نيغرو» حسب أقواله . لكن كثيرين أكدوا أن الحادثة وقعت أثناء مشاجرة من أجل امرأة في مقهى على الطريق . ما كان يثيرني خاصة عند دون روكي أنه كان يطبخ ويغسل الأطباق ويصنع الأحذية الجلدية ويبيع الرقيات . ويقتلع الأسنان دون ألم . كان يعرف أيضا كيف يداوي لدغ الأفاعي ، ويعالج بدعواته البقر المصاب بالطفيليات ، لدرجة اعتقد معها الناس أنه يحاور الجن طوال جولاته الليلية .

ثم عندما تنحدر الشمس وتلهب واجهة البيت ، يجلس الرجلان على مقعد في الساحة ، تحت ظلال شجرة « الكايمو » الكثيفة ، ويشغلان في شتم الزمن الحالي ورثاء الحب الضائع والتنبؤ بصيف قائظ أو بأمطار طوفانية ،

* فلور روميرو كاتبة وصحفية من كولومبيا ، نشرت عدة روايات ، ترجمت إحداها إلى الفرنسية سنة ١٩٧٨ .



وتذكر الحكايات الجميلة التي يعرفانها منذ مراهقتهما ، والتدخل في حياة الجيران ، ورصد فتات الزمن الذي يمر .

إن مشية جدي ، رجليه العريضتين ، ويديه الضخمتين ، وخطوه الشحيح ، كل ذلك يقلقني لدرجة أنني في يوم عيد ميلادي فكرت أنني كبرت لأن سني قد بلغ إحدى عشرة سنة ، وجرؤت على قطع صمته الكثيف :

- لماذا تدخن كثيرا ياجدي ؟

- وماذا أفعل في هذه الثغرة الضائعة ؟

- لماذا لا تفعل شيئا أبدا ، سوى خصي الثيران ، وشحذ السواطير؟ لماذا لا تلعب البليار كالآخرين ؟

لقد قضيت عمري كله وأنا أقوم بهذا ليكون لي هذا البيت وهذه الماشية ، وقد كتبتها باسم «ايكنا سيوورويبرتينا» ، والذين تركوني وحيداً لن ينالوا شيئا .

- لكنهم كلهم أولادك ياجدي .

- همهم ! البليدة تجرؤ على معارضتي ، كأن هذا الصراخ وهذه الحماقات طوال اليوم غير كافية لجلب دوار الغنم .

على أي حال كان الحوار دائما ينتهي هكذا . كان جدي يتعب من وقاحتي ، كان يحب أن يتحدث عن الزمن الذي كنا نواجه فيه العدو في « كيبرا دابلانكا » . نعم ، لقد كانت حرب الرجال ، كنا نخاطر بجلدنا في كل خطوة ! لا توجد غير القنابل التي تهدم حتى الحفر !

كان دون روكي يوافق دائما بهزة من رأسه ، ويتمتم ، وهذا ما جعلك تفوز برتبة جنرال ، وتهاني القيادة العامة . لقد كنا آنذاك شخصين مهمين ، والآن ينظرون إلينا كابلهين ، جامحين ، سيئي المزاج ، متقلبي الأطوار . إن الزمن يخفي كثيرا من الأشياء . إيه . . !! نفير الأبواق في أعلى « الالتو ديلاترامبا » ليعطي انطلاقة المعركة . إيه !! كان ذلك مؤثرا ، كان لدينا الوقت لتنظيم التحركات وتسيير الفرق واحتلال الأماكن . أما الآن فالهجومات تتم فجأة ، ياللجبن !! كان الجنديان القديمان ينامان على سريرين ، تم ارتجال صنعهما بأخشاب غير محكمة ، في غرفة طويلة ضيقة ، مبيضة بالجير ، في أحد أركانها يعلق جدي حقيبته التي يخبيء فيها برقية التهنئة التي تآكلت حواشيها وأصبحت لزجة . يضعها في الجيب السري تحت السكين والنرد والورق والسكر والسجائر وتمثال العذراء كارمن تحت ثلاث قطع من الخبز وزيت العصا . وأسرار أخرى عميقة من الحصى المجدب من لاكالاموما ، وكان دون روكي يلوح بقبضته وهو يحرك ركبته اليسرى ، كما لو كان يرقص رقصة سان كوي ، عندما يمر في ذهنه جنود العدو ، كان قلبه يدق بعنف عندما ينظر إلى الحافة خلف حقول القهوة ، حيث تمدد دون آنجل مختبئا خلف الأوراق الجافة والأغصان المنحدرة من أشجار الموز . كان يضع يده على فمه بقوة حتى لا يصرخ ، وهو يسمع خطو العدو وطقطقة رماحهم . أصيب دون آنجل بجرح فظيع ، وكان كتفه ينـزف ، والنمل يقرص إبطيه ، أفلت بصعوبة ، كتم أنفاسه ، ومكث دون حراك ، وعند الفجر أخذوه على محمل حتى طاحونة السكر القريبة ، وداووه بالأعشاب .

واليوم أيضا ، عندما يمر بأصبعه على أثر الجرح الذي يصل حتى الثدي ، يقشعر بدنه ، وهو يفكر في هذه اللحظات اللامنتهية ، حيث كانت حياته متعلقة بخيط رفيع . الإشاعات التي تقلب كالاموما رأسا على عقب وصلت حتى مقعد كايمو . جاء الناس من القرى المجاورة يقولون : إن العنف انتهى . لم يعد الذين يعيشون على ضفة النهر يستطيعون الصيد ليلا ، لم تعد النساء ينمن مخافة أن يؤخذ أزواجهن أو أبناؤهن بدعوى طرح أسئلة عليهم . وقد كسر طنين نحل مرعوب الهدوء الذي كان سائدا في القرية .

دفع جدي بإبهام رجله الأوراق التي تساقطت من الشجرة ، ووضع السيجار المشتعل على حافة المقعد . فرك عينيه وانحنى ليلتقط فاكهة سقطت ، ثم ركز انتباهه على دجاجة كانت تنقر فرشقها . كما لو أن القذيفة استعملت لرد هجوم خيالي . وألقى في أذن مرافقه : إذا جاءوا لمهاجمتنا لن أعرف كيف أتصارع ، لقد تغيرت تقنيات الصراع ، وأنا لا أعرفها . ثم إني الآن عجوز ، لكن هناك شيئا واحداً مؤكداً وهو أنني لن أتحرك من هنا ، فهنا ولدت ، وهنا سأدفن .

كان الأخ متضامنا مع القرارات الحاسمة لجدي ، ومع ذلك لم يتوصل إلى إدراك السبب الذي من أجله سيأتون لمهاجمتهم ما دام سكان «كالاموا» متحررين ، هادئين ، ولا يسببون أدنى قلق للحكومة ، فلم يطالبوا حتى بالتعويضات التي وعدوا بها منذ خمس سنين .

تطوع دون روكي لتدريب احتيـاطي كالاموا ، من أجل الدفاع عن القرية . هيأ « استراتيجية » إغلاق المنافذ ، ووضع القيادة العامة حول جذور السيبا ، ووجه نداء للتعبئة العامة ، ونظم الفرق حسب السن . وسنّ نظاما عسكريا صارما . ووزع المهام ، وأعطى الأمر بالبحث عن الأسلحة في كل الأركان والزوايا ، حتى أن الناس شرعوا ينتزعون الأفران ويفتشون بيوت الدجاج ، ويقلبون الأسرة . تمت إزالة الغبار وتشحيم بنادق الحرب الأخيرة بحماس ، وشحذت السواطير ، وجاءت النساء بسكاكين المطابخ ، وجاء الأطفال مجهزين بالعصي ، كانوا كلهم مستعدين للمعركة .

وأهدى مربو الماشية بعض العجول لتغذية الجنود المرتجلين ، وأعطى الفلاحون أقراطا من الموز ، وكدسوا القهوة للمساهمة في الدفاع .

علق دون روكي العلم الوطني على غصن شجرة السيبا ، وأخرج طبلا قديما مصنوعا من جلد البقر ، وجعل يوقع عليه نوبة الخامسة صباحا ، وكل صباح يشرف على التدريبات الرياضية ، ويجعل الرجال يركضون حول الساحة بشكل يجعلهم يتعودون على تلقي الأوامر .

كنت أراهم يتدربون كأن الأمر يتعلق بلعبة . وكان لدي انطباع أن هذا مجرد دعابة ، في قلب الهدوء المعتاد ، وأن هذه الاشاعات لم تكن سوى نسج خيال أناس عاطلين ، يبحثون عن التسلية بحديثهم عن هذا الشيء الجديد علي ، رياح العنف .

كنا جميعا نحرس الأزقة خائفين من هجوم مفاجيء ، نظمنا دوريات ليلية للحراسة . لكن احتياطي كالاموا لم يكونوا معتادين على السهر . وسقطوا تحت جذور السيبا ، حيث وجدتهم أبواق الصباح يغطون في نوم عميق . كانت ليالي الانتظار والشك طويلة بتصورات ساذجة تحولت إلى خوف شنيع ، كانت تضنيني وتحطم أحلامي . نزل الرعب المعدي من الهضاب نحو الساحة الكبيرة ، قفز من الأدغال إلى فناء الكنيسة ، وجاء ليحتل سريري الصغير ، ويجعل قلبي يرتعش كورقة في مهب الريح .

ثم ساد القرية هلع . وتشبعت النظرات بالشك ، وأصبح الهمس خلف الأبواب ، وخلف الأبواب ترددت استنكـارات غير مفهومة ، وساد الحذر الأزقة المتربة ، والساحة المملوءة بالأعشاب الوحشية .

حث الخوف الناس على الهجرة ، وبدأت العائلات تستعد للرحيل إلى القرية المجاورة . لا يحملون معهم إلاّ الضروري ، تاركين البيوت والدكاكين والأراضي والأدوات . ذهبتُ سعيدة مع خالتي كما لو كنّا في جولة . أحزنني فراق ياسمين الممر الذي كان يعطر خدي ، وفراق «بيبو» الذي كان يغني غناء رائعا في الصباح ، والمقعد الصغير الذي كنت أجلس

عليه لأقوم بواجباتي المدرسية . واسيت نفسي بالتفكير في المدينة التي سترفع عني بأضوائها دقات القلب العنيفة .

تظاهر العجوزان بعدم سماع شيء ، رجاهما الجيران من أجل الهجرة ، لكنهما رفضا أن يتحركا ، وحافظا على اقدامهما ، وقاوما حتى المعلمة : « تعال يا دون آنجل ماديا » في المدينة سنفر بجلدنا على الأقل ، وبعد ذلك ، عندما تعود الأمور إلى نصابها ، سنعود ، انظر إلى رياح الموت التي تهب هنا .

ردد جدي كأسطوانة محفورة : « لقد قلت لك من قبل ، هنا ولدت ، وهنا سأدفن ، وإذا قتلوني لن أخسر شيئا . يجب أن نموت بسبب ما . » كان يواجه الموت ، واثقا من نفسه ، هادئا ، طرى النظرة ، وكان يعجبه أن يردد : إن القدر لا يرحم . وكلما ذكروا له شخصا مات بالخير ، ردّ : أكيد ، لكنه سيموت أيضا » .

عاد الصيدلي ليقول : « اسمع يا دون آنجل ، ستعيش مدة من الزمن ، صحتك جيدة ، تستطيع أن تحكي عددا من انجازاتك في هذه الحرب التي أبديت فيها شجاعة نادرة . اهرب بجلدك على الأقل » . ظل متمسكا برأيه ، ولم يتوقف لحظة عن ترديد ما كرره منذ وصول هذه الشائعات : سأبقى هنا ، ولا أحد سيبعدني عن هذا المكان .

جلس «دون آنجل» «ودون روكي» على مقعد الكابو ، وطفقا ينظران إلى الناس وهم يغادرون القرية ، وعلى الساحة الخالية رأيا طائرة هجوم من نوع « الهليكوبتر » تحط . لم يبق هناك كلب يعوي للموت ، ظل العصفور بيبو فقط يغني بروعة دون انقطاع .



انتظر جدي الأجانب دون أن يرتبك . كان يمسك الحقيبة بالبرقية المتآكلة . « ونرد » العاج والسكين والميدالية ، وقطع الخبز ، وكل كنوزه . وأهل القرية أين ذهبوا ؟

- رد الجد بصوت هادىء :- ذهبوا .
- ألحوا بالسؤال : إلى أين ؟
- رد دون روكي :- لسنا ندري وأنتما ؟ لماذا بقيتما ؟

- نحن مصممان على الموت هنا . لم تعد لدينا القدرة على المشي في الطرقات ، وصعود العقبات ، وعلى التخلص من عقدنا . ثم كان يجب أن يبقى شخص ما ليدق الأجراس .

حطم المهاجمون الدكاكين كأن إعصارا اخترقها . أحرقوا الكراسي « الفينية » ، والمقاعد الجلدية ، لكن بحثهم عن الأسلحة ظل عبثا ، لم يجدوا سوى سكين دون آنجل في جيب الحقيبة الاوسط .

لم ينل الشتم ولا الضرب ولا البصق من العجوزين شيئا ، ظلا صامدين أمام الكارثة ، ولم يتحركا حتى عندما هددهما الرجال المسلحون . قال دون آنجل :- افعلوا ما يروق لكم .

اقتادوهما نحو شجرة السيبا ، قيدوهما . تحملا ساعة دون أي رد فعل ، كل تمارين الرماية التي جعلت من رأسيهما الأشيبين هدفا ، وأخيراً التوت قبضة قائد « الهيلوكبتر » وهو يسدد لكمة نحو رأس جدي .

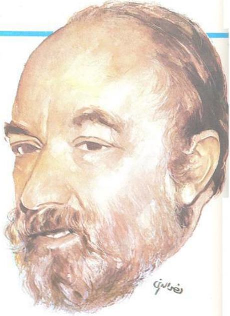
وحدث خطأ في التسديد لاحظه مساعده .

- الآخر لك يا كابتن ، كان دون روكي مستعدا ، وكان يعلم أن ساعته أتت ، ورأى العصفور المعدني يبتعد خلف ضباب كثيف .

قريبا من هناك في غابة كامبارس تطايرت « الهليكوبتر » شظايا ، وتحطمت كبيضة عند شجرة تين ضخمة .

كان آخر ما سمعه منظم الدفاع الفاشل عن كالاموما فرقعة ضاعت في امتداد النهر .□

وجهاً لوجه





ميشيل بوتور و يوسف القعيد

- نحن في انتظار جيل روائي جديد
- لا وجود لشكل أدبي في الوقت الحاضر يتمتع بالفتوة التي تتمتع بها الرواية.
- الروائي قارئ يقرأ نفسه ولكنه لا يكتفي ويرغب دائماً في العثور على قارئ آخر يكمله.

كان الصباح موعدنا ، في تلك اللحظات البكر من اليوم ، وكانت القاهرة تحاول الخروج من ليلها الجميل الذي لايملكها فيه سوى السهارى ، قاهرة الليل تحاول الدخول في نهارها الخاص ، المنسوج من الغبار والصخب والرغبات المجنونة .

ذهبت إلى معهد الآثار الشرقية الفرنسي ، في حي المنيرة الذي كان يقيم فيه .

هذه هي المرة الثالثة التي يحضر فيها الروائي الفرنسي ميشيل بوتور إلى مصر ، الأولى كانت سنة ١٩٥٠ ، وكانت بدعوة من الدكتور طه حسين الذى كان وزيرا للمعارف العمومية في ذلك الوقت . وكان الدكتور طه حسين قد قرر تدريس اللغة الفرنسية في المدارس المصرية في مواجهة اللغة الانجليزية ، لغة المستعمر والمحتل التي كانت سائدة وقتذاك . جاء ميشيل بوتور لكى يدرس اللغة الفرنسية في صعيد مصر ، عمل مدرسا في مدينة المنيا . والفترة التي قضاها أعطته بعد ذلك فصلا أساسيا وجميلا في كتابه « عبقرية المكان » ، وإليه وحده يعود فضل نحت هذا التعبير الذي أصبح جزءا من أدبيات الجغرافيا السياسية بعد ذلك .

في سنة ١٩٦٨ جاء ميشيل بوتور إلى مصر للمرة الثانية ، حيث زار مدينة المنيا مرة أخرى بصحبة صديقه المفكر والناقد المصري المعروف الدكتور لويس عوض .

الزيارة الثالثة تمت في العام الماضي ١٩٨٨م ، وقد جاء بمبادرة فرنسية ، وذلك لكي يحضر الاحتفال بتقليد الروائي المصرى جمال الغيطاني وسام فارس ، وهو أرفع وسام فرنسي في الآداب والفنون .

ميشيل بوتور أحد رموز الرواية الجديدة في فرنسا وعالم الأدب اليوم . حيث أرسى دعائمها مع زميليه : آلان روب جرييه وناتالي ساروت .

وعلى الرغم من تنوع مؤلفاته ، وتعدد اهتماماته ، لم يترجم إلى العربية من مؤلفاته سوى كتابه الصغير المهم « بحوث في الرواية الجديدة » الذي يعد المحاولة الأساسية لتقديم الرواية الجديدة إلى القراء .

كنت أسأله وكان يجيب ، كانت الأسئلة بالعربية ، والاجابات بالفرنسية ، وقد قامت بالترجمة الدكتورة هدى وصفي رئيسة قسم اللغة الفرنسية في كلية الآداب بجامعة عين شمس ، والناقدة الأدبية المعروفة التي تترجم في هذه الأيام كتاب بوتور الجميل « عبقرية المكان » .

لماذا كتبت الرواية

*** منذ أكثر من عشرين عاما ، وأنت متوقف عن الكتابة الروائية ؟**

ـ بالتحديد منذ سنة ١٩٦٠ لم أنشر كتاباً أضع فوق غلافه كلمة رواية ، نشرت عديداً من الكتب التي توجد في روح الروائي ، أي خامة النص الروائي ، وربما الروائي بصورة أو بأخرى . وقد حدث هذا في السنوات القليلة الماضية ، ونشرت نصوصا تعد حكايات عن الأحلام ، وليست روايات ، فيها العديد من المقاطع التي تنتمي إلى الروح الروائية ، وإن كانت تمتزج بعناصر أخرى .

لقد أصبحت روائيا بالضرورة ، وما استطعت أن أتجنب ذلك ، وإليك ما حدث على وجه التقريب : كنت أقوم بدراسات فلسفية ، وفي هذه الأثناء نظمت عدة قصائد . وقد برز

بين هذين القسمين من نشاطي فرجة كبيرة . وكان شعري من نواح عديدة مشوشا ، بعيدا كل البعد عن العقل ، بينما كنت أود خلال هذه القصائد إلقاء الضوء على بعض المواضيع الغامضة من الفلسفة .

عندما تركت فرنسا ، وجدتني أمام هذه الصعوبة ، لقد تفاعل الأمر في نفسي : كيف السبيل إلى التوفيق بين الفلسفة والشعر ؟ وهكذا ظهرت الرواية حلاً لهذه المشكلة الشخصية .

إني لا أكتب الروايات لكي أبيعها ، بل لأحصل على وحدة في حياتي ، فالكتابة بالنسبة لي هي العمود الفقري . وقد قال هنرى جيمس في هذا الصدد : إن الروائي هو الشخص الذي لايمكن أن يخسر شيئا .

في وقتنا الحاضر لا وجود لشكل أدبي يتمتع بالقوة التي تتمتع بها الرواية ، إذ إننا نستطيع أن نربط بها بطريقة دقيقة ، كل الدقة ، بالعاطفة أم بالعقل ، حوادث حياتنا اليومية التي لاقيمة لها من الظاهر ، والأفكار والحدس ، والأحلام التي هي ظاهريا أكثر ما تكون بعدا عن لغتنا اليومية .

وهي إلى ذلك وسيلة مدهشة للصمود والاستمرار في العيش بإدراك ، في عالم مخيف تقريبا يهاجمنا من كل ناحية .

وإذا نشر الروائي كتابا ، هذا التمرين الأساسي لوجوده ، فذلك لأنه بحاجة ماسة إلى القارىء ، ليقوده بنجاح كشريك له في التأليف ، كغذاء له في نموه وثباته .

والروائي بالتأكيد هو قارىء نفسه ، لكنه قارىء غير كاف ، يتألم من عدم كفايته ، ويرغب دائما في العثور على قارىء آخر يكمله ، ولو كان قارئا مجهولا .

إن ما يبدو لي الآن ، لأول وهلة ، هو أن كلمة رواية كانت سنة ١٩٥٩ كافية لتحديد عملي ، أما اليوم ، فأنا مجبر لأن أعد الرواية حالة خاصة بسيطة .

لقد كنت أستطيع القول فيما مضى : أنني منذ اليوم الأول الذي بدأت فيه الكتابة - كتابة روايتي الأولى - انقطعت عن كتابة القصائد القصيرة ، لأنني أردت أن أحتفظ للرواية بجميع طاقاتي الشعرية . أما الآن فعليّ أن أقر أن النصوص التي كتبتها في هذه الآونة الأخيرة ، هي حقا قصائد بالمعنى المعروف لهذه الكلمة .

الروائي . . الناقد

*** دائما تتكرر نفس المشكلة ، الروائي الذي يكتب النقد الأدبي يجد نفسه فجأة في مواجهة أزمة الاستمرار المستحيل . ربما تجف ينابيع الإبداع بداخله ، ربما تتداخل عملية الإبداع والخلق مع العملية النقدية ، ربما تتناقضان . ماذا جرى لك أنت ؟!**

- أنا أعمل استاذا في جامعة ، وأدرس الأدب الفرنسي في جامعة جنيف ، وذلك هو مورد رزقي الوحيد ، منذ أن عملت ، وليس لي مورد رزق سوى التدريس في الجامعة . إن هذا العمل يجعلني أتامل أعمال غيري ، أعمال الآخرين ، وأتأمل أيضا ما أكتبه أنا . ومن ناحية أخرى ، طرحت عليّ أسئلة كثيرة عما أكتب ، ومازالت هذه الأسئلة تطرح . وقد وطدت نفسي على الإجابة عن هذه الأسئلة .

لقد كتبت في النظرية الأدبية ،لكي استوضح النقاط التي أطرحها على نفسى ، ويطرحها على الآخرون . عموما يقول بودلير : « قد يكون هناك نقاد ليسوا شعراء ، لكن كل شاعر لابد أن يكون ناقدا » .

كنت أشعر في البداية أن هناك فارقا بين الكتابة الإبداعية والكتابة النقدية ، لكن

إحساسي بهذا الفارق ينعدم مع مرور الوقت، ربما كان هناك فارق بين القصيدة الشعرية والدراسة النقدية. وكانت الرواية هي الوسيلة لرتق هذا الخرق. غير أني مازلت أشعر أن الرواية لم تجد الحل الكامل لهذه المشكلة. والواقع أنه كان عليها أن تلغي الدراسات والقصائد، وأن تحل محلها. وقد نجحت في ذلك بعض سنوات فيما يتعلق بالقصائد، أما بخصوص الدراسات فقد فشلت تماما. وكنت أتملص من ذلك بقولي إن ما يحدث في الدراسات هو شيء استثنائي لا أستطيع دمجه في العمل الأدبي الروائي الذي أقوم به. ومن الثابت أن ما قلته في دراساتي لم آت على ذكره في رواياتي. ولم أكتف بالعودة إلى قصائدي القديمة لأنشر قسما منها فحسب، بل إني عكفت بفضل بعض الرسامين على نظم قصائد جديدة، بحيث انني أصبحت في فترة من الفترات أمام ثلاث نواح من النشاط هي: الرواية، والدراسة، والقصيدة.

- كان من المستحيل عليَّ تقديم واحدة على الأخرى. كان علي أن أجعلها تعيش في وئام. ولم يعد هناك أي فرق بينها، لأن التصميم الذي اعتمدته لتحديد الرواية، قد أتاح لي اكتشاف عالم من البناءات التي تصل بين الأجزاء أو تجمعها معا. لقد كنت أتجول بحرية ضمن مثلث زواياه هي: الرواية بالمعنى المعروف، والقصيدة بالمعنى المعروف، والدراسة كما يعالجونها عادة.

التيارات الجديدة

*** إلى أين وصل تيار الرواية الجديدة ؟**

- إن لتعبير الرواية الجديدة معنى تاريخيا واضحا. والأمر يتعلق ببعض الروائيين الذين اشتهروا فجأة سنة ١٩٥٦. ومن الواضح أنه كان لهؤلاء الروائيين على الرغم من اختلافاتهم، نقاط مشتركة، وليس من قبيل الصدفة أن يكون القسم الأكبر من كتبهم قد قامت بنشره دار نشر واحدة. وفي الدروس التي ألقيتها عن فن الرواية الفرنسي من القرن العشرين، كنت مجبرا على تقديم الأشياء بهذه الصورة. وعليَّ القبول بالانتماء إلى الرواية الحديثة.

إلا أن هذا التقارب، لم يسمح البتة بايجاد مذهب مشترك، وقد شعرت طويلا بالانزعاج من نقاد نسبوا إلى - بحجة الرواية الحديثة - نظريات غريبة عني، مما ضاعف سوء الفهم.

إن الاعمال التي قامت بها المجموعة التي تنتمي إلى الرواية الجديدة تستحق على مايبدو لي كل اهتمام، ولدي شعور أن شيئا ما يختمر في نفوس بعض من هم أصغر سنا، وإني لأرقب ذلك، وآمل أعمالا أدبية جديدة لن يطول بها الوقت حتى تبرز إلى الوجود، فتستهويني وتساعدني وتكون معي، ويمكن أن أكون معها.

- إن الرواية الجديدة - كما سميت - يعود تاريخها إلى السنوات العشر من سنة ١٩٥٠ إلى سنة ١٩٦٠. إذن هي الآن ملك للتاريخ نفسه. إن بعض الكتاب ومنهم الآن روب جرييه مازالوا يكتبون حتى الآن. إن كبار كتاب هذه المرحلة استمروا في الكتابة ولهم أعمال لها وزنها، وبعضهم له نتاج أدبي أكثر تنوعا عن ذي قبل.

- في فترة ما سمي بالرواية الجديدة، نشرت تالي ساروت وآلان روب جرييه روايات وبعض المقالات. ومنذ ذلك الوقت كتبت ساروت نصوصا من أجل الإذاعة ونصوصا من أجل المسرح، وكتابا عن ذكريات الطفولة. أما روب جرييه فقد عمل كثيرا من أجل «السينما».



*** هل يمكن القول أن لكم امتدادات من الابداع الروائي الفرنسي الآن ؟**

ـ ظهر كتاب آخرون كانوا متأثرين بالرواية الحديثة ، وبخاصة جان نيكاردو الذي لا أعده حديثا الآن ، لكن هناك من حاولوا الاستمرار في خط أكثر توغلا في هذا التحديث أو التطوير . على سبيل المثال : موريس روش وجورج بيرمك . لقد كانت هناك في العشر سنوات من سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٧٠ مجلة أدبية لعبت دورا أدبيا مهما في هذه المرحلة . كانت المجلة تدعى « كما هو » .

لقد تحلق حول هذه المجلة عدد من الأسماء ، ومن أبرز المبدعين وأهمهم كان موريس روش ، وفيليب سوليز ، وإن كنت أفضل ذكر فيليب أولا قبل موريس .

وهناك مجموعة أخرى أيضا ، قد تظهر فيما بعد ، في كتب تاريخ الأدب التي قد يخصص لها بعض صفحاته ، لأنه سيتوقف عند أعمالها بعض النقاد ، منهم جان ماري لوكايزو الذي ترجمت إلى اللغة العربية مؤخرا روايته المدهشة الجميلة صحراء ، وصدرت في القاهرة . كل هؤلاء الكتاب مستمرون الآن في الإبداع والنشر .

ليس بوسعنا أن نرصد كل عشر سنوات شيئا جديدا في الأدب الفرنسي . نحن في الانتظار . وإن كان في فرنسا عدد من الكتاب الشبان . بعضهم لم ينشر بعد .

وأتوقع أن يقدموا لنا ما هو جديد ومدهش في عالم الإبداع الروائي . أقول مرة أخرى : نحن في مرحلة انتظار .

اهتمام بالأشياء

*** يؤخذ على تجربتكم الروائية كل هذا الاهتمام بالأشياء لدرجة محاولة « أنسنتها » ، أو وضعها في مكان الصدارة في العالم الروائي قبل الإنسان نفسه .**

ـ هناك بعض النصوص الروائية التي ربما تبدو جافة ، لأنه كانت لدينا رغبة في الابتعاد عن الأشياء والاشخاص ، لكي نحسن رؤياهم . بعض النقاد يتهموننا بأننا لسنا إنسانيين ، ولا نهتم بالإنسان لكن هذا غير حقيقي . ولكي نستطيع الحديث عن الإنسان لابد من الحديث عن هذه الأشياء .

أما الأشياء الخارجية ، أي ما نراه أونلمسه ، ونتناوله ، والألفاظ التي تدل على ذلك ، هي أقل الأشياء إشكالا : إشارة واحدة تكفي لتؤكد لنا معانيها ، إنها الأضمن .

هذه الأشياء نفسها تشمل كل ما نسميه العالم الخارجي . أو ليس الكتاب شيئا ، وهكذا فإن العقلية الأمريكية ترتسم في الملايين من الأشياء المصنوعة التي تجوب الولايات المتحدة من أدناها إلى اقصاها ، فالمناشف هنا تختلف عن المناشف هناك ، والاحتكارات التي تدل على هذه الألوان في « الكاتالوجات » أو المنشورات ليست هي

نفسها هنا وهناك ، ذلك أن للناس الذين يستعملونها « ميثولوجية » ومراجع مختلفة ، وأن للألوان في شئونهم اليومية دورا مختلفا عن الدور الذي لها عندنا .

إن العلماء في المعامل لايعالجون الناس بصورة مباشرة ، لكنهم يعملون ويكتشفون ما يتوصلون إليه بطريقة غير مباشرة في بعض الأحيان . ومع ذلك فإن الهدف من عملهم هو خدمة الإنسان .

فن الكتابة

*** كيف تكتب وأنت تتجول بين أكثر من فن واحد ؟**

ـ إن الذي يحسن فن الكتابة هو في الحقيقة من يحسن استعمال لغته ، فيعطي للكلمات قيمتها الحقيقية ، وهو الذي يملك ناصية اللغة ، فيحيي بأفكاره كل كلمة من كلماته وكل مجموعة من عباراته .

إني أبذل جهدي لأراقب مراقبة أفضل كل ما أفعله . ولما كنت أتعرض لمشاكل تتعقد أكثر فأكثر ، فأنا مجبر على إعداد آلات فائقة الدقة ، ذلك أن السرعة وبعد النظر والبناءات تتطلب مثل هذه الآلات ، إذن ، ليس هنالك إنشاء يضاف إلى تركيب العبارات كما يضاف الطلاء اللامع في آخر لحظة . هنالك تأليف العمل الأدبي الذي ينبغي أن تكون كل عبارة من عباراته وكل كلمة من كلماته نتيجة طبيعية له .

ـ عندما أكتب صفحة ما يحدث أحيانا أن أتوقف بسبب كلمة ، فأشعر كأني فقدت شيئا ، وعليّ أن أقلب العمل كله رأسا على عقب .

ـ إني أعرف كتابا محترمين ، ينسجون مؤلفاتهم سطرا سطرا دون أن يعودوا إلى الوراء . أما أنا فإنني أعيد قراءة ما كتبت ، فأقع على كلمتين أو ثلاث أعدها أخطاء لابد من تصحيحها ، إنها شبيهة بالأخطاء الإملائية .

عندما ننصرف إلى التأليف مستعينين لا بكلمات فحسب ، بل بكتل من النصوص ، كالاستشهادات الحرفية ، ـ وقد تكون أحيانا طويلة جدا ـ فإننا نجد أنفسنا أمام مشاكل ضخمة لضبط النصوص وإحكامها ، وهذا يستحق الجهد .

المهم أن يبقى الكتاب محافظاً على مكانته على الرغم من هذا الخطأ ، من هذه العقدة ، من هذا الخرق في النسيج ، فلسنا أبدا في مأمن من الوقوع في مثل هذه الأخطاء .

لكننا إذا كنا قد عشنا كتابنا عيشا كافيا فإن مثل هذه الأخطاء لن تستطيع أن تقلل من مكانته .

أدب العالم الثالث :

*** لماذا يحظى أدب أمريكا اللاتينية بقدر أكبر من الاهتمام من الأدب العربي عندكم ؟**

هل هناك موقف ضد الأدب العربي ؟ ثم لماذا لاتتابعون نتاجات أدباء العالم الثالث مثلما يقرأ لكم هؤلاء الأدباء ؟

ـ مادام هناك شق من السؤال يتعلق بأدب أمريكا اللاتينية فسأبدأ بالحديث عنه . أدب أمريكا اللاتينية اتخذ أهمية ، وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية في أوربا . بعض كتاب أمريكا اللاتينية يعدون الآن من كبار كتاب أوربا ، وعن نفسي لقد تأثرت بيورخس بشكل خاص . ثم لماذا تسأل عن أمريكا اللاتينية والعرب فقط ؟ هناك بعض البلدان التي بدأنا نتعرف على آدابها مؤخرا ، مثل اليابان التي يقدم أدبها تجربة فريدة ومهمة .

ـ أما فيما يتعلق بآداب العالم الثالث ، فهناك بعض الكتاب الذين بدءوا يصلون إلى معرفة القارىء الأوربي ، وبخاصة الذين يكتبون بلغات أوربية .

ـ أتحدث الآن عن الأدب المكتوب باللغة

العربية . نحن نقرأ بعض ترجماته بدون شك . وما أكثر هذه الترجمات حاليا سواء في مجال الأدب الحديث أو في مجال الدراسات العربية القديمة .

في فرنسا الآن كمّ جيد من الأدب العربي المعاصر ، كذلك هناك أدب شمال أفريقيا المكتوب مباشرة بالفرنسية . إذن هناك علاقة وثيقة بين الآداب العربية والفرنسية .

*** ماذا قرأت من هذا الأدب تحديدا ؟**

ـ عندما جئت إلى المنيا منذ ٣٧ عاما ، كان طه حسين وزيرا للمعارف في مصر ، وقد قرأت أيامها كتابه « الأيام » وكان قد ترجم إلى الفرنسية مع مقدمة لاندريه جيد ، وفي نفس الفترة كانت هناك ترجمة لتوفيق الحكيم . وفي جامعة جنيف شاركت في مناقشة رسالة جامعية عن أدب نجيب محفوظ ، ومن ثم قرأت بعض نصوصه الإبداعية . كانت هذه الرسالة تضم نصا مترجما بالكامل لنجيب محفوظ ، وإن كنت أدرك أن معلوماتي عن الأدب العربي فيها الكثير من الثغرات .

لقد قرأت لويس عوض منذ عشرين عاما ، قرأت كتابه عن بروميثوس بالانجليزية ، قرأته لأنه كان بالانجليزية ببساطة .

*** لماذا تقرأ عملا لكاتب من العالم الثالث ؟**

ـ هناك أسباب كثيرة ، منها خصوصية العالم الذي يقدمه النص ، وكذلك الكتابة المدهشة والمثيرة والموقف الفكرى والسياسي في العمل . والفولكلور والمذاق الخاص . إن وجود نص فيه واقع يتجاوز الواقع الذي يتحدث عنه يدفعني لقراءته .

*** يعيش في فرنسا كاتب مصرى هو ألبيرقصيرى ، نشر بالفرنسية أكثر من نص روائي . هل قرأت له شيئا ؟**

ـ أعرف الاسم ، ألبيرقصيري ، لكن بصراحة لم أقرأ له شيئا .

*** هل قرأت رواية جمال الغيطاني « الزيني بركات » التي ترجمت إلى الفرنسية ، والتي حضرت إلى مصر لحضور حفل تكريمه ؟**

ـ لا ، والسبب أنني أخذت منه الرواية هذه الأيام فقط ، ولم أكن قد حصلت عليها قبل ذلك .

*** هل قرأت شيئا ليوسف إدريس وهو مترجم إلى الفرنسية والانجليزية ؟**

ـ لم اقرأ له شيئا ، ولا أعرفه .

*** وأدباء الجزائر ؟**

ـ هناك نصوص مدهشة شديدة الجاذبية ، يمكن أن يتوقف الانسان أمام بعضها طويلا .

بدلا من الخواتيم

*** ما هي حكايتك مع تعبير « عبقرية المكان » ؟**

ـ إقامتي في المنيا في صعيد مصر ، هي التي أوحت لي بهذا التعبير . لم أكن قد كتبت أي نص روائي يومها ، أستطيع القول إن اقامتى في المنيا أثرت تماما على كتاباتي فيما بعد . في المنيا أدركت بقوة تأثير المكان على الانسان ، وكذلك مدى تأثير المحيط على الثقافة .

في حياتي ثلاث رحلات أثرت عليّ تماما ، وكان لها تأثير قوي جدا على مسيرتي . وكل رحلة فيها تعد مرحلة أساسية في تطوري كله . لقد أحدثت هذه الرحلات الثلاث تغيرا كيفيا بالنسبة لي .

الأولى : رحلتي إلى مصر ، وكانت أولى رحلاتي ، ثم رحلتي إلى الولايات المتحدة الامريكية ، والثالثة رحلتي إلى اليابان .

*** ماهي مشاريعك القادمة ؟**

ـ عندى خبز في مخزني يكفيني مائة عام قادمة □

أفكار القوم

(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضى والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

الحكمة ضالة المؤمن

فإن الأمر إذا كان صادرا من غيرنا وكان صوابا موافقا للأدلة لاسيما إذا كنا عليه وأخذ من أيدينا فلا وجه لإنكاره وإهماله ، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله . وكل متمسك بديانة وإن كان يرى غيره ضالا في ديانته ، فذلك لايمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الأمة الافرنجية . فإنهم مازالوا يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسنا من أعمالهم ، حتى بلغوا في استقامة نظام دنياهم إلى ما هو شاهد . وشأن الناقد البصير تمييز الحق بمسبار النظر في الشيء المعروض عليه ، قولا كان أو فعلا ، فإن وجده صوابا قبله واتبعه ، سواء كان صاحبه من أهل الحق أو من غيرهم . فليس بالرجال يعرف الحق بل بالحق تعرف الرجال . « والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها » (حديث نبوي شريف) .

ولما أشار سلمان الفارسي - رضي الله عنه - على رسول الله ﷺ - بأن عادة الفرس أن يطوقوا مدنهم بخندق حين يحاصرهم العدو اتقاء من هجومه عليهم ، أخذ رسول الله - ﷺ - برأيه وحفر خندقا للمدينة في غزوة الأحزاب ، عمل فيه بنفسه ترغيبا للمسلمين - وقال سيدنا علي - كرم الله وجهه - « لاتنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال » .

وإذا ساغ للسلف الصالح أخذ مثل المنطق من غير أهل ملتهم وترجمته من لغة اليونان لما رأوه من الآلات النافعة ، حتى قال الغزالي : « من لامعرفة له بالمنطق لايوثق بعلمه » فأي مانع لنا اليوم من أخذ بعض المعارف التي نرى أنفسنا محتاجين إليها غاية الاحتياج في دفع المكائد وجلب الفوائد ؟

وفي حاشية الدر المختار للعلامة الشيخ محمد بن عابدين الحنفي فقيه حلبي من مواليد دمشق (١٢٥٢هـ - ١٨٣٦م) ما نصه : « إن صورة المشابهة فيما تعلق به صلاح العباد لاتضر » .

على أنا إذا تأملنا في حالة هؤلاء المنكرين لما يستحسن من أعمال الافرنج ، نجدهم يمتنعون من مجاراتهم فيما ينفع من التنظيمات ونتائجها ، ولايمتنعون منها فيما يضرهم .

وذلك أنا نراهم يتنافسون في الملابس وأثاث المساكن ونحوها من الضروريات ، وكذا الأسلحة وسائر اللوازم الحربية ، والحال أن جميع ذلك من أعمال الافرنج . ولايخفى ما يلحق

الأمة بذلك من الشين والخلل في العمران وفي السياسة .
أما الشين فبالاحتياج للغير في غالب الضروريات الدال على تأخر الأمة في المعارف .
وأما خلل العمران ، فبعدم انتفاع صناع البلاد باصطناع نتائجها الذي هو أصل مهم من اصول المكاسب ، ومصداق ذلك ما نشاهده من أن صاحب الغنم منا ومستولد الحرير وزارع القطن مثلا يقتحم تعب ذلك سنة كاملة ، ويبيع ما ينتجه عمله للافرنجي بثمن يسير ، ثم يشتريه منه بعد اصطناعه في مدة يسيرة بأضعاف ما باعه به . وبالجملة فليس لنا الآن من نتائج أرضنا إلا قيمة موادها المجردة دون التطويرات العملية التي هي منشأ توافر الرغبات منا ومن غيرنا . ثم إذا نظرنا إلى مجموع ما يخرج من المملكة وقايسناه بما يدخلها ، فإن وجدناهما متقاربين خف الضرر ، وأما إذا زادت قيمة الداخل على قيمة الخارج فحينئذ يتوقع الخراب لامحالة .
وأما الخلل السياسي فإن احتياج المملكة لغيرها مانع لاستقلالها وموهن لقوتها لاسيما إذا كان متعلق الاحتياج الضروريات الحربية التي لو تيسر شراؤها زمن الصلح لايتيسر ذلك وقت الحرب ، ولو بأضعاف القيمة .
ولاسبب لما ذكرناه إلا تقدم الإفرنج في المعارف الناتجة عن التنظيمات المؤسسة على العدل والحرية ، فكيف يسوغ للعاقل حرمان نفسه مما هو مستحسن في ذاته ويستسهل الامتناع عما به قوام نفعه بمجرد أوهام خيالية ، واحتياط في غير محله ؟
ومما يحسن سوقه هنا قول بعض المؤلفين من الأورباويين في السياسات الحربية : « إن الممالك التي لاتنسج على منوال مجاوريها فيما يستحدثونه من الآلات الحربية والتراتيب العسكرية يوشك أن تكون غنيمة لهم ولو بعد حين » .
وخص التراتيب الحربية لأنها موضوع كتابه ، وإلا فالواجب مجاراة الجار في كل ما هو مظنة لتقدمه ، سواء كان من الأمور العسكرية أو من غيرها .
ومما يؤيد ما قررناه قوله - ﷺ - لعاصم بن ثابت من حديث : « من قاتل فليقاتل كما يقاتل » .
ويوضح معناه ما تضمنته وصية الصديق لخالد بن الوليد - رضي الله عنهما - حين بعثه لقتال المرتدين ، فقال : « يا خالد عليك بتقوى الله والرفق بمن معك » - إلى أن قال - « والخوف عند أهل اليمامة فإذا دخلت بلادهم فالحذر الحذر ، ثم إذا لاقيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذي يقاتلونك به ، السهم للسهم ، والرمح للرمح ، والسيف للسيف » .
قلت : ولو أدرك هذا الزمان لأبدل ذلك بمدفع الشسخان ومكحلة الابرة والسفينة المدرعة (23) ونحوها من المخترعات التي تتوقف عليها المقاومة ، ولايحصل بدونها الاستعداد الواجب شرعا الذي يستلزم معرفة قوة المستعد له والسعي في تهيئة مثلها ، أو خير منها ومعرفة الأسباب المحصلة له .
وبناء على ذلك يقال هنا : هل يمكننا اليوم الحصول على الاستعداد المشار اليه بدون تقدم في المعارف وأسباب العمران المشاهدة عند غيرنا ؟ وهل يتيسر ذلك التقدم بدون إجراء تنظيمات سياسية تناسب التنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا في التأسيس على دعامتي العدل والحرية ، اللذين هما أصلان في شريعتنا . ولايخفى أنهما ملاك القوة والاستقامة في جميع الممالك ؟

من كتاب « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » الصادر عام ١٨٦٧
لخير الدين التونسي ١٨٢٢ - ١٨٨٩م - الوزير والقائد العسكري التونسي



«امرأة من ضوء»

مجموعة قصصية من تأليف الكاتب الليبي أحمد إبراهيم الفقيه

بقلم : الدكتور صبري حافظ *

أحمد ابراهيم الفقيه من كتاب القصة القصيرة المتميزين في القطر الليبي ، فأين تقع مجموعته الأخيرة « امرأة من ضوء » على خريطة القصة القصيرة في ليبيا ، بل على خريطة القصة العربية القصيرة ؟ وما الخصائص الفنية التي يتميز بها فن الكاتب في هذه المجموعة ؟ هذا ما يقدمه لك هذا المقال .

تحتل مجموعة أحمد ابراهيم الفقيه الأخيرة « امرأة من ضوء » مكانة متميزة في لوحة القصة الليبية الحديثة ، ليس لأنها مجموعة متميزة المذاق ، متفردة اللغة والأسلوب فقط ، ولكن لأنها توشك أن تكون المجموعة الليبية الأولى التي تضيف شيئا جديدا إلى انجاز القصة العربية القصيرة ككل أيضا . ذلك لأن الفقيه يتجاوز في هذه المجموعة الجديدة مواضعات القص الواقعي التقليدية ، واستقصاءات القصة النفسية المكرورة ، ليبلور تجربته الفنية الفريدة ، وإسهامه المتميز في القصة العربية ، إذ ينفض عن عالمه القصصي فيها كل المؤثرات التي أوهنت تمايز مجموعاته السابقة ، ويبدع بها لغته ومفرداته ، التي تقترب من تخوم الشعر ، حتى تصل الأجزاء الموزونة شعريا وذات الإيقاع المضبوط عروضيا في القصة الأخيرة بالمجموعة إلى ثمانين في المئة من المتن القصصي . وحتى يصبح اللجوء إلى التدوير فيها وجها بنائيا من

* كاتب من القطر العربي المصري

وجوه الدائرة المحكمة التي تقتنص القاريء والشخصيات على السواء في شبكتها المراوغة واللغوية معا . ويؤسس عبرها عالمه القصصي الذي يتخلق من عملية المزج الشفيف بين الحقيقة والخيال ، وبين الوقائع وتمنيات الشخصية وهواجسها ، حيث تكتسب الرغبات قدرة تنويمية أو تعزيمية فريدة ، تجعل الحلم هو المحرك الأساسي للواقع ، والحياة هي التي تحاكي الأمنيات . بالصورة التي تجسد معها ، هذه المجموعة القصصية الجميلة ، قدرة الفن على خلق واقع بديل ، تنهض من ثناياه الأحلام ، وقد تألقت بحضور مدهش راعب ، وتنداح فيه الوقائع اليومية المألوفة والغريبة معا ، في غياب باهت لا تستحق في حقيقة الأمر سواه .

فلم يعد النص القصصي في هذه المجموعة الجديدة امتداداً للواقع أو محاكاة لتضاريسه ومنطقه ، بل عمد النص إلى استقلاله ، وتميز منطقه عن المنطق الواقعي ، الذي يحتفظ فقط بتضاريسه الخارجية ، بينما يخضع تلك التضاريس لمنطق مغاير كلية للمنطق الذي اعتدنا سيطرته على حركتها ، وتحكمه في ايقاع تغيرها . ويعلن الكاتب عن منهجه هذا في المقتطف الذي يجعله مفتتحا لمجموعته أو منطلقا لقراءتها عندما يقول : « إنني أرفض الهروب من الواقع ، بمثل ما أرفض أن أتورط في محاولة كاذبة لترحيله كما هو ، وأنا أعرف أني لا أستطيع . ولذلك فإنه لابد من وسيلة أخرى ، غير هاتين الوسيلتين الاثنتين . ومن هنا بدأت محاولتي للبحث عن الأشياء الخفية وراء الأشياء التي نراها ، أن يكون الفن عينا ثالثة ، نرى بها الوجود الآخر للأشياء ، ذلك الوجود الذي لا نراه بأعيننا . إنه محاولة للكشف عن أسرار هذا الواقع ودلالاته ، إن الشيء الذي أراه لا يعنيني في حد ذاته ، ولكن ما يعنيني هو الدلالة خلف هذا الشيء ، كما أن الحدث لا يعنيني في حد ذاته ، ما يعنيني هو الدلالة خلف هذا الحدث » . (من حديث أحمد ابراهيم الفقيه أجرته معه (كل العرب) في ٢٠ يونيو ١٩٨٤) .

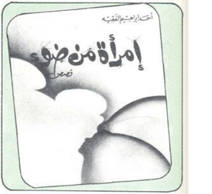
لكن تقديم الكاتب لهذا المنهج يكشف عن بعض أسراره الواضحة ، ويترك أهم ملامحه وإنجازاته دون كشف أو توصيف ، ربما لأن الكاتب نفسه هو آخر من يقدم لنا وصفا دقيقا لكل ما ينطوي عليه عالمه الفني من أسرار ، وربما لأن العمل الأدبي يتضمن في نهاية المطاف الكثير من الخصائص والإنجازات التي لم يتقصدها الكاتب ، والتي تنبثق بشكل عفوي نتيجة لآليات العملية الإبداعية البالغة الكثافة والتعقيد . إذ تكشف لنا قصص المجموعة عن أن الإنجاز الحقيقي لاستراتيجياتها النصية الجديدة ، ليس بأي حال من الأحوال الكشف عن أسرار الواقع و « دلالاته » المختفية خلف تبدياته المتعددة ، فهذا ما تحققه كل الأعمال الفنية على مختلف توجهاتها ، ولكن اكتشاف البنية العميقة لحركية تعامل الإنسان مع واقعه ، ولقدرة الفن على تسيير الواقع من خلال آليات عمليات التقديم والتأخير ، والإبراز والتشحيب . كما أن الكاتب لم يتخل عن الاستفادة من « تكنيك » الاعتماد على الخط المباشر بين العين والموضوع في الوصف ، وهو « التكنيك » الذي يبدو أنه يخلق إيهاما بالواقع ، ولكنه يستخدم هذا الاسلوب الذي ارتبط عقوداً عديدة بالكتابة الواقعية ، ليحقق به مقلوب هدفها ، وهو الإطاحة بكل إيهام بالواقع ، وإيهان علاقة النص به ، وتكريس سيطرة الوهم على ما تواضعنا على تسميته الحقيقة ، والمزج المستمر بين الوقائع والأحلام والأوهام ، وهو المزج الذي يبدو لأول وهلة كأنه شيء مألوف ، ولا جدة فيه على مستوى من المستويات ، ولكن طريقة تناول الفقيه الفريدة هي التي تكسبه جدته ، حيث تتجسد أفكار

الشخصيات وأحلامها ورغائبها ، وقد اكتسبت قدرة تنويمية أو تعزيمية فريدة ، تجعل الحلم يحرك الواقع ، ويفرض عليه منطق حركته الجديد .

البحث عن الزمن المستحيل :

ويلجأ الكاتب إلى مجموعة من الأساليب والمنطلقات الفنية لتحقيق ذلك . ففي أولى قصص المجموعة ، وهي قصة العنوان ، يجعل مدخله إلى عالمه القصصي لحظة متألقة ، مقتطعة من ذكريات الطفولة المضمخة بوهج من طقوس العرس البدوي ، ونشوة الاكتشاف الحسي الأول ، ثم ينطلق من هذا المدخل ، ليقدم قصة البحث الأبدي عن المرأة ، وعن لحظة الاكتشاف السحري الأولى لذلك الإحساس الخاص ، الذي يمتزج فيه الحب بالنشوة ، بولوج العوالم الجديدة ، باكتشاف المناطق البكر والمحرمة . أو بالأحرى قصة للبحث الأبدي عن المستحيل ، عن الزمن الضائع المفقود الذي تحتفظ به الذاكرة حيا متوهجا يفوق في حيويته وفاعليته كثيرا من العوالم والوقائع الحقيقية . وفي رحلة البحث المضنية تلك تتراكم الخيبات الصغيرة ، كمحطات متتابعة في مسيرة العمر ، وتكتسب تلك الخيبات الصغيرة دلالات تفوق بكثير حدود معانيها المباشرة . وكلما عرفت محطات العمر خيبة ، هرعت آليات التذكر إلى فراديس الطفولة ، تستمد من لحظاتها المنصرمة قوة جديدة ، لمواصلة رحلة البحث الأبدي من جديد . ومن خلال المراوحة الدائمة بين الواقع وزمن الذكريات المنصرم تتخلق مجموعة متراكبة من الدلالات لبطلة القصة « عائشة » التي تتردد عبرها بعض أصداء عائشة الخيام الشهيرة ، وقد امتزجت بأمشاج من هذا الصراع الدائر ، في أغوار الشرقي دوما بين المرأة الشرقية ذات السحر والمرأة الغربية المتحررة المغوية . فما أن يعثر الشرقي الممزق بين الحضارتين على إحداهما حتى يظل يبحث في أغوارها عن المرأة الأخرى ، وكأنه يتشوف عبثا إلى جمع النقيضين في جسد واحد : إلى المزاوجة بين نقاء الطفولة ، وتوهج الحس الذي تشتعل شرارته كلما التقى الرجل بأنثاه المبتغاة . لكن استحالة التجربة ويناعتها معا هما اللتان تتركان القصة في النهاية مشحونة بذلك الألق المترع بالتوتر ، مثبتة أبدا على ذلك الوتر المشدود بين الحلم والواقع .

أما القصة التالية « المرأة والكلب » فإنها تقتنص القارىء في شبكة تلك اللعبة الحاذقة : لعبة الوهم والحقيقة . وقد أوقعت بطليها قبله في شباكها المغوية . ولا غرو ، فالقصة تبدأ بتلك الجملة الحازمة « قررت في تلك اللحظة أن كل هؤلاء الناس الذين يمتلىء بهم هذا الميدان الكبير . . . » وكأنها تفرض منذ اللحظة الأولى قرارات الفن على الواقع ، وسطوة الوهم على الحقيقة . ومن هنا فإنها لا تصف لنا الميدان كما هو في الحياة ، ولكنها تتكيء على مظهره الوصفي ، لتقدم لنا ميدانها الصاخب بالحيوات المتوهمة ، والقصص المخترعة التي يلفت النص فيها نظر القارىء منذ البداية الصارمة إلى اختراعها ، ويوقعه مع ذلك في شبكتها التي لا تقل سحرا ونفوذا عن أي شبكة تنسجها الوقائع وتصاريف المقادير . وتختار من بين شخصيات هذا الميدان العامر بالناس ذوي القصص المختلفة ، تلك المرأة الجميلة التي تخترع القصة أو يخترع الراوي لها كلبا رقيقا تتنزه به . ويدير مع الكلب وصاحبته قصة تردد بطريقتها الخاصة بعض أصداء رائعة تشيكوف الشهيرة « السيدة صاحبة الكلب » لأن العناصر التناصية من الأبعاد الهامة في هذه القصص . ليس لأنها توسع أفق الدلالة فيها فقط ، ولكن لأنها ترهف حدة الجدل بين أصوات القص المتراكبة في النص أيضا . وتلفت أنظارنا إلى وجود درجة مراوغة من درجات التوحد بين صوت الراوي وصوت القصة ، أو الصوت



المانح للقص مشروعيته ومصداقيته ، والذي يجعل للسرد تلك القوة التعزيمية ، لأن ما يفرضه السرد على الوقائع والأشياء هو ما يعيشه الراوي على الفور ، وكأن الكاتب ـ وهو غير الراوي وغير صوت القص ـ يريد لنا أن نمتحن مصداقية تلك القوة السردية السحرية من خلال تجسداتها كوقائع جديدة في حياة الراوي التي تتدفق أمامنا على الورق . ويصل هذا الامتحان ذروته عندما يقرر الراوي أن يطلق الرصاص على الكلب ، ويرديه مجندلا في دمائه . عند هذه اللحظة نحس أن لهذا الكلب الوهمي الذي يضحي به على مذبح هذا الإخفاق المر في لعبة السعي الأبدي إلى التواصل مع المرأة ، وجودا لا يقل حقيقية وصلابة عن وجود أي كلب حقيقي . فنلتاع للإجهاز عليه ، وقد اكتسب إلى جانب دلالاته المحددة قوة رمزية ، كانت السبب في مصادرة عدد مجلة (الكفاح العربي) الذي نشرت به القصة . ذلك لأن راوي القصة ، وقارئها معا ، يكتشفان في عملية التلقي الشائقة ، التي تلتحم فيها فاعلية السرد الداخلية بآليات عملية الاستجابة الأدبية للنص ، أن الإنسان لا يستطيع دائما التحكم في الأوهام التي يخلقها ، أو في الأكاذيب التي يمنحها وجودا وحياة ، وأن هذه الأوهام ما تلبث أن توقع به في قبضتها المحكمة ، وتتربص به شرا .

جدلية الوهم والحقيقة :

الجنون والإذعان

لذلك كان من الطبيعي ، وللمجموعة بنيتها التكاملية ، أن تجسد لنا القصة التالية « المحطة الأخيرة » جانبا من جوانب هذا الشر الذي يحدق بالراوي ، في عالم تتمتع فيه الأوهام بقدرة تفوق تلك التي تتشح بها الحقيقة . فما أن يدلف البطل إلى مقصورة القطار في رحلته ، التي لا نعرف لها غاية ، حتى يجد تلك المرأة الجميلة : إحدى العائشات الزائفات اللواتي لا يتكشفن أبدا عن عائشة الحقيقية ، وقد اتشحت هنا بمئزرها المليء بالنمنمات ، ودست وجهها الساحر في كتاب سميك تتسلى به طوال الرحلة ، وتنشغل به عن العالم من حولها ، وتذب به عن نفسها عبث الفضوليين الذين يتسقطون الفرص للحديث مع امرأة جميلة تسافر وحدها في هذا القطار . ولما لم يكن مع راوينا ـ وللقصص كلها راو واحد لا يتغير ، يسردها علينا جميعا بضمير المتكلم وكما وقعت له ـ أي كتاب يتسلى به ليتحمل مشقة الرحلة الطويلة ، فقد شغل نفسه بالتفكير فيما عساه يكون أمر تلك المرأة الجميلة ، وما عساها تكون حياتها . وترسم لها خيالاته حياة مصنوعة من أديم قصص « الوحش والجميلة » التي تولع بالقران بين المتناقضات ، وتعقد أغرب العلاقات بين منتهى الجمال والرقة ، ومنتهى القبح والجلافة والوحشية . وتتمادى به خيالاته حتى تقتحم أدق دقائق حياتها مع هذا الرجل الفظ الذي جعله الرجل الثاني في عصابة للتهريب ، يستعذب تعذيبها ، ولا يحلو له أن ينضو عنها ثيابها إلا تمزيقا ، ولا أن يأتيها إلا عنفا واغتصابا . وهو رجل لا خلاق له ،

يشبعها تعذيبا ، ويحرم عليها مخاطبة الغرباء ، ويهددها بالقتل إن هربت منه ، ويرسل العسس لتحصي عليها حركاتها . وما أن تصل به أفكاره إلى هذا الحد حتى يشفق على المرأة الجميلة ، ويشرع في اختطاط الخطط لإنقاذها من براثن هذا الرجل القبيح ، الذي لا يناقضها في كل شيء فحسب ، ولكنه يكبرها كذلك بثلاثين عاما . وراوينا - كما خمنت أيها القاريء العزيز - يماثلها عمرا ، أو هو على الأقل أقرب إليها عمرا وطبيعة . ما أن يعد راوينا الخطط لإنقاذها في خياله دون أن ينبس ببنت شفة ، ويصل فيها إلى حد إيداع هذا الرجل الفظ الذي يتحكم فيها ويعذبها وراء القضبان ، حتى تنهض المرأة ، وقد ملأها الهول ، وتصفعه بعنف على وجهه وهي تصرخ : « أيها النذل ! ما شأنك أنت بي حتى تأتي بهذه الخيالات المريضة لإنقاذي ؟ من أعطاك الحق في أن تتدخل في شؤوني ، أو تفكر بالنيابة عني ؟ إنها حياتي ، وأنا حرة فيما أفعله بنفسي » ولا تغمر هذه الصدمة الراوي وحده بالذهول ، ولكنها تصيب القاريء كذلك بالدهشة . وهي الدهشة التي ما تلبث أن تتصاعد حدتها عندما يصل القطار إلى المحطة الأخيرة ، ويطل الراوي من نافذته ليجد أن العملاق الذي يناهز الخمسين . والذي رسمه لها في خياله ، برأسه المفلطحة ووجهه القبيح المليء بالنتوءات ، والعصابة التي تخفي عينه المفقودة في إحدى مغامرات العصابة الخائبة ، واقف ينتظرها على رصيف المحطة . هنا تتحول الصدمة إلى كشف ، ويتحول المناخ السحري القريب من مناخات القصص إلى واقع كابوسي مبهظ ، لا تنتهي فيه القصص بالنهايات السعيدة التي تتخلص فيها الحسناء من براثن الوحش ، بل يلقي فيه كل من يحاول أن يعيد للأمور منطقها الطبيعي ، ويخلص الجمال عامة من القبح ، جزاء سنمار .

وهذا ما نلمس بعض جوانبه في القصة التالية « شمس الأمهات » أيضا التي تتناول جانبا آخر من جوانب هذا الصراع الأبدي بين نوازع التحرر في الشخصية العربية ، وقيود التقاليد التي تشد هذه الشخصية إلى ماضيها . إن رغبة الراوي المثقف في اختيار شريكة حياته ، ومعرفتها بشكل عصري قبل الزواج ، تتعارض مع تصور كل من الأم الراغبة في تزويجه بطريقتها الخاصة ، ومع تقاليد المجتمع وأعرافه الراسخة ، لكن ذلك الموضوع الذي يطفو على سطح القصة قديم قدم بدايات القصة العربية ، أشبعته مختلف المعالجات القصصية بحثا وتقليبا . أما الجديد هنا فليس طريقة السرد الفريدة وحدها ، ولا حتى اللغة القصصية المرهفة ، ولكن طرح القضية من منطلق جديد ، هو منطلق الإنسان العصري المسكون على الرغم من أفكاره الجديدة بكل أشباح الرؤى والتصورات القديمة . هذا الطرح هو الذي يتيح للفقيه أن يمارس لعبة الجدل المستمر بين الخيال والواقع ، وبين الأوهام التي تسكن الشخصية ، وتفاصيل الحياة التي تعيشها بعد أن قررت تحدي التقاليد في الخارج ، دون أن تفطن إلى أن التحدي الأكبر كامن في التغلب على التقاليد والتصورات القابعة في داخل الشخصية لا خارجها . وأن وهم الحرية غير عملية التحرر الحقيقي الصعبة والمعقدة . ومن هنا تكتسب نهاية القصة المرة وقعها الأليم على القاريء والشخصية على السواء ، عندما تضيق تلك التقاليد الداخلية الخناق عليه ، وتضعه على حافة الجنون ، بعد أن سلطت عليه جحافل أوهامها ، فيستسلم لما تمليه عليه من انصياعية قاسية مبهظة ، لا سبيل للفكاك منها غير الجنون ، ولا مفر إذا ما رغبت في تحديها من جنون من نوع آخر .

لكن ترى هل الجنون أكثر سوءا من هذا الإذعان الرهيب ؟ هذا ما تسعى القصة التالية « الجنون » إلى الإجابة عنه ، لأنها تطرح علينا

آليات الجنون وقد بدأت في التخلق من موقف مستحيل مشابه : موقف انفتاح الأفق للحظة أمام الشخصية ثم انغلاقه مرة أخرى ، أمام عينيها من جديد : موقف أن يلوح الحلم أو الأمل في الخلاص أمام الإنسان ، لكنه ما يلبث أن ينتزع منه لأسباب غيبة ومفارقات غير مفهومة . فما أن لمح راوينا « فرح » التي لا بد ألا تخفي علينا دلالات اسمها ، وقد صيغت من هذا المزيج العذب من أحلام الطفولة وصبوات الشباب ، حتى توهم أن العالم قد أخذ يبتسم له ، وحتى سرى تيار من التواصل الداخلي بينه وبين حلمه المبتغى « فرح » .

ويعيش عدة أيام وقد امتلأ بالحياة ، وأخذت تتفجر فيه طاقات الخلق والتواصل والإبداع . لكن « فرحه » المبتغاة ، وقد جاءت إليه في الموعد المضروب عبر تيار التفاهم الداخلي الدفين ، ما تلبث أن تمنعها الروادع والتدخلات الغيبة من الاتصال به إلى الأبد ، فيسقط في هاوية الجنون السحيقة : جنون الحرمان من التواصل ، والبقاء في صحراء العزلة والحصار ، يعاني من الاغتراب وهو لم يزل بعد في وطنه ، ولذلك ليس غريبا أن تقل وطأة عزلته واغترابه عندما يغادر بلده ، ويلتقي بهذا « الرجل الايرلندي » تلك الشخصية الساحرة والساخرة معا والتي تهب اسمها عنوانا للقصة التالية التي توشك أن تكون تكملة للقصة السابقة ، تريد أن تخلص بطلها من نير الجنون وناره الموقدة . ذلك لأن « الرجل الايرلندي » تعد في مستوى من مستوياتها دراسة في آليات الاغتراب والتواصل ، في الوقت الذي تتناول فيه شخصيات المدن وطرائقها المختلفة في التعامل مع الغرباء من أبنائها ومن أبناء المدن الأخرى معا . □

رباعيات شرقية

* قال أنو شروان : « أربعة أيام لأربعة أعمال : يوم الغيم للصيد ، ويوم الريح للندم ، ويوم المطر للمنادمة ، ويوم الصحو للكسب » .
* قال أردشير : « أربعة تحتاج لأربعة : الحسب للأدب ، والسرور للأمن ، والقرابة للمودة ، والعقل للتجربة » .
* قال ابن الأعرابي : « أربعة في أربعة : الحسن في الأنف ، والحلاوة في العين ، والملاحة في الفم ، والظرف في اللسان » .
* قال أبو الخطاب الصائبي : « خير الثياب ما رق غزله ، وراق نسجه ، ولان مسّه ، وطاب لبسه » .
* قال أبو سليمان محمد : « استصغر الكبير في طلب المنفعة ، واستعظم الصغير عند رفع المضرة » .
* قال الحسن : « أجدر الناس بالصنيعة : من إذا أعطي شكر ، وإذا منع عذر ، وإذا مطل صبر ، وإذا قدم العهد ذكر » .
* قال أبو منصور عبدالملك : « أبلغ الكلام ما حسن إيجازه ، وقل مجازه ، وكثر إعجازه ، وتناسبت صدوره وأعجازه » .

في الذكرى الأربعين لوفاة

غاندي

•• الرائحة الخاصة

بقلم : منى حلمي

ان القادة والزعماء الذين يستنهضون همم شعوبهم بما يقدمون من أفكار ملهمة ، وقدوة في السلوك ، وتضحية بالنفس ، لاتظل نماذجهم حية في ذاكرة ووجدان شعوبهم وحدها ، إنما تشغل مكانا مرموقا في ذاكرة البشرية كلها .

والمهاتما غاندي الذي قاد الأمة الهندية - بطوائفها وتناقضاتها - إلى الاستقلال يتصدر نماذج القادة العظام في عصرنا الحديث .

ومع مرور أربعين عاما على وفاته يقدم المقال بعض اللمحات عن حياته ونضاله .

لم أكن أعرف أن في تعرفي على بعض جوانب من حياة « غاندي » ، وعلى بعض من جوانب الحياة في الهند ، ستهدأ تساؤلاتي الكثيرة عن معنى الوجود وجوهر الإيمان ، كيف يكون الإنسان انساناً ؟ وهل ينتمي إلى فكرة أم إلى أرض ؟ وما هي حدود الإرادة ؟ وما حدود العقل ؟ ولماذا الفقر والنزوع إلى السيطرة ؟ كيف يثور الانسان وبأي أسلحة يتسلح ؟

ولم لا ؟ هل يصعب على إنسان استطاع توحيد ما يقرب من خمسمائة وخمسين مليون شخص ، يقطنون احدى وعشرين ولاية ، بها ما يقرب من خمس عشرة لغة رسمية وأكثر من سبعة أديان ، أن يوحد أجزاء نفس واحدة ؟!

آمن « غاندي » بأن هناك وحدة تجمع بين كل الأديان . وكان الله بالنسبة له موقفاً لصيق الصلة بالحياة اليومية للناس،وليس زهداً أو استغراقاً أو منعزلا في الطقوس المختلفة . وحد « غاندي » بين معنى الله وكل محاولة دؤوبة للقضاء على الفقر والظلم والتفرقة بين البشر .

كتب « غاندي » يقول : « إذا ظهر الله في الهند ، فلابد أن يظهر كرغيف من الخبز حتى يؤمن به الناس » .



وعلى الرغم من إنحدار « غاندي » من أسرة عرفت بتدينها الشديد ، وعلى الرغم من إدراكه الدائم لفائدة الدين في الإسترشاد للحق والعدل ، إلا أنه كان لايؤمن بأي فكرة دينية تناقض العقل والحكمة ، وتساعد في ترسيخ أي نوع من التفرقة بين الناس .

غاندي ونظام الطوائف

تقسم الديانة الهندوكية المجتمع إلى نظام صارم من الطوائف ، وتعتبر طائفة « البراهما » هي قمة المجتمع الهندوكي . « براهما » هو إله الخلق والكون ، ولذلك فهي طبقة عليا ، وتمثل القائمين بالفكر والدين ، وتقع طائفة « التشودرا » في قاع المجتمع الهندوكي ، حيث أصحاب المهن اليدوية المختلفة . ومن هذه الطائفة نشأت فئة « المنبوذين » التي تقوم بأحط الأعمال في نظر المجتمع الهندوكي ، مثل جمع القمامة ولم جلود الحيوانات الميتة ودبغها . وقد انعزل « المنبوذون » في مكان مخصص لهم ، لا يشربون إلا من بئر خاص ، ولا يلمسون الآخرين ، ويتعرضون لكل أنواع الإستغلال . وتبعا لنظام الطوائف هذا ، لا يتم التزاوج بين طائفتين مختلفتين . ولا يحق لانسان تغيير طائفته إلى أن يموت .

أدرك « غاندي » بحسه الإنساني المرهف بشاعة هذا النظام الموروث من الديانة الهندوكية ، فقام بثورة عملية لكسر هذا الإرث . فقد قام بتزويج رجل وإمرأة كل منهما ينتمي إلى طائفة مختلفة ، بل من أكثر الطوائف بعداً ، طائفة « البراهما » قمة المجتمع ، وطائفة « المنبوذين » قاع المجتمع . وكان هذا قد حدث لأول مرة في تاريخ المجتمع الهندوكي . وقد أطلق « غاندي » على « المنبوذين » إسم « هاريجان » أي أطفال الله .

كما أدرك « غاندي » أن نظام الطوائف وما نشأ عنه من تقسيم طبقي هو من الأسباب الرئيسية لضعف الهند وخضوعها للإحتلال البريطاني . كان يرى أنه لا فائدة من الحديث عن تحرير الهنود من الإستعمار

الأجنبي ، طالما أن الهنود أنفسهم يعاملون ما يقرب من عشرين بالمائة منهم على أنهم منبوذون .

« كيف نعترض على معاملة بريطانيا لنا على أننا منبوذون ، ونحن نعامل أهلنا المعاملة نفسها ؟ » هكذا تساءل غاندي .

إرادة العقل والجسد

آمن « غاندي » بإرادة الإنسان اللامحدودة في التحكم في العقل والجسد ، والصمود في أقسى الظروف . المهم أن يكون للإنسان دافع قوى يحفزه ويهون كل معاناة وألم . وكما قال « حياتي هي رسالتي » . وقد توحدت حياته ورسالته في قضية تحرير الهند . وككل قضية عظيمة ، احتاج غاندي إلى إرادة عظيمة .

ويكفى أن نشير إلى المسيرة التاريخية الشهيرة التي قادها « غاندي » وعرفت بمسيرة « الملح » في ١٢ مارس ١٩٣٠ .

في ذلك اليوم خرج « غاندي » من مدينته « أحمد أباد » في ولاية « غوجرات » ، سائراً على الأقدام إلى قرية « راندى » في مقاطعة « سوارت » ، وقد قطع عهداً على نفسه ألا يعود إلا بعد تحرير الهند . بدأ السير مع تسعة وسبعين من أتباعه ، وعندما وصل إلى محيط العرب في مقاطعة « سوارت » ، كان قد قطع خمسمائة كيلومتر على مدى أربعة وعشرين يوما . وعلى طول الطريق ، تحول الجمع الصغير إلى الآلاف من الهنود في المدن الصغيرة والقرى الذين شاركوه في الاحتجاج ضد بريطانيا . وعند الشاطىء توقف « غاندي » وتوقف معه الزحف الضخم . توجه إلى تلال الملح القريبة ، رفع بعض الملح إلى أعلى ثم تركه يتساقط مصحوباً بالهتافات الرعدية .

فهمت الجماهير قصد « غاندي » من هذه الحركة البسيطة . لقد بدأ هذا الزحف احتجاجا على احتكار الإدارة الانجليزية للملح وفرضها ضرائب باهظة على تداوله .

لكن لماذا الملح ؟

أدرك « غاندي » أنه أفضل بداية لتجميع وتوحيد الخمسمائة وخمسين مليونا من الهنود . إن أفقر الفقراء الذى لا يتناول إلا كسرة من الخبز ، يحتاج إلى بعض من الملح . وليس هناك جسم يستطيع الاستغناء عن الملح . ولهذا أطلق على هذا الزحف ذي الإرادة الخارقة ، إسم « نمك ساتياجراها » نمك يعني ملح . ساتياجراها ، تعني الإصرار على الحقيقة دون عنف . في كل مراحل كفاحه ، ومواقف الإرادة الصعبة ، كان « غاندي » يؤكد أن الجسد ليس وعاء للطعام والشراب والمتع الحسية . بل أداة للرفض وسلاحا ثوريا لا يتردد في استخدامه إلى حد الفناء . إن امتناعه المتكرر عن الطعام ، قبل وبعد تحرير الهند ، كوسيلة لإيقاف الاضطرابات الطائفية ، مثل بسيط على تطويعه لجسده ، ليشارك في صنع عالم أفضل .

الساتياجراها وسياسة اللاعنف

تبنى « غاندي » فلسفة « الساتياجراها » ، أي الاصرار على الحق والوصول إليه دون عنف ، ومعاملة الإساءة بالإحسان والمحبة معتمداً على أثر الخير في الإصلاح . ومن هنا جاءت دعوته إلى العصيان المدني أو المقاومة السلبية للإنجليز .

تبنى « غاندي » هذه الفلسفة ، ليس فقط من قبيل التفكير الواقعي . فهو مدرك تماما أن الإمبراطورية البريطانية بقوتها وأسلحتها قادرة على سحق أمة كالهند . لكنه جاء بشكل أساسي ، انعكاسا لايمانه بمبادىء المسيح في نشر المحبة التي تجسدت في موعظته على الجبل : « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، وصلوّا من أجل الذين يسيئون إليكم » .

كما أن « غاندي » كان يرى أن سياسة اللاعنف هي تحضر البشر . أما العنف فهو تعبير عن التوحش ومحاولة للعودة إلى البربرية والهمجية . وعلى هذا يصبح اللاعنف قمة الثورة وقمة الايجابية وليس عجزاً أو سلبية . ويصبح العفو أرقى من الإنتقام ،

والسلام أرقى من الحرب . كل هذا الرقى - عند غاندي - يأتي من قوة نفس تستطيع قهر قوة السلاح .

أدرك « غاندي » أن الاستقلال السياسي للهند لن يتحقق طالما أن الهند تصدر انتاجها الزراعي كمادة خام ، ثم تشتري المنتجات الانجليزية الجاهزة . ولهذا دعا الهنود إلى الإمتناع عن استخدام الأقمشة الانجليزية ، والعودة إلى النول اليدوي للغزل . واستجاب مئات الألوف من الهنود ، رجال ونساء من كل الديانات والطبقات . وأصبح النول بعد عودة « غاندي » رمزاً وطنيا للوحدة . وفي الوقت نفسه مفتاحاً لإحياء الصناعات القديمة والحرف التي اشتهرت بها الهند ، والتي جعلت الاستقلال السياسي ممكنا فيها بعد . شيء آخر ، جعل استقلال الهند ممكنا ، ألا وهو طريقة معاملة « غاندي » للناس ، وأسلوب حياته المشابه لأسلوبهم . كتب « غاندي » : « لاتستطيع أن تساعد الناس حقا إلا اذا عشت مثلهم ، ساعد الناس على أن يفعلوا الأشياء بأنفسهم وأن يكتشفوا إمكانياتهم ، ولا تحل محلهم »

كانت حياته نموذجا نادراً في البساطة والتقشف ، أقنعت الملايين بصدق دعوته . فكان يقيم في كوخ بسيط صنعه بنفسه على نهر « السابارماتي » . يتغذى على لبن الماعز وقليل من الأرز والليمون والتمر ، لا يشرب الكحوليات أو الشاي أو القهوة . وكانت ممتلكاته في الدنيا عبارة عن : ثوب أبيض من القطن ، صندل ، مكتب منخفض ، دواية حبر ، ريشة ، اثنين صغيرين من الفخار ، طبق من المعدن ، ثلاث ملاعق من أحجام مختلفة ، سكين ، نول يدوي للغزل ، عصا طويلة ، وردة حمراء موضوعة في كوب ماء ، كان يعتقد أن الفقر موجود لأننا نأخذ أكثر من حاجتنا .

ونجح « غاندي » في دعوته إلى المقاومة دون عنف . فلا أحد يشتري المنتجات الإنجليزية ، ولا أحد يدفع الضرائب ، ولا أحد يقاوم قوات البوليس والجيش وهي تقوم بحملات الإعتقال ، مما كان يحير الانجليز ويدهشهم ، فكيف يتعاملون مع تلك الملايين التي تسلم نفسها دون أدنى عنف ؟!

قال « غاندي » « لأن بريطانيا دولة حكيمة ، فسوف تترك الهند . سنخرج الانجليز دون رجعة بالحب والإرادة فقط . إلى الدرجة التي تجعل الانجليز أنفسهم يحبون هذا الخروج . »

فلسفة المرح

يجيء « غاندي » بنموذج جديد للانسان ونموذج جديد للثورية . نموذج لا تناقض فيه بين الثورة والرقة ، بين الثورة وروح السخرية والمرح ، بين الثورة والبساطة . والبساطة تبدأ بأن يبتسم الإنسان . وكذلك هي العظمة .

هذه الأمور - في رأي غاندي - ليست على هامش الثورية بل جزء أساسي وضروري في نسيج القدرة على الثورة . الانسان الثوري - أكثر من أي أنسان آخر - يحتاج إلى المرح . قال غاندي : « لو لم أملك القدرة على المرح ، لهزمتني أول مشكلة قابلتها » .

كان لا يجد غضاضة في مشاركة الناس الذين يسخرون منه ، يبادلهم النكتة دون أدنى شعور بالكراهية أو الحزن .

هذا المرح كان لغاندي ضروريا أيضا للحفاظ على صحة النفس وصحة الجسد .

لكن هذا المرح كان أبعد ما يكون عن السذاجة ، أو الاستجابة الضعيفة العفوية للمواقف . كان في جوهره ، انعكاسا لوعي « غاندي » العميق للتناقضات الاجتماعية ونضجه الانساني الحساس للناس والأشياء . وتذكر مثلا شهيراً على هذا . فقد دعى « غاندي » لحفل استقبال في قصر ملك الإمبراطورية البريطانية . وذهب بثوبه الأبيض الذي يكشف جسمه القصير النحيل . وسأله أحد الانجليز في الحفل باستنكار : « أهذه ملابس مناسبة للقاء الملك » . رد « غاندي » بابتسامة : « اطمئن يا صديقي فالملك يرتدي من الملابس ما يكفيني ويكفيك ويكفي كل المدعوين » .

التواضع .. الإنسانية

كان « غاندي » يرفض كل محاولة تضعه في مكانة القديس أو المالك لقوى خارقة لا يملكها البشر ، فعلى الرغم من قدرته على توحيد وتحريك ملايين الهنود ذوي الأجناس والديانات المتباينة وهو جالس على « حصيرة » ضد أعتى الامبراطوريات ، وعلى الرغم من تحوله إلى نوع من « التعويذة » التي تجلب الحظ السعيد ، وتفتح أصعب الأبواب ، إلا أنه كان يصر في كل مناسبة وموقف مع الناس على كونه انساناً عادياً جداً ، له كل أخطاء ونقائص البشر . ورسالته هي خدمة الهند والإنسانية جمعاء . ووصل به هذا التواضع إلى الحد الذي كان يجعله يسعد بالسجن والاعتقال والتعذيب من جانب جيش الاحتلال . لأنه سيحرر الناس من وهم أنه إنسان غير عادي . بل ويدفعهم إلى عمل شيء ، تجاه اعتقاله . فيكتسبون ثقة في أنفسهم ، وتستمر الحركة الوطنية الهندية ، بوجوده أو عدم وجوده . وهذا ما كان يتمناه . هذا التواضع ، لم يكن فقط نتاجا لإنسانية « غاندي » المرهفة ، بل وتعبيراً عن ثوريته الحقة في تحرير الهند وإسعاد ملايين الهنود رجالا ونساء . فهو لم يحلم بالشهرة أو السلطة أو المصلحة الشخصية التي تتخذ الوطنية ستاراً لها . لهذا لا نندهش إذا أطلق على « غاندي » المهاتما أي الروح العظيم .

تميز « غاندي » بحس إنساني راق ، جعله يضع عقل الانسان فوق كل موروث ، ويضع الإنسان فوق كل معنى ، ويضع المعنى فوق كل وطن .

لقد التقى مرة واحدة بالزعيم الهندي « طيلاق » الذي سأله « أيها تختار ، الهند أم الحق ؟ » . رد « غاندي » : « الهند والحق عندي مترادفان . لكن اذا خيرت ، سأختار الحق » . وعن رقته ، نجد أنه كان ينظر بعين العطف والتقدير إلى كل كائن في الطبيعة ، كان رقيقا تجاه الحيوانات ، فهي عن صيدها وذبحها للأكل ، وكان رقيقا تجاه كل فكرة أبدعها الإنسان للاصلح . كان رقيقا مع الذين يعادونه ، ومع رقته كان خصومه لا يجدون مفراً من احترامه وتقديره ، على الرغم من تهديده الواضح لمصالحهم . وحينما يخطب في الناس كان قمة في الرقة ، فلا ينفعل ، ولا يغضب ، ولا يسب الأعداء ، ولا يلوح بيديه في الهواء كما يفعل كثير من الخطباء « الثوريين » ، ولا يرفع صوته زعقا بالشعارات كعادة القادة . كان غاية في التهذيب والرقة والعقلانية .

النهاية ..

وتجيء المفارقة في حياة « غاندي » يوم ٣٠ يناير ١٩٤٨ في حديقة « بيت بيرلا » في نيودلهي ، حيث كان يصلي مع ألوف المصلين . المفارقة أن الانسان الذي كافح من أجل اللاعنف والمحبة والسلم ، والذي عاش على الرغم من أسلحة وجيوش الإمبراطورية البريطانية ، تقتله اثناء الصلاة ، رصاصة هندية متعصبة . □

منتهى الديمقراطية

● عندما وصل الجندي الأمريكي إلى أوروبا لأول مرة مع فرقته بعث الى أسرته يقول: كانت السفينة مثلا رائعا للديمقراطية، فإن الضباط وعددهم ١٣٠ كانوا يحتلون نصف السفينة بالضبط، بينما يحتل الجنود وعددهم ٣٠٠٠ النصف الآخر .



تبييض الأسنان

بقلم الدكتور ابراهيم أبو طاحون

مع تقدم عمر الإنسان أو تعرض أسنانه لعلاج أقنيتها الجذرية ، يتعرض لونها الطبيعي للتغير الذي ينجم عن الزيادة في سمك طبقة العاج في الحالة الأولى ، وفقدان المواد السنية لمائها بعد إزالة عصبها في الحالة الثانية .

وعدا عن التغير الطبيعي الخفيف هذا في لون الاسنان ، فكثير من العوامل الداخلية والخارجية يمكنها أن تحدث تلونا أشد فيها .

أسباب تلون الأسنان

يشكل تحلل العصب كنتيجة مباشرة لموته أكثر الأسباب شيوعا واعتيادا في تغير لون الأسنان ، خاصة إذا سبق ذلك تقيح العصب قبل تحلله ، ويظهر اللون الداكن للسن في هذه الحالة بعد بضعة أشهر فقط على موت عصبها ، كنتيجة مباشرة للمواد الملونة المختلفة التي تنتج عن تحلله ، والتي تتسرب إلى داخل الأنابيب السنية لطبقة العاج . ويشكل مثل هذا اللون الداكن العرض الرئيسي لتشخيص موت العصب في كثير من الأسنان التي لاتظهر أي أعراض أخرى بها .

الجروح الرضية

إن تعرض الأسنان لضربة ما قد يؤدي لإحداث نزيف في عصبها ، تكون نتيجته دخول مواد ملونة لداخل الأنابيب السنية ، حيث تحتفظ السن بلونها الداكن الذي يظهر عليها عقب تعرضها للضربة مباشرة ، حتى ولو حذف منها عصبها ، الأمر الذي يزداد سوءاً مع تقدم الزمن .

وإذا كانت الأضرار الرَّضية هذه تتعلق بأسنان أفراد شابة ، فيمكنها إحداث نزيف أكبر في أنسجتها العصبية ، وهجرة كريات الدم الحمراء لأنابيبها السنية التي يؤدي تحللها لإنتاج مواد ملونة ، يمكنها أن تسبب تلون مثل هذه الأسنان حتى وإن لم تتعرض أنسجتها العصبية للموت .

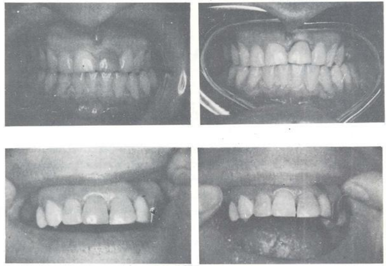
العصب ودوره في تلوّن الأسنان ؟

يشتكي كثير من المرضى من تلوّن أسنانهم ، وبخاصة الأمامية منها بعد قيامهم بعلاج أقنيتها الجذرية . إن التغير في لون الأسنان الذي قد يلاحظ في مثل هذه الحالات يعزى لأحد الأسباب التالية :

١ ـ تشبع عاج التاج بالدم نتيجة للنزيف الذي يعقب قطع العصب .

٢ ـ بقايا نسيج عصبي لم يتم حذفه من قناة العصب حيث يمكنه أن يتحلل مع مرور الوقت .

٣ ـ استعمال أدوية معقمة ومواد حشو القنوات الجذرية أو السن نفسها . وتجنب التغير في لون السن أو تحديد ذلك لأقل ما يمكن ، يتم إذا راعى الطبيب المعالج خلال عمله القيام بالفتح المناسب للسن والسيطرة على النزيف والغسل الوفير للقنوات الجذرية ، إلى جانب



أسنان قبل التبييض وبعد التبييض

تجنيه استعمال أدوية معقمة أو مواد حشوة من تلك التي تؤدي لإحداث تغير في لون السن المعالجة .

إن كثيرا من الأسباب الخارجية يمكنها أن تؤدي لتلون أسطح الأسنان ، فالتعاطي المزمن للأطعمة والمشروبات الملونة (الشاي والقهوة) واستعمال التبغ بطريقة التدخين أو المضغ تعد من العوامل الأساسية التي تساهم بذلك . ومع أن توقف نشاط هذه المواد يتم بالامتناع عن تناولها أو ما يسمى بالوقاية منها إلا أن تأثيرها قد يكون واضحا في كثير من الحالات إذا تسنى لها اختراق أنسجة العاج الرقيقة مما يجعل من إزالتها أمرا صعبا بعد ذلك .

استعمال « التتراسايكلين » والفلور

يؤدي استعمال بعض الأدوية مثل « التتراسايكلين » من قبل الحوامل خلال فترة الأشهر الخمسة الأخيرة للحمل أو خلال الطفولة المبكرة (في سن ٧ - ٨ سنوات) إلى تلون أسنان الطفل نتيجة لترسيب مواد ملونة خلال فترة تكّون المواد السنية . ويعد « التتراسايكلين » من المضادات الحيوية واسعة النشاط إلا أن بعض الباحثين قد تمكنوا بعد ١٢ سنة على اكتشافه من ربط نشاطه بتلون الأسنان لدى المرضى الذين كانوا يعالجون به جراء اصابتهم بمرض Cystic fibrosis . وتؤدي الزيادة في نسبة الفلور بماء الشرب كذلك إلى ظهور بقع يختلف لونها وحجمها في تاج هذه الأسنان حيث تعد عملية تبييضها بعد ذلك أمرا صعبا للغاية ، في مثل هذه الحالة . والعلاج الأمثل هو ، بمنع تناول الأطفال لماء الشرب الذي يحتوي على نسبة عالية من الفلور قبل سن الثامنة .

المواد المستعملة في تبييض الأسنان

على الرغم من أن كثيرا من المواد قد تم استخدامها بهدف نزع لون السن إلا أن الشائع منها في الاستعمالات :

١ ـ ال Perydrol وهو محلول فوق اكسيد الهيدروجين ٣٠٪ H_2O_2.
٢ ـ ومسحوق Soalium perborate.

وتعتمد آلية نشاطها على أكسدة المواد الملونة بوساطة الأكسجين الذي يتحرر منها. والفارق بينها يتمثل في الطريقة التي يتحرر بها الاكسجين الذي يتطلب رطوبة في الحالة الأولى وحرارة في الثانية.

طريقة التبييض

تختلف طريقة التبييض باختلاف حالة العصب من حيث كونه حيا أو ميتا، وأول الشروط التي يتوجب توافرها كي يتسنى للطبيب المعالج القيام بمثل هذه المهمة في حالة الأسنان التي تلونت نتيجة لموت عصبها، هو أن يسبق ذلك علاج القنوات الجذرية وحشوها حتى لا تسمح بتسرب المواد المستعملة ـ وبخاصة الاكسجين المتحرر ـ للأنسجة المحيطة بطرف الجذر، ويراعى في مثل هذه الحالات حذف مادة حشوة أقنية الجذور حتى ملليمترين تحت عنق السن. ويقوم الطبيب المعالج كذلك خلال جلسة التبييض بتنظيف تاج السن من كل أشكال التسوس والحشوات المعدنية.

ونظرا للحروق التي تسببها هذه المواد للأنسجة الرقيقة (الأيدي، مخاط الفم، الخدين الخ) وتغيير لون الملابس ـ إذا انسكبت عليها أو اتصلت بها ـ فإن ذلك يتطلب الحرص عند استعمالها من قبل الطبيب المعالج.

وتعد نتيجة التبييض مقنعة حين نحصل على لون السن، وأفتح من ذلك للمجاور أو للمقابل له. ومثل هذا القدر من التبييض ضروري حيث ستكتسب السن لونها الطبيعي مع مرور الوقت ويمكن الحصول على مثل هذه النتيجة بعد ٣ ـ ٤ أيام من نهاية الجلسة الأولى، وإذا لم يكن ذلك ممكنا فتتم إعادة الطريقة ٣ ـ ٤ مرات، وفي حالة فشل التبييض بعد كل ذلك فيمكن أن تعد السن في هذه الحالة غير قابلة للتبييض.

ويمكن القول بأن توقعات أفضل لنجاح التبييض يمكن احتسابها في أسنان الأفراد الشابة، بينما يعد ذلك أصعب في حالة الأسنان الملونة بسبب تناول «التراسايكلين» وذلك لصعوبة دخول مواد التبييض للطبقات العميقة للمادة السنية حيث تتراكم الترسبات الملونة.

وجدير بالذكر أن الصعوبة نفسها توجد في الأسنان التي تحوي شقوقا في تاجها والتي تدخل إليها بقايا أطعمة أو تتلون بفعل التدخين، حيث يستلزم في معظم هذه الحالات إعادة عملية التبييض نظرا لعودة التلوث الثانوي مرة أخرى.

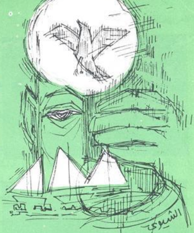
التلون الثانوي للأسنان

قد يتعرض لون السن للانتكاس بعد فترة زمنية على نجاح تبييضه، ويمكن ملاحظة ذلك بعد ٣ ـ ١٢ شهرا على تبييض السن بسبب دخول مواد مختلفة للأنابيب السنية من الداخل أو مواد ملونة مختلفة لطبقة المينا من البيئة الفمية وهو الأكثر احتمالا.

وتصل نسبة التلون الثانوي إلى ٦٦,٦٪ وتعتمد على الحفر السيء للسن، ولأجل ذلك فالحشوة الدائمة للسن التي تعقب نجاح التبييض تعد عاملا مهما وحاسما في الوقاية من التسوس الثانوي مما يحتم على الطبيب المعالج اتخاذ بعض الاجراءات، وأهمها تجنب حشو هذه الأسنان بالفضة ومواد أخرى من تلك التي تملك عامل انكماش عال □

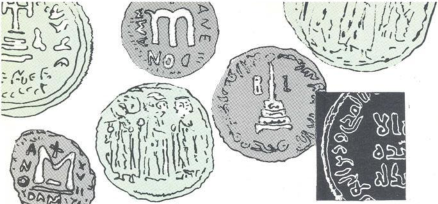
* الحلم هو أكبر دليل على النبل. «شكسبير»

سقوط الأقنعة



شعر : محيى الدين فارس

قراصنة البحر عادوا ،
معاهدة الحب بين التماسيح والقُبّرات انتهت ،
والمحيطات
تجفل ،
ترتج ،
تركض في الريح ،
كل النوارس ترحل ،
كل المحطات ترحل ،
أرصفة الشاطيء المتربة ،
فكل الموانيء محدودبة ،
ونوح المواويل في لهوات الرعاة يموت !!
وكل المناديل عند الرحيل منكسة ،
وعيون الفنارات مثقوبة ،
وخطا الريح تتبعني منذرة ،
دعيني ،
فإن الطريق إلى فتحات المغارة
تسوره غابة الليل
مسكونة بأفاعي الحجارة ،
دعي وجهك الداخلي
يحدق في وجهي الداخلي ،
انثريني على شرفة الفجر « شال » حرير
وبيرق حزن نبيل ،
فأوجهنا الخارجية زيف ،
وكل الموانى الجميلة لاتستبيني
سوى مرة واحدة ،
دعيني
قد امتلأ الليل بالصمت
والريح في بيتها راقدة
تلفت
كل المدائن مسكونة بالرحيل
وحراسها نائمون
وموج الجراد توارى
فما في الحقول سوى الحسك المر
يملأ وجه الصحارى
وما في « البيادر » غير « البيادر » والأغلفة
تراقصها الريح حينا وتمضي
تبعثر أشلاءها الخائفة ،
دعيني
محطاتنا دوئما قادمين
ومرساتنا ترهب العاصفة .



تعريب الدينار

بين القراطيس والروايات والحقيقة

بقلم/ عبدالغني محمد عبدالله

إن تشابك الاقتصاد العالمي في العصر الحديث أزمة في حد ذاته ، انخفاض حاد في عملة بعينها ، يحدث ارتباكا في كل العملات الدائرة في فلكها المتأثرة بها . كل يوم تنقل لنا وكالات الأنباء فيضا من أخبار الكوارث المالية ، وانخفاضات أسعار العملات وارتفاعها . في هذا المقال استعراض حالة مماثلة عند بداية الدولة الإسلامية .

كان إقدام الخليفة عبدالملك بن مروان على تعريب السكة والدواوين خطوة صحيحة في الاتجاه القومي ، فبعد أن قضى على المشاكل التي واجهت الدولة الإسلامية ، وبعد أن أعاد توحيدها ، التفت نحو أوضاع جديدة تؤكد وحدة الدولة وعروبتها . ومن هنا كانت خطواته نحو التعريب في موضوعين من أهم الأسس القومية وأخطرها ، اللغة والاقتصاد .

عبدالملك بن مروان هو الخليفة الأموي الخامس الذي ولي الخلافة بعد أبيه خلال الفترة بين عامي ٦٥/ ٨٦ هـ ، ويعد المؤسس الثاني للدولة الأموية . وقد كان إداريا من الطراز الأول ، وحد الدولة واتجه بها من نجاح إلى آخر .

وبعد عودة الوحدة الإسلامية عادت الثقة للإدارة الأموية ممثلة في عبدالملك ، فاندفع من جديد بالإدارة الإسلامية في الداخل إصلاحا ودعما وتطويرا ، وإلى الحدود في حركة فاتحة جديدة أضافت المساحات الواسعة للدولة ، واستمرت هذه الحركة بزخمها القوي طيلة عهدي ولديه الوليد وسليمان .

وكان من جملة أعمال عبدالملك داخل الدولة



دينار عربي كامل
من عام ٧٨ الهجري .

أعمال كثيرة ذات أثر وتأثير في تاريخ العالم الإسلامي بعامة والعربي بخاصة ، مثل حركة التعريب ، تعريب الدواوين ، حيث أصبحت العربية هي اللغة الرسمية ، مما كان له أثر فعال وقوي في مسار حركة القومية العربية ، ومازال أثره ممتدا إلى اليوم .

وتعريب الدينار بدوره أثر بشكل كبير في الاقتصاد وتعريبه ، وقد تعرضت النقود العربية الإسلامية عموما لعملية التعريب على عدة مراحل ، حيث مر كل من الفلس والدرهم والدينار بمراحل مختلفة ، حتى وصل إلى التعريب الكامل . وسنأخذ الدينار كمثال على إمكانية التعريب ، حيث أن تعريب الدينار لم يتم إلا بعد ردح طويل من الزمن منذ نشأة الدولة العربية الإسلامية ، ولم يصادف تعريبه نجاحا كاملا في عهد عبدالملك بسبب إصراره على تخليص الدينار من الدوران في فلك الاقتصاد البيزنطي معتمدا على حنكته السياسية وإرادته القوية وإدارته الحازمة .

وقد أرجع المقريزي تعريب الدينار إلى عام ٧٦ الهجري، وكانت روايته هي الرواية التي تحمل ظل الحقيقة ، وذلك بسبب دعم أثرى متمثل في وجود دنانير مسكوكة في ذلك العام داخل المتاحف . وخضعت لعدة دراسات أثرية وفنية وتاريخية أثبتت صدق سكها في ذلك التاريخ ، إلا أنه مع الأيام ظهر دينار جديد يعود إلى عام ٧٤ الهجري ، قلب نظرية المقريزي رأسا على عقب ، وهو أمر سنتعرض له بعد قليل .

وقد أقدم عبدالملك على التعريب كخطوة قومية لعدة أسباب ، منها رغبته في جعل حق ضرب السكة للدولة الإسلامية ، خصوصا أنه بعد الاستقرار السياسي للدولة الإسلامية حدث استقرار اقتصادي وإداري ومالي ، مما استدعى تواجد سكة عربية إسلامية ، وأصبح لا داعي على الإطلاق أن تخضع دولته الجديدة للدينار البيزنطي أو للدوران في فلكه .

هذا إلى جانب أن عبدالملك أراد أن يعيد حق ضرب السكة إلى الخلافة بعد أن كان بعض الولاة خلال فترات الانقسام في الدولة قد أقدموا على ضرب سكة خاصة بهم ، وهو أمر كان يحدث فوضى اقتصادية في الدولة ، الأمر الذي كان لابد من ضبطه .

وقد سار في ذلك ببطء وحذر شديدين ، حتى لا يصيب السياسة المالية بهزة عنيفة قد تتعرض لها في أعقاب هذه الحركة الإصلاحية الكبيرة فيما لو كانت مفاجئة .

واختلف المؤرخون في دوافع التعريب ، فقد روى البيهقي في المحاسن والمساوىء ، والدميري في حياة الحيوان ، والبلاذري في فتوح البلدان ، والمقريزي في شذور العقود ، وأبو المحاسن في النجوم الزاهرة ، رووا جميعا عدة روايات حول أسباب التعريب ، يمكن إيجازها في روايتين :

الرواية الأولى

تشير الأولى إلى أن « القراطيس » ، وهي أوراق البردى التي كانت تصنع في مصر ، وتصدر إلى البلاد المجاورة ، ومنها الدولة البيزنطية ، وكانت هذه القراطيس قبل الفتح الإسلامي تحمل علامة التثليث في العقيدة المسيحية « بـاسم الاب والابن وروح القدس » ، وهي العقيدة التي أشير إليها في انجيل متى آخر الاصحاح ٢٨ .

واستمرت هذه الإشارة توضع على القراطيس التي يتم تصديرها إلى الدولة البيزنطية بعد الفتح الإسلامي لمصر ، ولما جاء عبدالملك بن مروان للخلافة أمر واليه على مصر عبدالعزيز بن مروان بتغيير هذا الشعار ليتفق مع روح الإسلام ، وليصبح بعلامة التوحيد « شهد الله أنه لا إله إلا هو » .

وموجز قول المؤرخين أنه لما وصلت هذه القراطيس بالشعار الجديد للدولة البيزنطية فإن امبراطور الروم جستنيان الثاني هدد عبدالملك بأنه مالم يرفع شعار التوحيد فإنه ـ الامبراطور البيزنطي ـ سيأمر بكتابة عبارات تسيء إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على الدنانير الذهبية .

وبسبب ذلك التهديد غضب عبدالملك واستشار أهل الرأي من المسلمين في دولته ، فأشاروا عليه بتجاوز ذلك المأزق بضرب النقود العربية الإسلامية ، وعليها شهادة التوحيد والرسالة



وجه دينار عليه صورة عبدالملك متقلدا سيفه .

المحمدية ، مع صب صنج السكة من زجاج لا تستحيل إلى زيادة أو نقصان حتى يتم تعيير هذه النقود عليها وتضبط أوزانها وفقا لهذه الصنج .

الرواية الثانية

صحيح أنه قام خلاف بين عبدالملك وجستنيان ، ولكنه كان لسبب آخر ، وهو أن الدولة الأموية كانت تتعرض لهجمات متتالية من البيزنطيين على الحدود فيما يسمى بغارات « الجراجمة » ـ وهم جند غير نظاميين ، عملاء للدولة البيزنطية ، كانوا يسمون بالمردة ـ وقد عقد بين عبدالملك وجستنيان الثاني في سنة ٦٧ هجرية معاهدة تنص على نقلهم من على حدود الدولة الإسلامية « الحدود الشمالية » إلى داخل الدولة البيزنطية نظير دفع اتاوة قدرها (١٠٠٠) ألف دينار ذهبي . والمشكلة التي أثارت الخلاف نشأت بعد تعريب الدينار ، وهي بأي نوع من الدنانير تدفع هذه الاتاوة ؟ هل بالدينار الاسلامي الذي ترفضه الدولة البيزنطية أم بالدينار البيزنطي الذي ترفضه الدولة الإسلامية ؟ وعندئذ نشأ الخلاف .

والرواية الثانية كما نرى لا تصلح سببا للتعريب ، بل يصح أن نعدها نتيجة من نتائج التعريب ، ولذلك فهي رواية لا نعول عليها كثيرا .

وعلى ذلك يجب أن ننظر إلى التعريب على أنه أمر طبيعي ، وواضح أنه كان لحاجة قومية ملحة ، واستكمالا لحلقات نحو حتمية تاريخية ، وخطوة كان لابد منها .

والروايتان فيما أعتقد ضعيفتان ، إذ لا يعقل أن يقوم المؤسس الثاني للدولة الأموية بتعريب الدينار بسبب تهديد من جستنيان لعبدالملك بنقش عبارات تسيء إلى الرسول الكريم ، فعلى الرغم من بشاعة ذلك والانزعاج الشديد الذي كان سيصيب المسلمين فيما لو حدث فإنه كان يمكن تفادي ذلك بجعل شعار العقيدة المسيحية على القراطيس التي يتم تصديرها للبيزنطية فقط أو للدولة المسيحية فقط ، ولهم دينهم ولي دين ، وجادلهم بالتي هي أحسن حتى تتهيأ

ظروف التعريب ، إنما إقدام عبدالملك على التعريب دليل على الاستعداد والتخطيط والثقة من النجاح .

أما بالنسبة للأتاوة فلم يكن عبدالملك هو الذي سيعجز عن تدبير (١٠٠٠) ألف دينار بصورة الامبراطور وولديه ليتحاشى موقف نقض المعاهدة ، وهو أمر سهل يسير أن يشترى هذه الدنانير من الأسواق الخارجية ، أو يتم سك الألف دينار في دور الضرب الإسلامية ، وبخاصة أن أدوات السك كانت موجودة ، والسكاك نفسه كان موجودا ، وبعدد يكفي لإجابة طلب الامبراطور .

إنما الحقيقة أن سبب التعريب يتجاوز مثل هذه الروايات البسيطة في صورتها ، القليلة في معناها ، والتي لا تصلح أن تدفع عبدالملك للاتجاه نحو خطوة قومية كتلك الخطوة الكبيرة .

ولو قلنا إن تعريب الدينار كان بسبب احدى هاتين الروايتين فماذا نقول في تعريب الدواوين ؟ هل كان لأسباب مماثلة ؟ وهل يعقل أن تكون دوافع عبدالملك للتعريب - تلك الخطوة التاريخية الكبرى - هذه الأسباب القليلة الأهمية ، بل نقول التافهة مقارنة بالحدث الكبير ؟

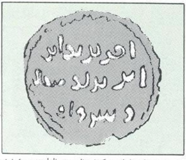
إن عبدالملك قد أنجز واحدا من أهم الأعمال في التاريخ العربي الإسلامي ، فقد غير مسار الاقتصاد في دولته إلى الاتجاه المعاكس تماما :

١ - جعل دور السك تابعة للدولة .

٢ - قام بتعريب النقود تعريبا كاملا .

٣ - أبعد النقود العربية الإسلامية عن الدوران في فلك النقد البيزنطي أو الارتباط بأسعاره أو أوزانه أو عياره .

أما قصة القراطيس ذات الشعار الإسلامي فقد كانت تذهب من مدة للقسطنطينية . وتطور الدينار نحو التعريب بدأ في وقت مبكر ولم تعترض الدولة البيزنطية واعتراضها جاء في النهاية بعد *احلال صورة عبدالملك بن مروان محل صورة* الامبراطور وولديه .



واحدة من النقود التي سكها خالد بن الوليد « ٤٠ نميا »

مراحل تعريب الدينار :

لفظة « الدينار » جاءت مشتقة من لفظة يونانية ولاتينية هي (Denarius - Aureus) وهي وحدة سك « مسكوكة » من الذهب استخدمها العرب قبل الإسلام وبعده ، وقد وصلت إلى العرب كوحدة نقدية أو كلفظة عن طريق الرومان ، لأنهم كانوا متواجدين في الشام ومصر . وهي مناطق كانت في متناول يد عرب شبه الجزيرة ، ومحطا لأسفارهم ، وسوقا لتجارتهم ، فضلا عن أن سكان هاتين الجهتين هم أصلا من العرب الذين هاجروا إلى هاتين الجهتين في هجرات تاريخية متتالية منذ أقدم العصور من شبه الجزيرة العربية حسب أقوال غالبية المؤرخين . وقد أشار القرآن الكريم إلى لفظ الدينار في سورة آل عمران/ ٧٥ .

(وَمِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بقنطارٍ يُؤَدِّهِ إليكَ وَمِنْهُم مَّنْ إنْ تَأْمَنْهُ بدينارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إليكَ) .

وقد تعاملت الأقاليم الغربية « بالنسبة للعرب » بالدينار الذهبي ، وهذه الأقاليم متمثلة في الشام ومصر والشمال الافريقي ، تابعين في ذلك لكل أقاليم الامبراطورية الرومانية الشرقية « الدولة البيزنطية » وذلك لعدة أسباب ليس هذا مجال سردها ، فذلك أمر يتعلق بعلم المسكوكات . المهم أن النقود الذهبية كانت سائدة في مصر وسوريا ، وهو أمر قبله العرب بعد الفتح ، ودون البحث في أسبابه أو في العمل السريع لتغييره .

المراحل الأولى للتعريب :

اقتضت حكمة العرب بعد الفتح أن تستجيب لشعور الشعوب العربية ، سواء من العرب الفاتحين أو العرب المحررين المفتوحة بلادهم ، المتعاملين جميعا قبل الإسلام وقبل الفتح بالدينار الذهبي ، بشكله ورسمه ونقشه وسكه البيزنطي . وقد تم للعرب في الاستجابة لذلك الشعور :

١ ـ ضرب الفلوس النحاسية بصورة الامبراطور البيزنطي وبعض الشارات المسيحية مع بعض الكتابات العربية في أول الأمر .

٢ ـ ضرب الدنانير الذهبية على طراز الفلوس النحاسية البيزنطية بصورة هرقل وولديه هرقليوناس وقسطنطين .

وكان الدينار البيزنطي المضروب في مدينة الاسكندرية خلال بداية العصر الإسلامي بنفس الشكل مع التخلص من بعض الشعارات المسيحية وعليه الحرفان (I/B) ، مع تبديل وضعهما فصار (B/I) ، وتم استبدال الصلبان التي كانت تعلو التيجان فوق رءوس العائلة الامبراطورية أو فوق عصي المطرانية التي في أيديهم بشكل الحرف اللاتيني (T) ، بعد إلغاء الذراع العلوية التي يستكمل بها شكل الصليب ، ثم تحور أكثر بعد ذلك فصار كرة فلكية مع إحاطة ذلك كله بعبارات التوحيد المسجلة بالخط الكوفي . ويلاحظ هنا بقاء صورة الامبراطور وولديه على الرغم من أن دار السك كانت إسلامية



ظهر دينار بيزنطي قديم .

والعمال خاضعين للحكم والإشراف الاسلامي ، كما أنه يجب الانتباه إلى أن الدولة البيزنطية لم تعترض على ذلك التغيير في الشكل الذي لم يمس جوهر الضرب أو السك ، ولم يعترض جستنيان الثاني ، خصوصا أن ذلك كان مألوفا في ضرب الفلوس النحاسية قبل عهد عبدالملك

الخطوة الثانية :

جاءت الخطوة الثانية في شكل « دراماتيكي » حاد ، حيث قام السكاك المسلم بمجرد أن صدرت إليه الأوامر باستبدال صورة الامبراطور وولديه بصورة عبدالملك بن مروان متقلدا سيفه ، مع الإبقاء على بعض التأثيرات السابقة ، مثل العمود القائم على المدرجات الأربعة على ظهر الدينار ، وأصبح الدينار الجديد يقرأ على النحو التالي :ـ

الوجه : صورة عبدالملك بن مروان متقلدا سيفه .

الظهر : كتابات على الطوق « هامشية » نصها التالي :

« بسم الله ضرب هذا الدينر سنة ست وسبعين » أو « سبع وسبعين » . ولاحظ أن الكتابة دون نقط ودون مد ، ولذلك كتب « الدينر » وليس الدينار .

هذا الدينار أثار معارضة شديدة داخلياً وخارجيا بسبب نقش صورة عبدالملك ، وهو ما أشار إليه المقريزي من أن الاعتراض الداخلي جاء من جانب بعض الصحابة الذين لم ينكروا إلا نقش صورة الخليفة ، وهو أمر إن كان قد حدث فإنه كان من ضمن الكراهية المعروفة للتصوير في الإسلام ، ولكن الملفت للنظر أن هذه الكراهية لنقش الصورة على الدينار لم تكن موجودة خلال عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث أن الدينار الذي كان محل التعامل هو الدينار البيزنطي المنقوش عليه صورة الامبراطور وولديه ، وكذلك بالنسبة للدرهم ، حيث كان منقوشا عليه صورة كسرى يرتدي تاجا مجنحا . ولم تحدثنا المصادر أو المراجع عن أي اعتراض أو حتى نقاش حول تلك القضية . ومن المعتقد أن تلك الكراهية إبان عصر عبدالملك لم تكن

أكثر من رأي خاص اعتنقه بعض العلماء وشراح الشريعة الإسلامية وحاولوا جعله قانونا ملزما ، إلا أنه لم يكن كذلك في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية ، هذا بالإضافة إلى أن صورة عبدالملك كانت تقليدا لصورة الامبراطور ووليديه من حيث المعنى . ولا نريد أن ندعي أنها كانت عنصرا فنيا سابقا ، إذ أن السبق الفني هنا لا يجب تجاوزه أو الالتفات عنه ، وعلى الرغم من أن الفنان المسلم قد لجأ إلى التجريد في أول الأمر ، فحذف الكثير من التفاصيل المسيحية ، واستبدل عصا المطرانية التي كانت في يد الامبراطور بالسيف في يد عبدالملك دلالة على الخلافة أو علامة على السلطة ، إلا أن هناك بعض الشبه بين ذقن عبدالملك وذقن الامبراطور وبين ملابس كلا منهما ، وهي عناصر فنية يجب الالتفات إليها وعدم تجاهلها ، فالمدرسة الفنية مستمرة مع التغيير المستمر لتتلاءم والعقيدة الجديدة .

وكان هذا الدينار المنقوش بصورة عبدالملك هو سر الخلاف الذي وقع بين عبدالملك وجستنيان الثاني ، واشتد الخلاف ووصل إلى درجة الأزمة ، إذ أن ذلك كان للمرة الأولى ، ولذا فقد كان جستنيان يدافع عن حق « من وجه نظره » بشكل قاعدة عامة يجب احترامها ، في حين رأى عبدالملك أن هذا الحق قد تجاوزه الزمن ، وأن هناك قواعد جديدة يجب أن تسود على أرض الواقع ، وكان ذلك أيضا سببا في فسخ معاهدة سنة ٦٧ هـ بين بيزنطة ودمشق بسبب الاتاوة التي تدفع ، وهل تدفع بدنانير بصورة عبدالملك أم بصورة الامبراطور ، وقد حاول عبدالملك اقناع الامبراطور بسداد تلك الاتاوة بالدنانير الجديدة ، إلا أن الامبراطور رفض ذلك بشكل حاد على الرغم من أن وزن الذهب كان مساويا والعيار لم يختلف .

استمر الاصلاح مدة أربع سنوات ، وقد بدأ سنة ٧٣ هـ ، وقد تمت أهداف عبدالملك بتعريب الدينار بشكل كامل سنة ٧٧ هـ ، وهنا احتلت الكتابات العربية وجهي الدينار ، واختفت العلامات السابقة كالمدرج والقائم حتى صورة عبدالملك نفسه قد اختفت هي أيضا وصار وضع الدينار كالتالي :-

الوجه : الهامش : (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) .

المركز : السطر الأول : لا اله إلا .

السطر الثاني : الله وحده .

السطر الثالث : لا شريك له .

الظهر : الهامش : بسم الله ضرب هذا الدينر سنة سبع وسبعين . المركز : السطر الأول : الله أحد .

السطر الثاني : الله الصمد .

السطر الثالث : لم يلد ولم يولد .

رأي جديد :

الجدير بالذكر أنه كان من المعتقد أن صورة عبدالملك لم تظهر على الدينار إلا سنة ٧٦ هجرية حسب رواية المقريزي إلا أن « وولكر » و « جورج ميلز » حصلا على دينار يعود إلى عام ٧٤ الهجري ، مما جعل هذه القطعة النقدية الذهبية أقدم قطعة دينار إسلامية ، وهي تحمل صورة عبدالملك وعبارة « بسم الله ضرب هذا الدينر سنة أربع وسبعين » . وبظهور دينار سنة ٧٤ هـ بدأ علماء الآثار يضعون روايات البلاذري وابن هشام وابن خلدون ويضعون أيضا آراءهم التي تشير إلى ضرب السكة الإسلامية سنة ٧٤ هـ على يد عبدالملك موضع التقدير ، حيث كانت آراؤهم السابقة دون دليل أثري يدعمها في السابق ، أما حاليا فهناك دعم قوي يثبتها ويلبسها ثوب الحقيقة . □

* التفاؤل في الحياة بأسمى معانيه، هو الموقف الذي يتخذه انسان ما عندما يقال له إن شخصا ما يكرهك، فيجيب أنا لا أصدق ذلك لأني أحبه .

اعداد : يوسف زعبلاوي

أقراص الاجهاض إنجاز علمي كبير لكنه سلاح ذو حدّين

كثيرا ماتحمل المرأة ضد رغبتها ، أو على الرغم من ارادتها ، وكثيرا مايكون حملها خطرا على صحتها أو حياتها ، ولامفر لها في مثل تلك الحالات من أن تبحث عن وسيلة للاجهاض ، ولكن وسائل الاجهاض المتاحة **إما وسائل** قديمة ، كانت (ومازالت) شائعة منذ أيام القرون الوسطى ، كتناول المخدرات ، لاسيما عصارة العنب (Hemyseed)أو مشروب الجن المخلوط ببرادة الحديد ، وما الى ذلك من وسائل غير آمنة وغير فعالة ، **وإما بالعملية** الجراحية ، وهي محظورة في أكثر البلدان ، وكثيرا ماتجري في السر بأجور باهظة ، ومعنى هذا أن الحامل تكون عرضة لمخاطر الجراحة والتخدير وهي مخاطر عادية ، ولمخاطر أخرى غير عادية تترتب على كون العملية محظورة أو غير شرعية ، يتجنبها الجراحون المتخصصون .

لاغرابة إذن إن تطلع الناس جميعا الى عقار جديد يضع حدا للحمل ويؤدي الى اجهاض الحامل بيسر وفاعلية دون مضاعفات ، ولعل الحاجة الى مثل هذا العقار ازدادت الحاحا في الغرب في المدة الأخيرة ، نظرا لانتشار حوادث الاغتصاب فيه ، ولتكاثر الحوامل بين الفتيات الصغيرات السن ، وطالبات المدارس .

ولاعجب إذن إن قوبل عقار الاجهاض الجديد بحماسة وترحيب ، أما الدولة التي طورته فهي فرنسا . وقد بدأت القصة سنة ١٩٨٢ حين اكتشفه الباحث الفرنسي اتيين بوليو . وقد أشارت (العربي) الى ذلك في حينه ، وتولت شركة أوكلاف روسل أعمال تطويره ، واجراء التجارب عليه حتى شهر اكتوبر الماضي (١٩٨٨) ، حيث تم اقرار العقار في فرنسا وفي الصين أيضا ، وحظى بالترخيص الرسمي في هاتين الدولتين دون أي تأخير ، هذا والعقار الذي نزل الى الأسواق في الخريف الماضي يصنع حاليا على شكل أقراص ، ويعرف بالاسم التجاري مايفبرستون (Mifepristone) ، وان كان اسمه المخبري السابق هو الأكثر شيوعا وهو (RU486) . وغني عن البيان أن أقراص الاجهاض الفرنسية كانت موضع ترحيب المجلات العلمية والطبية دون استثناء ، وقد قالت فيها مجلة نيوانجلند الطبية : « لامفر من أن يصبح الاجهاض وسيلة من وسائل تحديد النسل بعد ظهور أقراصه الفعالة الآمنة » .

ولكي نفهم فاعلية اقراص الاجهاض هذه علينا أن نذكر هرمون



العالم الذي طوّر أقراص الاجهاض

البروجسترون ، فهذا الهرمون الذي تفرزه المبايض هو الذي يحافظ على المناخ المناسب الذي يتطلبه الحمل داخل الرحم ، فاذا تعرض هذا الهرمون لما قد يكبح فاعليته أو يحول دون انتاجه أصلا تعذر الحمل أو انتهى أمره ، وعندئذ تنسلخ من الرحم بطانته**وتطرد الى الخارج** ، ويطرد معها الجنين ، ويكون الاجهاض .

فأقراص المايفرستون الفرنسية تتسبب بالاجهاض تبعا لكبحها فاعلية الهرمون المذكور . وتجدر الاشارة هنا الى أن هناك أقراص اجهاض أخرى صنعتها هولندة لاحقا ، وسمتها ايبوستين EPOSTANE ، تمنع افراز الهرمون في المبايض أصلا ، وتؤدي الى الاجهاض .

وتؤكد التجارب أن فاعلية الأقراص الفرنسية لاتقل عن ٩٥٪ ، على أن يكون تناولها في غضون الأسابيع الخمسة الأولى من بداية الحمل ، أما اذا كان تناولها في الاسابيع ٥ ـ ٨ من بداية الحمل فان فاعليتها تنخفض الى نسبة ٨٤٪ ، وقد تنقص فاعليتها أكثر من ذلك اذا لم يقترن تناول أقراص الاجهاض بتناول اقراص أخرى مساعدة هي أقراص البروستاجلاندين Prostaglandine ، فهذه الأقراص تساعد على انقباض الرحم ، وتضمن لأقراص الاجهاض الفاعلية الكاملة .

على ان أقراص الاجهاض ليست بلا آثار جانبية ، فهي تسبب نزيفا في بعض الأحيان ، ولكنه نزيف غير خطير . وقد تفشل الأقراص في احداث الاجهاض ، لكن فشلها قليل ، لاتتجاوز نسبته ٥٪ ، وفي هذه الحالات التي تفشل فيها تصبح عملية الاجهاض الجراحية ضرورة حتمية ، وهذا يصدق على كلا العقارين ، الفرنسي والهولندي .

بقي ان نشير الى مالقيته أقراص الاجهاض من ترحيب دولي ، وما اصطدمت به من عراقيل ، فمن جهة راحت الدول المتقدمة تقبل على اقرار الاقراص على الرغم من غلائها ، وبدأت منظمة الصحة العالمية تعد العدة لتوزيعه على نطاق واسع في شتى الدول النامية ، ومن جهة أخرى قامت الهيئات التي تعارض الاجهاض من حيث المبدأ ـ وهي في الغالب هيئات دينية كاثوليكية أو هيئات ذات نفوذ كبير في ميدان الصحة في الولايات المتحدة الامريكية ـ باعلان الحرب على هذه الاقراص ، وقد وجهت تهديدا صريحا وواضحا الى الشركة الفرنسية المصنعة بمقاطعة منتجاتها كلها اذا لم تتوقف عن انتاج أقراص الاجهاض .

■■□□

المــواد الدهنية خطر على صحة الإنسان

قد لايخطر ببال أن الاطعمة الدهنية أخطر على صحة الانسان من الادمان ، فالخمرة مسؤولة عن مرض واحد هو تشمع الكبد ، أما المأكولات التي تحتوي على نسبة كبيرة من الدهنيات (خاصة المشبعة منها) فمتورطة فيما لايقل عن عشرة من الامراض الفتاكة .

تلك هي الحقيقة الكبرى التي كشف عنها التقرير الذي صدر عن كبير الجراحين في واشنطن في شهر اغسطس الماضي (١٩٨٨) بعنوان « الغذاء والعافية » ، وهو تقرير ضخم في (٧١٢) صفحة ، يتميز بالشمول والاحاطة . وقد اشترك في اعداده (٢٠٠) طبيب واختصاصي في التغذية ،

وقد بلغ عدد البحوث والدراسات العلمية التي اعتمد عليها التقرير (٢٠٠٠) دراسة مستقلة ، اضف الى ذلك انه أول تقرير من نوعه يصدر عن دائرة كبير الجراحين في الولايات المتحدة ، وقد صدر عنها عدة تقارير عن التدخين والادمان الخ ، اما عن الغذاء والطعام فهذا هو التقرير الاول .

وهذا التقرير موجه الى الشعب الامريكي في المقام الأول ، لكنه موجه ايضا الى كل الشعوب الأخرى وإلينا نحن العرب ، ما دمنا نحرص اشد الحرص على تناول الاطعمة الدهنية .

فنحن مولعون بالسمن البلدي وأكثرنا ان لم يكن كلنا نقبل على شرائه باسعار خيالية ، ونرفض رفضا قاطعا استبداله بزيوت نباتية ، ونحرص على أكل ألية الخروف مشوية وغير مشوية ، وعلى ألاتطهى الكوسا المحشية بسواها ، ونبدو في ذلك كله كأننا نفضل لذة الطعام الزائلة (إن كان ثمة لذة !) على نعمة الصحة الباقية . حتى اذا أصابتنا الأمراض الخطيرة ، واعترتنا الآلام المبرحة ، ندمنا حيث لاينفع الندم . ومازال في الامكان تجنب الاطعمة الدهنية والتخلص من تلك الأمراض والآلام .

ومما يذكره تقرير كبير الجراحين من تلك الامراض ضيق الشرايين وتصلبها ، فهذا المرض يحد كثيرا من كمية الدم الجارية في الأوعية ، وغالبا ما يترتب عليه تراكم الرواسب في الشرايين . ويذكر منها أمراض القلب التاجية والسكتة ، هذا بالاضافة الى مرض السكري ، وعدد من أمراض السرطان المختلفة .

وحسبنا مايشير اليه التقرير من أن ألوان الطعام التي يأكلها الناس هي المسئولة عن موت الكثرة الغالبة منهم . وقد أثبتت احصاءات أمريكية سنة ١٩٨٧ أن ٦٦٪ من الوفيات - ٢,١ « مليونا » حالة وفاة - كانت تعزى الى ألوان الطعام الدهنية أو غير السوية .

ويذكرنا التقرير بالاطعمة البديلة ، بزيت الذرة وغيره من الزيوت النباتية ، وبالاسماك والألبان المقشودة القليلة الدسم ، كما يذكرنا بالحبوب والخضروات والفواكه .

■■□□

فقرات من الفولاذ

● نشرنا في الصفحة (١٢٩) من عدد سبتمبر الماضي (رقم ٣٥٨) خبرا عن الدكتور شفيق جودة الزيات وعن العملية الجراحية التي أجراها لفتى كويتي واستبدل فيها بعض فقرات عموده بفقرات أخرى صنعها من الفولاذ وقد اتصل بنا الكثيرون يطلبون عنوان الدكتور الزيات حين لم يكن لدينا عنوانه . ويطيب لنا الآن أن نفيد كل من يهمه الأمر أن الدكتور الزيات يعمل طبيبا في المستشفى العسكري في البصرة ، وأن له عيادة خاصة في حي الجبانية في المدينة ، وقد كان في الفترة الماضية في أمريكا يقضي إجازة بحث ودراسة طويلة . □

سلامة البشرية في سلامة البيئة

التلوّث الداخلي

يعجب المرء للثورة البيئية التي مضى على ظهورها في أوربا نحو ٤٠ عاما ، والتي لم تكتشف إلا نوعا واحدا من التلوث ، هو التلوث الخارجي ، سواء أكان تلوث بحار أم هواء أم تلوث تربة ، أما التلوث الداخلي - تلوث جو المباني المأهولة - فقد غفلت عنه الثورة البيئية تماما طوال السنوات العديدة الماضية حتى شهور صيف ١٩٨٨ .

تكاثرت شكاوى موظفي الدوائر الحكومية والشركات ، وتكاثرت أسباب الشكاوى التي شملت الصداع والعيون الدامعة والأنوف السيالة والشعور بالتثاقل في الرأس والشعور بالاستياء (القرف) في أواخر ساعات الدوام ، وأثبتت الدراسات أن هذه كلها أعراض لآفة واحدة ، هي آفة التلوث الداخلي .

واندفع سبعون من أولئك المتذمرين ، وساروا في مظاهرة أمام مكاتب وكالة البيئة في واشنطن (دي . سي) وهنا بدأ المسؤولون في هذه الوكالة - وفي غيرها من الدوائر المعنية - يشعرون بضرورة إجراء الدراسات التي يستوجبها احتمال وجود تلوث داخلي ، وما أسرع ما أجريت الدراسات والبحوث العلمية الشاملة ، وما أسرع ما تجمعت الأدلة على حقيقة التلوث الداخلي ، وحقيقة مخاطره ، حتى قالت ايلين كلاوس ، إحدى المسؤولات في الوكالة : « الملوثات الداخلية حقيقة واقعة ، لاسبيل إلى إنكارها ، ولعل صحة أكثر الناس في خطر بسبب التلوث الداخلي » .

أما مايكل ماكولي ، الباحث العلمي في معهد الأمن والصحة الحرفية فيقول : « سيحتل التلوث الداخلي مكانة بين مشاكل البنية الرئيسية التي ستشهدها التسعينيات من هذا القرن » . من هنا كان شيوع اصطلاحين جديدين بين المسؤولين الصحفيين ، اصطلاح تلوث الهواء الداخلي (Indoor Air Pollution) ، واصطلاح آفة أو(متلازمة) المباني المريضة (Sick-building Syndrome) .

فالصحة والمرض إذن ليسا وقفا على الأفراد ، ولا على المجتمعات ، فهما يصدقان على المباني أيضا ، أثبتت الأبحاث الأخيرة أن ٢٠٪ من مجموع المباني في الولايات المتحدة الامريكية مبان مريضة ، وأثبتت أيضا أن ٢٠٪ من العاملين في أقسام معينة في تلك المباني مرضى أيضا ويعانون من أعراض التلوث الداخلي التي لاتلبث أن تفارقهم لدى مغادرة تلك المباني .

وفيما تمضى الشركات المتخصصة في فحص المئات من الصروح والبنايات هنا وهناك بقصد تحديد المريض منها تمضي المعاهد والهيئات الطبية في معالجة الأعراض والأمراض الناجمة عنها فضلا عن تحديد أسبابها .

والظاهر أن الأسباب التي تؤدي إلى تلوث الهواء الداخلي تنقسم إلى فئتين ، فئة الغازات أو الأبخرة غير المرئية ، وتشمل هذه فيما تشمل الأبخرة التي تتصاعد من ماكينات تصوير المستندات أو من الورق الذي ينسخ دون حاجة إلى ورق ، والستائر وورق الجدران ، أو من مواد التنظيف التي يحتوى بعضها على غاز الفورمالدهايد (Formalde hyde) ، وهو غاز قد يسبب الغثيان أو طفح الجلد أو الاضطراب في مواعيد الطمث عند النساء ، أضف إلى ذلك كله أجهزة التكييف والتدفئة المركزية ، فثمة غازات غير مرئية وملوثة ، تنبعث من هذه الأجهزة ، ولاتقل خطورة عن سواها ، ولاننسى المراوح ، إذ يخرج من بعضها تراب غني بالمواد العضوية أو العفن أو الفطر ، وماأسرع ماتجد هذه المواد سبيلها إلى أجهزة التدفئة والتكييف ، حيث تلقى تلك المواد العضوية التربة الخصبة لنموها ، لاسيما حين تتوقف الأجهزة عن العمل ، وذلك أثناء غياب أهلها في عطل نهاية الأسبوع .

أما الفئة الثانية من أسباب التلوث الداخلي فمردها إلى المهندسين الذين صمموا تلك المباني ، بل إلى الأخطاء التي ارتكبوها في تصميمها ، فهم في الغالب لايحرصون على ضمان التهوية المطلوبة في داخل تلك المباني ، بل إنهم يحرصون أشد الحرص على إحكام إغلاقها ومنع دخول الهواء النقي إلى جوها من خارجها ، فهذه مبان مريضة حقا ، وجوها أشبه بجو الغواصات التي طال اختفاؤ ها فى أعماق البحار .

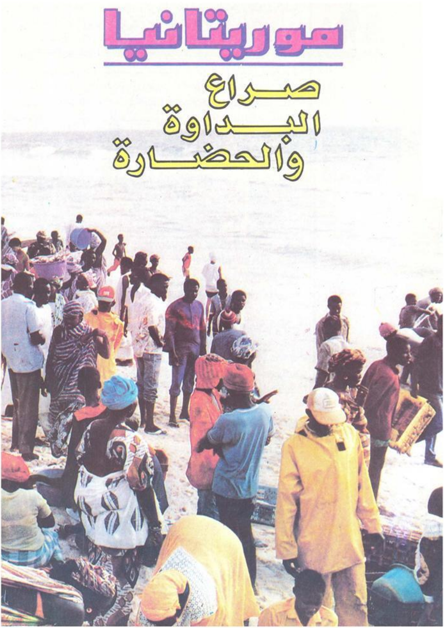
بقى أن نشير إلى مبنى مستشفى تدريس البيطرة (في واشنطن) ، وهو مبنى جديد نسبيا ، لم يمض على إنشائه سوى ١٠ سنوات ، فقد ثبت مرض هذا المبنى ، فعمدت السلطات المعنية إلى القيام بالإصلاحات التي يستوجبها نقاء جوه الداخلي ، والتي ستبلغ تكاليفها ٦ ملايين دولار على أقل تقدير .

أما المدعو جاك باكلي (٦٢ عاما) فقد رفع دعوى في المحكمة يطالب فيها أصحاب البناية التي يعمل فيها بغرامة كبيرة ، تجاوز مليون دولار . والظاهر أن أصحاب البناية شعروا بأن باكلي سيربح الدعوى ، لذلك سعوا استرضائه ، فكان لهم ما أرادوا ، ودفعوا للمدعي ٦٠٠,٠٠٠ دولار وأسقطت الدعوى .



موريتانيا

صراع البداوة والحضارة



استطلاع : صادق يلي

تصوير : فهد الكوح



في مواجهة ظروف قاسية، مناخية، وتاريخية، تنهض موريتانيا بأحلامها لتحاول ولوج أبواب المستقبل باحتمالاته الواعدة، ساعية إلى إكساب موقعها حيويته وفعاليته التي كانت له عندما كانت موريتانيا بحكم موضعها جسرا عبره الإسلام من شمال افريقيا إلى جنوبها.

وعلى أرضها تدور معركة حضارية بين البداوة وأنماطها السلوكية، وبين الحضارة وضروراتها، وقيمها.

ولقد تابعت «العربي» هذه التجربة بما يحيط بها من مصاعب، وشاهدت الإنسان الموريتاني وهو يجدد الحياة على أرضه.

تعد جمهورية موريتانيا الإسلامية خامسة الأقطار العربية من حيث المساحة، فهي تأتي بعد السودان والجزائر والسعودية وليبيا، إذ تبلغ مساحتها نحو مليون وثلاثمائة ألف كيلو متر مربع، وهي أقل الأقطار العربية كثافة بالسكان. والصحراء هي السمة الغالبة على طبيعة الأرض الموريتانية، وتضاريسها ترسم لنا الملامح التي تفرض حدودا قاسية نوعا ما في وجه محاولات الإصلاح والتنمية في هذا القطر العربي. ولموريتانيا إطلالة من الغرب على المحيط الأطلسي، تبلغ نحو ٧٥٠ كيلومترا، وقد أضفى هذا الامتداد الكبير على شواطئها ميزات خاصة، وفتح لها آفاقا جديدة حيث تملك موردا ضخما لا ينضب، وهو تلك الثروة السمكية الهائلة التي تزخر بها شواطئها. أما في أقصى جنوبها الغربي فيوجد نهر السنغال والشريط الزراعي الضيق، ثم مناطق «السافانا» القصيرة. إن هذه الطبيعة القاسية، والمتباينة، بين صحراء جرداء ونهر جار وساحل طويل، قد رسمت لنا صورة صادقة للإنسان الذى لونت جبهته شمس أفريقيا الحارة، فانعكست على ملامحه قسوة الحياة في عمق الصحراء فتراه صبورا جلدا قوى البنية، يختال في «دراعته» التي صنعها بنفسه - وهي لباس جميع الموريتانيين - لتكون مناسبة لظروف حياته. فقلما ترى موريتانيا لا يلبس زيه الوطني، فهو صورة صادقة لبيئته الصحراوية القاسية التي يجاهد في محاولة السيطرة عليها، وخلق مجتمع حضارى مستقر، وهو لذلك في صراع مع البداوة والحضارة، بداوة تذكر بالصحراء والخيمة والجمل، وحضارة يحاول اختراقها لإثبات ذاته وتأكيد هويته، وهو يجاهد للتكيف مع معطيات الحياة الحديثة بتقنياتها الحديثة المتطورة، وصخبها، وهو ليس متواكلا، ولكنه يبحث عن كل جديد، ويسعى للحاق بركب التطور الإنساني بمحاولاته العلمية والحضارية في حدود إمكاناته المتاحة، رجال ونساء يسعون جنبا إلى جنب لاقتحام المستقبل بآفاقه الرحبة، محاولين اختصار الزمان في بناء وطن كان له دور حضاري في حقبة مضت من الزمان.

المرأة الموريتانية

المرأة الموريتانية تساهم في بناء نهضة وطنها وإرساء دعائمها في شتى المجالات بالاشتراك مع الرجل، فهي متواجدة في كل مؤسسات الدولة، موظفة، وطبيبة، ومدرسة، وعاملة فنية، ومديرة.

ولقد وصلت إلى موقع الوزير لأول مرة في موريتانيا، فالسيدة خديجة بنت أحمد تتولى

وزارة الصناعة والتعدين ، وكان لنا معها حديث عن شئون الصناعة والتعدين في جمهورية موريتانيا الإسلامية . وبالإضافة إلى ذلك فالمرأة في هذا القطر العربي تزاول النشاط التجاري في القطاع الخاص ، فهي تاجرة ماهرة ، خاصة في تجارة الملابس ، فهناك سوق كبيرة في مدينة نواكشوط العاصمة تديرها النساء ، وتبيع فيها المرأة الأقمشة ، والملابس ، والحلي ، وكل ما يخص النساء والرجال من مستلزمات وكماليات ، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا انها دخلت كل مجالات العمل في الشركات ، والأعمال الحرة والمدارس ، والمصانع . تقول السيدة «مريم بنت أحمد عيشه» ، مسئولة النساء في اللجنة الدائمة للخلاص الوطني في لقائنا معها : «المرأة عندنا تمثل أكثر من نصف المجتمع . ٥٢٪ من السكان ، حسب آخر إحصاء أجري في موريتانيا ـ ولها دور كبير في بناء المجتمع الموريتاني وتطويره . ولقد اتسعت آفاق هذا الدور إلى أن أصبحت تحتل مناصب قيادية في الوزارات ومؤسسات الدولة ، فنجدها في كل القطاعات العامة والخاصة ، تساهم في اتخاذ القرارات المتعلقة بسياسة البلاد ، وذلك لأنها عضو في الحكومة ، ومن خلال مواقعها السياسية والإدارية ، فهي مديرة في قطاع الصيد ـ ونقصد به صيد الأسماك ـ الذي يمثل إحدى الركائز الأساسية لدخلنا القومي ، وكذلك نجدها في القطاع الاجتماعي ، والتعليم ، وقطاع المشاريع ، وطبيبة في المستشفيات ومراكز الأمومة والطفولة ، وفي جميع مجالات الإعلام من إذاعة وصحافة وتلفاز . ونحن لا نقول إننا وصلنا ويكفينا هذا ، بل إننا نسعى إلى المزيد .

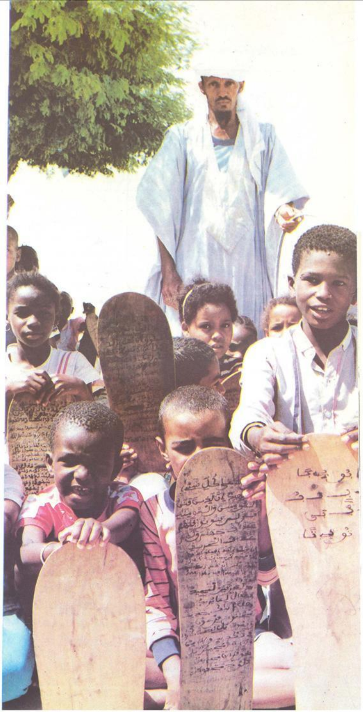
وتضيف السيدة مريم بنت أحمد : «إن مشاركة المرأة للرجل في بناء المجتمع الحديث امتداد لدورها في مجتمعنا القديم الذي كان مجتمعا بدويا رعويا ، يعتمد في أنشطته على



موريتانيا ـ جسر عبور للإسلام .

تربية الأغنام والماشية والإبل ، حيث كان للمرأة دور أساسي فيه ، فهي التي تبني الخيام ، وتحيك الملابس ، وتصنع القرب (جمع قربة) والسجاجيد والحصر ، بالإضافة إلى دورها في أعمال البيت وتربية الأطفال وتعليمهم وتدريسهم» .

ونسأل السيدة مريم بنت أحمد عيشة عن الأنشطة التي تزاولها الجمعيات النسوية في موريتانيا ، فتجيبنا قائلة : «إن قسما من نشاط جمعياتنا النسوية يتمثل في التعاونيات النسوية التي يعتمد نشاطها على الصناعات التقليدية ، ففي هذه التعاونيات تعمل المرأة وتتلقى مقابلا ماديا وأدبيا نظير عملها . وإنتاج هذه التعاونيات يسوّق في عدد من المراكز التجارية بالمدن والقرى ، كما أن هناك تعاونيات ينحصر نشاطها في التطريز والحياكة والصباغة ، ويباع إنتاجها في المحلات التجارية . ومثال ذلك مصنع الملابس الجاهزة بالتعاونية الموجودة في المقاطعة السادسة ، حيث تصل نسبة النساء العاملات به إلى ٩٠٪ من جملة العاملين .



● (إلى اليمين) المحاضر والزوايا مؤسسات تعليمية تقليدية منتشرة في جميع أنحاء موريتانيا ، لقد قدمت هذه المؤسسات خدمات جليلة للعملية التربوية والتعليم الديني وإلى أعلى يسار : سوق للأواني المنزلية أقيم على أرصفة أحد شوارع مدينة نواكشوط عاصمة موريتانيا - و (أسفل) طريقة بدائية لتجفيف السمك على ساحل مدينة نواكشوط . إن السمك المجفف لا يأكله عرب موريتانيا ، وإنما هو غذاء محبب للمهاجرين من السنغال .





تعاونيات الزرابي

ودفعنا حديث السيدة مريم بنت أحمد عيشة عن التعاونيات النسوية ودورها أن نبدي رغبتنا في زيارة واحدة منها ، فأشارت علينا بزيارة تعاونية «الزرابي» .

«والزرابي» هو السجاد المنسوج على أنوال يدوية ، تعمل عليها النساء ، مقابل مكافأة مالية ، تحدد وفقا لإنتاجهن من السجاد . تقول السيدة «فيفي بنت فيجي» رئيسة التعاونية : «ينقسم عملنا في هذا المصنع إلى قسمين : الأول قسم التكوين - يقصدون بالتكوين في موريتانيا التدريب - ويتم فيه تعليم المتدربات أو العاملات مدة ثلاث سنوات القراءة والحساب ، ودوساً نظرية وعملية على الحياكة والتطريز والعقدة بأشكالها ، وفنون صناعة السجاد من رسوم ونماذج وتخطيط ، ومقياس الرسم . والفتيات اللاتي تبرز مواهبهن أثناء الدراسة في الرسم وتشكيل الزخارف المستوحاة من بيئتنا العربية البدوية ، نقوم بتنمية مواهبهن وتطويرها . وبعد سنوات الدراسة الثلاث تؤدي الدارسات امتحانا يحصلن بعد اجتيازه بنجاح على شهادة تؤهلهن للعمل في التعاونيات عاملات فنيات . وأثناء الدراسة تتقاضى كل متدربة منحة شهرية تبلغ حوالي ثلاثة آلاف اوقية - الاوقية عملة موريتانيا الرسمية - وكل اوقية تساوي ٧٥ دولارا أمريكيا . كما تعطي للعاملة عند تخرجها آلة للنسج وكمية من خيوط الصوف والقطن ، ومجموعة من المخططات والأدوات الضرورية اللازمة لنسج السجاد اليدوي . وتضيف السيدة «فيفي بنت فيجي» قائلة : «أما القسم الثاني من المركز أو التعاونية فهو القسم العام أو جناح التعاونيات ، ويضم هذا الجناح نحو ٦٠٠ عاملة ، يعملن في نسج السجاد اليدوي ، وتبلغ الطاقة الإنتاجية لكل تعاونية نحو أربعة آلاف متر مربع في السنة من مختلف أنواع السجاد التي تتكون من تسعة أشكال ، تبدأ من السجاد الذى يحوى خمسة آلاف عقدة في المتر المربع حتى تصل إلى أجودها الذى يتكون من ٢٠٠ ألف عقدة في المتر المربع . ويصدر معظم إنتاج هذه التعاونيات إلى الخارج ، وبخاصة إلى الجزائر والمغرب وليبيا ، كما يصدر جانب منه إلى المانيا وفرنسا ، حيث يحظى السجاد الموريتاني برسوماته ، وزخارفه اليدوية البسيطة ، بإقبال الأوربيين . أما أهم مشكلة تواجه هذه التعاونيات فهي اعتمادها على استيراد المواد الخام والأصواف من الخارج ، بالعملات الصعبة . وتتجه نية المسؤولين إلى استغلال صوف الإبل والغنم الموريتاني بعد تحويله إلى خيوط ، وموريتانيا كما هو معروف تملك ثروية حيوانية لا بأس بها .

ثروة سمكية

وإذا كانت الصحراء القاحلة الجرداء هي التي تشكل السمة الغالبة في تكوين تضاريس موريتانيا وبالتالي محدودية مواردها الطبيعية ، فإن ساحلها المطل على المحيط الأطلنطي بطول يبلغ ٧٥٠ كيلو متراً ، قد جعلها تحتل مركزا مرموقا في مجال صيد الأسماك لغنى شواطئها بها ، بسبب عدد من العوامل ، منها المناخية ، حيث يلتقي ، على مدار العام ، تيار جزر كناري البارد مع تيار خليج غينيا الدافىء عند «تمارس» قرب الشواطىء الموريتانية ، فتصبح مياه المحيط في هذه المنطقة دافئة ، تجذب الأسماك التي تجد في الخلجان والنتوءات الكثيرة التي تتميز بها شواطىء موريتانيا مكانا آمنا للتكاثر ، كما يساعد على ذلك وفرة الحشائش البحرية والمواد التي تعيش عليها الأسماك .



وتبلغ طاقة الإنتاج السنوية من الأسماك نحو ٦٠٠ ألف طن ويقدر الخبراء مخزون الأسماك أمام السواحل الموريتانية بكميات ضخمة لا تخل بكمية الانتاج السنوية .

وتمثل صادرات موريتانيا من الأسماك ٥٠٪ من صادراتها إلى الخارج ، كما يشكل عائد هذه الصادرات نسبة ١٨٪ من الدخل القومي ، وتمثل نسبة ٢٥٪ من ميزانية الدولة ، وقيمة ما تدخله صادرات الأسماك من عملة صعبة يبلغ ٧٠٪ من إجمالي ما تحصل عليه موريتانيا من عملات صعبة . ولقد فتحت هذه الثروة السمكية مجالات واسعة أمام الاستثمارات العربية والأجنبية ، والاستثمارات المشتركة .

دعوة للاستثمار

وفي لقائنا مع السيد «الداه ولد الشيخ» وزير الصيد البحري والثروة السمكية ، المسئول عن هذا النشاط الاقتصادي الذى أصبح يمثل ركيزة أساسية يعتمد عليها الاقتصاد الموريتاني ، بعدما هددته بالانكماش ، والتعثر ، مشكلة الجفاف والتصحر التي يعاني منها هذا القطر العربي بشدة ، حاورناه حول مشروعات تطوير هذا القطاع المهم وتنميته ، فأجابنا قائلا : «ان ثروتنا السمكية تشكل العمود الفقري للدخل القومي الموريتاني ، وقد أجمعت الدراسات على أن قطاع الصيد يحمل مستقبلا مزدهراً للبلاد ، مما حدا بنا إلى تكثيف الجهود للاستغلال الأمثل لهذه الثروة . ومن هنا جاءت دعوتنا إلى إخواننا المستثمرين العرب لاستثمار أموالهم ومدخراتهم على مستوى الحكومات أو الشركات أو الأفراد . ولقد وضعنا كل التسهيلات الممكنة لاستغلال هذه الثروة على أحسن وجه ، بحيث يعم خيرها على الجميع .

كما أننا مستعدون لإعطائهم ضمانات وتسهيلات كبيرة ، ومن هذه الضمانات ضمان حرية تحويل الأرباح ، وتحريك رأس المال بالعملات الصعبة ، وتسهيل الإجراءات الادارية والفنية في مرحلة التأسيس . وهناك مشروعات مدروسة وجاهزة للتنفيذ ومعد لها دراسات الجدوى ، والدولة مستعدة للمشاركة في هذه المشاريع مع الحكومات العربية ، أو مع الافراد ، أو اقامة شركات خاصة للمستثمرين العرب دون أي شروط ، أو إعطاء تراخيص للمستثمرين العرب ذات طابع خاص ، وهذا امتياز نخص به أشقاءنا العرب وحدهم دون الأجانب ، ويمكننا إعطاء تسهيلات داخل الموانيء لإقامة المنشآت اللازمة لمثل هذه النشاطات» .

تكوين «الكوادر» الوطنية

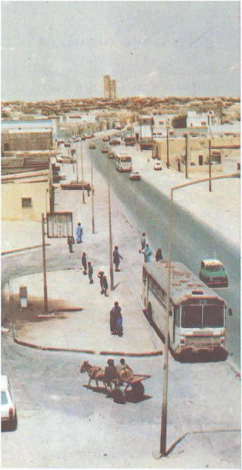
ولأهمية قطاع الصيد والثروة السمكية للاقتصاد الموريتاني الذى أكدت دراسات وزارة الصيد البحرى ، ووزارة التخطيط الموريتانية ، احتمالاته المستقبلية الجيدة ، فقد سعى المسئولون إلى تكثيف الجهود للاستغلال الأمثل لهذه الثروة ، ولذلك تبذل موريتانيا جهودا حثيثة لتدريب «الكوادر» الموريتانية الفنية في هذا القطاع ، بإرسالها في بعثات إلى البلدان المتقدمة في مضمار الصيد ، كي تحصل على التدريب اللازم . أو الاستفادة من «الكوادر» الأجنبية التي تأتي إلى موريتانيا للعمل في هذا القطاع لتعليم عناصر وطنية وتدريبها على الأساليب والوسائل الفنية في إدارة هذا المرفق المهم .

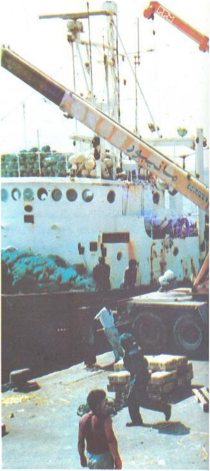
وحول هذه الجهود قال السيد الوزير : « إن لنا اهتماما كبيرا بهذا الجانب منذ منتصف السبعينيات ، فعندنا مجموعة كبيرة من الشباب يدرسون في البلدان التي لها خبرة كبيرة بصناعة الأسماك وتجارتها ، وهناك شباب يتدربون في قطاع الصيد ، وفي قطاع التصنيع والتبريد ، وقد بدأت مجموعة جيدة من هؤلاء الشباب يساهمون في العمل على بواخر الصيد في ميناء «نواذيبو» ، إلا أن قطاع تصنيع الأسماك قطاع كبير ومعقد ، يحتاج إلى خبرة تقنية عالية ، وتدريب متواصل ، ونحن بحكم تكويننا ،





● ميناء نواذيبو يعج بالحركة الدائبة وإلى أعلى اليسار جانب من أحد شوارع مدينة نواكشوط
أسفل قوارب صيد الأسماك الخشبية الصغيرة تستعد للإبحار بعد تفريغ حمولتها وإلى اليسار / أسفل
يعقد هذا السوق عصر كل يوم من أيام الأسبوع لبيع السمك الذي تجلبه سفن الصيد التقليدية .




PPM




Peoples

كشعب بدوى صحراوي ، لا نملك التقاليد البحرية ، ولا الخبرة التقنية الملائمة للعمل الصناعي ، لذلك فنحن في حاجة إلى فترة طويلة حتى نتمكن من الأعمال البحرية ، ونحن نحتاج إلى المزيد من التدريب ، وتراكم الخبرات ، وتبادل التجارب مع الأقطار العربية الشقيقة ، والدول الصديقة ، للاستفادة من خبراتها في هذا الميدان الجديد على شعبنا» .

ويضيف السيد الوزير «ولد الشيخ» : «إننا نبذل محاولات جادة لتحويل الأيدى العاملة في قطاع الصيد إلى أيد وطنية موريتانية . ولقد استطعنا أن ندخل مجموعة كبيرة من الموريتانيين للعمل في هذا القطاع ، ولكننا مازلنا نعاني من نقص «الكوادر» الفنية ، ولذلك أنشأنا مدرسة في «نواذيبو» لتدريب «الكوادر» على أعمال الصيد ، والأعمال التي لها علاقة بالبحر . ويتخرج في هذه المدرسة سنويا ما يقرب من مائة وعشرين عاملا فنيا . كما أننا نتعاون مع الشقيقة تونس لتدريب بعض شبابنا هناك ، ونحن بصدد عقد اتفاقية مع الإخوة في الجزائر والمغرب لتعليم عدد من طلبتنا في مدارسهم البحرية وتدريبهم .

ونحن نأمل أن يسيطر شبابنا على هذا القطاع كاملا في غضون سنوات قليلة ، سيطرة إدارة وقيادة ، وعمالة كاملة ، لأن معظم بواخرنا تدار الآن بأيد أجنبية» .

استراتيجية جديدة

وقد اتبع المسؤولون في موريتانيا استراتيجية جديدة لتنمية قطاع الصيد ، وذلك ضمن خطة التقويم الاقتصادى والمالي ، وقد حققت هذه السياسة قدرا من النجاح ، فأصبحت موريتانيا من المنتجين الرئيسيين للأسماك في منطقة المحيط الأطلسي . وتضمنت هذه الاستراتيجية بناء تجهيزات بحرية حديثة وإعداد أسطول ثلاجات التبريد وتحديثه ، وتوسيع ميناء «نواذيبو» وتحديثه ، وإدخال معدات وتقنيات متطورة ، بالإضافة إلى إنشاء حوض عائم لإصلاح السفن ، مما وفر للدولةالعملة الصعبة التي كانت تنفق على تصليح السفن واجراء الصيانة عليها في الخارج وتضمنت الاستراتيجية كذلك إنشاء مراكز للتدريب على هذه الحرفة ، وإعداد تشريعات لحماية العاملين في هذا القطاع ، بهدف إعداد «كوادر ، و ، قادرة ، وكذلك إنشاء شركات متنوعة برأس مال مشترك ، وإدخال شركاء جدد لضمان عدم الاحتكار والتلاعب .

ولقد أنشئت شركات برأس مال مشترك للصيد والتفريغ والتصنيع والتعليب ، وتقوم الشركة الموريتانية لتسويق الأسماك بالتسويق في الخارج حسب الأسعار العالمية ، ولقد تضاعف الدخل العائد نتيجة البيع والتسويق إلى ثلاثة أضعاف ، ففي عام ١٩٨٥ بلغت مبيعاتها نحو ١٠٥ ملايين دولار ، وفي عام ١٩٨٦ بلغت نحو١٥٣ مليون دولار ، وفي عام ١٩٨٧ بلغت نحو ١٩٠ مليون دولار .

وقد بلغت مجموعة الشركات التي تتعامل مع شركة التسويق الوطنية حوالي ٥٠ شركة عاملة في مجال الصيد البحري بمختلف أنواعه والأسواق الرئيسية للشركة هي اليابان التي صدر إليها عام ١٩٨٦ نحو ٧٠٪ من جملة الإنتاج المصدر ، أي مايقرب من ٣٥ ألف طن من الأسماك ، بلغت قيمتها الاجمالية ١٦ مليون دولار . وأوربا بلغ نصيبها نحو ٢٧٪ من القيمة الاجمالية للإنتاج ، ويسوّق السمك في ايطاليا واليونان واسبانيا ، أما أفريقيا فنصيبها ٣٪ فقط من القيمة الإجمالية للانتاج .

وفي إطار الحفاظ على الثروة السمكية ، من محاولات شركات الصيد ذات الامكانيات التقنية المتقدمة ، في استغلال ضعف الإمكانات البشرية والتقنية لموريتانيا ، للتوغل بسفنها في المياه الاقليمية الموريتانية لصيد الأسماك ، مما يحول دون تكاثرها بالمعدل الطبيعي ، فلقد بذل



المسؤولون الموريتانيون كل مافي إمكاناتهم لضبط الصيد وفقا للأصول المرعية ، فوضعت قوانين للصيد، تحدد الأماكن التي يسمح فيها بالصيد والتي يحظر فيها ، وقسمت الأماكن المسموح الصيد فيها إلى ثلاث مناطق : الأولى لسيادى القوارب الخشبية الصغيرة (الصيد التقليدي) ومداها ثلاثة أميال من الشاطىء ، والثانية للبواخر الآلية ذات الحجم المتوسط ، ومداها ستة أميال من الساحل ، أما الثالثة فمخصصة للبواخر الكبيرة المزودة بالثلاجات ، وهذه لها حق التوغل في البحر إلى نحو اثني عشر ميلا فأكثر.

كما أن هناك تحديدا وإشرافا لسعة عيون الشباك المستخدمة في الصيد وفقا لكل قطاع . ولكن تطبيق هذه القوانين يحتاج إلى امكانات مالية وبشرية ليست متوافرة بالقدر الكافي الآن في موريتانيا .

ميناء نواذيبو

استدعى النشاط المتزايد في قطاع الصيد ، وجود ميناء يستوعبه ، تقدم من خلاله الخدمات البحرية للبواخر ، وتزود بالمحروقات والماء والثلج والمواد الغذائية وأدوات الصيد ، بالإضافة إلى أعمال الصيانة الضرورية للبواخر ، فأنشىء ميناء «نواذيبو» الذي يبعد عن العاصمة نواكشوط ما يقرب من ٣٥٠ كيلومترا . وهذا الميناء يأتي في المرتبة الأولى بين موانىء موريتانيا ، نظرا للحركة التجارية الواسعة التي تشهدها أرصفته ، وبخاصة في مجال صناعة الأسماك وتصديرها ، فالميناء يستقبل بواخر الصيد الضخمة لتخزين مابها من أسماك داخل برادات ضخمة ، ومخازن أعدت خصيصا لذلك حتى يعاد تصديرها إلى الخارج ، وعن طريق هذا الميناء يتم تصدير نحو ٥٠٪ من صادرات موريتانيا من الأسماك والحديد .

وعن الميناء بتجهيزاته وطاقته ، يحدثنا الأستاذ «كونا ولد محمود» مدير عام ميناء «نواذيبو» فيقول : «إن الميناء يتكون من ثلاثة أرصفة ، رصيف رئيسي طوله ٥٩٠ مترا ، وعمقه ٦ أمتار ، ورصيف ثان طوله ١٥٨ مترا ، وعمقه ٨ أمتار وثالث طوله ١١٠ أمتار ، وعمقه ثلاثة أمتار . وتبلغ طاقة الميناء نحو مليون ونصف مليون طن سنويا ، وتأتي نسبة ٧٠٪ منها لخدمة قطاع الصيد البحري . وسعة مخازن الميناء تبلغ نحو ٦٠ ألف طن ، ويستقبل هذا الميناء نحو ١٠٥ سفن وطنية ، . بالإضافه إلى سفن الشركات الأجنبية بجنسياتها المختلفة ، فمنها اليابانية والفرنسية والايطالية والبلجيكية والصينية . وميناء «نواذيبو» مؤسسة تجارية تابعة للدولة ، ورأسمالها نحو مائة مليون أونية موريتانية . أما العمال الذين يقومون بالعمل في الميناء فجميعهم من الجنسية الموريتانية ويحتوى الميناء على معدات حديثة لتسهيل الخدمات التي يقدمها للسفن الراسية ، فهناك ثماني رافعات (أوناش) تتراوح حمولتها ما بين ١٧ إلى ٥٠ طنا ، ونظرا للضغط الشديد على الميناء ، واتساع حركة التفريغ ، وإعادة شحن الأسماك إلى الخارج ، فقد تقرر توسيع الميناء ، وإدخال تقنيات وتجهيزات حديثة لمواكبة الحركة المتزايدة لسفن صيد الأسماك وغيرها» .

ثروة الحديد

تمثل الثروة المعدنية ، وبخاصة الحديد والنحاس ، ركيزة ثانية للدخل القومي في موريتانيا بعد الثروة السمكية . وتتولى استغلال





● (إلى أعلى) تعاونيات الزرابي إحدى المؤسسات الاقتصادية التي تساهم المرأة الموريتانية في إدارتها وتشغيلها . و (أسفل) النقوش والزخارف البسيطة الجميلة هي السمة الغالبة على إنتاج السجاد اليدوي في تعاونيات الزرابي . وإلى اليسار تساهم المرأة الموريتانية في العديد من الأنشطة التجارية ، فهي هنا تدير متجرا لبيع الأقمشة والملابس الجاهزة .



هذه الثروة الشركة الوطنية للمعادن والصناعة (سنيم) ، ومقرها الرئيسي في مدينة «نواذيبو» ، ولها فرع آخر في مدينة «زويرات» ، ونشاطها يتركز في استغلال خام الحديد في شمال موريتانيا . و«سنيم» كانت في الأصل شركة بريطانية فرنسية ألمانية ، ثم أممت فأصبحت شركة وطنية موريتانية . وفي سنة ١٩٧٨ اشترك في رأسمال الشركة بنسبة ٣٠٪ عدد من الفعاليات الاقتصادية العربية من أقطار عربية هي الكويت ، والأردن ، والعراق ، والمغرب ، والسعودية . ويعمل بهذه الشركة مايقرب من ٦ آلاف شخص في مختلف المواقع والاطارات ، وجميعهم موريتانيو الجنسية ، وتعد الشركة بذلك ثاني موقع اقتصادي موريتاني في نسبة تشغيل الموريتانيين ، والأجانب الذين يعملون بها لايتعدى عددهم ٧٠ شخصا من الخبرات الفنية التي تفتقر إليها العمالة الوطنية .

وتصدر موريتانيا من خام الحديد سنويا نحو ٩ ملايين طن إلى الأسواق الأوربية التي تعد المستورد الرئيسي الوحيد للحديد الموريتاني ، حيث تستورد ايطاليا ثلث الإنتاج المصدر ، ويباع الباقي إلى شركات فرنسية وبلجيكية والمانية ، وتستورد اسبانيا والبرتغال كميات أخرى .

وفي لقائنا بالسيدة «خديجة بنت أحمد» وزيرة المعادن والصناعة قالت : « إن الرقم المستهدف لإنتاجنا من خام الحديد هو ١٤ مليون طن سنويا ، بعد تشغيل مشروع «القلب» ، وإنتاجنا الآن يبلغ ٩ ملايين طن فقط ، وهو ما نستخرجه من مناجم «كدية الجل» وهو أهم



مناجم الحديد في موريتانيا ، حيث تقدر نسبة الاحتياطي فيه من خام الحديد بما يربو على ٢٠٠ مليون طن . ونسبة الحديد المستخرج من خام الحديد تتراوح مابين ٦٠٪ - ٦٥٪ .

مشروع «القلب»

وتضيف السيدة الوزيرة قائلة : «وعندنا خام الحديد الذى تتراوح نسبة الحديد فيه مابين ٣٠٪ - ٣٥٪ وهى نسبة قليلة ، لاتجعل هذا النوع من الحديد يصلح للتصدير إلا إذا زادت نسبة الحديد فيه عن ٥٥ إلى ٦٥٪ ، وهو ما نقوم به الآن في مشروع «القلب» ، حيث يتم تركيز الحديد قبل بيعه . ولتركيز الحديد طريقتان ، الأولى جافة ، والثانية بالماء . ولأننا بلد صحراوى ونعاني من شح في المياه ، كان اختيارنا للطريقة الأولى الجافة هو الأنسب .

وتعتمد هذه الطريقة على الفصل المغناطيسي ، وهي طريقة جديدة ، لم تجرب في العالم على نطاق واسع . والمصنع الذى يعمل الآن في منطقة «زويرات» هو أول مصنع من هذا النوع في العالم . والعملية في مجملها تبدأ بتكسير خام المعدن حتى يكون كمسحوق التراب ، ثم يمرر على مغناطيس يجذب الحديد ويترك المواد الأخرى . والمشروع كبير جدا ، ويحتوى على عمليات آلية معقدة تقوم بها حاسبات آلية (كمبيوترات) . ولأنه أول مصنع يجري تركيبه على هذا النظام في العالم ، فقد واجهتنا بعض المشاكل الفنية التي تسببت في عدم استمرار المصنع في العمل بكامل طاقته ، إذ كان من المؤمل أن تبلغ طاقة المشروع نحو ٦ ملايين طن من الحديد ، إلا أن الإنتاج الفعلي لم يتعد ١,٣ مليون طن بسبب المشاكل الفنية . ونحن نبحث مع الفنيين المتخصصين من الدول المتقدمة في هذه الصناعة عن حلول للتغلب على المشاكل الفنية التي تعترض هذا المشروع ، حتى نصل بإنتاجنا من الحديد إلى المستوى المحدد» .

وعن الاستفادة من معدن الحديد في قيام بعض الصناعات قالت السيدة خديجة بنت أحمد : «تقوم الشركة العربية للحديد والصلب «صافا» بإنتاج حديد التسليح المستخدم في البناء بقياساته المختلفة التي تبدأ من ٨ ملم إلى ٣٢ ملم ، مستخدمة مخلفات الشركة الوطنية لصناعة الحديد «سنيم» من «الخردة» ومن قضبان السكك الحديدية وغيرها من المخلفات ، وطاقاتها الإنتاجية ١٢ ألف طن سنويا ، معظمها يستهلك محليا ، ويصدر جانب منها إلى السنغال ومالي» .

وبالإضافة إلى الحديد تزخر موريتانيا بمعادن أخرى ، منها معدن النحاس ، وإن كان إنتاجه توقف في السنوات الأخيرة لتدني أسعاره العالمية ، ووجود مشاكل واجهت مصانعه بموريتانيا . ومنها الذهب واليورانيوم والكوبالت ، والمغنيسوم ، ويوجد كذلك الفوسفات ، حيث تجرى حاليا دراسات أولية لإمكانات استغلاله اقتصاديا . وتوجد مؤشرات على توافر الكبريت بكميات تسمح باستغلاله وتصديره في منطقة تبعد مسافة ٧٥ كيلو مترا عن العاصمة «نواكشوط» .

ولنقل خام الحديد من مناجمه بمدينة «زويرات» وما حولها إلى ميناء الشحن في «نواذيبو» أنشئت سكة حديدية ، طولها ٦٥٠ كيلومترا ، ويحمل القطار الذي يتألف من ٢٢٠ عربة بطول ٢,٥ «كيلومترين ونصف كيلو متر» ، الحديد الخام إلى ميناء «نواذيبو» حيث يتم تكسيره وغربلته ، ثم يدفع إلى البواخر على سيور خاصة .

الثروة الحيوانية

وإذا كانت المعادن تمثل جانبا مهما من الاقتصاد الموريتاني الحديث ، فإن الثروة الحيوانية كانت تمثل معظم أنشطة الاقتصاد الموريتاني قديما ، حيث كانت حرفة الرعي هي الغالبة على النشاط السكاني ، فالمجتمع الموريتاني مجتمع بدوي رعوي ، ينتقل بالابل والغنم وراء الزرع والكلأ . لقد كانت موريتانيا من أغنى دول غرب أفريقيا بالثروة الحيوانية ، إذ كان يتركز في المنطقة الجنوبية عند نهر السنغال ، وفي المنطقة الشرقية ، حيث المراعي ومناطق «السافانا» مايقرب من ١١ مليون رأس من الأبقار والأغنام والجمال . والأغنام وحدها كانت تجلب ٢٠٪ من قيمة الدخل القومي ، وكانت تصدر إلى المغرب والسنغال والنيجر . ولكن في منتصف السبعينيات حل الجفاف بالبلاد ، جفاف لم تشهده موريتانيا منذ أكثر من نصف قرن ، وتبعته مشكلة التصحر ، فهلك من الثروة الحيوانية أكثر من نصفها ، فالأبقار الآن لايتجاوز عددها مليونا ، والأغنام والماعز ٤ ملايين والجمال في حدود نصف مليون .

وفي لقائنا مع أحد المسئولين عن الثروة الحيوانية في وزارة التنمية الريفية سألناه عن البرامج والاحتياطات التي حددتها الوزارة لمواجهة مثل هذا الجفاف ، فأجابنا قائلا : «ندرك تمام الإدراك خطر أزمة الجفاف وتأثيراتها على المجتمع والاقتصاد الموريتاني ، وذلك لأن مكافحة الجفاف بمخلفاته من زحف للرمال والتصحر ، والقضاء على الرقعة الخضراء ، تحظى بعناية بالغة من قبل الحكومة . فنحن نسعى منذ فترة لتنفيذ برامج خاصة لمواجهة هذه المعضلة في نطاق المجهود العام الذي تقوم به الهيئات والمنظمات الدولية ، مثل لجنة مكافحة الجفاف في دول الساحل ، وموريتانيا عضو فيها . وحاليا يتم بناء السدود على نهر السنغال ، ضمن برنامج منظمة استثمار نهر السنغال ، بقرض قدمه الصندوق الكويتي للتنمية ، قيمته ستة ملايين دينار .

وهذا المشروع جزء من برنامج متكامل لتطوير حوض نهر السنغال ، يهدف إلى التحكم في مياهه ، واستغلالها لتطوير الزراعة في حوض النهر ، وتوليد الطاقة الكهربائية ، وتطوير النقل



● الجزء الخاص من ميناء نواذيبو المخصص لشحن البواخر بخام الحديد الموريتاني .



● القطار المخصص لنقل خام الحديد من منطقة زويرات إلى ميناء نواذيبو ، وهو من أطول القطارات في العالم .



● الكسارات المخصصة لطحن خام الحديد وسحقه في ميناء نواذيبو

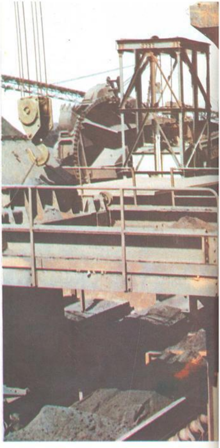
النهري» . ويستطرد المسئول الموريتاني قائلا : «كما يهدف المشروع إلى استصلاح الأراضي وتوزيعها على المزارعين ، وإشاعة أسلوب الري في الزراعة ، وحفر الآبار لاستخدام المياه الجوفية ، والقيام بحملات التشجير ، إلا أن كل هذا لا يغني عن الأمطار التي تكسو الصحراء بالثوب الأخضر القشيب» .

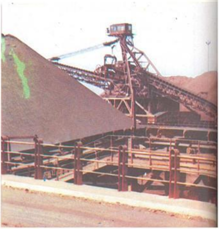
المحاضر والزوايا

تنفرد جمهورية موريتانيا الإسلامية عن بقية أقطارنا العربية بنوع من التعليم ، يطلق عليه اسم المحاضر والزوايا ، وقد استطاع الإنسان الموريتاني أن يفجر عن طريق هذه المحاضر والزوايا طاقات ثقافية هائلة ، مكنته من المساهمة في نشر الثقافة العربية والإسلامية خاصة في افريقيا السوداء ، وكان ذلك بفضل المؤسسة الثقافية التي يطلق عليه المحضرة . والمحضرة تختلف عن الكتاتيب المعروفة في وطننا العربي اختلافا بينا ، ذلك أنها تشكل ظاهرة اجتماعية وثقافية انفردت موريتانيا بها منذ القدم ، فهي مؤسسة تعليمية تقوم بأدوار جميع المؤسسات التعليمية من رياض الأطفال حتى الجامعة ، وترتكز على شيخ واحد ، يتولى التدريس متابعا دروسه حسبة منه لوجه الله .

وتعود نشأة هذه المحاضر إلى بدايات الفتح الإسلامي لافريقيا ، عندما أسس المرابطون دولتهم في القرن الخامس الهجري ، واستخدموا المحاضر في دعوتهم السياسية ، ثم اتسع مفهوم المحضرة ليشمل تعليم اللغة العربية وآدابها وكل التراث الاسلامي . والعشق الذى يوليه الموريتانيون للشعر والشعراء وبخاصة الشعر الجاهلي والإسلامي ماهو إلا جانب من تأثير المحضرة على الإنسان الموريتاني وثقافته .

وعن طريق المحضرة تكونت بموريتانيا مدن تاريخية ، مازالت بقاياها صامدة إلى اليوم ، متحدية الجفاف والتصحر ، وكان لها صيت ذائع ،حيث جعل منها موقعها على طرق القوافل





التي كانت تعبر الصحراء رابطة أفريقيا السوداء بالمغرب العربي، أسواقا رائجة، ومراكز إشعاع ثقافية مرموقة، أدت خدمات جليلة للثقافة العربية الإسلامية، وساهمت في فك العزلة عن هذه البلاد. وأهم هذه المدن «ودان» التي تأسست عام ٥٣٥ هجرية (١١٣٠ ميلادية)، وكانت مركز علم وتعلم، ويذكر أنها كانت تحوى أربعين محضرة. «وشنقيط» التي يعود تاريخ تأسيسها إلى عام ١٢٦١ م، وقد كانت محطة للقوافل، ومنطلق الحجيج، ونالت شهرة واسعة، حتى أن اسمها كان يطلق على بلاد موريتانيا كلها فترة من الزمن. وكذلك مدينة «ولاته» التي كانت تنافس مدينة «تمبكتو» في العلم. وقد لعبت المحاضر دورا كبيرا في المجال السياسي لموريتانيا متمما لدورها الثقافي والحضاري والاجتماعي.

ففي المجال السياسي كان لها دور في تدعيم الوحدة الوطنية، من خلال تعليمها ونشرها للدين واللغة والفكر، كما كان لها دورها في مقاومة الاستعمار ودعم الجهاد المسلح ضده، وكانت هذه المحاضر عنصر تقارب وتفاهم بين شعوب افريقيا السوداء جنوب الصحراء من جهة وموريتانيا من جهة أخرى، على أن الريادة في هذا الميدان تظل لموريتانيا ومحاضرها وعلمائها. ولقد نجحت المحاضر في تحقيق الأهداف التي أنشئت من أجلها، فقد نشرت الدين الإسلامي بين الشعوب الافريقية جنوب الصحراء، بفضل العلماء الذين تخرجوا فيها، والذين جابوا البلاد الافريقية يشرحون ويفسرون ويعلمون الدين واللغة.

المحضرة والتعليم الأصلي

وقد أبقت موريتانيا هذا النوع من التعليم، وأطلقت عليه اسم التعليم الأصلي ومحاربة الأمية، وخصصت له وزارة تقوم على رعايته وتحديث مؤسساته التعليمية.

يقول الأستاذ «أحمد خليفه ولد جدو»، كاتب الدولة لمحاربة الأمية والتعليم الأصلي: إن مؤسساتنا المحضرية تختلف عن تعليم الكتاتيب، وإن كانت مستوياتها الدنيا تشبه إلى حد كبير الكتاتيب، لأن الطفل عندنا قبل دخوله المدرسة النظامية يبدأ بالذهاب إلى المحضرة يدرس فيها العلوم العربية والفقة والنحو والقرآن. وقد تأثرت هذه المحاضر بهجرة المواطنين إلى المدن نتيجة الجفاف، إلا أننا عالجنا هذه الحالة بفتح محاضر جديدة في المدن، شبيهة بالمحاضر التقليدية، هدفها توفير تعليم مواز للتعليم العام الرسمي بالمدن والقرى، ينتظم فيها البالغون من الشباب وعدد من النساء والفتيات». ويضيف الأستاذ ولد جدو قائلا: «إن المحاضر يمكن أن تستمر بأداء دورها الحضاري بتزويد الوطن العربي والاسلامي بمجموعة من الدعاة والقضاة، وباحثين في الدراسات العربية والاسلامية، وبخاصة أننا نشهد في الوقت الحاضر طلبا متزايدا على «الكادر» المحضري من أقطار الخليج العربية، وبعض أقطار المغرب العربي، وبعض المراكز الإسلامية.

ويضيف الأستاذ ولد جدو قائلا: «إننا الآن بصدد افتتاح مركز مهني لبعض الحرف البسيطة مثل الحدادة والميكانيكا والتجارة والخراطة.

وفي مجال التعليم بمجالاته المختلفة نتلقى مساعدات فنية ونقدية من اليونسكو، ومن إخواننا في أقطار الخليج العربي. ولقد قرر الإخوة السعوديون أن يساهموا في بناء تسعة محاضر بقيمة ٩ ملايين أونية، كما تعهد البنك الإسلامي ببناء المركز المهني الذى تحدثنا عنه الآن».

ولاشك أن اهتمام الموريتانيين بالتعليم يعكس طموحهم في مغالبة الظروف القاسية التي عانوا منها، والدخول إلى عالم اليوم الذى يشكل العلم مكونا أساسيا من مكوناته. □

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

فبراير ١٩٨٩



رئيس التحرير : د. محمد الرميحي



يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

في هــذا العدد





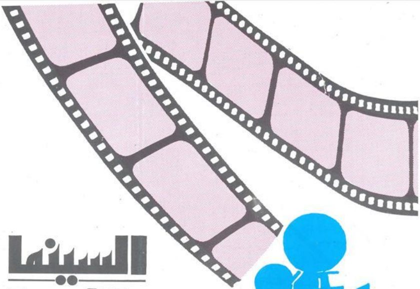
- استطلاع عن دار المعوقين في الكويت.
- دعوة مفتوحة لزيارة "القاهرة".
- مسلسل "همام والغريب".
- مسلسل "حارس دمشق".
- ذات الهمة "الحلقة الثانية".
- قصة الخيال العلمي "عندما ذاب الحديد".

إضافة للأبواب الثابتة

- اسلاميات
- كمبيوتر
- ٨ صفحات لأخيك الصغير واختك الصغيرة
- دائرة معارف العربي الصغير



نتيجة مسابقة العدد ٣٥



السينما والأوبرا



آريا : موسوعة أوبرالية سينمائية

بقلم : سمير فريد

« ولمعت فوق شاشة السينما أفلام عن أرقى فنون الموسيقا .. وتداخلت الرقصات الرائعة بالموسيقا . بالمشهد . بالحدث .. بالنور والظلال .. وقدمت السينما من خلال الافلام ذاكرة جميلة تحفل ببالغ الروعة والابداع » .

شهدت السينما العالمية منذ نهاية السبعينيات العديد من أفلام الأوبرا ، حتى أصبحت هذه الأفلام تشكل تيارا هاما من تيارات السينما ، وخاصة بعد النجاح الجماهيري لبعض هذه الأفلام . وقد عقد في اطار مهرجان الفيلم الدولي في مدينة « كان » الفرنسية عام ١٩٨٧ لقاء برئاسة متيري لورين مازيل ، حول « السينما والأوبرا » ، ناقش المشكلات الفنية للأفلام الأوبرالية ، وهي مشكلات تمتد الى مشكلات العلاقة بين السينما والفنون الأخرى بصفة عامة .

لقد عرفت السينما الأفلام الأوبرالية منذ



* آريا ثوب المهرج
من اوبرا المهرجون ،
تأليف الموسيقار الايطالي
روجيرو ليونكفاللو
اخراج بيل بريدن .

الأفلام الصامتة ، ومن أشهر هذه الأفلام « كارمن » ، اخراج سيسيل دي ميل . ولكن هذه الأفلام بالطبع كانت تقتصر على رواية حكاية الأوبرا ، وعرض مناظرها وملابس شخصياتها ، ولذلك لايمكن أصلا أن تعتبر أوبرالية مادامت تفتقد الموسيقا والغناء ، وهما الركنان الأساسيان للأوبرا . ومع اكتشاف الفيلم الناطق بدأ انتاج بعض الأوبرات في أفلام سينمائية ، ولكن عدد هذه الأفلام كان قليلا وظل كذلك حتى نهاية السبعينيات .

من خشبة المسرح الى الشاشة

ويمكن تقسيم أفلام الأوبرا الى أربعة أقسام : الأول ، أفلام الأوبرا التي تقدم الأوبرات بأسلوب سينمائي ، مثل « دون جيوفاني » ، اخراج جوزيف لوزي ، و « الناي السحري » ، اخراج انجمار برجمان ، و « كارمن » ، اخراج فرانشسكو روزي ، و « كارمن » اخراج كارلوس سورا ، و « لاترافياتا » ، اخراج فرانكو زيفريللي .

والنوع الثاني الأوبرات « المؤفلمة » اذا جاز التعبير ، أي التي تسجل الأوبرات كما هي تماما من واقع العرض المسرحي ، مثل « بارسيفال » ، اخراج هانز جورجن سيبربرج . أما النوع الثالث فهو الأفلام التي تستوحي هذه الأوبرا أو تلك في أفلام سينمائية خالصة ، مثل « دون جيوفاني » ، اخراج كارميللو بيني ، و « كارمن » ، اخراج جان لوك جودار . وأما النوع الرابع والأخير فهو الأفلام التي تستخدم الأوبرات في التعبير عن أحداثها ، مثل « شرف بريزي » ، اخراج جون هيوستون ، أو في التعبير عن حياة المؤلفين الموسيقيين ، مثل « اماديوس » ، اخراج ميلوش فورمان ، عن حياة موزار .

وفي لقاء « كان » ١٩٨٧ حددت ورقة العمل المشكلات الفنية الأساسية لأفلام الأوبرا ، وتمت صياغة هذه المشكلات على شكل أسئلة محورية ، أهمها : هل من الضروري أن تكون أفلام الأوبرا ملتزمة بالأوبرات الاصلية ؟ وما معنى الالتزام هنا ؟ هل هو الالتزام بالموسيقا والغناء ، أم بالدراما موضوع الأوبرا ؟ ومن يكون صانع فيلم الأوبرا : المخرج أم المؤلف الموسيقي ؟ وهل هناك أوبرات تصلح للسينما وأخرى لا تصلح ، وعلى أي أساس ؟ ثم كيف يتم تقييم الفيلم الاوبرالي ، على أسس سينمائية أم أسس موسيقية ؟ وهل من الضروري أن يكون لمخرج الأوبرا في السينما تجارب سابقة في اخراج الأوبرا للمسرح ؟

ولم يكن الهدف من اللقاء بالطبع الوصول الى إجابات قاطعة عن هذه الأسئلة ، وانما تنوير طريق العاملين في أفلام الأوبرا أو الذين يفكرون في صنع هذه الأفلام . ولكن أيا كان الاختلاف في وجهات النظر حول هذه المشكلة الفنية أو تلك فالمؤكد أن هناك عملا أصليا وعملا مستمدا من العمل الأصلي ، وأن الأصل يظل هو الأصل ، والعمل المستمد منه يظل له وجوده الخاص حتى لو كان « نقلا » للعرض المسرحي . فالعروض المسرحية أيضا تختلف بين مخرج مسرحي وآخر ، واختيار المخرج السينمائي لعرض مسرحي معين هو اختيار بكل معنى الكلمة . ومن البدهي أن تقييم العمل الفني على أساس اللغة التي يعبر بها .



الإنتاج العظيم

وقد شهد مهرجان الفيلم الدولي في « كان » في نفس العام الذي عقد فيه ذلك اللقاء عرض أحد أهم الأفلام الأوبرالية في تاريخ السينما ، والذي يعتبر بمثابة موسوعة أوبرالية سينمائية ، وهو الفيلم البريطاني « آريا » الذي اشترك في اخراجه عشرة من المخرجين السينمائيين من أوربا والولايات المتحدة الامريكية ، وقام بانتاجه الفنان الطليعي دون بويد ، ففي هذا الفيلم الذي تم تصويره على مدى ثمانية أشهر في ١٩ « ستوديوا » ومكانا في لندن وفيينا وباريس وايطاليا وبلجيكا واريزونا ولاس فيجاس وكاليفورنيا ونيويورك بالولايات المتحدة ، نستمع الى أصوات أهم المغنين والمغنيات في تاريخ الأوبرا ، كما نستمع الى مقاطع من عشر أوبرات لمؤلفين من ايطاليا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة ، تغطي تاريخ الأوبرا كله تقريبا ، وحتى الربع الأول من القرن العشرين ،

وكلمة « آريا » كلمة ايطالية ، مثل كل المصطلحات الموسيقية ، توصف بها مقاطع الأوبرا التي تعبر فيها الشخصيات عن مشاعرها على نحو أقرب الى « المونولوج » ، بل ويمكن وصف كل مقطع من مقاطع الأوبرا بأنه « آريا » . وقد اتصل دون بويد بالمخرجين العشرة ، وطلب من كل منهم أن يختار « آريا » يريد التعبير عنها ، وجعل المقطع الأول يستمر بين المقاطع الأخرى ، ويربط بين أجزاء الفيلم ، وينتهي بنهايته .

والمقطع الأول / العاشر هو مقطع « ثوب المهرج » من أوبرا « المهرجون » ١٨٩٢ تأليف الموسيقي الايطالي روجيرو ليونكفاللو (١٨٥٨ - ١٩١٩) التي سبق أن أخرجت للسينما في أربعة أفلام عامي ١٩٣٠ و ١٩٤٨ في ايطاليا ، وعامي ١٩٣٧ و ١٩٤٢ في بريطانيا . وقد استوحى ليونكفاللو أوبراه من قضية حقيقية حكم فيها والده القاضي ، وهي قضية ممثل اعتاد القيام بدور المهرج ، خانته زوجته ، فقتلها وقتل عشيقها .

وفي آريا « ثوب المهرج » التي أخرجها فنان المسرح والسينما البريطاني بيل بريدن ، نرى في البداية الممثل ، ويقوم بدوره جون هرت ، في طريقه الى المسرح . وعبر الفيلم نراه يدخل الى المسرح في يوم عطلة ، ويتجه الى حجرته ، ويرتدي ثوب المهرج ، ويتدرب على دوره ، وبين الحين والآخر تظهر له صورة حبيبته التي فقدها . وعندما يغني على المسرح الخالي تماما يدرك أنه فقد الاهام أيضا ، فيموت وحيدا وهو يردد « لقد انتهت المهزلة » ، وهي نفس العبارة التي تنتهي بها الأوبرا . ويستخدم بريدن « ثوب المهرج » بصوت انريكو كاروزو ، أشهر أعلام الغناء الأوبرالي في التاريخ ، من واقع تسجيل صوتي نادر عام ١٩٠٧ .

خيال جميل لواقع أقل جمالا

وكما استوحى الموسيقى الايطالي جوزيبي فيردي (١٨١٣ - ١٩٠١) أوبرا « حفل التنكر » من واقعة اغتيال الملك جوستاف الثالث ، ملك السويد ، في حفل تنكر عام ١٧٩٢ ، استوحى المخرج البريطاني « نيكولاس روج » واقعة محاولة اغتيال ملك ألبانيا في فيينا عام ١٩٣١ ، أثنا مشاهدته أوبرا « المهرجون » في تعبيره عن المقطع الذي اختاره من أوبرا « حفل التنكر » التي كتبها فيردي عام ١٨٥٩ . ولكن « روج » جعل ملك ألبانيا يشاهد « حفل التنكر » وليس « المهرجون » ، وبذلك عبر في المقطع الذي أخرجه عن تداخل الخيال مع الواقع ، على نحو يستحيل معه التفرقة بينهما .

وفي المقطع الثالث الذي أخرجه البريطاني شارلز ستوريدج عن آريا « عذراء الملائكة » ، من أوبرا « قوة القدر » ، تأليف فيردي ، يعبر



* مقاطع من اوبرا « ريجوليتو » تأليف فيردي ، اخراج جولين تمبل .

المخرج عن رؤيته الدينية ، وهو مسيحي من الروم الكاثوليك ، مستخدما هذا المقطع من أوبرا فيردي التي كتبها عام ١٨٦٧ ، وأخرجها تيتو جوبي ، في فيلم ايطالي عام ١٩٤٩ . وهذا الجزء من فيلم « آريا » الوحيد المصور بالأبيض والأسود ، وفيه نرى ثلاثة أطفال في لندن المعاصرة ، يجدون سيارة مفتوحة في الطريق العام ، فيركبون ، وتقود السيارة أكبرهم سنا وهي طفلة وعندما تكتشف الشرطة ماحدث يطارد رجالها السيارة لانقاذ الأطفال .

ويختار جان لوك جودار في المقطع الرابع من الفيلم آريا « رينالدو ينام » من أوبرا « ارميدا » التي ألفها الموسيقي الفرنسي جان بابتسب لولى عام ١٦٨٦ ، ويصور في باريس المعاصرة فتاة في حي جديد مؤسس على الطراز الامريكي في العمارة ، وحولها مجموعة رجال بيض وسود ، يمارسون رياضة كمال الأجسام . وهذا المقطع من الفيلم ، الذي لم ينل رضا مخرجه ، فأعاد اخراجه بالكامل على نفقته الخاصة ، تعبير عن هواجس جودار الجنسية ، وتأملاته الخاصة في العلاقة بين الرجل والمرأة ، وبين الروح والجسد .

الكوميدي الوحيد

ومن فنان السينما الفرنسي الكبير الى مخرج بريطاني آخر ، من شباب السينما البريطانية ، هو جولين تمبل الذي اختار عدة مقاطع من أوبرا « ريجوليتو » التي ألفها فيردي عام ١٨٥١ ، عن



● آريا حفل التنكر من اوبرا حفل التنكر تأليف الموسيقار الايطالي جوزيبي فيردي اخراج نيكولاس روج .

مسرحية « الملك يلهو » ، لشاعر فرنسا فيكتور هوجو . وقد أخرجت أوبرا « ريجوليتو » في ٣ أفلام صامتة عام ١٩٠٩ في فرنسا وروسيا والولايات المتحدة ، ثم أخرجت في فيلم روسي رابع عام ١٩١٦ ، ثم في فيلمين ايطاليين عامي ١٩٤٦ و ١٩٥٤ . وهذا الجزء من الفيلم هو الجزء الوحيد « الكوميدي » ، والوحيد الذي لايعتمد على آريا واحدة .

اننا في فندق فريد من نوعه ، يقع في شمال كاليفورنيا ، ويقال : انه محجوز عدة سنوات مقدما ، لما يتميز به من عمارة غامضة غريبة ، ومزج بين وسائل الراحة البدائية وأحدث الوسائل التقنية . وفي هذا الفندق صور جولين تمبل كوميدياه ، ذات اللقطات الطويلة التي تسخر من سلوكيات أفراد الطبقة الوسطى في أمريكا ، وخاصة الذين يعملون في مجال الانتاج السينمائي .

ذكريات وأطلال

وفي المقطع السادس يختار المخرج الاسترالي بيرس بيرسيفورد آريا « أغنية لوق » من أوبرا « المدينة الميتة » التي ألفها عام ١٩٢٠ الموسيقي الامريكي النمساوي الأصل اريك كورنجولد (١٨٩٧ - ١٩٥٧) . وتدور أحداث الأوبرا في مدينة بورجيس البلجيكية ، حيث يعيش بول مع ذكريات زوجته الراحلة ماري ، ويرى الموت في كل المدينة . وقد عبر بيرسيفورد عن عنف الحب وقسوة الموت بالعري الكامل والألوان الحسية الساخنة .

ويعود بنا الأمريكي « روبرت التمان » الى باريس ، ليصور على واحد من أقدم مسارح العاصمة الفرنسية (تأسس عام ١٧٣٤) آريا « الأطلال » من أوبرا « البورديون » التي ألفها الموسيقي الفرنسي جان - فيليب راميو عام ١٧٦٣ . وخلال تسع دقائق ونصف دقيقة ، وهي مدة عرض هذا الجزء من الفيلم ، يصور التمان جمهور المسرح ، مستوحيا أسلوب الاضاءة في لوحات فنان القرن الثامن عشر الكبير هوجارث ، بل ومستوحيا الملابس التي ترتديها الشخصيات في لوحاته .

وجمهور المسرح في فيلم التمان لايشاهد شيئا على المسرح ، وانما يشاهد نفسه ، وهو جمهور عنيف وفظ ، ويبدو أفراده كالمومياوات أو الموتى الذين يبعثون من قبورهم بملابسهم الكاملة في القصص الخرافية . وقد قام التمان بمونتاج الفيلم الى جانب الاخراج ، كما فعل جودار . ويقول دون بويد : ان التمان استغرق سبعة أيام في تحضير الفيلم ، وصوره في ثلاث ساعات .

ويصور المخرج البريطاني ، فرانك رودام ، المقطع الثامن من الفيلم عن آريا « موت الحب » من أوبرا « تريستان وايزولده » التي كتبها عام ١٨٦٥ الموسيقي الالماني ريتشارد فاجنر (١٨١٣ - ١٨٨٣) . وهذا المقطع الذي يعتبر من أجمل مقاطع الفيلم صور في اريزونا ولاس فيجاس ،وفيه نرى شابا وفتاة صغيرين في المدينة الكبيرة ، يؤجران غرفة في فندق ، ويمارسان الحب بلذة فائقة وتصميم شديد ، ثم ينتحران ، بأن يمزق كل منهما شرايين الآخر بنفس القدر من اللذة والتصميم على الحب .

لن ينام أحد هذه الليلة

والمقطع التاسع من الفيلم من اخراج كين راسل ، وهو من كبار مخرجي السينما البريطانية ، وصاحب مخيلة من أعظم المخيلات في تاريخ السينما ، وقد سبق أن أخرج عدة



* آريا عذراء الملائكة
من أوبرا قوة القدر

أفلام عن الموسيقا والموسيقيين ، منها فيلماه عن حياة مالر ، وعن حياة تشايكوفسكي . وفي فيلم « آريا » اختار راسل « لن ينام أحد هذه الليلة » من أوبرا « توراندوت » ، تأليف الموسيقي الايطالي جياكومو بوتشيني (١٨٥٨ - ١٩٢٤) التي كانت آخر أعماله ، بل إنه لم يتم تأليفها . وقام باستكمالها فرانكو الفانو ، بتوجيه من المايسترو توسكانيني .

إن موضوع أوبرا بوتشيني الأخيرة ، قصة الأميرة الصينية توراندوت التي اشترطت أن يقوم المتقدم للزواج منها بحل ثلاثة ألغاز ، فإذا فشل أعدم ، واذا نجح تزوجها .

وذات يوم يأتي رجل غريب ، ويحل الألغاز ، ويعفيها من الزواج اذا عرفت اسمه قبل طلوع الفجر . تبحث الأميرة عن اسم الرجل ، وتكلف جميع الرجال والنساء بالبحث

عن اسمه ، وتصرخ : « لن ينام أحد هذه الليلة » ، وفي الصباح تعلن أنها عرفت اسم الغريب : ان اسمه هو الحب .

ومن وحي آريا « لن ينام أحد هذه الليلة » يبدع كين راسل تحفة بصرية سمعية ، لاتروي أي قصة ، وانما هي دراسات في الجسد الانساني والأحجار الكريمة ، يختلط فيها اللحم والعظم بالماس والفيروز ، على نحو لامثيل له ، ولايقارن الا بأعمال كبار الموسيقيين والتشكيليين . انها السينما الخالصة النقية الصافية في أرفع مستوياتها .

أخيرا انتهت المهزلة

ثم يأتي المقطع العاشر الذي يختلط بالمقطع الأول من اخراج علم آخر من أعلام السينما البريطانية ، وهو ديرك جارمان ، مبدع « كارافاجيو » . وقد اختار جارمان آريا « ذلك اليوم » من أوبرا « لويز » ، تأليف الموسيقي الفرنسي جوستاف كاربينتر ، التي سبق أن أخرجها آبل جانس في فيلم من انتاج عام ١٩٣٦ ، وتحت اشراف كاربينتر الذي لايزال يحيا في شقته في مونتمارت حتى اليوم .

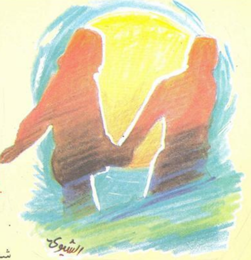
وفي هذا المقطع الأخير تستعيد لويز العجوز ذكريات شبابها . ويصور جارمان ذكريات الماضي بالأبيض والأسود ، وعلى مقاس ٨ ملليمترات المكبر بعد ذلك الى مقاس ٣٥ ملليمترا ، وهي تجربة فريدة من نوعها في السينما العالمية . وبين الشباب والشيخوخة ، والماضي والحاضر ، والحلم واليقظة ، نرى الممثل المهرج وهو يؤدي دوره الأخير على مسرح بدون متفرجين ، ويردد « لقد انتهت المهزلة » . □



● آريا ذلك اليوم من اوبرا « لويز » تأليف جوستاف كاربينتر ، اخراج ديرك جارمان .

مختارات لغوية :

- أكثرنا جمالا وأسطعنا رونقا .
- لا يشق لك غبار ، ولا يجري معك في مضمار .
- كانت تنتظر أوبته كما ينتظر الظمآن جرعة الماء والعليل برد الشفاء .
- شب فتى يافعا ، جميلا ممشوقا .
- تفرق الجمع بدداً .
- يقرقع المكان الحاشد بالضحك وتدوي الأكف بالتصفيق .



وميض التداعي

شعر أحمد محمود مبارك *

ويرجعني وجهك الطفل
حين يطل ،
صفاء وصحوا ،
إلى حيث كنا صغيرين
بالرمل نبني على شاطىء
لم تدنسه بعد نفايات ليل الفنادق
بيتا صغيرا
ونجمع من فجوات الصخور ،
المحارَ الملونَ
كيما نزين ،
جدرانه بنقوش المنى
وما كان صخر يجرح أقدامنا
وما كان موج يهدد أحلامنا ،
كان سطح الصخور حريرا
ومد المياه مسيرا
وكنا ننادي الطيور
فتقرب منه ومنا
تباركه بالجناح الطروب
وترسل لحنا
يبث السنا فوقه والعبيرا
ويفجعني حينما يحتويني غيابك
أفق من الغيم
تصرخ فيه طيور الغسق
وبحر يلطخه النفط
والأمسيات التي تتقيأ فيه
كؤوس النزق
وشط غرق
وليل بلا حلم ،
راح يغرز في مقلتي الأرق
كفاني اختناق بهذا الأفق
خذيني بوجهك ذاك الذي قد نجا
من زمان الزلل
وليس سوى ألفجر ضَمَّخَهُ بالقبل
الى حيث كنا ،
وكان الزمان الذي عن عيوني أفل
لَعَلِّي أبدد سحب القتام
وأغسل وجهي بومض السلام ،
وأنفض عني خيوط الخطل .

* شاعر وكاتب من القطر العربي المصري

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



- ولدك فنّان : كيف نستقبل تعبيرات الأطفال الفنية ؟
- الطفل الذي يتقيّأ

عادة مصّ الأصابع عند الأطفال

١٩٣



عادة مصّ الأصابع عند الأطفال

بقلم : الدكتور نبيه الغبرة

« يخاف الأهل من عادة مص الأصبع ، ويزداد خوفهم عند سماع الأحاديث الإذاعية أو التلفازية التي تبين ما يمكن أن تحدثه هذه العادة من أضرار ، وخاصة في مجال تشوهات الفم والأسنان . فيحاولون منعها على الأغلب بوسائل تعتمد التوجه المباشر والشدة والعنف ، مما يسيء للطفل أكثر من العادة نفسها مما يجعله أكثر تشبثا بها . فما هي الحقائق العلمية المتعلقة بهذه العادة ؟ وما هو الموقف السليم حيالها ؟ » .

إن عادة مص الأصبع عند الأطفال من العادات الشائعة المألوفة في جميع أنحاء العالم ، وتسمى في البلاد الغربية « مص الإبهام » لأن الإبهام هو الأكثر استعمالا في عادة المص . ونحن نسميها مص الأصبع ، بدون تعيين للأصبع المستعمل . والواقع أن الطفل قد يمص أي أصبع من أصابعه ، وقد يمص أكثر من أصبع واحد أحيانا ، كما أنه قد يمص جزءاً آخر من يده أو رسغه أو القسم الأسفل من ساعده ، بل قد يمص إبهام قدمه في أحوال شاذة .

وقد يعتاد الطفل أن يرافق عادة المص بعادة أخرى ، يجريها باليد الثانية ، كشد الأذن ، أو الشعر ، أو حك الأنف ، أو ضم لعبته المفضلة . أو أنه قد يمص طرف الغطاء الذي

يغطى به بالإضافة إلى مص الأصبع .

ويقول بعض أطباء الأطفال الغربيين : إن كل طفل لابد أن يمص أصبعه ، في وقت من أوقات طفولته ، ولكن إن أصبح الأمر عادة فالإحصائيات تختلف في إعطاء الأرقام . ولكن في إحصائية أمريكية واسعة وجد أن ٢٣,٥٪ من الأطفال في عمر السنتين ، معتادون على مص الأصبع ، وتتدنى النسبة لتصبح ١٤,٦٪ في عمر الخمس سنوات .

وقد يعتاد الطفل مص « اللهاية » إن أُعطيها في وقت مبكر ، لتلهيته بها عندما يبكي . وحكم مص « اللهاية » كحكم مص الأصبع ، وهذه العادة أكثر انتشارا ، في البيئات الاجتماعية التي تعطي « اللهاية » منذ الأيام الأولى بعد الـولادة . وفي البيئـات التي لاتـزال محافظة على عادة التقميط - أي لف الطفل بالقماط - إذ إن الطفل عندئذ لايستطيع استعمال اصبعه أو مصه لو أراد ، كما أنه يصبح بحاجة أشد للتهدئة لكثرة بكائه ، بسبب انزعاجه الشديد من جراء تقييده وشده ، فيعطى « اللهاية » لإسكاته ، فيتعود عليها .

ثلاثة آراء

لاشك أن المص منعكس غريزي طبيعي ، بواسطته يستطيع الوليد الحصول على الحليب من ثديي أمه ، ولكن لِمَ يحتاج الطفل إلى المص ، ويولع به بدون هدف غذائي ؟ لأطباء النفس آراء كثيرة نعرضها باختصار فيما يلي :

الرأى الأول ، يقول : إن عادة مص الأصبع عادة مفيدة هادفة ، يجد فيها الطفل الراحة والتهدئة والتسلية ، ذلك أنه في كل مرة يحس بها ألم الجوع ، فيضطرب ويبكي ويعطى الثدي أو الزجاجة ، فيمص ، فيحصل على الحليب ، فيشبع ويرتوى ، ويزول اضطرابه ويهدأ . ومع التكرار تقترن لديه عملية المص بزوال الاضطراب والحصول على الراحة والاطمئنان ، لذا نراه يلجأ إلى مص الأصبع - أو اللهاية التى تسمى بالانكليزية « المهدئة » - في كل مرة يشعر بها بالاضطراب ، لأي سبب كان ، كالجوع والتعب والملل والألم وما شابهه .

والرأى الثاني : يقول إن عادة مص الأصبع هى عادة تطورية مرحلية . والدليل على ذلك أن الطفل قد يبدأ بهذه العادة من الحياة الرحمية ، وقبل أن يرضع الثدي . ثبت ذلك بكل تأكيد ، لما يرى من آثار المص على الأصبع أو اليد عند الوليد أحيانا ، وقد ذكر بعض الأهل مرة أنهم سمعوا أصواتا غريبة لحظة ولادة ابنهم ، ثم تبين لهم بعد لحظات أنها ناجمة عن مص الأصبع ، ولاننسى أن الوضعية الطبيعية للجنين وللوليد هي أن تكون يده قريبة من فمه ، فلم لايضعها في فمه ، ثم يمصها ؟ ونحن نعلم أن الفم هو الوسيلة الأولى للتعرف والاختبار .

والرأى الثالث : يقول : إن عادة مص الأصبع هى عادة تعويضية ، وسببها عدم إتاحة الفرص الكافية للطفل كي يشبع نهمه للمص ، لذا نرى أن هذه العادة أكثر انتشارا في البيئات الغربية ، حيث يعطى الطفل - على الأغلب - زجاجة الحليب في أوقات محددة منظمة ، بينما تقل أو تنعدم تقريبا في البيئات الفطرية الابتدائية ، حيث تعطى الأم ثديها لصغيرها كلما شعرت أنه بحاجة إليه ، دون تقيد بوقت محدد أو مدة محددة ، فيشبع حاجته للمص كما يشبع حاجته للغذاء .

والرأي الرابع الأخير هو رأي فرويد ومن تبعه . **وهو يرى في مص الأصبع مظهرا من مظاهر الغريزة الجنسية .**

أما رأي الأمهات فقد جمع بين الرأيين الثالث والأول : فهن يرين في مص الأصبع في الأيام والأسابيع الأولى دليلا على حاجة الطفل إلى مزيد من الغذاء ، فهو لايشبع من مص أصبعه معبراً عن جوعه ، حتى إن بعض الأمهات يقلن : ابني جائع ، إنه يكاد أن يأكل يده . وأما إذا كبر الطفل ، فهن يَعْدُدْن هذه العادة ضربا من عادات التكييف - أي للتهدئة والتسلية - ويقلن : إنه يأخذ « أركيلته » - اللغة الشامية « للنرجيلة » - ولعل في رأي الأمهات هذا الكثير من الصواب .

الآثار السيئة والحقيقة

لقد بدأ الهجوم على مص الأصبع ، في العالم الغربي مع نهاية القرن الماضي ، وأما قبل ذلك فلم يكن ينظر إلى مص الأصبع على أنه عادة سيئة أو مشكلة صحية ، بل تدل الصور الكثيرة الموروثة من القرون الماضية التي صور فيها الأطفال الصغار وهم يمصون أصابعهم على أنه كان ينظر إلى هذه العادة على أنها شيء طبيعي مألوف ، بل ومحبب .

ولقد كان أطباء الأسنان أول من حذر من مص الأصبع ، ثم تبعهم علماء النفس وأطباء الصحة .

فأطباء الأسنان ، يقولون : إن هذه العادة قد تحدث تشوهات كثيرة في الأسنان ، فتخل في انتظامها ، وفي الفكين ، فتخل في تطابقها . ولكن هذا صحيح فقط في حال استمرار العادة ، وبشدة لما بعد عمر ست سنوات . أما إن كانت ممارستها ضمن الحدود الطبيعية ، أي بالمناسبات المحببة ، فهي إما أن لاتحدث شيئا أو تحدث آثارا تتراجع من نفسها دون تدخل علاجي .

وعلماء النفس ، أخافوا الأهل قديما من عادة مص الاصبع ، وجعلوها دليلا على انحراف شخصية الطفل . وأكدوا أنها تؤدى إلى انحرافات ، وعادات شاذة دائمة في الكبر . ولكن ثبت فيها بعد خطأ هذه الآراء ، وأن موقف الأهل غير المنطقي ، واتباعهم الطرق المختلفة غير السليمة لإبطال هذه العادة ، هو الذى يجعل الطفل قلقا مضطربا خائفا خجولا ، مؤثرا للوحدة والعزلة ، كما أن وقوف الأتراب والمعلمين في المدرسة موقف الناقد المستهزيء ، يزيد الطين بلة ، وقد يجعل الطفل يفقد احترامه لنفسه ، مما يهييء لحدوث مركب النقص عنده .



وأطباء الصحة: ذكروا آثارا سيئة كثيرة، فقالوا: إن هذه العادة تحدث كثيرا من التشوهات، والآفات، في التجويف الفمي والحلق واللوز والجهاز الهضمي، وحتى في العمود الفقري، وتعرض الطفل إلى الأمراض والتسممات، ولم تثبت صحة هذه الآراء، التي هي أقرب إلى الظنون والمخاوف. ولكن الطفل قد يتعرض في حالات شاذة إلى بعض المخاطر الخاصة، فقد روى في الأدب الطبي أن أحد الأطفال تعرض للتسمم بالرصاص، لأن أباه كان يترك آنية الدهان قريبة من متناول يد طفله الذى كان معتادا مص أصبعه.

الموقف السليم

لعل في رأى الدكتور رونالد آلنفوروث الانكليزى الذى أمضى حياته في دراسة النمو والتطور لدى الطفل الطبيعي والمرضي ومشكلاته السلوكية، الجواب الشافي عن هذا السؤال، وفيها يلي ملخصه:

١ ـ أن عادة مص الأصبع عادة تطورية، تشاهد عند الوليد، وتخف في الأشهر التالية، ثم تعود فتزداد في الشهر الخامس، حين يصبح الطفل قادرا على تحريك يده بشكل إرادي، ثم تمارس خاصة مع بزوغ الأسنان، وعند الجوع والتعب والخجل والنعاس.

٢ ـ لايجوز التدخل مطلقا في هذه العادة، أو محاولة معالجتها، مادامت في الحدود الطبيعية، لأن الطفل سيتخلى عنها بشكل عفوي، فلا يجوز استعمال الأجهزة المختلفة، التي اخترعت لوضعها في الفم، وجعل الطفل يعزف عن مص أصبعه، لأنها تؤدي إلى إحداث اضطرابات نفسية شديدة، بل لايجوز وضع المواد المرة أو المقززة على الأصبع.

٣ ـ في حال ولع الطفل بهذه العادة، بعد دخوله السنة الثالثة من العمر، لابد من التفتيش عن السبب، فإن كان الملل، فلا بد من إيجاد ما يشغل الطفل، وإن كان السبب كامنا في مشكلات نفسية، تستدعي القلق، كالشعور بعدم الأمان، أو الكبت، أو الحسد، أو ماشابه، فلابد من معالجتها.

٤ ـ لايجوز أبدا اللجوء إلى التهديد أو المعاقبة، ولايجوز بذل الجهد والتحمس الزائد لإيقاف عادة مص الأصبع، ولايجوز مؤاخذة الطفل وتوبيخه باستمرار، فهذا كله مؤذ وضار، ويجعل الطفل قلقا مشمئزا، غير سعيد، وكذلك الأمر بالنسبة لطرق الاستهزاء، والإغاظة والتخجيل، بل لايجوز التحدث عن هذه العادة، واثارة الضجة حولها، لأن الطفل سيلجأ إليها عندئذ كوسيلة للفت الأنظار إليه. وهذه الطرق هي التي يتبعها الأهل عادة للتخلص من هذه العادة ولكنها لاتؤدي إلا إلى زيادة الولع بها.

٥ ـ ويقول هذا العالم أخيرا: إن الخطر لا يمكن في عادة مص الأصبع، بل بما يفعله الأهل حيالها. فمص الأصبع قد يسبب بعض الألم للإبهام، وهذا كل مافي الأمر، وإن معظم الأطفال يتركون هذه العادة نهائيا، في الخامسة أو السادسة، إن لم يكن قبل ذلك.

وهذا الرأي هو رأي الدكتور ليوكانر، أستاذ علم نفس الطفل الأمريكي، فهو يؤكد أيضا طبيعة مص الأصبع، وعدم ضرره. وأن الضرر ينجم فقط عن انتقاد الطفل الدائم، وعن الفظاظة التي يعامل بها، بغية إيقاف هذه العادة، وأن الطريقة المثلى في معالجة هذه العادة هي عدم التدخل المباشر فيها، بل معالجة أسبابها في حال إدمانها وزيادة الولع بها. □

ولدك فنان
كيف نستقبل تعبيرات الأطفال الفنية؟

بقلم : عادل ثابت

تبدأ علاقة الطفل بالفن من خلال تلك التخطيطات البسيطة التي يخطها الطفل على الورق أو الأشكال التي يصنعها بالعجائن أو اللدائن ، أو من خلال تكوينات لونية خاصة يبدعها عقله الصغير دون وعي .

لكن كيف يمكن دفع طفل موهوب إلى مواصلة هذه التكوينات ليصبح بعد ذلك فنانا له مكانته ؟

المقال التالي محاولة للإجابة عن هذا السؤال .

الفن بمعناه العام هو كل فعل تلقائي يعززه النجاح ويحالفه التوفيق ، شرط أن يتجاوز البدن ، لكي يمتد إلى العالم ، فيجعل منه منبها أكثر توافقا مع النفس .

ولكل مرحلة من مراحل نمو الطفل خصائصها وتعبيراتها وانفعالاتها الخاصة التي تتمثل في الأنشطة الفنية ، وعلى وجه الخصوص التعبير بالرسم والخطوط والألوان . وتوفير الظروف الملائمة لإشباع هذه الهواية يحقق للطفل تكيفا نفسيا واجتماعيا .

يبدأ الطفل باللعب بالقلم الرصاص في سنوات مبكرة ، وهو نشاط طبيعي جدا ، يتوافر في أغلب الأطفال ، لذلك فقد يمل بعض الوالدين من تلك « الشخبطات » ـ كما يسمونها ـ التي قد تصل آثارها أحيانا إلى تفريغ شحنة الأطفال على حوائط المنزل ، وكل ما يقابله من مساحات كبيرة مغرية بالرسم .

تنبه الوالدين

وقد يتنبه بعض الوالدين إلى تلك « اللازمة » الطبيعية ، أملا في تنميتها ، لتأخذ مكانها ضمن



● قصة « بينوكيا » العالمية .. في مسرحية للأطفال

كيان الطفل ، كما أن وجود الأقلام والألوان والأوراق البيضاء ليسجل عليها الطفل ما يحلو له من انطباعات تخطيطية يومية ، ليشعر معها باهتمام الوالدين به وبرسومه الملونة وانفعالاته المسجلة .

وقد تكون ثقافة الوالدين في بعض الأحيان عادية ، لاتوفر لهم إلا شجب مثل هذه « الشخبطات » ـ من وجهة نظرهم ـ في حين أنهم بهذه التصرفات يوقفون أهم عملية تعليمية تتسم بالخلق والابتكار وتتحدد معها شخصية الطفل منذ الصغر ، « فالشخبطات » قد يحسبها بعض الوالدين نوعا من « الدلع » الذي يجب أن يوقف في حينه ، وهذا حكم قاس بتحويل مسار شخصية الطفل من الابتكار الفني الجميل إلى طريق آخر قد لاتحمد عقباه .

ولكي يتمكن الطفل من المرور بهذه المرحلة دون عائق لابد أن يتوافر التشجيع اللازم من أفراد الأسرة ـ الأب والأم ـ ومن في محيطهم ، وأن يتبوأ الطفل مكانته اللائقة وسط الأسرة التي تقوم بتشجيعه وعرض رسومه وتخطيطاته الفنية لكل زائر ، قناعة منهم بالدور الرئيسي الذي تقوم به مثل هذه التدريبات والمهارات الفنية في تكوين الشخصية السوية ، القادرة على مواكبة الحياة بكل ما فيها من جمال وتذوق فني ممتع ، يفيد منه عند مواجهة أعباء الحياة .

المهارات الأساسية

ومن الثابت علميا أن المهارات الأساسية للطفل في مراحله المبكرة عندما توجه توجيها تربويا سليما ، سواء كانت هذه المهارات موسيقية أو أدبية أو رياضية أو فنية ، فإنها تعد اللبنة الأولى في بناء الشخصية السوية للطفل ،

فعندما يجد الطفل أفراد المجتمع الذين حوله يؤمنون بحرية ممارسة مثل هذه المهارات الفنية إيمانا علميا ، يصبح المناخ الذي يحيط به مشبعا بالحرية التي من شأنها تنشئته التنشئة السليمة التي تخلق منه ذواقا ذا مستقبل مفرح ، يطلق العنان لأفكاره وهواياته ومهاراته ، ليوازن بها التركيبة الاجتماعية المعقدة .

ولاغرو ، فالمدرسة هي المرحلة التالية مباشرة بعد الأسرة ، فإذا كان مجتمع الأسرة الصغير قد أعطى جواز المرور للطفل من خلال هواياته التي يعشقها ويمارسها بمعاونة الوالدين ومن حولهم ، فلابد أن يكون دور المدرسة هو المكمل الأساسي العلمي لهذا الدور ، فالمدرسة عليها العبء الأكبر في استكمال المرحلة الأولى ، وتنميتها ،

وتطويرها ، خاصة أنها تملك طاقم المعلمين التربويين الذين يملكون ناصية الفنون والثقافة التربوية الحديثة ، وفي إمكانهم مواصلة مسيرة الطفل الفنية ووضعها على أول الطريق .



● مسرح للأطفال والكبار .. حكاية تاريخية من سلوفينيا ..

التربية الفنية

نعلم جميعا أن مادة التربية الفنية والهوايات الأخرى في المدارس الآن لاتأخذ مكانها اللائق بها كما كان من قبل ، بسبب سطو الفصول المدرسية على الأماكن التي كان الطلاب يمارسون فيها أنشطتهم المتعددة ، وذلك لاستيعاب الأعداد الغفيرة التي تتوافد عاما بعد آخر ، وبشكل يدعو للقلق . لذلك فقد اضمحلت هذه المادة وتحللت وسط كمّ المواد الدراسية المعقدة .

وفي عام ١٨٨٥ نشر « إبنزركوك » مقالا من رسوم الأطفال ، وصف فيه المراحل المتعاقبة للنمو ، كما لاحظها ، ثم وجه النظر إلى أن تعليم الفن في المدارس ينبغي أن يتفق وعقلية الطفل ، ويتمشى مع ميوله . ولقد كان مقال « كوك » داعيا للانتباه ، كما كان له تأثيره الحقيقي في الناحية العلمية من التربية .

والمعروف أن رسوم الأطفال يعتريها التغيير من يوم لآخر ، فبعض التفاصيل الجديدة التي سبق أن ظهرت لاتظهر ثانية من غير تعديل ومن الملاحظ عادة أنه ينقضي وقت مناسب من الزمن قبل أن تصبح التفاصيل والمميزات الجديدة ذات طابع ثابت في الرسم ، لذلك فهناك علاقة تقارب بين نمو الإدراك الكلي ، كما يظهر في الرسم ، ونمو الذكاء العام .

في البداية يرسم الطفل في البيت ما يعرفه ، لامايراه ، وهذه تسمى مرحلة « الرموز الفكرية » في الرسم ، ثم يصل بعد ذلك إلى مرحلة يقوم فيها بمحاولات رسم الأشياء كما يراها ، ويتم الانتقال من المرحلة الأولى إلى الثانية بشكل تدريجي ، ويظهر الأساس الفكري الرمزي لرسوم الأطفال بشكل واضح

في النسب التي يعطيها الطفل عندما يعبر عن بعض الأجزاء ، فعادة يبالغ الطفل في رسم بعض التفاصيل التي تبدو مهمة أو ذات قيمة ، بينما يحذف بعض الأجزاء الأخرى القليلة القيمة ، أو يرسمها صغيرة .

وتبين تقارير الباحثين ، في العالم أجمع ، اتفاقا بالنسبة للطريقة المتبعة في إيضاح التفاصيل في الرسم ، وكذلك بالنسبة للنظام الذي تتبعه هذه التفاصيل في الظهور . لذا وجب على الوالدين عند اكتشافهما ميل أبنائهما لحب التخطيط بالقلم والألوان أن يعلما أن هناك خطوطا عريضة يمكن استنتاجها من كل ما سبق ، وهي أن رسوم الأطفال تمر في ثلاث مراحل رئيسية ، وليس من المتوقع أن تأتي إحداها قبل الأخرى ، ولكن من الجائز أن تستمر آثار كل منها فيما يعقبها من مراحل . ومظاهر المراحل الثلاث هي :

مرحلة التخطيط : وهي من (٢ ــ ٥) سنوات وتبلغ ذروتها في سن الثالثة ، وتكاد تكون تخطيطات غير مقصودة بالقلم ، أي مجرد حركات عضلية ، تبدأ من الكتف ، وتأخذ اتجاها من اليمين إلى اليسار ، أو حركات غير مقصودة ، أو تخطيطات تقليدية ، أو تخطيطات مقيدة ، يحاول فيها الطفل أن ينتج أجزاء معينة لجسم معين .

المرحلة الرمزية : نلاحظ في هذه المرحلة أن التحكم في الرؤية آخذ في التقدم ، ويصبح رسم الإنسان هو الموضوع المستحب ، ويمثله الطفل في شكل دائرة تمثل الرأس ، ونقطتين للعينين ، وزوج من الخطوط المفردة للأرجل .

المرحلة الاصطلاحية :

يبدأ خلالها الطفل بالعناية برسم الانسان بصورة رمزية بدائية ، لكنه يحافظ ــ إلى درجة كبيرة ــ على نفس الشكل لتحقيق أغلب أغراضه . ويحدث هذا في مدة طويلة ، ويتضح في هذه الرسوم التدرج من التخطيطات الذاتية الأولية إلى أن تصبح الرسوم اصطلاحية ، تحمل العادات الوصفية الشائعة في الرسم .

وعلى ضوء هذه المراحل الثلاث التي ذكرناها يمكننا القول بأنه لابد أن يتنبه الوالدان لما يلعب به الطفل في طفولته المبكرة من أقلام ملونة وعجائن وغيرها ، لأن هذا اللعب التلقائي المنظم من شأنه إذا لقي التوجيهات والإرشادات وتوافر الخامات المرغوبة ، أن يجعل الطفل يثق بنفسه من خلال تشكيلاته لتلك الألوان أو لخامة الصلصال أو لأنغام الموسيقا ، ويحاول جاهدا تعليم نفسه ، وتطوير هواياته يوما بعد آخر ، طالما أن المناخ العام داخل الأسرة يقابل مثل هذه التخطيطات بالاستحسان .

إن النشاط الابتكاري يسمح للطفل في مراحل نموه بتميز اسلوبه الخاص ، ليؤكد شخصيته ، ويجعله دائما في اعتماد كامل على نفسه في أعماله ، كما يتيح النشاط الابتكاري للطفل تذوق كل جديد ، ويخلق فيه روح التحرر ، فيخدم نفسه والمجتمع الذي يعيش فيه .

ولقد ثبت بالعلم والتجربة أن إهمال خصائص النمو عند الأطفال ، وعدم معرفة مميزات التعبير الفني لكل مرحلة من مراحل النمو ، فيه ضياع للوقت والجهد ، وفشل وعدم تحقيق أهداف التربية والنمو السليم .

إن لأجهزة الاعلام المرئية والمسموعة والمقروءة دورا كبيرا في تأصيل مثل هذه المهارات الفنية لدى الأطفال ، وتؤكد في الوقت نفسه للآباء والمعلمين القائمين على مادة التربية الفنية بالمدارس أن أهمية هذه المهارات والتجارب الفنية لاغنى عنها ، بل إنها ضرورية ضرورة الحياة نفسها . □

هو.. ..هي

صمت لا يعني القبول !

أعلم أن المال يحل بعض مشاكل الحياة ولا يحل البعض الآخر ، لكنني لا أعرف مشكلة أخرى نشأت عن توافر المال غير مشكلتي أنا ، مشكلتنا نحن ـ زوجي وأنا ـ .

كان زوجي ـ عندما تعرفت عليه أثناء دراستنا الجامعية ـ شابا ريفيا فقيرا ، لكنه جاد مجتهد ممتلىء بالعزم والتصميم على النجاح ، ليس النجاح في الدراسة الجامعية فحسب ، فقد كان ذلك أمرا يسيرا على ذلك الفتى المجتهد المتوقد الذكاء ، بل النجاح في التغلب على عقدة المدينة التي سحرته بامكانياتها و أضوائها ، وترامي أطرافها ، والفرص العديدة التي توفرها للطموحين ، لكنها في الوقت نفسه أخافته بقسوتها واستعصائها على الفهم والاستيعاب ، لذا فقد حمل لها إلى جانب إعجابه بها نوعا من الكراهية الناشئة عن خوفه من ألا يستطيع الاستفادة من إمكانياتها الكبيرة ، ويعجز عن استثمار الفرص العديدة التي كثيرا ما رآها تتوافر للكثيرين حوله ، دون قاعدة أو قانون .

كانت الأضواء تسحره وتخيفه في الوقت نفسه ، وكان اتساع المدينة يأسره بقدرته على إخفاء كل شيء حتى الجريمة ، ويخيفه في الوقت نفسه بقدرته على ابتلاع كل شيء حتى الإنسان .

وأعلن أن المال وحده هو الذي يمكنه من الانتصار على قسوة المدينة وإبطال سحرها الطاغي . ووضع المال نصب عينيه ، وسخر له كل مواهبه ، وأتاحت له المدينة فرصة للحصول على المال الذي كان شحيحا عندما تزوجنا ، بعد حب لم يكدره إلا الخوف من مستقبل غير مضمون .

وبعد زواجنا بقليل بدأت ألاحظ نوعا من النهم الذي استولى على زوجي تجاه متع الحياة الصغيرة منها والكبيرة ، و مالبث ذلك أن تحول إلى تبذير وتبديد للمال ، بما يشبه الرعونة ، حتى بدأ يأخذ شكلا مرضيا ، هو الوجه الآخر لمرض الحرص الشديد الذي يصيب أولئك الذين يعيشون طفولة بائسة ، يظل شبحها يلاحقهم حتى نهاية أعمارهم .

و بدا لي زوجي يخوض معركة وهمية ضد ماضيه البائس ، يخوضها بالمال ، نفس السلاح الذي اعتقد أنه ينقصه عندما كان طالبا ، فقيرا في المدينة القاسية . وبدأت أنبهه الى خطأ الطريق الذي يسير فيه ، ولكنني كلما قلت له : إنه يحارب عدوا لم يعد له وجود ، وهو الفقر الذي مضى وانقضت أيامه ، رد بالقول إن أحدا لا يعيش مرتين ، وأننا الآن نأخذ من الدنيا نصيبنا الذي حرمنا منه فيما مضى .

وتوترت أحوالنا : زوجي مستمر في التبذير على هذا النحو ، وأنا أنبه زوجي ، ثم أصمت أمام إصراره على أن كل ما يفعله من أجلنا ، وهو قول فيه شيء من الحقيقة . أصمت ، ولكن ليس صمت القبول بكل تأكيد .

..هي

لن تعيش مرتين

أعلم أن حياة زوجية بلا مشاكل هي نوع من الوهم مهما كان جميلا ، لكنني بالقطع لم أكن أتوقع أن تحدث بيننا ـ زوجتي وأنا ـ هذه المشكلة بالتحديد .

تعود جذور مشكلتي إلى مرحلتي الطفولة والصبا اللتين كانتا بائستين بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، ولكن لأنني كنت متفوقا فقد أرسلت لاستكمال دراستي الجامعية ، وكان ذلك أشبه بالمعجزة ، وعندها عرفت معنى العيش في مدينة هائلة الاتساع ، وليس في قرية معروفة المنازل ، قليلة السكان ، محدودة الإمكانيات . وعرفت أن ما هو أسوأ من ذلك هو أن تعيش بقدر محدود من الموارد ، كما كانت حالتي في تلك الأيام . خلال تلك الفترة عرفت أن إمكانيات المدينة محدودة بقدر ما هي كثيرة ، وأن فرصها مستعصية بقدر ما تبدو متاحة ، وأن العديد من مسالكها الكثيرة طرق تأخذ ولا ترد ، وأن أضواءها الساطعة لا تضيء عتمة القلب الفقير .

لكنني نجحت ، وبتفوقي وجدي واجتهادي انتصرت على المدينة . نجحت في الجامعة وتزوجت الإنسانة الوحيدة التي وثقت بها في ذلك المجتمع الذي لا يرحم ، وحصلت على المال الذي عرفت جيدا أنه المفتاح الذي يشرع أمامك جميع الأبواب المغلقة ، والذي به تشتري الفرص والإمكانيات ، حصلت على المال الذي أعاد إلي توازني بعد أن كان ذكائي لدى الآخرين نوعا من الهوس ، واجتهادي لديهم نوعا من التكالب على تحصيل الشهادة ، ومواظبتي نوعا من الاستشهاد المجاني . هذا ما رأيته في كل العيون إلا عيونها ، فارتحت لها ، وأحببتها ، ثم تزوجنا .

ولكن لأن المدينة علمتني أن الحياة فرص ، وأن المال وسيلة لتسهيل الحياة ، اندفعت لتحقيق كل مالم أستطع تحقيقه من قبل ، وأوفر كل ما حرمت منه في تلك الأيام القاسية المريرة .

لم أحرم نفسي وعائلتي من أي متعة صغيرة كانت أم كبيرة ، ولم أبخل على زوجتي وأطفالي بأي شيء ، ولم أدخر جهدا لإدخال الفرح إلى قلوبهم ، ولكن ـ وهنا لب المشكلة ـ بدأت زوجتي تنتقد ما تسميه « تبذيري و اسرافي » ، وتبديدي للمال دون حساب ، وبدأت تنظر إلى محاولاتي للاستمتاع بالحياة الزائلة وكأنها نوع من الهوس غير المبرر .

وعندما أقول لها : إن المال وسيلة للسعادة والحياة المريحة وليس للادخار والاكتناز ، تجيب بأن هذا تهور ، وإذا قلت لها : إن المال زائل ، وأن لا جيوب في الكفن تجيب بأن هذا فلسفة زائدة وعبث . وعندما أقول لها : إن كل ما أفعله هو من أجل اسعادها وإسعاد أطفالنا تصمت وتنسحب بهدوء وألم ، لتزيد المشكلة تفاقما .

غريب فعلا أمر النساء . فهل يعيش الإنسان إلا مرة واحدة ؟ !

.. هو



طبيب الأسرة
قضايا منزلية

الطفل الذي يتقيأ

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

كثيرات من الأمهات تجمعهن شكوى تشيع على ألسنتهن ، فيسرعن إلى الطبيب بلهفة وقلق . إن الشكوى عن طفل يتقيأ لاحيلة للأم أن تتصرف بحالته ، فيسيطر عليها الوهم بأن مرضا خطيرا قد ألمّ بطفلها ، ولا سبيل إلى دفعه عنه . حقا إن التقيؤ ظاهرة شائعة في عالم الأطفال ، مرضى كانوا أم أصحاء ، لأسباب شتى ، غير أن القيء في عرف الأمهات ظاهرة مرضية ، لأنهن لايميزن بين ما يعرف بالتكرع أو ما يعرف باسترجاع الطعام .

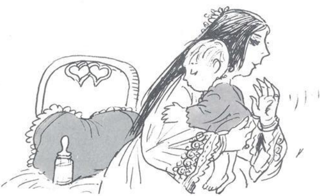
والتقيؤ علميا هو طرد محتويات المعدة بصورة مفاجئة انفجارية ، سببها تقلصات تنتاب عضلات المعدة لأسباب عديدة منها الحميد البسيط ومنها الخطير الذي لايحتمل الإهمال ، أما التكرع فهو أمر عرضي لايستحق من أهل الطفل أي قلق أو اهتمام ، لأن أغلب الاطفال يبتلعون هواء يتسرب إلى المعدة مع رضاعة الحليب أو عند مص الأصابع مما يعتاده صغار الأطفال ، ومص الحلمة الكاذبة التي يسمونها « البزازة » .

وإذا ما تسرب الهواء إلى المعدة احتل حيزا في تجويفها وبفعل الدفء الذي يلقاه داخل الأحشاء يتمدد وينتفخ ، فيدفع بعض الحليب عبر فتحة الفؤاد التي تربط المريء بالمعدة ، ومن هنا يعود الحليب عبر المريء إلى الفم ، وهذا هو التكرع .

ومن المألوف أن يسبب انتفاخ المعدة شيئا من المغص والألم والتوعك للطفل .

من هنا كانت نصيحة أطباء الأطفال للأمهات المرضعات أن يقمن بتكريع الطفل عقب كل رضاعة . وعملية التكريع تكون بحمل الطفل معتدلا ومستندا على كتف الأم ، ثم الضرب الخفيف براحة اليد برفق على ظهره حتى يخرج الهواء الذي تجمّع في المعدة عبر المريء إلى الفم مصحوبا بصوت مميز .

لعل من الأسباب الشائعة في ترجيع الطفل لبعض طعامه من حليب الرضاعة هو الاسراف



في إرضاعه بدافع غريزة المص التي لا تتوقف عند الطفل حتى عند الشبع ، حيث إن قناعة الأم توحي لها أن طفلها مازال جائعا وبحاجة إلى طعام فتستمر في إرضاعه .

لهذا تمتلىء المعدة بما يفيض عن طاقتها وقدرة اتساعها . فلا عجب إذن إن تسرب بعض الحليب الفائض إلى المريء والفم .

أسباب القيء

أما القيء فله أسباب عديدة نذكر منها الأكثر شيوعا بقدر ما يتسع له المقام :

- حساسية جدار المعدة والجهاز الهضمي بصورة يرفض معها بقاء الطعام في المعدة .
- دوار الحركة أو ما يعرف بدوار السفر مثل دوار الطائرة ، أو دوار السيارة أو دوار البحر ، نتيجة استثارة زائدة لجهاز التوازن المتمثل بالقنوات الهلالية الثلاث في الأذن الداخلية .
- التهاب يصيب المعدة أو الأمعاء لمرض في احداهما .
- ضيق خلقي في فتحة البواب ، وهي فتحة المعدة التي تؤدي إلى الاثنى عشر ، مما يصعب معه تفريغ المعدة بصورة طبيعية .
- حدوث انسداد في الأمعاء أو التواء أو تداخل يؤدى إلى ردة فعل عصبية .
- حدوث التسمم أو ابتلاع الطفل مواد ضارة أو عقاقير بجرعات كبيرة .
- مرض السعال الديكي ، وهو عدوى تتميز بسعال شديد مصحوب بحالة من التقيؤ .
- أمراض الكلى والتهاباتها تؤدي إلى ردة فعل تتميز بالتقيؤ الشديد المتواصل .
- أسباب نفسية تنتاب الطفل تجاه والديه ، أو لعدم رغبته في الطعام مما لا يستسيغه .
- أمراض الكبد غالبا ما يصاحبها القيء .
- عند ظهور الأسنان اللبنية في حوالي الشهر السادس من عمر الطفل قد تتوالى نوبات القيء بسبب ظهور الأسنان ، وليس لمرض في المعدة نفسها .
- ضيق خلقي في قناة المريء ، أو ربما لانسداد خلقي يمنع عبور الطعام من الفم إلى المعدة .

القيء المرضي

والواقع أن التقيؤ العارض يجب أن لا يثير لدى الأمهات قلقا ولا خوفا ، وبخاصة في

الشهور الستة الأولى من عمر الطفل ، وإنما الذي يستحق القلق والخوف والاهتمام حقا هو تكرار القيء أو شدته واستمراره ، وبخاصة إذا ما أصابت الطفل أعراض معينة منها :

ـ القيء الفوري عقب الطعام مباشرة ، فهو أمر يتكرر حدوثه عند التهاب جدار المعدة ، أو لضيق وانسداد في المريء ، كما يمكن أن يحدث مع المعاناة النفسية للطفل .

ـ القيء ذو اللون الأصفر الذى يدل غالبا على اختلاط الطعام بعصارة الصفراء التي تسربت من الاثنى عشر إلى تجويف المعدة عبر فتحة البواب .

ـ القيء المصحوب بدم ، لأنه يدل على نزيف داخلي .

ـ القيء الأخضر ، وهو ظاهرة من ظواهر انسداد الأمعاء ، مما قد يستوجب التدخل الجراحي الفوري .

ـ القيء المصحوب بالدوار ، وهذا أمر قد يدل على إصابة في الدماغ ، مما يتطلب الاستشارة الطبية العاجلة .

ـ القيء المصحوب بنقصان الوزن أو فشل في الرضاعة .

ـ القيء الذي يصاحبه انتفاخ ، وهذا دليل انسداد في الأمعاء ، وبخاصة في القطاع الأسفل منها .

ـ القيء الذى يصاحب الحمى والجفاف ، وهو أمر يستوجب الاستشارة الطبية على وجه السرعة .

ـ القيء المصحوب بتقلصات ظاهرة تصاحب انسداد الأمعاء على الأغلب .

ـ إذا ما أحست الأم بوجود كتلة في البطن مصحوبة بالقيء .

ـ إذا ما كان القيء مصحوبا بانتفاخ في نافوخ الطفل فهذا دلالة على زيادة الضغط داخل الجمجمة .

هذه بعض صور القيء طبيعيا ومرضيا . ولكن النصيحة للأم دوما إذا ما توهمت قيئا مرضيا أن توقف الرضاعة دون إرغام الطفل على الطعام ، إلى أن تستشير طبيبا مختصا ، يحسم لها الأمر سلبا أو إيجابا .

□□



ردود سريعة

* السيد/ معالي اسماعيل ـ رميلان ـ سورية

التقارير والتحليلات متفاوتة ، لكنها لا تدعو لليأس ، ولربما كنت بحاجة إلى استشارة طبيب مختص بالأمراض الجلدية والتناسلية يكون ماهرا لاجراء مزيد من التحليلات ووصف علاج فعّال ، فإذا لم تجد حولك مختصا ماهرا فإنهم كثيرون في الخارج .

* السيد/ س . م . أ . ـ مينا الحيط ـ مصر

لا سبيل لمعرفة الديدان إلا بفحصها ، وهذا أمر من أمور المختبر ، وعلى ضوء معرفة الديدان يكون العلاج .

* السيد/ أ . ر . ـ درعا ـ سورية

رسالة مطولة لم نتعرف على حقيقة مرض أخيك سوى أنه مرض نفسي ، وبعدها تطلب حلا عجز عنه أطباء مدينتك ؟

* السيد/ م . ع . ع ـ تعز ـ اليمن

هناك مراكز لعلاج عيوب النطق والكلام في كثير من البلدان ، ومنها السعودية والكويت .

مساحة ود!

شرخ في جدار الروح

لم أكن قد فكرت في ذلك كثيرا من قبل ، حتى فاجأتْ ذهني - المشغول بالعديد من القضايا - تلك الحقيقة المرة التى جاءت كالكشف المفاجيء ، كالاستيقاظ على حقيقة قديمة تتبدى أمامك بكل أبعادها .

في طريق العودة من إحدى الرحلات ، كان علي أن أمر على نيويورك ، تلك المدينة الكبيرة العظيمة القاسية ، وأقضي فيها يوما وبعض يوم ، وهذا ما تم بالفعل . وهناك التقيت ببعض أصدقائي القدماء ، ممن هاجروا واستقروا هناك منذ زمن . استقبلني هؤلاء ، وأفسحوا لي مكانا للبقاء بينهم وبين آخرين غيرهم رحلوا من بلدانهم لسبب أو لآخر ، حتى استقربهم المقام هناك . ولاحظت أن أصدقاء أصدقائي لم يكونوا أقل احتفاء بي من أصدقائي القدماء ، على الرغم من أوضاعهم المادية المتواضعة ، وأوضاعهم النفسية غير المستقرة ، لكنهم جميعا جلسوا للاستماع إلى ما أقول وما أروى من حكايات الوطن العربي الذى تفصلهم عنه قارات ومحيطات .

لم يكن ما أقوله مثيرا ، لكنهم كانوا مستثارين بشكل أو بآخر ، ولم يكن ما أرويه جديدا ، لكنهم استمعوا إلى حديثي الاعتيادى كما لو كانوا يستمعون إلى صدى الأرض التي تركوها منذ زمن بعيد . هنا كان السر العظيم المخيف ، لم يكن أصدقائي وأصدقاؤهم يستمعون إلي ، بل إلى صوت الوطن الذي غادروه ، يتردد في تلك الأرض البعيدة .

وتذكرت أن تلك لم تكن حالة فريدة ، فقد قابلت من قبل أصدقاء آخرين في عواصم أوربية أخرى ، ومكثت مع أصدقاء غيرهم في عواصم دول اشتراكية وأخرى غير اشتراكية . وكان يجمع بينهم أنهم جميعا استمعوا إلي باهتمام وشغف ، وأصغوا إلى صوت الوطن الذي أتاهم عبر صوتي وحكاياتي ، فلم يكن كل ما قلته مثيرا للاهتمام .

وفي كل عاصمة أوربية ، وفي العديد من دول العالم الأخرى ، تقابل أجمل الشباب ، وتستمع منهم إلى أكثر الشكاوى حزنا ، وتمس قلبك أغاني الشجن والغربة .

شباب عربي في لندن وباريس وموسكو ونيويورك وروما وغيرها من مدن العالم الكبيرة الكثيرة ، شباب لم يتحولوا إلى أوربيين خالصين ، ولم تستسلم قلوبهم إلى أهواء أخرى .

لكن ثمة شيئا لم يعد كما كان ، ثمة شرخ في جدار الروح ، أصاب جيلا ، استيقظ على أناشيد الوحدة والتحرر والانتماء للوطن الواحد الكبير . وهاهم أبناؤه اليوم مبعثرون في أرجاء الأرض الأربعة ، يحاولون صلحا مع الحياة في أماكن جديدة ، ليكتشفوا مع كل زائر جاءهم مثلي أنهم يعيشون بنصف قلب ، أما النصف الآخر فهناك حيث غادروا بحثا عن صدى جميل لوعد لم يتحقق . □

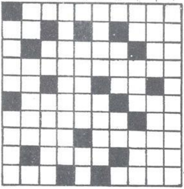
صلاح حزين

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر فى المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذى سينشر فى العدد القادم .

١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١



أفقيا :

١ . عالم عربي مسلم ، وضع نظام تنقيط الحروف العربية .
٢ . هَزَمَ ، تجدها في سادَ .
٣ . حرفان متشابهان ، يتهرب من الإجابة .
٤ . أضعفته وكسرت شوكته .
٥ . ثقب الإبرة ، ظَهَر وبانَ ، شَقَّ وفَتَحَ .
٦ . قبر ، نقود .
٧ . بَخِل ، التعادل والمساواة .
٨ . منفعة ، جحر الضبع وغيره .
٩ . جَعَله أليفاً أو أنيساً ، مبارك .
١٠ . علم وضع أصوله الخليل بن أحمد ، جَلَبة أو ضوضاء .

عموديا :

١ . صوت يصدره حيوان برمائي .
٢ . صوت الخيل ، جمع مفرده عضو هام من أعضاء النطق .
٣ . حرف مكرر ، حبل محكم الفَتْل ، نوء مبعثرة .
٤ . فقدان الأبوين أو أحدهما ، أمر منكر .
٥ . نفتتح أو نستهلّ ، أرشدهم وهداهم .
٦ . بَيَّنت أو كَشَفْت ، الاسم الأول لخطيب جاهلى يضرب بفصاحته المثل .
٧ . الاسم الاول لعالم عربي وَضَعَ أصول علم النحو .
٨ . جماعة من الطير ، فكرة مسيطرة مضافة الى ضمير الغائب .
٩ . جنون أو لَوْثة ، أصلحوا وَجَدَّدوا .
١٠ . شديد البياض (أبرص) ، ينشر أو يدعو إلى .

● حل مسابقة العدد الماضى - يناير ١٩٨٩ م

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	ك	ا	ن	ب	ي	ر	ا	■	ح	د
٢	ا	د	ي	س	ا	ب	ا	ب	ا	■
٣	ب	ن	و	■	ك	■	ا	ل	■	ع
٤	و	■	د	ب	ل	ن	■	ي	ا	ش
٥	ل	ي	ل	■	و	ي	ل	د	ل	ا
٦	■	ا	ه	و	ا	ر	■	ه	ا	ء
٧	د	ف	ي	ن	■	و	و	■	ب	ر
٨	م	ا	■	ك	ر	ب	ل	ا	ء	■
٩	ش	و	■	ا	ل	ي	ر	م	و	ك
١٠	ق	ي	ش	ن	ط	■	م	س	ق	ط

السَّمر في المجتمع العربي

بقلم : الدكتور حسين نصار

تكشف اللغة العربية - بسبب غناها ، وطول عمرها ، وكثرة شقيقاتها من اللغات السامية ، عن ظواهر متعددة ومتنوعة . ومن هذه الظواهر شيوع بعض الكلمات على الألسنة في جميع البقاع العربية ، وجلاء دلالتها لدى كل متحدث بها جلاء تاما ، ثم خفاء مدلول أصل هذه الكلمات ، واختلاف اللغويين فيه اختلافا بعيدا ، يصل إلى درجة التناقض أحيانا . ومن هذا الصنف من الكلمات كلمة السمر . فكل متحدث بالعربية يعرف أن السمر هو حديث الليل خاصة ، ولكن ما أصل هذه الكلمة ؟ لو تتبعنا أقوال العلماء لا جتمع لدينا خليط عجيب . فهناك من يقول : السمر هوالصبح . قال أبو حنيفة : طُرق القوم سمرا : إذا طُرقوا عند الصبح ، والسمر اسم لتلك الساعة من الليل وإن لم يُطرقوا فيها .

وهناك من يقول : أصل السمر : ضوء القمر . وهناك من يقول : السمر : ظل القمر ، والسُّمرة مأخوذة من هذا . وهناك من يقول : السمر : الليل . وهناك من يقول مع الأصمعي : السمر عندهم : الظلمة ، والأصل اجتماعهم يسمرون في الظلمة ، ثم كثر الاستعمال حتى سموا الظلمة سمرا . وهناك من يقول مع الفراء في قول العرب : (لا أفعل ذلك السمر والقمر) : السمر : كل ليلة ليس فيها قمر ، المعنى ماطلع القمر ومالم يطلع ، وقد اتسع الفراء بالكلمة فيما بعد فقال : السمر : الدهر ، كالسَّمير كأمير .

وأعتقد أن التأمل فيما أنتجه هذا الجذر اللغوى من مشتقات وكلمات يؤدي إلى أن الدلالة الأصلية له ضوء القمر ، ومايشيعه من نور يبدد أشياء من الظلام المخيم ، ويبقى على أشياء ، فهو ضوء لا يبلغ إشراق النهار ، وظلام لا يبلغ دجى الليل البهيم . وأعتقد أن الليالي القمرية ، التي يبلغ الضوء فيها هذا القدر المتوسط ، هي التي كان العرب يحيونها بالحديث ، أي هي أصل السمر . ولا ينفى ذلك أنهم - بعدما ولعوا به واعتادوه - تجاذبوه في الليالي المقمرة وغير المقمرة . ولعل ذلك هو الذى يؤلف بين الأقوال المتناقضة ، ويتسق مع الحديث القائل : (السمر بعد العشاء) ، وتعامل العرب مع هذا الجذر بالتوليد الواسع النطاق ، فاشتقوا الأفعال فقالوا : سَمَر يَسْمُر سَمْرا وسُمورا (المصدر) وسَمَرا (الاسم) ، والصفات فقالوا : هو سامِر وهم سُمّار وسامرة ، وقالوا أيضا : هو سَمير ، وسِمِّير للمبالغة . وتستحق إحدى الكلمات وقفة

خاصة ، وهي كلمة السامر . فهي اسم فاعل تدل على المفرد . ولكن العرب استخدموها أيضا استخدام الجموع ، فقال الأزهرى : وقد جاءت حروف (كلمات) على لفظ فاعل ـ وهى جمع ـ عن العرب ، فمنها الجامل والسامر والباقر والحاضر . . . والسامر : الجماعة من الحي يسمرون ليلا . . . واستخدموها استخدام أسماء الأماكن . قال الليث بن المظفر : السامر : الموضع الذي يجتمعون للسمر فيه ، وأنشد :

* وسامر طال فيه اللهو السمر *

ومن هنا أطلق على مسرح الفنون الشعبية بالقاهرة : مسرح السامر .

ولكن هل كل حديث بالليل يسمى سمرا أم هو حديث خاص له صفات تميزه عن غيره . ذلك هو الحق . فالسمر حديث الليل الذي يستهدف التسرية عن المستمعين وإمتاعهم .

وقد شاع السمر في الجاهلية في جميع أرجاء الجزيرة العربية ، حتى ألهى بعض الناس في الإسلام عن مدارسة القرآن . فعابهم الله عز وجل في قوله : (قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ، مستكبرينَ به سامرا تهجرون) ، وبلغ من هذا الشيوع أن ظن بعض الكفار أن القرآن إحدى مواد السمر ، وأن محمدا ـ ص ـ أحد السمار ، وأن في الامكان منافسته والتغلب عليه ، قال محمد بن اسحاق ـ عن النضر بن الحارث : «كان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم واسبنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ـ ص ـ مجلسا ، فذكّر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا ـ والله يا معشر قريش ـ أحسن حديثا منه ، فهلم إليّ ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار» .

ويدلنا هذا فيما يدل عليه أن السمر العربي عرف في عصر مبكر عناصر غير عربية ، اشتمل عليها ، وتمثلها . فإذا حاولنا أن نتعرف بقية العناصر التي اشتمل عليها ، وجدنا بعض الأخبار صريح الدلالة على ذلك ، وبعضها الآخر غير صريح .

أما الصريح الدلالة فيتمثل فيما وقع في قصر الخليفة معاوية بن أبي سفيان . فعندما افتقد معاوية في دمشق مجالس السمر عمل على إحيائها . فاستقدم جماعة من المبرزين فيها مثل عبيد بن شرية ، ودغفل بن حنظلة الشيباني النسابة وصحار بن عياش . وعقد لهم حلقات من مجالسيه ، وكلفهم أن يرددوا على مسامعهم مايرددونه عادة في مجالس السمر . ولحسن الحظ ، لم يقنع بذلك ، بل أمر جماعة من كتابه أن يدونوا مايقولونه . وقد بقى مادونوه لعبيد بن شرية إلى أن وقع في يد المؤرخ المعروف عبدالملك بن هشام (٢١٨ هـ/٨٣٣ م) ، فهذبه كما هذب سيرة ابن اسحاق . وقد وصل إلينا هذا المهذب تحت عنوان «أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها» .

فهذا الخبر صريح الدلالة أن السمر عند عبيد اليمنى ـ كان يشتمل على أخبار اليمن ، وأشعارها وأنسابها ، ولنا الحق أن نظن أن السمر ـ عند العرب الشماليين ـ كان يشتمل على أخبار القبائل الشمالية وأشعارها وأنسابها ، بل أن نظن أن السمر في كل قبيلة كان يشتمل على كل ذلك عند هذه القبيلة . ولعل هذا السمر ـ أو القسط المهم منه ـ هو الذي حرصت القبائل على تدوينه في مذكرات ، سميت باسم كتاب القبيلة حينا وديوان القبيلة حينا . وأرجح أن هذه الكتب كانت النوى التي اعتمد عليها الرواة في صنع ماصنعوا من كتب ودواوين نسبت إليهم .

بقلم: الدكتور حسن عباس

مرارة الهجر
لابن زيدون

في مستهل عصر ملوك الطوائف، وهو العصر الذي يمثل بداية النهاية للوجود العربي في الأندلس، عاش ابن زيدون، الفتى المخزومي القرشي ذو النسب. ولئن تجلت في هذا العصر مظاهر الضعف والفرقة التي أدت إليها التجزئة بعد الوحدة، والعصبيات على اختلافها، فقد تجلت فيه أيضا مظاهر الحضارة على كل صعيد، إذ كانت جهود الدولة العربية القوية الموحدة قد أتت أكلها، وأينعت ثمارها، ليقطف منها العربي في الأندلس، والأوربي القادم طلبا للعلم والمعرفة من أرجاء القارة المختلفة. يصف ابن حوقل رفه العيش وترف الحياة فيقول: أما جزيرة الأندلس فتغلب عليها المياه الجارية، والشجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر الى أسباب التملك الفاشية فيهم، لما هي فيه من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته.

في قرطبة، وفي عام (٣٩٤هـ / ١٠٠٣م)، ولد أحمد بن عبدالله . . بن زيدون في بيت ميسور وجاه موفور، فهو «من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة أيام الجماعة والفتنة» كما يقول المؤرخ ابن حيان. كان أبوه ضليعا في الآداب وعلوم اللغة، وكان جده لأمه من العلماء المرموقين.

إن من يقرأ شعر ابن زيدون، ويطلع على رسائله، تدهشه سعة ثقافته وغزارة علمه باللغة والأدب وتاريخ العرب. لقد اجتمعت في ابن زيدون صفات جعلته مقدما على الكثيرين من معاصريه، فهو فضلا عن ثقافته الرفيعة، وسيم المحيا، جميل المظهر، سريع البديهة، يحفظ من شعر العرب الكثير، وهو مقبل على الدنيا. إقبال المشوق الراغب في مباهجها.

عندما قام الحكم الجمهوري في قرطبة ١٠٣١م إثر سقوط الخلافة الأموية، نادى الشعب بأبي الحزم بن جهور حاكما، وقد ظل في الحكم ثلاثة عشر عاما كان ابن زيدون من وزرائه المقربين طوال عدد من سنوات حكمه. ثم انقلب عليه، ولكن ابنه أبا الوليد الذي خلفه في الحكم أعاد لابن زيدون اعتباره وولاه وزارته وجعله سفيرا بينه وبين ملوك الطوائف الآخرين.

وفي قرطبة كانت تعيش ولادة بنت الخليفة الأموي محمد بن عبدالرحمن الملقب بالمستكفي بالله. وهو الذي ثار عليه أهل قرطبة، فولى هاربا لضعف همته وخطل رأيه وضعته، ولكن

ابنته لم ترث من صفاته شيئا، فقد كانت سيدة تجمع الجمال الى الذكاء، والثراء الى الفطنة والثقافة الواسعة، كانت شاعرة، تعقد في قصرها ما يعرف الآن بـ «الصالون الأدبي» الذي يجتمع اليها فيه صفوة الكتاب والأدباء والشعراء من المعاصرين. ولقد التقت وابن زيدون على أكثر من صعيد، وجمعت بينهما ميول وأوصاف متقاربة، فأحبها وأحبته، واشتهر أمرهما. ولكن المنافسين والحاسدين أفلحوا في الإيقاع بين الحبيبين، فأحبت ولادة ابن عبدوس وأخذت تُعرض عن ابن زيدون، فتوسل إليها كثيرا دون جدوى، وأخيرا أرسل إليها بالقصيدة التالية:

لَئِنْ قَصَّرَ الْيَأْسُ مِنْكِ الْأَمَلْ ... وَحَالَ تَجَنِّيكِ دُونَ الْحِيَلْ
وَنَاجَاكِ - بِالْإِفْكِ - فِيَّ الْحَسُودُ ... فَأَعْطَيْتِهِ - جَهْرَةً - مَا سَأَلْ
وَرَاقَكِ سِحْرُ الْعِدَا الْمُفْتَرَى ... وَغَرَّكِ زُورُهُمُ الْمُفْتَعَلْ
وَأَقْبَلْتِهِمْ فِيَّ وَجْهَ الْقَبُولِ ... وَقَابَلْتِهِمْ بِشْرُكِ الْمُقْتَبَلْ
فَإِنَّ ذِمَامَ الْهَوَى لَنْ أَزَالَ ... أُبَقِّيهِ حِفْظاً كَمَا لَمْ أَزَلْ
فَدَيْتُكِ!!! إِنْ تَعْجَلِي بِالْجَفَا ... فَقَدْ يَهَبُ الرَّيْثَ بَعْضُ الْعَجَلْ
عَلَامَ اطَّبَتْكِ دَوَاعِي الْقِلَى؟ ... وَفِيمَ ثَنَتْكِ نَوَاهِي الْعَذَلْ؟(١)
أَلَمْ أَلْزَمِ الصَّبْرَ كَيْمَا أَخِفَّ؟ ... أَلَمْ أُكْثِرِ الْهَجْرَ كَيْ لَا أُمَلْ
أَلَمْ أَرْضَ مِنْكِ بِغَيْرِ الرِّضَا ... وَأُبْدِي السُّرُورَ بِمَا لَمْ أَنَلْ؟
أَلَمْ أَغْتَفِرْ مُوبِقَاتِ الذُّنُو ... بِ؟ عَمْداً أَتَيْتِ بِهَا أَمْ زَلَلْ؟
وَمَا سَاءَ ظَنِّيَ فِي أَنْ يُسِيءَ ... بِيَ الْفِعْلَ حُسْنُكِ حَتَّى فَعَلْ
عَلَى حِينِ أَصْبَحْتِ حَسْبَ الضَّمِيرِ ... وَلَمْ تَبْغِ مِنْكِ الْأَمَانِي بَدَلْ
وَصَانَكِ مِنِّي وَفِيٌّ أَبِيٌّ ... لِعِلْقِ الْعَلَاقَةِ أَنْ يُبْتَذَلْ
سَعَيْتِ لِتَكْدِيرِ عَهْدٍ صَفَا ... وَحَاوَلْتِ نَقْصَ وِدَادٍ كَمَلْ
فَمَا عُوفِيَتْ مُقْلَتِي مِنْ أَذًى ... وَلَا أُعْفِيَتْ ثِقَتِي مِنْ خَجَلْ
وَمَهْمَا هَزَزْتُ إِلَيْكِ الْعِتَا ... بَ تَظَاهَرْتِ بَيْنَ ضُرُوبِ الْعِلَلْ
كَأَنَّكِ نَاظَرْتِ أَهْلَ الْكَلَامِ ... وَأُوتِيتِ فَهْماً بِعِلْمِ الْجَدَلْ
وَلَوْ شِئْتِ رَاجَعْتِ حُرَّ الْفَعَالِ ... وَعُدْتِ لِتِلْكَ السَّجَايَا الْأُوَلْ
فَلَمْ يَكُ حَظِّيَ مِنْكِ الْأَخَسَّ ... وَلَا عُدَّ سَهْمِيَ فِيكِ الْأَقَلْ
عَلَيْكِ السَّلَامُ!! سَلَامُ الْوَدَاعِ ... وَدَاعِ هَوًى مَاتَ قَبْلَ الْأَجَلْ
وَمَا بِاخْتِيَارٍ تَسَلَّيْتُ عَنْكِ ... وَلَكِنَّنِي مُكْرَهٌ لَا بَطَلْ
وَلَمْ يَدْرِ قَلْبِيَ كَيْفَ النُّزُوعُ ... إِلَى أَنْ رَأَى سِيرَةً فَامْتَثَلْ
وَلَيْتَ الَّذِي قَادَ عَفْواً إِلَيْكِ ... أَبِيَّ الْهَوَى فِي عِنَانِ الْغَزَلْ
يُحِيلُ عُذُوبَةَ ذَاكَ اللَّمَى ... وَيَشْفِي مِنَ السُّقْمِ تِلْكَ الْمُقَلْ

---

(١) طباه عن الأمر: صرفه عنه، واطباه الشيء استماله إليه.

تعاظمت الثورة في صدر ابن زيدون حتى بدت على النحو الذي تصرح به هذه الأبيات. ولكنها ثورة لا توصد الأبواب جميعا، بل تبقى على شيء من الأمل، لذلك نجد الشاعر يلجأ الى اللوم والعتاب، وهو أسلوب يؤثره المحبون لما ينطوي عليه من رفق، فضلا عن أنه سبيل يسلكونه، فيمارسون به بعض التأثير. فهو لم يزل متعلقا بمن يحب، ولم يمتلك القدرة بعد على الجهر باللوم العنيف الخانق. انظر إليه يسألها: ما الذي أوغر صدرك عليّ فأطعت دواعي الجفاء؟ وهو سؤال ينطوي على كثير من التودد وخيبة الأمل معا! ولم يكتف بذلك، بل أشفعه بعدد من الأسئلة التي - وإن عمدت الى التقريع - تبوح بالوجد والصبابة حين تكشف عن عظم التضحية، ومقدار المعاناة، وتسعى الى الاستمالة وممارسة التأثير على نحو بيّن. فهو يسألها سؤال من يعنيه توكيد الحقائق، لا من يطلب ردا: ألم ألزم الصبر لكي أظل خفيفا عليك؟ ألم أكثر من البعد لكي لا تملّي رؤيتي! بلى، ولكنني - فضلا عن ذلك - كنت أرضى منك بأقل مما يرضيني، وأبدي لك السرور بما لم أنله قط. كل ذلك وأنت تقترفين الإساءة بعد الإساءة، وتجترحين كبريائي بذنوب منها ما كان يأتي عفوا، ومنها ما كنت تسعين إليه راغبة فيه، ولا تجدين مني إلا الصفح والعفو إبقاء على المودة، وحفظا لعهود بيننا. ولم يكن يخطر لي أن حسنك سوف يسيء إليّ حتى خاب ظني فيك، كل ذلك وأنت الأقرب إلى القلب والأعلق بالنفس. ولم تبغ أمانيّ لك بديلا أو عنك عوضا. أما العلاقة الغالية القائمة بيننا فقد صانها وفائي الأبيّ، وحفظها من أن تُبتذل. فما الذي فعلته أنتِ؟ سعيت لتكدير عهد الصفاء، وإنقاص الوداد.

ترقب إذا جنّ الظلامُ زيارتي
وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا

بعد أن اكتمل، وكم ألحقت بي من أذى، وكنت كلما جئتك عاتبا تعلّلت بعلل ليست أصيلة في طبعك، وكان بوسعك أن تعودي لسجاياك الأولى، ولكنني لم أحظ منك إلاّ بأقلّ مما كنت أؤمل.

عليك السلام - إذن - سلام الوداع، فقد مات هوانا قبل أوانه، وان كنت ترين أنني أتسلى بحب جديد فما سعيت إليه طائعا، بل مرغما جئته! وكان قلبي يخشى البعد ولا يعرف الى الجفاء سبيلا، فلما نزعت إليهما وصارا بعضا من سيرتك، حذوت حذوك، وسرت في أثرك.

أما وقد ساء حالنا وانتهينا الى ما ترين، فلست أملك إلا أن أدعو الله أن يشوه جمالك الذي أسرني ويحيل عذوبة ريقك، ويبطل تأثير طرفك الساحر!

أليست هذه القصيدة أشبه برسالة؟

حقا انها كذلك، وهي رسالة عاطفية لا تحفل بالفكر قدر احتفالها بالمشاعر الإنسانية الناجمة عن موقف. والعاطفية في هذه الرسالة القصيدة تتفاوت في حدتها، فهي تبلغ حد الثورة في أجزاء منها، ثم تجنح الى الوداعة في أجزاء أخرى، ولكنها في كل الأحوال زفرة محب كابد من حبه ما لم يعد يطيق. فلكم أقدم إقدام الواثق الذي يحدوه أمل كبير، وكم عاد خائبا يعتصره اليأس والألم. وما ذلك إلا بسبب تقلب ولادة وغيرته الشديدة.

فهي التي أعرضَتْ عنه ومالت الى ابن عبدوس - وهو أقل منه نباهة وجاها وثراء وأدبا وحسنا!

وهي التي كانت تبعث إليه بشعرها وتدعوه إليها ليلا:

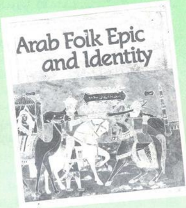
فإني رأيتُ الليلَ أكتمَ للسرّ
وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر

□

كتاب الشهر

مكتبة العربي

الملحمة الشعبية العربية والذات



بقلم : بريجيت كونيلي

عرض وتحليل : خالد عباس

السير الشعبية العربية الشهيرة ، هل هي ملاحم كالالياذة والأوديسة ، وغيرها من الملاحم الأدبية الأوربية ، أم أنها نوع خاص من الملاحم الشعبية الأقل قيمة ، أم هي أعمال شفهية ضئيلة الأهمية ؟ هذه الأسئلة المهمة وغيرها حول تراثنا الأدبي الشعبي محور هذا الكتاب .

كتاب الشهر

مؤلفة هذا الكتاب أمريكية من أصل ايرلندي ، وهي أستاذ مساعد للبلاغة في جامعة كاليفورنيا ، بيركلي ، وحائزة على الجائزة التذكارية « أ . جي آربري » في الأدب العربي . كتابها صادر عن مطبوعات جامعة كاليفورنيا (١٩٨٦) .

تركز هذه الدراسة على النوع الأدبي للسيرة ، وهي واحدة من أكثر أشكال « الفولكلور » شعبية عند الناس ، وأكثرها تحملا للازدراء . مجالها الأساسي سيرة بني هلال . وهي دراسة مبنية على المنهج الميداني التحليلي ، فالجانب التحليلي يشغل حيزا كبيرا وعميقا مع تطبيق على المؤدين وأساليبهم المختلفة . ولذا فقد قضت المؤلفة بضع سنين ما بين تونس ومصر ، ساعية وراء فناني الربابة ، لتتعلم منهم - ما استطاعت - « تقليدية السيرة » .

اختارت كونيلي « الهلالية » لأنها ظلت تروى بعد حدوثها بنحو ثمانمائة سنة ، في حين اندثرت فيه حكايات بطولية سواها ، فما تزال « الهلالية » متصلة بروح الناس المنتشرين على طول طريق الهجرة لقبيلة بني هلال ، فأينما حلت القبيلة واستوطنت ، انتقلت معها كلمتها وانتشرت ، وما يزال للهلالية علاقة بالاهتمامات الأخلاقية والنفسية لصناع الحضارة الشعبية الشفهية المصرية . وفي الأقطار العربية الأخرى يمكن أن نجد - إذا لم تكن تقليدية كاملة على الأقل - بقايا أغان وقصص تحتفل بمآثر الهجرة التي تمجد الأعمال البطولية . فالهلالية سيرة ملحمية لمغامرات قبيلة الهلالية في القرون الأولى للإسلام ، وكانت هجرتها في فترة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر ، من الجزيرة العربية إلى شمال افريقيا ، مرورا بمصر وتونس حتى الجنوب والغرب ، وصولا إلى نيجيريا ، علاوة على أن الهلالية تاريخا وقصصا تقليدية حيوية ، فهي على العكس من عنترة وبيبرس وسيف بن ذي يزن ، إذ هي سيرة غير ثابتة أو جامدة ، بل مرنة متجددة .

من أهم القضايا التي تطرحها كونيلي موقف المؤرخين الغربيين تجاه الأدب الشفهي العربي ، فهؤلاء المؤرخون عادة ما يتفقون على أن لا ملحمة للعرب بما يناظر الإلياذة ، أو الأوديسة أو أغنية رونالد أو بيوولف . تقول كونيلي : إن هذه النظرة لا تعكس فقط سوء فهم للأسس التي تقوم عليها الملحمة القصصية الهندوأوربية ، إنما تكشف أيضا عن نظرة قاصرة تجاه الحضارة العربية وقدرتها الفنية اللفظية .

وجهة النظر المتحاملة يلخصها المؤرخ الأدبي الغربي « فون جرونبوم » في مقالة له عام ١٩٧٠ بعنوان « البطل في النثر العربي في العصور الوسطى » . تقول المؤلفة : إن « الملاحم المعيبة » التي يشير اليها « جرونبوم » إنما هي السير الاسطورية ، وهي القصص التي كانت تروى وتغنى في المقاهي أجيالا . فالدارسون من جيل « جرونبوم » ومن سبقوهم قد عرفوا



الحضـارة والأدب العـربي عن طـريق « نصوصه » ، أي جماليته الأدبية الراقية ، وأن معظم الكتب التاريخية الأدبية التي ألفها الدارسون الانجليز والفرنسيون ، أو الأوربيون الآخرون ، تؤرخ للأدب الكلاسيكي ذي التقليدية العالية كجمالية محدودة ، وذات ولع خاص بالشعر ، أما الرواية التي يقال إنها الأخت غير الشقيقة للأدب العربي ، فهي مستعارة من اللغات الأوربية ، فلا وجود لتقليدية روائية عند العرب ، ولا حتى للأشكال المبنية على محاكاة الدراما أو الملحمة ، قبل العصر الحديث . ويتساءل « جرونبوم » عن مثل هذا النقص في الخيال ، وهذه الجمالية المحدودة بشكل كبير عند العرب ،وهو دائم المقارنة بين الأدب الغربي والتقليدية الاغريقية لغير صالح الأدب العربي . وترى كونيلي أن تبني أوصاف الجماليات الكلاسيكية المثقفة جعل الدارس والناقد الأجنبيين يسيئان الحكم على مستمعي ملحمات المقاهي الشعبية ، وعلى مكانتها في المجتمع .

وتوضح المقالات التي تناولت تقليدية الروايات الشفهية العربية في طبعتي « موسوعة الاسلام » إخفاق النقد الغربي في النفاذ إلى جوهر هذا الشكل الأدبي . فهذه المقالات توفق فقط عندما تناقش الاهتمامات الاجتماعية ، والتاريخية والحضارية ، للنص ، ولكن عندما يحاول المؤلفون معالجة المزايا الجمالية والتقنية تبدو مناقشاتهم مشوشة ، والسبب في ذلك راجع إلى أن القصص ليست فقط على أرفف المكتبات ، إنما لها أيضا وجود بين الناس ، كتقليدية شفهية حيـة . وقـد أدى هـذا إلى تنـوع النظريات ،فذهب ماكدونالد مثلا ، في موسوعة الإسلام ، إلى القول بأن هذه القصص « تظهر مهارة تقنية تفوق مهارة أي راوٍ شعبي » ، وأن مؤلفين كبارا قد كتبوا هذه الحكايات ، وتركوها مجهولة الهوية . بينما يرى بانتشيك الهلالية طليعة القصص التاريخي العربي ، وأن أفضل مصطلح أوربي لها هو في تقديره « الملحمة » . وقد وضع بعض النقاد الغربيين التقليدية الشفهية العربية موضع المناظرة مع أناشيد البطولة (الملاحم الشعرية الفرنسية القديمة) ، أو مع الملحمة الهوميرية ، مشيرين إلى أن السير العربية هي « رومانسيات البطولة » أو الملاحم ، مظهرين في السير كل « مشتركات الملاحم » .

النقد الغربي والأدب الشعبي

أمامنا إذن موقفان للنقد الغربي ، أو للرؤية الغربية ، تجاه الأدب الشعبي العربي ، خاصة موقف الحكم على سيرة الهلالية . يضاف إلى ذلك الموقف النقدي العربي نفسه ، وهو موقف ، كما تراه كونيلي ، سلبي ، فقد نظر فقهاء اللغة ، والنقاد ، والأدباء العرب إلى النسخ المكتوبة والأداء الشفهي للشعر العامي على انه شيء خارج عن نطاق الأدب الفصيح . إذن هناك تحامل على القصص بعامة منذ الأيام الأولى للنقد الأدبي العربي ، خاصة على القصص الشعري المروي شفهيا . كان هذا التحامل موجودا على الرغم من أن المحصلة الشعرية لما قبل الاسلام ماهي إلا نتاج تقليدية شفهية طويلة .

موقف مزدوج

وتقول المؤلفة : إن هذا الموقف النقدي العربي الرسمي كان له أثره حتى على الدارس الغربي للأدب العربي . فبينما كان الهواة من القراء الأوربيين يقرؤون معجبين بالأدب الشعبي العربي في الترجمات المتوفرة لديهم ، فإن الدارسين الغربيين للأدب العربي كان لهم موقف مزدوج . فهم قد رأوا في المؤلفات أدبا ملحميا عظيما في تقليدية هوميروس وتيرولد مثلا ، إلا أن وعيهم بالموقف العربي الرسمي

تجاه « اللاأدب » وبالتباينات اللغوية والرسمية بين هذا الأدب وما يعده العرب أدبا عظيما ، جعلهم يحكمون على الأعمال بمعايير شكلية ، تنطبق على الأدب « الكلاسيكي » العربي فقط ، أو يقومون بممارسة نوع النقد العقلاني نفسه الذي لجأ إليه دارسو هوميروس في القرن التاسع عشر .

وهكذا تفرض قضية التقليدية الشفهية التي نسخت نصا يقرأ نفسها علينا . تقول كونيلي : إنه إضافة إلى الظواهر الشفهية لتقليدية السيرة ، تبين المصادر أن القصص البطولية موجودة أيضا في مخطوطات مكتوبة . إذ يذكر حمزة الأصفهاني في النصف الأول من القرن العاشر ، أن سبعين كتابا من « التسليات كانت تقرأ على نطاق واسع . ويخبرنا ابن النديم أن الأسمار والخرافات كانت منتشرة في العصر العباسي ، وكان لكتبها سوق كبيرة . وفي الفاتيكان أقدم مخطوط في السيرة ، ويقع في خمسمائة صفحة ، وهو في سيرة الظاهر بيبرس ، ويعود تاريخه إلى القرن السادس عشر . أما عن الهلالية - الموضوع الرئيس لهذه الدراسة - فترى كونيلي أن ابن خلدون هو أول من جمع شعر الهلالية ، وهو بهذا متفرد ، إذ جمعه ، ودافع عنه . غير أن نشر سيرة بني هلال كان في أكثره متقطعا ، فلم تظهر الهلالية في طبعة من عدة أجزاء بشكل مرتب ، وإنما كانت تصدر مجزأة في ديوان من حين لآخر . وما تزال مخطوطاتها العديدة مبعثرة في مكتبات في بقاع شتى من العالم . وتتساءل المؤلفة عن السر وراء جمع السير في كتب أو دواوين ، ومن الذي جمعها ، ولأي متلق ، ثم تنتقل إلى قضية الحكم على السيرة من خلال النص المكتوب ، وتقول : إن كل النصوص المكتوبة للسير التي وصلت إلينا تشترك في ضخامة حجمها ، وتعدد أجزائها ، فسيرة عنترة ، مثلا ظهرت في ٣٢ - ٤٥ كتيبا ، بينما ظهرت سيرة بيبرس في ٥٠ جزءا في القاهرة ١٩٠٨ - ١٩٠٩ .

فاللغة والأسلوب في النص المكتوب يحيران الدارس ، فيعاب على السيرة التكرار في الموضوع واللغة ، وخلوها من الحيرة الدرامية ، وبذلك تعد السيرة ملحمة عظيمة في نظمها الشعري للموضوعات التي تتناولها عن الحرب والبطولة والذات في القبيلة في إطار التقليدية الشفهية . وإن التكرار الكثير للعبارات والحوادث التي يأخذها النقاد عن السيرة ككتابة سيئة مثلها مثل لغة النص إنما مرده إلى نص مكتوب ألف أصلا شفاهة .

ونعود إلى مسألة الموقف النقدي العربي إزاء السير : هل ظل كما هو حتى يومنا هذا ؟ تقول كونيلي : على الرغم من « الكتب » ومحاولات السيطرة على التقليدية الشفهية ، وعلى الرغم من « الشك الديني » و « الاحتقار العلمي » فإن الشعر الروائي العامي كان له تاريخ طويل ، مستمر في الأقطار العربية . وأن مواقف الماضي قد تبدلت من خلال الاعتراف الرسمي بالفنون الشعبية ، فقد حاز التراث الشعبي في العقود الأخيرة احتراما من قبل المفكرين العرب . وإذا أخذنا مصر مثالا ، فإن كتابات عبدالحميد يونس ، ورشدي صالح وغيرهما ، دليل على الدراسة العربية الجادة في ميدان الموروث الشعبي . وأن نية الأبنودي لتسجيل ملحمة الهلالية كاملة تضع التقليدية في إطار جديد ، بل إن الدارس الغربي بدأ يتناول الهلالية من الناحية البنائية للعمل مباشرة . والمؤلفة واحدة

ممن قاموا بهذا المنهج في دراسة سيرة بني هلال .

تقول المؤلفة : إن دورات سيرة بني هلال تكرار لدورة حياة الأبطال ، فالسيرة ملحمة عائلية من المولد ، والنضج ، وصراع الأجيال ، والصراع السياسي ، والشيخوخة ، والموت ى وتعاقب الأجيال ، والسيرة تمدنا « ببليوجرافية » حقيقية للبطل ، وفي إيقاع الحكاية ، ما بين كشف وإخفاء ، تتواصل بشكل رمزي مع الترجمة الحياتية للجماعة عبر القصص ومعايشة المستمعين ، وأينما تسمع الهلالية في أماكنها العديدة ، يعيد الرواة تشكيل نواة مادتها الأسطورية لتتناسب وقيم المستمع المحلي واتجاهاته .

شاعر الربابة

ثم تتناول كونيلي مكان تقليدية الهلالية في حضارة صعيد مصر من داخل المجتمع نفسه ، مركزة على دور شاعر الربابة ، وإعادة خلقه لتقليدية السيرة وتفسيره لها ، هادفة من وراء ذلك إلى الكشف والفحص من خلال « السمع القريب » بعكس قراءة النصوص الأدائية الممثلة لجمالية التراث الشعبي وشعرية سيرة بني هلال .

وترى المؤلفة أن السيرة الهلالية المصرية تتناول الصراع الداخلي والخارجي للجماعة التي تعيش معا في مساحة زراعية محدودة على وادي النيل ، محاولة تفسير النص الشفهي من واقع الظروف الاجتماعية والاقتصادية المعاصرة . ففي رأيها أن شاعر الهلالية يغني ما يدرك أنه تاريخ الفلاح (وهي هنا تقصد المزارع أو القروي الصعيدي) المصري المستمع للسيرة الذي يرى في أسطورة الهلالية القصة الحقيقية لأصله هو ، قصة القبيلة البدوية التي غزت وطنه منذ نحو ثمانمائة سنة . وبهذا تكون السيرة الهلالية هي « ببلوجرافية » الفلاح المصري . وتوحي المؤلفة بأن الشاعر الغجري (وهو ما يطلق عليه في صعيد مصر اسم « الحلبي ») يفسر الواقع الاجتماعي لصعيد مصر ، من خلال تطابقه الرمزي مع بطل الهلالية ، قبيلة الأبطال تلك ، وتحمله وقبيلته للمجاعة ، والهجرة والحرب ، والانقسام الداخلي ، والتمييز الاجتماعي والسياسي والثقافي . وترى أن تقليدية السيرة تكشف الانقسام الاجتماعي من خلال قصة الطفل العبد الأسود ضد معلم القرآن في المدرسة وقتله إياه ، مفسرة هذا الحدث بأنه يشرح الصدع بين « العالي » و « البسيط » ، « المثقف » و « العام » ، « المكتوب » و « الشفهي » ، « الرسمي » و « الشعبي » ، بل إن كونيلي تذهب إلى حد تفسير تحاشي الطبقات المتعلمة في مصر لتقليدية السيرة ، على أنه رمز لانقسام اجتماعي ، وهو أن الهلالية تعبر عن عدائية الفلاح المصري للنظام الاجتماعي القائم على التعليم والثقافة ، مؤيدة قولها بأن أول عمل بطولي في السيرة كان قتل المعلم الذي حاول أن يعلم البطل الأبجدية . هذا التصرف من البطولة له إيحاؤه ، خاصة في مجتمع منقسم إلى صفوة مثقفة في مواجهة حضارة شفهية تقليدية ضخمة على نطاق جماهيري واسع . وهذه الصفوة تنظر إلى التقليدية بازدراء .

حيثما ازدهرت الهلالية فإنها تظهر لتؤكد توترات موروثة في التاريخ ، كالغزو المتتالي ، والاحتلال الأجنبي الذي جربته مصر ، والسودان والمغرب على مدى ألف وثلاثمائة سنة في التاريخ الحديث . فالملحمة كما يقول شادويك ، تزدهر في أزمنة الغزو الأجنبي .

وتقول كونيلي : إنني أذهب إلى القول بأن كل كلمة هي الرهبة من الأجانب (أي الخوف من الأجانب وكرههم) فالمغنون الجزائريون صوروا الأبطال الأول كأمثلة لمعاصريهم في مجتمع يقهره الاحتلال . كما تعطي الرسومات الشعبية التونسية تعبيرا بصريا لصراعات الموقف البدئي في الحكايات الشفهية التونسية ، ذلك الموقف

المتكرر، مع اختلاف الأبطال والأعداء، فالبطل الذي يواجه عدوه يحتل قلب الصورة. وفي الهلالية التونسية، عكس المصرية، تصبح الخلافات في المرتبة الاجتماعية والعنصر قضايا سطحية، بينما تحل محلها قضايا القلق الكبير حول الطعام والبقاء، فمع المجاعة كموقف بدئي، يجعل الراوي حاجي عبدالسلام التونسي الفقر باعثا يستغرق تفسيراته الهلالية، بادئا ومنتهيا بنفس الصورة البلاغية التي تشير فيها إلى أن الفئات المتصارعة سوف «تأكل بعضها». وفي المغرب العربي يركزون على الحلقات الأخيرة (مرحلة الصراع الداخلي على السلطة في المغرب)، وبذلك يجعلون «دياب» بطلا مركزيا لحياتهم، ولكن الرواة التونسيين يقولون: إن «دياب» قد انحدر من قبيلة مختلفة، ولهذا كان له ولاء مختلف، وبهذا فإنهم يقدمون هذا الفارق في النسب على أنه السبب في أن كل الهلالية قد «كرهوا» «دياب». أما نسخ الهلالية في السودان ومنطقة بحيرة تشاد، فإنها تركز بشكل خاص، على القصة، كدورة حياة الفرد، وهكذا فإنها أقرب إلى نمط الملحمة الافريقية.

بناء الهلالية

وتتناول كونيلي بنائية الهلالية في التقليدية الشفهية المصرية من خلال أهم شعراء الربابة في مصر: جابر أبو حسين، وفاروق عبدالعزيز، وشمندى، وسيد الضوى، محللة أساليبهم تحليلا مستفيضا. وتقول بأن التكرار الثلاثي للحدث في الهلالية كما حدده أولئك (رحيل/دمار/عودة) والذى أشار إليه كامبل، ووينجلر، ولورد وكونيلي، يتطابق مع نموذج الملحمة، ووصف أولئك مثل هذا التكرار الثلاثي بأنه أحد أسس «قواعد الملحمة» في القصص الشعبى. وتقول المؤلفة بأن شعراء الربابة المصريين يستخدمون النمطين الرئيسيين لرواية الملحمة، وهما استخدام ضمير الغائب، وتقديم درامي مباشر جدا للمشهد من خلال حوار مباشر بين شخصيتين. كما أن شاعر الربابة المصرى يضيف قالبا ثالثا في روايته، وهو استخدام ضمير المخاطب (الضمير الثاني)، حين ينصح مستمعيه أو يحذرهم. كما أن الشاعر المصرى يستخدم وسيلة مناسبة يعبر من خلالها ويفسر الالتباس الأخلاقي وإبهامية المعنى فالتورية في اللغة العربية، حالة مهمة وقادرة كظاهرة لغوية. إن التورية، كما تقول المؤلفة، بتعددية مفاهيمها وقوالبها، هي الفهم في السيرة، فالمعنى مختف فى توريات القافية وبين ثنايا القصة، كما أن المنطق المتوازن للبنائية الذى يستخدمه شاعر الربابة المصرى في رواية الهلالية يقوم على أن كل حدث يجب النظر إليه في إطار السياق الأكبر كرد فعل لحدث سابق وذلك لوضع التوازن الأخلاقي موضعه الصحيح.

الهلالية ملحمة فيها المواصفات التي تؤهلها لأن توضع بين الأدب الملحمي العظيم في العالم، سواء من حيث «التكتيك» أو الموضوع. وانطلاقا من الموضوعية العلمية نقول: إن هذا كتاب قيم يستحق منا جهد الفحص والقراءة، بل والترجمة، وإن كان لايخلو بين آن وآخر مما يمكن أن نطلق عليه «التفسير الخبيث» المدعوم بموضوعية البحث ومناهجه. □



من المكتبة العربيّة

الجفاف

مسرحية للدكتور : نصار عبد الله
عرض ومناقشة : دكتور أمين العيوطي

لم يكن ماضي العرب كله أمجادا وانتصارات وعدلا فحسب ، بل كانت في مسيرته نقاط مظلمة ، تعاون فيها الجوع والظلم على الشعب الذي وقع ضحية لكليهما .

وهذه المسرحية استلهام تاريخي لإحدى الفترات المظلمة في تاريخنا ، وهو استلهام لا يخلو من إسقاطات راهنة كما سنرى من خلال هذا العرض .

صدرت للدكتور نصار عبد الله مسرحية جديدة بعنوان « الجفاف » . والمسرحية ليست شعرية كما كنا نتوقع من شاعر كالدكتور نصار ، ولكنها مسرحية نثرية ساخرة ، تعود بنا إلى مرحلة تاريخية بشعة ، حين حل الجفاف بمصر في العصر الفاطمي ، ويخيل إلي أننا حين نحاول الاقتراب من عمل ما ، فلابد أن ندخل إليه من بابه الأمامي ، لا من الأبواب الخلفية ، أو النوافذ ، أو قفزا فوق الأسوار ، وخاصة إذا كنا أمام عمل مسرحي . علينا أن نأتي البيوت من أبوابها ، لهذا أبدأ من البداية بأن أطرح عليكم تساؤلا . في بداية المشهد الأول يستهل د . نصار وصف المنظر بكلمة « المشهد » ، وبداية المشهد الثاني بكلمة « المنظر » ، ثم تختفي الكلمتان معا في المشهدين الثالث والرابع . ويبدو لي أننا يجب أن نتوقف قليلا أمام استخدام الكلمتين ، لعلنا نصل إلى فهم مشترك ، فكلمة « مشهد » تأتي في حدود علمي المحدود ، في « يشهد » ، ومشاهدة ، أو « فرجة » بالمعنى الدارج ، أو مما « نشاهده » . وأنا هنا أغامر في مجال أحسه ولا

أعرفه . ففي أي عمل روائي أو مسرحي ، نحن لا نشاهد المكان ، أو البنية المنظرية فقط ، وإنما نتجاوز ذلك إلى مشاهدة ما هو أبعد من ذلك ، حين يتيح لنا المبدع أن نشهد ، أو نشاهد أحداثا ، وشخصيات منغمسة في صراعات تشكل هذه الأحداث ، بل إننا نشاهد ، كمتفرجين ، ماهو أبعد من هذا ، حين يتيح لنا المبدع فرصة أن نمد أبصارنا إلى ما يجري داخل الشخصيات ، كما يفعل هنا د . نصار ، لا من خلال نحويات المستنصر فقط ، بل حتى من خلال انفعالات الشخصيات ، وأخص بالذكر قاضي القضاة ، بالأزمة والموقف ، بالتعبير المباشر عن ذاته . نحن أولا وأخيرا أمام عمل مسرحي ، وبهذا تصبح كلمة « مشهد » أكثر شمولا من كلمة « منظر » التي تصف المكان أو البنية المنظرية التي تجري عليها الصراعات والأحداث . هذه مجرد ملحوظة ، لي فيها حسنة إن أخطأت ، واثنتان إن كنت قد أصبت .

الجزار وزحام الجوعى

يبدأ د . نصار المشهد الأول بأن يزيح الستار عن حانوت جزار خال من الذبائح ، عامر على الرغم من هذا بزحام الجوعى ، وبحراس أشداء مسلحين بالسيوف والحراب والسياط ، وهمهمات وهتافات حين يظهر « المعلم » قاسم الجزار ، يشق طريقه مزهوا ، منتصرا ، مصحوبا بأنغام موسيقا عسكرية ، وحراس مسلحين ، الخواء والزحام والحراس بسيوفهم وحرابهم وسياطهم ، وفرقعة السياط في الهواء ، والهمهمات والهتافات ، كلها أشياء تحدد الحالة المزاجية التي تسود المشهد الأول من عصبية ، وتلهف ، وترقب ، وترصد ، وتوتر ، وأمل .

ولما كانت العلاقات البشرية في العمل الفني تتحدد بشكل عام بالتحام الإرادات المتباينة حول مشكلة ، هي بؤرة الصراع التي تسهم في نسج الموقف وتحرك الحدث لينمو ويتطور ، فإن هذه العلاقات تتحدد هنا حول « زكيبتين » مليئتين بالقطط والكلاب المذبوحة في أعوام قحط . ولا يلبث اشتباك الإرادات أن يندلع حين ينطق الرجل (١) كلماته الأولى ، بنبرة لا تخلو من التحدي : « بكم رطل اللحم يا معلم ؟ » ، فيجيبه المعلم بنبرة مفعمة بالحسم والثقة والاستعلاء : « بعشرة دنانير » . نحن ، منذ اللحظة الأولى ، أمام مواجهة بين جمهور جائع وبين سلطة مستبدة غاشمة ، تتمثل في شخص أبي القاسم ، ومن ورائه الحراس الأشداء ، والمحتسب ، وصاحب الشرطة ، وكبير « البصاصين » ، و « صاحب المظالم » ، وغيرهم وغيرهم من كبار رجال الدولة » ، كما يقول « المعلم » ، وبعبارة أدق نحن هنا أمام علاقة جدلية بين الناس من ناحية ، وبين السلطة من ناحية أخرى حول لقمة العيش .



وإذا كان الحوار بين الرجل (١) و « المعلم » يشعل الموقف كله ويضاعف من استبداد « المعلم » بالناس ، فإن استمرار النزال بينهما كشف أيضا عن ردود أفعال متباينة بين الناس ، تتراوح بين التمرد الذي يتمثل في الرجل (١) ، وبين المهادنة والرضا بالحلول الوسط اللذين يترددان في كلمات الرجل (٣) : « قلبك أبيض يامعلم » ، و « الطيب أحسن يامعلم » ، وبين السلبية والاستخذاء في كلمات الرجل (٤) والرجل (٥) : « كفاية كلام خل اليوم يمر على خير » و « يارجل وحد الله واسكت وخلنا نخلص » ووسط هذا التردد والتفتت يصبح التمرد الفردي صوتا ضائعا ، بل مهزوما أمام ساطور المعلم وفرقعة السياط ، وينتهي مذبوحا تحت الأقدام .

وعلى الرغم من هذه الاستبصارات في الشخصية الاجتماعية ، ومن تشريح لشخصية المعلم ، بدءا من أصوله الاجتماعية ، مرورا بانتهازيته ونفاقه وجشعه ، واتجاره في المال والدين في آن واحد ، وتشدقه بما يرضي الله ، وتجاوزه عما يرضي البشر ، ومناوراته التي لا تنتهي ، وإحساسه بسطوته ، وانتهاء بكرمه المشبوه في تكفله بجنازة « الفقيد » ، إلا أننا هنا أمام نوع من « الدراما » ، لا يهتم في المقام الأول بتشريح الشخصية الإنسانية ، بقدر ما يهتم بتصوير العلاقات الاجتماعية .

وإذا كان المشهد الأول يقدم موقفا ابتدائيا متكاملا ، اجتمعت فيه أطراف الصراع ، وتشابكت الإرادات ، وتطور لينتهي بالقتل . إلا أن المشهد الثاني لا يطور الحدث بقدر ما يوسع من رقعته ، فالخطة التي تبناها د . نصار في بناء معمار مسرحيته تقدم على أساس الانتقال من العام إلى الخاص ، من أحياء القاهرة إلى قصر الخلافة ، ومن محنة الناس إلى محنة الخليفة ، أو بعبارة أخرى من عالم الواقع إلى عالم الذات . ولكن عالم الذات هنا ليس في الحقيقة إلا انعكاسا لعالم الواقع ، فالصراع هنا هو نفس الصراع ، صراع الخليفة مع رسول الشريفة بنت صاحب السبيل حول ربع رغيف ، أو مع وزيره ابن أبي كديته حول ذبح بغلته ، أو صراعه مع نفسه حول أكل لحم الكلاب أو أكل لحم البشر الذي يبرره ويزينه له وزير فاسد . هذا الصراع الداخلي يؤكده الكاتب في تمتمة الخليفة ، أو حديثه الجانبي حين يحكم على الإخوة الثلاثة بالقتل : « وهل رحموا جوعي حتى أرحم جوعهم » ، أو في نجواه الطويلة التي يحاكم فيها نفسه وأحكامه وتردده وانسياقه وراء من يحللون له الحرام ويحرمون الحلال ، وهي النجوى التي تمهد لقراره الأخير بنجاة المساكين الأبرياء وصرفهم .

ولا يعني هذا أننا هنا أمام موقف جامد ، فخشبة المسرح تجيش بحركة دخول الرسول وصاحب البريد وخروجهما ، وهرولة الوزير دخولا وخروجا ، والجلبة والضجة والصياح ولطم الخدين ، وحركة الخليفة الحائرة جيئة وذهابا وسجودا ونهوضا وإسراعا نحو الباب وتمهلا ورجوعا ، وحديثا وصمتا . كما يموج المشهد بالأحداث بداية من هجوم النسوة على بغلة الوزير ، ومحاكمة الإخوة الثلاثة ، وسرقة جثثهم ، والقبض على عشرة رجال . وكلها أحداث مروية أو مرئية تمهد لخطة الوزير الفاسدة للاتجار في لحم الرعية ، وقرار الخليفة الأخير . وربما كانت أحداثا تدفع الحدث خطوة إلى الأمام فيما يجرى على مستوى عامة الناس ، لكنها حتى على هذا المستوى ، أو على المستوى الخاص ، إنما تعمق رقعة الحدث ، وتوسعه في شكل دوائر تنداح ، لتمهد لتطوير الحدث .

ضمير الشعب وضمير السلطة

ومشهد المحاكمة لا يطور الحدث فقط ، بل يصل به إلى ذروة ، هو مشهد يلملم فيه د .

نصار خيوط المشهدين الأول والثاني ، لا ليحاكم قضية فردية ، أو ضمير الشعب ، وإنما ليحكم فيه على ضمير السلطة . فكل ما يقوله الشاكي ويوجز فيه المشهد الأول نحن شهود عليه ، بل نحن شهود على ضمير رأس الدولة حين يحكي الشاهد عن حبال التعاون الموصولة بين أبي القاسم وبين أعلى مستويات الدولة . إن ضمير الخليفة يثور في قوله الخائف : « هل ذكر لك أسماء معينة ؟ » ، ويستقر حين يقول الشاكي : « لم يذكر لي أسماء يامولاي . . لم يقل غير ماذكرت » . إن اتهامات الشاكي لا تستثنى من كبار رجال الدولة أحدا ، بدءا بالمحتسب ، مرورا بصاحب الشرطة ، وانتهاء بكبير «البصاصين» ، وكلها تدين الإرهاب الذي تمارسه السلطة حتى تخرس أصوات الناس . وكما ذبح الرجل (١) تحت صفعات وركلات أعوان أبي القاسم ، يذبح الآن أخوه بشهادة شاهد مرتش ، وقصاب أثيم ، ومحتسب عديم الضمير ، وصاحب شرطة فاسد ، وكبير « بصاصين » متآمر ، تضيع الرحمة ويضيع العدل في حكم ينفذ حرف القانون ، ولا يستند إلى روحه في زمن ضاع فيه كل شيء ، وانتصرت فيه سلطة آثمة ، متسلطة ، فاسدة ، على ضمير الشعب ، لقد وصلنا عند هذا الحد في الحقيقة إلى الرؤ يا التي تنبض في بصيرة الكاتب . وهي في الحق رؤ يا مبصرة ، نافذة ، موجعة ، صحيحة صادقة في عصر اختلت فيه المعايير ، وضاعت فيه القيم ، إلا قيمة واحدة هي فساد الذمة والضمير .

هنا تصل الدوائر إلى أقصى اتساع لها . فالحدث عند د . نصار لا يتطور في خط متنام ، كما يحدث عادة ، وإنما في شكل دوائر كما يحدث في مسرح تشيكوف مثلا . وإذا كانت الحبكة - كما يقال - هي الجسم المادي الذي يجسد الموضوع ، فقد جسدت المسرحية حتى هذا الحد ببراعة موضوع الجفاف المادي ، غير أن الحبكة -



في رأيي - ونحن نعني بها عادة التسلسل السلبي للأحداث ، تظل إطارا ماديا جامدا ، أو صورة فنية بلا روح ، إذا اقتصر الجفاف هنا على المجاعة وانتصار القهر والفساد والنهب والاغتصاب والقتل ، ولم يتجاوز هذا إلى فكرة ، أو رؤ يا ، تعيش في عيني الكاتب . الرؤ يا هنا تبلور في الجفاف الذي يصيب الروح الإنساني ، فالموضوع والفكرة يتلازمان ويتوازيان ، بل لعل د . نصار كان حريصا على تأكيد هذا المعنى في قول الخليفة : « ما الذي أصاب مصر كلها ، يجف نهر النيل ، فتجف القلوب ، وتغيب عنها الرحمة ؟ ! » ، ويعود إلى تأكيده في خطابه الأخير الذي يوجهه إلى الجمهور في نهاية المشهد الرابع .

والحقيقة أن المشهد الرابع لا يضيف جديدا إلى الحدث ، هو أقرب إلى الخاتمة التي تبرز المغزى الأخلاقي والاجتماعي للمسرحية . هناك الإدانة لآثام الطغمة الباغية التي لا يقوم على آثامها دليل ، وهناك الإشارة إلى استشراء فسادها ، بعد انتصارها بالباطل ، في حادث نهب دار الشريفة بنت صاحب السبيل واغتصابها ، وهناك الاستبصارات الأخيرة لقاضي القضاة في أقواله : « وحين يأسرنا ذل الحاجة نفقد حريتنا ، وحين نفقد حريتنا نفقد نزاهتنا وحيدتنا وشجاعتنا » ، و « حين نفتقد القوة يامولاي نفتقد العدل » . وهناك الخطاب

الأخير الذي يوجهه الخليفة لجمهور المتفرجين ، وإن كنت أعتبره تزيدا لا داعي له ، فقد مست أحداث المسرحية وجدان الجمهور ووعيه بما يكفي ويزيد ، وخاصة أنه زاده يوميا ، أو جفافه يوميا ، في واقعه الآن .

استلهام التاريخ

ولعل هذا يقودنا إلى نقطة ، هي اتجاه د . نصار لاستلهام التاريخ ، وقد كان التاريخ دائما مصدر إلهام لفناني الملاحم العربية والاغريقية على السواء ، كما في السيرة الهلالية ، وعنترة ، والأوديسا ، وغيرها ، ولفنانى المسرح كما في « كوميديات » اسخيلوس ، أو تاريخيات شكسبير الرائعة ، أو كاليجيولا كامي ، أو بيكت ت. س. اليوت ، أو مارصاد بيتر فايس ، أو جميلة الشرقاوي ، أو حلاج صلاح عبد الصبور والزير سالم لألفريد فرج ، وكثير وكثير مما قد تعيه الذاكرة الآن ، أو لا تعيه في كل هذه الأمثلة كان الفنان إما أن يسجل ، أو يفسر ، أو يسقط . وقد اختار د . نصار طريق الإسقاط ، وربط الحاضر بالماضي بحس أخلاقي فني ثقافي رفيع ، وبحس دام بالفجيعة والوجع .

وعلى الرغم من هذا ، جاءت جهامة المأساة والوجع - خاصة وهو بعينيه أكل لحم الفئران والثعابين والجيف وحتى لحم الإنسان - مغلفة بحس الإنسان المصري « الكوميدي » الساخر في عز الأزمات ، بدءا من السخرية « الدرامية » ، بعد أن يكون القصاب قد اعتمد جثة لبيعها : « ويسرني أن أعلن مراعاة لمشاعركم وتطييبا لخاطركم فقد قررت أن يخفض سعر البيع إلى تسعة دنانير للرطل » ، ويصيح الغافلون : « عاش المعلم أبو القاسم » ، جمل تحمل عالما كاملا من السخرية ، ومرورا بالتهكم في قول الخليفة : « شر البلية ما يضحك . أجل شلتتان ، حصيرة وشلتتان ثروة تقوم بنصف دينار هي . ها . هل رأيت يوما خليفة مفلسا وجائعا مثلي ؟ » وانتهاء بخليفة يفتح لفافة بعد لفافة بعد لفافة بعد لفافة ليجد في النهاية نصف رغيف . والأمثلة على هذا الحس « الكوميدى » ، بأساليبه المختلفة كثيرة . وليس هذا مجال حصره .

وهنا يأتي دور اللغة ، وخصوصا دور اللغة في المسرح النثرى على الأخص ، فالمسرح المصري الشعري أمر آخر هنا تختلط العامية والفصحى وتمتزجان ، لا بحس المسرح الذهني الذي يخاطب الجمهور من عل ، ولكن بحس أديب شعبي متمكن من كل أركان اللغة ، يحسها حسا شعبيا ، فواقعية الحوار لا تختلف عن واقعية الرؤيا ، تتيح للممثل أن يبتعد عن أداء اللغة أداء « مليودراميا » مفتعلا ، وتعمق الحس « الدرامى » ، ملهويا أو مأساويا ، لدى المتفرج ، وهذا ، أولا وأخيراً ، فن كاتب . □

أسوأ هدف للاغتيال

● في أحد أيام ١٨٥٨ ألقيت ثلاث قنابل على العربة الامبراطورية التي كانت تقل نابليون الثالث وزوجته بقصدقتلها ، لكن القنابل أهلكت عددا من حرس الشرف ، فقتل ثمانية وجرح مئة وخمسون ، بينما لم يصب الامبراطور بأدنى أذى .



مكتبة العربي

مختـــــارات

اسم الكتاب : اللغة العربية والحاسوب
اسم المؤلف : د . نبيل علي
الناشر : دار تعريب للنشر - الكويت
عدد الصفحات : ٥٩٠ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨م

إضافة جديدة للمكتبة العربية ، يقدمها الباحث الذي أسهم تطبيقا خلال السنوات الماضية في عمليات تعريب « الكمبيوتر » ، ويقدم في هذا الكتاب دراسة علمية موسعة ، في حقل اللسانيات الحاسوبية ، مطبقة على اللغة العربية ، وهي دراسة تغطي منطقة التداخل بين منظومتي اللغة والحاسوب ، وهو المجال الذي يستأثر باهتمام العالم كله ، حيث ينشغل العلماء بقضية اللغة والحاسوب ، كنوع من التخديم على جيل الذكاء الصناعي ، وهذا الكتاب هو أول دراسة من نوعها تطبيقا ونظريا عن اللغة العربية والحاسوب .

□□□

اسم الكتاب : موسوعة المصطلح النقدي
اسم المؤلف : د . سي . ميويك/ ترجمة د . عبد الواحد لؤلؤة
الناشر : دار المأمون - العراق
عدد الصفحات : ١١٧ قطع كبير
سنة النشر : ١٩٨٨

جزء جديد من موسوعة المصطلح النقدي ، يخصصه المعرب للمفارقة وصفاتها ، ليستكمل بذلك أجزاء الدراسة التي تتناول المصطلح النقدي والمفاهيم التي دخلت النقد الأدبي في العصر الحديث ، معززة بأمثلة من آداب لغات عالمية شتى ، كإسهام تطبيقي لفهم المصطلحات والمفاهيم .

□□□

اسم الكتاب : هموم الثقافة العربية
اسم المؤلف : فرحان صالح
الناشر : دار الحداثة - بيروت
عدد الصفحات : ٢٧٤ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

مجموعة من الحوارات أجراها المؤلف مع عدد من المفكرين العرب في مجالات مختلفة ، وقد مثلت الحوارات أساس وجهات النظر التي أقام عليها الكاتب تحليله ، وقدم رؤيته لهموم الثقافة العربية .

□□□

اسم الكتاب : أطفال الحصار
اسم المؤلف : بولين كتنج ، ترجمة أحمد عمر شاهين
الناشر : مؤسسة العروبة للطباعة والنشر
عدد الصفحات : ٢٣٦ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

مؤلفة الكتاب هي الطبيبة الانجليزية التي تطوعت للعمل في مخيمات اللاجئين الفلسطينية في بيروت ، وعقب عودتها إلى لندن منحت وسام الامبراطورية ، تقديرا لعملها الإنساني في المخيمات ، وفي هذا الكتاب تقدم شهادتها من خلال وصف شديد التأثير للحياة والموت في مخيم

برج البراجنة ، فتقدم وقائع مشحونة بالعاطفة لكفاح بطولي في سبيل إنقاذ أرواح أناس في ظروف مستحيلة التخيل ، وفي الوقت نفسه تقدم قصة شجاعة فائقة لسكان المخيمات الذين يواجهون الموت في كل ثانية من أيام الحصار .

□□□

اسم الكتاب : الشوق والفراق

اسم المؤلف : محمد بن سهل بن المرزبان الكرخي ، البغدادي

المحقق : د . جليل العطية

الناشر : دار الغرب الإسلامي - بيروت - ١٩٨٨

عدد الصفحات : ١٩٠ صفحة (قطع متوسط)

يقول المحقق في المقدمة : إن هناك أربعة كتب في « الشوق والفراق » ، ألفت قديما ، لم يصل إلينا منها سوى كتاب الكرخي ، والمؤلف مغمور ، لم يترجم له غير مؤرخ واحد ، هو ابن النديم ، صاحب كتاب « الفهرست » ، كتاب « الشوق والفراق » في ستة وثلاثين فصلا ، تتناول ماقيل في الشوق والوداع والفراق والطيف والخيال والاستزارة . وينفرد الكتاب بإيراد مجموعة من النصوص الشعرية والنثرية التي لانجدها في المصادر المتوافرة عندنا اليوم .

والكتاب جزء من موسوعة أدبية عنوانها « المنتهى في الكمال » ، سبق للمحقق أن نشر منها كتاب الحنين إلى الأوطان ، وسيواصل نشر الأجزاء الأخرى قريبا . واعتمد على مخطوطتين في تحقيق الكتاب ، حصل عليهما من دبلن واستانبول . للدكتور العطية أكثر من عشرة كتب ، معظمها نصوص تراثية محققة .

□□□

اسم الكتاب : أرق الليلة الفاضلة

اسم المؤلف : منيف حوراني

الناشر : الأهالي للطباعة والنشر - دمشق

عدد الصفحات : ١١٠ صفحة من القطع المتوسط

سنة النشر : ١٩٨٨

رواية جديدة للكاتب ، تدور حوادثها حول شاب فلسطيني مغترب ، ولد في المنفى ، ودرس في أوربا ، ونجح ، وقرر العودة ، ولكن إلى أين ؟ فمفهوم الوطن عنده مفهوم مجازي ، وكأن الوطن ليس سوى ساحة معدة لهبوط الطائرات ، وأي بقعة في العالم تتشابه ، فكل البلاد سيان ، وكلها ستدقق في جواز السفر الذي يحمله ، ويتعرض لكل عذابات الغربة والنفي . □

أول فرقة إطفاء

● تأسست في روما ، حوالي سنة ١٠٠ قبل الميلاد ، أسسها رجل يهودي اسمه لينوس كراسوس ، كان يعمل سقاء ماء ، وكانت لديه عدة عربات لنقل المياه . وعندما كان يشب حريق في بيت أحد الناس كان يسارع إليه طالبا مساعدته بماء عرباته ، فكان لينوس يشترط شراء البيت بسعر بخس أثناء اشتعاله ، ثم يطفئه . ومع مرور الوقت أصبح لديه ٥٠٠ رجل إطفاء مع كامل تجهيزاتهم .



مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٦٣

فبراير ١٩٨٩

جوائز المسابقة

الجائزة الأولى ٥٠ دينارًا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارًا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارًا
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :
مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي - العدد ٣٦٣ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ **مارس** ١٩٨٩م

ارفق الحل مع هذا الكوبون
كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٦٣

١ - **أي جزر المحيط الأطلسي تصدر القار « الأسفلت الطبيعي »** وذلك من بحيرة الأسفلت الموجودة فيها ، التي تعد بحق المصدر الرئيسي للأسفلت الطبيعي في العالم ؟ .

٢ - يسميها الانجليز جزر فوكلاند ، ويسميها آخرون جزر ملنينا . **ترى من الذي سماها الاسم الأخير ؟**
× الأسبان الذين استعمروا الجزر مدة طويلة من الزمن .
× الفرنسيون الذين استوطنوا الجزر قبل الاستعمار الاسباني لها .
× أهل الأرجنتين الذين يطالبون بالسيادة على الجزر .

٣ - **أي جزر المحيط الهادي اشتهرت بتماثيلها العجيبة** . عجيبة بضخامتها ، إذ يبلغ طول الواحد منها ٢٠ مترا أو نحو ذلك ، وعجيبة بعددها ، ففيها ٦٠٠ تمثال أو نحو ذلك ، وعجيبة أيضا بقدمها ، إذ يعود تاريخها إلى ماقبل ١٠٠٠ عام . علما بأن التماثيل تمثل رؤوس رجال ظن كثيرون أنهم من رجال الفضاء الخارجي .
× جزر كريسماس (عيد الميلاد)
× جزيرة ايستر (عيد الفصح) .
× جزر الكناري .

٤ - **أي عواصم العالم صممت وأنشئت** لكي تكون عاصمة علما بأن المهندس الذي صممها وأشرف على إنشائها فرنسي .

× باريس
× اتاوا
× واشنطن (دي سي) .

٥ **لم سمى العرب مدينة فينسيا البندقية ؟**
× لأنها تخصصت في القرون الوسطى في تجارة المكسرات لاسيما البندق .
× لكثرة المواليد غير الشرعيين (البناديق) فيها في العصور الوسطى .
× تحريفا لاسمها القديم الذي كانت تعرف به أيام كانت دوقية .

٦ أي بلد أوربي يفقد استقلاله في اللحظة التي يصبح فيها بلا ولي للعهد ، ذكرا كان أم أنثى ، وعند ذلك يصبح جزءا من دولة كبرى تجاوره ، وأي دولة هذه ؟
× موناكو .
× ليختنشتاين .
× سان مارينو .

٧ **أي دول أمريكا اللاتينية فقدت منذ استقلالها سنة ١٨٢٥ أكثر من نصف** مساحتها ، التي تبلغ حاليا مليون كيلومتر مربع أو أكثر قليلا ، وفقدت ضمن مافقدت ، كل سواحلها على المحيط الهادي ، بما في ذلك الصحراء الغنية جدا بالأسمدة والمعادن ، وبخاصة سماد النترات ؟
× بوليفيا .
× باراجواي .
× الأرجنتين .

٨ ثمة جزيرتان تتقاسمها دولتان ، تقع إحداهما ضمن جزر الهند الشرقية ، وتقع الأخرى ضمن جزر الهند الغربية **ما اسم الجزيرتين ؟**

٩ **أي جزر المحيط الهادي تتميز بجمالها الطبيعي الفائق ؟ وقد بلغ جمالها مبلغا** جعل الرسام الفرنسي العالمي (جوجان) يعيش فيها السنوات الست من ١٨٩٥ إلى ١٩٠١
× تاهيتي × تورتولا × تريستان دي كونها

١٠ **ما الجزر التي تحكمها الولايات المتحدة الأمريكية** منذ أن اشترتها بالمال سنة ١٩١٧ ؟ ومن اشترت هذه الجزر ؟ **وما هو المبلغ الذي دفعته ثمنا لها ؟**

١١ مكاو ، كوكس ، جزركوك ، ساموا ، سفالبارد
ترى أي الدول تحكم هذه المستعمرات ؟

١٢ **أي الدول الأوربية قد شاع نشيدها القومي (أو الملكي)** حتى احتضنت لحنه وموسيقاه ، في وقت مضى ، بعض الدول العدوة ، فضلا عن الصديقة ؟ نذكر من تلك الدول على سبيل المثال : ألمانيا وروسيا القيصرية والولايات المتحدة الأمريكية أيام حرب الاستقلال .
× النشيد الفرنسي (المارسلياز) .
× النشيد النمساوي .
× النشيد البريطاني . □

حل مسابقة العدد ٣٦٠

نوفمبر ١٩٨٨

١ ـ أهل المنطقة يسمونها شومولنجما (Chomolungma)، أي إلهة الأرض الأم .

٢ ـ جبل فوجي الذي يقع على بعد ٥٠ ميلاً إلى الجنوب الغربي من طوكيو ، فهو يستأثر بحوالي ٢٠٠,٠٠٠ متسلق سنوياً أو أكثر .

٣ ـ جبل كمبرازو في جبال الأنديز هو أعلى جبال العالم فيما لو قسنا ارتفاع الجبال من مركز الكرة الأرضية في باطن الأرض . يقع هذا الجبل على بعد ١٥٨ كيلو متراً جنوبي خط الاستواء في الأكوادور ، ويفوق جبل أفرست من حيث بعد قمته عن مركز الكرة الأرضية (٢١٥٠) متراً .

٤ ـ الذين بلغوا قمة افرست ١٣٠ متسلقاً أو أكثر ، والذين ماتوا في المحاولة ٥٠ متسلقاً ، وذلك حتى أوائل الثمانينيات من هذا القرن .

٥ ـ جبل آثوس هو جبل الذكور المحظور على الإناث ، يقع في مقدونيا ، ويبلغ ارتفاعه ٢٠٣٣ متراً . وهذا الجبل ذو طابع ديني فريد ، تسكنه جالية من رجال الدين (١٤٧٢ رجلاً) ، ويقيمون في ٣٤ ديراً أو أكثر ، بنيت كلها على الطراز البيزنطي القديم ابتداء من سنة ٩٦٣م . وتتمتع الجالية بالحكم الذاتي ، وذلك وفق أحكام أو مراسيم صدرت سنة (١٠٦٠) .

٦ ـ الجبال البركانية هي التي تتكون بمزيد من سرعة ، ذلك أن الصهير الذي يتصاعد من فوهة البركان لا يلبث أن يجمد ويصبح صخراً صلباً أو جبلاً بركانياً ، ولا يخفى أن الصهير لا يعدو كونه صخراً سائلاً .

٧ ـ الجبال المنخفضة هي الأكبر سناً وأقدم عهداً ، فانخفاضها يدل على أنها كانت مرتفعة في زمن مضى ، ثم انخفضت بخلاف الجبال العالية ، فعلوها دليل على أنها فتية ، ولم تتعرض بعد لعوامل الجو التي تنال من علوها .

٨ ـ جبل موناكيا في جزيرة هواي هو جبل المراصد ، فقد أقيمت على قمته ، بل قل سطحه ، أربعة مراصد فلكية مختلفة ، لأن موقعه في نصف الكرة الجنوبي ، فضلاً عن ارتفاعه ، جعله المكان المفضل لتلك المراصد . وتجدر الإشارة إلى أن أكثر هذا الجبل

مغمور في مياه البحر ، إذ يبلغ ارتفاعه الاجمالي ٣٣٤٧٦ قدماً ، ولا يظهر منه فوق سطح الماء إلا (١٣٧٩٦) قدماً .

٩ - تهبط حرارة الجو خمس درجات مئوية بالمتوسط في كل ١٠٠٠ متر ارتفاع فوق سطح البحر .

١٠ - وزنك عند خط الاستواء أقل منه في القطبين ، فالمسافة بين خط الاستواء وبين مركز الأرض تزيد على المسافة بين القطبين وبين هذا المركز ، وحيث تزيد المسافة ينقص الوزن ، وقل مثل ذلك في المرتفعات ، فوزنك على قمم الجبال يقل عما هو عليه على مستوى سطح البحر .

١١ - جبل حرمون هو نفسه جبل الشيخ ، ويبلغ ارتفاعه ٢٨١٤ متراً ، وهو أعلى جبال سوريا بلا منازع ، ويقع بين سوريا ولبنان ، ويشرف على الأردن وفلسطين المحتلة .

١٢ - جبل إلبروز : يبلغ ارتفاعه ١٨٤٨١ قدماً ، فهو أعلى جبل في أوربا ، ويزيد ارتفاعه على ارتفاع الجبل الأبيض حوالي ٣٤٠٠ قدم أو أكثر (ارتفاع الجبل الأبيض ١٥٧٨١ قدماً) .

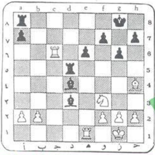
□□□

الفـائـزون في مسابقة العدد ٣٥٩ نوفمبر ١٩٨٨

الجائزة الاولى : لينا الشيخ خالد / حماة - سوريا .
الجائزة الثانية : عبدالله الصوفي / صوفيا - بلغاريا .
الجائزة الثالثة : أمان محمد الشيخ / المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية .

الفـائـزون بالجوائز التشجيعية

١ - مسرة فواز قاسم / المنصورية - الكويت .
٢ - خالد عارف محمد ابوزر / اربد - الاردن .
٣ - عبدالقادر بيوز / مراكش - المملكة المغربية .
٤ - محمد الجبوري / بغداد - الجمهورية العراقية .
٥ - ظافر البكري / كلية الهندسة الاقليمية / كشمير - الهند .
٦ - هدى فيصل الكاف / عدن - جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .
٧ - ماري تاكيدا / اوساكا - اليابان .
٨ - بولس زكي فلتس / الأقصر - جمهورية مصر العربية .



معركة بلا سلاح

من الأحداث الشطرنجية الهامة على الساحة العربية « البطولة العربية الفردية الثانية للأشبال دون ١٤ سنة » التي أقيمت في شهر أغسطس الماضي في دولة قطر الشقيقة، والتي اشترك فيها عشرة من الأبطال العرب الصغار، هم محمد المضيحكي (قطر)، نبيل صالح (الإمارات)، لطفي بورشيد (البحرين)، صبري عبد المولى (اليمن الديمقراطي)، سائر عباس (سوريا)، أحمد شعراوي (مصر)، وسيم الحاج (فلسطين)، شايان صبري (العراق)، أحمد مبارك (قطر)، واللبناني كمال ناصر .

وقد انتهت المباراة بفوز اللاعب القطري محمد المضيحكي بالميدالية الذهبية، ومعها لقب بطل أشبال العرب، وتلاه اللاعب الإماراتي نبيل صالح الذى أحرز الميدالية الفضية، أما الميدالية البرونزية فكانت من نصيب اللاعب البحريني لطفي البورشيد الذي انتزعها من لاعب اليمن الديمقراطي صبري عبد المولى في الجولة الأخيرة .

□ محمد المضيحكي (قطر)	■ نبيل صالح (الإمارات)
١) هـ ٤	جـ ٦
٢) د ٤	د ٥
٣) هـ × د ٥	جـ × د ٥
٤) جـ ٤	ح - و ٦
٥) ح - جـ ٣	ح - جـ ٦
٦) ح - و ٣	ز ٦
٧) جـ × د ٥	ح × د ٥

بداية جيدة للطرفين مع أفضلية ضئيلة للأبيض

٨) و - ب ٣	ح × جـ ٣
٩) ف - جـ ٤	ح - د ٥
١٠) ف × د ٥	هـ ٦
١١) ف × جـ ٦	ب × جـ ٦
١٢) ت	و - د ٥
١٣) و - أ ٤	ف - ز ٧
١٤) ف - و ٤	ت
١٥) ر أ - جـ ١	ف - ب ٧
١٦) ر - جـ ٥	و - هـ ٤
١٧) ف - ز ٣	ر و - د ٨
١٨) و - ب ٣	ف - أ ٦
١٩) ز - هـ ١	و - د ٣
٢٠) و × د ٣	ف × د ٣ تعادل

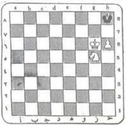
ومن الأدوار القصيرة في المباراة الدور التالي بين الفائز بالدورة والشبل اللبناني كما ناصر الذي بدأ بهجوم لارسن كما يلي :

□ كمال ناصر (لبنان)	■ محمد المضيحكي (قطر)
١) ب ٣	ح - و ٦
٢) ف - ب ٢	هـ ٦
٣) ز ٣	د ٥
٤) جـ ٤	ف - هـ ٧
٥) ف - ز ٢	ت
٦) هـ ٣	جـ ٥
٧) ح - هـ ٢	ح - جـ ٦
٨) د ٤	جـ × د ٤
٩) ح × د ٤	ف - ب ٤
١٠) ف-جـ٣؟؟	و - ب ٦
١١) ت	ر - د ٨
١٢) ف -× ب ٤	ح × ب ٤
١٣) أ ٣	ح - جـ ٦
١٤) ح - د ٢ ؟ (خطأ ثان)	ح × د ٤
١٥) هـ × د ٤	و× د ٤
١٦) ر - جـ ١	ف-د٧ ! (بديعة)
١٧) ح - و ٣	و - ب ٢
١٨) أ ٤	د × جـ ٤
١٩) ر × جـ ٤	ف - ب ٥

ضربة قاصمة بسبب التهاون بنشر الوزير . ينتهي الدور بعدها باستسلام الأبيض .

□■□

● مسألة العدد



مـات ٥

من اهداء القاريء

عادل ندا (ج . م . ع)

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج العدد ٣٦٠ - نوفمبر ١٩٨٨

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ . مراد الفقي - صفاقس/ تونس
٢ . جمال ابراهيم محمد - المحرق/ البحرين
٣ . هشام محمد جلال - القاهرة/ ج م ع
٤ . منير الخطيب - عمان/ الاردن
٥ . محمد أحمد أبدرق - الحصاحيصا/ السودان

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ . ابتهال عبدالصمد - عدن/ اليمن الديمقراطي
٢ . هيثم موسى حافظ - الصباحية/ الكويت
٣ . عباس رشود - حمص/ سوريا
٤ . علي الحريشي - فاس/ المغرب
٥ . محمد فهيم علي - القاهرة/ ج م ع

حل مسألة العدد (٣٦١) ديسمبر ١٩٨٨

١) و × هـ ٤ م - د ٧ ٢) و - جـ ٦ (مات)

حوار القراء

العربي - ص.ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

تحية للكويت

الاستاذ الدكتور محمد الرميحي

● إن دوافع الكتابة لدي ثلاثة :

الأول حبي الكبير للثقافة والعلم والمعرفة ، والثاني إعجابي الشديد جدا وامتناني لهذه المجلة التي يعرف قيمتها وقدرها كل صاحب عقل وحضارة وفكر ورصيد ضخم من الثقافة والمعرفة ، وهي مجلتكم الراقية ، ذات المستوى الثقافي العالمي التي عرفناها منذ أمد طويل ، وثالث الأمور هو إقرار للحقيقة التي لايمكن أن ينكرها إلا أعمى ، وهي حبي وتقديري للكويت عروس الخليج ودرته ، البلد الذي ابتدأ من حيث انتهى الآخرون ، فتحية لها ولأميرها وشعبها الذي أتمنى له من الأعماق الازدهار ، في مستويات الحياة وأنماطها ، وكم أتمنى أن تحذو الأقطار العربية الأخرى حذوها ، وأن يأتي اليوم الذي أرى فيه العرب وحدة واحدة في نصرة الحق والعدل والتقدم .

كما أتمنى في الختام أن تشارك مجلة « العربي » في المعرض الدولي للكتاب الذي يقام في القاهرة كل عام ، حتى نجد ركنا خاصا لمطبوعاتها ، سواء منفردة أو في مجلدات .

القارىء أحمد محمود جمعة

مدينة الصف - جمهورية مصر العربية

□■□

لكي نعرف عدونا

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● اسمح لي أن أتقدم إليك بخالص شكرى وتقديرى لمجلتكم الرائدة التى أنظر إليها بإعجاب وحب متزايد باستمرار (وخاصة أنني عدت إليها بعد انقطاع سنين ، وأصبحت أكثر تقديرا لرسالتكم الثقافية والفكرية الرائدة) ، إن شعوري بالفخر بمجلتكم نابع عن تقدير عظيم لتصميمكم على الثبات والاستمرار في رسالة نشر الفكر بين العرب بمجلة ذات مستوى ثقافي لا ينخفض أبدا ، وهنا يكمن سر النجاح والخلود .

لقد استوقفتني تحليلات الدكتور ياسر سليمان في عرضه لكتاب الشهر « لا تسأل عن السعر » اكتوبر ١٩٨٨ - العدد ٣٥٩ الذى أشاركه الشعور بالضيق الشديد والتحفز والترقب لكل صفحة قرأتها من كتاب ماركوس

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي" بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

قارئ يحاور قارئا

سيف ، وهو يخادع العالم بالأضاليل ، فقام د . سليمان بعد الانتهاء من الكتاب وحلله بطريقتنا الانفعالية العاطفية النبيلة . إن علينا نحن « المثقفين » العرب أن نؤدي الأمانة كاملة بالنقد الوافي الكامل ، وخاصة لكتب الأعداء اليهود الصهاينة .

إن كتاب «ماركوس» أدى رسالته كاملة لمن قصدهم بالكتابة ، وكنت أتمنى على الدكتور سليمان أن يستطرد بالحديث عن علاقة ماركوس سيف برجال المال والسياسة والقرار الانجليزي ، وكيف كان يسخر هذه العلاقة لخدمة الصهيونية ، فما بالك عندما أقنع ثريا مسيحيا بالتبرع « لاسرائيل » ، تكفيرا عن عقدته نحو الشعب اليهودي .

وعلاقته أيضا برجال السياسة اليهود الأمريكيين وكذلك العرب ، وعلاقته بدعم المعاهد والجامعات الامريكية كي تساعد معاهد الأبحاث في « اسرائيل » .

إننا نحن العرب قد كتبنا واطلعنا على الكثير من الوصف العربي للمشكلة العربية الصهيونية ، من وجهة نظر التاريخ والحقائق ، ولكننا بحاجة ماسة لمزيد من إلقاء الضوء على التدخل الصهيوني في الوطن العربي ، وأساليبهم الأكيدة في الابتزاز ، وتطويع إرادة الشعوب الأوربية والامريكية لرغبات الصهيونية .

الدكتور / محمود الفرخ

دبي / دولة الإمارات العربية

□■□

● ورد بالمجلة في العدد رقم ٣٥٩ الصادر في اكتوبر ١٩٨٨ رسالة للقاريء حسن عبدالرحمن من المملكة العربية السعودية الشقيقة ، أظهر خلالها شدة غيرته على مجلتة ومجلة « كل من نطق العربية في أرجاء المعمورة » ، وقد جعل الأخ العزيز من السعر قضية تهدد وجود المجلة ، نظرا لارتفاع التكاليف ، فدعا إلى زيادة سعر المجلة ، معللا ذلك بأن الأدب لايقاس بالثمن ، متغافلا عن حقيقة ثابتة بأن الثقافة والأدب يجب أن يكونا في متناول الجميع .

حوار القراء

وشخصيا لا أنكر أنه يوجد تناقض بين تكلفة المجلة وسعرها ، ولكن الكويت دولة رائدة في مجال السياسة الإعلامية والنشر الثقافي والادبي والعلمي ، تستطيع تحمل هذه الأعباء الثقيلة ، خدمة للإنسان العربي .

إني أذكر ذلك لا تهويلا للمشكلة ، بل تعبيرا عن واقع اجتماعي نعيشه اليوم ، كما أننا نحرص على توفير جزء من مصروفنا اليومي واقتطاعه لاقتناء مثل هذه المجلة الثقافية المفيدة ، لكي نحصل على ثقافة متنوعة ، تخرجنا من بوتقة الفراغ الذي نعيشه .

القارىء / عدنان الخيروني

جزيرة جربة ـ الجمهورية التونسية

□■□

اللغة العربية والعربي في ألمانيا

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● أنا طالب في إحدى المدارس الالمانية الحديثة هنا في مدينة (ميونيخ)، أعيش ووالدى منذ حوالي ٤ سنوات في هذه المدينة الجميلة ، وأطالع تقريبا كل شهر مجلتكم ، حيث أفتخر بمستواها العلمي والثقافي العالمي بالمقارنة مع مجلات عربية أخرى . وفي مدرستي أنا الطالب الوحيد الذي يمتحن في مادة اللغة العربية بدلا من الفرنسية أو اللاتينية ، ولذا فإني أحاول أن أطالع مجلة العربي باستمرار ، كي لا أنسى اللغة العربية ، وكذلك كي تزداد معلوماتي عن الوطن العربي وأبنائه .

أمثال عدنان الظاهر

ميونيخ ـ المانيا الغربية

□■□

الطلب على العربي في الهند

● تلقت المجلة عدة رسائل ، بينها مجموعة من السكرتير العام للمنظمة الطلابية الإسلامية بدلهى ، ومن مكتبة الأمين في بلدة (باتي كاد) ، ومن مدرسة فيض العلوم السلفية سيد بهر ، ومن الدكتور عبدالهادي شفيق الرحمن ، يطلب كاتبوها أن نرسل إليهم مجلة « العربي » . ونود أن نعلمهم أن الحصول على المجلة يتم إما عن طريق مراسلة سفارة الكويت في الهند مباشرة ، أو عن طريق المكتب الفني بوزارة الإعلام بالكويت .

هل تتكاثر الخلايا العصبية؟

● تعقيبا على رسالة القارىء محمود أبو الفتح من جامعة دمشق في باب حوار القراء في العدد (٣٥٠) كانون الثاني ١٩٨٨ بخصوص تكاثر الخلايا العصبية وردت عدة رسائل منها الرسالة التالية التي تتضمن الآتي :

في الجهاز العصبي نوعان رئيسان من الخلايا :

العصبة NEURONE وهي الوحدة الأساسية لهذا الجهاز ، والخلايا الدبقية NEUROGLIA وهي التي تسند وظائف العصبات ، وتكوّن نصف حجم الدماغ تقريبا . وهذه هي الخلايا التي يزداد عددها بالمران والتدريب . فقد وجد عالم أمريكي من جامعة كاليفورنيا ، اسمه ماريان داياموند ، من خلال تجاربه على أفراخ حيوانات المختبر أن عدد الخلايا الدبقية بالنسبة للعصبة الواحدة يزداد بشكل ملحوظ في أدمغة الأفراخ التي تربى في بيئة رءوم مصممة خصيصا لشحذ النشاط الذهني وتحفيز الملكات الفكرية ، عن نسبتها في أدمغة الأفراخ التي تترك لتتربى في بيئة نمطية اعتيادية . وهذه هي التجربة الأولى التي تثبت بالقرينة العلمية إمكانية زيادة خلايا الدماغ بالتربية والتدريب .

إن ارتباط تطور الجهاز العصبي وظيفيا بتوافر فرص ممارسة الوظائف الفيزيولوجية معروف منذ زمن طويل ، فالتدريب يزيد مهارة الشخص المؤهل للقيام بأعمال كثيرة منها أعمال بالغة الصعوبة ، كما أن إهمال الممارسة والتدريب يقلل كثيرا من تلك المهارة ، فإنك لو عصبت عينا واحدة لقط حديث الولادة فترة من الزمن فإنه سيفقد القدرة على الرؤية في تلك العين وسيتضح لك ذلك حين تزيل العصّابة عن عينيه على الرغم من سلامة العين نفسها ، وذلك لضمور مركز الرؤية في الدماغ بسبب الاهمال وعدم ممارسة الوظيفة . ومثل هذا يحدث عند الأطفال المصابين بالحول الشديد لإهمالهم الرؤية باحدى العينين . لهذا كان الحماس العصري للتعليم المبكر الذي يستهدف شحذ أذهان الأطفال وتعليمهم أكثر ما يمكن تعلمه في أصغر عمر ممكن . أما الزيادة الفعلية للخلايا الدماغية فإنها اكتشاف حديث . فهل ينطبق اكتشاف دايامونـد على البشر أيضا ؟ وهل يملك النوابغ من الناس عددا من الخلايا الدبقية أكثر مما يملك الأشخاص العاديون ؟

هذه الأسئلة يصعب الاجابة عنها لاستحالة إجراء تجارب كهذه على أطفال البشر ، أو أنه من المفيد أن نذكر بأن الطب يعرف منذ وقت طويل نتائج المؤثرات النفسية والعاطفية على نمو الطفل الفكري ، والجسدي أيضا . وهنالك متلازمة مرضية اسمها « متلازمة الحرمان من الأمومة » DEPRIVATIONS SYN-DROME MATERNAL ، يقاسي منها الطفل المعرض للاهمال الشديد أو الذي يتربى في مؤسسة غير المنزل ، تبدو على شكل تعوق واضح في نمو الطفل ، فيكون أقصر قامة وأقل وزنا ، ويتخلف تطور هيكله العظمي . وبلغة الطب إن عمره العظمي يكون أقل من عمره الزمني ، وذلك إلى جانب تخلف ذكائه على الرغم من تناوله الأغذية الكافية المتوازنة .

الدكتور لمعان أمين زكي
أبو ظبي ـ الامارات العربية المتحدة .

حوار القراء

تقنية الفضاء

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● قرأت في العدد ٣٥٩ اكتوبر ١٩٨٨ في مقال بقلم بسام اسخيطة، بعنوان «خطأ الحساب وتدمير العالم» فقرة مفادها أن هناك محطة فضائية مزودة بمدافع كهرومغناطيسية، كإحدى المنظومات المضادة للصواريخ، وأن هذا المدفع قادر على اطلاق قذائف وزنها ٣٠ كغ، بسرعة (٣٥ كم / ث). أود أن أستوضح عما إذا كان بامكان تقنية الفضاء الوصول إلى مثل هذه السرعة الفائقة للمنظومات المضادة للصواريخ العابرة للقارات - وهي الأجسام المادية - أو أن هذا ممكن بالفعل، ولكن خارج نطاق الجاذبية الأرضية. أرجو أن أحصل على الإجابة الشافية من الكاتب.

مهندس / طارق عبدالسلام بكر

محافظة الجيزة / جمهورية مصر العربية

□■□

المجمع العربي «يهتم» بطلب العربي

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

تحية طيبة وبعد،

● فقد بلغ بنا السرور مبلغه، حيث ورد علينا عدد من مجلة (العربي) التي أثلجت الصدور، ومتعت النفس، بما حوت من روائع العلم، وعميق المعاني، مما جعلنا نعيش معها في واحة وارفة من الأدب الرفيع، ينعم من يتفيأ ظلالها بجني الثمار وطيب الشذا. وقد كان هذا العدد فرصة غالية لأن نطلب أن تصلنا المجلة باستمرار، لعلنا نستطيع أن نغترف من بحرها أو نشرب من وردها.

د. نعمة التميمي

المجمع العربي - قم - ايران

□■□

الهند تشيد بالعربي

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● نحصل كل شهر على مجلة العربي الغراء، ونقرؤها بشوق ولهفة، ونهتم كثيراً هنا بقراءة كل ما يكتب فيها، ويثلج صدورنا حديث الشهر الذى نلمس فيه كل جوانب الثقافة والعلم والأدب.

تصلنا مئات المجلات والجرائد من الوطن العربي والعالم الإسلامي، ولا أبالغ إذا قلت إن الكويتيين هم السابقون في تقديم الغذاء الطازج لأرواح

أبناء أمتنا الإسلامية ، وتثقيفهم لكي يسيروا مع ركب الزمن .

أبو الكلام شفيق القاسمي المظاهري
رئيس قسم اللغة العربية وآدابها
سلام - مدراس - الهند

□■□

اقتراحات وردود

* القارىء عيس رابع عبدالله من كلية المعلمين ، قسم الدراسات الإسلامية بولاية كشنة ، بنيجيريا ، بعث إلينا يشيد بدور المجلة الرائد في حمل مشعل الثقافة العربية والإسلامية إلى قراء اللغة العربية ، ويثني على دور الكويت الثقافي والإعلامي في افريقيا .

* القارىء نزار ابراهيمي من مدينة سيدي بوزيد بالجمهورية التونسية ، يقترح إيجاد باب خاص بالخط العربي كما هو شأن اللغة العربية « جمال العربية » ، أو صفحة متخصصة لعرض لوحات خطية . ونحن نقول : إن المجلة تنشر بين فترة وأخرى مواضيع وأعمالا لأبرز الفنانين العرب .

* القارىء محمد جبارة من الحديدة ، بالجمهورية العربية اليمنية ، يريد معرفة إمكانية نشر بعض القصص التي يكتبها ، والمجلة كما تعلم تنشر كل مايرد إليها إذا كان يتفق مع السياسة والأهداف العامة ومستوفيا لشروط النشر .

* القارىء عبداللطيف زبيدة ، من حلب بالجمهورية العربية السورية ، يطلب أن تخصص المجلة بابا لعلم التداوى بالأعشاب الذى نشرت له المجلة أكثر من دراسة أو استطلاع . وفي خطة النشر بالمجلة كثير من الموضوعات التي تخدم الفكرة نفسها .

* السيد عباس فتوني - خربة سلم - جنوب لبنان ، سرنا كثيرا أن تكون غيرتك على اللغة العربية هي التي حدت بك إلى اقتراحك بإيجاد باب بعنوان « دقائق عربية » ، ولكن ألا ترى أننا نلبي رغبتك ورغبات القراء في باب « جمال العربية » الذى يأتي فيه كاتبه بين الحين والآخر على ذكر بعض الكلمات التي شاع استعمالها على نحو خاطىء ، فيرصدها ، ويبين وجه الصواب والخطأ في استعمالها .

* القارىء أنور محمد محمد أبو ظريفة ، من خانيونس بقطاع غزة بفلسطين المحتلة ، يطلب نشر مقال عن الهندسة الفيزيائية ، وإضافة باب حول « العلم والعلماء » ، تشرح فيه قصص العلماء الذين أشاعوا النور في العالم . □

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

فبراير ١٩٨٩م

العلم

من منظوره الجديد

تأليف: د. روبرت م. أغروس
د. جورج ستانسيو
ترجمة: د. كمال خلايلي

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٣٤

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٣٣ أول فبراير ١٩٨٩

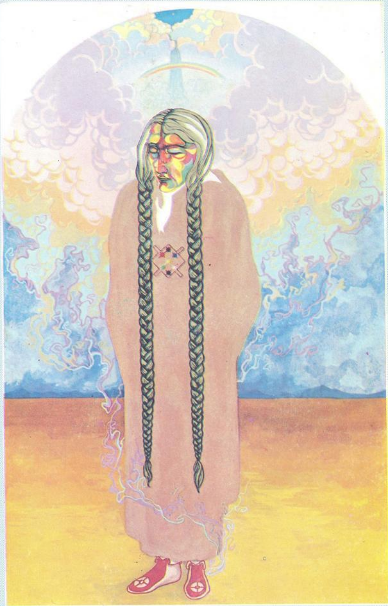
فاوست - ٢

تأليف : جيته

ترجمة وتقديم : د. عبدالرحمن بدوي

الجزء الثاني

النص المسرحي - ١



أحـلام هنـديـة
للفنـان الامـريكي كاريـن هـاريـس

رجب ١٤٠٩ هـ - مارس (آذار) ١٩٨٩م

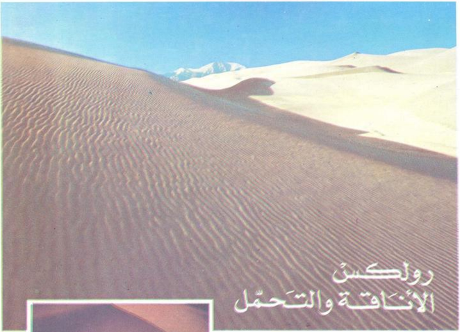
العربي

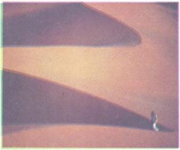


■ يوغسلافيا
رياح التغيير
ومخاوف المستقبل

■ مدن الصحراء الليبية
أساطير وحقائق

■ وجهاً لوجه مع
نزار قباني







رولكس داي ديت، ذاتية الملء، من الذهب الأصفر عيار ١٨ قيراطاً مرصّعة بالماس.

الصّحراء، أو التي تعرف بالأرض غير المضيافة، هي مِن أصعب بقاع العالم سواء للعيش أو للعمل.

منذ أقدم العصور، عاش العرب في تلك الأصقاع واعتادوا على الإقامة والعمل فيها وحوّلوها للأرض المضيافة التي أصبحت بفضل كرمهم وشجاعتهم، أوّل منطقة صحراويّة آهلة بالسكّان في العالم أجمع، والتي إستفاد العالم بأسره مِن خيراتها.

في تلك البقاع القاحلة، التي تحوّلت بفضل جهودهم الدائبة وفي أقسام كثيرة منها إلى حدائق غنّاء، كان العزم والمثابرة والإصرار أهمّ الصّفات التي ساعدتهم على العيش في تلك الظروف الصّعبة.

في الأزمان الماضية كان العرب يعرفون الوقت بواسطة علم الفلك، أي بواسطة النجوم والشّمس والقمر. أما اليوم، ومع التطوّر التكنولوجي فقد قدّمت لهم رولكس أفضل آلة توقيت يمكن الاعتماد عليها في حرارة الصّحاري اللاهبة أثناء النهار، أو البرودة الفائقة أثناء الليل، ساعة لا يدخلها الغبار والرّمال إطلاقاً وذلك بفضل علبة الأويستر وقفل السّلامة المثبّت بإحكام على هيكل السّاعة الصّلد المصنوع مِن كتلة معدن واحدة سواء مِن الذهب عيار ١٨ قيراطاً أو مِن الفولاذ الذي لا يصدأ.

ROLEX

رولكس

العدد ٣٦٤ السنة الثانية والثلاثون مارس ١٩٨٩

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهريًا عن وزارة الإعلام بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL - ARABI
Issue No. 364 Mar . 1989 - P.O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

عنوان المجلة
العربي
ص. ب: ٧٤٨ ـ الصفاة
الرمز البريدي 13008 الكويت
تلفون: ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيًا: "العربي" - الكويت
تلفون فاكسملي: ٢٤٢٤٣٧٥ - تلكس: MITR. 44041 KT
المراسلات باسم رئيس التحرير

الاعلانات يتفق عليها مع الإدارة - قسم الاعلانات

الاشتراكات تُرسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - الإعلام الخارجي
وزارة الإعلام - ص.ب: ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

ثمن النسخة

الكويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسًا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا: جنيه استرليني ونصف
مصر ٣٥ قرشًا	سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ٢٥ فرنكًا
السودان ٢٥ قرشًا	لبنان ٥٠ ليرة	أميركا ٣ دولارات

محتويات العدد

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

استطلاعات مصورة :

طب وعلوم :



● مدن الصحراء الليبية .... ص ١٣٢



أدب وفنون :



منتدى العربي:

تاريخ وتراث وأشخاص:

مكتبة العربي:

أبواب ثابتة:



صورة الغلاف:

تعيش يوغسلافيا أياماً عصيبة في تاريخها.. وتعاني من كثير من الصعاب والأزمات التي تهدد تاريخها، العربي كانت هناك تتابع وترصد.

[طالع الاستطلاع ص ٦٨]

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

عزيزى القارئ

الكويت .. والقضايا الصعبة !

منذ مطلع هذا العام ، أخذنا على أنفسنا أن نتحدث عن المستقبل ، ليس حديث الرجاء وإنما حديث العلم . فالمستقبل يصنع الآن ، أو على الأصح توضع خطوطه الرئيسية ، ومستقبل الأمة العربية مرهون بوفاقها وإعلاء ماهو مشترك بين أقطارها فى مواجهة التحديات وهى كثيرة . ولعل أهم تحد يواجه هذه الامة هو موقفها من القضية الأم ، قضية شعبنا وأهلنا في فلسطين الذين مازالوا يناضلون في الداخل والخارج من أجل مكان كريم تحت الشمس يضمهم ويجمع شملهم .

والقضية الأخرى التى مازالت تنال جهداً كبيراً أيضاً ـ وهى قضية لها علاقة بالمستقبل العربي ـ هي القضية اللبنانية ، ولقد لعبت الكويت ـ ومازالت ـ الدور الأساسي في البحث عن حلول لهذه المشكلة التى طالت وأرقت الأمة ، ونزفت على ساحتها دماء غزيرة ، وما اختيار الكويت لرئاسة اللجنة العربية المكلفة بالاتصال بالأطراف المعنية ، ورئاسة الشيخ صباح الأحمد نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية الكويتي إلا توكيد للدور الفاعل للكويت كسياسة ، وللرجل كشخصية دبلوماسية دءوبة ، لها ثقلها عربياً وعالمياً ، تسعى جاهدة لتوفير حلول لكثير من قضايانا الصعبة .

وتلعب « العربى » الدور الثقافى المكمل للسياسة السابقة منذ أن صدرت حتى الآن ، فتذهب إلى الواحات الليبية في هذا العدد ، تستقصى حياة الناس ومعيشتهم ، ومن القضايا العالمية الساخنة تكتب عن يوغسلافيا ، البلد الصديق للعرب الذى يتعرض لتغيرات جديدة .

أما « مائدة » الثقافة والأدب والعلوم في هذا العدد فهى متنوعة عامرة يقدم لنا فيها الدكتور محمد عمارة موضوعا أزليا معروفا ، من زاوية جديدة ، وهو علاقة الرجل بالمرأة . . أهى علاقة تنافس أم تكامل ؟ وعن رحالة عربي منسي هو أبو حامد ، يكتب لنا الاستاذ فارس المنصورى عن تفصيلات رحلاته واكتشافاته ، ويكتب لنا الدكتور محمد موفاكو عن « رحلة الغجر عبر التاريخ » ، ويتناول الدكتور سمير رضوان موضوع الساعة الذى يشغل أوساطاً كثيرة في العالم ، نعنى به موضوع البيئة والسموم التى تُلقى في الأنهار فتسبب أمراضا وعاهات للناس . ونقدم في « وجها لوجه » حديثاً مع الشاعر العربي نزار قباني ، يقول فيه مالم يقله من قبل .

وفي العدد كثير من الموضوعات الطبية والعلمية والثقافية الأخرى التى تمثل زاداً دسماً مع إطلالة الأيام الأولى من فصل الربيع الذى نرجو فيه ـ وفي الأيام التى تليه ـ للامة العربية تحقيق الكثير من أمانيها ، فإلى العدد .□

« المحرر »

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

تاريخ المستقبل..!

ألا يوحي هذا العنوان بالتناقض ؟ فكيف يمكن أن نكتب تاريخاً وفي الوقت نفسه يكون هذا التاريخ للمستقبل ؟

أليس التاريخ هو الأحداث التي مرت بالإنسان في السابق ؟ وأليس المستقبل في علم الغيب لا يعرفه أحد ؟ إذن كيف يمكن أن نعرف ماذا سيتمخض عنه المستقبل من حوادث وأحداث ؟

ولكن محاولة لقراءة تاريخ المستقبل قد تكون ذات فائدة ، إلا أن هذه القراءة تبدو صعبة ، بل مستحيلة ، ولكنها محاولة ، ما يزال الإنسان يدأب أبداً ليكشف كنهها ويسبر أغوارها .

في الماضي القريب كانت قراءة المستقبل ، أو التأريخ للمستقبل ، من ضروب التخمين ورجم بالغيب ينبيء عنه أناس كثيرون ، بل كانت صناعة للمنجمين والمخمنين وقراء الطالع والكف ، يؤمن بها العامة ويتطير منها الخاصة ، ولم يلبث - نتيجة اشتداد شغف الانسان لمعرفة

قـــراءة
المستقبل
أصبحت
ضرورة
من
ضرورات
التخطيط

المستقبل ـ أن أصبح علماً ، أو كاد ، ثم تحول إلى ضرورة من ضرورات المجتمعات التي تريد أن تنهض وتلحق بالركب .

فلم تعد قراءة المستقبل موضوعا للتندر ، أو مرحلة تشوق الناس لمعرفة ما تحمله وما تخفيه ، بل أصبحت ضرورة من ضرورات التخطيط ، فأنت إن لم تعرف ما سوف تتطور اليه الحياة الحالية من واقعها المادي والمعنوي قد تفاجؤك هذه التطورات وأنت غير مستعد لها . ولقد فوجئت شعوب كثيرة بتطورات في المستقبل جعلتها تنقلب رأساً على عقب في معاشها ومعيشتها .

وقديما ألبس الناس أثواب الولاية والكرامة ، بل والمعجزات ، لمن كان يخبرهم عن أمور كانت خافية عنهم ، وكان أهل الكرامات هؤلاء مقدرين مبجلين لدى شعوبهم ، يلجأ الناس إليهم إن استعصى عليهم أمر أو تعقدت عندهم ظاهرة .

أما اليوم فقد أصبح للتنبؤ قواعد وقوانين ، فهو لا ينبع من فراغ ، وقد حل المخطط والعالم المجرب والاقتصادي محل المنجم وضارب الودع .

والتنبؤ هنا ، أو قراءة المستقبل ، تعني قراءة مستقبل الشعوب وليس الأفراد ، وكما هي الحال في بعض مناطق العالم المتقدم أصبحت قراءة تاريخ المستقبل علماً وعلماء ، وأصبح لها معاهد خاصة تضع التصورات المستقبلية أو الخيارات المختلفة أمام المخططين والمسؤولين والسياسيين فيمضون قدماً في سياسات تؤدي الى نتائج محسوبة ، وقد قمنا في الوطن العربي بنفس المحاولات ـ على قلتها وعدم دقتها ـ كي نقرأ المستقبل أو نؤرخ له . وكانت هناك دراسات متفرقة هنا وهناك ، في تقديري أن كثيراً منها لا يقدم أي فائدة ، لأنها في الأساس لا تعتمد على معطيات وحقائق ثابتة أو معروفة .

في الغرب أصبح أشخاص مثل آلن توفلر ، صاحب كتاب « صدمة المستقبل وبعده . . الموجة الثالثة » ، ومثل بول أردمان صاحب كتاب « أيام امريكا الأخيرة » ، أصبح مثل هؤلاء الكتاب من أشهر الناس ، لأن كتبهم التي كتبوها عن المستقبل جرى تداولها وقرأها ملايين القراء ، أما ما كتبناه نحن ـ على قلته ـ فلم يعرفه أحد خارج دوائر ضيقة .



ولكن السؤال يظل حياً وحيوياً : ماذا عن المستقبل ؟

هناك دراسات متفرقة تحاول أن تستكشف المستقبل العربي ، معظمها وضع له هدف زمني هو سنة ألفين ميلادية ، وهي سنة لا يفصلها عنا سوى عقد من الزمن منذ الآن . وكانت هناك دراسات عن العرب في الثمانينيات ، وأخرى تحمل اسقاطات قديمة أيضا عن سنة ألفين خاصة بهذا القطر العربي أو ذاك . بعض هذه الدراسات أو المقالات بجانب جدتها لا تخلو من الطرافة ، ولا تخلو من مفارقات سوف أشرك القاريء معي في النظر إليها من جديد ، ومقارنة ما كتب فيها بما نحن فيه الآن

أهــل الكهـف وأهــل الصحافـة

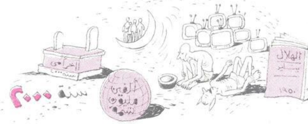
العبرة الكامنة في قصة أهل الكهف أنهم بعثوا في زمان غير زمانهم ، وقد تغير عليهم كل شيء بعد ذلك ، المآكل والملبس والناس والمعاملات ، وباختصار فهم لم يستطيعوا التكيف مع الزمن الجديد وفضلوا العودة الى كهفهم أو الى موتهم .

ومن ضمن محاولات الصحافة العربية ـ المبكرة والقليلة لإعادة قصة أهل الكهف من جديد ـ ما أصدرته مجلة الهلال القاهرية سنة ١٩٥٠ . فقد أصدرت عدداً خاصاً عن سنة ألفين ، كتب فيه مجموعة كبيرة من الكتاب تراوحت كتاباتهم بين الهزل والجد ، ولكن بعض فقرات مما كتبوه تثير خيال القاريء وتجعله يفكر من جديد فيما يعنيه « تاريخ المستقبل » .

> ماهي المفاجأة التي ستدهش أهل الكهف إذا عادوا من جديد؟

من المقالات الملفتة للنظر ما كتبه المرحوم فكري أباظة ، وهو الكاتب والسياسي الساخر ، كان يتخيل أنه يكتب في أول يناير سنة ٢٠٠٠ ، بعد أن حصل على دواء سماه (الخلوديوم) من صيدلي سويسري صديق ، هذا الاكسير الذي يضيف سنوات طويلة على عمر الإنسان كما تخيل الكاتب يومئذ .

فقد تخيل فكري أباظة قيام ما سماه « الاتحاد المصري العربي » فقال : (إن الاتحاد المصري العربي الذي يضم مصر والسودان وأوغندا وأرتيريا والحبشة وشمال افريقيا والحجاز وسوريا ولبنان وشرق الأردن واليمن والعراق ، يعاني الآن أزمة سياسية ضد الاتحاد السوفيتي ، ولكن بارك الله في العلماء المصريين الذين اخترعوا القنابل الطائرة من غير محرك



ولا قائد ، والتي تصل الى مسافات شاسعة ، ولا ينتظر أن يكون الروس قد وصلوا الى مثل هذه الاكتشافات أو الى ما يقاومها ويقضي عليها) .

ويقول : (أتصور مصر زعيمة هذا الكيان العظيم « الاتحاد المصري العربي » وقد تأهلت لهذه الزعامة بتضاعف عدد سكانها حتى بلغ ٤٠ مليوناً من النفوس !) . الآن في الثمانينيات أصبح عدد سكان مصر خمسين مليوناً وأكثر !!

ثم يقول : (نحن الآن في موسم السياحة ، واكتظت الفنادق المنتشرة على طول جبل المقطم بالسياح ، والاقبال شديد على القهوات والكباريهات والمسارح ودور السينما المنتشرة في غابات المقطم الأخضر اليانع) .

> مصر تقرض بريطانيا ... ولكن ضمانات السداد ضعيفة غير موثوق بها .. !

أما أطرف ما كتبه المرحوم فكري أباظة في هذا الخصوص فقوله : (أعارض أشد المعارضة في القرض الذي اعتزمت حكومة مصر أن تقرضه لبريطانيا فالمبلغ جسيم ، وحقيقة أن ميزانية الدولة بلغت خمسمائة مليون من الجنيهات ، وبلغ الاحتياطي مئتي مليون ، إلا أن أمام مصر مشروعات خطيرة لتعمير الاقليم الجنوبي حتى خط الاستواء ، فضلاً عن أن الضمانات التي عرضتها انجلترا ضمانات ضعيفة غير موثوق بها . .) .

وبالمناسبة فإن اجمالي الدخل القومي المصري في موازنة ١٩٨٨ - ١٩٨٩ قد بلغ ما يقرب من ٢٤ ملياراً من الجنيهات !!

المرحوم الدكتور محمد عوض محمد كتب سنة ١٩٥٣ عن الأرض كما يراها سنة ٢٠٠٠ ، فقال : (وقد بدأ الناس يتحدثون عن امكان وصول الانسان الى القمر ، وأن هذا الحلم الذي كان وهماً سيغدو حقيقة مؤكدة في عشرات السنين المقبلة) .

ويقول في موضع آخر : (وسكان العالم اليوم يتجاوزون ألفين من الملايين وقد يصلون في سنة ٢٠١٣ إلى ضعف هذا العدد) .

لقد وصل الإنسان الى القمر عام ١٩٦٩ أي قبل التاريخ الذي حدده الكاتب بعشرات السنين ، وكذلك تجاوز عدد سكان العالم التوقع الذي قال به فوصل إلى خمسة مليارات نسمة ، ونحن ما نزال في عام ١٩٨٩ .. !

ونشرت الهلال لأحد الكتاب الانجليز سنة ١٩٥٠ مقالا بعنوان « العالم بعد نصف قرن » نقتطف منه ما يلي : (وسوف يكون التلفزيون بعد خمسين عاماً شيئاً قديماً وشائعاً شيوع الماء والكهرباء في الوقت الحاضر ، وستكون بعض أجهزته من الصغر بحيث يستطيع المرء أن يحملها معه في نزهاته ، هذا الى أن أكثر الناس سوف يحملون في جيبهم أنابيب صغيرة في حجم السيجار يستعملونها للاتصال التليفوني في بيوتهم أو مكاتبهم ..) .

ويقول في موضع آخر : (إن أحفادنا سينظرون إلينا نظرة رثاء ، وسوف يندهشون حينما يطالعون الكتب ويقفون على أحوالنا الاجتماعية ، ومن الأشياء التي ستثير دهشتهم أن الفقر كان يخيم على كثير منا ، وأن بعضنا ماتوا جوعاً بينما الطبيعة من حولنا حافلة بالخيرات ، وسوف يرثون لحال آلاف من موتانا متأثرين بأمراض أصبح قهرها ومقاومتها عندهم من أبرز الأشياء ، كما يرثون لحال كثير منا وقفوا مكتوفي الأيدي أمام دمامتهم وعاشوا حتى ماتوا بأجساد مشوهة ، وآذان كآذان الحمير .. وعيونهم وأنوفهم تثير سخرية الناظرين !) .

أما محمد العشماوي باشا - وزير المعارف المصري آنذاك - فقد افتتح عدد الهلال الخاص لسنة ٢٠٠٠ بمقال عن ثقافتنا سنة ٢٠٠٠ ، توقع فيه أن يدفن آخر رجل أمي في مصر في ذلك العام !

وزير
معارف
عربي
يتوقع
دفن
آخر
رجل أمي
في عام
٢٠٠٠ .. !

هناك جرأة في طرح التوقعات المستقبلية.. وجرأة في الإجابة عنها

هذا غيض من فيض من كتابات الهلال في عددها ليناير ١٩٥٠ الذي كان مخصصاً للحديث عن سنة ألفين ، أما عددها ليناير ١٩٥٣ فقد خصص جزء منه للحديث عن مصر والعالم بعد ستين سنة .

على الرغم من خيال الكتاب ، الجامح في بعض تصوراتهم ، فإن الوقائع التي نعرفها الآن قد اختلفت كل الاختلاف ، ولقد كان مطلوباً أن يضع بعضهم تصوره حتى نتمكن الآن من الحكم عما إذا كان ذاك التخيل قريبا من الواقع أم بعيداً عنه ، لقد حكم التفاؤل ذاك الخيال وجاءت الوقائع مختلفة وقاسية . ولكن المحاولة في ذاتها مطلوبة ومرغوبة ، فلولا الخرائط التي رسمها جغرافيو العالم في العصور الوسطى ، والتي كانت أبعد ما تكون عن الدقة وملأى بالأخطاء ، لولا تلك الخرائط ما تمكن معظم الرواد والمكتشفين بعد ذلك أن يعرفوا العالم الذي عرفناه .

ولو قدر لهؤلاء الكتاب الذين توقعوا سنة ألفين بتصورات وردية ورسموا صورا مشرقة لمدن وقرى ومواصلات ومستشفيات حديثة ، لو قدر لهم الخروج من مثواهم الاخير ، كما حدث لأهل الكهف ، هل تراهم يدهشون بما يرون ، أم يعتقدون فترة من الزمن أن ما تركوه كان أفضل ؟

"العربي" وتوقعاتها

ولنا في « العربي » خبرة أخرى جديدة وطريفة لقراءة المستقبل . ففي يناير ١٩٨٠ طرحت العربي أربعة أسئلة عامة على ستة من الكتاب العرب ومعهم واحد أجنبي ، وكانت الاسئلة هي : هل تقوم الدولة الفلسطينية في الثمانينيات ؟ هل تقوم وحدات عربية ما ؟ هل تقوم حرب عربية اسرائيلية جديدة ؟ هل تنشب حرب عالمية ثالثة ؟

وكان الكتاب السياسيون هم : الدكتور مراد غالب وزير خارجية مصري سابق ، وميشيل جوبير وزير خارجية فرنسي سابق ، وجورج طعمة استاذ جامعي ومندوب سوريا في الامم المتحدة سابقاً ، وميشيل أبو جودة ، ومايكل آدمز ، ومنح الصلح .

وقد اتفق الجميع على أن لا حرب عالمية ثالثة في الثمانينيات ، واختلفت الاجابات فيما بعد ذلك جزئياً ، فقال مراد غالب بوضوح : (أعتقد أن الثمانينيات ستشهد قيام دولة فلسطينية) ، وفضل ميشيل

جوبير أن يكون هناك دولتان ، وقال جورج طعمة : (إن هناك جملة مؤشرات تدفعنا إلى الاعتقاد بأن الثمانينيات ستشهد قيام دولة فلسطينية) وكذلك اعتقد مايكل آدمز ، أما منح الصلح فقد أفاض في الموضوع بقوله : (وقد يوافق المجتمع الدولي على مبدأ وجود دولة فلسطينية ، ولكنه سيرفق الموافقة على هذا المبدأ بإصراره على تحقيق ضمانات فلسطينية وعربية دولية «لاسرائيل» مما سيعمل على تأجيل قيام الدولة الى أواخر الثمانينيات ، لأن الضمانات ستكون من النوع الثقيل على العرب . .) .

لقد أوشكت الثمانينيات على الانقضاء ، وحتى الآن - وعلى الرغم من التفاؤل في أكثر من مكان - لم تقم الدولة الفلسطينية على أرض فلسطينية ، ومن الجسارة أن نتحدث عنها في التسعينيات أيضاً ، وهذا مثال آخر على جرأة طرح التوقعات المستقبلية وجرأة الاجابة عنها أيضاً .

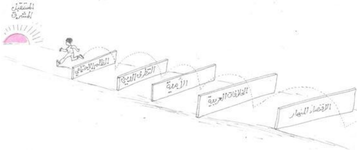
الوطن العربي القادم

تعتبر الأدبيات التي تتحدث عن المستقبل في الوطن العربي - كما قلت - أدبيات حديثة وقليلة في الوقت نفسه ، وبعضها يحمل سيناريوهات متعددة ومختلفة . ولعل المحاولة الأهم بهذا الخصوص هي ما نشره مركز دراسات الوحدة العربية ، الذي صدرت عنه في نهاية العام الماضي تلك الدراسة الضخمة التي يجب أن يعنى بها كل مفكر وقائد رأي عربي ، وأن تلخص التلخيص الوافي لمتخذي القرار ، وأن تضع أمام أعيننا الخيارات وتوضح العقبات الكأداء إن نحن تجاهلنا ما يدور حولنا أو تركنا الحبل على الغارب وجعلنا شعارنا « اليوم خمر وغداً أمر »!

وقد سميت الدراسة « مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي » وقد عنى به مركز دراسات الوحدة العربية ، ونشر في نهاية العام الماضي تقريره النهائي بعنوان « مستقبل الأمة العربية . . التحديات والخيارات » في سفر ضخم وأتبعه كتابين كبيرين عن محورين من محاور المشروع ، هذا عدا نشره عددا من الدراسات الفرعية التي استندت إليها دراسة محاور المشروع الذي استغرق ما يقرب من سبع سنوات . وجاءت نتائجه محصلة لدراسات ومناقشات جادة خصبة ساهمت فيها عقول عربية مفكرة في مختلف التخصصات ومن مدارس فكرية متنوعة .

ولأن المستقبل ليس قدراً محدداً مسبقاً ، أو تحدده قوى غير معلومة وغير قابلة للتطبيع والتشكيل ، فقد هدف المشروع الى تحقيق عدد





من الأغراض المباشرة وغير المباشرة هي :

تحديد الاختيارات والمسارات المستقبلية للوطن العربي وذلك « باستطلاع مسارات بديلة لمستقبل الوطن العربي ، انطلاقا من دراسة الواقع العربي بكل جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية ، وبالقدر الذي يخدم إمكانية التوصل الى الوضع المرغوب في أوائل القرن الواحد والعشرين ». وكانت سنة ٢٠١٥ بالتحديد هي المدى الذي اختار فريق البحث التوقف عنده لاعتبارات حاكمة .

بدائل وخيارات

والمشروع يسعى الى تبيان أن « الواقع العربي الحالي ، بكل سلبياته ، ليس قدراً مكتوباً لا يمكن الفكاك منه ، وأن هناك بدائل مختلفة للمستقبل العربي ، وهناك خيارات ، وأننا نستطيع أن نحدد مستقبلنا تبعا لارادتنا وقدرتنا ورغبتنا في دفع الثمن المطلوب للمستقبل المرغوب ».

وبالاضافة الى دراسة الواقع تأتي محاولة استخدام أفضل المنهجيات العلمية المتاحة للحصر وللدراسات البديلة للمستقبل العربي « بهدف الوصول الى منهجية عربية للاستشراف ، تساعد ، في توظيفها وتطويرها ، مستقبل دراسات مماثلة ».

واستهدف المشروع أيضا أن يخلف وراءه قاعدة بيانات ، ومعلومات ، ومناهج وأساليب للتنبؤ ، وللتشابكات الشاملة ، يمكن أن يستفاد منها في جميع أغراض التحليل والتقويم المختلفة ، وبناء مشاهد أخرى إضافية . وتساعد هذه القاعدة العلمية في تزويد الباحثين العرب بما كان يصعب عليهم الحصول عليه من قبل ، والى خلق الاهتمام

وتوسيعه بالدراسات المستقبلية بين المفكرين وصانعي القرار في الوطن العربي ، حيث تساعدهم هذه الدراسات - والدراسات المناظرة - في معالجة الازمات التي تعاني منها أقطارهم في إطار أوسع وأرحب .

لذلك يتوجه فريق البحث بنتائج الدراسة ، بالاضافة الى المواطن العربي العادي أيا كان موقعه ، الى ثلاث قوى يعتقد أنها معنية بالأمر بدرجة أكبر من غيرها ، أولاها « المواطنون العرب » وقواهم المنظمة التي تسعى الى خلق مستقبل أفضل ، والثانية « النخبات الحاكمة والقائمون على إدارة المؤسسات الرسمية في الوطن العربي بهدف التبصير والترشيد والعقلانية في ادارة الملك وشئون الرعية » .

وتحقيقاً لهذه الأهداف فقد اختار فريق البحث منهجاً ، حاولوا فيه أن يكون متسما بالشمول وبمحاولة الوصول الى تنبؤات مشروطة بعيدة المدى ، والى تصورات متباينة للمشاهد الممكنة والمحتملة للمستقبل العربي خلال الفترة الزمنية للبحث ، بحيث يمكن أن تساعد العقل والوعي العربي في تصوراته لبرامجه المستقبلية ، وعلى الحسم في الخيارات المتاحة أمامه .

ولأن عملية استشراف المستقبل بالنهج الذي سار عليه فريق البحث ليست « اصدار نبوءات » لأن النبوءة تستند الى فكرة سائدة « بأن المستقبل أمر محدد سلفا والمطلوب هو الكشف عنه ، وهذا مجاله الاقتناع والممارسات الفردية وليس البحث العلمي الذي يرى مظاهر الحياة متشابكة ومتراكمة » .

وهي ليست « بتخطيط طويل المدى » لأن التخطيط هو تدخل واع للصياغة والتوجيه من قبل إرادة بعينها تملك إمكانات التسيير وخلق الظروف المواتية .

لذلك كان لجوء فريق البحث الى مجموعة تنبؤات مشروطة أو مشاهد مستقبلية (سيناريوهات) تفترض الأكثر توقعا تارة ، والمأمول فيه تارة أخرى ، بحيث يتم تشريح كل جزئيات المجتمع (القطري أو الاقليمي أو العربي) في فترة زمنية قصيرة كمجتمع حالي أو مأمول فيه كخطوة أولى ، ثم التعبير عن هذا النسق الشامل في صورة أنساق فرعية (اقتصادية واجتماعية وسياسية) بظواهرها الحالية والمستقبليات والتفاعلات بين هذه الأنساق الفرعية ، ثم تأتي الخطوة الاخيرة وهي استخدام هذا النسق للوصول الى التداعيات المستقبلية لكل مشهد .



وقد شملت خطة البحث المكونات التالية :

١ ـ **المحاور المضمونية** : وتتكون من ثلاثة محاور : المحور الأول المجتمع والدولة ، وهو يبحث في مضمون الكيان الذي يراد الاستشراف بشأنه بمكونيه الاساسيين المجتمع والدولة . والمحور الثاني التنمية العربية ، ويعنى بالدوافع المحركة للمحور الاول ، أما الثالث فيعنى بموقع هذا الكيان ضمن الاطار العالمي ومجموعة العلاقات التي تربطه ، وتغطي هذه المحاور جميع المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

٢ ـ **النمذجة** : وتنطوي على صياغات كمية وكيفية لشبكة التفاعلات بين متغيرات كل محور ، والمحددات الحاكمة في ظل بدائل مختلفة (المشاهد) .

٣ ـ **صياغة مشاهد بديلة لمستقبل الوطن العربي** : وتعتمد هذه الصياغة على مزيج من الاساليب الحدسية التي تسترشد بخبرة الماضي وتجربة الحاضر والآفاق المعروفة للمستقبل عالمياً ، والقدرات العربية الظاهرة أو الكامنة ، والمطالب والآمال التي تتطلع اليها الأقطار العربية ، وما يتصوره المثقفون العرب كبدائل مطروحة أو محتملة ، وأهداف القوى الصديقة أو المعادية للأقطار العربية وقدراتها ، وتمثل حصيلة الصياغة هنا لحظة البدء (أو فتح الستار) بالنسبة لكل مشهد ، أما امتدادات كل مشهد وتفريعاته ، وكذلك المزيد من اختبار أنساقه ، فيتم من خلال المكونين السابقين .

وتم اختيار ثلاثة مشاهد مستقبلية بديلة للوطن العربي انطلاقا من شكل العلاقة فيما بين الأقطار العربية :

الأول : **مشهد التجزئة** ، ويفترض استمرار الاوضاع الراهنة ، وهو يمثل المشهد الحالي .

الثاني : **مشهد التنسيق والتعاون** ، وهو يمثل المنهج الاصلاحي ، الذي يقوم على أشكال وسيطة من التنسيق والتعاون بين كل أو معظم أقطار الوطن العربي ، تفوق ـ كما وكيفاً ـ حالات التعاون في المشهد الأول ، بهدف الاستخدام الرشيد والأمثل للموارد العربية المتاحة في إطار المعطيات السياسية الراهنة .

مسئولية جيلنا هي وقف التردي وتجاوز العقبات

ويمكن أن يأخذ هذا التنسيق شكل التجمعات الاقليمية ، أو تنسيق عربي عام وظيفي في بعض المجالات المرتبطة بالامن العربي أو بين أنشطة قطاعيّة معينة .

الثالث : مشهد الوحدة العربية التي تأخذ شكل الوحدة الاتحادية « الفيدرالية » ، وتتضمن توحيد مركز صنع القرار السياسي مع احترام التعدد الاجتماعي والثقافي القائم في الوطن العربي ، وتم الربط في هذا المشهد بين الوحدة الاتحادية وبين الديموقراطية والمشاركة الشعبية ، وبينها وبين الاستقلال ورفض التبعية ، وبينها وبين احترام الأصالة الحضارية والثقافية للأمة .

تتوقع تلك الدراسة ثلاثة مسارات رئيسية للوطن العربي في المستقبل : أن يسير كما هو الآن ، أو أن يتوجه الى شكل من أشكال التعاون واضعاً نصب عينه المصلحة العليا المشتركة ، أو أن يذهب في التعاون الى درجة أبعد من درجات الوحدة التي تفضلها الدراسة ، وتعتقد أنها المخرج الوحيد لاجتياز عنق الزجاجة ، والمأزق العربي الحالي . وتتحدث الدراسة عن الخمائر الكثيرة الكامنة في نسيج المجتمع العربي ، أو التي تتشكل الآن به .

○○

إن هذه المساهمة العلمية الجادة - مع غيرها من مساهمات سابقة - يجب أن يعنى بها كل المفكرين وقادة الرأي في وطننا العربي ، كما يجب أن تكون تحت نظر متخذي القرار في أقطارنا العربية حتى يسترشدوا بنتائجها عند إصدارهم قراراتهم .

إن هذه الدراسة - وغيرها - تؤكد حقيقتين لا أظن أن أحداً يختلف مع تلك الدراسات حولها ، أولاهما أن الوضع العربي القائم هو وضع متردٍ جداً ، لدرجة ربما لم يسبق لها مثيل منذ أن حصلت الدولة القُطْرِيَّة على استقلالها ، وثانيهما أن هناك إمكانيات واقعية لتغير هذا الوضع إلى ما هو أفضل ، قبل أن يتحول إلى ما هو أسوأ .

إن مسئولية جيلنا في حدها الأدنى هي وقف هذا التردي ، ومسئولية جيلنا في حدها المتوسط هي أن نتجاوز هذه العقبات . إن الامكانيات وكذلك الاحتمالات غير محدودة ، وعلينا فقط أن نقرأ تاريخ المستقبل قراءة واعية . □

محمد الرميحي





في البدء كان الكتاب

بقلم : عبد العزيز حسين

منا من تتاح له الفرصة ، وهو في مطلع شبابه ، أن يمد بصره إلى المستقبل ، فيرى طريقه فيه ، سواء كان طريقا سهلا ممهدا ، أو طريقا وعرا تنتظره فيه العقبات والصعوبات ، ولكنه على الحالين مدرك خطواته التالية ، عاقد العزم على السير قدما خلالها ، نجح أو فشل ، ومنا من تتحكم في مسيرة حياته ظروف لا شأن له بها ، فإذا به يجد نفسه حيث لم يتوقع ، فينصاع راضيا أو كارها لتيارات لا يقدر على صدها ، وينعطف مع الأحداث الطارئة ، لكي يبدأ طريقا من أوله ، وعلى حين غرة يجد نفسه في موقع جديد ، يحتاج منه إلى تخطيط جديد ، وعزم جديد ، ورؤية مستقبلية جديدة .

وعندما أسترجع اليوم مسيرتي منذ الصغر ، فإنني لا أجد عاملا مشتركا في كل مراحل الحياة التي مررت بها ، إلا عاملا واحدا ، هو الرغبة في التعلم ، وازدياد المعرفة ، سواء من فوق مقاعد الدراسة ، أو من خلال الكلمة المكتوبة ، أو من الملاحظة والتأمل ، أو احتكاك الآراء ٠ وربما كان الكتاب أهم مؤثر في تشكيل حياتي ، فقد نشأت قريبا من كتب الدين واللغة والأدب التي يعتز بها ويرعاها والدي ، وينظر إليها كل من في البيت نظرة إجلال واحترام ، وكان لي حظ المشاركة في ترتيبها وصيانتها ، كما كان لي حظ مطالعة العديد منها ، ولا زلت أحتفظ بكراسات دونت فيها مختارات من الشعر والنثر راقت لي ، وكنت إذ ذاك في المرحلة الابتدائية من الدراسة . كما لا زلت أذكر استضافتنا لشاعر من الأحساء ، قدم لنا ديوانه مخطوطا ، فطلب مني والدي أن أنسخه ، وأثناء قيامي بهذه المهمة راجعت الشاعر في بيت قلت له : إنه مكسور ، لا يستقيم مع تفاعيل القصيدة ، وكانت ملاحظتي هذه أمام عدد من الحضور ، فنهرني بشدة قائلا : كيف تعرف أيها الولد البيت المكسور من سواه ، اكتب ما هو أمامك . فرجعت خجلا حسيرا ، وعندما انتهيت من نسخ الديوان ، وقدمته إليه ، استدعاني بعد أيام أمام نفس الحضور ، واعتذر

اليّ قائلا : إن البيت مكسور فعلا بسقوط إحدى الكلمات ، وأثنى على حسي الشعري ، مما أغراني بعد ذلك بمحاولة نظم الشعر ، ولكنني لم أرض قط عما نظمت ، فأتلفته ، واكتفيت بتذوق الشعر دون نظمه ، ولا زلت .

إلى جانب الكتاتيب المنتشرة في الكويت خلال الثلاثينيات كانت هناك مدرستان تحاولان تقديم مناهج دراسية حديثة لطلابها ، هما مدرستا المباركية والأحمدية ، وكنت في المباركية عندما فوجئنا بالمدرسة تقسم الطلاب إلى فئتين ، وتختار المتميزين منهم - وكنت في رأيها أحدهم - فتنقلهم إلى الأحمدية ، وتعلنها مدرسة ثانوية من ثلاثة فصول ، وعندما وصلت إلى الفصل الأخير ، بعد سنوات ثلاث ، وتخرجت فيها لم يكن هناك مجال للدراسة في فصل أعلى ، فأعدت السنة فيه مع عدد من الطلاب ، فطلبت منا إدارة المدرسة أن نساعد المدرسين في تعليم الطلاب المستجدين ، مما أعان على إبعاد الملل عنا ونحن نعيد ما سبق أن درسناه . وقد أدرك ناظر المدرسة المربي الكبير عبدالملك الصالح حرج الوضع ، فخصنا بدروس خارج الدوام المدرسي ، كما أنني كنت أتلقى دروسا خاصة على المصلح الشيخ يوسف بن عيسى ، مرتين في الاسبوع بعد الظهر - وربما كان ذلك من أسباب اختياري ضمن أول بعثة إلى دراسة جامعية بمصر . وكان ذلك انعطافا في حياتي ، ما كان واردا أبدا في تفكيري ، وتحولا ما كان في البال .

وأطوي صفحات سنوات مليئة بالذكريات والأحداث ، قضيتها بمصر طوال الحرب العالمية الثانية ، ثم عملي بالمكتب الثقافي بمصر الذي سميناه بيت الكويت ، والذي ترك بصماته العميقة على تاريخ التعليم والثقافة . وأجد نفسي وأنا على وشك إنهاء دراستي بمعهد التربية العالي بجامعة لندن ، أمام برقية تستدعيني للعودة فورا إلى الكويت ، لتولي إدارة المعارف (وزارة التربية الآن) . كان ذلك عام ١٩٥٢ ، وقد بدأت الكويت مرحلة ما بعد النفط ، بكل ما فيها من شئون وشجون . كان ذلك انعطافا جديدا غير متوقع .

فوجئت في أول يوم أبدأ فيه عملي الجديد ، أن كل من يعمل في المعارف وكل من يهتم بالتربية والتعليم ، قد تضافر على جمع كل شئون المعارف ومشكلاتها ومتطلباتها ووضعها في رزمة هائلة الحجم أمامي .

كان للمعارف رئيس تقدمي النزعة ، واسع الصدر ، مؤمن بالتعليم ودوره في تطوير المجتمع ، هو الشيخ عبدالله الجابر ، وكان يشرف على شئونها مجلس مكون من اثني عشر عضوا منتخبا من بين وجهاء الكويت . فقد كان النظام يسير على أساس قيام مجلس منتخب ، وأحيانا معين ، على كل إدارة - وهي تسمية الوزارات إذ ذاك - وكان انتخاب هؤلاء يتم من خلال قائمة محددة ، يعتمدها أمير البلاد ، لا يتجاوز أعضاؤها المئتين ، يدعون لكي ينتخبوا من بينهم مجلسا لكل إدارة . وإذا قام ما يدعو لحل هذا المجلس أو ذاك ، ولجأ الأمير للتعيين ، فإنه قلما يخرج عن هذه الفئة من المواطنين . وسواء انتخبوا أو عينوا فإنهم لا يتقاضون بدلا ماديا عن مناصبهم ، وبعضها يستهلك الكثير من وقتهم ، فمجلس المعارف مثلا يجتمع مرة كل أسبوع على الأقل ، ويشارك بعض أعضائه في عديد من اللجان المالية والإنشائية والإدارية ، ويتحملون أمام المجتمع مسئولية أعمالهم . هؤلاء صنف من المواطنين انقرض - للأسف الشديد - اليوم .

كانت استجابة المجلس للأفكار الجديدة والرؤى الحديثة للتعليم إيجابية إلى مدى بعيد ، وكان الحوار هو السبيل للوصول إلى القرار ، وقد حمدت للمجلس عدم تدخله في الشئون الفنية للتربية ، واعتبارها من اختصاص المربين المؤهلين لهذا العمل .

كان أمامنا أهداف يجب أن تتحقق من خلال

خطوات سريعة وحاسمة ، كان لابد من إعادة النظر في المناهج ، فاستُدعيَ الخبراء للنظر فيها ، وكان أمامنا وضع «كوادر» جديدة للمعلمين ، وتهيئة الكتاب المدرسي المناسب ، وإنشاء العشرات من المدارس في كل أنحاء البلاد ، فتم ذلك في كثير من اليسر . ولكن كان الأهم من ذلك أن إدارة المعارف أصبحت بؤرة التحرك التطويري في كل الاتجاهات . لقد كان منتظرا ومفهوما أن يعمل المسئولون عن التعليم على الاهتمام بتعليم الفتاة ، وعلى إنشاء رياض الأطفال ، وعلى البدء بمشروع التغذية الصحية لجميع طلاب وطالبات المدارس ، وعلى توحيد الملابس ، وتشجيع التذوق الفني ، والتوسع في البعثات من الجنسين ، وغير ذلك ، مما قفز بالتربية والتعليم إلى مكان الصدارة في المجتمع .

ولكن الجديد أن هذه الإدارة ـ وقد شعرت أن التزاماتها الاجتماعية ترتبط بالتطور التكاملي في البلاد ـ أنشأت إدارة للشئون الاجتماعية ، هي البذرة التي أنبتت وزارة الشئون الاجتماعية ، وأسست إدارة للزراعة ، تعنى بحدائق المدارس ، وهي البداية التي أضحت الآن هيئة الزراعة ، وكان ضمن تلك الإدارة قسم لتربية الدواجن ، باعتباره من وسائل إيضاح العلوم .

ووضعت خطة للنشاط الثقافي العام ، تتضمن موسما ثقافيا ، يدعى للمحاضرة فيه كبار رجال العلم والتربية والفكر في الوطن العربي ، ولا زالت مجلدات هذه المواسم تحتل موضعا كريما في المكتبة العربية ، ودعت إلى مؤتمرات ، لعل أبرزها مؤتمر الأدباء الذى ناقش البطولة في الأدب العربي ، وحضره الأدباء البارزون من شتى الأقطار العربية . كان مجلس المعارف متقبلا لأي نشاط يرى فيه عائدا على المجتمع . كما كان المجتمع يستقبل بالرضا كل ما تقوم به هذه الإدارة من نشاط ، وإن لم يكن من صميم اختصاصها أو من مسئولياتها .

لقد كانت الأعوام من ١٩٥٢ إلى ١٩٦١ أعوام التغييرات الجذرية في الكويت ، وهي في الوقت نفسه الأعوام التأسيسية الممهدة لعهد الاستقلال الذي أعلن صيف ١٩٦١ .

كنت ذلك الصيف في القاهرة ، أتفق مع الحكومة المصرية على البعثة التعليمية للعام الدراسي الجديد ، وأتعاقد مع معلمين جدد لذلك العام ، وكان ذلك ضمن جولة لهذا الغرض تشمل الأردن وسوريا ولبنان ، عندما وجدت نفسي منشغلا بما أثاره قاسم العراق من أزمة مفتعلة مع الكويت ، لم تمنعني من السفر إلى جنيف لحضور اجتماعات مكتب التربية الدولي . وهناك تلقيت رسالة عاجلة من الأمير المرحوم الشيخ عبد الله السالم ، للتوجه إلى نيويورك ، لتمثيل الكويت في اجتماعات مجلس الأمن . . . ألم نَقُلْ إن النظرة إلى إدارة المعارف إذْ ذاك تتجاوز اختصاصاتها في التربية والتعليم ! ؟

هذا انعطاف جديد وحاد في حياتي ، فمنذ تلك الرسالة أصبحت المعارف ذكرى لا تنسى ، وتاريخا لا ينضب معينه . العمل في التعليم هو العمل الوحيد الذي يلوِّن حياة المرء ، ويبقى معه طول حياته . ومهما انغمس الإنسان في عمل جاد آخر ، أو تحمل من مسئوليات في ميدان مختلف ، فإن عمله في مجال التعليم يبقى لصيق وجدانه وموطن ذكرياته . وكما يذكر الإنسان رفاق الدراسة مهما طال الزمن ، فإنني لا أنسى رفاق العمل في التربية على اختلاف مواقعهم ، فبفضلهم تحقق الكثير ، وتحقق بصمت وإنكار ذات كبيرين .

هل يقدر الإنسان أن يخطط لحياته كما يريد ، أم أن الأحداث هي التي تفرض إرادتها عليه ، فتوجهه إلى حيث لم يحسب ؟ لقد فرضت الأحداث على مسيرتي أن أسلك منعطفا جديدا ، لم يكن في تقديري . وما بقي من الثوابت إلا ما أشرت إليه في صدر حديثي : الكلمة المكتوبة والملاحظة والتأمل واحتكاك الآراء . □

أبو جهاد

إلى روح شهيد الثورة الفلسطينية

شعر: فاروق شوشة

كانَ يريقُ عمرَهُ على مساحةِ الخَطَرْ
فتكتسي الحجارةُ الصماءُ سحنةَ البشرْ
وتنبري الحياةُ في سنبلةٍ على الهشيمِ تحتضرْ
كان يريق عمره .
كي لا تخيِّبَ السماءُ وعدَها مع المَطَرْ
فالكرمةُ التي جَفَّتْ ضروعُها تئنّْ
والغورُ السحيقُ يابسٌ
والبحرُ ميت ولا سفينْ
حتى الضفائر الصغيرة المجدولة الخيوط
تلتف من حول الرقاب حبلَ مشنقة
تشدها ذراع أخطبوط
يدوس عاتيَ القدم
فترحل الدموع في سحابة الوجه الحنونْ
كان يخوض في الردى مسابقا دقات قلبه
توقا لحلم منتظر
محلقا كالنسرِ ،
منقضًا على مشارفِ القمم
عيناه تسبحان في توهج السنين
الكرمل البعيد قبلته
والقدس في قرار قلبه الحزين
والحرف فنه ولعبته
وعشقه الوحيد أن يجاوز التخوم، والمدى ويقتحم
وكلما ترفقت به الخطا
أبَى ،
وهز رأسه العنيد ، وابتسم
كان يريق عمره لا يعرف الحذر

لكنّه يدري مسار خطوه لأين
ولا يبوح بالذي يخبيء القدر !

***

يا كم ترى جازفت حينما اِمْتَت
حتى أتى اليوم الذي لا تنفع المجازفة
انطرح الوجهُ الوضيء في فجاءة الألم
مضرجا في لحظة الصدام ، والمكاشفة
منسكبا على جذوع التين والزيتون
وموغلا في شجر الخليل والجليل
وراسما بدمك الذي يسيل
وجهدك الذي استحال غيمة ونجمة
خارطة للوطن المضمخ البعيد
والتمعت في جلوة الشهاب والظلم
عينان طفلتان غاصتا معك
أطل فيهما ،
عينا صغيرة تحلم أن تراك يوم عرسها
أبا ، مؤانسا ، ومتَّكًا
وسنديانة ، وليلكا
وفارسا يضيء برقة سنابكا
وساحة حفية ،
وراية ، وسارية
تحملها ، مبهورة الفؤاد ، تعبر الممالكا
تجوب فوق صدرك الحنون ، عالم الرؤى الوثير
مزهوة بحلمها الأثير





ـ كل فتاة بأبيها معجبة ـ
كانت هناك ، في انتظار يوم قادم تراك
يا لوجهها المطل في السنين
حين إنجلت صحيفةُ المكاشفة
توقف العمر بها في لحظة مدببة
إلى قلوبنا مصوبة
إلى المخادع التي يأوى إليها الحالمون
الواهمون بالأمان والسلام
حتى يفيقوا ذات يوم
على دوي العاصفة !

* * *

نلعن ـ كلما أضاء طيفك النبيل ـ
عصراً لأبناء الأفاعي الوالغين في لحومنا
المارقين من ثيابنا
ومن جلودنا
الآكلين ملحنا وخبزنا
الشاربين من مياه نيلنا
نلعنه ، ونلمح البشارة
فأنت عصر « قادم »
للغضب الذي انفجر
وهذه بداية الشرارة
الهيكل الذي أقيم من جماجم البشر
يهتز تحت قبضة الصغار ، حين يبدعون
ويبتنون من دماء ذكرياتهم
إرادة القدر . . !

نظام العقوبات في الإسلام

هل يناسب عصرنا الحاضر؟

بقلم: الدكتور أحمد شوقي الفنجري

ترتفع منذ عدة سنوات أصوات عالية في أنحاء العالم الإسلامي، مطالبة بالتطبيق الفوري للشريعة الإسلامية بجانبها العقابي.
السؤال: هل توافرت في مجتمعاتنا القائمة شروط تطبيق الحدود؟ وما هذه الشروط؟

أصدرت منظمة العفو الدولية نداء إلى الدول الإسلامية التي طبقت نظام العقوبات الإسلامية في بلادها تشجب فيه هذا النظام وتطالب بإيقافه، كما طالبت أطباء تلك البلاد بالامتناع عن المشاركة في عمليات بتر الأيدي أو الأرجل، لأن ذلك يخالف للقسم الطبي الذي يقسمونه. وإلى جانب ذلك فهناك كثير من المفكرين في أوربا، وأيضا هناك مفكرون في العالم الإسلامي، يرون أن نظام العقوبات في الإسلام بالغ القسوة والشدة، وأنه غير عملي لعصرنا الحاضر. ويقول هؤلاء: إن العالم المتحضر يتجه اليوم إلى إلغاء أي نوع من العقوبات البدنية، بل هناك دول تمنع حتى الضرب في السجون، وأن العلم الحديث ينظر إلى اللص على أنه أحد شخصين: الأول محتاج واضطرته الحاجة إلى السرقة، وهذا النوع في الواقع ضحية إهمال المجتمع، وعلاجه أن يتعلم حرفة أو صنعة في مدة سجنه تعينه بعد قضاء عقوبته.

والثاني منحرف لأسباب نفسية ومرضية أهمها تعاطي السكر والمخدرات، وهذا يحتاج إلى التوعية والعلاج النفسي والطبي.

وبهذا يمكن أن يتحول اللص إلى مواطن صالح وتغفر له أخطاؤه. أما إذا قطعنا يده فإن في ذلك القضاء التام على كل أمل له في الصلاح والحياة الشريفة.

ميزان حساس

ويهمنا هنا أن نناقش هذه الآراء بمنطق هادىء ! وبالحجة العلمية والعملية .

الواقع أن أصحاب هذا الاعتراض معهم كل العذر ، لأنهم ينظرون إلى هذا التطبيق السيىء المشين الذي تنفذ به بعض الدول الإسلامية حدود الله . فبعض الحكام كان يستغل الدين لأغراضه السياسية ولكسب أصوات بعض الأحزاب . وليس إرضاء لوجه الله تعالى . فأصدر بين يوم وليلة قوانين غير مدروسة لتطبيق الشريعة الإسلامية ، وأخذ يصدر أحكاما بالرجم والجلد وقطع الأيدي والأرجل على فقراء الأمة والمستضعفين الذين تضطرهم الحاجة إلى الانحراف . وما أن انتهت فترة حكمه حتى كان عدد المعوقين في الأمة عدة مئات . وهذا قطعا ضد الإسلام ولا يرضى به الله ورسوله .

ما التطبيق السليم ؟

لكي نفهم روح الإسلام وحكمته في الحدود ، فلابد أن نعلم شروط الحد . فالحدود هي آخر ما يطبق من نظام الحكم في الإسلام ، ولا يجوز البداية بها . فلابد من إقامة مجتمع إسلامي مثالي أولا ، بحيث يكون متكاملا من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

أما أن تُطبّق الحدود ويهمل كل ما سوى ذلك من أركان الإسلام ونظامه ، فمعناه هدم للإسلام وإساءة بالغة إليه ، وفشل وخزي في الدنيا والآخرة ، وذلك مصداق لقوله تعالى : « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ . فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ منكم إلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ » (البقرة ٨٥) . والحكمة في ذلك أن نظام الحكم في الإسلام أشبه بالميزان الدقيق الحساس ، ففي إحدى كفتيه توضع الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها كل فرد في الرعية ، وفي الكفة الأخرى توضع الواجبات والحدود التي تنطبق على أي فرد منهم . وبقدر ما نجد الإسلام شديد السخاء فيما يعطيه من حقوق وامتيازات لأبنائه ، فهو بالتالي يطلب منهم أعظم التضحيات وأقصى الجهد ، ويوقع على المذنب منهم أشد العقاب . ومن قوانين الطبيعة والعلم أنه لا يمكن أبدا لأي ميزان أن يعمل بكفة واحدة . وإلا اختل وتحطم .

فلا يمكن أن تسقط جانب الحقوق والامتيازات ، ثم تطالب الناس بالجهاد ، أو تطبق على المنحرف حدود الشريعة ، فهذا بلا شك فيه ظلم وإجحاف . ومن هنا نجد أن الإسلام يرفض بكل شدة أن يطبق منه جزء ويترك جزء آخر ، ويعد من يفعل ذلك بالويل والعذاب .

قبل تطبيق العقوبات

وقد وضع الإسلام شروطا لإقامة المجتمع الإسلامي تسبق تطبيق العقوبات وهذه الشروط هي : **أولاً : أن يطبق ركن الشورى :**

فلا يجوز للحاكم أن ينفذ النظام الذي يحاسب الناس ويسقط أو يهمل النظام الذي



يحاسبه شخصيا إذا أهمل في إيصال الحقوق إلى الرعية . فالحكم السليم هو الصمام الأول لمنع كل أنواع الجرائم والانحرافات . ويحضرنا هنا قول عمر بن الخطاب حين جمع الولاة وسأل أحدهم : « ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ » . فقال الوالي : « أقطع يده » . فرده عمر قائلا : « إذا فلتعلم أنه إذا جاءني منهم جائع أو عاطل فسوف يقطع عمر يدك يا هذا ! . . إن الله تعالى قد كرمنا بهذه الأيدي لتعمل . فإذا لم تجد لها في الطاعة عملا التمست في المعصية أعمالا . فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية » . ثم وجه الخطاب إلى سائر الولاة قائلا :

« إن الله استخلفنا على عباده لنسد جوعهم ، ونستر عورتهم ، ونوفر لهم حرفتهم ، فإن أعطيناهم هذه النعمة تقاضيناهم شاكرين » .

وهذا هو المفهوم الصحيح الحق لشريعة الله وحدوده .

ثانيا : الشرط الثاني : هو إصلاح الاقتصاد :

ويدخل في ذلك رفع مستوى الدخل وإيجاد عمل لكل فرد في الرعية ، بحيث نصل بالمجتمع إلى حد الكفاية ، أو ما يفضله الفقهاء (بحد الغنى) ، ومعناه أن يكون لكل فرد مسكن يحميه من البرد والمطر ومن الشمس والحر ، وأن تكون له الكفاية في مأكله وملبسه وعلاجه ، فلا يضطر أحد إلى السرقة بسبب الفقر والجوع ، ولا يضطر شاب إلى الزنا بسبب عدم مقدرته على الزواج ، ولا تضطر امرأة إلى الانحراف لكي تعول نفسها وأسرتها .

وفي عام الرمادة أوقف عمر الحدود ، لأن أحد الشروط الرئيسية لم يكن متوافرا - وهو حد الكفاية - بسبب ظهور المجاعة . والعالم الإسلامي اليوم يمر بما يشبه عام الرمادة ، ولكنها مجاعة لم تنجم عن القحط وقلة الموارد ، بل بسبب سوء الإدارة والتسيب والانحراف في أجهزة الحكم . وبسبب سوء توزيع الثروة والدخل وإهمال المشروعات النافعة للأمة .

ثالثا : الشرط الثالث هو :

إقامة المجتمع الاسلامي النظيف المثالي الخالي من كل مسببات الانحراف كالخمور والمخدرات وبؤر الفساد والفتنة والإثارة الجنسية ، بحيث لا يضطر أحد إلى السكر أو المخدرات لأنه لن يجدها في المجتمع كله . ولن يجد من يتاجر في هذه السموم أو يغريه بها .

رابعا : التربية الدينية منذ الصغر فهي التي تعصم الشباب من الزلل :

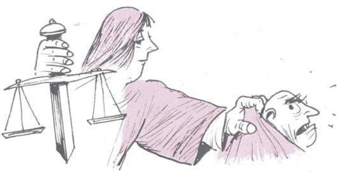
شغل أوقات الفراغ بالجهاد في سبيل الله عن طريق عمل الخير وخدمة المجتمع إلى جانب التربية الرياضية والفنية .

استثناء من القاعدة

خلاصة القول أن نظام العقوبات في الإسلام لا يجوز تطبيقه إلا في مجتمع إسلامي مثالي متكامل . وهذا هو ما فعله رسول الله (صلعم) فقد أمضى ثلاثة وعشرين عاما يبني المجتمع الاسلامي السليم . ثم لم يبدأ في تطبيق العقوبات إلا في أواخر دعوته وحكمه وبعد أن أقام هذا المجتمع .

والآن قد يقول قائل : إن معنى ذلك أنه إذا قام حكم إسلامي في أي دولة فلن يستطيع تطبيق العقوبات إلا بعد عمر طويل حتى يحقق كل هذه الاصلاحات ونقول لهؤلاء : علام الاستعجال ؟

لقد عاش العالم الإسلامي مئات السنين والعقوبات موقوفة ، فماذا يضيرنا أن نوقفها سنوات أخرى ولو كانت عشر سنوات ، إلى أن يتم إصلاح المجتمع ، ونعمل بهمة في هذه الأثناء على إنجاز هذه الإصلاحات ، فهذا الانتظار خير ألف مرة من ظلم مسلم واحد ، أو قطع طرف من جسمه في جرم اضطرته ظروف المجتمع إلى ارتكابه .



ومع ذلك ، فلنا هنا استثناء من هذه القاعدة يجب أن يوضع في الحسبان ، وهي الجرائم العامة التي تتعلق بالأمن العام للرعية وسلامة المجتمع . فمثل هذه الجرائم يجب أن تطبق عليها الحدود الاسلامية فورا ودون تردد أو انتظار ، وذلك لأن مرتكبيها ليس لهم أي عذر أو حاجة أو اضطرار لارتكابها ، إنما هم قوم استهانوا بالقوانين الوضعية ، ووجدوا فيها من اللين والضعف ما يشجعهم على تحدي أمن المجتمع : ومن أهم هذه الجرائم هتك العرض بالسلاح ، وتجارة المخدرات والرشوة واختلاس الأموال العامة .

ومن كثرة ما روع هؤلاء المجرمون العتاة أمن المجتمع وخربوا اقتصاده ، أصبح المجتمع الإسلامي كله يطالب من الآن بتطبيق الحدود الإسلامية عليهم ، فهي وحدها الكفيلة بردعهم .

لقد كثرت حوادث اغتصاب النساء البريئات في الطريق - في مصر على سبيل المثال - وتكررت بصورة بشعة تهدد أمن كل أسرة مسلمة ، حيث يجتمع جماعة من الشبان العاطلين ويتناولون الخمر أو المخدرات ، وقد يشاهدون فلما من أفلام الجنس ، ثم يخرجون في حالة هياج وكأنهم قطيع من الذئاب الكاسرة يختطفون أي امرأة ولو كانت تسير مع زوجها أو أخيها أو أبيها ، ثم يتناوبون على اغتصابها . وقد صرخ الرأي العام مطالبا لهم بأشد العقوبات ، وقد صدرت ضد بعضهم أحكام بالإعدام ونفذ بعضها ، ومع ذلك فقد كانت وما تزال حوادث الاغتصاب تتكرر . والسبب في ذلك أن الذي يتم إعدامه إنما نفعل به ذلك في غرفة مغلقة ، فلا يدرى به أحد ولا تتم الموعظة المطلوبة ، ومن هنا كانت مطالبة مفتي مصر أن يتم الإعدام علنا ويعرض على الناس . وفي رأيي أن العقوبة الإسلامية في مثل هذه الحالة قد تكون حد المحاربة (أي قطع الطريق) وهي تنص على « أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف » . وبذلك يظل هؤلاء مثلا حيا وعبرة لغيرهم ، ودرسا حيا لا ينساه أحد ، أما موتهم في الخفاء فلن تكون فيه موعظة لأحد .

ومن هذه الأمثلة أيضا تجار المخدرات الذين يقدمون هذه السموم لضحاياهم طمعاً في الثراء والغنى على حساب خراب الأمة . لقد عجز القانون الوضعي عن ردعهم ، وأصبحوا كلما قضوا فترة العقوبة في السجن عادوا منه أقوى مما كانوا ، بل إن معظمهم يسيِّر أموره ويواصل تجارته وهو داخل السجن . وقد طالب الشعب لهم بالإعدام دون جدوى . والحل الاسلامي هو تطبيق عقوبة بائع الخمر وصانعها ، وهي الجلد ثمانين جلدة علنا وفي جمع من الناس ،

منهم أهله وجيرانه ، فإذا عـاود تكون عقوبته القتل .

ومن هذه الأمثلة أيضا جريمة اختلاس أموال الدولة وجريمة الرشوة . فهذه الجرائم التي كثرت بسبب استهتار هؤلاء القوم بالعقوبات الوضعية يجب أن يطبق عليهم حد السرقة وهو قطع اليد ، لأن الاختلاس والرشوة من أخطر أنواع السرقة لأموال الرعية .

كانت هذه أمثلة من عقوبات يمكن أن يبدأ الحاكم بها إذا أراد تطبيق الشريعة منذ بداية حكمه ، وذلك لأنها تتعلق بجرائم كبيرة تمس الأمن العام واستقرار الحكم .

لكل عقوبة شروطها

والإسلام دقيق كل الدقة ، حريص كل الحرص في تطبيق العقوبات ، فلكل عقوبة شروطها التي بغير توافرها لا يمكن إقامة الحد . ومن أول هذه الشروط انتفاء الشك في وقوع الجريمة ، فأدنى شك يرفع الحد عن المتهم ، وإذا اتهمه أحد دون دليل قاطع وشهود يمكن أن يوقع عليه حد القذف ولو كان هو الحاكم نفسه .

- وحد السرقة يوقف إذا كان المسروق أقل من النصاب ، أو كان السارق جائعا وسرق لحاجته ، أو كان خادما لقوم ويحرمونه حقوقه .

- وحد الزنا لا يطبق إلا إذا أقسم الشهود أنهم رأوا العمل الجنسي كما يُرى المِرْوَدُ وهو يدخل في المكحلة ، وهو أمر مستحيل عمليا . وإذا ثبت أن هؤلاء الشهود قد دخلوا البيت من غير بابه أو خِلسة من أصحابه أو تجسسا عليهم بطلت شهادتهم .

- والاسلام في نظام العقوبات لا يهدف أبدا إلى الانتقام والتنكيل أو إلى التشفي من المذنب بقدر ما ينظر إلى العبرة والموعظة لغيره . ولا يهمه عقاب المذنب بقدر ما يهمه توبته .

- فمن حكم الإسلام أن المذنب إذا تاب من نفسه ، وقبل أن يقدر عليه الحاكم ، وجاء من نفسه مقرا بذنبه دون أن يخبر عنه أحد ، يسقط عنه الحد وذلك لقوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (المائدة ٣٤) وهذا دليل على جانب الرحمة في الحدود وعلى الحرص على الإصلاح لا الانتقام .

● ومن حكمة الإسلام أيضا أن من ينكر الجريمة فلا حد عليه ، إلا بأربعة شهود ، وإذا اعترف رجل بأنه زنا بامرأة وأنكرت هي الحادث يوقع عليه الحد ولا يوقع الحد عليها ، لأن العبرة بالاعتراف الطوعي دون إكراه .

- ومن حكم الإسلام أيضا أن تكون العقوبة علنية ، وأن يحضر تنفيذها عدد من المسلمين وذلك لقوله تعالى « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ » (النور ٢) والقصد من ذلك العبرة والموعظة . ومنع تكرار حوادث الانحراف .

الخلاصة أن العقوبات والحدود في الإسلام إذا طبقت في مناخ إسلامي وبالشروط الاسلامية فليس فيها أي إجحاف ، بل هي القصاص العادل الذي لا بد منه لمن ينحرف بعد كل ما يقدمه له الإسلام من كفالات للحياة الشريفة والمستقيمة .

ويكفي دليلا على ذلك أن عقوبة قطع اليد لم تنفذ في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم غير مرة واحدة . وعهد الخلفاء الراشدين جميعهم لم يشهد سوى بضع مرات تعد على الأصابع مما يدل على أن العقوبة إذا طبقت في مناخ إسلامي ، فلن تكون هناك حادثة واحدة نحتاج إلى استعمالها . ويحضرنا هنا كمثل بسيط عندما أصدر الاتحاد السوفيتي قرارا بعقوبة الإعدام للمرتشي ، وعندما تقابل الزعيم الأمريكي بالزعيم السوفيتي قال له :

- « إن هذه العقوبة القاسية تدل على أن الحياة الانسانية عندكم لا قيمة لها » ، فقال له الزعيم السوفيتي : « حقيقة إنها عقوبة قاسية ، ولكن منذ أصدرناها لم تحدث لدينا حادثة رشوة واحدة ولم نحتج إلى تطبيقها » . □



تزاوج الأجناس
في أدب البحر العربي

بقلم: يوسف الشاروني

كثيرا ما ترددت في تراثنا الشعبي وكتابات رحّالينا العرب قضية تزاوج أجناس، كما ترددت عند شعوب أخرى كالإغريق والهنود، فقد ساد عقول القدماء وأهل القرون الوسطى فكرة إمكان اجتماع مخلوقات من سلالات مختلفة ينتج عنه أنواع وسط بين نوعي الوالدين.

في كتاب عجائب الهند الذي جمع فيه المدعو «برزك بن شهريار» الناخذاه الرامهرمزي أخبار وقصص الرحالة والمسافرين الخليجيين من ساحل أفريقيا شرقا والصين غربا في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أن أحد الرحالة قدم له أحد الملوك طعاما يأكله، فيه ألوان مطبوخة برؤوس وأيد تشبه رؤوس الصبيان وأيديهم وأرجلهم. يقول راوي القصة: فعافت نفسي ذلك الطعام، ورجعت عن أكله بعد أن كنت قد انبسطت، ففطن الملك لذلك فأمسك. فلما كان الغد حضرت عنده، فكلم أصحابه بشيء، فأحضروا سمكا لولا أني رأيته يضطرب اضطراب السمك وعليه صدف، ما شككت في أنه (بني ادم). فقال لي الملك: الذي كرهت بالأمس أن تأكله هو هذا،

وهو أطيب سمكنا وأعذبه وأخفه ضررا. قال: فكنت آكله بعد ذلك.

سمك يشبه الإنسان

وفي قصة أخرى يعلل أصل هذا السمك الشبيه بالإنسان، ويخرج بذلك من التخصيص إلى التعميم على بقية أنواع الحيوان فيقول: وحدثني بعض من دخل زيلع وبلاد الحبشة أن في بحر الحبشة سمكا له وجه كوجه ابن آدم، وأجسامهم لها الأيدي والأرجل، وأن الصيادين المتغربين الفقراء، المتطرفين في أطراف السواحل المهجورة والجزائر والشعاب والجبال التي لا تسلك، المعالجين فيها طوال أعمارهم، إذا وجدوا ذلك السمك المشابه لبني آدم اجتمعوا به فيتوالد بينهم نسل شبيه لبني آدم يعيش في الماء والهواء. وربما كان الأصل في هذا السمك من بني آدم اجتمعوا بجنس من أجناس السمك فتوالد بينهم هذا السمك الشبيه لبني آدم، ثم كذلك على مر الدهور والأزمنة. كما يجتمع الآدمي ببعض الوحش مثل الضبع والنمرة وغيره من حيوان البر فيتوالد بينهم القردة والنسانيس وغير ذلك مما يشبه ابن آدم، وكما تجتمع الخنازير والجواميس فتكون منها الفيلة، وكما تجتمع الكلاب والمعيز فتكون منها الخنازير، وكما تجتمع الحمير والخيل فتكون منها البغال (هذه الأخيرة هي وحدها الصحيحة)، ولو ذهبنا نعدد ما ينتج من اجتماع الأجناس لعددنا من ذلك ما يبهت القارىء.

ونقرأ قصة ثالثة في كتاب العجائب عن قردة عشقت بحارا فوضعت قردا أو قردين وجوههم تشبه وجوه بني آدم وصدورهم لا شعر عليها وأذنابهم فيها قصر عن أذناب القرود. وأن البحار هرب خجلا من فعلته بينما رمى زملاؤه القردة وأولادها من المركب.

المرأة السمكة

ولعل أطرف قصص الكتاب عن تزاوج الأجناس المختلفة هو ما قصه ابو الزهر البرختي الناخذاه عن خال له يسمى ابن انشرتو قال: حدثني خالي عن أبيه - وهو جد البرختي لأمه - قال: أسريت في مركب كبير طالبين جزيرة فنصور فدفعنا الريح الى خليج أقمنا فيه ثلاثا وثلاثين يوما في ركود لاريح فيه الى أن أدخلنا التيار بين جزائر فأرسينا المركب على واحدة منها على ساحلها نسوة يعمن ويسبحن ويلعبن فأنسنا بهن. فلما اقتربنا تهاربن في الجزيرة، وجاءنا رجال لم نفهم لغتهم، فأشرنا إليهم وأشاروا إلينا ففهمنا عنهم وفهموا عنا.

وبعد أن تبادلوا السلع أشاروا ما اذا كان عندهم بضائع أخرى، فقالوا لهم: ما عندنا إلا الرقيق. ويستطرد راوي القصة بأنهم أتوهم برقيق ضحوك يغنون ويلعبون ويتهارشون ويتداعبون بأبدان عبلة وأجسام كأنها الزبد نعومة، ويكادون يطيرون خفة ونشاطا. غير أن رؤوسهم صغار وتحت كشح كل منهم جناحان كجناحي السلحفاة. فقلنا: ماهذا؟ فتضاحكوا وقالوا: أهل هذه الجزاير كلهم كذلك، وما عليكم من ذلك، وأشاروا الى السماء، أي أن الله تعالى خلقنا كذلك. فأغضينا عن ذلك وقلنا: هذه فرصة. ورأيناها غنيمة. فاشترى كل منا بمقدار ما عنده من الأمتعة ومعظمه، وكلما اشترينا شيئا جاءونا بما هو أنظف منه وأحسن. فشحنا المركب بخلق ما رأى الراءون



أحسن منه ولا أجمل. فلما حان وقت السفر شيعونا وقالوا لنا: تعودون لنا مرة أخرى إن شاء الله. وطمعنا وطمع ربانا في العودة بمركبه وحده بغير تجار. فكان ليله كله هو ورجاله أن يوقفهم على النجوم ويعرّفهم على أماكن الكواكب وجهات الآفاق وطريق الإقلاع في المجيء والعودة.

وفرحنا غاية الفرح، وسرينا من الجزيرة بريح عاصف من أول النهار، فلما غابت الجزيرة بكى بعض الرقيق الذي معنا، فضاقت صدورنا على بكائهم. ثم قام بعضهم لبعض وقالوا: تبكون لأي شيء؟ قوموا بنا نرقص ونغني، فقام الرقيق جميعه يرقصون ويتضاحكون فأعجبنا ذلك منهم، وقلنا: هذا أصلح من البكاء. واشتغلنا كل واحد منا بشأنه. فما أن أصابوا منا غفلة حتى تطايروا والله في البحر تطاير الجراد، والمركب يجري في موج كالجبال، كالبرق الخاطف، فما أشرفنا عليهم حتى تعدتهم المركب نحو فرسخ ونحن نسمعهم يغنون ويصفقون ويتضاحكون، فعلمنا أنهم مافعلوا بنفوسهم ذلك الا لقدرتهم على هول ذلك البحر. ولم يمكنا الرجوع إليهم، ويئسنا منهم، فلم يبق منهم إلا واحدة عند أبي في بلنج (قمرة السفينة) كبير. فلما مضى هؤلاء نزل الى محلها فوجدها تريد أن تنقب وتطرح نفسها في البحر، فضبطها وقيدها. وسرنا الى أن دخلنا بلاد الهند، فبعنا الأزواد التي كانت معنا، وتقاسمنا أثمانها، فصح لكل واحد عُشر رأس ماله. فلما سمع الناس بأخبارنا جاءنا رجل من أهل الجزاير التي كنا فيها، وكان قد أخذ منها صغيرا وبقي في الهند الى أن هرم. فقال لنا: أنتم وقعتم الى جزائر تسمى جزائر الحوت وهي بلدي، ونحن قوم نزل رجالنا على إناث حيوان البحر، واضطجعت نسواننا لذكران الحيوان بالبحر، فنتج بينهم خلق مشتبهون بين هؤلاء وهؤلائك، وذلك منذ قديم الدهور، فأصبحنا نصبر على طول المقام في البحار وعلى طول المقام في البر للسر المشترك فينا.

وأما المرأة التي بقيت مع أبي فاستولدها ستة أولاد أنا سادسهم، وأقامت عنده ثماني عشرة سنة مقيدة. وكان هذا الشيخ الجزايري الذي أخبرنا عن سر الذي فيهم قد قال لوالدي: لا تحل عنها قيودها فتطرح نفسها في البحر وتمضي فلا تراها أبدا فنحن لا صبر لنا عن الماء. ففعل بها كذلك.

ولما كبرنا وتوفي والدنا ـ وكنا نلومه على تقييدها ـ ماكان لنا بعد من عمل إلا أن أطلقناها من القيد رحمة لها وبرا وحنوا عليها، فخرجت كأنها الفرس في السباق، وانطلقنا خلفها فلم ندركها. فقال لها بعض من كان قريبا منها: تمضين وتتركين أولادك وبناتك؟ فقالت: انشرتوا. ومعناها: وماذا أعمل لهم؟. وطرحت نفسها في البحر وغاصت كأقوى حوت يكون، سبحان الخالق الباريء المصور، تبارك أحسن الخالقين.

تزاوج حيوان البحر بحيوان البر

ولكن التزاوج بين الأجناس لا يكون فقط بين الإنسان والحيوان، بل يمكن أن يكون أيضا بين الحيوان والحيوان. على نحو ما نقرأ في الحكاية الأولى من حكايات السندباد حين كان التزاوج بين حيوان البر وحيوان البحر. فبعد أن نجا السندباد من الغرق، واسترد عافيته، سار على غير هدى حتى وصل الى سهل منبسط، فرأى فيه عن بعد فرسا مربوطا فدنا منها، لكنه سمع صيحة عظيمة ارتعب منها وأراد أن يعود،

وإذا برجل من تحت الأرض صاح عليه أن يتبعه وهو يسأله من هو ومن أين جاء وما سبب وصوله الى هذا المكان. فقص السندباد عليه قصته. فلما سمع كلامه أمسك به من يده ونزل معه في سرداب تحت الأرض حيث أجلسه في قاعة، وجاء له بشيء من الطعام. . وبعد أن

أكل السندباد سأله بدوره عمن يكون، فأجابه: اعلم أننا جماعة متفرقون في هذه الجزيرة على جوانبها، ونحن سياس الملك المهرجان وتحت أيدينا جميع خيوله. وفي كل شهر عندما يكتمل القمر بدرا نأتي بالخيل الجياد ونربطها في هذه الجزيرة في هذه القاعة تحت الأرض حتى لا يرانا أحد، فيجيء حصان من خيول البحر على رائحة تلك الخيل ويطلع على البر فلا يرى أحدا، فينزو عليها ويحاول أخذها معه فلا تقدر أن تسير معه بسبب الرباط، فيضربها برأسه ورجليه ويصيح فنسمع صوته ونعلم أنه أتم مهمته، فنخرج صارخين عليه فيخاف وينزل البحر. أما الفرس فتحمل وتلد مهرا أو مهرة تساوي خزنة، ولا يوجد له أو لها نظير على وجه الأرض، وهذا وقت طلوع الحصان.

وبينما هما يتكلمان جالسين في السرداب اذ سمعا صيحة الحصان، فأخذ السايس شيئا بيده وطلع من باب السرداب، وهو يصيح على رفاقه، فجاءت جماعة بالرماح صارخين فجفل منهم الحصان ونزل في البحر مثل الجاموس وغاب تحت الماء.

حلم البشرية

تلك نماذج للقصص التي كانت تعبّر عن الاعتقاد الذي شاع قديما في إمكان تزاوج مختلف السلالات. ويرى الدكتور حسين فوزي في كتابه «حديث السندباد القديم» أنه مما كان يدعم هذا الاعتقاد الإيمان بفكرة وجود كائنات تتوسط مختلف أنواع الموجودات. ولعل أحسن عرض لهذه الفكرة جاء في كتاب « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » للدمشقي المتوفي عام ٧٢٨هـ. فهو يقول: والمرجان حجر نباتي ونبات حجري، متوسط في خلقه بين النبات والمعدن، فهو واسطة بينهما، واقف في آخر المعادن وأول النبات (يقول العلم الحديث أن المرجان لا هو بالنبات ولا بالمعدن بل هو حيوان)، وكوقوف النحل والوقواق متوسطا في آخر النبات وأول الحيوان، وكالقردة.. والببغاء وشيخ البحر (الفقم أو الدولفين) بالتوسط بين الحيوان والإنسان، وهم في آخر الحيوان وأول البشرية. وكتوسط الغول بين الإنسانية والجان والحيوان، وكتوسط السحاب بين الهواء والماء، وكتوسط الزئبق بين الماء والمعادن، وتوسط الدخان بين النار والهواء، وكتوسط الحلزون والصدف بين المعدن والحيوان، وتوسط الإنسان بين الملك والحيوان.

ويعلق الدكتور حسين فوزي على هذه الفكرة قائلا: وهكذا نجد أن الفكرة لا تقف عند التوسط بين كائن وآخر، بل تذهب الى حد التوسط بين الجمادات والأحياء، وبين الحيوان والنبات، والملائكة والحيوان، بل بين الإنس والجن والحيوان.

***

ولا شك أن هذه القصص الشعبية تعبّر عن حلم البشرية في تحقيق التزاوج بين مختلف السلالات لإيجاد أنواع جديدة، ولعل اختلاط الخيل بالحمير وإيجاد نوع ثالث - وهو الاستثناء الوحيد وان كان له تفسيره العلمي - هو الذي جعلهم يعتقدون بامكان تحقيق هذا الحلم. لكن كل ما وصل إليه العلم الحديث الآن هو أن يتم التزاوج بين أصناف من النوع نفسه لهدف مثل هدف تحسين النوع . □

كن حريصا

● قال الحلاق للعامل الجديد الذي يتدرب على الحلاقة عنده: كن حريصا وأنت تحلق للناس حتى لا تجرح نفسك.



أنهار السموم

بقلم : الدكتور سمير رضوان

كما « مات » البحر الميت فإن هناك أنهارا تموت . والموت هنا هو موت الكائنات الحية التي تعيش في الأنهار ، بفعل المواد السامة التي تلقى فيها .

فكيف يموت النهر ؟

يبدو أن لكلمة التلوث في نفوسنا وقعا يختلف عن وقعها في نفوس أبناء الأمم الصناعية . ونحن نتفق بلا شك معهم في أن التلوث هو إحدى أخطر ظواهر الزمن الحديث ، لكننا في الغالب لا نعي مثلهم مدى عمق هذا الخطر ، لذلك كثيرا ما يصادف من يتصدى للكتابة عن هذه الظاهرة في أمتنا قدرا من اللامبالاة بين القراء ، وربما وصف بالنزوع إلى التشاؤم وتشويه صورة الحياة الجميلة . ولا شك أن هناك أسبابا لهذه اللامبالاة ، فالمواطن العربي تلهيه قائمة من المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، قل أن تجتمع مثيلاتها لمواطن الأمم الصناعية . ومن ثم فلابد لمشكلة مثل مشكلة التلوث أن تأتي بموقع متأخر من اهتماماته . أضف إلى ذلك أن أولي الأمر والنهي في وطننا العربي نادرا ما يوفرون للمواطن حقائق كاملة عن حجم مشكلة التلوث في أقطارنا ، بل هم يعالجون هذه المشكلة وشبيهاتها وكأنها من أسرار الدولة العظمى ، لذلك كثيرا ما يراود مواطننا الاحساس ، بل يصور له أن ظاهرة

التلوث هي مشكلة العالم الصناعي في المقام الأول، ثم إنها بعد ذلك مشكلتنا في المقام الثاني أو الثالث. وقد يبدو للوهلة الأولى أن هذا القول صحيح، إذ أن التلوث مرتبط فعلا بالتصنيع والتقدم، على أن ظاهرة التلوث - بغض النظر عن المتسبب فيها - تكتسب باطراد أبعادا عالمية. فإذا لوثت دولة صناعية نهرا أو بحرا، أو لوثت الغلاف الجوي، أصبح من قبيل الغفلة الظن أن هذا التلوث يعنيهم هم ولا يعنينا بنفس القدر. وهو في الواقع يعني كوكب الأرض برمته.

أجدادنا حفظوا للأنهار قدرها

جرت الأنهار بالمياه على الأرض قبل أن يهبط الإنسان إليها، بل وقبل أن يبعث الله فيها أبسط صور الحياة، منذ حوالي ثلاثة آلاف مليون سنة. ولم يعد بين أنهار اليوم نهر ظل على حاله منذ خلق، فقد أخذت القشرة الأرضية تتقلب وتتبدل، ولا تلبث على حال واحد، فغمرت مناطق كانت يابسة، وطفت قيعان كانت مغمورة بالأمواه. وللأنهار على الإنسان فضل لا يمكن حصره في مقالة واحدة، فالأنهار - في كثير من مناطق الأرض - هي التي حملت التربة الزراعية الخصبة وبسطتها على وجه الصحراء الجرداء، فهيأت بذلك للإنسان حين خلق بقاعا ما كان لعيشه أن يصلح فيها لولا الأنهار. وتربة مصر الزراعية مثال نمطي لذلك، فقبل إنشاء السد العالي كان طمي النيل يرصد من الطائرات أيام الفيضان بلونه الضارب إلى الحمرة، مخترقا زرقة البحر المتوسط إلى أعماق تبلغ مئات الكيلومترات. وقد أثبت علماء تحليل التربة أن طمي النيل قد حملته المياه، وألقته على شواطىء فلسطين ولبنان، بل وعلى شواطىء اليونان في شمال البحر المتوسط. ولقد كانت الأنهار على الأرض، وما زالت، عوامل تلطيف مهمة للمناخ، إذ تتبخر المياه من مسطحاتها فترطب الجو الجاف، على أن أكبر فضل للأنهار على الإنسان يأتي من واقع أنها هي التي ربطته بها منذ عشرات الألوف من السنين، ليزرع ودیانها الخصبة، ويرتوي من مياهها، ويروي حيواناته، وكان قبل ذلك دائم الترحال، في مرحلة عمره التي تعرف بمرحلة الصيد. وباستقرار الانسان في وديان، وبتعلمه حرفة الزراعة خطا أولى خطواته على طريق حضارته التي انتهت به إلى ما هي عليه اليوم. ومن هنا كان قول الباحثين إن «الحضارة» نشأت على ضفاف الأنهار. وعبر أمير الشعراء أحمد شوقي عن هذا المعنى وهو يخاطب النيل:

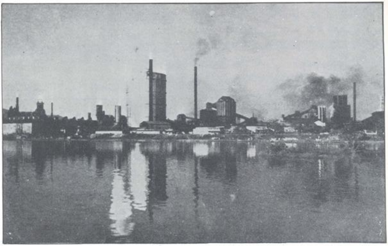
أصل الحضارة في صعيدك ثابت
ونباتها حسن عليك مُخلّقُ
ولدت فكنت المهد، ثم ترعرعت
فأظلها منك الحفيُّ المشفقُ

وقد عرف الإنسان القديم فضل الأنهار، وحفظ لها قدرها، إذ شعر بفطرته أنه مدين لها بحياته، فكان يحافظ عليها ويحميها. يروى أن المصري القديم كان إذا حضرته الوفاة، يدعو أدعية كثيرة، ويسجل حسناته في حياته، ومن ضمنها أنه لم يلوث ماء النيل أبدا. وبلغ تقدير الإنسان القديم للأنهار أن ألّهها، فقد عبد قدماء المصريين النيل.

وكان القدماء يقدمون لهذا الإله في كل عام عروسا عذراء قربانا لكي يرضى ويفي بوعده ويفيض، ثم حلت دمية محل العروس الآدمية، حتى أوقف عمرو بن العاص هذه الطقوس. ومن الغريب أن الالمان كانوا يحتفلون أيضا بنهر الراين، ويلقون في أحضانه دمية.

أما نحن فقتلنا الأنهار

أما إنسان القرن العشرين، وعلى وجه التحديد إنسان العقود القليلة الأخيرة منه، فقد



تلوث الهواء

لوث كل ما حوله ، بما في ذلك البيئة النهرية ، فقضى على شتى صور الحياة في بعضها ، حتى أصبح علماء البيئة يتحدثون اليوم عن « أنهار » ميتة ، وعن أنهار ماتت ثم بعثت مرة أخرى . وسوف تقتصر الأمثلة القليلة في هذه المقالة على أنهار الدول الصناعية ، حيث لا يتردد أولو الأمر لحظة في الإعلان عن واقع الحال ، مهما كان محزنا ، وذلك عملا بحرية النشر . وعدم استعانتي بأمثلة من بلادنا سببه الوحيد كما ذكرت أن التلوث وغيره من الكوارث تعالج في الغالب وكأنها من أسرار الدولة .

أما الأنهار التي قد ماتت فمن أمثلتها معظم أنهار وسط الجزيرة البريطانية . وللأنهار التي ماتت ثم بعثت مرة أخرى أذكر مثالين نمطيين : نهر « التيمز » في بريطانيا ، ونهر « الراين » في غرب القارة الأوربية . أما الأول فأعلن موته في الخمسينيات ، لكن المسئولين أولوه عناية مركزة ـ سوف أتعرض لطبيعتها ـ حتى أثمرت جهودهم ، وبعثت الحياة فيه مرة أخرى . أما الثاني فقد ماتت منه قطاعات كبيرة في فرنسا والمانيا الغربية وهولندة ، ثم أعلن المسئولون أن الحياة بعثت فيه أيضا بعد معالجات مكثفة . وثمة جدل محتدم الآن في بريطانيا حول نهر « ديرفند » الذي أغلقه المسئولون في وجه النشاط الإنساني ، خشية أن يموت كما ماتت أنهار أخرى . وصاروا لا يسمحون حتى للقوارب أو هواة الرياضة بالاقتراب منه ، كما لا يسمحون أن تنشأ مصانع على شاطئيه كي لا تلوثه نفاياتها . ويشعر قطاع كبير من الشعب البريطاني بالضرر من هذا الحظر ، ويتساءلون في استنكار : « هل النهر للإنسان أم للحيوان ؟» يقصدون الحيوانات التي تحيا في مياهه . ولم يحسم هذا الجدل حتى الآن . ومما يميز الأنهار البريطانية أنها تنبع وتصب في دولة واحدة . أما معظم أنهار الدنيا فتخترق عددا من الدول ، مما يعني أن تلويث النهر في دولة لابد أن تتحمل عواقبه الدول الأخرى . وكثيرا ما تتبادل الدول الاتهامات حول نصيبها من

التلويث . مثال ذلك ما تردده ألمانيا الغربية دائما من أن نهر « الإلبه » لا يدخل أراضيها إلا وقد ملأته تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية بالسموم والنفايات .

كيف تموت الأنهار وتبعث ؟

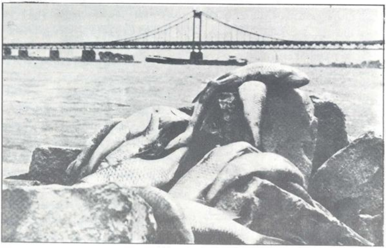
يقصد العلماء بموت النهر موت الأحياء الراقية ، خاصة الأسماك التي تستوطنه . والبيئة النهرية من الناحية « البيولوجية » لا تختلف عن بيئة اليابسة إلا في نوعية الأحياء فحسب . وتعيش في الأنهار ، كما تعيش على اليابسة ، مجموعة من النباتات والحيوانات والميكروبات التي يعتمد بعضها على بعض ، ومن ثم فهناك قدر من التوازن بين أعدادها . وتقوم الطحالب في الأنهار مقام النباتات على اليابسة ، فهذه الأحياء الخضراء هي التي توفر المادة العضوية



كي لاتموت الانهار والاشجار

الأولية غذاء للأحياء الأخرى في البيئتين ، حيث لها القدرة على صنع المادة العضوية من ثاني أكسيد الكربون والماء وطاقة الشمس خلال عملية التمثيل الضوئي . وتشبه ميكروبات النهر ميكروبات اليابسة إلى حد كبير ، إذ تتكون من أعداد كبيرة من البكتيريا والحيوانات الأولية وحيدة الخلية ، أما حيوانات النهر الراقية فتسود فيها الأسماك . ويموت النهر إذا ألقينا فيه مباشرة مواد سامة ، فهي تقتل الأسماك على الفور ، وهنا يقال : إن النهر قد مات . أما إذا ألقينا كميات كبيرة على غير العادة من مواد عضوية غير سامة في النهر فسوف تتغذى البكتيريا على هذه المواد وتتضاعف أعدادها بصورة مذهلة ، فيختل الميزان السائد بين أعداد الأحياء في النهر . وهنا يقال : إن النهر مريض . وينجم عن تكاثر البكتيريا بصورة غير عادية مشاكل جمة ، قد تفضي إلى موت الأسماك أيضا ، ولكن ببطء ، إذ قد تلتصق الخلايا البكتيرية الكثيرة على خياشيم الأسماك ، فتعوق تنفسها وتخنقها ، وهناك أنواع من البكتيريا لها القدرة على إنتاج سموم الأحياء الراقية . ثم إن البكتيريا تتنفس فتستهلك معظم الأكسجين في الماء ، مما يعرض الأحياء الأخرى للخطر . تلوث النهر إذن لا يحدث - بالضرورة - من القاء مواد سامة فيه ، إنما من إلقاء أي مواد عضوية وغير عضوية تخل بالموازين السائدة بين أحياء النهر ، فلو ألقينا بأطنان من السكر مثلا - وهو مادة غذائية مثالية - فنحن في الواقع نسمم النهر أيضا بما قد يفضي إلى موته على غرار ما ذكرنا .

أما بعث النهر الذي مات فلا يتحقق إلا بتخليصه من المواد التي ألقيت في مياهه . وقد توصلت بحوث المختصين إلى أن مثل هذه المواد يمكن أن تتحلل إلى ثاني أكسيد الكربون والماء وغازات أخرى ، من خلال أنشطة البكتيريا في الماء ، شريطة أن تضخ كميات هائلة من الهواء في مياه النهر ، تكفي حاجة هذه الميكروبات من



ضحايا تلوث الأنهار

الأكسجين ، ثم يترك النهر زمنا - يمثل فترة نقاهة - كي تستقر أعداد البكتيريا فيه ، بعد أن تعود إلى سيرتها الأولى . وكثيرا ما يستدعي الأمر بعد ذلك زراعة النهر بالأسماك ، بغية الوصول إلى الميزان الحيوى الطبيعي مرة أخرى .

الصناعة مصدر السموم

تندرج السموم التي تلقى في الأنهار كنفايات صناعية تحت أربعة أقسام ، يشمل القسم الأول مركبات تغير درجة حموضة الماء في النهر ، ومن أمثلتها الأحماض غير العضوية ، كحمض الكبريتيك ، والأحماض العضوية ، وهذه تتسبب فيما يعرف علميا بخفض الأس الأيدروجيني للماء ، أي تزيده حموضة . ويخل هذا العامل بالميزان السائد في الماء ، وهو متعادل ، إخلالا عظيما . إذ تقضي الحموضة على معظم البكتيريا ، مما يشجع على ازدهار ميكروبات أخرى غير مرغوبة ، وهي الفطريات . وينبغي أن نتذكر هنا أن البكتيريا في الواقع غذاء للحيوانات الأولية التى تمثل مع الطحالب معظم غذاء الأسماك . ويعني ذلك أن نقص البكتيريا عن أعدادها في الميزان الطبيعي يفضي بالضرورة إلى نقص الأسماك أيضا . وكثيرا ما تلقى مصانع السماد بالنشادر في الأنهار ، فيرفع قلوية الماء ، مما يخل أيضا بالميزان الحيوى في النهر . أضف إلى ذلك أن الأمطار الحمضية التي تهطل بغزارة على الأنهار في الدول الصناعية تفضي إلى خلل مشابه أيضا .

والقسم الثاني من السموم يشمل النفايات الصناعية المحتوية على معادن ثقيلة ، مثل الزئبق والرصاص والكادميوم ، وهي سموم تفتك بالأحياء الراقية والميكروبات في النهر على حد سواء . في إحصائية نشرت عام ١٩٨٦ عن تلوث أنهار ألمانيا الغربية بالمعادن الثقيلة تبين أن كمية المعادن التي لوثت نهر « الإلبه » في هذا العام وحده بلغت ٣٤٦٢ طناً ، بمعدل ١٥٪

من الجرام لكل متر مكعب من الماء . وبلغت الكمية التي لوثت نهر « الفيزر » ٨٩٤ طناً (٨٪ من الجرام للمتر المكعب) ، والتي لوثت نهر « الراين » ١١١٨٩ طناً (١٤٪ من الجرام للمتر المكعب) . وقد جاءت هذه الكميات الكبيرة كنفايات من مصانع قائمة على ضفاف الأنهار .

أما القسم الثالث من السموم فهو مضادات الأعشاب والحشرات التي أصبحت ترش بغزارة في الحقول للقضاء على الآفات ، فتذيبها الأمطار ، وتنقلها إلى المصارف والأنهار ، وهناك تقتل الأحياء الراقية كالأسماك على وجه الخصوص . ومعظم هذه المركبات ليس سوى مشتقات نفطية ، أي هيدروكربونات ، تحتوي على ذرات الكلور أو الفلور . وتسبب هذه المواد قائمة من الأمراض للإنسان والحيوان ، من ضمنها الحساسية والسرطان . ولكي يتصور القاريء حجم المشكلة نذكر أن ألمانيا الغربية وحدها ترش سنويا في حقولها حوالي ٣٠٠٠٠ طن من هذه المواد التي تمثل حوالي ٣٠٠ مركب مختلف . ولم يبتكر الباحثون بعد طرقا لتحليل مثل هذه المواد ، باستثناء ١٠٠ مركب منها فقط . معنى ذلك أن ثلثي هذه المواد لم تتوافر بعد الطرق المخبرية لمجرد اختبار وجوده في مياه الأنهار . وتقدر الإحصائيات المنشورة أن المدينة الأوربية المتوسطة الحجم يمكن أن يرصد بالقرب منها في المتوسط ٣٠٠٠ مصنع أو مؤسسة أو هيئة تشارك في تلويث المياه بهذه المواد ، ومن أمثلتها محطات الوقود النفطي ، وورش إصلاح السيارات ، ومحطات التنظيف بالكيماويات ، والمطابع ، وأعداد كبيرة من مصانع الكيماويات المختلفة . وفي أحد التقديرات تحتوي النفايات الصناعية المختلفة على مالا يقل عن مائة ألف مركب كيميائي مختلف تصب يوميا في أنهار العالم .

وتندرج تحت القسم الرابع الأخير من السموم المواد المشعة التي قد تتسرب من المفاعلات النووية القائمة على ضفاف الأنهار . وتضخ هذه المفاعلات كميات هائلة من مياه النهر للتبريد ، ثم تعيدها إليه مرة أخرى ، محملة بقدر من الإشعاع ، إضافة إلى أن حرارة الماء ترتفع إلى قرب درجة الغليان ، مما يؤثر على أحياء النهر . وقد تكون كمية الإشعاع المتسرب ضئيلة ، على أن الأحياء النهرية قد تختزن في أجسامها منها كميات محسوسة مع الزمن ، فتصبح بذلك غير آمنة على الإطلاق .

والزراعة مصدر آخر للتلوث

أشرنا إلى مضادات الآفات الزراعية ، كأحد أقسام المواد السامة التي تنتجها الصناعة ، أما الأسمدة فلا يكمن خطرها في أنها مواد سامة ، بل يكمن في أنها تسمد المياه في الأنهار ، فتزداد خصوبة ، فتنمو فيها الطحالب بغزارة مخلة بالميزان الحيوي السائد ، مما يفضي في النهاية إلى



موت الأسماك أيضا ، فالماء الذي يحتوي على أعداد غفيرة من الخلايا الطحلبية قد يخنق الأسماك ، كما تفعل أعداد البكتيريا الكثيرة ، أي من خلال الالتصاق بالخياشيم ، وتنتج بعض الطحالب سموما تقتل الأسماك . ولا تظهر هذه في البيئة النهرية إلا حينما يختل التوازن الطبيعي السائد . والأسمدة التي ترش في الحقول مركبات نيتروجينية ، تؤكسدها بكتيريا التربة إلى أملاح النترات الشديدة الذوبان في الماء ، فتغسلها الأمطار في مياه النهر عند المناطق الزراعية الملاصقة للشاطيء . والنترات تسمد الماء ، مما ينجم عنه نمو الطحالب بغزارة فيه ، لذلك فهناك اتجاه اليوم في كثير من دول أوربا إلى إلزام المزارعين بعدم رش الأسمدة في المناطق المتاخمة للشاطيء بعمق خمسة أمتار على الأقل . .

وسكان المدن لوثوا الأنهار

ولسكان المدن أثر مشابه لأثر الأسمدة على مياه النهر ، فلقد أصبحنا نسمع اليوم عن مدن كثيرة ، يبلغ عدد سكانها عدّة ملايين ، ولم يكن الأمر كذلك منذ عقود قليلة من السنين ، ومعظم المدن الواقعة على الأنهار تصب مجاريها الصحية فيها ، ولم تكن هذه مشكلة تذكر فيما مضى ، حينما كانت أعداد السكان معقولة ، فقد كانت البكتيريا الموجودة في النهر كفيلة بتحليل مكونات المجاري العضوية ، دون إخلال كبير بالموازين الحيوية في النهر . أما وقد بلغت أعداد السكان عدّة ملايين في كثير من هذه المدن فقد أصبحت المجاري تمثل مشكلة كبرى . فلو سمح للمجاري المنزلية الخاصة بهذه المدن أن تصب في الأنهار مباشرة ، دون معالجة مسبقة ، فالنتيجة الحتمية هي اختلال موازين الأحياء ، وعندئذ سوف تكتسح البكتيريا كل الأحياء الأخرى في النهر ، فهي الوحيدة القادرة على استهلاك مخلفات المجاري كغذاء . لذلك فقد أصبحت مخلفات المجاري في المدن الكبيرة تعالج لخفض محتواها من المواد العضوية ، قبل صرفها في مياه الأنهار . وتتلخص هذه المعالجة في جمع المجاري في أحواض ضخمة ، وتركها زمنا ساكنة كي ترسب إلى القاع المواد الصلبة التي تتكون من مواد عضوية تصلح غذاء شهيا للبكتيريا . ثم تصرف السوائل ، وهي ما زالت غنية بالمواد العضوية الذائبة ، إلى أحواض أخرى ، حيث تقلب بشدة ، وتضخ فيها كميات هائلة من الهواء . وهدف هذه المعالجة تنشيط البكتيريا لكي تتغذى على المواد العضوية وتحللها . وبعد ذلك تصرف المجاري المعالجة في الأنهار . وقد ظن العلماء أنهم قد انتهوا من المشكلة بالتخلص من مواد المجاري العضوية ، ولكن تبين فيما بعد أن بكتيريا المجاري تحول المواد العضوية النيتروجينية أثناء المعالجة إلى أملاح النترات .

أضف إلى ذلك أن المجاري المنزلية تحتوي على قدر كبير من أملاح الفوسفات ، ومصدرها مساحيق الغسيل . وعلى ذلك فسوائل المجاري المعالجة غنية بأملاح النيتروجين والفوسفور غير العضوية . فإذا ما صرفت في الأنهار كانت غذاءا مثاليا للطحالب ، فتتكاثر في مياه النهر بغزارة . ولقد أحصى العلماء ان نهر « الراين » مثلا يستقبل سنويا من مجاري المدن من المواد النيتروجينية ما يمكن أن يملأ ١٤٠٠٠ عربة قطار ، ومن أملاح الفوسفور ما يمكن أن يملأ ١٥٠٠ عربة . إذن فقد عالجت التقنية مشكلة فنشأت منها مشكلة أخرى . وهناك بحوث تجري الآن لحل هذه المشكلة الجديدة . أما أملاح الفوسفات فيتم التخلص منها الآن من خلال إنتاج مساحيق للغسيل خالية من الفوسفور . أما أملاح النترات فهناك تجارب تجري مرة أخرى على أسلوب معالجة سوائل المجاري . أعلن مؤخرا أن تهوية هذه السوائل ينبغي أن يتبعها مباشرة حفظها قبل صرفها تحت

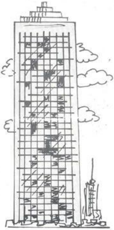
ظروف لا هوائية لزمن محدود، تستطيع أثناءه أنواع من البكتيريا اللاهوائية اختزال أملاح النترات إلى غازات نيتروجينية تتصاعد إلى الجو. وواضح أن هذا ليس حلاً مثاليا. فسرعان ما سوف تذوب هذه الغازات المتصاعدة في مياه الأمطار وتعود مرة أخرى إلى التربة والأنهار.

ماذا يخشى من تلوث الأنهار؟

يخشى الكثير، فالأنهار مصادر لمياه الشرب في كثير من بقاع الأرض، وغني عن الذكر أن مياها مليئة بالسموم لا تصلح شرابا للبشر. وهذه مشكلة أصبحت ساخنة في السنوات الأخيرة. كما أن محاصيلنا الزراعية تروى بمياه الأنهار، ونحن نأكل هذه المحاصيل في النهاية، ونقدم منها علفا لماشيتنا، والمياه الملوثة تنتج محاصيل زراعية ملوثة. وقد أثبت الدارسون حديثا أن ألبان الماشية مثلا قد أصبحت تحتوي على قائمة من مضادات الآفات الزراعية، بل والمواد المشعة. أضف إلى ذلك أن الأنهار هي أحد أهم مصادر الأسماك التي أصبحت تمثل جانبا مهما من غذاء الإنسان. ومع ازدياد أعداد البشر على الأرض باطراد ينبغي المحافظة على هذه الثروة وتنميتها لا تسميمها وقتلها. لقد أصاب التلوث أسماك الأنهار بأمراض لا حصر لها، وليس السرطان إلا أحدها. وتحرم كثير من الدول الصناعية اليوم استهلاك الأسماك النهرية، لأنها لم تعد آمنة بما تحويه من ملوثات. ثم إن الأنهار تمتد مسافات قد تبلغ آلاف الأميال، وتسري مياهها من دولة إلى أخرى. وتلويث الأنهار يعني توزيع التلوث على كوكب الأرض بالتساوي. وأخيرا فالأنهار تصب في البحار، وتنقل إليها سمومها وملوثاتها. وتتبخر المياه في البحار مما يفضي إلى تركيز السموم فيها يوما بعد يوم، حتى أصبحت بحار اليوم ما بين مريضة وميتة. □

ماذا تعرف عن:

ناطحة السحاب امباير ستايت؟



- يبلغ ارتفاع ناطحة السحاب «امباير ستايت» التي بنيت عام ١٩٢٩ في نيويورك ٤٤٨ مترا.
- تتكون من ١٠٢ مائة وطابقين، وبها ٦٥٠٠ نافذة و ٧٢ مصعدا.
- يبلغ عدد الاشخاص الذين يعملون في مكاتبها ٢٠ ألف شخص. ويزورها ١٣٠٠٠ سائح يوميا، يصعدون إلى برجها حيث يمكن الرؤية إلى مسافة ٧٠ كيلومترا.
- تكلف بناؤها ٢٤ مليونا و٧٠٠ ألف دولار، وبيعت عام ١٩٦١ بمبلغ ٥١ مليونا و٥٠٠ ألف دولار.

التهاب الزائدة الدودية وعلاقته بالأغذية الحديثة

بقلم: الدكتور صباح السامرائي

هل هناك ارتباط بين الأغذية الحديثة ومرض التهاب الزائدة الدودية المزمن؟ هذا مايراه بعض الباحثين عند تفسيرهم لظاهرة ارتفاع معدل الإصابة بهذا المرض بين سكان دول العالم الثالث، حيث شاع تقليد الغرب في نوعيات غذائه وعاداته الغذائية. فما هي أعراضه، وكيفية العلاج منه؟

يتناقل بعض الأطباء قولا شائعا، يؤكد ان لاشيء أسهل من تشخيص التهاب الزائدة الدودية الحاد، ولا شيء أصعب منه، وعلى الرغم من أسلوب المبالغة في هذا القول، فإنه يشير إلى حقيقة طبية معروفة، وهي سهولة تشخيص هذا المرض أحيانا، وصعوبة تشخيصه في أحيان أخرى. ومصدر الصعوبة في ذلك هو اختلاف موقع «الزائدة الدودية» من شخص لآخر، ووجود أمراض كثيرة تسبب ألما حادا في البطن، وهو العرض الرئيسي لالتهاب الزائدة الدودية الحاد، كما ان على الطبيب أن يعتمد اعتمادا شبه كامل على الأعراض والفحص السريري، ذلك ان التحريات المختبرية والصور الشعاعية قليلة الفائدة في التشخيص.

الأعراض

تبدأ الأعراض بهيئة ألم حاد مفاجيء في وسط البطن «في منطقة المعدة»، ويرافق الألم غثيان، وربما تقيؤ. وبعد عدة ساعات، يتحول الألم إلى الجهة اليمنى من أسفل البطن، وبعد ان كان الألم في وسط البطن، بهيئة ألم متقطع، أو مغص، فإنه يغدو في أسفلها ألما مستمرا شديدا، ويشتد الألم عند أية حركة يقوم بها المريض، فيضطر إلى الاستلقاء مثنيّ الساقين.

وتختلف شدة الإلتهاب من شخص لآخر، ففي بعض الحالات، سرعان ما تصاب الزائدة «بالغرغرينا أو الموات» فيتآكل جزء منها، وهو ما يسمى أحيانا بانفجار الزائدة، ويلتهب الخلب أو «البريتون»، وهو غشاء رقيق يبطن تجويف البطن والحوض، ويغلف ما فيهما من أحشاء. إن هذه المضاعفات، قد تحصل خلال «١٢» ساعة فقط من بداية ظهور الأعراض، وفي حالات أخرى لا تحصل هذه المضاعفات أو يتأخر ظهورها، فقد استؤصلت الزوائد الدودية لبعض المصابين بعد ثلاثة أو أربعة أيام، فوجدت سليمة إلا من الالتهاب الذي لم يسبب تلك المضاعفات.

وبالفحص السريري، نجد ازدياد معدل النبض، وارتفاعا غير شديد في حرارة الجسم،

«٣٩ درجة مئوية أو اقل» ، فإذا كانت الحمى شديدة «٤٠ درجة مئوية أو أكثر» ، فمن غير المحتمل ، انها ناشئة عن التهاب حاد في الزائدة الدودية ، بل يرجح أن تكون ناشئة عن التهاب حاد في الجهاز البولي أو التنفسي . ونجد أيضا اللسان مكسواً بطبقة خفيفة بيضاء ، ورائحة الفم كريهة . وفي كثير من الحالات ، لا نجد أي علامة من هذه العلامات ، مما يقلل من قيمتها التشخيصية .

وعند الضغط باليد على أسفل البطن من الجهة اليمنى يزداد الألم ، وكذلك عند سحب اليد منها . وعلى الرغم من ان هذه منطقة الزائدة الدودية في معظم الحالات ، فانها قد تكون في مكان آخر فوق - أو دون - المكان المعهود ، ولهذا يكون الألم إلى الأعلى «في الخصر» - أو إلى الأسفل «قرب المثانة» . ومن طريف مارواه البروفيسور «هارولد أليس» أستاذ الجراحة في مدرسة «ويستمنستر الطبية» ، أنه شاهد مريضين مصابين بالتهاب الزائدة الدودية الحاد ، وكان كل منهما يمينيّ القلب يساريّ الزائدة !! .



فبمرور الوقت ، يمتد الالتهاب إلى «البريتون» ، مما يجعل الألم ينتشر ليشمل كل البطن ، ولا يقتصر على مكان الزائدة ، ونتيجة لإلتهاب البريتون تتصلب البطن وتتشنج ، ويبدو المصاب متعبا خائر القوى .

التحريات المختبرية :

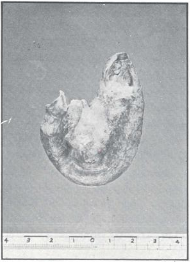
لابد من فحص الدم مجهريا لحساب عدد كريات الدم البيضاء ، الذى يزداد لدى «٧٥٪» من المصابين بالتهاب الزائدة الدودية الحاد ، فيغدو أكثر من (١٢,٠٠٠) في كل مليمتر مكعب من الدم (بدل العدد الطبيعي الذى يتراوح مابين ٤,٠٠٠ - ١٠,٠٠٠) . أما بقية المصابين «٢٥٪» فإن العدد يظل طبيعيا ، أو يزداد زيادة طفيفة .

كما يجب فحص البول كيمائيا ومجهريا في أى حالة من حالات ألم البطن الحاد ، فإذا وجدنا فيه «الجلوكوز» فمن المرجح أن يكون سبب الألم ، هو داء السكر وليس التهاب الزائدة . وإذا وجدنا فيه الدم والقيح ، فمن المرجح أن يكون سبب الألم هو التهاب في الجهاز البولي .

ويجب تصوير البطن بالأشعة السينية العادية«أو غير الملونة» ، وذلك من أجل تشخيص بعض أمراض الجهاز الهضمي التي تسبب ألما حادا في البطن ، ومن هذه الأمراض ثقب قرحة المعدة أو الاثنى عشر ، ونتيجة لهذا الثقب تتسرب الغازات إلى تجويف البطن ، ويمكن رؤيتها بالأشعة . وقد نجد بالفحص الشعاعي حصاة في الحالب .

عقبات في الطريق :

وعلى الرغم من سهولة تشخيص المرض ، فإن هناك حالات ، خاصة تجعله أقل يسرا وأكثر عسرا ، ومن هذه الحالات عدم دقة وصف المريض لحالته ، والأعراض التي يشعر



● زائدة دودية ملتهبة وقد صورت بعد استئصالها والأرقام أسفل الصورة تمثل وحدات قياس بالسنتيمتر .

بها ، ومكان الألم وغير ذلك . وكذلك الأمر حين يكون المريض مفرط السمنة . إذ تقوم الشحوم بإخفاء أهم علامتين يعتمد عليهما الطبيب في تشخيص التهاب الزائدة ، وهما الألم عند الضغط على أسفل البطن من الجهة اليمنى ، وتشنج البطن ، وشيء مشابه لهذا يحدث عندما تكون الزائدة ممتدة خلف الأمعاء ، فلا تظهر العلامات الرئيسية .

ويصعب تشخيص المرض لدى صغار السن وكباره ، وعلى الرغم من عدم شيوع المرض لدى الأطفال دون عمر سنتين ، فإنه حدث لأطفال رضع في عمر عدة أيام فقط . ويعتمد الأطباء في التشخيص على حصول الألم أو «بكاء الطفل» عند الضغط على أسفل البطن من الجهة اليمنى ، وتشنج هذا الجزء من البطن . أما لدى كبار السن ، فقد أثبتت الدراسات أن هناك تأخيرا في التشخيص ، بل ان حالات كثيرة لاتشخص إلا بعد انفجار الزائدة . ويعتقد ان من أسباب هذا التأخير ، الحالة الإجتماعية الخاصة لكبار السن ، وقلة شكواهم وعدم اهتمامهم بالألم حتى يشتد .

ويصعب التشخيص أيضا لدى الحوامل ، فإذا أحست الحامل بألم البطن في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل ، فإن أول تشخيص يفكر فيه الطبيب هو الحمل خارج الرحم أو الإسقاط المهدد . وحتى الغثيان الذي يرافق التهاب الزائدة له تفسيره الخاص لدى الحوامل ، على انه الوحام ، وكذلك الأمر مع التقيؤ . وبمرور أشهر الحمل ، يكبر الرحم ويدفع الزائدة الدودية إلى الأعلى والجانب ، وإذا التهبت هذه الزائدة فإنها تسبب ألما في غير المكان المعهود للزائدة ـ في وسط البطن تقريبا ـ فيصعب التفريق بين التهاب الزائدة والتهاب حوض الكلية أو التهاب الصفراء .

التدقيق في التشخيص

يقصد بالتشخيص التفريقي : دراسة الأمراض المشابهة في أعراضها لالتهاب الزائدة ، وتعيين أوجه الشبه والاختلاف بينها وبين هذا المرض . وقد كنا في السنة الأخيرة من دراستنا الطبية ونحن على وشك التخرج ، نعجب من الأمراض الكثيرة جدا التي توضع تحت عنوان «التشخيص التفريقي لالتهاب الزائدة الدودية» ، بل كان بعضنا ، يسخر من تلك القائمة الطويلة ، زاعما انه يستطيع تشخيص التهاب الزائدة وهو مغمض العينين ! غير أن الممارسة العملية أثبتت لنا جميعا ضرورة ذلك التفريق في التشخيص ، بسبب وجود أمراض كثيرة تشابه أعراضها أعراض التهاب الزائدة ، وأدركنا الواقع الملموس وهو أن بعض الزوائد الدودية تستأصل من أجسام أصحابها وهي

سليمة لامرض فيها . ومثل هذا الخطأ - بنسب غير كبيرة - أمر مقبول عند الوقوف بين الشك واليقين أمام التشخيص ، فهو أفضل من عدم إجراء العملية والانتظار حتى تنفجر الزائدة في جسم صاحبها .

أما الأخطاء التي لا تغتفر ، فهي استئصال الزائدة من شخص يشعر بألم البطن الحاد ، لابسبب التهاب الزائدة - وإنما بسبب داء السكر أو التهاب غشاء الجنب ، فالعملية الجراحية تزيد الطين بله . أو عدم إجراء العملية لمريض مصاب بالتهاب الزائدة ، نتيجة التشخيص الخاطىء بأنه «التهاب المعدة والأمعاء» أو غيره من الأمراض التي لاتحتاج عملية جراحية ، وهكذا تترك الزائدة حتى تظهر عليها «الغرغرينا» وتنفجر مسببة مالا تحمد عقباه . ونحمد الله على أن هذه الأخطاء القاتلة نادرة جدا .

العلاج

يتم العلاج باستئصال الزائدة الدودية جراحيا في أسرع وقت ممكن ، وذلك لمنع حصول المضاعفات . غير ان هناك حالات خاصة توجب تأخير العملية الجراحية ، وأهم هذه الحالات مايلي :

أولا : إذا كانت حالة المريض الصحية سيئة جدا ، بسبب الالتهاب الشديد في «البريتون» ، فيجب علاجه بالطرق الطبية في بداية الأمر ، وذلك بإعطائه السوائل عن طريق الوريد ، وإعطائه المضادات الحيوية لعلاج الالتهاب ، ثم تجرى له العملية الجراحية .

ثانيا : عندما يتأخر المريض عدة أيام ، فإن التهاب الزائدة قد يؤدي إلى تكوّن ورم في منطقة الزائدة نتيجة تكوّم الأحشاء المجاورة «وهذه وسيلة دفاع طبيعية تحدّ من إنتشار الالتهاب» . وفي هذه الحالة لايجوز إجراء العملية ، بل يوضع المريض تحت المراقبة الطبية الدقيقة ، ويمتنع عن الطعام ، ويعطي السوائل عن طريق الوريد ، حتى يزول الورم ، ثم تجرى له العملية الجراحية بعد شهرين أو ثلاثة . وهذه العملية الجراحية تتم على الرغم من شفاء المريض ، لأنه أكثر عرضة للإصابة بالتهاب الزائدة مرة أخرى ، أي انها عملية وقائية .

ثالثا : إذا كان المريض قد أتى بعد زوال الأعراض - أي أنه أصيب بالتهاب الزائدة ثم شفي تلقائيا - فلا ضرورة لإجراء عملية جراحية عاجلة ، ولكن يفضل إجراء العملية في وقت آخر وقاية من التهاب الزائدة مرة أخرى .

رابعا : في المناطق النائية التي لا تتوافر فيها الخدمات الجراحية ، وحيث لا يمكن نقل المريض إلى مستشفى آخر «بسبب انسداد الطرق نتيجة الثلوج أو أي سبب آخر» ، فليس أمام الطبيب إلا تخفيف الألم بالعقاقير المسكنة كالمورفين مثلا ، وإعطاء السوائل بالوريد والمضادات الحيوية ، ويؤدي هذا العلاج إلى شفاء بعض الحالات . □

---

* قال عبدالملك بن مروان : « أربعة لا يستحى من خدمتهم : الإمام والعالم والوالد والضيف » .

اقرأ في عدد ابريل ١٩٨٩ من

العربي

استطلاعات ملونة

○ النفط الكويتي في بيوت الأوروبيين
أنور الياسين

○ بلغاريا ..
عيد الورد .. وشواطئ الشمس والناس
ريم الكيلاني

○ من دفتر الذكريات ... د. محمد جابر الانصاري
○ حديث رمضان: ثنائيات .. هل يجمعهما القاء/ د. عبد العزيز كامل
○ أفق جديد في ترجمة الأدب العربي د. روجر آلن
○ شخصيتك ! ...... د. علي الوردي
○ الطفل .. كيف يكتسب اللغة ؟ .. د. عبد المقصود عبد الكريم
○ الوزان، كيف أصبح "ليو" الأفريقي ؟ ... د. حسين العمري
○ وجها لوجه : الأديب يحيى حقي وسليمان مظهر

ملف عن توظيف الأموال

وقائع وأرقام

يشارك فيه : د. علي الدين هلال - د. محمود عبد الفضيل ، د. محمد حلمي مراد ، د. عبد الحميد الغزالي ، نجاح عمر

واقرأ أيضاً للكتاب :
د. محمد الرميحي ، د. أسعد عبد الرحمن ، د. هاني الراهب
د. محمد عيسى صالحية ، د. شذى الدركزلي ، علي سالم باذيب ، د. وليد السباعي .

أرقام

بقلم : محمود المراغي

وداعاً للحياة

كل أربع دقائق

الأطفال دائما ..

هكذا تقول منظمة الأمم المتحدة لرعاية الطفولة ، والمعروفة باسم « اليونيسيف » .

فعندما تنشب الحرب ، أو تشتد الأزمة الاقتصادية ، وتلقي بظلالها على كل شيء ، ابتداء من العناية بالصحة والتغذية ، وامتداداً للقسط المتاح من التعليم . عندما يحدث ذلك يكون في مقدمة الضحايا : البراعم الصغيرة التي لم يشتد عودها .

ينصرف الاهتمام عادة إلى الآثار المباشرة لهذه الأزمة أو تلك ، ولهذه الحرب أو تلك . وفي العادة تهتم الدراسات والتقارير بعدد القتلى والجرحى ، وحجم الانفاق العسكري ، ومقدار الانكماش الاقتصادي ، وتأثر مرافق الانتاج ، وزيادة حجم التضخم ، إلى آخر هذه المؤشرات التي تعكس وطأة الأزمات والمشاكل ، وخروجا على هذا السياق ، تأتي الأرقام التي تذيعها « اليونيسيف » هذه المرة لتشرح حالة بعينها : تأثير التمييز العنصري والحروب والاضطرابات على أطفال البلدان التسعة المجاورة لجنوب افريقيا الذين تأثروا بشكل غير مباشر .

البلدان التسعة كما هو معروف : انجولا ، بتسوانا ، ليسوتو ، مالاوي ، موزمبيق ، سوازيلاند ، تنزانيا ، زامبيا ، وزيمبابوي . أما عدد الأطفال الذين تأثروا - طبقا لتقرير صادر عام ١٩٨٨ - فهو : خمسة عشر مليون طفل .

والآثار عديدة : الوفاة ، والمرض ، والاصابة بسوء التغذية ، التخلف عن التعليم ، الحرمان من معظم أسباب الحياة . بالأرقام أيضا يقول التقرير إن وفيات الأطفال في بعض هذه البلدان قد ارتفعت بنسبة ٧٥٪ .

الدمار

في السبعينيات استقلت انجولا وموزمبيق عن البرتغال ، ولكنهما تعرضا للقتال ، والاقتتال ، والغزوات ، والضغوط الاقتصادية ، واستنزاف الموارد .

وكأي بلد حديث الاستقلال كان الالتفات واسعا لتحسين معيشة الفقراء ، وتحسين المستوى الاقتصادي ، والعناية بالصحة بما فيها صحة الأم والطفل ، وتوفير الدواء ، والتحصين والعلاج ، والمياه الصالحة للشرب .

لكن مع صعود الأحداث في الثمانينيات انتكست كل هذه الجهود ، وفي بلد واحد هو موزمبيق تم تدمير ٥٨٥ مركزا للصحة ، وهو ما يعادل نصف المراكز على وجه التقريب . كذلك تم تدمير أو تهجير ثلث المدارس ، وبقي نصف مليون تلميذ بالمرحلة الابتدائية بلا تعليم !

وفي التفاصيل نجد الارهاب الجماعي قد أصبح أسلوبا متبعا ، فتهجم القوات لتحرق المزارع والمحاصيل ، وتنهب المدارس والعيادات والكنائس والمساجد والمخازن والقرى ، وتدمر شبكات المواصلات ، وتسمم الآبار بإلقاء جثث القتلى فيها ، وتنزل الرعب بالتلاميذ والمدرسين وموظفي الصحة والموظفين الذين يقدمون المعونات الأجنبية وامدادات الدواء والغذاء .

نفس الشيء بالنسبة للمرافق الاقتصادية : المصانع ومنشآت النفط والمناجم وحقول الشاي .

إنها حرب بربرية ، وحشية ، لا تعرف أي معنى من معاني الانسانية .

وهذه الخسائر الضخمة :

في صراحة ووضوح تقول منظمة « اليونيسيف » : نعم ، كانت خسائر الحرب الاقتصادية والعسكرية بسبب سياسة التمييز العنصري في جنوب افريقيا ، خسائر ضخمة وغير عادية .

وفي محاولة لحصر هذه الخسائر منذ عام (١٩٨٠ - ١٩٨٨) نجد هذه الأرقام المفزعة :

* خسائر انجولا سبعة عشر مليارا من الدولارات .

* خسائر موزمبيق (٥,٥) خمسة مليارات ونصف مليار دولار .

* خسائر الدول السبع الأخرى المحيطة بجنوب افريقيا : خمسة مليارات من الدولارات .

أما الخسائر البشرية فهي مائة ألف قتيل في دولتين فقط هما:انجولا وموزمبيق ، ومع ذلك فإن معظم الوفيات ليست ناجمة عن الحرب بشكل مباشر ، لكنها ناجمة عن سوء التغذية ، والاسهال ، والالتهابات التنفسية الحادة ، وعن أمراض كان التحصين منها أمراً ميسورا ولا يكلف عدة دولارات للفرد الواحد .

لكنه الخراب ، ذلك الذي دفع بقوى عنصرية غاشمة ، وقوى دولية طاغية لتفترس ذلك الجزء البعيد من القارة الأفريقية ، ليس في ساحة حرب شريفة ، وإنما في ساحة حرب قذرة امتدت إلى الطفل الرضيع ، والطفل الذاهب إلى مدرسته ! .

لقد كان الهدف في الدولتين الأكثر تأثرا (انجولا وموزمبيق) الانخفاض بمعدل وفيات الأطفال دون سن الخامسة ، وبينما كان المعدل (٢٠٠) طفل بين كل ألف ، أصبح المعدل بسبب الحروب والاضطرابات والتدمير وحرب التجويع : (٣٢٥) بين كل ألف ولادة . ! أي أنه من بين كل ثلاثة أطفال يرحل واحد عن هذا العالم ، أو : بحساب آخر يموت طفل كل أربع دقائق ، ومات (١٤٠) ألف طفل عام ١٩٨٧ في انجولا وموزمبيق .

ربما يكون الأمر قد تكرر بصورة أو بأخرى في مناطق التوتر الأخرى في العالم ، في الخليج أو لبنان أو جنوب السودان أو أجزاء من شبه القارة الهندية ، وربما تركت الأزمة الاقتصادية آثارها على أفريقيا جنوب الصحراء حيث الجفاف والتصحر ونقص الغذاء والدواء ، وربما تأثر أطفال الدول النامية بشكل عام بذلك الجبل من الديون التي ترزح تحتها شعوبهم ، بل ربما يتأثر الأطفال بسبب سياسة صندوق النقد الدولي ، كما أثبتت دراسة علمية لأستاذة الاقتصاد الدكتورة كريمة كريم .

ربما يحدث ذلك في هذا المكان أو ذاك من العالم ، وربما قلنا : الأطفال ، شهداؤنا الأبرياء ، إنهم المعذبون بلا ذنب ، ولكن أليس الجنوب الافريقي حالة خاصة ؟ .

أظن ذلك ، وأظن أننا قد وضعنا يدنا على دليل إدانة إضافي للتمييز العنصري ، وموقف الدول الاستعمارية التي تعبث في الجنوب ، وإن كان السؤال : ماذا بعد التغيرات السياسية الأخيرة ؟ . □



معايير قيمة العمل عند ابن خلدون

بقلم : الدكتور فاروق النبهان

على الرغم من فيض الدراسات الحديثة عن ابن خلدون وفكره فإن الدارسين مازالوا يجدون فيها الكثير مما يستوجب تحليله ودراسته ، وهذه لمحة من لمحات ابن خلدون مقارنة بمثلها للإمام الغزالى ، وهما شاهدان من شواهد العبقرية العربية ، عندما كانت تبدع وتضيف للفكر الإنساني . فهل يتمكن الخلف من تطوير ما أبدع السلف ؟

«الصناعة هي إحدى وجوه المعاش ، لأنها عمل إنساني ، والكسب هو قيمة ذلك العمل الذي يبذله الأفراد في الصنائع المختلفة ، ذلك أن الكسب لا يتم إلا عن طريق السعي والجهد ، وهذا السعي والجهد هو العمل ، والأجر هو قيمة ذلك العمل ، وهو مايسمى بالرزق ، وكلمة الرزق أعم من الأجر ، ذلك أن الرزق يطلق في نظر ابن خلدون على المال المنتفع به الحاصل عن طريق الكسب ، سواء كان معاشا أو متمولا ، ثم إن ذلك الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعته على العبد وحصلت له ثمرته ، من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سمي ذلك رزقا . وإن لم ينتفع به في شيء من مصالحه وحاجاته ، فلايسمى بالنسبة إلى المالك رزقا ، والمتملك منه حينئذ بسعي العبد وقدرته يسمى كسبا ، وهذا مثل التراث ،

فإنه يسمى بالنسبة إلى المالك كسبا ولا يسمى رزقا» (مقدمة ابن خلدون ص ٦٧٩) .

«والرزق بهذا المفهوم ليس هو الكسب ، إذ الكسب يشمل ما يكسبه الإنسان نتيجة عمله ، سواء عن طريق السعي أو بغير سعي ، ذلك أن الانسان محتاج إلى الكسب للإنفاق على نفسه ، إذ لا يمكنه الإنفاق بغير كسب ، إلا أن الإنسان قد ينفق جميع مايكسبه ، وقد ينفق أكثر منه أو أقل منه ، فإن أنفق أقل من كسبه استطاع أن يدخر جزءاً من دخله ، لكي ينفقه فيها بعد في مواطن أخرى ، وإن كان كسبه لايلبي جميع حاجاته ومطالبه اضطر للاقتراض أو للاعتماد على مصادر أخرى ، لتغطية العجز الناتج عن زيادة الإنفاق عن مقدار الكسب . وبعض العلماء يطلق كلمة الرزق على الكسب الذي ينتفع به صاحبه ، وبعضهم - كالمعتزلة - لا يطلق كلمة الرزق إلا على المال الذى يَصِحّ تملكه ، وما لايتملك عندهم فلا يسمى رزقا ، وأخرجوا الغصوبات والحرام كله عن أن يسمى شيء منها رزقا» (المقدمة ص ٦٧٩) .

الكسب قيمة العمل

والكسب في جميع الأحوال لايتصور إلا عن طريق العمل الإنساني ، لأنه قيمة لذلك العمل ، ولا يمكن للعمل أن ينتج كسبا ، ذلك أن الإنسان لايمكن أن يبذل جهدا دون قيمة ، لأنه محتاج إلى تلك القيمة ، لكي ينفقها على نفسه ، ولهذا فلا بد أن تكون قيمة العمل معادلة لحجمه ، من حيث المقدار ، والحد الأدنى الذي يحدد قيمة العمل هو مقدار الحاجة ، إذ لايمكن لقيمة العمل أن تقل عن الحاجة ، لأن العمل هو وسيلة للمعاش ، ولا يتحقق المعاش إلا بكمال الكفاية ، ولا تكون الكفاية إلا بأن تكون قيمة العمل مساوية على الأقل لتلبية حاجات الإنسان الضرورية ، من غذاء وملبس وسكن ، يكفيه ويكفي من تلزمه نفقتهم من أفراد أسرته .

وتؤكد الآية الكريمة هذا المعنى : «فابتغوا عند الله الرزق» والرزق يتم بالعمل ، والعمل يجلب الرزق ، والرزق هو مايكفي الإنسان ، فإن كان ابتغاء الرزق عن طريق العمل لا يوفر كمال الرزق الضروري ، فإن من المؤكد أن قيمة العمل كانت منقوصة ، ولا بد في هذه الحالة من إعادة النظر في قيمة العمل لكي يكون رزقا كافيا ، لأن الآية القرآنية عندما طلبت ابتغاء الرزق عن طريق العمل والسعي ، أشارت إلى أن ذلك الابتغاء يوفر الرزق ، أي أن العمل يحقق الكفاية .

هذه نقطة جديرة بالاهتمام والدراسة ،وعلى الرغم من أن ابن خلدون لم يشر إليها صراحة ، إلا أنها يمكن أن تكون مستفادة من آرائه في قيمة العمل ، وهي قضية - في رأيي - منطقية وسليمة ، إذ لايمكن تصور قيمة العمل إلا من خلال ربط ذلك العمل بمفهوم الذى يدخل ضمن متطلبات المعاش ، وموجبات العيش ، ولو كانت قيمة العمل أقل من متطلبات العيش ، لما دعا القرآن الكريم إلى ابتغاء الرزق عن طريق العمل ، **إذ ليس من العدل أن يحصل الابتغاء ، ولا يحصل الإنسان على كمال الرزق الضرورى المحقق للحد الأدنى من الحاجة .**

أهمية تحديد قيمة العمل

ان تحديد قيمة العمل أمر ضروري ، لأن التوازن بين العمل وقيمته يحصل به ، وبه يمتنع الظلم ، لأن العمل محدد ، وقيمته غير محدودة ، والشيء الوحيد الذي يحدد تلك القيمة هو الحاجة ، وبهذا المفهوم تصبح قيمة العمل خاضعة لقيم الحاجات السائدة في الأسواق ، لأن النقد ليست له قيمة محددة ، وإنما يحدد قيمته حجم أثره في المجتمع ، ولهذا فإن قيمة النقد تختلف باختلاف المكان والزمان ، وترتبط بمقدار الأثر الذي يوفره ذلك النقد ، ولهذا فإن من المنطقي أن تكون قيمة

العمل في المدن الكبيرة أكبر من قيمة العمل في المدن الصغيرة، لارتفاع قيم الحاجات الأخرى.

ويعبر ابن خلدون عن ظاهرة ارتفاع النفقات الضرورية في المدن بقوله: «المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه، وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف، وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو إليها، فتنقلب ضرورات، وتصير الأعمال فيه كلها مع ذلك عزيزة، والمرافق غالية، بازدحام الأغراض عليها من أجل الترف، وبالمغارم السلطانية التي توضع على الأسواق والبياعات، وتعتبر في قيم المبيعات، ويعظم فيها الغلاء في المرافق والأقوات والأعمال، فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانه، ويعظم خرجه، فيحتاج حينئذ إلى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله، في ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم» (ص ٦٤٩).

ولهذا الاعتبار فإن قيمة العمل ليست محددة، ولا يمكن أن تكون محددة، لأن التحديد يخرج بها عن مفهوم الابتغاء لأجل الرزق، والرزق لايتجزأ، فالابتغاء لتحقيق بعض الحاجة لايحقق كمال الرزق كما قلنا، ووفقا لهذا المفهوم فإن قيمة العمل تتزايد في مجتمعات الترف، وفي ظل عوائد الترف، لأن ذلك الواقع يجعل أسعار الضروريات مرتفعة، ويجعل مطالب العيش متعددة أيضا، إذ أن مفهوم الضرورة لايمكن أن يكون واحدا في كل من مجتمع المدينة ومجتمع القرية، لأن مطالب القرية المنعزلة ليست هي مطالب المدينة، فالإبل والغنم والبقر والدجاج والخيل والأرض قد تكون أشياء ضرورية في مجتمع القرية، لأنها توفر وسائل العيش الضرورية، كاللحم واللبن والحليب والبيض والزرع، وفي المقابل فاننا نجد أن حياة المدينة تتطلب أشياء أخرى، ليست هي مطالب القرية نفسها، فالبيت والتأثيث، ووسائل النقل، والكهرباء، والمذياع والتلفاز والثلاجة هي مطالب ضرورية لحياة المدينة، إذ لايمكن لمجتمع المدينة أن يقبل قيمة للعمل لاتوفر هذه الحاجات الضرورية.

ويرى ابن خلدون أن النفقات تكثر مع زيادة العمران، لارتفاع الأسعار في المرافق والأقوات، وبالتالي فإن قيمة العمل تتزايد مع ازدياد العمران، لكي تلبي جميع الحاجات الضرورية. وكلمة الحاجات الضرورية لاتقتصر على الغذاء والأقوات والملابس الضرورية، وإنما تتعدى تلك الحدود لكي تكون معبرة عن معنى الكفاية المادية لحياة إنسانية سليمة، يعيش الإنسان فيها من غير قهر أو ذل أو حاجة.

معيار تحديد قيمة العمل

معيار تحديد قيمة العمل عند ابن خلدون يرجع إلى العوامل التالية:

العامل الأول: مقدار العمل:
والقدر هنا هو قدر مادي وكيفي، وهذا القدر يعتبر عاملا أساسيا في عوامل تحديد قيمة العمل، ويمكن أن يحدد ذلك العمل من خلال الزمن، باستعمال المعيار الزمني، وهو عنصر أساسي في تحديد قيمة العمل، لأن العمل الذي يستغرق يوما كاملا لايمكن أن تكون قيمته مساوية للعمل الذي يستغرق ساعة أو بعض ساعة، ولا يعني هذا أن تكون قيمة الساعة الزمنية أقل من قيمة اليوم الكامل، ذلك أن هناك عوامل أخرى، لاتقل أهمية عن المعيار الزمني، كالمعيار المادي، إذ أننا نجد أحيانا أن قيمة عمل الساعة الزمنية في بعض الأعمال والصناعات تفوق قيمة عمل يوم كامل من صناعات أخرى أقل أهمية وأقل ندرة.

وإذا كان المعيار الزمني عاملا من عوامل التحديد، يؤخذ به في مجال تقويم قيم



الأعمال ، فإن ذلك يكون في إطار العمل الواحد ، أو المتماثل في المكانة والترف والندرة ، فأجر الساعة بالنسبة لعامل البناء لايمكن أن يعادل أجر يوم كامل لعامل بناء آخر ، في نفس الكفاءة وفي نفس المدينة والزمان ، ولكن ذلك المعيار لايمكن الأخذ به في مجال تقويم قيمة العمل بالنسبة ليوم عمل لعامل بناء ، ويوم عمل لمهندس مختص بالبناء ، لاختلاف طبيعة المهمة ، وحجم أثرها في ميدان العمل ، فالساعة الزمنية للمهندس المعماري تعادل أضعاف قيمة الساعة الزمنية لعامل بسيط ، لأن حجم إسهام المهندس أكبر وأكثر ندرة ، فضلا عن أن المهندس قد صرف وقتا طويلا في الإعداد ، لكي يتمكن من أن يكون عطاؤه خلال الساعة الزمنية متجاوزاً حدود العمل اليدوي البسيط .

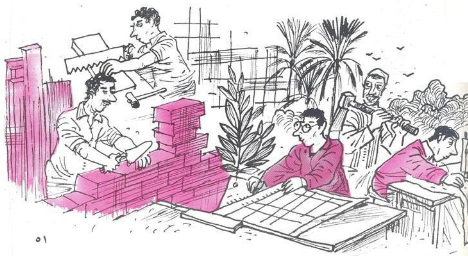
العامل الثاني : شرف العمل . والمراد بشرف العمل أن يكون موطن العمل وموضوعه شريفا ، كالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب ، وهذه صناعات شريفة ، وهناك صناعات أخرى أقل شرفا ، كالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة .

وأعتقد أن معيار الشرف في تحديد طبيعة الأعمال لايمكن إخضاعه لمعيار دقيق ، ذلك أن ذاك المعيار معيار نسبي ، يحدده المجتمع ، وقد تتغير نظرة المجتمع إلى صناعة من الصناعات ، فتنتقل تلك الصناعة من صناعات غير شريفة إلى صناعات شريفة ، أو العكس من ذلك .

وقد عبر ابن خلدون عن شرف الصناعات فقال :

«اعلم أن الصنائع في النوع الإنساني كثيرة ، لكثرة الأعمال المتداولة في العمران ، فهي عديدة بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد ، إلا أن منها ماهو ضروري في العمران أو شريف بالموضوع . . فأما الضروري فكالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة ، وأما الشريفة بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب» (المقدمه ص ٧٢٢) .

ويفهم من كلام ابن خلدون أن ماهو ضروري في العمران ليس صناعة شريفة ، وهذا معيار لايمكن التسليم به ، ولا أظن أن استعمال كلمة «الشرف» بالنسبة للصناعات مما يحسن استعماله ، ويمكل استبدال كلمة الشرف



بكلمات أخرى أكثر دلالة عن معنى التخصص والدقة ، مما يتطلب معه كفاءات عقلية رفيعة ، فالطب مثلا ليس أكثر شرفا من البناء ، ذلك أن معنى الشرف يدل على معانٍ عدة ، قد يكون في إطلاقها على العموم ما ينافي قيم الشرف والفضيلة ، ولكننا نستطيع القول بأن مهنة الطب تتطلب كفاءة عقلية متفوقة ، وجهدا علميا كبيرا ، وإعدادا طويلا ، ولهذا فإن قيمة العمل في الطب أكثر من قيمة العمل في البناء ، ولا يمكن التسليم أيضا بأن ماكان موطنه الصحة أو الإنسان ، هو أكثر مما كان موطنه الأرض أو الجماد أو النبات ، فالحجامة مهنة ليست شريفة ، مع أن موضوعها الصحة وموطنها الإنسان ، وفي المقابل فإن صناعة الذهب مهنة شريفة مع أن موضوعها المعدن ، والمعدن مهما كان نفيسا وغاليا لايمكن أن يكون أشرف من الإنسان .

مفهوم الشرف عند الغزالي :

تحدث الإمام الغزالي عن مفهوم الشرف خلال كلامه عن فضيلة العلم ونفاسته ، وأشار إلى أن الفضيلة مأخوذة من الفضل ، وهو الزيادة ، وليس المراد أي زيادة ، من حيث الكم المادي ، وإنما المراد الزيادة المؤدية إلى الكمال ، فقد تكون الزيادة فضيلة في شيء ولا تكون كذلك في شيء آخر ، كالعدو ، فهو فضيلة في الفرس ، وقد يكون كذلك بالنسبة لسائر الحيوانات ، لأن من فضائل الفرس العدو لأنها معدة للكّر والفّر ، وقد لاتكون سرعة الجري فضيلة على الاطلاق .

ومعيار الشرف أن الأشياء النفيسة المرغوب فيها تنقسم إلى اقسام :

- ماهو مطلوب لذاته .
- ماهو مطلوب لغيره .
- ماهو مطلوب لذاته ولغيره .

وما يطلب لذاته أشرف مما هو مطلوب لغيره ، فالدراهم مطلوبة لغيرها ، لأنها أداة لقضاء الحاجات ، وليس لها شرف ذاتي ، لأنها مجرد معادن ، قد ترمى عند إهمال التعامل بها ، بخلاف سلامة البدن ، فهي مطلوبة لذاتها ولغيرها ، فالصحة فضيلة بحد ذاتها ، ومطلوبة لذاتها ، وهي في الوقت نفسه مطلوبة للتوصل بها إلى تحقيق الحاجات والمآرب .

والعلم مطلوب لذاته ولغيره ، فهو لذاته لذيذ ومطلوب ، وهو في الوقت نفسه وسيلة للسعادة الأخروية ، ولذلك فصناعة العلم صناعة شريفة .

وتنقسم الصناعات عند الغزالي إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ أصول لاقوام للعالم دونها ، وهي أربعة : الزراعة وهي للمطعم ، والحياكة وهي للملبس ، والبناء وهو للسكن ، والسياسة وهي للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها .

٢ ـ صناعات خادمة للأصول ومهيئة لها ، كالحدادة فهي صناعة خادمة للزراعة .

٣ ـ صناعات متممة للأصول ومزينة كالطحن والخبز للزراعة ، والقصارة والخياطة للحياكة .

وأشرف الصناعات في نظر الغزالي ، أصولها ، وأشرف أصولها السياسة بالتاليف والاستصلاح ، ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها مالا يستدعيه سائر الصناعات» (الأحياء ص ١٣) .

معيار الشرف عند الغزالي :

ويرى الغزالي أن معيار معرفة الشرف أمور ثلاثة :

ـ الأول : بالالتفات إلى الغريزة التي بها يتوصل إلى معرفتها ، كفضل العلوم العقلية على اللغوية ، إذ تدرك الحكمة بالعقل ، واللغة بالسمع ، والعقل أشرف من السمع .

ـ الثاني : بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة

على الصياغة .

ـ الثالث : بملاحظة المحل الذي فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة ، إذ محل إحداهما الذهب ومحل الأخرى جلد الميتة (الأحياء ص ١٣) .

ولا يمكننا أمام هذا التحليل العلمي الدقيق الذي يقدمه الإمام الغزالي لمفهوم الشرف والمعايير الموضوعية التي يعرف بها ، إلا أن نسلم بدقة الغزالي ، وعمق منهجه العلمي ، وقدرته على الاقناع المنطقي ، ذلك أن معايير الشرف في رأيه تعرف من خلال الغريزة الفطرية ، أو عموم النفع أو ملاحظة المحل ، وجميع تلك المعايير يمكن السيطرة عليها ، وإدراكها بسهولة ويسر ، لأنها مما يمكن الاقتناع به .

ولاشك أن معيار النفع جدير بأن يكون معيارا في ميدان الصناعات ، يحدد به شرف الصناعات ومكانتها ، ذلك أن النفع هو الذي يحدد قيمة الصناعة وشرفها ، إذ لايمكن أن نعطي لمفهوم الشرف معنى ذاتيا بعيدا عن حاجة الإنسان .

وكيف يمكن أن يكون الغناء أشرف من الفلاحة ، مع أن الغناء يمثل حاجة كمالية ، يمكن الاستغناء عنها ، ولا يتأثر المجتمع بذلك ، بخلاف الفلاحة فهي من الأصول ؟ ولهذا فقد اعتمد الإمام الغزالي تقسيم الصناعات من حيث الحاجة إليها إلى ثلاثة أقسام ، واعتبر الصناعات التي «لا قوام للعالم دونها» ، هي الأصول ، واعتبر الفلاحة من الأصول ، كما اعتبر من الأصول كلا من الحياكة والبناء والسياسة ، وتلك هي أشرف الصناعات .

ولعل سبب الاختلاف بين نظرة ابن خلدون والغزالي ، أن ابن خلدون ينظر لمفهوم الشرف من خلال صلة ذلك بالسلطان والعمران أولا ، ومن خلال تميز أصحاب الصناعات بالكفاءة العقلية ، وهو ما يسميه بالملكة .

ونظرة ابن خلدون ذات طبيعة حضارية ، ذلك أنه ينظر للشرف ليس من معيار الحاجة ، وإنما من معيار التفوق العقلي والذهني ، ولهذا فإن صناعتي الفلاحة والبناء ليستا من الصناعات التي تحتاج إلى تفوق ومران .

وعلى الرغم من اعتراف ابن خلدون بأهمية صناعة الفلاحة ، وحاجة الناس إلى الأقوات ، فإنه يعتبرها من الصناعات التي اختص بها البدو ، وهي صناعة بدوية ، لايعرفها الحضر ، ولا يقومون بها ، لأن حياتهم في المدن مانعة لهم من الانصراف إلى صناعة الفلاحة .

وفي الوقت نفسه يرى ابن خلدون أن بعض الصناعات ، كالكتابة والوراقة والغناء ، تنال صفة الشرف ، لأنها مما يساعد على مخالطة الملوك الأعاظم في خلواتهم ومجالس أنسهم ، فلها بذلك شرف ليس لغيرها ، وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة وممتهنة في الغالب (المقدمة ص ٧٢٣) .

وهذه نظرة قد تكون سائدة في عصر ابن خلدون ، ذلك أن الشرف في معظم معانيه هو ما يجعل صاحبه في موطن الاعتزاز والفخار به ، والصناعة الشريفة هي الصناعة التي تجعل صاحبها في موطن التفوق والاعتزاز ، وهي بهذا الاعتبار تخضع لقيم المجتمع وتصوراته ، والصناعات ذات الصلات بالفكر والثقافة هي صناعات شريفة ، لأنه لا ينالها إلا أصحاب التميز الثقافي والعقلي ، كما أن الصناعات التي تساعد صاحبها على مخالطة الملوك تعتبر صناعات شريفة ، وهذه نظرة خلدونية ، ذلك أن ابن خلدون كان من المغرمين بمخالطة الملوك والأمراء ، ويرى في ذلك شرفا وتميزا ، ولذلك فلا غرابة أن يجعل تلك المخالطة مما يدعو للشرف .

العامل الثالث : حاجة الناس إليه

ويعتبر هذا العامل من أهم العوامل المؤثرة في تحديد قيمة العمل ، وإذا كان العاملان الأولان وهما : مقدار العمل وشرفه ، من العوامل التي



تتحدد على أساسها قيمة العمل ، فإن حاجة الناس إلى ذلك العمل تعتبر عاملا أكثر أهمية في تحديد قيمة العمل .

ومن هذا المنطلق ، وهو منطلق الحاجة ، ترتفع قيم بعض الأعمال إذا كانت ضرورية ، وبخاصة فيما تشتد الحاجة إليها ، ولهذا فإن ابن خلدون يخصص فصلا خاصا للحديث عن أن القائمين بأمر الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ، ونحو ذلك ، لاتعظم ثروتهم في الغالب ، والسبب في ذلك أن الكسب - كما قدمناه - قيمة الأعمال ، وأنها متفاوتة بحسب الحاجة إليها ، فإذا كانت الأعمال ضرورية في العمران ، كانت قيمتها أعظم ، وكانت الحاجة إليها أشد ، وأهل هذه الصنائع الدينية لاتضطر إليهم عامة الخلق ، وإنما يحتاج إلى ماعندهم الخواص ممن أقبل على دينه ، وإن احتيج إلى الفتيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم ، فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر (ص ٧٠١) .

وهذا النص يؤكد مذهب ابن خلدون في قيمة العمل ، وهو حجم الحاجة إليه ، فإذا كانت الحاجة إلى العمل كبيرة كانت القيمة كبيرة ، وإذا أمكن الاستغناء عن ذلك العمل لقلة الحاجة إليه كانت قيمته بحسب الحاجة ، والحاجة قضية نسبية ، فقد تكون الحاجة في وقت دون آخر ، وقد تكون في زمن دون آخر ، لأنها مما يخضع لمعيار نسبي ، وشخصي ، فقد تكون حاجة شخصية أو اجتماعية .

وإن قيم الأشياء بشكل عام ، وليس فقط قيم الأعمال ، تخضع لمقدار الحاجة ، وكلما اشتدت الحاجة إلى شيء ارتفع سعره ، وكذلك بالنسبة للأعمال ، فالأعمال التي تشتد حاجة المجتمع إليها تكون قيمها مرتفعة ، وتزداد ارتفاعا كلما نقص عدد القادرين على القيام بتلك الأعمال ، وتدخل عندئذ ضمن قانون الندرة ، وقانون العرض والطلب .

وأهل الصنائع الدينية في الغالب لاتعظم ثروتهم ، لعدم الحاجة إلى تلك الصنائع ، ولعدم حاجة معظم الناس إلى الاستعانة بهم ، ويستثنى من ذلك فئة من الخواص المقبلين على دينهم ، ويبدو أن ظاهرة الاستغناء عن العلماء كانت من مظاهر ذلك العصر ، ولهذا فإن ابن خلدون قد سجل ذلك ، واستشهد بهذه الظاهرة للحديث عن قيم الأعمال ، وأن تلك القيم تحدد من خلال حاجة الناس إليها .

وهناك سبب آخر أشار إليه ابن خلدون ، ولعله السبب الأهم ، وهو أن العلماء «لشرف بصنائعهم أعزة على الخلق وعند نفوسهم ، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظا يستدرون به الرزق ، بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك ، لما هم فيه من الشغل بهذه الصنائع الشريفة ، المشتملة على أعمال الفكر والتدبر ، بل ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا ، لشرف صنائعهم ، فهم بمعزل عن ذلك» (المقدمة ٧٠٢) .

معايير متحركة

ولاشك أن العوامل الثلاثة التي ذكرها ابن خلدون وهي : مقدار العمل ، وحاجة الناس

إليه ، هي التي تحدد قيمة ذلك العمل ، ولهذا تختلف قيم الأعمال بحسب تلك الاعتبارات ، مما يجعل تلك القيم خاضعة لمعايير متحركة ، تتناسب بحسب التطورات الزمانية والظروف المكانية والحاجات الاجتماعية ، ولاعجب في ظل هذا الواقع أن يقع الاستغلال بشكل بشع في تحديد تلك القيم ، ذلك أن الطرف الأقوى قادر على استغلال الطرف الأضعف ، وفرض شروطه بطريقة لاتترك حرية الاختيار للطرف الآخر ، مما يجعل الأجور خاضعة ليس لمعيار القيمة الحقيقية للعمل ، وإنما تخضع للظروف العامة التي تحيط بذلك العمل ، من حيث القدرة التفاوضية لأطراف عقد العمل .

وإذا كان ابن خلدون قد تحدث عن مقدار العمل وشرفه وحاجة الناس إليه كمعايير دقيقة لتحديد قيمة العمل ، فانه لم يتحدث عن عامل خارجي لايمكن إنكار أثره في تحديد قيمة العمل ، وهو التنافس في تحديد قيمته ، والتنافس يضعف القدرة التفاوضية لأحد أطراف العقد ، وهو الجانب الذى يجد نفسه مضطرا للقبول بقيمة للعمل أقل من القيمة الحقيقية ، بسبب كثرة العاملين ، وتنافسهم عليه ، مما يجعلهم في وضع استسلام للقيمة المعروضة .

وقد تحدث ابن خلدون في موطن آخر عن قيمة العمل ، واعتبر أن اغتصاب قيمته كله أو جزء منه ، يدخل ضمن الظلم المؤذن بالخراب . ذلك أن العمل هو وسيلة الكسب ، فإذا انتقص حق الإنسان بطل كسبه ، وإذا بطل كسبه وقع الظلم عليه ، وانتقص بذلك العمران البشري ، لأن العمران مرتبط بالمعاش ، وسلامة المعاش هو وسيلة العمران ، ولذلك فإن انتقاص قيمة العمل يعتبر من الظلم الذي يؤدي إلى عواقب سيئة .

وقال في صدد ذلك :

«فإن الرعية المعتملين في العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك . فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم ، واتخذوا سخريا في معاشهم بطل كسبهم ، واغتصبوا قيمة عملهم ذلك ، وهو تمولهم ، فدخل عليهم الضرر .» □

زوج يغار من الفئران:



● طلب الطبيب الأمريكي رونالد جراي الطلاق من زوجته ماري، قال لقاضي محكمة لاس فيجاس:

- إن زوجتي يا سيدي مغرمة بتربية الفئران البيضاء، لقد أخفت عني هذه الهواية عندما تزوجتها، ولكني فوجئت بعد ذلك بفئرانها البيضاء في كل ركن من أركان المنزل، في غرفة النوم، على منضدة الطعام، تحت الوسادة، وقد تحملت ذلك كله، ولكن عندما شاهدتها تقبل فئرانها كل مساء قبل أن تأوي الى الفراش لم أعد أتحمل هذه الحياة!!. وردت الزوجة، فقالت: إن زوجها يغار من الفئران.

ولم يقتنع القاضي بهذه الحجة فأصدر حكمه بالطلاق.

أفكار لا تموت

(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

بين اليأس والرّجاء

صوتان لا بد أن يرتفعا في كل أمة ، ويجب أن يتوازنا ، حتى لا يطغى أحدهما على الآخر ، صوت يبين عيوب الامة في رفق وهوادة ، ويستحث على التخلص منها والتحرر من قيودها ، وصوت يظهر محاسنها ويشجع على الاحتفاظ بها والاستزادة منها . والصوتان معا اذا اعتدلا كونا موسيقا جميلة منسقة تحدو الأمة الى السير الى الامام دائما ، هي موسيقا الجيش تبعث الرجاء والأمل ، وتمنى بالنصر والظفر ، فان بغى أحد الصوتين كانت موسيقا مضطربة تهوش النفس وتدعو الى الفوضى والارتباك ، واذا كان « الدور » في الموسيقا يكون منسجما كله ، ويشذ أحد أصواته لحظة فيكون « نشازا » يخدش السمع ويجرح النفس ، فما ظنك « بدور » كله « نشاز » ؟

مما يدعو الى الأسف أن صوتا في الشرق علا كل صوت ، وهو ليس خير الأصوات وأحبها الى النفس ، هو صوت اليأس والتثبيط يتغنى به كل أصناف الدعاة ، فخطيب المسجد تدور خطبته دائما على أن من يخطب فيهم ليسوا مؤمنين حقا ، فقد ارتكبوا من الأوزار ، واجترموا من الآثام ما أخرجهم عن الايمان الحق ، وأبعدهم عن الدين الصحيح ، ولو آخذهم الله بأعمالهم لأمطرهم حجارة من السماء ، أو خسف بهم الارض ، ثم يصب هذا المعنى كل أسبوع في قالب ، وكل القوالب تختلف أشكالها ، ويتحد معناها ، ويخرج السامع دائما وقد ملأه اليأس ، وانقطع به الرجاء ، الا أن يتداركه الله بعفو ليس جزاء على عمل .

ودعاة اللغة والأدب يلحون في أن اللغات الأجنبية خير من اللغة العربية ، وأن الأدب الأجنبي أدب الثقافة والفن والعلم ، ولا شيء من ذلك في الأدب العربي ، وأن من شاء أن يفتح عينيه فليفتحها على أدب أجنبي ولغة أجنبية ، والا ظل أعمى ، وموجز دعوتهم أن يتحول الشرق في لغته وأدبه الى الغرب في لغته وأدبه ، لا أن يختار من لغة الغرب وأدب الغرب ما تلقح به لغة العرب وأدب العرب .

ودعاة الاجتماع أدهى وأمر ، فليس في الشرق كله ما يسر ، قد جرده الله من كل حسن ، فلا طبيعته جميلة ولا مناظره جذابة ، ولا شيء فيه يأخذ باللب ويدعو الى الاعجاب ، والقمر في الغرب أشد نورا منه في الشرق ، والبحر الابيض قد جمل منه مالامس الغرب ، وقبح ما لامس الشرق ، وكل شيء في عادات الشرق وتقاليده تعافها النفس ، وينفر منها الطبع ، وعلى الجملة فالله تعالى الواهب ما شاء لمن شاء قد جمع الحسن كله في ناحية ، وقال له كن الغرب فكان ، وجمع القبح كله في ناحية وقال له كن الشرق فكان . وهم اذا لم يقولوا ذلك كله جهارا آمنوا به إيمانا ، وصدرت عنه أفعالهم ، واتجهت اليه حياتهم .

ودعاة العلم من هذا الطراز ، فكتب العلم العربي إنما تصلح لدارس التاريخ أو طعمة للنار ، وماذا فيها الا تخريف أو تحريف ، قد كانت نتاج القرون الوسطى ، ونحن نتاج العصر الحديث ـ ومالي وللسياسة ودعاتها فلأهربن منها اتقاء لنارها ـ ومجالسنا صدى لهذا الصوت ، فاذا استثنيت عُشر معشارها فكلها نقد للأخلاق ، وطعن في حياة الشرق ، وتهجم على حال أمتهم ، وتجهم لكل ما يصدر منهم . وقلّ أن تسمع صوتا ينطق بمدح أو يعجب ببطولة ، أو يتغنى بعمل مجيد .

هذه نغمة مملولة كانت أجنى على الشرق من كل عيوبه ، ولن تفلح أمة من غير ذخيرة تعتز بها ، ومجد طارف وتليد تعتد به ، وتوجهات قومية تدعوها الى الفخر والاعجاب .

تلك ظاهرة نفسية لا مجال لانكارها ، فاعتقد الغباوة في طفلك وكرر عليه اعتقادك تقتل كل ما فيه من ذكاء ، وأعلن أنه ذكي وشجعه على ما يبدر منه من ضروب الذكاء تستخرج أقصى ما عنده من عقل . وفي المثل الانجليزي « دَعوا الكلب عقورا فشنق » يعنون أنهم اعتقدوا في كلب سوءا وسموه عقورا وظلوا يطلقون عليه هذا الاسم حتى صدر منه من أفعال السوء ما استوجب قتله .

اذا سقط الفتى فأريته أن سقطته قابلة للعلاج ، وأخذت بيده لانتشاله ، كفّر عن سقطته وعاد الى حاله ، وان أنت أريته أن سقطته لا تغتفر ، وأنه لم يصبح انسانا استمر يسقط أبدا . وكثير من الساقطين والساقطات لو أحسوا في الناس استعدادا لقبولهم ، وشعروا أنهم يفسحون لهم في صدورهم لعدلوا عن سقطتهم ، ونهضوا من عثرتهم .

* * *

وبعد ، فليس الشرق بدعا من الخلق ، إن اعتز أحد بماض فليس أمجد من ماضيه ، وان كان لكل أمة غربية محاسن ومساو فللشرق محاسنه ومساويه ، وان كانت مساوي الغرب لم تمنعه من نهوضه فلم تمنع الشرق مساويه من نهوضه ؟ ليس أعوق للشرق من هذا الصوت الكريه يصدر من دعاته فيبعث اليأس وينفث السم .

أيها الدعاة : كسروا قيثارتكم هذه التي لا توقع الا نغمة واحدة بغيضة ، واستبدلوا بها قيثارة ذات ألحان صنعها طَبٌّ بأدواء النفوس عليم ، وأكثروا من ألحان تبعث الأمل ، وتدعو الى العمل ، وتزيد الحياة قوة ، ولا تشهروا برذيلة الا إذا أشدتم بفضيلة ، ولا تسمعونا صوت المعاول ، إلا اذا أريتمونا حجر البناء .

الدكتور أحمد أمين

مجلة الرسالة العدد السادس عشر أول سبتمبر ١٩٣٣

يصدر في
١٥ أبريل ١٩٨٩

كتاب العربي

الثالث والعشرون

الطفل العربي والمستقبل!

بقلم: مجموعة من الكتاب

كتاب العربي مرآة العقل العربي



المرأة
ندّ للرجل
أمْ مكمّلة لــه ؟

بقلم : الدكتور محمّد عمارة

ماتزال قضية المرأة ومكانتها في المجتمع وعلاقتها بالرجل ، تثير النقاشات الحادة ـ وبخاصة في العقدين الأخيرين ـ وتحاول بعض القوى والتيارات تفسير الدين الاسلامي وأحكامه في اتجاه سلب المرأة حقوقا حصلت عليها مع أن الرؤية المدققة للنهج الاسلامي تؤكد غير ما يذهبون إليه .

من أصدق وأدق المصطلحات وأشملها في التعبير عن صنيع الاسلام وإنجازه الذي أحدثه ويحدثه بالنسبة للإنسان ، مصطلح : « الإحياء »! فالإسلام إحياء كامل وعميق ودائم لكل من استجاب لدعوته ، والتزم بمنهجه وسلك سبيله في خاصة نفسه وعامة أمره ، وسائر ما تشتبك به شئونه من علاقات . وصدق الله العظيم إذ يقول (يأيُّها الذينَ آمنُوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يَحُولُ بَيْنَ المرءِ وقَلْبِهِ وأنّهُ إليه تُحْشَرونَ) (الأنفال ـ ٢٤) .

لقد تضمن هذا « الإحياء الإسلامي » ضمن ما تضمن ، إخراج الذين اهتدوا بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وكذلك تحرير الإنسان المسلم مما كان يثقل ظهره ويقيد خطوه ويشل طاقاته ، من القيود والأصفاد . « فالتحرير الإسلامي » مهمة من مهام « الإحياء الإسلامي » بالنسبة للإنسان ، (الذينَ يتبعونَ

الرسولَ النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مكتُوباً عندَهُم في التوراةِ والإنجيل يأمُرهم بالمعروفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ المُنكر ويحلُّ لَهُمُ الطيباتِ ويُحرِّمُ عليهِمُ الخبائثَ ويضعُ عنهمْ إصرهُم والأغلال التي كانَتْ عليهِمْ ﴾- (الأعراف - ١٥٧) -.

ولقد توجه هذا « التحرير الاسلامي » إلى الإنسان المسلم من حيث كونه إنسانا ، رجلا كان أو امرأة هذا الإنسان ، فكانت نظرة الإسلام إلى الرجل والمرأة باعتبارهما : « الإنسان المسلم » الذي يتوجه إليه الإسلام بالإحياء والتحرير ، يتساويان في ذلك مساواة الأعضاء في البدن الواحد ، وفي هذه النظرة الاسلامية بداية خيط فلسفة الإسلام ومنهجه في علاقة الرجل بالمرأة ، وموقف المرأة من الرجل وما عرف واشتهر بـ « تحرير المرأة » .

عضوان في بدن واحد

إن المساواة بين المرأة والرجل في « الإنسانية » ، هي حقيقة موضوعية تدركها كل الحواس ، وإن المساواة بينهما في التكاليف ، حقوقا وواجبات ، وفي الحساب والجزاء ، وفي ما يلزم للنهوض بالتكاليف من عقل وقدرات ، منحها الله لكل منها وركبها فيه ، هي مما أجمع عليه الناظرون في فكر الإسلام ويجمعون .

لكن هذه المساواة التي قررها الاسلام بين المرأة والرجل ، والتي جعلت منها عضوين في بدن واحد ، هو بدن الإنسان المسلم ، قد اعترفت بالواقع الطبيعي المتمثل في تميز المرأة بالأنوثة ، وتميز الرجل بالذكورة ، وبما لهذا التميز من حكمة استهدفت تكاملهما كما يتكامل الشقان المكونان للشيء الواحد ، فتجتمع لهما : المساواة والتكامل في الوقت نفسه ، مميزة تساويهما عن تساوي « الأنداد »!

وإذا كان تميز الرجل « درجة » - هي « القوامة » في بعض الميادين - هو الثمرة لتميز طبيعة الرجولة عن طبيعة الأنوثة ، استهدافا للتكامل المحقق لاستمرار النوع وتحقيق السعادة لأبنائه ، إذا كان ذلك هو لب الإضافة التي أنجزها المنهج الإسلامي في علاقة المرأة بالرجل ، ووضع كل منهما بالنسبة للآخر ، فإن المساواة بينهما في الإنسانية حقوقا وواجبات ، وفي التكاليف الاسلامية ، هي « فكر » الاسلام الذي جاء ليطور وضع المرأة ويحررها من القيود الاجتماعية والاقتصادية والعرفية والتي حملت من أثقالها - لأسباب تاريخية - أكثر وأثقل مما حمل الرجال .

بل لانغالي إذا قلنا إن المرأة المسلمة في عصر البعثة قد مثلت بجهادها في سبيل حريتها وتحريرها ، « الواقع » الذي مثل علامات الاستفهام التي جاء الوحي الإلهي بتحريرها ، كي يجيب عنها ويستجيب للمشروع والعادل منها .

* ففي سنن الترمذي : أن الصحابية الجليلة المجاهدة المقاتلة ، بطلة يوم أحد ويوم اليمامة - والمواقع الكثيرة الأخرى - زوجة الشهيد وأم الشهداء ، أم عمارة ، نسيبة بنت كعب الأنصارية (١٣ هـ - ٦٣٤) قد جاءت إلى رسول الله ﷺ تتحدث باسم جماعة من نساء المدينة ، وتطلب مساواة المرأة بالرجل ، قائلة : يا رسول الله : « ما أرى كل شيء إلا للرجال ! وما أرى النساء يذكرن بشيء » ؟ ! فكان جواب الوحي الإلهي ، عن علامة استفهام « الواقع » هذه ، متمثلا في الآية الكريمة (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) - (الأحزاب :

٣٥)فكان تقرير الآية القرآنية المساواة ـ بالنص لفظا ـ الجواب الإلهي عما تخلق في الواقع من مشاعر صنعتها المظالم التي عانت منها المرأة أكثر من الرجل ، في حقب طويلة من التاريخ .

* وفي ترجمة ابن الأثير ـ بـ (أسْد الغابة) ـ للصحابية الجليلة ، الخطيبة ، المجاهدة ، المقاتلة ، أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية (٣٠ هـ / ٦٥٠ م) نقرأ كذلك أنها قد أتت إلى النبي ﷺ وهو جالس إلى الصحابة ، تعلن أنها إنما جاءت متحدثة باسم غيرها من النساء اللاتي اجتمعت آراؤهن على طلب مساواتهن في الأجر بالرجال ، مع تمايز الأعمال بين الفريقين ، أتت النبي فقالت : « إني رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين ، يقلن بقولي ، وعلى مثل رأيي » ثم عرضت القضية ، فاستحسن الرسول ـ ﷺ ـ منطقها ، حتى لقد التفت إلى أصحابه وقال : « أسمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه ؟ »

ـ قالوا : لا يا رسول الله !

ـ فقال ﷺ : « انصرفي يا أسماء ، وأعلمي من وراءك من النساء » .

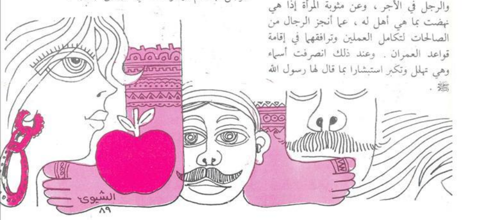
وحدثها عن مساواة الإسلام بين المرأة والرجل في الأجر ، وعن مثوبة المرأة إذا هي نهضت بما هي أهل له ، عما أنجز الرجال من الصالحات لتكامل العملين وترافقهما في إقامة قواعد العمران . وعند ذلك انصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشارا بما قال لها رسول الله ﷺ.

موجبات القوامة

وإذا كانت فلسفة المنهج الإسلامي في تمايز قدرات المرأة عن الرجل قد ارتكزت إلى تمايز طبيعة الأنوثة عن طبيعة الذكورة ، فإن الرسالة الخاتمة قد تركت آفاق الميادين التي تستطيع المرأة إجادة أعمالها لتطور مالديها من طاقات وقدرات منبهة على ضرورة التناسق بين الطبيعة وما تؤهل له من أعمال. استهدافا للحفاظ على فلسفة « التكامل » بين المرأة والرجل واتقاء لخطر « الندِّية » المنافي لحكمة الله من خلق الانسان ذكرا وأنثى .

فالصحابية أميمة بنت رقيقة ، تحدث فتقول : « جئت النبي ـ ﷺ ـ في نسوة نبايعه ، فقال لنا : فيما استطعتن وأطقتن »ـ رواه ابن ماجة ـ فنطاق وآفاق التكليف والحقوق والواجبات ، هي ما تستطيعه المرأة وتطيقه ، لأنها أنثى ، وفق أحكام الزمان وأعراف المكان ، وما تنميه أو تحجِّمه لديها التربية من قدرات وإمكانات .

من هنا كان حديث الآية القرآنية عن المساواة بينهما في الحقوق والواجبات ، وعن « الدرجة » ـ درجة القوامة ـ التي تأهل لها الرجل بحكم رجولته ، في ميادين بعينها ،



حديث الآية التي تقول : (وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بالمَعْرُوف ، وللرجال عَلَيْهِنَّ درجة والله عزيز حكيم) (البقرة : ٢٢٨) . فالعرف - وهو متغير ومتطور - هو معيار ميادين المساواة في الأعمال والوظائف الحياتية ، لكن تظل الدرجة - درجة القوامة - قائمة في ميادين بعينها لارتباطها بـ « الثابت » ، وهو « الرجولة » و « الأنوثة » اللتان تمايزان دائما بين الرجل والمرأة واللتان ينعكس تمايزهما في ميادين بعينها .

وإذا كانت درجة القوامة هي القيادة التي تؤهل الرجولة الرجل لها في ميادين بعينها - (الرجال قوامونَ على النساءِ بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) (النساء - ٣٤) فان الاسلام لم يحرم المرأة من هذه « القوامة » - القيادة - حيث تؤهلها لها أنوثتها ، فالراعي هو القائد - القَوَّام - والحديث النبوي يحدثنا عن نصيب المرأة في ميدان القوامة والرعاية والقيادة ، فيقول الرسول - ﷺ - : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذي على الناس راع عليهم ، وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده ، وهي مسئولة عنهم ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد .

المنهج الإسلامي لتحرير المرأة

وإذا كان المنهج الاسلامي قد تميز بهذا الوضوح في تقرير المساواة بين الرجل والمرأة في الانسانية ، وفي التكاليف ، حقوقا وواجبات وحسابا وجزاء ، وفي حصر التمايز بما يقتضيه تميز الأنوثة عن الذكورة ، وفي كل منها امتياز لجنسه يحرص على الحفاظ عليه العقلاء ، لأنه قاعدة وسر تكاملهما ، المحقق لسعادتهما جميعا ، فإن وضوح هذا الموقف الإسلامي قد ازداد عندما تجسد فكره هذا في التجربة الإسلامية الأولى ،



فلم يعد مجرد فكر نظري ، وإنما غدا واقعا يحياه الرجال والنساء .

* فبيعة العقبة التي هي عقد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى قد شاركت فيها امرأتان ، فكان للمرأة المسلمة نصيب في « الولاية السياسية » منذ ذلك التاريخ .

* وفي بيعة الرضوان - تحت الشجرة - التي كانت على « الحرب والقتال » ، شاركت النساء وشملهن - مع الرجال - قول الله سبحانه وتعالى : (لقدْ رَضِيَ الله عن المؤمنين إذ يبايعونَكَ تَحْتَ الشجرةِ فَعَلِمَ ما في قُلُوبِهِمْ فأنزلَ السكينَةَ عليهِمْ وأثابَهُمْ فتحاً قريباً) - (الفتح : ١٨) ، (إن الذينَ يُبايعُونَكَ إنّما يبايعونَ الله يَدُ الله فوقَ ايديهم فَمَن نَكَثَ فإنما ينكُثُ على نَفْسِه ومن أوفى بمَا عاهدَ عليْهُ الله فسيؤتيه أجرا عظيما) - (الفتح : ١٠) .

* وحديث النساء الغازيات في غزوات الإسلام الأولى ، والمقاتلات والمداويات والمساعدات في المعارك ، شائع في مصادر السنة والسيرة والتاريخ .

* والتطبيق الاسلامي لوصايا القرآن بالأمومة ، ووصايا النبي بالنساء ، ولتحديد القرآن أن التنوع في الأنوثة والذكورة هو آية من آيات الله ، به تتحقق السعادةالمتمثلة في « السكن و « المودة » و « الرحمة »بين الزوج وزوجه (ومن

آياته أن خَلَقَ لكُم مِنْ أنفسكُمْ أزواجا لتسكنوا إليها وجَعَلَ بينكُم مودة ورحمةً ، إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون) (الروم : ٢١) وتجد هذه المعاني القرآنية في كثير من نماذج الواقع المعاش منذ ذلك التاريخ .

إن دور خديجة بنت خويلد في حياة النبي ودعوته ، ودور عائشة في الدين والدنيا ، ودور الصحابيات اللاتي ملأت تراجمهن مجلدا في تراجم « ابن الأثير » لصحابة رسول الله - ﷺ - ودور أسماء بنت أبي بكر في رحلة الهجرة - هجرة النبي وأبي بكر - وفي منزل زوجها الزبير بن العوام ، وفي حقله ، وفي رعاية فرس قتاله ، ودورها في معاركه الحربية وغزواته ، وكذلك دورها في جهاد واستشهاد ابنها عبدالله بن الزبير ، وتصديها يومئذ لجبروت الحجاج بن يوسف الثقفي . إن دورها هذا - بل أدوارها - وهي في شموخ المرأة المسلمة العابدة المقاتلة العاملة التي تزدان بالحشمة الإسلامية ، فلا تكشف سوى الوجه والكفين ، ولا تلبس ما يشف ولا مايصف ولا ما يفتن ، إن هذه النماذج إنما تترجم عن واقع جسَّد فكر الإسلام في هذا الميدان .

وإذا كنا لانتكر - بل نبرز - أن تاريخنا الاجتماعي قد سادت في كثير من حقبه معالم « واقع » تنكر للكثير من « المثل » التي جاء بها الإسلام في « العلاقة الجامعة - والمميزة - بين الرجل والمرأة » ، حتى لقد أصاب المرأة المسلمة من المظالم أكثر مما أصاب الرجال ، وحملت من القيود أثقل مما حمل الرجل ، الأمر الذي جعل ويجعل حريتها وتحريرها واحدة من مهام الاسلاميين ، وإذاكنا لاننكر ذلك - بل نبرزه وننبه إليه وندعو له - فإننا ننكر ونستنكر أن يتبنى المسلمون المناهج غير الإسلامية في فلسفة تحرير المرأة ، وفي نموذج هذا التحرير .

فالمنهج الإسلامي الذي قام على مساواة الرجل والمرأة في الانسانية ، وتكاملهما في وظائف الحياة ، يرفض مساواة « تماثل الأنداد » التي سادت الدعوة إليها في إطار الحضارة الغربية ، وفي فكر وواقع التغريب ببلادنا الإسلامية ، فلا الرجل السوي يسعده تساويه بالمرأة كأنثى ، ولا المرأة السوية يسعدها مساواتها بالرجل ، في الرجولة ! ومن هنا تميزت وتتميز في المنهج الإسلامي ، فلسفة « التحرير الإسلامي للمرأة » بالانطلاق من الوسطية الجامعة - والمميزة في الوقت نفسه - بينهما ، كشقين متكاملين ومتساويين ، فمع التساوي في الانسانية تتمايز الطبيعة ، من حيث الأنوثة والذكورة ، تمايز وظيفة ودرجة ، لاتمايز سيطرة واستبداد وخضوع !

وإذا كانت فلسفة « التحرير » التي اعتمدت « تماثل الندية » قد جعلت صورة المرأة المتحررة - في المجتمعات التي طبقت تلك الفلسفة - هي صورة : « المسترجلة الاسبرطية » ، أو « الغانية الرومانسية » ، أو « إعلان السلعة وسلعة الإعلان الرأسمالية » ، فإن منهج الإسلام في هذا المقام يقول لنا : نعم ، لتحرير المرأة ، لكن ليس هذا هو نموذج التحرير ! □

خير الرجال

قيل لحكيم : أي الرجال أفضل؟

قال : الذي إذا حاورته وجدته عليما، وإذا اخبرته وجدته حكيما، وإذا غضب كان حليما، وإذا ظفر كان كريما، وإذا منح منح جسيما، وإذا وعد وفى، وإن كان الوعد عظيما، وإذا اشتكى إليه وجد رحيما.

البيان
في أسباب نزول القرآن

بقلم: حسين أحمد أمين

قوله تعالى ﴿ وإذا قيلَ لهم تعالوا يستغفرْ لكم رسولُ الله لوّوا رءوسهم ورأيتَهم يصدون وهم مستكبرون . سواءٌ عليهم أستغفرت لهم أمْ لَمْ تستغفرْ لهم لن يغفرَ الله لهم ، إن الله لا يهدي القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على مَنْ عندَ رسول الله حتى يَنْفضُوا ، ولله خزائنُ السماواتِ والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ سورة المنافقون ٥ ـ ٨ .

نزلت بعد غزوة بني المصطلق سنة ٥هـ/ ٦٢٧م في عبدالله بن أبي وأتباعه من المنافقين .

قال زيد بن أرقم :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق ، وكان معنا بعض الأعراب ، ثم كان أن اختلف أعرابي مع رجل من أصحاب عبدالله بن ابي ، فرفع الاعرابي خشبة وضرب بها رأس الرجل ، فأتى الرجل عبدالله فأخبره ، فغضب ابن أبي وقال : لا تنفقوا على من عند محمد ، حتى ينفضوا من حوله ، ويتركوا المدينة . ثم قال لأصحابه : « إذا رجعتم إلى المدينة ، فليخرج الأعز منها الأذل . (يعني أن المنافقين سيطردون محمدا وأصحابه من المدينة ، بعد انتهاء الغزوة) والله ما مثلنا ، ومثل المهاجرين إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك . هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، ولو أنكم أمسكتم عنهم فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ، ولأوشكوا أن يتحولوا عن بلادكم ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد » .

وكنت حاضرا أسمع كلامه ، فقلت له : أنت والله الذليل القليل ، ومحمد في عز من ربه ، ومودة من المسلمين . والله لا أحبك بعد كلامك هذا .

فقال عبدالله : اسكت ، فإنما كنت ألعب (أي أن كلامه لم يكن على محمل الجد) . غير أني مشيت إلى رسول الله (ﷺ) فأخبرته الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب . فقال عمر : دعني أضرب عنقه يارسول الله . قال النبي : إذن ترعد له أنفٌ كثيرة بيثرب ، (أي سيغضب قتله أنصاره في المدينة . فقال عمر : فإن كرهت يارسول الله أن يقتله رجل من المهاجرين حتى لا تغضب الأنصار) ، فمر سعد بن عبادة ، أو محمد بن مسلمة ، أو عبادة بن بشر (من الأنصار) فليقتلوه . فقال : إذن يتحدث الناس

أن محمدا يقتل أصحابه ، وأرسل رسول الله إلى عبدالله بن أبي فأتاه ، فقال لـه : أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني ؟ فقال عبدالله : والذي أنزل عليك الكتاب ، ما قلت شيئا من هذا قط ، وإن زيدا لكاذب .

وكان عبدالله في قومه شريفا عظيما ، فقال من حضر من الأنصار يارسول الله : « إنه شيخنا وكبيرنا ، لا تصدق عليه كلام غلام من الغلمان ، عسى أن يكون وهم في حديثه فلم يحفظ » فكان أن عذره النبي وصدقه وكذبني .

ولامني الأنصار على ما ذكرته لرسول الله وكذبوني . وجاء إليّ عمي فقال : « كذبك رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وكرهوك » فوقع علي من الغم مالم يقع على أحد قط ، واستحييت بعد ذلك أن أدنو من النبي عليه الصلاة والسلام ، فلما وافى رسول الله المدينة عائدا من الغزوة ، جلست في البيت لما بي من الهم والحياء . فأنزل الله تعالى سورة المنافقين في تصديقي وتكذيب عبدالله . فلما نزلت أتاني رسول الله فضحك في وجهي ، وأخذ بأذني وقال : « إن الله تعالى صدقك وأوفى بأذنك » (أي أظهر صدقك في إخبارك عما سمعت أذنك) . فما كان يسرني أن لي بها الدنيا ، فلما أصبحنا قرأ رسول الله سورة المنافقين على الناس .

ولقي النبي أسيد بن حضير ، فقال له رسول الله : أو ما بلغك ما قال صاحبكم عبدالله بن أبي ؟ قال أسيد : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال أسيد : فأنت يارسول الله والله تخرجنه إن شئت . هو والله الذليل وأنت العزيز . ولكن ، ارفق به يارسول الله ، فوالله ، لقد جاء الله بك إلى المدينة ، وقومه ينظمون له تاجا من الخرز ليتوجوه ملكا عليهم ، وإنه ليحقد عليك ، إذ يرى أنك قد سلبته ملكه .

وبلغ عبدالله بن عبدالله بن أبي ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

إنه بلغني أنك تريد قتل أبي لما بلغك عنه . فإن كنت فاعلا فمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله قد علمت الخزرج أنه ما بها رجل أبر بوالديه مني ، غير أني أخشى ان تأمر به غيري ، فيقتله ، فلا تسمح لي نفسي ، بأن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأكون قد قتلت مؤمنا بكافر ، فأدخل النار .

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : بل نحسن صحبته ما بقي معنا .

ولم يكن عبدالله بن أبي قد وصل بعد إلى المدينة . فلما بلغها وأراد أن يدخلها ، جاء ابنه عبدالله ، ومنعه من ذلك ، وقال : وراءك ! قال : مالك ويلك ؟ قال : لا والله لا تدخلها أبدا ، إلا بإذن رسول الله ، ولتعلم اليوم من الأعز من الأذل .

وبلغ النبي الخبر ، فأرسل إلى عبدالله بن عبدالله بن أبي ، أن خلّ عن أبيك حتى يدخل . فقال : أما إذ جاء أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنعم ، وسمح لأبيه بالدخول .

والتف أصحاب عبدالله بن أبي حوله يقولون : ياأبا حباب قد نزلت فيك آيات شداد ، فاذهب إلى رسول الله ليستغفر لك . فلوى ابن أبي رأسه واستكبر وأبى أن يعتذر . فذلك قوله تعالى : **﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لَوَّوْا رءوسهم ﴾** الآية □



من القلب

ذاكرة قوية

● بينما كان السائح في زيارة لإحدى القرى الأمريكية ، قدموه إلى هندى اشتهر بقوة ذاكرته فسأله السائح : ماذا كان إفطارك يوم ٤ أكتوبر عام ١٩٤٩ ؟ فقال الهندى بيض ، وبعد عشرة أعوام توقف القطار الذى يقل السائح مرة أخرى في نفس القرية ، وشاهد نفس الهندي في المحطة . فذهب إليه وقال له في مرح : كيف ؟ فقال الهندى : مقليا .

□□□

الحمد لله

● بعد أن كادت الزوجة تشرف على الغرق ، أسرع الزوج إلى رجل كان يقف على الشاطىء وسأله : هل تعرف السباحة ؟

أجابه الرجل : كلا ، فتنهد الزوج وقال : الحمد لله .

□□□

انتبه

● بعد ليلة عامرة بالشراب في إحدى الحانات ، عاد الصديقان في السيارة إلى منزليها . وفجأة صاح أحدهما :

انتبه ، لقد كدت تصطدم بعمود الإنارة

فدهش الآخر وسأله : ماذا تقول ؟ ألست أنت من يقود السيارة ؟

في الصميم

● الانسان لايذهب بعيدا جدا إلا عندما لا يدري أين يذهب .

(تاليران)

● لما كان السياسي لا يعتقد بما يقول ، فإنه يدهش كثيرا عندما يصدقه الآخرون .

(ديغول)

● الحرب شأن خطير جدا ، ولذلك لا ينبغي تركه للعسكريين .

(كليمنصو)

● ألف رجل مسلح لا يستطيعون تجريد رجل عار .

(مثل تركي)



ديغول

ضحكات عالمية

▫ نعم ، ولكن

● سئل العالم البيولوجي « جان روستان » : هل صحيح أن الدماغ البشري يحتوى على ١٢ مليار خلية ؟

فأجاب : نعم ، هذا صحيح ، ولكن البطالة مازالت ضاربة أطنابها فيها .

▫▫▫

▫ إن كان

● أراد برنارد شو أن يسخر مما عرف عن نفور تشرشل من الناس فأرسل له كتابا يدعوه فيه لحضور إحدى مسرحياته في ليلة الافتتاح ، وقد أرفق مع الكتاب بطاقتين وذيّله بالعبارة التالية : « وهكذا يمكنك أن تصطحب صديقا معك ، إن كان لك صديق » .

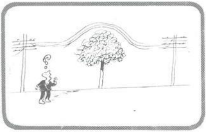
فرد عليه تشرشل بكتاب جاء فيه : « آسف جدا ، سأكون مشغولا في ليلة الافتتاح ، ولكني أعدك بأنني سأشهد العرض الثاني ، إن كان هناك عرض ثانٍ .



برنارد شو



تشرشل



▫ ارتجال ! !

● قال أبو المستهل : دخلت يوما على « سلم الخاسر » وإذا بين يديه قراطيس فيها أشعار يرثي بعضها أم جعفر ، وبعضها جارية غير مسماة ، وبعضها أقواما لم يموتوا . وأم جعفر يومئذ باقية . فقلت : ويحك ما هذا ؟ فقال : تحدث الحوادث ، فيطالبون بأن نقول فيها ، ويستعجلوننا ولا يجمل بنا أن نقول غير الجيد ، فنعد لهم هذا قبل كونه فمتى حدث أظهرنا ما قلناه فيه قديما على أنه قيل في وقته .

▫▫▫

▫ المشاركة في العمل

● استأجر أحد النبلاء حطابا فاستكثر الأجرة ، فطمع في مشاركته في العمل لينقص من الأجرة ، فجلس يقول : « هيه » لكل ضربة ضربها الحطاب ، فلما انتهى أعطاه الأجرة . فتخاصما إلى حاكم فقال : هات الأجرة أقسم لكما ، فشرع يلقي درهما درهما على صندوق ويقول : الدرهم للأجير وطنينه للمستأجر .



العربي
عيونك
على العالم

يوغسلافيا

رياح التغيير ومخاوف المستقبل



استطلاع : محمود عبدالوهاب
تصوير : طالب الحسيني





على مفترق طرق العالم ترقد ، عند المفصل الحرج بين الشرق والغرب ، كانت أراضيها دوما مسرحا دراميا للهجرات ولقوافل التجارة وسنابك خيل الغزاة ومدافعهم ، يختلط فيها الشرق والغرب ، تاركا بصماته على الحياة والعمارة والناس ، وحتى المشكلات . ولأن الجغرافيا لا تصنع التاريخ فقط ، فقد أثر موقعها على تاريخها وحاضرها ، ومستقبلها أيضاً . وفي لحظة حرجة من لحظاتها هبطنا إلى يوغسلافيا لنرى ونسمع ونلاحظ .

السادسة والنصف صباحا ، الضباب يلف المدينة ، بقايا الليل ما زالت عالقة في السماء ، دفقات من خيوط المطر الرفيعة تسقط ، لسعة برد خفيفة تصل إلينا ، والسيارة تخترق بنا الشوارع الخالية في الطريق من مطار بلغراد إلى قلب العاصمة اليوغسلافية .

كدفقات المطر تتوالى صور وأفكار في الذهن ، يقطع تواصلها صوت مرافقنا وهو يشير إلى مبان غير واضحة من الضباب والظلمة ، ويسميها لنا .

يوغسلافيا .. لا تخلو اليوم صحيفة أو نشرة أنباء من أخبارها اجتماعات ، مناقشات ، عمال يحتجون ، إصلاحات اقتصادية ، متاعب هنا وتوتر هناك . يقاطعنا مرافقنا ويقول : جئتم في وقت تغير الفصول وبدء هطول المطر . تتواصل الصورة : هل هو تغير في الفصول فقط أم أن هناك تغيرات أخرى أعمق وأبعد ؟ من هنا سمع العالم قصص البطولة الخرافية لأبطال (البارتيزان) ، ومن هنا جاء تيتو وأعلن لأول مرة في العالم عن تكون كتلة عدم الانحياز التي تحولت الى تكتل سياسي له دور فاعل .

يقول مرافقنا : اليوم يوم الأحد ، ولذا فلن نتصل بكم اليوم ، ولكن في الغد لديكم موعدا في الثامنة صباحا . تتوالى التساؤلات : من أين نبدأ ؟ وعند أي جانب من الصور نقف ؟ هل من تجربة التعددية والقوميات ، وكيف استطاعت هذه الشعوب أن تنسج حياة واحدة متناغمة ، أم من مناطق التاريخ المشترك حيث عاش الأتراك المسلمون هنا خمسة قرون كاملة ، وتركوا آثارهم واضحة للعيان ، أم من يوغسلافيا التي خرجت من الحرب العالمية الثانية منهكة ، واستطاعت أن تقيم في أربعين عاما فقط صناعات متطورة تغزو أسواق العالم ؟

تصل بنا السيارة إلى شوارع المدينة ، يقول مرافقنا : هذا الجزء من المدينة كان في ما مضى جزءاً من امبراطورية النمسا وهنغاريا ، منذ ستين عاما فقط قبل إنشاء يوغسلافيا في عام ١٩١٨ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .

عند باب الفندق نصحنا مرافقنا آخر نصيحة ، قال لنا : « لتغيير العملة المصرف « البنك » هو الأفضل ، فالسعر من خلاله - شديد الإغراء - ولا وجود للسوق السوداء ، فقد انتهت بعدما خفضت الحكومة من سعر العملة » وتمنى لنا يوما طيبا ، وانصرف ليتركنا ليوم كامل غرباء في مدينة غريبة .

« ساعات التجوال »

عندما فتحت باب الغرفة كانت المفاجأة ، الغرفة شديدة الضيق ، بالغة الصغر ، أقرب ما تكون إلى ممر في أي بناية عربية ، في منتصف الطريق بين غرفتي وغرفة زميلي المصور لقيته قادما في اتجاهي بعد أن صدمته هو أيضا مساحة

الغرفة . وعندما سألت موظف الاستقبال عن سر صغر حجم الغرف على الرغم من مساحة الفندق الكبيرة ، واتساع أبهائه قال لي بوضوح : نحن شديدو الواقعية والعملية . فماذا يريد النزيل من الغرفة أكثر من فراش نظيف وحمام نظيف ، وهي ليست إلا مكانا مناسبا للنوم . أما المساحات الكبيرة فإنها بلا معنى وغير اقتصادية ولا تستغل ، ونفضل الاستفادة من المساحات في أبهاء للجلوس وقاعات للطعام أكثر وذلك لجذب رواد غير المقيمين بالفندق . انطلقنا نجوب الشوارع .

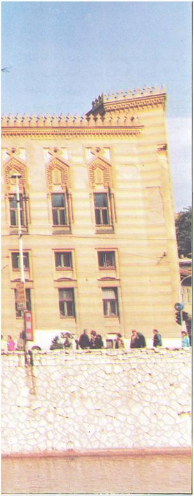
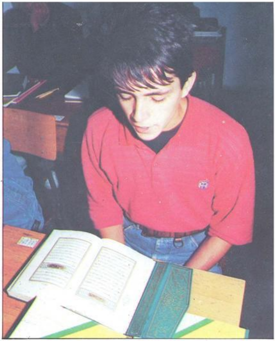
وشأن كل مدن العالم تنقسم بلغراد إلى قسمين : الجزء الحديث حيث المباني عصرية الطراز ، ذات واجهات زجاجية ، وشوارع متسعة ، وأدوار شاهقة ، وأشجار على جانبي الطريق ، ومساحات خضراء ممتدة . والقسم القديم حيث التاريخ والمباني العتيقة ، فالشوارع أضيق ، وبالتالي زحام المرور أشد ، خاصة أن المنطقة التجارية تقع في الجزء العتيق من المدينة . في وسط المدينة تلفت الانتباه المباني القديمة ، مبنى فندق موسكو تحفة معمارية من الخارج ، والفندق بني عام ١٩٠٦ ، ويحمل كل ملامح التصميم المعماري لتلك الفترة ، الطوب القرميد وعقود الحلي الحجرية تحت النوافذ والشرفات ، والمقهى الممتد على الرصيف ، وغير بعيد عن الفندق مبنى البرلمان الاتحادي (بني في عام ١٩٢٩) ذو الأعمدة العالية ، والساحة الفسيحة ، ثم درجات السلم والتماثيل المعلقة على حواف المبنى . الشوارع في يوم الأحد هادئة ، عدد قليل من المارة يمسكون بمظلاتهم ، يتقون قطرات المطر الذي ينقطع ليعود منذ الصباح . في منتصف النهار امتلأت المقاهي بعض الشيء . الاقتراب من البشر بلا جدوى ، فلغة التخاطب - بخلاف لغة الإشارة - منعدمة ، فالناس يتحدثون « الصربوكرواتية » ، وقليلون الذين يتحدثون



خريطة توضح موقع يوغسلافيا الذي يتوسط قلب أوربا .

لغة أخرى غيرها .

في المساء كان المطر قد انقطع ، فسألنا موظف الاستقبال بالفندق : أين يذهب الناس مساء في بلغراد ؟ بعد أن أفاض في الحديث عن أثر المتاعب الاقتصادية على سلوك الأسرة وعاداتها ، وأن كثيرا من العائلات أصبحت تفضل الإقامة في المنازل ، أعطانا اسما لشارع من شوارع بلغراد ، وقال لنا : ستعودون خمسين عاما على الأقل للوراء ، فالشارع كل ما فيه قديم ، وأرضه قطع من البلاط الأسود الصغير ، وعلى الجانبين مقاه ومطاعم وبنايات كلها من طابق واحد أو اثنين على الأكثر ، والبوابات والنوافذ ودرجات السلالم كلها وفق نمط البناء القديم من الخشب والطوب ، وفي وسط الشارع منصة خشبية تجلس عليها فرقة موسيقية تعزف الألحان الشعبية القديمة ، وعلى ناصية الطريق بائع متجول بالزي الشعبي القديم ، السروال الطويل الواسع ، والصديرية الحمراء المشغولة المطرزة ، وغطاء الرأس ، والحذاء ذو المقدمة الرفيعة المنثنية باتجاه القدم .





● الصورة اليمنى العليا طالب في كلية الدراسات الاسلامية بسرايفو ، اليمنى السفلى الخطيب فوق المنبر في خطبة الجمعة والتي يلقيها باللغتين العربية والصربوكرواتية ، العليا مبنى المكتبة العامة بسرايفو والتى أسسها غازي خسروبك . إلى اليمين الصناعات اليدوية ، وأخيرا نعشان متجاوران في انتظار الصلاة عليهما وخلال ذلك لم يعدما من يقرأ الفاتحة على روحيها ترحما .



وتتفنن المطاعم والمقاهي في جذب الرواد ، مطعم يرتدي العاملون فيه الملابس التقليدية ، وآخر يقدم فرقة موسيقية تعزف الألحان القديمة . وتمتد المطاعم إلى خارج بواباتها ، وتنتشر المناضد في الطريق ، محاطة بسياج خشبي ، وفي وسط الطريق يتدافع الناس للتجوال والمشاهدة والجلوس على جانبي الطريق على المقاعد الخشبية المنتشرة ، للاستماع للموسيقا والتفرج على البشر .

« على مفترق الطرق »

تقع يوغسلافيا في الجنوب الشرقي من أوربا على الخط الفاصل بين الشرق والغرب ، وتشترك في حدودها مع اليونان من الجنوب ، وبلغاريا ورومانيا من الشرق ، وهنغاريا من الشمال الشرقي ، والنمسا من الشمال ، وايطاليا من الشمال الغربي ، وألبانيا من الجنوب الغربي . وهي بموقعها هذا تدخل في نطاق ما يعرف بمنطقة البلقان ، باستثناء الجزء الشمالي الغربي ، فيدخل في نطاق أوربا الوسطى .

والبلقان منطقة جغرافية تحتل جنوب شرق أوربا ، وتشمل عدة كيانات سياسية هي بلغاريا ويوغسلافيا واليونان وألبانيا والقسم الأوربي من تركيا ، وبحكم هذا الموقع الجغرافي عند مفصل الحركة فإن هذه المنطقة كانت مسرحا للحروب والهجرات والخلافات الحادة حول الحدود بين الأقليات القومية ، وشاع في الأدبيات السياسية تعبير « البلقنة » الذي يعني عملية تجزئة ، تقوم على استغلال القوميات الصغيرة ، لتؤدي في النهاية إلى نشوء دول جديدة مستقلة ، وأصبح التعبير الذي ولد ليدل أصلا على تجزئة البلقان أكثر اتساعا ، ليشمل كل التجارب المماثلة .

ولأن الجغرافيا تصنع التاريخ في كثير من الأحيان فقد ساهمت العوامل الجغرافية المتعددة المتمثلة في الموقع والجيران في صنع تاريخ يوغسلافيا ، بدءاً من موجات الهجرة المتوالية ، إلى استقرار القوميات المختلفة ، ثم قيام الجمهوريات والممالك القومية في الصرب ، وكرواتيا . وظل صراع القوى العظمى حول يوغسلافيا ممتدا حتى قيام الحرب العالمية الثانية ، وبعد الحرب توحدت الجمهوريات ذات القوميات المتعددة في اتحاد الجمهوريات اليوغسلافية الاشتراكية ، وأصبحت يوغسلافيا اليوم تتكون من جمهوريات صربيا وعاصمتها بلغراد ، وهي في الوقت نفسه العاصمة الاتحادية ، وجمهورية (كرواتيا) وعاصمتها زغرب ، وجمهورية (سلوفينا) وعاصمتها لوبيانا ، وجمهورية (البوسنة) و (الهرسك) وعاصمتها سراييفو ، وجمهورية (ماكدونيا) وعاصمتها اسكوبيا ، وجمهورية (مونت نجرو) (الجبل الأسود) وعاصمتها تيتوجراد ، بالإضافة إلى منطقتي حكم ذاتي ، وهما كوسوفا وفويفودينا وعاصمتها نوفاساد . وتحت القيادة التاريخية لبطل حرب التحرير ضد النازية الماريشال جوزيب بروز تيتو ، استطاعت يوغسلافيا أن تحافظ على وحدتها ، وأن تتناغم هذه القوميات المتعددة ، على الرغم من البدايات الصعبة ، وكان التحدي الذي واجهه اليوغسلاف أمام ستالين وحرصهم على عدم الرضوخ للسوفييت ، هذا التحدي الذي استمر حتى عام ١٩٥٦ كان دائما قويا ، ودعماً للحلم القومي الذي جمع كل أبناء يوغسلافيا حول تيتو ، وحول التجربة لكي تنجح وكانت تجربة البناء والوحدة . ولكن قبل وصولنا إلى يوغسلافيا كانت تقارير الصحف تقول : إن بعض الجمهوريات تطالب بالانفصال وبالحكم الذاتي . وأيقنا أن وصولنا لم يكن في موسم تغير الفصول فقط .

تبلغ مساحة يوغسلافيا حوالي ٢٥٥,٨٠٤ كيلو مترات مربعة ، وعدد سكانها ٢٢ مليون نسمة تقريبا ، وهي بذلك تحتل المرتبة التاسعة من حيث المساحة ، والمرتبة الثامنة من حيث

عدد السكان في أوربا ، ومعظم أراضي يوغسلافيا هضبية ، فسبعين بالمائة من إجمالي مساحتها تزيد ارتفاعا على ٢٠٠ متر فوق سطح البحر . وتتميز الطبيعة اليوغسلافية بالتنوع والتباين الشديدين ، وتتعدد على امتداد يوغسلافيا الخصائص المناخية والجغرافية بين الأقاليم المختلفة ، بل حتى داخل كل إقليم ، مما أثر على توزيع الثروة الطبيعية والموارد ، ولذا فإن هناك أقاليم أكثر ثراء من أقاليم أخرى . وعلى مستوى آخر فإن الجمهوريات الأقرب إلى وسط أوربا التي تقع في الشمال الغربي أكثر تقدما من حيث التقنية والأداء الصناعي .

ولقد انطلقت يوغسلافيا عقب تأسيس الجمهورية ، وفيها بعد الحرب العظمى الثانية ، في سباق مع الزمن للتطور الاقتصادي ، وتحقيق خطط تنمية طموحة ، وكان خلاف يوغسلافيا مع الاتحاد السوفيتي يمثل تحديا حقيقيا ، وحتى اليوم ما زالت هذه التجربة ماثلة أمام العيان .

يقول لي محدثي ، وهو مدير إدارة الشئون العربية والشرق الأوسط بوزارة الخارجية : « نحن ربما نغفر ، ولكننا لا ننسى ، لأننا لو نسينا ضاعت قيمة الدرس ، وأصبح التاريخ هباء بلا معنى . نعم نحن نعلم هذه التجربة لأطفالنا ، ونشرحها لهم ، ونقول لهم : إننا أثناء التحرير أسدينا خدمة عظمى للاتحاد السوفيتي عندما أوقفنا زحف النازيين مدة أسبوعين كاملين بقصص بطولة لا تصدق ، ونقول لهم ـ لأطفالنا ـ : إن قادتنا ـ تيتو ورفاقه وحزبه ـ جاءوا إلى السلطة لأنهم دافعوا عن الوطن عندما فر الجميع ، ولقد رفضنا أن نقلد تجارب أخرى ، ورفضنا الدخول في دائرة العلاقة الخاصة المقفلة ، وآمنا بعلاقات مفتوحة مع جميع دول العالم ، وآمنا أن الاشتراكية هدف له أكثر من طريق . وقلنا إن مجرد كون دولة ما قوة عظمى لا يبرر أن تخضع لها كل الدول . ونقول لأطفالنا : لقد دفعنا ثمن هذه المواقف ، فنحن عندما دافعنا عن وطننا في الحرب العالمية الثانية لم يساعدنا أحد ، وعندما تفاوض الكبار حاولوا أن يتجاهلوا أهمية ما قمنا به في مكافحة النازية ، ونظروا إلينا كمناطق نفوذ ، وعندما بدأنا خطط التنمية عقب الحرب لتحرير اقتصادنا والنهوض ببلادنا لم يساعدنا أحد ، ولكننا بنينا وطنا وصنعنا تاريخا ، وهذا أهم ما يجب أن تدركه أجيالنا » .

إنجازات حقيقية

استطاعت يوغسلافيا على الرغم من صعوبات البداية أن تحقق نجاحا لا ينكره أحد ، وعلى مدى ٣٢ عاما ظلت يوغسلافيا تحقق معدل نمو في إجمالي الناتج القومي بمتوسط عام مقداره ٦٪ سنويا (١٩٤٨ ـ ١٩٨١) ، أي تضاعف الانتاج القومي سبع مرات خلال هذه السنوات ، وخلال الفترة نفسها بلغ معدل نمو العمالة ٥٪ سنويا ، مع ما يعنيه هذا من فرص عمل ، وقد طرأ خلال الفترة نفسها تعديل كبير في هيكل القوى العاملة ، فبينما كان يبلغ عدد السكان الزراعيين ٦٧٪ من مجموع السكان عام ١٩٤٧ انخفض في نهاية عام ١٩٨٢ إلى ٢٠٪ فقط ، كما تعدلت بنية التبادل السلعي ، فبعد أن كان ثلثا مجموع الصادرات عبارة عن منتجات أولية تقلصت نسبة المنتجات الأولية إلى ٦٪ من إجمالي الصادرات التي تبلغ قيمتها حوالي ٢٩ مليار دولار أمريكي ، منها ٦٦٪ سلع مصنعة تصنيعا تقنيا بالغ الدقة .

وبخلاف آثار هذا التطور في ارتفاع نصيب الأفراد من الدخل القومي ، وارتفاع مستوى المعيشة ، فإننا نلمس على مستوى العائلة والأسر الصغيرة أثر نجاح خطط التنمية خلال فترة ما بين ١٩٦٨ ، ١٩٨٢ ، فلقد طرأ الآتي : ازداد عدد العائلات التي تملك ثلاجات كهربائية في منازلها من ٢٥٪ من عدد السكان إلى ٩٠٪ ، وأجهزة التلفاز من ٢٨٪ إلى ٨٥٪ ،


EXCHANGE







● إلى اليمين صورة لشوارع المدينة القديمة في دوبرفنيك .. وهي القلعة التي ما زال يقطنها السكان ويمارسون حياتهم اليومية بها ، الصفحة اليسرى بالترتيب من أعلى إلى أسفل الحى التجاري في بلغراد العاصمة ، ثم منصة الموسيقيين في الشارع القديم ببلغراد حيث يحافظ اليوغسلاف على طبيعة الشارع ، كما كان قبل مائة عام .. الصورة الأخيرة قارئة كف في أحد المقاهي بالزي الوطني القديم .

والغسالات من ١١٪ إلى ٥٨٪ ، والسيارات من ٨٪ إلى ٣٦٪ .

وحتى ذلك الوقت كانت الحياة جميلة وهانئة والزمن رخاء ، ولا أحد يحس بنذر العاصفة القادمة ، وفجأة بدءوا ينتبهون إلى أنه مطلوب سداد القروض التي تم التوسع في خطط التنمية بواسطتها ، وأصبح تمويل التنمية مشكلة حادة ، تهدد صناعات بالتوقف ، وتهدد أقاليم وجمهوريات - خاصة تلك التي لا تتمتع بأي موارد طبيعية ، وتقوم كل صناعاتها على الاستيراد - بالأزمة الحادة ، وكما حدثني مسئول العلاقات الخارجية في التحالف الاشتراكي للشعب العامل اليوغسلافي ، وأحد أبرز قادته : «كنا نقترض ، فكان كل شيء سهلا ميسرا والآن أصبح لزاما أن نسدد»

تبلغ قروض يوغسلافيا حوالي ٢٢ مليار دولار ، اقترضتها خلال السبعينيات وأوائل الثمانينيات ، لتمويل خطط التوسع في الاستثمارات وخطط التنمية ، وعندما احتاجت لقروض جديدة ناقش صندوق النقد السياسة الاقتصادية ليوغسلافيا ، واقترح خطط علاج واصلاح كشرط لمنح قروض جديدة ، وبدأت يوغسلافيا ، في تطبيق سياسات إصلاح اقتصادي ، ومع هذه السياسات بدأت الاضطرابات ، وأضرب العمال ، وبدأ الناس يشعرون بوطأة الحياة . لماذا ؟ هذا ما سننتقل إليه .

السمن والعسل

لم نصل إلى يوغسلافيا إذن في موسم تغير الفصول فقط ، فرياح التغير تهب من كل الاتجاهات ، مظاهرها هي تلك التي نسمعها في نشرات الأنباء وفي الصحف والمجلات .

ولأن الأمر ليس مزعجا بالقدر الذي يبدو لبعض الناس فإن مدن يوغسلافيا وجمهورياتها تشهد تدافعا من المستثمرين الأوربيين لدراسة السوق ، والاستعداد للدخول بقوة . وقد أتاحت لي الظروف أن أستمع لجانب من الحرب السرية التي تدور بين شركة أمريكية كبرى وأخرى اسبانية مشتركة للفوز بمشروع مجمع زراعي ضخم ، تبلغ استثماراته ٤٥٠ مليون دولار ، ويستعد اليابانيون لإقامة مجمع سياحي ضخم في دوبرفنيك ، لؤلؤة الادرياتيك ، ومجموعة شركات ألمانية غربية وسويسرية تدرس الدخول في الاستثمار في قطاع صناعات الحاسوب «الكمبيوتر» وتجهيزات محطات الكهرباء التي تدار بالطاقة النووية ، وهكذا . وكما قال لي أحد رجال الأعمال الأجانب الذي التقينا به صدفة في بهو الفندق وتحادثنا ، فإن سوق الاستثمار في يوغسلافيا تمثل للمستثمرين الأوربيين طبقا من سمن وعسل ، لتوافر العمالة الفنية والكوادر العلمية المؤهلة تأهيلا عاليا ، والباحثين والقاعدة الصناعية المتطورة والسوق ، وماذا يريد المستثمر بعد ذلك ؟ قلت لمحدثي : ولماذا لا يقوم اليوغسلافيون بهذه المشروعات وحدهم ؟ ابتسم وهو ينهي حديثه : لأنه ينقصهم شيء واحد فقط ، هو عبارة عن بضع أوراق ملونة اسمها «بنكنوت» !!

سراييفو الفن والتاريخ والجمال

كنت أعرف أنها مدينة ذات تاريخ عريق ، وأنها تتميز بطابع معماري تاريخي فريد ، لكن لم أتوقع أنها بهذا القدر من الجمال والروعة . عندما هبطنا مطارها ذات مساء ، وصلت إليها محملا بتداعي التاريخ والجمال ، وخرجت منها بعد يوم ونصف نهار وأنا مفتون بها .

سراييفو جسر لجميع العهود الحضارية التاريخية التي ترك كل منها بصمته وطابعه ، مما جعلها متحفا حيًّا متنوعا ، يضم صور العظمة والمحنة ، تلتقي فيها وتلتحم آثار الشرق والغرب ، طبيعتها شديدة التنوع ، هضاب وجبال ، وسهول ، ومراع وحقول ، وخيوط فضية هي الجداول والينابيع والأنهار ، وجبال

مكسوة بغابات الصنوبر السامقة التي تلقي ظلالا كثيفة على أطراف السماء المنكسرة عند خط الأفق . لوحة لونية رائعة ، الأخضر هو اللون الغالب ، خضرة الأعشاب ، والحقول والمزروعات المحصودة بلونها الأصفر على القمة ، ويتدرج اللون الأصفر وفق درجة جفاف المحصول ، والسماء زرقاء عليها ظلال الطبيعة ، وخيوط الفضة تتقاطع على امتداد البصر .

على مفترق طرق البلقان كله تقع جمهورية البوسنة والهرسك التي تمثل سراييفو عاصمتها . مر من هنا التتار والبيزنطيون والرومان والأتراك والأوربيون ، وكانت طرقها معبرا للتجار والغزاة والقياصرة والسلاطين والدراويش .

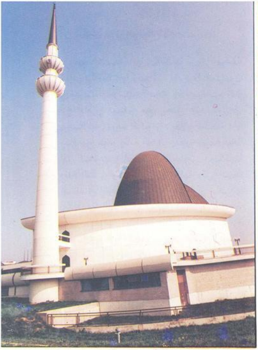
وتمثل البوسنة والهرسك جمهورية ضمن الجمهوريات التي تكون يوغسلافيا ، وقديما كانت كل منها مملكة قائمة بذاتها ، وكانت البوسنة مملكة يحكمها آخر ملوك البوسنة ، « ستيبان توما شيفتش » ، وقد ظل الملك يتقهقر أمام جيوش السلطان « محمد الفاتح » من مدينة إلى أخرى ، ومن قلعة إلى أخرى ، حتى تحصن بعاصمة المملكة « يايتسي » ، و « يايتسي » مدينة مبنية على تل ، عندما تنظر إليها تبدو كشيخ أضناه السفر والزمن الطويل فتوكأ على تل ليستريح ، وفي أسفلها يجري نهران ، هما « فرباس وبليفا » ، ولأن مجرى نهر « بليفا » تعترضه الصخور فإنه يبدو كأنه يقذف بالمياه إلى أعلى تكريما للشيخ ، ويبدو منظر المدينة والشلال تحتها كأنه إكليل من الزهور البيضاء .

وفي ذلك الوقت من عام ١٤٦٣م كان العالم كله ينظر إلى هذه المدينة ، وكانت الامبراطوريات تترقب ، فقد كانت درعا أمام الشرق ، أمام الأتراك ، ولو سقطت « يايتسي » ـ كان العالم يتساءل ـ ماذا سيسقط بعدها ؟ كانت عيون العالم تنظر إليها ، والصلوات تقام لتبقى « يايتسي » تقاوم ، والقيصر في فينا ، عاصمة امبراطورية النمسا وهنغاريا ، يصحو كل صباح ليسأل : هل ما زالت « يايتسي » تقاوم ؟ وما زالت « البوسنة » تقاوم ؟ ويرسل الهدايا لتتحصن المدينة ، إلى أن ذاع الخبر : « سقطت البوسنة » ، ولكن « يايتسي » تقاوم ، وازداد رعب أوربا وممالكها ، وقاومت « يايتسي » بعنف . كان الشرق والغرب يتحاربان ، وفي لحظة بين الحياة والموت سقطت المدينة ، وسقط رأس فارسها وملكها ، سقط بالغدر وليس بالحرب ، وأيقن العالم أن السيف الذي سقط لن يرتفع ثانية زمنا طويلاً ، فقد دعى الضباط الأتــراك الملك « ستيبــان » إلى سلطانهم للمفاوضات ، ولكن السلطان قال : إن الكلمة والأمان الذي منحه ضباطه لا يلزمه ، وارتفع السيف وسقط رأس الملك . بدأ التاريخ التركي في البوسنة ، وبعد أقل من عشرين عاما احتل العثمانيون الهرسك أيضا ، وطوال خمسة قرون أصبحت البــوسنة والهــرسـك جــزءا من الامبراطورية العثمانية . وفي عام ١٨٧٨ ، وبعد هزائم العثمانيين ، وبدء تدهور الامبراطورية العثمانية . قرر مؤتمر برلين أن يعهد لامبراطورية النمسا وهنغاريا (أسرة هابسبورغ) بالسيطرة على البوسنة والهرسك . وقد استمرت التبعية حتى اشتعلت الحرب العالمية الأولى بسبب البوسنة والهرسك ، عندما كان ولي عهد النمسا يزور سراييفو ، وفي موكبه أطلق « جافريل لابرنسيب » الرصاص على ولي العهد فقتله ، واتضح بعد ذلك أن جافريل عضو بمنظمة اسمها « بوسنة الفتاة » التي تهدف إلى تحرير « البوسنة والهرسك » . وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تأسست عام ١٩١٨ ، في مؤتمر « فرساي » ، مملكة يوغسلافيا التي كان من ضمنها مناطق البوسنة والهرسك .

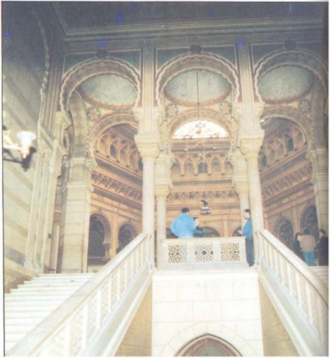
« طراز فريد »

طراز فريد من العمارة في « سراييفو » كلها ، فهي تضم في شوارعها أنماطا للعصور المختلفة : بنايات من العصر التركي ، وأخرى


ORIJENTALNA







● سرايفو . . مدينة الجمال والتاريخ . . على الصفحة اليمنى الحي التركي القديم نمط خاص من العمارة ، وجمال من نوع فريد ، على الصفحة اليسرى (أعلى اليمين) الشارع التجاري في سرايفو ذات الأغلبية المسلمة .

و (أعلى اليسار) المسجد والمركز الاسلامي بزغرب حيث تأثير الحضارة الأوربية في شكل العمارة . الصورة السفلى مكتبة غازي خسروبك في سرايفو ، من الداخل عمرها قرابة ٥٠٠ عام ونمط العمارة نمط شرقي خالص

من عصر النمسا ، ومبان حديثة ، وكل مرحلة لها سماتها وملامحها المميزة ، فقد ترك العثمانيون في البوسنة والهرسك الاسلام ، وفيهما اليوم أكثر من مليوني مسلم من إجمالي المسلمين في يوغسلافيا ، وهم قرابة (٥ ملايين نسمة) ، وكان من نتائج إقامة العثمانيين فترة طويلة هناك أن انتشرت المساجد والمدارس والتكايا والمكتبات ، وقد تم بناؤها كلها وفق النمط السائد في التراث العثماني ، وهو طراز خاص ، يعتمد على التطابق الدقيق بين الخطوط العمودية وبين الأقواس الواسعة ، بينما يتميز الجزء النمساوي من مدينة سراييفو بالمباني المتأثرة بالهندسة المعمارية الأوربية السائدة في القرن التاسع عشر ، جماليات وتماثيل وإفراط في المساحات والارتفاعات .

اخترنا فندقا في قلب المدينة ذات النمط التركي : الشوارع ضيقة ، خلف الفندق مباشرة الحي القديم ، محلات من الطوب وأسقف من الخشب كلها باللون الأحمر ، تكية قديمة مهجورة كانت مخصصة للدراويش ، فيها غرف نوم وغرفة طعام رئيسية ، كان يقدم فيها الطعام في مواعيد الوجبات بعد صلاة الفجر ، وعقب صلاة الظهر ، وبعد صلاة المغرب ، في وسط الحي التركي ينتصب المسجد الكبير ، ساحة فسيحة وسطها نافورة مياه ، ثم مبنى المسجد ، منصتان على يمين باب الدخول ويساره ، طراز العمارة يعتمد على الأعمدة والأقواس ، والمسجد من الداخل تحفة فنية رائعة من الزخرفة والنقوش الإسلامية ، وقد بنى المسجد « غازي خسروبك » الذي كان واليا على البوسنة والهرسك بين عامي (١٥٢١ - ١٥٤١) ، وهو أكبر مسجد في يوغسلافيا كلها ، وقد وضع تصميمه وأشرف على بنائه مهندس اسمه « أسير علي » ، وقد بدأ في تشييده عام ١٥٣٠ وانتهى منه ١٥٣١م (٩٣٧هـ) .

وكان عهد « غازي خسرو » من أكثر عهود المنطقة ازدهارا ، فقد شهد عصره نهضة واسعة ، فابتنى بخلاف المسجد مدرسة ، ومد أنابيب المياه للبيوت ، وشيد مكتبة ، وخان حياة للمتصوفين - يؤويهم بلا مقابل - وبيتا للأقمشة ، « وكرفان سراي » أي بيتا للمسافرين ، وحماما ، وقد كان تعداد سراييفو في ذلك الزمن ٨ آلاف نسمة فقط - أصبح الآن ٥٤٠ ألف نسمة - وفيها ٧٣ مسجدا ، وفي مسجد غازي خسرو هذا تقام الصلوات الخمس ، وتتم قراءة القرآن من الحفّاظ ، وفي كل يوم جلسة توحيد وذكر بعد صلاة الظهر ، يقرؤون فيها جزءا من القرآن ثم يذكرون الله (لا إله إلا الله) ألف مرة . وتزدهر في سراييفو الصناعات اليدوية كالنقش على النحاس والفضة ، والحفر على الخشب ، كلها وفق الذوق الذي كان سائدا إبّان العصر العثماني مع بعض التطورات والإضافات .

وفي سراييفو كلية للدراسات الإسلامية ، وهي الوحيدة من نوعها في أوربا . يقول الشيخ « حافظ حسين موتيش » رئيس علماء يوغسلافيا : « لدينا في يوغسلافيا ٨٠٠ مسجد ومدرسة ثانوية إسلامية للبنين ، وأخرى للبنات ، وأربع مدارس دينية ، ولدينا ٣٥٠٠ إمام وواعظ وخطيب ، ونحن نبذل جهدنا في تعليم اللغة العربية ، وطبعنا معجمين (عربي - يوغسلافي) ، و (يوغسلافي - عربي) ، كما نقوم بنشاط في مجال الترجمة والطبع والنشر ، وقمنا بترجمة القرآن الكريم إلى اليوغسلافية . وتمويل المشيخة الإسلامية يتم من رسوم عضوية يسددها كل مسلم ، بالإضافة إلى الزكاة وصدقة الفطر ، وعائد بيع الأضاحي ، وعائد الأوقاف .

« لؤلؤة الادرياتيك »

على الرغم من أننا حاولنا مدة أسبوع كامل الحصول على مقعدين في الطائرة المتجهة من سراييفو إلى « دوبرفنيك » إلا أننا فشلنا تماما ،

فالرحلتان اللتان تقلعان يوميا لا مكان بهما مدة طويلة ، وأخيرا قالت موظفة الحجز في شركة الطيران : إنه لا أمل ، فالضغط دائم على خطوط المدينتين ، فكلتاهما من أبرز المناطق السياحية في يوغسلافيا ، « ودوبرفنيك » واحدة من أكثر المدن قدما وفتنة في العالم (هكذا قالت) ، وعندما ارتفع حاجباي تعبيرا عن الدهشة قالت بحماس المحب : دوبرفنيك مدينة لا تضاهيها مدينة في العالم ، واقرأ ماذا يسميها الأوربيون وليس نحن ، إنهم يسمونها « لؤلؤة الادرياتيك » ، واليونسكو تضعها تحت حمايتها الفنية كأثر تاريخي نادر المثال ، واذهب لترى بنفسك . وأشاحت وجهها عنا . خارج المكتب قال لي زميلي المصور : لماذا تجاهلت أمامها ودفعتها بصمتك لأن تندفع في الحديث بحماس لتقول لنا ما تعرفه عن « دوبرفنيك » ؟ قلت له : يا صديقي دعنا نرى كيف يتحمس الناس لبلادهم ، ويتحدثون عنها بحب ، لنقارن كيف نحن في وطننا العربي لا يهتم كثير من الناس بما هو موجود لدينا من كنوز التاريخ .

استقر رأينا على أن نستقل الحافلة من « سراييفو » إلى « دوبرفنيك » ، والمسافة كلها لا تتجاوز ٣٠٠كم . بحسابنا قلنا : إنها لن تزيد عن ثلاث ساعات . تحركت بنا السيارة في الثانية والنصف ظهرا ، لتصل دوبرفنيك في التاسعة والربع مساء سبع ساعات استغرقها الطريق ، قطعنا فيها ثلاثمائة كيلومتر عبر الجبال ، طرق صاعدة وهابطة ، ملتوية ودائرية . في البداية كنا نجلس على حواف مقاعدنا ، نرقب الطريق مع السائق خوفا ، ومع الوقت وبعد الاطمئنان لمقدرة السائق أدرنا وجوهنا لنرقب الطريق استمتاعا بالجمال ، وعبر الجبال تنوعت الطبيعة : قرى صغيرة تتمركز البيوت ذات الطابق أو الطابقين في منتصفها ، وتحيط بها المزروعات والحقول والحدائق ، في الأفق تبدو الطواحين التي ما تزال قائمة بالإضافة إلى أشجار الكروم والدخان الجبلي ، واللوز الأخضر . في جزء آخر تأخذ شكلا مختلفا : ساحات متسعة من الحقول ، وعلى رأس كل قطعة أرض بيت صغير ، وفي الخلف تبدو الماشية ، ثم تمتد الأرض ، وتهبط بنا السيارة لتهبط قلوبنا معها ، ثم تعود لترتفع .
وفي الطريق مررنا على مدينة « موستار » - لم يكن مقررا لنا الوقوف - فحدقنا من النافذة ، ومع حركة السيارة في الهبوط والارتفاع كان يبدو مسجدها معلقا في الهواء ، حيث شيد فوق جبل يحيط بالمدينة . كان الوقت غروبا وأشعة الشمس وبقايا ضوء النهار تنسكب عليه ، ويصنع الضوء والظل والجبل والسماء المفتوحة لوحة رائعة فاتنة .

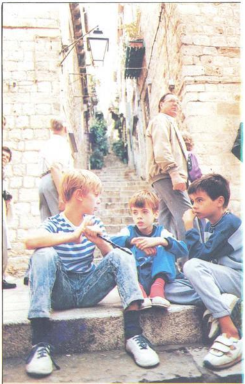
وصلنا إلى دوبرفنيك أخيرا ، حيث تمتد المدينة على شاطيء الادرياتيك ، ومناخها يشبه مناخ منطقة البحر الأبيض المتوسط ، والمدينة على سفح الجبل الممتد على شاطيء البحر . عندما تقف على الشاطيء وترفع ناظريك إلى المدينة تفاجأ بالمدرجات المنحوتة في الجبل ، مستويات متعددة ، كأنها طوابق ، بيوت ومنازل صغيرة ، وأشجار وخضرة ، والسيارات تسير ، وتعدد الطوابق يجعل المنظر متتاليا في مستوى ما تمرق سيارة وخلفها حافلة سياحية ، ترفع عينيك إلى المستوى الذي يعلوه فتجد سيارات مختلفة ، وشكل البيوت والحدائق مختلفاً ، تهبط إلى مستوى أدنى فتتغير الصورة ، وهكذا .
عند شاطيء البحر تنتصب المدينة القديمة ، لكنها مدينة ليست ككل المدن ، إنها حياة من نوع شديد الخصوصية .

« المدينة القلعة »

قنطرة خشبية متحركة تفصل بين المدينة القديمة وما عداها ، ترتفع القنطرة ويغلق باب المدينة ، وتصبح قلعة حصينة ، ظهرها جهة الباب مؤمن تماما ، وسور عال شاهق الارتفاع يتجاوز ٢٢٠ مترا يحيط بها من كل جانب في







● الصورة العليا قرية شبلي حيث يقدم الأهالي يوما كاملا بالملابس الوطنية .. تجار وراقصون .. ومارة .. تمثيلية كاملة للسياح . إلى اليمين في دوبرفنيك درجات السلالم التي تنقل المارة من شارع إلى شارع ، الصورة اليسرى الباعة في قرية شبلي يعرضون بضائعهم وأفواج السياح يبتاعون للذكرى ، إلى اليسار شارع صغير داخل قلعة دوبرفنيك لؤلؤة الادرياتيك .



دائرة كاملة ، ولا منفذ بعد ذلك إلا المرفأ على البحر ، هنا كانت مملكة « دوبرفنيك » القديمة ، تتحصن هنا ، ولا يصبح أمام الغزاة منفذ للدخول ، وداخل القلعة مدينة كاملة ، حياة بأسرها ، سوق ، محلات ، منازل ، مقاهٍ ، أربعة آلاف نسمة ما زالوا حتى اليوم يمارسون حياتهم داخل المدينة القلعة ، التي يعود تاريخها إلى القرن السابع الميلادي . وازدهرت فيها حياة كاملة ، أنشئت فيها أقدم صيدلية في العالم عام ١٣١٧م ، وفي بدايات القرن الرابع عشر أقيم بها ولأول مرة في أوربا كلها ملاجيء أطفال ، ودور رعاية للعجزة ، وفي المدينة كنيسة بناها الملك « ريتشارد » قلب الأسد ، هدية منه للمملكة عندما مر عليها عقب عودته من حملته الفاشلة على القدس ، وفي الكنيسة بعض آثار الملك ريتشارد وهداياه الثمينة التي منحها للكنيسة ،ومنها تمثال لصقر أحضره من القدس .

والمدينة بالداخل شارعان رئيسيان عريضان ، عرضهما يتجاوز الاثني عشر متراً ، أرضيتهما من الطوب الصخري الأسود ، وبين الشارعين تتواصل حارات صغيرة عديدة ، ممر صغير فيه أبواب البيوت والمقاهي والبارات في الدور الأرضي ، ثم درجات سلم لتنتقل إلى حارة أخرى بالنمط نفسه . وفيها درجات سلم أخرى تسلمك إلى حارة جديدة ، وهكذا تتوالى مدرجات ، وتتفرع حارات . خلف نوافذ البيوت وعلى الشرفات أصص الورد والنباتات الخضراء ، واللبلاب يمتد ليكسو الجدران ، والمقاهي ممتلئة بالبشر سائحين ومواطنين ، والشوارع شديدة الازدحام : وبشر يتجولون وآخرون يتفرجون على البشر ، وصنف ثالث يسير جيئة وذهابا بلا هدف ، نبض كامل ودفء ،وازدحام بلا مشاكل ، فالمدينة لم تعرف من المدنية إلا الماء والكهرباء والصرف الصحي ، أما عدا ذلك فلا سيارات ولا دراجات ولا ضجيج ، إلا أصوات البشر وهدير موج البحر .

في الميناء ترسو القوارب الصغيرة ، والمراكب التي تمخر عباب الادرياتيك ، في رحلات منظمة للجزر المحيطة « بدوبرفنيك » ، وحول الميناء مقاهي الرصيف التي لا تخلو أبدا من البشر ، نهارا يذهبون في رحلات للجزر ، أو في انتظار موعد إبحارهم ، وفي المساء يستمتعون بمنظر البحر الذي تنعكس عليه الأضواء من مدرجات الجبال ، ومدرجات الحارات ، فتنة كاملة . لا ينقطع السياح عنها طوال أشهر الربيع والصيف ، من نهاية مارس وأول ابريل حتى أوائل اكتوبر ، وفي الشتاء يلف الهدوء المدينة ، ويبقى فيها ساكنوها ، وتهدأ حركة المقاهي ، ويتركها عدد من أرباب المهن الخدمية عائدين إلى القرى المحيطة بها ، بعد أن ينتهي موسم الذروة والعمل ، شأن كل المدن التي تبيع التاريخ والسياحة للقادمين .

« العرض الجماعي »

كان وصولنا إلى دوبرفنيك مساء يوم الجمعة ، وموعد مغادرتها عصر الأحد ، وعندما سألنا عن أقرب القرى المحيطة لنرى صورة نمطية للقرية اليوغسلافية ، قالوا لنا : عليكم بزيارة قرية « شيلي » صباح يوم الأحد ، حيث سترون نموذجا للقرية التقليدية في هذه المنطقة كلها . الوصول إلى القرية كان مشكلة ، فسيارات الأجرة لا تعمل وفق نظام العداد الآلي ، ولكن بالاجتهاد الشخصي ، وكم من مسافة قطعناها بسيارتين مختلفتين ، وفي كل مرة ندفع أجرا مختلفا ، ولذا فقد استقر رأينا على أن نستقل الحافلة . تحركنا من « دوبرفنيك » في الثامنة صباحا ، وصلنا إلى « شيلي » في العاشرة إلا ربعاً . عند هبوطنا وجدنا عشرات الحافلات السياحية التي تنقل أفواج السياح . طريق القار « الاسفلت » - الطريق العام - يشق القرية

نصفين ، إلى اليسار المزارع وحقول الكروم ، وإلى اليمين ساحة القرية الرئيسية ، حيث مبنى الكنيسة ، والمقاهي والمتحف ومبنى المدرسة ، وبعض بيوت السراة ، ومحلات تجارية . فور عبور طريق القار « الاسفلت » ، على الجانبين يقف أهل القرية لبيع منتجاتهم : مشغولات يدوية ، (مفارش) للمناضد ، قمصان للنساء مشغولة باليد ، أحذية خفيفة مبطنة بالوبر للاستخدام المنزلي ، عنب ، ملابس نسائية ، تحف خشبية ، وزحام من البشر ، وكل أهل القرية يرتدون الملابس الوطنية القديمة نساء ورجالا ، وعجائز وشبابا ، حتى الأطفال . على درجات السلم العريض المتسع أمام الكنيسة تراصت أفواج السياح جلوسا ، بينما انطلق بعض الناس إلى المقاهي ، وتدافع آخرون في زحام كثيف لتجربة مجانية للنبيذ المنتج في القرية ، (كانت الساعة قبل الحادية عشرة صباحا) ، ويدخل بعضهم إلى الكنيسة لتأدية صلاة يوم الأحد ، وآخرون يقفون أمام المعروضات للمساومة وأحيانا للشراء .

كلما اقترب عقربا الساعة من الحادية عشرة أصبح الزحام شديداً ، والكل يتجه للساحة المواجهة للكنيسة ، وخلف الكنيسة والساحة تمتد مزارع الكروم ، وفي مقهى جانبي جلس بعض المواطنين من سكان القرية ، في ثياب يوم الأحد النظيفة ، يتحادثون ، ويشاهدون التلفاز ، ويحتسون النبيذ (ما زال الوقت صباحا) ، وقبل الحادية عشرة بعشرة دقائق بدأت الحركة في الساحة : أجهزة صوتية ، آلات موسيقية . وفي الحادية عشرة تماما بدأ رجال ونساء بالملابس الوطنية القديمة في تقديم الرقصات الشعبية والغناء الشعبي ، عرض مدته نصف ساعة (اختتموه برقصة مشتركة بين الحضور والراقصين ، رجل من الحضور مع فتاة من الراقصات ، والعكس ليؤديا رقصة مشتركة ، الرقصات بها ملامح من رقصات شرقية ، الدبكة اللبنانية تحديداً ، والموسيقا بها نغمة وإيقاع من الشرق) .

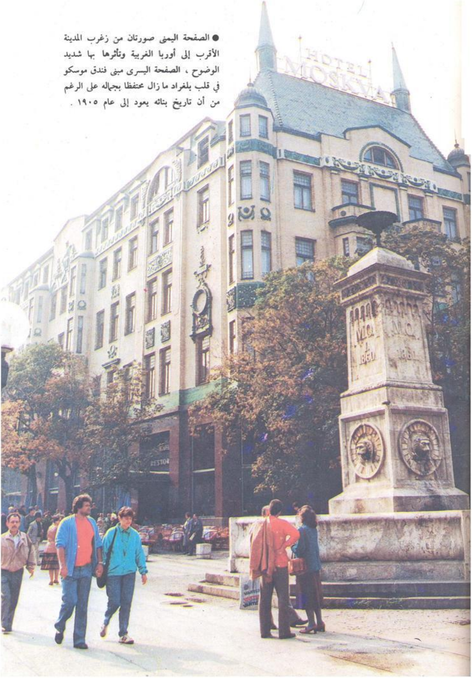
وفي نهاية الرقص شكرت الفرقة جميع الحضور (لتشريفهم) قريتهم . ولخوفي من الازدحام الذي بدأت ملامحه تتجمع وتتضح على مخرج طريق واحد ، درت وزميلي من خلف مبنى الكنيسة وخلف المتحف لنخرج إلى الطريق العام ، لنجد البائعين الذين كانوا وقوفا بالملابس الوطنية يفضونها عنهم ، لتظهر من تحتها ملابسهم المدنية الحديثة ، فقد انتهت المسرحية ، وانتهى العرض الجماعي الذي شاركت فيه القرية كلها ، لتبيع للسياح رائحة الماضي ، وتأخذهم في رحلة إلى تاريخ قديم . وبعد ذلك عرفت من أحد موظفي شركات السياحة في المدينة أن شركات السياحة مجتمعة هي التي نظمت هذه المسرحية بالاتفاق مع أهل القرية . والمنافع في النهاية تعم على الجميع .

« نترقب »

في طريق عودتنا من القرية كانت الشواطىء الجبلية قد امتلأت بالرواد ، الكل يغسل همومه في مياه البحر ، وعديد من الفنادق تنتشر على طول الطريق ، فيوغسلافيا واحدة من أهم بلدان أوربا للسياحة ، وفي العام الماضي فقط سجلت أكثر من ١١٠ ملايين ليلة مبيت ، وزارها أكثر من مليوني سائح للإقامة ٣ أيام فأكثر ، دفعوا ٣,٥ مليارات دولار أمريكي ونصف مليار ، وتنوع طبيعة يوغسلافيا وثراؤها التاريخي سببان مهمان في كونها منطقة جذب سياحي ، وبالإضافة إلى ذلك فإن انتشار العيون والحمامات الطبية التي تستخدم مياهها في علاج كثير من الأمراض أوجد نوعا خاصا من السياحة ، وهو السياحة العلاجية ، ولذلك فإنهم على الرغم من كل المتاعب يخططون للارتفاع بعدد الأسرة من مليون و٣٥٠ ألف سرير إلى (٢) مليوني سرير في أول الموسم السياحي الصيفي القادم ، خاصة أن يوغسلافيا لا ينقطع عنها السياح صيفا وشتاء ، ففي الشتاء


ZG 416-336





● الصفحة اليمنى صورتان من زغرب المدينة الأقرب إلى أوروبا الغربية وتأثرها بها شديد الوضوح ، الصفحة اليسرى مبنى فندق موسكو في قلب بلغراد ما زال محتفظا بجماله على الرغم من أن تاريخ بنائه يعود إلى عام ١٩٠٥ .

للتزلج على الجليد، أو للصيد الشتوي في الجبال. ويأمل المسئولون عن السياحة أن يزداد الإقبال بعد تخفيض قيمة العملة، فالدولار الواحد يساوي (٣٢٠ دينارا) تقريبا، أي أن المائة دولار تساوي ٣٢٠ ألف دينار، ولتقريب صورة الأسعار ذهبنا في المساء بعد يوم عمل طويل لم نذق فيه طعاما، إلى مطعم في أفخم فنادق بلغراد - لم نكن نقيم فيه - وتناولنا وجبة طعام فاخرة، ودفعنا عن شخصين ٥٥ ألف دينار، وصحيح أن التضخم قد ألهب الأسعار، ولكن للأسف فإن هذا لا يستشعره ويكتوي بناره إلا المقيمون أبناء البلد، خاصة مع تدني المرتبات، فمثلا نائب رئيس مجلس إدارة لأحد أكبر المجمعات الزراعية الصناعية يبلغ مقدار مرتبه مالا يتجاوز ٢٥٠ دولاراً، ووزير اتحادي في الوزارة مرتبه في حدود ٣٥٠ دولارا. صحيح أن المرتب وحده ليس مقياسا، فهناك خدمات ورعاية تقدمها الدولة، ولكن ما يعنينا هنا أن مسئولي السياحة يراهنون على زيادة عدد السياح، ويترقبون مواسم أكثر ازدحاما، علها تبعث الرواج في الاقتصاد الذي يعاني من مشكلات التغير.

رياح التغيير

في مبنى أنيق شاهق الارتفاع، كان لقاؤنا في التحالف الاشتراكي للشعب العامل اليوغسلافي، وهو أكبر وأوسع منظمة سياسية واجتماعية في يوغسلافيا (١٤ مليون عضو فقط!) يلخصون المشكلة بقولهم: نعم لدينا مشكلة اقتصادية، وبداية الحل دائما صعبة،

كسنوات البداية التي ما زلنا نذكرها، ولكن الإصلاح ضروري ومهم، والأزمة أن بعض القوى البيروقراطية استغلت مناخ الظروف الاقتصادية، ولرغبتها في التمسك بالحكم والسلطة السياسية بدأت تغذي تيارات الانفصال، فبدأت ترتفع نغمات لا معنى لها جمهورية تقول: نحن أكثر غنى وتقدما من جمهورية أخرى، أو نحن نصدر للخارج نصف صادرات يوغسلافيا. ولذلك فإلى جانب الاصلاح الاقتصادي فإن السياسات والاجراءات الجديدة تهدف إلى فصل الاقتصاد عن السلطة السياسية في الجمهوريات، أي نزع أظافر القوى البيروقراطية التي تخمش بها تجربة الوحدة.

في الطريق لمقابلة وزير الاقتصاد الاتحادي أخذ ذهني يرتب نقاط الأزمة كالتالي - قروض - عجز في ميزان المدفوعات - عجز في السيولة النقدية والعملة الصعبة - كثير من الصناعات التي تستورد موادها الأولية مهددة بالتوقف - خفض قيمة العملة أدى إلى ضعف قوتها الشرائية. فجأة صرخ سائق السيارة ومرافقنا كأنما اشتعلت النار فجأة في ثيابهما. سألت: قال مرافقنا: إن عرض أنباء الثالثة الذي كان يذاع في تلك اللحظة أفاد أن تقريراً رسميا لوزارة الاقتصاد يقول: إن معدل التضخم اقترب من ٢٢٠٪، نعم مائتان وعشرون بالمائة.!

عدت لورقة ملاحظاتي، أضفت إليها الخبر الأخير، معنى ذلك أن تكلفة الحياة اليومية أصبحت أكثر ارتفاعا، وسط هذه الأزمات الاقتصادية الخانقة - ما زلت أسجل في دفتر ملاحظاتي - ترتفع أصوات قوى سياسية داخل بعض الجمهوريات تطالب بالانفصال وبالحكم الذاتي.

مع «رادوسلاف بوهينتس» وزير الاقتصاد الاتحادي حاولت في الوهلة الأولى أن أفهم، وقلت له: ماذا يحدث بالضبط في يوغسلافيا؟

ابتسم الرجل وقال: هذه بداية جيدة، فالكل يأتي ويبدأ في طرح آرائه، قليلون الآن الراغبون في الإنصات، ما يحدث هو أننا نطبق سياسة إصلاح اقتصادي جديد، تعتمد على مفهوم الحرية في الأسعار، وترك تحديد السعر

لقوى السوق ، والحرية في الاستيراد ، وحرية سعر الصرف ، وعلى الرغم من أننا بدأنا في هذه السياسات إلا أن استجابة الناس لها ليست بالدرجة الكافية ، ولكن المؤشر الإيجابي أن سوق العملات الأجنبية يسير بشكل مرض ، وما حققته سياسة سعر السوق الجديد من آثار ـ تمثلت في ارتفاع حصيلة الدولة من العملات الأجنبية ـ مؤشر جيد ، يرتبط بهذا ارتفاع معدل التضخم ، ولكن التضخم موجود في كل الاقتصاديات ، وفي كل النظم الاقتصادية ، وفي تقديري أنه مؤشر ارتفع ، ولكنه سيعود للهبوط والاستقرار ، عندما يتوازن سعر التكلفة مع سعر البيع ، وبعد أن تؤتي هذه السياسات الجديدة ثمارها . وما نحتاجه هو مزيد من الوقت ، خاصة أن هذه الاجراءات مقدمة لتعديلات جوهرية في دستور البلاد ، وستتيح هذه التعديلات إطلاق حد ملكية الأفراد في القطاع الزراعي من ١٠ هكتارات للفرد إلى ٣٠ هكتاراً للفرد ، وفتح الباب أمام الاستثمارات الأجنبية ، وحق فتح الحساب في المصارف بالعملات الأجنبية للأجانب ، وكذلك حق استرداد العملة وإخراجها من البلاد ، وباب الاستثمارات مفتوح في كل الميادين والقطاعات بلا حدود ، اللهم إلا في قطاعي التعليم والتأمين فقط .

وفي تقديري أن هذه السياسات ستحقق استقراراً للسوق ، وتفتح الباب للاستثمارات ، وتحسن من وضعية الاقتصاد .

قلت لوزير الاقتصاد الاتحادي : ألا تلاحظ الشبه بين ملامح هذه الإجراءات وبين سياسات إعادة التكييف التي يطرحها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ؟ وألا يعد هذا تراجعا عن السياسات الاشتراكية ؟ .

بهدوء أجاب الوزير : نعم هناك بعض التوافق بين هـذه الاجراءات وسيـاسات الصندوق والبنك ولكننا نراعي ظروف بلدنا وطبيعتها ، أما عن التجربة الاشتراكية فأعتقد أن الفرق هو : من يصنع القانون في المجتمع ؟ ومن المالك ؟ في مجتمعنا المالك هو العمال ، وهم أولئك الذين يصنعون القانون ، ولذلك لا خوف على التجربة الاشتراكية .

ما زلت أبحث عن تفسير أوضح . نعود مرة ثانية لمسئول العلاقات الخارجية في التحالف الاشتراكي اليوغسلافي فيقول : نحن واعون بأننا ندخل مرحلة جديدة ، والنتائج لا يمكن التكهن بها كلها ، ولكن بدون مخاطرة لا يتم التقدم والتطور .

هل تقاوم ؟

ونحن نغادر بلغراد أخذت أتسلى وأقطع الوقت بحساب المسافة والزمن بينها وبين العواصم الأوربية ، وتأكد لي أنها من جراء وقوعها في موقع وسط ، بالغ الحرج والدقة والأهمية ، فقد عانت طوال تاريخها ، ولم يتركها العالم أبدا كي تهدأ ، وتتفرغ للبناء والتنمية والانطلاق ، وكانت المشاكل والتحديات هي قدرها ، واستطاعت في مدة سنوات طويلة بإرادة أبنائها وبقيادة تاريخية ، أن تحقق الحلم الذي عذب أجيالاً مضت ، استطاعت أن تبني وطنا ، وتصوغ حياة أفضل ولكن الزمن الآن ليس رخاءً ، والرياح تهب وتعصف ، والسفينة بلا قبطانها الذي حرر وجمع ووحد ، والتحدي حرج وكبير ، ولذلك فبعدما عدنا وطوال وقت إعداد الموضوع كنت كقيصر النمسا ، أصحو كل صباح وأسأل هل ما زالت تقاوم ؟ ولكنني لا أملك هدايا أرسلها لكي تتحصن ، كل ما أملكه مع كل العرب ـ أصدقاء يوغسلافيا ـ قدر من الحب والمواقف المشتركة ، والتاريخ المتشابه ، ونتمنى لها أن تظل تقاوم ، وألا يسقط السيف من الفارس الذي يتوسط البلقان .□

أضواء على داء
اللشمانيا

بقلم: الدكتور عبد العزيز منصور الخواجة *

هل سمعت عن داء اللشمانيا ؟ إنه داء عرفه الأقدمون . بما فيهم علماء المسلمين الأولين ، ومن بينهم العالم العربي ابن سينا . فقد وصفه وعالجه القدماء منذ القرن العاشر الميلادي ، ولكن سبب المرض وطريقة انتقاله إلى الإنسان لم تكن معروفة آنذاك . فماذا عن علاجه اليوم ؟

يعد مرض اللشمانيا من ضمن الأمراض الطفيلية الحيوانية المصدر ، يصاب به الإنسان عن طريق لدغ أنثى نوع من البعوض تسمى حشرة الرمل SANDFLY ، وهذه الحشرة صغيرة الحجم ، وليس لها صوت عند طيرانها أثناء المساء ، على ارتفاع منخفض من سطح الأرض ، وتعيش في الجو الحار الرطب ، لذلك فإن نشاطها يزداد في فصل الصيف ، وتتغذى على دم الإنسان أو الحيوان . وعندما تمتص دم إنسان أو حيوان مصاب (مثل الكلاب أو الثعالب أو الجرابيع حيث تعد هذه الحيوانات مستودعا لطفيل المرض) يكون هذا الدم محملا بطفيل مرض اللشمانيا ، الذي يتكاثر في معدة الحشرة ثم يصل إلى لعابها ، وعند لدغها إنسانا أو حيوانا سليما فإنها تحقن هذه الطفيليات في جسمه مسببة له المرض . وتنقل حشرة الرمل طفيليات مرض اللشمانيا إما من شخص إلى آخر أو من حيوان إلى إنسان . وهناك نوع من اللشمانيا يسمى «الكلازار الهندي» قد ينتقل من إنسان إلى إنسان . وحديثا تم اكتشاف حالات لشمانيا كان سببها نقل الدم من أشخاص حاملين للمرض .

ويمكن تقسيم المرض من ناحية أعراضه إلى ثلاثة أنواع متميزة ، اللشمانيا الحشوية ، واللشمانيا الجلدية ، ولشمانيا الأغشية المخاطية . وسنستعرض الأعراض والسمات لكل نوع من هذه الأمراض على حدة .

اللشمانيا الحشوية :

هذا النوع من المرض يعرف باسم «الداء الأسود» أو «الكلازار» ، له انتشار واسع في مختلف مناطق العالم ،فقد وجدت حالات في كل

* أستاذ مساعد بكلية الطب ـ جامعة الملك فيصل بالمملكة العربية السعودية .



● لشمانيا الأغشية المخاطية سبب تشويه في منطقة الأنف



● اللشمانيا الجلدية في القدمين

من أفريقيا - منطقة الشرق الأوسط - الهند - الصين - منطقة حوض البحر المتوسط - جزء من أمريكا الجنوبية - الأتحاد السوفيتي . والمرض ينشأ من الإصابة بنوعين من طفيل اللشمانيا ، إما اللشمانيا الدونوفاني (هذا الطفيل يوجد في منطقة الهند) أو اللشمانيا «انفانتم» L. INFANTUM واللشمانيا الحشوية يندر وجودها في منطقة الشرق الأوسط ، ما عدا حالات قليلة العدد اكتشفت حديثا في المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة العربية السعودية والسودان .

أما أعراض مرض اللشمانيا الحشوية ، فانها تحدث بسبب اللدغ بواسطة حشرة الرمل الحاملة لطفيل اللشمانيا من نوع الدنوفانية ، أو انفانتم ، والإصابة الأولية في موضع اللدغة غالبا ما تكون غير واضحة ، ولكن إن ظهرت فانها تسبق الإصابة الحشوية . والفترة اللازمة لبداية ظهور أعراض المرض ، أو ما يسمى فترة الحضانة لهذا المرض ، تختلف كثيرا من شخص إلى آخر ، لكنها تتراوح في الغالب ما بين شهرين وأربعة أشهر . وغالبا ما تظهر الإصابة في البداية على الأشخاص المقيمين في المنطقة التي يستوطن فيها المرض ، وقد تكون شديدة ، أو قد تكون تدريجية ، حيث يشكو المصاب من ارتفاع في درجة الحرارة ، ونفاض ، وتعرق ، وضعف عام ، وإسهال ، وكحة ، وتضخم في الكبد والطحال . وبتقدم المرض يَسْمَرُّ جلد المصاب في منطقة اليدين والقدمين والبطن والجبهة (ومن ذلك عرف المرض باسم الداء الأسود) ، ثم يصاب الشخص بالصفراء وانتفاخ في البطن ، والموت غالبا ما يكون سببه الإصابة العارضة بمرض آخر . وقد تتداخل هذه الأعراض مع أعراض الإصابة بأمراض أخرى مثل الملاريا ، والحمى المعوية ، والسل الرئوي ، وداء البروسيلا . وللتأكد من الإصابة باللشمانيا : يستوجب إجراء الفحوص المخبرية للمصاب التي تُظهر أجسام ليشمان دونفان في الدم ، أو في رشفة من نخاع العظم ، أو الكبد أو الطحال . ومما تجدر الإشارة إليه أن اختبار اللشمانيا الجلدي في حالة نشاط المرض غالبا ما تكون سالباً .

اللشمانيا الجلدية

لقد تمت الإشارة سابقا إلى أن هذا النوع من المرض يحدث نتيجة لدغة من حشرة الرمل الحاملة لطفيل اللشمانيا المدارية ، في منطقة الشرق الأوسط ، وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط . ويعتقد بأن هذا النوع من اللشمانيا نشأ في وسط قارة آسيا ، وانتقل منها إلى دول منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وأفريقيا . وفي منطقة الخليج ودول الشرق الأوسط ، يعرف هذا المرض بأسماء عديدة ، مثل حبة بغداد ، أو القرحة الشرقية ، أو حبة حلب .

وتوجد حالات في منطقة شبه الجزيرة العربية والخليج ، وكذلك في العراق وايران والسودان . ويصيب هذا المرض الرجال والنساء على حد سواء ، وفي جميع الأعمار ، سواء البالغين أو الأطفال . وفي بعض المدن في منطقة الشرق الأوسط - التي يستوطن فيها المرض جزء كبير من السكان ، يوجد بأجسامهم آثار على شكل ندبة ، تدل على سبق الإصابة بهذا المرض . والإصابة الأولى بالمرض ، غالبا ما تعطي الجسم مناعة دائمة ، ضد إعادة الإصابة ، وحتى لو تعرض الشخص للإصابة فإن شكل المرض يكون أقل حدة . وفي المناطق التي يستوطن فيها المرض تحدث الحالات طوال السنة ، ولكن غالبا ما تكثر الحالات ، خصوصا في منطقة الشرق الأوسط والخليج ، في الأشهر الثلاثة الأخيرة من السنة (اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر) .

إن الاصابة بهذا النوع من اللشمانيا ، تتسبب إما بظهور قرح تشفى تلقائيا ، أو بتقرحات

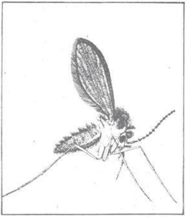
لشمانيا الأغشية المخاطية

الإصابة بهذا النوع من اللشمانيا يكون سببها لدغة من حشرة الرمل الحاملة لطفيل اللشمانيا، المسمى اللشمانيا البرازيلية، وسميت بذلك، لاكتشاف هذا الطفيل في منطقة حوض نهر الأمزون في أمريكا الجنوبية. وحالات الإصابة بهذا النوع من المرض قليلة جدا في منطقة الشرق الأوسط. وغالبا ما تكون إصابة الأغشية المخاطية إصابة ثانوية للإصابة بالتقرحات الجلدية.

وبداية ظهور أعراض الإصابة بهذا النوع من المرض تعقب الإصابة الجلدية ببضعة أسابيع أو شهور، وقد تتأخر إلى عدة سنوات. والأجزاء الأولى من الجسم التي تظهر فيها الإصابة هي منطقة الخيشوم. ويكون الرعاف والاحتقان في الجيوب الأنفية أول بداية أعراض ظهور المرض، وتبدأ الإصابة في حجم رأس عود الكبريت، ثم تكبر وتتقرح الأغشية المخاطية في الجيوب الأنفية، وسرعان ما تتلف هذه الأغشية، مسببة تشوهات واضحة في منطقة الحاجز الداخلي للأنف. وأحيانا ينتشر المرض إلى الأغشية المخاطية المجاورة في الفم، وقد يتسبب ذلك في انسداد للفتحات التنفسية الأنفية، وظهور أمراض في الجهاز التنفسي، بما فيها التهاب الرئتين، وغالبا ما تكون أمراض الجهاز التنفسي الشديدة سببا في وفاة المصابين بهذا المرض.

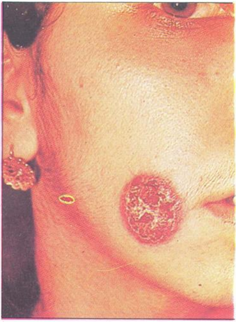
طرق العلاج

غالبا ما تشفى الإصابة بداء اللشمانيا الجلدية تلقائيا دون أي علاج، ويستغرق شفاء هذه التقرحات مدة سنة إلى سنتين، وأحيانا قد تطول إلى أكثر من ذلك، ولكن عندما تترك هذه التقرحات لتشفى تلقائيا فإنه من المحتوم أن تترك تندبات مشوهة، وبالخصوص في منطقة



● حشرة الرمل الناقلة لداء اللشمانيا

مزمنة، أو ربما تسبب قرحا جلدية منتشرة ولكن الأخيرة يبدو أنها قليلة الوجود في منطقة الشرق الاوسط. وفي موضع اللدغة بحشرة الرمل تظهر الأصابة سريعا في البداية، على شكل احمرار وحكة، تشبه لدغة البعوض، وبعد فترة تتراوح بين أسبوعين إلى ثمانية أسابيع تكبر في الحجم لتصبح في شكل عقدة، وتستمر في الزيادة، حتى تصل إلى حجم (١ - ٢ سم)، وأحيانا أكبر من ذلك. هذا الانتفاخ قد يتحول إلى قرحة تبدأ في إفراز قيح، إذا كانت الإصابة بطفيل اللشمانيا المدارية الكبرى أو ربما يبقى جافا مغطى بقشور إذا كانت الإصابة بطفيل اللشمانيا المدارية الصغرى، وفي بعض الأحيان، تصاب هذه القرح بالبكتريا، مما يزيد حدة الالتهاب في موضع التقرحات. وغالبا ما تظهر الإصابة على الأجزاء المكشوفة من الجسم مثل الوجه، والأذنين، واليدين، والذراعين، والقدمين، والساقين. وتقتصر الإصابة بهذا النوع من المرض على الجلد، ولا تشمل الأعضاء الداخلية من الجسم.



● سيدة مصابة باللشمانيا الجلدية

الوجه ، وهذه التشوهات غير مرغوب فيها ، خصوصا إذا كان المصاب أنثى . ولتجنب حدوث ذلك يجب أن يبدأ العلاج للإصابة بأسرع وقت ، قبل أن تتقشر التقرحات ، ويلزم التخلص من الإصابة البكتيرية الثانوية سريعا .

أما بالنسبة للاصابة باللشمانيا الحشوية فإنها قد تؤدي إلى موت المصاب إذا ما تركت دون علاج ، وكما ذكر سابقا فإن سبب الوفاة غالبا ما يكون الإصابة العارضة بمرض آخر . وأحيانا تعود الإصابة مرة أخرى بعد الشفاء التام بالمعالجة ، وهذه الانتكاسة تحدث حتى بعد سنتين من فترة العلاج . ولكن معظم حالات اللشمانيا الحشوية تستجيب جيدا للعلاج .

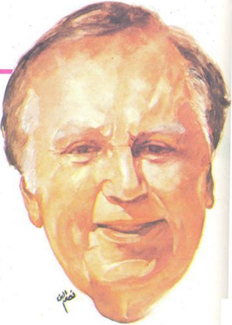
وتجدر الإشارة إلى أن وسائل العلاج المتوافرة حاليا عديدة ، ففي حالة الإصابة باللشمانيا الجلدية ، إذا لم تكن التقرحات شديدة ، فإنه يمكن معالجتها موضعيا بالحرارة ، أو تعريضها للأشعة ، أو الأشعة تحت الحمراء ، أو بالتبريد أو بحقن مركبات الأنيموني الخماسية موضعيا في داخل التقرح .

وقد استخدمت مركبات الأنيموني الخماسية ، مثل ستيبو جليكونات الصوديوم (البنتوستام) ، أو ميجلمين أنتيمونيت (جلوكنتام) لعلاج جميع أنواع اللشمانيا ، وذلك بحقنها في العضل أو الوريد . أما الحالات التي لا تستجيب لهذا النوع من المعالجة فيمكن استخدام عقاقير أخرى مثل بنتامدين أيزثيونيت ، أو أمفوتراسين ب ، أو زرقات الوبيورينول .

ولابد من توافر ثلاثة عناصر رئيسية في المناطق التي يستوطن فيها المرض - وهي :- مستودعات الطفيل في الحيوان ، وحشرة الرمل الناقلة للمرض ، والإنسان المصاب . ولمكافحة هذا المرض يمكن اللجوء إلى القضاء على مخازن طفيل اللشمانيا (الكلاب أو الثعالب أو الجرابيع) ، أو التخلص من حشرة الرمل ، وذلك برشها بالمبيدات الحشرية . أما بالنسبة للإنسان فيمكن حمايته إما برش المنازل بالمبيدات الحشرية أو تغطية نوافذ الغرف في المنازل بالسلك ، أو باستعمال الناموسية التي لا تسمح بدخول الحشرة من خلالها . ومن المعروف أن الشخص إذا أصيب باللشمانيا فإنها تعطيه مناعة دائمة ضد المرض ، فقد تم حديثا ، استنادا إلى تلك الملاحظة ، التفكير في تطوير نوع من اللقاح لكي يستخدم في تطعيم الأشخاص الذين يعيشون في المناطق الموبوءة . وستشهد السنوات القادمة تقدما ملموسا في طرق الوقاية من داء اللشمانيا في هذا الاتجاه . □

وجهاً لوجه





نزار قباني و جان الكسان

- القصيدة عمليّة استشهاد على الورق ، وليست للتطريب أو التخدير
- قصائدي عن انتفاضة الحجارة لم أكتبها أنا ، بل كتبها أطفال فلسطين
- القصيدة العربية الحديثة خرجت من بيت الطاعة واكتشفت صوتها الخاص
- في حالة الحب لا يلجأ الرجل المثقف الى الحاسوب "الكمبيوتر". بل الى قارئة الفنجان
- أريد للمرأة العربية أن تظل عربية ، وأن تتوازن مع العصر
- اختفت في القصيدة الحديثة موضوعات النفاق الاجتماعي واستعاد الشعر كبرياءه

تمتد مسيرة الشاعر نزار قباني مع الشعر على مدى أربعة عقود من الزمن، أنتج خلالها خمسة وثلاثين كتابا، في الشعر والنثر، منذ بداية الخمسينيات حتى أواخر الثمانينيات. وهي تجربة حافلة، تتميز بنوع من الاستثناء في تاريخ الشعر العربي المعاصر، من حيث الموضوعات التي يثيرها في شعره، والتصريحات التي يطلقها في أحاديثه، والزوابع التي أثيرت حول شعره، بدءاً بإحدى جلسات البرلمان السوري في الخمسينيات التي طالب فيها النواب بطرده من السلك الدبلوماسي بسبب قصيدته «خبز وحشيش وقمر»، وانتهاء بقصائده الثلاث الأخيرة عن انتفاضة الحجارة في الأرض المحتلة، ومرورا بقصائده الصدامية التي أشعلت النيران حوله خلال آراء بعض النقاد الذين استثارهم شعره للنقاش سلبا أو إيجابا.

وإذا كان «أرشيف» الشاعر يشتمل على مئات المقابلات والحوارات التي عقدت معه على مدى أربعين عاما، فإنه يبقى في جعبته الحافلة ما يقوله حول موضوعات ثقافية، وأدبية وحياتية أساسية في واقعنا الراهن، أو تطلعنا المستقبلي، كما في هذا الحوار.

وقد أجرى الحوار معه الكاتب جان ألكسان:

* في الأحاديث التي أدليت بها، والحوارات التي عقدت معك على مدى أربعين عاما كان لك في الشعر أكثر من تعريف، نذكر منها على سبيل المثال:

- الشعر عملية صدامية.
- الشعر عملية استشهاد على الورق.
- الشعر هو الناس، وهو الشارع.
- الشعر حزب معارضة وليس حزب موالاة.

ما التعريف الذي تطرحه الآن للشعر، بعد هذه المسيرة الطويلة مع القصيدة؟

- أطرح جميع هذه التعريفات، منفصلة ومجتمعة، وأرفض التعريفات المعاكسة التي يقول أصحابها إن القصيدة مجرد عملية تطريب أو تخدير، يسمعها الإنسان العربي في أمسية، ثم يعود إلى حالته الأولى، فالشعر في حقيقته - كما أقول دائما - عملية صدامية، بل وعملية استشهاد على الورق، ووظيفة الشعر أن يحرض الانسان على نفسه، ولا شعر حقيقي دون تحريض.

الشاعر يجب أن يكون دائما في قلب المعركة، في قلب التاريخ. ومن هنا فإن الشعب العربي لم يعد يخدع بالشاعر الهامشي الذي يستسلم للطمأنينة، ويطلب «بوليصة» تأمين على شعره، إن الشعب العربي لايقبل الدجل، ولا يقبل الغش، ولا يقبل شاعرا يدلس عليه، فهو يكشف زيفه بإحساسه العفوي الأصيل.

الحقيقة كلها أو لاشيء

*** هل كنت دائما صادقا مع قرائك وجمهورك ، أي ألم تضطرك ظروف معينة لأن تقول نصف الحقيقة ؟**

ـ أنا لا أُدجّل على قرائي وجمهوري ، كنت صادقا معهم على مدى أربعين عاما دون انقطاع ، كنت أُعايشهم في همومهم الصغيرة وقضاياهم الكبيرة ، ولو لم أكن كذلك لما استطعت أن أقف على قدمي أربعين سنة وأنا أتنقل من منبر إلى منبر ، وتزداد جماهيريتي يوما بعد آخر .

وفي جميع مراحل هذه المسيرة كنت جزءا من التاريخ العربي ، بعواطفه ، بجنسه ، بقوميته ، بوحدته .

« شاعر وحدوي ، وشاعر قضية »

*** هل تعد نفسك إذن شاعر قضية ؟**

ـ أجل ، أنا شاعر قضية ، وأنا شاعر وحدوي وقومي ، وضد جميع أشكال التجزيئية والفئوية والمذهبية .

*** هل يعني هذا أنك ترفض الألقاب التي أطلقت عليك : شاعر الدانتيل ، شاعر المرأة .**

ـ لا أكترث بما يطلقون عليّ وعلى شعري من نعوت ، فأنا لم أقل في شعري سوى الحقيقة ، إنني لا أحترف الإثارة ، لكنني رسمت حبي بالكلمات على أشجار الحدائق العامة ، وأعطيت الناس الحق في أن يشموا أريج هذا الحب .

« المرأة الوديعة ليست مهزومة »

*** ألا نفاجيء القارىء أيها الشاعر عندما نقول له : إن المرأة في شعر نزار قباني ليست قضية ؟ وما رأيك في التهمة المطروحة حول هذه الفكرة ، وهي أن المرأة في شعرك كانت مجرد هوية للعبور إلى الجماهير والاستيلاء على انبهار الناس ؟**

ـ قد تكون المرأة وردة في ثوب سترتي ، لكنها تتحول أيضا إلى سيف يذبحني ، المرأة عندي أرض خصبة ، ووسيلة من وسائل التطوير والتحرير ، وأنا أربط قضيتها بقضية التحرير الاجتماعي للرجل وللمرأة على السواء ، لقد قلت لك : إنني شاعر قضية ، والمرأة جزء من القضية ، ثم إن أنوثة المرأة ليست مرادفا للضعف ، هناك معادلة يجب الا تتجاوزها المرأة ، الضعف الإنساني ، والضعف الجسدي ، وليس الضعف النفسي ، فوداعة المرأة شيء يختلف عن كونها امرأة مهزومة أو مسحوقة ، وأنا أريد من المرأة العربية أن تظل عربية ، عربية في خفرها وحيائها ، وأن تظل محتفظة بكل ملامح أصالة المرأة الشرقية ، لكنني أريد لها أيضا أن تكسر وتدمر عالم الجواري ، أريدها أن تتوازن مع العصر .

وقد قلت في جميع أحاديثي دائما ، وأكرر ذلك اليوم : إنني حولت المرأة في شعري من ذبيحة ، من منسف يؤكل بالأصابع ، إلى زهرة فواحة في حديقة المجتمع .

*** وماذا عن المرأة التي ليست منسفا وليست زهرة ، المرأة العاملة مثلا ؟**

ـ ومن قال : إن المرأة العاملة ليست زهرة فواحة ، إنني على الرغم من كل القهر الذي فرض على المرأة ، متفائل بحاضر المرأة العربية ومستقبلها ، ولا يمكن تحرير مجتمع والمرأة فيه جارية .

« الحب في عصر الخراب »

*** والحب ؟**

ـ الحب في عصر الخراب العربي هذا لم يعد

ممكنا ، لقد سقطت الجماليات تحت إطار هذه البشاعات ، لقد قلت في إحدى قصائدي :

إذا كانَ عصريَ ليس جميلا
فكيف تريدينني أن أُجَمِّل عصري ؟
وإن كنت أجلس فوق الخراب ،
وأكتب فوق الخراب ،
وأعشق فوق الخراب ،
فكيف سأهديك باقة زهرٍ ؟
وكيف أُحبك
حين تكون الكتابة رقصاً
على طبق من نحاس وجمر ؟
وإن كانت الأرض مسرح قهر
فكيف تريدينني أن أُصالح قهرى ؟
يريد المماليك أن يملكوني ،
وأن يشربوا من دمائي وجريِّ ،
يريدون رأس القصيدة كي يستريحوا
وللشعر والحب فوضت أمري .
أحبك برقا يضيء حياتي
وقنديل زيت بداخل صدري
فكوني صديقة حريتي
وكوني ورائي بكل حروبي
وسيري معي تحت أقواس نصري

. . . . . .

إذا كان شعري لا يتصدى
لمن يسلخون جلود الشعوب
فلا كان شعري

*** أنت قلت لي مرة في أحد أحاديثنا : إن الحب تحول إلى حب سياسي .**

- هذا صحيح ، وأنا لا أستطيع أن أحب امرأة لا مبالية تجاه هموم الوطن وقضايا الأمة ، لا تهتم بقراءة الجريدة ولا تتابع أنباء ثورة الحجارة ، وبالمناسبة فإن وراء أطفال الحجارة نساء صامدات ، أخوات ، وبنات ، وزوجات وأمهات ، وحبيبات .



« ثورة الحجارة تعيد كتابة تاريخنا »

*** مادمنا في حديث ثورة وانتفاضة الحجارة في الأرض المحتلة ، ماذا تقول في هذه الانتفاضة ؟**

- قلت مقولتي في ثلاثية أطفال الحجارة التي صدرت مطبوعة في المدة الأخيرة ، وهي تضم ثلاث قصائد : أطفال الحجارة ، الغاضبون ، دكتوراة شرف في كيمياء الحجارة ، وقلت أيضا : إن هذه القصائد الثلاث كتبها أطفال الحجارة بأصابعهم الصغيرة النحيلة الدامية ، ولم أكتبها أنا ، هم الذين كتبوا ، وهم الذين ألفوا ، وهم الذين نزفوا ، وهم الذين أمروني فأطعت ، وحرضوني فصرخت ، ولابد لنا من الاعتراف أن أسيادنا وأسياد الأدب العربي في هذه المرحلة هم أطفال الحجارة ، فهم الذين بعثروا أوراقنا ، ودلقوا الحبر على ثيابنا ، وطردونا من وراء مكاتبنا المكيفة الهواء .

إنجازات الشعر الحديث

*** ننتقل إلى الشعر الحديث ، ما أهم الإنجازات التي حققها هذا الشعر في رأيك ؟**

- حقق عدة إنجازات أهمها :

١ - هندسة القصيدة العربية ، إذ حولها من قصيدة مسطحة تعتمد على التوازي والتناظر في تركيبها إلى قصيدة ذات أبعاد ثلاثة .
٢ - اعتمد طريقة التأليف « السيمفونية » في كتابة القصيدة ، أي طريقة النغم المركب لا النغم البسيط الذي يعيد نفسه كدقات الساعة من أول بيت في القصيدة إلى آخر بيت فيها .
٣ - أنهى استقلال البيت عن بقية أجزاء القصيدة وانفصاله التام عنها ، وبهذا استعادت القصيدة العربية وحدتها العضوية بعد أن كان كل بيت فيها قائما بذاته .
٤ - خفف الشعراء كثيرا من غلواء القافية وقسوتها ، فلم تعد ذلك الجدار الذي يقطع أنفاس الشاعر ويدمي جبينه .
٥ - لم تعد القافية لافتة مرور حمراء تصرخ في وجه الشاعر : « قف » وهو في ذروة اندفاعه وانسيابه ، لكنها أصبحت واحة في الطريق يمكن للشاعر أن يقصدها أو لا يقصدها حسب مزاجه ومخطط رحلته .
٦ - اختفت في الشعر مواضيع النفاق الاجتماعي كالمديح ، والهجاء ، والتكسب والوصولية عن طريق الكلمة ، وهكذا استردت القصيدة العربية كبرياءها .
٧ - تغيرت نظرة الشاعر العربي إلى الأشياء ، فلم يعد يحوم حول قشرتها الخارجية ، وإنما صار يتسرب إلى ضميرها ويطعمها ببذور ثقافته ووعيه وتجربته الإنسانية .

الحاسوب « الكومبيوتر » لا يكتب قصيدة

*** ما رأيك في عصر الحاسوب « الكومبيوتر » الذي نعيشه ؟**

- « الكومبيوتر » لا يحل قضايا ، فهو أعجز من أن يكتب قصيدة أو رسالة غرام ، وإنسان العصر مهما سافر في غابات العقلانية فإنه عائد حتما إلى حالة الطفولية ، إلى الرومانسية ، إلى الشعر ، وهذا مطلب في عصر حضارة تغتال نفسها بنفسها وتلتهم منجزاتها .

*** هل هي إذن دعوة للرجوع إلى عصر الرومانسية ؟**

- (الرومانسية والروحانية) تعنيان أنه يجب أن تظل منطقة ما خارج حدود الاكتشاف لا تصل إليها يد العقل والمنطق ، نحن حين نحب يصغر عقلنا ونتصرف كالأطفال ، في حالة الحب لايلجأ الرجل المثقف إلى « الكومبيوتر » ، بل إلى قارئة الفنجان .

« القصيدة خرجت من بيت الطاعة »

*** نعود الى القصيدة العربية ، هل نستطيع أن نقول : إن الأرض التي مشت عليها هذه القصيدة خمسة عشر قرنا ، قد ضربها زلزال مفاجىء فغير تركيبها العضوي والجيولوجي تماما ؟**

- القصيدة العربية انفصلت عن شجرة العائلة وهربت من « بيت الطاعة » ووصاية الأسلاف ، اكتشفت صوتها الخاص ، بعد أن كانت مجموعة من العادات اللغوية والبلاغية أخذت مع مرور الزمن شكل المسلمات التي لا تقبل الجدل أو النقاش ، باستثناء الأصوات المتفردة ، فإن غالبية القصائد العربية كانت في حقيقتها قصيدة واحدة ، تنقل من نموذج محفوظ في الذاكرة وسابق للتجربة ، وبموت العصر

● الحب لم يعد ممكنا في عصر الخراب العربي والبشاعات التي اغتالت الجماليات

العباسي دخل الشعر في العدمية المطلقة وصارت القصائد موتا مكتوبا .

ولقد استمرت القصيدة - الموت - متمددة على حياتنا خمسة قرون لايجرؤ أحد على دفنها ، وحين خرج الإنسان في مطلع العشرينيات من غرفة التخدير وبدأ يستعيد وعيه الوجودي والسياسي ، ويسترد تفكيره المحجور عليه ، أدرك أن وضعه الجديد يحتاج إلى كلام جديد ، وأن الخروج من عصر الانحطاط لايكون إلا بالخروج من ثياب عصور الانحطاط ، وعقلية عصور الانحطاط ، وقبل كل شيء من لغة عصور الانحطاط ومفرداتها .

« قارة لم تكتشف »

* **عودة ثانية إلى المرأة ، هل تستطيع أن تقول : إن رحلتك في عالم المرأة قد جعلتك تكتشفها ؟**

- الادعاء بأنني اكتشفت المرأة ادعاء فارغ ، قلت هذا منذ حوالي ثلاث عشرة سنة لإحدى المجلات المصرية ، وأقوله اليوم ، أنا لا أريد أن أرتكب هذه الحماقة ، أعتقد أن وهم المرأة أجمل منها ، وأن الاقتراب منها كثيرا مؤذ للحلم ، الإضاءة المبالغ فيها تقتل الحلم ولهذا يجب أن تبقى المرأة في منطقة وسط ، بين الإضاءة والتعتيم .

« أرفض جميع النقاد »

* **سؤال أخير مختصر : لماذا تخاصم النقاد ؟**

- باختصار أجيب : ان النقاد العرب لم يضيئوا زاوية من الشعر العربي ، فقد كان الشعر العربي كعمل إبداعي سابقا لكل عمل نقدي ، أما بالنسبة لي فعبر مسيرتي الطويلة هذه على مدى أربعين عاما لم أستفد من كلمة نقد واحدة ، يترك الناقد شعري ويتناول سيرتي الشخصية وشؤوني الصغيرة الخاصة ، وأنا أفضل أن أقدم نفسي للقاريء كما أنا ، وليس بالصورة التي يكونها الناقد على مزاجه . □

مروءة سقاء



● يقول القطب الصوفي الكبير ذو النون المصري : من أراد أن يتعلم المروءة والظرف فعليه بسقاء بغداد . فقيل له : وكيف ؟

فقال : لما حملت إلى بغداد ، رمي بي على باب السلطان مقيدا ، فمر بي رجل أنيق الهندام ، بيده كوزان ، فسألت : أهذا سقاء السلطان ؟

فقيل لي : لا ، هذا ساقي العامة ، فأومأت إليه أن اسقني ، فتقدم وسقاني ، فشممت من الكوز رائحة المسك ، فقلت لمن معي : ادفع إليه دينارا ، فدفعه إليه ، ولكنه رفض قائلا : لن آخذ منك شيئا . فقلت له : لم ؟ فقال : أنت أسير ، وليس من المروءة أن آخذ منك شيئا وأنت في موقفك هذا .

قراءة نقدية في كتاب

"قضايا جماليات دستوفسكي"

لميخائيل باختين

بقلم : غالب هلسا

اكتشاف الناقد باختين في السبعينيات جاء كالصدمة في الاتحاد السوفيتي والغرب . كيف خفي عليهم واحد من أكبر نقاد وعلماء الجمال وفلاسفة ولغويي هذا القرن ، إن لم يكن أكبرهم ؟ لقد استمر يكتب أكثر من خمسين سنة دون أن ينتبه أحد لوجوده ، ثم يصبح فجأة وبسرعة خاطفة مالىء الدنيا وشاغل الناس ، فيقال عنه : « إن كتابه عن تفسير جماليات دستوفسكي يمكن مقارنته بفن الشعر لارسطو ، ولكنه يختلف عن ارسطو الذي يتحدث عن عمل (مغلق) ، في أنه يقدم مفهومات جمالية لنص (مفتوح) » . فما هو تفسير هذا الغياب والظهور المفاجيء ؟

ولد باختين في عام ١٨٩٥ ، وتوفي عام ١٩٧٥ ، بدأ يكتب عن دستوفسكي في عام ١٩٢١ ، وفي عام ١٩٢٢ كتبت صحيفة تصدر في بطرسبورج خبرا بأن باختين ينوي نشر كتابه ، ولكن هذا الكتاب لم ينشر إلا في عام ١٩٢٩ ، وقد أثار الكتاب عند صدوره ضجة إذ كتب عنه أناتولي لوناتشارسكي الذي كان وزيرا للتعليم آنذاك ، مقالا طويلا يمتدح فيه الكاتب .

في هذه السنة ١٩٢٩ ، تم اعتقال باختين لسبب غير مفهوم ، ووضع دستوفسكي في قائمة المحرمات . وبسبب صحته المعتلة (إذ كان يعاني مرضا في العظام أدى إلى بتر ساقه) اكتفى بنفيه إلى كازاخستان .

لثلاثين عاما عاش « باختين » ، وكتب في ظل النسيان ، وفي خمسينيات هذا القرن ، اكتشف عدد من دارسي الأدب الشبان في موسكو كتاب باختين عن دستوفسكي ،

ولدهشتهم الشديدة اكتشفوا أن المؤلف ما زال حيا ، ويرأس قسم الأدب الروسي والعالمي في جامعة سارانسك .. أخذ هؤلاء الشبان يلحون على باختين ليصدر طبعة ثانية من كتابه ، تلكأ طويلا ، ولكن الشبان لاحقوه فصدرت الطبعة الثانية من الكتاب في عام ١٩٦٣ ، ثم توالى صدور كتبه الكثيرة التي لم يحاول نشرها من قبل « نشر له بعض الكتب قبل ذلك بأسماء مستعارة » .

الشكل «البوليفوني»:

« البوليفونية » مصطلح موسيقي يعني تعدد الأصوات في إطار وحدة عضوية ، وقد وصف بها « باختين » الشكل الروائي الذي ابتدعه دستوفسكي وتمايز به عن غيره . يقول باختين : نعتبر دستوفسكي واحدا من أعظم المجددين في مجال الشكل الفني ، لقد ابتدع في رأينا نمطا جديدا كلية ، أسميناه النمط « البوليفوني » . هذا النمط من الفكر الفني تجسد في روايات دستوفسكي .

حتى يتضح ما يعنيه باختين « بالبوليفونية » علينا أن نشرح هنا الشكل الروائي الآخر الذي يسميه باختين برواية الصوت الواحد ، التي يمثلها تولستوي وكل الروائيين في العالم ، باستثناء دستوفسكي .

رواية الصوت الواحد مصاغة بمفهوم الوحدة العضوية الأرسطي ، منقول من المسرح إليها ، يمكننا تفسير ذلك بايجاز ، إن الرواية تشبه الجسد الحي ، حيث كل عضو من أعضاء الجسد له وظيفة محددة ، وتتحدد هذه الوظيفة من علاقته بالجسد الحي ككل . ولهذا لا يمكن لأي عضو من الأعضاء أن يستقل بوظيفته عن الجسد ، ولا أن يكتسب معناه إلا بهذه العلاقة .

ففي رواية الصوت الواحد تتخذ الشخصيات والأحداث والمواقف كامل دلالتها من خلال اندراجها في سياق الرواية ككل ، إذا فصلنا أي عنصر من هذه العناصر عن جسد الرواية فقد معناه ، وأصبح كعضو ميت انفصل عن الجسد ، وألقى بعيدا ليذوي ويموت .

وإذا افترضنا أن العضوية تكتسب خصائصها من وجود الحياة في الجسد ، فإننا نستطيع القول إن الحياة هي صوت الجسد ، الحاكم المطلق الذي يخلق العضوية ، ويحدد مسارها ، وتفاعل أجزائها . الحياة هنا هي صوت المؤلف الذي يسيطر على شخوص روايته ، ولا يتيح لهم التحرر من (مونولوج) المؤلف نفسه ، وفي هذا النمط من الرويات ، قلما يتاح للشخصيات أن تتحرر ، وتصبح حيوات كاملة ، تروى حكاياتها ، إذ هي في الغالب أدوات يستعملها المؤلف لتحقيق مطالب معدة مسبقا .

وإذا مضينا أبعد من ذلك في المقارنة بين الجسد الحي ورواية الصوت الواحد قلنا إن هذا النمط من الرواية سوف يصاب بداء خطير إذا استقل عضو من أعضائه ومارس حياته الخاصة ، فللشخصية في داخل الرواية وظيفة محددة ، إذا تم تجاوزها ، أو تغييرها ، أصبح البناء الروائي مهددا بالسقوط ، وهذا يعني أن خضوع الشخوص الروائية لديكتاتورية المؤلف ضرورة حياتية ، تضمن عافية الرواية ، وتحافظ على منطقها الداخلي .

على هذه الخلفية نستطيع أن نحدد الجديد في الرواية « البوليفونية » كما كتبها دستوفسكي .

يحدد باختين الخطوط العامة لرواية دستوفسكي فيقول : إن قراءة هذا الكم الكبير من أدب دستوفسكي تخلف انطباعا يختلف عن قراءة أي أديب آخر . نتبين أننا لسنا أمام مؤلف واحد يكتب الروايات والقصص ، بل في مواجهة العديد من الأفكار الفلسفية التي أطلقها مفكرون متعددون ، من أمثال يشكن في (الأبله) ، وستافروجن في (الشياطين) ، و راسكيلنكوف في (الجريمة والعقاب) وإيفان كارامازوف والمفتش الأكبر في (الأخوة

كارامازوف) وغيرهم . لهذا السبب تم تجزيء دستوفسكي إلى سلسلة من المواقف الفلسفية المتمايزة والمتناقضة ، يدافع عن كل منها إحدى شخصياته .

أين يقف المؤلف من هذا الخليط ؟

يقول باختين : « من بين هؤلاء نجد وجهات نظر المؤلف الفلسفية ، ولكنها لا تحتل بأية حال المكان الأول . . إن الشخصية الروائية في أعماله تقدم نفسها كشخصية مستقلة وذات سلطة ، ولهذا تبدو الشخصية الروائية وكأنها ليست أداة لخطاب المؤلف ، بل شخصية قائمة بذاتها حاملة لخطابها الخاص بها » .

ويضيف باختين أن الوزن الكبير لشخصيات دستوفسكي الروائية قد حطم المستوى المونولوجي للرواية ويقول :

« إن دستوفسكي مثل بروميثيوس جوته ، لا يخلق عبيدا لا صوت لهم ، بل بشرا أحرارا قادرين على الوقوف جنبا إلى جنب ، وعلى الاختلاف معه ، وقادرين حتى على الثورة عليه » .

وعي المؤلف ووعي الشخصية :

لكن ما تقدم قد يجعل البعض يعتقد أن وعي المؤلف لهذا النمط من الرواية سوف يكون سلبيا . إنه يبدو كحاكم لا سلطة له ، ولا معرفة بتوجيه أمور رعيته ، إذ كل انسان يقول ويفعل ما يعن له ، فهل هذا صحيح ؟

يقول باختين : « من المناسب هنا أن نؤكد مرة أخرى الصفة الايجابية والفاعلة للموقع الجديد لمؤلف الرواية « البوليفونية » . إنه لأمر مضحك الظن بأن وعي المؤلف لا يجد تعبيرا عنه في روايات دستوفسكي ، إن وعي المبدع في الرواية « البوليفونية » موجود دوما وفي كل موضع في الرواية ، وهو وعي فاعل إلى الحد الأقصى . ولكن وظيفة هذا الوعي وأشكال فعله تختلف في هذا النمط من الرواية ، عنه في الرواية ذات الصوت الواحد : فوعي المؤلف لا يحيل وعي شخوصه إلى أدوات ، ولا يضفي عليها تحديدات مستهلكة وحاسمة ، إن وعي المؤلف يدرك ويقبل وعي الآخرين بأنه وعي لا حدود له ، وعي منفتح ، كوعي المؤلف نفسه . إنه لا يعيد خلق عالم من الأدوات والوسائل ، بل وعي الآخرين وعوالمهم ، يعيد خلقهم بانفتاحهم الحقيقي الذي لا يصل أبدا إلى حالة التحدد والانغلاق . (وهذا في نهاية الأمر هو جوهرهم الحقيقي) » .

الحوار العظيم :

بعد تحديد الملمح الأساسي للرواية « البوليفونية » ، وهو استقلال الشخصيات عن ايديولوجية المؤلف ، ما هي السمة الأساسية « لمونولوج » هذه الشخصيات الذي تعبر به عن نفسها ، سواء اتخذ هذا « المونولوج » صفة الحديث إلى النفس أو الحديث إلى الآخرين ؟

يجيب باختين أنه الحوار الذي لا ينقطع مع الآخر ، مع مخاطب حاضر أو مفترض ، وانطلاقا من مفهومه للحوار يقيم نظريته في اللغة ، وفي الانسان .

ما الذي يعنيه باختين بالحوار (Dialogue) ؟

الحوار يتخلل اللغة عندما تصبح قولا ، كلاما منطوقا ، وبهذا يصبح القول هو الطاقة التي تربط بين وعي الانسان الداخلي والعالم الخارجي عندما نتحدث أو نكتب ، فذلك لا يشير إلى أفكارنا فقط ، بل يدلنا على كيفية تفاعلنا ، واسلوب تفاعلنا هو الحوار مع الذات ومع الآخر ، إن اختفى الآخر ، انتهى الحوار وانتهت الذات .

يقول باختين : « في الحوار يصبح إلجام الخصم ، وإسكاته قضاء على منطقة الحوار التي يحيا الخطاب فيها » .

يقوم الحوار على سوء فهم متبادل اكثر مما يقوم

على التطابق المتبادل في الفهم ، إن تعدد اللغات ، كما يقول يحرر الانسان ، لأن هذا التعدد يقيم فجوة بين الشيء وبين الكلمة التي تدل على ذلك الشيء ، ولهذا السبب كانت الرواية أكثر حرية من الملحمة ، لأن أبطال الرواية لا يرتفعون إلى مستوى الموقف الذي يتم وضعهم فيه . هذا الاخلال في التوازن بين اللغة ومدلولاتها ، بين الأبطال الروائيين والمواقف الروائية ليس مدعاة لليأس ، بل دافعا للحياة ، إن تفاعل نظامين في الفهم مختلفين ومتمايزين هو الوسيلة الوحيدة لخلق حدث روائي .

بهذا يقيم باختين « كونا ثنائيا مبنيا على الحوار الدائم » كما تقول مترجمة كتابه الأمريكية كارلي امرسن . ويتحدث باختين طويلا عن علاقات الحوار ، وسوف نحاول هنا أن نوجز قوله إلى الحد الأقصى .

حوار المساكين

دعونا نتابع الآن كيف نقل باختين مفهومه عن الحوار إلى دستوفسكي .

كانت رواية « المساكين » هي أول رواية كتبها دستوفسكي ، وقد كتبت على شكل رسائل ، والسمة المميزة للرسالة هي الشعور الحاد لدى كاتبها بوجود طرف آخر يحاوره ، وهو - هنا - الشخصية التي كتبت لها الرسالة .

والرسالة ، كأحد أساليب الخطاب ، محملة باحساس قوى يأخذ في الاعتبار ردود فعل المخاطب ، وكذلك استجاباته المتوقعة .

هذه العلاقة بالطرف الآخر للحوار - وهو هنا طرف غائب - تتسم بالحدة ، وهذه الحدة عند دستوفسكي تبلغ حدها الأقصى .

ومنذ روايته الأولى هذه أنشأ دستوفسكي اسلوبا في الكتابة ، جعل عمله الابداعي بكامله ، يتسم اساسا بالتوقع الملهوف والحاد لرد الطرف الآخر ، إن دلالة وابعاد هذا الأسلوب في أعماله اللاحقة كانا كبيرين : فأهم اعترافات أبطاله مفعمة ومتخللة بحساسية قصوى نحو ما سيقوله الآخرون عنهم ، ولردود فعل الآخرين نحو حديث هذه الشخصيات إلى نفسها وعن نفسها .

لا يقتصر هذا التوقع على تلوين وأسلوب الكلام ، بل يمتد إلى بنية اللغة نفسها ، نتبين ذلك عندهم كلهم ابتداء من تحفظات وخداع النفس المشحونين بالتوتر عند غوليادكن (بطل المساكين) ، وانتهاء بالجموح الأخلاقي « والميتافيزيقي » لدى ايفان في رواية (الاخوة كارامازوف) . وفي رواية (المساكين) يبدأ دستوفسكي في تجريب اسلوب الانسان المسحوق في الحديث عن نفسه ، وهو محمل بخشية وخوف وخجل من استجابات الآخرين . إنه يتقدم بخطابه وهو يلقي « نظرة جانبية » وجلة ومعتذرة ، نحو الآخر . ولكن هذا الحديث يحمل ، في الوقت نفسه ، تحديا كامنا .

مثال ذلك : أسكن في المطبخ ، أو على الأصح وحتى أكون أكثر دقة ، هنالك حجرة قرب المطبخ (ومطبخنا - علي أن أقول لك نظيف - ومضيء ولطيف جدا) حجرة صغيرة ، ركن متواضع ، أو على الأصح أن المطبخ حجرة كبيرة ، لها ثلاث نوافذ ، وهنالك حاجز يتخلل الجدار الداخلي ، مما يجعلها تبدو كأنها حجرة أخرى ، مسكن إضافي ، إنها واسعة ومريحة ، وهنالك نافذة وكل شيء ، في الواقع كل ما أحتاجه . حسنا ، هذا هو ركني الصغير لهذا لا تتصوري يا حبيبتي أن هنالك شيئا آخر يتعلق به ، أي دلالة غامضة تتصل به : « إنه يعيش في المطبخ ! » حسنا إذا أعجبك ، فإنني فعلا أعيش في المطبخ ، خلف الحاجز ، ولكن ذلك لا أهمية له . أعيش مستقلا تماما ، بعيدا عن أي شخص آخر ، بهدوء وراحة . وفي الحجرة سرير ومائدة وكرسيان وخزانة ، وقد علقت

أيقونة كذلك . هنالك مساكن أحسن ، ذلك مؤكد . وقد تكون هذه المساكن أحسن كثيرا ، ولكن الشيء المهم هو الراحة ، لقد رتبت كل شيء بنفسي للحصول على أكبر قدر من الراحة ، كما تعلمين ، وعليك ألّا تتصوري شيئا خلاف ذلك » .

يعلق باختين على هذا النص المأخوذ من رواية « المساكين » بقوله : « يكاد ديفوشكن يلقي بعد كل كلمة نظرة جانبية على الطرف الآخر الغائب من الحوار : يخشى أن تظن أنه يشكو ، لهذا فهو يسعى منذ البدء أن يحطم ذلك الانطباع الذي تثيره أخبار السكن في مطبخ ، فهو لا يريد أن يتعسها وما شابه .

إن تكراره لكلمات بذاتها كانت نتيجة لمحاولته تأكيدها ، ومنحها معاني إضافية في ضوء استجابات الطرف الآخر من الحوار المتوقع » .

بالإضافة إلى هذا فإن ديفوشكن يتوقع عبر خطابه استجابات شخص آخر ، شخص غريب عنه ، يصف هذا الغريب في إحدى رسائله الموجهة إلى حبيبته :

« أتوقع أنك لم تعرفي بعد كيف يكون الغرباء ، الأفضل أن تسأليني وسوف أحكي لك كيف يكون الغرباء ، أعرفهم يا حبيبتي ، اعرفهم بشكل جيد جدا ، إذ كان عليّ أن آكل خبزهم . إنهم حقودون يا فارنكا ، حقودون ، حقودون إلى حد مدمر ، سيعذبون قلبك باللوم ، واختلاق الأخطاء ، والنظرات الشريرة » .

إنه يشعر دوما بالنظرات الشريرة التي يوجهها الشخص الآخر إليه ، وهي نظرات إما أن تكون لائمة - أو أن تكون ما هو أسوأ من ذلك في نظره - أو أن تكون ساخرة ، لأن الأشخاص الذين يتسمون بالكبرياء ، يشعرون أن أسوأ نظرة يمكن توجيهها إليهم هي نظرة الاشفاق .

تحت سطوة نظرة الآخر . لهذا فإن ديفوشكن دائم التلصص ، والتنصت على ما يقوله الآخرون عنه ، إنهم يقولون خلف ظهره : « المسكين موسوس له نظرة مختلفة لدنيا الله » ، اذ ينظر بتساؤل ويلقي نظرات قلقة حوله مراقبا كل كلمة تقال ، ويتساءل هل يتحدثون عنه » .

وعي الشخصية متأثر بوعي الآخر لها :

إن تكيف الشخصية الروائية لخطاب ووعي الشخص الآخر ، هي في جوهرها السمة الأساسية لكل أعمال دستوفسكي ، إن موقف الشخصية الروائية من نفسها يرتبط بشكل كامل بموقفه من الآخر ، وبموقف الآخر منه . إن وعيه لنفسه يمر عبر خلفية وعي الآخر به - أي « أنا من أجل نفسي » موضوعة على خلفية « أنا من أجل الآخر » ولهذا فإن كلمات الشخصية عن نفسها تصاغ تحت التأثير الدائم لكلمات الشخص الآخر عنه .

إن هذه السمة قد تم تطويرها في أعماله المختلفة عبر أشكال متنوعة ممتلئة بمضامين متعددة ، وعلى مستويات روحية مختلفة . في رواية (المساكين) يتفتح الوعي الذاتي للرجل المسكين على أرضية وعي موجه له ، ومضاد اجتماعيا له . إن تأكيده لنفسه يظهر لنا كصراع خفي أو حوار مختف مع شخص آخر ، حول شخص صاحب الخطاب .

في أعمال دستوفسكي المبكرة ، تجد هذه السمة تعبيرا بسيطا ومباشرا فالحوار لم يستقر في داخل الشخصية ، ولم ينفذ إلى ذرات فكره وتجربته ، إن عالم شخصياته في هذه الأعمال ما زال صغيرا ، ولم يتحول أبطاله بعد إلى ايديولوجيين . إن تدني مستواهم الاجتماعي ، وبؤسهم جعل نظرتهم الجانبية الداخلية وصراعهم الداخلي مباشرا ومحددا . لم تمتلك بعد هذه الشخصيات ذلك الغليان الداخلي

الذي يتطور في أعمال دستوفسكي الأخيرة إلى أبنية ايديولوجية متكاملة . إلا أن الطابع العميق للعلاقات الحوارية لوعي الذات وتأكيدها موجود هنا بأقصى درجة من الوضوح .

يورد باختين نصا آخر من رواية (المساكين) يقول ديفوشكن في إحدى رسائله : « منذ يوم أو يومين قال يفستا ايفانوفتش في حديث خاص ، إن أهم فضيلة يتمتع بها المواطن هي الحصول على النقود ، وقال مازحا (أنا أعلم أنه كان يمزح) إن الخلق الفاضل يعني أن لا يكون الانسان عبئا على الآخرين . حسنا أنا لست عبئا على أحد ، لقمة خبزي ملكي أنا ، صحيح أنها حاف وقد تكون جافة أيضا ، ولكنني حصلت عليها بمجهودي وقد كرستها لاستعمال شرعي ليس فيه ما ألام عليه . لماذا ، وما الذي أستطيع فعله ؟ أنا أعرف أنني لا أقوم بعمل كبير من خلال النسخ ، رغم ذلك أنا فخور أن أعمل وأحصل على خبزي من عرق جبيني . وماذا في ذلك في أن أكون ناسخا بعد كل شيء ؟ أي ضرر في كوني ناسخا بعد ؟ يقولون « إنه ناسخ » ولكن ما المهين في ذلك ؟ أرى الآن أنني ضروري ، أنني لا غنى عني ، وأنه ليس هنالك من داع لأن أقلق نفسي بهذا الهراء . حسنا ، فلأكن فأرا ، إن كان ذلك يعجبكم ما دمتم ترون تشابها بيني وبين الفأر ، ولكن هذا الفأر ضروري ، هذا الفأر مفيد ، ولكنكم تعتمدون على هذا الفأر ، ولكنكم تمنحون مرتبا لهذا الفأر . إذاً فهذا هو الفأر الذي تتحدثون عنه !

يكفينا حديثنا عن هذا الموضوع ، رغم أنه يخصني ، لم أقصد أن اتحدث عن ذلك مطلقا ، ولكنني انفعلت بعض الشيء ، بالاضافة إلى هذا فإنه أمر ممتع أن يقوم الانسان بين آن وآخر بإنصاف نفسه » .

وفي حوار أكثر حدة يتكشف وعي ديفوشكن بنفسه ، عندما يتعرف على نفسه في رواية غوغول « المعطف » إنه يقرأ الحكاية ويتصور أنه هو شخصيا المقصود بها ، فيسعى لدحضها من خلال نقاشه لها ، باعتبارها هجوما عليه .

ولكن دعونا نتوقف قليلا ، ونعاين عن قرب البنية التي تتشكل عبر « الكلام المترافق مع نظرة جانبية » .

إن غالبية عبارات النص المقتبس تم اختيارها حتى تعكس وجهتي نظر : رؤية المتحدث التي يريد للآخرين أن يقتنعوا بها ، ورؤية الآخر .

إن تضمين عبارات الآخر في حديث ديفوشكن يبدو أكثر وضوحا في النص المقتبس الثاني . إن عبارات الآخر المضخمة موضوعة داخل قوسين : « إنه ناسخ » في السطور التي سبقت هذه العبارة تتكرر كلمة (ينسخ) ثلاث مرات ، وفي كل مرة من هذه المرات الثلاث ، نتبين جرس كلمة الآخر (ينسخ) مقالة ضمنا ، ولكن جرس ديفوشكن يقمعها ، ان جرس الآخر هنا يتصاعد بالتدريج :

« أنا اعلم أنني لا أقوم بعمل كبير من خلال النسخ وماذا في ذلك . . . في أن أكون ناسخا ؟ أي ضرر في كوني ناسخا؟ (إنه ناسخ) . »

الصوتان حاضران في هذا النص ، لا يغيب أحدهما للحظة واحدة .□

مقالات في كلمات

- دعك من الكسل فهو الصدأ الذي يلصق بألمع المعادن .
- العبودية أثقل من الحرب .
- الرجاء هو البستاني الذي يحرث القلب .



● التزلج في روسيا في القرن الماضي

الرّحالة العربي المنسي

أبو حامد

بقلم : فارس المنصوري

تمتلىء المكتبة العربية بكتب وموضوعات الرحالة العرب الذين جابوا الأرض من أدناها ـ المعلوم في أيامهم ـ الى أقصاها . وتشهد لهم آثارهم التي ضمنوها مشاهداتهم عن الطبيعة والبشر باللماحية والذكاء ، فاستحقوا التخليد والشهرة ، إلا أن بعضهم لم ينل حظ أقرانه من الشهرة ، منهم الرحالة أبو حامد الذي يتناوله الكاتب بالتعريف مستعرضا رحلاته في ثلاث قارات .

برز العرب فيما برزوا في القرون الوسطى بأدب الرحلات الذي كانوا فيه من السابقين والمبدعين ، ومازالت أسماء مشاهير الرحالة مثل ابن جبير وابن بطوطة وابن فضلان وغيرهم حية مثل الكتب التي ألفوها وأغنوها بالمعلومات والملاحظات المفيدة . على أن بين هؤلاء السياح القدامى رحالة غلب الظلام على ذكره طوال قرون ، واضمحل صيته بين الناس .

لكن ذكره اليوم أخذ ينبعث الى الوجود من جديد على صفحات الكتب والمجلات ، بفضل بعض المؤرخين والباحثين الذين فطنوا إلى ما في آثاره الأدبية من المشاهدات والملاحظات الثمينة ذات القيمة التاريخية والجغرافية ، مثل وصفه بعض الحيوانات المنقرضة وحديثه عن عظام الماموث المدفونة في شرقي روسيا ، وذكره لأصناف البضائع التي كانت القبائل الافريقية تتجر بها عبر الصحراء الكبرى . وأخيرا وليس آخرا ، وصفه الدقيق المفصل للتزحلق على الجليد (سكي) وللمعدات التي كان قاطنوا المناطق الثلجية يستعملونها للتنقل على الجليد في شرقي روسيا .

وقد نشرت مجلة انكليزية تختص برياضة التزحلق على الجليد مؤخرا نبذة عن هذا الرحالة الطلعة ، مبينة بأن وصفه المدون في القرن الثاني عشر الميلادي لمعدات التزحلق يعد الحلقة المفقودة في تاريخ التزحلق الجليدي في العالم .

نشأته

هذا الرحالة هو أبو حامد الذي وصلنا منه كتابين هما « تحفة الألباب ونخبة الإعجاب » و « المعرب عن بعض عجائب المغرب » ، ولا نعلم على وجه التأكيد إذا كان قد ألف غيرهما . وقد كتب هو نفسه في مؤلفه « المعرب » يقدم نفسه للقارىء : « مولدي بالمغرب الأقصى بجزيرة تعرف بأندلس ، فيها أربعون مدينة ، ومولدي في مدينة تسمى غرناطة » .

واسمه الكامل هو محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الإقليشي الغرناطي ، ونسبه الأول الى قرية قيس القريبة من غرناطة ، أما نسبه الثاني ، الإقليشي فتدل على أن موطن أسرته الأصلي كان في بلدة اقليش التي تتبع اليوم مديرية كوينكا باقليم قشطلة الجديدة ، الواقع وسط أسبانيا . والمرجح أن أسرته هاجرت الى منطقة غرناطة بعد سقوط اقليش بيد الأسبان .

- لا نعلم شيئا عن نشأة أبي حامد في الاندلس ، لكنه غادر موطنه الى غير رجعة فيما يبدو وهو في حوالي السابعة والعشرين ، مدفوعاً بدافع السفر والسياحة ، وحبا في التعرف على الأقطار الأخرى . فطاف بأرجاء المغرب الأقصى الى أن بلغ مدينة سجلماسة ، وكانت يومئذ مركزاً تجاريا مهما على حافة الصحراء الكبرى ، حيث تلتقي القارة السوداء مع شطرها الأسمر . ومن هناك واصل ترحاله الى تونس ، فزار أهم معالمها ، ثم ركب البحر متجها الى الاسكندرية .

أبو حامد في مصر

وفي الاسكندرية لم يترك بقعة جديرة بالمشاهدة إلا وذهب ليزورها ، فزار فيها زار الفنار الشهير الذي كان يعد في عداد العجائب السبع في العالم القديم ، ووصفه وصفا دقيقا . بل لم يكتف بالوصف وإنما زاد عليه برسم بقلمه على هامش المخطوطة يمثل الفنار . وكمعظم معاصريه من العرب عزا أبو حامد بناء الفنار الى ذي القرنين ، وهو الاسم الذي عرف به الاسكندر الأكبر لدى العرب ، بينما في الواقع كان باني ذلك الصرح الذائع الصيت هو الملك بطليموس فيلاديلفوس (٢٨٥ - ٢٤٦ ق . م) أحد أجداد كيلوباترا من الملوك الهلينيين الذين حكموا مصر الى أن أسقطهم اغسطس قيصر روما في القرن الميلادي الأول .

وفي الاسكندرية أيضا زار رحالتنا معبد سيرابيوم الشهير ، كما دخل المغارات وجال في الأنفاق المعروفة بالكاتاكومب . ثم غادر المدينة قاصداً القاهرة ، فدخلها سنة ٥١٢هـ . وفي كتابه نجد وصفا لمعالم العاصمة الفاطمية بمساجدها ومعابدها الفرعونية ، وللأهرامات ومسلة عين شمس ، ولمقياس النيل ، لكنه لم يتحدث عن الجامع الأزهر ، ويبدو من اللمحة التي قدمها عن الوضع السياسي السائد في البلاد

أنه لم يكن من مؤيدي الحكم الفاطمي ، أو لعله اتخذ هذا الموقف لكونه - كما سنذكر في المقال - قد كتب كتابه « المعرب » وأهداه الى صديقه وولي نعمته الوزير العباسي ، ومن ثم كان عليه أن يحابي العباسيين على حساب الفاطميين .

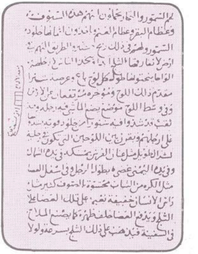
بقي رحالتنا في مصر حتى سنة ٥١٥هـ ، ثم غادرها الى دمشق حيث درس الحديث الشريف في المساجد ، لكنه لم يفقد أبدا رغبته في السياحة والتفرج على معالم المناطق التي يحل فيها ، فقد انطلق غربا ليشاهد بعلبك ، وشرقا ليتعرف على تدمر ، ثم واصل ترحاله بعد فترة قاصدا بغداد ، فبلغها في ٥١٦هـ وأقام فيها نحو أربع سنوات .

صداقة مع وجيه بغدادي

وكان من حسن حظه أن تعرف في عاصمة العباسيين على رجل من أعيان المدينة ووجوهها وهو يحيى بن هبيرة الشيباني الذى تولى - فيما بعد - الوزارة في عهد الخليفة المقتفى وخلفه المستنجد ، ولقب بذي الوزارتين ثم أطلق على نفسه اسم عون الدين .

وتنعقد أواصر الصداقة بين الرجلين ، فيفتح الوجيه البغدادي بيته العامر للرحالة الغرناطي ، ويستضيفه ويضع تحت تصرفه مكتبته الغنية بشتى المؤلفات القيمة الثمينة ، ويعينه ماديا ليتفرغ للسفر والترحال . وبفضل هذه الرعاية يتمكن صاحبنا الأندلسي من اشباع نهمه في السياحة والتجوال ، فيتخذ من بغداد قاعدة ومحورا لأسفاره المتعددة شرقا وشمالا وغربا وجنوبا .

ويمكننا أن نتتبع خط تنقلاته مستعينين بالتواريخ التي يوردها في كتابيه . ففي ٥٢٤هـ ، أي بعد ثماني سنوات من نزوله بغداد ، نجده في أبهر بايران ، ونعلم منه أن تلك المنطقة كانت مركزا مهما لصناعة السلاح وتصديره الى الأقطار القريبة والبعيدة ، إذ يكتب : « بالقرب من دربندا (تقع في الطرف الجنوبي الغربي من بحر


لهم السمور والتجار يحملون اليهم هذه السيوف
وعظام البقر وعظام الغنم ويأخذون اثمانها جلود
السمور ولهم في ذلك ربح [illegible] الطريق اليهم في
ارض لا تفارقها الثلوج [illegible]
الواحا ينحتونها طول كل لوح باع وعرضه شبرا
مقدم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان عن الارض
وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي فيه رجله وفيه
ثقب قد شدوا فيه سيورا من جلود قوية يشدها
على ارجلهم ويقرن بين اللوحين اللذين تكون في رجليه
بشر الطويل مثل عنان الفرس يمسكه في يده الشمال
وفي يده اليمنى عصى بطول الرجل وفي اسفل العصا
مثل الكرة من الثياب محشوة بالصوف كثيرا مثل
راس الانسان خفيفة يعتمد على تلك العصا على
الثلج ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح
في السفينة فيذهب على ذلك الثلج بسرعة ولولا

● من مخطوطه « المعرب » بخط يده مع رسمه للوح السكى على الهامش

قزوين) جبل عظيم في أسفله قريتان فيهما أمة يقال لها زريه كاران (كلمة فارسية تعني صناع الجلود) يتخذون الآلات جميعا للحروب ، من الدروع والجواش والخوذ والسيوف والرماح والقسي والنشاب والخناجر (. .) جميع نسائهم وأولادهم وبناتهم يتخذون هذه الصنائع كلها ، وليس لهم حرث ولا بساتين وهم أكثر الناس خيرا ومالا ، يقصدهم الناس بجميع النعم من جميع الآفاق ، وليس لهم دين ولا يعطون جزية » .

وقد شغف أبو حامد ببلاد خوارزم حتى أنه اجتازها ثلاث مرات ، وعبر منها الى بلاد البلغار ، علما بأن المقصود هنا هو موطن البلغار الأصلي ، وكان يقع في شرقي روسيا في ذلك العهد ، أي قبل أن يرحل البلغار الى بلادهم الحالية غربي البحر الأسود . ونعلم من رحالتنا أيضا أن البلغار كانوا في عهده يدينون بالإسلام وليست المسيحية .

أقام رحالتنا في مدينة تدعى سجسين ، وأهاليها هم مزيج من عدة قبائل تركية العنصر ، بينهم الخزر والغز والطور ، وهم جميعا من المسلمين وعلى مذهب الإمام الشافعي . ونفهم من حديثه أنه استطاب الإقامة في تلك البقعة النائية على الرغم من بردها القارص ، وبعدها عن مراكز الحضارة ، فتزوج وأسس لنفسه أسرة .

والمعروف الآن أن مدينة سجسين التي اندثرت فيا بعد - ربما بسبب تخريب المغول لها عندما غزوا روسيا - كانت تقع قرب مصب نهر فولجا ، ثم انبعثت فوق خرائبها مدينة جديدة تدعى اليوم استراخان .

كتب رحالتنا عن تلك البلاد التي يكسوها الجليد معظم أشهر السنة :-

« ويشتد البرد فيها حتى إذا مات لأحد ميت لا يقدر أن يدفنه ستة شهور ، لأن الأرض تكون كالحديد ولا يمكن أن يحفر فيها قبر . ولقد مات لي بها ولد ، وكان في آخر الشتاء ، فلم أقدر على دفنه ، فبقي في البيت ثلاثة أشهر حتى أمكن دفنه ، وبقي الميت كالحجر » .

حوار مع الملك

من أهم فصول كتاب « المعرب » هو ذلك الذي يدور حول مشاهدات رحالتنا في تلك البلاد التي يسميها باشغرد أو انغورية ، وهي طبعا هنغاريا أو المجر . إذ أقام فيها قرابة ثلاث سنوات أصبح إبانها رئيسا روحيا للجالية الإسلامية التي كان معظم أفرادها قد نسوا العربية ومعها الكثير من فروض الإسلام . وقربه ملك المجر إليه ، ودار بينهما في أحد الأيام الحوار الظريف التالي بعد أن علم الملك أن أبا حامد حرم على أبناء الجالية الإسلامية شرب الخمر وأباح لهم اقتناء الجواري والتزوج من أربع نساء :-

- الملك : ليس هذا من العقل ، لأن الخمر يقوي الجسد ، وكثرة النساء تضعف الجسد والبصر .

- أبو حامد للمترجم : قل للملك شريعة المسلمين ليست مثل شريعة النصارى ، النصراني يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء ولا يسكر ، وذلك يزيد في القوة . والمسلم الذي يشرب الخمر إنما يطلب منه غاية السكر ، فيذهب عقله ويصير كالمجنون يزني ويقتل ويكفر ولا خير عنده ، ويعطي سلاحه وفرسه ويضيع ماله في طلب لذته ، وهم هاهنا جندك ، وإذا امرته بالغزو لا يكون له فرس ولا سلاح ولا مال ، قد أهلكه الشراب . فإذا علمت ، إما تقتله أو تضربه أو تطرده أو تعطيه خيلا وسلاحا يفسده أيضا . وأما الجواري والنساء فإن المسلمين يوافقهم ذلك لحرارة طباعهم ، وأيضا فإنهم جندك ، فإذا كثر أولادهم كثر جندك .

- الملك للمسلمين : اسمعوا من هذا الشيخ فهو عاقل ، فتزوجوا ما شئتم ولا تخالفوه ، ويعلق رحالتنا على ذلك بقوله « ذلك الملك خالف القسيسين ، واستباح الجواري . ذلك الملك يحب المسلمين » .

وأراد أبو حامد أن يعرج على سجسين ليتفقد أسرته التي تركها هناك ، وذلك في طريق عودته الى بغداد لمقابلة صديقه الوزير ، فاشترط عليه ملك هنغاريا أن يترك ابنه حامد في البلاد ، وكان ابن رحالتنا الأكبر قد تزوج سيدتين مسلمتين في هنغاريا . ثم سلمه الملك خطاب توصية الى ملك الصقالبة .

وعبر رحالتنا البحر الأسود ، واجتاز جنوب روسيا في طريقه الى خوارزم ، لكنه قبل أن يتوجه الى بغداد أخذ طريق الحج الى الديار المقدسة ، فأدى فريضة الحج ، ثم اخترق الصحراء النجدية قاصدا العراق . وفي بغداد عكف على تأليف كتابه « المعرب » الذي اهداه الى صديقه الوزير عون الدين لكنه كان مستعجلا العودة الى هنغاريا ليجتمع بابنه حامد وبأسرته هناك ،

والتمس من عون الدين أن يتوسط له لدى مسعود الأول ملك السلاجقة في آسيا الصغرى ، ليأذن له في اجتياز بلاده ، حيث أن الطريق البري عبر قونية ، ومن ثم البوسفور والبلقان أقصر بكثير من الطريق الذي كان قد استعمله في القدوم الى العراق من هنغاريا .

كتابه الثاني

لكن لما تأخر الإذن (أو « الفيزا » بلغة عصرنا) سافر أبو حامد الى الموصل ، وهناك استفسر عن الطريق الى قونية . لكن أثناء إقامته في الموصل طلب إليه أحد علمائها الشيخ «معين الدين أردبيلي» ، أن يؤلف كتابا آخر عن أسفاره ورحلاته ، فاستجاب رحالتنا لهذا الطلب وكتب كتابه الثاني الذي وصل إلينا ، « تحفة الألباب ونخبة الإعجاب » . وتدل عبارة الختام أنه انهى مؤلفه هذا في الثالث من ربيع الثاني عام (٥٥٧هـ) . وكان قد بلغ من السن عتيا ، والطريق الى باشغرد طويل شاق ، ينهك قوى الشاب ، فكيف الحال إذا كان المسافر قد طعن في السن وبلغ العقد التاسع من عمره ؟ على أن الحنين للاجتماع بأسرته وأولاده ظل يستبد بالشيخ الرحالة الى حد أنه طلب من قراء كتابه أن يدعو له فيرى ذويه قبل أن يفارق هذه الحياة . ترك الموصل قاصدا حلب ليصبح أكثر قربا من قونية . وبعد فترة غادر حلب صوب دمشق ، ولعله مثل الكثيرين من أبناء وطنه الأندلسيين



● التزحلق في القرن السادس عشر الميلادي

كان يرى في دمشق ـ مدينة الأمويين الذين وضعوا أسس المجد العربي في الأندلس ـ وطنا ثانيا بعد غرناطة التي كان قد غادرها الى غير رجعة قبل ذلك التاريخ بأكثر من ستين عاما .

وفي دمشق توفي رحالتنا عن عمر ناهز الثانية والتسعين ، وكان ذلك في سنة ٥٦٥هـ (حوالي ١١٧٠ ميلادي) تاركا للأجيال كتابيه « المعرب » و « التحفة » . وبقي ذكره يرد على ألسنة الدارسين والعلماء ، واستشهد بكتاباته عدد منهم ، بينهم الأديب والجغرافي وعالم الحيوان . كما أفرد له المؤرخ الكبير المقري نبذة في باب أعلام الأندلس ضمنها كتابه المرجعي عن تاريخ المسلمين في أسبانيا ، « نفح الطيب » ، الذي نشر في مصر في أوائل القرن السادس عشر ، وبعد سنوات قليلة من طرد المسلمين من أسبانيا بأمر من الملك فيليب الثالث .

الغربيون أول من اكتشفه

وفي عالم الاستشراق والاستعراب في القرنين التاسع عشر والعشرين أثار إنتاج أبي حامد اهتمام عدد كبير من الأساتذة الأوربيين المختصين بالأدب الجغرافي العربي ، بينهم المستعرب الفرنسي «غابرييل فيران» الذي حقق « التحفة » ونشر المخطوطة في المجلة الآسيوية في ١٩٢٥ . كما تولى المستعرب الاسباني « سيزار دوبلير » تحقيق « المعرب » ونشره مع ترجمة أسبانية في مدريد عام ١٩٥٣ . إلا أن إنتاج الرحالة الغرناطي بقي محصورا في نطاق ضيق يقتصر على الباحثين والعلماء دون أن يصل الى جمهور القراء . وعلى حد علمنا لم يطبع كتابا أبي حامد في الوطن العربي حتى اليوم ، إلا أن العلامة الدكتور «حسين مؤنس» أسدى خدمة جليلة لأدب الرحلات حينما أفرد لرحالتنا أكثر من خمسين صفحة في كتابه القيم الممتاز عن تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس (المطبوع في مدريد) .

أما لماذا لم يفز أبو حامد بشهرة مماثلة لتلك التي نالها رحالة آخرون مثل ابن بطوطة وابن جبير؟ فالسبب في ذلك أوضحه الأستاذ مؤنس بجلاء حينما كتب واصفا إنتاج الرحالة الغرناطي بأنه لا يدخل في عداد كتب الرحلات، كما أنه ليس إنتاجا جغرافيا خالصا، وإنما هو مزيج من ذلك كله. فمشكلة أبي حامد تكمن في قلة حظه من الثقافة، وفي ولعه بسرد أخبار العجائب والأمور الخارقة لقوانين الطبيعة ونواميسها، وكتبه هي خلط من الأخبار والمعلومات، سيئة الترتيب، ركيكة التتابع، يقفز المؤلف فيها من موضوع الى آخر دونما تمهيد أو تحضير، وبلا سلاسة في السرد. فبينما يصف فنار الاسكندرية إذ به يقفز ليصف ضم قادس في أسبانيا فاعلا ذلك المرة تلو الأخرى، ودافعا القارىء الحديث الى التمني لو أن رحالتنا انتهج ما انتهجه ابن بطوطة الذي أتى بعده بقرنين من الزمان، حينما كلف الشيخ ابن جزي كاتب السلطان المغربي أن يرتب له مادته ويعيد صياغتها بأسلوب أدبي مستساغ.

وموطن المأساة في كتابات أبي حامد، أن الرجل كان حاد الذكاء، دقيق الملاحظة، عظيم النشاط ولولا انجرافه مع تيار عصره، وميله الى اشباع رغبة معاصريه في الاستماع الى حكايات الأعاجيب والخوارق لترك لنا وثيقة تاريخية جغرافية اجتماعية أدبية من شأنها أن تضعه في مصاف الكلاسيكيين.

وصفه للأساطير والواقع

بيد ان ايثار رحالتنا للخرافة على الحقيقة في بعض ما كتبه، لا يعني مطلقاً أن إنتاجه كله يستحق الإهمال، لأن بإمكان الباحث المدقق أن يخرج بمادة قيمة تستحق الدراسة العميقة، وهي تشمل حتى أساطير رحالتنا لا سيما أن بعضها دخل في كتب لاحقة ألفت بعد وفاته بفترة طويلة، وبينها عمل أدبي من أروع ما أبدعته المخيلة البشرية، هو «ألف ليلة وليلة» الذي ندرسه اليوم ليس بسبب قيمته الأدبية فحسب، وإنما لأهميته الفولكلورية الشعبية أيضا.

فمثلا، أبو حامد تحدث في أحد كتبه عن الطائر الاسطوري «الرخ» الذي نجده في قصة السندباد. كما أن احدى القصص التي يرويها انتقلت بكاملها الى «ألف ليلة وليلة». بيد أن الجانب المهم في مساهمة رحالتنا في أدب الرحلات العربي الكلاسيكي يكمن في ملاحظاته الدقيقة التي نراها مبعثرة في كتاباته وبينها وصفه لعظام الماموث، ذلك الحيوان المنقرض منذ ملايين السنين، وقد شاهدها أبو حامد في شرقي روسيا: «ويوجد في أرضهم من عظام قوم عاد، السن الواحد عرضه شبران، وطوله أربعة أشبار، ومن طوله لمنكبه خمسة أبواع. ورأسه مثل القبة العظيمة، وهو هناك كثير». كما أنه يضيف: «ويوجد تحت الأرض أنياب الفيلة، أبيض كالثلج ثقيل كالرصاص، الواحد وزنه مائتا طن، وأكثر لا يدرى من أي حيوان هو. يقطع ويحمل الى خوارزم وخراسان، ويتخذ منه الأمشاط والحقاق وغير ذلك، كما يتخذ من العاج. وهو أقوى من العاج لا ينكسر...».

كما تحدث رحالتنا عن كثير من الحيوانات الحية والمخلوقات المائية، ومع أنه يمزج الخرافة بالحقيقة إلا أن الكثير من أسماك البحر المتوسط التي يصفها بدقة هي مخلوقات حقيقية مازالت تعيش بهذا البحر. وهذا أيضا ينطبق على وصفه لسمك «السترجن» الذي يعيش في بحر قزوين، وعلى حديثه عن الكافيار الذي هو اليوم أغلى نوع من الطعام في العالم. كتب عن السترجن والكافيار يقول: «ليس في السمك شوك ولا عظم في رأسها، وليس لها أسنان. كأنها إلية الحمل محشوة بلحم الدجاج (..) يخرج من بطنها دهن يكفي السراج شهرا، ويخرج من معدتها من غري (بطارخ) السمك نصف مَنّ، ويُقدد فيكون أحسن من كل قديد في الدنيا، في لون الكهرباء أحمر صافيا يؤكل مع

الخبز كما هو ، لا يحتاج أن يطبخ ولا يغلى » .

وكتب أيضا عن الثيتل المجري الذي انقرض في وقت لاحق ، ولولا أن الرحالة «هيربنشتاين» شاهد هذا الحيوان في القرن السادس عشر ووصفه وصفا مطابقا لحديث رحالتنا ، لقيل عن أبي حامد إنه مرة أخرى أطلق العنان لخياله ، واخترع حيوانا اسطوريا جديدا ، يضيفه الى مجموعته من الحيوانات الخرافية .

الحلقة المفقودة

على أن قمة المشاهدة والملاحظة في كتابات أبي حامد تأتي ضمن ما كتبه عن شرقي روسيا ، وذكره لألواح الانزلاق على الجليد في «المعرب» . وهذه هي الفقرة التي أدت الى إعادة لتقييم مساهمة أبي حامد في أدب الرحلات في القرون الوسطى .

« **الطريق الى بورا (شعب من شعوب سيبيريا) في أرض لا يفارقها الثلج أبدا ، ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحا ينحتونها ، طول كل لوح باع وعرضه شبر . مقدم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان من الأرض ، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي رجله ، وفيه ثقب قد شدوا فيه سيورا من جلود قوية يشدونها على أرجلهم ، ويقرب بين اللوحين التي تكون في رجليه شندال طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه في يده الشمال ، وفي يده اليمنى عصا بطول الرجل (أي الساق) وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير ، مثل رأس الإنسان ، خفيفة ، يعتمد على تلك العصا على الثلج ويدفع العصا خلف ظهره ، كما يضع الملاح في السفينة ، فيذهب على ذلك الثلج بسرعة ولولا تلك الحيلة لم يمكن لأحد أن يمشي هناك البتة . لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبد البتة ، وأي حيوان مشى عليه يغوص في ذلك الثلج فيموت فيه ، إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب ، فإنه يمشي عليه بخفة وسرعة . . .** » .

ولمزيد من الإيضاح ، رسم أبو حامد لوح الانزلاق على هامش الكتاب الذي خطه بيده ، وكتب تحته « صفة الألواح التي يمشون عليها » ومخطوطة « المعرب » محفوظة اليوم في أكاديمية التاريخ في مدريد . □

---

٧ دنانير فقط :

● **انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى دون أن يترك من حطام الدنيا درهما ولا دينارا ولا عبدا ولا أمةً ولا شيئا إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل.**

● **وعندما تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة نزل عن كل ما يملكه إلى بيت المال، وقد طلب الى زوجته أن تفعل مثل ذلك ففعلت، وكانا ـ هو وهي ـ من أغنى أغنياء بني أمية.**

● **وعندما توفي صلاح الدين الأيوبي لم يجدوا في بيته سوى سبعة دنانير، وصلاح الدين هو الذي حرر الأقطار العربية من قبضة الصليبيين، واسترد بيت المقدس من الأسر، ومكن الأزهر الشريف من القيام بدوره الجليل في خدمة الاسلام والمسلمين.**

القواعد الدولية تتحكم بالطرق الجوية

بقلم: ريا عارف الرفاعي*

« حالما تقلع الطائرة يصبح للسير قوانين ونظم ، ويتحول الفضاء الفسيح أمامها طريقا محددا بأرقام وزوايا ، وليس مجالا فسيحا بلا حدود ، بل يتم السير فيه وفق قواعد صارمة ، تحددها اتفاقيات ، وتنظمها قوانين » .

بعدما اخترق فدائي قبية « خالد العربي » أجواء فلسطين المحتلة ، بطائرته الصغيرة ، متخطيا بها مناطق المراقبة وأجهزة الرادار ، بل مناطق معلومات طيران « اسرائيل » كلها ، أعاد القضية الفلسطينية إلى الذاكرة ، إلى ذاكرة العالم ومركز الضوء . فلقد اختار موقفه العربي الصادق ، عندما كسر حاجز الخوف العربي المستحكم . ولما هبط طيار ألماني مغامر ، في وسط الساحة الحمراء في موسكو ، أدهش العالم من المفاجأة ، وتراءى لبعض آخر أن الأجواء مفتوحة أمام كل طيار ، فما أن يقلع بطائرته محلقا في الجو ، حتى يتحول إلى طائر محلق ، لا تعيقه حدود الدول ، ولا أنظمة المراقبة الجوية . كأنما الطيران هو المرادف للانعتاق من قيود الأرض ، ومن أنظمة المرور على الطرق ، التي تقيد السائقين والمشاة .

لكن الواقع مختلف تمام الاختلاف ، إذ تعد قواعد مراقبة الفضاء ، أشد صرامة بكثير من قواعد المرور على الطرق . ومع أن الطيران المدني يسمح بحرية الطيران ، إلا أنه يخضع لقواعد ونظم ، من شأنها تأمين سلامة الطائرات ، ومنع اصطدامها ببعضها في الأجواء وحمايتها من الارتطام بالمنشآت والأجسام العالية ، إضافة إلى ضمان تدفق الحركة الجوية

* مهندسة بدائرة الطيران بدولة الامارات العربية المتحدة .

بدون تأخير . فالسير على الطرق البرية ، لا يتأثر بالطقس ، كما أن بوسع سائق السيارة التوقف على جوانب الطرق ، بدون أن يعيق تدفق الحركة . بينما يستحيل على قائد الطائرة التوقف في الجو ، بل عليه متابعة الرحلة ، وعليه اتباع زاوية انحدار محددة حين الهبوط أو الاقلاع ، لحماية طائرته من العوائق ، أثناء الهبوط في المطارات . وعندما يتوجب على قائد الطائرة اجتياز الضباب والغيوم ، أثناء الطيران في الطقس السيىء أو الطيران الليلي ، تكون الرؤية متعذرة ، كما لا تتحقق سلامة الطيران ، مالم يزود الطيار بالمعلومات الجوية ، عند اجتيازه مناطق معلومات الطيران ، حيث تساعده المعلومات على اتمام رحلته بأمان .

وضعت المنظمة الدولية للطيران المدني المعروفة اختصارا بـ « ايكاو » ، خلال الأربعينيات ، قواعد وأنظمة لعمليات الطيران المختلفة على مختلف الارتفاعات ، وكان الهدف من ذلك حماية الطائرات ، وتأمين سلامة الطيران ، كما وضعت قواعد للاتصالات بين الأرض والجو ، لتزويد الطائرات والطيارين بالمعلومات الملاحية خلال الرحلات . وغدت مراقبة الحركة الجوية من أهم العمليات في المطارات ، إذ يتم بها متابعة الطائرات خلال تحليقها عبر الطرق الجوية ، كما يتم تزويدها بالمعلومات عند دخولها مناطق المراقبة المحيطة بالطائرات ، أو توجيهها إلى نقاط الانتظار في الجو ، أو الهبوط ، وبعدها تتولى المراقبة الأرضية قيادة الطائرة إلى مكان وقوفها المحدد في ساحة الوقوف ، إما بجوار محطة الركاب أو محطة الشحن .

أثر الرؤية البصرية على الطيران :

في ساعات النهار ، وخلال الطقس الجيد ، عندما يخلو الجو من الضباب والغيوم ، وتصبح الرؤية بأفضل شروطها ، يتمكن الطيار من



● غرفة المراقبة « في برج المطار » بأحد المطارات الدولية .

خلال قمرة الطائرة ، من رؤية الفضاء الممتد أمامه أو حوله ، فيرى الطائرات المحلقة بجواره ، والعوائق من جبال ومرتفعات ومنشآت بدون الاستعانة بالآلات أو التجهيزات . في حين أنه يضطر للاستعانة بالتجهيزات إذا تعذرت الرؤية . وتميز أنظمة الطيران ، بين قواعد الطيران البصري VFR وبين قواعد الطيران الآلي بالاعتماد على الآلات IFR الذي يطبق في الطيران الليلي وظروف الرؤية السيئة .

ومن المتعارف عليه أن يعد الطيار خطة رحلته ، ويحدد فيها الطرق الجوية التي سيسلكها ، من مطار الإقلاع إلى مطار الهبوط ، كما يحدد مستوى ارتفاع الطيران ، وقواعد الطيران ، ويتقيد بنوع الطائرة وأجهزتها ، ومستوى المطار الذي سيهبط عليه ، فالطائرات غير المجهزة بالآلات ، تستطيع الطيران وفق قواعد الطيران البصري فقط ، ولا يمكنها التحليق خلال الضباب أو عتمة المساء ، بينما تستطيع الطائرات المزودة بالآلات الخاصة بالرؤية ، أن تطير وفق النظامين ، البصري والآلي معا .

المجال الجوي ، واقليم معلومات الطيران VIR / FIR

يعد الفضاء الرحب الذي يمتد فوق حدود كل دولة ، وفوق مياهها الاقليمية ، مجالا جويا لهذه الدولة . ويفتح المجال الجوي ، أمام الطائرات المدنية النظامية ، فتعبره بيسر وسهولة ، متنقلة من مجال جوي إلى آخر ، حتى تصل إلى المطار الذي تقصده . وخلال عبورها المجال الجوي ، تكون في ضيافة تلك الدولة ومسؤوليتها . فتتزود منها بالمعلومات الجوية عن الطقس والعوائق والمسافات والمعلومات الأخرى التي تضمن لها سلامة الطيران . وما أن تغادر المجال الجوي إلى غيره ، حتى تتحول إلى معلومات الدولة الأخرى المسؤولة عن الطيران عبر مجالها الجوي .

وكما أن لكل دولة مجالها الجوي ، فإن لها أيضا إقليم معلومات الطيران الخاص بها . ويغطي عادة اقليم المعلومات القطاعات الجوية الوسطى ، أو العليا التي تمتد إلى ارتفاعات غير محدودة في الفضاء . ويحد إقليم المعلومات نقاط مراجع لاسلكية معرفة ، تنطبق على الحدود الادارية للدولة أو لا تنطبق . ويقسم المجال الجوي ، وإقليم معلومات الطيران إلى مناطق مختلفة ، تتألف من :

- مناطق المراقبة الجوية .
- مناطق المراقبة النهائية ـ حول المطارات .
- الطرق الجوية Airways .

ارتفاعات تحليق الطائرة :

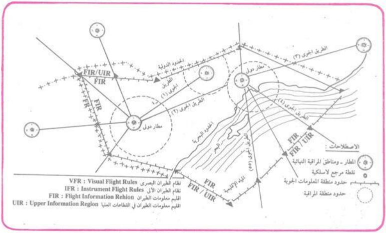
يستطيع قائد الطائرة الماهر وحده أن يحول الرحلة الجوية إلى نبع من الثقة والاطمئنان ، ويستطيع أن يلهب الفضول في صدور المسافرين عبر الأجواء ، كما يستطيع أن يكشف غموض الرحلة الجوية وخفاياها . في رفقة كهذه ، يتمكن المسافر من تكوين فكرة عن الطرق الجوية ، وارتفاعات الطيران ، وشروط الطقس في الأعالي ، ومعلومات أخرى يقدمها قائد الطائرة . فالطائرة تحلق في الجو على ارتفاعات مختلفة ، تقع ضمن مستويات تختلف فيما بينها : بالارتفاع عن سطح البحر ، وبالضغط الجوي . ولتمييز ارتفاعات الطيران ، اصطلحت « ايكاو » على استخدام اختصارات للدلالة على مستوى تحليق الطائرة وارتفاعها ، وما يقابل هذا المستوى من ضغط جوي . واختصار هذا المصطلح « فل » أو (F.L) ، أي سوية الطيران . وعدت السوية رقم صفر هي سوية سطح البحر والضغط الجوي على سطح البحر ، وتتزايد هذه الأرقام تبعا للارتفاع ، بينما يتناقص الضغط الجوي . ومن المعروف فيزيائيا أن الضغط الجوي يتناقص كلما ارتفعنا عن سطح البحر ، حيث تنخفض قيمته إلى النصف على ارتفاع ١٨٠٠٠ قدم « يعادل ٥,٨ كيلو متراً » ، والجدول التالي يبين بعض مستويات الطيران المعروفة دوليا :

رقم مستوى الطيران «F.L.»	الارتفاع عن سطح البحر	
	بالمتر	بالقدم
F.L.ـ صفر	صفر	صفر
F.L.ـ١٠	٣٠٠	١٠٠٠
F.L.ـ ١٠٠	٣٠٠٠	١٠٠٠٠
F.L.ـ ٢٠٠	٦١٠٠	٢٠٠٠٠
F.L.ـ ٣٠٠	٩١٥٠	٣٠٠٠٠
٠٠ الخ ٠٠	٠٠ الخ ٠٠	٠٠ الخ ٠٠

ويطلق على قطاعات الجو التي يزيد ارتفاعها عن سطح البحر ٢٠٠٠٠ قدم بالقطاعات الجوية العليا .

مراقبة الأجواء :

برج المطار ـ في أي مطار من المطارات ، مهما صغرت درجته ـ هو الدماغ أو مركز تفكير الحركة الجوية ، وتتوقف سلامة الطيران أثناء



● مخطط عن اقليم معلومات الطيران .

التحليق أو الهبوط والاقلاع ، على يقظة العاملين في تلك الأبراج وخبرتهم وهم يقبعون طوال يومهم أمام الاجهزة الدقيقة ، يشرفون على مساحة كبيرة في الجو ، يصل قطرها إلى حوالي ٤٠ كيلومتراً حول المطار . ومن البرج يمكن الاتصال بقمرة الطائرة ، ومخاطبة قائدها ، وتزويده بالمعلومات اللازمة حول الهبوط ، والإقلاع ، والطقس ، والعوائق ، وغير ذلك . ويساعد برج المطار عدد من المحطات اللاسلكية التي تعمل منارات مرشدة ببث ذبذبات محددة ، تستقبلها الأجهزة الدقيقة في الطائرات ، وتستدل بها على الموقع والمسافات ، إضافة إلى المراقبة بالرادار الذي يرصد حركات الطائرات على الطرق الجوية المختلفة .

الطرق الجوية :

هي المطارات ، مرافىء سفن الجو ، تبتدىء منها الرحلة الجوية ، وفيها تنتهي . صورتها وحدها تبقى في الذاكرة ، وتتراكم فيها الصور فوق الصور ، عن مطارات متعددة ، تنتمي إلى أمكنة وبلاد بعيدة ، قد يخطف المسافر من كل واحد منها ذكرى ترتسم داخل القلب ، وتعود أحيانا ، أو تغيب مع سيل الذكريات البعيدة . أما الطرق الجوية فهي أشياء مختلفة ، لا يتعامل المسافر معها فنيا ، لكنه يحس بها بمرور الزمن ، فهو يراها قصيرة حينا كلمح البصر ، ويجدها حينا آخر طويلة لاتنتهي .

والرحلات الجوية ، والطيران بين قطر وآخر ، أو بلد وآخر ، تستخدم مسالك جوية معروفة ، تشبه إلى حد كبير الطرق البرية التي تستخدمها السيارات في التنقل والنقل بين المدن على سطح الأرض . وتختلف الطرق الجوية باختلاف مستوى التحليق ، فمنها الطرق الجوية ذات الارتفاع المنخفض التي يتراوح مجالها بين ١٢٠٠ ـ ١٨٠٠٠ قدم عن سطح البحر ، والطرق الجوية ذات الارتفاعات العالية التي يتراوح مجالها بين ١٨٠٠٠ قدم ـ ٤٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر . وكذلك تختلف الطرق الجوية باختلاف أغراضها ، فمنها الطرق الجوية

الوطنية الداخلية ، والطرق الجوية الاقليمية التي تصل بين المطارات في مناطق متقاربة ، والطرق الجوية الدولية التي تجتاز القارات . وأيا كانت هذه الطرق ، فلابد لها من المرور فوق محطات خدمة الطيران التي تنتشر على مسارات الطرق الجوية ، ويقدم من خلالها خدمات مختلفة ، منها معلومات عن الطقس ، وجاهزية المطارات ، وتحديد مواقع الطائرات التي تفقد إمكانية الاتصال ، أو الطائرات التي تضيع في الجو ، وغيرها . ويحدد الطريق الجوي عادة بزاوية مساره من الشمال ، وبطول الطريق ، ومستوى الطيران المحدد له . ويتراوح عرض الطريق بين (٨ - ١٠ أميال بحرية) ، ما يعادل ١٥ - ١٨,٥ كيلو متراً . وتسعى إدارات الطيران المدني لجعل الطرق الجوية ضمن مجالاتها الجوية مستقيمة ، وبأقصر طول ممكن ، لتخفيض تكاليف تشغيل الطائرات ، واختصار زمن الرحلات ، وبذلك تصيب عدة عصافير بحجر واحد .

ويتم اختيار مستوى الطيران في الطرق الجوية تبعا لطبيعة سطح الأرض ، فالطرق الجوية التي تمر مساراتها فوق المناطق الجبلية يكون فيها مستوى التحليق مرتفعا ، وأحيانا تكون من الطرق ذات الارتفاعات العليا ، في حين أن الطرق فوق المناطق المنبسطة والصحراوية تبقى ضمن الطرق ذات الارتفاعات المنخفضة التي تتراوح سوية الطيران فيها بين .F.L ـ ٤٠ - ٥٠ أو ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر . ويصدر كل قطر من الأقطار التي تتعامل بالطيران المدني مخططات للطرق الجوية ، تبين عليها الطرق بالأرقام والأحرف وفق المصطلحات الدولية ، لتمييز الطرق الجوية عن بعضها . وتتجمع المخططات المختلفة بمخطط دولي واحد ، يبدو العالم فيه صفحة منبسطة ، تمتد على سطحها الطرق الجوية ، كالشرايين المتشابكة ، تتقاطع وتتوازى ، وتلتقي في المطارات وفوق المحطات المخصصة لخدمات الطيران . وقد يغدو أحد هذه الطرق كشريان يصل بين القارات الست ، أو يصل بين قارتين ، كالطريق الجوي R-19 الذي يصل بين قارتي أوربا وآسيا ، ويمتد بين مطارات يوغسلافيا ، واليونان ، وسوريا ، والأردن ، والسعودية ، وقطر ، والامارات العربية المتحدة ، وسلطنة عمان .

المساعدات الملاحية :

كما تهدي المنارات في عرض البحر الملاحين إلى موانئهم تقوم المساعدات الملاحية بالدور نفسه عبر الأجواء ، فهي تؤمن تقديم المعلومات التي تضمن حماية الطائرات من الاصطدام ببعضها ، أو حمايتها من العوائق المرتفعة .

وتتألف المساعدات الملاحية من إشارات وأجهزة لاسلكية ، وأنوار ، فالمنارات الجوية الموضوعة في محطات أرضية ، تضم أجهزة إرسال (راديو) ومرشدات ذات اتجاهات متعددة ، تعمل بترددات متوسطة أو عالية جدا ، يتعارف عليها العاملون بمجالات الطيران اختصارا بـ VOR أو ILS،NDB . وتستقبل أجهزة الطائرة ، أثناء تحليقها في الجو ، الإشارات اللاسلكية الصادرة عن هذه المرشدات ، فيستدل منها الطيار على مساره الصحيح خلال شروط الطقس المختلفة ، أو حتى خلال انعدام الرؤية . وبأجهزة الاتصالات جو- أرض (إرسال واستقبال) يتم ارسال معلومات الطقس ، مستعملة في الارسال ترددات متوسطة بين ٣٠٠ - ١٠٠٠ كيلوهرتز ، أو الترددات العالية التي تتراوح بين ١٠٠ - ٤٠٠ ميغاهرتز .

منطقة معلومات الطيران العربية

يغطي المجال الجوي فوق الوطن العربي عدة مناطق معلومات للطيران ، تتجاور وتتلاقى فيما



● « برج المطار » في مطار أبو ظبي الدولي .

بينها ، ويجري التنسيق فيما بينها حين انتقال الطائرات من منطقة معلومات إلى أخرى . وعندما تقوم طائرة ما ، برحلة طيران بين أربعة مطارات عربية ، بالطائرة النفاثة السريعة من نوع : بوينغ B-747 مثلا ، لابد لها من التنقل بين أربع مناطق معلومات طيران ، وخلال فترات زمنية متقاربة . وقد تجتاز الطائرة النفاثة السريعة المجال الجوي لبعض الأقطار العربية في مدة لا تتجاوز ٢٠ ـ ٣٠ دقيقة ، وهذا يفرض على الطائرة سرعة الانتقال ما بين منطقة معلومات عربية إلى منطقة معلومات عربية أخرى ، مما يتطلب سرعة التنسيق ، إلا أن هناك فرصة لاحتمالات الوقوع في الخطأ ، أو احتمالات سوء الفهم ، وسوء تفسير المعلومات حين التنسيق ، مما قد يؤدي إلى أخطار التصادم بين الطائرات في الجو ، ويزيد في احتمالات وقوع الحوادث الجوية .

وربما تنبسط على صفحة الحلم ، للعاملين في مجالات الطيران في الوطن العربي ، صورة فضاء عربي موحد ، تتحد فيه مناطق معلومات الطيران ، ومراقبة الأجواء ، وتنطلق من منطقة المعلومات العربية للمعلومات ، وتنسق لمناطق معلومات إقليمية ، هي منطقة معلومات مهمتها الجمع والتوحيد والتنسيق ، بل فلنقل مهمتها جمع التشرذم الجوي ، لتشكل منه فضاء عربيا موحدا حاملا القوة والحضور في آن واحد . □

تعريفات لاذعة:

الإنسان: هو المخلوق الوحيد الذي يولد باكيا ويعيش شاكيا.

البخيل: رجل ينتحر جوعا ليقتل ورثته بالتخمة.



منتدى العربي

قضية

« تظل قضية ماذا نقدم في وسائل الإعلام ، واحدة من قضايا التنمية ، فالقيم والسلوكيات التي تبثها هذه الوسائل تؤثر في ثقافة ووجدان الشعوب . وإذا كان الكبار عرضة للاختراق وغسل الدماغ في بعض الأحيان . فما بالنا بالصغار الذين تمتد أصابع التشويه الى المواد الإعلامية والأفلام الموجهة إليهم أيضا . »

وأفلام الأطفال أيضاً !

بقلم : عبد الرحمن حمادي

أذكر أنني في بيروت بقيت أسبوعا أحاول الدخول للصالة التي تعرض فيلم (القط الطائر) ، وما نجحت إلا بالحصول على بطاقة من السوق السوداء . ولقد ذهلت حينما اكتشفت أنني أمام أحد أسوأ الأفلام عدائية وتشويها لصورة العربي .

الفيلم من إنتاج شركة مترو غولدن ماير الشهيرة ، وهو موجه للأطفال والناشئة أساسا ، بيد أنه بتقنياته وطرافة موضوعه يجعل الكبار قبل الصغار يتسابقون لمشاهدته ، ويتحدث عن قط صغير جميل ، يأتي من كوكب بعيد ، كل سكانه من القطط ، وهذا القط يملك قوة خارقة في السيطرة على الأشياء ، وذلك بسوار معلق في عنقه .

ويسعى عالم أمريكي للاستفادة من السوار بعد أن يقيم علاقة صداقة مع القط ، وهدف العالم الأمريكي أن يحل مشكلة المجاعات في العالم الثالث (لنلاحظ الصورة المشرقة للانسان الغربي) ، بيد أن عصابة خطيرة تظهر فجأة ، وتحاول السيطرة على السوار ، لتسيطر به على العالم ، وهذه العصابة تلبس اللباس العربي التقليدي ، وتتسلح بالسيوف المعقوفة ، ويتخاطب أفرادها بأسماء إسلامية عربية (أحمد ـ محمد ـ جعفر) ، لكن لابد (للشر العربي أن ينهزم) ـ كما يقول الفيلم ـ وذلك من خلال تصدي العالم الأمريكي للعصابة (المسلمة) وتدميرها .

إنه فيلم لا يذكر العرب مباشرة ، ولكن من

الواضح أنهم ما صنعوه إلا ليشوهوا من خلاله صورة العرب ، وليقنعوا أطفالهم وناشئتهم قبل بالغيهم أن الخطر في العالم مصدره العرب ، وعلى الغرب أن يسعى لتدمير هؤلاء العرب قبل أن يدمروا العالم .

والسؤال :

كيف مر مثل هذا الفيلم علينا فعرضناه في أقطارنا ؟

المنطـــــاد :

فيلم آخر من إنتاج شركة متروغولدن ماير أيضا ، يتحدث عن رحلة علمية لعلماء أمريكيين في منطاد ، ومعهم مساعدة شقراء جميلة ، وفي رحلتهم يتعرض منطادهم لعطل ، فيقعون في أسر جماعة من المتوحشين ، آكلي لحوم البشر في أفريقيا ، بيد أنهم بعد سلسلة من المغامرات ينجحون في الهرب بمنطادهم ، وقد همّ الأفارقة بطهيهم وأكل لحومهم .

ثم يصل بهم منطادهم الى صحراء شاسعة ، ويحلق فوق مدينة إسلامية ، ترتفع فيها المآذن بكثرة ، وإذ يرى سكانها المنطاد يظنونه شيطانا سماويا ، فيخرون ساجدين برعب ، ويهرع المؤذنون للمآذن يكبرون ويبتهلون لله أن يصد عنهم هذا الشيطان .

ويهبط العلماء بمنطادهم ليتزودوا بالمؤونة من هذه المدينة العربية التي تسرح فيها الجهال ، ويعيش سكانها وسط القاذورات والبهائم ، والذين ما أن يطمئنوا الى أن هؤلاء الهابطين عليهم بشر مثلهم ، حتى يقودوهم الى أميرهم في قصره الكبير .

والأمير المسلم هذا محاط بالحريم ورجال الدين الاسلامي ، يقرأ القرآن ، ويرتكب الفواحش ـ هكذا يقول الفيلم ـ وما أن تقع عيناه على المساعدة الشقراء حتى يسيل لعابه على لحيته ، ويقرر اغتصابها وضمها الى حريمه (لتراجع الأفلام التي حللها الدكتور جاك شاهين وكيف أنها تصور العربي شبقا) . ثم تدور مغامرات يجابه فيها الأمريكيون سكان المدينة المسلمة الذين كلما شعروا بالهزيمة سجدوا مبتهلين لله أن ينصرهم ، وفي النهاية ينجح العلماء في إنقاذ مساعدتهم الشقراء (بالطيران بها) ، وقد أوشك الأمير المسلم أن يفترسها .

إنه فيلم مملوء حقدا وعدوانية على العرب ، ولا يوفر وسيلة في تشويه الاسلام والمسلمين ، مصورا إياهم بصورة أسوأ بكثير من صورة آكلي لحوم البشر المتوحشين . وخلافا لما عهدناه في هذا النوع من الأفلام ، لا ينتهي الفيلم بتدمير المدينة العربية المسلمة ، بل يتركها في محاولة إقناع ناجحة للمشاهد بأن المسلمين والعرب خطر قائم مستمر ، يجب أن تتكاتف الجهود لصده وإنهائه .

أفـــلام أخـــرى :

القائمة طويلة كما قلنا ، ومنها تلك التي نعرضها في أقطارنا ، كفيلم (مغامرات في مصر) للثنائي بودسبنسر وترانسس هيل ، حيث مغامراتهما الشيقة هذه المرة تدور على أرض مصر ، وتبدأ بهبوطهما في مطار القاهرة الدولي بكل حداثته وحضاريته وسعته ، ثم ينتقلان لمدينة القاهرة التي هي عبارة عن خيم وإبل تسير في شوارع صحراوية ، وأناس بعباءاتهم العربية التقليدية يحاربون بالسيوف المعقوفة ويمتطون الابل ، ويهربون عند سماعهم أصوات الطلقات النارية من مسدس سبنسر وهيل !!

وحتى أفلامهم التي تظاهروا فيها بالحيادية لم يخرجوا فيها من أسر نظرتهم العدائية للعرب ، ومحاولاتهم الدائبة لتشويههم ، كما في فيلم (عملية ميونخ) ، فقد عرض الفيلم في جميع الأقطار العربية ، وفي « إسرائيل » ، كفيلم تحدث بحيادية عن عملية ميونخ الشهيرة ، لكن الحقيقة أن الهمس استمر على العرب طوال مشاهد الفيلم بشكل غير مباشر ، قد لا ندركه نحن العرب ، لكن يدركه المشاهد الغربي الذي هيأته السينما الأمريكية والغربية بصورة سابقة عن العرب ، فقائد العملية العربي مثلا حينما يفشلون بالتفاوض معه أو جعله

يلين ، يرسلون له مضيفة شقراء ، وسرعان ما يلين أمامها ، ويكاد يستسلم لها ، وللمطالب التي تنقلها . ويعلن الفيلم مرة أخرى أن العربي لا يستطيع مقاومة شبقه تجاه الأنثى ، وهي الصورة التقليدية عن العربي في السينما الغربية والأمريكية .

ما العمل ؟

إنها أمثلة فقط في حديث لا أراه يضيف إلا يسيرا الى مئات الكتابات التي ظهرت ، ينبه أصحابها الى الحرب السينمائية الخطيرة التي يشنونها بشراسة على العرب والاسلام ، ولا يبخلون بمالهم وتقنياتهم لجعل تلك الحرب أشد شراسة وفاعلية من حرب الطائرة والمدفع ، ومع ذلك أسأل كما تساءل غيري : ما العمل ؟

سؤال أقترح أن تكون الاجابة عنه بحوار شامل مسؤول على صفحات (العربي) ، حوار يبدؤه أهل السينما العربية ، ويشاركهم فيه المعنيون بأمور الاعلام في الحكومات العربية ، وعسى أن يكون مثل هذا الحوار خطوة تحقق المثل القائل : إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة . □



منتدى العربي

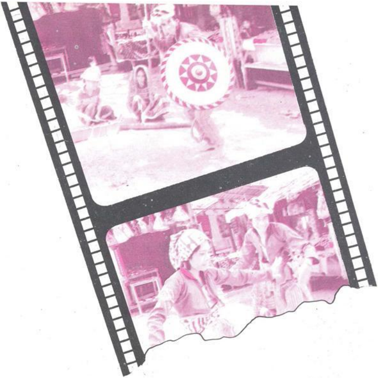
تعقيب

صورة العرب في السينما غير العربية

ما زال مقال د . جاك شاهين عن « العربي كما تراه هوليود » الذي نشر في العدد رقم٣٥٣ لشهر ابريل / نيسان ١٩٨٨، يستأثر باهتمام كبير . وقد وردتنا تعقيبات كثيرة على المقال اخترنا منها هذا التعقيب الذي يستشهد بأفلام جديدة تؤكد الصورة المشوهة التي ترسم الشخصية العربية في السينما .

اثناء سفري على متن احدى طائرات خطوط الطيران غير العربية في رحلة استغرقت احدى عشرة ساعة تضمن برنامج عرض الافلام بالطائرة فلم « موعد مع الموت » . وعلى الرغم من ان الفلم قديم الا أنه ما زال يعرض . ويصور الفلم مجد الامبراطورية البريطانية الغابر ، عندما كانت بريطانيا تحتل بعض الاقطار العربية وتنهب خيراتها وثرواتها وتستنزف أدمغتها المفكرة .

في هذا الفيلم يظهر العرب بدائيين ، متوحشين ، حاقدين ، ماكرين خبثاء ، كارهين مكروهين ،



سلاحهم الخناجر يغمدونها في أجساد ضحاياهم من البريطانيات الفاتنات والاوروبيات المتحضرات . وفي احد المشاهد يجتمع نحو عشرين رجلا ، يحمل كل واحد منهم خنجره ، ويحيطون باحدى البريطانيات الشابات احاطة السوار بالمعصم ، وهنا يصل المنقذ في صورة فرقة من الجيش البريطاني ، فترتد الخناجر الى اغمادها ، وهكذا تنهزم الخناجر امام البنادق والعرب امام البريطانيين والاوروبيين ، والجلافة والبداوة والجهل امام الحضارة والتقدم والعلم . فالعرب دائما في كل أفلام اوروبا رمز التخلف والحقد والشبق والثروة التي تضيع هباء على الداعرات الساقطات ، لانها ثروة النفط التي أتتهم من غير عناء .

أما بيت القصيد هذه المرة فهو خارج دائرة كل من أمريكا وأوروبا ، بل في آسيا التي ينتمي إليها ثلاثة عشر قطراً عربياً . والغريب أن السينما الآسيوية أيضا لم تجد إلا العرب لتهزأ بهم وتسخر منهم ، وكأنه ليس هناك سوى العرب ضحية لكل ناعق .

بعد أن حدثني البعض عن فيلم Penoy Balut طلبت من أحدهم أن يصحبني لرؤيته ، وهو موجود في دور العرض بمانيلا ، وكل انحاء الفلبين ، ويصور العرب شاذين ساديين .

يبدأ المشهد الذي يثير دائما رواد دور السينما خاصة من الجنس الآخر فينطلقن في صياح وهياج - بمجموعة من نساء الليل ، يتنافسن على الزبائن . ويطيب قزم ماكر خاطر إحدى النساء الغاضبات ، لأن زبونا ضاع منها ، بقوله :

لا عليك ، سأحضر لك زبونا عربيا . . !

وتتزعج الفتاة لمنظر العربي الكريه عندما تراه ،

فتجفل كظبية يكاد يفترسها ذئب ، أو تلتف حولها كوبرا لتخنقها ، فتلجأ للحيلة ، والمكر والخداع ، وتحاول أن توهمه أنها ولد ، (مدللة على ذلك بصدرها غير الناهد) ، فيهجم عليها ، قائلا : الآن أريدك أكثر . . !!

وليس بعد هذا التشويه ، واتهام العرب جميعا بالشذوذ تشويه . ثم تظهر سادية العربي - وقد ألبسوا أحد ممثليهم الملابس العربية ، إمعانا في الزراية والتشويه والنكاية - فيحاول ضربها بالسوط ، ويضربها فعلا ، إلى أن تنجح في اختطاف السوط منه ، وتضربه به على مؤخرته ، وهنا تصل المأساة ذروتها ، إذ تتضح أيضا « ماسوشيته » فينام لها في الفراش وهي تضربه على مؤخرته ، وهو يقول لها : - اضربي ، أكثر !

وتتركه في قرف واشمئزاز .

وأتصور أنه لا يوجد عربي واحد يسلك مثل هذا السلوك القذر ، لكن الموجودات بدار العرض يتصايحن في تلذذ - ولا بد أن بينهن من عملت خادمة في بلاد العرب !!! - وخاصة عندما تنجح الفتاة في أخذ سوط العربي وضربه به .

ان فيلم Penoy Balut - ويمكن ترجمتها الى (البيض الفلبيني) ، لان (بالوت) هذا نوع من البيض ، يعد بطريقة خاصة - يسيء لنا أبلغ اساءة مثل أفلام السينما الامريكية الصهيونية أو الاوروبية سواء بسواء .

ان مشكلتنا أنه لا توجد لدينا مراكز رصد وتحليل ، لما ينشر عنا في وسائل الاعلام المختلفة ، وعندما تتم الاساءة للاسلام والعروبة ، فاننا حتى لا نفعل أضعف الايمان بأن نتابع ما ينشر أو يعرض أو يقال أو يذاع عنا لنعرف الحقائق والاباطيل ، بل نصم آذاننا في أكثر الاحيان ، وتتحكم فينا عقد الخوف ، ولا نعرف ما يقال عنا ولا نحلله . هكذا نظل في أغلب الاحيان : آخر من يعلم !

هل سمع أحدكم بهذا الفيلم الفلبيني ؟؟!

محمد حسنين

لا تفعل

● جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال : إن الناس قد وقعوا فيما وقعوا فيه ، وقد حدثت نفسي ألا أخالطهم ، فقال له وهب : لا تفعل ، فانه لابد للناس منك ، ولابد لك منهم ، لهم إليك حوائج ، ولك إليهم حوائج ، ولكن كن فيهم أصم سميعا ، وأعمى بصيرا ، وسكوتا نطوقا .

خير الرجال



● قيل لحكيم : أي الرجال أفضل ؟

قال : الذي إذا حاورته وجدته عليما ، وإذا خبرته وجدته حكيما ، وإذا غضب كان حليما ، وإذا ظفر كان كريما ، وإذا منح منح جسيما ، وإذا وعد وفى وإن كان الوعد عظيما ، وإذا اشتكي إليه وجد رحيما .

إعداد : يوسف زعبلاوي

أضواء على علماء العرب المغتربين

لفت انتباهنا اكتشاف علمي تحدثت عنه بعض المجلات العلمية في المدة الأخيرة ، فالاسم الذي يعرف به الاكتشاف ، أسلوب رمزي Ramzi Procedure ، وقد تم تسجيل الاكتشاف لدى الدوائر المختصة بالاسم المذكور نفسه . واشتبهنا بادىء ذي بدء ، ثم ما لبثنا أن تأكدنا أن صاحب الاكتشاف عربي بن عربي اسمه الكامل سعد رمزي اسماعيل ، وهو عراقي الأصل ، هاجر الى كندا سنة ١٩٧٩ ، وهو الآن يحمل الجنسية الكندية ، ويعمل في مجال التصوير الطبي ، ويشغل منصب رئيس قسم التصوير بالموجات فوق الصوتية في مستشفى جون كنيدي بكاليفورنيا .

وقد تسنى لعالمنا العربي الشاب ابتكار بعض التحسينات في مجال التصوير بالموجات فوق الصوتية تعرف : « بطريقة رمزي » . وتتلخص في أن جهاز التصوير الطبي بالموجات فوق الصوتية ينقسم الى جزئين مهمين ، وهما القاصف الذبذبي والكريستال .

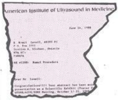
فأجهزة الموجات فوق الصوتية معدة لأغراض المعالجة بما يعرف بالعلاج الطبيعي Physiotherapy ، ومعدة لأغراض التشخيص ، والأخيرة هذه هي التي تعنينا هنا ، ونخص بالذكر منها الأجهزة التي تساعد على تشخيص الأمراض الباطنية والنسائية .

والقاصف الذبذبي هو أحد مقومات هذه الأجهزة ، والكريستال هو أحد أجزاء هذا القاصف ، بل أهم أجزائه وأغلاها ثمنا ، ذلك أن هذا الكريستال هو الذي يقوم بتحويل التيار الكهربائي الى الموجات فوق الصوتية ، ويقوم باعادة تحويل هذه الموجات الى تيار كهربائي مرة أخرى ، فيجري تحليل هذا التيار بجهاز الحاسوب « الكمبيوتر » ، وتنعكس الصور الطبية المطلوبة على شاشته .

على أن هذا الكريستال الحسّاس الباهظ الثمن كثيرا ما يتعرض للتلف أو الخلل ، نتيجة الاستعمال ، ونتيجة تعرضه للحرارة أو للمواد الكيماوية أو للصدمات العادية ، ولو أمكن تحديد حساسية هذا الكريستال بطريقة أو بأخرى لأمكن تحديد تناقص تلك الحساسية ، وأمكن بالتالي إصلاحه وتحاشي تلفه ، في الوقت المناسب وقبل فوات الأوان ، وهذا هو بالضبط ما أمكن للعالم العربي الشاب سعد رمزي إحرازه نتيجة للأبحاث



سعد رمزي اسماعيل
صاحب الاكتشاف



والتجارب العديدة التي قام بها في هذا الصدد .

وتجدر الاشارة الى أن طريقته في تحديد حساسية الكريستال تعتمد على الموجات فوق الصوتية ، وتختلف هذه الموجات فوق الصوتية الفاحصة لحساسية الكريستال عن الموجات فوق الصوتية التي يولدها الكريستال ، والتي تستعمل في تشخيص الأمراض ـ في أن الأولى موجات مستمرة بينما الثانية موجات متناوبة .

بقي أن نشير الى فائدة عملية أخرى لطريقة رمزي غير اكتشاف تناقص حساسية الكريستال وتفادي تلفه في الوقت المناسب ، فهي كفيلة بالكشف عن غش بعض الشركات التي تضع القاصف الذبذبي وأجهزة التشخيص بالموجات فوق الصوتية . . فغلاء الكريستال الفاحش يشجع البعض على بيعه بحساسية عالية مزعومة ، وطريقة رمزي كفيلة بتحديد حساسية ذلك الكريستال الحقيقية . . والكشف عن الغش إن كان ثمة غش .

■■□□

عقار للأكزيما جديد

أقدمت دائرة الصحة البريطانية مؤخرا على صنع مستحضر جديد لمعالجة « الاكزيما » وذلك لأول مرة في تاريخ الدائرة المذكورة وسمت المستحضر الجديد « إبو جام » (Epogam) وأكدت أن العنصر الفعال فيه إنما هو زيت زهرة الربيع المسائية evening Primrose .

وزيت الزهرة المذكورة معروف منذ زمن طويل ، وقد باعه العطارون والبقالون في بريطانيا ضمن الأعشاب العلاجية التي درجوا على بيعها منذ القرون الوسطى .

ولكن الزيت المذكور كان موضع تجارب علمية دقيقة في المدة الأخيرة وقد دلت التجارب على أن زيت زهرة الربيع ذو أثر علاجي فعال لكثير من الأمراض .

وأثبتت التجارب العلمية الأخرى التي تولتها لجنة أمن العقاقير أن زيت الأعشاب السالفة الذكر آمن الى حد غير عادي ، وبدون آثار جانبية ، وأنه قد يحد من الحاجة الى مركبات الستروبد أو يحل محلها ، وهي المركبات التي تشبه الكورتيزون التي عرف عنها آثارها الجانبية الضارة .

وتجدر الاشارة الى أن هذه التجارب تعمل تحت اشراف السير « جيمس بلاك » العالم البريطاني الذي ظفر بجائزة نوبل للطب في شهر أكتوبر ١٩٨٨ .

ولعل أهم ما يلاحظ أن العقار الاعشابي لم يحظ بالاعتراف أو الترخيص الرسمي فحسب،بل إنه ظفر باقبال دائرة الصحة البريطانية نفسها على صنع مستحضر « إبو جام » منه .

■■□□

بين المادة واللامادة

ثمة مادة من المواد اصطلح علماء الفيزياء على تسميتها « اللامادة » أو نقيض المادة (antimatter) ويعرّفها بعضهم بأنها ظل المادة أو إن شئت صورتها المنعكسة على مرآة ، وتتميز « اللامادة » هذه بأنها مشحونة بكهرباء عكس الكهرباء التي شحنت بها المادة ، فهما اذن ضدان لا يجتمعان ، وإذا اجتمعا أفنى الواحد منهما الآخر بزخة عنيفة من الطاقة .

والظاهر أن الأبحاث المتصلة بطبيعة اللامادة تتصف بالأهمية والخطورة ، حتى أن احدى الشركات التي تقوم بأعمال سرية لصالح سلاح الطيران الأمريكي طالبت في تقريرها الأخير بمضاعفة المبالغ المخصصة لأبحاث اللامادة بمقدار (٤٠٠ مليون) دولار وذلك للعشر سنوات القادمة .

ويؤكد التقرير العلمي الصادر في الولايات المتحدة الامريكية أن الفوائد التي قد تترتب على أبحاث اللامادة كثيرة وخطيرة ، وستظهر هذه الفوائد أكثر ما تظهر في مجال الطب البيولوجي (biomedicen) ومحركات الصواريخ ، وتحليل المواد ، فضلا عن طبيعة المادة على الأخص .

■■□□

جهاز للتنظيف الالكتروني

ما أكثر المغاسل وأجهزة تنظيف الأيدي ، وما أقل التنظيف الفعال الذي يحتاجه الانسان في المطاعم والأفران ، وفي صناعة المعجنات والمواد الغذائية ، الخ ، الذي تستوجبه المستشفيات ومراكز العناية الصحية ، وغرف العمليات الجراحية . لاعجب اذن ان عمدت احدى الشركات الامريكية الى تطوير جهاز تنظيف الكتروني بالغ الفاعلية - كما تؤكد الشركة التي تصنعه وتسوقه . وهو يفوق أجهزة التنظيف المتاحة من حيث الفاعلية بنسبة ٦٥٪ أو أكثر ،وهو سريع الأداء ، ينجز في دقيقة ونصف ماتحتاج الأجهزة الأخرى لإنجازه الى ٥ - ١٠ دقائق .

قوام الجهاز الجديد نفاثان أو رشاشا ماء متحركان على نحو لولبي ، بحيث اذا وضع المرء يديه مقابل فتحتي الرشاشين وداس بقدمه على الدواسة ، تدفق الماء من الفتحتين وانصب الماء رذاذا على يديه ، وهو مختلط بمواد كيماوية وبكتيرية ، وممزوج بالهواء ، وذلك بمقادير محددة ، فلا تلبث اليدان المعرضتان لهذا الماء أن تصبحا نظيفتين تماما .



على أن فاعلية الجهاز لاتعتمد على المواد الكيماوية والبكتيرية وحدها ، بل لعله يعتمد أكثر من ذلك على هز الجلد - جلد اليدين أو غير اليدين - هزا مناسبا ، يكفي لانتزاع البكتيريا العالقة بالجلد المتوارية في مسامه .

تصنع الشركة هذا الجهاز بطرز ثلاثة مختلفة : طراز المطاعم ، وطراز المستوصفات ، وطراز غرف العمليات الجراحية .

■■□□

سلامة البشرية في سلامة البيئة

تقرير عن التدخين جدير بكل تقدير

التدخين في تراجع في أمريكا بفضل التقارير العلمية التي يصدرها كبير الجراحين وغيره في واشنطن .

الفضيلة هي المعرفة . هذا ما قاله أفلاطون قبل أكثر من ٢٠٠٠ سنة ، وهذا ما يجدر بحملات الاقلاع عن التدخين أن تتخذ منه أساسا ومنهاجا ، فلو عرف المدخن أن التدخين ضار بصحته حقا لأقلع عن التدخين ، واقتنع دون أي تردد . ذلك هو الأساس الذي اعتمده أهل الغرب في حملات مكافحة التدخين في بلادهم ، فقد تركوا مهمة اقناع المدخنين بضرورة الامتناع عن التدخين للحقائق العلمية نفسها ، واكتفوا بالكشف عنها بإيجابياتها وسلبياتها ، دون تغليفها أو التعقيب عليها بعبارات الوعظ والارشاد ، وكشفوا عنها بتجرد ونزاهة ، دون أي مبالغة ، فكانت الثمرة الطيبة التي جنوها في كثير من البلدان الأوربية ، وبخاصة في الولايات المتحدة ، ثمرة التناقص في عدد المدخنين في المدة الأخيرة ، فلولا التقارير العلمية التي درجت على إصدارها دائرة كبير الجراحين Surgeon Generel في واشنطن سنة بعد سنة ، لما كان هذا التناقص الملحوظ في عدد المدخنين .

ونخص بالذكر من تلك التقارير آخرها الذي صدر في أواخر شهر مايو ١٩٨٨ ، والذي كان لكبير الجراحين نفسه ، ايفريت كوب (Everett Koop)(١) ، دور فاعل في إعداده .

إنه تقرير ضخم ، يقع في ٦١٨ صفحة ، وقد اختاروا له عنوان « الآثار الصحية المترتبة على الادمان على النيكوتين » ، لأن التقرير يركز على النيكوتين وخصائصه الادمانية ، ويتحرى آثار هذه المادة على صحة الانسان ، وفقا للأبحاث والدراسات التي أجراها العلماء والمتخصصون - خمسون منهم على وجه التحديد - واستغرقت نحو عشرين سنة - هل من عجب بعد هذا إن لقي نص تقرير كبير الجراحين الأخير أكبر ترحيب من الأطباء ورجال السياسة فضلا عن العلماء وحماة البيئة لاسيما دعاة الاقلاع عن التدخين ؟

يقارب التقرير بين التبغ من جهة وبين الكحول والهيروين والكوكايين من جهة أخرى ، ويؤكد أن التبغ مادة إدمانية ، تماما كالمواد الثلاث



(١) تجدر الاشارة الى أن ايفريت كوب هذا ظهر مؤخرا على شاشة التلفاز في الكويت ومصر وغيرهما في برنامج مشترك حول التدخين .

الأخرى ، بدليل أن ٧٥٪ من الذين يقلعون عن التدخين للمرة الأولى لا يلبثون أن يتراجعوا عن قرارهم ، ويعودوا إلى التدخين مرة ثانية . ذلك هو بعض ما أثبتته الأبحاث العلمية السالفة الذكر ، وقد أثبتت أيضا أن ٧٥٪ - ٨٥٪ من المدخنين يشعرون بالرغبة في الاقلاع ، ولكنهم عاجزون عن اتخاذ القرار الحاسم ، وذلك بسبب قوة النيكوتين الادمانية . أضف إلى هذا وذلك رد الفعل الفسيولوجي الذي يحدث للمدخن فيما لو حلت بينه وبين السيجارة ، إذ لا يلبث المدخن أن يعاني من مثل تلك الأعراض التي تصحب هبوط السكر في مريض السكر ، فرد الفعل هنا لا يقف عند مجرد رغبة المدخن في الحصول على السيجارة ، بل إنه ينطوي على تلهف مقرون بالذل ، حتى إذا لاحت له الفرصة تلقف السيجارة وراح يلتهمها التهاما .

ويقارن التقرير بعد ذلك بين موتى المخدرات وموتى التدخين من حيث العدد ، فقد بلغ عدد من يموتون بسبب الهيروين والكوكايين سنويا (٦٠٠٠) نسمة ، وبلغ عدد الذين يموتون بسبب الكحول (١٢٥٠٠) نسمة ، أما الذين يموتون بسبب أمراض مردها إلى التدخين فقد بلغ مجموعهم ٣٠٠,٠٠٠ نسمة أو أكثر ، وذلك وفقا لاحصاءات ١٩٨٦ في الولايات المتحدة الامريكية .

ويفصِّل التقرير مجموع موتى التدخين ، ويبين أن ٢/٣ هذا المجموع (٢٠٠,٠٠٠ نسمة) يموتون نتيجة للاصابة بأمراض القلب ، و (١٠٨,٠٠٠) نسمة بالتحديد يلقون حتفهم تبعا للاصابة بأمراض الرئة ، وما كان التقرير ليولي هذه الأرقام أي اهتمام لولا أن ثبت بالأرقام أن أكثر أولئك الموتى (٣٠٨,٠٠٠) هم من المدمنين على التدخين ، وأن هذا التدخين هو سبب إصابتهم بتلك الأمراض وبالتالي سبب وفاتهم .

مالفرق إذن بين فتك المخدرات وفتك التبغ ؟ إنه الفرق بين موت فوري كالموت الذي يحدث في ساحة القتال والموت البطيء الذي يحدث في المستشفيات ، ولكنه موت في كلتا الحالتين ، ذلك أن السيجارة تحتوي على النيكوتين بمقادير ضئيلة ، فلو أمكننا تجميع النيكوتين الذي يدخل جسم المدخن على مدى عشرين سنة من التدخين المتواصل ، وأمكننا حقن تلك الكمية المتراكمة في جسم الانسان مدخنا كان أم غير مدخن لكان لذلك النيكوتين مثل الأثر الفوري الذي للمخدرات ، ولفتك بالذي يحقن في جسمه حتى لو كان ماردا عملاقا . ■■□□

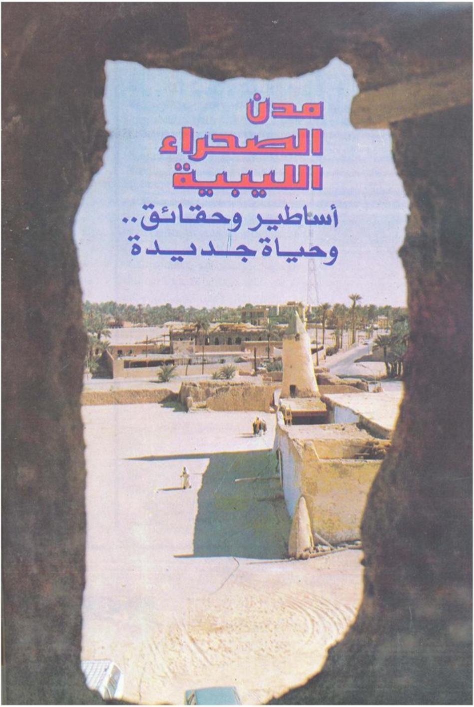
وأكباد تحترق:

● سئل أعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟

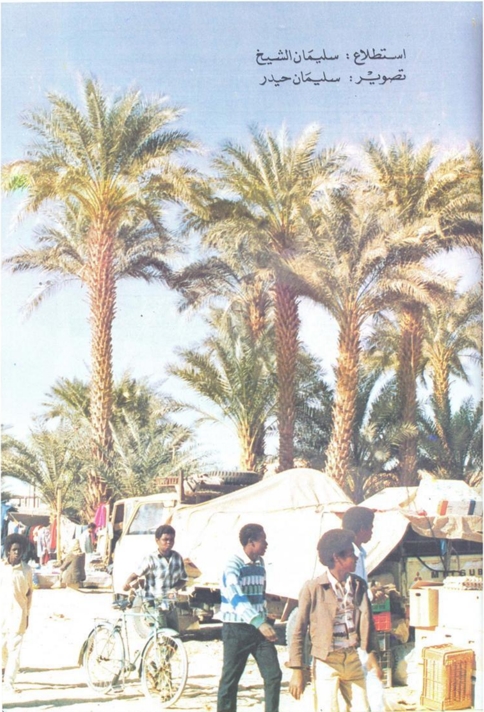
فأجاب: لأنها تقال وأكبادنا تحترق.

مدن الصحراء الليبية

أساطير وحقائق.. وحياة جديدة



استطلاع : سليمان الشيخ
تصوير : سليمان حيدر



سكان مدينة القاهرة وزوارها الكثر ، وقارئو تاريخها ، لاشك أنهم قرأوا على احدى بوابات القاهرة القديمة اسم « باب زويلة » .

ويبدو أن هذه البوابة وجدت في الأيام الاولى لبناء القاهرة ، عندما شرع القائد الفاطمي جوهر الصقلي في بناء المدينة منذ حوالي إلف سنة . والاسم « زويلة » له علاقة على ما يبدو ببلدة تقع في الجماهيرية العربية الليبية اسمها « زويلة » . وبقبيلة سكنت وتسكن اقطار المغرب العربي.

فكيف جاء الاسم الى القاهرة ؟ وما هي « زويلة » التاريخ والناس والواقع ؟

وما هي حكاية مدن الصحراء الليبية ودورها الذي لعبته في التاريخ .

وكيف نشأت فيها الحكايات والأساطير . . وما هي حقائق الحياة فيها الآن ؟

الوقت يقترب من الغروب ، والسيارة تنهب بنا الطريق نهبا وهي تتجه من بلدة مرزق احدى مدن الصحراء الليبية الى قرية « زويلة » التي تبعد عنها حوالي مائة وعشرين كيلو متراً ، الطريق معبد تعبيداً جيداً ، مجموعة من القرى تصادفنا في الطريق ، أشجار النخيل والاعمدة الحاملة لأسلاك الكهرباء تحتل أفق الصحراء وتباري الطريق بين فينة وأخرى .

أخذت في استرجاع ذكريات التاريخ ، وتذكرت انتقال الفاطميين من بلاد المغرب العربي ليحلوا في مصر ، وليبنوا القاهرة في نهاية القرن العاشر الميلادي ، وتذكرت المد البشري المتبادل بين المشرق والمغرب ، فتحاً وتجارة وحروباً وإستقراراً أو رحيلاً ، تنافراً وتعايشاً .

توغلت في بحر المعلومات التي قرأتها وسمعتها ثم صحوت على صوت مرافقنا : تلك هي مشارف « زويلة » .

حُمرة الشفق المطبوعة على الأفق ، وبعض الغيوم البعيدة ، أعطت للمنظر بعده الجمالي الأخاذ .

تمعنت مليا ، صفوف متباعدة من زوالات كانت تحتل مساحات الصحراء القريبة والبعيدة .

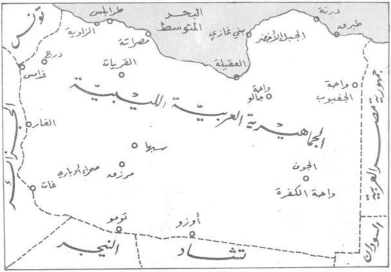
اختلط في ذهني الواقع والتاريخ ، أهي زوالات بشر ، من حراس الصحراء يستعدون ويتجمعون كي يتجهوا الى مسيرة جديدة للفتح شمالا أو جنوبا ؟! أم هي زوالات من أشجار النخيل توزعت بين كثبان الرمال ، فجاء منظرها شبيها بزوالات البشر ؟

ركزت نظري بشكل أدق . لقد كانت مجرد أشجار نخيل حولتها الذاكرة المعبأة بصوت التاريخ وحوادثه الى زوالات من بشر .

علق المرافق ، ها نحن ندخل « زويلة » . صحت الذاكرة ، واستفاق انتباه الحواس للاستماع والتسجيل والمحاورة .

« زويلة » التاريخ والواقع

الحاج علي محمد الشريف ملاحظ آثار « زويلة » رجل خمسيني حفظ قصصا كثيرة عن « زويلة » قال :



● خريطة الجماهيرية العربية الليبية تظهر عليها المدن والقرى التي مرت بها بعثة « العربي » .

لقد كانت « زويلة » احدى مدن الفاطميين المهمة ، ويقال إن العملة سكت فيها ، وهي من بلدات الصحراء التي كانت ترتادها قوافل التجار والحجاج ، وكان يحيط بها سور له ثلاثة أبواب .

وأضاف الحاج علي : يوجد في البلدة سبعة قبور للصحابة ، وقلعة وبقايا مسجد قديم يدعى بالمسجد الأبيض ، هذه تقريبا أهم المعالم في البلدة .

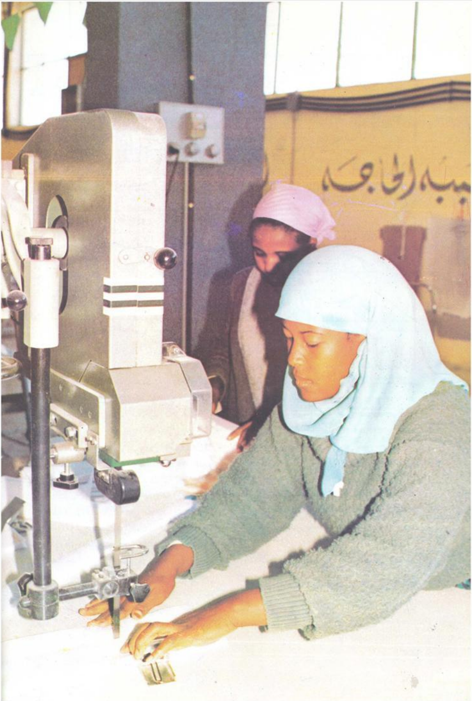
انتقلنا الى المكان الذي توجد فيه القبور السبعة ، وهي تبعد عن البلدة حوالي كيلو متر واحد ، فوجدنا ستة أضرحة طولية ، ارتفاع كل منها حوالي اربعة أمتار ، جدرانها الخارجية مغطاة بحجارة حمراء ، بينما داخلها مبني من الطين ، أربعة منها عليها قباب ، وأحدها الذي يحتوي على قبرين زينت جدرانه الخارجية بأقواس منحنية .

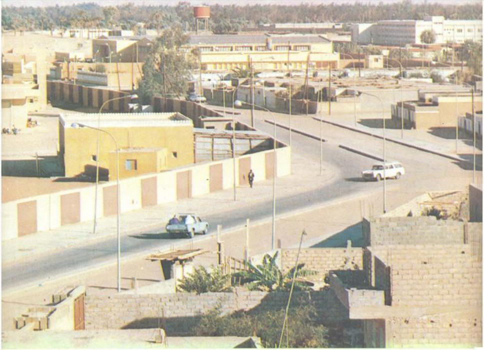
ويبدو أنها بنيت زمن الفاطميين الذين اشتهروا بالبناء الفخم لقبور كبرائهم وزعمائهم .

حجارة التلال القريبة من المكان حمراء ، وبعض بساتين النخيل تتوزع كيفما اتفق حول المكان ، علق الحاج علي : إن القبور حسب ما هو متداول في منطقتنا تعود لبعض الصحابة الذين استشهدوا اثناء فتح « زويلة » زمن والي مصر عمرو بن العاص ، وقد جرت ترميمات كثيرة على القبور في شتى العصور ، كما جرت ترميمات كثيرة على القلعة القائمة بين « زويلة » القديمة والحديثة .

سألت : هل تقصد بأن المباني الطينية القائمة على يسار الداخل للبلدة هي « زويلة » القديمة .. وما عداها هو الجديد ؟

أجاب الحاج علي : هو ذاك ما عنيته ، لقد احتفظ الناس والدولة بالمساكن الطينية القديمة ،







● كانت مرزق مجرد محطة للقوافل من قبل ، وأصبحت الآن بلدة حديثة ، نمت خارج بقايا السور القديم ، مبانيها وطرقاتها ومدارسها ومؤسساتها وادارتها كلها أصبحت حديثة . لاحظ الفتى والفتاة يدرسان سويا في فصول المدارس . والصورة أقصى اليمين مصنع حديث للملابس .

وبنوا الجديد ، لقد كثر الناس ولم تعد البلدة القديمة تستوعبهم ، لكنهم احتفظوا ببعض مواشيهم وطيورهم وأثاثهم القديم في البلدة القديمة ، وهم يزورونها عدة مرات في الاسبوع للتنظيف ومتابعة بعض الشؤون الحياتية الاخرى .

* هل تعتقد أن باب « زويلة » في القاهرة قد أخذ اسمه من اسم بلدتكم ؟

* أجاب الحاج علي وبعض المسؤولين في البلدة : إن ذلك صحيح تماماً ، لقد كان أهل زويلة جزء من قوات الدولة الفاطمية ، وبعضهم ذهب لفتح مصر ، وليس غريبا أن يكون أحد أبواب القاهرة يحمل اسم بلدتنا .

* حدثنا يا حاج علي عن حياتكم الآن ؟

- يسكن البلدة اربعة آلاف نسمة تقريبا ، ومساحتها حوالي ٧ كيلو مترات مربعة ، ويعمل معظم السكان بالرعي وفي مزارع النخيل التي تعود لهم ، كما ويعملون في بعض مزارع الخضراوات والقمح التي يعود بعضها للدولة ، وقد تم بناء مصنع للملابس الداخلية سيباشر عمله خلال فترة قريبة ، وتوجد في البلدة مدرسة ابتدائية ، واخرى اعدادية وثانوية ، كما يوجد بها مستوصف واحد .

حاضرة « مرزق »

قبل أن نتوجه بالسيارة من مدينة طرابلس « الغرب » عاصمة الجماهيرية العربية الليبية الى بلدة « مرزق » في الجنوب ، فإن هاجس قطع حوالي ألف كيلو متر بين المكانين كان يقلقني ويثير في ذهني احتمالات كثيرة ، وهذا يعود الى أن هذه المسافة الطويلة التي سنقطعها ستكون في الصحراء ، وما يكتنف طرقها - ربما - من مخاوف ومخاطر !

إلا أن القول الذي يؤكد على المشاهدة الحية والمعايشة قد قطع قول كل خطيب ووفر حقائق طغت على كل الهواجس والأوهام التي كانت في الذهن .

فهذا الطريق الطويل بين العاصمة وبلدة « مرزق » ، معبد تعبيدا جيدا ، وقليلة هي السيارات التي تسلكه وتسير فيه ، مما وفر لنا سرعة مثالية لقطع هذه المسافة الطويلة نسبيا ، ووفر لنا مشاهدة متأنية للمساحات المحيطة بالطريق .

والانطباعات التي توفرت تفيد بأن تعبير ما يسمى بالصحراء أصبح تعبيرا غير دقيق ، حيث أن سلاسل الجبال والتلال تنتشر كثيرا في الصحراء ، كما ان أشجار النخيل والطلح والاثل التي تنبت في بعض مساحات الصحراء الخالية من العمران تشير الى أن المياه ليست غائرة في باطن الأرض ، بل هي قريبة من السطح ، كما أن بعض القرى والبلدات المنتشرة على طول الطريق ، التي توفر مياه الشرب لسكانها وحيواناتها وأشجارها من آبار الماء يؤكد أن هذه « الصحراء » لم تعد كما كانت ، وانها مقبلة على تطورات أساسية وجذرية قد تعطيها طابعا جديدا ، خاصة وان النهر الصناعي الذي يمر بأجزاء من هذه الصحراء قد تخطى مرحلة الحلم والتخطيط ، ليدخل في انجاز مرحلته الاولى ، وصولا الى المراحل اللاحقة التي ستمد الحواضر والبوادي بالمياه والخضرة والحياة .

هكذا وجدت « الصحراء » فاقدة طابعها الرومانسي الموسوم في بعض الكتب والذاكرات ، بعد أن اصبحت بعض أطرافها وتخومها محروثة ومفروشة بالمزارع وقامت عليها قرى وبلدات جديدة .

نقطع جبالا ووهادا وسهولا وصحارى ، ونصل بعد أن نقطع حوالي سبعمائة وخمسين كيلو متراً الى « سبها »

ثم نوالي السير فنمر ببعض المزارع التي تحيط بمدينة سبها حيث زراعة الحمضيات والنخيل .

ما زالت الطريق ممهدة ومعبدة بشكل جيد يخلو من الحفر والمطبات ، وما زالت خطوط

البيوت الكبيرة مصممة بشكل جمالي جيد يشابه أية « فيلا » في أي مدينة .. إنه التحديث العمراني يصل الى القرى والنجوع العربية .

صورة مقربة

اخذت معالم بلدة « مرزق » تتضح رويدا رويدا ، الطريق اتسعت واصبحت مزدوجة ، وأشجار النخيل تكاثفت ، وظهرت بنايات بعدة طوابق . وازدادت حركة السيارات .

انها « مرزق » احدى مدن الصحراء القديمة التي كانت محطة مهمة على طريق التجارة بين الشمال (ليبيا وتونس ثم اوربا) والجنوب حيث النيجر وتشاد وغيرها من بلدان افريقية ، أو قوافل الحجاج الآتية من صحارى أقطار المغرب العربي . على يسار الداخل للبلدة تقع عمارة ذات طوابق أربعة هي مقر بلدية « مرزق » التي يتبعها حسب ما ذكر لنا السيد البشير صالح ـ أمين اللجنة الشعبية للبلدية ـ سبعة فروع هي : (وادي عتبة) ، و (تراغن) ، و (أم الأرانب) ، و (زويلة) ، و (القطرون) و (أوزو) « تبعد الاخيرة عن مرزق ٨٠٠ كيلو متر وهي بالقرب من الحدود التشادية » و (مرزق) نفسها .

وأضاف السيد صالح : ان السكان في هذه البلدية المترامية الأطراف يصل عددهم الى حوالي خمسة واربعين الف نسمة ، بينهم عشرة آلاف يقطنون مدينة « مرزق » نفسها ويعملون الآن بالزراعة ، والصناعات الحرفية التقليدية (معظمها يعتمد على سعف النخيل) وبعض الصناعات الحديثة الناشئة (يوجد مصنع للملابس في مرزق) وخُمس محصول تمر الجماهيرية العربية الليبية هو من انتاج « مرزق » وبلديتها ، ويعتمد السكان وما بحوزتهم من زراعات وحيوانات على مياه الآبار التي يظهر فيها الماء بعد حفر أمتار قليلة .

* سألت السيد صالح : منذ متى اخذ مركز « مرزق » التجاري يتدهور ، وهل في النية

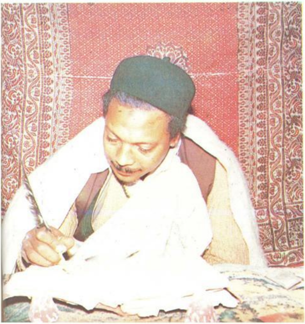


● السيد البشير صالح

الكهرباء والهاتف تحاذي الطريق . نمر بقرية صغيرة اسمها « غدرة » ، وقرية اخرى اسمها « تراغن » ، يليها قرية « الدبسة » ، وبعدها « اخمائن » ، « وجيزوا » .. ثم نصل الى مرزق البلدة التاريخية المشهورة وهي عاصمة بلدية مرزق . بعد ان سرنا حوالي تسع ساعات متواصلة بالسيارة .

يحيط النخيل وبعض أشجار الصحراء كالأثل والطلح وبعض مزارع الخضراوات بتلك القرى التي مررنا بها ، كما أن ظاهرة وجود قسم قديم تم هجره في تلك القرى وبناء قسم جديد يجاوره أمر يتكرر أمامك ، حيث أن بعض البيوت القديمة أصبحت اطلالا دارسة ، وبعضها ما زال محتفظا بأجزاء منه ، ويلاحظ ان كل البيوت كانت مبنية من الطين وسعف النخيل ، في حين أن الأجزاء الجديدة من هذه القرى مبنية من الاسمنت المسلح ، وبعض





● فرقة (درج) للفنون تؤدي إحدى لوحاتها الفنية الجميلة ، (أسفل) نموذجان من اللباس الليبي التقليدي في غدامس ومرزق

احياؤه وبعثه من جديد ؟
ـ أجاب السيد صالح : من المعروف أن « مرزق » كانت عاصمة للجنوب الليبي إبان حكم الاتراك (منذ سنة ١٥٦٠ وحتى سنة ١٩١٣م) ومن الطبيعي ان يكون مقر الوالي فيها . وان تنال اهتماما مضاعفا من قبل السلطات ، خاصة وأنها كانت محطة تجارية مهمة في الصحراء .

ثم جاء الطليان والفرنسيون بعد الاتراك ، صحيح أن القوافل التجارية ظلت تتوالى في الذهاب والاياب في ذلك الزمن ، خاصة وأن الحدود لم يكن قد تم ترسيمها بشكل دقيق لكن مع ذلك فإن قيام الحروب ثم قيام الدول الحديثة وترسيم الحدود وظهور وسائل نقل متطورة قد أوقف أو حد من الدور الذي كانت تلعبه مدن الصحراء في حركة التجارة ، ومن كونها محطات استقبال أو بعوث لنشر الدعوات الدينية . (لعبت مدن الصحراء دورا مهما في نشر الاسلام ، أو نشر افكار ومعتقدات الحركات الدينية النابعة من الاسلام) .

هكذا فقدت هذه المدن أو الواحات دورها تقريبا ، وأصبح عليها أن تبحث عن دور جديد ، واذا ما سألتني عن التفاعلات السكانية فإنني اجيبك بأن حركة المد والجزر والاستقبال والهجرة أوجدت تركيبة سكانية متنوعة ، فأنت تجد في المنطقة عرباً اقحاحاً ومستعربين ، ومن يعود بأصله الى جذور أفريقية ، وتجد عائلات عديدة نصفها في « مرزق » ونصفها الآخر في النيجر التي تبعد عن « مرزق » ٥٠٠ كيلو متر أو في تشاد التي تبعد عن « مرزق » حوالي ٩٠٠ كيلو متر .

لذلك فإننا نخطط . بعد أن فقدنا الدور السابق . الى تحويل « مرزق » الى بلدة زراعية وصناعية . وقد قامت فعلا بعض المشروعات الزراعية وانصحكم بزيارة مشروع مكنوسة الزراعي .





الواقع الحي

خرجنا من دار البلدية وبدأنا جولتنا في البلدة، رافقنا فيها السيد حسين عبدالقادر الشريف أمين اللجنة الشعبية للاعلام والثقافة في بلدية «مرزق». لفت نظرنا وجود قلعة قديمة فتوجهنا اليها، فذكر لنا بأن القلعة قديمة ربما يزيد عمرها على ٥٠٠ سنة، وانها بنيت زمن دولة اولاد محمد (احدى الدويلات المحلية) وبقيت مركزا للحكم زمن الاتراك والطليان والفرنسيين.

وذكر أنهم حولوها بعد الترميم سنة ١٩٨٧ الى مركز للتراث الشعبي، وكل غرفة فيها تحتوي على أدوات وصناعات معينة من المصنوعات الشعبية مثل: ملابس الأفراح، وأدوات الحصاد، والفلاحة، وصناعات القش من سعف النخيل، والنحاسيات والذهب والأدوات الموسيقية، وأعشاب البيئة، وأدوات الصيد وغيرها.

لفت نظرنا بناء مستطيل كبير أبيض اللون، وبجانبه عدة عمارات بيضاء اللون ايضا. قال لنا السيد حسين: انه مستشفى مرزق. فتوجهنا اليه والتقينا بالدكتور محمد جمعة امين اللجنة الشعبية للصحة في البلدية، ومدير عام المستشفى فذكر لنا: ان مستشفى مرزق افتتح سنة ١٩٨٧ ويستوعب ١٢٠ سريرا وفيه كل الاختصاصات ما عدا الاعصاب والمسالك البولية. وإنه مجهز بأحدث الادوات الطبية والعلاج فيه - كما هو التطبيب عموما في الجماهيرية مجاني - ويعمل فيه ٣٠ طبيبا هنديا وسريلانكيا وعربيا أغلبيتهم من الليبيين وكذلك هيئة التمريض.

وبعد جولتنا في المستشفى وجدنا أن عدد المرضى فيه قد لا يصلون الى نصف عدد ما يستوعبه.

وعندما سألنا الدكتور جمعة عن أهم الأمراض المنتشرة في المنطقة؟ أجاب بأن معظم الامراض موسمية، كالحساسية والاسهال، وامراض اخرى مزمنة كفقر الدم الوراثي، ومرض السكري وغيرها. وتستقبل غرف الطوارىء والعيادات الخارجية حوالي ١٥٠ حالة يوميا.

عن الجهود الذاتية التي يبذلها المواطنون لإنجاز بعض المشاريع، ذكر لنا السيد محمد التواتي- عضو لجنة التعبئة الشعبية في البلدية، أن بعض المشروعات تم انجازها بواسطة مبادرات من قبل الناس، حيث أن الدولة توفر بعض المواد الأساسية، ليتولى بعدها الناس انجاز الأعمال، وعلى سبيل المثال فإن مائتي ألف جنيه ليبي هي الميزانية التي كانت موضوعة لإنجاز إحدى المدارس الإبتدائية في مُرزق استطاع المواطنون تنفيذها بمبلغ سبعين ألف جنيه (الجنيه الليبي يساوي حوالي ٣ دولارات أميركية)، وهناك مشروعات أخرى تم انجازها حسب هذه الطريقة منها: شق وغيرها.

النشيد والذكريات

احببت في صباح اليوم التالي لوصولنا الى مرزق ان انفرد باكتشاف سر الحياة بمفردي، كانت الأرض ما زالت ندية من تأثير الندى الليلي، وخيوط الشمس تتماوج على الكثبان والبيوت والاشجار.

شدني عناق الالتماعات الذهبية لخيوط الشمس وهي تتمازج بجدائل النخيل، البرد قارس على الرغم من فيض تسلل خيوط الشمس الى كل المساحات.

علق رجل كبير في السن كان مارا بالطريق: عندما ينزل المطر في طرابلس وجوارها فإنه لا يصلنا منه الا البرد القارس، ومنذ ما يزيد على عشرين عاما فإن حبة مطر واحدة لم تنزل على هذه الاراضي، مع ذلك فإن درجة حرارة هذه الليلة كانت تقترب من الصفر.



● الدكتور
محمد جمعة

بدأت أفواج الطلبة والطالبات بالتوجه الى مدارسهم زرافات ووحدانا .

ارتقيت تلة رملية تحيط بها حقول النخيل من جهات ثلاث في حين أن الجهة الرابعة كانت قد احتشدت بالبيوت السكنية الحديثة .

ثغاء الماعز والأغنام كان يصلني بوضوح ، حظائرالماشية كانت غير بعيدة عن المكان الذي ارتقيته .

سمعت أصوات مطارق من بعيد ، كان بعض البنائين يبنون عمارة جديدة (حركة العمران نشطة في كل المناطق التي زرناها) وغير ذلك هدوء وسكينة تريح الاعصاب والآذان ، ونادرة هي السيارات التي كانت تقطع الشارع المحاذي للتلة .

تزايدت أعداد الطلبة وهي تتجه الى المدرسة القريبة .

دق الجرس فجاءني صوت النشيد متغلغلا في حناجر الصغار ، حارا دافقا مترعا بذكريات الأمس وعنفوانها القومي : الله أكبر . . . الله أكبر فوق كيد المعتدي . لقد أصبح هذا النشيد ، هو النشيد الوطني في الجماهيرية العربية الليبية .

مسيرة التعليم

عن مسيرة التعليم في البلدية حدثنا السيد ابراهيم المهدي ابراهيم فذكر انهم بدأوا بسياسة « تأنيث » مدرسات الابتدائي ، لأن الانثى اقرب الى الطفل وأحن ، وأكثر تفهما لاحتياجاته ورغباته ونوازعه .

وأضاف انه بسبب دمج المرحلة الابتدائيه بالمتوسطة ، والتركيز على تخريج أجيال مشبعة بالعلم والمعرفة العملية ، فإن الاحتياجات لمدرسي بعض التخصصات (خاصة العلمية من بينها) قد ازدادت ، لذلك فان عدد المدرسين العرب قد ازداد في الفترة الاخيرة ، اذ ان عددهم كان مائة وثلاثة في البلدية كلها سنة ١٩٨٥ ، في حين أن عددهم قد صل الى مائتين وخمسة عشر في العام الدراسي ١٩٨٨ - ١٩٨٩ .

وقدم لنا احصائية تمثل مجمل اعداد الطلبة والمدرسين والاداريين في مدارس البلدية كلها وجاء في الاحصائية :

وصل عدد المدارس في جميع المراحل بالبلدية الى سبعة وثمانين مدرسة تحتوي على سبعمائة وسبعين فصلا ، وصل عدد الطلاب فيها الى ٨٤٨٥ طالباً وعدد الطالبات الى ٨١٢٧ طالبة ، في حين أن الهيئة التعليمية من اداريين ومدرسين وصل عددهم الى ١٣٤٨ .

ويمكن الاشارة الى أن مجموع عدد الطلاب والطالبات كان ١٠٠٣٧ في السنة الدراسية ١٩٨٠ - ١٩٨١ ، والتعليم كما هو التطبيب مجاني في جميع أنحاء الجماهيرية ، ويدرس الطالب في نفس الفصل مع الطالبة في جميع مراحل التعليم .

في بلدة (تراغن) التي يصل عدد سكانها الى حوالي ثمانية آلاف نسمة وتبعد عن مرزق حوالي







● صورتان للخدمات الطبية التي تقدم بالمجان في كل أنحاء الجماهيرية .
الصورة أعلى يسار - تمثل غدامس الحديثة ، أما الصورتان أسفل - يسار - فهما تمثلان النشاط الزراعي ، زراعة الصوبات - المحمية ، ثم الزراعة المكشوفة في مكنوسة .









خمسين كيلو مترا سألنا السيد عبدالقادر الصغير أمين اللجنة الشعبية في ثانوية - ثكنة - الجلاء الثانوية عن سبب اطلاق اسم ثكنة بدلا من ثانوية على المدرسة .. فعلق :

إن سبب ذلك يعود الى أن طلبة الثانوية وطالباتها لم يكن يستفاد منهم في الانتاج والدفاع ، فظهرت فكرة تجييش المدارس ، وتم اقرار تدريس خمس حصص في الأمور العسكرية أسبوعياً عليهم ، بينها الدروس النظرية والعملية ، وكل الدروس تعطى بالعربية طبعا ، ما عدا اللغة الانكليزية التي تدرس في المرحلة الثانوية فقط (ثلاث سنوات) .

* سألت : وهل تكفي السنوات الثلاث لاتقان الانكليزية ؟

- اجاب الاستاذ الصغير ، كما أجاب غيره من الاساتذة الذين طرحت عليهم هذا السؤال : نحن لا نضع سياسة التعليم ، إنما نحن ننفذها .

مصنع للملابس

السوق الشعبي المترب كان يجمع بائعين من أبناء مرزق وآخرين من أبناء المدن والقرى التونسية الذين جاءوا ببضاعتهم على سياراتهم الخاصة ليبيعونها في هذه المناطق النائية ، وليشتروا بثمنها من السوق الليبي أشياء يحتاجونها شخصيا ، أو يحتاجها السوق التونسي ، احتوى السوق على ملابس وأحذية وكماليات صغيرة من عطورات وأدوات زينة وحتى أبواب البيوت ، في حين أن جانبا منه احتوى على الخضراوات والفواكة الطازجة . بالقرب من هذا السوق كان العمال بصدد انهاء اللمسات الاخيرة من سوق البلدة الذي بُني من الاسمنت ، وتم تقسيمه وفرزه ليحتوي على مجمل قطاعات الانتاج وبيع احتياجات السكان .

* عندما سألت احد الباعة عن نوعية القمصان التي كان يبيعها والبلد الذي يصنعها ، فإنه لم يتوان عن الاشارة الى المبنى الكبير المجاور الذي كان يتكون من طابقين وعلق : انه المصنع الذي يصنع هذه القمصان وغيرها .

توجهنا مباشرة الى المصنع فاستقبلنا مديره السيد عبدالسلام صالح فقال : لقد تم افتتاح المصنع سنة ١٩٨٦ ، وكان عدد العاملات والعاملين فيه ١١٣ وقد وصل العدد الآن الى ١٥٣ عاملة وخمسة عمال ، وقد امتلك العاملات والعمال المصنع ، ونسدد ثمن آلاته وايجار المبنى على أقساط ، والمعدل الوسطى للاجرة هو حوالي ١٣٠ دينارا ليبيا في الشهر . ويقوم المصنع بإنتاج ٨٠٠ قميص وسروال يوميا (اللباس الليبي الوطني) ونأخذ رغبات وأذواق المستهلكين بالحسبان ، ونتابع احتياجاتهم وطلباتهم .

وقماش المواد المصنعة نستورده من كوريا ، كما أن آلات الخياطة مصنوعة فيها ايضا . وقد نفذ بناء وتركيب المصنع مهندسون ليبيون ، ويعمل في ورشة الصيانة مهندسون وعمال ليبيون ايضا ، وكل العاملات ليبيات .

ونوفر للعاملات والعمال بعض المزايا ، كتوزيع جزء من أرباح نهاية السنة ، وقد حصلت ١١٣ عاملة على آلات خياطة يستعملنها في بيوتهن ، كما أنه يوجد صندوق للاعانات للحالات الطارئة .

* سألت الحاجة عايشة محمود حبش مشرفة صالة الانتاج عن ساعات العمل ، وقدرتها على التوفيق بين دورها في المصنع ودورها في البيت .. فأجابت :

- نعمل حوالي سبع ساعات ، من السابعة حتى الثانية وهناك نصف ساعة للراحة ، كما ونعمل حسب نظام خط الانتاج ، الذي تتولى فيه كل عاملة عمل شيء محدد في القميص أو السروال ، وصولا الى الانجاز الكامل للقطعة ، وأي تهاون او تقصير يمكن رصده من

خلال مجمل الانتاج اليومي للخط .

أما من حيث التوفيق بين عملي في المصنع وادارتي لبيتي ، فإنني اقوم بعملي المنزلي على أكمل وجه ، وأفيدك بأنني لا اعمل بسبب الحاجة المادية فقط ، بل بسبب رغبتنا نحن النساء في ان نؤدي دورنا أيضا في الانتاج .. لأننا ببساطة نصف المجتمع .

الصحراء عندما تخضرّ

ان تشاهد وتعايش .. هو أفضل من أن تستمع وتقرأ .. هكذا رأينا وعايشنا الجهد الانساني وهو يحول الصحراء من رمال تسفوها الرياح وتوزعها على الجهات الاربع ، الى أرض خضراء منتجة تطعم سكانها وتقيهم شر العوز والفاقة .

قطعنا حوالي ربع ساعة - بالسيارة - خارج بلدة مرزق ، ومررنا ببعض القرى الصغيرة التي قيل لنا أن إحداها (تقروتين) يسكنها أفراد من قبائل الطوارق بعد أن تحضروا ، الكثير من بيوتها مبنية على طريقة (الفلل) من حيث الفخامة والحجم ، طرقها معبدة ، وتحيط بها أشجار النخيل والطلح والأثل .

ثم تابعنا المسير لمدة ساعة اخرى حتى بدأت تلوح لنا بعض أطراف الصحراء المخضرة ، قال مرافقونا .. إنه مشروع (مكنوسة) الزراعي .

استقبلنا المهندس ابراهيم نظيف مدير المشروع ونقل لنا المعلومات التالية :

اعتبارا من سنة ١٩٧٨ تم التفكير بإقامة مشروع لانتاج الحبوب في المنطقة ، وبالفعل فإنه تم مسحها ، وحفرت آبار المياه ، وباشرنا بالزراعة وكانت النتائج جيدة جدا وتبلغ مساحة المشروع حوالي عشرة آلاف هكتار الان .

وقد زرعنا في ١٩٨٨، ٢٤٠٠ هكتار قمح ، و ٤٠٠٠ هكتار شعير و ٣٢٠ هكتار برسيم ، ومائة هكتار بازلاء ، واستوردنا حوالي ١٦٠٠ رأس من الغنم مختلفة الأصناف تمهيدا لاقامة مزرعة مواشي ، ونفكر بأقامة مزرعة دواجن ، ونـزرع مساحة من الارض تكفينا من الخضراوات .

يعمل في المشروع حوالي ٢٠٠ عامل معظمهم من أبناء المنطقة ، وقليل من بينهم أيدٍ عاملة فنية من الأقطار العربية .

ومعظم بيوتهم قدمها لهم المشروع ، وفي المشروع ٩٠ بئراً ارتوازيا والري والسقاية (بواسطة الرش الالي) والحرث والزراعة والحصاد تتم بطرق آلية ، ما عدا القليل منها كجني حبوب البازلاء مثلا ، وأعمق بئر بين الآبار يبلغ ٦٠٠ متر ، وأقلها عمقاً حوالي ٢٥٠ مترا ، والمعدل الوسطى للاجرة يصل الى ٢٠٠ دينار ليبي ، ويوجد في المشروع مختبر فني يوالي قياس نوعية التربة واحتياجاتها وفحص مياه السقاية ، وفحص النبات وما يلحق بها من تغيرات أو تطورات ، كما نملك طائرات خاصة تقوم بالرش لمكافحة الآفات .

والمشروع مدار ذاتيا من قبل العاملين فيه ، ووصلت انتاجيته من القمح ١٣ ألف طن سنة ١٩٨٨ .

ويقوم عمال المشروع بنشاطات عدة تقرب الصـلات بينهم ، وكلهم أعضـاء في اللجـان الشعبية (العمل السياسي في الجماهيرية يعتمد على اللجان الشعبية الموجودة في جميع وحـدات العمل وفي الأحياء والمدارس وغيرها) .

غومة المحمودي في درج :

كان علينا أن نقطع مرة اخرى حوالي ١١٥٠ كـيلو متـراً من (مـرزق) حتى نـصـل الى (غـدامس) ، وكـما كـانت (مـرزق) محـطة وعاصمة من عواصم الصحراء في الجنوب ، فإن (غدامس) كانت محطة وعاصمة من عواصم الصحراء في الشمال الغربي .

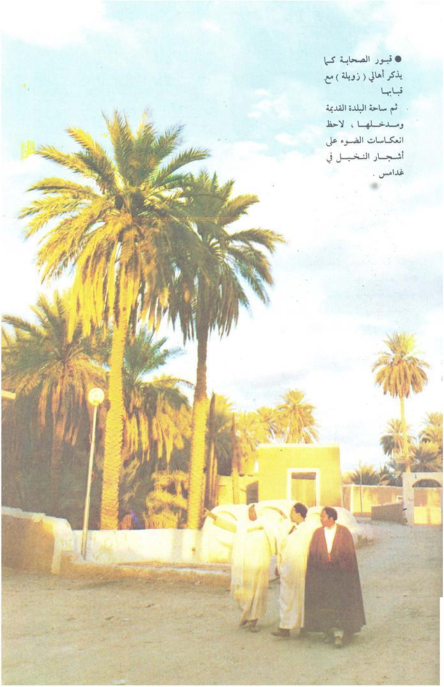
بعـد أن انتهينا من زيـارة مشروع مكنـوسة الزراعي مررنا (بوادي الآجـال) الذي تحـول



اسمه الى (وادي الحياة) ورأينا ما يزخر به من مزارع نخيل ، وحمضيات وخضراوات ، ثم مررنا (بسبها) ثانية ، ومررنا بقريتي (الشويرف) ثم (القريات) ، ومنها سلكنا الطريق الجديدة المعبدة تعبيداً جيداً ، ولم يتم افتتاحها بشكل رسمي بعد ، متوجهين الى (غدامس) .

وصلنا الى قرية (درج) بعد أن قطعنا ما يزيد على ٣٠٠ كيلومتر من القريات (تبعد القريات عن مرزق حوالي ٧٠٠ كيلومتر) وهي تبعد - أي درج - عن (غدامس) حوالي مائة كيلومتر فقط .

التقينا في درج بالسيد ادريس احمد موسى امين المؤتمر الشعبي لفرع غدامس ، والسيد الحضيري ابو زيد طاهر امين العدل في فرع غدامس وتوابعه (وهما من درج) ومن المعلومات التي ذكراها عن درج ، اسجل التالي : عدد السكان فيها يصل الى حوالي خمسة آلاف نسمة ، يعملون بزراعة النخيل والخضراوات والرعي في الوقت الحالي ، بينما كان الكثير منهم من قبل اما رعاة ومالكي ماشية ، أو مرشدي قوافل وتجاراً حيث أن درج كان لها دورها وموقعها في خريطة القوافل التجارية منذ قديم الزمان .



● قبور الصحابة كما يذكر أهالي (زويلة) مع قبابها

ثم ساحة البلدة القديمة ومدخلها ، لاحظ انعكاسات الضوء على أشجار النخيل في غدامس .

وتبعد مقبرة المناضل الليبي غومة المحمودي حوالى ٦٠ كيلومتراً عن البلدة ، وقد لعب هذا المناضل دوراً بارزاً في مقاومة الاحتلال التركي لليبيا ، وقد اتخذ من درج مقرا له في فترة من الفترات ، كما كانت البلدة قاعدة لمقاتلي جيش التحرير الجزائري اثناء معارك التحرير في خمسينيات هذا القرن وأوائل الستينيات ضد القوات الفرنسية .

ومن الآثار اللافتة للنظر في البلدة ، وجود ما يسمى بقصبات ذياب وهي بقايا قلاع يقال بأن بانيها هو ذياب الهلالي أثناء هجرة قبائل بني هلال من الجزيرة العربية وتوجههم الى مصر وبلاد الشام ثم الى اقطار المغرب العربي في القرن الحادي عشر الميلادي ، كما ويوجد في البلدة منابع مياه تمتد عدة كيلومترات أسفل البلدة ، لا سيما القديمة منها . ويوجد بالقرب منها مياه جارية لا تنقطع في الصيف ولا في الشتاء ، ويعتقد أنها ناتجة عن مجموعة من ينابيع المياه القريبة من بعضها البعض .

هذا ويوجد في البلدة مصنع للتمور .

ونظرا لتوافر موروث تعبيري متعدد ومتنوع وغني في البلدة فقد أنشئت فرقة درج للفنون الشعبية رسميا سنة ١٩٧٧ ووصل عدد أفرادها الى حوالى ٤٠ فردا بين عازف وراقص .

ومعظم الرقصات هي استجابة لحاجات اجتماعية كانت سائدة بين الناس من قبل : كرقصة الحصاد ، والربيع ، والاستسقاء ، والرعاة ، والفلاحة وغيرها . ولكل رقصة ملابسها المتوافقة مع حاجات وصفات مؤديها مع تطوير بسيط ، وهم يستعملون آلات شرقية ، كالقانون والعود والكمان والطبلة والطار والدف وغيرها .

وقد قدمت الفرقة أثناء تواجدنا في البلدة ثلاث رقصات هي : الصندا ـ الكسكي ـ ورقصة الفلاح ، ورقصة الاستسقاء والرقصة الاولى تعبر عن أجواء الفرح اثناء اتمام مراسم الزواج ، في حين أن الاخيرة تعبر عن طلب الغوث ومن كلماتها :

يا من يغيث الورى من بعد ما قنطوا
ارحم عبيدا اكف الفقر قد بسطوا

فواكه الصحراء :

نغادر درج وتلتف الطريق حول مجموعة من تلال . لنواجه بعد أقل من كيلومترين قرية صغيرة اسمها (ماترس) تلتف حولها أشجار النخيل ويظهر فيها قسم القرية القديم محاذياً للقسم الجديد .

تتوالى بعد ذلك مظاهر الصحراء التي تقطعها بين فترة واخرى تلال جرداء ، أو تلال الرمال الناعمة التي تكونت بفعل هبوب الرياح الشديدة .

تصادفنا بعد ذلك اسلاك واسيجة ، تمتد لمسافة طويلة ثم يظهر مبنى حجري وسط المساحة الواسعة المسيجة ، انه مطار (غدامس) الذي يبعد عن البلدة حوالي ثمانية عشر كيلومترا .

رؤوس اشجار النخيل العالية والأعمدة الحاملة لاسلاك الكهرباء والهواتف أخذت تظهر وتتزايد ، نقترب من مطار صغير آخر بالقرب من بوابة البلدة ، إنه مطار الطيران الشراعي والخفيف « الهليوكبتر » الذي يستعمل احيانا لرش المزروعات ، أو لنقل الحالات المرضية الطارئة الخطرة .

ثم يتفرع الطريق الى اتجاهين واسعين ، وتظهر اعمدة النور على الجانبين ، الجانب الايمن من الطريق تحفه المزارع ـ نخيل وخضراوات وفواكه ، نعم فواكه ـ فقد شاهدنا أشجار حمضيات ، وتين ورمان وعنب ولوز وغيرها ـ كما وشاهدنا أيضا حقولا مغطاة ـ صوبات ـ قيل لنا بعد ذلك إنها مزروعة بأنواع عدة من الخضراوات .

تظهر كتل متراصة بيضاء من المباني التي تبدو خالية من السكان ، اسمع تعليقا : تلك هي البلدة القديمة . . أعلق : إنها واسعة وكبيرة ،

لقوافل التجارة ، واذا ما كانت (مرزق) محطة بين القوى التي كانت مسيطرة على الساحل الجنوبي من البحر المتوسط وبين النيجر وتشاد وغيرهما من بلدان ، فإن (غدامس) كانت محطة بين هذه القوى ، وبين مالي ونيجيريا وغيرهما من بلدان أيضا ، عبر محطة أقرب الى هذين البلدين هي واحة (غات) الليبية التي يعتقد بأن نصف سكانها تعود أصولهم الى (غدامس) نفسها .

وذكر السيد مالك أثناء جولتنا حول البلدة أنه كان يحيط بالبلدة سور قديم ـ شاهدنا بعض بقاياه ـ فيه أربعة ابواب ، وان الاسم القديم للبلدة حسب المصادر الرومانية هو (سيدا موس) ، وانه يوجد فيها بقايا معبد قديم مبني من حجارة صغيرة وطين اسمه (تمسمودين) ، ورأينا تمثالين قديمين بالقرب من مقبرة البلدة ، قيل لنا انهما من بقايا الآثار الرومانية مع أنهما مبنيان من حجارة صغيرة وطين ولا يمكن ان يصمدا طيلة هذا الزمن الطويل ! وذكر السيد مالك ان منطقة (الظهرة) التي تقع غرب البلدة كان يسكنها بعض قبائل الطوارق.

غذاء أمس :

تواعدنا للالتقاء عند العصر بالحاج احمد قاسم ضوى وهو شيخ عمره حوالي ٧٨ سنة ، وهو مؤرخ المدينة الشفوى الذي يحفظ حتى تواريخ الأيام المهمة في حياة البلدة (يتكلم العربية والفرنسية والايطالية وبعض الانكليزية ـ والبربرية طبعا ـ وقليلاً من إحدى لغات نيجيريا) الشمس كانت محاصرة بغيوم بيضاء ، واشعتها كانت تتسلل بين فترة وأخرى لتعانق رؤوس أشجار النخيل العالية ، بياض البيوت القديم كان يلمع تحت خيوط الشمس .

كنت استحث الحاج أحمد كي يطلعنا على خبايا وخفايا ما يعرفه عن البلدة القديمة ، قبل أن تغرب الشمس وتحل العتمة .

بدأ الحاج احمد بسرد المعلومات : هنا كان

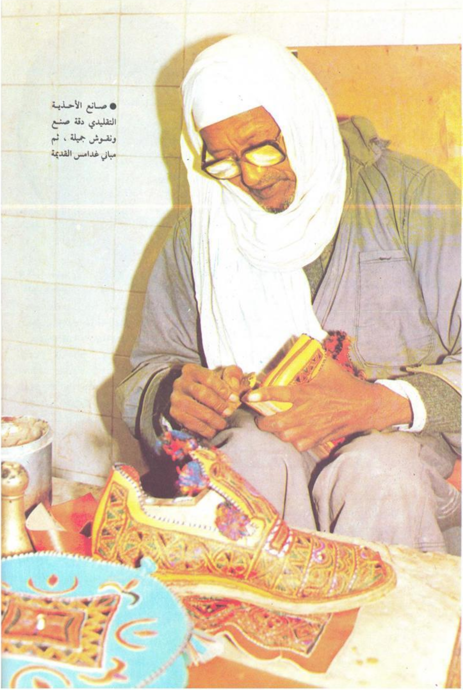


● السيد الحضيري
أبو زيد طاهر

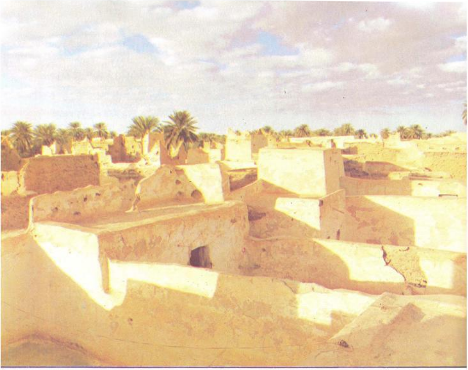
ومبانيها ما زالت صالحة للسكن البشري !

علق مرافقنا : دعنا نترك الامر لمن يمكنه أن يفيدنا في هذا الأمر .

التقينا بمجموعة من مسؤولي أمانات المؤتمر الشعبي لفرع (غدامس ،) فرافقنا السيد أحمد مالك امين اعلام (غدامس) في جولة بالبلدة وحولها ، فذكر لنا أن (غدامس) تقع في جنوب غرب مدينة طرابلس على بعد حوالي ٦٣٠ كيلومتراً منها ، وأن البلدة تبعد خمسة عشر كيلومترا عن الحدود الجزائرية ، وثمانية كيلومترات عن الحدود التونسية ، لذلك فإن حركة الناس بين الاقطار الثلاثة ، متواصلة وكثيرة وربما تعود بعض أصول العائلات الى هذا القطر او ذاك ، وذكر أن عدد سكان البلدة يصل الى حوالي ثمانية آلاف نسمة ، وانها خضعت كالكثير من البلدات والمناطق لقوى كثيرة غزت القطر الليبي كالرومان والنورمانديين والاتراك والايطاليين والفرنسيين وغيرهم . لكنها في كل هذه العهود كانت مستمرة في لعب دورها كمحطة



● صانع الأحذية التقليدي دقة صنع ونقوش جميلة ، ثم مباني غدامس القديمة



مراح القوافل . . وهذه هي سواقي المياه التي كانت تشرب منها . وتلك نخلة يتجاوز عمرها أكثر من ٣٠٠ سنة .

وصلنا في جولتنا الى عين ماء جف ماؤ ها .

علق الحاج احمد : هذه هي عين الماء الوحيدة التي كانت تقوم عليها حياة البلدة ، وقد ذكرها المؤ رخون عندما كتبوا عن البلدة . أي أنها قديمة قدم البلدة ، وقد توقف ماؤ ها عن التدفق منذ سنة ١٩٧١ ربما من كثرة ما تم نزحه منها .

سألت : ما هي حكايتها ، وما الذي يذكره موروثكم عنها ؟

ـ اجاب الحاج احمد : انها عين فرس ، وما هو موجود في موروثنا الشفهي والمكتوب عنها يفيد ما معناه : بأن بعض الفرسان مروا بمكان البلدة ، ومصادرنا تنسبهم الى ملك اليمن ذي يزن ـ فيما تنسبهم مصادر اخرى الى النمرود بن كنعان ـ وانهم استطابوه ، فجلسوا لتناول وجبة الغذاء فيه ، ثم واصلوا مسيرهم بعد ذلك ، لكنهم افتقدوا في اليوم التالي غرضا من أغراضهم ، فخمنوا انهم ربما نسوه في المكان الذي « تغدوا فيه أمس » فعاد فارس منهم الى المكان فعطشت فرسه ثم ضربت الأرض بحوافرها ، فتفجر الماء ، ومن يومها عرف المكان « بعين فرس » وعرفت البلدة « بغدامس » . . . و استمرت عامرة بسكانها حتى سنة ١٩٨٢ ، وكانت تنقسم الى محلتين : بنو وليد ، وهي بدورها تتفرع الى ثلاثة تجمعات هي : درار ، تصكو ، ومازيغ ، والثانية بنو وازيت وتتفرع الى اربعة تجمعات هي : تفرفرة ، تنزين ، جرسان وبلليل ، وكل هذه التجمعات كانت داخل سور البلدة ، وكان يوجد خارج سور البلدة تجمع ثالث للطوارق في محلة « افوغاس » .

جولة في البلدة القديمة :

تابعنا جولتنا في البلدة القديمة وتابع الحاج احمد رواية تاريخ هذا المكان أو ذاك . (السكيك) أو طرق البلدة ضيقة جداً لا يتجاوز عرض بعضها متراً واحداً ، وبعد مسافة معينة فإن الطريق يتسع وينفرج عن ساحة كانت تمثل ملتقى لأبناء الحي حيث يقيمون افراحهم واتراحهم ، ومعظم الطرق مسقوفة وغير مكشوفة ، يأتيها النور والهواء من بعض الفتحات والفراغات التي كانت تترك بين حي وآخر ، او بين مجموعة واخرى من البيوت ، ضمن هندسة دقيقة موزعة توزيعا فنيا .

دخلنا أحد المساجد فذكر الحاج أحمد انه المسجد العتيق وقد تم تأسيسه في عام ٤٤ هجري ، الموافق ٦٦٨ م ، أي في نفس العام الذي فتح فيه عقبة بن نافع البلدة ، وقد تم ترميمه عشرات المرات ، ويوجد عشرات المساجد داخل البلدة ، وما زال المصلون يؤمونها يوم الجمعة ، وفي الاعياد .

وصلنا الى بيت كان قد سبقنا اليه بعض مرافقينا فارتقيناه وصعدنا درجاته الضيقة ، حتى وصلنا الى « مربوعته » اي الى وسطه ، كانت رائحة البخور قد عبقت في المكان ، وبدأ أحد المرافقين بالتعريف بمحتوياته فذكر : انه البيت النموذجي الاثري في « غدامس » ، اسس سنة ١٩٣٦ للابقاء على الصورة التقليدية للبيت الغدامسي ، كما تم توارثه . هنا المخزن ، وهناك دار الرجل مع أبنائه ، وغرفة المرأة وبناتها ، هذه ملابس العروس ، وهذه ادوات الزينة ، وأدوات الاضاءة ، وجرار وخوابي وطنافس وسجاجيد وحصر . . انبثقت رائحة مكونات الماضي وتجسدت امامنا .

علق الحاج احمد : ذلك ما كان ، إنه الماضي ولقد كثر الناس ، فكيف لبلدة لا تتجاوز مساحتها سبعة كيلومترات مربعة أن تستوعب السكان الذين تزايدوا كثيرا ؟

خرجنا من البيت بعد أن لفت العتمة الجوار ولم يهدنا الى طريقنا الا بعض الأضواء القليلة التي بقيت في بعض الأماكن بالبلدة القديمة .

والجديد :

على الرغم من خلو السماء من أية غيمة في صباح يوم (١٩٨٨/١٢/١٥) وكانت مشبعة بالغيوم في مساء اليوم السابق ، وعلى الرغم من شروق الشمس وتسلل خيوطها الى الأرض وما يدب عليها ، مع ذلك فإن البرودة الصقيعية بقيت سائدة الى درجة اننا اضطررنا لاستعمال المياه الدافئة كي نذيب الجليد الذي وجدناه منتشرا على زجاج السيارة .

التقينا بمسؤولي أمانات التعليم والصحة ، والعدل (الامن) والزراعة في البلدة واستمعنا وناقشنا المعلومات التي أوردها كل مسؤول .

عن مستشفى غدامس المركزي الذي قمنا بجولة على معظم اقسامه برفقة مديره الدكتور محمد فايز عبد الله هيبة ورئيستي الممرضات فيه ، العربية الليبية السيدة شريفة واليوغسلافية السيدة اويلا .

ذكروا لنا : لقد تم افتتاح المستشفى سنة ١٩٨٤ ويحتوي على ١٣٤ سريرا، -وجدنا أن نصف هذه الاسرة قد شغل فقط-،وانه يوجد في المستشفى معظم التخصصات ، وان الهيئة الطبية مكونة من أطباء عرب (ليبيون وغيرهم من الاقطار العربية) ويوغسلاف ، وهنود ، كما أن الهيئة التمريضية مكونة من ممرضات يوغسلافيات وعربيات ليبيات . وان معظم الأمراض السائدة هي ارتفاع ضغط الدم ومرض السكر وامراض العيون خاصة عند سكان البلدة القديمة ، ويراجع العيادات الخارجية حوالي ٢٠٠ مريض يوميا . وتوجد في المستشفى أحدث آلات التشخيص والعلاج والفحص والمختبرات .

وإن العلاج مجاني تماما مثل التعليم ، وان جميع الحوامل يلدن في المستشفى ، وذكر لنا

السيد قاسم مانع أحد مسؤ ولي قطاع الصحة أنه يوجد مستوصفات متخصصة في البلدة ، كمستوصف الصحة المدرسية ، ومستوصف صحة المجتمع ، ومركز الامومة والطفولة ، ومركز الرعاية الصحية الأساسية .

وذكر لنا السيد مفتاح عبد القادر ضوى أمين اللجنة الشعبية للتعليم بأنه تم تغيير مناهج التعليم حيث ادمجت المرحلة الابتدائية بالمتوسطة ، وأطلق عليها كلها مرحلة التعليم الأساسي (من الاول حتى التاسع) ويتم التركيز فيها على العلوم التقنية والفنية .

ثم ذكر لنا السيد محمد احمد رشيد امين قطاع الزراعة عن الحيازات الزراعية في الفرع ، بأنه يوجد ١٠٥٥ حيازة زراعية وأنها تنقسم الى اراضي مروية وبعلية (مساحتها ٦٦٤ هكتارا) وان الاعتماد الكلي في الشرب والسقاية يقوم على الآبار ، وان عدد أشجار النخيل قد وصل الى ٢٢,٩٠٨ نخلة ، هذا عدا الاشجار المثمرة الاخرى ، وانه يوجد توجه لاعتماد الزراعات المحمية ـ الصوبات ـ .

توجهنا الى سوق المصنوعات الشعبية بعد لقائنا بمسؤ ولي أمانات الفرع ، وهو مواجه لقلعة البلدة التي ما زالت بحالة جيدة (كانت تخضع للترميم من الداخل أثناء زيارتنا للبلدة) فذكروا لنا ان بناتها هم الايطاليون الذين دخلوا المنطقة منذ سنة ١٩١٣ واخرجوا منها عدة مرات الى ان استقروا فيها اعتبارا من سنة ١٩٢٤ حتى سنة ١٩٣٤ ، وحل مكانهم الفرنسيون الذين بقوا فيها حتى سنة ١٩٥٧ .

وسوق المصنوعات الشعبية يحتوى على عدة محلات مملوكة للحكومة ويقوم الصانع فيها بدفع مبلغ رمزي (٥ جنيهات ليبية في الشهر) والمكان أو الدكان يصنع فيه الصانع صناعته ويعرضها للبيع في نفس الوقت ، وأهم الصناعات في السوق هي صناعة الجلود وصياغة الذهب والفضة ، والفخار ، والحصر ، والاطباق والقبعات (من سعف النخيل) .

وقد ذكر لنا السيد محمد بدر ٧٢ سنة الذي يعمل بصناعة الجلود انه اخذ المهنة عن والده الذي اخذها بدوره عن والده ايضا ، وذكر انهم يستوردون الجلود من طرابلس او بنغازي في حين ان القسم المطرز او المنقوش من مادة الجلد يقوم بعمله ناس متخصصون في (غدامس) ، وهم يعتمدون على نقل نقوش متوارثة او يلجأون الى ابتداع نقوش جديدة ، وهذا ما يتم بالنسبة للذهب والفضة .

التفاؤل بالغربان :

قبل أن نغادر « غدامس » رأيت بعض الطيور السوداء ـ الغربان ـ تطير ثم تحط على رؤ وس اشجار النخيل ، فسألت الحاج احمد قاسم ضوى ماذا يمثل الغراب في موروثكم الشعبي ؟

ـ أجاب : انه طائر من الطيور .

نقلت السؤ ال الى مرافقينا الآخرين : فذكروا لا يوجد معنى خاص لحضور هذا الطائر حسب اعتقاداتنا .

* علقت : ألا يمثل رمزا للتشاؤ م عندكم ، خاصة وانه يمثل ذلك في بعض الاقطار العربية ؟

ـ اجاب الحاج احمد : إنه لا يمثل اية صورة من صور التشاؤ م في موروثنا ، بل إن بعض القوافل في الصحراء تستدل اذا ما رأته على انها أصبحت قريبة من الواحات أو من العمران .

علقت مازحا : وهل يمكننا أن نسافر على الرغم من ملاحقة الغربان لنا ؟

ـ انفجر الحاج احمد ضاحكا مع مرافقينا الآخرين وعلق : لوكنا نعرف ان للغربان مدلولا تشاؤ ميا عندكم ، لكنا وجهنا الكثير منها نحوكم ، علكم تبقون في ضيافتنا لمدة أطول .

ضحكنا وضحك الجميع ، وكان وداع وجاءتنا الأصوات مجتمعة : رافقتكم السلامة . . رافقتكم السلامة . □

قصة

النحنحات

إبراهيم صموئيل

لم يكن سعاله الذي تناهى إليّ من الزنزانات الداخلية عبر البهو المعتم الضيق، ليلكز اهتمامي بأكثر مما يفعله وقع انصفاق باب أو سقوط وعاء رنان على أرض صلبة، لولا أن ما تلا بدّل معنى الحادثة العابرة، ثم أكد دلالتها!

فبعيد السعال الذي تدفق من جوف البهو، حادا متتابعا، انتابتني - صدفة - نوبات سعال متتابعة، أقل حدة، ما كادت تهدأ حتى لحقتها نحنحتان: «إحم.. إحم» بدتا لي مفتعلتين، ليس فيهما أثر لسعال حقيقي كأنهما تصدران عن فم لا من جوف أو حلق. فجرّبت - تباعا - نحنحة قصيرة منغمة بتساؤل: «إحم؟»، وإذ بي أتلقى نحنحة مماثلة، دون تنغيم، مفعمة بتأكيد وقصد، وكأنها تردّ تحية لتحية!

«يهتف لي إذن! ولكن، من يكون؟ وماذا يريد من نحنحاته؟ أيعرفي!؟ هل هي اشارة منه لم أفهم معناها؟» سللت مسمارا كنت خلعته من باب زنزانتي الخشبي، ورحت أتطلع من دائرة الضوء الصغيرة: السجّان غائب. أعدت المسمار، وأطلقت نحنحة لأتأكد أكثر، فتنحنح يؤكد ظني! تنحنحت كرة، ففعل، وأعدت، فأعاد!!

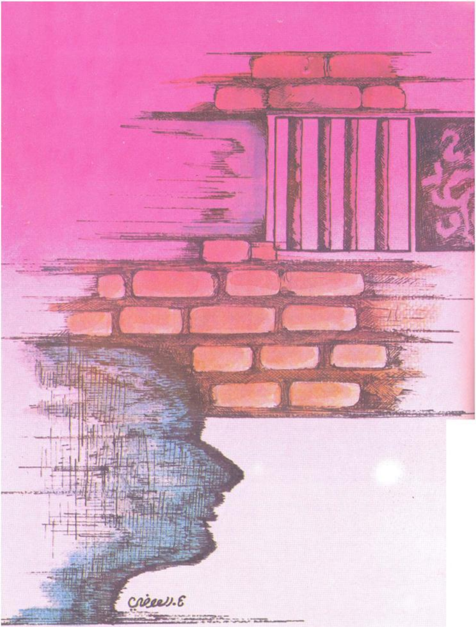
فجأة، كبرت الزنزانة. كأن النحنحات صدّعت جدرانها، فانسلّت حزم ضوء إلى هذا الظلام الصامت. فرحتُ بالضوء، وخفتُ أن يغيب فتمطيت صائتا، فصات كأنه يتمطى!

وأمسكنا اللعبة، هو من طرفها الذي يتناهى إليّ غائرا من تلك الزنزانات القابعة في جوف البهو، وأنا من الطرف الآخر في زنزانتي التي تواجه مدخل البهو.

وعبر المسافة المجهولة الظلماء بين زنزانتين رحنا نشد، من وقت لآخر، حبل النحنحات. أرقب السجّان وأتنحنح، فيطمئن ويتنحنح، ونواصل لعبتنا التي لوّنت هذا القاتم من الصمت. ميّعت هذا اللزج المنثال على أيامي التي تتشابه بتطابق كريه. آنست وحدتي فلم أعد منفردا، وربما فعلت ذلك معه أيضا.

ومضت أيام لهو كثيرة أذابت فيها وحدته وحدتي، وصارت روحه لصيقة روحي. وما كان لعبة لمجرد كسر الصمت المفروض الخانق، صار شاغلا حلوا. متعة انتظمت بصورة مدهشة في أبجدية قليلة أشاعت قربا ودفئا حنونا، وتواصلا يروي القلب الذي جففته الجدران الكتيمة والفراغ الكتوم.

ولم أكن أدرك أي بوح عميق مفعم يختفي


ع.الصعيدي

خلف الأصوات ، حتى عشت تلك الأيام من النحنحات مع صديقي المجهول . فمن نحنحاته صرت أحس بهمومه وبهجاته وأحزانه . من تهدجها أو رخاوتها . من اندفاعها أو ترددها ، من صدورها محزوزة مجروحة أو قوية مشبعة ، من الآه أو الآخ التي يطلقها آخر النهار .

وبسبب الحظر المشدد على أي كلمة أو نداء من المعتقلين ، لذّت حيلتنا وطابت ! فرحنا ننوع أصواتنا ونبحث عن مفردات جديدة نضيفها إلى « لغتنا » المكتشفة .

أشركنا التثاؤب الطليق الصائت للتعبير عن ملل أو الاعلان عن رغبة في النوم ، وافتعلنا العطاس القوي ليوقظ أحدنا الآخر ، حتى أننا أدخلنا المزاح أيضا إلى لغتنا الخاصة الجديدة !

كنا ، بعد كل توزيع للطعام ، نتسابق في إطلاق نحنحتين مطوطتين مغناجتين إيحاء للآخر بأن نصيبه الذّ وأوفر ! وغالبا ما كان يسبقني في التنحنح ، فاغتاظ وأبادله نحنحتين مثيلتين لا للذّة في وجبتي أو وفرة فيها ، بل لأ ردّ له الصاع وأغيظه أيضا !

ومنذ أيام قليلة ، قبل أن يحدث ما حدث ، كنت أحاول أن أراه . أن أوسّع الثقب ، وأتفق معه بنحنحة مشيرة على لحظة خروجه ، وأراه . فلم يبق من صداقتنا ما تتوق اليه الاّ العيون . لأننا بتنا معا . أشبه بكفيفين تجمعهما زنزانة واحدة دون أن يدريا . وبتنا إن تأخر أحدنا أو تلكأ ، تنحنح الآخر عجولا ، وإن سها ، وقلما يسهو ، تنبّهه نحنحة عاتبة !

هل سهوت يومئذ عن النحنحة ، بشارة الأمان ؟! هل تأخرت في المراقبة وطمأنته ، حتى بادرني باطلاق نحنحات عاتبة غاضبة ؟ !

لم أتنحنح حين سمعت نحنحاته ، بل عاجلت إلى سحب المسمار والتطلع من الثقب ، ففوجئت بالسجّان منحنيا يتلصص ، وقد توارى معظمه خلف باب البهو وارتددت فزعا ! ظلت نحنحات صديقي تعلو وتتلون وتتغير . عاودت التطلع . . فلمحته يخطو منحنيا متلصصا . دفعت حنجرتي لتتنحنح ، فأحسست بها خورا ! حاولت وحاولت ، ولكن الدوران العجول لمفتاح السجّان سبقني في كتم نحنحات صديقي . ثم ، كما يُشَقّ ثوب على دفعات ، دوّت ارتطامات اللحم على اللحم ! أزّت ، وتلاطمت ، وتتابعت ، ثم ران ما يشبه الذنب أو الخديعة على عينيّ !

آب السجان . ومع كل خطوة كان يؤوب بها وينأى ، كنت أنزلق في وهدة ألم حزين واجف بعدها ، ران صمتٌ . صمت لم أسمع مثله يوما مذ دخلت الزنزانة . كززت على أسناني وأنا أنهض من وجيفي الأليم نحو الثقب : دائرة ضوء فارغة . بلعت ريقي ، وتنحنحت ، ارتطمتْ النحنحات بالصمت وارتدتْ ! أطلقتُ نحنحتين مناديا . ثم أعدت ، لم يجبني ! كررت راجيا ، فأحسست بنحنحاتي تتهاوى واهنة ضعيفة . عاودت مناديا ، ثم متسائلا ، ثم مازحا كما في أوقات الطعام ، غير أن صوتي بدا أشبه بنباح جرو وليد لفحه الجوع والزمهرير ، جرو يصوت في بهو معتم ضيق ، فلا يُسمع غير رجع صداه الخوّار المفرد !

وكما تطبق قوقعة على عتمها ، انسحبت حزم الضوء من زنزانتي ، وأطبقت جدرانها على جسدي البارد ، البارد . □

دعـــاء: أعطني اللهم الصفاء ليتسنى لي أن أقبل ما لا يمكن تغييره ، وأعطني الشجاعة لأغير ما لايمكن تغييره ، وأعطني الحكمة لأفرق الواحد عن الآخر .

ارتديت الحريق

شعر : محمد عثمان كجراي *

احتوانا معاً في الصباح الطريق
فارتديتُ الحريق
وتلفَّتُ أسألُ :
هل للبنفسج في عطره كل هذا الرحيق ؟
أوقعتني على ساحةِ الوجدِ من قلبِهَا نظرةٌ ضارية
ثُمَّ دَارَ الحديثُ بومضِ العيون
فيا لَلْهَوى حينَ يرفضُ في لحظةِ التَّوقِ
أنْ يتحدثَ باللغةِ الجارية
التفاصيلُ كانتْ على مذبحِ العشقِ مطروحةً عارية
كنت مُعْشَوْشِبًا بالسَّنَى
في بساطِ الطبيعةِ بالخضرةِ الأبديَّة
حينَ ينطلقُ العشقُ لابُدَّ أنْ تَتَنَاسَلَ كُلُّ الحروف
تُودِع أشْجَانَهَا
تَنْبُض الرغباتُ تُضيء على ساحلِ الأبجدية
آه ياامرأةً في الحنايا هُنَا دارُهَا
للمشاعرِ حينَ تَضُجُّ الصباباتُ أسرارُهَا
للعواطفِ حينَ تضيقُ المساحاتُ
في لحظةِ العشقِ أشعارُهَا
للحدائقِ أزهارُهَا
للمواقعِ أخبارُهَا
للتماثيلِ أحجارُهَا
للمدينةِ أسوارُهَا
كيف تمشين مسحورةً في دمائي ؟
وتمضين مطبوعةً في كهوف اشتهائي
ها أنَا من جراءةِ عَيْنَيْكِ مُسْتَهْدَف
والحرائقُ ضَجَّتْ بأَوْرِدَتِي
صادِرِي كُلَّ حريقي
ارتَضَيْتُ عبوديتي
قلتُ : ياحلوتي
احتوانا معًا في الصباحِ الطريق
فَارْتَدَيْتُ الحريق
هَا أنا أَتَسَاءَلُ : هل للبنفسج في عطرِ كُلُّ هذا الرحيقْ ؟
ولعُمْقِ شفَافِيَّ كُلُّ هذا البريقْ ؟



* شاعر من القطر السوداني

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

مارس
١٩٨٩



رئيس التحرير: د. محمد الرميحي



يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين





في هذا العدد

إضافة للأبواب الثابتة



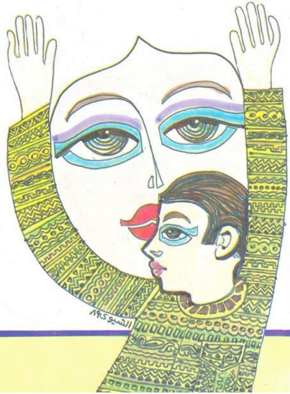
نتيجة مسابقة العدد ٣٦

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

● عندما يقف الأطفال حائرين.

○ بعضهم يعاني من شرب الحليب.





عندما يقف الأطفال حائرين!

إعداد: ريم الكيلاني

يقول جان جاك روسو « إن أفضل الظروف لنمو الطفل هي البدائية الساذجة التي يجمع فيها الفرد خبراته بنفسه ، ويكون شخصيته ، ومعتقداته الساذجة وفق ما يتهيأ له من ظروف بصورة عفوية » .

قد يسحرنا في البداية جمال هذه الفكرة ، وما فيها من تأكيد على الحرية ، لكننا إذا أمعنا التفكير ، نكتشف أن حياتنا المعاصرة لا تتسع لهذه الرومانسية ، فهناك البيت ، وهناك العائلة ، وهناك المجتمع الخارجي .

وحين يكتسب الطفل مجموعة من الخبرات والسلوكيات ، فإنها تكون صدى لمفاهيم وأفكار العائلة والمجتمع الذي يعيش فيه ، وبين العائلة والمجتمع مسافة يقطعها الطفل أثناء رحلته لتكوين شخصيته وآرائه وأفكاره ،ولا تضاهى حاجة الطفل للحب والحنان والعطف من جانب والديه أي حاجة أخرى ، لذا فإنه يسعى باستمرار لتنفيذ كل ما يرضي والديه مبتعداً عما قد يغضبهما ، ليحظى دائماً بدفء العلاقة معهما ، وقد يضغط الطفل على نفسه أحياناً ، وقد يقوم بسلوكيات من شأنها تقليل قدرته على مشاركة من حوله من أصدقاء أو أقارب ، سواء في اللعب أو في تكوين علاقات اجتماعية سوية ، وفي الغالب يكون ذلك خوفاً من فقدان حب الأهل وحنانهم ، ولكنه بذلك إنما يفقد ثقته بنفسه بالتدريج ، وقد يتطور الأمر ليصبح عاجزاً عن إثبات نفسه وتحقيق استقلاليته ، فينشأ بمثل

هذا الخلل الذي قد يطبع شخصيته طوال حياته .

فعندما يحاصر الأهل أطفالهم بالحنان والعطف من جهة ، وبفرض آرائهم وسلوكياتهم من الجهة الأخرى ، يقف الطفل حائراً بين الموافقة والاستكانة أو الرفض والتمرد ، بين النزوع نحو إثبات الذات أو القبول بكل ما يملى عليه ، وبين الدفع والجذب والثواب والعقاب ، تنشأ شخصية الطفل ، وهي تحمل خصائص معينة ، تشق طريقها داخل المجتمع وبين الناس ، وهي تحمل أفكاراً لم تخترها بحرية كاملة كما يقول روسو ، بل هي نتاج مفاهيم العائلة التي نشأ بها . وهنا يأتي الدور الخطير للعائلة في تهيئة الطفل للدخول إلى المجتمع قوياً ، واثق النفس أو ضعيفاً متردداً ومرتبكاً .

ويذكر « ضياء أبو الحب » في كتابه « الطفولة السعيدة » « أن الوالدين مسئولان أولاً وأخيراً عن إهمال الأطفال أو سوء تربيتهم ، فالطفل يتطلع باسما إلى المستقبل ، فلا يشعر بخوف أو قلق ، بل تراه يجرب أمور الحياة بولع شديد » . وهذا يعني ضمنا أن الخوف والقلق والتردد يبدأ في العائلة ، ومن خلال أسلوبها في التعامل مع الطفل ، وأن استمرار البسمة وعدم الشعور بالخوف أو القلق هو أيضاً من صنع العائلة نفسها .

فإلى أي مدى يظل هذا القول صحيحاً إذا انتقلنا من الكلام النظري إلى الواقع العملي ؟ .

الوقوع في الهوّة :

عصام هو الطفل الأصغر لعائلة مكونة من أم وأب وثلاثة أبناء ، والداه يخافان عليه من كل شيء ، فيمنعانه من الاختلاط بأطفال الجيران ويحذرانه من الاتصال بزملائه في المدرسة ، ولا



أطفال يلعبون بعيداً عن المنزل

يسمحان له بالخروج دون صحبة أحد أشقائه أو والديه ، ويبالغان في تهويل حوادث السرقة والغش والكذب ، وفي وصف العقاب الشديد الذي يتلقاه هؤلاء ، ويحرصان دائماً على تذكيره بأن ارتكاب أي خطأ ، أو مخالفة رغبات والديه يعني حرمانه من مصروفه أو من نزهة نهاية الأسبوع ، وقد تصل العقوبة أحياناً إلى حد الضرب . والنتيجة أن عصام سيلبي رغبات والديه على الرغم من شعوره أنه مقيد وغير حر فيما يفعل . ولكنه في الوقت نفسه لا يشعر

بالسعادة التي يشعر بها الأطفال في مثل عمره، فهو غير مستقل، وغير قادر على إثبات ذاته والتعبير عن نفسه، وتفريغ طاقاته في مجالات الطفولة المتعددة. وهذا يعني تبعاً لما يقوله (ضياء أبو الحب): «شخصية لفرد خجول انعزالي، خائف قلق مرتاب فيمن حوله، فهم جميعاً كما صورتهم له أسرته سيئون، وقد يتسببون في عقابه» ويداهمه دائماً شعور بالهوان والعجز والاستكانة والنقص بسبب ذلك التناقض بين رغباته الطفولية ورغبات والديه.

أما نادر فهو طفل يعيش وسط عائلة تعد المجتمع عالماً من الذئاب، وأن الفرد يجب أن يتعامل مع هذا المجتمع حسب قوانين الغاب، فالكذب والغش والخداع والسرقة، منبعها جميعاً المجتمع، ولا بد من فرد قوي قادر على معايشة هذه البيئة وهؤلاء الأفراد، حتى لا يقع ضحية سهلة بين أنياب ذئاب الغابة.

وبناء على هذه المعتقدات فهما يشجعان ابنهما إذا ما قام بعمل سيء، ويصفقان له إعجاباً، ويعدان تلفظه بكلمات نابية أو سرقته للحلوى أو خداعه لزملائه في المدرسة، إنما هو قيام ببطولة يفتقدها غيره من الأطفال.

ويعلق (أبو الحب) على هذه الحالة قائلاً: «ينتج عن هذه التربية طفل عدواني متمرد



وتلميذ عنيد يثير الشغب ويربك أساتذته في الفصل، غالباً ما يلجأ للكذب والغش والسرقة من أجل الوصول لحاجاته التي يراها ضرورية من وجهة نظره الخاصة، وبناء على ما تلقاه من قيم داخل أسرته، فإن السلوكيات السيئة هي سمة المجتمع الذي يعيش فيه».

طوق للنجـــاة:

في المثالين السابقين نموذجان مختلفان من الأسر ومن الأطفال، وكما نجد في المجتمع أفراداً متمسكين بقيم وأخلاقيات سامية، نجد أيضاً وبنفس النسبة أفراداً يعدون القوة مصدر البقاء داخل المجتمع.

ولكن ماذا يحدث حين يختلط هذان النموذجان داخل بوتقة المجتمع؟ إن مثل هذا التناقض يوقع الأبناء في هوة عميقة، بين ما يتلقونه من قيم ومبادىء من ذويهم، وبين ما يرونه من سلوكيات وأخلاقيات من أقرانهم أو زملائهم داخل المجتمع. فهل من طوق للنجاة، يساعد أبناءنا في الخروج من هذه الهوة؟!.

حول هذه الهوة يتحدث الدكتور عبد الله الدنان، أستاذ التربية بجامعة الكويت، ووالد لأربعة أبناء تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثانية والعشرين فيقول:

«يجب أن تنسجم التربية داخل البيت مع الفلسفة العامة للمجتمع، مع ضرورة وضع تغير حالة المجتمع المستمرة في عين الاعتبار. فتغير الثقافات وانفتاح المجتمع على حضارات ومجتمعات جديدة يشكل تياراً يحمل في طياته قيماً ومبادىء جديدة على المجتمع، قد لا تروق الكبار الذين اعتادوا نمطاً معيناً من الحياة، فنراهم يقفون أمام هذا التيار حائلين دون تغلغله إلى عقول أبنائهم ونفوسهم.



اختيار الأصدقاء يتم بمعزل عن الأهل

وتستمر معركة التحدي إلى أن ترسو الأمور ويحدث التوازن بين المقبول من هذه القيم وغير المقبول منها .

ولا يخلو الأمر في كل المجتمعات من وجود بعض السلوكيات السلبية مثل الكذب أو الغش والخداع ، ولكن علينا تقع مسئولية تعريف الأبناء بأن هذه ليست هي سمة المجتمع ، أو القاعدة الرئيسية له ، ويجب أن نحرص نحن كأولياء أمور على إحاطة الأبناء معرفة وعلما بالسلبيات ،وان نهتم تماماً بتعريفهم بالإيجابيات فلا يقعون في خطر مجاراة المجتمع في سيئاته .

وقد تكون التربية عن طريق تعريف الطفل بالشر وأنماطه ، وتحذيره منه مع إعطائه الفرصة لخوض تجربة ما ، محدية إلى حد كبير ، فهو سيتعلم من تجربته الشخصية هذه ، درساً مهما يفيده في حياته المستقبلية . وقد يحدث أن يتبنى الطفل قيمة أو سلوكا غير مستحب ، وهنا لا بد من بيان الخطأ للطفل ، وتعريفه بخطورة الاستمرار ، ثم العمل على إبعاد الطفل عن الجو الذي أدى به إلى تبني سلوك مغاير ، سواء كان صديقاً في المدرسة أو في الحي ، مع مراعاة ضرورة إيجاد الجو المناسب والبديل له ، حتى لا يشعر بأنه مقيد ثم متابعته متابعة سليمة مع السماح له بإمكانية الخطأ على ألا يفسر هذا الخطأ على أنه تحدّ ، بل على أنه سلوك غير إرادي ، علينا أن نساعده في التخلص منه » .

خطـــوط التمـــاس :

ولكن ، هل تنتهي قضايا التلاؤم مع رغبات الأهل ، ومشاكل التربية بانتهاء مرحلة الطفولة ؟ إن مرحلة المراهقة تأتي لتزيد من حدة الاحتكاك وقوته ، خاصة أن تلك المرحلة لها ظروفها



واحتياجاتها الخاصة ، كما أن ظهور محاور جديدة كالحي والمدرسة والنادي يجعل أسباب الاحتكاك والاختلاف أكثر وأقوى . وتتحدث الدكتورة « سهام أبو عيطة » حول الاختلافات في مرحلة المراهقة بحسبانها امتداداً للتفاوتات التي ظهرت مع الطفولة المبكرة تقول الدكتورة سهام : « القيم تكتسب من خلال التنشئة الاجتماعية أولاً ، وتتحدد من خلال الانتماء الطبقي والاقتصادي والاجتماعي ثانياً . وهناك أيضاً مجموعة من القيم الخاصة لدى كل فرد في المجتمع ، ولدى كل جماعة ، ويختلف الأفراد في قيمهم ، وكذلك الجماعات في المجتمع نتيجة ترتيبهم لهذه القيم حسب أهميتها لهم ، فنجد أحد أفراد الأسرة يضع القيم العلمية بالدرجة الأولى ، تليها القيم الاقتصادية ، ثم الاجتماعية بينما قد يتبنى شخص آخر من نفس الأسرة ، القيم الدينية أولاً ثم العلمية ثم الاجتماعية وهكذا .

فإذا تعارض ترتيب تلك القيم مع الشكل الذي تؤمن به الأسرة ، يحدث التماس والاختلاف في تقبل السلوك أو عدمه . وهذا أيضاً ينطبق على المدرسة أو الحي ، فإذا كان المستوى الاجتماعي الاقتصادي للحي عالياً ، فإنه بلا شك يهتم بالعلم ويعده من أولويات القيم ، لتبقى المدرسة في النهاية المكان الوحيد الذي يغذي الأبناء تربية وعلماً ، فلا يحدث داخلها اختلاف كبير في القيم ، وتتعاون المدرسة والحي في ترتيب القيم مما يساعد الفرد على تكوين معايير سليمة سوية لتقييم المبادىء وتقبلها ، وعلى تحديد أفعاله وغاياته وأساليب تحقيقها بطريقة سوية مقبولة اجتماعياً ونفسياً . أما إذا اختلفت المدرسة والحي في ترتيب القيم ، فسيكون من الصعب على الفرد أو الطالب إدراك قيم الجماعة التي ينتمي إليها ، ومن ثم فإنه سيسعى لتكوين قيم خاصة به تشبع حاجاته » .

وللأصدقاء دور :

وتكمل الدكتورة أبو عيطة حديثها : « يختلف الأبناء مع الآباء في فهمهم وتقبلهم للقيم داخل الأسرة ويتجسد ذلك في مرحلة المراهقة عندما يبدأ الطفل في الاستقلال بأفكاره وسلوكياته ،

وفي تكوين أصدقاء بعيداً عن محيط الأسرة .

وتبعاً لأسلوب الرعاية الأسرية التي يتلقاها المراهق في المراحل العمرية السابقة من قبول للطفل أو نبذ له أو معاقبته ، يختار الطفل أصدقاءه ويرسم لأخلاقه وسلوكياته مساراً خاصاً به ، من حيث اداء الواجب المدرسي ، والرغبة بمشاركة الزملاء في الأنشطة الخارجية ، وفي قيمة المصروف اليومي واحترام الوالدين ، ومعاملة الأخوة ، وهذه عادة نابعة من قناعة الابن ، وهو أمر مختلف عما يراه الوالدان صحيحاً ، سواء غلبت على سلوكها القيم الاجتماعية أو الدينية أو العلمية . ولعل هذا الاختلاف واقع مقبول إذا كان بدرجة طفيفة ، أما إذا كان سلوك الأبناء يتصف بالسلبية وبالتحدي للكبار مثل الآباء والمدرسين واتخاذ مواقف معادية من الجماعة ، فإنه لا يمكن تغيير هذه القيم بمجرد تقديم النصح أو العقاب ، ولكن بضرورة التعرف على مطالب المرحلة العمرية وواجباتها وحقوقها التي يمر بها الابن وبخاصة مرحلة المراهقة وهي مرحلة ظهور الاختلافات حيث يجب أن نبحث عن نوعية الأصدقاء وإبراز عيوب هذه العلاقة أمام المراهق بحيث نجعله يؤمن بهذه العيوب مع ضرورة مراعاة الود والإقناع ، والعمل على توفير فرص إشباع حاجات المراهق بأسلوب مقبول اجتماعياً .

ولا ننفي أن باستطاعتنا كأخصائيين نفسيين أن نجنب الأبناء الوقوع في صراع القيم والمعتقدات عن طريق دراسة حاجاتهم في كل مرحلة عمرية ، والعمل على إشباعها وتحقيقها ، وفق ما هو مقبول اجتماعياً بحيث لا نزيد من تدليلهم أو عقابهم ، ولعل استعمال الحزم والحكمة في توفير الدفء العاطفي له أكبر الأثر في التأثير إيجابا على سلوك الأبناء » .

بقي أن نتساءل انه إذا كان الحي والأسرة يغذيان القيمة الحسنة في نفس الطفل ، ويشجعانه عليها ، فمن الذي سينتشل ذلك الطفل الذي لم يلق الرعاية والاهتمام الكافيين من ذلك السقوط القيمي والأخلاقي ؟ .

يعتقد الأخصائيون وأولياء الأمور ، وحتى المشرفون على عملية التعليم ، أن وسائل الاعلام من مجلات وبرامج تلفازية ، من شأنها أن تؤثر إيجابا على سلوك الأطفال خاصة إذا كانت البرامج معدة من قبل اخصائيين تربويين ملمين بمشاكل كل مرحلة عمرية ، لأن الفرد في مرحلة الطفولة المتأخرة ، والمراهقة ، يتأثر بشكل كبير بكل توجيه خلاف توجيه الأهل ، لأنه لا يحمل في طياته اللهجة الملزمة التي يرفضها الصغار .

فهل نجعل من شغفنا بالأطفال عاملاً من عوامل السعادة في حياتهم لينشأوا أصحاء في عقولهم وأجسامهم ومشاعرهم ؟ □

■ أحسن الكلام عن أعدائك فأنت الذى صنعتهم . (توسكانيني)

■ سئل بعض الحكماء : ما العقل ؟ فقال : « الإصابة لظن ومعرفة مالم يكن بما كان » .

■ لايعنيني كثيرا أن لايفهمني الناس . بل إن اهتمامي الأكبر في عدم فهمي لهم . (كونفوشيوس)



توسكانيني

كتاب زوجي اللدود

لم أكن يوما ضد الثقافة أو ضد القراءة أو ضد الكتاب ، ـ بالعكس ـ فأنا أحب القراءة ، وأجد فيها إلى جانب متابعة ما يجري في العالم من أحداث ومستجدات ، وسيلة مثالية للاستفادة من وقت الفراغ لزوجة مثلي في سنوات زواجها الأولى ، حيث لا اطفال ولا مسؤليات ولا مشاغل تملأ وقت فراغي الذي يبدأ مع الظهيرة عند عودتي من العمل .

لكنني منذ الشهور الاولى لزواجنا لاحظت أن لزوجي طريقة غريبة في القراءة ، فهو ينتقل من قراءة كتاب إلى تصفح مجلة إلى قراءة كتاب آخر . ذلك عدا الصحف اليومية التي يصر على قراءة أغلبها ، ولأن عمله ينتهي مع المساء فلكم أن تتخيلوا الوقت الكبير الذي يقضيه زوجي في القراءة ، والوقت الضئيل الذي يبقى لدينا للحديث حول أمورنا الخاصة ، وبحث مشكلاتنا التي تواجهنا كزوجين في بداية حياتهما الزوجية .



ولا أخفي ، أنني كنت في البداية معجبة بحرص زوجي على متابعة شؤون الحياة العامة ، من سياسة وأدب واقتصاد وغير ذلك ، غير أنني بدأت أضيق ذرعا بإصراره على القراءة في كل وقت ، وكل مناسبة وكل مكان . وما بدا لي في بادىء الأمر حرصا على المتابعة أصبحت أراه أصراراً على إغاظتي واستفزازي وذريعة للابتعاد عني ، وتطور الأمر في الفترة الأخيرة إلى إهمال متعمد لي . وبعد فترة من المراقبة الدقيقة لقراءات زوجي وللطريقة التي يصر فيها على التمسك بالكتاب ، تأكدت من أن زوجي يتعمد إغاظتي بل اهانتي ، فتمسكه بالقراءة هو الوجه الآخر لاهماله شؤون حياتنا الزوجية ، وولعه بالكتب هو الوجه الآخر للتهرب مني . ولأنني مازلت أحب زوجي ولا أريد أن أفقده بدأت أكره الكتب وأحقد على المجلات ولا أطيق رؤية الصحف .

إن هذا بالتأكيد أفضل من توجيه مثل هذه « العواطف » غير الودية نحو زوجي ، وهو أمر لا تحمد عقباه كما يقولون ، ولكن لابد من وضع حد لهوس القراءة عند زوجي وإجباره على الاهتمام بي حتى لو حدث مالا تحمد عقباه .

.. هي



زوجتي وخير جليس

لا أدري ما الذي دهى زوجتي في الفترة الأخيرة ، فهي لاتكاد تراني أمسك كتابا أو أتصفح مجلة أو أقرأ خبرا أو مقالة في صحيفة حتى تثور ثائرتها ، وتفعل المستحيل لتنزع مني الكتاب أو الصحيفة . ولو كان ذلك من أجل أمر أكثر أهمية لكان مقبولا ، لكنني كثيرا ما ألاحظ أن هدفها هو أخذ الكتاب أو الصحيفة وحسب .

منذ أيام كاد ينشب بيننا شجار حين شاهدتني أقرأ مقالا في صحيفة قديمة ، لم أجد الوقت لقراءته في حينه ، فقد نزعت الصحيفة من يدي بعنف ، وألقت بها بعيدا بحجة أنها صحيفة قديمة ، وأن جميع أخبارها « بايته » ، وأصبحت معروفة بتفاصيلها ، ولكن لانني أعرف أن الحياة الزوجية أهم وأخطر من أن نضيعها من أجل مشكلات على هذه الدرجة من البساطة ، فانني لم اكترث بل حولت الموقف كله إلى موقف ساخر حتى تحل الضحكة محل التهجم ، وحتى تظل سماء علاقتنا الزوجية ـ التي مازالت في بدايتها ـ صافية لا تكدرها قراءة لمقالة أو تصفح لمجلة .

وقد بدأت منذ مدة أنتبه لحساسية زوجتي من الكتب والمجلات بل والمادة المكتوبة عموما . ولأنني حريص على مواصلة معرفتي للعالم ومتابعة ما يجري فيه حرصي على حياتي الزوجية ، فقد بدأت أوازن بين هذين الأمرين ، لكن ما عددته أنا توازنا عدّته تحيزا للكتاب واهدارا لحقوقها الزوجية .

في إحدى المرات قلت لزوجتي إنها محظوظة ، لأنها في أسوأ الحالات ، قد تمسك بي متلبسا بصحبة كتاب ، وإن هذا أفضل لها من أن تمسك بي متلبسا بصحبة امرأة غيرها . وبدل أن تبتسم لهذه الطرفة استشاطت غضبا وذهبت إلى حجرتها باكية ، وأغلقت الباب . عندئذ لم أتمكن من الدخول إليها لمصالحتها ، كما لم أتمكن من اكمال الرواية التي كنت أقرؤ ها ، لأن الجو تسمم ولم يعد صالحا لشيء .

إن زوجتي لا تدرك أنني بفضل هذه القراءة أصبحت الشخص الذي أعجبت به وأحبته ثم تزوجته ، وأن القراءة ليست نزوة تمر بالإنسان في مرحلة عابرة من مراحل العمر ثم تنتهي مع الزواج ، بل هي ضرورة من ضرورات الحياة . ويغيب عنها أن الحديث في شؤ ون الحياة ليس نقيضا للتعرف على أحداث العالم ، وأن الكتاب لا يمكن أن يكون بديلا للزوجة على الرغم من تأكيد ذلك لها أكثر من مرة .

لكنني كما علمتني الكتب وكما علمتني الحياة ، سأكافح حتى أثبت لزوجتي البديهية التي تقول : إن الكتاب لا يمكن أن يكون بديلا للزوجة . □

.. هو



طبيب الأسرة
قضايا منزلية

بعضهم يعاني من شرب الحليب!

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

لو أسميناه مرض الحليب تسهيلا وتخفيفا على عامة القوم ممن يرون في شرب الحليب معاناة تتميز بعسر الهضم وانتفاخ البطن وألم في الأمعاء مع اسهال لين ، فإننا لن نتجاوز الواقع ، غير أن الحقيقة العلمية تذهب الى تحديد هوية المتهم دون غموض ولا تورية لتؤكد أن سكر اللبن المعروف في لغة المختصين بأمور التغذية باسم « اللكتوز » هو سر المأساة الحقيقي وهو جوهر القضية .

هناك شكل من أشكال السكاكر لا يحويه سوى الحليب ومشتقاته من ألبان وأجبان يسمونه اللكتوز (Lactose) هو بحاجة الى خميرة خاصة (Enzyme) يسمونها انزيم اللاكتاز (Lactase) تفرزها خلايا الغشاء المبطن للأمعاء الدقيقة ليتم هضمه .

والسكريات بمنطق العلم يصفونها على ضوء تركيبها من الجزيئات ، فالسكر الذي أساس تركيبه جزيء واحد هو ينتمي الى فصيلة السكريات الأحادية (mono Saccharides) ومن أمثلته سكر الجلوكوز أو سكر العنب وسكر الفركتوز أو سكر الفواكه .

أما السكريات التي تعتمد في تركيبها على اتحاد جزأين فقد اصطلحوا على تسميتها بالسكريات الثنائية (Disaccharides) وهذه تضم سكر السكروز أو سكر القصب المعروف والشائع الاستعمال وسكر اللاكتوز أو سكر اللبن .

غير أن الجسم لا يتعامل إلا مع السكريات الأحادية في الهضم بل أنه قد تخير منها سكر الجلوكوز (أو سكر العنب) ليكون رسول التغذية الذي يتعامل مع الخلايا داخل الجسم . ولربما يتعقد التركيب فتتخذ جزيئات عدة مما يدعوه المختصون بالسكريات المتعددة (polysaccharides) وهذه في حقيقة أمرها لا تملك من حلاوة الطعم أي رصيد لأنها تصنف من فصيلة النشويات .

وعلى هذا فالنشويات إذا ما تحللت مع الهضم تتحول الى سكريات بفضل خمائر الهضم المعروفة لتنتهي بمطافها في الختام الى سكر الجلوكوز

الأحادي التركيب . وإذا ما عدنا الى سكر اللبن المعروف باسم اللاكتوز الذي تتراوح نسبته ما بين ٤٠ ـ ٥٠ جراما في اللتر من الحليب فانه تسري عليه قواعد الهضم مما يسري على كافة الكربوهيدرات أو مائيات الكربون ، وهذا هو الاصطلاح الذي يضم بين دفتيه كافة السكريات والنشويات معا .

وسكر اللبن أو اللاكتوز (Lactose) هذا بحاجة الى خميرة خاصة به لهضمه قبل امتصاصه ، وهذه الخميرة يدعونها (انزيم اللاكتاز) تفرزها خلايا الغشاء المبطن للأمعاء الدقيقة فتعمل على تفتيت اللاكتوز (أو سكر اللبن) الى شقيه الأحاديين وهما سكر الجلوكوز (أو سكر العنب) وسكر الجالاكتوز أو سكر الحليب .

إن هذه الخميرة (انزيم اللاكتاز) تبدأ افرازها منذ الشهر الثالث للجنين في رحم أمه ثم تنشط عقب الولادة مباشرة لتزداد نوعيتها مع الأيام ، غير أنه لأمر ما قد يتعطل افراز هذه الخميرة (انزيم اللاكتاز) فيتعطل معها الهضم ، هضم سكر اللبن (اللاكتوز) فلا يكون هناك بالتالي أي امتصاص ، ومن هنا يتراكم هذا السكر مع الأيام في الأمعاء الغليظة المعروفة باسم « القولون » حيث تجد الميكروبات المتوطنة هناك فرصتها في التغذي عليه وتحليله حيث تتخمر هذه



السكريات وتتحلل الى نواتج غير السكريات الأحادية وهذه النواتج هي :ـ

ـ غاز الهيدروجين .
ـ غاز ثاني أكسيد الكربون .
ـ حامض الخليك .
ـ حامض اللبنيك .

وهذا هو سر المعاناة التي يقع ضحيتها بعضهم متمثلة في انتفاخ البطن بسبب الغازات وفي عسر الهضم والحموضة والألم بسبب الأحماض .

إن الذين يتوهمون أن الأمر معاناة محدودة تصيب قليلين من سيئي الطالع هم فريق يجهل حقيقة الأمر حيث أن المعاناة أكثر شيوعا مما تتوهم ، فالمرض واسع الانتشار في كافة أنحاء المعمورة قاصيها ودانيها ، والفرق الوحيد هو في سعة الانتشار . وبينما نجده محدودا في بلدان الغرب المتحضرة ونسبته ما بين ٢٠ ـ ٣٠ بالمائة من شاربي الحليب ، نجد أن نسبته قد تجاوزت السبعين بالمائة في بلدان الشرق النامية،ولربما كانت الاحصائية التقديرية التالية تعطي صورة أكثر وضوحا لوبائية هذه المعاناة :ـ

الدنمارك	٥ بالمائة
السويد	٥ بالمائة
هولندة	٨ بالمائة
سويسرا	١٥ بالمائة
الولايات المتحدة الأمريكية (البيض)	٢٠ بالمائة
الولايات المتحدة الأمريكية (السود)	٧٥ بالمائة
الشرق الأوسط	٨٠ بالمائة
الصين	٨٥ بالمائة
تايلاند	٩٥ بالمائة

أسباب عوز خميرة اللاكتاز : هناك شكلان من أشكال العوز هما :

١) عوز أولي أو ابتدائي وهو الذي يولد به

الطفل فهو اذن عوز خلقي يصيب الأمعاء الدقيقة ولكنه بحمد الله نادر الحدوث جدا .

٢) عوز ثانوي أو متأخر وهو العوز الشائع بين الناس مما كانوا يفسرونه قديما بنظرية في الطب تدعى « ضمور الاهمال » بمعنى أن الجسم يضمر فيه كل عضو لا يستعمل وحيث أن البعض قد يستغني عن شرب الحليب إذا ما تعدى مرحلة الطفولة فإن الخلايا المفرزة لخميرة اللاكتاز تضمر وتتلاشى .

ومن هنا يعاني الكثيرون في البلدان النامية من مرض الحليب لأنهم لا يقبلون على شرب الحليب لسبب أو لآخر فقرا كان أو اهمالا وجهلا .

غير أن الأبحاث الأخيرة أثبتت أن عوز خميرة اللاكتاز يصاحب أمراضا عدة ويستفحل إذا ما عانى الإنسان من التهابات الأمعاء سواء منها البكتيرية أو الفيروسية أو تلك الالتهابات التي تصاحب التعرض للاشعاع أو ربما مرض التبرز الدهني والقولون المتوتر أو القولون المتقرح .

وإذا ما عولجت هذه الأمراض تستعيد الخلايا نشاطها وقدرتها وربما صلح الحال عن ذي قبل فتتلاشى الأعراض . هناك بعض العقاقير أيضا قد تؤدي الى ما اصطلحنا عليه باسم مرض الحليب منها عقار « الكولشسين » المستعمل في علاج النقرس ، وهناك المضادات الحيوية مثل « النيومايسين والكانامايسين » ، وإذا ما توقف المرء المصاب عن تعاطيها فإن المعاناة تتوقف وتعود الأمور الى مجاريها .

التشخيص : معاناة المريض من أعراض الانتفاخ وألم البطن والاسهال عقب شرب الحليب هي أول معالم الطريق الى تشخيص المرض غير أن هناك فحوصا مخبرية تساعد الطبيب وتؤكد له التشخيص إذا استعان بها منها :-

١) وقف شرب الحليب والامتناع عن تعاطي منتجاته ومن ثم مراقبة المريض لدى معاناته بعدها .

٢) فحص البراز لاستطلاع نسبه الحموضة فيه .

٣) اختبار لدرجة احتمال اللاكتوز في الجسم وهو اختبار شبيه باختبار احتمال سكر الجلوكوز الذي يجربه الأطباء لمرضى السكر .

٤) قياس غاز الهيدروجين في أنفاس المريض وهو ما تمتصه جدران الأمعاء من نتاج تخمر سكر اللاكتوز في القولون وينطلق عن طريق الرئتين .

٥) فحص البول لاستطلاع منسوب سكر الحليب (الجالاكتوز) وكما هو معروف فانه أحد نواتج هضم سكر اللبن (اللاكتوز) .

العلاج : علاج مرض الحليب أساسه الامتناع عن الحليب ومنتجاته بقدر الامكان أو الاقلال منه ، غير أنه تلافيا لحدوث نقص في منسوب الكالسيوم في الجسم الذي يوفره الحليب فقد انتجت الشركات المختصة حليبا خاليا من اللاكتوز على نمط الحليب الخالي من الدسم ليتعاطاه مرضى مرض الحليب .

ولكن ما هي الأطعمة التي يتوافر فيها سكر اللاكتوز ؟ هي الحليب ومنتجاته طبعا ولكن اللاكتوز فيها تختلف نسبته من منتج لآخر .

فالكريمة التي تستعمل مع القهوة تصل فيها نسبة اللاكتوز الى ٩,٥ بالمائة ، والحليب الى ٤,٦ بالمائة ، بينما اللبن الزبادي والجبن فيهما من اللاكتوز ٤ بالمائة فقط ، أما الجبن الغربي (cot-tage cheece) فيه القليل من اللاكتوز لا يتجاوز ٢,٢ بالمائة ، وأقل منها الزبد حيث يتدنى اللاكتوز الى نصف بالمائة فقط ، ولكنه ينعدم فيما يعرف بالجبن الهولندي .

ومن الطبيعي أن يسعى الطبيب والمريض الى علاج كافة الأمراض المصاحبة التي ربما كانت هي السبب في المعاناة . □

مستقبل أيامنا الماضية

في إحدى الأمسيات، كنت أجلس مع عائلتي نشاهد التلفاز. وكانت تعرض على شاشته إحدى المسلسلات العربية، ولأنني لم أتابع المسلسل من بدايته فقد حاولت التركيز على وجوه الممثلين المشاركين في المسلسل، وهم كثيرون. لكنني دهشت حين اكتشفت أنني لا أعرف سوى ممثل أو اثنين منهم، أما الآخرون فلا أعرف أحداً منهم. وازدادت دهشتي حين سألت ابني الصغير عن أسماء بعضهم، فاسترسل في اجابات مسهبة عن الممثلين والممثلات، مع إضافات حول أول عمل في هذا الممثل، وأهم عمل لتلك الممثلة، وعن المخرج الذي اكتشف هذا الممثل أو ذاك. وظللْتُ أنصت إلى هذا السيل المتدفق من المعلومات الجديدة بالنسبة لي.

وعدت بذاكرتي إلى الوراء سنين طويلة هي التي تفصل طفولتي عن طفولة ابني.

عندما كانت الأفلام بالأبيض والأسود، والمسلسلات إذاعية، كان عدد الممثلين محدوداً أو معروفاً بالنسبة لنا جمهور ذلك الزمن. كان عدد مشاهير الفنانين لا يتعدى أصابع اليدين، وقل مثل ذلك عن عدد مشاهير الكتاب والصحفيين والأدباء والشعراء والروائيين ومثل ذلك عدد المسارح ودور السينما والصحف ودور النشر، وكذلك الأعمال الأدبية والفنية والابداعية عموما، كلها كانت محدودة ومعروفة بالنسبة لنا لذا لم تكن بحاجة إلى أكثر من متابعة بسيطة لما يجري على الساحة الثقافية والفنية عبر رموزها المعروفة.

في تلك الأيام كان للأدب نجومه وللموسيقا نجومها. وكان هناك نجوم في الغناء والتمثيل، ونجوم في المجتمع وفي السياسة. كان هناك الشاعر النجم، والروائي النجم والمفكر النجم، والصحفي النجم.

اليوم لا مكان للنجم المطلق. هناك أعداد من الفنانين والكتاب والشعراء والروائيين، يبدعون أعمالاً لا تقل أهمية عن إبداع أسلافهم نجوم زماننا. وربما كان صعباً علينا نحن الذين نشأنا في ذلك الزمن أن نتابع ما يجري في عالم الفن والأدب الذي أزدحم بالأسماء والشخصيات والانجازات. وربما تطرف بعضنا واعتبر الكثرة دليلاً على تواضع المستوى مقارنة بانجازات نجوم زمانه. لكن هذا ليس أكثر من حكم سريع ومريح على زمن جديد له ظروفه وتعقيداته مثلما أن له فنانيه وكتابه وشعراءه. زمن يحتاج الى متابعة خاصة وفهم خاص ورؤية مختلفة.

أكملت مشاهدة المسلسل دون أن أتابع أحداثه. كنت فقط أريد أن أشعر ابني الذي يعيش غير زمني أنني أشاركه بعض اهتماماته وبعض زمنه. □

صلاح حزين

قصة من الخيال العلمي

الاصطدام المروّع

بقلم : رؤوف وصفي

أما الآن وقد انتهى كل شيء ، وقد نجونا من العواقب المحتملة الخطيرة فاننا نتساءل لماذا أبطأنا فى رؤية ماحدث ؟ ، ذلك انه كان من الممكن التنبؤ به ، كنا نعلم ان مركز الإنسان فى الكون خطرا ، بل ان وجود المادة نفسها لم يكن مستقرا ، إنما اكتشفنا العديد من الظواهر الكونية مثل الأقزام البيض ، والعمالقة الحمر ، والثقوب السوداء عندما تتخذ المادة شكلا رهيبا غير مألوف لنا .

كانت الإنذارات كافية ومتعددة ، وقد استمرت لعدة سنوات ، وكان البيولوجيون قد لاحظوا أن تطور الحياة الحيوانية والنباتية فى نصف الكرة الشمالى من كوكب الأرض ، كان يسرّع باستمرار ربما بسبب الزيادة التدريجية - التى لاتعليل لها البتة - فى كثافة الأشعة الكونية القادمة من اتجاه النجم القطبى ، والتى تتكون أساسا من أشعة جاما ، ولكن سكان الأرض على وجه العموم لم يرق لهم الموقف وبالذات العلماء فإنهم لم يستطيعوا أن يفسروا هذه الظواهر ، وعندما لايستطيع عالم أن يفسر شيئا ينتابه الضيق لأن هذا يجعله يبدو أحمق أمام الآخرين . كان اليوم ١٥ يناير ٢١٥٦ عندما رأى الدكتور « أشرف مجدى » عالم الفيزياء أول بصيص من النور ، فقد كان يعمل على مرصد جديد يبلغ قطر عدسته ١٢ مترا ، ولاحظ ظلاما فى لوحته الفوتوغرافية من مقياس الطيف المركز على النجم القطبى فى السماء الشمالية ، وكرر المحاولة عدة مرات وحصل على نفس النتيجة ، إظلام متساو على طول الخط الطيفى . التفت إلى مساعده الدكتور « ممدوح شاكر » وقال : تعلم أن طيف ضوء النجم الذى يعطى حزاما من الخطوط الملونة وهى تساعدنا على تحديد العناصر التى يتكون منها ، فكل عنصر له طيف مختلف ، ولكن الأمر الغريب أن هناك عددا كبيرا من الخطوط المظلمة فى طيف هذا النجم الذى أقوم بدراسته ، ولم أعرف أي مصدر للضوء يعطى طيفا مستمرا من الأشعة تحت الحمراء مثله .

أجاب الدكتور ممدوح شاكر فى اهتمام :

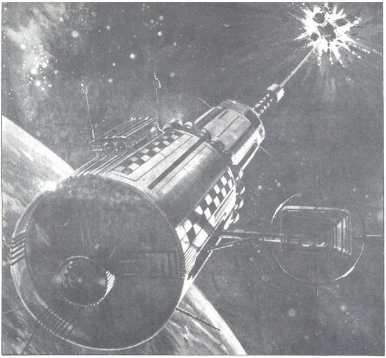
- « تعنى أن التركيب الذرى مختلف ! »

- « هذا ماكنت أفكر فيه تماما ، فالذرة العادية تتكون من نواة بها نيوترون متعادل وبروتون موجب الشحنة ، وتدور حولها الكترونات سالبة الشحنة ، ولكن يبدو أن الأمر مختلف مع هذا النجم ، فيبدو أن التركيب الذرى غير عادى . . »

ساد صمت ثقيل فرض نفسه على العالمين .

عاد الدكتور أشرف مجدى يقول :

- « وأخشى أن تكون المادة معكوسة فى هذا



النجم »

قال الدكتور ممدوح شاكر فى ذهول :

- « نقيض المادة ! »

- « أجل ، فالألكترونات موجبة فى الذرة ، أما البروتونات فسالبة ، وهى حالة نادرة فى المادة ، ولاندرى كيف تكونت ! »

قال الدكتور ممدوح وهو متجهم الوجه :

- « ولكن إذا حدث واصطدمت المادة العادية ، بنقيض المادة ، فسيحدث انفجار مروع يفنى المادتين تماما ! »

تنهد الدكتور اشرف وهمس :

- « أعلم هذا »

بعد اسبوعين ، نظر العالمان كل منهما إلى الآخر ، وهما يطلعان على النتائج من الحاسوب « الكمبيوتر » كانت الأرقام أمامهما ، إن الجسم المجهول الذى كان يشع الضوء إشعاعا خافتا ولكن مستمرا ، كان يبعد نحو عشرة آلاف مليون كيلو متر عن كوكب الارض ، وكان يقترب منها بسرعة هائلة ، ويهدد بفنائها قبل أقل من عام ولم يظهر شىء فى الصحافة ، فقد فرضت رقابة صارمة عليها ، إذ كان الخطر شديدا ، وكان الفزع كفيلا بان يزيد الامر سوءا ..

قدم الدكتور أشرف والدكتور ممدوح تقريرهما إلى المؤتمر الدولى للعلوم الذى عقد اجتماعا طارئا لمناقشة هذه الظاهرة المدمرة ، وتحدث الدكتور أشرف فى أول الإجتماع قائلا :

- « وهكذا ترون الموقف يا سادة ، إنكم تفهمون جميعا نظريتى ، بأن هذا الجسم يتكون من مادة نقيضة ، وأنتم تعلمون أن مراصد العالم ومراصد المريخ والزهرة قد اتفقت مع رصدنا لهذا الجسم ، إننى لا أعرف أية نظرية علمية لتفسير

سلوك هذا الجسم الشاذ ، ويبدو أن معظمكم يالون للموافقة على نظريتى ، » نظر حوله على مائدة الاجتماع ، فلم ير إلا ايماءات صامتة .

ـ « . . لو حدث ـ لاقدر الله ـ واصطدم هذا الجسم بالكرة الأرضية فسيحدث دمار شامل فى كل جزء بها ، ولو كان يتكون من مادة عادية لأمكن تركيب أنابيب صاروخية هائلة عليه حتى يبعده عن مساره بحيث يخطىء الأرض بمسافة كافية ، ولكن ماذا نفعل بهذا الشىء الذى إذا لمسناه أبادنا . »

ساد الصمت تماما فى القاعة

ـ « أيها السادة ، إن خطتى للتخلص من هذا الدخيل الذى يهددنا هو أن نحطمه من بعيد ، باستخدام أشعة الليزر »

لهث العلماء وهم ينصتون إلى هذا الاقتراح ، وكان هناك احتجاجات مثيرة سرعان ماخفت حين استولت الخطة على خيال العلماء بعد أن شرحها الدكتور أشرف بالتفصيل .

ـ « إن خطتى تتلخص بتصميم قمر صناعى يحمل معدات إنتاج أشعة الليزر ، يطلق من كوكب الأرض من مكوك فضائى ، ثم يوضع فى أعلى مدار ممكن ، ويوجه بعد ذلك لينطلق بسرعة هائلة فى اتجاه الجسم الفضائى وعندما يكون على مسافة معينه منه ، يتم إطلاق أشعة الليزر بالتحكم عن بعد من مكوك الفضاء حتى يتم تدمير الجسم »

كان مكوك الفضاء يقف كسيف هائل يتجه نحو السماء ، وفى الداخل كان الدكتور أشرف والدكتور ممدوح يجريان حساب مسار القمر الصناعى فى رحلته نحو تدمير الجسم الغريب ، ولم يبق إلا ثلاث دقائق ، وركز الدكتور أشرف نظراته القلقة على خريطة الإطلاق وأصابعه على الصف الأول من الأزرار الملونة وبقيت عشرون ثانية ، ارتعد الدكتور ممدوح رعدة خفيفة وحاول إخفاءها بالتثاؤب وراح يعد الثوانى عدا تنازليا ، ثم انطلق مكوك الفضاء .

لقد اختارا القيام بهذه المهنة على الرغم من خطورتها وذلك من أجل العلم .

ازداد هدير الإطلاق واتخذ اللهب بريقا لايحتمل ، وكان هناك شعور بالإسراع كأنما الأرضية التى تحت أقدامهما تنحدر ، وبعد أن اطمأنا إلى أن الأجهزة تعمل بكفاءة صدرت إليهما التعليمات من مركز المتابعة الأرضية ، بإطلاق القمر الصناعى،ثم متابعة مساره والاستعداد لإطلاق أشعة الليزر لتدمير الجسم المجهول ، كان مكوك الفضاء ينطلق بسرعة تقرب من سرعة الضوء ، وأصبح كوكب الأرض مجرد كرة زرقاء صغيرة ، وكان الجسم المجهول يبدو فوق شاشات الرادار مجرد نقطة بيضاء متوهجة ، ولكنه كان يقترب طول الوقت ، وسرعان ماملأ مساحة كبيرة فى شاشات الرادار ، لقد بدا واضحا الآن بلونه الرمادى الكئيب ، لم يكن هناك بحار ولا تلال ولا وديان ولا ثلج أو آثار غازات متجمدة ولا شىء حتى يميز سطحه ، لقد كان شيئا يجب أن لا يكون بحسب المنطق .

قال الدكتور أشرف فى دهشة :

ـ « أى عالم هذا ، مجرد كرة من الصخر ، ماذا تفعل هنا ؟ ومن أين أتت ؟ » مد الدكتور ممدوح يده صوب شاشة الرادار حيث الجسم الغريب .

ـ « انه هنا وهذا يكفي ، هل يحتاج الكوكب إلى سبب ليكون حيث هو ؟ » كانت أعصاب الدكتور أشرف متوترة ، وقد كره هذه الطريقة غير الإنسانية فى تشريح المنطق والاحتمال التى بدا أن الدكتور ممدوح ينعم بها .

ضغط الدكتور أشرف على زر إطلاق أشعة الليزر من القمر الصناعى ، وحدث الإنفجار المروع فى الجسم الغريب ، كان هناك وميض يعمى الأبصار على شاشة الرادار ، ثم اسوّد لونها واحترقت بفعل المجموعة الضخمة من الإشعاع الكهرومغناطيسى الذى تولّد عن الانفجار ، ثم توقفت آلات المكوك الفضائى وسكتت الأصوات

الرتيبة ولم تترك إلا المعدن الجامد والبلاستيك البارد ، وهكذا أصبح العالمان داخل تابوت معدني في أعماق الفضاء .

قال الدكتور أشرف بصوت خال من أي نبرة :

- « على الأقل لم يكن توقف الآلات مفاجأة لنا ، فقد كان هناك احتمال بحدوث ضرر ما بسبب كثافة الإشعاع الصادر عن الجسم الغريب بعد حدوث الإنفجار وتطايره في الفضاء ، وإنقاذ الكرة الأرضية من الاصطدام به ، ولكني أعتقد أننا يجب الا نهمل أي إحتمال للبقاء على قيد الحياة ، هل نستطيع إصلاح جهاز الإرسال لنبعث إشارة بطلب الانقاذ ؟ »

قال الدكتور ممدوح في لهجة جارحة ساخرة :

- « إنسان في وسط المحيط معه شمعة ليجتذب بها إنتباه صاروخ مار ! » ثم أكمل في شيء من المنطق :-

- « دون قوة الآلة لايمكن أن ترسل إشارة الى أبعد من بضعة كيلو مترات في الفضاء .

ومن الواضح اننا بعيدون جدا عن الطرق المنتظمة حتى أن أي إشارة نرسلها لن يلتقطها أحد »

ساد الصمت فترة طويلة .

قال الدكتور ممدوح في همس وقد قطب حاجبيه :

- « قد تكون هناك كائنات تحت سطح هذا الجسم المجهول استطاعت بكيفية ما أن توقف آلاتنا كنوع من الانتقام »

قال الدكتور أشرف ووجهه ممتقع :

- « هراء خيالي يخلو من كل معنى »

فجأة ، بدأ هدير الآلات من جديد ، وتألقت اللوحات في مقر قيادة مكوك الفضاء .

قال الدكتور ممدوح في ذهول :

- « لا أستطيع أن أصدق هذا »

وراح يحملق في شاشة الرادار والمنظر الذي وراءها ، لقد اختفى الجسم الغريب تماما ولم تبق منه سوى قطع متناثرة دقيقة لاتكاد ترى .

قال الدكتور أشرف في ارتياح :

- « إن تفسير توقف آلات مكوك الفضاء بسيط للغاية ، فقد تأثرت بالإشعاعات الهائلة التي نتجت عن انفجار الجسم الغريب ، وبمجرد أن خفت هذه الإشعاعات ، عادت الآلات تعمل بشكل طبيعي ، أرجو أن تتصل بمركز المتابعة فوق كوكب الأرض ، وتبلغهم أننا قمنا بواجبنا ، وأن الخطر قد زال عن كوكبنا والحمد لله . » □

جولييت القرن العشرين

● على الرغم من أن جولييت التي تكلم عنها شكسبير في مسرحيته الشهيرة « روميو وجولييت » لا تعيش في بلدة فيرونا الايطالية ، ولا في أي مكان آخر ، إلا أن إدارة البريد في فيرونا تتلقى نحو مائة رسالة حب شهريا بلغات مختلفة موجهة إلى جولييت .

ويحيل البريد هذه الرسائل على البلدية ، حيث تطوعت باولا سيلا ، وهي طالبة اقتصاد ، لقراءة الرسائل والاجابة عنها في أوقات فراغها . وهكذا أصبحت هذه الفتاة سكرتيرة جولييت غير الرسمية .

جمال العربية

□ صفحة لغة

بقلم: د. حسن عباس

في ظلال المعاني

لأبي هلال العسكري عدد من الكتب أغنى بها المكتبة والتراث العربيين، بلغت نحوا من عشرين كتابا ورسالة. وإذا ذكر العسكري ذكر كتاب «الصناعتين»، ويعنى بهما صناعة الشعر، وصناعة النثر، وهو كتاب عظيم الأهمية، عالج فيه المعاني والألفاظ، والإيجاز والإطناب، وحسن النظم، والسجع والتشبيه، وغير ذلك، ولكن كتابه الذي يستوقفنا في هذا المقام هو كتاب «الفروق في اللغة»، وقد خصصه لرصد الفروق بين الكلمات التي تتشابه في معانيها وتحتفظ بفروق طفيفة بين لفظة وأخرى يفترض فيها أنها رديف لها. يقول أبو هلال العسكري في خطبة الكتاب:

«ثم إني ما رأيت نوعا من العلوم، وفنا من الآداب إلّا وقد صنف فيه كتب تجمع أطرافه وتنظم أصنافه إلا الكلام في الفرق بين معانٍ تقاربت حتى أشكل الفرق بينها نحو: العلم والمعرفة والفطنة والذكاء، والإرادة والمشيئة، والغضب والسخط، والخطأ والغلط، والكمال والتمام، والحسن والجمال... » الى غير ذلك من المعاني.

ولقد رأينا أن الناس تعمد الى أمثال هذه الكلمات التي توشك أن تكون مترادفة، فتدخلها في الكتابة والحديث دون اعتبار لما بينها من فروق، لذلك قدرنا أن إيضاح الفروق والاختلافات لعدد من الألفاظ السائرة في لغتنا - كتابة وحديثا - لا يخلو من فائدة، بل لعل الحاجة تكون ماسة إليه في مواقف بعينها.

من ذلك مثلا قولهم في صفة إنسان أنه «عبد أو مملوك» فهل هناك فرق في المعنى بين هاتين الكلمتين؟ أجل، فكل عبد مملوك، وليس كل مملوك عبدا، لأنه قد يملك المال والمتاع، فهو مملوك وليس بعبد، والعبد هو المملوك من نوع ما يعقل، ويدخل في ذلك الصبي والمعتوه وعباد الله تعالى.

ويقال: التقي والمتقي والمؤمن، وعلى الرغم من وضوح الدلالة واقترابها بين هذه الكلمات جميعا إلا أن بينها فروقا. فأنت حين تطلق صفة التقي تزيد المتصف بها مدحا أكثر مما لو اقتصرت على وصفه بالمتقي، لأن في ذلك عدلا عن الصفة الجارية على الفعل للمبالغة، والمتقي أمدح من المؤمن لأن وصف الإنسان بالمؤمن يُطلَقُ بظاهر الحال في حين أن وصفه بالمتقى لا يطلق عليه إلا بعد الخبرة.

وكـذلـك الفـرق بـين كلمتي : اللطف ، والرفق ، فاللطف هو البر وجميل الفعل من قولك فلان يبرني ويلطفني ، ويسمى الله تعالى اللطيف من هذا الوجه أيضا . أما الرفق فهـو اليسر في الأمـور والسهولـة في التوصـل إليها ، وخلافه العنف وهو التشديد في التوصل الى المطلوب .

وأصل الرفق في اللغة النفع ، ومنه يقال : أرفق فـلان فلانـا إذا مكنه ممـا يرتفق بـه ، ومـرافق البيت : المواضع التي ينتفع بها زيادة على مالابد منه : ورفيق الرجـل في السفر يسمى بـذلـك لانتفاعه بصحبته ، وليس هو عـلى معنى الرفق واللطف ، ويجوز أن يقال سمى رفيقا [illegible] يرافقه في السير ، أي يسير الى جانبه فيلي مرفقه .

والفرق بين الرياء والنفاق أن النفاق إظهـار الإيمان مع إسرار الكفر ، وسمى بذلك تشبها بما يفعله اليربوع ، وهو أن يجعل بجحره بابا ظاهرا وبابا باطنا يخرج منه إذا طلبه الطالب ، ولا يقع هذا الاسم على من يظهر شيئا ويخفى غيره إلا الكفر والإيمان وهو إسلامي ، والإسلام والكفر اسمان إسلاميان ، فلما حدثا وحدث في بعض الناس إظهار أحدهما مع إبطان الآخر سمي ذلك نفاقا . والرياء إظهار جميل الفعل رغبة في حمد الناس لا في ثواب الله تعالى ، فليس الرياء من النفاق في شيء ، فإن استعمل أحدهما في موضع الآخر فعلى التشبيه .

أما الفرق بين الطغيان والعتو فهو أن الطغيان مجاوزة الحد في المكروه مع غلبة وقهر ، ومنه قوله تعالى : (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ . .) الآيـة . يقال طغى الإنسان إذا جاوز الحد في الظلم . والعتو : المبالغة في المكروه ، فهو دون الطغيان ، ومنه قوله تعالى : (وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) . قالوا : كل مبالغ في كبر أو كفر أو فساد فقد عتا فيه ، ومنه قوله تعالى : (بريح صرصر عاتية) ، أي مبالغة في الشدة . ويقال جبار عات ، أي مبالغ في الجبرية ، ومنه قوله تعالى : (عتت عن أمر ربها) يعني أهلها تكبروا على ربهم فلم يطيعوه .

والفـرق بين الـظلم والغشم أن الغشم كره الظلم ، وعمومه توصف بـه الولاة لأن ظلمهم يعم . ولا يكاد يقال غشمني في المعاملة كما يقال ظلمنى فيها . وقال أبو بكر : الغشم اعتسافك الشيء ، ثم يقـال : غشم السلطان الـرعيـة يغشمهم . وقيل الاعتساف خبط الـطريق على غير هداية ، فكأنه جعل الغشم ظلما يجرى على غير طرائق الظلم المعهودة .

أما الفرق بين الإثم والذنب فهو أن الإثم في أصل اللغة : التقصير ، أثم يأثم ، إذا قصر ، ومنه قول الأعشى :

جمـالـيـة تـغـتـلـي بـالـرداف
إذا كـذب الآثـمـات الهـجـيـرا

(الاغتلاء : بُعْدُ الخطو ، والرداف : جمع رديف ، وكـذب : قصـر ، وعنى بـالآثمات المقصـرات) والفرق بـين الأثيم والأثم هـو أن الأثيم المتمـادي في الإثم ، والآثم : فـاعـل الإثم .

والفرق بين الإثم والخطيئة أن الخطيئة قد تكون من غير تعمـد ، ولا يكـون الإثم إلا تعمدا ، ثم كثر ذلك حتى سميت الذنوب كلها خطايا ، كما سميت إسرافا ، وأصل الإسراف مجاوزة الحد في الشيء . أما الذنب فهو ما يتبعه الذم ، وذلك أن أصل الكلمة الاتباع ، والذنب هو القبيح من الفعل ولا يفيد معنى التبعة ، ولهذا قيل للصبى قد أذنب ، ولم نقل قد أثم . والأصل في الذنب الرذل من الفعل كالـذنب الذي هـو أرذل ما في صاحبه . والفرق بين الوزر والذنب أن الوزر يفيد أنه يثقل صاحبه ، وأصله الثقل ، ومنه قوله تعالى : (ووضعنا عنك وزرك الـذي أنقض ظهـرك) ، وقال تعـالى : (حتى تضع الحرب أوزارها) أي أثقالها ، يعنى السلاح . □

جمال العربية

□ صفحة شعر
□ هكذا غنى الأنباء

تقاسيم على بحر الشوق

عندما قام الحكم الجمهوري في قرطبة سنة ٤٢٢هـ وتولاه أبو الحزم بن جهور ـ وقد كان عالما وشيخا وقورا ـ جعل ابن زيدون واحدا من وزرائه المقربين . ولم يطل به عهد الوزارة ، فقد دأب حاسدوه على السعي بالوشاية به لدى ابن جهور ، فأوغر صدره ، ورماه في السجن ، أو ربما كان لابن زيدون طموح كبير أو ـ قل ـ أطماع كثيرة ، فإذا تكشف ذلك الطموح أو تلك الأطماع عن تطلع الى الانفراد بالسلطة أقدم ابن جهور على سجنه وقاية واحتياطا .

وفي هذه الفترة ـ أي فترة توليه الوزارة ـ أو قبيل ذلك بقليل عرف ولادة ، فصار يحرص على أن يغشى مجلسها ، وقد كان أشبه بالصالون الأدبي الذي عرفته أوربا فيما بعد . ولم يكن وحيدا في حبه لولادة ، بل دأب على منافسته في حبها آخرون ، وكانت جديرة بحبهم جميعا . فقد توافر لها الحسن والظرف والأدب ، فضلا عن انتمائها الى البيت الأموى ، وهي قبل ذلك وبعده « أديبة شاعرة ، جزلة القول ، مطبوعة الشعر ، تمالط الشعراء ، وتساجل الأدباء . . » كما يقول عنها الضبي . ولابن خاقان في وصفها قول طريف حيث يقول : « وكانت من الأدب والظرف ، وتنعيم السمع والطرف بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب » . وكان يبدر منها ما يغري رواد مجلسها بها كهذين البيتين اللذين كتبتهما على طرف ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالي ... وأمشي مشيتي وأتيه فيها
وأمكن عاشقي من صحن خدي ... وأعطي قبلتي من يشتهيها

ولو تتبعنا أوصافها كما ترد في شعر ابن زيدون لألفيناها بارزة الصدر ، طويلة العنق ، ممشوقة القامة ، دقيقة الخصر ، رابية الردف ، وفي عينيها حور . وبذلك تجتمع لها محاسن الخلق ومقومات الجمال عند العرب أو أكثرها .

ولم يلبث ابن زيدون ـ أمام تلك الأوصاف والخصال ـ أن وقع في حب ولادة ، ولكن الجوّ لم يصف لهذا الحب صفاء تاما ، فكثيرا ما كانت أجواء الحبيبين تتلبد بالغيوم . على أن أيام الوصل كانت تجود بأرق الشعر وأعذبه . انظر إليه وهو يلتمس بقاءها على المودة ودوام الوصل :

سأقنع منك بلحظ البصر ... وأرضى بتسليمك المختصر
ولا أتخطى التماس المنى ... ولا أتعدى اختلاس النظر
أصونك من لحظات الظنون ... وأعليك عن خطرات الفكر
وأحذر من لحظات الرقيب ... وقد يستدام الهوى بالحذر

وهي أبيات تشف عن كلف شديد ، فأي حب عميق ذلك الذي يجعله يرضى منها بالنظرة العجلى وبالسلام المختصر !

ثم تساوره المخاوف من أن تشيح بوجهها عنه إن قدرت أن له فيها بغية ، فيقطع على نفسه العهد بأن لا تبرح آماله دائرة الأماني المشروعة ، فلا يسرف ، ولا يرجو أكثر من ذلك ، فإن كانت في شك مما يقول فلا عليها ، يكفيه منها أن يختلس النظر وأن يراها عن بعد . ويظل في شك من أمره فهو يخشى ألا تقنعها أقواله فيبعث إليها بما يعزز طمأنينتها ، فهي وجدانه ويقينه أسمى من أن تقاربها الظنون ، وأجل من أن تخطر على البال بخاطرة لا ترضيها . فإذا كان يبدي كل تلك الخشية من نفسه ومن ظنونه وأفكاره ـ على شغفه بها وحبه لها ـ فكيف الحال مع الرقيب ، ألا يقف منه حذرا ؟ وما الذي يدعو الى كل هذا وذلك من الحيطة والأهبة والتربص وأخذ النفس بالتقشف ، وأخذ الغير بالريبة والحذر ؟ إنه الأمل في دوام الهوى ! فهل يدوم ؟

ويطرق سمعه أن ولادة تتهمه بخلف الوعد ونكث العهد ، وهو على ما به من حب مقيم فينشد قائلا :

أنَّى أُضيعُ عهدكْ ؟ ... أم كيف أُخلفُ وعدكْ ؟
وقد رأتكِ الأماني ... رضا فلم تَتَعَدَّكْ
يا ليت ما لَكِ عندي ... ـ من الهوى ـ لي عندكْ
فطالَ ليلُكِ بعدي ... كطولِ ليلي بعدكْ
سلي حياتي أَهَبْهَا ... فلستُ أملكُ رَدَّكْ
الدهر عبديَ لَمَّا ... أصبحتُ ـ في الحب ـ عبدَكْ

فهو يسأل منكرا ، إذ كيف يخلف الوعد وقد قيّد الأماني بمن يحب وقصرها ـ راضيا ـ عليها ! ليت التي تتهمه بخلف الوعد تحفظ له من الود ما يحفظ لها ، وتأرق لبعده كما يأرق !

وإذا انقطع الوصال أو كاد هبّ مذعورا يبوح بالشكوى :

أغائبةً عني وحاضرةً معي ... أناديك ـ لَمَّا عِيْلَ صبري ـ فاسمعي
أفي الحقّ أنْ أشْقَى بحبكِ أو أرَى ... حريقاً بأنفاسي ، غريقاً بأدمعي ؟
ألا عطفةٌ تحيا بها نفسُ عاشقٍ ؟ ... جعلتِ الرَّدَى منه بمرأى ومسمعِ
صليني ـ بعضَ الوصلِ ـ حتى تَبَيَّني ... حقيقةَ حالي ، ثم ما شئتِ فاصنعي

ولم يدم الهوى وما كان ينبغي له إذا اتصَف المحبوب بمثل ما كانت تتصف به ولادة من تقلب وفتنة في آن معا . ويغرينا بهذا القول ما نسمعه من نفثات ابن زيدون وهو يستلطف ويستعطف ولا يجد سبيلا الى الاستمالة دون أن يسلكه . انظر اليه يقول :

ثقي بي ـ يا معذبتي ـ فإني ... سأحفظُ فيكِ ما ضيعتِ مِنّي
وإنْ أصْبَحْتِ قد أرْضَيْتِ قوماً ... بسُخْطِي ، لم يكن ذا فيكِ ظَنّي
وهل قَلْبٌ كقلبكِ في ضلوعي ... فأسْلُو عنكِ حينَ سلوت عَنّي ؟

تَمَنَّتْ أنْ تـنَـالَ رضـاكِ نفـسـي فـكـان مَـنِـيَّـةُ ذاكَ الـتَّـمَـنِّي
ولم أجـنِ الـذنـوبَ فتحـقـديـهـا ولـكـن عـادة مـنـك الـتَّـجَـنِّي

فلا زال الأمل معقودا على عودة الثقة، لذلك لا يكون رد الفعل عند العاشق المحب على التجني وإرضاء حاسديه بما يسيء إليه إلا مزيدا من اللطف والرفق .

وكل ما يرجوه هو أن يكون له قلب كقلبها يقوى على الهجر ، وهذا ضرب من العتاب وإن اتصف بالكثير من الرقة . لقد بدأ يدرك المأزق الذي وضع فيه نفسه عندما تمنى أن ينال الرضا يوما ولم يكن يدري أن هلاكه كامن فيما تمنى ! وهو يعلم علم اليقين أنه لم يرتكب من الذنوب ما يجعلها تحقد عليه ، ولكن التجني عادة فيها ! وتقضي الضرورة أن يبتعد عن حبيبته فيودعها بأرق القول :

وَدِّعِ الـصَّـبْـرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكْ ذائعٌ من سِرِّهِ ما استودَعَكْ
يقـرعُ السِّـن عـلى أنْ لم يكـنْ زادَ في تـلك الخُـطا إذ شَيَّـعَكْ
يـا أخـا الـبـدرِ سنـاءً وسنـاً حَفِظَ الله زمـانـاً أطلعكْ
إنْ يَـطُلْ بـعـدكَ لـيـلي فـلَكَمْ بِتُّ أشكـو قِصَـرَ الليـل مَعَـكْ

ولم يفعل البعد إلا أن أجج نار الوجد ، وقديما كان التجمل بالصبر يخفي دخيلة النفس ، ويصون الكبرياء ، أما مع الفراق والوداع فقد ذهب الصبر وافتضح الأمر ، وذاع السر .

وفي قرطبة اجتمع للشاعر من أسباب التعلق أكثر من سبب ، ففيها ولد ، وفيها عاش ، وإليها يحن إذ بعد به المقام ، وفيها فوق كل ذلك منية النفس ، ولادة ! لذلك ترى أن بعده عن الأحباب وملاعب الصبا وعن مواطن الأنس والذكريات يثير شجنه ويبعث الشوق حيا :

هـل تـذكـرونَ غـريبـاً عـادَهُ شَجَنٌ مِنْ ذكركم وجفـا أجفانَهُ الوَسَنُ ؟
يخفي لـواعجَهُ والشـوق يفضحُـهُ فقـد تساوى لـديـه السِّـرُّ والعَلَنُ

***

إنْ كـانَ عـادكـمـو عيـدٌ فَـرُبَّ فتى بـالشوقِ قـد عاده من ذكـركم حَزَنُ
وأفـردتْـهُ الـليـالي من أحـبَّـتِـه فبـاتَ ينشدُهـا مما جَنَى الـزَّمَنُ
(بِمَ التَّـعَلُّلُ ؟ لا أهْـلٌ ، ولا وَطَنٌ ولا نـديمٌ ولا كأسٌ ولا سَكَنُ !)

ذلك هو شأنه في غربته ، لم يعد يرى في الناس شبيها ، فوجد صدى لمصابه في رجع الحمامة ، فهي تقف وحيدة على غصن في أيكة ، تشكو الوحدة كما يشكو وتأسى لحالها كما يأسى ، فلا بد أن بها مثل مابه ، أو أنها علمت بحاله فرقّت له ! أمّا هو فقد جعلته الليالي وحيدا فردا بعيدا عن أحبّته ، لا يأتيه العيد إلا ليزيده حزنا لفرط ما يعاني من الشوق .

وكان بعد أن غادر قرطبة قد نسى ما لقيه من ولادة ، فهدأت نفسه ، وعادت رياح الشوق تهب عليه قوية عاتية ، ولا يملك - وهو الغريب عن الأهل والوطن - إلا أن يتساءل حزينا :

أيُـوحِشُني الـزمـانُ وأنتِ أُنسي ؟ ويـظلمُ لي النهـارُ وأنتِ شمسي ؟
وأغْـرِسُ في مَحَـبَّـتِـكِ الأمـاني فَأَجْني الموتَ مِنْ ثَمَـرَاتِ غَرْسي
لقـد جـازيتِ غـدراً عـن وفـائي وبـعـتِ مـودتي ظُـلْماً ببـخس
ولـو أنَّ الـزمـانَ أطَـاعَ حُكْمِي فـديتُكِ - من مكـارهـه - بنفسي

لقد كانت هذه الكلمات - على ما تنوء به من رقة المشاعر وصدق الوفاء - بداية اليأس ، وصحوة من حب عاصف ، اجتاح ابن زيدون ردحا من الزمن ، ولئن كان حبه لولادة وبالا عليه فقد كان ذلك الحب باعثا على قول درر الشعر ، كهذه المقطوعات التي مررنا بها . □



رحلة الغجر عبر التاريخ

تأليف : رايكو جوريتس
عرض وتحليل : د. محمد موفاكو

لم يكن تاريخ الغجر على الدوام تاريخ رقص وغناء وإقبال على ملذات الحياة ، كما هو شائع ، بل كان أيضا تاريخ عذاب واضطهاد ومجازر بلغت أوجها في فترة الحرب العالمية الثانية في أوربا .

والكتاب الذي بين أيدينا محاولة قام بها أحد مثقفي الغجر اليوغسلاف لتتبع تاريخ أسلافه وإنجازاتهم التاريخية ، وطموحاتهم المستقبلية .

(+) Rajko Durić, Seobe Roma-Krugovi pakla i venac srece, Beograd 1987.

كتاب الشهر

بدأت في السنوات الأخيرة في أوربا حركة اهتمام متزايد بما يمكن تسميته « الظاهرة الغجرية » ، التي تبلورت في العقدين الأخيرين . وفي الواقع أن أفضل ترجمة لهذا التعبير هي « البعث الثقافي القومي للغجر في العالم » . فالغجر ، الذين شتتوا عبر قرون التاريخ في كل البلدان الأوربية وكانوا ضحية للجميع ، برزوا الآن على المسرح الدولي يطالبون بحقوقهم المهدورة عبر الأزمنة والأمكنة المختلفة . ولقد تمكن الغجر أن يحققوا ما يشبه المعجزة خلال أقل من عشرين سنة . فقد تحولت لغتهم المحكية - التي ساعد في تشتتها توزعها على عدة لهجات وتطعمها بمؤثرات كثيرة - إلى لغة ذات أبجدية واحدة ، ثم أخذوا ينشرون تراثهم الشعبي بسرعة في هذه اللغة القديمة - الجديدة . وفي غضون ذلك أخذ الأدب الغجري الجديد ، من شعر وقصة ورواية ومسرحية ، يبرز في اللغة الغجرية ، بل ويترجم إلى لغات أخرى . والأهم هنا أن الغجر قد التفتوا ، بعد أن ارتكزوا على هذه القاعدة الثقافية التي بنوها بسرعة ، إلى المطالبة بحقوقهم القومية في البلدان التي يشكلون ثقلا ديموغرافيا فيها كيوغسلافيا وبلغاريا وهنغاريا ورومانيا الخ .

ومن الطبيعي أن تثير هذه « الظاهرة الغجرية » ذلك القدر من الاهتمام ، الذي تمثل في صدور دراسات كثيرة تحاول أن تستخلص من الماضي ما يساعدها على تفهم الحاضر والمستقبل . من أحدثها دراسة الدكتور رايكو جوريتش بعنوان « هجرات الغجر - دورات العذاب وحلقات السعادة الصادرة باللغة الصربوكرواتية خلال صيف ١٩٨٧ في يوغسلافيا ويبدو لنا ان هذه الدراسة بالذات من أفضل ما نشر في السنوات الأخيرة.

إن مؤلف هذا الكتاب هو من الغجر الذين يمكن تسميتهم « بالمثقفين الجدد » ، أي اولئك الرواد الذين يعود إليهم الفضل في بعث ما كان يبدو أنه قد مات في الغجر . وهو من الشعراء الغجريين البارزين ، وقد نشر حتى الآن عدة دواوين في اللغة الغجرية ، كما أنه أحد المسؤولين في « المنظمة العالمية للغجر » .

البحث عن البداية

في القسم الأول يتحدث المؤلف في البداية عن « الباحثين الرواد والأبحاث المتعلقة **بالغجر** » بدءاً من ب . هولكانيوس ، أستاذ **اللغة اليونانية** في ليدن المتوفي سنة ١٦١٤ ، **كصاحب** الريادة في الأبحاث المتعلقة بالغجر ، ومروراً بالدراسات المختلفة عن الغجر خلال القرن الثامن عشر . والتي بقيت - على الرغم من - قيمتها الريادية ، في حيرة حول أصل الغجر إلى أن نشر « يعقوب ريديغر » كتابه عن الغجر في لايبزغ سنة ١٧٨٢ . ويرى البعض أن الفضل في هذا يعود إلى القس الهنغاري ستيفان هريستوف ، الذي لاحظ خلال دراسته في ليدن واحتكاكه مع الطلاب الهنود أن هناك تشابها كبيرا بين اللغة الغجرية واللغة الهندية . أما الذي أزال كل شك حول الموضوع فهو العالم هـ . غريلمان في كتابه « الغجر » ، الذي نشره خلال ١٧٨٣ . وبعد هذا التاريخ نجد لدينا عشرات الدراسات التي اتجهت نحو التعمق في

الثقافة الروحية والمادية للغجر .

وفي « بداية الهجرات » يتحدث المؤلف عن أقدم سكان الهند ، الدرافيد ، ثم عن قدوم الآريين من الشمال حيث استوطنوا أولا الجزء الشمالي الغربي من الهند ، مما دفع الدرافيد نحو الهبوط إلى جنوب الهند وسيلان . وقد كان هؤلاء الآريون يعيشون في اتحادات قبلية إلى أن تحولت منطقتهم إلى هدف لمختلف الغزاة . فقد توسعت الإمبراطورية الفارسية حينئذ إلى نهر الهند ، ثم جاء الإسكندر المقدوني في القرن الرابع ق . م ليصل إلى نهر الغانج إلا أن هذا الاختراق كان قد ساهم من ناحية أخرى في توطيد التحالف والاتحاد بين القبائل بحيث انبعثت بعد موت الإسكندر أول دولة قوية ، مركزية وكبيرة في الهند من تجمع دويلات صغيرة كان بعضها يشمل فقط قبيلة أو قبيلتين وبعد قرن أو قرنين أخذت تلك الدولة في التفكك ، الا انها عادت إلى الانبعاث ثانية في القرن الرابع الميلادي ، حيث حكم البلاد الملوك من سلالة « غوبت » حتى القرن السابع .

أولاد راما

ومن عهد تيمورلنك ، ينفصل تاريخ الغجر عن تاريخ الهند . لأنهم كانوا قد أصبحوا خارج حدودها ، وكثير منهم كان قد وصل إلى أوربا . لأن عدم الاستقرار المتواصل دفعهم إلى مغادرة مناطقهم في كل اتجاه . وهنا يؤكد المؤلف ان الجماعة الغجرية قد تشكلت في الهند من اتحاد عدة قبائل تختلف في لهجاتها وحتى في أصولها العرقية . ومن المؤكد أن الغجر ، أو الروميين كما يسمون أنفسهم ، قد أخذوا اسمهم من « راما » بطل ملحمة « رامايانا » ، وهكذا فقد وصلوا إلى أوربا باعتبارهم « أولاد راما » .

بعد هذا يتعرض المؤلف إلى البلدان الثلاثة التي هاجر منها الغجر إلى بقية أنحاء العالم ، (الهند - ايران - أفغانستان) ففي الهند ما يزال يعيش حتى الآن عشرون قبيلة من القبائل الغجرية ، حيث أصبح لدينا الآن تفاصيل وافية عن وضع كل قبيلة ، مقرها ولغتها وأفرادها الخ . وفيما يتعلق باللغة الغجرية ، أو « اللغة الرومية » كما يسميها الغجر ، يذكر المؤلف أنها تتشابه مع بقية لغات الهند . التي تربو على خمسمائة لغة و « اللغة الرومية » تنقسم إلى عدة مجموعات ، وكل مجموعة إلى عدة لهجات . وهنا لا يخلو الأمر من بعض الاراء التي تحتاج إلى مزيد من التوثيق . فالعالم غ . غريرسون في كتابه « لغات الغجر » يعتقد أن آخر النتائج تقود إلى ان لغات الغجر المختلفة لها أصل واحد ، وهي اللغة التي كانت تتكلمها في القديم بعض قبائل الدرافيد ، التي تأثرت لاحقا بالآريين .

وفيما يتعلق بـ « ايران » (ص ٣١ - ٣٤) نجد أن غالبية الباحثين يتفقون على أن الغجر قد توجهوا أولا إلى إيران بعد مغادرتهم للهند . وكان أول وأقدم القبائل الغجرية التي وصلت إيران أفراد قبيلة اللور في القرن الخامس للميلاد ، بينما وصلت خلال القرن الحادي عشر عدة قبائل غجرية أخرى .. ومن هؤلاء بقي في إيران إلى اليوم عدة تجمعات غجرية في شيراز وبقية المناطق ، إلا أن الباحثين يختلفون في تقدير عددهم من ١٢ - ١٠٠ ألف . أما في أفغانستان فيشتهر الغجر هناك باسم « الغرباط » أو « القرباط » ، وهو الإسم الذي يعرف به الغجر أيضا في ألبانيا واليونان ويوغسلافيا والمغرب وامريكا وحتى في سوريا ولبنان . وينقسم العلماء حول أصل هذه التسمية . فبعضهم يعيدها إلى الأصل العربي « غربة » ، وبعضهم يعتبرها من أصل فارسي « غورب » ، أي التغيب عن البيت أو عدم الحضور . وعلى كل حال يتفق العلماء هنا على أن القرباط في أفغانستان والقاوول في إيران

والقرباط في سوريا يعودون إلى قبيلة واحدة . أما الآن فلم يبق من الغجر في أفغانستان إلا ألف عائلة تقريبا ، نصفهم ما زالوا يعيشون تحت الخيام .

وفي القسم الثاني من الكتاب « اتجاهات الهجرة وبلاد الاستيطان » يتحدث المؤلف أولا عن « الوثائق والوقائع » التي تسجل وصول الغجر إلى مختلف البلدان في أوربا وآسيا وافريقيا . فمن الخزان الهائل الذي تمتد حدوده من إيران إلى أفغانستان ، من بحر قزوين شمالا وحتى الخليج العربي جنوبا ، انطلقت آلاف القوافل الغجرية في عدة اتجاهات .

قدر الغجر

أما القسم الثالث وعنوانه « الاضطهاد » ، فيخصصه المؤلف لما يمكن أن يسمى « قدر الغجر » . فمنذ أن بدأت القبائل الغجرية الأولى بمغادرة الهند قبل ١٥٠٠ سنة ، تحول تاريخهم إلى كل ما يرادف العنف والملاحقة والاضطهاد والاستعباد ، وتحولوا إلى ضحية للجميع في أوربا إذ وقف الجميع ضدهم - كما يقول المؤلف - الدولة والكنيسة ، القياصرة والبابوات ، الإقطاعيون والفلاحون ، الرأسماليون والبروليتاريون . بل لم يحدث - كما يضيف المؤلف بأسى - ان بادرت أي إيديولوجيا أو طبقة أو منظمة سياسية للدفاع عن مصالحهم . وهنا يوضح المؤلف أن الغجر بطبيعة تكوينهم « الإثني - النفسي » وأسلوب حياتهم يقتحمون المخاطر ويتجرؤون على الدخول في المناطق الممنوعة والمجالات التي يتخوف الناس من ولوجها ، مما يتعارض أحياناً - مع قوانين الدولة وأعراف المجتمع - ولذلك يصبح كل ما يقوم به أو يمارسه الغجر مشبوها . والأهم هنا ان أسلوب الحياة الذي يحرص عليه الغجر يعد مرفوضا في نظر السلطات الأوربية ، ولذلك كانت هناك محاولات دائمة لاستئصال هذا الأسلوب الحياتي ، مع أن ذلك يعني في الواقع استئصال الهوية الاثنية للغجر .

وبعد مرور فترة قصيرة من وصول الغجر إلى البلاد الأوربية ، بدأت تصدر القوانين الاستثنائية التي تنظم عزلهم وإذلالهم وحتى استعبادهم .

ومن ناحية اخرى فقد كانت الكنيسة منذ القرن الثالث عشر تتهم وتلاحق الغجر ككفار أو كسحرة أو حتى كمساعدين للشياطين ! ولهذا فقد وجد كثير من الغجر أنفسهم على المحارق ، وخاصة في عهد محاكم التفتيش المعروفة . والمثير هنا ان ملاحقة واضطهاد الغجر ، بالاستناد إلى هذه المعتقدات ، قد استمرت حتى نهاية القرن الثامن عشر . وبالإضافة إلى هذا فقد كان الغجر يتهمون بأكل لحوم البشر . ويعتقد الناس في تركيا وألبانيا بأن الغجر يفتحون القبور ليلاً ويأكلون لحم الجثث ! أما الاعتقاد بأن الغجر يخطفون الأطفال فهو ما يزال أساس « التربية » البيتية حتى في يوغوسلافيا : « إذا لم تصبح ولدا صالحا فسيخطفك الغجر » .

وعلى الرغم من كل المآسي التي لحقت بالغجر عبر التاريخ إلا أن أبشع كارثة تعرضوا لها كانت دون شك محاولة الإفناء التي تعرضوا لها خلال الحرب العالمية الثانية . وكانت هذه الكارثة قد بدأت تلوح في الأفق مع صعود النازية في ألمانيا ، بداية عام ١٩٣٣ . حيث

طرح أول « حل » لـ « المشكلة الغجرية » بتجميع كل الغجر في عدة سفن كبيرة ثم إغراق كل هذه السفن في عرض البحر !

وفي سنة ١٩٣٦ أسست وزارة الداخلية ـ ضمن هذا التوجه ـ « معهد القضية الغجرية » الذي ألحق عام ١٩٣٧ بـ « معهد النقاء العنصري » في برلين . بينما تم حينئذ تكليف د . ريتر ومجموعة من مساعديه بـ « القضية الغجرية » . وبعد شهور من الحرب العالمية الثانية بدأت الكارثة تلتهم آلاف القوافل من الغجر الذين كان يتم انتزاعهم من بيوتهم وتجميعهم في معسكرات خاصة ، إلى أن يأتي دورهم لتقبل الخيار الوحيد : الموت ، لا لشيء إلا لأنهم ولدوا غجراً . وفي الواقع يبدو من خلال المعطيات المثيرة في هذه الصفحات أن الغجر هم الضحية الفعلية للحرب العالمية الثانية ، لأنهم لم يكن لهم لا ناقة ولا جمل في هذه الحرب ، وهم لم يشاركوا فيها ولم يغنموا منها شيئا ، بل إنهم خسروا الكثير دون أن يحصلوا على أي تعويض . والمشكلة هنا انه لم يهتم أحد حتى بتقدير خسائرهم ، التي تختلف تقديراتها من نصف مليون إلى ثلاثة ملايين ونصف المليون .

حركة البعث الغجري

يرجع المؤلف ما يسميه « اليقظة القومية للغجر » إلى منتصف القرن التاسع عشر ، أي حين تم في رومانيا الإعلان عن قانون تحرير العبيد الغجر ، الذي كان يشمل حوالي ربع مليون غجري ، والذي عارضه النبلاء ورجال الدين ، وتبعته انتفاضة العبيد الغجر التي أغرقت بالدم ، كما يذكر المؤرخون . ويمكن اعتبار سنة ١٨٧٨ بداية للانعطاف الكبير ، إذ ان تلك السنة قد شهدت أول محاولة لتكتل الغجر على أساس جديد . حيث دعا جوزيف راينهارت ممثلين للغجر من ايطاليا واسبانيا وروسيا إلى اجتماع بالقرب من شتوتغارت ، لكي يتفقوا على تأسيس منظمة ترعى مصالح الغجر وتدافع عن حقوقهم لدى الدول المختلفة . إلا ان تلك المحاولة ـ كمحاولة العبيد الغجر للتحرر في رومانيا ـ قد قمعت فورا من قبل السلطات الألمانية ، التي منعت الغجر من أن يعقدوا لاحقا مثل هذه الإجتماعات . وقد حاول الغجر في السنة اللاحقة ١٨٧٩ ، أن يعقدوا اجتماعا في القرية الهنغارية كيسفال . ولكن السلطات النمساوية ـ الهنغارية منعت هذه المحاولة وأدانت عقد أمثال هذه الاجتماعات . إلا ان هذه المحاولات الفاشلة فتحت الطريق لبعض المبادرات اللاحقة ، سواء من قبل ممثلي الغجر أو من بعض المفكرين غير الغجر الذين أخذوا يتعاطفون معهم .

ففي آيار مايو ١٨٩١ توجه جورج سميث إلى البرلمان الإنكليزي طالباً منه التدخل لدى الحكومة كي تحل مشاكل الغجر في انكلترا . وإلى تلك الفترة يعود « البيان الغجري » في بلغاريا والذي كان ممثلو الغجر قد وجهوه إلى الحكومة في صوفيا وطالبوا فيه أن تؤمن لهم الحكومة الحقوق المدنية والحريات الدينية . وهكذا تحقق أول حلم للغجر سنة ١٩٠٠ حين افتتحت في صوفيا « المدرسة الغجرية » ، إلا أن هذه المدرسة لم تعمر طويلا . وبعد ثورة أكتوبر الإشتراكية في روسيا برزت عدة محاولات للقيام بعمل ما لصالح الغجر ، إلا أن هذه المحاولات لم تحظ بالتأييد من القمة إلا في نهاية العشرينيات ، حين فتحت فجأة أمام الغجر أبواب لم تكن في الحسبان . فمنذ ذلك الحين أسست منظمات للغجر في عدة أماكن ، كما أسس « الاتحاد الروسي العام للغجر » ، وتم إصدار عدة مجلات بالإضافة إلى برامج إذاعية في اللغة الغجرية . وإلى جانب هذا فقد افتتحت مدرسة غجرية في « اوجهورد » ثم

أخذت الكتب تنشر ، بينما تم أخيرا افتتاح مسرح للغجر . وبعبارة اخرى فقد كانت هذه الجهود تعني بعثا كاملا لما هو متجمد عبر القرون ، إلا أن هذه المبادرات انطفأت للأسف مع الزمن .

وبالمقارنة مع روسيا الاشتراكية اتخذت اليقظة القومية للغجر مضمونا سياسيا محددا في رومانيا ، حيث يعيش أكبر تجمع غجري في أوربا الشرقية (حوالي مليونين من الغجر) . ويبدو هنا ، (مع أن المؤلف لم يمس هذه المسألة إطلاقا) ، ان هذه البرمجة السياسية لليقظة القومية للغجر كانت تحت تأثير الإنجازات الأولية للحركة الصهيونية . ففي أوائل الثلاثينيات نشط غريغوريه نيكولسكو للدعوة إلى تأسيس منظمة عالمية للغجر ، ونجح أخيرا في أن يعقد مؤتمرا لممثلي الغجر في أوربا وذلك في بوخارست خلال تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٣ . وخلال هذا المؤتمر تبلورت الفكرة الداعية إلى تشكيل « دولة قومية » للغجر ، سواء في الموطن الأصلي أو في مكان ما في شمال افريقيا ـ أي على حساب العرب . ولإنجاز هذه الفكرة فقد كان من المقرر القيام بزيارة الملك الإنكليزي وتأمين الدعم من عدد من رجالات الدول الأوربية . إلا أن هذه الفكرة لم تتبلور جيدا في تربتها لأن السلطات الرومانية منعت هذه المنظمة الغجرية عام ١٩٣٦ ، حتى ان الجنرال انتونسكو طالب حينئذ بـ « تطهير البلاد » من كل الأقليات القومية وعلى رأس هؤلاء الغجر واليهود .

ففي هنغاريا كان قد تأسس سنة ١٩٥٨ « اتحاد الغجر » ، ثم تأسست منظمات مشابهة في بقية الدول كألمانيا الغربية وأسبانيا وفنلندا والسويد وفرنسا الخ . إلا أن تلك المنظمات لم يكن لها برنامج مشترك ، بل إن كل منظمة كانت تنشط وسط ووفق الأوضاع الخاصة بكل بلد . وفي سنة ١٩٦٩ بادر بعض الكتاب الغجر في يوغسلافيا إلى اقتراح نوع من الترابط والتعاون بين المنظمات الغجرية . وبفضل هذا ، وبناء على اقتراح الشاعر سلوبودان بربرسكي من يوغسلافيا ، عقد أخيرا المؤتمر العالمي الأول للغجر في لندن خلال آيار / مايو ١٩٧١ ، حيث تمخض هذا عن تأسيس « المنظمة العالمية للغجر » . وفي ذلك المؤتمر تم الاتفاق على اختيار علم ونشيد موحد للغجر ، وجرى أول اتصال رسمي مع الموطن الأصلي من خلال السفارة الهندية في لندن .

وفي سنة ١٩٨٣ حقق الغجر انتصاراً آخر عندما تمكن عضو رئاسة « المنظمة العالمية للغجر » ، دي ديوس راميريز هيريديا ، من الفوز في الانتخابات الأسبانية للمجلس الأوربي . مما مكنه من إثارة مسألة حقوق الغجر ووضعهم الاجتماعي في بعض البلدان الأوربية أكثر من مرة .

المعجزة الغجرية

وفيما يخص « الحياة الإجتماعية » يوضح المؤلف أن الهرم الغجري يبدأ من « التسارا » أي الخيمة ، التي تجمع عادة بين ثلاثة أجيال ، ثم يأتي الـ « نيامو » أي الفخذ الذي يجمع مجموعة من الخيم ، ومن عدة أفخاذ تتشكل الـ « فيتسا » أو العشيرة . والسلطة هنا بيد الشيخ أو الزعيم الذي يتم اختياره لفترة محددة أو طيلة

حياته ، وذلك حسب شهرته وذكائه ونفوذه ، وتغطي سلطته في العادة كل العشيرة .

وفيما يتعلق بأدب الغجر يستشهد المؤلف بعبارة المفكر « ارنست بلوخ » لا يبدأ الرقص في أي مكان قبل الظهر » ليذكر المفارقة التي تكمن في أن الغجر بعد عشرة قرون عاشوها في أوربا لا يزالون لا يملكون الشروط الأساسية التي تمكنهم من الإبداع . فالأفراد الموهوبون من الغجر كان لا يمكنهم أن يشتهروا إلا إذا أنكروا أنفسهم كغجر ، أي بعد أن يذوبوا في بوتقة الآخرين . ومن هؤلاء يذكر المؤلف الشاعر الإنكليزي « جون بانيان » ، والكاتب المسرحي « ميلان بوغويتش » الذي يُعد أيضا من الأسماء الريادية في الشعر الكرواتي المعاصر ، ويؤكد أخيرا أنه يعرف الكثيرين من الكتاب الغجر في يوغسلافيا الذين يتهربون من الاعتراف بأنفسهم كغجر .

وعلى كل حال يعود الفضل هنا للشعراء في بعث وتأصيل الأدب الغجري الجديد . ومن هؤلاء الشاعر الرائد آدم تيكنو (١٨٧٥ - ١٩٤٨) ، الذي يعتبر خير نموذج لشعبه . فقد ولد هذا الشاعر على حدود افغانستان وشارك سنة ١٩٠٥ في الحرب الروسية - اليابانية ، وحصل على رتبة ضابط ، إلا أنه تخلى عن هذا وانضم إلى إحدى العشائر الغجرية ، وعبر معها الحدود المختلفة حتى وصل إلى اسطنبول ، ومن ثم انتقل إلى ألمانيا ليقضي بقية حياته . وإلى جانب هذا تذكر الشاعرة الرائدة « غينا راينتشيتش » (١٨٣٠ - ١٨٩١) ، التي ترجمت قصائدها في مطلع هذا القرن إلى الألمانية والسويدية لاحقا . وفي الواقع ان هذين الإسمين يمثلان حالة نادرة ، إذ أن الشعر الغجري لم يبرز حقيقة إلا في روسيا السوفيتية ، بعد أن تشكلت الظروف الإجتماعية والثقافية المناسبة . ولكن بعد أن برزت هنا الأسماء الريادية كالكسندر غرمانو ، نينا الكسندروفا بودراوفا ، ميخائيل بزليدسكي الخ ، حتى أخذت تتلاشى الأرضية التي انضجتهم . وفي الخمسينيات برزت في بولونيا الشاعرة « برانيسلافا فاسي بابوشا » (١٩٠٩) ، الأولى والوحيدة التي طبعت لها مجموعة شعرية باللغتين الغجرية والبولونية معا ،وذلك خلال سنة ١٩٥٦ . ومن السويد اشتهرت شاعرة غجرية أخرى ، « كاتارينا تايكون » (١٩١٤) ، التي نشرت أيضا مجموعة شعرية . وبالمقارنة مع البلدان الأخرى تبدو الآن يوغسلافيا هي المركز الوحيد الذي يحتضن استمرارية « كرايكو جوريتش » ، مؤلف الكتاب ، و « يوفان نيكوليتش » ، و « قدري شاهينوفيتش » ، الخ .

وبالإضافة إلى الشعر فقد برزت في الأدب الغجري الجديد محاولات روائية متميزة . منها رواية « رعاة الدببة » المشهورة للروائي « ماتيو ماكسيموف » (١٩١٧) ، الذي ولد في برشلونة وانتقل لاحقا للعيش في باريس . وهي نوع من الاعترافات بتفاصيل الحياة الغجرية .

بعد كل هذا يبدو لنا أن « المعجزة الغجرية » تتلخص بهذه السطور التي خطها المؤلف :

« حوالي ١٥ مليوناً ينتشرون في مختلف أنحاء العالم . إن قصتهم هي قصة المعاناة والحزن ، ولكنها أيضا قصة تحكي انتصار روح الإنسان على كل ما يضغط عليها . □

أوسع صدر لرجل

● يبلغ محيط صدر روبرت هوك من الولايات المتحدة ثلاثة أمتار وخمسة عشر سنتيمترا .



من المكتبة العربية

دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي

تأليف : مجموعة من الكتاب العرب
عرض وتحليل : ياسر الفهد

لم تكن هناك أبدا نهضة بلا ترجمة فمن خلال الترجمة فقط يمكن الاطلاع على أحدث المنجزات الثقافية والعلمية في العالم أجمع . لكن حديث الترجمة إلى العربية ذو شجون كثيرة ، يطرقها الكاتب من خلال استعراضه لهذا الكتاب عن واقع الترجمة في الوطن العربي .

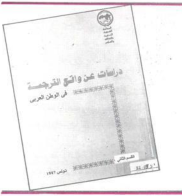
الحديث عن الترجمة وشجونها ، أمر غاية في الأهمية ، لأن الترجمة في هذه المرحلة على الأخص من مراحل تطورنا العلمي والثقافي ، يمكن أن تؤدي دورا بالغ الفعالية في إثراء ثقافتنا ، وتوسيع مداها ورفدها بثقافات الدول المتقدمة ، وفي التعويض عن النقص النوعي في النشاطات والإنجازات الابداعية العربية ، ولا سيما في مجالات العلوم والطب والتنمية الاقتصادية . ويتناول كتاب (دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي) الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجزئين ، الجزء الأول في عام ١٩٨٥ ، (واقع الترجمة في كل من الأردن وتونس والجزائر والسودان وسوريا والعراق وليبيا) ، والجزء الثاني في عام ١٩٨٧ يشمل (السعودية والكويت والامارات العربية المتحدة والبحرين

ولبنان ومصر والمغرب وشطري اليمن بالإضافة إلى الترجمة لدى أبناء فلسطين) . والمقصود هنا الترجمة الثقافية والعلمية . أما الترجمة الفورية وترجمة الوثائق والمعاملات ، فليس لها سوى أهمية ضئيلة . والدراسات التي شملها الكتاب بجزئيه ، هي بأقلام كتاب عرب بارزين ذوي دراية خاصة بالترجمة ومشكلاتها . ومن هؤلاء المرحوم الدكتور عيسى الناعوري والدكتور محمود السمرة والدكتور حسام الخطيب والدكتور حنفي بن عيسى وأنطون مقدسي وشحادة خوري وغيرهم . وينتهي كل جزء من جزئي الكتاب بدراسة ختامية تحلل ما تضمنته الدراسات في ذلك الجزء من أفكار وتوجهات وأرقام ، وتخرج باستنتاجات وأحكام حول طرق مواجهة مشكلات الترجمة .

أما الدراسات الأصلية نفسها ، فإنها تلقي الأضواء بطريقة منظمة على عدة أمور أهمها أربعة عناصر أساسية :

أ ـ التشريعات الناظمة للترجمة .
ب ـ مؤسسات الترجمة .
جـ ـ المترجمون ومدارس الترجمة .
هـ ـ قراء المادة المترجمة .

وبالنسبة للعنصر الأول ، وعلى الرغم من



وجود تشريعات حديثة لحماية حقوق التأليف التي تشمل أيضا المترجمات بالإضافة إلى المؤلفات ، فان الترجمة في الأقطار العربية ، ـ كما يشير الكتاب ـ تفتقر إلى الضوابط والنواظم القانونية . وكأحد الأدلة على ذلك أنه نادرا ما يقوم مترجم قبل ترجمة كتاب ما ، باستئذان مؤلفه الأصلي . وكدليل ثان فإنه يحدث أحيانا أن يتولى أحدهم ترجمة كتاب ما ، ثم يتبين له فيها بعد أن غيره قد سبقه إلى ترجمته ، مما يقلل من قيمة الترجمة الثانية . ويمكننا أن نستثني من هذا الوضع الجزائر التي وجدت نفسها بعد إحرازها الاستقلال في وضع يحتم عليها سن تشريعات خاصة بالتعريب . ومن الانجازات التي تحققت في هذا المجال ، مثلا ، القانون الأساسي المتعلق بالمترجمين ، الذي يحدد واجبات المترجم وحقوقه ومؤهلاته .

الترجمة والمؤسسات

أما بخصوص العنصر الثاني (المؤسسات) فإن الترجمة ، عندما بدأت في الأقطار العربية في القرن التاسع عشر ، كان يقوم بها أفراد أو دور نشر خاصة . ولم تشرع المؤسسات الرسمية كالوزارات والجامعات في تولي مهامها في هذا المضمار إلا منذ الخمسينيات من هذا القرن .

ومن هذه المؤسسات ما يرعى قضية الترجمة والمترجمين ، ومنها ما يُعنى بنشر المطبوعات المترجمة من كتب ودوريات . ونذكر من المؤسسات التي ذكرها الكتاب ، على سبيل المثال لا الحصر ، وزارة الإعلام ، ومؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، في الكويت ،

والجامعات السبع في السعودية ، ووزارة الثقافة والإعلام في العراق ، والمركز الوطني للترجمة والمصطلحات في الجزائر ، واللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر في الأردن ، ولجنة

التأليف والترجمة والنشر في مصر العربية .. الخ .

ويبين الكتاب أن قطرا كالبحرين لا توجد فيه أي مؤسسة رسمية لرعاية الترجمة التي تشكل مجرد صناعة خدمات .

وعلى الرغم من أن معظم مؤسسات الترجمة ذات طابع قطري ، فإن بعضها كالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت يعمل على مستوى قومي ، وينشر للمترجمين العرب من شتى أرجاء الوطن العربي . ومع ذلك ، فإن هناك حاجة ماسة لمزيد من المؤسسات التي تعمل على الصعيد العربي ، وتشرف على تنظيم أعمال الترجمة في الأقطار العربية كافة . وتحاول المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، حاليا ، القيام بهذا الدور بواسطة وحدة الترجمة التي تتبع إدارة الثقافة فيها . وتضطلع الوحدة المذكورة بثلاث مهام :

أ ـ مراقبة نشاطات الترجمة في مختلف الأقطار العربية .

ب ـ الاهتمام بظاهرة الترجمة نفسها بوصفها نشاطا يحتاج إلى رعاية وتنسيق وتخطيط .

جـ ـ نقل الروائع الأدبية العالمية إلى اللغة العربية .

وبالنسبة للمترجمين وتأهيلهم ، يبين الكتاب أن هناك أقساما كثيرة في الأقطار العربية تقوم بتدريس وتخريج المترجمين ، ومنها على سبيل المثال ، معهد بورقيبة للغات الحية في تونس وقسم اللغات والترجمة في جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض ، ووحدة الترجمة في كلية الآداب في جامعة الخرطوم ، وفرع الترجمة في جامعة الموصل ، وقسم الترجمة في الجامعة المستنصرية في العراق ، ومدرسة الترجمة في جامعة القديس يوسف في لبنان .. الخ . ولكن على الرغم من وجود هذه الأقسام وغيرها ، فإن عدد المترجمين الاكفاء قليل جدا نسبيا .

أما بشأن العنصر الرابع ، وهو القارىء ، فإن للترجمة قراءها الكثيرين حتى أن بعض القراء يفضلونها على المادة الأصيلة ، لأنها تزودهم بأحدث المستجدات في مختلف الحقول . ولكن هناك مشكلة الارتفاع المتزايد لأسعار الكتب ، الموضوعة منها والمترجمة ، وكذلك مشكلة صعوبة انتقال الكتاب من قطر إلى قطر عربي آخر ، لأسباب مختلفة سياسية وتجارية وجمركية . وقد أوردت الدراسات أسماء كتب مترجمة هامة سبق أن أصدرتها مؤسسات عربية مختلفة ، وقد أثنى الكتاب بشكل خاص على نشاطات الترجمة التي تبذلها المؤسسات الكويتية ، فقد بلغ مجموع المسرحيات المترجمة وحدها التي أشرفت وزارة الإعلام الكويتية على ترجمتها فيما بين عام ١٩٧٥ وعام ١٩٨٦ زهاء (٢٠٥) مسرحيات . بالإضافة الى كتب أخرى مترجمة كثيرة . كما أثنى أيضا ، على نشاطات أبناء فلسطين في الترجمة ، التي تتسم بالتنوع اللغوي ، أي النقل عن عدة لغات ، وبالتنوع المعرفي ، أي الترجمة عن فروع عديدة من المعرفة ، وكذلك بالجمع بين التعريب والتعجيم .

ملاحظات

من مزايا كتاب (دراسات حول واقع الترجمة) أنه يُعنى بدراسة قضايا الترجمة على صعيد الوطن العربي بأكمله ، لا في قطر عربي أو منطقة محلية معينة ، مما يضفي عليه طابعا شموليا إلى جانب طابعه الثقافي . ومن جهة ثانية فإن الدراسات التي تضمنها الكتاب تتبع خطا منهجيا واضحا ، وطريقة علمية منظمة في البحث . وعلى الرغم من شمولية الكتاب وتناوله مجموعة واسعة من قضايا الترجمة ، فإن الفائدة منه كانت ممكنة أن تكون أعم ، لو أنه تعرض ، فيما تعرض له ، وبشكل مفصل ، إلى

عملية الترجمة نفسها ، وما تنطوي عليه من تعقيدات فنية ، ومصاعب وإشكالات عديدة ، وكذلك إلى حقوق المترجم وما يعانيه أحيانا من حيف وسوء تقدير لعمله . ومن النقاط الهامة أن الكتاب يعدّ الكشف عن الواقع الحالي للترجمة في الأقطار العربية وسيلة هامة وخطوة أساسية لتحسين هذا الواقع وتطويره ، فتشخيص مشكلات الترجمة مقدمة ومنطلق لوصف العلاج لها ، بما يكفل تحقيق مصلحة الثقافة العربية التي تشكل عملية الترجمة جزءا أساسيا منها .

ففي ضوء المشكلات القائمة ، يبين الكتاب ، مثلا ، أن هناك قبل كل شيء حاجة ماسة لوضع تشريعات فعالة لتنظيم عملية الترجمة ، وتحريرها من الارتجال والعشوائية ، كما أن من الضروري إصدار نشرات ببليوغرافية دورية على المستوى العربي ، توثّق الأعمال التي تمت ترجمتها من اللغة العربية وإليها ، وذلك منعا للازدواجية في الترجمة . كما يبرز المؤلفون الحاجة إلى إنشاء مؤسسات جديدة تعنى بقضية الترجمة ، ويؤكدون أهمية الاستمرار في تنسيق المصطلحات وتوحيدها . ويقدم الكتاب اقتراحات أخرى كثيرة يمكن أن تسهم بشكل فعال في تطوير حركة الترجمة في الوطن العربي .

وفضلا عن كل ذلك ، فإن هناك ، كما يبدو لنا ، خطوات أخرى لا تقل أهمية عما أورده المؤلفون ، فهناك مثلا ضرورة توفير حوافز معنوية ومادية أكبر للترجمة والمترجمين ، وكذلك تسهيل انتقال الكتاب المترجم بين الأقطار العربية ، والتوسع في إقامة معارض الكتب العربية . ولا شك أن تحسين حركة الترجمة يجب ألا يقتصر على الكتب ، بل يجب أن يتعدى ذلك الى الصحافة أيضا ، فهناك حاجة إلى إصدار مزيد من المجلات المتخصصة بالمادة المترجمة على غرار (الثقافة العالمية) و (العلوم) و (الآداب الأجنبية) وغيرها ، وحبذا ، لو تهتم إحدى المؤسسات العربية أيضا بإصدار مجلة تُعنى حصرا بظاهرة (الترجمة) وقضاياها ، أسوة ببعض المجلات المتخصصة بظاهرة (النشر) أو ظاهرة (الإعلام) ، مثلا .

وبعد ، فإن الترجمة التي تشكل وسيلة عظيمة للتواصل بين الثقافات ، وتشرع الأبواب أمام الاطلاع على منجزات الحضارة الحديثة ، جديرة حقا بكل رعاية وتكريم ، ومن حق المترجمين على جميع الأطراف الثقافية أن تتعاون لتوفير الحوافز الكافية لهم وتحسين تأهيلهم وإعدادهم . □

قتل الوقت



● أغرب ساعة ميدان في العالم تلك التي كانت توجد قبل الحرب الأخيرة في مدينة فرانكفورت الالمانية ، وقد صممها مهندس الماني مشهور ، وكان فيها باب صغير يفتح فيخرج منه فارس على صهوة جواده يعلن عن عدد الساعات بطلقات من مسدس في يده . ويعلق مصممها على ذلك قائلا : إن هذه هي أحسن طريقة « لقتل الوقت » !

مكتبة العربي

مختـــارات

اسم الكتاب : المؤرخون اليمنيون
المؤلف : د . حسين بن عبدالله العمري
الناشر : دار الفكر/ دمشق
عدد الصفحات : ١٢٨ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨ .

يتناول الكاتب في كتابه دراسة عن التاريخ والمؤرخين اليمنيين في العصر الحديث ويقسم كتابه الى افكار متلاحقة ، تمثل كلا يخدم موضوع دراسته ، فيعرض للمراحل الثلاث في مدرسة التاريخ اليمنية ، متناولا كل مرحلة على حدة ، عارضا مميزاتها وأسلوبها وكتابتها وأهم الكتب التي صدرت عنها ، ونماذج من أعمال مؤرخي كل مرحلة ، وتحليلا عميقا وعلميا وافيا لها .

□□□

اسم الكتاب : ذئب البحار .
المؤلف : جاك لندن . ترجمة نعيم أبو حجلة
الناشر : دار منارات الأردن .
عدد الصفحات : ٢٠٤ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

كان المثقف الشاب المرفه في رحلة بحرية عندما تعرضت « العبّارة » التي يركبها لحادث اصطدام ، وحملته الأمواج فوق قارب نجاة الى عرض المحيط ، والتقطته سفينة ، وفوق سطحها فوجيء بأنها سفينة صيد ، ذاهبة الى شواطيء اليابان ، ورفض قبطانها إعادته الى البر ، وأجبره بالقوة أن يعمل فوق السفينة التي عانت من عجز في طاقمها نتيجة لوفاة عدد من بحارتها . وعاش المثقف الشاب الذي لم يكن يحسن شيئا في الدنيا ، ولا يعرف معنى قيم الأشياء كالعمل والحرية والراحة والتعب والعبودية .

هذه التجربة الغريبة المبهرة هي موضوع الرواية التي ترجمت الى العربية أول مرة ونشرت ١٩٨٨ .

□□□

اسم الكتاب : في الشعر العبري والصهيوني المعاصر .
المؤلف : صالح العياري .
الناشر : دار طلاس/ سوريا .
عدد الصفحات : ٢٥٤ من القطع الصغير
سنة النشر : ١٩٨٧ .

دراسة في الآثار الأدبية على (الشعر) الصهيوني المعاصر ، يقوم من خلالها الكاتب بتحليل مضمون أعمال عدد من الشعراء البارزين في الكيان الصهيوني وخارجه . وعلى امتداد الدراسة تتوالى النتائج التي تؤكد أن مشروعية (الآخر العربي) تسقط في معظم آثار

الأدب الصهيوني المعاصر ، فالآثار الأدبية الصهيونية تنظر الى العربي على أنه العدو اللدود الذي يجب القضاء عليه ، وعلى المستوى الفني فإن القصيدة في الشعر الصهيوني تفقد قيمتها الفنية من حيث أنها هي النموذج الابداعي للتسامي المطلق ، ومستودع للقيم الجمالية لتصبح خطابا شعريا مفعما بالعداوة والدم والقتل والعنصرية .

□□□

اسم الكتاب : موت أمطار الشمس « ديوان شعر » .
المؤلف : زهور دكسن .
الناشر : دار الشئون الثقافية العامة/ بغداد .
عدد الصفحات : ١٤٠ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

ديوان شعري جديد للشاعرة زهور دكسن ، وهو الديوان الرابع لها ، ويضم الديوان خمسا وأربعين قصيدة . وعن الديوان وأشعاره تقول الناقدة العربية الكبيرة د . سلمى الخضرا الجيوسي : « إنها برهان على تفوق الغريزة الشعرية والحدس الفني على التنظير والمعرفة التقنية المدروسة ، وهي أشعار مرهفة وناصعة ، مدهشة ، فيها طراوة وتماسك لغوي ومغامرة خيالية ».

□□□

اسم الكتاب : دفاتر الأيام . أفكار على ورق .
المؤلف : يوسف الخال .
الناشر : رياض الريس للكتب والنشر/ لندن .
عدد الصفحات : ٤٠٨ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧ .

أوراق وأفكار ويوميات للكاتب اللبناني الراحل يوسف الخال ، جمعتها دار الريس في كتاب واحد ، وقدمته للقراء . ويضم الكتاب بالإضافة الى بعض وجهات النظر والآراء تسجيلا يوميا من يوميات الكاتب التي سبق نشرها . والكتاب قد تتفق معه أو تختلف ، ولكنه يبقى مرجعا تجميعيا لطريرك الحداثة في الشعر العربي .

□□□

اسم الكتاب : السلطة والمجتمع والعمل السياسي (من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام) .
المؤلف : د . وجيه كوثراني .
الناشر : مركز دراسات الوحدة العربية .
عدد الصفحات : ٢٤٥ من القطع المتوسط .
سنة النشر : ١٩٨٨ .

يرتبط العمل السياسي بمضامين وأفكار ومؤسسات وديناميات داخلية وخارجية ، فهو يرتبط بالظاهر الايديولوجي (الخطاب والعقليات) ، ويدخل من جهة أخرى في صلب البنية الاجتماعية ومؤسساتها ، وهو بذلك يرتبط بالسلطة ومراكزها ، والمجتمع ومؤسساته ، وبكل الأنساق والنزعات داخل المجتمع . وفي الكتاب يقدم الباحث دراسة معمقة لخطوط التداخل وشكل السلطة والمجتمع والعمل السياسي في بلاد الشام إبان تاريخ الولاية العثمانية . □

■ الصحافة حبر وورق وحرية . (كليمنصو)
■ ما تجمعه الأحلام قد تفرقه اليقظة . (بروك)

مسابقة العربي الثقافية

العـــدد ٣٦٤
مـــارس ١٩٨٩

جوائز المسابقة

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٦٤ » . وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ ابريل ١٩٨٩ .

ارفق الحل مع هـذا الكوبون
كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٦٤

١ **أي الجزر التالية يعتمد اقتصادها الوطني على تصدير الطوابع البريدية** علما بأن عاصمة الدولة المطلوبة تسمى فونافوتى ؟

× **توفالو** × **توباجو وترينداد**
× **توباى**

٢ ريكيافيك هي عاصمة ايسلندة ، ومعنى الاسم هو : «خليج الدخان» ، **ترى لم سميت عاصمة ايسلندة بهذا الاسم ؟**

× لكثرة البخار المتصاعد من نوافير الماء الساخن .
× لكثرة الدخان المتصاعد من البراكين .
× لكثرة الدخان المتصاعد من المصانع .

٣ **أي جزر في المحيط الهادى اشتهرت بملكها (توفا أهاو توبو) الرابع ، وهو** بدين جدا ويبلغ وزنه ١٩٤ كيلوغراما ، الأمر الذى أهله لاحتلال المرتبة الأولى من حيث الوزن بين ملوك العالم جميعا ، وذلك وفق الدراسات أو الإحصاءات التى أجرتها مؤسسة «جنس» التى تصدر كتاب «جنس» للأرقام .

× **تونجا** × **توباجو**
× **توجو**

٤ عدد الدول المستقلة ، كما هو معروف (١٧٠) دولة منتشرة في قارات العالم المختلفة ، ترى ماهو عدد الجمهوريات بين هذه الدول :
× حوالي ١٢٥ دولة
× حوالي ٨٥ دولة
× حوالي ٤٥ دولة

٥ أي جزيرة من جزر المحيط الهادي كانت مستقلة طوال القرن التاسع عشر إلى أن تخلت عن استقلالها بمحض إرادتها وطلبت الانضواء تحت راية دولة استعمارية كبيرة ، وذلك سنة ١٨٩٨ ؟
× تاهيتي × هايتي
× هواي

٦ عدد الولايات المتحدة في امريكا هو ٥٠ ولاية ، على أن في الامكان أن يزداد هذا العدد حتى يصبح ٥٤ ولاية دون حاجة إلى ضم أراض جديدة ودون الإضطرار إلى تعديل الدستور ، علل ذلك ؟

٧ جزر كريسماس (أي عيد الميلاد) يتردد اسمها في الأخبار بين حين وآخر ، ترى أين تقع هذه الجزر ؟
× في المحيط الهندي
× في المحيط الهادي
× في كلا المحيطين الهندي والهادي .

٨ اسم العاصمة هو بانجول ، فما اسم الدولة ؟
× جامبيا × غينيا × غانا

٩ درجت بعض الدول على استبدال أسمائها القديمة بأسماء أخرى جديدة ، ونسمي هنا بعض تلك الدول بواحد من اسميها فما هو اسمها الآخر ؟
× جريئلند × بنين
× فولتا العليا × هندوراس
× زامبيا × روديسيا .

١٠ ما عدد الأقطار غير المستقلة في العالم ، علما بأن عدد الدول المستقلة هو ١٧٠ دولة ؟
× عدد الأقطار غير المستقلة حوالي ١٠٠ دولة .
× حوالي ٦٠ دولة .
× حوالي ١٢٠ دولة .

١١ نحن نذكر عواصم الدول ، وعليك أن تذكر دول هذه العواصم ؟
× بلومان × ناساو × تيمفو
× باراماريبو × فادوز
× أولان باتور .

١٢ أي مقاطعة أو ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية ، لاتزيد مساحتها على مساحة عاصمتها ، ولايتجاوز عدد سكانها عدد سكان العاصمة ؟

حل مسابقة العدد ٣٦١

ديسمبر ١٩٨٨

١ الفتاتان من عارضات الأزياء في منطقة خباروفسك في الشرق الأقصى السوفياتي ، أما النهر فهو نهر آمور الذي يفصل مع رافده إسّوري بين الاتحاد السوفياتي والصين .

٢ مرض باركنسون هو المرض الذي يعاني منه محمد علي كلاي ، ويطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى الطبيب الانكليزي الذي اكتشفه سنة ١٨١٧ ، وهو جيمس باركنسون ، وهذا المرض شائع بين الشيوخ والمسنين . وقد نجح الأطباء في معالجة هذا المرض في الفترة الأخيرة .

٣ منذ مطلع السبعينيات والصين تنتهج سياسة المولود الواحد للأسرة الواحدة ، وذلك بقصد تحديد النسل ، على أنها لاتفرض هذه السياسة فرضا بقانون ، ولكنها تعمل على الأخذ بها بالتوعية أو الحوافز ، والهدف هو ألا يتجاوز عدد سكان الصين ١٢٠٠ مليون نسمة في نهاية القرن العشرين .

٤ دشن مسجد سيول عام ١٩٧٦ . ويبلغ عدد المسلمين في كوريا الجنوبية (٣١٠٠٠) نسمة ، منهم (١٨٠٠٠) نسمة يسكنون سيول العاصمة .

٥ مصنع الحديد والصلب الذي يظهر في الصورة يوجد في قطر ، في مدينة أم سعيد ، وشركة (قاسكو) هي التي تملك هذا المصنع بالاتفاق بين دولة قطر وبين شركة كوبي ستيل ، وشركة طوكيو بوكي والشركتان يابانيتان ، تملك الأولى ٢٠٪ والثانية ١٠٪ من الأسهم . أما إنتاج المصنع فيبلغ نحو نصف مليون طن في العام ، وعدد عماله يبلغ ١١٠٠ عامل .

٦ إنه الاستاد الأولمبي الكبير في مدينة سيول عاصمة كوريا الجنوبية ، وقد أقيم خصيصا لكي تقام فيه الألعاب الاولمبية لعام ١٩٨٨ . وتتسع مدرجات هذا الاستاد لمائة ألف متفرج . والملفت للنظر أن هذه المدرجات تتحرك الكترونيا ، ويتداخل بعضها ببعض لتختفي تماما ، وكأن شيئا لم يكن ، وذلك في غضون نصف ساعة .

٧ الرقصة الدائرية ترمز إلى وجود غذاء قريب ، والرقصة الأخرى ترمز إلى وجود غذاء بعيد .

إنه مصنع الآلات والمصانع ، يوجد في مدينة خباروفسك في الاتحاد السوفياتي ، المدينة الغنية بثرواتها المعدنية التي يصل إليها النفط بخطوط

٨ الأنابيب الممتدة من حقول النفط وآباره في جزيرة سخالين . لقد أسس هذا المصنع سنة ١٩٥١ ، وقفز عدد عماله من ١٥٠ عاملا ومهندسا في مطلع الخمسينيات إلى ١٥٠٠ في الوقت الحاضر .

٩ تمثل الصورة ككل ظاهرة الموصلات الكهربائية الفائقة التوصيل ، ويمثل الجسم المرتفع في الجو ظاهرة ميزنر في التنافر المغناطيسي للموصلات الفائقة التوصيل . والجدير بالذكر أن العلماء اكتشفوا في السنتين الأخيرتين بعض المواد التي تتميز بخاصية التوصيل الكهربائي المثالي دون الحاجة إلى تبريد يهبط بحرارة تلك المواد إلى ٢٧٣ درجة مئوية تحت الصفر . ويجمع الكثيرون على أن هذا الاكتشاف هو بمثابة ثورة صناعية ثانية .

١٠ الرجل الذي يظهر في الصورة هو الكاتب الروسي انطون تشيكوف (١٨٦٠ - ١٩٠٤) ، وقد تخصص في كتابة القصص عامة والمسرحيات بخاصة ونبغ فيها .

١١ قائل البيت هو أبو الحسن عبدالكريم الأنصاري . ومعنى البيت واضح ، فالمقصود مدح « البادهنج » ، أي مكيف الهواء الذي اخترعه العرب وأقبلوا على استعماله أيام العباسيين .

١٢ إنه مبنى سوق مركزي في الشارقة ، يسمى سوق المجرة ، ويعد هذا السوق السوق الثاني في مدينة الشارقة ، أما سوقها الأول فهو سوق الشارقة المركزي الذي بلغت تكاليف إنشائه ٢٢ مليون دولار .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٦١ ديسمبر ١٩٨٨

الجائزة الأولى : الحاج عبد الرزاق الحريشي/ فاس - المملكة المغربية

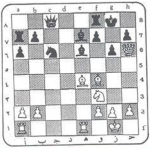
الجائزة الثانية : صونيا جوزيف اشجيان / المتن - الجمهورية اللبنانية

الجائزة الثالثة : محمد بن محمد صبرة / صنعاء - الجمهورية العربية اليمنية

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ - عبد الغني عبد الهادي / عمان - جبل الحسين - الأردن
٢ - سيف بن عامر الجهضمي / - المنطقة الوسطى ولاية المضيبي - سلطنة عمان
٣ - عزيزة المرسي السيد / سنبود / محافظة الغربية - جمهورية مصر العربية
٤ - اسامة سمير منصور / ص ٠ ب ٣٠٢ - الكويت
٥ - ناصر علي حسن الغانم / الدمام - المملكة العربية السعودية
٦ - السيدة فاطمة مصري حلب - الجمهورية العربية السورية
٧ - رسل حسين محسن / بغداد - الجمهورية العراقية
٨ - الحبيب محمود مامي / جربة - الجمهورية التونسية

معركة بلا سلاح



لم يكن يخطر ببال أحد أن يأتي ذلك اليوم الذي تصبح فيه الآلة موضع غيرة الإنسان وحسده ، لأن هذا هو ما حدث بالفعل في بطولة العالم الثامنة للشطرنج الآلي المنزلي المقامة في اسبانيا في مطلع شهر أكتوبر الماضي ، فقد لعبت هذه الآلات الصغيرة بمهارة فائقة ، جعلت الجماهير الغفيرة من المتفرجين المهتمين بهذا الضرب من الصراع الفكري بين عباقرة الشطرنج الآلي تراقب ما يجري مشدوهة وهي لا تصدق ما ترى أعينها من روائع التخطيط ودقة التنفيذ ، فقد حفلت هذه البطولة بالأدوار الجيدة المليئة بالمناورات البديعة والتخطيط العميق والنقلات « التكتيكية » الفائقة الدقة التي يعجز عنها حتى كبار اللاعبين من بني البشر . والواقع أن برامج الشطرنج الآلي الحديثة تستطيع أن تهزم جميع اللاعبين من بني الإنسان ، عدا الصفوة المتميزة منهم ، ولن تأفل شمس هذا القرن حتى ينضم هؤلاء إلى صفوف المهزومين .

وهذا التقدم الهائل في ميدان البرمجة الآلية بغض النظر عما يقدمه من متعة وتسلية يمثل فرعاً هاماً جداً من فروع علم الحاسوب الذي يعرف بالذكاء الصناعي ، والذي تتسع آفاقه يوماً بعد يوم ، وبخاصة في ميدان الشطرنج الآلي . وقد بدأ العنصر الإنساني يظهر بجلاء في برامج الشطرنج الحديثة ، فالبرنامج الذي فاز بأفضل الأدوار ، وهو البرنامج الأمريكي فيديليتي ، ليس هو الفائز في البطولة ، بل البرنامج الألماني الغربي مفيستو ، وهو أمر تتميز به كثير من المباريات الكبرى بين بني الإنسان .

وإليكم أحد الأدوار المثيرة من هذه البطولة :

□ فيديليتي ١	■ مفيستو ٢
١) هـ ٤	جـ ٦
٢) د ٤	د ٥
٣) هـ × د ٥	جـ × د ٥
٤) جـ ٤	ح - و ٦
٥) ح - جـ ٣	هـ ٦
٦) ح - و ٣	ف - هـ ٧
٧) جـ × د ٥	ح × د ٥
٨) ف - د ٣	ح - ب ٤
٩) ف - هـ ٤	ت (قصير)
١٠) ت (قصير)	ح ٨ - جـ ٦
١١) ر - هـ ١	و - د ٦
١٢) ح - ب ٥	و - د ٨
١٣) ف - و ٤	أ ٦
١٤) ح - جـ ٧	ر - أ ٧
١٥) د ٥	هـ × د ٥
١٦) ح × د ٥	ح × د ٥
١٧) و × د ٥	ف - هـ ٦
١٨) و - حـ ٥	ز ٦
١٩) و - حـ ٦	و - جـ ٨

وابتـداء من النقلة التاليـة يطلق الأبيض حـربـاً « تكتيكية » بعيدة المدى (أنظر الشكل) .

٢٠) ف – هـ ٣	ر – أ ٨
٢١) ف × جـ ٦	و × جـ ٦
٢٢) ف – د ٤	و ٦
٢٣) ر×هـ٦ !(رائعة)	و – د ٧

لو أخذ بالوزير لمات في نقلتين .

٢٤) ح – ز ٥ !	ف – ب ٤
٢٥) ف × و ٦	ر أ – هـ ٨
٢٦) ر × هـ ٨	ر × هـ ٨
٢٧) و – حـ ٤	أ ٥
٢٨) أ ٣	ف – د ٢
٢٩) ح – هـ ٤	و – د ٣
٣٠) ح × د ٢	و × د ٢
٣١) و – جـ ٤ +	م – و ٨
٣٢) ف – جـ ٣	و – د ٨
٣٣) ر – ب ١	ب ٦
٣٤) ب ٤	أ ٤
٣٥) ب ٥	و – د ٧
٣٦) و – و ٤ +	و – و ٧
٣٧) و – د ٤	حـ ٥
٣٨) ر – ب ٤	ر – جـ ٨

ويرفع الأسود بعدها الراية البيضاء .

□□□

مسألة العدد ٣٦٦



مات ٢

إهداء من القاريء أبـو عبيـدة أبـو الحسن (السـودان)

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج ـ العدد ٣٦١ ـ ديسمبر ١٩٨٨

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ أحمد عبد الرحمن ـ أسيوط / مصر .
٢ ـ كامل الهنداوي ـ حلب / سوريا .
٣ ـ عبـد الهادي البيـانـوني ـ المـدينـة / السعودية .
٤ ـ دينـا محمـد هـاشـم ـ العمـريـة / الكويت .
٥ ـ أحمـد عبيـد المصبـاحي ـ صنعـاء / اليمن .

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ حمـد بن سالم حـارب ـ الـظاهـرة / سلطنة عمان .
٢ ـ عبد الله محسن باعلوي ـ أبو ظبي / الامارات العربية المتحدة .
٣ ـ نوفل صالح بارباع ـ المكلا / جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .
٤ ـ محمد بوعين ـ صفاقس / تونس .
٥ ـ محمد شهاب عياد ـ دمياط / مصر .

حل مسألة العدد ٣٦٢ ـ يناير ١٩٨٩

١) ر – حـ ٣   ب – ب ٣ مضطراً   ٢) ر – حـ ١   ب × ر مضطراً   ٣) و × حـ ١ (مات)

حوار القراء

العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

محو الأمية في الوطن العربي

● تعد قضية تنمية الثقافة العربية من القضايا المهمة المطروحة على الساحة بين الأوساط الثقافية ، وهي مسئولية مشتركة بين وزارات الثقافة والإعلام ودور النشر في وطننا العربي ، وإن تفاوتت المسئوليات ، واختلفت الأدوار ، بحيث يؤدي كل دوره بما يتناسب مع إمكانياته .

وبقدر ما تتكامل الأدوار التي تقدمها المجلات الثقافية في وطننا العربي ، ومنها مجلتنا الغراء (العربي) ، نضمن نموا حقيقيا من الوعي الثقافي لشباب أمتنا العربية ، وفهم الماضي والحاضر ثقافيا ، والتطلع للمستقبل ، والتنبؤ به لوضع رؤية ثقافية .

فالتنبؤ الدقيق بمستقبلنا الثقافي أمر صعب ، بالغ الأهمية ، مما يتطلب تنمية عقلية وذهنية لها القدرة على مواجهة المستقبل .

إن أهم معضلة تواجهنا انتشار الأمية بين أبناء الوطن العربي ، مما يوجب وضع برنامج متكامل ، وزمني ، لمحو الأمية ، تتبناه الجامعة العربية عبر مؤسساتها التربوية ، وأن توضع ضوابط لتشجيع محو الأمية ، علينا جميعا أن نتحرك كعرب ، وكل من موقعه ، لتطوير ثقافتنا العربية . وأنتم في « العربي » تساهمون بقدر كبير في خلق جو ثقافي وعلمي أتمنى أن يحذو البقية حذوكم .

القارىء : يحيى السيد النجار
دمياط - جمهورية مصر العربية

□■□

الفلسفة والطفل في الوطن العربي

● طالعت في العدد ٣٥٨ (سبتمبر) ١٩٨٨ مقالا عن « الفلسفة والطفل » ، للكاتب زياد القباني ، والمقال على درجة كبيرة من الأهمية . وأود أن أبدي وجهة نظر في موضوع تدريس الفلسفة للطفل العربي ، فتعليم أطفالنا مبادىء الفلسفة ليس شيئا عاديا ، وليس ظاهرة طبيعية ، نحن نعلم أن الفلسفة تبدأ من السؤال ، فماذا لو قلنا : ما الدافع الذي يجعلنا ندرس الفلسفة لأطفالنا الصغار ؟ وماذا سيكون مركزهم وتأثيرهم على مستقبل الوطن العربي ؟ كل هذا يطرح علينا سؤالا مهما : هل في مثل هذه الدراسات فائدة مرجوة تعود على أطفالنا ، أم أننا فقط نعلمهم الحكمة والعلم

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي" بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

الحديث ، وكل ما يرتبط به من قيم ومبادىء ، والعلاقة التي تربط العلم الحديث بالفلسفة القديمة أو الحديثة ؟ وهكذا كلما انتهينا من الإجابة عن سؤال ، يطرح علينا سؤال أصعب وأعم . إني أدعو القراء الأعزاء كي يكون هناك حوار حول هذا الموضوع الذي أعتقد أنه مهم جدا لبنية المجتمع العربي في القريب العاجل . أتمنى أن أقرأ في المجلة أكثر عن هذا الموضوع .

حسن ابراهيم الدسوقي
محافظة المنيا / جمهورية مصر العربية

□■□

العربي واللغة العربية

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير :

● بحكم حبي للغة العربية ودارسيها فإني أكتب إليكم في المجلة كوني أحس بالفقر الكبير في ميدان اللغة العربية ، ولا أجد مساعدا لي غير « العربي » ، إني أعدكم قاموس العرب ، ولذا ألجأ إليكم وكلي ثقة وإيمان بأنني طرقت الباب الصحيح .

علاقتي مع العرب محدودة ، تنحصر في محيط الجامعة ، لذا فإنني أتقدم إليكم بطلب زيادة كمية المادة التي تهتم بجمال اللغة العربية وطرق المحادثة فيها .

القارئة : عيفة فوزي
جسر قسنطينة - الجزائر

□■□

أقدام الزنبقة

● اشتهر أهل الصين باعتقادهم أن صغر الأقدام شرط من شروط الجمال ، وبحرصهم على أن تظل أقدام بناتهم صغيرة على الرغم من نمو البنات . ترى كيف تمكنوا من الإبقاء على أقدامهم صغيرة ؟

القارىء : خليل مرهج
دير الزور - سوريا

حوار القراء

العربي

- نعم لقد اشتهر أهل الصين بحبهم الأقدام الصغيرة ، أو أقدام الزنبقة كما سموها ، وقد تمكنوا من وقف نمو أقدام البنات عند حد لا يتجاوزه ، وذلك بواسطة قوالب صلبة ، تلبسها البنات في أقدامهن سنوات طويلة ، بيد أن هذا التقليد الذي ظهر في الصين في القرن التاسع الميلادي قد أبطله أهل الصين في أواسط القرن العشرين ، فاختفت أقدام الزنبقة ، وحلت محلها الأقدام الطبيعية .

ولو عدت إلى العدد ٣٥٩ من العربي ، الاستطلاع المنشور عن الصين ، فستجد النص التالي في حوار مع أم عجوز ذات قدمين صغيرتين : « لقد كانوا إلى عهد قريب يضعون أقدامنا ونحن أطفال داخل أحذية حديدية ، حتى تظل صغيرة جدا . لقد كانوا يدعون أن ذلك أحد مظاهر الجمال ، ولكن الحقيقة أنهم كانوا يقصدون أن تعجز المرأة عن السير الطبيعي على قدمين قادرتين على حمل جسدها حتى في الطرقات ، وتظل حبيسة جدران الدار ، تعمل وتشقى كخادمة في خدمة السادة طوال الليل والنهار » .

□■□

آثار ميخائيل نعيمة في تونس

● لقد شد انتباهي موضوع يتعلق بفقيد أدب المهجر ميخائيل نعيمة في العدد ٣٥٨ سبتمبر ١٩٨٨ ، فهو لم يكن أديبا فحسب ، وإنما فيلسوفا ومفكرا وأديبا ، له طابعه المميز ، وفكره الخاص ، متحررا من كل القيود ، صادقا في تعبيره ، فصيحا وبليغا في أدائه ، فصور الواقع العربي من ناحية الأدب الجاف ، وحدد منهج المؤلف في النقد من خلال « الغربال » الذي باركه المجددون أصحاب مدرسة الديوان .

ولميخائيل نعيمة خطوة في تونس أيضا ، حيث تدرس أعماله في برامج التعليم العام فيها ، وتملأ أعماله المكتبات . شكرا لكم في المجلة على طرح مثل هذه الدراسات . وأتمنى أن تزداد ، لكي يعطى كل أديب الدرجة والمرتبة التي يستحقها .



القارىء : بشير جلول الحمروني
نهج ابن سينا / الجمهورية التونسية

الوحدة العربية



الاستاذ الدكتور رئيس التحرير :

● اطلعت على مقالة الدكتور « محمد جابر الأنصاري » (الوحدة الطبيعية) في العدد (٣٥٧) شهر أغسطس ١٩٨٨ ، وقد جاء في جزء منه أن غياب الوحدة الجغرافية كان عاملا أساسيا في فصم عرى «الوحدة المصرية السورية ١٩٥٨ » ، وإنني أختلف مع الكاتب ، حيث في رأيي أن وجود الانفصال الجغرافي بين سوريا ومصر ما كان عاملا أساسيا في كارثة الانفصال ، ولو أخذنا بالاعتبار التفسير الذي أورده الدكتور الأنصاري فما تفسيرنا لاستمراريتها من عام ١٩٥٨ إلى ١٩٦١ ؟ ومن جهة أخرى فلقد شهدت الساحة العربية في الوقت نفسه اتحادات لقيت المصير نفسه ولم تستمر على الرغم من توافر عامل الوحدة الجغرافية .

القارىء : طارق اللوتس
حمص - سوريا

□■□

اقتراحات وردود

* **القارىء : يوسف أحسنة** ، من حماة ، سوريا ، بعث يقول :
« لقد قرأت في « العربي » العديد من الأقوال المتفرقة للكاتب « اوسكار وايلد » ، وقد أعجبني حتى أنني أحببت الكاتب دون أن أعرف عن أدبه أي شيء ، فحبذا لو كتبتم مقالا يتضمن الحديث عنه وأدبه » .

* **القارىء : ممدوح مغايري** ، من مركز التدريب المهني بسوريا ، يقول في رسالة للمجلة : إنه بالامس فرحنا بنبأ نعتز به جميعا ، وهو فوز الأديب العربي « نجيب محفوظ » بجائزة نوبل للآداب ، وهي جائزة نفخر بها نحن العرب جميعا .

* **القارىء : الطالبي يوسف** ، من مكناس ، المملكة المغربية ، يقترح ادخال بعض التعديلات على باب « وجها لوجه » ، وإعطاء القارىء فرصة كتابة الكلمات المتقاطعة ، وأن تقدم المجلة هدية العدد الممتاز صورا لمشاهير العالم .

* **القارىء : مصطفى محمد** ، من طرابلس بلبنان ، يثني على المجلة ، ويطلب زيادة الكمية المرسلة إلى لبنان ، لأنه يواجه صعوبة في الحصول على بعض الأعداد لو تأخر في الذهاب إلى الموزع .

* **القارىء : حاتم محمد سراج الدين حسن** ، من كفر الشيخ بجمهورية مصر العربية ، بعث رسالة يقول فيها : إنه يشكر كل من يسهم في إخراج

حوار القراء

المجلة في الصورة التي هي عليها ، كاحدى أهم المطبوعات التي تساهم في نشر الثقافة والمعرفة بين أبناء الوطن العربي على اختلاف مستوياتهم العلمية ، ويقترح تخصيص بعض الصفحات لتعليم الحاسوب « الكمبيوتر » ، وكيفية البرمجة والالكترونيات ، وان مجلة العربي شاملة وليس هناك مانع من أن توجد مثل هذه الصفحات .

* **القارىء : سعيد جاسم السراحي** ، من سامراء بالجمهورية العراقية ، يرجو أن تقوم المجلة بعمل استطلاع عن مدينة سامراء ، إحدى أهم مدن الجمهورية العراقية ، وذلك لما جرى فيها من تطور عمراني وصناعي .

* **القارىء : محمد مصطفى أحمد** ، من محافظة البحر الأحمر ، رأس غارب ، بجمهورية مصر العربية ، يتساءل عن اختفاء بعض الأبواب ، مثل (حكايات من شرق وغرب) ، وباب (حضارات سادت ثم بادت) ، كما يقترح إضافة بعض الأبواب .

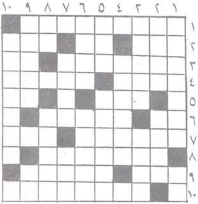
* **القارىء : عليوي العربي/** الرشيدية/المملكة المغربية ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن إقليم الرشيدية في الجنوب الشرقي من المملكة المغربية .

* **القارىء : هشام محمود شوشة** بعث برسالة يقول فيها : إن مجلة العربي فخر لكل قارىء للعربية ، وننتظر أعدادها بشوق ولهفة مطلع كل شهر ، فعلى صفحاتها تتجلى أجمل صور المعرفة والثقافة ، ويأمل أن تتوجه العربي إلى القيام باستطلاعات عن الجزر ، لما فيها من غرائب وعجائب تستوقفنا للتأمل والتدبر ، ومثال هذه الجزر « جزر مالديف ، ونيكون باز ، وجزر اندمان » وجميع هذه الجزر فى آسيا ، كما يقترح أن تجمع مقالات الدكتور محمد الرميحي في « حديث الشهر » وتنشر في كتاب العربي ، فهى جديرة بأن تحفظ وتجمع .



* **القارىء : شعيب عز الدين** ، من حي الشيخ طاهر بالجزائر ، يقترح أن تقوم المجلة بعمل استفتاء فيما يخص أبواب المجلة ، كالذي قامت به المجلة في العدد (١٧١) فبراير ١٩٧٣ . □

الكلمات المتقاطعة



يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

كلمات أفقية :

١ ـ نهر عظيم يخترق أكثر من عشر ولايات أمريكية ويصب في خليج المكسيك .

٢ ـ طريّ ، من أسماء الرسول الأعظم ، نَظَر .

٣ ـ نهر يخترق جنوب أوربا ويصب في البحر الأسود ، مخترع الهاتف .

٤ ـ اتجاهات ، عاصمة عربية غير مرتّبة .

٥ ـ شاء أو أراد ، تجدها في عاد .

٦ ـ أكمل ، نهر عربي عظيم .

٧ ـ يمرنهن مبعثرة ، عكس حقيقة .

٨ ـ قارب طويل ضيق يستخدم في قنوات مدينة البندقية .

٩ ـ خَرَقَ وَشَقّ ، منسوب إلى إحدى الجهات الأربع .

١٠ ـ نهر أفريقي يصب في المحيط الهندي .

كلمات عمودية :

١ ـ نهر يجري في أمريكا الشمالية ويصب في المحيط الأطلسي ، تجدها في نهر .

٢ ـ يظهر ليلاً ، نهر ينبع في تركيا ويجري في بلدين عربيين شقيقين .

٣ ـ ممثل ، هلاك مبعثرة .

٤ ـ نهر يجري في شمال الهند يتمتع بالقدسية لدى الهندوس .

٥ ـ يصدر طنيناً ، الجزء المكتمل من الأعمال .

٦ ـ أراض مستوية بعيدة ، يظهرن الندم مبعثرة .

٧ ـ نهر محفوف بأشجار الحور يخترق مدينة دمشق ، تجدها في وجوب .

٨ ـ عكسها بحر ، شبيه باللولب .

٩ ـ نبع ، زي معكوسة .

١٠ ـ نهر يخترق مدينة لندن .

● حل مسابقة العدد الماضي ـ فبراير ١٩٨٩ م

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	ن.	ص	ر	ب	ن	ع	ا	ص	م	■
٢	ق	ه	ر	■	ب	■	ب	■	س	ا
٣	ي	ي	■	ي	د	ا	و	ر	■	م
٤	ق	ل	م	ت	أ	ظ	ف	ا	ر	ه
٥	ا	■	س	م	■	ه	ل	■	م	ق
٦	ل	ح	د	■	د	ر	ا	ه	م	■
٧	ض	ن	■	ا	ل	ت	س	ا	و	ي
٨	ف	ا	ء	د	ه	■	و	ج	ا	ر
٩	د	ج	ن	■	م	ق	د	س	■	و
١٠	ع	ر	و	ض	■	س	■	ه	ر	ج

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

مارس ١٩٨٩م

العرب واليونسكو

تأليف

د. حسن نافعة

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٣٥

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام - الكويت

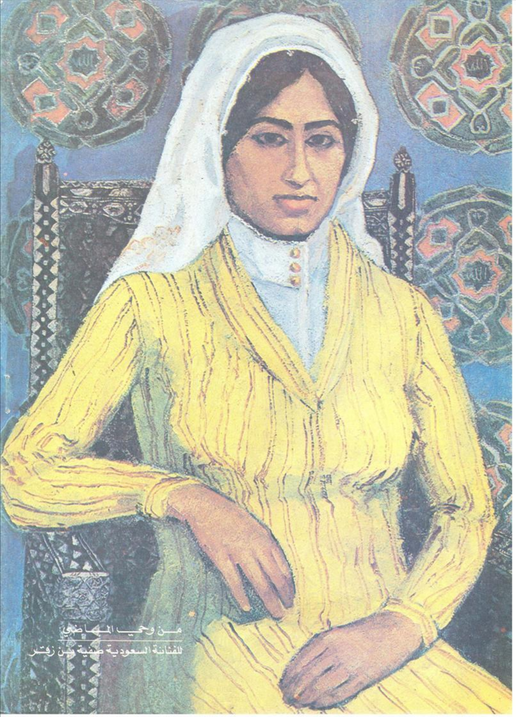
العدد ٢٣٤ أول مارس ١٩٨٩

فاوست - ٣

تأليف: جيته

ترجمة وتقديم: د. عبدالرحمن بدوي

الجزء الثالث
النص المسرحي - ٢



من وحي الماضي

للفنانة السعودية صفية بن زقر

شعبان ١٤٠٩ هـ - ابريل (نيسان) ١٩٨٩

العربي



النفط الكويتي في بيوت الأوروبيين

رمضان وحديث الأيام

ملف: شركات توظيف الأموال







ساعة تريدور داي ـ ديت من الذهب الابيض والاحمر والاصفر مرصّعة بالماس.

منذ حضارة بلاد ما بين النهرين، كانت رياضة الصقور، ولا تزال حتى يومنا هذا، رياضة النبلاء.

الصّقر طائر قويّ، أنيق وسريع الحركة، يُروّض ويُعلّم خصّيصًا فنّ الصّيد. هذا الترويض والتعليم يتمّ على يدي أخصائيين لمدّة طويلة تدوم أكثر من ثلاثين يومًا. العناية عينها هي التي بها تصنع كل ساعة رولكس.

حتى اليوم لا تزال رولكس تصنع من قطعة معدن واحدة وتُنحت يدويًا، سواء من الذهب الخالص أو الفولاذ أو الاثنين معًا.

كل ساعة تمرّ إفراديًا بمجموعة تجارب قاسية قبل أن تعطى شهادة الكرونومتر السويسرية الرسميّة.

جمال رولكس غنيّ عن التعريف وقيمتها تدوم وتدوم لسنوات وسنوات طويلة جدًا.

مجموعة ساعات رولكس رائعة ومتكاملة لترضي أصحاب الذوق الرفيع.

رولكس والصّقر رمز الدقة والأناقة.

ROLEX

رولكس

العــــدد ٣٦٥ الســنة الثانيـة والثلاثـون ابـريـل ١٩٨٩

العربي

مجــــلة ثقــــافيــة مصــــورة
تصــدر شهــريًا عـــن وزارة الإعــــلام بـدولــة الكـويـت
للوطـن العــربي ولكل قــارئ للعــربيــة فــي العــالــم

رئــيس التحــريـر
د. محمـــد الرميحـي

AL - ARABI
Issue No. 365 Apr. 1989 - P.O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

عنــوان المجــلة
العــــربي
ص.ب: ٧٤٨ ـ الصفــاة
الرمـز البريـدي 13008 الكـويـت
تلفـون : ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيًا : "العـربي" ـ الكويـت
تلفون فاكسملى: ٢٤٢٤٣٧٥ ـ تلكس: MITR. 44041 KT
المراسـلات باسـم رئـيس التحـريـر

الاشتراكات ترسل الطلبات إلى: قسـم الاشتراكات ـ الإعلام الخارجي
وزارة الإعـلام ـ ص.ب: ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالـة
مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

ثمن النسخة

الكويت	٣٠٠ فلس	تونس	٥٠٠ مليم	سوريا	١٥ ليرة
العراق	٤٠٠ فلس	الجزائر	٥ دنانير	الامارات	٧ دراهم
الأردن	٢٥٠ فلسًا	السعودية	٦ ريالات	المغرب	٥ دراهم
البحرين	٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي	٤ ريالات	ليبيا	٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي	٣٠٠ فلس	قطر	٧ ريالات	أوروبا: جنيه استرليني ونصف	
مصر	٣٥ قرشًا	سلطنة عُمان	٤٠٠ بيسة	فرنسا	٢٥ فرنكًا
السودان	٢٥ قرشًا	لبنان	٥٠ ليرة	أمريكا	٣ دولارات

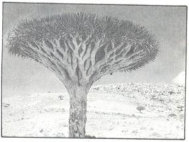
محتويات العدد

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

استطلاعات مصورة :

سياسة واقتصاد :

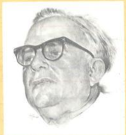


طب وعلوم :

أدب وفنون :



● بلغاريا : عيد للورود وشواطىء مفتوحة للشمس والناس ص ١٣٢



وجها لوجه :
يحيى حقي وسليمان مظهر ص ٩٧

المجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر والوزارة غير مسؤولة عما ينشر فيها من آراء.

منتدى العربي :

تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :



صورة الغلاف

استطلاع العدد عن قصة نجاح اقتحام سوق النفط في التكرير والتوزيع .. ساهم فيها التخطيط والعقل والارادة بفكر عقول وطنية خبرة ، وتنفيذ رجال مازالوا خلف الأضواء .

[طالع الاستطلاع ص ٦٨]

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع

زهور أكثر إشراقا

ربيع هذا العام زهوره أكثر إشراقا ، وإيقاع أيامه له نكهة خاصة ، تكسبه اختلافا عما مر بنا من سنوات سابقة ، فقد ظهرت أشكال وصيغ من التقارب العربي ، تنبيء عن ارتفاع وعينا بأهمية التجمع والتكتل لمواجهة تحديات عصرنا الراهن . ويتزامن إطلال الربيع مع شهر رمضان المبارك ، هذا الشهر الكريم الذى يلتزم فيه المؤمنون بمجاهدة النفس ، وكبح الغرائز ، والسمو بالقيم ، وتجنب الصغائر .

ولذا فإن في هذا روح رمضانية لا تخفى . وفى العدد نقدم للقارىء ملفا حول موضوع كثر الجدال حوله ، موضوع دخل منه البعض تحت أسماء كثيرة الى عالم الاقتصاد والمال ، فأضروا بالناس وأضروا بأنفسهم ، فما هى ياترى هذه القضية التى شغلت جزءا من الوطن العربي عمليا ، وشغلت الآخرين من منطلقها النظري ؟

وتنطلق « العربي » الى الشمال الاوربي لترصد تجربة فريدة ومبادرة فى تسويق النفط - ليس بيعه خاما - وإنما تكريره وبيعه للمستهلك مباشرة ، وهذه التجربة - بجانب منحاها الاقتصادى - تحمل معنى خاصا ، وهو قدرتنا نحن العرب على خوض تحد ظل حكرا على الغرب المتقدم ، وهى قدرة عربية تستند الى قاعدة من الدقة والأداء والعلم والتدريب والبحث .

وهذا العام يشكل الذكرى الخمسين لاكتشاف العلم للانشطار النووى الذى سعد العالم ببعضه وشقى ببعضه الآخر . « والعربي » تحاول أن تلقى الضوء فى هذه الذكرى على التحدى الذى يواجهنا وموقفنا منه .

هذه بعض القضايا التى حواها هذا العدد من « العربي » وهى غيض من فيض كما ترى ، فهناك الطب والقصة والشعر والاستطلاع والمناقشة ، ونعتقد أن هذا العدد - كما هى أعدادنا دائما - زاد ثقافي طيب بعد صوم يوم مقبول إن شاء الله .

« المحرر »

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

التجمعات العربية

تحديات التحول من الوجود بالشكل إلى الوجود بالفعل

« وكانَ الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جَدَلاً » صدق الله العظيم
(الكهف - ٥٤) .

لقد جادلنا طويلاً وسوف نجادل في أمور كثيرة من بينها الوحدة العربية ، فما أن وقعت اتفاقيات اتحاد المغرب العربي بين الدول العربية الخمس في الشمال العربي الأفريقي في ١٧ فبراير الماضي ، وكذلك مجلس التعاون العربي بين الدول الأربع المشرقية في ١٦ فبراير الماضي ، حتى ثار جدل كبير في الصحافة العربية ، حول الموضوع الأقرب الى القلب : الوحدة العربية .

انقسم محدثو هذا النقاش الى متفائلين بشدة ، ومتشائمين بشدة أيضا ، وواقفين على درجات بين هؤلاء وأولئك ، ولحقت هاتان الخطوتان خطوة سبقتهما في التاريخ في بداية هذا العقد ، وهي قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربية في مايو/ أيار سنة ١٩٨١ .

القبول العقلاني بالواقع ومحاولة تطويره

ولا سبيل هنا الى إضافة بعض التأييد أو التحسب الى هذه الخطوات العربية ، فذلك قد حدث بالفعل ، وما يمكن أن يناقش في رأيي هنا هو بعض التوجهات العامة لهذه الخطوات التكاملية إن صح التعبير .

بادىء ذي بدء ، لا يستطيع أحد ، وهو ينظر الى هذه التجمعات الثلاثة بشكل عقلاني وواقعي ، إلا أن يباركها ، فالتقارب العربي - وإن لم يؤد الى وحدة كما كان يرغب كثيرون في عقود النهوض العربي منذ بضع سنين خلت - إلا أنها على الأقل تشكل تحولاً من حيث النوع ، من الوهدة التي أصابت الأمة العربية في سنواتها السياسية العجاف ، وهي الخمس عشرة سنة الماضية .

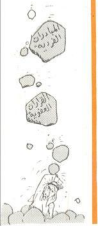
قبل سنوات قليلة لم يكن أشد المتفائلين يتصور أن يحدث تقارب - بهذه السرعة - لتكوين تجمعات عربية تشدد على ما يجمعها أكثر مما يفرقها ، وتختط خططا وبرامج تقرب يوم اندماجها المرجو .

في السنتين الأخيرتين فقط شاهدنا هذا القبول العقلاني بالواقع ، ومحاولة تطويره الى الأفضل .

مباركة التقارب العربي في أشكاله المختلفة تجعلنا أمام مسئولية كبيرة ، وهي محاولة المساهمة في تطوير هذه العلاقات العربية / العربية ، ويمكن أن نفعل ذلك من خلال مناقشة خمسة محاور رئيسية :

المحور الأول : الحيرة حول ظاهرة الوحدة

إن الغموض في مفهوم التوحد أو التكامل أو التعاون ، قد سبب - وما يزال - الكثير من المعوقات في بناء هذا التعاون أو التكامل ، فالبعض يعتقد أنه (وحدة) ، وأي نقص في الأداء لما يتصوره يسحبه من رصيد موقفه المؤيد للوحدة ، وبالتالي يخرج بموقف سلبي ، والبعض الآخر يعتبره مجرد (تعاون) ونصوصاً على الورق ، وبالتالي - خاصة إذا كان في مكان يستطيع به أن يؤثر على مسيرة هذا التعاون - فإنه لا يبذل الجهد ولا الفعل ولا الابتكار لتطوير ما هو موجود .



خلاصة القول في هذا المقام أن تحقيق برنامج التقارب كما يراه كثيرون ، في البرامج الثلاثة المطروحة - مجلس التعاون في الخليج العربي ، أو مجلس التعاون العربي ، أو اتحاد المغرب العربي - تبعد عن واقع الظاهرة لتعالج رغبات ذاتية ، سلبية أو إيجابية .

فـــرق بـــين العـــالـــم «كـما يجب أن يـكـون» وبـيـنـه «كـما يمكن أن يـكـون»

فكرة الوحدة العربية الشاملة أو الجزئية التي طرحت في أكثر من مقام ، ومن أكثر من دولة بعد الحرب العالمية الثانية ، كانت وقتئذ واضحة المعالم ، حيث لعبت دوراً تحريضياً في المشرق العربي أو المغرب العربي ضد الاستعمار الأجنبي ، وطرحت كنقيض له ، أما فكرة تعاون مجموعة دول عربية بعضها مع بعض بعد الاستقلال فلم تقبل كظاهرة ، بل هوجمت أكثر من مرة ، وكان مهاجمو الظاهرة ينطلقون من تصور مثالي لفكرة الوحدة العربية ، فالوحدة الكاملة أو الرفض ، وكان هذا الموقف ناتجاً عن تصور مثالي ليس له علاقة بالواقع .

في العقدين الأخيرين فقط دار الحديث النظري عن إمكانية إيجاد تجمعات عربية تعاونية ، وكانت محاوره في الخليج والجزيرة ، ووادى النيل ، والشام التاريخية ، والشمال العربي الأفريقي ، كما تصوره أكثر من مفكر وكاتب .

طرحت هذه الأفكار في تجمعات المثقفين ، وفي بعض الدراسات الخاصة التي تناولت شؤون الوحدة وشجونها ، ولكن حتى هذه الأفكار كان ينظر إليها بحذر ، وسبب ذلك الحذر كما قلت ما خلفته فكرة الوحدة العربية المثالية من الخليج الى المحيط ، النظرة التي كانت ترى العالم (كما يجب أن يكون) لا كما يتحول و (كما يمكن أن يكون) .

التعامل مع الواقع من أجل تطويره ، وحساب الزمن ، والمعطيات الاقتصادية والاجتماعية ، لا يمكن القفز عليها ، وكما أن الفرد لا يستطيع القفز فوق زمانه ، فكذلك الفكرة أو النموذج لا يمكن تجاوز الزمان الذي تعمل فيه .

لهذه الأسباب اتسمت ظاهرة الوحدة أو التعاون أو التكامل بغموض معرفي ، اختلط فيه « وهم السيادة على الواقع » ، مع « حقيقة السيادة عليه » ، فظل الإنسان العربي حائراً على أقل تقدير .

المحور الثاني : الموقف السلبي للجماهير العربية

زادت حيرة الإنسان العربي ، بعد أن شهد في عقود طويلة من الزمن - في تاريخه الحديث - سلسلة التجارب الفاشلة لمحاولة التجمع والتآلف بين دول عربية ، كان طابعها الأعم مبادرات فردية ، وقرارات عفوية ، ويكاد الإنسان أن يخلط بين قيام بعض هذه التجارب والمحاولات وبين فشلها ، من كثرة ما

لماذا سيطرت المرارة من الوحدة على الجماهير العربية ؟

أعلنت وقامت لفترة ثم تلاشت بمثل سهولة إعلانها ، وكان الهدف هو الوحدة العربية ، ولكن الهدف الذي يتحقق بالفعل بعد عمرها القصير هو المرارة التي تبقى لدى الفئات العريضة من الناس ، وتترك إحساساً نفسياً غامراً بأن الجمهور - النخبة منه والعامة - قد فقد سيطرته على الأحداث . بعض هذه التجارب والمحاولات أسست على قواعد ومبررات إيجابية ، وبعضها اعتمد على الصدفة والظرفية ، وعندما زال ذلك الظرف تلاشت تلك التجارب في الهواء دون حتى ناع ينعيها .

من هنا جاء الموقف اللامبالي الذي قابل به الجمهور العربي العريض - ومايزال يقابل به - اعلانات التعاون والتكامل والتوحد .

المحور الثالث : قيام المؤسسات المشتركة للتكامل والتعاون

هذا الموقف السلبي - الموصوف آنفاً - يحتاج تغييره الى محاولة جادة لتعبئة الطاقات باتجاه دعم المشاريع الجديدة ، ولا شك أن الجماهير العربية قد لمست جدية معقولة في المشاريع الثلاثة المطروحة ، ففي الخليج كانت هناك تعبئة وعمل جاد لإيصال منافع التعاون النفسية والمادية الى الجمهور الواسع ، وكذلك استقبل الجمهور العربي في بلاد التعاون الرباعي (مجلس التعاون العربي) ، وكذلك في دول اتحاد المغرب العربي الخمس . عزم الدول على



التجمعات الحالية والمستقبلية لاتستطيع أن تقفز على مشكلات الأمة

إيجاد تجربة جديدة وفاعلة ، جعل الجماهير تستقبل هذا العزم بالترحاب ، لما بدا من أن هناك جدية في التطبيق ، مع قبول ضمني أن ما سيحدث لا يعني (الانصهار المطلق) ، بل إقامة مؤسسات مشتركة للتكامل والتعاون .

وحتى في هذا الإطار فإن البعض سوف يحاول أن يثير تساؤلاً معقولاً ومقبولاً هو : ماذا عن الأقطار العربية التي لم يشملها بعد أحد التجمعات الثلاثة ؟ هنا ليس بالضرورة إعادة الدروس السابقة في الضدية وردود الفعل ، بل التفهم من جميع الأطراف هو المطلوب . فإن ما ينجح من تعاون في المستقبل يمكن أن يعم خيره ، وليس بالضرورة أيضاً أن في نجاحه حرمان الآخرين ، ولكن السؤال سوف يبقى شرعياً ومطروحاً حتى يقوى عود الجامعة العربية ومؤسساتها ، وتجد لها - كمجموعة - علاقة محورية بهذه التجمعات الحالية أو المستقبلية .

واقع الحال يقول لنا : إن هذه التجمعات لا تستطيع أن تقفز على مشكلات الأمة ، وها هو مجلس التعاون - أقدم هذه التجمعات تاريخياً - ما انفك منشغلا بشؤون عربية في لبنان وفلسطين وأماكن أخرى .

المحور الرابع : "عقلنة" التفكير والسلوك

لابد أيضاً من مناقشة العلاقة بين (المرحلية) التي تبدو في الوثائق الأساسية لهذه التجمعات ، (والتطور والإضافة والبناء) على ماهو موجود ، أي : هل ستبقى هذه التجمعات الإقليمية العربية (متواضعة) في الهياكل والمؤسسات والأهداف ، تحقيقاً لمقولة ناتجة من دروس وتجارب الماضي القائلة : إنه كلما كان المشروع التعاوني متواضعاً كانت نسبته من النجاح أعلى ؟ وهل ستظل معادلة تحقيق النجاح لأهداف متواضعة يغطي على إمكانية تحقيق أهداف أفضل وأكثر ؟ سيظل هذا التساؤل مطروحاً .

من الصعب الإجابة عن هذا التساؤل في الزمن الحاضر ، ولكن طرح الأسئلة يجعلنا ننتبه الى أهمية الحديث عن التحول من الوجود (بالشكل) الى الوجود (بالفعل) ، فالوجود بالفعل يعني تحقيق منافع ومصالح للناس يشعرون بها ، وهذه المصالح لن تتحقق مثلاً والجميع متمسكون بسيادة قطرية كاملة . أحد أهم عوامل النجاح - حتى للأهداف المتواضعة - هو التنازل الجزئي عن بعض أشكال السيادة القطرية لصالح السيادة الأوسع ، وذلك يعني خطوات كثيرة ، وقد تكون معقدة ، ولكن التفكير فيها شرعي ومطلوب أيضاً .



وضمن المرحلية والتطور ، تدخل مجموعة أخرى من العوامل ، منها عقلنة التفكير والسلوك . ولعل بعض أشكال العقلنة في التفكير والسلوك ما تتجه إليه بعض الدول العربية في المشرق والمغرب - اليوم - اقتصادياً وسياسياً ، ففي الأول هناك توجه لجعل قوى السوق هي الفاعلة ، أي تحرير العمل الاقتصادي باتجاه تقليص تدخل الدولة في الاقتصاد ، وسياسياً هناك توجه للتعددية السياسية ، وفي كلا الجانبين فإن ما نحتاج إليه تصور مبتكر ، يؤيده ويدفع إليه رأي عام مستنير .

المحور الخامس : الأطروحات المتباينة في النظرية الوحدوية

أما المحور الخامس والأخير فهو تجاوز العمل الواقعي في التعاون لبعض الأطروحات النظرية التي سادت الفكر العربي في الأربعين سنة الماضية ، وأحسب أن بعضها قد قدم إلينا من تجارب شعوب أخرى غربية في الأساس .

احدى هذه الأطروحات في النظرية الوحدوية تقول : إن كل (وحدة) أو توجه لها لابد أن يكون له (قطر قاعدة) ، أي قطر كبير له مواصفات

معينة ، يكون القاعدة لدفع هذا التوجه . والأطروحة الأخرى التي استقرت لدى فئات كثيرة من النخبة العربية ، أن الوحدة ، أو التوجه لها ، لابد لها من زعيم قائد ، له هالة القيادة ، وشخصية « كارزمية » ، توصف شخصيته بنعوت كثيرة فيها الفخامة . هاتان الأطروحتان لم تعودا شروطاً مسبقة ، بل يعتقد البعض في ضوء العقلانية الجديدة أن الزمن قد تجاوزهما .

تلك هي المحاور الخمسة التي يجب - في نظري - أن نضعها على جدول الأعمال لمناقشة الظاهرة الصحية الجديدة في التجمعات الإقليمية العربية .

المعادلة الصعبة

مهما تحدثنا عن التجمعات العربية الإقليمية الجديدة التي ظهرت في هذا العقد - وهي ثلاثة - لا تخرج مهماتها عن حل قضيتين رئيسيتين ، أولاهما مواجهة معضلة النمو الاقتصادي والاجتماعي ، وأخراهما معضلة كسر التبعية ، وأحسب أن كل الوطن العربي مواجه بهاتين المعضلتين ، وما يتفرع منهما من قضايا .

أمام هذه المعادلة تتفرع قضايا الأمة العربية الى درجة البقاء أو الفناء بالمعنى العام للعبارة .

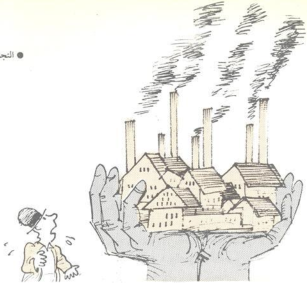
وقد ظهر الاهتمام بهذه القضايا في معظم وثائق التجمعات العربية ، ومن أقدم هذه الوثائق البيان الختامي الأول لاجتماع قمة دول (مجلس التعاون لدول الخليج العربية) الذي عقد في أبوظبي بدولة الإمارات العربية المتحدة ، في ٢٦ مايو ١٩٨١ .

لقد أعلن المجتمعون أن مطلب الاستقرار والأمن في الخليج الذي يسعى مجلس التعاون لتبنيه ليس مطلوباً لذاته ، وإنما لتمكين هذه الدول من (العمل التنموي) ، كما أن « ضمان الاستقرار في الخليج مرتبط بتحقيق السلام في الشرق الأوسط . . . وبتأمين الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . . . » .

وفي متن النص الكامل لاتفاقية تأسيس مجلس التعاون العربي الذي صدر في بغداد ، في السادس عشر من فبراير الماضي ، مانصه : « خلق تجمعات اقتصادية توفر للدول المنتمية لها ظروفاً أفضل لحماية مصالحها وتحقيق التنمية والتقدم الاقتصادي . . . » .

تحقيق التنمية إذن أحد الهواجس الرئيسية التي تقابلنا نحن العرب ، في ضوء التكتلات الإقليمية العالمية . وما تراجع المداخيل في المواد الخام المصدرة

> مانحتاج إليه هو تصور مبتكر يؤيده رأي عام مستنير



من أرضنا ، وعلى رأسها النفط وتراكم الديون الدولية على كثير من دولنا ، وتعاظم خدمة الدين التي تمتص قدراً متزايداً من عائدات التصدير ، مما يؤدي الى بطء عام في الاستثمار الى درجة تدخل المؤسسات الدولية في بعض دولنا الأخرى ، لتسخير اقتصاديات هذه الدول الضعيفة أصلاً لتغليب خدمة الدين العالمي على أي أولوية من الأولويات الاقتصادية الأخرى ، في الوقت الذي يزداد فيه ما يصرف على السلاح ، نتيجة تهديدات إقليمية حقيقية ، وفي الوقت الذي تفرض فيه قيود على أشكال من الاستهلاك الداخلي الذي يفاقم المشكلات الاجتماعية ، نتيجة زيادة في عدد السكان وتكدس المدن وتعطل المتعلمين .

كل هذه الهواجس يمكن ترجمتها بسهولة الى أرقام تنطبق على معظم أقطارنا العربية . وهي حلقة كاملة الاستدارة ، فالوضع الاقتصادي والاجتماعي المتدهور يمكن أن يؤثر في السلام الاجتماعي ، عن طريق انتهازية سياسية لبعض دعاة التطرف ، الذين لا يملكون حلولاً فعلية لهذه المعضلات ، بل يملكون حجماً لفظياً للإطاحة بالسلام الاجتماعي .

بين التكامل والتبعية

في التكامل إذن ، مهما تواضعت أهدافه ، بعض المخارج المعقولة لهذه المعضلات ، إلا أن الطريق الى ذلك ليس سهلاً ولا هو قريب ، لكنه الطريق الصحيح فقط ـ وهو التكامل ـ الذي يحقق أولاً نبذ الفتنة والشقاق بين



العرب ، وإنهاء الحرب الأهلية ، وتعزيز الجبهة العربية ، وتحويل الامكانيات - القليلة أصلاً - لخدمة أولويات التنمية .

الطرف الآخر من المعادلة الصعبة هي معضلة « التبعية » ، وليس المعنى المراد هنا اصطلاحاً خاصاً بها مفرغاً من محتواه ، إنما يعني أول ما يعني الضعف المشاهد في القدرات التبادلية بين الأقطار العربية ، فإن ما يصدر من قطر عربي الى قطر عربي آخر من منتجات صناعية أو زراعية أو خدمية ، لا يساوي إلا نسبة ضئيلة مما يستورده هذا القطر العربي أو ذاك من خارج الوطن العربي ، فالتبعية بهذا المعنى رهن الاقتصاديات المحلية للخارج .

فأقطار المغرب العربي الأوسط (المغرب ، تونس ، الجزائر) على سبيل المثال ، لم تزد المبادلات التجارية بينها على أكثر من ٣٪ من التجارة الخارجية ، وكان جل مبادلاتها التجارية مع أوربا ، وخاصة فرنسا وبقية دول العالم .

وفي ضوء قرب انغلاق أوربا على نفسها في سنة ١٩٩٢ ، والدخول الكامل لكل من البرتغال واسبانيا الى حظيرة السوق الأوربية المشتركة ، وهي الدول التي تشابه منتجاتها - خاصة الزراعية وبعض مصنعاتها - منتجات أقطار مثل المغرب وتونس ، فإن التجمع الاقتصادي لدول اتحاد المغرب العربي سوف يتيح لها ظروفا أفضل - على الأقل من حيث اقتصاديات الحجم - وأن تواجه تلك التبعية الاقتصادية ، وتدخل في تفاوض من موقع أقوى مع جاراتها الشماليات في البحر الأبيض المتوسط .

من القضايا الأخرى المهمة التي لا يمكن حلها حلاً مقبولاً إلا بالتواجد الأوسع ، قضية الأمن القومي ، قضية الدفاع عن هذه الأقطار ، فقد أثبتت التجربة العملية في السنوات الأخيرة دون أدنى شك أهمية التعاون الدفاعي المشترك .

كيف يمكن الوثوق بالمشاريع الواعدة؟

ببساطة شديدة فإن تنوع السلاح الحديث وتكلفته وكميته والجهد الذي يبذل للتدريب عليه ، عدا المشكلات (اللوجستيكية) ، وكذلك الموارد المتاحة ، والامكانات المالية والبشرية والجغرافية ، لا تسمح بأن يتحمل ذلك أي قطر عربي على حدة .

الأمن العربي لا يجدي تفكيكه الى سياسات وطنية محلية ، لأن مجموع هذه الجهود منفصلة ، لا يؤدي الى إشباع حاجات الأمن القومي مجمعاً . مثل قضايا الدفاع بالضبط قضايا البحث العلمي ونقل التقنية أو استنباتها وقضايا أخرى ، ليس لها حل إلا بالجهود الأوسع .

تلك هي بعض إشكاليات المعادلة الصعبة ، التنمية والتبعية وما يتفرع منها ، وهي إشكاليات لا تواجه بعض الأقطار ، ولكنها تواجهنا جميعا ، سواء كنا في داخل تجمع عربي ـ قائم أو سوف يقوم في المستقبل ـ أو خارجه .

مصباح علاء الدين

من الضروري التنبه الى أن هذه المشكلات التي تواجهنا ـ على امتداد الوطن العربي ـ لن تحل لمجرد أن هناك تجمعاً إقليميا ، فالتجمع هو الشكل ، ولكن يجب أن يأخذ معناه ومساره من السياسات الجادة التي يمكن أن تطبق ، كذلك من الضروري عدم الاكتفاء بالطريقة الاحتفالية التي قابل بها بعضنا ظهور هذه التجمعات على سطح الحياة السياسية العربية ، فهناك أقطار عربية خارج هذه التجمعات ، من الضرورة القصوى أن لا تشعر ـ بشكل حقيقي أو متخيل ـ أن هذه التجمعات ، خاصة بعد ما أصبحت أكثر من واحد ، موجهة ضد البعض .

ما يجب أن يسود ويصل الى إقناع العامة قبل الخاصة ، أن هذا التعاون وذلك الاتحاد ما هو إلا لتحقيق المصلحة ، وليس موجهاً ضد أحد ، وهو ليس لمصلحة العرب فقط ، بل لمصالح كثيرين غيرهم .

ما أمامنا حتى الآن هو مجموعة من المقاصد الشريفة ، وتصريحات يحدوها الأمل ، ومؤسسات في سبيل التكوين ، ومشكلات حقيقية يراها القاصي والداني ، وأعوام طويلة من التردد والتراجع ، وسؤال كبير : كيف يمكن الوثوق بالمشاريع الكبيرة الواعدة ؟

ألم أنقل لكم في البداية قوله جلت قدرته : « وكَانَ الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جَدَلًا » صدق الله العظيم . □

محمد الرميحي





عندما كانت ابتدائية الأمس
أنضر من جامعة اليوم!

بقلم: الدكتور محمد جابر الأنصاري

مدينتي مدينة الصبا، كان اسمها «المحرق». والمحرق، إذا لم يعرفها البعض اليوم، ما كانت كذلك بالأمس، عندما كانت «حارقة» حتى من اسمها لكل من أراد العرب بسوء!

في «المحرق» كان يلتقي ذلك الطرب الأصيل، باللؤلؤ الأصيل، بالخير الآتي على سواعد الرجال، بقيم الأصالة في السلوك الحي، فتنتصب تلك المدينة لتصبح عاصمة التراث العابق برائحة التاريخ، ومذاق الوطنية ونكهة العروبة (يوم كانت العروبة أصيلة كلؤلؤ البحرين)، ويكون اسم ذلك المزيج النادر.. المحرق!.

و«المحرق» لم تكتف بذلك الصيت كله، بل قدمت للخليج وجزيرة العرب أول مدرسة حديثة في تاريخ التعليم، فكأنها أرادت أن تكون الجسر بين التاريخ والمستقبل، فكان لها ما أرادت!.

وكان اسم المدرسة - ومايزال - «الهداية الخليفية»، وكانت لؤلؤة من لون جديد أضافتها المحرق الى عقد لآلئها.

كانت أكثر من مدرسة، لأكثر من مدينة، من جيل العشرينيات الى جيل الستينيات لايوجد مثقف عربي، أو مسئول عربي، في الخليج على امتداده من عمان جنوبا الى الكويت شمالا، مرورا بساحل الامارات وقطر والمنطقة الشرقية من السعودية، والبحرين بطبيعة الحال، لايوجد مثقف أو مسئول لم يدرس أو يتأثر، أو يستفد، أو يقتد - في صباه وشبابه - بذلك المعهد المبكر في تنويره الذي كان اسمه

« الهداية » ، بالمحرق !.
كانت معاهد العلم في بدايات هذا القرن من أندر الأشياء الجميلة في الخليج (المحاط عندئذ بأسوار العزلة الاستعمارية) وكانت « الهداية » الأجمل بين تلك الأشياء النادرة ، لأنها كانت منارا لها وقدوة . كيف لا ؟! وهي تحمل على واجهتها ختم التاريخ الرائد المبكر : فلقد « تأسست عام ١٩١٩ » . وهل يجهل عربي ذلك العام في تاريخ العرب الحديث ؟
فيه ثارت مصر بقيادة الوفد وسعد زغلول
وفيه تحركت البحرين بقيادتها العربية في عهد عيسى الكبير (الشيخ عيسى بن علي آل خليفة) وأقامت « الهداية الخليفية » بتبرعات أبنائها وعرقهم صرحا لمقاومة التخلف ، وإصرارا على دخول معترك النور والحضارة ، واستعدادا ليوم الاستقلال المجيد في ظل كيانها العربي الراسخ الذي لم تسمح لأي كان بالتطاول عليه رغم الادعاءات المتمادية في ذلك الحين .
وكانت « الهداية » بداية البدايات وأول « قلعة » عربية تقام لترسيخ العروبة شعورا وانتماء في شرق الوطن العربي كله ، في ذلك الزمان الصعب .
كان لي شرف الالتحاق بعالم « الهداية » وجوها الحيوي الرحب المثير في بداية الخمسينيات (١٩٥٠ - ٥٤) وكان وراءها عندئذ تراث ضخم من الريادة التعليمية والثقافية ، لكنها كانت بتسميات تلك الأيام (مدرسة ابتدائية) ، نعم ابتدائية ، ولكن أي « ابتداء » راسخ للعلم والحضارة ، والوطنية والعروبة !
فيها سمعنا لأول مرة أن مصر تقاوم المحتل البريطاني في القنال لتخرجه من وادي النيل وكل أرض العرب « وفيها أنشدنا لأول مرة:

« بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدان
الى نجد الى يمن
الى مصر فتطوان »

من ينشد اليوم ذلك النشيد العربي في هذا الزمان الرمادي ؟!
وفي صفوف « الهداية » اكتشفنا أن البحرين ليست جزيرة منعزلة ، وأنها ممتدة عبر وطن العرب من خليجه الى محيطه . وكان أساتذة « الهداية » أنفسهم بذلك الامتداد .
وفي « الهداية » ، قبل أن نبلغ الحلم ، قرأنا في مكتبتها كتب التاريخ والسياسة والأدب ، ومازلت أحتفظ في عمق ذاكرتي بهذا الاستهلال لكتابها المقرر في مادة التاريخ :
« نحن أبناء أمة عريقة في المجد ، لها تاريخ حافل بجلائل الأعمال » أي إثارة خلاقة لهمم الأحفاد ؟ « وفي الهداية » لم نكتشف المسرح فحسب ، بل مارسنا التمثيل المسرحي بلسان عربي مبين .
ومن الكويت - الحاضرة أبدا في اختلاجات البحرين - خلد الشاعر خالد الفرج الذي كان من أبرز أساتذة « الهداية » حدث افتتاحها بقصيدة مطلعها :-

شمس المعارف في « أول » أشرقت
فمحا الضياء حجابها المسدولا
بزغت ومدرسة (الهداية) أسفرت
تهدي شعاعا للنفوس جميلا

كان ذلك عام ١٩١٩ ، وبدخول عامنا هذا ١٩٨٩ تكون الهداية قد أطفأت سبعين شمعة من عمرها المديد ، ومازالت شمعتها وقادة ، في مبناها التاريخي ذاته الذي يجدد الآن ، وفي مدينتها نفسها الحاملة لكل ذلك الألق الذي اسمه : « المحرق » ! .
فيا أخوتي من الخليج الى المحيط - عبر منتدى « العربي » - تلك مدينتي ، تلك مدرستي ، مدينة من مدائنكم ، مدرسة من مدارسكم ، عندما كانت مدارسكم بالأمس أنضر وأحفل بالحيوية من جامعات اليوم ! .
فعودا إلى نضارتكم الجميلة ، بأمسكم القريب ، والعود أحمد باذن الله . □

حديث رمضان

ثنائيات..

هل يجمعها لقاء ؟!

بقلم : الدكتور عبدالعزيز كامل

« ينبغي لنا أن لا نستحي من استحسان الحق ،

واقتناء الحق من أين أتى ،

وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا .

فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق .

وليس ينبغى بَخْسُ الحق . .

بل كُلٌّ يُشَرِّفُه الحق » .

من كتاب الكندي « في الفلسفة الأولى » الى الخليفة المعتصم بالله العباسي .

آثرت أن أبدأ الحديث بهذه الكلمة التي قالها الكندي منذ اثني عشر قرنا ، يخاطب بها الخليفة ، كما يخاطب بها كل باحث عن الحق في أي أفق من آفاق المعرفة ، ويربط الكندي بين العلم والعمل بقوله في مدخل هذه الرسالة « إن غرض الفيلسوف في علمه إصابة الحق ، وفي عمله العمل بالحق » .

ولنأخذ سطورا من رسالة بعث بها عمر بن الخطاب الى ابي موسى الأشعري (رضي الله عنهم جميعا) :

« ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم ، فراجعتَ فيه رأيك ، فَهُديت فيه لرشدك أن تُراجع فيه الحق ، فإن الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ، فمن خلصت نيته في الحق ، ولو على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تزين بما ليس في نفسه شَانَهُ الله ، فان الله لا يقبل من العيار الا ما كان خالصا » . وهذا الخطاب - ومداره طلب الحق في القضاء - شرحه الامام ابن القيم في كتابه « اعلام الموقعين » في نحو خمسمائة صحيفة ، تضم أكثر الجزء الأول ونحو نصف الجزء الثاني .

ولو تأملت كلمة عمر وكلمة الكندي ، وجدتهما ينبعان من مشكاة واحدة ، وقد تسأل نفسك : أيهما كلمة الخليفة وأيهما كلمة الفيلسوف ؟ وترى أن طلب الحق كان مما يتعاون

عليه ويتواصى به ، الخلفاء والعلماء . يقولونه ويقبلونه . فالجسور بينهم مفتوحة ، أو هكذا ينبغي أن تكون .

وقد يُرَدُّ على هذا بأن التاريخ لا يقوم على الأمثلة الفردية . نعم . ولكن هناك أمرين :

الاول : أن هذه النماذج كثيرة في تراثنا العربي والاسلامي .

ولنذكر - كمثال - مقدمة كتاب الخراج لأبي يوسف وخطابه للخليفة العباسي هارون الرشيد ، ولنذكر نصائح العلماء وحوارهم الخصب مع الخلفاء - أو بعضهم - كما جاءت في كتاب سراج الملوك للطرطوشي .

من الوحدة الى التنازع

ولقد كانت هذه الجسور قوية في عهود ازدهار الحضارة الاسلامية ، وعادت على كل من الخلفاء والعلماء والقواعد الشعبية بخير كثير ، وتعاونت معها أنظمة الحسبة ودواوين المظالم المختصة بحاجات الناس ، عندما اتسعت الدولة وصعبت وسائل الاتصال المباشر بين الحكام والمحكومين ، خصوصا في الحواضر الكبيرة ، وفيما بينها وبين الأرياف والبوادي .

وفي ضعف هذه الروابط ، تحل محلها روابط القبيلة والطائفة والمذهب والعصبيات الضيقة ، وذلك بتجمعها في أحياء محددة في المدن الكبيرة ، أو انزوائها في مناطق العزلة في العالم الاسلامي . وتستطيع أن تربط بين المناطق النائية والجبلية من ناحية ، وبين المذاهب والآراء التي عارضت السلطة المركزية من ناحية أخرى ، ولا زالت جوانب من هذا الترابط المكاني قائمة حتى هذا القرن في العالم الاسلامي .

ومحصلة ذلك : ظهور نسيج إسلامي جديد ، غير قائم أساسا على الوحدة المركزية ، وإنما يقوم على تعددية تستمد قوتها من عوامل مكانية وعوامل تاريخية ، تدعمها شروح لنصوص من مصادر الاسلام وأحداثه ، توفر القاعدة الفكرية - والعاطفية أحيانا - التي يقوم عليها المذهب أو التجمّع .

يضاف الى ذلك أن العالم الاسلامي له مواريثه الحضارية القديمة التي استطاعت البقاء في مواطنها عبر القرون . ولها - بدورها - روابطها الدينية والعرقية واللغوية . وتطلعاتها الى كيانات لا تقوم إلا بتقطيع كيانات قائمة ، أو تجميع أجزاء من دول متجاورة ، تحرص كل منها على حدودها السياسية ووحدتها الوطنية ، مع رغبتها في التعايش السلمي مع جيرانها إن استطاعت .

وأحيانا تجد هذه « الكيانات الآمال » شيئا من التشجيع المحلي ، أو من مصادر خارجية ، كل الذي يعنيها أن تظل درجات الحرارة السياسية مرتفعة في العالم الاسلامي ، وأن تزداد قابليتها للاشتعال مع تقريب الوقود من أيديها . وقد كان . وتيسر الحصول على السلاح من مصادر كُلٌ همها أن تبيع السلاح ، وأصبحت تجارته جزءا حيويا في مجالي الاختراع والاقتصاد معا . والدول الصغيرة بين خائف على نفسه ، أو طامع في جاره ، و« الكيانات الآمال » تتحرك ، ولو أدى هذا الى تحطيم وحدات وطنية قائمة ، وهذه بدورها عليها أن تخوض معركة الوجود .

واتسع المجال - أو قل توازي توزيع المجالات - فشملت دولا من آسيا وبخاصة جنوبها الشرقي ، وشرق وجنوب ووسط وأجزاء من غرب أفريقيا ، وأمريكا الوسطى وأقطارا من أمريكا الجنوبية . وتستطيع أن تتبع جذور هذه الحروب وموقديها والنافخين في نارها ، إذا ما قاربت الهدوء ، فستجد الصراع بين القوتين الأعظم . هذا الصراع الذي اتخذ مستويين : أعلاهما هو التسابق في التنافس الاقتصادي

والابداع العسكري الذي تحول أخيرا - في بعض جوانبه - الى أسلوب من الحوار والتعايش ، دون إهدار لأرواح سكان هذه الأقطار المتقدمة ، وأدناهما هو الحرب الاقليمية حتى في أقاليم الفقر والحاجة كجنوب شرق آسيا وشرق افريقيا والنطاق الافريقي الواقع شمال الأقلية البيضاء وفي جنوب افريقيا والممتد من موزمبيق الى انجولا ، ثم أمريكا الوسطى .. ففي هذه الأقطار تلتقي أشد درجات الفقر بأبشع أساليب الهمجية الحربية : من حرق القرى ، الى سرقة الأقوات القليلة ، الى مهاجمة مخيمات اللاجئين ، الى قطع الطريق على قوافل الإمداد والتموين . والخاسر الأكبر هو إنسان العالم الثالث الذي تدافعت حكوماته في حروب استطاع العالم المتقدم أن يتجاوزها منذ منتصف القرن العشرين .

ويذكر تقرير « النفقات العسكرية العالمية ومبيعات الأسلحة لعام ١٩٨٧ » الصادر عن « الوكالة الامريكية » للتحكم في السلاح ونزعه « أن مشتريات الاسلحة على الصعيد العالمي فيما بين ١٩٨٢و١٩٨٦ ببلايين الدولارات كان مجموعها في العالم كله ٤٣و٢٢٤ بليوناً ونصيب الدول المتطورة منها ٧٥و٤٣ ونصيب الدول النامية ٦٨و١٨٠ أي أنها اشترت - رغم فقرها الغالب - أربعة أمثال ما اشترته الدول المتطورة».
ولكن : كيف تجمع معظم الدول النامية أو المتخلفة بين الفقر وشراء السلاح ؟ هنا تبرز قضية الديون وفوائدها وتكبيل كثير من الدول النامية بهذا القيد الذي حل محل الاستعمار القديم . ولنلاحظ أن الدول المتقدمة تُعنى عناية كبيرة بالزراعة وبخاصة الحبوب الغذائية ، ولها اهميتها الاستراتيجية في عالمنا المعاصر . وبهذا أصبح اعتماد الدول النامية على الدول المتقدمة في توفير كل من السلاح والحبوب الغذائية ، هذا إلى تعويق جهود التنمية ، وصرف الجهود عن التخطيط . هذا وأعباء الديون - والقيود - آخذة في الزيادة .

الثنائيات

وبعد هذه الجولة نحس أننا نعود الى الموضوع الاساسي الذي بدأنا به : « الثنائيات » وأخطرها : عالم متقدم ، وعالم متخلف ، وبينهما فجوة تزداد اتساعا . وفي داخل هذه الثنائية التي تضم العالم كله ، حشد من الثنائيات ، تتمثل في العالم الاسلامي ، كما تتمثل في غيره من الوحدات الحضارية الكبرى .

إن خطورة الصراع بين القوتين الأعظم تهدد العالم . وخطورة التوافق بينهما ، نخشى أن تكون على حساب الشعوب والدول النامية ، فلن تزيد في هذا المعترك على أن تكون مساحات في مناطق النفوذ أو أرقاما في كشوف الحسابات .

ويبقى المخرج الأصوب نابعا من الايمان بكرامة الانسان حيث كان ، وحقه في الحياة والتقدم مهما يكن موقعه على خريطة الحضارات العالمية ، والتعاون في ظل الإخاء .

والآن : ما أبرز الثنائيات في وطننا العربي والاسلامي ؟

وما أود أن نتصور كل ثنائية منها كأنها فريقان يختصمان ، وإنما الأقرب الى الواقع أن نراها درجات تتباين كثافتها ، وتتنوع بما تضم من مكونات : لبعضها أعماقه التاريخية ، ولبعضها جذوره في أرض أخرى ، وبعضها لا زال طافيا على سطح الحياة في دياره لم يضرب في الأرض جذرا ، ولم يرفع في السماء فرعا .

١ - وأوضح هذه الثنائيات : الموقف من الحضارة الحديثة ، ما نقبل منها وما ندع ، وما نستورد وما نقتبس ، مع تطوير يلائم الصالح من تراثنا . ولنقترب مثلا من الشعوب الاسلامية في

افريقية جنوب الصحراء ، حيث تتحاور ثلاثة مؤثرات حضارية : الميراث الافريقي القديم ، والميراث الاسلامي ، والميراث الغربي الحديث . وأقصد بالغربي ما شع عندهم من اوربا وامتد وتكونت له مراكز في العالم الجديد ، ثم قامت إلى جوارها مراكز حضارية في أقصى الشرق . ما نصيب كلٍّ من هذه الثلاثة ؟ ولنفرق بين أمرين في الحضارة : أولهما لـه الصفة العالمية من المبتكرات العلمية ، وهذا ميراث إنساني شامل والثاني هو المرتبط بالثقافة ـ في مدلولها الواسع ـ وله في تطبيقاته صفة الخصوصية . ولنضرب مثالا توضيحيا : بحوث هندسة الوراثة : من الناحية المعملية لها صفة العموم ، ولكنها من الناحية التطبيقية لها ارتباطها بالأخلاق والقيم التي يعيش بها المجتمع . وبحوث « أخلاقيات العلم » لها ندواتها وحوارها ، وتعدد المواقف حيالها .

٢ ـ ويرتبط بهذا ، « الوضع » بالنسبة الى هذه الحضارة الحديثة . وفرق بين « الوضع » و« الموقف » . الأول هو المستوى الحضاري الذي تعيش فيه الجماعة أو الجماعات التي ندرسها ، والموقف هو مدى قبولها للحركة الحضارية وسرعة هذا التقبل . ولا زلت أذكر حوارا في ندوة عن التاريخ ، وكيف حاول الحاضرون ـ وكان أكثرهم من الأقطار المتقدمة ، مع ممثلين لاقطارنا ـ أن يختاروا ألفاظا « غير جارحة » لتقسيم الدول قديما وحديثا حسب القدرة على الحركة ، وكان من التعابير المطروحة للتمييز بين المجموعتين الكبيرتين : المناطق المركزية والهامشية . المناطق الساخنة والباردة . المناطق النشطة والساكنة . مناطق التأثير والتأثر .

وأنت لا تستطيع أن تضع حدا فاصلا بينها . فالحضارات تتفاعل ، والشعوب التي تُغلب على أمرها ، تُصَدِّر أحيانا جوانب من ثقافتها الى الدول الأكثر منها قوة والأعزّ نفرا . ولك أن تنظر إلى المؤثرات الافريقية في الفنون الغربية التي حملها الافريقيون ، وارتضاها الغربيون ، وكأنهم يكتشفون فيها جذورا تائهة كانوا يبحثون عنها .

٣ ـ ومن هذه الدائرة الأوسع ننتقل الى دوائر أضيق في وطننا العربي والاسلامي ، وما نراه من مواقف الشباب من العروبة والاسلام ، والحوار الذي يتجدد حول الصلة بينهما من نواحي القدم والشمول والتقدمية ، والعلاقة باللغة والتراث القديم في كل من أقطار العروبة والاسلام ، والصلة بين الوحدات الوطنية والاقليمية والعقائدية والنظرة العالمية .

٤ ـ ثم ما أفرزته الصحوة الاسلامية من تصنيفات للعلماء وللحركات الاسلامية . ونقرأ في أدبيات هذه الجماعات تصنيف العلماء الى شريحتين : علماء السلطان وعلماء الميدان . أو علماء الدولة وعلماء الشعب . وهذا التصنيف فرعٌ من كلّية أكبر عندهم،تقسم الاسلام الى : الاسلام الحكومي أو الرسمي والاسلام الشعبي . ثم تعود الى الحركات ذاتها فتصنفها الى طرائق شتى ، وتتخذ من مواقفها ـ من مصادر التشريع ومن السلطات الحاكمة ـ مقياسا ، ثم تصنع كل جماعة لنفسها مقياسها ، وتحدد به مدى تمسكها بما تختاره من الأصول أو المظاهر وأساليب العمل . وهذه ـ بدورها ـ تسندها آيات وأحاديث لا ريب فيها .

في الميزان

ولكن : ما مساحة هذا الجزء المختار بالنسبة إلى النسيج الاسلامي ؟ وما ترتيبه في سلم الاولويات ؟ وما درجة تقبل الأوضاع القائمة لهذا القدر ـ أو ذاك ـ من الجرعات المقترحة ؟ وما علاقة ذلك بالتكوين الديني أو الطائفي ، أو مراكز الثقل العرقية القائمة والمحيطة ؟ ومدى ملاءمة الاسلوب أو الأساليب المقترحة للتطبيق ؟

ومن الذي يحمل مسئولية التطبيق ؟ ثم ما وضع هذه القضايا وتأثيرها على المسيرة العامة للمجتمع ، ومدى مساهمتها في مقابلة التحدي الحضاري المفروض على العالم الاسلامي ليكون صورة تقترب شيئا فشيئا مما يدعو اليه الاسلام ؟

إن أهل الاسلام يستطيعون أن يدافعوا عنه بالكلمة ، ولها مكانتها وشرفها . ولكن أفضل الدفاع هو « صورة » العالم الاسلامي نفسه وهي الصورة التي تلتقي فيها خصوصياته الحضارية ، بإفاداته من الانجازات العلمية العالمية ، تمهيداً لمساهماته الايجابية في هذا العطاء .

وإن جهود تعويق العالم الاسلامي لا تقتصر على سوء توجيه موارد الحياة فيه ، وشغله بالحروب والصراعات الداخلية والقضايا الجزئية ، وإنما تمتد إلى « الاشادة » ببعض الحركات الأصولية ودفعها الى المزيد من التشدد والتطلع الذي يعطي صورة مشوهة عن الاسلام ، ويدعو الى عنف الصراعات الداخلية وغير المتكافئة بين أبناء العالم الاسلامي .

وإن شدة الإلحاح في الحديث عن الصحوة الإسلامية المعاصرة ، يدعونا الى المزيد من الحذر ، وإلى حسن اختيار مواقع أقدامنا على طريق العمل ، والتركيز على قضايانا الرئيسية .

وإن جانبا غير قليل من الاعلام الاجنبي « يختار » من الواقع الاسلامي صوره المتطرفة ، ويجمع بينها في أفلام وثائقية أو مؤلفات ، تشوه وجه الاسلام أمام أبنائه ، والراغبين في المزيد من التعرف عليه ، والرأي العام العالمي .

أرض اللقاء

وأتصور أننا لو وضعنا معيارا أساسيا في العمل الاسلامي ، أو مجموعة من المعايير يكون من ثمارها إقامة الجسور بين الثنائيات تمهيداً لحوار ، وإيجاد أرض لقاء،لو صنعنا هذا نكون على الطريق السوي .

وهنا يطرأ سؤال : وما أرض اللقاء ؟ فلنتفق على ما هو خير للحضارة الاسلامية في مجموعها ، ولنخضع لهذه الخطوط الرئيسية السياسات والاختيارات المحلية . وهنا يلقانا سؤال آخر : ما نماذج هذه القضايا التي تلتقي عندها الأراء ، أو ينبغي أن تلتقي ؟.

فلنضعها في مجموعتين كبيرتين :

أولاهما : قضايا التحرير الوطني في إطار الوحدات السياسية .

بعبارة أخرى : اللقاء بين الحرية والوحدة الوطنية ، وأمامنا في هذا : دعم الانتفاضة الفلسطينية ، ووحدة لبنان ، وافغانستان ، وامتصاص الصراعات الداخلية في أقطار كالسودان وما بين جنوبها وشمالها .

الثانية : المشروعات المشتركة التي تؤكد التعاون الاقليمي في العالم الاسلامي ، تمهيدا لتوسيع دائرتها . وهنا يأتي دور الاقتصاد المشترك . ويبرز في هذه المجموعة : الأمن الغذائي وموارد الماء والطاقة وتنظيم مشروعات البحث العلمي .

وأعلم أن هناك مشروعات مقترحة في هذا المجال ، ومنظمات مسئولة لديها ملفاتها . ولكن المقصود في هذه المرحلة « اختيار » عدد من المشروعات الاساسية التي لا تنوء بأثقال الطموح والتصور النظري ، ولا تعرقلها مناورات السياسة ، ولا تصلب الشرايين الادارية ، وأن تكون ميزانياتها في حدود الامكانات المتوافرة ، وأن تكون مؤكدة الجدوى .

ولا نود أن تكون هذه المشروعات دُولة بين الحكومات وخبرائها ، بل نود أن تصبح مشروعات تؤمن بها الشعوب ، لا لفائدتها الذاتية وحدها ، وإنما باعتبارها مؤشرات مرحلة

جديدة ، وروافد تصب في نهر العمل المشترك . وتقتضي هذه المرحلة تغييرا جذريا في إعداد الشباب ـ علينا أن نعترف به ـ يستهدف المزيد من القدرة على التعامل مع المعطيات المعاصرة ، وحسن توجيه الطاقات إلى التي هي أحسن ، بدلا من ضياعها في مسارب جانبية تبعد بها عن الهدف الكبير .

ولعل هذا الاطار أن يكون قادرا على إقناع الشباب والمسؤولين بجدواه ، على أن تسير المشروعات المشتركة و« هندسة الشباب » ـ إذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير ـ في خطوط متوازية ومتصلة ، ويقوى مجراها بحيث يصبح قادرا على اجتذاب الشباب عن رضا وقناعة وقدرة الى العمل فيه ، وتتحول الثنائيات القديمة الى روافد لنهر الاسلام ، تشيع بها على ضفافه نضرة الأمل وثمار العمل .

أما عن خطوات التنفيذ فهي قسمة وتعاون بين الأجهزة العالمية بدءا من الأمم المتحدة ومنظماتها المتخصصة الى المستويات الوطنية . ولعل منظمة المؤتمر الاسلامي هي المؤهلة لأن تكون حلقة وسطى بين المستويات العالمية والقارية من ناحية ، والمستويات الاقليمية والوطنية من ناحية أخرى .

أمل عريض وطريق طويل ...... ولكنه طريق اللقاء □

قال الأولون



● قال ابراهيم بن أدهم : « سألت راهبا من أين تأكل ؟ قال : ليس هذا العلم عندي ، ولكن سل ربي من أين يطعمني » .

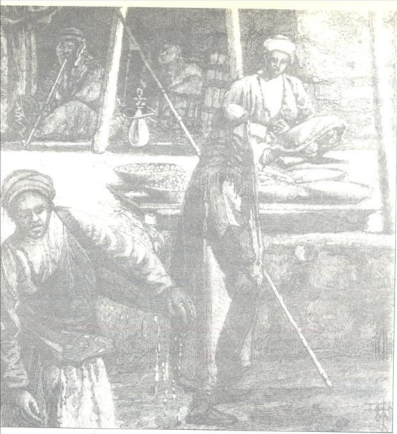
● اصطحب رجلان فقال أحدهما للآخر : « تعال حتى نأكل معا ، فقال : معي خبز ومعك خبز ، فلولا أنك تريد الشر لأكلت وحدك »

● قال الحسن : « من خاف الله أخاف الله منه كل شيء » .

● سئل ابن ابي طالب « كيف يحاسب الله الخلق والخلق كثير »؟ فقال : « كما يرزقهم وهم كثير » ، فسألوه : « وكيف يحاسبهم ولا يرونه ؟ » ، قال : « كما يرزقهم ولا يرونه » .

● قال الفارابي : « اللهم رب الأشخاص العلوية والأجرام الفلكية والأرواح السماوية ، غلبت على عبدك الشهوات البشرية ، وحب الشهوات والدنيا الدنية . فاجعل عصمتك نجاتي من التخليط ، وتقواك حصني من التفريط ، إنك بكل شيء محيط . »

● قيل لبعضهم : « ما يمنعك من الامارة ؟ » قال : « حلاوة رضاعها ، ومرارة فطامها . »



رمضان وحديث الأيام في فلسطين

بقلم : الدكتور محمد عيسى صالحية

لرمضان في فلسطين عطر خاص ، ولأيامه ولياليه نكهة خاصة ، ولفلسطين والفلسطينيين في رمضان حكايات ووقائع سجلها التاريخ ، وحفظها الرواة والمغنون .

المقال التالي محاولة لرسم صورة لا لرمضان الذكرى فقط ، بل لرمضان الوقائع والأحداث .



رمضان في فلسطين له نسق متفرد من البشر والترحاب ، يبدأ قبل قدومه بأسابيع ، فتدب في كل فلسطين حركة نشطة . سكان المدن يزحمون الأسواق ، وأهل القرى والأرياف يسرون إلى المدن ، أهل الوبر يستحثون الإبل والدواب . كل يسعى لتجهيز بيته بما يحتاجه من السمن والأرز والبهارات والمكسرات ، ونقيع قمر الدين والتمر هندي والعرقسوس والشاي والقهوة والحلاوة .

في المدن الكبرى كالقدس ونابلس وغزة وحيفا ويافا واللد والرملة وغيرها ، تنتظم الأفران المؤقتة في الشوارع لخبز القطايف ، وتعلو الدكك لبيع شراب الخروب ، وعند المطاعم تبرز تنانير عمل الحلويات الخاصة ، (كل واشكر) ، البرازق ، المعمول ، الكنافة ، (كرابيج حلب) ، (حلي سنونك) ، المطبق ، المدلوق ، البُرما ، أصابع زينب ، المشبك ، (الكعك بعجوة) ، الفستقية وغيرها .

عمال البلديات والمجالس القروية ينشطون للتفتيش على جميع فوانيس الإضاءة وإصلاحها . إدارات الأوقاف تتفقد المساجد ، تجهز القناديل والزيت ، وتفرش السجاد والبسط والحُصر . وتلك عادة متصلة أشار إليها الرحالة ناصر خسرو في القرن ٦هـ/ ١٣م.: « كانت مساجد القدس مزينة بالفرش الثمينة من أجود الأنواع ، والقناديل الفضية تزيد المساجد اشتعالا ، وتلقي على المسجد مزيداً من الهيبة والجلال » .

وقبيل بدء شهر الفضيلة بأيام ترى الشباب الأقوياء يجرون مدفع الإفطار ، يرقونه مرتفعاً ، جبلا كان أم تلا ، يرافقه أعيان المدينة وشيوخها ، وترى الصبية ذكورا وإناثا يتحلقون حوله فرحين . وذوات الخدود والجمال ، يرقبنه من وراء الرواشن ، والجمع يردد الأهازيج بقرْب حلول الشهر :

« أَهْلاً رَمَضَانْ سَهْلاً رَمَضَانْ بُكْره بِتْهِلْ
والخِيْرْ بِيطِلْ والِمدْفَعْ طَالِعْ عَالتِّلَّة طَالِعْ »

والكل محبور ، والأسارير منفرجة ، والصدور منشرحة . شهر البركة والخير سيحل ، ملائكة الرحمة تبسط أجنحتها على العباد ، التبتل في كل نادٍ وواد ، التوبة ، التوبة ، فالله غفور رحيم .

قبل رمضان سنة ١٩٣٥ ، بأسبوع واحد فقط ، دهت فلسطين رزية ، فغدت كل البلاد من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها كالبحر المتلاطم الأمواج ، زفرات متصاعدة ودموع مهراقة ، فقد أذاعت قوات الانتداب نبأ استشهاد الشيخ عز الدين القسّام ورفاقه ، إثر معركة يعبد ، فانصرف الناس عن تزويد البيوت

بمؤونة رمضان ، إلى المشاركة في تشييع جنازة الشهداء في حيفا ، وعم الإضراب ، وسار المتظاهرون في الشوارع ، ورشقوا دائرة الشرطة والمحطة بالحجارة ، وتفجر الغضب حين لفت نعوش الشهداء بالأعلام السعودية والعراقية واليمانية ، وغرقت البلاد في إحياء ذكرى الشهداء وقراءة الفاتحة على أرواحهم .

ثبوت الرؤية

تفيد السجلات المستنصرية، للدولة الفاطمية أن سلاطينها أبطلوا بمراسيم شيعوها إلى البلدان والأصقاع سنة ثبوت رمضان بالرؤية لاعتمادها الحسابات الفلكية والمراصد، ولا عجب، فإن أحد سلاطينهم وهو الحاكم بأمر الله قضى مقتولا وهو في طريقه إلى جبل المقطم ، ليمارس هوايته في مراقبة النجوم والكواكب والأفلاك . وتحدثنا الأيام الفلسطينية أن فلسطين ما استجابت لذلك ، بل استمر الناس يرقبون الهلال بالعين المجردة .

وقد جرت العادة في اجتماع الهيئات الدينية أو أعيان المدينة وحتى مخاتير القرى وأئمتها ووعاظها والخطباء (المدرسون) ، في الجمعية أو الديوان أو المضافة انتظارا لتحقيق ثبوت الرؤية . وكنت ترى الرجال والشباب والفتيان قد ارتقوا أعلى نقطة في المدينة أو القرية ، جبلا ، أو تلة ، منارة أو مئذنة ، حتى إذا ما رأى الهلال أحدهم ، حلت الفرحة ، وارتفع في الهواء كغزال يطارده الصياد ، وزها فارس النظر ، صنو زرقاء اليمامة ، وسابق الريح يزف النبأ العظيم ، فقد حل الضيف ، فافتحوا القلوب ووسعوا الأبواب ، وهناك عند الهيئة يدلي بالشهادة ، يصف شكل الهلال ، لونه ، قعدته على قرنه أو على خاصرته ، مثل « فص » البرتقال أو « شقحة » البطيخ ، فإذا ما تيقن الربع ، صدر الإعلان بثبوت الرؤية ، فتضاء المآذن ويهدر المدفع بطلقته الأولى .

وتدب في المدينة والقرية حياة فورية ، الأطفال يركضون بالنبأ السعيد ، رب العمل يسرع إلى عماله وفلاحيه : « بكره ، إن شاء الله السرحة متأخرة » ، كلمة واحدة تسمعها أينما سرت : « شهر مبارك إن شاء الله تعالى » ، فقد بدأ الصيام .

حضور عرس عنتر

في فلسطين يمضي الناس ليلهم في سهر وتسلية بريشة ، الحكواتي يجذبهم بقصصه البطولية ، قصة عنتر ، الزير سالم ، تغريبة بني هلال ، بدر النعام ، الشاطر حسن ، سيف بن ذي يزن ، ألف ليلة وليلة ، وغالبا ما يكون الحكواتي عازف ربابة ، وذا صوت جميل ، يضفي على السهرة جوا ممتعا .

وفي مكان ثان ترى « الكراكوزي » - محمد الطرابلسي مثلا - يقدم بخيال الظل تمثيليات « كلب بلدي ولا افرنجي » مقالب « كراكوز » «وعيواظ» ، نوادر ، نكت ، أحاجي . سأقص عليكم ما حدث في قرية فلسطينية سنة ١٩٣٨ : حين عرض « الكراكوزي » تمثيلة « عرس عنتر » جاء الجمهور بأحلى هيئة وبملابس جديدة ، وعم البشر والفرح والسرور ، فالليلة سيكمل عنتر نصف دينه . وعندما خرجوا من الحفلة انطلقوا بالشوبشات ، ووزعوا الملبّس والحلوى .

الحكواتي له دور ، و « الكراكوزي » له دور ، في استنهاض الشعور الوطني والقومي ، الأدب الشعبي له أهدافه النبيلة ، نقد للسلطة البريطانية والمجتمع ، إثارة لحماس الأمة نحو القضايا الساخنة .



في مكان ثالث ، ترى جمعا من كبار السن ، يمضون وقتهم بلعب « المنقلة » أو « الداما » و « السيجة » .

وتسألني عن المرأة : أين هي في هذا المجتمع ؟ وأقول : إنها تنتقل من بيت إلى بيت للزيارة والتبريك ، أو لمواساة أم بعزيز فُقد ، ثم تسرع الخطا إلى البيت لإعداد طعام السحور ، تتفقد الطابون والمطحنة ، تنتظر الأولاد والرعاة ، حتى إذا ما حان وقت السحور ، جاء المسحّر بطبلته الرنانة وصوته الرخيم ، وللمهنة أصولها وأسرارها ، تـوارثها الخلف عن السلف حتى أصبحت نسبا ، الأمانة والعفة والثقة ومعرفة دروب البلدة وأزقتها ، بل حتى بيوتها ، ودراية لا بأس بها بالميقات ، وتسمعه يردد :

« يَانَايِمْ وَاحِدِ الدَّايِمْ
ياناِيمين وَحّدوا الله
ياعباد الله ، وَحّدُوا الله »

وقد يطرق الأبواب : « اصْحَ يَاأبو العَبْدْ » .

وأهل فلسطين كرماء مع المسحرين ، كل ليلة يعود مملوء الوفاض طعاما وهدايا ونقودا ، وفي نهاية الشهر له الأجرة والعيدية .

ولأطفال فلسطين صبيانا وبنات طرقهم في إحياء ليل رمضان المبارك ، فمنذ اليوم الأول يتكوكب أشبال كل حارة ، يرئسون أحدهم بديمقراطية عجيبة ، أما الزهرات فلهن لقاء ، وأكبرهن لها التقديم والرياسة ، أحكامهم صارمة ، لا تراجع ولا مهادنة .

تتشكل فرق الحواية والمداحة ، تسير بالفوانيس الملونة والشموع المتقدة ، ويشدو الصوت الملائكي :

« عَالسُّوقْ نَازِلْ يَانَازِلْ
تَحتْ المَنَازِلْ يَانَازِلْ
إنْزِلْ مْعَانِي يَانَازِلْ
واضْوِ قَنْدِيلِي يَانَازِلْ
قَنْدِيلِي مْلَوَّنْ يَانَازِلْ
عَالسُّوقْ اطْعِمْنِي كنَافَةْ
عَالسُّوقْ اطْعِمْنِي بَقَلاوَةْ »

وفريق آخر يتوقف أمام بيت أو دكان يغرد :

« لَوْلاَ فَلانْ مَاجِينَا
حِلُّوا الكِيْسْ واعْطُونَا
واعْطُونَا حَلاوَانَا
صحنين بقلاوَةْ »

وينتهز الصبية فرصة مرورهم على بائع حلوى أو « قضماني » ، ويغنون له ، فإن أكرم وفادتهم شكروه على طريقتهم :

« يخَلِّي لَهُ أُمُّهْ آمينْ
يخَلِّي لَهُ أُخْتُهْ آمينْ
يخَلِّي لَهْ مَرَتُهْ آمين »

وإن أعرض ، عاقبوه عقابا صارما .
« القضماني » سيء الحظ لم يكرم البنات مثلا ، وهنا تتقدم زعيمة الزهرات ، وتصيح بأعلى صوتها وبلهفة :

« يَابْنَيَّاتِي يَابْنَيَّاتِي
فيرددن :
نَعَمْ يَمُّو نَعَمْ يَمُّو
بِزَوجْكِنْ بْزَوجْكِنْ
لَمِينْ يَمُّو لَمِينْ يَمُّو
للقضماني للقضماني .
مَا نْرِيدُهْ مَا نْرِيدُهْ »

والأولاد لهم طريقتهم في العتاب لمن لا يكرمهم :

« جَاي علينا جَاي
بايدنا العصايةْ
نضرب الحوايةْ »

حتى إذا حان السحور ، عاد الأطفال محملين بالهدايا والنُقل والملبّس والحلوى بعد أن اقتسموه بعدالة تفوق عدالة محاكم بريطانيا في فلسطين .

أيام رمضانية خالدة :

هل ينسى أبناء فلسطين تلك الدعوات التي رددها صلاح الدين يوم أن أحدقت الأخطار بالقدس ودهكتها همجية الفرنجة « الهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك ، والاعتصام على فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل » . كان هذا دعاء صلاح الدين حين صلى الركعتين بين الأذان والإقامة ، ردده والدموع تتقاطر على شيبته ، فقد اعتاد الصلاة بالأقصى ، وقد حال الفرنجة دون ذلك .

صلاح الدين سار في أوائل رمضان ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م يريد تحرير قلعة صفد من الفرنجة ، لم يلتفت إلى مفارقة الأهل والأولاد والوطن في هذا الشهر الذي يسافر الانسان أينما كان ليجتمع فيه بأهله ، ولما حاول بعض إرجاء الخطة قال :

« إن العمر قصير ، والأجل غير مأمون » .

وخرجت قلعة صفد من أيدي الفرنجة ودخلت الأصفاد في أرجلهم .

رمضان سنة ١٣٥٥هـ/ الموافق ١٩٣٦/١١/١٠م محكمة الاستئناف البريطانية صادقت على حكم على الثوار (أهليل اللولح ومحمد قعدان ومحمد حسين) بالاعدام ، وأوصت المندوب السامي بعدم استعمال صلاحيته في تخفيض الحكم ، أما الأبطال الثلاثة ، فرددوا :

« نقبل الموت بالشكر في سبيل الوطن ،
نحن للوطن خلقنا ومن أجله نموت ،
إن نساءنا سيزغردن عند سماع النبأ ، مفتخرات بأنهن أنجبن من يموت ليحيا الوطن » .

٩ رمضان ١٣٥٦هـ/ الموافق ١٩٣٧/١١/٥م ، ألقت بريطانيا القبض على رفيق عز الدين القسّام ، وخليفته الشيخ فرحان السعدي ، وكان قد جاوز الثمانين من العمر ، وبعد يومين عُرض على المحكمة العسكرية الميدانية ، وبعد ثلاثة أيام نفذ فيه حكم الإعدام شنقا وهو صائم ، محتسبا لوجه الله تعالى .

الشاعر الشعبي ، صاحب القصيدة ذائعة الصيت « دبرها يامستردل » ، نوح ابراهيم ، قضى نحبه شهيدا في إحدى معارك الشمال يوم ٨ رمضان ١٣٥٨هـ/ الموافق ١٩٣٩/١٠/٢٠م ، ومن قصيدته التي يحفظها كل فلسطيني حتى اليوم نورد :

دبرها يامستَرْ دلْ
يمكن على ايدك بتنحلْ
جيت فلسطين الحرةْ
حتى تقمعْ الثورةْ
ولما درست الحالةْ
لقيت المسأله خطرةْ
بدْنا تفهمْ بريطانيا
حتى تكفينا شرها
وتصافي الأمةْ العربيةْ
بمنع البيع والهجرةْ »

وتقترب أيام العيد ، ويشغل الخياطون ، والخرازون ، والحلاقون ، طوال الليل بالعمل وتجهيز الملابس والأحذية ، حتى إذا أطل العيد لبس الصغار الملابس الجديدة ، واكتست الديار حلة قشيبة من الأنوار في المآذن والمساجد



والطرقات ، وتهيأت المضافات و « السلاملك » ، ومدت الأسمطة من الحلوى ، وعبقت رائحة القهوة . الناس ينطلقون منذ الصباح الباكر لأداء صلاة العيد ، أحد علماء المسلمين ، المنهاجي الأسيوطي ، حضر عيد رمضان ٨٧٤هـ في القدس ، أدهشته بلاغة الخطيب وشدهه زين المنبر ، وأعجبه تراص صفوف المصلين ، حتى إذا ما انتهت الصلاة تلاقت الأكف ، وشد بعضها على بعض مهنئة مباركة ، فلا عداء ولا مشاحنات .

« كل عام وأنت بخير ، كل سنة وأنت سالم ، العيد الجاي وأنت عريس » يسرع الرجال والشباب والفتيان لمعايدة الأقارب ، ويبدأون بنات « العيلة » فلابد من زيارة « الولية » وتطييب خاطرها .

يبدأ العيد عند الأطفال كالعادة قبل العيد بيوم :

« بكره العيد وبنعيد ، وبنذبح بقرة اسعيد ـ الخ » . في الصباح وقد استحموا وتزينوا وتدرهموا يسرعون إلى « الشقلابة » والمراجيح ، ويتزاحمون على « صندوق العجب » ، والعم « أبو زكية » يردد :

« أما تفرجْ ياسلامْ
عَ العجيبةْ بالتمامْ
عَ بُو زيد الهلالي
قوْم تفرجْ عَ بُوزيدْ
صاحب الحيل والكيدْ
والدنيا كلها أحلامْ
قومْ تفرجْ ياسلامْ »

والشباب ، يعقدون حلقات الدبكة ، شمالية ، شعراوية ، كرادية ، طيارة ، سحجة ، موالات بغدادية ، ابراهيمية ، عتابا ، ميجنا ، وعزف على الشُّبَّابة والمجوز (اليرغول) .

أما النساء اللواتي قال عنهن ابن العربي في القرن السابع : « ما رأيت نساء أصون عيالا ولا أعف من نساء نابلس » . هؤلاء العفيفات يخرجن صباح العيد لزيارة قبور الأموات ، يضعن على القبور الفوانيس والكعك والحلوى ليراه السائل والمحتاج ، ويزينّ القبور بجرائد النخيل والأزهار ، وقبل المفارقة تردد الواحدة منهن :

« ياريتني ياامّي
طِيرْ وطِيرْ واتْعَلّى
وارمي جناحي على الصفصافْ وَاتدلّى
والعين تسكب الدموع والقلب في ذلّهْ
وهللي مفارق أوطانه بيش يتْسَلّى »

وعلى الغداء يلتئم شمل العائلة بعد يوم طويل من الفرح والألم ، يلتقون على موائد الدجاج المسخن واللحم المشوي والمناسف اللذيذة والحلويات بأنواعها ، وتمضي الأيام ، ونستقبل السنين والأعوام ، ويطل رمضان كل عام على الكوكب الأرضي ، يحمل الرحمة والبركة والوئام والإخاء ، رمضان لا يتغير ، الناس وحدهم هم الذين يتلونون ويتغيرون . فهل الزمان هو الزمان ؟

وهل الناس هم الناس ؟ . . سؤال أثقل النفس بالبحث عن جوابه ! . □

لم ينل الأدب العربي في الماضي إلا عناية قليلة في ترجمته إلى اللغات الغربية ، فالترجمات المتاحة ترجمات حرفية تعكس - غالبا - انتقاءات خاصة ، ولذا كانت صورة الأدب العربي التي تعكسها تلك الترجمات صورة مشوهة . وذلك ما يوضحه المقال ويقترح له بديلا .

أفق جديد
في ترجمة الأدب العربي

بقلم : الدكتور روجر آلن *

كان هدف مؤسسة « بروتا » لترجمة الأداب العربية التي أسستها وتديرها الزميلة الدكتورة « سلمى الخضراء الجيوسي » هو أن تقدم أكبر قسط من هذه الثروة الأدبية إلى العالم الناطق بالانجليزية . وكان ذلك لسببين : **الأول** هو اطلاع قراء الانجليزية على بوادر الغنى الكثيرة التي يتمتع بها هذا الأدب . **والثاني** (وهو في نفس أهمية الأول) لكي يتعدل منظور القارىء الغربي عن العرب والوطن العربي بشكل يصحح ما تعكسه أغلب الأعمال المترجمة المتاحة حتى الآن . إنني ، مثلا ، أعجب باستمرار بالتأثير الذي تتركه مختارات « الأدب العالمي » على عقول الطلاب في المدارس الثانوية في العالم الغربي .

ولكن هذه المختارات بلا استثناء تمثل تاريخ الأدب العربي كله بقصتين من ألف ليلة وليلة .

وهذا يعكس أولا ضحالة المعرفة العامة بالأدب العربي . وثانيا التحيّز السلبي ازاء العرب الذي يتصّف به اولئك الذين يعدون هذه المختارات . غير أنه لا بد هنا من الاعتراف بعض هذا الخطأ ، يرتكبه أعضاء الجماعات الأكاديمية المستعربة في الغرب التي قصرت في انجاز ترجمات جذابة وراقية المستوى للأعمال الأدبية العظيمة عند العرب لكي يقرأها هذا الجمهور الضخم في الغرب .

أهمية بروتا

وفي هذا المجال يصبح عمل « بروتا » شديد الأهمية ، وتبرز هنا أيضا جهود الدكتورة سلمى الفائقة للعادة والتزامها الكبير . وإنه لدليل كبير على أهمية هذا العمل وعلى الحاجة الماسة إليه أن نرى أن شخصية في مثل مكانتها العلمية ، وشاعرة ناقدة واسعة الشهرة قد اختارت أن تكرّس كل هذا الوقت والجهد إلى هذا العمل المهم .

وقد وضعت مؤسسة « بروتا » ، منذ البدء ، أعلى المقاييس العلمية والفنية في الجمع والاختيار والترجمة والنشر لجميع أعمالها . فكل واحد من هذه الأعمال يثبت مستوى جديداً من الاتقان والكمال . إن الانتقاء للمجموعات يقوم به **متخصصون** بالأدب العربي في الوطن العربي وفي الغرب . أما الترجمات فيقوم بها مترجمون أكفاء

* د . روجر آلن استاذ الأدب العربي في جامعة بنسلفانيا

خبراء في الحقل المعين. ثم يقوم بها شعراء وأدباء معروفون من الناطقين بالانجليزية. أما الكتب بعد انجازها، فإن أكبر دور النشر في انجلترا وامريكا تنشرها. وقد نالت هذه الكتب اعجابا عاما لدقتها وشمولها وذوقها الأدبي وكذلك لجاذبيتها للقارىء الغربي. ولا شك أن مجموعتي المختارات الرائدتين اللتين صدرتا لبروتا، واحدة للشعر العربي وقد نشرتها دار جامعة كولومبيا في نيويورك في ١٩٨٧ والثانية لأدب الجزيرة العربية ونشرتها «دار كيجان بول انترناشانال» في لندن، إلى جانب أعمال لكتاب افراد قد أصبحت اضافات الى الأدب العربي المترجم ذات قيمة تفوق التقدير، كما أشار إلى ذلك عدد كبير من النقاد الذين راجعوهما.

ترجمات رائدة

والآن، بعد صدور هذا العدد من الكتب الرائدة في شمولها ومستواها الفني (ستة كتب) وبعد أن تم اعداد عدد أكبر منها للنشر (عشرين كتابا بينها أربعة مختارة جديدة كبيرة وخمس مجموعات ذات مؤلف واحد) بحيث لا تحتاج إلا إلى اللمسات النهائية حتى تدفع بها إلى المطبعة، فقد حان الوقت لكي يوسع مجال المشروع ككل. إن عملية توسيع المشروع يجب أن لا تركز فقط على المزيد من التخطيط لعدد جديد من المجموعات والكتب الأدبية وتنفيذ هذا المخطط عمليا كما كان يحدث حتى الآن، ولكن يجب أن تركز أيضا على ترسيخ هذا المشروع ضمن إطار ثقافي أكبر، إطار يتيح للمجموعة المثقفة في الوطن العربي وأولئك الذين يساندونها أن يوسعوا علاقاتهم بزملائهم الذين يقدّرون الأدب العربي ويعملون على نشره في العالم.

نجاح عربي

لقد رأينا في سنة ١٩٨٨ نجاحا عربيا كبيرا على صعيد الثقافة العالمية إذ منحت جائزة نوبل للآداب لأديب عربي. هذا الحدث المهم قد أوجد اهتماما لم يسبق له مثيل في الغرب بالأدب العربي في جميع أطواره، وقد جاء هذا الاهتمام من جميع الجهات، ولم يقتصر على المجموعات الأكاديمية في الغرب. ولا شك أنه من الواضح أن اللحظة قد حانت لكي توسَّع أعمال «بروتا» وتساند على أسس راسخة مستمرة حتى لا تضعف قوة هذا النشاط التصاعدي الجديد، وقوة الحماسة التي رافقت الأحداث المثيرة التي حدثت في السنة الماضية، بل على العكس يجب أن تقوى وتزداد. ولا بد أن نتذكر أنه في اكتوبر القادم ١٩٨٩ سوف تمنح الجائزة العالمية إلى أديب آخر في ركن آخر من العالم فتتوجّه الأنظار إليه.

ولذا فإننا إذا ما أجلنا العمل على نقل الأدب العربي ووضعه بين أيدي الناس،فإن مرور الزمن دون انتاج جديد ذي مستوى رفيع ككل كتب «بروتا»سوف يجعل الناس ينسون قيمة الثقافة العربية من جديد ويصرفون أنظارهم عنها إلى سواها. إن العالم مليء بترجمات كتب الشعوب الأخرى وابداعاتها إلا أن ركن الأدب العربي المترجم ركن صغير وفقير.

وأحب أن أضيف هنا بأن الأكاديمية السويدية التي تمنح جائزة نوبل مطّلعة جيدا على أعمال «بروتا»، وقد كتب أحد أعضائها البارزين إلى الدكتورة سلمى الجيوسي رسالة في ٢/ اكتوبر ١٩٨٨ أي قبل اعلان الجائزة بعشرة أيام، يعبر فيها عن تقديره الشخصي واعجابه بكتب المشروع لا سيما بالمجلدين الكبيرين، ويؤكد الدور الفعال الذي تستطيع أن تلعبه هذه الكتب في تغيير رؤى الناس في الغرب للأدب العربي.

وان شهادة كهذه من مؤسسة ثقافية تمنح أعلى جائزة أدبية في العالم يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار وأن يتنبه لها كل اولئك الذين هم قادرون على أن يساعدوا في تغيير وضع الثقافة العربية في العالم. □



شركات توظيف الأموال

لماذا هذا الملف ؟

تجاوزت ظاهرة شركات توظيف الأموال بمصر حدودها الجغرافية، وأصبحت حديثا في أكثر من قطر عربي ، وإن كانت غير مفهومة لكثيرين ، وغير واضحة التفاصيل . ولقد ظللنا نتساءل في « العربي » عن كيفية طرق هذه الظاهرة ، فنحن لسنا طرفا ، وجمهور قرائنا متنوع ومتعدد ، على امتداد خريطة الوطن العربي ، وسياسة المجلة وطبيعتها لا تجعلها تقف كثيرا أمام حدث يومي . وقد قررنا أن نقدم هذا الملف لعدد من الاعتبارات أولها حق القارىء في المعرفة والفهم ، وثانيها أن هذه الظاهرة قابلة للحدوث في أكثر من قطر عربي ، فمع توافر كتلة نقدية في السوق العربية ، ونتيجة لتعثر خطط التنمية ، تصبح قنوات الاستثمار محدودة أمام المواطن العربي ، بدءا من صغار المدخرين وانتهاء بكبارهم ، ويصبح المناخ مهيئا لأي من المؤسسات والشركات المشابهة التي تلهث وراء نقود المواطن العربي ، تحت شعار « نحن نعمل لك » ، أو « نحن نوفر وقتك ونعطيك أرباحا » . وتتكرر القصة بشكل أو بآخر .

ففي مصر تأسست شركات توظيف الأموال ، لتلقي أموال المدخرين واستثمارها ، وبعد فترة اكتشف المودعون أنهم كانوا ضحايا لعمليات غير دقيقة وغير علمية وغير منظمة .

ونحن في هذا الملف لا نتوقف كثيرا أمام الوقائع ، بقدر ما نحاول أن نتعامل مع الظاهرة ونقربها للفهم ، ونبحث عن الجذور والأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية . وكان من دوافع قرارنا لإعداد هذا الملف محاولة إزالة بعض سوء الفهم الذي كثيرا ما يرتبط بأمثال هذه الظواهر ، فيحلو لبعض حينا أن يزج بالإسلام المجيد كغطاء وإطار لهذه الشركات ووقائعها ، ونحن في تقديرنا أن الإسلام بريء من كثير من تصرفات بعض المسلمين ، ويحلو لبعض آخر أن يزج بعائدات النفط في هذه الظاهرة ، وهي ليست طرفا في القضية ، فكل ما أسهم به النفط أنه فتح سوق عمل لعدد من المواطنين العرب ، وقدم لهم مقابلا نظير قوة عملهم ، أما كيف استثمر هؤلاء عائد عملهم ، وماذا فعلوا به ، فهذه قضية أخرى !

ونحن في « العربي » أكثر انحيازا لفكرة مفادها أن افتقاد الثقافة الاقتصادية ، وتعثر خطط التنمية ، وقلة فرص الاستثمار ، سبب كاف لحدوث أمثال هذه الظواهر وتعددها بأشكال مختلفة .

ولأننا منحازون للمواطن العربي وحقه في المعرفة ، لكي يتجنب عثرات كثيرة ، فإننا نقدم هذا الملف ، لعله يجيب عن بعض الأسئلة والاستفسارات المتعلقة بهذه الظاهرة .

« العربي »





توظيف الأموال :

الواقع والأرقام

بقلم : نجاح عمر

ستظل عملية توظيف الأموال في مصر هي الحديث والحدث فترة طويلة قادمة .

الحديث الذي شغل ومازال ، وسيظل يشغل الجميع ، مسئولين ومواطنين ، سواء كانوا من صغار المدخرين أو كبارهم ، أو أولئك الذين لم تخدعهم تلك الأرباح الوهمية التي تبين بعد أن وقعت الواقعة أنها جزء من « رأس المال » .

وهي الحدث أيضا لا باعتباره مشكلة محلية خاصة بالاقتصاد المصري ، بل لكونها ظاهرة اقتصادية تمتد آثارها إلى خارج الحدود .

ذلك أن الجزء الأكبر من الذين أودعوا مدخراتهم في شركات توظيف الأموال في بداياتها من المصريين العاملين في الخارج ، وبالتالي فإن جزءا من عوائد النفط قد اتجه بشكل أو بآخر إلى هذه الشركات .

ووفقا لإحصائيات الجهاز المركزي للتعبئة والاحصاء المصري يقترب عدد العاملين بالخارج من ثلاثة ملايين مواطن ، ووفقا لتقرير للسفارة الأمريكية بالقاهرة عن الاقتصاد المصري:يقوم العاملون بالخارج بتحويل ثلاثة مليارات دولار سنويا إلى مصر .

هذه المليارات التي تجمعت لدى نوعيات بحكم تنوعها المهني : طبيب ، مهندس ، مدرس . . . الخ ، غير ملمة بعمليات الاستثمار ، فاتجهت خلال بحثها عن قنوات استثمارية ذات عائد مجز ، إلى شركات توظيف الأموال التي التقطتها قبل أن تدخل أرض الوطن . ومن هنا ولدت هذه الشركات في أحضان تجارة العملة .

لهذا كان توظيف الأموال حدثا اقتصاديا يصعب فصله عن أبعاده الأخرى السياسية والاجتماعية ، بل والدينية أيضا ، بمعنى أنها اعتمدت على ثلاثة عناصر محددة :

- الانفتاح الاقتصادي : غيبة الرقابة على النقد ، والقوانين التي صدرت لتشجيع القطاع الخاص والاستثمارات الأجنبية أتاحت حرية انتقال النقد الأجنبي إلى مصر من الخارج وكذلك العكس .
- التضخم : عندما يزيد معدل التضخم (وقد اقترب في مصر حسب الأرقام الرسمية من ٣٢٪) وعندما تفقد النقود قيمتها ، يصبح المواطنون في حاجة إلى نوع من التعويض ، والجري وراء أسعار أعلى للفائدة .

ـ الدّين : ارتدت هذه الشركات قناعا دينيا ، وراحت توظف الدّين لصالحها ، في الوقت الذي لم يصل فيه العلماء إلى قرار حاسم في قضية فوائد المصارف « البنوك » ، وما إذا كانت حلالا أم حراما . فاستغلت شركات توظيف الأموال اختلاف الآراء حول هذه القضية . وقد ساعد على ذلك أن الدولة لم تواجه الموقف ، بل انزلقت في نفس الاتجاه ، وأنشأت لمصارفها الرسمية فروعا للمعاملات الإسلامية ، بما يوحي أن ما يتم خارج هذه الفروع « غير إسلامي » . وفي بنك مصر وحده ـ وهو أهم وأكبر وأعرق مصرف وطني مصري ـ ثلاثة وعشرون فرعا إسلاميا ، وفي الطريق ثمانية فروع تحت الانشاء ، وظيفتها ـ كما يفهم من الوصف الرسمي لها ـ « أنها وحدات تزاول نشاطها وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية ، تحت إشراف لجنة شرعية ، مكونة من رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ، وعضوية أحد أعضاء مجمع البحوث الإسلامية » .

هذه الفروع تؤكد في كل ما تنشره من إعلانات ودعاية « أن أموال هذه الفروع منفصلة تماما عن أموال البنوك » . تلك هي عناصر الظاهرة التي عرفت في مصر بشركات توظيف الأموال .

والسؤال : ما هو الحجم الحقيقي لهذه الشركات ؟ وما قدرته في التأثير على الاقتصاد المصري ؟

متى بدأت ؟ وكيف نمت وتضخمت حتى تحولت من مجرد نشاط أفراد يتاجرون بالعملة إلى قوة اقتصادية ، وصفها رئيس الوزراء المصري في مذكرة خاصة بقانون تلقي الأموال « بأنها بصورتها الحالية تمثل خطورة على الاقتصاد القومي بوجه عام وسوق المال بوجه خاص . إذ لم يتسن في ظل عدم وجود تنظيم قانوني متكامل معرفة حقيقة أنشطتها وحجم المبالغ التي جمعتها ، ومجالات استثمارها ، وأعداد المودعين لديها وإجمالي ما يصرف لهم من عائدات » .

حجم الظاهرة

على الرغم من مضي عدة شهور على صدور قانون ينظم أعمال شركات توظيف الأموال فإن الصورة مازالت غير واضحة ، فكثير منها ، إن لم تكن كل هذه الشركات قد أودعت أموالها خارج مصر ، بعيدا عن رقابة القانون والدولة والبنك المركزي .

إلا أن هناك بعض المؤشرات ، منها ما أعلنت عنه هيئة سوق المال ، ومنها ما أعلن عنه رئيس مجلس الوزراء في مجلس الشعب ، وما ذكرته الأجهزة الرقابية والبنك المركزي في تقارير تشير إلى :

* أن عدد هذه الشركات بلغ ١٠٤ شركات ، قدمت منها خمس وسبعون شركة أوراقها إلى الدولة .
* أن أصحاب ٣٢ شركة قد أبدوا رغبتهم في توفيق أوضاعهم وفقا لقانون تلقي الأموال الأخير .
* أن عدد الشركات التي رفض أصحابها التوفيق وصل إلى ٢٥ شركة .
* أن الذين قدموا مراكزهم المالية ٢٦ شركة .
* أن محاسبي أربع شركات قد تقدموا بتقارير تفيد بأنهم لم يتلقوا أي بيانات عن تلقي الأموال .
* أن عدد الشركات التي لم تتقدم بأي أوراق قد وصل إلى ٤٣ شركة ، منها ٣٣ شركة أبلغ عنها المدعي العام الاشتراكي .
* أنه قد تم إحالة ١٧ شركة إلى محكمة القيم ، وفرضت عليها الحراسة .
* أن أربع شركات قد أحيلت إلى النيابة العامة .
* أن التحقيق قد تم مع ١٢ شركة .
* أن أصحاب أربع شركات موجودون خارج مصر ، بينما يوجد صاحب شركة واحد محبوس على ذمة التحقيق ، وخمسة مازال المحققون يدرسون أوضاعهم ، وذلك كله حتى كانون الثاني (يناير) ١٩٨٩ .

وبالتالي ، وحتى هذا التاريخ ، لم تكن الصورة قد اكتملت . ويتوقع المراقبون أن يظل هذا الوضع عدة شهور قادمة ، ذلك أن الدولة لا تملك أرقاما محددة عن حجم الأموال المهربة إلى الخارج ، ولا عدد المودعين ، ولا حجم الودائع ، ذلك أن معظم الشركات ـ إن لم تكن كلها ـ تزاول نشاطها خارج مصر ، ابتداء من المضاربة في بورصة لندن وباريس ، أو إنشاء المصانع في قبرص ، والمصارف (البنوك) في تركيا وجزر الباهاما ، مما اضطر الحكومة المصرية إلى تشكيل لجنة على مستوى مجلس الوزراء ، تضم مختلف الأجهزة الخاصة ، ووزارة

الخارجية والداخلية والاقتصاد وهيئة سوق المال . هذه اللجنة وظيفتها الوصول إلى معلومات محددة عن حجم الأموال المهربة ، وذلك بالاتصال بالسفارات في الخارج ، وسفراء الدول في القاهرة .

في الوقت نفسه وجهت نداء إلى المواطنين بالتقدم إلى هيئة سوق المال ، وإخطارها عن حجم مدخراتهم وأوضاعهم المالية في هذه الشركات .

ونظرا لعدم وجود دفاتر أو سجلات تفيد ذلك فقد تم تشكيل ٨٢ لجنة جرد من رجال النيابة ومباحث الأموال العامة وأمن الدولة ، للقيام بعملية الحصر ، والتحفظ على ممتلكات شركة واحدة ، هي شركة الريان . وقد تلقت دائرة جرائم الأموال بلاغات من المواطنين عن ممتلكات لم يكن قد تم حصرها ، وصلت في يوم واحد إلى (١٠٠) مليون جنيه . بينما تم التحفظ في يوم آخر على عشرة ملايين جنيه ، لم يكن قد شملها الحصر .

ووفق ما أعلنه المحققون في قضايا الريان ، حتى يناير ١٩٨٩ ، فإن حجم الودائع في هذه الشركة قد وصل إلى ١٧٥٠ مليون جنيه مصري ، بينما أكثر من (٤٠٠) مليون دولار مودعة بالخارج .

توظيف الأموال والمصارف الوطنية

يردد بعض أن مدخرات المصريين قد هربت من المصارف الوطنية إلى شركات توظيف الأموال .

ويرى آخرون أن توظيف الأموال قد استمد وجوده من فشل المصارف الرسمية للدولة . صحيح أن تحويلات المصريين في الخارج قد انخفضت خلال الفترة الذهبية لنشاط توظيف الأموال ، لكن الصحيح أيضا أن ما توافر للدولة من أرقام يشير إلى أن حجم ودائع شركات توظيف الأموال لا يمثل إلا ١٤٪ من حجم ودائع المصارف الوطنية .

وكذلك تشير المراكز المالية التي أعلنتها بعض الشركات (كالسعد والشريف) ، فشركة « السعد » على سبيل المثال ، وهي أكبر شركات توظيف الأموال ، تمارس نشاطها من خلال أربع شركات تضمها مجموعة واحدة في مجالات توظيف الأموال والتجارة ، والاستثمار الصناعي ، والاستثمار العقاري .

ورأس المال الاجمالي في ١٩٨٨/٦/١٠ - الفترة نفسها التي أعلنت عنها البنوك الوطنية مراكزها المالية - وصل إلى ٦,٥ ملايين جنيه !!

بينما بلغت الابداعات ، أو ما أطلق عليه المحاسبون في المركز المالي « استثمارات المودعين » وصلت إلى ٤٠٠ مليون جنيه ، وبالتحديد ٣٩٣,٥ مليون جنيه ، يضاف لذلك ٣٦ مليون مديونية مستحقة للغير .

يقابل هذا أصول ثابتة مملوكة للشركة ، قيمتها ٤٢,٢ مليون جنيه ، منها أربعون مليون جنيه قيمة أراض ومبان وعقارات ، أما بند الآلات والمعدات الصناعية فلا يزيد عن ثلث مليون ، لا أكثر ، أي ربع ماهو مملوك من أثاث !!!

بعد ذلك تأتي نوعيات الاستثمار ، فيكشف ما أعلن عنه من خلال البيانات التي نشرتها الشركة أنه :

* لا يحتل استثمارا ثابتا ، ولا تقابله أصول مملوكة للاستثمار ، لكنه يأخذ شكلا آخر يتلخص في :

٥٢,٧ مليون جنيه ، مشاركات طويلة الأجل « توظيف الأموال » .

٢٦ مليون جنيه ، مشروعات سكنية .

٤٩ مليون جنيه ، مخزون سلعي .

٣٦,٩ مليون جنيه ، لدى العملاء .

١٤ مليون جنيه ، مدينو مشاركات .

١١٩ مليون جنيه ، أرصدة مدينة أخرى .

٤٨,١ مليون جنيه ، سلف بضمان استثمارات المودعين .

تلك خريطة المركز المالي لواحدة من كبرى شركات توظيف الأموال . فإذا ناقشنا ما تقوم به هذه الشركة العملاقة - كما كانت توصف دائما - من نشاط ، موزع على شركاتها الفرعية ، بافتراض أن الأصول المملوكة لكل شركة فرعية تعبر عن الأهمية النسبية لنشاطها ، سوف نجد أن كبرى الشركات الفرعية هي (السعد للتجارة والتنمية) (٢٨٥,٢) مليون جنيه كأصول مملوكة . تليها (السعد للاستثمار العقاري) (٦٧,٧) مليون جنيه ، ثم (السعد للاستثمار الصناعي) (٦١,٣) مليون جنيه .

وأخيرا تأتي الشركة الرابعة (السعد للاستثمار) - توظيف الأموال - لنجد أن أصولها لا تزيد عن

(٤,٥) ملايين جنيه ، وهو ما يشير إلى أن ودائع العملاء كانت توجه أولا بأول إلى هذه الأنشطة ، وهي بالترتيب حسب الأهمية النسبية : التجارة أولا ، والعقارات ثانيا ، ثم الصناعة أخيراً .

ويبدو أن النشاط الصناعي لم يبدأ بشكل جدي ، إذ تشير الميزانية إلى أن (٦١,٣) مليون جنيه أصول مملوكة لشركة (السعد للاستثمار الصناعي) ، ليس من بينها أي أراضٍ أو مبانٍ أو آلات ، إنما مشاركات واستثمارات وسلف للغير ومدينو مشاركات ونقد بالمصارف .

أما الشركة الثانية (الشريف) فلم يزد حجم ودائعها ، وفق ما أعلنه مركزها المالي ، عن ٩٣٨,٦ مليون جنيه .

وبالمقارنة بين حجم الودائع في هذه الشركات والمصارف الرسمية نجد ودائع ثلاثة مصارف فقط ، بنك مصر ، والأهلي ، والقاهرة في الفترة نفسها (يونيو ١٩٨٨) ، تصل إلى ٢٥ مليار جنيه ، موزعة كما يلي :

* (بنك مصر) عشرة مليارات وأربعمائة وستين جنيها ، يعمل منها مليار في خمسين مشروعا إنتاجيا ، فضلا عن الأنشطة الأخرى .
* (البنك الأهلي) (٩,٧) مليارات جنيه .
* (بنك القاهرة) (٥,٣) مليارات جنيه .

إذن ، إذا كانت هذه هي الصورة فعلام هذه



الضجة ؟ ولم كل هذا الانزعاج والخوف على الاقتصاد المصري ؟!

الواقع - على ما يبدو من صغر الحجم الرقمي لظاهرة توظيف الأموال مقارنة بالمصارف الوطنية - أن الخطورة تنبع من الحجم النسبي في أنشطة بعينها ، مما يجعلها قوى ضاغطة ومتحكمة بشكل أو بآخر في السوق المصري ، ومؤثرة على اقتصاده .

فهي أولا : خلقت توجهات غير مشروعة ، لمدخرات العاملين بالخارج ، مما حرم الاقتصاد المصري مصدرا من أهم أربعة مصادر أساسية للدخل الوطني : قناة السويس ، النفط ، السياحة ، تحويلات المصريين بالخارج . ففضلا عن الاتجار بالعملة خلقت شركات توظيف الأموال مناخا ، هيأ للمدخرين أن بإمكانهم الحصول على أعلى نسبة ربح (٢٤٪) سنويا بالنسبة للمصارف الوطنية .

ثانيا : احتكارها لأنشطة بعينها ، مما يجعلها بشكل أو بآخر متحكمة في الأسعار ، حاكمة لسوق سوداء في سلع أساسية ومهمة . على سبيل المثال :

* ما حدث بالنسبة لسيارة « نصر » ، حيث استطاعت أن تستولي على إنتاج المصنع ، وإعادة طرحه في السوق بسعر جديد ، أعلى من السعر الحقيقي .

* احتكار سوق الذرة الصفراء التي تدخل في صناعة علف الدواجن ، مما أدى إلى رفع الأسعار ، وأغلق عدداً كبيراً من مصانع الأعلاف ، وهدد صناعة الدواجن نفسها بالانهيار .

* المضاربة بالذهب ، فقد تلقت هذه الشركات خسارة حجمها ٢٠٠ مليون دولار في المضاربة على الذهب (مليون أوقية) والعملات الأجنبية (٧٥ مليون مارك ألماني) .

أمثلة كثيرة ومتعددة تكشف عن خطورة هذه الشركات ، وخاصة إذا أضفنا للوضع الاقتصادي ما قيل وما تردد حول مساعدة هذه الشركات للتيارات المتطرفة ، مما يثير السؤال المهم : ماذا فعلت الدولة أمام كل هذا ؟

المواجهة

الواقع أن هذه الأنشطة لم تكن بعيدة عن عين الدولة ، فقد كانت الأجهزة الرقابية تتابع وتسجل

أولا بأول ما يجري وراء « الكواليس » ، وفي دروب المضاربات و « السمسرة » ، ولكن لأسباب كثيرة كانت المواجهة مؤجلة ، ومن هذه الأسباب عدم المساس بالاستقرار الاقتصادي ، حتى لا يهرب القطاع الخاص ، ولا يتردد الاستثمار الأجنبي في الحضور إلى مصر ، ومنها الخوف من الاقتراب من مؤسسات ترفع شعارات دينية . وهكذا اختلفت الأسباب والنتيجة واحدة « ممنوع الاقتراب » .

في بداية الثمانينات قدمت إدارة مكافحة جرائم الأموال العامة إلى الجهات المسئولة كشفا بأسماء كبار تجار النقد الأجنبي وسماسرته بالسوق السوداء . تقدم الكشف أربعة أسماء لأشخاص هم فيما بعد أصحاب كبرى شركات توظيف الأموال .

في تلك الفترة أصدر وزير الاقتصاد قرارا بقفل حساباتهم في المصارف ولم ينفذ !! وتلى ذلك عدد من قضايا النقد أهمها ما عرف بقضية سامي علي حسن .

بعد ذلك أصدر الوزير نفسه عددا من القرارات لتنظيم التداول في النقد الأجنبي ، عرفت بقرارات يناير ١٩٨٥ ، وبمقتضاها تم تشكيل لجنة لتحديد العلاوات التي تضاف إلى سعر الصرف المعلن في جميع المصارف المعتمدة . كذلك تتولى اللجنة تحديد الاجراءات المنظمة بتعامل المصارف المعتمدة في تجميع مدخرات العاملين بالخارج . وتلتزم المصارف المعتمدة بتوريد الحصيلة بالنقد الأجنبي إلى « البنك المركزي » .

بالطبع أحدثت هذه القرارات ردود أفعال واسعة ، كانت نتيجتها أن تغير وزير الاقتصاد في أول تعديل وزاري بعد هذه القرارات .

في عام ١٩٨٥ أيضا قام « البنك المركزي » بابلاغ الجهات القضائية ضد عدد من شركات توظيف الأموال ، لقيامها بنشاط مخالف لقانون النقد ، وقانون البنك ، ولم يحقق في أي منها إلا عام ١٩٨٨ .

في عام ١٩٨٦ وافق مجلس الشعب على قانون تنظيم نشاط شركات تلقي الأموال ، وكانت خلفيته الإنذار والأعذار، على الرغم من أن التجربة - كما شرح رئيس الوزراء في مذكرته الخاصة بالقانون - قد أكدت أن القوانين التي تحظر وتحرم بعض الأنشطة التي تمارسها شركات توظيف الأموال لم تعد تكفي لتنظيم أعمالها وإخضاعها لرقابة الدولة .

بعد صدور القانون بأيام تم تشكيل لجنة مع بعض الأجهزة المختصة لدراسة أوضاع هذه الشركات . وبذلك كانت في يناير ١٩٨٧ أول محاولة اقتراب قامت بها الحكومة ، لتتعرف على حقيقة هذه الشركات . وقد استغرقت الدراسة ما يقرب من سبعة شهور ، انتهت بتأكيد مجموعة من السلبيات ، أهمها كما قال رئيس الوزراء في مجلس الشعب :

- لا حسابات يمكن الرجوع إليها .
- الأموال التي جمعت احتفظ بها باسم أصحابها لا باسم الشركة .
- أصول الشركات داخل مصر محدودة لا تتناسب مع ما تلقته من أموال .
- الأرباح لا تستند إلى فوائد حقيقية ، ولكن تصرف مما تحصله من أموال المودعين . وتشير الأرقام إلى أن أكبر ربح حصلت عليه شركة توظيف أموال لم يزد عن ٦٪ ، بينما توزع أرباحا على المودعين تصل إلى ٢٤٪ ، وربما ١٠٠٪ في بعض الحالات .

في يونية ٩٨٧ أكدت الحكومة في بيانها أمام مجلس الشعب أنها لن تقف مكتوفة الأيدي أمام هذه الظاهرة ، وكان ذلك تحذيرا آخر حتى لا تحدث ردود أفعال غير مرغوب فيها .

في نوفمبر ١٩٨٧ قدمت الحكومة استقالتها ، وأعيد تشكيلها بالتشكيل القديم نفسه وجاء في بيانها الجديد أنها بصدد تشريع يواجه هذه الظاهرة ، وبالفعل أكد مجلس الأمة في رده على بيان الحكومة ضرورة إصدار تشريع ينظم أعمال هذه الشركات على الجانب الآخر قامت شركات التوظيف بأعنف مواجهة مع الحكومة في الفترة من ديسمبر ١٩٨٧ إلى مارس ١٩٨٨ في محاولة ضغط لمنع إصدار القانون .

في يونيو ١٩٨٨ صدر القانون ، وفي أغسطس من العام نفسه صدرت لائحته التنفيذية ، ومنذ هذا التاريخ والمواجهة قائمة بين الحكومة وشركات توظيف الأموال .

والسؤال : ثم ماذا بعد ذلك ؟!

مازالت الصورة غير واضحة ، والتكهنات بما يأتي به المستقبل أمر صعب ، وسوف يظل الوضع على ماهو عليه فترة قادمة . □

شركات توظيف الأموال

بين «إسلامية» التوجه وخطأ الممارسة

بقلم : الدكتور عبد الحميد الغزالي

أود - ابتداء - أن أؤكد جو « الكارثة » الذي يعيشه مجتمعنا - في مصر - بسبب ما حدث لشركات توظيف الأموال ، وما حدث من بعض هذه الشركات .

وفي هذا الجو يكثر الانفعال ويشتد أواره ، والانفعال لا يقدم تحليلاً للمشكلة ، ناهيك عن معالجة جادة لها . وبالقطع ، لا يخدم أحداً ، بل يضر ضرراً بالغاً بكل شيء : الوطن والمواطن ، الاقتصاد والمجتمع ، والوسائل والأهداف ، وخاصة في مجال المال الذي يقوم وينمو أساساً على « الثقة » !.

ولذلك ، لا بد من محاولة ضبط النفس على الأقل بالنسبة لبعضنا ، وخاصة من يعمل في الحقل « الأكاديمي » ، حتى نستطيع أن نقدم ، بشيء من الهدوء والموضوعية ، محاولة معقولة لدراسة هذه الظاهرة ، توصلاً إلى بعض النتائج المفيدة .

وعليه يتحدد إسهامي في أربع نقاط رئيسية ، هي : بعض الملاحظات حول الظاهرة ، بعض التعريفات لمصطلحات ارتبطت بها ، محاولة وضع « سيناريو »مقترح للتحليل ، ثم أخيراً بعض النتائج الأولية .

بعض الملاحظات :

بالنسبة للملاحظات وباختصار سريع أقول مشدداً :

دعنا نتفق أنه لا يوجد لدينا - حتى الآن - « معلومة صحيحة » بمعنى بيانات مؤكدة حول هذه الشركات . وبالتالي لا يمكن علمياً أن نصل إلى نتائج نهائية أو أحكام قاطعة حولها ، وفي ظل هذا الجو المعبأ بالشائعات . ومن ثم ، فأي محاولة لتشخيص الظاهرة وتحليلها ومعالجتها ستظل على مستوى الانطباعات المحسوبة أو التقدير التخميني والنتائج الأولية .

إننا وفقاً للمنهج العلمي لا يجب أن « نعمم » من مفردة واحدة ، أو عدد قليل من المفردات على مفردات الظاهرة ككل . فما سمعناه ، ورأيناه وقرأناه خلال هذه الفترة المشحونة بالانفعالات والشائعات تعميمات من حالة بعينها ، مما يضر ولا ينفع ، ويصيب الصالح والجاد من هذه الحالات ، إن وجد ، قبل الطالح والمنحرف إن وجد أيضاً . وبالتأكيد يصيب في مقتل مناخ الاستثمار ، والثقة في التعامل الاقتصادي .

إننا لا يجب أن نخلط الأوراق في هذه

المسألة ، وعلى الأخص يجب وبدون حساسية - عند البعض - أن نفرق بين الاسلام العظيم وبين ما « قد » يرتكبه بعض المسلمين من أخطاء أو انحرافات . فالشركات التي تجمع أموال صغار المدخرين المسلمين وغير المسلمين ، وتوظفها في مشروعات اقتصادية لصالح أفراد المجتمع ، وفقاً للأولويات الانمائية المعتمدة من قبل المجتمع ، ووفقاً للقوانين السارية ، وفي حدود الضوابط الشرعية ، فإننا نؤيدها ونباركها وندعو إلى تشجيعها . أما الشركات التي تجمع هذه الأموال لتتاجر بها في العملات الأجنبية ، أو تضارب - أي تقامر - في المعادن النفيسة أو في الأوراق المالية في السوق الدولي ، أو حتى توظفها في الداخل في مشروعات ذات أولويات انمائية منخفضة ، أو تتاجر - بصورة احتكارية - في سلع أساسية أو ضرورية ، فنحن أول من يرفض سلوكها ، ويدعو إلى محاسبتها ، وتصحيح مسارها وترشيدها إن أمكن ، حفاظاً على أموال المودعين ، وعلى مصالح الاقتصاد والمجتمع في الحاضر والمستقبل .

بعض التعريفات :

بعد هذه الملاحظات الضرورية نتناول بشيء من الاختصار والتبسيط بعض التعريفات التي تنبق من تأكيد « حقيقة » أن الإسلام كدين ونظام حياة « كامل » قدم « اقتصاداً إسلامياً » على مستوى التنظير ، و « نظاماً اقتصادياً إسلامياً » شاملاً ومفصلاً على مستوى التطبيق ، و « منهجاً إسلامياً في التنمية الاقتصادية » ، على مستوى حركة الحياة لتحقيق « الإعمار » الجاد المستمر للأرض .

فمن منطلق استخلاف الله ، سبحانه وتعالى ، للانسان في الأرض ، جاء الإسلام ، بكل قواعده العامة وتفصيلاته الفرعية ، ليحض على تثمير المال وتنميته ، وفقاً لصيغ الاستثمار الاسلامي التي تقوم على الاشتراك الفعلي للمال في النشاط الاقتصادي ، وتحمله « كامل » المخاطرة كأصل من أصول الاقتصاد الإسلامي . ولضمان تحقيق هذا « الإعمار » المنشود جاء الإسلام في الوقت نفسه ليحارب الاستغلال والمستغلين ، وكل صور « أكل أموال الناس بالباطل » ، كركن من أركان نظامه الاقتصادي .

ومن هنا كان التحريم الكامل والقاطع بنص الكتاب والسنة لكبيرة « الربا » . والربا ، لغة هو الزيادة ، واصطلاحاً هو الزيادة بغير عوض ، أي « استغلال » .

ولقد أجمع جمهور « الفقهاء » ، قدامى ومحدثين ، على تحريم الربا الجاهلي أو القرآني أو الجليّ أو ربا الدين أو القرض ، وهو : الزيادة مقابل الأجل .

كما أفتى بعض « الفقهاء » المحدثين على اعتبار « الفوائد المصرفية » المدينة - أي التي يدفعها المصرف التقليدي لعملائه المودعين - والدائنة أي التي يتقاضاها هذا المصرف من عملائه المستخدمين لموارده المالية ، سواء للأغراض الاستهلاكية أو الانتاجية - من هذا الربا المحرم . ويرجع ذلك إلى حقيقة أن علاقة المصرف بعملائه في الحالتين ، أي في جانبي الموارد والاستخدامات ، يحكمها عقد « القرض » ، حيث يكون المقترض « ضامناً » لأصل القرض ، وملتزما بدفع فائدة ثابتة ومحددة مسبقا للقرض . والإسلام لايعرف قرضا سوى القرض « الحسن » . ولا يحل بالتالي للمقرض أي عائد على أساس المبدأ الإسلامي القائل : « الخراج بالضمان » ، أي العائد لا يحل إلا نتيجة تحمل كامل المخاطرة . فالمال ، في الإسلام لا يلد ، في حد ذاته ، مالاً . ومن ثم لا ينمو المال ، أي لا يكون غانماً ، إلا إذا كان غارماً ، بالاشتراك فعلاً في النشاط الاقتصادي على أساس المشاركة في الربح والخسارة .

وهذا ينقلنا إلى صيغ الاستثمار الاسلامي

« الحقيقي » وليس « المالي » في صورة عقـود المشاركات القائمة على المخاطرة مشاركة في الربح والخسارة ، ومنها عقد المضاربة الشرعي ، الذي يختلف جـذريـاً عن المضـاربـة الـوضعيـة (المقامرة) ، القائمة على توقعات أسعار السلع والأصول المالية . بينما عقد « المضاربة » الشرعي يمثل علاقة مشاركة بين طرفين : رب المال بالمال ، والمضارب أو العامل في المال بالعمل . وشرط صحة هذا العقد أن يتفق الطرفان مسبقاً على توزيـع « نسبي » لما قـد يتحقق من أرباح بينهما . أما إذا وقعت خسارة فيتحملها بالكامل رب المال . وهذا هو شق المخاطرة الذي يحلل لـرب المال نصيبه في الربـح عنـدمـا يتحقق . ويكفى المضارب أنه خسر جهده . وهذا هو شق المخاطرة الذي يبرر للمضارب حقه في الربح عند التحقيق .

ويعـد عقـد المضـاربـة وصيـغ الاستثمـار الاسـلامي الأخرى من مشاركات ومـرابحات ومتاجرات . . الخ ، الصيغ الاستثمـارية التي كانت تحكم نشاط « بعض » شـركات تـوظيف الأمـوال ، أو هكذا قـال المسئـولـون عن هـذه الشركات ، أو أشارت إلى ذلك الوثائق الصادرة عنهم ، أو الإعـلانـات المنفـذة لحسـابهم وعن نشاطهم .

وفي نهاية نقطة التعريفات أود أن أشدد على حقيقة أن « الثقة » هي الأساس في مجال المال ، وأن الفن المصـرفي الحديث يقـوم على احتفـاظ « المصرف » - التجاري - بجزء ضئيل « نسبياً » من إجمالي ودائع عملائه في صورة سائلة ، لكي يستطيع أن يقابل اعتبار الثقة بـالاستجابـة من خلال الخبرة - أو القانون - في حدود هذا الجزء السـائل ، وان تيـارات السحب يقابلها عـادة تيـارات إيـداع جـديـدة . ولا شـك أن هـذه التحديدات التعريفية سوف تساعدنا على تفهم أدق ، وتشخيص أعمق ، لـظاهـرة شـركـات توظيف الأموال ، ممـا يساعـدنا بـالتالي ، على اقتراح بعض الاجراءات العملية لمعالجة بعض آثارها السلبية .

« السيناريو » المقترح للتحليل :

بالنسبة لهذه النقطة هناك « سيناريو » يقول : إن شركات توظيف الأموال نبتت في تربة تجارة العملة ، ثم نمت كجزء من الصحوة الإسلامية ، ودعمت بدورها التيار الإسلامي ، ممثلة الجناح المادي له ، وكان موقف الإدارة العنيف منها يعود



أساساً لهذا السبب . وهذا « السيناريو » ، وما على شاكلته ، مرفوض ، جملة وتفصيلاً ، ولا يستحق التعليق عليه .

وفي ظل غياب كثير من البيانات الأساسية ، وفي ضوء ملاحظاتنا السابقة ، فإننا نعتقد بأن الأمر يعود إلى أواخر النصف الأول من السبعينيات ، حين تعرض الاقتصاد المصري لحالة من « الثراء النقدي » غير المسبوق ، بفعل أربعة مصادر ذات طبيعة « مؤقتة » ، وهي : عائدات العاملين بالخارج ، وعائدات النفط ، وعائدات قناة السويس ، ودخل السياحة . ولم تستطع قنوات الادخار والاستثمار « التقليدية » أن تجتذبها وتحولها إلى مشروعات إنمائية ، تزيد من القدرة الانتاجية للاقتصاد المصري ، ومن ثم ، بدأ يتحول هذا الغنى النقدي إلى طفرة في الاستهلاك ، وعلى الأخص الترفي منه ، مما أدى إلى ارتداد أو انتكاس هيكلي في الاقتصاد ، لصالح قطاعات الخدمات ، وعلى حساب القطاعات السلعية . وهذا هو ما نطلق عليه مصطلح « المرض الهولندي » ، نسبة إلى التجربة الهولندية ، التي رصد فيها هذا المرض الاقتصادي لأول مرة .

وفي هذا الجو نشأت شركات توظيف الأموال لكي تستقطب جزءاً من هذه الأموال الباحثة عن النماء السريع والأمان النسبي والخدمة الجيدة ، بعيداً عن الجمود النسبي للأوعية التقليدية وبخاصة الرسمية ، أي المملوكة للدولة . ولقد ساعد على بناء الثقة في هذه الشركات من قبل عملائها المتزايدين أن بعضها بدأ فعلاً بتجارة العملة ، وأن الشركات في معظمها كانت « تفي بما تعد » ، في مجال الودائع ، بل وفي مجال الخدمات « الشخصية » للمودعين .

وانتشرت هذه الشركات ونمت نمواً سريعاً غير مسبوق في سوق النقد والمال ، بفعل عدة عوامل ، لعل من أهمها : العائد « المرتفع » وانتظام العائد ودوريته ، وحرية السحب والايداع عند الطلب ، ونظام « الاستيراد بدون تحويل عملة » ، وضريبة « التركات » التي تجعل الحكومة وريثاً غير شرعي ، يستحوذ على حوالي ثلثي إجمالي التركة ، وحملة دعاية وإعلان وإعلام واسعة ومنظمة ، وعدم وجود قنوات ادخار واستثمار حكومية ذات عائد مجزٍ في بعض الأحيان .

وبعد هذه النشأة « القوية » ، وفي ظل الصمت الحكومي المطبق ، تعرضت هذه الشركات ، وهي بصدد تنفيذ طموحاتها - مع عجز إداري وتنظيمي واضح ومتزايد - لما أسميه بحالة « المرض المصري » الذي نشترك في معاناته كمرض اقتصادي واجتماعي مع معظم الدول المتخلفة . ويمتد هذا المرض ليشمل عدداً من السلبيات : ابتداء من سلبيات « البيروقراطية » ومعوقات الاستثمار ، ومروراً بالذمم الخربة والنفوس المريضة والشخصيات الضعيفة ، وانتهاء بالعمولات والرشاوى والاختلاسات والسرقات . فكان انحرافاً أو مزيداً من انحراف بعض هذه الشركات ، داخلياً وخارجياً .

وتمثل الانحراف الداخلي في شراء الذمم ، لشراء غير شرعي لمختلف الخدمات ، وفي توظيف بعض موظفي الادارة العليا ، وبالتالي تسخير بعض أجهزة الدولة لمثل هذه الخدمات ، وإضافة وهمية لمزيد من الثقة في هذه الشركات ، وفي « احتكار » لبعض السلع الأساسية الاستهلاكية والانتاجية ، ومن ثم تحكم في السعر ، واستغلال منظم لظروف السوق ، وأخيراً ، في توظيف الأموال في مشروعات ثانوية ذات أولويات إنمائية شديدة الانخفاض . وتمثل الانحراف الخارجي في تهريب مئات - إن لم يكن آلاف - الملايين من العملات الصعبة التي يعد اقتصادنا في أمس الحاجة إليها ، للمضاربة في العملات والمعادن النفيسة والأوراق المالية ، بل ولإنشاء بعض المشروعات ، وشراء بعض العقارات ، أو حتى لمجرد إيداعها في الخارج .

وأخيراً تنبهت الحكومة ـ لحقوقها المشروعة ـ وبدأت تعلن قرابة عامين ، وبصورة منتظمة تكاد تكون يومية ، بأنها سوف تصدر قانوناً ينظم نشاط هذه الشركات ، ويضمن حقوق المودعين ويحافظ عليها . وفي النهاية ، صدر القانون رقم ١٤٦ لسنة ١٩٨٨ الذي صاحب الإعداد له ، وولادته « الفجائية » ، وحتى صدور لائحته التنفيذية ، حملة إعلامية شاملة ـ على عكس حملة الدعاية للشركات ـ من أجهزة الإعلام ، وخاصة المقروءة ، لتوضيح كل شيء يرتبط بهذه الشركات ، ومن ثم حدث الانهيار الكامل ، ووصلنا ، كنتيجة طبيعية ، إلى حالة الكارثة .

بعض النتائج الأولية :

باختصار شديد ، وبعد حدوث الكارثة ، يتعين أن نعمل جميعاً على تحجيم آثارها السلبية ، والتخفيف بقدر الإمكان من المعاناة الحقيقية التي سببتها للكثيرين ، وتقليص الخسائر ـ المباشرة وغير المباشرة ـ الناجمة عنها على الأفراد والاقتصاد والمجتمع إلى أقل حد ممكن . ويتم ذلك بعدد من الاجراءات المحددة ، لعل منها في تصورنا ما يلي :

الإسراع بعمليات تقويم المراكز المالية للشركات ، وعمليات التوفيق والتصفية ، حتى يطمئن أصحاب الودائع على حقوقهم أو بعض حقوقهم ، وأن يعطى لأصحاب الودائع ، وخاصة صغارهم ، أولوية أولى عند التصفية وإجراء قسمة الغرماء .

الضرب بيد من حديد ، وبكل حزم وحسم ، على من تربح بغير حق من أي من هذه الشركات ، وعلى الأخص من أدرج أسماؤهم فيما يسمى بكشوف « البركة » ، ولنعلنها حملة شاملة مدروسة وواعية على الفساد والإفساد في كل الوحدات الانتاجية ، عامة ومشتركة وخاصة ، بل وفي كل الأجهزة المنظمة لحياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمحلية .

إعادة النظر في قانون تلقي الأموال ، والعمل على تعديله بما يتفق وتشجيع الوحدات الجادة من هذه الظاهرة ـ إن وجدت ـ على أساس أنها في واقع الأمر ، مصرف « استثمار وأعمال » من نوع جديد ، يعتمد أساساً على موارد قصيرة الأجل ، ويتعامل وفقاً لنظام المشاركة في الربح والخسارة . ومن ثم يسن لهذه الوحدات ـ وكذلك المصارف الإسلامية ـ قانون خاص ، يتفق وطبيعتها على أنها مؤسسات نقدية لا تتعامل في الديون أو القروض أو الائتمان ، وتخضع لإشراف البنك المركزي ورقابته كوحدات مصرفية ذات طبيعة خاصة .

وأخيراً إجراء طويل الأجل ، يتمثل في تكوين مجموعة أو مجموعات عمل من كافة الأطراف ذات العلاقة ، ومن المهتمين بالظاهرة ، لإعداد دراسة تفصيلية متأنية عن هذه الظاهرة ، من حيث ظروف النشأة وعوامل التطور وأسباب الانهيار ، ومن حيث الدروس المستفادة ، ووسائل العلاج لسلبيات التجربة ، وإمكانات الخروج من المأزق الحالي ، لإعادة الثقة في مناخ الاستثمار ، ولإعادة الثقة في الأوعية الادخارية والاستثمارية المتاحة والمستحدثة ، ولإعادة الثقة في الاقتصاد المصري في النهاية . □

قل الثالثة : قرع رجل الباب على الحسن البصري وقال : « يا أبو سعيد ! فلم يجبه ، فقال : يا أبي سعيد ! فقال : قل الثالثة ـ أي يا أبا سعيد ـ وادخل » .

العربي ـ العدد ٣٦٥ ـ ابريل ١٩٨٩ م



شركات توظيف الأموال والجاهلية الاقتصادية الجديدة

بقلم : الدكتور محمود عبدالفضيل

مازالت قضية شركات توظيف الأموال ومضاعفاتها أحد شواغل المجتمع المصري والعربي عموما ، في عصر انتشرت فيه « المقامرات المالية » .

ولعل ظهور شركات توظيف الأموال في مصر ، ونموها السرطاني خلال الثمانينيات ، يمثل أهم الظواهر الاقتصادية والمالية والاجتماعية التي ألمت بالمجتمع المصري خلال السنوات الأخيرة ، بل لعلها عكست العديد من التناقضات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يزخر بها المجتمع المصري .

والسؤال المهم الذي يلح على أذهان المجتمع ، علماء الاجتماع والاقتصاد ، وراسمي السياسات ، والمواطنين العاديين هو : كيف نجحت شركات توظيف الأموال في أن تتغلغل في بنية الاقتصاد المصري إلى تلك الدرجة المخيفة ، في ظل ممارسات أقرب ما تكون إلى أساليب « الشعوذة المالية » . هذا وقد مست أزمة « شركات توظيف الأموال » كل بيت ، وزلزلت جنبات المجتمع المصري .

ولكن دعونا نتأمل الآن في نشأة الظاهرة وتطورها وتفاعلاتها وتشابكها داخل المجتمع المصري ، بهدف استخلاص الدلالات التاريخية والاجتماعية للحدث . إذ أن البعد الاقتصادي لظاهرة شركات توظيف الأموال لا يمثل سوى البعد الظاهر (أو المرئي) لجبل الثلج ، بينما الأبعاد الخفية تكمن في جبهة الاجتماع والسياسة « وسيكولوجية » الجماهير .

البداية كانت « تجارة العملة »

لم يكن لشركات توظيف الأموال أن تقوم لها قائمة لو لم تكن هناك تلك القوافل من المهاجرين إلى أقطار الخليج العربي وغيرها من البلدان ، ووجود حجم هائل من الأموال المطلوب إرسالها إلى بلدان المنشأ . ففي ظل اضطراب أحوال سوق الصرف الأجنبي وقواعده في مصر ، نشط تجار العملة بذكاء شديد ، ليلعبوا دور « الوسيط » بين العاملين في الخارج وبين ذويهم ووكلاء استثمارهم في الداخل ، وبالتالي تمت السيطرة على الجانب الأعظم من مدخرات المصريين في الخارج التي قلما صبت في قنوات الجهاز المصرفي الرسمي .

ولقد انطوى نشاط « تجار العملة » ـ منذ البداية أي منذ منتصف السبعينيات ـ على أنشطة ضمنية وفرعية « لتوظيف الأموال » ، ففي أحوال كثيرة ، كانت عمليات تحويل العملة وتغييرها تتم لأجل ، (أي تتم تسوية الصفقة وإنجازها بعد أجل معين متفق عليه)، ومعنى

ذلك أن الأموال والتحويلات كان يجري توظيفها بواسطة «تجار العملة» لأجل معين ، وأن سعر الصرف « المتميز » الذي كانت تتم على أساسه التعاملات ، إنما كان يمثل خليطا من « سعر الصرف » و« سعر الفائدة » ، (أي عائد الاتجار في تلك الأموال) . ولهذا لم يكن مستغربا أن يتحول بعض كبار تجار العملة وصبيتهم من « تجارة العملة » ـ بمعناها الصرف ـ إلى نشاط « توظيف الأموال » ، وتجميع مدخرات المصريين في الداخل والخارج ، والقيام بعمليات الوساطة المالية والاستثمار المباشر والمضاربة في الأسواق المالية الخارجية .

وهكذا تطورت أنشطة « تجارة العملة » تدريجيا ، لكي تصبح أنشطة « توظيف أموال » ، وغدت شركات توظيف الأموال آلية جديدة ، تلعب دور الوسيط « غير الرسمي » بين أسواق المال والصرف الأجنبي في الخليج ومصر ، من ناحية ، والسوق العالمية المالية من ناحية أخرى . وأصبحت عمليات الوساطة وتوظيف الأموال تقوم على مخاطبة العملاء والمدخرين المصريين في الداخل والخارج ، من فوق رؤوس الأجهزة والسلطات النقدية والمالية المختصة .

ودائع شركات توظيف الأموال :

وقد أحدث ظهور شركات توظيف الأموال في السوق المصرية في بداية الثمانينيات ارتباكا كبيرا في الحياة الاقتصادية والمالية المصرية ، إذ تم سحب الأموال والودائع من المصارف والأوعية الادخارية الأخرى الخاصة بالقطاع العائلي وتحويلها ، ليتم ايداعها لدى شركات توظيف الأموال ، جريا وراء العائد الأعلى الذي كان يتجاوز ٢٢٪ سنويا ، ويتم دفعه بشكل شهري منتظم . حتى لقد أصبح هذا العائد بمثابة « الدخل المرتب شهريا » ، له حكم الدخل الدوري ، لا سيما لدى صغار المدخرين من موظفين وحرفيين وأرباب معاشات ومهنيين .

وتشير البيانات الأولية المتاحة إلى أن الجمهرة الكبرى من المودعين هي من صغار المدخرين الذين تقل ودائعهم عن فئة الخمسة آلاف جنيه .

ولدى هيئة سوق المال الآن أكثر من ٥٠ ألف استمارة مقدمة من أصحاب الودائع ، معظمهم مودعون لدى شركة « الريان » ، وتقدر قيمة هذه الودائع وحدها بحوالي ٨٠٠ مليون جنيه ، كذلك تم حصر نحو ١٠٦ شركات ، تقوم بنشاط تلقي الأموال وتوظيفها دون ترخيص بذلك ، بما في ذلك قبول الودائع بالنقد الأجنبي .

وفي تقديرنا ـ وفقا لعدة أدلة وشواهد ـ أن حجم الودائع لدى شركات توظيف الأموال في الداخل والخارج (وبالعملات المحلية والأجنبية) لم تتجاوز ٨ مليارات من الجنيهات المصرية ، على الرغم من بعض التقديرات التي ضخمت حجم تلك الأموال والودائع . لقد دأبت بعض الأقلام المناصرة لشركات توظيف الأموال في الصحافة المصرية على التهويل من شأن حجم الايداعات لدى شركات توظيف الأموال ، بل لقد جاء في أكثر من مقال وتصريح أن حجم تلك الإيداعات يصل إلى ثلاثة عشر مليار جنيه ، بهدف التضخيم من حجم الأعداد التي تتعيش على ريع تلك الأموال ، كجزء من حملة الترهيب للحكومة والمجتمع ، لكي لا يتم الاقتراب من تلك الشركات ومناطقها المحرمة .

وإذا أخذنا بتقدير متحفظ لحجم الايداعات والتوظيفات لدى تلك الشركات في حدود خمسة مليارات جنيه ، فإن هذا الرقم يظل رقما كبيرا بكل المعايير ، لأنه يمثل تسرب جانب مهم من مدخرات القطاع العائلي من الأوعية الادخارية « الرسمية » إلى أوعية ادخارية ومسارات جانبية لاضابط ولا رابط لها سوى أهواء أصحاب تلك الشركات . وعلى الصعيد الاجتماعي ، أدى تنامي نشاط شركات توظيف الأموال إلى مزيد من

« التربيع » للمجتمع المصري ، أي تزايد أعداد الأفراد الذين يتعيشون على ريع الإيداعات لدى تلك الشركات ، دون جهد أو عطاء .

وقد عبر محمد بك المويلحي ببراعة عن تلك الظاهرة « الريعية » في حديث عيسى بن هشام ، إذ جاء على لسان السمسار ما يلي :

« فإنك لا تدفع هنا بثمن أرض ، ولا تنفق على حرث ، ولا تؤدي ضريبة ، ولا تبذل ماء وجهك لري الأطيان ، ولا تحني ظهرك لأصاغر الحكام ، وما دخلت في قضية ، ولا وقعت في منازعة ، ولا تخوفت شيئا من الآفات ، سماوية كانت أو أرضية ، بل هو ربح يأتيك عفوا صفوا ، ولا رأس مال له سوى أربعة حروف أو خمسة بيمينك في التوقيع » .

وكأنه بذلك يتحدث عن صكوك المضاربة وعقود المرابحة السائدة بين المودعين وشركات توظيف الأموال . وهكذا فإن روح المضاربة والكسب السريع دون جهد أخذت تطغى تدريجيا على مجريات الحياة الاقتصادية العربية ، لتزاحم أنشطة الزراعة والصناعة والتجارة وتحط من شأنها وهي عماد العمران والاقتصاد المتين الأركان .

فئات وطبقات المودعين :

كانت معدلات العائد المرتفع التي تمنحها تلك الشركات للمودعين « بحد أدنى » ٢٤٪ في السنة أو ٢٪ في الشهر ، هي الحافز الأكبر لتدافع مئات الألوف من المودعين لدى تلك الشركات ، وكان ذلك الرقم السحري (٢٤٪ في السنة) الذي اتخذه أصحاب شركات توظيف الأموال أساسا لربط العائد السنوي - دون الاستناد إلى نتائج نشاط حقيقي أو أعمال حقيقية - هو رقم يقترب كثيرا من معدل التضخم السنوي السائد في الاقتصاد المصري ، وبالتالي يساعد على حماية المدخرات الفردية من التآكل بفعل نيران التضخم . وليس هناك شك أن وراء تحديد هذا الرقم للعائد خبراء ، على دراية بفنون الاعلان واللعب على « سيكولوجية » المدخرين ، ولا سيما فئات صغار المدخرين .

وهنا يقتضي التحليل العلمي ، التفرقة والتمييز بين ثلاث فئات من المودعين لدى شركات توظيف الأموال في مصر :

أ) الفئة الأولى :

وهي فئة صغار المودعين من أرباب المعاشات ، والأرامل ، وصغار المدخرين والعاملين في الخارج من ذوي المهارات الدنيا .

ويصل حجم الايداعات لعناصر تلك الفئة دون مبلغ خمسة آلاف جنيه .

ب) الفئة الثانية :

وتضم عناصر الطبقة المتوسطة من حرفيين



وعمال مهرة وموظفين ومهنيين وضباط عاملين ومتقاعدين ، ويتراوح حجم إيداعات تلك الفئة مابين عشرة آلاف ومائة ألف جنيه ، وتشمل هذه الفئة ضمن عناصرها ، العديد ممن أتيح لهم العمل في بلدان الخليج وقاموا بتكوين بعض المدخرات وتسليمها بالكامل لشركات توظيف الأموال .

ج) الفئة الثالثة :

وتشمل كبار المودعين من الأثرياء الذين تتراوح إيداعاتهم ما بين ربع مليون ومليونين من الجنيهات . وهي فئات لا تضع كل مدخراتها أو أموالها لدى شركات توظيف الأموال ، بل تضع فقط جانبا محدوداً من ثرواتها وأموالها لدى شركات على صعيد المقامرة والتنويع لمحافظ الاستثمار . وقد حصلت عناصر تلك الفئة في أحوال كثيرة على عائد متميز يصل إلى ٣٠ - ٤٠٪ في السنة .

ولعل الجانب المأساوي للقضية - من منظور التنمية الطويلة الأجل - هو قيام بعض عناصر الطبقة المتوسطة بتصفية أصول إنتاجية حقيقية مثل الأراضي الزراعية والمصانع و « الورش » والأسهم وتحويلها إلى صكوك مالية (أصول ورقية) لدى شركات توظيف الأموال ، مما يشكل طعنة بليغة لمستقبل عملية التنمية والتراكم الانتاجي في المجتمع المصري

وكما ابتدعت شركات توظيف الأموال العديد من أساليب الاحتيال المالي ، فقد تم ابتداع صيغة جديدة ، يتم بمقتضاها صرف « سلف شهرية » على ذمة الأرباح ، يتم تسويتها فيما بعد . واليوم وبعد أن تكشفت الأسرار والخبايا ، يجد المودعون أنفسهم في وضع لا يحسدون عليه ، إذ أعلنت العديد من شركات توظيف الأموال ، أن المبالغ والسلف التي تم توزيعها تحت الحساب كانت على « ذمة أرباح لم تتحقق » ، وبالتالي لا بد من اقتطاعها من أصل الوديعة . وهكذا قامت الشركات بأكبر خدعة في التاريخ المالي الحديث ، وتتمثل في إقراض المودعين من « حر مالهم » على هيئة أقساط شهرية .

وبحسبة بسيطة ، يمكن القول ان نحو ثلث الايداعات سوف يتم خصمها على ذمة مسحوبات السلف المنصرفة ، وبذلك يكون المودعون قد خسروا نحو ثلث قيمة مدخراتهم ، حيث قاموا بإنفاقها في أغراض استهلاكية ، في ظل الوهم السائد بأنهم ينفقون عن سعة من واقع العائد على ايداعاتهم ، وليس اقتطاعا من أصل الودائع . وهكذا يمكن القول بأن تلك الشركات جديرة بمسمى « شركات تبديد الأموال » ، وليس شركات توظيف الأموال .

توظيف الأموال و « المجتمع المدني » :

عندما تحدث بعض عن « صحوة » و « انتعاش » المجتمع المدني في مصر خلال السنوات الأخيرة ، كان في ذهن بعض الناس أن نمو شركات توظيف الأموال وتغلغلها في الحياة الاقتصادية المصرية بمبادرات فردية وغير رسمية (أي بعيدا عن مظلة الدولة) ، والتفاف جمهرة من المودعين حولها ، إنما هو تجسيد لتلك « الصحوة » وأحد رموزها . ودون التطرق للحديث عن مؤشرات « صحوة » أو « غفوة » المجتمع المدني في مصر خلال السنوات الأخيرة ، فلقد نجحت شركات توظيف الأموال باختراق « المجتمع المدني » في مصر من خلال خلق قاعدة اجتماعية عريضة من متوسطي المدخرين المتضررين من التضخم وصغارهم الذين يبحثون عن عائد مجز لمدخراتهم بأقل جهد ممكن . فجاءت شركات « توظيف الأموال » لتكون تلك « الصيغة المالية السياسية » التي تتعبأ تلك الفئات الاجتماعية حولها ، وتتجاوز بهم مؤسسات الاقتصاد الرسمي وقطاع الوسطاء الماليين التقليدي (من مصارف وشركات تأمين وسوق مالي وغيره) .

ولعل تمسح تلك الشركات بأهداب الدين ،

واستغلال المشاعر الدينية الصادقة لبعض فئات المدخرين ، قد أعطى لتلك الشركات ومعاملاتها المالية صبغة سياسية « وايديولوجية » واضحة ، تتلخص معادلتها في الانفتاح على السوق المالية العالمية في الخارج و « الليبرالية » الاقتصادية « المنغلقة » في الداخل بلا ضابط ولا رابط ، مغلفة ببعض شعارات الدين الإسلامي الحنيف . ولذا أصبح الصراع حول مستقبل شركات توظيف الأموال ليس صراعا حول مستقبل « النظام المالي » ، وأسلوب تعبئة المدخرات وتوظيفها في المجتمع المصري ، بل صراع حول مستقبل النظام الاقتصادي وفلسفته وتوجهاته الأساسية .

وعلى الرغم من التضخم في حجم شركات توظيف الأموال ونشاطها خلال السنوات الخمس الأخيرة ، وتحول بعضها بالفعل إلى « امبراطوريات مالية » ، تتحكم في بضعة بلايين من الجنيهات والدولارات ، وعلى الرغم من ارتفاع حجم المخاطر مع التوسع في قبول الايداعات والمساهمات ، وصعوبة عمل الموازنات اللازمة بين العائد ، والمخاطرة ، والسيولة ، فإننا نجد أن معظم تلك الشركات مازال يلجأ لأساليب بدائية للتنظيم والإدارة ، لاتتناسب مع نمط التوسع في الأعمال وحجمها ، وما تفرضه ضرورات « إدارة المخاطر » الناجمة عن المضاربات وغيرها من أنماط التوظيف للأموال التي في حوزتها .

فلو تأملنا في أوضاع تلك الشركات نجد أنه يغلب على إدارتها وأسلوب عملها العائلية وتمركز السلطات في يد شخص أو بضعة أشخاص . كما نجد أن تلك الشركات لا يوجد لديها أنظمة محاسبية وإدارية حديثة ، تتمشى مع التعقد والتنوع في نشاطها الذي يفوق في تعقده وتنوعه أعمال المصارف ، وشركات التأمين ، وبيوت الاستثمار ، حيث توجد علاقات معقدة ومتنوعة بين الشركة القابضة التي تمارس نشاطا ماليا من ناحية ، وبين الشركات الفرعية المنشأة بواسطتها - بالشركة مع آخرين - من ناحيه أخرى .

نمط الاستثمارات

وإذا كان الغموض والسرية والتعمية تحيط بأعداد المودعين وتوزيعهم حسب شرائح الايداعات والمساهمات ، ونمط توزيع الاستثمارات في الداخل ، ونمط التوظيفات المالية والمضاربين في الخارج ، فإن ما تيسر من بيانات عن المشروعات الاستثمارية في الداخل من خلال الحملات الإعلامية الصاخبة ، نجد فيها أن هذه الاستثمارات - على الرغم من تواضع حجمها - ظلت مقصورة على مجالات التجارة والخدمات والتداول السلعي ، فهناك سلسلة من المتاجر متعددة الأقسام ، مأخوذة عن نظام « السوبر ماركت » : متاجر للمجوهرات ، مطاعم ، معسكرات ، قرى سياحية ، معارض لتجارة السيارات الجديدة والمستعملة ، مشروعات للاسكان « التمليكي » ، شركة طيران خاصة ، أعمال التخليص الجمركي ، تجارة اللحوم والأخشاب ، وغيرها .

فإذا ما انتقلنا إلى مجال المشروعات الصناعية ، فإننا نجد أن معظم شركات توظيف الأموال التي دخلت الساحة في الثمانينيات ، تعد النشاط الصناعي لديها نشاطا ثانويا ، إذ نجد معظم النشاط الصناعي لشركات توظيف الأموال ينحصر في مجالات محدودة ، مثل : المنظفات ، السلع المعمرة ، الملابس الجاهزة . وفي أحوال كثيرة ، تم تأسيس شركات مشتركة مع شركات أجنبية (لا تعمل وفق الشريعة الإسلامية) ، مثل زانوسي وغيرها ، بل إنه في أحوال كثيرة ، لم تقم تلك الشركات بعبء تأسيس تلك المصانع وعمل دراسات الجدوى ، أي لم تقم بدور المنظم أو المروج للاستثمارات ، بل قامت بشراء تلك المصانع والتسهيلات الانتاجية من أصحابها على الجاهز .

وأود أن أسجل هنا للذين يتحدثون عن

التنمية ، و « التنمية المستقلة » تحديدا ، أنه إذا قارنا المجهودات الاستثمارية لشركات توظيف الأموال بالمجهودات الاستثمارية بمجموعة شركات بنك مصر ، على الرغم من أن بنك مصر لم يتوافر لديه ذلك الكم الهائل من الأموال ، مثلما توافر لشركات توظيف الأموال . نجد أن الهوة شاسعة بين ما أنجزته شركات توظيف الأموال من مشروعات ، وبين ما اقتحمته شركات بنك مصر من مجالات استثمارية جديدة وفروع انتاجية رائدة ، فلقد قام بنك مصر بخلق فروع جديدة للنشاط الاقتصادي ، مثل صناعات النسيج الحديثة والضخمة ، وصناعة السينما ،

وغيرها من الانشطة التي تتسم بطابع الريادة والجدة . وفي المقابل فإننا لم نسمع عن شركة واحدة من شركات توظيف الأموال قامت باقتحام مجال إنتاجي جديد (غير مطروق) وتحمل مخاطر بناء صناعة جديدة وأعبائها ، أو تطوير صناعة قديمة لها أهمية حيوية للاقتصاد الوطني ، على الرغم من أن طلعت حرب - رحمه الله - لم يكن يتحدث عن إقامة « قلاع صناعية جديدة » ، مثلما تتحدث إعلانات شركات توظيف الأموال في أيامنا هذه !

مصير أموال المودعين ، ونهاية اللعبة :

تطرح المشكلة نفسها بحدة في حالة الشركات التي سوف تفشل في توفيق أوضاعها وفقا للقانون الجديد (القانون ١٤٦ لعام ١٩٨٨) ، ولائحته التنفيذية ، وفي هذه الحالة سوف تضطر تلك الشركات للتصفية وعدم الاستمرار في النشاط .

وهنا يواجه المودعون موقفا حرجا ، حيث سيجري الوفاء بقيمة إيداعاتهم وفقا لما يسفر عنه ناتج التصفية بين الأصول « المتاحة » وبين الالتزامات والمطالبات القائمة في ذمة تلك الشركات . وأغلب الظن أن « فائض التصفية » لن يكون كافيا للوفاء بقيمة الودائع ، بعد تسوية أرصدة السلف المدينة ، وأن المودعين في هذه الحالة سوف يقتسمون الأموال المتبقية ، وفقا لما يسمى في القانون « بقسمة الغرماء » ، أي سيحصل كل مودع على نصيب في « ناتج التصفية » ، وفقا لنسبة مساهمته في رصيد الودائع كلها . وهكذا سوف يتآكل رصيد الودائع مرتين : مرة على ذمة خصم أرباح وعوائد تم صرفها على غير وجه حق ، ومرة أخرى نتيجة عدم كفاية الأصول المتاحة للوفاء برصيد الودائع .

وقد حدد القانون فترة عامين لوضع جدول لاسترداد الودائع ، نتيجة التسييل التدريجي للأصول الخاصة بالشركات المصفاة ، مما سينتج عنه غبن بحقوق المودعين ، مرة أخرى نظرا لانخفاض القيم الشرائية للنقود بفعل التضخم النقدي خلال فترة العامين التي أقرها القانون .

وتحسبا للطوارىء ، ولإمكانية التلاعب بواسطة أصحاب الشركات « غير الجادة » في توفيق أوضاعها ، أصدر رئيس الوزراء في مصر أمرا عسكريا ، بصفته نائب الحاكم العسكري العام ، بمنع شركات توظيف الأموال من التصرف في أصولها الثابتة والمنقولة (باستثناء البضائع) ، قبل أن توفق أوضاعها ، وبطلان تصرفاتها بالبيع في أصولها بعد صدور القانون بطلانا مطلقا . وقد صدر هذا الأمر تحديدا بعد أن قام أصحاب بعض الشركات في التصرف في بعض العقارات والأصول الثابتة قبل انتهاء عملية التوفيق .

وهكذا فإن أسطورة شركات توظيف الأموال التي شغلت المجتمع المصري خلال العامين الماضيين ، وكانت حديث كل بيت وكل أسرة ، تقترب من نهايتها ، وعندما يتم تصوير المراكز المالية ، ونتائج الأعمال ، وتقديم مستندات التوفيق ، سوف يتم رفع الستار عن مزيد من الأسرار في قصة امبراطوريات مالية ، تم تشييدها على كثبان رملية ، في ظل الجاهلية الاقتصادية الجديدة !□

العربي - العدد ٣٦٥ - ابريل ١٩٨٩ م



تأمّلات

في مسألة توظيف الأموال

بقلم : الدكتور علي الدين هلال

شُغِلَتْ مصر - والمصريون - في الشهور السابقة بموضوع شركات توظيف الأموال ، ومدى سلامة هذا النوع من الأنشطة الاقتصادية . وكما يحدث في كثير من القضايا السياسية والاجتماعية ، فقد تعددت الاجتهادات والتفسيرات في هذا الموضوع ، وعكست هذه الاتجاهات التيارات « الأيديولوجية » السائدة في مصر . وكما يحدث أيضا في كثير من القضايا المشابهة ، فقد استغل أصحاب كل اتجاه فكري هذه المناسبة لإثبات ما يعتقدون به من آراء ، ولم يُشْغَلُوا بنفس القدر في بحث القضية نفسها ، والعوامل التي أدت إلى بروز هذه الظاهرة ، وكيف يمكن تلافي مثلها في المستقبل .

مؤيدو ومعارضو الشركات :

المؤيدون لهذه الشركات كانوا صنفين : الصنف الأول من أنصار مفهوم « الاقتصاد الإسلامي » الذين رأوا في هذه الشركات شكلا من أشكال الأنشطة الاقتصادية التي تندرج ضمن مفهومهم ، ومن ثم عدوا نقد هذه الشركات أو الهجوم عليها نقدا لفكرة الاقتصاد الإسلامي ، بل رآها بعضهم انتقادا للتيار الإسلامي بأسره .

والصنف الثاني من المنتفعين بهذه الشركات ، وهم كثرة ، وفي مجالات متنوعة من مناحي الحياة . فهناك أشخاص قدموا تسهيلات لهذه الشركات ، وذلك من واقع

المناصب الحكومية التي شغلوها ، وتقاضوا أجورا ومرتبات ومكافآت ومناصب لهم أو لذويهم ومعارفهم . وهناك صحفيون ومشتغلون بأجهزة الصحافة والإعلان استفادوا أيضا . وكان دورهم عندما وقعت الواقعة ، الكتابة في الصحافة بما يفيد هذه الشركات أو على الأقل لا يضع كل اللوم على أصحابها .

أما المعارضون والمنتقدون فقد كانوا أيضا صنفين : أولهما أصحاب تيارات ايديولوجية معارضة من حيث المبدأ ، للمفاهيم التي تدافع عنها التيارات الإسلامية ، ووجدت في هذه المناسبة فرصة لإعادة طرح مفاهيمها وأفكارها . وثانيهما فريق راقب تطور الأحداث وساءته التصرفات المالية لأصحاب هذه الشركات والمكافآت والأجور العالية التي كانوا على استعداد لدفعها ، ووجدوا في هذه الممارسات ما يناقض زعم هذه الشركة ، من أنها تقدم نموذجا مغايرا من النشاط الاقتصادي .

المدخرون

لا شك أن أعدادا كبيرة من المصريين قد أودعوا مدخراتهم لدى شركات توظيف الأموال ، وهؤلاء يمثلون عينة ممثلة للمجتمع المصري بمستوياته الثقافية والتعليمية والاقتصادية . فمنهم أصحاب الملايين الذين أرادوا اكتناز المزيد ، وهناك أرباب المعاشات الذين وضعوا حصيلة عمرهم ، لكي يضمنوا دخلاً شهريا ثابتا ، ومن بينهم أساتذة جامعات ، عملوا في جامعات عديدة ، منها جامعات أقطار الخليج العربي ، وغيرهم . لقد حول هؤلاء بعض ودائعهم إلى هذه الشركات ومدوا هذه الظاهرة ببعض مدخراتهم .

فكيف تسنى لشركات توظيف الأموال أن تقنع هذه التركيبة المتنوعة من البشر ؟ ولماذا كان هؤلاء المودعون على استعداد للتصديق بأفعال وأقوال المسؤولين عن الشركات ؟

مقدمات ونتائج

هل يكفي في هذا المقام القول بأن القانون لا يحمي المغفلين ، وأن كل مودع وقع بمحض إرادته على عقد مشاركة ، ومن ثم عليه أن يتحمل نتائج ما قام به ؟ فأين الحقيقة من هذا كله ؟

إن التناول الموضوعي لهذا الموضوع يجب أن يدخل في اعتباره عددا من العوامل ، تداخلت كلها لكي تصل بنا إلى النتيجة التي انتهينا إليها ، ويمكن عرض هذه العوامل على النحو التالي :

أولا : هناك قضية نسبة التضخم في مصر وتأثيره على تآكل المدخرات ، فنسبة التضخم في مصر تصل حوالى ٢٥٪ سنويا (وترفعها بعض التقديرات إلى ٣٠٪) ، هذا في الوقت الذي تصل فيه أعلى نسبة فائدة إلى ١٣٪ ، مما يعني أن الادخار قد أصبح عقوبة ، وأن على المدخر أن يرى أمواله بالجنيه المصري وهي تتآكل عاما بعد عام ، وذلك بفعل الفارق بين معدل التضخم ونسبة الفائدة . في مواجهة ذلك اتجه المصريون عدة اتجاهات ، بعضهم حول أمواله إلى الدولار الأمريكي أو إلى عملات أجنبية أخرى ، لكي يحميها من غيلة التضخم بالجنيه المصري ، وبعضهم الآخر استثمر الأموال في الذهب أو الأرض التي ترتفع أسعارها باستمرار بنسبة تعادل نسبة التضخم العام في الاقتصاد . لكن الاستثمار في الذهب أو الأرض لا يقدر عليه المدخر الصغير لنقص ما يملكه من ناحية ، ولاحتياجه المستمر إلى عائد مدخراته في شكل سيولة نقدية .

في هذا السياق قدمت شركات توظيف الأموال حلا (سحريا) لمشكلات الكثيرين ، فقد قدمت نسبة ربح تصل إلى ٢٤٪ - ٢٥٪ ، وهي نسبة أعلى مما تقدمه المصارف « البنوك » .

ثانيا : استغلت هذه الشركات احتياج صغار المودعين إلى دخل شهري ، وعلى الأخص أولئك الذين حصلوا على مكافآت نهاية خدمة ،

ويريدون أن يعيشوا من عوائدها ، فدفعت أرباحا شهرية للمودعين .

ثالثا : هناك أيضا العامل الديني ، فقد طرحت هذه الشركات نفسها سواء من حيث أسمائها (الريان - الهدى - الهلال - البركة) أو من حيث مظهر أصحابها على أنها (شركات إسلامية) ، وأن ما تقدمه هو أرباح وليس فوائد ، ولا شك أن هذا العامل قد دفع الكثيرين لإيداع أموالهم فيها . وقد استخدم أصحاب هذه الشركات تلك السمة الإسلامية بذكاء باهر ، فظهروا في الصور إلى جوار كبار الشخصيات الإسلامية من العلماء ، وركزوا في إعلاناتهم الصحفية على هذه السمة ، وعلى الطابع الإسلامي لنشاطهم .

رابعا : الحملة الاعلامية الجبارة التي نقلتها الصحافة وجهاز التلفاز عن هذه الشركات ، والتي كانت مخططة على أعلى مستوى ، وعلى الأخص للشركات الثلاث الكبرى (الريان - السعد - الهدى) التي أعطت الانطباع بحجم الانجاز الهائل ، وبقدرات إدارية وتنظيمية واقتصادية فذة .

أضف إلى هذا،الإعلانات من جهاز التلفاز التي دخلت كل منزل وطرقت آذان كل أسرة . وفي شهر رمضان الماضي قامت إحدى هذه الشركات بتنظيم مسابقة يومية تحت اسم « أحمدك يا رب » ، وتمت الإجابة عنها بالهاتف ، وبعد ذلك تنقلت المذيعة ومعها أجهزة التصوير إلى أماكن الفائزين لتسليم الجائزة (ألف وخمسمائة جنيه مصري ، أي قرابة ٧٠٠ دولار أمريكي لكل فائز) وكان يتابع ذلك الملايين يوميا على الشاشة التلفازية .

خامسا : إن ظهور هذه الشركات لم يكن في الظلام ، وإنما تم في وضح النهار ، وعلى صفحات الجرائد التي نشرت هذه الشركات الدعوة للاكتتاب فيها . ولم تتحرك الجهات المسئولة لوقفها أو لوضع القواعد المنظمة لنشاطها ، وليس هذا فحسب ، بل إن هذه الشركات قد شاركت في المعارض الانتاجية والتجارية ، وقام كبار المسئولين بزيارة أجنحتها ، وسمحوا بالتقاط صور لهم مع أصحابها ، وكانت هذه الصور تتصدر مكاتب هذه الشركات ، وعندما رأى المواطن المصرى ذلك لم يكن من الممكن أن يخامره شك في عدم قانونية نشاط هذه الشركات !

فإذا أضفنا إلى ذلك عددا لا بأس به من الشخصيات العامة التي عملت في هذه الشركات بعد خروجها من مناصبها الحكومية ، فإن الشعور بالثقة في هذه الشركات قد أصبح مدعوما ومتزايداً . وهكذا فإن هناك أسبابا موضوعية أدت إلى تصديق هذه الشركات .

ماذا عن المستقبل ؟

وقد ترتب على كل ما تقدم نتيجتان مهمتان : النتيجة الأولى أن ظهور هذه الشركات قد ارتبط بالفجوة بين معدل التضخم ونسبة الفائدة في المصارف « البنوك » ، وطالما استمرت هذه الفجوة ، بما يترتب عليها من تآكل المدخرات ، فسوف تنشأ أنشطة ومظاهر جديدة لمواجهة هذه الفجوة . رأيناها أولا في تجارة العملة ، وثانيا في شركات توظيف الأموال . ومن الأرجح أن أشكالا جديدة سوف تظهر في المستقبل . إذ ليس من المتصور عقلا أن يقف المدخر ساكنا إزاء تآكل أمواله . والنتيجة الثانية أننا إذا أردنا أن نبحث عن مسئول فبالتأكيد أن المودعين ليسوا هم الطرف الوحيد ، ولكن المسئولية تتقاسمها أطراف عديدة .

يبقى أن ننظر إلى المستقبل والمطلوب حسب وجهة نظرنا ، حماية حقوق صغار المودعين ، وإيجاد القنوات المصرفية ، لاستيعاب مدخرات المصريين ، حتى لا يضطروا إلى الدخول في مغامرات جديدة . □

شركات توظيف الأموال في مصر ..

مالها .. وما عليها !

بقلم : الدكتور محمد حلمي مراد

ظهرت شركات توظيف الأموال على الساحة في مصر في أواخر السبعينيات ، وتزايد عددها وتضخم حجمها في الثمانينيات ، نتيجة الفراغ الذي تجلى في مجال الأوعية الادخارية ، وذلك لعدم تيقظ الجهاز المصرفي وتقاعس الحكومة عن خلق الأساليب الملائمة لتوظيف مدخرات المواطنين الذين خرجوا للعمل في الخارج ، بحيث توفر لهم التعامل الميسر ، وتحقق لهم العوائد النقدية التي تدفع شهريا دون انتظار انتهاء السنة المالية ، وتطمئنهم على أنها ـ على الرغم من أنها مجزية ـ ليست وليدة فوائد محرمة اسلاميا .

وقد برزت شركات توظيف الأموال للنهوض بسد هذا الفراغ ، واستطاعت أن تكسب ثقة المدخرين برفعها الشعار الإسلامي الذي يحرم الربا ، واطلاق ما يعبر عنه في الاسم الذي يطلقونه عليها ، وبحرصها على الوفاء بالتزاماتها في دفع الأرباح في مواعيدها الدورية تحت التسوية في نهاية السنة المالية .

ولا يعني ذلك أن هذه الشركات تعد ذات صفة اسلامية بحتة ، أو أنها فكرة مستحدثة في عالم المال ، إذ سبق وجود مثيلات لها في العالم الغربي باعتبارها منشآت تتلقى الأموال من أصحابها لتستثمرها لحسابهم ، وتعود عليهم بالربح أو الخسارة نتيجة لهذا الاستثمار ، وهو ما يتفق مع ما تنادي به الشريعة الإسلامية من تحريم الفائدة الربوية التي لا تقوم على أساس الغرم بالغنم ، ولكن هذه المنشآت تنظمها وتحكمها ، هناك قواعد قانونية تحدد نطاق عملها ، وتنظم العلاقة بينها وبين المتعاملين معها ، وتضع القواعد الكفيلة بحسن سير أعمالها ومتابعة ما يجرى فيها :

وعلى الرغم من رصد الحكومة في مصر لحركة نمو هذا النوع من الشركات ، فلم تسارع بإصدار تشريع ينظم هذا النوع المستجد من الشركات ، بحيث يصبح لها شخصية اعتبارية مستقلة عن أشخاص أصحابها ، بحيث لا تختلط أموال المودعين بأموالهم الشخصية ، وتوفر الضمانات المعقولة للحفاظ على حقوق المودعين ، وتحول دون دخول المتلاعبين والنصابين إلى مجال عمل هذه الشركات ، كل ذلك دون تدخل حكومي شديد الوطأة في شؤونها ، يؤدى إلى خنقها وتنفير القادرين من

القائمين عليها من الاستمرار في قيادتها .
واستمر هذا الوضع حتى عام ١٩٨٦ ، حينما صدر القانون رقم (٨٩) في ٢٥ يونيو من العام المذكور « بتنظيم بعض حالات دعوة الجمهور إلى الاكتتاب العام » وكان قانونا قاصرا لا ينظم هذا النوع من الشركات تنظيما شاملا .

الحكومة والشركات

وقد أسهمت الإعلانات الخلابة التي كانت تبثها الإذاعة والتلفاز ، وتنشرها الصحف والمجلات التابعة للمؤسسات الصحفية الحكومية في دعم ثقة المواطنين بقدرات هذه الشركات ، وإشعارهم بشرعية وجودها ، ومباركة الدولة لها . وإلا لما قامت هذه الأجهزة ذات الصفة الرسمية أو شبه الرسمية بالدعاية لها ، بحيث بلغ عدد شركات توظيف الأموال (١٦٠) شركة ، يتفاوت عدد المودعين بها - وفق تقديرات مختلفة - ما بين مليون وعشرة ملايين مواطن ، وحجم الأموال التي تلقتها ما بين خمسة مليارات (المليار ألف مليون) و ١٧ مليارا من الجنيهات المصرية بالعملات الأجنبية والوطنية مما جعلها منافسا خطيرا للجهاز المصرفي .

وأفزع مؤسسات الدولة أن يتضخم حجم بعض هذه الشركات تضخما يكاد يشكل قوة اقتصادية مسيطرة تستطيع أن تتحكم في الحياة الاقتصادية ومن ثم في الحياة السياسية للبلاد ، لا سيما وقد قام في أذهان عدد من المسئولين أن بعض هذه الشركات الكبيرة تدعم الجماعات الإسلامية أو تعد الجناح الاقتصادي للتيار الإسلامي ، حسب ما شاع عند بعض الجهات .

وأدى هذا الشعور إلى الحرص على سدّ الطريق أمامها بالنسبة لبعض المشروعات التي حاولت القيام بها بحجة التخوف من استخدامها في معاونة التيار الإسلامي ، إذا فكر بعض المنتمين إليه من التحرك في الشارع ، كما حدث بالنسبة لرفض إتمام المشروع الذي كانت إحدى هذه الشركات قد تفاهمت عليه مع محافظة القاهرة لتسيير سيارات « الأوتوبيس » الصغيرة على بعض خطوط النقل العام في العاصمة المصرية خشية استعمال هذه السيارات في نقل المتظاهرين في أوقات الاضطرابات السياسية مما اضطر محافظة القاهرة إلى شراء هذه السيارات ، وتولت هيئة النقل العام لمدينة القاهرة تشغيلها .

وقد تفاعل الأمر إلى درجة أن الجهاز المصرفي التابع للحكومة أصبح عاجزا عن اجتذاب مدخرات المصريين العاملين في الخارج في الوقت الذي نجحت فيه هذه الشركات في استقطابها على الرغم من إنشاء السوق المصرفية الحرة للتعامل في النقد الأجنبي مما أثر على حصيلة الحكومة من النقد الأجنبي واضطرها للالتجاء إلى هذه الشركات لتطلب منها تمويل حاجتها العاجلة لاستيراد بعض السلع الضرورية من الخارج .

وعندما استشعرت الحكومة هذه الخطورة ، وثبت لديها أن لبعض تلك الشركات أعوانا يشغلون مواقع مؤثرة داخل الجهاز التنفيذي ، قررت أن تتحرك في عجلة وبعنف ، ولكنها خشيت في الوقت نفسه أن يؤدى ذلك إلى إشاعة الذعر بين أصحاب هذه الشركات والمودعين لديها ، بحيث يندفع الآخرون لسحب ودائعهم ويؤدي نقص السيولة النقدية - نتيجة استثمار الودائع في مشروعات أو عمليات تجارية - إلى عجزها عن السداد واعلان إفلاسها مما يثير ثائرة المودعين ، أو أن تطلب من المصارف التي تودع لديها بعض أموالها السائلة أن تصرف مستحقات المودعين فلا تتوافر لدى بعضها السيولة اللازمة مما يهز الثقة في المصارف ويضر الاقتصاد الوطني .

فلجأت الحكومة إلى تهدئة الخواطر

بتصريحات المسئولين من أنها ليست ضد شركات توظيف الأموال ، ولكنها تحرص على توفير الضمانات للمودعين ، وأنها لن تتدخل في إدارة هذه الشركات ، وفي الوقت نفسه بدأت تحقيقات رسمية مع العديد منها لقيامها بأعمال المصارف ، ومخالفة القانون رقم ٨٩ لسنة ١٩٨٦ ، ونشر الأخبار المسيئة لبعض أصحاب هذه الشركات ، تهيئة للجو الملائم لاصدار القانون العنيف رقم (١٤٦) لسنة ١٩٨٨ في شأن « الشركات العاملة في مجال تلقى الأموال لاستثمارها - وهي التسمية التي اتخذها القانون بديلا عن شركات توظيف الأموال » .

وقد منح هذا القانون للشركات القائمة مهلة ثلاثة شهور للاعلان عن رغبتها في توفيق أوضاعها طبقا لأحكامه أو عدم الرغبة في ذلك ، في الحالة الأولى يتمم الاجراءات الخاصة بالتوفيق خلال سنة ، وفي الحالة الثانية يرد ما تلقاه من أموال إلى أصحابها خلال سنتين ، مع الالتزام في الحالين بتقديم بيان بالمبالغ التي تلقاها ، ومجالات استثمارها وقائمة بالمركز المالي للشركة ، وبنقل ما يوجد في الخارج من أرصدة أو أموال إلى أحد المصارف المصرية بحيث لا يبقى منها شيء بالخارج إلا بإذن من وزير الاقتصاد في ضوء المبررات المقدمة .

أحكام القانون وشركات توظيف الأموال

وعلى الرغم من أن قانون شركات تلقي الأموال لاستثمارها قصر الشكل القانوني الذي تتخذه على صورة الشركات المساهمة ، فلم يترك أمرها للقانون المنظم للشركات المساهمة مع إضافات محدودة ، بل فرض قيودا جديدة من حيث نشأتها وسير أعمالها والرقابة المقررة عليها ، والجزاءات التي توقع على المخالفين من القائمين عليها .

فأوجب ألا يقل عدد مؤسسيها عن عشرين ، وألا يقل رأسمالها عن خمسة ملايين ، ولا يزيد عن خمسين مليونا من الجنيهات ، وأن يتم قيدها في سجل خاص بناء على طلب يقدم بذلك مع إمكان رفض هذا الطلب . إذا كان من أغراض الشركة أو نشاطها ما يتعارض مع النظام العام أو الآداب أو لا يتفق مع المصلحة الاقتصادية العامة والأمن القومي ، وهي عبارات مطاطة عامة (المادة ٣) .

وأعطى القانون لهيئة سوق المال وضع القواعد لتحديد نسبة الأموال السائلة التي يجب الاحتفاظ بها لدى المصارف ، وضوابط اصدار صكوك للمودعين بالنقد الأجنبي ، كما أعطى لمجلس الوزراء وضع ضوابط تنويع الاستثمارات ونسبتها إلى المجالات الأخرى للاستثمار ، وسلطة منع استثمار الأموال في بعض المجالات (المادة ٩) ، وهي سلطة واسعة كان يجب حسمها بالنص عليها في القانون حتى تكون هذه المشروعات على بينة من أمرها بدلا من تركها نهبا للتغيرات والظروف الطارئة التي تعصف بالاستقرار اللازم للمشروعات الاقتصادية .

ووصل التدخل الحكومي إلى حد الاعتراض على تعيين أعضاء مجلس الإدارة والاعضاء المنتدبين ومديرى الشركات ، وتعيين عضو مراقب في مجلس إدارة الشركة ، وقيام الجهاز المركزي للمحاسبات بتعيين مراقب للحسابات في الشركة ، وتحديد مكافأته في حين كان يغني عن ذلك مراقب الحسابات الذي تعينه الشركة ، والذي يعاقب طبقا للمادة (٢٢) من القانون بالسجن وبالغرامة التي لا تقل عن خمسين ألف جنيه ولا تزيد عن خمسمائة ألف جنيه . إذا وضع تقريرا كاذبا أو أخفى وقائع جوهرية في التقارير المقدمة منه .

كما أعطى لوزير الاقتصاد حق شطب الشركة مما يؤدي إلى تصفيتها إذا خالفت القانون أو لائحته التنفيذية دون اشتراط جسامة المخالفة ، كما أضيف إلى ذلك نفس العبارة المطاطة السابق ذكرها وهي اتباع الشركة سياسة تتعارض مع

النظام العام ، أو الآداب ، أو لا تتفق والمصلحة الاقتصادية العامة ، والأمن القومي ، أو تضر بمصالح أصحاب الصكوك ، وجميعها مسائل تقديرية غير منضبطة .

هذا إلى أن الجزاءات الواردة بالباب الثالث من القانون على مخالفة أحكامه بلغت من الفداحة والقسوة حدا كبيرا إذا ما قيست بالجزاءات المقررة على مخالفة قانون الشركات المساهمة ، إذ تجمع بين السجن (وهو عقوبة جنائية) والغرامة التي لا تقل عن ٥٠ ألف جنيه وتصل إلى خمسمائة ألف جنيه ، فضلا عن التحفظ على أموال المخالف وأسرته ، وجواز توقيع عقوبات تبعية تتضمن الحرمان من مزاولة مهنته ، وحظر مزاولة النشاط الاقتصادي الذي كان يمارسه لمدة تصل إلى ثلاث سنوات ، في حين أن قانون الشركات المساهمة جعل مخالفته في أقسى صورها جنحة يعاقب عليها بالحبس والغرامة التي لا تزيد على ١٠ آلاف جنيه ، أو بإحدى هاتين العقوبتين فقط .

ولجأت الإدارة التنفيذية بعد انقضاء فترة الثلاثة شهور على صدور القانون إلى وضع يدها على أكبر شركات توظيف الأموال وهي شركة « الريان ».

القانون والتجربة المريرة

إن التشريعات والقيود التي فرضت على شركات توظيف الأموال لا بد أن تؤدي إلى تفضيل أغلب أصحاب الشركات القائمة إلى إنهاء أوضاعها وتصفية وجودها مما ينتهي بإحلال الخسارة بالمودعين لعدم امكان التوصل إلى قيمة ما أودعوه كاملا بسبب التصفيات الجماعية الجبرية،أو إلى محاولة البعض منها القبول المبدئي بتوفيق أوضاعها مع القانون الصادر بشأنها انتظارا لحلول أخرى ، ولن تقوم في ظل هذا القانون شركات أخرى تعمل في هذا المضمار ، وخاصة أن أحدا لن يقبل - بعد التجربة المريرة التي حدثت - على إيداع أمواله لدى هذا النوع من الشركات .

ولن يلجأ أصحاب الودائع إذا ما استردوها كلها أو بعضها إلى إيداعها لدى المصارف الرسمية ، إذ أن للابتعاد عنها أسبابا تاريخية ، ومصالح آنية في إخفاء مراكز أصحابها المالية ، ولكن قد تتجه إلى الاختفاء « تحت البلاطة » أو إلى إيداعها في مصارف بالخارج ، أو إعادة توظيفها في صور أخرى لتوظيف الأموال قد تظهر في الأفق لسد الفراغ الذي عاد مرة أخرى .

وما كان من الواجب أن ينشر الإعلام روح العداء ضد أصحاب الشركات القائمة ، لأن هذا العداء جعلهم يتهربون من التزاماتهم ، ويخفون ما لديهم من أموال ، ويهربون الموجود منها إلى الخارج ، إذ لن تتمكن الحكومة بالوسائل القانونية أو الدبلوماسية أن تتعرف على أماكن إيداعها أو تشغيلها في الدول الأجنبية ، أو أن تضع يدها عليها إذا ما تم التعرف على مكان وجود بعضها .

ويقضي الواجب أن تعمل الأجهزة القانونية والمصرفية التي تعالج أوضاع هذه الشركات على مراعاة ظروف صغار المودعين الذين أودعوا كل ما لديهم من أموال ومدخرات لدى هذه الشركات ، بأن تقرر صرف نسبة ملائمة من العائد الدوري الذي يعتمدون عليه في معيشتهم خلال فترة توفيق أوضاع هذه الشركات ، وأن تعمل على استمرار مشروعاتها ومنشآتها حتى لا تغلق أبوابها مما يؤثر في نشاط الأسواق ويخلق أزمة بطالة بين العاملين فيها .

إن هذه الآثار الضارة لن تختفي بعد فترة قصيرة ، بل ستمتد انعكاساتها على الأوضاع الادخارية والاستثمارية بصفة عامة ، لعدة سنوات قادمة اللهم إلا إذا تضافرت الجهود لمداواة الجروح المتخلفة عن هذه التجربة المريرة . □

جذور وامتدادات للفكرة الصهيونية لترحيل الفلسطينيين



بقلم : الدكتور أسعد عبدالرحمن

« الترانسفير » ليست مجرد كلمة تقال وتعني الترحيل الذي يقصد به ترحيل الفلسطينيين من أرضهم وتوزيعهم على الأقطار العربية ، بل هي إحدى أهم الأفكار السياسية الصهيونية . ولكن ما هي ؟ وما جذورها ؟ ومن هم أبرز الدعاة لها ؟ هذا المقال محاولة للإجابة عن كل هذه الأسئلة المهمة .

كثيرون هم الذين باتوا يعرفون الكثير أو القليل عن الدعوات المحمومة المتواصلة التي يطلقها عدد من زعماء وأحزاب الكيان « الاسرائيلي » ، والتي تنادي بمعالجة ما يسمى بالخطر « الديموغرافي » الفلسطيني في الأرض المحتلة . غير أنه في مرحلة ما بعد انفجار الانتفاضة الشعبية الفلسطينية بشكل خاص ، شهدت هذه الدعوات مدا متزايدا ، واتساعا على مختلف الألوان والشرائح للطيف السياسي والاجتماعي « الاسرائيلي » . وفي واقع الأمر أن هذا التطور ليس ظاهرة جديدة أو طفرة عفوية أو مرحلية ، إنما هو جزء لا ينفصم عن حركة تطور مخاوف الفكر الصهيوني ، وبخاصة في ظل الصراع القائم بين الحركة الصهيونية ووليدها - « اسرائيل » - من جهة ، وبين الشعب الفلسطيني والأمة العربية من جهة أخرى . وعلى ما يبدو أصبح « الخطر الديموغرافي » هذا كابوسا يؤرق الصهاينة ويقض مضاجعهم ، الأمر الذي انعكس باستمرار في الابتكار والطرح والتنفيذ لمختلف الممارسات والأفكار والمشاريع التهجيرية ، الداعية إلى طرد أبناء الشعب الفلسطيني من أراضيهم المحتلة . وفي هذا السياق ينتصب التاريخ شاهدا على المواقف والممارسات والمظاهر المختلفة المجسدة للفكرة الصهيونية القديمة ، الخاصة بتهجير أو طرد الفلسطينيين ، والتي كان أوضحها وأفظعها مجازر

المنظمات الارهابية الصهيونية قبل حرب عام ١٩٤٨ وأثناءها وبعدها . تلك المذابح التي كانت حصيلتها ، إضافة إلى قتل الآلاف من أبناء الشعب الفلسطيني ، تهجير مئات آلاف الفلسطينيين وتشتيتهم في بقاع الأرض ، بعد تجريدهم من أراضيهم وبيوتهم بقوة السلاح والإرهاب . ولم يمض وقت طويل حتى اتصل هذا « التاريخ » الدموي الإرهابي بالحاضر الصهيوني الممارس ، وعلى الأخص منذ ما بعد الاحتلال الصهيوني لما تبقى من أراضي فلسطين العربية عام ١٩٦٧ ، حيث ازداد طرح أفكار التهجير ضد عرب الوطن المحتل ، وبوضوح لا سابق له ، أو قل بوقاحة لا نظير لها .

البداية السرية المبكرة

قبل أن يمضي على حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ أسبوعان ، عقدت الحكومة « الاسرائيلية » جلسة سرية ، لبحث موضوع غاية في الأهمية ، قوامه السؤال التالي : ماذا يجب على تلك الحكومة فعله لمواجهة مشكلة الخطر « الديموغرافي » الفلسطيني الناجمة عن احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة ، حيث يقطنهما أكثر من مليون فلسطيني ؟ ومع أن مداولات تلك الجلسة بقيت سرا ، فإن الأفكار التي طرحت فيها وتم نقاشها في حينه عادت فظهرت في المفكرة السرية للدكتور يعقوب هرتسوغ ، الذي شغل في حينه منصب مدير عام مكتب رئيس الوزراء ، التي قامت أرملته بتسليمها للباحث « الاسرائيلي » مئير أبيدان . وفي هذا الصدد أشارت صحيفة «هآرتس» « الاسرائيلية » ، في مقالة نشرتها في نهاية أيلول (سبتمبر) ١٩٨٨ إلى ان مناحيم بيغن ، الوزير بلا وزارة في حكومة « الوحدة الوطنية » ، آنذاك أوحى بتصفية المخيمات الفلسطينية ، ونقل سكانها إلى سيناء ، بينما طالب بنحاس سبير- وزير المالية حينئذ - بنقل اللاجئين الفلسطينيين إلى إحدى الدول العربية المجاورة . ومع أن نقاش الحكومة « الاسرائيلية » لم يسفر آنذاك عن أي قرار محدد بهذا الخصوص فقد تركز البحث باتجاه تأييد اقتراح نائب رئيس الحكومة « الاسرائيلية » يغئال آلون الذي أيده يومئذ معظم وزراء الحكومة . وكان آلون قد اقترح نقل اللاجئين الفلسطينيين إلى سيناء وتوطينهم هناك ، على أن يجري في الوقت نفسه « إقناع » سكان الأراضي المحتلة بالهجرة إلى الخارج ، وعلى الرغم من أنه لم يتم توطين الفلسطينيين في سيناء فقد تم التنسيق بين مكتب رئيس الحكومة ووزير « الدفاع » والجيش « الاسرائيلي » ، من أجل تشكيل وحدة سرية ، تعمل في أوساط الفلسطينيين لاقناعهم بمغادرة بيوتهم ، « وتقديم التسهيلات » لهم في الأماكن التي سيتوجهون إليها خارج فلسطين والشرق الأوسط . وكان أرئيل شارون هو الذي كشف النقاب عن هذه الخطة ، وذلك في محاضرة ألقاها في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٧ ، حين أوضح بأن السلطات « الاسرائيلية » عملت طوال السنين الماضية على « تقديم التسهيلات » للعرب الذين « رغبوا » في الهجرة ، وأنه كانت هنالك منظمة خاصة لذلك الغرض .

استغلال الفرص

إن شارون هذا الذي كشف النقاب عن تلك الخطة هو نفسه الذي كان قد أصدر عام ١٩٦٤ ، بصفته بريجيدرا في القيادة الشمالية ، أوامره لكبار الضباط في المنطقة بتحديد عدد الشاحنات المطلوبة لشحن (٣٠٠) ألف عربي إلى خارج « الحدود الشمالية » ، في حالة نشوب حرب . ومن الجدير بالذكر هنا أن الرقابة العسكرية « الاسرائيلية » حظرت نشر تفاصيل الخطة الشارونية هذه في النسخة العبرية لكتاب الصحفي « الاسرائيلي » « عوزي بنزيمان » ، وإن كانت الخطة نفسها قد نشرت لاحقا في النسخة الانجليزية بعنوان « قيصر اسرائيل » .

ومن الملاحظ أن ما طرحه شارون في خطته إنما يعكس فكرة « استغلال الفرص » ، أي الحروب والأزمات ، لتنفيذ أفكار الترحيل أو (الترانسفير) الجماعي للمواطنين الفلسطينيين . وقد وجدت هذه الفكرة تعبيرها خلال حرب حزيران ١٩٦٧ ، حين بادر بعض كبار ضباط الجيش « الاسرائيلي » إلى تنفيذ عمليات حظيت بالموافقة والمصادقة من قبل القيادة السياسية « الاسرائيلية » . وعلى سبيل المثال ، فإن البريجيدر شلومو لاهط ، الذي يشغل الآن منصب رئيس بلدية تل أبيب ، كان مسؤولا عن عملية طرد العائلات الفلسطينية المقيمة في منطقة « حائط المبكى » المزعوم الواقعة في البلدة القديمة من مدينة القدس ، كذلك فإن الجنرال عوزي نركيس ، قائد المنطقة الوسطى في حينه ، كان قد أمر بنسف ثلاث قرى عربية قرب اللطرون وتدميرها ، ضمن سياق المساعي الهادفة إلى تهجير سكانها . ويعترف الصحفي عاموس كينان ، وهو أحد جنود الاحتياط المكلفين يومئذ بحراسة الجرافات أثناء تنفيذ العملية ، فيقول : « تسلمت أمرا بحراسة الجرافات ، ومنع أي محاولة من قبل القرويين العرب للعودة إلى بيوتهم » . وكان وزير « الدفاع » « الاسرائيلي » الأسبق ، موشيه ديان ، قد قام شخصيا بإصدار الأوامر القاضية بتدمير مدينة قلقيلية ، وإزالتها عن وجه الأرض ، وهي العملية التي لم تنفذ ، وذلك في أعقاب فضح عملية نسف القرى الفلسطينية الثلاث من قبل الصحفي كينان . كذلك شارك البريجيدر أريك نحامكين ، وزير الزراعة في « حكومة الوحدة الوطنية » « الاسرائيلية » السابقة ، في عملية ، استهدفت نقل عدد من سكان نابلس إلى جسور نهر الأردن ، في حين قام عدد من كبار ضباط الجيش « الاسرائيلي » بإجبار (٢٥) ألف فلسطيني ، من سكان مخيمات أريحا على الهجرة إلى الضفة الشرقية . وما هذه جميعا سوى أمثلة على تنفيذ فكرة تهجير الفلسطينيين في ظل الحروب والأزمات ، علما بأن ما سبقها كثير ، وما لحقها أيضا كثير .



« انتعاش الفكرة »

عادت فكرة « الترانسفير » الصهيونية فتلقت دفعة جديدة ، وشهدت انتعاشا إضافيا مع مرور الزمن . وقد تجلت ترجمة هذه الفكرة في الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ في ممارستين : أولاهما مصادرة الأراضي العربية ، والاستيلاء عليها بشتى الحيل والحجج القانونية وغير القانونية ، وإقامة المستوطنات اليهودية ، وتوطين القادمين الصهيونيين فيها . وثانيتهما ممارسة مختلف الضغوط وعناصر الإجبار ، وبخاصة الاقتصادية والنفسية منها على السكان الفلسطينيين ، لدفعهم إلى ترك أراضيهم وبيوتهم ، والمغادرة إلى الخارج ، إما سعيا وراء مصادر الرزق والعيش الأفضل ، وإما تخلصا من وطأة تلك الضغوط ، غير أنه يجدر الإشارة هنا الى أن كثيرا من فلسطينيي الأراضي المحتلة أدركوا أبعاد ذلك المخطط ، وأحبطوه بتمسكهم بأراضيهم وبيوتهم وممتلكاتهم ، على الرغم من الظروف القاسية التي أحاطت بهم وماتزال كذلك . وعلى صعيد

مختلف تواصلت في المناطق الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨ الأفكار والممارسات العنصرية، والدعوات التهجيرية ضد الفلسطينيين. وفي هذا النطاق قامت السلطات «الاسرائيلية»، ممثلة بمختلف أجهزتها وهيئاتها ومنظماتها، بتنفيذ القيود والاجراءات التضييقية، الرامية إلى تيئيس المواطنين الفلسطينيين ومحاصرتهم في مواقعهم. وكان أبرز هذه القيود تلك المتعلقة بعدم السماح لهم بالتوسع العمراني في أراضيهم، على الرغم من التزايد السكاني الكبير في أوساطهم. كذلك استمرت الدعوات السياسية والمخططات العملية والحملات النفسية من أجل ترحيل الفلسطينيين، سواء في الناصرة أو حيفا أو يافا أو عكا أو في غيرها من مناطق فلسطين المحتلة ١٩٤٨. ولعل من أحدث دعوات ترحيل أولئك الفلسطينيين هي تلك الدعوة التي أطلقها دافيد باريليف، نائب رئيس بلدية عكا، في مطلع كانون أول (ديسمبر) ١٩٨٨، حيث دعا إلى «تهويد مدينة عكا بواسطة الترانسفير الايجابي» كما زعم - أي من خلال «اقناع» العرب بالرحيل.

رموز وأقطاب الترانسفير

لايمكن، من حيث الجوهر، الفصل بين مختلف التيارات الصهيونية والأحزاب «الاسرائيلية» في مسألة الأفكار والمشاريع لتهجير العرب والاستيلاء على أراضيهم وممتلكاتهم. وقد ثبت ذلك عمليا وممارسة عبر العقود الأربعة الماضية، إذ شارك في الانقضاض على الفلسطينيين وممتلكاتهم زعماء الكيان «الاسرائيلي» على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم. غير أن هنالك، من حيث المقاييس النسبية والتمييزية، مجالا لتصنيف هؤلاء الزعماء في مراتب عديدة متفاوتة، على امتداد طيف الفكر التهجيري نفسه.

لقد احتل الحاخام العنصري مئير كاهانا رأس سلم الداعين إلى فكرة الترانسفير بالقوة وبواسطة الشاحنات، وأصبح بذلك الوجه الأكثر وضوحا ووقاحة في التعبير عن جوهر الفكر الصهيوني. ولا يبتعد عنه كثيرا في مثل هذه الدعوة كل من رحبعام زئيفي، زعيم حركة «موليدت» (الوطن)، أو ميخائيل ديكل، أو أرئيل شارون، أو غيئولا كوهن، أو يوفال نئمان.

كذلك لا يبتعد عنهم من حيث الممارسة كل من اسحق رابين، وزير «الدفاع» «الاسرائيلي»، وأحد قطبي حزب العمل «الحمائمي»، أو الوزير بلا حقيبة يوسف شبيرا الذي سبق له أن طرح فكرة ترحيل العرب مقابل دفع (٢٠) ألف دولار لكل فلسطيني يوافق على الرحيل. وكذلك الحال مع الوزير الليبرالي جدعون بات الذي كان قد صرح قبل سنوات أنه إذا ما أثار «السكان العرب» مشاكل فإن «اسرائيل» ستضعهم في شاحنات تنقلهم إلى خارج الحدود، ناهيك عن أهارون باريف الذي شغل سابقا رئيس شعبة الاستخبارات في الجيش «الاسرائيلي»، ويدير حاليا مركز الأبحاث الاستراتيجية في جامعة تل أبيب، والذي لم يرفض قبل نصف عام إمكانية القيام بالترانسفير. هذا على صعيد الزعماء والقادة والمنفذين لفكرة تهجير الفلسطينيين.

أما على صعيد الحركات والأحزاب والمنظمات «الاسرائيلية» التي تطرح هذه الفكرة وتسعى إلى تحقيقها فأهمها:

(١) حركة «كاخ» بزعامة الحاخام مئير كاهانا.

(٢) حركة «هتحيا» بزعامة يوفال نئمان وغيئولا كوهين.

(٣) حركة «الليكود»، حيث يسعى عدد من زعمائها بصورة علنية أو بصورة سرية إلى تحقيق هذه الفكرة. ومن الجدير بالتحديد هنا أن أبرز حَمَلَة لواء الترانسفير في الليكود هم أرئيل شارون ومئير كوهن أبيدوف وميخائيل ديكل، ودافيد باريليف نائب رئيس بلدية عكا.

(٤) موليدت - وقد ظهرت هذه الحركة العنصرية قبل أشهر قليلة من إجراء انتخابات الكنيست الثانية عشرة الأخيرة في مطلع تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٨ . وقد حظيت هذه الحركة بمد وتأييد جماهيري كبير بفضل الأفكار الترحيلية التي طرحها وكررها ودعا إلى تنفيذها زعيم الحركة المعروف رحبعام زئيفي الذي حاول أن يطلي اقتراحه العنصري بغطاء من « الايجابية » . وقد شهدت أفكار حركة موليدت هذه رواجا متزايدا في بعض الأوساط « الاسرائيلية » المتطرفة ، وبخاصة في ظل الانتفاضة الفلسطينية المستمرة منذ ما يزيد على عام كامل .

(٥) الحركات الاستيطانية والتنظيمات الصهيونية الإرهابية الجديدة .

جهات الترانسفير

لاخلاف على أن الفكرة الأساسية الداعية إلى تهجير السكان الفلسطينيين فكرة قائمة مترعرعة نامية في أوساط كثيرة من « الاسرائيليين » ، على الصعيدين الرسمي والشعبي . كذلك لا خلاف على أن المساعي « الاسرائيلية » ما تزال مستمرة لتحقيقها . غير أن أهم العوائق أمام القيام بعمليات طرد جماعي للفلسطينيين يتجلى في صعوبة تحديد الجهة : إلى أين ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ وفي هذا السياق طرح الزعماء الصهاينة مجموعة من الأفكار ، بغية تحقيق هذا الهدف أهمها :

١ - ترحيل الفلسطينيين العرب ونقلهم جماعيا بواسطة شاحنات إلى خارج حدود الوطن المحتل ، عبر الأردن ولبنان أساسا . ويقع ضمن نطاق هذا التوجه فكرة استغلال الفرص سابقة الذكر .

ب - ترحيل الفلسطينيين العرب ونقلهم من المدن والمخيمات والقرى ، وتجميعهم في أماكن نائية (على أرض فلسطين نفسها) شبيهة « بالكانتونات » ، بغية تسهيل السيطرة عليهم .

ج - الترحيل « الايجابي » : أي إقناع السكان الفلسطينيين بالرحيل والهجرة ، إما بالاغراءات المالية ، أو بواسطة فكرة رحبعام زئيفي « الأخلاقية السامية الايجابية » كما يزعم .

د - التبادل السكاني : وتقوم هذه الفكرة التي تستخدم كغطاء للنوايا الصهيونية الحقيقية على أساس تنفيذ عملية تبادل سكاني متفق عليه ، أي ترحيل الفلسطينيين إلى الأقطار العربية مقابل استيعاب يهود الأقطار العربية .

الخلاصة

تتضح ، في ضوء كل هذه الأطروحات والأفكار والمخططات ، المساعي الصهيونية المتنامية ، الرامية إلى ترحيل فلسطينيي الوطن المحتل عن بكرة أبيهم على مراحل ، أو جماعيا ودفعة واحدة . وبذلك يتضح أن الهدف عند غالبية الصهيونيين كان وما يزال واحدا ، ويتجلى في استمرار حركة العدوان والتوسع والاستيلاء على كل الأراضي الفلسطينية المحتلة ، بما عليها وبما في داخلها من الممتلكات والثروات ، وخصوصا عبر ترحيل أصحابها الحقيقيين وتهجيرهم بشتى الوسائل ، وصولا إلى تعزيز الكيان « الاسرائيلي » وتوطيده وتخليده ، وبالمقابل ، ليس ثمة طريقة لضرب ذلك المخطط الصهيوني وإفشاله سوى الصمود والتصدي المتمثل في حركة المقاومة الفلسطينية ، وفي الطليعة منها ، الانتفاضة الشعبية الراهنة . وغني عن الذكر والتأكيد أن هذه الانتفاضة التي تمكنت من تحقيق جملة من الانجازات السياسية والمعنوية والاجتماعية والاخلاقية والميدانية ، قد تمكنت أيضا من دحر جملة من مخططات الاحتلال الاستيلائية الاستيطانية التهجيرية وإحباطها . ومما لاشك فيه أن استمرار الانتفاضة والمقاومة وتواصلها ، طبعا إلى جانب الموقف العربي الموحد والعمل العربي المشترك ، هو الضمانة الأكيدة لتحرير المغتصب من الأرض واستعادة الحق السليب . □



منتدى العربي

شخصيّتك !

بقلم : الدكتور علي الوردي

الكتابات التي تناولت موضوع الشخصية بالدراسة والتحليل كثيرة هي ، ومع ذلك فإن وجهات النظر لم تتفق حولها ، ومازال الجدل والاجتهاد قائمين ،وهذه وجهة نظر حول الشخصية ، قابلة للموافقة والاختلاف والحوار .

من الأخطاء الشائعة التي يتداولها الناس ، لاسيما العوام منهم ،خطأ وصفهم لأحد الأفراد بأن له شخصية ، ووصفهم لآخر بأنه لا شخصية له . والواقع أن كل فرد من البشر لابد أن تكون له شخصيته الخاصة به . ومن الممكن تعريف « الشخصية » على وجه التبسيط والايجاز بأنها مجموعة الصفات التي يتميز بها فرد عن آخر . وهناك خطأ آخر يتداوله الناس ، هو أنهم يظنون أن الفرد قادر على أن يصنع شخصيته كما يشاء حسب المبدأ القائل « من جد وجد » . والواقع أن الفرد لا اختيار له أو إرادة في صنع شخصيته إلا ضمن نطاق محدود . فالشخصية هي نتاج التفاعل بين مجموعتين من العوامل : أولاهما عوامل الوراثة التي يولد الفرد بها ، والثانية تلك التي يتلقاها الفرد منذ ولادته من محيطه الاجتماعي الذي ينشأ فيه .

إن الانسان حين يولد يحمل في بدنه صفات ورثها من أبويه ، حسب قوانين « مندل » المعروفة ، كالمواهب ، وشكل الوجه ، والبدن ، وكفاءة الأجهزة البدنية ، والتركيب العصبي والهرموني ، وقوة العضلات وغيرها . وهذه الصفات تدخل في بوتقة المحيط الاجتماعي الذى ينشأ فيه الفرد ، والتي تتكون من البيت الذي يتربى الفرد فيه ، والأقران الذين يلعب معهم ، وشخصية الوالدين ومستواهما الاقتصادى والاجتماعي والثقافي .

« من جد وجد » .. لكن كيف ؟

مشكلة الانسان أنه إذا وهبه الله عوامل وراثية ومحيطية جيدة ، ونال بها شخصية متوازنة ناجحة ، فقد يصيبه الغرور ، ويحسب أنه صنع نفسه بإرادته وحسن تدبيره حسب المبدأ القائل « من جد وجد » وتراه يتعالى على البؤساء الذين

ساء حظهم من جراء عوامل وراثية أو محيطية لايد لهم فيها . فيعزو سوء حظهم إلى سوء تدبيرهم ،وإلى كسلهم وتقاعسهم ، ثم يأخذ بتوجيه اللوم والتقريع إليهم ، ويفتخر عليهم قائلا : انظروا كيف صنعت نفسي ؟ ! ولماذا لم تفعلوا مثلي ؟ !

أعرف شخصا كان قد ولد في أسرة متوسطة في مستواها الاقتصادي والاجتماعي ، وقد وهبه الله درجة غير قليلة من الذكاء ، كما وهبه وجها وسيما وقامة رشيقة . ثم ساعدته الظروف والمصادفات في كبره فنال منصبا مرموقا . وقد كان الواجب عليه أن يحمد الله على نعمته ، غير أنه كان يحمد نفسه بدلا من أن يحمد الله .

وفي الوقت نفسه أعرف شخصا آخر مات أبوه وهو طفل صغير ، فأخذت أمه تكدح لإعالة نفسها وإعالته . وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره أجبرته أمه على العمل أجيراً في أعمال البناء . وعندما كبر هذا الطفل صار يعمل في سيارات النقل مساعدا للسائق . وكنت أراه كادحا يعمل ساعات عديدة في اليوم لقاء أجر محدود . وحين تحدثت إليه وجدته يشكو من سوء حظه في هذه الدنيا .

الواقع أننا نشاهد في حياتنا من أمثال هذين الشخصين نماذج كثيرة . فالدنيا مليئة بهم . أحدهم مغرور شامخ بأنفه والآخر بائس يشكو حظه .



إن من يريد أن يفهم حقيقة البشر ، وكيف تتكون شخصية كل واحد منهم ، فما عليه إلا أن يتخذ له موقفا منزويا على رصيف أحد الشوارع ، ويتأمل في الأشخاص الذين يمرون به . فكل واحد منهم لا بد أن تظهر عليه بعض صفاته الموروثة ، كما يظهر عليه أثر المحيط الاجتماعي الذي نشأ فيه . إن من النادر أن ترى شخصين يتماثلان في جميع مظاهرهما . فكل واحد منهما يختلف عن الآخر في شكل وجهه وبدنه ، وفي نمط الملابس التي يرتديها ومبلغ عنايته بها ، وكيف يمشي في الشارع ، أو ينظر إلى الناس حوله ، أو يحييهم أو يسألهم ، أو يتخاصم معهم ، إن هذه وغيرها هي علامات تدل بصورة مباشرة أو غير مباشرة على تكوين شخصيته ، وكيف انها نتاج التفاعل بين عوامل الوراثة وعوامل البيئة المحيطة .

طبيعة المواهب

أشرت آنفا إلى أن المواهب هي من جملة العوامل التي يرثها الفرد من أبويه ، وهي التي لا يد للانسان في صنعها . فالانسان يولد بها مثلما يولد بشكل وجهه ، أو طول قامته ، أو قوة عضلاته ، أو ما أشبه ذلك .

خذ موهبة الذكاء ، مثلا ، لا سيما الذكاء الحسابي الذي يتمثل في القدرة على تعلم العلوم الطبيعية والرياضيات ، فقد تبين الآن أن له خاصية وراثية . وقد أشارت بعض الأبحاث الحديثة إلى أن مخ الذكي يختلف عن مخ الغبي منذ ولادته . فالفرد الذي يولد بغباء موروث لا يمكن أن يتفوق في دراسته العلمية مهما كافح وثابر . إنه قد يتمكن من بلوغ حافة النجاح عند مساعدة الظروف له ، أما التفوق فهو بعيد عنه .

ولعل من المناسب هنا أن أشير إلى بحث نشر مؤخرا حول تشريح مخ عالم الرياضيات المشهور « اينشتاين » . فقد مات هذا العالم منذ زمن غير

قصير، ولكن مخه حوفظ عليه. وفي الآونة الأخيرة قامت الأستاذة «ماريان دياموند» بتشريح مخ اينشتاين، وهي اختصاصية في علم التشريح، وتوصلت إلى نتيجة أثارت الدهشة في الأوساط العلمية. فهي تقول: «إن مخ اينشتاين يحتوي على نسبة مرتفعة من خلايا معينة تزيد على ما هو موجود منها في مخ الانسان العادي بنسبة ٧٣ بالمائة، وهذه الخلايا لها اتصال مباشر بعملية التفكير والذكاء». وتستنتج الأستاذة دياموند من ذلك قائلة: «إن هذا هو السر في عبقرية اينشتاين».

إن اينشتاين في الواقع يعطينا نموذجا لتفاعل الوراثة مع عوامل البيئة المحيطة في تكوين الشخصية. فمن حسن حظ اينشتاين أنه نشأ وعاش في بيئة متقدمة حضاريا، وفيها من الجامعات والمعاهد العلمية أرقاها، وقد أتيح له أن يدخل في تلك المعاهد، حيث اكتشفت فيها موهبته النادرة، وتمكن هو من استثمارها إلى أبعد الحدود. ولو فرضنا أن اينشتاين قد عاش في قرية متخلفة، بدلا من تلك البيئة المتقدمة، فلربما كانت موهبته شؤما عليه.

المعروف عن اينشتاين أنه بمقدار ما كان عظيما في ذكائه الحسابي كان ضعيفا في ذكائه اللغوي، ويقال عنه انه كان لا يحسن الحديث إذا تكلم. وقد حدثني شخص تعرفت عليه في الولايات المتحدة، وكان هو قد التقى باينشتاين في أواخر أيامه، وتحدث معه، فقال لي: «إن من يستمع إلى اينشتاين وهو يتكلم قد يصاب بخيبة أمل، وقد يتعجب كيف تمكن هذا الرجل من إبداع نظرية النسبية، وهي النظرية الكبرى التي غيرت مجرى الفكر البشري في العصر الحديث».

كان اينشتاين في صباه يبدو عليه الغباء بسبب ضعفه اللغوي. وقد ظن أهله أنه لا خير فيه.

ولنفرض أن اينشتاين قد نشأ في بيئة تقدر الأدب والشعر كل التقدير، ولا تهتم بالعلوم الطبيعية والرياضية، فماذا سوف يكون مصيره فيها؟! أو لنفرض أن شخصا آخر وهو موهوب كاينشتاين، ولكنه هزيل البدن، نحيف. نشأ في بيئة تقدر القوة والغلبة وممارسة القتال. أرجح الظن أنه سينال من الصفعات عددا وفيرا، وسيبقى طوال حياته يشكو من سوء حظه في هذه الدنيا على طريقة «خائب ياحظي»!.

إن كل بيئة اجتماعية لها معاييرها وقيمها الخاصة بها، كما أن لها مجالاتها ومهنها التي يتاح للإنسان النجاح ونيل التقدير بها. فالناجح في بيئة قد يخفق في بيئة أخرى. والويل لمن ينشأ في بيئة لايملك هو موهبة أو صفة مرغوبا فيها، أو لم تساعده الظروف على استثمار موهبته في حالة وجودها فيه.

الأمراض النفسية:

إن الأمراض النفسية كثيرا ما تكون لها جذور وراثية على نحو ما ذكرناه عن المواهب. فالجنون مثلا، لابد أن يكون في الفرد استعدادا وراثيا لكي يصاب به، ثم تأتي الظروف المحيطة بعدئذ لتزيد من تأثير ذلك الاستعداد في صاحبه أو تنقص منه.

ذكرت إحدى المجلات العلمية مؤخرا عن دراسات قام بها بعض الباحثين في المخ البشري، وفحواها أن الجنون قد ينشأ عن خلل في بعض خلايا المخ ناشيء عن عامل وراثي. وذكرت مجلة أخرى عن دراسات أخرى مؤداها أن الجنون قد ينشأ عن خلل في التوازن الكيميائي في المخ.

وعلى كل حال فإن التفاعل بين عوامل الوراثة وعوامل البيئة المحيطة يظهر أثره واضحا في تكوين شخصية المجنون. فقد أشارت بعض الاحصاءات الاجتماعية إلى أن معدل الإصابة بالجنون بين الفقراء هو أكبر جدا منه

بين الأغنياء . وليس من الصعب معرفة السبب في ذلك . فالفقير هو عادة أكثر عرضة للفشل في حياته من الغني ، كما أنه أكثر عرضة لاحتقار الناس واستهزائهم وتقريعهم ، فإذا كان لديه استعداد وراثي للجنون ، فإن هذا الاستعداد يزداد فيه من جراء المعاملة السيئة التي يعاملة الناس بها . وعلى النقيض من ذلك يكون الغني او صاحب الجاه ، فإذا بدرت منه بوادر الجنون فإن الناس لايؤذونه أو يستهزئون به على نحو ما يفعلون مع الفقير ، وربما ازدادوا له احتراماً ، وقد يعدّون بادرة الجنون منه من بوادر العبقرية ! .

يجب أن لاننسى أن الإنسان يجد في الجنون ملاذا يلوذ به تجاه مشقات الحياة واخفاقاتها . فالفرد حين يخيب أمله في نيل المكانة العالية التي كان يطمح إليها تراه يلجأ إلى الخيال ليخلق لنفسه المكانة التي يشتهيها ، وهو بذلك يدخل في عالم الجنون . ومشكلة الناس أنهم في أكثر الأحيان لايساعدون مثل هذا الفرد للتخلص من جنونه إذا كان فقيرا ، بل هم يزيدون من وطأة الجنون عليه باستهزائهم به وايذائه ، وهم بذلك يدفعونه في عالم الخيال عاليا .

الخلاصة

خلاصة ما أردت قوله في هذه المقالة هي أن شخصية الانسان ليس في مقدور صاحبها أن يصنعها كما يشاء حسبما ورد في الأقاويل التي كانت متداولة بين الناس ، ومازالت كذلك كقولهم : « كل من جد وجد » و« كل من سار على الدرب وصل » و« كل من جال نال » « من طلب العلا سهر الليالي » و « همم الرجال تزعزع الجبال » ، الخ .

إن هذه الأقاويل قد تنفع في مجال توجيه الناشئة لتحريضهم على الجد وبذل الجهد ضمن حد محدود ، ولكنها لا تنفع في فهم الشخصية البشرية كما هي في الواقع . وما أكثر الضحايا الذين سقطوا في ميدان الحياة من جراء تصديقهم لهذه الأقاويل .

إن الشخص الذى يطمح إلى النجاح في مجال أو مهنة ، وهو لا يملك الموهبة المناسبة له ، لابد أن يكون مصيره الفشل الذريع . أعرف أشخاصا أرادوا أن يكونوا أدباء مشهورين ، أو علماء فطاحل دون أن تكون لديهم المواهب الملائمة ، ورأيتهم يقضون حياتهم بالدأب المتواصل الذى لاجدوى فيه . فكانوا يسهرون الليالي في طلب العلا ، وعندما عجزوا عن نيل العلا كما كانوا يطمحون إليه صاروا يصبون نقمتهم على بعض الظروف أو الأشخاص يعزون إليها سبب فشلهم . وكان الأحرى بهم أن يعزوا سبب فشلهم إلى تلك الأقاويل المغلوطة التى صدقوا بها . □

قالوا في الصدق:

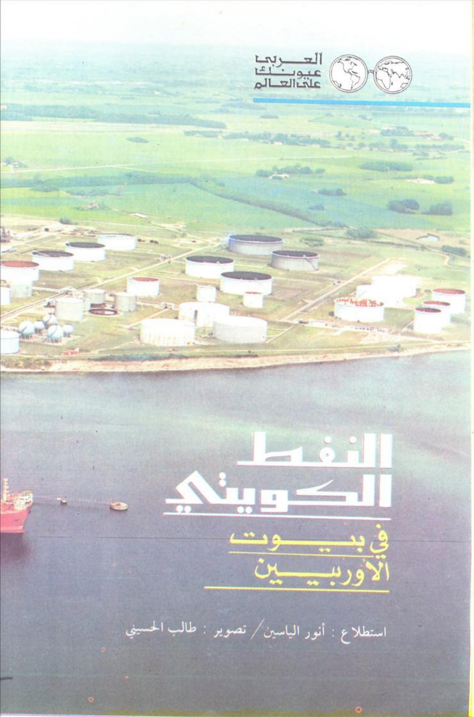
● قال تعالى : «هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم» (صدق الله العظيم) .

● وقال عمر : «عليك بالصدق وإن قتلك» .

● وروي عن عائشة قولها : «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم بم يعرف المؤمن؟ قال : بوقاره ، ولين كلامه ، وصدق حديثه» .

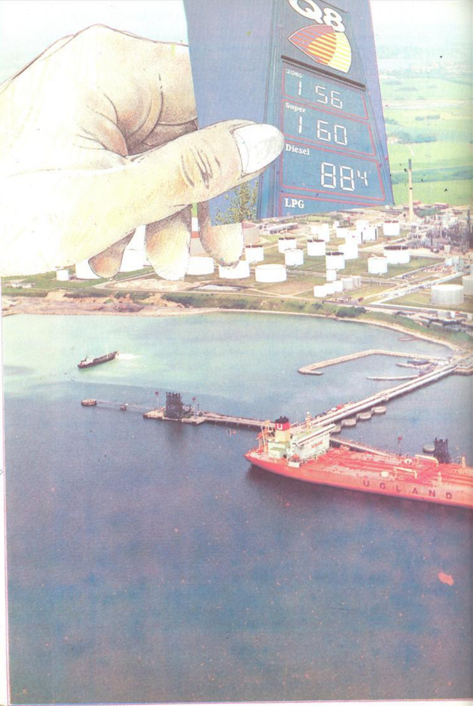
● وقيل : «الصدق عمود الدين ، وركن الأدب ، وأصل المروءة» .

العربي عيونك على العالم



النفط الكويتي في بيوت الأوربيين

استطلاع : أنور الياسين/ تصوير : طالب الحسيني


Q8
1 56
Super
1 60
Diesel
88 4
LPG
UGLAND

أرادت « العربي » أن تقدم هذه المرة ، استطلاعا عن قصة نجاح بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى ، قصة نجاح ساهم فيها التخطيط والعقل والإرادة ، وفكرت فيها عقول وطنية خيرة ، ونفذها رجال مازالوا خلف الأضواء .

إنها ببساطة اقتحام سوق النفط - ليس في الانتاج فقط - ولكن في التكرير والتوزيع ، قصة هذا النجاح يدرسها آخرون لتطبيقها ، ولكنها ما كانت لتنجح ، لولا شجاعة القرار والتصميم على التنفيذ .

نحن قادمون من أقصى نقطة في طرف الصحراء العربية ، عند أطراف جناح الوطن العربي الشرقي ، من الأحمدي والوفرة وبرقان ، وذاهبون إلى أطراف الدنيا ، عند ركنها الشمالي وأطرافها الباردة ، إلى الدانمارك وهولندا وبلجيكا وبريطانيا والسويد ولوكسمبرج .

من آبار النفط في الوطن العربي إلى محطات التوزيع المباشر في شوارع أوربا ، حيث تنتشر محطات شركة كويتية عربية هي (Q8) لتوزيع النفط إلى المستهلك مباشرة . « النفط » قصة طويلة مليئة بالمؤامرات والاستغلال والتحدي والاستقلال ، قصة تلخص تاريخا طويلا من الإرادة والدهاء .

حوله دارت المطامع والرغبة في السيطرة ، وبه استطاعت أقطار النفط العربية أن تخوض معارك التنمية ، وتملك ثرواتها الوطنية كاملة .

والقصة طويلة ، بدأت منذ الربع الثاني من هذا القرن .

بدايات أولى

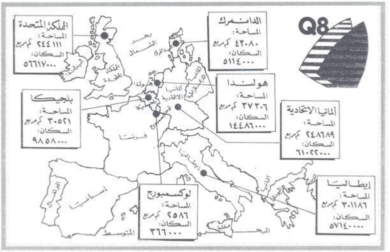
تدفق النفط في الكويت في فبراير ١٩٣٨ ، وكانت شركة نفط الكويت يومئذ ملكا لشركتين بريطانية وأمريكية ، طوال فترة الحرب العالمية الثانية أوقف البريطانيون ضخ النفط ، وبعد انتهائها تم تصدير أول شحنة نفط من الكويت ، في ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٦ ، في عام ١٩٤٩ تم بناء أول مصفاة تكرير في الأحمدي ، وتوسعت بعد ذلك في عام ١٩٦٣ ، وبنيت مصفاة أخرى في منطقة الشعيبة عام ١٩٦٨ .

ومع بداية السبعينات بدأت الكويت في التفاوض والصراع الهادىء من فوق السطح الملتهب في « الكواليس » ، لتستكمل سيطرتها على ثرواتها النفطية ، حتى تحققت السيطرة الكاملة على كل نفط الكويت في مارس ١٩٧٥ .

وعلى الرغم من استكمال سيطرة البلدان النفطية على مصادر ثرواتها ، فقد كانت كل عمليات نقل النفط وتكريره وتوزيعه في أيدي شركات عالمية ، وكانت هذه الشركات العالمية الكبرى تحتكر (امتلاك أو سيطرة ٧٠٪) من صناعات التكرير العالمية ، وتملك أكثر من نصف عدد ناقلات النفط في العالم ، ولذلك كانت هذه الشركات العالمية تفرض السعر الذي تراه لبرميل النفط ، واستمرت العملية حتى بعد استكمال البلدان المصدرة لسيطرتها على ثرواتها النفطية .

وهكذا لم تكن كل عائدات النفط كاملة تذهب إلى أصحاب الثروة الحقيقيين ، فثمن برميل النفط أقل كثيرا من عائد بيع البرميل بعد كل عمليات التكرير .

وأصبح للقصة شكل آخر من أشكال الثراء والمال ، وشكل من أشكال استغلال الثروة ، حتى كسرت الكويت هذه الدائرة ، وخرجت إلى



● خريطة اوربا حيث تمتد نشاطات واستثمارات شركة البترول الكويتية العالمية (Q 8).

العالم كله بوجه مبتسم هادىء ، واثق بسياسته العقلانية الحكيمة ، فقد دخلت ليس في عمليتي التكرير والنقل فقط ، بل في التوزيع أيضا ، وأصبح نفط الكويت من الانتاج حتى الاستهلاك ، بلا وسطاء ، وبلا استغلال ، وبلا « سمسرة » ، وأصبح عائد الثروة كاملا لأصحابه . كيف تم ذلك ؟ إنها قصة نجاح تتواصل خطواتها بهدوء ، وتقدمها العربي كما رصدتها .

وجه مشرق في عواصم العالم

. في عام ١٩٨٣ أنشأت مؤسسة البترول الكويتية شركة البترول الكويتيه العالمية (K.P.I) ومقرها لندن ، ولها شبكة من الشركات الفرعية في ست دول أوربية ، وكانت هذه الخطوة واحدة من استثمارات عديدة تمارسها الكويت في قطاعات النفط داخل القلعة الاقتصادية للبلدان الأوربية .

وقد بدأت هذه الشركة التي اختارت لها اسما تجاريا (Q8) بشراء ممتلكات شركة جلف أويل في أوربا كلها ، ثم شراء محطات توزيع المنتجات النفطية التابعة لشركة (B. P.) البريطانية . وأصبح اليوم للشركة قرابة ٥٠٠٠ محطة توزيع (بنزين) في كل من هولندا وبلجيكا ولوكسمبرج والدانمارك والسويد وايطاليا وبريطانيا ، إلى جانب مصفاة تكرير للنفط في هولندا طاقتها التكريرية ٧٥ ألف برميل في اليوم ، وأخرى في الدانمارك طاقتها ٦٥ ألف برميل يوميا ، وتملك عدة مصانع لإنتاج الزيوت ، وعدة مرافق لتزويد الطائرات بالوقود في عدد من المطارات الدولية في أوربا .

ويبلغ إجمالي ما توزعه محطات الشركة في أوربا الغربية (٢٥٠) ألف برميل يوميا ، أي ٢٥٪ تقريبا (في المتوسط) من إجمالي حصة الكويت الانتاجية من النفط في الأوبك ، وفق اتفاقيات توزيع الحصص بين البلدان المصدرة للنفط (هذا الرقم تقريبي حيث يختلف توزيع الحصص بين فترة وأخرى)



الخطوط الرئيسية لاستراتيجية النفط في الكويت

لم تحظ سلعة في العالم باهتمام مثل النفط ، فقد أصبحت الدول تحدد سياسات النفط وتديرها بأجهزة كاملة ، وتستخدم العلم والحسابات والتخطيط والاقتصاد والسياسة والجغرافيا في صناعة القرار المتعلق بالنفط وعملياته .

ولفهم طبيعة السياسات النفطية بالكويت والقواعد التي تحكمها طرحت « العربي » تساؤلات محددة على وزير النفط الكويتي الشيخ علي الخليفة العذبي الصباح ، عن سياسة الاستثمار النفطي في الخارج ، وكيف استطاعت الكويت أن تكسر حصار الشركات النفطية العالمية ، وعائد هذه الاستثمارات ومستقبلها ، ومستوى الأداء في شركة البترول الكويتية العالمية « Q8 » ، واحتمالات توسع الاستثمارات النفطية ، وخاصة في الوطن العربي .

يقول وزير النفط الكويتي :

على الرغم من أن لدى الكويت ثروة نفطية - مؤكدة - لأكثر من ٢٠٠ عام فإن الكويت مازالت تبحث عن أماكن جديدة لاستخراج النفط واستثماره ، إضافة إلى أنها عبر مؤسستها النفطية الوطنية دخلت إلى جانب مؤسسات النفط العملاقة في اقتحام سوق التوزيع والتكرير في أنحاء كثيرة من العالم . لقد اتجهنا نحو الخارج لأسباب « استراتيجية » ، بهدف توسيع قاعدتنا ، ودخلنا في سوق التوزيع الخارجي لتوفير منافذ للبيع بالتجزئة لمنتجاتنا النفطية ، وكذلك دخلنا مجال الانتاج والاستكشافات ، ونحن اليوم نتتج النفط في أكثر من بقعة في العالم ، ولدينا احتياطي مؤكد كبير من النفط ، وهناك مجالات لزيادة هذه الثروة مع تقدم التقنية واكتشاف حقول جديدة .

وقدرتنا الانتاجية رقم مبالغ فيه في الانخفاض ، نظرا لأوضاع السوق النفطية الحالية ، فحسابات الاحتياطي هذه تمت وفق معدل إنتاج يصل إلى حدود مليون ونصف مليون برميل يوميا ، إذن فإن استمرارنا في السوق النفطية وحجم احتياطاتنا هما اللذان سيحكمان سياستنا للمدى البعيد ، ويجعلاننا نحاول أن نكون فاعلين وموجودين ومؤثرين وشركاء في السوق العالمية بصورة متنامية ، ونحاول أن نحافظ على ذلك بالوصول قدر المستطاع إلى المستهلك النهائي دون وسطاء . وبدل أن يكون وصولنا إليه عن طريق شركات تقوم بعمليات التكرير والتوزيع ، فقد شرعنا خلال الفترة الماضية نركز على المصافي وعملياتها ، ونستثمر في هذا القطاع مبالغ ضخمة لتحديثه ، حتى أصبحت أحدث المصافي الموجودة في العالم كويتية ، وتبلغ طاقتها التكريرية حدود ٧٥٠ ألف برميل .

وسياستنا في قطاع المصافي تهدف إلى انشاء قاعدة تصنيع ، متاحة موادها ، ومضمون سوقها ، وأن نصبح بذلك بلدا مصدرا للمواد التي يستعملها المستهلك بصورة نهائية وليس مصدرا للمواد الخام .

وهناك عدة منطلقات تنتهجها الكويت في سياستها النفطية هي :

أولا : أننا يجب أن نحافظ على السوق .

ثانيا : يجب أن نحافظ على النفط لكي نستغله كقاعدة لقيام صناعة ذات مستوى عال من الكفاءة .

ثالثا : إدراكنا بضرورة الوصول إلى المستهلك مباشرة .

وقد قطعنا شوطا كبيراً في تحقيق هذه المنطلقات ،

دعني هنا أصحح فكرة سائدة عن حسابات البعض للمصافي وصناعة التكرير ، فالمستقر عليه في هذا المجال أنك لا تنظر إلى عائد صناعة التكرير سنة سنة ، لكن تنظر إلى المجمل العام عدة سنوات ، فعملية التكرير تمر بمراحل ودورات ، وتتأثر بعوامل كثيرة ، فهناك سنوات يكون

هامش الربح فيها قليلا ، وسنوات أخرى يكون العائد ممتازا ، وهكذا . ولولا أن صناعة التكرير صناعة ذات عائد على المدى البعيد لما تصارعت عليها شركات النفط العالمية الكبرى واحتكرتها لنفسها سنوات طويلة .

أما التوزيع فهامش الربح فيه لا يكون مرتفعا جدا ، لكنك في النهاية تؤمّن سوقا . ومهما كانت التقلبات في الأسعار ، ومهما كانت ظروف السوق ، فأنت الذي تتحكم فيه وليس العكس ، أما إذا بعت النفط خاما فقط فإن الشركات تشترى منك النفط الخام أو المكرر وتعطيك حدا أدنى من الأسعار ومن الاستقرار لمبيعاتك النفطية . ونحن لا نريد نكون تحت رحمة شركة ما أو موزع لهذه السلعة « الاستراتيجية » .

وفيما يتعلق بمستوى الأداء في Q8 فنحن نشعر بالرضا عن أداء الشركة ، للنجاحات التي تحققها ، وعلى الرغم من ذلك لدينا نظام دقيق للمتابعة . نعقد اجتماعا كل ثلاثة شهور ، لنناقش أهدافنا النوعية والكمية ، وماذا تحقق ، وماذا لم يتحقق ، ولماذا ، وكيف نطور أداءنا ، وما إلى ذلك من سياسات ، لأن وجودنا في السوق الأوربية يخضعنا لقواعد لعبة السوق الحرة المنتشرة في أوربا ، المفتوحة للتنافس ، فالشركات هناك لا تترك لك فرصة للجلوس على نصر حققته ، أو على شيء جيد توصلت إليه ، فالعملية كلها عملية منافسة مستمرة وتطوير مستمر ، وإلا فلن تستطيع الاستمرار في السوق .

وقد يتساءل البعض : وماذا عن الوطن العربي ؟

وإننا كمؤسسة البترول الكويتية ، وأشرك الحكومة الكويتية إلى جانب مستثمرين في الوطن العربي بحجم كبير ، للاستكشافات في جمهورية مصر العربية ، وقد بدأنا في إنتاج النفط في حقل (أمل) ، في خليج السويس ، بمقدار ٧٠٠٠ آلاف برميل يوميا ، ولدينا امتيازات أخرى في مصر ، مثل منطقة رأس الكنايس في صحراء مصر الغربية ، إضافة إلى أننا نقوم بعمليات التنقيب عن النفط في تونس ، لكننا حتى الآن لم نوفق في العثور عليه بكميات تجارية ، لكن عمليات التنقيب مستمرة ، حيث لا نتوقع النجاح في كل محاولة أيضا . ولدينا أيضا أعمال مماثلة في السودان ، لكن نظرا للظروف الحالية في الجنوب فالعمليات والنشاط متوقفان وسوف نباشر عملنا بأسرع وقت ممكن متى تهيأت الظروف .

ولدينا امتياز في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، وقد بدأنا في البحث عن كيفية التعاون مع الإخوة في الجمهورية العربية اليمنية ، وكذلك لدينا استثمارات أخرى في بعض المناطق في الوطن العربي .

أما بالنسبة لاستثمارات (Q8) ودخولها في الأسواق العربية ، وانتشارها في الأقطار العربية ، ودخولها أسواق التوزيع فيها ، فنحن لا نريد التوسع في (Q8) إلا في المناطق التي نستطيع فيها أن نزود هذه المحطات بالنفط الكويتي ، سواء النفط الخام أو منتجاته ، وفي غالبية الأقطار العربية تنقسم العملية إلى قسمين : إما أقطار مصدرة للنفط ، وفي هذه الحالة لا تحتاج إلى نفطنا ، وإما أقطار مستوردة ، وفي هذه الحالة تقوم الحكومة أو شركة حكومية باستيراد النفط بصورة مباشرة .

فالتوزيع في الأقطار العربية مجاله محدود لكن هذا لا يمنع أن نستثمر في أي قطر عربي تسمح ظروفه .

وزير النفط الكويتي الشيخ علي خليفة الصباح يتحدث « لمجلة العربي »



كوبنهاجن من طرف العالم الأقصى

كانت الطائرة تزحف على الممر، تمهيدا للوقوف. من النافذة بجوار مقعدي كانت أضواء كوبنهاجن تختبىء خلف الضباب والثلج. هنا أقصى أطراف الدنيا، آخر جزء من اليابسة من أوربا، يمتد في بحر الشمال، شمالها بعد بحر الشمال النرويج والسويد وفنلندا، سقف العالم، وقربها بحر البلطيق، وغربها بحر الشمال، فتبدو الدانمارك كشبه جزيرة محاطة بالماء البارد. وتصب عندها حضارات أوربا كلها.

في قاعة المطار استقبلنا مندوب فرع شركة البترول الكويتية العالمية. وفي طريقنا إلى الفندق أخذ يحدثنا عن الشركة فقال:

كما ترى على طول الشارع، وفي كل مكان، محطات تزويد السيارات بالوقود تحمل شعار (Q8)، وهي كما تعلم ملك لمؤسسة البترول الكويتية، ليس هنا في كوبنهاجن فقط، بل إنها منتشرة في جميع أنحاء أوربا الغربية، وتحظى هذه المحطات بإقبال منقطع النظير من جمهور المستهلكين الأوربيين.

سألته: لماذا يقبل الناس على هذه المحطات وليس على غيرها؟

فقال: الناس هنا متقبلة للشعار الجديد (Q8) الذى بدأ يغزو كوبنهاجن مؤخرا، فهو بسيط واضح، يتمشى مع الشروط والمتطلبات التى تضعها جمعيات حماية البيئة، فليس هناك إشارات تحمل أنوارا ساطعة، بل أكثر من ذلك فنحن فى الشركة ملتزمون باتباع شروط البلدية من ناحية الشكل العام للمدينة. والناس هنا تعلم تماما أن هذه الشركة تملكها الكويت، القطر العربي الناهض في أقصى الخليج العربي.

لقد عد الناس هنا رفع علامة التسويق الجديدة الخاصة (Q8) بدلا من علامة «جلف» حدثا مهما فى صناعة النفط الأوربية، علما بأن علامة (Q8) هى أول علامة نفطية دولية جديدة تطرح فى أوربا منذ أكثر من خمسة عشر عاما.

وكما ذكرنا سابقا فقد لقيت هذه العلامة الجديدة قدرا كبيرا من الاستحسان والقبول، وأصبحت مألوفة بسرعة، كما أصبحت أحد معالم الطرق السريعة كما ترى.

كوبنهاجن عاصمة الدانمارك تملك مزيجا فريدا بين المدينة العصرية والقديمة، فأنت إذا ما قرأت مسرحية شكسبير (هاملت) فانك لابد أن يمر عليك ذكر قلعة «كروان برج»، وقصص الفايكنج ومغامراتهم. وهذه القلعة آية فى الجمال، تبعد ٤٠ دقيقة بالسيارة عن العاصمة كوبنهاجن، وتطل على الميناء، ومنها تستطيع رؤية البر الأوربي المقابل (السويد). من المعالم البارزة فى العاصمة ساحة (املوبرج) التي شيدت في القرن الثامن عشر، والتي تعد واحدة من أجمل ميادين مدن العالم، حيث يطل عليها القصر الملكي. وإذا ما تجولت فيها ساعة الظهر فلا بد أن يلفت انتباهك تغير الحرس الملكي، أما عروس البحر فهى هدية الشاعر الكبير (افراد أركسون) التى قدمها هدية للمدينة رجل الصناعة «كازبلرك» عام ١٩١٣، تقبع على مدخل ميناء كوبنهاجن، وهى محطة للسائحين من جميع أنحاء العالم.

فى مقر الشركة الكويتية الدانماركية للبترول استقبلنا المدير العام «بوب قاتنغ» فى مبنى رائع الجمال. على ناصية الطريق إلى مدخل المبنى محطة (Q8) لتعبئة السيارة بالوقود. طاف المدير بنا في أرجاء المبنى بسرعة والكل يعمل بنشاط وحماس، فالعمليات العالمية وتحويلات المبيعات للعملاء تدار من هنا، فهنا شبكة واسعة من «الزبائن» على امتداد الدانمارك.

يقول (بوب): نحن نملك ٦٥٤ محطة تعبئة في الدانمارك ويشكل ذلك أكبر شبكة للبيع بالمفرق فى الدنمارك إضافة إلى ثمانية مراكز



● المدير العام للشركة الكويتية الدانمركية العالمية للبترول السيد بوب قاتنغ .

للشاحنات ، وهي عبارة عن محطات خاصة للشاحنات الثقيلة فقط التي تطوف طرقات أوربا السريعة ، فتقدم لهم خدمة الديزل فقط ، إضافة إلى غسيل السيارات والصيانة البسيطة ، ويتم الدفع عن طريق الاشتراكات وبطاقات الائتمان .

كما أننا نوزع المنتجات الكويتية على بقية أرجاء الدانمارك والسويد عبر سفن صغيرة يتم استئجارها ، وذلك بعد تكرير النفط الكويتي الخام في المصفاة التي تملكها الكويت هنا في (Gulf Hewven) جلف هيفن ، كي يكون ذلك مناسبا للسوق الأوربية .

نحن في (Q8) الدانمارك يتابع المدير القول : قد دخلنا الأسواق بمظهر جديد وخدمة ممتازة وسريعة ، ومحطات خدمة جديدة وشكل متميز ، والعاملون لدى الشركة يشعرون أنهم ينتمون إلى شركة ناجحة متقدمة ، فالنجاح الواضح يدفع الجميع كي يحافظوا على النجاح ، ويشعر العاملون أن مستقبلهم هو مستقبل هذه الشركة . ونحن قد بدأنا تحقيق بعض الأرباح في الفترة الأخيرة ، وهذا راجع للمكانة والسمعة اللتين حظينا بهما بين جمهور المستهلكين ، وأنت تعلم أن سوق المنافسة واسع وكبير ، وشركات النفط الأخرى لن تتركنا نأخذ زبائنها في السوق بسهولة ، فنحن ثاني أكبر شريك في السوق الدانماركية ، بعد شركة شِل التي تملك حوالي ٢٦٪ ، فنحن نملك ما يقارب ٢٤٪ من السوق المحلية .

بين الخضرة والطبيعة تعيش (Q8)

ونحن نبيع وقود التدفئة على المنازل ، ولدينا أسطول كبير من عربات نقل هذه المنتجات إلى المستهلك ، ونبيع أيضا زيوت السيارات والديزل والبنزين وغير ذلك من المنتجات النفطية . في الطريق السريع إلى الجنوب الشرقي من كوبنهاجن في طريقنا لزيارة إحدى المصفاتين اللتين تملكهما شركة البترول الكويتية العالمية في أوربا توقفنا في الطريق لتعبئة سيارتنا بالوقود في إحدى محطات (Q8) ، فوجدناها نموذجية متطورة خدماتها سريعة ، وبأحدث الطرق التقنية ، إذ ليس هناك جهاز يعمل يدويا ، فكل أجهزتها تعمل بالحاسوب « الكمبيوتر » ، من تعبئة السيارة إلى المحاسبة ، والمحطة مزودة بكل وسائل الراحة ، من علبة « الشوكلاتة » إلى جهاز « الفاكس ميلي » (الاتصال بالصورة والصوت عبر الهاتف) . وبها مطعم من الدرجة الأولى ، وخدمة غسيل السيارات ، وتبديل زيت المحرك ، وفحص المحرك وتبديل الإطارات وصيانتها بسهولة ويسر .

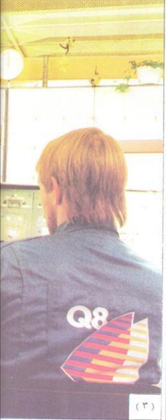
الطريق إلى المصفاة يمر بك في منطقة زراعية رائعة الجمال ، بساط أخضر تتخلله طواحين الهواء التي كانت تستخدم لتوليد الكهرباء وجلب المياه ، والأبقار الدانماركية الجميلة في قطعان كبيرة منتشرة . لم أكن أتخيل أن هذه الطريق تؤدي إلى مصفاة (Q8) إلا عندما رأيت مداخن المصفاة والنار المشتعلة من حرق قليل من الغاز غير المستعمل في الهواء . تقبع المصفاة على خليج



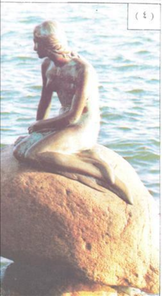
(١)



(٢)



(٣)



(٤)



١) كوبنهاجن عاصمة الدانمارك حيث يمتزج القديم بالحديث ، ويتمتع الأطفال بالتعرف على معالم المدينة التاريخية .

٢) الدراجة الهوائية أداة نقل البريد السريع داخل مصفاة النفط في « جلف هيفن » .

٣) غرفة التحكم الرئيسية في مصفاة « جلف هيفن » التابعة لشركة البترول الكويتية العالمية في الدانمارك .

٤) « عروس البحر » أو « معبودة السواح » جاثمة على مدخل ميناء كوبنهاجن .

٥) واحدة من محطات توزيع الوقود المنتشرة في كوبنهاجن التابعة لشركة البترول الكويتية العالمية (Q8) .

(٥)



في جنوب غرب كوبنهاجن ، وقد أنشأتها شركة جلف عام ١٩٦٣ ، وأصبحت تملكها بعد شرائها مؤسسة البترول الكويتية عام ١٩٨٣ ، وبها ميناء بأربعة أرصفة ، يتسع لتحميل وتفريغ ناقلات نفط تصل حمولتها الى ١٥٠ ألف طن من النفط الخام أو مشتقاته ، إضافة إلى تسهيلات في تحميل شاحنات الوقود التي تملكها الشركة ونقلها إلى المستهلكين في أرجاء الدانمارك والسويد .

يقول السيد بيتر ونشتر ، المدير العام للمصفاة : إن (Q8) عندما بدأت العمل بالمصفاة عام ١٩٨٣ كانت المصفاة تنتج ٥٥ ألف برميل يوميا ، وتم إغلاق أجزاء من المصفاة ، وفي أقل من عام عاد المعدل مرة أخرى إلى وضعه الطبيعي بسبب الثقة التي وضعتها الشركة في إمكانية أن تصبح هذه المصفاة واحدة من أدوات استثمارات الكويت المستقبلية في غرب أوربا ، أما في أواخر عام ١٩٨٨ فإن معدل إنتاج المصفاة قد بلغ ٦٠ ألف برميل من النفط الكويتي الخام الذي يأتي إلينا إما مباشرة من الكويت أو من خزانات الشركة في هولندا ، والنفط الذي يأتي إما نصف مكرر أو نفط خام ، والمصفاة لديها الإمكانية الكاملة لتلبية حاجات السوق من مختلف المنتجات ، كزيوت التدفئة ووقود الطائرات والسيارات وغير ذلك من مشتقات النفط الخام .

ويعمل في المصفاة حوالي ٢٠٥ من الفنيين والمهندسين والعمال ، والعمل بالمصفاة على مدار الساعة . وعلى بوابة المصفاة ينتصب رمز تذكاري لأبراج الكويت . سألنا أحد العاملين : ما دلالة هذا ؟ فقال : إن هذا النصب التذكاري هدية من العاملين في المصفاة ، قدموه للشركة بمناسبة مرور ٢٥ سنة على إنشائها ، وقد اخترنا هذا الشعار تقديرا وعرفانا بمساهمة الكويت في التقدم والتطور اللذين حدثا للمصفاة منذ أن دخلت (Q8) للمصفاة كمالك جديد .

دعونا عمال المصفاة للغداء في المطعم الخاص بالمحطة لتناول وجبة دانماركية خاصة ، ولم تكن الأمور معدة سابقا ، فقد فضلنا أن تكون طبيعية ، وأن ننتهزها فرصة للحديث عن انطباعاتهم عن الكويت ، وماذا يعرفون عنها ، وهل هم مرتاحون من العمل في المصفاة ، فكان شعور الجميع حقا مثار دهشة وإعجاب لدينا ، فهم يعرفون تفاصيل دقيقة عن الحياة والتقدم الذي نعيش فيه هنا على أرض الكويت ، وكلهم يقولون : إنهم سعداء جدا بموقف الكويت في معالجتها لحادث اختطاف ركاب الطائرة « الجابرية » في ابريل ١٩٨٨ .

سألنا مسؤول العمال في محطة التحكم الرئيسية أيلم نلسون وهو يعمل منذ ٢٥ سنة بالمصفاة ، عن انطباعاته عن العمل في المصفاة ، فقال : إن التطوير الذي أدخلته (Q8) على المصفاة ، وعلى أجهزة التحكم في تشغيل المصفاة ، يعد تطورا كبيرا خلال الخمس سنوات الأخيرة ، فبعد أن كانت هذه الأجهزة تعمل بالهواء المضغوط ، وبالأجهزة الالكترونية العادية ، أصبحت الآن تعتمد على « الميكروبروسسور » والأجهزة الرقمية وأجهزة « الكمبيوتر » ، وهي تساعد العاملين على التحكم بطريقة أفضل وأسهل في تشغيل وحدات المصفاة ، وخاصة عند بدء التشغيل ، وفي أثناء التوقف المفاجيء في حالات الطوارىء ، وكذلك في عمل التعديلات والإضافات على دوائر التحكم بسهولة عن طريق البرمجة . وقد تمكنت المصفاة عبر هذه الأجهزة ،وبحماس العمال وانتظامهم في العمل ، من زيادة كفاءة وحدات التشغيل ، وتوفير الكثير من النفقات . وقد كان ذلك بالطبع بالتدريج ، وحسب برنامج زمني وضع لتحديث المصفاة ، وأضاف قائلا : إننا الآن نشعر بالثقة والأمان أكثر من أي يوم آخر ، إن طريق المراقبة وأجهزة الأمان والوسائل الحديثة للمحافظة على البيئة،وعدم رمي المخلفات الناتجة عن التكرير في البحر ، وكل هذه عوامل قد



● مدير مركز الأبحاث والتقنية التابعة لشركة البترول الكويتية العالمية السيد هلجن .

ساعدت الشركة على كسب ثقة الجميع فى المنطقة ، وبنت سمعة واسعة للشركة في أرجاء الدانمارك .

فى طريق العودة طاف فى مخيلتي التفكير في مقدار الجهد الذى يبذل حتى تسير بنا السيارة فى الطريق ، إنها عملية شاقة معقدة ، وتحتاج إلى جهد وعقل مفكر .

هولندا سلة زهور العالم

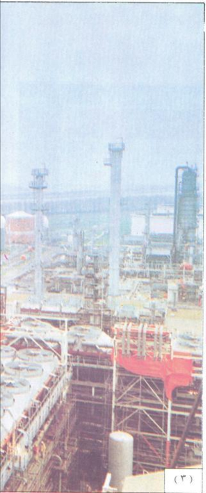
محطتنا الثانية فى الرحلة هولندا أو « الأراضي المنخفضة » ، وعاصمتها امستردام . تملك أمستردام ، سحر باريس ولندن وجاذبيتها ، فالإنسان لا يشعر بالغربة فى هولندا لأنها ـ كما يقولون ـ بلد الزهور والطبيعة الخلابة الساحرة ، وهى بلد صغير الحجم مساحته، ٣٧ ألف كيلومتر مربع ، ولكنه مزدحم بالسكان (١٤ مليون نسمة) ، متطور ، يقع على ساحل بحر الشمال ، على ثلاثة أنهار مهمة ، هى الراين والماس والسخلد ، وبفضل هذا الموقع الجغرافي المناسب استطاع الهولنديون أن يقيموا تجارة واسعة مع أقطار العالم المختلفة ، معتمدين على أسطول بحرى ضخم ، امتدت خطوطه حتى الهند . وشارك الأسطول البحري الهولندي فى اجتياز البحار بحثا عن الثروة فى عصر الكشوف الجغرافية ، ولم ينس الهولنديون تاريخهم البحري والتجاري ، فهم حتى اليوم من أمهر تجار أوربا ، وعلى الرغم من صغر مساحة هولندا ، كما ذكرنا ، وكثرة عدد السكان ـ ١٤ مليون نسمة ـ فإن هناك خمسة ملايين سيارة وهو رقم كبير يشجع على الاستثمار في محطات تعبئة السيارات بالوقود ومحطات الشاحنات وغيره من مواد استهلاكية يحتاجها هذا الكم الهائل من المركبات ، كما أنهم يقيمون خطوط تجارة واسعة بحرية ونهرية مع بلدان أوربا ، وبرية عن طريق مواصلات مفتوحة ، تغطى أوربا كلها . ويتفنن الهولنديون فى استثمار الموارد الطبيعية وتصنيعها ، وخاصة فى قطاع الثروة الحيوانية ، فقد قدموا للعالم أشهر سلالات الأبقار ومنتجات الألبان والسمن والزبدة والشيكولاته والزهور ، واتسع نطاق تجارتهم فى مجال السلع المصنعة ، وازداد اعتمادهم على النفط كمصدر للطاقة فى بلد لا يتمتع بمصادر أخرى للطاقة .

فى مطار امستردام كان ينتظرنا السيد ب . برانكمان ، مدير العلاقات العامة فى (Q8) فرع هولندا. فى الطريق إلى مقر الشركة نلمح محطات (Q8) ، وبجوار الاسم شراعين لمركب بحرى ، ملونين بألوان حمراء وزرقاء ، وقد حدثنا مدير الشركة السيد/ اف . دي برايك فقال :

تمتلك فى هولندا (٣٠٠) محطة توزيع ، منتشرة فى كل أنحاء هولندا ، و (١٥) محطة لخدمات الشاحنات نظام « أ . د . س » العالمي ، ومصفاة تكرير (نيوبورت) فى ميناء روتردام طاقتها اليومية ثمانون ألف برميل يوميا . وتستخدم محطات الخدمة ومصفاة التكرير التابعة



(١)



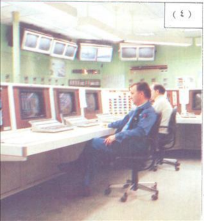
(٣)



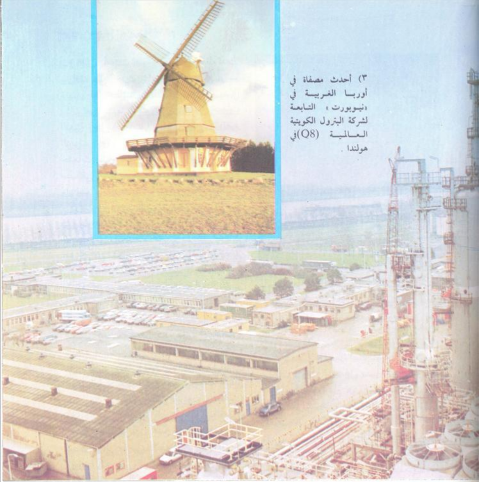
(٢)

١) داخل مختبر الأبحاث والتقنية التابعة لـ(Q8)في « روتردام » بهولندا .

٢) رصيف التحميل والتفريغ التابع لشركة البترول الكويتية العالمية في مصفاة (Q8) في هولندا .



(٤)



٣) أحدث مصفاة في أوربا الغربية في «نيوبورت» التابعة لشركة البترول الكويتية العالمية (Q8) في هولندا.

٤) غرفة التحكم الرئيسية المجهزة بأحدث الوسائل التقنية في العالم داخل مصفاة النفط في «نيوبورت» في «روتردام» والتابعة ل (Q8)

٥) علامة (Q8) من العلامات التجارية التي بدأت تجذب الأنظار على الطرق السريعة في هولندا.

(٥)



لـ (Q8) أحدث تقنية علمية في العالم كله . ومرافقنا هي أحدث مرافق من نوعها في أوربا كلها ، فإن محطات خدمة الشاحنات على سبيل المثال تعمل كلها اليكترونيا ، بدءا من خدمات التعبئة وحتى خدمات الغسيل والتشحيم وتغيير الزيوت . وقبل أن تبدأ الشركة في بناء محطات خدمات الشاحنات وتطويرها أجرت مسحا بين سائقي الشاحنات لتتعرف على رغباتهم وآرائهم ، ومعرفة ماذا يريدون من خدمات .

وعندما أبدى السائقون ضيقهم من الرغوة الموجودة في الديزل ، وأبدى آخرون منهم ضيقهم من رائحته ، عملت مراكز أبحاث الشركة على ابتكار ديزل جديد ، بدون رغوة وبلا رائحة ، وهو ابتكار سجلته الشركة باسمها .

وفي تقسيم مبنى محطات الخدمة أقمنا المطاعم والمقاهي وأماكن بيع المنتجات النفطية ولوازم السيارات ، وقاعات الانتظار الأنيقة ، ويستطيع السائق أن يستفيد من كل هذه الخدمات ، ويسدد الحساب وفق نظام بطاقات الائتمان ، وفي محطات خدمة الشاحنات القريبة من الطرق السريعة أقامت (Q8) استراحات انتظار للسيارات ، مزودة بأماكن للنوم ، ومطاعم ، وغير ذلك من الخدمات التي يحتاجها السائقون في رحلاتهم الطويلة ، مما يهيء لهم فرصة لقسط من الراحة قبل الانطلاق عبر طرق أوربا ، وخاصة أن بعض السائقين يصلون إلى الحدود ليلا ويفضلون الانتظار حتى الصباح ، أو في حالات انتشار الضباب أو الجليد على الطرقات ، الأمر الذي يجعلهم راغبين في الانتظار وقتا قبل استئناف الرحلة .

الى روتردام سوق النفط الدولية

في الطريق إلى روتردام لزيارة مصفاة النفط التابعة لـ (Q8) المعروفة باسم « نيوبورت » ، قلت للمرافق الذي يصحبنا : معروف أن سوق روتردام هو سوق النفط العالمي ، حيث تتم عمليات البيع الفورية والصفقات النفطية المشتركة ، فأين (Q8) وسط هذه السوق الهائلة الضارية ؟ ابتسم مندوب الشركة وقال : الأرقام المجردة هي التي تعطى صورة دقيقة ، وإجابة قاطعة لهذا السؤال . في هولندا أو في المصفاة التي نحن في طريقنا اليها الآن ننتج ٨٠ ألف برميل يوميا ، وفي الدانمارك ٦٠ ألف برميل يوميا ، وتملك الشركة في أوربا ٥٠٠٠ محطة توزيع ، والشركة مرتبطة بعقود مع ٣٥ مؤسسة طيران عالمية لتزويدها بالوقود والزيوت ، والشركة مخولة أيضا بالعمل لتسويق الوقود داخل أكبر مطارين في العالم خارج الولايات المتحدة الامريكية ، وهي الرائدة في استخدام التقنية العلمية الحديثة في محطاتها في كل أوربا ، ونحن - أخيرا - قد قدمنا للسوق العالمي أحدث زيوت المحركات في العالم ، وأحدث منتج من الديزل الخالي من الرغوة والرائحة ، وزيوت التشحيم . ذلك هو موقفنا في سوق النفط العالمي .

وعند بوابة المصفاة استقبلنا مديرها/ كريست كوفاك ، وهي تمتد على مساحة واسعة داخل منطقة ميناء روتردام ، ولها رصيف خاص بها ، يسع سفن الشحن العملاقة التي تزيد حمولتها عن نصف مليون طن ، ولها معمل أبحاث أنشيء قريبا للقيام بالاختبارات المعملية ، وإجراء أبحاث تطوير المنتجات . وقد آلت ملكية المصفاة إلى (Q8)ضمن صفقة شرائها لممتلكات جلف أويل ، وخلال السنوات الثلاث الماضية تم تطوير المصفاة كلها ، وتغيير نظام العمل بها جذريا ، وأصبحت أحدث مصفاة في أوربا من حيث تقدم تقنيتها ومعدل أدائها العالمي . من خلال ثلاثة مشاريع ضخمة : الأول هو استحداث وحدة تقطير زيوت التشحيم ، وفقا للمواصفات الأوربية من خلال التقنية الحديثة التي وفرت كمًا هائلا من الوقود المستخدم في الإنتاج ، بحيث أصبح لدينا أحد أكثر مصانع أوربا فاعلية وجودة في الإنتاج .



● نائب رئيس مجلس إدارة (Q 8) السيد ناصر السالم .

أما المشروع الثاني فهو رصيف التحميل والتفريغ ، فقد تم تعميق الممر المائي ، بحيث أصبح يستقبل الناقلات الكويتية العملاقة ، كما تم بناء ثمانية صهاريج لتخزين النفط ومشتقاته ، وستة صهاريج لمزج المنتجات ، إضافة إلى قدرة الرصيف على التفريغ والتحميل لأربعة منتجات من الناقلات في وقت واحد ، كما تم من خلال المشروع نفسه استحداث شبكة أنابيب جديدة ، تعمل وفق أحدث أنظمة التحكم ، وتمتد إلى مناطق مختلفة من أوربا مباشرة ، وقد بدأ العمل بهذا التوسع في ابريل ١٩٨٧ ، بحيث أصبحت شبكة واسعة تخدم فروع (Q8) في جميع أنحاء أوربا الغربية .

أما المشروع الثالث فهو تشغيل وحدة إنتاج الجازولين (الخالي من الرصاص) في يناير ١٩٨٨ ، محققة سبقا تقنيا فريداً من نوعه ، يلبي مواصفات جمعيات حماية البيئة وتخفيف التلوث الذى تحدثه عوادم السيارات الذي طالما حاولت جمعيات حماية البيئة والمجتمع الأوربي بشكل عام التخلص منه . وتنتج المصفاة من هذا النوع من الجازولين ٦٢ ألف برميل يوميا .

إضافة إلى الأعمال الإنشائية التى نحن بصدد الانتهاء منها لإنشاء مصفاة أخرى فى الموقع نفسه ،وعند الانتهاء من تنفيذ التحديثات المختلفة ستكون من أحدث مصافي أوربا الغربية .

النفط والعلم تحت مظلة (Q8)

في مركز الأبحاث والتقنية الخاص بشركة البترول الكويتية العالمية يقول لنا مدير المركز السيد/ هلجن : عملنا هنا له طبيعة خاصة ولذلك ينظم المركز دورات تدريبية للموظفين والعاملين ، سواء في الكويت أو في أوربا .

ونحن أيضا مهتمون بعدة أشياء ، قد تبدو متناقضة في وقت واحد ،نحن مهتمون بإعادة تكرير النفط الكويتي الذي يصلنا مباشرة من الكويت ليصل الى مستوى عال من الجودة ، وفي نفس الوقت ليلائم طبيعة الاستخدام في أوربا ، من حيث درجة الحرارة المنخفضة وتأثير البرد وضرورات البيئة ، وفي الوقت نفسه نحن مهتمون بأبحاث التطوير والابتكار ، وذلك لكسر دائرة المنافسة ، وإثبات التفوق والوجود في السوق . وخلال أربع سنوات فقط قدمنا للعالم أحدث زيوت المحركات وأعلى وقود السيارات نقاوة ، وأحدث ديزل في العالم . وترتبط المركز علاقات علمية بكثير من مراكز الأبحاث العلمية المتخصصة في العالم ، وله كذلك علاقاته العلمية مع شركات تصنيع السيارات العالمية . وقد بدأنا مؤخرا مع كبرى شركات صناعة السيارات السويدية بافتتاح مراكز ترويج لمنتجاتنا داخل معارضها ، بعد أن توصلنا الى ابتكار زيوت خاصة للنوع الذي تنتجه هذه الشركة من السيارات .

ويقدم المركز خدماته للشركة الأم في الكويت التي ترسل بعض منتجاتها إلى المركز للفحص والاختبار ، خاصة فيما يتعلق



(١)



(٣)



(٢)

١) مقر السوق الأوربية المشتركة في لوكسمبرج .

٢) منتجات (Q8) متنوعة ومنتشرة في جميع أنحاء بلجيكا .

٣) إحدى أحدث محطات توزيع الوقود التابعة لشركة البترول الكويتية العالمية في لوكسمبرج .



خدمة الديزل للشاحنات أحد أهم استثمارات شركة البترول الكويتية العالمية في أوربا الغربية .

بالابتكارات الجديدة ، وكذلك تقديم المساعدات التقنية لمؤسسة البترول الكويتية لكي تحسن مركزها التنافسي ، وضمن سياسة المركز في التعاون مع المؤسسات الكويتية ، تجري الآن دراسة علمية مع قطاع النقل البحري التابع للمؤسسة ، وإجراء التجارب العلمية اللازمة على معدات اثنتين من الناقلات التابعة للمؤسسة لاختبار زيوت الاسطوانات البحرية ، طبقا لأعلى المواصفات الحديثة ، وفي حالة نجاح تلك التجارب فإن هذا سوف يمكن المؤسسة من دخول سوق جديدة في مجال زيوت التشحيم .

ويعد المركز من أهم مراكز البحث والتقنية في مجال النفط ومشتقاته في اوربا ، بموجب تقارير وشهادات من هيئات قياس عالمية تحظى بسمعة عالمية ، وبموجب استطلاع رأي المستهلكين .

نعمل لدى الكويت

قبل أن نغادر روتردام قبلنا دعوة أحد العاملين بالشركة لتناول الشاي في منزله . داخل المنزل الأنيق وجدنا مجسماً « لبوم كويتي » ، سألناه فقال : إن أحد زملائه في العمل قد سافر إلى الكويت وأحضر له سفينة الصيد هذه تذكاراً من الكويت ، وأنه يعتز بها ويحلم بزيارة الكويت ، قلنا له : إنك تعمل لدى شركة كويتية ، وهل يمثل هذا الأمر فارقا بالنسبة لك عن العمل لدى أي شركة أخرى ، أم أن الموضوع كله عبارة عن فرصة عمل فقط ؟

ابتسم مضيفنا وقال : لا شك أنكم تسمعون عن البطالة التي تجتاح اقتصاديات أوربا ، وعن ارتفاع أعداد البطالة شهراً بعد شهر ، والأمر الذي أعرفه أنني أتقاضى راتبا أفضل من كثير من زملائي ، وأتمتع بكل التأمينات المتاحة والرعاية الصحية والاجتماعية . والأهم من ذلك أنني اكتسبت خبرة جديدة نتيجة أعمال التطوير المستمرة والمتلاحقة ، فخلال أربع سنوات مضت شهدت المصفاة التي أعمل فيها نقلات جذرية في نظم العمل ، واستتبع ذلك دخولي دورات تدريبية راقية المستوى لمواكبة هذا التغيير ، وأنا أعلم أن هذا النوع من التدريب مكلف وباهظ الثمن ، ولو حاولت أن أكتسب هذه الخبرة والتدريب على نفقتي الخاصة لما استطعت ، وزملائي في بعض الشركات يدفعون جزءا من رواتبهم مقابل هذا التدريب لشركاتهم ، والحجة في ذلك أن راتبهم بعد ذلك سوف يرتفع ، وأن الشركة كانت تستطيع أن تأتي بعمال وموظفين جدد يتقنون هذه التقنية ، وتستغني عن القدامى ، ولكن ما تفعله معنا (Q8) هو نوع من التطوير في الإدارة ، يتسم بالإنسانية وتقدير الإنسان ، ولذلك فولاؤنا للشركة والخوف عليها والرغبة في تطويرها ونجاحها هو أقل ما نقدمه نحن معشر المستفيدين منها ، كرد بسيط لما تفعله الشركة معنا ولنا .

بروكسل أوربا باختصار

بروكسل عاصمة بلجيكا ، كانت محطتنا التالية ، فيها تختصر أوربا كل جمالها وعراقة تاريخها لتقدمها في مدينة من أجمل مدنها . تقع بلجيكا شمال غرب أوربا ، وتحدّها شمالا هولندا ، وشرقا لوكسمبرج وألمانيا ، وجنوبا فرنسا ، وغربا بحر الشمال . تبلغ مساحتها (٣٠ ألف كيلومتر مربع) فقط ، ولا يزيد عدد سكانها عن (١٠ ملايين نسمة) ، بها مقر البرلمان الأوربي وقيادة حلف الأطلسي ، وعديد من المنظمات والمؤسسات الأوربية . فور اجتيازنا نقطة الحدود من هولندا باتجاه بلجيكا لمعت أمام أعيننا علامة (Q8) على واجهة مركز خدمة الشاحنات الذي يعد أكبر مركز خدمة للشاحنات في أوربا كلها . ويمتد مركز « هازلدونك » على مساحة تزيد عن عشرة آلاف متر مربع ، ويقدم كل الخدمات للشاحنات التي تصل إليه بعد اجتياز الحدود وطول السفر ــ وهي خدمات تمتد من الوجبة الساخنة إلى الفراش الدافيء للسائق ــ بكفاءة وسهولة فريدة من

نوعها ، فالمطعم ذو مستوى راق ، وخدمات الوقود والزيوت والتشحيم وأعمال الميكانيكا تدار كلها بأجهزة الحاسوب « الكمبيوتر » المتقدمة ، إضافة للضمانة الكاملة بأنها محطة خدمات مزودة بكل وسائل الراحة . السيد (فان فنست) أحد السائقين الذين التقينا بهم في المراكز ، يقول لنا : من قبل أن تقدم لنا (Q8) هذه الخدمة كان السائق يعتمد على حظه ، فإما أن يبيت في السيارة إذا استدعى ظرف الطريق أن يتوقف عن الحركة حتى الصباح ، أو يدور باحثا عن الوقود ، ثم الزيت ، ثم التشحيم ، ثم أعمال الفحص الميكانيكية ، وبعد ذلك يبحث لنفسه عن مقهى أو مطعم للاستراحة . أما الآن فكل هذه الخدمات مجتمعة في مكان واحد ، والأهم من ذلك - يستطرد (فان فنست) - إن أماكن هذه المحطات مختارة بعناية فائقة . وما كان يقوله بعض السائقين لبعضهم الآخر قد تحقق ، فأحيانا ونحن سائرون في الطريق كان الشخص منا يقول لنفسه أو لمساعده : لو كان في هذا المكان محطة خدمة لأوقفنا الرحلة واسترحنا قليلا . لقد حققت مرافق (Q8) كل هذا وكأنها طافت بكل طرق أوربا واختارت المكان المناسب تماما والذي لو كان في موقع آخر لكان غير مناسب ، وهذا في تقديري واحد من أسباب نجاحها . في طريقنا إلى بروكسل قال لنا مرافقنا معلقا على حديث السائق : في بلجيكا وحدها (١٥) محطة خدمة شاحنات ، وهي تجربة عمرها أكثر من (٥) سنوات ، تحقق عائداً مجزيا ، ولولا ذلك ما كنا توسعنا في تنفيذها ، ولأغلقنا بعضها على الاقل ، والجديد أن هناك بعض الشركات العالمية تحاول الآن تقليد أسلوب (Q8) ونظام عملها هذا الذي ابتكرته . وبجانب نظام خدمة الشاحنات فإن هناك (٦٠٠) محطة توزيع تابعة لـ (Q8) تنتشر في كل مدن بلجيكا .

إمارة البنوك الصغيرة

وسط عمالقة أوربا تقع إمارة لوكسمبرج ، معظم أراضيها صخرية وتشكل حوالي ثلث البلاد ، وتكثر بها الغابات ، على الرغم من صغر مساحتها (٢٥٨٦ كيلو متراً فقط) يتمركز بها عدد من أكبر المصارف « البنوك » العالمية المنتشرة على خريطة العالم ، وتتم من خلال مصارفها أكثر من ٤٠٪ من عمليات مصارف أوربا ، وبها المقر الرئيسي للسوق الأوربية المشتركة ، ويتجاوز عدد المصارف الدولية بها مائة مصرف . ووسط هذا المجتمع المالي والاستثماري الدولي تلمع إشارة (Q8) ، وتتجاوز كل آفاق المنافسة ، فهي تستولي على حصة كبيرة من سوق لوكسمبرج ، ممثلة بما يزيد على (٧٤٠) محطة توزيع . ومشروع إنشاء محطات خدمة شاحنات سيفتتح قريبا . وتعد عمليات (Q8) في لوكسمبرج أحدث استثمار فيها ، وهو استثمار اخترق دائرة قلعة المال والعمل الأوربيين المحصنة . ومن خلالها نجحت الكويت في تقديم صورة مشرقة عن إدارة الاستثمارات وحسن توجيهها .

في بهو الفندق التقيت صدفة بأحد رجال المصارف الأوربية ، وعندما عرف أنني من الكويت قال لي بلهفة : حدثني عن بلدك . وعندما سألته عن هذا الاهتمام قال : لأننا بصراحة عندما بدأت (Q8) تعلن عن افتتاح أعمالها في لوكسمبرج توقعنا لها الفشل ، خاصة أن هذه البلد ذات طبيعة خاصة جدا ، وما كنا نسمعه قبل ذلك عن سوء الإدارة وعدم الدراسة العلمية للمشاريع ، وهي سمة تعاني منها بلاد كثيرة ، وقد تكون بلادكم أحدها ، لذلك توقعنا لهذه المشاريع الفشل ، ولكن خلال فترة قصيرة - أربع سنوات - أصبحت (Q8) الشركة الأولى ، وأصبحت محطاتها تقدم أفضل خدمة ممكنة . دعني أقول لك بصراحة إنها أفضل من شركات أخرى أكثر عراقة وبدأت أهتم بالكويت والعرب



(٤)



(١)

(٢)

١) خدمة توزيع وقود التدفئة التي تتميز بها (Q8) في بريطانيا . ونشاهد شاحنة الشركة في طريقها لتعبئة خزانات المنازل بوقود التدفئة .

٢) خزان وقود تزويد الطائرات (Q8) جنبا الى جنب مع خزانات شركات النفط العالمية في أحد مطارات أوربا .

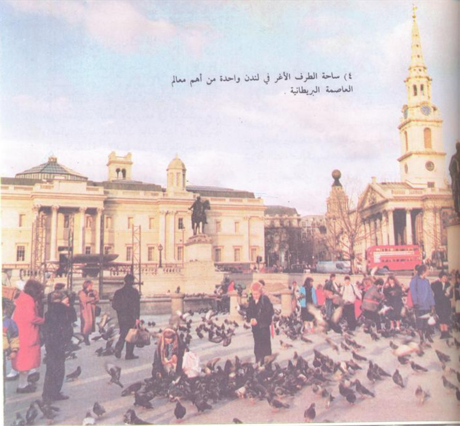


(٣)



٣) احدى محطات (Q8) المنتشرة في بريطانيا .

٥) خدمة تزويد الطائرات بالوقود ، احد استثمارات (Q8) في المطارات المهمة في العالم ، وهنا نشاهد شاحنة (Q8) تزود طائرات مؤسسة الخطوط الجوية الكويتية بالوقود في مطار « هيثرو » بالعاصمة البريطانية .



٤) ساحة الطرف الأغر في لندن واحدة من أهم معالم العاصمة البريطانية .

(٥)



بعد أن رأيت هذا النجاح . مدير (Q8) في لوكسمبرج آدي جالبر يقول لنا أثناء مرافقته لنا في جولة بالمدينة : نحن نحتكر أكثر من ٥٠٪ من كل عمليات النفط وتوزيعه في لوكسمبرج ، وأعمالنا تتزايد بمعدلات عالية جدا ، ورصيدنا الأدبي في سوق المنافسة يفتح لنا آفاقا جديدة ، ونحن في لوكسمبرج نعمل وفق خصوصية البلد ، فوسط المدينة مجمعات مصارف ومكاتب وإدارات ، ولذلك اخترنا مواقعنا بجوار المناطق السكنية ، لأن كثيراً من الناس يفضلون السير وسط المدينة ، وإقامة محطات هناك تكون بالتالي عديمة الجدوى ، ولكن بجوار السكن سيمر علينا العميل في الصباح أو في العودة للتزود بالوقود أو الزيوت أو أي خدمة أخرى تحتاجها سيارته .

لندن عاصمة الضباب والمجد

في مطار هيثرو الدولي الذى يعد من أشهر المطارات في العالم يلمع اسم (Q8) فوق خزانات تزويد وقود الطائرات في ساحة المطار ، وطوال فترة سير الطائرة حتى وقوفها وعيناي تتابعان خزان الوقود الضخم ، والعربات الصغيرة التى تنطلق في ممرات المطار ، حاملة علامة الشركة الكويتية العالمية . وتذكرت زمنا

ان نفس هؤلاء المواطنين هم أحفاد أولئك الذين فجروا النفط في بلادي ، واستمروا يستغلونه سنوات طويلة ، وهاهم اليوم يملأون خزانات سياراتهم ، ويدفئون بيوتهم بنفط الكويت الذي

يستخرجه أبناء وطني ليصبح ثروة ونماء كاملا لصالح وطني وأبنائه . ولم تذهب الابتسامة عن وجهي ، حتى عندما قابلنا مندوب مكتب الشركة بلندن .

قلنا لمرافقنا مايكل برايت ، مدير العلاقات العامة بشركة البترول الكويتية العالمية : أتصور أن العمل في لندن ليس سهلا ، فبريطانيا معقل واحدة من أكبر شركات النفط في العالم ، وإحدى الشقيقات السبع ، وأعني بها (B.P) ، وبالإضافة إلى ذلك فإن بريطانيا تملك الآن حقولا للنفط في بحر الشمال ، وتقوم باستثمارها على نطاق واسع ، وتاريخ بريطانيا القديم في العلاقة مع النفط واستغلاله قد يلقى آثاره على عمل شركة البترول الكويتية العالمية

قال لي مرافقي : سوق لندن يختلف لأسباب كثيرة ، منها ما ذكرته أنت من أسباب ، ومنها أن لندن واحدة من أكبر العواصم العالمية التي تضم جالية عربية وجاليات متعددة من العالم الثالث ، ففي بريطانيا ، وفي قلب العاصمة ، يوجد المقر الرئيسي لشركة نفط الكويت العالمية ، بالإضافة إلى مكتب فرعي يدير الأعمال في بريطانيا .

في مقر الشركة التقينا بالعضو المنتدب السيد بيتر ستانلي ، وقد حدثنا قائلا : إن طبيعة الخدمات التي نقدمها في محطات (Q8) تختلف إلى حد ما عن بقية المحطات ، نظرا لأننا حديثون في سوق بريطانيا الشديد المنافسة ، فنحن قد بدأنا نقدم شيئا مختلفا عن غيرنا ، فمحطتنا عبارة عن مركز للتسويق ، تستطيع العائلة شراء كل ما يلزمها من مواد استهلاكية ، كما يمكن للمستهلك الحصول على الصحف والمجلات والأدوات المكتبية وبعض المواد الغذائية ولوازم البيت .

وفي بريطانيا تنتشر (١١٠٠) محطة توزيع مباشرة ، (٢٢) محطة خدمة شاحنات الديزل . كما تقدم الشركة خدمات مباشرة للمنازل عن طريق تزويدها بزيوت التدفئة وما يزال المزارعون يملكون ما يقارب ٦٪ من مجمل مبيعات السوق ، وقد قامت (Q8) بشراء خمس شركات توزيع جنوبي بريطانيا مؤخرا لزيادة عدد منافذ البيع التي تتعدد منافذها وتزداد عاما إثر عام . وترتبط (Q8) بعقود لتزويد الطائرات بالوقود وتقديم خدماتها في مطارات هيثرو وجاتويك ومطار مانشستر .

التقينا بالسيد جون اولن ، العضو المنتدب

لشركة البترول الكويتية العالمية لتزويد الطائرات بالوقود الذي كان مليئا بالحماس والنشاط في صباح لندن البارد ، قال لنا : إن خدمات

(Q8) في مطار هيثرو والاثنى عشر مطارا في العالم (أوربا وجنوب شرق آسيا) تقدمت بشكل سريع جدا ، فخدماتنا متميزة وتنافسية ، وكما تشاهد فنحن الآن نقوم بعملية شحن إحدى طائرات مؤسسة الخطوط الجوية الكويتية بالنفط الكويتي في العاصمة البريطانية ، وهذا الشيء لم يكن يحدث لولا تضافر الجهود المشتركة بدءا من

استخراج النفط في الكويت إلى المصفاة في الشعيبة في الكويت ، أو في روتردام في هولندا ، حتى يصل خزان (Q8) في أي مطار في العالم .

وللعلم فإن معدل استهلاك مطار هيثرو ٥٠ ألف برميل يوميا . وكما تعلم فإن تسويق وقود الطائرات يعد من الحقول المهمة في الصناعة

النفطية ، ولدينا الآن دراسة جاهزة للتنفيذ لدخول الأسواق الامريكية الواسعة . وعلى الرغم من المنافسة الشديدة في السوق البريطانية فإن محطات (Q8) تشهد إقبالاً شديداً ومعدلات عالية في البيع تصل قرابة (١٠٠)برميل يوميا للمحطة الواحدة من محطات التوزيع فقط .

وتقول لنا السيدة/ ديبي شارلتون التي التقينا بها وهي تزود سيارتها بالوقود في محطة من محطات (Q8) في لندن : أنا أتعامل مع محطات (Q8) منذ أكثر من ثلاث سنوات،لأنني أحصل على خدمة أفضل ومعاملة افضل ، وأنا أشعر أن ما تقدمه لي (Q8) أفضل من كل ما هو متوافر في السوق ، ولذلك فأنا أسيرة لمحطاتها ، وعندما أذهب لزيارة أهلي في الريف ، خارج لندن ، فإنني أتوقف في الطريق عند محطات (Q8) أيضا .

وأعترف أن الخدمة لا تقل مستوى عنها في قلب العاصمة على الرغم من أنني كنت أظن أن هذا الاهتمام مقصورعلى العاصمة فقط ، شأن كثير من الشركات التي ما أن تبتعد عن العاصمة حتى ترى قلة الاهتمام وعدم العناية في كل شيء .

في مقر شركة البترول الكويتية العالمية في (نيوبوند ستريت) ، أحد أهم شوارع لندن التجارية ، التقينا بواحد من الشباب الكويتي الذين تقع على عواتقهم مسؤولية إدارة هذه الشركة التابعة ، لمؤسسة البترول الكويتية ، الاستاذ ناصر السالم ، نائب رئيس مجلس إدارة (Q8) الذى يشرق بالحماس والنشاط فقال : هنا فى الشركة نحاول جاهدين أن نبرز الدور الاستثماري النفطي الكويتي الكبير في أوربا ، كواحد من أهم مصادر الدخل للأجيال

القادمة ، وهذه استراتيجية بعيدة المدى فى مجال استثمار الخدمات النفطية والانتاجية وتطويرها . والشركة تعمل على تنشيط العناصر البشرية الكويتية والعربية وجذبها للعمل في فروع الشركة فى جميع أنحاء أوربا ، وهذا فى حد ذاته يدعونا للفخر والاعتزاز بالكفاءات الكويتية والعربية الموجودة .

من لندن إلى الأحمدي

كانت الطائرة الكويتية تحلق في الفضاء ، متجهة إلى الكويت ، عائدة من أطراف الشمال البارد ، إلى الوفرة وبرقان والأحمدي ، من منافذ التوزيع إلى ينابيع النفط . ونظرت إلى زميلي المصور ، وابتسمت وأنا أقول له : نحن الآن فى طائرة كويتية يقودها طيار كويتي ، تدور محركاتها بوقود كويتي ، وثروتنا الوطنية لا تضيع عائداتها في الوساطة والاستغلال والسمسرة ، بل لقد أصبحت ثروتنا لنا ، وأصبح ما نقدمه للعالم ملموسا وواقعا ، وابتسامات الرضا والشكر التى رأيناها على وجوه الناس وفي عيونهم لايمكن أن تنسى أبدا . □



النباتات الطبية في سوقطرة

بقلم : علي سالم باذيب*

تتميز جزيرة سوقطرة بجمهورية اليمن الديمقراطية - بالإضافة إلى موقعها الاستراتيجي - بغناها بالنباتات الطبية النادرة التي لم تستغل علمياً بعد على الرغم من أن سكان الجزيرة تعرفوا عليها واستعملوها منذ القدم .



* باحث زراعي - مركز الأبحاث الزراعية من القطر العربي اليمني الديمقراطي .



النباتات الطبية
من النباتات الطبيعية بجزيرة سوقطرة - أعلى شجرة دم الاخوين - أسفل يمين شجرة التريمو - ثم الصبر السوقطرى (تيف) - وشجرة اللبان (امعيرو)





تتبع جزيرة سوقطرة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، وتقع في نهاية خليج عدن في المحيط الهندي ، وتبعد عن العاصمة عدن ٩٤٤ كم ، مساحتها ٣٧٠٠كم٢ ، وسكانها حوالي ٥١ ألف نسمة .

حظيت هذه الجزيرة باهتمام المنظمات والمعاهد والجمعيات العلمية المتخصصة بعلم النبات والأصول الوراثية للنباتات ، لما تميزت به من أجناس وأنواع نباتية نادرة ، تنمو بصورة برية ، تعد الجزيرة موطنها الأصلي ، حيث أشارت الدراسات إلى وجود (١١) جنساً نباتياً متوطناً لا توجد في مناطق أخرى من العالم (كرونك ١٩٨٥م) ، ونحو ٨٥ نوعاً نباتياً متوطناً (بالفور ١٨٨٨م) يحمل كثير منها اسم الجزيرة ، وتعد سوقطرة والصومال فقط موطنين للفصيلة النباتية -Dirachmaceae (ISP.) Dirachma Socotrana والفصيلة النباتية -Well stediaceae (3 spp.) التي عرف منها ثلاثة أنواع في سوقطرة والصومال وجنوب غرب أفريقيا (كرونك ١٩٨٥م) .

وتمثل النباتات الطبية جزءاً هاماً من الثروة النباتية الطبيعية للجزيرة ، ويعالج الأهالي أمراضهم باستخدام نباتات البيئة ، فنبات التريمو الذي تشتهر به الجزيرة يستفاد من عصارته في خفض حمى الملاريا بدهن الجسم من الخارج .

ونبات سبرا يستعمل لالتئام جروح البشرة بتقطير عصارته الصمغية من الأوراق والفروع على موضع الجرح . ونبات العبب في علاج آلام الأذن ، باستعمال قطرات من سائل الأوراق الطازجة - وغيرها من النباتات الطبية التي لم تنل حظاً من الأبحاث والدراسات الصيدلانية .

المنتجات الطبية الطبيعية :

تشتهر جزيرة سوقطرة بنباتات دم الأخوين ، والصبر السوقطراوي ، واللبان ، ونالت منتجات هذه النباتات شهرة عالمية واسعة لندرتها وجودتها أيضاً . ومن هذه النباتات :

دم الأخوين :

ويسمى بالانكليزية "Dragon's blood" واسمه النباتي "Dracaena cinnabari" Balf.f. توجد أشجاره على قمم الجبال غالبا ، ويكثر انتشارها في بلدة مومي على ارتفاع ٥٠٠م عن سطح البحر ، والشجرة ارتفاعها ٣ أمتار وأكثر ، ذات جذع سميك ، وفروعها متشعبة ، وتتكون الأوراق السيفية الحادة في نهايات الفروع . وتبدو الشجرة للناظر كالمظلة . ودم الأخوين عبارة عن راتنج أحمر يفرز من الجذع والفروع . ويوجد منه ثلاث درجات : -

- درجة أولى : الراتنج بحجم الفصوص ، ويتكون على الفروع .
- درجة ثانية
: كتل كبيرة من الراتنج تتكون على الجذع .
- درجة ثالثة : راتنج مخلوط بأجزاء من اللحاء .

ويجمع الراتنج بعد تجمده في أشهر الصيف بكشط كتل الراتنج بسكين حادة من تجاويف عُملت في جذع الشجرة حيث يتجمع الراتنج فيها . ويجمع راتنج الفروع باليد .

ويستخدم السوقطريون دم الأخوين في علاج المغص ، قدر ملعقة ونصف من مسحوق الراتنج مذابا في كأس ماء ، ولتجلية عيون الجمال ، ويضاف قليل منه إلى الكحل إلا أنه يسبب التهاب العين عند تكحيلها . كما تزين به جدران المنازل من الخارج . ويستعمل دم الأخوين في صناعة معاجين الأسنان والورنيش .

الصبر السوقطري:

واسمه النباتي "Aloe perryi Baker." ويكثر تواجده في بلدة ديبيتحا ويعد الصبر السوقطري من أجود أنواع الصبر المعروفة عالمياً . وهو أغلى ثمناً من أنواع الصبر الأخرى .

أوراق هذا النبات سميكة على ساق قصير لونها أخضر باهت أو محمر ، وتكسو الأشواك حافة الورقة ، وطول النبات ٤٠سم .

يجمع البدو الصبر ويطلقون عليه اسم (طيف) في شهري أغسطس وسبتمبر . وسبب الجمع في هذين الشهرين أنهما من أشهر الجفاف (يونيو - سبتمبر) حيث تجف الأشجار والنباتات الرعوية فتضطر الأغنام أن ترعى نباتات الصبر التي تسبب اجهاض الحوامل منها .

لذلك يلجأون إلى جمع الصبر في هذين الشهرين على الأخص . وهم لا يعلمون أن فترة الجفاف هذه ، تزيد تركيز مادة الصبر ، وتكسبه جودة .

وطريقة جمع الصبر بدائية ، حيث تقطع أوراق النبات عرضياً ، وتوضع الأجزاء المفصولة على أطراف جلد ماعز أعد لهذا الغرض ، تتجمع فيه قطرات الصبر .

وتترك مدة شهر إلى شهر ونصف لتجف ببطء ، والعقار الناتج لونه بني مسود غير شفاف وقابل للكسر .

ويستعمل الصبر كمُسهل ، ويتجرعه الأطفال للوقاية من الدمامل ، وتستعمله نساء سوقطرة أثناء فترة النفاس . ويدخل الصبر في صناعة العديد من الأدوية .

اللبـــان :

توجد ثلاثة أنواع من اللبان في الجزيرة : "Boswellia elongata" "Boswellia ameero" "Boswellia socotrana Balf.f."، الأولان ويسميان محلياً (امعيرو) أكبر في الحجم من النوع الأخير ويسمى محلياً (صمعانو) كما أن الفروق بين الأوراق واضحة ، فبينما تكون في النوع Socotrana صغيرة جداً وجالسة ، نجدها في النوعين elongata، و ameero مركبة ريشية ، معنقة ، ويبلغ طول الشجرة ٣ أمتار .

واللبان راتنج زيتي صمغي Gleo-gum-resin . يفرز من الساق والفروع على هيئة دمعات ، ويجمعه البدو في أشهر الصيف . ويستعمل اللبان محلياً بخوراً وعلكاً . وله استعمالات عديدة في الصناعة .

إن هذا الثراء المتنوع من النباتات النادرة يضع جزيرة سوقطرة في مقدمة الجزر الفريدة بنباتاتها في العالم . مما يغري القيام بأبحاث ودراسات دوائية على نباتات الجزيرة التي قد تكون مصدراً لاكتشاف عقاقير جديدة . □

هـل تعلم :



* أن سرعة النيل وقت الفيضان تبلغ ٣ أمتار في الثانية .
* وأن دودة القطن ظهرت لأول مرة في مصر سنة ١٨٧٨ ، ودودة اللوز ١٨٩٥ ودودة البذرة سنة ١٩١٢ .
* وأن العباسية (من ضواحي القاهرة) سميت بهذا الاسم منذ عهد عباس باشا الأول، إذ بنى فيها قصرا، وكان اسمها قبل ذلك صحراء الريدانية .
* وأنه لم يشنق ممن حكموا مصر من الخلفاء غير طومان باي، ابن اخي الغوري .
* وأن ساعة الجيب اخترعها «هيل» سنة ١٥٠٠ ميلادية .
* وأن النظارة اخترعها «دجلي ارماني» سنة ١٢٨٥ .

وجهاً لوجه





يحيى حقي و سليمان مظهر

● قنديل أم هاشم طلقة رصاص خرجت من قلبي وأصابت الهدف

● فرق كبير بيننا وبين الغرب ولكن العيب فينا، وليس الفضل فيهم

● بين الإجادة والإبداع مسافة اصبع .. ولكنها مسافة ما أصعب اجتيازها

● قوة الجذب التي تلح عليّ في قصصي .. هي الإعلاء من شأن إرادة الإنسان

يحيى حقي لا يحتاج إلى تعريف......

وحين تلتقي به وتستمع إليه، تحس أنك تنصت إلى لحن شجي صافي النغم، رشيق الأسلوب، بالغ الرقة، مغرق في التواضع والحنان والعذوبة الى حد يثير الاستغراب. وعلى الرغم من جلال الأعوام الخمسة والثمانين التي يحملها فوق كتفيه، ولا يخفى عددها، ويؤكدها الشعر الفضي المفهاف الذي يتوج رأسه، فإنك تستشعر وأنت تحدثه أنك تحلق في آفاق الفن العظيم الذي ينقي الروح ويعاين أضواء الجمال، وأنك أمام فنان له انطلاقة مبدعة، شديدة الحماس، وذاكرة لا تغفل حدثا مهما صغر وأوغل في القدم.

ومع ذلك فإنك لا تستطيع - إذا كنت قد قرأت كتبه وقصصه ومقالاته النقدية في الأدب والفن - إلا أن تتذكر أنه «صاحب القنديل»، فمنذ كتب قصته «قنديل أم هاشم» ونشرها في إحدى مجموعات قصصه القصيرة عام ١٩٤٤م، التصق اسمه بالقنديل، وكأنما تاجه الوحيد. وعندما يسأل يحيى حقي عن السبب يجيب: لقد أخرجت «قنديل أم هاشم» من قلبي مباشرة كطلقة رصاص. فاستقرت في قلوب الناس.

الحوار الذي يجريه معه الزميل «سليمان مظهر»، يكشف عن جوانب حياته الأدبية منذ بداياتها الأولى، مرورا بالقصة والرواية والنقد، وعلاقته بأبطال قصصه، وتلاميذه، ورفاق دربه الذين يعترفون بريادة صاحب القنديل لهم.

***

* هناك نقاش طويل حول تأثير البيئة في حياة الكاتب وتكوينه النفسي والأدبي. ولعل بداية حياتك الأدبية وذكرياتك عنها تستطيع أن تحسم جانبا كبيرا من هذا النقاش.

_ لحسن الحظ أنني ولدت في حي شعبي في القاهرة، بحارة الميضة، وراء مقام السيدة زينب رضي الله عنها. فمنذ طفولتي وأنا في الشارع أخالط هؤلاء الناس الكادحين الذين يؤمون هذا الجامع باستمرار. وفي ذيلهم - ولا أريد أن أقول في مقدمتهم - الشحاذون، مجتمع الشحاذين.

عرفت مثلا الاسطى حسن الحلاق، طبيب الحي الذي يقوم بجراحات عديدة. ولا أنسى أبدا يوما رأيته يدخل إبرة في أنف مريض، فيخرج الخيط من حلقه. ودهشت دهشة شديدة. ولا أنسى أنه كان يقوم بختان الصبيان أيضا.

كذلك عرفت بائعة «الطَّعْمِيّة» وبائع «الفول» وبائع «الدقة والسميط» إلخ، فاختلطت في الحقيقة منذ صغري بهذا الوسط. وكان من حسن حظي أنني بعد اختلاطي بالفقراء والكادحين في المدينة، واشتغالي بالمحاماة، عينت معاونا للادارة بمنفلوط في أعماق الصعيد. كنت أجهل كل شيء عن الصعيد، ولا أعرفه كالقاهرة. فإذا بي أقذف داخل صميم حياة الفلاح المصري في الصعيد، وعاشرته عن قرب مدة سنتين في حقله، ودخلت بيته، وحادثته، ودرسته. لهذا فإن شخصيتي الأدبية إذا كانت قد بدأت في الحي الشعبي بالسيدة زينب، فإنها لم تتم إلا بفضل السنتين اللتين قضيتهما في أعماق الصعيد، وأنا مدين جدا لهذه الفترة. وظهر أثر ذلك على بعض مؤلفاتي مثل كتاب دماء وطين الذي وضعت فيه قصة اسمها «البوسطجي»، وقصصا أخرى تدور حوادثها كلها في الصعيد، ولها مقدمة تتحدث عن جمال الأغاني الشعبية في الصعيد، وهي ماتزال متداولة ربما حتى الآن، ولا تمحّى بهجتها.

الوراثة وطريق السلامة

* إلى جانب البيئة نعرف أن الوراثة كان لها دور كبير في تكوينك الثقافي بعامة، وعلى فنك القصصي بخاصة فإلى أي مدى حدث الامتزاج بين البيئة والوراثة لديك؟

_ طريق السلامة أن أقول: إنني مدين حقيقة لأسرتي، سواء أبي أو أمي. فأمي درست القراءة والكتابة والحساب في كتّاب مدينة اسمها المحمودية في محافظة البحيرة. وجدتها منذ صغري لا تقرأ الجرائد فحسب، بل تقرأ الكتب الأدبية، وتحفظ شعرا كثيرا للمتنبي وأبي العلاء وأبي نواس، فكانت سيدة مثقفة حقيقة. ومن قبيل التندر فإن أمها

السيدة عديلة كانت أيضا تقرأ، لكن لا تقرأ إلا في المصحف، فهي تحفظ القرآن عن ظهر قلب، ولكن إذا أعطيتها المصحف أو أحد الكتب فإنها لا تستطيع أن تقرأ حرفا واحدا.

وأبي أيضا في إحدى مراحل شبابه دخل الأزهر، ودرس، وتعلم اللغة العربية تعليما جيدا. وكان محبا للقراءة الى درجة الشغف، بل الشغف الى حد الجنون.

ثم انتقل هذا الشغف بثراء إلى أخي الأكبر ابراهيم، وكان كاتبا، رشيق الأسلوب، يشارك في تحرير مجلة السفير. وقد أسس في بيتنا مكتبة، لا للكتب العربية التي كانت موجودة فقط، فحين بدأ بتعلم الانجليزية وجدنا في بيتنا مكتبة تنشأ شيئا فشيئا، وتضم كتبا انجليزية كثيرة. فأنا من هذه الناحية مدين في نزعتي الأدبية الى البيئة والى الأسرة.

الاتصال بالحضارة الغربية

* ولكن هناك مرحلة أخرى في حياتك حين سافرت الى الخارج وعملت في السلك الدبلوماسي عدة سنوات في أوربا. ما الأثر الذي تركته هذه المرحلة في تكوينك الثقافي؟، وهل ساعدك وجودك في الغرب في رسم شخصيات قصصك؟

– لاشك أن هذه المرحلة كان لها أثرها في اتساع أفق ثقافتي بشكل عام. وهي تمثل بدء اتصالي بالحضارة الأوربية، وتتلمذي في الموسيقا والتصوير والمعارض والمتاحف والمسارح. ولكنني كنت أشعر دائما أن في داخلي شيئا سلبيا لايذوب بسهولة في تيار حضارة الغرب.. وقد أوضحت ذلك مرة في مقال، قارنت فيه بين الأثر الذي تتركه روما في القادمين اليها من الشمال والقادمين اليها من الجنوب، فأهل الشمال ينبهرون بشمسها وحضارة عصر النهضة. أما أنا فقد وصلتها وعندي قدر أكبر من اللازم من الشمس، وعندي حضارة تماثل حضارتها إن لم تفقها، وعندي دين هو نظام متكامل، فيه الغناء.

على كل حال في تلك الفترة كانت الكتابة بالنسبة لي هواية. وقد لا يزيد عدد القصص القصيرة التي كنت أكتبها عن اثنتين في العام. وكنت راضيا بذلك، لكنني أصدقك القول بأنني كنت طوال فترة اقامتي في أوربا أشعر بحنين كبير الى مصر. كنت أحن للأحياء القديمة التي أسمع فيها كلمات مثل «أجرنها» و«يا ادلعدي». أحن لهذه الجموع الفقيرة من المساكين و«الغلابة» الذين يفتشون عن قوتهم يوما بيوم. هذا ماكنت أحن إليه في مصر.

طلقة أصابت الهدف

* لعل اتصالك بالحضارة الغربية، ثم حنينك الدائم الى مصر، كان وراء قصتك المبدعة «قنديل أم هاشم» التي ظل اسمك ملتصقا بها، حتى عرفت بصاحب القنديل. وقد قلت مرة: إن قنديل أم هاشم خرجت من قلبك ووصلت الى قلوب الناس كالطلقة التي تصيب الهدف. وأصبح ارتباطها باسمك كعمل متميز، يسبب لك السعادة وأحيانا الضيق. ماتفسيرك لهذا؟

وهل هو أهمية القضية التي تعالجها الرواية، أم رؤيتك لهذه القضية، أم أسلوبك في معالجتها؟

– بعد أن عدت من أوربا شعرت بجميع الأحاسيس التي عبرت عنها في «قنديل أم هاشم». إنها قصة غريبة جدا، كتبتها في حجرة صغيرة، كنت أستأجرها في حي عابدين، حيث عشت فترة عاطفية مثيرة، عبرت عنها في «أناشيد بيني وبينك» التي ألحقتها بالكتاب.

أما عن سر القنديل فقد كانت رحلتي في أوربا خلال عملي الوظيفي طويلة. بعد عودتي ما أزال أذكر الى اليوم حين ركبت القطار من الاسكندرية الى القاهرة مارا بالريف والمحطات الصغيرة. فإذا بي أشعر كأن الضوء خفت، وكأن الفقر هبط، أو كأن نوعا من الفوضى والاضطراب قد ساد في هذه الأماكن قياسا بما كنت أعرفه في أوربا. ثم ركبت عربة «حنطور» من المحطة الى البيت، فدخلنا في

أزمة وملتويات غريبة جدا. وأؤكد لك أنني أحسست بصدمة شديدة جدا. وظلت هذه الفكره تراودني. وأقول: ماذا نفعل؟ وكيف نقابل الحضارة الغربية؟ وما الذي نأخذ منها والعيب فينا وليس الفضل فيهم؟ هل يمكن المصالحة بين الاثنتين؟ وماذا نفعل؟ انتابتني حيرة شديدة جدا. فهذا الموضوع ليس جديدا في الأدب المصري، ولا في بيئتنا، بل بدأ منذ الحملة الفرنسية النابليونية على مصر. والجبرتي قد وصف لنا أصدق وصف هذا اللقاء المخيف بين الحضارتين لما أدخلوه المعمل الكيميائي الذي كان رجال البعثة قد أقاموه، ورأى الأبخرة والألوان، وشاهد العلوم الحديثة، فارتج ارتجاجا شديدا، وازدادت هزته بعد معركة الأهرام حينما خرج المماليك بسيوفهم وخيولهم المطهمة، فإذا بالمعركة لا تستغرق أكثر من ربع ساعة، لأن نابليون بالطبع كان لديه خطة حربية بسيطة جدا، هي أن يقيم مربعات مشطورة من أحد الجوانب. وحين يدخل المماليك تنطلق عليهم البنادق من جميع الجهات حتى يفنوا. فبتكتيكه الصبياني للحرب البسيطة قضى على العقلية المملوكية قضاء تاما وانتصر عليهم، فكانت الصدمة شديدة. وبعد الحملة الفرنسية بدأ المثقفون المصريون يتأملون، ويقولون: ما هذا الوارد إلينا من الخارج؟ كانوا يتمنون اللحاق به. وفي الوقت نفسه يرينا الجبرتي أنهم يصرون على أن يحتفظوا بشخصيتهم وقوميتهم.

لا أريد أن أكون منافقا

* أذكر أنك قلت مرة: إنك لا تنسى مقالا لعبدالله النديم، يصف فيه شابا مصريا سافر الى الخارج، ثم عاد يضع «البايب» بين شفتيه، والقبعة على رأسه، ويحادث أمه بلغة نصف كلماتها فرنسية ونصفها عربية. ولهذا لم تكن الأم تفهم مايقول. فهل كان ذلك بعض ما في أعماقك عندما كتبت «قنديل أم هاشم»؟

ـ هذا الموضوع الذي كان يشغل بالي - كما شرحت لك - لم يكن جديدا في عقلية المصريين، فقد كان هناك تساؤل دائم: ماذا نفعل في أبنائنا الذين يسافرون الى الخارج، ثم يعودون إلينا متفرنجين؟ أنا عبرت عن ذلك في «قنديل أم هاشم»، بصورة أعترف أنها صارخة. وأعترف أنني استخدمت في هذه القصة اللونين الأبيض والأسود بشدة، لذلك كان فيها عنف شديد جدا، وكان بطلها شخصا يهز هذا الشعب هزا عنيفا ويقول له: اصح، تحرك، فلقد تحرك الجهاد.

وأعترف أنه لم يسبّ كاتب مصري الشعب المصري كما سبّ في هذه الرواية على يد هذا الشاب الذي عاد من أوربا ثائرا على قومه وعلى أهله ووطنه، فإذا به يواجه هذا الشعب بأفظع أنواع السباب. وأنا حين كتبتهاشعرت بأنني ربما جاوزت الحد في ذلك. ولكن من وجهة نظر فنية محضة. كان يجب أن يصل الضيق والحمق في قلب هذا الشاب الثائر الى أقصى الحدود.

* لقد كانت المشكلة حينئذ أن القصة فيها نوع من الحدة وجاءت في وقت زاد الاتصال فيه بين الحضارة الأوربية والشرق وبدأت فيه يقظة الشرق وتفجرت المسألة الكبرى، وهي: ماذا نفعل في هذه الحضارة الغربية وكيف نتركها؟ ولعل هذه هي القضية.

ـ كان الوقت مناسبا لإثارة هذه القضية. وهي ليست قضية جديدة كما قلت لك، إنما هي قضية قديمة. المهم أنني وجدت صعوبة في نشر هذه القصة في أول الأمر، ثم أتيح لدار المعارف أن تنشرها في كتاب صغير. فإذا بي بعد ذلك بقليل أمر بتجربة غريبة جدا. صاحب مكتبة في الشارع المؤدي الى محطة باب اللوق يقول لي: هذه القصة التي وصفت فيها الأب الذي يأكل «الطعمية» و«الفول» بينما ابنه في انجلترا يأكل «البفتيك»؟؟!

تصور. هذه القصة التي أحاول فيها التعبير عن مسائل فلسفية ودينية تتحول في ذهن أفراد من الشعب همهم الأول الغذاء اليومي الى تفسير غذائي محض. هذه هي المأساة التراجيدية التي رآها في هذه القصة، ليس الصراع بين الشرق والغرب وبين

الدين والعلم وإنما الصراع بين «الطعمية» و«البفتيك»!!

النزعة الانسانية والمدرسة الحديثة

● كانت أكثر شخصيات قصصك تنتمي الى الطبقات الشعبية في الريف أو في المدينة. وفي بعض كتبك مثل «ناس في الظل» كنت تتعاطف بعمق مع شخصيات قد تبدو هامشية بالمقياس الاجتماعي، لكنك تجد فيها كنوزا من الانسانية. ماذا يعني إيثارك لهذه الشخصيات؟ وهل هو تأثرك بالأدب الروسي ذي النزعة الانسانية العميقة، أم هو تأثير المدرسة الواقعية التي كانت سائدة في أوربا في ذلك الوقت؟ وما علاقة ذلك بارتباطك بكتّاب المدرسة الحديثة مثل طاهر لاشين وعيسى عبيد وخيري سعيد؟ وبماذا كانت تتميز هذه المدرسة؟

ـ تأثرت بالأدب الروسي مائة في المائة. وهذا يقودني الى الكلام عن أبناء المدرسة التي كانت تسمى «المدرسة الحديثة»، وكان يتزعمها أحمد خيري سعيد، ومنها بطلنا الكبير طاهر لاشين، وكان يكتب فيها محمود عزمي وحسين فوزي وابراهيم المصري. انضممت اليهم على الهامش، لأنني كنت قد بدأت أرحل عن مصر. فكان اجتماعنا يمثل تأثر الجيل الناشيء بالأدب الغربي بمن فينا من الذين يعتبرون فلوبير وبلزاك آلهة الفن مثل ابراهيم المصري رحمه الله. ومنهم من يعتبر تولستوي وتشيكوف ودستويفسكي هم آلهة الفن. وبدون دراسة عقلية أو فلسفية وجدت أن قلبي منحاز الى الأدب الروسي؟ لماذا؟ لأن الروايات الانجليزية التي قرأتها، والفرنسية أيضا، كانت روايات دراسات اجتماعية. الأسرة والحب بين الرجل والمرأة وما الى ذلك، وحين قرأت دستويفسكي وجدت أن المشكلة عنده هي الروحية. نزاع الانسان أمام الله وأمام الكون. هناك شيطان وهناك موسى مثلا. التمزقات الروحية عند دستويفسكي قوية جدا وفظيعة، فهو لا ينظر الى الإنسان ككائن اجتماعي فقط، بل ككائن متصل بالله، وأمامه مشاكل جديدة يريد أن يحلها من ناحية الخير والشر الخ.. لهذا كنت أشعر أنني سعيد جدا حينما أقرأ الأدب الروسي.

● ولكن ماذا عن منهج الواقعية في قصصك؟ وهل صحبتك مع مطلع حياتك الأدبية، أم جاءت بعد تأثرك بالأدب الروسي؟

ـ سأقول لك شيئا. أول قصة نشرتها في السياسة الاسبوعية كان عنوانها (قهوة «ديمتري»). وهي قهوة حقيقية في مدينة المحمودية. وقد أعطتني هذه القصة درسا انتفعت به طوال حياتي، فقد سجلت فيها الواقع كما هو، ووصفت العمدة بطربوشه المائل كما هو في الحقيقة. مجرد وصف بريء، لا أقصد به شيئا. فإذا بالعمدة يغضب غضبا شديدا، ويظنني أهزأ به فتجنبت ذلك فيما بعد. وفهمت أن الأدب الواقعي ليس هو التصوير الفعلي. وأصبحت الشخصيات التي أرسمها ليست منقولة عن فرد واحد، بل عن مجموعة افراد.

الفكاهة ومفارقات الحياة

● السخرية وروح الفكاهة سمتان جوهريتان في فنك القصصي. كيف توظف هاتين الأداتين؟ ومن أي الينابيع تستقي سخريتك؟ ولأي الأهداف الفنية والانسانية تستخدمها؟

ـ أزعم أن لي كتابين أحدهما اسمه «دمعة فابتسامة» والثاني اسمه «فكرة فابتسامة». أما عنوان الكتاب الأول فأنا لست مسئولا عنه، اذ كان للأدبية مي زيادة كتاب يحمل نفس الاسم، لكن الناشر قال لي: إن العنوان الذي كنت قد وضعته لا يساعد على البيع، ولهذا وضع اسم «دمعة فابتسامة» حتى يبيعه، وهو لا يعلم أن لمي كتابا بهذا الاسم.

في الكتابين اللذين ذكرتهما لمحات فكاهية. طبعا كان الأمل أن أكتب رواية طويلة، أو أن أخلق ما يسمى «التايب» كما فعل سرفانتيس في دون

كيشوت. الأمل المنشود للكاتب الفكاهي أنه يرسم لنا «تايب»، أي نمطا لشخص متفرد، تصدر عنه الأعمال طبقا لهذه النمطية، وكأنك تراه رأي العين حيا أمامك، إنما مجرد الملاحظات العابرة التي قد تدفعك الى الابتسام فشيء آخر، بل وأقول إنه حتى هذا الأدب الفكاهي غير موجود.

أما عن سؤالك عن كيفية توظيفي للسخرية، وروح الفكاهة في قصصي، فانا أتنبه دائما للمفارقات في الحياة. وأولى المفارقات جبروت الانسان وضعفه في وقت واحد. ومن هنا تنشأ روح الفكاهة التي تتضح في كثير من قصصي. ومن المبادىء التي تلح على أيضا وصف الحيوان، ومثال ذلك في قصة «فلة مشمش لولو»، وقصة «عنتر وجوليت»، ووصف الحمار في «خليها على الله»، والجمل والبقرة والماعز في «صح النوم».

الطريق الى أدب الفكاهة

* ألم يكن عشقك للجبرتي هو أول خطواتك نحو أدب الفكاهة، وخاصة أن لك مقالات قديمة كنت توقعها باسم مستعار هو عبدالرحمن بن حسن، مثل مقالك بعنوان «الدعابة في المجتمع المصري»؟

ــ الذي همني في الجبرتي عندما تعرفت عليه في القنصلية المصرية بجدة من خلال كتابه الذي قرأته مرة ومرتين وثلاثا، أنه عبر عن الشعب المصري بكل حكاياته وآلامه وتاريخه. وأعجبت به أشد الاعجاب. وقد كان أبوه يمثل بدء نهضة الأزهر من دراسة دينية محضة الى دراسات علمية. وكان أستاذا من أعجب الأساتذة، يدعو التلاميذ في بيته، وعنده أدوات فلكية وأجهزة علمية ومزولة، فكان يجمع بين العلم والدين. وكان الازهر قد بدأ يدخل في باب العلوم. فطريقة حياته وتصرفه مع تلاميذه آثارا اعجابي به اعجابا شديدا. وكما أعجبت بالجبرتي شخصيا أعجبت بابنه مما جعلني أوقع بامضاء عبدالرحمن بن حسن.

ثم نفعتني هذه القراءة في كتابة بحثي عن «الدعابة في المجتمع المصري». تتبعت من خلال كتاب الجبرتي كل ما ورد فيه عن «كيف كان الشعب المصري يضحك؟ ومم يضحك». وأخرجت هذه الأبحاث ثم قلت لنفسي: لماذا لا تستمر؟

كنت أريد أن استمر في هذا البحث لأنني ألاحظ في هذه الأيام أنك حين تستعرض انتاجنا الادبي عامة تجده كله جادا شديد الجدية، كله بلاو وسرقة وخيانة ونصب وما الى ذلك. فأين الرواية التي تضحك لها؟ من هو الكاتب الفكاهي في عصرنا الحديث؟ أنا أبحث عنه كأنني أبحث عن شيء بالابرة. أتمنى حقيقة أن يكون لدينا أدب فكاهي وكاتب فكاهي. حينما بدأت أقرأ الكتب الانجليزية وجدت كتّابا مشهورين بالفكاهة. كنت أضحك لهم ضحكا شديدا جدا. الآن لا أجد هذا الجانب الفكاهي، مع أنه شيء مهم جدا في حياتنا. وأخيرا بالصدفة التقيت بشاب من أصدقائي، اسمه عبدالمنعم معوض، كتب قصة اسمها «نوادر عم عبده فكه». وما جرى له في كل سكة»، وكتبت له مقدمة لم أكتبها من أجل خاطره، وإنما من أجل خاطر الدعوة لأن ينشأ لدينا ادب فكاهي محترم.

الحدود بين الفكاهة والسخرية

* إذا كان هذا رأيك في الفكاهة والأدب الفكاهي، فأنت لا تؤيد ما يسمونه الأدب الساخر والكاتب الساخر. فهل ترى أن هناك حدودا بين الفكاهة والسخرية؟

ــ هذا موضوع له أهميته، فالسخرية التي أضعها في مرتبة روح الفكاهة شيء، بينما السخرية التي يلجأ إليها بعض الكتّاب وفيها امتهان للآخرين أكرهها لأنها بذيئة ودنيئة. كيف تسخر من الآخرين «والقرآن يقول: يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم»؟ السخرية سلاح ذو حدين، يؤذي المنقود ويؤذي الناقد. ولا يليق ان نستعمل حتى في مجادلاتنا أو مناقشاتنا سلاح سخرية من ذلك النوع. أما الفكاهة فجميلة جدا. أين تجد الفكاهة في أدبنا الحديث؟ النكات التي كان يتبادلها حافظ ابراهيم والشيخ عبدالعزيز البشري ومحمد

المويلحي كانت كلها فكاهة جميلة ليس فيها سخرية، بل حتى ابراهيم المازني عندما كان يسخر فقد كان يسخر من نفسه، ولا يؤذي الآخرين. السخرية من نفسك ليست حراما، بل مطلوبة جدا، أي أن تنزل بنفسك من عليائك وغلوائك الى الأرض. قلت لك: إنني كتبت كتابين في الفكاهة، ولكن ليس المقصود أن يكون الكتاب كله فكاهة. إنما حينما تلاحظ في الحياة أشياء قد تستطرد في الجانب الجدي ثم تضيف ملاحظة تدعو الى الابتسام. وهذا أيضا سر من أسرار الكتابة الادبية. إن الوتيرة الواحدة مملة وغير طبيعية. ليس في الحياة شيء يسير على وتيرة واحدة. واذا فعلها الأديب فانه يجد فيها جزءا ينكسر، فيبدو لها وجه آخر. وقد تعلمت هذا الدرس أيضا، فجميع مبادىء الكاتب يجب أن تكون منبعثة من نفسه وطبعه ومزاجه ومن قراءاته الشخصية. لا يتعلمها من غيره.

أنا أحذر من ادعاء الشطارة، فذلك يكاد يقترب من السخرية التي أحذر منها. هناك خط فاصل دقيق جدا بين الفكاهة والسخرية، يجب أن ينتبه له الكاتب، ويقف عند حد الفكاهة ولا يدخل من باب السخرية.

القدر والارادة البشرية

* يجرنا ذلك الى القول بأننا نجد في العديد من قصصك تأكيدا لدور الارادة الانسانية. وهو في الوقت نفسه ابراز لدور القدر، سواء كان قدرا اجتماعيا أو خارجا عن الارادة البشرية في بعض أشكال المصادفة التي تؤثر على مصائر البشر. ما تعليقك على هذه الملاحظة؟ وهل تجد في هذا الموقف شيئا من التناقض؟

ـ هناك قوة جذب وأفكار تلح عليّ في قصصي. أولها الإعلاء من شأن الارادة وجعلها اساسا لجميع الفضائل. وهذا ناتج عن تصوري ان العالم معركة كبيرة. والسلاح هو الارادة. وقد جربت مرارا ان أصف شخصية رجل طيب، لكنه ضعيف الارادة فشلت. وتجد هذا في قصة «نهاية الشيخ مصطفى» ثم في قصة «أم العواجز» وقصة «السلحفاة تطير».

ثم إني شغوف بالدراسات النفسية. وكانت لي قراءات مستفيضة جدا في علم النفس. وفي تراجم كبار الفنانين المصابين بتمزقات نفسية وروحية. ومن القصص التي يتضح فيها هذا الاهتمام قصة «مرآة بغير زجاج» في مجموعة «أم العواجز»، و«سوسو» في مجموعة «عنتر وجوليت». ففي القصة الأولى أشير الى ان كلامنا خزينة مقفلة لا يعرفها احد. وأن سر الحياة في المقدرة على الجذب. وفيها تعبير غريب جدا من أربع كلمات هو «وعجز يدي عن الامتلاك» إنه أصدق وصف لأشخاص تضيع منهم محافظهم وأموالهم وزوجاتهم لأنه ليست لديهم قدرة ايجابية على الجذب.

مسافة إصبـــع !

* نعرف اهتمامك بالتراث في أدبك وقصصك. كما أنك عاشق للغة الفصحى وتراثها الأدبي. فكيف لعب التراث دوره في انتاجك؟ وهل تأثرت بأستاذنا الكبير محمود شاكر؟

ـ حينما يتمرس الانسان بفن من الفنون يمر في أكثر من مرحلة. يبدأ بالتمرين الأول ثم الخبر ثم الإجادة، فيقال: إن هذا عازف مجيد. هذا «المشوار» ربما أخذ منه عشرين سنة من مبتديء إلى مجيد. بعد ذلك تأتي مسافة لا يزيد طولها عن إصبع واحد، تمثل انتقال المجيد الى المبدع. وكما يقولون في الموسيقا هناك عازف مجيد يقضي عشرين سنة حتى يصل الى هذه المرحلة. لكن حتى يصل الى أن يكون مبدعا لابد أن يجتاز مرحلة ضيقة جدا. هذه المسافة ـ مسافة الإصبع ـ ما أصعب اجتيازها. وقد لا يجتازها إلا القليل. أين تتمثل هذه المسافة القصيرة؟ لا في اجادة النحو والصرف أو الإلمام بالألفاظ كلها، بل في اكتساب شيء اسمه «سليقة اللغة»، ليس تركيبها، وإنما مزاجها وعقليتها وروحها وسليقتها.

وإذن كان هذا ميلي. ولحسن الحظ وجدت أن ما أدعو إليه خدمة جليلة للغة العربية، لأنني نشأت في أوقات كان الاسلوب الزخرفي فيها هو الغالب،

حتى انني قلت؛ حبذا لو أن المطبعة لم تطبع أحرفا ولكن سطورا كاملة. بمجرد أن يذكر الكاتب الكلمة الأولى يكتب السطر كله، أي تكمل المطبعة السطر كله. وأقول: إنه ليس عندنا وقت لنعبث باللغة العربية، فنحن في حاجة شديدة الى الدقة والجد، وهو ما تأثرت به بالفعل من الأستاذ محمود شاكر.

تجارب النشر والناشرين

* على الرغم من بروزك في ميدانك فان لك تجارب كثيرة مع الناشرين، بعضها ايجابي وبعضها سلبي. فما هو رأيك في علاقة الكتّاب بدور النشر في الوقت الحاضر؟

ـ حينما كتبت «قنديل أم هاشم» تعبت في نشرها، وكان الاستاذ حافظ محمود رئيسا لتحرير جريدة السياسة الأسبوعية الأدبية، وهو من سكان حيّنا، فاقترحت عليه ان يصدر عددا خاصا لنشر هذه القصة، فاعتذر. واذا بدار المعارف - ربما عن طريق توصية طه حسين وصديقي محمود شاكر، قد قبلت نشرها في كتاب. بعد ذلك أغلب كتبي نشرت في المسلسلات الشهرية التي كانت تصدرها الصحف في ذلك الوقت. فكل كتبي الأولى نشرت بهذا الشكل.

كان قد صدر لي ١٧ كتابا، ثم تفضلت هيئة الكتاب في مصر وفكرت في اعادة طبعها، لأنها كانت قد نفذت. فاتفقوا معي على اعادة طبع هذه الكتب في طبعة جميلة، وبدأت تصدر متوالية.

في ذلك الوقت اذا بشيء غريب يحدث في تاريخنا الأدبي أحب أن أنوه عنه، ولا أظن أنه مسبوق أو ملحوق،فأنت تذكر بغير شك أنك كلفتني أن أكتب مقالة نقدية أسبوعية في جريدة المساء التي كنت ترأس تحريرها، كما استمر ذلك أيضا في صحيفة التعاون. وكان من الصعوبة أن أجد موضوعا أكتبه كل أسبوع. فكنت أخشى أن أنزلق الى الكتابة الصحفية، بعد أن اشتبكت رجلي في الصحافة اليومية. وبعد أن تركت أنت التعاون وسافرت أخذت عهدا على نفسي أن لا أكتب إلا كتابة أدبية إبداعية غير مقيدة بمواعيد ملزمة، وتركت ذلك للظروف والأحوال. كل مقالاتي النقدية الاسبوعية الصحفية التي استمرت حوالي عشر سنوات كان مقضيا عليها بالضياع، لولا أن حدث بعد عشرين سنة أن بدأت كتاباتي تلك تبعث من جديد وتجمع في كتب. من الذي قام بهذا البعث؟ أنه الصديق الناقد فؤاد دوارة الذي تكفل بجمعها ومراجعتها ونسخها وتقديمها الى المطبعة وتصحيح تجاربها الطباعية. ولست أعرف في تاريخ أدبنا الحديث خدمة قدمها إنسان لانسان كما فعل لي دوارة.

الخروج الى العالمية

* قبل أن ننهي الحوار عندي سؤال في لقاء لك مع الصحفيين والكتاب الشبان قبل فترة طويلة قلت: إن ما ينقص أدبنا العربي الحديث أن يصبح عالميا. ولكن جائزة «نوبل» التي حصل عليها نجيب محفوظ أخيرا لعبت دورا في عالمية أدبنا. فما هو رأيك في هذه العالمية؟

ـ الواقع أن الادب العربي لم يخرج الى العالمية من قبل. وأول من فتح الباب هو نجيب محفوظ، لا جدال في ذلك، ونحن ننتظر. وأريد أن أقول: ليس المهم أن يترجم لنا كتاب أو قصة. المهم أن أرى رأي نقاد الغرب في ذلك. وليس النقد الصحفي، ولكن النقد المدروس.. أريد أن يقال: إن نجيب محفوظ أحدث في فن الرواية تطورا. وألا يقتصر على القول بأنه أجاد فن الرواية. المهم أن نكون في هذا الموقف لنا تأثير على فن الرواية في أوروبا. نحن نعطيهم نظرة جديدة تؤثر عليهم في مجتمعهم أيضا. الذي أتمناه في يوم من الأيام أن يقول أحد الكتاب: إن هذا الكاتب غيّر مفهومنا عن المسرح تماما. كما قالوا عن كافكا في الرواية وبريخت في المسرح. أتمنى أن اسمع مرة أن كاتبا مصريا أو عربيا أحدث تطورا في هذا الأدب العالمي عندهم. وبهذه المناسبة دعني اقول لك: إن نيل نجيب محفوظ لجائزة نوبل يجب ان يكون مدعاة لتنشيط الحركة الادبية عندنا. وهو أمل أتمنى له التحقيق. □

غروب

شعر :
الدكتور مصطفى رجب



دون وعد أتى
فجأة
ذات صيف
واحدا كان من بين ألف
وخيرا من الألف كان
مستوى خطوه واحد
مستوى صوته واحد
وجهه واحد
كان لا يستطيع مجابهة الحزن إن جاءه فجأة ،
ولا الفرح إن جاءه فجأة .
كان أسطورة
كان أغرودة
كان موال حب أغنيه ياصاحبي
كلما هل صيف .

* * *

دون وعد أتى
دون وعد ذهب

* * *

ـ أيها الصيف هل ستجود بمثل الذي كان ثم انقضى ؟
ـ لا تعود الشموس الى الشرق إن غادرته
ـ ولكنه مثلما فجأة جاءني ،
ـ فجأة فاتني .
ـ ....

* * *

فجأة غادر الدار لم يستشر بابها ،
لم يودع ستائرها المسدلة .
لم يقل للمصابيح إن كان يطلب أن تنطفيء ،
أو تظل ـ إلى أن يعود لها ـ مشعلة .
لم يقل للمقاعد هل سيعود لها ،
أم
لها أن تبدل أحوالها ؟
هل سيعود لها ؟
آه ياصاحبي من بساطة هذا السؤال .
من بساطته تبدأ المشكلة !!

* شاعر وكاتب من القطر المصري

أرقام

بقلم: محمود المراغي

من مؤشرات العدل والتخلف

انقسمت المجتمعات البشرية منذ القدم حول قضيتي الثروة والدخل، وبينما تصارعت المجتمعات القديمة حول توزيع مصادر الثروة، تصارعت المجتمعات الحديثة حول الشيء نفسه، فنشأ الاستعمار، وقامت الحروب، ونشأت النظريات السياسية والاجتماعية الحديثة.

قامت النظرية الرأسمالية، وركن أساسي فيها: التراكم الرأسمالي الذي يدفع عجلة الاستثمار ويحقق النمو.

وقامت النظرية الماركسية، وأحد أسسها: ملكية عامة للثروة، وتوزيع عادل للدخل.

وبين النظريتين جاءت أنواع من الاشتراكية والرأسمالية التي تحاول أن توائم بين اعتبارات العدل، واعتبارات التنمية.

وفي كل الأحوال، ظلت قضية توزيع الدخل مؤشرا رئيسيا للعدل الاجتماعي. وأصبح السؤال في كل المجتمعات: ما هي الخريطة المثلى لتوزيع الدخل؟ بل وأصبحت النظرة الرأسمالية الحديثة، أن العدل ضرورة اقتصادية وليس مجرد حاجة اجتماعية، إنه الوسيلة لكي ينتج الانسان بشكل أفضل.

المحاولة الصعبة

هل يمكن التعرف على توزيع الدخل القومي في مختلف المجتمعات؟ هل يمكن أن نحصي ما يدخل جيب كل فرد، لنقول إن هناك شريحة عليا، وشريحة وسطى، وشريحة دنيا، وأن دخل كل من الشرائح الثلاث بلغ (كذا)؟

القضية صعبة، لذلك، وعندما حاول المصرف الدولي الوصول إلى هذه الخريطة، اعتمد على مصادر كثيرة. ثم، وعندما قام بنشر النتائج في تقريره السنوي عن عام ١٩٨٨ حول «التنمية في العالم»، لم يستطع أن يسجل أكثر من (٣٨) دولة بين (١٢٩) دولة يتابعها في مختلف المجالات الاقتصادية والسكانية والاجتماعية. نشر المصرف صورة توزيع الدخل في (٣٨) دولة فقط استنادا لبيانات يعود بعضها إلى عام ١٩٧٠، حيث لم يتوافر غيرها في بعض الدول.

الدول النامية والنفطية التي يزيد سكانها عن مليون، وتسجلها احصاءات المصرف (١٠١) مائة و دولة واحدة، لم يعثر المصرف على بيانات ينشرها عنها إلا في (٢٩) دولة، وعلى العكس كانت الدول الصناعية التسع عشرة جاهزة ببياناتها.

يحمل ذلك دلالة أولى، وهي أن قضية توزيع الدخل تلقى اهتماما في الدول الصناعية الرأسمالية، بينما لا تلقى الاهتمام نفسه حتى في الاحصاء بالدول النامية، وبفحص الأرقام التي يغيب عنها معظم الدول الاشتراكية تتأكد هذه الحقيقة.

أثرياء في عالم فقير!

تقول الأرقام إن «بعض الفقراء أكثر ثراء»، فمن بين الدول المنخفضة الدخل - وهي التي يقل متوسط دخل الفرد فيها عن (٤٢٥) دولارا في السنة - هناك خمس دول أمكن التعرف على أوضاع الدخل فيها، واتضح أن (١٠ ٪) من مجموع الأسر في كل من (زامبيا، وكينيا) تحوز وحدها نحو نصف دخل المجتمع أو ما يقرب من ذلك (٤٩ ٪).

من هذه الدول أيضا تأتي (سريلانكا والهند) وتحوز فيها أعلى شريحة في المجتمع (١٠ ٪ من الأسر) نحو ثلث دخل المجتمع.

هذا التركيز في الدخل يستمر في ما يسمى الدول ذات الدخل المتوسط التي تنتمي أيضا لمجموعة من الدول النامية، في بيرو - على سبيل المثال - يأخذ (١٠ ٪) من السكان (٤٣ ٪) من الدخل. وفي تركيا تأخذ نفس الشريحة (٤٠,٧ ٪) من الدخل.

ويستمر التصاعد في تركيز الثروة وتوزيع الدخل حتى يبلغ مداه في البرازيل، حيث يحوز (١٠ ٪) من الأسر (٥٠,٦ ٪) من الدخل، وتحوز الأسر الغنية التي تحتل الخمس الأخير في قمة المجتمع ثلثي الدخل، بينما يأخذ (٨٠ ٪) من السكان ثلث الدخل!

يصاحب ظاهرة التركز في الثروة أو الدخل عادة ظاهرة «سوء الحال» في قاع المجتمع، ووفقا لاحصاءات المصرف الدولي أيضا، فإن أقل من (٢٠ ٪) من الأسر دخلا في البرازيل لم تحصل عام ١٩٧٢ - وهو آخر عام نشرت فيه بيانات - إلا على (٢ ٪) من الدخل فقط!. تقترب من ذلك فنزويلا (٣ ٪)، وكذلك بيرو (١,٩ ٪)، وبما يشير إلى أن خريطة توزيع الدخل في امريكا اللاتينية هي الأسوأ بين القارات.

الأمر مختلف في الدول الصناعية، فبين القاع والقمة مسافة أقصر، فها هي معظم الدول التسع عشرة لا يحوز فيها أعلى (١٠ ٪) من الأسر إلا على ربع الدخل القومي على وجه التقريب. بعضها (كبلجيكا وهولندا) تهبط فيها النسبة إلى (٢١,٥٤ ٪)، وبعضها (كايطاليا والسويد) ترتفع فيها النسبة إلى (٢٨ ٪)، ولا يصل إلى (٣٠ ٪) غير دولة واحدة هي (استراليا)، أما الفقراء (أقل ١٠ ٪) فإن حصيلتهم من الدخل تتراوح بين (٥ ٪) و (٨,٧ ٪).

والسؤال: إلى أي المجموعتين تنتمي أقطارنا العربية؟

يغيب عن أرقام المصرف الدولي عشرون دولة عربية، وتظهر دولة واحدة هي (مصر)!، أما الأرقام فتعود إلى عام ١٩٧٤، حين أجرت القاهرة بحثا بالعينة لميزانية الأسرة، وطبقا للنتائج التي سجلها التقرير حازت الشريحة العليا التي تمثل (١٠ ٪) من السكان على ثلث الدخل القومي، بينما حازت أفقر الشرائح (١٠ ٪ أيضا) على (٥,٨ ٪) من الدخل. بعدها، وطبقا لدراسات أخرى، استمر الخلل في توزيع الدخل، فتراجعت نسبة الأجور من نصف الدخل الوطني في أول السبعينيات إلى ثلثه فقط في نهاية العقد نفسه.

هل نأخذ هذه الأرقام مؤشرا للعدل والظلم؟ هل نقول إن الدول الأكثر تقدما، أكثر انتباها لقضية العدل الاجتماعي وتوزيع الثروة وتوزيع الدخل؟ وهل نقول إن الخلل في التوزيع فى الدول النامية علامة تتصل بالعدل، أم علامة تتصل بالتخلف، بعد أن بات واضحا أن حدا أدنى من العدل أصبح شرطا لتحقيق حد أدنى من الانتاج؟

أظن أن غياب العدل، وحضور التخلف متلازمان. إنهما في وعاء واحد مركزه: العالم الثالث. □

واحة العربي

ضحكات عالمية



كاسترو

□ مذنب واحد

حدث أن قام كاسترو بزيارة رسمية للسجن المركزي في هافانا، وقد سمع من جميع السجناء الذين تحدث إليهم واستجوبهم العبارة التالية : أنا بريء أيها الرئيس . باستثناء سجين واحد اعترف له بقوله : أنا مذنب أيها الرئيس .

فصاح كاسترو على الفور : اطردوا هذا الشقي بسرعة قبل أن يفسد هؤلاء الشرفاء !

□ عمل واحد

قال روليير ذات يوم لصديقه شامفور : أنا لم أرتكب في حياتي سوى عمل واحد سيء .

فقال له شامفور : ومتى ينتهي مفعوله ؟!

ضحكات عربية

□ غالب ومغلوب

قال الوليد بن عبد الملك لبديح المغني : خذ بنا في الأماني فلأغلبنك . فقال : والله لا تغلبني فيها أبداً . قال الوليد : فتمن .

- قال بديح : أتمنى كفلين من العذاب، وأن يلعنني الله لعناً يُشَنّ عليَّ من خلفي ومن قدامي . قال الوليد : غلبتني لعنك الله .

□ العقاد و« المليونيرة »

كان عباس محمود العقاد يؤم مع كثير من الأدباء دار كاتبة أديبة ، جرت عادتها على إقامة حفل في اليوم الموافق لعيد ميلادها ، تدعو إليه المعارف من الأصدقاء والصديقات .

وبينما كانت الأحاديث تدور في حلقة من الحلقات في صالون ربة الدار حول أعياد الميلاد وهداياها ، إذ بسيدة متصابية تقول في تفاخر : إن زوجها أعفاها من التفكير فيما تحب أن يقدمه لها أو تكراره إذا لم تذكر ما تريد ، ولذلك فإنه درج على أن يقدم لها في كل عيد ميلاد مبلغ خمسين جنيهاً .

فقاطعها العقاد قائلاً : إذن ، لا بد أنك أصبحت « مليونيرة » الآن .



عباس محمود العقاد

في الصميم

- عملي يبعث على السأم في نفسي ، أفضل عمل الآخرين .

اوسكار وايلد

- الانسان لم يخلق للعمل ، والدليل على ذلك أن العمل يتعبه .

لافونتين

- لا تؤجل إلى الغد ما يمكنك عمله بعد الغد .

الفونسي آلليه

- إن قصة العمل هي في الأساس قصة كفاح العمال من أجل العمل ، أقل فأقل .

سيسيل لوران

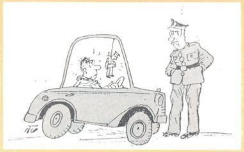
□□□

قاموس الظرفاء

« **الجنتلمان** » : هو ذلك الشخص الذي يستعمل ملقط السكر حتى عندما يكون وحده .

الزوج المحترم : هو الذي يذكر عيد ميلاد زوجته ، ولكنه ينسى عمرها .

البطل : هو الذي يفعل ما يستطيع ، والآخرون لا يفعلونه .



من القلب

□ الطريق المناسب

أقام أحدهم عرسا ، وجعل لمكان الحفل بابين ، كتب على أحدهما « للذين يحملون هدايا » ، وكتب على الباب الآخر « للذين لا يحملون هدايا » ، فجاء أحد المدعوين وكان لا يحمل هدية ، فدخل من الباب الثاني ، فوجد نفسه في الشارع .

□□□

□ غاية في الصعوبة

الصديق معزيا صديقه بوفاة زوجته : من الصعب حقاً أن تخسر زوجتك .

- فعلا ، لقد كان الأمر غاية في الصعوبة .

□□□

□ نوم العاشق

عَيَّرتْني بالنومِ جُوراً وظُلماً
قلتُ زدتِ الفؤادَ هماً وغماً
اسمعي حُجَّتي وإنْ كنتُ أدري
أنَّ عُذري يكونُ عندكِ جُرْماً
لم أَنَمْ لذَّةً ولا نمتُ إلاّ
طمعاً في خيالكِ أنْ يلمّا

تحتفل الأوساط العلمية بالذكرى الخمسين لاكتشاف الانشطار النووي بتنظيم مؤتمر علمي في مدينة « غيتسبرغ » بولاية مريلاند الامريكية في الفترة ٢٦ - ٢٨ نيسان ١٩٨٩ ، لمناقشة أحدث البحوث الدائرة حول الانشطار النووي نظريا وتجريبيا . يرأس المؤتمر أربعة علماء ممن عاصروا الفتح النووي منذ البدء . وهذا المقال مساهمة بالقاء الضوء على تفاصيل هذا الانجاز العلمي الفريد الذي حدث قبل ٥٠ عاماً .

الانشطار النوويّ في عامه الخمسين

نكون أو لانكون !

بقلم : الدكتورة شذى الدركزلي *

الانشطار النووي هو إحدى العلامات الكبيرة في طريق تطور العلم في القرن العشرين ، وقد أخذ نصيبا واسعا في الشهرة والاعلام ، ومما يؤسف له أن جزءا ضخما من هذه الشهرة تركز على الجانب المظلم منه ، فأجحف بحق الجانب المضيء من الانشطار النووي كوسيلة فاعلة لفائدة الإنسان وتطوير حياته نحو الأفضل . فما هو هذا الانشطار ؟

الانشطار النووي والتفاعل المتسلسل

تتكون الذرة من الكترونات ونواة ، وتحتوي النواة على بروتونات ونوترونات . في العنصر الواحد يتساوى عدد الألكترونات مع عدد البروتونات لتكوين ذرة متعادلة كهربائياً . لكل عنصر عدد من النظائر تختلف فقط بعدد النوترونات ، فالنظائر للعنصر الواحد متشابهة كيميائيا (بسبب تساوي عدد الالكترونات) ومختلفة فيزيائيا . والاختلاف الفيزيائي يعني استقرار النواة أو نشاطها الاشعاعي .

تُكوِّنْ الالكترونات ، المحيطة بالنواة ، خط الدفاع الاول عن النواة ، فاذا قصفت المادة بأشعة نووية (الفا ، بيتا ، جاما) فان الالكترونات المدارية تستلم (أي تمتص) طاقة الأشعة الساقطة . وتتمكن الأشعة النووية ، بزيادة طاقتها ، من اختراق سحابة الالكترونات والوصول الى النواة . إلا أن شحنة النواة الموجبة والمجال الكهربائي المحيط بها يشكلان خط الدفاع الثاني للنواة . فحزمة من أشعة موجبة الشحنة مثل « ألفا » أو البروتونات إذا توافرت لها طاقة كافية لاختراق الألكترونات فإن التنافر

* أستاذة مساعدة بقسم الفيزياء - كلية العلوم - جامعة بغداد .

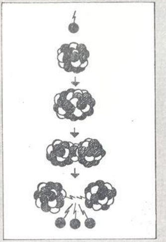
الكهربائي يمنعها من الاقتراب من النواة . فتبقى الطاقة العالية للأشعة النووية هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى النواة ومن ثم لإحداث تفاعل نووي يغير نواة الهدف . أما النوترونات فإنها ، بسبب تعادلها كهربائيا ، تتمكن بكل سهولة وبطاقة قليلة جدا من اختراق خطي الدفاع والتفاعل مع النواة مباشرة وتغييرها .

فتفاعل نوترون حراري (طاقته قليلة جداً مع نواة اليورانيوم ـ ٢٣٥ يؤدي إلى إنتاج نواة اليورانيوم ـ ٢٣٦ . وهذه الأخيرة هي نواة غير مستقرة « تنشطر » إلى جزأين وعدد من النوترونات يتراوح بين اثنين الى ثلاثة نوترونات

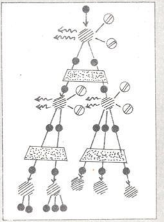
إن تحرر أكثر من نوترون واحد من الانشطار يسبب الانشطار المتسلسل ويصاحب عملية الانشطار تحرر طاقة ناتجة من اختلاف طاقة الربط لنواة اليورانيوم عن طاقة ربط نوى شظايا الانشطار . تمتلك النوترونات ، الناتجة من الانشطار ، طاقة عالية يتحتم تقليلها (او تهدئتها) وتحويلها الى نوترونات حرارية لكي تسبب الانشطار بكفاءة عالية . يتم هذا التحويل باستخدام مواد ماصة لطاقة النوترون العالية مثل الكرافيت الذي يخلط عادة مع المادة القابلة للانشطار (الشطورة) مثل اليورانيوم أو البلوتونيوم . تمثل المعادلة الآتية أحد نماذج الانشطار لنواة واحدة :

نوترون حراري + يورانيوم (٢٣٥) ← كربتون (٩٢) + باريوم (١٤١) + ثلاثة نوترونات + طاقة مقدارها ٢٠٠ مليون الكترون فولت

يحتوي الغرام الواحد من اليورانيوم ـ ٢٣٥ على ٣×١٠^{٢١} نواة ، فاذا حصل تفاعل انشطاري متسلسل لكل نوى الغرام الواحد من النظير ـ ٢٣٥ فان الطاقة الكلية الناتجة هي ٦×١٠^{٢٣} مليون الكترون فولت ، أي ما يعادل الطاقة الناتجة من حرق ثلاثة أطنان من الفحم .



● انشطار نواة اليورانيوم ـ ٢٣٥ بواسطة نوترون حراري ـ الدائرة المعتمة = نوترون الدائرة البيضاء = بروتون .



● الانشطار النووى المتسلسل الدائرة السوداء = نوترون الدائرة «المهشرة» = نواة اليورانيوم الدائرة البيضاء = شظايا الانشطار السهم المتعرج = طاقة المساحة المنقطة = المادة المهدئة

ويمكن تحديد شروط حصول التفاعل الانشطاري المتسلسل بما يأتي :

١ . نوترونات حرارية .

٢ . مادة قابلة للانشطار (شطورة) مثل اليورانيوم -٢٣٥ أو البلوتونيوم -٢٣٩ وبوفرة عالية (تسمى مخصبة بسبب زيادة نسبة المادة الشطورة) .

٣ . مادة مهدئة للنوترونات السريعة مثل الكرافيت .

٤ . حجم ملائم للمادة الشطورة يمنع هروب النوترونات قبل أن تسبب الانشطار ويسمى الحجم الحرج .

إن الشروط الاربعة توفر الانشطار المتسلسل غير المسيطر عليه ، وهو الذي يستخدم في القنابل أو التجارب النووية . أما في المفاعلات النووية فإن الانشطار المتسلسل يسيطر عليه بواسطة « قضبان السيطرة » . حيث تستخدم مادة لها قابلية امتصاص النوترونات ، مثل الكادميوم ، بغرض ايقاف الانشطار المتسلسل عند الحصول على الطاقة المطلوبة .

ان أصعب شروط الانشطار المتسلسل هو الشرط الثاني فعلى الرغم من توافر اليورانيوم في الطبيعة ، إلا أن النظير الشطور ، أي اليورانيوم -٢٣٥ ، يتوافر بنسبة قليلة جدا كما ذكرنا سابقا . فالطن الواحد من اليورانيوم الخام يحتوي على سبعة كيلوغرامات فقط من النظير -٢٣٥ مخلوطا مع النظير -٢٣٨ . ان التشابه في الصفات الكيميائية للنظيرين يحتم استخدام طرق فصل فيزيائية تعتمد على اختلاف كتل النوى . ويتم ذلك بتحويل اليورانيوم الخام إلى غاز سادس فلوريد اليورانيوم أولا ومن ثم فصل النظيرين احداهما عن الآخر. إن طريقة (التنافذ الغازي) هي التي اعتمدت خلال الحقبة الاولى من تلك البحوث حيث يمر الغاز خلال أنابيب ذات جدران مسامية (مشابهة للمنخل) أقطار فتحاتها $\frac{1}{٤٠}$ من المايكرون (واحد من مليون من المتر) ، هذه الفتحات تسمح بمرور نوى النظير -٢٣٥ ويبقى النظير -٢٣٨ في الأنبوب . وتعاد هذه العملية آلاف المرات للحصول على التركيز العالي المطلوب من اليورانيوم -٢٣٥ .



السير جيمس جادويك
مكتشف النوترون

شيء من تاريخ ما قبل الانشطار

عمل عشرات العلماء ومئات من مساعديهم في حقلي الفيزياء والكيمياء وكانت حصيلة هذا العمل هو ما وصلنا إليه اليوم ، فاذا اشتهر بعض من هؤلاء العلماء فان الكثيرين غيرهم ، ممن عمل بصمت ، قد ساهم بصورة كبيرة في تطوير انتاج الطاقة النووية .

تميز عام ١٩٣٠ باكتشاف الكوكب بلوتو ، رمز الطاقة النووية مثلما المريخ رمز للحرب، وتلت ذلك أحداث سريعة متلاحقة في حقل استخلاص الطاقة النووية . فقد عملت آيرن جوليو - كوري (ابنة مدام كوري مكتشفة الراديوم) مع زوجها فردريك في حقل التفاعلات

النووية ويعزى اليها انتاج النشاط الاشعاعي الاصطناعي في باريس ، أما في كيمبردج وبتشجيع من « رذفورد » فقد اكتشف جيمس جادويك النوترون في شباط ١٩٣٢. وتسلم جادويك جائزة نوبل للفيزياء في نفس العام مع ايرين وزوجها فردريك جوليو - كوري اللذين تسلما جائزة نوبل للكيمياء سوياً في عام ١٩٣٥

شغلت ، بعد هذين الحدثين ، مختبرات البحوث في أوربا باجراء تجارب التفاعلات النووية بطريقة ايرين وفردريك جوليو - كوري ولكن باستخدام النوترون . وكان انريكو فيرمي في روما أحد المشتغلين في هذا الحقل من البحوث .

كان للعلماء مجالان للنقاش ، الاول على صفحات الدوريات العلمية والثاني في المؤتمرات العلمية . نشر فيرمي في حزيران ١٩٣٤ بحثه عن تفاعل النوترون مع اليورانيوم وحصوله على أربعة « اصناف » من المواد المشعة . واشار فيه الى احتمال انتاج العنصر - ٩٣ (أي عنصر ما بعد اليورانيوم) . أثار هذا الرأي حماس الباحثين لامكانية انتاج المزيد من عناصر ما بعد اليورانيوم فاشتغلوا بذلك خمس سنوات متتالية ، إلا أن ايدا نوداك الكيميائية الالمانية (التي كانت منذ ١٩٢٩ تعمل مع زوجها ولتر نوداك في حقل دراسة العناصر ما بعد اليورانيوم) اعترضت على رأي فيرمي في بحثها المنشور في نهاية ١٩٣٤ . أشارت آيدا إلى أن ما ينتجه تفاعل النوترون مع اليورانيوم هو شطر النواة إلى نوى أصغر تنتمي إلى عناصر معروفة وليس انتاج نواة ثقيلة من عناصر ما بعد اليورانيوم . ولكن أحداً لم يعر هذا البحث الاهتمام الذي يستحقه ، ويعزى الآن سبب هذا الإهمال الى أن العلماء في ذلك الوقت لم يصدقوا بإمكانية شطر النواة بنوترون ذي طاقة



انريكو فيرمي
سيد النوترون

ضئيلة جدا .

لقد ساهمت الاختلافات السياسية بين الدول الأوربية في ذلك الوقت في خلق نوع من التعصب للتجمعات العلمية ، وكان ذلك يظهر اثناء المؤتمرات العلمية . ففي مؤتمر سولفاي الذي عقد في تشرين أول ١٩٣٣ ، نوقشت نتائج تجارب ايرين وفردريك جوليو - كوري (المجموعة الفرنسية) بقصف الالمنيوم بالنوترونات من قبل ليزا ما يتنر النمساوية التي شاركت اوتوهان في أبحاثه في انتاج عناصر ما بعد اليورانيوم . لقد شككت ليزا بنتائج ايرين قائلة انها لا تزال تستخدم الطرق القديمة للتحليل الكيميائي التي اعتمدتها والدتها (أي مدام كوري) . على الرغم من تأثر ايرين وزوجها واصلا بحوثهما التي أثبتت في النهاية خطأ ليزا في حكمها على النتائج (ان لم نقل تحيزها ضد المجموعة الفرنسية) .

في صيف ١٩٣٨ نشرت ايرين مع مساعدها بحثا عن تفاعل النوترون مع اليورانيوم ،وأرسل لها على إثره اوتوهان رسالة شخصية ينصحها بتوخي الدقة في القياسات ، فأجابت على رسالته

ببحث آخر نشر في خريف ١٩٣٨ يستند الى نتائج بحوثها السابقة . رفض أوتوهان قراءة هذا البحث إلا بعد الحاح مساعده فريتز شتراسمان (الذي أصبح أقرب مساعديه بعد ترحيل ليزا مايتنر خارج ألمانيا لتستقر في ستوكهولم) . بدأ الاثنان العمل بحماس وبسرعة لإعادة تجربة ايرين متوصلين الى نتائج مشابهة لنتائجها . في ٢٢ كانون الاول ١٩٣٨ ، أرسل البحث للنشر على وجه السرعة وفيه إشارة إلى حصولهما على الباريوم من التفاعل واحتمال ان يكون المنغنيز هو الناتج الآخر من التفاعل . لم يثر هذا النشر اهتمام العلماء ، فكتب أوتوهان الى ليزا مايتنر التي قامت مع ابن اختها اتوفريتش . في مختبر نيلز بور في كوبنهاجن ، بدراسة نتائج تجربة هان وشتراسمان نظريا وعمليا . نشرت إثر ذلك (في شباط / فبراير ١٩٣٩) بحثا تؤكد فيه صحة النتائج وتشير إلى هان وشتراسمان « باللذين اكتشفا الانشطار » .

لقد عارضت ليزا منذ ١٩٣٣ نتائج تجارب « ايرين » ولكنها أيدت نتائج هان وشتراسمان ، فهل هناك مبرر لذلك سوى تأثير الظروف السياسية في تلك الفترة على الآراء العلمية ؟ .

لقد ساهمت ليزا ما يتنر بدفع عجلة تطور الانشطار النووي عن طريق تحديها لأبحاث ايرين ، التي ردت على التحدي بالمزيد من البحوث والنشر ، وعن طريق تأكيدها لنتائج تجربة « هان وشتراسمان » التي لم تكن إلا إعادة لتجربة ايرين . لقد شخصت آيدا نوداك في نهاية ١٩٣٤ الانشطار النووي ولكن أحدا لم يهتم بذلك إلا بعد أكثر من أربع سنوات .

دور الصراع الدولي

لقد بدأت آثار الصراع الدولي في الثلاثينيات بالظهور على شكل احتكاك بين المجموعات العلمية المختلفة ، بين الألمان والفرنسيين وبين الألمان أنفسهم من الجامعات المختلفة . لقد أدى ذلك إلى إهمال بعض الآراء المهمة عن الانشطار كما أدى الى هجرة عدد كبير من العلماء الى خارج ألمانيا وايطاليا ، اتجه معظمهم الى الولايات المتحدة الامريكية او إلى السويد والنرويج .

فقد تسلم انريكو فيرمي جائزة نوبل لعام ١٩٣٨ وبدلا من العودة إلى روما واصل سفره إلى الولايات المتحدة ، وفي جامعة كولومبيا وصلته بحوث ايرين جوليو - كوري وبحث اوتوهان وشتراسمان ومن ثم بحث ليزا مايتنر وفريتش . ومن خبرته الكبيرة والفرص الجديدة المتاحة له كان محتوما لشرارة الانشطار النووي أن تبدأ بالظهور وأن يصاحب ذلك الظهور احتمال استغلالها للأغراض العسكرية . فبدأت حملة هدفها إحاطة الأبحاث بسرية تامة خوفا من استغلال البحوث المنشورة عن الموضوع في الصراع العالمي من قبل الأطراف المختلفة .

إن تحذيرات بعض العلماء ، من خطر استغلال الطاقة النووية الناتجة من الانشطار ، لم تجد أذنا مصغية لسببين : الأول هو أن حماس العلماء لسبرغور المادة كان أقوى من كل تحذير . والثاني أن العلم طرق باب السياسة بنفسه في هذا الحدث ، فأصبح استغلال السياسة للعلم أمرا محتوما .

مشروع مانهاتن

لقد بدأ فيرمي (سيد النوترون) حياته العلمية كفيزيائي نظري ثم تحول إلى الفيزياء التجريبية مستغلا قابليته النظرية في ذلك ، فاستخدم النوترون في التفاعلات النووية مع مجموعته البحثية في روما حتى نهاية عام ١٩٣٨ .

وعندما استقر في الولايات المتحدة بدأ يفكر في التفاعل الانشطاري المتسلسل فكان يحتاج لذلك

كمية كبيرة من اليورانيوم الخام الذي بدأ يصله من كندا والكونغو فبدأ تجاربه ببضع مئات الكيلو غرامات من اليورانيوم الخام ليتأكد من انبعاث النوترونات من الانشطار اولا ولمعرفة عدد النوترونات المنبعثة من كل انشطار ثانيا . بدأ فيرمي هذا العمل بمجموعة صغيرة في جامعة كولومبيا لتكبر وتتسع مع الزمن . وفي يوم ١٩٤٢/١٢/٢ جمع « فيرمي »وفريق بحثه ، في ملعب اسكواش مهجور في جامعة شيكاغو ، سبعة أطنان من اليورانيوم والكرافيت مع قضبان الكادميوم للسيطرة على التفاعل . استخدم فيرمي عصر ذلك اليوم البارد حاسبته اليدوية (Slide Rule) لحساب عدد النوترونات المنبعثة والمسجلة في العدادات الخاصة للنوترونات . وعندما طلب فيرمي من مساعديه سحب قضبان السيطرة ، استنتج من الحسابات أن الانشطار النووي المتسلسل يستمر ذاتيا وبذلك فتحت بوابة العصر النووي وخطا الانشطار اولى خطواته في أول مفاعل نووي من صنع الانسان .

ان ضآلة كمية اليورانيوم - ٢٣٥ في اليورانيوم الخام تؤدي إلى أن الاطنان السبعة تحتوي على خمسين كيلو غراما فقط منه . لذلك كان انتاج اليورانيوم - ٢٣٥ المخصب هو الأمر الحتمي بعد اثبات التفاعل المتسلسل . فكان إنشاء مشروع ضخم في مدينة اوك ريدج إحدى المدن السرية الثلاث (مع هانفورد لانتاج البلوتونيوم ولوس الاموس) لفصل نظيري اليورانيوم بالتنافذ الغازي ، وقد كلف هذا المشروع ٥٥٠ مليون دولار واحتوى على ٥٠٠,٠٠٠ كيلو متر من انابيب الحديد الصلب (أي أطول من المسافة بين الأرض والقمر التي تقارب ٤٠٠,٠٠٠ كيلو متر) لمرور غاز سادس فلوريد اليورانيوم وقد أدى هذا المشروع الى رفع كلفة الكيلو غرام الواحد من اليورانيوم الى ١٤,٠٠٠ دولار .

وتحت عنوان « مشروع مانهاتن» برئاسة الجنرال ليزلي غروفز تولى روبرت اوبنهايمر ، الذي ينحدر من أب الماني ودرس في جامعات أوربا ، إنشاء مختبر لوس الاموس في صحراء نيومكسيكو .

قام أوبنهايمر (الذي أطلق عليه اسم أب القنبلة الانشطارية) بتجميع اكبر عدد من العلماء الامريكيين والأوربيين . وفي ربيع ١٩٤٣ وصل أوائل الوافدين من العلماء وعوائلهم الى مدينة « سانتافي » لتنقلهم بعد ذلك سيارات خاصة الى هضبة لوس الاموس ، ليعيشوا في بقعة صحراوية وتحت ظروف أمنية مشددة لغرض اتمام مشروع انتاج القنبلة .

في ١٦ تموز ١٩٤٥ تم إجراء أول تجربة انشطار نووي متسلسل غير مسيطر عليه في صحراء « الاماغورد » وبحضور كبار المساهمين في العمل وعلى بعد ١٥ كيلو مترا من نقطة التفجير . كان الجنرال غروفز هو الاكثر سيطرة على أعصابه ، اما روبرت أوبنهايمر فقد وصف التفجير بأنه أسطع من ألف شمس .

الثالوث

لقد اشتملت تجربة «الثالوث» على قنبلة « الاماغورد » وقنبلة « هيروشيما » في ١٩٤٥/٨/٦ وقنبلة ناكازاكي في ١٩٤٥/٨/٩ . ولهذه القنابل الثلاث رواية اخرى كتبها العالم الألماني « ارفين اوبنهايمر » (الذي اعتقل مع سبعة وعشرين عالما المانيا ونقلوا الى الولايات المتحدة بعد استسلام المانيا) لقد اكتسب « ارفين اوبنهايمر » الجنسية الأمريكية بعد تسع سنوات من انتهاء الحرب وكتب عن تاريخ الانشطار النووي من داخل المانيا في كتابه (يا للهول !!) الذي ترجمه للعربية د . صلاح يحياوي . فقد كانت معامل هامبورغ مخصصة لتخصيب اليورانيوم ، وجمع في اينسبورغ كمية يورانيوم تكفي لصنع بضع قنابل . وكانت خطة



ليزا مايتنر مع اوتوهان مكتشف الانشطار في خريف ١٩٤٩

هتلر تتضمن نقل القنابل إلى اليابان بواسطة الغواصات ، وفي ٢٠ نيسان سنة ١٩٤٥ انتهى صنع القنابل التي فككت ليتم نقلها الى اليابان ، وقد كان مصير بعض هذه القنابل هو فعلا الوصول الى اليابان بعد ان استولى الامريكيون عليها لتستلمها هيروشيما وناغازاكي ، حيث أن القنابل الألمانية كانت تحتوي على صفائح الزركونيوم (الذي اقترحه أرفين أوبنهايمر) أما قنابل مشروع مانهاتن فتحتوي على صفائح الكادميوم (الذي اقترحه روبرت اوبنهايمر) . واول قنبلة نووية امريكية ناجحة هي التي جربت في اينيوتوك في مايو / أيار ١٩٤٨ . ويضيف « ارفين اوبنهايمر » أن العلماء الألمان أخروا عمدا إنتاج « السلاح السري » الذي كان من المزمع اعلانه في العيد الثاني عشر للحزب أي في ١٩٤٥/١/٣٠ ، وأن هتلر أوقف استمرار المشروع عندما تلقى رسالة (من أحد العلماء) تحذره من النتائج الوخيمة للتفجير النووي على الكرة الأرضية بكاملها ، ثم طلب الاستمرار في العمل بعد فترة حرجة .

كما توجد جهة ثالثة تتحدث عن تاريخ الانشطار ألا وهي جهة الاتحاد السوفيتي ، حيث ان شغلهم بجبهة الحرب مع الألمان منعهم من تكريس الجهد والمال لذلك المشروع إلا أن البحوث كانت مستمرة منذ الثلاثينيات في المعهد التقني بمدينة خاركوف وتحت إشراف العالم ايغور كورتشاتوف ، ولم يتسلم كورتشاتوف أوامر البدء بصنع القنبلة إلا بعد تدمير هيروشيما وناغازاكي . وفي ١٩٤٩ فجرت أول قنبلة نووية سوفيتية . ويقول مؤرخو هذه الجهة ان روزنبرغ وزوجته ، اللذين أعدما في أمريكا بتهمة تسليم أسرار القنبلة إلى السوفييت، هما ضحية لأسطورة التفوق والمناعة الامريكية .

إن العامل المشترك في الجهات الثلاث التي تروى صورا مختلفة لحدث واحد هو العلماء الألمان . فعند استسلام المانيا اعتقل المحتلون من الجهات المختلفة العلماء الألمان ونقلوهم كل الى جهته ، فذهبت مجموعة منهم الى الاتحاد السوفيتي ومجموعة اخرى الى بريطانيا ومجموعة الى الولايات المتحدة الامريكية ، إضافة إلى العلماء الالمان الذين هاجروا منها قبل أو اثناء الحرب . فكانت القنبلة النووية الانشطارية صناعة الفكر الالماني . أما تحويلها الى فعل فكان صناعة امريكية ومن ثم سوفيتية . يقول أرفين

أوبنهايمر أن هتلر عندما أغمض عينيه انتهت الحرب العالمية الثانية وبدأت في الوقت نفسه الحرب الباردة وسباق التسلح النووي وما كلف ذلك من أموال طائلة وآثار بيئية وخيمة .

ويقال ان لعنة (مشابهة للعنة الفراعنة) حلت بمن ساهم في انتاج القنبلة النووية ، فقد حرم على فيرمي زيارة وطنه إيطاليا بعد انتهاء الحرب (لأسباب أمنية) ، وعندما سمح له بذلك كان المرض الخبيث قد تمكن من حنجرته ليموت عام ١٩٥٤ . كما عانى روبرت أوبنهايمر من مطاردات وملاحقات أمنية بسبب علاقته بفتاة شيوعية قبل زواجه،وحوكم ثم أعيد له اعتباره في ١٩٦٣ ليتوفى في ١٩٦٧ .

لقد حصل أوتوهان على جائزة نوبل للكيمياء عام ١٩٤٤ واطلق اسمه على العنصر ١٠٥ (الهانيوم) . كما اطلق اسم فيرمي على العنصر ٩٩ (الفرميوم) . أما العنصر ١٠٤ فان الامريكيين يطلقون عليه اسم رذرفورد (الرذرفورديوم)والسوفييت يطلقون عليه اسم كورتشاتوف (الكورتشاتوفيوم) .

اين الصورة المشرقة ؟

بعد انتهاء الحرب العالمية فتحت صفحة استغلال الطاقة النووية للأغراض السلمية بالاضافة إلى استمرار سباق التسلح النووي الذي كان على أوجه في الخمسينيات ، ثم ساهم التسابق على غزو الفضاء في الستينيات من انحسار بعض الضوء عنه .

لقد ازدهر استغلال الطاقة النووية لإنتاج القدرة الكهربائية من المفاعلات النووية خلال عقدين من الزمان ولم تبدأ أصوات المعارضة بالارتفاع إلا في بداية السبعينيات ، فقد اعتبر التفجير النووي والمفاعل النووي ثمرتين من شجرة واحدة . أمامشجعو استغلال الطاقة النووية في المفاعلات النووية فقد كانت لهم ثلاث حجج هي :

١ . الحاجة الى الطاقة .
٢ . اقتصادية النفقات .
٣ . الأمان والسلامة .

وبعد حوادث المفاعلات (وند سكيل في انكلترا عام ١٩٥٧ ، جزيرة ثرى مايل في امريكا عام ١٩٧٩ ، تشيرنوبل في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٦) تراجع عاملا الاقتصاد والأمان . إن هذين العاملين يعارض أحدهما الآخر ، فللحصول على الأمان اللازم ، يجب توافر المزيد من الوقاية للعاملين في المفاعلات وعموم الناس وهذا يؤدي إلى زيادة النفقات .

إن الانشطار النووي وما يوفره من طاقة هو أحد الجوانب وليس جميعها ، فمفاعلات البحوث تساهم في إنتاج النظائر المشعة المختلفة والتي تستخدم في مجالات متعددة في الصناعة والزراعة وفي الطب (لأغراض التشخيص والعلاج) ، إن فوائد استخدام الأشعة النووية والنظائر المشعة من الكثرة والشمولية ما لا يمكن ان يحجب خلف غيمة بشكل نبات الفطر التي تنتج من التفجيرات النووية او خلف خزانات النفايات المشعة (الناتجة من المفاعلات النووية) . وإن الخمسين عاما التي انقضت قد كشفت الكثير من الجوانب التي كانت خافية على الإنسان ، وأصبح الآن بالامكان استغلال الانشطار النووي بصورة افضل لتطوير حياة الانسان وطرق معيشته ، إن الانسان بذكائه يمكنه أن يستغل هذه الوسيلة العظيمة بدلا من أن يصب عليها اللعنات لأنها استُغِلَّتْ في بدايتها وخلال ظروف خاصة ، بصورة غير حضارية . وقد وصف طاغور مثل هذه الحالة بقوله : إننا نقرأ الكون بصورة خاطئة ثم نقول بعد ذلك لقد خُدِعنا .□

أفكار لا تموت

(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

علاقة ما بين الشريعة والفلسفة

لأبي الوليد بن رشد *

١ - أما أن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به ، فذلك بيّن في غير ما آية من كتاب الله ، تبارك وتعالى ، مثل قوله تعالى (فاعتبروا يا أولي الأبصار) وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي ، أو العقلي والشرعي معا . ومثل قوله تعالى : (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) وهذا نص بالحث على النظر في جميع الموجودات .

٢ - وإذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها ، وكان الاعتبار ليس شيئا أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه ، وهذا هو القياس أو بالقياس ، فواجب أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي ، وبين أن هذا النحو من النظر الذي دعا إليه الشرع وحث عليه ، هو أتم أنواع النظر بأتم أنواع القياس - وهو المسمى « برهانا » - وإذا كان الشرع قد حث على معرفة الله تعالى وسائر موجوداته بالبرهان ، وكان من الأفضل - أو الأمر الضروري - لمن أراد أن يعلم الله تبارك وتعالى ، وسائر الموجودات بالبرهان ، أن يتقدم أولا فيعلم أنواع البراهين وشروطها .

٣ - فإنه كما أن الفقيه يستنبط من الأمر بالتفقه في الأحكام وجوب معرفة المقاييس الفقهية على أنواعها ، وما منها قياس وما منها ليس بقياس ، كذلك يجب على العارف أن يستنبط من الأمر بالنظر في الموجودات وجوب معرفة القياس العقلي وأنواعه ، بل هو أحرى بذلك ، لأنه إذا كان الفقيه يستنبط من قوله تعالى (فاعتبروا يا أولي الأبصار) وجوب معرفة القياس الفقهي فكم بالحري والأولى أن يستنبط من ذلك العارف بالله وجوب معرفة القياس العقلي .

٤ - وليس لقائل أن يقول : « إن هذا النوع من النظر في القياس العقلي بدعة ، إذ لم يكن في الصدر الأول » . فإن النظر أيضا في القياس الفقهي ، وأنواعه هو شيء استنبط بعد الصدر الأول ، وليس يرى أنه بدعة . فكذلك يجب أن نعتقد في النظر في القياس العقلي ...

٥ - وإذا تقرر أنه يجب بالشرع النظر في القياس العقلي وأنواعه ، كما يجب النظر في القياس الفقهي ، فبين

* من كتاب « فصل المقال » (تحقيق البير نصري نادر ، بيروت ، ١٩٦١) ص ٢٨ - ٣٥ .

أنه إن كان لم يتقدم أحد ممن قبلنا بفحص عن القياس العقلي وأنواعه ، أنه يجب علينا أن نبتدىء بالفحص عنه ، وأن يستعين في ذلك المتأخر بالمتقدم ، حتى تكمل المعرفة به ، فإنه عسير أو غير ممكن أن يقف واحد من الناس من تلقائه وابتداء على جميع ما يحتاج إليه من ذلك ، كما أنه عسير أن يستنبط واحد جميع ما يحتاج إليه من معرفة أنواع القياس الفقهي ، بل معرفة القياس العقلي أحرى بذلك ، وإن كان غيرنا قد فحص عن ذلك ، فبين أنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك ، وسواء كان ذلك الغير مشاركا لنا أو غير مشارك في الملة . . وأعني بغير المشارك من نظر في هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام . وإذا كان الأمر هكذا ، وكان كل ما يحتاج إليه من النظر في أمر المقاييس العقلية قد فحص عنه القدماء أتم فحص ، فقد ينبغي أن نضرب بأيدينا إلى كتبهم ، فننظر فيما قالوه من ذلك : فإن كان كله صوابا قبلناه منهم ، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه .

٦ ـ فإذا فرغنا من هذا الجنس من النظر وحصلت عندنا الآلات التي بها نقدر على الاعتبار في الموجودات ودلالة الصنعة فيها ، فإن من لا يعرف الصنعة لا يعرف المصنوع ، ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصانع ، فقد يجب أن نشرع في الفحص عن الموجودات على الترتيب والنحو الذي استفدناه من صناعة المعرفة بالمقاييس البرهانية . وبين أيضا أن هذا الغرض إنما يتم لنا في الموجودات بتداول الفحص عنها واحدا بعد واحد ، وأن يستعين في ذلك المتأخر بالمتقدم .

وإذا كان هذا هكذا ، فقد يجب علينا إن ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظرا في الموجودات واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم : فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به ، وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم .

٧ ـ فقد تبين من هذا أن النظر في كتب القدماء واجب بالشرع ، إذ كان مغزاهم في كتبهم ومقصدهم هو المقصد الذي حثنا الشرع عليه ، وإن من نهى عن النظر فيها من كان أهلا للنظر فيها ـ وهو الذي جمع أمرين أحدهما ذكاء الفطرة ، والثاني العدالة الشرعية والفضيلة الخلقية ـ فقد صد الناس عن الباب الذي دعا الشرع منه الناس الى معرفة الله ، وهو باب النظر المؤدي الى معرفته حق المعرفة . وذلك غاية الجهل والبعد عن الله تعالى . وليس يلزم من أنه إن غوى غاو بالنظر فيها ، وزل زال ، إما من قبل نقص فطرته ، وإما من قبل سوء ترتيب نظره فيها ، أو من قبل غلبة شهواته عليه ، أو أنه لم يجد معلما يرشده إلى فهم ما فيها ، أو من قبل اجتماع هذه الأسباب فيه ، أو أكثر من واحد منها ، أن نمنعها عن الذي هو أهل للنظر فيها . فإن هذا النحو من الضرر الداخل قبلها هو شيء لحقها بالعرض لا بالذات . وليس يجب فيما كان نافعا بطباعه وذاته أن يترك بمكان مضرة موجودة فيه بالعرض . . بل نقول إن مثل من منع النظر في كتب الحكمة من هو أهل لها ، من أجل ان قوما من أراذل الناس قد يظن بهم أنهم ضلوا من قبل نظرهم فيها ، مثل من منع العطشان شرب الماء البارد العذب حتى مات من العطش ، لأن قوما شرقوا به فماتوا . فإن الموت عن الماء بالشرق أمر عارض ، وعن العطش أمر ذاتي وضروري .

وهذا الذي عرض لهذه القناعة هو شيء عارض لسائر الصنائع . فكم من فقيه كان الفقه سببا لقلة تورعه وخوضه في الدنيا ، بل أكثر الفقهاء كذلك نجدهم ، وصناعتهم إنما تقتضي بالذات الفضيلة العملية . فإذاً لا يبعد أن يعرض في الصناعة التي تقتضي الفضيلة العلمية ما عرض في الصناعة التي تقتضي الفضيلة العملية . □

موت كاتب متجول

قصة : هاني الراهب



شجرة نسبه تنتهي إلى آدم عليه السلام . وهذه الحقيقة لاتهمه ، بل لايهمه كون الشجرة منتهية إلى قرود افريقيا . (هو) لم يكن حاضرا يوم ولد جده الأول .

إحدى جداته كانت شر موطوءة نالها الذكور الصليبيون . وكان جده رجلا يعيش في السهول ، على جسده تمر أحذية الولاة والباشوات والعسكر والطبيعة . وكان أبوه فتى عندما قامت الحرب العالمية الأولى . وكان (هو) طفلا يحبو عندما قامت الثانية .

ثم تتالت الأحداث . لم يكن (هو) حاضرا عندما تناول الصهيونيون فلسطين من بريطانيا والأمم المتحدة . لم يكن حاضرا عندما مزق الرصاص جسد سلفادور الليندي . لم يكن حاضرا عندما اجتمع بريجنيف ونكسون في فلاديفوستوك ، ولا عندما افترقا في بكين .

(هو) غالبا لا يحضر . لم يحضر موت انسان جوعا : كيف يضمر لحمه حتى يتلاشى ويلتصق الجلد بالعظم ، وتجحظ وجنتاه وعيناه فتغدو أوكارا ، وينتهي دون أن يكون قادرا على الشعور بالموت .

لم يحضر موت انسان في المعتقلات : كيف تصعقه الكهرباء ، أو يفتت لحمه السوط ، أو تجهز عليه ضربة فأس ، أو يترمد بمذيبات اللحم ، أو يتعفن في الغياهب .

لم يحضر حربا ، ولا مؤامرة ، ولا اغتيالا ، ولا مفاوضات ، ولا انقلابا عسكريا ، ولا عملية تجسس مثيرة ، ولا جلسة نيابية ، ولا سرقة أو رشوة . باختصار ، لم يكن حاضرا حتى في ساعة ولادته .

لكن (هو) ، على الرغم من هذا الغياب الأبدي ، حضر ذات يوم ، وصار محررا في مجلة . وكان ذلك بعد سقوط بغداد بسبعمائة عام ونيف ، في العام الخامس والثلاثين لحكم الجنرال فرانكو في اسبانيا ، وفي فترة الظهيرة من قضية ووترغيت الأمريكية . ومع أنه لم يحضر يوم اكتشاف فوائد البخار ، فهو يملك «طنجرة» بخارية ؛ ولا يوم اختراع الكهرباء ، فبيته منار بها ؛ ولا يوم اختراع الاتصال اللاسلكي ، فهو يتكلم بالهاتف ؛ ولا يوم القاء القنبلة الذرية على هيروشيما ، فهو يخاف منها ؛ ولا يوم هبوط الانسان على سطح القمر ، فهو يؤمن به .

إذن ، على هذه الأرض المكونة من خمس قارات وخمسة محيطات ، وبين أناس تشكلوا منذ عشرات آلاف السنين بشرا متميزين عن القردة والنسانيس ، صار لـ (هو) مكان : نصف غرفة ، كرسي ، طاولة ، نصف جهاز هاتفي .

و (هو) ، على الرغم من هذا الغياب الأبد ، مليء بالأسرار . لقد تعلم بالتدريج أن يحب قوس قزح حبا عميقا راسخا . يحبه لأنه الحيا نفسها ، لأنه قوس وليس خطا مستقيما . يحب لأنه حافل بالألوان ، ولكل لون جاذبيته . ففي يوم يكون الأحمر أكثر مخاطبة للنفس : بحرارت واحتدامه وإثارته . وفي يوم يتقدم الأزرق



وينتشر في ساحة الشعور ، بهيا مترفا مريحا .
تارة يكون الأصفر ، عندما تتوعك النفس أو تشف فيها الكآبة . وتارة يكون البرتقالي ، عندما ينسكب بياض الحياة ورغدها على تطوحات الأحمر وضجيجه . وبفعل تجارب الحياة ، أثناء كتابته للمجلة ، وعبر اتصالاته بالبشر ، تعلم (هو) أن يكون حضوره غائبا وغيابه حاضرا ، واكتشف البنفسجي ، أدهشه اللون الرائع ، إذ لم يكن يتصور أن بوسع الأحمر والأزرق أن يأتلفا في لون جديد .

شغلته توالدات الألوان إذ تمتزج . أمعن النظر في الألوان الناجمة عن تداخلاتها في قوس قزح . وأدرك أن لنظرية النسبية بعدا جماليا أيضا ، وليس أخلاقيا فقط . شيء واحد لم يتسن له أن يبحث عنه : أى لون يحب ؟

و(هو) يعرف الأبيض والأسود . لقد قرأ كثيرا من الكتب ، واعتصر حكمة الأولين والآخرين . وتكلم مع كثير من الناس . يوم تحدثت الأخبار عن مجاعة فتكت بعشرات الآلاف من الهنود ، ترقرقت نفسه بالدمع . ويوم قرأ عن الملايين الخمسين الذين قتلوا في الحرب العالمية الثانية ، رأى الحياة البشرية ملفعة براية سوداء . ويوم اعتقل جاره ، رغاب

بلا رجعة ، أحس بالهلع وخرجت الطمأنينة من قلبه .

لذلك يطيب له بين حين وحين أن يتحدث مع (هو الثاني) عن الخبز والحرية . فكثيرا مايحدث أن يخرج إلى لسانه شعور أحمر ، أو كلمات سوداء ، أو أفكار برتقالية . وقليلا ما تنطلق من هذا اللسان كرات ثلجية تحمل الشعور أو الكلمة أو الفكرة .

وذات يوم بهيج أغلق (هو) و(هو الثاني) الباب . تمترسا بطاولتيهما . أحسا بحرية مساحتها عشرون مترا مربعا من مساحة الكرة الأرضية التي تتكون من خمس قارات وخمسة محيطات وغلاف غازي . عندئذ تكلم (هو) .

قال : إن الجميع يظنونه غائبا ، أهبل ، يحسبونه بزالا أو مفتاح مذياع ، ينظرون إليه كموسوعة في متناول اليد ، صغيرة لطيفة . ثم زمجر بتكشيرة ظافرة واثقة . قال : إنه يعرف الأحجام والأثمان والأشكال والأثقال والأشغال .

قال (هو الثاني) : إنه مفجوع . قال انه بلا حجم ، ولا ثمن ، ولا شكل ، ولا ثقل ، ولا شغل ، وأنه يتمنى لو يحطم هذه الطاولة ، لكنه يعرف أن يده ستنكسر أولا .

قال (هو) : إنه لن يجازف بتحطيم يده أيضا . لقد تعلم أن الحياة أثمن من معركة خاسرة . قال : إنه يعرف كيف يحتفظ بملكيته لهذه المساحة الصغيرة من الحرية ، ويظل ساخرا من محاولات اقتحامها .

قال :- يظنون أننا دمى بأيديهم . دعهم يظنون ما أحبوا . نحن نبقى وهو يذهبون . ألم يقتلوا لوركا ؟ ماذا حدث في النهاية ؟ عاش لوركا ، وماتوا هم . دعهم يظنون ما أحبوا . صرنا نعرف اللعبة ، نعرف كيف نحافظ على رقابنا ، نضحك عليهم إلى أن يلحقوا بفرانكو وسالازار . نحن ضمير هذا الشعب ولا يمكن أن نموت .

ومد كفه هامسا بضحكة مخاتلة ، وخبط (هو الثاني) بكفه عليها . ضحكا . استرخيا على مقعديهما . عندئذ رن جرس الهاتف . وتلقف (هو الثاني) السماعة . أنصت قليلا ، ثم اربدّ وجهه .

- آلو .. نعم .. لا أنا زميله في الغرفة .. لحظة أستاذ . التفت إلى (هو) :- المسئول الثقافي يريدك .

- أنا ؟ مستحيل .. لماذا ؟ .. لست هنا ، لست هنا .. انتظر .. اظهر أنك تبحث عني .

- لحظة أستاذ .. أظن أنه في الأرشيف .... طيب .. على عيني .

- ماذا ؟

وضع (هو الثاني) السماعة . قال :- يريدك بالسرعة الممكنة . اذهب إليه في مبنى الرئاسة .

- لماذا ؟

- كيف كانت لهجته ؟

- لهجته ! رقيقة كورق الورد ، عذبة مثل صوت زرياب .

إذن ، يريدونه أن يحضر ، بالسرعة الممكنة .

صمت المكان . أصابع (هو الثاني) راحت تنقر على الطاولة . بحركة لاإرادية ، نهض (هو) وفتح الباب . عاد . جلس وراء طاولته .

بالسرعة الممكنة . أن يحضر بالسرعة الممكنة . المسئول الثقافي نفسه ، نفسه دفعة واحدة . خمسة وثلاثون عاما ، والآن : دقت الساعة . مثلما حدث لجاره : الحضور عند المدير ، وبعده حضور عند مسئول من نوع آخر .



في الطريق إلى البيت ، حاول أن يتذكر . مائة وأربعة عشر عددا من المجلة : مائة وأربعة عشر مقالا ؟ ما الذي سيعده المسئول اسود ؟ ما الذي سيعده أبيض ؟ أيها خرج من منطقة تداخل الألوان ؟ حاول أن يتذكر . لم يتذكر . لقد مرت على العالم مئات الأحداث ، صدرت آلاف الكتب ، قامت عشرات المعارك الثقافية . وكان مطلوبا أن يتداخل على التوالي .

في أي تداخل يكمن الخطأ ؟

في الطريق سمع من مذياع أحد الحوانيت تصريح (أحد المسؤولين :) العرب لايريدون من الغرب أن يركع على قدميه بسبب حاجته للنفط العربي ، يريدون فقط حقوقهم المشروعة . وفي غمرة هواجسه تساءل : متى ينهض العملاق العربي ؟

ثم سمع كلمات قليلة عن الحرب الدائرة في أنغولا بين الوطنيين والرأسماليين ، وذابت البقية داخل ضوضاء السوق . وفي غمرة هواجسه تساءل : متى ينهض العملاق الأفريقي ؟

ثم اصطدم به رجل خرج مغضبا من حانوت البقال :- بليرتين ، قال بليرتين ! البارحة كنا نشتريها بنصف ليرة ! هل انقلبت الدنيا ؟

أسرع يغذ الخطى . لم ينتظر اعتذارا من الرجل الذي لم يبد عليه التفكير بالاعتذار . بالسرعة الممكنة . الحضور بالسرعة الممكنة .

في البيت تدفق نحوه طفلاه . الحب الذي خفق في قلبه تلاشى بعد لحظة . جرفه شعور تداخل فيه الخوف والعداء . هذان الجروان المفترسان ، العلقتان الماصتان ، لأجلهما جاع وتحمل ألف اهانة . لأجلهما تحول العالم من ملعب إلى شاشة في الذهن . لو كانت زوجه عاقرا لعدها أفضل امرأة في العالم .

- يا الله إلى المطبخ ! نادي أمك وقولي لها أنا في المكتبة !

لم يكترث لانكفاءة الوجهين الصغيرين ، ولا للدهشة التي جمدت جسديهما . على العكس ، أحس برضى آني لأن مناسبة جاءت واستطاع فيها أن يتنصب ويضطهد أحدا ما ، أن يصرخ بملء حلقه ، دونما خوف ، ويلقي أوامر .

في المكتبة راح يعمل بسرعة . تناول المجلات من رفوفها ، ورتبها على الطاولة . جاء بالكرسي ، ونفاضة السجائر ، أخرج الكبريت وعلبة الدخان ووضعهما إلى اليسار .

التفت إذ فتحت زوجه الباب . بطنها المتنفخ ومريول المطبخ المنسدل عليه أرسلا فيه حسا بالرثاثة : حتى الخطأ الذي يصنعه بيديه ، لايمكن إيقافه . وتضاعف الحس فغدا شعورا بالعجز والخور : هذه الحياة الصماء المقتحمة في رحم امرأته ، أقوى منه ، بل هي استهزاء به ، استهزاء كامل . ورأى أنه كتلة لاحول لها ولا قوة . وتحول غضبه إلى نظرة ضارعة مسح بها على وجه المرأة الودود المتعب .

- ألم تتصلي بالطبيب ؟

لم تجب . لم يعبر وجهها عن شيء .

- ثلاثة أولاد كثير . يكفينا اثنان .

لم تجب . لم يعبر وجهها عن شيء .

- أنت تريدين الولد . أعرف . ألم تتصلي بالطبيب ؟

- طلب أربعمائة ليرة .

صمت (هو) . ابتسم . نخر . نهض فجأة عن الكرسي . اتكأ عليها .

- وماذا ؟ أربعمائة ليرة فقط ، مقابل حياة غير مرغوبة . أربعمائة ليرة لاغير . شيء تافه . الامريكان يصرفون بلايين الدولارات للوصول إلى القمر . لماذا لا أدفع أنا أربعمائة ليرة ؟ الآن ، أين هو؟ . هذه هي المحفظة ، خذي ، هذه أربعمائة . هذه ألف . عشرة آلاف ، إذا شئت . اشتري لي الموت والحرية . اذهبي فورا إلى الطبيب . أنا لا أريد الولد . يكفينا الاثنان . أنا حر . يكون لي أولاد أو

لا يكون ، أنا حر . هكذا يفعلون في ايطاليا ، وفي كندا ، وفي الصين ، وحتى في القطب الجنوبي . الناس أحرار . أحرار حتى الموت . من أيام يوليوس قيصر إلى أيام فرانكو . أحرار حتى الموت .

ثم صمت . أشعل سيجارة . شعر أنه فقد صوابه .

- عندنا بن ؟

- اشتريت نصف كيلو .

- نصف كيلو ! كثير . يكفينا اوقيتان . أريد قهوة ، هل اتصل أحد ؟

- لا .

- إذا اتصل أحد أنا غير موجود . والأولاد ، ابعديهم عني .

- ماذا حدث ؟

- اذهبي الآن . اصنعي لي قهوة .

نظر إليها وهي تخرج دون أن تستدير ، وإلى يدها وهي تغلق الباب . فجأة صار وحده : بالسرعة الممكنة . جلس على الكرسي . وضع السيجارة في المنفضة . تناول العدد الأول .

بين العدد الأول والعدد الأخير ، تلاشى المكان والزمان . وتلاشى (هو) . كل شيء تحول إلى كلمات ، العالم بأجمعه . والكلمات رصت على الورق . بادر ماينهوف والجيش الأحمر . الجنرال اورتيغا وانقلابه العسكري ، جائزة نوبل للآداب . ماوتسي تونغ . النفط . الجفاف والمجاعة في أفريقيا . هجمة فدائية على تل أبيب . حضارة الترف . سايغون . ويلي براندت . قصف اسرائيل الجوي لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين . الدولار . هيلاسلاسي . العودة إلى بوذا . البديل الأمريكي . الواقعية الاشتراكية . رونالد ريغن والديمقراطية الامريكية . . .

وعشرات من شئون العالم ، العظمى والصغرى . كلها كتب عنها . حدثت ولم يكن (هو) حاضرا ، لكنها عبرت وعيه ولغته .

في أي تداخل وجد المسئول الثقافي الخطأ ؟ ماكتبه خلال مائة وأربعة عشر أسبوعا ، قرأه كلمة كلمة . لم يغفل حتى عن أن عينيه قد تعبتا . كلما خشي أن تكون كلمة قد أفلتت من الرقابة الصارمة ، أعاد القراءة . فالكلمات مثل قوس قزح ، مخاتلة وزياغة للبصر .

عندما دخلت زوجه للمرة الثالثة ، رفع رأسه إليها ولم يرها تماما . رأى دوائر ومستطيلات تتأجج وتتوهج وتتداخل . وحسب أن الأمر يعود للعتمة التي تجمعت دون أن ينتبه . لكن زوجه أنارت الغرفة ، وبقيت الدوائر والمستطيلات .

- ألن ترتاح قليلا ، وتأكل لقمة ؟

- هل اتصل أحد ؟

- لا .

- لا . الشغل واجب الآن . وعندي قهوة .

- دخنت علبة كاملة .

- اتركيني الآن .

- ماذا حدث ؟ نحن خائفون . طلبوك مثل جارنا ؟

- لا شيء ، لا شيء . اتركيني الآن .

بعد ساعتين ، انتهى . أطبق العدد الأخير ببطء شديد وأعاده إلى مكانه . ليس هناك خطأ . ليس هناك أي خطأ . استلقى بجذعه على الطاولة ، أسند رأسه على كومة مجلات ، وأغمض عينيه . لكنه لم يسترح . لو كان هناك خطأ ، لعرف كيف يتدبر أمره . إنه سيد الكلمات ، ويستطيع أن يزحلقها على قوس قزح ، فيسل براءته كما تسل الشعرة من العجين . أمام عينيه المكدودتين المغمضتين ، امتد فراغ هائل مجهول : ما هي التهمة ؟ كيف يتلقاها وهو غير مستعد لها ؟ ستخونه الكلمات والمظاهر ، سيفر قوس قزح من ذهنه ، ويبقى الفراغ الهائل المجهول ، بل إنه فر منذ الآن . ما الذي يمكن أن يفعله المسئول الثقافي ؟ سيسرحه من عمله ، أم يسلمه لمسئول من نوع



آخر؟ صحيح أنه (هو) وأنه لايحضر في أي مناسبة، لكن كل مناسبة حاضرة في ذهنه. وماذا بوسعه أن يفعل، وهو يمتلك ذهنا؟ يغيب عن المناسبات فتحضر إليه؟ هل قال كلاما؟ هل مزح مزحة؟ هل استمع لمن قال كلاما أو مزح مزحة؟

عندئذ بدأ ذهنه يفتح أياما وأسابيع وشهورا، لقاءات واجتماعات ومناقشات. لابد أن شيئا ما قد وصل إليهم. حاول أن يتذكر. لم يتذكر. لقد تطور العالم. لم يعد للصمت والابتسامة أن يحصّنا السريرة ضد أدوات اكتشافها. صحيح أنه اشتهر بالدماثة، لفظا وملبسا، وبوسعه أن يأتي باللفظة المناسبة واللون المناسب. لكن العالم تطور. لم تعد أسرار النفس قادرة على الاختفاء. الانسان لا أسرار له. الأسرار تقبع في مكان آخر. في حرب معلنة، في صفقة سياسية، في بيع اليورانيوم لجنوب افريقيا، أو في المساعدات الامريكية.. (هو) لا أسرار له.

أيمكن أن يكون زميله في الغرفة؟ جيرانه الذين يدعونه للرد على الهاتف؟ أحد أصدقائه؟ أحد ما ممن يدخلون بيته؟

لأنه لم يعثر على جواب تضاعف خوفه. تماما كما حدث لجاره: بعد المدير، مسئول من نوع آخر. هاهي المناسبة تحضر إليه، على الرغم من غيابه المؤبد. في هذه الغرفة المعزولة عن العالم، الموصدة الباب، المغلقة النوافذ، الصامتة صمت القبور، الموحشة وحشة الفلوات، التي نجت من التجربة لأنها تفادتها وسط هذه الغرفة، يضطجع (هو) داخل فراغ هائل مجهول، متهما بما لا يعرف، مطلوبا للحضور على الرغم من غيابه.

لماذا غاب إذن؟

طالما أن النتيجة واحدة، لماذا قبل أن يغيب؟ لماذا آثر أن يغيب؟ كان أفضل ألف مرة لو أنه اتهم بفعل قام به، بدلا من وشاية حقيرة. لو أنه قال عبارة فقط. لو كتب سطرا. تدخل زوجه للمرة الرابعة، بطنها المنتفخ أولا.

ـ اتصلوا بك. ـ من؟

ـ المسئول الثقافي؟ قال لتذهب إليه غدا.

إذن: ليس في الأمر مجال للالتباس. وهم يريدون اتلاف أعصابه أولا. وإلا لكانوا أرسلوا من يسله خارج الغرفة كما تسل الشعرة من العجين. يريدونه جاهزا لاعتراف فوري، ربما لأنهم يضنون عليه بالوقت. أجل، هناك الحروب، المؤتمرات السرية، بركان الغلاء، ألف مسألة تاريخية ومسألة. و(هو) ليس تاريخيا.

لم يبد مقاومة عندما أمسكت يدا زوجه بزنده. تبع إشارة اليدين الصامتة. تجرجر نحو غرفة النوم. قبل أن يغفو اندلع من منزل مجاور صوت مذيع يقرأ نشرة الأخبار بخطورة رصينة. بعد ثوان غلب الصوت. حضر الصمت للظلمة. خمس قارات، خمسة محيطات، خمسة آلاف سنة من الحضارة.

في العاشرة صباحا، خرج (هو) من البيت، عازما على لقاء رئيس التحرير وطلب المساعدة. مقاطع الدرج بدت له أشبه بكتل الطباعة على أوراق المجلة، وكل درجة سطرا، إلا أنها منحدرة. ضغط على صدغيه باصبعيه ثم مسح بيده على شعره. عند الباب لم يتبين السيارة الجاثمة بحذاء الرصيف. لكنه اضطر

إلى رؤيتها ، إذ خرج من بابها الأمامي الأيمن شاب يرتدي الخاكي وعلى ردفه الأيمن انتفاخ معروف . ثم رأى السيارة السوداء ، وبابها الخلفي الأيمن المفتوح تماما ، وزجاجها الخلفي المستور من الداخل بستارة بنفسجية .

- صباح الخير ، أستاذ . - أهلا .

- نحن بانتظارك . - أنا جاهز .

ودلف إلى السيارة كأنه يمشي في نومه . دفع لابس الخاكي الباب بقوة فدوى صوت انغلاقه في أذني (هو) . كذلك أغلق الباب الأمامي . ونخر محرك السيارة نخير قط نائم . وانطلق الركب .

على الرغم من انقضاء سنوات ، لم يفهم (هو) لماذا حدث كل ذلك . كان كل شيء دقيقا وواضحا ، وأبعد مايكون عن المصادفة . لقد اقتيد إلى هناك بتلك الدماثة الزلقة والتكريم المريب اللذين يسبقان اعلانا صاعقا لنبأ قاتل . وعندما دخل المبنى لم يكن ثمة مايشير إلى أنهم ينتظرونه ، لكنه كان قد تضاءل . وعندما دخل المكتب ، شاهد على وجه المسئول الثقافي ابتسامة هائلة مجهولة ، وشاهده ينهض عن كرسيه ويدور إلى اليمين ويرحب به .

مازال يحاول أن يفهم . بالطبع كان الأمر كله حبكة محكمة البناء . فإذا استرخى على مقعد السيارة ، وشعر أنه راح يتضاءل ، كانت أمنيته الوحيدة أن تتاح له الحرية مدة عشرين ثانية كي يبكي . غير أن هذا لم يحدث . وبدلا منه ، راحت عينا السائق تنظران في المرآة فتصطادان عينيه . وبعدها وجد نفسه في المكتب . شاهد الابتسامة الهائلة المجهولة ، وجسد المسئول الثقافي يتحرك عن الكرسي وحول الطاولة ليرحب به ، ليصافحه بتلك الابتسامة الهائلة المجهولة ، ويجلس على أريكة بجوار أريكته .

يتذكر أنه في ذلك الصباح ، عندما ارتمى على مقعد السيارة وهو لا يحس حتى بجسده ، تلاشى خوفه تماما . وعندما عبرت به السيارة الشوارع المكتظة الصاخبة ، ونشرات الأخبار والأغاني ، وحرارة الشمس ، أدرك أنه لم يبق منه شيء عدا كونه على قيد الحياة . وكان المبنى هائلا ومجهولا ، أبكم محايدا . وكان (هو) ضئيلا . لم يكن فيه ما يشير إلى أنهم ينتظرونه .

طبعا . لقد اتخذ القرار ، والمسألة مسألة وقت . الموضوع منته . وهناك أشياء أهم يجب الالتفات إليها : الحروب ، والمؤتمرات ، والصفقات . لم يلتفت إليه أحد . وكان خوفه قد تلاشى تماما ، وحل محله انتظار بلا قلق ، انتظار انسان يتوقع الأسوأ سوى انه لا يعرف ماهو . وبعد ذلك صافحه المسئول الثقافي ، وجلس على أريكة بحذاء أريكته . سأله عن أحواله وأطفاله ، عن المجلة والعمل الصحفي ، وحرية الأدب وراحة الأديب . وأشار تلميحا إلى التقدير الخاص الذي يكنه لـ (هو) . وكان (هو) قد عرف أنه صار نقطة . وكانت الكلمات تدور ، والغرفة تدور ، والعالم يدور . وكان (هو) ممسكا بقشة جعلته يطفو على الموج : سيقبل بأي شيء ، لن يحاول الدفاع عن نفسه .

بعد ذلك اللقاء ، قال لزميله وهو يحرك يديه الطليقتين في الهواء ، وابتسامة الظفر والطمأنينة تتدفق من وجهه إلى كلماته :

- هه ! أتدري ماذا يريد مني ؟ كان الأمر مختلفا تماما . لقد طلب مني أن أصير نائبا لرئيس التحرير . □

* عندما نفكر بالغايات يجب أن لا نتجاهل الوسائل. (نهرو)

الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوي

الايدز فحوص جديدة وسريعة لتشخيصه

ما أكثر الأخبار التي تردنا عن مرض الأيدز ، إذ لا يكاد أن يمضي يوم حتى نقرأ في إحدى الصحف أو المجلات العلمية أو غير العلمية خبرا عن مخاطر الأيدز أو عدد المصابين به ، أو الأبحاث الجارية في سبيل العثور على لقاح أو علاج ضده . ولو كنا ننقل إلى قرائنا كل ما يصلنا عن الأيدز ، لما اتسع هذا الباب لأي موضوع آخر غير هذا المرض الخطير، من هنا كان حرصنا على ألا ننشر من تلك الأخبار إلا المهم بل الأهم الذي لا يجوز للعربي أن تغفل عن التحدث عنه دون تأخير .

من المعروف أن الفحوص التي تجرى للأفراد لمعرفة ما إذا كانوا مصابين بمرض الأيدز(نقص المناعة المكتسبة) قد انتشرت في شتى البلدان ، ومن المعروف أيضا أن هذه الفحوص التي تقوم على تحليل الدم ليست فورية ، بل إنها قد تستغرق أسابيع ، وقد تمتد شهورا قبل استكمالها ، والتوصل إلى نتائجها النهائية ، أضف إلى ذلك أن هذه الفحوص التي اعتمدت حتى الآن لم تبلغ من الضبط والدقة ما يستوجبه تشخيص المرض الذي يعد التهديد الأول للبشرية ، ولعل المختبرات التي تستطيع إجراء التحليل المطلوب بالدقة قليلة في العالم إن لم نقل نادرة .

لا عجب إذن إن انصبت جهود العلماء على البحث عن أسلوب جديد لفحوص مرض الأيدز وتحاليله ، أسلوب يتميز بالضبط والدقة بقدر تميزه بالسرعة التي تجرى بها تلك الفحوص والتحاليل . ولو ذكرنا جموع العلماء المتفرغين لشتى الأبحاث المتصلة بهذا المرض لا في أمريكا وفرنسا فحسب ، ولكن في اليابان وألمانيا والسويد والاتحاد السوفيتي وغيرها أيضا ، لو ذكرنا أعدادهم الكبيرة لما استغربنا النجاح الذي أصابوه في ابتكار الأسلوب الجديد .

يختلف الأسلوب الجديد عن الأسلوب القديم في أنه لا يبحث عما في الدم من أجسام مضادة لفيروس الأيدز ، كما يفعل الأسلوب القديم ، وإنما عن فيروس الأيدز نفسه (HIV) ، وهو يفعل ذلك عن طريق التعرف إلى أجزاء من جينات الفيروس ، سواء أكانت جينات دم،أم جينات خلايا تهديه إلى

الفيروس نفسه في غضون أيام أو ساعات إذا كانت الإصابة بالمرض إصابة عدوى .

وليس معنى هذا أن الأسلوب الجديد لا يجدي في الحالات التي تكون فيها الإصابة مترتبة على أسباب أخرى غير معروفة والتي يبقى فيها مرض الأيدز كامنا ، فهو أسلوب فعّال في هذه الحالات أيضا .

أمّا كيف تتم الهداية ، وكيف يتعرف المحلل على الفيروس من أجزاء جيناته ، فهذا ما لم توضحه المراجع ، ذلك أن الأسلوب الجديد في تشخيص مرض الأيدز ليس من ابتكار هيئات أو مؤسسات حكومية وإنما هو حصيلة الجهود التي بذلتها مختبرات خاصة (أو تجارية) في كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية .

والظاهر أن موافقة وكالة الغذاء والدواء على الأسلوب الجديد باتت في حكم المؤكد وقد لا يتأخر صدورها عن شهرين أو ثلاثة .

■■□□

تحويل القاذورات إلى ماس

بذل علماء الكيمياء في القرون الوسطى جهودا جبارة مضنية في البحث عن الإكسير بلا طائل ، وظل احتمال تحويل الرصاص وما إليه من معادن رخيصة إلى ذهب احتمالا خياليا بعيد المنال ، ولا يعزى ذلك إلى استحالة التحويل المنشود من حيث المبدأ ، وانما إلى تعذر تطبيقه عمليا فالتقنية المتاحة لعلماء القرون الوسطى لم تبلغ من التقدم والرقي ما يمكنها من تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب ، بتكاليف معقولة أو غير باهظة ، وليس أدل على إمكانية إجراء هذا التحويل علميا - من حيث المبدأ - من إقبال عدد من كبار علماء العصور الحديثة على الأخذ به ، وعلى رأسهم « اسحق نيوتن » . وليس أدل على أن « العقبة الكأداء » التي كانت تحول دون هذا التحويل إنما هي التقنية المتخلفة . لا عجب إذن وقد أحرزت التقنية تقدما مذهلا أن أصبح التحويل من رصاص إلى ذهب وما إلى ذلك ممكنا ، إن لم نقل ، سهل المنال .

وحسبنا الإشارة إلى أن مختبر الأبحاث التابع للبحرية الأمريكية نجح في استخراج الماس من قاذورات البواليع .

فما دام الماس قوامه كربون متبلور « Crystalline Form Of Carbon » وما دام هذا التبلور نتيجة تعرض الأجسام الصلبة العضوية (وهي تحتوي على كربون) لضغوط هائلة وحرارة كبيرة كان في إمكان المختبر المذكور الحصول على الماس دون صعوبة تذكر ، ذلك أن أحد المصانع التابع للمختبر يولّد يوميا ٦٥٠,٠٠٠ قدم مكعب من غاز الميثان (CH_4) .



وتعاقبت التجارب في المختبر حتى حدثت التجربة الحاسمة التي أجراها العالم الكيميائي « جيمس تايلور » ، فقد مرر الغاز المذكور فوق شعيرة أو خيط (Filament) عالية السخونة (لاتقل درجة حرارتها عن ٤٠٠٠ درجة

فهرنهيتية) ، وإذا بغشاء من الماس يظهر بوضوح وتراه العين المجردة .

وتعليل ذلك ، هو أن الحرارة العالية حطمت ذرات الكربون ، بل عزلتها عما سواها مما تحتويه بنية غاز الميثان ، ثم سمحت لتلك الذرات بالترسب طبقة فوق طبقة في أنماط بلورية كريستالية .

ولعل في الصورة المرافقة لهذا الكلام دليلا أقوى على ما نذهب إليه ، إلاّ أنها ليست في أمريكا بل إنها تنقلنا إلى اليابان وإلى إحدى مدارسها الإعدادية ، مدرسة تشيبا هيغاشي في محافظة شيبا على وجه التحديد ، وتمثل طالبين من طلاب تلك المدرسة ، وقد نجحا باشراف المدرس في تحويل بعض المواد الرخيصة إلى ماس ترسب في القارورة التي يشير إليها المدرس ، وليست ميزة هذه التجربة اليابانية في كون أن اللذين أجرياها من طلاب المدارس الإعدادية فحسب ، بل لكون التجربة قد أجريت في أوان مخبرية بدائية ، دون الحاجة إلى ضغوط عالية أو حرارة كبيرة .

على أن الماس الذي تمخضت عنه هذه التجارب كلها أمريكية كانت أم يابانية ، صغيرة الحجم ، ولا تمكن من صنع المجوهرات أبدا ، فهو ماس صناعي تحتاجه ، ولا تستغني عنه صناعات كثيرة مختلفة .

■■□□

حذار من سجاد «الماكيت»

شهدت إحدى المدن السويسرية مؤخرا مؤتمرا دوليا حول أمراض الحساسية (Allergy) ، وقد ركز بعض المحاضرين على مرض الربو (Qsthma) وعلى تزايد الإصابة به تزايدا كبيرا في السنوات الأخيرة ، وذهب البروفسور « توماس بلات ملز » (Platt — Mills) أحد كبار المتخصصين العالميين في مرض الربو ، أن تلك الزيادة المتفاقمة إنما تعزى إلى أسلوب الحياة الجديد في المنازل العصرية الحديثة ، بل إلى السجاد المثبت (الماكيت) على وجه التحديد ، ذلك أن هذا السجاد هو بمثابة المأوى المثالي للسوس أو العث المنزلي ، ولايخفى أن هذا العث هو السبب الأكثر شيوعا في إثارة الربو .

ولم يدع البروفسور إلى الامتناع عن استعمال السجاد السالف الذكر بقدر ما دعا إلى تهوية جو المنازل ، وتغيير هوائها بانتظام . وتهكم البروفسور من القوانين الأمريكية التي تضمن للحيوانات تغيير هواء الزرائب ١٠ مرات في الساعة والتي لا تبالي بتغيير هواء المنازل التي يعيش فيها الناس .



وأشار إلى المكانس « الشافطة » ، وأكد على أنها قد تساعد على الحد من انتشار العث المنزلي في الجو وفي الغبار العالق فيه ، وذلك في الحالات التي تكون فيها مكنسة وغسالة في آن معا ، لكنها ليست فعّالة بالقدر الكافي .

ثم اقترح تنظيف السجاد في بيوت المصابين بالربو بالنيتروجين السائل وذلك من قبل شركات متخصصة تؤسس لهذا الغرض . □

سلامة البشرية في سلامة البيئة

بلجيكا تكرم زيت الزيتون

ظهر مركز علمي متخصص في زيت الزيتون ، في بروكسل عاصمة بلجيكا في أواخر السنة الماضية لتقديم المعلومات الخاصة بزيت الزيتون ومنافعه إلى كل من يطلبها ، وقد نشرت هذا الخبر مجلة جنرال براكتشنر (General Practitioner) .

ذلك أن زيت الزيتون ذو فوائد كثيرة ، فهو يضمن الحد من النوبات القلبية بنسبة لا يستهان بها ، وقد اشتهرت الشعوب التي تقبل على استعماله للطهي بدلا من السمن الحيواني (الشحوم المشبعة) بقلة تعرضها لأمراض القلب نسبيا ، وإن كان لهذه الظاهرة أسباب أخرى بالاضافة إلى زيت الزيتون كالمناخ الدافيء الذي تعيش فيه تلك الشعوب .

وكانت فوائد زيت الزيتون موضع مدح وتقريظ في مؤتمر عقد في باريس مؤخرا ، وكان في طليعة الدعاة المتحمسين لزيت الزيتون في المؤتمر الدكتور « توم ساندرز » خبير الدهنيات في جامعة لندن (كنجز كولج) .

على أن هذه الحماسة لم تلق حتى الآن اجماعا لدى الأطباء ، فالكثيرون منهم ما زالوا يرون في زيت عباد الشمس البديل المفضل ، فهو أرخص ثمنا وأقرب منالا (في أوربا) وأبعد أثرا في تخفيض نسبة الكوليسترول (Seram Cholest) في الدم .

■■□□

المحاكم تغرم شركات التدخين

تشهد الدول المتقدمة عامة ، والولايات المتحدة خاصة ثورة عارمة ضد التدخين ، وقد اتخذت هذه الثورة شكل الحصار الاجتماعي ضد المدخن ، بحيث يشعر بأنه مضطهد ، واتخذت شكل الحرب غير المعلنة ضد شركات التبغ ، فهذه هي أصل البلاء في نظر الكثيرين ، إذ لا يعنيها إلا جمع المال ، ولو أدى ذلك إلى الفتك بصحة المواطنين ، وما زالت تجني الأرباح وتكدس الأموال حتى أصبحت في طليعة الشركات العالمية دخلا وازدهارا .

والظاهر أن الحرب ضد هذه الشركات العملاقة قد أصبحت حربا سافرة معلنة في المدة الأخيرة ، فقد بدأت المحاكم - في الولايات المتحدة الأمريكية - تدين شركات التبغ وتعدها مسؤولة عن الأضرار التي يتعرض لها المدخنون أو ذووهم وكأن تلك الشركات قد ارتكبت ذنبا أو جناية تستحق العقوبة .

ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى في الدعوى التي أقامها المدعو (انطونيو سيبولونه) على مجموعة من شركات التبغ الكبيرة ، فقد أدمنت زوجته التدخين فأصيبت بسرطان الرئة وماتت ولم تبلغ الستين .

ونظرت محاكم « نيوجرسي » في هذه القضية ، كما نظرت محاكم أخرى في قضايا مشابهة على مدى السنين الماضية .

لكن محاكم « نيوجرسي » أصدرت حكمها في قضية « سيبولونه » خلافا لسائر المحاكم التي لم تجد في قضايا شبيهة ما يبرر إصدار حكم فيها .

كان ذلك في شهر يونية (١٩٨٨) حين حكم القاضي لانطونيو سيبولونه بغرامة نقدية بلغت نحو نصف مليون دولار (بالضبط ٤٠٠,٠٠٠ دولار) فقد عدّ الشركة التي تصنع هذا التبغ مذنبة لأنها صنعت السجاير التي كانت تدخنها زوجة « سيبولونه » والتي سببت إصابتها بالسرطان وأدت ولو بطريق غير مباشر إلى موتها .

وعدّ القاضي تلك الشركات مسؤولة عما حدث ، فألزمها بدفع الغرامة التي لا يستهان بها ، والتي لا يمكن بحال من الأحوال أن تعوض الزوج عن فقدان زوجته .

■■□□

تضليل النحل القتال

تحدثنا في أعداد سابقة عن النحل القتّال ، وعن اقترابه من أراضي الولايات المتحدة ، فقد لا يتأخر وصوله إليها - لا سيما ولايات الجنوب - عن السنة الحالية ١٩٨٩ .

وفكّر العلماء فيما عساهم أن يفعلوا لكي يتجنبوا الأذى الذي يمكن أن يلحقه بهم هذا النحل ، فلم يجدوا خيرا من العمل على تغيير مسار هذا النحل بحيث تتجه أسرابه إلى جهات غير الولايات المتحدة ، لكن هل يمكن إحداث مثل هذا التغيير؟ وما السبيل إلى ذلك ؟

تعاون العلماء على ابتكار جهاز صغير للارسال يعمل بالطاقة الشمسية ، ووفق « كمبيوتر » صغير أيضا على أن يثبت الجهاز على ظهور ملكات النحل القاتل ، ولا يلبث الجهاز أن يبث الرسالة التي برمج من أجلها ، وقد صيغت باللغة التي يفهمها النحل ، أما فحوى الرسالة فالتأكيد على ضرورة عدم التوقف في الولايات المتحدة ، والاتجاه شمالا عبر حدودها الشمالية إلى الأصقاع والمحيطات المتجمدة ، حيث يتصدى البرد القارس لأسراب النحل فيبددها ويغلبها على أمرها وينقذ العباد من شرها .



والظاهر أن العلماء مقتنعون بفاعلية هذا الجهاز بعد التجارب العملية العديدة التي أجروها له . □

بلغاريا

عيد للورود وشواطئ مفتوحة للشمس والناس



استطلاع : ريم الكيلاني

تصـوير : صلاح آدم



وأنت تستقبل صباحك الأول في صوفيا ،

وتتابع شمس البلقان وهي تبدد بضوئها غيوم الليل وظلامه ،

وتنقل خطواتك الأولى في شوارع صوفيا القديمة

تشعر وكأنك على موعد مع مكان وزمان من نوع خاص ،

مكان تزهو فيه الطبيعة ، وزمان يحكي فيه التاريخ قصة عريقة .

من كل بقاع الأرض جاءت وفود السلام يشاركون في مهرجان راية السلام ، أطفال من أكثر من مائة دولة اجتمعوا فوق أرض صوفيا رافعين أيديهم للعالم . يلحون في طلب السلام والاستقرار والحب والتفاهم بين جميع الشعوب ، وقد بلغ نجاح هذا المهرجان الذي ينظم كل ثلاث سنوات ذروة عالية ، حتى أنه بدأ يجذب الناس إليه من كل مكان ، ليشاركوا الأطفال احتفالاتهم ويقدموا لهم الدعم الكفيل بإيصال رسالتهم إلى كل العالم .

وكانت الدعوة التي وصلتنا من «الهيئة العامة لمهرجان راية السلام» لمتابعة هذا المهرجان هي مدخلنا لزيارة بلغاريا .

صوفيا القديمة

يقول البلغاريون إنهم يستطيعون مشاهدة كل شيء يحدث في رومانيا وذلك بسبب ارتفاع ضفة نهر الدانوب جهة بلغاريا بمعدل ١٦٥ مترا عن الضفة الأخرى للنهر جهة رومانيا ، وبلغاريا بحكم موقعها في الجزء الشرقي من شبه جزيرة البلقان فإنها تتقابل مع رومانيا في الحدود الشمالية ، ومع الحدود اليوغسلافية من جهة الغرب ، ومع اليونان وتركيا من الجنوب ، أما حدودها الشرقية فتطل على البحر الأسود .

وتتكون صوفيا من جزأين ؛ الأول يمثل صوفيا القديمة بمظهرها الشرقي الذي يتجسد في المنازل المنخفضة ذات الطراز المعماري الاسلامي ، والشوارع المتعرجة . ويقطن هذا الجزء من العاصمة عدد كبير من الأتراك يشكلون حوالي ٦٪ من مجموع السكان .

كما انتشرت في هذا الجزء من العاصمة المتاحف التاريخية والعصرية وأضرحة الأبطال الذين استشهدوا في الحروب التي خاضوها لتحرير بلغاريا إلى جانب الكنائس القديمة ، وتعد كنيسة القديس جورج من أقدم المباني في العاصمة البلغارية ، وقد كانت في الأصل مبنى رومانياً ثم تحولت في القرن الخامس عشر إلى كنيسة ، كذلك هناك مسجد بناه الأتراك إلى جانب أطلال القلاع والمباني القديمة التي هي اليوم متاحف أثرية تحكي تاريخ الشعب البلغاري وقصة نضاله ، ويزورها السياح من كل بقاع الأرض .

أما الجزء الثاني فيمثل صوفيا الحديثة بمبانيها الشاهقة ، وشوارعها الواسعة ، وحدائقها الضخمة ، حتى بدا لنا منظر المباني القديمة مع الغابة الضخمة التي تحيط بها والمليئة بأشجار الأرز والصنوبر - تمتد حولها صوفيا الحديثة بطابعها العصري - لوحة فنية أُبدِعَ رسمها ونحتها وطلاؤها .



ولعلك تستغرب حين تعلم أن صوفيا غيرت اسمها ثلاث مرات ، فهى في القرن الأول كانت « سـرديكـا » ، ثـم « تـريـادنـزا » في عهـد الامبراطورية البيزنطية ، وأخيراً « صوفيا » حين بدأت تعرف بعاصمة بلغاريا ، وذلك في القرن الرابع عشر الميلادي .

كنز التاريخ

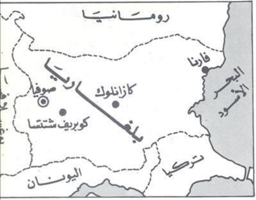
في صوفيا ، هناك الكثير من الآثار والأماكن التاريخية التي تستحق منك زيارات قصيرة ، ولكنك بلا شك ستقف طويلا عند المكتبة الوطنية مشدوهاً وأنت ترى كنزاً حقيقياً لحضارات الشعوب وثقافاتها وذلك بما تضمه من مخطوطات عربية وتركية وعثمانية ، وأخرى فارسية شديدة الأهمية .

وترتبط معظم الكتب العربية التي وجدت هناك بالدين الاسلامي والحقوق واللغة العربية والفلسفة عند العرب ، وتعد مخطوطة كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » للعالم الجغرافي العربي - في القرن الثاني عشر - أبي عبدالله بن محمد الإدريسي ، من أثمن المخطوطات التي وجدت في هذه المكتبة . وتحتوي على شواهد أخرى لمؤلفين آخرين للأدب العربي مثل كتاب « فضائل الشام » لبرهان الدين الفزاري و « الخلفاء » للسيوطي ، وكتاب « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » للمقريزي .

وقد وضعت مجموعة هذه الكتب والمخطوطات في قاعة واسعة مناسبة من حيث نسبة الرطوبة ودرجة الحرارة ، كما يقوم مختبر تابع للمكتبة بحفظ وترميم هذه الكتب الثمينة للحفاظ عليها من التلف والتآكل .

مدينة من وحي الماضي

لعل وجود المتاحف والآثار التاريخية التي تحكي تاريخ الأمة أمر طبيعي لايثير الدهشة ،



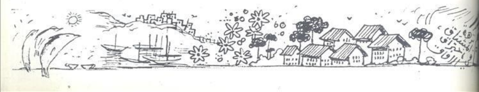
● خريطة بلغاريا

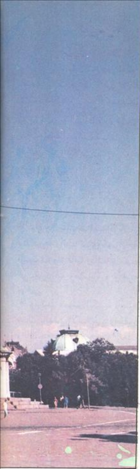
ولكن ماذا لو علمت أن في بلغاريا ، وعلى بُعد مائة وعشرين كلم من العاصمة ، مدينة مازال أهلها يعيشون حياتهم القديمة بعاداتهم وتقاليدهم ومساكنهم ، وكأنهم مازالوا يحيون حياة الأجداد ؟ فما كادت قدماى تطآن أرض « كوبريف شتيتسا » حتى شعرت أنني أعيش في القرن التاسع عشر .

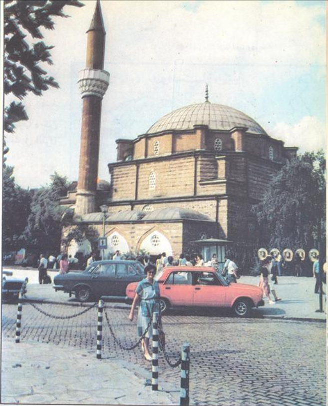
إنه عالم جديد بالنسبة لنا ، ولكنه جميل ، وأجمل ما فيه احتفاظه وتمسكه الشديد برونق الماضي وتاريخ القدماء .

البيوت جميعها خشبية تكثر فيها النوافذ والشرفات ، سقوفها مغطاة بالقرميد ، أما طلاء البيوت فكان باللونين الأبيض والأزرق اللذين يعبران عن الحرية والاستقلال حسب مايعتقد البلغار ، وقد روعى في البناء ملاءمته للصقيع الذي يدق أبواب كوبريف شتيتسا في فصل الشتاء .

أما البوابات الخارجية فتصنع من الخشب الثقيل ، كما نحتت أسماء أصحاب البيوت والمحلات التجارية على لوحات خشبية .









● الى اليمين (أعلى) أقدم مسجد بناه الأتراك المسلمون في صوفيا ، ومايزال قائما حتى اليوم (أسفل) قصر الثقافة في صوفيا ، أحد أضخم المباني في بلغاريا وأحدثها ، الى اليسار (أعلى) كنيسة القديس جورج (أسفل) المتحف الفني ويضم مجموعة لأثمن اللوحات الفنية وأندرها . الفن الشعبي البلغاري كما يؤديه أطفال بلغاريا .





كانت المفاجأة الحقيقية تكمن في شكل هذه البيوت وتنظيمها من الداخل ، إذ ماكدنا نجتاز البوابات ذات المظهر التقليدي حتى فوجئنا بأن البيوت من الداخل عصرية تماما ، سواء في طراز الأثاث أو الثياب أو أدوات المنزل أو وسائل الحياة الحديثة فيها .

ولاعتبارها منطقة ذات أهمية تاريخية فقد آثرت الحكومة البلغارية المحافظة عليها وعلى طرازها القديم ، ليبقى ذكرى للأجيال القادمة حتى لايغفلوا ماضيهم ففرضت على المواطنين بناء بيوت حديثة بشرط التقيد بالقالب القديم لشكل البيت من الخارج .

لكن السؤال الذي يلح في ذهني لم اختيرت هذه المدينة دون غيرها لتكون المدينة النموذجية لبلغاريا القديمة ؟ .

مرج النساء

يذكر الأهالي أن لهذه المدينة تاريخاً حافلاً ، فمنها انطلقت أول انتفاضة شعبية بلغارية عام ١٨٧٦ وطالبت بالاستقلال عن الحكم التركي ، وقد عمت أخبار هذه الثورة كل قرى جبال البلقان ، ولكن الانتفاضة قمعت بالقوة ومع ذلك فقد حصلت بلغاريا على الاستقلال عام ١٨٧٨ م أي بعد عامين من هذه الانتفاضة .

أسست كوبريف شتيتسا في القرن السادس عشر الميلادي ، وهي تعني مرج النساء ، ومن هذا المرج خرجت امرأة فائقة الجمال والفتنة ، نجحت في اقناع السلطان العثماني بإعطاء امتيازات وتسهيلات خاصة لهذه المدينة وسكانها لتيسير أمور تجارتهم وتنقلهم من مدينة إلى مدينة ، وتقع في منطقة جبلية رعوية لاتصلح للزراعة لذا ارتبط أهلها ارتباطا شديدا بحرفة الرعي وبالصناعات القائمة عليها كصناعة العربات والعباءات والأحذية والجوارب والبسط والسجاد . وقد كان أهالي كوبريف شتيتسا تجارا منذ القدم يجوبون بصناعاتهم في كل عام آسيا الصغرى ومصر والحبشة لترويجها وبيعها ، ولعل ماشاهدناه في بيوت أحد التجار القدامى الذي تحول إلى متحف خير دليل على ذلك ، فلقد علق في البيت المتحف صورا ومجسمات للقدس الشريف ، ولوحات قرآنية كتبت بماء الذهب ، وهذا يؤكد تجوالهم الكثير ووصولهم إلى فلسطين وغيرها من الأقطار العربية ، وهذا يؤكد حبهم للتجارة وإلى أي مدى وصلوا في تجارتهم . وتعد كوبريف شتيتسا محمية معمارية تاريخية يقصدها السياح من كل أرجاء العالم للتمتع بمنظر البيوت القديمة الحديثة التي تحولت معظمها إلى متاحف شديدة الثراء .

وادي الورد

أكملنا الطريق الجبلي المكسو بالأشجار الكثيفة الخضراء ، وقد صفت بطريقة هندسية رائعة . . وكانت الشمس وقت المغيب تعكس بلونها الأرجواني صورة رائعة أبدعها الخالق .

كنا نقصد مدينة « كازانلوك » أو وادي الزهور كما يسميه البلغاريون ، ولكننا آثرنا المبيت في قرية صغيرة على أن نكمل الرحلة في اليوم التالي فالطريق جبلي ، والسير به ليلا فيه نوع من المخاطرة .

ومع أول شعاع نور تحركت القافلة إلى كازانلوك بعد قطع مايزيد عن ١٧٠ كلم من كوبريف شتيتسا ، كان عبق الزهور يملأ المكان منذ دخلنا إلى كازانلوك ومازال عطره الفواح يرافقنا ويزداد شدة كلما اقتربنا من الوادي وهو عبارة عن اقليم متموج السطح يمتد مابين جبال البلقان في الشمال وجبال رودوب في الجنوب ، مما يجعله منطقة تخلو تماما من البرد القارس الذي يصيب الأجزاء الشمالية في بلغاريا خلال الشتاء



كما يجعل الوادي المنطقة الأنسب لزراعة الورد .

تزرع الورود في شهر فبراير من كل عام ، حيث لاتزيد درجة الحرارة في الوادي آنذاك عن ١٠° م ، كما ترتفع نسبة الرطوبة في شهري نيسان وأيار (ابريل ومايو) ، أما التربة فخصبة قليلة المسامية ، لاتسمح للرطوبة الشديدة بالتأثير سلباً على الورود وإلحاق الضرر بها . وبينما كنا نتأمل منظر الورد يغطي المرج بألوانه الجميلة المنسقة والزاهية بدأت تصل إلى آذاننا أهازيج شعبية وترنيمات غنائية جماعية ، اختلطت مع بعضها البعض ، فكانت تجسيداً حقيقياً للفرح والسعادة . اقتربت من مصدر هذه الموسيقا العذبة فوجدت جموعاً هائلة من أهل الاقليم بملابسهم الشعبية التقليدية يغنون للزهور ويحتفلون بعيدها ، ويرشون الشوارع والبيوت بماء الورد ، ويعيشون يوما ممتعا جميلا يختارون بعده ملكة جمال مدينة الزهور ، ليضيفوا بذلك وردة بشرية جميلة إلى هذه الورود العطرة .

كان الأولاد يحملون السلال والفتيات يقطفن هذه الورود ، ومع ابتسامة خفيفة يضعن الورد في السلال وكلهم يرددون الأغاني الشعبية التي توارثوها أبا عن جد ، لم أكن أفهم معنى كلمات الأغاني ولكنها بالتأكيد كانت تتحدث عن الحب كما بدا على وجوه الشباب ، كان الناس مايزالون يمارسون هرجهم ومرجهم حين تقدمت منا السيدة « يوليا ميخائلفا » الباحثة العلمية في معهد الأبحاث العلمية لزراعة وصناعة الورد والأدوية ، لتصحبنا معها إلى المعهد حيث متحف الورد والمختبر العلمي الذي تستخلص فيه الزيوت وتصنع الأدوية ، وهو يستقبل الطلاب لتدريبهم على عملية زراعة الزهور وقطفها وحمايتها ، وطرق المحافظة عليها ، كما يتدربون على العمليات المخبرية الأخرى التي تتعلق بصناعة زيت الورد .

عيد الورد

وكما أن للناس أعيادهم فللورد عيده أيضاً تقول السيدة يوليا : « في الأحد الأول من حزيران (يونيو) من كل عام تقام هذه الاحتفالات التي تعرف باسم احتفالات عيد الورد ، وتبدأ الاحتفالات مع بداية جمع الورود في الساعة الرابعة فجرا ، وتستمر عملية الجمع حتى العاشرة صباحا حيث أثبتت الدراسات العلمية والتجارب المتعددة أن الزيت الغني الموجود في الورود يبدأ في التبخر بعد الساعة العاشرة أي مع بداية توسط الشمس بالسماء .

ويعد زيت الورد من أندر الزيوت وأثمنها في العالم ، ولايوجد إلا في ورد الثلاثين الذي سمي بهذا الاسم لأن الوردة الواحدة تضم ثلاثين ورقة ، كما يزرع في الوادي الورد الدمشقي الذي جلبه تجار كوبريف شتيتسا معهم من بلاد الشام الى جانب الورد الأبيض حيث يستخرج منهما زيت العطر المستخدم في صناعة العطور .

وقد تم نقل الورد إلى بلغاريا عن طريق الدولة الفارسية قبل ثلاثمائة عام ، أي في حوالي القرن السابع عشر الميلادي ، ومن هذه الزهور يصنع أيضا شاي الورد وشراب الورد ، كما جرى مؤخرا صناعة دواء من الورد لإعادة بناء الخلايا » .

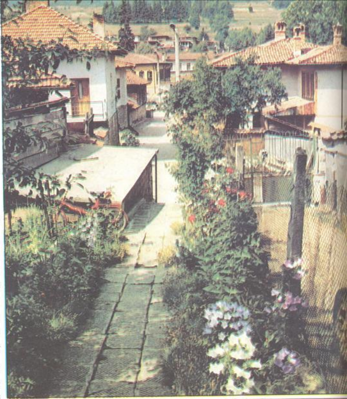
كان متحف الورد هو أول مازرناه في المعهد ، وهو يحكي قصة صناعة الورد في بلغاريا منذ القدم ، ويعرض مجموعة القدور النحاسية التي كان يجمع فيها الورد لاستخراج الزيت منه ، وأنابيب سحب الزيت وأدوات التبخير ، وزجاجات التعبئة ومازال المصنع يتبع في استخراج الزيوت الأسلوب القديم نفسه ، ولكن بحلة عصرية جديدة .











● الى اليمين (أعلى) المكتبة الوطنية في صوفيا ، الى اليسار (أعلى) كوبريف شتيتسا المدينة التي مازالت تعيش الماضي ، الى الأسفل ، سيدة من كوبريف شتيتسا تهذب أشجار بيتها ضمن برنامجها اليومي ، في الوسط : بيت الدلافين في فارنا (الى اليسار) مصنع زيت الورد في كازانلوك .



وتضيف السيدة يوليا : « لانتاج كيلوغرام واحد من زيت الورد نحتاج إلى ثلاثة أطنان من الورد أو إلى هكتار واحد من الأرض المزروعة بالورد . . وتعد بلغاريا من الدول الأولى لتصدير زيوت الورد إلى العالم ، ولعل فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا من أكثر الدول استيرادا لزيت الورد البلغاري ، أما ثمن الكيلو الواحد من زيت الورد فيبلغ ٥٠٠ دولار » .

ويحكي أهالي كازانلوك عن مدى اهتمامهم بهذه الورود حتى أصبحت بيوتهم وحقولهم محط أنظار كل المهتمين بزراعة الورد ورعايته ، وقد قامت إدارة المعهد بجمع أفضل أنواع الورد وتوزيعها بين الناس لزراعتها بشكل أفضل وأوسع ، خاصة بعد التوسع في الأبحاث التي أقيمت على هذه المجموعة . وتعد زهرة كازانلوك

كما تقول الباحثة يوليا من أفضل وأغلى أنواع الورد في العالم ، وهي تحتوي على زيت خاص يعرف باسم « زيت سترينول » ، كما تتبع إدارة المعهد برنامجاً عملياً خاصاً لمحاربة الآفات والحشرات التي قد تؤثر على نمو هذه الورود ، وهذا البرنامج معروف لدى جميع المزارعين ومتبع في الحقول والحدائق بدقة متناهية .

قرية الرياضيين

كان الناس يشكلون بألبستهم المزركشة وسط حقول الورد منظراً طبيعياً خلاباً زاده جمالا تلك الابتسامات الرقيقة التي لم تفارق شفاههم . تركنا كازانلوك ولم ننسَ أن نشتري زيت الورد من هناك وعدنا ادراجنا إلى صوفيا العاصمة التي يزيد عدد زوارها من السياح عن سبعة ملايين سائح في العام الواحد .

وتنتظر صوفيا هذا العام ، وفي فصل الشتاء بالتحديد ، وعلى غير العادة جموعا أكبر من السياح قاصدين جبال فيتوشيا التي ترتفع حوالي ٢٢٧٠ م فوق سطح البحر ، وهي بارتفاعها الشاهق أشبه ببرج ضخم يحيط بالمدينة من كل جانب ليوفر لها الحماية والحراسة الكاملتين . وسوف تنظم مسابقات التزلج على الجليد وجميع أنواع الرياضة المرتبطة بالجليد ضمن دورة الألعاب الأولمبية الرابعة والعشرين ، وسوف تشارك فرق أكثر من ١٣٧ دولة في هذا المهرجان .

ولعل الامكانيات الكبيرة والاستعدادات الضخمة التي رصدت لمثل هذه المسابقات قد جعلت بلغاريا في مقدمة الدول المرشحة لهذه الرياضة . وكانت اللجنة المسئولة عن دورة الالعاب الأولمبية قد رشحت كذلك السويد والنرويج والولايات المتحدة الأمريكية لهذا الأمر ، وتستعد بلغاريا لاستقبال هذا الحشد الكبير من الرياضيين والمتسابقين والمتفرجين والصحفيين ، ببناء قرية كبيرة خاصة أطلقوا عليها اسم قرية الرياضيين . وستحتوي القرية على كل ما تحتاجه هذه الجموع من ملاعب ومطاعم وأماكن للتدريب إلى جانب غرف النوم وسبل التسلية والترفيه ، وبنجاح هذه الدورة ستكون بلغاريا هي الدولة المرشحة لاستضافة الدورة الأولمبية الخامسة والعشرين عام ١٩٩٤ .

خاص جدا

ليست صوفيا بمساحتها الشاسعة وتاريخها العريق هي المنطقة السياحية الوحيدة في بلغاريا ، فلمدينة « فارنا » أيضا خصوصية فريدة ، فهي بموقعها على البحر الأسود تجتذب إليها عددا كبيرا من السياح الذين جاءوا ينشدون متعة البحر والشمس .

انتقلنا إلى مدينة فارنا في رحلة برية بالحافلة



استغرقت ما يقارب ثماني ساعات ، قضيناها وعيوننا تحدق بالغابات الكثيفة ، وحقول الرعي الشاسعة ، وجموع الناس التي افترشت الأرض الخضراء لتقضي يوما سعيدا مع أطفالها في وسط الطبيعة الجميلة . لم نشعر بطول المسافة ولم ينتبنا ملل الطريق حتى بدأت رائحة البحر تملأ المكان وبدأت تظهر جموع الناس على الشاطىء تستمتع بشمس البلقان المشرقة ، ومياه البحر الأسود الدافئة .

مررنا بالشريط الساحلي الذي يزيد طوله على ٢٥ كلم وقد كسيت رماله الذهبية بالمظلات والمقاعد البحرية التي يشغلها عدد كبير من السائحين ، استرحنا دقائق قليلة في الفندق من عناء السفر ثم عدنا ثانية للسير ولكن على الأقدام . وقد اصطحبنا السيد « جورج اندجوف » مدير منطقة دروجبا السياحية في هذه الرحلة ليطلعنا على تاريخ السياحة في فارنا ، فقال محدثا :

« بدأت السياحة في بلغاريا مع بداية الستينيات ، وإن لم تكن تتوافر لدينا آنذاك الامكانيات المناسبة لاستقبال السياح من فنادق ومطاعم وامكانيات مادية أو بشرية لكننا بدأنا ـ تدريجيا ـ بتطوير الفنادق وانشاء قرى سياحية جديدة على مستوى عال من البناء المعماري والخدمات الفندقية المتطورة إلى جانب المكاتب السياحية التي انتشرت في الضواحي والقرى لتنظيم الرحلات السياحية للأماكن التاريخية للراغبين من السياح » .

وأثناء سيرنا شعرت بشيء يسير فوق رؤ وسنا وحين رفعت عيني مستطلعة شاهدت مجموعة من الفتيات والفتيان يركبون « التلفريك » الذي ينتقل بهم من أعلى الجبل حيث توجد بعض الفنادق والقرى الصغيرة إلى الشاطىء دون أن يضطروا لانتظار وسيلة مواصلات أخرى ، وبينما كنت أتابع « التلفريك » في رحلته القصيرة ، وجدت نفسي على الشاطىء بين جموع هائلة من الناس جاءوا للراحة والاستجمام ، فهذه مجموعة تمارس رياضة التزحلق على الماء وتلك أخرى تستمتع بمغامرة القفز بالمظلات في البحر ، بينما مضى آخرون في سباق لركوب العجلة البحرية ،

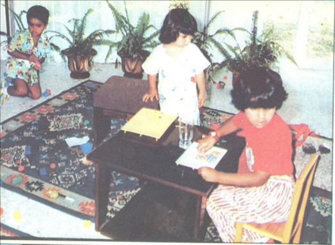
فيما فضل البعض القيام برحلات قصيرة وهادئة إلى شواطىء فارنا المجاورة وبقي الأطفال قابعين فوق الرمال الذهبية يبنون قصورهم الرملية وينتظرونها يوما بعد يوم لتعلو وتكبر .

رحلة جديدة

وللحظات راودتني فكرة أن متعة هؤلاء الناس هي الشاطىء والماء والشمس ، ولكني حين عدت ثانية لأسير بالطريق المحاذي للشاطىء كان رنين جرس القطار يصل الى آذاننا ، ينقل الناس عبر طريق طويل إلى الفنادق والمطاعم أو الملاهي بعد أن يكونوا قد أنهكوا تماما من الألعاب الرياضية المختلفة التي مارسوها منذ الصباح الباكر ، حتى أنهم قد فقدوا القدرة على السير ، وفي نهاية هذا الشارع نصبت ألعاب متعددة الأحجام والأغراض للأطفال والكبار ليكون اليوم كله يوما ممتعا شيقا . ومع بداية غروب الشمس . تبدأ جموع الناس رحلة العودة ثانية لفنادقهم استعدادا لرحلة أخرى ، ولكن من نوع جديد ، إنها رحلة العشاء والاستمتاع بالموسيقا الشعبية والرقص البلغاري التقليدي ، وربما المشاركة به أيضا ، يساعدهم في ذلك الجو المعتدل للمدينة حيث تتراوح درجة الحرارة بين ١٨ ـ ٢٥م° .

أعيانا السير وكنا قد وصلنا إلى مكتب السيد اندجوف الذي دعانا لدخول مكتبه لأخذ قسط





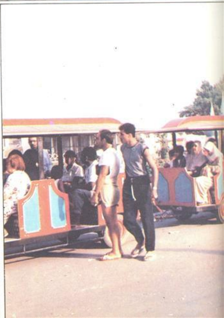




● حيث البحر والشمس ، ينتشر الناس في الشوارع وعلى الشواطيء ينشدون هدوء البحر ، وشمس البلقان المشرقة ، وتبدو في الصور القرية التي أنشئت للسياح العرب وتضم بيوتا جميلة يجد فيها السائح راحته ، الى جانب دار لحضانة الأطفال تضم الكثير من وسائل التسلية .







من الراحة وتناول القهوة البلغارية الشهيرة .

وعاد السيد اندجوف ليكمل حديثه الذي بدأه على الشاطىء : « لقد قمنا ضمن مشروعاتنا واهتماماتنا السياحية ببناء قرية خاصة للعرب راعينا فيها كل ما يخص عاداتهم وتقاليدهم ، وتحتوي هذه القرية على (٤١) دارا بنيت على مساحة تبلغ ٢٢٠ ألف م٢ بينما تبلغ مساحة الدار مع الحديقة المحيطة ١٥٠م٢ .

وقد قامت منذ ست سنوات شركة بناء سويسرية ببنائها بينما قامت الشركة العربية البلغارية للسياحة بتحويلها لمنطقة عربية بحيث يجد فيها السياح راحتهم وسط أناس يتفقون معهم في عاداتهم وتقاليدهم وأسلوب حياتهم »

انتهينا من تناول القهوة البلغارية الساخنة وتابعنا السير إلى القرية السياحية العربية التي لم تكن تبعد كثيرا عن مكتب السيد اندجوف ، شعرنا ونحن ندخل البوابة الرئيسية للقرية أننا وسط غابة كثيفة الأشجار امتلأت بأشجار التفاح والكمثرى وعرائش العنب التي ظللت المسبح الكبير الذي بني داخل هذه القرية ، وتعرفنا في القرية على عائلة السيد جاسم حسن من الكويت التي دعتنا لشرب القهوة العربية هذه المرة ، وقد كان الشاليه يضم غرفتي نوم وغرفة للمعيشة ، وأخرى للاستقبال إلى جانب المطبخ ودورة المياه كما يوجد في كل دار جهاز تلفاز وفيديو . وقد قال السيد جاسم : « جئنا إلى فارنا لننعم بمناخ جيد ومكان جميل وقد ساعدتنا هذه القرية على الاستمتاع بالرحلة أكثر ، فنحن نشعر وكأننا في بيتنا ، لم يتغير علينا شيء ، فحافظنا بذلك على النمط التقليدي لحياتنا ، فجلبنا معنا كل ما يخص حياتنا اليومية ليس من مواد غذائية وأدوات طهي فحسب بل لم نتردد في جلب البخور والعطور التي تمثل شيئا أساسيا في حياتنا اليومية »

خرجنا مع السيد جاسم وعائلته إلى الشرفة وجلسنا جميعا ننعم بالشمس الدافئة ومنظر الطبيعة الخلاب ، وازدادت الجلسة بهجة بقدوم عائلة ثانية تتحدث العربية جاءت تشاركنا فكانت حقا جلسة عائلية عربية ممتعة .

الغابة الحزينة

لم يكن البحر والشمس المشرقة والطبيعة الخلابة هي كل ما رأيناه في فارنا ، فقد صمم السيد اندجوف أن يصحبنا في رحلة جديدة لنرى فارنا عبر التاريخ ونستمتع بزيارة المتاحف الضخمة والآثار التاريخية التي تحمل قصة كفاح ونضال وتاريخ .

كانت بداية الانطلاق من منطقة دروجبا السياحية باتجاه غابة الأحجار ، وهي غابة ضخمة جدا تضم عددا هائلا من الأحجار التي تتتابع في وضع متدرج كأنها السلم ، ويبلغ ارتفاع الصخرة الواحدة ستة أمتار بعرض لا يزيد عن ١,٥ م(متر ونصف). وهذه الغابة كانت يوما ما مليئة بالأشجار الضخمة المثمرة والحيوانات الأليفة ، ولكن الثوار البلغار قطعوا هذه الأشجار حتى لا يغدر بهم الأتراك من خلفها ، وأصبحوا يختبئون خلف الأحجار على شكل مجموعات فدائية لمواجهة الأتراك ، فكانت هذه المنطقة بالنسبة لهم منطقة هجوم ودفاع ، وتعلل السيدة ليلى - الدليل السياحي - التي كانت ترافقنا سبب اللون القاتم لهذه الأحجار قائلة : « إن الدماء التي سفكت وأسيلت في هذه الغابة أغرقت الأرض والأحجار فاصطبغت جميعها بلون الدم الداكن » .

وبعد الانتهاء من زيارة الغابة انتقلنا إلى متحف الحمامات الرومانية الذي بناه اليونانيون في القرن الثاني الميلادي ، وله نفس الطابع الشرقي في البناء والتصميم .

أما المتحف المعماري التاريخي فيعرض كل ما قدمه المعماريون البلغار من تصاميم هندسية



دقيقة في العصور القديمة . ثم متحف الفن والأدب الذي يضم لوحات متنوعة بعضها قديم والبعض الآخر حديث ، وجميعها لفنانين عالميين .

السيدة / ليلى ـ الدليل السياحي ـ التي رافقتنا علقت قائلة : عندما بدأت في عام ١٩٧٢ عمليات الحفر والتنقيب عن الآثار تم العثور على ٣٠٠ قبر مليئة بالذهب والمجوهرات الثمينة ، وقد أكد علماء التاريخ في مؤتمر هلسنكي الذي عقد عام ١٩٧٢ وجود أقدم حضارة في التاريخ في بلغاريا . كنا قد وصلنا لحديقة كبيرة جدا تزينها الورود من كل جانب وقد علمت فيما بعد ، ـ وحسب ما شرحته لنا السيدة ليلى ـ أن هذه الحديقة تضم ضريحا للملك بولندي يدعى « فلتزلاف » استشهد في معركة دامية لتحرير بلغاريا عام ١٤٤٤ وخلف الضريح يرتفع بناء متحف الأسلحة شامخا ضخما ، ويحتوي على الكثير من الاسلحة والامكانيات الحربية التي كانت متوافرة آنذاك والتي استعملت في الحرب ضد الأتراك .

وقد لاحظت أن تعريفا مختصرا وضع على ورقة لصقت أسفل كل نوع من أنواع الأسلحة المعروضة للتعريف باسم الجندي الذي حمل السلاح واسم وتاريخ الحرب التي خاضها هذا الجندي وتاريخ استشهاده ، وهم بذلك إنما يخلدون جنودهم في متاحف التاريخ .

عرض للدلافين

انتقلنا لمنطقة الرمال الذهبية حيث يوجد قصر أنشيء في القرن الأول بعد الميلاد الذي يعده البلغاريون رمزا للمسيحية في بلغاريا . ولم يكن ما شاهدناه هو كل شيء ، ولكن أنهكنا المسير فآثرنا أخذ قسط من الراحة على أن نعود لنكمل المسير في المساء .

لكن المفاجأة التي قدمتها لنا السيدة ليلى في المساء كانت عرضا شيقا جدا للدلافين في الحديقة البحرية التي يصل طولها إلى ٢٠ كلم ، وقد قدمت الدلافين عروضها في مبنى ضخم يقوم في وسط هذه الحديقة بني عام ١٩٨٤ ، ويحتوي على مسبح مليء بالماء النقي و ١٢٠٠ مقعد رصت بتدرج على شكل دائرة حول المسبح ، أطفئت الأنوار وبدأ العرض ، سبعة دلافين خرجت من الماء ، وبدأ المدرب ينادي : بيبي ـ بوبي ـ سبليت ـ بولي ـ دولي ـ كيمبو ـ طوبو . وكان كل دلفين يسمع اسمه يخفض رأسه ثم يرفع زعانفه محييا الجمهور ، يبلغ وزن الدلفين الواحد ٢٠٠ كلغ ، أما اعمارهم فتتراوح بين ١٨ ـ ٢٠ سنة وقد جلبت هذه الدلافين من خليج المكسيك والبحر الكاريبي .

بدأت الموسيقا بالعزف ، وبدأت الدلافين بتأدية رقصة جميلة ببراعة تامة ، يتلقون أوامرهم من مدربهم ، وحين أشار بعصا صغيرة كانت في يده توقفوا عن الرقص وبدأ كل منهم بمزاولة رياضة خاصة به ، اثنان يلعبان كرة السلة واثنان آخران يزاولان لعبة كرة الطائرة بينما كان دلفين آخر يقفز في الهواء وبين العجلات ، وانهمكت إحدى الاناث بالطهي تتخلله لحظات تمسح دموع عينيها من جراء تقطيع شرائح البصل . اشارة ثانية ، وتقف جميع الدلافين إلى جانب بعضها البعض ، وزعنفة كل دلفين فوق زعنفة الآخر ليقدموا عرضا شيقا للرقص البلغاري الشعبي .

استغرق العرض حوالي ٣٠ دقيقة لنخرج بعدها من القاعة وسط حشد كبير من الناس الذين جاءوا لمشاهدة هذا العرض الغريب والممتع في آن واحد .

ومع غروب الشمس آثرنا تأجيل رحلتنا التاريخية إلى نسيبار حتى صباح الغد .







● يمتلىء برنامج الزائر لفارنا بين التعرف على التاريخ القديم للمنطقة وزيارة أهم المتاحف والآثار ، وبين قضاء وقت ممتع في الشارع السياحي الذى يغص بالسياح من كل مكان .

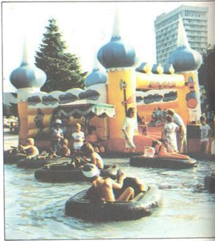
كان علينا في اليوم التالي قطع مسافة ما يزيد عن ١٢٠ كلم إلى الجنوب من فارنا للوصول لمدينة « نسيبار » التاريخية التي تعود لأيام الحكم الروماني في القرن السادس بعد الميلاد ، وتوجد في هذه المدينة كنائس كبيرة تتألف من ثلاث مجموعات . تعود المجموعة الأولى لأيام الثورة البيزنطية ، أما المجموعة الثانية فترجع لعهد الدولة البلغارية الأولى في القرون من ١٠ - ١٣م . بينما عرفت المجموعة الثالثة في تاريخ بناء الدولة البلغارية الثانية وفي هذه الكنائس الكثير من الرسوم المعمارية التي أبدعها أشهر النحاتين والرسامين البلغار .

المدينة التوأم

لقد كشفت عمليات التنقيب عن الآثار التاريخية التي أجريت عام ١٩٥٢ عن التشابه الواضح والجلي بين مدينتي فارنا واوديسوس (فارنا القديمة) التي بنيت أيام الحكم اليوناني ، وتقع فيها الحمامات الرومانية . واوديسوس هي المدينة الكبيرة التي كانت تضم قبل مئات السنين فارنا تحت جناحها . . وبمرور الوقت اقتطع هذا الجزء من الأرض وأطلق عليه اسم فارنا ، أما الجيل الحالي في بلغاريا فيطلق على فارنا لقب المدينة التوأم لأوديسوس . ومازال هناك الكثير ولكن لم يكن لدينا متسع من الوقت وخاصة أن المناطق باختلاف مواقعها ومعالمها كانت تعج بالسياح الذين أتوا من كل أرجاء العالم ليستمتعوا بفارنا الطبيعة وفارنا التاريخ .

وتبدأ الشمس رحلة العودة ، تبدأ في المغيب ، ويغطي الليل المساجد والكنائس والأضرحة والقلاع والبيوت والشوارع والشواطيء ، وتختفي في هذا الظلام معالم هذه الأطلال وملامحها الدقيقة . . وما يبقى هي ذكريات نابضة في قلوبنا عالقة في أذهاننا تنتظر شمس البلقان لتشرق وتبدد الظلام من جديد . □







هل تصدق أن في السماء منحرفين ؟

لو هبطوا على الأرض لكان تدميرهم أشد كثيرا من كل المنحرفين الأرضيين ، لكن عدالة السماء والقوانين التي أودعها الله (عز وجل) في الكون أبت أن تجري الأمور في غير مجاريها المرسومة .

لكن لو انزلق منحرف عن خطه ، واتجه إلى الأرض ، ماذا سيفعل العلماء ؟ وماذا أعدوا لذلك من عدة ؟

منحرفون كونيون

يُهـــــــدّدون الأرض

بقلم : عبد الأمير المؤمن

إنها تجري كأن سياطا حامية فوق ظهورها ، تمنعها عن الوقوف ، لا ندري إلى أين هي ذاهبة ، ومتى ستقف ؟ هناك تسعة كواكب وديعة ،وشمس واحدة ثائرة ملتهبة تدور حولها الكواكب دون ملل أو كلل .

كل جرم يجري في الخط المرسوم له ، في مدار اهليليجي (بيضوي) ، حسب قوانين كبلر ، ولا يستطيع ابن من الأبناء الفرار من أمه ، لأنه مربوط بها حسب قانون الجاذبية ، وهو القانون العام الذي لا يستثنى منه شيء في الكون .

فالشمس تجري ضمن بلايين النجوم المكونة لمجرتنا (درب التبانة) أو الطريق الحليبي (Milky way) ، وتتحرك مع حركة المجرة حول محورها ، وحولها آلاف النجوم . أقرب نجم إليها (الفا قنطورس) ، يبعد عنها ٤ر٤ سنة ضوئيه ، وكل نجم يعرف طريقه ، ولا يتجاوز حدوده ، حتى المجرة التي ننتمي اليها بحجمها الهائل ، والتي تحتوي على أكثر من مئة ألف مليون نجم ، وعدد كبير من الأجسام التابعة ، وعدد كبير من السدم ، تجري في موكب رائع اسمه المجموعة المحلية (local Group) ، وأقرب المجرات إلى مجرتنا مجرة « المرأة المسلسلة » (Andromeda) ، وهي تبعد عنا حوالي مليوني سنة ضوئية ، بيد أننا لا نعرف إلى أين تتجه في سيرها ، وكل أجرام الكون تجري وتتباعد حسب قانون هابل ، دون أن تميل أو تنحرف طالما لم يتوفر سبب للانحراف .

عائلة مختلطة

ظاهرة الانحراف لا تقتصر على الأرض دون السماء ، فلا فرق في ذلك طالما أن الأسباب متوفرة ، والانحراف في اللغة يعني الميلان ، والمنحرف هو المائل عن الخط المرسوم له .

والمقصود بالمنحرفين الكونيين هنا الحائدون عن خط سيرهم ، والذين لا يجرون في مداراتهم ، بسبب قوة تؤثر عليهم ، فتجعلهم يترنحون أو يلتحمون في مدارات قريبة ، أو يندفعون نحو أجرام أخرى . وفي مجموعتنا الشمسية عائلة كبيرة مختلطة ، تجمع عددا من

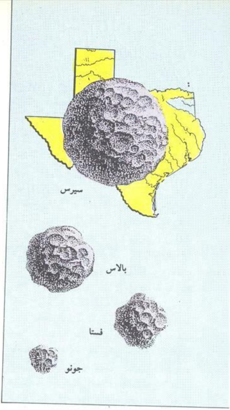
الأعضاء كبارا وصغارا ، أسوياء ومنحرفين متطرفين ، يعيشون في حزام اهليليجي ، يقدر بحوالي ٣٥٠ مليون ميل ، يقع بين المريخ والمشتري .

قبل اكتشاف هذه العائلة كان الفلكيون يظنون أن كوكبا ما يحتل هذا الحزام ، لكننا لا نراه لخفوت ضيائه أو لصغر جرمه . قال كبلر الفلكي الشهير : إني أضع كوكبا بين المريخ والمشتري ، وفي سنة ١٧٧٢ لفت (بود) الأنظار إلى وجود علاقة بين المسافات الواقعة بين الكواكب ، ووجد أن المسافة بين المريخ والمشتري تفتقر إلى كوكب ، وبعد أن صار مؤكدا أن هناك كوكبا مفقودا في هذه المسافة الشاسعة انبرى عام ١٨٠٠ م فلكيون أوربيون للبحث عن هذا الضائع ، وقد أطلقت هذه المجموعة على نفسها اسم « الشرطة السماوية » (Celestiai police)، وبعد سنة واحدة من تشكيل هذه الشرطة ، وقبل أن تكتشف ضالتها ، اكتشف الفلكي بياتسي (Piazzi) من مرصد صقلية ـ في الأول من يناير ١٨٨١ ـ كوكبا صغيرا ، لا يتجاوز قطره ٥٠٠ ميل ، وتمكن الألماني غاوس (Gaus) من تعيين مداره ، فظهر في العام التالي في نفس الوقت الذي ظهر به من قبل ، وسمي هذا الجرم (سيرس) ، وقد حفز هذا الاكتشاف الشرطة السماوية لمواصلة البحث عن أشباه له في نفس المنطقة ، وفي عام ١٨٠٢ اكتشف اولبرز (Olbers) جرما أصغر من سيرس وأبعد ، قطره ٣٠٠ ميل ، وقد سمي (بالاس) ، وفي عام ١٨٤٠ اكتشفوا جرما ثالثا ، قطره ١٢٠ ميلا ، وقد سمي (جونو) ، وبعد ثلاث سنوات رصدوا جرما رابعا ، قطره ٢٤٠ ميلا ، وقد سمي (فستا) ، وهو أشد الأجرام الأربعة سطوعا ، وهنا توقفت الشرطة السماوية عن البحث . وفي عام ١٨٤٥ اكتشف الهاوي الألماني هانكي (Hencke) جرما خامسا سمي (استرايا) ، وبعد سنتين اكتشف سادسا ، ووصل عددها حتى عام ١٨٥٠ إلى اثني عشر جرما ، واليوم بعد تطور الأجهزة العلمية والمعدات التقنية أصبح معروفا لدى العلماء أن أجرام هذا الحزام بالملايين ، بين صغير جدا على هيئة غبار ، وبين كبير نسبيا على هيئة كوكب محدود ثانوي .

تتباين مدارات هذه الأجرام ، فمن مدارات تامة الاستدارة تقريبا إلى مدارات اهليلجية ، مراكزها مختلفة ، فمثلا يدور (سيرس) في فلك دائري تقريباً على بُعد حوالي ٢٧٠ مليـون ميل عن الشمس بينما يدور هيدالكو في فلك اختلافه المركزي كبير جدا ، الى درجة أنه عند نقطة الرأس يمر ـ تقريبا ـ خارج مدار المريخ ، وعند نقطة الذنب يكون على بعد مساو لبعد زحل تقريبا ، ولهذا فإن هذه الأجرام عرضة لاضطرابات ناتجة عن تأثير جاذبية الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس عليها ، وبخاصة الكوكب العملاق (المشتري) الذي يسيطر على عدد من الأجرام التي تدور حوله بكل خضوع واستكانة ، دون أن تسقط عليه نظرا لخضوعها أيضا إلى تأثير جاذبية الشمس من الجهة الثانية .

أصل واحد وأشكال متعددة

الهيدروجين أخف عناصر الكون ، ينتشر في أرجائه بنسبة كبيرة ، تصل إلى ٩٩٪ ، وتحت ضغط القوة الخالدة (الجاذبية) تجمع ، فتكونت الأجرام السماوية المختلفة ، كالنجوم والكواكب وغيرها ، ومنه ما تخلف فبقي سحبا غازية ، أو غبارا ، ونتيجة للتفاعلات النووية العنيفة المستمرة تَمُرُّ النجوم بمراحل مختلفة ، يتحول خلالها الهيدروجين إلى هيليو ، ثم يتحول إلى عناصر أثقل كالكربون والفوسفور ، والحديد ، وبمرور السنين يهرم النجم ويموت ، وقد يتفجر وتنتشر مخلفاته في الفضاء ، لتكون



○ الشرطة السماوية

مادة أولية ، تدخل في بناء مواليد جديدة، وهكذا . . (« سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ») الفتح ٢٣ .

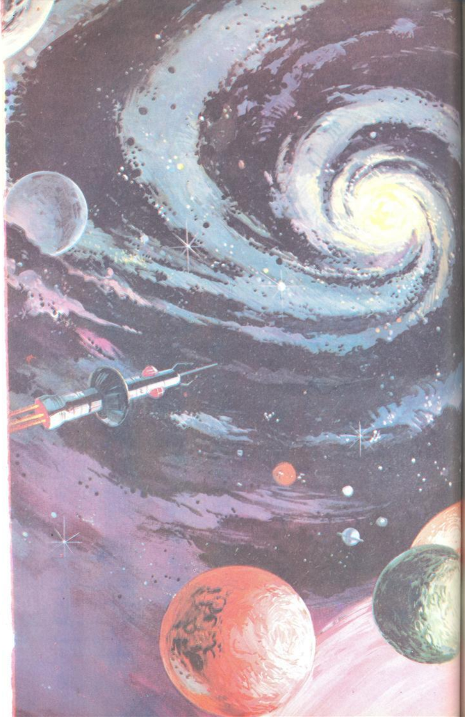
هذه الدورة الحياتية عامة تنطبق على كل أجرام الكون ، ومنها حزام الكويكبات الذي نتحدث عنه . وكبقية أجرام الكون حظي هذا الحزام باهتمام العلماء ، فتعددت الفرضيات فيه ، لكن الرأي الأكثر أهمية الذي يتفق عليه عدد كبير من العلماء هو أن محتويات هذا الحزام يمكن أن تكون أجزاء لكوكب لم يستطع أن يجمع شمله في جرم سويّ ، يشارك الكواكب السيارة في مدار الشمس ، وهذه الأجزاء المتناثرة الفاشلة في لملمة نفسها هي بالطبع جزء من سديم كوني ، أو جزء من تلك السحابة الغازية التي أنجبت شمسنا وكواكبنا السيارة ، وهي لا شك واحدة من السدم السماوية الهائلة المنتشرة في أرجاء الكون .

إن هذه الفرضية قد حظيت باهتمام من العلماء أكبر بكثير من تلك الفرضية التي اعتبرت هذا الحزام حطام كوكب انفجر بسبب كارثة غير معروفة ، وأول من أشار إلى هذا الرأي (الانفجار) هو « اولبرز » أحد أفراد الشرطة السماوية عام ١٨٠٢ بعد رصد كوكبين فقط .

والآن ما هي أشكال هذا الشتات المتناثر في هذا الحزام الهائج وما طبيعته ؟

إذا كان اقتطاع عدة غرامات من الصخور القمرية يحتاج إلى تقنية متقدمة (صواريخ ومركبات وأجهزة أخرى) ، وحفنة كبيرة من ملايين الدولارات ، فإن الحصول على كميات من الأتربة والصخور « الحزامية » لا يكلف شيئا ، فمنذ بداية الأرض والسماء تنثر من مكنوناتها ما هو على هيئة غبار أو أحجار صغيرة أو كبيرة ، وتسقط يوميا أطنانا هائلة من هذه المادة الكونية المجانية ، أكثر من ثمانين بالمائة منها على شكل غبار ، والباقي بعد ذلك على شكل قطع حجرية أو معدنية ، تختلف أحجامها وأوزانها من غبار دقيق وحبيبات كحبيبات الرمل إلى قطع تزن عدة غرامات أو عدة كيلو غرامات أو أكثر من ذلك بكثير .

إن الحبيبات التي تعد بالملايين تدخل جو الأرض يوميا ، فتحترق بسبب الاحتكاك بالغلاف الغازي ، مولدة خطوطا مضيئة ، تسمى « الشهب » ، أما القطع الأكبر التي لا يكتمل احتراقها في الغلاف الجوي - كأن يحترق الجزء الخارجي منها أو بعض أجزائها الرقيقة - فتصل إلى الأرض سالمة على هيئة قطع معدنية ، يدخل في تركيبها الحديد والنيكل وعناصر أخرى ، أو على هيئة قطع صخرية في



تركيبات متنوعة ، تختلف عن الأنماط الصخرية المعروفة . ونسبة هذه القطع الصخرية أكبر من القطع المعدنية ، وقد تصل على هيئة قطع صخرية تحتوي على معدن الحديد ، لكنها نادرة ، وتسمى « النيازك » ، وتتدرج أحجامها لتصل إلى ما يمكن تسميته كوكبا ثانويا أو كوكبا صغيرا ، كتلك التي ذكرناها في البداية (سيرس ، وفستا ، وجونو ، وغيرها) والتي يصل قطر إحداها إلى حوالي ٥٠٠ ميل .

ولعل من أشهر النيازك ذلك النيزك الذي وقع في اريزونا في الولايات المتحدة الأمريكية قبل أكثر من عشرين ألف سنة ، مخلفا حفرة كبيرة قطرها حوالي ١٢٠٠ متر ، وعمقها ١٨٠ مترا ، وبتقدير العلماء أنه نيزك معدني ، سقط بسرعة عالية ، وكان قطره أكثر من ٢٥ مترا . ذكرت المراجع العلمية أن التدمير المفاجيء الذي حدث في سيبيريا في عام ١٩٠٨ م والذي كان اتساعه عشرات الأميال كان بسبب ارتطام نيزك كبير ، اندفع بسرعة هائلة ، وفي عام ١٩٤٨ اكتشفت بعثة علمية في استراليا نيزكا مفتتا على مساحة قطرها ٨٦٠ مترا ، وعمقها ٥٠ مترا .

وهناك نيازك أخرى ، كنيزك (ويلاميت) الذي قدر وزنه بحوالي (١٥) طنا ، والذي سقط على أمريكا الشمالية ، ونيزك (هوبا) ووزنه (٦٠) طنا ، والذي سقط على جنوب غرب أفريقيا ، ونيزك (اهنيجيو) الذي سقط فوق غرينادا ، وغيرها .

ماذا أعددنا لهم ؟

لا تخاف الارض من أي جرم سماوي ، سواء كان شهابا ضئيلا أو نجما كبيرا ، طالما هو جار في مجراه الطبيعي ، سائر في مداره ، لكنها تخاف من المنحرفين الذين ينحرفون عن الطريق السليم ، ويتخذون الطرق الملتوية ، تخاف من المذنبات عندما تهجر مداراتها وتتجه صوبنا ، وتخاف من النيازك عندما تهرب من مساراتها وتقصد زيارتنا ، ولكنه خوف محدود ، لا يتجاوز مناطق محدودة ، فحتى لو اندفع نيزك كبير جدا نحو مدينة حضارية مزدحمة بالسكان لا يستطيع أن يتجاوز تلك المدينة والمناطق المحيطة بها ، وليس من المحتمل أن يتطاول على الحضارة الأرضية فيقضي عليها في طرفة عين .

إن الذي يقلق العلماء ليس هذه المفردات بل تلك الأحجار الكبيرة التي تنتمي إلى فصيلة الكواكب الصغيرة الثانوية التي يصل قطر الواحد منها إلى حوالي ٥٠٠ ميل ، والتي تجري ضمن الحزام الكويكبي بين مداري المريخ والمشتري ، مثل : سيرس وبالاس وفستا وغيرها ، ويقلقهم أيضا أن بعض الكواكب الثانوية يقترب من الشمس أكثر من اقتراب الأرض منها ، وفي هذه الحالة لا بد أن يقطع مدار الأرض ، ويمر فوق هذا المدار ، أو تحته بملايين الأميال ، وقد يقترب بعضها أكثر ، فالكوكب الثانوي ايروس الذي اكتشفه وايت في برلين اقترب عام ١٩٣١ م إلى مسافة ١٧ مليون ميل من الأرض ، وفي عام ١٩٣٢ م اقترب الكوكب الثانوي (آمور) إلى مسافة ١٠ ملايين ميل ، وفي نفس السنة اقترب كوكب ثانوي آخر هو (أبولو) إلى مسافة ٧ ملايين ميل ، أما كوكب أدونيس فقد مر على بعد ١٫٣٠٠٫٠٠٠ ميل فقط من الأرض ، وفي عام ١٩٣٧ م اقترب (هرمس) - وقطره ميل واحد - الى مسافة ٤٨٥٫٠٠٠ ميل من الأرض ، وأثار ضجة كبيرة في الصحف والمجلات .

إن خروج بعض الأجرام (الحزامية) عن مداراتها بسبب اختلالات في خطوط سيرها ودخولها جو الأرض أمر وارد ، فبين فترة وأخرى يخرج من هذا الركام الكوني عدد من الأجرام ليرتطم بالأرض ، والشواهد التي ذكرنا في اريزونا وسيبيريا وغرينادا وغيرها كافية ، لكن هل سيزورنا كوكب ثانوي من تلك التي يبلغ

قطرها مئات الأميال ؟ واذا زارنا ـ لا سمح الله ـ فماذا سيفعل بنا ؟ لا شك أن زيارة مثل هذا الجرم المنحرف ستقضي على الحضارة برمتها .

لقد استنتج بعض العلماء من خلال دراستهم لأسباب انقراض الديناصورات قبل ٦٥ مليون عام أن هناك كوارث تحل بالأرض بين فترة وأخرى ، تقضي على حضارتها بالكامل ، وهذه الكوارث لا يمكن أن تكون إلا من خارج الكرة الأرضية ، كسقوط أجرام ثانوية ضخمة ، أو مجموعة من الأجرام الصغيرة من حزام الكويكبات ، أو حشود من المذنبات ، وقد عزا عدد من العلماء ذلك إلى قوة تؤثر في أجرام المجموعة الشمسية ، ومنها أجرام هذا الحزام .

لقد تم الكشف حاليا عن أكثر من ستين جرما من هذا الحزام ، يمكن أن يؤدي مسارها ـ لو انحرف ـ إلى الأرض أو القمر أو عطارد أو الزهرة أو المريخ . فماذا عسانا فاعلين ؟ لم يهدأ العلماء والمختصون أبدا ، إنهم يتوقعون ارتطام جرم كبير منحرف بأرضنا ، بل ويصر بعضهم على أن الأمر حتمي ، يجب الاستعداد له ، والانسان بما يملك من حضارة متطورة ، وتقنية عالية ، يجب أن يضع هذا الأمر ضمن برامجه العلمية ، ليواجه هذه الكارثة الطبيعية المحتملة .

لقد شغلت هذه المسألة أذهان الهيئات العلمية ، وبدأ التفكير بها منذ فترة طويلة ، وأصبح التخطيط لحماية الأرض ضمن برامج الفضاء .

ففي عام ١٩٦٧ اقترحت مجموعة من الباحثين بمعهد مساشوستس للتقنية استعمال انفجارات نووية لتحييد هذه الأجسام الخطرة أو تفتيتها في الفضاء ، وفي عام ١٩٨٠ قدمت لجنة علمية تقريرا علميا إلى وكالة الفضاء الامريكية (ناسا) جاء فيه : إن الانسان الذي طور التقنية يمكنه أن يتحاشى ارتطام جرم سماوي باستخدام هذه التقنية ، وفي عام ١٩٨١ دعت وكالة الفضاء الامريكية إلى اجتماع في (بكورادو) لدراسة الوسائل الممكنة لإبعاد أي جرم سماوي في طريقه إلى الارتطام بالأرض ، وكانت النتيجة التي خرج بها المجتمعون أن المعلومات الكافية عن مدار الجرم القادم قبل عدة سنوات يمكن أن توفر فرصة للتخلص منه ، كأن تستخدم عبوة ناسفة له ، أو حتى صاروخ موجه لتغيير سرعته ، وإعاقته عن الارتطام بالأرض .

تلك وسائل لا نعرف مدى جدواها يمكن أن ينفع بعضها مع الأجرام الصغيرة لكنه يعجز عن أن يضع حدا لتصرفات الأجرام الكبيرة .

هناك تساؤلات عديدة ، هل يمكن استخدام بعض هذه الأجرام في مجال الرصد ؟ وهل يمكن استغلال المعادن المتوفرة فيها ؟ مسائل كثيرة لم تجد حلولا بعد ، إنها ترتبط بالمستقبل العلمي ، وما يحققه من أبعاد حضارية . □

العلم النافع :

● لاشيء يزكي النفس، أو يسود القلب، مثل العلم النافع، وليس هناك علم أنفع من التجربة . وما أصدق قول بعض العارفين في هذا المعنى : العقل سلطان وله جنود . فرأس جنوده التجربة، ثم الفكرة، ثم الحفظ، ثم سرور الروح، إذ لا ثبات للجسم إلا بالروح، والروح سراج ونوره العقل.



● تثبيت الجهاز وشد الأسياخ والبراغي المعدنية ، أطباء أم ميكانيكيون ؟

تطويل الأطراف

فتح طبّي جديد..

بقلم : الدكتور وليد السباعي

من يصدق أن جسم الإنسان يمكن تطويله ، وأن قصار القامة يمكنهم اضافة بضعة سنتمترات الى قاماتهم ، فيعالجون قصورا وحرجا يعاني منه بعضهم ؟ هذا ما تمكن منه طبيب وعالم سوفييتي عندما توصل الى ابتكار آلة وطريقة يطيل بها أطراف الإنسان ، ففتح بابا واسعا للأمل أمام الإنسان .

لا شك أن قِصَر القامة ، أو قِصَر أحد الأطراف عاهة تورث صاحبها نقصا في قدراته العملية ، وعقدة نفسية تسلبه الأمان والثقة .

وسواء أكان هذا القِصَر خلْقياً ، أم أنه حدث نتيجة خلل ما ، أم نقصا في هرمون النمو أو انه حدث في أحد الأطراف نتيجة اصابة سابقة بشلل الأطفال أو نتيجة حادث وكسور ، أو نتيجة اصابة بسل العظام أو بمضاعفات لالتهاب العظم النقي وتداخلاته الجراحية ، أو أن قِصَر أحد الطرفين السفليين قد سبب انحناء للعمود الفقري ، بكل مالذلك من عواقب نقول : مها

كانت الأسباب فإن ذلك كله لم يعد مشكلة ، فلقد توصل العلم لحل معضلة صعبة بطريقة بسيطة وسهلة .

وأصبحت عملية تطويل الأطراف عملية روتينية يومية ، تجرى للكثيرين ممن عانوا من عاهة القصر أو التشوه . الفكرة بحد ذاتها ليست جديدة ، الجديد فيها هو ما أدخله عليها البروفسور « كابريل ابراموفيتس ايلى زاروف » رئيس قسم جراحة العظام والحوادث في مشفى كوركان بالاتحاد السوفيتي من تقنيات سهلت إجراءها ، حتى أصبحت العملية والجهاز المستعمل فيها يسميان باسمه . ونالت شهرة عالمية بعد أن سافر الدكتور المذكور متجولا يحاضر في العديد من الأقطار بما فيها بلادنا .

كسر العظم :

ولكىْ يستطيع الأطباء اعانة المريض الذى يعانى من قِصَر في طرفيه العلويين أو السفليين ، أو احدهما ، أو قصر القامة ككل ، يجب أولا أن يكسر العظم عمدا بطريقة معينة حتى يستطيع أن ينمو بطريقة أخرى تزيد من طوله ٦ أو ٧ سم ، وأحيانا حتى ١٠ سم في مكان العملية وحدها .

العملية بحد ذاتها سهلة وليستْ لها أية خطورة ، ولا يصاحبها نزيف ، ولا خوف على حياة المريض من اجرائها ، وهى اضافة لذلك لا تحدث أى ضرر للأعصاب أو للأوعية الدموية أو العضلات .

فحينما يزيد طول العظم يصاحب ذلك طول في العضلات والأوردة والشرايين والأعصاب تماما بقدر ما يجب وبقدر ما يطول العظم .

هذا التطويل يحصل ببطء طبعا مليمترا بعد مليمتر كل يوم . أما من ناحية السن التى يمكن أن تجرى بها العملية فهي الخامسة وما بعدها حتى الكبر ، وكلما كان الإنسان في سن الشباب كان ذلك أفضل .

منذ مدة استمعت الى محاضرتين ألقاهما



● عملية تطويل للطرفين السفليين معا ، ملاحظة تطويل الرجل اليسرى أكثر من اليمنى .



● تثبيت الدائرتين المعدنيتين خارجا ثم ثقب الرجل تحت الركبة لدخول الإزميل .



● صورة شعاعية تبين تثبيت الإبر من الداخل والدوائر والأسياخ المعدنية من الخارج ، ثم كسر العظم .

البروفسور ايلي زاروف تبعها مشاهدة إحدى عمليات تطويل الطرفين السفليين لطالب جامعي عمره عشرون عاما ، كان يعاني من قِصَر في القامة نتيجة نقص في هرمون النمو واصابة سابقة في الغدة الكظرية ، فقد كان طوله ١٥٥ سم فقط مما أورثه حالة نفسية صعبة ، لقد أمكن تطويل كل رجل ثلاثة عشر سنتميترا - سبعة في الساق وستة في الفخذ - وأصبح طول الشاب ١٦٨ سم وهو طول معقول كما نرى .

أما العمليات فتجرى على مراحل : الأولى هي تطويل احدى الرجلين في الساق تحت الركبة حوالى سبعة سنتميترات ، وبعد مدة يقضيها المريض في الاستجمام والتعرض لأشعة الشمس على شاطىء البحر يعود لتطويل الرجل الأخرى من الساق أيضا . أما المرحلة الثانية التي تبدأ بعد حوالى سنة من العمليتين الأوليين فتبدأ بتطويل الرجل من الفخذ فوق الركبة ستة سنتميترات أخرى ، فتصبح المحصلة ثلاثة عشر سنتميترا في كل رجل .

يقول أحد العلماء : إنهم يلعبون مع الطبيعة! أن نكسر عظما طبيعيا بأيدينا ونضع به الإبر والبراغي والجهاز الحديدي حتى يطول ، مغيرين بذلك مصير هذا الإنسان !! إنه شيء بارع ، ولوحة لا يمكن لأي فنان أن يرسم مثلها .

أطباء أم ميكانيكيون . . ؟

بعد تخدير المريض يستلقي على بطنه وفي فمه أنبوب التنفس ، الرجل التى ستجرى بها العملية ممدودة ، والأخرى مطوية من الركبة . يأخذ الجراح مثقباً كهربائياً ثبت على رأسه إبرة بطول ٣٥ سم ، يدخلها بخفة وبراعة خلال الساق تحت الركبة بعدة سنتيمترات من جهة لأخرى . وفورا تكون الإبرة الثانية وبنفس طول الإبرة الأولى قد ثبتت على المثقب الكهربائي لتدخل عرضيا ، ثم يتم تثبيت إبرتين أخريين تدخلان عرضيا . وهكذا يصبح عدد الإبر المثبتة في ذلك الجزء من العظم أربعا . النهايات الثانية للإبر تكون خارج الجسم فيثبت عليها دائرة معدنية محكمة . وحقيقة فإن منظر الأطباء وهم يجرون العملية بما لديهم من مثقب وبراغ ومفاتيح ومطرقة حديدية ، وبما يقومون به من ثقب وتثبيت ودوران . . الخ ، إنما يشبهون الميكانيكيين الحقيقيين أكثر مما يشبهون الأطباء الذين تعودنا على رؤيتهم . إن التثبيت الأول للإبر الأربع ، والحلقة الدائرية المعدنية يستغرق حوالى عشر دقائق ، بعدها تعاد نفس العملية تحت الأولى بحوالى عشرة سنتمترات حيث تثبت أيضاً أربع إبر وحلقة معدنية أخرى. ان تثبيت الحلقتين المعدنيتين على الرجل خارج الجسم فوق الإبر الثماني المثبتة بنهاياتها على العظم من الداخل يعني أن الجزء التجهيزي من



العملية قد انتهى . بعد ذلك يتم ثقب الرجل ويدخل الطبيب الازميل ليلامس سطح العظم فقط ، ويضرب بمطرقة حديدية فوقه بهدوء في محاولة منه لكسر العظم ، وبعدة ضربات يكسر العظم في عدة أماكن،ومن المهم جدا أن لا يتجاوز دخول الازميل ٥, سم داخل الرجل ، فالمطلوب بالتحديد هو اختراق قشرة العظم فقط ، لهذا يجب على الجراح الذى يجرى العملية أن يكون مرهف السمع ، وأن يسود المكان هدوء مطلق .

ثم يتم توصيل الدائرتين المعدنيتين مع بعضهما بأسياخ معدنية طوليا ، هذه الأسياخ والبراغى هى التى ستستغل في مط العظم ليطول . العملية كلها لا تستغرق أكثر من أربعين دقيقة فقط .

بعد عدة أيام يبدأ المريض بالمشي على عكازين ، ويبدأ الأطباء بشد الأسياخ الواصلة بين الدائرتين عكسيا ، بمقدار ميليمتر واحد كل يوم ، هو مقدار ما يطول به العظم يوميا . وعليه فلكي يطول العظم سنتميترا واحدا يلزمه عشرة أيام ، وهكذا بعد مرور شهرين كاملين من اجراء العملية يطول العظم ستة سنتيمترات .

بعد العملية :

الأيام الأولى التى تعقب العملية يتخللها بعض الألم ، ليس بسبب وجود الإبر في الداخل ، وإنما بسبب شد الأسياخ والبراغى . فالعظم المكسور وعملية مطه بقصد تطويله ، وفيما بعد عملية التآمه ، يسببان ألما بدون شك ، ولتهدئته يعطى المريض بعض الأدوية ، وفيما بعد تعود الأشياء لطبيعتها ، ويزول الألم ، والسبب هو تشكل أوعية دموية صغيرة جديدة تتواصل مع الخلايا العظمية الجديدة التى تكونت لتمتلىء بالكالسيوم .

المهم أن العظم الذى خضع لعملية التطويل يكتسب فيما بعد خواص العظم الطويل الطبيعى ، ويصبح مهيأ لتحمل الضغط والثقل والجهد الذى تنقله العضلات إليه ، أما الأعصاب والعضلات والشرايين والأوردة فإنها تطول مع العظم تلقائيا بدون أية صعوبة .

بقي أن نعرف أن الجهاز المستخدم في هذه العملية « جهاز ايلى زاروف » يصنع اليوم في العديد من الدول كايطاليا والمانيا وانكلترا وغيرها اضافة للاتحاد السوفيتى وان ثمن الجهاز الواحد يتراوح ما بين الألف والألف وخمسمائة دولار أمريكي فقط ، وأنه يمكن أن يخدم حوالي عشر عمليات من هذا النوع . فكم هي ضئيلة تكلفته ، وكم هو عظيم مفعوله .

وأخيرا فإن هذه العملية الرائعة تجرى في كثير من الدول الشرقية والغربية وفي بعض البلاد العربية أيضا وتجرى سواء للعلاج أو للتجميل . □

تعريفات

* ليست المحبة أن تحب المحبوب الذي يحبك، بل الذي قد لا يحبك، ومن لا يُحب. وليست المحبة أن لا تؤذي أخاك الانسان، وأن لا تصنع شرا به فقط، بل في أن تعمل له الخير ما استطعت الى ذلك سبيلا .

* الأنانية ليست أن تحب نفسك فقط، وتسعى لخير نفسك فقط، وأن لا ترى سوى مصلحتك فقط، وإنما الأنانية هي في أن تفرض على غيرك أن يعيش كما تريد له أنت أن يعيش.

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

أبريل
١٩٨٩



رئيس التحرير : د. محمد الرميحي



يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

في هذا العدد

- استطلاع عن الحرف اليدوية في دمشق.
- دعوة مفتوحة لزيارة «مدينة الدوحة».
- قصة «رحلة خارج الزمن».
- المسلسل التاريخي «حسن الصباح».
- ذات الهمة «الحلقة الرابعة».



إضافة للأبواب الثابتة

- اسلاميات
- كمبيوتر
- ٨ صفحات لأخيك الصغير وأختك الصغيرة
- دائرة معارف العربي الصغير



نتيجة مسابقة العدد ٣٧

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

الطفل ...

كيف يكتسب اللغة ؟



الطفل...
كيف يكتسب اللغة ؟

بقلم : الدكتور عبدالمقصود عبدالكريم

كيف يتاح للطفل السوي أن ينجز الجانب الأساسي من اكتساب اللغة في نحو الرابعة من عمره على الرغم من تعقد النظام اللغوي الذي يحير علماء اللغة وفلاسفتها ؟ اكتساب اللغة هو القضية التي يدور حولها هذا المقال .

في كل لحظة نتكلم ، وفي كل لحظة نسمع كلاما ، أي أننا ننطق كلاماً ونستقبل كلام الآخرين باستمرار ، ونحن نمارس هذا الإنتاج وهذا الفهم منذ الصغر ، ربما دون أن يحاول معظمنا التساؤل عن الكيفية التي نكتسب بها المقدرة على إنتاج الجمل وفهمها ، أي عن الكيفية التي نكتسب بها لغة البيئة التي ننشأ فيها .

ينطق الطفل السوي كلمته الأولى ـ في المتوسط ـ في نهاية السنة الأولى ، ويتزايد معجم المفردات ببطء ، إلى أن يصل في منتصف السنة الثانية إلى عشرين كلمة ، ويتجاوز المعجم مائة كلمة في عشرين شهرا ، ويزيد ليصل إلى ثلاثمائة كلمة في نهاية السنة الثانية ، ويقترب من ألف كلمة في ثلاث سنوات ، وعندما ينجز الطفل الجانب الأساسي من اكتساب اللغة يستطيع أن يرسل في كل وقت ـ بصورة تلقائية ـ عددا لا متناهيا من الجمل ، وأن يدركها ويفهمها دون أن يكون قد تلفظ بمعظم هذه الجمل أو سمع بها مطلقا .

مشكلة اكتساب اللغة

على الرغم من مرور آلاف الأعوام ، واكتساب ملايين الأطفال للغة باستمرار ، فإن الكيفية التي يكتسب بها الإنسان اللغة مازالت تحير العلماء ، ومازالت مجالا خصبا للتنظير . ويبلغ الأمر درجة من الصعوبة تدعو عالم اللغويات الأمريكي الشهير « تشومسكي » إلى نفي إمكانية الإحاطة بهذا الاكتساب ، قبل استبيان اللغة نفسها التي يكتسبها الطفل ، أي قبل أن ينتهي عالم اللغة من دوره في تطوير علم اللغة ، بشكل يكاد يكون كاملا . وعلى الرغم من عدم اتفاقنا مع « تشومسكي » في هذه النقطة ، إذ « أن من الممكن القيام بدراسة اكتساب اللغة قبل أن تكتمل صياغة علم اللغة العام ، وقد يكون من المفيد مواصلة دراسة

اكتساب اللغة ، بهدف إيضاح بعض مشكلات «علم اللغة العام» ، إلا أن رأى تشومسكي يعكس أساساً الصعوبة التي يواجهها العلماء في دراسة اكتساب اللغة . وقبل أن نتطرق إلى ابن خلدون ورأيه حول اكتساب اللغة ، يجدر بنا أن نتعرف على التيارات الحديثة بهذا الشأن ، حيث يمكن الكلام عن اتجاهين رئيسيين ، اتجاه يمثله أصحاب النظرية التوليدية التحويلية (وعلى رأسهم تشومسكي) ، واتجاه يمثله أصحاب المدرسة السلوكية .

الاتجاه السلوكي

تندرج جهود السلوكيين في دراسة اكتساب اللغة ضمن إطار نظرية التعلّم التي تقوم على مفهوم المثير «الاستجابة» ، ومن ثم فإن اكتساب «السلوك اللغوي» لا يختلف كثيرا عن اكتساب السلوكيات الأخرى . وتتم عملية اكتساب اللغة - على العموم - عن طريق تحويل الأصوات العفوية التي يصدرها الطفل إلى أصوات لغوية «فونيمات» ، ويتم تعزيز هذه العملية باتجاه لغة الكبار ، بحيث يكون التعزيز إيجابيا في حالة إصدار أصوات لغوية صحيحة ، ويكون سلبيا في حالة إصدار أصوات لغوية غير صحيحة . ويمثل هذا الاتجاه عدد من العلماء ، منهم واطسون ، وسكينر ، وفرايز ، وستاتس . ويميز واطسون بين مرحلتين في اكتساب اللغة : يتعلم الطفل عددا من الكلمات ، وتأخذ كل كلمة شكلا صوتيا ، يرتبط بمعنى ما ، له علاقة بموضوع أو حدث في البيئة التي يعيش فيها ، ثم يتعلم الطفل إنشاء الجمل عن طريق الربط بين عدد من الكلمات . إن الترابط يتم عند واطسون بين الكلمات بشكل مفرد ، بينما يتم الترابط عند ستاتس بين الكلمات باعتبارها ممثلة لفصائل من الكلمات .

ويتمثل الاتجاه السلوكي بصورة واضحة في كتاب سكينر «السلوك الكلامي» ، حيث يركز على ضرورة عملية التعزيز لاكتساب اللغة ، حيث يتلقى الطفل التعزيزات الإيجابية في حالة قيامه بالاستجابة الكلامية الصحيحة . ويرى سكينر أن الأطفال يتعلمون «نماذج قياسية» أو «أطرا هيكلية» ، وهذه الأطر تتكون مما يسميه



استجابات رئيسية (أسماء ، أفعال ، صفات) ، وتتيح معرفة هذه الأطر الهيكلية للمتكلم القدرة على ترتيب الاستجابات الرئيسية ، ومن ثم صياغة الجمل . ويعتقد فرايز أن الاطفال يتعلمون كل فصائل الكلام في إطار الجملة ، وليس مجرد الاستجابات الرئيسية كالاسم والفعل ، فمثلا يدرك المتكلم في جملة : « التلميذ يذهب إلى المدرسة » ، تتابع أداة التعريف + الاسم + الفعل + حرف الجر + أداة التعريف + الاسم) ، أي أن فرايز يعتقد أن الناطقين باللغة يتعلمونها وهم على وعي كامل بتركيب الجمل .

ويرى السلوكيون ذهن الطفل صفحة بيضاء ، تتلقى المثيرات اللغوية من البيئة ، أما أصحاب النظرية التوليدية التحويلية فيرفضون هذه النظرة ، وينظرون إلى ذهن الطفل نظرتهم إلى آلة مبرمجة ومزودة بالمعلومات اللازمة لاتمام عملية اكتساب اللغة . وترى النظرية التوليدية التحويلية أن الإنسان يملك قدرات فطرية ، تساعده على تقبل المعلومات اللغوية ، وإنتاج الجمل ، وفهمها . أي أن الإنسان مهيأ لاكتساب قواعد لغته الأم ، بطريقة لاشعورية ، من خلال المعطيات اللغوية التي يتعرض لها ، أي أن الإنسان يستطيع أن يبني لغته بصورة إبداعية بمساعدة قدراته الفطرية .

النظرية التوليدية

ويرى السلوكيون أن الطفل يكتسب اللغة بمساعدة التعزيزات التي تصاحب تحويل الأصوات العفوية إلى أصوات لغوية ، ثم يتعلم بعد ذلك إنتاج الجمل ، وهو على وعي كامل بتركيبها ، أما أصحاب النظرية التوليدية التحويلية فيرون أن الطفل قادر بصورة لاشعورية على صياغة عدد غير محدود من الفرضيات التي يمتلكها بالفطرة ، وتنص على كيفية إنتاج الجمل وفهمها : « يسمع الطفل بعض مقاطع اللغة التي سوف يكتسبها ، ويكتشف تدريجيا أن بعض الفرضيات التي صاغها لا تتوافق ومعطيات اللغة ، وبعضها الآخر يتوافق معها ، وهكذا فمن المتوقع أنه سيتوصل إلى أن يقبل - بصورة لاشعورية - بعض الفرضيات التي تتيح له اعتماد التفسيرات الصحيحة حول جمل لغته فقط . ويكون في هذه المرحلة على الأخص قد امتلك قواعد لغته » (ميشال زكريا ، الألسنية : المبادىء والأعلام ، ص ١٣٥) .

يؤسس التوليديون انتقادهم للمدرسة السلوكية انطلاقا من أن الطفل يملك نظاما لغويا خاصا ، يتواءم مع مراحل النمو ، ويختلف عن النظام اللغوي الذي يستخدمه الكبار ، ومن ثم فإن لغة الأطفال لا تمثل تقليدا للغة الكبار ، مما يجعل التوليديين يؤكدون على أن الطفل يملك نظامه اللغوي بصورة مبدعة ، ترتكز على كفاية لغوية فطرية ، ومن ناحية أخرى يؤكد مارك ريشل (اكتساب اللغة ، ص ٢٢ - ٢٥) أن النظرية الفطرية ترتبط بنزعة عقلية بائدة ، ويوجه ثلاثة اعتراضات أساسية هي :

١- يحتفظ هذا الاتجاه بصورة ظاهرة بالتمييز الفاصل بين الجانب الفطري والجانب المكتسب ، في الوقت الذي تبدو فيه العلوم السلوكية قد تخطت بصورة قاطعة هذه المعضلة .

٢- يُسقِطُ هذا الاتجاه على الإنسان الذي يباشر تطوره نظرياتٍ تَمَّ استنباطُها من تحليل النتاجات المكتملة لهذا التطور ، ثم ينسب إلى هذه النظريات دورا في تكوّن التصرفات اللفظية .

٣ - يتعين إذن الكف عن النظر إلى إسهام الكائن البشري في عملية اكتساب اللغة، بوصفه معطى فطريا، ويتعين الكف عن إدراج هذا المعطى تحت عنوان النظرية أو الفرضية، بل يجب النظر إلى هذا المعطى بصفته يشكل بعض الإمكانيات الكامنة للتطور، هذه الإمكانيات التي لا يجدي أن نتوخى وصفها بصورة مستقلة عن هذا التطور نفسه.

ابن خلدون واللغة

ونصل أخيرا إلى ابن خلدون بعد مقدمة طويلة في قضية صعبة، لكن كان لا بد منها، للتعرف على الاتجاهات الحديثة في القضية التي تناولها، قبل أن نحاول التعرف على رأي ابن خلدون، العلامة العربي، مؤسس علم الاجتماع، المغامر السياسي الذي قضى حياته متنقلا بين الأندلس وبلاد المغرب العربي، ثم استقر به الحال في مصر حيث مات. ولد عبدالرحمن بن خلدون سنة ٧٣٢هـ



(١٣٣٢م) في تونس، ومات في مصر سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٦م). ما الذي ننتظره إذن من عالم اجتماع مات منذ ما يقرب من ستة قرون، في قضية تتعلق باللغة واكتسابها، ومازالت تثير الجدل بين العلماء حتى الآن؟ لعله قد حان الآن أن نحاول التعرف على رأي ابن خلدون في قضية اكتساب اللغة.

يقسم ابن خلدون علوم اللسان العربي إلى أربعة: اللغة والنحو والبيان والأدب. ويرى «أن الأهم المقدم منها هو النحو، إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة، فيعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر»، ويكون في جهل الإنسان بالنحو «الإخلال بالتفاهم جملة». ويرى ابن خلدون «أن اللغات كلها ملكات، والملكة، عنده، هي الصفة الراسخة، وتختلف عن الحال، وهو الصفة غير الراسخة، وعن الطبع، وهو الملكة الأولى التي لا يأخذها الإنسان عن غيره. ان اللغات ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها». وتتمثل المشكلة عند ابن خلدون بالنظر إلى تراكيب الجمل (وهذا يساير رأيه في تقديم النحو على علوم اللسان العربي الأخرى) وليس بالنظر إلى المفردات، أي أن الملكة اللغوية ترتبط عنده بالقدرة على إنشاء الجمل، «فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبّق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع»، «ويكتسب الإنسان الملكة بتكرار الأفعال»، «لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر، فتكون حالا، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة».

مراحل اكتساب اللغة

يميز ابن خلدون مرحلتين في اكتساب الملكة اللغوية ، المرحلة الأولى هي مرحلة استعمال المفردات ومعرفة معانيها ، أي الربط بين الصوت اللغوي وموضوع أو حدث في البيئة ، ويتم هذا الاكتساب عن طريق السمع « يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا » ، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة اكتساب القدرة على إنشاء الجمل ، وتتم أيضا عن طريق السمع « ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها » ، وتتكون الملكة عن طريق تكرار السماع وتكرار الاستعمال حتى يتقن الصبي الصغير لغة الكبار ، ويكون كأحدهم « هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل » .

يرى ابن خلدون أن ملكة اللسان العربي في عصره مغايرة للغة العربية التي نزل بها القرآن ، ويسمى هذا الاختلاف « فسادا » ، ويرجعه إلى امتزاج العجمة بهذه الملكة « إن ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ، ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن ، وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها » لكن الإنسان ، وعلى الرغم من ذلك ، يمكنه تعلم اللغة العربية التي تخلو من « الفساد » لأن اللغات ملكات يمكن تعلمها شأن سائر الملكات ، وما على الإنسان الذي يبتغي تحصيل هذه الملكة إلا أن يأخذ نفسه بحفظ كلام العرب الذي يجرى على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب وأشعارهم « حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ، ولقن العبارة عن المقاصد منهم ثم ينصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة » ومن استطاع الحصول على هذه الملكة فقد حصل على اللغة العربية في صورتها الأولى قبل أن ينال منها « الفساد » ، وتمتزج بالعجمة .

يفرق ابن خلدون بين الملكة اللغوية وبين معرفة قواعد هذه الملكة أو « صناعة » اللغة ، ويرى أن إحداهما لا تتأسس على الأخرى ،

ويشبه الأمر بالفرق بين المعرفة النظرية بعمل من الأعمال والممارسة الفعلية لهذا العمل . فليس كل من يعرف قواعد صناعة من الصناعات يجيد هذه الصناعة ، وليس كل من يجيد صناعة من الصناعات يعرف قواعدها ، « إن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، فهو علم بكيفية لا نفس كيفية فليست نفس الملكة ، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا . . . إن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل ، ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي . وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ، ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئا من صناعة العربية . فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية وأنها مستغنية عنها بالجملة » . □

مساحة وُد!

أجيال وحوار

حين تعرفت عليه ، كانت حربه مع الحياة قد بدأت . كان أهله يريدونه ابنا حقيقياً لهم ، ومواصلا لحرفتهم التي تدر عليهم الكثير ، وكان هو يريد أن يكون ابنا للحياة ، وأن يبدأ لنفسه طريقاً خاصاً به ، لا علاقة له بحرفة أبيه ، فلم يجد أي صلة يمكن أن تربطه بها ، لكنه كان وحيد أبويه ، مما يعني أن الحرفة لن تجد بعد الأب من يواصلها ، فتموت دون أن يكون لها من يحييها ، لتتصل بها تقاليد العائلة . فقد اختار صديقي احتراف الرسم الذي لم يكن في نظر الوالد أكثر من لعب بالألوان ، تصحبه حركات جنونية ، ضمن تركيبة عجيبة يطلق عليها لسبب لا يعرفه اسم الفن .

وكما تبدأ كل الحروب ، يبدأ كل طرف في اختبار قوة الآخر ، ومدى الجدية التي يأخذ بها الأمور . الأب يحاول إقناع ابنه بعدم جدوى الرسم كمورد للحياة القاسية ، والابن يحاول إقناع والده بأن الحياة أكبر من المادة ، وأن قسوتها ليست في فقد المال ، بل في فقد الهدف .

لكن مثل هذه الأفكار لم تكن تعني شيئاً بالنسبة للأب ، مما كان يشحذ عناد الابن الذي بدأ يدعم رأيه باستشهادات عن عظمة الفن وخلود الفنانين . وبدأت أواصر الاتصال تنقطع ، لا الأب قادر على فهم ولده ، ولا الابن قادر على إقناع والده بما يقول . الأمور بالنسبة للوالد واضحة كالنهار ، حرفة متوافرة تدر المال ، والمال سر الحياة وفاتح مغاليق المجتمع ، وبالنسبة للابن لم يكن الأمر أقل وضوحا ، فالحياة زمن ممتد ، وسرها هدف قائم على اختيار حر يعطيها معنى تستحقه وتمنحه هي جدارة عيشها .

وانقطع الحوار .

عندما قابلت صديقي آخر مرة كانت حربه قد انتهت . توفي الوالد ، وتبددت ثروته ، وشق الابن طريقه الصعب دون نجاح كبير . فشل الابن في المحافظة على حرفة والده ، وثروته ، ولم ينجح في أن يصبح الفنان الذي أراد أن يكونه .

لم يكن صديقي تعسا لتسببه في ضياع الجزء الأكبر من ثروة أبيه ، لكنه كان يشعر بالمرارة ، لأنه لم يصبح فنانا كبيرا كما كان يطمح .

وعندما تحدث عن والده قال : إنه « كان حكيما بشكل ما ، ولكن لو كتبت لي الحياة من جديد لسلكت الدرب نفسه » . □

صلاح حزين

هو.. هي

خوف لا يهدأ

حتى قبل أن أتزوج كنت أنتظر اليوم الذي أنجب فيه أطفالا يعطون حياتي معنى ، فالأطفال بالنسبة لي ليسوا تلك المخلوقات الصغيرة الجميلة البريئة فحسب ، بل هم سبب الوجود ومعنى الحياة وهمها الجميل .

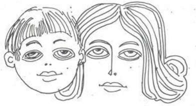
وأذكر ، حتى قبل أن أتزوج ، أنني كنت أملك شعوراً جارفاً بالأمومة ، يبدو في تعاملي مع لعبي وعرائسي الصماء . هكذا وجدت نفسي ، وهكذا نشأت ، حتى كبرت وتزوجت وأنجبت .

لا أدري إن كان للمشكلة التي أواجهها الآن جذور في هذه النشأة أم لا ، إلا أن نظرتي تختلف تماما عن نظرة زوجي للطريقة التي يجب أن يعامل بها أطفالنا ، وكثيراً ما يصل هذا الخلاف حداً يؤثر على حياتنا الزوجية ، وعلى مستقبل أولادنا ، فأنا أريد لأطفالي أن يكونوا مهذبين ودودين مطيعين ، وهو يريدهم أن يكونوا جسورين مقتحمين ، ولا مانع إذا كانوا مشاغبين .

أنا أريدهم أن ينشأوا نشأة محسوبة ، أعرف معها اهتماماتهم ، وأساعدهم في تحقيق رغباتهم ، وقضاء وقت طويل للاستماع إلى همومهم وشكاواهم ، ومعرفة نوع المشاكل التي يواجهونها ، وهو يريدهم أن ينشأوا نشأة تلقائية ، تطلق ملكاتهم ، حتى لو خرجت عن العرف السائد ، وخرقت تقاليد الطفولة التي وضعها المجتمع ، واعترف بها الآخرون . أنا أريدهم أن يبقوا بجانبي ، حتى أطمئن عليهم ، وأراقب بنفسي ما يحدث لهم ، وأشرف بنفسي على كل صغيرة وكبيرة تتعلق بهم . وهو يريدهم أن يخرجوا إلى الناس والشارع ، ويختلطوا بالآخرين ، ويزجهم في مواقف قد تكون صعبة ، لكنها تعلّم الأطفال أن الحياة ليست المنزل ، بل هي الشارع والناس والحياة كما يقول..

ومع أنني كثيرا ما أضعف تجاه منطقه ، وأوافقه على كثير من آرائه ، إلا أنني أشعر دائما بالخوف على أولادي من قسوة الحياة والناس .

وعندما أقول لزوجي : لننتظر حتى يكبر أطفالنا ، فنطلقهم ليعيشوا حياتهم ، يقول : إن الحياة لا تنتظر الأطفال حتى يأتوها كباراً ناضجين ، فمن الأفضل أن يقتحموا الحياة بأنفسهم لينضجوا في غمارها . أسكت عند ذلك وأهدأ ، لكن خوفي على أولادي الصغار لا يهدأ أبداً .



..هي

فيض من الحنان

كثيراً ما يبدو لي أن النساء يبالغن في إظهار الحرص على الأطفال ، ومع علمي التام بأن غريزة الأمومة لدى المرأة هي التي تجعل علاقتها بأطفالها أكثر دفئاً وحناناً من علاقة الرجل بأبنائه ، إلا أنني أرى أحياناً أن ذلك الدفء وذلك الحنان الأمومي ، يلعب دوراً سلبياً في تربية الأطفال وتنشئتهم . وكثيراً ما أرى أن هذه السمة الأنثوية العامة تتضخم لدى زوجتي ، لتتحول إلى النقيض ، ومع أننا استقبلنا منذ أشهر طفلنا الثالث ، إلا أن المشكلات الناشئة بين زوجتي وبيني حول تنشئة أطفالنا لم تحل ولم تنته .

فزوجتي ترى في الطفل عجينة لينة ، يمكننا أن نشكلها كما نشاء ، بعيدا عن المجتمع وتعقيداته ومشاكله التي لا تنتهي . وهي لا تريد لأطفالنا أن يقولوا رأيهم في الأشياء بصراحة ، ولا تريد لهم أن يتعاركوا مع الأطفال الآخرين ، ولا تقبل منهم أن يتلفظوا بما تعتبره كلمات نابية . وذلك على العكس مني تماما ، فأنا أرى أن الحياة أكثر تعقيداً مما نتصور ، وأقسى مما نعتقد ، وأرى أن الأطفال هم أبناء المجتمع ، بقدر ما هم أبناء أبويهم ، وأن شخصية الطفل تنشأ وتصقل في الشارع والحي ، وليس بين جدران أربعة ، وأن كل معركة يخوضها أبناؤ نا مع الأطفال الآخرين تجعلهم يعرفون أن الحياة ليست دفئاً وحناناً كلها ، بل هي قتال وصراع أيضا ، وأنها ليست أقارب وأصدقاء ودودين فحسب ، بل إن فيها



الأعداء والأشرار الذين يعيشون جنبا إلى جنب مع الأخيار والطيبين وبينهم ، وأن في الحياة الضعيف والقوي ، والودود والقاسي والبسيط والمعقد ، بل أكثر من ذلك ، فإن هناك في الحياة أشياء تطلب وأشياء تؤخذ ، وأخرى تنتزع انتزاعاً .

وهناك أشياء لا يمكن الحصول عليها بسهولة ، وأشياء مستحيلة ، ومطالب غير ممكنة التحقيق .

وعندما تسمعني زوجتي أتفوه بهذا الكلام تعتبرني قاسياً فظاً ، خالياً من المشاعر ، وتحتضن أطفالنا ، كأنها تخشى عليهم من خطر ماحق ، فأرى بنفسي مصير أبنائي الذين يرون من زوجتي فيضا من الحنان لن ينفعهم كثيرا في الحياة القاسية .

.. هو



طبيب الأسرة
قضايا منزليّة

قضيّة المواد المضافة للطعام

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

اصطلاحان في لغة التغذية لا بد من الإحاطة بأبعادهما حتى لاتختلط الأوراق وتتشابك الخطوط ، هما : اصطلاح الطعام أولا ، ثم اصطلاح الغذاء ثانياً .

فالطعام هو مايدخل الجوف عبر الفم ، استجابة لنداء الجوع والشهية .

أما الغذاء فهو الجواب على نداء حاجات أنسجة الجسم ومطالب خلاياه .

لهذا كان للطعام قاموس حافل بأسماء الأطعمة والفواكه والأطباق المتنوعة ، وللغذاء قاموس آخر ، يترجم لغة حاجات الجسم من طاقة ونمو وحرارة ، إلى كلمات مثل الزلال والأحماض الدهنية والفيتامينات والأملاح .

وغاية أهل التغذية ، ومنتهى آمالهم ، أن يترجموا الطعام بلغة قاموس الغذاء وبمفهوم كلماته .

لقد تحايل العلماء على الجسم لكي يقبل التعامل مع الطعام بلغة الغذاء ، حتى تتطابق الشهية مع حاجة الأنسجة في جسم الإنسان ، فكانت إحدى وسائلهم هي إضافة مواد غريبة عن الطعام ليست من صلبه ، تحتال على الشهية ، وتزيف النكهة ، لتجد من صاحبها قبولا حسنا ، يساعد على ترجمة معنى الطعام إلى مفهوم الغذاء . وهذا ماااصطلحوا عليه باسم المواد المضافة للطعام .

لماذا تضاف المواد إلى الطعام ؟

هناك أسباب عدة يتطلع أهل التغذية إلى تحقيقها عبر إضافة مادة أو أكثر إلى الطعام ، وهذه هي :

(أولاً) حفظ الطعام لاستعماله في وقت الحاجة إليه ، أو في مكان الحاجة إليه . ففي أوقات القحط يحتاج الإنسان إلى الطعام الذي جمعه في أوقات الوفرة ، أو قد يحتاج الانسان لطعام جمعه في مكان ما ليستعمله في مكان آخر ، ومن هنا تفتق ذهن المختصين لابتكار مواد حافظة ، تتنوع بتنوع الأطعمة ، وتختلف باختلافها بما يتلاءم وطبيعتها .

(ثانياً) إضفاء طعم مستساغ مقبول مرغوب فيه .

(ثالثاً) إضفاء لون مثير للشهية سارٍّ للناظرين .

(رابعاً) إضفاء رائحة مثيرة للشهية إن لم تكن للطعام رائحة أو تدعيمها وتقويتها إن كانت الرائحة ضعيفة .

(خامساً) تلافي النقص في الغذاء ، وتحسين الصحة العامة ، كما يجري مثلا عند إضافة اليود إلى ملح الطعام توقيا من الاصابة بتضخم الغدة الدرقية أو الدراق ، مما يشيع في مناطق تفتقر إلى هذا العنصر في بيئتها ، كما هي الحال في المناطق الجبلية في أواسط القارة الأوربية على سبيل المثال .

كما أن بعضهم قد يضيف فيتامين (د) إلى الحليب في مناطق يسود فيها العوز إلى هذا الفيتامين ، حيث تغيب الشمس وتشح الأشعة فوق البنفسجية ، فيشيع مرض الكساح بين الأطفال ، أو ربما يضاف فيتامين (ج) أو الفيتامين المانع للاسقربوط ، تدعيما لبعض أنواع الشراب لتماثل الأشربة الطازجة . وهكذا .

لقد سار الانسان طويلا على هذا الضرب ، وكانت له تجارب عريقة ، أضيفت إليها خبراته وعلومه الحديثة ، حتى توافرت لديه حصيلة ضخمة من هذه المواد المضافة للطعام ، بعضها ثبتت جدواه وفائدته ، فاستمر ، وبعضها تبين ضرره فنبذه الإنسان ، وتوقف عن ممارسته واستخدامه .

ومنذ القديم عرف الناس استعمال ملح الطعام لحفظ طعامهم ، كما عرفوا استعمال السكر والخل والكحول أيضا ، مما لايزال مستعملا حتى يومنا هذا .

ولكن القرن التاسع عشر حمل للناس تجارب جديدة باستعمال المواد الكيماوية ، مما فرضته الطفرة الصناعية التي شملت صناعة حفظ الطعام ، وهو ما اقتضته الحاجة لإمداد الجيوش الغازية والحشود العسكرية التي اجتاحت العالم ، وكان أبرزها الحروب النابليونية . ومن هنا تسللت مواد حافظة ، منها أملاح حامض البوريك والفودمالدهيد ، لكن استعمالها قد توقف بعد أن ثبت ضررها ، وتأكدت سميتها ، ومنها أيضا أملاح الكبريت والنيتريك اللذان مازالا يستعملان حتى يومنا هذا ، ولم يثبت للمختصين ضررهما أو فسادهما .

هناك تجربة مازالت صورتها تحتل من الذاكرة موقعا مميزا ، لحداثة عهدها ، فهي مأساة مدينة مكناس المغربية التي راح ضحيتها ٢٠٠٠ من الأبرياء الذين أصابهم الشلل عقب تناولهم زيت الزيتون الذي أضيف إليه زيت التشحيم بقصد الغش التجاري عام ١٩٥٩ .

على أي حال فإن هذه الصور القاتمة ليست هي كل وجوه صورة المضافات للطعام ، حيث ان فرض الرقابة الصحية ، وتصاعد المنافسة التجارية ، قد ارتفعا بعمليات حفظ الطعام وتصنيعه إلى درجات عالية من التقنية ، جعلت الطعام المحفوظ يصبح موازيا للطعام الطازج في قيمته الغذائية ومظهره ، بل ربما تفوق عليه .

وتأكيدا لهذه الحقيقة قام كل من جودين وتومسون بتجاربهما على الفئران ، إذ أطعما فريقا منها طعاما معلبا محفوظا على مدى ١٨ شهرا ، كما أطعما فريقا آخر منها طعاما طازجا في المدة نفسها ، وفي نهاية الدراسة لم يجدا فروقا بين المجموعتين ، سواء في نموها أو صحتها أو تناسلها ، مما يؤكد تماثل القيمة الغذائية للطعام المحفوظ مع الطازج .

هذا وركاب الغواصات تحت الماء ، وروّاد المناطق القطبية النائية ، ممن يعتمدون على الأطعمة المحفوظة مددا طويلة ، لم يعهد الأطباء إصابتهم بمرض أو خلل أو علة ، على الرغم من طول اعتمادهم على الطعام المحفوظ .

وعلى الرغم من القناعة بالأمان في استعمال المواد الحافظة للطعام فإن العلماء يميلون إلى استغلال الوسائل الطبيعية الأخرى في حفظ الطعام ، كاستعمال التبريد والتجفيف أو التسخين على سبيل المثال .

أما عن تلوين الطعام ، مما يثير الجاذبية عند الناظرين ، فإنه قد يدفع بالطباخين إلى استعمال مواد كيماوية ، لم يثبت أن لها ضررا حتى الآن ، منها الكاراميل أو السكر المحروق ، ومنها الملونات النباتية أو السافرون ، وأصبح مألوفا استعمال البقدونس أو البطاطس ، أو ربما مسحوق بعض الحشرات الآمنة ، فقد شاع استعمال الملونات ، وخاصة في حقل الحلويات والفطائر والمعجنات .

إنهم يعدون في عالم التغذية ٢٥ نوعا من أصباغ الطعام ، تعتبر في نظر الطب آمنة لا ضرر منها ، بعد أن أوقف الكثير من الملونات التي أثبتت التجارب على الحيوانات أنها مواد مسرطنة .

في مجال المضافات الغذائية تعتبر المحْلِيات أهم أركانها ، وبخاصة سكر القصب ، وهو الأكثر شيوعا ، غير أن هناك مواد مصنعة ، تفوق سكر القصب حلاوة ، لكنها لا تعطي طاقة ، ولا تضر ، وهذا ما يريده مرضى السكر وطالبو الحمية والنحافة ، ومن تلك المواد مثلا مادة السكارين التي تفوق حلاوتها حلاوة السكر ٤٠٠ ضعف ، لكنها لسوء الحظ تتلف بالحرارة .

لهذا استعملوا بديلا لها مادة السيكلامات ، المقاومة لمفعول الحرارة ، التي تفوق حلاوتها حلاوة السكر بثلاثين ضعفا ، غير أن السيكلامات قد أوقف استعمالها مؤخرا ، بعد أن ثار الجدل والشك حولها على أنها مادة مسرطنة ، عقب تجارب مكثفة على الفئران أوحت بأنها تسبب السرطان .

هذا ويشيع حاليا جدل حول نوع من التوت البري ، يقال عنه إن حلاوته تفوق حلاوة السكر ، بما يقدر بـ ١٥٠٠ ضعف ، لكننا لو تطرقنا لمواد النكهة فسنجد منها ما يعطي طعم اللوز وما يعطي طعم الخوخ أو طعم النعناع .

أما عن طعم اللحم فبأملاح يسمونها جلوتامات الصوديوم ، غير أن خبيرا يدعى كواك قد وصف في عام ١٩٦٨ مرضا سماه ظاهرة المطاعم الصينية ، ادعى أنها ظاهرة تصيب مرتادي المطاعم الصينية بآلام في الرقبة والصدر ، مع خفقان في القلب ، عقب تناولهم أطعمة أضيفت إليها هذه المادة الشبيهة برائحة اللحم .

وظاهرة المطاعم الصينية هذه تذكرنا بمرض آخر ، شاع في الصين ، وأطلقوا عليه اسم هستيريا الكلاب ، وسببها على ماقيل مادة كان الصينيون يضيفونها إلى الدقيق ، أملا في تحسينه ، يدعونها أرجين . ولما ثبت ضرر هذه المادة استعاضوا عنها بمادة ثاني أكسيد الكلورين التي تعتبر آمنة لا ضرر منها ولا أضرار .

ومما يضاف إلى قائمة المضافات الغذائية مادة الجلسرين المعروفة ، فقد قيل إنها تساعد على استحلاب الدهون ، وتقوم بتسهيل مهمة امتزاجها بالماء ، لهذا استعملت في صناعة الآيس كريم ، وإعداد كريمات السلطات ، بالإضافة إلى مواد تمنع تأكسد الدهون وزنخها ، وأهمها فيتامين (هـ) المعروف باسم التوكوفيرول ، ومادة أخرى حامضية تعرف باسم حامض الجاليك . إن الحديث عن المضافات الغذائية طويل متشعب ، غير أن الأطباء يميلون إلى عدم الإسراف في استعمالها بقدر الإمكان ، على الرغم من أن الرقابة الصحية الدقيقة قد أثبتت سلامتها وعدم ضررها ، مما يبعث الطمأنينة في قلوب المستهلكين ، ويبدد القلق الذي ربما يثور حول استعمالها .

إن المواد المضافة للطعام في أيامنا هذه لا تحمل لمستهلكيها ذلك الخطر الكامن بفضل الرقابة الطبية الصارمة ، وأساليب الصناعة الحديثة ، في ظل منافسة تجارية لا ترحم . □



بيت الياسمين

تأليف : إبراهيم عبد المجيد

الواقع وتجليات الحداثة في الرواية

بقلم : الدكتور حامد أبو أحمد

لقد استطاع مؤلف الرواية أن يجسد تجربة جيل كامل بأشواقه وطموحاته ، وصبره وعثراته ، ووقوفه مشدوها إزاء التحولات الغريبة المتلاحقة من اليمين إلى اليسار ، ومن اليسار إلى اليمين ، ومن باشوات ما قبل الثورة إلى الباشوات الجدد من أمثال عبده الفكهاني والمقدس يحيى .. ولا تكتفي الرواية بذلك ، وإنما تعكس بصدق التحولات الكبيرة التي شهدتها منطقتنا الساخنة خلال العقدين الأخيرين .

صدرت الرواية عن « دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع » ، القاهرة - باريس ، عام ١٩٨٦ ، وتتكون من عشرة فصول وخاتمة . يبدأ كل فصل بحكاية قصيرة ببضعة أسطر أو أكثر قليلا ، تجمع بين الواقع وبين شيء آخر هو « الخارق للعادة » في الفصول ١ و ٢ و ٣ ، « التراجيدي » في الفصل ٤ ، و « الحلم » في الفصل ٥ ، و « السحر أو الواقعية السحرية » في الفصل ٧ ، و « النزعة السلفية » في الفصل ٦ ، و « التراث الشعبي أو الحكاية الشعبية » في الفصلين ٨ ، ٩ ، و « الأسطورة » في الفصل الأخير . ولن نستطيع التوقف عند كل هذه الحكايات التي تمثل مدخلا لكل فصل ، ومن ثم نأخذ منها مثالا واحدا ، وليكن مثالنا الحكاية التي تسبق الفصل السابع . تقول هذه الحكاية :

« ولد طفل بذيل » . شيء عادي يمكن أن يحدث . بعد أسبوع عرفت الاسكندرية أن الحادثة تكررت ، فبدأ الناس النقاش . ما كاد أسبوع آخر يمضي حتى شاع أن امرأة ثالثة

أنجبت طفلا بذيل أيضا . وسرعان ما صار معروفا أن مستشفى الشاطبي قد امتلأ بالأطفال المولودين ولهم ذيول . تمنت كل حامل أن يسقط جنينها ، وبعضهن متن وهن يحاولن ذلك ، وقيل إن العام عام لعنة ، فانقطعت الزيجات ، وصار القوي من الرجال لا يعاشر زوجته ، والضعيف يرسلها لأهلها أو يطلقها حتى يمر العام . . . »

فهذه الحكاية - كما نرى - تنطلق من حادثة يمكن أن تقع ، وكثيرا ما تنقل لنا الجرائد حوادث من هذا النوع من شتى أرجاء المعمورة ، ولكن ما فعله القاص هنا هو أنه حولها من حكاية أو واقع شاذ غريب إلى واقع سحري ، استمر مدة عام كامل ، وشكل للناس جميعا حالة من الرعب الشديد ، باتوا يحاولون الفرار منها ، كل على طريقته الخاصة حسب واقعه وظروفه . وهذه التقنية الجديدة (الربط بين الواقع والسحر) من التقنيات التي انتشرت خلال العقود الأخيرة في كل أنحاء العالم ، وازدهرت بصورة خاصة في أمريكا اللاتينية ، على يد كتّاب مثل ميجيل آنخل أستورياس ، وخوان رولف ، وأليخو كاربنتير ، وخوليو كورتاثار وجابرييل جارثيا ماركيز .

وهذه الحكاية القصيرة التي تسبق فصول رواية « بيت الياسمين » موظفة توظيفا جيدا ، وتلعب دورا كبيرا في البناء الفني للرواية ، لأسباب كثيرة ، من أهمها أنها متنوعة تنوعا كبيرا - حسبما رأينا - في أسلوبها وتقنياتها ، وإن كان الواقع يشكل الأساس الأول في كل هذا التنوع ، ولذلك قلنا : « الواقع والخارق للعادة - الواقع والتراجيدي - الواقع والسحر . . . إلخ » وكل عنصر من هذه العناصر له أساليبه الخاصة وتقنياته المتميزة ، ثم إن هذه الحكايات تحيط الأحداث الرئيسية في الرواية بجو غريب ، صادم ، مثير للدهشة ، باعث على التفكير والتأمل ، فضلا عن أنها تنم عن رغبة أكيدة لدى المؤلف في التجديد ، كما تعكس حرص جيل الشباب (ولد ابراهيم عبد المجيد عام ١٩٤٦) على متابعة كل ما يصدر من جديد في كل أنحاء العالم .

بناء المضمون

يدور الخيط الرئيسي في الرواية حول بطلها شجرة محمد علي ، وهذا الاسم يحمل دلالة لا تخفى على القارىء ، هي أنه إنسان عادي ينسب إلى الطبقة الشعبية التي تشكل الغالبية العظمى ، والتي تنزل على رأسها كل النكبات والأهوال والأخطاء . ويلجأ ابراهيم عبدالمجيد ، في هذه الرواية ، إلى الكوميديا الساخرة ، ويجعل منها أداة لفضح صور التزييف ، والكشف عن مواطن الضعف والخلل والبهتان في المجتمع ، وذلك من خلال محورين أو عنصرين غاية في الأهمية ، يتضافران من أجل بلوغ الغاية التي يسعى إليها المؤلف وهما : ذلك الإنسان العادي ، شجرة محمد علي الذي يمثل نموذجا حيا لكل أبناء جيله ، بنمط تفكيره ، وانعكاس الأحداث التي تجري في المجتمع على حياته وواقعه وآماله وطموحاته ، وعلاقاته بالناس ، سواء كانوا قريبين منه كاصدقائه الثلاثة حسنين وماجد وعبدالسلام ، أو كانوا بعيدين عنه ، ولكن تربطه بهم صلة التعامل اليومي العادي ، مثل عبده الفكهاني والمقدس يحيى اللذين يعكسان الخلل الذي أحدثه الانفتاح في المجتمع ، وبداية صعود بعض أبناء الطبقة الشعبية وتحولهم إلى أصحاب ملايين جدد ، يلعبون بمقدرات الناس والمجتمع ، ويصبح كل شيء في أيديهم وسيلة من وسائل الكسب غير المشروع الذي لا تحده حدود . أما المحور الثاني فيتمثل في اختيار نموذج من نماذج تزييف الأشياء ، وهو تجميع العمال في بعض المناسبات القومية التي يظهر فيها الرئيس للهتاف باسمه ، مقابل بعض النقود التي توزع



عليهم حتى تدفعهم دفعا للتسابق في هذا الموضوع . ومن خلال واقع شجرة محمد علي ، وموقعه في هذا المحور الثاني ، يصل المؤلف إلى هدفه في السخرية من كل هذه الأوضاع الزائفة التي لم يجن منها الناس إلا الأزمات ، مرحلة بعد مرحلة وجيلا بعد جيل .

يعمل شجرة محمد علي موظفا في مصنع بناء السفن البحرية بالاسكندرية ، ولأن هذا المصنع من شركات القطاع العام التابع للدولة ، فإن إدارة المصنع ترى من واجبها أن تشارك في الترحيب بقدوم الرئيس (جرت كل الأحداث في عهد الرئيس الراحل أنور السادات) ، سواء كان وحده أو معه ضيف مثل الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون . وكان من حظ شجرة محمد علي أنه اختير لقيادة هذه المهمة ، فكان يختار العمال ويخرج بهم - مع السائق طبعا ومشرف أومشرفين آخرين - في حافلة أو حافلتين أو ثلاث ، حسب أهمية المناسبة ، من أجل المشاركة في لقاء الرئيس والترحيب به . وقد أتقن شجرة هذه اللعبة ، فكان يذهب أحيانا بالعمال ويقومون بالواجب ، ولكنه في أحيان أخرى كان يتوقف بالحافلات في مكان ما ، ثم يعود إلى المصنع بالعمال ، وقد بدا أنهم قاموا بالمهمة خير قيام ، ثم إنه أتقن فنا آخر ، هو أن يختلس من المبلغ المدفوع له ليوزعه على العمال قدرا لا بأس به يصلح به شأنه ، ويواجه به بعض الظروف السيئة التي تحيط بأمثاله من الموظفين « الغلابة » ، وبالطبع لا ينسى أن يقدم حصة - ولو قليلة - من المبلغ للسائق ولمن معه من المشرفين الآخرين ، حتى يشتري سكوتهم . ثم إنه أيضا أتقن اللعبة من جانبها الآخر ، المتصل بالرغبة في تحقيقها مهما كانت الظروف والملابسات ، ولذلك عندما تقاعست الشركة عن إخراج العمال في إحدى المناسبات كتب رسالة إلى رئيس الجمهورية قال فيها (الرواية ص٢٥) :

سيدي رئيس الجمهورية بطل العبور والنصر

بعد التحية

« نحيط فخامتكم علما بأن عمال مصنع بناء السفن البحرية بالاسكندرية أبدوا رغبة حماسية في السفر إلى القاهرة للاحتفال معكم بعيد العمال ، لكن رئيس مجلس الإدارة رفض ، وقال : إن ذلك سيعطل الإنتاج . أي إنتاج يمنعنا عن التعبير عن حبنا لكم »

(عامل صغير من أبناء الشركة)

وكل ما فعلته رئاسة الجمهورية أنها حولت الخطاب إلى الشركة وعليه تأشيرة تقول : « تلقينا هذه الرسالة » . وكانت هذه التأشيرة المبهمة كفيلة بأن تزلزل المسئولين في الشركة ، فقرروا سفر العمال على الفور ، ورُشح شجرة محمد علي - كالعادة - للقيام على هذه المهمة .

هذا هو الخط الأساسي للرواية ، ولو أنه مضى على هذا النحو لجاء تقليديا سهلا بسيطا ، لكن المؤلف من الكتاب الشباب ، يحمل خلف ظهره ميراثا طويلا من عمليات التطور والتأصيل والتجديد ، سواء في الرواية العربية أو الأجنبية ، ومن ثم أبى إلّا أن تكون روايته هذه نموذجا جيدا في دقة البناء ، وحسن التنظيم

والتبويب ، وتوزيع المشاهد على كل فصل توزيعا دقيقا ، بحيث يؤدي كل منها الوظيفة المنوطة به في سياق البناء الكلي للرواية . ولذلك سوف نتتابع الفصول العشرة ، ونجد كل فصل منها مختلفا عن الفصول الأخرى في طريقة العرض ، وفي الأسلوب ، وفي التقنيات المستخدمة .

تنوع المضامين وكثرة التقنيات

يبدأ كل فصل - كما ذكرنا من قبل - بحكاية قصيرة ، تجمع بين الواقعية وبين نمط آخر من أنماط القصة . وفي الفصل الأول يضعنا الكاتب وجها لوجه إزاء الموضوع الذي يمثل الخيط الرئيسي في روايته ، فيحكي لنا خروج الحافلة « الأتوبيس » بالعمال (٦٠ عاملا) وهو على رأسهم ، وإن كان لا يدري في هذه المرة الأولى لماذا اختاروه هو بالتحديد . وكانت المناسبة هي حضور الرئيس وبصحبته الرئيس الأمريكي نيكسون إلى الاسكندرية . وكان المبلغ المخصص لكل عامل نصف جنيه ، يأخذه بعد انتهاء الاستقبال ، لكنه اتفق معهم أن ينصرفوا قبل الاستقبال على أن يأخذ كل منهم ربع الجنيه فقط ، ثم أعطى للسائق ثلاثة جنيهات ، وبقي له اثنا عشر جنيها ، صرف ستة منها في مطعم وهو يحلم محدثا نفسه (هل سيتكرر إخراج الشركات للعمال لتحية الرئيس ؟ يزور الاسكندرية في السادس والعشرين من يوليو ، ينقل نشاطه إليها غالبا في الصيف الآن . . . إلخ) « الرواية ص١٤ » . وبعد أن قام بجولة في بعض الأماكن ركب سيارة أجرة وعاد إلى بيته البائس ، وأمه تقف متعبة على باب الحجرة تتأمله ، وهو يقول لنفسه : « لو يزور الرئيس الإسكندرية في عيد الأم » (ص١٦) .

ويجمع ابراهيم عبدالمجيد في هذا الفصل على الأخص حشدا كبيرا من تقنيات الحداثة ، فنجده يسقط ذاته على الأشياء والجمادات مثل قوله : « تنتهي فجأة هدأة شارع المكس واستكانة المباني التي على الجانبين » (ص٨) ، أو قوله : « لكن شارع السبعينات - كعادته - مستكين للسيارات والمركبات التي ترمح فيه ، والدكاكين مفتوحة بلا ضجة أمامها » (ص٨) . كما يُكثر من اللغة التصويرية (وهذا موضوع سنعود إليه بعد ذلك) ، كما يلجأ إلى ما يسمى حاليا في الأدب العالمي « استطيقا القبح » ، وهو اتجاه قريب من الطبيعة ، يهدف الى التعبير عن الواقع بلا مواربة ، وذلك مثل قوله : « وترى رجلا يتبول واقفا ووجهه إلى جدار المخازن ، ورجلا يتغوط ووجهه إلى الطريق » (ص٨) . ويستخدم توارد الخواطر ، وبذلك ينقل القارىء من مكان إلى مكان في خفة وانسياب ، فعندما أوقف الحافلة « الأتوبيس » في عرض أحد الشوارع لتوزيع الحصة النقدية على العمال وإنزالهم منها حكى لنا الراوي (والسرد على لسان البطل شجرة محمد علي ، أي الشخص الأول أو « الأنا السارد ») هذا المشهد كما يلي : « استجاب السائق لأمري ، فتوقف باسما ، ونزل العمال ضاحكين .

ولا أعتقد أن شرطي المرور الواقف عند نهاية الشارع اهتم بحافلة تسد التقاطع مع سوق الحقانية وتعطل عبورالمشاة وحركة « الترام » . أما أمي التي لابد أنها كانت في باحة البيت الصغير تلقى للدجاج بفتات النخالة المعجونة بالماء فلا أظن أن قلبها خفق ، أو صدرها انقبض ، وابنها صاحب الاسم الغريب يرتكب جريمة » (ص٩) . وقد نقلتُ هذه الفقرة كاملة لأدلل على شيء مهم ، وهو أن ابراهيم عبدالمجيد ، في هذه الرواية ، نجح نجاحا باهرا في أن يقتصد في لغة القص ، وأن ينقل إليك بعين نافذة ورؤية نقدية فاحصة ما يدور في الواقع المصري وفي الشارع المصري . فهذه الفقرة القصيرة تحمل الكثير من الدلالات على واقع يعيشه الناس ، ويحسون به ، ولا يستطيعون التعبير عنه ، ومن ذلك - حسبما

تدل هذه الفقرة ـ الاستهانة بكل شيء صغيرا كان أو كبيرا (وهذا على أي حال نوع من الاحتجاج الصامت) ، وكسر القواعد ، والاعتداء على حرية « الغير » دون أدنى اهتمام بردود فعله ، ثم اللامبالاة الكاملة والتسيب ، وهذه ظواهر مرضية يشكو منها الناس جميعا ، بينما هم أنفسهم يساعدون على إيجادها .

ازدواج الشخصية

وفي الفصل الثاني نجد العمال يخرجون أيضا لمهمة استقبال أخرى ، لكن عددهم هذه المرة بلغ مائتي عامل ، ومكافأة كل منهم زادت فصارت جنيها ونصف جنيه ، وقد أعطى لكل عامل جنيها واحدا ، وأمسك الباقي لنفسه ، بعد أن أعطى حصة السائقين اللذين خرجا معه . وفي هذا الفصل يعرض لنا « الأنا السارد » عملية « نَصْب » واحتيال تعرض لها مع سماسرة الشقق والمباني مما يحدث كل يوم ، وبطلاها هنا اثنان من الذين بدءوا طريق الإثراء الفاحش ، وأصبحوا فيما بعد من كبار الطفيليين ، وهما المقدس يحيى وعبده الفكهاني . وفي هذا الفصل أيضا نقابل الخطاب الذي أرسله سرا لرئاسة الجمهورية ـ كما أسلفنا ـ والذي على إثره تقرر قيام العمال برحلة إلى القاهرة وحلوان للمشاركة في الترحيب بعيد العمال . وفي هذه المرة صُرف لكل عامل أربعة جنيهات ، اقتطع منها شجرة جنيهين لنفسه .

وفي الفصل الثالث يستخدم المؤلف تقنية « الفلاش باك » ، فيعود بنا إلى الوراء ، كي يحكي لنا شجرة محمد علي عن أصله وكيف سمي بهذا الاسم (انظر ص٣٣) ، وكيف كانت طفولته وصباه ، والمسكن البائس الذي يعيشون فيه ، وحلمهم الدائم بالخروج منه ، ثم يختم هذا الفصل بالحديث عن هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وما تركت من حسرة وألم . وأخيرا يعود إلى الواقع أو الحاضر الذي هو فيه . كما لا ينسى أن يحدثنا عن الاستغلال الذي تعرض له من المقدس يحيى وعبده الفكهاني .

ويبدأ الفصل الرابع بعملية تصوير « بانورامي » لمدينة الاسكندرية ، ثم يربط بين عامي ٦٧ و ١٩٧٦ ، الأول عام النكسة ، والثاني بداية « مشوار » السلام مع العدو الاسرائيلي ، ثم يربط بين هذين العامين وبين موت كل من أبيه وأمه . وفي هذا يقول : « كرهت العام السادس والسبعين ، هذا الذي اتصل بالعام السابع والستين ، واجتمع معه عليّ . رقمان خسيسان تبادلا موقعيهما فأخذا أبي وأمي . بدا لي موت أمي عقابا سماويا ، لكن ماذا كنت أفعل ؟ . رمت خطوة إلى الأمام ، هل فينا من لم يرم ذلك ؟ » (ص٤٠) . وبذلك يكون قد ربط بين الخاص والعام ، وجعل منهما همًّا واحدا لا يتجزأ . ثم تكون الصفحات الباقية من هذا الفصل عن انتفاضة عام ١٩٧٧ الذي أطلق عليها الرئيس في ذلك الحين « انتفاضة الحرامية » ، وزعيمها في الرواية هو سيد برشو (لاحظ دلالة الاسم) ، وقد اندمج شجرة محمد علي في هذه المظاهرات ، وقام بالدور الذي قام به أمثاله من أولاد البلد خير قيام .

أما الفصل الخامس فيقدم لنا نموذجا طيبا لأدب الواقعية السحرية (وهذه نقطة سوف نفصلها فيما بعد) . ويبدأ الفصل بحقيقة شجرة محمد علي ، وازدواج شخصيته ، ثم يتطرق بشكل عابر إلى الرحلة للقدس ، ثم يأتي الكلام عن بيت الياسمين ، وهنا نصبح أمام الواقعية السحرية بكل سماتها ، ويُختم الفصل بجملة تعيدنا مرة أخرى إلى رحلة القدس تقول :

« لكني فكرت في استقبال العائد من القدس بعد أيام » . وانظر كيف يشجب الرحلة إلى القدس ، لكنه في الوقت نفسه يتأهب لقيادة العمال والتوجه إلى القاهرة لاستقبال العائد من

القدس . فهنا نجد ازدواجا في الشخصية ، لكنه موجود على المستوى الظاهري فقط ، أما المستوى العميق فينطوي على دلالات في غاية الأهمية ، هي السخرية من الأوضاع ، واستغلالها لكسب بعض المغانم الشخصية التي تحسّن من وضعه البائس . إنها إذن حالة من حالات المقاومة الصامتة . وأزعم أن شعب مصر له في ذلك باع طويل . وميزة ابراهيم عبدالمجيد أنه استطاع أن يجسد هذه القيمة العظمى في شكلها « الكوميدي » الساخر . وفي هذا الفصل يجمع المؤلف بين الأضداد ، لإحداث نوع من المفارقة العجيبة . يقول عن حي الفراعنة الهادىء : « هل يعرف أحد أنه في هذا الحي الجميل تقع مباحث أمن الدولة ؟ أشجار مهذبة تلمع أوراقها الرصاصية . أشجار عارية . أشجار سامقة الارتفاع . شوارع مغسولة بالمطر وعمال البلدية ، بيوت محاطة بالأسيجة والحدائق » (ص٥١) .

والفصل السادس عن الأوضاع في الشركة ، ورحلات الاستقبال نفسها ، وتغيير المدير ، وأوضاع البلد بعامة ، وسفر الناس وبخاصة الشباب ، إلى أقطار النفط العربية ، والسماسرة والطفيليين الجدد . أي أن هذا الفصل بمثابة توقيع مأسوي « كوميدي » على الأوضاع بشكل عام . ولو رأينا كيف يبدأ هذا الفصل بحكاية قصيرة تجمع بين الواقع وبين النزعة السلفية ، لأدركنا مدى نجاح المؤلف في التعبير عن التخلخل واختلاط الحابل بالنابل .

شخصيات اخرى :

والقفز إلى الفصل التاسع الذي يبدأ بتصوير بعض صور البؤس ، ويتناول الأوضاع مثل تسابق الناس على السفر إلى الخارج ، وصنوف المعاناة التي تتعرض لها الطبقات الفقيرة ، ثم تأملات في أحوال الدنيا ، وحديث عن الانتخابات ، يتخلله حديث عن وحدته وعزلته ورغبته الحارة في الزواج ، وأخيرا يفوز في انتخابات مجلس النقابة في الشركة ، ويصبح نقيبا لهم . ويلاحظ أن جرعة التقنيات المستحدثة أخذت تقل شيئا فشيئا في هذه الفصول الأخيرة ، ولجأ المؤلف إلى الواقعية القائمة أساساً على السرد على لسان الشخص الأول (الأنا) .

وطن صغير

والفصل الأخير يحدثنا عن حسنين ورغبته في تزويج صديقه شجرة ، بعد أن تزوج هو استقرت حياته نوعا ما ، كما يتحدث شجرة عن مشاكل مسئولية النقابة في الشركة ، ثم تُثمر مساعي حسنين وزوجته ، ويعثر شجرة على شريكة حياته ، ويحس أن الزواج هو وطنه وملاذه الأول . ويكتب له صديقه عبدالسلام من العراق فيفكر أن يكتب إليه : « لو مت يا عبدالسلام لن أذوق طعم الراحة . موصول أنا بك بحبل سُرّي . الناس تسافر لتجميع الأموال ، وتعود حقا ، ولكن لتتزوج وتستقر ! كدت تقولها يا عبدالسلام . يصبح للناس وطن ولو صغير . أجل الزواج هو الوطن ، والناس هي التي تصنع الأوطان . وأنا بعد أسابيع سأتزوج ويصبح لي وطني . آه يا عبدالسلام كم أنا كذاب . جعلتني أتساءل الآن عما مضى من عمري . كيف كنت منفيا ؟ أين كان الوطن من قبل ؟ ليس الزواج وطنا وحده أبدا . . لن أكتب اليك يا صديقي » (ص١٣١) . وكما نلاحظ في هذه الفقرة فإن المؤلف نجح في تنويع طرق السرد أيضا ، فهو ينتقل من « الأنا السارد » أو الشخص الأول إلى أسلوب الخطاب في سهولة ويسر ، والطريقتان تساعدان على حدوث ألفة بين القارىء وبين المؤلف ، حتى ليتوهم القارىء أنه مقصود بالخطاب في كثير من الأحيان . وهذا يعد واحداً من أهم الأهداف التي يقصد إليها مؤلفو الروايات المحدثون□

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة.

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم.

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١								■		
٢					■					
٣						■			■	
٤			■							■
٥								■		
٦		■		■		■				
٧								■		
٨							■			
٩	■				■					
١٠					■				■	■

كلمات أفقية

١ ـ جزيرة ايطالية في البحر الأبيض المتوسط ، نما وكبر.

٢ ـ احدى جزر الأرخبيل اليوناني ، جزيرة مستقلة بين صقلية وليبيا.

٣ ـ دولة صناعية تتألف من مجموعة جزر ، طيور برمائية.

٤ ـ حل مقلوبة ، جزر في شمال غرب افريقيا تابعة للبرتغال.

٥ ـ دولة عربية تتألف من مجموعة جزر ، دمَّر.

٦ ـ وعاء يدق فيه الدواء ونحوه.

٧ ـ جزيرة فرنسية في المتوسط ، تجدها في مال.

٨ ـ الرنين مبعثرة ، أعتق.

٩ ـ جماعة الجند ، يميل الى.

١٠ ـ عذراء ، من ثمار النخيل.

كلمات عمودية

١ ـ جزر مستقلة في المحيط الهندي عاصمتها كولومبو.

٢ ـ راحل في صيغة الجمع ، دَخلت.

٣ ـ بدد متفرّقة ، ثالث جزر العالم جزء منها تابع لاندونيسيا.

٤ ـ يعفو أو يغفر ، جزيرة في المحيط الهندي نفي إليها بعض أبطال العروبة.

٥ ـ ذوو طبيعة نارية.

٦ ـ بحر ، يد مقلوبة ، جزيرة يونانية في المتوسط.

٧ ـ استفسار عن الحاجة الى التبيين ، قدَّر وقَضى.

٨ ـ رطل معكوسة ، غير بارد.

٩ ـ شاطيء ، جزر في الأطلسي تقترن باختفاء السفن مقلوبة.

١٠ ـ ظهر ، جزر تابعة لاسبانيا تقع في الشمال الغربي من القارة الافريقية.

● حل مسابقة العدد الماضي - مارس ١٩٨٩ م

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	ا	ل	م	س	ي	س	ي	ب	ي	■
٢	ل	ي	ن	■	ط	ه	■	ر	ن	ا
٣	ا	ل	د	ا	ن	و	ب	■	ب	ل
٤	م	ي	و	ل	■	ب	ر	ي	و	ت
٥	ر	■	ب	غ	ا	■	د	■	ع	ا
٦	و	ف	■	ا	ل	ن	ي	ل	■	ي
٧	ن	ر	ه	ن	م	ي	■	و	ه	م
٨	■	ا	ل	ج	ن	د	و	ل	■	ر
٩	ه	ت	ك	■	ج	ن	و	ب	ي	■
١٠	ن	■	ا	ل	ز	م	ب	ي	ز	ي

بقلم : الدكتور حسن عباس

الفروق في اللغة

كنا قد أشرنا إلى كتاب أبي هلال العسكري « الفروق في اللغة » ، وهو كتاب يعمد إلى الألفاظ المتشابهة أو المترادفة ، فيقف على ما بين تلك الألفاظ من فرق في المعنى - وإن دق ذلك الفرق وخفي - ويشير إليه إشارة لا تسرف في الإطالة ، ولا تقعد دون الوفاء بالمعنى ، فهو يقول في المنهج الذي التزمه في تأليف الكتاب :

« فعملت كتابي هذا مشتملا على ما تقع الكفاية به من غير إطالة ولا تقصير ، وجعلت كلامي فيه على ما يعرض منه في كتاب الله وما يجري في ألفاظ الفقهاء والمتكلمين وسائر محاورات الناس ..» .

ولقد وجدنا المؤلف يقف على فروق في المعنى دقيقة لألفاظ يَعُمُّ تداولها دون أن يفطن كثير من الناس إلى تلك الفروق ، ومن ذلك مثلا : الفرق بين الغضب والسخط ، وهما لفظان كثيرا ما يدوران على ألسِنَة الناس ، وقد توضع كلمة منهما مكان الأخرى دون الالتفات إلى القرب في المعنى بينهما أو البعد .

والفرق بين الغضب والسخط ، أن الغضب يكون من الصغير على الكبير ، ومن الكبير على الصغير ، والسخط لا يكون إلّا من الكبير على الصغير ، يقال سخط الأمير على الحاجب ، ولا يقال سخط الحاجب على الأمير .

والفرق بين الغضب والاشتياط ، أن الاشتياط خفة تلحق الإنسان عند الغضب ، وهو في الغضب كالطرب في الفرح ، والاشتياط لا يستعمل إلّا في الغضب ، ويجوز أن يقال الاشتياط سرعة الغضب : قال الأصمعي : يقال ناقة مشياط ، إذا كانت سريعة السمن ، ويقال اشتاط الرجل إذا التهب من الغضب ، كأن الغضب قد طار فيه !

والفرق بين الاختراع والابتداع ، أن الابتداع إيجاد ما لم يسبق إلى مثله ، يقال أبدع فلان إذا أتى بالشيء الغريب ، وأبدعه الله فهو مبدع وبديع ، أما الاختراع فهو ايجاد الشيء عن غير سبب ، فكأن المخترع قد سهل له الفعل ، فأوجده من غير سبب يتوصل به إليه .

والفرق بين النظر والرؤية ، أن النظر طلب الهدى ، والشاهد قولهم : نظرت ، فلم أر شيئا . وقال علي بن عيسى : النظر طلب ظهور

الشيء ، والناظر : الطالب لظهور الشيء ، بإدراكه من جهة حاسة بصره ، أو غيرها من حواسه ، ويكون الناظر إلى لين هذا الثوب من لين غيره . والنظر بالقلب من جهة التفكير ، والانتظار : التوقف لطلب وقت الشيء الذي يصلح فيه .

قال : والنظر أيضا هو الفكر والتأمل لأحوال الأشياء ، ألا ترى أن الناظر على هذا الوجه لا بد أن يكون مفكرا ، والمفكر على هذا الوجه يسمى ناظرا وهو معنى غير الناظر وغير المنظور فيه . ألا ترى أن الإنسان يفصل بين كونه ناظرا وكونه غير ناظر ؟ ولا يوصف القديم بالنظر لأن النظر لا يكون إلا مع فقد العلم ، ومعلوم أنه لا يصلح النظر في الشيء ليعلم إلا وهو مجهول ، والنظر يشاهد بالعين ، فيفرق بين نظر الغضبان ونظر الراضي ، وأخرى فإنه لو طلب جماعة الهلال ليعلم من رآه منهم ممن لم يره مع أنهم جميعا ناظرون ، فصح بهذا أن النظر تقليب العين حيال مكان المرئي طلبا لرؤيته .

والرؤية هي إدراك الرائي ، ولما كان الله تعالى يرى الأشياء من حيث لا يطلب رؤيتها صح أنه لا يوصف بالنظر .

والعقل هو اللبّ ، وقد ورد في خطاب أهل العقول في القرآن الكريم قوله تعالى « . . يا أولي الألباب » أي يا أهل العقل ، وعلى الرغم من ذلك فهناك فرق بين العقل واللبّ ، وهو أن قولنا اللبّ يفيد أنه من خالص صفات الموصوف به ، والعقل يفيد أنه يحصر معلومات الموصوف به ، فهو مُفارق له من هذا الوجه ، ولباب الشيء ولبه : خالصه .

أما الفرق بين الفطنة والذكاء ، فهو أن الذكاء تمام الفطنة من قولك ذكت النار إذا تم اشتعالها ، وسميت الشمس ذكاء لتمام نورها ، ففي الذكاء معنى زائد على الفطنة .

والفرق بين السمع والإصغاء ، أن السمع هو إدراك المسموع ، والسمع أيضا اسم الآلة التي يسمع بها ، والإصغاء هو طلب ادراك المسموع بإمالة السمع إليه . يقال صغا يصغو إذا مال وأصغى غيره ، وفي القرآن (قد صغت قلوبكما) أي مالت ، وصغوك مع فلان : أي ميلك .

والفرق بين التذكير والتنبيه : أن قولك ذكر الشيء يقتضي أنه كان عالما به ، ثم نسيه فرده إلى ذكره ببعض الأسباب ، وذلك أن الذكر هو العلم الحادث بعد النسيان ، ويجوز أن ينبه الرجل على شيء لم يعرفه قط ، ولا يجوز أن يذكره ما لم يعلمه قط .

والفرق بين المعروف والمشهور ، أن المشهور هو المعروف عند الجماعة الكبيرة ، والمعروف معروف وإن عرفه واحد . يقال هذا معروف عند زيد ولا يقال مشهور عند زيد ، ولكن مشهور عند القوم .

والفرق بين النسيان والسهو ، أن النسيان إنما يكون عما كان ، والسهو يكون عمّا لم يكن ، تقول نسيت ما عرفته ولا يقال سهوت عمّا عرفته ، وإنما تقول سهوت عن السجود في الصلاة ، فتجعل السهو بدلا عن السجود الذي لم يكن ، والسهو والمسهو عنه يتعاقبان . وفرق آخر وهو أن الشيء الواحد محال أن يسهى عنه في وقت ولا يسهى عنه في وقت آخر ، وإنما يسهى في وقت آخر عن مثله ، ويجوز أن ينسى الشيء الواحد في وقت ويذكره في وقت آخر .

والفرق بين التصور والتخيل ، أن التصور تخيل لا يثبت على حال ، وإذا ثبت على حال لم يكن تخيلا ، فإذا تصور الشيء في الوقت الأول ولم يتصور في الوقت الثاني ، قيل إنه تخيل ، وقيل التخيل تصور الشيء على بعض أوصافه دون بعض فلهذا لا يتحقق ، والتخيل والتوهم ينافيان العلم كما أن الظن والشك ينافيانه .

والفرق بين الحماقة والرقاعة ، أن الرقاعة على ما قال الجاحظ حمق مع رفعة وعلو رتبة ، ولا يقال للأحمق إذا كان وضيعا رقيعا وإنما يقال ذلك للأحمق إذا كان سيدا أو رئيسا أو ذا مال وجاه . □

أبوصخر الهذليّ يرثي داوود

أبوصخر الهذلي قائل القصيدة التي نقتطف بعضا من أبياتها هو عبدالله بن سلم السهمي من بني هذيل . وهو شاعر إسلامي ولد ومات في الدولة الأموية ، وقد تقرب من خلفائها ، استقدمه عبدالملك بن مروان الذي كان قد تولى الخلافة في رمضان من سنة ٦٥ للهجرة ، فحج ، ثم طلب عبدالله بن سلم للمثول بين يديه ، فلما جاءه أثنى على شخصه ، وأكد له أنه لم ينس مودته ووقوفه لنصرة بني مروان ، وفي ذلك اللقاء خلع عليه لقب « أبي صخر » فعرف به ، ونسي الناس اسمه !

كان أبوصخر قد تعرض للسجن في واقعة تذكرها كتب الأدب ، ولبث فيه عاما أو بعض عام ، وذلك بعد اللقاء العاصف الذي تم بينه وبين عبدالله بن الزبير حيث جاءه أبوصخر يطلب منه عطاءه ، فأنكر ابن الزبير عليه حقه ، ورده ردا قبيحا قائلا :

عليك ببني أمية ، فخذ عطاءك منهم ، فأثار هذا القول أباصخر ، فصدر عنه قول فيه مدح لبني أمية ، وتعريض بابن الزبير ، فغضب منه ابن الزبير وأودعه السجن ، ولم يشفع له إلا قوم من بني هذيل وآخرون من قريش ، فأطلق سراحه .

يجمع شعر أبي صخر الهذلي بين فصاحة الألفاظ ، وسهولة التركيب ، وهو إلى جانب ذلك واضح المعاني ، صادق العاطفة ، أما فيما يتصل بهذه القصيدة فقد ورد في الأغاني قول أبي عمرو الشيباني الذي جاء فيه :

«كان لأبي صخر ابن يقال له داوود، ثم لم يكن له ولد غيره ، فمات ، فجزع عليه جزعا شديدا حتى خولط ، فقال يرثيه . » وقد وردت هذه القصيدة في كتاب الأمالي لأبي علي القالي منقولة عن عدد من الرواة ، وكل رواية تزيد فيها بضعة أبيات أو تنقص :

تعزيتُ عن ذِكْرِ الصِّبَا والحبائب ... وأصبحت عِزهيّ للصِّبَا كالمُجانب(١)

وأصبحت تلحى حين رعت محمدا ... وأصحابه أنْ يمحبوا بالكواعب(٢)

ولو أنهم قالوا لقد كنت مرَّة ... عرفت ولم أنكر جواب المحاوِب(٣)

تصابيتُ حتى الليل منهن رغبتي ... رواني في يوم من اللهو ناصب(٤)

فأعرضن لما شبتُ عني تعرضا ... وهل لي ذنب في الليالي الذواهب(٥)

فإن أرَ منهن الغداة صريمة ... فقد نلت من لذاتهن مآربي(٦)

وكَم مِن أخ أو عم صِدق رُزئْته أو ابن أخٍ سَمح كريم الضَّرائِبِ
ومِن صاحب لي وابْن عَم تتابعوا ومَنْ ذَا مِن الأحياءِ لَيس بِذاهب
بُحور إذا اشْتد الشتاءُ مَلاوِث وَفتيان هَيجا كالجمال المُصاعِب
مَتى يَلتمس مَولاهم الحِلم عِندهم يَجد فَضل حِلم عِندهم غَيْرِ عازِب
أنابوا فأعروا حَيْث كانوا وَعطّلوا مَعَ البيض كَالغزلانِ مَثنى النَّجائِب
فَلَا نائِبات الدَّهرِ يُرجعن هَالكا إلى أهلِهِ والدهرُ جَمُّ النوائِب
وَلَا مُقترا يَوما تَركن لِفقرِه فَيخفى وَلَا صَانعن أهْل الرَّغائب
وَلَا بَاسلا ذَا ثَروةٍ هِبنَ قَوْمه وَلَو زَحفوا مِنْ دُونه بالكتائب
فيغدو الفَتى والموتُ تَحت رِدائِهِ وَلَابُد مِن قَدْر مِنَ الله وَاجِب
يَقول غَدا ألقى الذي اليَومَ فاتَنِي وَيأمل أن يَلقى سُرُورَ العَجائب
وَينسى الذي يَمضى وَفي كُل مَرَّةٍ يُسدَّى لَهُ نَسجُ المَنايا الطُّوالِب
فَلَا تغْتبط يَوْما بِدنيا وَإن صَفَتْ وَلَا تَأمن الدَّهر صَرف العواقِب
وَقَد هَاجني طَيفُ لِداوُود بَعدما دَنَت فاستقَلت تَالياتُ الكَواكب
فَقلتُ أغمَّت مُقلتِي عَمايَةٌ لَبِثتُ وَقَد فَارقتني غَيْرِ عَاتِب[7]
وَمَافي ذُهول النَّاس مِن غَير سَلوة رَوَاح من السُّقم الذي هُوٍ غالبي
وَعندك لَوْ يُحيى صَداك فنلتقي شِفاءُ لِما غادرت يَوم التناضب
فَهَل لَكَ طِبٌ نَافعي مِن عَلاتِهِ تَهيِّمني بَينْ الحَشا والتَّرائب
تَشكيتها إذْ صَدعَ الدهرُ شَعْبَنا فَأمسْت قد عيت في الرُّقى والطبائب
وَلولا يَقين أنما الموت عَزمَة مِنَ الله حَتى يُبْعَثوا لِلمحَاسب
لَقلت لَهُ فِيها ألُم بِرمْسِهِ هَل انتَ غَدا غادٍ معي فمصاحِبي
فَمَاذا تَرَى فِي غَائِب لَا يُغيبني فَلَست بِناسيه وَلَيس بآئِب
فَأسقى صَدَى دَاوُود دانِ غَمَامه هَزيم يَسح الماء مِنْ كُل جَانِب
لِيَروى صَدَى دَاوُود واللحدُونه وَلَيس صَدى تَحْت العِداء بِشارِبِ[8]
وَلكن يُقر العَين والنَّفس أن تَرَى بِعقدَته فَضْلات زُرق دَوَاعِبِ[9]

على الرغم من جلال الموقف وعظم المصاب ، فقد أبى الشاعر إلا أن يلتزم بما لا يلزم من تقاليد الشعر العربي . وكانت تلك التقاليد تقضي بأن يمهد الشاعر لموضوعه تمهيدا يطول أو يقصر .

أما في الجاهلية فقد كانت تقتضي الوقوف على الأطلال ، ولكن الشعر في صدر الاسلام ، وفي العصور اللاحقة تخفف من هذا الالتزام . وإن ظل على وفائه لبعض تلك التقاليد كما نرى في قصيدة أبي صخر الهذلي . فقد رُزِيء بفقد ابنه ، وقال في رثائه شعرا ينم عن حزن صادق عميق ،

---

١) العزهي : الرجل الذي لا يحب اللهو ولا النساء . ٢) تلحي : تلوم . رغت : رجعت .

٣) قالوا : لقد كنت تحب النساء فكيف تهانا ؟ ٤) تصابيت : أصبت صبابة .

٥) تعزما : عزمن على ذلك ٦) مآربي : حاجاتي

٧) أغمت : غطت ، عماية : ظلمة من الدمع . ٨) العداء : الصخر الذي يوضع على القبر

٩) بعقدته : مكانه . الدواعب : السيول المثنات كأنها تلعب . وتدعب : تسيل . الزرق : الماء الصافي

ولكنه - على عظم مصابه - لم يطرق موضوعه على نحو مباشر، بل تكلف القول في موضوعات أخرى قبل بلوغ غايته في رثاء ابنه .

يستهل القصيدة بما يأخذه عليه أصحابه من لومه إياهم لطلبهم اللذة، وحبهم النساء، ويقولون له : كنت محبا للنساء، شغوفا بهن، فما بالك تنهانا عن صحبتهن . ويذكره هذا القول بما كان له من شأن وصحبة، فيصف محاسن النساء، وما كان يحب منهن، ويذكر اقباله عليهن واحتفاءهن به إلى أن ظهرت بوادر الشيب فأعرضن عنه، ولكنه يقرر مطمئنا أنه قد نال منهن مأربه، وفاز باللذة !

ويتلطف الشاعر في موضوعه، فيذكر الذاهبين الراحلين من الإخوان والأعمام والأهل جميعا، فيجد في تكرار الظاهرة - ظاهرة الموت بعد حياة طويلة حافلة، أو قصيرة مبتسرة - بعض عزاء، فهو يدرك أن ليس في الأحياء من هو خالد، وكان في من رحل فتيان أشداء، لا يعوزهم حلم، ولا تنقصهم شجاعة ولكنهم فارقوا، على الرغم من كل ما اتصفوا به من خلال. ذلك هو شأن نائبات الدهر فهي تأخذ الهالكين ولا ترجعهم .

إنها لا تترك أحدا، فلا هي تبقي مقترا لفقره، ولا تصانع أهل الرغائب طلاب الحياة . هذا فضلا عن سخريتها من الناس وزرايتها بهم، فالمرء يعلل نفسه بأن يلقى غدا ما كان قد فاته اليوم من سرور، ولا يدري أنه يحمل الموت تحت ردائه قدرا مقضيا ينشب به أظفاره عند دنو الأجل ! ويدرك الفتى حكمة كانت تغيب عنه في خضم آماله ومسراته، ألا وهي : لا أمن ولا أمان في الدنيا، فإن أبدت صفوا فلا يلبث أن يعقب صفوها غدر الدهر

تلك هي المعاني التي يستهل بها الشاعر حديث الشوق لداوود، وعلى الرغم مما أبداه من فهم لحكمة العيش حيث لايدوم صفو الحياة لأحد، فقد هاجه طيف داوود، وعادت اليه الذكرى حياة ناعمة دافئة، حتى قفزت دموع حارة، ووقفت بالمقلتين، فلا هي ظلت مستقرة في المحاجر ولا سقطت لتطهر النفس من بعض أدرانها، بل لبثت في موضعها هذا لكي يبدو الوجود معها غمامة . . . فهو كذلك منذ أن رحل داوود، يقول أبو صخر : لقد ذهلت ذهول اليائس، غير أنني لم أبرأ من السقم، فليس من شأن الذهول أن يذهب بالداء . وما شفائي إلا أن يحيا صداك فنلتقي، وهيهات ! فإن كنت لا تعود فهل لك أن تدلني على دواء نافع ؟

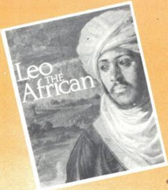
الموت إرادة إلهية، ولن يبعث الأموات إلى حياة أخرى إلا يوم الحساب، ولولا يقيني هذا لقلت لداوود كلما زرت قبره : ألن تأتي معي غدا فتصاحبني عندما أعود ؟! هذا هو شأني مع الغائب الذي لايغيب، فلا أنا أقوى على نسيانه، ولا هو عائد ! اذن فليهطل المطر - رمز البعث والحياة والمعادل الموضوعي للفناء - لعله يروي ظمأ داوود، وإن كنت على يقين من أن الظامىء الذي يرقد تحت الثرى لن يشرب أبدا، ولكن يسرّ العين أن ترى الماء الصافي يسيل حيث يثوي الموتى .

على هذا النحو نرى الشاعر يغالب حزنه فيغلبه الحزن : يتأسى لائذا بالحكمة متجملا بالصبر فيما هو يحاول التماس العزاء في حقيقة أن الموت قدر يحمله الفتى تحت ردائه، فإذا ما تذكر داوود هاجته الذكرى وبعثت الحزن حيا، حينئذ يطرح الحكمة ويسلم قياده إلى حزن عميق . وقد بلغ الذروة في تعبيره عن ألمه الدفين حين تساءل :

فمـاذا تـرى في غـائب لا يغبني
فلست بـنـاسـيـه ولـيـس بـآئب

وهذه القصيدة واحدة من قصائد أخرى يتوجع فيها أبوصخر لفقد داوود، ولكنها أفضل تلك القصائد وأرقها وأصدقها عاطفة . □

الوزان كيف أصبح "ليو" الأفريقي؟



تأليف : أمين المعلوف*

مراجعة وعرض : الدكتور حسين عبدالله العمري

« أعاد الكاتب والصحفي المعروف أمين المعلوف إلى الحياة الأدبية والعلمية سيرة حياة الرحالة والعالم الجغرافي العربي الحسن الوزان الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي . في رواية توثيقية شيقة باللغة الفرنسية ، معنونة بالاسم الذي اشتهر به الوزان بعد أسره وإقامته في روما ، وهو (ليو الأفريقي) وقد لقيت الرواية ترحيباً واهتماماً في الأوساط الأدبية منذ نشرها قبل عامين ، كما لاقت اهتماماً آخر بعد أن قام المستعرب البريطاني « بيتر سلغليت » بترجمتها إلى الانجليزية ونشرها في لندن العام الماضي . فمن هو ليو الأفريقي ؟ وما صلة العمل الابداعي الجديد للمعلوف بسيرة حياته الدراسية الحقيقية ؟ » .

* ترجم الكتاب من الفرنسية إلى الانكليزية البروفيسور بيتر سلغليت .

ولد الحسن بن محمد الوزان في (غرناطة) ، واختلف المؤرخون في سنة مولده ، ورجح المهتمون بذلك أن مولده كان حوالي (٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م) ، أي قبل سقوط غرناطة بنحو عشر سنوات ، ولابد أن أسرته العربية التي كانت تعمل في التجارة ، وتتعاطى العمل الدبلوماسي ، المنحدرة في الأصل من قبيلة بني زيات الزناتية المغربية ، قد أحست كغيرها بالخطر الاسباني الداهم على آخر معقل انحصر فيه سلطان العرب في مملكة غرناطة (١٢٣٦ - ١٤٩٣م) ، فانتقلت الأسرة إلى (فاس) التي كانت مزدهرة في مطلع حكم (بني وطاس) الذين استعادوها إلى حكمهم في قسم من المغرب الذي كان يعاني نفسه من صراع الأمراء وتنافسهم .

وفي مدينة فاس نشأ الحسن الوزان ، وتتلمذ على علماء ومشايخ (القرويين) المشهورين ، وتخرج في علوم اللغة وآدابها ، والفقه ، والتفسير والحديث ، والمنطق ، وسائر المعارف العربية والإسلامية المعروفة ، وأظهر نباهة ، ونبوغاً مبكراً ، فقرض الشعر صغيراً ، وجادل العلماء والفقهاء وناظرهم ، وهو لم يتجاوز العشرين من عمره ،ونال الإعجاب وحصل على الشهرة .

السفير الرحالة

قام الحسن الوزان في عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م بمهمة سياسية إلى جنوب المغرب ، لعلها من أوائل المهام التي كلفه بها سلطان فاس ، وذلك للتحالف مع إمارة السعديين الناشئة لمناهضة البرتغاليين المحتلين ، وتوحيد الصف ضد المتآمرين المحليين معهم ، وقد تردد بين مملكة فاس وهذه الإمارة غير مرَّة لهذا الغرض . وبعد عامين أوفده السلطان الوطاسي مع عمه في سفارة إلى بلاد السودان ، تباحث فيها مع ملك سنغاي « محمد أسكيا » الكبير الذي كان قد توسع حكمه واحتل تومبوكتو التي توغل فيها الوزان ، فقام بزيارة الممالك الإسلامية والوثنية في وسط أفريقيا وغربيها .

وفي العام التالي (٩١٨هـ - ١٥١٣م) قام بمهمة سياسية إلى الأطلس الكبير ، دامت سبعة أشهر ، تباحث فيها مع القبائل الساكنة في جبال (دادس) وما حولها . ومن ناحية أخرى كانت إمارة السعديين في جنوب المغرب بزعامة محمد القائم بأمر الله قد توسعت ، بعد مبايعة قبائل المنطقة لهذا الأمير ، فامتد سلطانه حتى سفوح الأطلسي الغربية والشمالية ، ومن جديد كلفه سلطان مملكة فاس محمد الوطاسي الاتصال بالأمير السعدي الذي سبق أن توطدت صداقته معه ، فرحل إليه بعد أشهر قليلة من عودته سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٤م) . وكان من نتائج زيارته الناجحة تأكيد الود والتعاون بين عاهلي المملكتين في الشمال والجنوب .

ويتضح الدور البارز المهم للحسن الوزان باختياره من قبل ملك فاس ليكون سفيره إلى بلاط أكبر قوة في الشرق (السلطان العثماني سليم الأول) ، حيث توجه إلى الآستانة ، لكنه ما وصلها حتى كان السلطان سليم قد غادرها على رأس حملته للاستيلاء على بلاد الشام ومصر ، في صيف عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م ، فلحق به السفير الوزان ، وحضر معه المعارك التي انتهت في ربيع عام ٩٢٣هـ/ ابريل ١٥١٧م ، وتم القضاء على مقاومة المماليك ونهاية حكمهم في مصر وبلاد الشام .

وبعد أن أمضى السلطان سليم بضعة أشهر في مصر وثبت خلالها حكمه في المشرق العربي عاد أدراجه بحراً من الاسكندرية إلى مقر الخلافة العثمانية في القسطنطينية .

وغادر السفير الوزان مصر راجعاً الى بلاده ، بعد رحلة زار خلالها السودان وبعض موانىء البحر الأحمر .

محنة الأسر

كان الحسن الوزان يتنقل بين بلدان الشمال الأفريقي عامين متتالين، وحين غادر بحراً تونس سنة ٩٢٦هـ/١٥٢٠م عائداً إلى المغرب ، ساقه سوء الطالع لتقع سفينته في يد القراصنة الطليان ، الذين كانوا كغيرهم من القراصنة ، يجوبون البحار للسطو والنهب ، فأسروه بالقرب من جزيرة (جربة) التونسية ، ليحدث منعطف مغاير وجديد في حياة الحسن الوزان ومستقبله ، حيث أوقعته الأقدار ليسوقه القراصنة مع رفاقه إلى نابولي ، لكنهم لم يبيعوه كغيره في (سوق النخاسة) ، فقد تبين لهم فيما يبدو أنهم ملكوا أسيراً غير عادي ، فنقلوه هدية إلى بابا روما (ليو العاشر) الذي وجد في الأسير المسلم بغيته .

لهذا فليس من شك بأن البابا « ليو » قد سعد بهذه الهدية . وسرعان ما وثقت الصلة بينهما ، لا صلة سيد بأسير ، ولكن صلة قريب بقريب . كان ينشد ضالة فعثر عليها ، ولعل من أسباب هذا التقارب والتجاوب ذكاء الحسن الوزان ، وسرعة تأقلمه مع البيئة المسيحية ، فهو موريسكي ، فتح عينيه في غرناطة التي كانت اللغة القشتالية الوثيقة الصلة باللاتينية منتشرة فيها ، والكنائس بأساقفتها وطقوسها منبثة في جوانبها . ولا نظن إلا أنه كان يتفاهم مع البابا بلغة أعجمية ، ويقدر ظروف أسره ، مدركاً أنه لا يمكن أن يعيش عيشة إسلامية في بؤرة المسيحية ، فتظاهر بالمسيحية وحمل اسم مالكه وحاميه ، البابا ، فصار يدعى ليون ، أو يوحنا الأسد الغرناطي أو الأفريقي ، تستراً عملاً بقول الله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ، إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ . وعلى عكس ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن تحول الوزان إلى النصرانية ، بعد أن عمده البابا بنفسه ومنحه اسمه ، كان بوازع من نفسه دون إجبار ، دلَّ معرباً في كتابه (وصف افريقيا) على استمرار إسلام الحسن الوزان وثبات عقيدته طوال السنين الثلاثين التي قضاها أسيراً في ابطاليا ، بأدلة من كتابه (وصف افريقيا) الذي ترجمه إلى الايطالية بناءً على رغبة البابا ، ومن ذلك الصبغة الاسلامية المتجلية في الكتاب ، واهتمامه بالملامح الإسلامية في المدن والقرى التي زارها المؤلف ، واعتزازه بالتعرف على حملة الشريعة الإسلامية من فقهاء وقضاة ومُفْتِين ، وكذلك من أن التواريخ المذكورة في (وصف افريقيا) كلها هجرية ، إلا مرات نادرة ورد فيها التاريخ الميلادي ، وهذا أمر أدرك دلالته المعلوف في روايته . وأخيراً « تمسك الوزان باسمه الاسلامي على الرغم من مرور سنين عديدة على أسره وتداول اسمه المسيحي ، فهو حينما يوقع في نابولي أو روما أحد كتبه يقول : « العبد الفقير إلى الله مؤلفه يوحنا الأسد الغرناطي، المدعو (من) قبل الحسن بن محمد الوزان الفاسي . . . » .

هروب الوزان

أمضى الحسن الوزان في إيطاليا ثلاثة عقود ، هي كهولته وبداية الشيخوخة ، أجاد فيها عدة لغات ، وتأثر بعصر النهضة والإحياء ، وأثر في تلاميذه ومريدي الثقافة العربية الاسلامية التي رأى فيها رواد الإحياء والبعث جسراً حضارياً بين حضارات أسلافهم اليونان والرومان وثقافتهم ، لكنه بالتأكيد على الرغم من حسن الرعاية والاحترام وعلاقات الود والصداقة التي أقامها في

بيئته الأوربية المسيحية الجديدة ، كان دائم التوق في الخلاص من واقع الرّق وازدواجية الشخصية المفروضة عليه ، وما هروبه في آخر الأمر إلّا تأكيد لذلك ، ورغبة ملحة في الرجوع إلى وطنه ودينه ، وقد كان له ذلك . إذ أنه اختفى من روما « في ظروف غامضة حوالي عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م ، والتحق بأقرب نقطة إليه في بلاد الإسلام ، حيث عاد إلى حياته الإسلامية الأولى » وللأسف فإن أحداً لا يدري بعد ذلك هل بقي في تونس التي وصلها أم عاد إلى أهله في فاس ، كما أن مكان وفاته وتاريخها مجهولان أيضاً، وقد ذكر بعض الباحثين بأنه توفي في عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م ، ومال معرباً في كتابه (وصف أفريقيا) إلى القول أنه مات بعد سنة فراره ، أما الأستاذ المعلوف فإن خياله لم يذهب بعيداً عن وصول الحسن الوزان إلى شط الأمان في تونس ليروي سيرته وما وقع له .

رواية ليو

في عام ١٩٨٦م صدر في باريس عن دار نشر جان كلود لاتيه العمل الروائي البديع للأستاذ المعلوف ، باسم محور الأحداث وبطلها « ليو الأفريقي » ووجدت الرواية اهتماماً في الأوساط الأدبية الفرنسية ، كما أشادت الصفحات الأدبية بمضمون الرواية وجمال أسلوبها الذي وصفته صحيفة لوموند بأنه « يتدفق حيوية ويهز المشاعر . . . » ، ووصفت مجلة أدبية ما عمله المعلوف « بنسج التاريخ في بساط اسطوري طائر . . . » ، وقد لقيت الترجمة الانجليزية الرفيعة التي قام بها حديثاً المستشرق الدكتور (بيتر سلغليت) ، أستاذ التاريخ في جامعة درم البريطانية ، الاهتمام نفسه في الصحافة البريطانية وملاحقها الأدبية عقب صدورها عن دار (كوارتر) بلندن سنة ١٩٨٨ في ٣٦٠ صفحة .

قسم المعلوف سيرة حياة ليو الأفريقي - كما تخيلها في روايته - إلى أربعة فصول أو (كتب) كما أطلق عليها ، أولها (كتاب غرناطة) ، حيث ولد البطل ، ويلي ذلك الفصل الثاني (كتاب فاس) ، والثالث (كتاب القاهرة) ، والأخير (كتاب روما) . وليس لنا أن نتوقع بأن الخيال الجميل الذي نسج منه المعلوف روايته قد التزم فيه صحة التفاصيل ، ودقة الحوادث كما حدثت في الواقع . فلو كان قد فعل لكانت روايته مجرد سرد تاريخي ، لا روح له ولا حياة فيه . ومع ذلك فقد حرص أن يضعها من أولها إلى آخرها في إطار تاريخي دقيق ، مسلسلاً فصولها في حوليات ، أولها عام ٨٩٤هـ/ ١٤٨٩م ، وهو العام الذي اختاره مولداً للحسن الوزان في غرناطة ، وفيه بعض الخلاف مع ما أشرنا إليه في ما تقدم- ونهايتها الحولية الأربعين (٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م) التي يسجل في أولها بطل الرواية « . . وهكذا يحل العام الأربعون ، كأمل أخير لنهاية اغترابي . . . » . إن حولية هذا العام الهجري تبدأ في (٨ أكتوبر ١٥٢٦م) ، وتنتهي في (٢٦ أكتوبر ١٥٢٧م) لهذا فقد كان من الصحيح تاريخياً أن تنتهي حولية السنة السابقة لها بفراغ (ليو) من اللمسات الأخيرة لكتابه (وصف أفريقيا) ، ومن ثم قراره - كما شاء له المؤلف - « أن يبدأ جدياً وبدون راحة لتسجيل حولياتي

ومجريات ما وقع معي من حوادث . . لقد كانت روما تذوي ، وحياتي في إيطاليا قاربت النهاية ، ولم أكن أعلم متى سيكون لدي متسع من الوقت لأكتب ثانية . . » .

لقد نجح المعلوف بأسلوب أخّاذ في رسم الصور المؤثرة ، واستخدام الحوار الذاتي في تداعي الذكريات للتعبير عن مختلف الخوالج والمشاعر الإنسانية ، ومن ذلك ما حدث للعرب المسلمين الفارين من المذابح ومحاكم التفتيش التي أعقبت سقوط (غرناطة) مسقط رأس الحسن الوزان الذي كان يرى فيها « مدينة ليست كمدن الدنيا . . » والتي كان دائماً يسترجع ذكرى طفولته الأولى فيها بعد سنين طوال .

في رعاية البابا

تبدأ الرحلة الأولى الطويلة التي يرافق فيها حسن خاله في مهمته لسلطان فاس وفي هذه الرحلة تقدم إليه كهدية القينة الجميلة (هبة) ، وتتوالى رحلاته إلى الشرق كتاجر ومبعوث ، فيواجه أحداثاً ويجمع ثروة ويقع في غرام أميرات ويقابل أمراء وسلاطين وحتى يقع في أسر القراصنة الصقليين ويحضر إلى البابا ليو العاشر الذي أحسن معاملته بعد معاناة الأسر والسجن ، وليعمده بعد أشهر فيندفع بحماس للمزيد من المعرفة التي كان يشعر من يوم لآخر بتناميها « ليس فقط في المواضيع التي كنت أدرسها بل بنفس القدر من اتصالي بأساتذتي وتلاميذي . . » وللمرة الأولى سمع من أحدهم مدى تنامي مرارة العداء الذي يكنه البابا ليو العاشر لمعاصره المصلح الألماني الراهب « مارتن لوثر » (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) زعيم حركة الاصلاح (البروتستانية) ، وانفصاله عن الكنيسة وسلطة البابا ، وذلك في عام ١٥١٧ ، وقد أكمل ليو الأفريقي تعليقه في حولية العام ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م على ما سمعه حول ذلك الحدث « . . من أنه بات تهديداً يعم كل أوربا بالنار والدمار والقادم على روما بأعظم الخطوب » ويعود في حولية العام التالي ليناقش أفكار لوثر مستذكراً أحاديث نبوية حول معنى حركته ، مقدراً في دخيلة نفسه فهمه لمثل هذه الأفكار الاصلاحية ، لكنه لا ينكر فضل البابا ليو عليه ، فقد منحه اسمه وحبه ، وسرعان ما أسلم البابا الروح في ٢٦ يناير ١٥٢٠ ، فكان ذلك كيوم الخلاص للحسن الوزان على الرغم من حزنه الشديد عليه : « لقد باتت روما بوفاة البابا سيء الحظ هوّة سحيقة إلى الجحيم بعد أن كانت بوابة إلى السماء ! » .

« أنا حسن بن محمد الوزان ، ويقول أيضا : طهرت (ختنت) بيد بربري ، وعمدت على يد « بابا » أدعى الآن بالافريقي ، مع أني لست من افريقيا ولا من أوربا ، ولا حتى من جزيرة العرب . إنني أدعى أيضاً بالغرناطي الفاسي ، الزياتي ، بيد أني لم آت من بلد ولا مدينة ، بل ولا من قبيلة (بعينها) . أنا ابن السبيل ، وطني القافلة ، وحياتي رحلات (بحرية) غير متوقعة . ولطالما تعودت ذراعي على عطفات الحرير ومخامل الصوف ، ومصوغات الأمراء ، وسلاسل العبيد . أما أصابعي فقد أماطت ألف خمار ، ولثمت شفتاي الفُ خدٍ ندي ، ورأت عيناي مدنا تذوي ، وممالك تختفي ، من فمي (يابني) ستسمع العربية واللغات التركية والقشتالية والبربرية ، والعبرية واللاتينية ، بل والايطالية الدارجة ، لأنها كلها وصلواتها ترجع إليّ ، مع أنني لست منها - كلها - في شيء ، فأنا عائد - فقط - إلى الله (سبحانه) وإلى الأرض التي منها وإليها سأعود آجلاً أو عاجلاً . بيْد أنك - يابني - ستمكث بعدي ، حاملا معك ذكراي ، قارئاً كتبي ، مسترجعاً مَشاهد والدك وهو في زي نابولي ، راكباً هذه السفينة المبحرة به صوب الشاطىء الأفريقي ، كتاجر يراجع مع نفسه حساباته في نهاية رحلة طويلة . □



من المكتبة العربية

الآلات في حياتنا كيف تعمل؟

موسوعة تقنية

عرض : الدكتور حسن عباس

صدر منذ أشهر قليلة المجلد الرابع من الموسوعة العلمية التقنية « الآلات في حياتنا : كيف تعمل » ، وكان المجلد الأول قد صدر في عام ١٩٨٥ ، وبذلك تكون مجلدات هذه الموسوعة الفائقة الأهمية قد اكتملت ، بعد جهد مخلص دءوب ، استغرق ثلاثة أعوام أو أكثر .

لقد كانت « الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية » وراء هذا الجهد الكبير ، فقامت بشراء حق الترجمة من الانجليزية من صاحب هذا الحق ، وهي دار النشر الألمانية صاحبة الطبعة الأصلية للموسوعة وشكلت لجنة للاشراف على الموسوعة ، تتكون من نخبة من الكفاءات العربية في مجال العلوم والترجمة ، ترأسها الأستاذ أنور النوري ، وزير التربية بدولة الكويت حاليا وأوكلت إليها الإشراف على إنجاز هذا العمل وإخراجه .

أسئلة ملحة

إن ترجمة هذه الموسوعة وإخراجها على النحو المتقن الذي تبدو عليه هو عمل جليل حقا ، لا يسع المرء إزاءه إلا أن يقر بفضل القائمين عليه ترجمة وإخراجا وطباعة ، فالموسوعة تتيح للناشئة في أقطار الوطن العربي ، وللكبار على حد سواء ، فرصة الاطلاع على إجابات عن أسئلة ملحة ، طالما افتقدوا الاجابة عنها بأسلوب سهل يسير ، فكيف إذا توافر لهم ذلك موضحا بالرسوم والشروح العلمية الدقيقة !

تتولى الموسوعة الحديث عن آلات تستعمل في الحياة اليومية للناس ، فتسد ثغرة كان ينبغي لنا الالتفات إليها منذ وقت مبكر وهي غرس الروح العلمية بين الناشئة العرب ، وإيضاح الأسس النظرية التي تقوم عليها تطبيقات العلم الحديث ، وهو ما اصطلح على تسميته بالتقنية . فالنوادي العلمية التي لا يخلو منها قطر عربي تحاول تدريب أجيال متعاقبة من الناشئة على ما لديها من الأجهزة العلمية ، وتحبب إليهم

البحث العلمي والاشتغال بالعلم ، ولكن تلك النوادي - وغيرها من مؤسسات التعليم والتدريب في الوطن العربي - كانت تفتقر الى معلومات مبسطة ، تشرح الأساس النظري الذي تقوم عليه كل آلة . ليس هذا فحسب ، بل إن الناشئة والكبار معا كثيرا ما يتساءلون عن الكيفية التي تعمل بها أجهزة تزاحمهم العيش في بيوتهم ، أو قل تيسر لهم سبل العيش في تلك البيوت ، كالثلاجة والغسالة ، ومكيف الهواء والمذياع والتلفاز ، دع عنك الفيض الغزير من الأجهزة والمواد التي نواجهها في كل مجال من مجالات حياتنا في العمل أو في توفير الخدمات الأساسية ، أو حتى في الترفيه ، فلا يجدون الإجابة العلمية الوافية . لكل ذلك نقول : إن صدور هذه الموسوعة جاء ملبيا لطلب ملح وحاجة ماسة متزايدة .

علينا - ونحن نسعى إلى إقامة نهضة عربية حديثة - أن نضع الثقافة العلمية حيث ينبغي لها أن توضع ، وأن نوليها ما تستحق من اهتمام ، وما صدور الموسوعة إلا مظهر من مظاهر هذا الاهتمام .

إن الاكتشافات العلمية المتلاحقة وما يستتبعها من تطبيقات تقنية ما زالت أجنبية الهوية ، لم يتح للمبدعين العرب دور المشاركة فيها ، وما ذلك إلا لأن القدر الكافي من ثقافة العلم لم يتح لهم منذ نشأتهم وتربيتهم الأولى كما أتيحت لهم ثقافات إنسانية أخرى .

أصل الموسوعة

لم يمض على إنشاء الجمعية أكثر من ثماني سنوات ، لكنها استطاعت خلال هذه الحقبة القصيرة أن تعلن عن نفسها على خير وجه ، ليس بما تقدمه للصحافة ووسائل الإعلام فحسب ، بل بالأعمال التي أنجزتها ، وهي أعمال يلحظ أهميتها كل متتبع لنشاط الجمعية ، وما إصدارها للموسوعة إلا جهد من جهود أخرى بالغة الأهمية .

ويعود الفضل في اكتشاف هذه الموسوعة والعمل على اصدارها - مثلما يعود الفضل في تأسيس الجمعية نفسها - إلى اهتمام الدكتور حسن الابراهيم ، رئيس مجلس الادارة ، وإلى آماله التي رافقته منذ كان مديرا لجامعة الكويت فوزيرا للتربية ، وتطلعاته لإيجاد مؤسسة عربية متخصصة ، قادرة على رعاية الطفولة العربية ، والبحث في الأسس التربوية والعلمية التي ينبغي أن يقوم عليها تقدم الطفولة العربية .

كانت هذه الموسوعة قد صدرت باللغة الألمانية في منتصف الستينات ، ثم ترجمت إلى لغات عدة منها الانجليزية ، « ولقيت رواجا تجلى في طباعة وتوزيع لملايين النسخ منها . ولعل الفضل في هذا الانتشار الواسع راجع لكونها وثيقة الصلة بحياة الناس على اختلاف تخصصاتهم واهتماماتهم ، فهي مرجع قيم مفيد ، يجد فيه الناشئة وطلاب المدارس الإجابات الوافية عن الكثير من الأسئلة التي تواجههم ، كما أنها تفيد الآباء والأمهات والمثقفين وطلاب المعرفة » .

يتلخص المنهج الذي تسير عليه الموسوعة في أنها تورد وصفا علميا مبسطا ومختصرا لكل آلة من الآلات التي تصفها في المجلدات الأربعة . ولا تكتفي بالشرح المبسط ، بل تخصص الصفحة المقابلة لشرح الآلة أو الجهاز بالرسم ، فتجعل منه وسيلة إيضاح تتضافر مع الشرح بالكلمات على نقل المعلومة وإيصالها إلى القاريء ، على نحو لا يترك لديه لبسا أو غموضا .

أما ترتيب مواد الموسوعة فبحسب المبادىء التي تعمل الآلة على أساسها : فآلات الاحتراق الداخلي كالسيارة والقطار مثلا ترد متتابعة ، وكذلك كل ما يتعلق بالضوء ، كالعدسات وآلات التصوير وأجهزة التلفاز والرادار ، وغير ذلك مما سيجده القاريء في هذه الموسوعة . ولو

تصفحنا مجلدات الموسوعة الأربعة لوجدنا أمثلة لكل ذلك :

يبدأ الحديث عن مطافىء الحريق مثلا بذكر أسباب الحرائق والعوامل التي تساعد على استمرارها ، ثم يتطرق إلى الآلات التي تستخدم في إطفائها . ولما كانت أسباب الحرائق مختلفة وأنواعها مختلفة فإن الآلات التي تعمل على إطفائها مختلفة أيضا . لا بد لوسائل إطفاء الحريق من أن تقوم إما بتبريد المادة القابلة للاحتراق ، أو بتغطيتها بمادة محكمة الالتصاق ، غير قابلة للاشتعال ، أو بأن تقوم بازاحة الاكسيجين عن مركز نشاط الحريق . ويزيد الأمر سوءا في حالة وجود مواد قابلة للحريق ، تحتوي على الاكسيجين اللازم للاحتراق . ومن وجهة نظر مكافحة الحريق هناك أهمية كبيرة لمعرفة ما إذا كانت المادة المحترقة سائلة أو صلبة أو مذابة في الماء ، أو أخف أو أثقل من مادة إطفاء الحريق . وبهذا تتضح ضرورة وجود أنواع مختلفة من وسائل الإطفاء وطرق محاربة الحريق !!

ويلي ذلك في الصفحة المقابلة رسوم توضيحية للآلات التي تستعمل في الإطفاء ، منها المطفئة التي تستخدم رابع كلوريد الكربون ، ومطفئة أخرى تستعمل الماء ، وثالثة تعمل بمكونات كيماوية ، ورابعة تعمل بواسطة ثاني اكسيد الكربون ، ومع ذكر كل من هذه الآلات شرح علمي مبسط لكيفية عمل الآلة على النحو التالي :

نماذج مختارة

« أما مطفئة ثاني اكسيد الكربون فتحتوي على ٥ إلى ٦ لترات من ثاني أكسيد الكربون تحت ضغط مرتفع . ويتمدد هذا الغاز إلى الضغط الجوي في أنبوب الثلج ، حيث يتبخر الجزء الأكبر منه بسرعة ، وفي هذه العملية يجري امتصاص قدر من الحرارة من الوسط المحيط ، فيؤدي هذا إلى تبريد القدر المتبقي من ثاني اكسيد الكربون (حوالي ٣٠٪) ، وتحويله الى جليد . . وينثر هذا الثلج على النار بواسطة غاز ثاني اكسيد الكربون الأمر الذي يتسبب في خفض درجة الحرارة الى أقل من نقطة الاشتعال ، والى عزل الاكسيجين عن الحريق » .

وفي مجال الصوتيات تتحدث الموسوعة عن مضخمة الصوت ، ذلك الجهاز الذي يحول تغيرات الطاقة الكهربائية إلى تغيرات مناظرة من الطاقة الصوتية أي إلى صوت . ومن ثم تكون وظيفته مشابهة لوظيفة سماعة الهاتف ، إلا أن الصوت الناتج يكون أعلى بكثير . والواقع أن مضخمات الصوت القديمة صممت على هيئة سماعات هاتف كبيرة ، مثبت فيها غشاء أمام أقطاب مغناطيس دائم يعزز مجاله ويخفض بواسطة تيار المضخم الذي يمر في ملفات . وهكذا يهتز الغشاء في ايقاع مع تغير شدة المجال ، ناقلا بذلك الاهتزازات إلى الهواء كموجات صوتية .

ومضخمات الصوت أنواع وأشكال عديدة ، فهناك مضخمات ديناميـة ، وأخـرى الكترودينامية ، وثالثة بلورية ، ورابعة الكتروستاتية ، ولكل من هذه الأنواع رسم توضيحي يبين مكونات الجهاز وطريقة عمله .



طريقة عمل النظارة

وإذا انتقلنا من مجال الصوتيات إلى مجال المرئيات نجد أن النظارات تحظى باهتمام الموسوعة ، فتعرف بها وبأنواعها ، وتستهل الحديث بتشخيص الحالة التي تستدعي استخدام النظارة بالقول : عندما يكون للشخص إبصار طبيعي فإن صورة الجسم البعيد (الواقع نظريا في اللانهاية) تتكون بدقة على شبكية العين ، أي أن البؤرة تقع على الشبكية . وبما أن بعد الصورة ـ المسافة الكائنة بين العدسة والشبكية ـ يتحدد بحجم مقلة العين ، فإن صورة الجسم القريب من العين لا تصبح واضحة على الشبكية إلا عن طريق إنقاص البعد البؤري لعدسة العين ، أي بزيادة قوة كسرها . ويتم ذلك بفعل عضلة تزيد من تقوس العدسة .. وليست كل العيون طبيعية الابصار ، فإذا كانت المسافة بين عدسة العين والشبكية كبيرة جدا فلن تتكون صورة الجسم البعيد على الشبكية نفسها ، بل تتكون أمامها . ويقتضي تكوين صورة واضحة تماما وقوع الجسم على مسافة أقرب من العدسة ، وهذا يعني أن العين قادرة فقط على تكوين صورة واضحة للأجسام الواقعة ضمن تلك المسافة القصيرة . ويقال عندئذ إن الشخص « قصير النظر » . وبالامكان تصحيح هذا العيب بواسطة النظارات ، إذ تجعل الأشعة الواردة في اللانهاية تتفرق قليلا بوساطة العدسة ، فتبدو كأنها صادرة من جسم يقع في مكان أقرب للعين .

وتستطرد الموسوعة في الحديث عن أنواع العدسات ، وعن الكيفية التي تستطيع بها نقل الصورة إلى الشبكية ، فتعمل على تلافي النقص في العين الطبيعية ، وترسم لكل حالة رسما يوضح مسار الأشعة بالنظارة أو بدونها ، وتبين كيف تساعد نظارة القراءة مثلا على وضع الأجسام القريبة في البؤرة .

وتنتقل الموسوعة من الحديث عن النظارات إلى الحديث عن أشكال أخرى من الآلات المتصلة بالبصر ، كالعدسات المكبرة وآلات التصوير والتلفاز بنوعيه : العادي والملون ، وكذلك التصوير الفوتوغرافي والمصابيح ومطلقات الضوء الخاطف ، وغير ذلك من آلات تصنف تحت هذا الباب .

يلي ذلك حديث عن أجهزة الوزن والقياس ، وينضوي تحت مواد هذا الباب آلات كثيرة ، منها الموازين على اختلاف أنواعها ، ومنها الساعات بانواعها والبندول .

قلم الحبر السائل

ولم تترك الموسوعة آلة إلا وخصتها بالشرح والتوضيح وبيان كيفية عملها ، ومن تلك الآلات قلم الحبر السائل الذي يظن الكثيرون أنه آلة بسيطة ، لكنها تقوم على مبدأ علمي . ففي قلم الحبر ذي الكباس ، يتصل عمود دوران لولبي بغطاء التعبئة ، ويرتبط من الداخل بلولب ذراع الكباس المجوف ، وتتصل مقدمة هذا الذراع بكباس مانع لتسرب الهواء والسائل إلى مؤخرة مستودع الحبر .

عند دوران الغطاء في الاتجاه المضاد لعقارب الساعة يتحرك الكباس إلى الأمام ، وهناك ممر صغير يسمح بمرور الهواء إلى خلف الكباس ، بحيث يمنع حدوث المص الذي يعوق حركة الكباس إلى الأمام . أما إذا سحب الكباس بعد ذلك ، فإن الهواء يخرج من الممر نفسه . وتتحقق حركة إرجاع الكباس عند دوران التعبئة في اتجاه عقارب الساعة ، فيحدث هذا مصا في فتحة المستودع يسحب الحبر الى داخل القلم ، وبذلك يمتلىء المستودع وممرات الحبر حتى ثقب هواء ريشة الكتابة .

وهكذا تواصل الموسوعة تناول الموضوعات فتشرح الآلة وتبين طريقة عملها قولا ورسما . □

مكتبة العربي

مختارات

اسم الكتاب : عبدالرزاق السنهوري من خلال أوراقه الشخصية
اسم المؤلف : د . نادية السنهوري ، و د . توفيق الشاوي
الناشر : الزهراء للإعلام العربي - القاهرة
عدد الصفحات : ٣٥٨ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨م .

الكتاب مجموعة من المذكرات الشخصية التي كتبها الاستاذ المرحوم د . عبدالرزاق السنهوري ، شيخ فقهاء القانون العرب ، وهي مذكرات تبدأ بشهر اغسطس عام ١٩١٦ حتى شهر أغسطس ١٩٦٩ ، وقد أضاف معدا الكتاب إلى المذكرات تعليقات وحواشي تربطها بالأحداث التي عاصرها .

والأوراق تحوي قضايا وأفكارا متنوعة ، بالإضافة إلى الأحاسيس والمشاعر الشخصية .

□□□

اسم الكتاب : معاني الأسماء
اسم المؤلف : د . محمد سمير نجيب اللبدي
الناشر : كاظمة للنشر والتوزيع - الكويت
عدد الصفحات : ٣١٠ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨م .

كتاب جديد وطريف في المكتبة العربية ، يقدم فيه مؤلفه معاني الأسماء ، مختارا ترتيبا أبجديا ، وتحت كل حرف يضع كل الأسماء التي تبدأ به ، ومعانيها ، ويضع أسماء المشاهير والأعلام الحاملين لنفس الاسم . وقراءة الكتاب فيها قدر من الطرافة والمعلومة الجديدة .

□□□

اسم الكتاب : «الاقتصاد الاسرائيلي»
اسم المؤلف : د . حسين أبو النمل
الناشر : مركز دراسات الوحدة العربية
عدد الصفحات : ٤٠٤ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨م .

دراسة « أكاديمية » شاملة للاقتصاد « الاسرائيلي » ، تجعل منها مرجعا شاملا لكل مهتم بدراسة الكيان الصهيوني . يبدأ الكتاب بعرض للاطار التاريخي للاقتصاد « الاسرائيلي » ، ثم ينتقل إلى الموارد البشرية ، وموارد « اسرائيل » الاستثنائية ، وبعد ذلك يناقش الموارد واستخداماتها ، وميزان المدفوعات ، والديون ، مبينا في هذا الجزء صافي إجمالي المساعدات والقروض التي تلقتها « اسرائيل » من امريكا ، منذ سنة ١٩٥٠ حتى سنة ١٩٨٥ ، ثم يستعرض الكاتب بالتفصيل الأنشطة القطاعية المختلفة ، فيتناول قطاع الكهرباء ، وقطاعات المياه والزراعة والانشاءات ، وقطاع الصناعة ، والتجارة الخارجية ، ثم يقدم الكاتب فصلا كاملا عن قوة العمل ومشاكلها ، وفصلا عن التحولات

الاجتماعية المرتبطة بالمؤثرات الاقتصادية ، كما يفرد الكاتب فصلا كاملا عن السياسة العلمية والبحث العلمي والتقنية النووية ، ويناقش فيه الخيار النوعي في مجال السياسة العلمية والتعاون العلمي مع الخارج ، ونصيب البحث والتطوير العلمي من الناتج القومي ، والبحث العلمي في مجال الطاقة النووية .

□□□

اسم الكتاب : الريف والثورة في الرواية الجزائرية
اسم المؤلف : عمر بن قينة
الناشر : المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر
عدد الصفحات : ٩٤ صفحة من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨ م .

مجموعة من الدراسات النقدية لعدد من الأعمال الابداعية في الأدب الجزائري ، يتناول الكاتب فيها الأعمال التي تعرضت للريف والثورة في الجزائر ، ويعرض الكاتب خلال دراساته للبعد الاجتماعي والسياسي للريف الجزائري ، والتغيرات والتطورات الاجتماعية التي عانى منها الريف ، وكيف كان الخلاص الحقيقي للريف هو حلم الثورة ، وفعلها الذي تفجر في عام ١٩٥٤ ، وظلت معاناة الإنسان الجزائري سواء في الريف أو المدينة ملمحا حقيقيا في أعمال إبداعية كثيرة .

□□□

اسم الكتاب : إشارات الغمام الكبير
اسم المؤلف : سعيد فرحات
الناشر : المكتبة العصرية ـ بيروت
عدد الصفحات : ١٠٢ من القطع الصغير
سنة النشر : ١٩٨٨ م .

مجموعة من القصائد ، هي آخر ما أنتجه الأديب الراحل ، وهي نماذج لشعر المقاومة ، يتغنى فيها بالأرض والوطن والحلم ، ويغني للخبز والحرية والأزهار والسنابل ، والقصائد كلها مشبعة بروح الأمل والصمود والقتال حبا للحياة .

■ **دلائل الغباء ثلاثة : العناد والغرور والتشبث بالرأى** (بارتون)

■ **عليكم بالأدب . فإن احتجتم إليه كان مالا وإن استغنيتم عنه كان جمالا .** (عبدالملك بن مروان)

■ **عليك بعمل الابطال : الكسب من الحلال والانفاق على العيال .** (الثورى)

■ طالب الدنيا كشارب ماء البحر ، كلما زاد شربا ، ازداد عطشا (ابن المقفع)

■ لا وجود لوطن حر إلا بالمواطنين الأحرار . (فولتير)

■ من خلال أشواك الخطر نحصل على زهور السلام . (شكسبير)

■ لسان الجاهل مفتاح حتفه (ابن المعتز)



مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٦٥

ابريل ١٩٨٩

جوائز المسابقة

الجائزة الأولى ٥٠ دينارًا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارًا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارًا
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة . ترسل الاجابات على العنوان التالى :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ ـ الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٦٥ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات إلينا هو ١٥ مايو ١٩٨٩ .

ارفق الحل مع هذا الكوبون
كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٦٥

١ أين ظهرت الطرق المعبدة أول ماظهرت في التاريخ ؟
* فى الامبراطورية الرومانية .
* فى بلاد الرافدين ، أيام البابليين والآشوريين .
* في مصر الفرعونية .

٢ اشتهرت الامبراطورية الرومانية بكثرة طرقها المعبدة وجودتها . ترى كم بلغ مجموع طول تلك الطرق وهي فى أوجها ؟
* ٢٠٫٠٠٠ كم .
* ٤٠٫٠٠٠ كم .
* ٨٠٫٠٠٠ كم .

٣ العربة الأولى في التاريخ ، أو إن شئت سيارة الأجرة الرائدة لم تكن آلية تعتمد على محرك ، وإنما كانت عادية ، تجرها الخيول . ترى أين ظهرت هذه العربة ، أول ما ظهرت ، وذلك سنة ١٥٠٠ م ؟
* فى بلاد الانكليز .
* فى فرنسا .
* فى بلاد المجر ، فى بلدة كوكس على وجه التحديد .

٤ أى الاختراعين سبق الآخر : اختراع السيارة أم اختراع الدراجة العادية التى تعتمد فى سيرها على الضغط بالأقدام ؟
* اختراع الدراجة هو السابق ، فقد ظهرت الدراجة العادية فى القرن السادس عشر ، عندما ظهرت عربة الخيول .
* اختراع السيارة هو السابق . والمقصود هنا الدراجة العادية ذات الدواسات والسيارة التى تسير بمحرك يعتمد على البنزين .

٥ من المعروف أن صناعة السيارات قد بلغت أوجها في الولايات المتحدة الامريكية واليابان وأوربا الغربية. ترى في أي المناطق الثلاث ظهرت سيارة البنزين الأولى في التاريخ، علما بأنها ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر؟

٦ * السيارة الكهربائية. * والسيارة البخارية. * وسيارة البنزين. ترى أي هذه السيارات اخترعت أولا، وأيها جاء اختراعها في المرتبة الثانية، وأيها جاء اختراعها في المرتبة الثالثة؟

٧ اشارات المرور الضوئية لاتخلو منها مدينة في الوقت الحاضر، وقد أصبحت بالغة الخطورة في حياتنا، ولاغنى عنها لانتظام السير على الطرق، ولتجنب حوادث الاصطدام. أين ظهرت هذه الإشارات؟
* في لندن حيث اخترعت الدراجة العادية.
* في المانيا حيث اخترعت السيارة.
* في باريس عاصمة فرنسا في العصور الحديثة.

٨ ترى من كان مخترع «فلكنة» المطاط أوتقسيته؟
* شارلز جوديير الامريكي.
* بيرلي الايطالي.
* بريجستون الياباني.

٩ ترى كم بلغت السرعة القصوى التي حددها قانون الراية الحمراء للسيارات في انطلاقها على الطرق، داخل المدن وخارجها؟
* ميلين في الساعة.
* ٨ أميال في الساعة.
* ١٨ ميلا في الساعة.

١٠ شهد العالم سباقا عالميا للسيارات سنة ١٩٠٨. ترى كم بلغت سرعة السيارة التي فازت بالجائزة الأولى في ذلك السباق؟
* بلغت سرعتها بالمتوسط ٢٥ كيلومترا في الساعة.
* بلغت سرعتها بالمتوسط ٥٠ كيلومترا في الساعة.
* بلغت سرعتها بالمتوسط ٥ كيلومترات بالساعة أو أكثر قليلا.

١١ كم بلغ مجموع السيارات التي أنتجتها مصانع السيارات في العالم كله، وذلك منذ مطلع القرن العشرين حتى أواخر السبعينيات منه؟
* حوالى ٥٠ مليون سيارة.
* حوالى ١٥٠ مليون سيارة.
* نحو ٢٥٠ مليون سيارة.

١٢ يعتقد بعض الناس أن اختراع السيارة كان نقمة على الإنسان، بقدر ماكان نعمة، فالسيارة نعمة ضمنت للناس الراحة والرفاهية والتغلب على المسافات، لكنها نقمة عودت الناس على الكسل وعدم المشي، فانتشرت بينهم الأمراض «الحضارية»، كمرض السكري وارتفاع ضغط الدم، أضف إلى ذلك الموت الذي تسببه حوادث السيارات، ترى كم يبلغ مجموع ضحايا السيارات في العالم كله حتى عام ١٩٨٦ م؟
* ٥ ملايين نسمة.
* ١٥ مليون نسمة.
* ٢٥ مليون نسمة.

حل مسابقة العدد ٣٦٢

ينـــاير ١٩٨٩

١ الشهباء والمقتبس هما الصحيفتان اللتان أصدرهما عبدالرحمن الكواكبي ومحمد كرد علي في حلب ودمشق على التوالي ، وقد صدرت الأولى سنة ١٨٧٧ وصدرت الثانية عام ١٩٠٨ .

٢ الصحيفة اليابانية يوميوري شمبان هي الصحيفة اليومية الاولى من حيث التوزيع في العالم أجمع ، وقد بلغ توزيعها حسب إحصاء ١٩٨٧/٤/١ ١٤,٢٧٤,١٣٢ نسخة (منها ٩,٢٥ ملايين وربع تصدر في الصباح ونحو ٥ ملايين في المساء) .

٣ صدرت النشرة أو الجريدة الإخبارية الاولى في التاريخ ، في كولن في المانيا ، ومدينة كولن هذه تقع على نهر الراين وعلى بعد ٣٥ كيلومترا في مدينة دوسلدورف .

٤ محمد علي باشا هو الذي أسس جريدة الوقائع المصرية التي صدرت أول ما صدرت سنة ١٨٢٨ .

٥ النيويورك تايمز هي الصحيفة اليومية التي تصدر أعدادا ضخمة تلفت النظر بضخامتها والعدد الذي يشير اليه السؤال صدر بتاريخ ١٩٦٥/١٠/١٧ وقد بلغ عدد صفحاته (٩٤٦) صفحة على وجه التحديد ، وقل مثل ذلك في وزنه الذي بلغ ٣,٤٠ كيلوغرامات ، وكان العدد حافلا بالاعلانات ومواد الدعاية ، وقد بلغ عدد سطور الدعاية التي احتواها ١,٢٠٠,٠٠٠ سطر .

٦ اليابان هي الدولة الاولى من حيث توزيع الصحف بين سكانها وتأتي المملكة المتحدة في المرتبة الثانية والولايات المتحدة الامريكية في المرتبة الثالثة .

٧ في روما وفي أيام يوليوس قيصر بالتحديد وقد سماها (اكتا ديورنا) وضمنوها أخبار الأعراس والوفيات والتعيينات العسكرية .

٨ المدة التي استغرقتها أخبار معركة الطرف الأغر هي أسبوعان ونصف اسبوع هذا على الرغم من أن تلك الأخبار كانت أخبار النصر الحاسم الذي أحرزه نلسن ، قائد الاسطول البريطاني على نابليون بونابرت ، وعلى حلفائه الأسبان ، وقد وقعت تلك المعركة في البحر الابيض المتوسط ، عند رأس الطرف الأغر الأسباني .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٦٢ يناير ١٩٨٩

الجائزة الاولى : محمد فال بن الطالب النافع - نواكشوط - موريتانيا .
الجائزة الثانية : عبدالغني عبدالهادي - عمان - الأردن .
الجائزة الثالثة : عبدالله عمر الجحدري - تعز - الجمهورية العربية اليمنية .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ - جمال بن خليفة بن الشاوش بو عرادة - الوسلاتية - ولاية القيروان - الجمهورية التونسية .
٢ - ابراهيم خليل قليط - بيروت - لبنان .
٣ - محمد أحمد حجاج - المحلة الكبرى - جمهورية مصر العربية .
٤ - محمد قاسم سومرو - كمالديرو - سند - باكستان .
٥ - موسى حامد عبدالله - أبها - المملكة العربية السعودية .
٦ - أحمد حج عمر - سراقب - الجمهورية العربية السورية .
٧ - حميدة محمد سيد أحمد - بورتسودان - جمهورية السودان .
٨ - سنى وحيد مساع - الكويت .

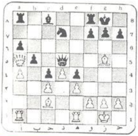
٩ جائزة بولتزر هي التي تشمل الصحفيين فيها تشمل ، وقد حصل عليها الصحفيان اللذان نجحا في الكشف عن أسرار التجسس والتنصت الذي قام به الحزب الجمهوري ضد الحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة ، فكانت الفضيحة التي هزت أركان الحياة السياسية في أمريكا ، فضيحة ووترجيت ، والصحفيان اللذان استحقا جائزة بولتزر على هذا الكشف ، هما كارل برنشتين وروبرت وودوارد ، وكانا يعملان في صحيفة الواشنطن بوست

١٠ العامل المشترك بين صحيفة المقطم ومجلة المقتطف هو في أن الكاتب يعقوب صروف والكاتب فارس النمر تعاونا في اصدارهما كلتيهما .

١١ صدرت جريدة « مرآة الاحوال » في اسطنبول سنة ١٨٥٥ ، وتعتبر الجريدة العربية الأهلية (أو غير الرسمية) الاولى في التاريخ .

١٢ مجلة ريدرز دايجست هي الاولى بين مجلات العالم من حيث كمية التوزيع ، فهي توزع في الولايات المتحدة وحدها (١٦,٢٥٠,٠٠٠) نسخة ، ويتضاعف توزيعها في اللغات المختلفة التي تصدر بها (وعددها ١٥ لغة) وفي شتى البلدان (٢٨) مليون نسخة .

معركة بلا سلاح



في عـام ١٩١١ عندمـا دخـل فتى كـوبي مغمـور المباراة الـدولية الكبـرى في الشطرنج ، المنعقدة في مدينة سان سباستيان ، احتج العديد من المتبارين على السماح له بدخول هذه البطولة التي كانت تقتصر على كبار أساتذة الشـطرنج في العـالم ، في ذلك العصـر ، عـدا عمانويل لاسكر ، ومع ذلك فقد استطاع ذلك الصبي المغمور هزيمة جميع الأبطال المشتركين في المباراة واحداً واحـداً ، وخرج منها وقد كللت هامته بأكاليل الغار . ولم يكن ذلك الفتى سوى جوزيه راؤول كبابلانكا الذي أصبح بطلاً للعالم منذ عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٢٧ .

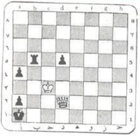
كان كبابلانكا في صغره معجزة ، فقـد بلغ مصاف كبار الأساتذة في الشطرنج وهو مايزال في سن الثانية عشرة ، عندما هزم كورزو بطل كوبا في ذلك الحين ، ولم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى فاز ببطولة العالم ، بعد تغلبه على بطل العالم الألماني عمانـويل لاسكـر (١٨٩٤ - ١٩٢١) الذي تربع على عرش الشطرنج أكثر من ربع قرن من الزمان .

وبعد فوزه الساحق في سان سباستيان حقق فوزاً ساحقا اخر على جميع أبطال العالم في عام ١٩٢٢ في مدينة لندن ، وفوزاً ثالثا في مدينة نيويورك عام ١٩٢٧ ، ورابعـاً في مـدينـة بـودابست عـام ١٩٢٨ . وفيها عدا خسارته أمام ألكسندر أليخين فإن انتصاراتـه على جميـع أبطال العـالم في ذلك الوقت كانت حاسمة ، وبفارق كبير في النقاط ، فقد هزم مـارشال (٧ - ١) ، ولاسكـر (٤ - صفر) ، و يو (بطل العالم ١٩٣٥ - ١٩٣٧) (٢ - صفـر) . وعلى الـرغم من هذا التـاريخ الحافل بالانتصارات فإنه لم يصبح لاعبا محترفا قط ، وظـل متمسكاً بمنصبه (الدبلوماسي) في خارجية بلاده حتى وفاته عام ١٩٤٢ .

وأبرز ما يميز لعب كبابلانكا البساطة والدقة المتناهية بـالنقـل . والـدور التـالي ، وهـو من جامبيت الوزير المرفوض قد يبدو للوهلة الأولى عادياً وبسيطا ، غير أن فيه من الدقة والفن ما لا يصدر إلا عن لاعب خلاق مثل كبابلانكا .

□ كبابلانكا	■ سبيلمان
١) د ٤	د ٥

● مسألة العدد ٣٦٥



مات ٤

من إهداء القارىء عباس محمد (الكويت)

٢) ح - و ٣	هـ ٦
٣) جـ ٤	ح - د ٧
٤) ح - جـ ٣	ح ١-و ٦
٥) ف - ز ٥	ف-ب ٤

النقلة النظامية ف - هـ ٧ أفضل

٦) جـ × د ٥	هـ × د ٥
٧) و - أ ٤	ف×جـ٣+
٨) ب × جـ ٣	ت
٩) هـ ٣	جـ ٥
١٠) ف - د ٣	جـ ٤
١١) ف - جـ ٢	و-هـ ٧
١٢) ت	أ ٦
١٣) ر (و)- هـ ١	(تمهيدا لـ هـ ٤) و-هـ ٦
١٤) ح - د ٢	ب ٥
١٥) و - أ ٥	ح-هـ ٤؟
١٦) ح × هـ ٤	د×هـ ٤
١٧) أ ٤	و-د ٥ (الشكل)
١٨) أ × ب ٥	و × ز ٥
١٩) ف × هـ ٤	ر-ب ٨
٢٠) ب × أ ٦	ر-ب ٥

المبادلة بالوزير ممكنة ولكن البيـدق السالـك اصبح يساوي قطعة كاملة

٢١) و - جـ ٧	ح-ب ٦
٢٢) أ ٧	ف-حـ ٣
٢٣) ر (هـ)-ب أ	ر×ب ١ +
٢٤) ر × ب ١	و ٥
٢٥) ف - و ٣	و ٤

أملاً في أن يأخذ الحصان ولكن الأبيض يلعب بدقة متناهية .

٢٦) هـ × و ٤	يستسلم

□□□

الفائزون بمسابقة الشطرنج العدد ٣٦٢ يناير ١٩٨٩

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ - عادل نور محجوب / الاسكندرية / ج.م.ع

٢ - فائق محمد سامي / دمشق / سوريا

٣ - نـور الحق سيف الله / ترومـل / اندونيسيا

٤ - محمد رباح / دويسبرج / المانيا الغربية

٥ - علي أحمد السكوني / حضرموت / اليمن الشعبية

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ - أحمد بن باوي بـلا / نواكشوط / موريتانيا

٢ - محمد المبارك كمـال / خيطان / الكويت

٣ - عماد علي بركات / الهفوف / السعودية

٤ - مجدي بن رمضان / نابل / تونس

٥ - عبدالرزاق بشير / عمان / الأردن

حل مسابقة العدد رقم ٣٦٣ - فبراير ١٩٨٩

١) ح-و٧+ م-ز٨ ٢) حـ٧+ م-و٨ ٣) م-و٦ م-هـ٨

٤) م-هـ٦ م-و٨ ٥) حـ ٨ (وزير) مات

حوار القراء

العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

عن الحب والحرام يسألون

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

تحية طيبة وبعد

● إني من المهتمين بهذه المجلة الغراء التي فتحت للقراء العرب وللعالم أبوابا واسعة من المعرفة والثقافة ، فنحن نطالع معلومات مهمة ومفيدة عن الكويت العزيزة ، وعن أقطار الوطن العربي الحبيب ، إضافة لآخر المعلومات العلمية الممتعة ، والقصص الهادفة التي تكون في معظمها من واقع حياتنا اليومية .

أعجبني حديث الشهر الذي نشر في العدد ٣٦١ ديسمبر ١٩٨٨ حول موضوع « عن الحب والحرام يسألون ؟ » حيث نوقشت فيه قضية الجيل المعاصر وهم الشباب الذين أكثرهم في سن المراهقة حيث يجب على المجتمع الذي يعيشون فيه أن يعالج قضاياهم الخاصة وليس الغرباء ، لأنهم أمل هذا المجتمع وهذا الوطن العربي .

القارىء / اسامة محمود

الكرامة / الجمهورية العربية السورية

● كما وردت للمجلة إضافة إلى ذلك رسائل عديدة مشيدة ومعجبة بالحديث نفسه ، نورد بعض أسماء كتاب الرسائل :

القراء :

(١) اشرف سعيد سويلم - الاسكندرية - جمهورية مصر العربية

(٢) عبدالله الصحياني - صعدة - الجمهورية العربية اليمنية

(٣) مصطفى محمد عطيني - اسيوط - جمهورية مصر العربية

(٤) أنور خجلات - حمص - سوريا

(٥) صفاء محمود محمد - الاسكندرية - جمهورية مصر العربية

(٦) اكويز يوسف - تطوان - المملكة المغربية

(٧) مصطفى خرما - عمان - الاردن

(٨) عقيل محمد الحجرن - الدمام - المملكة العربية السعودية

(٩) علي الصليبي - جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية

(١٠) هلال بن سعود - نزوى - سلطنة عمان



على هذه الصفحات .. ترحب "العربي" بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

الانتفاضة الفلسطينية وجود الحجر

● الإيمان بأهمية مرحلة مواجهة الاحتلال الصهيوني عنوان بارز ومكنون ، داخل شريان كل فلسطيني وعربي ، مؤمن ايمانا راسخا بالدور المطلوب منه ، كصاحب قضية ووطن سليب ، يعمل على تحريره من جبروت وصلف العدو الصهيوني ، إن النضال الفلسطيني قد برز على الساحة الدولية وجعل دول العالم قاطبة تلتفت الى حقوقه المشروعة العادلة ، المتمثلة في حق تقرير المصير ، والعودة الى دياره والعيش بسلام ، ونتيجة للثورة الشعبية ، بأبسط وسائل الدفاع المكونة من الحجارة ، الذي أثبت للعالم أنها أقوى من الدبابة والرشاش ، والمحاولات الفاشلة للعدو الصهيوني لقمع الانتفاضة باستخدام العديد من الوسائل ، كالتشريد والقتل والتعذيب ، مخترقا أبسط الحقوق الانسانية ومتحديا القرارات الدولية ، والأعراف غير عابىء بما يوجه إليه من تنديد من المجتمع الدولي . لقد خطت ثورة الحجارة خطوات عظيمة وجبارة نحو النصر المبين ، وإن سقوط العديد من الشهداء والمصابين ، واعتقال عدد كبير من أبطال الثورة الصامدة في فلسطين المحتلة لدليل على شموخ « الشعب الفلسطيني البطل » .

عبدالرحيم أمير الدين الغفاري
صنعاء ـ الجمهورية العربية اليمنية

□■□

كيف نفهم تاريخنا؟

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● لاريب أن مجلة « العربي » تعد المجلة العربية الرائدة ، على مستوى الوطن العربي والاسلامي ، بما تحوي بين صفحاتها من معلومات ثقافية قيمة ، ولكننا افتقدنا منذ فترة الأبواب التي تهتم بالتاريخ العربي الذي نعتز به أيما اعتزاز ، فنحن نعتبره بحق سلاح هذه الأمة ، في وقت هي بأمس الحاجة إليه ، لكي تسمو وترقى لتسير الى مصاف الدول المتقدمة من الناحية العلمية ، إن تاريخنا العربي ، يعد قاعدة قوية كي نسير على نهجها في سبيل الرقي والتقدم ، لتاريخنا الذي يسجل مساهمات هذه الأمة في تطور الحضارة وتقدمها .

معتز الأسعد
جامعة دمشق ـ كلية الصيدلة ـ سوريا

حوار القراء

- نشكرك على رسالتك وكما تعلم : أننا نولي القضية العربية والانسان العربي كل اهتمام ، وتخصيص باب ثابت لتاريخ الشخصيات العربية ليس غائبا عنا واننا دائما ننشر موضوعات تاريخية عامة ، وقضايا التراث ، والشخصيات كباب ثابت في المجلة .

□■□

العربي
التعاون الزراعي في الوطن العربي

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● ابعث بهذه السطور ، لما ألمسه من رحابة صدر المجلة أمام مايوجه اليها من ملاحظات ، فأنا واحد من قرائكم ، أعشق المجلة وأتابعها بشغف شديد جدا ، ومن هذا المنطلق آمل تقبل نقدي .

ففي العدد ٣٦٠ - نوفمبر ١٩٨٨ كتب الدكتور سمير رضوان مقالا بعنوان (يا عرب الزراعة - الزراعة)

طالب فيه بوضع استراتيجية زراعية عربية مشتركة بين أقطار الوطن العربي ، كي تعتمد على نفسها في إنتاج غذائها . وإن كل قطر عربي يمتلك بعض المقومات اللازمة لتحقيق هذا الحلم القومي ، إلا انه ترك في نفسي حزنا شديدا على مستقبل الوطن العربي حيث لا توجد استراتيجية جادة مدروسة ، وأن التشاؤم كان سمة المقال على مستقبل الزراعة في الوطن العربي ، إن الدعوة يجب أن توجه كي يقوم تعاون بين الاقطار العربية فتعتمد على الجهود الذاتية لانتاج الغذاء العربي للعرب .

القارىء / **احمد سعد موسى الصياد**
كلية الزراعة - جامعة عين شمس
جمهورية مصر العربية

□■□

تهنئة "العربي"

● يسرني أن أتقدم إليكم والى جميع أسرة التحرير ، بأخلص التهاني وأجمل الامتنان ، ببلوغ مجلتكم السنة الثانية والثلاثين وهي تحمل عبر عمرها الطويل لواء العروبة والأصالة ، وتنشر الوعي والثقافة في ربوع الوطن العربي ، وكل قارىء للعربية في العالم ، بفضل جهودكم الخالصة في اداء رسالتها ، ومن خلفكم الدعم المستمر من أعلى المستويات ، فلكم منا كل التقدير والعرفان .

القارىء / **محمد ذو القرنين مولوى عبدالمالك**
مكة المكرمة - السعودية

العرب في الاتحاد السوفيتي يبحثون عن "العربي"

● أنا شاب عربي من فلسطين ، أدرس في الاتحاد السوفيتي في كلية الهندسة تخصص كهرباء .

هنا في مدينة (لينينجراد) توجد جالية عربية كبيرة ، ويجد الكثيرون صعوبة في الحصول على نسخة من « العربي » ، وكما تعلمون ، نحن بأشد الحاجة إلى مجلة عربية تعنى بتاريخنا وتراثنا العريق ، وكذلك بمستقبل وطننا العربي ، ولهذا فإن معظم الشباب العربي يطلبون من بعضهم البعض ، عند سفرهم في الاجازات إحضار نسخ من « العربي » وبالنيابة عن جميع الاخوان العرب هنا ، أتوجه اليكم بالرجاء أن تعملوا على ايصال المجلة الى السوق في جميع مناطق الاتحاد السوفيتي وبكميات تجارية .

وآمل أن يتم ذلك في القريب العاجل .

تيسير أبودياك

لينينغراد ـ الاتحاد السوفيتي

□■□

التخلص من الشيخوخة

● في مقال للدكتور سامي عزيز نشر في عدد « العربي » ٣٦٢ يناير سنة ١٩٨٩ تحت عنوان « التخلص من الشيخوخة وهم أم معجزة ! » ، ورد خطأ غير مقصود في كتابة رمز الجزيء الوراثي الذي يشار اليه في العادة بالحروف اللاتينية (D.N.A) حيث ورد (P.N.S) .

□■□

السياحة في الوطن العربي

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● لقد لاحظ الجميع تطور المجلة في المدة الأخيرة من ناحية المضمون والإخراج والطباعة ، وبخاصة من ناحية الرسوم التي ترافق المقالات ، وأود هنا أن أشكر كلا من الفنان نصر الدين على رسومه الرائعة ، والخطاط عبدالله عثمان ، كما أشكر كل من يساهم في إخراج هذه المجلة بهذه الصورة الرائعة التي هي في نهاية الأمر خدمة للقاريء العربي ومستقبله ، ولكن لي بعض الملاحظات التي أتمنى أن تتقبلوها بقبول حسن ، وهي بخصوص الاستطلاعات التي تتميز بها مجلة العربي ، أتمنى أن تركزوا على الجانب السياحي في الأقطار العربية ، فاستطلاعاتكم عن الوطن العربي قليلة نسبيا ، ومعظمها يتناول النواحي الصناعية والمنشآت ، وأتمنى كذلك ترقيم الصور ، فنحن بصراحة تأخذنا الحيرة ، ونحن نتتبع اتجاهات الصور ، إلى أعلى ، إلى أقصى اليمين . وترقيم الصور يسهل هذه المهمة ، كما حدث في العدد رقم ٣٦٠ ـ نوفمبر ١٩٨٨ .

كما أتمنى في باب الشطرنج ، أن نجد في بعض الأوقات تعريفات بطريقة لعب الشطرنج التي يجهلها الكثيرون .

القارئة / ليلى عطية عرار

الزرقاء ـ الأردن

حوار القراء

العربي

شكرا على الرسالة الرقيقة ، نود أن نخبرك أن موضوع السياحة في الوطن العربي وغيرها من المواضيع الحيوية التي نهتم بها في المجلة ، وهي على قائمة أولويات النشر ، لكن ظروف المجلة لا تسمح لنشر كل شيء ، وقد تلاحظين أنه لا يخلو عدد من المجلة من استطلاع أو أكثر عن قطر من وطننا العربي ، فهي مهمتنا لترابط أبناء الوطن العربي وتواصلهم . أما بقية الاقتراحات فنحن في طريقنا لتنفيذ الكثير منها ، وسوف تلاحظين ذلك في الأعداد القادمة . □■□

تحية من عمان



الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● يسعدني جدا أن أبعث برسالتي هذه من أرض بلدي « عمان » إلى أرض الكويت الشقيقة لأعبر خلالها عن اعجابي الشديد بمجلتكم الرائدة ، لما تحتويه من مواضيع سياسية وثقافية وأدبية ومعلومات مهمة ومفيدة لكل قارىء بالعربية في أنحاء العالم .

لقد كنت وما زلت أتابع قراءة الأعداد التي تصدر شهريا من مجلتكم ، ولفت انتباهي العدد (٣٦٢) يناير ١٩٨٩ الذي احتوى على استطلاع عن « عمان » وتعريف إخوتي وأخواني في الوطن العربي بمدى التطور الذي تشهده عمان ، والذي يعبر عن أصالة الشعب العماني وتاريخه ، وما تتمتع به عمان من مناظر طبيعية خلابة . في النهاية كل الشكر والتقدير لأسرة العربي للمجهود الذي تبذله في إعداد المجلة التي يتلهف للحصول عليها كل من يبحث عن زاد ثقافي وفكري رصين .

القارئة حفيظة بنت محمد بن حميد الغساني

مسقط - سلطنة عُمان

□■□

علم الكويت

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● أهنئكم من أعماق قلبي على التطور الملموس للمجلة ، كما أتمنى للكويت الكريم كل ازدهار ، ومما استرعى انتباهي في هدية مجلة العربي الزاهرة في العدد رقم ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ بيتان من الشعر يعتز بهما كل عربي شريف ، وهما باختصار يمثلان النجدة والمروءة والشهامة الكريمة التي يرفرف بها العلم العربي الكويتي رمز الوطن الذي ذهب بالثقافة والإعلام والعلم إلى كل عربي من المحيط إلى الخليج ، وإلى كل مكان تتردد فيه اللغة العربية ، تلك النافذة الواسعة ، والجسر الثقافي والعيون العلمية والفنية والأدبية المتمثلة ، « بالعربي » مجلة كل عربي .

عبد الستار علماوية - طرابلس - لبنان

اقتراحات وردود



● القارىء : أحمد عبدالعظيم ماضي من قرية ملامس بجمهورية مصر العربية ، يقترح أن تنشر المجلة في باب مكتبة العربي عنوان دار النشر .

● القارىء : صلاح أحمد المسلم من حلب بالجمهورية العربية السورية ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن لواء الاسكندرونة العربي .

● القارىء علي عبدالمنعم علي أبو العلا من محافظة الغربية - مركز كفر الزيات بجمهورية مصر العربية

بعث برسالة يقترح فيها فتح باب لمتابعة قضايا الرياضة في الوطن العربي

● القارىء علي النيلاوي من محافظة الدقهلية بجمهورية مصر العربية ، يشيد بالعدد ٣٦٠ - نوفمبر ١٩٨٨ ، ويتمنى لو كان هناك موضوعات أدبية أكثر في الأعداد القادمة .

● القارىء حسام الدين حسن خليفة من القاهرة بجمهورية مصر العربية ، يشيد باللوحات المرسومة بريشة الفنان نصر الدين وخطوط عبدالله عثمان ، كذلك يرى المجلة وعهده بها منذ طفولته قد ازدادت رونقا وجمالا بمرور الأعوام ، ويتمنى على رئيس التحرير أن تظل (العربي) مزدانة دائما بما ينقص العديد من المجلات ، ألا وهو المتعة والافادة .

● القارىء مشتاق نواب محمد من عدن بجمهورية اليمن الديمقراطية ، يشيد بالعدد ٣٦١ الصادر في ديسمبر ١٩٨٨ وعلى الأخص الدراسة التي كتبتها بثينة شعبان عن المرأة الطوارقية . □

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت
أبريل ١٩٨٩ م

اليابانيون

تأليف : ادون رايشاور
ترجمة : ليلى الجبالي
مراجعة : شوقي جلال

٥٠٠ فلس
الكتاب ١٣٦

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

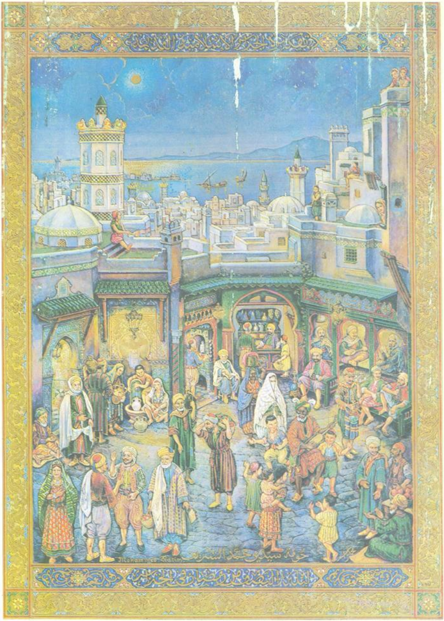
من المسرح العالمى

سلسلة ثقافية
تصدرها فى مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٣٥ أول ابريل ١٩٨٩

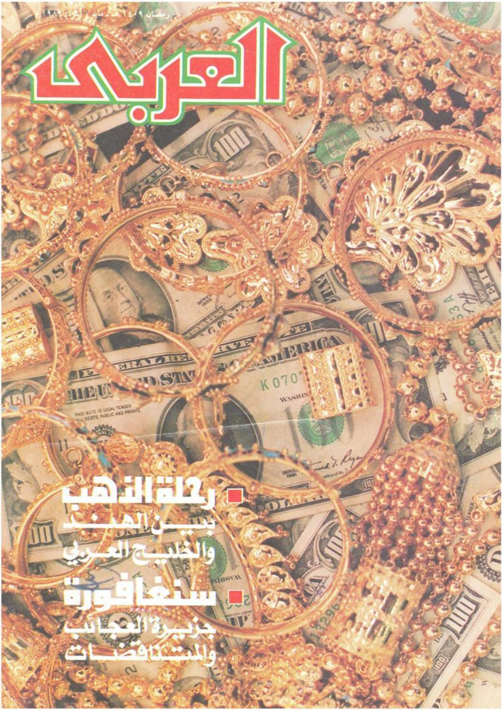
١- القفص
٢- الانتحار

تأليف : ماريو فراتي
ترجمة وتقديم : د. إبراهيم حمادة



ليالي رمضان أيام زمان

للفنان الجزائري محمد راسم


رمضان ١٤٠٩ هـ - مايو (أيار) ١٩٨٩
العربي
رحلة الذهب
بين الهند
والخليج العربي
سنغافورة
جزيرة العجائب
والمتناقضات





منذ حضارة بلاد ما بَين النهرَين ، كانت رياضة الصّقور ، ولا تزال حتى يومنا هذا ، رياضة النبلاء .

الصّقر طائر قويّ ، أنيق وسَريع الحَركة ، يُرَوّض ويُعلّم خصّيصًا فنّ الصّيد . هَذا الترويض والتعليم يتمّ على يَديّ أخصائيّين لمدّة طويلة تدوم أكثر من ثلاثين يومًا . العناية عينها هيَ التي بها تصنع كل ساعة رولكس .

حتى اليَوم لا تزال رولكس تصنع من قطعَة معدَن واحِدَة وتُنحَت يَدويًا ، سَواء مِن الذهَب الخالص أو الفولاذ أو الاِثنَين معًا .

كُل سَاعة تمرّ إفرَاديًا بمَجموعَة تجَارب قاسية قبل أن تعطى شهَادة الكرونومتر السّويسْريّة الرسْميّة .

جمال رولكس غنيّ عَن التعريف وقيمتهَا تدوم وتدوم لسَنوات وسَنوات طويلة جدًا !

مجمُوعَة سَاعات رولكس رائعة ومتكاملة لترضي أصحَاب الذوق الرفيع .

رولكس والصّقر رمز الدقة والأناقة .


ساعة تريدور داي - ديت من الذهب الابيض والأحمر والأصفر مرصّعة بالماس.

ROLEX

رولكس

العـــدد ٣٦٦ الســنة الثـانيـة والثـلاثـون مـايـو ١٩٨٩

العربي

مجـــلة ثقـــافيــة مصــــورة
تصـدر شهـــريًا عـــن وزارة الإعـــلام بـدولــة الكـويت
للوطـن العــربي ولكل قـــارئ للعـــربيـــة فــي العـــالــم

رئـــيس التحـــريـــر
د. محمـّـــد الرميحــي

عنـــوان المجـلة
العـــربي
ص.ب: ٧٤٨ ـ الصفــاة
الرمـــز البـريـدي 13008 الكويـت
تلفــون: ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيًا: «العـــربي» - الكويـت
تلفون فاكسملي: ٢٤٢٤٣٧٥ - تلكس: MITR. 44041 KT
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL - ARABI
Issue No. 366 May 1989 - P.O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

الاعلانات يتفــق عليهـــا مـــع الإدارة ـ قســـم الاعلانــات

الاشتراكات ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات ـ الإعلام الخارجي
وزارة الإعـــلام ـ ص.ب: ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

ثمـن النسخـة

الكـويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العـراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسًا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا: جنيه استرليني ونصف
مصر ٣٥ قرشًا	سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ٢٥ فرنكا
السودان ٢٥ قرشًا	لبنان ٥٠ ليرة	أمريكا ٣ دولارات

محتويات العدد

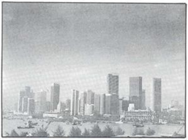
قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

سياسة واقتصاد :

استطلاعات مصوّرة :

طب وعلوم :



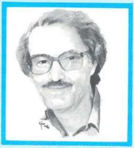
● سنغافورة جزيرة العجائب والمتناقضات ص ١٣٢

أدب وفنون :

اجتماع :



● « الصوبة » : هل تحول صحارانا الى جنات خضراء ؟ ص ١٥٦



وجها لوجه :
محمد سعيد الصكار وهاني مظهر ص٩٧

المجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر والوزارة غير مسؤولة عما يُنشر فيها من آراء.

منتدى العربي :

تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :



صورة الغلاف

بين الذهب والنقود علاقة من طراز خاص ، عندما يفقد الناس ثقتهم بالنقود يتهافتون على الذهب .. كحلي زينة وادخار ثروة لا تفقد قيمتها .

(اقرأ استطلاع رحلة الذهب بين الهند والكويت من ص ٨٠)

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع

معادلة صعبة !

من الأمور التي نقف عندها كثيرا في اجتماعاتنا الدورية في أسرة تحرير « العربي » هو الكم الممتاز والمتميز من النتاج الثقافي ، المتنوع في معالجاته لكثير من قضايا حياتنا العربية الذي يصلنا متدفقا من إخوة وأخوات تؤرقهم هموم الواقع العربي ، فيكتبون « للعربي » من أجل أن يأخذ نتاجهم طريقه للنشر .

إلا أن عدد صفحات المجلة محدود ، وهي مطبوعة شهرية ، لا يمكنها أن تستوعب كل ما يصلها ، وتنقله إلى القراء في وقت قصير .

لذلك فإن نشر بعض المواد يتأخر زمنياً ، خاصة أننا نضع تصورا تخطيطيا لأعدادنا القادمة ، يتراوح بين أربعة أعداد وأحيانا ستة .

وما نريد أن يشاركنا فيه الأصدقاء القراء ، ويطلعون عليه أيضا ، هو توليف المواد وإعدادها ، كي تصل إلى القارىء بشكل ممتع مفيد .

وهذا الأمر يأخذ وقتا وجهدا من هيئة تحرير المجلة ، كي تصل الموضوعات إلى صيغة وشكل مناسبين . ويمكن تشبيه الموضوعات الكثيرة بالبشر الكثيرين المتوجهين للخروج من باب واحد نحو مكان واحد . والباب - مع مزيد الأسف - لا يمكن أن يستوعب إلا العدد الذي يستطيع استيعابه فقط !

والسؤال الذي يؤرقنا دائما : كيف يمكننا أن نرضي الكتاب الكثر ، والقراء الأكثر ؟ تلك معادلة تواجهنا دائما ، ونحن نعد لإصدار أي عدد من أعداد المجلة . لذا فإننا نأمل من إخواننا الكتاب التحلي بالصبر ، حين يتأخر بعض نتاجهم في النشر . وأمل العدد الذي بين يدي القارىء يعبر عما نريد أن نقوله بوضوح .

لقد أردنا أن نحتفي بطريقة خاصة بالروائي العربي الكبير نجيب محفوظ ، وبدأنا منذ إعلان فوزه بجائزة نوبل لعام ١٩٨٨ نعد موضوعاتنا ، ، كي نقدم إسهاما ثقافيا مميزا ، يليق بالكاتب وبالمطبوعة ، ولقد أخذ ذلك بعض الوقت منا ، لكننا عوضنا هذا الوقت بتقديم عمل مدروس ومبتكر ، يتابع رحلة هذا الأديب المبدع من قلب حي الجمالية وشوارعه وحاراته وعالمه الذى تأثر به ، وصولا إلى نيله الجائزة .

إلى جانب ذلك نقدم صفحة من دفتر ذكريات الدكتور عبد العزيز المقالح من القطر اليمني ، « ومن دفتر الذكريات » هو أحد الأبواب الجديدة التي بدأنا بنشرها منذ مطلع هذا العام ، وقد كتب لنا فيه نخبة من كتاب الوطن العربي ، وأصبحت لدينا مجموعة كبيرة من كتاباتهم في هذا المجال ، وكتب سليمان الفهد عن ذكريات العيد في الكويت القديمة ، وملاعب صباها ، والكاتب يعرفه قراء « العربي » ، فقد أطل عليهم منذ سنوات ، وهو أحد الكتاب الساخرين المعاصرين في الوطن العربي .

وفي الاستطلاعات نتابع رحلة الذهب ، وكيفية صناعته في الهند ، وصولا إلى سوقه في الكويت ، وهذه الرحلة السهلة الآن كانت من قبل ذات مخاطر ، تحمل طابع المغامرة ، فتحولت الآن إلى تجارة وحالة اجتماعية أيضا .

ونذهب في استطلاعنا الثاني إلى سنغافورة ، المدينة المتطورة ، حيث تعد من أبهى المدن وأجلها ، فكيف تأتى لها ذلك ؟ .

وفي العدد مواد عديدة متنوعة غنية ، ثرية بالمعلومات عن كثير من أمور حياتنا الثقافية والعلمية والطبية والاجتماعية .

نأمل أن نحقق من خلالها معادلة المتعة والفائدة لك عزيزي القارىء .

« المحرر »

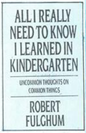
حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

كل ما أحتاج إلى معرفته تعلمته وأنا في روضة الأطفال..!

نظرت إلى مجموعة الكتب الجديدة التي أحضرتها ، وسألت نفسي : هل لدي الوقت والاستعداد أن أقرأ كل هذه الكتب ؟ لقد اخترتها بنفسي في الثقافة والاجتماع والسياسة والأدب والتاريخ ، وعناوينها محببة إلي ، وأريد أن أقرأها ولكن كيف ؟ فالوقت قصير والاختيار صعب . ثم التقطت من بينها كتاباً عنوانه يكاد يحل مشكلتي ، وأنا أيضا شغوف بمثل هذه الكتب التي تشير عناوينها إلى موضوعات غير مألوفة ، عنوان الكتاب مثير للخيال ، فهو يقول : « كل ما أحتاج لمعرفته تعلمته وأنا في روضة الأطفال » .

وأنا أقلب الكتاب قلت لنفسي : إن أقنعني الكاتب بهذه الفكرة العامة ، فأنا قد اصطدت عصفورين بحجر واحد ، الأول أنني سأعرف « كيف تعلمت كل ما أريد وأنا في روضة الأطفال » فلربما كانت هناك دروس الخبرة المختزنة ولم أكتشفها بعد ، والثاني سيريحني نفسياً من جانب اجتماعي ، فقد صادفت في حياتي بشراً في أماكن رفيعة كبيرة ، وتساءلت بعد ذلك - بيني وبين نفسي - من خلال ما سمعته منهم أو شاهدته



من تصرفاتهم : ترى هل حصل هذا الشخص على شيء من العلم والثقافة يؤهله كي يصلح في هذا المقام ؟

لقد كان لدي شبه اقتناع ـ من واقع الخبرة ـ أن وصول الإنسان إلى مكان مرموق أو ثروة أو جاه لا يقتضي بالضرورة ـ كما يعتقد بعض السذج لأول وهلة ـ أن يكون ذا معرفة ، فالمعرفة ليست ضرورية لكل ذلك ، فقد تستطيع أن تحصل على الحد الأدنى منها ولكنك تحصل على الباقي صدفة ، سياسة ، حظا ، بل وحتى « فهلوة » !!

إلا أن الأمر لم يكن مستقراً عندي حول : ما هو الحد الأدنى من المعرفة ؟؟

وجاءني الجواب أو خلته جاءني عندما وقع في يدي هذا الكتاب . إنه ما يتعلمه الإنسان في روضة الأطفال !!

□□□

ومادام هذا الكتاب سوف يحل لي قضيتين أرقتاني ، فلا بأس من قراءته كاملا ، ولقد كان الكتاب من الكتب النادرة التي تسحر الإنسان ، فيقرؤها من الغلاف إلى الغلاف ، ثم يشعر بعد الانتهاء من قراءتها أنها فتحت آفاقاً جديدة ، وأضافت إلى معلوماته الجديد ، فقررت أن أشرك أصدقائي القراء معي في الفائدة والمتعة

المؤلف روبرت فولجهم ، حاول أن يلخص في هذا الكتاب خبرة حياته ويصوغها في كلمات وجمل أصبحت عنده أشبه ما يكون بالعقيدة . جميع محتويات الكتاب تدور على مدار السنين ، وهي عبارة عن مجموعة من الملاحظات ، كتبت على طريقة قصص وانطباعات قصيرة ، يبدؤها برواية الأسباب التي جعلته يؤلف هذا الكتاب والتي استمد عنوانه منها يقول :

لقد جاءني الالهام بانجاز مذكراتي يوم كنت أملأ خزان وقود سيارتي القديمة المتهالكة بأحسن أنواع البنزين ، ولكن يبدو أن الوقود كان من القوة والجودة ، بحيث ضاقت به سيارتي ولم تتحمله !! فبدأت تنفث الدخان الأسود من مؤخرتها حيناً ، وتفرقع عندما أتوقف عند مفترق الطرق حيناً آخر ، وتتجشأ كلما صادفني منحدر في الطريق ، ففهمت من سلوك سيارتي أشياء كثيرة ، وتعلمت منها حكمة من حكم الحياة . فالإنسان حاله حال سيارتي ، إذا أخذ من العلم أحسنه وأرفعه ، ومن المعلومات أصدقها وأوثقها ، سوف يضيق ذرعاً بما حصل عليه ، ولا يلبث أن يلفظه وينساه ، ولا يبقى في ذاكرته منه إلا ما يحتاجه فعلاً في حياته اليومية ، والحياة ليست معقدة

إلى الحد الذي يتصوره البعض ، وما يحتاجه الإنسان ليحيا حياة سعيدة يعرفه منذ كان طفلاً !!

ثم يعدد الكاتب مجموعة من الأوامر والنواهي التي يتعلمها الطفل وهو صغير ، من بينها : شارك الآخرين في كل شيء ، تصرف حسب الأصول ، لا تعتد على الناس ، أعد ما تأخذه إلى المكان الذي أخذته منه بعد الانتهاء من استعماله ، نظف مائدة طعامك بنفسك ، لا تأخذ ما ليس لك ، إن آذيت أحداً اعتذر له ، اغسل يديك قبل الطعام ، العب دون إفراط كل يوم . . . إلى آخر هذه النصائح العامة المتعلقة بالتعامل مع الآخرين والاعتناء بالنفس والتعامل في الشارع والمدرسة .

يقول المؤلف إنه يعتقد أن كل شيء نحتاجه موجود وراء هذه الكلمات أو النصائح ، وهي قواعد ذهبية ، تحمل في طياتها الحب ، والمحافظة على الصحة ، ومجموعة أخرى من المبادىء . وبدون هذه القواعد لا يستطيع أحد أن يلم بالأمور السياسية ، أو يتعلم قواعد المساواة ، أو يتصرف بحكمة وتعقل .

ثم ينقل الكاتب في مجموعة من الفصول القصيرة بعض تجارب الحياة ، وكل قصة أو فصل قصير يعلمنا حكمة بالغة . ومن الصعب أن أنقل للقارىء مجموع هذه الفصول التي تبلغ أربعين فصلاً ، ولكني سأختار بعضها ، وأرجو أن يعذرني القارىء ويتسامح معي في هذا الاختيار . دعونا نقرأ :

لا تصرخ في وجوه الناس ، فالصراخ يكسر القلب ويميت الروح



في جزائر سليمان في جنوب المحيط الهادي ، اعتاد القرويون على استخدام طريقة غريبة ، إذا أرادوا قطع شجرة ضخمة لا يستطيعون قطعها بالوسائل المتوافرة لديهم .. فيصعد الحطابون إلى قمة الشجرة ثم يصرخون جميعاً دفعة واحدة ، وبأعلى أصواتهم حتى يتعبوا . ويعيدون الكرة في كل يوم ، فإذا حلَّ اليوم الثلاثون ماتت الشجرة وسقطت . . !

فهم يعتقدون أن الصّراخ يقتل روح الشجرة ، وقد جرّبوا هذه الطريقة عدة مرات .. وفي كل مرّة كانت التجربة تنجح .

مساكين أولئك الأبرياء السُّذّج ، إنهم يتبعون عادات توارثوها عن أجدادهم ، يصرخون على الأشجار حتى يميتوها بدل أن يستخدموا الوسائل الحديثة والتقنية المتقدمة لقصّ الشجر .

أما نحن ، فكثيراً ما نمارس عادة الصراخ للتنفيس عن غضبنا ، أو

للتعبير عن تبرّمنا وعدم رضانا ، فنحن نصرخ على الهاتف إذا لم نحصل على الرقم الذي نريده ، ونصرخ على جزّازة العُشب إذا لم تعمل بشكل يُرضينا ، وكثيراً ما نرفع قبضاتنا ونصرخ في وجه أي شيء نصادفه إذا ما حصل لنا مكروه ، وأحياناً نصرخ على زوجاتنا إذا ما تصرّفن تصرُّفاً لا يعجبنا .

بعض الناس يصرخون على سياراتهم ، كما سمعت أحدهم يصرخ على سُلّم نقّال ، وبعضنا يصرخ إذا تضايق من ازدحام حركة المرور ، أو لم تعجبه صفّارة حكم المباراة ، أو المبلغ الذي سُجّل على « الفاتورة » أو قائمة حساب البنك . . وأحياناً نصرخ على الآلة إذا لم تؤد عملها على الوجه الأكمل والآلات لا تتأثر بصراخنا ، والأشياء لا تسمعنا ، وحتى لو رفسناها بأرجلنا فلن نستطيع أن نُغيّر منها شيئاً ، أو نُحسّن أداءها .



نعود إلى سُكان جزائر سليمان ، فصراخهم على الأشجار فيه شيء من الحكمة ، وإن كان لا يؤدي إلى أي نتيجة . .

فالصّراخ على الأحياء من الناس يعمل على قتل أرواحهم . خلاصة القول : « أن ضرب الناس بالحجارة أو بالعصيّ قد يكسِّر عظامهم ، ولكن الصُّراخ في وجوههم يكسر قلوبهم ، ويُميت أرواحهم » .

الحب الحقيقي لا ينتهي بموت من نحب

قد تكون هذه القصة شخصّية ، وقد يكون فيها من الحب أكثر مما يحتمله القارىء ، ولكنها حقيقية ، يكون بيننا من يحمل الدرجة نفسها من الحب ، ويُسرّ لقراءتها ، وهذا ما دفعني إلى كتابتها ، مع أنها لم تحدث لي ، بل لشخص آخر يدعى تشارلز بوير .

كان تشارلز شاباً رقيق الحاشية ، أنيقاً بشوشاً ، يحب النظر إلى معظم الممثلات اللاتي يظهرن على شاشة السينما ، أو على صفحات المجلات الترويحية ، أما في حياته الحقيقية فكان حُبّه من نوع آخر ، لا يقتصر على النظر ، بل يتغلغل إلى أعماق القلب ، ولم يكن في حياته إلا حب حقيقي واحد ، إنه حبه لزوجته باتريشا ، فلقد كان حباً دام الحياة كلها ، دام أربعاً وأربعين سنة ، كانت باتريشا بالنسبة له ليست مجرد زوجة ، بل صديقة وحبيبة ورفيقة حياة . لم يقلّ حبه لها في العام الرابع والأربعين لزواجهما عن حبه لها في السنة الأولى من زواجهما .

وما لبثت باتريشا أن أصيبت بسرطان في الكبد ، وأطلع الطبيب زوجها على حقيقة الأمر ، ولكن تشارلز لم يجد في نفسه الشجاعة لإعلامها بالنبأ ،

فاكتفى بملازمة فراشها ، يَبُثّ في نفسها الأمل ، ويبعث في قلبها البهجة . وظل يلازم فراشها ستة أشهر كاملة ، ولم تفلح ملازمته لها طوال هذه المدة في منع القدر من أن يأخذ مجراه ، فماتت بين ذراعيه ، وما لبث تشارلز أن لحق بها إلى الرفيق الأعلى بعد يومين فقط من وفاتها .

لقد وضع حداً لحياته بيديه ، وترك قصاصة ورق كتب عليها أنه لا يريد أن يستمر في الحياة بدونها ، فحبُّه لها كان هو الحياة بالنسبة له .

هذه ليست قصة سينمائية ، إنها قصة من واقع الحياة ، وحقيقية بكل تفاصيلها .

أنا لا أريد أن أحكم على الطريقة التي عالج بها حزنه على حبيبته ، ولكنني أجد أن من حقي أن أعبِّر عن مقدار تأثري بتلك الطريقة ، والراحة التي شعرت بها عندما علمت بها .

لقد تأثرت حين اكتشفت بأن للحب عمقاً آخر ، لا تستطيع أن تبلغه أفلام هوليود التي تعرض أنواعاً زائفة من الحب ، وشعرت بالراحة حين أدركت أن الرجل والمرأة يمكن أن يُحبّا بعضهما إلى تلك الدرجة طوال تلك المدة .

إنني لا أعرف كيف كنت سأعالج حزني لو مررت بتلك الظروف نفسها ، وأتمنى أن لا أجد نفسي في مثل هذا الموقف ، ولكن هناك لحظات تمرُّ بي وأنا أمعن النظر في أرجاء غرفتي ، وأسرح بفكري في رتابة ما يجري حولي في حياتي اليومية ، ثم أنظر إلى زوجتي وصديقتي ورفيقة حياتي ، فأدرك لماذا تصرف تشارلز بوير بتلك الطريقة ، وأزداد يقيناً بأن الدرجة التي بلغها حبه لزوجته كانت ممكنة ومعقولة ، وأن حبَّ الرجل لرفيقة حياته لا ينتهي بموتها ، فقد يرافق الحبيب حبيبته إلى الدار الآخرة ، وهو احتمال وارد وأنا متأكد منه .

مازالت الدنيا بخير



بعض الناس يسيئون الظنّ في كل شخص ، ويقولون بملء أفواههم : « لم يعد هناك أحد يمكن أن نثق به ، فالأطباء دجالون ، والسياسيون انتهازيون ، والتجار لصوص ، إنهم جميعاً يعملون على سلب أموالك ، أليس كذلك ؟ » .

لا ، أيها السادة ، فقد قام رجل يدعى (ستيفن بل) بتجربة لاستكشاف مدى صحة هذا التعميم ، وجعل ميدان الاختبار مدينة

نيويورك ، والفئة التي اختارها لإجراء تجاربه عليها هي سائقو سيارات الأجرة . . !

تظاهر (بل) بأنه أجنبي ، واستخدم لغة انجليزية ركيكة ليوهم السائقين بأنه غريب ، واستخدم عشرات من سيارات الأجرة ، تنقل بها في مختلف شوارع نيويورك وأحيائها ليعرف كم من هؤلاء من يحاول النصب عليه ويأخذ أجراً أكثر مما يستحق ، وكان أصدقاؤه قد تنبأوا سلفاً بأن معظم الذين سوف يتعامل معهم سرف يغشّونه ويتقاضون منه أجراً مضاعفاً .

ولكن المفاجأة حدثت ، فسائق واحد ، من بين سبعة وثلاثين سائقاً تعامل معهم ، احتال عليه ، وأخذ منه أكثر مما يستحق ، أما الباقون فقد أخذوه إلى المكان الذي حدّده مباشرة دون لفّ أو دوران ، وتقاضوا أجورهم الصحيحة . العديد من سائقي (سيارات الأجرة) كانوا يرفضون تلبية طلبه عندما يكون المكان الذي يحدده لهم قريباً من مكان الركوب ، حتى أن بعضهم كانوا ينزلون من سياراتهم ويشيرون له إلى المكان المقصود . والغريب أن كثيراً منهم حذّروه من اللصوص والمحتالين الذين تمتلىء بهم شوارع نيويورك .

قد يقول البعض إن الصحف تزخر بأخبار اللصوصية والسّلب والنهب والاحتيال ، وكثيراً ما نقرأ خبراً عن رجل شرطة اقترف جرائم يعاقب عليها القانون ، كالكذب على الناس والسرقة ، أو عن طبيب يجني أرباحاً هائلة ، دون أن يقوم بعمل جاد وحاسم يستحق عليه ما يتقاضاه من أجر ، أو عن سياسي يخوض مغامرة من أجل مكسب آني . ولكن هؤلاء ينسون أن من يقوم بمثل هذه الأعمال من شواذ المجتمع ، ولولا أنهم شواذٌ لما كتبت عنهم الصُحف ، والشاذ لا حكم له ، فكل الأدلة تشير إلى أن الغالبية العظمى من الناس هم موضع ثقة ، وهناك إحصائية (لجالوب) تشير إلى أن ٧٠٪ من الناس يعتقدون أن غالبية الناس أمناء وصادقون ويمكن الثقة بهم ، فالدُّنيا مازالت بخير ، والعالم يحفل بالأناس الطيبين ، ومن يقول غير ذلك مخطىء ، وعليه أن يغير رأيه .

ليس نوع العمل الذي نقوم به هو المهم ، بل إتقانه

بعض الناس يقومون بأعمال شاقة ، حتى وهم داخل بيوتهم يشغلون أنفسهم بتنظيف ميازيب تصريف مياه الأمطار ، أو حتى أنابيب المجاري ، فإذا انتهوا من ذلك ولم يجدوا عملاً يقومون به انصرفوا إلى تنظيم أوقاتهم ، فكل عمل يقومون به يخضع لعملية ترتيب وتنسيق ، ويحتفظون بملف لكل

شيء ، حتى يستطيعوا أن يجدوا مطلبهم بسهولة ويسر .

وأنت تلمس النظام في بيوتهم حيثما توجهت ، بدءاً بحوض الاستحمام ومروراً بالمرحاض ، وانتهاءً بصناديق سياراتهم . هؤلاء الناس موجودون في كل مكان ، وبعضهم يتمتع بمكانة مرموقة في المجتمع .

يقول الكاتب إنه لا ينتمي إلى هذا الصنف من الناس ، فإذا اضطر لاستعمال المقلاة مثلاً تركها متسخة حتى يأتي من ينظفها ، وإذا سكب في كوبه شيئاً من الحليب فغالباً ما يسكب منه بعضه حول الكوب ، فالأعمال الكثيرة التي لابد من إنجازها تلهيه عن الاهتمام بهذه الأمور ، غير أن له هواية لا يمل منها أبداً ، فإذاما فرغ إلى نفسه انصرف إلى عصاه ، وراح يصقلها ويلمعها ، حتى تصبح كالمرآة . وهنا قد يتساءل البعض : أليس هناك عمل آخر مفيد يعمله هذا الرجل بدل أن يقضي الساعات الطويلة في صقل عصاه ؟

وينبري للإجابة عن تساؤلهم قائلا : إن العمل لا ينتهي أبداً ، ولو شغلنا ساعات ليلنا ونهارنا في محاولة إنجازه ، فكلما أنجزت شيئاً اكتشفت عملاً جديداً يتطلب الإنجاز . إننا نعيش في حالة سباق دائم مع الزمن ، فلماذا لا نعطي أنفسنا راحة ، نمارس خلالها عملاً نحبه ، خاصة عندما نكون من الأشخاص الذين لا يتمتعون بقضاء أوقاتهم في تنظيم الأشياء ووضع كل حاجة في مكانها الصحيح ؟

وقت ممارسة الهواية بالنسبة له يعد وقتاً مقدساً ، لا يسمح لأحد أن يتدخل فيه ، ولا للأعمال الأخرى أن تلهيه عنه ، وعند انصرافه له لا يعير اهتماماً لاجتماعات اللجان ، ولا لتسديد قوائم حساب متأخرة ، ولا للمراسلات ، ولا للرد على مكالمات الهاتف . كل ما يهتم به عند ممارسة هوايته أن يكون المكان الذي يجلس فيه هادئاً ، وأن يكون هناك من يقوم بخدمته وتلبية طلباته ، وإعداد طعام جيد له ، وهو عادة يمضي أسبوعاً كاملاً في ممارسة هذه الهواية .



يقول الكاتب إنه ليس الوحيد الذي يمارس هذه الهواية ، فهناك العديد من أمثاله . ولذا تشكلت لجنة للتحكيم تقوم بالمرور على أصحاب هذه الهواية ، وتتفحص أعمالهم ، فإذا أعجبهم عمل أحد ملمعي العصي ، وتأكدوا أنه أنجزه بإتقان تام ، قاموا بنشر صورة الرجل في الصحف ، وظهر على شاشات التلفزيون ، واكتسب شهرة في طول البلاد وعرضها ، ونال احترام أسرته وجيرانه ومعارفه ، فإذا ما حصل على كل ذلك نتيجة تلميع عصا ، فما الداعي لأن يقوم بعد ذلك بتنظيف ميازيب الأمطار ، أو تسليك



المجاري ، أو تنظيم الملفات والأدراج ، أو حتى الاهتمام بترتيب صندوق الأمتعة في سيارته ؟ !

لقد نال الشهرة التي يريدها لمجرد قيامه بتلميع عصا ، وعليه أن يزهو بذلك ويفخر ، لأنه تفوق على غيره في عمل واحد على الأقل . يقول الكاتب : ليتني أكون واحداً من هؤلاء المتفوقين ، فالمهم ليس نوع العمل الذي تقوم به ، بل درجة إتقانه .

كلنا من التراب ، وإليه نعود

لي جار ، امتهن تنظيف الأرض من أوراق الشجر المتساقطة وتسويتها في الصيف ، وجرف الثلوج المتراكمة في الشتاء . وهو يحب عمله ، ويقبل عليه بهمة ونشاط . وأنا أرى في عمله هذا تدخلاً في عمل الطبيعة ، فأوراق الأشجار تتساقط في الصيف منذ آلاف السنين ، وقبل أن تخترع أدوات تمشيط الأرض وتنظيفها وتسويتها ، والأوراق تمكث حيث هي ، حتى تحولها الطبيعة إلى تراب جديد يزيد خصوبة الأرض ، ويعوضها عما يسلبه الإنسان من ترابها ، أما الثلج الذي يقوم هذا الرجل بجرفه فهو الوسيلة التي يوحي بها الله للإنسان أن يتمهل في عمله ، ويخلد إلى شيء من الراحة في فراشه الدافىء يوماً أو بعض يوم ، ثم إن الثلج الذي ينهك نفسه في جرفه لا يلبث أن يذوب من تلقاء نفسه ، ويمتزج بأوراق الشجر ، ويتحول المزيج إلى تراب جديد .

إن لي فلسفتي في الحياة ، وله فلسفته . فحديقته أنظف من حديقتي ، وهو لا يتعثر حين يشق طريقه في الصباح نحو سيارته كما أفعل أنا ، كما أنه

رجل طيب ، بغض النظر عن نوع العمل الذي يقوم به ، إلا أن حديقتي تبدو كالسجادة الشرقية الزاهية الألوان ، بعكس حديقته الخالية من كل أنواع الزهور . وأنا أقوم بجمع الثلج المتساقط برفق وأضعه في زجاجات أحكم إغلاقها ، لاستخدامها في إعداد عصير البرتقال المجفف في شهر يوليو من العام التالي ، كما أقوم بتسجيل صوت تساقط الثلوج ، وأستخدم أشرطة التسجيل هذه في حزم هدايا عيد الميلاد .

أهديته مرة زجاجة من ماء ثلج الشتاء المعتق في أحد أعياد الميلاد ، وحرصت على لفها بشريط تسجيل سجلت عليه صوت تساقط الثلج ، فأهداني مجرفة لتمشيط الأرض . كل منا يغني على ليلاه ، ويعطي جاره درساً في فلسفته في الحياة . أنا أعتقد أن جاري لا فلسفة له ، وأنني بطريقتي هذه أحاول هدايته . وهو يعتقد أن لدي من الفلسفة ما يفوق حاجتي ، ويعمل على الحد منها وإنقاصها .

ولكن ما الذي سوف يحدث في النهاية ؟ سوف أكون أنا الرابح حتماً لسبب بسيط ، وهو أننا جميعاً ـ أنا وهو وقارىء هذه السطور ـ سوف يحل بنا نفس المصير الذي تلاقيه الأوراق المتساقطة من الأشجار والثلج المتساقط من السماء ، سواء جرفناها أو أبقيناها حيث هي . ستتحول جميعاً إلى تراب . .

إحصائيات تظهر عجائب الكون

كل إنسان عاش في هذا الكون ترك أثراً فيه وحمل معه أثراً منه

الاحصائيات ليست شيئاً جديداً على العالم ، فهناك إحصائية في المتحف البريطاني ، محفورة على لوحة من الصلصال ، يرجع تاريخها إلى عام (٣٨٠٠ ق . م) عن البابليين ، احتوت على معلومات عن عدد السكان ، كان يستخدمها الحكام لتقدير دخلهم من الضرائب التي تفرض على الشعب . وهناك احصائيات أخرى عن المصريين القدماء والرومان ، وكذلك عن وليام الفاتح تعود إلى عام ١٠٨٥ م .



أول إحصائية معروفة في أمريكا تعود إلى عام ١٧٩٠م . والاحصائيات تطلعنا على أشياء غريبة وملفتة للأنظار ، وتجعلنا نستقرىء ما سوف يحدث في المستقبل . ولنأخذ واحدة من هذه الاحصائيات . فلو أن سكان الأرض استمروا يتزايدون بالنسبة الحالية نفسها ، فسوف يصبح وزن الكتلة البشرية التي تعيش على سطح الأرض معادلاً لوزن الكرة الأرضية نفسها في عام ٣٥٣٠م ، وسوف يصبح وزن الكتلة البشرية في عام ٦٨٢٦ معادلاً لوزن

الكون المعروف . إنها حقائق تجعل الإنسان يجفل رعباً .

هناك حقائق أخرى نستطيع استقراءها من الإحصائيات . فمجموع سكان الكرة الأرضية كان في أيام يوليوس قيصر لا يتعدى (١٥٠) مليون نسمة ، أما اليوم فعدد سكان الأرض يزيد في كل عامين (١٥٠) مليون نسمة !!

ولنأخذ حقيقة أخرى مستخلصة من الإحصائيات أيضاً ، ففي الوقت الذي سوف تقضيه في قراءة هذا الكلام سوف يموت من سكان الأرض (٢٠٠) شخص وسوف يولد (٤٨٠) مولوداً جديداً . كل هذا سوف يحدث في دقيقتين اثنتين فقط . . !

يقول علماء الإحصاء : إنه ولد حتى الآن (٦٠) بليون نسمة . . فكم سوف يبلغ هذا العدد في المستقبل ؟؟

لابد أنه سوف يكون رقماً فلكياً . أما أغرب الاحصائيات فتقول إن كل واحد من هذه البلايين التي سكنت سطح الأرض كان مختلفاً عن كل المخلوقات الأخرى ، وكل من سيخلق من الآن وحتى قيام الساعة سوف يختلف عن غيره ، ولن تجد اثنين متشابهين تماماً أبداً ، كما أن أوجه الشبه بين أنواع الجنس البشري عموماً أكثر منها بينه وبين المخلوقات الأخرى .

وأخيراً وليس آخراً ، طلع علينا أحد العلماء المختصين في أبحاث الجرائم (أميل لوكارد) قبل خمسين عاماً بمبدأ أو نظرية علمية تقول إن أي شخص يمر من أي مكان لابد أن يترك أثراً في المكان الذي يمر به ، وأنه يحمل معه أثراً من ذلك المكان . (نظرية فوجلهم في تبادل الآثار) . وبناءً على هذه النظرية فإن كل إنسان عاش فوق هذا الكون قد ترك أثراً فيه ، وهذا الشيء لا يمكن رؤيته أو سماعه أو تعداده ، وهو شيء تعجز الإحصائيات عن جمعه ، ولكن لا قيمة لأي إحصائية لا تأخذ هذه الحقيقة في الحسبان .

□□□

هذه بعض القصص والطرائف التي أراد الكاتب أن يخرج القارىء منها بحكمة بالغة ، وقد يتفق بعضنا ـ أو يختلف ـ حول عمق هذا النوع من الكتب وأهميته ، ولكن الكتاب ـ والمؤلف ـ يريد في إطار التقدم التقني الهائل في حضارة الغرب ، التي ينبهر بها بعضنا ، يريد أن يقول : إن العلاقات الإنسانية والتفكير بالإنسان كإنسان هو الأهم من كل الزخرف المحيط ، فإن افتقد الإنسان إنسانيته لا تستطيع كل التقنية المحيطة به أن تعوضه عنها .

محمد الرميحي





(الحياة مجموعة من الخبرات المتنوعة ، وليس بالضرورة أن تتشابه وتتكرر ، إنما كثير من الخبرات منفردة تضيف معنى جديدا للحياة ، وتعطيها لذة التراكم ، وقد اختارت العربي مجموعة من المتميزين العرب ليروي كل بطريقته الخاصة بعضا من ذكرياته التي أصبحت دروسا في الحياة) .

صفحة من الخمسينيات

يوم في بور سعيد

بقلم : الدكتور عبد العزيز المقالح

للذكريات ـ على امتداد العمر ـ أدغالها ومتاهاتها الموحشة كالليالي التي لا تتحرك ولا تسطع فيها الأقمار ، ولها ـ على امتداد العمر أيضا ـ فضاءاتها المفتوحة المقدسة التي تعدو في شارع النفس بأقصى ما تستطيع من سرعة ، فأي صفحة منها أدعو ؟ وعند أية فقرة من العمر الذاهب أتوقف ؟ وما الذي يقصد إليه « العربي » من وراء دعوته الكريمة المحرجة ؟ ثم لماذا لا تموت الذكريات أو تجف كما يحدث لكريات الدم وخلايا الجسد ؟ ، ولماذا كل شيء منقوش بل ومحفور على خارطة الذاكرة ومسجل في تلافيفها الواعية بالصوت والصورة ، بالألوان السوداء والبيضاء والحمراء والخضراء ، وبكل الألوان المألوفة للعين وغير المألوفة ، الزاهي منها والكابي ؟

ولأن اسم (العربي) يذكرني بالعرب وبالعروبة ، ويذكرني بفترة ميلاده الذي جاء متزامنا مع أخصب سنوات الأمة التي حاول أن يكون واحدا من منابرها المضيئة ، فإني أرغب أن أعود بصفحة ذكرياتي الى تلك المرحلة ، بل الى نفس العام ١٩٥٨ ، وهو في تقديري الخاص أهم الأعوام في تاريخ العرب الحديث . في هذا العام قامت الوحدة بين مصر وسوريا (الجمهورية العربية المتحدة) ، وفيه قامت ثورة ١٤ تموز في العراق ، وفيه دخلت اليمن مُكْرَمةً ما سمي باتحاد الدول العربية ، الذي ضم مصر وسوريا واليمن ، وفتح ـ كما سنرى ـ نافذة صغيرة للنور في جدار السجن الذي كان اليمنيون يسمونه وطنا . وصفحة الذكريات هذه تقع في الشهر الأخير من ذلك العام ، وبالتحديد في السابع

عشر من ديسمبر عام ١٩٥٨ . وهي عن أول يوم لي في بور سعيد . وإذا كان الشاعر اليوناني الاسكندراني « قسطنطين كافافي » قد شغل نفسه في قصيدته الشهيرة « إيثاكا » في الحديث عن الحنين الى « إيثاكا » وفي وصف الطريق إليها فإن الحنين الى مصر قد كان بالنسبة لي هو الطريق الى بورسعيد . وقد بدأ ذلك الحنين معي منذ الطفولة الباكرة . وتكونت ملامحه الأولى على حصير المدرسة الابتدائية . مع القراءة الرشيدة ، ومع أقاصيص كامل كيلاني . ثم ازداد مع دخول أول جهاز مذياع الى منزل الأسرة في منتصف الخمسينيات بأصوات عبد الوهاب وأم كلثوم وحليم وغيرهم . وارتفعت حمى الحنين مع الاقتراب من طه حسين والرافعي والعقاد ومندور وأحمد أمين وتوفيق الحكيم .

وفي عام ١٩٥٦ اختزل العرب ـ وأنا واحد منهم ـ حبهم لمصر من خلال الاعجاب ببورسعيد التي أصبحت اسماً عربيا ارتبط منذ ذلك الحين بأسماء المدن التي صمدت في وجه العدوان والفاشية كلينينغراد وباريس ومدريد . ولم يأت عام ١٩٥٨ بمفاجآته القومية والمحلية إلا وكنت قد كونت في وجداني لبورسعيد صورة لا أزهى ولا أجمل ولا أدق منها . صرت أعرف ميادينها ميدانا ميدانا ، وأحصي شوارعها ، شارعا شارعا ، وأحفظ عن ظهر قلب كل الشعر الذي قيل فيها ، وكل الأغاني التي تحدثت عنها . أما لماذا لم أتمكن حتى ذلك الحين من زيارة بورسعيد فلذلك سبب وحيد تختزله العبارة الشعبية التي تتردد كثيرا في أرجاء الوطن العربي وهي (العين بصيرة واليد قصيرة) !!

وفجأة خرج الزمن العربي من دورته الرتيبة الراكدة ، وحدثت المعجزة ، فقد قامت في فبراير ١٩٥٨ أول وحدة بين قطرين عربيين هما مصر وسوريا . وسارع ـ في اليمن ـ نظام الإمامة المتخلف العتيق الى التشعبط بقطار الوحدة انطلاقا من القاعدة الإمامية التي حددها شاعر اليمن الكبير الأستاذ محمد محمود الزبيري في بيته الشعري الشهير :

يهرون الدنيا بزورة موسكو
وعليهم غبار دنيا ثمود !

كان جمال عبدالناصر زعيما واقعيا بعيد النظر ، فلم يتردد في قبول اليمن في إطار وحدوى فضفاض أطلق عليه (اتحاد الدول العربية) ، وفي ظل ذلك الاتحاد الموهوم المزعوم نشأت أول كلية حربية في اليمن ، وتساقطت عن جدران السجن الكبير بعض الأحجار تاركة وراءها نافذة صغيرة للنور ، وعبر تلك النافذة الصغيرة حملتني أشواقي الى بورسعيد ، لقد أصبحت بين عشية وضحاها مواطناً في اتحاد الدول العربية . وكانت إذاعة صنعاء يومئذ وهي اذاعة ناشئة وناطقة باسم « المملكة المتوكلية » أو بالأصح باسم إمام هذه المملكة العريقة في التخلف ، كانت هذه الاذاعة تقول عن نفسها « هنا اذاعة الدول العربية المتحدة » . وفي ظل هذا التقارب المؤقت جرت أول مسابقة أدبية وعلمية من نوعها في القراءة الصيفية الحرة بين شباب دول الاتحاد : مصر ، سوريا ، اليمن ، وكنت لحسن الحظ واحداً من ثلاثة من المتسابقين حالفهم الحظ بالفوز في المسابقة وجائزتها رحلة الى مصر مع زيارة لبورسعيد المدينة العربية البطلة الخارجة من جحيم العدوان الثلاثي .

كيف وصلت الى القاهرة ؟ كيف قضيت الليلة الأولى؟ ماذا قالت الميادين والشوارع ؟ وأسئلة كثيرة أخرى ، قد تحتاج الاجابة عنها الى عشرات الصفحات أتركها لاحتمالات المستقبل ، وأمضي الى حيث كانت النفوس تهفو الى بورسعيد . هاهي تستيقظ من قاع الذاكرة وتقف جليلة مغسولة بأضواء الشمس الشتائية الدافئة المبللة برذاذ خفيف ـ نشعر به ولا نحس وجوده ـ من مياه البحر الأبيض . إن بوسعي الآن ـ وبعد ثلاثين عاماً بالتمام والكمال ـ أن ألتقط صورة خاطفة لبورسعيد ، للناس ،

للبيـوت ، للشـوارع - للنصب التـذكـارى - للمتحف الذي يضم صور الأبطال وأسماءهم ، للأطلال التي كانت شوارع ، فأصبحت خرائب محروقة سوداء . وعند تلك الأطلال أحسست بموجة من الألم تعتصر روحي ، ولم أتحرر من وطأتها إلا عندما وقفنا عند تمثال « ديلسبس » . كان جسد التمثال البرونزي المحطم منكفئا على الأرض والأطفال يعبرونه بأحذيتهم الصغيرة في خيلاء ، والآباء والأمهات يلتقطون صورهم بالقرب من قاعدته الضخمة .

تناولنا طعام الغداء في مطعم قريب من الميناء ، ثم توجهنا صوب مدينة « بورفؤاد » الواقعة في الضفة المقابلة لبورسعيد . وقد وصلنا إليها في « عبَّارة » تقطع القناة وتقوم بدور الجسر المتحرك بين المدينتين ، وبورفؤاد مدينة تترقرق بالسحر ، وشوارعها النظيفة الصغيرة تحمل أسماء بعض المبدعين العرب أمثال : أحمد شوقي ، وخليل مطران ، وجبران خليل جبران . توقفنا قليلا على الشاطيء ، حيث كان عدد من المصورين يتسابقون في تحقيق رغبة من يريد أخذ صورة فورية تكون خلفيتها بورسعيد ، أو المبنى الأبيض لإدارة قناة السويس . ومن الشاطيء ركبنا زورقا بخاريا طاف بنا عرض القناة ، حيث كانت البواخر تسير في نظام ، بعضها قادم من البحر الأبيض والبعض الآخر من البحر الأحمر ، وكنا كلما اقتربنا من احدى هذه البواخر رفع ركابها أيديهم تحية . كما استمعنا الى المرافق وهو يتحدث عن المزاعم الاستعمارية التي كانت تشكك في قدرة المرشدين العرب على إدارة القناة . كان قد مر عامان ويزيد على عودة القناة الى مصر ، وهي تسير بأيدي أبنائها كالساعة الدقيقة الانضباط ، إنهم - واقصد المستعمرين - لم يكونوا يكتفون باحتلال أرضنا وحسب ، وإنما كانوا يسعون كذلك الى التشكيك في قدرتنا على حمايتها وإدارتها . وعندما رجعنا الى الشاطيء كانت الشمس تقترب من الغروب ، وكان يومنا في بور سعيد يقترب من النهاية ويستقر في الضمير بتفصيلاته ، وايماءاته الفياضة بألف إيحاء وإيحاء . □

من أمثال الأمم والشعوب



* بالنار امتحان الذهب ، وبالذهب امتحان الرجال . (مثل صيني)
* إنك لن تستطيع أن تمنع طيور الهم أن تحلق فوق رأسك ، ولكنك تستطيع أن تمنعها أن تعشش في رأسك . (مثل صيني)
* حب الخير للناس هو أدب القلب . (مثل فرنسي)
* ابنك على ما تربيه . (مثل شعبي)
* إذا كنت لا تستطيع الابتسام فلا تفتح دكانا . (مثل صيني)
* ثلاثة أشياء لا يمكن تعلمها : الكرم ، والشعر ، والصوت الطروب . (مثل ايرلندى)
* إذا ذهب الحياء حل البلاء . (مثل شعبي)

من الأفكار الشائعة عن الفكر السياسي العربي
خلوه من المعالجة النظرية لفكرة الدولة ،
ونشأتها ، وعلاقة السلطة بالأفراد ،
ولكن القراءة المتأنية للإنتاج الفلسفي والفقهي العربي الإسلامي
تؤكد اهتمامه المبكر بهذه القضايا ، بتخريجاتها النظرية .

السلطة والدولة في الفكر الإسلامي

بقلم : الدكتور رضوان السيد

بدأ المتكلمون والمفكرون السياسيون والمؤرخون يؤلفون في **نظرية السلطة** في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري . نعرف ذلك من أسماء وعناوين الكتب التي يذكرها ابن النديم في **الفهرست** ، والتي تحمل أسماء **الإمامة** أو **مسائل في الإمامة** . ويغلب على المؤلفات الأولى في موضوع السلطة (المصطلح المتعارف عليه لها : الإمامة) الطابع التاريخي . إذ يتحدث هؤلاء ، وأكثرهم من المتكلمين ومؤرخي الفرق ، عن تاريخ ظهور كل فرقة ، وأهم رجالاتها ، ثم أهم تفرعاتها ، وآرائها العقيدية والسياسية والفقهية . وهم ينطلقون في ذلك من رؤية متعارف عليها ، ظهرت مبكرا فيما يبدو ، وتعتبر الإمامة أو قضية السلطة والصراع عليها القضية الرئيسية في التاريخ الإسلامي الأول . يتكرر ذلك لدى مؤرخي الفرق في القرن الرابع وما بعده ، كالأشعري ، والناشىء الأكبر ، والبغدادي ، والشهرستاني ، ونقرأ ما يفيد ذلك عند الشافعي في الرسالة ، أواخر القرن الثاني الهجري ، مما يشعر بوجود هذه الرؤية منذ البداية .

ثلاث مسائل

وعلى الرغم من الطابع التاريخي للمؤلفات الأولى في قضية الإمامة ، فإن هذه المؤلفات تتضمن ثلاث مسائل في نظرية السلطة ، أولاها القول بضرورة السلطة أو السلطان (نظرية وجوب الإمامة فيما بعد) ، والثانية ضرورة وحدة السلطان . ويذكر المتكلمون لضرورة السلطة أو الإمامة أدلة وبراهين بعضها عقلي والآخر شرعي تاريخي ، وتذكرنا الأدلة العقلية على ضرورة الإمامة لدى المتكلمين الأوائل بتلك المعروفة « كلاسيكيا » عند الاغريق والرومان ، مثل القول بعمى غرائز البشر ، وتناقض مصالحهم الخاصة ، وإقبالهم على التصارع والتخاصم من أجل إرضاء الغرائز والنوازع . ثم عرف

المتكلمون والفلاسفة الإسلاميون الأخلاق لارسطو، والجمهورية لأفلاطون، وبعض المنحولات الهيللينية، فتطورت عندهم أدلة ضرورة السلطة من الناحية العقلية، إذ قالوا بأن البشر يحتاج كل منهم للآخر لقضاء حاجاتهم الأساسية، فيجتمعون من أجل ذلك. لكن الخصومات تنشأ بينهم لرغبة كل منهم في الحصول على أكثر من حاجته (الحاجات الأساسية في نظر الحكماء: الغذاء والكساء والبناء)، والعمل والانتاج أقل مما يعمل وينتج، فتنشأ أعراف ومباديء وسنن ونواميس لتنظيم العلاقات بين البشر، بعضها من اصطلاحهم، وبعضها ذو أصل ديني. ثم يكون ضروريا وجود سادة أو سائس، بعد واضع أو واضعي الأعراف والنواميس، ليشرف على حسن التطبيق والرعاية، وليوقع العقوبة بالخارجين على الناموس أو السنة، وهذا السائس هو الإمام أو السلطان. أما الأدلة التاريخية الشرعية فتذكر أن المسلمين سارعوا بعد وفاة رسول الله ﷺ إلى تعيين إمام، ولم يترددوا لحظة واحدة في ذلك. كما لم يفكروا - كما ذكر بعض المتكلمين - في أن الشريعة التي يؤمن بها الجميع قد تكون كافية بذاتها للاستغناء عن إمام أو سلطان. إذ أن الله سبحانه وتعالى - كما ذكر عثمان بن عفان - يزع بالسلطان، ما لا يزع بالقرآن. وقد قال الإمام علي ردا على الخوارج الذين قالوا: لا حكم إلا لله! كلمة حق أريد بها باطل. بل لا بد للناس من أمير يأخذ به الله للضعيف من القوي، ويجمع به الفيء، ويجاهد به العدو... الخ. والمتكلمون وفقهاء السياسة يردون بذلك على الخوارج، وعلى بعض المتكلمين الذين «شذوا»، فلم يروا ضرورة السلطان. في مقدمة هؤلاء هشام بن عمرو الغوطي الذي اشترط لصحة إمامة أي إمام إجماع الناس عليه. ولأن الناس لم يجمعوا بعد عثمان على أحد، فلا حاجة لمتابعة تجربة السلطة التي أثبتت فشلها في تمثيل مصالح الناس جميعا. ثم منهم أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم الذي قال: «إذا تكافّ الناس عن التظالم استغنوا عن السلطان».

وتأتي المسألة الثانية بعد «وجوب الإمامة» وهي ضرورة وحدة السلطان. ومن المعروف أن بعض الفلاسفة الإغريق رأوا إمكان تعدد السلاطين ضمن الأمة الواحدة. وقد أخذ عنهم ذلك بعض فلاسفة الإسلام. لكن الحديث عن ضرورة وحدة السلطان ظاهر في الرسالة للإمام الشافعي (- ٢٠٥ هـ)، مما يدل على أن القضية طرحت في سياق آخر غير السياق الاغريقي. وقد عاصر الشافعي صراع الأمين والمأمون الذي هدد بظهور إمامين، كما أن الأمويين بالأندلس كانوا قد استقلوا عمليا، وإن لم يتَسَمَّوْا بإمارة المؤمنين. أما المفكرون المسلمون فقد فهموا من مصطلح الأمة الواحدة في القرآن، وسيرة السلف الصالح وحدة في السلطان، ووحدة في الأرض، ووحدة في الجماعة. ولم تتساو الوحدات الثلاث في نظرهم في الأهمية، لكنها كانت المثل الأعلى المطلوب، الذي تحقق أيام الراشدين والأمويين. فلما ظهرت الدويلات وانفصلت الخلافة عن السلطة (الشرعية عن القوة السياسية) عاد المفكرون للتمسُّك بالوحدة المعْلَنَة للدار، والوحدة الضرورية للأمة، مع اعتراف بامكان تعدد الأئمة إذا تباعدت الأقطار.

وكانت المسألة الثالثة المتصلة بنظرية السلطة التي جرت معالجتها منذ البداية: مسألة شرعية السلطان أو متى يكون الإمام شرعيا. ومتى يكون متغلِّباً غير شرعي. وهنا أيضا كان للتجربة التاريخية العربية الاسلامية تأثيرها البالغ على فقهاء السياسة والكلام. فقد تمسك بعض بمبدأ الشورى باعتباره الطريق الأوحد للوصول إلى الإجماع حول رجل من قريش يتولى السلطة، بينما نظر آخرون لشكل التجربة، فقالوا: إن

البيعة العامة - بقطع النظر عن كيفية حدوثها - هي التي تفترق بين الشرعي وغير الشرعي. وذهب فريق ثالث إلى أن الحكم على شرعية أي سلطان ينبغي أن يستند إلى مدى تحقيقه للأهداف العليا للأمة، بغض النظر عن طريقة وصوله للسلطة، والأهداف هي: الجهاد والدعوة وحماية دار الإسلام، والعدالة في قسمة الفيء، والحفاظ على الوحدة الداخلية، والحيلولة دون الفتنة. ولا تنتفي شرعيتُهُ عند فريق الأكثرية هذا حتى إن لم يحقق بعض هذه الاهداف، مادام يحقق هدفين منها: حماية الدار، ومنع الفتنة. ولكل ذلك تفصيلات ليس هذا الموجز موضعا مناسبا لها.

الدولة وأشكالها

درس الفقهاء والمتكلمون والكتّاب الاداريون والفلاسفة والمؤرخون إذن مسائل كثيرة متعلقة بأصل السلطة أو نظريتها، ضرورةً ووحدةً وشرعيةً. وفي الوقت نفسه بدأ الاهتمام بدراسة تجربة الأمة التاريخية مع سلطتها أو سلطاتها،

ومقارنة ذلك بما قرءوه من تجارب الأمم الأخرى. وقد كان ظاهرا لهم منذ البداية أن تجربتهم مع السلطة السياسية لديهم تختلف عن تجارب الأمم الأخرى الغابرة والمعاصرة، وقد

سموا نظامهم خلافة، بينما سمىّ الآخرون نُظُمَهم ملكا، وسموا ملوكهم أو لقبوهم قياصرة وأكاسرة وخواقين وما شابه. وإذا كانت سلطة الأمة عند العرب المسلمين قد تأسست على الإسلام أو في حضن دين جديد، فإنه كان واضحا بالنسبة لهم أن ذلك لا يمكن قوله عن سلطة الروم الذين قامت دولتهم قبل المسيحية بقرون كثيرة. وليس واضحا كيف بدأت العلاقة بين دولة الفرس القدامى الاخمينيين والزرادشتية، بل إن هناك من العلماء من يقول: إن الزرادشتية لم تصبح دين الدولة الرسمي عند الفرس إلا أيام الساسانيين. ثم ما معنى الدين؟

هل هو الدين السماوي أو الموحى في نظر المسلمين، أم أن المفكرين المسلمين يعتبرون كل منظومة تقوم بوظيفة الدين، دينا، وإن يكن باطلا في نظرهم؟ وإذا كانت علاقة الدين التأسيسية بالسلطة في مجالهم الحضاري واضحة بالنسبة لهم، فكيف رأوا علاقة الأديان الأخرى بالنظم السياسية في المجالات الحضارية للأمم التي عرفوها، أو وصلتهم آثارها الكتابية؟ كل هذه الأمور بحثها الفكر السياسي الإسلامي تحت عنوان «تدبير الدول» أو «أنواع الدول».

والدولة كما هو معروف لا ترادف السلطة أو الإمامة في المذاق اللغوي العربي، والفكر السياسي الإسلامي. فالدولة تعني تنقل الأمور من حال إلى حال، وانحياز الزمان لقوم على قوم في السلطة أو في الثروة. وقد أطلق العباسيون على دعوتهم الثورية ضد الأمويين اسم الدولة تفاؤلا بالظفر وأن يقضي لهم الزمان. لذلك فإن السلطة واحدة في أصلها، وعلل قيامها الاولى لدى الأمم كلها. أما ما تختلف فيه فطريقة القيام، وطرائق الاستمرار، ومن هنا تأتي الدول واشكالها. ومن هذا المنطلق كانت السلطة واحدة وثابتة. والدول متعددة ومتغيرة في نظرهم.

قال ابن المقفع (-١٤٢ هـ): «إن الملوك ثلاثة: ملك دين، وملك حزم، وملك هوى». وليس بالوسع بسبب الصيغة الأخلاقية الاعتبارية التي تغلف الأمر كله عند الكاتب في الأدب الكبير، القول ما إذا كان يقصد هنا أشكال الدول، أو مجرد الإرشاد والاعتبار. ونحن نعرف منذ زمن أن الترجمات بدأت عن اليونانية والسريانية أيام الأمويين وكذا عن الفهلوية. فهل عرف ابن المقفع سماعا أو قراءة شيئا عن تقسيم ارسطو لأشكال تجلي السلطة في دول ديمقراطية، وارستقراطية، وملكية... الخ؟ كل ما ذكرناه أمور لا يمكن القطع بشيء فيها. ومع ذلك فإن هذه العبارة القصيرة تبقى

شديدة الأهمية ، إذ الواضح أن الرجل يرى أن الملك (السلطة) ممكن ، وإن لم يتأسس على دين . وهو إن كان كذلك انقسم إلى قسمين : ملك حزم أو ملك هوى واستبداد . والغالب أن الدولة الايرانية التي ترجم ابن المقفع كثيرا من مأثوراتها لم تقم على دين ، بل قامت على التدبير العقلي (الحزم) . وقد استمرت في نظر ابن المقفع وأضرابه من الكتاب آلافا من السنين ، بسبب بيروقراطيتها الطبقية الشديدة ، والعدل بين تلك الطبقات لدى الأكاسرة . وقد عظمت المأثورات التي ترجمها ابن المقفع وغيره من شأن العدل الفارسي ، حتى سمى المسلمون كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٨ م) الساساني : « الملك العادل » ، تبعا للمأثورات الفارسية . فكأن العدل يمكن أن يكون أساسا للشرعية ، وإن لم تكن هناك شرعية إلهية تتأسس عليها السلطة ، وتقوم على تطبيقها . ويتضح من عروض الدينوري والمسعودي . وصاعد الأندلسي لتواريخ الروم والاغريق والهنود والصينيين أن المسلمين كانوا يعرفون أمماً غير الفرس ، لم تتأسس نظمهم على الدين ، بل على المصلحة المُدْرَكة بالعقل ، والسياسة المستمرة بالعدل » . وربما كان هذا الانطباع عن الدولة الفارسية القديمة ، والدولة الرومانية وراء ظهور المأثور الذي يقول : يبقى الملك مع الكفر ولا يبقى مع الظلم ! .

ويزعم ابن الطقطقي في « الفخري في الآداب السلطانية » أن هولاكو جمع علماء بغداد بعد قتله للخليفة العباسي ، وتدميره للمدينة ، وسألهم أيٌّ أحب إليهم ، وأقرب لدينهم : المسلم الظالم أو الكافر العادل ؟ ! لكن ما لم يفكر فيه صاحب الفخري إمكان وجود السلطان المسلم العادل ؟ وهذا ما لاحظه أبو الحسن العامري (- ٣٨١ هـ) الذي أنكر قبل ابن الطقطقي بقرون دعوى العدل الفارسي والرومي . صحيح أن الدولة الفارسية والأخرى الرومية قامتا على غير دين ، لكنهما من أجل تلك لم تكونا عادلتين . ثم إن ضرورة السلطة للمجتمع ، وعدل الفرس المزعوم لم يمنعا انهيار الدولة الايرانية على يد المسلمين الذين قدموا نموذجا جديدا للدولة ، قام على ضرب النظام الطبقي غير العادل ، وأنشأ مجتمعا مفتوحا الناس فيه أكفاء متماثلون .

دولة القوة

أفاد أبو الحسن الماوردي (- ٤٥٠ هـ) من هذه النقاشات كلها ، وعرض للمرة الأولى - فيما أعلم - نظرية متكاملة لنشوء الدول وانهيارها ، وذلك في كتابيه : « نصيحة الملوك » « وتسهيل النظر وتعجيل الظفر » . أما كتابه الثالث « الأحكام السلطانية » فقد درس فيه الشكل الاسلامي للسلطة ، أي الخلافة . وبالوسع تبين مصادر رؤية الماوردي أو نظريته ، فهناك التجربة العربية الاسلامية مع السلطة . وهناك الترجمات عن التجارب الفارسية والاغريقية والبيزنطية ، وهناك أخيرا الجدل بين الفرق الاسلامية المختلفة ، وقد تناول فيها تناول مسائل تتعلق بنظرية السلطة وأشكال الدول كما سبق أن قدمنا .

قال الماوردي في « نصيحة الملوك » : إن المجتمعات البشرية كلها تتأسس أو تقوم على الدين . وليس ضروريا أن يكون هذا الدين مُوحىً أو حقا ، بل المهم إجماع الناس في المجتمع على الإيمان بعقيدةٍ معينةٍ أو دين معين . وهذا هو الأساس العام . فإذا قام المجتمع واتجه لإنشاء سلطة تنظم أموره ، وتحفظ كيانه ، وتدفع عنه شرور الأعداء ، فإن الأشكال المحتملة للسلطة فيه ثلاثة : دولة الدين ، ودولة القوة ، ودولة المال والثروة . ويوضح الماوردي في « تسهيل النظر » ماذا يعني « بدولة الدين » فيقول : إنها تلك السلطة التي تعتبر أن الدين الذي قام عليه المجتمع لم تعد أحكامه مراعاة أو مطبقة ، وأن

الأهداف العامة للمجتمع السياسي لم تعد مقصورة ، فتنهض جماعة بدعوة وباسم الأمة ودينها ، وتقاتل بها السلطان القائم باسم انحرافه عن الدين أو عن عرف الأمة ، وباسم الثورة على الظلم والطاغوت ، وتنشيء عهدا جديدا (دولة) ترى أنه أقرب لمضامين دين الجماعة . وتقوم « دولة القوة » في نظر الماوردي في ظروف استثنائية تحدث أزمة في السياسة العامة للدولة القائمة . ويكون الأمر غالبا أمر اعتداءات خارجية عجزت السلطة القائمة في المجتمع عن التصدي لها . فإذا كانت الدعوة الدينية تعطي دولة الدين التي تقوم عليه أساس شرعيتها ، فإن دولة القوة أو سلطة العصبة العسكرية تكتسب الشرعية من خلال قدرتها في الأوقات العصيبة على التصدّي للعدوان الخارجي ، وإعادة الأمور في الداخل إلى نصابها . وتأتي دولة المال والثروة في حقب التراخي والانفلات ، إذ تصل للسلطة في المجتمع عصبة من الأثرياء عن طريق رشوة المتنفذين ، واستخدام المرتزقة .

دولة الدين

أما « دولة الدين » فإن مثَلَها الأوضح لدى الماوردي الخلافة الاسلامية التي تأسست مباشرة على الدعوة . وهو يرى أن كل دعوة دينية تتحول إلى سلطة سياسية بعد وفاة مؤسسها . ومسوغ هذا التحول في نظر خلفاء « صاحب الدعوة » حماية الدعوة ، والعمل على نشرها في العالم .

لكن القائمين على الدين الذي تحول إلى مجتمع سياسي يتصارعون فيما بينهم ، إما على تأويل الشريعة ، وإما على السلطة نفسها أو زعامة المؤسسة . وخير مثل لدى الماوردي على دولة القوة الايرانيون القدماء من جهة ، والدولة السلطانية التي تبلورت في التاريخ الإسلامي مع ظهور البويهيين فالسلاجقة . فمن المعروف من « تاريخ الطبري » أن المسلمين كانوا يعرفون أن غزو الاسكندر للعالم الشرقي أسقط الامبراطورية الايرانية ، وقسم إيران نفسها . فلما مات الاسكندر قام في إيران « ملوك الطوائف » الذين تقاسموا الأرض والناس ، حتى جاء أردشير بن بابك بن ساسان بعصبيته العسكرية في منطقة اصطخر ، فوحّد ايران ، وتصدى للرومان والترك ، والشعوب الأخرى في بلاد ما وراء النهرين أفادوا من انهيار الامبراطورية الفارسية القديمة ، وأنشأوا ممالكهم الخاصة على حسابها . وفي الاسلام جاء السلاجقة موحّدين لدار الإسلام ، ومدافعين عنها في وجه البيزنطيين ، بعد أن ضعفت الخلافة وتناوشتها السيوف . لكن إذا كان مقتل رجالات الدولة الدينية يكمن في انقسامهم حول الدين ، تأويلا وتطبيقا ، فإن مقتل « دولة القوة » يكمن في أن شرعيتها خارجية . فإذا تراجع الخطر الخارجي ، وتوحد الداخل انتفت مسوغات وجود العسكر ، إلا إذا قام من بينهم سلطان متميز ، يربط الشرعية بالقوة في تدعيم سلطانه . أما دولة المال والثروة فلاحظَ لها في الاستمرار بنظر الماوردي . إنما هي انقلاب على حين غفلة ، يقضي عليه بعد فترة وجيزة العسكر والمرتزقة الذين أقاموه ، أو دعوة دينية جديدة ، وليس في تاريخه مثل على دولة المال ، ولا في التاريخ الايراني القديم . لذلك رجحت أن يكون الماوردي قد أفاد في ذكرها من أرسطو الذي يعتبرها شكلا من أشكال فساد السلطة في المجتمع ، ويسميها البلوتوقراطية .

يعتبر الماوردي إذن دولتي الدين والقوة دولتين عاديتين ، تحدثان على أرضية المجتمع المؤمن بدين واحد أو عرف عام معتبر اجتماعيا . والفرق بينهما أن دولة الدعوة الدينية ذات شرعية داخلية مستمدة من الدين مباشرة ، بينما « دولة القوة » ذات شرعية خارجية نسبيا . لذلك يرى أن الدولة الأولى تكون أثبت وأطول عمراً . وتسقط عندما تعجز أو تحيد عن تحقيق الأهداف التي قامت من أجلها : تطبيق الشريعة ، ونشر

الدعوة ومنع الفتنة ، وحماية الدار . بينما تكون دولة القوة أقل ثباتا ، رتسقط عندما تعجز عن ربط نفسها أو سلطتها بدين المجتمع أو عرفه العام ، فقد سقطت الدولة الايرانية بعدما عجزت عن التصدي للبيزنطيين والعرب المسلمين ، كما عجزت عن ربط نفسها بالزرادشتية التي استندت إليها بعد قيامها منذ أيام أردشير (- ٢٤١ م) إلى أيام كسرى أنوشروان (- ٥٧٨ م) . والأمر نفسه يمكن قوله على البويهيين الذين شهد الماوردي سقوطهم على يد السلاجقة عندما دخلوا بغداد عام ٤٤٤ هـ ، بعد أن اكتسحوا الدولة البويهية في مهدها في بلاد فارس .

ولا يُخفي الماوردي هدفه من وراء تحليله لكيفيات قيام الدول ، وكيفيات انهيارها ، فهو يريد من وراء ذلك الوصول لعرض الشكل الإسلامي للسلطة (الخلافة) ، باعتباره الشكل الأصلح والأبقى لأمتنا . صحيحٌ أنّ رؤيته لأشكال السلطة والدولة - كما يسميها - تدخل في باب فلسفة السياسة ، لكنه فقيه بالدرجة الأولى ، لذلك يخص السلطة الاسلامية بكتاب كامل ، هو « الأحكام السلطانية » ، يدرس فيه طريقة قيام السلطة الاسلامية كشكل من أشكال الدعوة الدينية ، ثم يتتبع تطور مؤسسات الدولة الإسلامية ، وقيام الثنائية : الخلافة / السلطنة ، معتبراً السلطنة ، أي دولة القوة ، تحولاً مفهوماً ، لكنه غيرُ مستقرٍ وغير مستمر .

ولأنه يستند في تنظيره إلى التاريخ ، والتاريخ الإسلامي على الأخص ، فهو يحاول أن يفهم قوانين قيام الدول وانهيارها من ضمن التاريخ دونما جبريةٍ أو ميكانيكيةٍ حاكمة ، لهذا فهو ينصح لها إن أرادت البقاء - وكأنما ينصح السلاجقة وهم السلاطين الجدد - أن يربطوا أنفسهم بعرف الأمة الداخلي ، أي بالإسلام ، بعد أن نجحوا في التصدّي للبيزنطيين ، عدوّ الإسلام الأول حتى أيامه .

رأي ابن خلدون

استشهد الماوردي بمأثور هيلليستي يشبه الدولة بالثمرة التي تبدو أول ظهورها قويةً صلبةً ، ثم تدرك وتحلو ، ثم تتخثر وتسقط ، لكنه لم يتابع في رؤيته التي عرضناها هنا هذا التصور الميكانيكي . أمّا ابن خلدون فقد ذكر المأثور ، وأضاف إليه تشبيهاً عضوياً ماثَلَ فيه بين تطور الدولة المعنية وأفراد النوع البشري . فالإنسان يكونُ فتياً قوياً ، ثم يكتهل وينضج ، ثم يشيخ ويفنى . لذلك فإنّ عُمُرَ الدولة عنده أربعة أجيال كعمر الرجل الواحد المعمّر ، وهو يقول مثل الماوردي بدولة الدعوة الدينية ، ودولة القوة ، لكنه يهتم أكثر من الماوردي بالأساس الاجتماعي للسلطة ، وهو يرى أنه أياً كان نوع الدولة فإنها تقوم على عصبيةٍ قبليةٍ أو عشائرية ، ثم تنمو فتكونُ ملكاً ، ثم تشيخُ وتسقطُ .□



دهـــــاء

● غضب الرشيد على حميد الطوسي ، فأمر بإحضار السيف ، فبكى الرجل ، فقال الرشيد : ما الذي يبكيك ؟

قال : والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت ، لأنه لابد منه ، وإنما بكيت أسفا على خروجي من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط علي .

فضحك الرشيد ، وعفا عنه ، وقال : إن الكريم إذا خادعته انخدعا



الأربَعُون

شعر : خالد محادين

من أينَ جئتِ وخافقي تَعِبُ
وأصابعي أوتارُها يَبستْ
من أينَ جئتِ وليسَ يُوقظُني
قَدْ سُدَّتِ الأبوابُ من زمنٍ
وتكسّرت في خاطري صُوَر
إنّي وإن أمطرتِني دِيَماً
لا تطرقي بابي فما حِمَمٌ
لكنّها خيلي وأعرفها
الأربعون وكيف أنكرها
لو أن في وسعي مكابدةً
وأمدّ من روحي له سبباً
يا واحةً ما أتعبتْ سفري
ماذا إذا أحببتُ ظامئةً
وتوسَّلت كأسي لتشربَها
الأربعون وقارُها وَجَعٌ
والأربعون رمادُها شُعُلٌ
مُدّى يديكِ فغابتي اشتعلتْ
وتوسَّدي صدري فما مطرٌ
إنّي على كفّيك في سفرٍ

لا النارُ تسكنه ولا الخَشَبُ
هيهات في عينيكِ تصطخبُ
ما تُرسلُ الأجفانُ والهُدُبُ
ونوافذي لم تفتقدْ سُحُبُ
وتخاطفتْ مرآتي الحُجُبُ
صحراءُ لا يحفل بها العُشُبُ
هذى التي من خلفِهِ تَثِبُ
لا تشتهي أرضاً ولا تَهَب
مُذْ أدبرت وتكسّر القَصَبُ
لاخترت أنْ يجتاحني اللهبُ
إنْ مُدَّ لي من روحِهِ سَبَبُ
ماذا إذا قد جئت والتَّعبُ
واجتاحني من رملِها السَّغَبُ
فإذا الذي تَرْجُوهُ ما شَرِبوا
والأربعون وقارُها كَذِبُ
والأربعون هُدُوءُها صَخَبُ
ومواقدي لوجِنْتها حَطَبُ
هذا الذي لو غبتِ ينسكبُ
وأخاف أن يغتالني الشغب

«البيريسترويكا»

.. اعـادة البنـاء

بقلم : أمين هويدي

تثير قرارات الرئيس السوفيتي « جورباتشوف » في معالجته لشئون شعوب الاتحاد السوفيتي الداخلية ، وعلاقاتها الخارجية مع دول العالم ، الكثير من الآراء والتعليقات والتفسيرات حول دوافعها ونتائجها المحتملة .

ولإدراك « العربي » أن ما يجري في الاتحاد السوفيتي - كدولة عظمى - سيكون له تأثير عميق في العلاقات الدولية التي أصبحت شديدة التشابك ، كما سيكون له انعكاساته على الوطن العربي ، لذا تفسح المجال لمحاولات تفسير هذه التغييرات ودلالاتها .

لاشك أن فترة الثمانينيات تعتبر نقطة تحول كبرى في النظام العالمي الذي يتحكم في الكوكب الذي نعيش فيه ، فالدول الاثنتا عشرة الأعضاء في السوق الأوربية المشتركة تخطو خطواتها الثابتة لإعلان « الولايات المتحدة الأوروبية » بسوقها الموحدة عام ١٩٩٢ .

والصين بقيادتها الجديدة تعلن وتخوض ما يسمى ثورة التصحيح الكبرى التي تطلق عليها اسم « الجاي جي GAI — GI » ، وفي الاتحاد السوفيتي يعلن ميخائيل جورباتشوف عن « إعادة البناء » أي « البيريسترويكا » التي يركز فيها على إحداث تغييرات جذرية داخلية ، يغلفها بتغييرات في السياسة الخارجية ، جعلت العالم يعيد حساباته ، ويرتب أوراقه من جديد . ومن الضروري لنا - وكما يفعل غيرنا بوعي - أن نتابع ما يجري في الاتحاد السوفيتي وغيره ، لأنه سيؤثر فينا حتما ، ولذلك سنحاول إلقاء بعض الأضواء على بعض الأفكار الرئيسية لميخائيل جورباتشوف عن « البيريسترويكا » .

البيريسترويكا لماذا ؟

حينما قفز « جورباتشوف » إلى قمة السلطة أيقن « أن السيارة لم تكن تتجه إلى حيث يعتقد من يجلس إلى عجلة القيادة ، وهذا أمر سبق أن حذر منه « لينين » في أوائل أيام الثورة البلشفية ، فالعالم كله يتغير ، عدا الاتحاد السوفيتي الذي وضع نفسه في إطار « أيديولوجي » ، لايريد أن يتحرر منه ، فالتطورات الاجتماعية غيرت طبيعة المجتمعات وعلاقاتها بعضها ببعض .

إن عالم العشرينيات حينما بدأت الثورة في روسيا ليس هو عالم الثمانينيات أو التسعينيات ، والاتحاد السوفيتي اليوم ليس هو « روسيا القيصرية » التي حطمها « لينين » ورفاقه بعد الثورة .

والثورة ليست عملا استاتيكيا « Static » ، يحدث في لحظة ثم يلقي الثوار بعدها أسلحتهم ويستريحون ، تظللهم أكاليل الغار بعد النصر ، بل الثورة عمل « ديناميكي » تسعى إلى التغيير والتطوير نحو الأفضل . وبذلك فهي تعني التدمير والبناء.وبدون تدمير، لا يمكن تنظيف الموقع ليقام البناء الجديد . إن « البيريسترويكا » تعني إزالة جذرية وحازمة للعقبات التي تعرقل التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، كما تعني التضحية بالفروع من أجل انطلاق الجوهر .

إن النظرية « الماركسية » تنادي بالتغيير المستمر ، على أساس أن وسائل الانتاج وعلاقاته ، تتطور بصفة دائمة ، الأمر الذي يحتم على البناء السياسي الذي يمثلها أن يتواءم مع التغيير وإلا ينهار من أساسه ، إذ يصبح البناء مرتكزا على أساس تغيّر كلية عن الأساس الذي أنشيء فوقه في مبدأ الأمر . لينين نفسه واجهته هذه المشكلة بعد الثورة مباشرة ، حينما اصطدم بالأمر الواقع ، فنادى « بالخطة الاقتصادية الجديدة » التي فتح عن طريقها مجالا للقطاع الخاص والاستثمار الأجنبي ، لأن البلاد في حاجة إلى التقاط الأنفاس قبل أن تتقدم إلى الأمام .

وبناء على هذه النظرة أقدم جورباتشوف على تنفيذ إجراءات غير معتادة : انتخاب المديرين في المؤسسات والمكاتب ، تعدد المرشحين لانتخابات السوفيتيات ، المشروعات المشتركة مع الشركات الأجنبية ، مصانع ووحدات ومزارع جماعية وحكومية تسير نفسها بالتمويل الذاتي ، رفع القيود عن المزارع التي تغذي مصانع للمواد الغذائية ، اتساع النشاط التعاوني ، تشجيع النشاط الفردي في الإنتاج الصغير الحجم ، إغلاق الوحدات الخاسرة ، صحافة أكثر وضوحا ، تأجير المزارع للعائلات فترة تصل إلى ٥٠ عاما .

ولكن مازال السؤال قائما : لماذا البيريسترويكا؟ ما الذي حدث بالضبط في الاتحاد السوفيتي لإعلان الثورة على الثورة مع الاستمرار في التوجه والأهداف ؟

اختلال التوازن

والذي حدث في الاتحاد السوفيتي حتى بداية عصر « جورباتشوف » ثورة ضخمة ، بكل المقاييس ، في ظل الظروف التي سادت في تلك الفترة ، فقد انتهت الحرب العالمية الثانية بنظام عالمي جديد ، «أحادي الأقطاب» ، سيطرت فيه الولايات المتحدة على العالم في ظل « الاحتكار النووي » . وكان هذا خطرا ماحقا على العالم الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفيتي ، إذ أصبح للولايات المتحدة القدرة على فرض « السلام الامريكي » ، كما تراه على الكوكب الذي نعيش فيه ، ولم ينس الاتحاد السوفيتي ما فعلته قنبلتا « هيروشيما » و « ناجازاكي » باليابان ، ولم يجد إلا خيارا واحدا أمامه ، وهو خوض معركة حياة أو موت ، لتحقيق « التعادل النووي » مع الولايات المتحدة ، لتحويل العالم إلى عالم « ثنائي الأقطاب » بدلا من « أحادي الأقطاب » ، ونجح الاتحاد السوفيتي ، وأصبح يملك « ترسانة » من الأسلحة التقليدية والنووية هائلة ورادعة .

وحينما وصل الاتحاد السوفيتي إلى غرضه ، وجد نفسه في نقطة حرجة ، اختل فيها التوازن بين قواه الثلاث : العسكرية والاقتصادية والسياسية ، وأيقن جورباتشوف أن قدرة الاتحاد السوفيتي الداخلية هي التي تحدد مدى سياسته الخارجية ومصداقيتها ، وأن رجلا قوية واحدة ـ وهي القوة العسكرية ـ لاتكفي للتحرك في العالم الذي نعيش فيه .

ووجد جورباتشوف أن القوة الاقتصادية للاتحاد السوفيتي تتآكل ، فليس معقولا أن الاتحاد السوفيتي الذي بلغ الذروة في التقنية العسكرية ، ووصل إلى القمر ، وعسكر في الفضاء ، عاجز في الوقت نفسه في مجالات التقنية المدنية ، وعاجز عن توفير المواد الغذائية لشعبه ، ويضطر لاستيراد النسبة العظمى من احتياجاته من أسواق منافسيه ، ويفتقر شعبه إلى كثير من المواد الاستهلاكية ، بل لقد تولدت لدى الشعوب السوفيتية عقدة من جودة المنتجات الغربية وليس معقولا أن يستمر الاتحاد السوفيتي في قياس معدلات التنمية بحجم الاستثمارات المتزايدة ، وكمية المواد الأولية ، والطاقة المستخدمة في الانتاج ، وليس بزيادة الانتاجية ورفع مستوى الانتاج ، أو أن يظل غائبا عن الأسواق العالمية في كثير من المجالات ، فلا يتمكن من الحصول على العملة الصعبة لعجزه في مجال الصادرات . ليس معقولا أن تكون قوته العسكرية جبارة كاسحة ، وقوته الاقتصادية متواضعة عاجزة ، في عالم لاتقل فيه المنافسة الاقتصادية أهمية عن المنافسة العسكرية بأي حال من الأحوال .

وفي الوقت نفسه ليس معقولا في ظل قوته العسكرية الهائلة ، أن يظل الوضع السياسي للدولة والفرد على الوضع الثقيل نفسه الذي تطلبه مرحلة التحول العظمى ، وأن يصبح الحزب الشيوعي فوق الشعب وليس مع الشعب ، مسيطرا على كل السلطات ، وخاصة بعد أن ترهل ودخله بعض الفساد . إن المزيد من الاشتراكية لايمكن تحقيقه إلا بمزيد من الديموقراطية ، وإشراك الجماهير في عمليات التحول . إن العمل وحده هو الذي يحدد المكان الحقيقي للمواطن في المجتمع ، وكذلك وضعه الاجتماعي ، فالاشتراكية ليس لها علاقة بالمساواة الكاملة ولايمكن أن تضمن ظروف الحياة والاستهلاك وفقا لمبدأ « من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته » ، إذ سيكون ذلك في ظل الشيوعية ، أما الاشتراكية فلها معيار آخر لتوزيع المزايا الاجتماعية ، وهو « من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله » . للعمال الحق في اختيار مديرهم ، وينبغي على اللجان النقابية أن تكون ذات أنياب ، وألا تكون شريكا طيعا للإدارة . إن الجلاسنوست ، أو العلانية والنقد ، والنقد الذاتي ، لابد أن تمارس على أساس من معرفة الحقيقة ، فلا يجوز أن تستمر أجهزة الإعلام والثقافة على صورتها القائمة في ظل ثورة الاتصال التي جعلت الدول عارية بعضها أمام بعض ، وليس معقولا أن تتضخم القوة العسكرية وتتآكل حقوق الانسان .

وفضل جورباتشوف أن يواجه النقطة الحرجة ، لا أن يتجاهلها كما فعل غيره ، فكان عليه أن يجد حلا للمعادلة الصعبة : كيف يدعم القوتين ، الاقتصادية والسياسية ، دون المساس بالقوة العسكرية ؟ لقد وصل الاتحاد السوفيتي الى حد الكفاية في وسائل الدفاع ، بحيث أصبح قادرا على تدمير الولايات المتحدة عشر مرات ، وأصبح واثقا أن الشعب الأمريكي أصبح رهينة في يد الكرملين ، كما أن الشعب السوفيتي رهينة بدوره في يد البيت الأبيض ، وبذلك أصبح قادرا على أن يحافظ على السلام في ظل قوته الرادعة . ولكن ما فائدة ضمان المحافظة على السلام في ظل الشك في القدرة على المحافظة على النظام ؟! لم لايوقف سباق التسلح حتى يدفع ماء الحياة في شرايين الأبنية الاقتصادية والسياسية ؟ لم لا يستغل قوته العسكرية التي وصل إليها وحققها في عملية اعادة البناء ؟ هكذا فكر وأقدم على التنفيذ . ولكن ما كان يمكنه القيام بذلك إلا في ظل القوة العسكرية التي حققتها الأجيال السابقة في ظل قياداتها المتتابعة بما لها وما عليها .

البريسترويكا : كيف ؟

لم يكن ميخائيل جورباتشوف أول من حاول « إعادة البناء » من قادة الاتحاد السوفيتي ، فقد

حاول ذلك « خروشوف » في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي بعد وفاة ستالين ، وتمكن من الانفراد بالسلطة ، إلا أن « ليونيد بريجنيف » قام ضده بانقلابه المشهور ، بمساعدة كل من « بودجورني » و « كاسجين » . وجرت محاولة أخرى لإعادة البناء بدأها « أندروبوف » ، لكنه كان يعلم أن الوقت لن يتسع له للسير في الطريق الطويل ، بسبب أزمته الصحية التي كان على علم بمدى خطورتها ، فاكتفى بدق ناقوس الخطر ، واتخاذ بعض الخطوات لتطهير الحزب ، وتهيئة المسرح لجورباتشوف ، عسى أن يتمكن من تنفيذ ما حال القدر دون قيامه هو بتنفيذه .

وفي الخطوات الإصلاحية المحدودة التي تمت قبل « جورباتشوف » كان النقد يوجه للزعيم دون الحزب ، فصب خروشوف نقده على ستالين ، مشوها صورته بطريقة بشعة ، وكرر «اندروبوف» نفس « السيناريو » بتركيز نقده على « بريجنيف » وجمود سياسته وفساد إدارته .

إلا أن جورباتشوف كان هو الوحيد الذي تجاسر على أن يوجه نقده ضد الحزب « إذ يجب أن نبدأ بأنفسنا ، وعلى كل فرد في المكتب السياسي ، ومن الهيئات المحلية ، ومن منظمات الحزب القاعدية أن يتحمل المسئولية ، كما ينبغي أن نكون أفضل مما نحن عليه ، وسوف نساعد من لا يستطيعون تقويم أنفسهم . . . يجب أن يتخلى بعضنا طواعية عن الامتيازات التي لا يستحقها ، والتي كسبها بشكل غير مشروع ، وعن الحقوق التي عرقلت تقدمنا . . . لقد ضعف توجيه الحزب ، وانعدمت المبادرة ، وضعف أداء المكتب السياسي وسكرتاريته ، وكذا جهاز الحزب ، وساد العبث في توزيع الجوائز والألقاب والمكافآت ، ونشأ مناخ أن كل شيء على ما يرام ، وفترت المطالبة بالانضباط والشعور بالمسئولية ، وبذلت المحاولات لتغطية ذلك بحملات صاخبة ومشروعات طنانة ، وعجزت منظمات الحزب عن الدفاع عن المبادىء أو في التصدي للاتجاهات الخاطئة ، وأصبح العديد من أعضاء الحزب في المواقع القيادية فوق الرقابة والنقد ، مما أدى إلى ممارسات خاطئة وخطيرة ، وساد بين هؤلاء عدم احترام القانون ، مما أدى إلى سخط الجماهير العاملة على سلوك الأشخاص الذين يحظون بالثقة والمسئولية ، والذين يسيئون استخدام السلطة ، ويقمعون النقد ، ويجمعون الثروات ، والذين تحولوا إلى شركاء في أعمال إجرامية إن لم يكونوا منظمين لها » .

ثم نجد أن « جورباتشوف » يرتكز في كل أقواله وإجراءاته إلى « لينين » الذي بقيت أعماله معينا لا ينضب للفكر الابداعي الجدلي ، والاثراء النظري . وقد حدد الرجل مركزه بدقة بالنسبة إلى « لينين » ، فكما يقول « ديف موراركا » في كتابه القيم « جورباتشوف وحدود السلطة » : « إن التاريخ سجل لنا الدور المهم الذي لعبه الأنبياء في تقدم البشرية ، وأن بعضا من الحواريين والفلاسفة والقادة كانوا مجرد وسائل لنشر رسالة الأنبياء ، وإن جاز لنا تطبيق ذلك على ما نحن بصدده فإن جورباتشوف حدد دور « لينين » في أنه « النبي » الذي بلغ الرسالة التي لا يجوز تغييرها . وما على « جورباتشوف » بصفته أحد الفلاسفة والقادة إلا تبليغ الرسالة وتأصيلها . ونجده في كتاباته وأحاديثه يرجع دائما إلى « مؤلفات لينين » ، فهي بمثابة وصيته السياسية . كان لينين عندما اشتدت وطأة المرض عليه شديد القلق على مستقبل الاشتراكية » .

وإذا نظرنا إلى التاريخ أيضا وجدنا أن « الأفكار الجديدة » لا تجد قبولا ، إلا إذا قدمت على أنها ليست جديدة تماما بل لا تتعدى كونها إحياء لأفكار قديمة ، تم تجاهلها ونسيانها في زحمة الحياة . وجورباتشوف يؤكد دائما بأنه لا يوجد جديد فيما يقول ، فكل ما يفعله هو مجرد إحياء لمبادىء لينين التي أكد عليها منذ سبعين عاما ، فقد تحدث لينين عن الانفتاح في « الخطة

الاقتصادية الجديدة » ، وعن توجيه الرأي العام ، والنقد ، والنقد الذاتي ، ومطابقة ما يقال على ما يفعل ، والطهارة الحزبية .

إصرار ومصاعب

وفوق كل ذلك فإن جورباتشوف كان مقدرا تماما الطريق الصعب الذي كان عليه أن يقطعه .

كان مقدرا تماما مقاومة « رجال الحرس القديم » ، ثم « أصحاب المصلحة في الإبقاء على الأوضاع دون تغيير » ، وكذلك الأغلبية الصامتة التي تنتظر تحديد اتجاه الريح . ولم يكن أمامه إلا خيار واحد لمواجهة كل ذلك ، وهو « المحافظة على الغرض » فهو الوسيلة الوحيدة لتحقيق « البيريسترويكا » ، مع إجراء تعديلات في الوسائل بين وقت وآخر ، تبعا للظروف والأحوال . ولذلك فقد صرح وهو يقدم سياسته « إعادة البناء » : « لابد من تنفيذ التحول المطلوب ، فلا بديل عن ذلك ، ولا مجال للتراجع ، بعد أن بدأنا ، فليس هناك مكان ننسحب إليه » . وحتى الآن ظهر الرجل على أنه قادر على ذلك ، فهو رجل « ذو ابتسامة جذابة ، تكشف عن أسنان حديدية » ، كما وصفه اندريه جروميكو قبل أن يدفع به إلى زوايا النسيان .

وحتى يكشف عن « العفن » ويحقق الديموقراطية التي يسعى إليها نادى أيضا « بالجلاسنوست » . فالعلانية والرقابة الحقيقية من أسفل هما طريقا الاصلاح الذي ينشده . وتوسع في الاتصالات المباشرة بالجماهير بزياراته الميدانية المتتالية ، واعتنى بالرسائل التي تصل إليه من القاعدة بصفتها التغذية الخلفية المهمة التي تربط القيادة بالجماهير ، كما أولت الصحف والمجلات اهتماما فائقا للرسائل التي ترد على هيئات تحريرها وتنشر الكثير منها .

وبعد ذلك بدأ في تغيير القيادات في كل المواقع ، لأنه لا يمكن تنفيذ البيريسترويكا بالقيادات نفسها التي عملت في الماضي . وكان التغيير بالانتقاء وبالانتخاب . وعمل على تدريب القادة الجدد في دورات قصيرة أو طويلة ، حسب التخصصات المطلوبة ، ثم عمل على تقليص سلطة الحزب بزيادة سلطة الحكومة والسوفيتيات ، ثم انتهز هبوط «الهر رست » بطائرته في الميدان الأحمر متخطيا كل الدفاعات المضادة للطائرات ، فانقض على المؤسسة العسكرية ليدخلها في موضعها الصحيح .

ولكن لم يكن من الممكن لجورباتشوف أن يفعل كل ذلك بالجبهة الداخلية إلا إذا عمل على تهدئة الجبهة الخارجية ، وخاصة مع الولايات المتحدة ، مركزا على نزع السلاح ، وتهدئة النقط الساخنة الإقليمية تدريجيا . فاستمر طوال السنوات الثلاث الماضية في محاولاته مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وقدم كثيرا من التنازلات حتى حصل على اتفاقية إزالة الأسلحة النووية ، المتوسطة والقصيرة المدى من أوربا ، وحقق الكثير لاسترخاء الحرب الباردة على المستوى العالمي ، ولتبريد النقط الساخنة على مستوى الصراعات الإقليمية ، بل نجده يعلن يوم ١٩٨٨/١٢/٧ أمام الأمم المتحدة عن مبادرة جريئة ، اقترح فيها «إلغاء أو خفض وجدولة ديون بعض دول العالم الثالث ، وخفض القوات السوفيتية في أوربا الشرقية ، ومن جانب واحد بمقدار نصف مليون جندي ، ١٠٠٠٠ دبابة ، ٨٥٠٠ نظام مدفعية ، ٨٠٠ طائرة مقاتلة ، خلال العامين القادمين » .

إن جورباتشوف لا يريد أن يحارب في جبهتين في وقت واحد ، لأنه يريد تخفيض نفقات الدفاع ، بعد أن وصل إلى حد الكفاية من الأسلحة النووية والتقليدية ، ليضمن السلام ، ثم ليزيد الموارد المتاحة ، ليقوي الجبهة الداخلية ليحافظ على النظام . □

الصهيونية غير اليهودية

أول انجليزي يدعو إلى الاستيطان في فلسطين

بقلم : الدكتور نبيل ابراهيم مطر

من الشائع أن الدعوة الصهيونية بدأت على أيدي بعض اليهود في القرن الثامن عشر . لكن البحث العلمي يؤكد أن غير اليهود من الأوربيين كانت لهم المبادرة « كهنري فنش » الانجليزي الذي كان يحلم لوطنه انجلترا بسيطرة كاملة على وطننا العربي فكانت دعوته إلى اليهود لاستيطان فلسطين !

يظن كثيرون أن فكرة استيطان اليهود في أرض فلسطين تعود إلى وعد بلفور عام ١٩١٧ . ومع أن الرسالة التي وجهها اللورد الى الثري اليهودي روتشيلد في ٢ نوفمبر من ذلك العام كانت أول وثيقة حكومية تؤكد لليهود دعم الامبراطورية البريطانية في استعمار فلسطين ، إلا ان المخطط نفسه لم يكن وليد ساعته ، وأن مشروع استيطان فلسطين من قبل اليهود يعود إلى ثلاثة قرون مضت ، حين ظهر في لندن أول كتاب عن هذا الموضوع عام ١٦٢١ .

إن عنوان الكتاب الذي ظهر عام ١٦٢١ هو : « الإحياء العظيم للعالم » أو « دعوة اليهود » ، بقلم هنري فنش (١٥٥٨ ـ ١٦٢٥م) . ولد فنش في عائلة سياسية وابتدأ تعليمه الجامعي في (كمبردج) ، حيث نال شهادة البكالوريوس عام ١٥٧٦ . ثم انضم إلى كلية المحاماة في لندن ، وبعد أن أنهى دراسته انتخب عضوا في البرلمان . وتعاون فنش مع اللورد فرانسيس بيكون في محاولة فاشلة لجمع قوانين المملكة وتصنيفها . وفي عام ١٦٢١ ، أنهى كتابه عن اليهود . ووجد نفسه في مأزق أدى إلى اعتقاله : حيث كانت دعوته لليهود لاستيطان أرض فلسطين وإقامة امبراطورية تطغى على كل الممالك في العالم لا تتناسب وآراء جيمس الأول الذي رأى في فنش داعية للثورة على حكم عائلة ستيوارت . وحين وجد فنش أن كتابه سيؤدي به إلى السجن ، تراجع عن أجزاء الكتاب التي أزعجت الملك وشجبها

علناً لكن الملك لم يكتف بهذا، فأمر بجمع نسخ الكتاب واحراقها ، وطلب من أحد المقربين منه أن يهاجم الكتاب وموضوعه . وفي تموز من العام نفسه ١٦٢١ ، قام وليام لود الذي أصبح فيما بعد رئيس أساقفة كانتربري بانتقاد قاس لفنش ودعوته اليهود باقامة مملكة على أرض فلسطين . وأصبح الكتاب نادراً جدا ولا توجد اليوم منه الا نسخ قليلة ، احداها في مكتبة المتحف البريطاني في لندن ولقد افتتح فنش كتابه باهداء : « إلى أبناء يعقوب المشتتين في أقاصي الأرض . أكتب لكم هذا حيثما تكونون . إنها بريق من جوهرة . عن عودتكم واستجدادكم في مملكة عظيمة » بعد هذا انتقل فنش الى تحليل دقيق للنبوءات اليهودية التي كتبت في القرن السادس ق م ، والتي وصفت لليهود استيطانهم القدس وفلسطين . فقد كان اليهود قد سبوا من أرض فلسطين الى الامبراطورية البابلية عام ٥٨٦ ق م ، من قبل الامبراطور نبوخذ نصر . وخلال فترة السبي تلك ، ظهر في تاريخهم عدد من الانبياء الذين وعدوا اليهود أن إلههم « يهوة » سيعيدهم إلى أرض فلسطين . وقد تمت العودة عام ٥٣٧ ق م على يد الامبراطور قورش الفارسي الذي عطف عليهم . ولا يزال اليهود حتى يومنا هذا يحتفلون كل عام بعيد عودتهم ، ويذكرون صداقة الفرس لهم .

نبوءات اليهود . . وشهوة الاستعمار

أراد فنش أن يطبق هذه النبوءات على زمنه وحاضره . ومع أن هذه النبوءات تخص يهود القرن السادس ق م . فقد أصر فنش أن يطبقها على يهود القرن السابع عشر . ومع أنه لم يكن يهوديا ، ولم يعرف يهوداً ، إذ أن إنجلترا كانت قد طردت اليهود من المملكة في القرن الثالث عشر (م) إلا أنه أراد لليهود استيطان فلسطين . وهنا تكمن بعض الغرابة : رجل ينادي شعبا لايعرفه لاستعمار بلد لايعرفه ، وطرد شعب لايعرفه ، لاقامة امبراطورية عالمية يهودية تسيطر على كل ممالك الارض . لماذا نادى فنش بكل هذا ؟ إن السبب الرئيسي الذي دفعه في ذلك الزمان البعيد لدعوة اليهود لاستعمار فلسطين هو نفسه الذي دفع اللورد بلفور باصدار وعده المشئوم : ألا وهو محاولة بريطانيا ايجاد قوم في وسط العالم العربي والاسلامي ليساعدوها على السيطرة والاستعمار . ذلك أنه إذا نظرنا إلى القرن السادس عشر وبداية السابع عشر نجد أن بريطانيا كانت تقف مرتعبة أمام القوة العثمانية الاسلامية . فالقرن السادس عشر شهد أعظم انتصارات العثمانيين ، ووصول جيوشهم الى حدود النمسا ، وسيطرتهم على جميع جزر البحر المتوسط . أمام هذه القوة العسكرية والدينية وجدت بريطانيا نفسها تتساءل عن كيفية مواجهة الخطر العثماني ، ذلك أن المحاولات الأوربية كانت قد باءت بالفشل .

رأى فنش الخطر العثماني أمامه وقدر أن بلده لن تستطيع الدفاع عن نفسها . فبدأ بقراءة النبوءات اليهودية باحثا عن مخرج لهذا المأزق الدولي ، وعن وسيلة لإزالة الخطر العثماني . وما كان إلا أن وجد نبوءات العودة الى فلسطين فقال : إن فلسطين اليوم لايسكنها يهود ، بل عرب واتراك ، مسلمون ومسيحيون . لذا ، فإن اليهود حسب نبوءاتهم ، لامحالة عائدون بمساعدة إلههم « يهوة » وإذا عادوا ، فإنهم لامحالة سيحاربون الاتراك في المشرق وينتصرون عليهم . لذا ، إذا استوطن اليهود فلسطين ، فذلك سيكون بعد التغلب على العثمانيين وإزالتهم من الوجود ، أي بعد انهاء الخطر العثماني والاسلامي . وعندها سيكون هناك شعب يهودي في فلسطين ولا يكون خطرا على أوروبا بل سيؤازر بريطانيا ، لأن بريطانيا ستكون الامبراطورية التي ستساعد اليهود على هذا الاستيطان .

من الواضح أن فنش أراد استيطان اليهود لفلسطين ليس محبة بهم، بل خوفا من العثمانيين، فالمعركة ستكون ضارية بين الاتراك المسلمين واليهود، ولكنها ستنتهي بالتغلب على الاتراك. وكتب شعرا: «سيسيطر الطغيان التركي مدة ٣٥٠ سنة. سيعودون (اليهود) الى أرضهم.

سينضب نهر الفرات أمامهم ليجعل طريقهم سالكة، مثلما فتح أمامهم قبلا البحر الاحمر.

سترعب أخبار تقدمهم القوى التركية.

سيحدث اقتتال عظيم بينهم وبين الأتراك.

وسيكون هذا الاقتتال في أرضهم، أرض يهودا.

وسينالون انتصارا نبيلا.

وسيتلقى العثمانيون ضربة موجعة قرب مدينة القدس.

وسيكون انتصار اليهود الكبير على الجيش التركي. قرب بحيرة طبرية.

وسيسكنون بعد ذلك في بلادهم.»

فكرة خاطئة

من الغريب أن فنش استعمل دائما كلمة «بلادهم» عن فلسطين، كأن فلسطين لم تكن في القرن السابع عشر بلاد العرب الذين سكنوها لاجيال واجيال، بل بلاد اليهود. ولكن فنش أصر على استيطان اليهود، وعلى استيطان حقيقي وبكل معنى الكلمة، وأضاف، وهذه كانت الاضافة التي أودت به الى السجن: —

«سيأتون قريبا الى القدس، وسيصبحون ملوك ورؤساء العالم، ويحكمون الجميع».

حاول فنش أن يحدد الوقت الذي ستتم به كل هذه الآمال، فحسب أن القوة التركية ستبدأ بالانحلال عام ١٦٥٠، وستنتهي عام ١٦٩٥ بعد ذلك، واعتقد أن اليهود سيعيدون بناء مدينة القدس ويعيدون اقامة امبراطورية داود. ومن ثم كانت استعانته بالنبوءات اليهودية، فقال: «إن أرض فلسطين ستثمر بعد الاحتلال اليهودي، وسيكثر فيها اليهود، وستحل فيها السعادة والرخاء، وستصل حدودها إلى أكثر ما كانت عليه من قبل، وستخضع جميع الشعوب المجاورة للمملكة اليهودية، وأما الرافضون فسيقضى عليهم، وسيبدأ زمن جديد في التاريخ البشري. وبهذا يزول الخطر التركي عن بريطانيا ويحل محله حليف الى الابد».

كما ذكرنا. استاء الملك جيمس من كتاب فنش، وطلب من لود مهاجمته، وتناول لود الموضوع في عظة بمناسبة عيد ميلاد الملك، فنبه الى أن أفكار فنش عن دولة يهودية في فلسطين وعن استيطان اليهود في القدس، وبناء المعبد وكل ما الى ذلك من ظواهر الاستعمار ما هي إلا أفكار مرفوضة تماما من قبل المعتقدات الدينية، وما هي إلا أخطاء يهودية واجتهادات رجال «في القمر» ، — أي مجانين —.

ومع ان فنش تنصل من دعوته اليهود لاستيطان فلسطين، إلا ان فكرته وجدت العديد من الكتاب والشعراء الذين اقبلوا عليها، والعديد الآخر الذي رفضها بشدة. وابتدأ بين هذين الفريقين جدل طويل، ومتشعب امتد من أوائل القرن السابع عشر حتى القرن العشرين انتهى بانتصار الكتاب الذين آزروا فكرة فنش وقام «كيان الدولة» التي زرعت في فلسطين..! □

قالـــوا:

* لو أن الكلام يعاد لنفد. (الإمام علي)
* المرأة الجميلة خيال، والمرأة الدميمة حقيقة. (شوبنهور)



موّال حُزن

على أنقاض عيدٍ عتيق

بقلم : سليمان الفهد*

العيد له معان متعددة كثيرة ، أفضلها ما لصق في ذهن الإنسان أيام الطفولة ، ومع تغير الزمن يتغير الإحساس بالعيد ، والكاتب الذي عرف بأسلوبه المتميز لايكتفي برسم صورة العيد التي رسخت في ذهنه أيام الطفولة ، لكنه يحاول أن يرسم صورة للعيد في سني القرن الواحد والعشرين . ترى ماذا يقول ؟

لو كنت موجودا في الكويت إبان عيد الأضحى الماضي ، لكنت لاحظت أن العيد قد حل دون حضور المعيدين ، أو دون حضور كثير منهم على الوجه الأدق ، إذ احتفى بالعيد قلة من المواطنين ، وأعني بالاحتفاء الوجود والحضور ، لأن العيد أصبح لمعظمنا مناسبة للسفر إلى الخارج ، أما من لم يتمكن من السفر من المواطنين والمقيمين فهم وحدهم الذين يحتفلون بالعيد .

هذه الصورة عكس صورة العيد في الكويت قديما ، فقد كنت تدخل المسجد الجامع الذي يهتز بالمكبرين والمهللين يملأون صحنه ويفيضون خارجه ، أما اليوم فإن صلاة العيد لا يحضرها ذلك العدد الكبير من الناس .

ومع أننا لسنا بصدد كتابة بحث عن « العيد في الزمن النفطي » ، إلا أنه يمكن لنا إبداء بعض الملاحظات والافتراضات حول أسباب قلة أعداد المحتفين بالعيد ، وغياب مشاعر البهجة والفرح وقيم التواصل والتراحم ومظاهر الاحتفالات الشعبية !

* كاتب كويتي عرف بأسلوبه المتميز ، يشغل حاليا منصب رئيس القسم الثقافي بصحيفة الوطن اليومية الكويتية .

ولعل « العبدلله »ليس بحاجة إلى الإشارة بأن الظاهرة ليست نبتاً برياً ظهر من فراغ ، لأن الناس كافة يشعرون بأن عيدهم الذي خبروه في كويت البحر والغوص ، وكد البر والصحراء ، ذلك العيد المترع بالحب والفرح والذكر والعبادة الاحتفالية الشعبية قد تأثر « بعوامل التعرية النفطية » . ففي اللحظة التي تم فيها هدم أول بيت طيني من الديرة العتيقة إبان عقود الخمسينيات من العصر النفطي « تطيّر » عيدنا نحن الجيل المخضرم - فضلاً عن جيل الآباء والأجداد - من بشارة « مقاول الهدم » « وعيدية » تثمين البيوت القديمة تمهيداً لهدمها وبناء كويت « الكونكريت والكنديشن* » والمرافق والمنازل والشوارع الحديثة ! وقد تطيّر بعض وتشاءم لاعتقاده بأن المعاول ستهدم بيوت الطين وقيمها وتقاليدها وعاداتها ! وقد وصف المتطيّرون آنذاك - النصف الأول من الخمسينيات - بأنهم مغرمون بالفقر ، ولا يختلفون عن الغربان التي تعشش بين الأطلال ووسط المنازل الخربة العتيقة ! وفصيلة الغربان هذه تعي وتؤمن بأن « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » وأن فتنة « مقسوم » التثمين واغراءه تصعب مقاومتها ، لكنها - مع ذلك - لا تخفي خشيتها من أن تكون زينة الحياة الدنيا هي « المال والمصارف » ! لاسيما أن البنين يرقدون في أحضان المدينة الأجنبية !

غاب العيد وحضر النفط

« والعبدلله » هنا لايريد ممارسة العادة « العرباوية » الأصلية الكامنة في وضع مسئولية ما حدث للعيد على كاهل غيره ، أو أن يعلقها على مشجب النفط « طال عمره » ، فمثل هذا المنحى قد يكون مقبولا و « مبلوعا » وسط سياق سجال يتمحور حول التساؤل العتيد عمّ إذا كان حضور النفط في حياتنا اليومية نعمة أم نقمة ؟! وهو لا يريد ممارسة العادة المذكورة ، لأن السجال - بداية - قد أشبع بحثا وقولا عبر دروس الإنشاء في حصة اللغة العربية ، ومن خلال المؤتمرات والندوات ، فضلا عن هذرة الديوانيات والمنتديات وغيرها !

زد على ذلك أن السجال نفسه لم يؤد إلى طائل ، بل إلى « طل » لاجدوى منه سوى تسجيل المواقف والنوح على الأطلال « واللعلعة » بالمواعظ التي تضيع وسط تضاريس الخريطة الاجتماعية الجديدة للكويت الحديثة « الطافحة » بالنفط والمال والمصارف وغيرها من « رموز الكويت النفطية » !

عيدنا وعيدهم

إن « العبدلله » يعتقد - ببساطة شديدة - أن كل جيل يجد عصره وزمانه من أزين العصور ، وأن جيله هو خير الأجيال وأفضلها ، وهو اعتقاد عروبي أصيل ، يسكن وجدان مواطني الديار العربية « النفطية » والمائية على حد سواء . وفي إطار هذا الاعتقاد ليسمح لي أبنائي وأولئك الذين يصغروني سنا ، او ليسوا من جيلي أن



* الكنديشن : لفظة شعبية ، يسمى بها مكيف الهواء : Air — Condition

أقول : إن عيدنا خير وأنفع وأمتع وأبهج وأزين وأثرى ، لأنه عيد تحتشد له الجوارح والمشاعر ، وتترقبه النفس بشوق وحنين ، وتحتفي به صيغة شمولية تشبع الروح والوجدان والمعدة ! كيف ؟ سأقول لك كيف لم لاتلحقني مرتدا إلى عقود الخمسينيات حيث نوقف الزمان ، وتكون الساعات بدون عقارب ، ونعيش عيدنا على الورق ! عيدكم مبارك .

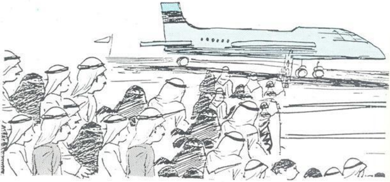
السكون يخيم على بيوت الطين ، لايعكر صفوه سوى نباح كلاب « المرقاب » وقولة « صاحي » يهتف بها « النواطير » بين حين وآخر . زد على ذلك - إن شئت - أصوات الديكة ونهيق الحمير وشخير الناس الآمنين أو المصابين بجيوب أنفية ! وغير ذلك من إيقاعات كويت الخمسينيات التي لم تذق بعد « حلاوة » خيرات النفط !

نور الفجر يضيء السماء والأرض متشحا بالفرح والسكينة ، ونداء « الله أكبر ، الصلاة خير من النوم » يشنف الأسماع ، ويوقظ الناعسين ، ويتسلل إلى مراقد المتكاسلين ، محرضا إياهم على النهوض والإسراع نحو « الميضاة » في المسجد .

عبق البخور وأريج العطور يسكنان نسيج ملابسنا الجديدة ، وخطواتنا نحو المسجد - نحن الأطفال والصبيان آنذاك - تتراقص فرحا ووجدا ، وتملأ الأسماع « تهليلة العيد » ، لتغمر النفس بمشاعر وجدانية لا تحيط بوصفها الكلمات ! يحتضنك المسجد الجامع العامر بالتوحيد والتواصل والحب ، والدعاء والبسملة والحوقلة ، والكلمة الطيبة ، والطيب والبخور والعطور ، وعبق التهجد والذكر ، وكان الواحد يسمع ويشهد ملحمة التوحيد وعبودية المسلم لله سبحانه ، وما أن تنتهي خطبة العيد والصلاة حتى تصافحك العيون وتحضنك وكذلك القلوب والأيدي ! ومن القلب يتغنى اللسان بقوله « عيدكم مبارك ، وعساكم من عواده » ، لأن « عيدنا » محبة وتواصل وتراحم ، ونفي لأي مشاعر أو عادات « نفطية » أو سلبية لافرق ، الأمر الذي يوجب علينا أن نطرح سؤالا حيويا ، أو ندعه يطرح بحكم السياق ، وهو : ماذا بقي واستمر من روح عيد الكويت الطينية ونكهته وملامحه وصفاته وقيمه وعاداته وتقاليده وطقوسه في التسعينيات بعد مرور حوالي أربعين عاما على ولادة الديرة الجديدة الحديثة ! وهل ثم عيد يفرح له وبه الأطفال والصبيان في زمن الهروب الجماعي الكبير من البلد أثناء إجازة عيدي الفطر والأضحى وغيرهما ؟ إلى آخر الأسئلة التي تقفز إلى الخاطر كلما هلّ هلال العيد ! .

وحسبنا أن نلاحظ أن الطفل الكويتي - وكذلك أقرانه في الديار العربية الخليجية النفطية - لا يشعر بحضور العيد ! ربما لأن المرافق الترويحية ، ووسائل التسلية والفرحة موجودة طوال العام ، الأمر الذي يجعل أيام العيد مثل بقية الأيام ، ولأول وهلة تشي هذه الجملة بأن الحياة اليومية للأطفال والصبيان جميعها « عيد » وفرح وترويح ! والحق أنها ليست كذلك ، لأن الفرق بين أيام العيد وبين الأيام العادية يكمن في كم ممارسته للترويح ليس إلا ، فعلى سبيل المثال ، تجد الأطفال يلعبون الألعاب الترويحية في « المدينة الترفيهية » إلى حد التخمة ، بفضل « مقسوم » وإيراد « العيدية » الذي يمكنه من زيادة اللعب بدون أن ينتج عن ذلك المنحى - بالضرورة - زيادة في كم المتعة والسرور وما إلى ذلك من مشاعر إيجابية تفجرها أيام العيد الذي خبرناه - نحن الجيل المخضرم - في شوارع كويت ما قبل النفط وحاراتها وأسواقها وساحاتها . ومن هنا تجد أن الكثيرين يهجرون الوطن ويهرعون نحو المطار لقضاء العيد في صفاة* لندن « هايد

* نسبة إلى ساحة الصفاة ، الساحة الرئيسية في الكويت .



بـارك » ، أو في التسكع والصعلكة والتسوق والبحلقة في خلق الله في أسواق باريس وجنيف وغيرهما !

وصار العيد - في السنوات الأخيرة - مناسبة للهروب من البلد ، وفرصة لامتطاء الطائرات وعبور الحدود ! حتى أن الفرد بات يخشى من ذلك اليوم الذي « نعيّد » فيه بواسطة البرقيات والتلكسات والهواتف الدولية المباشرة ، دون الحاجة إلى التواصل مع الآخرين ! ومن يدري ماذا سيحدث بعد عدة سنوات ، فقد نختفي ونحتفل بالعيد بواسطة « الريموت كونترول » ، وعدة التقنية الحديثة ! كأن يتم نحر الأضاحي (وفق الطريقة الإسلامية) بالاستعانة « بجزار روبوت » ياباني أصيل ! وترسل « العيدية » بالبريد المستعجل عبر حوالة مصرفية دسمة ! وكفى الله المعيّدين « عناء » التواصل وتبادل الزيارات والتراحم .

العيد النفطي سنة ألفين !

تأسيا بالدراسات والبحوث المستقبلية التي تستشرف آفاق الغد الآتي من رحم المستقبل !

في عيد الأضحى الماضي الذي تزامن حضوره مع موسم الهروب الكبير من الديرة لتمضية الإجازة الصيفية للمدارس والمعاهد والكليات الجامعية في البلاد السياحية العربية والأجنبية ! أقول في ذلك العيد (خيّل إليّ في اليوم الثالث منه أننا نعيش حالة منع تجول ! كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر ، و« السيارة » تطوى شارع المطار طيًّا ، كأنها فرن ملتهب من شدة القيظ والحر ! ولأول مرة أشعر بأن الأخ الزميل « غازي الجاسم » ، رئيس التحرير « الصيفي » بصحيفة « الوطن » ، غير قلق أو خائف من مغبة قيادتي للسيارة ، لأن الشوارع - ولله الحمد - خالية من المارة و« السيارات » ، فالناس هجروها إما إلى بيوتهم اتقاء للحر والهروب من منغصاته بقيلولة ينام فيها الفرد على وسادة محشوة بأحلام السفر ولذائذه الطيبة أو الخبيثة حسب نيته ! أما النوع الآخر من المهاجرين الذين تسببوا في ظهور حالة منع التجول السالفة الذكر فإنه يكمن في الفئة المهاجرة حقيقة لا حلماً .

قال لي صاحبي وهو يحاورني - بينما نحن نتربع متململين على مقاعدنا التي قدّت من نار - ، أو هكذا بدت لنا !

قال : أراك ساهما ، هانت ، كلها كم دقيقة فنصل إلى داري وتعود أنت إلى دارك لترتاح وترقد . . و . . قاطعته - برما بسؤاله التقليدي الذي « يدحرجه » على مسامعي كلما رآني واجما أو

ساكتا أتصبب عرقا أو أبحلق في إشارات المرور ـ وقلت : الحق أنني أفكر في « ديكارت » ، قال : ديكارت « ما غيره » ؟ وهل هذا وقت ذلك ؟ سبحان الله في طبعك . . ديكارت مرة واحدة (قال ذلك وهو يصفق الباب مهرولا نحو منزله) . قلت لنفسي : لو كان الفيلسوف الفرنسي « ديكارت » مواطنا عربيا خليجيا نفطيا ، فربما غير مقولته الشهيرة (أنا أفكر ، فأنا موجود) بأخرى غيرها تناسب واقع الحال ! كأن يقول « أنا أضارب بالأسهم والأوراق المالية ، إذا أنا موجود ! » أو « أنا حاضر في سوق الأوراق المالية . . إذا أنا موجود وحي يرزق يكسب الملايين في طرفة عين »!

أقول ذلك لأن الآثار التربوية والنفسية والاجتماعية والأخلاقية لبلية سوق الأوراق المالية « المناخ * تبز الآثار المادية التي لقيت الاهتمام والعناية من قبل الحكومة والمواطنين على حد سواء .

فقد كانت هذه البلية بمثابة الامتحان الذي وضع الإنسان العربي في الكويت على المحك لاختبار معدنه ومواطنيته وقيمه ، وكل ما يشكل وجدانه !

وقد أثبتت الوقائع والأحداث التي اكتنفت هذه البلية أن العلاقة الإنسانية بين الإخوة والأقارب والأصدقاء مثل العلاقة التي بين الدول ! حيث تدوم وتستمر بدوام حضور المصلحة وتزول بغيابها . ومن هنا يقال بأن الصداقة بين الدول ليست دائمة وأزلية ، بل إنها مرهونة بتبادل المصلحة المادية !

علاقات مجتمع النفط

وقد أزعم بأن العلاقات في مجتمع كويت النفط والمال ، وحمى الغنى السريع الذي لايكلف كداً ولا جهدا ولا عملا ، فأقول : إن العلاقات بين الكثيرين منا قد نخرتها سوسة المصلحة المادية الذاتية ، إلى درجة أن بعض المعزين الموجودين في المقبرة للقيام « بواجب » التعاطف مع ذوي المرحوم وأقاربه لا يجدون غضاضة في ممارسة لعبة المضاربة بين القبور ، لأن القوم مسكونون بلعبة المغامرة المقامرة ، ولا يقدرون على الفكاك منها حتى في مناسبات الأفراح والأتراح التي تستوجب من اللاعبين قطع اللعب والتوقف عن ممارسته فترة وجيزة ! ومن ثم يعوضون « الوقت الضائع » في المجاملات الاجتماعية بتمديد فترة اللعب إلى وقت متأخر من الليل . !

ومن هنا يمكن أن نحدس ونستشرف آفاق العيد خلال سنة ألفين !

إن آثار فتنة « سوق المناخ » وبليته تقدم للباحث والمتأمل مادة دسمة ثرية عن الإنسان الجديد الذي خرج من رحم برميل النفط ، ورضع القيم والتقاليد والعادات الجديدة التي سكنت الديرة الجديدة الحديثة التي قامت على أنقاض الكويت العتيقة ، والتي نخبرها جيدا نحن الجيل المخضرم ! ما علينا ، أما الذي علينا هذه الساعة فهو أن تلحق بي لنسبق الزمن لنحط رحالنا ومناخنا في « الكويت سنة ألفين » وإن شئت التحديد والتفاصيل لهذا « السيناريو المستقبلي » نورد لك التفاصيل على النحو التالي :

الزمن : القرن الحادى والعشرون .

التاريخ : النصف الثاني من رمضان الواقع في سنة ٢٠١٥ م .

المكان : مقر ديوان الموظفين « المؤقت ! » .

المجتمعون : هيئة الرؤية الإدارية .

الموضوع : تحديد زمان تمضية إجازة عيد الفطر القادم ومكانها .

الخبر : اجتمعت هيئة الرؤية الإدارية لاختيار الأماكن المناسبة لتمضية إجازة العيد خارج حدود

* سوق المناخ : هو سوق الأوراق المالية بالكويت

الوطن ! وأعلن مصدر مسؤ ول في الهيئة بأن النية تتجه إلى اختيار ثلاث مدن سياحية تضم في منتجعاتها السياح الكويتيين كافة . وقد تم اختيار هذه المدن بناء على رصد ومسح وتقويم لخدماتها المتقدمة في الاتصالات السلكية واللاسلكية ، الأمر الذي يمكن كل المواطنين من الاتصال بأهلهم وذويهم وأصدقائهم عبر الهاتف المرئي الملون بالالوان الطبيعية ، ومن ناحية أخرى فإن محطات التلفزة في هذه المدن السياحية ستقوم بنقل مباشر لشعائر صلاة العيد من « الوطن الأم » ، ليتمكن الإخوة السياح من أداء المشاركة الوجدانية والروحية عبر الأقمار الصناعية ! وأفادت الهيئة بهذا الصدد بأنه لا صحة إطلاقا للإشاعة التى راجت بين عامة المواطنين السياح حول مشاركة الأهل في الديرة صلاة العيد التلفازية ! بمعنى أن يؤدي المواطن هذه الصلاة وهو قابع في فندقه أو شقته ، بحيث تتزامن مع صلاة العيد المنقولة تلفازيا عبر الأقمار الصناعية من مسجد الدولة الكبير في الكويت ! وتستطرد الهيئة قائلة : بأنه على الرغم من أن الإفتاء في مثل هذه الأمر منوط بالجهات المختصة ، إلا أنها تعتقد بأن أي تلميذ في المرحلة الدراسية المتوسطة ، يحفظ « شروط صلاة الجماعة في العيد ، ويتذكر مغزاها وحكمتها ومنافعها » .



ومن هنا فقد تكون الإشاعة السالفة الذكر « مطبوخة » في محطات التلفاز السياحية التي ستتولى نقل شعائر صلاة العيد . إذ استطاعت الحصول على كم كبير من الإعلانات التجارية التي ستبثها بعد الصلاة مباشرة !

وقد أهابت الهيئة بالمواطنين بضرورة المحافظة على جوازات السفر المصنوعة من « الليزر » المتعذر تقليدها وتزويرها حتى إشعار تقني آخر ! فقد لاحظت الهيئة أن بعضهم يسيء استخدام هذه الجوازات الليزرية ، وكأنهم يتباهون باقتنائها ، الأمر الذي يثير حفيظة وحسد « الأجانب » الموجودين في المدن السياحية المختارة لتمضية إجازة عيد الفطر !

وقد اتفقت الهيئة مع بلديات هذه المدن على إقامة الزينات الوطنية والألعاب الترويحية للأطفال والصبيان ! كما تعاقدت مع الفرق الفنية المختصة على تقديم عروض فنية لكل الفنون الغنائية « الفلكلورية » الخاصة بالعيد ، فعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الفرقة الموسيقية السيمفونية ستتولى عزف « ملحمة رقصة العرضة »*، رقصة الحرب والحب والأعياد والمهرجانات ، بمصاحبة « كورال » وراقصين « للباليه » معتبرين ! باختصار : ان العيد سينقل إليهم بقضه وقضيضه بالاتفاق مع الجهات السياحية المعنية في الدول المضيفة لمهاجري الديار النفطية !

هكذا كان الخبر (التعميم) الصادر عن « هيئة الرؤية الإدارية » بمقرها « المؤقت » في مبنى ديوان الموظفين .

التعليق : يسأل عنه إدارة الاعلام في شركة نفط الكويت وأخواتها !

الختام : عيدكم مبارك ، نقولها بكل اللغات الحية والمتحضرة والمقبورة ، نعم ، « عيدكم مبارك ، وعساكم من عواده » . □

* العرضة : رقصة شعبية كويتية .

أرقام

بقلم : محمود المراغي

« ترمومتر »
للعلاقات العربية

هذه محاولة لرصد العلاقات العربية بالأرقام ، ربما كانت المحاولة الأولى من نوعها ، وربما كانت غير كافية لاتخاذها كدليل على التحسن أو التردي في العلاقات العربية ، لكنها ذات دلالة على أي حال .

يقول التقرير « الاستراتيجي » العربي الصادر عام ١٩٨٨ ، عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام : إن عام ١٩٨٧ كان عام وقف التردي ، ثم يدلل على ذلك بمجموعة من الشواهد ، بينها : حفنة أرقام عن اللقاءات العربية - العربية .

في ذلك العام الذى اتخذه المركز عينة للدراسات الرقمية :

* كان هناك (١٣٨٦) لقاء عربيا .
* بينها (٢٩٩) مؤتمرا .
* وبينها (١٤٤) لقاء على مستوى رؤساء الدول أو من يمثلهم .

وبتحليل الأرقام التي أوردها التقرير ، وقال : إنها « حصر بقدر الممكن والمتاح من المعلومات » نجد :

١ - أن هناك لقاء عربيا - عربيا كل ست ساعات . قد يكون سياسيا أو اقتصاديا أو ثقافيا : لكن المهم أن دورية الاجتماع : كل ربع يوم ! كذلك هناك مؤتمر عربي كل ثلاثين ساعة ، ولقاء قمة كل ستين ساعة أونحو ذلك ، سواء فى شكل لقاءات ثنائية أو جماعية .

٢ - معظم اللقاءات يتم من خلال الزيارات ، فهناك (٦٦١) زيارة ، تبادلها المسئولون العرب ، وهى زيارات على ثلاثة مستويات :

الوزراء : ويحتلون معظم المساحة ، ورؤساء الدول : ويحتلون المساحة التالية ، ثم رؤساء الوزارات : ويحتلون المساحة الأقل ، مما جعل التقرير يتوقف أمام ذلك ، ويقول : إن النظام العربى قد اعتبر رؤساء الوزارات مسئولين - في الأساس - عن قضايا الداخل - القضايا المحلية - بينما شُغِل الرؤساء بالسياسة العربية والخارجية .

٣ - عدد المؤتمرات (٢٩٩) مؤتمرا ، أي أن هناك - على وجه التقريب - مؤتمرا كل يوم . وبالتحليل نجد أن النصف للسياسة ، وأقل القليل للاقتصاد ، والبقية لمنظمات ولقاءات وظيفية .

٤ - كانت أكثر الدول نشاطا وحضورا في

اللقاءات بشتى أنواعها هي المملكة الأردنية (١٣٥ لقاء) .

وللمقارنة ، وعلى الرغم من أن « العلاقات المصرية - العربية » لم تكن قد استؤنفت بكاملها ، فقد كان الحضور المصري في (١١٨) لقاء ، وكان ترتيب مصر في الحضور الثاني بعد الأردن ، وتليها المملكة السعودية (١١١ لقاء) . وكانت الصومال في آخر القائمة (١٨ لقاء فقط) .

٥ - ونتيجة للترتيب السابق كان الملك حسين هو الأكثر حركة ، فقد قام في ذلك العام وحده بـ (٢١) زيارة للأقطار العربية ، واستقبل رؤساء أقطار عربية ثلاث مرات ، فضلا عن انعقاد مؤتمر القمة في عمان .

ماذا يبحثون ؟

طبقا للعناوين التى سجلها التقرير فإن السياسة تحتل المكان الأول ، وتليها شؤون الاقتصاد ، وكذلك فإن العلاقات الثنائية تأخذ « كمّاً » أكبر من الاهتمام ، لكن الهموم الجماعية ذات نوعية أخطر ، ففيها : حرب الخليج ، وقضية فلسطين ، والخلافات العربية - العربية التى أخذت العديد من أشكال الاهتمام . ومحاولات رأب الصدع .

في تقرير مركز الدراسات « الاستراتيجية » أن عام ١٩٨٧ وحده قد شهد (٤٢) اجتماع وساطة ، (أي بمعدل اجتماع كل تسعة أيام) ، وان من بين هذه الاجتماعات ستة عشر اجتماعا على مستوى رؤساء الدول . أما موضوعات الخلاف التي تجرى بشأنها الوساطة فهي عديدة :

* فهناك الخلاف الفلسطيني - الفلسطيني .
* وهناك الخلاف اللبناني - اللبناني .
* وهناك العديد من الخلافات السورية مع العراق ، وتركيا ، ولبنان ، ومنظمة التحرير الفلسطينية . (ولم يسجل التقرير الخلاف مع مصر ، حيث كان ذلك فى سياق المقاطعة العربية حينذاك) .
* وهناك الخلاف الجزائري - المغربي .
* وهناك حرب الخليج وأحد طرفيها عربي .

وقد نشطت الوساطات العربية لتصفية هذه الخلافات . وحول الخلاف العراقي - السورى قام الملك حسين بست زيارات للبلدين في ذلك العام ، كما تحرك الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات لنفس الغرض ، ولكن مازال الخلاف كما هو .

الشيء نفسه بالنسبة للخلاف السوري - الفلسطيني ، ولكن هناك خلافات جرت تسويتها ، أو في سبيل التسوية .

بتأمل الأرقام السابقة يمكن القول إن نتائج جهود الوساطة لم تكن صفرا ، ولم تكن مائة بالمائة ، إنها في نقطة وسط بين الإخفاق والنجاح ، لكن هناك تقدما على أي حال .

من خلال ذلك يمكن تصور النتائج المتواضعة للعمل السياسي المشترك ، والعمل الاقتصادى الأكثر تواضعا .

لقد كان العرب - ومازالوا إلى حد ما - مشغولين بخلافاتهم وصراعاتهم الجانبية ، ومازالوا يتحركون أكثر مما ينجزون ، ويطرحون للبحث أكثر مما يحسمون .

واذا قلنا : إن النظام العربي قد أنجز (١٣٨٦) اجتماعا في عام ، وبمعدل اجتماع كل (٦) ساعات ، كما أوضحنا ، فإن ذلك معناه أن أحدا لايستطيع أن ينكر تلك الرابطة التي نسميها « عروبة » ، لكن أحدا - أيضا - وباستثناءات تاريخية ، لم يستطع أن يجسد هذا الرباط ، فيحيل هذا الكم الهائل إلى مجرى النهر العظيم ، النهر العربى الذى يضم كل الأقطار . هكذا بدت الصورة عام ١٩٨٧ ، ومازالت ونحن في عام ١٩٨٩ . □

النظرية والتطبيق

قصة قصيرة بقلم :

سعيد سالم

- ١ -

لحظات من العمر معدودة ، إن غفلت الذاكرة عن شيء فلا تغفلعنها طول العمر . تجيء كما يجيء الصفاء لتنير البصيرة وتعتق القلب من همه والنفس من حيرتها . في البدء ظننتها تمتنع عني فلا تجيئني إلا بمشيئتها المجردة مهما اشتدت حاجتي إليها ومهما بلغ مني العزم على إرادتها ، لكن السنوات علمتني أن استدعاءها بالصبر والدربة والمثابرة أمر ممكن .

اليوم جاءتني تلك اللحظات الشفيفة الخارقة لتنبئني بما يشبه اليقين ، إن الحياة الكريمة في زماننا قد أصبحت مستحيلة إلا في حالتين لا ثالثة لهما : أن تتمتع إما بالسلطة وإما بالثروة وإما بكلتيهما ، أو أن تتمتع بعبقرية فذة للتعامل مع الحياة في غيبة هذين الشرطين .

والحقيقة أن هذا المعنى كان راسخا في ضميري منذ سنوات . لكن الجديد في الأمر أنني ألهمت اليوم فقط - ولأول مرة - بصياغة هذا الاحساس الصامت المنكمش صياغة لفظية ، في ثنايا حوار عابر مع صديق يعبر أزمة . استمعت الى شكواه وأنا الشاكي ، فكنت على دراية عجيبة بالتفاصيل الدقيقة لقصته المؤلمة أثناء روايتها ، وقبل أن يصل الى نهايتها المأساوية دون أن أعرف عنها شيئا من قبل .

ولقد شعرت بارتياح شديد عندما نطق لساني بهذه الصياغة ، وكأنما بتصريحي هذا قد اكتشفت - دون أن أدري - حلا جذريا لمشكلة وجودي على قيد الحياة ، في المكان والزمان الآنيين . حينئذ لابد أن تمحى من الذاكرة كل الأفكار والأحداث والأسماء الآدمية التي لا تساهم في اكتشاف حلول جذرية أخرى مماثلة .

« يعز من يشاء ويذل من يشاء »، يهمس لي قلبي أحيانا بالحكمة من وراء ذلك « ويرزق من يشاء بغير حساب » .

لكنني - كشأن معظم المثقفين - أكتفي بالقول دون الفعل . أقدم التفسير والتبرير لشقائي ، ولم أجرؤ قط على تجاوز النظرية الى التطبيق ، فسمات الفاشلين دائما هي كثرة الكلام وقلة الانجاز ، وأنا خجل من نفسي لأنني لم أفكر من قبل ولو للحظة واحدة في امكانية الجمع بين النقيضين . لماذا لا أكون أديبا وصاحب سلطة أو ثروة أو أن أجمع بين الثلاثة معا ؟ . من المؤكد أنه ليس بالأمر المستحيل ، بل إنه الاختيار الوحيد ، لكل من لا يدعى لنفسه التمتع بعبقرية التعامل الفذة مع هذه الحياة بلا سلطة أو ثروة . لقد تبوأ كثير من زملاء الدراسة الأغبياء مناصب كبيرة ، كما أن الأشقياء الذين كانت تحذرني أمي من الاختلاط بهم والذين كانوا يكتبون أسماءهم بعناء شديد ، قد أصبحوا اليوم من أثرى أثرياء

القوم ، وهكذا تؤكد معطيات الزمان والمكان ، أن الحصول على السلطة شيء سهل ، أما الحصول على الثروة فإنه أكثر يسرا وسهولة .

لكن أربعة وأربعين عاما تطل في توجس وحذر على منحدر العمر ، تحول بيني وبين هذه النفحة من التفاؤل ، وتهمس لنواياي الحسنة بنذر انكماش الطاقة البدنية ، وتضاؤل الصبر ، وتراجع الكهولة في جبن أزلي أمام الشباب ، الذي لم تعد هناك وسيلة لاسترجاع يوم من أيامه ، وبصريح العبارة فأنا رجل غير مطلوب لهذا المكان . بضاعتي راكدة بائرة لا طلب عليها ، وهي في النهاية مجرد سطور مكتوبة ، لا يعنى بأمرها سوى قلة من المهووسين ومعظمهم من الفقراء . على الرغم من ذلك فإنني أتشبث بها بأسناني وأظافري ، وإلا أصبح وجودي غير مبرر على الاطلاق ، وهذا مالا أرتضيه لنفسي لأنه يهدد باختلال توازني فاكتئابي فقضاء أيامي الأخيرة في مصحة نفسية .

وأمسك بتلابيب تلك اللحظات ، قبل أن تهرب مني وتتركني للهم المعتاد ، هدفي أن أبدع وأعيش حياة كريمة في آن واحد ، وهو فيما أحسب هدف مشروع . فاذا تغاضيت عن عائق الكهولة أمام تحقيق هذا الهدف ، فإنني لا أستطيع التغاضي عن عجزي وانعدام درايتي بالوسائل المعاصرة وتقنياتها المعقدة ، لتحقيق أحد شرطي النظرية أو كليهما . إن هذه الوسائل تستعصي على فهمي من جهة ـ على الرغم من أنني لست غبيا ـ كما أنها تتناقض وتتنافر بشدة مع تركيبتي الوجدانية من جهة أخرى . ذلك أن عالي الأمور في أوطاننا قد أصبح سافلها ، بحيث لم تعد تستقيم أمامي الأشياء إلا لو مشيت على يدي ، وهذا ما لا أستطيعه على وجه اليقين .

حتى لو استطعت ونجحت ، فهناك مقاومة شرسة تنتظرني فاتحة فمها الكريه كاشفة عن أنيابها السامة . فالجالسون على المقاعد الهزازة لن يسمحوا لي بالاقتراب ، والجالسون على خزائن الذهب والفضة لن يسمحوا لي بمجرد التفكير في الاقتراب ، فالمحاسبة على النوايا أمر وارد ، والغوص في سراديب السرائر أمر وارد ، حتى زملائي الأدباء الذين أنتمي الى قبيلتهم سوف يتهمونني ـ وما أخبثهم ـ بالردة والخيانة وبجريمة



السعي الى السلطة أو الثروة من قبل أن أخطو خطوتي الأولى لتحقيق أحد الهدفين المشروعين .

- ٢ -

في غمرة شرود ، عبر الطريق الرئيسي بالمدينة دون أن يرقب العربات من حوله ، كان حمله ثقيلا فتمغنطت قدماه على الأرض ، وارتبكت خطواته مثلما ارتبكت أفكاره وتبعثرت شتاتا في فضاء حيرته الفسيح . أمامه مباشرة تمكن سائق « الشيفروليه » من إيقاف عربته المسرعة قبل أن تدهسه . أفاق صاحبنا لنفسه ونظر فزعا إلى العربة ، ليلمح صاحبها جالسا على المقعد الخلفي يدخن سيجارا ضخما . خطرت بباله فكرة أن يعتذر له عن خطئه فهو وحده المسئول عن قدميه الممغنطتين وذهنه الشارد . أطل الرجل بسيجاره من نافذة العربة وقال له بعجرفة هادئة تكاد تخلو من أثر انفعال :

- حاسب يا حيوان

ومرت العربة في طريقها حين تسمرت عيناه على اللوحة المعدنية الخلفية كمن يرى طوق نجاة بين أمواج بحر عاصف . كان رقمها مائة بالتمام والكمال . اي أن صاحبها ذو حيثية في المجتمع ممن لا تعطى مثل تلك الأرقام المميزة إلا لعرباتهم . لم يستمتع بلذة النوم كما لم يحظ بيقظة صافية وفي الصباح توجه الى ادارة المرور . جلس الى مكتب صديقه يدخن سيجارة في انتظار نتيجة الفحص ، بعيدة المنال أنت أيتها الذرا العالية ، على الرغم من ذلك فكم من جرذان تلهو فوق قممك الشامخة . لم تطل فترة الانتظار . أغلق الصديق الملف وقال بانبهار :

- إنها عربة الخربوطلي بك يا رجل !

منحك الله الموهبة وأنعم عليك بالقدرة على الإبداع في أتعس ظروف انسانية على هذا الكوكب الغريب . عليك أن تدرك هذا وتحمده .

- ومن هذا الخربوطلي إن شاء الله ؟

- يبدو أنك لا تعيش معنا ، ألا تعرفه حقيقة ؟

بل إنني أعيش معكم أيها التعس منذ زمن طويل ، ولكني لست أعرف دليلا حقيقيا يؤكد على ذلك .

- ومن أين لي أن أعرفه ؟ ، اسألني مثلا عن نجيب محفوظ أو نيكوس كازانتزاكيس .

- يا أديبنا العظيم ، هذا الرجل يمتلك ما لا يقل عن خمسين مليونا من الجنيهات ، هات أدلتك ، اذن فأنا أعيش بينكم لا معكم ، موجود وغير موجود . حياتي ميتة بكم ، وبدونكم يشوب موتي الحياة .

- وهل يحول هذا دون إمكاني أن أقدم بلاغا ضده بتهمة السب العلني ؟

تلقى صديقه السؤال باهتمام مشوب بالحذر ، ثم قال بهدوء وثقة :

- لهذا السؤال إجابتان . أفترض في الأولى أنك تعيش معنا فأجيب بنعم ، وأجزم في الثانية بانك مغيب عنا تماما فأجيبك بلا .

هام في الطريق وتمغنطت قدماه من جديد . أي مخلوق على هذه الأرض يمكنه الآن أن يدرك مدى ألمه أو أن يستشعر مرارة غضبه ؟ حيوان ؟؟ .

- ٣ -

لم أكن مستعدا للاستماع الى عبارات المجاملة والمساندة من أصدقائي الأدباء بلعن أهل الثراء وسبهم وإلصاق كل الصفات الرذيلة بهم ، لأنني مؤمن بقضية الرزق والرزاق ، ولأنني أيضا لست أعتقد حتى هذه اللحظة في أن كل الأثرياء لصوص ، ما أحراني اذن أن أجنب نفسي نظرة شماتة ماكرة أو حكمة ناعمة خبيثة أسمعها من أحدهم حين ينصحني مؤكدا أنه لا عليم فوق علمه ولا عارف فوق معرفته ، فلمن أتوجه الآن بقهري وهزيمتي وآدميتي المنكرة ؟ .

قادتني قدماي الى عم إبراهيم بائع المجلات والصحف العجوز ، حياني بحرارة وقال :

ـ وحد الله يا أستاذنا ودع عنك هذا الكدر .

حاولت الاستجابة الى دعوته فوقفت أتصفح بعض الكتب التي وردت إليه مؤخرا . كنت أقرأ العناوين والفهارس دون أن أفهم شيئا ، أما الزحام فكان شديدا ، ولقد عجبت أن يزداد الزحام أمام بائع الكتب وفي مثل هذا القيظ الشديد . أنا لا أفهمكم أيها الناس . تساقط عرق غزير من جبيني فمددت يدي تلقائيا إلى جيبي الأيسر لألتقط منه المنديل ، بينما تعلق بصري بجريدة عربية غالية الثمن . كنت أنوي أن أتصفحها ثم أعيدها الى مكانها استنادا الى علاقتي الطيبة بعم إبراهيم .

فوجئت بشاب عملاق البنية يقبض على يسراي بعنف بإحدى يديه ثم يمسك بقميصي من صدري بيده الأخرى صائحا في ثوره وهياج :

ـ تريد أن تسرقني أيها اللص ؟

لم ادر ماذا حدث لي . فجأة وجدت نفسي واقفا أمام المحقق بمبنى الشرطة والصفعات تنهال على وجهي وقفاي من كل الجهات الأصلية . العملاق يجلس أمامي يحتسي القهوة من فنجان أنيق ، والذهول قد استبد بي وبقهري وهزيمتي وآدميتي التي سبق إنكارها مرة أخرى من قبل .

قال المحقق بلهجة ساخرة :

ـ أتترك كل من بالميدان وتسرق « همام » بك ؟

ـ هذا جنون . أنا اسرق ؟

ـ لا داعي للإنكار . لقد أخرج يسراك من جيبه وهناك شهود على ذلك

ـ سوف أبرق إلى وزير الداخلية بما لحقني من إهانة وأذى على أيديكم

انفجر المحقق والعملاق في الضحك معا وقال الثاني :

ـ صحيح إنك لص وقح

ثم لم يكتف بذلك ، وإنما قام ولكمني في وجهي بينما انهمك المحقق في حوار هاتفي . بعد قليل أقفل المحضر وأمر المحقق أن أبيت محتجزا في « التخشيبة » مع اللصوص والمجرمين حتى تبت النيابة في أمري ظهر اليوم التالي .

ـ ٤ ـ

أصدر أمرا قاطعا بإلقاء القبض على كل من الخربوطلي وهمام ، مع تجريد الأول من أمواله والثاني من رتبته الوظيفية المهمة . قادهما ضابط كبير إلى مكتبه بالوزارة . حاول الضابط أن ينافقه بأن يسب المتهمين أمامه فنهره وطرده من مكتبه . وقفا أمامه برأسين منكسين . قال لنائبه بهدوء :

ـ لن نجري التحقيق هنا

ـ أين نجريه إذن يا سعادة الباشا ؟

ـ في عزبتي بالفيوم

قرر على كل منهما عددا محددا من مؤلفاته القصصية ، عليه أن يقرأها ويجيد استيعابها قبل أن يبدأ التحقيق معه . ولقد أمر لهما بالطعام والشراب وحسن المعاملة خلال فترة استضافتهما بالضيعة لحين أن ينتهيا من دراسة الكتب المقررة . وعندما انتهى المتهمان من القراءة الإجبارية لهذه المؤلفات تأكد بنفسه من ذلك ثم سأل أولهما بثبات شديد

ـ هل يستطيع حيوان قراءة ما كتبت ؟

ثم سأل الثاني

ـ هل يمكن للص أن يضيع عمره في كتابة ما قرأت ؟

فكانت اجابتهما بالنفي المؤكد .

بلغت سعادته ذروتها إذ ثبتت صحة نظريته بما لا يقبل للشك مجالا . خلع ملابسه وراح يرقص نشوان بين أشجار المانجو ، ولعله بكى من شدة السعادة حتى انهارت قواه فرقد تحت شجرة ثرية الظل ونام نوما عميقا .

لم يستيقظ الا عندما جذبه الشرطي من قفاه وألقى به في العربة « البوكسفورد » التي تحمل المتهمين الى النيابة . □

ملف



نجيب محفوظ

عالم واحد ورؤى متعددة

من بين كل الممالك ، تبقى مملكة الأديب وحدها بدون خريطة نهائية ، تبقى كل خرائطها الفكرية والفنية قابلة لأن تتسع أو تضيق أو يعاد تلوينها طولاً وعرضاً وعمقاً مع كل قارىء جديد ، يحمل نظرة فكرية أو نقدية جديدة .

لعل من أهم نتائج فوز أديبنا الكبير نجيب محفوظ بجائزة نوبل ، أن خريطة أدبه بخاصة ، بل وخريطة الأدب العربي بعامة ، سوف يعاد فيها النظر ، عندما يبدأ قراء جدد قراءة هذا الأدب ، ويتجولون في مملكته الواسعة .

وحين تقدم مجلة « العربي » ملفاً عن أديبنا الكبير نجيب محفوظ ، فإن المسألة تتعدى مجرد المشاركة في الاحتفال بمناسبة كبيرة ، بل إنها في صميمها مشاركة في الجهود التي بذلت ـ وما تزال تبذل ـ لاكتشاف معالم جديدة في خريطة المملكة الأدبية لهذا الأديب .

ومن هنا كان حرصنا في هذا الملف على تنويع التناول لجوانب مختلفة من أدب هذا الكاتب الأديب وعالمه .

والآن نتركك ـ عزيزي القاريء ـ لرحلة نأمل أن تكون ممتعة ، بقدر ما هي مفيدة مع هذا الملف .



نجيب محفوظ مبدعًا

« وجهة نظر نفسيّة »

*
بقلم الدكتور : شاكر عبدالحميد سليمان

« إن تاريخ الحضارة ، في جوهره ، سجل لقدرة الانسان على الإبداع »

« عالم النفس أ . أوسبورن »

لعل مقولة « الأسلوب هو الرجل ذاته » التي أطلقها المفكر الفرنسي « جورج بوفون » في القرن الثامن عشر في مقالة شهيرة تجد « ماصدقها » الحقيقي في شخص نجيب محفوظ ، والأسلوب الجيد في رأي بوفون يتطلب خاصتين رئيسيتين هما الوحدة والخطة المحكمة ، فالأسلوب ليس إلا النظام والحركة اللذين يضع المرء فكره في إطارهما ، فإذا ما قيدهما وضيقهما فسوف يكون الأسلوب مغلقا ، متوترا مقتضبا ، وإذا ماتركهما تتوالى حركتها في هدوء ولا يلحق بها إلا ما كان وثيق الصلة من الكلمات ـ أيا كانت أناقتها ـ فسوف يكون الأسلوب منبعثا وسهلا ومسترسلا .

« إن الروح الانسانية » لا تستطيع أن تخلق شيئا من العدم ، ولن تنتج الا بعد أن تكون قد أخصبتها التجربة والتأمل » .

ويقول بوفون : لكي يكتب المرء جيدا ، ينبغي أن يهيمن أولا على موضوعه ، وينبغي أن يفكر فيه بالقدر الذي يسمح له أن يرى بوضوح نظام أفكاره ، وأن يصوغ ذلك النظام ، في قالب متتابع ، وسلسلة متصلة ، تحمل كل حلقة منها فكرة ، « إن الانتاج الذي يعرف صاحبه جيدا

* استاذ مساعد بقسم التربية وعلم النفس كلية التربية والعلوم الاسلامية ـ جامعة السلطان قابوس ـ مسقط .

كيف يكتبه ، هو الذي يبقى للأجيال القادمة . »

هل يمكننا أن نقول : إن ما يسميه علماء النقد والبلاغة الأسلوب هو ما نسميه في علم النفس الشخصية ، باعتبار أن الشخصية هي مجموعة الخصائص والسمات المميزة لشخص ما ، والتي تستمر معه ثابتة فترة طويلة من حياته ؟ هل يمكن أن نقول : إن الأسلوب هو الشخصية باعتبار أن الأسلوب يكشف الكثير من الخصائص العقلية والمزاجية والايقاعية لصاحبه ؟ هذا ما نحاول أن نتعرف عليه في هذه الدراسة ، من خلال تركيزنا على شخصية كاتبنا الكبير نجيب محفوظ ، صاحب الأسلوب الخاص والشخصية المتميزة .

الأساليب المعرفية :

يتحدث العلماء في دراسات الشخصية عما يسمى « الأساليب المعرفية » ، ويقصدون : كيف يحصل الناس على المعلومات من البيئة المحيطة بهم ؟ ثم كيف يعالجون هذه المعلومات ؟ فبعضهم يحصل على المعلومات بسرعة ويفقدها بسرعة ، ويسمى النوع المندفع ، وفي مقابل ذلك ، هناك نوع آخر من البشر يتأمل ويتريث وينتظر قبل أن يجيب ، وعلى هذا البعد يمكن أن نضع نجيب محفوظ دون تردد في فئة المتأملين ، إنه يفكر كثيرا في الحياة والواقع والناس ، لدرجة أنه عندما يبدأ في كتابة رواية ما ، يضع ملفا لكل شخصية ، ويكتب فيه كل ما يطرأ عليها من تغيرات . (لاحظ فكرة الملف وارتباطها بتراث الموظف المصري) .

ميز الشاعر الأمريكي « ستيفن سبندر » في كتابه « إنتاج القصيدة » بين نوعين من التركيز الإبداعي . فبعض الكتاب يكتبون أعمالهم بطريقة مباشرة ، وعندما تكتب فإنها نادرا ما تحتاج إلى المراجعة ، أما بعضهم الآخر فيكتبون عدة نسخ ، وعلى مراحل ، بحيث أنهم عندما يصلون إلى النهاية تكون علاقة النسخة الأولى بالنسخة الأخيرة علاقة طفيفة . وضرب « سبندر » مثلا لذلك اثنين من كبار الموسيقيين العالميين ـ باعتبار أن الموسيقا تحتاج إلى كتابة وتأليف ، مثلها مثل الأدب ، وإن اختلفت رموز الكتابة وطريقتها في الحالتين ـ هما « موزارت » و « بيتهوفن » ، فالأول كان يكتب بسرعة بطريقة مباشرة ، وأثناء رحلاته ، وخلال تعامله مع عديد من المشكلات ، يكتب « السيمفونيات » كاملة غير منقوصة . أما « بيتهوفن » فقد كان يكتبها شذرات متفرقة من الموضوعات في مفكرته ، ويحتفظ بها بجانبه ، ويكملها عبر السنين ، وغالبا ما كانت أفكاره الأولى غير بارعة ، لكنه كان قادرا على أن يصنع منها أشياء عظيمة بعد ذلك . والفرق بين الأسلوبين أن الأول قادر على أن يسبر الأعماق بطريقة خاطفة ، وبمجهود خارق سريع متواصل ، أما الثاني فيحفر طبقة وراء طبقة ، أعمق فأعمق ، والمسئول عن أي من الحالتين هو الرؤية الفنية التي ترى وتواصل حتى تصل إلى الهدف ، وهذا هو منطق العمل الفني ، هذا هو الأسلوب ،

وهذا هو الرجل ذاته ، الأسلوب الأول أنتج لدينا في الأدب كاتبا مثل « يوسف ادريس » ، وربما كان تفضيله لشكل القصة القصيرة السريعة الموجزة المكثفة فيه بعض التفسير لهذا الأسلوب ، أما الأسلوب الثاني فأنتج لنا ذلك الحفار في أعماق المجتمع والبشر ، وهو نجيب محفوظ ، وكلاهما من أصحاب الأساليب ، وكما نعرف فقد يجرب الكاتب الأسلوبين ، التأملي والمندفع في أوقات مختلفة من حياته ، لكنه يظهر تفضيلا خاصا بشكل عام لأحدهما على الآخر . هذا اذن هو الأسلوب المعرفي للرجل ، الانتظار والتريث والصبر والدأب والعمل والكدح ، فالشخص التأملي أكثر ميلا للاستمرار في عمله من الشخص المندفع ، فالتأملية هي التي تؤدي وتدفع نحو الاستمرارية في العمل ، لأن هناك خطة محكمة ونظاما ووحدة على الرغم من التنوع ، وهذا هو أشد ما تحتاجه شعوب مثل

شعوبنا ، لذلك فقد كشف لنا نجيب محفوظ ـ النموذج والقدوة ـ عن أهمية دافعية الانجاز والانتاج والتمكن والسيطرة على العمل ، أي أهمية دوافع التفوق والابداع . هذه الخصائص المزاجية التي أرى أن من بينها التواضع والانطواء والتحفظ ، على الرغم مما يظهر عند المستوى السطحي من انبساطية وحب للظهور وسخرية ومرح . إنه أقرب إلى الانطوائي الذي لا يعلن عن نفسه إلا بالعمل والانتاج ، ومثل هذه الشخصيات العظيمة ليست شخصيات أحادية البعد ، بحيث يمكن أن نصفها بكلمات قليلة موجزة ، إن الأمر يحتاج منا إلى أن نحفر أعمق فأعمق في الطبقات الداخلية لهذه الشخصية ، وإحدى الوسائل الأساسية للحفر ـ في طريق هذا الفهم ـ أن نحاول استكشاف الآليات الأساسية التي تتحرك من خلالها هذه الشخصية ، ولنقف أولاً برهة عند أهم محطات الصراع التي مر بها هذا الكاتب الكبير عبر حياته .

محطات للصراع :

في البداية كان هناك صراع في نفس نجيب محفوظ ، ما بين الأدب والفلسفة ، (كما ذكر هو نفسه لجمال الغيطاني في كتابه المهم « نجيب محفوظ يتذكر » ، واستمر هذا الصراع فترة طويلة ، وبعد تخرجه من قسم الفلسفة بجامعة فؤاد الأول عام ١٩٣٤ ، ظل يكتب بعض القصص القصيرة . ومنذ سنة ١٩٣٧ كرس نفسه للفن الروائي ، لقد حسم الأمر لصالح الرواية ، أو هكذا قال .

محطة أخرى توقف عندها نجيب محفوظ ، هي محطة التاريخ ، وكانت والدته ذات أثر كبير في هذه الناحية ، حين كانت تأخذه دائماً لزيارة المتاحف والأماكن الأثرية ، كالأهرام و « الانتكخانة » ، وأبي الهول . وقد حدث صراع في نفس كاتبنا ما بين كتابة التاريخ القديم وكتابة التاريخ الحديث . بحث محفوظ أولاً عن المرحلة المضيئة ، مصر الفرعونية كما قال ، لأنه كان يرى أن الواقع في مصر في ذلك الوقت كان خافت الضوء حالك الظلام ، في ظل الاحتلال الانجليزي والوالي التركي . وفي النهاية قرر نجيب محفوظ أن يتخلى عن كتابة التاريخ القديم من خلال الأدب ، وأن يحفر أكثر فأكثر في عمق الحاضر المعاصر .

المحطة الثالثة كانت هي محطة الوظيفة . . حدث صراع في نفس نجيب محفوظ ما بين الأدب والوظيفة ، ونتيجة للحاجة المادية التزم محفوظ بالوظيفة ، واستمر يكتب الأدب ، بعد ذلك ، اكتشف محفوظ أن الوظيفة هي مصدر أو وسيلة للمشاهدة والتعامل مع نماذج مختلفة من الشخصيات « لقد توظفت لمدة ٥٤ سنة والوظيفة شيء والأدب شيء آخر » .

المحطة الرابعة هي محطة السياسة : الوفد أم الثورة ؟ كان محفوظ ومازال وفدياً أقرب إلى يسار الوفد أو الطليعة الوفدية ، ثم عندما جاءت الثورة تحفظ محفوظ ، ثم تحمس لها ، ثم انتقدها . تحمس لايجابياتها ولمحاولاتها لبناء المجتمع الجديد ، لكنه انتقد السلبيات العديدة التي ترتبت على الحكم الفردي والاستئثار بالسلطة في مصر .

المحطة الخامسة حدث فيها صراع ما بين الزواج والأدب ، كان محفوظ يظن الزواج عائقاً أمام الأدب ، ولذلك تأخر محفوظ في زواجه إلى ما بعد الأربعين ، ثم عندما تزوج اكتشف أن إنتاجه الأدبي لم يتأثر ، بل ربما ازداد . يمكننا القول إذن أن « الآلية » الأساسية التي كان يتحرك من خلالها نجيب محفوظ كانت كما يلي :

في البداية صراع من أجل الاختيار بين شيئين ، إما « أ » أو « ب » ، إما الفلسفة أو الأدب ، ثم يختار الأدب ، إما كتابة التاريخ أو الأدب ، ثم يختار الأدب إما الوظيفة أو الأدب ، وهنا لا يحدث اختيار تفضيلي ، بل يتم الجمع بين طرفي الصراع

بشكل واضح ، إما الثورة أو الوفد ، ثم الثورة بايجابياتها والوفد بإيجابياته ، إما الزواج أو الأدب ، ثم الزواج بايجابياته التي تدعم الأدب والكتابة ، إما المجتمع القديم أو المجتمع الجديد ، ثم المجتمع القديم والمجتمع الجديد وفي رأيي أن محفوظ لم يتخل قط عن الفلسفة ، بل لقد تخلى عن التخصص في الفلسفة ، لكن الفلسفة ظلت كامنة في داخله ، تؤثر في رؤيته للأشياء ونفاذه وراء سطحها الظاهر ، مع احساسات خاصة بالدهشة ، ورغبة عميقة في الاستكشاف والمعرفة ، وكذلك الحال بالنسبة للتاريخ ، فنجيب محفوظ أشبه بالمؤرخ أو عالم الاجتماع لفترة خاصة من التاريخ العربي في مصر ، ومع ذلك فهو ليس مؤرخا أو عالم اجتماع ، إنه كاتب مبدع ، والمنجم الحقيقي للكتابة ، يوجد لديه في الماضي (التاريخ - الطفولة - تاريخ الانسان الآن وهنا بدلا من تاريخ الأمة في الماضي وهناك » . كان محفوظ يتحرك من خلال التسوية أو الحل الوسط ، فبعد المرور من مرحلة إما « أ » أو « ب » ، وبعد التأمل وإعمال الفكر ، يكتشف محفوظ أن هناك إمكانية للتعايش ما بين « أ » و « ب » في مركب جديد . ووفقا « لهيجل » فإن الوعي أو الروح خلال تطوره يمر بمرحلة من الفكرة إلى نقيضها إلى مرحلة أكبر شمولا هي مرحلة مركب النقيضين . كذلك كان الأمر في حالة نجيب محفوظ ، فقد كان دائما ما يصل إلى مركب إبداعي خاص ، شديد الخصوبة ، لكل المتناقضات . هذه هي محطات الصراع ، صراع « دينامي » يشير إلى الحركة والنشاط والعقل والاختيار والإبداع .

الاستمرارية والانقطاع :

لكن هناك في حياة نجيب محفوظ محطتين ، توقف فيهما مسار قطاره الإبداعي . ولم يكن « مركب النقيضين » فيهما ناجحا أو ناجعا في تسيير حركة هذا القطار لديه : المحطة الثانية كانت بعد هزيمة ١٩٦٧ ، واستمرت مدة عام ، وهذه يسهل تفسيرها ، وقد شاركه فيها أدباء عديدون في مصر والوطن العربي ، بسبب تلك الظروف الهائلة التي زلزلت أرجاء وطننا العربي ، ومازلنا نعاني آثارها حتى الآن ، أما المحطة الأولى ، وهي موضع الاهتمام الأكبر هنا ، فهي تلك المحطة التي نلاحظها في قائمة مؤلفات محفوظ بشكل خاص في الفترة الزمنية التي تقع من ص ١٩٤٩ إلى ١٩٥٦ ، وكما يكشف لنا عنها بشكل واضح ذلك المنحنى المصاحب للمقال الذي رسمناه للتعبير عن مساره الابداعي عبر خمسين عاما . فماذا كان يفعل نجيب محفوظ في هذه الفترة ؟

(١) أولا : في ابريل سنة ١٩٥٢ انتهى محفوظ من كتابة الثلاثية ، وكان قد ظل يعمل فيها ٤ سنوات ، إذن فالسنوات من ١٩٤٩ - ١٩٥٢ لم تكن سنوات توقف ، بل سنوات من الانتاج والعمل ، ولم تنشر الثلاثية (التي كانت في البداية عملا كثيرا - حوالي ١٢٠٠ صفحة - باسم بين القصرين) إلا عام ١٩٥٦ .

(٢) المشكلة الأساسية إذن في السنوات من ١٩٥٢ - ١٩٥٦ وهي سنوات اليأس الأدبي كما سماها كاتبنا ، وقد قال إنه كان خلالها يشتهي الموت . فماذا حدث خلال تلك السنوات ؟

أ - سنة ١٩٥٢ قامت ثورة يوليو ، وحدث صراع في نفس نجيب محفوظ ما بين إخلاصه القديم للوفد ، ومحاوله تبني مبادىء الثورة الجديدة ، وقد ظل - ربما بتأثير الخوف أو التردد أو الترقب أو ما شابه ذلك من الانفعالات - ينتظر الوقت المناسب لتحديد موقفه ، وظل حتى النهاية وفديا ، لكنه ظل متحمسا أيضا لايجابيات الثورة على الرغم من قيامه بانتقاد عيوبها كما سبقت الإشارة .

ب - في سنة ١٩٥٤ تزوج محفوظ ، وكان قد تجاوز الأربعين ، وقد كان الأمر يحتاج منه إلى محاولات جديدة للتكيف مع حياة جديدة لم يعتد عليها .

ج ـ سنة ١٩٥٤ حدثت أزمة مارس ، حيث اشتد الصراع بين الجناح العسكري والجناح الذي يميل للمدنية في قيادة الثورة ، وقد انتهى الأمر بسيادة الجناح العسكري كما هو معروف .

د ـ كان المجهود الكبير الذي بذله محفوظ في الثلاثية يحتاج إلى توقف ما ، لإعادة ترتيب الأوراق ، والنظر إلى الأمور من خلال وجهة نظر جديدة .

هـ ـ ظل محفوظ يكتب حوالي عشرين عاما (ما بين ١٩٢٩ إلى ١٩٤٩) دون أن يذكره أحد ، وقد كانت أولى المقالات التي كتبت عنه تلك التي كتبها المرحوم سيد قطب والمرحوم أنور المعداوي ، وقد كان ذلك كفيلا بدفعه إلى الأمام لا إلى الخلف .

و ـ ان ما ذكره محفوظ من أن الثورة حققت الأهداف التي كان يسعى إليها ليس صحيحا ، بل ربما كان ذلك بمثابة « التقية » أو درء الشبهات (كما قال هو نفسه بعد ذلك) .

ز ـ قال محفوظ في كتابه « عشرة أدباء يتحدثون » لفؤاد دوارة « أتعلم مالذي جعلني أستمر ولا أيأس ، لقد اعتبرت الأدب حياة لا مهنة ، فحينما تعتبره مهنة لا تستطيع إلا أن تشغل بالك بانتظار الثمرة ، أما أنا فقد حصرت اهتمامي في الانتاج نفسه ، وليس بما وراء الانتاج ، كنت أكتب وأكتب لا على أمل أن ألفت النظر إلى كتاباتي ذات يوم ، بل كنت أكتب وأنا معتقد أنني سأظل على هذه الحال دائما » إنها الدافعية الداخلية ، دافعية العمل نفسه ، التي سماها «جوردون البورت » « الاستقلال الذاتي الوظيفي » ، فالصياد الذي كان يقوم بالصيد من أجل إشباع الاحساس بالجوع لديه ، أصبح يقوم الآن بالصيد ، لأنه يجد متعة في الصيد إنها أيضا الحالة التي يسميها علماء النفس الآن « الدافعية الداخلية » وهي الدافعية التي تظهر في لعب الأطفال ونشاطات المبدعين بشكل خاص .

الأعمال التي تعبر عن فرد منعزل في مقابل مجتمع كبير يكاد يبتلعه ـ كما في « اللص والكلاب » ١٩٦١ ، و « السمان والخريف » ١٩٦٢ و « الطريق » ١٩٦٤ ، و « الشحاذ » ١٩٦٥ ، كما أنتج عددا كبيرا من المجموعات القصصية بعد فترة التوقف هذه . إن الأمر قد يتضح لنا بشكل أفضل إذا ما نظرنا إلى الطبيعة الخاصة لتلك القدرات التي تقف وراء الابداع .

قدرات الإبداع :

يتحدث العلماء عن مجموعة من القدرات المميزة للمبدعين في المجالات المختلفة ، فيتحدثون مثلا عن طلاقة الأفكار ، أي كثرتها العددية ، ثم يتحدثون عن الأصالة ، أي جدة الأفكار وطرافتها ، ويتحدثون كذلك عن مرونة الأفكار ، أي تحررها من القوالب النمطية في التفكير ، من الأطر المتجمدة والقصور الذاتي والتكرار والاجترار ، وأعتقد أن الصراع الحقيقي في عقل محفوظ كان يدور أساسا بين الكثرة وبين



التنوع ، بين الكم وبين الكيف ، بين الطلاقة من ناحية - أي كثرة المؤلفات من الناحية العددية - وبين الأصالة والمرونة من ناحية أخرى . والتوقف يعني قلة الكم والكيف ، فالتوقف يعني عدم الانتاج ، لكنه قد يعني أيضا التفكير في إمكانيات جديدة للعمل (أصالة + مرونة) .

إننا نجد عبر التاريخ الأدبي والعلمي للبشرية أمثلة واضحة لهذا التباين ما بين الكم والكيف ، فمثلا - نجد أن « مرجريت ميتشيل » - صاحبة رواية « ذهب مع الريح » - لم تنتج سوى هذا العمل ، كذلك كان الحال بالنسبة « لاميلي برونتي » مؤلفة رواية « مرتفعات وذرنج » قبل ذلك ، ومع ذلك فقد سجلت هاتان الكاتبتان اسميهما في سجل الخلود الأدبي . أما الأسباني « لوب دي فيجا » (١٥٦٢ - ١٦٣٥) فقد أنتج ما يعادل ٢٠٠٠ ناتج إبداعي ، ومن ثم فهو أغزر الأدباء على مر التاريخ ، ويعرف من هذه الأعمال ٧٢٥ عملا ، والموجود منها فعلا ٤٧٠ ناتجا ابداعيا فقط .

كذلك أنتج « فرويد » ٣٣٠ عملا في ٤٥ سنة ، وأنتج « بيكاسو » عدة آلاف من اللوحات والأعمال الفنية في ٧٥ سنة ، وأنتج « اينشتاين » ٢٤٨ عملا في ٥٣ سنة ، وأنتج « دارون » ١١٩ عملا في ٥١ سنة . إن هؤلاء المبدعين يقضون وقتا أطول من غيرهم في العمل من أجل هذا الانتاج الهائل .

إن درجة التزام المرء هنا بعمله قد تكون هي الفارق المهم الأساسي في التمييز بين المبدعين وغير المبدعين ، إن الدافعية العالية وحدها لا تكفي لتكوين مبدع كبير ، فالشخص قد تتوافر لديه دافعية كبيرة ، وينتج أعمالا كثيرة (طلاقة) ، لكنها لا تضيف جديدا لحل المشكلات المهمة ، أو لا يكون لها تأثيرها المقيم . هنا يدور الصراع بين الطلاقة والأصالة ، بين الكم والكيف ، هنا يكون لتغير وجهات النظر - أي للمرونة - دور كبير .

يميز عالم النفس الأمريكي « سلفاتور مادي » ما بين دافعين أساسيين للإبداع ، فيطلق على الدافع الأول اسم « الحاجة إلى الكفاءة » ويقصد به مجموعة الدوافع التي تقود المرء المبدع إلى المثابرة في التطوير والتعبير عن المواهب والقدرات ، هذه المثابرة هي التي تدفع المبدع نحو التعديل والتنقيح والتحسين المستمر للعمل ، وتكون مسئولة أيضا عن وفرة الانتاج وغزارته ، أما مجموعة الدوافع الأخرى فأطلق عليها « مادي » اسم « الحاجة إلى الجدة » ، وهي ما تجعل المرء الذي يملكها يرى في غير المألوف والنادر وغير المتشابه إشباعات خاصة . وليست الجدة هنا وسيلة لتحقيق المفيد والنافع فقط بقدر ما هي استجابة انفعالية مصحوبة بالدهشة ، إنها هي التي تتناقض مع السأم الذي اعتبره « بايرون » أشد درجات العذاب الانساني قسوة . إن الشخصية المبدعة تمر بخبرات « الحاجة للكفاءة » و « الحاجة للجدة » بشكل مكثف وعميق ، وفي حالة ما إذا كانت الحاجة إلى الكفاءة هي السائدة ، والحاجة إلى الجدة هي الأضعف ، فإن الشخص قد يكون متوجها نحو الحرفية أكثر من توجهه نحو الإبداع ، أما إذا كانت الحاجة إلى الجدة هي السائدة ، والحاجة إلى الكفاءة هي الأضعف ، فإن الاتجاه النقيض قد يظهر .

كان توقف نجيب محفوظ أو يأسه الإبداعي الذي أشرنا إليه يكمن - في رأينا - في قبضة ذلك الصراع الذي احتدم في عقله ووجدانه ، ما بين الطلاقة (كثرة الانتاج) وبين الأصالة (تنوع وجدة الانتاج) ، ما بين الحرفية التي تمكن منها إلى حد كبير فوصل إلى قمة الكفاءة ، وبين الرؤية الجديدة التي كان يحتاجها في تلك الفترة ، حين أصبحت الرؤية القديمة تنفتح فترى أركان ذلك العالم القديم تتهدم وتتداعى ، وقد كان محفوظ قادرا دائما على تجاوز هذا اليأس ، والقيام بوثبة كبيرة على طريق الإبداع . □



حديث الصباح والمساء

البنية الروائية كمرآة للتفكك الاجتماعي

بقلم : الدكتور / صبري حافظ

« حديث الصباح والمساء » بلا شك أهم نصوص « نجيب محفوظ » منذ روايته الجميلة (الحرافيش) التي ظهرت قبل أكثر من عشر سنوات . وهذه الرواية الجديدة واحدة من أهم الروايات العربية في الثمانينيات ، ومن أكثرها ثراء بالدلالات والإشكالات معا ، لأنها واحدة من نصوصه الأخيرة القليلة التي تنطوي بنيتها على أهم محددات رؤيتها ، والتي يسفر الجدل الخصيب بين مبناها ومعناها عن كثير من القضايا التي يمكن الاختلاف فيها مع كاتبنا الكبير أو الاتفاق معه ، حسب موقع القارىء على خريطة التذوق الأدبي أو خريطة اليقين السياسي . ولا منجاة من أن يتسم عمل له طموح هذه الرواية الكبير بقدر من الإشكالية والخلافية ، لأن الرواية تطمح إلى استيعاب حركة الواقع المصري منذ فجر مسيرته التحديثية حتى الآن .

جدلية الفضاءين النصي والاجتماعي :

بعد أن كان الفضاء الروائي التقليدي في الثلاثية مثلا ساحة للتفاعل الثري بين الشخصيات ، أصبح في هذه الرواية الجديدة التي تغطي مرحلة تاريخية أطول ، وتقدم لنا عددا من الشخصيات يفوق عدد شخصيات الثلاثية ، وفي أقل من سدس حجمها ، أصبح مجرد مكان للوجود المتجاور الذي اقتضى أن يحكم ظهور الشخصيات فيه لا دورها في حدث معين يجمعها مع بقية الشخصيات الأخرى ، فقد انعدم الدور وتلاشت الفاعلية ، وزال التفاعل الخلاق بينها ، وإنما مجرد وجودها في المكان ، أو انتسابها إلى شجرة تلك الأسرة الوارفة . ومن هنا كان الترتيب الأبجدي لظهور الشخصيات هو الترتيب الأمثل ، ليس فقط لأنه ترتيب يبدو على السطح أن له منطقا ما ، ولكنه في الواقع ترتيب

ما لا ترتيب له ، أو لا منطق له ، ولكن أيضا لأن منطق هذا الترتيب الغريب ينطوي على تذويب الزمن ، والتضحية بمسيرته المتتابعة الحلقات .

ولا يعني هذا أن الرواية بلا منطق أو بنية ، ولكنه يعني أن محتوى البنية نفسه هو أحد وجوه المعنى الأساسية في هذا النص الأدبي الجميل ، فالرواية لا تقول لنا إن الواقع المصري يعاني من التفكك ، وتنهشه الصراعات الداخلية المريرة ، ولكنها تجسد هذا التفكك والصراع وتحوله إلى واقع روائي ملموس ، إذ تقدم لنا سبعا وستين شخصية ، اختارتها مما يقرب من ضعف هذا العدد من الشخصيات التي تنتمي إلى ثلاث عائلات متصاهرة ومتشابكة بروابط الرحم والنسب ، على مر ما يقرب من قرنين من الزمان ، انتاب فيها أبناء الأسرة من التحول ما انتاب مدينتهم ، ولغتهم ، وتصوراتهم ، وقيمهم من زلازل . فالرواية تطمح إلى أن تكون ترمومترا لمجموعة كبيرة من التغيرات الاجتماعية والسياسية والتاريخية ، وأن تقدم لنا تلك المتغيرات من خلال تجسيدها عبر المتغير الروائي نفسه ، وهذا إنجاز يحسب لكاتبنا الكبير . وتوشك هذه الشخصيات السبع والستون ، أو فلنسمها « البورتريهات » الروائية السبع والستين ، أن تصنع لنا في نهاية الرواية شجرة عائلية وارفة لا يملك من يتأملها إلا الرثاء لما انتابها من ذبول ، ولما تساقط منها من أوراق ناضرة ، والإعجاب في الوقت نفسه بما قدمته من تضحيات ، وما حققته من انجازات فردية على الأقل . لأن الانجاز في العالم الذي يسيطر عليه التفكك لا يمكن إلا أن يكون فرديا . بل إن البنية الروائية نفسها ـ في اعتمادها على أسلوب السير أو « البورتريهات الفردية » ـ تطمح إلى طمس الإنجاز الاجتماعي ، أو تغييبه ، دون أن تتيح لنقادها فرصة اتهامها بتجاهله ، لأنها سدت الباب الذي يمكن له الولوج منه ، ومن هنا أصبح تناوله منافيا للبنية الروائية نفسها .

وحتى نتعرف على حقيقة العالم الروائي الذي تبلوره لنا هذه « البورتريهات » ـ التي يقترب بعضها من أسلوب «الاسكتشات» أو ضربات الفرشاة السريعة ، أو الصور القلمية الموجزة ـ لا بد لنا من التعرف على البنى الزمنية والاجتماعية والروائية التي تنطوي عليها هذه الرواية ، والتي تسفر عنها محاولة استقراء الرواية المحذوفة الثاوية في عمق الرواية المكتوبة . فلهذه الرواية ولا ريب ، رواية أخرى لم تكتب ، أو ربما كتبت خطوطها العريضة ، ثم أسقطها الكاتب ، ليقدم لنا عوضا عنها هذه المجموعة من الصور القلمية السريعة لأهم شخصياتها ، أو قل للشخصيات التي رأى الكاتب أنها قادرة على تلخيص كل من بنيتي الرواية الزمنية والاجتماعية . ذلك لأن وراء التفكك البادي على السطح ، والذي يجسده تكنيك السير المرتبة حسب حروف الأبجدية ، مجموعة من العلاقات المتشابكة التي تجعلها رواية وليست مجرد سجل أبجدي بشخصيات لا رابط بينها . وستتكشف لنا تلك العلاقات من خلال تناول البنى المختلفة في هذا العمل الروائي .

البنية الاجتماعية

وإذا ما بدأنا بالبنية الاجتماعية سنجد أن هذه الرواية تبدأ بثلاث أسر تقدم لنا العناصر الأساسية الثلاثة الصانعة لنسيج المجتمع المصري العريض ، أو على وجه الدقة للشرائح المتعددة الصانعة لأهم طبقاته ، أي طبقته الوسطى .

أسرة « الشيخ القليوبي » التي تمثل الطبقة الوسطى ذات الأصول الريفية والتي ارتقت إلى تلك المكانة بسبب التعليم المجاني الذي وفره لها نظام التعليم الديني التقليدي في الأزهر . وأسرة « يزيد المصري » ذات الأصل الحضري ، أو الساحلي ، التي تمثل السواد الأعظم من الشعب المصري ، الذي يكسب قوته بعرق جبينه ، والذي يمتزج إيمانه الديني الأصيل بعناصر من

التراث الشفهي والخرافة الشعبية ، والذي يؤمن بأن السبيل الوحيد إلى تحقيق قدر من الارتقاء الاجتماعي يتحقق عن طريق تعليم أبنائه .

وأسرة « عطا المراكيبي » التي تمثل ملاك الأراضي الذين كانوا كغيرهم من السواد الأعظم معدمين ، ولكن شاءت المقادير العابثة التي تحكم الملكية العقارية في مصر ، أن تنحدر ثروة معظمهم من المصاهرة . هذه الأسر الثلاث أو الروافد الاجتماعية الثلاث التي نتعرف عليها جميعا في الحملة الفرنسية تربطها معا أواصر الزواج والمصاهرة ، وتنحدر من أصلابها جميعا سلالات اجتماعية ثلاث لا تقل عنها تمثيلا لما جرى في المجتمع المصري . نرى على مدى صفحات الرواية تطورها وتحولات مصائرها على مدى قرنين من الزمان .

أولاها سلالة أسماك القرش الشرهة التي لا ترتدع ولا ترعوي ، والتي تبدأ من « عطا المراكيبي » الذي ارتفع بالمصاهرة من صانع مراكيب بسيط إلى أحد سراة القرن الماضي . وتستمر حتى قطط الانفتاح السمان ، مرورا بمحمود وحسن وماهر وعدنان المراكيبي ، وبليغ معاوية حتى عقل القناوي ونادر المنياوي وأدهم وحسني حازم وسرور . وهي سلالة شرهة للمال ، لا تعرف لها وطنا أو دينا سواه ، ولا تتورع عن المتاجرة بكل شيء وأي شيء . لا تعرف عن الوطنية شيئا ، ولا يهمها من أمور السياسة الا تأمين مصالحها أو توسيع رقعة مكاسبها . أما عن عالمها القيمي ومعتقداتها الأخلاقية فحدث ولا حرج ، أناس لا ضمير لمعظمهم ولا خلاق ، يتمركزون حول ذواتهم الصغيرة التي يتصورون أن الكرة الأرضية بأكملها لا تدور إلا حولها . ولا يعرفون من العواطف إلا الفظاظة والشره والأنانية المفرطة ، أما بقية العواطف الإنسانية الأخرى من حب وأمانة ووطنية وغيرها فإنها خاضعة لديهم دائما لآخر أسعار الإقفال في « بورصة » مصالحهم .

أما السلالة الثانية فهي النقيض الكامل لتلك السلالة الشرهة الغريبة . إنها السلالة التي ينتمي إليها لحسن الحظ السواد الأعظم من الشعب المصري ، سلالة الإنسان البسيط القانع الهادىء الذي لا يعقد الأمور . وهي السلالة التي تمثل راضية معاوية القليوبي (وهي محور الشخصيات النسائية في هذه الرواية وتوشك أن تكون الرمز الروائي للأم - الأرض - الوطن) نموذجها المصفى . إنها سلالة تجرى البساطة في عروقها مع الدماء ، ويجري معها فيها شيء من العمق والأصالة . وهي - لذلك - السلالة التي تحافظ على مستودع القيم الحضارية والأخلاقية الزاخر الذي صاغته الشخصية المصرية عبر مسيرتها الحضارية الممتدة لآلاف السنين . وهي سلالة ثرية بالتنويعات من الجذع الأصلي لهذه السلالة يزيد المصري (الذي لا يخفى ما في اسمه من دلالات مكشوفة) بطبيعته المرحة وبصيرته الثاقبة حتى حمادة القناوي بعقله الصعيدي المغلق وأفقه المحدود . من قاسم عمرو الذي حول صدمته الباكرة إلى نوع من البركة الاتكالية ، إلى دنانير بركات التي أطاحت المقادير بفرصتها اللامعة فتشبثت بكبريائها في عناد له طبيعة انتحارية ضيقة الأفق . من عمرو عزيز المترع بالطيبة والرغبة في تأمين مستقبل عياله ، حتى أخيه سرور



عزيز المقهور المليء بالسخط والإحن والإحباط . تلك السلالة التي تضم رهطا كبيرا من الشخصيات التي تعاني من عيوب كثيرة ، ولكن وفرة حسناتها هي التي تتفوق في نهاية المطاف على تلك العيوب . وسنجد أن أبناء هذه السلالة البسيطة هم الذين كانوا وقود الحروب المختلفة التي خاضتها مصر ضد العدو الصهيوني التي تحرص الرواية على ألا تذكر اسمه أو تشير إلى عدائنا له ، « فأيديولوجية » نجيب محفوظ السياسية لا تزال فاعلة في هذا النص وسنعود إلى هذا الأمر في موضع آخر من هذه الدراسة .

أما السلالة الثالثة التي تقدمها لنا شخصيات هذه الرواية فهي تلك السلالة التي ينتمي الكاتب نفسه إليها ، والتي يمكن أن نطلق عليها سلالة « النخبة المثقفة » المصرية الحديثة تلك السلالة التي يعود أصلها إلى فرعين أساسيين حرصت الرواية على تقديم أصولهما منذ بداية مسيرتها التاريخية : الفرع الأزهري الذي انحدر من أصلابه الشيخ القليوبي وولده الشيخ معاوية ، الذي شارك في الثورة العرابية ، وسجن بعد إخفاقها ، والفرع المدني الذي بدأ بخطف الجند للطفل الصغير داود يزيد المصري بأمر الوالي محمد علي وحبسه في القلعة حتى يكمل دراسة العلوم المدنية ، ثم إرساله إلى فرنسا ليدرس الطب هناك . وتكشف لنا مسيرة الأحداث في الرواية كيف ظل الفرع الأزهري أكثر اقترابا من التيار الشعبي ، وأميل إلى رؤاه من الناحيتين السياسية والثقافية معا ، بينما حوم التيار المدني حول مؤسسة السلطة في مختلف عهودها . صحيح أن الفرعين قد امتزجا وتزاوجا في أحيان كثيرة ، لكن الفرع المدني الذي كانت له الغلبة ـ حيث اختفى الفرع الأزهري كلية مع مقدم القرن العشرين ـ زود الرواية بأهم ألوان الطيف السياسي التي عرفها المجتمع المصري في تلك الفترة بما في ذلك ممثلو التيار الديني الذين كان أبرزهم في الرواية سليم حسين قابيل ، الذي يعد على الرغم من تعليمه المدني ، نتاجا حقيقيا للفكر التقليدي والتعليم الديني . ومن أبرز علاقات التناظر بين بنية الرواية الاجتماعية ونسيج الخريطة السياسية التي عاشها الواقع المصري على مدى تلك الفترة الطويلة التي تتناولها الرواية ، أن كلا من ممثلي التيار الديني والتيار الماركسي السياسيين قد انحدرا من أصلاب السلالة الثانية عامة ومن أحفاد عمرو عزيز يزيد المصري خاصة . في محاولة من الرواية للربط بين سعي تلك السلالة لتحسين أوضاع بنيها بالتعليم وبين اشتباك مصائرها بآليات القهر الذي يمارس ضد حلمها المشروع بالخلاص ، مهما كانت سبل تحقيق هذا الحلم ومهما كانت« ايديولوجيته» . أما سلالة المراكيبي الثرية ، وأحفاد الطبيب النابه داود باشا يزيد المصري ، فقد كانت أكثر سلالات النص ارتباطا بمؤسسة السلطة ، فقد





كان منها الباشوات والبكوات أيام العهد الملكي ، وكان منها كذلك الضباط الأحرار في عهد الثورة ، بل وكان منها كبار الانفتاحيين في عصر السادات الكئيب .

خريطة العلاقات والمتغيرات

وإذا كانت هذه الأسر الثلاث وسلالاتها الثلاث هي الصانعة لنسيج البنية الاجتماعية للرواية ، فإن تحولات الواقع الحضاري المصري عبر قرنين من الزمان هي التي سيطرت على طبيعة العلاقات بين شخصياتها . تلك العلاقات التي لا تقدمها الرواية لذاتها ، وإنما لما ترسمه من تحولات دالة في هذا الواقع . فهناك التحولات التي تنتاب تضاريس المدينة وقدرتها الرهيبة على تقطيع أواصر القربى ، وتحويل جغرافيا المدينة الواحدة إلى ممالك مستقلة لا تعبر حدودها إلا في الملمات . فالرواية توشك من هذه الناحية أن تكون سجلا هاما لما جرى لمدينة القاهرة عبر قرنين من الزمان ، ولدور التغيرات الاقتصادية ، ودور التلفاز في تكريس هذا الوجود الاجتزائي للمدينة ، وكيف أدت هذه التحولات إلى بوادر الهجرة المضادة التي تدفع أحد أحفاد عمرو يزيد المصري (صالح حامد عمرو) إلى الهجرة من المدينة إلى الريف ، وإلى إطلاقه لقب مدينة العذاب على القاهرة . وخاصة أن الرواية كلها من نسل المدينة الخالص وليس فيها من الريف ـ ككل عالم نجيب محفوظ ـ إلا النزر اليسير .

وهناك أيضا التحولات التي انتابت طبيعة العلاقات الاجتماعية والأسرية ، بما في ذلك تغير أساليب الزواج وتبدل طبيعة النظرة له تغيرا طفيفا ، بينما تراخت بشكل جذري قبضة العلاقات الأبوية ، وبدأت الرواية ، منذ جيل الأحفاد خاصة ، تقدم لنا صورا من التمرد الحاد على سطوة العلاقات الأبوية ، ما كان ممكنا التفكير في حدوثها حتى في أكثر الكوابيس تطرفا قبل جيلين من الزمان . ولا يكتسب تراخي قبضة العلاقات الأبوية في هذه الرواية أهميته فقط من تسجيله لتغير العلاقات الاجتماعية في الواقع الذي صدرت عنه ، ولكن من بلورته لحالة تراخي قبضة السلطة بمعناها الحضاري الواسع أيضا فالتغيرات القيمية لا تقل أهمية عن التغيرات الجغرافية أو الاجتماعية أو التاريخية .

أما التغيرات الاجتماعية التي انتابت نمط حياة الناس وطبيعة توقعاتهم ونوعية طموحاتهم ، فقد قدمت لنا الرواية مجموعة ثرية منها ، بدءا من أشكال السفر للعمل بالخارج ، والهجرة ، والسياحة ، وغير ذلك من أشكال خروج المصري للعالم بمحض إرادته ، بعد أن شاهدنا كيف كان إرسال الابن الأول للتعليم في منتصف القرن الماضي أو بعده بقليل أقرب ما يكون إلى الكارثة التي حاقت بالأسرة دون أن تملك لها دفعا . إلى زواج عدد من الأحفاد من أجنبيات وبدايات الاستقرار في أوربا وأمريكا لفروع من أغصان شجرة تلك الأسرة الوارفة .

البنيـة الـزمنيـة

ولننتقل الآن إلى بنية الرواية الزمانية في محاولة لاستخلاص التركيبة الروائية الثاوية خلف هذا الجمع الوفير من الشخصيات التي آثرت الرواية أن تقدمها لنا حسب ترتيب أسمائها الهجائي . ذلك لأن وراء هذا الحشد الروائي من « البورتريهات » القصصية التي تتابع بلا منطق غير منطق الأبجدية العشوائي ، ولا رابط غير روابطها اللامنطقية ، بنية روائية تتحرك في الزمن بحساب يشي بتصور له طبيعة سياسية واضحة تتخفى وراء الترتيب الهجائي ، وضربات السرد السريعة التي تستلزمها طبيعة « البورتريهات »



القصصية التي يبني بها محفوظ عالم روايته . فإذا كانت الرواية تبدأ بشخصية أحمد محمد إبراهيم الذي مات قبل أن يبلغ سن دخول الكتاب ، وتنتهي بيزيد المصري الذي « وصل إلى القاهرة قبل وصول الحملة الفرنسية بأيام » ، فإنها تضم بين البداية والنهاية خمسا وستين شخصية أخرى . سنحاول أن نموضعها على خريطة البنية الزمنية للرواية . لكن لا بد أن نشير بداءة إلى أن بداية الرواية بأحمد محمد ابراهيم ، وتعمدها وضعه قبل أحمد عطا المراكيبي الذي كان الترتيب الهجائي يستلزم البدء به يوشك أن يكون عمديا ، وكان بإمكان الرواية تجنب هذا الخطأ البسيط باختيار إسم آخر لوالد أحمد وزوج مطرية يبدأ بأي حرف من الحروف الواقعة قبل العين كأن تدعوه بديعا أو جمالا أو سعيدا . . . . الخ .

فالرواية تريدنا حقا أن نبدأ بهذا الحس القدري المأساوي الذي يوقع النص كله في قبضة الموت الطائشة ، ولأنها لا تريدنا أن نبدأ بأحمد عطا المراكيبي الذي لن ينجح في الاستئثار بتعاطف القارىء وإنما بهذا الطفل الفائق الجمال - ابن مطرية عمرو عزيز - فموته المبكر يضع النص منذ الصفحات الأولى في قبضة العبث والكارثة . كما أن اختتامه بيزيد المصري وهو الشخصية العمودية التي تفرعت من أصلابها معظم شخصيات النص وأسره الأساسية على نفس القدر من العمدية ، وكأنما يريد الكاتب أن ينهي روايته بالوصول إلى الجذر الأول للسلالة .

ومن هنا فإن للرواية ، شئنا أم أبينا ، بنية زمنية ، وبنية فنية لا بد على القارىء أن يتأملها حتى يستنبط أهم ما ينطوي عليه النص من رؤى ودلالات . فالرواية تبدأ زمانيا،عام وصول يزيد المصري من الاسكندرية إلى القاهرة بعد أن مات جل أهله في الوباء الذي أهلك كثيرا من أهل الثغر « قبل وصول الحملة الفرنسية بأيام » (ص ٢١٦) أي عام ١٧٩٨ وكان يزيد من أسرة عطارين . وكأن نجيبا يريد أن يعارض بهذا الاختيار القول الشائع بأن الذي « بنى مصر كان في الأصل حلواني » ، فالذي بنى مسيرة أسرته المصرية الوارفة مع التحديث كان في الأصل عطارا ، وهي أقرب المهن إلى الدخاخني الألباني - محمد علي - المسؤول عن بداية مشروعها الحديث ، وتستمر الرواية حتى منتصف الثمانينيات . إذ نعرف أن شاكر عامر عمرو الذي هاجر إلى أمريكا وأقام بها أثناء عهد عبدالناصر وقطع علاقته بأهله ووطنه ، قد « رجع في منتصف الثمانينيات مصطحبا زوجته وأولاده فزار والديه وأخويه وجدته راضية كضيف أجنبي » (ص ١٢١) ومن هنا فإنها واعية زمانيا باختيارات لحظة بدايتها ، أما لحظة نهايتها على المحور الزمني فهي فترة كتابة الرواية نفسها التي لا بد وأنها كتبت عام ١٩٨٦ أو ١٩٨٧ على أحسن تقدير . وإذا حاولنا أن نعيد تركيب البنية الزمانية ، المتناثرة في جزئيات عديدة موزعة على « بورتريهات » النص القصصية الكثيرة ، سنجد أننا أمام قصة يزيد المصري الذي جاء إلى القاهرة قبيل وفود الفرنسيس إليها حسب لغة تلك الأيام . فعمل في وكالة الوراق في منطقة الغورية ، وتعرف على عطا المراكيبي الذي كان يعمل هو الآخر في دكان الصالحية لصاحبه المغربي جلعاد المغاوري ، كما تعرف على الشيخ القليوبي الذي كان يدرس في الأزهر . وبينما وقع يزيد في غرام فرجة الصياد الجميلة وتزوجها ، كان عطا أحرص منه على استخدام الزواج كوسيلة للرقي الاجتماعي فبنى بسكينة المغاورى ابنة صاحب الدكان الذي يعمل به ، وأصبح نائبا له فيه ثم وريثا له بعد وفاته . ومع أن الصداقة جمعت بين هؤلاء الثلاثة إلا أن الطبيعة فرقت بينهم . فبينما كان يزيد وطنيا يتميز بالشهامة والرجولة ، وكاد يهلك في ثورة القاهرة الثانية ضد الفرنسيين (ص ١٦٠)، كان عطا خاليا من تلك الصفات حريصا على مصلحته الخاصة ، بينما كان الشيخ ورعا ودودا يقبل

الناس على علاتهم .

وقد تشابكت مصائر أبناء هؤلاء الأصدقاء الثلاثة . فتزوج عزيز يزيد المصري ، قبيل منتصف القرن الماضي أو في أربعينياته ، من نعمة عطا المراكيبي . وفي العام التالي توفيت سكينة أم نعمة ، فتزوج عطا من الأرملة الثرية هدى الألوزي وترك الغورية وشيد « سراي خيرت » وانتقل إلى طبقة اجتماعية جديدة ، وانجب منها ابنين، هما محمود وأحمد ، كانا أخوي نعمة في الدم ولكنهما من طبقة اجتماعية مغايرة كلية . وفي العام التالي لذلك تزوج معاوية ابن الشيخ القليوني هو الآخر ، وبعد ذلك بأشهر مات أبوه - فكان أول الراحلين من الجيل الأول - وورث الإبن عن أبيه مهنة التدريس في الأزهر ثم أنجب حفنة من الأولاد . وبعد أن أنجب عزيز أبناءه الثلاثة (عمرو وسرور ورشوانة) بفترة مات أبوه ، ولم يبق من الجيل الأول غير عطا المراكيبي . وفي هذا الوقت تقريبا كان ابن يزيد المصري الثاني داود (الذي اختطفه الجند صغيرا وحبسوه في القلعة حتى يتلقى العلوم المدنية) يدرس الطب في فرنسا ، ويكرس بعده ومصيره ذاك شرخا اجتماعيا آخر في أسرة يزيد المصري كالشرخ الذي حدث في أسرة عطا المراكيبي .

فلما عاد داود بعد ذلك بسنوات تزوج هو الآخر من سنية الوراق ابنة صاحب الوكالة التي كان يعمل فيها أبوه ، وأنجب منها عبدالعظيم وترقى في المناصب حتى حصل على رتبة الباشوية التي كرست مع الزواج من أسرة الورّاق الثرية الحاجز الطبقي بين الأخوين ، لهذا كله ما لبثت الشروخ الصغيرة التي بدأت تحدث في كيان شجرة الأسرة الكبيرة الاجتماعي أن تحولت إلى صدوع طبقية تكرست استقطاباتها مع الجيل الثالث وهو الجيل الذي يشكل المرتكز الزمني للنص . ليس فقط لأن الرواية تتابع معظم الفروع المنبثقة من زيجات هذا الجيل الثالث ، ولكن أيضا ، وأساسا من حيث بنية النص الزمنية ، لأن معظم زيجاته



تواقتت مع الثورة العرابية أو ارتبطت بها . وكأن نجيبا يريد لنا أن نعي أن متابعته لمختلف أغصان شجرة تلك الأسرة الكبيرة المتشابكة الفروع لا تنفصل عن متابعته لتاريخ مصر السياسي ، ومن هنا كان هذا الجيل الثالث الذي يرتبط بتبلور الوعي القومي المصري وتخلق أجنة هويته الأساسية الأولى هو مرتكز النص الزمني .

التاريخ الشخصي على خريطة الثورات

فإلى هذا الجيل تنتمي أسرة النص الكبرى التي تكونت من زواج ابن عزيز يزيد المصري الأكبر عمرو وبنت الشيخ معاوية القليوبي الكبرى راضية ، ومتى ؟ بعد الافراج عن الشيخ من السجن الذي بقي حبيسا فيه لسنوات لتأييده العلني للثورة العرابية التي أيدها عزيز بقلبه فحسب . وأسرة عمرو هذه التي أنجبت سبعة من الأبناء (ثلاثة من الذكور وأربع من الاناث) هي التي ستملأ ذريتها صفحات الرواية بالشخصيات والأحداث ، وهي ولا ريب الأسرة المحورية في العمل كله . وهي كذلك الأسرة التي ستواصل من خلالها ارتباط هذا الفرع الفقير من الأسرة بفرعيها الغنيين من خلال مصاهرة ابنيها عامر وحامد لأسرتي عبد العظيم داود باشا

ومحمود عطا المراكيبي على الترتيب . بل هي كذلك الأسرة التي سيتزوج أصغر ابنائها قاسم من ابنة عمه بهيجة سرور عزيز مكملا بذلك حلقة علاقاتها مع الأسر الأساسية في النص من ناحية ، ومع الفروع الأساسية في النسيج الاجتماعي المصري من ناحية أخرى . وإذا ما عدنا إلى بنية النص الزمنية سنجد أن هذه الأسرة كذلك هي الأسرة التي ارتبطت بأحداث تبلور الهوية القومية في بوتقة ثورة ١٩١٩ . فقد أدت مشاركة أبنائها فيها إلى تخفيض حامد من السنة النهائية إلى السنة الأولى بمدرسة البوليس . ولا يعني القول بأن هذه الأسرة هي الأسرة المحورية الغض من أهمية الأسرة الأخرى في النص .

الموقف من الثورة « وأيديولوجية » النص

وإذا كان أول الأحداث السياسية الكبرى التي تشغل بها الرواية إلى حد ما هو الثورة العرابية التي رفعت راضية راية اشتراك أبيها فيها خفاقة طوال النص ، وإن حولتها إشاراتها الشعبية المتعددة إليها الى نوع من التراث الشفهي الذي تمتزج فيه الخرافة بالانجاز التاريخي ، فإن الحدث الذي تضعه الرواية على قمة سلم المكانات السياسية في نصها هو ثورة ١٩١٩ ، الى الحد الذي يوشك فيه الموقف من هذه الثورة أن يحدد موقع الشخصيات على خريطتها . ومما يكسب هذه الرواية مذاقا مأساويا فريدا يزيده صدقها حدة ، أن الذين أخلصوا لهذه الثورة عانوا حتى النهاية ، والذين استهانوا بها وتنصلوا من مسئولياتها أو حتى خانوها أفلتوا من التضحية والمعاناة وكسبوا من هذا البلد ثروة وتحققا . ويزداد هذا الاحساس حدة إذا ما عرفنا أن كل الذين ضحوا من أجل مصر بدمائهم على مدى هذه الفترة الطويلة منذ استشهاد أمير سرور عزيز المصري في المظاهرات المطالبة بعودة دستور ١٩٢٣ عقب إلغاء اسماعيل صدقي له عام ١٩٣٠ ، وحتى استشهاد حسين حكيم قابيل (حفيد سميرة عمرو عزيز) في حرب ١٩٧٣ ، مرورا بموت سرور ابن جميلة سرور عزيز ، ومحمد شاذلي حفيد مطرية عمرو عزيز في العدوان الثلاثي ، ومحمد ابراهيم الأسواني ابن جميلة سرور عزيز في حرب ١٩٦٧ ، وعمرو حكيم قابيل حفيد سميرة عمرو عزيز في حرب الاستنزاف ، كل هؤلاء جميعا من الفرع الشعبي الفقير بامتداداته : أحفاد وأحفاد أحفاد عزيز يزيد المصري . أما أبناء الفرعين الثريين الذين اخذوا الكثير من خيرات هذا البلد ، فلم يقدم أحد منهم نقطة دم واحدة من أجلها وكأني بالرواية تريد أن تقول : إن الثورة المصرية الحقة لا تزال مجهضة ، وإن القطاع العريض المخلص من الشعب المصري ، والذي ضحى بحق من أجل بلاده لم ينعم قط بثمارها ، ولم يأت بعد يوم العدالة له .

أما ثورة ١٩٥٢ فإن الرواية لا تضعها في مكانة متدنية على سلم مكاناتها السياسية فحسب ، وإنما توشك الرواية أن تستهين بكل انجازاتها بالافتئات على الواقع والتاريخ . والواقع ، أن النص الروائي أذكى من أن يفعل ذلك بشكل مباشر . ولكنه يجسده عبر البنية الروائية من ناحية ، ومن خلال تحولات مصائر الذين ارتبطوا بها من ناحية أخرى . فعلى الرغم من أن الذين ارتبطوا بها قدموا الكثير من التضحيات من أجل مصر ومن أجل الدفاع عن قضاياها ، فإن الرواية تصور بعض تلك التضحيات وكأنها ضربات أقدار عابثة . وكأنها لم تكن تضحيات في معارك سياسية مع عدو صهيوني استهدف مصر ومازال يستهدفها ، فثمة حرص نصي واضح على تجنب الإشارة السلبية الى هذا العدو لا يعدله إلا حرصه على تعديد مثالب من يعادونه . بينما تفسح الرواية المجال لمن تضرروا من إجراءات ثورة ١٩٥٢ في مرحلتها الناصرية خاصة للتعبير عن سخطهم عليها . لكن في الرواية قضايا وإشكاليات فنية وفكرية أخرى لابد من التوقف عندها . □



من هنا بدأت رحلة الحارة .. الطريق إلى نوبل

استطلاع : ابراهيم منصور

حين طلب مني الدكتور رئيس التحرير كتابة استطلاع عن روايات الأستاذ « نجيب محفوظ » وعلاقتها بحي الجمالية ، وافقت على الفور ، ودون تردد أو تفكير .

كنت قد قرأت ، مثل مئات الألوف من القراء العرب ، روايات الكاتب الكبير مثل : « خان الخليلي » و « زقاق المدق » و « ثلاثية بين القصرين » . كما كنت أيضا ، مثل مئات الألوف من السائحين والقاهريين ، قد تجولت في شوارع هذه المنطقة وحواريها وأزقتها .

بل انني كنت ، زيادة على ذلك ، قد قرأت ما كتب عن هذه المنطقة مثل « خطط » المقريزي وعلي مبارك ، وحوليات التاريخ الوسيط ، مثل « سلوك » المقريزى و « نجوم » ابن تغرى بردى و « بدائع » ابن اياس المصري و « عجائب » الجبرتي .

ومن ثم ، فقد ظننت الأمر سهلا لا يحتاج الى عناء كبير . ومن هنا ، أيضا ، كانت موافقتي الفورية التي لا يشوبها تردد .

ولكن الأمر لم يكن كما ظننت .

ووجدت ، حين شرعت في العمل ، أن الموضوع أصعب مما كنت أتصور .

ذلك ، أن روايات الأستاذ نجيب محفوظ التي تتناول هذه المنطقة ، لا تسجل واقعها كما هو ، بتركيبته الخاصة ، وإذا كان المرء يتخيل ، وهو يقرأ هذه الأعمال ، أنه يرى شوارع المنطقة وحاراتها ، وأزقتها كما هي في واقعها الحقيقي ، فإن ذلك مرجعه أن عناصر هذا الواقع موجودة كلها - أو على الأقل معظمها - في هذه الأعمال ، ولكن بعد إعادة تركيبها وتغيير نمط وتيرة تآلفها وتناسقها ، وبحيث تصبح النتيجة واقعا جديدا تماما يشبه الواقع ، ولكنه لا يتماثل معه . وإن كان ذلك لا يجعله أقل صدقا من الواقع الأصلي . . . بل ربما أحيانا أكثر صدقا وتعبيرا ودلالة .

والكاتب الكبير يدرك ذلك جيدا ، ويؤكده في العديد من الأحاديث التي يدلي بها . وقد أكد لي ذلك في الحديث الذي أجريته معه بمناسبة هذا الاستطلاع . فقد قلت له:ان قصة « أم أحمد » ، في مجموعته القصصية الأخيرة : « صباح الورد » ، تبدو كأنها قصة تسجيلية . . أو ضرب من السيرة الذاتية ، وأن وصفه لدرب « قرمز » يتشابه ، الى حد كبير ، مع وصف علي مبارك له في « الخطط التوفيقية » ، فقال : « . . هناك قدر من الصحة فيما تقول . ولكنك لا يجب أن تعتمد عليها من ناحية تاريخ شخصياتها . . فقد لعب الخيال فيها دورا الى حد ما . . كما أن تطورها سار وفقا لمنطق الثورة - أي ثورتي ١٩١٩ و ١٩٥٢ - أكثر من سيره وفقا لما حدث في الواقع . . . والواقع أن تلك القصة من عمل الخيال ،الذى يكون حقيقيا وغير حقيقي في نفس الوقت ، فهو غير حقيقي لو أنك طبقته على الشخصية نفسها . . ولكنه حقيقي بالمعنى العام » .

غياب غير مفهوم

على أن هناك عنصرا مهما من عناصر واقع منطقة الجمالية يكاد أن يغيب تماما من أعمال الكاتب الكبير .

فأنت ، حين تقرأ هذه الأعمال الروائية التي كتبها الأستاذ « نجيب محفوظ » ، والتي تتناول واقع هذه المنطقة ، قد تلاحظ ، كما لاحظت أنا ، أنك لا تجد بها - وباستثناء جامع المشهد الحسيني الذي يبدو شبحيا ، وبناء معنويا أكثر منه كيانا ماديا - ذكرا لأي أثر معماري من الآثار التي تزخر بها أقدم مناطق القاهرة هذه .

صحيح أنه ربما يكون قد ورد ، في هذه الرواية أو تلك ، ذكر لمدارس وجوامع مثل : برقوق أو قلاوون ، أو لأماكن مثل : « زقاق المدق » أو « خان الخليلي » أو « قبو قرمز » ، ولكن الأمر هنا لايتعدى مجرد ذكر الاسم ، ولا يتجاوزه الى التعامل معها بوصفها كائنات تكاد تدب فيها الحياة ، وتمتلىء بالذكريات والأحداث والتاريخ .

ومما يجعل الأمر يبدو غريبا بعض الشيء أننا نجد الروائي الكبير يصرح للدكتور « غالى شكري » في حديث معه (« نجيب محفوظ : من الجمالية الى نوبل » - مصلحة الاستعلامات ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ٧٢) : « . . . لقد درسنا (أي : جيل الأستاذ محفوظ) جذورنا الحضارية دراسة جيدة . وبالنسبة لي ، فقد بلغت هذه الدراسة مشارف الاحتراف . وكنت أذهب الى محاضرات قسم الآثار (بالجامعة) بانتظام ، وأتابع كل جديد حول مصر الفرعونية متابعة دقيقة » .

فالسؤال الذى يثيره هذا التصريح ، إذن ، هو : لماذا لم ينعكس اهتمام الأستاذ نجيب بالآثار على أعماله الروائية ؟ . وخاصة أن هذا الاهتمام لا يقتصر على الآثار « الفرعونية » فقط . فهو يقول للأستاذ جمال الغيطاني ، في حديث آخر له

(« نجيب محفوظ يتذكر » ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٨) : « . . . الحقيقة كان بيني وبين المنطقة (أي : الجمالية) والناس هناك ، والآثار ، علاقة غريبة ، تثير عواطف حميمة ومشاعر غامضة ، لم يكن من الممكن الراحة منها ، فيما بعد ، إلا بالكتابة عنها » .

والواقع أن عشق الأستاذ « نجيب محفوظ » لحي الجمالية - وآثاره الإسلامية المعمارية تمثل ، بلا أدنى شك ، أحد قسماته الأساسية - حقيقة مؤكدة . وهو - نفسه - يؤكد ذلك كثيرا . فهو ، على سبيل المثال ، يقول للأستاذ جمال الغيطاني في كتابه المذكور آنفا (ص ١٥ - ٢٠) : « . . . لم أنس الجمالية . حنيني إليها ظل قويا » . (و) « دائما كنت أشعر بالرغبة في العودة الى الجمالية » و « إن عدم ترددي على الجمالية يحزنني جدا » و « . . (إن) المكان الذي بقيت مشدودا إليه ، (و) أتطلع إليه دائما هو : منطقة الجمالية » ، وأيضا : « . . . عندما أمر في الجمالية تنثال عليّ الخيالات . (و) أغلب رواياتي كانت تدور في عقلي ، كخواطر حية ، أثناء جلوسي في هذه المنطقة ، أثناء تدخيني النرجيلة » .

ويبدو أن الأستاذ « نجيب محفوظ » ، نفسه ، لا يعرف ، على وجه الدقة ، سببا أو تفسيرا مقنعا لهذه الظاهرة التي تبدو في أعماله .

كنت قد سألته في حوار أجريته معه عام ١٩٨٠ تقريبا ، عن تفسيره لذلك ، فأجاب بقوله : « . . . لقد كانت هذه الجوامع من الآثار ، ولم تكن مجرد مكان للصلاة » وحين قلت له : برغم ذلك ، فإنه تبقى من هذه الجوامع أشكالها وتكويناتها الخارجية المهيبة التي تهز القلب ، قال : « . . . **نعم . . بلا شك ، وهذا موجود في الروايات . . ولو أنك رجعت إليها لوجدته** » .

ولما قلت له إن انطباعي مختلف ، عاد الأستاذ نجيب يؤكد لي : « . . **لا انه موجود** » . (الازدواج الثقافي و أزمة المعارضة المصرية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٨٢) .

إذن ، فإن الروائي الكبير يشعر شعورا يكاد يبلغ حد اليقين بأن هذه الأعمال المعمارية الأثرية قد انعكست في أعماله .

ولكن ، ماهو الشكل الذي اتخذه هذا الانعكاس ؟ . . هذا هو السؤال .

وجه آخر للتأثر

في الحديث نفسه المشار إليه في الفقرة السابقة ، يقدم الأستاذ « نجيب محفوظ » ماقد يكون إجابة جزئية عن هذا السؤال ، حين يقول : « . . . وهناك من يهاجمونني ، ويعيبون علي ما يصفونه بالإحكام الرياضي أو الهندسي في بناء أعمالي الفنية . . ويتهمونني بأنني مهندس . و الحقيقة أنني كنت قد بدأت أتأثر بهذا الانتقاد ، حتى قرأت كتابا عن الفن في مصر القديمة جاء فيه : « أن الفنان المصري لا يمكن أن يكون إلا مهندسا » . وعند ذلك ، ارتاحت نفسي . وقلت لنفسي : حتى ولو كان ذلك عيبا . . فلا بأس » (الكتاب السالف الذكر ، ص ٨٤) .

على أن الأستاذ « نجيب محفوظ » ليس واثقا تماما بأن قوله هذا يمثل ولو جانبا من الإجابة عن السؤال السالف الذكر .

ذلك أنني حين قلت له ، في الحديث الذي أجريته معه بمناسبة هذا الاستطلاع ، إنه يكاد يكون مستحيلا أن لا يتأثر تكوينه الفني بالأعمال المعمارية المبهرة ، من جوامع ومدارس وأضرحة أولياء وأسبلة وخوانق ، والتي ولد ونشأ في وسطها ، وسألته إذا كان يعتقد أن تأثره بهذه الأعمال المعمارية قد انعكس على البنيان المعماري المحكم لأعماله الروائية ، أجاب في غير حسم : « هذا أمر غير مستبعد على الاطلاق . فليس من المعقول ، فعلا ألاّ تؤثر فيَّ هذه الأبنية المعمارية الشامخة ، وقد قضيت طفولتي ، وجانبا كبيرا من صباي ، وأنا أراها يوميا وبانتظام . ولكن ذلك ، على الرغم من كل

شيء ، أمر لا أستطيع إبداء حكم بشأنه . وإنما يستطيع ذلك من ينظر الى أعمالي الروائية من الخارج . ذلك ، أن مهمتي تنحصر في الكتابة .. والكتابة فقط . وتأثير هذه الأعمال المعمارية على كتاباتي لا يراها إلا أحد من الخارج . فهو يستطيع أن يرى ـ بحياد ـ كتاباتي وتأثرها بتلك الأعمال . ذلك أنني ، أحيانا ، وعلى سبيل المثال ، وأنا أكتب ، يكون في ذهني أنماط و نماذج وأساليب افرنجية في الكتابة .. ولكنني لا أعي ماقد يتسرب من تحت هذه التيارات الفوقية » .

ومن ناحية أخرى ، فقد يثور ـ في هذا المجال ـ تساؤل عن سبب هذا الغياب الواضح للآثار المعمارية في حي الجمالية عن أعمال الأستاذ « نجيب محفوظ » الروائية يرجع الى استغراقه المعروف في الدراسات « الفرعونية » ، وحبه لها الى حد أنه يقول : إن قراءة التاريخ « الفرعوني » لاتزال ، حتى الآن ، تثير في نفسه أعمق المشاعر ، وتحركها الى الرغبة في الكتابة .

وهناك من الشواهد ما يدعم ذلك ، وإن كان لا يثبته ثبوتا يرتقي به الى درجة اليقين .

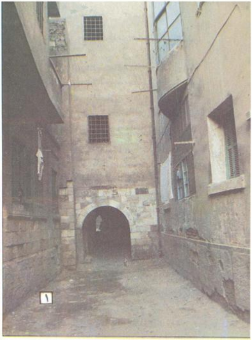
فلا شك أنه مما يثير الاستغراب أن يكون أول عمل يقدمه الأستاذ « نجيب محفوظ » للقارىء العربي هو ترجمة كتاب « جيمس بيكي » : « مصر القديمة » ، وكان لايزال ، آنذاك ، طالبا في المرحلة الثانوية . كما أنه مما يزيد الأمر غرابة أن يكون ذلك هو العمل الأول لشاب قضى جانبا كبيرا من صباه ـ وحتى بلغ الثالثة عشر من عمره ـ في حي يكاد أن يكون متحفا لأجمل الآثار المعمارية في العصر الوسيط من تاريخ مصر العربية وأكثرها شموخا .

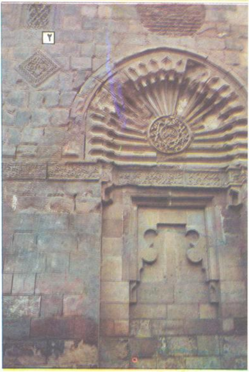
ومن ناحية أخرى ، فإن الأستاذ « نجيب محفوظ » يقدم تفسيرا مقنعا لاهتمامه الشديد بمصر « الفرعونية » ، حين يقول في حديثه الأخير معي : « .. لا تنس أنني نشأت في وسط ثورة وطنية .. هي ثورة عام ١٩١٩ . وقد كان اتجاه هذه الثورة ، في جانب منه ، فرعونيا . بل إنهم حين شرعوا في إنشاء بهو لمجلس النواب في البرلمان ، ثارت مناقشات حادة في الصحف ، آنذاك ، حول الطابع الذي يتعين أن يتسم به هذا البهو .. وهل يكون طابعا فرعونيا أم عربيا . وقد انتهى الأمر بالأخذ برأى المهندس « عثمان محرم » في الأخذ بالطابع الفرعونى .. وأطلق على هذا البهو اسم : البهو الفرعوني . كذلك تجد أن ضريح زعيم هذه الثورة ، « سعد زغلول » ، قد بني على الطراز الفرعوني . كما أن عثمان محرم ، أحد زعماء هذا الاتجاه ، شيد منزله الكائن في شارع الهرم على الطراز الفرعوني أيضا » .

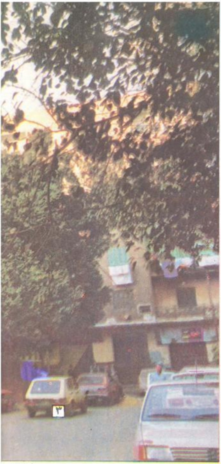
ويبقى ، أخيرا ، جانب آخر قد يقدم تفسيرا ، ولو جزئيا ، لهذا التناقض الواضح بين مولد الكاتب الكبير ونشأته في الجمالية وبين اتجاهه وتطلعه الى منف والجيزة .

فمن المعروف ، أن التاريخ لا يسير في دوائر مغلقة ، لا علاقة لمرحلة منها بتلك التي تسبقها أو تليها . وقد لاحظ عدد من علماء الآثار وجود تواصل واضح بين الأساليب المعمارية « الفرعونية » وبين الأساليب التي اتبعت في إنشاء العديد من الأبنية التي ترجع الى العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية ، وأن الكثير من النقوش والزخارف التي تزين واجهات هذه الأبنية وجدرانها ، الخارجية منها والداخلية ، يمكن ارجاعها الى أصول « فرعونية » وبطلمية وقبطية . بل ان معظم الأعمدة الموجودة بالعديد من المدارس والمساجد التي ترجع الى العصر الوسيط قد نقلت من مبانٍ ومعابد « فرعونية » وبطلمية . وعلى الرغم من ذلك ، فإن هذه الأعمدة التي تتناثر في أفنية وأروقة هذه المساجد والمدارس لا تمثل نشازا في نغمها المعماري بل تبدو ظاهرة الانسجام والتناسق مع باقي عناصرها المعمارية .

وحين أشرت الى ذلك للأستاذ « نجيب







١ ـ حارة درب قرمز ذات جدران حجرية عالية

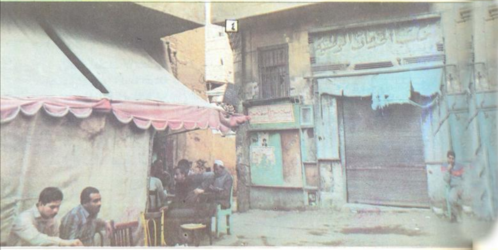
٢ ـ من الجمّالية إلى منف

٣ ـ جزء من ميدان «بيت القاضي» ، وعلى اليسار البيت الذي بني في موقع البيت الذي ولد فيه نجيب محفوظ ، والشجرة ما تزال هناك .

٤ ـ المقهى الذي أقيم مكان منزله القديم .



٤



محفوظ » وأطلعته على صورتين « فوتوغرافيتين » إحداهما لحفر بارز على واجهة الجامع الأقمر الفاطمي يمثل قرص الشمس بأشعته - أي الإله الفرعوني « رع » - والأخرى لمئذنة جامع الحاكم الفاطمي يكاد تصميم قاعدتها أن يتماثل مع تصميم هرم « ميدوم الفرعوني » ، قال معلقا : « .. نعم .. هذا صحيح .. والشبه يبدو واضحا تماما » ، ثم أضاف : « .. وهذا أمر غير مستغرب .. فقد كان معظم البنائين ، في ذلك الوقت ، من الأقباط . وقد كانوا يتبعون ، بلاشك ، طرق وأساليب البناء التي ورثوها عن الفراعنة . ولاشك ، أيضا ، أنهم كانوا يطبقونها سواء كانوا يقومون ببناء جامع أو غيره . فصورة الشمس التي أريتني إياها والمنقوشة على الجامع الأقمر ، كان من الأقرب أن تنقش على واجهة معبد مخصص لعبادة « رع » إله الشمس الفرعوني » .

حارة درب قرمز

هي حارة الروائي العربي الكبير .. في بيت يقع على رأسها ، تفتحت عيناه على الدنيا .. وفيها قضى طفولته وجزءا من صباه .. ومثلت ، لذلك ، جانبا مهما من تكوينه الفني والعاطفي .. بحيث يمكن القول إنها كانت النموذج الذي انعكس على حارات رواياته .. وما أكثرها : روايات وحارات معا . وهي ، أيضا التي يعنيها حين يقول (« نجيب محفوظ يتذكر » ، ص ٧٠) : « إن حنيني الى الحارة (هو) جزء من حنيني الى الأصالة » .

ويقتضي ذلك أن نتناولها بشيء من التفصيل . ولغزارة المادة المتعلقة بها ، كان لابد من تقسيمها الى أجزاء ثلاثة هي (١) القبو (٢) الحارة كتاريخ ومنازل وآثار (٣) الحارة : بشرا وسكانا وعائلات . كذلك رأيت أن يكون تناول هذه الأجزاء على عدة مستويات : مستوى منها ما يقوله الأستاذ محفوظ عنها ، ومستوى آخر لانعكاس خبرته بها على كتاباته ، والمستوى الثالث هو ما ورد عنها في كتب الخطط .

(١) قبو قرمز

في بداية رواية « الحرافيش » يرد اسم هذا القبو الذي يعثر فيه الشيخ المتوجه لأداء صلاة الفجر على طفل لقيط .

وحين أطلعت الأستاذ محفوظ على صورة القبو المنشورة على هذه الصفحات قال :

« ... نعم ... هذا هو قبو قرمز ... أصبح - للأسف - مكانا - تتجمع فيه مخلفات المنطقة ... لم يكن كذلك على أيامنا ... ولكن ما هذا المسجد الذي بجانبه ؟ .. تقول إنه مدرسة من ؟ ... مثقال الأنوكي ؟ ... أنا لا أعرف ذلك .. فأنا لا أذكر هذا الجامع ... نعم ... ربما كان مغلقا ، آنذاك ، لتهدمه .. على أنني أذكر ، جيدا ، هذا الدرج (يعني : درج الجامع) .. كان يصبح على يمينك عند اتجاهك من بيتنا الى بين القصرين .. تمام .. أنا أذكر ذلك جيدا » .

يقول « علي باشا مبارك » ، وهو يصف في النصف الثاني من القرن الماضي ، هذا الجامع الذي أطلق عليه اسم « جامع درب قرمز » إنه « ... متعطل ، الآن ، ومتخرب ، وصورته باقية » . (ج ٤ ص ٢٣١) .

أما « محمد بك رمزي » فيقول عن هذا الجامع ، الذي يطلق عليه اسم « المدرسة السابقية » و « جامع مثقال الأنوكي » ، وذلك في هوامشه على كتاب « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى ، والتي كتبها في الثلاثينيات من هذا القرن : « ... وبمعاينتها (أي : المدرسة السابقية) تبين لي أنها أنشئت سنة ٧٦٣هـ ، كما هو ثابت بالنقش في لوح بأعلى باب المدرسة ، التي تسمى ، اليوم ، جامع مثقال . ويقال له (أيضا) : جامع درب قرمز ، لوقوعه في الدرب المذكور . وهو : جامع معلق ، يصعد إليه بعشر

درجات ، ويمر تحته طريق (وهو : القبو) توصل بين درب قرمز وميدان بيت القاضى . وعلى جانبي تلك الطريق (أي : القبو) قاعات بأسفل المسجد . ومع أن لجنة حفظ الآثار العربية عملت فيه اصلاحات في سنة ١٣٣٠هـ (أي : قبل ميلاد الأستاذ محفوظ بعام واحد تقريبا) فإنه لايزال خربا ومعطلا . وعتبة بابه السفلية عبارة عن قطعة من الجرانيت الأسود ، عليها كتابات « هيروغليفية » ظاهرة (ج ١١ ص ١٣٥) . أما المؤرخ المصرى الكبير « جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي » الذي كتب سفره التاريخي « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » في القرن التاسع الهجرى ، فيقول عن منشيء هذا الجامع : « مثقال بن عبد الله الحبشى الأنوكي » الذي توفى عام ٧٧٦هـ (ج ١١ ص ١٣٥) :

« كان مقدم المماليك السلطانية ، وأحد أمراء الطبلخاناه . وكان أصله من خدام سيدي أنوك ، ابن الملك الناصر محمد (بن قلاوون) . وترقى الى أن ولى تقدمة المماليك السلطانية (في عهد السلطان الأشرف شعبان بن قلاوون) . وهو الذي ضربه (الأمير الأتابك) يلبغا العمرى ٦٠٠ عصاة ، ونفاه الى مدينة أسوان (« وذلك لظهور كذبه له ») . فلما قتل يلبغا ، أعاده الملك الأشرف هذا الى رتبته ووظيفته (وهي) تقدمة المماليك السلطانية .... وأظن مثقالا هذا هو : صاحب المدرسة السابقية داخل بين القصرين من القاهرة . والله أعلم » .

(٢) درب قرمز :

تاريخا . . ومنازل . . وآثارا

يقول « علي مبارك » في خططه (ج ٢ ص ٩٠) وهو يصف شارع « النحاسين » الذى يعرف ، كما يقول « بخط بين القصرين » ، وهو ، الآن جزء من شارع المعز لدين الله :

« . . . وأما جهة اليسار ، فأولها : درب قرمز . وهو : كبير ، غير نافذ (في زمنه) . وبأوله : زاوية جديدة لم يكمل بناؤ ها (وقد كمل الآن) ثم التكية المعروفة بتكية درب قرمز ، وبداخلها أشجار ومبان جديدة . وبجوارها : ضريح الشيخ سنان » .

في قصته « أم أحمد » (« صباح الورد » ، ص ٧) كتب الأستاذ « نجيب محفوظ » يصف حارة درب قرمز :

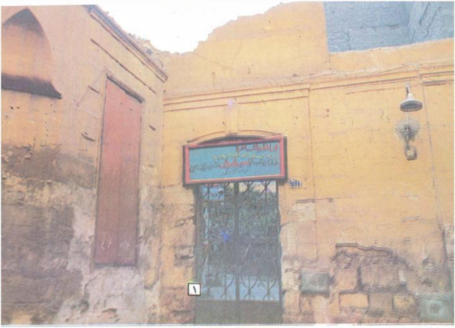
« . . . وحارة قرمز ذات جدران حجرية عالية . . تغلق أبوابها على أسرارها ، ولا تبوح بسر إلا لمن ينظر في داخلها » .

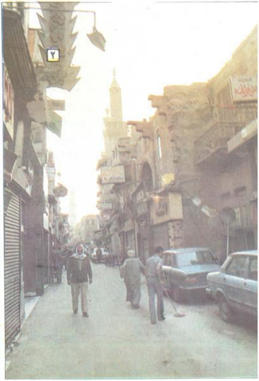
« هناك يرى : ربعا آهلا بالفقراء والمتسولين ، يجمعهم الفناء للعمل المنزلي وقضاء الحاجات .. أو يرى جنة تغنى بالحديقة والسلاملك والحراملك » .

أما في حديثه الأخير معي ، فقد وصف الحارة بقوله : « . . . كانت الحارة ، كلها ، مرصوفة بالبلاط الحجري . . وكانت تكنس وترش ، ويغسل بلاطها مرتين في اليوم . . وقد كانت عربات الرش والزبالة تقف ، في أوقات الراحة ، تحت بيتنا . . وكان عمالها يرتدون ملابس نظيفة صفراء اللون . . كانت الحارة نظيفة الى أقصى حد . . بل المنطقة كلها - بيت القاضى والحسين وحارة الكبابجي - نظيفة جدا . . لا ينقطع الكنس والرش بالمياه بها . . ومرتين يوميا . . في الصباح مرة . . وبعد الظهر مرة أخرى . . قبل المغرب بقليل » . وأيضا :

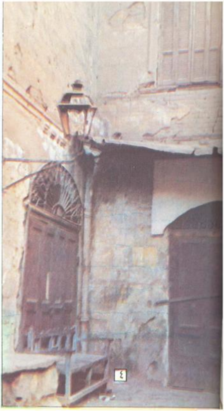
« . . في الواقع ، كانت الحارة تضم صنفين من المباني : إما ربع يسكنه الفقراء من الناس ، وإما بيوت مستقلة - يسمونها : الدوار - يسكنها الميسورون من التجار والموظفين والأعيان » .

وأيضا : « . . . بعد بيتنا مباشرة كان يقع : بيت السكرى ، وكان سطح هذا البيت متصلا بسطح بيتنا (راجع رواية « بين القصرين » حيث كان سطح بيت أحمد عبد الجواد متصلا بسطح


١


٢


٣



بيت جارته) . . . وكان أمام بيت السكري يوجد : ربع . . ولكنني لا أستطيع رؤيته في الصورة . . لابد أنه قد هدم . . وكان يسكن هذا الربع فقراء الناس : جندي شرطة . . عامل في شركة النور . . وأذكر أنه كان يقطن في بدروم الربع : امرأة وزوجها . . كانا متسولين . وكان الزوج يخرج من الربع في الصباح كي يتسول في المنطقة . . أما الزوجة ، فقد كانت تجلس أمام بوابة الربع ، وأمامها طبلية تضع عليها بعض أنواع الحلويات التي يقبل عليها الأطفال مثل : براغيث الست والعسلية وثمر الدوم . . . الخ » . ويضيف الأستاذ محفوظ :

« . . وبيوت الأعيان التي أذكرها هي : بيت السكري ، وبيت البنان (وقد ورد الاسم كما هو في « أم أحمد ») وبيت السيسي وبيت المهيلمي وبيت الخربوطلي - وهو بيت كان يقع في مواجهتك مباشرة عند خروجك من القبو . . وكان يشبه القلعة ، وهو الوصف نفسه الذي ورد في « أم أحمد » عن « آل سعادة » حيث يقول الكاتب : « . . . وآل سعادة . . . تقوم دارهم كالقلعة فيما وراء القبو الأثري العتيق - ص ١٣ ») .

وأيضا : « . . . كانت بيوت درب قرمز كلها ملكا للأعيان . . وذلك فيما عدا بيتا صغيرا كانت تسكن به سيدة كانت من رائدات التعليم في مصر . . وكان اسمها : السيدة أفكار . . على ما أذكر . . وربما أكون مخطئا فيما يتعلق بالاسم . . وكان بيتها يقع بعد بيت السكري مباشرة . . وكان بيتا صغيرا . . وأذكر أن هذه السيدة كانت تخرج لكي تنهرنا إذا أحدثنا ، نحن الأطفال ، ضجيجا أكثر من المعتاد أثناء لعبنا . . ولكن ذلك لم يكن يحدث كثيرا . . فقد كنا ، في معظم الأحيان ، نلعب في ميدان بيت القاضي الفسيح ، ونفضله على اللعب في الحارة الضيقة . . وكنت ألعب ، معظم الوقت ، مع أولاد السكري » .

١ ـ بيت السكري ، كان سطحه يلاصق سطح بيت الروائي الكبير ، جزء تهدم ، والباقي مدرسة للتعليم الأساسي .

٢ ـ شارع الأشرفية : جزء من شارع المعز لدين الله ، وترى على مسافة منه مئذنتا جامعي «المطهر» والسلطان الأشرف «برسباي» .

٣ ـ البيت الذي أقيم في موقع البيت الذي شهد ميلاد الكاتب الكبير . لم تعد أفرع الشجرة تصل إلى نوافذ البيت .

٤ ـ بوابة احدى الوكالات والمخازن التجاريه داخل «زقاق المدق» . .

أما « علي باشا مبارك » ، فيقول عن بيوت درب قرمز في خططه (ج ٢ ص ٩٠) : « . . . وبهذا الدرب عدة دور كبيرة منها : دار ملك ورثة السيد أحمد سعودي وأخيه السيد محمد سعودي ، ودار السيد أحمد أفندي الخربوطلي ، ابن أحمد أفندي الخربوطلي ، عمدة خان الخليلي كان (أي : سابقا) » . ويضيف في مكان آخر (ج ٢ ص ١٠٤) :

« . . . ومن الأماكن العظيمة التي من جملة قصر بشتاك : الدار التي كان يسكنها الأخوان التاجران : السيد محمد سعودي والسيد أحمد سعودي ، وهي بحارة درب قرمز ، بجوار دار الدمرداش ، إلا أنها لا تشرف على الشارع (أي : شارع النحاسين) » .

على الرغم من أن « تكية » درب قرمز تلعب دورا بارزا في « حرافيش » الروائي العربي الكبير ، وتمثل رمزا فنيا كثيف الاشعاع ، إلا أن « علي باشا مبارك » يذكرها في خططه (ج ٦ ص ١٦٠) في جملة واحدة ، بل ويخطىء ، أيضا ، في تحديد موقعها حين يقول : « . . هي جامع درب قرمز . وقد ذكرناه في الجوامع فارجع إليه » . في حين أنه يقول في جزء آخر من خططه (ج ٢ ص ٩٠) : « . . تكية درب قرمز ، وبجوارها : ضريح الشيخ سنان » . . والضريح المذكور يبعد عن الجامع بما يزيد عن مائة متر .

ولكن الأستاذ نجيب يحدد موقع « التكية » بشكل أكثر دقة . فقد قال حين أطلعته على صورة « الخرابة » التي صارت إليها هذه التكية : « . . هل هذه الخرابة هي كل ما بقى من « التكية » ؟ . . . يا سلام . . لقد تهدمت إذن . . ألم يبق من أشجارها الكثيفة سوى هذه الفروع الجافة ؟؟ . . ما أذكره عنها هو : أنك كنت تجدها على يمينك ، عندما تدخل الدرب من جهة بين القصرين . . في منتصف المسافة تقريبا . . ولم نكن نرى من دراويشها سوى واحد أو اثنين . . وكان معظم دراويشها ، في أغلب الظن ، من الأتراك . . وكانوا يتبعون الطريقة البكتاشية » . .

درب قرمز : بشرا وسكانا وعائلات

كتب الأستاذ نجيب في « أم أحمد » يقول : « . . . ومن عجب أن الحارة كانت أسرة كبيرة واحدة ، لا تعترف بالفوارق الطبقية . أجل ، لم يكن التزاور ممكنا بين الربع والسراي ، ولكن السرايات كانت تفتح أبوابها لأهل الربع في رمضان والأعياد ، يجلسون في الحديقة ، ويأخذون حظوظهم من اللحوم والكعك ، ويستمعون لتلاوة القرآن من كبار القارئين » (ص ٩) .

ولكنه يعود ليقول في القصة نفسها (ص ١١) : « . . . انتقل الأعيان (من درب قرمز) الى العباسية الشرقية ، وشيدوا قلاعهم العملاقة ، كما انتقلت الطبقة الوسطى « المستورون » الى العباسية الغربية ، فسكن البعض بيوتا صغيرة ، واشترى البعض ما يناسبه . ولم تتواصل الرابطة القديمة بين الطرفين فسرعان ما تعرضت للوهن والتمزق . لأمر ما ، شغل كل فريق ببيئته الجديدة ، وكأن شارع العباسية الذي يفصل بين الجانبين أصبح سدًا لا يعبر إلا في الملمات ، وقد لا يعبر أبدا . عدنا غرباء ، أو كالغرباء . بل صرنا ، مع الزمن ، أعداء أو شبه أعداء » .

لنأخذ ، نموذجا للعائلات التي كانت تسكن « درب قرمز » في أوائل القرن الحالي ، عائلة « الخربوطلي » . وقد رأينا ، في السطور السابقة ، أن « علي باشا مبارك » قد وصف « أحمد أفندي الخربوطلي » بأنه « عمدة » خان الخليلي ، وهو وصف غريب لأن وظيفة « العمدة » كانت مقصورة على الريف ، ولم يرد ، في أي من المراجع التاريخية التي أعرفها ، ذكر لأحد شغل وظيفة « عمدة » في القاهرة . على أن الأستاذ نجيب فسر ذلك بأن علي مبارك

ربما كان يعنى أن « أحمد أفندى » المذكور كان رئيسا للحي أو « عين أعيانه » .

ولنعد ، الآن ، الى الحاضر ، فنرى الأستاذ نجيب يقول في الحديث الذي أجريته معه عن هذه العائلة : « .... أما بيت الخربوطلي ، فقد شغل ابن بنتهم ، بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ، منصب مدير مكتب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر .. ثم أصبح ، بعد ذلك ، وزيرا للسياحة ... نعم .. بالضبط كما تقول ، هو : السيد/ أمين شاكر .. وقد شغل أيضا منصب السفير .. ربما في السويد .. لا أذكر .. ولكنني أذكر أنه كان وسيما جدا ! .. فوالدته كانت إحدى بنات الخربوطلي .. الصغرى فيما أعتقد .. وكان للخربوطلي ثلاث بنات من أجمل ما رأيت في حياتي .. وكانوا أتراكا .. وكانوا يعيشون في سعة من أوقاف لهم .. وعندما انتقلت أسرتي الى العباسية .. انتقلت أسرة الخربوطلي معنا .. وسكنوا منزلا في منطقة بين الجنايين التي كانت تجاورنا .. وكثيرا ما شاهدت السيد/ أمين شاكر ، وهو طفل صغير ، يلعب مع أصحابه في الشارع .. على أنني لازلت أذكر الشقيقات الثلاث الجميلات بنات الخربوطلي .. فقد كانت الحارة ، كلها ، ترقبهن وهن خارجات لقضاء بعض الحاجات أو للنزهة . أو وهن يركبن « الكارتة » ذات الخيول والتي كان استخدامها شائعا بين الميسورين من الناس ، قبل قدوم عصر السيارات » .

ثم لنر ما كتبه الأستاذ نجيب في قصته « أم أحمد » (ص ١٣ - ١٧) عن « آل سعادة » حتى نتبين مدى التشابه الشديد بين ما كتبه عنهم وبين ما قاله لي عن عائلة الخربوطلي : « .... وآل سعادة ... تقوم دارهم كالقلعة فيما وراء القبو الأثرى العتيق ... ورؤيتي لآل سعادة تتم ، عادة ، وأنا في الحارة عندما يخرجون من جوف القبو في طريقهم الى بيت القاضى ، تنطق وجوههم المشعة بأصولهم الشركسية ... وهؤلاء بنات سعادة الثلاث ، بين الطفولة والصبا ، جميلات فاتنات ساحرات ، يسرن صفا الى الميدان لشراء الشيكولاتة « والدندورمة » .. أما الصغرى ، وهى أحبهن الى قلبي ، فقد عشقت موظفا بسيطا وأصرت على الزواج منه .... وقد أقامت معه في بين الجنايين ، لا يفصلها عن بيتنا إلا خطوات .... وقدر لى أن أرى « بكريّها » الجميل وهو يلعب في الشارع أو في الحدائق .... وطبعا لم أتصور المستقبل المثير الذي كان ينتظره بمنحنى التاريخ . ولما قامت ثورة يوليو .... علمت أن الصبي الصغير ، ابن البنت الجميلة الصغرى ، من الضباط الأحرار ، بل والمقربين » .

***

« .... وقد عبرت الحارة من أولها الى آخرها ، وانغمست في العطر القديم » .

و :

« ... تنبثق من القلب أصوات وألوان ونبضات قلب ، فأقول لها : لقد جمعتنا هذه الحارة ذات يوم ، ثم فرقت بيننا الأيام » (« صباح الورد » ص ٢٢) .

و :

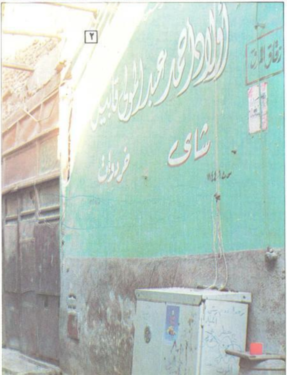
هل يوجد أفضل مما كتبه الروائي الكبير عن حارته « درب قرمز » كي نختم به حديثنا عنها ؟

قسم شرطة الجمالية

يقول الأستاذ « نجيب محفوظ » تعليقا على هذه الصورة :

« ... نعم .. هذا هو قسم شرطة الجمالية .. لايزال مبنى القسم كما كان تماما .. وكانت بجانبه نقطة للمطافيء .. تقول إنها لاتزال موجودة ؟ .. عظيم .. وكان بينهما - أو ربما فوقهما - بيت مخصص لسكنى مأمور القسم .. وفي طفولتي تصادقت مع ابن أحد مأموري القسم .. كان اسمه : « همام » ..





١ ـ قسم شرطة الجمّالية
زقاق المدق

٢ ـ مدخل «زقاق المدق» في المكان الذي كان يقع فيه باب «البيمارستان» الفاطمي ، ويظهر باب مقهى زقاق المدق ، المغلق

وكنا نلعب سويا في ميدان بيت القاضي ـ الذي يقع فيه بيتنا .. وقد قال لي أحد أصدقائنا المشتركين انه قابله منذ سبع أو ثمان سنوات .. وكان قد أحيل الى المعاش بعد أن عمل مستشارا فترة طويلة ... »

« ... وهناك واقعة تتعلق بالقسم ، حدثت عام ١٩١٩ ، ولكن تفاصيلها لاتزال عالقة بذهني .. وكأنها حدثت البارحة فقط ..

« .. كان ذلك في أوج ثورة ١٩١٩ .. ولم تكن أعمال الشعب تنقطع سواء في منطقتنا .. أو ـ حسب ما كنت أسمع ـ في مناطق المدينة الأخرى أيضا » .. ... كان الوقت نهارا .. وكنت أجلس في شرفة بيتنا ـ ذات المشربية ـ التي تطل على ميدان بيت القاضي .. ولمحت مجموعة من الرجال تخرج من حارة الكبابجي .. ثم رأيت مجموعة أخرى تخرج من درب قرمز ... ثم مجموعة ثالثة تخرج من حارة الحسيني التي تقع على يمين القسم .. وكانوا ، جميعهم ، من أولاد البلد .. ويبدون كالفتوات .. وقد كانوا كذلك فعلا .. ..

« ... وفي لحظة واحدة .. وتوقيت واحد ، وتناسق شديد .. قامت هذه الجماعات الثلاث ، فجأة ، باقتحام القسم ... وسمعت أصواتا وضجيجا وزعيقا .. ولم يستغرق الأمر وقتا طويلا .. فسرعان ما خرجوا ومعهم كامل أسلحة القسم .. ولا أظن أنهم لقوا مقاومة تذكر .. ربما لأن جميع جنود وضباط القسم كانوا من المصريين .. بينما كان الانجليز يشغلون وظائف التفتيش فقط .. كما أن عملية الاقتحام تمت في سرعة مذهلة .. بحيث أظن أن الأمر، برمته ، لم يستغرق أكثر من نصف ساعة .. بعدها ، كان كل شيء قد انتهى ... والواقع أن الانجليز لم يكونوا يثقون كثيرا في ولاء جنود وضباط الشرطة المصريين .. الى حد أنهم نزعوا من الضباط السيوف التي كانوا يتسلحون بها .. » .. « .. وعقب هذه الواقعة .. احتلت القوات الانجليزية المنطقة بأكملها .. وانتشرت معسكرات صغيرة للجنود الانجليز في كافة أنحاء منطقة بين القصرين (راجع رواية بين القصرين ، حيث ورد ذكر هذه المعسكرات) » .

ميدان بيت القاضي

قال نجيب محفوظ :

« ... هل هذه صورة ميدان بيت القاضي ؟؟ .. غير معقول . »

« .. كانت هناك أشجار عديدة في ميدان بيت القاضي .. لم يبق منها سوى شجرتين فقط ؟ .. خسارة .. ولكن ، ألا تزال الشجرة التي كانت أمام بيتنا قائمة ؟ .. نعم هذه هي .. ولكنها تبدو أقل حجما مما كانت .. فقد كانت فروعها تصل الى حافة مشربية شرفة بيتنا .. بحيث كان يمكنني ، وأنا أقف في الشرفة ، أن أمسك بفروعها » .

« .. كانت هناك .. تحت هذه الشجرة ، وأمام قسم الشرطة : دورة مياه عمومية .. ألا تزال موجودة ؟ .. لقد تابعت عملية بنائها ، وأنا طفل صغير ، خطوة بخطوة .. أنا سعيد لأنها لاتزال قائمة .. وقد كان يوجد الكثير مثلها في القاهرة .. ولا أدري لماذا ، وكيف اختفت دورات المياه العامة هذه .. فأنا أذكر أنه كان ، هنا ، في ميدان التحرير ، واحدة .. ولكنها أزيلت .. وكان هناك ، على مقربة منها ، واحدة ثانية في ميدان الفلكي بباب اللوق .. وقد اختفت هي الأخرى .. كما أذكر أنه كانت هناك أيضا واحدة في شارع الأزهر .. تقول إنها لاتزال هناك ؟ .. عظيم .. » .

« ... ما أذكره ، و (لازال) يهزني حتى الآن .. هو : مظاهرات النساء (أيام ثورة ١٩١٩) في ميدان بيت القاضي وشوارع الجمالية » ..

« .. كتب التاريخ تحدثك عن مظاهرات المحجبات من سيدات المجتمع .. وخروج

طالبات مدرسة السنية (الثانوية) . . ولكنها لا تذكر (شيئا عن) مظاهرات نساء الأزقة والحواري . . ولقد رأيتهن بعيني . . وكان شيئا لا مثيل له » . .

« . . وفي (الصور الفوتوغرافية) للمظاهرات : ترى النساء المحجبات (من) زوجات الباشوات . . ويقولون لك : هذه هي المرأة المصرية . . مرأة مصرية مين ؟ . . أنا شفت آلاف النساء في الجمالية فوق عربات « الكارو » . . نساء الحوارى (وهن يتظاهرن ويهتفن مطالبات بالاستقلال) » .

(« نجيب محفوظ يتذكر » ، ص ٧٣) .

زقاق المدق

عبثا تحاول أن تجد تشابها بين « زقاق المدق » كما صوره نجيب محفوظ في روايته الشهيرة ، وبين الزقاق كما هو في الواقع .

يقول « علي باشا مبارك » في خططه (ج ٢ ص ٢٤٥) :

« . . أما جهة اليسار (من شارع الصنادقية) فبأوله : عطفة المدق » .

« وكان في موضع هذه العطفة ، وماجاورها ، درب يعرف بـ : درب خرابة صالح ، وهو من الدروب القديمة » .

« ذكره المقريزي فقال : هذا الدرب عن يسرة من سلك من أول الخراطين الى الجامع الأزهر . كان موضعه في القديم : مارستانا (أي : مستشفى) ، ثم صار مساكن ، وعرف بـ : خرابة صالح . . . . ثم قال : وفيه الآن دار الأمير طينال ، وباب سوق الصنادقيين » .

وعن هذا « المارستان » - أو : « البيمارستان » - الذى أشار إليه المقريزي ، كتب « محمد بك رمزى » في هوامشه على « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى (ج ٤ ص ١٠١) يقول :

« . . . وأما في عهد الفاطميين ، فكان موضع البيمارستان : بالقشاشين - التي سميت ، فيما بعد بـ : الخراطين - وهي التى تعرف ، اليوم بـ : شارع الصنادقية . »

« وموضعه (أي البيمارستان) اليوم : مجموعة المباني الواقعة تجاه جامع الأشرف برسباى ، بشارع الأشرفية ، حيث كان بابه يقع : على يسار الداخل بشارع الصنادقية » .

ويعنى هذا : أن مدخل « زقاق المدق » يقع حيث كان مدخل « البيمارستان » المشار إليه .

وعلى نفس الجانب من شارع الصنادقية - الذي يتفرع منه زقاق المدق - وعلى بعد نحو ١٥٠ مترا تقريبا ، تقع دار المؤرخ المصرى الشهير « عبد الرحمن الجبرتى » صاحب كتاب « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » .

وقد ذكر « علي باشا مبارك » هذه الدار في خططه (ج ٢ ص ٢٤٥) فقال :

« . . . وبجوار وكالة اينال : بيت العلامة الجبرتي ، صاحب تاريخ وقائع مصر (كذا) وقد سكن به ، بعد موته : الشيخ محمد الرشيدي الفلكي ، الذي نفاه الخديوي اسماعيل . والآن : هو سكن رجل من تجار العجم » .

وقد ذكر الجبرتي نفسه ، في كتابه المذكور ، إنشاء هذه الدار وهو يترجم للشيخ مصطفى بن أحمد المعروف بـ : الصاوي ، فقال :

« . . . ولما عمر الفقير ، جامع هذه الشوارد ، داره التي بالصنادقية ، بالقرب من (الجامع) الأزهر سنة ١١٩١هـ ، عمل المترجم (له) أبياتا وتاريخا رقمت (أي نقشت) بطراز مجلس العقد الداخل ، وهي :

خليلى هذا الروض فاحت زهوره
ولاح على الأكوان حقا ظهوره
ودام به سعد السعود مؤرخا
حمى العز بالمولى الجبرتي نوره .

ويبدو أنه لم يبق من هذه الدار سوى بوابتها التي تنشر صورتها مع هذه الصفحات .

ولما أطلعت الأستاذ « نجيب محفوظ » على صور « زقاق المدق » قال معلقا : « . . . هل

هذا هو زقاق المدق ؟ . . إنـه يختلف ، بعض الشيء ، في الصورة عنه في الواقع » .

« . . . نعم . . هـذا هو المقهى الـذى كنـا نتردد عليه . . . وبابه مغلق أيضا ؟ . . لقد كان مغلقا ، أيضا ، عندما مررت بالزقاق منذ عدة سنوات » . . « . . كنا نتـردد على هـذا المقهى حوالى عام ١٩٣٠ . . وأظن أن صاحب المقهى قد توفي منذ زمن بعيد » .

« . . . مـا أذكره عن الـزقـاق . . هـو المقهى . . ودرج كـان يؤدي ـ كما أظن ـ الى مخبز . . فلم نكن نرتقى هـذا الدرج أبدا . . ولكننا كنا نشاهد عمال المخبز ، وهم يروحون ويجيئـون ، حاملين أقفـاص الخبز . . كما كان هناك بيت كان مدخله يقع بجوار المقهى . . . وأظن أن صـاحب المقهى ـ وكـان اسمـه عـلى يوسف ـ كان يقطن به » . (ربما كان المخبز هو نقطة التشابه الوحيدة بين الزقاق كما هو في الواقع وكما صوره الروائي في روايته) .

« . . هذا هو كل ما أذكره عن زقاق المدق . . ولكنني واثق أنه لم تكن توجد به وكالات تجارية كما هو الحال الآن (هل كان تنبؤا بالمستقبل أن يذكر الأستاذ نجيب ، في روايته ، وجود وكالة تجارية به ؟) .

ويذكر الأستاذ محفوظ سبب تردده على هـذا المقهى في كتاب الأستاذ جمال الغيطانى (« نجيب محفوظ يتذكر » ، ص ١٨) قائلا :

« . . . كـان لنا صـديق من شلة العبـاسيـة توقف عن (إتمام) دراسته ، وانتقل للعمل مع والده في دكان مـانيفاتـورة بالغـورية . وكنـا في الإجازة ـ (أي : في العـطلة الصيفية وكانت أكثر من أربعة شهور ، (ف) كان يقـول لنا : لابد أن تجيئوني يوميا » .

« كنـا ، عنـدئـذ ، نقـطع الـطريق (من العباسية) سيرا على الأقدام ، بدءا من ميدان فـاروق (ميـدان الجيش حـاليـا) ، ثم شـارع الحسينية ، ثم بوابة الفتوح ، فشارع (المعز لدين الله الفاطمى) » .

« كان لابد أن نمشي حتى الغورية لأستمتـع بالمنطقة » .

« وعندما نصل إليه ، (كنا) نبقى معه حتى يغلق الدكان ، ثم نمضى الى مكانين كان يفضل الجلوس فيهـما : مقهى زقـاق المـدق ومقهى الفيشاوي » .

« . . . وقد عرفت زقاق المدق بفضل صاحبنا هذا » .

ماذا تعرف عن توفيق الحكيم ؟



- أديب مصري ، ولد بالاسكندرية عام ١٨٩٨ ميلادية .
- درس الحقوق وتابع دراسته في باريس .
- بعد عودته تدرج في الوظائف إلى أن عين رئيسا للنيابة ، ومديرا لدار الكتب المصرية .

خلال ذلك توفر على التأليف الأدبي الذي شمل الرواية الطويلة ، والمسرحية . منها : « أهل الكهف » و « شهر زاد » و « رصاصة في القلب » و « السلطان الحائر » و « عودة الروح » و « يوميات نائب في الأرياف » .

- نال جائزة الدولة التقديرية في الأدب عام ١٩٦١ .

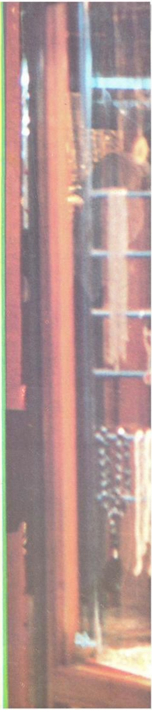
رحلة الذهب بين الهند والكويت

استطلاع : محمود عبدالوهاب

تصوير : طالب الحسيني









« كانت تحلم بسوار من الذهب الهندي ،
وقرط هندي ،
وعندما تزوجت اشترى لها زوجها ذهبا هنديا . »
أو نقرأ في كتب التاريخ
« وجاءت القوافل محملة بالهدايا الحرير . .
والذهب الهندي . . »
وظل التساؤل معلقاً في خيالي :
هل هناك ذهب هندي ؟
وحملت أوراقي ،
وحمل زميلي آلات التصوير ،
وسافرنا إلى الهند ،
وراء السوار والقرط والقلادة ،
لنعرف قصة الذهب الهندي .

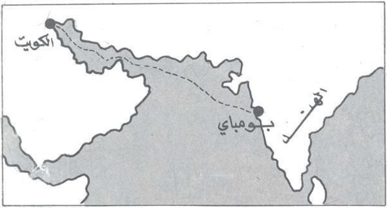
الذهب أبو المعادن وسيدها ، وأكثر السلع في التاريخ حساسية ، يرتفع سعر النفط فيقفز سعر الذهب ، ترتفع الفائدة على « الدولار » ويتغير سعره ، فيتغير سعر الذهب ، يجتاح الجفاف افريقيا فيتأثر سعر الذهب ، تنطلق إشاعة عن موت رئيس ، محاولة اغتيال ، اختطاف طائرة ، توقيع معاهدة ، توتر في العلاقات ، ظهور « موضة » جديدة ، انخفاض في محصول ، موجة برد وصقيع . . كل هذه العوامل تؤثر في سعر الذهب ، فالسياسة والاقتصاد والنفط والسيول والعواصف الطبيعية والعلاقات الدولية كلها عوامل تؤثر في سعره .

الأصل في أوراق النقود أنها كانت أوراق ضمان بتحويل قيمتها إلى ذهب ، وعندما توالى إلغاء قاعدة تحويلها إلى ذهب تعاظمت حالة فقدان ثقة الناس بها ، فلم تعد تساوي غير قيمتها الورقية ، ولذلك فعند كل أزمة ، أو بوادر قلق ، أو خوف من شيء ، يهرع الناس إلى تحويل ثرواتهم ومدخراتهم إلى المعدن الباقى عبر التاريخ ، والذى يظل محتفظا بقيمته ، مهما ارتفعت هنا أو انخفضت هناك .

منذ زمن طويل والناس يتخذون الذهب حلية وفي الوقت نفسه ثروة محفوظة ، وانطلق الصناع في التفنن لتجميل الذهب وصياغته ، واندفع الناس لشراء كل ماهو جديد ومبتكر وجميل ، وأصبح للذهب سوق وعالم وقواعد ونظم وأمن .

مفلسون في السوق :

داخل محلات سوق الذهب بالكويت بدأنا التجوال أمام واجهة أحد المحلات نسأل سيدة فتقول لنا : « لكن الهندي هو الأجمل » ، في محل آخر يقول لنا البائع : « الهندى أكثر ارتفاعا فى السعر » وفى محل ثالث عائلتان تشتريان « شبكة العرس » ، وبعد أن تختار أم العروس



● خط الاتصال بين الكويت والهند كان مزدهرا طوال فترات تاريخية طويلة ، ويشهد الآن رحلة الذهب بين السوقين الكبيرين .

ويوافق العريس تستبدل العروس كل الأشياء الرفيعة بسوارين هنديين . كثرة تجوالنا تثير الريبة ، فلا نحن نشتري ، ولاتصحبنا سيدات للرؤية . فقط نسأل عن أسعار الذهب الهندى والفرق بينه وبين غيره من الذهب ، ونشاهد المشغولات التى تسمى بالهندي ، وننصرف ، وعلى الرغم من كل الابتسامات التى نقابل بها ، وهزة الرأس التى نودع بها ، فإن منظرنا لم يكن مريحا .

المشغولات الهندية تتميز عن غيرها بالدقة الفائقة ، وكثرة التفاصيل في المساحة الصغيرة : منمنمات كثيرة ، استخدام « المينا » الملونة ، التفنن في ابتكار الأشكال . أخيرا دلنا البائعون على إحدى كبرى شركات الذهب في الكويت التى تغمر السوق بالمشغولات الهندية .

فذهبنا إليها نجمع التفاصيل .

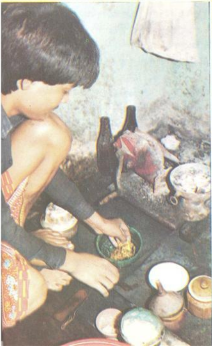
من الذهب القديم :

بادرت محدثى فهد الرشيد ، مسئول عمليات تشغيل الذهب في كبرى الشركات الكويتية ، قائلا : ما المقصود بالذهب الهندى ؟ وهل تستوردون الذهب من الهند ؟ فقال لي فهد : المقصود بتعبير « الذهب الهندى » هو الذهب المشغول في الهند ، أو على النمط الهندي المتميز .

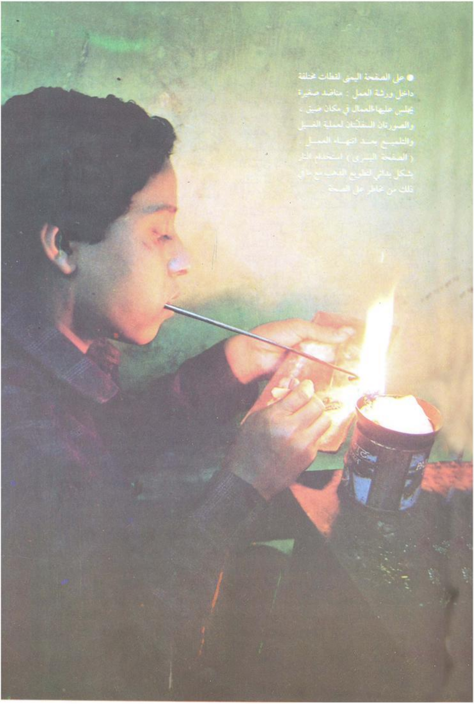
ويروى لنا محدثي كيف يجمعون الذهب فيقول : لنا في السوق عدة محلات ، عبارة عن مراكز تجميع للذهب ، نشترى من خلالها الذهب ، أيا كان حجمه : دبلة ، قرط ، سوار ، عقد ، وأيا كان دافع البيع : كسر أصاب القطعة ، رغبة صاحبها في التبديل ، حاجته للمال . . نجمع هذا الذهب ونتوجه به إلى إدارة المصوغات لتعطينا شهادة بوزنه ونقاوته ، ثم إلى الجمارك لاستخراج إذن تصدير مؤقت للتصنيع ، ثم يغلف الذهب ويختم ، ثم نسلمه لشركة طيران تتولى الشحن ، وفي ظل إجراءات أمنية يسلم في الغالب إلى قائد الطائرة . يسافر الذهب من الكويت إلى ألمانيا أو سويسرا ، حيث يعاد سبكه وتحويله إلى سبائك متفاوتة الأوزان ، ترسل بعد ذلك ، وسط إجراءات الأمن نفسها إلى الهند .

عند الطائرة ينتظر مندوب من المكتب









● على الصفحة اليمنى لقطات مختلفة داخل ورشة العمل : مناضد صغيرة يجلس عليها العمال في مكان ضيق ، والصورتان السفليتان لعملية الغسيل والتلميع بعد انتهاء العمل . (الصفحة اليسرى) استخدام النار بشكل بدائي لتطويع الذهب مع ما في ذلك من مخاطر على الصحة

الحكومي الهندي للمشغولات اليدوية ، ومثل إدارة الجمارك ، وبعد أن يطابق المكتب الحكومي بيان الرسالة ويفحصها ، يسلمها إلى أصحاب المصانع الذين نتعامل معهم ، والذين يبدءون في تنفيذ « الموديلات » والأشكال التي نطلبها منهم ، وبعد أن ينتهوا من عملهم يسلمون المشغولات إلى المكتب الحكومي للمشغولات اليدوية الذي يتسلمها منهم بالوزن ، وبعد أن يتأكد من كل شيء يشحنها إلينا في الكويت . فور تسلمنا للرسالة يأتي دور وزارة التجارة للتأكد من صحة وزن الذهب ونقاوته . في حالة المخالفة للوزن يعدم الذهب بالكامل ، وبعد التأكد من صحة وزنه يتم الإفراج الجمركي عنه بموجب إذن التصدير المؤقت ، ونطرح المشغولات في السوق من خلال معارضنا أو من خلال التجار الذين يشترون منا .

إلى بومبي وراء سوار وقرط :

في قاعة الفندق جلسنا بانتظار أحد كبار صانعي الذهب في الهند ، القاعة مزدانة بالأشجار والورود ، وعلى الرغم من أننا كنا في الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر فإن الطقس كان أقرب إلى الدفء . خلف بوابة الفندق الزجاجية يقف حارس يرتدي زيا أبيض وعلى رأسه عمامة كبيرة في مؤخرتها يلتف القماش على شكل عرف ديك . خارج الفندق ترى صوراً للفقر : « سائقين ، متسولين ، متسكعين » توجع القلب وتثير الأسى . أخذنا نقطع الوقت أنا وزميلي في تخيل شكل صانع الذهب قلت : رجل كبير السن ، أبيض الشعر ، ملابسه مفرطة في الأناقة . أضاف زميلي : خلفه يسير رجلان ، وسائقه يرابط عند الباب بالسيارة الفارهة . عندما نودي علينا ذهبنا إلى موظف الاستقبال الذى قدم لنا السيد « منصوك » شاب لايتجاوز الخامسة والثلاثين ، يرتدى قميصا وبنطلونا ، في أصبعه « دبلة » فضية ، ساعة يده من ماركة شائعة ، ليس به شيء مميز سوى الخلق والدماثة ، وهي سمات أهل الهند .

خرجنا من الفندق ، ابتسم بتواضع ، واستدعى سيارة أجرة . تجاوزت السيارة الأحياء الحديثة في بومبي ، ودخلنا إلى منطقة الأسواق ، الحي الأقدم زمنا والأشد ازدحاما . طلب منا برفق شديد أن نغادر السيارة ونسير على أقدامنا ، لأن السير على الأقدام أيسر وأوفر للوقت .

تسير في الشارع كل أنواع المركبات والمخلوقات : بشر ، بقر ، سيارات ، دراجات ، عربات « كارو » يقودها بشر ، بشر يحملون « أجولة » أو صناديق أو أخشابا ، يسيرون وهم منحنون ، فالحمل فوق أكتافهم ، ويتركون للسائر مهمة تفاديهم ، وفوق هذا باعة جائلون ، وباعة أرصفة يبيعون منتجات ما ، أو أطعمة ، أو مشروبات . سوق « بابل » : زحام كثيف في شوارع ضيقة . انطلقنا نلهث خلف السيد « منصوك » ، وخلال عشر دقائق لم يسر بعضنا بجوار بعض قط ، فالدفع بالأيدي والأكتاف وتفادى حركة المارة والسيارات والدراجات جعلنا نسير في شكل أقرب مايكون إلى الطابور .

في قلب شارع السوق القديم ، والمباني القديمة المتهالكة ، تلمع محلات الذهب بالواجهات الرخامية أو الزجاجية والإضاءة ، واللافتات الأنيقة ، على الرغم من أن المبنى قد يكون متهالكا ، ولكن المحلات هذه تلمع وسط السوق كله . أمام الباب يقف حارس أمن ، والأبواب مغلقة دائما ، يفتح لك الحارس ويظل واقفا أمام الباب المغلق عليك وأنت في الداخل . عينا الحارس موزعتان بين الداخل والخارج . على المقاعد الصغيرة المكسوة بالمخمل يجلس عدد من الرجال ، أربعة وخمسة ، فور دخولنا انتفضوا ووقفوا أمام البائعين . تمثيلية

الإغراء الشهيرة في عالم التجارة . ضحك السيد «منصوك» وقال لهم : «أصدقاء» ، عاد الرجال إلى مقاعدهم ، وجلسنا معهم .

مهن تورث :

سوق الذهب بالهند سوق واسع ومتميز ، وفي بومبي وحدها قرابة ٥٠٠ محل للذهب ، والعمل في هذا المعدن النفيس يكاد يكون وراثيا ومقصورا على عدة عائلات ، سواء من التجار أو الصناع ، ويكاد الأمر يكون مقصورا على أبناء عدة ولايات محددة في الهند ، وأشهر هذه الولايات ولاية جوجارات ، وهي شديدة القرب من بومبي ، وولاية مهاراشت ، والبنجاب . وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت هذه الولايات مركزاً لتجارة الذهب ، ومنذ ذلك الحين والعائلات تتوارث هذه المهن . ومن النادر أن يدخل شخص غريب إلى سوق تجارة الذهب .

وعندما قلت للسيد «منصوك» : هل هذا تكتل للعائلات ضد من يحاول أن يخترق هذا الاحتكار ؟ قال بهدوء ورقة : لا ، إنها الثقة ،

فالعمل في الذهب يعتمد أساسا على الثقة في كل عملياته ، فمنذ اللحظة الأولى لدخول «الزبون» المحل تبدأ عملية الثقة ، فالناس تشترى الذهب لأنها لاتثق في النقود ، وعلينا نحن أن نقدم لها الثقة قبل الذهب . وحتى بين التجار أو بين التجار والصناع ، فالمسألة أساسا ثقة ، فأنا بالهاتف قد أطلب من أحد التجار كيلو ذهب ، فيرسله إليّ بدون إيصال أو ورق أو أي ضمان غير الكلمة ، كذلك مع الصناع ،

أسلم ورشة العمل الذهب ونماذج الأشكال المطلوبة بدون أي ضمان سوى كلمة ثقة . وقد جاء أحد الصناع يوماً وقال : إن الورشة تعرضت للسلب وسرق الذهب ، وصدقته ، وجلسنا معا نبحث عن كيفية التعويض ، وكم سيتحمل هو ، وكم سأتحمل أنا ، وهذه الثقة

لايمكن أن تنبت فورا ، ولايمكن أن يتمتع بها وافد جديد على السوق ، فالتاجر والصانع يتعاملان معي ، لأنه سبق أن تعامل مع أبي ، وسبق لأبيه أن تعامل مع أبي ، وأجدادنا قد تعاملوا ، وهكذا نحن لانتوارث المهنة فقط ، بل نحن نتوارث الثقة واحترام الكلمة . !

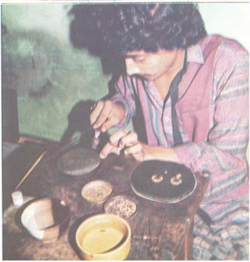
بين أيدى الفقراء :

نغادر المحل الأنيق لنذهب إلى ورش الصياغة ، بلطف شديد ـ اعتدنا عليه ـ قال لنا مرافقنا : المكان قريب ، سنذهب سيرا على الأقدام ، فتركنا الشارع المزدحم لندخل في سلسلة الأزقة الأشد ازدحاما ، والأكثر فقرا وإهمالا ، فالمياه راكدة في وسط الطريق ، والروائح تنبعث لتزكم الأنوف ، والبنايات أكثر توغلا في القدم وكل بناية تؤجر بالغرف ، فهذه غرفة تاجر أقمشة ، وتلك غرفة لحائك ، وأخرى للنسج والوشي بالقصب ، وغرفة لكواء ملابس ، و . . خليط عجيب من المهن . ودخلنا إلى (الورشة) ، غرفة صغيرة مربعة الشكل ، الأرض مفروشة بالحصير ، ومنافذ

خشبية صغيرة مربعة ، وخلف كل منضدة يجلس عامل ، والعمال أغلبهم دون سن العشرين مازالوا صغاراً ، على رأس الغرفة يجلس صاحب الورشة ، أمامه الميزان ومروحة كهربائية مسلطة عليه وحده . العمال يجلسون شبه عراة ، ممر الغرفة لايطاق من ازدحامها والنار التي يعملون بها .

العمل مقسم بين العمال وفق نظام الدائرة : العامل الأول يصنع ورق شجر من الذهب فقط ، والثاني يضع ورق الشجر هذا على الفرع الذهبي ، والثالث يضم الفرع على السوار ، والرابع يضيف «المينا» إلى بعض أوراق الشجر ، الخامس يلوّن ، وهكذا ، خطوات منتظمة متتالية متخصصة يسير العمل بمقتضاها .











● الصورة العليا تنطق بالتناقض ، فقد التقطت لورشة عمل في الكويت ، حيث الامكانات والاستخدام الصحي والظروف الأفضل . (الصورة العليا الى اليسار) لصاحب الورشة ، وهو يزن الذهب بعد انتهاء تشغيله ، (اليمنى) الشغل على تصميم موضوع على قطعة من الصلصال ، ثم عملية الغسيل ، (والصورة اليسرى) الاتقان والانكباب ساعات طويلة لإنجاز المنمنمات .

صاحب الورشة يتسلم الذهب من صاحب المحل، ويبدأ بطرق وسحب للذهب لتتحول السبيكة إلى شرائح رفيعة حسب نوعية العمل المطلوب، فالشرائح المطلوبة لانتاج الأقراط غير الشرائح المطلوبة للسوار، غير العقود، وهكذا.

وعندما يعهد صاحب المحل إلى صاحب الورشة بتنفيذ تصميم معين، فإنه ينفذ التصميم أولا على قالب من الصلصال، وينفذ العامل تشكيل القطعة وصياغتها على الصلصال، حيث يمكنه الصلصال من غرز الوحدة الصغيرة جدا وتثبيتها على قطعة الصلصال، وبعد أن يتأكد من مضاهاة ما ينفذه على القالب الصلصالي يخرجه من القالب ويوصله بعضا ببعض، ويستخدم العمال أدوات بالغة الدقة، مستعينين بالنار في معظم خطوات العمل واضعين شمعة مشتعلة من الدهن الحيواني التي تخلف رائحة غير طيبة ودخانا كثيرا. وبقطعة معدن رفيعة مفتوحة من الطرفين ينفخ العامل فتتوهج النار ليضع عليها الذهب.

ظروف عمل شديدة القسوة، لكنهم جميعا فنانون بالفطرة والوراثة.

بثمن بخس:

لكل صاحب محل ذهب يعمل في مجال التصنيع وليس البيع فقط، ورش تعمل لحسابه، ويختلف عدد الورش وعدد العمال حسب طاقة المحل وقدرته وكمية الذهب التي يستقبلها للعمل. مرافقنا السيد «منصوك» لديه ورشتان تعملان لحسابه، يعمل فيهما قرابة ١٢٠ عاملا، بينما لدى السيد «شنكر فاجيوهي» سليل أول عائلة عملت في تصنيع الذهب وبيعه في بومبي قرابة ٤٠٠ عامل موزعين على أكثر من خمس ورش.

ويختلف نظام المحاسبة على التصنيع حسب الشكل المراد صناعته، ومدى بساطته وتعقيده، وهل هو ذهب خالص أم ملون، أم محلّى باللؤلؤ، فكلما ازداد تعقيد الشكل، وازدادت التعقيدات التي به، وكثرت الألوان أو اللآلىء زادت تكلفة الصنع.

ويتقاضى صاحب الورشة والعمال أجرهم بالقطعة، وليس بالراتب، وتبدأ من ٢٠ روبية هندية مقابل كل جرام، وترتفع لتصل إلى ٨٠ روبية للجرام، حسب نوعية العمل.

والحساب يتم بناء على الوزن الصافي للذهب، بغض النظر عن أي إضافة، فالسوار المزين باللؤلؤ مثلا لو كان وزنه ٤٠ جراما ذهبا ومائة جرام من اللؤلؤ، فالحساب يتم على وزن الذهب فقط، والورش المتوسطة (٧ - ٩) عمال، تستطيع أن تنجز في الشهر كيلو جراما واحدا من المشغولات الذهبية، أي يبلغ دخل الورشة حوالي ٢٠ ألف روبية يدفع منها صاحب الورشة أجور العمال ومصاريف وجبة الغداء التي تقدم للعمال مجانا والتي لاتزيد عن الارز.

والعمال يعملون بلا أي نظم للتأمينات، فلا تأمينات عجز، ولا إصابة ولا بطالة، وعلى الرغم من ذلك فإن العائلات لاتتوقف عن دفع أبنائها للعمل في هذه المهنة، ليتوارثوا مهن الآباء.

ولقد ساعدت ظروف الهند الاقتصادية المتمثلة في زيادة عدد السكان، وقلة فرصة العمل، في استمرار هذه المهن، واستمرار الراغبين في العمل بها، وظل العرض دائما من العمالة أكثر من الطلب عليها، مما جعل أجورهم متدنية جداً، فالعامل لايتقاضى من صاحب الورشة أكثر من ٥ روبيات عن كل جرام، بالإضافة إلى وعاء من الارز للغداء. وبمنطق صاحب الورشة فإن العامل يتقاضى ربع أجر الورشة التي تأخذ ٢٠ روبية للجرام، وبالطبع فإن هذه النسبة ترتفع في حالات المشغولات الأكثر تعقيدا.

كل هذا الجمال :

للمشغولات الذهبية الهندية جمال خاص بها ، وسمات واضحة لاتخطئها عين ، فهى مشغولات تتصف بجمال التراكيب ، فكل وحدة مليئة بآلاف التفاصيل الصغيرة ، فبين الإطارين اللذين يحددان السوار نسج من تفاصيل وجزيئات صغيرة متتالية ومركبة جميلة ، وللعقود جمال من نوع خاص ، تذكرك بمعروضات التحف في قصور الأباطرة والخلفاء والمهراجات.

ولهذا أكثر من تفسير ، أحد التفسيرات يقول إن هذا سببه أنها تنشأ في اقتصاديات متخلفة ، ولذا فهى توسع مجال العمل ، وهى تفتقر إلى البساطة ، وإلى العملية ، لأنها ابنة حضارة مركبة معقدة .

وتفسير آخر ، وهو أقرب إلى العقل والمنطق ، يقول : إن الهند كانت أرض حضارات عظيمة ، وأن فترة من أزهى فترات منطقة الشرق في الهند هي تلك الفترة التي ترعرعت فيها امبراطورية المغول الإسلامية ، وخلفت وراءها آثارا كثيرة معمارية ، كلها ذات طابع يتناسب مع الذوق الشرقى العربي ، وتتشابه هذه الآثار مع غيرها في كثير من المدن العربية الإسلامية كبغداد أو دمشق أو القاهرة .

ويفسر أصحاب هذا الرأى كل هذا الجمال في المشغولات الذهبية الهندية بأن المغول عندما أسسوا امبراطوريتهم لم يكن لهم قبل الإسلام تراث يتوارثونه ، ولكن مرورهم على مناطق كانت تحت السيطرة العثمانية ، وتدفق حركة التجارة بين البلاد العربية الإسلامية والهند ، في زمن الازدهار البحرى العربي ، قد نقل معه خبرة الحضارة العربية الاسلامية التى تمثلت في أبهى اشكالها وأبرزها في ذلك الوقت ، في فنون العمارة والنسج والنقش واستخدام الألوان ، وابتكار المنمنمات والحواشي ، وامتزج هذا التراث ، وتفاعل مع حضارة أبناء الهند ، ومازالت آثاره باقية ، تنقل إلينا عبر مشغولات ذهبية تنطق بالجمال والفن .

مصممون بالفطرة :

ومعظم المشغولات الذهبية الهندية يصممها أصحاب الورش ، بالفطرة والحس الموروث ، وبتراث عريق في هذه المهنة ، وبعد أن نظمت الحكومة الهندية حركة تصدير الذهب انفتح السوق العربي أكثر من ذي قبل للمشغولات الهندية ، ولذلك فإنه من عام ١٩٧٩ ـ كما يقول السيد منصوك ـ بدأت حركة تصدير وشغل الذهب لصالح أسواق الكويت وبعض أقطار الخليج العربي الأخرى ، ويتميز الطرف الكويتي المتمثل في الشركة الكويتية التى تنفرد بسوق الجملة في تجارة الذهب في الكويت بأنها تقترح تصميمات أو تضيف أو تعدل .

يقول السيد فهد الرشيد : «كنا في بداية تعاملنا نكتفى بالذوق الهندى كما هو ، وبعد فترة ـ لم تكن طويلة ـ بدأنا نتدخل في اختيار الأشكال ، فنحن نجيد الاستماع إلى الناس ، ونسمع رأي العملاء وهم يثرثرون حتى فيما بينهم ، كلمات قد تكون لغير المهتم بلا معنى ، مثل : ماذا لو كان هذا العقد محلّى بمينباء ملون ؟ أو لو كان الشغل مفرغا وليس معتما؟ وملاحظات عابرة مثل هذه الملاحظات ، وأحيانا قد لايتوافق الذوق الشرقى مع الذوق المحلى ، لأن لكل بيئة خصوصيتها . صحيح أننا جميعا شرقيو المزاج ، ولكن داخل هذه الشرقية فروق نوعية كثيرة ، تحكمها البيئة ، وخصوصيتها ، ولهذه الاعتبارات بدأنا نضيف ونعدل ونقترح للأشكال التى يشغل بها الذهب ، وفوجئنا أن الإقبال قد أصبح كبيرا ، فاكتشفنا مزية تجارية مهمة ، أغرانا بها النجاح ، وهى أننا نستطيع أن نكون أصحاب طراز خاص وشكل خاص جدًا بنا ، لايمكن أن

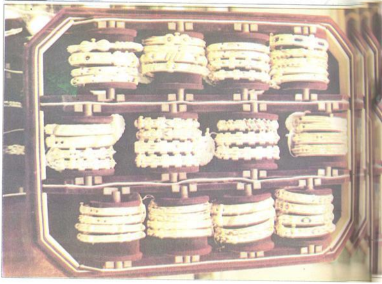






● (الصورة العليا) أسرة هندية في أحد المحلات في بومبي تتفرج على المعروضات تمهيداً لشراء هدية عرس ، أسفلها تناقض آخر من ورشة عمل بالكويت . (الصورة السفلى) تاجر ذهب في ويمبلي بلندن أتى إلى الهند خصيصا وهي موطنه الأول ، ليشترى مشغولات الهند ، ليبيعها للانجليز وبعض العرب هناك .





● على مصطبة حجرية في مدخل ضيق لبيت قديم ، جلس الرجل العجوز يطعم السوار باللؤلؤ ، حرفته الوحيدة التي يشتغلها لحسابه الخاص ، يذهب إلى الورشة أو المحل ، فيتسلم السوار واللؤلؤ ، وينفذ عمله ، ويعود ليسلم القطعة ويتقاضى أجره ، ولم يجد له مكانا إلا الطريق العام ، بعد أن أمضى ستين عاما يعمل في هذه المهنة . (الصورة السفلى) بعض المشغولات الهندية : يندر أن تجد سوارا شبيها بالآخر ، وفيها كلها جهد وعمل كثير .

يجده العميل في أي محل أو أي سوق إلا عندنا نحن ، وتوسعنا في هذا الاتجاه ، وأصبح لدينا الآن « موديلات » لاتباع حتى في الهند ، فهى تصنع لحسابنا نحن فقط .»

رمز له دلالته :

يحفل تاريخنا الاجتماعى العربي بتراث طويل حول هدية العريس للعروس ، وهى هدية كانت دوما تعبيرا عن مدلولات كثيرة ، أهمها الحرص على الرضاء والرغبة الحقيقية في إتمام الزواج والقدرة على الوفاء بمتطلبات الحياة ، ولذا فقد كانت دوما هدية من أغلى وأثمن ماهو متاح ، ففى القبيلة ، حيث الحياة في الصحراء كانت النوق والإبل - أيا كان عددها أو نوعها - هدية لاترفض ، وتعلى من شأن الخاطب والخطيبة ، وفي مجتمعات الأنهار كانت الأجولة المحملة بالمحاصيل والأبقار هدية عزيزة غالية ، ومع التطور الاجتماعى ، وبعد أن أصبحت كل هذه الأنواع مقومة بالنقود ، أصبح بعض الناس يذهب لبيت الخطيبة ويضع مبلغا من المال ، وبعد أن فقد الناس ثقتهم بالنقود التى تتآكل قيمتها بفعل عوامل التضخم والزمن أصبح الذهب هدية لها بريق ، وهى العرف المتبع والطقس السائد . وتتفاوت الهدية من مجرد « دبلة » إلى أجزاء من الكيلو (ربع أو نصف . . أو . . أو) والهدية ليست مجرد قيمة مادية فقط ، ولكنها أداة زينة كذلك ، ووسط كل



ماهو متاح من أشكال ذهبية يبرز الشكل الهندى الذى تتفنن ورش عمل كثيرة منتشرة في كل الوطن العربي في تقليد الشائع من أنماطه ، وعمل مشغولات تتسم ببعض سمات المشغولات الهندية الأساسية ، وتتمتع هذه المشغولات المقلدة أيضا بإقبال كبير ، في أقطار عربية اشتهرت بمشغولاتها ، وعلى الرغم من ذلك فإنها وجدت في الطراز الهندى جمالا وإغراء لايقاوم .

وظلت كل الفتيات يحلمن بأن الخطيب قد جاءهن بأقراط وأسورة من ذهب الهند ، وندرك لماذا كانت كل كتب التاريخ تكتب عن هدايا الملوك ، فتقول : وأحضرت القافلة معها حريرا من الصين ، وذهبا من الهند ، فزوّج الملك شاه الزمان ابنته قمر بابن الملك عبدالرحمن ، وعاشا في ثبات وأنجبا البنين والبنات .

حاشية غير رقيقة :

في عام واحد ، هو عام ١٩٨٨ ، دخل إلى سوق الكويت مشغولات تقدر بـ ٣١ طناً ، كما تقول تقارير إدارة مراقبة المصوغات الكويتية ، وفي الهند يقولون : إنهم صدروا إلى الكويت مشغولات تقارب ٤ أطنان في العام نفسه ، وأغلب المشغولات الذهبية الهندية عيار ٢٢ أو ٢١ ، وهى نسبة الذهب في المشغول إلا أن الغالبية من عيار ٢٢ .

حاشية رقيقة :

يظل الذهب سيد المعادن وأنفسها ، فحوله دار الصراع ، وبه افتتنت النساء ، وإليه هرع المشترون للزينة أحيانا ، ولادخار الثروة أحيانا أخرى ، بعد أن فقدت أوراق النقد قيمتها . ولن يتساءل عقلي بإلحاح بعد الآن : لماذا الذهب الهندى ؟ فقد أدركت أن الجمال والفن هو تراث عريق لبلدان ذات حضارة وثقافة ، ويسكب الصانعون روحهم في كل قطعة يشغلونها ليمنحوها سحرا وفتنة وجاذبية . □

خضراء

شعر : رضا الصخني*

إنكِ خضراءُ كحقلٍ يمتدُّ بحجمِ العالمْ
لكنّي وأنا أجتاز حقولَكِ تحتَ المطرِ الناعمْ
تتجمع في قلبيَ أفراحُ الناسْ
مثلَ مراكبَ ترسو عندَ خليجْ
أعرفُ أنَّكِ أصغرُ مِنْ زهرةِ آسْ
حتى أنّي أقدرُ أنْ أخفيكِ بقلبي دونَ ضجيجْ

حينَ تراشَقْنا بالضوءِ ، أنَا والنجمةْ
تلك المتطرفَة اللمعانْ
حاذرتُ كثيراً أنْ أذْكُرَ اسْمَكِ
إنّ الإنسانَ يخشى أن تَسْمَعَهُ العتمةْ

بينَ دقائقِ نومي البيضاءْ
بينَ دقائقِ نومي ذاتِ الأطيافِ الكبرَى
مِنْ جهةِ الفجرِ إلى جهةِ الفجرِ الأُخْرَى
تخترقُ الليلَ عصافير زرقاء
تنأى ، تنأى ، تنأى

لكن إذ أخرجُ مِنْ نومي
نحوَ شوارعَ خاليةٍ ودقائقَ حَيْرَى
أسألُ عن وجهِكِ كُلَّ الأشياءْ
فتسيل الخضرةُ حتى أطرافِ العالمْ
وأنا مشدوهٌ بالفرح الآسر تحتَ المطر الناعمْ



* شاعر وكاتب من القطر العربي العراقي

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

مايو
١٩٨٩



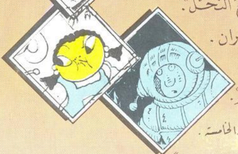
رئيس التحرير: د. محمد الرميحي



يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

في هذا العدد

- استطلاع "طالع النخل".
- همام .. مصارع الثيران.
- دعوة إلى زيارة "سور الصين العظيم".
- "ذات الهمة" الحلقة الخامسة.
- قصة الخيال العلمي "سر أنبوب الفضاء".



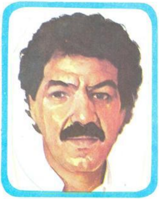
إضافة للأبواب الثابتة

- اسلاميات
- كمبيوتر
- ٨ صفحات لأخيك الصغير واختك الصغيرة
- دائرة معارف العربي الصغير



نتيجة مسابقة العدد ٣٥

وجهاً لوجه





محمد سعيد الصكار و هاني مظهر

■ من خلال تجاربي اكتشفتُ
أنني أحمل تصورًا خاصًا «لشخصيات الحروف».

■ المشاهد يتجاوز الدلالة المباشرة للكلمة لا لكي يجد
دلالة تعبيرية إضافية فقط، وإنما ليستمتع بوضعها التشكيلي.

■ الفنانون الذين استلهموا الحرف
لم يستفيدوا مما في الخطِ من قيمٍ تشكيلية!

محمد سعيد الصكار فنان متعدد المواهب ، فهو خطاط ومصمم أغلفة وملصقات جدارية وطوابع بريد ، وهو فضلا عن ذلك شاعر ومحرر صحفي . وقد أهلته مجالات النشاط التي يمارس أعماله فيها لأن يكون عضوا في أكثر من اتحاد أو نقابة ، فهو عضو جمعية التشكيليين العراقيين ، وعضو اتحاد الأدباء ونقابة الصحفيين العراقية . أصدر مجموعتين فنيتين لأعماله الخطية ، وأقام عددا من المعارض .

أجرى الحوار معه الفنان التشكيلي هاني مظهر ، وهو فنان من العراق ، حصل على عدد من الجوائز التقديرية والميداليات ، ويعمل رساما صحفيا منذ عام ١٩٨٠ .

*** تأسيس نقد خطي وتحديد المصطلحات الخطية ، دعوة تتبناها باهتمام بالغ . ما مرتكزات هذه الدعوة والخط العربي مقنن إلى حد يجعلنا نعتقد أن المصطلح الخطي محدد سلفا ؟**

- التقنين الذي تتحدث عنه قائم فعلا ، ولكنه لا يعني استقرار المصطلح ، لأن التقنين يحدد ميزان الحروف ، ونسبة الحرف إلى النقطة القياسية ، وهي نقطة مساوية لعرض سن القلم أو القصبة التي نخط بها ، ونقول مثلا : إن حرف الألف المفردة في خط الثلث تساوي سبع نقاط ، وأنها في خط الرقعة تساوي ثلاثا ، وهكذا الشأن في بقية الحروف . وهذه مسألة قياسية ، وليست مصطلحا . أما المصطلح فهو تحديد دلالة العبارة . وهذه الدلالة غائمة في المصطلحات الخطية ، ومربكة للباحث . فمصطلح مثل (المشق) ، يعني مرة الكتابة السريعة ذات المدات ، ومرة التجارب الخطية التي يقوم بها الخطاط لتطويع يده قبل الخط ، وأخرى الحروف المفردة أو الموصولة التي يبين فيها الخطاط لتلاميذه كيفية أدائها ، وتسمى (الكرلة) أيضا ويذهب بعض الباحثين خطأ إلى أن (المشق) نوع من الخط .

وهكذا ترى أنه في مصطلح واحد تتشعب المعاني والدلالات ، وتبنى الاستنتاجات على أساس غير مستقر ، يذهب بالحقيقة بعيدا عن موقعها . وأنا أدعو إلى دراسة هذه المصطلحات في ضوء الواقع العملي ، لكي تتحدد الدلالة وتفهم المعاني ، ونميز بين ما هو خط وما هو كتابة ، فلا نحيل كل ما هو مكتوب على الإنتاج الخطي .

خلط في المفاهيم

*** لكنني أعتقد أن مثل هذا الخلط في المفاهيم لابد أن ينعكس على « النقد الخطي » الذي تجتهد في الدعوة إلى تأسيسه .**

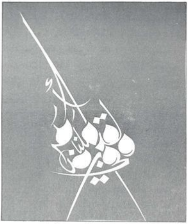
- نعم ، إن دعوتي إلى تأسيس (نقد خطي) استجابة لحاجة يفتقر إليها تاريخ الخط العربي ، لأن الكثرة الكاثرة في كل ما نقرأ عن الخط تفتقر إلى منهج علمي في تقويم الخط ، وهي لا تخرج عن حدود الانبهار والإعجاب . أما العناصر الجمالية المثيرة لهذا الاعجاب ، والأسس الفنية التي يقوم عليها ، فتلك قضية لم تعالج حتى الآن .

وفي كتابي (حديث القصبة) الذي سيصدر عن قريب ، أطرح مشروع منهج لنقد الخط العربي ، يقوم على تحليل الخط المجرد باعتباره (مسافة بين نقطتين) ، أو (مجموعة من النقاط)، والحالات التي يكون عليها في حركته ، ونصيب الخط العربي من هذه الحالات . فالخط المستقيم مثلا له تأثير على الرائي يختلف عن تأثير الخط المنحني ، وكلاهما يختلفان بعضا عن بعض إذا اختلفت كتلة كل منهما . وأنا أعطي اهتماما كبيرا لمستوى حركة الكتلة في الخط ، وعلى أساسها أبحث الآثار البصرية ، وما يتبعها من أثر في الوجدان .

لاحظت أن الخط العربي قد درس بعناية بالغة ، لا من خلال الوضع الهندسي للحرف ، وإنما من خلال حركة اليد وارتكازها ، وحركة سلاميات الأصابع ، لذلك سعيت إلى تحليل هياكل الحروف من خلال مسارها المرتبط بالحالة الفيزيولوجية . فقلت مثلا : إن الحرف الفلاني ، يؤدى جزؤه الأول بسحبة يد حرة ، وأن جزءه الأخير يدخل عليه (التمحل أو المعالجة) التي هي خارج حرية الحركة . وبينت أي الجزئين أكثر دلالة على موهبة الخطاط ، وأيهما أكمل في المستوى الجمالي . وعلى هذا الأساس وضعت بعض الافتراضات لتحليل جمالية الخط العربي .

ومن ناحية أخرى ، حاولت في تجربة لي ، أن أجعل وعيي محايداً وأكلفه بالمراقبة ، دون اعتساف . وهي تجربة سبق أن قمت بها في كتابة الشعر ، وسميتها (الانفعال المدرب) أو (الخيال المروض) ، للتحرر من سلطة الوعي الناقد أثناء العملية الشعرية .

وفي تجربة الخط ، راقبت بوضوح إحساسي الداخلي ، وتناغمه مع حركة اليد ، وما رافق ذلك من صحو ذهني وبصري حادين . لقد شعرت بتكامل فيزيولوجي وأنا أخط ، أي أن اليد كانت تجري على رسلها دون عنت أو كد ،



● ولقد مكناكم في الأرض (قرآن كريم)

وهذا الجريان يتناغم مع حركات أُحسها في داخلي ، في جزء من صدرى ، قريب من القصبة الهوائية ، وليس في القلب أو الرأس . مما كان يشيع نوعا من التوازن الداخلي ، والانتشاء والاحساس بالرضا ، ليس الرضا عن نتيجة العمل ، وانما الرضا عن كوني اعطيت كل ما أقدر عليه .

*** وهل تترك لك هيئات الحروف . حرية كافية لتشكيل تصورك الخاص عنها ؟**

ـ من خلال تجاربي في دراسة هيئات الحروف ـ وأنا أعرف بحكم المهنة هذه الهيئات ومستوياتها ، لأنها راسخة في (ذاكرة اليد) إذا جاز التعبير ـ اكتشفت أنني أحمل تصورا خاصا لـ (شخصيات الحروف) يصنف الحروف إلى شخصيات أليفة ، وأخرى مترددة ، وأخرى مكابرة أو عدوانية ، وهكذا . ومثل هذه التصورات كانت تتدخل حتما في الهيئة النهائية التي يكون عليها الحرف ، على الرغم مما ذكرته عن الهيئة الراسخة في (ذاكرة اليد) .

إن مثل هذه التجارب ، اضافة إلى الدراسة المتأنية الدقيقة لما تركه السلف الصالح من أصول وقواعد لهذا الفن الجميل ، تساعد حتما في التأسيس للنقد الخطي ، وتسهل علينا تحديد المصطلحات الخطية في ضوء الواقع العملي التطبيقي لها .

المصطلح النقدي للخط

*** الدعوة إلى تحديد المصطلح الخطي تعني أننا لا نملك بعد مثل هذا المصطلح ، أو أننا لم نتفق عليه وهذا يعني أننا لا نملك مرتكزا للعملية النقدية ، ففي غياب المصطلح يعجز النقد عن تحديد مسارات واضحة للتطوير ، فكيف توفق بين الدعوة للتطوير والدعوة إلى تحديد المصطلح الخطي ؟**

- الدعوة إلى التطوير ليست مشروطة بالنقد الخطي ، فقد جرى التطوير فيما مضى في غياب هذا النقد ، واعتمادا على الحس والتجربة الفنية والحياتية ، ولكن النقد يساعد على تسريع عملية التطوير بما يكشفه من جماليات خفية في العملية الخطية ، ويختصر الطريق على المبدعين بقدرته على التحليل والتصنيف ،واضاعة الأعمال الخطية . إنه يحمينا من الانزلاق إلى المنعطفات الخطرة ، وإضاعة الوقت في البحث عن تجارب قد لا تكون ذات أهمية ، والنقد يعنى بتحديد المصطلحات كما يعنى بكشف العملية الابداعية في الخط .

وهناك الكثير مما يمكن للنقد أن يبدأ به في غيبة دقة المصطلح ، من خلال ما يطرحه من اصطلاحات جديدة ، ومن خلال ما هو موجود من مصطلحات واضحة ، إذ ليست كل المصطلحات غائمة وغير ذات دلالة واضحة .

*** هل يملك الخط العربي الطاقة التعبيرية الكفيلة بدفع المشاهد إلى تجاوز الدلالة المباشرة للكلمة ؟**

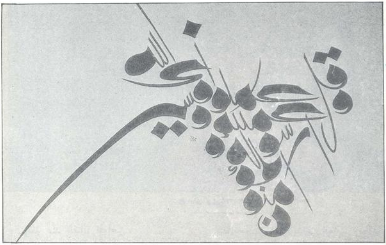
- لاأشك في ذلك . لأن الخط قيمة تشكيلية ، إضافة إلى كونه قيمة تعبيرية،وهذا ما رمى إليه « الصولي » عندما قال : (ومن فضل حسن الخط أن يدعو الناظر إليه إلى أن يقرأه وإن اشتمل على لفظ مرذول ومعنى مجهول) والمشاهد يتجاوز الدلالة المباشرة للكلمة لا لكي يجد دلالة تعبيرية إضافية ، وإنما ليستمتع بالوضع التشكيلي له . أي أنه يتجاوز التعبير المباشر إلى حالة من الجمال المطلق .

شخصية الخط المستقلة

*** نظرية « البعد الواحد » التي وضعها الفنان (شاكر حسن ال سعيد) تعد من أهم الظواهر الفكرية في الفن العربي المعاصر . تنطلق هذه الظاهرة أساسا من الحرف وما يهمنا في هذا الحوار لا يدخل في جوهر التنظير للبعد الواحد وإنما ما نتج عنه،فالالتباس في المفاهيم الخطية نجده مجسدا وبشكل سافر في اللوحة الحروفية التي روجت لها هذه النظرية . وقد تحدث الفنان ال سعيد - الذي أسس هذا الاتجاه وقاده - عن الحرف والأثر . والخط عنده ليس**



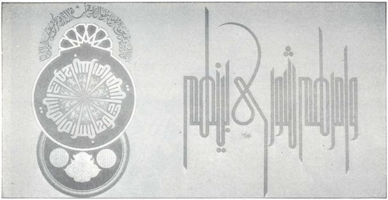
● وجعلنا من الماء كل شيء حي (قرآن كريم)



● وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون (قرآن كريم)

سوى « علامة » ليس لها صلة بمفهومنا المسبق عنها ، في حين نجد أغلب الفنانين الذين استلهموا الحرف على ضوء هذه النظرية استندوا إلى « الخط » دون الاهتمام بشخصيته المستقلة التي بنيت على أسس جمالية وتاريخية تخصه دون سائر الفنون ، وهذا يثير تساؤلا آخر هو هل تملك القيم الخطية القدرة على تحقيق الشخصية المستقلة للفن العربي بشكل يمنع عنه التصرف المتعسف ؟

ـ لست متفقا معك في كون الفنانين الذين استلهموا الحرف استندوا إلى الخط . لأنهم ظلوا في الواقع ضمن إطار الحرف من حيث هو إشارة أو سطح لا أكثر . ولم يستفد أحد منهم مما في الخط من قيم تشكيلية ، ربما لأنهم لايعرفونها ، وربما لأنهم يعرفونها وتخونهم (شجاعتهم) في التعامل معها بالحرية التي تتيحها اللوحة التشكيلية . وقد تدخلت جملة من العوامل في خلق ظاهرة اللوحة الحروفية ، منها ما وصل إليه الفنان العربي في بحثه عن الهوية القومية في الفن التشكيلي . ونحن نعرف أن الفنان العربي بدأ بتقليد فنون الغرب وهو يتعامل مع اللوحة التشكيلية وفق المفهوم المعاصر لها ، ثم أخذ في بحثه عن نفسه يتلمس طريقه إلى الينابيع الفنية العربية ، وكان أبرز وأنقى هذه الينابيع هو الخط العربي ، فإلى جانب ما يتمتع به الخط العربي من أصالة بحكم نشأته وتطوره في محيط عربي صرف ، لم يخضع هذا الخط لمؤثرات الثقافات الأخرى في حين خضع لدراسة فكرية ووجدانية جادة تشكل نموذجا للفكر والوجدان العربي والاسلامي ، كما أنه أقرب إلى الفنان العربي المعاصر من معطيات الحضارات القديمة كحضارة الفراعنة وحضارة بلاد الرافدين بل هو أقرب إليه حتى من « الواسطي » بسبب البون الواسع بين مفهومي اللوحة عند الواسطي



● آيات قرآنية

واللوحة عند الفنان المعاصر .

وقد بدأت محاولات الفنان العربي في استلهام الحرف العربي ساذجة ، وهذا ليس عيبا ، فباب التجريب كان مفتوحا للوصول إلى نتائج قد تكون مجدية ، إلا أن الفنان العربي وبسبب خضوعه للمنطق الغربي في فهم واستيعاب الحرف العربي ، لم يتمكن من خلق رؤيته الخاصة التي تتيح له استيعاب البناء الداخلي للحرف العربي مما جعله يقف عند حدود المظهر التصميمي للحرف ، ومثل هذا المظهر لا يمكن أن يكون أساسا لخلق فن يملك القدرة على تحديد الهوية القومية للفنان العربي .

هوية قومية للفن العربي

*** وهل نستطيع أن نقول بأننا لازلنا نفتقد إلى أوليات ووسائل تأسيس رؤية قومية متميزة ؟**

- لا أستطيع أن أبخس الفنان التشكيلي حقه ، فهناك تجارب متميزة أضافت الكثير للوعي الجمالي العربي ، وللعديد من التجارب الفردية أثر قد لا يبدو ظاهرا ومؤثرا إلا أنه يتضح بالتقائه مع السياق الابداعي العام . ومع علمنا بأن التراكم الحضاري مهم في الوصول إلى قوانين الابداع نستطيع أن نقول بأننا نسير باتجاه تحقيق الهوية القومية للفن العربي ، وإلى أن نصل إلى غايتنا علينا أن نفتح أوسع الأبواب أمام التجريب والخروج من القوالب والمفاهيم الجاهزة التي لم تصل بعد إلى مستوى يمكن الركون إليه .

*** كيف يمكن تحديد الهوية القومية ، وعن أى طريق ؟**

- قلت ان الخط العربي أنقى ينابيع الابداع العربي وأبرزها ، ولم أقل انه الينبوع العربي الوحيد ، فالفنان العربي المعاصر يملك إرثا سخيا من القيم الجمالية ، وحتى من العناصر التشكيلية الناجزة ، وهو الآن يعيش حياة يحتدم فيها الصراع بين حاجته إلى ترسيخ كيانه وتطويره وبين العوامل المضادة ، وبمثل هذا الموروث وهذه الحياة يكون بين يدي الفنان العربي مادة غنية للابداع ، ولا يبقى مطلوب منه سوى الابداع وهذا يمكن مناقشته في حدود كل تجربة إبداعية لأننا لم نتوصل بعد إلى نتائج تضع بين أيدينا حقوق التعميم . □



النظارات الشمسية

هل تضر العين ؟

بقلم : الدكتور توفيق عبدالحميد الدسوقي *

من المظاهر السلوكية المصاحبة للمجتمع الاستهلاكي ، اقبال الكثير من الناس على استخدام النظارات الشمسية والطبية ، لحماية العين من أشعة الشمس . فما مدى ملاءمة استخدام هذه النظارات للظروف المناخية ، وهل يسبب استخدامها أضرارا للعين ؟

في فصل الصيف يكثر الناس من استخدام النظارات الشمسية والطبية الملونة . والملفت للانتباه أن استخدام هذه النظارات يكون ذاتيا وتلقائيا دون اكراه على ذلك ، كما أن استعمالها ليس مقصورا على أعمار معينة ، بل تشمل جميع الأعمار ، وإن كانت شائعة بين الشباب والمسنين أكثر من الأطفال .

وفي هذه الأيام نرى أنواعاً كثيرة من النظارات الشمسية ، والتي تختلف في الشكل واللون والطراز ، بحيث لا تحجب أشعة الشمس القوية عن العين فقط ، بل وتعطى جاذبية أكثر وتزيد الوجه جمالا .

لكن هل تطرق إلى أذهاننا أن النظارات الشمسية أو الطبية الملونة يمكن أن تسبب ضررا

العين والألوان :

العين ترى جزءا صغيرا من طيف الشمس ، ويسمى بالطيف المرئي ، ويتكون من الألوان السبعة بدءا باللون البنفسجي فالنيلى فالأزرق فالأخضر فالأصفر فالبرتقالي فالأحمر على التوالى . هذه الألوان يعبر عن طول موجاتها (ل) بوحدة قياس طولية صغيرة تسمى النانومتر * حيث تبدأ أطوال الموجات للون

* أستاذ البصريات بكلية العلوم جامعة عين شمس/ القاهرة

* النانومتر يساوى واحد على المليون من المليمتر .

البنفسجي ل = ٣٨٠ نانومترا ، وتنتهي بالأكثر طولا للون الأحمر عند ل = ٧٨٠ نانومترا .

وتختلف حساسية العين لرؤية هذه الألوان حيث تصل حساسيتها إلى أكبر قيمة للون الأخضر وتقل كلما اتجهنا نحو البنفسجي أو الأحمر .

لذلك نجد أن الله قد خلق لنا النباتات والأشجار كلها باللون الأخضر . كما أن الأطباء ينصحون الناس بالراحة في الريف حيث الخضرة تحيط بهم من كل مكان ، مما يجعل العين تتعرض لأقل إجهاد ممكن وبالتالي تكون أكثر استرخاء .

والأشعة التي لها تردد + (ت) أكبر من تردد اللون البنفسجي أو طول موجي أقل من ٣٨٠ نانومترا تسمى بالموجات فوق البنفسجية ، والتي لها تردد أقل من تردد اللون الأحمر أو طول موجي أكبر من ٧٨٠ نانومترا تسمى بالموجات تحت الحمراء .

وحيث إن المنطقة المرئية للعين تنقسم إلى الألوان السبعة ، فإن الأطياف فوق البنفسجية وتحت الحمراء تنقسم كل منها إلى ثلاث مناطق حسب المعايير الدولية ، وكما هو مبين بالجدول رقم (١) .

وكثير من النظارات الشمسية تهتم بالشكل والمظهر واللون والطراز الذي يرضي ويشبع رغبة ونفسية الأشخاص أكثر من الاهتمام في حماية العين من الأشعة غير المرغوب فيها ونسبة نفوذها بالقياس إلى الأشعة المرئية . ولقد أوضحت الأبحاث في السنوات الأخيرة ، أن النظارات الشمسية والطبية الملونة جميعها ، سواء كانت رخيصة أو غالية الثمن ينفذ منها جزء كبير من الأشعة فوق البنفسجية ، وتحت الحمراء لطيف أشعة الشمس ، بينما تحجب كثيرا من الأشعة المرئية . لهذا فإن العين التي تتعرض فترة طويلة لأشعة الشمس النافذة من النظارات يتسبب لها ضرر ، وخاصة إذا كانت نسبة الأشعة المرئية النافذة أقل من ٨٠٪ من الأشعة الكلية الساقطة على العين .

الضرر الكيميائي والضرر الحراري :

إن الضرر الناتج من أشعة الشمس على العين إما أن يكون كيميائيا أو حراريا . ومن دراسة نوعية الضرر يمكننا ربطه بطبيعة تكوين طيف أشعة الشمس حولنا ، وطاقة الأشعة التي تنفذ من خلال النظارة ، ثم خلال أجزاء العين حتى تصل إلى الجزء الحساس للرؤية وهو الشبكية ، ونوعية التأثير المتبادل فيما بينها . كما يعتمد على نوعية النظارة الشمسية أو الطبية الملونة التي تستخدم لتقليل كمية الضوء الساقط على العين . كما أنه يعتمد بالتالي على مدى اختلاف حساسية أجزاء العين لهذه الأشعة ، وأيضا على مقدار جرعة التعرض للأشعة

المنطقة فوق	الطول الموجي	المنطقة تحت	الطول الموجي
البنفسجية	بوحدة النانومتر	الحمراء	بوحدة الميكرومتر **
المنطقة أ	٣١٥ - ٣٨٠	المنطقة أ	,٧٨ - ١,٤
المنطقة ب	٢٨٠ - ٣١٥	المنطقة ب	١,٤ - ٣
المنطقة جـ	١٠٠ - ٢٨٠	المنطقة جـ	٣ - ١٠٠٠

جدول (١) الأطوال الموجية للمناطق فوق البنفسجية وتحت الحمراء

+ يقاس تردد الموجة بوحدة الهيرتز ، سرعة الموجة هي حاصل ضرب الطول الموجي في التردد .

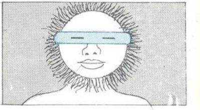
** الميكرومتر وحدة قياس طولية أكبر من النانومتر ، وتساوي واحدا من الألف من المليمتر .

الشمسية ، وأخيرا على نوعية الضرر الناتج إذا كان مؤقتا أو مزمنا .

الضرر الحراري لأشعة الشمس على العين يتم فقط ، إذا نظرنا بصورة مباشرة ولفترة زمنية طويلة ، أو حتى لفترة قصيرة لقرص الشمس ولكن باستخدام نظارة مكبرة أو تليسكوب رؤية . وفي الحالتين تعمل قرنية العين وعدستها على تركيز الطاقة الحرارية للأشعة تحت الحمراء الساقطة من أشعة الشمس على شبكية العين ، وتضاعفها آلاف المرات مما يسبب ضررا بالغا ، قد يأخذ شكل عمى مؤقت ، تماما كأن نجمع أشعة الشمس بعدسة محدبة على ورقة فتحرقها . وأكثر الأشخاص تعرضا لهذا الضرر الحراري هم الباحثون في محطات الأرصاد الشمسية .

وحقيقة الأمر أن الضرر الحراري عادة يسبقه ضرر كيميائي ، نتيجة تركيز الضوء المرئي والأشعة فوق البنفسجية ، أما إذا زادت نسبة الأشعة تحت الحمراء فإن الضرر الكيميائي يقل ، ويصبح الضرر الحراري هو السائد .

علما إذن أن تأثير الأشعة تحت الحمراء على العين هو تأثير حراري ، وعندما تنفذ هذه الأشعة من النظارات ، وبنسبة كبيرة ، فإن أجزاء العين تمتصها بنسب متفاوتة ، وتسبب ارتفاعاً في درجة حرارة أجزاء العين ، خاصة



الصيادون في بلاد الاسكيمو يغطون وجوههم بقطعة من العظم أو الخشب وبها شقان صغيران أمام العينين لتلافي الأشعة فوق البنفسجية المنعكسة من سطح الجليد .

القرنية ، والقزحية ، ويظهر ذلك في شكل ألم شديد ، وإحمرار في العين .

إن العصب الحسي الذي ينتهي عند القرنية والقزحية حساس جدا لأي ارتفاع بسيط في درجة حرارة العين ، ويزداد الألم والضرر إذا ارتفعت درجة حرارة العين إلى ٤٧ درجة مئوية حيث يسبب تعتيما مؤقتا لعدسة العين حتى ولو كان التعرض لفترات زمنية قليلة .

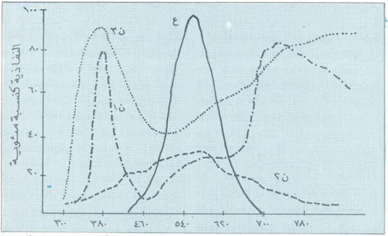
عمى الجليد :

هناك ضرر آخر يسمى عمى الجليد ، وهذا يحدث عندما تنظر عين الإنسان للجليد لفترة طويلة ، حيث إن سطح الجليد يعكس أكثر ما يكون الأشعة فوق البنفسجية لطيف الشمس ،

وتفسير ذلك أن أكثر الموجات فوق البنفسجية ضررا على العين تلك التي لها طول موجي يتراوح ما بين (٣٠٥ - ٣٢٠) نانومترا ، حيث إنها أكثر نفاذية عبر جدار القرنية من باقي الموجات فوق البنفسجية ومسببة ضررا كيميائيا يظهر على شكل تعتيم لشفافية السائل المائي للعين والعدسة البلورية لها .

هذا الضرر يعتمد على فترة التعرض التي يمكن أن تكون ما بين عدة دقائق إلى ثماني ساعات حسب طبيعة تكوين خلايا العين لكل انسان .

عندما يسقط ضوء شديد على العين ، فإن بؤبؤ العين يضيق كي يحدد كمية الضوء المناسبة للسقوط على الأجزاء الداخلية للعين ، تماما مثلما نفعل بآلة التصوير (الكاميرا) عند أخذ صورة تحت الضوء الشديد . لكن ذلك لا ينطبق على القرنية التي لا يحميها من أشعة الشمس إلا قفل الجفون أو تضييقها أكثر ، مثلما يفعل رجال الاسكيمو لتفادي الأشعة فوق البنفسجية المنعكسة من سطح الجليد عند سقوطها على العين وعلى أجزائها الداخلية .



(٢) يمثل المنحنى ع حساسية عين الانسان للطيف الشمسي ، والذي تصل إلى أكبر قيمة عند اللون الأخضر للطيف المرئي وإلى صفر عند طيف الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء ، أما المنحنيات ن ١ ، ن ٢ ، ن ٣ فهي نفاذية ثلاث نظارات شمسية مختلفة للطيف الشمسي .

الفيض الضوئي النسبي :

إذا اعتبرنا الفيض الضوئي الساقط على أجزاء العين هو حاصل ضرب كمية الضوء الساقطة عموديا مضروبا في مساحة بؤبؤ العين ، ورمزنا بالرمز (ف) للنسبة بين فيض الضوء الساقط على العين باستخدام النظارة ، والفيض بدون استخدام نظارة ، فإننا نجد أن النظارة تكون أداة جيدة لحماية العين إذا كانت هذه النسبة (ف) أقل من واحد صحيح . أما إذا كانت النسبة أكبر من واحد صحيح ، فإن النظارة في هذه الحالة تكون أداة ضارة للعين . في النظارات المثالية تكون هذه النسبة (ف) تساوي صفرا في المناطق فوق البنفسجية وتحت الحمراء لضوء الشمس . لكن ذلك لا يحدث حتى لأجود أنواع النظارات الشمسية . ويبين الجدول رقم (٢) قيم هذه النسب لبعض مناطق الأشعة فوق البنفسجية للثلاثة أنواع من النظارات السابق تحديد نتائجها من قبل ، وذلك في وقت الظهيرة عندما تكون الشمس متعامدة في السماء ، وفي الأوقات الأخرى التي تميل فيها الشمس إلى التعامد بزاوية قدرها ستون درجة . كما يتضح من الجدول اتساع قطر بؤبؤ العين عندما تقل كمية الضوء أثناء مرورها بالنظارات . وتتزايد نسبة الأشعة فوق البنفسجية في طيف الشمس في منتصف النهار عنها في أي وقت آخر وكمثال على ذلك فإن الأشعة التي لها طول موجي ل = ٣٠٠ نانومتر تكون في وقت الظهيرة عشرة أمثال وجودها في طيف الشمس عن وقت العصر مثلا ، أي الساعة الثالثة بعد الظهر .

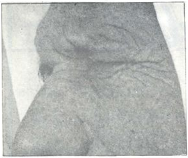
حماية العين :

عندما تظهر الشمس ساطعة وقت الظهيرة ، والسماء صافية تماما من الغيوم والسحب ، تكون شدة إضاءة الشمس كبيرة سواء في المناطق

الحارة أو على شواطىء البحار أو فوق الأسطح العاكسة لأشعة الشمس أو في مناطق باردة مغطاة بالثلوج ، ويلزمنا نظام وقائي كي نقلل من شدة أشعة الشمس الساقطة على أعيننا . فإذا استخدمنا نظارات شمسية لفترة طويلة فإنها تقلل كمية الموجات المرئية أكثر من تقليلها للموجات فوق البنفسجية وتحت الحمراء ، وهذا بالتالي يؤذي العين ويسبب لها أضرارا لسببين :

أولا : تزايد فتحة بؤبؤ العين كي يزيد من كمية الضوء المرئي المناسب للرؤية على الشبكية .

ثانيا : يتبع ذلك مع زيادة زمن التعرض أن تكون جرعة الموجات فوق البنفسجية وتحت الحمراء على أجزاء العين كبيرة وأكثر من ٢٠٪



تضيق الجفون عند النظر لأشعة الشمس القوية ، حتى تحمى العين من الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء .

تحمي العين تماما من أشعة الشمس ، ولهذا يجب تقليل استخدامها بقدر الإمكان وخاصة اذا كان ضوء الشمس ليس شديدا

أفكار الأمس

(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

مستقبل اللغة العربيّة *

لجبران خليل جبران
١٨٨٣ - ١٩٣١

إنّما اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الأمة ، أو ذاتها العامة ، فإذا هجعت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها ، وفي الوقوف التقهقر ، وفي التقهقر الموت والاندثار .

إذن فمستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن ـ أو غير الكائن ـ في مجموع الأقطار التي تتكلم اللغة العربية . فإن كان ذلك الفكر موجوداً كان مستقبل اللغة عظيماً كماضيها ، وإن كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر شقيقتيها السريانية والعبرانية .

ففي الجاهلية كان الشاعر يتأهب لأن العرب كانوا في حالة التأهب . وكان ينمو ويتمدد أيام المخضرمين لأن العرب كانوا في حالة النمو والتمدد . وكان يتشعب أيام المولدين لأن الأمة الإسلامية كانت في حالة التشعب . وظل الشاعر يتدرج ويتصاعد ويتلّون فيظهر آناً كفيلسوف ، وآونة كطبيب ، وأخرى كفلكي ، حتى راود النعاس قوة الابتكار في اللغة العربية فنامت، وبنومها تحول الشعراء إلى ناظمين والفلاسفة إلى كلاميين والأطباء إلى دجالين والفلكيون إلى منجمين .

إذا صحّ ما تقدّم كان مستقبل اللغة العربية رهْنَ قوة الابتكار في مجموع الأقطار التي تتكلمها ، فإن كان لتلك الأقطار ذات خاصة أو وحدة معنوية وكانت قوة الابتكار في تلك الذات قد استيقظت بعد نومها الطويل كان مستقبل اللغة العربية عظيماً كماضيها ، وإلاّ فلا .

٢ ـ وما عسى أن يكون تأثير التمدين الأوربي والروح الغربية فيها ؟

إنما التأثير شكل من الطعام تتناوله اللغة من خارجها ، فتمضغه وتبتلعه ، وتحول الصالح منه إلى كيانها الحي ، كما تحول الشجرة النور والهواء وعناصر التراب إلى أفنان فأوراق فأزهار فأثمار . ولكن إذا كانت اللغة بدون أضراس تقضم ولا معدة تهضم ، فالطعام يذهب سدى ، بل ينقلب سماً قاتلا .

وأما الروح الغربية فهي دور من أدوار الإنسان وفصل من فصول حياته . وحياة الانسان موكب هائل يسير دائماً إلى الأمام ، ومن ذلك الغبار الذهبي المتصاعد من جوانب طريقه تتكوّن اللغات والحكومات والمذاهب . فالأمم التي تسير في مقدمة هذا الموكب هي المبتكرة ، والمبتكر مؤثّر ، والأمم التي تمشي في مؤخرته هي المقلدة ، والمقلد يتأثر ، فلما كان الشرقيون سابقين والغربيون لاحقين كان لمدنيتنا التأثير العظيم في لغاتهم ، وها قد

أصبحوا هم السابقين ، وأمسينا نحن اللاحقين ، فصارت مدنيتهم ـ بحكم الطبع ـ ذات تأثير عظيم في لغتنا وأفكارنا وأخلاقنا .

بيد أن الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه ، فيمضغونه ويبتلعونه محولين الصالح منه إلى كيانهم الغربي ، أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ، ولكنه لا يتحول إلى كيانهم ، بل يحولهم إلى شبه غربيين ، وهي حالة أخشاها وأتبرم منها ، !

إن روح الغرب صديق وعدو لنا . صديق إذا تمكنا منه ، وعدوّ إذا تمكّن منا . صديق إذا فتحنا له قلوبنا ، وعدوّ إذا وهبنا له قلوبنا . صديق إذا أخذنا منه ما يوافقنا ، وعدوّ إذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه .

٣ ـ وما يكون تأثير التطور السياسي الحاضر في الأقطار العربية ؟

قد أجمع الكتاب المفكرون في الغرب والشرق على أن الأقطار العربية في حالة من التشويش السياسي والإداري والنفسي ، ولقد اتفق أكثرهم على أن التشويش مجلبة الخراب والاضمحلال .

أما أنا فأسأل : هل هو تشويش أم مَلل ؟ إن كان مللاً فالملل نهاية كل أمة وخاتمة كل شعب ، الملل هو الاحتضار في صورة النعاس ، والموت في شكل النوم .

وإن كان بالحقيقة تشويشاً فالتشويش في شرعي ينفع دائماً ، لأنه يبيِّن ما كان خافيا في روح الأمة ، ويبدل نشوتها بالصحو ، وغيبوبتها باليقظة ، ونظير عاصفة تهزّ بعزمها الأشجار لا لتقلعها ، بل لتكسر أغصانها اليابسة وتبعثر أوراقها الصفراء . وإذا ما ظهر التشويش في أمة لم تزل على شيء من الفطرة فهو أوضح دليل على وجود قوة الابتكار في أفرادها والاستعداد في مجموعها .

إذن فتأثير التطور السياسي سيحوِّل ما في الأقطار العربية من التشويش إلى نظام ، وما في داخلها من الغموض والإشكال إلى ترتيب وألفة ، ولكنه لا ولن يبدل مللها بالوجد وضجرها بالحماسة .

٤ ـ هل يعمّ انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتُعلّم بها جميع العلوم ؟

لا يعمّ انتشار اللغة في المدارس العالية وغير العالية حتى تصبح تلك المدارس ذات صبغة وطنية مجردة ، ولن تعلّم بها جميع العلوم حتى تنتقل المدارس من أيدي الجمعيات الخيرية واللجان الطائفية والبعثات الدينية إلى أيدي الحكومات المحلية .

ففي سوريا ـ مثلاً ـ كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضوِّرون ، ولقد أحيانا ذلك الخبز ولما أحيانا أماتنا . أحيانا لأنه أيقظ جميع مداركنا ونبه عقولنا قليلاً ، وأماتنا لأنه فرّق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا ، حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة ، مختلفة الأذواق ، متضاربة المشارب ، كل مستعمرة منها تشدّ في حبل إحدى الأمم الغربية ، وترفع لواءها ، وتترنم بمحاسنها وأمجادها .

وقد يكون ميلنا السياسي إلى الأمة التي نتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة عرفان الجميل في نفوس الشرقيين ، ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجراً من جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى ؟ ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة ؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يوماً وتميتنا دهراً ؟

نعم سوف يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتعلّم بها جميع العلوم ، فتتوحّد ميولنا السياسية ، وتتبلور منازعنا القومية ، لأنه في المدرسة تتوحد الميول ، وفي المدرسة تتجوهر المنازع ، ولكن لا يتم هذا حتى يصير بإمكاننا تعليم الناشئة على نفقة الأمة . لايتم هذا حتى يصير الواحد منا ابناً لوطن واحد بدلاً من وطنين متناقضين أحدهما لجسده والآخر لروحه ، لا يتم هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا ، لأن المتسوّل المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدق الأريحي . ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب ، فالموهوب مسيَّر دائماً والواهب مخيَّر أبداً .□

* من مجلة الهلال المصرية عام ١٩٢٩ .

فن السيرة من الفنون التي يقبل عليها القراء للمتعة المتحصلة من قراءتها ، لأنها تكشف عن جوانب متعددة من حياة العظماء والنابهين في مختلف الميادين

لقد حظى هذا الفن باهتمام المبدعين العرب الذين أضافوا للمكتبة العربية نماذج متميزة من السير ، لكنه اهتمام لم يأخذ مداه .

فن السيرة الذي أهملناه

بقلم : الدكتور علي شلش

نشأ أدب السير والتراجم في أوربا قبل أن ينشأ عندنا . وكانت أولى ثماره وأقدمها كتاب « قصص حياة متماثلة » الذي ألفه المؤرخ اليوناني « بلوتارك » (٥٠ - ١٢٥ تقريبا) ، وبه أصبح أشهر أديب إغريقي في عصر النهضة الأوربية ، فقد ترجم إلى لغات العصر الأساسية ، وأثر تأثيرا كبيرا في مجرى الأدب و « الدراما » والسير . وحين نقله « توماس نورث » - عن الفرنسية - إلى الانجليزية ، ونشره في لندن عام ١٥٧٩ ، اختصر عنوانه إلى « قصص حياة » أو « حيوات » بمعنى أدق . ولكن هذا العنوان المختصر نفسه كان قد بدأ في الشيوع في الانجليزية قبيل نقله إليها . ففي عام ١٥٣٥ نشر الكاردينال مورثون « حياة ريتشاد الثالث » متأثرا بنموذج بلوتارك فى اللاتينية . ثم توالى ظهور عناوين السير والتراجم في صورة « حياة فلان » أو « حياة مجموعة » ، ابتداء من « حياة هنري الثامن » لفرانسيس بيكون عام ١٦٢١ ، إلى « حياة وليم بليك » لمونا ويلسون عام ١٩٢٧ ، مرورا بعشرات السير الأخرى المتشابهة العنوان ، ومنها « حياة جونسون » الشهيرة لجيمس بوزويل عام ١٧٩١ .

لكن الأهم من هذا كله أن كتاب بلوتارك وضع نموذجا لما يجب أن تكون عليه السيرة الأدبية ، فقد جمع فيه بعض أعلام اليونان والرومان في التاريخ والسياسة ، وتناول حياة كل منهم بأسلوب قصصي سردي بسيط ، مع إيراد بعض النوادر والحكايات عنه ، واستخلاص مغزى أخلاقي من حياته ، فكأنه مزج التاريخ بالأدب والأخلاق ، وكأنه أقام نموذجه فى كتابة

السير على هذا المزيج ، مع التركيز على الأعلام والمشاهير من ناحية ، وبيان الخصائص الايجابية ـ أو الحسنات ـ في الشخصية من ناحية أخرى ، مع غض النظر عن خصائصها السلبية .

ظل هذا المفهوم « البلوتاركي » سائدا في السير والتراجم حتى نهاية عصر النهضة . وحين استقرت فكرة الفرد ، كأساس للمجتمع في ذلك العصر ، وجدت في مفهوم بلوتارك سندا كبيرا ، بل إن هذا السند كان قد قوي في العصور الوسطى ، قبل عصر النهضة ، حين ازداد الطلب على السير والتراجم بصفتها نموذجا للفضيلة والقداسة والعظمة في القديسين والملوك .

تطور فن السيرة

ولكن الحال مالبثت أن تبدلت بعد عصر النهضة ، وبداية العصر الحديث ، في القرن الثامن عشر . ومع نشأة الطبقات الجديدة ، وزيادة التعليم ، وإقبال الناس على القراءة ، بتأثير ضغوط السياسة والاقتصاد ، تطور مفهوم بلوتارك في كتابة السير ، ولم تعد حياة القديسين والملوك وأبطال التاريخ وحدها في الميدان ، بل تفكك التركيز على الخصائص الإيجابية في الشخصية ، وبدأ البحث في أغوارها ، والرجوع إلى آثارها الخارجية ، مثل الخطابات واليوميات والمذكرات والوثائق . وساهم الخيال مع العقل في رسم صورة هذه الشخصية ، وعصرها ، وسلوكها ، والبشر الذين أحاطوا بها . وحين أصدر « صامويل جونسون » كتابه « حياة الشعراء الانجليز » ، في الفترة من ١٧٧٩ إلى ١٧٨١ ، نادى في مقدمته بضرورة الصراحة في تصوير حياة البشر ، بحيث تخرج الحقيقة عارية غير مزوقة . وكان يرى أن حياة أي شخص تستحق التسجيل ، مهما كان نصيبها من العظمة . وهذا ما أخذ به « جيمس بوزويل » حين كتب سيرة « جونسون » نفسه بعد سنوات .

تنوعت السير منذ ذلك التاريخ تنوعا كبيرا ، وانتفعت كثيرا بتطوير العلوم الانسانية ومناهجها ، لاسيما علم النفس ، وحققت قدرا لا بأس به من الموضوعية والعقلانية مع المهارة الفنية وخفة الروح ، على يد رجل مثل « لينتون ستراتشي » (١٨٨٠ - ١٩٣٢) في بريطانيا الذي يعد مؤسس السيرة الحديثة . كما حققت قدرا آخر من الفنية القائمة على الجمال ، ونسبية الحقيقة ، والإطار القصصي ، والبناء الدرامي على يد رجل آخر مثل « أندريه موروا » (١٨٨٥ - ١٩٦٧) في فرنسا .

وهكذا نشأ فن السيرة في حضن التاريخ ، وظل مختلطا به قرونا عدة ، ثم استقل عنه ـ كما رأينا ـ وتفرع إلى جملة فروع . ومع ذلك ، ليس من السهل أن يتخلص من التاريخ بمعناه المجرد ، من حيث هو تراكم زمني ، وسلسلة من الوقائع والأحداث . وليس من الممكن أن تتحرر السيرة من الإطار الزمني ودورة الحياة ، ولا من التعامل مع الوقائع والأحداث العامة .

نشأة السيرة في الأدب العربي

عند هذا الحد يمكن أن نتساءل :
كيف نشأت السيرة في أدبنا إذن ؟

لقد حاول « أحمد أمين » أن يجيب عن هذا السؤال في مقال نشره في أوائل الأربعينيات ، وضمه إلى الجزء الثاني من كتابه الضخم « فيض الخاطر » بعنوان « تراجم الرجال في الأدب العربي » . وفي هذا المقال ذكر « أحمد أمين » أن تراجم الرجال تشغل في آداب اللغة العربية « أبين مكان وتستغرق أكبر حيز » ، فأكثر ما نعرفه من ضروب التأليف القديم في الأدب نوعان : نوع تأسّس على تراجم الرجال ، مثل كتب : الأغاني ، معجم الأدباء ، طبقات الشعراء ، يتيمة الدهر . ونوع آخر تأسس على المختار من المنظوم والمنثور ، مثل كتب : البيان والتبين ، الكامل ، العقد الفريد ، والسبب في

ظهور كلا النوعين ، في رأيه ، هو أنها « أسهل الطرق على المؤلف » وكلاهما أيضا « نوع من التأليف الساذج ، وأول درجة في سُلّم التأليف » . أما الباعث على تأليف تراجم الرجال فكان دينيا ، جاء بسبب الرغبة في تسجيل الأحاديث النبوية وسير النبي والصحابة . فكأن الأدباء - كما يقول - قلدوا المحدِّثين - جامعي الأحاديث - الذين سبقوهم إلى هذا العمل . وبلغ تأثرهم بهؤلاء المحدثين أنهم قلدوهم في صيغ التعبير .

ومن أمثلة هذه التراجم ما فعله « ابن خلكان » في كتابه « وفيات الأعيان » حين ترجم لكل عين من أُولي النباهة ، و « ياقوت الحموي » في كتابه « معجم الأدباء » حين اختص الأدباء بالسير ، « والثعالبي » في كتابه « يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر » حين جمع ما أمكنه من تراجم شعراء عصره . ولكن هذه الأمثلة وغيرها لم تسلك طريق البحث العلمي ، فوضعت الأساطير إلى جانب الحقائق ، وذكرت الحوادث على عواهنها بغير تمحيص أو تحقيق ، وسردت الوقائع دون تقييم لموضوع نبوغ الذين ترجموا لهم على حد تعبير « أحمد أمين » .

وحاول « إحسان عباس » أن يدرس الموضوع على نحو أعمق ، فأخرج كتابا صغيرا قيما في أوائل الخمسينيات ، بعنوان « فى السير » تعرض فيه للسير قديما وحديثا عندنا وعند غيرنا . وأجاب عن سؤالنا السابق بقوله :

« نستطيع أن نقرر في غير تعميم أن السيرة التاريخية ظلت حتى العصر الحديث أقوى أنواع السير عند المسلمين . . . (وكان مؤرخوهم يعدونها جزءا من التاريخ) ، بل يرون أن التاريخ ليس إلّا سير الحاكمين » وقال في موضع آخر من كتابه :

« ظل أكثر السير في العالم الإسلامي مجموعة من الأخبار المأثورة ، أو المشاهدات ، ليس فيها وحدة البناء ولا الإحساس بتطور الزمن ، ولا تتبع مراحل النمو والتغير في الشخصية المترجمة . وبالاختصار ظلت السير دون شكل تام ، ودون محتوى وافٍ كامل حتى العصر الحديث ، حيث واجهت بعض التغير في القاعدة والطريقة . وكان ذلك بتأثير من الثقافة الغربية » .

هذه الملاحظات والأحكام على السير والتراجم في الأدب العربي القديم صحيحة ، لا جدال في سلامتها . ومع ذلك ظلم « أحمد أمين » و « إحسان عباس » قدامى المترجمين وكتّاب السير ، حين لم يقارناهم بنظرائهم في أوربا خلال العصور القديمة . فقدامى الأوربيين من كتاب السير والتراجم ، ابتداء من « بلوتارك » حتى أوائل عصر النهضة ، وقعوا في الأخطاء نفسها تقريبا ، ولم يكونوا أحسن حالا من قدمائنا . ولكن من الواضح أن نشأة السير والتراجم عندنا كانت كنشأتها عند الأوربيين ، أي أنها نشأت في حضن التاريخ ، أيّا كانت كفاءة التاريخ ، ثم ازدهرت في حضن الدين ، مثلما حدث في العصور الوسطى الأوربية حين شاعت تراجم القديسين .

أنواع السيرة

أما السيرة العربية الحديثة فقد تأثرت بالسيرة الأوربية كما لاحظ الدكتور عباس ، ولكن تقسيمه لها عام جدا ، فهو يقسمها إلى نوعين :

السيرة التاريخية ، ومن أمثلتها : « حياة محمد » لمحمد حسين هيكل و « محمد على الكبير » لمحمد شفيق غربال .

والسيرة الأدبية ، ومن أمثلتها : « حياة الرافعي » لمحمد سعيد العريان ، « العبقريات » للعقاد ، « جبران خليل جبران » لنعيمة ، « منصور الأندلسى » لعلي أدهم .

ويكمن سر التعميم في هذا التقسيم فيما يسمى « السيرة التاريخية » التي لا أعتقد أنها موجودة ، فهناك سيرة ، وهناك أيضا تاريخ ، وإذا كانت السيرة قد نشأت مختلطة بالتاريخ فهذا

ليس عيبا ، فضلا عن أنها لا تستطيع الاستغناء كلية عن التاريخ ، كما أشرنا من قبل . وإذا كان النبي (ص) شخصية تاريخية فهكذا كان محمد علي ، والرافعي ، وجبران ، ومنصور الأندلسي ، أبطال عبقريات العقاد . فكل هؤلاء أشخاص تاريخيون . وإذا كان التناول التاريخي سلاحا مهما من أسلحة مؤلف السيرة ، فليس معنى ذلك أن يستغني عن خياله عند الفهم والتقدير والتعبير . وإذا كان التناول الأدبي سلاحا مهما آخر ، فليس معنى ذلك أن يستغني مترجم الحياة عن عقله أو عن الحقائق الجافة عند التقييم والتقدير . وبذلك نستطيع أن نعمم فنقول :

كل السير تاريخية وأدبية في آن واحد ، مادامت ليست بحثا في التاريخ أو الأدب ، وما دامت - أيضا - عن رؤية لحياة إنسان ما ، خطيرا أو حقيرا ، أي أنه لا توجد سيرة تاريخية ، وإنما يوجد كتاب تاريخي خال من عناصر الأدب ، ولا توجد أيضا سيرة أدبية ، لأن السيرة أدب مبني على التاريخ العام أو الخاص ، أو كليهما معا ، وإنما توجد في النهاية سيرة جيدة وأخرى رديئة ، سيرة فنية وأخرى غير فنية ، سيرة تفسيرية وأخرى « سيكلوجية » ، وهكذا .

غير أننا نتفق بعد ذلك مع الدكتور عباس في كثير من تحليله للسير التي ظهرت في أدبنا الحديث والحكم عليها . فهو يرى أن سيرة الرافعي « للعريان » ينقصها التمشي مع حركة النمو والتطور في البناء ، والتحرر من سلطان الإعجاب والتلمذة ، وعدم الاطلاع على بعض الوثائق المهمة مثل رسائل الرافعي « لمحمود أبي رية » . وهو يرى أن العقاد « حَدَّ من حريته في الكتابة ثلاث مرات : مرة حين افترض القداسة فيمن يترجم لهم ، وحاول أن يبرر ما يحسبه الناس خطأ . ومرة أخرى حين اختار أن يتحدث عن العباقرة لا عن الناس العاديين . وثالثة حين اختار للكتابة شخصيات لا يملك الشواهد الدقيقة عنها ، فإذا وجدها وجد الاضطراب الكثير . ونجم عن ذلك أنه لم يكتب سيرة ، وإنما كتب فصولا ، بعضها يتميز بالنظر الدقيق النافذ ، وبعضها يعتمد على قوة الذكاء في الفحص والتبرير ، كما هي الحال في كتابيه « عبقرية محمد » و « عبقرية عمر » . ولكن العاطفة الدينية قد حصرته في دائرة ضيقة . فليس هو العقاد الناقد الطليق » .

ويخرج الدكتور عباس من دراسته لعبقريات العقاد بأنها ليست سيرا بالمعنى الدقيق ، ولكنها تفسير لبعض مظاهر الشخصيات الكبيرة ، والأحداث ، والأقوال المتعلقة بها ، على قاعدة شبيهة بالتحليل النفسي . مع لباقة في العرض ومهارة في اللمح والتفسير ، دون استقصاء أو تناول للمتعارف والمشهور بتفسير جديد . ولكنه يرى أن كتاب العقاد عن « سعد زغلول »كان أقرب كتبه إلى السيرة الصحيحة .

شيء واحد يدعو إلى الاختلاف هنا ، هو قوله : إن « العبقريات » ليست سيرا بالمعنى الصحيح ، وأن السيرة بمعناها الصحيح هي سيرة سعد زغلول . ولعل الأصح أن « العبقريات » سير ضعيفة ، وأن سيرة سعد زغلول قوية ، للأسباب التي ذكرها الدكتور عباس ، لأن السيرة مثل « فن رسم الوجوه -por trait » كما قال « اندريه موروا » ذات مرة ، أي أنها رؤية شخصية لبطلها أو صاحبها ، ولكنها رؤية فنية أيضا ، مبنية على التاريخ العام ، أو الشخصي ، أو كليهما معا ، كما سبق أن أشرنا . وهي كذلك رؤية موثقة بالأدلة والقرائن والشواهد والمستندات . وبهذا المعنى تصبح « العبقريات » سيرا ، ولكنها سير ضعيفة

وينطبق ماذكرناه الآن على « سيرة جبران » التي نشرها « ميخائيل نعيمة » عام ١٩٣٤ . فهي عند المؤلف نموذجية ، وبها « اكتمل للسيرة وجودها في الأدب العربي الحديث من حيث الغاية والتطبيق » ، وإذا وافقنا على الاكتمال من حيث

الغاية ، فلا يمكن مد الاكتمال إلى التطبيق ، لأن « نعيمة » أضعف السيرة بالتركيز - ربما دون أن يدرى - على مظاهر الضعف في شخصية جبران ، حتى بدا الرجل كريها وانتهازيا وغشاشا ومتناقضا . ولم يعوضه « نعيمة » إلا في أدبه وكتاباته ، فضلا عن أنه لم يستقص علاقته الخاصة ببعض خاطبي صداقته ، مثل « مَيّ زيادة » في مصر ، ولم يتتبع النمو والتطور والتغير في الشخصية مع مراحل التقدم في السن ، أو « تأثير الأحداث في الخارج والداخل على نفسية صاحبها » وهما خاصيتان لاحظ المؤلف وجودهما في السير الجيدة . ومع ذلك تظل سيرة جبران هذه من أفضل السير العربية الحديثة .

لماذا تدهور الاهتمام بالسير ؟

مر على ظهور هذه السيرة الجيدة نسبيا أكثر من نصف قرن ، دون أن تتلوها سيرة أخرى أفضل منها ،أو حتى من طرازها ، فماذا حدث ؟ هل أجدبت القرائح العربية المهتمة بهذا الفن العريق في أدبنا ؟

لقد أشار الدكتور إحسان عباس في كتابه المذكور إلى العديد من العقبات والمشكلات التي تواجه مؤلف السيرة ، لا سيا في جمع المادة وتفسير أجزائها . وأضاف قائلا : « لا أظنني متشائما أو مغاليا حين أقرر أن كتابة سيرة لأحد الأقدمين تعد أمرا معجزا » ، لأن الصدق التاريخي يكاد يكون مستحيلا إذا اكتفينا بمجرد الأخبار المتناثرة عن الشخص أو حياته . ثم أشار إلى قلة اهتمام المحدثين بالوثائق ، وإن كان « قويَ الميل أخيراً عند السياسيين أو المتصلين بحياة السياسة ، وحياة الرقص والغناء إلى كتابة مذكراتهم » .

وإذا كانت كتابة سير الأقدمين على النحو الصحيح قد صارت اليوم ضربا من المعجزات ، بسبب فقر المادة الخام ، كما أشار الدكتور عباس بحق ، فلماذا لاننتج سيرا للمحدثين ؟ لقد مضى نحو ربع قرن على وفاة العقاد مثلا دون أن تظهر له سيرة ، وكذلك الحال مع طه حسين وكثيرين آخرين من صناع نهضتنا الفكرية الحديثة ، فضلا عن أبطال تاريخنا الحديث . فهل يرجع هذا النقص إلى فقر المادة الخام أو قلة اهتمام المحدثين بالوثائق ؟

ربما يكون من المفيد ، قبل الإجابة عن هذا السؤال ، أن نعود إلى الوضع الأوربي والأمريكي المعاصر في السيرة . فمع أن قراء هذا اللون من الأدب متوافرون ، والمطابع لا تكف عن إخراج السير ، في أوربا وامريكا ، إلا أنه من الملاحظ أن كبار مؤلفي السيرة المعاصرين يشكون من بعض الظواهر المعوقة لعملهم . وقد صدر حول هذا الموضوع كتاب مهم عن « دار ماكميلان » في لندن قبل سنتين ، بعنوان « حرفة السيرة الأدبية » وفيه جمع محرره « جيفزى مايرز » ١٣ فصلا كتبها ثلاثة عشر مؤلف سيرة من بريطانيا وأمريكا ، من بينهم ثمانية أساتذة جامعيين ، واثنان محترفان متفرغان للسيرة ، هما « إليزابيث لونجفورد » ، « ونايجل هاميلتون » الإنجليزيان . ويدور الكتاب كله (٢٥٣ ص) حول المصاعب العملية التي تواجه كاتب السيرة ، وأهمها المال والمادة الخام والوقت .

وكان مما رواه محرر الكتاب أنه أنفق ٦٠٠٠ دولار على السيرة التي ألّفها عن الروائي والناقد الفنان الإنجليزى « ويندام لويس » (١٨٨٢ - ١٩٥٧) حتى ظهورها عام ١٩٨٠ ، دون أن يعود عليه منها سوى حقوق النشر . وشكا « نايجل هاميلتون » من أنه اضطر إلى الانتظار خمس سنوات قبل الشروع في السيرة التي ألّفها عن الأديبين الالمانيين « هاينريك مان » (١٨٧١ - ١٩٥٠) وأخيه « توماس » (١٨٧٥ - ١٩٥٥) ، لأنه لم يجد ناشرا امريكيا يساهم في نفقات إعداد السيرة ، ولم يكن النشر في انجلترا وحدها يؤمنه اقتصاديا .

تأتي بعد عقبة النفقات هذه ، التي يتكبدها

مؤلف السيرة ، عقبة المادة الخام والحصول على مفرداتها المتعددة ، لاسيما الاطلاع على الأوراق الخاصة لموضوع السيرة . ومؤلف السيرة السعيد هو من تشمله أسرة بطلها بالعطف والمساعدة فتمكنه من قراءة الأوراق الخاصة ، مثلما حدث مع السيدة « لونجفورد » التي مكنتها أسرة الشاعر والمؤرخ السياسي الانجليزي « ويلفرد بلنت » (١٨٤٠ - ١٩٢٢) من الاطلاع على كل متعلقاته عند إعدادها لسيرته التي ظهرت عام ١٩٧٩ . وفي بعض الأحيان تزيد المادة الخام عن حاجة السيرة ، مع أن معظم السير الحديثة تميل إلى الطول .

وأخيرا تأتي مشكلة الوقت ، فمؤلف السيرة يصرف عادة وقتا طويلا في مقارنة اليوميات والمذكرات ، وما يظهر فيها من وقائع ، بشهادة الشهود وغيرهم من المعاصرين لهذه الوقائع . وكان مما روته « ديردرى بير » التي ألّفت سيرة الأديب الايرلندي الأصل « صامويل بيكت » أنها لم تقبل التسليم بأي حقيقة - مختلف عليها - عن « بيكت » إلا بعد الرجوع إلى ثلاثة مصادر على الأقل . وذكر « رونالد هايمان » مؤلف سيرة



الأديب الألماني « برتولت بريخت » (١٨٩٨ - ١٩٥٦) أنه اكتشف كذب بريخت في كثير مما رواه عن نفسه ، وأن كثيرين من شهود الوقائع الكاذبة أصروا على تجاهل كذبها ، مما سبب له ألما وضياعا للوقت . وأضاف « فيليب نايتلي » الذى كتب سيرة ضابط المخابرات البريطانية « ت . أ . لورنس » (١٨٨٨ - ١٩٣٥) أنه اكتشف أيضا كذب لورنس فيما ادعاه عن الاعتداء عليه جنسيا فى بلدة درعا السورية .

ومع هذا كله يسلّم كتاب السير المشاركون فى هذا الكتاب بأنه لاتوجد حقيقة نهائية أو مطلقة ، وسواء كتب مؤرخ السيرة ٣٠٠ صفحة أو ثلاثة آلاف فسيظل الشك في صحة الوقائع قائما ، ويظل هناك ما يمكن حذفه والتخلص منه ، لعدم أهميته .

هذه العقبات أو المشكلات الثلاث هي أهم ما يواجه مؤلف السيرة الأدبية المعاصر في أوربا وأمريكا فى تناوله لأشخاص محدثين أو معاصرين . وأعتقد أنها - أيضا - أهم ما يواجه مؤلف السيرة عندنا اليوم ، مع الفرق في الدرجة ، بالطبع . فالحصول على المعلومات - مثلا - في بلادنا اليوم أشق وأصعب . وصرف الوقت في تجميع المادة الخام وإجراء الجانب البحثي من السيرة أصبحا يشكلان عندنا تضحية جسيمة ، لايقدر عليها إلا من أوتى المال الوفير ، والصحة الجيدة ، والارادة القوية !

وإذا كانت هذه العقبات مثبطة للعزائم ، فأولى بنا أن نيسّر السبل على الراغبين في العمل بهذا الميدان ذى التضحيات . ولعل أولى سبل التيسير هي أن نشجع تأليف السير عن طريق المسابقات الدورية ، والمنح . وبغير هذا التشجيع الذي يجب أن يتكافأ مع الجهد والتضحية ، سوف تظل السيرة جنسا أدبيا مهملا ، وربما صارت ديناصورا آخر فى حكم الانقراض . □



قضية

المعجم النفسي والنص الأدبي

بقلم : الدكتور كمال نشأت

« يختار الكاتب أسلوبه ومفرداته ، وعالمه الذي يقدمه لنا ، وهذا الاختيار في حد ذاته له دلالة نفسية عن أعماق الكاتب التي يحاول أن يخفيها عنا . وهذه محاولة لصياغة مصطلح جديد ، لكي نقرأ ونحلل أدوات الكاتب نفسياً ، لنتعرف على ذاته الخاصة جداً . »

يشكل الشاعر أو الكاتب من خلال اختيار ألفاظ معينة من لغته القومية ما يسمى أسلوب تعبير ، يخضع أول ما يخضع لخصوصية شخصية فى طريقة تركيب الجملة ، وهو دون أن يدرى يختار أيضا ألفاظا معينة ، يكثر دورانها في أسلوب تعبيره ، وهى ألفاظ قريبة الصلة بنفسه ، وقد سمى العلماء والنقاد هذه الألفاظ المتكررة فى شعر الشاعر (المعجم الشعري) ، ويعتبر هذا (المعجم الشعرى) أضواء كاشفة مسلطة على نفسية الأديب الشاعر . ولقد قمت أنا فى دراستى لشعر « أحمد زكي أبو شادي » في كتابي (أبو شادى وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث) بعملية مراجعة إحصائية ، اكتشفت فيها أن من الألفاظ الأكثر دورانا في شعره كانت ألفاظ « اليتم وما يشتق منه ، والحرق وما يشتق منه ، والعذاب وما يشتق منه » . ويوضح الأصول النفسية التى على أساسها تم اختيار هذه الألفاظ لاشعوريا والتى تشكل بعض معجمه الشعرى علمنا أنه نشأ يتيما بعد موت أمه ، وقد سأله أحد الصحفيين عن السر في الحزن الذى يغلف شعره فكانت إجابته : « ربما يرجع ذلك إلى الفرقة بين الوالدين وما تركته في نفسي من أثر » .

إن (المعجم الشعرى) وثيقة نفسية تستبطن دخيلة الشاعر ، وهو قرين « الفلتة اللسانية » التى يتلفظ بها الإنسان دون إرادة منه ، فتكشف عن أشياء كامنة في نفسه ، وإن حاول إخفاءها . وطبيعي أن يعتمد عليها الأطباء النفسيون في معالجة مرضاهم .

ولما كان تعامل الشاعر أو الكاتب مع اللغة تعاملا شخصيا قال القائل: (الأسلوب هو الرجل)، ذلك أن اللغة في القاموس ألفاظ ميتة، قابعة في وجودها الفردي المنعزل، وهى تكتسب حياتها حينما تكون لبنة في معمار لغوي هو الجملة التعبيرية التي يشكلها الشاعر أو الكاتب، فتحمل بصمات نفسه، وطبيعة مزاجه، لذلك كان من العسير نسبة الكتابة الأدبية عامة إلى آخرين. وتحقيق الذات في الأسلوب، وطبعه بطابع الشخصية التى تكتبه يجعلك - وأنت القارىء المتذوق لأساليب الكتابة - تفرق بين مقال كتبه طه حسين ومقال كتبه العقاد ومقال كتبه زكي مبارك. فطه حسين صاحب نفس هادئة، وروح رضية، ودراسته للغة الفرنسية قد طبعت أسلوبه باسترسال موسيقي، يظهر في تقطيع الجملة فقرات منغمة. ولأصالة هذا الطابع التنغيمي لاتجد فرقا بين أسلوبه حين تقرؤه وأسلوبه حين تستمع إليه محاضرا. أما العقاد فهو صاحب مزاج حاد، وقد كانت نشأته الأولى المكافحة ذات أثر في نفسه المتوترة التي كانت صاحبة كبرياء شديد. من هنا كانت عصبيته وكبرياؤه قرينة أسلوبه الذى يحمل طابع القوة، ولصحوة وعيه وعمق إدراكه كان هذا المنطق القوي الصارم الذي استعلن به أسلوبه.

أما زكي مبارك فهو فلاح «سنتريس» الأصيل، أخذ من أصوله الريفية سماحة الطبع، وبساطة الفطرة، فكان هذا الأسلوب الواضح الذى يدير الأسئلة ويجيب عنها، فيشى بعدم الثقة في تلك النفس التى ارتدت صور الغرور المبالغ فيه. وقراؤه يعرفون شطحاته الكثيرة التي يزعم فيها أنه أشعر الشعراء، وأكتب الكتّاب على سطح الأرض، وربما خففت من وقع هذا الغرور على قرائه روحه المصرية التى عرفت بخفة ظل فتحت له قلوب الناس.

وإلى جانب هذا (المعجم الشعرى) الذى أشرنا إليه، الدال على نفسية الشاعر، وإلى جانب أسلوب الشاعر أو الأديب الخاص به الذى على أساسه نستطيع معرفة كتاباته، ولو لم يكن اسمه مقرونا بها، هناك ما أستطيع تسميته (المعجم النفسي) للشاعر والأديب الكاتب، وهو مصطلح سبق أن أشرت إليه في مقال من مقالاتي، وإنني أدعو الشعراء والكتّاب والنقاد لمناقشته، حتى يأخذ مكانه فى الدراسات الأدبية إن اتفقت عليه الآراء.

فموقف قاصّ أو روائى من المرأة نتيجة لتجربة خاصة مؤلمة مرت به، بحيث لاترى المرأة في أدبه القصصي أو الروائى إلا خائنة أو مرائية أو عديمة الأخلاق، يشكل ظاهرة تندرج تحت المصطلح المقترح، كذلك ظاهرة اللون الأبيض فى كتاب (الأسطورة والرمز) لجبرا ابراهيم جبرا التى تحكى عن الشاعر «دوبينيه» من أنه مرض وهو صبي صغير بحمى شديدة، فتخيل امرأة مسربلة في بياض، تقبله قبلة باردة، فركبه رعب شديد، فمن هنا ارتبط اللون الأبيض لديه بالرعب والخوف، بينما البياض عند كل الناس الذين لم يمروا بمثل تجربته لايبعث فى نفوسهم إلا الراحة والهدوء. وهكذا شكلت هذه التجربة ظاهرة تدخل في معجمه النفسى، وكذلك ظاهرة (التصغير) للتحقير المعروفة في شعر المتنبي، ما سببها؟ ولماذا تكثر في شعره دون شعر الشعراء جميعا؟

إنها في حالة الإجابة عن هذه الأسئلة تدخل في (المعجم النفسي) للمتنبي، ويكون شأنها في الدراسة الأدبية شأن (المعجم الشعري) تماما. ويطول بنا الكلام إن رحنا نتتبع بعض الظواهر التي تدخل فى (المعجم النفسي) للشاعر أو الأديب، لكننا هنا سنذكر عددا قليلا منها للتدليل على أن هذه الظواهر النفسية أصلًا يجب أن يوضع لها مصطلح، يكون عنوانا لها كبقية المصطلحات الأدبية. من هذه الظواهر

مثلا ظاهرة الألوان وكثرة ذكرها في شعر لوركا ، وصور الضوء الكثيرة في شعر شاعر الطبيعة ورد ورث ، وتصوير الالمان تصويرا يحط من شأنهم ، ويدل على كراهية شديدة في قصص « كاترين آن بورتر » . ولعلى استطعت في حدود قدرتي المتواضعة أن أعلّل ظاهرة « المطر » في شعر السياب ، والتحام الجمال واللذة والموت في شعر يوسف الصائغ في بعض دراساتي .

« إن المعجم الشعري » و« المعجم النفسي » والأسلوب الشخصي الدال على كاتبه ، كل ذلك يرجع إلى « الذاتية » التي تؤكد الملامح الخاصة للشاعر أو الأديب ، والتي بدونها تفتقد الأصالة ، ويصبح النص الأدبي مشاعا مثل قولة (السلام عليكم) التي يقولها كل الناس .

فالذاتية وظهورها في العمل الأدبي - كما نعرف جميعا - هي الطابع الذي لا يقوم أدب أو فن إلا به ، من هنا سقط أدب التقليد وأدب « الموضة » المتابع للتيارات السائدة ، ومن هنا كان الفارق بين ذاتية الأدب والفن وموضوعية العلم ، وعلى أساس من هذه الذاتية الشاملة التي تتضح في (المعجم الشعرى) و (المعجم النفسي) الذى نقترحه ، وفي الأسلوب الشخصي المتميز ، يمكن كشف النصوص الأدبية المنحولة .



منتدى العربي

تعقيب

الموشحات والقدود

حلبيّة أم حمصيّة ؟

بقلم : الدكتور سعد الله آغا القلعة *

قرأت في العدد رقم ٣٦١ ديسمبر (كانون الأول ٨٨) مقالا بقلم الزميل الكريم الدكتور عمر موسى باشا ، حول أصل الموشحات والقدود . . هل هي حلبية أم حمصية . ؟ وقد أرجع الزميل الكريم أصولها بنتيجة مقاله إلى الشيخ أمين الجندي الحمصي بعد أن اكتشف لدى قراءته لديوانه أن أغلب أشعاره تغنى ضمن القدود المعروفة بالحلبية ، وقد رأيت أن أعقب على هذا المقال توضيحا لبعض الأفكار التي يمكن أن تكون قد ذهبت إلى أبعد من حدود الاستنتاج المنطقي .

* استاذ بكلية الهندسة بجامعة دمشق ، وأحد خبراء الموسيقا العربية الدارسين .

الموشحات :

وردت كلمة « موشحات » مرة في عنوان المقال ، ومرتين فيه بشكل عرضي حيث أضيفت ، أو عطفت على القدود ، وكأنما القدود والموشحات شيء واحد ، أو شيئان متماثلان ، أو كأنما القدود هي شكل من أشكال الموشحات المتطورة ، ونلاحظ أن الدراسة انحصرت في الجانب الشعري دون النظر في الجانب اللحني . طبعا كلنا يعلم أن الموشحات ولدت كفن شعري في الأندلس بتحريض من الموسيقا الآتية من الشرق ، ولكن المهم هنا أنها انتقلت مع خروج العرب من الأندلس عبر اتجاهين : جنوبا إلى المغرب العربي ، وشرقا إلى الأقطار العربية في المشرق حيث كانت حلب هي المحطة الأولى . وفي حلب حافظ المطربون ، والملحنون عبر توالي الأجيال على ذلك التراث العربي ، ولكنهم إلى جانب ذلك أتوا بجديد فيه ، حيث لحنوا موشحات جديدة على نمط الموشحات القديمة ، والعلاقة بين ايقاع الشعر والايقاع الموسيقي فيها . كما وضعت في الكتب القديمة وخاصة « دار الطراز » لابن سناء الملك . وإن كانوا في أغلب الأحيان قد استعملوا الشعر العمودي أساسا للألحان . هذه الموشحات الحديثة دعيت بالحلبية ؛ لأنها لحنت في حلب ، وهي ليست كالقدود من الناحية اللحنية ، بل هي أعقد بكثير .

القدود :

إلى جانب الموشحات الحلبية ، كانت هناك القدود الحلبية . وهي ألحان قديمة جدا تداولتها حناجر الشداة حتى وصلت إلينا ، وقد نقلها إلى مصر مع الموشحات الأندلسية القديمة ، والحلبية الحديثة فنان اسمه « شاكر الحلبي » في المائة الأولى بعد الألف من الهجرة (كما جاء في كتاب الموسيقي الشرقي لكامل الخلعي) ، حيث حفظها عنه فنانو مصر ، وساروا في ألحانهم على منوالها .

هذه القدود كانت في أغلب الأحيان عامية الكلمات حلبية اللهجة ، (ولا زال أغلبها كذلك) وكانت الكلمات تتغير حسب الحالة . فأحيانا كانت دينية ، (وهنا من الممكن أن تصبح الكلمات بالفصحى) وأحيانا (دنيوية) على نفس اللحن ، وقد يوضع لها كلمات دنيوية أكثر جمالا وشاعرية وبالفصحى ، وهذه الحالة حديثة العهد . ولكن الكلام كان ينظم دوما على « قدّ » اللحن . ومن هنا جاءت التسمية بالقدود أي أن الكلمات كانت تكتب على نفس الوزن الشعري والقافية للكلمات القديمة ، أما لحنها فقد كان دائما بسيطا ، وبايقاع بسيط على عكس الموشحات ذات الجمل اللحنية المعقدة ، والإيقاعات المركبة .

وقد كان هذا هو دور الشيخ الجندي الأساسي أي نظم شعر فصيح على«قدّ»الكلمات العامية القديمة . وما دليلي على ذلك إلا ما جاء في مقال الزميل الكريم . حيث أورد بعض الأمثلة من ديوان الشيخ « أمين الجندي » ، ومعها عروض الكلمات الأصلية مثل : هيمتني تيمتني على عروض جوجحتني مرجحتني مع ذكر النغمة الموسيقية التي وضع عليها اللحن الأصلي .

وبعد

فلم تكن الغاية من هذا التعقيب التأكيد على حلبية القدود الحلبية ، وقد قلت : إنها قديمة لدرجة يصعب تحديد أصلها ، ولكن كان لا بد من التمييز بين الموشحات والقدود لحنا ونظما ، وتبيان دور الشيخ أمين الجندي المهم في نظم الشعر الفصيح المقفى على « قدّ » عروض الكلام الأصلي العامي للقدود بحيث أصبحت أكثر ملاءمة للذوق الفني دون أن تكون الألحان التي وضعها ونظمها شعرا - إن وجدت - من الألحان التي يمكن أن ندرجها تحت عنوان « قدود » . □

لأن المسرح بمفهومه الاصطلاحي الدقيق وافد حضاري جديد ، تعرفت عليه مصر - كما تعرفت على الصحافة - في بداية نهضتها الحديثة ، فقد كان المألوف أن يكتب الصحفيون للمسرح ، ولكن هناك نماذج رائدة دخلت الصحافة بعد شهرتها في عالم المسرح ، فأبدعت في المجالين ، مثل يعقوب صنوع ، وعبد الله النديم ، وفاطمة (روز) اليوسف ، وغيرهم ممن نقرأ عنهم في هذا المقال .

بين المسرح والصّحافة في مصر

بقلم : الدكتور أحمد حسين الصاوي

شهدت مصر مقدمات المسرح والصحافة ، إبان عهد الحملة الفرنسية فقد أصدرت سلطات الحملة صحيفتين فرنسيتين ، كما أصدرت مئات المنشورات العربية والفرنسية . وفي الوقت نفسه أقام الفرنسيون مسرحا لمجتمعهم ، عرضوا عليه عددا من الروايات . ولم يفت مؤرخنا المعاصر للحملة عبد الرحمن الجبرتي أن يسجل هذا الحدث ، فكتب في « عجائب الآثار . . » يقول : « . . وفيه كمل المكان الذي أنشأوه بالأزبكية . . . وهو المسمى في لغتهم « بالكمدي » ، وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشر ليال ليلة واحدة ، يتفرجون به على ملاعيب يلعبها جماعة منهم ، بقصد التسلي والملاهي ، مقدار أربع ساعات من الليل ، وذلك بلغتهم ، ولا يدخل أحد إليه إلا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة » .

وسجل هذا الحدث كذلك المؤرخ لاجونكير في كتابه عن الحملة الفرنسية . وزاد الأمر تفصيلا عندما قال : إن بونابرت كان وراء تشجيع إقامة هذا المسرح ، وأن لجنة الفنون بالمجمع العلمي المصري الذي أنشأته الحملة كانت تتولى تنظيم النشاط المسرحي مع غيره من الأنشطة الفنية الأخرى ، وبينما كانت حكومة محمد علي تستعد لإصدار صحيفة « الوقائع المصرية » ، أولى الصحف العربية ، كانت الجالية الفرنسية في مصر تستعد كذلك لإنشاء مسرح للتمثيل . وهكذا واكبت الحياة المسرحية الحياة الصحفية منذ نشأتها ، وإن ظل المسرح محصورا في نطاق الجاليات الأوربية بالقاهرة والاسكندرية إبان عهد محمد علي وسعيد . ثم بدأ علية القوم من المصريين يهتمون بهذا الوافد الأوربي أيام الخديوي اسماعيل . ومرة أخرى نلاحظ تزامن

النهضة المسرحية والنهضة الصحفية أيام هذا الحاكم الطموح ، ففي الوقت الذي كانت صحافة الحكومة فيه تتجاوز حاجز الرسمية ، وتقترب من الجماهير وتتفاعل مع مشكلاتهم ، وتقدم لهم زادا متنوعا شهيا ، وبينما كان الحقل الصحفي يشهد مولد الصحافة الأهلية ، كانت الحكومة تبني دار الأوبرا الخديوية التي افتتحت في أواخر عام ١٨٦٩ م . وما لبثت مصر أن شهدت كذلك أول محاولة عملية لإنشاء مسرح عربي ، وكان على يد يعقوب صنوع عام ١٨٧١ م .

أسماء وأدوار

وكما اتسعت رحاب مصر تستضيف في كرم أبناء الشام الذين وفدوا إليها ، وساهموا مع إخوانهم المصريين في إقامة صرح الصحافة الأهلية ، فقد اتسعت كذلك - وفي الوقت نفسه - لاستضافة المسرحيين الشاميين الذين كانت لهم جهودهم في نمو المسرح العربي.

واطرد تقدم الحركة المسرحية ، كما اطرد تقدم الحياة الصحفية ، وتفاعلت كل منهما ، وما اضطربت به مصر من أحداث ، وما مرت به من محن ، وما حققته من انتصارات . ونما المسرح كما نمت الصحافة ، وتعددت مدارسها ، وأصبحا من المكونات الأساسية لبنية المجتمع المصري .

وإذا طرحنا جانبا تلك العلاقة التقليدية المعروفة التي تقوم دائما بين الصحافة والمسرح ، من حيث إن الصحافة تتابع النشاط المسرحي ، فتعلم به قراءها ، ويتخصص من كتابها من يتناولون هذا النشاط بالنقد والتحليل ، على أساس أن ذلك من صميم العمل الصحفي ، فنستطيع القول بأن الصلة بين المسرح والصحافة في مصر اتخذت أبعادا أخرى أكثر عمقا ، وذات طابع خاص متميز .

ومن ذلك أن عددا من الصحفيين المرموقين اتجهوا إلى تزويد المسرح المصري ، عبر مسيرته الطويلة ، بمجموعة كبيرة من الروايات المنقولة والمبتدعة . وقد تراوح النقل بين الترجمة (عن الفرنسية أو الانكليزية) والتعريب والتمصير . نماذج هؤلاء :-

- **نجيب الحداد** : صاحب صحيفة « لسان العرب » ، ومحررها الذي أصدرها بالاسكندرية في أواخر القرن الماضي . لقد ترجم هذا الصحفي للمسرح روايتي « السيد » و « حلم الملوك » عن كورني ، كما عرب رواية « طبيب رغم أنفه » لموليير .

- **محمد عثمان جلال** : من أبرز تلاميذ رفاعة الطهطاوي ، من خريجي مدرسة الألسن . حرر « الجريدة العسكرية المصرية » مع زميله عبد الله أبي السعود ، وأصدر صحيفة « نزهة الأفكار » ، كما حرر في مجلة « روضة المدارس » . لقد قدم هذا الكاتب المبدع للمسرح المصري مجموعة رائعة من المسرحيات التي نقلها عن راسين وموليير ، ولعل أبرزها الكوميديات التي عربها زجلاً عن موليير ، مثل « الشيخ متلوف » ، و « مدرسة الأزواج » ، و « مدرسة النساء » .

- **أنطون الجميل** : ناشر صحيفة « الزهور » ، ورئيس تحرير « الأهرام » بعد ذلك . كتب للمسرح عدة روايات ، كان أهمها « السموأل أو وفاء العرب » التي اقتبسها من التراث العربي القديم ، و « أبطال الحرية » التي كانت رد فعل لإعلان الدستور العثماني .

غير أن ما ينفرد به تاريخ الصحافة المصرية حقا ، في قصة علاقتها بالمسرح ، يتمثل في ظاهرة لا نجد لها نظيرا في غير مصر ، وهي أن بعض أعلام الصحافة المعروفين كانت لهم تجارب مسرحية ناجحة ، قبل اشتغالهم بالعمل الصحفي ، أي أنهم خاطبوا الجمهور من فوق خشبة المسرح ، قبل أن يمارسوا الاتصال به من خلال صفحات الصحف . وكان أبرز هؤلاء يعقوب صنوع وعبد الله النديم وروز (فاطمة) اليوسف . والحق أن كلا منهم جدير بحديث خاص .

تجربة يعقوب صنّوع

هو يعقوب بن رافائيل صنوع ، اليهودي المصري الذي عرفه تاريخ الصحافة المصرية علما بارزا من أعلامها . ولد بالقاهرة عام ١٨٣٩ م ، وفي صباه أتيح له أن يتعلم في إيطاليا على نفقة أحد الأمراء المصريين ، فأتقن عدة لغات . ولما عاد إلى مصر أخذ يقوم بتدريس الموسيقا والرسم وما يعرفه من اللغات الأجنبية لبعض أعضاء الأسرة الخديوية ، وغيرها من الأسر الكبيرة ، كما كان يلقي هناك بعض المقاطع التمثيلية بالإيطالية والفرنسية بين حين وآخر .

وكان نجاحه في هذه التجربة المحدودة النطاق حافزا له على أن يفكر في عام ١٨٦٩ م ، وهو في الثلاثين من عمره ، في تأسيس مسرح عربي .

تمكن صنوع من انشاء أول فرقة مسرحية للتمثيل باللغة العربية في مصر من الشباب ، وعرض أولى مسرحياته التي ألفها وأخرجها واضطلع بتمثيل أهم أدوارها ، على مسرح مكشوف بحديقة الأزبكية عام ١٨٧٠ م .

واصل صنوع تقديم عروضه ، واستطاع أن يجتذب إلى مسرحه كبار المصريين ، وعلى رأسهم الخديوي اسماعيل نفسه ، وأن يحظى بإعجابهم الشديد ، حتى أن الخديوي أطلق عليه لقب « موليير مصر » ، وأغدق عليه من عونه المادي ما مكنه من تطوير مسرحه والارتقاء بعروضه .

واستمر مسرح صنوع مزدهرا متألقا طوال عامين من الزمان . ولكن يبدو أن طبيعته الساخرة الناقدة غلبت عليه في بعض ما قدم من تمثيليات ، فأكثر من الإسقاطات السياسية التي تعبر عن موقفه تجاه تزايد النفوذ الأجنبي ومفاسد الجهاز الحاكم . وحدثت النتيجة المتوقعة ، فقد ضاقت السلطات بمسرح صنوع ، فأغلقته لخطورته على جهاز الحكم .

وعاش صنوع خمس سنوات عجاف ، حاول خلالها أن يجد متنفسا للتعبير عن أفكاره وآرائه بالخطابة والمحاضرة ، فيما أنشأ من منتديات أحيانا ، وبالكتابة في بعض الصحف أحيانا أخرى . ولكن السلطات كانت له دائما بالمرصاد ، تغلق منتدياته ، وتمنعه من الكتابة في الصحف . ثم أتيح ليعقوب من سعى له من أصدقائه لدى السلطات ، لكي ترفع عنه اضطهادها ، وتمنحه فرصة العيش الكريم . وفي الوقت نفسه كان المناضل المشهور جمال الدين الأفغاني ، يبث أفكاره النارية في تلاميذه ومريديه من الشباب ، على مختلف نزعاتهم وانتماءاتهم ، ويرشدهم ويوجههم إلى شتى أساليب الكفاح ضد الظلم والاستبداد والتسلط الأجنبي . وكان صنوع من تلاميذ الأفغاني المقربين إليه ، وقد وجهه ونفرا من زملائه ، لما أنس منهم من استعداد ، إلى الصحافة كوسيلة من أهم وسائل الكفاح .

وهكذا - وبعد عدة تجارب لم تعش طويلا - أصدر يعقوب صنوع في عام ١٨٧٧ م صحيفة « أبو نظارة » التي كانت أول صحيفة فكاهية في مصر ، وأول صحيفة تنشر الرسوم الساخرة (الكاريكاتير) ، وأول صحيفة تستعمل اللغة الدارجة في تحريرها ، وأول صحيفة حادة النقد لاذعة اللهجة .

كانت هذه الصحيفة هي المنبر الذي اصطنعه صنوع ليبث من فوقه آراءه ، ويذيع أفكاره ، ويعبر عن مواقفه . لقد استبدل بخشبة المسرح صَفحات الصحيفة ، واستبدل بلسانه قلمه وريشته ، واستبدل بالتجسيد الحي للشخوص تجسيدا مكتوبا ومرسوما ، واستبدل بالحوار الناطق المسموع حوارا صامتا مقروءا .

واستطاع الممثل المطبوع في إهاب الصحفي الساخر أن يعبر بصدق في « أبو نظارة » عن واقع المصريين ، وأن يسجل آلامهم وآمالهم ، وساعده ما استحدثه من أسلوب للعرض بالكلمة والرسم على أن يفوق نجاحه في الصحيفة نجاحه في المسرح ، فارتفع توزيعها ارتفاعا كبيرا

بمقاييس ذلك العصر ، وأدت بحق رسالتها ، فكانت وسيلة جماهيرية مقبولة بما تقدمه من مادة ساخرة ضاحكة . وكانت الصحيفة في الوقت نفسه أداة نضالية بما تكشف عنه من حقائق سياسية مرة ، وما تعرضه من مساويء الحكم

ولم يكن غريبا أيضا هذه المرة أن تفطن السلطات لخطر الصحيفة ، فتغلقها بعد أن صدر منها خمسة عشر عددا حافلة . وخرج « أبو نظارة » نفسه منفيا من البلاد في منتصف عام ١٨٧٨ م ، حيث استقر به المقام في باريس . وهناك واصل إصدار صحيفته متخذا لها عدة أسماء ، فهي تارة « أبو نظارة » ، وتارة أخرى « أبو زمارة » ، أو « أبو صفارة » ، أوغيرها . وكانت كلها امتدادا لصحيفته القاهرية بكل ما اتسمت به من مظاهر التأثر بتجربة صاحبها المسرحية ، وما ألفه من طرائق التعبير .

عبد الله النديم

هو الصحفي المناضل ، والوطني الثائر عبدالله مصباح ابراهيم . ولد بالاسكندرية لأسرة متواضعة ، ولكنها ذات نسب شريف ، وتعلم بالطريقة التقليدية السائدة في ذلك الوقت ، فحفظ القرآن الكريم ، والتحق بمسجد ابراهيم باشا لتلقي العلوم الدينية ، تمهيدا للالتحاق



● عبد الله النديم

بالأزهر . ولكنه لم يتم مسيرته التعليمية ، إذ غلب عليه حب الأدب ، وظهر استعداده لقرض الشعر والزجل ، وكان موهوبا في قوة الحفظ وبراعة الإلقاء .

وأمضى عبد الله عدة سنوات يطوف بين القاهرة وبعض بلدان الوجه البحري ، وينادم السراة (ومن هنا جاءت تسميته النديم) ، ويعاشر الدهماء ، وتقلبت به الأيام بين « الستر » والإملاق . وهو في أثناء ذلك يكتسب الكثير من المعرفة والخبرة ، وتلتصق بذاكرته الواعية ملامح مختلف الشخصيات ، وتنمو في كل يوم قدراته الفذة على قول الشعر وارتجاله وإلقائه

ثم التقى النديم بالداعية العظيم جمال الدين الأفغاني ، وحضر حلقاته وندواته مع غيره من خيرة شباب تلك الأيام المتطلعين الواعدين . وما لبث أن صار من أخلص مريدي الأفغاني وأقربهم إليه . ونجح المفكر الكبير في أن يوجه النديم إلى توظيف طاقاته الخلاقة وملكاته الفريدة في خدمة مجتمعه ،والى استثمار مواهبه المتعددة ، لتكون سلاحا للكفاح في سبيل تحقيق الأماني الوطنية .

عمل النديم بالثغر في الصحافة مع تلميذين آخرين من تلاميذ الأفغاني ، هما سليم النقاش وأديب اسحق ، في صحيفتي « مصر » و « التجارة » ، ثم في صحيفتي « المحروسة » و « العهد الجديد » ، وفي خلال ذلك أسس الجمعية الخيرية الإسلامية ، التي جعل من أغراضها إنشاء مدرسة لتعليم أبناء الفقراء مجانا ، وبث الروح القومي في البلاد .

وسرعان ما أنشئت المدرسة ، وتولى النديم إدارتها وتدريس الآداب والخطابة لتلاميذها ، كما كوّن من بينهم فريقا للتمثيل ، قام بتدريب أعضائه ، وتأليف المسرحيات وإخراجها لهم ، وبالاشتراك معهم في التمثيل .

واضطرت بعض الظروف غير المواتية النديم إلى ترك الجمعية والمدرسة ، ثم استقل بعمله الصحفي ، فأنشأ عام ١٨٨١ م صحيفة

« التنكيت والتبكيت » التي كانت نموذجا فريدا لمسرحة الكتابة الصحفية ، يشبه ما فعله صنوع من قبل في صحيفته « أبو نظارة » .

حرر النديم صحيفته بالفصحى والعامية معا ، متخذا من كل منها أداة يخاطب فريقا من القراء . وكانت معظم موضوعاته أقرب إلى الفصول المسرحية منها إلى المقالات . فكل منها يتناول حكاية أو صورة متخيلة ، شخوصها نماذج لأنماط معروفة في المجتمع ، ويعرضها الكاتب عن طريق الحوار والسرد القصصي . وقد فاق النديم سلفه « صنوع » في دقة استخدامه للعامية ، وبراعة التلاعب بألفاظها ، وفي حدة سخريته ، كما فاقه في رسم صور الشخصيات وإنطاقها بما يناسبها من لهجة وألفاظ .

تصاعد المد الثوري في مصر ، واستقطبت الحركة الوطنية بقيادة عرابي خيرة العناصر المناضلة . وسرعان ما انضم إليهم النديم بصحيفته التي بدل اسمها في أواخر عام ١٨٨١ إلى « الطائف » ، وجعلها لسانا للثوار ولمجلس شورى النواب ، ونقل مركزها إلى القاهرة .

واختلفت صورة « الطائف » تماما عن صورة سابقتها ، فاختفت منها اللغة العامية ، واقتصرت لغة تحريرها على العربية الفصحى ، واختفت منها الموضوعات « التشخيصية » التي تعتمد على الحوار والحكاية والخيال . وعندما نشب القتال بين الجيش المصري والقوات البريطانية الزاحفة لاحتلال مصر ، أدت هذه الصحيفة مهمتها في تغطية أنباء المعارك ، وفي محاولة رفع الروح المعنوية للجنود .

انتهت الثورة - كما نعلم - بالإخفاق . وحوكم زعماؤها ، فمنهم من نفي ومنهم من سجن . أما النديم فاختفى عن الأنظار ليبدأ مرحلة جديدة من النفي الاختياري داخل الريف المصري ، استمرت أكثر من تسع سنوات ، انتقل فيها من بلد إلى بلد ، شريدا ومطاردا خائفا يترقب .

صحيفة الاستاذ

ثم شاء حظه أن يكتشف أمره ويقبض عليه وينفى من مصر . ثم عفا عنه الخديوي الشاب عباس حلمي ، فعاد إلى وطنه ليبحث من جديد عن منبر يمارس منه ما كان يجيده من فنون « التعبير » الهادف . واستطاع النديم أن يحصل على ترخيص بإصدار صحيفة باسم شقيقه ، أطلق عليها اسم « الأستاذ » ، وظهر أول أعداد هذه الصحيفة التي كانت آخر منابر النديم ، في أغسطس عام ١٨٩٢ م .

التزم النديم منذ البداية أن يحرر الصحيفة على غرار « التنكيت والتبكيت » بالعربية والعامية ، ولكنه حرص - نتيجة لتغير الظروف - على أن يمس المسائل العامة برفق ، فأخذ يعالج عدة موضوعات « إصلاحية » ، كالتعليم والتصنيع والوحدة الوطنية ، ويوغل في هذه الموضوعات بخفة ولباقة تجنبانه المزالق والعثرات .

وكان النديم في الوقت نفسه قد تخلى عن بعض حذره ، وجاوز التلميح إلى شيء من التصريح ، فبدأت صحيفته تقلق السلطات . وما لبثت نغمة النقد والمعارضة أن ارتفعت ، واحتدت لهجة النديم ، فأصبحت مساجلاته مع خصومه هجوما سافرا عنيفا . وكان لا مفر من المصير المحتوم ، فأغلقت الصحيفة بعد اثنين واربعين عددا صدرت في عشرة أشهر ، وبعد أن أثرت أبلغ تأثير في الحياة المصرية . ونفي النديم مرة أخرى فلحق بأستاذه الأفغاني في الآستانة ، حيث قضيا سنوات عمرهما الأخيرة .

روز اليوسف الفنانة

روز اليوسف هو الاسم الذي اشتهرت به السيدة فاطمة اليوسف ، الصحفية المعروفة ، عندما كانت ممثلة مرموقة ، تعمل مع أكبر الفرق المصرية ، وتؤدي أدوار البطولة في أفضل ما قدمت تلك الفرق من مسرحيات . والحق أن هذه السيدة تقدم نموذجا فذا للجمع بين العمل

المسـرحي والعمـل الصحفي في سيـرة حيـاة واحدة .

وولدت فاطمة محمد محيي الـدين اليوسف في طرابلس ، بلبنان ، في أواخر القرن الماضي ، ومرت بظروف بالغة القسـوة في طفولتها . ثم وفدت على مصر في أوائل هذا القرن ، فيمن وفد من أبناء سوريا ولبنان ، يلتمسون الأمن وخفض العيش وراحة البال .

وتعلقت الصبية الرقيقة الجميلة بالتمثيل ، بعد أن بهرها ما كانت تداوم على مشاهدته من عروض لأكبر الفرق المسرحية في ذلك الوقت ، مثل فرقة اسكندر فرح ، وفرقة أولاد عكاشة ، كما تعهدها الفنان الشهير عزيز عيد برعايته تثقيفا وتدريبا وتوجيها ، حتى أصبحت من أبرز ممثلات فـرقته . ثم عملت مـع فرقة جـورج أبيض ، وبعدها فـرقة يـوسف وهبي ، وأصبحت تحتل مكان الصدارة بين ممثلات المسرح المصري . وقد أجمع نقاد زمانها ومعاصروها ، ممن شاهدوها أو زاملوها ، على أنه منذ عرف المسرح في مصر لم تخط فوق خشبته ممثلة أجادت وأمتعت كما أجادت وأمتعت روز اليوسف .

وفي عام ١٩٢٥ اعتزلت روز اليوسف التمثيل المسرحي ، وهي في أوج مجدها وذروة اكتمالها ونضجها ، وبدأت تعد لمشروع جديد جريء . لقـد أرادت الممثلة الكبيرة أن تستبـدل بخشبـة المسـرح منبرا آخـر ، تخاطب منـه الجماهـير ، واختـارت أن يكون هـذا المنبر صفحـات مجلة جديدة ، صدر العدد الأول منها في أواخر العام نفسه .

روز اليوسف المجلة

وكان هدفهـا من إصدار هـذه المجلة ، التي جعلتهـا تحمل اسمهـا الذي اشتهرت به ، أن تكون مجلة فنية ذات مستوى رفيع ، تعنى بشئون المسرح والتمثيل في المقام الأول ، وتعمل على نشـر الـوعي الفني ، وتحمـل رسـالـة النقـد الموضوعي الهادف ، كما تهتم بتأكيد قيمة الفن



● روز (فاطمة) اليوسف .

المسـرحي ، ومـا ينبغي لأبـطالـه من تقـديـر واحترام .

وقد استعانت روز اليوسف بعدد من صفوة شبـاب المثقفين في ذلـك الوقت لكتـابة مختلف الموضوعات الفنية والأدبية ، كما استعانت ببعض رسـامي « الكاريكـاتـير » وكتّاب الفكـاهـة ، لتخفف من طابع الموضوعـات الجادة في المجلة وتسبغ عليها شيئا من المرح .

ولم يكن الطريق معبدا أمام المجلة الجديدة ، فالقراء لم يألفوا هذا اللون من الصحف التي تركز اهتمامها على ما يتصل بفنون المسرح والتمثيل والتصوير ، هذا إلى جانب « بدعة » أن تتـولى « سيـدة » إصـدار مثـل تلك المجلة ، ودهشـة النـاس أو استنكارهم لقيـام ممثلة مرمـوقـة ، لم تعـرف سـوى خشبـة المسـرح مجـالا لبـروزهـا وتفـوقهـا ، بخـوض تجـربـة إصـدار الصحف وتحريرها .

ولعـل روز اليوسف كـانت تحس بما سـوف تواجه به من مثل هـذه الاعتراضـات ، عندمـا نوهت في افتتاحية العدد الأول من المجلة بسمة « التعبير » المشتركـة بين التمثيـل والكتـابـة ،

وأكدت أن الممثل الحق إذا كان مؤمنا بفنه وأثره في التهذيب ، ثم وجد من وقته متسعا ليلهو ، أو تولاه سأم من تنقله فوق المسرح ، عمد إلى القلم يداعبه أو يبثه شجوه ، ويستجديه طمأنينة وسلاماً » .

ولم يكن من المنطقي أن تستمر مجلة مثل روز اليوسف في الظهور موجهة عنايتها في المقام الأول إلى الفنون وما يتصل بها ، دون أن تعرض للمسائل العامة ، فإن ظروف مصر في العشرينيات ، وما كانت تضطرب به حياتها من صراعات بين مختلف القوى السياسية ، وأماني وتطلعات شعبية ، وأفعال وردود أفعال في شتى مجالات التطور والنمو ، حتّم أن تلتفت المجلة إلى معالجة تلك المسائل ، وساعد على ذلك أن صاحبة المجلة نفسها كانت سيدة فائرة الطبع ، تؤ رقها هموم بلدها وتشغلها آماله وآلامه .

ومن ثم بدأت المجلة تمس الأمور العامة مَسًّا رفيقا . وما لبثت أن أوغلت في تناول مختلف القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، من منطلق ما كانت تجيش به نفس صاحبتها ونفوس معاونيها من الكتاب والمحررين من مشاعر وطنية صادقة وجارفة .

ومضت روزاليوسف تدافع عن منجزات ثورة ١٩١٩ م ، وعن حقوق الشعب ومكتسباته الدستورية ، وتحارب الظلم والرجعية والاستبداد . وتعرضت من أجل ذلك إلى الكثير من العنت والاضطهاد ، فصودرت المجلة ، وأغلقت عدة مرات ، وسجنت صاحبتها كما سجن محرروها ، ولكن ذلك لم يثن تلك السيدة المناضلة عن المضي قُدُماً في طريقها الحافل بالصعاب .

وجعلت روز اليوسف من مجلتها مسرحا تشخيصيا من طراز فريد ، أرست به قواعد مدرسة ذات خصائص متميزة في حقل الصحافة المصرية بخاصة والعربية بعامة ، فمنذ بدأت المجلة تتحول عن طابعها الفني البحت إلى الناحية السياسية أخذت تستعين بالرسوم الساخرة (الكاريكاتير) على تجسيد الأفكار والمواقف وتبسيطها . ولم تكن هذه الرسوم قد تطورت إلى المستوى التعبيري (الكارتون) الذي نألفه اليوم في الصحافة ، والذي يحتاج الرسم فيه إلى أقل الكلام لنقل الفكرة أو الرأي الساخر إلى ذهن القاريء ووجدانه ، وإنما اعتمدت تلك الرسوم دائما على « الحوار » المكتوب ، لكي تستكمل مقومات رسالتها فقد ابتدع رسام روز اليوسف عدة شخوص ونماذج ، ظلت من المعالم الثابتة للمجلة ، ولما سار على نهجها من صحف أخرى سنين طويلة .

وأضافت روزاليوسف إلى ذلك المسرح الصحفي الساخر عنصرا فنيا جديدا ، هو الزجل السلس الرشيق . بذلك تكونت من الرسوم وما يصحبها من حوارات بالنثر أو الزجل لوحات (تشخيصية) رائعة ، أدت مهمتها في النقد السياسي والاجتماعي الساخر على أكمل وجه .

وواصلت الممثلة الصحفية مسيرتها جهيرة الصوت ، حادة النبرة ، لاذعة النقد ، تخوض بمجلتها الصعاب تلو الصعاب ، لا تلين لها قناة ، ولا تخشى في الحق لومة لائم ، حتى انتقلت إلى الرفيق الأعلى عام ١٩٥٨ ، بعد أن كان ولدها قد حمل أمانة المجلة ، التي ما زالت تعيش وتؤدي رسالتها علما من أعلام الصحافة العربية . □

* وللأوطان في دم كل حر — يد سلفت ودين مستحق

(أحمد شوقي)



الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوي



بالإرادة وحدها يتغلبان على الشلل

يؤثر عن شكسبير شاعر الانكليز المعروف قوله : حيثما توجد الإرادة تنفتح الأبواب وتنشق الطرق . ولعلنا نستطيع أن نقول إضافة إلى ما قاله الشاعر : « وتنهزم الأمراض حتى الشلل نفسه » . هذا على الأقل ما تؤكده قصة ويات جريفت وزوجته هولى جريفت ، فقد تحابا وتزوجا سنة ١٩٨٦ ، وتطلعا بحماس شديد إلى ثمار الحب الطيبة ، البنين والبنات .

وشاءت الأقدار أن يصاب العروسان بالشلل النصفي ، الشلل الذي يصيب النصف الأسفل من الجسم (Paraplegic)، فيفتك بحيوية ذلك النصف ، ويجعل الإنجاب فضلا عن الحركة ، ضربا من ضروب المستحيل . وعلم الزوجان بالمصيبة الكبرى ، وأدركا ما أكده لهما الأطباء ، من أن ثمار الحب الطيبة ، وغيرها لم تعد متاحة لهما .

ولكن العروسين مفطوران على العلم وحب البحث ، لا عجب إذن أن انكبا على دراسة آخر التطورات العلمية التي شهدها مجال الحمل والولادة في السنوات الاخيرة ، ثم بدآ في إجراء التجارب العملية .

وشملت أبحاثهما أساليب التلقيح (أو الإخصاب) الصناعي ، وهي الطريقة التي طورها العلماء ، ومضوا في تطبيقها على الماشية في الشهور الأخيرة . ومما يذكر أنها طريقة مؤلمة جدا ، حتى اضطر الزوج إلى إجراء تخدير شامل لكل جسمه من أجل تطبيقها ، واضطر أيضا إلى تطبيقها والقيام بعمليات التجميع والتخدير تلك ثماني مرات مختلفة ، حتى كانت المعجزة ، معجزة الطب في سنة ١٩٨٨ ، فقد رزق العروسان المشلولان طفلة حلوة ، وذلك في ١٩٨٨/٨/١٤ ، فقام بذلك دليل آخر على صدق ما قاله شكسبير .

■□□

ميزة أخرى جديدة للختان

أثبتت الدراسات التي أجريت في افريقيا أن الختان (طهور الذكور) يكسب المختون مناعة ضد بعض الأمراض الخطيرة ، تبلغ (٨) أضعاف المناعة التي يتمتع به الذكور غير المختونين . وتشمل تلك الأمراض مرض السفلس والهربز ومرض الايدز أيضا .

وقد أجريت الدراسات المذكورة في نيروبي ، وتناولت جمعا من الرجال الذين يترددون على بيوت الدعارة ، والذين أثبتت الفحوص أن ٨٥٪ منهم

مصابون بمرض الايدز الكامن ، والغريب أن إصابتهم هذه لم تكن دائما نتيجة انتقال الفيروس بالعدوى عن طريق الجماع ، وإنما كانت في بعض الأحيان نتيجة استعداد الذكور غير المختونين لالتقاط الفيروس الذي حملته إفرازات المومسات ، وذلك بحكم كونهم غير مختونين .

■□□

هنيئا للمصابين بقصر النظر!

ذهب علماء دانمركيون ، في بحث لهم ، نشرته مؤخرا مجلة لانست (المجلة الطبية البريطانية المعروفة) إلى أن قصر النظر (الحسر) قد يصيب المرء تبعا لحرصه في الطفولة على « استكشاف بيئته القريبة منه استكشافا بصريا » ، وأكدوا أن مثل قصر النظر في ذلك كمثل الذكاء ، فالطفل الذي اعتاد « التجوال البصري » في الصغر ، يحقق مستوى أعلى للذكاء في الكبر ، وقد أجرى البحث المذكور فريق من أساتذة جامعة كوبنهاجن ، يرأسهم البحاثة تيزديل (T. W. Teasdale) ، وذلك بالتعاون مع معهد أبحاث متخصص في آفة قصر النظر (Myopia) . أما الأشخاص الذين أجريت الدراسة عليهم فنفر من المجندين الذين تناهز أعمارهم ١٨ سنة .

■□□

ماذا عن المشاريع العملاقة؟

قد يتساءل المرء : ماذا جرى للمشاريع العلمية العملاقة ؟! فمنذ اكتمال مشروع المكوك الامريكي الذي كلف تطويره ما يقارب (١٠,٠٠٠) مليون دولار وأخبار المشاريع الضخمة لاتنقلها إلينا المجلات العلمية بالكثرة التي ألفناها فيما قبل ، ترى هل هذا صحيح ، أم أن المشاريع العملاقة كثيرة ، وأخبارها أيضا كثيرة ، مع الفارق بأن هذه الأخبار قد تكون مغمورة ، ولا يسهل العثور عليها في غمرة الطوفان ، طوفان التقدم العلمي الزاخر ، الذي تتكاثر أخباره يوما بعد يوم ؟!

نذكر من هذه المشاريع « مشروع الصادم الأمثل ذا الموصلات الفائقة » (Super Conducting Super Collider) وتحتاج معدات هذا الجهاز إلى نفق يؤويها ، وأن طول هذا النفق يبلغ نحو ٧٥ كيلومترا ، وستبلغ تكاليف هذا المشروع أكثر من (٦٠٠,٠٠٠) مليون دولار ، وقد بلغت إحدى الدفعات التي رصدها الكونجرس الامريكي لأعمال البحث والتطوير الخاصة بهذا المشروع ٢٥ مليون دولار . ولن تستكمل الأعمال في هذا المشروع قبل عام ١٩٩٦ ، أما المهمة الموكولة إليه فباختصار شديد هي سبر حقيقة المادة ، وتفهم بنيتها ، وإلقاء الضوء على نشأة الكون الأولى .

ونذكر أيضا مشروع مفاعل الاندماج النووي الذي سيوفر الطاقة النووية النظيفة الرخيصة بكميات هائلة ، وذلك نتيجة الاندماج لا الانشطار في الذرة ، بل نواة الذرة ، وستبلغ تكاليف هذا المشروع (١٠٠٠) مليون دولار .

على أن المشاريع العملاقة ليست وقفا على الفضاء ، والمادة ، والطاقة ، فالكثير منها منصب على بنية الإنسان وبيئته .

فثمة جهاز طموح جدا يستهدف تحديد المواد الكيماوية الموجودة في الدنا (DNA) ، وعددها لا يقل عن (٣٠٠٠) مليون مادة ، بحيث يصبح في مقدور الأطباء تشخيص عدد كبير من الأمراض الوراثية ، كالسرطان وتصلب الشرايين ، ومعالجة عدد من تلك الأمراض معالجة ناجعة . وسيستغرق العمل في هذا المشروع ما بين ١٠ أعوام إلى ٢٠ عاما ، وستبلغ تكاليفه ٣٠٠٠ مليون دولار .

وليس حظ البيئة بأقل من حظ الطب من المشاريع العملاقة ، ولكن العمل في مشروعها الضخم جدا لن يبدأ قبل سنة ١٩٩٢ ، ولا تعرف على وجه الدقة تكاليف هذا المشروع ، ولكنها تبلغ ملايين الملايين من الدولارات ، فهو يستهدف تحديد العوامل العديدة التي تتفاعل فيما بينها وتؤثر قليلا أو كثيرا على البيئة والمناخ العالمي ، أي الذي اصطلح العلماء على تسميته (Geosphere — Biosphere) ، وحظر تلك العوامل .

■□□

كناف ورق جرائد جديد

منذ نحو ثلاثين عاما والتجارب تجرى على قدم وساق لنوع جديد ممتاز من ورق الجرائد NEWSPRINT ، ويستخرج هذا الورق الجديد من نبات افريقي قديم ، يعرف باسم كناف Kenaf ، ويمتاز هذا النبات بسرعة نموه ، ويمتاز الورق الذي يستخرج منه بلمعان يفتقر إليه ورق الجرائد ، وبمزيد من القوة والمتانة ، وبمحافظته على لونه الأبيض ، وبعدم الاصفرار مع الزمن ، وبثبات أحبار الطباعة عليه ، وقلة ما يحتاجه منها ، بحيث لا تكاد تتسخ اليد التي تمسك بجريدة مطبوعة على ورق الكناف .

ويبدو أن ورق (كناف) هذا قد اجتاز المرحلة التجريبية المخبرية ، وهو الآن قيد التجارب الميدانية الواسعة ، التي تجريها سبع صحف ، على نطاق واسع ، هذا إذا لم نقل : إنه في سبيله إلى مرحلة الانتاج الصناعي الواسع النطاق . وقد أنشئت مصانع عديدة لإنتاجه .

وأول هذه المصانع قائم في تكساس قرب بلدة ماك الن ، وثانيها قائم في مدينة مونتريال الكندية التي تعد ثاني أكبر منتج لورق الجرائد في العالم*، أما ثالث مصانع (كناف) ففي كونيزلاند ، باستراليا ، ورابعها في فرنسا . وستبدأ هذه المصانع إنتاجها في مستقبل قريب جدا ، سنة ١٩٨٩ ، و١٩٩٠ وسنة ١٩٩١ .

والسؤال الذي يطرح هو : هل في الإمكان زراعة نبات (كناف) في الوطن العربي ؟! وإن كان ذلك ممكنا فلم لا تقبل على زراعته الهيئات أو الحكومات ؟ ولم لا تبادر إلى إنشاء مصانع ورق (كناف) من أجل التصدير ، فضلا عن الاستهلاك المحلي ؟ ومن يدري فلعلنا نحقق الاستغناء عن استيراد ورق الجرائد من فنلندة وكندا والنمسا في مستقبل غير بعيد . !

وأخيرًا بصمات الجينات الوراثية

كانت قفزة كبيرة في تاريخ الجريمة والقضاء حين نجحت الهند في الاعتماد على بصمات اليد محكا لإثبات الهوية الشخصية وفي تطوير الأسلوب المعمول به عالميا للافادة من ذلك المحك في شتى المعاملات والدعاوى ، ولاتعرف على وجه الدقة متى كانت البداية في شبه القارة الهندية ، ولكننا نعرف أن الانكليز حذوا حذو الهند سنة ١٩٠١ م فاتخذوا من بصمات الأصابع دليلا لإثبات هوية الأفراد ، سواء في المعاملات العادية أو في الجرائم ، وفي تحديد هوية مرتكبيها . وانتشر أسلوب بصمات اليد في مشارق الأرض ومغاربها ، واستأثر بثقة الحكومات والهيئات والأفراد جميعا ، ذلك أن بصمات اليد لأي فرد من بني الإنسان فريدة ، وتختلف عن بصمات أي فرد آخر غيره ، أضف إلى ذلك أنها لاتتغير ، بل تلازم صاحبها ، وتبقى المحك المميز هويته حتى آخر يوم من حياته . حقا قد تضعف أو تنطمس بعض معالمها كثيرا أو قليلا في خريف العمر ، لكن معالمها الأساسية تبقى كما هي لاتتغير .

ثم كانت القفزة الأخرى سنة ١٩٦٦ حين اكتشفوا في امريكا بصمات الصوت ، وقد تمكنوا من تسجيل أو تصوير نمط الخطوط التي يحدثها صوت المرء ، واعتقدوا أنها فريدة كبصمة اليد ، لكنهم مالبثوا أن اكتشفوا ضعف بصمات الصوت واحتمالات تكررها كثيرا فعمدت المحاكم في أمريكا إلى حظرها ومنع الاعتماد عليها في القضاء سنة ١٩٧٤ .

وأخيرا جاءت القفزة الكبرى قفزة البصمات الجينية أو الوراثية ، وهذه فذة فريدة ١٠٠٪ ، تنجح في اتباع الهوية الشخصية في مجالات مهمة يتعذر على بصمات اليد الاقتراب منها .

ونذكر من تلك المجالات مجال جرائم الاغتصاب ، ومجال إثبات صلة الأبوة أو نفيها ، وهي ذات خطورة كبيرة في قضايا الإرث وقضايا الهجرة ، لاسيما الهجرة إلى الولايات المتحدة الامريكية . ونذكر أيضا مجال التعرف على هوية الميت بتحليل رفاته ، ذلك أن البصمات الوراثية موجودة في كل أعضاء جسم الإنسان ، في دمه وشعره وجلده ومنيه ، بحيث يستحيل على المجرم أن يفلت من العدالة بحجة عدم توافر الأدلة الكافية ، إذ لابد أن يترك أثرا ما في موقع الجريمة ، ولابد لذلك الأثر من أن يدين صاحبه أو يبرئه لدى تحليله وراثيا ، فمتى وجد الاثر وجد الدليل القاطع لامحالة ، وذلك بالتحاليل الوراثية .



البصمات الجينية بصمات الجينة الوراثية كما تدل عليها نماذجها .

والتحاليل الوراثية مازالت في أول عهدها ، فقد ظهرت في الولايات المتحدة لأول مرة سنة ١٩٨٧ ، واستغرق تطويرها بعض الوقت ، حتى كانت القضية الأولى التي اعتمدت فيها البصمات الجينية في شهر نوفمبر ١٩٨٧ ، وكانت قضية اغتصاب ، فصلت فيها إحدى محاكم فلوريدا في مدينة أورلاندو ، ولم يتجاوز مجموع القضايا التي اعتمدت البصمات الوراثية حتى الآن ١٥٠ قضية ، وقد نظرت فيها المحاكم في ١١ ولاية من الولايات المتحدة الامريكية .

■■□□

النيكوتين وأثره في الدم والمخ

نعود الآن الى تقرير كبير الجراحين الأمريكي أيفريت كوب ، لنستكمل ما بدأناه في العدد السابق .

يصل النيكوتين الى مخ المدخن في غضون ٧ ـ ١٠ ثوان من اشعال السيجارة ، وهذه سرعة فائقة وتعادل ضعفي السرعة التي تصل بها المخدرات ، وثلاثة أضعاف السرعة التي يصل بها الكحول الى مخ الانسان .

ولا يكاد النيكوتين يصل المخ حتى يحدث آثارا تشبه آثار الأدرنالين والاستيلكولين ، والأول هرمون بينما الثاني موصل أعصابي قوي neurotransmitter من شأنه أن يحرض جهاز الانذار في مخ الانسان .

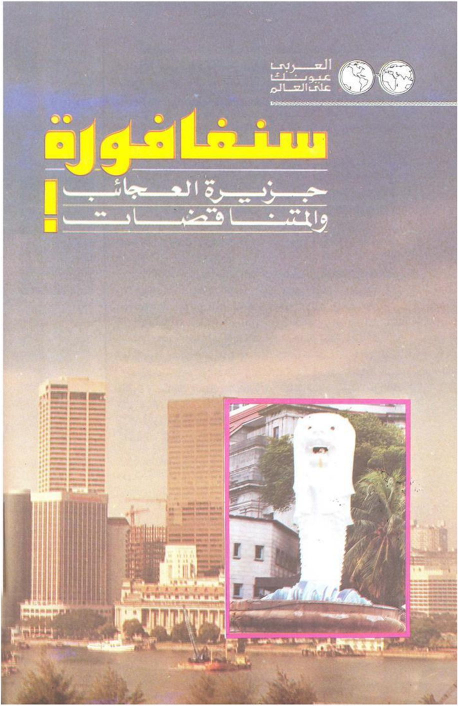
وهكذا يصبح المدخن ، لدى وصول النيكوتين الى مخه أكثر يقظة وحضورا ذهنيا ، ولربما أسرع بالتفكير أيضا ، ولعله يصبح أيضا أهدأ بالا تبعا لما يفرزه النيكوتين من مادة مخدرة طبيعية تعرف باسم (بيتا أندروفين)

ويمضي المدخن في تدخينه ويتزايد النيكوتين في الدم ، فيزداد الوجه شحوبا ويتضاعف خفقان القلب ويرتفع ضغط الدم ، ويترتب على ذلك ضيق في الأوعية الدموية وضعف في الدورة الدموية على الأخص ، لا سيما في الأطراف التي لا تلبث أن تشعر ببعض البرودة ، ويتسبب ذلك بترخية العضلات والحد من شهية الطعام .ويخزن جسم المدخن النيكوتين في دمه، ويواصل المدخن تدخينه مكرها ان لم يكن راغبا ، وذلك لكي يحافظ على كمية النيكوتين في الدم ، ويضمن بقاءها ثابتة غير منقوصة ، وقد دلت التجارب على أن ٣٠٠ ـ ٤٠٠ (شفطة) تدخين يوميا تمثل الحد الأدنى الذي لا غنى عنه للابقاء على محتويات النيكوتين في الدم ، وهذه (الشفطات) هي التي تتحكم بمزاج المدخن وأدائه ، وهذا هو سر الادمان على النيكوتين .

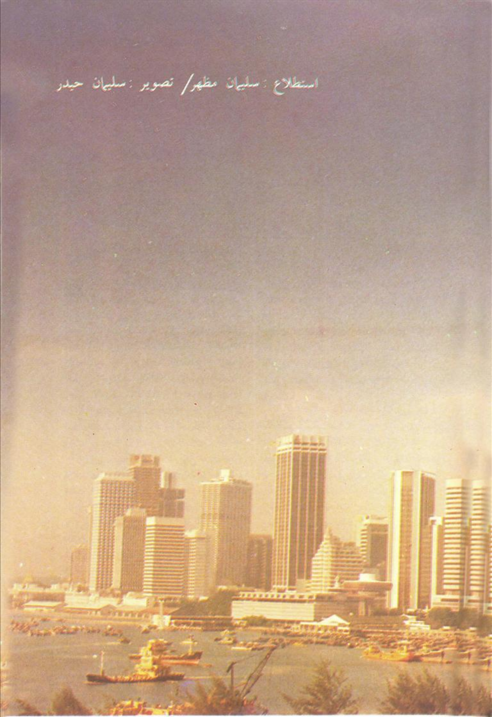
لقد بلغ هذا الادمان من السيطرة على الانسان أن ذهب الكثيرون الى التأكيد بأنه يفوق ادمان الهيروين طغيانا ، وان الاقلاع عن التدخين قد يكون أصعب مثلا من الاقلاع عن تعاطي الهيروين ، ولعل هذا صحيح ما دمنا نسقط من اعتبارنا أو نغفل عن أهم مقومات الاقلاع ، أعني قوة الارادة . □

سنغافورة

جزيرة العجائب والمتناقضات!



استطلاع : سليمان مظهر/ تصوير : سليمان حيدر



أنظف مدينة في العالم . .
هنا نستطيع أن نتنفس بعمق ،
فالهواء بلا ملوثات ،
والشوارع بلا مهملات ،
لا أعقاب سجائر ولا نفايات ،
هكذا يراها كل من زارها ،
وهكذا رأيناها ونحن نتنقل في جزيرة الزهور ،
والعجائب ، والمتناقضات . . سنغافورة .

قالت لنا وهي تداعب باقة من زهور الأوركيد :

ـ أنتم الآن في أجمل حديقة في العالم ، ألا تشعرون أنكم تتبخترون في طرقات الجنة ؟ الحدائق ، والورود ، والأشجار ، والخضرة ، والماء الرقراق ، وزقزقة العصافير ، وتغريد البلابل ، وموسيقا الملائكة ، والحور الحسان ، وعبير الاوركيد والريحان ؟ !

كنا حينئذ في قلب « سنتوزا » ، الابنة البكر لسنغافورة ، جزيرة الأحلام والجمال والأعاجيب .

قبل سنوات قليلة لم يكن هناك سوى تلال سوداء ، يمرح في وديانها وعلى سفوحها مئات القراصنة والمهربين ، وتسرح في غاباتها النمور والقرود ، ولم تعرف لنفسها اسما سوى « جزيرة الموتى السوداء » ، إذ كانت منفى القراصنة الملاويين . وحين اكتشف الانجليز موقعها الاستراتيجي مع نزول الجنرال ادوارد ليك بها عام ١٨٢٧ كان أول ما قاله : « إن أي عدو يتمكن من النزول بقواته على أرض هذه الجزيرة ، يستطيع أن يكون سيد المنطقة كلها » . ولهذا فقد جعلها الانجليز قاعدة مدفعيتهم الثقيلة ، للسيطرة على جنوبي بحر الصين ، ولكن هذه القاعدة المحصنة لم تستطع الصمود طويلا حين غزا اليابانيون سنغافورة ، في الحرب العظمى الثانية . في ذلك الوقت كانت المدفعية كلها موجهة نحو البحر ، فعجزت عن تحويل فوهاتها حين جاء الهجوم من الشمال ، فكانت الهزيمة الساحقة للانجليز الذين عجزوا عن استعادتها الا بعد سقوط اليابان !

الجنة العائمة

اختلف الأمر كله منذ عشرين سنة فقط ، ففي عام ١٩٦٨ ، ومع النهضة الحديثة لسنغافورة ، تطورت « جزيرة الموتى السوداء » ، لتصبح منتجعا يحمل اسم « سنتوزا جنة الأحياء » ، وامتد التلفريك الكهربائي ، ليطل الناس من عل ، قبل أن يهبطوا لينعموا بالجنة العائمة الخضراء !

المشهد من نوافذ التلفريك كما رأيناه بدا لنا خلابا رائعا ، ففي المواجهة جزيرة سنتوزا بحدائقها وغاباتها ومباهجها وألوانها ومغانيها وزهورها وتلالها تنتظر هبوطنا . فإذا عدنا بأبصارنا الى النافذة الخلفية وجدنا الجزيرة الأم « سنغافورة » شامخة بعاصمتها وشواطئها التي

تنافس أرقى مدن العالم ، وهي تستلقي في غفوة حالمة ، سابحة في مياه بحر الصين الجنوبي ، الواقع في الطرف الجنوبي من شبه جزيرة الملايو ، بطول ٤٢ كم ، وعرض ٢٣ كم على مساحة تبلغ ٦٢١ كم٢ ، محتضنة ٥٩ جزيرة صغيرة ، يعيش عليها ما يقرب من ثلاثة ملايين نسمة ، متوسط دخل الفرد منهم لا يقل عن ١٥ ألف دولار سنغافوري في السنة ، بما يساوي حوالي ٨ آلاف دولار أمريكي ، وهو من أعلى الدخول الفردية في العالم الثالث .

ونغادر التلفريك لنتجول بين أنحاء سنتوزا ، الجنة العائمة .

أحد أجمل ماشاهدناه في سنتوزا الطريقة التي استطاعت أن تجمع بين ملامح الغابات والخضرة الاستوائية مع الشواطىء الرملية الناعمة البيضاء . عندما اخترق القطار الضيق بنا الغابات الخضراء الممتدة على الجانبين شهدنا الجمال الاستوائي ، بأشجاره المثمرة المميزة التي تتقافز بينها القردة والنسانيس ، ومن تحتها القنوات والجداول ، تتلوى مخترقة أرض الغابة .

في كل مكان تتناثر الملاعب الرياضية للكبار والصغار ، بما فيها ملاعب التنس والجولف وأحواض السباحة والسباقات المائية والتزلق ومنتجعات الاستجمام والراحة على شاطىء البحر . وليس أروع من مشهد النافورة الموسيقية الراقصة ، بتشكيلاتها المائية ، وأضوائها المتراقصة ، وموسيقاها التي تقدم أشهر أعمال الموسيقيين العالميين ، وتتدرج من السيمفونيات حتى موسيقا الجاز .

وننتقل الى متحف المرجان ، حيث أجمل التشكيلات المرجانية ، وأندر البقايا البحرية التي اختيرت من مختلف أنحاء العالم . الجدران والسقوف وديكورات الإضاءة كلها من الشعب المرجانية والأصداف الملونة ، أما المعروضات ففي داخل أحواض ومياه جارية ، تماثل بيئاتها



● خريطة تبين موقع سنغافورة وشبه جزيرة الملايو .

الطبيعية ، حيث تسلط عليها أضواء تشبه أضواء الأعماق في البحار والأنهار . أما أنواع الأصداف البحرية فتقرب من ٢٢٠٠ نوع أغلبها يعد نادرا .

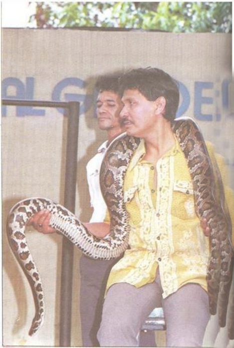
وننتقل من مكان الى آخر ، بين منتزهات وزهور تغطي المساحة السهلية والطرقات ، بطريقة مميزة بديعة ، حتى نصل الى قلعة « سيلوزو » التي أقامها الانجليز عام ١٨٨٠ ، والتي تتميز بممراتها المحفورة التي تتلوى تحت الأرض ، وفتحات الفوهات التي نصبت فيها المدافع والقاذفات والبنادق السريعة الطلقات .

قالت لنا مرافقتنا ، وهي ألمانية غربية ، جاءت الى سنغافورة منذ خمسة عشر عاما ، فعشقتها ، واكتسبت جنسيتها دون أن تفكر في العودة الى وطنها الأصلي : لا تستصغروا مساحة بلادنا ، فهي كبيرة بقيمتها ، غنية بموقعها الاستراتيجي ، رائعة بطبيعتها ، باذخة بمنتجاتها ، راقية بجهود شعبها ، وهو ما ستشاهدونه بأنفسكم . المهم هنا أن هذا

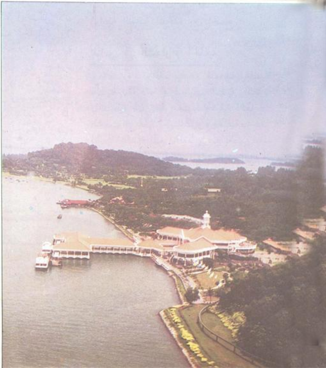

21







● الإطلالة من « التلفريك » تعطيك رؤية بانورامية كاملة لسنغافورة وابنتها البكر « سنتوزا » الجنة العائمة بمشاهدها الرائعة ونافوراتها الراقصة ، وتستطيع أن تشاهد الرقص مع الثعابين الضخمة ، وأن تتناول إفطارك مع « الغوريلا » .. انسان الغابة . !



الشعب الذي جاء من أصول عرقية متباينة قد أصبح اليوم يعزف سيمفونية واحدة تقول : « شعب واحد ، والوطن للجميع » .

الكل في واحد

شعب يفيض بالمرح ، يبتسم دائما ، فيه رقة وجاذبية وذكاء . ألوان من الناس متباينو الأعراق والعقائد والثقافات ، يثيرون الاستغراب ، فمنذ اللحظة الأولى التي هبطنا فيها من الطائرة في مطار شانجي ، عرفنا أن هذا الشعب يضم مجموعة من الجنسيات ، خلطت في بوتقة واحدة ، ليصبح الكل في واحد ، فالأغلبية من الصينيين القادمين من اثني عشر إقليما من أقاليم الصين الأم ، ويشكلون نسبة ٧٦٫٣٪ من السكان ، أما الباقون فمن الملايويين ، ويشكلون ١٥٪ ، والتاميليين من جنوب الهند ، والبنجابيين ، والسيخ ، والسيلانيين ، ويمثلون ٦٫٤٪ ، ثم الأوروبيين والعرب واليمنيين والعُمانيين ويمثلون ٢٫٢٪ .

هذا المزيج الغريب من الأعراق يشكل الآن شعبا واحدا ، يتمسك بوطنه الجديد ، ولا يشعر أحد منهم بغرابة من الاختلافات العرقية أو اللونية أو اللغوية بينهم ، ولا يهتمون بالاختلافات العقائدية بين بوذيين وهندوس وكونفوشيين وطاويين ومسلمين ومسيحيين ، بل إنهم يعرفون كيف يتعايشون بتآلف مع كل القادمين إلى بلادهم ، من سياح وتجار وعلماء ومهندسين وعمال ، وبالإضافة الى ذلك فإن السنغافوريين - مع عدم انفصالهم عن جذورهم العرقية - قد تعودوا طويلا على الاتصال مع الأجانب .

ولكن قبل ذلك بسنوات طويلة أدى خلاف حول ستة أرطال من الأرز إلى معركة وحشية بين الصينيين ، وبلغ عدد الضحايا ستمائة قتيل ، وآلاف الجرحى ، وبلغ عدد البيوت التي دمرت ثلاثمائة بيت ، أما الأسلحة المستخدمة فكانت الفؤوس والبلطات والعصي المسنونة .

جاء اللاجئون من مختلف المقاطعات الصينية ليستقروا في الجزيرة الخضراء ، ومعهم تقاليدهم وعاداتهم ، وكان لا بد مع مرور السنين أن يتلاحموا ويتحدوا ويمتزج الجميع في البوتقة ، لينتج المزيج الثقافي والاجتماعي واللساني الذي يشكل المجتمع الصيني السنغافوري ، بكل عقائده المؤمنة بآلهة البوذية والكنفوشية والطاوية ومختلف الفروع العقائدية التي عرفتها الصين ، وينصهر ذلك المجتمع السنغافوري الجديد مع كل الأعراق الأخرى القادمة من مختلف أنحاء جنوب شرق آسيا . ولعل ما جمعهم في هذه البوتقة الواحدة هو الرغبة في تعويض أنفسهم عن أوطانهم التي فقدوها بالعثور على موطن جديد ، ينتسبون اليه ، هو سنغافورة . والذي زاد في الاحساس بالانتماء هو أن القادمين الأوائل كان أغلبهم من الرجال ، مع أقلية من النساء . فكان أن تمت زيجات مع الفتيات الملاويات ، أدت مع مر السنين إلى تدعيم الرابطة الثقافية الموحدة بين الجميع .

الناس في الشوارع الخلفية

الصورة البراقة الباذخة للمدينة الجميلة الحديثة المغرقة في أساليب التقنية المتقدمة لا تستطيع أن تعطي صورة حقيقية لقطاعات الشعب التي تعيش في الشوارع الخلفية ، حيث الأحياء القديمة المنعزل بعضها عن بعض ، منذ وضع تخطيطها سير رافلز ، واستمرت على ذلك التخطيط حتى الآن . إنها الحي الصيني ، والحي الملايوي ، والحي الهندي ، والحي العربي .

وكان لا بد لنا أن ننزل الى الشوارع الخلفية ، لنشهد كيف تجري حياة الناس ، بادئين بالحي الصيني ، أبرز هذه الأحياء وأكثرها ازدحاما بالسكان .

المجتمع التقليدي بأجداده وآبائه وأبنائه هو مقصدنا ، ونحن نخترق شوارع الحي الصيني الذي يسمونه « شاينا تاون » . هناك ، وجدنا أنفسنا نعود الى الوراء من خمسين الى مائة سنة ، فالشوارع لا تختلف كثيرا عما كانت عليه قبل تلك السنين ، ما عدا تلك الخلفية من ناطحات السحاب الأنيقة الجميلة النظيفة التي أقيمت لتكون مساكن لذوي الدخل المتوسط والمحدود من سكان الحي ، والحي الصيني - تماما كبقية الأحياء الشعبية التقليدية الأخرى - يتطور إلى الأحدث . ويبدو أنه لن تمر سنوات قليلة حتى تكون المعالم القديمة قد اندثرت تحت وطأة التجديد المستمر والتقدم العمراني ، ولا يبقى منها غير بقايا متناثرة هنا وهناك ، تروي قصة الماضي القديم .

وندور في الشوارع الخلفية التي ما تزال تتمسك بطابعها العتيق ، الطرق ضيقة ، شديدة الازدحام ، والمباني غير متشابهة ، إلا في الارتفاع الذي لا يتجاوز طابقين أو ثلاثة ، مع طابع هندسي غريب ، غير متكامل ، ومتاجر متباينة الأشكال والواجهات ، ومستودعات قاتمة وباهتة .

قارئو الطالع يلاحقون المارة ، أو يجلسون والساق فوق الساق ، ويطلقون كلمات مبهمة غير محددة . الطبيب الشعبي يحمل حقيبته العامرة بالأدوية والأعشاب والخدع ، ويزعم أحدهم أنه يشفي أمراض القرحة بابتلاع ثلاثة فئران بيضاء وهي حية !

هنا أيضا يجد الصينيون والزائرون متعتهم في الأطعمة المعدة إعدادا خاصا . في المطعم الرئيسي بسوق « كريتا اير » تجد كل أنواع أطباق المكرونة المصنوعة من الأسماك والدجاج ، إلى جانب لحم الخفاش والحمام والسنجاب والثعابين . دعينا للغداء في أحد هذه المطاعم ، فقدمت لنا عدة أطباق ، وعندما بدأنا نأكل قالت لنا مرافقتنا :

- هل تعرفون هذا النوع الذي ستأكلونه ؟

قلنا : حمام وسمك .

قالت : بل لحم الوطواط والسنجاب .

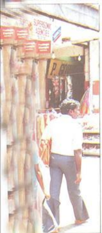
وتصور ما الذي يمكن أن يحدث حين تتوقف اللقمة في فمك ، ولا تعرف كيف تقذفها ، ولا تطيق بلعها والآكلون من حولك بالعشرات ، وطلبنا سمكا وأرزا فقط ، وجاء النادل وفي يده سطل مليء بالأرز المسلوق ، وفرش أمام كل منا ورقة موز كبيرة بدلا من الصحن ، وراح يغرف كميات الأرز من السطل بمغرفة صغيرة ، بينما أكثر الأرز في كفه ، ومن سطل آخر يخرج السمك الغارق في الكاري ، وعلينا أن نأكل كل ذلك حتى لا نهين من يجلسون حولنا !

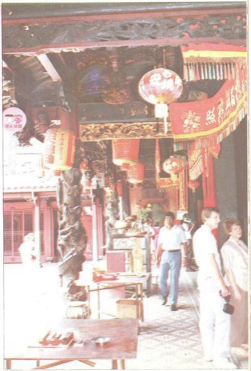
كل شارع من الشوارع يتخصص في تجارة معينة ، ولكن أبرز ما لفت نظرنا هو محلات النعوش والأكفان . قال لنا صاحب المحل « جان انج سنج » : إن بعض هذه الصناديق الخشبية يكلف بضعة آلاف من الدولارات ، وهي ثقيلة حتى أن رفعها يحتاج الى عشرين رجلا ، وهي بالطبع للأغنياء من أصحاب الملايين . الصناديق ليست وحدها ما يستحق الملاحظة ، فالمحل يبيع أيضا نماذج من البيوت والسفن والسيارات ، لا يقل طول أي منها عن نصف متر ، مصنوعة من الورق المزخرف بالألوان والخيزران . وهي ليست للعب ، ولكنها بعض ما يهدى للميت في جنازته لتحرق معه ، حتى يتمتع بها في حياته الأخرى !

في شارع آخر تخصص أصحاب المحلات في صناعة الوجوه الملونة الخشبية أو الورقية ، إنها تمثل الآلهة المنزلية التي ما تزال تماثيلها تملأ بيوت الصينيين . أمام هذه المحلات يجلس الصناع المهرة المتخصصون في هذه الصناعة بسراويلهم القصيرة وملابسهم الداخلية وأذرعهم وسيقانهم العارية ، يعملون على تلوين الوجوه بالألوان الصارخة ، وتلميعها ، حتى ساعات متأخرة من الليل .









● تاريخ سنغافورة تحكيه لك التماثيل في متحف الشمع ، وفي الشوارع الخلفية تفتح عينيك على الازدحام الشديد حيث تتزاحم السيارات مع المشترين ، والسلع رخيصة تناسب كل الطبقات ، وحتى في الحدائق تستطيع أن تشاهد الطالبات الصغيرات يتناولن الوجبات على الموائد المخصصة لهن بين الأشجار والزهور .







المعابد والأوبرا !

أما المعابد البوذية فمنتشرة في كل مكان ، وهي تقوم وسط المباني القديمة ، ليس في الحي الصيني وحده ، بل في كل أنحاء سنغافورة !

في شارع « تيلوك اير » دخلنا معبد « يثان هوك كنج » ، المعبد بناه عام ١٨٤١ مهاجر صيني ، ليقدم الشكر للآلهة لوصوله وصحبه سالمين من بر الصين . الناس يدخلون المعبد فيركعون على ركبهم في صلاة قصيرة ، وهم يشعلون أعواد البخور ليغرسوها أمام تمثال بوذا أو تماثيل الأباطرة التسعة الإلهيين !

قصة هؤلاء الأباطرة المقدسين يحكيها لنا الراهب الأكبر الدكتور « شوهون كونج » ، في معبد « تومو كونج » ، المخصص لعبادتهم ، القائم في شارع سيرانجون منذ ١٨٨١ ، قال : إنهم لم يكونوا آلهة أول الأمر ، بل كانوا بشرا ، ولكن من خلال فضائلهم تحولوا إلى نجوم مخلدين ، ينزلون إلى الأرض في إقامة مؤقتة لمصاحبة الرجال والنساء الذين ولدوا من آباء أطهار بلغوا مرحلة « السمو الروحي » ، وما تزال أرواحهم محومة بين السماء والأرض . هؤلاء الأباطرة المقدسون هم نجوم « الدب الأكبر» السبعة ، أربعة منهم يمثلون الدورة الوسطى ، وثلاثة يمثلون الأيدي التي تحركها ، أما الإلهان الآخران فيسكن كل منهما في نجم خفي قريب ، وهما نجما التحويل غير المرئيين إلا للخالدين . . !

يتمثل الأباطرة التسعة بعض الأحيان في تمثال الإلهة الأم « دومو هونج » كما ينطقونها بالمندرين ، والتمثال كما رأيناه لامرأة لها عدة أذرع ، وعلامة مميزة على جبهتها ، ويقول بعضهم : إن موطنها الأصلي هو الهند ، وفي صباها منحت القدرة على السير فوق الماء دون أن تبتل قدماها ، مما جعلها قادرة على انقاذ الغرقى ، وقد تزوجها ملك المملكة الشمالية ، فأنجبت له تسعة أبناء ، أصبحوا هم الأباطرة الالهيين الذين يعبدون في معبدين في سنغافورة ، بالاضافة الى ٣٥ معبدا آخر في ماليزيا ، وتسعة معابد في تايلند . ويجري الاحتفال الكبير بهم مرة كل عام مدة تسعة أيام وتسع ليال ، في اليوم التاسع من الشهر التاسع من التقويم القمري . ويحظر على المتعبدين أن يأكلوا اللحم قبل دخول المعبد بيوم كامل على الأقل ، وعليهم أن يتطهروا ، ويبتعدوا عن العلاقات الجنسية ، وأن تكون أفكارهم نقية طاهرة ، وثيابهم بيضاء غير ملوثة .

في الساحة الخارجية للمعبد أقيم مسرح الأوبرا ، حيث تقدم عروض تاريخية ودينية ، أما الممثلون فمن المتطوعين للتمثيل دون أجر ، وأما المتفرجون فعلى كل منهم أن يبحث عن مقعد من المقاعد المكدسة في جانب الساحة ، ويجلس في أي مكان خال ، والدخول والخروج مسموح به في أي وقت . . !

الأوبرا الصينية كما رأيناها تمزج بين التراجيديا والميلودراما والكوميديا . وكان المشاهدون يتهقهون بالضحك لموقف البهلوان ، مضحك الملك ، وهو يوقعه في خدعة مثيرة ، ثم ينفجرون بعد لحظات في البكاء لنفي فتى صغير وتعذيبه وهو بريء ، ثم يصخبون بالتأييد وهم يشاهدون الرجل الخير ينتصر على العملاق الشرير . « والوايانج » ، أحد أنواع العروض الأوبرالية في سنغافورة ، يمزج بين الأصالة والمعاصرة ، ولا يُكْتَفَى في ذلك بالمشاهد التمثيلية والوجوه الملونة والملابس التقليدية و « الديكورات » البسيطة ، ولكن تُقدم في الوقت نفسه ألوان حديثة من الأوبرا والغناء ، كلها في عرض واحد ، يهلل له المشاهدون . وكل حركة من حركات التمثيل كانت تُؤَدَّى طبقا لقواعد من الرشاقة منسجمة مع النغمات الموسيقية التي تعزف خلال التمثيل . وكانت حركات اليدين تستخدم رمزا للكثير من الأعمال ، كما كانت تصاحب الكثير

من الأقوال ، وكان لا بد أن تكون هذه الحركات دقيقة ، متفقة مع العرف والتقاليد القديمة . تحريك اليدين والجسم عند بعض كبار الممثلين يؤلف نصف مافي المسرحية من شعر .

الحي الهندي

عرض موسيقي راقص شهدناه أيضا في المعبد الهندوسي عندما انتقلنا الى الحي الهندي . كان الاحتفال دينيا ، يسمونه « ديبافالي » ، ويعني « عنقود الأنوار » وعودة النور هو ما يقام من أجله الاحتفال ، أما الديبافالي فتحكي قصة هزيمة اله الشر « أسورا » على يد البطل الالهي « فشنو » ، أو التجسيد البشري له ، وهذا يتفق مع أسطورة « المهابها راتا » ، إذ ينتصر كريشنا على الشرير كامسا . وهذه القصة تمثل انتصار الحق والنور والحياة على الشر والظلام والموت .

دخلنا المعبد بعد أن خلعنا أحذيتنا وتركناها في السيارة ، حتى لا نفقدها إذا تركناها عند الباب كما نصحتنا مرافقتنا . المشهد داخل المعبد كان مثيرا صاخبا مليئا بالضجيج ، والأضواء تغمر المكان ، والشموع متناثرة أمام تماثيل الآلهة ، وأعواد البخور المحروقة تملأ القاعة بالدخان . اتساع القاعة يسمح بوجود خشبة مسرح كبيرة جلست عليها فرقة موسيقية ، لا يقل عدد أفرادها عن عشرين عازفا ، وأمامهم فرقة غنائية من الأطفال يهزجون ويترنمون ، ثم تقوم بينهم راقصات ، يؤدين رقصات دينية ، تتثنى خلالها أجسادهن وأذرعهن مع تعبيرات تؤديها العيون والأصابع بتناسق فني مثير .

المشاهدون يجلسون على أرضية المعبد الرخامية ، يتابعون المشاهد في إعجاب وانبهار ، وبين الحين والحين يتجه بعضهم إلى حيث تمثال الاله كريشنا ، لتقديم القرابين ، أو لإشعال أعواد البخور ، ثم يعودون إلى أماكنهم ، وقد أنجزوا نصيبهم من الاحتفال ، وحصلوا على البركة من الراهب الذي يرش عليهم الماء المقدس ، ويعطيهم بعض حبات الأرز التي باركها الاله . ونجد بعض الرجال ينجذبون فينهضون للمشاركة في الرقص والاهتزاز العنيف ، تماما كما كنا نشاهد « المجاذيب » في موالد الأولياء .

قالت لنا مرافقتنا : إن الاحتفالات تبدأ في ساعة مبكرة من الصباح . تنهض الأم قبل طلوع الشمس ، فتخرج الملابس الجديدة التي سترتديها هي وزوجها وأبناؤها ، وتجهز مظاهر الاحتفال التقليدية ، مثل الزهور وقطع الحلوى والزعفران وزيت الزنجبيل وبودرة الألوان والفواكه . وللتطهير يأخذ الجميع حماما من زيت الزنجبيل ، قبل أن يرتدوا ملابسهم . ويتجمعون أمام المذبح لأداء صلوات الشكر للآلهة ، قبل أن يقضوا النهار كله في تبادل الزيارات مع الأقارب ، والتنزه في الحدائق . ويستمر ذلك حتى يهبط الليل ، فيتجهون الى المعبد ، حيث العرض الغنائي الراقص الذي حضرنا بعض مشاهده .

هنا الهند

الحي الهندي القديم ما يزال على حاله ، صورة طبق الأصل مما شاهدناه في الشوارع الخلفية في بومباي .

يقولون : إذا كنت تريد أن تذهب إلى الهند ، فوفر نقودك ، فقد انتقلت الهند بنفسها إليك هنا في سنغافورة ! « الهند الصغرى » ، هكذا يسمون الحي الهندي الذي يخترقه شارع سيرانجون الرئيسي ، وتتفرع منه عدة طرقات أخرى ، تمثل أقاليم شبه الجزيرة الهندية ، حيث حط القادمون منها ليستقروا ويعيشوا منذ أكثر من مائة عام ، إنها صورة مصغرة من الهند ، بكل تقاليد شعوبها وعقائدها ومعابدها وثقافاتها وأزيائها وتجارتها وصناعتها وبخورها وعطورها ، بل حتى رائحتها النفاذة المعبقة







● مشاهد الأوبرا في الحي الصيني تمزج بين التراجيديا والميلودراما والكوميديا . . والكل يمثل بدون أجر لإمتاع المشاهدين . (الصورة العليا) ولا ينسى الناس في سنغافورة « سير رافلز » المؤسس الأول الذي يبدو في متحف الشمع يتفاوض مع السلطان . (الى اليسار) أما الصورة السفلى ، فلعازفة هندية تعزف أثناء الاحتفال في المعبد الهندي ، بينما في أقصى اليسار تمثال الإلهة الأم .



بالكاري والبهارات التي تجذبك مهما كنت بعيدا لتقول لك: هنا الهند.. !

الساري بألوانه الصارخة وزخارفه المذهبة هو قوس قزح الذي لا يغيب عن بصرك، سواء كانت السماء صحوا أو ممطرة، فإذا لم تلمحه على أجساد النساء والفتيات فستراه على الأقل معلقا على جميع واجهات المحلات التي تبيع الأقمشة والأزياء، سواء الحريرية أو القطنية أو المصنوعة من الصوف والنايلون والموسلين والفوال والشيفون. وبين كل محل وآخر من محلات الأزياء تتناثر الدكاكين والمتاجر التي فرشت أمام واجهاتها كل بضائع الهند، من قمصان مشجرة وبلوزات ملونة وأحذية وشباشب وخلاخيل وأساور وعقود من الخرز أو الزجاج، إلى جانب دكاكين الأواني المنزلية، والفواكه والخضراوات واللحوم والأسماك والروبيان المجفف، ومحلات الكاسيت التي تصرخ بالموسيقا والأغاني، وتضرب أذنيك مهما تنقلت من شارع إلى شارع ومن رصيف إلى رصيف.

لا تتوقع أن تجد « سوبر ماركت » أو مجمعات تجارية، فالمشترون - سواء النساء أو الرجال - يحملون دائما أكياسا أو حقائب من الجلد أو البلاستيك ليملئوها بما يريدونه من البضائع المدلاة على الواجهات أو المفروشة أمامها، إنهم ليسوا على استعداد لدخول مخزن تجاري أو « سوبر ماركت » للشراء، ما دام كل شيء معروضا على الرصيف. أما التجار فهم يبيعون بضاعتهم في أي مكان يقعون عليه. تكفي « فاترينة » أو ثغرة في حائط قديم أو كشك على رصيف أو دولاب على حائط أو درجات سلم خارجي أو طاولة على بقايا سور، أو حتى صينية أو صندوق معلق على الكتف أو الرقبة، ومع ذلك فالأمن والأمانة متوفران، فلن يخطف أحد شيئا ويهرب، ولن يأخذ أحد بضاعة دون أن يضع قيمتها، حتى ولو لم يكن البائع موجودا.

« انظر حولك » غير معترف بها هنا، فالأطفال والمواليد والصبية يملأون الأرصفة والدكاكين، والأغلبية تشارك الأم أو الأب في عمل باقات الزهور والفل والياسمين. الخياط يعمل وهو متربع على الساقين، وماكينة الخياطة على الأرض بين يديه. طحان التوابل والحبوب يجلس وهو يدير الرحى الحجرية التي ارتقت عند بعضهم فتحولت إلى آلة وان لم تكن عصرية. بائع التوابل يغرف الفلفل والبهار والكاري ليعبئها في أكياس من البلاستيك للمشترين. الحداد ينفخ الكير ويضرب الحديد المحمي داخل الدكان الصغير. صانع الأحذية أو الإسكافي يفترش مدخل دكانه، والصغار والكبار كل منهم يأخذ دوره في إصلاح الحذاء أو تركيب نعل أو كعب جديد من المطاط. صانع الأطعمة يقف على الرصيف أمام فرنه أو موقده أو صينيته، يقلب الفطائر والمعجنات والسمبوسة في زيت مقلاته الذي يغلي، ويملأ الشارع بالأبخرة والروائح النفاذة.

وكلما اقتربت من معبد من المعابد الهندوسية وجدت نفسك وسط زخم من دكاكين بيع الشموع وأعواد البخور وتماثيل الآلهة وهياكل القرابين والأرز الملفوف في أوراق المانجو، وكل ما يرتبط بالعبادات من الصور والأضحيات، مما لا يعد ولا يحصى. دخلنا أجمل وأكبر المعابد الهندوسية في سنغافورة، معبد « يرى بيرومال ». المدخل الرئيسي يقوم فوقه برج، طوله ٢١ مترا، يسمونه « راجا جيورام »، من خمسة طوابق مدرجة، تمثل التماثيل الملونة على جوانبه ومدرجاته بالشكل التقليدي جميع الآلهة الهندية والقصص الأسطورية للعقائد الهندوسية. ما أن ندلف من بوابة المعبد حتى يُطلب منا خلعُ أحذيتنا، قبل أن نجتاز ساحة رحبة مترفة، تقوم في جانبها قاعة المهرجانات الدينية وحفلات الأعراس، وإلى اليسار يقوم

حرم قدس الأقداس ، حيث هيكل الاله الفيل « فينا جايار » ، وأخيه « موروجان » ، وإلى اليمين يقوم هيكل الاله القرد هانومان ، أما الهيكل الرئيسي في المعبد ففي الوسط ، وهو مخصص لتمثال الاله فشنو ، تحيط به زوجتاه ، لاكشمي « زوجه الأولى إلى يساره ، « ولاندال » زوجه الثانية إلى يمينه . ويؤدي الهندوس صلاة جماعية أمام فشنو في السابعة صباحا والسادسة مساء يوميا .

ثمة مشهد غريب رأيناه ، وهو عملية « حمام الاله » التي يؤديها الراهب الهندوسي الأكبر ثلاث مرات في اليوم . في كل مرة يقوم الراهب بغسل تمثال الاله تسع مرات ، فيرشه في كل مرة بماء مطهر ممزوج في الحمام الأول بالزيت ، وفي الثاني بعصير جوز الهند ، ثم بالحليب الصافي ، فاللبن المختر ، فكوكتيل من عصير الفواكه ، فالعسل ، ثم عصير الليمون ، فعصير قصب السكر ، ويكون الحمام التاسع بماء الورد ، وبعد الحمام يقوم الراهب بتغطية تمثال الإله بباقات الزهور والجواهر ، ويضع أمامه قرابين الأرز وجوز الهند والموز والسكر والبلح ، وينثر أوراق الشجر الخضراء تحت قدميه . . !

مآذن الاسلام

كل هذه المشاهد تتباين تماما عندما ننتقل إلى القلب الاسلامي النابض في سنغافورة ، الحي الملايوي والحي العربي . عدد المسلمين في البلاد حوالي نصف مليون نسمة ، يمثلون سدس عدد السكان في سنغافورة ، ولهم مساجدهم ومآذنهم وتراثهم ومتاجرهم وبضائعهم التقليدية المحلية ، وأزياؤهم التي تختلف عن أزياء بقية السكان .

الوصول الى الحي العربي يتم من خلال طريق جيلانج سيراي ، حيث أسواق الحي الملايوى .

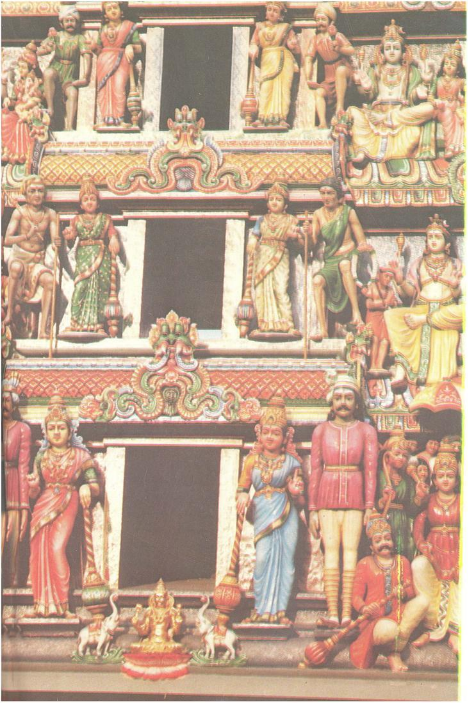
في هذا المكان استقر الملايويون في قرية صغيرة للصيادين ، نمت مع الأيام ، لتصبح مدينة حديثة قائمة بذاتها ، كان اسم القرية الأصلي « جيلانج كيلابا » ، نسبة إلى جوز الهند الذي كان يزرع في ذلك المكان وسط شجيرات الليمون (سيراي باللغة الملايوية) ، ولهذا حملت اسمها الجديد « جيلانج سيراي » .

في عام ١٩٦٠ حدثت تغيرات سريعة في كيلانج . فمع زيادة النسل والتزاحم الشديد بين الملاويين كان لا بد من توسعة المنطقة ، وردم بعض جوانب النهر الذي كان يقسم القرية الى نصفين ، وأقيمت مبان رأسية يمكنها استيعاب الأعداد المتزايدة ، هدمت هذه البنايات ليقوم محلها ما يشبه ناطحات السحاب لإسكان أبناء الحي ، وتمت توسعة سوق كالانج لتغطي الاحتياجات الاستهلاكية والغذائية والحياتية للسكان .

ومن خلال التزاحم الشديد في طرقات الحي الملايوى نشق طريقنا بصعوبة الى الحي العربي .

هنا . . . تحمل الشوارع أسماء مدن عربية واسلامية مثل بغداد ومسقط وقندهار ، وعندما نبدأ سيرنا من طريق الشاطىء نجد أنفسنا بين صفين من الدكاكين التي تبيع كل ما هو تقليدي مثل أقمشة الباتيك والحرير والمخمل والمقصب والجدائل والضفائر والترتر والسلال المصنوعة من القش .

وفي شارع بغداد حيث البنايات ذات الطابع التقليدي الاسلامي وبخاصة المغربي والأندلسي ، تباع صناعات تقليدية أندونيسية مثل أغطية الرأس وملابس الاحرام والمجوهرات والعطور وسجاجيد الصلاة . وفي نهاية شارع مسقط نجد أنفسنا أمام مسجد السلطان الذي شيد عام ١٩٣٤ . إنه أحد أكبر المساجد التي يشرف على أغلبها المجلس الاسلامي الأعلى الذي يرعى الدعوة الاسلامية التي دخلت سنغافورة مع قدوم التجار من العرب والمسلمين من اليمن وخاصة من









● هنا الهند .. هكذا تؤكد هذه المجموعة من الصور التي التقطتها عدسة مصور العربي .. إلى أقصى اليمين ، يبدو جانب من برج أكبر المعابد الهندوسية في سنغافورة بتماثيله الملونة للآلهة الهندية .

أما الصورة العليا (إلى اليمين) فلإحدى الفتيات تقدم قربانها في المعبد الصيني .. (وفي الوسط) لقطة للحفل الغنائي الديني « الديبافالي » والكاهن يقدم القربان أمام تمثال الإله « براهما »

حضرموت والذين صحبهم عدد من الدعاة لنشر الاسلام وانتشرت مع وجودهم مساجد عديدة في جميع المناطق ، بينها مسجد النور والسلطان ، ودار الأمان والشاكرين والمجاهدين والمهاجرين وفاطمة وآمنة وقاسم وخالد والتقوى .

ونتأمل مبنى مسجد السلطان قبل أن ندخله . القبة المذهبة شامخة ، والمئذنة قائمة تناطح السحاب . هندسة المسجد من الخارج مزيج من الفن الهندي والصيني ، ويتميز من الداخل ببساطته واتساع صحن الصلاة ، والجدران غير المزخرفة ، وقد خصص جانب من الطابق الثاني للنساء لأداء الصلاة ، في هذا الطابق نجد واحدة من الطبول الضخمة بمقرعتها حيث كانت تستخدم للاعلان عن مواعيد اقامة الصلاة قبل أن يصبح الأذان بالميكروفون فوق المنارة هو الوسيلة لدعوة المصلين لأداء فرائضهم الخمس .

بجوار المسجد يقوم قصر السلطان وكان يسمى « استانة كامبونج جلام » وندخله من احدى بوابتين رئيسيتين ، القصر يقيم فيه الآن بعض أحفاد السلطان وحريمه ، وهم لا يحبون لقاء الزوار ، ولا تغادر سيداته القصر القديم ، حتى أن الحديقة الواسعة أصبحت الآن مهملة على الرغم من ثراء أشجارها التي تنبيء بما كان عليه القصر من فخامة في عهد مضى . حول المسجد وفي الطرقات المحيطة يعيش خليط من العرب والأندونيسيين والملاويين والهنود المسلمين . الملفت للنظر هنا أن المسلمين في سنغافورة بعيدون عن مظاهر الفقر والإهمال التي يعاني منها المسلمون في الدول غير الاسلامية في جنوب شرق آسيا .

ولكنهم في كل ذلك يعتمدون على الجهود الذاتية في مسيرة حياتهم ، وحماية معتقداتهم والمحافظة على تقاليدهم وتأمين مستقبلهم المادي والروحي ، وحين تتحدث اليهم تدرك أن ثمة شخصيات إسلامية بارزة لعبت دورا كبيرا في تطوير أحوال المسلمين والنهوض بهم وسط خضم من أصحاب المعتقدات غير السماوية ، والاتجاهات العدائية المناهضة لانتشار دعوتهم ، أشهر هذه الأسماء عبدالرحمن باجنيد آل جنيد الذي جاء من حضرموت واستطاع أن يحتل مركزا تجاريا كبيرا ، ثم أقام مدرسة أهلية لتعليم اللغة العربية والمنهج الاسلامي ، ويتلقى التعليم فيها أكثر من ثلاثمائة طالب في مراحل الابتدائي والمتوسط والثانوي ، ويؤهل الخريجون لتلقي دراساتهم العليا في الأزهر والمملكة العربية السعودية والكويت .

مزرعة التماسيح

في نهاية شارع سيرانجون الرئيسي وجدنا أنفسنا أمام « مزرعة التماسيح » احدى أشهر مزارع التماسيح في جنوب شرق آسيا . هنا يجري عرض شبه يومي يجتذب مئات الزوار لمشاهدة الرجل الذي يحيط عنقه بتعويذة ، ويؤدي صلاته أمام تمثال بوذا قبل أن يتجه الى حافة الموت ، ويخترق الخط الفاصل بين الأمان والخطر ، ذلك أن عمله الرسمي هو اطعام التماسيح الضارية وملاعبتها وتحديها أمام الزائرين .

استقدمت تماسيح المزرعة في البداية من اندونيسيا حيث يقوم الصيادون المتخصصون بصيدها في الليالي غير المقمرة حين تستلقي التماسيح على جوانب الأنهار والبحيرات ، ثم تنقل الى المزرعة في سنغافورة . وتجري تغذية التماسيح بالروبيان والاسماك واللحم ورئات الخنازير ، وعلى الرغم من أن بداية انشاء المزرعة كان يستهدف انشاء واحدة من ضمن الحدائق المتخصصة المنوعة لمتعة المشاهدين ، إلا أنها سرعان ما اتخذت صبغة تجارية ، وتدفق السياح الغربيون لمشاهدتها في أحواضها التي أقيمت متباينة حسب البيئة التي استقدمت منها

التماسيح ، وتنحصر هذه البيئة في ثلاثة أنواع إذ أن بعضها يعيش في البحيرات والأحواض المائية والقنوات والمستنقعات ، وهناك أنواع تعيش في المياه المالحة المعروفة علميا باسم « بروساس » كما أن هناك تماسيح المياه العذبة « سيامنساس » والتماسيح المعروفة شعبيا باسم « الغريال » وعلميا باسم « توستا شليغيلي » .

ولأن الانسان ـ في سعيه الى مباهج الحياة ـ بدأ يستغل جلودها في صناعات كثيرة ، فقد تحولت المزرعة لتكون المورد الرئيسي للصناعات المرتبطة بجلود التماسيح . وأقيم مصنع خاص مع قاعة كبيرة لعرض هذه المشغولات التي تتضمن الحقائب النسائية والأحذية والأحزمة . وفي مكتب مدير المزرعة تجد الرجل غارقا بين المحاليل والمواد الكيميائية المستخدمة في تجفيف الجلود ودباغتها ، وحوله عدد كبير من الفتيات المشتغلات بهذه الصناعة ، وهن يجهزن الطرود التي تصدر الى مختلف الأسواق العالمية .

فوق تل القصدير

الآن . . نحتاج الى شيء من الراحة والمتعة والاستجمام ، ونستطيع أن نجد ذلك في إحدى أشهر معالم سنغافورة ، غابة تل القصدير ، التي وصلنا اليها بعد مسيرة نصف ساعة بالسيارة من قلب المدينة .

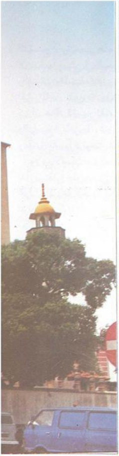
هناك تذكرنا ما قرأناه عن عالم الطبيعيات « الفريد رسل ولاس » الذي قال منذ أكثر من مائة وعشرين سنة وهو يتحدث عن مغامراته في الغابة المحيطة بتل القصدير والتي تسمى « بوكيت تيما » : ضرب سمعنا زئير النمور مرة أو مرتين في المساء بينما كنا نصطاد الفراشات الملونة بين سيقان الأشجار المستلقية في الغابة .

وغير بعيد منا يستعد ذلك الحيوان المفترس في انتظار فرصة لينقض علينا » .

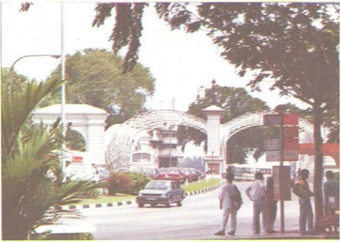
نحن إذن نسير في الغابة المليئة بالنمور . . ! ولكن هذه النمور لم يعد باقيا منها شيء الآن ، وكانت في الفترات الماضية تفترس شخصاً على الأقل كل يوم ، وخلال عشر سنوات منذ ١٨٦٠ بلغ عدد ضحايا النمور سنويا بين خمسين ومائة رجل من مرتادي التل والمشتغلين على سفوحه ، مما جعل الحكومة ترصد جائزة قدرها مائة دولار لكل من يقتل نمرا ، وكان من حظنا أن جئنا بعد أن قضى الصيادون على كل نمور الغابة .

في ذلك الوقت كان « تل القصدير » المغطى بالأشجار والنباتات المتسلقة مرتعا لبلايين الفراشات التي تجتذب جامعي ذلك النوع من الحشرات الرائعة الالوان التي لا يوجد مثلها في أي مكان في العالم ، الآن ما تزال هناك ملايين من هذه الفراشات التي يبلغ حجم بعضها ما يقرب من عصفور صغير ، ويمكن صيدها بسهولة دون خوف من النمور وأشباحها . . !

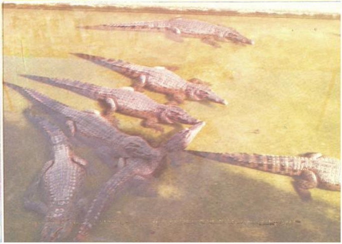
تل القصدير يكاد يكون المكان الوحيد الذي ما تزال تمثل فيه الغابة بشكلها الطبيعي ، فقد أصبح منذ عام ١٩٥١ محمية طبيعية كاملة ، دون أن يمنع ذلك من شق طرقات وإقامة مشاريع سياحية على جوانب سفوحه . الغابة قائمة على تل من صخور الجرانيت يصل ارتفاعه الى ١٦٠ مترا . وهي منتجع ومتنزه لأبناء الجزيرة في عطلاتهم حيث تمتلىء طرقات الغابة بالأسر والأبناء والطلاب وهم يتسلقون الصخور ويرتعون بألعابهم ويتناولون طعامهم الذي يأتون به باردا ومحفوظا دون أن يشعلوا نارا حتى يحافظوا على الغابة وسلامتها ونظافتها ، وحتى لا تمتد النيران الى الأشجار الاستوائية الضخمة التي يبلغ عمر بعضها مئات السنين على الرغم من سقوط بعضها على جوانب الغابة واللجوء الى تقطيع سيقانها وإبقائها في أماكنها لتكون مرتعا للفراشات والنمال ، وأعشاشا ومأوى لبعض الحيوانات الصغيرة مثل الفئران والسناجب والأرانب البرية . ولكن اذا أراد أحد الزوار أن يشهد الحياة الوحشية في الغابة













● مسجد السلطان أجمل مساجد سنغافورة (إلى أعلى) ومسيرة في غابة القصدير (إلى اليمين) ، بينما في الصور الثلاث بأقصى اليمين تبدو المفارقة بين القديم والجديد في العمارة ، والشارع الرئيسي بالحي الصيني .. ومزرعة التماسيح إحدى أشهر المزارع المماثلة في جنوب شرق آسيا .



فإن أحسن الأوقات لذلك هو الصباح المبكر أو قبيل الغروب ، ففي تلك الأوقات يمكن مشاهدة الأصلة والثعابين والزواحف الضخمة ، كما يمكن رؤية حيوانات الليمور من فصيلة القردة طويلة الذيل وهي تتقافز بين أغصان الأشجار وكأنها ثعالب طائرة .

قفزة اقتصادية هائلة

الأشجار والخضرة هي بعض مصادر الصناعة والزراعة والاقتصاد في سنغافورة وعلى الرغم من أن أقل من ربع مساحة الأراضي تحت الاستصلاح ، إلا أن الرقعة الزراعية وما تنتجه من فواكه وخضراوات ومطاط تمثل حوالي ٢٪ من الانتاج العام ، ومع أن سنغافورة ليست دولة منتجة للبترول الا أن البترول يلعب دورا هاما في اقتصادها حيث يوجد لديها ثالث أكبر مجمع لتكرير البترول في العالم ، كما أن هناك حوضا كبيرا لاصلاح السفن .

وسنغافورة من الأمثلة الحية على مواجهة الفقر عن طريق البناء الصناعي ، فقد نجحت في اقامة مجتمع خال من الفقر ، واستطاع الاقتصاد السنغافوري أخيرا وخاصة منذ ١٩٨٧ أن يختط مسارا صحيحا متميزا ، وما حققته البلاد في معدل النمو الذي بلغ ٢ر٧٪ في النصف الأول من ذلك العام تجاوز كل التقديرات الحذرة .

القراصنة الجدد

أدركنا مدى الازدهار الاقتصادي في سنغافورة من خلال وجوه أبناء الشعب المتفتحة المتفائلة المستبشرة ، ومن الحركة الدائبة في المحلات التجارية المتخمة بالمنتجات الصناعية والزراعية بالاضافة الى زخم السائحين الذين يملأون الشوارع والأسواق والفنادق والمعالم السياحية في كل مكان . كما يبرز ذلك لمن يتابع حركة الترانزيت الجوي والبحري الواضحة من المطار الضخم البالغ الاناقة والنظافة ، العامر بالمغادرين والقادمين من جميع أنحاء العالم الذين يعدون بعشرات الآلاف كل يوم . وبدا لنا التطور من خلال حركة البواخر والسفن وأعمال الشحن والتفريغ المتواصلة في الميناء الكبير الذي أصبح يتفوق على ميناء روتردام ، أكبر الموانىء ازدحاما في العالم .

ولعل ازدهار حركة الشحن والنقل بالسفن كانت وراء تعرضها لبعض السلبيات من خلال قراصنة من نوع جديد ، أغرتهم الزيادة الكبيرة في البضائع وهي تمر أمام شواطىء سنغافورة . سمعنا هذا من أحد مسؤولي الشحن في الميناء . قال ان القراصنة الجدد غيروا أساليب أسلافهم السابقين ، فهم لا يهاجمون السفن الكبيرة العابرة للقارات ، ولكنهم يهاجمون السفن الصغيرة المليئة بالواردات ، وبدلا من استخدام المدافع والبنادق أصبحوا يستخدمون السكاكين والمدى لتهديد بحارة السفن وعمالها كي يستولوا على كل ما هو ثمين من البضائع أو الأموال من شحناتها . بل إن بعض هؤلاء القراصنة لا يمتنعون عن مهاجمة البواخر الكبيرة بما فيها ناقلات البترول واحتجاز قباطنتها تحت تهديد السلاح مما جعل الشرطة والقوات البحرية تكثف دورياتها جنوب سنغافورة ، وقرب جزر باتام الاندونيسية لتوفير الأمان للسفن العابرة للمحيطات .

بصرف النظر عن هذه السلبيات فإن النمو الاقتصادي يتضح في انتعاش القطاع المالي والمصرفي الذي تخلص من العثرة المؤقتة التي مر بها في بداية ١٩٨٦ مع ظهور انجازات القطاعين التي حققت أفضل النتائج بنسبة تتجاوز ٦٥٪ عنها في الفترات السابقة ، بالاضافة الى الموارد الضخمة التي بدأ القطاع السياحي يضخها من خلال النشاط الواسع لاجتذاب السائحين من جميع أنحاء العالم ، بما يقدم من انجازات وتسهيلات ، وتطوير للمعالم

السياحية والفندقية والثقافية والفنية في البلاد .

استطعنا متابعة معالم الازدهار الاقتصادي ونحن نخترق المركز الرئيسي الحديث للمدينة الذي يسمى « اوركارد رود » فلقد تجاوزت شهرته شهرة الشانزليزيه في باريس ، والشارع الخامس في نيويورك ، واكسفورد في لندن . على الجانبين ناطحات السحاب بفنادقها الفاخرة وأضوائها المشعة ، وبمسارحها ودور السينما فيها ، وبمعارضها الفنية ، والأهم من ذلك مجمعاتها الضخمة الحديثة ذات الطوابق التي يصل أكثرها الى عشرة طوابق ، عامرة كلها بالمنتجات المحلية والمستوردة ، حيث يباع كل شيء بأرخص الأسعار ، في محلاتها التي يتجاوز عددها ألف محل ، كما شهدنا في أسواق « لاكي بلازا » و « تانجلين » و « منجاتونج » . ولا تقتصر المحلات على البضائع المعروضة للبيع ، فهناك أيضا ملاعب للأطفال وحدائق داخلية وساحات للراحة ونافورات ومطاعم للبيتزا الكنتاكي والهامبورجر ، وكافتيريات بل ومعارض للسيارات ، ومكاتب للسياحة والسفر والتصوير .

أنظف مدن العالم

ومن أجل مزيد من جعل المدينة قمة لا مثيل لها من قمم الفخامة والنظافة والأناقة والتنظيم بين مدن العالم الكبرى ، صدرت قوانين صارمة لمعاقبة كل من يسيء الى الصورة المتألقة للمدينة ، وأقامت الحكومة « خطا ساخنا » لتلقي شكاوى الجمهور ضد المؤسسات التجارية والمطاعم التي تتسبب في وجود أي نفايات أو مخلفات سواء في داخلها أو خارجها ، ويواجه المخالفون أحكاما تفرض غرامات باهظة يمكن أن تصل الى إغلاق المؤسسة بضعة أيام مع التنديد علنا بمخالفاتهم .

وقد اتخذت حكومة « لي كوان يو » اجراءات حازمة يقابلها حوافز تشجيعية لدفع الجماهير الى التصرف بانضباط وبروح من المسئولية ، في مجالات التطور والصحة والنظافة ، وقد أدت الحملات الدعائية المستمرة الى امتناع أغلبية الناس عن التدخين والقاء المهملات خارج البيوت أو على الأرصفة ، كما اهتمت بتوعيتهم لتنظيم النسل سواء بالاكثار أو الاقلال من الانجاب طبقا للظروف ، ويدخل في ذلك تخفيض الضرائب عن المستجيبين للدعوات التنظيمية . وأكثر ما لفت نظرنا بعد أن أثارت مرافقتنا انتباهنا أن السلطات قد وضعت كاميرات فيديو خفية داخل مصاعد المباني من أجل الحفاظ على نظافة العمارات السكنية ، وتتصل هذه الكاميرات بأجهزة الكترونية تؤدي الى توقف المصاعد اذا ارتكب أحد مخالفة للنظافة بداخلها مع ضبط المخالفين بالصوت والصورة وخاصة أن هذه الأجهزة حساسة جدا لمياه التبول بالذات . وفي حالة حدوث ذلك فإن المخالف يظل محبوسا داخل المصعد دون أن يفتح بابه حتى حضور مسئول يفتح له الباب بعد أن يحصل منه الغرامة التي بدأ تطبيقها ابتداء من يونيو الماضي ، وهي تصل الى ألف دولار سنغافوري (٥٠٠ دولار أمريكي) ، وتتضاعف الغرامة لمن تتكرر منه المخالفة وكذلك لمن ينسى تشغيل آلة التنظيف في المراحيض العامة حيث يقوم مسؤولون من دائرة الصحة بالتفتيش على الحمامات العامة للتأكد من نظافتها كما يتم تكليف صحفيين بالقيام بجولات مستمرة لاكتشاف دورات المياه البعيدة عن النظافة حيث توضع في « قائمة العار » التي تنشر علنا في الصحف كما يعلن أسماء الأفراد الذين يتسببون في قذارة الحمامات في القائمة السوداء .

إن سنغافورة تصر على الاحتفاظ بصورتها المتألقة كمدينة تمثل المرتبة الأولى في العالم من حيث النظافة والأناقة وهي تسعى جاهدة لتصبح مركزا ماليا وحضاريا رئيسيا في آسيا يتحدث عنه الجميع . □



«الصوبة»: هل تحوّل صحارانا إلى جنّات خضراء؟

بقلم : مجدى نصيف

«الصوبة» تعني زيادة درجة حرارة الجو الناتجة عن التركيزات المتزايدة لغازات معينة في الغلاف الأرضي ، ويناقش الكاتب الآثار المحتملة لمثل هذه التركيزات على مستقبل الأرض والبشر .

الجفاف الشديد الذي أصاب الغرب الأوسط للولايات المتحدة الأمريكية أخيراً ، أفزع علماء عديدين ، وأدى إلى ظهور تقارير مثيرة في وسائل الإعلام عن فوضى عالمية وشيكة . وقد أثار هذا الاهتمام غير العادي الصلة الممكنة بين الجفاف وبين تأثير «الصوبة[1]» ، وهو اللفظ الذي يطلق الآن على زيادة درجة حرارة الجو الناتجة عن التركيزات المتزايدة لغازات مثل ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوى لكرتنا الأرضية . وخمن العلماء وجود هذه الصلة منذ سنوات.

بينما كانت وسائل الإعلام تنشر التقارير المفصلة عن جفاف الغرب الأوسط الأمريكي ، كان هناك مؤتمر دولي يعقد في تورنتو بكندا ،

(١) هذه ترجمتنا لكلمة Green House Effect التي جاء ذكرها كثيرا في الآونة الأخيرة ، و «الصوبة» بناء زجاجي لتربية النباتات دون التأثر بالعوامل الجوية غير المناسبة .



لمناقشة تأثير المتغيرات الكيميائية في الغلاف الجوي ، فكانت صدفة غريبة ، وعلى أي حال كان عام ١٩٨٧ ذا أثر ملحوظ في « المناظرة » الدائرة حول تأثير « الصوبة » ، إذ حدث تحول كبير في الاجماع العلمي ، فهناك الآن اقتناع ـ متفق عليه ـ أنه مالم تتخذ إجراءات وقائية ، فإننا في سبيلنا إلى عالم جديد ، يتغير فيه طقس كرتنا الأرضية بطريقة لايمكننا التنبؤ بها ، ولا التحكم فيها .

حماية بني البشر

يحمي البشرية من أشعة الشمس الحارقة ، غطاء الهواء العميق الذي نسميه « الغلاف الجوى » ، وحقيقة الأمر أن هذا الغلاف وراء استمرار معيشة البشرية على سطح الأرض ، وتقل كثافة هذا الغطاء تدريجيا بالارتفاع ، فتوجد حوالي ٨٠٪ من كتلة الغلاف الجوي في النطاق الملاصق تماما لسطح الأرض (التروبوسفير) ، وتوجد قمة « التروبوسفير » على ارتفاع حوالي عشرة كيلومترات عند القطبين ، وعلى ارتفاع حوالي خمسة عشر كيلومترا فوق خط الاستواء ، وتقل درجة الحرارة مع الارتفاع فيما بعد ذلك .

وحين تمر أشعة الشمس خلال طبقة « الستراتوسفير » العليا ، وطبقة « التروبوسفير » التي تحتها ، الملاصقة لسطح الكرة الأرضية ، تُمتص وتتناثر وتُعكس ، فلا يصل إلى سطح الأرض أكثر من ٥٤٪ فقط من الأشعة الساقطة على قمة الغلاف الجوي . ويعكس نظام الأرض « الغلاف الجوي » الطاقة مرة أخرى إلى الفضاء ، وتحدث عملية « الإرسال » « والاستقبال » من خلال توازن دقيق للكرة الأرضية بمعنى أن كمية الأشعة « الواردة » ، لابد أن تساوى كمية الأشعة « الصادرة » ، وذلك على مدى فترة زمنية طويلة ، سنة مثلاً .

إن كمية الأشعة وطول موجتها لهما صلة بدرجة حرارة الجسم المشع ، فالشمس بدرجة حرارتها التى تفوق خمسة آلاف درجة مئوية ، تشع كميات كبيرة من الطاقة ، ذات موجات قصيرة .

أما نظام الأرض « الغلاف الجوى » ، الأكثر بردا من الشمس ، فيشع كميات أقل من الأشعة ذات الموجات الأطول . وهذا الاختلاف في طول الموجات المشعة ، ذو أثر مهم في فهم تأثير « الصوبة » ، فالغازات المسئولة أساسا عن امتصاص الأشعة في الغلاف الجوى ، هي بخار الماء وثاني أكسيد الكربون ، ثم الأوزون بدرجة أقل . ولا تمتص تلك الغازات بطريقة منتظمة عبر « الطيف » كله ، لكنها تمتص اختياريا عند حزم طيفية معينة ، وعلى وجه الخصوص عند أطول الموجات .

والسؤال الذي طرحه العلماء في السنوات الأخيرة هو : ما نتيجة زيادة التركيز في طبقة « التروبوسفير » لغاز يمتص ـ اختياريا ـ أشعة ذات موجات طويلة ، وهو شفاف لا يمتص الأشعة ذات الموجات القصيرة التي تصل من الشمس ؟

الإجابة ؛ إننا ستتلقى كمية الطاقة نفسها من الشمس ، غير أن نسبة الأشعة ذات الموجات الطويلة الصادرة عن سطح الأرض والتي تمتص في الجزء الأسفل من طبقة « التروبوسفير » بواسطة غازات « الصوبة » ستزداد ، ويسبب ذلك ارتفاعاً في درجة حرارة الجزء الأسفل من « التروبوسفير » ويؤدى بدوره إلى زيادة قدر الإشعاع المنبعث ، وفي نهاية الأمر

يحدث اتزان جديد بين الإشعاع الممتص ، والإشعاع المنبعث لكن عند درجة حرارة أعلى .

وهذا هو « تأثير الصوبة » . .

نشاط بشري مدمر !

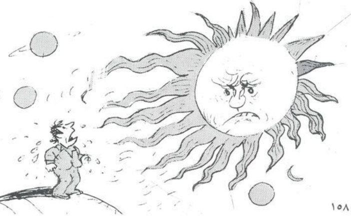
يزداد تركيز غازات بعينها في هذه « الصوبة » في الغلاف الجوي ، بسبب نشاطات البشرية ، وربما كان ثاني أكسيد الكربون أكثر هذه الغازات شهرة . والمتهم هنا الدول الصناعية المتقدمة ، فهي المسئولة عن الكم الأعظم من هذا الغاز ، والأرقام هي دليل الاتهام ، فقبل الثورة الصناعية ، كان تركيز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي حوالى ٢٩٠ جزءا من المليون .

ويصل التركيز في يومنا هذا إلى ٣٤٥ جزءا ، وهي زيادة تقدر بـ ٢٠٪ ، وهناك إجماع علمي على أنه سيتضاعف إلى ٥٨٠ جزءا في منتصف القرن القادم . وتأتي المساهمة الرئيسية في زيادة التركيز هذه ، والناتجة عن نشاط البشر ، من احتراق الوقود « الحفري » في العمليات الصناعية ومحركات السيارات وتوليد الطاقة ، ومن التفاعلات الكيميائية الناتجة عن صناعة الأسمنت ، فهذه العمليات مجتمعة ، تنتج الآن مايربو على ٥,٥ (خمسة بلايين ونصف بليون) من ثاني أكسيد الكربون كل عام في « الغلاف الجوى » للأرض ، ويعكس توزيع البلاد المسئولة عن هذه الغازات التغيرات في نمط التصنيع ، ففي عام ١٩٥٠ صدر من الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوربا الغربية معا أكثر من ٦٨٪ من كل ثاني أكسيد الكربون ، وانخفضت تلك النسبة فى عام ١٩٨٠ إلى ٤٣٪ من مجموع أكبر بكثير . وخلال الفترة نفسها ازدادت كمية الغاز الصادرة من الدول النامية من ٧٪ إلى ٢٠٪ ، حيث تطلعت تلك البلدان إلى مثيل التصنيع الذي قدمته الدول الصناعية المتقدمة .

بالإضافة إلى هذا ، فإن إزالة الغابات ، والتغيرات التي تحدث في الأراضي مصادر مهمة لثاني أكسيد الكربون المتسبب عن نشاطات بشرية على الرغم من شدة صعوبة تقدير كمية مساهمتها .

يساهم ثاني أكيد الكربون حاليا بمقدار ٥٥٪ من تأثير « الصوبة » المتزايد . وهناك غازات « صوبة » أخرى يتزايد تركيزها ، مثل غازات « الميثان » وغازات « أكسيد النيتروز » الناتجة عن الزراعة المكثفة ، والكلوروفلوركربون ، وهي غازات تستخدم في التبريد .

ويتفق العلماء عامة الآن على التأثيرات الطقسية الأساسية التي تحدثها مضاعفة تركيز



غازات « الصوبة » . فمن المتوقع أن تزيد درجة الحرارة على الكرة الأرضية بين درجة ونصف درجة مئوية ، وأربع درجات ونصف درجة مئوية . لكنها قد تصل إلى ثماني درجات مئوية عند القطبين ، وعند القطب الشمالي على وجه الخصوص . ومتوسط هذه الزيادات هو متوسط الزيادة نفسه الذي حدث منذ « العصر الجليدي » الذي مرت به كرتنا الأرضية ، ومن المتوقع أن يزداد هطول المطر على اتساع كرتنا الأرضية ويتوقع أن تكون الزيادة أكثر . عند خطوط العرض المتوسطة ، بينما تقل في هطول الأمطار عند المناطق الاستوائية وما بعدها .

ولا يتوقع العلماء أن تحدث تلك التغيرات تدريجيا ، بل على العكس ، فهم يتوقعون تغيرا سريعا من حالة إلى أخرى ، بمثل ما يكون عليه الانتقال من موسم الشتاء إلى موسم الصيف في أحيان كثيرة . وليس هنـاك ـ غير تلك التوقعات ـ أي اتفاق بين العلماء يساعدنا على تقييم المتضمنـات السياسيـة والاقتصاديـة والاجتماعية ، وكل ما يمكننا قوله هو أن الآثار الإقليمية ستكون حادة .

فإذا أخذنا في الاعتبار عدم كفاية التنبؤات ، فما الذي يمكن قوله عن صدمة « تأثير الصوبة » ؟

إن أكثر الملامح أهمية دون شك هي أن العلماء لا يعرفون إطلاقاً شيئا عن المكان الذي ستحدث فيه تغيرات الطقس ، ولا عن طبيعتها ، ولا عن شدتها .

لكن الذي لاشك فيه ، أن الآثار الأساسية ستنصب على الزراعة . وكل ما يقال في هذا المجال مجرد تخمينات بطبيعة الحال .

فقد يحل محل المناطق المنتجة للحبوب في العالم الآن مناطق جديدة ، تفضلها النظم الحرارية لعالم تزداد فيه كثافة غازات « الصوبة » . ولا يمكننا أن نحدد بالضبط أين ستكون هذه المناطق الجديدة ، ولا متى ستحدث تلك التغيرات .

تنبؤات سياسية :

لكن هذا لا يمنع العلماء من إجراء عمليات إسقاط على المستقبل،ولنتأمل ـ على سبيل المثال ـ ما يعنيه زوال المناطق الحالية المفضلة مناخيا . فلو حدث تغير مناخي ، فقد ينتهي النفوذ السياسي للبلدان الغربية التي تحقق فائضا كبيرا من الحبوب فتتاجر به في السوق العالمي ، وتستخدمه سلاحاً سياسياً للضغط على الدول النامية . وقد تحدث « هجرات » سكانية ضخمة باتجاه المناطق الخصبة الجديدة ، عبر الحدود الدولية ، وما يعقب ذلك من مؤتمرات دولية واتفاقيات . وستضاعف تلك الآثار زيادة منسوب المياه في البحار والمحيطات الناتجة عن ذوبان جليد القطبين (بسبب ارتفاع درجة الحرارة) وعن التمدد الحراري لمياه البحار .

وإذا صحت التنبؤات العلمية ، فإن المناطق الخصبة الجديدة ستكون في خطوط العرض المتوسطة الرطبة ، أي حوض البحر الأبيض المتوسط ، ومنغوليا . ومعنى هذا أن تتحول الصحراء الكبرى إلى سلة غذاء ، وهنا يراودني خاطر : هل تسمح القوى الغربية أن يحدث هذا التحول لصالحها ، أم أن الهجرات السكانية المتوقعة ستحدث بالقوة ، فنشهد عصر استعمار جديد إبان عصر التقنية المتقدمة ؟

وسائل الإعلام الغربية تميل إلى تقديم الآثار السلبية فقط « لتأثير الصوبة » ، وقد يكون السبب إدراك الغرب أنه الخاسر الأول في تغير المناخ على الرغم من أنه سيحدث توازناً جديداً . وزيادة على ذلك ، ظهر أن زيادة تركيز غازات ثاني أكسيد الكربون ـ في ظروف معملية ـ له تأثير « فسيولوجي » مباشر على النباتات ، ونتيجة هذا زيادة الانتاج في الوقت نفسه الذي يقلل فيه من احتياج النبات إلى الماء . وإذا كانت قد ثبتت صحة هذا في الظروف المعملية ، فقد تستمر هذه الآثار في الظروف الحقلية .

بنية جديدة

والسؤال الأخير خاص بانبعاث غازات « الصوبة » في المستقبل . ونبدأ بقبول مقولة أنه بتغير التركيب الكيميائي للغلاف الجوى لكوكبنا ، سيحدث تغير أساسي في بيئتنا ، فهل يمكننا أن نعكس هذا الاتجاه إذا ما رغبنا في ذلك ؟

الحقيقة أن المشكلة ليست بالسهولة ولا بالبساطة التي تبدو بها ، فهناك فترة زمنية فاصلة بين زيادة تركيز غازات « الصوبة » وبين استجابة النظام الطقسي لذلك التغير الجديد .

فإذا افترضنا أنه حدث تعاون دولي (غير مسبوق) - استجابة لنداءات تتعالى الآن - لإيقاف انبعاث تلك الغازات غدا ، فسيستمر الجو يدفأ عقوداً قادمة ، قبل أن يحدث توازن جديد . ولنتذكر أن ما يحدث الآن من تغير مناخي ما هو إلا استجابة للتغيرات التي حدثت في تركيز الغازات بسبب « الثورة الصناعية » التي بدأت في بريطانيا منذ مايربو على مائتي عام .

لكن أكثر التصرفات إيجابية - لو كانت « البشرية » عاقلة تريد مصلحة جنسها - هو تغير أنماط استهلاك الطاقة ، وتقع هذه المسئولية على عاتق العالم الصناعي المتقدم . لكن هذا معناه التحول عن استخدام الوقود الحفري إلى مصادر أخرى متجددة ، وما يعنيه هذا من تأثير على الأقطار العربية المنتجة للنفط . وعلى أي حال مازال الحديث عن بدائل الطاقة بعيدا ، وخاصة أن المولدات النووية للطاقة - وهي البديل الأساسي لاستخدام النفط لأنها لا تخرج غازات « صوبة » - مازالت تخلق مشاكل بيئية أخرى أخطر على البشرية . لكن هناك أحاديث حول بدائل لاتشكل خطورة ، منها طاقة الرياح التي يمكن أن توفر ٢٠٪ من متطلبات الطاقة في بريطانيا على سبيل المثال ، وبتكاليف تكاد تساوي تكاليف مصادر الطاقة التقليدية . وعموما فإن التأثير سيكون على المدى الطويل . ووسط الصراع السياسي الدائر الآن ، فإن الحكومات نادرا ما تتحمس لاتخاذ إجراءات مكلفة لن يشعر بها الناخب ، بل تشعر بها أجيال قادمة .

والخلاصة : يبدو أنه من المحتم أن يؤدي تأثير « الصوبة » إلى آثار بيئية قاسية ، وأنه إذا كان معدل التغيرات بطيئا فإن لدى البشرية من الحذق ما يجعلها تتأقلم دون معاناة كبيرة . على أنه ليست لدينا فكرة تامة عما يكنه لنا المستقبل ، سوى أن التغيرات ستحدث فجأة ، ودون إنذار . □

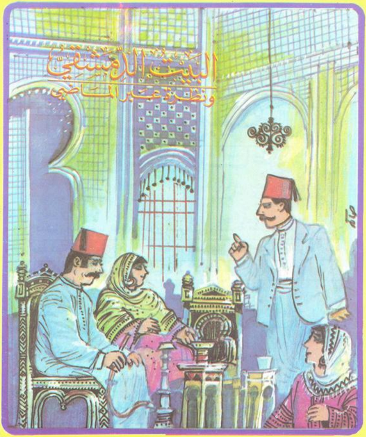
شمعة تعيش ١٨٠٠ سنة

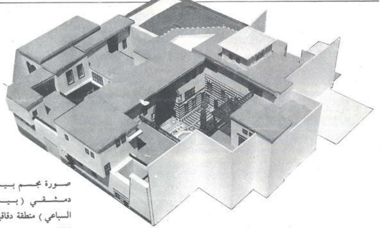
● كان كاروزو نابغة ايطاليا في فن الغناء . وقد توفي سنة ١٩٢٩ ، ودفن في ايطاليا . وقد عمد أحد صناع الشمع إلى إحياء ذكراه بما يشبه التخليد أو يقاربه ، فصنع شمعة ضخمة ، وضعها عند ضريحه . وتقدر حياة هذه الشمعة بنحو ١٨٠٠ سنة ، أي أنها لن تنطفيء إلا في سنة ٣٧٢٤ .



البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع





صورة مجسم بيت دمشقي (بيت السباعي) منطقة دقاقين شاغور

البيت الدمشقي ونظرة عبر الماضي

بقلم : محمد غسان خير*

دمشق القديمة ، درة من درر الشرق ، وصفحة مشرقة لماض عريق ، وهي تحفة فنية ذات نسيج عمراني بديع ، معبر عن حياة اجتماعية مترفة كانت تعيشها العاصمة الأموية القديمة فيما مضى من سنين .

حبا الخالق دمشق بجمال الطبيعة ، فترعرعت في واحة خضراء ، تحفها الغوطة من الشرق والجنوب الشرقي ، حاجزة إياها عن البادية ، يخترقها نهر بردى وفروعه السبعة ليزيد خضرتها بهجة وإشراقا . تربو عليها من الغرب سلسلة جبال لبنان الشرقية ، ويكللها من الشمال جبل قاسيون ، إذا شهدها المرء فسيدهش لمعالم سورها وأزقتها وأسواقها ، وخاناتها ومساجدها وقصورها وحماماتها .. الخ ، وبين هذا وذاك تتكىء على جدرانها الصماء دور دمشق العتيقة .

لكن لابد هنا من الإشارة إلى أن هذه المعالم جلها أماكن عامة ، يمكن مشاهدتها للداني والقاصي الذي يعز علينا - نحن أبناؤها - أن

* كاتب من القطر العربي السوري

نفصح له عن لبنة نسيجها الحضري التقليدي ، ألا وهو البيت الدمشقي بخصوصيته الذي يزدهر به سحر هذه المدينة العامرة وطابعها ، فمعظم دورها التقليدية ترجع إلى العهد العثماني .

بيوت محجبة :

بيوت دمشق كالنساء محجبات ، تعبر الأزقة من خلال البحبوحة الخارجية ، فعلى حين نجد النساء في الشرق - وجوههن مغطاة بقطعة من الموصلين السميك - أخصارهن غارقة مستترة بمعاطفهن الفضفاضة ، وأرجلهن مسترسلة في أحذيتها العالية ، وداخل هذا الغطاء تشابه أبشع امرأة بأجمل امرأة ، كذلك نجد بيوت دمشق ، فالدور والقصور لها نفس الشكل الخارجي المتواضع ، وخلف جدرانها البائسة نجد منازلها الأنيقة تفيض بالجمال .

القسم الأكثر رونقاً داخل بيوت دمشق يتكون من باحة داخلية رحبة مكشوفة تفضي إلى زقاق عبر ممشى ضيق ، منخفض السقف ومقنطر ، ينكسر طرفه باستحياء ليحجب النظر عن الداخل .

فالباحة تشكل أرضية الديار المرصوفة المتألقة التي تتوسطها بحرة بارزة أو بركة ماء يأتيها الماء من طالع ، أي أن المياه تصل إلى البيت من أحد فروع بردى حيث تتوزع إلى مختلف مرافقه ، فتدور دورتها من البركة إلى الفسقيات في غرف الاستقبال ، ثم تتجه إلى بحرة المطبخ لتستخدم مياهها من خلال المرافق الصحية الأخرى ، ومن ثم إلى المجرى العام .

وغالبا ما تكون بحرة الديار هذه مكسوة بالحجر المجلو أو بقطع الرخام المتعددة الألوان والمنتظمة بابتكار الفسيفساء ، لينصب الماء فيها عبر أربع نوافير مختلفة يغلب عليها شكل رؤوس السباع ، ولتسترخي على محيطها أحواض النباتات والزهور ، أما من مركز هذه البحرة فتبدو لنا نافورة تتسلل للنسيم لترسل إليه رذاذها ليداعبه .

وتنتشر في الباحة بعض أشجار الفواكه مثل الكباد والنارنج والليمون التي تتفتح أزهارها في فصل معين ليعبق المكان بأريجها ، فهي أشجار وارفة ذات قطوف دانية ، محاطة بمجموعات من الورد الجوري والرند الكثيف والليلك ودرر الياسمين المقنطر ، حيث العصافير تحتل أشجار الباحة بزقزقتها والحمام واليمام الذي يوسخ الجدران المتعددة الألوان التي تمنطقت الباحة وفراغاتها الاحتفالية بأحجار مسفطة بصفوف مرتبة متتالية من البازلت الأسود والحجر الكلسي الأبيض والحجر الرملي الوردي ، مشكلة خطوطا متوازية ،والتي بهتت زينتها وتساقطت زراكشها، وبسبب الكتل النباتية الخضراء وتقاطع الأماليد والجذوع التي تتداخ في الباحة تنكسر حدة صورة الأطراف في ملامستها للسماء ، فتتداخل إطلالة الأبواب والنوافذ ، لتظهر لنا فتحة في صدر الجدار بشكل بوابة يطلق عليها الإيوان ، تنفتح على الباحة بقوس حجري يتجه إلى الشمال مزين برسوم نباتية تؤطره ليطل على الدالية التي تقبع أحيانا بالزاوية . أما فناء الإيوان هذا فينبسط في فراغ وهو ذو مسقط مربع أو مستطيل مسقوف بارتفاع طابقين لايعلوه بناء آخر . أرضيته مرخمة بمستوى درجة أو أكثر عن مستوى الباحة ، لتحيط جدرانها - المبنية بالأحجار الملونة والمزخرفة - المساطب من جوانبها الثلاثة ، وتعلوها الفرش والوسائد التي يستلقي عليها صباح مساء صاحب الدار الميسور الحال ، ليستنشق رائحة التنباك التي تنبعث من النرجيلة ، على حين يهمس ماء النافورة لينبعث من بين الأشجار نور خفيف لفانوس من الزجاج الدمشقي الملون .

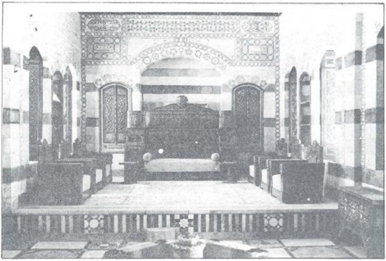
وأمام هذا الاستعراض يمر شريط ضيق على مستوى الباحة ، وهو عبارة عن ممر يصل بين قاعتي الاستقبال الواقعتين على جانبي الإيوان اللتين تزدهران - بحسب درجة الغنى - بتجليد الجدران بالخشب المزخرف والملون بروائع النقوش أو الزخارف المشغولة بطريقتي الحريري والعجمي ، والموشاة أحيانا بماء الذهب والفضة والألوان الأخرى ، وذلك بأشكال نباتية أو هندسية ، متناظرة ومنوعة . وفي أعلى الكسوة الخشبية الجدارية أشرطة كتابية متناظرة التوزيع من الأبيات الشعرية ، تنتهي على ارتفاع معين بطنف خشبي مزخرف بارز يشمل القاعة ، مشكلا فاصلا بين هذا التجليد الجداري والسقف الخشبي بمساحة مغطاة بالكلسة البيضاء . وفي أحيان أخرى تحلى الجدران ببعض الزخارف الرخامية والحجرية على شكل سلسبيل أو وزرات ليلتحفها سقف من دفوف خشبية محمولة على عوارض خشبية بدون إنهاء ، مستديرة القطع أو مشذبة ، مغطاة بزخارف نباتية وهندسية ملونة ، وأحيانا معقدة لتضفي على المكان مزيدا من المتعة البصرية ولتتدلى وسطها قناديل نحاسية ذات مشاعل زجاجية ، مشكلة ثريا تطل على الأرضية المفروشة بالسجاد العجمي الذي يرتفع عن التماس المباشر مع الأرضية الرطبة بهيكل من دفوف خشبية يطلق عليها اسم « دكة خشبية » ، تؤمن فراغا هوائيا عازلا . وهذه الدكة تتربع على مستوى مرفوع عند العتبة يسمى « طزراً » ، يفرش بالأثاث الدمشقي المطعم بالصدف ذي الوحدات الزخرفية النباتية أو المطعّم بالموزاييك الخشبي ذي الوحدات الزخرفية الهندسية ، وكل ذلك بأشكال بديعة متناسقة .

وبينما يجول البصر ، تطل عبر الجدار فتحة مقوسة منحوتة بدقة كاملة داخل الجدار السميك ، يطلق عليها اسم « اليوك » ، يجمعون فيها النراجيل والغلايين وفناجين القهوة الرائعة الموضوعة على صينية من الفضة أو النحاس المذهب ، المشغولة بعناية فائقة - والتي تعتلي منضدة خشبية ، أو يجمعون فيها قماقم ماء الورد والمجمر الرائع لحرق عود النّد .

« المندلون والدرقاعة » :

هذا ويقابل الإيوان عبر الباحة « القاعة الرئيسية » وهي تغطي كامل واجهة الديار الجنوبية بصفين متتالين من الفتحات ذات نوافذ بقياس الأبواب على ارتفاع ضئيل فوق الأرض ، لتتيح للجالسين على فرش الأرض التمتع بمنظر الباحة بما تحتويه ، وقد غطيت هذه النوافذ بقضبان حديدية متشابكة ، تليها نوافذ أصغر قياسا تستجيب للنور والشمس - شتاء والهواء صيفا - وهي ما يعبر عنها « بالمندلون » . أما إذا استعمل صف ثالث من النوافذ فيتمثل بالقمريات أو الشمسيات وذلك للاسهام في عملية الإضاءة دون أن يكون لها وظيفة تهوية ، وهي على شكل كوى مستديرة ذات زجاج ملون أحيانا وفق زخرفات متعددة ، لإعطاء تأثيرات لونية لطيفة للضوء المار عبرها إلى داخل القاعة .

أما المقصورات فهي أيضا تتمتع بالمدخل الرائع الذي تستحقه ، فيتوسط أرضيتها جزء منخفض قليلا يسمى « درقاعة » يستخدم كبهو للدخول ، فقد جرت العادة المتبعة أن يخلع الناس نعالهم في أرضيتها قبل أن تطأ أقدامهم أرض القاعة ، وهي خاصية معمارية اتبعت في منازل العصر الإسلامي . وعلى جانبيها تقع ايوانات تتجه إلى الجنوب ، مغطاة من الأعلى بمناور خشبية ، وتشكل الدرقاعة هذه صحنا مسقوفا ، أرضيته مغطاة بفسيفساء من الرخام ذات أشكال زخرفية هندسية ، وهي في مستوى



نموذج غرفة استقبال بأثاثها الدمشقي وزخارف جدرانها وأمامها فسقية « بيت العظم »

أخفض من مستوى أرضيات الإيوانات تتوسطه فسقية تقليدية مثمنة الشكل ذات مشاعب نحاسية ، بها نافورة ماء ترنو على الإيوانات التي تنهض عن مستواها بمقدار ثلاث درجات ممهدة لها ، وهذه الإيوانات التي تغطى أرضيتها الحصر المصرية أو السجاد العجمي ، يحيط بها ديوان كبير ، أما في الداخل فتطالعنا قبالة الأبواب ـ المصنوعة من حشوات خشبية متداخلة ـ كوى بشكل محاريب ، زين قسمها العلوى بمقرنصات خشبية ، وترتفع من العتبة إلى الطزر كبقية المقصورات لتحيط بها جدران قاعة الاستقبال الشتوية المكسوة بحشوات خشبية مزخرفة تنتهي على ارتفاع معين بطنف خشبي مزخرف بارز ، يمتد ليشمل القاعة بأسرها مشكلا فاصلا بين منطقة النوافذ العلوية والكلسة البيضاء والأجزاء السفلية من الجدران .

وتجهز غرفة الاستقبال هذه بالسجاد والأثاث الخشبي الدمشقي المحفور ذي الخراطة الدقيقة والمحلى بقليل من الصدف ، ويتألف غالبا من « كنبتين » وزاويتين توضع عليهما أوانٍ زجاجية ، أو شمعدانات زجاجية وبين « الكنبتين » قنصلية بمرآة محاطة بخشب الجوز ، مزينة بالحفر وتطعيم الصدف ، ونجد في الدواليب الجدارية كؤوس الاوبالين التي تستخدم في تقديم الأشربة ، وقمقم الزهر ، وزجاجة الأركيلة الكريستالية ، وسكريات ومشربيات من المادة نفسها ، بالإضافة إلى بعض الأباريق ، والأواني المصدفة ، والمصابيح الزجاجية أو الكرستالية ، وحوامل الشمع الخزفية ، (تحف العائلة) ، هذا وإلى جانب هذه المقصورة تجد غرفة معيشة ، وأحيانا غرفة نوم بسيطة ، تشغل في فصل الصيف ، أما غرفة المعيشة هذه فلها عتبة

وطرز ، وتخلو جدرانها من الزخارف وتعتمد الكلسة في كسوتها ، تنبسط فى أرضيتها سجادة ، جهزت جنباتها بالأرائك « الطواطي » المفروشة بالوثار ، والمغلفة بوجوه مخملية ، مزينة بالصرمة الحريرية المطرزة بالقصب بأشكال نباتية رائعة ، أو بوجوه حريرية مطرزة (بالأغباني) ذات المواضيع النباتية أيضا . وهذه الأرائك تمتطي صناديق خشبية بسيطة تشكل على الأرض دروجاً لحفظ البياضات . ويلاحظ في جدرانها دواليب بها أواني خزفية كأطباق من الخزف الصيني والشيني الياباني ، أما سقف هذه الغرفة فهو كبقية غرف الدار مكون من قماش مشدود مغطى بطبقة كلسية سميكة ، مطلية بالألوان ، تتدلى في وسطها ثريا منزلة ومخرمة ذات قناديل زجاجية .



صور إيوان وبحرة الدار « بيت خالد العظم » طلعة سوق الهال القديم .

ما قبل الفلكور :

اما إذا انتقلنا إلى غرفة النوم فسنجدها بسيطة في هذا الطابق ، وبالشكل المثالي في الطابق الثاني الذى يمكننا من أخذها نموذجاً ، فالأرضية المبسوطة تحفل بالحصر والسجاد والأرائك والوسائد والمفارش الصوفية ، كما تزخر بصندوق خشبي مطعم بالصدف غالبا ، وظيفته حفظ الملابس والبياضات ، وبأثاث خشبي ذي صدف جميل وهاج يطلق عليه اسم « بيرو » ، وهو عبارة عن مجموعة من الدروج تتوجها قنصلية خشبها محفور ، وتشغل هذه القطعة بدلا من خزانة ، فتوضع فيها الملابس التي اصبحت في وقتنا الحاضر أزياء خاصة بفلكور دمشق ، إذا أحببنا أن نتعرف عليها فسنجدها تتألف من سروال قلامندو يتخذ عادة من الجوخ الساذج الغامق اللون للشتاء ، أو من القطن المقصور الطري لفصل الصيف ، وقميص أبيض ، وصدرية تتخذ عادة من الجوخ الكشمير للشتاء ، ومن الحرير الأطلس اللامع المخطط بأقلام عمودية -



نموذج واجهة من الكتبيات .

من نـوع الصاية ـ أو مطرزة بخيوط صفراء كالأغباني ، وذلك لفصل الصيف ، تحف جوانبها أشغال التطريز ، مع شالة عريضة من الصوف ـ أجودها العجمي ـ أو زنار من الحرير ، ثم يأتي فوق الصدرية الميتان كقطعة من الثياب ذات قماش ولون متمم للثياب عامة ، مطرزة بالقصب من الأمام ، وعلى طرفي الكمّين ، وذلك بزخارف هندسية متنوعة ، كما نرى المعطف القصير الذي يرتديه الرجل فوق ما ذكر ، ونرى إلى جوار هذه الملابس قمباز الرد وهو ثوب طويل يكون عادة من الحرير المقلم بخطوط طويلة ملونة بعدة ألوان ، وهو ما يطلق عليه العوام (الصاية آلاجا حريرية أو ديما قطنية) أو يكون من الجوخ الساذج ، وذلك لفصل الشتاء ، يلبس فوقه معطف كبردين أو جبة ، ويحيط بالقمباز عند الخصر الزنار الحريري أو الشالة الصوفية ، ونادرا ما يلبس القمباز وحده فيلبس فوقه معطفا عاديا (ساكو) أو معطف كما ذكرنا ، كما يلبس في الشتاء والصيف غطاء رأس متمم وهو إما عمامة بيضاء أو طربوش اسطواني الشكل تقريبا ، أحمر اللون في الغالب ، أو غطاء من الأغباني أو طربوش قصير حوله لفة من الأغباني ، أما الصغار فتتألف ملابسهم من قمباز مع نطاق وجلابية « عباءة » ، ويعتمرون طربوشا صغيرا أو حطة بيضاء وعقالا مقصبا متوسط الفخامة .

أما لباس النسوة والفتيات فيتألف عند الخروج من الدار من الإزار ، وهو ذلك اللفاع المتهدل التي تلتحف به النساء من الرأس حتى القدمين مع منديل من الموصلين للوجه ، كما كن يرتدين الملاءات المدفقة الحريرية التي تتألف من ثلاث قطع سوداء منفصلة عن بعضها وهي :

ا ـ قطعة سفلى تشكل تنورة عريضة تزم حول الخصر .

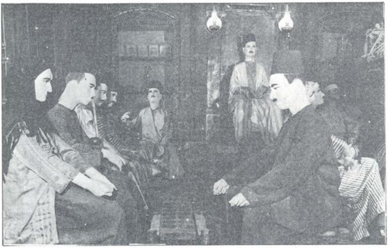
ب ـ قطعة عليا تسمى فجة أو برلين تستر صدر المرأة وكتفيها وعنقها وظهرها .

ج ـ منديل الوجه غالبا مطرز الأطراف أو مسنن .

أما في الداخل فتجدهن يرتدين السروال المنسوج من خيوط الحرير المطعمة احيانا بخيوط الذهب بأشكال ومواضع مختلفة ، كما أننا نجد ثوباً قد صمم طويلا ليصل إلى القدمين ، وهو من الحرير الساذج أو المقلم ذي الألوان الزاهية مع عصبة (قمطة) ثمينة مزودة بشراشيب طويلة (منديل أويا) ، لتغطي الرأس ولتعصب على الجبين .

ويلاحظ في غرفة النوم صندوق خشبي مطعم « شكمجاية » وذلك لأدوات الزينة ، كما يلاحظ صندوق حديدي صغير يستخدم لحفظ القطع الثمينة والمجوهرات والحلى .

ومن الجدير بالذكر هنا أن القاعة الرئيسية يمكن أن يلاحظ لها نماذج أخرى في الدور الدمشقية ، فمنها ما هو مكون من مربع مركزي على مستوى أرضية الباحة « العتبة » التي تحتوي في مركزها على بحرة رخامية صغيرة ذات نافورة ، وذلك بدون الإيوانات . ويحد العتبة ثلاثة طزر مرفوعة عن أرضيتها بارتفاع درجة ذات أرضية مغطاة بالرخام ، وقد زينت الجدران أيضا بالرخام المجزع وبمصب ماء (سلسبيل) وسط الطزر الأوسط على سطح مائل من القيشاني الملون ، تترقرق مياهه في صدر القاعة إلى البحرة من تحت الطزر والعتبة ، أما أسقف الطزر فهي مستوية ومحمولة على عوارض خشبية . وكل هذه الأقسام من السقف تتفتح على سقف العتبة بثلاثة أقواس حجرية مسفطة ، تتدلى منها قناديل زجاجية . وهناك نموذج آخر يتألف من عتبة تحتوي على بحرة رخامية صغيرة مع نافورة ، يحدها طزران مرتفعان عن أرضيتها بنفس الإكساء السابق ، ينفتح سقفهما على سقف



الرجال بملابسهم التقليدية يمارسون حياتهم مساء « قصر أسعد باشا العظم »

العتبة بقوسين حجريين مسقطين تتدلى منهما القناديل .

أما الجناحان الشرقي والغربي للباحة فهما يحتويان على الحشوات ، وهي عادة غرف استقبال إضافية كالمربع والصالة ، ومنطقة الخدمات التي تشتمل على المطبخ والمرحاض وبيت المؤونة الذي يبنى عادة على منسوب نصف مدفون في الأرض ، بالإضافة إلى عدد من الأدراج الخشبية أو الحجرية المؤدية إلى الطابق الاول الذي يتكون من رواق مغطى يدور حول الأجنحة الثلاثة : الشمالي والشرقي والغربي لتتحلق حوله الغرف المتعددة .

وأحيانا يعالج الجناح الشمالي بنفس معالجة الإيوان فى الجناح الجنوبي ، مما يؤدي إلى تقسيم هذا الطابق إلى جناحين منفصلين يصعد إليهما من درجين فى الطابق الأرضي ، لتشغل غرفهما التي تدعى فرنكات كغرف نوم ومعيشة لاستقبالها أشعة الشمس ، وهذه الفرنكات غالبا ما تتقدم فوق الطابق الأرضي بشكل بارز قائم على عقد ، وقد تخصص الفرنكات لوحدات عائلية مختلفة تنتمي للعائلة الكبيرة ، ويصح ذلك بفضل انفصالهاعن بعضها في مجال الحركة ، وانفتاحها على الرواق المطل على الباحة . وفي الغالب كانت تضاف غرفة على سطح هذا الطابق وتسمى (الطيارة) كأصدق تعبير عن وضعها المعماري ، وقد غلفت من ثلاث جهات بالنوافذ الزجاجية لتستعمل صيفا وشتاء كغرفة معيشة وسمر .

والتنقل بين الإيوان والباحة والسطح يتم في فصل الصيف ، وذلك في محاولة لاقتناص أفضل الشروط المناخية ، وبالمقابل نجد الاستقرار في فصل الشتاء فى الطابق الأول المتلقف للشمس المتميز بحجم الغرف الصغيرة التي يمكن تدفئتها بطريقة أيسر ، حيث نجد أفراد العائلة يتحلقون حول المنقل على الأرض المغطاة بالسجاد .

أما الضيوف فيتم استقبالهم في إحدى هذه الغرف إن كانوا من الأقارب ، أو في قاعة جنوبية مغلقة في الطابق الأرضي إذا كانوا غرباء .

البيت الدمشقي والبيئة

لعل استجابة البيت الدمشقي هذا للمناخ تكمن في مواد إنشائه ايضا . فهي من الطين والخشب والحجر ، وهي مواد طبيعية . لعب موقع دمشق وسط غوطتها أثرا واضحا في تأمين المواد الأولية لبنائه في العهود السابقة ، فلقد انتخب أهل دمشق هذه المواد من صلصال الأرض وجذوع شجر الحور اتقاء لشر الزلازل .

فالبيت الدمشقي يعتمد في بنائه على التراب في الدرجة الاولى وذلك بخلطه بالقش المكسر لبناء الجدران التي تتخللها طبقات من الخشب إذا كان البيت مؤلفا من طابقين وهو الغالب ، ويتضافر خشب الحور مع التراب لتغطية المسكن بالسقف ودعم الجدران ، فهذه المواد سهلة البناء قليلة التكاليف رديئة النقل للحرارة والبرودة ، قادرة على حماية الإنسان من العوارض الجوية وتقلبات الطقس .

وإذا كانت مادة الحجر كما رأينا سابقا هي مادة الانشاء لواجهة الجدران الأرضية للباحة ، وتشكل مادة الإنشاء لإطارات الأبواب والنوافذ والأقواس ، فإن مادة الطين والخشب تشكل القواطع ، ومادة الإنشاء للطابق الأول فهي عبارة عن هيكل خشبي مملوء بصفوف من اللبن المرتب على ميل حوالى (٤٥°) « وهو إنشاء خاص بدمشق » ، وعادة يكون أقل سماكة من جدران الطابق الأرضي ٤٠ ـ ٦٠ سم ، ومطين من الخارج بطبقة من الزريقة المكونة من الكلس ورماد الحمام وقشر القنب ، ومن الداخل إما مطينة بالكلسة أو الزريقة ، أومغطاة بألواح خشبية مزخرفة كما رأينا في حالة قاعات الاستقبال ، أو في حالة وجود غرفة نوم للضيوف في الطابق الأول ، ولم يغفل المعمار الدمشقي بالإضافة لذلك مشكلة تصريف مياه الأمطار من أعلى أسقف المنزل ، فقد خصها بميل يسهل انحدارها إلى نقطة أو أكثر من على السطح إلى ميزاب معدني .

كما ساعده استخدام الخشب في إقامة الشرفات التي غالبا ما تكون متجهة نحو الباحة لضرورات دينية وأمنية ، وأما إذا اتجهت نحو الخارج فتكون مستورة بالخص الخشبي المركب من العيدان ، وذلك للتخفيف من حدة أشعة الشمس ، ولحجب من في الداخل عن أعين المارة في الطريق .

لاشك أن البيت الدمشقي التقليدي هو جنة لسكانه ، فيه يتحقق الأمن والراحة والجمال ، فهو حصيلة تضافر الظروف المناخية والعادات والتقاليد والمعتقدات التي لعبت دورا بارزا في تصميم هذا الطراز الذي يظهر مدى تلاؤم الإنسان في دمشق مع بيئته الطبيعية والاجتماعية ، كما يعكس لنا مدى التطور الاجتماعي والثقافي الذي وصل إليه أبناء دمشق في عهودهم السابقة . □

نصف ضحكة

● توجه أحدهم لزيارة أحد المسئولين بإدارة المباحث الجنائية ، فقالت سكرتيرته : إنه غير موجود الآن . هل تحب أن تترك له بصمات أصابعك ؟

هو.. هي

غريب في بيتي

كثيراً ما تكون أكثر الأمور بديهية هي أبعدها عن الذهن ، والأحداث الحتمية هي التي لا يحسب أحد حسابها .

توفي والد زوجي بعد عمر طويل حافل ، لم يتعرض خلاله لأكثر مما تعرض له آخرون أفضل أوضاعاً . لم يفقد مالاً ولم يعان من المشكلات مع أبنائه أثناء تربيتهم وتعليمهم ، ثم استقلالهم في حياتهم الزوجية إلا أقل القليل . ولأن أشقاء زوجي الثلاثة كلهم متزوجون ، ولأنني زوجة الإبن الأكبر ، فقد انتقلت والدة زوجي للعيش معنا في منزلنا المتواضع الذي يضمنا زوجي وأنا وأبناءنا الثلاثة .

لم أعر الأمر اهتماماً في البداية ، فقد كانت حرمة الموت أكبر من أي مشكلة . إلا أن الأمور أخذت في التطور لتعصف بعلاقاتنا الأسرية التي فقدت الكثير من خصوصيتها مع وجود والدته بيننا . فقد كثرت تدخلاتها في حياتنا الزوجية ، وسلوكياتنا الاجتماعية ، ووصلت تدخلاتها الى الطريقة التي نربي بها أبناءنا . وكلما حاولت أن ألفت نظر زوجي الى تصرفات والدته بادر بالدفاع عنها وأخذ جانبها وبدأ بلومي ، مستعينا بأمثلة جاهزة ، وبأقوال مكررة قد تنطبق على أي مشكلة أخرى ، إلا أنها لا تنطبق على مشكلتي أنا - مشكلتنا - بالذات . ومرة اقترحت عليه أن يطلب من والدته التنقل بين منزلنا ومنازل إخوة زوجي بالتساوي ، إلا أنه رفض الفكرة من أساسها قائلا : إن وجود والدته ليس مصيبة لتوزع عليه وعلى أخوته ، واقترحت عليه مرة ثانية أن يطلب منها عدم التدخل في طريقة تربيتنا لأبنائنا على الأقل ، فاحتد وقال إن مثل هذا الطلب يعتبر طرداً غير مباشر لوالدته من المنزل ، وإنه لن يفعل ذلك مهما كلف الأمر . لكن الغضب بلغ بزوجي ذروته ، ولا أدرى لماذا عندما اقترحت عليه أن يضعها في ملجأ للعجزة . مع أنني أوضحت له أن « ملجأ العجزة » ربما كان سيىء السمعة والوقع ، لكنه المكان الذى قد تقابل فيه سيدات في مثل سنها يشاركنها بعض اهتماماتها ، وتجد هناك من يقوم على خدمتها بشكل أفضل مما نقوم به نحن بسبب عملنا نحن الاثنين ، وصغر أبنائنا . وقلت له إننا لن نتركها ، بل سنحضرها للمنزل متى شئنا ومتى طلبت هي . وأننا لن ننقطع عن زيارتها . وعند هذا الحد نفذ صبر زوجي وبدأ يعنفني بطريقة لم أشهدها طوال حياتي الزوجية ، ووصل به الأمر حد تخييرى بين البقاء في المنزل مع والدته ، أو مغادرة المنزل الى غير رجعة إن تشبثت بموقفي .

إنني أحب زوجي ، ومشكلتي ليست معه . فهل من العدل أن تتحطم حياتي الزوجية بسبب شخص ثالث ، حتى لو كان هذا الشخص هو والدته ؟ .

.. هي



الجنّة تحت أقدامها

لا أعرف ماذا يدهى النساء أحيانا . لكنني أعرف أنهن يخرجن في بعض الأحيان عن الطبيعة السوية ويتحولن الى مخلوقات قاسية لا ترحم .

وأعرف أن البيت مملكة المرأة سواء أكانت تعمل أم لا . وأن إحداهن قد تحتمل الأخرى ضيفة عليها لفترة من الزمن ، إلا أنها لا تحتمل إطلاقا أن تنازعها امرأة أخرى عرش مملكتها . لكن لكل شيء حدوده ولكل قاعدة استثناءاتها ، وعبثاً حاولت أن أفهم زوجتي أساس هذا الاختلاف ، إلا أنها لم تزدد إلا عناداً وتعنتا مما كدر علينا صفو حياتنا وأوصلنا الى حافة الطلاق .

فعند وفاة والدى رحمه‌الله ،كان طبيعياً أن تأتي والدتي لتقيم معي في المنزل مع زوجتي وأبنائى باعتبارى ابنها الأكبر . وكنت أعلم أن هذا يلقى على زوجتي أعباء كبيرة ، من حيث كمية العمل الذى عليها القيام به في المنزل بعد يوم عملها المضني في المكتب ، وأعلم أن كلاً من زوجتي ووالدتي لها طريقتها الخاصة في النظر الى الأمور وتقديرها ، ولها نظرتها في الحياة الاجتماعية والاهتمامات وفي طريقة تربية الأولاد ، نظراً لاختلاف الجيل والتجربة والتربية والحصيلة الثقافية ، إلا أنني لم أجد داعيا لاصطدام الاثنتين وتلاسنهما كما حدث أخيرا . وكنت ومازلت أرى أن على زوجتي أن تكون أكثر مرونة تجاه والدتي التى تشعر بالوحدة والوحشة والفراغ الكبير ، مما يجعلها تبدى ملاحظات قد لا تكون ضرورية أو صحيحة ، بل لأن تثبت لنفسها قبل الآخرين أنه مازال لها دور تؤديه ومازال لديها شيء تقوله .

إلا أن زوجتي لم تستطع استيعاب هذا الأمر الذي يبدو لي طبيعيا ، وبالمقابل بدأت تدخل في نقاشات غير متكافئة مع والدتي ، وتطور الأمر لتقترح علي أن أطلب منها العيش في منازل أخوتي الآخرين بالتناوب ، ثم بلغ بها الأمر حد اقتراح إرسالها الى ملجأ العجزة . عندها لم أتمالك نفسي من الغضب والصراخ في وجه زوجتي وتخييرها بين البقاء مع والدتي ، أو مغادرة المنزل نهائيا . ولم أكن أتصور أن تصل الخلافات بين زوجتي وبيني الى هذا الحد في يوم من الأيام . لكن هذا ماحدث .

ثمة أمور لا تقاس بالمنطق . فحتى لو كانت والدتي على خطأ في كثير من تصرفاتها وتعليقاتها ، فإنني أرفض أن يكون عقابها هو إرسالها الى ملجأ العجزة ، فهل من العدل أن تلقى والدتي التي أنا ملزم بها مثل هذا المصير حتى لو كان لإرضاء زوجتي ؟ . □

هو ..



طبيب الأسرة

قضايا منزلية

الطفل عندما يمشي

بقلم: الدكتور حسن فريد أبو غزالة

الطفل الطبيعي النموذجي الذي يقاس به الأطفال لم يولد حتى الآن في عرف الطب ، فالأطفال جميعاً طبيعيون إذا ما كانت مقاييسهم ضمن حدود عامة يعتبرها أهل الاختصاص طبيعية . وبقدر ما يبتعد هذا الطفل أو ذاك ، أو بقدر ما يقترب ، من هذه المقاييس يكون الحكم عليه .

إن هذا الاقتراب أو ذاك الابتعاد ليس بالضرورة شاملا لكل المقاييس ، ولم تكن كل المقاييس تسير دوماً في خطوط متوازية ، إذ ليس بالضرورة أن تظهر أسنان الطفل ويسبق أقرانه في ذلك إذا تمكن من المشي مبكراً ، والعكس صحيح أيضاً .

ربما كان يحلو للآباء والأمهات أن يقرنوا ذكاء الطفل بحركاته ، فالأمر يسعدهم ويدغدغ مشاعرهم ، ويحدث لهم ذلك عندما يتوهمون أن الطفل الذي يمشي سابقاً أقرانه هو طفل أكثر ذكاء ، كما قد يصابون بالخيبة إذا ملكتهم القناعة أن ذكاء طفلهم قد تدنى لأنه قد تخلف في القدرة على المشي .

ومن سبق غيره من الأطفال في قدرات الكلام ليس هو الأكثر ذكاء وفطنة ، وليس من تخلف منهم في النطق هو البليد الغبي .

إذن فليس للأمر ضوابط وليس له روابط .

ربما كانت ظاهرة النطق وظاهرة المشي هما الأكثر إثارة للأهل بين كل مظاهر النمو عند الأطفال ، لهذا فالقضية التي نطرحها - المشي - تستقطب اهتمام الوالدين وتستحق منا بعض التفصيل .

إن الجلوس وما يعقبه من قدرة على المشي هما من مظاهر النمو لدى الطفل ، وقد يسرعان أو قد يبطئان لسبب ظاهر ، أو ربما لسبب غير ظاهر ، غير أن الأمر لا يمكن تحديده بدقة ، ولا يمكن ربطه بسن معينة ، إذ ليس هناك سن يقال عنها بأنها سن الجلوس ، أو سن المشي ، غير أن الملاحظة العامة تقودنا إلى القناعة بأن غالبية الأطفال الطبيعيين يمكنهم الجلوس في حوالي الشهر السادس من أعمارهم ، كما أنهم يستطيعون المشي في عمر يقارب نهاية العام الأول .

ومع هذا فسجلات الأطباء قد تشير إلى أطفال جلسوا في شهورهم الأولى ، وآخرين استطاعوا المشي قبل اكتمال العام الأول ببضعة أشهر .

غير أن الجلوس والمشي يمكن أن يتأخرا أيضا حتى سن متقدمة ، وقد تتعدى سنتين ، دون أن يؤخذ الأمر دليلا على ذكاء أو غباء ، أو يرتبط ذلك بمظاهر البلوغ بعد ذلك .

ربما كانت هناك عوامل ومقومات لابد أن تتوافر لكي يستطيع الطفل الجلوس أو الحبو أو المشي ، ولعل أهم هذه العوامل هي :

نمو العضلات

نمو العظام

نمو الأعصاب

ونمو هذه الأجهزة مرتبط بدوره بعوامل أخرى منها ما هو مرضي ، ومنها ما هو طبيعي ، ويمكن أن نستعرضها بإيجاز على الوجه التالي :

أولا : العوامل الوراثية :

يحتاج الجهاز العصبي في أطوار نموه إلى ما يعرف بعملية التغليف ، حيث يتكون جراب دهني مع مرور الأيام ، وسرعة نضوج هذا الجراب وتكونه هي التي تحدد قدرات الجلوس أو المشي دون أي ارتباط بالكفاءات والقدرات الأخرى .



ثانيا : العوامل البيئية :

من الملاحظات التي تسجلها قراطيس الطب أن الأطفال المهملين دون رعاية أو اهتمام أو توجيه ، كما هو الحال في دور الحضانة وبيوت الرعاية ، يتأخرون في مشيهم عن أقرانهم ، ممن يعيشون في بيوت يرعاهم فيها آباء وأمهات .

ويشابههم في هذا فريق الأطفال المرفهين المدللين ، ممن ينالون رعاية زائدة عن الحد المعقول ، فهؤلاء عرضة أيضاً للتخلف عن المشي ، لعدم تدريبهم على الاعتماد على النفس .

ثالثا : عوامل مرضية :

بعض الأمراض لها تأثير مباشر فاعل على قدرات الجلوس والمشي ، لأنها تحد من كفاءة الجهاز الحركي الذي يتحكم في العضلات والعظام والأعصاب ، ومن ضمن قائمة الأمراض نجد الشلل الدماغي ، والتخلف العقلي ، والطفل المغولي ، ومرض الكساح ، وأمراض الوهن الفعلي ، أو مرض الزهري الوراثي .

رابعا : عوامل شخصية :

من الملاحظ أن لشخصية الطفل دوراً يؤثر على قدرات الجلوس والمشي ، لأن ذلك يحتاج إلى الاعتماد على النفس ، فاذا ما كان هناك شيء من الاضطراب النفسي ، يفقد الثقة بالذات ، فإن الأمر سينعكس على قدرات الطفل لا شك .

خامسا : الطفل المعاق :

أمر الطفل المعاق لا يحتاج إلى نقاش وجدل في

مدى تأثيره على قدرات الطفل ، كما هو الحال مع طفل ضرير أو طفل مصاب بشلل الأطفال .

سادسا : عوامل مجهولة :

لقد لوحظ أن هناك عددا من الأطفال الطبيعيين بالمقاييس المعروفة ، يتأخرون في جلوسهم أو مشيهم حتى سنوات متقدمة من أعمارهم ، دون سبب واضح مفهوم .

ومن الملاحظات التي تسترعي الانتباه أن بعض أهل الطفل وذويه إذا ما تخلف عن المشي يتوجهون إلى طبيب العظام ، يطلبون منه النصيحة والمشورة والعلاج ، وكان أجدر بهم أن يطلبوا مشورة طبيب الأطفال المختص . وبعض آخر من هؤلاء قد يتوهم أن سبب التخلف انخلاع وراثي في مفصل الورك ، وهو ظن لا أساس له . ولعل بعض الناس يلقي المسؤولية على بدانة الطفل ، ويحملها أسباب التخلف ، ولكن الدليل لم يقم على صحة هذه الدعوى ، لهذا فالرأي الأصوب دوماً هو رأي طبيب الأطفال المختص ، مع التأكد مرة أخرى على عدم الربط بين المشي وقدرات الطفل الأخرى . □



ردود سريعة

* الطالب / هاشم بذري - الحراك - سوريا

علاج الضعف العام ليس بهذة البساطة التي تتصورها ، فالأمر يحتاج إلى تحديد السبب وعلى ضوئه يتم العلاج ، ولهذا لا بد من مراجعة طبيب للقيام بالكشف الطبي والتشخيص .

* السيد / محمد عبد الغني حزام الظباني - تعز - اليمن

حب الشباب هو أمر من أمور الشباب ، يشفى عندما يتجاوز الشاب حدود مرحلة المراهقة ، فلا حاجة بك للقلق ، وكل ما هو مطلوب منك أن تحافظ على نظافة جسمك مع عدم العبث بهذه البثور حتى لا تلتهب ، ويا حبذا لو استشرت طبيبا مختصا في الأمراض الجلدية .

* السيد / ق . م . م - حمص - سوريا

من الأفضل تزويدنا بتقرير طبي من جراح يتولى فحصك حتى يمكن أن نسدي لك النصيحة الصادقة .

* السيد / ط . م . - الحسيمة - المغرب

كثافة الشعر أمر وراثي لا علاقة له بأية عادة أو طعام .

أما بالنسبة لضعف اليدين فإن الأمر يحتاج إلى فحص طبي لتشخيصه أولا ثم العلاج فيما بعد .

* السيد / ص . ح - حلب - سوريا

حمى البحر الأبيض المتوسط هي مرض وراثي يداهم المصاب في نوبات من الحمى والمغص ، وعلاجه الأفضل هو الكولشسين ، لكن الغذاء لا دور له في الأمر ، أما بالنسبة للزواج فالمرض لا يعطل من قدرات المصاب لكنه قد ينعكس على الأطفال وراثيا .

* السيد / ممدوح مغايري - حلب - سوريا

رسالتك ليست واضحة لدرجة يمكن معها الاجابة الأمينة ، ولهذا يرجى استشارة طبيب يتولى فحصك وتشخيص مرضك .

مساحة ود!

صداقة

لم ألتق بأي من أصدقائي منذ سنوات ، ولم يلتق أحد منهم بالآخر منذ أعوام طويلة . ومع ذلك فعندما أشير إلى الأصدقاء فإنني أعنيهم ، وإذا سئلت عن أصدقائي في هذا العالم فإنني أعدد أسماءهم ، ولا أدري إن كان في الأمر مبالغة .

تعرفت عليهم في أيام الدراسة الجامعية ، وهي أيام التكون الفكري والثقافي ، وتبلور الشخصية ، ومعرفة النفس والتعرف على الآخرين . لم نكن جميعا على اتفاق في الفكر أو الميول أو المواقف السياسية . وكان تحصيلنا الثقافي متفاوتا ، ولم تكن شخصياتنا متشابهة ، ولا أدري إن كان اختيارنا المشترك قائما على الإعجاب والحب فعلا . لكننا التقينا معا ، تحاورنا ، اتفقنا واختلفنا ، وأحببنا وتظاهرنا ، وتسكعنا وتمردنا على ما اعتقدنا أنها قيم بالية . فشلنا ونجحنا ، وحلمنا وأحبطنا ، وحاولنا أن نكون أبناء عصرنا كل على طريقته ، لكننا لم نكن قط صورا لبعضنا بعضا . وعندما انتهينا من دراستنا انفرط العقد ، وتفرقنا ، وانتشرنا في الأرض الواسعة . وبدأ كل منا حياته العملية بعيدا عن الآخر . لكننا بقينا يتابع بعضنا بعضا عن بعد ، ربما التقى أحدنا بواحد من الأصدقاء الآخرين . وربما تحدث واحد منا مع الآخر بالهاتف ، أو بعث إليه برسالة ، وربما التقى اثنان أو ثلاثة منا لفترة من الزمن في مكان ما من العالم الفسيح . لكننا لم نجتمع كلنا معا في مكان واحد لنرى ماذا بقي من تلك الأيام وماذا اختلف ، ماذا تطور وماذا تغير .

وعلى الرغم من ذلك بقي مشتركا لدينا إعلان الصداقة التي تربطنا منذ ذلك الزمن الذي أصبح بشكل ما سحيقا . خلال الأعوام التي تلت تخرجنا ، تعرفت على أصدقاء جدد . كان انسجامي الفكري مع بعضهم أكبر ، وكانت مساحة اهتماماتي المشتركة مع بعضهم الآخر أوسع ، وكانت رؤيتي للأمور مع غيرهم أكثر وضوحا ، ووعينا بالقضايا على نفس المستوى من النضج ، وردود أفعالنا أكثر تناسقا ، وثقافتنا أكثر قربا .

ومع ذلك فإن فكرة الصداقة بقيت مرتبطة بأصدقائي القدماء ، وكلمة الأصدقاء تعنيهم هم بدرجة أساسية . وكثيرا ما أتصور أن العالم إذا خذلني فإنهم لن يخذلوني .

لا أدري إن كان هذا الاعتقاد وهما أم حقيقة . ولا أعرف إن كان ذلك ضربا من رومانسية ظلت كامنة في جزء من قلبي الذي اكتهل ، أم هو حنين إلى أيام الشباب الغض ، والحلم الأول والحب الأول ، وإلى أولئك الذين كانوا شهودا على كل ذلك ، أم هو احتماء بوهم جميل من قسوة الزمن الذي لا يرحم ؟ ربما كان بعض ذلك ، أو ذلك كله وغيره . لكنها في كل الأحوال تلك الطبيعة البشرية التي تأبى الرضوخ لتفسيرات جاهزة فتبقي للحياة سحرها العصي على الفهم ، والذي به تمضي الحياة وتستمر . □

صلاح حزين

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

دعوة للترشيح

لجوائز المنظمة الاسلامية للعلوم الطبية المقدمة من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

تشجيعا للبحث العلمي في مجال انجازات الحضارة العربية والاسلامية في حقل الطب وفروعه، ومجال التطبيق لذخائر هذا التراث على ضوء التمحيص العلمي التجريبي وفق منهاج العصر الحاضر والنظرة الفاحصة الى احكام الاسلام ذات الصلة بصحة الفرد والمجتمع واخلاقيات الممارسة الطبية، تعلن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي عن تخصيص جائزة كل سنتين في كل من المجالين الاتيين :

(١) مجال الممارسة مبنية على التجربة المختبرية او السريرية المحكومة بالضوابط العلمية المرعية .

(٢) مجال الفقه الطبي وتحقيق التراث وفق اصول فن التحقيق .

شروط الترشيح للجائزة :

١- يشترط فيمن يحصل على احدى الجائزتين ان يكون انتاجه منشوراً وذا اهمية في حقل العلوم الطبية الاسلامية ووافيا بالمنهاج العلمي العصري .

٢- تقبل ترشيحات الجامعات والمؤسسات العلمية والهيئات العالمية، وكذلك ترشيحات الشخصيات المتخصصة لنفسها او لغيرها .

٣- ترسل الترشيحات على العنوان الاتي :

السيد مدير عام مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
ص.ب. ٢٥٢٦٣ الصفاة - الكويت 13113
تلكس ٤٤١٦٠ كيفاس - فاكسميلي ٢٤١٥٣٦٥ (٩٦٥)

وتقبل مشفوعة بالسجل الذاتي والانتاج العلمي للمرشح، في الفترة من ١٩٨٩/١/١ لغاية ١٩٨٩/١٠/٣١ .

٤- لا يعاد الانتاج المقدم الى مرسله سواء فاز بالجائزة او لم يفز ولا تقبل الاعتراضات على قرارات لجنة التحكيم .

تتالف الجائزة من مبلغ وقدره (٣٠٠٠) ثلاثة الاف دينار كويتي ودرع المؤسسة وشهادة تقديرية . وسوف تشكل لجان تحكيم من متخصصين لدراسة الترشيحات واختيار الفائزين وسيدعى من يفوز بالجائزة للحضور الى مكان انعقاد المؤتمر الطبي الاسلامي لاستلام جائزته في حفل يقام لهذا الغرض.

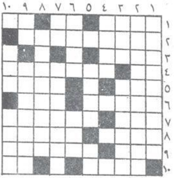
★★★

وحري بالبيان ان المقصود بالانتاج بحث علمي عميق ودقيق وموثق لمسالة محددة ذات صلة واضحة بالطب الاسلامي على مستوى المتخصصين وليس تناولا عاما من قبيل الثقافة العامة

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر فى المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذى سينشر فى العدد القادم .



كلمات أفقية :

١ . مخترع الديناميت وصاحب جائزة كبرى ، بَسَطَ ، رَخْو أو ليّن .

٢ . جائزة تمنح للمشاهير ممن خدموا الانسانيّة .

٣ . رنين متفرقة .

٤ . نصيب ، عبارة بمعنى « ما أشجعك »

٥ . أصلح غير مرتبة ، لمسات أخيرة تضاف الى الصورة .

٦ . كائن حي أدنى رتبة من الإنسان ، نحصل على ميراث .

٧ . صفة مبعثرة ، الدرني غير مرتبة

٨ . خائفة ، محترف لرياضة عنيفة

٩ . لظى متناثرة ، الاسم الثاني لأديب أمريكي فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٤٩

١٠ . بلاد ، عكسها إنس

كلمات عمودية :

١ . أديب وقصاص عربي فاز بجائزة أدبية كبرى

٢ . أديب فرنسي فاز بجائزة نوبل ١٩٤٧ مسبوق اسمه بالواو .

٣ . مكان نتزوّد منه بالماء ، منسوب لمدينة الموصل

٤ . منزل مُعكوسة

٥ . كلمة بمعنى سلام منونة ، لاذ بالفرار

٦ . مصدر ، لوم مبعثرة

٧ . أول نغمات السلم الموسيقى ، الاسم الثاني لأديب ايطالي فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٤

٨ . أديب روسي رفض جائزة نوبل عام ١٩٥٨

٩ . ظَهر أو بَدا ، الإسْمين الثاني والثالث لزنجي أمريكي فاز بجائزة نوبل للسلام عام ١٩٦٤

١٠ . أثار وقَلَّب ، يُدَرِّب

● حل مسابقة العدد الماضى ابريل ١٩٨٩ م

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	س	ر	د	ي	ن	ي	ا	■	ش	ب
٢	ر	و	د	س	■	م	ا	ل	ط	ا
٣	ي	ا	ب	ا	ن	■	ب	ط	■	ن
٤	ل	ح	■	م	ا	د	ي	ر	ا	■
٥	ا	ل	ب	ح	ر	ي	ن	■	د	ك
٦	ن	■	و	■	ي	■	ه	ا	و	ن
٧	ك	و	ر	س	ي	ك	ا	■	م	ا
٨	ا	ل	ن	ي	ن	ر	■	ح	ر	ر
٩	■	ج	ي	ش	■	ي	ح	ا	ب	ي
١٠	ب	ت	و	ل	■	ت	م	ر	■	■

العربي - العدد ٣٦٦ - مايو ١٩٨٩ م

بقلم : الدكتور حسن عباس

ألفاظ عاميّة فصيحة

لو قدر لباحث أن يتوفر على لهجة عربية محلية بعينها - أو لهجات - فينحي جانبا كل ما شابها من كلمات دخيلة ، لحصل على أعداد لا تحصى من الكلمات العربية الفصيحة التي لا نشك في نسبها إلى اللغة العربية الفصحى . وإن عملت العامة على تحريف نطقها أو عمدت إلى قلب حروف معينة من أحـرفها . ونقصد بالكلمات الدخيلة الكلمات الأعجمية .

وقد دخلت إلى اللهجات العربية إما عن طريق الاحتلال الأجنبي لهذا القطر العربي أو ذاك ، وإما لتطرف قطر عربي في موقعه الجغرافي بحيث تتجاور البلدان والشعوب فلا مناص لإحداها من أن تتأثر بجاراتها الأخرى . قل هذا التأثير أو كثر ، ومن مظاهر ذلك التأثير تبادل الألفاظ وشيوعها في اللغات المتجاورة . ومن مصادر التأثير الأخرى وجود أقليات عرقية غير عربية في قطر عربي يساعد على نقل مفردات من لغة أو لغات تلك الأقليات إلى اللهجة العامية .

إذا استثنينا الدخيل في اللهجات العربية نجد الألفاظ المتداولة في أحاديث الناس تبتعد كثيرا أو قليلا عن اللفظ العربي الفصيح بقدر حظ المتكلم من التعليم والثقافة . على أن ما ينبغي لنا التأكيد عليه هو أن في كلام العامة كثيرا من المفردات العربية الفصيحة التي لا يضير الكتّاب العرب استعمالها فيما يكتبون ، ونخص منهم العاملين في مجالات المسرح والإذاعتين المسموعة والمرئية وغيرها من وسائل الاتصال الجماهيري .

وقد نشط عدد من الباحثين العرب في التنقيب عن هـذه المفردات وتدوينها ، وبيان أصولها الفصيحة بدءا بالجهود الفردية التي قد ترجع أوائلها إلى أكثر من ثلاثة قرون خلت ، وانتهاء بمحاولة الدكتور « محمد داود التنير » ، بل إن هناك لجنة تدعى لجنة اللهجات تتبع مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، تتولى البحث في مثل هذا الموضوع وغيره من الموضوعات ذات الصلة باللهجات العامية .

قام الدكتور التنير بجمع أكثر من ألف وأربعمائة كلمة حسبها الناس عامية وهي فصيحة ، ونشرها في كتاب رتبه بحسب ترتيب حروف الهجاء ومن تلك الكلمات مثلا :

* الصلعة : فالعامة يصفون رأس الرجل وقد تجرد من الشعر بالصلعة ، ونحسبها عامية وهي فصيحة . فالصلعة : جلدة الرأس انحسر عنها الشعر ، فَصَلِعَ فلان ، يصلع صلعا : انحسر شعر مقدم رأسه أو وسطه .
* الصهد والصَّيهد : والصهد والصَّيهد هو الحر الشديد : والناس تقصد عادة الحرارة الصادرة عن النار المتوقدة . وصَهَدَ الحر صهدا وصَهَدانا أي اشتد .
* صوب الساقية : يقولون : فلان ذهب صوب

كذا ، وهي فصيحة فالصَّوب هو الجهة ، ومنه اتجه صوبه .

* الصيص : يقولون : هذا صيص أو بلح صيص ، إذا كان أخضر لم ينضج ، وهي فصيحة . فالصيصُ والشيصُ تمر لم يتم نضجه لسوء تأبيره أو لفساد آخر أصابه . ويقال صاصت النخلة تصيص صيصا أي صار ما عليها صيصا .

* الصنان والصَنَّة : الكلمتان دارجتان وفصيحتان . وفي اللغة صنَّ صنا معناها : أنتنت رائحته . والصُّنان رائحة كريهة (تنتج من تراكم البول في مكانه) ، ويستعملها الناس أيضا لرائحة البصل .

* ضاري وضريْتُ : يقولون : فلان ضارى على كذا ، أو ضريْتُ على فعل كذا ، والأصل ضرى به أو عليه ، ومعناها لزمه ، أو أولع به ، ومعناها أيضا اعتاده واجترأ عليه . فهي فصيحة ولا غبار عليها .

* ضَبَّع : يقولون : فلان ضَبَّع في الأمر ! يقصدون أوغل في الأمر دون مراعاة للحق . والكلمة فصيحة . فالضَّبْع هو الجور . ويقال : فلان يضبع أي يجور ، وضبع صيغة مبالغة من ضبع ضبعا وضبعانا بمعنى جار وظلم .

* الضَّبة والمفتاح : نحسب الضَّبة عامية وهي فصيحة . فالضبة حديدة عريضة يضَب بها الباب والخشب . وضبَّب الخشب ونحوه : ألبسه الحديد ، وضبب الباب ونحوه : عمل له ضَبَّة ، أو أغلقه بالضَّبَّة .

* الضُّعْف وضعفان وضعّفه : يقال في الكلام الدارج : فلان ضعفان ، بمعنى ضعيف ، وهي فصيحة ، وجمعها ضعاف . كما يقال في الكلام الدارج : فلان غاية في الضعف وهي فصيحة مثل الضَّعْف . فضَعُفَ يضعف ضُعفا وضَعفا أي هزل أو مرض وذهبت قوته أو صحته . ويقولون : المرض ضعَّفه بمعنى أضعفه أي جعله ضعيفا وهي فصيحة صحيحة .

* الضَّنا : يقولون : يا ضناي ! والضنا غال ! بمعنى يا ولدي ، وهي تحمل معنى الإعزاز . والأصل ضنأت المرأة وغيرها ضَنْواً وضنا بمعنى كثر نسلها . والضنى معناها الأولاد أو النسل . وكذلك الضنا .

* الطاجن وطجَّن له : يقولون : الطاجن وجمعها طواجن . وقد ورد في المعاجم أن الطاجَن والطاجِن هو المقلي . وذكر الوسيط أنها صحفة من صحاف الطعام مستديرة عالية الجوانب تتخذ من الفخار وينضج فيها الطعام في الفرن . وقال : انها معربة . والمُطَجَّن هو المقلي في الطاجن . يقال : قلية مطجنة . ويقولون : فلان يطجّن في الكلام ، ويعنون أن كلامه غير واضح وذا جرس خاص ، ولعلهم أخذوها عن صوت نشيش الطعام في الطاجن أثناء إنضاجه .

* الطبال : نتحاشى كلمة الطبال بوهم أنها عامية ، ونقول : عازف الطبل ، والحقيقة أن الطبال فصيحة ، فهو صاحب الطبل ، وهو أيضا الضارب عليه أو الماهر فيه .

* الطبق : الطبق بمعنى الإناء يؤكل فيه ، عربية فصيحة ولا حرج في استعمالها .

* طَرَش ، وانطرش : يستعملونها في الكلام بمعنى أصم ، وهي فصيحة ، فطَرِش يطرش طرشا وطرشة معناها : ثقل سمعه ، ومعناها أيضا تعطلت حاسة سمعه . والأطرش هو الأصم ، وهي طرشاء ، والجمع طُرش .

* طرطور : زيد هذا طرطور ، هكذا نقول في الكلام الدارج ، ونعني أنه ساقط النفس والهمة ، ضعيف ، وهذا هو بالضبط معناها في الفصحى ، فلا حرج في استعمالها ، وجمعها طراطير .

* طَفَا ، وطَفًّا : يقولون : فلان طفَا النار وغيرها ، أو طَفَّاها (بتخفيف الهمزة) وهي مأخوذة من طفأ وطفًّأ ، ويقولون : المصباح انطفا (بتخفيف الهمزة أيضا) بمعنى خمد نوره ، وكلها فصيحة مخففة ولا بأس في استعمال التخفيف . □

في حب صقلية

للشاعر ابن حمديس

ظل مغتربا طوال حياته . لم يتخذ لنفسه وطنا على الرغم من طول بعده عنه . إنه شاعر الاغتراب والحنين الدائم إلى الوطن « عبدالجبار بن حمديس » . ولد في عام ١٠٥٥م من أصل عربي ، وكان مولده في مدينة سرقوسة الواقعة على الساحل الشرقي من جزيرة صقلية الايطالية ، وقد كانت آنذاك عربية !

لم يكن حال العرب في صقلية ينبيء بخير في منتصف القرن الحادي عشر والأعوام التالية . فقد سقطت مدن الجزيرة كلها في أيدي النورمان في عام ١٠٩٢ ، أي بعد ولادة ابن حمديس بسبع وثلاثين سنة . وكان سكان الجزيرة من العرب قد انقسموا إلى فريقين : منهم من انتظم في صفوف المقاومة دفاعا عن الجزيرة ، ومنهم من آثر الهجرة إلى القيروان والأندلس ومصر ، وهي المهاجر التي اتخذها النازحون أوطانا جديدة . أما ابن حمديس فقد يمم شطر الأندلس ، فذهب إلى اشبيلية تحديدا ، وكانت الأندلس آنذاك مقسمة مجزأة يحكمها ملوك الطوائف . وكان حاكم اشبيلية « المعتمد بن عباد » ، وهو رجل تمثل في شخصه رجل السياسة والشاعر والأديب ، ولم يكن غريبا - والحال كذلك - أن يزدحم قصره بشعراء ذلك العصر وأدبائه ، وحسبنا أن نذكر منهم ابن زيدون والحجام وابن وهبون .

سعد ابن حمديس بالحياة في اشبيلية ، وتكونت له صحبة من الشعراء ممن كان يعج بهم بلاط المعتمد . وكان وأصحابه يغشون مجالس اللهو والشراب على السواقي بأشبيلية ، ويشهدون مجالس أخرى تتجلى فيها فنون الغناء والرقص . وقد وجد ابن حمديس في ذلك كله امتدادا لحياة ناعمة كان يحياها في وطنه - صقلية - بعد أن ارتضى العيش في كنف المعتمد ، فأحبه وامتدحه وعدد مآثره وأثنى على جهاده وشجاعته ، ووجد فيه رجل الدولة الذي تمنى أن يقترن به اسمه . أما أشبيلية فلم تكن لتقل في جمالها وطبيعتها الساحرة وحضارتها عن مدينته التي ولد فيها : سرقوسة . فلئن توافرت له مثل هذه الظروف ، فقد أوشك أن يطمئن إلى وطن بديل .

لم يكن من شأن الأيام الجميلة أن تدوم ، فلقد فاجأت الشاعر أحداث جسام تغير معها وجه الدنيا ، وتغيرت معها أيضا نظرته إلى الحياة والناس . فالأخبار الواردة من صقلية تنبيء بأن المقاومة قد بدأت تضعف على الرغم من البسالة التي أبداها المدافعون عن الجزيرة بقيادة « ابن عباد الصقلي » ، وإن احتمال استيلاء النورمان على بلاده بات مرجحا . ولكن القائد ابن عباد غرق في

..

إحدى المعارك البحرية . وسقطت صقلية ، فتجرع ابن حمديس بسقوطها كـأسا ظـل يستشعر مرارتها على مر الأيام . اتضح ذلك في شعره وضوحا بينا . فهو لا يكف عن ذكر الوطن أيا كانت المناسبة التي يتحدث فيها . والقصيدة التالية ـ وقد نظمها وهو مشرف على الستين من عمره ـ دليل على ذلك الحنين والوجد الخالدين .

قضَتْ في الصِّبا النفسُ أوطارَهَا ... وأبلغها الشيبُ إنذارها
نَعَم وأُجيلت قِداحُ الهَوى ... عليها فَقَسّمن أعْشارها
وما غَرَسَ الدهرُ في تربةٍ ... غراساً ولم يجنِ أثمارَها
فأفنيتُ في الحربِ آلاتها ... وأعددَت للسلم أوزارها
كميتاً لها مَرَحٌ بالفتى ... إذا حثّ باللهو أدوارها
تناولها الكوبُ من دنّها ... فتحسبه كان مضمارها
وساقيةٍ زرَّرت كفُّها ... على عُنق الظبي أزرارها
تدير بياقوتةٍ دُرّة ... فتغمس في مائها نارها
وفتيان صدقٍ كزهرِ النجوم ... كرام النَّحائزِ أحرارها
يديرونَ راحاً تفيض الكؤوسُ ... على ظُلمِ الليل أنوارها
كأن لها من نسيج الحَبَاب ... شباكاً تَعقلُ أطيارها
وراهبةٍ أغلقت دَيرها ... فكنّا مع الليل زُوارها
هدانا إليها شذا قهوةٍ ... تذيعُ لأنفك أسرارها
يرى مَلِكُ اللهو فيها الهمومَ ... تثورُ فيقتلُ ثوّارها
وقد سكَنت حركاتِ الأسى ... قيانٌ تُحركُ أوتارها
فهذي تعانِقُ لي عودها ... وتلك تقبل مزمارها
وراقصةٍ لقَطت رِجلها ... حساب يدٍ نَقَرت طارَها
وقضبٍ من الشمع مُصفرةٍ ... تريك من النار نوارها
كأنّ لها عمداً صُففت ... وقد وزن العدلُ أقطارها
تقلّ الدياجي على هامها ... وتهتك بالنور أستارها
كأنّا نُسلّطُ آجالها ... عليها فتمحقُ أعمارها
ذكرتُ صقليّةً والأسى ... يهيّج للنفس تذكارها
ومنزلةً للتَّصابي خَلَتْ ... وكان بنو الظرف عُمَّارها
فإن كنتُ أُخرجت من جنّةٍ ... فإني أُحدّث أخبارها
ولولا ملوحةُ ماء البكا ... حَسِبتُ دموعيَ أنهارها
ضحكت ابنَ عشرين من صبوةٍ ... بكيت ابنَ ستينَ أوزارها
فلا تعظمنّ لديكْ الذنوب ... فما زالَ ربّك غفّارها

الأبيات الستة الأخيرة في هذه القصيدة هي واسطة العقد ومحل اجتماع القوة إن صح التعبير ، فهي التي تقيم الوحدة بين أبياتها من أول بيت فيها إلى آخر بيت . يقول الدكتور « إحسان عباس » في كتابه : (العرب في صقلية) « وفي هذه القصيدة يريد ابن حمديس أن يجمع أمامنا

أجزاء ذكريات قديمة ، فليس من الغريب إذا جمعها مبعثرة ، لأن ذاكرته تقفز من منظر إلى آخر ، وإنما يوحد بين هذه المناظر أنها مستمدة من الماضي ومن صقلية » .

فهي من وحي الذكرى أو من تداعيات الماضي ، ومن شأن هذه التداعيات أن تقف عند كل تذكار وقفة تطول أو تقصر ، وقفة تنفث فيه حياة بما تحشد له من صور موحية نابضة . فلا بأس إذن من تعدد الوقفات ، فالشاعر يهدف من ورائها إلى رسم صورة عامة لمغاني الشباب ومجالس الأنس في وطن غابتٌ عن ناظره محاسنه ، ولم يعد له أمل في أن تحضن عيناه ربوعه ومجاليه ، فالراجح أن ابن حمديس قد نظم هذه القصيدة وهو مشرف على الستين ، وكان قد ترك الخمر من جملة ما ترك من متع الشباب وفي ذلك يقول :

فرغت من الشباب فلست أرنو ... إلى لهو فيشغلني الرحيق
ولا أنا في صقلية غلاما ... فتلزمني لكل هوى حقوق
ليالي تُعْمِلُ الأفراح كأسي ... فمالي غير ريق الكأس ريق
تجنبت الغواية عن رشادٍ ... كما يتجنب الكذبَ الصدوق
وإن كانت صبابات التصابي ... يلوح لها على كلمي بروق

هي إذن حنين طاغ إلى شباب ضائع ووطن مفقود وذكريات تجمع بينهما على بعد العهد . على أن ابن حمديس يصر مؤكدا على أن ما ورد في القصيدة إن هو إلا « صبابات التصابي » وإن لاحت على الكلام بروق !

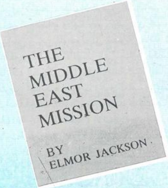
لقد بلغت النفس في الصبا أوطارها ، وما إن دب الشيب في شعر الرأس منذرا بالكبر حتى ألقى السلاح وأعد للسلم العدة ، فإذا كانت الشيخوخة قد حرمته من تلك الملاذ ، فلا عليه إن هو تمثلها في الذكرى . يقول : « كنا إذا جلسنا في مجلس اللهو تدور بنا ساقية وقد خضبت كفيها بالحناء وبيدها الشراب فكأنها تغمس فيه نارا ! ولا يقوم المجلس إلا بالأصدقاء وهم فتيان صدق ، تكاد الكؤوس في أيديهم تفيض نورا تبدد به ظلام الليل ، وقد كاد الحباب المتكاثر عند ارتشافها ينسج شباكا تحول بين الفقاعات وبين أن تفلت أو تطير ! تلك صورة من صور اللهو أيام كنا ننعم بالشباب ونتفيأ ظلال الوطن . وكنا نستمع في تلك المجالس إلى المغنيات وهن يداعبن الأوتار ، ونشهد الراقصة إذ تلتقط حركة ساقها نقرة الطار ، فتهتز على وقعها في تبادل رشيق بين الحركة والنغم . وانظر إلى قضب الشمع الصفراء التي تتقد رؤوسها فتحيل النار نورا ، بل هي ترفع الظلام على هاماتها حين تشيع النور في المكان ، وتهتك به أستار الظلام . على أن لهذه الشموع آجالا ، فما إن نوقدها حتى نسلط آجالها عليها لتمحق أعمارها . »

ذكرت صقلية والأسى ... يهيج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابي خلت ... وكان بنو الظرف عمارها
فإن كنت أخرجت من جنة ... فإني أحدث أخبارها

كل ما تقدم من وصف تلك الليلة البديعة قد هيجته ذكرى صقلية ، فأيقظت في نفسه أدق التفاصيل وأعذب الذكريات ، ولكن أين هو من كل ذلك ! لقد أخرج ـ مثل آدم ـ من تلك الجنة ولم يبق لديه إلا أن يحدث أخبارها . □

كتاب الشهر

مكتبة العربي



بعثة الشرق الأوسط

تأليـــــــف :
ايلمور جاكسون

عرض وتحليل : جمال وردة

قصة أول محاولة سلمية لحل قضية الشرق الأوسط في عهدي ناصر وبن غوريون . لماذا بدأت وكيف انتهت ؟ وهل كان ناصر ندا صلبا في تلك اللعبة التي يسقط فيها عادة كبار المحترفين أم مجرد هاو يافع أغوته اللعبة فخاض غمارها !

هل كانت الطريق إلى القدس سالكة أم أنها كانت لا تزال دامية شائكة ؟ إن أطروحة السلام مقابل الجمجمة مقايضة خاسرة . لأن السلام وسادة للرأس الفلسطينية المتعبة ، وليس تابوتا مزركشا لها . والسلام كذلك صك كبرياء عربي وليس تصريحا لدفن الموتى .

في ربيع ١٩٥٥ وقبل أن يوجه صفعته المدوية للغرب حين اتجه إلى الكتلة الشرقية لعقد أول صفقة سلاح شيوعي إلى بلد في الشرق الأوسط ، يقال إن الرئيس عبدالناصر قد أبدى استعداده وقتها لجس نبض أي جهود سياسي يسعى للوصول الى تسوية شاملة في المنطقة . أما قناة الاتصال التي اختارها فكانت جماعة « الكويكرز » : وهي جماعة دينية إنسانية نفترض أنها تكره الحروب وتحرم العنف ويرفض أفرادها الخدمة العسكرية . وقد عرفت هذه الجماعة خلال نشاطها « الانساني » في الشرق الاوسط من خلال دورهم الكبير بالاشراف على برامج المساعدات الدولية إلى لاجئي قطاع غزة عام ١٩٤٩ - ١٩٥٠ . ويبدو أن عبدالناصر كان يمر بظروف عسكرية صعبة لحاجة جيشه الماسة إلى خطة شاملة لاعادة تسليحه بالكامل وكان عبدالناصر يخشى أن لا تصل مفاوضاته مع أمريكا بشأن تسليح جيشه إلى أي نتيجة . فالوصول على الأقل إلى تسوية ولو مؤقتة سيكون من مصلحة الأمن المصري كما يقول المؤلف .

علاقة جديدة قديمة

وقد بدأت علاقة عبدالناصر بهذه الجماعة سنة ١٩٤٩ من خلال اشرافهم على معسكرات اللاجئين في قطاع غزة ، ولو أن هذه العلاقة مع الوطن العربي تمتد جذورها تاريخيا إلى أكثر من سبعين عاما ، حين أنشأ الكويكرز مدرسة للبنات في رام الله في فلسطين ، ومدرسة أخرى للذكور في برمانا شرقي بيروت ، ثم أنشأت بعد ذلك مدرسة للبنين في مدينة رام الله أيضا . وكانت هذه المدارس ملتقى للشباب العربي من كل الأقطار آنذاك . واستطاع خريجوها أن يتقلدوا أرفع المناصب في بلادهم بعد ذلك .

وقد تعمقت صلة عبدالناصر بهذه الجماعة خلال حصار الفالوجة حين قام أفراد هذه الجماعة وعبر قنوات الأمم المتحدة بترتيب اللقاءات بين الجانبين المصري والاسرائيلي وذلك من أجل السماح لدخول بعض الشحنات التموينية إلى سكان المناطق المعزولة بالداخل . وكان عبدالناصر وقتها رئيس الجانب المصري في تلك المحادثات .

ثم تطورت هذه الاتصالات إلى لقاءات ومناقشات عامة في أمور الدين والفلسفة والسياسة طوال فترة الستة عشر شهرا التي أمضاها الكويكرز بإدارة برامج الغوث في قطاع غزة ، وقبل أن تسلم هذه المهمة رسميا إلى لجان الأمم المتحدة . إن تلك الاتصالات مع عبدالناصر والثقة المتبادلة بينهم كانت الخطوة الأولى والأساسية للاتصال بهم وعبرهم لمحاولة إيجاد تسوية سياسية شاملة في ربيع عام ١٩٥٥ .

لقد استطاعت جماعة الكويكرز اكتساب ثقة واحترام الجانبين المصري والاسرائيلي ، عربيا من خلال برنامج المساعدات للنازحين الفلسطينيين ، وصهيونيا لنفس الدور تقريبا خلال الحرب العالمية الثانية ، وما قدمته من خدمات للهاربين اليهود من الاضطهاد النازي . وقد حاول الاسرائيليون الرسميون العاملون في أجهزة الأمم المتحدة والسفارة الاسرائيلية في

واشنطن التقرب إلى هذه الجماعة خاصة بعد وصول عضو مهم لهذه الجماعة إلى منصب رئاسة الوفد الأمريكي في الأمم المتحدة . ومناشدتهم باستمرار لجس نبض الجانب المصري عن إمكانية إيجاد تسوية سياسية بين البلدين .

ومن خلال علاقة الدكتور أحمد حسين مع ميدو زكي عميد أحد المعاهد المتخصصة بالبحوث الاجتماعية بالقاهرة ، ومن خلال علاقة الأخير الوطيدة بجماعة الكويكرز تم ترتيب اجتماع بينهم وبين السفير المصري . وقد حضر هذا الاجتماع في السفارة المصرية من جانب الكويكرز « ديلبرت ديبلوج » وهو من الذين تعرفوا على جمال عبد الناصر أثناء عمليات غزة وحصار الفالوجة . وقد جرى في هذا اللقاء استعراض للوضع السياسي في الشرق الأوسط ، وتكلم الدكتور حسين بصراحة في هذا الاجتماع موضحا أن ما يقوله هو مجرد آراء خاصة وليست بالضرورة آراء الخارجية المصرية . وقد طلب من الجماعة وضع خطة للعمل والتحرك من خلالهاموضحا أنه من الصعب العمل بشكل مباشر ، ولكن ليكن ذلك من خلال قنوات غير رسمية . ومن النقاط التي أثارها الدكتور حسين امكانية اعادة بعض اللاجئين للالتحاق بعائلاتهم التي بقيت في فلسطين المحتلة ، وتوطين الآخرين في مناطق معينة داخل فلسطين ، كما يجب اعادة ترسيم الحدود وفقا لقرار الأمم المتحدة الخاص بتقسيم فلسطين ، كما أنه لم يحبذ فكرة تدويل القدس . وقد اقترح مزيدا من الاتصال مع السيد « جاكوب بلوشتاين » أحد الشخصيات الأمريكية اليهودية المؤثرة على القيادة الاسرائيلية وكذلك مع السيد « جورج ألن » مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأوسط ، كما أخبرهم بأن الدكتور محمود فوزي وزير الخارجية المصري سوف يحضر في منتصف يوليو سنة ١٩٥٥ الاجتماع العاشر لذكرى تأسيس الأمم المتحدة المنعقد في سان فرانسيسكو . وقد توجه أربعة من قادة الكويكرز إلى جناح الدكتور فوزي في فندق الامباسادور في نيويورك في ١٥ يوليو ١٩٥٥ واجتمعوا به . وهؤلاء الأربعة هم « لويس هوسكين » « كولن بيل » ، « سيدني بايلي » ومؤلف هذا الكتاب السيد « إيلمور جاكسون » وقد رحب الدكتور فوزي بأي جهد سياسي تقوم به الجماعة من أجل الوصول إلى حل مناسب لمشكلة الشرق الأوسط ، وقد اقترح الدكتور فوزي إعادة بعض اللاجئين وتعويض الباقين غير الراغبين بالعودة ، ثم اقترح ضرورة إجراء تعديلات طفيفة لربط المناطق العربية بالداخل . وقد ذكر أن ذلك يتطلب اجراء شجاعا من الحكومة الاسرائيلية ، وأعلن أنه ليس لمصر أي مطامع أو مكاسب إقليمية جديدة ولا حتى في قطاع غزة .

عبر بوابة مندلبوم

وقد كشف هذا اللقاء عن نقطة جوهرية وهي ضرورة التحرك السريع ، لأن الوضع في الشرق الأوسط أصبح حرجا ومقدما على مرحلة خطيرة ما لم يسرع المجتمع الدولي بوضع حل عادل لهذه القضية . وقد تم نقل تفاصيل هذا اللقاء إلى السفير الاسرائيلي لدى الأمم المتحدة « ريجالند كيدروم » وإلى السفير الاسرائيلي في الولايات المتحدة « أبا إيبان » اللذين وعدا بنقل ذلك إلى المسؤولين في تل أبيب . وقد جاء الرد الاسرائيلي مرحبا بأي مسعى تقوم به بعثة خاصة من الكويكرز لامكانية استكشاف الطرق والوسائل المنوطة بالتسوية السلمية .

وقد تحركت هذه البعثة متجهة إلى الشرق الأوسط . وفي التاسع من أغسطس ١٩٥٥ عبرت هذه البعثة نقطة الحدود الفاصلة بين الجيش الاسرائيلي والجيش الأردني عبر بوابة « مندلبوم » في القدس ، حيث كان في انتظارهم أحد موظفي الخارجية الاسرائيلية ، وقام

باصطحابهم إلى فندق الملك داود وتم ابلاغ « جدعون رفائيل » أحد مساعدي وزير خارجية اسرائيل آنذاك موسى شاريت بنبأ وصول البعثة .

وعلى العشاء في فندق الملك داود تم عقد أول اجتماع ، وقد حضر من الجانب الاسرائيلي جدعون رفائيل ، وكان قد قام بمساعدة موسى شاريت بتأسيس وزارة الخارجية الاسرائيلية وتنظيمها ، وعندما اعتكف بن غوريون في النقب تاركا منصب رئاسة الوزارة قام جدعون بمساعدة شاريت في منصبه الجديد المؤقت كرئيس للوزارة الاسرائيلية ، وقد بدأ رفائيل الحديث بالتساؤل عن مدى جدية الجانب المصري وعن اهتمامات عبدالناصر الحالية . وعن ضرورة توافر الثقة في مثل هذه المناقشات ، وقد أعقب هذا الاجتماع جلسة أخرى في منزل جدعون رفائيل حضرها رئيس الوزارة شاريت وآرثر لوري من الخارجية الاسرائيلية ، ومستر إليان أحد المساعدين العسكريين ، وكان هذا الاجتماع الأول مع موسى شاريت الذي أبدى إدراكا وتفهما للقضايا الدولية . كما أبدى بعض الاهتمام بالمصالح الشرعية العربية وامكانية الوصول إلى ترضية مناسبة للطرفين . ثم طلب بعض التوضيحات عن المطالب المصرية . وقد أبدى استعداده بلم شمل بعض العائلات الفلسطينية ثم أوضح مدى أهمية خليج العقبة لاسرائيل .

وقد اقترح شاريت بعض الخطوات اللازمة لتحسين الجو السياسي من بينها تبادل الاسرى وتخفيف حدة التوتر في خليج العقبة،ووقف الهجمات عبر خطوط الهدنة ثم وقف الحملات الاعلامية . وفي اليوم التالي ذهبت البعثة إلى النقب لمقابلة بن غوريون وقد بدأ الحديث بالاستفسار عن جماعة الكويكرز وفلسفتهم ومعتقداتهم ثم تحدث عن البوذية وعن محادثاته مع « أونو » رئيس وزراء بورما السابق ، وقد رفض في هذا اللقاء أي تنازل اقليمي من جانب اسرائيل ، بينما تحدث عن امكانية قبول الاقتراحين الآخرين المتعلقين بقضية اللاجئين . ثم أبدى استعداده للذهاب إلى أي مكان لمقابلة عبدالناصر حتى لو كان ذلك في القاهرة . وفي ختام الزيارة أبدى الجانب الاسرائيلي تأثره بهذه الجولة من المحادثات وأعرب عن أمله في استكمال هذا الحوار غير المباشر أثناء الاجتماع القادم للجمعية العمومية للأمم المتحدة في نيويورك .

ومن القدس اتجهت البعثة إلى القاهرة حيث كان في انتظارها ميدو زكي في فندق سميراميس ثم انضم اليه السفير أحمد حسين ، ثم انتقل الجميع إلى منزل الدكتور محمود فوزي الواقع قرب الاهرامات ، وقد تم ترتيب لقاء للبعثة مع الرئيس عبدالناصر .

في مقر قيادة الثورة

وعند الساعة ٧,٤٥ مساء من يوم ٢٦ أغسطس **١٩٥٥** توجه ايلمور جاكسون بصحبة ميدو زكي إلى مقر قيادة الثورة وقد أدخلهما الحرس الخاص إلى احدى صالات الانتظار وبعد مكالمة هاتفية وافق الرئيس عبدالناصر على مقابلة السيد جاكسون وحده .

كان هذا هو اللقاء الأول بين ناصر وجاكسون ، وقد أشاد عبدالناصر في هذا اللقاء

بالدور الانساني الذي لعبته جماعة الكويكرز في قطاع غزة ١٩٤٩ ، حيث كانت بعض الوحدات المصرية محاصرة في الفالوجة . ولهذا يكن لهم الشعب المصري كل تعاطف واحترام . ثم سأل عن انطباعات جاكسون عن جولته الأخيرة في اسرائيل وقد أبدى عبدالناصر تحفظا تجاه عودة بن غوريون من اعتكافه وتسلمه وزارة الدفاع ، فمنذ عودته تصاعدت العمليات العسكرية عبر خطوط الهدنة ثم تلاه الهجوم الاسرائيلي على غزة في ٢٨ فبراير مما جعله يفقد الثقة بالقيادة الاسرائيلية ، ومع هذا التصاعد العدواني ، لم يجد أمامه أي خيار غير الرد على هذه الاعتداءات الجديدة لأن الوضع الآن أصبح قضية شرف عسكري وكرامة وطنية . وعندما حدثه جاكسون عن تبادل الأسرى أجاب عبدالناصر بأنه ليس لدى اسرائيل أسرى مصريون ذوو أهمية عكس ما لدى مصر من أسرى اسرائيليين تهتم اسرائيل كثيرا باطلاق سراحهم . ثم أبدى الرئيس عبدالناصر اهتماما بخصوص اقتراحات اعادة التقسيم وتعديل بعض الحدود .

ثم عادت البعثة من جديد إلى تل أبيب في ٢٩ أغسطس ـ وقد رافق البعثة عند وصولها موظف خاص ـ مباشرة إلى منزل بن غوريون حسب تعليمات رئيس الوزارة موسى شاريت . وعندما وصلت البعثة إلى منزل بن غوريون كان هناك أيضا من الجانب الاسرائيلي جدعون رفائيل ، وجاكوب هيرتزوج ، والكولونيل أرجون المساعد العسكري لبن غوريون ، وقد اشتكى الجانب الاسرائيلي في هذه الجلسة من تصاعد العمليات الفدائية الفلسطينية في قطاع غزة في الأيام القليلة الماضية ، مما جعل اسرائيل تفكر بشن هجوم واسع على خان يونس ، وعن موقف عبدالناصر أوضحت البعثة الموقف المصري بخصوص تبادل الأسرى وعن تهديد عبدالناصر بوقف هذه المحادثات طالما استمرت الاعتداءات الاسرائيلية عبر الحدود .

وقد خرجت البعثة بانطباع إيجابي من جانب شاريت وبتشكك أكثر من جانب بن غوريون .

ولكن الأحداث تصاعدت عكس ما قدر لها ، وكانت نظرية الردع العسكري الاسرائيلي تنتهج خطة بن غوريون الذي كان يرى أن الزمن ليس في صالح اسرائيل ، وأن أي تقارب بين الدول العربية ، هو مجرد إسفين قاتل في صلب الكيان الاسرائيلي ، وكان من أنصار الضربات الانتقامية الخاطفة والمستمرة ، وقد أضاف تلميذه موشي ديان الى هذه الخطة مبدأ آخر ، وهو الضربة الوقائية المفاجئة لأي قوة عربية ، تنمو وتصبح خطرا على الوجود الاسرائيلي ، بينما كان شاريت من أنصار الدبلوماسية الهادئة باعتباره رجل الخارجية الاسرائيلية الأول . وأمام هذا التناقض في قبضة الأمن الاسرائيلي اعتكف بن غوريون في النقب للراحة والتأمل . وقد تسلم منصبه موسى شاريت ، بينما أصبح بنحاس لافون وزيرا للدفاع بالوكالة .

وقد شهدت جلسات مجلس الوزراء الاسرائيلي الكثير من الخلافات في وجهات النظر بين شاريت وبن غوريون ، وفي شهر أكتوبر نظم لافون ـ خفية عن شاريت كما يقال ـ غارة وحشية على قرية قبية في الضفة الغربية حيث كانت تابعة للأردن ، بحجة الانتقام من الفدائيين وكانت النتيجة وفاة ٦٦ مواطنا معظمهم من النساء والأطفال ، وقد تم نسف بيوتهم عليهم ، وقتلوا تحت الانقاض ، كذلك أسفرت الغارة عن ٧٥ جريحا . وقد قاد هذه الغارة الهمجية « أريل شارون » ، وعندما استفسر شاريت عن سبب عدم اطلاعه على طبيعة هذه الغارة ، أخبره لافون بأنه قد استشار مسبقا بن غوريون بخصوص ذلك . وبالنسبة لاحراز بعض التقدم في المفاوضات المصرية ـ البريطانية حول إجلاء القوات البريطانية عن مصر كان في اسرائيل وجهتا نظر حول ذلك الموضوع ، فهناك تيار يقول إن ذلك سوف يسرع من توجهات عبدالناصر

نحو الداخل لبناء وطنه ، وأن هذه الاهتمامات الداخلية ستجعله يرحب بأي تسوية مع اسرائيل ، وتيار آخر أقل تفاؤلا يقول : إن الانسحاب البريطاني سيكشف ظهر اسرائيل ، ويعرض أمنها للخطر ، لأن المواجهة ستصبح صريحة ومكشوفة بين البلدين ، وكان موسى شاريت من أنصار الرأي الأول .

ولكن الأمور تعقدت مرة أخرى بأحداث صيف ١٩٥٤ بالقاهرة عقب سلسلة الانفجارات في المؤسسات البريطانية والأمريكية وقد استطاعت أجهزة الأمن المصرية اكتشاف بعض الخلايا الصهيونية التي كانت وراء تلك الانفجارات ومدى ارتباطها بالمخابرات الاسرائيلية .

صفعة لسياسة الغرب

كل هذه التعقيدات عجلت في اتمام صفقة الاسلحة التشيكية التي كانت بمثابة صفعة قوية للسياسة الأمريكية والغربية في الشرق الأوسط . إن إبرام هذه الصفقة كان خارج التصور الأمريكي الذي بدا عاجزا مشلولا أمام هذه الحقيقة الجديدة . وقد دافع الرئيس عبدالناصر عن هذا التوجه الجديد للكتلة الشرقية في مؤتمر صحفي أعلن فيه أنه كان قد أبلغ الولايات المتحدة بأنه سيحصل على السلاح الروسي اذا رفضت أمريكا تزويده به ، ولكن يبدو أن امريكا لم تصدق ذلك وعدته نوعا من الخداع السياسي ولكن ليس في الأمر خدعة . فمصر بحاجة إلى السلاح وليس لديها خيار آخر .

كما أعلن الرئيس ناصر أنه ليس لدى مصر نوايا عدوانية تجاه اسرائيل وأن قرار الحرب ليس سهلا . وليس هناك من يقول بأنه سيغزو إسرائيل وكل ما يطالب به العرب هو حق الفلسطينيين بالحياة وحقهم بأرضهم وذلك حسب قرارات الأمم المتحدة التي صدرت قبل سبع سنوات وأن العرب ليسوا أمة عدوانية وأن التهديد قادم من الطرف الآخر .

ان مصر مشغولة ببناء نفسها ولكنها الآن ستعطي الأولوية لقضية الدفاع لأن الحروب لا تقام بالمدارس والمستشفيات والمصانع فقط بل ستكون كل هذه المؤسسات عرضة للتدمير بدون جيش يحميها .

لقد كانت الصفقة التشيكية كما قلنا صفعة للسياسة الأمريكية في المنطقة فلم تكن أمريكا تعتقد بأن مصر ستلجأ يوما الى الكتلة الشرقية ولهذا كان رد الفعل الاول هو الشعور بالصدمة والذهول ثم بدأت أمريكا بمحاولة تقليل حجم الخسائر ما أمكن .

فبعد إبرام هذه الاتفاقية اتصلت الدول الغربية الكبرى الثلاث بالاتحاد السوفيتي معلنة له بأن هذه الصفقة تخالف روح اجتماعهم الذي تم في يوليو ١٩٥٥ . ثم جاء مشروع السد العالي وأظهرت الولايات المتحدة استعدادها مع بريطانيا والبنك الدولي لتمويل هذا المشروع الضخم ولكن أمريكا أرادت من وراء هذا التمويل عقد صفقة سياسية شاملة للشرق الأوسط فقد أرسل دالاس وزير الخارجية الأمريكية مبعوثا خاصا هو « روبرت أندرسون » الى مصر واسرائيل عارضا مساعدة مالية لاسرائيل لدفع تعويضات الى اللاجئين الفلسطينيين وخلق ازدهار اقتصادي في المنطقة

ويكون مشروع السد العالي من ضمن المخطط الاقتصادي الأمريكي للمنطقة . ولكن مهمة أندرسون لم تحرز أي تقدم يذكر .

وفي الوقت نفسه بدأت العلاقة البريطانية والفرنسية مع مصر تتدهور . فقد استاءت فرنسا من الموقف المصري المؤيد والمساند للثورة الجزائرية الأمر الذي دفعها الى زيادة شحنات الاسلحة الى اسرائيل نكاية بمصر عبدالناصر .

التأميم والحرب

وفي ١٩ يوليو أبلغ دالاس رسميا السفير أحمد حسين عن انسحاب أمريكا من خطة تمويل السد العالي . لقد كانت ضربة موجهة الى عبدالناصر ، ولكن بعد مضي أسبوع واحد ، على وصول الرد الاميركي ، جاء الرد المصري ، وعبر خطاب موجه الى الجماهير المصرية في الاسكندرية من الرئيس عبدالناصر بتأميم قناة السويس وذلك في الذكرى الرابعة لقيام الثورة المصرية . ثم جاء العدوان الثلاثي البريطاني والفرنسي والاسرائيلي على مصر بحجة الاستيلاء على قناة السويس وتأمين الملاحة الدولية .

لقد أشعل هذا العدوان المنطقة من جديد ولكن أمريكا برئاسة ايزنهاور أدانت هذا العدوان وأصرت مع روسيا على ضرورة الانسحاب الكامل للقوات المعتدية عن الأراضي المصرية . وبذلك أصيبت تلك المحاولات الصعبة للحلول السلمية في المنطقة بانتكاسة كبيرة .

ويختتم ايلمور جاكسون كتابه بنص رسالة أو مشروع رسالة كان قد كتبها موسى شاريت ليقوم جاكسون بتسليمها الى عبدالناصر ، ولكن الهجوم الاسرائيلي على غزة نسف كل هذه الاتصالات ولم تصل رسالة شاريت الى عبدالناصر . يقول شاريت في رسالته المؤرخة في ٣١ أغسطس ١٩٥٥ :

« يسعدني أن أغتنم هذه الفرصة لأجدد لكم اتصالي الشخصي بكم بعد توقف دام عدة أشهر ، جرت خلالها بعض الاحداث المؤسفة . ان رغبتنا نحو السلام والتعاون مع مصر صادقة ، ويؤسفنا أن لا نتلمس هذه الرغبة جيدا من طرفكم ، وفي غياب هذا السلام الرسمي بين بلدينا ، فإن علينا جميعا أن نحترم اتفاقية الهدنة وبحزم لأن ما نشاهده الآن هو مجرد انتهاكات مستمرة لهذه الاتفاقية من قبل قواتكم المسلحة المتواجدة في قطاع غزة ، إننا نعلم جيدا مدى تأثركم بالعمل العسكري الذي قمنا به يوم ٢٨ فبراير ، ولكن ذلك جاء عقب سلسلة من الاعتداءات العسكرية المنظمة على حدودنا ، والتي نتج عنها الكثير من الدمار والقتل وتعريض أمن المواطنين للخطر ـ قد تبدو بعض هذه الحوادث صغيرة وتافهة في الخارج ، ولكنها بالنسبة لنا خطرة جدا ، لأنها ستخلق لنا موقفا حرجا لا يمكن التسامح معه . »

ويختتم شاريت رسالته بالحلم الاسرائيلي الدائم ـ حلم اللقاء العربي والمحادثات المباشرة فيقول : « بالطبع ان امكانية الاجتماع بكم وفي هذه المرحلة يعني القضاء على سوء التفاهم وسوء الظن والذي عانى بلدانا منهما الكثير . »

كلمات إسرائيلية كان من المفروض أن تصل الى عيون عبدالناصر لتقرأها وتتصفحها ولكن التاريخ يقول : إن القنابل والرصاصات الاسرائيلية كانت أسرع من البريد الاسرائيلي الرسمي في انطلاقها نحو الصدور المصرية والعيون المصرية . وكأن شاريت يريد أن يقول : هذه رسائلي الحقيقية اليكم فتصفحوها جيدا يا أعزائي . □

● لو كان الموتى يتكلمون لما أصبح التاريخ مجموعة من الأكاذيب السخيفة . (مارك توين)



من المكتبة العربية

أحمد الشقيري

زعيماً فلسطينياً ورائداً عربياً



تأليف : الدكتورة خيرية قاسمية

عرض : الدكتور محمد على الفرا

ليس هناك من لا يعرف أحمد الشقيري أو من لم يسمع عنه فقد كان ملء السمع والبصر ، له في المحافل والمناسبات العربية جولات وصولات . نضاله على أرض فلسطين لا ينكره أحد ، وكفاحه في سبيل التحرير يعترف به الجميع ، وأعماله الوطنية امتدت واتسعت ، حتى غطت جميع الأقطار العربية . ولعل من أبرز أعماله التي ماتزال تشهد بمآثره رئاسته لأول لجنة تنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية .

بمجرد أن انتقل الشقيري إلى الرفيق الأعلى ، قام الأخ خيري أبو الجبين بالاتصال بنفر من أصدقاء الفقيد الكبير الذين كان يحرص على لقائهم كلما زار الكويت . وتشكلت منهم على الفور ، لجنة لتكريم الرجل ، اعترافا بدوره الكبير في ساحة النضال الوطني . ووجدت اللجنة أن إصدار كتاب يتناول حياة الرجل وكفاحه وجهاده أفضل أنواع التكريم ، وعهدت اللجنة إلى المؤرخة الفلسطينية الدكتورة خيرية قاسمية بمهمة تأليف الكتاب الذي جاء في

ستمائة وسبع وثلاثين صفحة .

يبدأ الكتاب بسيرة مفصلة لحياة الشقيري منذ ولادته في عام ١٩٠٨م ، حتى وفاته عام ١٩٨٠م فيبحث في نشأته وتربيته ومراحل تعليمه ، وامتهانه المحاماة ، واشتغاله بالسياسة ، ودخوله المعترك الوطني ، ودفاعه عن الوطن وشعبه ، وما لاقاه في سبيل ذلك من اضطهاد ، ونفي على يد حكومة الانتداب البريطاني . ويتناول الكتاب أيضا دوره في كثير من القضايا العربية ، مثل اشتراكه في التحضير لإنشاء جامعة الدول العربية ، ومساهماته في الاجتماعات التي عقدت لمناقشة القضية العربية ، وعمله كأمين عام مساعد لجامعة الدول العربية في الخمسينيات ، وندبه لرئاسة الوفد السوري في هيئة الأمم المتحدة ، ثم ممثلا للمملكة العربية السعودية في نفس هذه الهيئة الدولية . وفي التاسع عشر من شهر سبتمبر عام ١٩٦٣ اختير الشقيري ليكون ممثل فلسطين في الجامعة العربية بعد وفاة ممثلها السابق أحمد حلمي عبدالباقي . ويوضح الكتاب بالتفصيل قصة إنشاء الكيان الفلسطيني ممثلا في منظمة التحرير الفلسطينية ، عقب انعقاد مؤتمر القمة العربي الأول في شهر يناير عام ١٩٦٤ ، والعقبات والمشاكل التي واجهها الشقيري وهو يطوف الأقطار العربية ، ويجتمع بالجاليات الفلسطينية فيها ، وكيف استكمل مقومات هذا الكيان ، مثل إنشاء جيش التحرير الفلسطيني ، وتشكيل المجلس الوطني الفلسطيني ، واللجنة التنفيذية ، وإذاعة فلسطين ، ومركز الأبحاث الفلسطيني ، والصندوق القومي الفلسطيني ، وافتتاح مكاتب للمنظمة في الأقطار العربية وفي الخارج . وقد كان الشقيري وهو رأس المنظمة شعلة من النشاط المستمر ، يعمل ما وسعه العمل لما فيه خير وطنه ومنفعة شعبه ، حتى اضطرته الظروف إلى أن يقدم استقالته في الرابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٩٦٧ . وعلى الرغم من استقالته فإنه ظل حاملاً مسؤولية وطنه ، وحاملا في فكره ووجدانه هموم شعبه إلى أن مات واقفا كما تموت الأشجار الباسقة .

ويأخذ بعض على الشقيري فرديته ، فكثيرا ما كان يتصرف بنفسه ، دون أن يستشير زملاءه أعضاء اللجنة التنفيذية بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وهو لاينكر هذا ، ففي مذكراته يذكر حادثة تدل على انفراده في اتخاذ القرار ، وذلك حينما انسحب من مجلس رؤساء الحكومات العربية في مايو ١٩٦٥ ، ومطالبته بفصل تونس من الجامعة على إثر تصريحات الرئيس بورقيبة في مارس ١٩٦٥ . ولما شعر بانزعاج زملائه قدم استقالته إلى المجلس الوطني الفلسطيني ، وخاطب الأعضاء قائلا : « ومن رأى اعوجاجا فليقومه ، إن الأمانة بلاء وعناء ، والجبال أبين أن يحملنها ، وأنا حاضر أن أرد الأمانة إلى الشعب ، فإنه وحده صاحبها . »

ثقافة الأديب :

تميز الشقيري بثقافته الواسعة ، فقد نشأ في بيت كان العلم شعاره ، فوالده الشيخ أسعد الشقيري من أبرز علماء الدين بفلسطين ، عمل مفتيا للجيش التركي الرابع الذي كان يقوده جمال باشا الملقب بالسفاح . وقد كان الشقيري منكبا على مكتبة أبيه القيمة ، ومواظبا على مجالس والده العلمية والثقافية . أجاد اللغة الانجليزية بعد أن درسها في مدرسة صهيون ، وأتقن العربية كتابة وخطابة،وتبحر في العلوم الدينية كالفقه والتشريع والحديث ، وفي العلوم الدنيوية كالتاريخ والاجتماع والقانون والسياسة والاقتصاد . كان يحفظ الكثير من الأحاديث والنصوص والآيات القرآنية والأشعار ، مما ساعده على أن يكون فارس الكلمة ، وصاحب البيان .

وقد أحب الشقيري وطنه ، وتعلق به ، وهام به كهيام المحب الولهان . وكان يتغزل بفلسطين

برها وبحرها ، سهلها وغورها وجبالها ونجادها ، فهو يقول : « لقد أتاحت لي أسفاري الكثيرة أن أرى أجمل ما في هذه الدنيا من مشاهد رائعة ، ولكني كنت دائما أقيس وأفاضل ، وأشبه ، فأرى أن بقاع الجليل ، من شواطىء عكا إلى جبال صفد ، إلى وهاد طبرية ، إلى روابي الناصرة ، أجمل ما في هذا الوجود ، وأبدع ما في هذا الوجود ، ومن هنا صنع السيد المسيح أعجز معجزاته ، وأرفع عظاته » .

على الرغم من إعجاب الشقيري بخطبه التي كان يلقيها في الأمم المتحدة ، ومباهاته بقدرته الفائقة على الإقناع وإفحام الخصوم ، إلا أنه كان يرى أن ذلك لايحرر الوطن ، ولا يعيد شعبا إلى وطنه ، وعنده أن الكفاح والنضال المسلح هو وحده السبيل للتحرر . وفي هذا يقول : « إن الشعب الفلسطيني يلجأ إلى الأمم المتحدة لآخر مرة ، وأنه لايرى مناصا من حرب تحريرية لاسترداد وطنه » .

ويعلق الشقيري على جهاد شعب فلسطين ويقول : « ان ثورات هذا الشعب البطل هي التي أحبطت مشروع التقسيم ، وجعلت القضية حية في أيدى أبناء فلسطين ، فقد كان شعبنا في وطنه شعبا ثائرا ، ومقاليد الثورة بين يديه » .

والكيان الفلسطيني لامعنى له عنده إذا لم يكن قائما على تنظيم ، وقوة تسنده ، وكفاح يدعمه : « إنه تنظيم وعمل وتحرير ، إنه قوة طليعية نضالية في ميدان النضال العربي ، إنه تضحيات وبطولات ، إنه عرق لايجف ، ودمع لايكفكف ، ودم غير ضنين ، إنه أداة نضالية تمكن أهل فلسطين من النضال ، تكفل التدريب والسلاح للقادرين على حمل السلاح . . » ويخاطب أبناء شعبه قائلا : « لست أدعوكم إلى طريق لا أسير فيه معكم ، علينا أن نسير ، وأن نسير جميعا ، فإن هلكت في الطريق فاحملوني أيها الرفاق إلى فلسطين عربية حرة مستقلة . »

ومن منطلق إيمانه المطلق بأن « الكفاح المسلح » هو طريق التحرير قام بإنشاء جيش التحرير الفلسطيني ، ليكون طليعة البذل والتضحية والعطاء . وكان دوما يصر على أن شعب فلسطين يجب أن يكون في طليعة الطليعة في حرب التحرير ، وكان تصميمه على تبني الكفاح المسلح من الأسباب التي أدت إلى صدامه مع بعض القيادات العربية .

وفي تبريره لإنشاء جيش التحرير الفلسطيني في عام ١٩٦٤ يقول الشقيري بأن قرار إنشاء هذا الجيش حتى « يؤدي دوره الطبيعي إلى جانب الجيوش العربية في تحرير فلسطين واسترداد الوطن السليب » .

وعلى الرغم من إنشاء الشقيري للجيش الفلسطيني إلا أنه كان يشيد بالعمل الفدائي ، وبخاصة بعد نكبة يونيو ١٩٦٧ ، لكنه كان يلح على ضرورة توحيد المنظمات الفدائية والمنظمات السياسية ، خوفا على العمل الفدائي من التفرقة والانقسام ، ويرى بأن جميع هذه المنظمات يجب أن تتوحد تحت لواء منظمة التحرير الفلسطينية ، وقد بذل جهودا كثيرة ، ومساعى حقيقية من أجل هذا الهدف .

إيمانه بالعروبة :

الشقيري من الشخصيات التي آمنت بالعروبة ، وساهمت في بناء وحدتها ،ولا يوجد كتاب من كتبه إلا وفيه تمجيد للعروبة وحبها



« فإنني لم أشك يوما في جوهر الأمة العربية ، ولا في أسرار قوتها وبسالتها ، رغم ما أرى فيها من أعراض الوهن ، يبدو حينا بعد حين ، ولم تكن الأيام إلا لتزيد هذا اليقين رسوخا ، ولم تكن الحوادث إلا لتقدم دليلا يتبع الدليل لإبراز هذه الحقيقة ، ساطعة سافرة » .

وكان الشقيري من الذين يتطلعون إلى الوحدة العربية ، ويعملون في سبيلها ، وقد كان يشعر بالسعادة في كل عمل يوصل إلى أي نوع من أنواع الوحدة . وعلى الرغم من أنه كان يتطلع إلى وحدة تجمع الشعوب في دولة عربية واحدة ، إلا أنه رحب بفكرة إنشاء جامعة الدول العربية ، وعدّها خطوة نحو جمع الكلمة ، ولمّ الشمل . ولذلك نجده يستجيب لطلب الرئيس السوري شكري القوتلي الذي أوفده إلى الاسكندرية ليكون قريبا من المباحثات إلى أن يصل الوفد السوري الرسمي . وقد اشترك في اجتماعات اللجنة المكلفة بوضع ميثاق الجامعة .

وعلى الرغم من مآخذ الشقيري على الجامعة العربية إلا أنه لم يحاول أن يقلل من أهمية قيامها في التاريخ العربي المعاصر : « إن مجرد قيام جامعة الدول العربية مهما قيل في خلفيات نشوئها ونشاطاتها وإنجازاتها ، سلبا أو إيجابا ، يعتبر أكبر حدث في التاريخ العربي المعاصر ، ووجود الجامعة العربية بحد ذاته تعبير عن الكيان السياسي والقومي والحضاري للأمة العربية ، رغما عن أن الجامعة لم تحقق الكثير من طموحات الأمة العربية» .

وكان انتماء الشقيري للأمة العربية أكبر من أي انتماء إلى أي قطر من أقطارها ، يهب للدفاع عن العروبة من أي موقع ، سواء كان في الوفد السوري للأمم المتحدة أو في الوفد السعودي . يقول في الدورة الثانية عشرة للأمم المتحدة في خريف عام ١٩٥٧ التي يسميها « دورة القومية العربية » ما نصه : « وأخذت على عاتقي أن أرد عليهم (يعني وزراء خارجية الدول الغربية الكبرى) جميعا ، وأن أتحمل العبء كله ، كما لو كنت أمثل الأمة العربية كلها ، وكنت صادقا في هذا الشعور أمام نفسي ، فقد فقدت وطني الصغير ، وتعاظم تعلقي بالوطن الكبير . ومن هنا أصبحت أحس أن القومية العربية قضيتي وأن الدفاع عنها مسئوليتي » .

وتجسيدا لإيمانه بالعروبة فقد كان الشقيري في كل مناسبة ، ومن كل موقع ، يتبنى القضايا العربية في هيئة الأمم المتحدة ، ويدافع عنها بحرارة وبصدق وإخلاص ، ولسنا هنا بصدد دفاعه عن قضايا الأمة العربية في المشرق والمغرب ، فهي عديدة ، لا يتسع المقام لبحثها أو ذكرها ، ويكفي القول بأن الوحدة العربية كانت عنده هوى وعقيدة ، ولذلك كان يقول عن نفسه : « أنا وحدوي الهوى والنشأة » . ويقول في أحد كتبه : « إن الوحدة - فكراً وعقيدة ودولة - هي أمل الأمة العربية ، وإذا كانت قد أصبحت من غير روح فالتبعية على الحكم العربي المعاصر ، أو معظمه » . وقال الشقيري للأمين العام للأمم المتحدة الذي لاحظ أن الشقيري في خطابه عام ١٩٦٠ بشأن قضية « موريتانيا » يتحدث عن الوحدة حديث العابد : « الوحدة عندي عبادة ، نحن شعب فلسطين ضحية فقدان الوحدة : التجزئة أشد بلاء من الاحتلال » .

هذه لمحات سريعة ، تبين بعض جوانب شخصية الشقيري ، وهي في نفس الوقت مجرد إشارات عابرة إلى بعض أنشطته وفاعلياته على المستوى الفلسطيني ، وعلى الصعيد العربي ، وعلى المسرح الدولي . لكننا في عجالة كهذه لايمكن أن نفي هذه الشخصية الكبيرة حقها من الدراسة ، كما أنه ليس في استطاعتنا عرض كل ما جاء في كتاب الدكتورة خيرية قاسمية عن الشقيري ، فهو من الكتب الكبيرة التي لايمكن عرضها بشكل واف ، ولذلك وجدنا أن من الأفضل أخذ قبسات من هذا السفر القيم . □

مكتبة العربي

مختارات

اسم الكتاب : كامب ديفيد . السياسة وصنع السلام
اسم المؤلف : وليم كوانت . ترجمة حازم صاغية
الناشر : دار المطبوعات الشرقية . بيروت
عدد الصفحات : ٤٧٦ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨

مؤلف الكتاب هو أحد الذين ساهموا في صنع « كامب ديفيد » ، ومن خلال موقعه السابق كمستشار للأمن القومي لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد تجمعت لديه معظم التفاصيل التي لم تعلن عن أكثر الاتفاقيات أهمية في التاريخ العربي الحديث .

ويقدم الكاتب تفاصيل الأحداث والاجتماعات المغلقة والاتصالات الخلفية ، بالإضافة إلى تحليلاته ومقابلاته مع كثيرين من أطراف النزاع العربي - الصهيوني .

□□□

اسم الكتاب : المسرح القومي والمسارح الرديفة في القطر العربي السوري .
اسم المؤلف : جان الكسان
الناشر : منشورات وزارة الثقافة / سوريا
عدد الصفحات : ٢٦٩ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨

كتاب توثيقي للحركة المسرحية في سوريا خلال فترة (١٩٥٩ - ١٩٨٩) . يبدؤه الكاتب بمدخل تمهيدي ، يتناول فيه المراحل الأساسية للمسرح العربي في سوريا ، وكيف أثرت التأثيرات المختلفة على ظهور المسرح وانتشاره ، ثم يقدم الكاتب بعد ذلك عرضا لعروض المسرح القومي السوري ، واستقراء لهذه العروض ، وممثليها ومخرجيها ، ويقدم بعد ذلك تعريفا بالمراحل الأساسية في مسيرة المسرح القومي السوري . وينتقل الكاتب ليقدم الفرق الرديفة للمسرح ، ثم عرضا للمسارح في سوريا ، والمهرجانات المسرحية والموسيقية التي تقام بالقطر العربي السوري .

□□□

اسم الكتاب : اللؤلؤة
اسم المؤلف : جون شتاينبك / ترجمة سمير عزت نصار
الناشر : دار منارات / الأردن
عدد الصفحات : ١٠٥ صفحات من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٧

ترجمة جديدة لرائعة جون شتاينبك « اللؤلؤة » التي فاز فيها - مع أعماله الأخرى - بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٣ . وعلى الرغم من أن شتاينبك منذ السطر الأول للرواية يذكر ملخصها : كيف وجدت اللؤلؤة العظيمة وكيف فقدت مرة أخرى ؟ ! على الرغم من التقرير

المفاجيء - من اللحظة الأولى للحدوتة - إلا أن الرواية لا تفقد إثارتها ولا تشويقها ولا حبكتها ، وتقدم صورة كبيرة عن جانب من حياة الفقراء وجانب من سطوة الكبار ، وبين الساحل الفقير والمدينة الكبيرة ، وخلال هذا التناقض الظاهري ، تكمن معان ورموز ودلالات بالغة الثراء . ولأن شتاينبك مجهول لجيل جديد من القراء ، فإن إعادة ترجمة أعماله تثري القاريء العربي الجديد ، وتفتح له نوافذ واسعة للمعرفة والتذوق .

□□□

اسم الكتاب : خفايا التوراة وأسرار شعب « إسرائيل » .
اسم المؤلف : كمال صليبي
الناشر : دار الساقي / لندن
عدد الصفحات : ٢٨٨ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨

يناقش الكتاب رؤية المؤلف والباحث الجغرافي للتوراة ، والتأكد من صحة المكان الذي جرت فيه أحداث القصص التوراتية ، وقد استند الباحث على النص العبري للتوراة ، وهو يناقش لغويا ، وتاريخيا ، وجغرافيا ، صحة الاعتقاد السائد حول مكان هذه القصص ووقائعها . وهو يطرح بذلك تصوراً جديداً للروايات المتباينة في التوراة .

□□□

أسم الكتاب : إرادة المعبود في حال أبي جاسم ذي الدخل المحدود
اسم المؤلف : وليد الرجيب
الناشر : دار الفارابي / بيروت
عدد الصفحات : ١٠٨ صفحات من القطع الصغير .
سنة النشر : ١٩٨٩

مجموعة قصصية جديدة للقصاص الكويتي المتميز « وليد الرجيب » . يقدم خلالها خمس قصص قصيرة . والمجموعة تقدم وجها جديدا للكاتب الذي قدم قبل ذلك مجموعتين نشرتهما نفس الدار ، وتشترك المجموعة مع أعمال الكاتب السابقة بنفس خصائص المقدرة الفنية العالية ، واللغة الرقيقة الجادة . والهم الواضح الذي يتناوله الكاتب بمقدرة ورؤية إنسانية متعاطفة ، والقلق العذب المعذب ، والتميز في الشكل والتكوين : سمتان أساسيتان في كتابات الكاتب ، يلحظهما القاريء بوضوح شديد في المجموعة الجديدة .

□□□

اسم الكتاب : كوكب الأرض
ترجمة : رءوف وصفي
الناشر : مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
عدد الصفحات : ٧١ صفحة من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

ضمن إصدارات مؤسسة الكويت للتقدم العلمي - إدارة الثقافة العلمية - يأتي هذا الكتاب إضافة إلى السلسلة العلمية التي تهدف إلى تبسيط العلوم والمعارف،وتقديمها للقاريء بلغة بسيطة واضحة . يقدم الكتاب مجموعة من المعلومات عن الأرض ، قام المترجم بتجميعها من عدة مصادر ، ليقدم صورة متكاملة عن الكوكب الذي نعيش عليه ، والظواهر التي يتعرض لها ، والكائنات الطبيعية حولنا .

● جنب كرامتك اللئام ، فإنك إن أحسنت إليهم لم يشكروا ، وإن نزلت بهم شدة لم يصبروا .
(الثعالبي)

مسابقة العربي الثقافية

العـــدد ٣٦٦

مـايـــو ١٩٨٩

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ دينارًا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارًا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارًا
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الصفاة . الرمز البريدي 13008 - الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٦٦ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات إلينا هو ١٥ يونيو ١٩٨٩ . والرجاء كتابة الاسم الثلاثي والعنوان البريدي واضحين - ورقم الهاتف إن وجد .

ارفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٦٦

١ تعد شركة « إيزيس فيلم » أول شركة مصرية لانتاج الأفلام السينمائية ، وقد ظهرت سنة ١٩٢٦ .. ترى من كان صاحب هذه الشركة أو مؤسسها ؟ .

* عزيزة أمير
* آسيا داغر
* بدر وابراهيم لاما

٢ أي الأفلام التالية كان أطول فيلم سينمائي ناطق ؟ .

* ذهب مع الريح
* لورانس العرب
* بوابة السماء

٣ أنشئت أقدم دار للسينما في أطلنطا بولاية جورجيا الأمريكية ، ترى متى أنشئت هذه الدار ؟ .

* سنة ١٨٩٥
* سنة ١٨٧٥
* سنة ١٩١٥

٤ يعد الممثل السينمائي (سلفستر ستالون) صاحب أكبر دخل بين ممثلي السينما جميعا ، وهو الذي اشتهر بأفلام روكي .. ترى كم بلغ مجموع إيراداته من فيلم روكي (٤) ؟ .

* حوالي ١٠ ملايين دولار

* حوالي ٢٠ مليون دولار
* حوالي ٣٠ مليون دولار

٥ أي الأفلام الثلاثة التالية كان المتفوق من حيث تكاليفه والجهود التي بذلت في سبيل إنتاجه ؟.
* الحرب والسلام
* البؤساء
* صلاح الدين الأيوبي

٦ أي الكتّاب التالية اسماؤهم يستأثر بأكبر عدد من الأفلام السينمائية التي اعتمدت على قصصه ؟.
* برتراند راسل
* شكسبير
* شارلز ديكنز

٧ الدول السبع الأولى في العالم من حيث عدد الأفلام السينمائية التي تنتجها هي التالية :
انكلترا/ فرنسا/ الولايات المتحدة/ الفلبين/ الهند/ تركيا/ اليابان .
المطلوب ترتيب هذه الدول السبع ترتيبا تنازليا . . الأكثر انتاجا فالأقل .

٨ أين يوجد أكبر عدد من مقاعد السينما ، (بالنسبة إلى عدد السكان) ؟ .
* في جزيرة كريسماس (الميلاد)
* في جزيرة ايستر (الفصح)
* في جزيرة أسنشن (الصعود)

٩ أين ظهر أول فيلم ناطق في التاريخ ؟ .
* أمريكا
* بريطانيا
* ألمانيا

١٠ أين توجد أضخم دار للسينما في العالم ، علما بأن هذه الدار تتسع لـ ٥٨٨٢ مقعداً ؟ .
* في لندن
* في باريس
* في نيويورك

١١ يعد فيلم (ذهب مع الريح) الفيلم السينمائي الأول من حيث مجموع دخله أو إيراداته . . ترى كم بلغ هذا المجموع ؟ .
* حوالي ١٠٠ مليون دولار
* حوالي ٢٠٠ مليون دولار
* حوالي ٣٠٠ مليون دولار

١٢ أين عرض أول فيلم سينمائي ملون . . سنة ١٩٠٩ ؟ .
* انكلترا
* أمريكا
* فرنسا

حل مسابقة العدد ٣٦٣

فبراير ١٩٨٩

١ جزيرة ترينداد هي التي تصدر الاسفلت الطبيعي من بحيرة الأسفلت فيها ، وتسمى هذه البحيرة Pitch) Lake) . يبلغ عمقها نحو ٨٧ مترا ، ومحيطها ٥ر١ « كيلومتر » .

٢ الفرنسيون هم الذين أطلقوا اسم ملفينا على جزر فوكلاند ، فقد استوطنوها منذ سنة ١٧٦٤ ، باعوا ميناء لويس إلى الاسبان سنة ١٧٦٧ ، وتمكن الاسبان من بسط نفوذهم سنة ١٧٧٤ .

٣ جزيرة ايستر هي الجزيرة المقصودة في السؤال، تقع في جنوب المحيط الهادى ، إلى الغرب من ساحل أمريكا الجنوبية ، وعلى بعد (٣٧٨٠) كيلومترا من شواطىء تشيلي . اكتشفها الاميرال الهولندى (جاكوب روجفين) صبيحة عيد الفصح ، ومن ثم كانت التسمية وقد ضمتها تشيلي إلى أرضها سنة ١٨٨٨ .

٤ واشنطن دى سى عاصمة الولايات المتحدة الامريكية ، هي العاصمة التى صممت وأنشئت لكى تكون عاصمة ، وقد وضع خططها المهندس الفرنسى (بيير لانفانت) ، وذلك بتفويض من جورج واشنطن نفسه ، وأشرف على أعمال التنفيذ المهندس (اندرو اليكوت) .

٥ كانت البندقية في القرون الوسطى دولة مستقلة ، وقد بلغ من قوتها البحرية أن أصبحت امبراطورية واسعة الأرجاء ، تهابها سائر الدول ، وتخشى قوة أسطولها ، ولما كان نظام الحكم فيها دوقيا نسبة إلى الدوق (Dodge) ، وكانت جميلة بشوارعها المائية ومبانيها الأثرية ، اشتهرت باسم (بونو دوتشيا) وما أسهل ماعدل اللسان العربى هذا الاسم ، أو حرفه ، فأصبح البندقية .

٦ موناكو هي البلد الذى يفقد استقلاله في اللحظة التي يفقد فيها ولي عهده ذكرا كان أو أنثى ، وفي تلك اللحظة تصبح موناكو محمية تابعة لفرنسا ، وذلك بموجب معاهدة معقودة بين فرنسا وبين إمارة موناكو سنة ١٩١٨ م .

٧ بوليفيا هي الدولة التي فقدت أكثر من نصف مساحتها منذ نيلها الاستقلال في سنة ١٨٢٥ . ولعل أهم مافقدته ضمن تلك الأراضي التي آلت إلى جاراتها ، الصحراء الشهيرة بسماد

النترات ، صحراء اتاكاما ، وقد استولت عليها تشيلي ، ومنطقة اكر الغنية بالمطاط ، وقد أصبحت أراضيَ برازيلية .

٨ جزيرة غينيا الجديدة هى التى تقع فى جزر الهند الشرقية ، وتتقاسمها دولتان ، بل دولة بابوا - غينيا الجديدة ومقاطعة (اريان - جايا) التابعة لاندونيسيا .

وجزيرة هسبانيولا هي التى تقع فى جزر الهند الغربية وتتقاسمها جمهوريتان هما هايتى والدومنيكان .

٩ جزيرة تاهيتى هى كبرى جزر بولينيزيا الفرنسية ، وأهم جزيرة فى المجموعة تلك تسمى جزر الجمعية التى عاش فيها جوجان ست سنوات (١٨٩٥ - ١٩٠١) ، وذلك نظرا لجمال الطبيعة الفائق فيها .

١٠ جزر العذارى هى التى اشترتها الولايات المتحدة من الدانمارك ، وذلك لقاء ٢٥ مليون دولار في سنة ١٩١٧ . إنها جزء من جزر الهند الغربية ، وتقع فى البحر الكاريبى .

١١ مكاو = البرتغال
كوكس = استراليا
جزر كوك = نيوزيلندة
سفالبارد = النرويج
ساموا : الولايات المتحدة .

١٢ النشيد الملكى (أو القومى) البريطانى هو النشيد الذى احتضنته كثرة من الدول الأخرى ، الصديقة منها والعدوة ، فقد تبنته المانيا طوال قرن أو أكثر (١٨٧٠ - ١٩٢٢) ، واقتبسته سويسرة منذ البدء حتى سنة ١٩٦١ . □□□

الفائزون في مسابقة العدد ٣٦٣ فبراير ١٩٨٩

الجائزة الأولى : محمد أحمد علي - المحلة الكبرى / جمهورية مصر العربية .

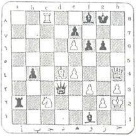
الجائزة الثانية : دليلة بن عثمان / تونس .

الجائزة الثالثة : محمد عطية محمد نور - دمشق / سوريا .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ - أبو بكر هارون عبدالرسول - المملكة العربية السعودية .
٢ - صاحب الدين عبدالهادي - الدار البيضاء / المغرب .
٣ - ياسين خضير علي الدوري - بغداد / الجمهورية العراقية .
٤ - هشام منير المزين - زحلة / لبنان .
٥ - علي سلامة عبدالله - طرابلس / ليبيا .
٦ - مها فخري فارس جبريل - عمّان / الأردن .
٧ - ماري تاكيدا - اوساكا / اليابان .
٨ - تيسير عبدالرحمن خضر - ميلانو / ايطاليا .

معركة بلا سلاح



من أهم الأحداث الشطرنجية التي جرت مؤخرا على الساحة العربية ، البطولة العربية السادسة الفردية للشطرنج المقامة في الكويت من ٣١ ديسمبر - ١٥يناير ١٩٨٩ ، وقد بلغ عدد الاقطار العربية المشاركة في هذه البطولة اثنى عشر قطراً مثل كلا منها الأبطال الآتية أسماؤهم :

منصور عبدالله ونجيب محمد صالح (الامارات) حسن عبدالله (البحرين) محفوظ بودية (الجزائر) عبدالقادر عثمان (السودان) احمد عماد طه (فلسطين) احمد ابراهيم مبارك (قطر) عبدالجليل القلاف ، محمود الاستاذ ، منصور الأستاذ (الكويت) احمد النجار (لبنان) فرج مختار مهدية (ليبيا) هشام الحمدوشي (المغرب) عاصم عفيفي ، عبدالحميد العروسي (مصر) حسين نعمان (اليمن) .

كما شارك في هذه البطولة سبع بطلات عربيات :

فريدة عبدالكريم (الامارات) مريم عبو (الجزائر) هويدا حسين شبو (السودان) رانيا عباس (سوريا) هناء الفجي (الكويت) دانيال بدروسيان (لبنان) سهير بسطا (مصر) .

وقد أسفرت هذه البطولة عن تتويج اللاعبين المغربي هشام الحمدوشي وهو فتى لا يجاوز السادسة عشرة من العمر ، والمصري عبدالحميد العروسي بطلين للبطولة وحصل كل منهما على لقب استاذ دولي ، كما توجت اللاعبة المصرية سهير بسطا بطلة للفتيات ، وحصلت على لقب استاذة دولية هي ايضا . والدور التالي من الادوار المتميزة في البطولة .

□عاصم عفيفي (مصر)	■أحمد عماد طه (فلسطين)
١ . د ٤	ح - و ٦ ،
٢ . جـ ٤	ز ٦

مسألة العدد



(الاسود يلعب) مات ٣

من اهداء القارىء مختار الشمالي (حمص)

٣ . ح ـ جـ ٣ د ٥
٤ . جـ × د٥ ح × د ٥
٥ . هـ ٤ ح × جـ ٣
٦ . ب ×جـ ٣ جـ ٥
٧ . ف ـ هـ ٣ ف ـ ز ٧
٨ . ف ـ جـ ٤ ت
٩ . ح ـ هـ ٢ ح ـ جـ ٦
١٠ . ت ف ـ ز ٤
١١ . و ٣ ح ـ أ ٥
١٢ . ف ـ د٣ جـ × د ٤
(تجنباً للمبادلة)
١٣ . جـ × د ٤ ف ـ هـ ٦
١٤ . و ـ أ٤ أ ٦
١٥ . و ـ ب ٤ ح ـ جـ ٦
١٦ . و ـ ب٢ (لحماية د٤) ح ـ هـ ٥
١٧ . د × هـ ٥ و× د ٣
١٨ . م ـ و٢ ر أ ـ جـ ٨
(لحماية القطعتين)
١٩ . ر (ف) ـ جـ ١ و ـ د ٧
٢٠ . أ٤ ب ٥
٢١ . أ×ب٥ ر× جـ ١
٢٢ . ر×جـ ١ أ× ب ٥
٢٣ . ر ـ جـ ٥ ف ـ جـ ٤
٢٤ . ح ـ د ٤ ر ـ أ ٨ !
٢٥ . م ـ ز ٣ ر ـ أ ٢
(تجنباً للمخاطر)
٢٦ : و ـ جـ ٣ حـ ٥
٢٧ . حـ ٣ ف ـ و ١
٢٨ . ح ـ جـ ٢ و ـ د ١
٢٩ . و ـ هـ ١ و ـ د ٣
٣٠ . ف ـ د ٤ حـ ٤
٣١ . م ـ حـ ٢ ب ٤ ؟ (ضعيفة)
٣٢ . ر ـ جـ ٨ ! (رائعة) ف ـ و ٨
٣٣ . و× حـ ٤ ! و ٦ (مضطراً)
٣٤ . هـ ٦ ! يستسلم (لماذا ياترى ؟)
(انظر الشكل) □■□

الفائزون في مسابقة الشطرنج العدد رقم ٣٦٣ فبراير ١٩٨٩

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ . فتحي مختار العكرون ـ طرابلس/ليبيا
٢ . بابا عمر رمضان ـ غرداية/الجزائر
٣ . فرج الله مراني ـ حلب/سوريا
٤ . سمير أنور علي ـ المصورة/ج . م . ع
٥ . زينب عبد اللاوي ـ سبيطلة/تونس

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ . خالد فهد المعجل ـ السعودية/الدمام
٢ . محمد أبو بكر شريف ـ ابو ظبي/الامارات
٣ . منى فايز النمري ـ عمان/الاردن
٤ . عبد الحفيظ عمر سالم ـ عدن/اليمن الديمقراطي
٥ . منال محمد أحمد ـ الفروانية/الكويت

حل مسألة العدد (٣٦٤) ـ مارس ١٩٨٩م

١ . و ـ حـ ٨ + م × حـ ٨ ٢ . ف ـ هـ ٦ + بالكشف (مات)
إذا ا ـ .... م ـ و ٧ ٢ . ح ـ د ٥ + بالكشف (مات)

حوار القراء

العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

«العربي» تنير لنا المستقبل



الاستاذ الدكتور رئيس التحرير .

● اطلعت على «العربي» عدد رقم ٣٦١ لشهر ديسمبر ، وسعدت بما تحتويه المجلة من موضوعات مهمة لتثقيف القارىء العربي ، وتنشيط حركتنا الفكرية والثقافية ، على الرغم مما نعانيه من الأمية في بعض بقاع وطننا العربي .

فلم يعد مقبولا ونحن في نهاية القرن العشرين أن نفخر بحصول علم من أعلامنا على الجائزة العالمية (نوبل للآداب) في الوقت الذي يظل محو الأمية أمنية من الأمنيات الطيبة ، وأنا هنا لا أتحدث فقط عن أمية القراءة والكتابة ، لكن أقصد أيضا أمية الكثيرين من أبنائنا المتعلمين الذين قللوا من قيمة الثقافة العربية ، وتهافتوا على الثراء المادي .

فهناك دول كثيرة قد قضت على الأمية ، مثل روسيا ، واستطلاع المجلة عن جورجيا السوفيتية احتوى على العديد من المعلومات التي أفادت قارىء «العربي» ، فقد استطاعت أن تفتح عيوننا على الجديد في العالم . وتكاملت أدوارها فيما تنشره ، فهى تفهم الحاضر وتتطلع إلى المستقبل في وقت لا تنسى فيه الماضي .

بل تتنبأ بوضع رؤية ثقافية مستقبلة ، وهذا أمر يعد غاية في الأهمية ، فهو الطريق للنجاح .

القارىء : يحيى السيد النجار
دمياط : جمهورية مصر العربية

□■□

العربي في أمريكا

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● لا يسعني وأنا أكتب هذه الرسالة ، من بلاد الغرب البعيدة ، إلا أن أعبر لكم عن عظيم تقديري لمجلتكم المتميزة التي بدأت تصل بانتظام بعد انقطاع . كان مزعجا جدا لي ، وليس لي فقط ، بل لجميع من يشاركني قراءة «العربي» من متكلمي العربية في لوس انجلوس ، حيث إنها نسخة واحدة تصلنا ، لكنها تعني الكثير لكثيرين مثلي يعشقون قراءة «المجلة» منذ نعومة أظافرهم .

وأود بالمناسبة أن أبدي إعجابي الشديد بالمقالة الافتتاحية (حديث

الشهر) ، والطريقة االتي تعالج بها المواضيع التي تهم المواطن العربي ، والمراجعات لبعض الكتب الأجنبية المهمة ، كما أنني عند تجوالي بين الجاليات العربية في الولايات المتحدة ، أجد صدى واسعا لدى قراء «العربي» حول المواضيع التي تنشر ، والتي تربطهم بوطنهم الأم ، وتزيد معلوماتهم عن أقطار عربية ، ربما يجدون صعوبة - نتيجة لظروف مختلفة - لزيارتها ، فالمجلة تمثل أهمية كبرى للعرب المثقفين هنا ، والمحبين لمتابعة أخبار أقطارنا العربية .

فشكرا لكم نيابة عن جميع أبناء الجالية العربية في الولايات المتحدة الذين يقرءون «العربي» بشغف ، وإلى الأمام بمهمتكم ، وفقكم الله لمتابعة هذه الرسالة .

القارئة : ميرنا حزينة
لوس انجلوس/ الولايات المتحدة
الامريكيــــــة

□■□

هيرودتس مؤرخا وجغرافيا

● لقد قرأت في عدد ديسمبر (٣٦١) ١٩٨٨ من «العربي» ، في باب حوار القراء ، سؤالا من القارىء سالم الطيب ، يستفسر فيه عما ورد في مقال الدكتور عصام سامي الخالدي في العدد ٣٥٨ لشهر سبتمبر حول حقيقة المؤرخ اليوناني هيرودتس ، وهل هو طبيب أيضا حسب ماورد في هذا المقال وبمراجعتي بعض المراجع المهمة في الموضوع ، مثل «قصة الحضارة اليونانية» للمؤرخ المعاصر «ول ديورانت» ، ترجمة محمد بدران ، وجدت أن حقيقة الأمر هي أن هيرودتس كان مؤرخا شهيرا وجغرافيا أيضا ، ولم يكن طبيبا على الإطلاق . أما المقصود في مقال الدكتور الخالدي فهو الطبيب هيرودكس ، فقد كان أستاذاً للطبيب الشهير أبيقراط ، وقد وضع أسس المعالجة بالغذاء والرياضة ، بدلا من الأدوية . وجميعهم عاشوا في الحقبة الزمنية نفسها ، أو فيما يسمى عصر بركليس .

القارىء : وليد خالد عثمان
حمص - سوريا

حوار القراء

العرب وغزو الفضاء



الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

تحية طيبة

● قرأت في العدد ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ موضوعا حول كتاب «أسرار الفضاء» للمهندس سعد شعبان ، عرض وتقديم (رءوف وصفي) ، ذكر فيه - في فقرة العرب وقضية الفضاء - أن التاريخ سيشهد أنه في عام ١٩٨٥ لحق العرب بركب تقنية الفضاء عن طريق انطلاق القمر العربي للاتصالات ، ومشاركة الأمير سلطان بن عبدالعزيز في رحلة مكوك الفضاء الامريكي ، وأنه كان أول رائد فضاء عربي . وقد أغفل المهندس سعد شعبان في كتابه ، حسبما جاء في عرض الكتاب وتقديمه في المجلة ، ذكر رحلة مهمة مشتركة للفضاء شارك فيها رائد الفضاء العربي السوري محمد فارس زملاء طاقم من الاتحاد السوفيتي في ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٨٧ . وكنت أتمنى أن يسلط الضوء على هذه الرحلة ، كي يتعرف العرب على منجزاتهم العلمية . فقد خطا العرب خطوات واسعة في مجال التطور ومجاراة الحضارة الغربية حتى في الفضاء .

القارىء : سامر فاخوري

حلب - سوريا

□■□

آراء حول مقال «المسلمون المعاصرون»

تعليقا على المقال المنشور في العدد ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ بعنوان «المسلمون المعاصرون وثقافة الغرب» وردت للمجلة رسائل كثيرة ننشر بعضها لإثراء النقاش ، ولأهمية الموضوع المطروح على المثقفين العرب ، ولتعارض الآراء حوله .

الرسالة الأولى :

● وأنا أقرأ «العربي» ، فخر كل عربي ، طالعني مقال د . فؤاد زكريا ، وأنه بحق ممتاز بما فيه من توضيح لملامح ثقافتنا العربية والإسلامية ، لي ولكثيرين من الشباب العرب أمثالي في هذه الأيام خاصة ، لمواجهة تأثير الثقافة الغربية على تراثنا الإسلامي ، والتيارات الوافدة علينا ، خصوصا ونحن معرضون لحرب من الغرب ، كالتبشير وبث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية عن طريق نشر لغات كالانجليزية والفرنسية لإعلاء شأنها وشأن اللهجات الإقليمية في محاولة لحجب اللغة

العربية ، مما يؤدي إلى فقد بعض الخصائص العربية والاسلامية ، لتحل محلها الخصائص الغربية ، وهذا واضح في النظم الدراسية في جميع مراحل التعليم ، وفي إعطاء اللغات الأجنبية أهمية على حساب اللغة العربية ، ودخول بعض الكلمات إلى لغتنا العربية . والاستشراق هو أحد المصانع الأساسية لمخططات السيطرة علينا .

القارىء : **محمد مصطفى عبدالسلام**
كفر الشيخ - جمهورية مصر العربية

الرسالة الثانية :

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● قرأت مقال الدكتور فؤاد زكريا ، وتعقيبي عليه هو أن الحضارة الغربية - كما يراها الدكتور زكريا في جميع مقالاته ودراساته - دائمة التغير ، تتخذ كل يوم موقفا جديدا ، تفاجئنا دائما بتحولات وثورات غير متوقعة في ميادين العلم والفكر والأدب .

لقد أشار الدكتور زكريا في مقاله إلى أن المدّ الاستعماري الجارف في القرن الماضي سببه الرئيسي التوسع الاقتصادي المترتب على الثورة الصناعية في أوربا ، وحاجة البلاد الصناعية الكبرى إلى مواد خام ، وإلى أسواق لتصريف منتجاتها ، ولا علاقة لنظرية التطور والارتقاء بهذا الاستعمار ، وهذا الرأى لا يمثل الحقيقة ولا يعبر عن الواقع . فقد فات الكاتب في غمرة دفاعه عن نظرية التطور والارتقاء ، وبيان موقف الاسلاميين المعاصرين فيها ، أن يبين لنا أن الاستعمار مسئول عن التخلف المعاصر الذي تعيشه مجتمعاتنا الإسلامية ، لأن كل البلدان المسماة «المتخلفة» في العالم يجرى استغلالها من قبل بلدان أخرى ، والتخلف الذي يقلق العالم اليوم هو نتاج استغلال رأسمالي امبريالي استعماري ، وقد كانت المجتمعات الافريقية والأسيوية تنمو بشكل مستقل ، حتى سيطرت عليها الرأسمالية سيطرة مباشرة أو غير مباشرة . عندما حدث ذلك ازداد الاستغلال وأعقبه أيضا تصدير الفائض ، الأمر الذي جرد تلك المجتمعات من ثمار مواردها الطبيعية وثمار العمل . ويمثل ذلك جزءاً لا يتجزأ من التخلف بمعناه المعاصر .

محمد فؤاد محمد على
القليوبية - جمهورية مصر العربية

□■□

اسم على مسمى

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● لقد وصلنا العدد ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ من مجلتكم «العربي» ، وكان كما توقعنا ، اسما على مسمى ، فقد حفل بالمواضيع الشيقة الهادفة التي قلما نشاهدها في بقية المجلات ، وقد حرصنا على متابعة مقالاتها دون أن نترك

حوار القراء

صفحة واحدة ، آملين أن يستمر عطاؤكم الفياض ، وأن يتواصل الفكر العربي المعاصر والمعلومات العلمية والثقافية والاستطلاعات القيمة بهذه المجلة العملاقة التي من النادر أن نرى مثلها في الوطن العربي .

القارىء : مشعل الجابر
طهران - ايران

□■□

الموشحات حلبية أم حمصية ؟

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● في العدد رقم ٣٦١ ديسمبر ١٩٨٨ نشرتم موضوعا مهما ، وهو (الموشحات والقدود حلبية أم حمصية) للدكتور عمر موسى باشا ، وقد ذكر فيه أن هذه الموشحات التي نسمعها أكثرها من تأليف الشاعر الحمصي أمين الجندي . وقد أعجبني الموضوع المهم ، ولفت نظري إليه ، فحبذا لو توسعتم في الشرح عن هذا الشاعر الكبير وعن حياته وأهم مؤلفاته ، شاكرا اهتمامكم .

القارىء : أحمد جمال الدين ابو زيد
حلب - سوريا

□■□

اقتراحات وردود

● القارىء : **محمد صغير نشيت** - من الحديدة ، بالجمهورية العربية اليمنية - يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع مصور عن مدينته الجميلة التي تقع على البحر الأحمر .

● القارىء : **شعبان حجاج** - من المدينة المنورة ، بالمملكة العربية السعودية - يقترح أن تعرض المجلة نبذة في كل عدد ، تحتوي على تعريف بمجال تخصص كل كاتب ينشر في المجلة ، ومكان نشأته ونشاطاته المختلفة . ونحن في المجلة نقدم نبذة قصيرة عن الكتّاب الذين ينشرون في المجلة للمرة الأولى .

● القارىء : **الحاج سالم عبيد الهاجري النهدى** - من جاكرتا ، اندونيسيا - بعث يشكر المجلة على جهودها الطيبة في نشر الثقافة العربية الإسلامية ، ويقترح زيادة كمية المعلومات والموضوعات المتعلقة بالقضايا السياسية ، وبخاصة ما يتعلق بقضية الصراع العربي - « الاسرائيلي » .

● القارىء : **ابراهيم محمد العيسى** - من حلب - سوريا يشيد بالعدد الممتاز ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ ، ويقول : إن الاستطلاع عن شعب التحديات ، الشعب الفيتنامي البطل الذي كافح وناضل دون هوادة من أجل الحرية والاستقلال ، جميل وشامل وغني بالمعلومات المفيدة ، لأننا لم نكن نعلم عنها وعن شعبها إلا القليل قبل الاطلاع عليه ، وبخاصة أن «العربي» أول مطبوعة عربية تقع عليها عيني ، تزور هذه المناطق الجميلة . ويثني على من قام بالاستطلاع .

● القارىء : **صلاح سالم عبود الجابري** - من حضرموت ، بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية - يشكو قلة مايصل من أعداد «المجلة» ، وأنها تنفد بسرعة . ويطالب بزيادة الكمية ، كما يقترح قيام المجلة باستطلاع عن جزر المالديف ، لكي يتعرف القراء على وضع المسلمين هناك ونشاطاتهم .

● القارىء : **متوكل سيقور عبدالرحيم** - من جوغو ، بجمهورية بنين الشعبية «غرب أفريقيا» - يقترح أن تفتح المجلة مكاتب لتوزيع مطبوعاتها ، ليقطف القارىء في أفريقيا من ثمارها الحلوة ، وأساليبها السامية ، كبقية المسلمين على حد تعبيره . □

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت
مايو ١٩٨٩ م

الاتجاهات التعصبية

تأليف
د. معتز سيد عبد الله

٥٠٠ فلس
الكتاب ١٣٧

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

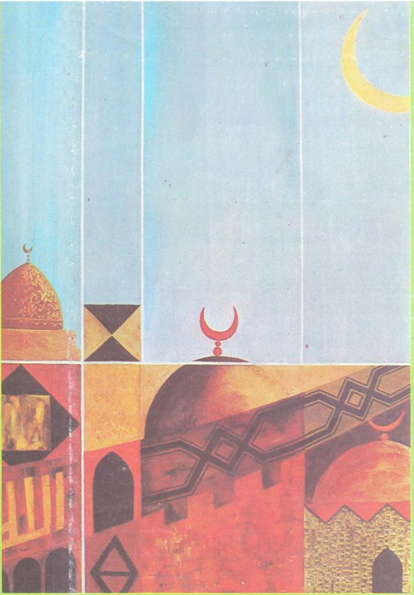
من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٣٦ أول مايو ١٩٨٩

ملكة الليل
في بحر جري

تأليف : يان سولوفيتش
ترجمة وتقديم : د. محمد العليمي
مراجعة : د. فوزي عطية



هلال العيد

للفنان السوري رفيق اللحام

شوال ١٤٠٩ هـ - يونيو (حزيران) ١٩٨٩ م

العربي



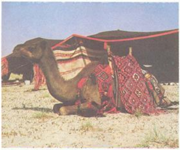
■ آخر أيام البادية الأردنية

■ مسلمو بريطانيا مواطنون أم مغتربون؟

■ الأموال المهربة من بلاد الفقراء!

■ من غرائب "المكتوبجي"!







رولكس ديت جست، ذاتية الملء، من الذهب الأصفر عيار ١٨ قيراطًا.

في الصَّحرَاء، قليلة هيَ الأشياء التي يمكِن الاعتماد عليهَا. في تلك الأماكن القاحِلة قليلة الماء والكلأ، يُعتبر الجَمَل من الضروريَات التي لايُمكن الاستغناء عنهَا. وهوَ رَمزٌ حيٌ لقدرَة التحمّل والصّبر في حَرارة الصّحاري اللاهبة أثناء النهَار، والبَاردة جدًا أثناء الليل.

من دلائل أهميّة الجَمَل بالنسبَة للعَرب، انه كان الوحدة التي بهَا يقاس مَهر العَروس أو ديّة القتيل. يُضاف لذلك أهميّته من ناحيَة الغذاء، الاستفادة من الحَليب واللحم. وفي الكسَاء، وَبر الجَمَل.

لِتلك الأماكِن من العَالم، حَيث الاستمرار والحياة هُمَا دائمًا للقويّ كثير التحمّل، أنتجَت رولكس سَاعة قويّة كثيرة التحمّل مِن الذهَب الصّافي عيار ١٨ قيراطًا أو مِن الفولاذ الذي لا يَصدأ.

سَاعة لا يَدخلها الغبَار أو الرّمال إطلاقًا وذلك بفضل علبَة الأويستر المصنوعة على مَبدأ المحارة، وقِفل السّلامة الخارجي المثبّت بطريقة ملوّلبة وبإحكام على هَيكل السّاعة. حَركة السّاعة المصنوعة قطعة قطعَة يَدويًا ومُجمّعة بكل إتقان ودقّة، لا تتأثّر إطلاقًا بالرّطوبة أو الماء أو التغيير المفاجئ للحرارة.

ROLEX

رولكس

العـــدد ٣٦٧ الســنة الثانية والثلاثون يونيــو ١٩٨٩

العربي

مجـلة ثقــافيــة مصــورة
تصـدرشهــريًا عــن وزارة الإعـلام بـدولـة الكويـت
للوطـن العـربي ولكل قــارئ للعــربيــة فـي العـالــم

رئـيـس التحــريـر
د. محمّــــد الرميـّـــحي

AL - ARABI
Issue No. 367 June 1989 - P.O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information .
State OF Kuwait.

عنـــوان المجـلة
العـــــربي
ص.ب: ٧٤٨ - الصفـــاة
الرمز البريدي 13008 الكويت
تلفون: ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيًا: "العربي" - الكويت
تلفون فاكسملي: ٢٤٢٤٣٧٥ - تلكس: MITR. 44041 KT
المراسلات باسم رئيس التحرير

الاعلانات يتفق عليها مع الإدارة - قسم الاعلانات

الاشتراكات تُرسَل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - الإعلام الخارجي
وزارة الإعلام - ص.ب: ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة
مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

ثمن النسخة

الكويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسًا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا: جنيه استرليني ونصف
مصر ٣٥ قرشًا	سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ٢٥ فرنكًا
السودان ٢٥ قرشًا	لبنان ٥٠ ليرة	أمريكا ٣ دولارات

محتويات العدد

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

سياسة واقتصاد :

استطلاعات مصورة :

طب وعلوم :



● عن النسور والعقبان ... ص ١٥٦



أدب وفنون :

منتدى العربي :



تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :



صورة الغلاف

عندما تزوز بادية الأردن ... ستسير على خطين متوازيين، التاريخ بأحداثه وآثاره متواز مع البادية بإنسانها وخيامها ومراعيها. وكان علينا التعرف على الأرض والانسان في البادية التي تشكل ثلثي مساحة الأردن.

(طالع الاستطلاع ص١٣٢)

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

زمن الحصار

من علامات الحصار التي طوقت العمل الثقافي العربي - مثله مثل أي نشاط إنساني آخر - لجوء كثير من المثقفين والكتاب الى تمجيد الماضي، دون تمحيص ونقد، والإقلال من الالتفات إلى الحاضر والمستقبل. ووعياً من «العربي» بهذا الأمر، أخذت على عاتقها مناقشة هموم الحاضر والمستقبل وقضاياهما دون إغفال لماضٍ نحن نتاجه. هذه المناقشة ليست نظرية فحسب، وإنما عملية تطبيقية، تمثلت في العناية بالنتاج الفكري لشخصيات مهمة، تعيش بيننا، والالتفات الى مبدعينا، وكتابنا، ومفكرينا، والاهتمام بنتاجاتهم عرضاً ونقداً ومتابعة وتعريفاً.

ولقد فقدنا في الفترة الأخيرة مجموعة من خيرة الكتاب الذين أثروا «العربي» وقراءها بإبداعاتهم النيرة، مثل الأساتذة: فتحي رضوان، نعمان عاشور، انجي أفلاطون، توفيق يوسف عواد، وكان بعض هؤلاء قد نشر آخر إنتاجه في «العربي». المبدع الأخير في القائمة توفيق يوسف عواد، من رواد كتابة القصة في الوطن العربي، فقدناه بطريقة مأساوية في لبنان، عندما سقطت قذيفة عمياء على المنزل الذي يقطن فيه، في هذه الحرب اللبنانية الشرسة الهوجاء التي آن لمدافعها أن تصمت. وفي هذا الاطار ننشر في هذا العدد بجانب حديث الشهر الذي كرسناه للحديث عن لبنان، موضوعا آخر عن أسرار الفتنة الطائفية في بلاد الشام في القرن الماضي، كتبه الدكتور أسعد الاسطواني.

ويشارك المبدعون العرب في وجبة هذا الشهر من «العربي» بانتاج متنوع غني، فيه الطريف والغريب، كموضوع «غرائب المكتوبجي» لشريف الراس، وفيه الجاد والمحزن في الوقت نفسه كموضوع د. رمزي زكي عن «الأموال المهربة من بلاد الفقراء»، وموضوع تجربة محمد علي التحديثية في مصر للدكتور أحمد عُلبي، ويكتب لنا الدكتور محمد رشاد الطوبي عن طبيعة النسور والعقبان.

ويصحبك هذا العدد باستطلاعي «العربي» الى مناقشة فكرتين مهمتين، من خلال زيارة المكان ومعالمه، فالأول في بريطانيا، حيث تحاول «العربي» الاقتراب من عالم المسلمين هناك، همومهم وحياتهم وتجمعاتهم وانتماءاتهم، لتتساءل معا: هل هم مواطنون أم غرباء؟ بينما يذهب بنا الاستطلاع الثاني الى البادية الأردنية، لنتابع السعي لاستجلاء تحضر البادية وملامح تطورها.

وأنت تقرأ هذا العدد عزيزي القارىء، ستحصد جهدا وزرعا، استغرق منا وقتا وأعصابا، لنعد لك عدداً جديدا، نرجو أن يكون قد حقق تطورا للأمام. مهما كان جهدنا، ومهما كانت أحزاننا على واقعنا المعاصر، وعلى المبدعين الذين يرحلون عنا. فالرحمة لهم، وإلى العدد □

المحـــــــرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

في لبنان المعذب :
علينا أن نقتلع شوكنا بأيدينا

لا أستطيع أن أنسى وأنا أكتب هذا الحديث مجموعة من صور العذاب في لبنان ، من بينها صورة لاتبرح الذاكرة ، وأحسبها لن تبرح ذاكرتي فترة طويلة ، الصورة لطفلة لم تتجاوز السابعة من عمرها ، تضع رجلا فوق رجل ، وهي جالسة على سرير في مستشفى ، إحدى قدميها مقطوعة ، ومغلفة بشاش أبيض ، ظهرت عليه بقع دم حمراء ، والطفلة تبتسم بعناء ، وقد لاتعرف في هذه السن المبكرة معنى تلك العاهة الدائمة ، ولكنها ستبقى معها ما عاشت بعد ذلك . هذه الصورة من عشرات ، بل مئات الصور التي شاهدناها ونشاهدها كل يوم منقولة من لبنان المعذب ، وأينما نلتفت نجد خبرا أو مقالا عن لبنان ، ويضج اللبنانيون بالحيرة والألم ، وتسير الحرب الأهلية هناك بكل خصائصها وسوآتها ، كأن أحدا لايسمع ، وكأن أحدا لايرى .



* لبنان : بشرية معذبة

■ مازالت كثير منا لايقرأ ، وقليل من القراء لدينا يفهمون جذور الأزمة اللبنانية!

في محاولة ايجاد مخارج لهذه المعضلة المستمرة ، وايجاد حلول منطقية لحرب أهلية غير منطقية ، تدخل عامها الخامس عشر ، يقف كثير من الرجال ذوي الخبرة والشأن بعيدين مترددين عن الولوج في هذا الخضم السياسي ، فللحرب ذيول وآلام ، لايمكن أن يتحملها بشر ، وقلوب العرب - كل العرب - تتقطع يوميا وهي تسمع وتشاهد مايحل بلبنان ، هذا البلد الذي كنا ننعته بطائر الفينيق الذي ينبعث من رماده منذ سنوات قليلة ، والذي كان كثير منا يحلم « بمرقد عنزة » على ثراه ، يتحول الى جحيم حرب ، وينتقل من واحة غناء وبلد ساحر ، الى ساحة دمار شرس ، لايوفر الطفل أو المرأة أو العجوز ، فالمواطن اللبناني اليوم - من رجل وامرأة وطفل - إما قتل ، واستراح ، أو أنه جريح أو معاق أو مهجر في وطنه ، أو هائم على وجهه في بقاع الأرض المترامية . بلد الفرص الاقتصادية المتاحة للثراء أصبح اقتصاده شبه منهار ، وبلد التعايش سقط في براثن الحقد الأعمى .

لقد تغير كل شيء في لبنان خلال الخمس عشرة سنة الماضية ، تغيرت التحالفات واختلفت وتناقضت ، وأطلقت عشرات المبادرات ، وفشلت أو أُفشلت ، ومات بعدها وعانى عشرات الألوف من اللبنانيين

■ إن فشلت الجهود العربية في لبنان تعرض الأمن العربي كله للخطر

وغيرهم ، والذي لم يتغير في لبنان حتى الساعة هو حقيقة واحدة ، ألا وهي استمرار الحرب الأهلية ، واستمرار معاناة المواطن العادي الذي دفع - ومايزال يدفع - ثمنا باهظا لهذه الحياة ، أو قل للمخاطرة بهذه الحياة ، إن كان في المخابىء ، أو في الطرقات وهو يركض لتأمين لقمة الخبز لعياله ، أو الموت البطيء في المنافي والمهاجر .

لقد دخل اللبنانيون التاريخ من أكثر من باب ، ولكن أبشع تلك الأبواب حربهم الأهلية هذه ، فقد قامت الحروب الأهلية التي عرفها التاريخ الحديث منذ الحرب الأهلية الامريكية في القرن الماضي ، مرورا بالحرب الأهلية الاسبانية ، والحرب الأهلية في روسيا بعد الثورة البلشفية ، وكذلك في الصين في منتصف هذا القرن ، وقامت حروب عديدة في العالم الثالث : في كوبا ونيكاراجوا والسلفادور في أمريكا الجنوبية ، وفي نيجيريا وزائير في افريقيا ، وباكستان وكمبوديا في آسيا ، وايرلندا الشمالية وقبرص في أوربا . وكل تلك الحروب لم تصل الى هذه الدرجة من الشقاء ، والشقاق الطائفي والعائلي والاقتصادي والاجتماعي والجغرافي والنفسي ، على مساحة صغيرة ، لاتتعدى ١٠٤٥٢ كم٢ ، وفي مجتمع يضم فقط ثلاثة ملايين ونيف من البشر ، وعلى هذه الدرجة - أو كان على هذه الدرجة - من مظاهر التقدم المدني والازدهار الاقتصادي . وهذا الأمر يعود - حسب اعتقادنا - إلى عجز الانسان في لبنان عن التصدي الحقيقي لمشاكله وحلها الحل الأوفق .

الإرادة العربية :

قضية في مثل هذا التعقيد تحتاج الى قلوب وعقول كبيرة لاحتوائها ، ومحاولة فتح قنوات سليمة وسلمية ، كي يتصاعد البخار قبل أن ينفجر القِدْر بما فيه وعلى من حوله . وهنا يجب أن نُذَكِّر - بكل العرفان - بالجهود العربية التي ما أن انزاح عنها خطر الأخطار ، وهو حرب الخليج ، وصمتت المدافع هناك حتى التفتت الى لبنان ، تتلمس مخرجا لمساعدة مواطنيه ، للخروج من هذا النفق الشرير الذي امتد على مساحة من الزمن . دخل منذ فترة سنته الخامسة عشرة . فمنذ مطلع هذا العام ، وبعد اجتماع وزراء الخارجية العرب في الثاني عشر من يناير المنصرم الذي تم فيه الاتفاق على تشكيل لجنة عربية سداسية ، أنيط بها الاتصال والاستماع ، ثم تقديم تقرير عن الحل الذي يمكن تطبيقه في لبنان للمساعدة على الوصول الى وفاق وطني لبناني ، وتحقيقا لهذا الغرض قامت هذه اللجنة بعقد اجتماعات عديدة ، واتصلت



بالرئاسات اللبنانية السياسية منها والروحية ، وبممثلي الأحزاب والفئات المختلفة* وقد قدر أن يكون رئيسها الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح ، نائب رئيس الوزراء ، وزير الخارجية الكويتي الذي أعطاها من خبرته وقدرته التفاوضية الكثير، وأفادها تصميمه كذلك للوصول بها الى أهداف ملموسة، مرتكزا على ماللدبلوماسية الكويتية - عبر السنوات الماضية - من تجارب ناجحة في معالجة عدد من الأزمات العربية والاقليمية، والوصول بها الى ساحل الأمان .

ولقد كان لتلك الأسباب المتمثلة بشخصية الرئيس وخبرته ، وتراث الدبلوماسية الكويتية القائمة على الاتزان والتعقل والحوار ، أكبر الأثر في التوكيد على أن الخلافات العربية ماهي إلا ضعف للعرب وقوة لأعدائهم ، وأن التضامن العربي هو المظلة الأكثر أمانا والأفضل سبيلا .

* الشيخ صباح الأحمد : فيما صنعه سراوه

وهكذا سار الشيخ صباح الأحمد في الأشهر القليلة الماضية للتقليل من الاعتراضات ، ومحاولة تنمية التوافقات ، وطرح الخيارات المناسبة للمصلحة العامة ، معتمدا على رصيد داخلي واقليمي وعربي وعالمي من الامكانيات والعلاقات ، حتى لم يعد لبناني معني بالأمر إلا وتوقع خيرا ، وهكذا كان ، فصدرت قرارات مجلس وزراء الخارجية العرب في ٢٨ ابريل الماضي ، مما أعاد الثقة لفتح طريق الوفاق اللبناني . وبدأت قرارات الجامعة العربية تأخذ طريقها الى التنفيذ في لبنان وهي خطوات

* اللجنة مكونة من الكويت (رئيسا) ، وعضوية كل من الإمارات وتونس والأردن والسودان والجزائر، وكذلك الأمين العام للجامعة العربية.

افتقدناها منذ زمن طويل . ومهما كان هذا الطريق طويلا ومليئا بالشوك ، فعلينا أن نقتلع شوكنا بأيدينا ، ولاننتظر من أحد أن يفعل ذلك .



دروس جديدة في العلاقات الدولية :

لو كان الظرف ظرفا آخر ، والزمن زمنا آخر ، لحق لبعض الأطراف التوقع ، أو الأمل في تدخلات عالمية ، من قبل قوى كبيرة أو متوسطة في الشأن اللبناني ، ولكن الظرف والزمن مختلفان ، فعلى مدى الأربع عشرة سنة الماضية حاولت أكثر من قوة خارجية أن تتدخل في لبنان ، وسرعان ما احترقت أصابعها . تم ذلك من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا ، فقد حاولت كل على حدة ، أو بالاتفاق ، التدخل في الشأن اللبناني ، كما حاولت التدخل قوى دولية أخرى ، وإن لم يكن بشكل مباشر ، بل من وراء ستار ، إلا أن محاولاتها جميعها قد باءت بالفشل . فإذا ما أضفنا الى احتراق الاصابع الذي أصاب القوى الدولية مايشهده المسرح العالمي من انفراجات في أكثر من مكان ، ومن سياسات جديدة ، أدركنا أن الوصاية صعبة وشاقة ، على من يريد أن يفرضها ، وكذلك على من يعانيها ، بالإضافة الى التجارب الأخيرة التي أكدت أن التدخل بالقوة لايمكن أن يحل مشاكل سياسية ، عرقية ، طائفية ، ابتداءً من فيتنام ، مرورا بأفغانستان ، الى غرانادا وايرلندا الشمالية وتشاد وانجولا .



أضف الى ذلك الانفراجات التي سادت سماء الشرق الأوسط وغيره من مناطق التماس منذ فترة . ولعل أبرزها وقف الحرب العراقية الايرانية ، مروراً بالانسحاب السوفيتي من أفغانستان ، والتطورات الجارية على الساحة الفلسطينية بعد الانتفاضة المجيدة ، ونتائجها السياسية .

هذه الانفراجات - وبعضها ليس قليل النتائج والدروس - أشاعت جوا من التفاؤل العربي في انفراج أكبر ، على أصعدة كثيرة ، يمكنها أن تقودنا للعودة الى الأجواء الطبيعية ، وجزء من هذه الأجواء الطبيعية أن يقوم العرب بإحلال إرادتهم محل إرادات الآخرين ، وتقوم مؤسساتهم بدورها الفاعل المتوقع ، وهكذا كان . فمن خلال اللجنة السداسية المنبثقة عن الجامعة العربية ، بدأت الجهود المضنية لدراسة الوضع في لبنان ، وتقديم اقتراحات وحلول لتطويق الخلاف ، والبدء باتخاذ

■ إحلال إرادة العرب في حل مشاكلهم هو امتحان المرحلة

خطوات عملية في هذا المجال ، فلو تركت الأزمة اللبنانية تتفاعل دون هذا التدخل الحكيم ، لكان أمامنا طريقان ، لاثالث لهما ، يقودان الى النتيجة نفسها ، إما زيادة اقتتال اللبنانيين بشراسة أكبر ، يليها تدخل قوى اقليمية غير عربية ، من بينها « اسرائيل » ، أو يؤدي الاقتتال الى تدخل قوى كبرى ، لمساندة هذا الطرف اللبناني أو ذاك ، وتعريض المنطقة لدورة أخرى من التشابك العالمي ، وكلا الطريقين يؤديان الى تفاعل الصراعات ، وتطور الأزمات ، حتى تصيب بشرورها الأقربين والأبعدين من العرب ، مما يدخلنا في دوامة عدم الاستقرار من جديد .

لذلك فإن النتائج التي توصلت اليها اللجنة السداسية ، بجهد وإصرار من رجل سياسة له ميراث وثقل مثل صباح الأحمد ، قد فتحت آفاق الحلول ، على الرغم من العقبات والصعوبات الكأداء التي واجهت اللجنة ، مما يمكن أن يساعد على وقف هذا الاستنزاف من الموارد الاقتصادية والبشرية والمعنوية ، ويجنب المنطقة دورة أخرى من العنف والعنف المضاد ، فتدمير لبنان يعني تدميراً لصيغة تعايش في مجتمع تعددي ، لبنان مثاله ، لكنه ليس المثال الوحيد .

وفي السياسة الخارجية ـ كما استقر عليه علم السياسة ـ هناك حوافز وعقوبات . الحوافز هنا أن يذوق اللبنانيون ولبنان الرحمة والأمان ، والعقوبات أن يظل الاقتتال في لبنان سجالاً ينزف فيه لبنان وتنزف فيه الأمة العربية ويعرض الأمن القومي العربي للخطر الأكيد .

يبدأ بلبنان ولاينتهي فيه !

الحوار هو أحد الأبواب الرئيسية الذي يمكن أن يذوق لبنان من خلاله الرحمة .

فوجوب التحاور عند الاختلاف أحد المحاور الرئيسية المطروحة في عالمنا المعاصر ، والمطلوبة بخاصة في وطننا العربي ، والحوار على الاختلاف يبدأ بلبنان ولا ينتهي فيه ، سواء كان هذا الاختلاف مذهبياً أو طائفياً أو غير ذلك . وسيظل التحاور عند الاختلاف هو إحدى القضايا التي يتوجب علينا جميعاً أن نواجهها في السنوات القليلة القادمة .

■ سقوط لبنان "الوطن" لا يعوضه أي شيء وتمزيقه لا يبرر تحت أي ظرف

إن سقوط لبنان « الوطن » لا يعوضه شيء ، ولا يُبرر تحت أي ظرف أن يقوم أبناء الوطن الواحد بتدمير وطنهم ، بسبب عطب في نظامه السياسي ، فتلك جاهلية كبرى ، وذلك هو نتاج التجربة اللبنانية التي

نرى أثرها في عيون جميع المشردين اللبنانيين الذين يقول لسان حالهم عن القوى الكبرى - بعد تجربة مريرة - « إن رضوا عنك ما أفادوك وإن غضبوا عليك ما أضروك » . ولم يبق إلا الخيار العربي والجهد العربي ، فكانت اللجنة السداسية التي كونت رأيا عربيا ضاغطا باتجاه تحريك الموضوع اللبناني . لقد قال لي أحد اللبنانيين الخبراء ، وهو أستاذ في العلوم السياسية ، راقب عمل اللجنة العربية عن كثب : إن صباح الأحمد يريد اختصار المراحل من أجل وفاق اللبنانيين ، فهو مرن ، منفتح ، طبيعي ، صادق ، وما الهجوم على اللجنة وعلى حركتها السريعة من بعض الأطراف إلا دليل على أن الدواء العربي الذي يقدمه رئيسها هو الدواء الناجع .

إن نجاح اللجنة السداسية نجاح للعمل العربي المشترك الموحد ، وقد كان فشلها - لا سمح الله - سيؤدي الى نتائج وخيمة ، ربما لا تقتصر على لبنان وحده ، لكنها ستؤثر حتماً حتى على الانجازات السياسية التي تم تحقيقها على صعيد القضية الفلسطينية .

لقد حققت اللجنة السداسية هدفا مهما ، هو وضع الإشكال اللبناني على جدول الأعمال العربي ، ثم العالمي ، بعد أن كان الجميع ينظرون الى اقتتال الإخوة هناك نظرة لا مبالية باردة . وأعطت اللبنانيين أملا كبيرا في تحقيق الوفاق في الأيام القادمة ، والمطلوب الآن أن يقوم اللبنانيون بإعادة اكتشاف أنفسهم ، وعليهم قبل كل شيء أن يجروا عملية نقد ذاتي ، بدلا من توجيه النقد الى الآخرين ، أو نقد بعضهم بعضا .

المستجدات اللبنانية :

مفردات الأزمة اللبنانية - بتاريخها الحديث والقديم - موضوع معاد ، فمنذ الحرب الأهلية في منتصف القرن الماضي تقريبا (حرب ١٨٤٠ - ١٨٦٠) ، مرورا بالاستقلال والميثاق الوطني ولبنان الكبير ، وعطفا على التدخلات الفرنسية والبريطانية والامريكية و « الاسرائيلية » أخيرا ، وكذلك المداخلات الاقليمية ، كل ذلك مكتوب وموثق ، شبع من قرأ عن لبنان أو اهتم بتاريخه من متابعة تفاصيله ، إلا أن مستجدات الساحة اللبنانية هي الأهم والأكثر لفتا للأنظار ، وهذه المستجدات لا تبدأ - كما يعتقد بعضهم - بحادث « الباص » الأشهر في ابريل ١٩٧٥ ، فلقد فوجيء الكثيرون بهذا الحادث ، وما تلاه من تفجر لأزمة تداخلت فيها قوى كثيرة . ولكن بذور الأزمة كانت أقدم من ذلك .



■ افتقاد فضيلة الحوار بين القوى الاجتماعية يدفع بالأوطان الى الهاوية

صحيح أن الأسباب المباشرة لتفجر الحرب الأهلية كانت ذاك الحادث ، وصحيح أن هناك عوامل إقليمية (خارجية) ، ساعدت على هذا التفجر ، إلا أن الصحيح أيضا أن هناك عوامل داخلية ، لو لم تكن موجودة ، لما حدث ما حدث في لبنان ، أو على الأقل لما حدث بهذا العنف الشرس ، ولما استمر كل هذا الزمن الطويل . إن العوامل الداخلية الرئيسية التي أدت الى الانفجار تتمثل في قصور النظام السياسي اللبناني للتواؤم مع المستجدات الاجتماعية في لبنان ، في بلاد تتكون من سبع عشرة طائفة ، سبع منها رئيسية ، يتراوح تمثيلها النسبي بين ٢٩٪ الى ٤٪ من مجموع السكان (تقريبا) .

لقد كان قصور ذاك النظام السياسي عن احتواء المتغيرات والمستجدات ، والمواءمة بين القديم والجديد ، محط تحذير لكثير من العالمين ببواطن الأمور من الكتّاب ، ولقد كان كتّاب مثل : وجيه كوثراني ، ايليا حريق ، غسان سلامة ، مهدي عامل ، (د . حسن حمدان) ، وآخرين في قائمة طويلة ، لهم السبق في التحذير ، وكانت قراءاتهم لواقع ما كان عليه لبنان تدعوهم لدق ناقوس الخطر ، والتحذير من الانفجار القادم ، دون جدوى حقيقية . وما زال كثير منا لا يقرأ ، وقليل من القراء لدينا يفهمون . واحد من الذين كتبوا بتوسع عن هذا الموضوع هو مايكل هدسون ، أستاذ العلوم السياسية في جامعة جورج تاون في واشنطن الذي أصدر دراسة قبل عشر سنوات من الانفجار المروع تقريبا (١٩٦٨ م) ، وسماها (لبنان : الجمهورية الهشة) *

فقد لاحظ هدسون أن النظام السياسي في لبنان ينطوي على تعدد غير صحي من اصحاب الأدوار السياسية (أكثر من رأس)، في غياب الرأس القادر على السيطرة على النظام ككل، بمعنى غياب السلطة الشرعية التي تستطيع أن تفرض الرأي النهائي، إن قام خلاف حاد بين الاطراف المعنية فيه، بوسائل فعالة، وتكون قراراتها مقبولة لمعظم الفئات. لقد كان للبنان نظام متعدد الرؤوس، كما لاحظ الكاتب، وذكر ايضا أن النظام السياسي اللبناني كان في حالة ركود، ولا يستوعب التطورات الاقتصادية والاجتماعية الجارية والمشاهدة، ونبه الى خطورة هذا النوع من عدم التوازن، حيث تبرز قوى اجتماعية جديدة، لا تجد لها تعبيراً سياسياً مناسباً داخل النظام، والنتيجة المنطقية لوضع كهذا أن

*** Michal Hudson, The Precarious Republic, Political Modernization in Lebanon, New York, 1968.**

■"أكلة الجبنة" الذين أجادوا التقاط الكستناء من النار بأصابع غيرهم

يتحول العمل السياسي الى مجموعات لا حصر لها من الضغوط، والضغوط المضادة، يؤدي استمرارها الى صراعات حادة تقود بعد ذلك للجوء الى القوة، وهكذا كان. ولم يكن مايكل هدسون وحده هو الذي توصل الى هذا التحليل، بل سبقه ولحقه بجانب من ذكرناهم آنفاً كتّاب مثل: حليم بركات، وعصام نعمان، وموريس الجميل، وفؤاد خوري، وآخرون من قائمة طويلة من الكتّاب والمثقفين اللبنانيين الذين لاحظوا تزايد ضعف حس المواطن اللبناني بالدولة، والهروب المتزايد من العمل السياسي الحديث في دولة مؤسسات، الى اللجوء لأحضان الطائفية والاقطاع السياسي. وحذروا بشدة من تجاهل الإصلاح السياسي والاجتماعي اكثر من اللازم، حتى لا تفوت الفرص!

هذا التلكؤ السياسي اللبناني، في ظل من سماهم الرئيس فؤاد شهاب (بأكلة الجبنة) من السياسيين التقليديين الذين أجادوا اخراج الكستناء من النار بأصابع الآخرين - كما يقول المثل الفرنسي - وفي ظل صيغة خاطئة للوفاق الوطني، كل ذلك قاد داخلياً الى هذا التفجر وهذا الاقتتال، وسيظل هذا القصور في النظام السياسي قائماً ماظلت فكرة سيطرة طائفة على بلد لا تأخذ في حسبانها مشاركة الطوائف الاخرى لها مشاركة حقيقية في السلطة والثروة، أي أن فكرة العدالة الاجتماعية لا تنحصر في التوزيع (المادي) للثروة وإنما تمتد الى التوزيع (المعنوي) للسلطة، أو بالأحرى مشاركة المواطنين على اختلافهم، لكونهم مواطنين لا غير في خيرات الوطن وفي إدارته.

ولكن المأزق الذي يواجهه اللبنانيون اليوم - بكل طوائفهم - هو حقيقة بسيطة، مفادها أنه بعد كل هذا الاقتتال فإن الرصاص والقنابل والتفجيرات في النهاية لا تأتي بحل مرض، بل قد تأتي بحل قاهر، لكنه ليس مرضياً، وقد تقبله بعض الأطراف الآن اضطراراً، ثم ينقلب الأمر إلى ضده اذا توافرت ظروف أخرى، وصفحات الحرب الاهلية اللبنانية، عندما تكتب بوعي، تشير الى النتيجة المنطقية الوحيدة، وهي أن هذا الشعب شعب واحد، وليس شعبين أو أكثر، ومصالحه واحدة، وان الوطن ضرورة، والطريق اليه هو الحوار، وإن قيل: إن تجربة التفاوض والتحاور لم تجد على الرغم من تكرارها، فالقول الأصح أنه حتى الحرب بالقصف المدفعي المتبادل لم تجد، على الرغم من تكرارها مرات كثيرة،



لذلك فالصبر في التحاور أفضل من الصبر على القنابل وتحطيم الوطن، فعلى اللبنانيين، بدلاً من لوم الآخرين، أن ينظروا في المرآة ليروا أنفسهم.

إدارة الأزمـــة :

لا يبدو أن الخلاف ذو بون واسع بين فئات اللبنانيين اليوم، فخطوات الإصلاح السياسي، واستيعاب المستجدات الاجتماعية، وإكمال المؤسسات الشرعية، كانتخاب رئيس الجمهورية ورئيس مجلس النواب وتعيين مجلس وزراء موحد، خطوات يبدو أن الجميع متفقون عليها من حيث المبدأ، ويكاد يجمع اللبنانيون على عدم العودة الى النظام القديم، فذلك يجب إصلاحه وتطويره، ولكن يبدو أن الخلاف هو على الاجابة عن سؤال (كيف، ومتى)، أي: كيف يحدث التطوير؟ ومتى؟

هناك بعض القلة من اللبنانيين الذين يرون أن النظام اللبناني السابق عادل ومعقول ولا داعي لتغييره، وهناك قلة أخرى، على الطرف الآخر، لا تطالب بتغيير النظام فحسب، بل بتغيير جوهر الصيغة أيضاً، إلا أن الأكثرية اللبنانية ترى أن التطوير مطلب ضروري للبنانيين، وقضية حتمية دون المساس بالصيغة، وبما أن الاختلاف على علة النظام واسع وشامل، فإن الاختلاف على وصف الدواء الناجع أيضاً واسع وشامل.

وتستوقفنا ثلاث محطات رئيسية في محاولات التطوير وحل الأزمة خلال الأربعة عشر عاما الماضية، وقد بحثت بالتفصيل بعض هذه المحطات في كتابات موسعة، لعل أشهرها ماكتبه غسان سلامة بهذا الخصوص. المحطة الأولى هي الوثيقة الدستورية سنة ١٩٧٦، وهي وثيقة تؤدي الى توافق الطوائف اللبنانية، فهي تكرس الرئاسات الثلاث: رئاسة الجمهورية لماروني، ورئاسة الوزراء لمسلم سني، ورئاسة مجلس النواب لمسلم شيعي، مع مناصفة في مقاعد مجلس النواب (الذي يتكون بنسبة ٦ : ٥ في النظام القديم لصالح المسيحيين) وكذلك انتخاب رئيس مجلس الوزراء من قبل المجلس النيابي، مع مجموعة من الخطوات الفرعية الأخرى التي تقود إلى إصلاح النظام.

■ في عقد التسعينيات مطلوب من العرب إيجاد حلول سلمية للتعددية الاجتماعية

المحطة الثانية في محاولات الوفاق الوطني اللبناني التي حدثت بعد ذلك بعشر سنوات تقريبا (١٩٨٥)، وقد سميت «الاتفاق الثلاثي» ووقع عليه قادة ثلاث (ميليشيات): الدروز، الشيعة، الموارنة، وقد مثل هذا الاتفاق الثلاثي طموحا أكبر من الوثيقة الدستورية، وهو في جوهره

يحاول أن يستبدل الصيغة الطائفية لصالح صيغة وطنية أكثر شمولا.

إلا أن كلا المحاولتين قد سقطتا، كل لأسباب مختلفة، والنتيجة المحزنة أنه بدءا من نهاية العام الماضي قد فرغت المؤسسات السياسية اللبنانية من رؤوس منتخبة شرعية، بدءا من رئيس الجمهورية، وانتهاء برئيس مجلس النواب - نظرا لاستيفائها الفترة الشرعية الدستورية لانتخابها - مرورا بوجود حكومتين، كل تدعي شرعيتها بشكل من الأشكال. وهكذا سقط لبنان في فراغ دستوري.

الفرصة الأخيرة:

أما المحطة الأخيرة للاصلاح وحل الأزمة فهي الجهود المبذولة في الأشهر الأخيرة من قبل اللجنة السداسية التي ما زالت في طور الانضاج والإثمار.

إن مقاومة الحل الوفاقي في لبنان اليوم مقاومة متعددة الأطراف والأشكال، فهي ليست بالسلاح فقط، بل إن هناك نوعين بارزين منها على الأقل، تتقاطع بينهما الخطوط: الأولى تتمثل في أن الحرب الأهلية قد أصبحت نظاماً في لبنان، له كل خصائص النظام وآلياته، فمن ولد عند انفجارها أشرف اليوم على الخامسة عشر من عمره، ومن كان ذا عشر سنوات أصبح في ريعان شبابه، وقد خلقت تلك الحرب الأهلية قواعدها وأنظمتها، كما قاوم (نظام) الحرب الأهلية مقاوميه بالعنف تارة، وبالحيلة تارة، وبالسياسة تارة ثالثة، أما المقاومة الثانية للحل الوفاقي التي خلقتها الحرب الأهلية فهي مقاومة بعض النفوس والعقول في لبنان لتسوية سياسية.

ولكن بعد كشف أوراق هاتين (المقاومتين) واستنفادها، فإن على اللبنانيين والعرب الآخرين التعامل معهما من منطلق المصالح البعيدة لا الآنية والتي تحقق ملء الفراغ الدستوري والمصالحة الوطنية بين اللبنانيين. وذاك مطلب لبناني وعربي، وهو مطلب لو تعرفون كبير في ظل ظروف الحرب والنزاع، وهو مطلب كان الشغل الشاغل للجنة السداسية، فجاءت قراراتها مؤكدة وحاضة عليه.

بقي أن يدفع كل المخلصين هذه الخطوات إلى الأمام قبل أن تضيع الفرصة الأخيرة ◻

محمد الرميحي

من دفتر

الذكريات





(الحياة مجموعة من الخبرات المتنوعة ، وليس بالضرورة أن تتشابه وتتكرر ، إنما كثير من الخبرات منفردة تضيف معنى جديدا للحياة ، وتعطيها لذة التراكم ، وقد اختارت العربي مجموعة من المتميزين العرب ليروي كل بطريقته الخاصة بعضا من ذكرياته التي أصبحت دروسا في الحياة) .

جَدُّ حَسْنة.. وَأنا..!

بقلم : حميد سعيد*

بدأت منذ سني الصبا تكوين مكتبتي الخاصة ، وفي البدء اتخذت من صندوق خشبي من موروثات العائلة ، مكانا لها . وحين ضاق الصندوق بمقتنياتي من الكتب ، اتخذت من رفوف جدارية - تسمّى باللهجة العراقية « الدارجة » و « الرازونة » - مكانا لكتبي . وكان ذلك في بيت والدي بمدينة الحلة .

في أواخر الخمسينيات اقتنيت أول مكتبة خشبية ، كانت متوسطة الحجم ، استوعبت الجديد من كتبي ، حتى إذا ضاقت بها جمعت القديم منها والأقل أهمية في صناديق من الورق المقوّى .

منذ عام ١٩٦٤ ، حيث غادرت مدينة الحلة ، وإلى بدايات عام ١٩٦٩ ، حيث تزوّجت ، تنقّلت بين عدد من المدن العراقية ، وأقمت في بيوت الطلاب والشقق والفنادق .

وفي هذه السنوات ، عرفت العسر وعدم الاستقرار ، لكني لم أنقطع عن شراء الإصدارات الجديدة والاحتفاظ بها في المكتبة نفسها الموجودة في بيت العائلة بمدينة الحلة ، وبمرور الأيام كبرت المكتبة واغتنت وتميّزت بالتنوع .

* شاعر ، ورئيس تحرير صحيفة الثورة اليومية العراقية ، الأمين العام لاتحاد الكتاب والأدباء العرب .

حين تزوّجت وفتحت بيتي في بغداد ، طلبت مني والدتي ـ رحمها الله ـ أن تبقى المكتبة في مكانها ، فاستجبت لطلبها ، ولم آخذ منها إلا عددا قليلا من الكتب ، أذكر منها « سيرة ابن هشام » ، و « صحيح الامام مالك » ، و « خطط المقريزي » ، و « حماسة أبي تمام » ، وديواني « المتنبي » و « جرير » ، ورواية « الساعة الخامسة والعشرون » ، وبعض دواوين الشعر العربي الحديث .

إن المكتبة التي أتحدث عنها ، ما زالت في بيت والدي ، على الرغم من أن شقيقا لي مختصا بالأدب الأندلسي ، أنشأ مكتبته الخاصة في البيت نفسه ، إلا أنه حرص أيضا على عدم تداخل المكتبتين .

وربما لأنني نشأت في بيت لا علاقة له بالكتاب ، صار حرصي على الكتب لا حدود له ، ولا أتردد عن أن أقول : إنه حرص الجشع والبخيل .

ويشهد الله أنني في سوى الكتاب على العكس تماما .

في أيام زواجي الأولى ، بدأت بتكوين مكتبة جديدة ، وكان من النادر أن أدخل البيت دون أن أحمل كتابا أو رزمة من الكتب .

في تلك الأيام كانت تعيش معنا طفلة يتيمة ، في الثامنة من العمر ، على قدر غير قليل من الذكاء ، وهي من أسرة ريفية ، تمت إلى زوجتي بصلة الرحم

كنت ألاحظ عليها الجفوة في علاقتها معي ، على الرغم من كل ما أبديه تجاهها من محبة وعطف . وأحس بامتعاضها من كتبي ومكتبتي ، بل ومن أصدقائي الذين أستقبلهم في غرفة المكتبة .

ولأنني لا أعرف التبضع ، ولأنني كنت باستمرار أعتمد على عائلتي في إيجاد ما أحتاجه ، فقد استمر هذا الوضع بعد الزواج ، واعتمدت ثانية على والد زوجتي في جلب ما يحتاجه البيت من طعام أو غير ذلك من الأشياء .

في مساء صيف بغدادي ، انتبهت إلى زوجتي وهي تتكتم على ضحكة كلما نظرت إلى الطفلة ، فما كان لي إلا أن أسألها عما يضحكها ، فقالت : إن « حسنة » ـ وهذا هو اسم الطفلة ـ تعتبرني سيئة الحظ بزواجي منك ، وقد قالت لي : لماذا لم يرزقك الله زوجا مثل جدي الذي لا يأتي إلينا إلا ومعه خير وفير مما لذ وطاب ؟ أما زوجك فلا يأتي إلا بالكتب والمجلات والصحف ، ولا يفعل شيئا سوى تناوله الطعام ، ثم ينصرف إلى كتبه وأوراقه .

يومئذ ضحكت إلى حد الضجيج ، وقلت وأنا أواصل الضحك : والله إنها على حق ، ولن أعترض لو أخذت بنصيحتها !!

مر زمن طويل على هذه الحادثة ، فما تغيّرتُ ، لكن يبدو لي أنها تركت في نفسي أثرا ، فكلما اشتريت كتبا جديدة ـ سواء حين أكون في العراق أو خارجه ، أتذكر رأي « حسنة » بي .

ولذلك ، وحين يكون رصيدي من الكتب وفيرا ، أشعر بالحرج ، فأعمد إلى الاحتفاظ بها في صندوق السيارة ، ثم أحمل منها رزمة صغيرة كلما دخلت إلى البيت .

إنها لمشكلة حقا ، فلقد ضاق البيت وأهل البيت بها ، أما أنا فقد ازددت بها شغفاً . □

من أقوال العرب

● الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان .
● قال أبوعمرو بن العلاء : خذ الخير من أهله ، ودع الشر لأهله .
● أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه .

العلاقة بين الطبقات

«وجهة نظر إسلامية»

بقلم : الدكتور محمد عمارة

من الظواهر المصاحبة للتطور المجتمعي في القرون الثلاثة الأخيرة تعدد الطبقات الاجتماعية ، وتبلور مصالحها ، وتناقضاتها . ومع مرحلة الإحياء الإسلامي المعاصرة يجتهد المفكرون الإسلاميون لاستخلاص رؤية إسلامية للطبقات والعلاقات فيما بينها ، مغلبين - كما يرى كاتب المقال - نظرية التوازن في مقابل نظرية الصراع .

الإسلام : دين الجماعة ، أي الأمة ، تلك خصيصة من خصائص المنهج الإسلامي . وكون الأمة هي الجامعة الأساسية في المنظور الإسلامي لا يعني الإجحاف بحقوق « الفرد » ، ولا الإنكار لوجود « الطبقة » بالمعنى الاجتماعي - في إطار « الأمة » ، وإنما هي العلاقات التي أقامتها الوسطية الإسلامية الجامعة بين « الفرد » و« الطبقة » « والأمة » على نحو فريد .

فالمسئولية ، فى الإسلام في كثير من التكاليف ، وفي الحساب والجزاء عليها : مسئولية فردية ، نقل الإسلام بها هذا الفرد من وضع الذوبان الكامل في إطار القبيلة والعشيرة ، لكن هذا الإنسان الفرد هو مدني بالفطرة ، اجتماعي بالطبع ، يستحيل عليه أن يحيا فردا ، وفي حدود النزعة الفردية .

والتكاليف ، هو في الاسلام ،منها الفردي - فروض العين - ومنها الاجتماعي - فروض الكفاية - وهي جميعا ينتظمها نسق واحد ، هو نسق التكاليف الدينية ، والرباط بينها عضوي ، حتى ليستحيل على الفرد - بسبب من مدنيته واجتماعيته - أن ينهض بتكاليفه الفردية - فروض العين - إذا أصاب الخلل النظام الاجتماعي ، بتخلف الفروض الاجتماعية . فإذا انعدم الأمن في المجتمع أو عز فيه القوت ، فأنَّى للعابد أن يعبد الله ويؤدي فرائضه العينية ؟ . لقد قال الفقهاء : إن صلاة الخائف والجائع لا تصح ، لأن الحضور فيها - وهو شرط إقامتها - لا يتأتَّى إلا بالأمن الاجتماعي وتوافر الأقوات !

ولقد أصاب الإمام الغزالي عندما حدد الضرورات الاجتماعية التي يستحيل بدون توافرها إقامة الدين ، فقال : « إن نظام الدين لا يصلح إلا بنظام الدنيا ، فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليهما إلا : بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات ، من الكسوة ، والمسكن ، والأقوات ، والأمن ، فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق هذه المهمات الضرورية . إن نظام الدنيا شرط لنظام الدين » . (الاقتصاد في الاعتقاد) (ص ١٣٥) . ولذلك ، كانت فروض الكفاية - الاجتماعية - في

المنهج الإسلامي آكد من فروض العين - الفردية - للارتباط العضوي بينهما في النسق التكليفي الواحد، ولترتب التمكن من أداء فروض العين على تحقق فروض الكفاية. لكن تحقق الفروض الاجتماعية لا يغني عن ضرورة الفروض العينية، لأن مكانة الأمة والجماعة في التصور الإسلامي لا تلغي دور الفرد ومكانته، فالمسئولية والتكليف والحساب والجزاء فردي، ولا تزر وازرة وزر أخرى - في التكاليف الفردية - لكن البلوى الاجتماعية إذا عمت طالت من لا يد له فيها.

ولذلك دعانا الله الى اتقاء الفتنة التي لا تصيب الـذين ظلمـوا دون سـواهـم! إن النهـوض بالمسئوليات والتكاليف الفردية هو السبيل الى إقامة التكاليف الاجتماعية، كما أن إقامة التكاليف الاجتماعية هو الذي يهيء للفرد الوفاء بحقوق تكاليفه العينية. وهذا الترابط بينهما هو التعبير عن ارتباط الفرد بالأمة في منهج الإسلام.

الأمة كيان جامع

وفي ضوء هذه الحقيقة نقرأ صياغتها عند «الماوردي» (٣٦٤ - ٤٥٠هـ) (٩٧٤ - ١٠٥٨م) عندما يقول: «.. واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين:

أولهما: ما ينتظم به أمور جملتها..

والثاني: ما يصلح به حال كل واحد من أهلها.. فهما شيئان لاصلاح لأحدهما إلا بصاحبه، لأن من صلحت حاله، مع فساد الدنيا، واختلال أمورها، لن يعدم أن يتعدى إليه فسادها، ويقدح فيه اختلالها، لأنه منها يستمد، ولها يستعد. ومن فسدت حاله، مع صلاح الدنيا، وانتظام أمورها، لم يجد لصلاحها لذة، ولا لاستقامتها أثرا، لأن الإنسان دنيا نفسه، فليس يرى الصلاح إلا إذا صلحت له، ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه، لأن نفسه أخص، وحاله أمسّ، فصار نظره الى ما يخصه مصروفا، وفكره على ما يمسّه موقوفا..» («أدب الدنيا والدين» ص ١٣٤ - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م).

فالفرد هو نقطة البدء، وهو بواسطة الأسرة والعشيرة، يغدو لبنة في كيان الأمة. ولا مكان للفردية المغالية في المنهج الإسلامي لأن صلاح اللبنة موقوف على كونها جزءا من البناء الكبير.

والأمة في التصور الإسلامي، ليست مجرد جمع «كميّ» يساوي عدد الأفراد فيها، وإنما هي كيان جامع. له حالة «كيفية» جديدة تفوق كيفيات وقدرات أفرادها متفرقين.. إنها كيان متميز له ماليس للأفراد المتناثرين.. إن الخيوط المتفرقة ليست لها القوة المتحصلة منها ذاتها إذا هي اجتمعت.. وقطرات الماء المتفرقة لا تُحدث الري الذي تحدثه عند الاجتماع.. والأفراد المتفرقون ليست لهم حصافة الرأي ورجاحة العقل وكياسة النظر التي تتأتى لهم بشورى الاجتماع.. ولذلك لم يمنع جواز الضلال على كل فرد من أفراد الأمة، أن تكون لهذه الأمة العصمة عند الاجتماع والإجماع.. ويشهد على هذه الحقيقة الموضوعية حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إن الله وعدني في أمتي وأجارهم من ثلاث: لا يعمهم بسنة، ولا يستأصلهم عدو، ولا يجمعهم على ضلالة» - رواه الدارمي -.

فللأمة، في الإسلام، مقام فريد، يعلو بها عن مجرد الجمع العددي والتراكم «الكمّي» لما لدى أفرادها وآحادها.

ولقد أبصر «الماوردي» - وهو يتحدث عن مذاهب الأمم في «الشورى» كيف أن الحضارات التي مالت كفتها لحساب «الفرد» قد حبذت «الشورى الفردية»، بينما حبذت الحضارات التي مالت كفتها لحساب المجموع «شورى الاجتماع».. ثم أضاف الجديد التي تميزت به حضارة الاسلام وشوراه، عندما جمعت بين الاثنين - الفرد والمجموع - فقال إن مذهب الاسلام في «الشورى» هو الجمع بين «شورى الفرد» و «شورى الاجتماع».. فحيث تكون القضايا مما تحتاج الى الاجتهاد وإعمال الفكر واستنباط الأدلة، تكون شورى الانفراد لأنها شورى الاجتهاد.. وحيث يكون المراد هو الكشف عن ثمرات الاجتهاد الفردي، فإن الاجتماع والمواجهة - شورى الاجتماع - تكون هي السبيل القويم - (أدب الدنيا والدين) - ص ٢٩٣ - فالارتباط بين الفرد والمجموع

كان جمع الشورى الإسلامية بين نمطي شوراهما جميعا .

التوازن بين الطبقات

وكما أن دار الإسلام تتألف من أوطان وأقاليم يجمعها جامع الإسلام العقيدة والشريعة والحضارة .. فكذلك أمة الإسلام تتألف من الشعوب والقبائل التي تعارفت بالإسلام ، وعليه ، فغدت أمة الإسلام التي لا تمزق وحدتها التمايزات القومية والعرقية والبيئية ، لأنها تمايزات الواقع الذي لا يناقضه الإسلام ، وإنما يهذبه فينظمه في نسق العقيدة الواحدة والحضارة الواحدة .

وإذا كانت مكانة الفرد في المنهج الإسلامي قد شهدت بتميزها : المسئولية الفردية ، والتكاليف الفردية - وإذا كان القرآن الكريم قد أبرز مكانة الأمة (إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحدةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) - الأنبياء : (٩٢) - . . (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) - آل عمران : (١١٠) - (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) البقرة : (١٤٣) - فإن المنهج الإسلامي لا ينكر وجود « الطبقة » ولا التمايز الطبقي في إطار الأمة وفي داخلها ، فالتفاوت الاجتماعي ، بنظر الاسلام ، حقيقة من حقائق الواقع ، نابعة من تفاوت القدرات والجهد المبذول والذكاء الذي يستخرج الثمرات . والإسلام لا يقفز على حقائق الواقع ولا يتجاهلها ولا يعاديها ، ولكنه يهذبها ويضبطها كي تظل في إطار المشروع ، ونطاق « العدل » - الذي لا يعني المساواة ، وإنما يعني « التوازن » بين فرقاء متفاوتين . . التوازن - الوسط - العدل الذي ينكر الظلم ، ويقترب بالتفاوت الى حيث درجة التوازن ولحظة العدل ، التي يكون فيها التفاوت مؤسسا على ماهو مشروع وطبيعي من العوامل والأسباب . (واللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ في الرِّزْقِ فَمَا الذينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ) - النحل : (٧١) - فإذا تأسس التفاوت الاجتماعي والاقتصادي على ماهو مشروع من الأسباب ، وإذا أحدث هذا التفاوت تمايز الأمة الى طبقات اجتماعية متميزة ، فإن الإسلام لا يرى في وجود الطبقات إخلالا بالأمة كرابطة جامعة لها في منهجه المرتبة العالية ، ولكنه كما أقام علاقات الترابط بين الفرد وبين الأمة ، كذلك يهذب من حدود التفاوت الطبقي ، ويضبط جوحه ويرسم آفاقه ، على النحو الذى يجعل علاقات الطبقات الاجتماعية في لحظة التوازن ودرجته ومستواه . . لأن هذا التوازن الذي يجمع بروابط التساند الطبقات المتعددة ، هو العدل - الوسط - في منهج الاسلام .

ضوابط الصراع

أما إذا اختل هذا التوازن الاجتماعي بين الطبقات في أمة الإسلام ، فإن الخيوط الجامعة بين الطبقات تخلي مكانها لعوامل التناقض والصراع بين هذه الطبقات - وتلك هي الأخرى حقيقة موضوعية ، وواقع اجتماعي لا ينكره المنهج الإسلامي ولا يستنكره . . لكنه يضع ، لهذا الصراع ، الضوابط أيضا ، ويحدد له الغايات والآفاق . . فالهدف منه هو العودة بالعلاقات الطبقية الى درجة التوازن ولحظة العدل - الوسط . . وليس الهدف منه - كما هو في الحضارة الغربية - أن ينفي قطب القطب الآخر تماما ، وأن تلغى طبقة الطبقة النقيض كلية ، وتقتلعها من الوجود . . فهذا المفهوم للصراع الطبقي هو خصيصة غربية . فالبرجوازية سعت الى نفي الاقطاع ، والبروليتاريا سعت وتسعى الى نفي



البرجوازية . وما حديث « الشمولية ـ الشيوعية » عن المجتمع اللاطبقي إلّا حديث عن المجتمع الذي تنفرد فيه طبقة واحدة بسلطات الفكر والحكم والمال ، لكنهم يكتشفون ـ وإن لم يعترفوا ـ أن التمايز الطبقي حقيقة موضوعية من حقائق التوازن الاجتماعي ـ أي العدل الاجتماعي ـ وضرورة من ضروراته .. فما ظنوه اقتلاعا للبرجوازية ، لم يكن أكثر من استبدال الطرف الذي يتمتع بامتيازاتها ، فبدلا من الملاك الرأسماليين ، حل « الحزب » و « التكنوقراط » أي « الدولة » التي امتلكت سلطات الفكر والحكم والمال بدلا من ملاكها السابقين . تغيرت الأسماء ، ولم تلغ الطبقية في المجتمع الذي ظنوه لاطبقيا !

لكن الإسلام ، الذي لا يقفز على الواقع ولا يتجاهل حقائقه ـ ومنها التمايز الطبقي النابع من التفاوت الاجتماعي . يجاهد لإبقاء هذا التفاوت في حدود الأسباب المشروعة ، ويعمل على ألا تتجاوز آفاقه لحظة التوازن التي هي درجة العدل ـ الوسط .. فإذا تجاوز هذه الآفاق ، واختل التوازن ، وحل الظلم الاجتماعي محل العدل .. فلا حرج في الإسلام أن يشهد المجتمع صراعا طبقيا ـ بل لقد رآه الإسلام سنة من سنن الله في المجتمعات ، تقود الظواهر الاجتماعية من درجة الخلل ولحظة الظلم الى درجة التوازن ولحظة العدل بين الطبقات .. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة : (٢٥١) .. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ـ الحج : (٣٩ ـ ٤٠) » « ومن أريد ماله بغير حق فقاتل فقتل فهو شهيد » ـ أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

فهذا الدفع والصراع ـ الذي هو سنة من سنن الله في المجتمعات ، هو أداة العودة بالعلاقات .. إذا هي خرجت من دائرة التمايز المشروع في الرابطة الجامعة الى دائرة التناقضات العدائية والممزقة لجامع الأمة وتضامنها ـ هو أداة العودة بالعلاقات الطبقية من إطار الخلل والظلم الى إطار التوازن والعدل ، لتظل الأمة هي الجامعة ، حاملة رسالة الإسلام ، العقيدة ، والشريعة والحضارة . وليست ـ كما في الحضارة الغربية ـ الطبقة هي حاملة الرسالة ، البرجوازية ـ ورسالتها « الليبرالية ـ الرأسمالية » ، والبروليتاريا ـ ورسالتها « الشمولية ـ الشيوعية » .

وظائف الطبقات ضرورة اجتماعية

هكذا أقام المنهج الإسلامي ، ويقيم العلاقة بين الفرد ، والطبقة ، وبين الطبقات ـ في إطار الأمة ، على النحو الذي يحقق فيه الكل ذاته ورسالته ، عندما يكون التوازن . والعدل ـ الوسط ـ هو ميدان الاجتماع والالتقاء ، فإذا اختل الأمر ، كان الدفع والصراع والجهاد ، لإعادة العلاقات الى صحتها ، ونفي عوامل المرض وجراثيمه منها . وليس لينفي طرف من الأطراف الطرف الآخر ، حالما بالانفراد والاستغناء . إن الإجتماع والاشتراك ـ الأمة ـ التأليف ـ التساند بين الفرقاء المتميزين ـ هو العدل .. أما الانفراد ـ من الفرد أو من الطبقة ـ في السلطة السياسية أو بسلطان المال . فهو عين الظلم وذات الطغيان .. وصدق الله العظيم حين يقول ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ العلق : (٦ ، ٧) .

إن هناك حدا أدنى للعدل ، لابد وأن يتوافر للفرد : هو الإنصاف في القانون والحكم ، والإنصاف في أمور المعاش ، وفي كتاب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حول القضاء ـ الى أبي موسى الأشعري ، يقول : « وبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف في : الحكم والقسم (تاريخ الطبري جـ ٤ ص٢٠٣) هذا هو الحد الأدنى من العدل للفرد الضعيف في منهج الإسلام .

وفي العهد الذى كتبه الإمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ الى واليه على مصر ، « الأشتر النخعي » حديث عن التمايز الطبيعي والواقعي بين طبقات الأمة ، وعن واجب الدولة الإسلامية حيال هذا الواقع الطبقي ، وعن السبيل لإبقاء العلاقات الطبقية في درجة التوازن ولحظة العدل .. يقول

الإمام على لواليه : « .. واعلم أن الرعية طبقات ، لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض ، فمنها : جنود الله . ومنها كتاب العامة والخاصة ومنها : قضاة العدل . ومنها : عمال الإنصاف والرفق . ومنها : أهل الجزية والخراج ، من أهل الذمة ومسلمة الناس . ومنها : التجار ، وأهل الصناعات . ومنها الطبقة السفلى ، من ذوى الحاجة والمسكنة - أي العاجزون عن الكسب والتحصيل - فالجنود حصون الرعية ، وسُبل الأمن .. ثم لاقوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج .. ثم لاقوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب .. ولا قوام لهم جيعا إلا بالتجار وذوى الصناعات » (نهج البلاغة ص ٣٣٧ - طبعة دار الشعب القاهرة) .

فالمطلوب لتحقيق العدل ، ليس الصراع الذي تنفي فيه طبقة بقية الطبقات بزعم أن العدل مرهون بالمجتمع اللاطبقي .. وإنما العدل المطلوب سبيله إقامة التوازن بين الطبقات التي تعد وظائفها ضرورات اجتماعية تحقق للمجتمع ثمرات من الكسب المادي والفكري ، والكسب الحافظ على المجتمع قدرته وحركته ومنعته .. لأن هذه الطبقات - كما يقول الإمام علي : - « لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض » .

ولعل هذا التساند الطبقي ، والإرتفاق الذي لا غنى عنه بين الطبقات ، لعله أن يكون التفسير الأدق لقول الله سبحانه وتعالى : (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِياً ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) - الزخرف - (٣٢) .. فالتمايز والتفاوت الطبقي - والمحدد بأنه درجات - هدفه ، وهذا هو المعنى المناسب لـ (سخريا) هو التساند والارتفاق ، وأن تكون كل طبقة هي للأخرى عماد .. وليس المراد سخرة الإستعباد والإذلال - التي هي عين الظلم الذي تنزه الله عن فعله وعن إرادته للناس . فالطبيعة وظواهرها قد سخرها الله للإنسان يرتفق بها ، ويستعين على عمارة الأرض وتزيينها . وكذلك التمايز الطبقي ، ضرورة للتساند والإرتفاق ، عندما تكون العلاقات الطبقية في لحظة التوازن ودرجة العدل ، لتكون الأمة ، بأدائها الاجتماعي ، كالفريق ، وكالجسد الواحد ، الذي وإن تكوّن من أعضاء متمايزة ، إلا أن العلاقات والروابط الصحية والصحيحة بين أعضائه المتعددة ، تحقق له أداءً موحدا لجسد واحد ، حتى إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ! ..

المال مال الله

ولأن هذه هي « فلسفة الإسلام الاجتماعية » وجدنا القرآن الكريم يجعل « المال مال الله سبحانه وتعالى ، في ذات الوقت الذي يجعله مال الناس ، بحكم خلافتهم فيه عن الله .. فلقد قال خالقه وواهبه لخلفائه فيه : (وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) - الحديد - (٧) ، فجعل ملكية الرقبة ، الملكية الحقيقة له سبحانه ، وجعل للإنسان فيه ملكية المنفعة ، الملكية المجازية ، المحققة لمقاصد الاستخلاف في هذه الأموال ، وذلك حتى ينفتح الباب ، دائما وأبدا ، أمام حركة الدفع الاجتماعي وأنصار العدل الاجتماعي كي يعيدوا أوضاع الامتلاك والاختصاص والحيازة في الأموال الى درجة التوازن ولحظة العدل التي تنفي الخلل والظلم ، وتحقق مقاصد الاستخلاف .. فإذا غدا المال (دُولَةً بين الأغنياء) جاز ، بل وجب إعادة التوازن بين الفرقاء بتأسيس التفاوت بينهم على المشروع من الأسباب والحلال من الثمرات ، وفي نطاق المستخلفين وجدنا القرآن يضيف مصطلح المال الى ضمير الجمع في سبع وأربعين آية ، والى ضمير الفرد في سبع آيات فلا يتفرد جانب دون الآخر بحق الاستخلاف .

ولنتأمل صنيع عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، مع الصحابي بلال بن الحارث ، و« الإقطاع » الذي أقطعه إياه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لقد سأل بلال الرسول أن يُقطعه أرضا واسعة ، فأقطعها له - وكان ذلك سبيلا لإحياء الأرض الموات ، أو زراعة الأرض التي لا صاحب لها ، لكن بلالا حجز هذه الأرض دون أن يزرعها بحجة أنه صاحبها ، يفعل فيها ما يريد .. لكن عمر رأى أن ذلك إخلال بالتوازن والعدل الذي يجب أن

بحكم علاقات الملكية والحيازة في الأموال كي لا تكون دُولةً بين الأغنياء ، يحوزون أكثر مما يطيقون ويحتاجون ، بينما لا يجد الآخرون ما يحتاجون ، فأراد عمر العودة بهذه العلاقة - بين بلال والأرض - من درجة الخلل والظلم الى درجة التوازن والعدل ، وذلك بأن تقتصر حيازته على ما يطيق زراعته ، وأن يعطي الزائد لمن يحييه ويستثمره . . ولما جادل بلال في ذلك ، قسره عليه عمر ، بل وسنَّ قانونا ينظم أمر هذه الإقطاعات ، ويضمن إعادة العلاقة بالأموال ، إذا هي اختلت - من درجة الظلم والخلل الى درجة العدل والاتزان .

لنتأمل صنيع عمر هذا من خلال كلمات الحوار الذي دار - عنيفا - بينه وبين بلال بن الحارث ، والذي بدأه عمر ، فقال لبلال :

« إنك استقطعت رسول الله أرضا طويلة عريضة ، فقطعها لك . وإن رسول الله لم يكن يمنع شيئا يسأله . وأنت لا تطيق ما في يدك ! فردّ بلال أجل !

فقال عمر : فانظر ما قويت عليه فأمسكه ، وما لم تقدر عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين .

فرفض بلال قائلا : ، لا . . لا أفعل ! هذا شيء أقطعنيه رسول الله !

فقال عمر : ، إن رسول الله لم يقطعك لتحتجزه عن الناس ، وإنما أقطعك لتعمل ، فخذ منها ما قدرت على عمارته ، وردّ الباقي !

- لا أفعل !

- والله لتفعلن ! . . »

وأخذ عمر من بلال ما عجز عن عمارته فقسَّمه بين الناس ، ثم خطب الناس فقال : « من أحيا أرضا ميتة فهي له ، ومن عطل أرضا ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له . ! »

(الخراج) ليحيى بن آدم - ص ٩١ ، ٩٣ طبعة القاهرة سنة ١٣٧٤هـ . و (الأموال) لأبي عبيد القاسم بن سلام - ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .

فنحن هنا أمام تطبيق خلّاق لفلسفة الإسلام في استخلاف الناس في الأموال عن الله ، وتحديد آفاق ملكيتهم وحيازتهم لها بحدود عهد الاستخلاف . . وأمام تجسيد لمذهب الإسلام في الإقرار بالتمايز الاجتماعي والطبقي ، مع الحرص على أن تكون علاقات التمايز طبقيا عند لحظة التوازن والعدل - الوسط - فإذا حدث الخلل والظلم ، عاد المنهج الإسلامي بهذه العلاقات - كما صنع عمر مع بلال بن الحارث - الى درجة التوازن والعدل . . فهو لم يلغ حيازة بلال للأرض إلغاء كاملا ، وإنما وقف بها عند حدود التوازن العادل . . « خذ منها ما قدرت على عمارته ، وردّ الباقي إلينا نقسمه بين المسلمين » .

هنا تنشأ وتصح العلاقات بين الفرد . . والطبقة . . والأمة . . وتظل الوسطية الإسلامية الجامعة المعيار الذي يرشد هذه العلاقات ، ويضمن لها البقاء في درجة التوازن ولحظة العدل . . وصدق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول : « الوسط : العدل . جعلناكم أمة وسطا » . . □

كانت له «صفة» ولكنه «صرفها»:

● وقف الزوج أمام القاضي ليفصل في موضوع طلب الزوجة الطلاق، وأراد القاضي الإصلاح بين الزوجين قبل نظر الدعوى. فقال للزوجة: «لابد أن هناك صفة ما أحببتِها في زوجك من قبل حتى رضيت بالزواج منه؟» وأجابت الزوجة في هدوء:

نعم كانت صفة أعجبت بها ولكنه صرفها كلها .



العبور

شعر : يوسف طافش

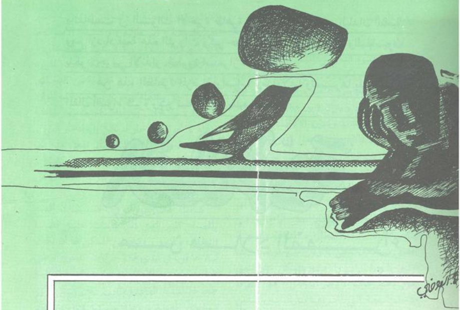
أنا الآن أطفو على حلمِ الحلم
بين الغيابِ وبين الحضور
لهاثي يؤانسني
ذكرياتٌ من الرعبِ
تعلو وتهبطُ
ريحٌ تزمجرُ بين عظامي ولحمي
وحولي طنينٌ خفيٌّ
يجوبُ ضفافَ السكونْ
وددْتُ لو أني أغني
لأسمعَ أصداءَ صوتي
ولكنّ عرّافتي حذّرتني
لكي لا أموتَ :

[إذا انهار سقفُ السماءِ
وأخرجَتِ الأرضُ أوزارها
فاعتصم بالسكوت

لأنَّ البلاد مُعبأةٌ بالطواويسِ
مُتخَمَةٌ بسياطِ المرابينَ
مُتخمةٌ بجنونِ الكلام
وقمحِ الجياعِ المُهرَّبِ
ما سوف يأتي يفوقُ الجنونْ
هناكَ على ضفةِ النهرِ
أو آخرِ التلّةِ المُبتغاةِ
سينزاحُ سرُّكَ عن سدرةِ الليلِ
فاعجنْ خلاياك بالصمتِ
كي لا تموتْ
هناك ستعرف سر السكوتْ]

* * *

أنا الآنَ في « أوسط » الجسر والحلمِ
صوتٌ عميق يراودني



من حدود السياج يشد ثيابي
يقول : « اتئدْ
ليس هذا أوان العبورْ
فجنيةُ النهر تدعو خطاكَ
إلى غامضِ الماءِ
كيف ركبتَ خيول الحماسةِ
هل كنتَ تدري
بأنكَ رهنُ الهروبْ ؟ »

نسيتُ التعاويذَ
عرّافتي علمتني السكوتَ
فضيعتُ صوتي
كذلك هذا العبور النذيرْ
مراراً تناثرَ جسمي ثم اجتمعتُ
مراراً كبوتُ
صحوتُ على ظلمةٍ فانتحبتُ

وأغمضت عينيَّ حتى « الفجاءةِ »
هاقد وصلتُ إلى التلةِ المبتغاةِ
على مرفقيَّ زحفتُ
على ركبتيَّ
على رعشةِ الروحِ
أدميتُ وجهي
وجفَّ « الغضار » على شفتيَّ
لأعرفَ سرَّ السكوتْ
فلا شيءَ فوقَ الصخورِ
يلُوحُ سوايَ
« كفزّاعةِ » الانتظارْ
وحيداً وصلتُ
وحيداً أعُدُّ ثواني السقوط
فياليتني قلتُها
ثم متُّ هناكَ
لكي لا أموتْ .

« تعاظمت في السنوات الأخيرة ظاهرة تهريب الثروات من البلدان النامية ومع ازدياد قيمة هذه الثروات وكبر حجمها : بدأ الاقتصاديون والسياسيون يدقون جرس الانذار لخطورة استمرار هذه الحالة .

عن هذه الظاهرة المرضية وأسبابها ومدلولاتها وتفسيرها يلقي هذا المقال أضواء كثيرة ويثير تساؤلات ويقدم إجابات » .

الأموال المهرّبة

من بلاد الفقراء

بقلم : الدكتور رمزى زكي

كانت نظريات التنمية التقليدية التي سادت في الخمسينيات والستينيات من هذا القرن ، تزعم أن البلاد النامية التى تتطلع نحو التقدم الاقتصادي والاجتماعي لايمكن أن تقيم تنميتها إلاّ بالاعتماد على الموارد الأجنبية المنسابة من البلاد الرأسمالية الغنية ، نظرا لأن الادخار المحلي في هذه البلاد ضئيل متواضع ، ولا يكفي لتمويل برامج الاستثمار الطموحة . وزعمت هذه النظريات أيضا ، أن أي محاولة لزيادة حجم ومعدلات الادخار المحلية في تلك البلاد إنما تعني الهبوط بمستويات المعيشة نحو حافة العدم . فليس هناك ، في ظل مستوى المعيشة المنخفض للغالبية الساحقة من السكان ، أي فائض إضافي يمكن ادخاره ، فوق مايدخر فعلا . من هنا ، ليس هناك أي أمل لحل معضلة تمويل التنمية إلا باستقبال الموارد الأجنبية ، سواء في شكل قروض أو في شكل استثمارات أجنبية .

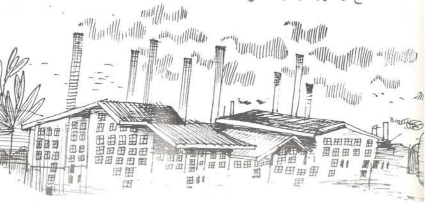
في ضوء هذه النظرة ، لم يكن مستغربا أن يعلن اقتصادي بارز ، مثل « بنيامين هيجنز » ، أنه مهما بذلت مجموعة البلاد النامية من جهود في مجال التنمية ، فإن تلك الجهود ستضيع أدراج الرياح ، مالم تعتمد على رأس المال الأجنبي . ونظرا لطابع الرواج والسيطرة الشديدة التي تمتعت بها هذه النظريات في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد نجحت تلك النظريات في إشاعة هذا الوهم ، الذى وجد ترجمته الفعلية في تزايد اعتماد البلدان النامية على التمويل الأجنبي ، وهو الأمر الذي أفضى في النهاية إلى نشوء أزمة الديون الخارجية ، وتزايد التبعية الخارجية .



تبدد الوهم

وللحق نقول : إن هذا الوهم كان قد تبدد تماما في ضوء التحليل المهم الذي قدمه الاقتصادي الأمريكي « بول باران » في كتابه الشهير « الاقتصاد السياسي للنمو » الذي صدر عام ١٩٥٧ ، فقد ميز « باران » بين ما يسمى الادخار المتحقق actual ، وبين الادخار الممكن potential . فالادخار المتحقق الذى هو عبارة عن الفرق بين الناتج المحلي الإجمالي الذي يتحقق في ظروف اقتصادية واجتماعية وتقنية معينة ، وبين الاستهلاك الجاري ، منخفض وضئيل ، ولاينازع أحد في ذلك . أما الادخار الممكن فهو عبارة عن الفرق بين الناتج المحلي الإجمالي الذي يمكن تحقيقه باستغلال الموارد المتاحة والممكنة أفضل استغلال ممكن ، وبين ما يعد استهلاكا ضروريا ورشيدا . والادخار الممكن بهذا المعنى يفوق بكثير حجم الادخار المتحقق . هذه التفرقة الاستراتيجية التي أجراها باران بين هذين النوعين من الادخار كشفت النقاب عن جوهر مشكلة تمويل التنمية ، مبينا أنها في التحليل الأخير ، مشكلة اجتماعية وسياسية ، وليست مشكلة مالية ، فالفرق بين هذين النوعين من الادخار يعكس مشكلة الفائض الاقتصادي الضائع أو الموارد المهدرة ، مثل الطاقات الانتاجية المعطلة ، والموارد البشرية غير المستخدمة (البطالة) واكتناز الأموال ، والاستهلاك الترفي ، والاستيراد الكمالي ، والإنفاق العام غير الرشيد ، فكل هذه الموارد تمثل ادخارا ممكنا . من هنا يكمن التحدي الرئيسي لحل مشكلة التمويل في تعبئة هذه الموارد المهدرة ، من خلال إجراءات اجتماعية وسياسية فاعلة ، تحول الادخار الممكن إلى ادخار فعلي . وإذا استطاعت البلاد النامية أن تفعل هذا فإن فجوة مواردها المحلية سوف تضيق كثيرا ، وحاجتها للتمويل الخارجي سوف تتضاءل على نحو محسوس .

كانت أفكار باران في الخمسينيات أشبه بالمصباح المنير الذي أنار ظلمات تحليل قضايا التخلف والنمو ، وكان من الممكن لها أن تكون سلاحا قويا في أيدي قادة حركات التحرر الوطني الذين راودتهم الآمال لتحقيق برامج إنمائية طموحة لتنمية القاعدة المادية للإنتاج ، ورفع مستوى المعيشة ، وعلاج مشكلات التركة الاستعمارية ومواريثها (الفقر والمرض والجهل) . ومع ذلك ، ظلت أفكار باران - للأسف - مهملة ، ولا يتحدث عنها ويدعو إليها إلا قلة من الاقتصاديين والمفكرين الطليعيين



الذين اتخذوا موقف النقد الواعي لترسانة الفكر التنموي التقليدي الغربي الذي افتقر للكفاءة النظرية (في تفسير الواقع) ، وإلى الكفاءة التطبيقية (في تغيير الواقع) ، كما أثبتت أحداث ربع القرن الماضي .

مفارقة صارخة

وتجيء الضجة المثارة الآن حول الأموال الهاربة والمهربة من البلاد النامية المدينة ، لتزيد من القوة التفسيرية لنظرية بول باران ، حول مأزق التنمية في هذه البلاد عموما ، وحول معضلة تمويل هذه التنمية خصوصا . فعلى الرغم مما يشاع بأن هذه البلاد في حاجة ماسة إلى الأموال والقروض والمعونات الأجنبية ، إلا أن الإحصائيات والدراسات التي نشرت في السنوات الأخيرة قد كشفت عن مفارقة صارخة في هذه القضية ، فقد تبين أنه خرج من هذه البلاد كميات هائلة من الأموال التي تودع وتستثمر في الأسواق النقدية الخارجية بأسماء أفراد ينتمون إلى تلك البلاد . وهي أموال من الضخامة ، بحيث لو نسبت إلى مجموع الديون الخارجية للبلاد التي خرجت منها لشكلت نسبة كبيرة جدا ، قد تفوق ١٠٠٪ في بعض هذه البلاد ، كما أن خروجها في حد ذاته يؤثر سلبيا على موازين مدفوعات تلك البلاد ، حيث تزيد العجز الحادث فيها ، وتجعل البلد في حاجة للاقتراض ، لسد هذا العجز . ناهيك عن أن الاقتصاد المحلي الذي خرجت منه يحرم من عوائدها واستثمارها . ولما كان شطر كبير من هذه الأموال يودع بالمصارف الأجنبية بالخارج ، فإن تلك المصارف عادة ما تقوم بإعادة إقراضها للبلاد النامية الفقيرة . وكأن الأمر يعني ، في هذه الحالة ، أن البلد المدين يسمح بخروج الأموال منه ، ثم يعود فيقترض هذه الأموال من الخارج عبر وسيط ثالث ، بتكلفة باهظة . وهذا تناقض غريب ، يبعث على الأسى والحزن على الحالة التي وصلت إليها البلاد النامية في الآونة الراهنة .

وحينما طرحت قضية خروج الأموال من البلاد النامية للاستثمار بالخارج على بساط البحث في المنظمات الدولية ، مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ، وفي أبحاث الخبراء بالدول الرأسمالية الصناعية ، استخدم مصطلح « الأموال الهاربة » للدلالة على هذه الظاهرة . لكن كاتب هذه السطور يصر دائما على ضرورة التفرقة الواضحة بين الأموال الهاربة capital flight وبين الأموال المهربة للخارج smuggle ، نظرا لاختلاف الدلالة التي ينطوي عليها كلا المصطلحين ، ذلك أن المصطلح الأول يشير عادة إلى خروج رؤوس الأموال الخاصة الساخنة Hot



money من البلاد التي لاتوجد فيها رقابة على الصرف ، ويتمتع فيها المقيمون بحرية التحويل ، بحثا عن أفضل عائد وأفضل ضمان بالخارج ، وخروج الأموال الهاربة - بهذا المعنى - أمر مشروع ، ويتم بسماح الدولة والقوانين (مثال ذلك استثمار بعض مواطني دول الخليج لمدخراتهم في أسواق النقد الدولية) ، أما تهريب الأموال فنقصد به عملية خروج الأموال عن طريق القطاع الخاص والأفراد ، وإيداعها واستثمارها في الخارج ، على الرغم من حظر التحويل الذي تفرضه نظم الرقابة على الصرف . ومن ثم فإن كل مال خرج من الاقتصاد المحلي عن طريق غير رسمي ، وتحظره القوانين يعد تهريبا ، وهو أمر مجرم قانونا ، ويعاقب عليه مرتكبه . وهنا تجدر الإشارة إلى أن معظم الأموال التي خرجت من البلاد المدينة هي من النوع الثاني .

أموال مهربة وليست هاربة

هذه التفرقة المهمة التي نصر على إجرائها بين الأموال الهاربة ، والأموال المهربة مهمة جدا في تفسير الظاهرة ، واستخلاص السياسات المناسبة للتصدي لها ، فإذا كنا نتكلم عن الأموال الهاربة - بالمعنى السابق لهذا المصطلح - فإن تفسير تلك الظاهرة يعود إلى تفضيلات الأفراد المستثمرين الذين يقارنون بين العائد المتوقع في بلادهم والضمانات المحيطة بالاستثمار ، وبين العائد المحتمل في الخارج وضماناته ، فإذا كانت نتيجة هذه المقارنة لصالح الاستثمار بالخارج خرجت الأموال ، والعكس صحيح . من هنا ثمة علاقة ارتباط واضحة بين المتغيرات الاقتصادية الداخلية ، مثل سعر الفائدة ، ومعدل التضخم المحلي ، وسعر الصرف ، ومعدلات الضرائب على الدخول ، وبين خروج الأموال للخارج . ولهذا ، فإن عودة الأموال الهاربة إلى بلادها قد تتطلب التأثير في هذه المتغيرات ، أي زيادة سعر الفائدة ، ومكافحة التضخم ، وتعديل سعر الصرف ، وتخفيض الضرائب على الدخول وعلى رؤوس الأموال .

أما إذا كنا نتحدث عن الأموال المهربة ، فالأمر مختلف تماما ، فليس هناك أي علاقة بينها وبين المتغيرات الاقتصادية الداخلية سالفة الذكر ، وعلى الأخص حينما يكون الأمر متعلقا بالبلاد التي تتبع نظام الرقابة على الصرف ، ذلك أن إمعان النظر في المسألة ، يوضح لنا ، أن ظاهرة تهريب الأموال من هذه البلدان تعود إلى تفشي الرشوة والفساد الإداري ، وعمليات (السمسرة) غير المشروعة ، وإلى خراب الذمم ، وضعف أجهزة الدولة ، وعدم هيبتها ، واستغلال النفوذ والسلطة في تحقيق ثروات هائلة بشكل غير قانوني . ولهذا نحن نعتقد ، أن تلك الأموال والثروات المهربة للخارج التي تحققت بشكل غير مشروع ، لن يمكن اجتذابها مرة أخرى لبلادها ، حتى ولو قام المسئولون في هذه البلاد بفرش الطريق بالورود والمزايا والضمانات لأصحابها .

والسبب في ذلك غاية في البساطة ، وهو أن تلك الأموال تظل دوما في حالة ذعر وخوف لإيمان أصحابها بعدم مشروعيتها ، وبخروجهم على قوانين بلادهم . من هنا فإنها لن تعود مهما قامت حكومات تلك البلاد بتعديل سياستها والتأثير في المتغيرات الاقتصادية الداخلية .

ومهما يكن من أمر ، فإنه نظرا لطابع الحساسية السياسية والاجتماعية لظاهرة تهريب الأموال للخارج ، وما تكشف عنه من رخاوة في أجهزة الدولة ، ومن فساد وتسيب إداريين كبيرين ، فإن هناك ما يشبه الظلام الدامس حولها في البلاد المدينة ، وبخاصة ذات الوضع الحرج . وهذا أمر مفهوم لنا ، وبخاصة لأن عددا من كبار المسئولين في هذه الدول من المتورطين في هذه الظاهرة . والإحصائيات والدراسات المعروفة الآن عن هذه الظاهرة - على

الرغم من ندرتها ومحدوديتها وعدم كمالها ـ قامت بنشرها المنظمات الاقتصادية الدولية ، وبعض المصارف الأجنبية ، لكي تضغط على الحكومات المدينة لتطبيق المزيد من السياسات « الليبرالية » ، حتى تعود هذه الأموال إلى بلادها .

المشكلة سياسية واجتماعية

ومن المفارقات المدهشة التي تدعو للعجب ، أن يعلم القارىء أن من بين الأسباب القوية التي سهلت ذيوع ظاهرة تهريب الأموال وانتشارها من البلدان الفقيرة المدينة ، هي تلك السياسات « الليبرالية » المفرطة التي فرضت على هذه البلدان من قبل تلك المنظمات ، وعلى الأخص من صندوق النقد الدولي . فمع إلغاء نظام الرقابة على الصرف ، وإلغاء القيود المفروضة على التحويلات الخارجية ، ومع تخفيض سعر الصرف للعملة المحلية واستمرار تدهور هذا السعر ، وفي ضوء تحرير التجارة الخارجية ، والمزايا والضمانات والحوافز السخية (التي تصل أحيانا إلى حد السفه) التي أعطيت للقطاع الخاص المحلي والأجنبي ، وفي ضوء تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تمخضت عن سياسات التكييف والتصحيح (الغلاء ، البطالة ، الركود الاقتصادي ، زيادة التفاوت في توزيع الدخل . .) أصبح المستثمرون من القطاع الخاص ، وأثرياء هذه البلدان ، يفضلون تهريب أموالهم ، واستثمارها بأسمائهم في الخارج ، مستغلين في ذلك جو السماح والانفتاح « والليبرالية » المفرطة التي توفرها سياسات صندوق النقد الدولي . من هنا لا عجب والحال هذه أن تلك الظاهرة أصبحت أمرا مألوفا ، وذات اتجاه متزايد في البلاد ذات المديونية الخارجية الثقيلة التي وقعت في فخ الدائنين وسياسات الصندوق .

ومرة أخرى نعود في النهاية إلى « بول باران » ، لنقول معه ، كما قلنا منذ أكثر من عشرين عاما مضت في كتابنا : مشكلة الادخار في البلاد النامية (القاهرة : ١٩٦٦) : إن مشكلة التمويل في البلاد النامية ليست مشكلة مالية ، وإنما هي مشكلة سياسية اجتماعية في المقام الأول .

وفي ضوء هذا المنطلق ، نعتقد أنه من الأفضل للبلاد النامية ألا تعلق الآمال على احتمالات عودة هذه الأموال ، فهذا أمر صعب المنال ، والأهم من ذلك هو العمل بكل حسم لوقف هذه الظاهرة ، من خلال تطبيق القوانين بصرامة ، وسد كل الثغرات التي ينفذ منها المال المهرب للخارج . بيد أن المطالبة بذلك ، إنما تعني في النهاية المطالبة بتوجه إنمائي جديد ، وبسياسات اقتصادية واجتماعية ، تختلف عما تطبقه حاليا هذه الدول ، ووضع شعار « طهارة اليد والسلوك » موضع التطبيق الحاسم . وهنا بيت القصيد في الموضوع كله . □

مصرف الأسماء المستعارة

● ليس للذين يودعون أموالهم مصرف بورت مورسبي ، من سكان بابوا في غينيا الجديدة ، حسابات مرقمة ، فهم يتخذون لهم أسماء مستعارة من الأسماك والطيور وما شاكل ذلك ، ويصبح العميل معروفا لدى المصرف باسم « سمك المنشار » مثلا ، أو « الهدهد » ، ويحتفظ به سرا له .

يتابع الكاتب رصد تأثيرات « البيريسترويكا » على العلاقات الدولية واحتمالاتها المختلفة التي تبدأ من الاعتماد المتبادل بدلا من المواجهة إلى استمرار التناقض بين المعسكرين .

مستقبل "البيريسترويكا" وتأثيرها على العلاقات الدولية والإقليمية

بقلم : أمين هويدي

لم تنل « فرقعة » من « الفرقعات » التي تحدث في الكوكب الذى نعيش فيه مثل ما نالت « البيريسترويكا » ، أو إعادة البناء ، من اهتمام ، فقد تناولها الساسة والباحثون والمعاهد المتخصصة بالبحث ومازالوا كذلك ليصلوا إلى تحديد ردود الفعل على كافة المستويات ، حتى تتفق الاستراتيجيات مع المتغيرات . إنهم جميعا يريدون أن يصلوا إلى الحقائق ، حتى « لا يكتفوا برؤية بعض الأشجار ، بل ليروا الغابة كلها » إن إعمال العقل للكشف عن المتغيرات المستقبلية أكثر فائدة وأهم من ترك الأمور للعبة الحظ ، حتى في الحروب التي حددت مسار التاريخ ، فاستخدام الحكمة كان ومازال أهم أضعافا مضاعفة من الشجاعة والإقدام ، كما أن الفكر المبدع الخلاق كان أفضل وأجدى في إحراز الانتصارات من السيف والمدفع .

وكالعادة ، فإن الآراء دائما ما تنقسم عند مواجهة الحدث الجديد فى تفسير حدوثه ، ومدى التغيرات الحقيقية التى يحدثها بعد إزالة البريق الخاطف الذي يصاحبه في أول الأمر ، ثم يكون الخلاف الأكبر في كيفية مواجهته لتطويعه لخدمة الأغراض المرجوة بين المتشددين، أي الصقور والمعتدلين ، أي الحمام .

بعضهم يرى أن « البيريسترويكا » موجهة أساسا إلى الداخل فى الاتحاد السوفيتي والجماعة الاشتراكية . الجبهة الداخلية هي ذات الأهمية الأولى والثانية والثالثة ، أما الجبهة الخارجية فهي غطاء لما يحدث في الداخل ، فالتغيير في الجبهة الخارجية طفيف ، إن لم يكن منعدما . كما يقول الواقع .

استراتيجية صحيحة . . وأساليب متغيرة

« فجورباتشوف » وهو يحاول تهدئة الحرب الباردة وسباق التسلح يقطع ـ وهو محق في ذلك على الأقل بالنسبة للمواجهة المباشرة بين القوتين العظميين ـ بأن مقولة « كارل فون كلاويزفيتز » في كتابه « في الحرب » « بأن الحرب هي استمرار للسياسة بطرق أخرى» قد سقطت إلى الأبد فى ظل التدمير النووي المتبادل بين القوتين العظميين ، هذه حقيقة لا جدال فيها ، ولكن هل يعد هذا تفكيراً جديداً في الصراع الدولى المعاصر ؟

لقد ورد ذلك في أدبيات الاستراتيجية العالمية الغربية والشرقية على حد سواء منذ الخمسينيات . فالمارشال ف . د . سوكولوفسكي في كتابه «حول الاستراتيجية العسكرية السوفيتية» كتب في أواخر الخمسينيات « بأن الإنجازات التي تمت في الاتحاد السوفيتي أوصلت الغرب إلى أن يختار بين الاستسلام الناجم عن استحالة استخدام الأسلحة النووية وبين الفناء في حالة استخدامها ، وجعلته يفكر في حل وسط عن طريق تقييد الحروب الذرية الشاملة لتصبح حروبا ذرية محدودة ، وأخذت القيادات العسكرية الأمريكية تتخبط بين الردع المرن ، والرد المتدرج ، والحروب الوقائية » .

ولكن من يضمن أنها ستستمر مقيدة من الجانب الآخر ؟ إن الاستراتيجية السوفيتية المعاصرة تبنى على مفاهيم « انجلز ولينين » ، وهي مازالت صالحة حتى في العصر النووي ، فقد ركز لينين على أن الحرب جزء من كل ، وهذا الكل هو السياسة . والحرب إذن امتداد للسياسة بوسائل العنف ، والعنف هو مجرد عمل سياسي : ومعنى ذلك أن الحرب ليست مرادفة للسياسة ، وأن السياسة يمكنها استخدام وسائل أخرى غير العنف لتحقيق أهدافها دون اللجوء إلى الحرب » . ويستطرد قائلا : « يعادي الاتحاد السوفيتي كافة الحروب العدوانية ، ويقف إلى جوار كل نضال مقدس للشعوب المغلوبة على أمرها مع استبعاد الحروب النووية وسعيه الدائم لتحقيق التعايش السلمي بين النظامين الاجتماعيين المتناقضين . وهو يعلم أن هذا لا يوقف الصراع الطبقي ، ولكن يستمر بوسائل سلمية ودون استخدام العنف . إن الحل العلمي والتكنولوجي هو الحل المناسب لمواجهة التهديد الاستعماري » .

ثم لنقرأ ما كتبه « هرمان كاهن » في كتابه الذي صدر عام ١٩٦٠ : « بالرغم من أن القوة التدميرية أصبحت من الضخامة بحيث يستحيل استخدامها عمليا ، إلا أن سباق التسلح مازال مستمراً ، علماً بأن الخيار المعقول الوحيد أصبح اتباع استراتيجية الردع المحدود التي تؤدي فقط إلى القتل المتبادل وليس بالضرورة إلى الفناء المتبادل ، أو إلى نهاية الحضارة ، أو إلى نهاية التاريخ » .

وهذا التفكير يتطابق مع ما قاله « مالنكوف » من : « أن الحرب النووية سوف تؤدي إلى نهاية الحضارة ، ومن ثم لن تقدم الدول الرأسمالية على شن هجوم نووي ضدنا ، مما يتيح لنا تخفيض استثماراتنا في الصناعات الثقيلة والانتاج الحربي ، وتوجيه الفائض لانتاج مزيد من السلع الاستهلاكية » - كتب في هذا كثيرون منهم هنري كسينجر وليدل هارت وأندريه بوفر وغيرهم - وفي اعتقادي أن هذا ما يريده « جورباتشوف » .

إذن من ناحية الاسترخاء الدولي ، لم يأت جورباتشوف بجديد ، فالكثيرون قبله رددوا مايردده الآن ، كلهم تحدثوا عن أنه اذا كانت الاستراتيجية قبل العصر النووي تعني الاستخدام الماهر للقوة ، فقد أصبحت في ظل الرعب النووي فن التهديد باستخدام القوة دون استخدامها ، أو هي فن عدم المواجهة المباشرة بين القوتين العظميين ، أو فن ترجمة القوة إلى « دبلوماسية » . وبعبارة أخرى أصبحت الاستراتيجية النووية هي عبارة عن فن الردع . فالعالم وصل إلى حال من الاستقرار النووي في ظل مخزون نووي يدمرّ العالم مرتين أو أكثر ، فما فائدة تراكم المخزون بعد ذلك ؟

يعني الاستراتيجية الكونية في عهد « جورباتشوف » لم تتغير ، اذ ليس من السهل تغيير الاستراتيجيات الكونية للدول العظمى لسببين : الأول هو أن هذه الاستراتيجية تخدمها نظم اقتصادية وانتاجية وعقائدية معينة من الخطر تغييرها بطريقة فجائية وحادة ، إذ يتسبب عن ذلك خلل في توازن القوة العظمى . والسبب الثاني هو أن التغيير لا يتم بإرادة كاملة بل بإرادة ناقصة تخضع لاستراتيجية القوة المضادة ، كل ما حدث أن « موسكو » تريد فترة لالتقاط الأنفاس حتى مع تقديم بعض التنازلات في محور خارجي لتحقيق إعادة التوازن في المحور الداخلي تحت تأثير الضغوط الاقتصادية الناتجة من تزايد نفقات الدفاع ، وكذلك التقدم الهائل في وسائل المواصلات والأقمار الصناعية لإعادة تشكيل النظم من الخارج ، وكأن موسكو تريد أن « تفعلها بيدها لا بيد عمرو . . » .

وهنا يبرز سؤال يحتاج إلى إجابة : ما هو الجديد الذي جعل الولايات المتحدة توافق على التوقيع على اتفاقية إزالة الصواريخ القصيرة والمتوسطة المدى في أوربا بعد سنين طويلة من المفاوضات الشاقة ؟ إنها تعلم تماما مقدار الاجهاد الاقتصادي الذى تعاني منه موسكو من جراء سباق التسلح ، وكان الأحرى بها أن تستمر في السباق الذي هو سباق استراتيجي في الظاهر لكنه سباق استراتيجي اقتصادي في حقيقة الأمر ، حتى تفجر الاتحاد السوفيتي من الداخل . ولكن هناك سببان لذلك : السبب الأول أن هناك خطأً في الصراع بين القوتين العظميين لا يجوز تجاوزه منعا من إجبار الطرف الآخر على اتخاذ إجراءات يائسة ، والسبب الثاني أن الولايات المتحدة أيضا ، وصلت إلى حالة إجهاد اقتصادي أخلّت بمصداقيتها ، حتى بين حلفائها تحت ضغط القروض الهائلة التى تقترضها ، والعجز في ميزان المدفوعات وزيادة البطالة وهبوط سعر الدولار . إن القوتين وصلتا إلى ما نسميه بحالة « الاجهاد المتبادل » نتيجة لتضخم ميزانيات الدفاع .

وهناك سبب آخر لتوقيع الولايات المتحدة على الاتفاق ، إذ أنه لم يشمل القوة النووية البريطانية أو الفرنسية ، وعلى ذلك فأوربا مازالت تعيش تحت مظلة نووية من الصواريخ متوسطة وقصيرة المدى ، بريطانية وفرنسية الصنع ، علاوة على مظلة نووية من الصواريخ عابرة القارات .

حتى وجهة النظر السوفيتية في الصراعات الإقليمية مازالت تتحرك في إطارها المعروف تقريبا ، فوجهة النظر السوفيتية بخصوص الصراع العربي « الاسرائيلي » هى نفسها لم تتغير تقريبا ، ولم يدخل عليها « خميرة تحديثية » كما يعتقد البعض ، فموسكو تؤكد دائما - ومازالت - على بقاء « اسرائيل » كدولة ذات سيادة داخل حدود ١٩٦٧ مع إجراء تعديلات مقبولة من الطرفين ، وكانت لها علاقات مع « اسرائيل » قبل عام ١٩٦٧ ، وهما في سبيلها لإعادتها لو وافقت « إسرائيل » على عقد المؤتمر الدولي ، وتؤمن بأن حل القضية ليس عن طريق الحرب ، وهي لم تمانع في الماضي ولا هى تمانع في الحاضر من هجرة اليهود السوفييت إلى « إسرائيل » ، وهي تقف الآن كما وقفت من قبل إلى جانب العرب وهم يطالبون برد أراضيهم بعد حرب ١٩٦٧ ، وبأن يكون للفلسطينيين دولة ، ثم نجدها قد التزمت ، ومازالت تمد العرب بالأسلحة في حدود سياستها . وهذه وجهة نظر !!

الاعتماد المتبادل لا المواجهة

وجهة نظر أخرى ترى عكس السابقة تماما ، فهناك تحولات عالمية كبيرة تحدث من حولنا « والبيريسترويكا » تتجاوب معها : فقد حل التعاون محل المواجهة في التعاملات الدولية ، وينادي « جورباتشوف » بالاعتماد المتبادل والتكامل ، ثم تغير مفهوم السيادة الوطنية في ظل تداخل المصالح وتشابكها .

والكوكب الذي نعيش فيه يغلفه غلاف جوي واحد ، لا يعترف بتجزئة العالم إلى كتل وتحالفات وأنظمة ، فلا يستقيم تواجد كوكب منقسم في ظل غلاف جوي واحد ، تسكنه مجموعات من البشرية تتهددها (أخطار وكوارث بيئية رهيبة ، لا يمكنها مواجهتها بجهود منفردة وراء خطوط فاصلة) . فالحدود السياسية للدول لم يكن لها جدوى في منع اشعاعات « تشيرنوبيل » من تخطيها مئات الأميال ، وزلزال أرمينيا كان حافزا للعالم أن يتخطى حدوده السياسية الفاصلة لتقديم المساعدات إلى الضحايا ، بغض النظر عن جنسيتهم وعقيدتهم ، وبذلك أصبحت قضايا « الايكولوجيا » تسبق قضايا « الايديولوجيا » ، وأصبحت حماية الجنس البشري من أخطار التقنية المدنية والعسكرية لها الأسبقية على الصراع الطبقي بحكم النص الذي أورده « جورباتشوف » فى « بيريسترويكته » .

والعالم يواجه بأخطار التلوث ، والجفاف ، وديون العالم الثالث ، وندرة بعض الموارد الطبيعية وبالموارد غير قابلة التجدد مثل النفط ، وهذه قضايا تجعل الجنس البشري غرضا واحدا للتهديدات المتزايدة . ثم مثل هذه القضايا هي في حقيقتها ملك للأجيال القادمة لا يجوز لنا - نحن أبناء هذا الجيل - أن نتجاهلها كما أن من واجبنا الحفاظ على تراث « الأرض » للأجيال التي تلينا .

ولا بد لعالمنا من أن يطور مفهوم السيادة التي نشأت أصلاً لمواجهة التبعية ، وعدم التكافؤ بين

الدول في القوة والثروة . لكن إذا أخذنا بمبدأ الاعتماد المتبادل والتعاون والأمن الجماعي فإن السيادة الكاملة والتمسك بها تتعارض وهذه الاتجاهات . ولذلك فإن التنازل عن جزء من السيادة الوطنية أو الإقليمية لصالح السيادة العالمية أصبح ضمانا لمواجهة الكوارث العالمية التي لا تميز بين دولة وأخرى ولا بين إقليم وآخر ولا بين عقيدة وأخرى . فالسيادة ليست مبدأ سرمديا ميتافيزيقيا . وعلينا أن نبحث عن بدائل أرقى للعلاقات الدولية .

ولاشك أن لوجهة النظر هذه مبرراتها ووجاهتها ، لكنها نظرة رومانسية ، صحيح أنها تعبر تماما عما ورد في « البيريسترويكا » من مبادىء ، ولكنها مبادىء تدخل في عالم « اليوتوبيا » ، وتتجاهل طبيعة الأشياء ، وتناقضات النفس البشرية التي خلقت معها . فنوازع الخير والشر موجودة بين الناس بمن فيهم أصحاب القرار ، وتناقض المصالح لا يمكن القضاء عليه إلا في ظل عالم تزول منه الطبقية والتسلط .

ثم كيف يكون هناك اعتماد متبادل بين الصياد والفريسة ؟ أي اعتماد متبادل هذا بين الدول الفقيرة من الجنوب والدول الغنية في الشمال ؟ في ظل تبادل ينقصه التوازن بين المواد الخام رخيصة السعر والمواد المصنعة غالية السعر ؟ أي اعتماد متبادل هذا بين الدول الدائنة والدول المدينة التي تنهكها المشاكل والتهديدات ؟ الإنسان يصنع مشاكله لنفسه وبنفسه !!

آلاف الناس الذين يموتون جوعا نتيجة الجفاف والتصحر في الوقت الذي يلقى فيه الفائض من الحبوب من الدول الغنية في البحر للمحافظة على أسعارها المرتفعة ، ولتصبح مواد استراتيجية ، ونحن نتشدق بالمبادىء والشعارات . الدول الفقيرة وفي مواجهة ظروفها الصعبة وبحالتها المتأخرة تحاول أن تخترق حاجز الفقر دون أمل أو جدوى بعد أن أغرقتها الديون ، وفتّتها الصراعات ، وأهلكتها نوازع السيطرة التي تهددها من خارج حدودها . ما هو الضمان في ظل تآكل المنظمات الدولية الإقليمية ، وفي ظل إدارة الأزمات بواسطة الدول العظمى وليس حلها؟ كيف نتحدث عن حلول للصراعات الإقليمية متناسين الحقوق التاريخية لشعوب احتلت أراضيها التي ورثتها عن الأجداد ؟ .

إن النظرة الرومانسية لا يمكن أن تتصدى للوحوش التي تملأ الغابة التي نعيش فيها ، والتي يسودها قانون « البقاء للأقوى » ، وعلينا ألا نسير في الغابة إلا ومعنا كلبنا الأمين وهو قوتنا الجماعية .

استمرار التناقضات بين النظامين

أما وجهة النظر الثالثة ، فسأنقلها عن «ياسوهيرو ناكاسوني» رئيس الوزراء الياباني ألقاها في محاضرة في معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية في أكاديمية العلوم بموسكو في ٨٨/٧/٢١ وأهم نقاط رأيه الذي يعتمد في كثير من جوانبه على الفكر الشرقي المستمد من تعاليم « بوذا » و « كونفوشيوس » يقول : « من ينظر إلى العلاقات الدولية خلال الأربعين سنة الماضية يجد أنها عبارة عن حلقات من المواجهة والتعاون والتوتر والاسترخاء ، وعلى ذلك فإن نظرتنا إلى الفكر الجديد لجورباتشوف ، في « البيريسترويكا » و الجلاسنوست » لا بد وأن تكون ايجابية ، وعلينا ألا ننسى أن الغرض الأساسي لهذا الفكر الجديد هو إعادة بناء الاتحاد السوفيتي كدولة اشتراكية قوية ، ولا يجوز أن نركن إلى وهم أن التناقضات في العلاقات بين النظم الاشتراكية والديمقراطيات الليبرالية سوف تنتهي بسهولة ، فالمنافسة التاريخية سوف تستمر طالما ظل الخلاف الرئيسي بين النظامين قائما . فالعقائد الاشتراكية مسموح بها في الديمقراطيات الليبرالية بينما ترفض النظم الاشتراكية العقيدة الديمقراطية الحرة . الأحزاب الاشتراكية تمارس حقوقها في النظم الديمقراطية بينما لايمكن للأحزاب الديمقراطية أن تمارس هذه الحقوق في النظم الاشتراكية علاوة على أن الديمقراطية في النظم السياسية التي تعتنقها ليست مجرد وسيلة لتحقيق غاية ولكنها إحدى القيم الرئيسية التي يتم تطبيقها لأغراضها السامية . ولذلك فإن متابعة ما يجري بخصوص الإصلاحات السوفيتية التي نادى بها « جورباتشوف » أمر واجب . ما مدى تطبيق التعددية الاشتراكية ونتائج ذلك على حرية الفكر

والعقيدة للأفراد، أو حرية عقد الاجتماعات لذوي الأفكار المتعددة؟

ما مدى تطبيق الأفكار التي تبلورت في المؤتمر الأخير للحزب الشيوعي عن فصل السلطات بين الحزب والسوفيتيات أو اتجاهات السيطرة داخل الحزب؟ وما انعكاس ذلك على السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي وعلى الأخص في مجال تخفيض السلاح والصراعات الإقليمية والعلاقات الثنائية؟ ومن المؤمل أن ترافق التغيرات المنتظرة مع روح القرن الواحد والعشرين...».

ويتحدث «ناكاسوني» عن احتمالات المستقبل في العلاقة بين الغرب والشرق، فيحصرها في ثلاثة احتمالات: الأول بقاء العلاقات على صورتها الحالية، والثاني هو استغلال النتائج التي تحققت وتعميقها لجني ثمار أكثر، والثالث هو تخلي الكتلة الشرقية عن السياسة الستالينية، وتخلي الكتلة الغربية عن سياسة الاحتواء، واقامة نظام عالمي قائم على التطبيع وعلى قيم ومبادىء جديدة. والاحتمال الأكثر توقعا عند «ناكاسوني» هو الاحتمال الثاني مع خلق قوة دافعة واستمرارية لتحقيق الاحتمال الثالث على أساس التعاون والاعتماد المتبادل في كل الميادين بالنسبة للجميع.

وعن تأثير «البيريسترويكا» على الصراعات الإقليمية يركز «ناكاسوني» بطبيعة الحال على آسيا فيرجع المشاكل القائمة للخلافات السياسية في المنطقة أساساً، ولا بد من تقييم «الأفكار الجديدة» على ضوء حل مشاكل المناطق الشمالية بين اليابان والاتحاد السوفيتي وعلى استرخاء والأوضاع بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية، وعلى القدرة على ايجاد حل سياسي للمشكلة الكمبودية.

وجهة نظر رابعة، يتحدث عنها السير «ميشيل هوارد»*: فجورباتشوف شأنه شأن الساسة العظام مثل بسمارك وروزفلت، لديه بُعد النظر الذي يؤمن بضرورة التغيير والمهارة والعزيمة على استغلال ذلك في تحقيق أغراضه، فالساسة لا يكتفون برد الفعل بالنسبة للمتغيرات، ولكن لابد أن يكون لديهم تصور لشكل العالم الذي يريدونه، ثم تحريك الأمور في هذا الاتجاه، وبالنسبة لانعكاسات هذه المتغيرات التي ينادي بها الزعيم السوفيتي فإنها قد تضع أمامنا نماذج واحتمالات أربعة.

النموذج أ: تحلل الاتحاد السوفيتي نتيجة لإضعاف قبضة الحزب، ولرغبة الجمهوريات الإسلامية في الاستقلال أو انتشار الحركة القومية فى أوربا الشرقية إلى البلطيق وأوكرانيا.

النموذج ب: استمرار الاتحاد السوفيتي في حالة التطور الداخلي والاسترخاء الخارجي مع تنمية اتجاه تعاون الدول.

●٢النموذج ج: استمرار المواجهة، تدهور الموقف الاقتصادي مع استمرار سباق التسلح، وهو الموقف الذي يريد جورباتشوف تفاديه، ولكن ربما تفقده الظروف الضاغطة القدرة على ذلك.

النموذج د: استمرار السعي للسيطرة على العالم، وهو حلم مازال يسيطر على موسكو، ويشكل في الوقت نفسه كابوسا بالنسبة للولايات المتحدة.

إن أخطر الاحتمالات هو الاحتمال «أ»، إذ لا يمكن تصور أن قيادة جديدة لن تنبعث للسيطرة على الموقف بالقمع الذي عرفه العالم أيام لينين وستالين خاصة، إذا حاولت الولايات المتحدة أن تستغل الموقف لصالحها كالمعتاد. إن هذا الاحتمال سيدفع العالم إلى موقف مواجهة خطيرة تجعل العقلاء لا يتمنون حدوثه.

أما الاحتمال «ب» فهو الأنسب بالنسبة للاتجاهات المعتدلة ولكنه يخلق مشاكل حقيقية بالنسبة للغرب: إذ يجعل استمرار السيطرة السوفيتية على شرق أوربا أمرا مقبولا. ثم ما الذي

* استاذ التاريخ الحديث في جامعة اكسفورد ومدير معهد الدراسات الاستراتيجية وقد قدم رأيه في مؤتمر عقد بين ٢٧ - ١٩٨٨/٩/٣٠ بعنوان «الناتو في العقد الخامس» ونشر البحث في مجلة Survival عدد نوفمبر/ديسمبر ١٩٨٨ بعنوان «تحدي جورباتشوف والدفاع عن الغرب» The Gorbachev Challenge and The Defence of the West

يحدث بالنسبة لحلف الأطلنطي ؟ هل تبقى الحاجة إليه قائمة والاتحاد السوفيتي على هذا القدر من التعاون والصداقة ؟ ألا ننظر إلى بقاء القوات الأمريكية في أوربا على أنه أمر غير مرغوب فيه بل معطل لانسحاب القوات السوفيتية من شرق أوربا ؟ ألا يدفع ذلك الولايات المتحدة لكي تتعامل مباشرة مع القوة العظمى الأخرى دون التورط في أوربا ومشاكلها ؟ ثم هل يبقى في ظل روح التعاون هذه مانع من حصول الاتحاد السوفيتي على مركز المشاركة في العالم الثالث ؟ وباختصار ألا يكون « جورباتشوف » باتباع هذا الحل ، قد حقق بالوسائل السلمية ما فشل في تحقيقه من سبقوه باستخدام المواجهة والقوة ؟ لقد قلنا له شروطنا بخصوص تخفيض الأسلحة النووية من أوربا ، وقلنا له ، اترك افغانستان وخفض قواتك من أوربا ، وبضرورة التفتيش على مواقع الصواريخ ، ونفذ كل ذلك . ويزداد الأمر سوءا بالنسبة للغرب ، ان الرجل يعني وينفذ ما يقول ، فهو متأكد أن الغرب لن يشن عليه الحرب ، ولذلك فهو يوفر من نفقات الدفاع لرفع مستوى المعيشة ، إن تخفيض القوات في صالحه ، ولكن تخفيض قوات الغرب يسبب لدوله مشاكل لا يمكن مواجهتها ، أولها زيادة البطالة ، فماذا نفعل مع هذا الرجل ؟

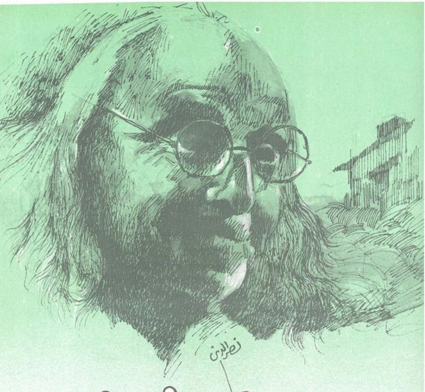
أما الاحتمال « ج » فهو استمرار الوضع الذي كان سائدا قبل « جورباتشوف » ، وهو وضع المواجهة وسباق التسلح الذي يحاول الرجل أن يفلت منه ، ولكن قد تستجد ظروف ضاغطة تمنعه من ذلك . الغرب يرحب بآراء « جورباتشوف » في العلن ، ولكن هل هو حقيقة يرغب في أن يقوم بتنفيذ إصلاحاته ؟ فاستمرار التهديد السوفيتي يزيد من تضامن دول حلف الأطلنطي ، ويخفف من نسبة البطالة ، ويستنزف القدرة الاقتصادية للاتحاد السوفيتي في سباق تسلح غير متعادل . ولكن إلى جانب هذه المزايا هناك عيوب من استمرار وضع المواجهة ، بالنسبة للغرب فهو يزيد من أعبائه الاقتصادية نتيجة لسباق التسلح ، ولعمق الخلاف بين دوله ، لمطالبة الولايات المتحدة في إلحاح بزيادة نسبة نفقات الدفاع لتخفف من أعبائها الدفاعية . وألمانيا الغربية تجد صعوبة في استمرار تجنيد قوة بشرية هي في حاجة إليها لزيادة الانتاج ثم زيادة معارضة الرأي العام .

أما الاحتمال « د » فلا يحتاج إلى تعليق لدرجة أن الحكومات تفضل مخاطر الحل « ج » ليس فقط للشكوك والمخاوف التي يثيرها الحل « ب » ، ولكن من خوفهم لتطور الموقف إلى الحل « د » ، لأن تجاوب الغرب مع الحل « ب » يحتاج إلى جسارة في مقابلة إجراءات « جورباتشوف » باجراءات مماثلة ، على الرغم من المخاطر المحتملة على أساس اعتبار خطواته على أنها فرص للإنتاج مرة أخرى ، وليس على أساس أنها تحديات يجب مواجهتها بطرق أخرى .

وجهة نظر رابعة في موضوع مثير ، وسوف يثير كثيرا من التساؤلات والاحتمالات . بقيت نقطة أخيرة . ألا نحتاج نحن العرب وسط كل هذه الفرقعات التي تدور من حولنا إلى « بيريسترويكا » عربية يصحبها « جلاسنوست » عربي ؟ أعتقد ذلك . □

مختارات لغوية

- عركتهم المواقع ، وعجمت عودهم الحروب .
- خابت آمالي ، وتمزقت مطامعي ، وطارت مع الرياح أحلامي .
- تناثرت الدموع من عينيها ، كما يتناثر اللؤلؤ من عقد انفصم سمطه .
- إنه عظيم الأنفة ، قوي الشكيمة ، مخاطر في حب وطنه .
- إنه حازم حذر ، لا يضع قدمه إلا حيث ترى عيناه .



بيت متحف

قصة للكاتب البلغاري ديميتر ياروموف

ترجمة : سهيل أيوب

كان سكان الطابق الأرضي غرباء ، لكنهم هادئون ، يدفعون الأجور في أوانها .

وكانوا يخاطبون الشيخ قائلين :

ـ البيت بيتك ، ومن أجل هذا نسدد لك الأجرة .

فتغمر الفرحة قلب شيتان لما يظهرون من احترام ، ويعطي ابنه النقود ، فهو في غنى عنها .

ويرجع الابن النقود سراً إلى المالكين الحقيقيين في الطابق الأرضي . كان قد استأجر الطابق العلوي ، ودأب على مخاطبة والده قائلاً :

ـ ابْقَ معي في المدينة . فأنت في بيتك الذي تملكه ، أليس كذلك ؟

أقام الشيخ في الطابق العلوي . لم تكن ثمة فسحة في المكان . وما أن تبادر كنّته وابنه إلى عملهما حتى

يتسلق إلى العلية ويقعد بجانب النافذة الصغيرة القريبة من السقف ، ينفذ منها بصره ناحية الجنوب . كان يلوي عنقه في بعض الأحيان خارج تلك النافذة وينظر يمنة ويسرة ، فيلمح في الأسفل سقوف المدينة وذلك الامتداد الأبيض لنهر توندجا . وكان الناس يلوحون مصطبغين باللون الأصفر على طول النهر ، وضباب الخريف يهوّم فوق رؤوسهم .

ويذكر كروستيو شيتان الأصياف القليلة الأخيرة . تمتلىء باحته في الصباح بالضجيج . تصايح الديكة أول الأمر ، وبعد ذلك ينهض شيتان نفسه على قدميه . وبعد فترة من وقت ، حين تزدهر السماء بأسرها ، يستيقظ الحمام تحت أفاريز البيت ، ويطلق الاوز بربرته وهو يتهادى في مشيته ناحية السد . ويقبع الخنزير عند قضبان زريبته ، وتقعقع الدلاء ، وشيتان متجه بها إلى الزريبة لإطعامها . وبينما يقبع الخنزير يأخذ الكلب بشد سلسلته وينبح . ويبدأ الحمام ينقر بمنقاره وهو يرسّل هديله إلى أوان الظهيرة .

حين ينبلج الصباح تتفجر حركة واضطراب صاخبان ، تمد الديكة رؤوسها ، وترفع أصواتها إلى السماء ، محطمة السكون المخيم على القرية ، وتتجمع طيور الحمام صافقة بأجنحتها ، عائدة إلى السطوح مرة أخرى .

المطر آت ، فيهذب الشيخ سيره إلى المستشرف ، ويمدُّ بصره إلى « غيرين دير » ، حيث تترامى حقوله .

إن مجلس القرية يطالب ببيته ، لأن هذا البيت قديم حسن الترتيب والعناية . أعلن رئيس المجلس أنهم سيحولون البيت إلى متحف ، وشدد عليه أولاده للقبول بذلك ، فقاوم فترة من زمن ، لكنه حين قال بينيو ، ولده الأصغر ، إنه سيملك في المدينة بيتاً خاصاً به استسلم الشيخ ونفض عنه عناده .

ذات يوم أحد من شهر أيار (مايو) عجّت باحة كروستيو شيتان بالناس . ألقى أولاده الثلاثة الخنزير على الأرض وذبحوه ، وبين الهرج والمرج والصيحات عمدت كنائنه إلى القبض على الديكة والاوز ، وشرعن يذبحنها على خشبة التهريم . ملأت الحيوانات المذبوحة الباحة ناثرة الدماء في كل مكان . وعندما أسلمت أرواحها انسحبت الكنائن إلى ثلاثة أمكنة مختلفة من الباحة ، وقد حملت كل منهن نصيبها من الذبائح لنتف ريشها . وبعد ذلك امتلأ الفضاء بالريش ورائحة ما تطاله النار . وتسلق الصغار إلى السطح لاصطياد طيور الحمام ، فأمسكوا بعضها ، وبقي بعضها الآخر هنالك مسترسلاً في هديله . وظل الشيخ من المستشرف يحلّق ببصره تجاه « غيرين دير » .

حين انتهى تقطيع كل شيء وتم حزمه ، جمع الأولاد الثلاثة زوجاتهم وصغارهم ورحلوا . وبقي الشيخ وحيداً لتصفية حساباته مع مجلس القرية والانضمام من بعد إلى ولده الاصغر في المدينة .

وبينما كان يطل من النافذة الصغيرة في العلية استرجع في مخيلته ذلك النهار مائة مرة من غير أن يلحظ أن الأيام غدت الآن قصيرة ، فالعربات التي تجتاز الطريق تتحرك بسرعة أكثر ، وبوق ثكنات الجيش يرتفع صداه في وقت متأخر من العشية ، وتعود الحافلة (الباص) من بيفاكا ـ قريته الأم ـ بعد أن يبسط الليل رداءه الأغدف . كان الوقت ما يزال معتماً حين تردد صوت بائع الحليب باكر الصباح . يتريث طويلاً على الدوام أمام البيت لمعرفته أن شيتان جاء من إحدى قرى توندجا السفلى .

كان ينادي :

ـ مرحباً ، يا جار ! كيف تسير الحياة ؟ صارت مألوفة لديك ؟

فيرد عليه شيتان قائلاً :

ـ لست أدري . وأنت ، كيف أمورك ؟

ذات يوم توقف بائع الحليب في طريق عودته أمام باب البيت مرة أخرى . صاح :

ـ مرحباً ، يا جار . أين أنت ؟ أريد أن أسمعك خبراً .

فخرج شيتان إليه :

ـ ما الخبر ؟

ـ انظر ، يا جار . هل هذا البيت بيتك ؟

أجاب شيتان : - أنىٰ لي أن أعرف ! أفترض أنه ينبغي أن يكون بيتي .

- حسن . إنه ليس بيتك ، يا جار . أظنني سمعتك البارحة تخاطب الجيران في الطابق الأرضي في قليل من الحدة . كفّ عن ذلك لأنهم أصحاب البيت . ولدك بينيو يقوم ببناء بيت ، لكنه لم ينته . كذب عليك كي لا ينهشك القلق . والآن ، لا تخبره أنك عارف بخدعته الصغيرة ، لأنه قد يقلق .

قال شيتان في صوت هزيل مرتعش :

- لقد عرفت .

هجر النافذة الصغيرة في العلية ، ولن يعود إليها أوان العصر . وحين آب ولده من عمله ألفاه متخذا مجلسه في المطهى محدودب الظهر .

قال شيتان :

- أحسبني سأذهب إلى القرية فترة من زمن . أريد رؤية رفاقي القدامى وجيراني .

كانت السماء ملبدة بالسحب ، والظلمة تنتشر مسرعة . استنشق شيتان الهواء الرطب ودلف إلى الباحة . حين كان يثوب من الحقول في مثل هذه الأمسيات الماطرة يدور حول البيت ومخزن التبن عَجِل الخطا . ويضع كل شيء في أمان . ويبعث التبن حيث انتشر على أرض الدراسة رائحة قوية ، فيحس شيتان بموجة من نشاط طري في ساعديه . وتقرق الدجاجات ، وتشخر الأبقار والخيول ، وتترجّع في كل مكان أصوات أولاده وكنائنه .

دلف في الآونة إلى الباحة وسرّح البصر حواليه . هذه طيور الحمام تصفق بأجنحتها مرة أخرى بين حين وحين ، وتحوم فوق البيت . والسور قد جدّد حديثاً ، وتم إصلاح زريبة الخنزير ، واستبدل باب البيت . وألصقت أواني الفخار على أعمدة السور . وجثم ديك على هذا السور أمام البيت . لم يكد شيتان يقترب منه حتى لحظ أنه مصنوع من الخزف دعاية للمتحف . وكانت المدحاة الخشبية في منتصف أرض الدراسة . جرّها إلى تحت مظلة مخزن التبن ، كما جر العربة ذات العجلتين إلى تحت المظلة ايضاً . وأصابته أولى قطرات المطر وهو يجمع مدمات العشب .

عجل كروستيوشيتان عبر الباحة خطواته ورقي الدرج الخشبي المصرصر ، فأيقظ البيت من هجعته . لم يشعل النور في الخارج ، واجتاز الشرفة في أناة مرهفا سمعه إلى صدى قدميه .

كان للغرفة الكبيرة - حيث اعتادت بناته النوم - باب جديد له قفل جديد . أخرج الشيخ المفاتيح ، وخطا فوق العتبة المرتفعة ثم تراجع فجأة ، لقد اهتز الباب على مفصلاته مصدراً صوتا غير مألوف لديه .

شم الشيخ رائحة غريبة ، فخرج من الغرفة ، وألقى نظرة جديدة على الباحة كمن يريد أن يبعث فيها الحياة مرة أخرى ، هي وصرير عجلات العربات خلال موسم الحصاد ، ورائحة التبن المدروس القوية ، وضحكات بناته ، وشتائم أبنائه ، وأغنيات الديوك في عيد القديس إلياس ، وضجيج الأغنام ، والكلاب ، والأبقار ، والحمير ، والخيول ، والخنازير .

وطيور الحمام وحدها تصفق بأجنحتها فوق البيت ، والمطر كاد يهطل ، والليل لم يخيم على الشرفة . ومن احدى الزوايا نظرت إلى شيتان شزراً دمية كبيرة محشوة بالقش تلبس قبعة من الفرو على رأسها .

« حسن ، حسن ، حسن ، يا شيتان ، لقد صنعوا رجلاً يملأ مكانك ، فأنت في سبيلك إلى الرحيل عن هذا العالم . ألم يخطر لك في بال كميات الثلوج التي هطلت عليك ، وكميات الأمطار التي بللتك ! وهذا الرجل يستريح الآن على منبذتك ؟ ألقِ به من الشرفة ، وليبلله المطر أيضا . انظر ، المطر آت من « غيرين دير » ، من هذه الناحية » .

ألقى شيتان الدمية ، ورجع ناحية منبذته ، وتراخت ساقاه تحته ، تاركاً يديه تسقطان متراخيتين على ركبتيه .

هطل المطر في عذوبة على الباحة ، فقطعت طيور الحمام هديلها ، وشرعت قرميدات السطح تهمهم في رقة . وأظلم الليل ، وراحت الهضبة فوق « غيرين دير » تذوب وتتلاشى في الظلمة المتوانية . وكان شيتان يطيل النظر إلى تلك الناحية ، وعيناه تغرورقان بالنداوة شيئاً فشيئاً . □

عندما يطالع القاريء منا كلمة « المكتوبجي » فربما يتجه ذهنه إلى أنها تعني الشيء المكتوب ، ولكنها في الحقيقة كانت تطلق في القرن التاسع عشر وما قبله على رقيب المطبوعات ، ولذلك كان المفكرون والحالمون بالحرية يسمونه « شرطي الفكر » وكم كان لهذا « المكتوبجي » من نوادر !

غرائب

"المكتوبجي"



بقلم : شريف الراس

يبدو أن العرب كانوا قبل مائة سنة ، مبتلين بظاهرة استبدادية مؤلمة ، سماها الناس « مقص رقيب المطبوعات » ، وسماها عرب ذلك الزمان « المكتوبجي » ، حسب منطوق اللغة الرسمية للسلطنة العثمانية التي كانت تحكم معظم أقطار وطننا العربي .

ويبدو أنه كان للمكتوبجي (أو شرطي الفكر في رأي الشعراء الحالمين بالحرية دائما) مواقف عجيبة ومدهشة وغير معقولة إلى حد دفع الكاتب الشامي سليم سركيس لأن يؤلف عنها كتابا كاملا ، أصدره في بيروت عام ١٨٩٦ بعنوان « غرائب المكتوبجي » . وفي هذا الكتاب نقرأ أن [محرر الجريدة لا يجوز له أن يذكر كلمة (جمهور) في كتاباته ، بل يجب أن يقول « الشعب » أو « القوم » ، وفي الاعلانات يقال عادة « نعلن لحضرة الجمهور » فيحذفها « المكتوبجي » ويضع محلها

« نعلن لحضرة القوم » . وذلك خوفا من انشغال أفكار الناس بالجمهورية والميل إليها] .

ومن « فرمانات المكتوبجي » أي أوامره المخيفة التي كان يوجهها للكتّاب والصحفيين ، حظر استعمال كلمة « جلالة » ، فهذه الكلمة موقوفة حصرا على السلطان العثماني المقيم في قصر يلدز بالآستانة (استانبول) ، فإذا قال صحفي « جلالة امبراطور روسيا » ، مثلا ، فإن مقص الرقيب يحذفها .

كلمات لها معنى !

وأعجب من هذا أن مقص الرقيب كان يتجاوز حدود الكلمة المطبوعة ، حتى يصل إلى ألسنة المطربين . فعندما زار السلطان عبدالحميد مصر في أواخر القرن الماضي ، وأراد خديوي مصر تكريمه بجلسة طرب يحييها المطرب الشهير عبده الحامولي سئل الحامولي « ماذا ستغني » ؟ فقال : سأغني دور :

غـاب عـن عـيـنـي مـرادي
وانهـمـل دمـعـي صـبـيـب

فأمره « المكتوبجي » أن ينسى كلمة « مرادي » ويضع مكانها كلمة « حبيبي » ، حتى لا ينزعج السلطان من سماع كلمة « مرادي » ، إذ يتذكر بأنه إنما تولى السلطة على إثر عـزل شقيقـه مـراد الذي لم يهنأ بالجلوس على كرسي العرش أكثر من ثلاثة أشهر ، ثم سجن بعدها داخل قصره في استانبول إلى أن مات سنة ١٩٠٦ .

وكان « المكتوبجي » يحذف كلمة « الحركة » أينما وردت في الأخبار أو التعليقات ، لأنها ـ في نظره ـ تعني « الثورة » .

وعندما نشرت جريدة الأحوال البيروتية خبر قدوم الوجيه البقاعي « الياس الباشا » من زحلة إلى بيروت ، تدخل « المكتوبجي » فغير اسمه في الجريدة « الياس الباشة » لئلا يظن الناس بأنه يحمل رتبة الباشوية .

ومن حسن حظ هذا الوجيه الزحلي الياس بك الباشا أن « المكتوبجي » الذي أمر بتغيير اسمه لم يكن من عشاق أكلة « الباجة » الشهية ، وإلا لسماه « الياس بك الباجة » ، فيصبح اسمه بالعربي الفصيح : الياس بك كرشة الخروف ورأسه وكراعينه مطبوخة .

وهذه الحكاية العجيبة تذكرني بواقعة طريفة ، بطلها صديق لنا من آل الدُّبَّيك ، (أي الماهر في الدبكة أو الذي يدبك كثيرا لأسباب لم يدرسها علماء النفس بعد) . أراد أن يمازح مدير الأحوال المدنية في بلدته الصغيرة ، فرفع عليه دعوى قضائية يطالبه فيها بأن يعيد الأمور إلى نصابها ، فيمحو من سجلات النفوس اسم « الدُّبَّيك » ، ويكتب مكانها « الدّب بيك » ، (على وزن الدب أفندي والدب باشا) ، لأن هذا هو الاسم الأصلي للعائلة قبل أن يصيبه التحوير والتحريف . وعندما قرأ القاضي صحيفة الدعوى ضحك ونصح صاحبنا بأن يتخلى عنها ، لأن كلمة « الدبيك » تظل أجمل وأخف وطأة من « الدب بيك » ، إذ كيف يكون الدب بيكا ؟!

شوقي والمويلحي

فإذا رجعنا إلى صحف ما قبل تسعين سنة ، فإننا نقرأ في جريدة المؤيد ، الصادرة يوم ١٩٠٠/٢/١١ مقالا يثير في قلوبنا ـ نحن عرب اليوم ـ الشفقة على ما كان الصحفيون والقراء يعانونه من استبداد « المكتوبجي » في ذلك الزمن ، فقد كان ذلك المقال بعنوان « المطبوعات في دار الخلافة » ، وخلاصته أن الجرائد تئن أنين الداء العضال بعلة الرقيب وتسلطه العجيب .

وهذا الأنين من أوجاع « الداء العضال » نسمعه حتى من أمير الشعراء أحمد شوقي الذي شكر الله تعالى على الفرحة بترحيل « مكتوبجي » بغيض وقال :

لَنَا رقيبٌ كانَ ما أثقلَهْ
الحمدُ للهِ الذي رَحَّلَهْ
لو ابتَلَى اللهُ به عاشقاً
ماتَ بِهِ ، لا بِالجَوَى والوَلَهْ
لو دامَ للصُّحْفِ ودامَتْ لَهُ
لم تَنْجُ منه الصُّحُفُ المُنزَلَهْ
إذا رَأَى الباطِلَ غالَى بِهِ
وإنْ بَدَا الحَقُّ لَهُ أَبْطَلَهْ

عن الحق الذي يبطله شرطي الفكر يخبرنا الأديب العربي الكبير ابراهيم المويلحي في مقالة منشورة بجريدة « المقطم » قبل ما يقارب مائة سنة (أن عالما أرمنيا ألف قاموسا بالتركية والأرمنية ، وعرض الكتاب على الحكومة ابتغاء الإذن بطبعه . فلما وجد رجال الحكومة في القاموس - كما يوجد في غيره - كلمة « السيف » مترجما بالتركية والأرمنية أمروا بمحو هذه اللفظة ، وقالوا : لا يجوز أن تكون في قاموس أرمني كلمة « سيف ») .

ويخبرنا هذا الكاتب الكبير الذي عاش عشر سنوات في قصر السلطان بالآستانة ، بوصفه واحدا من رجال البلاط المقربين ، أن (القاريء منهم يقرأ الكتاب المطبوع في الآستانة نفسها بإذن الحكومة مرارا ، فيجد فيه جملة ، فيكتب تلك الجملة ويبني عليها خراب الدولة ، فتصدر الأوامر بجمع الكتاب من الأقطار وإحراقه) .

ومن الطريف أن ابراهيم المويلحي الذي يستنكر جريمة « الجمع والاحراق » راح هو وكتابه الثمين « ما هنالك ؟ » ضحية النار نفسها . يقول حفيده ابراهيم المويلحي في مقالة نشرها بمجلة الرسالة (إبريل - نيسان - ١٩٣٨) :

« ولما كان إبراهيم بك مشغوفا بالتحرير أخذ ينشر في « المقطم » من وقت إلى آخر مقالاته الانتقادية فيما رآه في الآستانة العليّة مدة إقامته فيها بعنوان « ما هنالك ؟ » ثم جمعها وطبعها كتابا سنة ١٨٩٦ ميلادية ، فبعث السلطان عبدالحميد يأمره بإرسال جميع النسخ التي في حيازته إلى « المابين » (أي قصر السلطان في الآستانة) ، فخضع ابراهيم لأمر جلالته ، وأرسلها جميعا إليه ، ما عدا بضع نسخ كان قد وزعها على عائلته وأصدقائه . لذلك يندر وجوده » .

ومن حسن الحظ أن هذا الكتاب الطريف والمشوق والثمين بعث إلى الحياة من جديد ، بعد تسعين سنة من إعدامه ، إذ أصدره عبدالرحمن شلش في القاهرة عام ١٩٨٦ مصورا « بالأوفست » ، مع دراسة تاريخية كتبها أحمد حسين الطماوي ، ومقدمة للدكتور علي شلش .

ومنذ الصفحة الأولى ، أو من المقالة الأولى فيه ، يحمل ابراهيم المويلحي (١٨٤٥ - ١٩٠٦) حملة شعواء على « المكتوبجيين » ويصفهم بأنهم لا يخدمون مصلحة السلطان وإنما هم « قوم استؤجروا عليه لسقوط مروءتهم وفساد مزاجهم » ، ويقول : « اللهم نستغيث برحمتك أن تبعد عن جلالة السلطان هؤلاء الأشرار الذين لو اجتمع منهم عشرة على أنظم سلطنة في العالم لخربوها في بضعة أيام » .

حيوان يلدز

ويذكر المويلحي بعد ذلك حوادث عديدة ، وغريبة جدا تؤكد أن أصغر « مكتوبجي » قادر على تدمير حياة أي إنسان في الدولة ، مهما علت رتبته ، وهذا ما حدث لمنيف باشا ناظر المعارف (أي وزير التربية والتعليم) ، عندما (ألف كتابا مدرسيا ، واتفق أن ورد في الكتاب ذكر (الحباحب) ، وهو حشرة يضيء ذنبها في الليل كالنجم ، فعبر عنه منيف باشا (بحيوان يلديز) ، ومعنى يلديز النجم ، فطار الجواسيس إلى السراي السلطانية ، وقدموا التقارير السرية بأن منيف باشا يعرض بجلالة السلطان في قوله عن « الحباحب » أنه « حيوان يلديز » على سبيل التورية . فعزل الباشا في الحال ، وبقي في نحوسة نجمه خمس سنوات مغضوبا عليه لهذه الكلمة التي ما خطر على باله غير معناها الحقيقي) .

وعلى الرغم من أنك إذا التقيت واحدا من هؤلاء « المكتوبجيين » (وخاطبته فيما خرج عن أشغال السراي وجدته عاميا عريقا في العامية ، أمّيّاً ، وإن كان يخط بعض الحروف ، فهي لا تؤدي معنى ، وربما اجتمع على سطر يكتبه ثلاثة أو أربعة من الكتاب ، فلا يكشفون قصده إلا بالحدس والتخمين) . وإن هذا الأمي الجاهل قادر على تحطيم أكبر عالم في البلاد ، كما حدث لحسن فهمي باشا عندما ألف كتابا في حقوق الدول ، (أي الحقوق الدولية) ، (أعجب به العارفون ، وطبع في سائر الأقطار ، وقرأه المؤلف بنفسه مرارا على طلبة مكتب الحقوق (أي كلية الحقوق) ، وقدم منه نسخة لجلالة السلطان لتوضع في المكتبة السلطانية ، وتكلمت الجرائد التركية والافرنجية والعربية عنه ، ورسمت نظارة المعارف درسه في

مكتب الحقوق مع بقية الكتب التي اختارتها للدرس فيه ، فقام جاسوس من تلك النظارة يدعو بالويل على حسن فهمي باشا ، ويتهمه بالغش لذات السلطان) ، لورود عبارة حقوقية في الكتاب ، فسرها على هواه . (وكتب الجاسوس تقريرا لجلالة السلطان بهذا فجاءه الطلب إلى السراى ، وقوبل بالاحسان والالطاف ، وصدرت الارادة السنية في الحال بجمع الكتاب وإحراقه ، وأن لا يُذكر في مكتب الحقوق اسمه ، وأن يرسل كتاب توبيخ إلى حسن فهمي باشا ، وللإحسان على الجاسوس بالرتبة الأولى من الصنف الأول ، وبمائة وخمسين ليرة . وقد قال الجاسوس بعد خروجه من السراى لصاحب له : عليّ بعد تقريران لأصل إلى رتبة الوزارة) .

بعد هذه (النماذج) المذهلة يصبح من السهل فهم موقف هذا الثائر العربي ابراهيم المويلحي وحملته الشعواء على رجال « شرطة الفكر » الذين يصفهم بأنهم « أشربوا في قلوبهم التجسس » في زمن كان الأدباء ورجال الفكر فيه قد بلغوا حالة من القهر والذل والفقر ، جعلت هذا الكاتب يصف حالة إنسان بأنه « وقف أمام الآغا أذل من وقفة مؤلف يطلب من المعارف إذنا بطبع كتابه » . ويمضي المويلحي في كتابه الجميل « ما هنالك ؟ » قُدُماً ، فيقارع « المكتوبجيين » الحجة بالحجة ، فاذا قالوا : إنه لا يجوز أن تنشر في الصحف أي أخبار محلية عن التخلف أو الانحراف أو سوء الأحوال المعيشية (لأن من الحزم تعظيم الدولة في عين عدوها حتى يقع في روعه أنها قوية عزيزة منيعة الجانب ، فييأس منها وينقطع طمعه فيها) فإنه يرد عليهم بأن هذه الحجة غش للدولة وتدليس بها ، أولا : لأن عدوها متنبه يقظ متأمل ، فهو أبصر بمغامزها وأخبر بدخائلها ، بل مطلع منها على ما لم نحط به خُبرا . وثانيا : لأنه إذا كان عدوها بحيث يجهل دخائلها وهي بادية للعيان فأهون به عدوا . وثالثا : لأنه إذا خيف على الدولة عاقبة التنبيه كان الخوف عليها من التمادي على الخلل أشد ، فإنه أعجل من العدو سيرا ، وأسرع بطشا ، وأسوأ تأثيرا .

وإذا قال « المكتوبجيون » : إن تنبيه الدولة إنما هو فضيحة من غير جدوى ، رد عليهم المويلحي بأن الفضيحة لو كان في اتقائها خير لتعطل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولما كان الدين النصيحة ، ولما قال الفاروق رضى الله عنه : من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقومه . ومع كل ذلك فأي عورة مستورة منا حتى نتقى الفضيحة من كشفها ؟!

وما لنا فيما نكتبه عن البلاد العثمانية هو أننا نريد تنبيه الأمة إلى ذاتها لتنقذ نفسها من سوء المظالم ومن التمزق والتشتت الذي لا بد أن يلحقها إن هي بقيت على حالتها الحاضرة ، ولأجل أن تصير لها حكومة صالحة الإرادة ، منظمة الأحوال ، كبقية الأمم . وينحصر غرضنا (نحن الكتاب المخنوقين بكابوس المكتوبجية الخانق) في إعلان ما يخفيه عنها الظلمة من سوء أحوالها ، وإرشادها إلى المطالبة بحقوقها ، كما يكون الدواء بجانب الداء . ومن حقوقها أن تطالب بالإصلاح وتنفيذ القانون الأساسي وإعادة مجلس المبعوثين ، وتشكيل وزارة متصرفة مسؤولة أمام الأمة والتفسيح لحرية الأفكار كما هو موجود في أي دولة من دول أوربا . وهذا النظام وحده هو الكفيل الكافل لتحسين حال الأمة العثمانية ، وحفظها من التفريق والتمزيق ، وببركته تصير قادرة على صد كل طامع فيها . وأمامنا اليوم شاهد عدل من الحرب بين الصين واليابان كيف أن أمة صغيرة تغلب أمة عظيمة هي عشرة أمثالها ، بفضل هذا النظام .

وأخيرا ، فإنني أستعير من مقدمة كتاب « ما هنالك ؟ » ، التي كتبها الدكتور على شلش ، قوله : إن الخلافة العثمانية في السنوات التي عاشها المويلحي في عاصمتها (١٨٨٥ - ١٨٩٥) كان محكوما عليها بالسقوط . فكل ما يرويه المويلحي في فصول الكتاب دليل السقوط الوشيك . وهذا ما حدث بالفعل ، مما لم يشهده المويلحي في حياته . □

● أفضل الناس من تواضع عن رفعة ، وعفا عن قدرة ، وأنصف عن قوة .
(عبدالملك بن مروان)

واحة العربي



في الصميم

● صحيح أنني تحدثت كثيرا في ذلك المساء مع أناس مزعجين ، وذلك خشية أن أضطر إلى الاستماع .

« ريفارول »

● إذا أنت توقفت عن ترديد الأكاذيب عني ، أعدك بألا أقول الحقيقة عنك أبدا .

« ماري ديماريه »

● إن أسوأ ما في الأكاذيب والإشاعات التي تنشرها حولك الصحف ، هي أنها غالبا ما تكون حقائق لا تقبل الشك أو الجدال .

« جان أنوي »

قاموس الظرفاء

رب العمل : هو الشخص الذي يتأخر عن الوصول إلى العمل عندما تبكر أنت بالوصول ، ويبكر بالوصول عندما تتأخر .

سائق سيارة الأجرة : هو ذلك الشخص الذي يتقاضى أجرا مقابل نقل الناس من راحة المنزل إلى تعب العمل .

الصديق المخلص : هو الشخص الذي يعرف حقيقتك ولا يصارحك بها .

من القلب

اعتقاد خاطيء

● قال الجراح الكبير لمساعده الشاب : قل لي : كيف كانت العملية الجراحية ؟ أرجو أن تكون ناجحة .

فشحبت ملامح الشاب وتمتم :

هل قلت : إنها عملية جراحية ؟ اعتقدت أنها عملية تشريح .

هل تعرف ؟

● كان انجليزيان يتبادلان رواية النكات ، فقال أحدهما : اسمع يا عزيزي ، هل تعرف نكتة الدليل السياحي الفرنسي الذي كان يدل السياح على جمجمتين لجان دارك قائلا : إن الأولى كانت لها وهي فتاة صغيرة ، والثانية وهي امرأة فاتنة ؟

فأجابه الآخر : كلا يا عزيزي ، اروها لي .

صحيح ولكن :

● الأول : أنا أعشق مدينة لندن ، وأدين لهذه المدينة بأهدأ ساعات حياتي وأجملها .

الثاني : ولكنك لم تزر لندن .

الأول : صحيح ، أنا لم أزرها ، لكن زوجتي تقضي فيها شهرا كاملا كل سنة .

ضحكات عربية

كريم

قال ابن حسان : كان عندنا رجل مقل ، وكان له أخ مكثر ، وكان مفرط البخل شديد الفخر . فقال له يوما أخوه : ويحك ، أنا فقير معيل ، وأنت غني خفيف الظهر ، لاتعينني على الزمان ، ولا تؤاسيني ببعض مالك ، ولا تفرج لي عن شيء ، والله ما رأيت قط ولا سمعت بأبخل منك .

فأجابه : ويحك ، ليس الأمر كما تظن ، ولا المال كما تحتسب ، ولا أنا كما تقول في البخل ولا في اليسر ، والله لو ملكت ألف ألف درهم لوهبت لك خمسمائة ألف درهم . يا هؤلاء ! أفرجل يهب في ضربة واحدة خمسمائة ألف درهم يقال له بخيل ؟

ضحكات عالمية

الوحيد

● قال الشاعر الفرنسي كاتول مندیس مهاجما الكاتب المسرحي فكتوريان صاردو : إنه لا يستحق هذا النجاح .

فرد عليه أحدهم : أعتقد أنك تتحامل عليه ، فإن الجمهور يحب مسرحياته كثيرا .

فقال كاتول : الجمهور ؟ إنه الوحيد الذي يحبه .



الصلعة

لصديقنا في رأسِهِ صحراءُ
جفت فلا عشبٌ بها أو ماءُ
وكأنها الميدانُ مِنْ بَعدِ الوَغى
فني الجميعُ فما به أحياءُ
تزداد مَامَرَّ الزمانُ مساحةً
وصديقنا من كبرها يستاءُ
ولقد سمعناه يقولُ ودمعهُ
يجري فيُعمي مقلتيه بكاءُ
كم من دواً للشعر قد جربته
يومًا فراحَ سُدى وظلّ الدّاءُ
يا حسرتي ذهب الشباب وكان لي
فيه مآثر جمة غراءُ
أما الحسانُ الفاتناتُ فليس لي
مع صلعتي في وصلهن رجاءُ
قلنا له : مهلا فلم هَذَا البُكا
واسمعْ ففي هذا الكلام عَزاءُ
أوليس للإنسان في إحرازها
شرفٌ ويملكُ مثلَها العلماءُ
فأجاب : لا شرفٌ أريدُ ولا عُلا
أفما لديكم غير ذاك دواءُ ؟

« كان من أهم سمات الحضارة العربية الإسلامية قدرة المجتمع العربي على التسامح والتآخي ، هذه القدرة التي جمعت بين فئات المواطنين دون تمييز أو تفريق ، وعندما بدأت الأطماع الأوربية تجتاح الوطن العربي ، امتدت الأصابع لتشعل نار الفتنة وتلعب على وتر التفرقة ، وهذه وقائع أحداث واحدة من الفتن التي يسجلها تاريخ الوطن ، وما أشبه الليلة بالبارحة . »

من تاريخ الوطن العربي

أسرار الفتنة الطائفية

وبزوغ الوعي القومي في الشام

بقلم : الدكتور أسعد الأسطواني*

في مطلع القرن التاسع عشر كان الممثلون الرئيسيون على مسرح الأحداث في الشرق العربي هم : الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا ، وكانت الدول الأوربية تنتهج سياسات متنافسة ومتناقضة حول ما هو معروف بالمسألة الشرقية التي ولدت بالحقيقة من تضارب المصالح بين هذه الدول عندما بدأ الاقتصاد العالمي يدخل في طور الرأسمالية الصناعية .

المسألة الشرقية :

وكانت السّمة البارزة للقرن التاسع عشر هي التصنيع السريع لدول أوربا الغربية وانتشار الاستعمار الغربي في سائر أرجاء العالم . وكان نقصان المواد الضرورية لمعيشة بريطانيا سببا في اقتناصها المستعمرات المختلفة عبر البحار لتصريف انتاجها الصناعي،فكان ذلك يحتم عليها أن تسعى لبسط نفوذها في المشرق العربي لحماية طرق مواصلاتها نحو فارس والشرق الأقصى فأنشأت أسطولا بحريا معادلا في قوته جميع الأساطيل الأخرى المنافسة . وكانت بريطانيا حريصة كل الحرص على أن لا يكون لأي دولة أخرى كفرنسا وروسيا أي نفوذ على طرق مواصلاتها الى الهند .

وكان التنافس شديدا بشكل خاص بين الدولتين الاستعماريتين - فرنسا وبريطانيا - على اقتسام النفوذ السياسي والاقتصادي في أرجاء الامبراطورية العثمانية ولم يكن هذا الأمر مطروحا إبان قوة هذه الامبراطورية في العصور السالفة عندما كانت تشكل تهديداً خطيراً على الشعوب الأوربية الذين كانوا يعدون الأتراك مادة غريبة في جسم أوربا من الجوانب اللغوية والعرقية والدينية . ولقد وضعت الخطط الواسعة

* باحث وكاتب من القُطر العربي السوري

للقضاء على هذه الامبراطورية وباءت كلها بالفشل أثناء احتفاظها بقوتها .

ولكن في أواخر القرن الثامن عشر ، عندما أصيب العثمانيون بالضعف لم يعد الأوربيون يكترثون من أجل القضاء على الدولة العثمانية لأنها أصبحت أحد الأطراف في لعبة التوازن الدولي . ومن هنا برزت المسألة الشرقية وأصبحت وظيفتها التي تقوم بها هي تنظيم توازن القوى بين الدول الأوربية الأربع إضافة الى الدولة العثمانية .

حادثان خطيران

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر وقع حادثان خطيران كادا أن يطيحا بتوازن القوى ، وكان الحادث الأول احتلال القائد الفرنسي نابليون بونابرت لمصر ومباشرته غزو بلاد الشام ما بين عامي ١٧٩٨ و ١٨٠١ . وقد شكل هذا الأمر تهديدا واضحا لقوة بريطانيا في الهند ، ولسلامة الامبراطورية العثمانية ، مما أدى الى تدخل بريطانيا العسكري وهزيمة نابليون برا وبحرا وتكريسها كدولة تصون استقلال هذه الامبراطورية وسلامة أراضيها .

وأما الحادث الآخر فهو تعاظم قوة محمد علي باشا في مصر . وكان ابنه ابراهيم باشا يهدف لانشاء دولة عربية قوية وهو الذي قال : « لقد صيَّرتني شمس مصر عربيا » وعندما وصل إلى مدينة « أضنة » في أقصى شمال بلاد الشام كتب الى أبيه محمد علي باشا : « لقد توقفت في المدينة التي تنتهي فيها اللغة العربية » . وإذا كانت تجربة تلك الدولة العربية قصيرة في عمر الزمن إلا أنها أشعرت المستعمرين الأوربيين بخطورة اندفاع المصريين نحو المشرق العربي فأبعدوهم زهاء قرن كامل وراحوا يخططون منذ ذلك الحين لزرع دولة يهودية في قلب الأمة العربية .

وبعد انسحاب المصريين من بلاد الشام شجعت مصالح الدول الأوربية وتدخلاتها على إضعاف الدولة العثمانية فازداد نفوذ الممثلين الدبلوماسيين والقنصليين لهذه الدول وراحت البضائع الأوربية تغزو أسواق بلاد الشام عبر الوكلاء التجاريين المحليين الذين كان أغلبهم من الطوائف المسيحية .

الإصلاحات

ومما لاشك فيه أن حدوث الثورة الصناعية في أوربا أدى الى بروز علاقات عالمية جديدة حتمت على الدولة العثمانية السعي للحاق بأوربا . وكان أول عمل هام لها في هذا السبيل هو تحديث الجيش . وهكذا تم القضاء على نظام الانكشارية في عام ١٨٢٦ ، وكان يضم طوائف شتى من الجنود المرتزقة وحل محلها بعدئذ فرق من الجيش النظامي وفق الأساليب العسكرية الغربية .

وكان من نتائج وجود المصريين في بلاد الشام حدوث عدد من الاصلاحات الهامة . فأنشئت المدارس الحديثة ، وطبقت المساواة التامة بين المسلمين والمسيحيين . وقد شمل الإصلاح أيضا الادارة والقضاء ، وفتحت البلاد للمؤثرات الأوربية . ومع تبوء السلطان عبد المجيد الأول العرش العثماني في عام ١٨٣٩ صدر أول مرسوم للاصلاحات نتيجة للضغوط الأجنبية ، وكردّ فعل للإصلاحات التي أجراها ابراهيم باشا في بلاد الشام . وقد تلاه أيضا مرسوم آخر في عام ١٨٥٦ تم فيه الوعد بالمساواة بين المواطنين مهما كانت ديانتهم والتأكيد على مضمون المرسوم السابق . وكان الأمر البارز في هذه الاصلاحات أن الدولة أخذت بنظام الحكم المركزي ، فشددت قبضتها على الولايات العربية القريبة التي أصبحت مرتبطة مباشرة بالعاصمة استانبول .

ولتنفيذ سياسة القبضة الحديدية كان لابد للفئة الحاكمة في عاصمة الامبراطورية العثمانية ، أن تلعب على حبل التناقضات بين الطوائف المختلفة أسوة بالدول الأجنبية الأخرى

التي توازعت هذه الطوائف ، فاتخذ الفرنسيون جانب الموارنة فيما برز البريطانيون بمظهر المدافع عن الدروز ، فظهر الخلاف الدرزي الماروني على أشده في جبل لبنان ، فيما راحت الدولة العثمانية تستغل الأزمات الاقتصادية التي أصابت الحرفيين المسلمين في دمشق لتأجيج النعرات الطائفية بين المسيحيين والمسلمين .

الخلاف الماروني الدرزي في جبل لبنان

ولقد شكل الوجود المصري في بلاد الشام ضربة شديدة لبريطانيا التي راحت تسعى لجمع الأضداد ، فاستطاعت في نهاية الأمر تأليب الموارنة والدروز والشيعة على حكم الأمير بشير الشهابي الثاني وحليفه ابراهيم باشا . وهكذا اجتمع المتمردون في بداية صيف عام ١٨٤٠ ضد الحليفين اللذين استطاعا القضاء على التمرد .

ولكن في شهر سبتمبر (ايلول) من العام نفسه قصفت البوارج الأوربية مدينة بيروت بالمدافع ، ونزلت قوات بريطانية ونمساوية في مدينة جونية حيث انضمت إليها عصابات الثوار التي خرجت من مخابئها . وما أن دخل شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٨٤٠ حتى كان القائد المصري الكبير يسحب قواته من البلاد ، وبعد أيام غادر الأمير بشير الثاني لبنان على ظهر بارجة بريطانية منفيا الى مالطة .

وما أن تسلم خلفه الأمير بشير الثالث زمام الأمور حتى عاد الزعماء الدروز الذين أجبروا على ترك البلاد في أواخر الحكم المصري ، وبدءوا يطالبون بالحقوق والأراضي التي خسروها في العهد السابق . ولم ير الأمير الجديد بدًا من معارضة مطالب الزعماء الدروز ، فأدّى ذلك الى تفاقم العداوة بين الطرفين ، وفي أوائل عام ١٨٤١ توالت الحوادث بين الدروز والموارنة في منطقة دير القمر ، وانتصر فيها الموارنة فأضمر الدروز الانتقام .

وتدخل العثمانيون للتوسط في ظاهر الأمر ، ولكنهم راحوا يوسعون الخلاف بين الطائفتين ، ففي الوقت الذى كانوا يسعون فيه لإقناع المسيحيين بفوائد حكمهم المباشر كانوا يشجعون الدروز على نهب قُراهم وممتلكاتهم . وبعد ذلك أجبروا الأمير بشير الثالث على مغادرة البلاد ، وتمكنوا من بسط سلطتهم المباشرة على جميع أراضي لبنان ، ومن ثم نصبت الدولة العثمانية عمر باشا النمساوى حاكما على الجبل . وكان قناصل الدول الكبرى يشكلون مؤتمرا صغيرا دائما في بيروت ، فلم يرق لهم الحكم العثماني المباشر فبدءوا يتدخلون في كل أمر فلم يجد عمر باشا بدًا من الاستعانة بالموارنة ضد الدروز ، فاعتقل زعماءهم الذين ثاروا عليه واستطاع هزيمتهم بعد أن ضمن حياد الموارنة ، فتدخلت الدول العظمى ، وبعد مداولات عديدة صدر القرار بتقسيم جبل لبنان الى منطقتين ، احداهما في الشمال ويتولى شؤونها قائمقام ماروني ، والأخرى في الجنوب يتولاها قائمقام درزى ، على أن تكون الكلمة الأخيرة في القضايا الهامة لوالي صيدا (الذي كان يشرف على مدينة بيروت آنذاك) وأصبح طريق بيروت دمشق حدا فاصلا بين القائمقاميتين .

وهكذا عاش الجبل في جو من الهدوء النسبي حتى عام ١٨٦٠ ، فأتاح ذلك بروز التناقضات الطبقية بين الفلاحين الموارنة ومشايخهم وأمرائهم من الملاكين الكبار . ولقد وجد الاقطاعيون الموارنة بعد أن طردهم فلاّحوهم في كسروان في يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٥٩ ملجأ لدى الاقطاعيين الدروز الذين خشوا من ثورة مماثلة عليهم من قبل فلاّحيهم فراحوا يستعيدون الذكريات القديمة المؤلمة ويؤججون النعرات الطائفية من الفلاحين بين كلا الطرفين ، فانقلب الصراع الطبقي الى صراع طائفي . وما أن جاء ربيع عام ١٨٦٠ حتى كان الطرفان يتبجحان باستعدادهما للقتال، الذى اندلع فجأة من خلال عدة أحداث طائفية في زحلة ودمشق .

وقبل الحوادث ، كانت أنباء الفتنة الطائفية في لبنان قد وصلت الى استانبول ، وشاعت أخبارها في البلدان الأوربية ، فأراد السلطان عبد المجيد استباق ردود الفعل وتلافي ذيولها بسرعة قبل تدخل الدول الأجنبية ، فأرسل فرقة من الجيش مع وزير خارجيته فؤاد باشا مزوداً بصلاحيات واسعه . وعندما وصل الوزير الى بيروت أمر باعتقال والي صيدا خورشيد باشا ووالي دمشق أحمد باشا ، وتم اعدامهما بعد محاكمة سريعة .

ثم انتقل فؤاد باشا الى دمشق وأمر بالقاء القبض على عدد كبير من الناس واعدام ١١١ شخصا من المتهمين ، كما تم اعتقال أعضاء مجلس الولاية وعدد آخر من أعيان دمشق وعلمائها ونَفْيهم الى قبرص وتركيا ، على الرغم من أن المحاكمات لم تثبت اشتراكهم أو ضلوعهم في الحوادث ، مما يشير بوضوح الى أن الدولة العثمانية هدفت أيضا الى تلقين الدمشقيين درسا بليغا مفاده أن لا تطمحوا الى أي حكم مستقل وذاتي في المستقبل ، (وتوجد وقائع عديدة تشير الى الظلم الذى عاناه أبناء دمشق على أيدى الحكام الأتراك لا مجال لذكرها هنا) .

التمسك بالهوية العربية

وهنا لابد لنا أن نتساءل : هل كانت لدى أهالي دمشق طموحات وطنية وعربية ؟ كان أعيان دمشق في المدينة القديمة يشعرون بقدرتهم على التصرف المستقل عبر نظام اقتصادى واجتماعي متماسك ألفوه منذ قرون طويلة .

وكانت صدمتهم من تطبيق الاصلاحات شديدة ، لأنها اقترنت بتغلغل الأجنبي عبر قنصلياته ووكلائه التجاريين . فلقد احتكر أبناء الطوائف غير الاسلامية تجارة بلاد الشام في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وكانوا واسطة نفوذ الرأسمالية الأوربية في الشرق العربي . وكانت العائلات التي اغتنت أكثر من سواها هي العائلات المسيحية التي ارتبطت بشكل كامل بالسوق التجارية الأوربية ، وبالمقابل تأثرت الحرف والصناعات المحلية في المدن الشامية ، خاصة مدينة دمشق ، من منافسة البضائع الأوربية فتوقفت أعمالها مما دفع بأصحابها الى الفقر والافلاس والى اثارة الحقد والنقمة والبغضاء عندهم .

وكان الأعيان ، من الأشراف وأبناء الأسر الدينية العريقة ، يقومون بدور الوسيط بين الحكام والمحكومين . وكان يعيش معهم في المدينة الحرفيون والباعة الذين اعتادوا على نمط واحد من الحياة ، فلم يحاولوا تحسين وتطوير إنتاجهم ليواكب جودة وتقدم البضائع الغربية . وكانت الحرفة هي التي تضمن استمرار التقاليد العامة وتقاليد الأحياء الخاصة التي يخضع لها الحرفيون في علاقاتهم الاجتماعية والعائلية ، وكانوا بشكل أو بآخر تحت رعاية السلطة الدينية القديمة . وعندما هزت الصناعات الغربية أركان المجتمع القائم خسرت دمشق منافذها التقليدية ، بل انها خسرت نفسها وكل ما يمت الى وجودها الذاتي بصلة،فالعدو داهمها في عقر دارها . وكان رفض الغرب هو الرد الأول عبر رفض وكلائه التجاريين . ولقد كان ذلك في رأى الأعيان والعلماء الحرفيين دفاعا عن الوجود والنفوذ ولقمة العيش .

ومن جهة أخرى امتزج الفكر الديني بالنزعة الوطنية لدى أبناء دمشق ايذانا برغبتهم في التحرر من حكام استانبول . وكانوا عبر التمسك بالمواقع والدفاع عن المصالح يبحثون عن هويتهم العربية الشاردة ولسان حالهم يقول : نحن لسنا أتراكا ، نحن عرب ، وإن كنا عثمانيين ! ولقد رفضوا التبعية للأجنبي ، أي أجنبي ، سواء كان بريطانيا أو فرنسيا أو تركيا ، فمنذ مطلع القرن التاسع عشر ساهموا في صد الغزو الفرنسي عن بلاد الشام ، وحطموا جميع القنصليات الأجنبية في عام ١٨٦٠ . وقد ثاروا على والي دمشق التركي محمد سليم باشا في عام ١٨٣١ ، وقتلوه

هو وجميع أعوانه ، ولم تتناسب تلك الثورة بعنفها وقوتها مع مطلبهم المتواضع بالغاء ضريبة عقارية وجدوها مجحفة بحقهم .

وكانت الأنباء تبشر بقرب مجيء ابراهيم باشا المصري فاستقبلوه بترحاب كبير في عام ١٨٣٢ . وكان استقبال الدمشقيين للأمير عبد القادر الجزائري الذي اختار مدينة دمشق لسكناه في عام ١٨٥٥ بالغا حد الروعة . فلقد عبّروا بذلك عن نزعتهم العربية العميقة أمام البطلين العربيين الكبيرين فشعروا إزاءهما بالعزة والكرامة مقابل إحساسهم الدائم بالقهر والإذلال أمام الأتراك .

بزوغ الفكر القومي العربي

وكان من النتائج السريعة للأحداث الطائفية ، أن تنبه عرب بلاد الشام من مسلمين ومسيحيين الى ما يحاك لهم في الظلام لمنع التقائهم على أساس رابطة العروبة ، فجاءت الخطوات الأولى في هذا السبيل من العرب المسيحيين الذين تبلور لديهم شعور عربي أصيل بدا على مستوى تذوق اللغة العربية ، وعلى مستوى السعي لتحقيق نوع من التضامن يتخطى الحدود الطائفية ، وضمن مفهوم جديد يهدف الى تنمية الحس القومي العربي واجراء نهضة شاملة في جميع نواحي الحياة .

وفي هذا السياق نذكر عددا من المثقفين والمتعلمين من أمثال أحمد فارس الشدياق وناصيف وابراهيم اليازجي وبطرس وسليم البستاني وأديب اسحق وفرنسيس فتح الله مرّاش وغيرهم كثيرون .

ومن أهم ما تم على أيديهم أو أيدي بعضهم نشوء الجمعية العلمية السورية في بيروت في عام ١٨٤٩ (وكانت كلمة سورية تشمل في معناها لبنان وفلسطين وسورية الحالية) ، وظهور تيار ثقافي يمكن أن نصفه بالتيار الوطني العلماني الذي يعتمد المبدأ الوطني وينبذ الطائفية ويتميز بإحياء اللغة العربية وجعلها أداة طيّعة لاستيعاب العلوم والمفاهيم الحديثة ونشرها في البلاد .

وكان السيد بطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) أول من ألف في الخمسينيات دائرة معارف عربية تبدى اهتماما ملحوظا باللغة العربية ، كما راح ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦) يلقي في الجمعية العلمية السورية في عام ١٨٦٨ قصيدته المشهورة :

تنبهوا واستيقظوا أيها العرب
فلقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

وكانت القصيدة مشبعة بروح التمرد ، وقد دعا السوريين فيها الى الوحدة لإسقاط الحكم التركي :

لنطلبن بحد السيف مأربنا
ولن يخيب لنا في جنبه أرب

ولعل لأحمد فارس الشدياق (١٨٠١ ـ ١٨٨٧) المولود في لبنان ولفرنسيس فتح الله مرّاش (١٨٣٦ ـ ١٨٧٣) المولود في حلب ، وأديب اسحق (١٨٥٦ ـ ١٨٨٥) المولود في دمشق ، الفضل الأول في التنبيه الى الفرق الشاسع بين الظلم في الوطن الذي ينتمون إليه والحرية السياسية التي يتمتع بها الغربيون . أما فيما يتعلق بالأمة فإن النزعة القومية العربية واضحة في كتاباتهم وأشعارهم ، وقد تألم هؤلاء الثلاثة للنزعات الطائفية التي مزقت بلاد الشام ما بين عامي (١٨٤١ ، ١٨٦٠) فاستحال عليهم الشعور بأن الدين هو الرابطة الوحيدة ، فراحوا ينادون بالرابطة العربية .

ولم تكن فكرة العروبة من وحي أو من صنع العرب المسيحيين وحدهم ، فلقد كان الشعور بالانتماء العربي موجودا قبل الاسلام ، وكان واضحا إبان اندفاعات الاسلام الأولى عندما قام العرب الأوائل بانشاء الدولة العربية الاسلامية من الأندلس حتى تخوم الهند . والجدير بالذكر أن الاسلام لم يحارب المبدأ القومي ولم ينظر العلماء المسلمون الى فكرة الأمة العربية على أنها شيء غريب منافس للدين أو مناقض له ، وذلك اقتداء

بقول الرسول العربي عليه السلام : « أيها العرب ، الرب واحد والأب واحد ، وإن الدين واحد . وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وانما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي »

وهكذا نمت فكرة الأمة العربية مع نمو فكرة الاسلام ، بل انها وقفت في القرن التاسع عشر أيام الفكرة العثمانية ؛ تناظرها وتناقشها وتتصدى لها وتطالب بحقها منها ، ثم تعدها مغتصبة للخلافة الاسلامية ، وخاصة عندما شرعت النزعة الطورانية التركية تكشر عن أنيابها في أواخر القرن التاسع عشر ، حتى الحرب العالمية الأولى في القرن العشرين ساعية الى تتريك الولايات العربية القريبة من عاصمة الدولة العثمانية كبلاد الشام والعراق .

وكان السيد عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٢) والسيد محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) من بين أئمة الاسلام في زمانيهما ، ومع ذلك أعلنا صراحة تفضيل العرب المسلمين على الأتراك المسلمين ، فلقد كان موقفهما وقولهما بأن العرب هم مادة الاسلام وهم أحق بالخلافة من الأتراك ، يفصح عن إيمان أصيل بحق العرب في تنظيم حياتهم سياسيا على أساس وجود الأمة العربية . وفي كتاب « طبائع الاستبداد » وجّه عبد الرحمن الكواكبي كلامه الى الناطقين بالضاد من العرب المسيحيين قائلا : « ياقوم أدعوكم الى تناسي الأحقاد والإساءات وما جناه الآباء والأجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدى المثيرين (يشير الكواكبي الى موقف الدول الأوروبية في تشجيع واثارة هذه الأحقاد) يا هؤلاء : نحن ندير شؤوننا ، نتفاهم بالفصحى ونتراحم بالاخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء ، دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الآخرة فقط ، دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي : فلتحيا الأمة ، فليحيا الوطن ، فلنحيا طلقاء اعزاء ، أدعوكم وأخص منكم النجباء فلنبصر ولنتبصر فيما آل إليه المصير . . » .

وقد تابع السيد نجيب عازورى العربي الماروني أفكار الكواكبي ورضا وأعطاها تعبيرا أوضح وأكثر تحديدا في كتابه الذى نشره بالفرنسية سنة ١٩٠٥ « يقظة الأمة العربية » ، حيث انطلق في نظرته من واقع العرب عند الفتح الاسلامي ، وبأن سياسة العرب هي سياسة التحرير لا القهر ، بينما « الأتراك يضطهدون المسلمين العرب أكثر من اضطهادهم المسيحيين إلا أنهم يحرضون أولئك على هؤلاء » . وكان يتحدى دوما الأتراك بقوله بأن « النبي عربي والقرآن عربي ولغة السماء عربية » ، ويتبنى نجيب العازورى فكرة خلافة عربية روحية يشمل سلطانها الديني العالم الاسلامي كله ، وتكون لها سلطة زمنية في الحجاز ، والى جانب الخلافة الروحية تقوم امبراطورية عربية تمتد من وادى دجلة والفرات الى السويس ومن البحر الأبيض المتوسط الى بحر عُمان ، تحكمها ملكية دستورية حرة وسلطان عربي . □

من المجنون ؟!

● اشترى الإمام الشافعي رضي الله عنه جارية فلما كان الليل أقبل على الدرس ، والجارية تنتظره ، فلم يلتفت إليها ، فذهبت إلى النخاس ، وقالت : حبستموني مع مجنون . فبلغ ذلك الشافعي فقال : من عرف قدر العلم وضيعه أو توانى في تحصيله حتى فاته فهو المجنون .



« يدين عصر الإحياء العربي
لرجل ألباني الأصل ،
أدرك حقائق التاريخ والجغرافيا ،
واستشرف أهمية اليقظة ،
فساق هذه العوامل في ركاب أحلامه بالمجد ،
وبعدما راج مجده ومجد أسرته
لم يبق للتاريخ إلا تجربته نموذجاً
حافلاً جديراً بالتحليل والدراسة » .

تجربة محمّد علي التحديثية

بقلم الدكتور : أحمد عُلبي

لسنا مسرفين إنْ قلنا إن محمد علي هو المؤسس الحقيقي والباني الفعلي لمصر الحديثة . ثم لا غرابة أن يلتفت محمد علي أول الأمر الى الجيش ، فهذا الجيش أمسى بالياً ، ولهذا سَهُلَ على بونابرت القضاء عليه . والدولة الحديثة ، المتطلعة ، لا يستقيم لها الأمر من غير جيش منظّم . وأدرك محمد علي تقدّم الأوروبيين في هذا الميدان ، لذا طَمَحَ الى أن يبني جيشا مصريا عصريا على النمط الأوروبي ، فاستعان بأساتذة إيطاليين وفرنسيين لتنظيم الجيش . كما شيّد محمد علي أسطولا حربيا وأسطولا تجاريا بعد ذلك ، وما يستتبع من ترسانات وأحواض . ولهذا كله لم يكن غريبا أن تكون الطغمة العسكرية إحدى ركائز النظام الجديد . إن الاستعانة بالعناصر الأجنبية أملت الحاجة الى مدرسة الألسن . ثم إن التطور الذي عصف بمصر ، وقد التفتت شطر الغرب ، دعاها الى إرسال البعوث الى أوروبا ابتداء

من سنة ١٨١٣م . وكانت بعثة ١٨٢٦م هي الأهم ، وقد ضمّت واحداً وأربعين طالباً وفدوا على فرنسا ، وكان إمام هذه البعثة رفاعة رافع الطهطاوي الذي قُدّر له أن يلعب دوراً ريادياً في مجرى الثقافة المصرية . وماذا طلبت بعوث محمد علي في أوروبا ؟ إنها قصدت الغرب لتستوعب الأمور المالية ، والعسكرية ، والهندسية ، والصناعة الحربية ، والكيمياء ، والميكانيك ، والطب ، والزراعة ، والطباعة ، والترجمة . وبلغ من توطد صلات مصر الثقافية بفرنسا أن أنشأ محمد علي مدرسة مصرية في باريس ، كانت الغاية منها تدريس الطلاب الفرنسية ، توطئة لتلقّيهم التعليم العالي هناك .

محمد علي باني مصر الحديثة

ولهذا ، فبخلاف ما يعتقد بعض الباحثين ، لم يكن همّ محمد علي ، خلال حكمه المديد (١٨٠٥ - ١٨٤٨) ، محصورا في الجيش القوي فقط ، وإنما كان هذا الرجل الطموح يتشوف الى بناء دولة حديثة . وإلا فما معنى أن ينشيء محمد علي ديوان المدارس ، وأن يؤسس المدارس الكبرى على أنواعها ، ويأتي لها بالأساتذة من إيطاليا وفرنسا وانكلترا ؟ ولهذا نظم محمد علي الادارة ، وقد « مصّرها » بواسطة بيروقراطية منتقاة تعوّل على الكفاءات ، واستعان بالأقباط في هذا السبيل . ثم إن الدولة ليست جيشا وجهازا حكوميا فقط ، إنها مشاريع ومؤسسات وتخطيط للمستقبل . وهذا ما نهض به محمد علي عندما حكم مصر حكما قارب نصف قرن ، فأتاح له هذا الزمن ، مع ما عرف عنه من حس « برغماتي » يحتاجه أي حاكم حقيقي ، أن يحقق الكثير من مطامحه في البناء الاقتصادي ، بالاضافة الى ما تقدم من البناء الثقافي ، المتمثل بالتعليم العالي على أوسع نطاق ، وباعداد « الكوادر » العلمية الكفؤة والمتفوقة . وهكذا وجدنا محمد علي يصب اهتمامه على الأرض ، ومصر بلد زراعي في المقام الأول ، فيعنى بالتوسع في مشروعات الري ويطور أساليبه ، وذلك لزيادة المساحة الصالحة للزراعة . وخصوصا أن محمد علي اعتمد على تصدير محاصيل زراعية للسوق الخارجية ، فجنى منها أموالا كان محتاجا اليها ليوظفها في إنتاج السلع المحلية ، وهو الذي كان له فضل إدخال الآلات البخارية في عملية التصنيع . وفي هذا المسعى للتصدير الى الخارج استعان محمد علي بخبرة التجار القدامى ، وبالتجار الشُّوام ، وبالفنيين الأوروبيين .

إن هذا الانسان القدير ، الفهامة ، كان ألبانيا في الأصل ، وكان تركي النشأة والتكوين . وإن مطبعة بولاق التي أسسها محمد علي اهتمت بطبع بعض الكتب التركية ، نظير « رسالة التعليم الحربي » ، وذلك لأن فريقا من الضباط المشرفين على تدريب الجنود كانوا من الأتراك . كما أن جريدة « الوقائع المصرية » التي أصدرها كانت في أول أمرها بالتركية . ولكن محمد علي كان إنسانا عمليا ، فعندما وجد أن لا مستقبل للتركية في مصر عوّل ، عندها ، على العربية فقط لغة للدولة والادارة والتعليم ، وبواسطة العربية تمت حركة النقل والترجمة ، ومن ثمرات هذه الحركة دار دولاب المطبعة لاشاعة الكتب المترجمة . وإن الذين ينعون على محمد علي تركيته ، عليهم أن يتذكروا أن محمد علي هو الذي أحيا العربية في مصر وكرسها لغة رسمية وسائدة ، وبلغ به الأمر أنه فرض الأزياء العربية على من دخلوا في خدمته من الافرنج كما ألزمهم بتعلم العربية . ثم إن محمد علي أول من استقل بمصر عن الدولة العثمانية . وإن الحملة التي أرسلها الى سوريا ، وقادها ابنه ابراهيم باشا ، وكاد أن يهدد بها الأستانة نفسها ، هذه الحملة التي أرعبت أوروبا ، فسارعت الى نجدة « الرجل المريض » المتمثل بتركيا ، ذات دلالة تاريخية بالغة . كان محمد علي يستشرف الأفق العربي ، ونخال أن جمال عبد الناصر في عصرنا لم يكن ينأى بالأساس عن نفس الاستشراف .

مصر « تتأورب »

كانت مصر « تتأورب » ، فأعضاء البعوث عادوا اليها بروح جديدة ، كما أن الأوروبيين قصدوا مصر

وأقاموا فيها الشركات وأسسوا المدارس . ولئن انتكس صوت هذه « الأوربة » وتقهقرت العملية النهضوية مع عباس الأول وسعيد (١٨٤٨ - ١٨٦٣)، فلقد تابع الخديوي اسماعيل العمل الريادي لجده محمد علي ، واسماعيل هو صاحب الشعار الشهير الذي عمل لأجله مليا وبمغالاة : « إنها (أي مصر) قطعة من أوروبا ، برغم كونها في أفريقيا » . وهكذا عرف عهده انفتاحا كبيرا على كل ما هو أوروبي ، فبرزت دار الأوبرا ، وتأسست المكتبة الخديوية ، وفتحت مدرسة للبنات ، وظهر مجلس وزراء ، وقام مجلس نيابي .

واقترب الشرق من الغرب ، إذ في عهد اسماعيل شُقّت قناة السويس ، ولكن ترتب على وجود هذا المعبر المائي العظيم أن أصبحت مصر موضع تنازع وتدخل أجنبي ، وذلك نظرا لموقعها الاستراتيجي الذي ازداد عقب شق القناة خطورة ، وهي التي تقف أصلا على طريق الهند . وخال اسماعيل أن الجُبّة تصنع الراهب ، فقد سفح الأموال ، من غير وعي أو تحوّط ، في مظاهر أوروبية كثيرة غير مجدية ، وطلبا للزينة والبذخ والترف ، فكان أن أودى بمصر الى الافلاس المالي . فأصبح التدخل الأجنبي لادارة شؤون مصر عبر الدائنين الأوروبيين ، جِهارا نهارا ، مما استفزّ الحركة القومية التي نهضت رافعة الشعار الغالي : مصر للمصريين . وحمل الأدب أصداء هذا النهوض الوطني . كما أن أبناء الفلاحين المصريين قد شرعوا يدخلون الجيش ، ووصل بعضهم الى المناصب الكبرى ، فوقف أحمد عرابي على رأس الوطنيين الوقفة الشهيرة في ساحة عابدين ، مناوئين الضباط الأتراك والجراكسة ، وذلك في عهد الخديوي توفيق الذي خلف اسماعيل عقب إقالته سنة ١٨٧٩ . فاستعان توفيق بالانكليز ليقضي على وثبة الجيش ، مما أفضى الى الاحتلال الذي ظل جاثما على صدر مصر منذ سنة ١٨٨٢ حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ .

الاقتباس الحضاري في التجربتين

لقد حل بنا حضاريا ما يحدث عمليا لكل ثقافة جديدة ناهضة ، تأخذ عن السابقين ، وتتلقح بخلاصات تجاربهم العقلية ، ثم يكون لها ، من رصيدها الأصيل ممتزجا بالتأثيرات الوافدة عليها ، إطلالة ذات طابع جديد . هكذا كان الحال مع اليونانيين والرومان مثلا ، وعلى هذا المنوال جرى العرب في عهدهم العباسي المتميز عندما نهلوا من علوم الهند وفارس واليونان . وقد أخذ العرب عن الآخرين أخذ مقتدر ، يطمح الى تشييد دولة كبرى ، تجاري عصرها، وتنهض طامحة الى تخطي ما كان عليه السالفون . وفي العصر الحديث ، إثر انحطاط سياسي مديد ، طرأت علينا ، في عصر النهضة ، العملية نفسها ، وكان الغرب ، هذه المرة ، هو القطب الجاذب ونقطة الدائرة ، وفي المرحلتين العباسية والنهضوية دهمتنا الدهشة ، وهي رد فعل طبيعي حيال مظاهر تتبدى « عجيبة » لمن كان متخلفا عن ركبها . والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي ، المعاصر للحملة الفرنسية على مصر ، يعبر في كتاباته أوفى تعبير عن دهشة الانسان الشرقي المتخلف أمام الحياة الغربية والتقدم الغربي . وجاء محمد علي فانتقل من حيز الدهشة الى حيز الاقتباس العملي والأخذ الناشط : فكان الجيش العصري ، وكانت البعوث ، وكانت مدرسة الألسن ، وكانت الترجمة للعلوم العملية التي تساعد على تنشئة الاختصاصيين وعلى القيام بالمشاريع التطويرية التي تبدل التركيب التحتي للمجتمع . أما ترجمة الآداب فتأتي دائما في مرحلة تالية ، لأنها تتصل بالحياة الروحية والترف الثقافي . ومع ذلك يبقى هناك فارق ذو شأن بين المرحلتين العباسية والنهضوية . فقد تأثر العرب في زمنهم العباسي بغيرهم ، وكانوا أقوياء سياسيا ويديرون شؤون امبراطورية عظمى . في حين أن عرب النهضة قد أناخ عليهم العثمانيون قرونا ، فأفقدوهم مناعتهم التراثية ، وضؤل العلم بينهم كثيرا ، وغدوا في الواقع عالة على التاريخ لا حَمَلَة

له . ومن هنا ندرك كيف أن الثقافة الغربية اكتسحتهم في هذه المرحلة الحديثة ، فهم بلا سلاح فكري ، وبلا استقلال سياسي ، وكيانهم الاجتماعي انحدر نحو الجمود ، بحيث ان العملية التطويرية في أبسط تجلياتها تحتاج عندهم الى إذن وفتوى .

ويتضح هذا التخلف ، الراسخ الجذور ، من تجربة محمد علي وما قوبلت به من مقاومة ، ناتجة أساساً من غربة أصحابها عن التطور في أبسط مفاهيمه . نعرف مثلاً أن محمد علي أسس المدارس العليا ، ومن أقدمها وأجلها وأشهرها المدرسة الطبية المصرية في أبي زعبل والمستشفى الملحق بها ، وذلك سنة ١٨٢٦ ، وتم نقلها بعد ذلك إلى قصر العيني سنة ١٨٣٧ . والمدرسة والمستشفى اقترن اسمهما بالدكتور كلوت بك ، وهو فرنسي أسسهما وأشرف عليها ودرّس فيها الجراحة . وكان الأساتذة الأطباء الذين تولوا التدريس من الفرنسيين ، أما الذين عملوا في الجيش المصري فكانوا من الفرنسيين والإيطاليين . وبعد مضي عشر سنوات ، على تأسيس هذا المركز العلمي ، تخرج منه أربعمائة وعشرون طبيباً وصيدلياً . ولا بأس أن نذكر ههنا أن الأمير بشير الشهابي الكبير الذي كانت تربطه بمحمد علي علاقة تحالفية ، أوفد بعثة لبنانية إلى قصر العيني لدراسة الطب . ثم إن الذين قاموا بنقل العلوم الحديثة إلى العربية ، أو عمدوا إلى التلخيص ، أو التأليف فيها ، كانوا من تلاميذ المدرسة الطبية المصرية . وذلك أن لغة التدريس المعتمدة في هذه المدرسة كانت العربية ، لكن في بداية العمل كان يصحب الأستاذ الفرنسي ترجمان ، لأن محمد علي رغب في العمل فوراً ، فلم ينتظر حتى يتعلم الطلاب الفرنسية ، أو حتى يتعلم الأساتذة العربية ، أو حتى يتم نقل الكتب اللازمة إلى العربية . وهؤلاء التراجمة الذين توسطوا بين الأساتذة والطلاب ، كانوا من اللبنانيين والمغاربة والأرمن . وكان الناس البسطاء يستهولون أن يغدو المصري طبيباً ، ولكن الدكتور كلوت بك أفلح في أن يجعله كذلك ، معولاً على جهده الطليعي ، وعلى دعم محمد علي القوي لمسعاه . وهذه المدرسة الطبية المصرية كانت الأولى في الشرق العربي ، وتبعتها بعد أربعين سنة تقريباً الكلية السورية الانجيلية في بيروت (أي الجامعة الأمريكية) . ولكن الدكتور كلوت بك واجهته المصاعب ، فلا تدريس للطب من غير تشريح ، والقوم يأبون هذا . فتم في البداية تشريح الكلاب ، ثم عمدوا إلى تشريح جثث الأقباط وجثث العبيد .

ولجأوا إلى المدافن المهجورة يستعينون بالجماجم والعظام منها . وتم لهم أخيرا الاذن بتشريح من يتوفون لديهم في مستشفى قصر العيني . وفي عهد محمد علي وفدت الأوبئة على مصر ، غير مرة ، لا سيما الطاعون والكوليرا ، وكانت تترك ضحايا بعشرات الآلاف . وحاول الدكتور كلوت بك إقناع الناس والجند باللقاح الواقي ، ولكنهم خافوا ورفضوا . فكان أن لقح كلوت بك نفسه ، خلال حفلة جامعة دُعي اليها الأطباء والصيادلة والأعيان وكبار الموظفين ، وذلك ليقنعهم جميعا بجدوى التلقيح . وأضاف محمد علي سنة ١٨٤٢ إلى مدارسه الكبرى فرعا طبيا للنساء لتخريج القوابل ، وهيّأ لهذا الغرض مستشفى خاصا . ولكن المصريات لم يعجبهن هذا الجديد الطارىء ، فكان أن استعان محمد علي بالجواري الحبشيات لتحقيق مأربه . وقد يقول قائل إن الأمر رهن بالتقاليد ، وهي ضاربة عميقا في أرض المجتمع ، ولكن ما رأي المسوّغين إذا ما أفدناهم أن محمد علي عندما أراد شق شارع مستحدث وسط القاهرة ، بعد أن ازدحمت بالأعمال التجارية والمركبات وعسُر السير عبْر الأزقة الضيقة القديمة العهد ، فإنه على الرغم مما عُرف عنه من جرأة وعزم ، استفتى العلماء قبل المباشرة فيه ، فكان أن جاءت فتواهم تدعوه إلى جعل هذه السكة الجديدة ذات عرض يسمح بمرور جملين محملين بغير مشقة ، فكان أن قدّر الأمر بثمانية أمتار . إن التخلف عنيد ، لكن التقدم ، عندما يقف وراءه رجال أشدّاء نظير محمد علي ، هو عنيد أيضا وجسور .

تيّاران يتنازعان الحياة الثقافية

ولهذا نفهم تماما لماذا كان محمد علي مناوئا للأزهر ، ولم يسع البتة إلى تطويره ، شأن ما فعل الحكام الكبار الذين عرفتهم مصر . فهذا الصَّرح العريق حمى اللغة العربية أيام العثمانيين ، لكنه انتهى مع الوقت إلى الضعف ، وانقطع عن المصادر التراثية الأولى ، وغدا العلم فيه يعوّل على المتون النثرية أو الشعرية المتأخرة زمنيا ، ولا يفعل العلماء سوى أن يعمدوا إلى شرحها مرة ومرة فيا يدعونه الحاشية والتقرير . وبفعل هذا الركود العقلي أمسى الأزهر محافظا متزمتا ، وصار مع الزمن قطبا معبّراً عن العقلية القديمة التي وقفت تنازع الجديد في الفكر والأدب والحياة . وهذا الجديد تمثّل بالتيار الذي تنبّه لآثار الحملة الفرنسية ، ولإصلاحات محمد علي ثم إسماعيل ، ورأى في الغرب موئل التقدم والحداثة وبناء الدولة العصرية . وهو التيار الذي أضحى الغرب بآدابه متنفَّس تطلعاته الروحية . وهكذا نهضت حركة ترجمة للآداب الأوروبية ، والفرنسية منها والانكليزية بخاصة ، والروسية أيضا ولكن نقلا عن اللغتين المتقدمتين ، ودخل العربية موليير وكورناي وشكسبير وتولستوي وتشيخوف . وإذا بمئات المسرحيات والقصص والروايات الغربية تطرح نفسها على الجمهور العربي . وتبدّت العربية مطواعةً في عملية نقل هذه الآداب والأفكار والمشاعر .

وهذا التيار « المتغرّب » المناوىء للأزهر ، هو الذي توّج سعيه الثقافي ، في مطلع هذا القرن العشرين ، بافتتاح الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ ، وكانت على النمط الأوروبي في برامجها وطريقة تدريسها للأدب والتاريخ والفلسفة . ولقد توالى على منابر الجامعة المصرية أعلام المستشرقين من إيطاليا وفرنسا ، يعلّمون فيها ما ألفوه في بلادهم من علم منهجيّ مصوغ في قالب تأليفي متناسق متكامل ، بل إن بعضهم ، وهم قلّة نادرة ، قد كتبوا بالعربية . ولعل خير مثال باهر على هذا الجمع الرائع بين التأليف العلمي المشرق ، والعربية الرفيعة الصافية ، هو كارلو نلّينو في محاضراته التي صدرت بعد ذلك في كتاب « تاريخ الآداب العربية ، من الجاهلية حتى عصر بني أميّة » .

لقد ترك الغرب في الحياة الثقافية العربية آثارا عميقة . وليس الإشكال في أننا أخذنا عن الغرب وتتلمذنا له ، فالتواصل الحضاري قانون إنساني نتبيّنه في الحضارات كافة . فهذه اليابان أخذت وتخطّت ، وشرع الغرب نفسه يلحق بها لاهثاً ليفيد من تجربتها الفريدة . في حين أننا أخذنا كل شيء عن الغرب ، علماً وثقافة وأدوات ومأكلاً وملبساً ونمط حياة ، ومازلنا راسفين في أغلال التأخر . بل إننا بالقياس إلى التقدم الغربي العاصف ، نمشي ربما إلى الخلف ، وتزداد الهوّة اتساعا بيننا وبينه ، عوَض أن تضيق . كنا في نهضتنا عيالاً على الغرب ، وما برحنا نقتفي أثره في مختلف مرافق حياتنا . ولسنا نطمح إلى « الاستقلال » الناجز عنه ، لأن العالم المعاصر يعيش في الواقع حضارة كونيّة ذات أنماط متقاربة ، وهي أنماط مستقاة ومستلهَمة من الحضارة الغربية على الأخص . وبالتالي فالمرتجى ألا نظل « متسوّلين » عند باب هذه الحضارة الغربية ، وإنما يجب أن نشارك فيها ، ولو بقدر يسير جداً . □

سداد وحكمة

● أوصى لقمان بن عنقاء بن بيرون ابنه فقال : يابني ، كن على حذر من اللئيم إذا أكرمته ، ومن الكريم إذا أهنته ، ومن العاقل إذا هجرته ، ومن الأحمق إذا مازحته ، ومن الجاهل إذا صاحبته ، ومن الفاجر إذا خاصمته .

هل يستطيع المسرح أن يعلّم دون أن يكون ثقيلا مملا ؟ وهل يمكنه أن يعلم دون أن يقلل من قيمة الموضوع الذى تعالجه المسرحية ؟ وهل بوسعها أن تبقى - بعد أداء رسالتها التعليمية - عملا يتصف بالصدق الفني أو النضج الأدبي فلا تتحول إلى محاضرة في الأخلاق أو الاقتصاد أو السياسة أو الايديولوجيا ؟

المسرحية التعليمية والتغيير

بقلم : الدكتور حسن عباس

المسرحية التعليمية - كما تدل عليها تسميتها - تحاول تلقين المشاهد أفكارا ومبادىء وحقائق معينة من خلال العرض المسرحي ، وهي في كل ذلك تعلّمه كيف يعمل على تغيير العالم في صورته التي رآه عليها بريخت . ولكننا عندما نصف مسرحية ما بقولنا إنها مسرحية تعليمية ، نكاد نصدر عليها حكما بالموت ، فليس هناك من الناس من يسره الجلوس إلى مقاعد الدرس حتى وإن كانت أرائك مريحة في صالات عرض فخمة . فالمسرحية - بما هي تعليمية - لا بد لها من أن تؤدى رسالة ما ، أو أن تبث دعاية ما ، وهي في كلتا الحالتين تتسم بالعبوس والتجهم ، وأسوأ من ذلك انها تدعي لكاتبها تفوقا وامتيازا عقليين يبيحان له الوقوف أمام حشد من الناس معلما وناصحا ومرشدا ، فذلك ينأى بالمسرح عن الاعتقاد السائد الذي يرى فيه مكان ترفيه وتسلية .

بريخت والمسرحية التعليمية

قد يقال ان بريخت لجأ إلى المسرحية التعليمية ليبث من خلالها ايديولوجية جديدة اعتنقها والتزم مبادئها بعد ان عكف على دراسة الماركسية والاقتصاد في السنوات التي امتدت من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٣٠ ، وهذه الايديولوجية تبدو جلية واضحة في معظم المسرحيات التعليمية التي كتبها ، قد يقال ذلك ، ولكن كتابات بريخت للمسرح التعليمي وعنه ، ترينا ان ليس هناك - من كتاب المسرح - من كتب بمثل الحماسة وقوة الدافع الأخلاقي اللتين تقفان وراء الرغبة في توجيه الفن المسرحي نحو غايات تعليمية . لقد كان بريخت على بينة من كل كلمة يكتبها ، وكان يريد لهذه المؤسسة ذات التأثير الواسع - المسرح - أن تكون في خدمة الثقافة الجماهيرية ، كما أراد لها أن تكون وسيلة امتاع وثقافة في آن معا .

يتساءل بريخت لقد أصبحت خشبة المسرح تثقف، فالنفط، والتضخم، والحرب، والصراع الاجتماعي، والعائلة، والحنطة، والمتاجرة بالحيوانات المعدة للذبح، كل ذلك أصبح مادة للعرض المسرحي.. لقد أصبح المسرح حقل نشاط للفلاسفة، اولئك الذين (لا يسعون إلى توضيح العالم فقط) بل إلى تغييره أيضا، فظهرت الفلسفة على خشبة المسرح، وبهذه الصور ظهر الاتجاه الوعظي، فإلى أين ذهبت التسلية؟

إن وضع التعليم في مواجهة التسلية أمر يسيء إليهما معا، ذلك ان كلا منهما - في العمل الفني الصادق - يكمل الآخر. ويختلف مفهوم التعليم باختلاف الفئات الاجتماعية، فهناك من الناس من ينظر إلى الأشياء في البيئة الاجتماعية على انها كل جامد صلد لم يعد قابلا للتغيير، وإن ما هو متاح من متع العيش فيه ما يكفي. إن مثل هؤلاء الناس قد خاب فيهم الظن، وفقد الأمل، فليست البنية الاجتماعية هي التي تستعصي على التغيير، بل إن إرادتهم الواهنة هي التي تعجز عن احداثه. «لكن هناك فئات أخرى لم تذق طعم الفطائر. إنهم يريدون أن يدركوا كل شيء مهما كلف الأمر، (وهم) يعرفون انهم (ضائعون) ان لم يتعلموا، ويمثل هؤلاء أحسن التلاميذ، وأكثرهم تعطشا للمعرفة. إن مثل هذه الاختلافات توجد أيضا بين الشعوب والأقطار.» فالرغبة في المعرفة تمليها ظروف اجتماعية أيضا وليست وقفا على الميول الفردية.

بين العلم والفن

ويرى بريخت أن هناك من التعليم ما يجلب سعادة النضال، ولو لم يوجد مثل هذا التعليم لفقد المسرح. ويتساءل «... ما هو العنصر المشترك بين العلم والفن؟ إننا نعرف جيدا أن العلم يمكن أن يكون مسليا، ومع ذلك، فليس كل ما يسلي يمكن أن يقدم على خشبة المسرح.»

ليس الفن - في العصر الحديث - بمعزل عن العلم مهما بدا البون شاسعا بين هذين الفرعين من فروع النشاط الانساني. وعلى الرغم من ان كلا منهما يمارس تأثيرا خاصا، وبأسلوب خاص فان الكاتب المسرحي - وهو فنان - لا يستطيع العمل بعيدا عن منجزات العلم كالإنارة المتطورة، وآلية المسرح التي بلغت شأوا كبيرا من التقدم التقني، فضلا عن حاجته إلى العلوم المساعدة في إيضاح حالة ما، كعلم النفس إذا كانت الشخصية تتحدث عن الغرائز، أو الدوافع، أو كعلم الاقتصاد إن كان الموقف يتطلب تشريحا لطبقات اجتماعية من حيث دخولها ومكاسبها وطرائق عيشها. يقول بريخت «ومهما بلغت كمية المعرفة العلمية التي يتضمنها العمل الفني، فان هذه المعرفة يجب أن تتحول إلى فن. إن امتلاكها - هو الذي يمنح تلك السعادة التي يثيرها العمل الفني.» ويضيف بريخت في «حوارية شراء النحاس» إلى ذلك قوله: فلكي يبدع المرء عملا فيه الكثير من الإلتباس، والكثير من التعقيد، كما هو شأن المسرحية التي تحاول عرض حياة الناس الإجتماعية، فان المعرفة التي (تمده بها) تجربته المعاشية ليست كافية على الاطلاق. فبدون معونة الاقتصاد والسياسة، لا يمكننا أن نفهم أنماط السلوك عند معاصرينا.

التعليمية والتجريب

والمسرح التعليمي تجريبي أيضا. لقد مر المسرح الأوربي الجاد بمرحلة من التجريب أسهمت فيها أجيال عديدة، ولم تصل إلى غايتها بعد. كانت تلك التجارب في خطين متوازيين يتداخلان أحيانا، فكان أحدهما يعزز جانب التسلية، وكان الآخر يعزز جانب التعليم. ولما كانت التسلية تستهلك بسرعة، فقد دأبت تلك التجارب في سعيها للعثور على مؤثرات جديدة.



● بريخت

ويضرب بريخت أمثلة على تلك التجارب التي قام بها كل من انطوان ، وبرام ، وستانسلافسكي ، وغوردون كريج ، ورينهارت ، وبسكاتور . ويعتقد أنهم بتجاربهم قد أغنوا وسائل المسرح التعبيرية بما أدى إلى زيادة في قدرته على التسلية .

أما على الجانب التعليمي فقد كان لجهود بسكاتور أثر كبير في تعزيز جانب التعليم في المسرح . ويقول بريخت ـ كما ورد في نظرية المسرح الملحمي ـ إنه قد أسهم بنفسه في كل تجارب بسكاتور التي لا يستثنى منها تجربة واحدة لم تهدف إلى تأكيد القيمة التعليمية . كانت جهود بسكاتور وانتفاعه بكل ما استحدث في التقنية من تطور يهدفان إلى عرض الموضوعات المعاصرة على خشبة المسرح . وكانت تجاربه قد قضت على الروتين تقريبا ، وتغلغلت على نحو منظم في أعماق الطريقة الفنية التي يتبعها كتّاب المسرح ، وإلى أساليب الأداء عند الممثلين حتى وصلت إلى عمل المصمم المسرحي .

ويقوّم بريخت تجربته الذاتية ، فيقول إن العناصر التعليمية في مسرحية « اوبرا القروش الثلاثة » لم تكن نابعة من مجمل العمل ، فقد كانت تناقض سير الحدث وتقطعه مما يحول دون الاندماج فيه ، وكان يأمل أن تكون الأجزاء المفعمة بالوعظ الأخلاقي ، والأغاني التعليمية مسلية قدر الإمكان . وهي تسلية تختلف عن نوع التسلية التي تقدمها المسارح التقليدية . إن المتعة الناجمة عن التعليم تتوقف على طبيعة الطبقة الاجتماعية ، كما أن الذوق الفني يتوقف على الموقف السياسي الذى يعود إليه الفضل في أن يقبل المتفرج ما يرى ، أو ينفر منه . ولو أخذنا بنظر الاعتبار ذلك العدد من الناس الذى جاء إلى الحفلة بدوافع سياسية ، فاننا نرى ـ في مرحلة تالية من التجارب ـ أن أي استزادة في عنصر التعليم ، ستؤدى في الحال إلى إضعاف جانب التسلية . « لقد تحول المسرح إلى جامعة شعبية . » لقد جعل بريخت العقلاني من كتاباته المسرحية تجارب تخضع لسيطرة عقلية تامة ، وكانت الغاية المرجوة منها هي الكشف العلمي عن طبيعة العلاقات والتحولات الاجتماعية .

دور التقنية الحديثة

وللتمثيل دور مهم في المسرح التعليمي . إن التمثيل الإنفعالي الذى يؤثر على أعصاب المشاهد يهدد قيمة التعليم في العرض ، لذلك يحبذ بريخت اللجوء إلى ممثلين من الدرجة الثانية لأنه « كلما مُست أعصاب الجمهور كان أقل استعدادا لتقبل التعليمية ، وهذا يعني أنه كلما دفع الجمهور إلى الإنفعال (المشاركة والتأثر) كان أقل قدرة على ملاحظة الارتباطات المتبادلة بين الأشياء ، وأقل قدرة على التعلم . وكلما قدم له المزيد من التعليمية كانت حصيلته من المتعة الفنية أقل . »

لقد أدى التطور المتواصل في الجانب التقني إلى امتزاج وظيفتي التسلية والتعليم ، ولو ان كل الجهود أصرت على أن تقدم فكرة اجتماعية لاستطاعت في نهاية المطاف أن تصل بالمسرح إلى حالة يستطيع معها ـ بمساعدة الوسائل الفنية ـ أن

يقدم صورة عن العالم ، وأن يكوّن نماذج للحياة الاجتماعية للناس كفيلة بمساعدة المشاهد على فهم وسطه الاجتماعي ، واستيعابه بالعقل والعاطفة .

كنا قد أشرنا إلى أن التعليم ثقيل على نفوس رواد المسرح ممن يقصدونه طلبا للمتعة والتسلية ، فكيف يستطيع بريخت بمسرحه التعليمي اجتذاب هؤلاء الناس ، واغرائهم بالجلوس ؟ إنه يستطيع ذلك بالموسيقا التي تؤلف لمسرحية بعينها ، وبالديكور الخاص الذي برع فيه صديقه كاسبر نيهر ، وبالرسوم التي أتقنها جورج غروس ، ثم بكل وسائل المسرح الملحمي وأدواته .

دواعي الظهور

ويجدر بنا الآن أن نسأل : ما الذى دعا إلى ظهور المسرحية التعليمية في أدب بريخت المسرحي ؟ ثم ما الذى دعا إلى ظهورها في الأدب المسرحي العربي ؟

كانت المانيا في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات قد تعرضت لأسوأ أزمة اقتصادية مرت بها ، وهي الأزمة التي ابتدأت في نيويورك وعمّ أثرها المدمر أقطار أوربا الغربية كافة . فقد أغلقت المصانع أبوابها ، وانتشرت البطالة بين العمال ، وعمّ الاضطراب قطاعات واسعة أخرى من الشعب الألماني ، ودق ناقوس الخطر ، لقد وضعت تلك الأزمة مصير المانيا موضع تساؤل : إلى أين ؟ بل وضعتها عند مفترق طرق جعلت القوتين الرئيسيتين : اليمين واليسار تتسابقان إلى الإنفراد بالسلطة كل على حساب الأخرى . أما اليمين النازى فقد ألقت الرأسمالية الألمانية والعالمية بثقلها وراءه ، وعملتا على إيصاله إلى السلطة ، وأما اليسار فقد تآزر فيه الشيوعيون والاشتراكيون في عمل مشترك .

في ظل هذا السباق الرهيب الذى لم يكن يخلو من العنف والقتل وإراقة الدماء ، دارت رحى المعركة ، واستخدمت فيها كل الأسلحة ، وكان المسرح بين تلك الأسلحة ـ بوصفه أداة تثقيف جماهيرى وتوعية وتحريض ـ وقد انعكست الضراوة التي اتسمت بها معركة الوصول إلى السلطة على كتاب المسرح أنفسهم ، لقد أدت مجريات الأحداث على هذا النحو إلى تحديد صارم في المواقف ، فقد رجفت قلوب ، وزلت أقدام ، وتراجعت قيم ومثل ، ولنا في كتاب الحركة التعبيرية التي انفرط عقدها في النصف الثاني من العشرينيات ، مثال ذو دلالة ، فقد اندفع كتابها في اتجاهات مختلفة كل بحسب الضغوط التي مارسها أحد طرفي الصراع عليه ، اتجه برونن ـ صديق بريخت ـ ويوست إلى اليمين ، واتجه بيشر وفولف إلى صفوف الشيوعيين ، وفر كثيرون خارج المانيا بعد وصول النازيين إلى السلطة .

ضيقت أجهزة الحكم القائم آنذاك على قوى اليسار وكتابه ادراكا منها لما للمسرح من دور خطير في التوعية والتوجيه ، فمنعت المسرحيات ذات التوجيهات المضادة من أن تعرض على خشبة المسرح الرسمية . يقول الدكتور عادل قرشولي : « ونتيجة لهذا الوضع الناشيء عن تنامي حدة الصراع الطبقي ، لم يجد الكتاب الثوريون أمامهم سوى الحركة المسرحية العمالية ، وفرق الهواة ، فتوجهوا إليها ، وربطوا مصائرهم بمصائرها . كانت هذه الفرق تتكون بدرجة رئيسية من ممثلين شبان ، وعمال ثوريين يتمتعون باستقلال اقتصادى ولا يضطرون للدخول في مساومات ايديولوجية مع مالكي المسارح الكبيرة لأن أدواتهم لم تكن أكثر من ديكور بسيط ، ومكبر صوت ، ولأن مسرحهم لم يكن سوى الشارع والمقهى ومسارح النوادى البسيطة . » .

ولم يكن أمام بريخت ازاء تلك التطورات جميعا إلا أن يهجر ما اصطلح على تسميته « الجهاز البرجوازى » ، ويتجه إلى صيغة المسرح

التعليمي وعيا منه بالدور الاجتماعي للمسرح ، وتقديرا لإمكانياته الدعائية . ولا بد لنا من الاشارة إلى أن بريخت كان قد أطلق على المسرح القائم آنذاك اسم « المسرح المطبخي » وهي تسمية تدل على رفضه له شكلا ومضمونا ، وقد تحمل تبعة هذا الرفض .

أما في الوطن العربي فقد شقت المسرحية التعليمية طريقها أيضا بوصفها أداة تثقيف وتوعية ، إن الأسباب التي أدت إلى ظهورها هنا مماثلة في دوافعها العامة للأسباب التي أدت إلى ازدهارها هناك ، وإن اختلفت التفاصيل ، كلتاهما ظهرت في ظروف نضالية قاسية ، وكلتاهما ارادت للعرض المسرحي أن يجمع المتعة إلى الدرس في توظيف جديد للمسرح يسهم من خلاله في حركة النضال العربي ، باحثا في العقبات التي تعترض سبيلها ، متقصيا للأسباب والعلل ، مقترحا لها الحلول .

مادة للتعليم

وقد عصفت بالوطن العربي أحداث جسام في العقود التي توسطت هذا القرن ، اشتدت معها المقاومة العربية للاحتلال الأجنبي ولكل أشكال الهيمنة التي يبسطها ، وأخذت الأهداف تتضح شيئا فشيئا حتى تبلورت في الدعوة إلى التحرر والوحدة ، وإقامة مجتمع عربي تسوده العدالة الإجتماعية بحيث غدت هذه الدعوة شعارا ترفعه حركة التحرر العربي ، وتحدد به معالم الطريق ، بيد أن هناك صعابا شتى كانت تحول بين الدعوة إلى تحقيق الهدف ، وبلوغ الهدف ذاته منها ما أوجده الاحتلال وظروف التجزئة ، ومنها ما أورثته قرون التخلف . فكم من الصعاب ظلت تحول دون التحرر حيث كان السعي إليه يصطدم بجيوش أجنبية ، وبفئات اجتماعية مهيمنة ربطت مصيرها بمصير الاحتلال ، وتشابكت مصالحها بمصالحه . فكانت لا تقل عداء ونقمة على الثائرين العرب ونكالا بهم منه .

وكم وقفت الاقليمية ودعوات الانفصال ، والإبقاء على التجزئة التي يتبناها المتفعون بها حائلا دون بلوغ هدف الوحدة ! وكم وقفت قوى الاقطاع والرأسمالية العربية في وجه الدعوة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية !

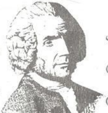
كل تلك كانت مواد خصبة أمام كتاب المسرح ، يخرجون منها بالدروس التي ينبغي للمواطن العربي حيثما وجد أن يعيها أملا في تذليل تلك الصعاب ، وبلوغ الأهداف الكبار . على ان الشكوى من الظلم الاجتماعي وما يستتبعه من صراع طبقي احتلت مكانا بارزا في المسرح العربي المعاصر تعليميا كان أم غير ذلك . لقد أدرك الكتاب العرب الصلة الوثيقة بين المواطن الحر الذى يملك شبرا من الأرض يدافع عنه ، والوطن الحر . وهذا هو الدرس الذى تكفلت بايضاحه - فضلا عن دروس أخرى - مسرحيات تعليمية عربية كثيرة منها « باب الفتوح » لمحمود ذياب ، و « العطش » لنور الدين فارس وغيرها

● لاتتهافت على اللئيم فتتهم في مروءتك ، ولا على الغني فتتهم في عفتك ، ولا على الجاهل فتتهم في فطنتك .

(شوقي)

● لاتبذل نصحك عفواً ، وإذا سُئلتَ أن تشير فاختصر .

(جورج واشنطن)



جورج واشنطن



أرقام

بقلم : محمود المراغي

(١ = ٩) .. !

قد يبدو عنوان هذا المقال غريبا ، قد يبدو كخطأ رياضي غير مقصود ، ولكن التفاصيل تقول : « بل هذه هي الحقيقة » .

يقول آخر تقرير عن وضع السكان في العالم (١٩٨٨) أصدره صندوق الامم المتحدة للسكان : إن البلدان الصناعية تضم (٢٥) بالمائة من السكان ، لكنهم يستهلكون :

** (٧٥٪) من الطاقة المستخدمة في العالم كله .

** (٧٩٪) من كل أنواع الوقود التجاري (لأن هناك بالطبع أنواعا من الطاقة غير تجارية وتستخدم بشكلها البدائي) .

** (٨٥٪) من كل إنتاج الخشب

** (٧٢٪) من كل إنتاج الصلب .

وإذا اختزلنا ذلك - للتبسيط - في رقم أو رقمين ، فإننا نقول : إن ربع سكان العالم - وهم سكان الدول الصناعية - يستهلكون ثلاثة أرباع الطاقة وعددا من المواد الأولية الأساسية وبالتحديد : الصلب والخشب .

واستطرادا للأرقام يكون ثلاثة أرباع سكان العالم ، وهم سكان الدول غير الصناعية ، يستهلكون ربع هذه الأشياء فقط .

وباستخدام بسيط لعلم الحساب تصبح المعادلة واضحة ، وهي أن إنسان الشمال يستهلك تسعة أضعاف إنسان الجنوب !

يعني ذلك - ودون استخدام مؤشرات أخرى كالدخل القومي ، أو سلع الترفيه ، أو أدوات الثقافة - أن إنسان الشمال يتمتع بمستوى معيشي يفوق إنسان الجنوب تسع مرات « على الأقل » ، ونقول « على الأقل » لأن البون شاسع في جوانب أخرى ويفوق التسعة أضعاف ، ومثال ذلك : الالكترونيات والعقول الالكترونية وغيرها من أدوات حضارة لم تنتشر بالقدر نفسه في الدول غير الصناعية .

البون شاسع ، لكن ذلك ليس الوجه الوحيد للأرقام .

العالم يتغير

لقد شهد العالم تغيرات أساسية في الفترة الماضية :

* أصبح واضحا أن هناك استنزافا للموارد ، فما اختزنته الأرض في ملايين السنين ، واستطاعت الطبيعة أن تحيله من مواد عضوية مختزنة في باطن الأرض إلى نفط ، على سبيل المثال ، جرى تكوينه عبر زمن طويل قد يكون آلاف السنين أو عشرات أو مئات الآلاف ، وربما عبر ملايين السنين من التاريخ غير المكتوب ، هذا المخزون حين تم اكتشاف النفط انهال عليه الانسان ، وكاد يستنزفه ليصبح قصة تاريخية في علوم الطاقة ، ولينتقل العالم لأشكال أخرى !

الشيء نفسه يحدث في مخزون العديد من المعادن التي لا تدخل باب « الثروة المتجمدة » .

بل ، والشيء نفسه يحدث في الغابات التي

عاشت عشرات الآلاف من السنين فإذا بها تنحسر .

إنسان القرن العشرين التهم بحضارته المادية الكثير من الموارد ومازال يلتهم .

* الغريب أن يحدث ذلك في ظل تقدم تقني ضخم ، تصور معه الإنسان أنه استطاع أن يقدم بدائل كافية ، فها هي مواد مصنوعة تحل مكان الخشب ومكان الحديد ، وها هي الطاقة النووية والطاقة الشمسية وطاقة الرياح تزحف لتحل - تدريجيا - مكان الطاقة التقليدية : الخشب والفحم ، النفط ومشتقاته ، الغاز والكهرباء .

وحين بدأ العالم الصناعي يتوسع في صناعة الحاسوب « الكمبيوتر » ، وحين أصبح العقل المصنوع بديلا - في بعض الحالات - للعقل الانساني وبديلا لجهده اليدوي والعضلي ، حين أصبح العامل يقوم - بفضل الكمبيوتر - بإنتاج قدر ما كان ينتجه ألف عامل ، حين حدث ذلك قيل : إن ذلك أيضا سوف يؤثر على استخدام الموارد ، فلم نعد - في كثير من الأحيان - بحاجة إلى آلات ضخمة بكل ما تحتاجه من صلب ومعادن وطاقة للتشغيل ، فقد أصبحت هناك قوى غير منظورة قادرة على تشغيل الآلات واستخراج المنتجات .

حدثت ثورة في العالم ، وكان التوقع : انحسار استهلاك المواد التقليدية .

* في الوقت نفسه أيضا ، صحا العالم على قضية اسمها التلوث ، وأدرك أن الشمال - بتقدمه الصناعي الهائل - أكثر خطورة على البيئة . فنواتج الصناعة تخرق ما يعرفه العلميون باسم طبقة « الأوزون » وتعرض العالم لأشعة تصيب الانسان بالسرطان والأرض بالبوار . وهذه النواتج تقدم ما يعرف بالأمطار الحمضية التي أتلفت البحيرات والأنهار في الشمال ، إلى آخر قائمة « علم التلوث » ، إن جاز التعبير .

وكان التوقع انحسار أشكال من الاستهلاك ، وألوان من الحضارة المادية درءاً للتلوث المتزايد .

نتائج أخرى

على الرغم من كل هذه المتغيرات ، وعلى الرغم من المؤتمرات التي تنعقد ، والاتفاقيات التي تبرم ، مازال نمط استخدام المواد الأولية - كما تقول الأرقام السابقة - شبه ثابت ، ومازال الصلب دعامة للصناعة الأوربية والأمريكية واليابانية ، ومازال الخشب يتربع على سوق الصناعة ، ومازال الشمال يحتكر النسبة العظمى من المادتين ، بجوار احتكاره للنسبة الكبرى من استهلاك الطاقة أيضا .

يعني ذلك أن الصلب مازال - وعلى الرغم من كل البدائل والتحولات - عماد الحضارة المادية وأدواتها ، من السيارة إلى القطار ، ومن القطار إلى الآلة ، ومن الآلة إلى صناعة التشييد التي تزحف فيها أشكال البناء من الشكل التقليدي الى الهياكل والأقفاص الحديدية !

العالم يتقدم ويخترع ويبتكر ، لكنه مازال يعتمد - كما كان في القرن الماضي - على الصلب والخشب والطاقة التقليدية في معظمها .

والأهم هو تلك الدلالة التي تمس مستوى المعيشة ، فنسبة (١ : ٩) ، تعني أن إنسان الشمال يتمتع بمأكل ومشرب وملبس ومسكن وأداة انتقال وأداة ترفيه ووسيلة علاج وتثقيف ، أفضل من إنسان الجنوب بعدة أضعاف .

إنه الفارق بين إنسان الكوخ ، وانسان ناطحات السحاب . بين إنسان الغابة وإنسان الحاسوب « الكمبيوتر » . إنه الفارق أيضا بين الذين يبحثون عن الماء والطعام في غابة أو سهل ، والذين يطيرون إلى الكواكب الأخرى بحثا عن المعرفة ، وربما عن موارد جديدة يلتهمها العالم .

هل يزول ذلك الفارق في يوم ما ؟ □

العربي
عيونك على العالم

مسلمو بريطانيا

مواطنون أم مغتربون ؟



استطلاع : صلاح حزين

تصوير : فهد الكوح



لم يصل الفتح الإسلامي يوما إلى بريطانيا أما الإسلام فقد وصل ، دخل إلى هناك مع ملايين المهاجرين من دول آسيا وإفريقيا والشرق الأوسط ومع الزمن ، كان على هؤلاء أن يجيبوا عن تساؤل لم يطرح عليهم من قبل ، هو : كيف يمكن للشخص أن يكون مسلماً ، ومواطناً بريطانياً ، في الوقت نفسه ؟!

كان اليوم جمعة ، وشمس لندن تختفي وراء غيوم داكنة ، تدفعها الريح عن وجهها دقائق معدودة ، تعود بعدها ثانية وراء الغيوم ، حتى تجد لها فرصة أخرى تبزغ فيها من جديد ، وتخفف لسعة البرد المثقلة بالرطوبة ، لكن هذا الصراع غير المنظور بين الشمس والغيوم ، لم يثن سكان لندن المسلمين عن التوافد على مسجد المركز الثقافي الإسلامي في العاصمة البريطانية ، لإقامة صلاة الجمعة . وبينما كنت أنا مشغولاً بمراقبة تلك المعركة في السماء بين عناصر الطبيعة ، كان زميلي المصور منهمكاً بالتقاط الصور للمصلين الذين بدءوا بالتوافد على المركز الذي لا يبعد كثيراً عن وسط لندن التجاري .

بدأ المصلون يتوافدون بأعداد قليلة ، اثنان ، ثلاثة ، ثم عندما اقترب موعد الصلاة بدءوا بالتوافد جماعات ، تعددت ألوانهم ، واختلفت أعمارهم وأزياؤهم ، أطفال وشبان وكهول وشيوخ ، رجال ونساء ، سود وبيض وسمر ، بعضهم ارتدى الملابس الأوروبية العادية ، وبعضهم الآخر ارتدى زي بلاده القومي ، فكان هناك البرنس المغربي والجلابية المصرية والعمامة السودانية والملابس الإفريقية المزركشة ، والهندية والباكستانية الفضفاضة ، وكانت الكوفية الفلسطينية ، هي الأكثر انتشاراً ، ليس غطاء للرأس فقط ، بل وشاحاً يلف الرقبة والكتفين ، ليقيهما من البرد ، وليدل على هوية غير بريطانية على الأقل .

ازداد وقع الخطى سرعة مع خطبة الجمعة التي بدأت بالعربية ، ثم تليت بالإنجليزية ، وعند نهايتها كان مسجد المركز الضخم قد فاض بالعابدين . استوت الصفوف ، وأقيمت الصلاة ، ثم انفض المصلون منتشرين عبر البوابة التي وقفت قرب مدخلها عربة ، كانت تبيع مواد غذائية ، يرتبط استخدامها بالمناسبات والأعياد الدينية الإسلامية ، مثل قمر الدين والعرقسوس .

انتشر المصلون ودخلت أنا إلى مكتب الدكتور علي مغرم الغامدي ، مدير المركز الثقافي الإسلامي ، مبتدئاً استطلاعنا حول مسلمي بريطانيا . ومن مكتبه الذي لم تنقطع فيه الحركة ، بين داخل ، وخارج ، ومستفسر ، وطالب استشارة أو مساعدة ، حصلت على بعض المعلومات الأساسية بشأن المراكز الإسلامية ، وعلى بعض العناوين المهمة ، وأرقام الهواتف الضرورية لي في استطلاعي المتشعب .

وكان السيد فيصل الصباح ، الملحق الإعلامي في سفارة الكويت بلندن قد أمدنا ببعض الوثائق والقصاصات المهمة حول الموضوع . ومن خلال هذه المعونة المشكورة بدأنا التحرك في أرجاء بلاد الانجليز ، بحثاً عن الجذور الإسلامية في الجزر البريطانية .

قال لي الدكتور الغامدي : « لم تكن هنا في رمضان لسوء الحظ ، لقد كان المركز خلية نحل لا تهدأ ، ففي رمضان « تنفتح » أوقات الدوام ، فتصبح أي ساعة في النهار ، وأي وقت في الليل ، والمكاتب المختلفة التي تراها الآن ، لا

تنقطع فيها الحركة ، ولا يتوقف مكتبي عن استقبال المراجعين والمهنئين وأصحاب الشؤون المختلفة » . وكنت أرى بنفسي الحركة الدائبة في الغرف التي انتشرت على جانبي الممر الذي يفضي إلى قاعة الوضوء والمسجد ، وإلى الطابق الثاني من المسجد الذي خصص للسيدات . ومن تلك الغرف كانت تأتي أصوات المراجعين والمستفسرين عن مواعيد ، والمستشيرين في قضية دينية ، فيما اصطف بعضهم بجانب رف من الكتب الجديدة التي صدرت في لندن حول العرب أو المسلمين ، بإحدى اللغتين العربية أو الإنجليزية . وانبعثت من سرداب المبنى رائحة طعام ، عرفت أنه يقدم مجاناً للمحتاجين من المسلمين في بلاد الإنجليز .

وودعت الدكتور الغامدي بعد حديث لم يتشعب كثيرا . في الخارج كانت الغيوم والشمس ما تزال تصطرع ، فيما رسخت قبة المسجد النحاسية فوق البناء المربع الكبير ، وانتصبت المئذنة متجهة نحو السماء .

خرجت أبحث عن المسلمين الذين أصبحوا جالية لها حضورها ، وأسأل عن قضاياهم ومشكلاتهم وطموحاتهم ، وعن حياتهم وطقوسهم في العبادة والحياة والممات ، وعن الكيفية التي يحافظون بها على ثقافتهم وممارساتهم الدينية في مجتمع غير مسلم ، وعن مدى تقبلهم للقوانين البريطانية ، ومعظمها وضعية ، ومدى حماية القوانين البريطانية لهم كجماعة دينية بريطانية أو غير بريطانية . أتعرف على مدى استيعاب المجتمع البريطاني لهم ، ومدى انتمائهم هم لوطنهم الجديد ، بعد أن غادروا أوطانهم الأصلية ميممين شطر الجزر الشمالية البعيدة . هل ذاب هؤلاء في المجتمع الجديد ، وأصبحوا جزءاً منه ، أم حافظوا على هوياتهم الوطنية ، وثقافتهم الدينية ، وسط هذا المحيط الجديد ؟ لم تكن المهمة سهلة إذن ، كما لم تكن الحركة سهلة أبداً .



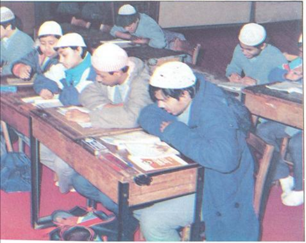
المدن الرئيسية التي تضم مراكز إسلامية في الجزر البريطانية

البـدايات

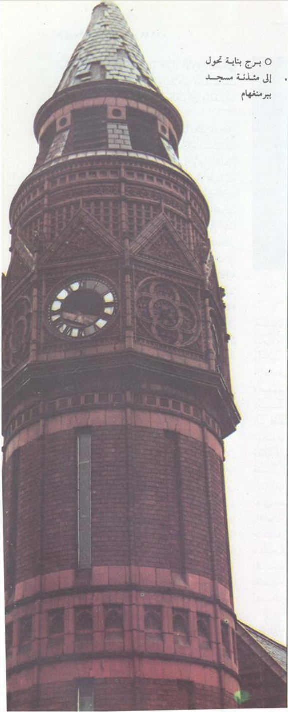
كانت البداية في نهايات القرن الماضي ، عندما بدأت أعداد قليلة من المسلمين المنتمين إلى الدول الخاضعة للحكم الاستعماري البريطاني بالتوافد على بريطانيا لأسباب مختلفة ، بعضهم جاءوا موظفين لدى الأقسام المهتمة بشؤون بلادهم ، وبعضهم الآخر جاءوا عمالاً في المصانع البريطانية ، وكان معظم هؤلاء من شبه القارة الهندية ، ولكن كان هناك مسلمون من شرق إفريقيا وجنوب إفريقيا ، ومن جزر الهند الغربية ، وكان هناك إيرانيون وماليزيون وأتراك من قبرص خاصة .

وفي بدايات هذا القرن جاءت جالية يمنية ، قليلة العدد ، عمل معظم أفرادها في المصانع البريطانية في مانشستر وبرمنغهام وبرادفورد ، وغيرها من المدن الصناعية البريطانية ، ومدن





○ (الى أعلى)
مصلون في مسجد
المركز الإسلامي بلندن ـ
(أسفل) درس ديني
بمسجد برمنغهام



○ برج بناية تحول
إلى مئذنة مسجد
ببرمنغهام

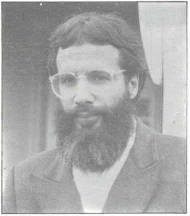




الساحل الشرقي ، لتكون النواة الأولى للجالية العربية المسلمة هناك ، وتلاهم بعد ذلك مهاجرون عرب من مصر والعراق والمغرب وفلسطين وليبيا وتونس .

غير أن « الجالية المسلمة » لم تبدأ بالتوافد على البلاد بأعداد كبيرة إلا في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات من هذا القرن ، وهي الفترة التي بدأت فيها البلدان الإفريقية والآسيوية بالتحرر من نير الاستعمار القديم ، بعد أن أفلت شمس الامبراطورية البريطانية في أعقاب حرب السويس عام ١٩٥٦م ، فسافر كثيرون من أبناء المستعمرات من بلدانهم إلى بلاد المستعمر السابق ، قبل أن يغلق أبواب بلاده في وجوههم ، لذا فإن « الجالية المسلمة » جالية حديثة جدا ، كما أن أفرادها ينتمون في غالبيتهم الساحقة إلى الطبقات الفقيرة ، فمعظم هؤلاء كانوا عمالاً وموظفين صغاراً ، ولم يكونوا مثقفين أو أصحاب ثروات أو تجاراً . ولعل هاتين الحقيقتين هما الأكثر تأثيراً على أوضاع الجالية المسلمة هناك ، فمثل هذا المستوى الاجتماعي المتواضع ، ومثل هذا الزمن القصير من الهجرة ، لم يتيحا للجالية أن تذوب تماماً داخل المجتمع البريطاني ، ولم يتيحا لأفراد هذه الجالية أن يكوّنوا الثروات ، ويتسلقوا السلم الاجتماعي إلى الطبقات العليا ، بل لم يتيحا لهم في كثير من الأحيان إتقان اللغة الإنكليزية ، فظلت اللكنات الأصلية واضحة بقوة في حديث الغالبية العظمى من أفراد الجالية المسلمة هناك .

وهذا يفسر أيضاً عدم بروز شخصيات مؤثرة في الحياة البريطانية العامة ، حيث الطبقات والفئات المختلفة في المجتمع البريطاني قوية مستقرة وراسخة ، لا تسمح لأحد باختراقها ، وهذا لا يعني بالطبع عدم وجود استثناءات في هذا المجال ، مثل وجود تجار كبار ، وبعض نجوم المجتمع والفن والأدب ، إلا أنها تبقى استثناءات لا تشكل حالة أو ظاهرة عامة . وعلى



○ يوسف اسلام مغني الروك السابق .

مستوى الجالية نفسها فإن قصر عمرها منعها من التكاثف والترابط والتنسيق بين أطرافها واختيار « قياداتها » ، للعمل كقوة واحدة محددة الأهداف والطموحات ، وهذا بدوره أثر على وضعهم القانوني كجالية دينية ، أو « أقلية دينية » ، كما تصفهم بعض الصحف البريطانية ، فمازالت كثير من حقوقهم الدينية مهضومة ، مما دفع صحيفة التايمز اللندنية إلى نشر مقالة لأستاذ التاريخ في جامعة بريستول ، جون فنسنت ، يرد فيها بحدة على ما قاله وزير الداخلية البريطاني ، دوغلاس هيرد ، في خطاب له في مسجد برمنغهام في فبراير الماضي ، من أن القانون البريطاني ينطبق على الجميع ، وقال فنسنت : إن هذا غير صحيح في مجال قانون « التجديف » أو السخرية من الأديان غير المسيحية ، وأضاف : « إن المحاكم مفتوحة بالنسبة للمسيحيين في هذا المجال ، أما بالنسبة للمسلمين فهي ليست كذلك » .

ويقول الدكتور الغامدي : إن هناك الكثير من القوانين البريطانية التي لا تنصف المسلمين ،

مثل قوانين الهجرة التي تعوق كثيراً منهم عن استقدام أقاربهم أو الزواج منهم وإحضارهم لبريطانيا . كما أنهم يعانون من بعض مظاهر التمييز العنصري ، وينظر كثير من الإنجليز لهم باعتبارهم جزءاً من عالم ما وراء البحار ، وليس باعتبارهم مواطنين بريطانيين . فمثلاً ، في الوقت الذي تحصل فيه المدارس المسيحية أو اليهودية على إعانات من الدولة ، لا تحصل « المدارس الإسلامية » على مثل هذه الإعانة ، ونحن هناك كانت قضية «مدرسة زكريا الاسلامية العليا للبنات » في مدينة « باتلي » الشمالية ماتزال مثارة من جانب إدارة المدرسة وزعماء الجالية المسلمة في المدينة الواقعة في يوركشير الغربية : السلطات البريطانية ترفض تقديم العون لمدرسة مسلمة للبنات ، في بلد التعليم فيه مختلط ، وإدارة المدرسة والجالية تصران على أن من حق الفتيات المسلمات أن يدرسن في مدارس غير مختلطة ومن حق المدرسة أن تحصل على المعونة أسوة بباقي المدارس البريطانية . ومازالت « المعركة » مستمرة منذ عامين .

وليست هذه غير أمثلة بسيطة على بروز مثل هذه القضايا إلى السطح ، فما الذي حدث أخيراً حتى تثور مثل هذه القضايا الآن ، وليس قبل ذلك ؟

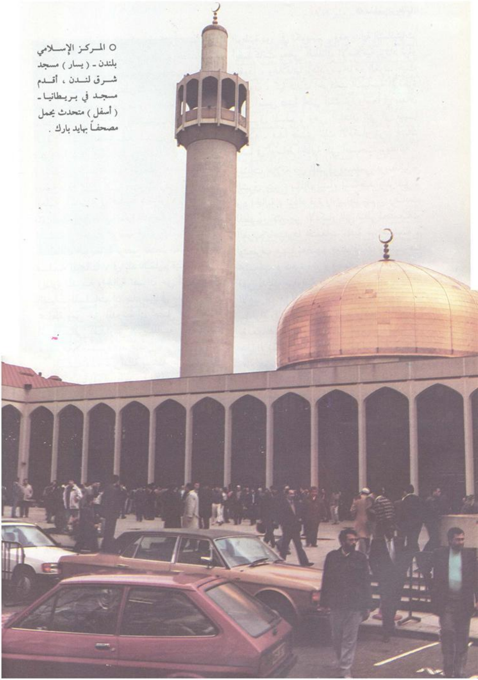
لقد حدثت أخيراً أشياء كثيرة ، تبدأ في بريطانيا ، وتنتهي في أطراف الشرق المسلم .

الوطني والديني

مع بداية الثمانينيات كان الجيل الثاني من المهاجرين المسلمين قد بدأ يشق طريقه في شعاب المجتمع البريطاني . ولأن أفراد الجيل الأول مازالوا على ارتباط وثيق بثقافتهم وديانتهم ، بل بأوطانهم وأقاربهم في تلك الأوطان ، نتيجة لثورة الاتصالات ، وما أتاحت لهم من الإمكانيات ، فقد أرادوا لأبنائهم من الجيل الثاني نشأة ، للدين فيها مكان رئيسي ، ولثقافاتهم الوطنية دور في تكوينهم . ومع بداية الثمانينيات أيضاً كانت بعض البلدان الإسلامية تزداد ثراء ونفوذاً ، وعلاقاتها تزداد رسوخاً مع الغرب حيث يقيمون ، كما كانت الحركات السياسية المرتكزة على أسس دينية تحقق انتشاراً واسعاً في بلدان الشرق المسلم ، وهي البلدان التي أتى منها هؤلاء ، فبدأ صدى تلك الأفكار يتردد هناك أيضاً في أوساط الجالية التي أصبحت بريطانية .

ونشأت علاقة بين الشرق ومسلمي بريطانيا ، الشرق يتبرع بالمال لبناء المساجد والمراكز ، و« الجالية » تزداد قوة وارتباطاً بهم . وعادت للظهور كثير من الأفكار التي تنظر لمجتمعات الغرب باعتبارها مجتمعات مادية غير مسلمة ، ليتطرف فيها بعضهم بعد ذلك ويعتبرها مجتمعات « كافرة » ، و« معادية للإسلام » ، فهي لذلك مرفوضة من جانبهم . لكن الحقيقة الأهم أن هؤلاء أصبحوا مواطنين بريطانيين بالحياة والتجنس والمصالح والامتيازات التي يقدمها لهم النظام البريطاني الغربي ، فكيف يحل هذا الإشكال ؟ كيف يحافظ المسلمون في بريطانيا على هويتهم الثقافية والدينية التي تكونت في بلدانهم الأصلية وعلى « امتيازاتهم » التي يكفلها لهم النظام البريطاني الذي يقدم لهم الكثير من الحقوق غير المتوافرة في بلدانهم الأصلية ، مثل حقوق الإنسان الأساسية ، والحق في التعبير والاحتجاج والتنظيم وغيرها ؟

إن محاولة حل هذا الإشكال هي أساس تحرك « الجالية المسلمة » في بريطانيا ، فهي لم تعد جالية صغيرة ، بل ازدادت بفعل عوامل كثيرة ، لتزيد على المليونين ، وليصبح الإسلام الديانة الثانية في بريطانيا بعد المسيحية . لذا فمنذ بداية الثمانينيات ازداد عدد المراكز الإسلامية والمساجد ، ليصبح ٣٨٧ بين مسجد ومركز إسلامي ، وليتسع دور هذه المراكز والمساجد من أماكن للصلاة والعبادة إلى أماكن لإلقاء دروس في الثقافة الدينية ، ولتعليم اللغة العربية واللغات



○ المركز الإسلامي بلندن - (يسار) مسجد شرق لندن ، أقدم مسجد في بريطانيا - (أسفل) متحدث يحمل مصحفاً بهايد بارك .


HAJ 23



الأخرى التي ينطق بها المسلمون في بريطانيا ، مثل الأوردية والبنغالية والبنجابية ، للأطفال والشيوخ والنساء .

ولكن لفت نظرنا أن الجزء الأكبر من هذه المساجد ليس ذا قباب ومآذن ، بل هو في الغالب منازل حولت إلى مساجد للصلاة . وفي منطقة « بريكلين » بشرقي لندن تم تحويل مبنى كان في السابق كنيساً لليهود إلى مسجد ، وفي برادفورد كان مسجد أبي بكر مصنعاً للغاز .

وفي الفترة نفسها ، أي في الثمانينيات ، نشطت حركة إنشاء المدارس الإسلامية ، سواء تلك المستقلة ، أو التي تدرس المناهج البريطانية ، بالإضافة إلى اللغة العربية والثقافة الإسلامية ، أو المدارس التي تفتح فصولها داخل المساجد والمراكز ، حيث يتلقى الطلاب دروساً في الدين والقرآن واللغة العربية .

وفي مدينة ديوزبري أنشئت عام ١٩٨٢ جامعة تعليم الإسلام ، أو معهد الدراسات الإسلامية « لتهيئة شباب متعلم ، متزن ، عارف ، مطبقين الإسلام ومفيدين في مجتمع متعدد القوميات » كما ورد في كتيب خاص بالجامعة حصلنا عليه أثناء زيارتنا لمسجد ديوزبري الكبير في المدينة .

وفي الثمانينيات أيضاً ازداد التنسيق بين المراكز والمساجد ، غير أن درجة التنسيق في كل أنحاء بريطانيا ليست على المستوى المطلوب ، والسبب ، كما يقول د. علي الغامدي . ان « هذه المراكز لا تملك صفة قانونية مستقلة لكل منها ، لذا فإن كل مجموعة من المنظمات تحاول إيجاد مظلة لها ، لكنها في العادة مؤقتة ، وهي تقوم على الاختيار التام ، ولا شيء ملزم لها أو تجاهها » .

واليوم ، هناك مساجد كبيرة ، أو مراكز إسلامية ، في جميع مدن المملكة المتحدة الرئيسية : لندن ، مانشستر ، برمنغهام ، برادفورد ، كارديف ، غلاسكو ، سكاربورو ، وغيرها .

١٠٠ ألف جنيه من كويتي

في شارع وايتشابل ، في شرقي لندن ، يقوم مسجد شرق لندن ، وهو أقدم مسجد في بريطانيا . بناء يضرب لونه إلى البني ، قبة ومئذنة ترتفعان فوق البناء المربع الذي ضم إلى جانب المسجد مصرفاً اسمه « بنك البركة » .

ومن المعروف أن شرقي لندن هي المنطقة الفقيرة من العاصمة الواسعة ، والجالية المسلمة تتكون في غالبيتها من الباكستانيين والبنغلاديشيين والصوماليين ، ذوي الحالة الاجتماعية المتواضعة أو الفقيرة .

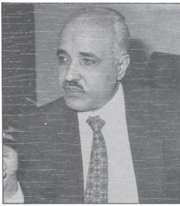
حين وصلنا إلى أقدم مسجد في بريطانيا ، لم يكن هناك غير الحارس رحمان خان ، ولكن بعد قليل وصل أمين الصندوق صلاح الدين حليم الذي كثيراً ما يتردد على المسجد في أوقات فراغه ، فهو لا يتلقى مرتباً ، بل هو مثل كل أعضاء مجلس إدارة المسجد يعمل مجاناً « في سبيل الله » على حد تعبيره . وعندما عرف أنني قادم من الكويت ، ذكر لي أنه كان جالساً في أحد الأيام بمكتبه الذي يقع إلى يمين المدخل الرئيسي للمسجد ، حين دخل عليه شخص من الكويت ، وبدأ يتحدث معه حول المسجد والمشكلات التي يواجهها ، وحين شرح له أمين الصندوق حاجة المسجد إلى المال ، بادر الكويتي بدفع مبلغ ١٠٠ ألف جنيه استرليني على الفور .

وقبل أن يأخذني السيد حليم في جولة بأرجاء المسجد الفسيح ، بدأ يروي لي قصة بناء أقدم مسجد في بريطانيا . قال حليم : إن هذا البناء ليس هو البناء الأصلي للمسجد ، وعاد بي إلى الوراء ، إلى عام ١٩١٠ ، عندما اتفقت مجموعة من الشخصيات المسلمة المقيمة في بريطانيا في ذلك الحين ، وقرروا إقامة مسجد في هذا الجزء من لندن ، فاستأجروا غرفة صغيرة لإقامة شعائر صلاة الجمعة فيها .

وفي عام ١٩٤٠ اشترت الجمعية ثلاثة بيوت

في منطقة « ستيبني » وحولتها إلى مسجد . وهكذا تم بناء أول مسجد في لندن . لكن مجلس بلدية لندن الكبرى طالب بالمبنى عام ١٩٧٥ ، فانتقل المسجد مؤقتاً إلى بعض البنايات المجاورة حتى يتم بناء هذا المسجد . وهو على الرغم من بنائه الجديد ظل يحمل اسم المسجد القديم ، « مسجد شرق لندن » .

إلى اليسار قامت مكتبة متواضعة لبيع الكتب الدينية الأساسية ، ودفاتر يستخدمها التلاميذ والطلاب الذين يحضرون للمسجد لتلقي الدروس الدينية ، وإلى اليمين مكاتب لأعضاء المجلس الذين يتطوعون لأداء هذه الأعمال ، وبالقرب منها قامت أماكن الوضوء ، وبعد ذلك قاعة الصلاة ، يتوسطها منبر جميل الزخرفة . وصعد بي صلاح الدين حليم إلى دور علوي ، توازي مساحته نصف مساحة المسجد ، وتطل عليه ، وقال : « هذه القاعة خاصة بالنساء » . ومقابل قاعة النساء وقاعة الرجال انتشرت غرف صغيرة ، امتلأت بمقاعد الدراسة ، وبعض مستلزمات التدريس ، إنها فصول الدراسة التي يتلقى فيها التلاميذ دروساً بلغات بلادهم



○ الدكتور علي الغامدي مدير المركز الإسلامي بلندن .

الأصلية ، وكذلك في لغة القرآن والثقافة الدينية العامة .

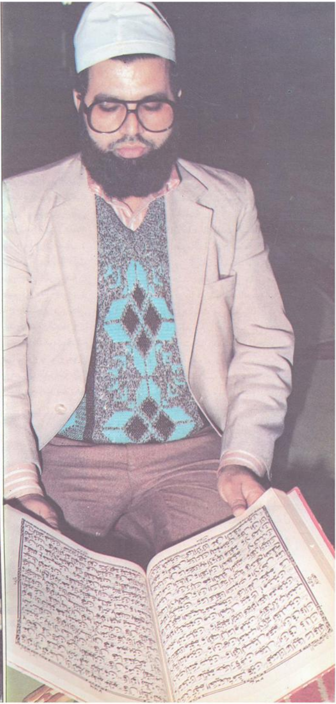
وخلال جولتنا في المسجد بدأ بعض المصلين والتلاميذ يتوافدون بكثرة . ولاحظت أن الغالبية العظمى من هؤلاء كانوا أفارقة ، وقبل أن أسأل بادرني السيد حليم قائلا : إن هذا الوقت خاص بالجالية الصومالية ، حيث يجتمع أفراد الجالية في حلقات لتلقي الدروس في المسجد ، وينتظم التلاميذ الصغار في فصولهم ليتعلموا لغة بلادهم الأصلية وثقافتهم الخاصة .

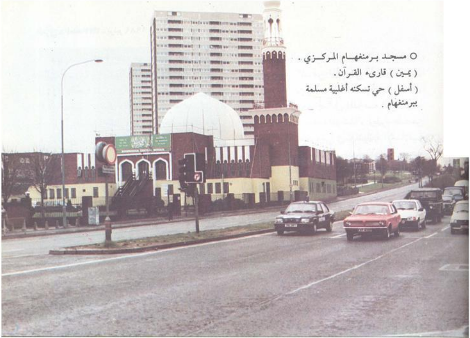
وأثناء جولتنا كان عدد المتوافدين لسماع درس ديني من الجالية الصومالية قد أصبح كافياً . اختار هؤلاء ركناً من أركان المسجد ، وتحلقوا حول الشيخ محمد عثمان عقال الذي جلس متكئاً على الحائط وألقى درساً دينياً باللغة الصومالية ، تخللته استشهادات بآيات من القرآن الكريم وبعض الأحاديث بالعربية . وأجاب عن بعض الأسئلة والاستفسارات قبل أن ينفض المجلس ، لذلك اليوم بالنسبة لهم ، ويبدأ درس جديد للجالية النيجيرية ، فالوقت موزع بين مختلف الجاليات المسلمة القاطنة في تلك المنطقة .

وقال السيد حليم : في صلاة العيد يحتشد هذا المسجد بما يقرب من ٥ آلاف من المصلين ، وكثيراً ما نكرر صلاة العيد ٥ أو ٦ مرات بسبب الازدحام الشديد وضيق المكان . وأضاف وهو يودعني : « إن كل هذه الخدمات تحتاج إلى مال ، وحين اكتمل بناء المسجد طالبنا المتعهدون بالمصروفات الإضافية التي دفعوها أثناء إنشاء المسجد ، وهو مبلغ ليس بسيطاً ، فهو يعادل نصف مليون جنيه استرليني ، وقد حكمت لهم المحكمة بذلك . إننا لا نملك هذا المبلغ . وهناك مكتبة ومخزنان و « بنك البركة » الذي نحصل على إيجاره الشهري ، وهذه كلها تدر علينا بعض المال ، إلا أنه لا يكفي لتسديد هذا المبلغ ، وكل ما نرجوه هو أن توجه عبر مجلتكم نداء للتبرع لتسديد هذا المبلغ » فوعدت .









○ مسجد برمنغهام المركزي .
(يمين) قارىء القرآن .
(أسفل) حي تسكنه أغلبية مسلمة ببرمنغهام .



فيما بعد تجولنا في عدد من المناطق التي تسكنها غالبية مسلمة في المدينة البريطانية الثانية . وكان المشهد واحدا تقريبا : بيوت صغيرة متوازية ، إهمال ، فقر ، رجال ملتحون ، نساء محجبات . ذهبنا الى استون وشارع ترينتي وموسلي ، ومن هناك الى شارع بلغريف ، حيث يقوم مركز برمنغهام الإسلامي .

قبل أن يأخذني السيد عبد الرزاق مغل ، سكرتير المركز ، في جولة بقاعات المسجد العديدة وأجزائه المختلفة ، دعانا الى مكتبه ، حيث بدأ يشرح لنا بعض المصاعب والمشكلات التي تواجه المسلمين هناك ، لكنه لم ينس أن يشير الى بعض الطموحات والمشروعات المستقبلية التي ينوون تنفيذها .

قال السيد مغل : لأننا المركز الرئيسي للمسلمين في بريطانيا فإن لنا اتصالات مع جميع المراكز الإسلامية الأخرى ، ونحن نشارك في جميع المناسبات والاحتفالات الإسلامية . وأضاف : إن المسلمين هنا يعانون من البطالة التي تعاني منها بريطانيا كلها ، وهذا أمر جديد ، لم يكن يواجهنا في السابق ، مما يضيف أعباء جديدة على المركز الذي يحاول المساهمة في حل هذه المشكلة أمام غلاء الأسعار المخيف .

يضم المركز مكتبة وقاعة للمطالعة ، وقاعتين للصلاة ، إحداهما للرجال ، والأخرى للنساء ، وهناك قاعة للطعام ، تقدم الشاي والقهوة وبعض الوجبات الخفيفة للمصلين بعد الصلاة . ويشرف المركز على عدد من المدارس التي تقدم فيها الدروس الإسلامية الخاصة ، بالإضافة الى المناهج البريطانية . ودعاني السيد مغل للنهوض معه لزيارة مدرسة الهجرة التي تقع في الطابق الأرضي من البناء .

السيد محمد عبد الكريم ثاقب قال لي : إن هذا المقر مؤقت ، فالمدرسة التي فتحت أبوابها منذ ثمانية شهور ستنتقل الى مقر مستقل ، أفضل تجهيزا بالنسبة للتلاميذ الذين ينقصهم الكثير من التسهيلات والتجهيزات في هذا المقر المؤقت . وأضاف : إنه كان من المفروض أن يتم الانتقال منذ مدة ، لكن قلة المال حالت دون ذلك ، فالإيجارات مرتفعة جداً في المدرسة التي لا تعد نموذجية بسبب وضعها المؤقت ، ويقوم عدد من المدرسين بإعطاء دروس في الديانة الإسلامية واللغة العربية والتجويد ولغة الأوردو ، وهي مواد إجبارية ، وذلك إضافة الى المناهج البريطانية . وتغطي المدرسة المرحلة الابتدائية ، وجزءا من المرحلة الثانوية التي لم تكتمل فصولها الدراسية .

والسيد ثاقب الذي يتحدث بلغة عربية سليمة ، هو مدير المدرسة ومؤسسها ، وهو يشرف على ١٥ شخصا بين مدرس ومدرسة وسائق وفني ومسؤول عن نظافة الفصول والحجرات ، كلهم يعملون في المدرسة .

وداخل الفصول جلس التلاميذ ومعظمهم شرقيو الملامح ، وجلست الفتيات الصغيرات المحجبات يستمعن الى شرح من المدرس بانتباه قطعه دخولنا . وبينما كان المصور منهمكا بأخذ الصور ، كانت نظرات الفضول الطفلية تغلب على نظرات الانتباه لما يقوله المدرس . وحين غادرنا المركز وودعنا السيد ثاقب لاحظت أن بعض التلاميذ الصغار مازالوا يلاحقوننا بنظرات الفضول ، فهم لا يرون مثل هذا النوع من الزائرين كل يوم .

مساجد ومساجد

إن مايلفت النظر في مساجد بريطانيا هو ذلك الدور الذي تقوم به ، ليس بوصفها أمكنة للصلاة فقط ، بل باعتبارها مراكز للعديد من الأنشطة المتعلقة بالإسلام والمسلمين ، ففيها تبرم عقود الزواج ، وفيها تتم الصلاة على الأموات وتجهيزهم قبل دفنهم ، وفيها تقام الاحتفالات بالأعياد الإسلامية ، وفيها تلقى الدروس

والمحاضرات الدينية ، سواء الدورية منها أوتلك المتعلقة بالمناسبات الدينية ، ويساهم بهذه الأنشطة ـ بما في ذلك التدريس ـ عدد من كبار العلماء ورجال الدين والمختصين . لذا فإننا عندما قمنا بزيارة المسجد الجامع الواقع في شارع كوفنتري ببرمنغهام لم نلاحظ أي اختلاف جوهري في دور أو نشاط المسجد المذكور ، على الرغم من الاختلاف في البناء ، فهذا المسجد عبارة عن منزل ضخم يجري العمل على توسيعه ، ولكن ليس به قبة أو مئذنة .

قبل أن نغادر برمنغهام قمنا بجولة في المناطق التي تسكنها غالبية مسلمة ، ومررنا بعدد من المساجد التي لم تكن أكثر من منازل متواضعة ، يفتح أبوابها حراس سمر البشرة ملتحون ، تزول عن وجوههم الدهشة من تطفل الطارق الغريب لمجرد قول « السلام عليكم » ، وبها يودع الزائر العابر الذي لايريد أكثر من « مشاهدة » ما يجري داخل المسجد .

مسلمون في كل مكان

لاشيء يميز مدينة برادفورد الشمالية من حيث الأبنية وتصميمها وهندستها البريطانية التي تهتم بالعراقة قدر اهتمامها بالحداثة ، لكنك تبدأ باكتشاف المسلمين في برادفورد بمجرد ركوب سيارة أجرة من محطة القطار التي تتوسط المدينة ، فمعظم سائقي سيارات الأجرة مسلمون من باكستان أو بنغلاديش . وطوال تجوالنا في المدينة ليومين متتاليين لم نشاهد سائق سيارة أجرة واحد من غير هذين البلدين ـ الاستثناء أن يكون السائق مسلما هنديا ـ هل هي الصدفة ؟ لم نستعجل الإجابة ، وإن عرفناها بعد اليوم الأول من التجوال .

من بين ٤٠٠ ألف شخص ، هم سكان مدينة برادفورد الصناعية ، هناك ٦٠ ألف مسلم ، وفي إحصاء آخر ـ بريطاني ـ ٨٠ ألف مسلم ، وهي



○ السيد فيصل الصباح .
الملحق الإعلامي بسفارة الكويت في لندن .

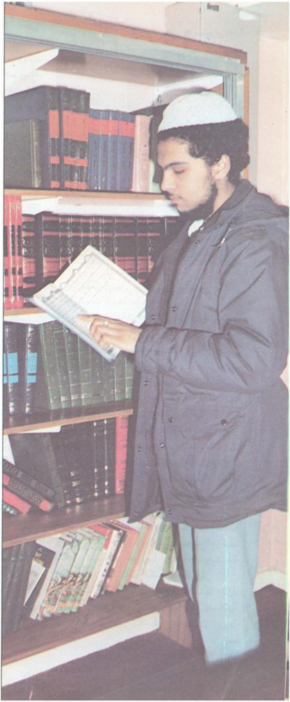
نسبة كبيرة جدا . ومعظم هؤلاء يباشرون الأعمال الخدمية الوسيطة : تجارة صغيرة أو متوسطة ، مصالح بسيطة ، مخازن ، مطاعم ، أو العمل على سيارات الأجرة . الأفضل بينهم من حيث الأوضاع الاقتصادية هم الباكستانيون الذين يملك بعضهم المحلات والبقالات والمطاعم ويملك بعضهم مصانع للنسيج .

قمنا بجولة في المدينة ، طفنا بحي مانئغهام ، وهو واحد من عدة أحياء يقطنها المسلمون . زرنا بعض المساجد والمراكز والمدارس الإسلامية . لم نجد ما تختلف به هذه المساجد عما شاهدناه في لندن وبرمنغهام ، سوى تصميم مسجد شيربريدج الذي بدا بموقعه القائم على مفترق طريق صاعداً مثل كنيسة ضخمة ، لكن الدهشة تبددت عندما أخبرنا حارس المسجد أنه كان بالفعل كنيسة تم تحويلها الى مسجد ومدرسة إسلامية ، حملت اسم الكلية الإسلامية .

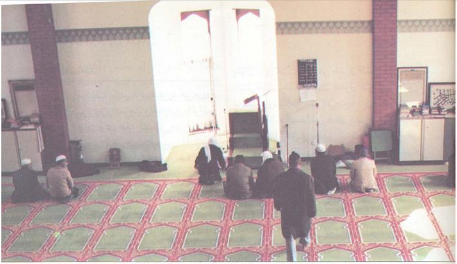
أما المساجد الأخرى فهي في معظمها منازل عادية ، حولت الى مساجد ومدارس إسلامية ودور للعبادة .







○ (يمين) في مكتبة مسجد برمنغهام المركزي - (يسار - أعلى) قاعة الصلاة بمسجد شرق لندن - (أسفل) مقبرة بروكوود الإسلامية .




انا لله وانا اليه راجعون

مجلس المساجد

الجديد المختلف بالنسبة لبرادفورد هو درجة التنسيق الكبيرة بين المساجد والمدارس والمراكز الإسلامية فيها . ويتم هذا التنسيق عبر « مجلس المساجد » الذي ينظم العلاقة بين المساجد بعضها ببعض ، وبين المساجد والحكومة البريطانية والجهات الرسمية الأخرى ، وهذا المجلس الذي يرأسه السيد شير أعظم هو مجلس منتخب من قبل لجان المساجد والمدارس في برادفورد . وقبل عام ١٩٨١ ، أي عام تأسيس المجلس ، كان لكل مسجد أو مدرسة لجنة تعنى بشؤونه أو تشرف عليه ، وكان هناك تنسيق بين هذه اللجان ، إلا أن تطوراً نوعياً طرأ على درجة التنسيق بين هذه اللجان ، عندما تم تأسيس المجلس ، ليكون الهيئة الوحيدة التي تنطق باسم المساجد والمدارس الإسلامية . وهي بهذه الصفة الآن مصدر لجميع المعلومات الخاصة بالإسلام والمسلمين في مدينة برادفورد .

السيد لياقت حسين ، الأمين العام للمجلس



السيد عبدالرزاق مغل .
مدير المركز الإسلامي في برمنغهام .

يقول : إن هناك كثيراً من حقوق المسلمين في هذا البلد مهضومة ، هناك حقوق لنا كمواطنين بريطانيين ، أهمها حق الاحتجاج والاعتراض ، أما حقوقنا « كمسلمين » فهي ناقصة ، فنحن نجد أن لنا الحق في رفض تنشئة أبنائنا نشأة غير إسلامية ، أو تلقي تربية تفتقد القيم الدينية والأخلاقية الإسلامية . وقد وجدنا أن المسلمين ليس لديهم من يلجأون إليه سوى القانون البريطاني ، والقانون البريطاني يعاني من ثغرات كثيرة بالنسبة لحقوق المسلمين .

ويقول السيد فقير محمد مدير المجلس : إننا هنا لنرعى مصالح جميع المسلمين ، في هذه المدينة وخارجها ، ونحن حلقة الوصل مع جميع الأقسام والإدارات الحكومية ، ونقوم بهذا العمل بالتعاون الوثيق مع المنظمات والهيئات الإسلامية الأخرى . وفي حال بروز مشكلات من أي نوع تتعلق بالإسلام أو المسلمين ، فإننا نتحاور معا ، ونتخذ القرارات بما لا يتعارض مع القانون البريطاني الذي نحتكم إليه ، وذلك كما يطلب الإسلام من المسلمين ، أي أن يحترموا قوانين البلد الذي يعيشون فيه أينما كانوا ، فالمسلمون مستقرون هنا ، وهم مواطنون بريطانيون ، وأولادهم ولدوا ونشأوا في هذا البلد ، وتعلموا في مدارسه ، وكل ما يريدونه أن يبقى أولادهم مسلمين .

وقبل أن أغادر مقر المجلس بشارع كليرمونت ببرادفورد ناولني السيد فقير محمد كتيباً عن المجلس وتركيبته وأهدافه . وقد لاحظت أنها لم تقتصر على الأمور الدينية فقط ، بل تتضمن العديد من المسائل الدنيوية أيضا ، مثل تقديم المشورة المتعلقة بقضايا الرعاية الصحية والاجتماعية ، ومكافحة البطالة ، والتعليم ، والحقوق المدنية والاجتماعية ، وقضايا الإسكان والهجرة والجنسية ، وتقديم خدمات الترجمة عند التعامل مع الهيئات الحكومية . ويتضمن أيضا مساعدة المسلمين في قضايا تتعلق بالتعامل مع

السجون والشرطة ، وكذلك قضايا الشباب والشيوخ والنساء وكل ما يمس الحياة اليومية .

ويشرف المجلس على مراكز نهارية لكبار السن ، حيث يقوم هؤلاء ببعض الأعمال والمهارات اليدوية التي قد تنفعهم في حياتهم .

وضع مختلف

في مدينة ديوزبري كان الوضع مختلفا بعض الشيء . توجهنا على الفور الى ضاحية سافيل تاون ، حيث يوجد الجامع الذي يقال إنه الأكبر في أوربا كلها . أنزلنا سائق سيارة الأجرة المسلم في باحة المسجد الكبير . وعلى صوت السيارة التي كانت تهم بالمغادرة ، خرج إلينا من باب المسجد

شاب ، تلاه شابان آخران ملتحيان ، وقد ارتديا ملابس تدل على هوية آسيوية . سألونا بحذر واضح عما نريد ، قلنا لهم إننا بعثة صحفية من مجلة « العربي » ، نقوم باستطلاع عن المسلمين في بريطانيا ، وإننا نرغب في مقابلة أي مسؤول ليعطينا معلومات حول المسجد ونشاطه ، وحول الحالية المسلمة في ديوزبري وأنشطتها ومشكلاتها ، وإن أمكن التقاط بعض الصور للمسجد . قال الشاب : إن هذا المسجد للدعوة الإسلامية ، وإن من يأتي إليه من الدعاة أو من حفظة القرآن ، واعتذر لأن المسؤول المخول بالحديث عن المسجد غير موجود ، وعرضت عليه أن يتحدث هو فاعتذر بأدب بعد أن استشار أحد زميليه ، وسألته إن كانت لديه أي معلومات مكتوبة حول المسجد ، فدخل وعاد اليَّ بكتيب صغير ، وقال : إننا دعاة ، والدعوة تخرج من القلب مباشرة وليس لدينا أي شيء مكتوب سوى هذا الكتيب الذي يحتوي على أهداف « جامعة تعليم الإسلام » ، وعلى شروط الدراسة في المعهد وطريقة سيرها . ولما طلبت منه أخيرا السماح لنا بتصوير المسجد ومدرسة البنات العليا المجاورة له ، اعتذر أيضا وقال : إن التصوير ممنوع . ثم دخل وأحضر لي بعض الصور لعليِّ « أستفيد » منها . وعندما قلت له : إن مجلتنا تعتمد أساسا على الصورة المباشرة الخاصة بها ، وإننا نود إن نأخذ الصور بأنفسنا ، اعتذر مرة أخرى بعربية ذات لكنة آسيوية ، ووقف ، ووقفنا . وانقطع الحوار ، وكان لابد لنا أن نغادر .

واتجهنا نحو شوارع المنطقة التي يقطنها المسلمون أساسا ، الشوارع والأزقة المنظمة على الطريقة البريطانية الشهيرة ، خالية إلا من عجوز ملتح هنا ، أو سيدة أو فتاة محجبة هناك . وبعد الظهيرة بقليل كان موعد انصراف المدارس قد حل ، فامتلأت الشوارع بالطالبات اللواتي ارتدين ملابس تتراوح بين الطويلة المحتشمة وبين النقاب . وعندما حاول زميلي المصور التقاط صور لهن تحاشت بعضهن عين « الكاميرا » ، بينما سار بعضهن الآخر غير مباليات بنا . وكان علينا بعد ذلك ، وبعد أن أخذنا صورا للمسجد عن بعد ، أن نمضي عائدين الى مدينة « باتلي » التي كانت مدرستها الإسلامية الشهيرة ، مدرسة زكريا الإسلامية العليا للبنات ، قد أغلقت أبوابها .

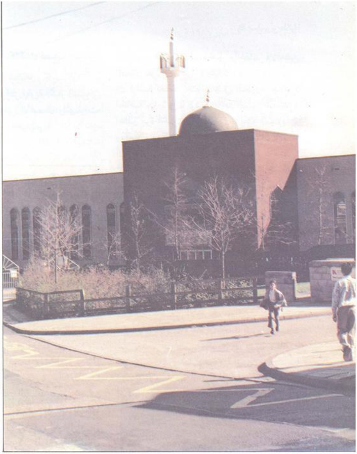
ومن هناك الى برادفورد ، ثم الى لندن من حيث بدأنا رحلتنا .

مسلمون انجليز

ليس مسلمو بريطانيا بالضرورة أناسا قدموا الى الجزر البريطانية من « ماوراء البحار » ، كما يقول الانجليز ، فخلال سنوات الوجود الإسلامي في بريطانيا اعتنق الإسلام عدد من البريطانيين الأصليين . وأمام غياب أي إحصاء يتعلق بالمسلمين فإن عدد هؤلاء غير معروف ،

وإن كان يقدر ببضع مئات ، وكثيراً ما ينظم هؤلاء أنفسهم في جماعات ليست لها صفة رسمية ، بل هي جماعات تلتقي لتتناقش وتتحاور













○ (يمين ، أعلى) مسجد ديوزبري - (اعلى) سافيل تاون ، حي المسلمين في ديوزبري (أقصى اليمين) مركز مدينة برادفورد - (يمين) كنيسة تحولت إلى مسجد في برادفورد .

في شؤون الإسلام ، وفي سبل دعم منظماته المختلفة داخل بريطانيا ، ودعم الجمعيات والمؤسسات والتنظيمات الدينية في أنحاء العالم الأخرى . وتعمل هذه الجماعات تحت أسماء مختلفة ، مثل « جمعية المسلمين البريطانيين » ، و« جمعية النساء البريطانيات المسلمات » ، وهكذا . ومن أبرز الشخصيات البريطانية التي اعتنقت الإسلام مغني الروك البريطاني السابق « كات ستيفنز » الذي اتخذ لنفسه اسم يوسف إسلام ، وأستاذ علم النفس في جامعة برادفورد عبد الرشيد سكينر .

ويرأس يوسف إسلام مجلس إدارة مدرسة إسلامية في لندن ، اسمها المدرسة الابتدائية الإسلامية ، ويصدر عنها نشرة فصلية بعنوان « الإسلامية » ، يساهم فيها السيد إسلام ببعض المقالات ذات الطابع الإسلامي .

وفيما عدا ذلك فإنه يقوم ببعض الأعمال الخيرية ، ويقدم المساعدات للتنظيمات الدينية الإسلامية ، سواء كانت سياسية أو ثقافية في الخارج . أما بالنسبة للغناء فهو ملتزم الآن بالغناء بمصاحبة الدف فقط ، ويقدم ألحانا لكلمات دينية تتعلق بالإسلام والدين الإسلامي لا غير .

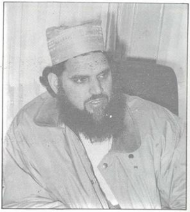
عندما ذهبنا الى « المدرسة الابتدائية الإسلامية » في بروندزبري بارك بشمال لندن كان يوسف إسلام يرأس اجتماعا للمدرسين ، وحين انفض الاجتماع لم يكن بقي على صلاة الجمعة سوى وقت قليل ، وكان علينا خلال هذه المدة البسيطة من الوقت أن نتحدث إليه ، لا عن أسباب إشهاره إسلامه ، ومتى وكيف ، بل عن نشاطه الحالي . قال يوسف إسلام إنه الآن يكرس جهوده لثلاثة أنواع من النشاط ، هي التعليم والدعوة والعون الإسلامي . وأضاف أن الدعوة تلتقي بشكل أو بآخر مع السياسة ، ومن هنا يأتي النشاط ذو الطابع السياسي مثل تقديم المعونة للفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وأولئك الذين يعيشون في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ .

أرقام وحقائق :

يزيد عدد المسلمين في بريطانيا على مليوني نسمة ، وعلى الرغم من أن بعضهم ينزل بالرقم إلى ١,٥ مليون ونصف مليون ويصل به آخرون إلى ٣ ملايين ، فإن الأرجح أن يكون العدد مليونين . ويبدو أن من يعتمدون رقم ٣ ملايين يضيفون إلى المسلمين الحاصلين على الجنسية البريطانية الطلبة والموظفين وغيرهم من العاملين في بريطانيا كمغتربين ، ممن لم يحصلوا على الجنسية البريطانية .

وليست هناك إحصائية معتمدة لعدد المسلمين هناك بعد ، ولا توجد أي مواد مكتوبة وموثقة ، تتضمن المعلومات الأساسية عنهم ، كما أخبرني الدكتور علي الغامدي ، ولكن يقدر عدد سكان برمنغهام المسلمين بين ١٠٠ - ١٥٠ ألف نسمة . وفي برادفورد بين ٦٠ - ٨٠ ألف نسمة ، وفي منطقة شرق لندن وحدها هناك ٥٠ ألفا . ويوجد في برمنغهام ٦٠ مسجدا ومركزا إسلاميا ، وفي برادفورد ٣٨ مسجدا ومركزا . ويحضر الدروس الدينية في المركز الثقافي الإسلامي بلندن ١٥ ألف تلميذ ، ويحضر الاحتفال بعيد الفطر في المركز نفسه نحو ٦٠ ألف شخص .

وقبل أن أبدأ بالاستطلاع كنت أعرف أن المركز الثقافي الإسلامي بلندن هو الأكبر في بريطانيا ، وعندما ذهبت إلى برمنغهام قيل لي : إن مسجد برمنغهام هو المسجد المركزي ، وهو الأكبر . وفي ديوزبري قيل لي : إن المسجد هناك هو الأكبر في أوربا كلها . وكان علي بعد ذلك أن أستنتج أن مركز لندن الإسلامي هو الأكبر من حيث الأهمية والإمكانيات والدور الذي يلعبه ، وأن مركز برمنغهام الإسلامي أهم المراكز في الشمال ، بينما قاعة الصلاة بمسجد ديوزبري هي الكبرى . والله اعلم .



○ السيد لياقت حسين
أمين مجلس المساجد ببرادفورد

تذكروا الميتين

أثناء حديثي مع أحد سائقي سيارات الأجرة في مدينة برادفورد ، قال السائق المسلم : إنني الآن في نهاية حياتي العملية ، فأنا أشرف على الستين . وعندما يحين موعد تقاعدي فإنني سأعود الى باكستان ثانية ، حيث سأقضي هناك شيخوختي ، وعندما أموت أدفن هناك . وفي تحقيق واسع عن المسلمين في بريطانيا نشرته صحيفة الديلي ميل البريطانية ، في فبراير الماضي ، قال المحرر : إن تكلفة نقل الجثمان الى باكستان تعادل حوالي ٣ آلاف جنيه استرليني ، وأضاف المحرر : إنه مع ذلك يطلب كثير من المسلمين البريطانيين أن يدفنوا في أرض أوطانهم الأصلية ، وهي فكرة يعارضها مسلمون آخرون ، فبالنسبة لهم ، مادام هؤلاء اختاروا بمحض إرادتهم الجمع بين الهوية البريطانية ، والدين الإسلامي أصبحت بريطانيا هي وطنهم الذي يولدون فيه ، وفيه يعيشون ويموتون ويدفنون .

توجهنا الى مدينة بروكوود جنوبي لندن ، حيث تقوم المقبرة الإسلامية . ومقبرة بروكوود هي في الأساس مقبرة لقتلى الجيشين الأميركي والكندي في الحربين العالميتين الأولى والثانية ، ولكن جزءا من المقبرة اقتطع ليكون مكانا يدفن فيه المسلمون . دخلنا البوابة التي لم تكن مقفلة على أي حال ، الى المقبرة التي شقتها طريق ترابية عريضة الى نصفين ، تركت مقبرة قتلى الحرب البريطانيين والأميركيين والكنديين معزولة عن مقابر المسلمين .

أتراك ، هنود ، باكستانيون ، وعرب من العراق ، واليمن ومصر ، وفلسطين ، وجدوا مكانا للراحة الأبدية في تلك البلاد .

القبور لها سمات الأحياء ، قبور بنيت فوقها القباب ، وقبور أحاطت بها جدران من الرخام ، كتبت عليه الآيات القرآنية ، ومعلومات عن صاحب القبر ، وقبور أخرى من الحجارة ، وقبور غيرها غطتها الزهور ، فيها نما العشب على بعض القبور ، بحيث لم نعد نعرف إن كنا نسير فوق التراب أم فوق أديم أجساد إخوتنا الميتين ، الذين لم تبخل عليهم الأرض الغريبة بحفرة توارى فيها أجسادهم .

وعلى تلة ارتفعت بجانب الطريق المؤدي الى القسم الخاص بقتلى الحرب الأميركيين والكنديين ، انتصبت شاهدة حملت اسم الشهيد ناجي العلي ، رسام الكاريكاتير الفلسطيني ، وفي الطريق المقابل ، لفت نظري رسم لعلم أحمر وسيف ونجوم ، وعندما اقتربت منه قرأت على الشاهدة اسم زوجة الإمام يحيى حميد الدين ، إمام اليمن الأسبق .

عندما أذن الرحيل كانت مجموعات من الناس ، ارتدى معظمهم الملابس السوداء ، مازالوا ينظفون قبور أقاربهم ، ويضعون عليها الزهور ، ويسقون زهورا غيرها بالماء ، في لمسة وفاء إنسانية لا تشوبها شائبة .

تركنا هذا المشهد الحزين وعدنا أدراجنا . □



○ الواجهة الجنوبية لمنزل من أعمال حسن فتحي .

العمارة للفقراء

التمسك بالبعد الحضاري

بقلم : الدكتور عبدالرحيم ابراهيم أحمد*

إذاكان قيام أي تجمع بشري يرتبط بالأرض الخصبة والماء العذب والمناخ المعتدل ، فإن المأكل والمشرب والملبس والمسكن ، ظلت عناصر أساسية وضرورة ملحة على مدار الساعة لاستمرار الإنسان وتكاثره وإنتاجه ، ومن هنا كانت النظرية التي يعرضها هذا المقال .

* مدرس تاريخ الفن - كلية الفنون الجميلة - جامعة المنيا - جمهورية مصر العربية

المسكن واحد من ضرورات الحياة ، وهو العامل الحاسم في تحديد مستوى المعيشة وكيفيتها . فلا عجب إذن أن تكون معظم أعمال المعماريين والفنانين والمسئولين عن الاسكان وجهودهم منصبة على الحلول المثالية ، بهدف الوصول إلى حل لمشكلة الاسكان ، وجعلها تتناسب مع الحالة الاجتماعية والاقتصادية للإنسان نفسه ، مع عدم إغفال ظروف البيئة .

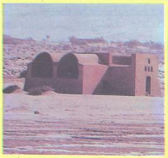
بين الأمس واليوم

تعددت النظريات الهندسية والمعمارية من أجل بناء مسكن رخيص للإنسان ، رخيص في تكاليفه المادية سواء في الخامات أو في استخدام الأيدي العاملة . وبعيد عن التكاليف الباهظة في إقامة العمائر الضخمة وطرق إنشائها وتزويقها . ونحن هنا نتكلم عن المسكن الرخيص للفقير ، فالغني لن يزعجه أي ارتفاع في التكاليف .

ومن خلال مقولة أن البيت يسكنه واحد ويبنيه عشرة ، فإن ما يثقل على الحكومات المختلفة في العصر الحديث هو كيفية إيواء الملايين من الأسر الفقيرة وخاصة في العالم الثالث .

ولعل أهم تجربة في هذا الشأن خرجت من فوق أرضنا العربية ، وبفكر عربي خالص ، وبتأثير من التراث العربي . وأعني بها تلك التجربة التي قدمها المهندس المعماري العالمي « حسن فتحي » .

وما أحوجنا في الوطن العربي إلى دراسة نظرية ذلك المهندس المصري المولد ، ليس من أجل الاستفادة منها فقط ، بل من أجل المحافظة على التراث الحضاري كقيمة ثقافية ، فالشارع العربي اليوم يختلف تماما عن شارع الأمس ، إذ يمتلىء اليوم ضجيجا وصخبا وصراخا وغبارا وزحاما وتلوثا، ومع هذا فقد تغيرت عمارتنا بشكل كبير متأثرة بنظريات معمارية غريبة عنا . فبالأمس كان الشارع العربي أقل ضجيجا وزحاما وتلوثا ، ومع



○ استراحة موقف الحافلة (الاتوبيس)



○ منظور من الحديقة لمنزل من أعماله



○ خلفية أحد المنازل في سيدي كرير

ذلك كان أسلافنا يفتحون غرف الدار عن صحن داخلي مكشوف، بعيداً عما كانوا يعدونه ضجيجاً وتلوثاً ، ناهيك عن الابتعاد عن نظرات العابرين والرغبة في ستر داخل البيت عن مشاغل البيئة .

أهم من ذلك كله هو « العمارة للفقراء » الذين يمثلون الغالبية العظمى من سكان العالم الثالث . ويعد « حسن فتحي » أحد الرواد الكبار والقلائل في العالم الذي اقترح ونفذ ما يمكّن الفقير من امتلاك مسكن صحي ملائم من خلال النظر إلى ظروف البيئة . وقد ذاعت نظريته وانتشرت ، وأخذ بها العديد من الدول من أجل حل مشكلة اسكان الفقراء . ومن خلال النظر إلى أفكاره يمكن أن نصنفها على النحو التالي :

أولا : رفض الاستعارة

المقصود هنا ليس رفض الاستعارة فقط ، بل والتمسك بالعمارة التي تصوغها البيئة المحلية ، وهو يقصد بالاستعارة من جهة محددة هي أوربا . ويرى أن احترام البيئة أمر مهم . ويجب أن تكون العمارة متناسبة معها من حيث الاستخدام والذوق العام . ولذا فمن الواجب دراسة البيئة قبل البدء في التعمير .

ويقصد بالبيئة تلك الظروف المحيطة التي تؤثر في النمو والحياة . والبيئة التي تهمنا في هذا المجال يمكن تقسيمها إلى نوعين .

أ ـ البيئة من صنع الخالق العظيم ممثلة في الجبال والأودية والأنهار والبحيرات والمسالك والدروب . . الخ .

ب ـ البيئة الحضارية وهي التي يتدخل الإنسان في صنعها من حيث المنشآت والطرق الممهدة عبر البيئة التي من صنع الخالق سبحانه وتعالى ، وغير ذلك كثير .

وللبيئة دور مهم في عمليات التصميم ، إذ تجب مراعاة العوامل الجوية ومواد البناء المتوفرة ، ثم مراعاة خصائص الإنسان الذي سيعيش فيها من النواحي « الفسيولوجية والسيكولوجية » . ومن هنا كانت العمارة التي تصلح في المدن تختلف عنها في الواحات ، إذ لكل بيئة عمارة تناسبها وذلك اعتماداً على العوامل نفسها السابق ذكرها « الجو والبيئة الطبيعية » ، فهي التي توجد الفروق الأساسية في تشكيل حياة الإنسان . وإذا ما أدرك المعماريون هذا الفرق بين منطقة وأخرى ، فإن ذلك وبلا شك سوف يساعد على تنمية الشخصية في العمارة التي تعد من أهم أركان الثقافة .

ولا يقف الأمر عند المناخ الطبيعي وحده واتجاه الأشعة ، ومساقطها ، بل يعدوه إلى المنظر الطبيعي الذي يعد من العناصر المهمة في تحديد شكل العمارة التي كانت انعكاسا للبيئة ، مما دعا بعض المعماريين إلى إطلاق صفة الصدق في التكوينات المعمارية التي كانت نتيجة طبيعية لتفاعل الإنسان مع البيئة . وحيث إن البيئات تختلف الواحدة عن الأخرى فقد جاءت حصيلة هذه التفاعلات مختلفة من بلد إلى آخر ، مما جعل المعماريين يبحثون عن تصميمات تناسب كل بيئة تكون نابعة من وجدان تلك الجماعة دون ما تكلف ، حتى لو جاءت لنا بطرز معمارية متميزة محببة إلى نفوس أهلها ، والتي أصبحت سمة لهم ، وأصبح الطراز بمثابة الشعار لتلك الجماعات . على أن الشعور بالجمال في العمارة يعد أمرا نسبيا يختلف فيه الحكم من فرد إلى آخر ، ومع ذلك فإن الشيء الجميل يتطلب استيفاء عدة شروط حتى يكتسب هذه الصفة .

والمعنى الإجمالي عند « حسن فتحي » هو أن الجمال المعماري في المبنى ، إنما هو صفة تعبيرية تنتج التأثير بالشكل في الشعور ، بالتوافق بينه وبين القوى العاملة على تكوينه . ويمكن القول بأن الطبيعة لم تقصد خلق الجمال ، إنما الإنسان هو الذي يصف هذه الأشياء بتلك الصفة من واقع إحساسه بتوافق الشكل .

ثانيا : الاعتماد على الخامات المحلية

ينادي « حسن فتحي » بضرورة الاعتماد على الخامات والموارد من البيئة نفسها ، وفي تجربته في مصر كانت الحجارة والطين هما الأساس في تجربته ، وكذلك فإن عدم الإسراف يعود بفوائد كثيرة أهمها احترام الطبيعة من حيث الأحوال والأبعاد . وتتماشى مع المنظر المحيط بما فيه من منشآت ، بحيث تبدو العمارة في النهاية في ترابط عضوي يؤلف ثبتا واحدا ، لا اختلاف فيه ولا نشاز .

واستخدام المواد المحلية يحل بعض المشاكل الاقتصادية التي يعاني منها العالم الثالث على وجه العموم ، وبعض من وطننا العربي على وجه الخصوص ، إضافة إلى أن الروح الفنية الأصيلة سوف تفرض نفسها على العمل المعماري بدون شك « عندئذ » .

والمتأمل لتلك النظرية عند « حسن فتحي » يجد أنها تتراوح بين زوايا ثلاث متساوية في مثلث واحد،عمادها الانسان ، والمعمار ، والفن . إذ لابد من المحافظة على توازنها كشرط أساسي لنجاح العمل العمراني ، الانسان بكل متطلباته الفطرية والنفسية والعصبية ، والمعمار بمتطلباته الإنشائية والهندسية والثقافية والحضارية ، والفن بكل متطلباته الجمالية والبصرية والتطبيقية .

ثالثا : التمسك بالبعد الحضاري

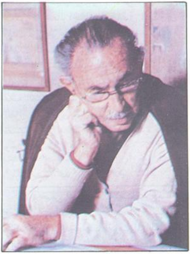
لابد من التمسك بالبعد الحضاري الذي يجمع بين التراث والمعاصرة والمستمد من الطابع الفني والقومي الذي خلفته العصور السابقة ،

ولا شك أن مستحدثات العصر ليست هي كل شيء ، بل انها كثيرا ما تكون عاملا مساعدا على طمس جمال البيئة ، وخير الأمثلة الدالة على هذا الطمس هو استراحة الملك فاروق « آخر ملوك مصر » ، وفندق مينا هاوس « بمنطقة الهرم » حيث جاءت الإضافات عليهما خالية من اللمسات الجمالية والفنية ، الأمر الذي أدى إلى طمس كل معالم الجمال السابقة في العمارتين . ومثال آخر هو عمارة الجدران الزجاجية التي هي أحدث النظم المعمارية المعاصرة،والتي تهدف إلى انفتاح المبنى على المنظر الخارجي مما دفع بالفراغ المحدود بالجدران للتسرب إلى الخارج مصطحبا معه العمارة كلها ،ولا ننسى أن العمارة هي الفراغ المحصور بين الجدران وليس الجدران نفسها ، من هنا ، أصبحت العمارة كشخص وجد نفسه عاريا في وسط البيئة .

« حسن فتحي » المعماري المفكر

إن « حسن فتحي » المعماري صاحب نظريات أصيلة في فن العمارة الريفية والصحراوية،فجعلها أقرب إلى البساطة والتلقائية ، ولكنه أخضعها لتقاليد العمارة الإسلامية بوجه عام . أما عن صياغته المعمارية للمدينة ، فكانت تعتمد كليا على تقاليد وعظمة العمارة الإسلامية في الاستفادة من الخامات المحلية ، وفي تصميم السقوف على شكل قبو ، وبذلك امتزجت كل جهود الشد والانحناء والقص، واقتصرت على جهود الضغط . والطوب الأخضر يتحملها بكل يسر ، وهي أساليب معمارية كانت مستخدمة في « النوبة » في مصر .

ولقد ثبت أن المواد الأولية المحلية هي أكثر المواد ملاءمة للبنيان من حيث التكاليف . وهذا بالضبط ما تحقق في قرية « القرنة » التي بناها بالبر الغربي لمدينة الأقصر بصعيد مصر . وقد جاءت القرية مؤكدة ذلك الطابع القومي في شخصيتها وبساطتها ، الأمر الذي نقل فكرتها ونظريتها وعمارتها من المحلية الى العالمية . الأمر الذي دفع باسم المعماري « حسن فتحي » إلى العالمية باعتباره خبيرا في مشروعات الإسكان الريفي ، وتبنت « هيئة اليونسكو » أبحاثه وتم تنفيذ العديد منها في أمريكا وآسيا وأفريقيا . أما لماذا لم ينجح


○ المعماري الفنان حسن فتحي ولحظة تأمل

مشروع قرية « القرنة » ، فتلك قصة أخرى ، إذ أن سكان « القرنة » كان لهم رأي آخر . . فإفشالها يعود إلى ذلك الارتباط بين حراس الآثار الفرعونية و « المافيا » العاملة في تهريبها - إذ أن سكان القرنة وجدوا أن بيوتهم تقوم فوق المقابر القديمة فأخذوا يكشفونها قبرا بعد آخر ويبيعون ما يعثرون عليه ، ولما جاءت مصلحة الآثار وكلفت « حسن فتحي » ببناء « القرنة » ، كان من الطبيعي أن يرفض السكان ترك الكنز الذي هو أسفل بيوتهم القديمة . ولقد بنى بيوت القرية من الحجر والطمي التي كانت أرخص المواد وأفضلها لسكنى المناطق الحارة ، أما عن التكاليف فهي لا تكاد تذكر إذا ما قيست بأسعار البناء في عام ١٩٤٦ تاريخ البدء في بناء القرنة أو عام ١٩٥٣ تاريخ الانتهاء منها .

نظرية اسكان الفقراء كتجربة سجلها في مؤلفه العلمي الكبير باسم « العمارة للفقراء » الذي نشره باللغة الإنجليزية لعدم وجود ناشر مغامر ينشره بالعربية ، وقد ترجم هذا المؤلف لخمس لغات غير الانجليزية ، هذا بخلاف ٢٨ بحثا وكتابا آخرين .

ولم تكن « القرنة » هي التجربة الوحيدة . فلقد كان تصميم المباني الريفية عام ١٩٣٧ بالوجه البحري بمصر هو أول التصاميم ، ثم استخدم القباب فوق المباني الطينية في قرية « بهتيم » وفي الواحات المصرية وعلى السواحل . وكانت له تجربة فريدة أيضا في واحة باريس المصرية في الصحراء الغربية .

ولقد تنبهت الدول الأخرى لنظرية العمارة للفقراء ، فاستعانت به في التخطيط والإشراف لإقامة عمائر الفقراء في بعض الأقطار العربية والافريقية والآسيوية ، بل في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، إذ أقام بها قرية « دار السلام » في « نيومكسيكو » بتكاليف لم تتجاوز ثلث تكاليفها الحقيقية إضافة إلى المحافظة على الطراز .

المعارضة القوية

ولقد واجهت نظريته معارضة شديدة من أصحاب المصالح ، وهؤلاء الذين تتأثر أعمالهم مباشرة نتيجة الاستغناء عن الخامات المستوردة أو المقاولين وأصحاب الأعمال . كلهم تحالفوا ضده في وطنه مما أكسبهم نصرا مؤقتا . على الرغم من أنه كان يكسب الجولة الأولى دائما . فكانت المؤامرات والتحالفات تتقدم لتضغط ضده وتنتصر في النهاية . ومن هنا انتقل بنظريته للغرب وللشرق ونجح هو ونظريته نجاحا باهرا .

إن العمارة للفقراء لن تنسى ذلك المناضل من أجل انتصارها ، والذي وهب نفسه لتلك النظرية في طول العالم وعرضه.ومازال - على الرغم من أن المرض والشيخوخة أقعداه - يعطي لتلاميذه فكرة عن طرق ووسائل البناء للفقراء . □

وجهاً لوجه





د. لطيفة الزيات و أمينة النقاش

- كان اشتغال النساء بالسياسة نادرا في زماني.
- غلبت الجانب العقلي في حياتي سنين طويلة على الجانب الوجداني.
- أرى أنه ليست هناك مشكلة في أن تجد الفتاة المستنيرة نفسها ندًا للرجل.
- شعار مساواة الرجل بالمرأة يحتاج إلى مجهود النساء لإثبات الأهلية

مئات الآلاف من الفتيات اللاتي يعملن ويتعلمن ويكتبن في الصحف وينتشرن في دور القضاء وقاعات المحاكم ، بل ويحملن حقائب وزارية ، لا يتصورون كيف كان وضع المرأة في الوطن العربي منذ أكثر من نصف قرن ، حين كانت نسبة الأمية وسط النساء أربعة أضعاف نسبتها بين الرجال ، وكانت المرأة محرومة من العمل والتعلم والتفكير ، ومحظور عليها اختيار أي شيء ابتداء من لون ملابسها حتى شخص زوجها . ومئات الآلاف من النساء لا يذكرن الرائدات اللواتي بدأن التمرد وبدأن الدق على جدران « الشرنقة » داعيات لنيل المرأة حقوقها الانسانية والطبيعية ، ووقف التمييز العنصري الرجولي ضدها .

وهذه محاولة للاقتراب من العالم الخاص والعام لواحدة من رائدات الحركة الوطنية المصرية ، والحركة النسائية بوجه خاص هي الدكتورة لطيفة الزيات ، استاذ الأدب الانجليزي بكلية البنات جامعة عين شمس ، والناقدة ، والروائية والصحفية والمناضلة من أجل حرية الوطن وحرية المرأة .

الحوار الذي أجرته معها الزميلة أمينة النقاش محاولة لاستكشاف العوامل الذاتية والعامة التي دفعت بها الى هذا الطريق الشاق والصعب ، وللتعرف على الجهد الكبير الذي بذلته لكي تثبت أهليتها ، وبالتالي أهلية المرأة لأن تحصل على حقوقها .

سألت الدكتورة لطيفة الزيات :

* في الظروف التي أحاطت بنشأتك ، هل كان هناك « شرنقة » أسرية . حولك ، أم اجتماعية ، أم الاثنتان معاً ؟

- بالقطع ، شأني في ذلك شأن أي فتاة مصرية أو عربية . فمنذ أن بلغت من العمر عشر سنوات ، بدأ الحجر على حركتي يظهر بشكل واضح ، وأخذ هذا الحجر شكل منعي من الحركة ، وكان الطريق الوحيد المسموح لي بقطعه هو الطريق من المنزل الى المدرسة وبالعكس . والشرنقة ليست تقييداً لحركة الدخول والخروج فحسب ، بل أشد وطأة من ذلك . فالشرنقة هي السعي الدؤوب لصب الفتاة في قالب معين هو القالب المرضي عنه والمرغوب فيه .

وبالنسبة لي فقد كنت طفلة شديدة الحيوية ، ومن المدهش أن هذه الحيوية ، كانت مصدر إزعاج دائم لوالدي الذي كان يرى في الهدوء والصمت والرقة ، مرادفاً للفتاة المثالية . وهكذا تولت والدتي مهمة ترويضي وصبي في القالب الاجتماعي المقبول والمرضي عنه بالنسبة للمرأة . وأخذت عملية الترويض شكلاً ملحوظاً في كل كبيرة وصغيرة من حياتي . فطريقتي في الجلوس لا تعجب والدتي ، وطريقة كلامي لا تروقها ، وصمتي في حضور الضيوف لا يرضيها ، وكلامي معهم خروج عن السلوك المألوف ، وارتفاع صوتي « قلة أدب » وانخفاضه غير مرغوب فيه وهكذا .

واستهدفت عمليات الترويض - التي أعتقد أن كل فتاة عربية تمر بها في عمر الصبا - صبّي في القالب المطلوب اجتماعياً ، ودفعي لاهتمامات محددة غير مسموح لي بتجاوزها :

الاهتمام بزينتي ، وإجادة العزف على البيانو ، والرسم في أحيان أخرى .

الخروج من الشرنقة

* وكيف خرجت من هذه « الشرنقة » الى عتبات الدراسة ؟

ـ قد يدهشك القول أن الحظ لعب دوراً مهماً في هذه الزاوية من حياتي . فبعد حصولي على الابتدائية أراد والدي أن ألزم البيت ، ورفض فكرة دراستي ، ولكن من حسن حظي أن شقيقيَّ عبد الفتاح الزيات ومحمد عبد السلام الزيات ـ وكانا يكبرانني في السن ـ رفضا ذلك ، ولعبا دوراً في اقناع والـدي . وكان محمد هو الذي سارع بنفسه الى تقديم أوراقي في المدرسة الثانوية ، وكـانت هي المرحلة التـالية للابتدائية آنذاك ، وأنا أدين له بالكثير .

اختيار أم مصادفة

* لم يكن التعليم اذن قـرارك بـل قـرار آخرين ؟

ـ بل هو قراري في الأساس ، وآزرني في مواصلته آخرون لسبب بسيط هو أن المدرسة بالنسبة لي لم تكن مكـاناً للتعلم فحسب ، بـل مهـربـاً من الشـرنقـة الأسرية التي تسعى دوماً لتقييد حـركتي ، وميدانـاً لانطلاقي التلقائي ، ومجالاً لكشف قدرتي في التعبير الحر عن نفسي .

* هل كانت دراستك للأدب في الجامعة اختيارا أم محض مصادفة ؟

ـ بل هي اختياري . والدليل على صحة ذلك أنني في الجـامعـة التحقت بقسم اللغـة العـربيـة بكليـة الآداب ، وكان هدفي الـواضح من الالتحـاق بهذا القسم هو أن أتعلم الكتابة الإبداعيـة ، ولما كـان يغلب على الدراسة في هذا القسم آنذاك قواعد النحو والمحسنات اللغوية لم أجد فيه ضالتي . وفي العـام الثاني من دراستي في قسم اللغـة العـربيـة حـولت أوراقي منه الى قسم الأدب الانجليزي ، ولقد دفعني إلى اتخاذ هذا القرار ـ فضلاً عن رغبتي في تعلم كيف أكتب ابداعاً ـ تشجيع د. لويس عوض الذي كان يدرس الأدب الانجليزي في السنة الأولى بالجامعة . فقد استبشر بي خيراً واقترح علي الانتقال إلى قسم اللغة الانجليزية ، حيث مجال الدراسات الأدبية أكثر اتساعاً . كنت فتاة خجولة الى حد كبير حين دخلت الجامعة ، ولكن في السنة الثانية من دراستي حدث تغير كبير حيث بـدأت ممـارسـة العمـل السيـاسي الوطني .

* وما هو التغير الذي طرأ عليك ؟

ـ تغير لا يصدق . فقد انتقلت من فتاة تخجل ـ إذا دخلت قاعة مكتبة الجامعة ـ من أنظار روادها ، الى فتاة تخطب في الجماهير الحاشدة .

فالجامعة كانت المجال الذي فجر كل قـدراتي ، ساعد على ذلك أن الفترة التي التحقت فيها بالجامعة كانت فترة من أعظم الفترات في تاريخ مصر ، بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث كانت كـل حركـات التحـرر الوطني في العـالم تتطلع لنيـل استقلالها ، وكانت الفاشية قد اندحرت ، وأصبح يسود العـالم موج من التفاؤل والأمل بالحاضر وبالمستقبل .

* هل مجرد التحاقك بالجامعة هو الـذي أحدث هذا الانقلاب ؟

ـ بـالقـطع لا . فمن المؤكـد أنني لـو التحقت بالجامعة ، واكتفيت بكوني طالبة دون ممارسة العمل السياسي لبقيت كما كنت ، فتاة منغلقة على نفسها خجولة تحمل جسدها الممتلىء كما لو كـانت تحمل وزرا ، وكان العمل السياسي الجماهيري هو الذي حررني من مخاوفي ومن خجلي ومن حيائي ، وشكل نقلة هامة في حياتي ودفعني وغيرني وأعاد صناعتي ، وخلق مني إنسانة جديدة .

لا تمرد ولا استهواء

* ما هي الدوافع الحقيقية لقرار اشتغالك بالعمل العام ، هل كانت تمرداً أم رغبة في كسر المألوف ؟

ـ لا هذا ولا ذاك ، يؤكد ذلك تتبع الظروف التي نشأت فيها . فقـد ولدت عـام ١٩٢٤ في أعقـاب اندلاع ثورة عام ١٩١٩ ، وكبرت والناس من حولي يحتفلون بذكرى قائد الثورة سعد زغلول ، ومارست لعبة « نط الحبل » وأنا أسمع الصبية تغني :

« يا مصر مـا تخافيشي ، احنا ولاد الكشافـة ، وأبونا سعد زغلول وأمنا صفصف هانم » مشيرين بذلك الى السيدة صفية زغلول زوجة الزعيم سعد زغلول ، التي شـاركته كفـاحـه ، وكـانت تتزعم بدورها حركة الاحتجاج على الاحتلال البريطاني

لمصر . وفي محيط أسرتي رأيت في صباي شقيقي محمد يقبض عليه أكثر من مرة لاشتراكه في المظاهرات الطلابية ، ولاهتمامه بالاشتغال بالعمل السياسي . وكانت الفترة التي دخلت فيها الجامعة في عام ١٩٤٢ فترة مد ثوري من الطراز الأول . كل هذه العوامل مجتمعة ساهمت في دفعي إلى الاشتغال بالعمل السياسي من باب الاهتمام بقضايا الوطن ، وكنا في تلك السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، نعيش فترة مد وطني ومشاعر وطنية فوارة ، تنتشر في جميع أنحاء الوطن وبين مختلف فئاته ، فلم تكن الوطنية في هذا العصر غريبة أو شاذة ، فكل الذين يحيطون بي أو أحتك بهم أو أتعامل معهم كان يملؤهم الحماس للوطن والاهتمام بقضاياه .

* ألم يكن اشتغال النساء بالسياسة نادراً في ذلك الزمن ؟

ـ نعم كان نادراً ، وعلى الرغم من ذلك استوعبت الحركة الوطنية في تلك الفترة جهود كثير من النساء ، والقاعدة في ذلك معروفة ، ففي أوقات الانحسار الوطني التي تخيم على الأمة والوطن ، يمتلىء الجو بظواهر من التعصب وضيق الأفق يكون من بينها التعصب ضد المرأة . وعكس هذه القاعدة صحيح ، فحين يسود المد الوطني والجماهيري والنضالي ، يتحرك المستنقع ويتحول إلى مجرى رائق وتسقط عنه كثير من الشوائب والتعصبات . وسط هذا المد الشعبي بدأت عملي في السياسة .

ولم أنتخب عضواً في اللجنة التنفيذية العليا للطلبة والعمال فقط ، بل انتخبت في فترة لاحقة سكرتيراً عاماً للجنة التنفيذية مع عضوين آخرين هما فؤاد محيي الدين رئيس وزراء مصر الأسبق ، وعبد الرؤوف أبو علم أحد قادة الحركة النقابية العمالية . وكانت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال لجنة جهوية تشكلت عام ١٩٤٦ من ممثلين لطلاب الجامعات من مختلف الاتجاهات السياسية الوطنية ، وممثلين لنقابات ، وكانت بمثابة قيادة جديدة للحركة الوطنية في مصر في أعقاب الحرب العالمية الثانية ونظمت مناسبتين هامتين في التاريخ العربي والعالمي ، أولاهما مظاهرة ٢١ فبراير ١٩٤٦ لجلاء الانجليز عن مصر ، وأصبح اليوم فيها بعد يوماً عالمياً للطلاب وثانيتهما يوم ٤ مارس وكان يوم الحداد العام على الشهداء .

محنة الاختيار

* ما هي أنواع العقوبات التي تحملتها مقابل تحطيمك لجدار الشرنقة ، وكيف تغلبت عليها ؟

ـ كثيرة ومتنوعة ، أسرية واجتماعية ، ففي الفترة التي كنت أتزعم فيها حركة الطلاب في الجامعة ، لم أكن قادرة على الخروج من المنزل كما أشاء ، وكنت ما أزال ملزمة بالعودة للمنزل في مواعيد محددة ، على الرغم من أن العمل السياسي كان يقتضي مني حرية واسعة في الحركة ، فلم أتمكن من نيلها كاملة على الرغم من تغير ظروفي الأسرية .

فقد مات والدي وعمري ١٢ عاماً ، وكان الوجه الآخر لمأساة فقداني لوالدي ، أن أشقائي الذين تولوا مسئولية تربيتي بعد موته كانوا أكثر استنارة منه ، فلم يقفوا في وجه نموي الانساني .

هذا في محيط الأسرة ، أما في محيط المجتمع فقد هوجمت كثيراً أثناء ممارستي للعمل على الرغم من شدة تزمتي ومحافظتي في العلاقات الاجتماعية . وأثر هذا الهجوم الضاري والشرس على معنوياتي بشكل سلبي . ولكني بعد تأمل ساءلت نفسي : هل أنا جادة في خوض ميدان العمل السياسي أم غير جادة ؟ فإذا كانت الأولى فعلي أن أهب نفسي للعمل الوطني ، وأحشد قواي لصد الهجوم المعادي من أي ناحية . وإذا كانت الثانية فليس أمامي سوى أن ألزم المنزل ولا أغادره إلا للدراسة . ولقد اخترت الحالة الأولى على الرغم من المشاق التي تبعتها ، وساعدني على ذلك أن المناخ العام الذي شهد توهج الحركة الوطنية المصرية كان ملائماً .

ولو أنني استجبت لتلك الضغوط لكان يمكن لحكايتي أن تتحول الى حكاية تقليدية لفتاة مصرية عادية ، أما وقد انخرطت في العمل الوطني والسياسي ، فقد أخذت الجماهير بيدي ومنحتني وضعاً خاصاً حررني من كثير من النواقص التي تكبل حركة المرأة .

الثمن !

* ما هي التضحيات التي قدمتها مقابل قرارك بالتحرر ؟

ـ تضحيات عديدة ، أقلها السجن والاعتقال ،

ويضاف الى ذلك أنني غلّبت لسنوات طويلة في حياتي الجانب العقلي على الجانب الوجداني ، وأهدرت سنين عديدة وأنا أكبل نفسي وجدانياً ، فكان من الطبيعي بعد ذلك أن يأتي وقت في حياتي أغلّب فيه الجانب الوجداني كاملاً على حساب الجانب العقلاني ، فأترك الاهتمام العام وأنصرف بكليتي لكوني امرأة .

* هل كان الخطأ في الحالة الأولى أم في الثانية ؟

ـ في الحالتين . فمن وجهة نظري لا بد أن يكون هناك توازن مستمر بين الجانب العقلاني والوجداني للمرأة ، لأن ترجيح كفة إحداهما على الأخرى يفسح المجال لأخطاء كثيرة للانسان بشكل عام ، رجلاً كان أم امرأة .

* هل تعتقدين أن المرأة حيث هي امرأة مأساة ؟

ـ لا شك أن أعباء كثيرة تقع على عاتق المرأة في الحياة ، حيث يطلب منها القيام بأدوار عدة لا تطلب من الرجال ، فعليها أن تكون أمّاً وزوجة ناجحة في إدارة بيتها ، وامرأة فاضلة تغفر كل الأخطاء ، ونتيجة للظروف التي تنشأ فيها النساء في مجتمعنا فإن قيوداً غير مرئية تفرض عليهن ، أخطرها أن يبقى الرجل هو البند الأول في حياة المرأة ، في حين تكون هي البند الثاني في حياة الرجل . والنتيجة حين تنكسر المرأة عاطفياً تنكسر كلياً ، بينما إذا تعرض الرجل لنكسات عاطفية يستطيع أن يستكمل مشواره على اعتبار أن العمل هو القيمة الأولى في حياته .

واذا كان التراث الطويل من التنشئة الخاطئة للمرأة هو المسئول عن ذلك ، فلا شك أن المرأة نفسها تتحمل جزءاً من المسئولية عن تلك الأوضاع .

* هذا عن الجانب العام ، فماذا عن الجانب الشخصي ؟

ـ أنا شخصياً لا أعتقد أن وجودي كامرأة يعد مأساة فأنا متصالحة تماماً مع حقيقة أنني امرأة ، ولم أقاس كثيراً من تلك الحقيقة إلا في الحدود التي ذكرتها ، بل إني أحب كوني امرأة . وليس لدي هذا الشعور الدائم المقلق والموجود لدى الكثيرات اللواتي يبدين وكأنهن يردن إثبات شيء ما . فليس لدي حاجة لمثل تلك المشاعر .

ففي أعماقي أشعر أن عقلي لا يقل عن عقل أي رجل ، وأن تفكيري لا يقل اتزاناً عن تفكيره ، كما أن قدراتي العقلية لا تقل عن قدرات كثير من الرجال وربما تفوق بعضهم . وأعتقد أن هذا يرجع لعملي السياسي الجماهيري في الجامعة الذي منحني الاحساس بالندية مع أقراني من الرجال .

* هل أفهم من هذا أنك ترين أن المرأة لكي تحقق وجودها لابدّ أن تزاول العمل السياسي ؟

ـ لا ليس كذلك . فالأساس أن تفعل المرأة شيئاً خارج ذاتها وخارج جدران منزلها ، وأن يكون لها دور في مجتمعها أوسع من دورها في نطاق الأسرة ، حتى لو عن طريق الاهتمام بالجمعيات الخيرية . بل إن الاهتمام بقضايا الوطن حتى لو لم يتبعه أي فعل ، هو دور ولون من ألوان التحقق أيضاً . وتلك كانت الفكرة الرئيسية لروايتي « الباب المفتوح » والقائمة علي أن الانسان لا يعثر على ذاته الحقيقية إلا إذا فقدها أولاً في شيء أكبر من تلك الذات وهو الوطن .

لست عدوة للرجـــال

* كيف ترين الأجيال الجديدة من الفتيات التي تسعى لكسر القيود حول حركتها . . . هل تشجعينها أم ترثين لحالها ؟

ـ الحقيقة أنني أؤمن أنه ليس هناك جهد إلاّ وله ثماره . فكل جيل ينهض ويتقدم على ما حققه الجيل الذي سبقه . والآن حين أنظر حولي أرى أنه ليست هناك مشكلة أن تجد الفتاة المستنيرة نفسها نـدّاً للرجل ، وأن تعتقد أنها في أعماقها كذلك . ولم يكن هذا في جيلي شائعاً ، ولكنه أصبح كذلك الآن بحكم الحركة والمقاومة التي خاضتها أجيال سابقة ، والتضحيات التي قدمتها على هذا الطريق أجيال الأمس فلقد أتاحت لامرأة اليوم أن تتمتع بنديّة للرجال لم تكن تتمتع بها من قبل .

* هل تعتقدين أن شعار مساواة الرجل بالمرأة ، يحتاج إلى جهد من النساء لإثبات الأهلية أكثر من مجرد طرحه كشعار ؟

ـ لا شك في ذلك . فالمرأة لكي تثبت أنها جديرة

بالمساواة يجب أن تعمل بقدر ما يعمل الرجل ، وأن تسعى للتحقيق بمقدار ما يسعى هو ، وأن تخلص لعملها بقدر ما يخلص هو لعمله .

ولكن هذا لا ينفي - بالنسبة لي - أنني أجد قضية حرية المرأة قضية مجتمعية في المقام الأول ، ولن تحل مشاكل المرأة إلا في سياق حل مشاكل المجتمع ككل . أمة لا يتمتع فيها الرجال بالحرية من الغرابة بمكان أن نرتب أسبقية لحرية المرأة على حرية الرجل .

* ما مدى مسئولية المرأة عن هذا الانبعاث الرهيب لدعاوى عودتها للمنزل وحرمانها من العمل ؟

- هي مسئولة في حالة استجابتها لتلك الدعاوى ، فلا يهمني أن يصرخ أحد في هذا الاتجاه أو ذاك مطالباً بعودتي للمنزل ، طالما أرفض هذه العودة ، وطالما لم يصل هو الى الحكم ليجبرني على ذلك . والمشكلة هنا تكمن في استجابة المرأة لهذه الدعوات ، ومن المؤسف أن يكون لاستجابة النساء جذور اقتصادية هامة تتمثل في أزمة المواصلات وقلة دور الحضانة وارتفاع أسعارها . مما يجعل استجابة المرأة لترك العمل ممكنة .

وعلى العموم فالضرر الذي يترتب على عودة المرأة العاملة للمنزل هو ضرر محصور في النساء العاملات والفلاحات وصغار الموظفات ، ليس اختياراً أو ترفاً ولكنه احتياج اقتصادي حقيقي . ليس هذا فحسب ، بل إن الظروف الاقتصادية القاسية لترفع الى ساحة العمل بعض نساء الطبقة الوسطى ، ممن لم يكن من المتصور أن يعملن ليضمن دخلاً إضافياً للأسرة .

* وما هو تفسيرك لبروز هذه الظاهرة ؟

- الانبعاث الرجعي لأفكار عودة المرأة للمنزل مرتبط بتصاعد الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فاذا ما حلت تلك الأزمات اختفت هذه الأفكار . وفي مصر ارتبطت الظروف المناوئة لعمل المرأة باقرار سياسة الانفتاح الاقتصادي التي كان من بين نتائجها إحداث فوارق شاسعة في الدخول بين المواطنين ، ومعاناتهم الدائمة من حالات الغلاء المتصاعدة ، وتدني قيمة العمل واحتقارها ، والإعلاء من الثراء والاقتناء باعتبارهما القيمة الوحيدة المعترف بها ، بعد أن تراجعت النظرة الى العمل باعتباره قيمة انسانية راقية . وفي جيلي كان الشائع بين الفتيات أن الزواج لا بد أن يكون قائماً على الحب ، وفي هذا الجيل أصبحت الثروة والقدرة المالية هي الشرط الأول للزواج ، فمعظم الفتيات يحلمن بزوج ثري ينفق عليهن دون حاجة إلى عملهن !

الخروج عن المألـــوف

* لماذا اقتصر انتاجك الابداعي على رواية « الباب المفتوح » والمجموعة القصصية « الشيخوخة » وقصص أخرى ؟

- لأنني ببساطة لست كاتبة محترفة ، وعندما يكون لدي شيء جديد أريد أن أوصله للقارىء آنذاك أكتب . فالكتابة بالنسبة لي هي عملية تواصل ومحاولة للوصول الى الآخرين ، وكسر العزلة والشعور بالانتماء . فحين يستجيب القراء لما أكتب أشعر أني انتميت من جديد ، ولم أعد وحدي .

* هل كانت روايتك « الباب المفتوح » ، كما كانت رحلتك في الحياة ، خروجاً على المألوف ؟

- نعم كانت كذلك . فقد وصفها النقاد بأنها أول رواية طويلة تكتب في مصر ، كما وصفوها بأنها من أدب الواقعية الاشتراكية . وكانت خروجاً على المألوف لأنها لم تكن مجرد رواية نسائية تقليدية تصرخ فيها المرأة مطالبة بحريتها ، بل تربط بين ما هو خاص وما هو عام ، بين قضايا الفرد والمجتمع .

* وأين ليلى بطلة « الباب المفتوح » من الدكتورة لطيفة الزيات ؟

- ليلى ليست أنا ، بل إني تعمدت أن أجعل منها كل فتاة عادية ، وعبرها نقلت الرسالة التي احتوتها الرواية ، وهي أن الفناء في الوطن هو أرقى أنواع التحقق الانساني . □



التجليات (٣ أجزاء)

من تأليف جمال الغيطاني

بقلم : أبو المعاطي أبو النجا

كثيرة جدا هي القضايا والتساؤلات التي يثيرها كتاب « التجليات » للروائي جمال الغيطاني !

من أهمها :

إلى أي جنس أدبي ينتمي هذا الكتاب ؟ هل هو سيرة ذاتية ، أم رواية ، أم هو كتاب فيه من خصائص السيرة الذاتية والرواية في وقت معا ؟

لماذا آثر الكاتب صيغة « التجليات » ، ليكون كل تجل منها بمثابة الوحدة المعمارية التي يتشكل من تكويناتها المتنوعة بناء هذا الكتاب ؟

أكان هذا الاختيار مجرد جزء من بحث الكاتب الدائب عن أساليب فنية ، تستلهم تراثنا الروحي والفكري والفني ، وتؤكد على خصوصيتنا الثقافية ؟

أم أن « التجليات » كانت هي الصيغة الأقرب والأصدق للتجربة الروحية والفكرية الأساسية لبطل السيرة الذاتية في تَوْقِه الحارق إلى الفكاك من أَسْرِ النسبي والاقتراب من المطلق ! في سفره الدائم من الجزئيات إلى الكليات ، يطلب « لحظة تبقى ولا تفنى » ومن أعماقه تنطلق تلك الصرخة : « ما من يقين باق » !

هل كانت « التجليات » هي الصيغة الفريدة من خلال « الأسفار ، والمواقف والرؤى والمقامات والأحوال » ، لجمع شتات ذلك النثار البالغ الدقة والرهافة من تفاصيل الحياة اليومية ، ومن أحداث التاريخ الكبرى ، ومن دفتر أحوال الواقع والخيال ، مثل (ظهور عبدالناصر بعد موته في ميدان الدقي ، ومشاركته مع الأب قبل مئات الأعوام في موقعة كربلاء إلى جوار سيد الشهداء ، ومثل نظرة غروبية في عين الأم ، وتنهيدة خافتة تنفلت من صدر أب مثقل بما لا يمكن البوح به) ، بحيث تكتسب هذه التفاصيل من تجمعها في هذه السياقات الجديدة عبر « الأسفار والأحوال والمقامات » دلالات أكثر غنى ، وتخلق تجانسا وجمالا فنيا ، لم تكن تملكه وهي مجرد شذرات في فضاء الذاكرة ، تائهة في أبعاد الزمان والمكان ، يستحيل نظمها في تتابع زمني أو مكاني !؟

هل كانت التجليات هي أداة الكاتب التي لا أداة سواها ، ليتيح لقارئه أن يرى كيف أن معاناة أب بسيط ، قادم من أعماق الصعيد ، في حياته اليومية في مدينة القاهرة في عصرنا هذا ، وتضحياته لينقذ أبناءه من الجحيم الذي يحترق فيه كل يوم ، هي الوجه الآخر المألوف والواقعي والجزئي لمعاناة شخصيات عظيمة مضمخة بعبق التاريخ البعيد والقريب ، تحتل مكانة سامقة في سلم البطولة والتضحية ، كشخصية سيد الشهداء الإمام الحسين ؟! فنرى في إطار واحد صورة المثال والواقع كوجهين لعملة واحدة !

هل كانت التجليات ، وهي الطريق الذي اختاره البطل للبحث في نشأته الأولى والثانية ، ليعرف ما لم يكن يعرف ؟ هل كانت هذه المعرفة وسبل تحصيلها ليكتب سيرته الذاتية هي سبيله الذي لا سبيل سواه ، ليعرف طريق السفر من النسبي للمطلق ، من المحدود إلى اللامحدود ، فيقع في المحظور ، ويجتز دليله في السفر « ابن عربي » عنقه ، وتنقسم ذاته حين يصطدم بالحدود القصوى لقدرته على أن يعرف ، فيعود جريحا ومثخنا ، لينجح بعد عودته إلى العالم الأرضي في أن يعقد صلحا داخل ذاته بين المحدود واللامحدود ، تسترد ذاته من خلاله وحدتها بقبول التناقض والتعايش معه في نهاية الجزء الثالث من « التجليات » ، ويكون بذلك قد ألغى في عمله بعض الحدود الفاصلة بين السيرة الذاتية التي تركز غالبا على مسيرة حياة إنسان ، وبين الرواية التي تعنى غالبا بما يحدث من تطور أو تغير في حياة إنسان ، عبر بيئة اجتماعية وثقافية في زمان ومكان محدودين ؟!

وإذا كان « التجلي » هو الوحدة المعمارية في هذا الكتاب ، فكيف صمم الكاتب « تجليات » الجزء الأول والثاني والثالث ، بما يحقق التجانس داخل الجزء الواحد ، ثم التجانس بين كل الأجزاء ؟ وكيف لعب تصميم البناء في هذه الرواية دوره في تحقيق الوظائف الفنية والفكرية للتجليات كما ألمحنا إلى بعضها في هذه المجموعة من التساؤلات التي بدأنا بها هذا المقال ؟

بين السيرة والرواية

إذا كان الكاتب قد آثر أن يخلص من حيرة تصنيف كتابه ، فاكتفى بأن يسميه كتاب « التجليات » ، فقد لا يملك من يكتب عن التجليات مثل هذا الترف ، والأصعب أنه لا يملك بالمقابل تصنيفا سهلا وجاهزاً ، فالكتاب فيه من خصائص السيرة الذاتية أهمها ، فيه تلك المتابعة الأمينة من خلال رؤية الراوي لجوانب من حياة بطل السيرة ، تبدأ رحلتها حتى قبل ميلاده ، وتمضي معه إلى ما يبدو أنه يعيشه في الجزء الثالث من مرحلة تصالح مع ذاته ، ولكن إذا كانت حياة الكاتب تمثل المجرى الرئيسي في تلك المسيرة ، وإذا كانت أزمته الروحية التي قادت رحلته من النسبي إلى المطلق ، تمثل القوة

الدافعة لتيار هذا النهر من المنبع إلى المصب ، فإن الحركة الهادرة لهذه الأزمة هي التي أعطت لهذا العمل إيقاع الرواية وشكلها ، وهي التي جعلت من بحث الكاتب عن أبيه بحثا عن الجذور مهما أوغلت بعيدا ، فالأب الفعلي في الرواية يستدعي ويمتزج بكل الآباء الروحيين للراوي ، ابتداء من « سيد الشهداء الإمام الحسين » ، إلى « الإمام محيي الدين بن عربي » ، إلى « جمال عبدالناصر » . والأم الفعلية في الرواية تستدعي وتمتزج برئيسة الديوان الطاهرة النقية السيدة زينب ، وهذه الأزمة هي التي تجعل نهر حياة الكاتب يبحث عن منابعه وفروعه في السماء والأرض ، في الماضي والحاضر والمستقبل ، ثم يتفجر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا في كل الجهات ، فنعيش معه رحلات المنبع ورحلات المصب ، وإذا بكل ذلك الذي نعيشه من تفاصيل يدور في فلك هذه الأزمة الروحية ، يغذيها ويتغذى بها ، هنا نقترب أكثر فأكثر من صيغة الرواية ، فتيار النهر لهذه الحياة يجرف في مسيرته التربة الاجتماعية والثقافية والسياسية . وقد يرى البعض أن مثل



هذا الامتداد طولا وعرضا وعمقا يحسم الموقف لصالح « أن الكتاب رواية » ، ولا أظن المسألة يمكن أن تحسم بهذا اليسر (فكما ألمحنا) قد يلاحظ القارىء أن هذه التفجرات في الجهات الأربع الأصلية ، وأن هذا البحث المضني وراء شذرات دقيقة ، ولحظات شديدة الرهافة ، في حياة الأبوين ، هو تعبير عن عمق الأزمة الروحية والنفسية لدى بطل السيرة وهو الراوي ، فنحن إذن مهما بعدنا عن حياة الراوي ، نجد أنفسنا في قلبها وفي ترددانها ، ولعلنا لا نذهب بعيدا حين نقول : إن الكتاب يجمع على نحو فريد بين خصائص السيرة الذاتية والرواية !!

التجليات . . لماذا ؟

لن ندرك مغزى اختيار الكاتب صيغة « التجليات » لبناء هذا الكتاب ، إلا إذا توقفنا لحظات أمام طبيعة الأزمة النفسية والروحية لبطل هذه السيرة الذاتية !

لقد تفجرت هذه الأزمة إثر موت الأب ، عاد الراوي من سفر له بالخارج ، فعلم أن أباه قد مات أثناء غيابه ، وأدرك على نحو مفاجيء أنه لن يراه بعد اليوم ، منذ هذه اللحظة تتفجر أزمة الراوي ، فهو لن يكون بمقدوره أبدا أن يعيد الزمن إلى الوراء ، ليقول لأبيه ما كان ما يريد قوله ، وليفعل من أجل أبيه ما كان يجب ويجب أن يفعله ، وليرى في عيني أبيه في لحظاته الأخيرة كيف كان يشعر بما بدأ الابن يدركه الآن ، إنه خطيئته الكبرى وتقصيره العظيم في حق أبيه !!

يقول له أحد أصدقائه الروحيين « ابن اياس » والراوي في عمق أزمته : « تجل فإن النائم يرى ما لا يراه اليقظان » .

وهكذا تصبح « التجليات » ، وهي طريقة المتصوفة المسلمين للمعرفة التي تتجاوز قدرة

الحواس وقدرة العقل البشري المحدود بحدودها، تصبح هذه التجليات طريقة البطل «الراوي» لمغالبة أزمته النفسية، لاستعادة الأب الذي يتهدد النسيان البشري ملامحه في ذاكرة الابن، وربما يتهدد تاريخه أيضا، ولكننا مع بداية رحلة البحث عن الأب، نجد أن الأزمة النفسية التي ظهرت في صورة شعور عميق بالذنب، ورغبة في استعادة وجه الأب الذي يتهدده النسيان، تكشف عن أبعادها الروحية والوجودية في موقف الإنسان أمام لغز الزمن والتغير..!

في بداية التجليات تقول له رئيسة الديوان الطاهرة:

- ماذا يحيرك؟
- تبدل الأحوال!
- ثم ماذا؟
- تحيرني الأشياء في تفرقها وتجمعها، في اختلافها واتفاقها، الطاعة والعصيان، الحياة والموت، الوصول والفوت، البداية والنهاية، الظاهر والباطن!».

وهكذا تصبح رحلة البحث عن ملامح الأب التي توشك أن تضيع، البحث عن جوانب مجهولة أو ظاهرة من حياته، هي التي تضع أيدينا على سر ذلك الشعور العميق بالذنب الذي تبدأ منه الرحلة، إن هذه الرحلة تكشف عن عمق المعاناة التي عاشها هذا الأب، لكي يصل ابنه إلى ما وصل إليه، وقصة هذه المعاناة كما عاشها الأب، وكما عايشها الابن في طفولته، هي التي تقود رحلة البطل خلال تجلياته إلى استدعاء معاناة كل الآباء الروحيين له، معاناة سيد الشهداء الإمام الحسين في كربلاء، ومعاناة جمال عبدالناصر بعد أن يتم القبض عليه إثر ظهوره المفاجيء في ميدان الدقي بعد أعوام من وفاته، ومعاناة رفاق طريقه ابراهيم الرفاعي ومازن أبو غزالة!!

ومع سقوط حدود الزمان والمكان، حيث تمتزج تفاصيل المعاناة في الماضي البعيد والقريب، بتفاصيل في الحاضر، عبر صيغة التجليات، يكتشف الراوي ونكتشف معه أن المعاناة واحدة، وأن الشجاعة التي يحتاجها العدل لكي يظهر واحدة، وأن ثمن العدل فادح في كل العصور، ويكتشف الراوي ونكتشف معه أن قانون الزمن، قانون التحول والتغير، ينال طلاب العدل وصناع الظلم جميعا، وتصبح الرغبة في إيقاف الزمن، لتدارك قصور أو تقصير بشري رغبة في أن ندرك لغز التغير في الزمن!

لغز الوجود، وهكذا تسفر الأزمة النفسية في بداية التجليات عن أزمة روحية ووجودية كبيرة، وتصبح رحلات «الأسفار والرؤى والمواقف والمقامات والأحوال» هي طريقة الراوي ليكتنه أسرار الطريق، من الجزئي إلى الكلي، ومن النسبي إلى المطلق، يقول الراوي

«عليَّ إدراك ما بين الظل والأصل، التشبث بما يفلت وينأى دائما، وتعجز القدرة الإنسانية عن إدراكه أو اللحاق به».

وعبر رحلة التجليات يكتشف الراوي ونكتشف معه أن المطلق يتجلى في الجزئي، بقدر ما يكون الجزئي طريقنا إلى المطلق. يقول الراوي لدليله (ص ٢٢١ من الجزء الثالث): «أصلي أدرك جوهر الخفي الذي لا يرى، من يبدلنا دون أن ندري، أدرك أصلي (يقصد ذاته في مرحلة من التجليات) أنه محيط بنا، متغلغل فينا تغلغل طعم الثمرة في الثمرة، فإذا توجه النظر فإليه فإن تم السمع فمنه..».

في (ص ٢٨٢) يقول الدليل للراوي وهو يتركه:

«منذ الآن إنما أنت دليل ذاتك، فمنذ أن تمت المصالحة مع ذاتك لم يعد بك من حاجة إلى دليل..».

وهكذا تصبح عشرات التفاصيل التي تقدم

لنا جوانب من مسيرة حياة الراوي بكل أبعادها تجسيدا مستمرا لحيرته الإنسانية مع التحول والتبدل ، وتعبيرا عن مراحل حواره العميق ، وهو النسبي مع المطلق !!

التجليات كتقنية

قد يلاحظ القارىء أن بناء هذه السيرة الروائية يقوم على حبل مجدول من تقاطع مستمر لرحلتين ، رحلة يمكن أن نقول إنها رحلة تاريخية هي الجزء الذي تعرضت له السيرة من حياة الراوي ، والكاتب لا يقدم هذا الجزء وفق تسلسله الزمني أو المكاني ، ولكنه يلتقط من نثار أحداثه ومواقفه وصوره وكلماته ، ما يناسب كل وحدة من وحدات التجليات : الأسفار والمواقف والرؤى والمقامات والحالات . . .).

والرحلة الثانية رحلة معرفية - إذا صح التعبير- تعتمد الحدس والواقع والخيال جميعا ، وهي تنطلق من الجزئي إلى الكلي ، ومن النسبي في اتجاه المطلق ، وتتخذ من نثار الأحداث والمواقف والصور والكلمات والروائح والأصوات كما تجمعت في كل وحدة من وحدات التجليات (الأسفار والمقامات والحالات) . . الخ . تتخذ منها نقطة انطلاقها من النسبي إلى المطلق . . !

ومن خلال تقاطع الرحلتين يصبح التاريخ أداة للمعرفة ، كما يصبح هذا النوع من المعرفة مضيئا لتاريخ إنسان وتاريخ مجتمع ، والآن كيف قامت التجليات بدورها ووظائفها من خلال هذا البناء ؟؟

التجليات : وحدات جديدة . . دلالات متجددة :

في الجزء الأول من التجليات ، وعبر مواقف « التأهب » و « الظمأ » و « الحنين » ، و « الندم » ، و « الشدة » . . الخ ، يمزج الكاتب عبر كل تجل من « تجليات » الراوي بين صور ولحظات وأحداث يختارها من نشأة الأب في قرية « جهينة » في الصعيد ، وكيف سافر إلى القاهرة هربا بحياته من محاولات عمه أن يقتله بعد أن قتل أمه ليرث قطعة أرض وبضع نخلات كانت لها .

ومن معاناة هذا الأب في مدينة القاهرة وتقلبه - وهو الذي لا يعرف كيف يقرأ عنوانا - بين مهن قاسية ، حمّال ، خبّاز ، سقّاء . . الخ .

وبين صور ولحظات وأحداث من خروج سيد الشهداء الإمام الحسين من مكة إلى كربلاء تلبية لنداء الحق ونداء أنصاره ثم حصاره فيها من جيش يزيد .

وصور ولحظات مما حدث لعبدالناصر بعد ظهوره في ميدان الدقي ، وإلقاء القبض عليه ، ومحاكمته ، وصور مما حدث للراوي في عصر عبدالناصر من اعتقال وتحقيق وسجن . . !

إن صيغة التجليات هي وحدها التي كانت تسمح لهذا المزيج الحي من الصور والأحداث أن تتدفق في كل موقف بما يناسب وحدة هذا الموقف ، ففي موقف « الظمأ » نجد الأب الذي كان يعمل سقاء في مدينة القاهرة يملأ قربته من نهر بعيد ، ليخترق بها الحصار المضروب حول سيد الشهداء في كربلاء ، ليقدم للمحاصرين الظمأى جرعة ماء ، إن صيغة التجليات هي وحدها التي تجعل القارىء يشعر بأن معاناة إنسان بسيط في حياته اليومية ، وما يقع عليه من ظلم قد لا نراه من طول ما ألفناه ، هذه المعاناة هي التي كانت تقود رحلة سيد الشهداء إلى كربلاء !

كما أن صيغة التجليات هي التي تجعل الراوي خلال تجليه في هذا الموقف يقول متحدثا عن الظمأ وهو في رحلة نموه الذاتي من النسبي إلى المطلق :

« إن الظمأ نوعان ، نوع حسي ونوع معنوي ، وان هذا الأخير غير متناه ، فقد يكون إلى الزمن الذي ليس في المتناول ، أو إلى رائحة

عبرت حواسنا في زمن قصي ، وقد يكون الظمأ لمعرفة الحقيقة والكنه الغامض ...».

كما أن صيغة التجليات هي وحدها التي كانت تسمح للقاريء في موقف « الندم » أن يعيش بعمق ندم الراوي ، لأنه لم يذهب لزيارة أبيه في مقر عمله في آخر مرة كان يمكنه أن يزوره فيها هناك ، حين تمتزج هذه الخبرة بندم أنصار الإمام الحسين بعد تخاذلهم عن نصرته في كربلاء .. تصبح الخبرة الشخصية طريقنا لمعايشة الخبرة العامة بعمق أكثر ، وتتوهج الخبرة العامة بحرارة الشخصي !

وفي موقف «التنقل والترحال» نلتقي بالضابط «منير» الذي كان يحقق مع الراوي في مرحلة من حياته ، وأهان أمه إهانة لم يستطع ردها ولم يستطع نسيانها ، نلتقي به وهو يحقق مع عبدالناصر بعد ظهوره في ميدان الدقي ، ونلتقي به أيضا وهو يمارس دوره الخسيس نفسه في الكوفة ، فينصح بتغيير أمير الكوفة النعمان ، وتولي ابن زياد مكانه ، ثم يسعى لتقديم المزيد من خدماته ليزيد بن معاوية .

إن صيغة التجليات هي التي تجعلنا هنا نرى مع الراوي كيف يولد الخوف في كل العصور ، وكيف يولد الخذلان والتشتت ، وكيف أن للخديعة الملامح نفسها مهما تبدلت أقنعتها في الزمان والمكان ؟!

وهكذا من مثل هذه التجليات تصبح الرحلة من الجزئي إلى الكلي ، ومن النسبي إلى المطلق ، مفتوحة أمام الراوي وأمام القاريء في وقت واحد !!

حادثة واحدة ، وزوايا متعددة

سوف يلاحظ القاريء أن الحادثة الواحدة ، أو الشخصية الواحدة ، قد يتعدد ظهورها في تجليات مختلفة عبر الأسفار أو الرؤى أو المواقف أو المقامات أو الأحوال ، مثل شخصية خلف



بك ، وهو الموظف الكبير الذي حنا على والد الراوي ، وأجرى رزقه في وظيفة حكومية أنقذته من قسوة العمل اليومي الذي يجيء يوما ويغيب أياما ، إن علاقة الأب بهذا الموظف تستمر إلى آخر يوم من أيام حياة الأب ، وهي علاقة من نوع فريد ومعقد ، وقد تعدد تجليها للراوي في الكثير من المقامات والأحوال ، ولكنها في كل مرة كانت تتجلى من زاوية جديدة ، فتعطي معنى مختلفا عن شخصية الأب أو شخصية الابن أو شخصية خلف بك نفسه أو عن ظروف المجتمع ، ولكنه يتفق مع وحدة المقام أو الرؤيا أو السفر ، وينطبق المنهج نفسه على حادثة القبض على الراوي ، وتحقيق الضابط منير معه ثم سجنه ، يتكرر تجلي هذه الخبرة دون أن تتكرر دلالتها ، فهي في كل مرة تلقي أضواءها على جوانب جديدة ، مرات على جوانب من

شخصية الراوي ، ومرة على الأم ، وعلى الأب ، وعلى المجتمع ، فحين يذهب الأب لطلب مساعدة من شخصية كبيرة كان ابنه على صلة بها ليعمل على إخراجه من السجن ، يجد أن الشخصية الكبيرة نفسها قد تم القبض عليها في الوقت نفسه !

إن اختلاف زاوية النظر للحادثة الواحدة هو ما يبرر تكرارها في تجليات مختلفة ، وهو في الوقت نفسه تأكيد لأهمية وحدة الرؤية في المقامات أو الأحوال ، حيث تصبح هذه الوحدة هي طريق الراوي والقاريء للانتقال من الجزئي إلى الكلي ومن النسبي إلى المطلق .

من النسبي إلى المطلق وبالعكس

قد يكون من المناسب أن نكتفي بالإشارات السابقة للتعرف على الطريقة التي قدم بها الكاتب الرحلة التاريخية للراوي من خلال التجليات ، ولعله قد حان الوقت لنقترب من طريقته في تقديم لمحات عن الرحلة المعرفية من الجزئي إلى الكلي أو من النسبي إلى المطلق من خلال التجليات كذلك ، وفي الواقع أن منحنى هذه الرحلة المعرفية وايقاعاتها هي التي تشكل الرابطة الحيوية بين الأجزاء الثلاثة للتجليات . . . !

في الجزء الأول الذي يكون سيد الشهداء الإمام الحسين فيه هو دليل الراوي في تجلياته ، يصل الراوي إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه قدرته في طريق البحث عن المطلق ، يكاد يتلمس معاني وحدة الوجود ووحدة الكائنات في تجلي « السفر إلى البدايات والنهايات » .

« في منازل الرؤى ومنازل الأصوات » « ويصطدم بسقف القدرة الإنسانية في موقف الندم فيعاقبه الإمام الأكبر ابن عربي بجز عنقه على إصراره على أن يعيد الزمن إلى الوراء . . » .

ويكون هذا الحدث بمثابة إنذار له بأنه ضل طريقه في بحثه عن المطلق ، إن انفصال رأسه عن جسده كان رمزا لوقوعه في أسر اغتراب الوعي عن الواقع . . !

في الجزء الثاني من التجليات يعيش الراوي من خلال تجلياته تجربة اغترابه عن وطنه ، وعيشه مع زوجته وابنه في المدن الأوربية ، غربة الوعي تمتزج بغربة الواقع ، غريب يلتقي بغرباء ، فلا عجب حين يرى في علاقته « بلور » في المدينة الأوربية وحبه لها حبا لذاته ، فهي مثله غريبة وتبحث عمن يشفي جراح غربتها . . . !

ولا عجب حين يرى في مقامات هذا الجزء غربة أمه حين تركت قرية « جهينة » لتعيش مع أبيه في غربة لا منجاة لها منها سوى اللواذ بزوجها وأولادها ، ولكنه من خلال مقامات « الاغتراب » و « القربى » و « العذاب » ، « يزداد اقترابا من الواقع ومن المجتمع ، وكأنه يبحث عن الكلي وعن المطلق في الجزئي وفوق أرض الواقع وبصحبة دليله الإمام الأكبر ابن عربي هذه المرة . . » .

في الجزء الثالث يعود إلى مدينة فاس في المغرب ، وكان قد بدأ منها رحلة تجلياته ، ويكون دليله في هذه المرة « جمال عبدالناصر » ، بما يعنيه ذلك من اقتراب إلى الوطن وإلى أرض الواقع ، وكأن على كل منا أن يبحث عن المطلق فيما حوله وفيمن حوله ، إنه يرى في تجلياته هذه المرة أمه في مرحلة أخرى من حياته ، في مرحلة كانت هي فيها قد بدأت تعالج جروح غربتها ، وتتلاءم مع واقعها في مدينة القاهرة ، وفي هذا الجزء تتجلى له الجهات الأربع من حول السطح الذي كان يعيش في حجرة منه مع أبيه وأمه ، تقترب التجليات هنا من قلب المجتمع ، تبحث عن المطلق في النسبي ، وتلتئم ذات الراوي ، ويودعه دليله قائلا : « من الآن أنت دليل ذاتك ، لم تعد بك من حاجة إلى دليل . . » . □

أفكار للأقوى

(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

هل الشقاق طبع في العرب ؟*

بقلم : ساطع الحصري ١٨٨٠ - ١٩٦٨

إننا ننفعل ، ونتألم ، ونغضب ، عندما نقرأ أخبار الاختلافات التي حدثت في تاريخ العرب ، ولاسيما عندما نتتبع نتائج هذه الاختلافات ، ونطلع على كيفية تضاؤل سلطة الخلافة ، وتشتتها بين سلطات السلاطين وملوك الطوائف العديدين .

إننا ننفعل ونتألم من هذه الأخبار والحوادث التاريخية ، لأننا نقيس أحوال القرون الماضية بمقاييس الأزمنة الحاضرة ، ولا نكلف أنفسنا عناء البحث في التاريخ العام بحثاً شاملاً ، لكي نعرف ما إذا كانت تلك الأحوال من الأمور التي تشذ فيها الأمة العربية عن سائر الأمم ، أو كانت من الأمور الطبيعية التي تتساوى فيها جميع الأمم في بعض الأطوار من تاريخها .

فلنبدأ أولاً بقضية الاختلافات الدينية . ولنستعرض ما حدث منها في أوربا طوال القرون الوسطى وخلال النصف الأول من القرون الأخيرة . نجد أنها لم تكن قط أقل تنوعاً ولا أخف عمقا مما حدث في الوطن العربي خلال الأزمنة المذكورة ، إن لم تكن أكثر تنوعاً وأشد عنفاً منها .

أحصوا المذاهب المختلفة التي نشأت في الغرب منذ ظهور المسيحية في مختلف البلاد الأوربية خلال القرون المذكورة ، استعرضوا الخلافات الدينية والمذهبية التي حدثت بين الدول وبين الكنائس من جهة ، وبين الكنائس المختلفة من جهة أخرى ، استقصوا أخبار الحروب الأهلية والدولية التي نجمت عن هذه الاختلافات الدينية في مختلف أقسام البلاد الاوربية ، حتى في فرنسا التي تظهر الآن أكثر تباعداً عن الاهتمام بالأمور الدينية من جميع بلاد العالم ، قلبوا صحائف التاريخ التي سجلت أعمال محاكم التفتيش من جهة ، وحياة مؤسسي المذاهب الدينية من جهة أخرى ، فإنكم تضطرون إلى التسليم بأن الاختلافات الدينية التي حدثت في البلاد الاوربية كانت - بوجه عام - أوسع نطاقاً ، وأكثر تنوعاً ، وأشد عنفاً من التي حدثت في الوطن العربي .

أما الاختلافات السياسية ، فأمرها يحتاج إلى بحث أشمل ، وتفكير أعمق : فيجب علينا أن نلاحظ قبل كل شيء : أن العرب انتشروا - بعد الهجرة النبوية - بسرعة خارقة ، في بقاع واسعة جداً من القارات الثلاث المعلومة قديماً ، ففتحوا خلال قرن واحد ، بلاداً أوسع بكثير مما فتحه الرومان خلال ثمانية قرون .

* من رده على سؤال للاستاذ الكبير أحمد حسن الزيات ، نشر في مجلة الرسالة سنة ١٩٤٩ .

تصوروا الاتساع الهائل الذي وصلت إليه الدولة العربية في أوائل القرن الثامن للميلاد . تتبعوا حدود تلك الامبراطورية التي كانت تمتد من سواحل بحر المحيط الأطلسي إلى شواطىء نهر السند وسهول كشغر ، ومن سفوح همالايا إلى جبال البرنس والألب ، ومن باب المندب إلى جبال القافقاس ، وتذكروا في الوقت نفسه بساطة وسائط المناقلة والمواصلة ووسائل الحروب والسيطرة التي كانت معلومة ومستعملة في تلك العصور .

وقولوا لي : أية سلطنة من السلطنات التي يذكرها التاريخ القديم والوسيط استطاعت أن تسيطر على مثل هذه البقاع المترامية الأطراف ، مدة أطول من التي سيطر عليها العرب ، دون أن تتعرض إلى اختلافات وانقسامات ؟

وإذا انتقلنا إلى الدول المعاصرة لنا ، وتتبعنا أحوالها الماضية ـ طوال القرون الوسطى وخلال النصف الأول من القرون الأخيرة ـ وصلنا إلى نتائج مماثلة لما ذكرناه آنفا .

ولنأخذ فرنسا مثلاً ، فقد كان من المعلوم أنها أسبق الدول الأوربية إلى الوحدة السياسية الكاملة ، والتماسك القومي المتين ، ولكنا إذا استعرضنا أحوالها خلال القرون التي ذكرناها آنفاً وجدناها بعيدة عن الوحدة كل البعد ، ومسرحاً لشتى أنواع الخلافات والحروب .

وألمانيا كانت منقسمة إلى أكثر من ثلاثمائة دولة ودويلة حتى أوائل القرن الماضي ، وكانت لا تزال منقسمة إلى تسع وثلاثين دولة قبل ثمانين عاما فقط ! إن اتحاد هذه الدول لم يتم إلا بعد جهود كبيرة وتضحيات عظيمة ، وهذه الجهود قد اجتازت مرات عديدة أطوار فشل أليمة .

إننا ننظر إلى تواريخ الأمم الأخرى عن بعد ، نظرة إجمالية ، فندرك خطوطها الاساسية العامة ، دون أن نتعمق في تفاصيلها الفرعية . ولكننا ننظر إلى تاريخ العرب من قرب ، نظرة تفصيلية ، فنطلع على كثير من تفاصيله ، دون أن نحيط علماً بخطوطه الأساسية .

إن تواريخ الدول الأوربية تبدو لنا جبالا مرتفعة شامخة ، لأننا ننظر إليها بنظر المؤلفين الاوربيين ، ومن الخارج ومن البعد . فإذا توغلنا فيها ، نرى عندئذ أنها مؤلفة من وهاد ووديان على الرغم من منظرها الخارجي العام .

وأما تواريخ الأقطار العربية ، فتبدو لنا مجموعة مرتفعات ومنخفضات مشوشة ومعقدة ، لأننا ننظر اليها بنظر الاخباريين القدماء ، ومن داخلها . فلنغير موقفنا منها ، ولننظر إليها من بعد ـ نظرة تسمو على التفرعات ـ فنرى عندئذ أنها أيضاً مرتفعة شامخة ، على الرغم مما فيها من وهاد ووديان .

ونرجع إلى السؤال الأصلي : هل الشقاق طبع في العرب ؟

هذا ما حدث ، وما يحدث ، وما سيحدث في كل من الأمم ، وفي جميع أدوار التاريخ .

لا ريب في أن حالتنا الحاضرة سيئة للغاية ، والنكبات التي منينا بها أخيراً كانت في منتهى الفظاعة ، كما أن الاخطار التي تهدد مستقبلنا عظيمة جداً .

غير أنه يجب علينا أن نعلم العلم اليقين أن أسباب ذلك لا تعود إلى طبائع أمتنا ، ولا إلى ماضينا البعيد ، بل إنما تعود إلى أخطائنا نحن ، وإلى أحوال ماضينا القريب . إني لن أحاول في هذا المقام أن أحلل وأسرد الأسباب التي أدت إلى نكباتنا الأخيرة واستوجبت فشلنا الأليم ، ولن أبحث عن الأشخاص الذين يجب أن يعتبروا مسؤولين عن هذا الفشل وتلك النكبات . ومع هذا سأقول بلا تردد : إن أهم الأسباب ـ في نظري ـ هو بقاؤنا بعيدين عن تفهم وتمثل روح العصر الذي نعيش فيه ، وتقصيرنا في التسلح بسلاح العلم الحقيقي .

غير أني أرى أن هناك سبباً آخر ربما كان أبعد أثراً وأشد خطراً من كل ذلك . هو ضعف ايماننا بقضايانا القومية ، وعدم إقدامنا على معالجة تلك القضايا بعزم وحزم .

إن الأمم الحية الوثابة تتعظ بالنكبات ، فتندفع إلى العمل وتواصل الكفاح بحرارة أشد وعزم أمتن ، كما أنها تغضب من الفشل وتستفيد من دروسه ، فتعيد الكرة لتضمن النجاح ولو بعد حين . □

قصة قصيرة

السائق الاحتياطي

بقلم : الدكتور محمد المخزنجي

وقع عليه بصري فور صعودي إلى الحافلة الكبيرة رقم ٢٦ ، فاندهشت . تصورته إنسانا آليا « روبوتا » وضعوه في المقعد خلف السائق ، ووراء عجلة قيادة ثانية ، ليقوم بدور سائق احتياطي إذا لزم الأمر ، إذا أصابت السائق الحقيقي - على سبيل المثال - سكتة قلبية أو دماغية مفاجئة ، أو اختلت ردود الأفعال البشرية لدى السائق البشري ، نتيجة سهو أو توتر . تصورت ذلك ، وغذّى تصوري سابق انشغالي بغرابة ما أقرؤه عن الحاسوبات من الأجيال القادمة ، تلك العقول الالكترونية القادرة على التصرف الذاتي الحر ، وعلى الابتكار ، وعزّزت هيئته الفريدة تصوري ذلك ، فقد كان رشيقا كتماثيل عرض الملابس في الواجهات الزجاجية ، وعيناه الملونتان صافيتان صفاء يوشك أن يكون زجاجيا خلف زجاج نظارته الطبية الصقيلة ، بينما ملابسه شبه الرسمية منشاة ومكوية بعناية ، والقبعة جديدة تماما فوق رأسه المنتصب . جلسته مشدودة ، وشاربه دقيق أصفر كأنه مرسوم ، وابتسامته خفيفة ثابتة ، وأصابعه طويلة نحيفة بيضاء طولها ملفت للنظر ، وكذلك نحافتها ، وبياضها . وقد تسمرت أمامه دقيقتين أو أكثر دون حراك ، ثم مرت بي لحظة من شك ، خفت خلالها أن أكون في « هلوسة » ، أن يكون ما أراه مجرد تجسيد بصري خادع لهواجسي ، ولما انجابت لحظة المفاجأة ولحظة الشك ، وتبينت الفكاهة الجنونية في ما يحدث أمامي ، انفجرت ضاحكا . قهقهت كما لم أقهقه أبدا ، وأنا أضرب جبهتي براحتي ضاحكا من نفسي أيضا . وكانت قهقهتي هذه هي التي قادتني إلى الرجل أو قادته إليّ .

دعاني بإشارة آمرة مرحة إلى الجلوس في المكان الخالي بجواره ، ولم يكن هناك بد من طاعته ، على الرغم من إدراكي الآخذ في الاستضاءة والتحدد بأنه ليس إلا مجنونا هاربا أو خارجا من مصحة للأمراض العقلية ، يمارس جنونه في انطلاق وإن كان ذلك بهدوء شديد ورقة يوشكان أن يكونا لطفا بالغا وأناقة الكترونية . فقد كان يلعب دور السائق من خلف ظهر السائق الحقيقي ، وبعجلة قيادة يعلم الله من أين جلبها ، يحملها مرتكزة على إحدى ركبتيه ، وتكاد تبدو - لمن لايتمعن فيها - كأنها عجلة قيادة مكررة داخل الحافلة ، تدور بنفس القدر ، وفي الوقت نفسه الذي تدور فيه عجلة القيادة الحقيقية .

وكان يعلق بجيب قميصه (ميكروفونا) صغيرا ، ينتزعه عند الوقفات (ليذيع) أسماء محطات الوصول عند فتح الأبواب ، وأسماء

المحطات المنتظرة بُعيد إغلاقها ، ويفعل ذلك بدقة لا متناهية ، وتزامن مذهل ، حتى انه لايدع أي مجال للشك لدى الناظر في أن الصوت الذى تذيعه سماعات الحافلة الداخلية ليس إلا صوته . ثم التفت نحوي مفاجئا إياي بسرعة إدراكه لكوني أجنبيا : « مرحبا بك في مدينتنا كييف » ، وأردف يسألني بصوته الأخن الهاديء : « من أي البلاد ضيفنا العزيز ؟ » .

كدت أعود إلى القهقهة عندما التقط « ميكرفونه » الصغير وراح (يذيع) : « حضرات الركاب المحترمين ، معنا ضيف عربي عزيز من مصر ، مصر بلد الأهرام وأبي الهول والتماسيح والبرتقال والشمس . باسمكم وباسم إدارة الحافلات الكبيرة في مدينة كييف أرحب به » . كبحت جماح رغبتي في الضحك ، وكان صوته لا يتعدى حدود سمعه وسمعي وسمع أقرب الركاب إلينا ، إذ كان « ميكروفونه » ذا سلك مقطوع لا يتصل بأي شيء ، ولم يكن من النوع اللاسلكي على أي حال . لم أضحك مخافة إخراجه عن هدوئه ، ثم إنني بدأت أدرك بتوتر كوني الشخص الوحيد الذي وقع في مصيدته ، وقد صرت بذلك موضع نظرات كل الركاب الآخرين ، ونظرات السائق الذي كان يتابع الموقف عبر مرآته بهدوء ، قد يكون مبعثه وجود هذا الحاجز الزجاجي السميك وراء ظهره ، إضافة إلى السياج المعدني المحيط بمكانه . بعد ذلك وجدت نفسي أضيف إلى مصيدتي مأزقا أوقعت نفسي فيه دون انتباه ، أوقعت نفسي فيه وأنا أحاول تخفيف توتري بالمزاح ، فعندما سألني : « أي الأماكن يحب ضيفنا العزيز أن نمر بها في جولتنا ؟ » قلت : « السيرك » .

لقد كان خط الحافلة الكبيرة رقم ٢٦ يمر بشارع شيرباكوفا ، ولا ينعطف أبدا إلى طريق « بابيدا » ، حيث يوجد السيرك ، فمحطته الأخيرة تنتهي قبيل ناصية « بابيدا » ، حيث يدور ويرجع أدراجه عائدا إلى « شيرباكوفا » ، ومع ذلك أومأ لي سائقي المضياف موافقا بهدوء الواثقين . وأخبرني أنه لأجل خاطري وخاطر « مصر » بلد الأهرام وأبي الهول والتماسيح والبرتقال والشمس ، سيحول مسار الحافلة إلى طريق « بابيدا » ، لكن « بعد إيصال دفعة الركاب الموجودين معنا إلى أهدافهم حتى المحطة الأخيرة ، تبعا لما تقتضيه تذاكرهم ، وحقهم الذي يحميه القانون » .

وانسحب كل ما كان لديَّ من رغبة في الضحك ، وأخذتني هواجس الاحتمالات الخطرة التي ستترتب على إحباط رغبته في (إكرامي) ، وما قد يبدو له بأنه إهانة شديدة وإهدار لثقته بنفسه .

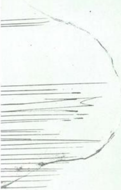
وصلت الحافلة إلى محطتها الأخيرة ، ونزل كل الركاب مشيعين (مضيفي) وإياي بنظرات ممسكة للضحك ، وعندما هممت بالنهوض في محاولة للنزول أعادتني إلى مكاني غمزة من يده لركبتي ، وكان السائق أمامنا يلتفت ويرى ويسمع مبتسما ، بينما صاحبي (يذيع) عبر « ميكروفونه » المنقطع النظر : « الحافلة ستتجه إلى طريق « بابيدا » ، وعلى حضرات الركاب المتجهين ناحية « شيرباكوفا » أخذ الحافلة التالية المتوقع وصولها بعد دقيقتين من الآن » . وجعل يكرر تنبيهه هذا ، لكن صوته كان يضيع في جلبة صعود الركاب الجدد ، وبين دبيب أقدامهم المتسارعة نحو المقاعد الخالية . ولذهولي بعدما أغلقت الأبواب لاحظت الارتجاجة التي شملت جسم الحافلة كله ، وسمعت زمجرة (الكابح) غير المألوفة في وقت يتعين عنده الانطلاق .

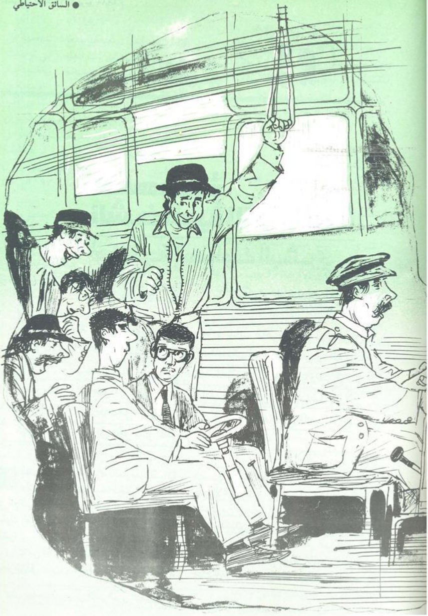
أخذ الأمر يتكرر ، ويتصاعد معه استهجان الركاب الجدد ، إذ تبدو الحافلة كأنها تنطلق ، لكنها سرعان ما تتوقف مرتجة ، وتسمع زمجرة الكابح ، فهل يعقل أن السائق كان يعمل بالتجاهين متضادين ، المضي قدما وإعاقة هذا المضي في اللحظة نفسها ؟ لم يكن ذلك منطقيا ،

وعبر إلقائي النظرات على السائق في الأمام، ولحظي لأسري في بجواري، بدأت أخمن ما يمكن أن يكون (ميكانيزما) غريبا لتفسير هذا التضاد الغريب، فالسائق أمامنا (يفتح) مرسلا الحافلة باتجاه «شيرباكوفا»، دون أن يكون في حاجة إلى إدارة عجلة القيادة، لكن مجاوري يدير عجلة قيادته الخرافية المرتكزة على إحدى ركبتيه باتجاه «بابيدا»، فتميل الحافلة إلى الانعطاف بشكل محسوس، ويسرع السائق إلى الضغط على الكابح بكل طاقته المدهشة، فترتج العربة، وتتصاعد زمجرة هذا التضاد الغريب!

تعالت صيحات الركاب متسائلة مستنكرة ومستغربة عدم التحرك، وكنت أتابع عبر هذا الصخب تراسلا متوعدا بين (السائقين) خلال مرآة الواجهة، ولم يعد عندي أدنى شك في أنني بإزاء لحظة غريبة، فألح علي مجددا هاجس الانسان الآلي، وشرعت أختبر شكوكي بلا حذر. وأجس ذراع مجاوري بلا حذر، وأميل لأنظر إليه مباشرة عينين بعينين، فلو كان واردًا أنه إنسان آلي «روبوت» على هذه الدرجة من التطور التي تجعله يتمرد على إدارة البشر، أو تلك التي تجعله يؤثر إلى حد ما وراء طبيعي، فإن ما لا يمكن أن يكون لأي إنسان آلي هو هذه الدرجة من حرارة الجلد البشري وملمسه اللذين أحسستهما بينما كانت أصابعي تتلمس أصابعه. وما لايمكن أن يكون لأي إنسان آلي هو هذا القوام من اللحم الانساني على العظام الانسانية، وهو ما تبينته بينما كانت يدي تجس ذراعه. وإن كان صفاء عينيه يوحي بصفاء زجاجي لعدسات (آلة تصوير) مطورة، تقوم بدور عيني الانسان الآلي، فإن مثل هذا الصفاء يشبه عيون البشر الذين يضربهم السل في بعض مراحله، أو تضربهم بعض أنواع انفلات العقول. ثم رعشة الانفعال البشري هذه التي راحت تنفضه عندما نهض السائق معيدا فتح الأبواب وملتفتا إليه وهو يصرخ: «اسمع، كف عن هذا وإلا تفضل بالنزول، نعم. وإلا تفضل بالنزول».

كان واضحا أن السائق لا يعرف ما «هذا» الذي يريد من مجاوري أن يكف عنه، لكنه يستشعر أن شيئا ما قد يحدث من هذا الرجل وعجلة قيادته الخرافية، أو يحدث بسببها. ومع استعار تصارخ الركاب العجولين شعرت بالوجل، وخفت من تفاقم الوضع وإمكان تطوره إلى حد استدعاء الشرطة، وما قد يترتب على ذلك من مساءلات وشكوك وضياع وقت، فأسرعت بتلفيق اعتذار لصاحبي الغريب عن الاستمرار في (الجولة)، وعاجلته بهبوطي من الحافلة قبيل ان يفتح فمه، وعلى الرصيف واتاني شعور بالارتياح للإفلات من مأزق لا أدرك كنهه، لكن ما أن صك سمعي صوت اصطفاق أبواب الحافلة وهي تغلق حتى تبعثر ارتياحي. وشعرت كأن شيئا ما نادرا ما كدت أمتلكه حتى خطف مني، وراح يبتعد مع ابتعاد الحافلة الكبيرة رقم ٢٦ في شارع «شيرباكوفا» كسابق عهده. □







منتدى العربي

قضــــيـة

هندسة الشخصية الإنسانية

أو تقنية السلوك البشري

بقلم : اسماعيل الملحم*

مع تعقد حركة المجتمعات وتطورها ، بدأت ظاهرة استخدام العلوم للتنبؤ بالسلوك الجماعي للبشر ، ومحاولات التحكم فيه ، وضبط ردود أفعال الأفراد . وأصبحت هناك مؤسسات علمية كاملة تدرس وتبحث وتقترح ، كيف يصبح المواطنون وديعين مسالمين هادئين ، لا يثيرون اعتراضا ، ولا يبدون تذمرا ، وقد دخل السلوك البشري إلى المختبر وأصبح الصراع مع كيفية التحكم فيه إلى آخر مدى ممكن .

التقدم الذي أحرزته العلوم الإنسانية عامة ، وعلم النفس خاصة ، أخذ يطرح على الإنسانية مشروعات تقنية جديدة ، تتصل بسلوك الفرد البشري أو الجماعة البشرية بصورة مباشرة .

وبات من المألوف أن نقرأ أو نسمع عن طريقة أو طرائق في تكوين الشخصية الإنسانية ، أو هندستها وفق نماذج محددة سلفا . وأخذت مثل هذه الاتجاهات تقلق علماء الأخلاق الذين يخشون من المخاطر التي قد تنجم عن التدخل في سلوك الكائن البشري ، وعمليات تشكيل سلوكه . فبالإضافة إلى المخاطر التي يحذر منها المشتغلون والمهتمون بقضايا الإنسان والمجتمع جرّاء تقدم التقنية وطغيانها ، فإن الخوف يستبد

* كاتب وباحث تربوي من القطر العربي السوري

بهم من التدخلات المباشرة في سلوك الانسان ، وخاصة بعد تقدم ماصار يعرف في الدراسات النفسية بعلم « التعلّم » ، وما أنتجه هذا العلم من نظريات ، أخذت طريقها للتطبيق في المجال التربوي ، ومجال الإعلام ، ووسائل الاتصال المختلفة الأخرى .

تدخل للسيطرة

وتشتد هذه المخاوف وتتعاظم صيحات التنبيه والإنذار ، نتيجة تبني بعض الدول والمؤسسات في مشاريعها الرسمية لهذه المقاربات لتنفيذ سياساتها ، وتحقيق أهدافها في برمجة السلوك البشري ، بحيث يصبح أداة من الأدوات التي تسمح لها بإحكام سيطرتها وهيمنتها ، وزيادة استغلالها لمقدرات الأفراد والشعوب من جهة ، ولإحكام سيطرتها ونفوذها بحيث تسلس لها القيادة ، ولا تجد الأصوات الأخرى لها أنصارا في كبح سلطتها ، أو التقليل من سطوتها من جهة أخرى .

هذا مع العلم ، أن محاولات التأثير على سلوك الناس ، وهندسة تحركاتهم وتفاعلاتهم قديمة قدم الاستغلال وشهوة التسلط وممارسة القهر على الآخرين في هذا الكون ، فحيث تطمع السلطة إلى استمرار منهجها وزيادة سيطرتها تحاول أن تبتكر الوسائل والأساليب التي في ظنها تساهم في جعل أفراد المجتمع الواحد نسخا متشابهة لأنموذج محدد تريده . هذا ما كان يتمناه (نابليون بونابرت) من النظام التربوي الفرنسي في أيامه ، وما كانت تطمح إليه التربية الإسبارطية في العصور القديمة ، وما عملت جاهدة على تحقيقه الأنظمة الفاشية والنازية في العصر الحديث .

ولكن هذه الاتجاهات باتت أخطر في العصر الحاضر ، لما أضحت البشرية تمتلكه من وسائل تقنية متقدمة ، وتطور علمي مذهل . إذ أن دعوات تشكيل السلوك وهندسة الشخصية الإنسانية ، أخذت تجد لها مقدمات تشجعها على تحقيق دعاويها في المقاربات العلمية التي توصلت إليها العلوم الإنسانية المختلفة . ويقف دعاة المدرسة السلوكية في علم النفس في المقدمة في هذا المجال ، لشدة تفاؤ لهم في الدور الذي تلعبه عناصر البيئة المادية والاجتماعية في تكوين الشخصية ، ونفيهم إلى حد بعيد لدور العوامل الوراثية.. فما تزال الكتب المدرسية تردد مقولة (واطسن ، عالم النفس الأمريكي الشهير) في كتابه (السلوكية) ، الصادر عام ۱۹۳۰ التي قال فيها :

« لو وضع تحت تصرفي اثنا عشر وليدا يتمتعون بصحة جيدة وبنية سليمة ، وطلب مني أن أعلمهم بالطريقة التي أعتقد أنها المثلى للتعلّم ، فإني قادر بطريقتي هذه ، بحيث يصبح أي من هؤلاء الأطفال مختصا في المجال الذي أختاره له . كأن يكون طبيبا أو محاميا أو فنانا أو . . . ، بغض النظر عن مواهبه ، أو ميوله ، أو قدراته ، أو مهنة أبيه ، أو أي من أسلافه ، أو الجنس الذي ينتمي إليه » .

ويعتقد واطسن ومن أتى بعده من مدرسته ، أو ممن تأثروا بها بأن السلوك الإنساني ما هو إلا ردود أفعال ، أو استجابات لمنبهات أو مثيرات البيئة ، التي لا يقتصر تأثيرها على الدفع فقط ، وإنما هي تختار وتصطفي ، ودورها الاصطفائي هذا ذو أثر فعّال في تشكيل سلوك الفرد وحفظه . فالرغبة في تغيير سلوك شخص ما ، أو تعديله ، لا تحتاج سوى تغيير ظروفه البيئية . ويكون هذا الأمر ميسورا كلما ملكنا فهم العلاقة بين السلوك والبيئة بشكل أفضل .

دور البيئة في تحديد السلوك

فالإنسان-كما يقول (جيلبرت سلدز)-ابن الظروف : « فلو غيّرنا بيئات ثلاثين طفلا من أبناء قبيلة (الهوتنتوت) - وهم شعب يعيش في

جنوب افريقيا - وثلاثين طفلا من أبناء ارستقراطيي انكلترا، فسيصبح الارستقراطيون (هوتنتوت) من كل النواحي العملية، كما سيصير الهوتنتوت محافظين صغارا».

ومع تقدم الأبحاث السلوكية، أخذ يتردد كثيرا الحديث عن تقنية سلوكية. ويعد (ف. ب. سكنر) رائد هذه التسمية، كما أن أصحاب نظريات أخرى في التعلّم من أمثال (أ. ر.جثرى) و (ى. ل. ثورندايك) من خبرائها. ففي مقدمة كتابه (ما وراء الحرية والكرامة)، يقول (سكنر):

«ما نحتاجه تقنية للسلوك، إذ لا يكفي أن ندعو إلى استخدام التقنية مع تفهم أعمق للقضايا الإنسانية. فتقنية الفيزياء وعلم الحياة لا صلة لها بقضايا انسانية، مثل انهيار النظم التعليمية، أو سخط الجيل الصاعد، وما شابه ذلك».

ولم يبخل (سكنر)، المرة تلو المرة - عبر تجاربه المستمرة - في تقديم الأسس التي يقوم عليها ضبط السلوك وتشكيله، مشيرا إلى أهمية ذلك في قدرتنا على حل مشكلاتنا كافة، راسما بذلك الطريق التي يرى أنها الأصلح للتحكم بالسلوك البشري الذي لاتقتصر آثاره على الإنسان كفرد فحسب، وإنما على الجماعات البشرية أيضا. واضعا نصب عينيه قيام تقنية للسلوك الإنساني تحكم كل تطورات الحياة بجميع جوانبها. وفي تجديده لأهداف هذه التقنية يقول:

«إذا ما استطعنا ضبط نمو سكان العالم بالدقة نفسها التي نضبط بها مسار سفينة الفضاء، أو تحسين الزراعة، فإنه سيصبح ممكنا حل مشكلاتنا بسرعة.» وإن قيام علم النفس يقتصر على دراسة السلوك الخارجي للكائن الحي - كما يقول واطسن - ذلك السلوك الذي يمكن إخضاعه للملاحظة والمشاهدة والقياس وذلك كفيل به ليكون علما موضوعيا محددا.

أما السلوك الذي هو موضوع هذا العلم، فينظر إليه على أنه نوع من المخرجات التي يستتر خلفها العديد من العوامل، ومن بينها العامل الاجتماعي دائما.

ويتحدد السلوك بالعامل الاجتماعي، إذ يقوم الوسط الاجتماعي باستمرار، بنوع من التحكم في استجابات (ردود أفعال) الفرد إزاء المنبهات الخارجية المختلفة.

وما على علم السلوك - في هذا المجال - إلا أن يأخذ بالمسار الذي انتهجته العلوم الطبيعية، بحيث يلتفت مباشرة إلى العلاقة ما بين السلوك والبيئة، دون إضاعة للجهد والزمن، في البحث عن الحالات الذهنية الوسيطة، أو السابقة للسلوك أو المرافقة له، لأن هذه الحالات لاتتعدى كونها حالات مزعومة.

فكل مناحي السلوك، وفقا لذلك، يجرى تفسيرها من خلال العلاقة المعروفة (مثير واستجابة) دون النظر إلى الحالات الوسيطة بينهما. وعلى هذا الأساس، يرى السلوكيون، أن النبوغ - مثلا - ما هو إلا نتاج بيئة اجتماعية سابقة. حتى أولئك الذين يبرزون باعتبارهم ثوريين، هم كلهم تقريبا نتاج تقليدي للنظم التي يطيحون بها. فهم - مثلا - يتكلمون اللغة، ويستخدمون المنطق والعلم، ويتقيدون بكثير من المبادىء القانونية والأخلاقية، ويستخدمون المهارات العملية والمعرفة التي أعطاها لهم المجتمع. حتى أن ما يبدو في سلوكهم أنه استثنائي،مهما كان مثيرا في ذلك، علينا أن نبحث عن أسبابه في تاريخهم المزاجي الغريب الخاص، أما أن تعزى إسهاماتهم المبدعة فقط إلى شخصياتهم التي تصنع المعجزات، باعتبارهم رجالا مستغلين، فهذا بالطبع ليس تفسيرا صحيحا على الإطلاق. بكل هذا الوضوح يفسر (سكنر) السلوك الابداعي.

فمع وصف الظاهرة والتشديد على الرغبة في

ذلك ، فإن السلوكيين يتخذون من ذلك خطوة للتنبؤ بالسلوك ، ليس هذا فحسب ، وإنما يبحثون عن إمكانية ضبط السلوك وإخضاعه لعملية التحكم .

التحكم في سلوك شخص ما أو ضبطه مرتبط بتغير الظروف . وهذا يتطلب فهما دقيقا للعلاقة بين السلوك ـ موضوع البحث ـ وبين البيئة . على هذا الأساس يؤكد (سكنر) ، أن التعلم وزيادة الطاقة على العمل والانتاج لا يكونان بنفخ روح الافتخار والكرامة ، وإنما باكتشاف الخطأ في ظروف المتعلم أو المتدرب .

وهذا يعني أيضا معرفة بالبيئة وقوانينها كمقدمة ضرورية لأي فعل يهدف إلى ضبط السلوك والتحكم به ، فالتغيرات في المثيرات يترتب عليها تغيرات في الاستجابة .

دور الثقافة كنتاج اجتماعي

والثقافة بحكم أنها تتضمن طرائق العيش في مجتمع ما ، وتنشئة الأطفال ، وأساليب جمع الطعام وانتاج ما يتعلق به عن طريق الزراعة والصناعة ، ونوع المساكن ، واللباس ، والألعاب ، وكيفية التعامل بين أفراد المجتمع ، وأساليب حكمهم ، إنما تفسر بتأمل الظروف التي أنتجتها بحيث شكلت عادات أو أنماطا سلوكية لها خصوصياتها وثباتها النسبي .

ويسمي السلوكيون الأنماط السلوكية ، والظروف والطوارىء الاجتماعية التي تولد فيها (أفكار الثقافة) . أما التدعيمات ـ التعزيزات ـ التي تظهر فيها هذه الطوارىء والظروف ، فتسمى (قيم الثقافة) . وعلاقة الثقافة مع البيئة علاقة تكيفية ، فهي تخضع باستمرار لعملية اصطفاء . وفحص الممارسات الثقافية لجماعة ما ، يعود تاريخه إلى حوادث عرضية . ثم إن أي ثقافة من الثقافات لا تكون دائما في حالة توازن دائمة ، لأن الظروف في تغير مستمر . تتغير البيئة المادية نتيجة انتقال الناس من مكان لآخر ، ونتيجة تغير في المناخ ، أو حينما تستهلك الموارد الطبيعية ، أو تتحول إلى استعمالات أخرى ، أو عندما تصبح غير قابلة للاستعمال .

وتتغير البيئة الاجتماعية وذلك بتغير حجم الجماعة ، أو باتصالها بجماعات أخرى ، أو بانقطاعها عن جماعة كانت على علاقة معها ، أو عندما تصاب المؤسسات المتحكمة بالقوة أو بالضعف .

ولكن السلوك لا يتشكل نتيجة علاقة المثير بالاستجابة ، بل من خلال عمليات التدعيم أو التعزيز . أي ما يعقب الاستجابة (أو الأداء) ، مما يؤدي إلى زيادة احتمال صدور الاستجابة أو نقصانه . إذ أن الأحداث المجزية بعد الاستجابة تؤدي إذا أحكم ترتيبها إلى زيادة احتمال صدور الاستجابة . وهو ما يسمى (التدعيم أو التعزيز) ، وللتدعيم الذي يلعب دورا رئيساً في تشكيل السلوك: قوانينه التي تتحكم بالسلوك ، وتضبطه ، وذلك من خلال قانون (اقتران زمني بين الاستجابة والتدعيم) . ولذلك شروط محدودة ، منها أن يحصل التدعيم في دائرة انتباه الفرد ، وأن يكون هذا الأخير في حاجة إليه . فالسيطرة السلوكية تتم بوساطة الكبح المفروض بظروف التدعيم والتقوية ، أو بوساطة العقاب الذي يحث على الاقلاع عن سلوك ما ، ويتخذ العقاب شكل اللوم أو التوبيخ . ولكن لذلك حدودا لأن السلوك المعاقب قد يتكرر عندما تزول الطوارىء العقابية ، مع الإشارة إلى أن التدعيم السلبي الذي يأخذ شكل العقاب ، قد ينجح في جعل المتعلم يقلع عن سلوك ما ، ولكنه قد يدفعه إلى سلوك ذي طابع عدواني أو عصابي تدميري .

وقد أرجع (جون لوك) منذ أكثر من قرنين كراهية الكتب والمطالعة عند بعض الناس إلى تلك العقوبات التي كانوا يتعرضون لها . فالكتب التي كانوا يخطئون في قراءتها هي سبب الضرب ، فعزفوا عن حبها ، وعمموا ذلك على سائر

الكتب . وهذا يفسر أيضا - حسب رأي جون لوك - إعراض بعض الناس أو عدم استطاعتهم الشرب من الأكواب الجميلة والنظيفة لأسباب مشابهة ، إذ أن ارتباط بعض الأفكار بالأشياء تجعل هذه الأشياء منفرة .

وهذا العقاب قد يدفع بالمعاقب إلى تغيير البيئة إلى بيئة لايعاقب فيها السلوك نفسه . أو أنه قد يلجأ في سبيل تغيير احتمالات حدوث السلوك الذي استحق العقاب إلى التحكم بإحداث تغيرات فيزيولوجية ، كتناول المهدئات ، أو قمع هذا السلوك بتدعيم قوي إيجابي لأي سلوك آخر قد يحل محله .

أما بالنسبة للتدعيم الإيجابي الذي يتخذ شكل المكافآت ، فإنه حدث ذو تأثير قوي في ضبط السلوك . ويكون بمكافأة الاستجابات التي تقترب في البداية من الاستجابة النهائية المرغوب فيها . ويكون التدعيم في البدء قويا ، بتدعيم أي ميل في الاتجاه الصحيح ، بعد ذلك لا تدعم سوى الاستجابات المحددة في ذلك الاتجاه .

وقد أوضح (سكنر) أهمية التدعيم في إنعاش حياة الناس ، أن إهماله يؤدي للعذاب في قوله :

« إن المعاقبين في العذاب في جحيم دانتي ، هم أولئك الذين عاشوا دون أن يتلقوا أي لوم ودون مديح » .

ويتراوح التدعيم الإيجابي عادة بين كلمات الاستحسان والتشجيع وكيل المديح ، وبين المكافأة المادية . وقد يلعب أي حدث آخر دور المدعم بما في ذلك الاشباع المعرفي والانجاز .

ومن الملاحظات التي تؤكدها أبحاث التعلّم ، أن الاستجابة المدعمة إيجابيا يكون تكرارها أكثر حدوثا من تلك الاستجابات التي لا تتلقى التدعيم المناسب لها مما يؤدي بها الأمر لما يُعرف في كتب علم النفس بالانطفاء . ولكن بعض الاستجابات التي تثبت إلى حد ما ، في سلوك الفرد نتيجة للتدعيم قد تختفي نتيجة عدم الممارسة .

فطريقة تقديم التدعيم ينبغي لها أن تجري وفق منهج محدد ، لتكون فعاليتها أشد في تشكيل السلوك أو ضبطه والتحكم به .

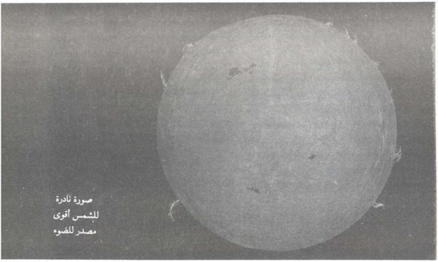
وكما قلنا في البداية ، يرى السلوكيون أن غالبية سلوك الراشدين هو سلوك متعلم . لذلك فإن تقنية السلوك البشري يجب أن تجري وفق منهج مرسوم ، لا أن تترك للمصادفات .

وهكذا فقد ساهمت نظريات ضبط السلوك والتحكم به في تطوير عمليات التعلم والعلاج النفساني ، وفي بعض حالات العلاج الجسماني . ولكنها - كأي مقاربة علمية - سيف ذو حدين ، بالإضافة إلى مساهمتها في تحسين ظروف التكيف البشري ، فإنها قد تكون لها آثارها التدميرية عندما تبتعد أفعال المستخدمين لها ، وأهدافهم عن قيم اخلاقية أرست دعائمها نضالات البشرية المستمرة منذ أقدم العصور . وفي هذا المجال تندرج الطرائق المتطورة التي ينهجها البعض في عمليات غسل الدماغ ، ودفع المجتمعات - بخاصة المتخلفة منها - إلى مبارحة القيم والأهداف التي تشكل أساس تماسكها ووجودها ، وترويج عادات المجتمع الاستهلاكي وقيمه بدلا منها . □

يبكون وهم ظالمون

● قال الشعبي : كنت جالسا عند شريح القاضي ، إذ دخلت امرأة تشتكي زوجها وهو غائب ، وتبكي بكاء شديدا ، فقلت : ما أراها إلا مظلومة ، قال وما علمك ؟ قلت : لبكائها .

قال : فإن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون وهم ظالمون !!



العلاج بالضوء

بقلم : الدكتور وليد السباعي

مع الانجازات العلمية المبهرة في ميدان العلاج ، واكتشاف الدواء وتصنيعه ، يزداد الاتجاه للعلاج بالأعشاب ، والطب الطبيعي ، واستخدام عناصر الطبيعة التي كان يستخدمها الأقدمون في مقاومة الأمراض وعلاجها ، ومنها الضوء الذي تبين أن له فوائد علاجية كثيرة رخيصة .

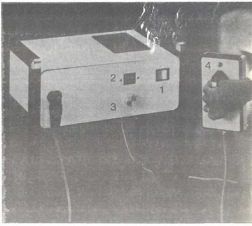
يعد ضوء الشمس من أقدم العوامل الفيزيائية في العلاج الطبيعي ، فقد عرفت تأثيره كثير من الشعوب القديمة ، كالآشوريين والمصريين القدماء ، وهم أول من استعمل حمامات الشمس والطين ، ثم اليونانيين والرومانيين . أما أكبر مدرسة لذلك فقد كانت في مدينة هليوبوليس ، أو مدينة الشمس التى استغلها هيبوقراط (٣٤٠ - ٣٧٧ ق . م) لعلاج سرعة التئام الجروح وجبر الكسور ، وتخفيف الألم . وفي القرون الوسطى منعت الكنيسة الناس من تعريض أجسامهم للشمس فكثر مرض الخرع . وفي عام ١٨٠٠ اكتشف هرتسل الأشعة تحت الحمراء ، وبعده بعام اكتشف ريتر

الأشعة فوق البنفسجية . وهكذا مرورا بقانون نيوتن ، وقانون ماكسويل ، ثم نظرية بلانك التي أكملها العالم اينشتاين عام ١٩٥٠ تتكامل النظرية حول تحول المادة إلى طاقة وبالعكس .

الفوتون والموجة الكهرومغناطيسية :

وحدة الاشعاع الكهرومغناطيسي هي الفوتون الذي يتكون أثناء اصطدامات الذرات أو الجزئيات بعضها ببعض ، فيحدث تغير في مسار الالكترونات ، فتتحول الطاقة الحركية للألكترونات إلى فوتونات ، وعند التصادم يخرج الفوتون من مصدر الضوء بسرعة (٣٠٠,٠٠٠) كم في الثانية ، في الفراغ .

وللفوتونات خلال نفاذها في الوسط الخارجي خواص الموجة الكهرومغناطيسية . والضوء طاقة تنتشر على شكل موجة كهرومغناطيسية ، وكلما قصر طول الموجة كانت ذبذبتها أكبر وبالعكس ، وتختلف بعض الأمواج الكهرومغناطيسية عن بعضها بالذبذبة وطول الموجة والصفات والتأثير ، ونحصل بترتيبها على الطيف الكهرومغناطيسي ، أي سلسلة إشعاعات الطاقة الضوئية حسب الذبذبة وطول الموجة .



منابع صناعية للأشعة فوق البنفسجية

وسوف نتناول هنا العلاج بالاشعاعات فوق البنفسجية والمرئية وتحت الحمراء ، وهي الأمواج الكهرطيسية ذوات الأطوال التى تتراوح بين (١٥٠) نانومترا وحتى (٣٠٠٠) نانو متر .

وأقوى مصدر طبيعي لكل أنواع الطاقة الضوئية هو الشمس وما عداها فإن كل جسم محمى لدرجة الاحمرار يمكنه إرسال ضوء ، وذلك منذ اللحظة التي تصل فيها درجة حرارته (٢٧٣) درجة مئوية . وفي درجة (٣٠٠ - ٥٠٠) مئوية نراه يشع إشعاعا أحمر ، وفي (١٠٠٠) مئوية يصدر إشعاعا أصفر ، وفي أكثر من (١٢٠٠) مئوية يصدر إشعاعا أبيض وفي كل درجة حرارة تصدر إشعاعات بأطوال مختلفة :

أولاً : تحت الحمراء الطويلة ، ثم الأقصر . وعند الاشعاع الأحمر تصدر الأشعة المرئية ، وتحت الحمراء . وعند الاشعاع الأبيض تحت الحمراء والمرئية وفوق البنفسجية . ونظرا لصعوبة تحديد الجرعة الشمسية وقوتها ، واختلاف أحوال الطقس فإننا عادة نستخدم منابع صناعية ضوئية فنحصل على الأشعة تحت الحمراء حينما نحميها لدرجة الاحمرار ، فإذا ما سخنت إلى أكثر من (٣٠٠٠) درجة مئوية حصلنا على فوق البنفسجية .

والموجات الكهرومغناطيسية تخضع للقوانين الفيزيائية المعروفة نفسها : كالانحراف ، والانعكاس والامتصاص والفلترة ، وأن الجزء النشيط بيولوجيا هو الجزء الذي يمتصه الجسم فقط ، وهذا يعتمد على طول الموجة ، والذبذبة ، والزاوية التي يقع فيهاالضوءعلى الجسم ، ومدة التأثير ، وشدته ، والامتصاص والنفاذية ، ووضعية الجسم ، والحساسية الخاصة لكل جسم . وبهذا فلكل أشعة تأثير مختلف « بيولوجيا » « وفيزيولوجيا » عن الأخرى . فالأشعة فوق البنفسجية تخترق الجلد مسافة عدة أجزاء من المليمتر ، والمرئية تدخل عدة مليمترات ، وتحت الحمراء عدة سنتيمترات .

الأشعة المرئية :

اكتشف العالم نيوتن أنه بمرور أشعة الشمس خلال الزجاج تتحلل إلى حزم من أشعة ضوئية مختلفة ، لكل منها طولها وخواصها ، وبهذا فالأشعة

المرئية من الضوء ، تتألف من سبعة ألوان أساسية مؤتلفة تكوّن الضوء الذي نراه ، وهي البنفسجي ، والأزرق الغامق ، والأزرق ، والأخضر ، والأصفر ، والبرتقالي ، والأحمر . ونسمي هذه الألوان طيف الشمس الذي يبلغ طوله الموجي من (٩٠ - ٧٧٠ نانومترا) ، وخارج هذه الأطوال فإن العين البشرية لا تميز الأشعة التي لها إشعاع قوي جدا ، ونثبت وجودها بالتجارب فقط .

ولاستمرار الحياة على كوكب الأرض كان من الضروري جدا وجود الأشعة المرئية وغير المرئية ، فالمرئية ضرورية للنمو وعمليات التمثيل الخلوي للنباتات ، ولا يخفى على أحد أهمية أشعة الشمس للانسان والحيوان والنبات ، وهنالك العديد من الأمراض التي تحدث بسبب نقص التعرض للشمس ، كالخرع ، وازدياد القابلية للاصابة ببعض الأمراض السارية . . الخ .

الجزء المرئي من الأشعة يخترق الجسم من ١ - ١٠ ملم . ولكل نوع من الطيف تأثيره الخاص به ، فالأصفر والبرتقالي لهما تأثير مهيج للأعصاب ، بينما للأزرق والبنفسجي تأثير مهدىء . والأخضر يكثر عمليات البناء ، بينما الأصفر والبنفسجي يكثران عمليات الهدم الخلوي ، أما الأزرق والأحمر فيساعدان على تقليل الألم ، والبنفسجي منفرداً يقلل النبض ، بينما البنفسجي والأزرق يساعدان على التئام الجروح وتهدئة الألم . وبالحرارة الواصلة لأعماق النسج ترتفع القدرة المناعية للجسم ، وتتسارع العمليات الحيوية فيه ، وتتحسن الدورة الدموية ، ويكثر نشاط غدد التعرق ، وتهدأ الأعراض الجلدية التي تحدث نتيجة الحصبة والجدري ، أما الأزرق فيستعمل في الطب النفسي والعصبي ، خصوصا عند آلام الأعصاب . . الخ ، إضافة لاستعمالاته في طب العيون للتشخيص .

أما الأشعة فوق البنفسجية فهي أشعة باردة غير مرئية نشيطة كيماويا وفعالة ، لها أشكال ثلاثة (A.B.C) أهمها « B » وبتأثيرها يحمر الجلد ، ثم يكتسب لونا برونزيا ، ولها تأثير قوي على البكتيريات ، ونحصل عليها من الشمس أو من مصادر صناعية ، بلمبات من زجاج الكوارتز والأرغون أو بخار الزئبق . وأحيانا نضطر لاستعمال موصلات دقيقة لاستعمالها داخل الأنف أو الحلق أو الأذن أو الاعضاء المفرغة والنسائية .

وبتأثيرها يتحول الفيتامين D إلى فيتامين D3 وهو ما يُثَبِّت الكلس في العظام ، أي تقوية تكَلُّس العظم .

وتحسِّن زمن التخثر ، وتقلل تهيج العضلات وتُحسِّن قابلية غشاء الخلية لامتصاص الأشعة ، وتحويل الكولوايد ، وتُكثِر الهموجلوبين وهو أهم عناصر المقاومة في الجسم ، وتزيد نشاطة ، وتفتح الشهية ، وتحسن النوم ، وتقلل التوتر والقلق .

هذه التأثيرات تحدث بسبب تغير أماكن الذرات ، وتغير التعادل الكهربي للذرة ، وتحول الالكترونات إلى مدار آخر .

التأثير والاستخدام

احمرار الجلد ، واكتساب اللون البرونزي ، واكثار قدرة التجدد للخلية ، والاسراع في تشكيل النسج التالفة ، والقضاء على البكتيريات ، ولذلك تستخدم في حالات الجراحة ، والمختبرات ، وفي التعقيم ، بما في ذلك تعقيم الحليب .

وفي كل مكان يمكن أن تتكاثر فيه البكتيريات : كصالات الانتظار ، والمستشفيات والمستوصفات ، وصالات الولادة ، ومصحات السل ، والصيدليات ، وفي الصناعات الغذائية ، والكيماوية والصيدلانية . . الخ .

وتأثيرها الانعكاسي يتم عن طريق المنعكسات الجلدية والعضوية ، وخلال مناطق « هيد » في الجلد ، وتصل للأعضاء الداخلية ، فنلاحظ هبوط الضغط الشرياني (١٠ - ٣٠) مليمتراً زئبقيا ، وتحسين الدورة الدموية في الأعضاء واكثار إفرازات المعدة .

أما تأثيرها العام فهو : إكثار نسبة الهيموغلوبين ، وعدد الكريات الحمراء والبيضاء ، وتغير PH نحو الأساسي ، وتغير نسبة أنزيمات الدم والكولسترول والكالسيوم والفوسفور ، وكثرة ترسب الكالسيوم في العظام ، وكثرة افراز حمض البول وطرحه . . الخ .

وتستخدم الأشعة المرئية في علاج القروح والجروح التي لا تندمل ، والأمراض الجلدية : كحب الشباب ، واكزيما داء المنطقة ، والدمامل ، وبسوريازا (أكثر من ٣٠ مرضا جلديا) ،

والروماتيزم الاستمالي وخارج المفصلي : اللومباغو ، وأوجاع العضلات، وارتروز المفاصل والظهر ، وفبرو زيت ، والنقرس ، والأمراض العصبية : آلام الأعصاب ، والعصب الوركي ، وما بين الأضلاع ، والتهاب الأعصاب ، والأمراض النسائية : قلة فرز الحليب عند الأم ، وعدم انتظام الدورة الشهرية ، والتهاب المبيض المزمن (تقلل الورم والألم) ، والربو القصبي ، والخرع ، وتخلخل العظام ، وبطء النمو ، والتعظم ، وخروج الأسنان ، وللجسم المنهك بعد مرض صعب ، وفقر الدم ، والتسمم بأول اكسيد الكربون ، والسل خارج الرئة (سل العظام والغدد والمفاصل والأعضاء التناسلية) .

وتستخدم أيضا في تشخيص الأمراض الفطرية للجلد والشعر والأسنان (السن الميت يعطي لونا غامقا والحي لونا أبيض والمنخور قرميديا) ، ولفحص الدورة الدموية في الأطراف ، وتشخيص السرطان ، وفي الكيمياء الحيوية ، والتشريح المرضي ، وعلم الجرائم .

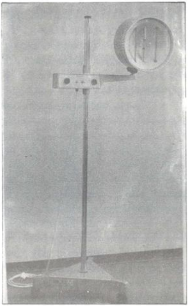
ويجب الاحتراس الشديد من استعمالها وقتا طويلا ، وبشدة عالية حتى لا تحدث حروقاً جلدية ، كما أنها إذا استمرت أكثر يتفحم الجلد ويموت .

ويمنع استعمالها في حالات الحرارة ، وبعض الأمراض السارية ، وقصور القلب ، وتصلب الشرايين ، وفرط التوتر الشرياني ، والنزيف ، وسل الرئة النشط ، وسرطان الجلد ، والحساسية بالأشعة ، وبعض الأمراض الجلدية ، وفرط إفراز العرق ، وأخذ فيتامين D بكميات كبيرة ، والتعرض لأشعة (×) ، والتهاب الكلى المزمن ، وبعد تناول الأنسولين والادرينالين ، ومضادات الحيوية ، ومركبات السلفا ، وأملاح الذهب والفضة ، ومدرات البول .

الأشعة تحت الحمراء :

أشعة غير مرئية حرارية ، نحصل عليها من الشمس أو من المنابع الاصطناعية ، تنفذ خلال الزجاج .

ومن مؤثراتها الفزيولوجية أنها تؤثر على سطح



منابع صناعية للأشعة تحت الحمراء

الجلد ، ومنه عن طريق السوائل تدخل الى الأعماق ، فيحمر الجلد بسبب توسع الأوعية الدموية . وتحسن مسيرة الدم ، واللمفا ، وتنشط الهضم والأيض الخلوي ، وتُسَرِّع تجدد الأنسجة المتضررة والأنسجة الضامة . وترخي العضلات والجلد ، وتساعد على تغذية الجسم بالأكسجين والمواد الغذائية ، وتصريف المواد الضارة بسرعة ، وامتصاص الورم ، وتقليل الألم ، وإكثار إفرازات الكلى ، ولها تضاد مع الأشعة فوق البنفسجية ، فهي تحطم فيتامينD، وتزيل أعراض الحروق التي تسببها هذه الأشعة .

وتستعمل لعلاج أمراض الروماتيزم ، وأوجاع الأعصاب ، وبعد الاصابات الرياضية أو إصابات العمل ، والتمهيد قبل العلاج الحركي والتدليك والتشريد الدوائي ، والتهاب الجيوب بعد إفراغها (مع فلتر) ، والرشح ، والتهابات الجلد

والحروق ، وتهدئة الألم ، خصوصا آلام الوجه الشديدة .

أما في التشخيص فتستعمل في كشف التهابات الأعضاء ، خصوصا الجهاز الحركي ، ومراكز التقيح ، وأمراض الأوعية الدموية ، والدوالي ، والجلطة ، والنزيف والكتل الورمية والسرطانات .

ولها استعمالات كثيرة جدا ، في مركبات الفضاء ، والتصوير الأرضي من الفضاء ، والأجهزة الاستراتيجية ، وجهاز التحكم عن بعد ، وفي التلفاز .

ويمنع استعمالها في حالات الالتهاب القيحي المفتوح ، وسرطان الجلد ، وارتفاع الحرارة ، وقصور القلب ، وتصلب الشرايين ، وارتفاع الضغط ، والنزيف والسل الرئوي النشط ، والجلطة ، ومرض بازيدو ، والتعب الشديد العام والانحلال .

العلاج بالشمس :

بما أن طبقة « يونوسفر » الجوية تمتص كل ما هو ضار بالانسان والحياة كالأشعة الكونية الضارة وغيرها ، فإن ما يصل إلينا نافع دون شك ، بشرط أن تكون جرعاته مدروسة ، أما الجرعات الكبيرة ، والتعرض الطويل لأشعة الشمس فهو ضار جدا ، وأحيانا مميت . ويختلف تأثيرها حسب الفصل والوقت واليوم ، ونظافة الهواء ، ورطوبته ، والغيم ، والارتفاع عن سطح البحر ، ومدة التعرض . . . الخ . وبما أنه لا يمكن التحكم بالجرعة ينصح بالتعرض لأشعة الشمس بالتدريج ومراعاة الغرض الذي نتعرض من أجله للشمس ، وهل هو علاجي أم لمجرد الصحة العامة .

وأفضل الأوقات لاستخدامها علاجيا من ٧ ـ ١٠ صباحا والسادسة مساء ، وفي غير أيام الصيف من الساعة ١٠ صباحا إلى ٤ مساء . ويجب ألا تتشمس بعد تناول الطعام مباشرة ، وإنما بعده بساعتين على الأقل ، ويجب تغطية الرأس ، ودهن الجسم بمادة واقية . ووضع نظارات غامقة ، والحرص الشديد على الأطفال . وإذا لاحظت قلة شهية أو ارتفاعاً في الحرارة أو قلقا ليليا ، أوقف التعرض للشمس كما يجب عدم تعريض من تقل أعمارهم عن سنة للشمس مباشرة .

ونبدأ بالتعرض مدة خمس دقائق ، ثم نزيد كل يوم حتى نصل إلى أقل من ٣ ساعات ، وبعد ذلك نذهب للسباحة ثم نستلقي في الظل ، ويجب الاحتراس الشديد من الحروق الجلدية أو الاصابة بضربة الشمس التي تؤدي إلى الوفاة .

ومن تأثيرات العلاج بالشمس فزيولوجياً ، زيادة قدرة الجسم العامة وتقويتها ، وزيادة النشاط وتحسين النوم والشهية وتقليل التعب ، وزيادة القدرة الدفاعية للجسم ضد الأمراض ، ومرونة الجلد ، واكتسابه لونا برونزيا ، وزيادة صلابته وتقويته ، وتقوية العضلات وزيادة كفاءتها ، وتحسين تبادل الغازات ، وتقوية التنفس وتنشيط انتاج الهيموغلوبين ، وعدد الكريات ، وتعديل العلاقة بين الكالسيوم والفوسفور ، والمساعدة في التئام الجروح ، وتقليل الألم .

ويستفاد من التعرض للشمس والرمل والهواء الحار وممارسة السباحة والرياضة على شاطىء البحر أو البحيرة في علاج الخرع ، وقلة التعظم ، والتخلخل العظمي ، وبعد الأمراض الصعبة ، وفقر الدم ، والجروح والقروح والدمامل ، وسل العظام والغدد ، وكل أنواع السل خارج الرئة ، والروماتيزم بأنواعه المفصلية وغير المفصلية خصوصا الاستمائي منه . ويمنع استعمالها في حالات الأشعة فوق البنفسجية نفسها . □

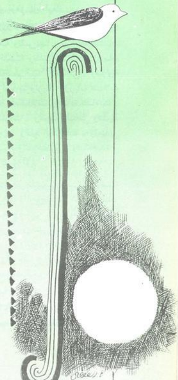
ما يبكيك ؟

● بكى أحد الصالحين يوما ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكي على من ظلمني إذا وقف غدا بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة .

الجدول والنبع

شعر : حسن توفيق

نبعٌ من الطيبِ يستلْقِي بـه العشبُ
مستبشراً بشروقٍ ، نـورُهُ يحْبـو
والعشبُ يبدو وساداً لَيِّنـاً سَكِـرَتْ
أطرافُـه بنـدًى مِنْ فـوقِـهِ يَصْبُـو
والوردُ قربَ ضفافِ النبعِ أوْسِمَـةٌ
قـد شكّلَتْـهَا يـدٌ يهفـو لها القلبُ
وللعصـافيرِ موسيقـاً مجنحـةٌ
من كـلِّ أغنيـةٍ يسـري صدىً خِصْبُ
ينسـابُ فـوقَ ميـاهِ النبـعِ في دعَـةٍ
كـأنـه الحلمُ مبهـورٌ بـه اللبُّ
أسندتُ رأسي على العشبِ الطريِّ لكيْ
أُصغي لِمَـا في عـروقِ الأرضِ ينصَبُّ
فحـاصرتْني مُـدَى الأشـواكِ جـامحـةً
وأيـقـظَتْ في دَمي نيـرانَهَا الشُّـهْـبُ
صرختُ : يانبعُ ، قلبي جمرةٌ خفقَتْ
فهـل يرقُّ لها إشراقُـكَ العذبُ ؟
فجـاوبتْني ميـاهُ النبـعِ هـامسـةً
انهضْ عن العشبِ يطفىءْ جمرَكَ الحبُّ
وطُفْ بـروحِـكَ في أُفْـقٍ لـه لغـةٌ
تسمـو بها النفسُ لا شـوكٌ ولا كَـرْبُ
واشربْ من الصفوِ إذْ يـأتيكَ مُؤتلقاً
والحُسْنُ في وجهـهِ يحْلُو بـه القـربُ
واستنهض الروحَ بالآمالِ تطلقُهَا
وَانْشُرْ جناحيكَ ، إنَّ المُرْتَقى صَعْبُ



الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوي

العضلات الكهربائية البديلة

يولد الطفل أحياناً مفتقراً إلى طرف واحد من أطرافه أو أكثر ، والذراع هو العضو الذي يفتقر إليه أولئك الأطفال التعساء ، وقد درج الطب على معالجة هذه الحالات بالخطّاف الذي يذكرنا بالقراصنة . وقد وجدوا في هذا الخطاف سلاحاً فتاكاً يمكنهم من التغلب على خصومهم في معارك الأيدي التي طالما خاضوها في البر والبحر . ولعلنا لا نذكر في مخيلتنا قرصاناً إلّا ونذكر يده الحديدية الخطافة ذات الرأس الحاد المقوس ، فضلا عن ساقه الخشبية .

على أن الطب تقدم كثيراً في أمريكا وفي غيرها ، حيث لم يعد الخطاف يليق بالمستوى الرفيع الذي أحرزته الخدمات الطبية في السنوات الأخيرة . فهو لا يغني عن اليد في أعمالها كلها أو أكثرها . ويسيء إلى الطفل نفسياً أكثر مما ينفعه . وحسبك الكآبة التي يولدها في نفسيته تبعاً لسخرية الناس من خطافه ، وتذكر الاحصاءات أن طفلاً واحداً من كل ٢٥٠٠ طفل يولد ناقص الأطراف في الولايات المتحدة الأمريكية .

من هنا حظي الابتكار الجديد بأقصى الترحيب ، حقاً لقد استغرق تطوير الأذرع والعضلات الكهربائية (myoelectric arms) سنوات عديدة ، ولعل في النتيجة النهائية ما قد يبرر الجهود التي بذلت في سبيلها ، وتجدر الإشارة هنا إلى أفلام « السينما » و « الفيديو » التي راجت قبل بضع سنين والتي دارت أحداثها حول القوة الخارقة التي تمتع بها البطل (ستيف أوستن أو غيره) بفضل الذراع الكهربائية .



تعتمد الذراع ذات العضلة الكهربائية على بطارية صغيرة ، وأقطاب كهربائية صغيرة (electrodes) ، ومن شأن هذه الأقطاب - التي تلامس نصف الذراع الذي جاء به الطفل من بطن أمه، بل قل العضلة العاملة فيه أن تقويها ١٠٠٠ مرة ، وترسلها إلى نصف الذراع الآخر ذي العضلة الكهربائية ، وذلك بواسطة البطارية التي تعمل بدورها على تشغيل محرك صغير معد لفتح الطرف الكهربائي وإغلاقه ، ولا يخفى أن الإشارات التي تلتقطها الأقطاب يبدأ توليدها في المخ ، فهو يرسل إلى عضلة الذراع الطبيعية ما يثيرها ، فتتقلص العضلة وتفرز مادة كيماوية قادرة على توليد الكهرباء .

وتتميز هذه الأذرع الكهربائية بأنها تثبت على المرفق بواسطة تجويف أو محجر Socket ملائم تماماً ، ودون حاجة إلى الأشرطة أو الكابلات التي لا غنى عنها لتركيب الخطاف ، والتي غالباً ما تسبب تقوساً في العمود الفقري تبعاً لاضطرار الطفل إلى الالتواء بظهره وكتفيه كلما أراد استعمال خطافه .

على أن الذراع الكهربائية ليست بلا سلبيات ، فهي بحاجة إلى استبدالها بأخرى أكبر حجماً لتلائم الطفل الذي ينمو ويكبر ، ويستحسن أن يجري هذا الاستبدال مرة كل (١٠) شهور ، ولو ذكرنا أن قيمة الذراع الواحدة تتراوح بين ١٠ - ١٥ ألف دولار ، لتجلت لنا مشكلة هذه الذراع التي قد لا يقوى على حلها إلّا القلة من الناس ، وهذا في الوقت الحاضر فحسب ، إذ أنهم ماضون في الولايات المتحدة في إنشاء مصرف للأطراف الجديدة يسمح باستبدال الصغير منها بأكبر وبتكلفة قليلة .

وتجدر الإشارة إلى أن الذراع الكهربائية الجديدة بحاجة إلى ما يكسوها ، ولو نظرت إلى يدها لبدت لك أشبه بيد الهيكل العظمي ، لذلك كان القفاز البلاستيكي الذي طوروه من أجلها بمثابة الجزء الذي لا يتجزأ منها .

ويكسو القفاز اليد ويغطي نحو $\frac{٢}{٣}$ الذراع الكهربائي ، وهو ذو أظافر وبراجم ، ويتميز - إذا كان قفاز كبار - بما يشبه الأوردة والطبقات الجلدية ، وهو رخيص الثمن نسبياً (٤٧ دولاراً للقفاز الواحد) .

بقي أن نذكر أن الذراع الكهربائية سهلة الفك والتركيب ، إذ المفروض بها أن تفك قبل النوم ، ثم تركب عند اليقظة ، ولولا سهولة فكها وتركيبها لما أقبل الناس عليها ، حتى في الحالات التي لا يكاد يبلغ عمر الطفل فيها سنة أو دون ذلك .

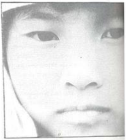
■■□□

ارتخاء الجفون ليس وقفاً على أهل اليابان

ارتخاء جفون العين آفة مزعجة ولا ريب ، وهو إما وراثي أو مكتسب . والوراثي منه يصيب في الغالب كلتا العينين في آن واحد ، وهو مرتبط بما قد تتعرض له نواة العصب البصري الثالث من نمو غير سوي ، ويكثر هذا الارتخاء الوراثي في الشعوب التي تعيش في منأى عن الغير - كاليابان - وفي الجماعات التي تحرص على زواج الأقارب .

أما الارتخاء المكتسب فغالباً ما يصيب عيناً واحدة دون الأخرى ، وقد يصيب الكبار ، فيكون سببه - في الغالب - قصوراً في امدادات الدم ، أو جلطة صغيرة في منطقة نواة العصب البصري الثالث التي ذكرنا . وقد يصيب الصغار ، وعندئذٍ يكون السبب أحد احتمالات كثيرة ، نذكر منها ضيق الأوعية ، والعصب البصري الذي قد يتعرض لتلف بسبب حادث أو مرض .

وقد يكون الارتخاء حاداً ، بحيث يتعذر على المرء النظر مالم يرفع رأسه



ويميل به إلى الوراء ، وفي تلك الحالة لا سبيل إلى التخلص من الآفة بغير العملية الجراحية ، وهي عملية عادية غير خطيرة .

على أن الارتخاء غير الحاد يمكن التخلص منه باستعمال القطرة المستحضرة من مادة الدموع كما يقول بعض الأطباء . نذكر هذا كله في إطار الأخبار التي ترددت مؤخراً عن « هيروهيتو » امبراطور اليابان الراحل ، فقد تميزت تعابير وجهه أكثر ما تميزت بجفونه المرتخية ، وبعينيه اللتين بدتا نصف مغلقتين بسبب ذلك الارتخاء ، والظاهر أن تلك التعابير كانت نتيجة محاولات الامبراطور المتواصلة لرفع جفنيه المرتخيين بقدر ما كانت نتيجة الارتخاء الذي فطر عليه جفناه العلويان ، هذا على الأقل ما أكده التدقيق الذي أجروه مؤخراً في الآفة التي عانى منها الامبراطور ويعاني منها أكثر رعاياه ، إن لم نقل جميعهم .

■■□□

أمراض الحساسية والاقتراب من الكشف عن سرّها

ثبت للعلماء والباحثين في أمريكا أن ثمة مادة واحدة فقط تفسر حالات الحساسية جميعا ، وأن لا حاجة بعد اليوم للبحث عن المصادر أو المواد المختلفة التي يقترن بها التحسس من أجل تحديد العلاج الناجع الذي يحتاج إليه المريض .

والمادة المذكورة لا تعدو كونها « المتقبل »Receptor الذي يوجد على سطح الخلية ، والذي تلتحم به الأجسام المضادة ، في أكثر حالات التحسس ، لا سيما في المرحلة الأولى من تلك الحالات ، وهي المرحلة الحاسمة دون ريب .

لا عجب إذن أن انصبت جهود العلماء في البحث عن عقار يعطل عمل المتقبل ، فيبطل ردود فعل التحسس كلها وخاصة في بدايتها ، عوضاً عن الأدوية الكثيرة التي تحاول القضاء على تحسس المرء المقترن بمادة معينة ، وذلك بإفقاده تحسسه لتلك المادة ، أي أنهم يسعون إلى العثور على عقار فعال واحد لحالات الحساسية كافة ، بدلاً من المستحضرات العديدة التي تتعامل والمواد التي تقترن بها تلك الحالات وهي كثيرة أيضاً . □

قالوا في القلم

● القلم أنف الضمير ، إذا رعف أعلن أسراره وأبان آثاره .
(سهل بن هارون)

● سئل أعرابي : ما القلم ؟ فقال : لا أدري . فقيل له : توهمه ، ففكر ، ثم قال : « هو عود ، قلم من جانبيه ، كتقليم الأظفور » ، فسمي قلما .

هل من تعارض بين حماية البيئة والتنمية ؟

تجري أعمال ترميم البيئة في أمريكا على نحو منقطع النظير ، والمقصود هنا إبطال أثر التنمية الزراعية والصناعية ، والرجوع بعقارب الساعة إلى الوراء ، أو إن شئت إبطال التقدم والعودة إلى التخلف . إنه الإنقلاب في المثل العليا الذي أحدثه الوعي البيئي ، والذي أدى إلى معارضة المشاريع الإنشائية ، كاستصلاح الأراضي ، وتجفيف المستنقعات من أجل الزراعة ، والتحطيب من أجل شق الطرق وتعبيدها ، كل هذه المفاهيم التي كانت مثلا عليا في الستينيات أصبحت معاول هدم ودمار في الوقت الحاضر ، وذلك وفق ما تمليه مفاهيم ومصلحة البيئة ، وهي مصلحة البشرية العليا التي نضحي في سبيلها بسائر المصالح الأخرى ، بما في ذلك المصالح القومية والسياسية ومصلحة النمو والازدهار الاقتصادي أيضا .

على أن الذي يتولى أعمال ترميم البيئة هذه ليس وكالة البيئة الحكومية ، ولا هيئات حماية البيئة الأهلية ، كهيئة أصدقاء الأرض مثلا ، أو هيئة السلام الأخضر ، وكلها هيئات طوعية خيرية تعمل ما تعمل دون أجر وبلا مقابل ، فالذي يمارس أعمال ترميم البيئة في الولايات المتحدة إنما هي شركات تسعى إلى جني الأرباح ، وتشبه في ذلك شركات البناء والتعمير أو المقاولين ، ولكنها تشبه أيضا الهيئات العلمية والجامعات والمختبرات بقدر ما تنطلق بأعمالها تلك على أسس علمية وتجارب وأبحاث، وبقدر ما تعتمد في ذلك كله على علماء ، إن لم نقل على كبار العلماء والمختصين في القارة الأمريكية كلها .

وحسبنا الإشارة هنا إلى بعض الأعمال الترميمية التي قامت بها ومازالت تقوم شركات - تجارية - علمية ، إن جاز لنا التعبير .



المستنقعات والأراضي البص : لقد فقدت الولايات المتحدة منذ استقلالها ٥٠٪ من أراضي البص فيها (Wetlands) ، وهي تفقد نصف مليون فدان من هذه الأراضي سنويا . فمن أجل الزراعة ، وبقصد الاستصلاح الزراعي أقبل المستعمرون الأوائل على التحطيب ، وقطع أشجار الأرز التي كانت منتشرة قبل مجيئهم من أوربا إلى العالم الجديد .

وهكذا فقدت المستنقعات والأراضي المبتلة مزاياها ، فغطاها البوص الذي يبلغ في ارتفاعه أحيانا ١٥ قدما . وأدى ذلك إلى تشريد الأحياء البرية لا سيما البط البري .



وجاءت سنة ١٩٨٥ وإذا بإحدى شركات الترميم البيئي تباشر أعمال العودة بعقارب الساعة إلى الوراء ، وذلك في « نيوجرسي » على وجه التحديد ، وباشراف أحد علماء الكيمياء المختصين واسمه « جاربش » (Garbisch) ، فمضت في حفر الأقنية لضمان وصول المياه العذبة إلى المنطقة ، وقد حرمتها منها سدود حيوان القدس ، ولضمان وصول ماء المحيط المالح ، مرة بين الحين والحين أثناء المد ، ومضت أيضا في إقامة المرتفعات التي تتطلبها أعشاش البط البري ، ثم مضت في زراعة حشيش المستنقعات (سبارتينا) على نطاق واسع ، والأعشاب المعروفة باسم (Pickerelweed) وكذلك بطاطس البط ، ونجحت الشركة حتى الآن في إعادة تكوين حوالي ٢٠٠ مستنقع ، وفي إعادة البط والعصافير إلى مواطنها في المنطقة .

ويمكن القول بأن الشركة قد أنجزت حتى نهاية ١٩٨٨ حوالي ٥٠٪ من أعمال الترميم التي التزمت بها مقابل ٤ ملايين دولار .

الغابات الاستوائية : مازالت الغابات الاستوائية في العالم الجديد ماضية في التحول إلى مراع أو سافانا ، أو تربة تالفة ، بسبب التعرية ، ويصدق هذا ـ بخاصة ـ على المناطق الشمالية الغربية في كوستاريكا ، حيث باشرت إحدى شركات الترميم أعمال إعادة الغابات وكائناتها البرية إلى ما كانت عليه ، ويتولى الاشراف على هذه الأعمال العالم جانزن Janzen عالم البيولوجيا من جامعة بنسلفانيا ، وهو يقول إن أعماله الطموحة تلك : « ستحقق في غضون مائة عام ما قد لا تستطيع الطبيعة تحقيقه في ٥٠٠ عام » .

■■□□

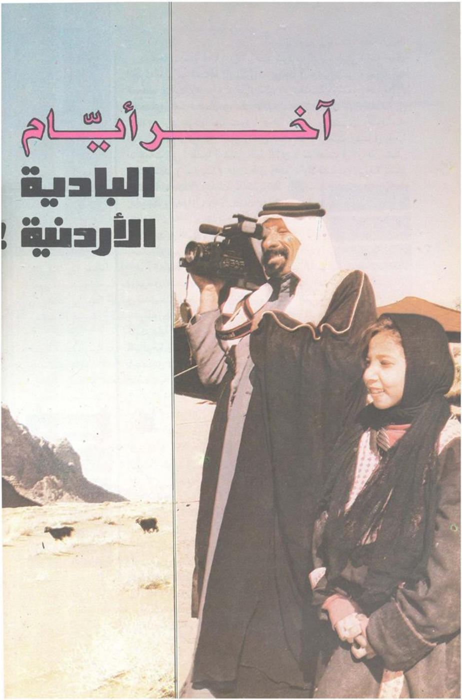
علاج لسرطانات المعدة في الثوم والبصل

مازال الثوم والبصل يحظيان باهتمام الأطباء والعلماء في كل مكان . فقد نشرت مجلة المعهد الوطني للسرطان في الصين دراسة شملت ١٧٠٠ رجل صيني ، وأجريت الدراسة بقصد الكشف عن مخاطر سرطان المعدة في منطقة « ساندونج » حيث نسبة الوفيات ـ بسبب سرطان المعدة - مرتفعة .

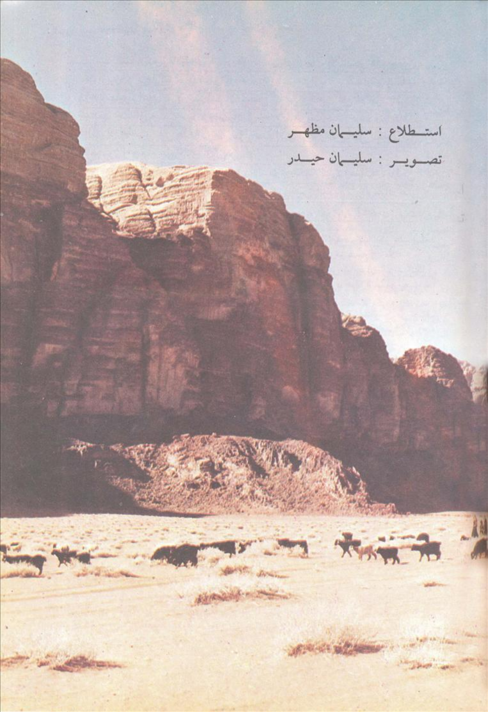
أما النتيجة التي تمخضت عنها الدراسة فهي أن تناول الثوم والبصل يتناسب تناسباً عكسياً والإصابة بسرطان المعدة ، ناهيك بالموت بسبب هذا الورم الخبيث .

وتجدر الإشارة إلى أن ممثلين عن معهد السرطان الوطني الأمريكي قد انتشروا في مراكز السرطان في « بكين » وغيرها من مدن الصين . وأجروا مقابلات واستجوابات مع ٦٨٥ مريضاً من المصابين بسرطان المعدة ، و ١١٣١ رجلاً معافى من تلك الأورام ، وثبت لهم أن الذين يتناولون المزيد من الثوم والبصل في منأى عن الإصابة بسرطان المعدة ، فهم أقلّ عرضة للإصابة بنسبة لا تقل عن ٤٠٪ . □

آخر أيّام البادية الأردنية !



استطلاع : سليمان مظهر
تصوير : سليمان حيدر



عندما تزور بادية الأردن ، فما من سبيل أمامك إلا السير على خطين متوازيين . فالتاريخ بأحداثه وآثاره ومعالمه يسير متوازيا مع البداوة بإنسانها وخيامها ومراعيها ، لا تستطيع أن تفصل أيا من الخطين عن الآخر . فهما يمتدان جنبا الى جنب حينا ، ويلتقيان في اختلاط غريب حينا اخر ، منذ عاش البدوي الأصيل على هذه الأرض قبل خمسة آلاف سنة . واستقبل العديد من العصور والحكام على مدى التاريخ .

التاريخ يتغير وتتوالى أحداثه ، وتتدرج معها آثاره ومعالمه ، ولكن الأرض تظل هي نفس الأرض ، والبادية هي نفس البادية ، والانسان هو نفس الانسان .

حين يكون هدفنا هو استطلاع ما يجري في بادية الأردن ، وما يشهده إنسانها من تحولات ، فإن علينا أول الأمر أن نتعرف على تلك الأرض ، التي يعرفها الناس باسم البادية . فهذا الاقليم الصحراوي الذي يشكل امتدادا للصحراء العربية ، يشتمل على أكثر من ثلثي مساحة الأردن . ويضم صحراء مرصعة بالأحجار السوداء في أجزائه الشمالية والشمالية الشرقية ، تمثل الامتداد الواسع للحمم البركانية والبازلت من جبل الدروز في سوريا ، مع جبال وتلال في الأجزاء الجنوبية ، تنتشر فيها الصخور الرملية والجرانيت ، وكل ذلك يشرف على مساحات سهلية منبسطة تتخللها أودية تصب جميعا في الداخل ، حيث منخفضات واسعة تطل عليها تلال ترتفع قليلا عما يجاورها .

في هذا الاقليم الصحراوي نخترق أنحاء البادية الأردنية في الشمال والوسط والجنوب ، لنتعرف على الأرض ، والانسان ، والتاريخ .

« الفيديو » في بيت الشعر

وقف الرجل حاملا كاميرا الفيديو ، وراح يسلط عدستها في ثبات على أعضاء بعثة التليفزيون اليابانية ، الذين افترشوا الطنافس القطنية واستندوا على جدران البيت الحجرية ، وهم يحتسون الشاي المخلوط بالميرامية والزهورات البرية ، بينما كان مصور البعثة يقوم بالتقاط صور مزرعة الزيتون والتين والفاكهة الممتدة على مساحة خضراء لا يكاد يشملها البصر . وعاد المصور ، ووقف يحملق في ذهول الى البدوي الشيخ ، ثم انقض عليه ليأخذ الكاميرا من بين يديه وهو يصيح في زملائه :

- أهكذا تحافظون على كاميراتي التي تركتها في عهدتكم ، وتدعون هذا البدوي يعبث بها فيفسدها ؟ .

ومع حيرة رجال البعثة المذهولين من تصرف زميلهم ، سلط الشيخ عدسة الكاميرا على وجه المصور الياباني وهو يقول في بساطة :

- لا تنزعج ، إنها آلة تصويري ، والصور التي التقطتها لكم بهذه الكاميرا الحديثة ستكون أفضل من كل ما صورته أنت بكاميراتك . . !

وتلعثم المصور بعد أن سقطت عيناه على أجهزته فوجدها كاملة كما تركها ، ولم يجد أمامه إلا أن يعتذر للشيخ وهو يقول :

- لم أتصور قط أن البدو قد تطوروا إلى هذا الحد ، فاعذرني يا شيخ جليل على جهلي !

بالكاميرا التليفزيونية نفسها راح شيخ العشيرة البدوي جليل الزوايدة يصورنا نحن أعضاء بعثة « العربي » وحولنا عدد من أحفاده وأبنائه الثلاثين الذين أنجبهم من زوجاته الثلاث . وأخذ ينقل العدسة بيننا وبين أشجار مزرعته « بالديسي » غير بعيد من سيارته المرسيدس وعربة « البيك آب » المليئة بأكياس حصاد الزيتون المعد للنقل الى المعصرة . !

ولمحنا الشيخ ونحن ننقل بصرنا من بيته الحجري المستلقي وسط الأشجار الخضراء ، والذي لا يختلف كثيرا عن أي فيلا عصرية ، الى « بيت الشعر »

الأسود الذي أقيم غير بعيد عن المزرعة ، وابتسم الشيخ في بساطة وهو يقول :

- إننا لا نهجر ماضينا وعاداتنا وتقاليدنا ، وإذا كنا قد أصبحنا نقيم في بيوت مبنية من الحجر ، إلا أننا لا نستغني عن بيت الشعر ، فهو رباطنا بماضينا وهو سوئلنا ومقامنا كلما ضقنا بهذه البيوت الحجرية الخانقة .

ويأخذ الرجل بأيدينا الى بيت الشعر ونحن نتابع وصفه له وكأنه يتغزل فيه وهو يتحسس جوانبه . البيت منسوج من شعر الماعز الأسود الذي يتم نسجه محليا في شقاق ، كل شقة أو قطعة منها بعرض حوالي نصف متر ، وتقوم النساء بخياطة هذه الشقاق بعضها إلى بعض لتشكل بيتا طويلا متوازي الأضلاع .

وعند نصبه يتم فرشه على الأرض أولا ، ثم تدق الأوتاد وتمد الحبال من حوله ، ثم تولج الأعمدة على طول خط المتن مما ينتج عنه خط طولي ضيق من الظلة فوق الرءوس . وتغلق المقدمة والمؤخرة بستائر من النسيج ذاته حيث تتدلى حول البيت تماما من السقوف العليا الى الأرض . ويتم تقسيم داخل البيت إلى قطاعات بقواطع في الوسط بحيث يكون ثلث البيت تقريبا « محرما » للنساء . بينما يخصص الباقي للضيوف فيما يسمى بالمضيف . وصدر البيت مفتوح أو مرفوعة ستائره لمواجهة النسيم البارد . وفي الشتاء ينصب بيت الشعر في انحناءة واد ضيق محمي بالتلال من جميع الجهات ، محاط بالأشجار والجذوع اليابسة التي تزود البدوي بحطب النار . وفي المدن والقرى التي تحضرت وتقيم عشائرها في بيوت الحجر أو الطوب الترابي ، مايزال البدو يحتفظون ببيوت الشعر للإقامة فيها في فصل الربيع ، عندما تتوافر المراعي على مسافة بعيدة من القرية أو المدينة . فيأخذ بعض أفراد العائلة مواشيهم ويخيمون مع أغنامهم لمدة شهر أو يزيد .

البادية أحيلت إلى التقاعد

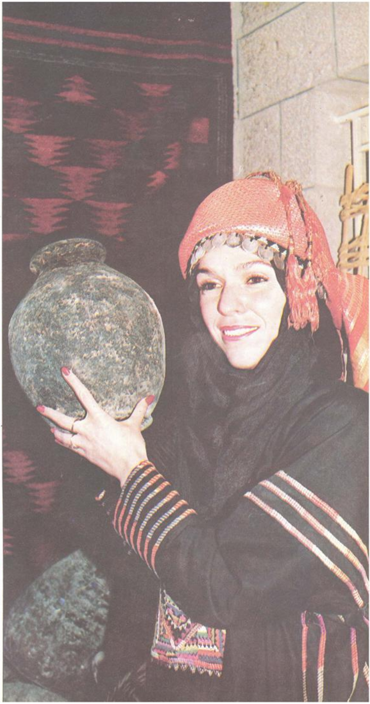
كان المعروف أن بيت الشعر هو أحد أربعة أركان للبداوة ، هي الصحراء ، والبدوي ، والقطعان ، وبيت الشعر . وكانت متابعة هذه الأركان الأربعة هي ما نستهدفه ونحن ننطلق لاجتياز بادية الأردن ،



● خريطة المملكة الأردنية الهاشمية باقليمها الصحراوي الذي يمثل البادية .

ولكن الصورة التي شهدناها كانت تستبعد هذا التعريف للبداوة بعد أن أصبح التطوير والتخضير والتوطين والتحديث هي السمات الغالبة . فمنذ منتصف الخمسينيات وبداية الستينيات أخذت البداوة بصورتها التقليدية تتلاشى ، ونكاد نقول إنها بدأت مرحلة الإحالة إلى التقاعد . حول هذا المعنى قال لنا الدكتور أحمد عويدي العبادي الذي تخصص في دراسة البادية ، وأبى إلا أن يرافقنا في جولتنا : لقد تغيرت نظرية تعريف البداوة ، وأصبحت الآن تقوم على مثلث من ثلاثة أضلاع ، الضلع الأول هو الروحية وأعني بها الشعور الذاتي للانسان البدوي ، والضلع الثاني هو البيئة الطبيعية المحيطة به بكل ثوابتها ومتغيراتها ، والضلع الثالث هو نمط حياته اليومية الأكثر تغيرا وترددا بحيث إن الكثير من العادات القديمة تلاشت وانتهت واندثرت بسبب عدم الحاجة اليها . وبرزت معطيات جديدة في الحياة الاجتماعية وفي الحياة اليومية استدعتها ظروف الحياة الجديدة ، واستدعت قيام عادات جديدة . وكانت القفزة الرئيسية ترتبط بمطالع عام ١٩٧١ ، فقد كان الأردن في ذلك الوقت يمر بطفرة اقتصادية ارتفع فيها المنحنى البياني لدرجة لا يتصورها العقل ، واستمر

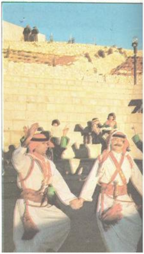






● أربعة مشاهد لحياة البادية . بيت الحجر حل محل «بيت الشعر» وارتفع فوقه السخان الشمسي وهوائي التلفاز ، ورافقت السيارة الناقة والعنزة والدجاجة ، ومع ذلك فان البدوية لا تنسى صناعاتها اليدوية وملابسها التقليدية (الى اليمين) . والفتيات يتمسكن بممارسة الفن الشعبي والرقص والغناء مع شباب البادية (الى أسفل) .





ذلك حتى عام ١٩٨٥ حيث ثبت الخط البياني ، ثم بدأ يتراجع بعد ذلك العام بما يسمى العودة الى الظروف الطبيعية الجديدة التي تغيرت معها العادات القديمة .

فقد تلاشى ركوب الجمل لقطع المسافات أو للانتقال من مكان إلى آخر ، وأصبحت السيارة الخاصة أو « البيك آب » هي الوسيلة ، السيارة استلزمت ظروفا جديدة ، فالإبل كانت تحتاج للعلف والمرعى بينها السيارة تستلزم وجود البنزين وقطع الغيار والزيوت والطرق المعبدة ومحطات الوقود ، كما أن وجود السيارة سهل أن يكون هناك مذياع مما يتيح الاتصال بالعالم الخارجي . إذن نمط الحياة تغير ، فالبدوي الذي كان يستخدم المرسال لابلاغ الخبر أصبح يستخدم الهاتف ، والذي كان يمتلك قطيعا من الماشية أصبح يستهدف أن يحصل ابنه على شهادة علمية عالية . وأنا أضرب بذلك مثلا بسيطا جدا ، فأنا بدوي ، رعيت في بداية عمري الغنم والابل وأنا حافي القدمين ، وكنت أقيم بشكل دائم مع أهلي وأبناء عشيرتي « الحوارث من بني عباد » في بيوت الشعر ، بكل ما يستلزمه هذا النمط من الحياة . الآن معي دكتوراه من كمبردج ببريطانيا وأقوم بالتدريس في الجامعة بدرجة استاذ ولي ٣٦ مؤلفا ، وأخي رائد جراحة النخاع العظمي في الأردن ، وقد أجرى حوالي ١٥ عملية جراحية عالمية . وبقية إخوتي مهندسون وأطباء كانوا من قبل يعيشون حياة البداوة ، في وادي السير .

كانت هذه هي نقطة الانطلاق التي أردنا أن تكون بداية جولتنا ، ففي وادي السير ـ حيث منطقة إقامة أبناء قاسم العويدي أحد أفخاذ عشيرة بني عباد ـ توجد دار مرافقنا ، وهي مناسبة لنشهد التحول الذي يحدثنا عنه على الطبيعة .

حوار في وادي السير

انطلقت بنا السيارة من عمان في طريقنا إلى وادي السير . . على طول الطريق الذي ترتفع على يمينه التلال العالية ، وتهبط على يساره الوديان ، كنا نشاهد غابات خضراءمن أشجار الزيتون حلت كلها محل أشجار البطم والبلوط التي تم اقتلاعها لاستصلاح الأرض وتحويلها الى مزارع للخضراوات والفواكه ، بعد أن انتقلت عشائر البدو الرحّل الى الزراعة بدلا من الرعي ، وصاروا مزارعين مستقرين ، وعملوا في مهنة الفلاحة التي كانوا يحتقرونها من قبل ، ويتأففون من ممارستها . ولعل مازاد اقتناعهم بهذا التحول خصوبة التربة مع توافر الأمطار والآبار ، بالاضافة إلى قربهم من المدينة التي تؤمن لهم بيع منتجاتهم وشراء حاجاتهم .

تحت خيمة من خيام الشعر المتناثرة على أطراف وادي السير ، والمطلة على المزارع الخضراء بعيدا عن البيوت الحجرية ، جمعنا لقاء مع مجموعة من شيوخ وشباب عشائر بن عباد . ودار الحديث وتلاحمت الآراء وتوالت المعلومات . . .

قال الشيخ : المجتمع الأردني الأصلي هو مجتمع العشيرة التي كانت في مرحلة من المراحل مرحلة بداوة بدائية ، قضية البداوة الآن تكاد تكون قد انتهت ، ونحن نعيش حياة تحضر كاملة .

هز الدكتور أحمد رأسه وقال : إن أكبر دليل على ذلك أنكم شاهدتم بأنفسكم ذلك البدوي الذي يعيش بجانب بيت الشعر ، وعنده الناقة والعنزة ، ومع ذلك فإن عنده (موتور) الكهرباء (وموتور) المياه ، وعنده أيضا كاميرا الفيديو ، وبالتالي فعنده القدرة على الجمع ما بين العصرية المتطورة وبين التقليدية المتناهية . فالانسان البدوي لديه قدرة المزج ليجمع بين الجانبين .

قال أحد الشباب : نحن نتوجه الآن نحو شيئين مهمين : الأول هو تحسين الذات ، بمعنى الاتجاه إلى الدراسة والعلم وتحسين الوضع المادي ، من خلال الوظيفة ، ومن خلال المساعدات الحكومية ، ومن خلال العمل . والشيء الثاني هو التجذير في الأرض ، فصاحب الأرض أصبح يستغلها ويحفر فيها البئر ويمد لها القناة ، وهو يقوم بزراعتها لأن الزراعة ـ وبخاصة تلك الشجيرات التي تراها حولنا مثل العنب والتين ـ مجدية ومربحة جدا .

قال فتى آخر : هناك نقطة مهمة جدا في حياة ابن العشيرة وهي الغيرة ، فالناس تغار من بعضها البعض ، من ينفذ مشروعا يجد أن عشرين أو ثلاثين يقلدونه ، ثم يقلدهم مائتان وثلاثمائة ، ثم ألفان وثلاثة آلاف وهكذا دواليك . فأنت تجد البيوت الخضراء قائمة في الصحراء مثلما هي في الغور . لقد

أصبحت الحياة هكذا في متناول أيدي البدو كلهم .

قال الشيخ : الحقيقة أن كلمة البداوة قد اختفت منذ بداية الثمانينيات ، معنى البداوة لم يعد موجودا لا في البيئة ولا في المجتمع . إنما هناك مع ذلك التركيبة العشائرية وهي التركيبة السائدة . انظروا أمامكم الى هذه السهول تروا مئات البيوت الحجرية ، ولا يظهر بينها سوى بيوت شعر قليلة متباعدة ، قبل عشرين أو ثلاثين سنة كان في هذا المكان عشرون أو ثلاثون بيتا من بيوت الشعر ، الآن كما ترون ليس فيه سوى هذا البيت الذي نجلس فيه .

من يكره الحلال

واصلت السيارة الصعود بنا من وادي السير الى عراق الأمير في الطريق الى السويسة . البيوت الحجرية المتناثرة يعلو كلا منها سخان شمسي الى جانب هوائي التلفاز وموتور الكهرباء . بينها في المزرعة حول كل بيت تمتد الصوبات حيث الزراعة المغطاة للخضر والفواكه . مشهد الوادي الأخضر صورة رائعة من الجمال ، بينما تطل على الجوانب الجبال والوديان تعلو بعضها أبنية حجرية أكثرها قصور يقضي فيها أصحابها فترات الصيف حيث أجمل البقاع في الأردن مناخا ونسيما . وكان من النادر أن ترى بيتا لا توجد أمامه سيارة أجرة أو خاصة أو نصف نقل . أبدا لم تعد هذه هي صورة البادية التي نعرفها . لقد أحيلت البداوة بالفعل الى التقاعد ..!

بقرب مزار « بلال بن رباح » الذي يقال إنه مات ودفن في السويسة ، التقينا ببدوي عجوز كان قد انتهى من الزيارة وقراءة الفاتحة ، ثم وقف يتأمل الوادي أسفل المزارع في حسرة ، أردنا أن نبدأ معه الحديث فقلنا له :

ـ الخضرة على سفوح التلال رائعة والأعشاب تنمو بشكل كثير كبير

قال وهو يتأفف : وما فائدة هذا العشب إذا لم توجد مواش ترعاه ؟

قلت : وهل تحب الماشية ؟

قال : إنها الحلال .. ومن يكره الحلال ؟

قال له مرافقنا : وهل رعيت في حياتك أو اقتنيت الأنعام ؟

قال : نعم .. كلاهما

وسألناه : وكيف ؟

قال : كان عندي مائتا رأس من الغنم وسبعون نعجة ، إلاأن زواج الأولاد وذهابهم للوظيفة بعد إكمال دراستهم وتقدم السن بي قد قلل من « الوالي » ؟

نظرت الى مرافقنا متسائلا : هل كان هنا ولاة ؟

قال : الوالي هو من يرعى شئون القطيع . ولعدم وجود من يقومون بهذه الرعاية بعد أن تركه الأبناء الى المدينة اضطر الى بيعها .

ونظر إلينا البدوي الشيخ وهو يقول : أحلف لكم برأس بلال الذي خرجت من مزاره الآن ، أنني أتحسر كلما رأيت مرعى جيدا وأتمنى على الله أن يتحول الى صوف وزبدة ولبن ..!

نساء بني حميدة

الصورة التي شاهدناعليهاوادي السير والسويسة كانت مخالفة تماما لما شاهدنا في منطقة عشائر بني حميدة .

كان الدكتور هاني الخصاونة وزير الإعلام حين استقبلنا بحفاوته قد أشار علينا بخط السير لزيارة معالم البادية وقال :

ـ صحيح أنكم ستشاهدون على الطبيعة جوانب متطورة من معالم البادية ، وستلمسون بأنفسكم مدى النقلة الحضارية والتحديثية في حياة البدو . ولكني مع هذا أوصيكم بألا تضيعوا فرصة زيارة مشروع بني حميدة للصناعات التقليدية في مكاور . فهناك ستشهدون صورة رائعة للعمل الاجتماعي .

وهكذا كان . اتجهنا أولا الى جبل اللويبدة حيث مؤسسة إنقاذ الطفل التي تتولى إدارة التجربة وتشرف عليها الملكة نور الحسين .

في البداية نتعرف على مشروع بني حميدة من الآنسة غادة حبش :

المنطقة التي ينفذ فيها المشروع ، تقع في مكاور حيث مجموعة من أفخاذ عشائر بني حميدة هم العقايدة والشورة . فقبل حوالي عشر سنوات استقرت ٤٠٠ عائلة من بدو هذه العشيرة مع قطعانهم على سفوح جبل مكاور . وعلى الرغم من أنهم نصبوا بيوت





● نساء بني حميدة صورة نموذجية للعمل الاجتماعي التعاوني ، وحين تتحدث «أم خلف» الى مندوب العربي فإنها تؤكد وهي تغزل الصوف وتنسج البسط أن العائد المادي الذي يتيح زيادة الدخل لأسرتها ليس وحده ما يهمها . . فهناك ربح أهم وهو المحافظة على التراث البدوي التقليدي حتى لا يضيع مع الزمن .



الشعر على السفوح إلا أنهم لم يستخدموها إلا في فترات الصيف أثناء رعي الأغنام ، بينما بنوا مساكن بسيطة لإقامتهم الدائمة من الأسمنت والحجر ، وبدأوا يرسلون أبناءهم الى المدارس الحكومية القريبة . ولكن تحولهم من حياة الترحل إلى التحضر لم يكن سهلا ، فشح الأمطار وقسوة الأرض لم تشجعهم على الزراعة ، واضطر رجال العشيرة الى القيام بأعمال يدوية ضئيلة ، أو المغادرة إلى مناطق أخرى يجدون فيها عملا ، تاركين نساءهم وأبناءهم أياما وشهورا . وكان على النساء القيام برعاية شئون أنفسهن وأبنائهن خلال فترات الغيبة الطويلة للرجال .

وفي سبتمبر من عام ١٩٨٥ زارت المنطقة لجنة من المؤسسة التعاونية لإنقاذ الطفل التي تساهم فيها اليونيسيف ، وشاهدت مقدار معاناة هذه الأسر البدوية التي تقضي أيامها في شظف من العيش . وكانت الوسيلة الوحيدة لإنقاذها هي إمدادها بدخل معقول لمواصلة تحمل أعباء الحياة . وهكذا تم تنفيذ مشروع لتشغيل الأمهات في الصناعات التقليدية التي تتيح لهن دخلا يقيم أودهن ويسهل لهن رعاية أطفالهن .

تقول السيدة (ربيكا سالتي) مديرة المؤسسة : سألنا أنفسنا كيف نستطيع مساعدة هؤلاء الأمهات ؟ وشاهدنا أمامنا مشهدين : الصوف الذي يغطي ماشيتهن ، والبسط التي تغطي أراضي بيوتهن . حينئذ وجدنا الاجابة .

فالنساء البدويات يستطعن غزل الصوف . وقد عودتهن حياة البداوة على نسج بيوت الشعر وجوانب الخيام ، وأسرجة الخيول ، والحقائب والطنافس والبسط والأشغال اليدوية التقليدية . وما ينقصهن هو تزويدهن بأصواف ملونة ، وتقديم الإمكانات التي تتيح لهن الإنتاج وبيع هذه المنتجات .

هكذا كان مولد المشروع الذي ذهبنا لمشاهدة أروع مظاهر نجاحه عندما قمنا بزيارة أمهات بني حميدة في قراهن الإحدى عشرة المتناثرة على سفوح جبل مكاور . .

صحبتنا السيارة الجيب الخاصة بالمؤسسة ، يقودها المشرف التنفيذي على المشروع هايل الحنيطي ، ومعه المشرفة على التصنيع نهى منصور ، ومعهما بعض احتياجات التشغيل ورسوم التصاميم الجديدة المطلوبة للتنفيذ .

مكاور ورأس المعمدان

الطريق إلى مكاور ومشاهد البادية على امتدادات الوديان والسفوح والجبال تستحق التسجيل ، في البداية سرنا على سفح جبلي فوق طريق متعرج وسط الوادي المزروع بالقمح تارة والزيتون تارة أخرى ، حتى وصلنا إلى تلة عالية فيها خزان ماء بجوار خرائب أثرية هي بقايا « الدير » يسكنها بدو من أفخاذ الربطة والفقهاء من الحمايدة ، يعيشون على الزراعة التي تتيحها لهم مياه الخزان . وتدل المؤشرات على سفوح التل الأثري القديم أنها كانت أرضا عامرة بالكروم والسكان ، كما تعج التلة بالكهوف والآبار التي ماتزال قادرة على الاحتفاظ بالماء حتى الآن . وتوجد دور قديمة من الطين والحجر تستخدم الآن للتخزين .

ونصل إلى جبل مكاور في النهاية . الجبل بارتفاع ٧٣٠ مترا عن سطح البحر ، و١٢٢٥ مترا عن سطح البحر الميت المطل عليه ، ونقف لنطل أمامنا إلى القلعة التي تشرف من الجانب الآخر على الغور وعلى جبال جنوب فلسطين والقدس .

يقول مرافقنا وهو يشير الى قمة الجبل : إن الاعتقاد السائد هو أنه في هذه القلعة حدثت مأساة قطع رأس النبي يحيى « يوحنا المعمدان » بعد أن سجنه هيرودس ، ولذلك تسمى « المشنقة » . ويقال لنا : إن من الصعب الوصول الآن إلى الجبل لوعورة الطريق إليه . ولكن الحفريات الأثرية أكدت وجود القلعة عليه حيث اكتشفت آثار قديمة وأسوار وبنايات ، وقد كان يحيط بالجبل عدد من الكهوف التي كان بنوحميدة يسكنونها في الشتاء ويستخدمونها لإيواء الحيوانات . .

حديث أم خلف

ونغادر المكان لنواصل سيرنا إلى قرى بني حميدة ونلتقي بنسائها ونشاهدهن أثناء قيامهن بالعمل . .

قالت لنا « أم خلف » وهي تجلس منذ مدة ساقيها أمام النول اليدوي وتنسج بساطا طويلا بديع الألوان : شاركت في المشروع منذ بدايته . فقد دعت مديرة

المؤسسة عددا من نساء بني حميدة ممن يجدن الغزل والنسج، وأبدين استعدادا للعمل. وكانت هذه هي أول مرة في حياتنا نحضر مثل هذا الاجتماع لمناقشة إمكانية مشاركتنا مع غرباء في الغزل والنسج. كنا حذرات وغير مقتنعات بالعمل الذي يمكن أن يشغلنا عن رعاية أبنائنا. ولكن المديرة قالت لنا بعد أن بدأت وعدد من زميلاتي نستجيب للفكرة: نحن كلنا أمهات وكلنا نريد أن نهتم بأطفالنا، فالعمل لن يتم خارج بيوتكن، ونستطيع أن نجلب إليكن الأجهزة والأدوات اللازمة الى البيوت، فتنجزن العمل وتقمن في الوقت نفسه برعاية أبنائكن وأفراد أسركن.

تواصل أم خلف قائلة: اقتنعت بالفكرة وعرضت أن أضع نفسي تحت التجربة، فقد كانت لي خبرة جيدة في غزل ونسج حاجاتنا في بيت الشعر. وتبعتني خمس نساء أخريات، وأمدتنا المؤسسة بالأنوال وبدأنا نعمل داخل بيوتنا. وخرجت من بين أيدينا أعمال تقليدية كثيرة كانوا يشترونها منا بالثمن على الرغم من أنهم يحضرون لنا الخيوط الصوفية ويصبغونها، ويمدوننا بالرسوم والتصاميم ولا نتكلف أي عبء إلا العمل وحده. وأنا أحصل كل شهر على ما يتراوح بين ستين وثمانين دينارا حسب الكمية التي أنجزها وأسلمها للمشرف التنفيذي والمستشارة الفنية التي توجهنا وتساعدنا باستمرار.

في بيت آخر وجدنا أسرة بكاملها تشارك في العمل. الأم تسلمت بكرات الغزل الملونة التي جلبتها المشرفة وبدأت تعد مغزلها. ابنتها الكبرى كانت تجلس على النول وتنهي نسج سرج ملون وإلى جانبها بعض طنافس لنسجها وحياكتها لتسليمها الى المشرفة لتحصيل قيمتها. الأخت أمامها وعاءان فوق النار تسقط فيهما كرات غزل بيضاء تسلمتها لصباغتها، فهي إحدى أربع فتيات يتولين صباغة الصوف بالألوان. الابنة الصغرى لجأت إلى ركن مطل على التلة تستذكر دروسها استعدادا للامتحان بينما إخوتها الصغار يتقافزون ويلعبون دون أن يعطلوا أحدا أو يشغلوه عما يؤديه من عمل.

قالت لنا المشرفة نهى منصور: مراحل العمل تبدأ منذ شراء الصوف الخام محليا، ثم نعطيه للنساء هنا فيقمن بغزله ثم تبدأ عملية الصباغة. وحسب التصميم الذي نكون قد جهزناه نحضر كمية الصوف اللازمة للمفرش أو البساط ونضعها في أكياس، كل كيس منها لاحدى نساء الأسر اللاتي يقمن بالنسج. ونعطي الإنتاج عندما نتسلمه منهن أرقاما ونرسله الى المؤسسة التي يقدر المتخصصون فيها قيمة كل قطعة. أما البيع فتتولاه المؤسسة وخاصة بعد أن أصبح الإنتاج متميزا، وبدأ السائحون والزوار وأعضاء السفارات الأجنبية يشترون القطع التي تعبر عن الفنون الشعبية والصناعات التقليدية الأردنية.

وأضاف هايل الخنيطي: الانتاج الذي تقدمه نساء البادية في بني حميدة يعبر عن التراث الشعبي والتقاليد البدوية الأصيلة، تنقل من الماضي الى الحاضر للاحتفاظ بهذا التراث حتى لا يضيع مع الزمن. بالاضافة إلى إتاحة الفرصة للنشاط الاجتماعي وزيادة الدخل الأسري الذي يعين البدوية على العمل والانشغال به، كما يتيح لها فرصة الحصول على عائد مادي يزيد دخل الأسرة. هذا الانتاج التراثي يباع محليا في مدن الأردن كما يسوق في الخارج. العمل يجري في القرى تحت إشراف إحدى الفتيات المتعلمات من نفس العشيرة، تقوم بتدريبهن وتعليمهن الرسوم والمخططات المطلوبة ويتولين بعد ذلك تدريب النساء، ومتابعة العمل.

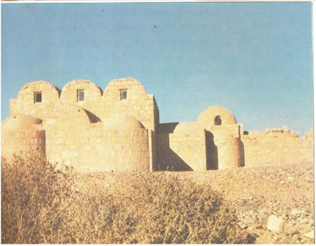
إن عدد النساء العاملات المشاركات في مشروع بني حميدة يبلغ ٣٧٥ امرأة بالاضافة إلى ١٧ مشرفة وعاملة في التحضير والإعداد والأعمال المكتبية، وكلهن من نفس العشيرة ومن بنات نفس النساء..

حمامات ماعين

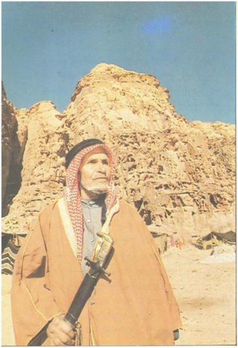
وننطلق عائدين من بني حميدة لنمر في طريق عودتنا بإحدى معالم البادية الأردنية المثيرة.. حمامات ماعين..

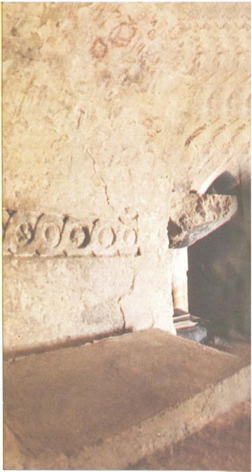
فمن قمة جبل بازلتي على مسافة سبعة وثلاثين كيلومترا من مأدبا، تنحدر شلالات من المياه المعدنية الكبريتية الحارة تصل سخونتها من ٥٥ الى ٦٠ درجة مئوية. هذه المياه استقطبت الباحثين عن الاستجمام والمنتجعين منذ أكثر من ألفي سنة عندما كان الملك هيرودس الأدومي يطلب الشفاء في حمامات زرقاء ماعين وينابيعها المعدنية الحارة.



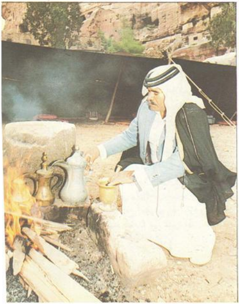


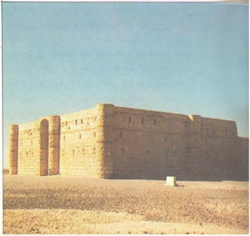
● الفجوة .. في داخل مغارة أصحاب الكهف، حيث قضوا ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا. وعلى الجانبين حفرت في الصخر قبورهم التي دفنوا فيها قبل إغلاق الكهف عليهم «الصورة العليا» أما الى اليسار فيبدو قصران من القصور الأموية الصحراوية، قصير عمرة، ثم قصر الخرانة.





● الشيخ عتيق بوربعين من عشيرة الزلابية ، يأبى إلا أن يواصل العيش بأسلوب البدوي متنقلا في صحراء وادي رم (أعلى) . وشيخ عشيرة البدول سلامة الفقير أمام بيت شعره في البتراء (أسفل) .





وكانت الشلالات تتساقط من أنحاء كثيرة ، ويبدو أن أغلبها ناله الجفاف إذ لم يبق منها إلا شلالان يتساقط الماء منها بغزارة ، ويتمدد المستحمون تحت مصب الشلال الرئيسي للاستمتاع والاستشفاء بالمياه المعدنية الحارة . أصبحت الحمامات الآن من أشهر المنتجعات المعدنية في الشرق الأوسط ، ويؤمها الناس من الداخل والخارج للراحة والاستجمام . وقد قامت الحكومة بتطوير هذا الموقع السياحي المهم وتزويده بالمرافق والمنشآت حيث أقيم فندق ومجموعة من الشاليهات والمطاعم ، وأمكنة خاصة للاستحمام في مياه الشلالات والينابيع .

قال لنا أحد أبناء البادية المتحضرين التقيناه بعد أن قضى عدة أيام للإستجمام : إن البدو الذين يعيشون قرب هذه الحمامات يأتون إليها مرة كل سنة على الأقل حيث ينصبون خيامهم على مسافة غير بعيدة منها ، كما أن العشائر المقيمة في بيوت الحجر في القرى القريبة منها يأبون أن يدعوا الاستمتاع بها للسائحين فيشاركونهم بالزيارة والاستجمام في مياهها . وهم يسمونها حمامات « سليمان بن داهود » اعتقادا منهم بأن سليمان الحكيم أقام هنا حماماته . وكان البدو قبل سنوات يعتقدون أن الجن تسكن في ينابيع المياه ، وأن بعض الجن المقيمين في منابع المياه « مؤمنون » لذلك قدسوا بعض تلك الينابيع ، واستشفوا بها وكرموها بالذبائح ، وبخاصة مياه زرقاء ماعين ومياه عين زارة التي تبعد عنها بحوالي ٤ كم ويسمونها « عين الحياة » .

حين كنا نطل على مياه البحر الميت في طريق عودتنا من حمامات ماعين ، رحت أقلب صفحات في كتاب « معلمة التراث الأردني » لروكسي بن زايد العزيزي حيث أورد إجابة لأحد طلاب الدراسات العلمية للمعتقدات الشعبية ، حين سئل عن ما هي « عين الحياة » فقال : « في معتقداتنا البدوية الشعبية أن الله خلق بحيرة كانت في مكان البحر الميت ، ماؤها عذب مقطر والغرض منها أن يشرب ماءها كل كائن بلغ الشيخوخة لاستعادة شبابه ، لكن آدم وحواء لما أخطأ حول تلك البحيرة تحولت إلى بحر ميت لا يعيش فيه حي ولا يمكن شرب مائه . ولما تكاثرت جرائم بني آدم أمطرهم الله نارا وكبريتا وأبقى البحيرة المنتنة شاهدا على قدرة الله . ورفع البحيرة الأولى التي فيها « مية الروح » أو « مياه الحياة » الى السماء الأولى . يمر عليها الانسان الصالح بعد موته ويشرب منها فترد له الحياة وينتظر الدينونة . . . ! »

مغارة أهل الكهف

ونترك « مياه الحياة والخلود » لنلتقي بإحدى العبر السماوية لمعنى الحياة والبعث . . أصحاب الكهف .

فعلى مسيرة حوالي ١٣ كم جنوب شرقي عمان ، وعند منطقة « الرجيب » في « خربة السوق » التي تسمى « الجويفر » نصعد الى ربوة مرتفعة عن الطريق العام ، يقوم على جانبها كهف منحوت في الصخر ، على مدخله لوحة كتب عليها « كهف أهل الكهف ، قبور بيزنطية ، وردت قصتهم في القرآن الكريم » . وأمام مدخل المغارة الذي يرتفع ١٩٠ سم نقف عند بقايا شجرة زيتون أحيطت بسياج ، ذكرت في كتاب ابن اسحق الثعالبي .

قال لنا الامين على الكهف الشيخ عبدالله حمد الشوبكي : « هذا المدخل كان عليه قبل ذلك باب من الصخر حين أغلق على أصحاب الكهف بعد موتهم ، وهذه الزيتونة كانت قائمة في زمنهم لما دخلوه وبقيت حتى زماننا . وقد صدرت الأوامر بقطعها بعد أن وجد أن بدو المنطقة يقسمون بها ويقدسونها ويتبركون بملامستها » .

ونحني رءوسنا لندخل من باب الكهف مارين بالعتبة التي تسمى « الوصيد » وكان يرقد عليها « كلبهم » كما جاء في القرآن الكريم . يبلغ عمق الكهف حوالي ثمانية أمتار ، وفي صدره الفجوة التي اتخذها أصحاب الكهف مرقدا لهم حين دخلوه هاربين بإيمانهم من طغيان الملك دقيانوس . في الجدار الخلفي للفجوة عرضت مجموعة من الآثار التي وجدت في الكهف عند اكتشافه ، فيها قطع نقد رومانية وبقايا أوان فخارية وجمجمة كتب تحتها أنها الفك الأعلى لرأس الكلب الذي كان يحرس أصحاب الكهف . الجدران مليئة بالخطوط والنقوش الثمودية واليونانية القديمة والكوفية . في ركن الجدار الأيمن توجد كوة تتجه نحو الجنوب الغربي توصل من قلب الكهف مخترقة الصخر فوقه إلى السماء . على الجانبين من الفجوة في ساحة الكهف نحتت قبور محفورة في

الصخر ، أربعة على اليمين وأربعة على اليسار ، يقول لنا الشيخ الشوبكي إن حفرها تم بأمر الملك البيزنطي الذي بعثوا في عهده ثم ماتوا وكان عددهم سبعة بينهم الراعي الذي كان معهم وثامنهم كلبهم . ولكن قبل أن يغلقوا عليهم الكهف تدارك الملك الأمر حين قال له رجاله إنه لايجوز دفن الكلب مع الصالحين ، لأن الملائكة لاتدخل مكانا فيه كلب ، فتركوا الكلب خارج ساحة الكهف ، ودفن على الوصيد ، أي عتبة الباب .

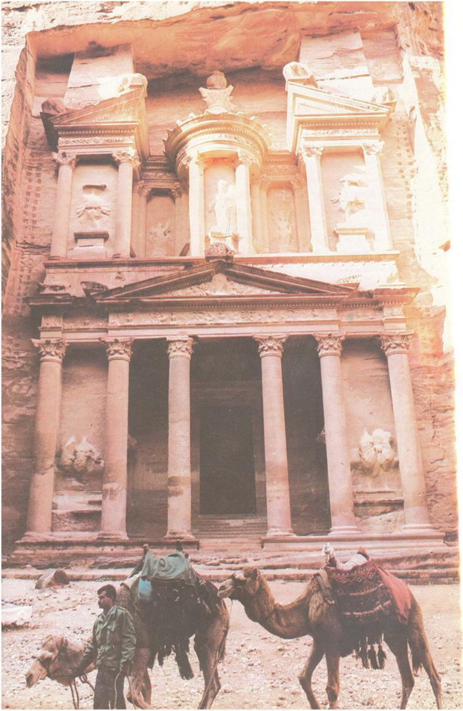
أدلة قرآنية

قال لنا عالم الآثار الذي صحبنا أن اكتشاف الكهف وتحقيق المكان قام به الأثري رفيق وفا الدجاني المساعد الفني لمدير الآثار ، حيث ابتدأ الحفر في ١٠ يونيو ١٩٦٣ وانتهى منه في ٣١ اغسطس في نفس العام . وقد سجل ذلك التاريخ على لوحة ثبتت عند الجدار الأيمن وكتبت تحتها الآية الكريمة « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه » (الكهف) .

وقد كان علينا أن نرجع الى من يمكن أن يفتينا حول انطباق ما جاء في القرآن الكريم على كهف الرجيب . فقال لنا الدكتور عبدالعزيز كامل الذي زار المنطقة مرتين : قرأت عن الكهف قبل الزيارة ، وراجعت ما كتب الزملاء الأردنيون الذين قاموا بالحفر العلمي ، وتولوا مناصب مسئولة في دار الآثار ، كما أعانني الإخوة في وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية والمقدسات الاسلامية على القيام ببعض القياسات والأرصاد العلمية الوثيقة الصلة بتفسير هذه الآية ، والتي تذكر بتفصيل حركة الشمس طلوعا وغروبا وعلاقة أشعتها بالكهف ومن فيه وهم في فجوة منه .

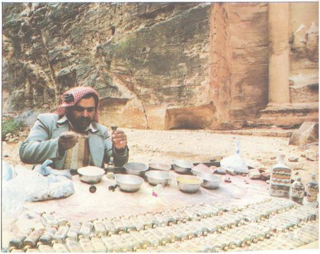
فالكهف في موقع من المناطق الجبلية في الأردن كثيرة الكهوف ، وفي تصوري أن الفتية ـ والله أعلم ـ اختاروا كهفا منه ، وأكثروا من الذهاب اليه وعرفوه واطمأنوا له . هو مكان إيواء ، وهو غير بعيد من المدينة بحيث استطاعوا هم أن يذهبوا إليه راجلين ، واستطاع أحدهم بعد الاستيقاظ أن يذهب راجلا إلى المدينة ليحضر الطعام . وقد درست قبل ذلك عددا من الكهوف التي نسب إليها أهل الكهف ، وأهمها في إفسوس وطورس فاستبعدتها لأنها ذات فتحات لا تتفق في سقوط الشمس عليها مع ما جاء في الآيات الكريمة ، ولكن ذلك ينطبق على كهف الرجيب ، أي الفتحة الجنوبية ، ويقع على خط عرض ٣٢ درجة شمالا تقريبا . وعند زيارة الكهف ورصد الفتحة وجدت أنه لم يكن نحو الجنوب الجغرافي مباشرة وإنما كان نحو الجنوب الغربي . وكان وقت الزيارة في الأصيل وشعاع من الشمس الهادئة يدخل باب الكهف . فإذا كنت في الكهف وطلعت الشمس وكانت الفتحة نحو الجنوب الغربي تزاورت الشمس عن الكهف ذات اليمين وتمر أشعة الشمس بقوتها أمامك تكشف المرائي والآفاق . وحين تتوسط السماء لا تدخل الكهف . ثم عندما تميل الى الغروب تدخل بعض أشعتها في فجوة الكهف . وشمس الأصيل هادئة غير قوية كشمس الصباح . ثم هناك الفتحة أو الكوة الموصلة بين قلب الكهف مخترقة الصخر فوقه إلى السماء ومن فوقها صخرة . ومن الممكن قفل الكوة أو إطلاق الهواء فيها حسب حاجة من بالكهف . هذه الفتحات العمودية معروفة في كثير من الأقطار المعتدلة والمدارية ، والذين استخدموا هذا الكهف أفادوا من الفتحة إن كانت على عهدهم وهذا هو الأقرب ، أو أفاد منها من جاءوا من بعدهم . وأفادوا من الكهف إقامة أو عبادة أو استراحة على طريق الرحلة .

ونعود الى ما قاله مكتشف الكهف رفيق الدجاني في كتابه « اكتشاف كهف أهل الكهف » : كهف الرجيب ذكره المقدسي في أحسن التقاسيم ، وياقوت الحموي في معجم البلدان ، كما ذكره البيروني في كتابه « الآثار الباقية » وغيرهم . وإذا كان المسلمون منذ صدر الاسلام ، هم في شك من مكان أهل الكهف ، فإن حفريات الرجيب ألقت ضوءا مرجحا لهذا الكهف في الأردن على الكهوف الأخرى . وبقايا الكنيسة (أو المسجد) فوق كهف الرجيب تماما كما جاء في القرآن وعلامات الصليب على الحجارة واضحة وكذلك على الحجارة التي كانت تغطي المدفن . وقد ظهرت في الكهف عند الحفر ثمانية مدافن أساسية منحوتة في الصخر ، وهي بيزنطية استدل عليها من الزخرفة التي عليها ومن النقود





● واجهة «خزنة فرعون» في قلب البتراء (الصفحة المقابلة) والجرة في وسط الطابق الثاني كانت هدفا لرصاص البدو الطامعين في الذهب . والى أعلى يجلس البدوي متأملا سفوح الجبل . بينما أحد أبناء بادية البدول منهمك في صناعته التقليدية يملأ الزجاجات الصغيرة بالرمال الملونة مشكلا منها لوحات فنية رائعة يتلهف عليها السائحون .



النحاسية التي عثر عليها أثناء الحفر، ومن قطع الفخار أيضاً. وقد أعيد ترميم الفجوة في عهد الأمويين، وكانت جدرانها من الحجارة فهدمها الأمويون وبنوها بشكل أقواس إسلامية وشكلوا مكان سقوط أشعة الشمس.

وقد ثبت أن المسلمين الأوائل بنوا المسجد فوق جدران الصومعة تماما دون تغيير في المساحة وأضافوا المحراب الى الحائط الجنوبي وهو حائط القبلة. وأقدم تاريخ للمسجد يرجع الى عهد عبدالملك بن مروان.

القصور الصحراوية في البادية

على طول بادية الوسط الممتدة من منطقة زيزيا الى منطقة البويضة في لواء إربد، تحتل عشيرة بني صخر أقوى العشائر الأردنية مساحات واسعة عامرة بالمزارع وبالخضرة والمراعي الشاسعة بإبلها وماشيتها. وهي عشائر تتوزع بين المدينة والقرية والحياة البدوية وشبه البدوية تزاوج بين بيت الشعر وبيوت الحجر المقامة على أحدث أنماط العمران والتقنية. على مشارف هذه المنطقة نجد أنفسنا مع بداية الخط الأثري المتوازي مع البادية. حيث يأخذنا مرافقنا الى القصور والحمامات الصحراوية المنتشرة في ربوع البادية الواقعة الى الشرق من عمان. وتنسب هذه القصور الى الأمويين الذين عملوا على إقامة منشآت لها علاقة بجمع مياه الامطار وخزنها وأبرز ما شهدناه من هذه القصور قصير عمرة بلوحاته الجدارية الملونة وحماماته وكذلك قصر المشتى وقصر الخرانة.

ولاشك أن القصور الصحراوية في البادية الأردنية معالم بارزة على جانب من الأهمية لأنها أكثر الأبنية فخامة وأصالة من العصر الاسلامي المبكر..

قلاع على سيف البادية

الخط المتوازي الذي يسير جنبا الى جنب مع البداوة هو المعالم الأثرية التي تمتد بطول البادية الأردنية من الشمال الى الجنوب وفي الشرق والشمال الشرقي والتي كانت أغلب مغاراتها أماكن إقامة بديلة للبدو الى جانب بيوت الشعر.

الآثار والقلاع كما زرناها توجد على طول ما يسمى بسيف البادية، وهي سلسلة الجبال الشرقية لنهر الأردن بدءا من قلعة الربض في عجلون وقلاع عمان وحصبان ثم ذيبان ثم قلعة الكرك والشوبك ومعان والعقبة. هذه القلاع موغلة في القدم منذ أن كانت الشعوب والأمم والدول تقوم في شرق الاردن. فقبل الميلاد قامت اربع ممالك هي مملكة الأدوميين وعاصمتها بصيرة بجانب الطفيلة، ومملكة المؤابيين وكانت عاصمتها الكرك ثم ذيبان قرب منطقة عشائر بني حميدة، ومملكة العمونيين وعاصمتهم عمان، ومملكة الحشبونيين وعاصمتهم الحصبان، ثم مملكة البيسانيين وعاصمتهم في منطقة شمال الأردن، وفيما بعد جاء الأنباط وجعلوا عاصمتهم البتراء. تعاقبت هذه الأمم على الأردن باعتبارها منطقة ممر ومستقر، وبالتالي نقطة التقاء للمنطقة الصحراوية من الشرق والجنوب والبوابة العسكرية الرئيسية لمنطقة شمال الجزيرة العربية، والبوابة الشرقية للمنطقة الخضراء وهي فلسطين والشام وكذلك مصر. من هنا فإن جميع الدول التي سيطرت على فلسطين حاولت أن يكون لها قلاع في شرق الأردن لكي تحمي نفسها من هجمات البدو، سواء بدو الأردن أنفسهم أو بدو الجزيرة العربية، بما فيهم بدو الخليج العربي وبدو منطقة العراق عندما كانوا يأتون الى هذه المنطقة. ولذلك فإن هذه القلاع الكثيرة في بادية الأردن تشكل خط المواجهة سواء بالنسبة للأمم الخضراء مع الصحراء أو بالنسبة للأمم الصحراء مع الخضراء.

البتراء.. والعرب الأنباط

على ان الأبرز من العواصم والقلاع في بادية الاردن هي البتراء التي كانت عاصمة الانباط، وهم البدو القادمون من شبه الجزيرة العربية، ويبدأ بهم تاريخ البادية العربية الأردنية..

الأنباط كانوا قبيلة كبيرة ذات زعامة قوية جاءت من شمال شبه الجزيرة العربية، وحطت رحالها عند عيون وادي موسى جنوب الأردن كمصدر دائم للماء، علاوة على توافر الكلأ والأشجار في المنطقة، وهو ما تعتمد عليه حياة ماشيتهم الكثيرة، وهكذا أقاموا بالمنطقة حيث طيب الهواء والماء والخيرات في أرض صالحة للزراعة، فتعايشوا مع الأدوميين حتى

تمكنوا بالتدريج من السيطرة على المنطقة ودفع الأدوميين الى جنوب فلسطين ، واتخذوا البتراء كمكان مقدس لدفن موتاهم ، ثم حولوها فيما بعد الى عاصمة لأول مملكة بدوية عربية .

في آثار البتراء « المدينة الوردية »،عاصمة العرب الأنباط القدامى ، كانت لنا وقفة وجولة لا نستطيع أن نتجاهلها ، وبخاصة أنها كانت المستقر الأول للبادية الأردنية التي جئنا لاستطلاعها .

لا نكاد نترك فندق « الفورم » القائم على مدخل المدينة حتى نجد أنفسنا ننحدر تدريجيا نحوالوادي ، لنواجه في طريقنا الى باب المدينة المسمى « بالسيق » بثلاث كتل ضخمة مقطوعة من الصخر يطلق عليها اسم « صخور الجان » قال لنا عنها مرافقنا السياحي نيازي أنها قبور نبطية مبكرة لم يكتمل حفرها ، كما نجد إلى يسارنا ضريح المسلات في أسفله قاعة الاحتفالات الجنائزية . المسلات عددها أربع ذات تأثيرات مصرية واضحة .

وندخل « السيق » وهو مدخل المدينة وطوله ألف ومائتا متر وعرضه في بعض الأماكن لا يزيد عن مترين وارتفاع جدرانه الصخرية يتراوح بين ثمانين ومائة متر . ونظل حولنا في ذهول الى أجمل اللوحات الطبيعية .

فهذا المدخل عبارة عن شق ضيق وعميق بين صخور جبلين شاهقين تتراكب فيه الألوان بين الأبيض والأصفر والأحمر المخملي والبنفسجي ، وفيه آثار قنوات محفورة بالصخر لجلب المياه من عين موسى إلى وسط المدينة .

أرضية السيق رصفت بحجارة ضخمة لا يزال بعضها قائما حتى الآن . قطعنا الطريق سيرا على الاقدام على أرضية كلها من كسر الحجارة التي يصعب السير عليها ، ولهذا يلجأ أغلب السائحين الى قطع المسافة فوق ظهور الخيول . على جانبي السيق محاريب صغيرة حفرت في الصخر تمثل الإله « ذو الشرى » إله العرب الأنباط . وما نكاد نصل نهاية هذا الممر الضيق حتى نقف أمام أجمل مكان أثري في البتراء « خزنة فرعون » !

الخزنة بناء حفر في صخر رملي لونه وردي فاتح ، وهو عبارة عن واجهة قبر بالغة الروعة تزينها الأعمدة والتماثيل المنحوتة في الصخر الوردي يعود تاريخها إلى القرن الأول الميلادي . أما سر التسمية فيرجع إلى أن بدو المنطقة اعتقدوا خطأ أن فرعون وضع كنوزه في الجرة الموجودة في الطابق الثاني ليبعدها عن أيدي الطامعين فيها . وهذه الجرة كانت هدفا لرصاص البدو الذين أغراهم المال . أما البناء نفسه فقد قال لنا مرافقنا إن تاريخه يعود إلى ملك الأنباط الحارث الثالث (٨٤ ـ ٥٦ ق.م) الذي كلف ببنائه مهندسين وفنيين يونانيين ذوي مهارة في الفن الهليني . وهو يتكون من طابقين ، الأسفل واجهة من ستة أعمدة من الطراز الكورنثي تحمل فوقها سطحا نقش عليه رسمان لأبي الهول ورسم آخر لأسد وفهد . وعلى الجانب الأيمن نرى رجلا حافي القدمين يقود جملا . وعلى اليسار حية تحاول لدغ رجل في قلبه . وأما الطابق الثاني فيتكون من ثلاث أسطوانات تحمل الوسطى الجرة وفوقها تمثال للإلهة إيزيس ، وتزين شرفة الطابق رسوم الزهور والثمار والنسور وصورة لنساء مقاتلات يسموهن « الامازونات » كن يقطعن الثدي الأيمن ليسهل عليهن استعمال القوس في الحرب ، وهن يَبْدُون رافعات سلاحهن من البلطات فوق رءوسهن .

داخل المدينة يحتاج لحديث طويل . ولكن المهم هو المسرح الروماني وآثار الشوارع المرصوفة والمعابد والحمامات والمنازل والبوابة التذكارية ، ثم قصر البنت وهو من أهم المعابد الموجودة في البتراء وغير منحوت في الصخر ، وقد زخرفت جدرانه الخارجية بالزخارف الجصية الملونة ، وغطيت جدرانه الداخلية بالرخام . وهناك أيضا المحكمة والدير والمذبح وقلعة الحبيس وقبر النبي هارون وهو يحتاج لبلوغه الى تسلق الصخور الوردية الملونة .

أجداد العشائر البدوية

إن مدينة البتراء ذات جمال طبيعي لا يتوافر في أي مكان في العالم ، فالألوان المختلفة في الصخور التي تزيدها جمالا أشعة الشمس ، استغلها العقل العربي البدوي النبطي لكي يجعل منها مكانا رائعا لكل من يهوى الجمال . وأما طرقها الوعرة والضيقة والمتعرجة التي أوجدتها الطبيعة فتنبثق منها الموسيقا الخالدة عندما تمر بها الرياح العاصفة أو النسيم الناعم . .



ولا نريد أن ننساق مع جمال البتراء .. وآثار العرب الأنباط .. المهم أن الزمن قد استغرق من الأنباط منذ نزولهم في جنوب الأردن حوالي قرنين حتى تمت لهم السيطرة على جنوب الأردن كله ، وأقاموا حياتهم على التجارة وتربية الماشية واستخراج القطران من البحر الميت ، بل قاموا إلى جانب ذلك باستخراج وصهر معدن النحاس .

هؤلاء هم العرب الأنباط أجداد العشائر العربية الأصيلة التي تعيش في بادية الاردن . وقد عاشوا بمحاذاة طرق القوافل التجارية المحملة بالبخور والتوابل والحرير التي كانت تربط بين مراكز الانتاج في الصين والهند وجنوب الجزيرة العربية ، وبين الأسواق الاستهلاكية الغنية في مصر وسوريا واليونان وروما . وكان من أشهر ملوكهم الحارث الثاني والحارث الثالث .

استمر البدو العرب الأنباط في مملكتهم بين مد وجزر سواء في التجارة أو الزراعة أو العمران حتى غزاهم الرومان ثم البيزنطيون ، واختلطت بذلك عناصر الحضارة الفنية اليونانية الرومانية مع الحضارة العربية النبطية ، وهي التي تبدت أثريا في البتراء .

واستمر ذلك حتى نزلت جحافل القوات الاسلامية في جنوب الأردن قادمة من الجزيرة العربية ، واشتبكت مع القوات البيزنطية في معارك عدة انتهت بانتصار المسلمين في شمال الأردن في معركة اليرموك عام ٦٣٦م . واستعادت مدينة البتراء دورها الأساسي كمركز هام على طرق القوافل التجارية بين الجزيرة العربية من ناحية وبين مصر وسوريا من ناحية أخرى ، حتى ضاعت في عالم النسيان بخضوع المنطقة لنفوذ الدولة العثمانية . تلك هي البتراء وهؤلاء هم العرب الأنباط أجداد العشائر العربية الأصيلة التي غرست جذورها في بادية الأردن ، وبينها أفراد عشيرة البدول ، الذين التقينا بهم خارج البتراء الحالية في « البيضاء » حيث أقامت الدولة قرية خاصة لعرب البدول الذين كانوا يتخذون من كهوف البتراء مسكنا لهم ، وتم ترحيلهم عنوة الى منازلهم الجديدة ، حيث بدأوا يتحولون من البادية الى الحضر ، وإن كانت بيوت الشعر ما تزال منصوبة بجانب بناياتهم الحديثة .







● إحد مساقط حمامات ماعين المعدنية الكبريتية الحارة (الى اليمين) وإطلالة على البحر الميت من وراء الحمامات .. أما الصورتان العلويتان فإحداهما لبيت الشعر وأمامه الشيخ عتيق في وادي رم ، والثانية للبيت من الداخل كما يبدو في إحدى لوحات المتحف الوطني .

بدو البدول

في قرية البيضاء ، وفي بيت شيخ عشيرة البدول ، رحب بنا الشيخ سلامة عيد الفقير ، ودار حديث طويل عن التحول والتغير الذي طرأ على تقاليد البادية وعاداتها . قال : قبلنا الاستقرار ، ولكننا ما نزال على عاداتنا وتقاليدنا ، الكرم العربي والضيافة وحسن المعشر واحترام الجار ومساعدة المظلوم والمحتاج كلها لم تتغير . وحين تحضرنا كان ذلك عن اقتناع لأننا نريد أن نعلم أولادنا ، وكذلك حتى تأتينا الكهرباء ونحصل على الماء . لم نتحضر لننسى عاداتنا أوتقاليدنا ، لا وإنما لكي نلحق بركب الحضارة .

بالنسبة لتعليم البنات كنا نعارضه ، وعندما أخرجنا من البتراء الى قرية البيضاء سنة ١٩٨٤ لم تكن لدينا بنات تتعلم في المدارس ، وكان اختلاط البنات لأقلية من العائلات التي دخل أبناؤها الجيش ، وعرفوا التعليم في المدن .

هنا في البيضاء حصل تجاوب بيننا وبين الحكومة التي أقامت مدرسة خاصة للبنات حولها سور وتدرس فيها معلمات . وبعد أن كان عدد البنات في العام الأول لا يتجاوز ١٥ تلميذة أصبح الآن يتجاوز مائة . فنحن نحب العلم لأن العلم هو الطريق الصحيح الى الحياة الصحيحة ، وأصبح الجميع يوافقون على التعليم وعلى التطور والازدهار والتقدم . لكن مسألة الاختلاط التي تتم في الجامعة مثلا نحن ضدها ، فكيف تجلس ابنتي مثلا مع شاب غريب عنها ، وكيف أقبل أن تذهب إلى رحلات مشتركة مع الشباب ؟ لا هذا غير ممكن . ولكن من يدري ربما نخضع مع المزيد من التطور للأمر الواقع ، وأولادنا يمكن أن يتغيروا أكثر منا كما تغيرنا نحن عن آبائنا .

فهل تغيرت أيضا تقاليد الزواج ؟

أفضل هذه المرة أن تكون الاجابة بنفس ألفاظه البدوية إلا ما يحتاج الى تبسيط . قال شيخ البدول :

« كان الزواج على المحبة ، إذا أردت أن تأخذ بنتي غصب ، أفرض عليك مهرا كبيرا ، وإذا أردت أن أعطيها لك فممكن حتى ولو على ملوة غليون . ممكن نكون قاعدين على شرب قهوة وأقول لك والله انت بتعز علي وأنا بأعز عليك ونفسي أعطي بنتي لابنك .

فمن المعزة التي بيننا تقول لي : خدها هدية ماوراها جزية . ممكن تجيب لي عشر معزات وخمس نعاج وكذا . مرت فترة لم نكن نعرف فيها قاضي الشرع إنما على سنة الله ورسوله وهذه هي القاعدة عندنا اليوم . كل الاختلاف هو أن قاضي الشرع الآن يكتب على ورق أبيض . أبي كان قاضي الشرع في عشيرتنا . وكانت المرأة حين تختلف مع زوجها تحضر لأبي . يقول لها شو بدك ؟ تقول أنا داخله وبدي هذا الرجل مش رافضاه . لكن ينقصني طعام وما عندي شي ألبسه . بدي حقوقي . كانت حقوق المرأة عندنا هي حمار وكلب و١٠ معزات وعجل وسكر وشاي وبيت شعر . كان أبي ينادي الزوج ، إذا استجاب كان بها ، إذا رفض يطلقها منه ، كان حكم القاضي عندنا أشد من حكم المحكمة ، ممكن المحكمة تأجل ، لكن عندنا كان الحكم فورا . في القديم لم يكن هناك مهر ، ولا مؤجل . كانت البنت لما يجبروها على الزواج من شخص لا تريده تشرد عنه يعني تهرب منه . ولو تريد شخصا وليس عنده شيء إنما يكون رجلا شهما تأخذه . وكان الشاب يخطف البنت خطفا . ولكن الخاطف عندما يهرب بها يكون معه شخص آخر . يعني لو أنت خطفت بنتي وأخذتها لوحدك ممكن أذبحك . إنما إذا خطفتها ومعك آخر يشفع لك ، فهو يعتبر حارسا عليها وأنك لم تمسها ، وذلك طبعا صيانة للعرض . . ! »

في وادي رم

نسمع أشياء أخرى عن تقاليد البادية حين نذهب إلى « وادي رم » .

وادي رم من أكبر الأودية في جنوب بادية الأردن ، وتمثل فيه أروع المظاهر الجيولوجية المتكونة من صخور رائعة شاهقة . الميزة الرئيسية هنا أن كل شيء فيها من صنع الطبيعة ، ولا دخل للانسان في تكوين لوحاتها الطبيعية ، مناظر الجبال والصخور تثير العجب ، فالصخور فيها مواد معدنية مختلفة تشكل ألوانا متباينة . فعند الشروق وقبيل الغروب تنعكس أشعة الشمس على الجبال فتتباين الألوان على الصخور فتراها مرة سوداء ، وهرة أخرى بنية ، ومرة فاتحة ومرة زهرية . فالصور التي تلتقط لسفح الجبل تختلف ألوانها حسب اختلاف أوقات النهار .

الوادي جميل فريد في جماله يملأ النفس بالاعجاب ، ويبعث فيها المهابة والجلال ، وزيارته في الواقع تجربة مثيرة .

كان أحد أهدافنا في وادي رم أن نلتقي بالشيخ عتيق أبو ربعين من عشيرة الزلابية . فعشيرته ما تزال تعيش بالاسلوب البدوي لم تغير من طبيعتها إلا القليل ، وهو يأبى إلا أن يعيش متنقلا في صحراء الوادي ومعه بيت شعره وأسرته وماشيته .

مضت بنا السيارة الجيب يقودها مرافقنا السياحي (جمال أصحاب) عبر تلال وكثبان تغطي أرضيتها حجارة صوانية وأودية مليئة بالأشجار الصحراوية . في النهاية نجد أنفسنا في مواجهة حائط جبلي يمتد يمينا ويسارا نصبت تحت سفحه خيمة سوداء ترعى حولها الماشية . هنا نلتقي البدوي الشيخ بأعوامه الثمانين التي يحملها فوق كتفيه . استقبلنا وأجلسنا على الطنافس الممتدة داخل بيت الشعر والنار مشتعلة في وسطه ، وفوقها دلاية القهوة . كان الشيخ يقلب الأحطاب المشتعلة بملعقة طويلة قال حين سألناه عنها : هذه يد المحماسة التي نحمص بها البن على النار ، وهي نفسها ما كان يستخدمه « المبشع » حين يجري الاحتكام الى النار بما يسمى « البشعة » . فحين تكون القضية أمام القاضي غامضة ولا يعترف المتهم بارتكاب جرمه يحتكم الى « البشعة » . وحين نسأله كيف كانت تجري عملية البشعة يجيب : يجلس المبشع على الأرض بجانب النار ويضع يد المحماسة المسطح في قلب الجمر ثم يجلس المتهم بجانبه بينما يجلس بقية الخصوم والشهود يشاهدون ما يجري .

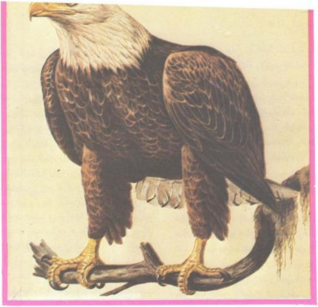
ويستغرق تسخين الملعقة وقتا طويلا بينما يواصل المبشع استخراجها وهي حمراء ثم ينظر إليها ويقلبها ثم يضعها ثانية في النار . ويتم هذا كله أمام ناظري المتهم ، وخلال هذه الفترة فإن المبشع يتحدث باستمرار طالبا إلى المتهم إظهار حقيقة الجريمة التي ارتكبها مبينا له مدى خطورة حرق النار ، بينما يراقب المبشع ملامح وجه المتهم أثناء ذلك . وأخيرا تصبح الملعقة جاهزة ، فيطلب من المتهم أن يمد لسانه حيث يقوم المبشع بوضعها على اللسان بسرعة ثم ينتظر بضع دقائق يطلب بعدها من المتهم أن يمد لسانه ثانية أمام الناس . وإذا ظهرت البثور على اللسان فإن ذلك يعني تجريم المتهم . وإذا بقي لسانه سليما فذلك يعني براءته . ومن الناحية العملية فإن المتهمين يفقدون أعصابهم أثناء رؤيتهم للملعقة فيعترفون .

أما في ضوء المعطيات العصرية وحركات التنوير فإن ملعقة « البشعة » لم تعد مستخدمة بشكل عام بين العشائر الاردنية . وعلى الرغم من أن القانون الصادر عام ١٩٧٣ قد منع اللجوء الى البشعة ، فإن بعض قضاة العشائر والبدو قد استمروا بالاعتماد عليها واللجوء اليها عندما تقتضي الضرورة .

يارب بدّله

أراد مرافقنا ونحن نمضي أن يخفف عنا وعورة الطريق في مسيرة العودة الطويلة ، فراح يستعيد حكايات «العزيزي» عن الزواج والنساء وقال : هل سمعتم عن حكاية « يارب بدّله » ؟ إنها عبارة معروفة عند النساء في البادية ، فإذا تمنت المرأة أن تتخلص من زوجها من غير أن تتكشف أمنيتها أو يعلن أنها ناشز ، لبست ثوبها عند النوم مقلوبا وراحت تردد في سرها « يارب بدّله » وتظل تفعل ذلك أربعين ليلة متتالية ، وتلقى كل ليلة في حفرة تخفيها حصاة الى أن تتم الأربعين حصاة . وتقول النساء إن الذي يحدث هو واحدة من اثنتين : أن يموت الزوج ، أو تطلق الزوجة . . !

ومن بين الحكايات التي يروونها أن المرأة المحبة إذا أرادت إرغام شخص ما على حبها تلجأ الى امرأة وصلت إلى سن اليأس فتأخذ رأس هدهد ودجاجة سوداء وشمعتين صغيرتين وتذهب ليلا الى قبر ميت دفن حديثا ، فتنبش قبره وتدفن الدجاجة السوداء ورأس الهدهد وخمس ريشات من حواف جناحي الهدهد وتشعل الشمعتين في منخري الميت وهي تقول « فلان يحب فلانه » ، وتكرر ذلك في جلسة واحدة أربعين مرة ثم تسوي القبر كما كان . وقد سمعت أن رجلا مات له أخ يحبه ، ولشدة حزنه لم يستطع أن ينام فذهب ليقضي ليله ساهرا عند قبر أخيه ، وعندما اقترب شاهد نورا قريبا من القبر ، فلما قصده أحست المرأة بافتضاح أمرها ، فنهضت من عند القبر ونفضت شعرها وهي تصرخ صراخا شديدا ، ولشدة ما اعترى الرجل من الرعب والذهول ، قضى بقية حياته مجنونا ، وأصبح يعرف عند البدو بمجنون البادية . □



عن النسور والعقبان

بقلم : الدكتور محمد رشاد الطوبي*

مع أن النسور والعقبان ترد أسماؤها في كثير من الأحيان مرتبطة بعضها ببعض ، إلا أن هناك اختلافات واضحة فيما يتعلق بطبائع تلك الطيور أو طريقة معيشتها ، كما أن هناك أيضا بعض اللبس وعدم الوضوح فيما هو متداول بين عامة الناس عن تلك الطيور ، فقد يقال مثلا عن الطيارين البواسل الذين يخوضون غمار الحرب دفاعا عن أوطانهم إنهم « نسور الجو » . والأصوب من ذلك أن يقال عنهم إنهم « عقبان الجو » ، وهو ما سوف يظهر بوضوح في هذا المقال .

* استاذ علم الحيوان بكلية العلوم - جامعة القاهرة - عضو مجلس العلوم الأساسية بأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا .



العقاب المنسوري الذي
يتغذى على الأسماك

عقاب ينقض على فريسته
من الزواحف في سرعة
مذهلة .

الصقر حاد الإبصار ، سريع الطيران ، مخالبه حادة
ملتوية ، ومنقاره ينتهي بصنارة حادة عمودية .

العقبان هي أقوى الطيور وأكثرها شجاعة على الاطلاق ، وهي تتغذى على الحيوانات التي تنقض عليها في سرعة خاطفة من الجو مباشرة ، ولا يقتصر غذاؤها على الحيوانات الوديعة كالماعز والخراف والغزلان ، بل يمتد أيضا إلى بعض الحيوانات المفترسة مثل الكلاب البرية والذئاب والثعالب وبنات آوى وغيرها ، وقد تنشب بينها معارك طاحنة ، وعندئذ تلجأ العقبان إلى فقء عيون تلك الحيوانات إذا كانت المعركة في غير صالحها ، وذلك يكون تمهيدا للتغلب عليها وكسب المعركة ، وهي لا تتغذى على الفرائس التي تصيدها في أماكن صيدها ، بل تحملها بين مخالبها لتطير بها إلى أماكن أخرى آمنة ، ثم تبدأ في التهامها . ولا يفوتني التنويه بأن من بين ضحايا تلك الطيور بعض الأطفال الذين تركتهم أمهاتهم في الخلاء ، وقد سجلت عدة حالات من هذا القبيل وخصوصا في الهند .

وتمتاز العقبان بحدة الإبصار ، وبمخالب طويلة حادة ومدببة ، كما أن مناقيرها غليظة ملتوية ، وتنتهي بصنارة عمودية حادة ، ومن أهم صفاتها الخارجية أن الرأس والعنق مغطيان بالريش ، وهناك عدة أنواع من العقبان منها العقبان الذهبية وملك العقبان والعقبان السفعاء الكبرى والعقبان المسيرة وغيرها .

كاسر العظام

أما النسور (VULTURES) فهي طيور مسالمة ، لا تهاجم الحيوانات أو الطيور الأخرى ، ولكنها تقنع بأجساد الحيوانات الميتة التي تعد غذاء أساسيًا لها ، ولذلك فهي في الواقع من « آكلات الجيف » ، فإذا وقعت على جسد حيوان ميت فإنها تستمر في نهشه حتى تمتلىء حوصلتها الكبيرة ، فلا تكاد تستطيع الطيران ، وهي تتمتع بإبصار حاد ، لكن مخالبها ضعيفة قليلة التقوس ، تنتهي بأطراف غير مدببة ، وهي أكبر حجماً من العقبان ، وتختلف عنها في أن الرأس والعنق عاريان من الريش غالبا أو يغطيها زغب دقيق ، وتوجد منها أنواع كثيرة ، نذكر منها الرخمة المصرية (ويطلق عليها أحيانا اسم النسر المصري) ، والنسر الأسمر والنسر ذا الأذن ، والنسر الأسود والنسر ذا الذقن (كاسر العظام) .

ومما يدعو إلى الدهشة والإعجاب أن كثيرا من الكتاب العرب الأقدمين الذين اهتموا بدراسة الحيوان مثل الجاحظ والدميري والقزويني وغيرهم ، كانوا على معرفة طيبة بالاختلافات الموجودة بين النسور والعقبان ، فيما يتعلق بالصفات الخارجية ، والطبائع السائدة في كل منها ، ومن ذلك -على سبيل المثال- ما ورد في كتاب الدميري « حياة الحيوان الكبرى » عن « النسر » كنموذج لتلك المجموعة من الطيور التي سبق ذكرها ، وكانت الأوصاف التي أوردها الدميري كما يلي :

- « النسر طائر معروف ، وسمي نسرا لأنه ينسر الشيء ويبتلعه ، والنسر ذو منسر ، وليس بذي مخلب ، وإنما له أظفار حداد كالمخالب ، وهو من أطول الطير عمرا ، ولذا قالت العرب : « أعمر من نسر » . وهو حاد البصر ، يرى الجيفة من أربعمائة فرسخ ، وهو أشد الطير طيرانا ، وأقواها جناحا ، وهو شره نهم رغيب ، إذا وقع على جيفة امتلأ منها ، ولم يستطع الطيران حتى يثب وثبات يرفع بها نفسه طبقة بعد طبقة في الهواء حتى يدخل تحت الريح ، وليس في سباع الطير أكبر منه جثة » .

وهو وصف لا يحتاج إلى شرح أو تعليق ، أما ما أورده الدميري في كتابه عن العقاب فهو كما يلي :

« العقاب طائر معروف ، وقال في الكامل العقاب سيد الطيور ، والنسر عريفها ، والعقاب حاد البصر ، ولذلك قالت العرب : « أبصر من عقاب » ، كما قيل أيضا « أمنع من عقاب الجو » ، والعقاب من ذوي المخالب ، وإذا صادت شيئا لا تحمله على الفور إلى مكانها ، بل تنقله من موضع إلى موضع ، ولا تصعد إلا على الأماكن المرتفعة ، وهي أشد الجوارح حرارة ، وأقواها حركة ، وأيبسها مزاجا ، وهي خفيفة الجناح سريعة الطيران ، تتغدى بالعراق ، وتتعشى باليمن ، ومن شأنها أن جناحها لا يزال يخفق . قال عمرو بن حزام :

(لقد تركت عفراء قلبي كأنه
جناح عقاب دائم الخفقان) .

وكان العرب كثيرا ما يطلقون على العقاب كلمة العنقاء ، وهو ذلك الطائر الأسطوري الذي كان محورا لكثير من القصص والخرافات ، ومن ذلك -



رتبة الصقريات تسعى للحصول على غذائها أثناء النهار ، وهي تشترك في صفاتها وطبائعها مع العقبان ، ولكنها أصغر منها حجما .

على سبيل المثال - ما ورد في شعر أبي العلاء المعري :

(أرى العنقاء تكبر أن تصادا
فعاند من تطيق له عنادا)

كما ذكر العقاب أيضا في شعرنا المعاصر ، ومن ذلك مثلا بيت الشعر الذي بدأ به شاعرنا الكبير أحمد شوقي إحدى قصائده الرائعة ، وتلك هي القصيدة التي أنشدها احتفالا بأول رائد للطيران في الشرق العربي ، حيث يقول فيها :

(أعقاب في سماء الجو لاح
أم سحاب فر من هوج الرياح؟)

وقد جاء في « كتاب الحيوان » للجاحظ أن العقاب يطلق عليه أيضا اسم « العنقاء المُغرب » لأنه يجيء من مكان بعيد ، ومن الأقاصيص التي ورد ذكرها في هذا الكتاب الشامل ، أنه قيل لأعرابي : « لو خيرك الله أن تكون شيئا من الحيوان أيّ شيء كنت تتمنى أن تكون ؟ » قال الأعرابي : « عقاب » ، قيل « ولم تمنيت ذلك ؟ » قال : « لأنها تبيت حيث لا ينالها سبع ذو أربع ، وتحيد عنها سباع الطير » .

وقال أعرابي آخر : « أما علمت أن الشدة والشجاعة ، والبأس والقوة من الحيوان في ثلاثة أصناف : العقاب في الهواء ، والتمساح في ساكن الماء ، والأسد في مساكن الفياض » .

الصقريات

وتنتمي كل من العقبان والنسور على اختلاف أنواعها إلى رتبة كبيرة يطلق عليها علماء الحيوان اسم « رتبة الصقريات » (Falconiformes) . وتحتوي تلك الرتبة بالاضافة إلى النسور والعقبان على جميع الطيور المفترسة التي تسعى للحصول على غذائها أثناء النهار ، والتي يطلق عليها اسم « جوارح الطير » ، ومنها الصقور العديدة كالبازي والباشق والبيدق والدراع والشاهين والحر وصقر الغزال (وقد أطلق عليه هذا الاسم لاشتهاره بصيد الغزلان حيث يستخدمه البدو في هذا الغرض) ، ومن الصقريات أيضا الحدأ المختلفة كالحدأة المصرية التي هي من طيور مصر الأوابد ، والحدأة السوداء ، والحدأة الحمراء وهما تهاجران في موسم الشتاء من شمال أوربا إلى كثير من بلدان شمال أفريقيا والشرق الأوسط .

وتشترك تلك الصقور والحدأ في كثير من صفاتها وطبائعها مع العقبان ، ولكنها أصغر منها حجما ، فهي-على سبيل المثال- حادة الإبصار ، سريعة الطيران ، ولها مخالب حادة ملتوية ، كما أن المنقار ينتهي بصنارة حادة عمودية ، وأرجلها مكسوة بالريش حتى الأصابع ، وهي عادة لا تعيش في جماعات ، بل تكون فيما بينها أزواجا متآلفة ، وقد تستمر العشرة بين الذكر والأنثى طوال الحياة .

ومن الصقريات أيضا ما يعرف « بالعقاب المنسوري » ، وهي تمتاز عن غيرها من طيور تلك الرتبة بأنها تعيش بالقرب من سواحل البحار ، وتتغذى على ما تصيده من الأسماك ، وهي تستخدم في عملية الصيد . أقدامها المجهزة بأشواك كبيرة حادة لا تستطيع الأسماك الإفلات منها على الاطلاق ، وفي بعض الأحيان لا تستطيع تلك الطيور تخليص مخالبها من جسم السمكة إلا بصعوبة فائقة ، فإذا كانت السمكة كبيرة الحجم فربما سحبت الطائر



العقاب الذهبي طائرا في السماء ومعه صيده .

معها إلى الأعماق ، حيث يموت غرقا ويكون مصيره الهلاك .

الأنواع الكبيرة من « الصقريات كالنسور والعقبان والرخم تبني لنفسها أعشاشا كبيرة الحجم فوق قمم الجبال أو الأشجار العالية ، حتى تكون في مأمن من الهجوم عليها ، واختطاف البيض منها . أما الطيور الصغيرة فتقنع بالأماكن الآمنة بين الصخور ، أو في تجويفات الأشجار ، وأحيانا فوق الأرض مباشرة بين النباتات المتشابكة في الغابات والأدغال ، ويتم بناء تلك الأعشاش من الأعواد الجافة وفروع الأشجار وغيرها ، ثم تقوم الطيور بعد ذلك بتبطينها من الداخل بالقش أو الصوف أو الشعر أو الريش لتكون مهدا لينا .

وتضع الأنثى في معظم الأنواع بيضة واحدة أو بيضتين ، ولكن هناك أنواعا قليلة تضع عددا أكبر من ذلك ، يصل أحيانا إلى ثماني بيضات ، وتستمر حضانة البيض فترة تتراوح بين ٣ ـ ٦ أسابيع حسب النوع ، وبعد الفقس لا تخرج الأفراخ الصغيرة من العش ، بل تبقى بداخله فترة طويلة نسبيا ، وقد تصل إلى أربعة أشهر ، تقوم الطيور الكبيرة خلالها بإطعامها والحفاظ عليها حتى تكبر ويشتد عودها .

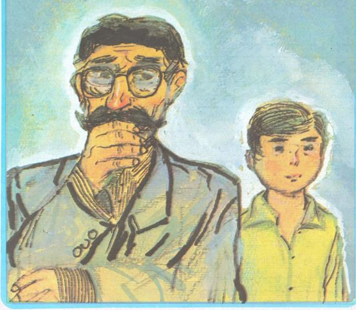
وتعد بعض الأنواع من تلك الطيور كالنسور والعقبان من الحيوانات المعمرة ، فقد يمتد عمر الفرد منها إلى مائة عام ، وقد سجلت فعلا بعض الحالات في حدائق الحيوان وصل عمر الطائر فيها إلى هذه السن ، وهو رقم كبير بالنسبة لأعمار الطيور الأخرى . □

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

■ دور الأهل في اختيار المهنة المناسبة لأولادهم

■ التشبيهات والألعاب التربوية تقنية مهملة في التربية العربية





دور الأهل في اختيار المهنة المناسبة لأولادهم

بقلم : الدكتورة هدى طحلاوي*

هل ينشأ أولادنا ويكبرون وهم على معرفة بإمكانياتهم الذهنية والعملية بحيث يكونون قادرين على اختيار مهنهم بأنفسهم ؟ أم أنهم يظلون منذ سني المدرسة الابتدائية وحتى مرحلة متقدمة من العمر بحاجة لتوجيه وإرشادات الأهل ؟ المقال التالي محاولة للإجابة عن هذين التساؤلين المهمين .

إن عصرنا الحاضر هو عصر العلم بكل ما فيه من اكتشافات ومخترعات حديثة ، أدهشت الناس وبهرت عيونهم فافتتنوا بمنتجاته واختراعاته ، وركضوا وراءه بكل ما يملكون من قوة ، تاركين خلف ظهورهم كل ما خلفته عصور التخلف والجهل الماضية ، وسعى الناس حثيثاً إلى ما فقدوه هم ليجدوا العوض لهم بأولادهم فدفعوا بهم دفعاً إلى العلم وتخصصاته ، بجميع درجاته ظناً منهم أنهم بذلك ينالون أربهم ورغباتهم ، معتبرين أولادهم عجينة طرية ، يستطيعون صبها في القالب الذي يريدون حتى تجف وتأخذ الشكل المطلوب . فمن أراد لولده مهنة الطب حمله على دراسة الطب بشتى الوسائل ، وإن كان كارها لهذه المهنة ، وكذلك يختار له ما شاء من المهن .

ولكن النتيجة المخيبة للآمال صفعت الجميع ، وكانت الكارثة ، وهي فشل غالبية أبناء هذا الجيل ، وصار في مجتمعنا جيل من

* طبيبة وكاتبة من القطر العربي السوري .

الشباب يغرق في الكسل والبطالة حتى أذنيه فهل من منقذ ؟!

تعالوا معنا أيها الآباء نستعرض معا تطور الانسان منذ الطفولة وحتى الشيخوخة ، ونرى كيف أن لكل إنسان طباعاً خاصة وشخصية مميزة له ، وكل شخص مقتنع تماما بطريقته في الحياة وبآرائه ، ولا يسير في طريق إلا برغبته وأهوائه.

نحن وأولادنا

تعالوا نتعرف على حقيقة أدوارنا تجاه هؤلاء الأشخاص الذين هم قسمتنا وحصتنا في هذه الحياة ، أولادنا ، ماذا نقدم لهم ؟ وإلى أي حد يحق لنا التدخل في حياتهم ؟

لا شك أن حنان الأبوين والمربين ضروري لنمو الطفل بجسده وروحه قلبا وقالبا ، ولا غنى للأطفال عنه . إذ يولد الطفل ضعيفا ، لا يعي ولا يفهم شيئا مما يفهمه الانسان البالغ ، وهو غير قادر على تأمين ضرورات حياته إذْ لا بد من مرب مساعد له في هذه المرحلة حتى تقوى مداركه ، ويشتد عوده ، وهنا يجب أن نفهم أننا لسنا نحن الذين نعلمه كل شيء ، ونقوي جسده ونساعده بإرادتنا . ولكن من الضروري أن نعرف أن الطفل إذا قدمت له المساعدة كي يحيا فإن تطوره سيمر بمراحل لا بد منها ، ولا نستطيع نحن التدخل فيها . وهذه المراحل متقاربة بين كل الأطفال ، ودرست من قبل علماء متخصصين ، وضعوا لها جداول خاصة للمقارنة بين الطفل الطبيعي وغيره . فمثلا هناك جداول خاصة لتطور الأطفال الطبيعيين من حيث الوزن والطول ومحيط الرأس ومحيط الصدر ، وكذلك جداول للتسنين (لمواعيد بروز الأسنان) وجداول للنطق ، وعدد الكلمات في مختلف مراحل الطفولة الأولى ، وهكذا نستطيع أن ننظم جداول كثيرة لمعرفة التطور الروحي والحركي ، ومعدل الذكاء عند الطفل ؛ وكل هذه الدراسات مبنية على أن الإنسان خلق هكذا ، يتطور وينمو بهذا الأسلوب رغم أنوفنا . فهل سمع أحدنا أن عند بعض الآباء طريقة في التربية تجعل الطفل يتكلم فيها بعمر شهر ، ويمشي بعمر شهرين ، ويصبح رجلا بعمر سنة ؟!.

هنا نقف لحظة متفقين على أن وظيفة الأهل والمربين في البداية هي مراقبة تطور نمو الطفل وبذل ما في وسعهم من رعاية وحنان لتغذية جسمه وروحه ولزرع بذور الأخلاق التي سيتسم بها مستقبلا ، وثمار هذه البذور التي نزرعها تتأثر في المستقبل بعدة عوامل : بالتربة الموجودة أصلا في ذات الطفل ، وبالسقاية والرعاية المقدمتين من الأهل ، ثم بالعوامل المحيطية في مجتمع الطفل ثالثا .

وخير مثال وشاهد على ما سبق هو أنه في الأسرة الواحدة لا يوجد ولد كأخيه أبدا مهما حرص الأهل على مساواة أولادهم في التربية .

دورنا كآباء

والآن ، لنتابع المسير في ملاحظة تطور الطفل ودورنا فيه كآباء . عندما يتجاوز الطفل مرحلة الطفولة الأولى ومرحلة ما قبل المدرسة ، أي في السنة الخامسة من عمره تقريبا ، فإننا نكون أمام انسان أصبح يميز بين الخير والشر ، ويقضي حوائجه بنفسه ويمارس هواياته المحببة ، ويفصح عما بداخله ، وماذا يحب وماذا يكره ، ففي هذه المرحلة يحتاج الطفل للقيادة والتوجيه إلى الطريق الصواب ، ويتقبل القيادة ، ولكنه يرغب بأسلوب مريح ومقنع ، إذ يكثر من الأسئلة ويحاول تقليد الآباء وإقناع نفسه بالسبيل الذي سيسلكه ضمن إطاره الصغير وعالمه المحدد ، وفي

هذه المرحلة تبدأ قابليته وقدرته على التعلم ، ولكن معدل الذكاء يختلف بين طفل وآخر ، ويجب إلحاقه بمدرسة للتعليم تدرب حافظته بالأغاني والأناشيد ، وعد الأرقام وكتابة أحرف الأبجدية ، واكتساب التأقلم مع الجماعة . ويجب على الأهل الاشراف على ما يتعلمه الطفل وتثبيت معلوماته ، وتنميتها كدور مساعد للمدرسة ، وهنا يبدأ دور التمايز بين الأطفال المجدين منهم والمقصرين والكسالى . وظاهرة الكسل هذه يجب أخذها بعين الاعتبار لمعرفة أسبابها ، فإن كان السبب ضعف معدل الذكاء عند الطفل وجبت مراعاته بشكل خاص ، وتعليمه ببطء وتكرار أكثر ، وفرزه مع أمثاله عن الأطفال المجدين حتى لا يكونوا عائقا لهم ولمدرسيهم ، وإن كان سبب كسلهم قلة العناية والاهتمام بهم وجب المزيد من الاهتمام ، وخاصة في المراحل الأولى للتعليم حتى لا يعتاد الطفل الكسل . فإن التشجيع والعناية يقعان على عاتق المدرسة والبيت معا .

عند مفترق الطرق

في مرحلة المدرسة الأولى التي تسمى المرحلة الابتدائية ، يتلقى الأطفال جميع العلوم الأساسية الضرورية في حياتنا العملية ، كالقراءة والكتابة والحساب الضروري فقط في إدارة شؤوننا ، وكذلك التاريخ الضروري عن مجتمعنا خاصة والعالم من حولنا بشكل عام ، وجغرافية القطر الذي نسكنه تفصيلا، وجغرافية العالم موجزا ، والقانون الذي يحكمنا : ماذا يحرم وماذا يحلل ؟ والحقوق والواجبات المشروعة فيه ! وبهذا يكون كل فرد في المجتمع مؤهلا لأن يحيا حياة واعية وناجحة مهما كان عمله مستقبلا .

أما عند انتهاء المرحلة الابتدائية فيتم الوصول إلى المفترق الرئيسي . مفترق كبير تتشعب منه الطرق . إنه مركز الانطلاق الذي يمكن تشبيهه بمركز الدائرة والطريق إلى محيطها ، فكل الخطوط المستقيمة تصل مركزها بمحيطها وما أكثرها ولا يمكن حصرها .

عند مفترق الطرق هذا يجب التفكير كثيرا قبل سلوك أي طريق ، لأنه من الصعب التراجع من منتصف الطريق لسلوك طريق غيره . هنا يجب على الأهل أن يكونوا أذكياء وواعين للتنبؤ بالطريق المناسب لولدهم ، ويجب أن يشاركوه الاختيار فلا يختارون له وحدهم ، ولا يتركونه يسير كيف يشاء ، لأنه لم يبلغ سن الرشد بعد ، كما انه قليل الخبرة في تدبير شؤونه بنفسه ، ولكنه يعبر عما يحب ، ويبدي ارتياحه وانسجامه لبعض الأعمال ، وبعض التخصصات ، وما على الأهل إلا فهم هذه الأمور وتحقيقها لولدهم .

ولكن بعد تشذيبها وتنظيمها بإطارها الجميل الصحيح ، دون النظر إلى نوع اختيار ولدهم ، هل أعجبهم أم لا ، طالما أن عمل ابنهم في المستقبل سيكون ذا فائدة للمجتمع ، ويعينه على كسب قوته . وهذا النوع الهادف من العمل هو الذي يتدخل فيه الآباء لإقناع أولادهم بالعمل والقيمة الاجتماعية . ويجب اقناع الطفل في كل خطوة يخطوها ، فهو إنسان ، والانسان عاقل بالفطرة . الحجة والعقل عنده هما الأساس في كل شيء ، حتى ولو كان صغيرا جدا . فإذا كان للطفل عقله وإدراكه اللذان يأبيان إلا أن يلمس المدفأة الساخنة ، حتى يعرف لماذا يطلب أهله منه الابتعاد عنها ، فكيف بمن هم أكبر عقلا وسنا ؟ لذا أولا : يجب أن يكون العمل مفيدا ، وثانيا : يجب تحقيق النجاح في هذا العمل وتوفير السبل اللازمة لذلك ، وللأهل دور كبير في هذا ، وذلك بحض ولدهم على التفاني والاخلاص في العمل ، وتعليمه تنظيم أوقات عمله وراحته . ويجب ألا يعمل فوق طاقته ، وأن يستفيد من

أوقات الراحة ، ويترك حرا في ممارسة ما يحب من الهوايات خارج أوقات العمل ، إذ يجب أن يكون لكل انسان عمل نافع وهواية يتسلى بها في أوقات الفراغ ، وليس من الضروري أن تكون الهواية ذات فائدة للمجتمع ، المهم أن لا تكون ضارة له أو تسر صاحبها .

حبّ العلم وتقديسه

إلى هنا نستطيع القول : إنه مهما كان العمل الذي سيقوم به كل فرد وصل هذه المرحلة في المجتمع ، فإن ما تلقاه من علوم أساسية تكفي لأن يحيا حياة طيبة ولا يحتاج للمزيد من التفاصيل في العلوم ، سواء كانت أدبية أو علمية ، إلا الذين يرغبون بهذا المزيد ويبدون الشغف في حب العلم وزيادة الاطلاع ، هؤلاء يجب تشجيعهم بتوفير الجو الملائم لهم للدراسة ، ومحاولة إجابتهم على اسئلتهم ، وجلب ما يلزمهم من كتب يحبون قراءتها ، ودفاتر يسطرون عليها انطباعاتهم وأفكارهم ، ونحاول تعريفهم على أهل العلم ، ليتبادلوا معهم الآراء والأفكار والكتب ، وهذا لا يوجد عند كل البشر .

حب العلم لا يفهمه إلا المتعلمون بإرادتهم وهوايتهم ، وهم حفنة قليلة من البشر ، ومتطلبات الحياة تقتضي وجود مثل هؤلاء العلماء ، ولكن ليس من الضروري أن يكون كل أفراد المجتمع علماء ، لأنهم أولا : لن يكونوا هكذا نظراً لاختلاف مستوى الأشخاص . وثانيا لأن المجتمع لا يستطيع العيش أبدا إذا كان هذا شأنه ، ولا بد من وجود الاختصاصات جميعها ، لتأمين متطلبات الحياة والعيش الرغيد ، المهندس ، التاجر ، العامل . وأكبر نسبة يحتاجها المجتمع هي نسبة العمال ، لتعدد الأعمال الضرورية التي يجب إنجازها لتأمين المعيشة اللائقة للمجتمع ، من بناء المنازل وتنظيف الطرقات ، وتأمين المآكل والملبس بكل أنواعه ، وتأمين المواصلات المريحة في تنقلاتنا ، وتوفير الماء والدواء الضروري ، وأكبر مثال على ذلك تحضير رغيف الخبز حتى في عصر الآلة . كما يقال : إن كثيراً من العمال يعملون ويتعاونون لإنجاز الخبز فقط فكيف ببقية متطلبات الحياة !



تمايز البشر

ومن الجدير بالذكر هنا ، أنه لا بد من وجود تمايز بين البشر ، ليس تمايزا عرقيا أو دينيا . وإنما تمايز الإنسان المبدع ، والطموح المتقن للعمل عن غيره . ولا بد أن يصبح أعلى شأنا من بعض أفراد المجتمع حوله ، وهذا من سنة الكون وفطرته ، إذ لا بد في المجتمع من وجود الرئيس والمرءوس ، الغني والفقير ، العالم والجاهل ، وخلاصة القول : إن دور الأهل يتحدد في البداية بالإشراف على تعليم أولادهم العلوم الأساسية الضرورية في الحياة العملية ، والتي سبق ذكرها آنفاً ، ثم في تشجيع أولادهم على المضي قدما في العمل الذي يحبون والذي سيحمل الخير لهم وللمجتمع : فإن كانت الاستزادة من التعليم واللحاق بركب العلماء تحقق ذلك بالاختصاص الذي يحب ، وإن كان عملا نافعا للمجتمع بدأه منذ الصغر عند انتهاء تعليمه الأساسي ، لأنه كان في مدرسته أكثر استعدادا لتعلم المهن وأكثر احتمالا وصبرا لتنفيذ متطلبات المهنة ، فإنها تشب وتكبر معه ليطرحها مستقبلا في مجتمعه . □

التشبيهات والألعاب التربوية

تقنية مهملة في التربية العربية

بقلم : الدكتور أنور طاهر رضا

يقدم الكاتب عرضا لتقنية مستخدمة في الغرب بشكل متطور ، هي تقنية استخدام التشبيهات والألعاب في مجال التربية ، ويدعو التربويين العرب إلى الاستفادة من هذه التقنية وتطويرها .

ما تزال التربية والتعليم في الوطن العربي مبنيين على أسس تقليدية قديمة . تمتاز التربية هذه باعتمادها على العنصر الأساسي فيه ، وهو المعلم الذي يلجأ عادة الى إلقاء الدرس مستعينا بالطباشير والكلام ، وببعض الصور البسيطة التي تزول شيئا فشيئا بمرور المراحل الدراسية ، حتى اذا ما وصلنا الى التعليم الجامعي فإنه يقتصر في كثير من الأحيان على المحاضرة المجردة ، التي ربما لا يسمعها أحد ، أما مشاركات الطلبة في هذا النوع من التعليم فتكون على أقلها في العادة .

لقد أثيرت تساؤلات كثيرة حول جدوى تعليم يكون فيه دور الطلبة سلبيا . وقد حصلت تحولات كبيرة في التربية في الغرب ، ولعل أهم هذه التحولات الانتقال من الطرائق التي تتمركز حول المعلم الى تلك الطرائق التي تتمركز حول الطالب . تكون مشاركات الطلبة في مثل هذا النوع من التعليم أساسية ، حتى يساير التعليم ميولهم واتجاهاتهم ، ويتصف بالفردية التي تتماشى مع قابلياتهم الخاصة .

تعريف وتمييز :

إن التقنيات التربوية التي تتعامل مع كل ميدان من ميادين التربية إنما تستهدف أصلا التصميم والتقييم والتطوير للمناهج التعليمية ، وخبرات التعلم ، وحل ما يتصل بهما من

المشكلات التي تنبع من التطبيق . وهي بمحاولاتها هذه تحسن عملية التدريس ، وتتبنى الابتكار ، وتخلص الطلبة من الوتيرة المتكررة التي تسير عليها طريقة الإلقاء . إن التشبيهات والألعاب التربوية ميدان من ميادين التقنيات التربوية التي تعد بحد ذاتها تجديدا في ميدان التربية .

لقد لقيت التشبيهات والألعاب التربوية اهتماما كبيرا في الستينيات والسبعينيات من هذا القرن في البلدان المتقدمة . فماذا يقصد بالتشبيهات والألعاب التربوية ؟ وما أوجه الخلاف والتشابه بينها ؟ وماذا يمكن أن يحقق بواسطتها ؟ ولماذا كل هذا التأكيد عليها ؟

ليس من السهولة أن نرسم حدودا فاصلة ، ونضع قوانين ومباديء للفصل بين التشبيهات والألعاب التربوية ، طالما أن أنواعا كثيرة منها تشترك في عناصر مهمة وعديدة . تصمم التشبيهات والألعاب التربوية عادة لتدريس مادة يمكن تدريسها بطريقة أخرى ، على أن دوافعها أقل .

الألعاب التربوية :

يعرف « ابت » الألعاب التربوية بالطريقة العامة التالية : « أي نوع من المنافسة ، أو المناقشة ، أو حتى المباراة التي تجري بين الطلبة اللاعبين ، بناء على شروط وقوانين ، من أجل الوصول إلى هدف معين ، وتتقرر نتائجها بمهارات عقلية أو جسمية أو حتى الحظ أحيانا » .

يتبين من التعريف السابق عدد من العناصر التي لا بد من توافرها في اللعب ، لكي يكون لعبا تربويا . فهو يتضمن المنافسة . وعلى الرغم من أن المنافسة يمكن أن تجري بين الفرد ونفسه ، فإنها تتضمن في العادة عددا من الطلبة الذين ربما ينقسمون الى فرق . يسير اللعب حسب شروط محددة أو قوانين تم الاتفاق عليها ، والخروج عن هذه الشروط والقوانين يعد إخلالا باللعب ، ولربما يؤدي الى الخسارة .

إن فكرة التعلم من خلال اللعب في المدرسة الابتدائية قديمة قدم التربية نفسها ، على أن التشبيهات والألعاب التربوية قد بدأتا تستخدمان حديثا ، في كل من المرحلتين الثانوية والجامعية . هذه بعض الألعاب التربوية التي تستخدم في المراحل الدراسية المختلفة في البلدان المتقدمة ، نستعرضها كنماذج من أجل تحويرها أو كتابة ما يماثلها من حيث المبدأ ، أو استحداث غيرها . إن لعبة (مزرعة هيرد فوردشاير) لعبة بسيطة منظمة ، توفر أفكارا



أساسية عن عملية الزراعة، واتخاذ القرارات التي تتضمنها. يستخدم هذا اللعب على مستوى طلبة المرحلتين الابتدائية والثانوية. (الصفحة الاولى) لجريدة مثال بسيط آخر تستعرض المحددات الاضافية والعمل ضد الوقت. وتستخدم هذه اللعبة في المدارس الثانوية الانكليزية في مواقف متعددة، لطلبة تتراوح أعمارهم بين ١٤ - ١٨ سنة و (أزمة أزيم) هي مثال آخر عن حرب بين قطرين، وتركز حول العلاقات الدولية. وتصلح هذه اللعبة لطلبة العلوم السياسية في الجامعة.

التشبيهات التربوية:

يستخدم الكتّاب العرب في ميدان التربية عددا من التعابير، للدلالة على كلمة Simulation الأجنبية. لقد استخدمت كلمة التمثيليات أو المسرحيات لهذا الغرض. وواقع الحال أن التشبيهات تختلف عن التمثيليات والمسرحيات، لأن كل صغيرة وكبيرة محددة في التمثيليات والمسرحيات، ولا يحق للممثل أن يغير فيها أي تغيير، فدوره مرسوم مسبقا، وما سيحدث يكون إعادة ما في التمثيلية أو المسرحية. أما التشبيهات فإن الخطوط الأساسية فيها هي التي تكون عادة مرسومة، ويواجه الطلبة بمواقف جديدة، وعليهم أن يسلكوا طريقا محددا ويتخذوا القرارات المناسبة التي تستند على معلوماتهم السابقة. إذ ليس هناك تكرار لأشياء سابقة، بل ابتكار لقرارات جديدة.

يعرف «برتون» التشبيهات التربوية بأنها «محاولة إعطاء مظهر شيء، أو إعطاء تأثير شيء آخر». إن التشبيهات التربوية لا تتضمن بالضرورة المنافسة، وقد صممت لتزويد الطلبة بخبرات، لا يمكن تزويدهم بها بأي طريقة أخرى، أو أن هذه الطرائق ليست ملائمة للتزويد بهذه الخبرات.

يتضمن التشبيه دائما نموذجا يكون صورة مبسطة من الواقع، إذ أن النموذج يقلل من التعقد الموجود في مواقف الحياة الواقعية. وتؤخذ عادة من الواقع تلك الأجزاء الأساسية فقط لأهداف التعلم.

تمثيل الدور:

يتضمن هذا النوع من التشبيه عنصر التمثيل، وربما يكون السبب في تسمية التشبيهات التمثيليات، غير أن لتمثيل الدور أهدافا تربوية مهمة أخرى. والغاية عادة من تصميم هذا النوع من التشبيه، تزويد المشتركين بالخبرات الشخصية التي يستحيل تزويدهم بها بطريقة أخرى. قد يكون تمثيل الدور ضروريا لتزويد المشارك بالخبرة، كما يحدث عادة في تمثيل دور أعضاء البرلمان، أو تكون الأدوار الفردية ثانوية، ولكن جمعها يخلق خبرة عامة للمشتركين، كما يحدث في حالة تمثيل دور إقرار الأولويات.

هناك نوع خاص من تمثيل الدور الذي يطلق عليه أوراق في السلة أو الملف. وقد صممت هذه التشبيهات من أجل تطوير مهارات اتخاذ القرارات لدى طلبة كلية الادارة. وهنا يواجه المتدرب بملف يتضمن الرسائل والمذكرات، والقرارات المالية وغير المالية التي اتخذتها هيئة المؤسسة المذكورة، والتي يمكن أن تقدم الى مدير المؤسسة في يوم اعتيادي. يتوقع من الطالب الذي يلعب دور المدير أن يدرس جميع هذه الأوراق، ويصدر أوامره، ويرسل الرسائل، ويجري الاتصالات الهاتفية، ويخطط للاجتماعات القادمة، كأنه في موقف وظيفة حقيقية.

إن دراسة الحالات عبارة عن تدريبات معقدة من اتخاذ القرارات ، تتضمن عادة درجة عالية من العمل التحليلي والتقييمي . تستخدم هذه الطريقة أكثر من غيرها من طرائق التشبيهات . توصف المواقف في هذه الحالة وصفا حقيقيا أو خياليا . يطلب من المشتركين أن يقرروا ما يجب عليهم أن يقوموا به ، أو يطلب منهم أن يسوقوا الاحتمالات ، من أجل حل الإشكال . إن دراسة الحالة طريقة فعالة في إثارة المناقشة التي تدور حول مشكلة مشتركة ، تركز على الخبرات . وهي تتصف بالسماح للطلبة أن يبقوا بعيدين عن نتائج القيام بعمل . ولهذا السبب فإن بعض المؤلفين يعدونها شيئا يقع خارج التشبيهات التربوية . على أن دراسة الحالة عنصر أساسي من عناصر تمثيل الدور ، ولهذا السبب تعد جزءا من التشبيهات التربوية .

يمكن دراسة حالة جامعة معينة أو قسم معين ، وطرح المشكلات التي تعانيها تلك الجامعة أو القسم ، ويقوم الطلبة بعد الاطلاع على المشاكل والإمكانات برسم الخطة الكفيلة للتغلب على تلك المشكلات .

أهداف التشبيهات والألعاب التربوية :

إن الأهداف التربوية هي نقطة البداية في كل تقنية تربوية ، ولولاها لأصبحت عمليتا التربية والتعليم مبتورتين ، ندرج أدناه بعض الأهداف التربوية التي يمكن أن تحقق بواسطة التشبيهات والألعاب التربوية . ومما هو جدير بالذكر أنه قد لا يمكن تحقيق جميع هذه الأهداف التربوية بواسطة تشبيه أو لعب تربوي واحد ، على أن بعض التشبيهات التي صممت بطريقة جديدة تستطيع أن تحققها جميعا :

١ - إثارة الدوافع لدى الطلبة .
٢ - خلق موقف تعلم ممتع للطلبة .
٣ - ضمان مشاركة الطلبة في نشاط التعلم .
٤ - خلق موقف يؤدي إلى تعلم أكثر فاعلية .
٥ - ربط التعلم الذهني بالتعلم الانفعالي .
٦ - تعليم « دينامكية » الجماعة .
٧ - توفير التعلم بالخبرة .
٨ - تعليم الوجوه المختلفة لاتخاذ القرارات .

أرجو ألا يفهم من العرض الذي قدمته أن التشبيهات والألعاب التربوية هي الدواء العام الشافي لمشاكل الصف في المدرسة ، ولا يمكن الادعاء بأنها أفضل طريقة تدريس ، يمكن للمدرس أن يستخدمها بأي حال من الأحوال . إن التشبيهات والألعاب التربوية طريقة أخرى ، يمكن للمدرس أن يستخدمها جنبا الى جنب مع الطرائق الأخرى . ولكنه يجب ألا يخفى عن البال أن هذه الطريقة الجديدة تثير الحافز لدى الطلبة ، وتشجعهم على المشاركات الجماعية ، وتشكل اتجاهاتهم بطريقة يشعرون أنها هي اتجاهاتهم الشخصية وليست مفروضة عليهم . إنها طريقة ذات أهمية كبيرة ، تستحق العناية والتجريب . إن أفق التشبيهات والألعاب التربوية اتسع بشكل كبير بإيجاد الآلات المبرمجة (الحاسوب الآلي) المصغرة الحديثة . وبشيوع هذه الآلات أضحينا بحاجة الى مزيد من التشبيهات والألعاب التربوية .

إن الكتّاب العرب مدعوون الى تطوير التشبيهات والألعاب التربوية الغربية السابقة ، أو غيرها ، أو إعداد حقائب تعليمية كاملة منها ، تتضمن اعتبارا من الأهداف التربوية الخاصة ، مرورا بأسس تطبيقها الى التقييم والقياس . والأخيرة إذا ما كيفت مع الحاجات الخاصة أصبحت أنسب من غيرها . فهل هناك من يجرؤ على الدخول في هذا الميدان ؟ ولا ننسى أن تطوير التربية العربية بحاجة إلى مزيد من الجرأة . □

هو.. هي

البيوت أسرار

أعرف أن البيوت أسرار ، لكنني لا أعرف ما هي حدود الأسرار ، ولا أستطيع أن أفرق بين ما يمكنني قوله أمام زوجي وما يمكنني قوله وما يمكنني قوله أمام الناس ، وما أستطيع مناقشته أمام أبنائنا وما لا أستطيع . والسبب في ذلك زوجي الذي عقد هذه الأمور البسيطة أمامي ، بحيث لم أعد أعرف ما أخفي وما أظهر من شؤوننا العائلية أمام الأهل والجيران والأصدقاء ، بل وأمام الأبناء أيضا .

نشأت في بيئة بسيطة متواضعة . والدي حرفي ناجح في حدود حرفته ، ووالدتي ربة بيت مدبرة وذكية ولبقة ، ولم تكن تتردد في مناقشة شؤون البيت والأبناء والعمل ، بل حتى بعض شئون جيراننا وأقاربنا ، مع والدي ، على مسمع ومرأى منا ، ولم يكن أحد منا يشعر بالحرج إذا ما حاسبه والدي على خطأ ما ، ولم تكن والدتي ترى مانعا من سرد تفاصيل عمل سلبي قام به أحدنا على مسمع من والدي وباقي أفراد العائلة ، ولم أسمع والدي يوما يطلب منا الصمت ، أو يقاطعنا ، أو يطلب منا النهوض لكي يستمع إلى ما يريد ، وممن يريد ، على انفراد كما يفعل زوجي في أحيان كثيرة .

لكن زوجي يتصرف بعكس ذلك تماما ، فهو لا يحب الاستماع إلى ما يسميه الثرثرة بأسرار الناس ، ولا يطيق رؤيتي أتحدث بصوت منخفض مع احدى صديقاتى على انفراد ويشعر بالضيق اذا وجدني أتحدث مع بعض جاراتنا على فنجان من القهوة أو الشاي،لكن أكثر ما يزعجه ، حديثي عن مشكلاتنا أمام الأطفال ، أومحاسبة أحد أبنائنا أمام الآخرين ، مع أن المشكلة قد تكون عادية ، لا تحتاج إلى كل هذا التكتم . فإذا قلت له : إن هذه هى الحياة ، أجاب بأنها قد تكون كذلك ، لكنها خطأ . وإن قلت له : إن ما نتحدث عنه في الغالب أسرار صغيرة ، لا يضير أحدا كشفها ، قال : إن الأسرار أسرار . وإذا قلت له : إن من حق أولادنا علينا أن يعرفوا أن الحياة ليست بلا مشاكل ، وأن من الأفضل لنا أن نعالج أخطاء بعض أبنائنا علنا ، ليتعظ أبناؤنا الآخرون يقول : إن هذا يعقد الأطفال ، ويدمر نفسياتهم ، ويضعف ثقتهم بأنفسهم . ومع أنني لا أقتنع بما يقول إلا أنني أضطر للصمت ، حتى لا ينفجر الخلاف المدوي في منزل الأسرار .

..هي



أســرار البــيوت

● زوجتي تعرف أن البيوت أسرار ، لكنها لا تقتنع بهذه المقولة كما يبدو ، وكثيرا ما تكون هذه الحقيقة سببا مباشرا في تعكير صفو منزلنا الهادىء الذي يغلب الانسجام على العلاقات بين أفراده ، والذي نادرا ما سمع أحد عن مشاكل داخله ، أو عرف شيئا من أسراره . وإن حدث ذلك فإن زوجتي هي السبب في الغالب . وعلى الرغم من أنني لا أكف عن الطلب إليها ألا تطرح مشاكلنا أمام أهلها ، أو أمام الجيران ، فإنها ترد ببساطة وتلقائية بأن ما تقوله لا يعتبر من الأسرار ، بل هو أمر عادي في كل البيوت ، وبين أفراد جميع الأسر . فإذا قلت لها : إن للآخرين أن يتصرفوا بأسرارهم كما يشاءون ، ولنا نحن أن نحافظ على أسرارنا ، ردت بأنها ستحاول . ولكي تخفف من غضبي تضيف بتلقائية تامة بأنها طوال حياتنا الزوجية ظلت تحاول ذلك ، إلا أنها لم تنجح . وإذا قلت لها : إن الثرثرة مع جاراتنا على فنجان قهوة أو شاى أمر يحرجني ، ويزعجني ، ترد قائلة : إن ما تقوله هى لا يساوي شيئا مقارنة بما تقوله صديقاتها عن حياتهن الأسرية . وقبل أن تصل الأمور حدا يكدر صفو علاقتنا الزوجية التي قامت على حب واختيار تامين تعدني بأنها لن تقول شيئا ، وأنها ستستمع أكثر مما تتكلم ، أو على حد تعبيرها « تشتري ولا تبيع » .

وإذا ما انتهينا من مشكلة الثرثرة بأسرار العائلة مع الصديقات والأصدقاء أبدأ مع زوجتي في مشكلة أخرى ، هي الحديث العلني عن مشاكلنا الخاصة أمام أبنائنا . فإذا قلت لها : إن هذا يهز صورتنا أمام الأطفال أجابت : إن سماع هذا منا نحن أفضل من سماعه من الجيران أو الأقارب ، وجادلت بأن معرفة الأخطاء ومناقشتها أفضل من التستر عليها والتعامي عنها .

إن بيتا بلا أسرار ليس بيتا على الإطلاق ، وإن إنسانا لا سر له إنسان لا وجود له ، وإن شؤون المنزل الخاصة أمر يجب أن يناقش داخل المنزل ، وليس على فنجان من القهوة ، وإن طفلا ينشأ في جو مثل هذا طفل مشوه الكيان . وهذا ما لا تريد زوجتي الاعتراف به ، على الرغم من وعودها المتكررة بذلك ، والتي أعتقد أنها ناتجة عن حبها لي أكثر مما هي ناتجة عن اقتناعها . وتلك هي المشكلة .

.. هو





طبيب الأسرة
قضايا منزلية

مرض البقع البيضاء

الدكتور : حسن فريد أبو غزالة

أصيبت ابنتي الصغيرة عندما كانت في السادسة من عمرها بمرض في منطقة العجان (بين الفخذين) بطفح أبيض اللون يثير حكة شديدة .

وعلى الرغم من مراجعة العديد من الأطباء واستعمال الكثير من الأدوية لم أجد تحسناً . وقد مضت على ذلك أربع سنوات ، ولم أتبين اسمه تماما . وقد قيل لي إنه مجهول السبب .

فهل لكم أن تصفوه لي ، وأن تعرفوني بطبيعته وعلاجه ؟

السيدة/ فوزية احمد/ ولنجتون ـ استراليا

قد يسميه بعض مرض الحزاز الأبيض ، كما يسميه بعض آخر باسم الحزاز المتصلب . وهو مرض يشيع أكثر ما يشيع بين الاناث ، وبخاصة في مرحلة ما قبل البلوغ ، وفي مرحلة ما بعد انقطاع الطمث التي تعرف باسم سن اليأس ، ومع هذا فهو مرض لا يستثني أحدا ولا عمرا .

أعراض المرض وعلاقاته : يشكو المريض من حكة في موضع الاصابة ، وبخاصة منطقة العجان فيما بين الفخذين ، حيث فتحة الشرج والأعضاء التناسلية ، إذ ينتشر طفح متفاوت الحجم ، مختلف الأشكال ، على هيئة حبيبات بيضاء عاجية اللون ، تحيط بها دائرة حمراء . هذه الحبيبات المتناثرة في مبدأ الأمر تلتئم وتتماسك ، ثم يصيب المنطقة ضمور ، ثم يصبح في كل حبيبة انخساف تملؤه سدادة قرنية الملمس .

ثم تتطور الحالة ، فتظهر بعض الحويصلات ، ويتلون الجلد ، ويتجعد . ولا يعرف الطب سببا مباشرا للاصابة ، وإن كان بعض ينادي بوجود خلل هرموني عند الانسان المصاب .

على أي حال فالمرض حميد العاقبة على الرغم من طول مدة الاصابة التي تتخذ صورة مزمنة .

وإن الأطباء لم يستقروا على سبب يجمعون عليه ، فالعلاج ما زال اجتهاديا ، إذ يستعمل بعض عقاقير الكورتيزون ، سواء منه الدهانات الرخيصة أو الأقراص التي تؤخذ بالفم . كما أن بعضا آخر قد يلجأ إلى الهرمونات الأنثوية وفيتامين (سي) ، ولا أحد يميل إلى الاستئصال الجراحي ، إلا إذا داخله الشك في وجود تغيرات سرطانية خبيثة ، ويخشى منها على حياة المريض .



ردود سريعة

■ الأخت / ع . فاطمة ـ المغرب

لماذا لا تستشيرين طبيبا مختصا في أمراض النساء ، ليقوم على فحصك وتقصي سبب معاناتك قبل البحث عن العلاج لعله مجهول الأسباب ؟ !

■ الأخ / س . م . ف ـ عمان ـ الأردن

يصعب الحكم على سبب تقصف أظافر القدم وبطء نموها ، فربما كان نقصا في الحديد وحاجة الجسم إليه ، أو ربما كان سببا آخر ، لهذا فأنت بحاجة إلى فحص طبيب مختص في الأمراض الجلدية والعمل بنصيحته بعد استشارته .

■ الأخت / ش . ص ـ حولي ـ الكويت

ربما كان هناك عامل وراثي أثر في تحدب قرنية العين وهو السبب في شيوع لبس النظارة بين أفراد الأسرة كلها ، لكن النظارة لا تشفي من عيوب البصر ولا تزيدها سوءا بل هي تريح النظر وتساعد صاحبها على القراءة ، وقضاء حاجاته اليومية دون متاعب ، غير أن اعادة الكشف وتعديل قوة العدسة بين حين وآخر أمر لازم ، وعيوب النظر لا تعتبر مرضا بالمعنى الدقيق بقدر ما هو عيب خلقي أو مكتسب لتحدب القرنية أو حجم العين .

■ السيد / ج . م ـ المغرب

لماذا لا تعرض نفسك على أخصائي الأمراض الجلدية ليتولى فحصك ويتقصى سبب معاناتك ومن ثم يصف لك ما يراه مناسبا لعلاجك ؟ !

■ الحائر / ص . ب . ف ـ حضر موت ـ المكلا

إن استئصال الخصية اليسرى لا يؤثر على الكفاءة الجنسية ولا يسبب العنة أو الضعف ، كما أنه لا يسبب العقم وعدم الانجاب ما دامت الخصية الأخرى سليمة فلا داعي للقلق ، أما عن طولك ووزنك بالنسبة لعمرك فيبدو أنك تميل إلى البدانة ويا حبذا لو نقص وزن جسمك بضعة كيلو جرامات ، لأن هذا أفضل لمستقبل صحتك .

■ الأخت / س . ص ـ بانياس ـ سوريا

النحافة ليست مرضا في حد ذاتها ، وإنما هي ظاهرة تصاحب الكثير من الأمراض وليس لها سبب معين محدد ، وإنما أسبابها عديدة وعلاجها يكون بعلاج السبب.ولهذا فلا بد من كشف شامل ، يتولاه طبيب مختص لتقصي الأسباب المسببة للمرض الذي أحد مظاهره النحافة ، ومن ثم علاجه ، فالحميات والأمراض المعدية كالدرن والتيفوئيد على سبيل المثال أو الأمراض النفسية جميعها تسبب الهزال والنحافة ، وهكذا وعلى أية حال فنحن نرجو أن تتاح الفرصة لطرح قضية النحافة موضوعا رئيسيا في باب طبيب الأسرة تعالج فيه شتى جوانب هذه الظاهرة .

■ السيد / ح . غ . ق ـ مراكش ـ المغرب

ان وصفك لمشكلة أذنك لا يكفي لتشخيص مرضك ، بل الأمر يحتاج إلى كشف من أخصائي الأذن وإجراء تحليلات وصور أشعة ، ولهذا قد يكون من الأصوب تزويدنا بتقرير طبي من طبيب مختص فربما نستطيع المشورة عليك برأي صادق ، ولكننا ننصحك بالتزام رأي الطبيب المختص المعالج ، كما أن ضعف السمع في مثل حالتك أمر متوقع فلا داعي للقلق أو الدهشة .

■ السيد / ل . ع . م ـ دمشق ـ سوريا

ننصحك بمراجعة طبيب مختص لفحصك مع طمأنتك مبدئيا بأنه لا خطر عليك أبدا . □

مساحة ود!

قال المغني

جلس المغني على كرسيه في منتصف المسرح . العود في يده ، ومكبر الصوت « الميكرفون » أمامه ، وخلفه وقف الموسيقيون ، وبدأ الاحتفال . كان صوت المغني عاديا جدا ، لكن كان هناك أكثر من شيء غير عادي في الاحتفال عموما ، فالكلمات التي اختيرت من قصائد لكبار الشعراء العرب لم تكن شيئا عاديا ، والأداء الذي لم يعتمد على الصوت الجميل لم يكن عادياً ، كما لم يكن عاديا تمكن المغني من خلق علاقة مع جمهور الحاضرين ، وتحويلهم من شخصيات سلبية بحكم وجودها في ذلك الجزء من القاعة الذي يفترض فيه التلقي ، إلى جمهور مشارك في أداء الغناء الذي سيطر على جو القاعة من بداية الاحتفال حتى نهايته ، من أول القاعة حتى آخرها .

غنى الجمهور واقفا ، وغنى جالساً ، وضبط بتصفيق الأيدي ودق الأرجل إيقاعا جميلا بلا آلات موسيقية . غنى المغني وصفق الجمهور ، وغنى الجمهور وصفق المغني ، واشترك الجمهور والمغني في غناء استفاد من أصوات أنين المجروحين ، ومن هتافات المتظاهرين ، ومن غناء عمال البحر والصيادين ، ومن ترانيم الأمهات لأطفالهن في الليالي الحزينة .

كان كل شيء في الاحتفال جديداً ، من كلمات الأغنيات إلى ملابس المغني العادية المتواضعة ، إلى العلاقة التي نشأت بين المغني والجمهور ، واستمرت طوال مدة الاحتفال . كان ما رأيته غناء « وليس طربا » ، وما قام به الجمهور مشاركة في الاحتفال وليس تلقياً .

صورة جديدة للغناء تختلف عما ألفناه منذ سنين ، حين كان يقف « المطرب » على المسرح ببذلته السوداء اللامعة وقميصه الأبيض ذي الأزرار الذهبية ، ويبدأ باستعراض إمكانياته الصوتية أمام جمهور أتى ليستمع ويصفق لمهارات « المطرب » ، حتى ينتهي الاحتفال ، فليس مسموحا ضمن تقسيم الأدوار بين المطرب والجمهور بأكثر من هذا .

وما فعله مارسيل خليفة ، بهذه الطريقة الاحتفالية الغامرة ، فعله فنانون آخرون في مصر والعراق وفلسطين والمغرب ، كل بطريقته الخاصة . أما الهدف فهو إعادة الاعتبار للعلاقة بين المغني والجمهور الذي حضر ليحتفل ، لا ليشاهد حفلا ، وليتحول من متفرج ومستمع سلبي الدور ، إلى مشارك في عرس أو تظاهرة صاخبة ، أو أغنية حب دافئة ، أو أنة حزن دفينة ، فمهمة « المغني » أن يغني مع الحاضرين وهم ، وليس ليطربهم بإمكاناته الصوتية مهما كانت كبيرة . □

صلاح حزين

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

يونيو
١٩٨٩



رئيس التحرير : د. محمد الرميحي



يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

في هذا العدد





- استطلاع "الفنون الشعبية".
- لهام .. "قصة بالرسوم".
- دعوة لزيارة "سلطنة عمان".
- ذات الهمة "الحلقة السادسة".
- شجرة الدر "مسلسل تاريخي".
- من أيام الطفولة .. بهجت عثمان .

إضافة للأبواب الثابتة

- اسلاميات
- كمبيوتر
- ٨ صفحات لأخيك الصغير واختك الصغيرة
- دائرة معارف العربي الصغير



نتيجة مسابقة العدد ٣٩

جمال العربية

□ صفحة لغة
□ هكذا غنى الأنباء

بقلم : الدكتور حسن عباس

كلمات نتحاشى استعمالها وهي صحيحة

لا نحسب أن الادعاء القائل بأن الفصحى لغة ، والعامية لغة أخرى يستقيم أمام النظرة الفاحصة المتبصرة ، فنحن إذا نحينا الدخيل من اللهجات أمكننا إرجاع أكثر المفردات الدارجة على ألسنة العامة إلى أصولها العربية الفصيحة . والتحريف الذي يلحق الكلمة حتى تتحول من كلمة فصيحة إلى أخرى عامية لا يجاوز القلب أو التخفيف أو التضعيف أو نحو ذلك ، ولكن الصحيح الثابت هو أن الفصحى والعامية تمثلان مستويين من مستويات الخطاب ، لا لغتين مختلفتين ، فإن بينهما من الوشائج وصلات القربى ، ما لا يغفل .

ولقد أتيحت للفصحى فرصة للظفر بالعامية ، حين عم استعمال ما يمكننا أن نسميه « الفصحى الميسرة » ، أو « الفصحى المعاصرة » ، عن طريق الصحافة العلمية والأدبية والسياسية منذ قرن ونيف ، وقد ساعد ظهور هذا المستوى الميسر من الفصحى على اقتباس أنواع أدبية جديدة ، لعل اقتباسها كان متعذراً في ظل الأساليب التي كان يحلو لأصحابها أن يزينوها بالسجع والبديع والجزل الفخم من الألفاظ ، بل وبالغريب الحوشي منها ، مما لم يعد له وجود إلا في معاجم اللغة . ومن هذه الأنواع التي استحدثت في أدبنا العربي : الرواية والمسرحية والقصة القصيرة . ثم ساعد ظهور الإذاعتين المسموعة والمرئية على شيوع هذه اللغة ، فعم انتشارها ، حتى غدت تطرق أسماع الجماهير صباح مساء ، ومن الجماهير من لم يُقِم أي شكل من أشكال العلاقة مع الكتاب أو الكلمة المكتوبة حيثما وجدت .

وهكذا قدر لهذه الفصحى الميسرة أن تغدو لغة الأدب الحديث ، ولغة الصحافة على تعدد ألوانها ، بل ولغة الحديث اليومي لدى الأوساط التي أتيحت لها مستويات مرموقة من التعليم والثقافة . ومن هنا ندرك أن انتشار التعليم ، وازدياد حظ الناس منه ، جديران بإحلال الفصحى المعاصرة محل العامية ، أو التخفيف من غلواء الأخيرة وإغراقها في المحلية على أي حال .

وليس كل كلام العامة حوشياً ، ينفر منه الذوق الأدبي ، ويأباه الحس الفني ، بل إن فيه كلاماً فصيحاً ، حسب الناس أنه عامي لكثرة دورانه على الألسنة ، وجاوزه الذوق العام لطول الإلف والعادة . ولكنه يظل فصيحاً على الرغم من الحلة الشعبية التي يرتديها .

كنا في العدد الماضي (٣٦٦) قد وقفنا على جانب من تلك الألفاظ العامية الفصيحة ، كما

أوردها الدكتور محمد داود التنير ، في كتاب « ألفاظ عامية فصيحة » ، ونقف اليوم على جانب آخر من تلك الألفاظ والصيغ :

*** الطيِّب** : ومن تلك الألفاظ قول الناس : فلان رجل طيِّب ، ويحسبها بعض الناس عامية ، وهي عربية فصيحة ، فالطيب من الناس من تخلى عن الرذائل وتحلى بالفضائل .

*** طيِّب** : تستعمل هذه الكلمة كثيراً للتصديق على الكلام ، أو لوصله ، أو لاستحسان بعضه ، أو للتهكم من بعضه الآخر . والكلمة عربية فصيحة ، ومع ذلك نتجنبها في الكتابة ، ونشيح عنها عند ترجمتنا للكلمة المماثلة في اللغات الأجنبية . فكلمة طيب معناها كلام طيِّب . وطاب الشيء طيبا وطيبة : جادَ وحسن ، ومعناها زَكَا وطَهُرَ . والطيِّب هو ماخلا من الأذى والخبث ، وكل ما تستلذه الحواس والنفس .

*** طهارة المولود** : نتحاشى عبارة « طهَّر المولود » أو يوم طهارته ، ونستعمل بدلاً منها خَتَنه ختانا ، خشية الانزلاق إلى العامية ، ولكن العبارة الأولى صحيحة فصيحة ، شأنها شأن الأخرى .

*** الطقطقة** : يقولون في الكلام : فقرات ظهري تطقطق ، أو أن الأرض الخشبية كانت تطقطق وهو سائر عليها ، وهي فصيحة ، فلفظة طقّ هي حكاية صوت الحجر أو الحافر ، والطقطقة فِعلَةٌ مثل الدقدقة ، معناها صَوَّت ، أو كثر صوته ، أو تفرقع ، وهي تكرار طَقَّ .

*** العتب على النظر** : عبارة يقولها الناس حين يعتذرون عن عدم رؤية شيء ، والأصل صحيح ، فالعتب هو النقص والفساد ، وهو أيضاً الشدة والأمر الكريه ، وكأنهم يقولون : عفوا فالنقص في البصر .

*** العَتَمة** : ويقولون جاء في العَتَمة ، ولم أره في العَتْمة (وينطقها العامة أحياناً بتسكين التاء) وهي فصيحة ، فعتمة الليل ظلام أوله بعد زوال نور الشفق .

*** عجَّزنا وعجَّزت** : يقولون : عجَّزنا ، أو عجَّز فلان ، أو عجَّزت المرأة ، أي صارت عجوزاً . والعجوز هو الهرم للمذكر والمؤنث . وعجَّزت تستعمل في الكلام ، وتجتنب في الكتابة أو في الكلام الفصيح ، مع أنها فصيحة . فعجَّزت المرأة معناها صارت عجوزاً وعجوزة ، وهو الاستعمال الدارج ، وكلها فصيحة .

*** خرِّيج** : يقولون : هو خرِّيج كلية كذا ، ونتحاشاها في الفصحى ، ونقول خِرِّيج ، مع أن كلتيها فصيحتان .

*** البيَّاع** : يتحاشى الناس استعمال كلمة البيَّاع في اللغة الفصيحة ، ويستعملون « البائع » ، مع أن كلتيها فصيحتان ، ولا حرج في استعمالها .

*** البير** : تسهيل البئر ، وهي فصيحة . فالعرب أبدلوا الهمزة لغير علة للتخفيف (عن شفاء الغليل لابن جني) .

*** بَطَّن الثوب** : بَطَّن الثوبَ وأبطَنَه جعل له بطانة ، وهي فصيحة . والبطانةُ هي ما يُبَطَّنُ به الثوب ، وهي خلاف ظهارته : (بطائنها من استبرق) « قرآن كريم » .

*** الأنف** : يقولون فلان أنِف ، يعنون أنه متكبر أو متعال ، وهي فصيحة . والأصل أَنِفَ ، وأنِفَ منه أَنَفاً وأَنَفَةً معناها استنكف واستكبر . والأَنَفَةُ هي العزة والحمية .

*** أين ؟** : يقولون : من اين ؟ (بتخفيف الهمزة) ، ولا غبار عليها . وينطقونها وكأنها « منين ؟ » . كما يقولون في اين ؟ بالتخفيف أيضاً فينطقونها وكأنها « فين » ؟ .

*** الرَّمْرَمَةُ** : يقولون فلان رمرام ، وأكله رمرمة ، يعنون أنه يقبل على الأكل بلا تمييز أو مراعاة لنوعيته ، وهي فصيحة . فرمرم الرجل وغيرها معناها أكل ما سقط من الطعام ولم يتوقَّ قَذَرَهُ . وفي حديث الهرة (حبستها فلا أطعمتها ولا أرسلتها ترمرم من خشاش الأرض) . □

لو أن أرضي حرة!

للشاعر ابن حمديس

تروي كتب الأدب - ويؤكد الشاعر نفسه - أن المعتمد بن عباد لم يأبه بابن حمديس عندما جاء اشبيلية ، فقد أقام فيها زمناً قانطاً قنوطاً ، أوشك معه أن يعود إلى بلاده . وقد نوه ابن حمديس بذلك في مقدمة القصيدة (٣٤٤) من ديوانه الذي حققه الدكتور إحسان عباس فقال :

« أقمت في أشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إليَّ ولا يعبأ بي ، حتى قنطت لخيبتي مع فرط تعبي ، وهممت بالنكوص على عقبي ، فإني لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذا بغلام معه شمعة ومركوب فقال لي : أجب السلطان ، فركبت من فوري ودخلت عليه فأجلسني ، وقال لي : افتح الطاق التي تليك ، ففتحتها ، فإذا بكور زجاج على بعد ، والنار تلوح من بابيه ، وواقده يفتحهما تارة ويسدهما أخرى ، ثم دام سدّ أحدهما وفتح الآخر ، فحين تأملتهما قال لي أجز :

انظرهما في الظلام قد نجما فقلت: كما رنا في الدجنة الأسد

فاستحسن ذلك ، وأمر لي بجائزة سنية ، وألزمني خدمته».

لم تلبث نشوة الأيام الجميلة التي عاشها على مقربة من حاكم أشبيلية أن تتبدد . فبعد سقوط الجزيرة - جزيرة صقلية - وضياع الوطن مات والد ابن حمديس ، وقد ضاعف من حزنه وألمه أن يموت والده وهو غريب عن بلده ، عاجز عن أداء الواجب . ورثاه بقصيدة مؤثرة أعاد فيها إلى الذاكرة مشاعرهما الفياضة يوم الفراق . ثم مات عدد من أهله وأصدقائه وهم يدافعون عن الجزيرة ، وكان أشد ما يؤلمه في فقده لهم أنهم غابوا دون أن يتمكن من إلقاء النظرة الأخيرة عليهم .

وعلى الرغم مما تركته تلك الأحداث من أثر في نفس ابن حمديس - وفي مقدمتها ضياع صقلية - فقد صمد لها ، وظل ينعم بالعيش - إلى حين - في ظل المعتمد بن عباد ، ويؤكد له في مدائحه أنه متماسك صامد بفضل رعايته له وحدبه عليه . ولم يكن يعلم أن الأيام تتربص بصاحبه وولي نعمته ، فما إن انتهت معركة الزلاقة المشهورة التي أبلى فيها حاكم أشبيلية بلاءً حسناً حتى اعتقله المرابطون الذين دخلوا الأندلس بقيادة ابن تاشفين ، وانتهت بذلك أسطورة المعتمد بن عباد رجل الدولة والشاعر الأديب ، واقتيد إلى « أغمات » في المغرب حيث ظل سجيناً هناك حتى وافاه الأجل .

بسقوط دولة ابن عباد أقفر قصره ، وانفض الشعراء والأدباء من حوله ، وتفرق جمعهم ، إلاقِلّة منهم ظلت على الوفاء ، وفي مقدمة هؤلاء يقف ابن حمديس أميناً مخلصاً ، فقد دأب على زيارته في

سجنه ، وظل يمدحه أسيراً كما كان يمدحه سلطاناً ، بل إنه رأى في نكبة المعتمد نكبة له ، وفي ضياع ملكه ضياعا للوطن الثاني الذي كاد ابن حمديس يطمئن إليه . لذلك أمسك عن مدح المرابطين فلم يقترب منهم أثناء ارتحاله في المغرب وانتقاله من مدينة إلى أخرى جوّاباً ضائعاً لما يقرب من أربعين عاماً ، وامتدح ـ لضرورات العيش ـ من كانوا دونهم ، وأقل منهم شأناً . ومن مدائحه هذه القصيدة التي يشكو فيها الزمان وسوء الحال أكثر مما يمدح :

تَدَرَّعْتُ صبري جُنَّةً للنوائبِ ... فإن لم تُسالِمْ يا زمان فحاربِ
عجمتَ حصاةً لا تلين لعاجم ... وَرُضْتَ شَمُوساً لا يذلّ لراكب
كأنّك لم تقنع لنفسي بغربةٍ ... إذا لم أُنَقّب في بلادِ المَغارب
[بلاد جرى فوق البُلادة ماؤها ... فأصبح منه ناهلاً كلُّ شارب]
فُطِمْتُ بها عن كلِّ كأس ولَذّةٍ ... وأنفقتُ كنزَ العمر في غير واجب
يبيت رئاس العضب في ثِنْي ساعدي ... مُعاوَضَةً من جِيد غيداء كاعب
أتحسبني أنْسَى ، وما زلت ذاكراً ، ... خيانةَ دهري أو خيانة صاحبي
تَغَذّى بأخْلاقي صغيراً ولم تكنْ ... ضرائبُه إلاّ خِلافَ ضرائبي
ويا رُبَّ نَبْتٍ تعتريه مرارَةٌ ... وقد كان يُسقى عذبَ ماء السحائب
علمتُ بتجريبي أموراً جهلتها ... وقد تُجهل الأشياء قبل التجارب
بصادقِ عزْم في الأماني يُحلّني ... على أمَلٍ من همّةِ النفس كاذب
ولا سَكَنٌ إلا مناجاة فِكرةٍ ... كأني بها مُستحضرٌ كلَّ غائب
ولما رأيْت الناس يُرْهَب شرهم ... تجنّبْتُهمْ ، واخترْت وَحْدَةَ راهب
أحَقّ خيَال كنت أحظى بزَوْرِهِ ... له في الكرى عن مضجعي صدّ عاتب
فهل حال من شكلي عليه فلم يَزُرْ ... قضافةُ جسمي وابيضاضُ ذوائبي
ولو أنّ أرْضي حُرّةٌ لأتَيْتُها ... بِعَزْمٍ يعُدّ السيرَ ضربةَ لازب
ولكنّ أرضي كيف لي بفكاكها ... من الأسْر في أيدي العلوجِ الغواصب
أحين تفانى أهلها طوْعَ فتنةٍ ... يضرّم فيها نارَه كلُّ حاطب
ولم يرحم الأرحامَ منهم أقاربٌ ... تروّي سيوفاً من نجيع أقارب
حُماةٌ إذا أبْصَرْتَهُمْ في كريهَةٍ ... رضيتَ من الآساد عن كلِّ غاضب
إذا ضاربوا في مأزق الضرب جرّدوا ... صواعقَ من أيديهمُ في سحائب
أولئك قومٌ لا يُخاف انحرافُهُمْ ... عن الموت إن خامَتْ أسودُ الكتائب
إذا ما غَزَوْا في الرّوم كان دخولُهُمْ ... بطونَ الخلايا في مُتون السّلاهب
يموتون موتَ العِزّ في حَوْمةِ الوَغى ... إذا ماتَ أهلُ الجبنِ بين الكواعب
حَشَوْا من عجاجاتِ الجهادِ وسائداً ... تُعَدّ لهم في الدّفن تحت المناكب
فغاروا أفولَ الشهب في حُفَرِ البِلى ... وأبْقَوْا على الدنْيا سَوادَ الغياهب
ألا في ضمانِ الله دار بِنوطَس ... وَدَرّتْ عليها مُعْصِراتُ الهواضب
أُمَثّلُها في خاطري كلَّ ساعةٍ ... وأمْري لها قَطْرَ الدّموع السواكب
أحنّ حنينَ النيبِ للموطنِ الّذي ... مغَاني غوانيه إليهِ جواذبي
ومن سار عن أرْضٍ ثَوَى قلبُهُ بها ... تَمَنّى له بالجسم أوبةَ آيب

تستأثر صقلية بالكثير من شعر ابن حمديس ، وفي هذه القصيدة ـ على وجه التحديد ـ يتحول حب الشاعر لصقلية وحنينه إليها إلى ما يشبه الثورة على الزمان وعلى الناس ، وهو موقف طبيعي منتظر ، فقد قالها في مدح أمير المهدية في المغرب في أواخر القرن الخامس الهجري (أوائل القرن الثاني عشر الميلادي) وكان قد غادر الأندلس بعد نكبة المعتمد بن عباد،وفي تلك الأثناء سقطت صقلية ودخلها الروم ، فثارت ثائرة الشاعر على النحو الذي تبديه أبيات القصيدة .

في غمرة اليأس والغضب يخاطب الشاعر زمانه قائلاً : « كنت من قبل قد لبست ثوب الصبر لأخفي به المصائب والمحن ، أما الآن فليس أمامك إلا أن تسالم ـ أيها الزمن ـ أو أن تنازلني القتال . فإن شئت أن تقاتل فقد عجمت حصاة صلبة لا تلين ، وركبت حصاناً عنيداً حروناً لا يذل لراكب . ألم تقنع بما أصابني من اغتراب بتّ على أثره أجوب بلاد المغرب ، مبدداً العمر في شقاء بعد أن كنت في وطني أعب من كأس الحياة ولذائذها عباً ؟ هنا يبيت السيف في ثني ساعدي ، وهناك كانت يدي تطوق عنق غادة جميلة » .

ويروق للشاعر أن يسترسل في ذكر السيوف ، ويقول : إن له فيها مآرب كمآرب موسى في عصاه ،ولكنه ينحّي جانباً فكرة حرب الزمان وما يستتبعها، ولعله قد رجح لديه أن تكون هناك خيانة صاحب فضلاً عن غدر الزمان ، فقد علّمتْهُ التجربة ما كان يجهله من قبل ، فكثيراً ما يسقي ماء المطر العذب نباتاً ، ولكن ذلك النبات ينمو وفيه مرارة ، وهذا هو شأن بعض الصحاب الذين تمحضهم ولاء وودا ، ولا تجني منهم غير الإساءة .

يقول الشاعر : كنت حين قدمت أمنّي النفس بالآمال ، وقد خابت آمالي بعد أن رأيت الناس يبادرون بشر يثير الرهبة ، فتجنّبتهم واخترت وحدة أشبه بوحدة الراهب ، ليس هذا فحسب ، بل إن طيفاً كان يزورني في المنام صدّعني هو الآخر .

على هذا النحو يصور ابن حمديس حياة الوحدة والوحشة والغربة عن الناس والوطن .

ولو لم تكن أرضه محتلة لما تريث وانتظر ، بل لسار إليها بعزم

ولـكـن أرضـي كـيـف لي بـفـكـاكـهـا   من الأسـر في أيـدي العـلوج الغـواصـب

وهذه الصرخة التي تمتزج بالألم والحسرة تخفي الكثير من الشكوى ، ولكن الشاعر لا يقف طويلاً عند مأساة ضياع بلاده ، بل يؤثر تعداد فضائل قومه ، وذكر بلائهم في قتال العدو ، فذلك أولى بالانصاف وأدعى إلى الطمأنينة .

إنهم على هذا القدر من البأس والاقدام والتضحية والقوة ، فكيف ضاعت صقلية إذن ؟ إذا نحينا جانباً مسئولية أبناء صقلية أنفسهم في ضياع الوطن لأن ابن حمديس لا يقف عندها طويلاً ، فهو يصفها بالتفاني في الفتنة (أحين تفانى أهلها طوع فتنة) فإن سبباً لم يعلنه الشاعر ولم يتطرق إليه ـ أنفة وكبرياء ـ يكمن في تخلي المسلمين عن وطنه عندما دعت دواعي الجهاد كما يرى الدكتور إحسان عباس (العرب في صقلية) : « . . إنه لا يتفجع على وطنه ليستصرخ الناس ويستنجدهم ، ويهيب بهم للعمل من أجل وطنه باسم الدين أو باسم الجهاد . . هو ناقم حقاً ولكن على من ؟ . . كان شعوره الداخلي يحدثه أن هنالك مسئولية أكبر تقع على عاتق المسلمين الذين تخلوا عن صقلية حين كانت في حاجة إلى نصير ، ولكن عوامل نفسية من القوة لم تُخل بينه وبين الافصاح عن هذا الشعور ، فذهب ليتحدث عن غدر الصاحب وخيانته . . وهو مندهش مستغرب من السلبية المطلقة التي واجه المسلمون بها ضياع وطنه . . » .

وهذا تأويل صائب لا يسع المرء معه وهو يرى أجزاء من الوطن العربي تسلب وتغتصب إلا أن يقول : ما أشبه الليلة بالبارحة ! □



ديفيد ثرو

تجربة وفكر مع الطبيعة

بقلم : طارق الحجي

يعد « هنري ديفيد ثرو » امتدادا لمدرسة جان جاك روسو التي كانت تدعو إلى البساطة في الحياة والعلاقات الانسانية ، واستلهام غايات الطبيعة وتأثيراتها في مواجهة التعقيد الشديد الذي شمل مناحي الحياة نتيجة للتقدم المدني والمادي . كان ذلك في القرن الثامن عشر ، ترى ماذا يقول لو شاهد ما وصلت إليه البشرية اليوم ؟

هو أحد أقطاب الفكر الأمريكي في القرن الماضي ، وإن حاول البعض تجاهل آثاره الفكرية ، فان في كل جيل من الأجيال الامريكية فئة من ذوي العقول النيرة الذين يجدون في أفكاره ومبادئه ضالتهم المنشودة .

دخل هنري ثرو عالم الفكر والأدب منذ صباه ، ولكنه بعد اكتمال رجولته لم ينظر إلى هذا الأدب على أنه مجرد شعر وقصائد وروايات ، كما فعل كثيرون غيره فنالوا الشهرة والمكاسب ، بل عده تراثا إنسانيا يتكامل عبر العصور والأجيال فيضيء الطريق إلى المعرفة والعلوم لتتوصل البشرية بفضله إلى حياة فاضلة ترفع مكانة الإنسان ، هكذا عرف ثرو الأدب وهكذا أراده طوال حياته ، فكانت أفكاره ومبادئه التي تمسك بها وطبّقها في حياته اليومية ، تعد غريبة على المجتمع الأمريكي الذي كان في طور النمو والتوسع على أسس رأسمالية تستغل طاقات البشر والطبيعة لمصالح طبقة معينة .

حياته :

ولد هنري ثرو في مدينة « كونكورد » القريبة من بوسطن بولاية « ماسشيوستس » الأمريكية سنة (١٨١٧) في أسرة متوسطة الحال ، وقد نشأ منذ طفولته في تلك البيئة التي تحيط بها الغابات الخضراء ، والأنهار الجارية ، والطبيعة بكل ما فيها من جمال وتناسق ، مما زرع في نفسه ولعه المبكر بكل ما في الطبيعة من سحر وجمال ونظام بديع التناسق ، وكائنات متعددة الأنواع ، فكان أسير هذه الطبيعة ، وما فيها من أسرار وألغاز طوال حياته والتي تعامل معها بأسلوب العالم والمفكر المتأمل .

أنهى ثرو المراحل الأولى من تعليمه بكل اجتهاد ، وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره التحق بجامعة « هارفرد » في بوسطن سنة (١٨٣٣) التي أنهى دراسته فيها بتفوق سنة (١٨٣٧) ، حيث أشبع رغبته وولعه الشديدين بالاطلاع والقراءة في مختلف النواحي الفكرية بكل جد واهتمام ، وقد درس بتعمّق موضوعات مختلفة كثيرة منها الأدب الإنجليزي والكلاسيكي والفلسفة الشرقية واليونانية ، وتاريخ البشرية بالإضافة إلى كل من اللغة اللاتينية والإغريقية .

حصل ثرو على أعلى درجات التعليم في زمانه ، فكان من الطبيعي أن يلتحق بعمل أو وظيفة تؤدي به إلى مركز مرموق في مجتمعه ، بعد أن أثبت تفوقه بكل جدارة ، ولكن تأثره العميق بما اطلع عليه من علوم وآداب تحمل بين طيّاتها أفكارا فلسفية عميقة عن الوجود والطبيعة والإنسان ، هذا بالإضافة إلى تعلقه الشديد فكريا ونفسيا بكل ما في الطبيعة من جمال وجلال جعله يتجه اتجاها فريدا يخرج به عن الإطار المألوف في المجتمع .

لقد وجد أن المجتمع الأمريكي يدفع بأفراده إلى الانغماس في كل ما هو مادي ، وبشتى مظاهر الترف والإسراف ، بينما يعاني الكثير منهم الفقر والجهل .

كما لاحظ أن الاتجاه المادي للمجتمع الأمريكي يشكل خطرا على البيئة وكل ما في الطبيعة من عناصر وكائنات، وبهذا فهو من أوائل الذين نادوا بالحفاظ على التوازن في الطبيعة وحماية البيئة المحيطة بالإنسان . لهذه الأسباب وغيرها وجد ثرو نفسه يبتعد تدريجيا عن نمط الحياة الأمريكية ، ويقف منها موقف الناقد والرافض لمظاهرها الخادعة .

كان ثرو كثير الاطلاع والقراءة ، واسع الأفق والثقافة ، وضع مبادئه موضع التنفيذ ، والتزم بها ، فعاش حياة بسيطة متواضعة ، وقضى معظم وقته بالدراسة والكتابة ، وإلقاء المحاضرات داعيا الناس إلى إصلاح مجتمعهم ، وأسلوب حياتهم ، والعناية بالبيئة من حولهم ، والتقرب إلى الطبيعة ، وعدم مساس عناصرها ، ومواردها بأي ضرر لأنها مصدر مقومات الحياة البشرية .

قضى ثرو سنوات حياته يدعو إلى هذه المبادىء بكل وسيلة ، وقد شارك بنشاط في حركة فكرية كانت تدعو إلى الإصلاح الاجتماعي ، كان من بين أفرادها خيرة أدباء عصره ، وكان أحد زعمائها الأديب الأمريكي « رالف والدو إمرسون » الذي كان جارا لثرو وصديقا مقربا منه . وكان إمرسون الذي ذاع صيته ، وله مكانة رفيعة في المجتمع الأمريكي أكبر سنا من ثرو ، فكانت علاقتهما علاقة أخوية صادقة ، وكانت هذه الحركة تدعو لبناء مجتمع أمريكي على أسس إنسانية عادلة تشمل مختلف النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

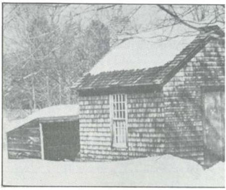
ولقد كان لثرو مواقف مشرفة كثيرة ، خاصة خلال الفترة الأخيرة من حياته القصيرة ، وأهمها موقفه الجريء من مسألة الرق في أمريكا ، إذ كان من أوائل الدعاة المخلصين لتحرير السود من عبوديتهم في المجتمع الأمريكي ، هذا بالإضافة إلى موقفه من حرب الولايات المتحدة مع

المكسيك التي عدها ثرو عدوانا آثما على دولة مستقلة .

تجربته مع الطبيعة :

أراد ثرو أن يقوم بتجربة يضع فيها بعض أفكاره موضع التطبيق ، فعزم عام ١٨٤٥ على الاعتزال بمفرده على ضفاف بحيرة تسمى « والدن » ، تحيط بها الغابات بالقرب من بلدته التي كان يتردد عليها في خلواته ونزهاته منذ صباه ، فقرر بناء كوخ صغير بيديه ، واتخذ بجانبه مساحة صغيرة من الأرض ، ليزرع بعض ما يحتاجه من غذاء ، وهكذا عاش قريبا من الطبيعة التي طالما أعجب بها . وقد سجّل ثرو الكثير من أفكاره وآرائه خلال هذه الفترة التي دامت أكثر من عامين،وقد قضاها بالدراسة والتأمل والكتابة .

وقد ذكر في سجلاته أن تكاليف بناء كوخه بلغت أقل من ثلاثين دولار ! وهو مبلغ بسيط مع أن قيمة الدولار في زمنه أكبر بكثير مما هي عليه اليوم ، كما ذكر تكاليف حياته اليومية ومصاريفه القليلة ، لكي يبرهن أنه من الممكن نبذ حياة التبذير والاسراف ، والاكتفاء بحياة البساطة والكفاف . وقد أكدّ مرارا أن هذه الفترة التي قضاها بعيدا عن المدينة نسبيا ، هي أسعد سنوات حياته ، كما أكد أن المدينة أو المجتمع في كثير من الحالات أكثر وحشية من الغاب .



كوخ ثرو

أنهى ثرو عزلته سنة (١٨٤٧) ، بعد أن وضع أفكاره ومبادئه تحت التجربة الفعلية ، واقتنع بنتائجها ، وقد خرج منها بكتابه الشهير الذي سماه « والدن » على اسم تلك البحيرة التي عاش على ضفافها ، وشهد ما في الطبيعة من روائع عبر فصولها المتوالية ، وسجل فيه بأسلوبه الرائع ، مختلف أفكاره وتأملاته لكل ما يتعلق بالانسان والوجود والطبيعة ، وآراءه بما يتعلق بالنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تسيطر على المجتمع .

نظم سيئة وفاشلة :

يعد ثرو من أوائل المفكرين الذين رفعوا أصواتهم ضد كل ما في الحياة الأمريكية ، من مظاهر الاسراف والمدنية الزائفة ، وأكد دائما على رفضه لجميع مظاهر الترف والاستغلال التي تؤدي إلى انحلال كل من الفرد والمجتمع ، وقد سجّل ثرو أغلب آرائه في كتابه « والدن » الذي يعد مشعلا للرأي الحر الهادف في الولايات المتحدة .

كان يرى أن الولايات المتحدة عبارة عن أرض عذراء ، تفيض بالخيرات والثروات بما يكفي كل فرد فيها ، فلا تعاني الطبقات الدنيا في المجتمع من الفقر والجهل ، ولكن طمع الانسان وسوء الاستغلال سيؤدي بالبلاد إلى الخراب ، وعد أن الشعار المرفوع منذ القرن الماضي الداعي إلى الحياة المترفة ، ورفع مستوى الحياة مجرد شعار زائف يحمل بين طياته أضرارا بالغة لكل من الفرد والمجتمع .

لقد انتقد ثرو الأوضاع الاجتماعية ، وأسلوب الحياة الأمريكية دون هوادة ، وشمل

نقده النظم السياسية والاقتصادية المتبعة ، وعدها نظما سيئة وفاشلة يتم تطبيقها لصالح فئة معينة من أصحاب النفوذ وليس للصالح العام . وقد عارض الحكومة في عدة مناسبات مما أدى إلى إدخاله السجن في إحدى المرات .

وله خطبة شهيرة يحض فيها الناس على الاحتجاج ضد السلطة عندما تسيء استعمال قوانين البلاد .

ومن أهم آرائه أن إصلاح المجتمع يبدأ بإصلاح الفرد ، وتنمية وعيه وادراكه ورفع مستواه الفكري والروحي ، وهذا من مسئولية وواجب كل فرد في المجتمع . وكان يحث الناس دائما على الرقي فكريا وروحيا والترفع عن الماديات وكل ما هو مبتذل ، فقد كان يرى حياة الناس من حوله مشبعة بصور الرياء والتكلف ، بينما تخلو من الابداع والتأمل والتآخي ، وتؤكد أن الفرد في المجتمع الأمريكي ، يعيش حياة لا معنى لها ولا هدف ، يتحول فيها الانسان إلى مجرد آلة ، أو دمية تتحرك لا وعي لها ولا إدراك .

وقد وصف ثرو الحكومة الأمريكية بأنها آلة كذلك ، وبأنها منظمة سياسية لا ضمير لها ، وذلك عند مطالبته بتحرير السود من العبودية ومناداته بايقاف الحرب مع المكسيك .

العصيان المدني واجب :

نفر ثرو من مجتمعه وما فيه من رياء وتناقضات ، فآثر الاطلاع والكتابة والتقرب إلى الطبيعة ، والقيام برحلات إلى مناطق نائية ، وقد حالت أفكاره ومبادئه التي تمسك بها طوال حياته من الالتزام بعمل أو وظيفة ما ، فكرس وقته للكتابة التي عدها عمله الخاص ، وإن لم يجن منها ما يكفي لسد حاجته ، إذ لم تشتهر كتبه ، ويبرز اسمه إلا بعد وفاته وهو في الخامسة والأربعين .

وقد بلغت كتاباته ستة آلاف صفحة بعد طباعتها ، وتم نشرها بعد وفاته في أربعة عشر مجلدا تضم كل ما كتبه ، بالإضافة إلى محاضراته وخطبه التي ألقاها في الأندية الثقافية والمناسبات المختلفة .

ويعد كتابه « والدن » الذي ترجم إلى عدة لغات خلاصة لأفكاره ومبادئه ، كما يعكس شخصيته النادرة بكل وضوح ، وهو كتاب ممتع يحض القارىء على التفكير والتأمل ، صاغه ثرو صياغة بديعة بأسلوب سلس مميز ، واختار فصوله من مجمل ما كتب أثناء عزلته على ضفاف بحيرة « والدن » ، واستعرض على صفحاته آراءه الخاصة المتعلقة بمختلف نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وعلاقة الانسان بالبيئة والطبيعة ، وأوضح فيه أن حياة الانسان مطمورة تحت أثقال التقاليد والمجتمع والحكومة والكنيسة ، بكل ما فيها من تناقضات ومساوىء . وأن الانسان لا يجرؤ على الإفلات من هذه القيود ، ولا يمكنه الخلاص والارتقاء إلى عالم أو مجتمع أفضل .

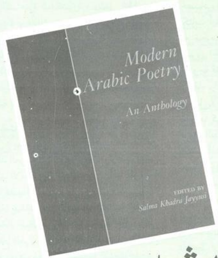
ولثرو خطبة شهيرة بعنوان « العصيان المدني » وقد تم نشرها ضمن مؤلفاته بعد وفاته ، وفيها يدعو إلى الاحتجاج بدون عنف ضد السلطة ، عند ارتكابها أي خطأ ، ومقاومة أي اضطهاد أو سلطة غير عادلة ، وإحدى وسائل هذه المقاومة التي دعا إليها وطبقها ، هي رفض دفع الضرائب الحكومية التي من أجلها أدخل السجن ، لكن أطلق سراحه بعد أن دفع أحد أقربائه ما عليه من ضرائب في اليوم التالي دون علمه ، ويقال : إن كلا من المفكر الروسي الكبير تولستوي والمهاتما غاندي تأثرا بأفكار ثرو التحررية ، وعملا بها .

وفاته :

توفي ثرو سنة ١٨٦٢ عن عمر يناهز الخامسة والأربعين ، بعد أن قضى حوالي سنتين على فراش المرض ، وفي جنازته ألقى إمرسون خطبة لتكريمه أثنى فيها على مبادئه الإنسانية ، وأفكاره المتحررة ومواقفه الشجاعة ودعوته المستمرة إلى حياة فاضلة كريمة . □

كتاب الشهر

مكتبة العربي



مختارات من الشعر العربي الحديث

تأليف : الدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي
عرض وتعليق : جمال وردة

قد يعرف القارىء الغربي بعض شعرائنا المشهورين ، وربما يعرف بعض المختصين تطور شعرنا الحديث منذ قرن من الزمان . لكن القارىء الغربي لم يعرف هذا التطور من خلال نصوص شعرية ، تمثل أهم التيارات وأبرز الأسماء قبل صدور هذا الكتاب .

في عام ١٩٨١ تحقق الحلم الذي طالما راود الشاعرة الدكتورة « سلمى الخضراء الجيوسي » ، وذلك بتدشين مشروع مؤسسة « بروتا » الذي يهدف الى نشر ترجمات لمختارات من الإبداع العربي الى الانجليزية . وتشرف على هذا المشروع الدكتورة الجيوسي التي عرفناها شاعرة وناقدة وأستاذة في أكثر من جامعة عربية وأمريكية .

وكانت السيدة الجيوسي قد سبقت هذا المشروع بسنوات ، حيث ترجمت عديداً من القصائد العربية الى الانجليزية ، وترجمت بعض القصائد الانجليزية الى العربية . أما المؤسسة نفسها فقد أصدرت من خلال منشوراتها الدورية عديداً من الأعمال الثقافية العربية المترجمة ، كان من ضمنها رواية إميل حبيبي « الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل » ، ورواية « الصبار » لسحر خليفة ، ورواية « الحرب في بر مصر » ليوسف القعيد .

من الخليج لما قبل المحيط :

أما هذا المجلد الشعري الذي تقدمه لنا اليوم ، فقد اشتمل على عشرات الأسماء من شعرائنا المعاصرين ، وقد تم إعداده والتحضير له مع دار المأمون العراقية للطباعة والنشر . وقد أرادت من خلاله أن يكون سجلا حافلا لشعراء العربية في القرن العشرين ، مع التركيز على شعراء الخمسينيات حتى السبعينيات . وهي الحقبة الزمنية التي رصدتها الدكتورة الجيوسي . فإذا كان النصف الأول من القرن العشرين هو فترة البذور ، فلا شك أن النصف الثاني هو فترة الحصاد والنضج . لقد كان الهدف من هذا الكتاب أيضا رصد الجديد الواعد الذي ترى فيه نجوما جديدة سوف تشع في سماء الشعر العربي الجديد مستقبلا ، ولعل هذه المهمة المزدوجة قد لاقت كثيرا من الصعوبات في عملية الانتقاء والاختيار والرصد . فليست هي مجرد تسجيل لأسماء مشهورة عرفها تاريخ الأدب ، بقدر ما كانت إعادة تقييم فني ونقدي لهؤلاء الرواد الطلائع في الشعر العربي المعاصر . أما بالنسبة للشعراء الشبان فقد كانت العملية أكثر تعقيدا . إن العدد الكبير من الشعراء في الساحة العربية قد جعل عملية الانتقاء مريرة وصعبة ، لأن الدكتورة الجيوسي أرادت أن يكون الاختيار شاملا ، يغطي كل الاتجاهات والمشارب والأساليب شكلا ومضمونا وايديولوجيا . ولكننا نلاحظ أن رقعة الاختيار قد امتدت من الخليج حتى وسط الشمال الافريقي فقط ، من خليفة الوقيان ، والعدواني ، وسعاد الصباح ، وعلي الشرقاوي ، وقاسم حداد ، إلى شاعرين أو ثلاثة من تونس ، وكأن الشعر العربي قد توقف على أسوار تونس لا يقوى على صعود ذرا الأطلس وشواطئه . فليس هناك سوى شاعر واحد من المغرب ، أما الجزائر أو ليبيا فلم يترجم لأي من شعرائها . قد يكون العذر هو ندرة النصوص العربية أصلا ، ولكن المجلد نفسه كان سبقا أدبيا للنصوص العربية نفسها ، فليس هناك كتاب عربي واحد ضم هذه النخبة الكبيرة من الشعراء العرب من قبل .

لقد اجتهدت الدكتورة الجيوسي بالنسبة

لشعراء ما قبل الخمسينيات ، لتكون التغطية شاملة لكل المدارس الشعرية المعروفة آنذاك من الكلاسيكية الجديدة إلى الرومانسية إلى المدرسة الرمزية .

ثم تأتي الصعوبات الفنية التي تلاقيها الترجمة لمثل هذه الأعمال الفذة ، فشاعر مثل شوقي تعتمد قصائده على قواعد البلاغة والبيان وجزالة اللفظ ، فكيف ستكون قصائده إذا جردت من هذا ؟ كذلك القصائد الجديدة التي تعتمد البساطة اللغوية المتناهية ، كيف سيتم نقلها بنفس الشحنة العاطفية أو التوتر الشعري المصاحب ؟ لا شك أن الترجمة الشعرية معقدة وحساسة جدا ، وقد اتبعت الدكتورة الجيوسي اسلوبا جديدا يعتمد على مرحلتين - حيث يقوم في المرحلة الأولى شاعر عربي بترجمة القصيدة العربية إلى الانجليزية ، ثم يقوم شاعر انجليزي بصياغة النص المنقول مرة أخرى - لقد توصلت الكاتبة إلى الحقيقة القائلة : بأنه لا يجوز أن يترجم الشعر إلا الشعراء أنفسهم .

فالشعر كالموسيقا له لغة واحدة مهما تعددت اللهجات . ولعل الدكتورة الجيوسي قد استفادت من التجربة السويدية في نقل شعرها وأدبها الى اللغة الانجليزية بنفس الطريقة !! .



الدكتورة سلمى الجيوسي

مع بداية القرن العشرين كان الشعر العربي متخلفا عن مواكبة الشعر العالمي ، وبعيدا عن أمجاد العصور الذهبية القديمة ، لا شك أن أربعة قرون من السبات والركود قد أثرت على انطلاقه ، ولقد بدأت معركة التحديث منذ أواخر القرن التاسع عشر . ولا شك أن الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت تتطلب جهدا أكبر للتغيير والتحديث .

لقد بدأت بواكير النهضة الأدبية العربية في لبنان نثرا ثم في مصر شعرا . بعد حملة « نابليون » وادخال الطباعة ثم البعثات التي كانت تذهب إلى أوربا أيام محمد علي باشا ، لقد نشطت الصحافة والطباعة ، وبدأ القاريء العربي يتعرف على تراثه الأدبي القديم ، فنشأت الكلاسيكية الجديدة مع ماصاحبها من جزالة اللفظ وقوة التعبير والمحسنات اللفظية التي أصبحت فيها بعد قيدا على حرية التعبير للجيل اللاحق .

فجاء الرد عن طريق أدباء المهجر بزعامة جبران ، وايليا أبي ماضي ، وميخائيل نعيمة، لقد ثاروا ضد صرامة وتقليدية المدرسة الكلاسيكية فاتحين الطريق أمام المدرسة الرومانسية التي انضم إليها ابراهيم ناجي وعلي محمود طه في مصر ، والبشير التيجاني في السودان ، وأبو القاسم الشابي في تونس ، والياس أبو شبكة في لبنان .

لقد أثرت هذه المدرسة في الشعر العربي بالصور المبتكرة ، والمفردات الجديدة مع قضايا شعرية جديدة كالحلم والحرية ورفض القيود . لقد كانت المدرسة الرومانسية ثورة على القيم القديمة البالية ، وعلى التخلف بكافة أشكاله وصوره . وعلى الرغم من عمرها القصير في الأدب العربي المعاصر إلا أنها استطاعت أن تهز المفاهيم الاجتماعية والسياسية من الأعماق ، وأن تخوض معركة التحديث بنجاح أكيد . وعلى الرغم من أن كثيرا من النقاد يربطون الحركة

الرومانسية أصلا بالفشل السياسي لثورة ١٩١٩ الوطنية المصرية ، إلا أن الشعر السياسي في العشرينيات والثلاثينيات كان كلاسيكيا ، في حين كان الرومانسيون يتناولون في أسفارهم الهموم والأشجان الفردية البحتة . وحين أفلست الرومانسية عن التعبير عن المتغيرات الطارئة ، وتاهت في أروقة الخيال والحلم والطبيعة بعيدا عن هموم الواقع واشكالاته ، استدعت الظروف استنباط أساليب جديدة للتعبير الشعري ، خصوصا بعد أن عرفت الثقافة الغربية طريقها الى القارىء العربي عن طريق الترجمة والصحافة ، وبهذا فتحت الطريق أمام المدرسة الرمزية في الثلاثينيات التي سعت الى تطهير الشعر من النزعة الخطابية المباشرة ، والعقلانية الباردة ، والتراثية الكلاسيكية التي تجاوزتها الأيام ، وكذلك من هشاشة وخيالية المدرسة الرومانسية .

لقد كان « سعيد عقل » استاذا للمدرسة الرمزية الجديدة حيث قدم قصيدته « المجدلية » عام ١٩٣٧ يصور خلالها لقاء بين السيد المسيح ومريم المجدلية ، وقد بدا تأثره واضحا بالشاعر الفرنسي « بول فاليري » ، ثم جاءت النكبة الفلسطينية لتفجّر كل شيء . إن الجمالية الرمزية لم تعد كافية ، فكان لابد من البحث عن صور شعرية أكثر التصاقا بالواقع المأساوي ، فكان الالتزام والواقعية من عناصر القصيدة العربية الجديدة .

لقد استطاع الشعر العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين ، أن يواكب العصر ويتطور معه ويحقق الكثير من الانجازات الفنية .

بعد النكبة

لقد تجاوزت عملية التحديث الشكل الشعري التقليدي - فلم يعد البيت الواحد حكرا على الصدر والعجز ، كذلك الوزن والقافية - لقد بدأت بالفعل ثورة في شكل القصيدة العربية فظهر الشعر الحر ، والقصيدة النثرية ، وقصيدة التفعيلة الواحدة ، وأصبح الشعر أكثر سلاسة وبساطة معتمدا بالدرجة الأولى على الصورة الشعرية والموسيقا الداخلية للقصيدة نفسها .

لقد بدأ الشعر الحر تاريخيا عام ١٩٤٩ حين نشرت « نازك الملائكة » ديوانها « شظايا ورماد » ثم بدأ الشعر المنثور بالظهور ، ومع أن هذا الأسلوب كان قد بدأ سابقا أيام جبران وأمين الريحاني ، إلا أنه لم يسلك طريقه بشكل رسمي إلا في الخمسينيات والستينيات ، ومن رواد هذه المدرسة كان الشعراء توفيق صايغ ، أنسي الحاج ، محمد الماغوط ، وشوقي أبو شقرة . ثم أصبح هذا الأسلوب أكثر تطورا وتعقيدا حين دخل الحلبة الشاعران ادونيس ويوسف الخال .

لقد قلنا إن النكبة الفلسطينية باعتبارها القضية المركزية الأولى للشعب العربي ، قد لعبت الدور الأكبر في تثوير وتغيير المنهج الشعري العربي .

لقد بدأ الشعراء ينظرون للحياة واللغة نظرة جديدة مغايرة ، لقد اتخذ الشعر العربي بعد النكبة بعدا جديدا أكثر حدة وعنفا وهجوما على الماضي بكل أعمدته التقليدية البارزة ، لقد تركوا التراث جانبا وأخذوا يستلهمون الشعر

الثوري العالمي من أمثال : لوركا ـ نيرودا ـ اراجوان ـ ناظم حكمت ـ ايلوار ، وكذلك فرسان التجديد في الشعر الانجليزي من أمثال « إليوت » ، و « اديث سيتويل » . إن روح التغيير قد سادت الفترة المذكورة كلها . إن هذه التجربة قد أثْرت الشعر العربي وجعلته أكثر نضجا ، إن شعراء الخمسينيات قد اجتازوا بنجاح معركة التحديث بكل ما فيها من تحديات وجراحات وانتصارات .

ودخلت الأسطورة شعرنا العربي الجديد تأثرا « بإليوت » و « سيتويل » في تموزيات السياب ، وبعليات خليل حاوي ، وطائر الفينيق عند أدونيس وبروميثيوس عند البياتي .

أساطير ترمز جميعا إلى تجدد الحياة بعد اقتحام الموت .

لقد لاحظنا أن الكتاب قد خلا من ترجمة بعض القصائد التي لعبت دورا مهما في حياة صاحبها ، واكتفى بترجمة قصائد أخرى قد تكون أقل أهمية ، فقد اكتفى ببعض مقاطع من قصيدة « مهيار الدمشقي » لأدونيس ، ولم تترجم قصيدته « صقر قريش » التي تصور انسلاخا وجدانيا وايديولوجيا للشاعر نفسه ، في المكان والجغرافيا من الشام إلى الأندلس ، كما في القصيدة ، أو من الشام إلى بيروت ، كما هو حال الشاعر آنذاك ، وخلت الترجمة من بعض مقاطع « مجدلية » سعيد عقل و« جسر » خليل حاوي .

كما خلا المجلد تماما من أسماء مرموقة في عالم الشعر في فلسطين ولبنان ومصر والعراق ، فقد أهمل واحد من أبرز الشعراء الفلسطينيين ، هو « معين بسيسو » ، بينما ترجمت قصائد لشعراء لا أهمية لهم ، وترجمت قصائد أجيال الخمسينيات والستينيات في العراق ، واستثني شاعر مهم ينتمي لجيل السبعينيات مثل « هاشم شفيق » .

لكن الدكتورة الجيوسي وعدت بجزء ثانٍ من هذا المجلد ، يضم البقية الباقية من فرسان الشعر العربي المعاصر .

وأخيرا أعترف بأنني لم أستطع التعرف على هوية بعض القصائد الشهيرة حين طالعتها بثوبها الانجليزي المزركش ، وبنكهتها الأمريكية العصرية . لعل عملية التحلية المكررة للمياه تفقدها بعض عناصرها ، وبعض ملوحتها مثلا ! فتخرج إلينا زجاجات المياه عذبة نقية ، لكنها ليست معدنية من باطن الأرض ، ولكن العزاء أن هذه القصائد ليست لنا ، بل لقارىء أجنبي ، يتلهف لمعرفة أي شيء عن ثقافتنا وشعرنا ، ولعل هذه النافذة من خلال مشروع الترجمة هي خير موصل لهؤلاء القراء العطاشى . فهنيئا مريئا لهم شرابنا الزلال غير المملّح . □

الطريقة الوحيدة



نشب خلاف بين ثلاث نساء ، انتهى برفع الأمر إلى القاضي جحا ، ووقفن أمامه متظلمات يتكلمن في وقت واحد .

ولما لم تفلح نصائح جحا لهن بالتريث ليسمع شكوى كل منهن على حدة قال لهن :

فلتتكلم أولا أكبركن سنا .

فسكتن كلهن على الفور !



العالم والعرب سنة ٢٠٠٠

تأليف : الدكتور محمد جابر الأنصاري
عرض : رافع عبد الرحمن

هل ستكون صورة العالم في القرن المقبل هي نفس صورته الحالية ؟ !
يجيب المؤلف بالنفي ، ويمضي خطوة أبعد في محاولة لرسم ملامح هذه الصورة على المستويين العربي والعالمي .

يلقي المؤلف في الفصل الأول من الكتاب نظرة شاملة عامة على المشهد العالمي المستقبلي ، من موقع الطائر المحلق في الجو ، وتخبرنا « **نظرة الطائر في آفاق القرن الحادي والعشرين** » أن القوتين العظميين ـ أمريكا وروسيا ـ بحكم أزماتها الاقتصادية والاجتماعية الداخلية تضطران إلى التقليل من تدخلها في الشؤون العالمية ، وهذا يخفف ضغطها على شعوب العالم الأخرى ، ويترك لهذه الشعوب شيئا من الحرية في التحرك والتحكم في المصير .

وتبرز أوربا كقوة محايدة ، وتصبح أكثر قربا من شعوب العالم الثالث ، وأكثر تفهما لها ، وتفاهما معها .

غير أن القوة الدولية المهمة ـ قوة المستقبل ـ ستكون القوة الصفراء (اليابان ، الصين ، كوريا ، فيتنام) التي ستتولى قيادة الحضارة في وقت غير بعيد .

أما المنطقة العربية الإسلامية ، فتوشك أن تحسم أمرها في صيغة حضارية ، واستراتيجية جديدة ، تؤكد خصوصيتها واستقلالها بين القوى ، وبإمكانها التحالف مع قوة الشرق الجديدة لضرب النفوذ الغربي الجاثم عليها .

وتحت عنوان « آلام نهاية القرن العشرين ، ميلاد جديد ؟ » ، يشير الدكتور محمد جابر الأنصاري إلى شريط المجاعة الأفريقية ، والتسمم الآسيوي الهندي ، والمذبحة اللاتينية في السلفادور وأمريكا الوسطى ، ومشاهد خطف الطائرات وغير ذلك متسائلا : « من الغاب البدائي إلى الغاب الإلكتروني » ؟ « ماذا حدث ويحدث في هذا العالم ؟ ويقول : إن الأزمة اليوم في الغايات ، أو في القيم النهائية العليا السائدة التي تحدد لعالمنا غاياته ، وان النظام العالمي السائد بقيمه ومنطلقاته وركائزه الأساسية وروحيته وذهنيته الحاضرة ، إن لم يكن قد أفلس ، فهو في طريقه إلى الإفلاس .

ويرى المؤلف أن الخروج الصيني على الماركسية سيؤدي في النهاية إلى قيام نوع من التحالف الأصفر بين القوة التقنية اليابانية ، والقوة البشرية الصينية الكثيفة ، بشكل سيقلب الموازين في عالم اليوم المضطرب ، وسيقف هذا التحالف على قدم المساواة مع السوق الأوربية المشتركة ، والحلف الأطلسي وحلف وارسو ، وينقل العصب الاستراتيجي للعالم إلى المحيط الباسيفيكي ، ثم يرث تدريجيا قسطا مهما ، مما لتلك الأحلاف الغربية البيضاء من نفوذ في العالم .

ويشير إلى أن انتقال مركز الجذب العالمي من قوة بيضاء إلى قوة صفراء ، لن يغير في حد ذاته مما تعاني البشرية من ويلات ، ولن يحقق بالضرورة ما تتطلع إليه من خلاص .

قرن التفوق الأصفر

في القسم الأول من الفصل الثالث رسالة وجهها المؤلف لمثقفي اليابان ، يشير فيها إلى أن المعاناة متشابهة بين اليابانيين والعرب من حيث إغفال دورهم الحضاري والفني والإنساني ، ومحاولة تحويل صورتهم في مرآة الغرب -المهتم أساسا بالنزعة المادية الاستهلاكية - إلى مجرد ظاهرة من ظواهر الاقتصاد والمال ، وأن هذه المعاناة المتشابهة بيننا لهي مدعاة لتوجهنا معا إلى إحياء صلاتنا الثقافية والانسانية ، وبعثها لأنها الأساس الجوهري في التعاون بين الأمم قبل تبادل البضائع والمنافع المادية .

وهو يدعو اليابانيين إلى أن يصل صوتهم الياباني الصميم والأصيل - في الابداعات الفنية والثقافية الخاصة بهم - إلى بلادنا مع أجهزة « الكمبيوتر والحاسبات والفيديو » .

وبالمقابل يدعوهم إلى طرب الغوص الخليجي وحداء الصحراء ، ومشاهدة فولكلور البحر والبادية والتعرف على مالدينا من أدب جديد وثقافة جديدة .

وفي القسم الثاني يتناول المؤلف ما يجرى في اليابان والصين وكوريا والهند مشيرا إلى أن الاعتبارات التي تدعو الوعي العربي الاستراتيجي والحضاري إلى تفهم القوة البشرية الصاعدة وتدارسها ، هي أن هذه القوة تقدم بديلا آخر للعرب في التعامل الدولي ، بديلا متخففا من الانحيازات الدينية والتاريخية والأيديولوجية التي يعاني منها العرب في تعاملهم مع قوى الحضارة الغربية ، كما أن التجارب اليابانية والصينية والكورية والهندية على اختلافها وتباينها ، تمثل في نهاية الأمر محاولات ناجحة لأمم شرقية ، للحفاظ على خصوصيتها وشخصيتها الحضارية الذاتية مع استيعاب مقومات القوة الحقيقية في الحضارة الحديثة . ويشير الدكتور الأنصاري إلى أن عرب الخليج والجزيرة العربية هم المعنيون بالدرجة الأولى بدراسة هذه الظواهر بحكم مالهم من علاقات تاريخية وتجارية مع الشرق الآسيوي .

ويدعو إلى إقامة مركز علمي للدراسات الآسيوية محددا الملامح العامة للتجارب الآسيوية التي لابد أن يتعمقها المركز المأمول وهي : أن تلك الأمم الشرقية قد انطلقت من مبدأ وحدتها القومية ، وأنها متمسكة بأصالتها وتقاليدها

وشخصياتها التاريخية المتميزة ، وقد تمكنت تلك الأمم من استيعاب القدر الجوهري من التحديث وامتلاك زمام القوة التقنية والعلمية والاقتصادية منذ أن باشرت عملية التوحيد ، كما أن كل أمة حققت النهضة والتحديث حسب طريقتها الخاصة ، وباكتشاف قوانين خصوصيتها التاريخية والحضارية .

ثم ينتقل المؤلف إلى « **العرب أمام التجربة اليابانية والقوة الصفراء** » ، فيلخص أسباب صعود النهضة في اليابان ، وتعثر النهضة عند العرب . فالأمة اليابانية أقبلت على التحديث بوحدة قومية متماسكة ، بينما واجهت الأمة العربية التحدي منفصلة متصارعة ، والأمة اليابانية دخلت مسيرة النهضة بأقل قدر من الصراع بين المجددين والمحافظين ، بل اندمج مجددوها ومحافظوها في نفس شخصيات الرجال الذين قادوا النهضة ، بينما انقسم المجددون والمحافظون إلى معسكرين متصارعين في مراحل النهضة العربية ، ثم انقسم كل معسكر إلى معسكرات متنازعة . واليابان وقفت من الغرب موقف التلميذ ، بينما وقف العرب منه موقف الزبون . كما أن التقاليد اليابانية تقدس العمل ، بينما ورثت المجتمعات العربية نظرة غير إيجابية وخاصة إلى العمل المهني والصناعي الذي هو أساس النهضات الحديثة .

ويرى المؤلف أن القول : بأن تعرض العرب لمؤامرات الاستعمار « واسرائيل » قد يفسر تخلفهم ، قول غير مقنع مشيرا إلى أن اليابان تعرضت لضربة نووية نهضت بعدها أقوى مما كانت .

ثم يقدم المؤلف في الفصل التالي دراسة تلقي الضوء على جذور التربية اليابانية وخصائصها المميزة ، ويخلص إلى أن أبرز خصائص النظام التربوي الياباني هي : أن ذلك النظام يستمد أهم مقوماته من طبيعة مجتمعه وروح أمته واحتياجات وطنه ، وأنه استمد انطلاقته من جذوره ومؤسساته وتقاليده المتأصلة والقائمة ، وأن التعليم في اليابان يعد خدمة وطنية عامة ، وواجبا قوميا ، يتجاوز أي جهد فردي أو فئوي خاص ، وأنه يمثل عامل التوحيد المهم لعقل الأمة وضميرها ، وأن اليابان لم تأخذ بالنزعات الليبرالية والسيكولوجية الغربية المتساهلة في التوجيه الفكري للأجيال وفي ضبط سلوكها العملي والأخلاقي ، ولم تأخذ ببريق الدراسات النظرية الغربية من فلسفات وحقوق وإنسانيات ، وأنها استطاعت أن تجمع بين شعبية التعليم وأستقراطيته العلمية والفكرية ، ولم تؤخذ باللغات الأجنبية المتقدمة ولم تنبهر بها ، وعلى الرغم من مركزية التوجيه في النظام التربوي ، فإنه يقوم على مرونة ، ولا مركزية ملحوظة في تنظيم وزارة التربية والعلوم والثقافة . ومهنة التدريس في اليابان مهنة مربحة اقتصاديا حتى بالقياس إلى القطاع الخاص ، كما ان اليابان لم تندفع وراء نزعة تحويل الثقافة العامة إلى مَنْشَط من مناشط الإعلام .

آخر المستجدات

في بداية فصل الختام يشير الكاتب إلى ظهور كتابين سيرمزان إلى طبيعة مناخ التفكير الحضاري الاستراتيجي المستقبلي الذي يسود الآن نهاية القرن العشرين ، وسيمتد بأثره وإرهاصاته إلى عقود عديدة من القرن المقبل . هذان الكتابان هما « قيام القوى العظمى وسقوطها بين ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ » للبرفيسور بول كنيدى و « إعادة البناء » للرئيس السوفيتي ميخائيل غورباتشوف .

ويقول : إن الكتابين يحاولان معا - كل بطريقته - إنقاذ ما يمكن انقاذه من القوى العظمى ، التي يتوجه كل منهما إلى مخاطبتها أملا في إعادة الحيوية إليها ، بعد أن أخذت تتضح للعيان بوادر فقدان القوتين معا مكانة الصدارة الفريدة التي تمتعتا بها حتى وقت قريب .



وهذه التحولات التي يشهدها الاتحاد السوفيتي في عهد غورباتشوف ستؤثر على أوربا الشرقية ، كما سيؤثر فيها توجه دول أوربا الغربية نحو الوحدة . فحركة الوحدة الأوربية يمكن أن ينجم عنها مزيد من استقلال أوربا الشرقية عن « الشقيق » الروسي مع البحث عن صيغة ايديولوجية معتدلة . . « وسيبقى في صلب التفاعل بين أوربا الشرقية وأوربا الغربية محور انبعاث الوحدة الألمانية . إن مسألة إعادة توحيد ألمانيا ستكون من أدق القضايا وأكثرها حرارة وإثارة في العقد الأخير من هذا القرن ، والعقود التالية من القرن الحادي والعشرين » .

مؤشرات المستقبل العربي :

ما هي أبرز مؤشرات المستقبل العربي كما يراها د . الأنصاري ؟ إنها الانتفاضة الفلسطينية « الإبداع » الاستراتيجي الفلسطيني في الوطن العربي الذى قد لا يقل أهمية في ضوء المستقبل عن الإبداع الياباني والصيني « فالانتفاضة وعد مفتوح للمستقبل العربي . وكما كانت بدايتها

مدهشة ، فإنها تحمل البذور لأن تكون تطوراتها ونتائجها جيدة مدهشة » .

والمؤشر الثاني هو تحرك « منحنى » الأوضاع العربية الى « موضع ما » . فوق قعر الهاوية التي انحدرت إليها الأوضاع العربية في السبعينيات والثمانينيات ، لقد بدأت حركة الواقع العربي في الصعود إلى أعلى في مجالات عديدة ، وعلى المسؤولين والمثقفين والمواطنين العرب التكاتف والعمل لدفع المؤشر إلى فوق .

وضمن « نظرة الطائر » يوجز المؤلف المشكلات الجدية التي تنتظر العرب على طريق المستقبل : انخفاض أسعار النفط وتأثيرات ذلك ، ازدياد الاعتماد على الاستيراد من الخارج في مجال توفير الغذاء ، وأزمة الأمن المائي العربي .

وهناك ثلاث مهام مستقبلية عربية ، أولها : الاتحاد قوميا ، والوحدة ليست مجرد مطلب سياسي ، بل مطلب حضاري وشرط ضروري لاستيعاب حضارة العصر .

وثانيها تجديد الإسلام مع الحفاظ على جوهره ليستوعب روح العصر ، وكلمة السر هي « الإسلام - العروبة - العصر » في مندمج عضوي واحد . وثالثها تحول التوجه العام إلى مشروع حضاري عربي إسلامي بمعالم واضحة وبرامج محددة ، ومواقف متبلورة تجاه مختلف تحديات العصر وقضايا الحياة .

وفي نهاية الكتاب نجد فصولا مختارة عن التجربة اليابانية ترجمها المؤلف عن اللغة الفرنسية ، وهي من كتاب « اليابان » العملاق الثالث « لروبير غيلان » ثم ينبه الدكتور الأنصارى القارىء إلى « أن هذا الحديث ينحصر في التحليل الفكري الحضاري المقارن ، وعلينا أن نجربه بوعي كامل ، لكي نتجنب أي نوع من الترويج للمصالح الاقتصادية والسياسية لليابان أو غيرها » . □

مكتبة العربي

مختـــارات

اسم الكتاب : كلمة طيبة
المؤلف : د. عبدالعزيز كامل
الناشر : ذات السلاسل - الكويت
عدد الصفحات : ٣١١ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧

لوحات قلمية للكاتب ، يضمها بين دفتي كتاب واحد ، ويوجهها إلى الشباب . والكتابة للشباب تختلف عن الكتابة للكهول التي يترك المرء نفسه فيها على سجيتها ، وهو مدرك أن الكهل يتابعه ، ولديه خلفية عريضة من القراءة والتجربة ، كما يقول المؤلف ، أما للشباب فالأمر يحتاج إلى التبسيط والتحديد .

ولقد تنوعت موضوعات الكتاب ، ففيها الكتابة عن القرآن والسنة وعن القدس الشريف ، وعن الكويت ، وعن الناس البسطاء والأتقياء في مصر ، وعن الشباب ، كل هذه الموضوعات يتناولها الكاتب بعلمه الغزير وثقافته الواسعة وقلمه المميز الرقيق .

□□□

اسم الكتاب : الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية
المؤلف : د. عبدالوهاب المسيري
الناشر : المطبعة الفنية - القاهرة - مصر
عدد الصفحات : ٢٢٦ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٩

الكتاب لواحد من أهم الكتّاب العرب في الدراسات الفلسطينية والصهيونية ، وهو يقدم في كتابه الجديد دراسة علمية في الإدراك ، فيبدؤها بفصل كامل ، يناقش فيه منهجيا أهمية النماذج المعرفية في تحديد إدراك الإنسان ، وخطورة التبعية الإدراكية ، ثم يطرح فكرة أن الانتفاضة ليست تعبيرا عن اليأس ، وإنما هي تعبير عن تجلّ عربي لامتلاء نفسي ، واكتشاف للذات ، ثم يعرض بعد ذلك لأزمة الصهيونية ، وأهمية دراستها لفهم الانتفاضة ، طارحا فكرة أزمة الشرعيتين : الشرعية الصهيونية أمام يهود العالم وأمام الصهاينة أنفسهم ، وشرعية وجود الصهاينة في أرض العرب ، ثم يعرض لبعض جوانب الأزمة الصهيونية ، وكيفية استجابة الفلسطينيين لها .

□□□

اسم الكتاب : الباراسايكولوجي . ظواهر وتفسيرات
المؤلف : سامي أحمد الموصلي
الناشر : شركة دار السلام للنشر والتوزيع - بغداد
عدد الصفحات : ١٧٧ صفحة من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

يتعرض الكتاب لدراسة بعض الظواهر الخارقة وتفسيرها من وجهة نظر علماء « الباراسايكولوجي » . و « الباراسايكولوجي » اصطلاح معناه « ما يجاور علم النفس » ، وهو علم يدرس الظواهر المستغلقة على الفهم ، والخارقة للطبيعة والغريبة وغير المألوفة ، ويحاول أن يجد لها التفسير العلمي والفكري المناسب ، ثم يتعرض الكاتب لبعض الظواهر الخارقة ، مثل التخاطر والتنبؤ والتلباثي ، وغيرها من الظواهر غير المألوفة .

اسم الكتاب : قيامة عبدالقهار عبدالسميع
المؤلف : حسن يوسف
الناشر : الأهالي للطباعة والنشر ـ دمشق
عدد الصفحات : ١٤٠ صفحة من القطع الصغير
سنة النشر : ١٩٨٨

اثنتا عشرة قصة للقاص الكاتب السوري حسن يوسف ، وهي آخر ما أنتجه ، ويعود فيها إلى عالمه الخصيب الخاص جدا ، ليغوص في عمق الواقع الشعبي ، فيلتقط جوهر العلاقات الإنسانية بكل ما فيها . وأبطاله صورة صادقة عن واقع متأزم ، لهم رائحة الأرض ولهجة البيئة . يقدمهم الكاتب بأسلوب رشيق ، مفعم بالبساطة والسخرية والعمق .

□□□

اسم الكتاب : قراءات في حرب الخليج
المؤلف : منذر الموصلي
الناشر : دار العروبة ـ بغداد
عدد الصفحات : ٤٥٦ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧

يقسم الكاتب دراسته على عشرة أبواب ، يناقش فيها أفكاراً وقضايا تتعلق بحرب الخليج ، فيبدؤها بدراسة عن ايران (الجغرافيا والديموغرافيا) ، ثم ايران في تاريخها الفارسي والاسلامي ، ثم ينتقل إلى عرض العلاقات العربية الفارسية في العصر الحديث . وبعد ذلك يناقش الثورة الايرانية ، ويعرض بعد ذلك لمطامع ايران ومصالحها الاقليمية ، ثم يقدم عرضا تاريخيا للخليج العربي ، وقصته في الصراع بين العرب وايران . ويستعرض الكاتب في الباب الثامن الموقف الدولي من حرب الخليج ، وفي الباب الذي يليه يعرض لسياسة التسلح في حرب الخليج وسوق السلاح الدولية ، وأخيرا يعرض الدور « الاسرائيلي » في الصراع العربي الايراني .

□□□

اسم الكتاب : المغرب العربي الكبير . نداء المستقبل
المؤلف : د . مصطفى الفيلالي
الناشر : مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت
عدد الصفحات : ١٨٤ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٩

يواجه المغرب العربي تحديا كبيرا ، يهدد اقتصادياته ، بعد أن أغلق أمامه سوق أوربا بعد دخول اسبانيا واليونان والبرتغال للسوق الأوروبية المشتركة وإجراءات توحيد أوربا . هذا التحدي الذي يواجه المغرب يستلزم مواجهته بالوحدة كسبيل وحيد ، فيقيم في القسم الأول تجربة التعاون المغربي ، وأجهزته ، والدراسات التي تمّت ، وأجهزة التعاون المغاربي ، ومستويات القرار ، ويخصص الكاتب القسم الثالث لدراسة التحديات المعاصرة أمام المغرب ، فيناقش التحديات الخارجية والداخلية . وأخيرا يعرض الكاتب للمستقبل البديل ، فيناقش افتراضات التغيير ، والبناء المغاربي المقترح ، وجدلية الأهداف والغاية . □

في خدمة الأمّيين



دخل الكاتب آرثر ميللر ذات يوم إلى مطعم ، لم يكن قد دخله من قبل ، فلما أحضر له الخادم قائمة الطعام ، ردّها إليه وقال : إنني أعتمد على ذوقك فأحضر لي ما تختاره أنت .

وعندما فرغ الأستاذ من تناول الطعام ، أخذ يظهر للخادم إعجابه بحسن اختياره ، فقال الخادم : إنني هنا ياسيدي ، في خدمة الذين لايعرفون القراءة والكتابة .

مسابقة العربي الثقافية

العـــدد ٣٦٧

يونيو ١٩٨٩

جوائز المسابقة

الجائزة الأولى ٥٠ دينارًا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارًا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارًا
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط:

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة، ترسل الاجابات على العنوان التالي: مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الصفاة. الرمز البريدي 13008 - الكويت «مسابقة العربي العدد ٣٦٧»، وآخر موعد لوصول الاجابات إلينا هو ١٥ يوليو ١٩٨٩. والرجاء كتابة الاسم الثلاثي والعنوان البريدي واضحين - ورقم الهاتف إن وجد.

ارفق الحل مع هذا الكوبون
كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٦٧

١ - كتاب «القانون في الطب» وكتاب «القانون المسعودي» يعدان في طليعة الكتب التي تركها لنا السلف الصالح، فقد كان للأول شأن كبير في العلوم الطبية، وكان للثاني شأن كبير في علم الفلك، وكان مؤلف الكتاب الأول ابن سينا، فمن هو مؤلف الكتاب الثاني؟

* الخوارزمي
* ابن قتيبة الدينوري
* البيروني

٢ - بطليموس عالم فلك يوناني شهير، في القرن الثاني الميلادي. ترى أين عاش؟

* في أثينا
* في الاسكندرية
* في اسبارطة

٣ - يتردد اسم «المجسطي» كثيرا في كتب التراث، لا سيما ما اتصل منها بعلم الفلك. ترى ما المجسطي؟

* كتاب ألفه العالم اليوناني المعروف بطليموس، وقد ترجم إلى العربية أكثر من مرة.
* جهاز صنعه علماء الفلك المسلمون لقياس أبعاد النجوم.
* المجسطي اسم أطلقه العلماء المسلمون على أحد بحار القمر.

٤ - من المعروف أن جاليليو تراجع عن الأخذ بالنظام «الكوبرنيكي»، وقد صرح بذلك علناً. ترى لماذا فعل ذلك؟

* لاقتناعه بصحة النظام البطليموسي.

* رضوخاً لضغط محاكم التفتيش ، وحفاظاً على حياته .

* جاليليو لم يتراجع عن الأخذ بالنظام « الكوبرنيكي » ، بل ظل متمسكاً به حتى النهاية .

٥ ـ لم يكن جاليليو مخترع التلسكوب الأول في التاريخ ، فمن الذي ابتكر هذا الجهاز المهم ؟

* نيوتن

* كوبرنيكوس

* هانس ليبرشي ، الهولندي .

٦ ـ التلسكوبات البصرية نوعان : عاكسة ، وكاسرة . ترى من هو مخترع التلسكوب العاكس ، علماً بأن ليبرشي وجاليليو هما مخترعا التلسكوب الكاسر ؟

* اسحق نيوتن

* كوبرنيكوس

* جوتنبرغ

٧ ـ نيكولاوس كوبرنيكوس ، عالم فلك شهير ، كان رائداً للانقلاب الذي تعرض له علم الفلك في العصور الحديثة ، والذي حلت الشمس بموجبه محل الكرة الأرضية كمركز ثابت للنظام الشمسي ، وأصبحت الأرض كوكباً سياراً ، يدور حولها . ترى ما العقوبة التي أنزلتها عليه محاكم التفتيش بسبب تعاليمه الفلكية التي خالف بها بطليموس ؟

* كان كوبرنيكوس من رجال الكنيسة ، لذلك أغفلت محاكم التفتيش محاكمته .

* حرص على عدم نشر كتابه أثناء حياته ، تجنباً لانتقام الكنيسة منه .

* نشر كتابه باسم مستعار انطلى على الكنيسة ، وعلى محاكم التفتيش ، إلى ما بعد موته .

٨ ـ من هو الفلكي الذي فقد أنفه الطبيعي في مبارزة ، فاستبدله بأنف صناعي مذهب ؟

* بطليموس .

* كوبرنيكوس .

* تيكو براهي .

٩ ـ أي التلسكوبين أقوى : التلسكوب الروسي المقام على جبال القفقاس أم التلسكوب الأمريكي المقام على جبل بالومار في كاليفورنيا ، علماً بأن التلسكوبين من نوع واحد ، وهو التلسكوبات العاكسة ؟

١٠ ـ يقال : إن « تلسكوب الراديو » مكبر فوق كونه مقرباً ، أي أنه يمكنك من رؤية أجرام السماء بوضوح فائق . فهل هذا صحيح ؟ وما أكبر « تلسكوب راديو » في العالم ؟

* تلسكوب باركز في استراليا .

* تلسكوب اريكيبو في بورتوريكو .

١١ ـ ما اسم الجهاز الذي تمكن علماء الفلك المسلمون به من قياس ارتفاع الأجرام السماوية ؟

* الاسطرلاب .

* المنظار المكبّر .

* المقراب .

□

حل مسابقة العدد ٣٦٤

مـــارس ١٩٨٩م

١ توفالوا «Tuvalu» : هي الجزر التي يعتمد اقتصادها الوطني على تصدير الطوابع البريدية ، وعاصمتها فونا فوتي ، ومساحتها ٢٦ كم٢ ، نعم ستة وعشرون كيلومترا مربعا فقط وعدد سكانها (٨١٠٠) نسمة ، وتقع هذه الجزر الصغيرة في المحيط الهادي .

٢ يوجد في ايسلندة مالايقل عن ٧٠٠ نافورة ماء ساخن وتعتمد البلاد على هذه النوافير الطبيعية لتأمين ٧٥٪ من التدفئة المركزية التي لاغنى عنها في تلك البلاد البـاردة ، وقـد سميت العـاصمـة (ريكيافيك) نظرا لكثرة البخار المتصاعد من نوافيرها الطبيعية الساخنة .

٣ الجزر المقصودة في السؤال هي مجموعة جزر (تونجا) ، وهي جزر بركانية ومرجانية ، لايقل عددها عن ١٥٠ جزيرة ، اكتشفها الهولنديون سنة ١٦١٦ ، وزارها الكابتن كوك سنة ١٧٧٣ ، وقد سماها آنذاك الجزر الصديقة ، وتقع جزر (تونجا) ضمن جزر (بولينيزيا) في جنوب المحيط الهندي ، وهي صغيرة ، تبلغ مساحتها ٧٤٧ كم٢ ، وسكـانها (١٠٩,٠٠٠) نسمة ، وعاصمتها (نوكو ألوفا) .

٤ يبلغ عدد الجمهوريات في العالم ١٢٤ جمهورية ، ومعنى هذا أن ٤٦ دولة من مجموع الدول المستقلة (١٧٠) ليست جمهورية . والجدير بالذكر أن بين هذه الدول غير الجمهورية ١٨ ملكية ، و ١٦ دولة تنعم باستقلال محدود ضمن الكومنولث البريطاني .

٥ جزيرة هاواي بل جزرها تقع في شمال المحيط الهادي ، على بعد مقداره نحـو ٣٧٠٠ كم إلى الغـرب من فرانسيسكو ، وقد اكتشفها كوك سنة ١٧٧٨ ، وسماها جزر ساندويش ، لكن الجزر التي بقيت مستقلة طوال القرن ١٩ مالبثت أن طلبت الانضمام إلى الـولايات المتحدة ، والتخلي عن استقلالها .

٦ سبب ذلك أن الكونجرس الأمريكي أعطى تكساس الحق في أن تجزيء نفسها ، لتصبح خمس ولايات بدلا من ولاية واحدة ، في أي وقت تشاء ، وذلك عندما انشقت عن المكسيك ، وانضمت إلى الولايات المتحدة سنة ١٨٤٥ .

٧ هناك مجموعتان يطلق على كل منهما اسم جزر «كريسماس» ، وتقع إحدى المجموعتين في المحيط الهندي ، إلى

الجنوب الغربي من جزيرة جاوة ، وتقع الثانية في المحيط الهادي ، والمجموعة الأولى تحكمها استراليا ، بينما تحكم بريطانيا مجموعة جزر «كريسماس» الثانية التي تقع في المحيط الهادي .

٨ بانجول هي عاصمة غامبيا ، الدولة الافريقية الصغيرة الفقيرة ، المجاورة للسنغال ، تبلغ مساحتها ١١,٢٩٥ كم٢ ، وعدد سكانها (٧٧٧,٠٠٠) نسمة .

٩

الأسماء القديمة	الأسماء الجديدة
جرينلند	= كالاليت لونات
داهومى	= بنين
ڤولتا العليا	= بوركينا فاسو
زامبيا	= روديسيا الشمالية
هندوراس	= بليز
روديسيا الجنوبية	= زيمبابوي

١٠ عدد الأقطار غير المستقلة في العالم ٥٩ قطرا ، وهكذا يصبح مجموع الدول المستقلة وغير المستقلة في العالم ٢٢٩ .

١١ بلومان هي عاصمة بليز (هندوراس سابقا) .

تاساو	- البهاما
ثيمفو	- بوتان
فادوز	- ليختنشتاين
أولان باتور	- منغوليا

١٢ مقاطعة كولمبيا District of Columbia» هي التي تتعادل ، وعاصمتها واشنطن دي سي من حيث المساحة التي تبلغ ٦٩ ميلا مربعا ، ومن حيث عدد السكان البالغ عددهم $\frac{3}{4}$ مليون نسمة أو أكثر قليلا .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٦٤ مارس ١٩٨٩

الجائزة الأولى : محمد أحمد حجاج / المحلة الكبرى - جمهورية مصر العربية

الجائزة الثانية : دكتور جودت باسيل دبسيه / الصفاة - الكويت

الجائزة الثالثة : محمد عمر سالم عبد الله / كريتر / عدن - جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ - عبد الرحمن محمد هايل الصلوي / صنعاء / الجمهورية العربية اليمنية

٢ - حمودة قاسم حمودة / المدينة المنورة / المملكة العربية السعودية

٣ - أروى عبد الغني محمود / عمان / المملكة الأردنية الهاشمية

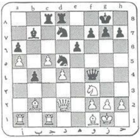
٤ - عمار العموري / مركز بريد توزر / الجمهورية التونسية

٥ - صفاء رفيق آغا / دير الزور / الجمهورية العربية السورية

٦ - رأفت عبد العظيم أبو العز أحمد / الدوحة / دولة قطر

٧ - محمد سليمان الجبوري / بغداد / الجمهورية العراقية

٨ - عبد الغني بوفدة جعيجع / حمام الضلعة / الجمهورية الجزائرية



معركة بلا سلاح

اتسم اللقاء الأخير بين العملاقين السوفيتيين : جاري كاسباروف بطل العالم الحالي ، وأناتولي كاربوف بطل العالم الأسبق ، في نطاق بطولة الاتحاد السوفيتي الخامسة والخمسين ، بكثير من الأثارة والتشويق ، فقد كان محبو اللعبة وهواتها ينتظرونه بلهفة بالغة . لعب كاربوف برصانته وهدوئه المعهودين ، في حين انتهج كاسباروف خط المخاطرة والمغامرة المأثور عنه . وانتهت المباراة بينهما بالتعادل الذي عرضه كاربوف في النقلة الثلاثين وتَلَقّفه كاسباروف بالترحاب لاقتناعه بصعوبة الفوز .

وكانت نقلة كاسباروف الرابعة مخيّبة لتوقعات جميع المراقبين ، وقد أثارت كثيراً من الجدل والتعليق بين كبار الأساتذة ومنهم نيكيتين مدرب كاسباروف الذي قال : « لم يخطط أي منا لهذه النقلة أثناء التحضير ، بل فاجأنا بها كاسباروف أثناء اللعب ، وهي نقلة مؤثرة ، وإن كانت تجافي قانون المنطق الذي يرجع الى أن كاسباروف يحاول الابتعاد عن اللعب النظامي ، لإبعاد كاربوف عن الطريق الممهد » . أما الأستاذ الدولي يوري أفرباخ فقال : « إن كاسباروف يخرج عن قواعد الافتتاح المعروفة ، وهو مالا أقرّه ، فأنا من أنصار الأسلوب الكلاسيكي . ويبدو أن كاسباروف بنظره الثاقب يرى مالا نراه ، فيبيح ذلك لنفسه » .

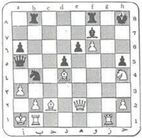
ومن أجمل التعليقات ما قاله آرتور يوسوبوف : « إن مهارة كاسباروف وكاربوف تذهلني ، فعلى الرغم من أنهما قد التقيا أربع مرات متتالية حتى الآن ، إلا أنهما يلعبان كل مباراة جديدة بينهما كما لو كانا يلعبان معاً لأول مرة ، وبالحماسة والإبداع المعهودين فيهما ، وهو أمر يدعو لكل إكبار » .

وفي ختام اللقاء التقى الخصمان اللدودان حول الرقعة ، وأخذا يدرسان الدور ، ويحلّلانه ، كما لو كانا صديقين حميمين ، وقد نسيا كل ما كان بينهما من خصومة . وإليكم الدور الذي نحن بصدده .

□ كاربوف	■ كاسباروف
١ . د٤	ح - و٦
٢ . جـ٤	هـ٦
٣ . ح-جـ٣	ف-ب٤
٤ . و-جـ٢	ت(نقلة مبتكرة)

د ٥ أو جـ ٥ هي المعهودة للحد من سيطرة الأبيض على الوسط

● مسألة العدد ٣٦٧



مات ٣

من إهداء ظافر البكري (كشمير)

٥ . أ٣ ف×جـ٣
٦ . و×جـ٣ ب ٦
٧ . هـ ٣ ف-ب ٧
٨ . ب ٣ د ٥
٩ . ح-و٣ خب-د٧

الموقف نظريا في صالح الأبيض

١٠ . ف-هـ ٢ د×جـ٤
١١ . ب×جـ٤ جـ ٥
١٢ . ت ر-جـ٨
١٣ . ف-ب٢ جـ×د٤
١٤ . هـ×د٤ ب ٥
١٥ . جـ ٥ أ٦
١٦ . أ ٤ ح-د٥
١٧ . و-د٢ ب ٤

نقلة غير متوقعة ف ـ جـ ٦ أفضل نظرّياً

١٨ . أ ٥ و-جـ٧
١٩ . ر(و)-جـ١ و-و٤
٢٠ ف-و١ ر(و)-د٨
(الشكل)
٢١ . و×و٤ ح×و٤
٢٢ . ر-أ٤ ح-د٥
٢٣ . ح - د ٢ الدور مايزال في صالح الأبيض
٢٣ . . . . ر-جـ٧!
(رائعة)
٢٤ . ر(أ)-أ١ ح-ب٨!
٢٥ . ح-جـ٤ ف-جـ٦
٢٦ . ح-د٦ ر-أ٧
٢٧ . و ٣ ح-هـ٧
٢٨ . ر-جـ٤ ح-د٥
٢٩ . ر(جـ)-جـ١ ح-هـ٧
٣٠ . ر - جـ ٤ تعادل بتكرار النقل بالاتفاق

□□□

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج العدد ٣٦٤ مارس ١٩٨٩

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ صفاء محمد عثمان ـ الجيزة / ج م ع
٢ ـ علي السعدي ـ دمشق / سوريا
٣ ـ توفيق علي العمر ـ شبوة / اليمن الجنوبي
٤ ـ نورس حسام حسين ـ النخيل / رأس الخيمة / الإمارات
٥ ـ أسامة علي قاسم ـ جدة / السعودية

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ حسام عبدالهادي محمد ـ بغداد / العراق
٢ ـ نور الدين الهاشمي ـ طرابلس / ليبيا
٣ ـ المنجي القصير ـ المطرية / تونس
٤ ـ فرسان طه الشمايلة ـ عمان / المملكة الاردنية الهاشمية
٥ ـ وليد سعد الله ـ هوليوود / أمريكا

حل مسألة العدد ٣٦٥ - ابريل ١٩٨٩م

١ . و-د٤ ر-ب٢
٢ . م-د٣ أ٣
٣ . م-هـ٣ م-ب١
٤ . و - د١ (مات)

حوار القراء

العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

تحية لأطفال الحجارة

● إخوتي العرب ، بكل ما يعنيه الود من معان سامية أكتب عن وطني الضائع ، عن فردوسنا المسلوب ، عن فلسطين وقضيتنا المصيرية ، عن الانتفاضة وأحداثها المشرفة ، وثورة أهلنا في فلسطين المحتلة ، وهي تقرب من نهاية عامها الثاني ، ولازالت على شدتها ونضالها البطولي ، تثير العالم بما فيها من مواجهة وصمود . إن من حق شعبنا الفلسطيني البطل أن يكتب عنه الكثير ، من حق أطفالنا الذين يرمون الحجارة بكل جسارة وصمود أن يظهروا للعالم أبطالا ، من حق أمهاتنا الفلسطينيات وشيوخنا وشبابنا الذين يقفون في وجه الرصاص الغادر الذي يمزق الأحشاء ويقتحم القلوب ،ويصمدون أمام الغاز السام الذي يخترق صدورهم ، من حقهم أن يطلع العالم على حقوقهم الشرعية وقضيتهم ونضالهم . إن الشعب العربي الفلسطيني البطل في الداخل يحتاج إلى مساندة وتوعية من أصحاب الفكر والقلم ، وتسليط الضوء عليهم يعطيهم نوعا من المساندة والدعم المعنوي الذي هم في أمسّ الحاجة إليه .

إخوتي العرب ، إن شعبنا الفلسطيني يفرض وجوده على العالم بما يقوم به من بطولات رائعة ، وملاحم خالدة ، فليس من الممكن أن ننسى أمًّا تجهض بسبب الغازات السامة ، أو الضرب المبرح الذي تتعرض له ، أو طفلا يموت برصاص المحتل ، أو شيخا يهان لدفاعه عن أرضه أو منزله ، فأصحاب الأرض يأبون الذل والإهانة .

القارئة : نسرين طه

حمص / سوريا

□■□

حشرات مفيدة للإنسان

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● تحية طيبة وبعد ،

لدى اطلاعي على العدد (٣٦٢) يناير ١٩٨٩ من « العربي » ، لفت انتباهي مقال (حشرات تأكل حشرات) ، للدكتور خالد رويشد .

لقد تمكن الدكتور - كاتب المقال - من إيجاز بعض المعلومات ، ورأيت من واجبي أن أضيف على ما ذكره بعض المعلومات ، كي يعم الفائدة والنفع .

يبدأ الحديث عن حشرة أسد المن ، وهي حشرة شرهة ذات جسم هزيل ، ضعيفة القوام ، بطيئة الحركة ، رقيقة الجلد . والطور اليافع منها يطلق عليه اسم

على هذه الصفحات ... ترحب "العربي" بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات



(الذباب ذو العيون المذهبة) . نرى في أغلب الأحيان أن الأنثى تضع البيض الأبيض اللون متعلقا بالسيقان النباتية الطويلة ، أو ملتصقاً بأوراق الأشجار والأعشاب ونباتات المحاصيل الحقلية المتنوعة . ويأتي دور هذه الحشرة الكبير المهم للإنسان لتمكنها من تخليصه من أعداد كثيرة من الآفات الزراعية الخطيرة .

(ثانيا) فرس النبي : وهي حشرة ضخمة الحجم ، من فصيلة الحشرات مشبكة الأجنحة ، وتضم حوالي ١٨٠٠ نوع .

والملفت للنظر أنها جميعها آكلة لحوم . أما أماكن وجودها ففي جميع الأقاليم الدافئة في العالم . أضف إلى ذلك أن فريستها ليست نوعاً واحداً ، بل أنواع كثيرة .

ثالثا : الرعاشات ، وهي مخلوقات حشرية بنية اللون أو خضراء ، ذات أجسام رقيقة ، وطيران بطيء . لها رأس كبير ، فيه عيون . ولرأسها زوج من قرون الاستشعار القصيرة ، وثلاثة أزواج فمية . وهي من أخطر الكائنات الطاغية في عالم « ما تحت الماء » ، كما أن هناك أنواعا أخرى من الحشرات مثل : الذباب السارق ، والذباب الحائم ، والخنافس .

القارىء : ماجد مصطفى أحمد
ادلب ـ سوريا

□■□

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

الأقمار الصناعية

● تحية صادقة من تونس الخضراء إلى الكويت بلد العروبة والمجد ، إني من المنكبين على قراءة مجلتكم بانتظام ، لما ألمسه فيها من العمل الجاد لإثراء الثقافة والمعرفة في الوطن العربي ، وإنني معجب جداً بالمستوى الرفيع لمجلتكم ، وهي من المجلات التي لها صدى كبير لدى المثقفين في تونس وكل أقطار المغرب العربي الكبير . وحرصاً مني على شمولية « العربي » وإلمامها بكل المعارف الإنسانية ، فإنني أقترح توسيع الباب الخاص بالعلوم ، ليشمل بعض المواضيع المهمة التي لم تنل حظها من الإعلام ، وعلى الأخص موضوع الاتصالات الفضائية عبر الأقمار الصناعية .

القارىء : محمد بن أحمد الهمامي
كلية العلوم ـ تونس

حوار القراء

تعريب العلوم

● قرأت في عدد « العربي » ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ مقالا للدكتور عبدالعظيم أنيس ، عن التعليم الفني والتقني . وقضية التقنية التي أثارها الكاتب تصطدم بمعضلة كبيرة ، وهي أن التعليم العلمي والتقني في الجامعات العربية غير معرب ، على الرغم من أننا نملك أرقى لغة وأسمى معانٍ ، تجعل الطالب العربي أقدر على المناقشة بها ، وأسرع إلى استيعاب هذه العلوم المتقدمة ، غير أن اللغة الأجنبية من هذا المنطلق ، تعيق الطالب عن معرفة الكثير من المعلومات أثناء قيامه بترجمتها واستيعابها ذهنيا ، ثم ترجمتها مرة أخرى إلى الأجنبية ذهنيا ، مما يوقع الطالب في كثير من المشاكل ، وخاصة إذا كان غير متمكن من اللغة الأجنبية ، فيضيع معنى الكلمة المطلوبة ، وتقل درجة سرعة استيعابه للمصطلحات العلمية الأجنبية . فالمطلوب أن تقوم حركة ترجمة واسعة للمؤلفات العلمية الأجنبية إلى لغتنا العربية ، فالأجانب قبل ذلك ترجموا الكتب والمؤلفات العربية إلى لغاتهم . ثم إن لغتنا العربية تقوي الروابط بين الجامعات العربية وأبنائها ، وتوصل انتماءهم القومي . وهذه أمنية يتوق كل العرب إلى تحقيقها .

نأمل من مجلة « العربي » أن تتبنى الموضوع وتطرحه على صعيد أوسع للبحث .

القارىء : طارق زاكي الصطوف

حماة / سوريا

□■□

الشعر المحبب

●المقال المنشور في عدد ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ عن الشاعر « ابن زيدون » شاعر الحب والحنين ، للدكتورة سلمى الحفار الكزبري ، وردت حوله عدة رسائل نختار منها رسالتين :

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

تحية حب وتقدير لكم ولأسرة المجلة ، لما تبذلونه من جهد ، فهى إنجاز عظيم ، بما تقدمه لأبناء العروبة من معين الثقافة والفكر في كل ما ينفع الإنسان العربي ، ويشده إلى أمته العربية .

لقد قرأت مقال «ابن زيدون» ، وأود أن أتوجه بالشكر لكاتبته د . سلمى الكزبري ، على عرضها له بشكل مشوق مؤثر ، ونظرا للمكانة التي يحتلها الشاعر في تاريخ الأدب العربي فإنني أقترح أن يتم نشر المزيد من المعلومات عن حياة هذا الشاعر ، إضافة إلى بعض أشعاره .

القارىء : محمد احمد حبركين

دمشق - سوريا

أما الرسالة الثانية فتقول :

لقد شدني حديث د . سلمى الكزبري عن الشاعر ابن زيدون ، وخاصة أنه يتحدث عن الحب ، والحديث عنه موضوع مشوق ومثير للاهتمام ، لأنه يطرح مسألة وجود ، والحب يعني هذا الوجود ، طالما أن العلاقة بين الجنسين مستمرة ، تحدد كل يوم مصير كل من الطرفين ، لكننا نجد أن علاقة الترابط في عصرنا الحالي أصبحت مسألة تافهة في بعض الأحيان ، وهنا يخطر في بالنا سؤال : لماذا أصبح الحب ذا أسس ضعيفة ، وسريع التفكك ، على عكس ما كان في عصر الأسلاف الذين شاعت قصص حبهم وخلدت في التاريخ ، وأصبحت تردد عنهم الأمثال في العشق ، ومنهم شاعرنا ابن زيدون ؟ وبفضل متانة الأسس أصبحت قصة الحب في ذلك العصر أسطورة عبر الأجيال ، وهي التي خلدها الشاعر ابن زيدون فملأت قلبه ، واعتبرها عاطفة نبيلة ، وتركت الأثر في الشعر العربي الخالد .

القارىء : وضاح بياهو
حلب - سوريا

□■□

اقتراحات وردود

● القارىء : **عمار هواش - دمشق ، سوريا** - يقترح صفحات خاصة بأمور الشباب ، تعالج قضاياهم النفسية والرياضية ، والأمور الخاصة بتعلم الحاسوب «الكمبيوتر» والتقنية ، وكيفية تنشيط القدرات الأدبية الشابة الخلاقة ، ومناقشة بعضها ونقدها ، وبهذا تخلق جيلا عربيا واعيا من الكتاب المبدعين .

● القارئة : **هبه الفاصد - من عمان ، الأردن** - تطالب بإجراء استطلاعين علميين ، أولهما يتعلق بثقب الأوزون الموجود في طبقات الجو العليا ، والثاني يتعلق بحقيقة وجود مثلث برمودا ، من أجل التعرف على طبيعتيهما ، وبيان دور الأقمار الصناعية في الكشف عنهما .

● القارىء : **عبد المطلب ادريس - من اكرا ، غانا** - يقترح أن تقوم المجلة بزيارة منطقته ، وتسليط الضوء على أحوال المسلمين هناك .

● القارىء : **محمد عوض بحاج - من محافظة حضرموت ، بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية** - يستفسر عن شروط الاشتراك بمسابقة العربي الثقافية ، وكيفية ذلك . ونقول له : إن المسابقة لها شروط يمكن الاطلاع عليها ضمن العدد ، وكل إجابة لا ترفق بكوبون مسابقة العربي لا يلتفت إليها .

حوار القراء

● القارىء : **سليم هاني منصور** ـ زحلة ، بلبنان ـ يبدي إعجابه الشديد بصفحة «مساحة ود» . ويقترح أن تعطى الفرصة للقراء لكتابة هذه الصفحة .

● القارىء : **غياث جباخنجي** ـ من دمشق ، سوريا ـ لديه مشاريع علمية وقصص عن الخيال العلمي ، يرغب في تطويرها .

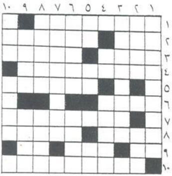
نقول له : إن هناك جهات علمية كثيرة في الوطن العربي يمكن أن تراسلها ، وتعرض عليها هذه الأفكار ، كما يمكنك مراسلة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي أو معهد الأبحاث العلمية في الكويت . وستجد كل الاهتمام .

● القارىء : **الشيخ محمد الأمين حاجب** ـ إمام مسجد ماوسل ، في مدينة ساناويس ، بجمهورية السنغال ـ يقترح على المجلة زيارة منطقته ، والقيام باستطلاع مصور ، كي يلتفت المسلمون إلى ظروفهم الصعبة التي يمرون فيها .

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذى سينشر فى العدد القادم .



كلمات أفقية :

١ - سلسلة جبلية كبرى تمتد من نيومكسيكو الى الاسكا
٢ - قديم أو عتيق ، جبل في اليونان كان يعتبر مقراً للآلهة في القديم .
٣ - لغة ، يُسَوِّف .
٤ - سلسلة جبلية واقعة بين فرنسا واسبانيا .
٥ - سلسلة من الجبال تقع في ايران .
٦ - سلسلة جبلية تمر في مراكش والجزائر .
٧ - بحر واسع يتفرّع من المحيط الأطلسي .
٨ - أباح السرّ ، سلسلة جبلية في جنوب تركيا .
٩ - جبل قليل الارتفاع ، قارب من جذوع الأشجار ، هيئة الملابس .
١٠ - سلسلة جبلية تخترق معظم بلاد أوربا .

كلمات عمودية :

١ - جبل في شرق تركيا يرتبط اسمه بسفينة نوح .
٢ - شجاع ، أصيب بالشلل .
٣ - جبال تمتد من شمال أمريكا الى جنوب كندا .
٤ - غير مطبوخ ، سليط منونة بالنّصب .
٥ - تجدهـا في رأس ، من الحبـوب ، لـو معكوسة .
٦ - يأوي معطوفة ومبعثرة ، أخمد .
٧ - جبل بركاني في القارة الافريقية كان مسرحاً لرواية أدبية معروفة .
٨ - حرفان متشابهان وكلمة (أرى) مبعثرة ، يصيب بالرزايا .
٩ - مطبوخ ، كيميائي وفيزيائى بريطاني اكتشف قانون ضغط الغازات .
١٠ - أرض مرتفعة كثيراً ، قناة مائية عربية مهمة .

● حل مسابقة العدد الماضي - مايو ١٩٨٩ م

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	ن	و	ب	ل	■	م	د	■	هـ	ش
٢	ج	ا	ث	ز	ة	ن	و	ب	ل	■
٣	ي	ن	ر	ن	■	ش	■	ا	■	ن
٤	ب	د	■	م	ا	ا	ب	س	ل	ك
٥	م	ر	م	■	م	■	ر	ت	و	ش
٦	ح	ي	و	ا	ن	■	ن	ر	ث	■
٧	ف	ه	ص	■	ا	ل	د	ن	ر	ي
٨	و	ج	ل	ه	■	م	ل	ا	ك	م
٩	ظ	ى	ل	■	ف	و	ل	ك	ن	ر
١٠	■	د	ي	ا	ر	■	و	■	ج	ن

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

يونيو ١٩٨٩م

أدب الرحلات

تأليف
الدكتور حسين فهيم

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٣٨

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

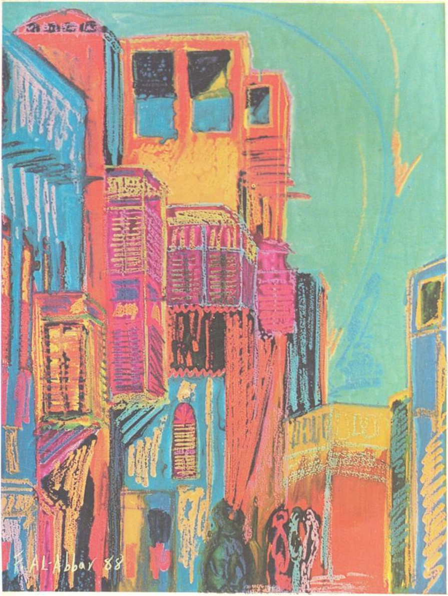
من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدر مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

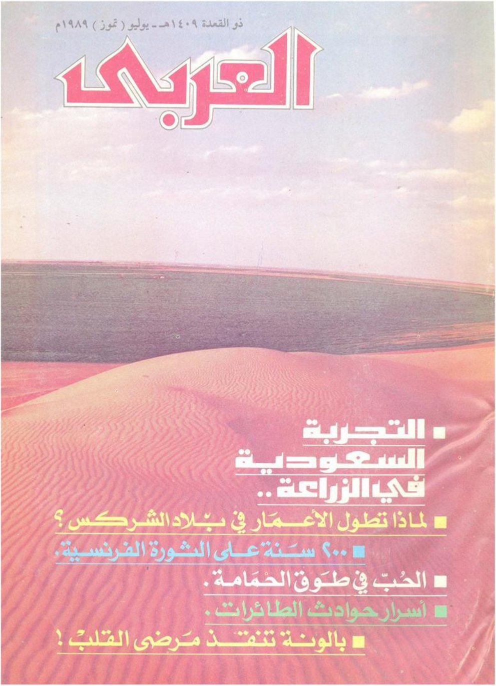
العدد ٢٣٧ يونيو ١٩٨٩

افتتاحيات الهادئ

تأليف : جون ويدمان
تقديم : د. عبدالوهاب المسيري
ترجمة : د. عبدالوهاب المسيري ومحمود حلمي
مراجعة : د. عبدالواحد لؤلؤة



سُوق قـديـم - للفنّان الكويتي فاضِل العبّار


ذو القعدة ١٤٠٩هـ - يوليو (تموز) ١٩٨٩م
العربي
التجربة السعودية في الزراعة..
لماذا تطول الأعمار في بلاد الشركس؟
٢٠٠ سنة على الثورة الفرنسية.
الحبّ في طوق الحمامة.
أسرار حوادث الطائرات.
بالونة تنقذ مرضى القلب!



السيّدة والفقمَة - للفنان الإيطالي ليوناردو داڤينشي

العــــدد ٣٦٨ لسـنة الثانيـة والثـلاثـون يوليـو ١٩٨٩

العربي

مجـلـة ثـقـافـيـة مصـورة
تصـدر شـهـريًا عـن وزارة الإعـلام بـدولـة الكـويـت
للـوطـن العـربي ولكل قـارئ للعـربيـة فـي العـالـم

رئـيس التـحـريـر
د. محمـد الرميحي

AL - ARABI
Issue No. 368 July 1989 P. O. Box 748.
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

عنـوان المجـلـة
العــربي
ص.ب: ٧٤٨ ـ الصفـاة
الرمـز البريـدي 13008 الكـويـت
تـلـفـون: ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيًا: "العـربي" - الكـويـت
تلفون فاكسملى: ٢٤٢٤٣٧٥ - تلكس: MITR. 44041 KT
المراسـلات باسـم رئـيس التحـريـر

الاعلانات يتفـق عليهـا مـع الإدارة ـ قسـم الاعلانـات

الاشتراكات ترسل الطلبـات إلى: قسـم الاشتراكات ـ الإعلام الخارجي
وزارة الإعـلام ـ ص.ب: ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة
مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

ثمن النسخة

الكويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسًا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا: جنيه استرليني ونصف
مصر ٣٥ قرشًا	سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ٢٥ فرنكًا
السودان ٢٥ قرشًا	لبنان ٥٠ ليرة	أمريكا ٣ دولارات

محتويات العدد

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

طب وعلوم :

استطلاعات مصورة :

أدب وفنون :

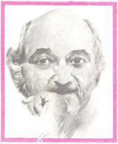


● « بالونة » تنقذ مرضى القلب ... ص ١٥٤



● الأعمار طويلة والأسنان لامعة في بلاد الشركس والقراطشاي ص ١٣٢

منتدى العربي:



تاريخ وتراث واشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :



صـورة الغـلاف

« العربي » تشهد معجزة في الصحراء .. إن تجربة السعودية في الزراعة أثمرت أعنابا ونخيلا وسنابل ، وخلال سنوات قليلة أصبحت سادس دولة في العالم من حيث إنتاج القمح وتصديره .
(طالع الاستطلاع ص ٦٨)

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

عزيزي القارئ

عيدك مبارك

يحق لنا نحن العرب أن نهنيء أنفسنا بالعيد ، خصوصاً هذا العيد ، فقد كانت الأشهر الأخيرة التي سبقته أشهر عمل عربي ، على أعلى المستويات ، من أجل الوصول إلى حلول لمشكلات معلقة منذ زمن .

وعن العيد يكتب لنا القاضي اسماعيل بن علي الأكوع ـ وهو من شيوخ العلم اليمنيين المعاصرين ـ عن العيد في اليمن ، وهو مقال شيق وجديد في بابه .

وهذا الشهر هو ذروة الاحتفالات بالعيد المئوي الثاني للثورة الفرنسية في فرنسا ، وسوف يحتفل كثير من دول العالم ، كل بطريقته ، بذكرى هذه الثورة ، نظراً للمبادىء والقيم التي طرحتها حال قيامها ، والتي أصبحت مثالاً اقتدت به شعوب كثيرة . ونحن في « العربي » نقدم محوراً خاصاً بهذه المناسبة ، فعدا عن حديث الشهر الذي كرسناه لمناقشة مضامين الثورة الفرنسية ، وتأثيرها الأوربي والعالمي ، كتب لنا الدكتور رياض معسعس عن أحداث تلك الثورة ، وكتبت لنا د . زينب عبد العزيز عن الأخوان شينيه اللذين شاركا في الثورة وكان لكل منهما موقف مختلف عن الآخر .

والعدد حافل بجانب كل ذلك بمواد ثقافية جديدة ممتعة ، من بينها مقال للكاتبة أمينة السعيد ، فبعد تجربة طويلة مع الصحافة ومع نوع معين من الاهتمامات بمشكلات القراء تكتب « للعربي » ، لأول مرة عن صور إنسانية في الحب والموت .

وتأخذك العربي باستطلاعيها هذه المرة إلى تجربة رائدة في المملكة العربية السعودية ، عندما حولت ـ بالارادة والتصميم ـ الصحراء إلى إنبات القمح والفواكه ، وقراءة هذا الموضوع سوف تضيف الكثير من المعلومات عن هذه التجربة الرائدة ، وفي استطلاعنا الثاني تقرأ عن سر الأعمار الطويلة للشركس .. هل هي نتيجة البيئة أم الغذاء أم شيء آخر ؟ وفي السينما تقرأ موضوعاً لرؤوف توفيق ، تناول فيه محاولات السينمائيين لاجتذاب الأجيال الشابة إلى دور السينما ، بعد أن واجهت تحديات « التلفزيون » و « الفيديو » ، وتقرأ للمهندسة ريا عارف الرفاعي موضوعاً يتعلق بحوادث الطائرات ، وهل تنتج عن خطأ أم إهمال ؟ كما تقرأ موضوعاً طبيا يتعلق « بالبالونة » التي تنقذ بعض مرضى القلب !

هذا بجانب ما تحفل به مائدة العربي من اهتمامات ثقافية مختلفة . فيها الجديد والطريف ، وهو بعض ما تقرؤه في هذا العدد ، متمنين لك عيداً مباركاً وإجازة صيف ممتعة □ .

المحـــــــرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

الثورة الفرنسية
أخطاء شائعة، ودروس مازالت صالحة!

تصل احتفالات فرنسا ذروتها هذا الشهر بذكرى مرور مائتي عام على قيام الثورة الفرنسية ، ولا يوجد حدث - أو أحداث - في التاريخ الحديث جرت دراسته بهذا التفصيل والتشعيب من قبل المؤرخين ، وقدمت فيه وجهات نظر وتحليلات كثيرة مثل الثورة الفرنسية .

ومع ذلك فحتى اليوم - وبعد مرور كل هذا الوقت - لا يوجد اتفاق شامل بين المؤرخين والمعلقين والكتاب السياسيين حتى على الإجابة عن سؤال بسيط هو : كيف بدأت الثورة ؟ ولماذا ؟

هناك تفسيرات كثيرة لذلك الحدث الذي هز فرنسا في العشر سنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر وما تلاها ، وأصبح صداه يتردد في أوربا ، بل وفي العالم كله بعد ذلك بسنين طويلة ، وما زالت المقالات تدبج والكتب تؤلف حول هذا الحدث الخطير في مسيرة تاريخ الانسانية .. الثورة الفرنسية .

■ الوعي هو الذي يفتح الطريق للإحساس بالظلم

المدهش أن إعادة قراءة أحداث الثورة الفرنسية اليوم ، ومعرفة الأسباب العديدة التي أدت الى نشوبها ، ونتائج تلك الثورة ، وما خلفته من صراعات على المستوى المحلي ، وما دخلته من حروب ، وما تركته من أفكار ، إن إعادة قراءة كل ذلك ، ومقارنته بأحداث (ثورية) ، جرت في بقاع أخرى من العالم شماليه وجنوبيه - على حد تعبير السياسيين اليوم - تظهر للمتابع مفاجأة كبيرة ، مفادها أن الجنس البشري لا يتعلم إلا من أخطائه ، أما أخطاء الآخرين فهي أمور يظن أنها لن تقع له ، وعليه أن يرتكب الخطأ ، هو بنفسه حتى يعرف مغبته . وكم هي متطابقة هنا تجارب الشعوب ، أي التجربة الجماعية مع التجربة الفردية ، والفرق الوحيد أن الأخيرة تأتي بالضرر على شخص واحد ، أما الأولى فيشمل ضررها فئات كثيرة ، وربما يمتد ضررها أجيالاً عديدة .

حتى في ميكانيكية الثورة ، نجد الدروس تتكرر . يخطط للخروج من الوضع الاقتصادي الاجتماعي السياسي المتدهور مثاليون ، وأصحاب أفكار نيرة ، وينفذ تلك الخطط جماهير من العامة ، ويستفيد من النتائج قلة ذكية إلى حين ، كما تأكل الثورة - عادة - أبناءها واحداً واحداً وفريقاً فريقا ، وتتقلب بين شطط اليمين وشطط اليسار ، كأنها سفينة تتلاطم في موج عاصف ، لا ينجو منها إلا من رحم ربي ، إلى حين أن تهدأ السفينة ، وتعود إلى مواصلة المسار من جديد . إن الثورة تتحول من رومانسية ومثالية إلى جنون وإرهاب ومذابح في سنواتها الأولى .

والثورة لها ذروة ، كما أن لها سفحاً ، مثلها مثل بقية الأفعال الانسانية ، وبين الذروة والسفح هناك أمور وأحداث صغيرة متراكمة ، تسبق الذروة ، وهناك أيضاً أمور وأحداث كثيرة وصغيرة تعقبها ، قبل أن تهبط بها إلى السفح ، وبين النقطتين صعوداً وهبوطاً تراق دماء غزيرة ، وتخاض حروب ، وتنتقل السلطة من يد الى يد ، وتتحالف ضد الثورة أيضاً قوى داخلية أو خارجية ، وتكون نتيجة الصراع أن لا تفرض الثورة نفسها على الآخرين خارج وطنها ، كما لا يستطيع الآخرون خارج الوطن فرض إرادتهم عليها ، وتصل الأمور في النهاية الى محصلة تختلف باختلاف الضغوط والضغوط المضادة . ولكن هذه النتائج - بالتأكيد - ليست كما حلم بها المثاليون في الثورة ، كما أنها ليست كما أراد لها أعداؤها أيضاً . إنها طبيعة تفاعل البشر على هذه الأرض .

قوانـــين الـــثـــورة :

لعل المجتمع الفرنسي والثورة الفرنسية التي نحن بصدد الحديث عنها تجسم لنا هذا التفاعل الذي وصفنا نتائجه في السابق أفضل تجسيم ، ولكنها في تصوري ليست الوحيدة ، فمعظم الثورات التي عرفناها منذ الثورة الفرنسية ، إن لم تكن جميعها ، مرت - وما زالت تمر - بتلك المعادلات الإنسانية ، مع اختلاف طفيف في التفاصيل . فرنسا التي نعنيها اليوم ، منذ سقوط الباستيل في الرابع عشر من يوليو تموز ١٧٨٩ ، وهو ذروة الفعل الثوري الفرنسي حتى يومنا هذا ، أي بعد قرنين من الزمان ، نجدها قد طوت خمس جمهوريات (الجمهورية الخامسة أعلنت عام ١٩٥٨) ، كما طوت خمسة عشر دستوراً .

وبمعدل حسابي بسيط نجد أن هناك جمهورية كل حوالي أربعين سنة ، وهناك دستوراً كل حوالي ثلاث عشرة سنة . تلك إحدى المؤشرات التي تتكرر في كثير من بقاع العالم ، وهي أن سنة الحياة التغير والتطوير ، وأن الجمود ضد سنن الحياة ، في كل مشاربها ، بما فيها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

كثير من المؤرخين يؤكدون أن ما حدث في فرنسا في صيف ١٧٨٩ كان الثورة الشعبية الأولى ، ذات القصد الثوري والإصلاحي ، بل إن كلمة (ثورة) هي كلمة وفعل فرنسيان ، صاحبا ما حدث في باريس قبل مائتي سنة ، ولكن ليس كل المؤرخين يذهبون هذا المذهب ، فقد سبق ما حدث في باريس في ذلك العام البعيد - كما يقول البعض - ثورات صغيرة ، حدثت قبل سنين طويلة من الثورة نفسها ، ففي سنوات ١٧٢٥ ، ١٧٣٩ ، ١٧٥٢ ، ١٧٧٥ قامت انتفاضات صغيرة في فرنسا ، سميت في التاريخ (ثورات الخبز) ، أثارها الجوع ، لعدم قدرة المواطنين على شراء الخبز لغلاء أسعاره ، ولم تكن تلك هي الوحيدة في أوربا ، فقد سبقتها محاولات من وطنيين في (الأقاليم المتحدة) ، أو ما يسمى اليوم هولندا ، ضد النظام القائم حينذاك ، بل جرت محاولة في صيف عام ١٧٦٨ في مدينة جنيف ، أخذت شكل انقلاب ، واستمرت عاماً كاملاً ، إلا أن الحجم والتأثير الذي خلفته الثورة الفرنسية أعطاها بحق وعن جدارة اسم « أم الثورات » .

■ في فرنسا كل ثلاث عشرة سنة دستور جديد وكل أربعين سنة جمهورية جديدة

اليوم في الاحتفال الرائع للعيد المئوي الثاني للثورة ، سوف ينسى الفرنسيون والعالم الكثير من الآلام التي أحدثتها هذه الثورة في سنواتها الأولى ، وسوف ينسون الفشل الذريع الذي ألم بها بعد سنواتها الأولى التي أكلت الأخضر واليابس ، ليس بين مثقفي فرنسا ورجال ساستها فقط ، بل في



خارجها أيضاً ، وهناك من يرى انه لولا ظهور نابليون بونابرت (١٧٩٩) لانقسمت فرنسا إلى عدة دول .

النتائج الايجابية التي يحتفل بها اليوم لم تظهر إلا بعد أن هدأت العواصف ، ومرت سنين طويلة على قيام الثورة ، بل حتى على حروب نابليون التي انتهت بهزيمة نكراء للجيوش الفرنسية في واترلو سنة ١٨١٥ . ما بقي من الثورة وما يحتفل به العالم اليوم هو القيم التي جاءت بها ، وهي قيم داسها الفرنسيون أيضاً بعد ذلك بسنوات طويلة ، عندما سنحت لهم فرصة (استعمار) شعوب ودول أخرى في الشرق ، فقد كانت شعارات الإخاء والحرية والمساواة التي قال بها الأجداد الذين قاموا بثورة فرنسا ، تداس من جديد حتى منتصف القرن العشرين في الجزائر وفيتنام وأماكن أخرى كثيرة ، لذلك علينا أن نتعرف على (قوانين) الثورات دون أن ننساق كثيراً لتمجيد قيم لم يحترمها كثيراً فترة طويلة أحفاد مطلقيها أنفسهم .

لماذا قامت الثورة الفرنسية ؟

لماذا قامت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، وفي فرنسا على الأخص ، ولم تقم في سنوات سابقة أو لاحقة وفي أماكن أخرى من أوربا ؟

■ هل تكفي المصاعب الاقتصادية وحدها لقيام ثورة بمثل أحداث الثورة الفرنسية؟

يرى بعض المؤرخين اليوم ، وبشكل يقرب إلى الدقة ، أن سبب قيام الثورة في الزمان والمكان اللذين قامت فيهما ، سبب اقتصادي في معظمه ، وهو إفلاس الخزينة الفرنسية ، وفشل الموسم الزراعي مدة ثلاث سنوات سابقة للثورة . في تقدير أغلب المؤرخين أن ذلك كان الشرارة التي أطلقت الثورة في بيئة اقتصادية واجتماعية وسياسية مهيأة . لقد كانت فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر يحكمها ملك ، تليه طبقة ارستقراطية مستفيدة ، ثم ما سمته بعض الأدبيات في القرن التاسع عشر « الطبقة الثالثة » ، وهي الطبقة الوسطى (البرجوازية) ، وقاعدة عريضة من أصحاب المهن والحرفيين والفلاحين . نظام الحكم كان يحمل جذور هلاكه تحت جناحيه ، فلم يكن يرضي أحد ، سوى القلة التي يوزع الملك بنفسه عليها السلطات ، ويحكمها في رقاب الناس ، حتى أبناء الطبقة الارستقراطية ممن لم يكن لهم نصيب في المشاركة في السلطة كانوا ينقمون على الملك ، أما الفئات الوسطى من أبناء المدن فقد كانوا محرومين من المكانة الاجتماعية التي يتمتع بها الارستقراطيون ، وكذلك من المشاركة في الحكم ، أما الفلاحون فقد كانوا محتقرين لدى الفئات الاجتماعية التي تعلوهم ، وتفرض عليهم في الوقت نفسه ضرائب باهظة ، ينوء بها أفراد هذه الفئة ، خاصة في سنوات الشح . أما رجال الدين فقد كانوا يصنفون في طبقة النبلاء ، ويتمتعون بامتيازات مالية أكبر من غيرهم ، بالاضافة الى دخلهم - كأسياد اقطاعيين - من أجور الأراضي التي يقطعونها للفلاحين ، وكانوا يجبون جزءاً من محصول الأرض ، ولا يوفون إلا نسبة ضئيلة مما يترتب عليهم من التزامات تجاه خزينة الدولة ، وهي ميزة لم يكن يتمتع بها حتى بعض حكام الأقاليم .

خلاصة القول أن الحكم المطلق الذي أقامه الملك لويس الرابع عشر (١٦٧١ - ١٧١٥ م) كان يعطيه صلاحيات واسعة ، يمنح بمقتضاها صلاحيات لمن يشاء ، غير أن خلفاءه من بعده لم يستطيعوا المحافظة على هذه الصلاحيات ، وفقدوا الكثير منها نتيجة لمعارضة الارستقراطية المحرومة من المشاركة ، وفقدوا معها الكثير من احترام الناس وولائهم .

لويس الخامس عشر كان كسولاً متراخياً ضعيفاً ، ولما جاء لويس السادس عشر (١٧٧٤ - ١٧٩٣) أراد أن يقوم بإصلاحات ، وفشل كل من كلفه بالوزارة في القيام بتلك الإصلاحات ، بسبب الصلاحيات والامتيازات التي كانت ممنوحة لطبقة النبلاء . وحتى وقت قيام الثورة كانت المناصب العليا في الإدارة والجيش والكنيسة قاصرة على تلك الطبقة . لا ثروات الطبقات

الوسطى ، ولا الرتب العلمية التي أحرزوها ، كانت شفيعاً لهم لفتح الأبواب الموصدة أمامهم ، مما ولد لديهم شعوراً بالمهانة والإذلال . هذا الشعور كان أحد الأسباب المهمة التي أدت الى الثورة الفرنسية ، فقد انتظر هؤلاء طويلاً قبل أن يحولوا شعورهم بالمرارة والإحباط الى تعبير سياسي . وشكاوى الفلاحين زادت في أواخر عهد الحكم القديم ، فقليل منهم هم الذين تمكنوا من تحسين حالتهم المادية والمعيشية ، فقد كان واحد فقط من كل أربعة فلاحين يملك قطعة أرض صغيرة خاصة به ، أما الأغلبية العظمى فقد كانوا يعملون أجراء ، مقابل حصة محدودة من المحصول ، أو مقابل أجر ضئيل لا يكاد يكفيهم قوت يومهم . هذه الفئة من الناس ، كانت ترى أبواب المستقبل موصدة ، ولم يكن كبار ملاك الأرض يفتأون عن ابتكار أساليب لحرمان هؤلاء أكثر وأكثر .

زاد كل ذلك فشل الموسم الزراعي في سنوات ٨٧ ، ٨٨ ، ١٧٨٩ ، فقد أصاب البلاد في تلك السنوات جدب فظيع وقل المحصول الزراعي وتضاعفت الأسعار ، وما لبث الكساد الذي أصاب الزراعة أن لحق بالصناعة ، فقل إقبال الناس على شراء السلع ، وهكذا جمعت النكبات الفلاحين والعمال والفئات المتوسطة والمتضررين من طبقة النبلاء في بوتقة واحدة .

ولكن المؤرخين يتساءلون : هل تكفي المصاعب الاقتصادية وحدها التي تعانيها فئة من الناس لقيام ثورة بمثل أحداث الثورة الفرنسية وضخامتها ؟

دور الفكر :

يكاد الكثيرون يجمعون على أن القاعدة الفكرية التي تهيأت قبل ذلك في المجتمع الفرنسي ، كانت البيئة الصالحة التي تنفست وفقست فيها (النفسية الثورية) . لم يكن في فرنسا أحزاب سياسية تبلور المطالب وتعمق وعي الناس وادراكهم لها ، لقد قام بهذه المهمة أشخاص ذوو وعي عال ومواهب فكرية ، أطلق عليهم المؤرخون بعد ذلك تسمية عامة ، هي « مفكرو حركة التنوير » (من أمثال المفكرين الفرنسيين بيرك وتوركيو فيل) ، وهم الذين أسهموا من خلال كتاباتهم إسهامين أساسيين : أولهما إضعاف الأيديولجية التي كان يستند عليها النظام القديم ، وثانيهما أنهم بشروا بالأفكار الجديدة ، ثم جاء مونتسكيو وفولتير وروسو وآخرون ، فعمقوا الأفكار الجديدة التي تقبلها

■ عندما أصبح تعميم الإعدام بالمقصلة هو العدالة!

جمهور كبير من الشعب من كلا الفئتين المتخاصمتين : الارستقراطية وعامة الشعب ، حتى أصبحت رؤ ية بعض صغار رجال الدين ، وهم يتمردون على أنظمة الكنيسة ويجاهرون بشكواهم مشككين في السلطات المتزايدة للأساقفة والمطارنة ، أصبح ذلك منظراً مألوفاً لا يدعو الى العجب ، مثله مثل إظهار بعض صغار رجال الدين وآخرين الاستهانة وعدم المبالاة بأنظمة الكنيسة .

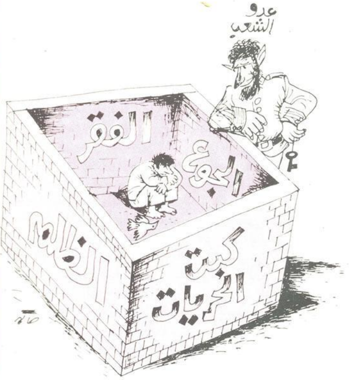
وظهرت من خلال مجهودات الكتاب والمثقفين كلمات مثل (وطن) (وموطن) و (عقد اجتماعي) و (رأي عام) و (حقوق الإنسان) ، وبدأت تدخل في قاموس الألفاظ السياسية المتداولة . وهكذا كان الجو مهيئاً لشيء ما كبير ، فكانت الشرارة الأولى من جراء تدخل الحكومة الفرنسية في الثورة الأمريكية ، مع الأمريكان وضد بريطانيا سنة ١٧٧٨ . ومع أن فرنسا خرجت من جراء ذاك التدخل منتصرة بعد خمس سنوات ، إلا أنها خرجت باقتصاد سقيم ، وكانت الحالة الاقتصادية ـ كما أسلفنا ـ هي الشرارة الأولى التي أضرمت النار .

أما الشراره الثانية فقد جاءت من خلال كتابات مفكرين وفلاسفة ، ومن مؤلفاتهم ونشراتهم التي كانت تبشر بالأفكار الثورية ، في صفوف شعب يعاني من ضائقة اقتصادية ونزاعات سياسية داخلية متشابكة . تلك العقول هي التي حددت للثورة أهدافها البعيدة ، ولكن تنفيذ الثورة جاء كعملية جراحية قاسية ، أبادت عدداً من الناس يساوي أكثر من مائة ضعف الذين قضى عليهم ملوك أوربا مجتمعين في المائة سنة الأخيرة قبل الثورة ، وفجرت صراعات عميقة في المجتمع الفرنسي احتاجت لدكتاتور عسكري بعد ذلك بعشر سنوات ، لوضع الأمور في نصابها جزئياً .

جول ميشيل ، المؤرخ الفرنسي الكبير ، كتب في الأربعينيات من القرن الماضي (التاسع عشر) عن الثورة الفرنسية ، على أنها ثورة شعب بكامله ضد الفقر والظلم والحرمان ، وهذه النظرة هي التي سادت عن الثورة الفرنسية ، ولكن مؤ رخاً مثل اليكسي توركيو فيل الذي شارك ميشيل نظرته في أن أهداف الثورة هي التحرر من قيود الظلم ولكنه تحفظ على الأهداف المحققة ، فقد كان له رأي آخر ، قال : (الحقيقة أن المخططين للثورة الفرنسية كانوا أكثر الناس تحضراً وثقافة في فرنسا ، ولكن القائمين بها كانوا أكثر الناس همجية ووقاحة ! !) .

يشير كتاب ومؤ رخون آخرون إلى أن من أسباب قيام الثورة في فرنسا في الوقت الذي قامت فيه ، وجود طبقة وسطى عريضة ، أكثر ثراء وأكبر عدداً

منها في أي دولة أوربية معاصرة في ذلك الوقت ، كما أن فلاحي فرنسا وقتئذ كانوا يتمتعون بدرجة أكبر من الحريات التي كان يتمتع بها نظراؤ هم في بلدان أخرى . وقد يكون هذا الكلام صحيحاً عندما نتكلم عما يسميه الاجتماعيون والسياسيون المحدثون « الوعي » ، فإن كان هناك ظلم وتعسف ولم يكن هناك (وعي) به لا يعد ظلماً وتعسفاً ! ! وسيظل الكتاب والمؤ رخون يفتشون عن أسباب ودوافع جزئية أو كبيرة لقيام الثورة الفرنسية ، إلا أن الحقيقة الواقعية أنها قامت وخلفت وراءها آلاماً - كما هو معهود بالثورات - وآمالاً كباراً ليس للشعب الفرنسي وحده . وكان درسها الرئيسي أن الصدام بين القوى الاجتماعية والسياسية المتنافرة واقع لا محالة إن لم يقنن هذا التنافر وتقلص أسبابه بطرق أخرى .



انتصار محدود على الأرض :

سنة الحسم التي درج على تسميتها أحد المؤرخين الفرنسيين هي سنة ١٧٨٩ وقمتها سقوط الباستيل ، ذلك السجن الرهيب في قلب باريس . ولكن سبق سنة الحسم ثورة النبلاء (٨٧ - ١٧٨٨) التي وجهوها ضد الملك لنيل بعض الامتيازات . نجاح النبلاء قرّب سنة الحسم ، فشجع الطبقة الثالثة - أبناء المدن والفئات الوسطى والحرفيين والفلاحين - على تنظيم حقوقهم لنيل نصيبهم من السلطة أسوة بالنبلاء . وعندما بلغت الثورة أوجها بدأ حكام الأقاليم والارستقراطيون يختفون ليحل محلهم حكام من الثوار، ولكن التحالف الواسع لم يكن سيره سهلاً وميسوراً ، فقد أنشب بعض الثوار أظافرهم بعد ذلك في رقاب بعض ، وعندما جاء وضع الدستور الجديد عبر عن آمال الطبقة الوسطى القديمة ، فقط إعلان حقوق الانسان الذي تضمن أفكاراً قيمة وعامة والذي يلاحظ التشابه بينه وبين إعلان حقوق الإنسان الأمريكي الذي سبقه بحوالي ثلاث عشرة سنة (١٧٧٦م) . . إعلان حقوق الانسان هذا تبنى إحدى المدارس الفلسفية السائدة في ذلك الوقت ، والتي تنادي بإخضاع التشريع لقوانين الطبيعة ، ولقد أغفل المساواة ذات الطبيعة الاقتصادية ، في حين شدد على المساواة ذات الطبيعة السياسية .

بجانب هذا النقص الجزئي في اعلان حقوق الانسان الذي تبنته الثورة ظهر نقص أكثر منه في الدستورين اللذين سنتهما الثورة في الثلاث سنوات الأولى (قبل إلغاء الملكية) - دستور ١٧٨٩ ، ودستور ١٧٩١ - وكان التوجه لحماية المكاسب من أخطار يعرفها الثوار ، وهي الحكم الاستبدادي وامتيازات الطبقة الارستقراطية ، ولكنه أبقى على الحكم الملكي كملكية دستورية ، وظل منصب الملك وراثياً ، له مخصصات مالية ، وأعطى الدستور الحق للملك في تعيين الوزراء من خارج المجلس الوطني ، كما أعطاه الحق في تعيين السفراء والقادة العسكريين ، بل ومنح الملك حق إيقاف تنفيذ القوانين التي يسنها المجلس الوطني مدة لا تتجاوز أربع سنوات ، أو فترة بقاء مجلسين تشريعيين متتاليين . الى جانب هذه الامتيازات التي بقيت للملك حرم من حل المجلس الوطني ، كما جعلت مسئولية الوزراء أمام المجلس الوطني لا الملك ، وفتح التعيين في القيادات العليا للقوات المسلحة لأبناء الشعب . أما حق الانتخاب للمجلس الوطني فقد منح فقط للمواطنين الذين يملكون قدراً معيناً من الثروة أو الممتلكات ، وقد قسم المجلس الوطني المواطنين إلى فئتين ، وقصر حق

■ لماذا تتحول كل الثورات في سنواتها الأولى من رومانسية ومثالية إلى إرهاب ومذابح ؟



الانتخاب على الفئة الأولى التي تتوافر في أفرادها الشروط التي تحددت في أن يكون الناخب ذكراً ، لا يقل عمره عن خمس وعشرين سنة ، ولا يكون من العاملين في الخدمات المنزلية ، وأن يكون من دافعي الضرائب التي لا تقل عن مبلغ يعادل أجر ثلاثة أيام لعامل غير ماهر . هذه الفئة العريضة التي تتوافر فيها الشروط السابقة يمكنها الاشتراك فقط في انتخابات (الدرجة الأولى) ، أي اختيار المرشحين للمجالس الأولية التي يشترك أعضاؤها بعد ذلك في اختيار ممثلي الأمة ، ومن بين الأعضاء المختارين للمجالس الأولية يحق لمن يدفع ضريبة مباشرة للدولة تعادل أجر عامل مدة عشرة أيام فقط ، أن يشترك في اختيار ممثلي الأمة . وتضيق الدائرة بعد ذلك ، فالمرشحون لنواب الأمة يشترط أن يكونوا ممن يدفعون الضريبة التي لا تقل عن مبلغ معين من المال .

يقول أحد مؤرخي الثورة الفرنسية : إنه حتى أغسطس سنة ١٧٩١ كان ٧٠٪ من المواطنين الفرنسيين يملكون حق التصويت في المرحلة الأولى ، وتنخفض هذه النسبة لتصبح ١٠٪ في المرحلة الثانية ، ثم تنخفض ثانية كي لا تتعدى ١٪ فقط من المواطنين الذين لهم الحق كي يصبحوا نواباً . ومع هذا التضييق فقد كان البرلمان الفرنسي أكثر ديموقراطية من مثيله البريطاني في ذلك الوقت ! ولكنها كما نرى (ديمقراطية) فقيرة ومحصورة جداً .

كان حب الفرنسيين (للعدل) في تلك السنوات المبكرة بعض ما يتندر به المؤرخون ، فبعد مارس ١٧٩٢ تقول لنا كتب التاريخ : إنه تم تعميم طريقة الإعدام بالمقصلة على الجميع ، بعد أن كان النظام القديم يستخدم

■ لماذا تخلف ثلاثة فقط عن توقيع "الحلف المقدس"؟!

طريقة (غير عادلة) في الاعدام ، فيعدم بالسيف أو الفأس أو المشنقة (الأنشوطة) حسب الطبقة التي ينتمي إليها المجرم ! !

إلا أن الإصلاحات المالية والضريبية وقيام المؤسسات المختلفة هي التي تحسب في نهاية الأمر للثورة الفرنسية التي انتهت ـ في غضون ما يزيد قليلاً على العشر سنوات ـ من ملكية دستورية إلى نظام الجمهورية الأولى ، ثم إلى نظام حكم القناصل ثم إلى نظام حكم امبراطوري تحت راية نابليون بونابرت الذي وضع للدولة دستوراً جديداً على غرار الدستور القيصري .

وبدأت فرنسا عهداً يعده بعض المؤرخين ظاهرة تاريخية منفصلة عن الثورة الفرنسية ، حتى أن بعضهم قال : إن الثورة قد انتهت مع قذائف نابليون الأولى في ٩ ، ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ ، عندما (وافقت الثورة على إنهاء مهمتها) . ولعل هذا الأمر يبدو معقولاً عندما تنظر الى الثورة الفرنسية ، كتتابع أحداث ، أما كتأثير سياسي واقتصادي واجتماعي فقد تركت أثراً ملموساً على القارة الأوربية ، وعلى شعوب كثيرة في بقاع الأرض المختلفة .

وعلى الرغم من أن المجلس التأسيسي المكلف بوضع الدستور الجديد لفرنسا قد أعلن في مايو عام ١٧٩٠ في بيان له عن الحرب والسلام ما نصه :

(إن الشعب الفرنسي لا يضمر نوايا عدوانية ضد أحد ، وليس في نيته شن حروب أو احتلال بلاد ، كما أنه لن يستخدم قواته المسلحة للاعتداء على حرية الشعب) ، وقد ضمنت هذه الفقرة في صلب دستور ١٧٩١ . على الرغم من ذلك الاعلان ، فقد نظرت حكومات الدول الأوربية المعاصرة لأحداث تلك الثورة ، على أنها شر لا بد من مقاومته ، وتجمعت امبراطوريات وملكيات أوربا في « حلف مقدس » ضد هذا القادم الجديد ، خاصة بعد اندحار جيوش فرنسا وسقوط نابليون الأول سنة ١٨١٤ . وكان الهدف من وراء هذا الحلف هو شن حملة ايديولجية ، ذات طابع ديني مضاد للأفكار والمفاهيم العقلانية للثورة الفرنسية ، وتمكنت هذه الدول من إقناع معظم حكام الدول الأوربية بالانضمام الى اتحادهم ، ولم يتخلف عن التوقيع إلا ثلاثة : الوصي على عرش انجلترا ، والبابا ، وسلطان تركيا المسلم .

ومن جهة أخرى وقعت الثورة في خطأ أصبح (كلاسيكياً) بعد ذلك ، فقد فسر الثوار الفرنسيون التعاطف الشديد مع أفكارهم من مواطنين في دول أوربية أخرى ، تواقين إلى الحرية ، على أنه يمكن أن يتحول الى قبول وترحاب بجيوش فرنسا ، إلا أن هذه الجيوش تحولت إلى جيوش غزو واحتلال .

لقد قال خطيب الثورة الفرنسية « روبسبير » عندما بدأت جيوش فرنسا تزحف على أوربا ، خاصة بلجيكا وهولندا والراين في سنة ١٧٩٢ : (إن



الجيش الفرنسي ليس مؤهلاً لعمليات الغزو والاحتلال أولاً ، ثم إنه سيقابل بمقاومة شديدة ، لأنه جيش أجنبي في البلاد التي سيدخلها ، وسيقاومه حتى المواطنون المؤيدون لأفكار الثورة الفرنسية ، ولن يرحب به أحد) ، وذهبت أقوال روبسبير أدراج الرياح ، ولم يتبنها مواطنوه إلا بعد عشرين عاماً ونيف من الصراع الدامي ، وبعد أن قدم هو ومناصروه أعناقهم إلى المقصلة في وقت مبكر .

●●●

لقد مرت مياه كثيرة تحت جسر التقدم الانساني منذ قيام تلك الثورة . بعض الممارسات شجبها التاريخ ، وبعضها رفعها ووضعها في مكان الصدارة . لقد شهد عالمنا عشرات الثورات التي قاومت الظلم والاضطهاد ، حتى تمكن الإنسان من نيل حقوقه الطبيعية التي أوجده الله على الأرض كي يمارسها ، حقه في المساواة والعدل . لقد اختفت شعارات قديمة وظهرت شعارات جديدة ، ولكن الملاحظ أن (قوانين) الثورات في معظم الوقت يمكن التنبؤ بها إلى درجة كبيرة من الدقة ، وكذلك أخطاؤ ها .

وفي مسيرة الانسانية تظهر مشكلات لم تكن مألوفة ، ولم يفكر أحد فيها أو يتوقع اكتشافها من قبل ، وبقيت قضايا مركزية ما زالت قيد الدرس ، فالمعارك التي تخاض من أجل حقوق الانسان ما زالت مستمرة ، ونحن نستطيع أن نسمع اليوم صدى أفكار الثورة الفرنسية يتصاعد من جموع المتظاهرين في قلب بكين ، كما نستطيع أن نسمعها في عواصم أخرى كثيرة ، إما علناً أو من وراء حجاب ، إلا أن ما يفرضه علينا المنطق السليم أن نقول والعالم يحتفل بمرور قرنين من الزمان على تلك الثورة : إن معارك اليوم هي غير معارك الأمس ، والتحدي هو أن نبتكر حلولاً خلاقة لمشكلاتنا العالمية والمحلية ، تجنبنا سوء المصير ، فلم تعد المشكلات مشكلات وطنية ، بمعنى أنها محصورة بحدود الدولة ، لكنها أصبحت مشكلات عالمية ، يقع الظلم فيها لا من طبقة على طبقة ، ولا من فئة على فئة ، ولكن من قوة قادرة وكبيرة على مجتمعات ضعيفة وفقيرة في الوقت نفسه ، كما أن الظلم أخذ أشكالاً جديدة ، لعل أوضحها ظلم إخوة لنا في فلسطين ، يناضلون من أجل الأرض ، وإخوة آخرين في لبنان ، يناضلون من أجل الوطن ، وملايين آخرين من أجل لقمة عيش شريفة .

محمد الرميحي

من دفتر

الذكريات





(الحياة مجموعة من الخبرات المتنوعة ، وليس بالضرورة أن تتشابه وتتكرر ، إنما كثير من الخبرات منفردة تضيف معنى جديدا للحياة ، وتعطيها لذة التراكم ، وقد اختارت العربي مجموعة من المتميزين العرب ليروي كل بطريقته الخاصة بعضا من ذكرياته التي أصبحت دروسا في الحياة) .

المصالح قبل المبادئ

بقلم : عبد الرحمن سالم العتيقي

ما أن دخلت مطار بيروت الدولي في مطلع الاسبوع الأول من الشهر التاسع عام ١٩٦١ ، حتى استقبلني من يحمل برقية من مدير مكتب صاحب السمو الأمير الراحل الشيخ عبد الله السالم الصباح ، يأمر بعودتي الى البلاد فورا ، وكنت يومئذ عائدا من الاتحاد السوفيتي ، من رحلة استغرقت شهرا كاملا لحضور ندوة دراسية عن الصحة الوقائية ، وقد كنت حينذاك مديرا عاما لدائرة الصحة ، وكنت أنوي قضاء فترة من الوقت مع اسرتي في لبنان .

ما أن اطلعت على البرقية ـ وكان الوقت آنذاك الساعة (٨) مساء ـ حتى تذكرت امتحان الخليفة هارون الرشيد لولديه الأمين والمأمون ، في كتابة رسالة مختصرة إلى أحد ولاته يستدعيه للمثول بين يديه ، وقد فاز المأمون في هذا الامتحان ، حيث كانت رسالته بعد المقدمة في أربع كلمات : (يد في الكتاب ورجل في الركاب) . وهكذا كان موقفي ، سألت فقيل

لي : هناك طائرة تغادر الساعة (٢) بعد منتصف الليل الى الكويت فحجزت عليها ، وأسرعت إلى عالية لزيارة أسرتي ، ثم عدت أدراجي الى المطار . ومع بداية الدوام كنت ماثلا أمام سموه رحمه الله رحمة واسعة ، وبكلمات مقتضبة قال : اخترناك لترأس وفد بلادك إلى الأمم المتحدة ، راجع الشيخ جابر الأحمد . قابلت الشيخ جابر ، وكان في ذلك الوقت رئيسا للمالية ، إلا أنه كان متواجدا في الديوان آنذاك ، فناولني ملفا كبيرا وقال : اقرأ هذا الملف ، وللمزيد من المعلومات توجه الى القاهرة ، وقابل الاستاذ عبد العزيز حسين ، سفير الكويت في القاهرة .

قضيت صبيحة ذلك اليوم أقرأ الملف بتدبر ، ثم توجهت إلى المطار مغادرا الى القاهرة ، حيث كان في استقبالي الأخ الكريم الاستاذ أبو هاني ، عبد العزيز حسين واستعرضنا سوياً جهوده في شرح موقف الكويت عندما ذهب الى الأمم المتحدة بعد اثارة (قاسم العراق) لدعواه ، وكذلك جهوده في الجامعة العربية . ونمت ليلتي بالقاهرة ، وتوجهت في صبيحة اليوم التالي إلى بيروت حيث رتبت أمر عودة أولادي للكويت ، وأوكلت أمر إحضار زوجتي وأصغر أطفالي إلى نيويورك للأخ العزيز المحب راشد عبد العزيز الراشد (وزير الدولة حاليا)

لم أتوان في بيروت ، حيث غادرتها في اليوم التالي لى لندن ، قضيت ليلة هناك ، وفي اليوم التالي توجهت على « البان أميريكان » إلى نيويورك ، وكم كان مضحكا عندما غادرت لندن والجو بارد والمطر ينهمر بغزارة ، وقد لبست أثقل ما عندي من ملابس بما في ذلك المعطف ، ظنا مني أن الجو في نيويورك لن يقل برودة عن ذلك ، وما أن قاربت الطائرة على التوقف على أرض المطار حتى رأيت معظم العاملين خارج المطار عراة إلا من بنطلون قصير . ولم تطل حيرتي من ذلك المنظر ، إذ ما أن فتح باب الطائرة حتى شعرت أنني في حمام تركي ، وبدأت أسرع في التخفيف من ملابسي ، كان ذلك يوم ١٩٦١/٩/٧ .

كان على أن أقوم في خلال اسبوعين فقط بزيارة رؤساء وفود الدول في الأمم المتحدة ، وعددهم يربو على المائة . بدأت بالإعداد والطبع للمعلومات والبيانات المطلوبة عن الكويت ، مع المباشرة بتحديد مواعيد المقابلة ، بدءا بالأمين العام للأمم المتحدة (أوثانت) .

ولم يتردد أحد من الوفود في مقابلتي والترحاب بالكويت ، عدا وفد الاتحاد السوفيتي الذي أصر ، وباستمرار وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلت ، على رفض المقابلة والتحدث إليّ .

وهنا أود أن أذكر بالخير وعرفان الجميل شخصا طواه الموت ، أصيلا في أحاسيسه ومشاعره العربية ، معتزا بجنسيته الفلسطينية ، وهو المرحوم « ليفون كشيشيان » ، مراسل صحفي له مكتبه في الأمم المتحدة ، ومكتبه هو المقر الحقيقي لمعظم الوفود العربية ، فقد سعى معي ، ودلني على الأبواب الخفية ، وسهل لي كثيرا من الأمور التي كانت تغيب عن بال شاب كل مؤهلاته قدرته على التحدث باللغة الانجليزية ، وشيء من القراءات ، وطموح مؤسس على العمل الدءوب ، وذهن خال من الألاعيب والحيل السياسية والدبلوماسية ، بينما الموقف كان يتطلب شيئا آخر ، ولكن الله هو الموفق .

مرت الأيام ونحن نستجدي المقابلة من وفد الاتحاد السوفيتي ، حتى جاءت المناسبة على غير حسبان ، وقبل موعد عرض طلب الكويت للانضمام على مجلس الأمن في يوم ١٩٦١/١٢/١٥ . حيث كنت مع « ليفون كشيشيان » في المصعد في مبنى الأمم المتحدة نازلين من المطعم بعد الغداء ، وكان المصعد على سعته الكبيرة غاصا بالركاب ، فأسر إليّ « ليفون كشيشيان » بأنه على مقربة مني يقف المستر (اركاديبه) الأمين العام المساعد للأمين العام للأمم المتحدة ، وهو روسي ، (وهذا الرجل قد فر من الأمم المتحدة في السبعينيات ، ولجأ إلى الولايات المتحدة ، وما يزال يعيش هناك ، وقد ألف كتابا عن الاتحاد السوفيتي والمخابرات) فاغتنمت الفرصة ، وأخذت أكلم ليفون بصوت عال جدا يسمعه كل من في المصعد ، أنتقد فيه الاتحاد السوفيتي كدولة عظمى تدعي أنها تتبنى قضايا الشعوب الصغيرة المضطهدة ، وفي الوقت نفسه تناقض نفسها في محفل دولي ، فهي لاتكتفي باستخدام حقها في رفض طلب الكويت في مجلس الأمن ، بل ترفض أداء حتى أبسط مبادىء المجاملة في الاستجابة لرئيس وفد دولة الكويت في المقابلة والتحدث الى مندوبيها .

ولم يمض أكثر من ثلاث ساعات على هذه التمثيلية حتى رن جرس الهاتف في مكتبي ، وحدد لي موعد في صباح اليوم التالي مع نائب رئيس الوفد السوفيتي السيد « موروزوف » ، وكان رئيس وفدهم آنذاك السيد « زورين » ، وهو ذو شخصية قديرة .

استقبلت في مكتب الوفد السوفيتي استقبالا كريما ، وحاول معي « موروزوف » تأجيل عرض الطلب على مجلس الأمن الى وقت لاحق ، لم يشأ أن يحدد له موعدا ، وقال لي بصراحة : تعليماتنا هي الرفض ، وأرجو أن لاتحرجونا ، فما كان مني إلا الإصرار .

اتصلت في اليوم التالي بمكتب المرحوم سمو الأمير الشيخ عبدالله السالم ، وكانت المكالمات الهاتفية أمرا بالغ الصعوبة ، كنت أتصل من لاسلكي أحد الهواة خارج نيويورك ، له صلة بحكم الهواية مع الأخ مراد يوسف بهبهاني ، وكان مراد يربط المكالمة بالهاتف داخليا . وقد شرحت الموقف للمرحوم الشيخ عبدالله السالم ، لأستنير برأي سموه وأنال توجيهاته ، فكان رده : أنا واثق من حرصك على مصلحة بلدك ، ويرى الحاضر مالا يرى الغائب ، اعمل مايهديك الله إليه .

لقد كانت ثقته عظيمة ، وأمانة كبيرة ، فاستخرت الله وألححت على عرض الطلب على مجلس الأمن يوم ٦٢/١٢/١٥ ، وأنا متأكد أن الاتحاد السوفيتي سيرفضه ، ولكنني كنت أقصد الإحراج فقط فالانتظار فيه تمييع ، وعلامات تساؤل كثيرة ، خاصة أنه ليس هناك ما يمنع من التقدم بالطلب ثانية وثالثة حتى يتم القبول .

بقي لزاما علي أن أعرف القارىء : لماذا وقف الاتحاد السوفيتي ضد طلب الكويت آنذاك ؟ ولماذا طلبوا مني عدم احراجهم ؟ هل هو مناصرة (لقاسم العراق) عن قناعة ، أو هو مجرد رفض مؤقت لدخول بلد صغير مثل الكويت للأمم المتحدة لأمر يخصهم ؟

لاقيمة لقاسم ، والأمر يتعلق بمطالب

أخرى ، وهو أن الاتحاد السوفيتي يريد إدخال (منغوليا الخارجية) بعد فصلها عن الصين بعد الحرب العالمية الثانية إلى الأمم المتحدة كدولة مستقلة ، لتكون بمثابة (أرض فاصلة) بينه وبين الصين الشعبية ، والذي يحتل كرسي الصين آنذاك هو ممثل « فرموزا » ، الصين الوطنية كما كانت تسمى آنذاك ، وهذا العضو يرفض التصويت لصالح دخول منغوليا الخارجية ، وله حق الرفض باعتباره عضوا دائما من الأعضاء الخمسة ، باعتبار أن منغوليا الخارجية جزء لايتجزأ من أرض الصين الأم ، واقتطاعها يُعَدّ خيانة عظمى ، فاغتنم الاتحاد السوفيتي فرصة مطالبة قاسم بالكويت ، واستخدموا الموضوع كوسيلة ضغط على أمريكا ، باعتبارها حامية حمى (فرموزا) ، ليصير دخول البلدين صفقة متبادلة ، تتم في آن واحد . وهذا ما حدث فعلا بعد سنتين عندما استطاعت أمريكا تليين الجانب الصيني ، وليس بتغيير الأوضاع في العراق ، بعد مقتل قاسم ، دخل في الموضوع . وهذا مايدعونا للتساؤل : لماذا أثار قاسم هذه الضجة ؟ لقد طواه الموت ، وصارت ذكراه كابوسا مزعجا ، فمن وراء مجيئه الى الحكم ؟ ومن دفعه للمطالبة بالكويت ؟ . ومن وراء دق إسفين الشك والخوف بين بلدين شقيقين ، حتى أصبح رأب الصدع مستحيلا ، مهما كان نوع التطمين ، إلا أن يشاء الله رب العالمين ما فيه خير لهذه الأمة ، فتندمل الجراح التي ما تزال تنزف ؟

وهذا التساؤل ينطبق على جميع الفتن التي نشأت داخل البلد الواحد ، وبين الأقطار العربية الشقيقة ، وذهب ضحيتها خيرة العقول ذات الخبرة والكفاءات ، واستنزفت ثرواتها ، ليحمي كل بلد نفسه من شقيقه ، حتى صار سوء الظن هو السائد بين الأشقاء .

وقبل أن أختتم حديثي أود أن أستعرض اسلوب العمل المبسط والثقة في التعامل ، حيث أنني أثناء مقابلة الشيخ جابر أميرنا (رئيس المالية آنذاك) سلمني صكا باسمي بمبلغ خمسمائة ألف دولار ، كمصاريف للعلاقات العامة التي قد نحتاجها . وقد صرفت منه أقل من (١٥) خمسة عشر ألف دولار للمطبوعات ، وخصصت مائة دولار يوميا لكل فرد من أعضاء الوفد ، وأنا منهم بلا تفرقة ، لتغطي مصاريف السكن والمأكل والمواصلات ، واشتريت بيتا بمبلغ يزيد على أربعمائة وخمسين ألف دولار ، ليكون مقرا لمكتب الوفد ، وسكنا للسفير ، ولكن تغير تنظيم الموقع في وقت لاحق ، بحيث لم يسمح باستخدام جزء منه كمكتب ، فباعه خلفي الأخ راشد الراشد واشترى بثمنه مكانا آخر أحسن منه ، وهو مقر سكن السفير حاليا ، في أرقى المناطق وأحسنها ، وهو يساوي الآن ملايين كثيرة .

بقي أن تعلم أخي القاريء أن وفد الكويت في البداية قد تألف من الأخوين راشد عبد العزيز الراشد ، وطلعت الغصين ، برئاستي .

وبعد شهر من العمل مرض طلعت الغصين ، وأعدناه الى البلاد ، واستقدمت مكانه من بوسطن شابا طموحا ، قدم لي نفسه في المكتب يوما من الأيام باعتباره طالبا يحضر للماجستير في هارفرد ، وقد مرت عليه سنة ، وهو يضع نفسه تحت تصرفي متى شئت للمساهمة في خدمة بلده ، وبكل أدب ولباقة وحسن ذوق ، ولمحت

في بريق عينيه ما ينم عن أصالة وذكاء ، وفي دقة عوده ما ينم عن حرارة وحسن بلاء ، وفي حسن منطقه ما ينم عن أدب جم وحصيلة وفيرة من الاطلاع ، فاستدعيته فور مغادرة طلعت الغصين ليحل محله. هذا الأخ هو الصديق عبداللطيف يوسف الحمد فكان لي هو والأخ راشد - الذي لايعرف الكلل ، ولا يطيق الهدوء في الحركة ، ويتقن حسن المعاشرة ، وفوق ذلك فهو جار عزيز وصديق طفولة على الرغم من أنني أكبر منه بعدد من السنين - خير عون في الغربة والحيرة ، وكنا كالتوأم لانفترق ، هدفنا نجاح المهمة ، لانستعمل السيارات الخاصة ، بل القطار الأرضي أو سيارات الأجرة ، ولانبذخ في المظهر ، حتى لايقال عنا إننا « محدثو نعمة » فنسيء لبلدنا . نخرج من الفندق في التاسعة صباحا ، لنعود اليه في التاسعة مساء ، وربما بعد ذلك . ذكريات حلوة في أيام مرة ، حيث نسمع ممثل العراق عدنان الباجهجي ، شقيقنا العربي ، يشتمنا جهارا بقوله : (صنائع الاستعمار) ، ويستهزيء بنا ويسخر منا ارضاء لسيده . وعندما دارت الأيام وطرد من منصبه ،

لم يجد من يقيل عثرته ، وينفق عليه ، ويساعده غير الشيخ صباح الأحمد الصباح وزير خارجية الكويت . وهذا بعكس ما حدث من الرجل الفاضل عصمت كتانة الذي تصدى لطلبنا قبل

أشهر قليلة ، عندما تقدمنا في الشهر الخامس من عام ١٩٦٠ ، للانضمام الى منظمة الصحة العالمية ، فقد كان مؤدبا لبقا باسما ، على الرغم من تنفيذه لتعليمات حكومته . وما يزال هذا

الرجل الفاضل في خدمة بلده ، كرئيس لوفد بلاده في الأمم المتحدة ، ويتمتع باحترام الجميع ، لأدبه الجم ، وحسن معشره ، وسلام على الدنيا .□

الدنيا حظوظ



● قال : لقد كرهت الناس ، إنهم يحقدون ويكرهون ، ويغيظهم الناجح إذا نجح ، ويسلقون الفاشل بألسنة حداد . هل الإنسان مسئول عن نجاحه أو فشله ؟

قلت : ومن المسئول غيره ؟

قال : الظروف والحظوظ .

قلت : ليس في الدنيا حظوظ إنما فيها عمل وجد وتخطيط .

قال : وهل فلان هذا عمل وجد وخطط ؟!

- لو لم يعمل ويجد ويخطط لم يبلغ ما بلغ !
- إنه كسول ، متراخ ، لاه ، عابث .
- في نظرك وحدك . ولكنه في نظر الناس شيء آخر .
- نظر الناس طبعا نظر المجموع ، ألم تعرف المثل السائر : « ألسنة الناس أقلام للحق » .





٢٠٠ سنة على الثورة الفرنسية :

أحداث أيام غيّرت التاريخ !

بقلم : الدكتور رياض معسعس

قبل مائتي عام ، وفي مثل هذا الشهر اندلعت الثورة الفرنسية ، وأصبحت فرنسا بعد الثورة غير فرنسا قبلها ، ومازالت أحداث أيام الثورة من أكثر الأحداث ملحمية في التاريخ . في هذا المقال نعود إلى الأيام الأولى ، نستعيد المناخ والظروف والوقائع ، ونعيد قراءة حدث من أهم أحداث التاريخ المعاصر .

في صباح يوم الأربعاء ١٥ (يوليو) تموز من عام ١٧٨٩ ، دخل الدوق (دولاروش فوكو) غرفة نوم الملك لويس السادس عشر ، وبعد أن أيقظه بهدوء ، قال بصوت رخيم :

«لقد احتل الرعاع سجن الباستيل ليلة



البارحة يا جلالة الملك » . فعرك الملك عينيه ، وسأل متثائبا بسذاجته المعهودة : « هل تعتقد أنها بداية تمرد ؟ » ، فرد الدوق بيقين قاطع : « إنها ثورة ، يا جلالة الملك » .

ولم ينبس الملك ببنت شفة ، إذ خامره إحساس دفين بأن وقت غروب مملكة أجداده قد آن أوانه .

لم تحظ ثورة في تاريخ الإنسانية بمثل ما حظيت به الثورة الفرنسية ، من انتشار ، وإذاعة ، وبحث ، ودراسة ، منذ لحظة اندلاعها الأولى حتى الآن ، إذ اتخذت مثالا ، وقدوة لثوريي العالم بأسرهم ، وصارت تعاليمها كتبا مقدسة لكل من تطلع إلى بناء « دولة الحقوق » ، والدفاع عن كرامة الانسان . لقد انتقل الشعب الفرنسي بين ليلة وضحاها من « رعاع » إلى مواطنين ، وأضحى القانون فوق الجميع .

في ١٤ (يوليو) تموز ١٩٨٩ يكون قد مر على هذه الثورة مائتا عام ، وفي هذه المناسبة تقوم فرنسا بإحياء هذه الذكرى عبر احتفالات فريدة من نوعها ، تشمل مختلف مجالات الاعلام والفن ، والأدب ، وحتى أنها شيدت صرحا معماريا ، سيتم تدشينه في هذه المناسبة (قوس نصر اسمنتي في منطقة باريس) .

إن هذه المناسبة الفريدة من نوعها تكشف إلى أي مدى كان لهذه الثورة من انعكاسات مباشرة ، وغير مباشرة على تكوين فرنسا كدولة ومجتمع ، وعلى بناء الفرد واحترام حقوقه . لقد ولدت في أعماق كل فرنسي ، شعورا بالفخر بأن أجداده قد قدموا شيئا جليلا لشعبهم ولشعوب العالم بأسره .

ولكن لنعد بالتاريخ القهقرى مئتي عام ، لنعش وقائع هذه الثورة ، ونرى أسباب حدوثها .

أعوام الجمر

تسلم الملك لويس السادس عشر العرش في عام ١٧٦٥م عن جده لويس الخامس عشر ، ولم يكن قد تجاوز من العمر عشرين عاما ، وقد ورث عن جده مملكة تنوء تحت أرزاء أزمات حادة جدا على كل المستويات والأصعدة ، ولم يكن هذا الملك الشاب خبيرا بأمور السياسة ، ومقاليد الحكم ، حتى أن سلوكه الشخصي لم يكن يساعده ليكون حاكما صارما كما كان لويس الرابع عشر أو الخامس عشر ، فهو من النوع اللدن ، الثقيل الحركة ، السريع الخجل ، البطيء الفهم ، الذي يغط في سبات عميق في أخطر الاجتماعات السياسية . وقد ركز مشاغله على رحلات الصيد ، وتصليح أقفال القصر ،

ومداخنه ، وإرضاء زوجته ماري انطوانيت ، والذود عن شرفها إزاء الشائعات التي راجت في أرجاء المملكة عن خياناتها المتكررة .

خلال الخمسين عاما التي سبقت الثورة الفرنسية شهدت فرنسا أحداثا وتطورات سريعة وفي مجالات شتى ، لم تستطع الملكية في فرنسا تأطيرها ، أو استيعابها ، ولا حتى إيجاد الحلول للأزمات التي نشبت من جرائها . فالملكية في فرنسا كانت قد رسخت نظامها على أساس إقطاعي ديني ، ومجتمعها على أساس طبقات ، تحتل فيها طبقة النبلاء المركز الأول ، ولها تعود ملكية مقاطعات واسعة من الأراضي ، والقصور المنتشرة في كل حدب وصوب ، وثروات طائلة لا يحدها حد ، ولا يحصيها عد . ويأتي في المرتبة الثانية رجال الكنيسة الذين لم يكونوا أقل غنى وسطوة ، إذ كانت السلطة الدينية توازي السلطة السياسية ، وتفرض هيبتها على فئات عريضة من المجتمع الفرنسي ، أما المرتبة الثالثة الأخيرة فقد خصصت للشعب ، أو بمعنى أدق للطبقات الدنيا من المجتمع ، وهذه الطبقة هي الطبقة العاملة المنتجة ، وعليها يقع اعتماد الدولة في جني الضرائب ، فطبقة النبلاء كانت تعد العمل إهانة وانتقاصا من قدر النبيل ومنزلته الاجتماعية ، الذي يفترض أن يتفرغ للراحة ، والاختلاف إلى النوادي الأدبية ، وصالونات المجتمع المخملي ، والتدرب على الفروسية ، والصيد ، والمبارزة .



● لويس السادس عشر

وبين النبلاء ورجال الدين والرعية برزت إلى الساحة طبقة جديدة ، تمكنت من جمع ثروات طائلة من جراء اشتغالها بالتجارة والصناعة الناهضة ، غير أن هذه الطبقة على الرغم من غناها ظلت محتقرة من قبل طبقة النبلاء التي كانت جذورها متشبثة بالإقطاعية حتى الأعماق ، وترى بأن الطبقة الجديدة ، طبقة « بورجوازية ، ينظر إليها بدونية » وقد خلق هذا الوضع صداما محتدما بين الطبقتين . أو بمعنى آخر ، أن الانتقال من النظام الاقطاعي إلى النظام الرأسمالي ، كان لابد أن يحدث انقلابا جذريا في المفاهيم ، وتصدعات خطرة في نسيج المجتمع الفرنسي على أكثر من صعيد ، إذ رافق ذلك صعود حركة فكرية مهمة ، دحضت المفاهيم القديمة ، وراحت تغزو العقول ، وكان أهم روادها فولتير ، وجان جاك روسو ، ومونتيسكيو ، الذين تفشت أفكارهم كبقعة زيت في الأوساط المثقفة ، وفيما بعد في الأوساط الشعبية ، فراح الفرد العادي يسمع دبيب أفكار تندد بالملكية ، وتطالب بإلغائها ، وتدافع عن حقوق الفرد ، وتهاجم النبلاء ، ورجال الكنيسة ، وتطالب بالمساواة .

وأخذ يتردد في الأوساط المختلفة ضرورة فصل الدين عن الدولة ، والأخذ بمبدأ فصل السلطات (التنفيذية ، والتشريعية ، والقضائية) ، وإلغاء نظام الطبقات ، وإرساء دولة الحقوق . ومثل هذه الأفكار راحت تنتشر كالنار في الهشيم ، لا سيما في صفوف الطبقات المسحوقة التي لم تكن تحصل على خبزها اليومي إلا بشق النفس ، إذ أن ما كانت تتقاضاه من

رواتب لا يكفي حتى لشراء المواد الأولية الضرورية للحياة .

فخلال الفترة الممتدة من ١٧٣٠ ـ ١٧٨٠ ارتفع عدد سكان فرنسا من ١٩ مليون نسمة إلى ٢٥ مليون نسمة ، وارتفعت الأسعار بنسبة تتراوح ما بين ٦٠٪ إلى ٧٠٪ في حين أن الدخل للفرد العادي لم يرتفع إلا بنسبة ٢٠٪ ، وإزاء هذا الإفقار المستمر تفشى المرض ، والجهل ، فوصل عدد وفيات الأطفال نسبة ٢٥٪ من الاطفال الذين لم يبلغوا عامهم الأول ، وارتفعت نسبة الأمية إلى ٦٠٪ من المجتمع الفرنسي ، وقد وصل الفقر بالناس إلى أنهم كانوا يتخلون عن أطفالهم ، ويلقونهم في القمامات ، أو يتركونهم فريسة للتسول ، حتى أن عدد الأطفال المهجورين كان يصل سنويا إلى خمسة آلاف طفل . كما أن عدد العاطلين عن العمل كان يزداد بشكل ملحوظ ، حتى أن عدد العاطلين عن العمل في باريس وحدها (لم يكن عدد سكان باريس في تلك الفترة يتجاوز ٧٠٠ ألف نسمة) قد وصل إلى ١٢٠ ألف عاطل ، وقد انخفضت من جراء ذلك عائدات الدولة من الضرائب ، وتراكمت عليها الديون من جراء الحروب في أمريكا واستفحلت أمور ديون الحروب في الآونة الأخيرة ، مما اضطرها إلى دفع نصف ميزانيتها سنويا لتسديد هذه الديون وفوائدها . وعلى الرغم من هذه الضائقة المالية الخانقة ، كانت العائلة الحاكمة لا تتوانى عن شراء قصور ، وعقود ، ومجوهرات .

الشرارات الأولى :

في حقيقة الأمر ، لم تندلع الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ ، فقبل هذا التاريخ أحداث دامية ، صبغت بالدم الخارطة الفرنسية ، في مناطق شتى ، وعلى مر عقود عديدة من السنين ، فقبل أن تصل الثورة إلى أوجها ، وقبل أن يتوهج سعيرها ، كانت جمراتها تحتدم في العقول ، ثم تطايرت شراراتها الأولى عبر المظاهرات أو أشكال العنف المختلفة .

ففي (١٧٥٠ ـ ١٧٥٢) قامت في البلاد مظاهرات عارمة للاحتجاج على غلاء المعيشة ، انتهت بمقتل ما يزيد على ألف شخص ، ثم تكررت هذه الأحداث وبشكل أعنف عام ١٧٧٥ ، حتى وصفها البعض « بحرب الدقيق » (للمطالبة بدقيق القمح لصناعة الخبز) .

ومع بداية الثمانينيات بات الشعب كمحيط من المياه الراكدة ، يبحث عن ثغرة في سد الملكية المتداعي حتى ينذر بالطوفان ويجر أمامه سنين الظلم والقهر والجوع .

وكانت بداية هذه الثغرة في عام ١٧٨١ ، عندما نشر وزير الملك « جاك نيكر » على الشعب التقرير المالي للدولة الذي يوضح مبالغ الايرادات والمصروفات ، لاسيما المنح المخصصة لحاشية الملك والنبلاء ، ومصاريف الملك الشخصية وزوجته . وما فتئت هذه الثغرة تتوسع خلال السنوات التالية على إثر الضربات المتلاحقة للأحداث .

ففي عام ١٧٨٨ دعا الملك إلى اجتماع مجلس الأمة ، وكان هذا المجلس يضم ١١٣٩ عضوا ، ينقسمون إلى ثلاث فئات ، فئة تمثل النبلاء ، وفئة تمثل رجال الدين ، وفئة تمثل الشعب ، والأخيرة كان لها نصف أعضاء المجلس ، غير أن التصويت كان يتم بحسب الفئة ، أي لكل فئة صوت واحد ، وهذا يعني أن نتيجة التصويت كانت دائما اثنين ضد واحد ، أو بمعنى آخر أن فئتي النبلاء ورجال الدين كانتا تصوتان ضد فئة الشعب ، وبذلك كان الشعب هو الخاسر الفعلي في هذه اللعبة .

في هذا الاجتماع حاول ممثلو الشعب (الفئة الثالثة) المطالبة بتغيير طريقة التصويت ، بحسب الفئة إلى التصويت بحسب الفرد ، أي لكل فرد صوته ، وهذا ما يضمن لهم نصف أصوات المجلس على أقل تقدير ، غير أن الملك

رفض هذا المطلب ، وأيده في ذلك النبلاء ورجال الدين بطبيعة الحال .

على إثر ذلك ، وفي ١٧ (يونيو) حزيران اجتمع رجال « الفئة الثالثة » ، وأسسوا ما يسمى الجمعية الوطنية ، معتبرين أنهم يمثلون نسبة ٩٦٪ من الشعب الفرنسي . وهذا ما حدا بالملك إلى إغلاق صالة اجتماعهم ، وإزاء تعنت الملك وتصديه لمطالب الشعب ، اجتمع ممثلو الجمعية الوطنية من جديد في صالة (جوديوم) ، وألقوا يمينا بأنهم لن يبرحوا هذه الصالة قبل أن يضعوا دستورا للبلاد ، فأرسل الملك أعوانه إلى مكان الاجتماع لطرد المجتمعين بالقوة ، وعندما صرخ مبعوث الملك قائلا : « إن جلالة الملك يأمركم بالخروج »

رد عليه السيد باي بقوله : « إن الأمة المجتمعة لا تستلم الأوامر » ، وأردف ميرابو بقوله الشهير : « اذهب وقل لمن أرسلك ، إننا سوف لن نخرج من هنا إلا على أسنة الحراب » .

بعد هذه المشادة العنيفة اضطر الملك في نهاية الأمر إلى الإذعان لمطالبهم ، ووافق في ٢٧ يونيو على التصويت حسب الفرد بدل التصويت حسب الفئة ، وتم تشكيل ما يسمى « الجمعية التأسيسية » ، غير أنه - أي الملك - كان يهيىء خفية لحملة عسكرية ، تدك معاقل المطالبين بالتغيير والاصلاح ، فحشد ٣٠ ألفا من جنوده حول قصره ، وفي يوم ١١ يوليو طرد وزيره « نيكر » الذي كان يضمر له عداء شديدا ، وهذا ما أثار سخطا شعبيا واسعا ، وسرت الإشاعات في كل مكان بأن الملك سيعطي الأمر لفرقة مسلحة بالهجوم على باريس ، فدب الذعر والخوف لدى الناس ، وراح كثيرون يبحثون عن السلاح لحماية أنفسهم ، فانتشرت الفوضى ، وعم الخراب ، وتوجهت جحافل المتظاهرين نحو « الأنفاليد » (قبر نابليون حاليا) ، للاستيلاء على الأسلحة الموجودة هناك ، فأفلحوا في وضع أيديهم على كمية من الأسلحة ، إلا أنها كانت بدون ذخائر ، وسمعوا قائلا يقول : إن سجن الباستيل يعج بالبارود والذخائر . فولت الجموع وجهها حالا شطر سجن الباستيل ، وانضم إليها بعض الجنود يجرون معهم مدفعا لدك باب السجن .

بداية الحريق

كان سجن الباستيل رمزا للطغيان الملكي في فرنسا ، وحكاية من حكايات الظلم والقهر والتعذيب ، كان حفرة ذابت في غياهبها أجساد ، واختفى في أعماقها كل من تفوه بالحرية ، أوبالنقد ، أوحتى بالعلم .

في تلك الليلة ، في ١٣ يوليو ١٧٨٩ ، كان الشعب المشحون بالذعر والخوف ، المحقون بدم لحقد المغلي ، قد بات سيلا من جمر متأجج ، حمما تحرق أمامها الأخضر واليابس ، ولم تعد هناك أي قوة قادرة على صد الجحيم المتدفق .

كان حراس السجن يرون لهيب الحرائق والمشاعل عن بعد ، تتوجه صوبهم ، فصعد مدير السجن (لونييه) إلى أحد الأبراج ليراقب بنفسه



● ميرابـ



● الجيلوتين الرهيب تحت حد سكينها سقطت آلاف الرؤوس .

هذا السعير القادم من أحشاء المدينة ، فأوعز لجنوده بعدم التصدي للمتظاهرين ، وقال : « افتحوا الأبواب وليدخلوا آمنين » . وعلى الرغم من ذلك تحتم على الحراس المواجهة ، لأن الطرف الثاني لم يقبل الهدنة ، ونشبت المعركة ، وتناثرت جثث القتلى ، وسقطت من أعلى الأسوار ، وألقي القبض على مدير السجن الذي أزهقت روحه سريعا بعد أن تناولته الأيدي باللكم ، والأرجل بالركل ، وقطع رأسه ونصب على طرف رمح ، وطاف المتظاهرون به شوارع المدينة التي أصبحت مسرحا لا يحتل خشبته سوى الشعب الحاقد ، والذي قدم أول مسرحية مأساوية في حياة الملكية في فرنسا .

عندما سمع الملك وقائع الأحداث ، بعد أن أيقظه (فوكو) من النوم ، وعلم بها النبلاء ، والحاشية في البلاط ظل يحدوه الأمل في استمراره على العرش ، إذ ليس من السهل التخلي عن عرش مثل عرش فرنسا ، فلم يحرك ساكنا ، وعد الأمر حدثا عارضا .

في ٤ (أغسطس) آب ، وبعد أن جلت باريس عن وجهها طلاء أحداث الباستيل ، ومساحيق الخراب والدمار ، قررت الجمعية التأسيسية إلغاء الحقوق الاقطاعية والميزات التي كان يتمتع بها النبلاء ، وألغيت أيضا حقوق رجال الكنيسة ، وعدوا موظفين لدى الدولة ، يتقاضون رواتب محددة منها ، أو بمعنى آخر ، فقد تم فصل الدين عن الدولة ، وهذه إحدى أهم الخطوات التي قامت بها الثورة الفرنسية ، وأعلن فيما بعد تصريح حقوق الانسان والمواطن الشهير الذي تضمن ١٧ مادة ، يقوم على أساسها بناء المجتمع الجديد القائم على المساواة أمام القانون ، وحرية العمل والصحافة ، والملكية الخاصة .

وبطبيعة الحال ، عندما قدمت الجمعية قراراتها إلى الملك للتوقيع عليها ، رفضها جملة وتفصيلا وعدها تماديا مجحفا في حق النبلاء ورجال الكنيسة ، وحصن نفسه في قصره بكتائب عديدة من الحرس ، ورفض النزول إلى باريس .

في أول (اكتوبر) تشرين الأول ، في إحدى الحفلات التي أقامها القصر على شرف ضباط الجيش ، قام أحد الضباط يهتف باسم العائلة المالكة ، ثم تناول علم الثورة (وهو العلم الحالي لفرنسا) وداسه بالأقدام ، وطار النبأ عبر خدم القصر إلى باريس ، وانتشر بين الناس ، فثارت ثورتهم من جديد ، وكانوا كبرميل البارود ، ينتظرون أي شرارة للانفجار ، إذ أن أسعار الخبز في هذه الفترة والمواد الغذائية الأخرى كانت قد ارتفعت بشكل مخيف ، وندر وجودها في عدة مناطق ، فهبت نساء (فوبور سانت انتوان ، وهي منطقة شعبية في أحد أطراف باريس) ، يرافقهن من هب ودب ، وتوجهن نحو قصر فرساي .

عندما وصلت نساء « سانت انتوان » ومن رافقهن إلى القصر بعد مشي مضن طوال ساعات ، وقفن تحت شرفات القصر ، ورحن يصرخن ويولولن ، ويهتفن : « أيها الملك ، الخبز ، الخبز » .

وبعد أن صرخت النساء ما صرخن ، وهتفن ما هتفن ، آثرن أن يقضين سواد الليل أمام أبواب القصر ، ويؤبن في الصباح الباكر إلى باريس ، ولكن أحدا لم يكن يتوقع أن تلك الليلة ستكون آخر ليلة للملك في قصره الجميل .

ففي فجر ٦ (اكتوبر) تشرين أول ، ولأمر ما تشاجر أحد المتظاهرين مع أحد حراس القصر ، الذي أجهز على خصمه في الحال بطعنة من سيفه ، وما هي إلا دقائق حتى تحولت النساء ومن حولهن من الرجال - وكان عددهم قليلا - والأولاد ، ومن شد أزرهن من سكان المدينة القريبة ، وبعض الحراس المناوئين ، إلى كتائب قتال عنيفة ، داهمت القصر بعصيها وفؤوسها ومذاريها ، فهزمن حراس الملك شر هزيمة ، واقتحمن أبواب القصر ، ودخلن يطاردن الحاشية ، والعائلة المالكة ، حتى قبض على جميع أفرادها ، ووضعوا في عربة ، اقتادها الجمع إلى باريس .

ووضع الملك وعائلته تحت الإقامة الجبرية في قصر التويلري (متحف اللوفر حاليا) . على إثر هذه الواقعة المهمة أيقن لويس السادس عشر بأن الوقت لم يعد يعمل لصالحه ، وأن رأسه أصبح موضوعا في الميزان ، بعد أن بدأ بعض النواب المتطرفين يطالبون بمحاكمة « الملك » . إذن ، لم يعد أمامه سوى الرحيل .

وقد خطط مع فريق من أعوانه على ترتيب عملية الهروب خارج المملكة ، وفي يوم ٢٠ (يونيو) حزيران من عام ١٧٩١ خرج متخفيا من القصر مع عائلته ، وانطلقت الجياد بهم تحفر الأرض بحوافرها ، وتبتلع المسافات بأقصر مدة ممكنة ، وسياط الحوذي تلهب ظهورها . غير أن



● مارا

مصير هذا الملك التعيس الذي جعله طريد الشعب أينما حل ، قد أوقعه في أيديهم في مدينة « فارين » مرة أخرى ، بعد أن اكتشف أمره ، حيث داهم الأهالي المنزل الذي نزل فيه ، وأعادوه عنوة إلى باريس لتشدد عليه الحراسة إلى أقصى درجة .

نهاية ملك

في تلك الأثناء ظهرت على الساحة النوادي السياسية التي تحلقت حول بعض النواب البارزين ، وراحت تتحكم بأمور السلطة والدولة ، وكان أشهر هذه النوادي نادي اليعاقبة (الجبليون) الذي كان يتزعمه سفاح الثورة المعروف روبسبير ، وهو يمثل التيار اليساري المتطرف ، إذ كان رجاله ومؤيدوه من عامة



● روبسبيير

الشعب (صغار كسبة ، عمال،حرفيون) وقد أيده وتحالف معه فيها بعد جماعة (صان كيلوت) ذوو الخط الاشتراكي المتطرف (كومون دو باريس) . وظهر ناد آخر يمثل الخط المعتدل (الجيرونديون) ، أو الكوردولييه ، ورجاله كانوا يمثلون البرجوازية وأصحاب الأملاك ، ويتزعم هذا النادي المحامي المعروف « دانتون » . وكان هذان الناديان يتناطحان نطاح الوعول الشرسة حول كل قضية ، أو كل قانون يصدر ، وقد وصل الصدام أوجه حول قضية محاكمة الملك .

فبعد أن قرر المجلس إلغاء الملكية في ٢١ أغسطس ١٧٩٢ ، على إثر حادثة احتلال التويلري ، من قبل (الصان كيلوت) التي راح ضحيتها أكثر من خمسمائة شخص ، أعلن في اليوم التالي قيام الجمهورية في فرنسا (وهو ما يسمى حاليا الجمهورية الأولى ، إذ أقيم على أعقابها أربع جمهوريات أخرى) .

وأذيع بين الناس بأن الملك قد تآمر مع الجيوش الأجنبية ضد الثورة ، فانخرط كثير منهم في جيش المتطوعين للقتال على الجبهة ، واشتعلت الحماسة في النفوس ، وتأججت نار الثورة من جديد ، ودعا أفراد طائفة من الثوريين إلى قتل العملاء قبل التوجه إلى خطوط النار ، فانطلقت الجموع الهائجة نحو السجون المليئة برجال الدين والمجرمين ، تهتف « اقتلوا القساوسة ، اقتلوا القساوسة » . وما هي إلا بضع ساعات حتى سفكت دماء حوالي ألفي رجل دين ، وهرب الباقون ـ حوالي ٢٥ ألف رجل دين ـ إلى خارج الحدود الفرنسية .

وفي حمأة هذه الأحداث تم العثور على (الخزانة الحديدية) التي كانت تحتوي على الوثائق السرية ، ومراسلات الملك مع بعض الجنرالات ، وحتى مع بعض الوزراء والنواب ، التي تثبت إثباتا قاطعا بأن الملك كان يحاول عبثا إيجاد مخرج له ، والقضاء على الثورة ، وإعادة الملكية . ومع هذا الدليل القاطع الذي يدين الملك إدانة لا هوادة فيها طالب اليعاقبة محاكمته (في حين أن (الجيرونديين) وعلى الرغم من أنهم كانوا يدينون الملك بالظاهر ، ويطالبون بمحاكمته أيضا ، إلا أنهم كانوا يحاولون كسب الوقت ، والعمل على جعل الحكم يقتصر على السجن فقط) دون تنفيذ حكم الإعدام فيه،ظنا منهم بأن ذلك يضمن استمرارية الثورة وعدم العودة إلى الملكية . وبعد مرافعات عديدة ، ومناقشات طويلة ، ومناورات ، ومناورات مضادة ، انتصر المتطرفون عندما طرحت مسألة إعدام الملك على التصويت ، إذ نالوا ٣٨٧ صوتا مقابل ٣٣٤ صوتا ، وبهذا الحكم نصبت المقصلة في ساحة « كونكورد الباريسية » ، وحزت سكينها عنق الملك ، في ٢١ يناير ١٨٩٣ ، أمام

الباريسيين المتجمهرين ليشهدوا بأم أعينهم سقوط رأس لويس السادس عشر في السلة وسقوط الملكية معه ـ وقبل تنفيذ الحكم بلحظات صعد لويس سلم المقصلة باهت اللون ، جامد النظرات ، يرافقه القس وهو يرسم إشارة الصليب ، ثم توقف وقال : « يا ابن الآلهة اصعد إلى السماء » ، وسقط رأس الملك في السلة ، ورفعه الجلاد بيده إلى أعلى ليراه الجميع ، فتعالت الصيحات والهتافات من أعماق الحشد ، تطالب برأس الملكة ماري انطوانيت .

وعادت الكرة من جديد ، وأعيدت المحاكمات ، ووقعت الأحكام نفسها بحقها وحق عدد من أفراد عائلة البوربون الحاكمة ، وفي (اكتوبر) تشرين الأول من العام نفسه ، حزت السكين عنق ماري انطوانيت ، كما فعلت بزوجها من قبل ، وانطوت بذلك صفحة مريرة من تاريخ فرنسا . غير أن أحدا لم يضع في الحسبان أن قطع رأس لويس السادس عشر لم يكن يعني نهاية الملكية ، وإنما نهاية ملك فقط ،

فالملكية في فرنسا عادت لتبرز بقرنيها من جديد فيما بعد ، بعد أن اقتتل الرفاق فيما بينهم ، وحاكموا بعضهم بعضا ، كما حاكموا الملك سالفا ، وقطعوا رؤوسهم بأيديهم ، كما قال أحدهم « إن الثورة كالقطط تأكل أبناءها » فأعدم دانتون ، خطيب الثورة الكبير ، وتبعه روبسبير الدكتاتور ، واغتيل مارا الصحفي اللامع وتبعه كثيرون آخرون ، وعمت الفوضى البلاد .

إلى أن جاء من أقصى فرنسا جنرال يسعى ، ذاع صيته في المعارك والانتصارات ، ليفتح صفحة مريرة أخرى من تاريخ فرنسا الحديث ، جاءهم نابليون بونابرت .

من أقوال السلف :

- أربعة يسود بها المرء : الأدب والعلم والعفة والأمانة .
- أربعة ينبغي للعاقل أن يمنع نفسه منها : العجلة واللجاجة والعُجب والتواني .
- أربع لابقاء لها : مودّة الأشرار ، والبيت الذي ليس فيه تقدير ، والمال الحرام ، والكسب الذي ليس معه تدبير .
- أربع إذا كنّ في الرجل أهلكته : محبة النساء ، والقمار ، والصيد ، والخمر .
- أربعة لا تدرك بأربع : الشباب بالخضاب ، والغنى بالمنى ، والبقاء بالدواء ، والصحة بالحمية .
- أربع ترفع الرجل وإن قلّ علمه : الحلم ، والتواضع ، والسخاء ، وحسن الخلق .
- أربع لايثبت معها ملك : غش الوزير ، وسوء التدبير ، وخبث النية ، وظلم الرعية .
- أربعة تؤكد المحبة : حسن البشر ، وبذل البر ، وقصد الوفاق ، وترك الشقاق .
- أربعة تؤدي إلى أربعة : الصمت إلى السلامة ، والبر إلى الكرامة ، والجود إلى السياسة ، والشكر إلى الزيادة .



● صفحات مجهولة
من الثورة الفرنسية

الإخوان «شنييه»

بقلم : الدكتورة زينب عبدالعزيز

يمثل الأخوان شنييه نموذجا مميزا بين الأدباء عامة ، وبين أدباء القرن الثامن عشر في حقبة الثورة الفرنسية بصفة خاصة ، بل لعلهما من أول النماذج المعروفة في تاريخ الأدب الفرنسي . فقد احتل كل أخ منهما مكانة الصدارة في مجاله ، وأتى بجديد في تخصصه ، لذلك يعد إنتاج كل منهما علامة على طريق الإبداع الأدبي وتطوره .

على الرغم من مكانة الصدارة هذه ، وعلى الرغم من أن كليهما يمثل عصره بالفعل ، ويحمل في أعماقه نبضات جيله وآماله ، فكثيرا ما تغفل المراجع اسم أحدهما ، لتتغنى بقدرات الآخر وملكاته ! فمن الملفت للنظر أن نرى صورة أندريه شنييه ، الشاعر ، تكاد تطمس معالم صورة أخيه ماري - جوزيف شنييه ، الكاتب المسرحي ، على الرغم من كم المخطوطات التي خلفها كل منهما ، والتي مازالت تمثل - بالنسبة للباحثين - أرضا خصبة لم تجن كل ثمارها ، ولربما يرجع السبب في ذلك إلى اختلاف موقفيهما من مجريات الأحداث السياسية وتقلباتها السريعة الإيقاع .

أحد ثلاثة كبار :

حينما طلب من الأديب المعاصر هنري دي رينييه Henri de Reinier أن يذكر ثلاثة أسماء لايمكن إغفالها ، وتلخص تاريخ الشعر الفرنسي ، قال : « رونسار ، شنييه ، وفيكتور هيجو » ، الأمر الذي يدلنا على المكانة المميزة التي يحتلها أندريه شنييه ، كواحد من أهم الشعراء الفرنسيين ، إن لم يكن شاعر فرنسا الوحيد المعترف به في القرن الثامن عشر ! وذلك

على الرغم من أنه لم ينشر أثناء حياته سوى قصيدتين وسبعة وعشرين مقالا سياسيا . إذ تم إعدامه بمقصلة الثورة (الجيلوتين) ، في الخامس

والعشرين من شهر يوليو عام ١٧٩٤ م ، ولم يكن قد جاوز الثانية والثلاثين من عمره .

ولقد ظلت أعماله متفرقة في مخطوطاتها - حيث كان يدون أفكاره ومشاعره ومشاريعه الإبداعية تباعا وبتلقائية فريدة - إلى أن قام لاتوش Latouche بتحقيقها ونشرها في الحقبة من عام ١٨١٩ م حتى عام ١٨٣٣ م .

وقد أعيد طبعها ثلاث مرات قبل أن يبدأ ديموف بإعادة نشرها فيما بين أعوام ١٩٠٨ و ١٩١٩ ، وهي أول طبعة كاملة لأعماله في مطلع هذا العام .

النشأة :

ولد أندريه شنييه في الثلاثين من شهر اكتوبر عام ١٧٦٢ م ، بمدينة اسطنبول ، حيث كان والده يعمل بالسلك الدبلوماسي ، أما والدته اليزابث لوماكا ، اليونانية الأصل ، فقد كانت تشارك زوجها اهتماماته الثقافية والأدبية ، ولها مؤلفات في مجال التاريخ .

ولقد أتم أندريه شنييه تعليمه في باريس ، بكلية نافار ، وبدأ يمارس الكتابة وينظم الشعر منذ سن السادسة عشر ، بينما كانت ملكاته تتفتح وسط مناقشات كبار الكتاب والفنانين والسياسيين ، من رواد الصالون الثقافي الذي كانت تقيمه والدته . واتسعت تجاربه ، وتنوعت خبراته ، في عديد من المجالات ، من بينها أداؤه للخدمة العسكرية ، وتلك الرحلات التي كان يقوم بها ، مع استمراره في الكتابة ونظم الأشعار ، وإن أخذ خياله يحلق مع بداية نشر حفائر مدينة بومبي بإيطاليا ، بكل ما كشفته عن حياة الرومان ، ليثري أشعاره بأطياف الماضي السحيق .

وفي عام ١٧٨٧ م تم تعيينه سكرتيرا خاصا لسفير فرنسا بلندن ، حيث كان يتابع أحداث بلده عبر أصدائها في المجتمع البريطاني ، وخبايا جنبات السلك الدبلوماسي . وما أن اندلعت الثورة حتى أصر على العودة ، ليشارك في خضم معاركها ويعايشها عن قرب .

الثورة ثم المقصلة :

سرعان ما تبنى أندريه شنييه مبادىء الثورة ، وتغنى بنبضها وتطلعاتها ، ليصبح واحدا من ألمع خطبائها ، وواحدا من ألمع صحفييها ، إلا أنه سرعان ما اتخذ موقفا معاديا حيال كل ما أراقته الثورة من دماء ، وكل ما سببته من تدمير وتخريب : فمن المعروف تاريخيا أن عدد الذين قطعت رؤوسهم بالمقصلة قد بلغ خمسين ألفا ، فضلا عمن قتلوا في المعارك ! ومع غزارة الدماء الدافئة المراقة ، وبتدفقها نفسه تحولت مشاعر أندريه شنييه ليهاجم هذه المجازر ، ويدافع عن الملك والنظام الملكي ، إلا أنه بعد إعدام لويس السادس عشر اضطر إلى الهرب والابتعاد عن العاصمة ، ليستقر فترة في مدينة فرساي .

ولم تدم حياته السياسية أكثر من أربعة أعوام ، إذ تم القبض عليه صدفة في السابع من مارس عام ١٧٩٤ م ، وعلى الرغم من جهود والده المضنية ، وتدخل شقيقه ماري - جوزيف شنييه - لدى المسؤولين ، للحيلولة دون إعدامه ، لم تستطع أي جهود أن تنقذه من تلك النهاية المأساوية التي داهمت حياته ليساق للمقصلة «الجيلوتين» ، بعد فترة سجن مريرة ، امتدت أربعة أشهر ونصف شهر تقريبا .

الشاعر :

لم يكن أندريه مشهورا كشاعر عند وفاته ، إذ لم تنشر له - كما سبق القول - غير قصيدتين ، أولاهما بعنوان « جي دي بوم » ، وهو اسم القاعة التي اجتمع فيها نواب الشعب بالقصر الملكي ، في العشرين من شهر يونيو عام

١٧٨٩ م ، وأقسموا على « ألا يتفرقوا قبل أن يعطوا فرنسا دستورا يقود خطاها » ولقد أهدى هذه القصيدة لنواب الشعب ، وللفنان لويس دافيد ، المصور الذي عبر عن أحداث الثورة في لوحاته . أما القصيدة الثانية فكانت بعنوان « أنشودة إلى السويسريين في قصر شاتوفيو » ، وقد نشرت في « جريدة باريس » عام ١٧٩٢ م .

هاتان القصيدتان نشرتا في حياته ، لكنه ترك لأقاربه كمًّا ضخما من المخطوطات التي بدأت تظهر تدريجيا إلى الوجود ، بفضل تلك المشاعر التي حركتها العواصف السياسية ، لتنسج مجده على منوال العديد من الأساطير . وقد حيَّاه الأديب شاتوبريان ، في كتابه المعروف باسم « عبقرية المسيحية » . ومن المعروف أن جمهرة من تبنوا الدفاع عن أندريه بعد وفاته ، كانوا ممن يعارضون الثورة . ولعلهم تمادوا أو تمسكوا بذلك المديح كموقف معارض لشقيقه ماري - جوزيف شنييه - الكاتب المسرحي ، الذي لم يتغن بالثورة فحسب ، وإنما كان واحدا من أعضائها الحاكمين . لذلك أشرنا ، في بداية المقال ، إلى اختلاف موقف كل من الأخوين حيال الأحداث الثورية والسياسية ، وأهمية ذلك الموقف في تحديد شهرة كل منهما وذيوع صيته إعلاميا ، أو طيه عمدا في عالم النسيان ، على الرغم من قدراته الإبداعية ، ويالها من مفارقة !!

رؤيته الشعرية :

لاشك في أن تكوين أندريه الثقافي ، وتشبعه بالتراث اليوناني القديم ، وتطلعاته المعاصرة المترامية النظرة ، قد جعلته يتميز برؤية متعددة المنابع كشاعر ملتزم بالتراث من ناحية ، وشاعر يمثل القرن الثامن عشر من ناحية أخرى ، بقدر ما كان فيلسوفا بجانب كونه شاعرا غنائيا تهكميا !

ويمثل التزامه بالتراث القديم تلك الإضافة



الحقيقية - في حينها - التي ميزته كفنان مبدع ، يستلهم من التراث خطوطه الأساسية ، ويتمثلها في تجانسها الشامل ، ليعبر عن أفكار عصره وما يحيط به من أحداث . وكم كان يود أن يكون سميا للشاعر اللاتيني القديم ، تيتوس لوكريسيوس ، وبخاصة تغنيه بانتزاع الحياة من الموت الذي يرى فيه العائق الحقيقي لوصول الإنسان إلى السعادة .

ولقد كان لعاطفته الجياشة تأثيرها الذي فضل معه التعبير التلقائي النابع من القلب . وهو يقول بهذا الصدد : « الفن لا يؤدي إلا إلى النظم ، أما القلب فهو وحده الشاعر المبدع » . ولعل ذلك الجانب العاطفي الدفين هو الذي يكسو تأملاته بنوع من الاغتراب الحزين .

وترجع رؤيته الفلسفية العلمية إلى رغبته في سبر غور آفاق جديدة للشعر ، بإدخال تلك المجالات المتعددة ، لاكتشافات القرن الثامن عشر ضمن الرؤى الشعرية التى كان يرى أنها باقة تتضافر فيها الفنون والعلوم الإنسانية بتأثيرها المتبادل .

أما رؤاه الغنائية التهكمية فقد تبلورت أثناء فترة سجنه المرير ، حيث كان يفجر غضبه ويأسه على « جلادي القوانين ، وأولئك الطغاة الذين يلطخون وجه فرنسا ويستعبدونها » ، على حد قوله في إحدى هذه القصائد .

إبداع متنوع :

تتضمن الأعمال التي خلفها العديد من القصائد والأعمال الدرامية التي درج مؤرخوه ونقاده على تقسيمها على النحو التالي :

سبع وعشرون قصيدة عن الطبيعة ، تنوعت خلالها رؤاه من المناظر الريفية والبحر إلى الموضوعات الأسطورية « الميتولوجية » ، وخمس وعشرون قصيدة لمرثيات غنائية ، عبر فيها عن مشاعره العاطفية ، وكل ما يختلج في أعماقه من اغتراب وعزلة وأحلام عاطفية ، تنعكس ظلالها من خلال معايشته للطبيعة ، ثم ست قصائد غرامية ، تعبرعن تجاربه الذاتية ، بأسلوب يفيض عذوبة وخيالا ، وذلك بجانب سبع خطابات منظومة ، لم يكتمل معظمها ، وإن كانت تعكس نبضه وفكره عن الصداقة والخرافات السائدة ، وهناك سبع قصائد من شعر المناسبات ، يتغنى فيها بعظمة الحرية ، ومنها قصيدة يحيي فيها شارلوت كورديه التي اغتالت مارا ، ذلك الزعيم السياسي المفوه ، رئيس تحرير جريدة « صديق الشعب » الذي تبنى الدفاع عن عديد من القضايا الشعبية ، وصوت مؤيدا إعدام الملك لويس السادس عشر ، وكانت له مواقفه الحاسمة في استبعاد الحزب البرجوازي من الحكم . لكنه اغتيل بعد ذلك بأسبوعين ، على يد شارلوت كورديه !

كما ترك أندريه شنييه أربع أناشيد ، تناول فيها فرنسا ، والعدالة والفقر والزمن . وكلها أعمال لم تتم ، وإن كانت تكشف عن ميوله وموقفه من هذه القضايا . ومن أهم ما أبدعه أربع ملاحم ، إحداها عن « الاختراعات » ويطالب فيها بتناول كل العلوم والاختراعات التي تمت في القرن الثامن عشر وهي أشبه ما تكون ببرنامج عمل ، يجمع رؤيا الأحداث المعاصرة له وارتباطها بالتراث القديم ، وأخرى عن أمريكا أو « العالم الجديد » . ومن الطريف أنه لم يبق من هذه الملاحم سوى بعض أجزاء ، أو ملخصات لها بالنثر ، لا تسمح بأكثر من أن يتخيل القاريء ما كانت ستكون عليه لو أنها وصلتنا كاملة !

ومن ضمن ما خلفه أيضا خمسة بحوث منها بحثه عن « فن الحب » و « جمهورية الآداب » ، و « الكمال في الفنون » ، كما تضمنت المخطوطات التي تركها عدة مسرحيات تراجيدية وكوميدية ساخرة ، من أهمها مسرحية عن « الحرية » ، وأخرى عن « الدجالين » وأخيرة عن « المؤهلين » .

أما آخر ما كتبه أندريه فهو قصائده الساخرة أو الهجائية ، وعددها اثنتا عشرة قصيدة ، كتبها خلال أربعة أشهر وعشرين يوما ، هي فترة اعتقاله في سجن سان لازار ، وقد نجح في تهريبها إلى والده بين طيات ملابسه المتسخة . وتعد هذه القصائد نهجا فريدا متفرداً في الشعر الفرنسي ، عبر فيها عن ثورته المتقدة على مظالم الأحزاب السياسية وسياساتها ، وما أدت إليه من رعب وخراب ودمار ، ومنها قصائد يعبر فيها عن ذلك الموت الذي ينتظره هو ومن معه في غياهب السجن .

حقائق فنية :

يعتمد الجانب التقني عند أندريه شنييه على بعث التراث القديم في قالب عصري - كما أسلفنا - بجانب التزامه بالمثاليات والأخلاق الرفيعة التي تعرف في الوقت نفسه كيف تتذوق الحياة ببساطة تتسم بملمح إنساني ، كما تتميز كتاباته بعراقة تتغنى بالجمال المثالي الهاديء ، لذا فهو يعد من أفضل من استطاع وصف الملامح الإنسانية في تعابير وكلمات بسيطة ومؤثرة .

أما أسلوبه فيمتاز بالتجانس التشكيلي الذي يحسن استخدام الضوء والظل على ما يعيد فيه بناء الواقع أو ينبعث من داخله ، مما يمثل عنصرا بارزا في كتاباته ، ويمتد ببراعة إلى اللوحة الشعرية

في نظمها وتكاملها ، وكأنها عمل من أعمال النحت ، لا مجرد لوحة تشكيلية . وتجدر الإشارة هنا إلى تميز أسلوبه الغنائي من حيث الإيقاع بموسيقية تتلاحم مع ما يعبر عنه من أفكار ومشاعر .

جسر الى الرومانسية :

يعد أندريه من الذين أفسحوا الطريق للرومانسية بغنائيته الحزينة التي سبقت كلا من الفريد دي فيني ، والفريد دي موسيه ، كما سبق فيكتور هيجو في « تأملاته » بغنائيته الجماعية . ومن ناحية أخرى فإن بعض النقاد يرون أنه قد سبق الأديب ثيوفيل جوتييه ونظريته المنادية بالفن للفن . وقد كان تأثيره في كل الأحوال على من أتوا بعده تأثيرا لا يجحد .

وإذا ما كان بعض النقاد قد لاموه على تقليده للقدماء ، أو الالتزام بقوانين أشعارهم ، فإنهم في الوقت نفسه يعدونه - كما ذكرنا - واحدا من أكبر ثلاثة شعراء استطاعوا أن يعايشوا التراث اليوناني الكلاسيكي والتعبير عما يتضمنه من أساطير ، مع الالتزام بالمقاييس الجمالية الرصينة والمجددة .

ماري - جوزيف شنييه :

على الرغم من قلة ماتقدمه كل المراجع الأدبية عن هذا الكاتب المسرحي الشقيق الأصغر لاندريه شنييه ، فإنها تتفق جميعها على أنه يمثل علامة واضحة ومميزة في تاريخ تطور المسرح الفرنسي ، وبخاصة مسرح حقبة الثورة الفرنسية .

ولد ماري - جوزيف أيضا باسطنبول ، بعد شقيقه بعامين ، أي سنة ١٧٦٤ م ، وقد بدأ في سن مبكرة بكتابة الأعمال الدرامية التي تم عرضها ، وإن لم تحظ حينذاك بالنجاح الذي تستحقه . ولم تلمع شهرته إلا مع بداية الثورة ، عندما أدى قانون إلغاء الرقابة ، ومنح الحرية للفرق المسرحية ، إلى إطلاق حرية الفنانين في التعبير ، وإنشاء خمسين مسرحا جديدا في مدينة باريس وحدها .

وقد أدى نجاحه في المسرح إلى اختياره نائبا عن مدينة فرساي ، واعتباره شاعر الثورة الرسمي ، مما وضع على عاتقه الإسهام في إعداد الاحتفالات الرسمية الكبرى ، والقيام بكتابة العديد من كلمات الأغاني الخاصة بهذه المناسبات . وهكذا أصبح من المنادين بالجمهورية أيا كان الاتجاه السياسي للجماعة الحاكمة . وبسقوط عصر الرعب وإعدام روبسبير ، انضم ماري - جوزيف شنييه إلى الحزب الجمهوري ، وأسندت إليه مهمة تنظيم المؤسسات الثقافية والمدرسية فيه . وأخيرا عين عضوا بالأكاديمية الفرنسية .

وحينما استولى نابليون على الحكم ، انبهر ماري - جوزيف بمثالياته ، إلا أن تحول طموحات نابليون إلى امبراطور دفعت ماري - جوزيف شنييه إلى الابتعاد عن الأضواء السياسية ، مكتفيا بالكتابة والرد على الذين اتهموه بأنه كان من الأسباب التي أدت إلى إعدام شقيقه !

وهكذا دأب المؤرخون بعد وفاته على إقصاء أعماله وإبعادها عن دائرة الضوء ، لكي تنفرد أعمال أندريه بالصدارة .

مسرحيات سياسية :

تعد تراجيديا « شارل التاسع » أو « التعصب » أول مسرحية تثير معركة سياسية أدبية ، لما تتناوله من موضوع شائك ، يعبر عن تحالف بعض رجال الدين مع الطغمة الحاكمة ، ومسؤوليتهم عن بعض المذابح . وقد منع عرض هذه المسرحية عام ١٧٨٨ ، على الرغم من قبول

فرقة « الممثلين الفرنسيين » لنصها ، لكنهم على الرغم من ذلك منعوا عرضها حتى بعد اندلاع الثورة واقتحام سجن الباستيل .

واحتج ماري - جوزيف بمقال شهير عن « حرية المسرح الفرنسي » ، إلا أن الأحداث المتعددة لصيف عام ١٧٨٩ م التي لامثيل لها في تاريخ فرنسا ، إن لم يكن في تاريخ العالم بأسره ، بالإضافة إلى تدخل الجماهير والممثل المسرحي - آنذاك - تالما (Talma) ، وكل من النائبين دانتون وميرابو ، لصالح المسرحية ، يعطى نموذجا عمليا وواقعيا لما يمكن أن يكون عليه تسييس المسرح ، ودوره في فترة الثورة الفرنسية . وهكذا سمح بعرض المسرحية بانتظام ابتداء من ٤ نوفمبر من العام نفسه .

وعلى الرغم من أن البناء الدرامي للمسرحية كان كلاسيكي النزعة ، فإن ما طرحته المسرحية من قضايا حيوية تدين صراحة مساوىء الملكية عامة ، وأخطاء الملك لويس السادس عشر ، خاصة فيما يتعلق بموقفه من رجال البلاط وتحالف بعض رجال الدين معه ، مما جعل هذه المسرحية من أول الأعمال الثورية الدرامية .

ولا تخلو مسرحية من مسرحيات ماري - جوزيف شنييه من موقف سياسي محدد ، أو من قضية عامة تتصل بالجماهير . فبعد « شارل التاسع » قدم مسرحية « هنري الثامن » التي يتعرض فيها للتعصب ومغباته ، ويطالب بالتسامح النبيل . وهاهو يكتب بعدها تلك المسرحية التي تحمل اسم البطل « كايوس جراكوس » التي يطالب فيها بالاعتدال في سن القوانين وحقن الدماء . ثم كتب مسرحية « جان كالاس » التي انضم فيها إلى موقف الأديب الفيلسوف فولتير الذي ساهم في تبرئة ذلك المواطن بعد أن اتهمه المتعصبون ظلما وقتلوه إبان تعذيبه علنا على « العجلة الدائرة » عام ١٧٦٢ م .

وإذا كان قد تمكن من عرض المسرحية التراجيدية المعروفة باسم « فينيلون » التي تنادي أيضا بالتسامح وعدم التعصب ، فإنه لم يتمكن من عرض مسرحية « تيموليون » التي ينتقد فيها الاستبداد ، وذلك بسبب عصر الرعب الذي أدان أخاه وحكم عليه بالإعدام شنقا .

ولم يكف ماري - جوزيف شنييه عن كتابة المسرحيات الملتزمة التي يتبنى فيها القضايا الحيوية المرتبطة بعصره ، والتي تتناول المواقف العشوائية السياسية ، أو المواقف التي تتسم بالتعصب ، إلى أن توفي في باريس عام ١٨١١ م ، عن سبع وأربعين سنة ، أمضى جلها في التعبير الحر عن آرائه ، وفي المشاركة الفاعلة في أحداث عصره الصاخبة المتطاحنة .

وستظل من المفارقات التي تحتاج لمزيد من الدراسة أن هذا الأديب الذي قدم كمًّا هائلا من الإنتاج المتكامل الذي عايش من خلاله نبضات عصره وفكره ، وبخاصة حقبة الثورة بكل ما فيها من معطيات ، مازالت صورته باهتة في المراجع ، ولدى جمهرة المؤرخين الذين لفتت أنظارهم وبهرتهم - غالبا - تلك الأسطورة التي تم نسجها حول أخيه الشاعر أندريه شنييه ، وتغنى بها كل من الروائي مرى ، والكاتب المسرحي ج . باربييه ، والموسيقي اومبرتو جيوردانو في الأوبرا ، وحشد من الأعمال الفنية التي لاتردد سوى أسطورة أندريه ، الشاعر الشاب الذي أعدمته الثورة ، لتترك صورة ماري - جوزيف شنييه قابعة في طيات النسيان ! . □

* لا يطفىء مصباح العقل غير عواصف النفس . (توفيق الحكيم)



الحُبّ في «طوق الحَمامة»!

بقلم : محمد رجاء عبدالمتجلي *

يعد كتاب « طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف » لابن حزم من أجمل الكتب وأروعها التي تناولت وصف الحب ودراسة أطواره ، وتحليل عوارضه وأحواله ، ويعد هذا الكتاب أحد الكتب البارزة في التراث الأدبي .

هذا الكتاب ليس كتابا في الحب فحسب ، وإنما هو كذلك كتاب اعترافات أو ترجمة ذاتية للكاتب ، فقد ذكر فيه الكثير من أحاديث نفسه ، ودخائلها وخفاياها ، وما انتابها من أزمات ، وألّم بها من شدائد ، وهالها وهزها من حوادث ووقائع .

ومن خلال وصفه لنفسه ، وتحدثه عن نوازع قلبه ، استطاع أن يشرف بنا على عصره ، ويقدم لنا وثيقة نادرة عن أحوال مجتمعه وآدابه ، وأخبار رجاله ونسائه ، قلما نعثر على مثلها في مراجع الأدب والتاريخ الأخرى .

ويكشف هذا الكتاب الرائع عن صفاء نفسية ابن حزم ، ورقة مزاجه ، ونعومة مشاعره ، وعمق عواطفه وصدقها ، ومتانة عقيدته ، ومضاء إرادته ، ولم يكن ابن حزم محبا عميق الحب ، مشبوب العاطفة فحسب ، بل كان إلى جانب ذلك صديقا يخلص في الود ، ويصدق في العهد .

* ماجستير في العلوم والآداب العربية ـ القاهرة

ماهية الحب وأنواعه

لقد قصر ابن حزم الفصل الأول من كتابه على الكلام عن الحب وماهيته ، فالحب لا تدرك ماهيته بالفكر ، وإنما تدرك بالتجربة ، وهو في ذلك يقول : « الحب أوله هزل وآخره جد ، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة ، وليس بمنكر في الديانة ، ولا بمحظور في الشريعة ، إذ القلوب بيد الله ، ولا يلزم القلوب غير المعرفة والنظر في الفرق ما بين الخطأ والصواب » .

وواضح من هذا النص أن آراء ابن حزم تتجه إلى الحرص على إبراز تلك العاطفة الروحية السامية العفيفة ، والحرص في الوقت نفسه على التنبيه إلى أن الحب خبرة معاشة ، فلا يدرك حقيقته إلا كل من كابده وعاناه ، وبالتالي فهو يستند في حديثه عن الحب إلى تجربته الخاصة .

ولم يكن ابن حزم يجد أدنى حرج في الاشارة بين الحين والحين إلى ما مر به من خبرات ، وهو لا يعتمد في أحكامه على آراء نظرية خالصة ، أو نظريات فلسفية معروفة ، بل هو يستمد أحكامه من تجاربه وتجارب الآخرين ، دون التعرض إلى ذكر أسماء أصحابها .

ويذهب ابن حزم إلى أن الحب هو « اتصال بين أجزاء النفس المقسومة في هذه الخليقة ، في أصل عنصرها الرفيع ، فما تناسب من النفوس اتصل ، وما تخالف منها انفصل ، فسر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال ، والشكل يستدعي شكله ، والمثل إلى مثله ساكن ، فللمجانسة عمل محسوس ، وتأثير مشاهد ، والتنافر لا يكون إلا في الأضداد ، والموافقة لا تكون إلا في الأنداد »

ويؤيد ابن حزم ذلك بقوله : « لو كانت علة الحب حسن الصورة الجسمية لوجب ألا يستحسن الأنقص من الصورة ، ونحن نجد كثيرا ممن يؤثر الأدنى ، ويعلم فضل غيره ، ولا يجد لقلبه محيدا عنه ، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لايساعده ولا يوافقه » ، فلا بد إذن من أن يكون الحب شيئا في النفس ، لأنه امتزاج نفسي ، واستحسان روحي .

والمحبة على أنواع ، فهناك محبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة ، ومحبة البر ، ومحبة الطمع في جاه المحبوب ، ومحبة المحبين لسر يجتمعان عليه ويلزمهما ستره ، ومحبة المتحابين في الله عز وجل ، ومن هنا فإنه لا فناء لهذه المحبة إلا بالموت .

علامات الحب

لكل عين من العيون لغتها ، وإشارات لحظها ، وهي باب النفس ، المنقبة عن سرائرها ، والمعبرة عن كوامنها ، والمعربة عن بواطنها ، وليس بدعا أن النظرة هي نقطة انطلاق الحب ، وكثيرا ما يكون تعلق الحب بالقلب من نظرة واحدة ، فهناك من يعشق صورة لايعلم من صاحبتها ، ولا يعرف لها اسما أو عنوانا .

ولقد روى « المقرى » في كتابه « نفح الطيب » : أن ابن حزم التقى في أحد الأيام ، وكان بصحبة أحد أصدقائه ، بوجه حسن ، فقال لصديقه : « هذه صورة حسنة » فقال له صديقه : « إننا لم نر إلا الوجه ، فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك » ، فقال له ابن حزم الأبيات التالية ارتجالا :

وذي عذلٍ فيمن سباني حُسْنُه
يطيلُ ملامي في الهَوَى ويقولُ
أمن أجل وجهٍ لاحَ لم تَرَ غيره
ولم تدر كيف الجسم أنت عليل ؟
فقلت له : أسرفتَ في اللوم فاتئد
فعندي رد لو أشاءُ طويلُ
ألَم تر أني ظاهري وأنني
على ما أرى ، حتى يقومَ دليلُ

إن ابن حزم كان يأخذ الواقع على ما هو عليه ، ويتقبل الحقيقة دائما على ظاهرها ، مالم تثبت له التجربة فيها بعد خلاف ذلك .

ومن علامات الحب الكتمان وإظهار الصبر عن طريق التصنع ، غير أن المحب لا يستطيع أن يظل قادرا على كتمان سره ، إذ أن حركاته وسكناته ونظراته سرعان ما تفضح حبه ، وتفصح عن مكنون قلبه ، فيدرك الناس ما هو فيه ، وما انطوت عليه ضلوعه ، ولقد صدق من قال : « الصب تفضحه عيونه » .

وحسب الانسان أن يعف عن محارم المولى تبارك وتعالى التي يأتيها باختياره ، ويحاسب عليها يوم القيامة ، فالإنسان يملك حركات جوارحه المكتسبة ، ولكنه لا يملك قلبه وهواه .

ويتحدث ابن حزم عن الكثيرين ممن أحبوا من نظرة واحدة ، وكيف نشأت العلاقة في نفوس المحبين من لمحة خاطرة ، بل قد تقع المحبة بالوصف دون المعاينة ، فيعشق الإنسان شخصا لم يره ، إما لأنه سمع عنه من الأخبار ما حببه إلى نفسه ، وإما لأن خياله قد صور له ذلك الشخص بصورة المعشوق الأسمى الذي لايدانيه مخلوق في الكمال أو في الجمال .

وابن حزم يدرك أن للخيال دورا كبيرا في نشأة الحب ، وهو يتحدث في كتابه عن محبين شغلوا أنفسهم بغير حقيقة ، وتعلقت أوهامهم بمعدوم أو شبه معدوم ، ويتعجب كيف يحب الإنسان من لم يره قط ، ولا هو موجود في الدنيا ، بيد أنه يعود فيفسر هذا النوع من الحب بقوله : « إن الذي فرغ ذهنه في هوى من لم يره ، لابد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها ، وعينا يقيمها نصب ضميره ، لا يتمثل في هاجسه غيرها ، قد مال بوهمه نحوها » .

إن خيال المحب هو الذي يخلع على المحبوب كل ما يهواه من أنواع الكمال ، وأوهام المحب هي التي تضفي على شخصية المحبوب العديد من المزايا التي تجعل منه جوهرة ثمينة نادرة .

وعملية التبلور في مثل هذا اللون من الحب أسرع وأسهل لدى النساء من الرجال ، لأن : « حب النساء في هذا أثبت من حب الرجال ، لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن ، وتمكنه منهن » .

وللمشاهدة بعد ذلك أبعد الأثر ، إذ أنها قد تؤكد هذا النوع من الحب ، وتزيد من قوته ، أو تبطله وتقضي عليه قضاء مبرما ، ولا يستطيع ابن حزم أن يكتم شكه في الحب من أول نظرة ، لأنه أسرع في الفناء : « إن من أحب من نظرة واحدة ، وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة ، فهو دليل على قلة الصبر ، ومخبر بسرعة السلو ،



وهكذا في جميع الأشياء ، أسرعها نموا أسرعها فناء ، وأبطؤها حدوثا أبطؤها نفادا » .

أدوار الحب أو درجات الحب

للحب في رأي ابن حزم خمسة أدوار أو خمس درجات ، وهي على الترتيب التالي :

١ ـ الاستحسان : وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور إليه فيستحسنها ، أو يستحسن أخلاقه ، وهذه الدرجة أدخل في باب التصادق منها في باب المحبة .

٢ ـ الإعجاب : وهو أن يرغب الناظر في المنظور إليه ، ويحن إلى القرب منه .

٣ ـ الألفة : وهي الوحشة إلى المحبوب إذا غاب .

٤ ـ الكلف : وهو اشتغال البال بالمحبوب ، وهو ما يعرف في الغزل باسم « العشق » .

٥ ـ الشغف : وهو الامتناع عن الطعام والشراب إلا اليسير من ذلك ليسد الرمق ، وربما أدى الشغف إلى المرض أو الوسواس ، أو الموت .

الحب الصادق

إن الحب الصادق هو الذي يسير على مهل ، ويتولد بطول الامتزاج ، وأغلب الظن أن ابن حزم قد دلته خبرته الخاصة على أن العاطفة



البطيئة التي تتكون على مرور الأيام هي التي تدوم وتثبت ، على العكس من المغامرة العاطفية الخاطفة .

وهو يصرح بذلك في قوله : « وإني لأطيل العجب من كل من يدعي أنه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه .... وأما أن يكون في ظني متمكنا من صميم الفؤاد ، نافذا في حجاب القلب ، فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لي دهرا ، وأخذي معه في كل جد وهزل ، وكذلك أنا في السلو والتوق ، فما نسيت ودا لي قط ، وإن حنيني إلى كل عهد تقدم ليغصني بالطعام ، ويشرقني بالماء » .

ويرفض ابن حزم تعلق الانسان بشخصين في وقت واحد ، مؤكدا أن القلب له واحد ، ويقرر أن كل من يزعم أنه يحب اثنين ، ويعشق شخصين متغايرين ، فحبه وعشقه ليس صادقا ، وله في ذلك أبيات رائعة ، يقول فيها :

كذب المدعي هوى اثنين حتما
مثل ما في الأصول ما أكذب ماني
ليس في القلب موضع لحبيبين
ولا أحدث الأمور بثاني
فكما العقل واحد ليس يدري
خالقا غير واحد رحمن
فكذا القلب واحد ليس يهوى
غير فرد مباعد أو مدان
وكذا الدين واحد مستقيم
وكفور من عنده دينان

إن ابن حزم يؤمن بالوحدانية في الحب ، وهو لهذا يستنكر التقلب فيه ، ويستهجن الملل في العاطفة ، ويحمل بشدة على القائلين بإمكان الجمع بين حب اثنين في وقت واحد .

ويكاد ابن حزم ينص في كلامه على ما اصطلح عليه علماء التحليل النفسي في العصر الحديث ، وأطلقوا عليه اسم « التثبيت » ، وهو : ارتباط الفرد في صباه بشخص أو شيء ارتباطا وثيقا ،

بحيث يدوم هذا الارتباط حتى بعد انتقاله إلى مرحلة النضج النفسي ، أو البلوغ العاطفي .

سلطان الحب وآفاته

إن ابن حزم حينما يتحدث عن الحب ، فإنه لا يتحدث عن شيء يملك الانسان التحكم فيه ، أو يستطيع تصريفه ، بل هو يتحدث عن داء مستعص ، وعلة متمكنة ، لا دخل للإرادة فيها ، وإن كان الحب بطبيعته علة يشتهيها كل إنسان ، ولايود سقيمها البرء منها .

وهو لايكتفي بنفي الاختيار عن المحب ، بل يقرر أنه ليس في الوجود آفة أعظم من الحب ، وعندما يتحدث عن سلطان الحب على نفوس العاشقين ، وامتلاكه منهم المهج والأرواح ، فإنه يسهب إسهابا رائعا وجميلا : « واعلم أعزك الله أن للحب حكما على النفوس ماضيا ، وسلطانا قاضيا ، وأمرا لا يخالف ، وحدّا لا يعصى ، وملكا لا يتعدى ، وطاعة لا تصرف ، ونفاذا لا يرد » .

والحب يحل المبرم ، ويحلل الجامد ، ويخل بالثابت ، ويحل شغاف القلوب ، وربما كان أعجب ما في الحب أنه قد يعمي ويصم ، فهو قد يصيب شخصا عاقلا رزينا حسن التمييز ، فإذا به يخطيء الحدس ، ويستحسن القبيح ، ويجعله ينحرف عن جادة الصواب ، حتى ليكاد يكون الهوى له بمثابة طبع ثان ، فلا يعود يقبل إلا على كل ما هو خلاف للسليم .

ومعنى هذا أن آفة الحب قد تميل بالشخص ، فتجعله يقبل الأدنى ويفضله ، أو قد تصرفه عن رؤية الأشياء والأشخاص بعين الحقيقة ، فإذا بالعاشق المصاب بآفة الحب يتحول إلى مخلوق ناقص ، قد غلب عليه هوى عارض ، فذهب طبعه الأول ، وهو يعرف فضل ما كان عليه أولا .

وقد لا يكون هناك نوع من المبالغة إذا قلنا : إن ابن حزم يصور الحب بصورة المرض الذي يشل الإرادة ، أو الداء الذي يعمي البصيرة ، وكأن أهل الهوى ضحايا لسلطان الحب ، مغلوبون على أمرهم .

ومن بين آفات الحب المتعددة : العاذل ، والرقيب ، والواشي ، وهؤلاء جميعا يعملون على تكدير صفو العلاقة القائمة بين الحبيبين ، إما بتشديد الملامة عليهما ، أو بإفساد جو الوحدة الذي يحرصان عليه ، أو الايقاع بينهما عن طريق الوشاية والنميمة .

وإذا كان من عادة المحبين التماس الوحدة ونشدان الخلوة ، فلأنهم بذلك يريدون أن يبتعدوا بأنفسهم عن أعين الرقباء والغرباء ، وكأنما يشعرون بأن ظهور العذول ، أو الرقيب ، أو الواشي ، كفيل بإفساد العلاقة ، والقضاء على الحب .

وحديث ابن حزم عن هذه الآفات فيه تنبيه للعشاق إلى الأخطاء التي تتهدد حياتهم ، وكأنما هو يشفق على المحبين من أن تتحطم أحلامهم بسبب عذول أو رقيب أو واش ، فإذا نجح المحبون في القضاء على أسباب الكدر ، ومبررات الاغتمام ، تحققت لهم أسمى مراتب الحب ، وهي مرتبة الوصل .□

وأنا كذلك



● قاطع الطريق : هات ما معك من نقود وإلا قتلتك .

الرجل : أرجو أن تتركني فإني لو عدت إلى المنزل وليس معي نقود فإن زوجتي ستنكد عيشتي .

قاطع الطريق : وأنا كذلك .



صور إنسانية

عن الحبّ والموت

بقلم : أمينة السعيد*

لوحة أولى :

جلست على حافة الفراش وهي تمسك كف الرجل المسجى بجوارها . كان الليل قد انتصف ، والهدوء المقبض يخيم على جو الغرفة ، والنور « السهاري » المدلى من العارضة العليا للباب يلقي شعاعه الضعيف حولها ، فيحيل ظلالها الى ما يشبه شبحا واحدا كبيرا ، يبدو كأنه ينذر بالكارثة التي تتربص بها .

لم تكن أول مرة تجلس فيها على حافة الفراش ، وهي تضم راحتيها الدافئتين على كفه المعروقة ، فلقد داومت على هذه الجلسة طوال ليالي الشهور العشرة التي مضت منذ نزلت بهم على غير انتظام نكبة مرضه القاسي ، وكانت في كل جلسة تحرص على أن تظل قابضة على الكف الباردة ، علها تبعث فيه بعضا من حرارة جسدها ، لكنها لم تنجح ولو مرة واحدة في تحقيق غرضها ، وظلّت الكف الواهنة على عنادها باردة مجمدة ، تبرز عظامه من تحت جلده الواهن المجعد ، فتجعله أشبه بكف « مومياء » محنطة .

ما أبعد الفارق بين هذه الكف وما كانت عليه قبل الشهور العشرة المنكودة ، بل ما أبشع الفارق بين الجسد المسجى على الفراش بجوارها وبين

* كاتبة من جيل الرواد في القطر العربي المصري .

الرجل الوسيم القوي الصحيح قبل وقوع المأساة التي أطاحت بسعادة أسرة لم تعرف سوى الحب والوفاق طوال حياتها ! فالجسد الرياضي ذو القوام الفارع ، والصدر العريض ، انكمش مع العلة ، وتضاءل وجف ، حتى لم يبق منه سوى هيكل عظمي لإنسان مسكين ، فقفصه الصدري -بنظرة واحدة- يستطيع الناظر أن يحصي ضلوعه دون مشقة ، هذا القفص يرتفع وينخفض في أنفاس هزيلة متقطعة ، لن يطول بها الوقت حتى تتوقف ، فيتحول صاحبها الى جثة هامدة !

كل مافيه تغير ، لونه الخمري المشبع بحمرة الصحة قد امتقع ، وبات في لون الليمون ، شعره الناعم الأسود الغزير تساقط مع المرض ، والقليل الباقي منه انحسر عن جبهته ذات الشموخ والمهابة ، فازدادت اتساعا على اتساع ، عيناه ذات اللون الأخضر الضارب الى اللون العسلي ، انسدل عليهما جفناه المرتخيان ، ولم يعد يظهر من حدقتيهما سوى بعضهما فقط ، وكانت عيناه الخضراوان أجمل مافي وجهه ، مارآهما أحد إلا وبهرتاه بجمالهما الساحر .

ولم تكن الوسامة هي هبة الله الوحيدة له ، فقد كان حاد الذكاء ، نابغا ، تفتحت براعمه وهو في زهرة العمر . ولقد ضرب الرقم القياسي في تفوقه حين وصل الى رئاسة القسم الجامعي الذي يُدرس فيه وهو في الأربعين من عمره فقط وفوق هذا وذاك كان هادئا وقورا ، مهذبا رقيقا كريما ، لم يفلت زمام أعصابه مرة في حياته حتى في أعنف الظروف ، ولا عرف الكذب أو الرياء أو المداهنة طوال عمره . كان « الرجل الكامل » كما أجمع الناس على تسميته .

ooo

أحست وهي تجلس على حافة الفراش بحركة واهنة من الكف التي تحتويها براحتيها ، فنظرت الى الراقد بجوارها ، لتجد شفتيه تتحركان كأنه يحاول أن يقول شيئا ، فانحنت برأسها على وجهه ، وقربت أذنها من فمه ، غير أنها لم تسمع صوتا على الإطلاق ، كان صوته يأبى أن يخرج من حلقه ، إنه حتماً يريد أن يقول شيئا ، لكنه لا يستطيع ، ترى ماذا يريد أن يقول ؟ أهي رسالة يريد أن يبلغها إياها ؟ ولكن ماهذه الرسالة ؟ أيريد أن يذكرها بأن الليلة عيد ميلاده ؟ كيف يتصور له أن تنسى زوجته الحبيبة هذا التاريخ المقدس ، هذا اليوم العزيز الذي اعتادا طوال سني حياتهما الزوجية أن يحتفلا به معا ، في ركن شاعري من المطعم المطل على النيل بجوار مسكنهما ؟ أم لعله يريد أن يودعها الوداع الأخير ؟ ولكن هل يعقل أن تقسو عليها الأيام الى هذا الحد ، فيموت زوجها في يوم عيد ميلاده ؟

أحست برغبة شديدة في البكاء ، غير أنها ابتلعت دموعها بكل ماتملك من قوة ، فالبكاء معناه الاقتناع باحتمال وقوع الكارثة في تلك الليلة المقدسة على الأقل ، إنها ترفض فكرة الموت ، إنها تريد أن يعيش لها دائما حتى على الحالة التي وصل إليها ، تريده أن يبقى بجانبها ولو كان هيكلا عظميا .

وراحت تبحث عن أمر يبعد ذهنها عن الرغبة في البكاء ، فلم تجد سوى عالم الذكريات ، تلوذ به هربا من الواقع ، فغاصت بذاكرتها الى أبعد مداها ، ووجدت نفسها تتساءل : ترى متى بدأت معرفتها ؟ وكيف ؟



لم يسعفها ذهنها بيوم معين على وجه التحديد ، والأمر الذي هي واثقة منه أن عينيها تفتحتا عليه وهي طفلة صغيرة ، لم تبلغ السابعة من عمرها . كانا يسكنان بيتين متجاورين ، لكل منهما حديقة أمامية فسيحة ، ويفصل بينهما سور ، نصفه الأسفل من الأسمنت ، ونصفه الأعلى من قضبان حديدية متراصة . وأرض حديقته كلها مغطاة بالحشائش الخضراء ، وتتوسطها شجرة « جوافة » ضخمة ، تمتلىء في كل موسم بما لا أول له ولا آخر من الثمار الشهية . أما حديقتها فمقسمة الى أحواض من مختلف أنواع الزهور والورود ، تتوسطها شجرة « مانجو » ضخمة أيضا ، لكنها لا تذكر طوال عمرها أن الشجرة حملت حبة واحدة . وفي كل عام تلح هي وأمها على أبيها بضرورة اقتلاعها ، مادامت عديمة الفائدة ، فيرفض الأب فكرة الاستغناء عن الشجرة العاقر ، على أمل أن يتغير حالها في الموسم القادم ، غير أنها ظلت على عقمها حتى شاخت ، وتحولت الى مايشبه التراث الذي يعز على أهل البيت أن يتخلصوا منه على الرغم من انعدام فائدته .

وكانت تسليتها الوحيدة في طفولتها أن تنزل الى حديقتهم ، عصر كل يوم مع أختها الصغرى ، لكنها اعتادت أن تترك تلك الأخت تهيم بين أحواض الزهور ، لتداعب القواقع الصغيرة التي تعيش بين الشجيرات التي تحيط بكل حوض من الأحواض . أما هي فكانت تفضل أن تقف عند السور ، وتدس وجهها بين القضبان الحديدية ، لتتابع جارهم الصغير وهو يلعب مع أصحابه بالكرة « الشراب » .

وكان لهذه الكرة سحرها العجيب على الفتاة ، على الرغم من علمها بأنها لعبة الصبيان لا البنات ، ولم تجد في نفسها القدرة على التفرقة بين ما يمارسه البنون وما تمارسه البنات ، وعقدت العزم على الحصول على واحدة من هذه الكرات وليكن مايكون !

وفي اليوم التالي نزلت الى الحديقة مبكرة ، فوجدت جارها وحده يتسلى بلعب الكرة ، بانتظار أصحابه ، فراحت تتمحك لعلها تلفت نظره ، مرة تنادي على أختها بصوت أعلى من اللازم ، ومرة تسعل أو تعطس ، ولما لم تجد حيلها جمعت شجاعتها ونادت عليه ، وبدت على وجهه مظاهر الدهشة حين سمعها تناديه ، ومع ذلك اتجه إليها بأدب وهدوء ، وسألته على استحياء ، من أين تشتري الكرة ؟ وكم يبلغ ثمنها ؟ ! فأفهمها أنها لاتباع ولاتشترى ، إنما يصنعها الفتيان بأنفسهم من جورب قديم من جوارب آبائهم أو إخوانهم الكبار ، ولكن ألا تدرين أنها لعبة الفتيان لا الفتيات ؟ ! ومع ذلك إذا كنت تريدين واحدة فسوف أصنع لك مثلها .

وكان عند وعده ، ففي اليوم التالي أتاها بكرة قرمزية اللون .

ومنذ يوم الهدية توثقت الصداقة بين الطفلين ولم يفترقا ، وأصبحت تنزل الى الحديقة كل يوم مبكرة ، وتلعب معه بكرتها القرمزية عبر السور الحديدي الفاصل بين الحديقتين . وعندما يصل أصحابه تنسحب وتتركه لهم ، خصوصا لأثيرهم عنده ، ذي النظارة السميكة والشامة السوداء الواقعة على خده الأيمن ، وفي غيبة الأصحاب - خصوصا هذا الصبي - كان الطفلان يتسليان أحيانا بالكرة « الشراب » ، وأحيانا بالحديث وهما في طريقهما للمدرسة أثناء الصباح . وكان الصبي كريما مع صاحبته ، بواليها بالهدايا المثيرة مثل « البلي » الزجاجية الملونة ، أو قطع الصلصال أو ورق القص واللصق ، وفي موسم الجوافة ينتقي لها خير الثمرات الساقطة تحت الشجرة ، ولما أصيبت ذات مرة بالتلبك المعوي امتنع عن تقديم الجوافة ، ولم يعد يعطيها منها خوفا على صحتها . أما هي فلم يكن لديها ماتعطيه إياه أو تفرجه عليه سوى « عروستها » التي صنعتها من قطعة قماش قديمة ، وحشتها بالقطن ، ورسمت تقاطيع وجهها بالقلم

« الكوبيا » ، وثبتت على رأسها خيوطاً من صوف « التريكو » لتقوم مقام الشعر ، فلم تكن تملك غيرها ، وعلى الرغم من شدة فخرها واعتزازها بها لم تجرؤ في يوم من الأيام أن تريه إياها ، حتى لا تذكره بأنها فتاة فيحتقرها !

وسارت بهما الحياة في مجراها الهادىء الجميل ، وصوّر لها أن صداقتهما ستدوم الى الأبد ، الى أن تلقت الصدمة ذات صباح ، حين شاهدت وهي تستقل حافلة المدرسة « الباص » ، عربة نقل ضخمة يجرها حصانان ، تقف أمام باب جارها ، والحمالون ينقلون إليها مفروشات البيت . وقبل أن تجد فرصة للاستفسار عما يحدث كانت سيارة المدرسة قد تحركت بها . وكان أول مافعلته حين عودتها أن هرعت الى سور الحديقة ، حيث وجدت صديقها بانتظارها ، وعلمت منه أن والده مريض بالقلب ، وقد نصحه الأطباء بالانتقال الى إحدى الضواحي ذات الهدوء المريح والهواء العليل . ولقد أحزنه هذا الخبر وأبكاه ، غير أنهم طمأنوه الى أن البيت الجديد يقع بجوار منزل صديقه ذي النظارة السميكة والشامة السوداء . لقد وجد في هذا الخبر بعض العزاء عن الاغتراب عنها وعن بقية الأصدقاء ، ثم وضع يده في جيبه وأعطاها على سبيل التذكار صورة له وهو يرتدى بذلة عسكرية ، ويغطى رأسه بطربوش على طريقة ضباط ذلك العهد . أما هي فبدون تفكير مدت يدها الى عنقها وخلعت أيقونة « ماشاء الله » التي كانت تعلقها على صدرها ، وأعطته إياها مقابل هديته .

ولم تره منذ ذلك اليوم فترة طويلة من الزمن .

لوحة ثانية

مرت السنين ، وكبر الطفلان ، وكل منهما يعيش في واد بعيد عن الآخر ، أما العجيب في الأمر أن ذكراه ظلت تعمر قلبها بالدفء ، حتى بعد أن اوشكت تقاطيع وجهه على الاختفاء من ذاكرتها ، خاصة بعد أن فقدت الصورة التي أعطاها لها يوم انتقالهم من البيت المجاور ، ولم تبق سوى الكرة القرمزية التي حماها حجمها الكبير من الضياع . ولم تحتفظ ذاكرتها إلا بلون عينيه الساحرتين : اللون الأخضر الضارب الى



العسلي . لكن من المؤكد أن ذكراه أعطتها دون أن تدري لونا من الشبع أو الامتلاء العاطفي الذي لم يترك بقلبها فراغا لعاطفة أخرى . وإلا فلماذا ظلت محصنة دون الاهتمام بأي شاب من الكثيرين الذين اعتادوا التجمهر حولها ، والتنافس على خطب ودها ، سواء خلال دراستها بالثانوية المختلطة ، أو وجودها بالنادي الرياضي الذي تشترك الأسرة في عضويته ، أو فترات الفراغ بين المحاضرات بعد التحاقها بالجامعة ؟ ! فجميعهم ظلوا دائما إخوة وأصدقاء ، لايخفق قلبها لأحد منهم ولو خفقة واحدة .

ثم كانت المفاجأة الثانية في حياتها حين أوفدتها أمها هي وأختها الصغرى بصحبة « عم عفيفي » ، خادم الأسرة العجوز الوفي ، للاطمئنان على صحة عمتها الأثيرة التي تعيش بضاحية « الزيتون » ، على مسافة بعيدة من حي « المنيرة » ، حيث كانوا يسكنون طوال عمرهم . وكان بُعد الشقة بين المسكنين يقلل فرص التزاور بين الأسرتين ، وقد تمر سنوات قبل أن ترى احداهما الأخرى .

وعلى سلم « الفيلا » ذات الطابق الواحد فوق الأرضي ، التقت الفتاتان بابن عمتها يتحدث الى رجلين ، أحدهما لاشك طبيب ، بدليل الحقيبة التي يحملها ، وكان يضع على عينيه نظارة سميكة ، وعلى خده الأيمن شامة سوداء واضحة . أما الثاني فكان طويل القامة ، فارع القوام ، عريض المنكبين ، أبرز مافي وجهه الوسيم عيناه ذواتا اللون الأخضر الضارب الى العسلي ، وماكانت لتخطئه حتى لو كان يقف بين مائة رجل . وتسمرت قدماها على درجة السلم ، فلم تستطع التحرك ، وتسارعت ضربات قلبها ، وعلا صوتها حتى خشيت أن يسمعها الواقفان مع ابن عمتها ، وبدت الدهشة على وجه الشاب وهو يتطلع إليها ، وارتفعت يده ببطء الى صديريته ، حيث تتدلى أيقونة معدنية في وسطها « ماشاء الله » ، إنها هديتها إليه ، ومازال يحتفظ بها الى الآن ، إذن فمازالت ذكراها عزيزة عليه ، ومن المستحيل أن يكون قد نسيها يوما واحدا .

وواضح أنه مثلما احتفظ بذكراها قد ظل على وفائه لصديقه القديم ذي النظارة السميكة والشامة السوداء الذي أصبح الآن طبيبا ناجحا ، يطمئن إليه أهل الجيرة ويأتمنونه على مرضاهم .

وبدا الموقف محرجا وهي تقف مسمرة على درجة السلم ، وصديق طفولتها ينظر اليها مذهولا ، ولكن ابن عمتها لم يلبث أن أزال الحرج بتقديم الضيفتين الى صديقيه ، مذكرا إياهما بأيام الجيرة في زمن الطفولة .

ooo

بهذا اللقاء المفاجيء اتصلت الصداقة مرة أخرى ، وعاد الدفء الهادىء الوقور يملأ قلبيهما ، وعرف طريقه إليها ، وعرفت طريقها إليه ، وبمضي الوقت أصبح واضحا لكل منهما أنه لا يستطيع العيش دون الآخر .

ولم يكن أمامهما عقبات في طريق الزواج سوى عقبة واحدة لا يستهان بها ، وهي أنه كان الذكر الوحيد في جيش من الفتيات ـ بنات الخالات ـ اللواتي لم تنجب أمهاتهن ذكورا ، وأصبحت كل أم من أولئك الأمهات تعيش بأمل اقتناصه لواحدة من بناتها ، وظلت أمه في حيرة بالغة إزاء هذا الموقف ، لأنها وإن كانت تعترف بحق ابنها في اختيار الزوجة التي يرغب فيها ، غير أنها كانت في قرارة نفسها تتمنى أن يتزوج وحيدها قريبة لا غريبة ، ولكن أي القريبات ، وهن كثيرات ؟؟ غير أن وقفة الابن كانت قاطعة حاسمة ، ففتاته هي حلم حياته منذ الصغر ، وإذا لم يسعد بها ، فلن يتزوج على الإطلاق ، ونزلت الأم أخيرا عند رغبته ، وأطلقت له حرية الاختيار ، ولم تشأ أن تتدخل لا في صغيرة أو كبيرة .

ولم يكن على استعداد مادي للزواج ، وليس لديه مدخر يواجه به التزامات الأسرة ، ولم تكن

هي بالمثل على استعداد مادي للزواج ، وليس لديها مدخر تواجه به التزامات الأسرة ، لكن هذا العائق الضخم بدا غاية في التفاهة إزاء رغبتهما الملحة في الحياة معا تحت سقف واحد . وبكل بساطة ذَلّلا العقبة باتفاقهما على أن تلتحق بعمل في أسرع وقت ، لكي يوضع الدخلان معا ، ثم تشترى الاحتياجات قطعة قطعة كلما توافر بعض المال ، وكان أول ادخار لهما هو إيجار الشقة المكونة من أربع غرف ، ويوم وقعا العقد صُوِّر لهما أنهما وصلا الى السماء السابعة . وفي كل صباح يتوجهان الى الشقة الفارغة ويطوفان بقاعاتها ، وهما ينظران حولهما باعتزاز وافتخار ، كأنها مفروشة بأجمل الأثاث وليست جدراناً وأرضاً فارغة ، ولمدة ساعات يكرران ما يقولانه كل يوم :

هنا ستكون مقاعد غرفة الجلوس ، وهنا سيكون السرير وخزانة الملابس ، وهناك ستكون مائدة الطعام وكراسيها الستة . . ولقد بلغت بهما الفرحة والجرأة ذات يوم أن دَعَوَا أصدقاءهما الأعزاء ، وعلى رأسهم الطبيب ذو النظارة السميكة والشامة السوداء ، لتناول الشاي في مسكنهما الجديد .

وكانت الشقة مازالت فارغة تماما ، ليس فيها قطعة واحدة من الأثاث ، ففرشا أرض إحدى الغرف بأوراق الصحف القديمة ، وأحضرا « الجاتوه » والحلوى في علب من الكرتون ، وتربعوا جميعا على الأرض ، وأكلوا وهم يضحكون من صميم قلوبهم . وكان أسعد يوم في حياتهما ، وكانت أسعد وليمة ظلت ذكراها محفورة في صدريهما على مدى الثلاثين سنة التي عاشاها معا .

وفرشت الشقة قطعة قطعة حسب التخطيط المتفق عليه من قبل ، واستغرق ذلك خمس سنوات كاملة ، حتى أصبحت صالحة للسكنى ، عندئذ تزوجا ، وتحولت حياتهما الى « سيمفونية » من السعادة التي لم يَرِد لها مثيل .

كانت العلاقة بينهما من نوع خاص : حب أشم أبي ، لا ترخصه عبارات الهيام التقليدية ، لم يقل لها مرة في حياته أنه يحبها ، ولم تقل له مرة في حياتها أنها تحبه ، ولكن كلا منهما كان على يقين أن عاطفتهما أقوى من الحياة .

ومرت السنين في حلاوة الشهد ، ورزقا ثلاثة أبناء يشرحون الصدر ، ولقد ارتقى بهم في تربيتهم الى مستوى الخاصة بين زملائهم ، وكان الناظر والمدرسون يفخرون بهم أمام إخوانهم التلاميذ . ذلك أن الوالد نجح بأسلوبه التربوي الفذ أن يحولهم ، وهم مازالوا أطفالا ، الى رجال كاملي العقل والتفكير . وكان دائما حريصا على إشراكهم في مشاكل الأسرة ، يسألهم رأيهم في شتى الأمور ، ويأخذ ردودهم الساذجة على محمل الجد ، أو يتظاهر بذلك ، ليبث فيهم روح الثقة واحترام النفس . ولقد حدث ذات يوم أن أصيبت الأسرة بضائقة مالية ، تستوجب الاقتصاد ، فجمع أولاده الثلاثة حوله ، وشرح لهم الموقف بمنتهى الأمانة ، وبأسلوب يتمشى مع عقلياتهم ، ثم سألهم في مايقترحونه للتغلب على المشكلة ، فقال الأكبر : إنه يتبرع بمصروفه الشهري ، كما أنه لايريد ثيابا جديدة في سنوات قادمة . وقال الثاني : إنهم يأكلون اللحم أو الدجاج كل يوم من أيام الأسبوع ، وهذا إسراف لا ضرورة له ، ويكفيهم الأرز والخضراوات . أما الأصغر فقد أعلن تنازله عن « اللب » ، « والباستيليه والكازوزة » وتبرع بثمنها لفك الأزمة . وتقبل الأب اقتراحاتهم بغاية الجد والاحترام ، وشكر لهم جميل تعاونهم ، وأوضح لهم بعد ذلك مايمكن قبوله من مقترحاتهم ، مما لايعود بالضرر على صحتهم ونموهم .

أما علاقتهما الزوجية فكانت فريدة من نوعها ، حتى عدها الأهل والأصدقاء مدرسة للرابطة الزوجية المثالية ، والأسلوب الرائع للوفاق الزوجي ، ولم تكن هي على نصيب يذكر من الحسن أو الجمال المتعارف عليه ، ولكنه كان

يؤمن من صميم قلبه إيماناً لا يقبل المناقشة أنها أجمل نساء الدنيا قاطبة ، وأخفهن روحا ، وأشدهن ذكاء ، ويقسم غير حانث أنه في طوافه ببلاد العالم لم يجد لها مثيلا ، هكذا كان يراها بعينيه ، وهكذا كان يحس ويشعر . ولم يكن يبخل عليها بأي مال يملكه ، يحرم نفسه من الضرورات ليسعد حياتها بكماليات ، قد لا تكون في حاجة إليها ، وعلى الرغم من اختلاف شخصيتيهما تمام الاختلاف فقد نجح في أن يطويها تحت جناحه ، ويقودها الى طريق النجاح .

كانت بطبعها عنيفة حادة ، وهو هادىء دمث وديع ، هي عَجِلى في اتخاذ قراراتها ، مما يجنبها الصواب أحيانا ، وهو مفكر متأن ، يغوص في احتمالات النتائج قبل أن يقدم على خطوة . وهي تغضب لأبسط الأسباب ، وهو واسع الصدر حليم غفور .

ومع ذلك فبأسلوبه الفذ الحكيم عرف كيف يعكس عليها صفاته ، ويبث فيها من خصاله ، ويطويها تحت ضلعه ، فإذا بها دون أن تشعر تتغير ، وتصبح إنسانا سويا ، تصنع الصداقات بعد العداوات ، وتغرس بذور الحب بعد بذور النفور .

أصبح « دينامو » حياتها ، و « مولد » عناصر نجاحها وتوفيقها ، وعندما شعر باحتياجها الى مزيد من الثقافة فوق الذي حظيت به في دراستها الجامعية ، أقنعها بأسلوبه الحلو أن الجامعة لا تثقف ، إنما هي تفتح أبواب الثقافة أمام الدارسين فيها ، وتترك لهم بعد ذلك طريق التثقيف ، يسعون فيه بجهدهم ، وتأكيداً لرأيه أهداها موسوعة أدبية في عشرين جزءا ، تضم ملخصا لثقافات العالم المتقدم ، مترجمة بالإنجليزية التي تتقنها ، وكرس ساعتين من أوقات فراغه المسائية اليومية ، ليقرأ معها الموسوعة من أول جزء منها الى آخر جزء ، ولقد استغرق منه هذا العمل سنتين كاملتين ، خرجت بعدهما الى الحياة العامة وهي على قدر عظيم من الثقافة الغزيرة التي ظلت سندا لها طوال عمرها .

لوحة ثالثة

ثم جاءت الضربة القاضية على حين غفلة منها ، وقعت الكارثة قبيل الفجر ذات ليلة ، حين أفزعها من نومها في غرفتها الملاصقة لغرفته صوت ارتطام شديد ، خُيل إليها في البداية أنه صادر من بيتهم ، ولكن الهدوء الشامل الذي تبعه بعث الطمأنينة في نفسها ، فعادت الى النوم ، وقد تصور لها أنهم أبناء الجيران المشاكسون الذين اعتادوا تعكير صفو حياتهم بتصرفاتهم الحمقاء .

وكان من عادته على مر السنين الكثيرة التي انقضت منذ زواجهما أن يوقظها بقبلة على جبينها في السابعة والنصف من كل صباح ، لكنه لم يفعل في ذلك اليوم ، فتعجبت ، ونهضت من فراشها تستطلع الخبر ، وسارت الى بابه وفتحته بمنتهى الحرص ، خشية أن تزعجه إذا كان مايزال مستغرقا في النوم ، فإذا بها تفاجأ بما لم تكن تتوقعه على الإطلاق ، رأت شريك حياتها ملقى على الأرض ، ومقعده المعتاد مقلوبا بجواره ، في تلك اللحظة فقط ، تبين لها أن الارتطام لم يكن من عبث أبناء الجيران الأشقياء كما تصورت ، وانحنت عليه تحاول تحريكه ، فتبينت أنه في غيبوبة تامة ، وذراعه اليمنى وكذلك ساقه قد فقدتا القدرة على الحركة تماما . إنه الشلل لا جدال ، فطاش عقلها عندما توهم لها أنها جَنَتْ عليه بعدم إسعافه حين سمعت صوت الارتطام ، فجعلت تضرب وجهها بيديها ، وتصرخ بأعلى صوتها قائلة : أنا التي جنت عليه ، أنا التي قتلته !

وعلى صوت صراخها هرع أولادها إليها وهم في فزع مابعده فزع ، وبنظرة الى والدهم استطاعوا استيعاب المأساة ، فجذبوها خارج الغرفة ، واتصلوا بطبيبه الخاص ، ولم تمض ساعة أو بعض ساعة إلا وكان معهم . وبعد فحص دقيق علموا أنه نزيف في المخ ، لا يُرجى منه شفاء ، وحاول الطبيب أن يقنعها بأن لا ذنب

لها فيها حدث ، ولكنه فشل ، فأعطاها حقنة مهدئة ، غابت بعدها عن الوعي ثلاث ساعات كاملة ، وعندما ثابت الى رشدها ، وهدأت أعصابها ، وجدت نفسها تثور غضبا على زوجها الحبيب ، تثور ثورة عارمة لما عدته خيانة لها ، بل حنث بالعهد الذي قطعه على نفسه مرارا بأنه لن يتخلى عنها أو يخذلها ، مقسما بحبه لها أنه لن يموت قبلها ، حتى لا يعرضها للوحدة والعذاب من بعده ، ولكن ها هو ذا يمرض ، وها هو ذا يشرف على الموت ، وكأن عوده تراب تذروه الرياح ، فكيف يفعل بها ذلك ؟ ! كيف يغدر بها ؟ كيف يتخلى عنها ؟

ولكن ثورتها هدأت بمضي الأيام التالية ، وانتصر العقل على العواطف الهوجاء ، وتبين لها سخف تفكيرها ، فكيف تحاسب رجلا على الحنث بيمين قطعه على نفسه وهو بعد صبي صغير ، لا يفقه معنى لما يقول ؟ وكيف تطالبه بالوفاء بوعد لا يملك الحكم فيه سوى الله سبحانه وتعالى ؟

كانت لاشك مخطئة ، مخطئة في حق أحب وأعز إنسان لديها .

ولم تجد وسيلة للتكفير عن هذا الخطأ سوى تكريس حياتها وجهدها في رعاية زوجها العليل ، ورغبة في أن تعطيه أقصى رعاية ممكنة ، سألت طبيبه إذا كان ينبغي عليها أن تنقله الى أحد المستشفيات الكبرى ، ليلقى أقصى عناية ممكنة . فألقى عليها نظرة ذات معنى ، وقال بلهجة ساخرة : أدخليه مستشفى إذا كنت على عجلة في التخلص منه !

وأصابها الهلع لهذا الرد العنيف ، لكن الطبيب فسر لها الغرض من كلامه ، مؤكدا لها أن زوجها لن يحتمل الحياة إذا غابت عنه يوما واحدا ، ولسوف يموت بلا أدنى شك إذا انقطع صوتها عن أذنيه ، وحرم جسده من لمساتها الدافئة الحانية ، فالمرضون لا يعرفون الرحمة ، ولسوف يذيقونه مر العذاب اذا لم يسرع ملك الموت بقبض روحه وإراحتهم منه ، وأقسمت ألا يدخل مريضها مستشفى مهما طال المرض به .

وأخذت تحول غرفة نومه الى مستشفى صغير كامل العدة والاستعداد ، لم تترك كبيرة أو صغيرة إلا وأتت بها ، المراوح لأيام الحر ، والمدافىء لأيام البرد ، الحشية الكهربائية التي تقلبه آليا منعا لإصابته بقروح الفراش أتت بها من الخارج بالطائرة ، أجهزة التغذية الصناعية والضغط والتنفس وضعتها في أماكنها المناسبة حول فراشه ، واكتملت الغرفة بكل ما يحتاج إليه مريض ، مثل زوجها الحبيب ، ولم يعد ينقصها سوى الكرسي المتحرك على عجل ، لأنها لم تجد في جميع الحوانيت المخصصة للأدوات الطبية واحدا منها ولو مستعملا .

وبناء عليه قررت أن يكون ظهرها هو كرسيه المتحرك ، تنقله عليه من فراشه الى غرفة الجلوس مرتين في اليوم ذهابا وإيابا ، حتى لا يصيبه الملل من ملازمة السرير طوال الوقت ، ويعلم الله وحده كم كان حملها فوق احتمالها . وأحيانا كانت تفلت منها « آه » مكتومة ، عندئذ تجد دموعه تبلل خديه ، فتعرف أنه يشعر بما تعانيه ، ويبكي حزنا على ما يكبدها من جهد وإرهاق ، كانت تصر على تنظيف جسده وغسل ثيابه بنفسها حتى لا يتضرر أحد بهذه المهمة المحرجة .

وذات مرة من هذه المرات سمعته يتمتم قائلا: «يارب» وكانت أول مرة ينطق فيها لسانه بكلمة مفهومة ، فركعت على ركبتيها بجوار مقعده الوثير ، وأخذت تقبل يده وتبللها بدموعها واثقة بأنه بندائه لربه إنما يناشده الإسراع بنهايته ليريح زوجته من الجهد الشاق .

قالت هامسة في أذنه : إياك أن تظن أنك تتعبني ، أنت صحبتي وأنيسي وجليسي ، وجودك بجانبي يملأ الدنيا علي ، إنني أريدك معي حتى وأنت على هذا الحال من المرض والعجز .

أريدك كما أنت ، إنني أشكر المرض الذي

منحني الفرصة لأداء رسالتي نحو أحب مخلوق لدي ، أستحلفك بالله ألا تتركني حتى لا أموت حسرة على فراقك .

عندئذ رأت الدموع تنساب من مقلتيه فتأكد لها أنه تلقى الرسالة .

ooo

مضت الشهور العشرة على هذا المنوال ، وبمضي الوقت كان المريض يزداد ضعفا وهزالا ، أخذت تتتابه حالات من التوتر والعنف ، يبدو فيها وكأنه في صراع مع شيء ما ، ولكي تهدئه ضاعفت حنانها له فإذا به يزداد عنفا وتوترا .

ثم جاء ذلك اليوم ، يوم عيد ميلاده ، أول عيد لا يحتفلان به معا .

وأتى طبيبه الخاص على عادته كل صباح ، وأخذ يفحصه وهو يزمجر في تمتمة مكبوتة ، ثم نظر إليها بعنف لأول مرة في حياته ، وقال بلهجة الغضب : أنت تعذبينه ، فحرام عليك ، لقد فقد الأهلية للبقاء على قيد الحياة ، ولن يجد الراحة إلا في الموت ، فاتقي الله وأطلقي سراحه ليرتاح .

قالت باستنكار : ماذا تعني بهذا الكلام ؟!

قال : إن إغراقك له بالحب والحنان يدفعه الى مصارعة الموت من أجلك ، خففي من غلوائك العاطفي ، وارحميه كي يستسلم لقدره ، ويذهب للقاء وجه ربه راضيا مرضيا .

قالت بغضب : أتريده أن يموت وأنت صديق عمره ؟!

قال في برود قاس : بل أريده أن يرتاح ، لأنني صديق عمره .

وجمع حاجياته بمنتهى العصبية ، وانصرف من البيت على عجل .

وبكت في ذلك الصباح كما لم تبك في حياتها ، ولكن عندما هدأت ثائرتها أخذت تواجه نفسها وتتساءل : ماذا لو كان الطبيب صادقا فيما قاله لها ؟!

وهبط الليل وهي تجلس على حافة الفراش تمسك بكف الرجل المسجى بجوارها ، وكان الليل ، وقد انتصف ، والهدوء المقبض يخيم على الغرفة ، والنور « السهاري » المدلى من العارضة العليا للباب يلقي ضوءه الضعيف على المفروشات ، فيحيل ظلالها الى شبح واحد كبير ، يبدو كأنه ينذر بالكارثة التي تتربص بها ، وأخذت كلمات الطبيب تدور وتتقلب في ذهنها : « ارحميه ، أشفقي عليه ، أطلقيه ، دعيه يذهب للقاء وجه ربه راضيا مرضيا » كانت كل عبارة من هذه تطعنها في قلبها كأنها سكين . وكانت كلما تلقت طعنة من هذه ألقت نظرة على وجه مريضها الحبيب ، فتجد عضلات وجهه تزداد تقلصا عنيفا ، وشفتيه تتحركان دون صوت .

وأخيراً جمعت شجاعتها ، وانحنت على أذن أعز من لها في الدنيا ، وقالت وكأن هموم الشهور العشرة الماضية تجمعت فوق ظهرها ، وأوشكت أن تقصمه : أريدك ياحبيبي أن ترتاح ، وإني لأعفيك من كافة عهودك ، لا تحمل لي هماً ، فلسوف أستطيع الحياة من بعدك ، اذهب لترتاح ، وستظل في قلبي الى يوم اللقاء ، ولن يطول الوقت حتى ألتحق بك ، أعدك بذلك !

وظلت تردد هذه العبارة الأخيرة المرة بعد المرة ، وصوتها يزداد خفوتا وضعفا ، حتى غلبها النعاس ، فمال رأسها فوق يده ، واستسلمت للنوم وهي مازالت جالسة على حافة الفراش .

وعندما ارتفع صوت المؤذن يدعو الى صلاة الفجر استيقظت فزعة ، فوجدت رأسها مازال مستنداً الى يده ، ولكنها كانت في برودة الثلج ، وأنفاسه قد توقفت ، فلم يعد قفصه الصدري يعلو ويهبط ، وجفناه نصف مرتخيين ، ومن بينهما عيناه العسليتان تنظران إليها في ثبات مخيف ، لكن وجهه لم يعد متقلصا ، بل يكسوه الهدوء والسلام ، وشفتيه تنفرجان قليلا فيما يشبه الابتسامة ، ترى هل بلغته رسالتها ، فاستجاب لرجائها ، وذهب الى لقاء ربه راضيا مرضيا ؟! □

مواقف حرجة

في عالم الطب

بقلم : الدكتور محمد مروان النحاس*

لا تكاد تخلو معظم المهن من مواقف حرجة ، ومفاجآت غير متوقعة ، ولعل مهنة الجراحة أكثرها عرضة لذلك ، فعلى الرغم من التقدم الطبي الذي طرأ في شتى المجالات ، لا سيما التشخيصية منها والعلاجية ، لم نؤت من العلم إلا قليلا ، ولا يزال الإنسان لغزا محيرا .



تبين نتيجة إحصائيات متعددة أن الجراحين يصابون أكثر من غيرهم بأمراض الشدة (STRESS) ، كارتفاع التوتر الشرياني ، والآفات القلبية الاكليلية ، بالإضافة إلى ضعف الحواس المبكر ، خاصة بالنسبة لبعض الاختصاصات ، كجراحة القلب ، والأوعية الدموية ، وبعض الجراحات الدقيقة والنادرة التي تستغرق ساعات طويلة من العمل الدقيق المتواصل ، يعيشها الجراح بكل ما أوتي من حواس وتفكير . يذكرني هذا باستاذ بريطاني في جراحة القلب عند الأطفال ، انتدب كرئيس لهذا القسم في مستشفى أطفال جامعي ، فلم تمض فترة لا تزيد عن أشهر معدودة ، كانت مليئة بالجد والنشاط حتى أصيب بنوبة احتشاء قلبي ، أودت بحياته خلال دقائق معدودة ، ودون سابق إنذار .

مقولة أولى

ـ لا يغني حذر من قدر : أكثر ما يتخوف الجراح منه معالجة المقربين إليه ، من أقارب وأصدقاء خشية حدوث ما يسمى بتناذر (مرض) التوصية ، كالاختلاطات الجراحية ومفاجآت غير متوقعة ، على الرغم من الاهتمام والعناية الزائدين ، كما حدث لابن أستاذ في جراحة الأطفال ، أصيب بالتهاب حاد في الزائدة الدودية ، فأدخله والده المستشفى ، وبعد أن أثبتت التحاليل المخبرية التشخيص ، أصر على إجراء العملية بنفسه على الرغم من اعتراض زملائه على ذلك ، فاستأصل الزائدة الملتهبة ، ولكن القدر كان بالمرصاد ، إذ حدثت بعد ذلك اختلاطات ، لم تكن في الحسبان توفي الابن على أثرها .

ـ في العجلة الندامة : من الأمور التي يقيّم الناس بواسطتها الجراح في وطننا العربي سرعته في إنجاز العمليات بأقصر مدة ، وبغض النظر عن عامل

* طبيب وكاتب من القطر العربي السوري

الإتقان والعواقب التي قد تنجم عن هذه السرعة . أذكر حينما كنت طالبا أتدرب في إحدى المستشفيات ، أني لمحت ساعة رملية في غرفة العمليات ، فسألت عن سبب وجودها ، فقيل : إنها تخص أحد الجراحين ، يستعملها حين إجراء عملية استئصال المرارة ، ومدتها ٢٠ دقيقة ، يجب أن تكون العملية منتهية خلالها ، فاستغربت ذلك ، وشاء القدر أن أساعد في تخدير مريضة لهذا الجراح عمرها قرابة خمسين عاما ، بدينة ومصابة بحصيات مرارية ، إضافة إلى ارتفاع التوتر الشرياني والداء السكري ، وما إن أذنا له بالبدء ، حتى بدأت الساعة الرملية عدها التنازلي ، وبشرطة مبضع واحدة ، أصبح البطن مفتوحا ، على الرغم من سماكة طبقات الشحم ، وأصيبت المريضة بصدمة جراحية صاعقة ، وأصبح الضغط الشرياني منخفضا جدا ، والنبض خيطيا متسرعا ، فنفرنا خفافا وثقالا ، كي ننقذ حياتها من المصير المحتوم ، واستغرق اسعافها حوالي الساعة ، حتى عادت الأمور نسبياً إلى نصابها ، وتابع الجراح عمله بتؤدة وحذر ، لكن دون الاستعانة بالساعة الرملية المشؤومة .

ـ في التأني السلامة : على النقيض تماماً من الحادثة السابقة شهدت عدة مواقف ، مع أستاذ في الجراحة البولية عند الأطفال ، كان حين إجرائه لعمليات دقيقة وصعبة ، يستأذن ـ عندما يشعر بالإجهاد الفكري والجسمي ـ بضع دقائق ، يذهب خلالها لشرب فنجان من القهوة ، ثم يعود مبتسما ، بعد أن استعاد نشاطه ليكمل ما بدأه ، وكأنه فنان يرسم لوحة زيتية .

مقولة ثانية

ـ لا يوجد مرضٌ بل هناك مرضى : مقولة طالما ترددت على مسامعنا ، أثناء دراستنا للطب ، ولم تعها آذاننا جيدا ، إلا حينما أصبحنا في موقع المسؤولية . وفي مستشفى للأطفال (ببريطانيا) أدخل طفل عمره حوالي ٥ سنوات ، بتشخيص التهاب حاد في الزائدة الدودية . فحصه رئيس قسم الجراحة بنفسه ، مع الجراح المناوب ، وطلب منه استئصال الزائدة بسرعة ، قبل بدء جلسة أسبوعية ، تناقش خلالها أهم الحالات الجراحية ، المشاهدة في القسم . بدأ الاجتماع وانتهى ، ولم يظهر الجراح المناوب ، فذهب الرئيس إلى غرفة العمليات يتفقده ، واتضح أن الطفل مصاب فعلا بالتهاب الزائدة ، مع سوء دوران خلقي في الأمعاء (تكون الزائدة بمثل هذه الحالات في الأيسر بدلا من الأيمن) ، وإذا لم يختلط هذا بانفتال الأمعاء ، يبقى كامنا ولا يكتشف إلا صدفة ، وعندما لم يجد الجراح الزائدة من خلال جرح صغير أيمن البطن ، اضطر إلى توسيعه للجهة اليسرى . واستغرقت العملية حوالي ساعة ونيف .

ـ السيف أصدق إنباء من الكتب : لا ريب أن الجراحة تقطع الشك



باليقين ، وتكشف ما قد تخفى معرفته سريريا ، على الرغم من استخدام الوسائل التشخيصية المتوافرة لدينا ، وبخاصة في بعض الحالات النادرة ، التي قد لا يراها الجراح ، إلا مرة واحدة خلال ممارسته . منها حالة فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها ، تشكو من تقيؤات مع آلام بطنية ونحول . أدخلت المستشفى لوجود ورم كبير في معدتها ، ظهر بالأشعة مالئاً النصف السفلي من المعدة ، ولا يسمح إلا بمرور جزء بسيط من المادة الظليلة إلى الاثنى عشر ، ووجد جراحيا أنه عبارة عن كتلة ضخمة من الشعر المختلط بألياف نباتية ، ومواد أخرى ، كأنه قالب داخل المعدة وقد استخرج كاملا .تعرف الحالة باسم (كرة الشعر) (BEZOAR) ، وأكثر ما تشاهد عند الإناث (دون سن ٣٠) اللواتي يمضغن شعرهن ، أو نتيجة ابتلاع أجسام غريبة أخرى باستمرار كمضغ اللبان أو أعشاب نباتية معينة ، فتتألف الكرة منها على مدى سنين عديدة . ولله في خلقه شؤ ون .

ـ الجراح جرحه كبير : مثل في الجراحة قد لا يتقبله كثير من الناس ، إلا أن مصداقيته ثابتة بشكل عام ، ويجب ألا تقاس مهارة الجراح بقصر جرح مبضعه ، بل بإتقانه عمله ، والنتائج المرجوة منه ، إذ درجت فترة من الزمن ، « موضة » استئصال الزائدة ، عبر جرح لا يتجاوز عرض الأصبع ، وما أن ظهرت سلبياتها حتى اندثرت . يذكرني ذلك بطفلة عمرها ٦ سنوات مصابة بفتق فخذي أيمن (يندر حدوثه في سن كهذه) ، قام جراح بريطاني شاب (حديث الممارسة في جراحة الأطفال) بإجراء العملية لها عبر جرح لم يتجاوز طوله سنتيمترين وأثناء محاولته التقاط كيس الفتق أصاب الوريد الفخذي إصابة بليغة ، مما اضطره للاستنجاد برئيس القسم ، فحضر خلال لحظات وبكل هدوء قال مبتسما : لا عليك هذه المرة ، لو كان الجرح أكبر لما حدث ذلك . وأول خطوة قام بها هي توسيع الجرح ، وخياطة جدار الوريد المصاب . الأنسب ألا يكون هناك إفراط ولا تفريط فخير الأمور الوسط .

ـ الكلمة الطيبة صدقة : إن كسب الطبيب ثقة ومحبة مريضه يعد ركيزة أساسية في الممارسة الطبية ، لها كبير الأثر في سير المعالجة ، وقناعة المريض بنتائجها ، وتعد فناً قائماً بحد ذاته ، باطنه الصدق والصراحة ، وظاهره الرحمة وحسن المعاملة ، مراجعه في الصدور لا في السطور . يذكرني هذا بجراح أطفال اسكتلندي ، عجبت منه ، يكتب بالأحمر بضع كلمات ، على هوامش سجلات أغلب مراجعيه . قال ذات مرة لطفلة تراجعه خائفة : أين معطفك الأحمر الجميل الذي كنت ترتدينه في المرة السابقة ؟ وكيف حال عروستك الحسناء سندريلا ؟ فانفرجت أساريرها عن بسمة صادقة ، بددت مخاوفها ، ثم استلقت وحدها على طاولة الكشف ، وعرفت حينئذ سر هذه الكلمات الحمراء ، إنها بمثابة البلسم الشافي الذي يحتاجه المريض أكثر من العلاج ، وصدق من قال : من صلحت سريرته وطابت كلمته وجبت محبته . □



الخصائص الذاتية للثقافة الإسلامية

الدكتور : محمد فاروق النبهان

من ملامح الثقافة العربية المعاصرة ، ذلك البحث الدائب عن منابعها ومكوناتها ، ولأن الإسلام من أهم مكوناتها ، فقد نال اهتماما كبيرا في البحث عن خصائصه الثقافية ومصادرها ، وهذه مقارنة تؤكد على تميز الثقافة الإسلامية باحترام العقل البشري ، وحضه على الإبداع والاجتهاد .

تعد الثقافة العامل الأهم في تكوين خصائص الشعوب ، لأنها تمثل الرؤية الفكرية والواقعية لتلك الشعوب ، فالثقافة هي مجموع المعارف التي تسهم في تكوين الفرد ، وعندما يحاول ذلك الفرد أن يختار لنفسه موقفا فكريا أو سلوكيا فإنما يختاره من خلال ما تركته ثقافته في نفسه من آثار وملامح وتصورات ، ومن الصعب أن نفصل الفرد عن ثقافته ، فثقافته هي المصدر الأهم لفكره ، فإذا كانت تلك الثقافة إنسانية الملامح أخلاقية الاختيارات كان الفكر وليد ذلك الاتجاه .

وتختلف الشعوب باختلاف ثقافاتها ، فالشعوب التي تملك ثقافة متميزة يكون فكرها منسجما مع تلك الثقافة ، معبرا عن قيمها ، مجسدا طبيعة تلك الثقافة ، ولا فكر لأمة لا تملك ثقافة متميزة ، فإن افتقدت الأمة ثقافتها المتميزة كان فكرها متناقضا ، لأنه يمثل ثقافات خارجية ليست منسجمة ، ولابد في هذه الظاهرة من أن يؤدي تعدد الثقافات إلى تكوين أمة ليست متماسكة ، وسرعان ما تتفتت وحدتها عند أول مواجهة مع خطر خارجي ، سواء كان هذا الخطر ثقافيا أو سياسيا .

العقل أداة الإبداع

وفي هذا المجال لا نستطيع أن ننكر أن الثقافات المتعددة قد تولد إمكانات الإبداع ، لأن

النموذج الثقافي الأمثل ليس موجودا ، ويحاول الفرد أن يبحث عنه من خلال نماذج خارجية كثيرة ، يحاول أن يصوغ منها موقفا فكريا جديدا ، إلا أن هذا الموقف الفكري قد لا يكون منسجما مع الموقف الفكري العام للأمة .

والإبداع مطلب ملح وشرط ضروري للنهضة ، لأنه أداة التطوير والتجديد ، ولا انتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى إلا عن طريق الإبداع ، فالإبداع هو الموقف أو التصور الذي يتجاوز الواقع ويلغيه ، وهو ظاهرة محمودة ومفيدة ، ويعبر عن قدرات عقلية متفوقة ، إلا أن خطورة الإبداع قد تكون في بعض الأحيان ناتجة عن فوضى فكرية تسهم في إرباك النظام الاجتماعي الذي اسهمت البشرية في صياغة معالمه .

والإبداع الذي ينطلق من ثقافة راسخة عميقة منسجمة ، لا يمكن إلا أن يكون إبداعا حقيقيا ومفيدا ، والبشرية بحاجة إلى هذا النوع من الإبداع لكي تتمكن به من تجديد فكرها وذاتها ، أما الإبداع الذي لا ينطلق من ثقافة منسجمة فمن الصعب الحكم عليه سريعا ، فقد يكون مفيدا ، وغالبا يكون ناتجا عن عدم قدرة على تحديد ملامح الاختيارات الفكرية .

ويجب أن نتفق في البداية على الثقة بالعقل البشري ، لأنه أداة التكليف ، وهو يمثل الخاصية الإنسانية ، فالانسان يتميز بعقله ، فالعقل هو المخاطب وهو المسؤول ، والفكر لا يمكن أن يجد مستقرا له في الجسد الإنساني إلا في الساحة العقلية ، حيث تتفاعل القوى الإنسانية القادرة على التمييز والفهم ولا يمكن الاطمئنان إلى أي ثقافة لا تؤمن بالعقل ولا تستمد رؤيتها من القدرات العقلية ، لأن القوى الإنسانية الأخرى لا تملك قدرات على التمييز ، وما يراه العقل لا يقبل الخطأ ، لأن العقل صادق في تعبيره عن اختياراته ، ومن هنا نستطيع القول بأن الحقيقة ليست واحدة ، لأن العقول متفاوتة ، وهذا التفاوت يمنع من وجود حقيقة عقلية واحدة ، فإذا تعددت الحقائق العقلية فلا يمكن الحكم ببطلان البعض إلا بمعيار عقلي ، والمعايير العقلية متباينة .

ومن هنا كان الحكم واضحا بتشجيع الاجتهاد ، والمجتهد مأجور في جميع الأحوال في حالات الخطأ والصواب ، والمقلد آثم في جميع الأحوال لأنه ألغى أداة التكليف ، وجمد العقل عن أداء مهمته في التعريف والبيان ، ولا حجة لمقلد في التقليد ما لم يكن في مرحلة العجز عن استعمال العقل .

مصادر الثقافة الإسلامية

تعتمد الثقافة على مصدرين أساسيين :

المصدر الأول : النص ، ومهمة النص وضع إطار عام للثقافة لكي تكون منسجمة في أحكامها ، محكمة في مواقفها ، سديدة في اختباراتها ، إنسانية في ملامحها ، تسعى نحو خير الإنسان ، وتسهم في إسعاده ، وتعبد له طريقه لكيلا يضل ولا يطغى ، وتعرفه بنفسه وبمن حوله في الكون ، وتحدد له موقفه لكي يجد مبررا لوجوده ومعنى لحياته .

والنص إطار عام للحركة الإنسانية ، فلا حرية خارج نطاق النص ، لأن العقل البشري جزء من الكون ، ولا يمكنه أن يحيط بالكون ، فإن تجاوز النص وتحداه تجاوز حدود قدراته ومدركاته ، ولابد له في هذه الحالة من أن يخطىء طريقه ، وهذا ما نجده في معظم الفلسفات العقلية المادية التي حكّمت العقل المجرد ، فضلت الطريق ، وتناقضت ، وتناثرت أشلاؤها، لأنها بحثت عن الحقيقة ، والحقيقة لا يمكن للعقول المجردة أن تدركها ، لأنها جزء منها .

والنص إطار عام ولا يؤدي مهمته إلا عن طريق العقل أو الانسان ، فالنص خطاب ، وكل خطاب لابد له من مخاطب ، والمخاطب هو

العقل ، فإذا انتفى العقل توقف الخطاب بالنسبة لذلك الانسان ، لأنه غير مكلف ، ويوجه الخطاب لأصحاب العقول ، فهم مؤهلون لفهم الخطاب وتفسيره .

والذين أنكروا دور العقل ، أنكروا في الوقت نفسه خصائص النص ، ومن أهم خصائص النص أنه خطاب تشريعي ، ولابد فيه من مخاطب ، ولا تتوقف مهمة المخاطب عند حدود السماع المادي ، فالمجانين يسمعون الخطاب والأطفال يسمعون الخطاب أيضا ، ومع ذلك فلا يعد أي فهم في موطن التكليف لانتفاء القدرة على الفهم ، وهو شرط ضروري لا ينفصل عن الخطاب الشرعي .

ويتجدد الخطاب بتجدد المخاطب ، ولا يمكن للنص أن يقرأ مرة واحدة ، ففي كل قراءة يتجدد الخطاب ، ويملك المخاطب حق التفسير ، ومن هنا يتعدد التفسير وتتباين مواقف المفسرين ، لأن كل فرد منهم مخاطب ، وهو كامل الأهلية للفهم والتفسير ، ولا يملك مفسر أي حق بأن يدعى لنفسه حقا متميزا ينفرد به عن الآخرين ، فان ادعى مفسر لنفسه حق التفسير دون غيره فقد سلب حق غيره ، وحكم على النص بالجمود والتوقف ، وهو أمر لا يقبل به أحد .

وينقسم علماء النصوص إلى فريقين ، كل فريق يمارس مسئوليته في خدمة النص ، فالفريق الأول تنحصر مهمته في توثيق النص ، والحكم بصحته ، ومهمة هؤلاء جسيمة وخطيرة ، وقد أتقن علماء الإسلام فن التوثيق والضبط ، وأبدعوا في هذا الفن ، وضبطوا قواعده وأصوله ، واستطاعوا أن يقدموا للثقافة الاسلامية خدمة كبيرة ، لأنهم تصدوا بشجاعة وصبر وإيمان لظاهرة خطيرة انتشرت بعد الفتوحات الإسلامية وهي ظاهرة الوضع في الحديث ، وكانت هناك أسباب عديدة شجعت هذه الظاهرة ، في محاولة جادة لاستخدام النص لخدمة أغراض سياسية ، وبسبب التركيز على السنة النبوية أن القرآن الكريم حظي في وقت مبكر بعناية الخلفاء الأولين ، فجمعت نصوصه ، وأحكمت آياته ، وضبطت سوره ، بطريقة جعلته في موقع آمن من أي محاولة للتشكيك فيه أو تغييره

ولم تحظ السنة النبوية بعناية توثيقية مماثلة في القرن الأول الهجري ، على الرغم من ثبوت وجود مدونات مكتوبة لدى بعض الصحابة ، وتأخر التدوين الرسمي إلى بداية القرن الثاني ، واستطاع علماء الحديث أن يضعوا ضوابط دقيقة وأبدعوا علوما اعتبرت معايير ضرورية للرواية ، وبلغت هذه العلوم الذروة في الإتقان والتوثيق .

أما الفريق الثاني من علماء النصوص فيشمل اولئك العلماء الذين تصدوا لتفسير النص ، وبيان أحكامه ودلالاته ، وهؤلاء هم أهل التفسير ، وفقهاء التفسير ، وكلمة التفسير أعم من معنى التفسير القرآني ، فالتفسير يشمل كل جهد في سبيل استنباط حكم من النصوص ، سواء كان النص قرآنا أو سنة .

ومن اليسير علينا أن نجد كتبا كثيرة في التفسير والتوضيح ، وحفلت خزاناتنا العلمية بتراث غني من كتب التفسير والحديث ، وكل ذلك يهدف إلى التعريف بالنص التشريعي وتوفير أسباب معرفة معانيه ودلالاته .

المصدر الثاني : العقل ، والعقل هو أداة فهم النص ، فإذا توقف العقل عن أداء مهمته جمد النص ولم يعط عطاءه ، كالبئر التي حفلت بالماء ، لابد لها من أن يستخرج الماء من أعماقها ، فإن توقف نضح الماء ركدت ماء البئر ، والنص يتجدد بالتفسير ، والتفسير أداته الإنسان ، والإنسان وليد البيئة ، والبيئات هي المجتمع ، ومن هنا تبرز العلاقة قوية بين النص والحياة ، وبين النص والإنسان ، ولا مجال للجمود لارتباط النص بأداة التفسير وهو الإنسان ، والإنسان متجدد ، لأن الخطاب الشرعي موجه للأحياء ، فإذا توقفت الحياة توقف الخطاب بالنسبة

للأموات ، لانتهاء التكليف ، واستمر الخطاب موجها نحو جيل جديد دفعته الأيام لكي يكون جيل الأمانة يحمل عبء الدفاع عن قضايا الإنسان .

والجيل الذي لا يؤدي رسالته في فهم النص وتفسيره ، يرفض الأمانة ولا خير في جيل لا يجد في نفسه الكفاءة لتحمل المسؤولية ، ولا يمكن الاحتجاج بتفاوت كفاءات الأجيال ، فالأجيال متساوية في قدراتها ، إلا أنها قد تكون متفاوتة في طاقاتها .

خصائص ذاتية

وتتميز الثقافة الإسلامية بخصائص ذاتية تجعل منها ثقافة متجددة حية ذات طبيعة إنسانية ، تؤمن بالإنسان ، وتتفاعل مع حاجاته وقضاياه ، وترتقي بميوله واستعداداته ، لكي تكون في مستوى التميز الإنساني عن سائر المخلوقات . ويمكننا أن نلخص هذه الخصائص بما يلي :

أولا : احترام المصالح الإجتماعية : لا يمكن للثقافة الإسلامية أن تكون مغايرة لقضايا الإنسان متجاهلة مصالحه ومطامحه ، مجسدة همومه وآلامه ، وأشار إلى هذه الحقيقة عدد من علماء أصول الفقه « كالشاطبي » في كتابه « الموافقات » حيث ربط الحكم الشرعي بالمصلحة ، وحيثها تكون المصلحة يكون شرع الله ، لأن الشرع غايته حماية مصالح اجتماعية ومطاردة مظالم وتجاوزات يباشرها الأقوياء ، معتمدين في ذلك على ما يملكون من بسطة المال وقوة السلطة ، ولا يعترف الشرع بأي قوة تتحدى مبادىء العدالة ، ولا تراعي حقوق الضعفاء ، والشرع جاء لحماية الضعفاء لأن الأقوياء يحتمون بمظلة القوة ويضربون خصومهم بقبضتها القاتلة ، فإذا استظل الأقوياء بمظلة الدين حماية لظلم وتبريرا لتجاوز ، فإن الدين لا يمكن له أن يعترف بشرعية الظلم أو أن يحمي الذين يتحدون مبادئه وقيمه وأحكامه .

ثانيا : احترام العقل البشري : وهذه الخاصة مدركة من خلال الاعتراف بدور العقل في تفسير النصوص النقلية ، ولا يمكن لنص نقلي أن يتجاهل دور العقل في استنباط الحكم ، لأن الدليل يخاطب المكلف ، ومن أهم شروط التكليف العقل ، والبلوغ مظنة للتكامل العقلي ولذلك ارتبط التكليف به ، فإذا ثبت أن البالغ لم يثبت رشده العقلي بسبب جنون أو خلل عقلي توقف التكليف ، لانتفاء شرط أساسي من شروط التكليف .

والمصادر العقلية مكملة للمصادر النقلية ، ويحتكم إليها في فهم النصوص النقلية وفي الحكم بقطعية ثبوتها ، وفي فهم أوجه دلالاتها ، والعقول البشرية متفاوتة في قدراتها وفي مكوناتها ، فما يراه مجتهد في عصر قد لا يراه آخر في عصر لاحق أو سابق ، وما يرتضيه فقيه في بلد قد لا يرتضيه آخر في بلد قريب أو بعيد ، لأن رؤية الإنسان للأشياء متفاوتة ، وليست واحدة ، ولو تحقق التماثل في الرأي والاجتهاد لانتفت التعددية ، ولحكمنا على العقول بالجمود والتوقف ، وهذا مناف لمفهوم الإعجاز في تنوع المخلوقات وفي اختلاف خصائصها وملامحها وتوجهاتها .

والثقافة التي لا تحترم العقل البشري محكوم عليها بالتوقف والتراجع والجمود ، لأن العقل هو أداة النماء والمواكبة والإثراء ، ولا يمكن للعقل البشري أن يكون في موطن التجاهل ، لأن الثقافة التي تتجاهل العقل من اليسير أن يتجاوزها وأن يتنكر لها ، لأن العقل هو الأداة التي تربط العلاقة بين الإنسان والخطاب التكليفي ، وكلمة الخطاب توجب أن يكون هناك مخاطَب ومُخاطِب ، والمخاطَب هو العقل ، فإذا وصف العقل بالعجز انتفت الفائدة من توجيه الخطاب إليه .

ثالثا : تنمية إنسانية الانسان : وهذه خاصة

تجعل الثقافات متفاوتة في مكانتها وفي أهميتها ، فالثقافات الإقليمية والقومية والجغرافية الضيقة لا تستطيع أن تسهم في تعميق القيم الإنسانية لأنها تجعل معايير التفاضل بين البشر معايير قائمة على أساس المصالح والانتماءات ، وهذه المعايير تعمق جذور التناقض والتصادم والتنازع ، فالقوميات متناقضة في مصالحها ، والصراع القومي هو نتاج ضعف التوجهات الإنسانية ولابد للثقافة من أن تكون أداة للتلاحم والتكافل ، لكي يستقيم أمر البشرية ،ويتعاون أقصاهم مع أدناهم في سبيل بشرية متميزة بخصائصها الإنسانية ، ولا يفضل بعضهم على بعض بانتماء ضيق أو بخصائص عرقية أو تاريخية .

تحريم الظلم

ومن أهم خصائص الثقافة الإسلامية أنها أقامت العلاقة بين الإنسان والإنسان على أساس التفاضل في الخير وخدمة الإنسان ، فالتقوى هي الالتزام بقيم الإسلام التي تحرم الظلم والاعتداء على الآخرين والأنانية البغيضة ، وأهل التقوى هم الأفضل عند الله وهم الأكرم .

ومن اليسير على أي متتبع لملامح الثقافة الاسلامية أن يكتشف وجهها الإنساني في دعم قيم الخير في المجتمع ، وفي تغذية قيم إنسانية لكي تكون أساسا للتفاضل والتمايز،فما كان مناقضا لهذا التوجه الإنساني ومصادما للقيم الإنسانية فليس من الإسلام في شيء ، ولا يمكن أن يكون واضح الانتماء إلى ثقافة الإسلام .

والمراحل التاريخية التي طفت فيها على السطح موجات فكرية أو توجهات ثقافية ضيقة ، سواء كانت إقليمية أو قومية أو طائفية أو لغوية ، لا يمكن اعتبارها مراحل مضيئة في التاريخ الإسلامي ، ولو أضيئت في ساحاتها مشاعل من النور ، لأن الإسلام ينمو بفكره وبثقافته وبقيمه ، فإذا انطفأت مشاعله الإنسانية التي تمثل سمو رسالته وعظمة مواقفه فلا يمكن لثقافة القوة والأنانية والعدوان أن تنير القلوب التي آمنت بقدسية الإنسان ، وتعاطفت مع قضاياه لكي تكون الأرض موطنا آمنا لكل البشر ، يجدون في رحابها الأمن والأمان .

ومن أهم ما تعنيه تنمية إنسانية الإنسان أن يكون الظلم الاجتماعي في موطن الإدانة ، لا يتردد أحد في مطاردة رموزه ، وفي التعاطف مع ضحاياه لأن الظلم تجاوز ، والتجاوز قوة ، فإذا تعاطف البشر مع الضعفاء أصبحوا أقوياء ، والقوي بأهله وبعشيرته وبالمتعاطفين معه قادر على أن يدافع عن حقه ، وعندئذ يتناصر البشر ويتعاونون في سبيل إنسانية راقية متميزة ، يسعى بعضهم في نصرة بعض ، ومن غير تعصب أو تجاوز .

تلك هي ثقافة الإسلام . . ثقافة جيل يبحث عن نفسه ، وثقافة إنسانية ضلت طريقها ، ولن تجد ذلك الطريق إلا عندما تدرك أن الثقافة التي لا تسعى في إسعاد الانسان وفي سمو نفسه لا يمكن أن تكون ثقافة حضارة ، فالحضارة الحقة تغذي ثقافة الإنسان لكي يقترب من إنسانيته ، ولكي يسعى في إسعاد البشر جميعا . □

ما هكذا علمنا :

● عطس رجل كان يجلس الى جوار عبدالله بن عمر فقال: «الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، فقال عبدالله: الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله ما هكذا علمنا رسول الله أن نقول إذا عطسنا، بل علمنا أن نقول: الحمدلله رب العالمين» .

واحة العربي



حاجة

قال رجل لشامة : لي إليك حاجة .

فقال : ولي إليك حاجة أيضا .

قال : وما حاجتك ؟

فقال : ألا تسألني هذه الحاجة .

□□□

□ في الصميم :



- إذا كنت تخشى الوحدة فلا تتزوج .

تشيكوف

- تقلق المرأة على المستقبل حتى تجد زوجا ، ولا يقلق الرجل على المستقبل إلا بعد أن يجد زوجة .

برناردشو

- في الزواج ليس هناك سوى يومين جميلين ، يوم دخول القفص ويوم الخروج منه .

موريس دوساكس

□ يا للخسارة :

دخلت سيدة محلا لبيع الأشياء القديمة ، وأشارت إلى ساعة ، وسألت البائع : أليست هذه الساعة مصنوعة في القرن التاسع عشر ؟

فأجابها البائع : بصراحة ، لا أريد أن أخدعك ، فهي مصنوعة عام ١٩٥٠

فقالت : يا للخسارة ، فقد كانت جميلة جدا .

□□□

□ مرض الأطفال :

دعي أحد أطباء الأطفال إلى مأدبة عشاء ، فالتفت حوله الأمهات من المدعوات ، ورحن يضايقنه بالأسئلة الخاصة بصحة أطفالهن . وعندما سألته إحداهن عن المرض الرئيسي للأطفال ، أجاب في عصبية : الأمهات .

من القلب :

قصة مليونير

روى مليونير أمريكي لعماله كيف جمع ثروته ، فقال : عندما بدأت العمل كنت فقيرا معدما ، ليس في جيبي سوى دولار واحد ، فاشتريت خمس تفاحات عملت على تنظيفها مع زوجتي ، حتى اشتد لمعانها ، وبعناها بدولارين ، واشتريت بهما عشر تفاحات ، قمنا بتلميعها حتى أصبحت كالمرايا ، وبعناها بأربعة دولارات ، واشترينا بها عشرين تفاحة ، فعلنا بها كما فعلنا بسابقاتها ، وبعناها بثمانية دولارات ، وفي تلك الأثناء توفي عمي جون تاركا لي ثلاثين مليون دولار .

قبل وبعد :

قبل الزواج يكون المرء محترقا
على التي بهواها قلبه علقا
تراه ينفق أموالا قضى زمنا
من الجبين عليها يسكب العرقا
ويهجر الأهل والأصحاب أجمعهم
لكي يكون بها في الحب ملتصقا
لو أنها سألته حاجة لجرى
كالسيل مندفقا والسهم منطلقا
يشري لها كل ما تهواه من تحف
يشري الأساور والأطواق والحلقا
حتى إذا وهبته قلبها فغدا
زوجا لها وعلى صدق الولا اتفقا
قلت محبته للحال وانقلبت
بغضا ولم يبق من ذكر لما سبقا
أقل حادثة منها تهيجه
حتى إذا عارضت قولا له حنقا
يغيب عن بيته ليلا فيتركها
وحيدة فتقاسي وحدة وشقا
حتى إذا سألته أين كان أبَى
رد الجواب عليها والعصا امتشقا





العمامة

استوقف رجل عامي الشيخ عبد العزيز البشري ، ليقرأ له خطابا ، فوجده طويلا ، فقال له : إنني لا أعرف القراءة ، فتعجب العامي ، وقال له : كيف ذلك وأنت تلبس هذه العمامة الكبيرة ؟

فأمسك البشري عمامته ووضعها على رأس الرجل وقال له :

- البس أنت العمامة واقرأه .

□□□

احتياط

عاد رجل مريضا ، فلما خرج قال لأهله : أحسن الله عزاءكم . فقالوا : إنه لم يمت . قال : قد عرفت ، ولكنني شيخ كبير لا أستطيع النهوض في كل وقت ، وأخاف أن يموت فأعجز عن المجيء لأعزيكم به .

أرقام

بقلم : محمود المراغي

تشخيص خارجي

هذه مقارنة تاريخية ذات معنى ، مقارنة تحكي : أين كنا وأين أصبحنا كعالم ثالث ، أو كدول نامية ، اشتد عودها خلال الثلاثين عاما الماضية بفعل الاستقلال أو نمو الموارد وانفجار الآمال ؟

والمقارنة تأتي هذه المرة من الباب الخارجي ، وليس من الأعماق ، فالرقم الذي نتوقف عنده رقم أساسي ، يشرح مكان هذه الدول على خريطة العالم التجارية ، وبالتحديد : نصيبها من صادرات العالم ، وهل يزيد أم ينقص ؟

إنه نوع من التشخيص الخارجي ، لكنه بالغ الأهمية .

ماذا حدث في ربع قرن ؟

تشير أرقام صادرة من «الجات» - الاتفاقية العامة للتجارة والتعرفة الجمركية - أن صادرات العالم عام ١٩٨٧ كانت (٢٤٩٠) مليار دولار ، وذلك مقابل (١٥٤) مليارا فقط عام ١٩٦٣م .

النمو على هذا النحو لا يهمنا كثيرا ، فربما تضمن تضخما لا معنى له ، لكن ما يهمنا هو التطور التاريخي ، والأهمية النسبية لكل مجموعة دولية خلال هذه الفترة التي تمتد نحو ربع قرن .

في عام ١٩٨٧ كان نصيب الدول الصناعية التسع عشرة (٦٩,٩٪) من صادرات العالم ، وكان نصيب الدول النامية التي تربو على المائة دولة (١٩,٧٪) ، أما نصيب الدول الشرقية فقد اقتصر على (١٠,٤٪) .

الدول الصناعية في المقدمة ، ويزيد نصيبها على ثلثي صادرات العالم كله ، لكن المفاجأة أن ذلك النصيب ، على الرغم من تقدم اقتصاديات المناطق الأخرى ، يزيد ولا ينقص ، وعلى حساب المجموعتين : النامية والشرقية .

نصيبنا في ذلك كدول نامية وبالمقارنة مع النفس تراجع خلال الربع قرن بنسبة (٥٪) عما كان عليه الحال في بداية المدة (١٩٦٣م) . وبالمقارنة مع العالم تراجع (١٪) .

لا يعني ذلك موقفا ساكنا ، فربما كان الاحتفاظ بالأهمية النسبية مع تراجع ضئيل مؤشرا إيجابيا لتطور اقتصاديات هذه الدول ، والدليل رقم آخر ، حول تركيب صادرات هذه الدول ، والذي اشتهر دائما بالمواد الأولية .

خلال هذه الفترة حدث تطور أساسي ، فقد تراجع نصيب المواد الأولية من (٨٧٪) من حجم صادرات الدول النامية إلى (٥١٪) من هذه الصادرات ، وتقدمت المنتجات الصناعية من (١١٪) إلى (٤٨٪) .

حدث إذن تطور جوهري في بنية الاقتصاد النامي وتوجهاته ، وأصبح قادرا أن يغذي العالم بصادرات صناعية تقارب نصف كل ما يعطيه .

وهنا تأتي المفاجأة الثانية ، وهي قصة الدول

النامية مع النفط ومواد الطاقة، أو ما تسميه الإحصاءات «المحروقات».

للقد ظلت هذه المجموعة ذات موقع خاص في صادرات الدول النامية، على الرغم من وجود خامات أخرى معدنية ونباتية، ولكن حدث تطور يستوقف النظر، فبعد أن كان نصيب المحروقات في المواد الأولية التي تصدرها الدول النامية (٣٤٪) عام ١٩٦٣، أي نحو الثلث، قفز الرقم إلى (٧٦٪) عام ١٩٨٠، لكنه عاد أدراجه ليقترب من النصف، بعد تراجع أسعار النفط، فلم يعد يزيد على (٥٦٪) عام ١٩٨٦، وبعد أن كانت صادرات مواد الطاقة تزيد وحدها وباستمرار عن صادرات المنتجات الصناعية، زادت قيمة المنتجات الصناعية لأول مرة عن صادرات الطاقة خلال الثمانينيات.

بمزيد من القراءة نجد تطورات أخرى مهمة، فالتقدم لم يكن متساويا، والتخلف أيضا

لقد تراجع نصيب أمريكا الجنوبية وأفريقيا في صادرات العالم إلى نصف ما كان عليه منذ ربع قرن على وجه التقريب، تضاءل نصيبها في التجارة، بينما تضاعف نصيب آسيا الجنوبية والشرقية، وأصبحت تحتل وحدها (١٠٪) من صادرات العالم، مقابل (٤,٥٪) عام ١٩٦٣

السؤال عن الشرق الأوسط الذي يضم الأقطار العربية والنفطية بالأساس، والجواب: لا تقدم يذكر، بل على العكس فقد حدث تراجع. محدود.

بالأرقام كان نصيبنا في صادرات العالم عام (١٩٦٣): (٣,٤٤٪)، فأصبح عام ١٩٧٧: (٣,٤١٪).

الشرق الأوسط على الرغم من طفرة النفط والنمو الصناعي في أجزاء منه ما زالت أهميته النسبية للعالم لم تتغير! صحيح أن استثناءات قد حدثت، فقفزت النسبة إلى ثلاثة أضعافها عام ١٩٨٠، لتسجل (١٠,٦٦٪) لكن ذلك كما يبدو كان مرتبطا بالثورة الثانية في أسعار النفط التي سرعان ما تراجعت.

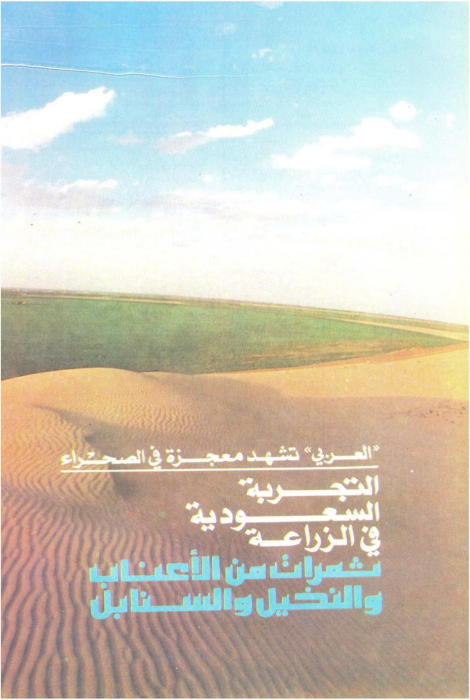
الأرقام على هذا النحو وعلى الرغم من أنها نوع من التشخيص الخارجي لحالة الدول النامية في ربع قرن ذات دلالة مهمة، فالتصدير في النهاية ناتج نهائي لما يستطيع الاقتصاد أن يقدمه، وهو أحد مؤشرات القدرة أو العجز.. الانفتاح على العالم الخارجي والتفاعل معه، أو الانكفاء على الذات، وهو انكفاء يقلل القدرة على التطوير الداخلي وسد حاجات السوق المحلية من السلع والخبرات والتقنية، وربما يكون سببا في الاعتماد على الديون الخارجية لتمويل الواردات.

من الدلالات الرئيسية:

١ - هو ذلك التغير الهيكلي الذي حدث في الصادرات، ويشير بالضرورة لتغير هيكل الاقتصاد نفسه، وتوجه أجزاء كبيرة منه للصناعة. والمثال الأوضح هنا: جنوب وشرق آسيا.

٢ - تراجع الأهمية النسبية لصادرات المواد الأولية مؤشر إيجابي، ويؤكد المقولات السابقة أن الاعتماد على المواد الأولية في الأساس يكرس التخلف، ويزيد الهوة بين الشمال والجنوب، فقد ظلت العلاقة التاريخية أن أسعار المواد الأولية تتراجع قيمتها، وأسعار المواد الصناعية تتقدم، وبما يعني أن إنسان العالم الأول تزيد قيمة عمله ومستوى معيشته أضعاف قيمة عمل إنسان العالم الثالث.

٣ - تبرز في ذلك قصة النفط والشرق الأوسط، وتشير القفزة، ثم الردة، ثم الاستقرار عند أهمية نسبية لم تتغير منذ ربع قرن، إلى أننا بحاجة إلى أن نعي الدرس، فمسيرة البناء الاقتصادي دون المستوى المطلوب □


«العربي» تشهد معجزة في الصحراء
التجربة
السعودية
في الزراعة
ثمرات من الأعناب
والنخيل والسنابل



استطلاع :
أنور الياسين
تصوير :
طالب الحسيني

(فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُم اللهُ حَلالاً طَيِّبًا واشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُون)

صدق الله العظيم سورة النحل (١١٤)

كان كلام الله يتردد في أذني ونحن الأربعة - زميلي المصور وأنا ومرافقنا وسائق السيارة - نسير في الطريق الطويل، (٨٠كم) من الرياض العاصمة إلى منطقة الخرج في جنوب الرياض بالمملكة العربية السعودية، وفجأة انقطع الصمت لأسمع مرافقنا وهو يشرح لي، كيف تغيرت منطقة الخرج في سنوات قليلة، من الواحات المتناثرة التي تفصل بينها أجزاء من الصحراء فأصبحت ذات خضرة ومزروعات، وازدانت بالبساتين والأعناب وسنابل القمح والشعير. قلت في نفسي: «هذه هي نجد، كم قرأت عنها، وعن بطولات رجالها، وعن القيم العربية والاسلامية العظيمة التي تمسّك بها شعبها، لقد تحولت بفضل الله والرعاية الحكيمة إلى منطقة زراعية كبيرة، وتحولت حياة الناس تبعاً لذلك».

قال محدثي وهو يخاطبني: - عندما آكل الخبز الذي أعرف جيدا أنه صنع من القمح السعودي، أو أتناول المعجنات أو منتجات الألبان أو غيرها مما نزرع، ونربي، أشعر بفخر واعتزاز، فنحن لا ننتظر - والحمد لله - رغيف الخبز من أحد، ولا يستطيع أحد ان يوقف شحنات القمح عنا فنجوع في بلادي.

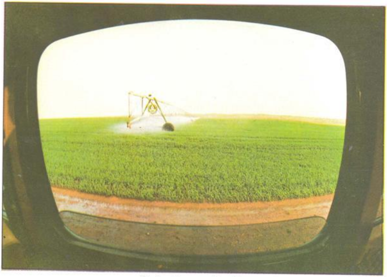
أجاب صوت في داخلي وأنا أراقب هذه الخضرة الممتدة، ورؤوس أشجار النخيل العالية: «ما أعظم أن تفخر بأنك تنتج طعامك بنفسك».

قفزات كبرى في سنوات قصيرة

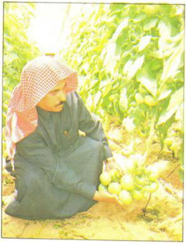
عدت إلى مذكراتي فوجدت شيئا أشبه بالمعجزة، فمنذ سبع سنوات فقط كان كل إنتاج المملكة العربية السعودية من القمح لا يتجاوز ٣٠٠ ألف طن، فقد كانت التجربة في بدايتها الأولى، وفي العام الماضي بلغ إنتاج المملكة من القمح (٣,٤ ملايين)، وبلغت المساحة المزروعة (٢,٣ مليـوني) هكتار، ويغطي إنتاج المملكة من القمح حاجتها للاستهلاك، سواء بشكله المباشر، أو مصنعاً كالدقيق والمعجنات والبسكويت، وأعلاف الحيوانات. تقول مذكرات التقطتها في جولتي الواسعة للبحث في موضوع الزراعة في المملكة العربية السعودية:

إن المملكة توجه جزءا من إجمالي إنتاجها للتصدير، وترتبط بعقود تصدير إلى مناطق واسعة من العالم، مثل الاتحاد السوفيتي، وبعض دول المجموعة الأوربية، بالإضافة إلى أقطار الخليج العربي والأقطار العربية الأخرى.

وتحتل المملكة العربية السعودية اليوم المرتبة السادسة في العالم من حيث إنتاج القمح وتصديره، هذا الأمر الذي يلغي الفكرة التي سادت طويلا على أن الصحراء مرتبطة بالقفر أبدا.



● القمح السعودي على امتداد الأفق .



● زراعة الطماطم في البيوت المحمية .

سلعة سياسية

بجانب القمح استطاعت المملكة العربية السعودية خلال هذا العقد ، أن تحقق الاكتفاء الذاتي في منتجات البيض والألبان والتمور والبطاطا وبعض الأشجار المثمرة .

ولكن أهمية القمح تفوق غيره من المحاصيل ويعد الاقتصاديون أن أهم سلعتين استراتيجيتين في العالم هما : النفط والقمح .. وبعبارة أخرى : الطاقة والغذاء . وقد دخل القمح بذلك ضمن حسابات الدول الكبرى في العالم ، وفي استراتيجياتها كعامل ضغط وتأثير كبير على الدول الصغيرة والكبيرة المحتاجة . هناك دول نامية قليلة استطاعت أن تنجو من سيف «القمح» المسلط ، ووصلت إلى الاكتفاء الذاتي ، من بينها الهند والمملكة العربية السعودية التي زارتها «العربي» .

يمتد حزام القمح في الوطن العربي في الجزائر والمغرب وسوريا والعراق وتونس والمملكة العربية السعودية ومصر ، إلا أن مجموع الإنتاج هذا لا يمثل إلا حوالي ٥٣,٣٪ من إجمالي الاحتياجات الاستهلاكية العربية من الحبوب. ويصل متوسط استهلاك الفرد من القمح في الأقطار العربية إلى ١٣٠,٣ كيلوغراما سنوياً ، كما تقول الإحصائيات ، ويتم تغطية نسبة العجز من القمح ، في أغلب الأوقات باستيراد كميات منه من خارج الوطن العربي ، من سوق عالمية احتكارية ، تتحكم في الأسعار بصورة قوية ، ومن هنا تظهر بوضوح خطورة الفجوة الغذائية في الحبوب بصفة عامة ، وفي القمح بصفة خاصة .



● الخيار السعودي على مدار العام .

استرجعت هذه المعلومات وأنا في طريقي لرؤية منطقة الخرج (في قلب نجد) التي تزخر بمزارع نموذجية لزراعة القمح وتربية الماشية ، والتي تبعد عن الرياض العاصمة بحوالي ١٠٠ كيلومتر جنوبا .

وأشجار النخيل تعانق السماء على امتداد الطريق إلى مزارع «الصافي» التي تقع في وادي السهباء الخصيب ، فالنخلة قد لقيت اهتماماً كبيراً من قبل الإنسان العربي منذ مئات السنين ، فأطلق عليها اسم «أميرة الحقول» ، ثم ارتبط هذا الإنسان بأرضه أكثر ، فاهتم بزراعة القمح إلى جانب النخيل ، وحصد السنبلة إلى جانب حبة التمر .

ومن هنا رأينا أن نحكي قصة الحصاد السعودي من النخلة إلى السنبلة ، قصة حب الإنسان السعودي لأرضه وزراعته وحقله . رأينا أن نستعرض التجربة السعودية فى الزراعة والثروة الحيوانية ، المتمثلة في نجد (أو المنطقة الوسطى حسب التقسيم الجديد) ، حائل والقصيم وتبوك في الشمال ، ولم يكن هناك متسع من الوقت لزيارة منطقة الأحساء أو نجران أو عسير أو وادي الدواسر .

«جزء من كل»

يقول وكيل وزارة الزراعة والمياه لشئون الأبحاث والتنمية الزراعية ، الأستاذ عبدالعزيز المدبل : «لقد وضعت السياسة الزراعية للمملكة للنهوض بالقطاع الزراعي في مجالاته المختلفة ، وتهدف هذه السياسة لزيادة الإنتاج الزراعي والحيواني ، ورفع مستوييها باستغلال الموارد الطبيعية للأرض ، من ماء وتربة ، استغلالاً علمياً ، يوفر للمواطنين أكبر قسط ممكن من المنتجات الزراعية ، ويصون تلك الموارد ، ويحافظ عليها ، ويحميها من الاستنزاف ، وتهدف السياسة الزراعية كذلك إلى تحقيق التنمية الزراعية والاجتماعية في المناطق الريفية ،



● خريطة تبين رحلة بعثة مجلة « العربي » .

لتواكب التنمية في مناطق الحضر ، بالإضافة إلى تشجيع القطاع الخاص على الاستثمار في مجال الإنتاج الزراعي والحيواني » .

ويمضي الوكيل قائلا : لقد قسمت السياسة الزراعية بالمملكة إلى عدة سياسات زراعية ، تختص كل منها بناحية معينة ، الهدف منها إنجاح خطط التنمية التي وضعتها الوزارة نصب عينها ، والتي تخدم في النهاية الإنسان العربي السعودي في مسيرته الحضارية ، وتحقق السياسة الزراعية الشاملة للمملكة ، وهي :

- السياسة المرتبطة بالموارد الأرضية ، وطرق الحيازة ، والموارد المائية .
- السياسة المرتبطة بتنمية القوى البشرية والتدريب .
- سياسة التركيب المحصولي وتنوع المنتجات .
- سياسة التمويل الزراعي ، والتسعيرة الموحدة ، ودعم المنتجات .
- السياسة التشجيعية لزراعة القمح .
- السياسة المرتبطة بالتقنية الحديثة .

وهذه السياسة تراجع بين فترة وأخرى ، وفق الظروف والاحتياجات ، وقد بدأنا مؤخراً بإعادة النظر في سعر شراء القمح من المزارعين ، وكما تلاحظ فإن المزارعين في المملكة هم من جميع فئات المجتمع وطبقاته ، فهناك رجال أعمال ، ومسؤولون في أجهزة الدولة ، ومهندسون ، والجميع يزرعون ، وقد دخلوا التجربة ضمن مبادرات ذاتية ، وبتشجيع ودعم من الدولة .

القمح إلى جانب الحليب

للتعرف على الوضع الزراعي قررنا أن نقوم بجولة ميدانية على الطبيعة ، فقمنا بزيارة إحدى المزارع النموذجية ، وهي مزرعة الشركة العربية السعودية للزراعة وإنتاج الألبان . يستوقفك أمام مدخل المزرعة حاجز أمني ، لابد أن تجتازه بالمرور على بركة مياه ، تتم فيها عملية تعقيم



● طريقة الرش المحوري في حقول القمح .

للسيارة المقلة لنا ، فكل شيء قد أخذ بعين الاعتبار ، لا تترك فرصة كي تدخل إلى المشروع أي آفات أو ميكروبات ، ربما تقضي على الإنتاج . يقول لنا الاستاذ غازي جليدان ، المدير التجاري : إن الدولة من إيمانها وقناعتها التامة بأهمية الزراعة لتأمين الحاجات الغذائية قد استخدمت طرقا عديدة لجذب المستثمرين وتنشيط هذا القطاع المهم ، كالإعانات والقروض بدون فائدة ، ومنح الأراضي ، وتوفير الخدمات الفنية المجانية ، مما كان له الأثر الكبير في ربط المزارعين بأراضيهم ، وحفزهم لبذل المزيد من الجهد ، والأهم من كل ذلك استقطاب رؤوس الأموال ورجال الأعمال من قطاعات أخرى للاستثمار في القطاع الزراعي .

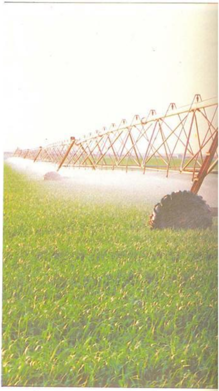
ويضيف المدير : وكما تعلم فإن هناك مجالات كثيرة للاستثمار في هذا القطاع ، أخذنا نحن في الشركة العربية على عاتقنا الدخول في مجال استثمار إنتاج الحليب الطازج ومشتقاته محلياً ، وبأسلوب صحي نظيف ، بدلا من الحليب المستورد بأصنافه المختلفة ، وقد بدأت الشركة

المزرعة مرافق ومستودعات تبريد وتخزين، ومكاتب وسكن، وورش صيانة متكاملة للكهرباء والتكييف والتبريد والمعدات الزراعية والسيارات، وتعتمد المزرعة على قدرتها الذاتية لتطوير قطيع الأبقار لديها.

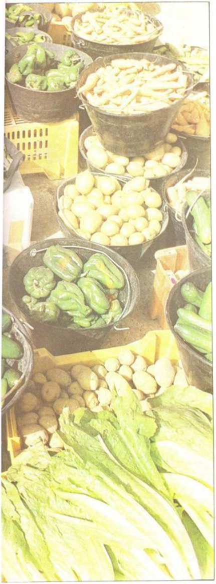
والمشروع نموذجي متكامل، حيث تتم زراعة الأعلاف وتربية الأبقار وحلبها ومعالجة الحليب وتعبئته وتصنيع منتجاته في موقع واحد، علاوة على التسويق.

تركنا مزارع الصافي في طريقنا إلى «مزرعة السالمية» وهي في منطقة الخرج أيضا. يقول طارق السالم، وهو الابن الأصغر لصاحب المزرعة، ويمثل جيلا جديدا من المزارعين السعوديين: بأنه تخرج من كلية الزراعة بجامعة الملك سعود عام ١٩٨٤، ولحبه للزراعة عمل في مزرعة والده، وهو يعيش فيها ويديرها بنفسه. تبلغ مساحتها ألف هكتار، وتزرع قمحاً وبرسيماً، وبها ٢٤ بئر ماء، تعمل عليها أجهزة رش محورية، يقول: إن كلفة الطن ٩٠٠ (ريال سعودي)، ويباع للحكومة بسعر ٢,٠٠٠ (ريال سعودي)، وسعره العالمي ٤٠٠ (ريال سعودي)، (الدولار الامريكي يساوي ٣,٧ ريالات سعودية).

والمزرعة تنتج حوالي ٥٥٠٠ طن سنوياً، لكن الإنتاج أيضا يعتمد على الظروف المناخية، فقد يأتي موسم فيه صقيع وبرد قارس، مما يسبب لنا مشكلة كبيرة. ويضيف قائلا: إن المزرعة تأسست عام ١٩٧٥م، بطرق بدائية، لكن مع بداية عام ١٩٨١م تم إدخال الميكنة، وبدأنا في عام ١٩٨٣ بزراعة ٤٥٠ هكتاراً، أما الآن فنحن نزرع كل المساحة المتاحة. ويكمل لنا المهندس طارق حديثه فيقول: هناك العديد من المشاكل التي تواجه المزارعين، مثل الرمال المتحركة، وبعض الآفات الطبيعية مثل (حشرة المن)، أو بعض الأمراض الفطرية التي تصيب القمح.



نشاطها كمرحلة أولى باستيراد ٣٦٠٠ رأس، من أفضل سلالات الأبقار في العالم، وإنشاء مزرعة على مساحة ٢٥٠٠ هكتار، وكذلك إنشاء مصنع لإنتاج الألبان ومشتقاتها في الموقع نفسه، وبدأ الإنتاج التجاري في عام ١٩٨١م. ووصل هذا العام ٢٥,٠٠٠ رأس من الأبقار، منها ١١,٠٠٠ بقرة حلوب على مدار العام، وزيادة الطاقة الإنتاجية من سبعة ملايين ونصف مليون جالون سنوياً إلى ١٦ مليون جالون (٧٢ مليون لتر) من الحليب، وفي



أما بالنسبة لمساعدة الدولة لمثل هذه المشاريع الخاصة الصغيرة فيقول : إننا حصلنا على قرض من البنك الزراعي لمدة عشر سنوات ، قيمته ١٨ مليون ريال ، بدون فوائد ، كما أن الدولة تتحمل سداد ٥٠٪ من قيمة المعدات هبة مجانية ، إضافة إلى أنها تشتري القمح منا بسعر تشجيعي .

وبصدد إدارة العمل في المزرعة قال : إنني أتخذ جميع القرارات : إعداد التربة ، والسماد ، ومواعيد الري ، ونظامه ، وموعد بدء الزراعة ، ومكانها ، أما بعض المزارع الأخرى فيديرها خبراء أجانب ، ولا تصل مساحتها إلى نصف مساحة مزرعتنا . وقال مبتسما وهو ينظر إلى حقول القمح الممتدة أمامه حيثما اتجه ، وقد أوشك وقت الحصاد أن يحين : سعادة المزارع هي أن يذوق ثمرة عمله .

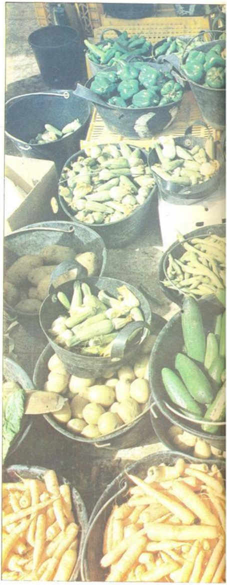
صوامع الغلال رئة المزارعين

تجسيداً للعزم بتحويل النظام الزراعي التقليدي الذي كان سائداً قديماً إلى نظام حديث متطور ، يعتمد على الميكنة الزراعية ، والتوسع في الرقعة المزروعة ، واستخدام وسائل الري الحديثة المتطورة ، وكذلك الاستفادة من الإنتاج بشكل واسع ، فقد أنشأت الدولة المؤسسة العامة لصوامع الغلال ومطاحن الدقيق ، لشراء المحصول المنتج من القمح والشعير من المزارعين مباشرة ، وتخزينه ، وأصبح للمؤسسة الآن خمسة مشاريع رئيسية متكاملة ، يشتمل كل منها على صوامع لتخزين الغلال ، ومطاحن للدقيق ، وأجهزة ومعدات لنقل الغلال ، ومصانع للأعلاف ، وأخرى لتنقية البذور وتعبئتها .

وخطوط الإنتاج وتعبئة الدقيق كلها تعمل بأحدث وسائل التحكم الآلي ، إضافة إلى مختبرات الجودة النوعية ، والمرافق والتسهيلات الأخرى المساعدة ، فضلاً عن خمسة مشاريع



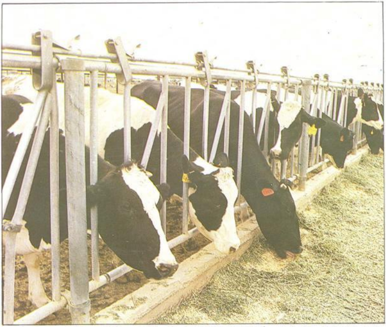
● سمو الأمير فهد بن سلطان بن عبدالعزيز أمير منطقة تبوك .



● أنواع من الخضراوات من إنتاج حقول منطقة القصيم .

أخرى لصوامع الغلال ، طاقتها التخزينية متفاوتة . ويتم شراء الغلال من المزارعين مع بداية موسم الحصاد .

يقول المهندس ابراهيم الحزامي ، مدير صوامع الغلال ومطاحن الدقيق التي تقع إدارتها على بعد ١٢ كيلومتراً من الرياض ، على طريق (الرياض/ الخرج) : إن السعة التخزينية لصوامع الغلال تبلغ ٥٣٥ ألف طن ، وهي أكبر تجمع للصوامع في موقع واحد ، إضافة إلى ثلاث مطاحن للدقيق ، طاقتها في الطحن ٩٦٠ طناً من القمح في اليوم . ويشترى القمح الوطني بالأسعار التشجيعية التي تدفعها الدولة إلى المزارعين ، ضمن برنامج يبلغ به المزارع . وبعد ذلك يستلم القمح لكي يعاد تصنيعه ، ليتم بيعه إما دقيقاً أو مشتقا من مشتقات القمح أو كأعلاف ، أو تصدير الفائض إلى الخارج . ومن أعلى قمة في الموقع يمكنك أن تشاهد قوافل الشاحنات وهي تدخل إلى ساحة الصوامع ،



● تنمية الثروة الحيوانية واحدة من أركان خطة المملكة في توفير الأمن الغذائي و (أسفل) مناحل العسل في القصيم .



فهي تتعامل مع (٨٥٠٠) مزارع في المملكة ، وبالتالي فلابد أن يكون كل شيء مدروسا . تدخل السيارات فتوزن بحمولتها ، وعند الخروج توزن فارغة ، وكل ذلك يتم بأجهزة الحاسوب ، ومن ثم تسجل الشحنة ، وبناء عليه يتم دفع الثمن إلى المزارع . هذه المصانع منتشرة في جميع أنحاء المملكة ، والقمح الذي يستلم يتم تصنيعه حسب النوعية ، وبعد تخليصه من الشوائب ، ثم تصنيعه وفق طلبات السوق . والمشروع مرتبط بسكة حديد ، تصله ببعض موانيء التصدير ، حتى تسهل عملية نقله لتصديره إلى الخارج .

في طريق عودتنا من صوامع الغلال إلى الرياض العاصمة ، استعداداً لرحلة طويلة إلى



● خريطة المملكة العربية السعودية

منطقة حائل في الجزء الشمالي الغربي من المملكة التي تحيط بها مدن رفحا ، وعرعر ، وطريف ، والجوف ، ومنطقة المدينة المنورة ، وتبوك ، والقصيم ، وهي تحتوي على الكثير من المساحات الصالحة للزراعة ، ما بين سلسلة جبال (أجا) و (سلمى) ورمال النفود الكبرى المشهورة بجمالها وروعتها .

دعم الدولة

كان لنا موعد مع البنك الزراعي العربي السعودي ، ولديه ٧٠ فرعاً منتشرة في جميع أرجاء المملكة ، فهو يقوم بتقديم قروض وإعانات للمزارعين بدون فوائد .

يقول عبدالله الشعيبي ، مدير عام البنك :

قدم البنك الزراعي منذ إنشائه عام ١٩٦٢ حتى نهاية ١٩٨٨ (٣٤١٦٤٦ قرضاً) للمزارعين والمستثمرين ، في كل أنحاء المملكة ، بلغ إجمالي قيمتها ٢٣١٠٠ مليون ريال ، ساهمت في تأمين احتياجات المزارعين من مستلزمات الانتاج الزراعي ووسائله ، كحفر الآبار وتأمين المحركات والمضخات والآليات الزراعية والرشاشات ، والأسمدة وغيرها ، أما الإعانات الزراعية فقد قدم البنك مبلغ ٨٦٨٢ مليون ريال لتمكين المزارعين من شراء معدات الانتاج اللازمة لمزارعهم .

هذه القروض والإعانات هدفها الأول والأخير تخفيف الكلفة على المنتج وتشجيع المزارع العادي البسيط على الاستمرار في

مشروعه ، وجني ربح معقول . والبنك هو الجهة الوحيدة الممولة للقطاع الزراعي في المملكة ، ولكن التمويل لا يخلو من شروط ، فليس من السهل على أي شخص الحصول عليها مالم يكن مشروعه مستوفيا للشروط ولديه الجدّية في العمل ، ويكون التمويل في حدود ٥٠٪ من الكلفة الإجمالية للمشروع ، ويتطلب توافر ضمانات للسداد ، وأرض مصرح بالزراعة فيها من قبل الجهات المعنية . ويتم الصرف على دفعات ، حتى نهاية اكتمال المشروع وبدء الإنتاج البنك شباب سعودي متحمس للعمل من المؤهلين جامعيا .

تحويل الصحراء إلى حديقة خضراء

أثبتت زراعة الصحراء بشكل ما ، أنها أنجح من المتوقع ، ويظهر هذا خاصة في مجال إنتاج القمح ، ففي عام ١٩٨٦/ ١٩٨٧ أنتجت المملكة حوالي ٢,٣ مليوني طن (أي أكثر بخمس مرات من إنتاج القمح قبل عشر سنوات) ، وأصبحت بذلك سادس أكبر دولة



● الفراولة في مزارع شركة حائل للتنمية الزراعية .

فيه . أما بالنسبة للشركات الكبيرة فإنها ليست محتاجة لهذه القروض ، كونها ذات رأس مال كبير ، وليس لديها مشكلة تمويل ، أما بالنسبة لسداد القروض وتحصيلها فإن الأمر يسير وفقا لبرنامج زمني واضح محدد ، أمامن تحدث لديه مشاكل ومعوقات تعوقه عن السداد فإن كل حالة تدرس على حدة ، وتتم جدولة الديون ويعطى المقترض فرصة أخرى ، ويتم إرشاده إلى أفضل السبل ، لكي يحل مشاكله . وفي منتجة للقمح في العالم . ومع ذلك لا يستهلك محليا إلا ٩٠٠ ألف طن فقط من الكمية المنتجة .

والباقي هو ما يقلق السعوديين ، فليس التحدي هو تحويل الصحراء إلى حديقة خضراء فقد تم ذلك بالفعل ، إنما التحدي في كيفية التعامل مع الزيادة المستمرة في فائض الإنتاج . لقد بدأت المملكة في حملة تصدير إلى أوربا وآسيا وبعض الأقطار العربية ، ولكن هذه

الكميات لا تباع بسعر اقتصادي ، وتحاول المؤسسة العامة للغلال تخفيض الخسائر بتصديره بمواصفات عالية الجودة ، للحصول على ثمن أعلى ، كما أن جزءا من فائض الإنتاج يقدم على شكل هبات مجانية للدول المحتاجة .

حائل واحة الصحراء

كانت حائل محطتنا الثانية في الرحلة . ومن الطائرة تشاهد دوائر القمح الممتدة بحلقات مترابطة من الخضرة . وفي قصر الإمارة يبدأ الأمير مقرن بن عبدالعزيز ، أمير منطقة حائل قائلا : لم تعد المشكلة : هل يمكن زراعة القمح في جو غير ملائم ، ولكن في الحد من إنتاج فائض كبير ، وخفض التكاليف ، والتنويع بزراعة سلع أساسية أخرى . وكما تعلم فإن الحكومة تشتري القمح من مزارعيها بخمسة أمثال سعره العالمي ، كما تنفق مئات الملايين من الدولارات سنويا على الآلات الزراعية ومعدات الري وصوامع الغلال .

وكانت نتيجة ذلك أنها تمكنت من اللحاق بركب الدول التي تحقق أعلى معدلات نمو زراعي في العالم ، ومن تحويل مساحات واسعة من مناطق صحراوية إلى أراض تكسوها الخضرة .

في رحلتنا بالسيارة باتجاه مزرعة العزيزية التي يملكها الأمير مقرن بن عبدالعزيز ، في جنوب حائل ، حيث رمال النفوذ ، حدثنا مدير المزرعة ربورتو (الأمريكي الجنسية) أنها أرض طيبة خصبة ، امتهن قاطنوها بطبيعة الحال الزراعة ، منذ القدم ، وجعلوها حرفة توارثوها جيلا بعد جيل ، وهم يعيشون في صراع مع الطبيعة التي كثيرا ما قست عليهم ، فحياتهم تعتمد على الأمطار ، فإن جاءت الأمطار شحيحة خيم الفقر على الأهالي ، وإن جاءت غزيرة منتظمة عم الخير والرخاء . والأمطار تسقط على سلاسل الجبال العالية ، وتجري سيولا جارفة في الوادي ، لكن الآن مع دخول التقنية ، يعتمد المزارعون على حفر الآبار الارتوازية ، بواسطة أبراج عالية ، والماء يتوفر بشكل منتظم طوال العام ، وليس هناك أي مشكلة في نقص المياه ، فهي موجودة منذ آلاف السنين بكميات يعتقد أنها ستكفي فترة لا تقل عن ٢٠٠ عام .

«إن عملية استصلاح الأرض ليست سهلة ، فقد أخذت وقتا وجهدا كبيرين ومضاعفين ، فليس هناك شيء سهل ، بل إن العملية قد احتاجت إلى إرادة وتصميم وجهد وحماس



● سمو الأمير مقرن بن عبدالعزيز أمير منطقة حائل .

منقطع النظير» ، إن ما يحدث في مزرعة العزيزية هو في الواقع معجزة ظهرت بين رمال صحراء النفود الكبرى ، في قلب الجزيرة العربية ، لا يصدقها إلا من يشاهدها .

حافة الدرع العربي خضراء

يقول الأوائل : إن الأسماء لا تعلل ، لكن المتواتر أن تسمية مدينة حائل بهذا الاسم كان لوجودها على ضفة وادي (الأديرع) الغربية ،

أي ما يسمى جبال الدرع العربي ، وعندما يسيل هذا الوادي (يحول) بين سكان الجبلين ، من حيث اتصال أحدهما بالآخر ، وكانت التسمية في الأصل تطلق على الوادي ، ومدينة حائل تقع على بعد ٦٩٠ كيلومترا من «الرياض» العاصمة ، وعلى بعد (٤٥٠) كيلومترا من المدينة المنورة ، وتبعد عن بريدة (٢٩٠) كيلومتراً ، وعن تبوك (٨٠٠) كيلومتر ، وترتفع عن سطح البحر (٩١٥) مترا تقريبا . وقد تقل درجة الحرارة في الشتاء إلى ما دون درجة الصفر ، وفي الربيع تصل إلى (٥) درجات ، أما في أواخر شهر مارس ـ وقت زيارتنا لها ـ فإن الجو بارد منعش .

غادرنا في طريق طويل للذهاب إلى مزرعة شركة حائل للتنمية الزراعية ، وبدأت تظهر لنا المفاجأة ، في طريق المعبر الذي يشق جبال « سلوى » ، إلى حيث تقع المزرعة ، وقد تسرب « زيت الديزل » من إحدى الشاحنات ، وعلينا أن نسير ببطء وحذر شديدين ، تلافيا للحوادث .

يقول ابراهيم القاسم ، مدير قسم الإرشاد الزراعي « من المنطقة الوسطى » : إن هذه المنطقة التي تسير فيها من أغنى الأراضي الزراعية في المنطقة ، حيث تتميز بخصوبة التربة ، ووجود المياه التي تتوافر بكثرة في الآبار الارتوازية ، ولهذا ترى الخضرة في كل مكان على امتداد ٧٠ كيلو مترا طولا ، و ٣٠ كيلو مترا عرضا ، وجميعها مزروعة بالقمح والشعير ، ويمكنك رؤية الأجهزة المحورية التي تستعمل في الري ، وكأنها حواجز للقفز على طوال الطريق ، فالمزارعون يهتمون بزراعة القمح لأن عائده مضمون .

على مدخل مزارع شركة حائل يستقبلنا مدير المشروع : إن المشروع يقع في جنوب شرق مدينة حائل ، على طريق (حائل/القصيم) ، على مساحة قدرها ٣٥٠ كيلو مترا مربعا ، وعلى ارتفاع ٧٣٠ مترا من سطح البحر . وتتراوح متوسطات درجات الحرارة بين أربع درجات



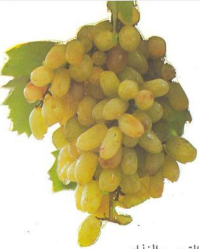
● تقليم أشجار الأعناب في منطقة تبوك . وعلى (اليسار) أشجار الفاكهة أحد مؤشرات نجاح تجربة زراعة الفواكه في المملكة .

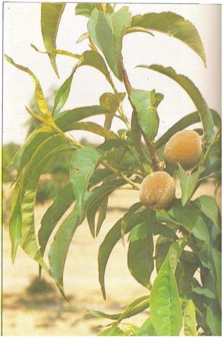
مئوية تحت الصفر في شهر يناير ، قد ترتفع الى أكثر من ٢٤ درجة مئوية في شهر يوليو .

وتتميز التربة الزراعية للمشروع بأنها متوسطة القلوية ، ويعمل في المشروع ١٠٠٠ عامل ، يعيش معظمهم على أرض المشروع ، حيث تتوافر لهم جميع أمور المعيشة ، من ملاعب وعيادة طبية ، ومطاعم ، ووسائل ترفيه ، ومكتبة .

رأس مال الشركة يبلغ ٣٠٠ مليون ريال ، وقد بدأت الشركة موسمها الأول عام ١٩٨٢ - ١٩٨٣ م ، بزراعة ٧٠ محورا لإنتاج القمح ، بلغت الآن في عام ١٩٨٩ ، ٣٥٠ محورا ، إضافة إلى مساحة لزراعة البرسيم الحجازي ، والذرة الصفراء ، والفول السوداني ، كما زودت المساحة المزروعة بأشجار الفاكهة من عنب وتين ورمان وخوخ . وفي موسم ٨٦ - ١٩٨٧ م تمت زراعة الشعير .

قمنا بجولة على أربعة محاور - عشوائيا - للقمح وللشعير في منطقة المزرعة .





القمح والغذاء

يقول المهندس محمد الشمري : « إن المزرعة مقسمة إلى ثلاث مناطق : الغربية خصصت لزراعة الشعير ، والشرقية والوسطى خصصتا للقمح . وعلى مساحة خمسين هكتارا زرعنا حوالي ٤٣٠٠ نخلة ، من ٦ أصناف جيدة . ومعدلات الانتاج طيبة ، إذ أن معدلها في الهكتار الواحد (٧) أطنان . وتحقيقا للتكامل الانتاجي بين القطاعين النباتي والحيواني ، وتنويع مصادر الدخل ، فضلا عن الاستغلال الأمثل لرأس المال ، فقد قمنا بتوسيع القاعدة الانتاجية ، لتنويع الانتاج الزراعي والحيواني ، فهناك كما تشاهدون مشروع الدجاج (اللاحم) الذي تبلغ طاقته الانتاجية القصوى ٢٥ مليون طائر سنويا ، أي ما يعادل ٢٥ ألف طن من اللحوم البيضاء تقريبا ، وهو يتكون من مزارع أمهات الدجاج اللاحم ، ومزارع تسمين الدجاج اللاحم ، والفقاسات المركزية للبيض ، ومصنع تحضير علف الدواجن . كما أن في المشروع قسما لتربية الأغنام وتسمينها طاقته ١٢٠٠٠ ألف رأس من الغنم .

والمشروع يضم مصنعا لإنتاج الأعلاف غير التقليدية ، لاستغلال تبن القمح الذي كان يحرق في الماضي ، وذلك بتحويله إلى علائق



● طارق السالم فخور بخير أرضه .

لتغذية الحيوانات ، عن طريق رفع قيمته الغذائية ، بمعالجته كيميائيا ، وخلطه بمواد مركزة من الفيتامينات والمعادن . وتبلغ طاقته الانتاجية ٧٢٠٠ طن سنويا .

ومن الأنشطة الانتاجية الأخرى في المشروع البيوت المحمية لإنتاج الخضراوات الطازجة ، وهي وحدات من البيوت البلاستيكية والزجاجية ، إضافة الى بعض المحاصيل المتنوعة ، مثل البصل والبطاطس والفواكه : مثل العنب والتمور والتين .

المشروع متكامل ، نموذجي ، فكل شيء قد حسب له حساب ، هناك ٤ وحدات صوامع لتخزين الغلال طاقتها ٢٠٠,٠٠٠ طن (مائتا ألف) ، وحوالي ٩٠ كيلو مترا من الشوارع « الاسفلتية » داخل المزرعة لتسهيل عملية النقل ، ومحطات للأبحاث الزراعية ، ولقياس تغيرات المناخ بأحدث النظم التقنية ، وذلك لرصد مختلف الظواهر الجوية ، كالرطوبة ، ودرجات الحرارة ، وسرعة الرياح . وحاسب آلي يساعد في تحليل المعلومات ، ويزود المهندسين الزراعيين بآخر المعلومات عن ملوحة المياه ومستواها وصلاحية التربة الزراعية .

إلى القصيم

في رحلتنا بالسيارة باتجاه « إمارة القصيم » قمنا بزيارة لشركة القصيم الزراعية ، وهي شركة مساهمة ، يتركز نشاطها في زراعة القمح والشعير ، وتربية الأغنام ، وكذلك في إنتاج العسل . وقد حدثنا المهندس محمد عبدالله ، مدير المشروع عن إنتاج العسل ، قال : « إن الشركة أقامت منحلا لإنتاج العسل ، سعته ٣٠٠ خلية ، بقصد التسويق ، وهذه الأصناف قد تم إحضارها من مصر واستراليا ، ولدينا كذلك مصنع لتصنيع التمور . ويعمل في هذا المشروع حوالي ١١٠ عمال . وفي هذا المشروع (٩١) محورا لري القمح ، ومعظم عمليات الصيانة موجودة على أرض المشروع ، وتتم بشكل دوري . والمياه هنا صالحة للشرب ، تستخرج من باطن الأرض بمضخات رافعة من الآبار الارتوازية .

الدواجن وبيض المائدة

غادرنا بعد ذلك لزيارة مزارع الشركة الوطنية للدواجن ، وعندما وصلنا لمزرعة الشركة المتحدة ، كان الشيخ سليمان الراجحي بانتظارنا على البوابة . انتقلنا بحافلة ركاب للمرور على أقسام المزرعة الواسعة ، مشروع كبير ، به جميع المرافق الضرورية للمزرعة ، فهناك أسطول كامل مجهز من السيارات والبرادات لنقل المنتجات ، يعمل في هذا المشروع ٢٥٠٠ شخص ، تتوافر لهم جميع وسائل الراحة والعيش ، ولديهم اكتفاء ذاتي من المنتجات الغذائية .

يقول الشيخ الراجحي : إن فكرة المشروع





● الزهور من نجد إلى أوربا .

تتناسق مع سياسة الدولة في التنمية وإيجاد الغذاء للمواطنين ، والدولة قد قدمت لنا الكثير من الدعم والحوافز المادية والمعنوية التي تشجع القطاع الخاص على الاستثمار في مجال الثروة الحيوانية . ومن أهم هذه المحاولات مزارع إنتاج البيض والدجاج اللاحم ، وكذلك بيض المائدة . وقد مر هذا القطاع المهم بمرحلة تطور سريعة ، لم يشهدها أي قطاع من قطاعات الثروة الحيوانية ، حيث شهدت المملكة إقبالا على مشاريع الدواجن ، دفعت الانتاج المحلي للبيض الى مرحلة الاكتفاء الذاتي ، بل زاد حتى بلغ مرحلة التصدير . أما انتاج الدجاج اللاحم فقد تضاعف انتاجه محليا ، وحقق نموا قياسيا يشهد بكل وضوح لضخامة الانجازات في هذا المجال .

فقد تمت تغطية نسبة كبيرة من حاجة الاستهلاك المحلي ، وهنالك بعض الكميات المصدرة من لحوم الدواجن للدول المجاورة ، ويمكن أن نقول : إن مثل هذه المشاريع ذات كفاءة إنتاجية عالية ، نظرا لضخامة المشاريع ، وحجم الأموال المستثمرة فيها . بعد وجبة غداء على مائدة الشيخ الراجحي حدثنا فقال : إن الاتجاه الى هذه المشاريع كان من واقع تجربة شخصية مرت بي ، فأنا رجل مصرفي ، فمنذ ٤٥ سنة ، شاهدت في إحدى المرات سمكة في محل للبيع ، مكتوب عليها أنها مذبوحة على الطريقة الإسلامية ، فانفعلت بطريقة غير طبيعية ، وهنا اتخذت القرار بأن أدخل في هذا النوع من التجارة ، وأقف في وجه من يحاول أن يضحك على المسلمين ، وأغني بلدي عن استيراد بعض مصادر الغذاء . وقد حصلت على الدعم من كل الجهات في المملكة ، ومع مرور الزمن أصبح مشروعنا كما ترى يحقق نجاحا إثر نجاح والحمد لله .

في رحلة السيارة الى بريدة ، عاصمة إمارة القصيم ، كان المهندس ابراهيم التويجري ، نائب مدير تنمية الإرشاد الزراعي في مدينة بريدة يحدثنا قائلا :

إن زراعة القمح تحتاج الى اتباع طرق وأساليب علمية ، للحصول على إنتاج وفير ، عالي الجودة ، فهناك دراسات أولية لطبيعة الحقل : خصوبة التربة وتنظيم عملية الري ووقاية المحاصيل والاهتمام بالتوقيت في عملية

الحصاد ، ومعاملة الحقل بعد الحصاد ، وكلها عمليات تحتاج إلى مهارة ودقة وتنظيم .

« الزراعة المحمية »

لقد بدأت أنواع جديدة من النظم الزراعية الحديثة تدخل إلى مناطق المملكة . قمنا بزيارة ميدانية لإحدى المزارع الخاصة . يقول صاحب المزرعة الشيخ صالح المحيميد من منطقة البصر بالقصيم بأن مشروعه الزراعي قائم على البيوت الزجاجية ، وهي من أحدث الطرق لزراعة المحاصيل ، وهو يستخدم أحدث ما توصلت اليه التقنية من أجهزة الحاسوب « الكمبيوتر » في تنظيم عمليات الري وتهيئة التربة ، فالجميع يعلم أن الأحوال البيئية تلعب دورا في مجال إنتاج الخضراوات ، فالأحوال الجوية كارتفاع درجة الحرارة صيفا ، وانخفاضها شتاء ،



● ثمرة تجربة (الفقع) بين يدي الحاج عبدالله العثمان في منطقة القصيم .

هل يمكن أن نزرع الكمأ ؟!

يهمنا من هذا الحديث كمأة الصحراء (الفقع) التي تظهر في صحاري الأقطار العربية في فصل الربيع مع بداية ظهور زهور الربيع في الصحراء ، وتتحول أماكن وجودها حينئذ الى منتزهات عامة ، يبحث فيها الناس عن الكمأ ، فيجمعونه للأكل بعد التنظيف ، أو قد يبيعونه فيحصلون على مبالغ كبيرة ، خاصة في أوقات ندرته ، أثمان تفوق أثمان اللحوم الجيدة الطازجة ، وفي بعض الدول يسوّق معلبا أو مجمدا أو مقطعا إلى شرائح مجففة .

في منطقة القصيم ، وفي مزرعة الحاج عبدالله الصالح العثمان تلفت انتباهك شهادة التقدير التي حصل عليها هذا المزارع الطموح من معاهد الأبحاث والدراسات العلمية ، ثناء على جهوده في استزراع هذا النبات الفطري كتجربة محدودة ، يمكن تطويرها وتعميمها متى ما تهيأت لها الظروف المواتية والمساحة المحمية . يقول الحاج عبدالله إنه يملك هذه المزرعة ونشاطها الرئيسي الوحيد زراعة القمح .

بالنسبة للكمأ (الفقع) الذي بدأت زراعته منذ أربع سنوات في مساحة من الأرض المناسبة ، ووفرت لها الظروف الجوية التي ينمو فيها ، من مياه وحرارة ، وترك للطبيعة مطلق الحرية أن تتصرف دون تدخل من الإنسان ، وهناك فرصة كبيرة لينبت (الفقع) خاصة بتأثير أمطار « شهر نوفمبر » . وعموما فإن الكمأ غذاء فريد لا ننشده طلبا لقيمته الغذائية لكن لرائحته ، ونكهته وطعمه وندرته ، وقد جعله ذلك يحتل موضعا ممتازا على المائدة .

وهذه التجربة البسيطة لا بد أن تعطي مؤشرا لإمكانية تحقيقها إذا ما درست واتخذ القرار والعزم على تنفيذها إذا كانت صالحة ومجدية .



● تهتم المملكة بالنخلة ومنتجاتها

وتقلبات الجو المستمرة ، عوامل تحد من التوسع الأفقي للزراعة ، وبخاصة في مجال إنتاج الخضراوات التي تزايد الطلب عليها في الأعوام الماضية ، نتيجة ازدياد عدد السكان وزيادة الكمية المستهلكة ، ونظرا للتقدم الكبير في التقنية الحديثة في العالم أصبح من الممكن التحكم في العوامل البيئية بكل سهولة ، وإيجاد الأجواء المناسبة والصناعية للجو المثالي لنمو النباتات وإنتاج المحاصيل في أي فصل من فصول السنة .

وماذا عن تبوك ؟

كانت تبوك نهاية مطافنا ، ويسمونها بوابة الشمال ، وهي مدينة تاريخية قديمة ، تقع في الشمال الغربي للمملكة العربية السعودية ، (المنطقة الشمالية حسب التقسيم الإداري الجديد) ، وهي معروفة بجوها المعتدل .

قبل وصولنا الى مدينة تبوك قمنا بزيارة لشركة تبوك للتنمية الزراعية ، حيث حدثنا المهندس أحمد العجاجي ، مساعد المدير العام للشئون الهندسية والزراعية بالشركة : إن الشركة تقوم على قطعة أرض مساحتها (٣٥) ألف هكتار ، قدمت للشركة هبة من الحكومة ، حيث تزرع مساحات واسعة منها بمحصول القمح والشعير ، وأنواع متعددة من الفواكه مثل العنب والبرقوق والخوخ واللوز والتفاح والمشمش والجوز والرمان والتين والزيتون ، وبعض أنواع الخضراوات المختلفة . وننتج بعض احتياجاتنا من أعلاف الماشية والذرة الشامية وبعض الخضراوات في البيوت المحمية .

وعملية إنتاج أي محصول عملية اقتصادية وإنتاجية في الوقت نفسه ، وتحتاج الى الملم جيد شامل بجميع النواحي الفنية والتخصصية التي تتطلبها العملية .

أما بالنسبة للخبرات الوطنية فهناك مجموعة من الشباب السعودي المؤهل الذي يدفعه حماس حب الوطن ، ليتبوأ المراكز القيادية في هذه

الشركة وغيرها ، في جميع أرجاء المملكة .
ونقفل راجعين الى تبرك ، وفي الطريق نمر على انشاءات كثيرة ، ومزارع منتشرة خضراء . نعود من جولتنا عند الأصيل ، والإخوان يودعوننا وفي قلوبهم كل الحب الذي يكنه الأخ لأخيه ، وتأخذ السيارة طريقها الى بريدة .
ويفاجئنا « علي » ، سائق السيارة ، بحديث ، وكأنه ينقل الينا أخبارا فاتنا أن نسجلها ، يقول : إنه لم يكن هناك شيء مما ترونه قبل عشر سنوات ، أما الآن فالخضار كما ترون في كل مكان ، والجميع يعمل بيده .

سلطان بن عبدالعزيز الذي يقول : إنه منذ مدة قصيرة ، عندما كان إنسان في المملكة يقول : إن المملكة سيصبح لديها اكتفاء ذاتي من القمح ، كان كلامه كأنه ضرب من المحال ، أما الآن فإننا نصدر من الفائض ما يفوق التوقعات . وتبوك تتميز بخصوبة التربة ، ونوعية المياة القليلة الملوحة التي تختلف عن غيرها من مياه المناطق الأخرى ، الى جانب اعتدال المناخ ، وكل ذلك قد جعل الزراعة فيها أكثر ازدهارا وإنتاجا من غيرها .
تبوك منطقة زراعية متميزة ، وكل الأراضي



مجموعة من المهندسين الزارعيين السعوديين يقومون بشرح نموذج مصغر لمزرعة

تبوك عروس الشمال

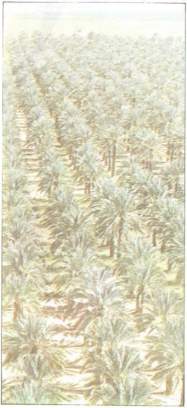
ويهجم الليل ويعم الظلام ، ويداعب النعاس عيني فأغفو ، ولا أدري كم مضى من الوقت ، لكنني استيقظت فجأة على صوت صديقنا « علي » السائق ، وهو يقول : لقد وصلنا ، وأفتح عيني فأرى مفاجأة أخرى ، مدينة ذات حسن وجمال ، تسبح في أنوار باهرة ، وتلامس وجهي نسمات باردة منعشة ، لقد تحول الطقس الشديد الحرارة إلى ربيع طري النسمات ، وأمست ألسنة النار وردوا تفوح بعبير يملأ الأجواء سحرا وفتنة . ونذهب إلى دار الامارة ، ويرحب بنا أميرها الشاب فهد بن

فيها جهزت بطرق ممهدة بالقار ، لتساعد على سرعة النقل والانتقال ، وهذا لم يحدث بمجرد الصدفة ، بل كان ثمرة جهود مكثفة في المجالات النظرية والتطبيقية ، واستخدام أحدث الأساليب والميكنة الزراعية . وأضاف : إن المملكة قد تجاوزت مرحلة الاكتفاء الذاتي في الغذاء ، فقامت بتصدير القمح والتمور والخضراوات والفواكه والزهور والبيض ، وأصبح ذلك أمرا واضحا ملموسا ، ووضعت المملكة في مكانها الصحيح كدولة منتجة للغذاء ، بل إنها إحدى الدول المنتجة لأهم محصول استراتيجي ، وهو القمح .

وفيما يتعلق بمسألة الدعم يشير الأمير فهد إلى الدعم الكبير الذي تلقاه الزراعة في الدول الصناعية ، وعلى سبيل المثال فإن مزارعي الأرز في اليابان يتلقون أضعاف أسعار السعر العالمي في مقابل محصولهم ، كما أن أرباب صناعة الألبان السويسرية يجزل لهم الدعم . ويقول الأمير فهد : لا أعتقد أن اليابانيين والسويسريين لا يفهمون الاقتصاد ، فلماذا تتم الاشارة الى المملكة وكأنها ترتكب أخطاء ؟ أما بالنسبة إلى الانتقادات التي تشير الى أن المملكة تستنفد مياهها الجوفية فيقول الأمير فهد : إن المملكة أقرت برنامجها التنموي عندما أيقنت أن لديها ما يكفي من الموارد الطبيعية ، بما في ذلك المياه والأرض لدعم ذلك البرنامج ، وأن الأقطار التي لديها الموارد للتنمية الزراعية ، والتي فشلت في ذلك ، ارتكبت أخطاء فادحة . وكما يقول الأمير فهد : إن الغلطة الكبرى التي ترتكبها معظم الدول النامية أنها تهمل التنمية الزراعية ، قافزة إلى القطاع الصناعي ، والزراعة هي مفتاح التنمية ، بل ومفتاح الحضارة أيضا ، وأن بالإمكان تطوير القطاع الصناعي بالاعتماد على القاعدة الزراعية ، وتطوير كل القطاعات الأخرى انطلاقا من تلك القاعدة . وليست كل المشاكل المتعلقة بالمياه والتي يواجهها المزارع هي وراء تراجع منسوب المياه ، ولكن التعامل مع معدات ضخ المياه وتركيبها وكيفية صيانتها يمكن أن يكون السبب .

إن هناك أساليب اقتصادية في الري ، مثل الري بالتنقيط ، والري المحوري ، بدل الري بفيضان المياه .

وختم الأمير فهد بن سلطان حديثه بقوله : إن العالم كله قد دهش بالتجربة الزراعية السعودية النموذجية الرائدة ، وأجمع الكل على وصفها بأنها أشبه بالمعجزة ، ولعل هذا النجاح أثبت للعالم أجمع أن العمل الجاد كفيل بتحقيق الأماني والطموحات الكبيرة . □



● نخيل منطقة بريدة .

الزهور من نجد إلى أوربا

بدأت المملكة منذ عام ١٩٨٨ بتصدير كميات تجارية من الزهور إلى هولندا ، وفي هذا العام إلى ألمانيا الاتحادية ، حيث تنتج حوالي ١٠ ملايين زهرة سنويا . وأشهر زهور التصدير هي القرنفل ، والأوركيد ، والجوري . وتتم زراعة هذه الزهور داخل البيوت المحمية ، بطرق فنية عالية التقنية ، وعلى مساحة ٧٥٠ ألف متر مربع .



إعادة الحياة إلى دور السينما..

بقلم : رؤوف توفيق

مع زيادة انتشار (التلفاز والفيديو) ، كثرت المخاوف على مستقبل صناعة السينما ، حيث يجد المشاهدون متعتهم في الرؤية المنزلية أكبر من الذهاب إلى دور السينما .

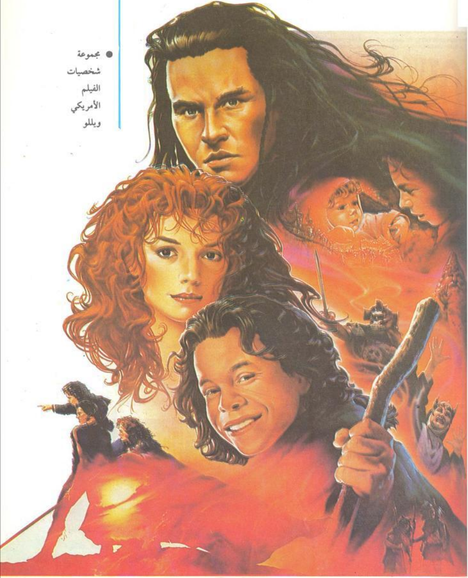
ولكن صناعة السينما العالمية لم تستسلم لهذا الخطر ، وقدمت - مؤخرا - أفلاماً هزت كل أرقام التوزيع والمشاهدة ، ودخلت إلى حلبة المنافسة وهي مصممة على الفوز بالمشاهدين صغارا كانوا أو كبارا .

لاتكف السينما العالمية عن اختراع الحيل والأساليب ، لانتزاع المتفرج من مقعده أمام التلفاز ، ليخرج إلى الشارع قاصدا دور السينما .

ولما كانت السينما العالمية تدرك من خلال الأبحاث والإحصائيات ، أن النسبة الغالبة من رواد السينما حاليا هم جمهور الشباب ، فقد تفتق ذهن خبراء صناعة السينما عن تحقيق هدف توسيع قاعدة المتفرجين ، بجذب الأطفال وصغار السن إلى دور السينما !

والأطفال - عادة - لايذهبون إلى السينما بمفردهم ، وإنما بصحبة الكبار .

ومن هنا تبلور الهدف بضرب عصفورين بحجر واحد ، أو بمعنى أدق اجتذاب الصغار والكبار إلى السينما ، وتقديم نوعية من الأفلام ترضي الفئتين معا ، مهما تباينت فروق السن



● مجموعة شخصيات الفيلم الأمريكي ويللو

والإدراك والثقافة .

فإذا كان الصغار هم القوة الدافعة لرواج هذه الأفلام ، باعتبار أنهم هم الذين يطلبون الذهاب إلى دور السينما ، ويختارون « فيلما » معينا ، من خلال تأثير حملة الدعاية المكثفة ، والإلحاح على رغباتهم وفضولهم ، فإن الكبار الذين سيتحملون ثمن تذاكر الدخول إلى دار السينما بصحبة صغارهم ، يجب ألا يشعروا بالخديعة ، أو قلة العقل والمقام . بل يجب أن يحقق لهم الفيلم المتعة والبهجة والجاذبية كما يحدث للصغار ، ولكن من زاوية نفسية مختلفة ، بأن يلعب الفيلم على الوتر الدفين في أعماقهم ، وأن يداعب روح البراءة والدهشة ، والعودة إلى سنوات الطفولة ، بكل ما فيها من إحساس طبيعي بالترقب والانبهار والخيال !

أي أن الفيلم ، بالنسبة للكبار ، لابد أن يكون بمثابة غسل للهموم والمشاكل التي ينوء بها أي فرد في العالم ،واستراحة ذهنية غير مأسوف عليها ، بل مطلوبة لإعادة التوازن والقدرة على مواصلة المسير .

وبهذا الفهم النفسي والاجتماعي لنوعية رواد السينما ، شغل خبراء الصناعة بالبحث عن الصيغة أو التركيبة المقبولة عند الصغار والكبار .

وهي بالتأكيد مسألة صعبة ، فأي خطأ أو تجاوز في التركيبة الفنية من الممكن أن يفسد العمل تماما ، ويجعله مرفوضا وفاشلا تجاريا .

المسخ التائه :

وإذا كانت تجربة فيلم « E.T » لمخرجه العبقري « ستيفن سبيلبرج » قد حققت إيرادا جاوز أربعمائة مليون دولار خلال العام الأول فقط لعرض الفيلم - ١٩٨٣ - بقصة خيالية ، ربطت ما بين مخلوق فضاء تائه ، ومجموعة من الأطفال في مدينة أمريكية صغيرة ، والعلاقات الإنسانية بينهم ، ومغامرات حماية هذا





● وسط ثلوج شمال كندا . . جرى تصوير مشاهد فيلم « الدب اليتيم » .

« المسخ » ، وإعادته إلى أهله وبيته ! فإن البراعة الفنية التي قدمت بها هذه الحكاية ، جعلت من هذا « المسخ » القبيح الوجه أسطورة عالمية ، تتحدث عنها كبرى الصحف السياسية ، كما تتحدث عنها صناعة السينما بأكملها ، وتحولت الأسطورة إلى دمية وملصق وقميص وكتاب وقلم ، تتبارى المؤسسات التجارية في االتعلق بها لترويج مبيعاتها !! .

وأكدت هذه التجربة الفنية المثيرة ـ حتى الآن ـ أن العمل التالي لها ، يجب ألا يقل عنها براعة وخيالا .

وتبارى خبراء صناعة السينما العالمية في هذا المجال الجديد . وتراوحت التجارب بين الخيال المحدود والنجاح المحدود أيضا .

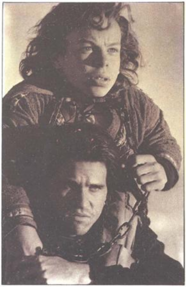
. . حتى كان العام الماضي ـ ١٩٨٨ ـ حيث أنتجت استوديوهات السينما العالمية ثلاث تجارب مهمة في مجال اجتذاب الصغار والكبار للذهاب إلى دور السينما .

القزم « ويللو »

على عكس الاتجاه السائد فى صناعة الأفلام لتناول موضوعات الخيال العلمي وغزو الفضاء ، تأتى هذه التجربة الفنية ، للعودة إلى الحكايات القديمة التي تتداولها أمهاتنا وأجدادنا عن الصراع بين الخير والشر ، « وكان يا ما كان في سالف العصر والزمان » !

هذه التجربة السينمائية اسمها « ويللو » ، أنتجتها استوديوهات السينما الأمريكية ، مستغلة كل مفردات التطور الصناعي في الآلات والمعامل ، لتحقيق كم هائل من الخدع السينمائية والإبهار البصري .

ومن مفارقة الإبحار عكس التيار ، والخروج عن المتوقع بالنسبة للموضوع ، يشحذ صناع هذا الفيلم كل خيالهم ، وابتكاراتهم ، لاجتذاب الصغار والكبار إلى شخصية القزم « ويللو » ، بطل الفيلم الذى يعيش ضمن



● القزم « ويللو » فوق كتفي أحد أبطال فيلم « ويللو » .

مملكة من الأقزام ، تتعامل بالحب والتعاون ، ولاتعرف العنف أو الشر ، إلى أن يفاجأوا ذات صباح بمهد طفل مصنوع من القش ، يطفو على مياه النهر ، يحمل لهم طفلا وليدا ، ذا ابتسامة ساحرة . وكانت أمه على الطرف الآخر من النهر ، قد تخلصت منه مرغمة ، عندما توافرت لها الأخبار ، أن ملكة الشر قد هددت بقتل ذلك الطفل الذي علمت بمولده من خلال بلورتها السحرية ، وأيقنت أنه هو ذلك الطفل الذي سيتولى مملكة الخير ويقضى عليها ، ومن هنا أعلنت الحرب عليه وخططت لاغتياله !

وبوصول ذلك الطفل إلى مملكة الأقزام ، يدركون أنه هو الطفل المقصود الذى تناقلته الروايات عند أتباع مملكة الشر . ويجتمع حكماء الأقزام وشيوخهم لاتخاذ قرار بشأن ذلك الطفل

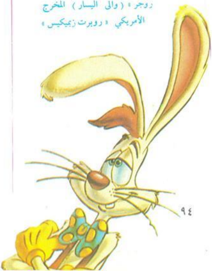


• براعة المزج بين الشخصيات الحقيقية والرسوم المتحركة في فيلم « الأرنب روجر » (والى اليسار) المخرج الأمريكي « روبرت زيميكيس »

الرضيع ، ويأتي القرار بأن يتولى « ويللو » حمل الطفل وإعادته إلى أهله ، وزعايته بكل الطرق حتى يصل إليهم سليما ، لينمو ويتحقق لهم الانتصار على مملكة الشر التي يعانون منها جميعا .

ويستعرض الفيلم رحلة القزم « ويللو » ، حاملا الطفل عبر غابات وجبال ومصائد الأشرار ، ليصادف الكثير من الأهوال والعجائب والمغامرات .

ونلتقي فيه بكل ابتكارات السينما الأمريكية ، من أقزام أقل حجما ، لايصل طولهم إلى شبر واحد ، وحيوانات خرافية لها أذرع متعددة ورؤوس متغيرة ، وعصا سحرية تحول الآدمي إلى عنز أو فراشة ، أو بودرة سحرية يمكنها أن تتشكل حسب الطلب لتمحو



المخرج « لوكاس » ، الخاص به في أمريكا ، حيث تولى هو مسئولية إنتاج الفيلم !

ونجحت هذه التجربة الفنية نجاحا باهرا ، واستقبلها الصغار والكبار بقلب مفتوح .

الأرنب روجر !

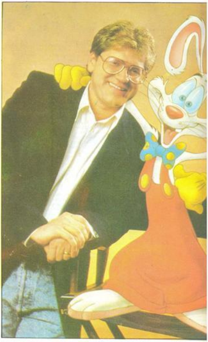
ثم جاءت التجربة الفنية الثانية من خلال الاستوديوهات الأمريكية أيضا ، تحمل عنوان « من خدع الأرنب روجر ؟ » .

وهي تجربة مثيرة ، مازالت تشغل رواد السينما في العالم ، وتحطم كل الأرقام القياسية في الإيراد الذى جاوز عشرة أضعاف ما كلفه الفيلم « كلفة الفيلم ٤٥ مليون دولار » .

ونجاح هذا الفيلم يتمثل في أنه يحقق أول خطوة من نوعها في تقديم عمل سينمائي كامل ؛ على مدى ساعتين ، ويمزج ما بين شخصيات حقيقية تمثل ، وشخصيات من الرسوم المتحركة ، في وحدة عضوية ، يرفضها المنطق في البداية ، ولكنه يتعامل معها بعد ذلك في وفاق وتآلف ، وكأن الرسوم تحولت إلى لحم واحساس ومشاعر ، وهذا ما جعل الصغار والكبار يتهافتون على مشاهدة ذلك الفيلم !

ويحكي الفيلم ، كيف أن الأرنب « روجر » يعمل في استوديوهات الرسوم المتحركة ، ولكنه مشغول البال دائما ، لايركز في عمله ، مما يكلف الاستوديو مصاريف إضافية لإعادة التصوير ، فيضطر المسئولون عن الاستوديو إلى تكليف مخبر سري ، (هو الممثل الانجليزى الشهير بوب هوسكنز) ، للبحث عن اللغز الذي يحير الأرنب . ويكتشف المخبر أن الأرنب متهم بجريمة قتل ، ضحيتها من البشر ، لأنه كان يحوم حول زوجته ، نجمة الرسوم المتحركة « جيسيكا » ، ذات الجمال ، والصوت الأخاذ !

وهكذا يتداخل البشر مع الرسوم المتحركة في علاقات متشابكة ، فيها كل عناصر الجذب السينمائي من الإثارة والخيال .



كائنات أو تحرقها أو تغير ملامحها !! وينتهي الفيلم بانتصار الخير .

استعراض هائل متدفق من الخيال ، كتبه المخرج « جورج لوكاس » ، أحد عباقرة السينما الأمريكية ، ومخرج فيلم حرب الكواكب ، وأسندت مهمة إخراجه إلى « رون هوارد » الذي بدأ مسيره الفني كممثل سينمائي وتلفازي ، ثم اتجه إلى إخراج الأفلام ذات الميزانيات المحدودة ، حتى جاءه هذا الفيلم الضخم الذي كلف ٣٥ مليون دولار ، واستغرق تصويره في الاستوديوهات الانجليزية والريف الانجليزي والنيوزيلندي مدة أربعة أشهر .

أما الخدع الفنية فقد تم تنفيذها في استوديو

وقد استغرق رسم مشاهد الفيلم بالرسوم المتحركة حوالي عامين، بجهد اشترك فيه أكثر من ٣٠٠ رسام. وأخرج الفيلم «روبرت زيميكيس»، وتعاونت في إنتاجه استوديوهات «والت ديزني» مع شركة المخرج «سبيلبرج» الذي كان قد بهر المشاهدين من قبل بفيلمه «إي تي» (E.T) أي أن رحلة البحث بالنسبة له مازالت مستمرة.

الدب اليتيم

وتحاول السينما الفرنسية أن تلعب اللعبة نفسها، وتنافس السينما الأمريكية في هذا المضمار، فتخرج علينا بفيلم جديد عن عالم الحيوان - وعلى الأخص عالم الدببة - بعنوان «الدب اليتيم». يقوم ببطولته اثنان من الدببة، أحدهما كبير والآخر صغير، في محاولة للتأثير على الصغار والكبار، وإن كانت هذه التجربة الفنية - على الرغم من حجم الضجيج الإعلامي عنها في أوربا - لم تلق حتى الآن البريق الذي حازته التجربتان السابقتان.

فهذا الفيلم الفرنسي - «الدب اليتيم» - لايعتمد على الإبهار الفني، أو ابتكارات الخيال، وإنما يقوم أساسا على براعة تدريب الدببة للقيام بدورها. وإن كانت هذه المسألة ليست سهلة، وتحتاج إلى جهد طويل، وصبر أطول، إلّا أن النتيجة في النهاية تتشابه مع عروض «السيرك» المتداولة في كل مكان!

ويحكي هذا الفيلم عن دب صغير، فقد أمه برصاصة أصابتها من أحد الصيادين، ويشعر الدب الصغير بالحزن والوحدة، ويتعرض للموت والخطر أكثر من مرة وسط الغابات الثلجية الشاسعة، إلى أن يلتقي بدب كبير، يعطف عليه، ويكون له بمثابة الأم البديلة.

والفيلم يستغني عن الحوار، ويستبدله بحركات الدببة، ونظرات عيونها، تلك النظرات التى استغرقت وقتا طويلا للتدريب عليها، واستخراجها لتكون معبرة عن المواقف المحزنة والمفرحة.

أخرج الفيلم «جان جاك أنو» عن كتاب للمؤلف «جيمس أوليفروود»، واستغرق تصويره ثلاثة أشهر في شمال كندا، وبميزانية تعد من كبرى ميزانيات الأفلام الفرنسية.

ومازال مجال السباق مفتوحا لمن يحاول اجتذاب الصغار والكبار إلى دور السينما.

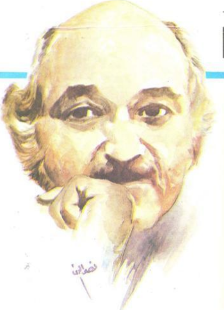
فالمسألة ليست متعلقة بالفن فقط، وإنما ببقاء صناعة السينما فى مواجهة كل العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى تضغط على المتفرج، واستمرارها، وتجعله يتردد ألف مرة قبل أن يتوجه - باختياره - إلى دور السينما!! □



مفارقات

- نظر رجل إلى روح بن حاتم واقفا في الشمس عند باب المنصور، فقال له: قد طال وقوفك في الشمس: فقال: ليطول وقوفي في الظل.
- قيل لعبدالله بن الحسن: إن فلانا غيرته الولاية. قال: من ولي ولاية يراها أكبر منه تغير لها، ومن ولي ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغير لها.

وجهاً لوجه





بلند الحيدري و د. محمّد أمين أبو الربّ

■ اللقاء بين بدر ونازك وبلند والبياتي كان يستهدف تكوين مدرسة شعرية جديدة.

■ العصفور الواحد لا يأتي بالربيع.

■ ما كان للأسلوب الكلاسيكي أن يوجد لولا وجود مضمون كلاسيكي، وما كان لأسلوبنا الشعري أن يوجد لولا وجود معطيات حياتية جديدة.

■ انتقلنا من شعر البيت إلى شعر القصيدة، ومن الوحدة الشكلية إلى الوحدة العضوية.

■ كنا نلتقي في ثلاثة منطلقات: أن نجد أنفسنا في العصر والتراث والواقع المحلي.

■ كان لجبرا إبراهيم جبرا دور كبير في تعميق وعينا بشعرنا.

بلند الحيدري أحد شعراء الحداثة ، ورائد من روادها في الشعر العربي الحديث ، فإذا ذكر بدر شاكر السياب ، ونازك الملائكة ، وعبدالوهاب البياتي ، فلابد أن يذكر الحيدري بوصفه شاعرا مبرزا ينتمي إلى هذا الجيل من الشعراء .

ولد الحيدري في مدينة « السليمانية » في شمال العراق سنة ١٩٢٦ .

وقد صدر أول ديوان له « خفقة الطين » في عام ١٩٤٦ ، وفي العام الذي تلاه صدر الديوان الأول لكل من بدر شاكر السياب « أزهار ذابلة » ، ونازك الملائكة « عاشقة الليل » ، وقد تواصل مع الحركة الشعرية الجديدة شعراء كثيرون في أقطار الوطن العربي .

قال السياب عن ديوانه « خفقة الطين » عند صدوره ، إنه يمثل البداية في تجربة الحداثة . ثم توالت دواوين الشاعر .

وقد أدار الحوار مع الشاعر الدكتور محمد أمين أبو الرُّب ، وهو مختص في الشعر الأندلسي ، وقد أسس مدرسة عربية في جنيف حيث يقيم الآن .

*** فلنبدأ من كل ما هو شخصي : بلند هو اسمك الحقيقي . ما معناه ؟ ومن الذي حملك إياه ؟**

ـ حملني إياه جدي لوالدتي ، وكان شيخ الإسلام في تركيا ، وكان ضليعا في اللغات التركية والفارسية والكردية والعربية ، وكان شاعرا أيضا . أما معناه في اللغات الثلاث الأولى وبشيء من التحريف : عال أو طويل . وأما في العربية فقد ورد على وزن . . بِلّند . ويعني ضربا من ضروب الحناء ، وهو اسم مألوف جدا عند الأتراك . ثم انني من عائلة كردية مازال أكثر أبنائها يسكنون منطقة « كردستان » في العراق .

*** تكاد لا تخلو قصيدة من قصائد بلند الحيدري من ذكر الموت أو من ظلاله إلاَمَ تعزو ذلك ؟**

ـ في البدء كان الموت قريبا إلى نفسي ، شفافا حميا ، وعلى مثل ما نتلمسه عند الشعراء الرومانسيين عادة ، عبر تلك العلاقات الأليفة بين الحب والموت . كان ملجأ وهميا أنتبذ فيه زاوية أتأمل منها ألم الآخرين . ثم كان قاسيا يوم أن اخترق حياتي العائلية بوفاة والدتي ، ومن ثم والدي وهما دون الخامسة والاربعين من عمريهما . ويوم أن سرق مني أعز صديقين لي وأكبر رائدين للحداثة الشعرية والفنية في العراق : بدر شاكر السياب وجواد سليم وهما في شرخ شبابهما .

وكان لي أن التقيته غير مرة ، وعلى بعد ذراع مني وأن أذهب إلى حيث ينفذ بي حكم الإعدام ، وكان بيني وبينه خمس دقائق فقط . وفي المرة الثانية عندما هوت بي سيارتي من أعلى قمة في « برمانا » بلبنان فحمتني من الهوة السحيقة شجرة علقت بها سيارتي ، وأنقذتني من الموت المحتم ، والثالثة عندما أدخلت قبل سنتين وأنا في كندا إلى غرفة العناية الفائقة ، بسبب ذبحة صدرية .

واليوم وأنا في الستين علي أن أتآلف معه بمعنى أنه جزء من الحياة وليس نقيضا لها .

الولادة الشعرية

*** هل يعني لك شيئا أنك ولدت في نفس السنة التي ولد فيها بدر السياب وعبدالوهاب البياتي ، أي سنة ١٩٢٦ ؟**

ـ ما كان ليعني شيئا لولا أننا ولدنا مرة ثانية بعد عشرين عاما ، ففي سنة ١٩٤٦ صدر ديواني الأول « خفقة الطين » وفي أواسط عام ١٩٤٧ صدر ديوان بدر شاكر السياب « أزهار ذابلة » وصحبهما ديوان « عاشقة الليل » لنازك الملائكة ، وبهذه الدواوين الثلاثة ، كانت فاتحة التجارب الحديثة في العراق والتي تواصل معها عبدالوهاب البياتي .

*** وفي أي نقطة كانت تلتقي تجاربكم ، وفي أي نقطة كنتم تختلفون ؟**

ـ كنا نلتقي في مساعينا من خلال ثلاثة منطلقات رئيسية هي : أن نجد أنفسنا في العصر ، والتراث ، والواقع المحلي . في الأول منها أننا خرجنا على المفردة القاموسية إلى المفردة المأنوسة بغية تكثيف الاحساس بأهميته لا بمعناها فحسب ، بل بما يصحبها من تداعيات في ذهن المتلقي ، وخرجنا على وحدة البيت إلى وحدة القصيدة ، ومن رتابة موسيقا القصيدة القديمة إلى إيقاعية جديدة ، تنبع من محتواها وتتشاكل معه وبأثر منه ، بحيث يكون لكل قصيدة موسيقاها الخاصة بها ، والتزامنا بنظام التفعيلة الخليلية ضمن توزيع جديد لها ، كنا نعبر بصدق عن واقعنا المحلي .

واختلفنا في أن كلّا منا كان له مسعاه في أن يميز نفسه بخصوصيته الأدائية والتعبيرية ، فما كان للسياب لم يكن قط لنازك أو لعبد الوهاب أو لبلند ، فلكل منا مناخه الخاص الذي يسمه بسمات معينة .

خصوصية الشاعر

*** وما الذي كان لك في هذه الخصوصية ؟**

ـ إذا كان الشعر موهبتي ، فإن النقد قد سعيت إليه سعيا حثيثا لأدركه فهو الذي يعلمني كيف أجترح لنفسي ما يميزها بطابعها الخاص . ولأنني كنت على علاقة وثيقة بالفنان جواد سليم الذي تمت على يديه أهم انعطافة في الفن التشكيلي الحديث ، وإعجابه بالواسطي ومحاولته بعثه مرة أخرى برؤية حديثة ، أقول لعلاقتي بجواد سليم ، ما حفزني للافادة من الأبعاد الجديدة في الرسم والنحت والنظر في إمكانية توظيفها في القصيدة .

ولأنني مؤمن أيضا بأن الموهبة وحدها لا تخلق للقصيدة تمايزها وتفاضلها ، ، فلا بد من أن أعرف الصنعة ، ولكنها الصنعة التي تخفي الصنعة بحيث يظل للقصيدة ما يهبها عفويتها الضرورية من كل تلك المقومات لمنهجيتي الأدائية . حاولت منذ ديواني الثاني « أغاني المدينة الميتة » الذي صدر عام ١٩٥١ أن أتلمس أسلوبي الخاص بي ، وذلك من خلال بعض المعطيات التشكيلية ومنها :

أن أختزل قصيدتي إلى أقصى حد ممكن ، فأتجنب ثرثرة التفاصيل الزائدة لأبقي للمتلقي أن يتعاون معي في إتمامها ، وقد أشار جبرا ابراهيم جبرا إلى ذلك في مقدمته لهذا الديوان . إذ أطلق عليه « الأسلوب البرقي » الذي يسعى للايحاء بأكبر ما يمكن من مضمون القصيدة ، وبأقل ما يمكن من الكلمات . ثم تكرار الحدث الواحد على زمنين ، وضمن طرفين متناقضين وذلك للايحاء بالبعد الثالث وخروجا على المنهج التسطيحي المألوف في القصيدة العربية . كما في قصيدة « حب قديم » .

لقد وظفت ما توافر لي من اطلاع على المنهج الفرويدي في علم النفس ، ودور الأحلام كوسيلة للتعبير عن العوالم المكبوتة في النفس

الانسانية ، وبحيث يكون الحديث الخارجي مجرد إشارات رمزية لتلك العوالم المكبوتة .

*** لكن ماذا عن تجربتك الشعرية الأولى ، وبالتحديد أول ما كتبت ؟**

ـ بداية محاولتي الشعرية كانت باللغة الكردية ، حيث كنت أسكن وعائلتي في « السليمانية » ثم انتقلنا إلى « أربيل » وهما مدينتان في شمال العراق . ومن ثم انتقل والدي بحكم وظيفته في الجيش إلى « بغداد » حيث استقر بي الأمر . فتحولت عن تلك البدايات إلى القراءة والكتابة باللغة العربية . ولقد قيض لي أن أتعرف إلى الشاعر الكبير « معروف الرصافي » الذي كان يسكن مدينة « الفلوجة » وكان محافظها زوج عمتي . كنت معجبا بالرصافي وشخصيته ، وطلب مني أن أحفظ شعر المتنبي ، وكنت أكره عنجهيته . كنت أكثر ميلا إلى أبي العلاء .

*** الشعراء الذين تلمذت عليهم كلهم من الشعراء التقليديين ، فما الذي حدا بك إلى تغيير مسارك الشعري ؟ وهل لظروف عصركم دور في هذا المنهج الشعري الجديد ؟**

ـ حاولت أن أشق طريقي في ذلك الوقت من خلال إطار التجربة الشعرية الكلاسيكية . إلا أنني سرعان ما أحسست أن تغيرا قد طرأ على مجتمع بغداد كله خلال الحرب العالمية الثانية ، وثمة حقائق قد تغيرت تغيرا كاملا . وهذا التغير لم ينعكس على الشعر فحسب . بل انعكس على مختلف الميادين الفكرية بشكل عام أيضا . ففي الفن التشكيلي كان جواد سليم مثلا ينقل الفن كله إلى مرحلة جديدة عبر الالتفات الى الفن الإسلامي ، ومحاولة استغلاله برؤية معاصرة . وفي مجال المعمار سعى كل من المهندسين محمد مكية ورفعت الجادرجي وقحطان المدفعي وغيرهم إلى أن يمازجوا ويداخلوا بين التجربة البنائية الحديثة وبين معطيات المعمار الإسلامي العربي . وفي القصة كان عبدالملك نوري وفؤاد التكرلي يحاولان أن يخرجا بقصصهما من أسر القصة « المقالية » التي شاعت على يد ذي النون ايوب ، وتبني أسلوب « تشيكوف » ، وأحيانا الاغراق في الحداثة على مثل ما تألقت عند جيمس جويس في « عولس » . وقل مثل ذلك بالنسبة للشعر ، فثمة واقع حياتي قد تغير ، وأن الواقع الجديد بحاجة إلى لبوس فنية جديدة ، فكما يقول « هيجل » ما كان الأسلوب الكلاسيكي أن يوجد لولا وجود مضمون كلاسيكي . وما كان لأسلوبنا الشعري أن يوجد لولا وجود معطيات حياتية جديدة ، فأنا لا أستطيع أن أقول :

قف . . . لا تعبر
ماذا في صحف اليوم
اعلان باللون الأحمر
خذ قرصا . . . قرصا للنوم
لن اقرأ . . . لن اقرأ . . . لن . . .
سأنام بلا قرص للنوم .

إلا بهذا الاسلوب الذي يستطيع أن يتعامل مع مضمون القصيدة ، وأن يكثف لغتها التعبيرية . ثم إننا مددنا بأعناقنا إلى كل ما يمكن أن نوظفه في شعرنا من تجارب الشعراء الغربيين : إليوت ، اديث سيتول ، الرمزيين الفرنسيين والرومانسيين الانجليز . ولما كانت لغتنا الانجليزية قاصرة عن إدراك تجارب الشعراء الأوربيين ، فقد كنا نستوحي ونستلهم معطياتهم وآراءهم في الشعر ، ومن دون أن نسقط فيها . حاولنا أن ندرك أنفسنا في واقعنا وتراثنا وعصرنا .

بالنسبة لي فقد تأثرت شخصيا بالكثير من آراء أصدقائي الفنانين التشكيليين ، وعلى الأخص جواد سليم ، ومن ثم إدخال الكثير من القيم التشكيلية إلى قصيدتي : ألوان الانطباعيين الفرنسيين ، مفهوم الفراغ كما هو عند « هنري مور » ، الإيحاء بمنظور زمني من خلال توزيع الحدث الشعري على زمنين متباينين

سمات التجربة

* كيف تحدد سمات تجربة جيلكم ؟

ـ على الرغم من أن لكل من بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبدالوهاب البياتي وأنا صوته الخاص الذي يختلف كل الاختلاف عن الآخر . فقد كان منطلقنا إلى حداثتنا يتخذ ثلاثة مسارب رئيسية : بدأنا أولا من المفردة ، فهي عندنا مفردة مأنوسة ومألوفة ، وذلك يهبها بعدها الإيمائي في ذهن المتلقي ، فإذا كان لي أن استخدم كلمة « مدية » أو « سكين » لفضلت الكلمة الثانية على الأولى لما فيها من زخم في الصور المتداعية في ذهن القاريء ، وبأثر من الواقع الحياتي الذي نعايش فيه السكين معايشة يومية ، لابد أن يكون لها إيحائيتها التي لا تحملها كلمة مدية ، الثانية تحمل غنى في الصورة ، والأولى ليست بأكثر من مفردة قاموسية توحي بمعنى معين .

ثانيا : القصيدة الكلاسيكية كانت تقوم على أساس البيت الشعري ، وتنمو نموا طابقيا ، طابق فوق طابق كالعمارة الحديثة ، ومن دون أن يكون ثمة علاقة بين الحياة في كل طابق ، أي لكل بيت حياته الخاصة ، وتكاد القافية أن تكون القفل الذي ينتهي عنده المعنى ، وليس ما يجمع بيتا ببيت آخر يليه إلا شكل العمارة ، وهو الوزن الشعري وايقاع القافية ، أما مع قصيدتنا فثمة نمو عضوي كامل يحتضنها ، ومن كل أطرافها : الفكرة ، وموسيقا القصيدة بحيث لا يمكن أن تحذف أي كلمة دون أن تخل ببناء القصيدة ، لقد انتقلنا من شعر البيت إلى شعر القصيدة ، ومن الوحدة الشكلية إلى الوحدة العضوية .

ثالثا : كانت موسيقا القصيدة الكلاسيكية أشبه ما تكون بإطار للصور الشعرية ، فهي لا تتعاطف مع مضمونها ، فلو أخذنا معارضات « ياليل الصب » وأوصلنا بعضها ببعض لوجدنا أن موسيقا هذه المعارضات كلها متشابهة على الرغم من تباين مضامينها واختلافها كليا . أما في شعرنا فالموسيقا تنفجر من المضمون وتعود إليه لتكثفه ، إنها جزء من أجزاء القصيدة ومن قدراتها التعبيرية .

التراث والمعاصرة والخصوصية المحلية

*** وأقول بصراحة إن هذه الخصائص الإبداعية التي تميز بها جيلكم ، هي بعض مقومات وخصائص الشعر الفرنسي في القرن التاسع عشر . فكيف تفسر هذا التشابه ، لاسيما أن بعض جيلكم لم**



● ت . س . اليوت



● شاكر السياب



● عبد الوهاب البياتي

يكن يتقن اللغة الفرنسية . هل يعني ذلك أنكم تأثرتم بشكل مباشر أو غير مباشر بالشعر الفرنسي ؟

ـ قلت : إننا تأثرنا بمقومات الشعر الأوربي ، ولذلك ربما كان لهذا القول جانبه الايجابي . أي أننا لم نسقط على سطح القصيدة الأوربية كما يحدث الآن عند آخرين ، فيتحولون إلى مترجمين للشعر الأوربي وليس إلى مبدعين في خصوصياتهم الأدائية . عندما سمعت بالتكرار عند « اليوت » وسمعت اسطوانته التي سجل عليها عددا من قصائده حاولت الإفادة من تجربة التكرار التي لديه . ثم عندما وجدت أنه يعود إلى لازمة تمسك بالقصيدة من أولها ووسطها وآخرها ، حاولت أن أوظف مقومات شعر إليوت وليس شاعريته وقل مثل ذلك بالنسبة لبدر السياب . وعندما أخذنا من الميثولوجية الأوربية أعطيناها كثيرا من خصوصيتنا المحلية . ولما وعينا إلى حد ما ، تجربتنا بشكل ذهني حاولنا أن نؤطرها بهذه الخصوصية ، قلنا بضرورة أن نجد أنفسنا في تراثنا وعصرنا ، وفي خصوصيتنا المحلية ، فصارت هذه المقومات الثلاثة نهجا في تجربة الحداثة . كنا متواصلين مع التراث ، فهناك موسيقا الشعر القديم ، وهناك الواقع المحلي الذي كنا نوظفه بأحداثه الاجتماعية والشعبية ايضا ، وهناك الرؤية العصرية التي وصلنا إليها وأردنا أن ننطلق منها إلى الحداثة . نحن لم نقع في ربقة التجربة الأوربية . استفدنا من الرؤية الحديثة ومن المقومات التي وصلتنا عن مفاهيم الشعر الأوربي .

*** أرجو أن تحدثنا عن تجربة صديقك بدر وعن علاقتك به .**

ـ كان بدر صديقا حميما لي ، وقال فيّ الكثير الكثير . وقد اعترف بتواضعه أن ديواني « خفقة الطين » ، كان هو البداية لتجربة الحداثة . وعلى الرغم من هذا القول ، فالحداثة لم تكن من عمل شاعر واحد . « فالعصفور الواحد لا يأتي بالربيع . » والبداية لم تأت منا فقط ، كانت هناك مؤثرات كثيرة أدت إلى تجربة الحداثة . فلأحمد علي باكثير دور ، وللزهاوي ونبذه القافية دور ، ولمسرح شوقي دور ، ولغنائية سعيد عقل دور . لكل هؤلاء الشعراء دور ، ولكنهم جاءوا منفردين بتجاربهم ، ولم تتشكل من خلالهم تجربة حداثة متكاملة ، والذي حدث أننا ولدنا أنا وبدر والبياتي في عام ١٩٢٦ ، ثم إننا ولدنا مرة أخرى بعد عشرين عاما في تجربة الحداثة ، هذا اللقاء الذي حدث بالصدفة تماما كما حدث في الأدب الفرنسي مع رامبو وفرلين وبودلير . وكما حدث في الأدب الانجليزي مع ورد ورث وكولوريدج وشلي وبايرون وكيتس ، هذه اللقاءات بالصدفة تخلق التجربة وينتج عنها رؤية لمدرسة حديثة وهذا ما حدث مع الفنانين الانطباعيين والسرياليين أيضا . أي أننا توافقنا في الوقوع في هذه التجربة من دون أن نتفق على موعد معين أو منطلق معين . حاولنا أن نتعلم مما درسناه ، كما استطعنا أن نتواصل مع التجارب الأوربية .

*** هل هناك ظروف ساعدت على التقائكم وتقاربكم ؟ وما هي طبيعة العلاقة بينكم ؟**

ـ نحن انطلقنا من بيئات مختلفة كل الاختلاف : فنازك من عائلة محافظة جدا ومتدينة ، وبدر جاء من قرية فقيرة جدا ، وأنا متحدر من عائلة برجوازية لها مكانتها في المجتمع . ومع ذلك التقينا واتفقنا على مقومات القصيدة الحديثة . أشد هؤلاء الشعراء قربا مني كان السياب . غالبا ما كنا نلتقي فنخرج ونسهر معا . وكان بدر ظريفا جدا ، وكان ثمة خلاف بينه وبين عبدالوهاب البياتي . كنا نزور احيانا صديقنا المهندس قحطان المدفعي العائد لتوه من انجلترا ومعه اسطوانات شعرية منها لديلان توماس المتميز شعره بايقاعات غير مألوفة في الشعر الانجليزي ، واسطوانات لإليوت ولإديث

سيتول ، وكنا نمضي ردحا من الليل نستمع إلى تلك الأشعار . ثم عندما جاء جبرا ابراهيم جبرا إلى بغداد ، وكنت أول من تعرف إليه ، ومن خلالي تعرف بجواد سليم ومن ثم بالسياب . بعد ذلك أصبحت غرفة جبرا محجتنا التي نلتقي فيها . وكان لجبرا - المطلع اطلاعا واسعا على الأدب الأوربي وعلى الأخص الأدب الانجليزي - دور كبير في تعميق وعينا بشعرنا ، وكنا لا نستطيع تجاوز نصائحه في موضوع القصيدة . وكان يعرف كيف ينمي في كل منا قابليته الخاصة ، لادراك نفسه في خصوصية تجربته الشخصية .

البذور الأولى

*** بعض مؤرخي حركة الشعر الحديث يقول : إن هذا الشعر ولد في العراق ، وبعضهم يقول : إنه ولد في مصر وأول من كتبه لويس عوض ، وبعضهم يقول : إن أول من كتبه الشاعر الأردني مصطفى وهبي التل المعروف بعرار سنة ١٩٤٢ ، وبعضهم ينسبه إلى أحمد باكثير . هل نفهم مما قلت مسبقا أنه نشأ أولا في العراق ومن ثم امتد إلى بقية أقطار الوطن العربي ؟**

- البدايات موجودة دائما ، فالسريالية والرمزية والانطباعية موجودة في أقدم تجارب شعرنا العربي . الانطباعية لم تُولَدْ مع « مونيه » الرسام الفرنسي ، بل انها ولدت مع « تيرنر » . لكن هذا اللقاء الذي تم بين نخبة من الشباب هو الذي أعطى الأهمية لولادة منعطف شعري واضح المعالم ، والشعراء الذين تفضلت أنت بذكرهم وعلى الأخص أحمد علي باكثير ولويس عوض فهما أقرب إلى تجربة الحداثة .

*** لم يؤرخ لحركة الحداثة بشكل دقيق ، فمثلا كمال خير بيك يخلط أحيانا في رسالة الدكتوراة التي كتبها بالفرنسية سنة ١٩٧٢ ، بين جيل الرواد والذين تبنوا تجربتهم مثل ادونيس والخال والحاج وحاوي . . . هل تعتبر تجربتهم امتدادا لتجربة جيل الريادة ، أم أنهم جاءوا بشيء جديد ؟**

- باختصار شديد هذا اللقاء الخاص بين بدر ونازك وبلند وعبدالوهاب نتج عنه منطلق واضح المعالم لتكوين مدرسة شعرية . ثم تطورت هذه المدرسة ، وأخذت أبعادا جديدة على يد صلاح عبدالصبور وخليل حاوي ويوسف الخال وادونيس وعلي الجندي وأحمد عبدالمعطي حجازي إلى آخر هذه الأسماء التي تبنت تجربتنا وطورت فيها وأثرتها ومنحتها اتساعا وابعادا أخرى . □

الأسماء والشعوب

● أسماء الرجال في بعض قبائل الهنود الحمر بأمريكا تتكون أحيانا من ٤٠ أو ٥٠ حرفا أبجديا ، لأنهم كانوا يضيفون حرفا إلى أسمائهم الأصلية كل عام ؟

جرت العادة في بعض مناطق الصين على تسمية الأطفال بأسماء قبيحة منفرة ، حتى تشمئز منها الشياطين فلا تحسدها وتؤذيها .

من عادة بعض أهالي جزيرة « بالي » بأندونيسيا بيع الأسماء وشرائها ، والأسماء التي تجلب الحظ لصاحبها تباع هناك بأثمان خيالية .

مباهج العيدين في اليمن في الماضي والحاضر



● الجوخ الذي كان يرتديه عِليةُ المجتمع .

بقلم : اسماعيل بن علي الأكوع*

تتشابه ملامح الاحتفال بالأعياد في وطننا العربي ، ولكن يبقى لكل بلد ملامح خاصة به ، والكاتب يصحبنا إلى الجمهورية العربية اليمنية في رحلة سريعة ، نشاهد فيها ملمحاً خاصاً عند الاحتفال بالعيدين قديماً واليوم .

الاهتمام بالعيدين ـ عيد الفطر وعيد الأضحى ـ واستقبالهما بمظاهر الحفاوة والسرور ، سنة ثابتة عند المسلمين جميعا ، في شتى ديارهم وأقطارهم ، منذ عصر النبوة إلى اليوم ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولكن التقاليد والعادات والأعراف المتبعة التي رافقت الاحتفاء بهما تختلف وسائلها وأساليبها من قطر إلى آخر .

فاليمن ـ وأقصد به سكان حواضره في الغالب ـ ينتظر أهله قدوم العيد بمشاعر الفرح والابتهاج ، على الرغم مما كان يعاني أكثرهم من ضيق ذات اليد ، ومع ذلك فإن ربَّ كل أسرة يستعد لاستقباله ، بمقدار حاله ، فيسعى لإحضار حوائج العيد ولوازمه ، من شراء الملابس الضرورية لأفراد أسرته ، ولا سيما الأطفال ، واختيار أصنافها وأنواعها ، إذ أنه كان

* قاضٍ وكاتب من الجمهورية العربية اليمنية

لكل طبقة من طبقات المجتمع ملابسها الخاصة التي تميزها عن غيرها ، بعد أن صُنف الشعب اليماني في القرون الوسيطة والأخيرة إلى طبقات مختلفة ، بعضها أعلى من بعض ، من أجل بقاء الحكم في يد فئة من الناس ، بحكم انتمائها نسباً إلى علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين رضي الله عنه وعنهم جميعا ، فيتميز بعض أسر هذه الفئة عن غيرهم بطريقة لفّ طيّات عمائم رجالها التي يجعلونها متدرجة من أعلى إلى أسفل في الجانب الأيمن من العمامة ، ومن أسفل إلى أعلى في الجانب الأيسر ، كما أن هؤلاء يتمنطقون بالتُوزة وهي حزام مطرز بخيوط الحرير والفضة ، وله بطان من الجلد المقوى ، ويثبت في الثلث الأول منه قِراب الخَنْجر (الجَنْبِيّة) المصنوع من الفضة الخالصة المطعمة بالذهب واللازورد ، الذي يضعون غمده في الطرف الأيمن من البطن ، فيكون أقرب إلى الجنب الأيمن منه إلى وسط البطن ، ولعل هذا هو سبب تسمية الخنجر بالجَنْبِيّة ، وتلبس التُوزَةُ من فوق الجلاّبة أو الجُوخ أو الصّاية ، بينما عمائم العلماء والأعيان مكورة ذات أحجام ، ويتمنطقون بالتوزة ، لكنهم يضعون غِمْد الخنجر وسط البطن ، ويتلو هذه الطبقة طبقة التجار ، وهم أيضا أصناف ، فصنف تجار البَزّ (الأقمشة) والعطور والفتْلة ، ويلبسون لباس العلماء ، إلا أن أعيانهم إذا لبسوا الجوخ فلا يحتزمون عليه ، وإنما يحتزمون من تحته . أما ملابس سائر التجار الآخرين فهي متشابهة نوعا وكيفا إلى حد ما ، وكذلك ملابس ذوي المهن الأخرى كالنجارة والحدادة والخياطة ، بيد أن ملابس ذوي المهن التي كانت تعتبر أدنى المهن كالحلاقة والجزارة ، وكذلك القائمين بخدمة الحمامات العامة ، فلهم ملابسهم الخاصة ، وهيئتهم المتميزة بهم .

التجهيز للعيد :

وكما أن التمايز بارز في ملابس الرجال بحسب طبقاتهم فكذلك الحال في ملابس أطفالهم . وحينما تتم خياطة ملابس العيد يقوم ربُّ كل أسرة بشراء حاجة العيد من الجَعَالة (مجموع من الزبيب واللوز وأصناف متعددة من السكريات) ، كما أنه يهتم بشراء حوائج العيد (أصناف التوابل والبهارات) التي لابد منها للحوم الأضاحي . بينما تهتم ربةُ البيت بإخراج حاجة العيد من البُرّ (الحُنطة) لتنقيته وطحنه في مطاحن البيت التي تدار رحاها باليد ، كما كانت العادة إلى عهد قريب ، قبل أن تنتشر الطواحين الحديثة الآلية ، وتعهد بذلك إن كانت من ذوي اليسار إلى طحّانة تأتي إلى البيت للقيام بذلك ، وإلا فإن نساء كل بيت يقمن بطحن حاجة العيد بأنفسهن ، وكان شهر ذي القِعدة ـ الذي تسميه نساء المدن شهر الطحين ـ هو الوقت الذي يتم فيه طحن حاجة أيام عيد الأضحى وبقية أيام شهر ذي الحجة من البُرّ والشعير والذُرة بنوعيها ، فإذا فرغت المرأة من أمر الطحين تحولت إلى العناية التامة بنظافة البيت ، وتجديد طلائه ، بالقُصّ أو بالنُورَة إذا كان محتاجاً إلى ذلك ، وقد تكتفي ربة البيت إذا كان نظيفاً بإزالة الغبار العالق بالجدار بالمِنْفَضة ، وملء الحُفَر والخُدوش التي قد توجد بفعل عبث الأطفال بمعجون القص ، ثم تجصيص ما تصل إليه اليد بالمبيضة من سائل المادة نفسها .

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة صنع كعك العيد بأنواعه والكُبّان وهو نوع خاص من خبز الذرة المعجون بطريقة خاصة ، ويتم إنضاج ذلك كله في البيت ، ولم يكن معهوداً أن يرسل إلى الأفران العامة ـ كما هو الحال اليوم في كثير من البيوت ـ فإذا انتهت ربة البيت من أمر الكعك ذهبت هي ومن في البيت من النساء والبنات إلى أحد الحمامات العامة في الأيام المخصصة للنساء للاستحمام ، وفي اليوم أو الليلة التي يسفر عنها العيد تتخضبُ النساء بالحناء في الأيدي والأقدام ، وكذلك الأطفال من الإناث ، وأحياناً الذكور ، ثم تضيف النساء بعد الحناء العَنَم

(الخضاب الأسود) لأنامل اليدين والرجلين ، وقد تستعمل النساء الشابات المتزوجات النقش (الخُطُط) في الأيدي والأقدام ، المعروف لغةً بالعَلَط ، وفي الخدود أحياناً ، وهو من مادة العَنَم أيضاً ، فإذا حلت ليلة العيد أخذت كل واحدة زينتها .

ليلة العيد :

وفي اليوم السابق ليوم العيد ، ويسمى في عيد الفطر يوم الوَقْفَة تجوزاً ، من يوم الوقوف بجبل عرفة ، يذهبُ الرجال مع أطفالهم - الذكور - إلى الحمامات العامة ، وفي أصيل هذا اليوم يكَوِّم الأطفال ما جمعوه من فَضَلات الحَطب وفروع الأشجار اليابسة أمام أبواب بيوتهم التي نُظِفت من الأتربة ورُشَّت بالمياه ، وهم ينترون بالطبول التي صنعوها لأنفسهم بأيديهم من جِلْدَة إليةِ الكبش ، وينشدون أهازيجَ العيد مثل قولهم :

والعيدُ عيدَ العافية
عيدَ السعادة والقَبول
والعيد عيدَ العافية
عيدَ الهَرِيْسِ الدَّافية

فإذا ما أطلق المدفع صوتَه ، ورُفع أذانُ المغرب أشعل الأطفال النار فيما جمعوه من الحطب وقرعوا الطبول ، وتحلقوا حول النار ، وهم يدورون حولها ، ويهزجون بأهازيج معينة ، منها :

شعَلَ المَشعِيْل بقَنادِيله
واحْنا جهَّالْ مادَرَيْنا بِه

فإذا كان العيدُ عيد الأضحى الذي يُسمى في اليمن عيدَ عرفة فإن الأطفال يحتفلون به من أول يوم من عَشر ذي الحِجَّة ، فيشترون مجامرَ مصنوعةً من الطين النيء التي يتم تجفيفها بالشمس ، ثم تُطلى بالجص ، وتزخرف بنقوش ومخربشات كيفما يتفق لصانعها ، وتوضع في هذه المجامر نار خفيفة قبل أذان المغرب ، فإذا رُفع الأذان طرح من يملك مجمرة شيئاً من بخور المُرّ والفارعة ، وهما صنفان من البخور الفوّاح ، وأخذ يجولُ مع أبناء حَيِّه في الشوارع ، وهم ينشدون أقوالاً معروفة ، مثل قولهم :

شَمَّ المِرّ والفَارعةْ
والمَهْدِي دَخَلْ وَادِعَةْ
يا جِنّة على الشَّارِعَةْ

والمقصود هنا بالمهدي : لقب من الألقاب التي كان بعضُ الأئمة يختاره لقباً له بعد قيامه إماماً ، والوادعة التَبِيعُ التاسع من قبيلة بني صُرَيْم من حاشد ، ومنها تفرعت وادعة عسير ، ووادعة هَمْدَان صنعاء ، أما الشارعة : الوصيفة التي تقوم بإعداد العروس وتزيينها عند زفافها إلى عريسها ، وهي التي تقوم بتخضيب النساء بالحناء في المناسبات السارة ، والقيام بخدمة النساء في الحفلات . ومعنى ياجنّه على الشارعة دعاء بعون الجَانّ لها أو عليها لكثرة أعمالها في الأعياد وغيرها من المناسبات .

وتستمر هذه الطريقة كل ليلة حتى ليلة العيد ، وما أبهج ليلة العيد وأجمل ذكرياتها عند الأطفال ، فهي العيدُ الحقيقي عندهم ، ففيها يعودُ ربُّ الأسرة بملابسهم من عند الخياط ، فيأخذ كل منهم ما يخصه منها ، ويلبسها ، بعد أن يطأها بقدمه ، ويقول : أنتِ البالية وأنا الجديد ، ليقيسها على جسمه ، ويتباهى بها أمام إخوته تحت بصرِ وسمع الأبوين اللذين ليس لأكثرهما من حظ العيد سوى ما ينعكس على قلبيهما من فرح إدخال السرور على أبنائهما ، حتى أن بعض الأطفال لشدة حرصه على عدم مفارقة ملابسه الجديدة ينام وهو لابس لها . وما أن يسطع ضوء الصباح إلا وقد استيقظوا من ذات أنفسهم ، لشدة انتظارهم لذلك اليوم العظيم ، فيتسابقون إلى ارتداء ثيابهم ، ثم يسلمون على أبويهم وإخوتهم الكبار بتقبيل ركبهم ، فيمنحونهم العُوَّادة (العِيْدِيَّة) ، وهي مقدار من المال غير محدود ، وتعتبر هذه العطية فاتحةَ الخير لما يجمعُه كلُ طفل من المال من أهله وأقاربه وجيرانه

احتفال الوالي . . والإمام :

وفي عهد الحكم العثماني الأخير لليمن ١٢٦٥ ـ ١٣٣٦هـ (١٨٤٩ ـ ١٩١٨م) كان الجيش يخرج من ثكناته ، تتقدمه موسيقاه ، فيصطف على جانبي الطريق ، من دار الحكومة في الميدان (ميدان اللَّقِية) إلى المَشْهد ، ثم يخرج الوالي العثماني راكباً عربته التي يجرها جوادان مطهمان ، يتقدمه كوكبةٌ من الفرسان (السُّوارية) وخلفه كبارُ رجال دولته ، فتطلق المدافعُ أصواتها حين خروج الوالي من دار الحكومة ، وكذلك عند وصوله إلى المَشهد ، ثم عند انتهاء الخُطبتين بعد صلاة العيد ، ثم يعود الوالي إلى دار الحكومة ، فيقف عند النافذة الرئيسية ، وتقف تجاهه الجوقة الموسيقية ليشاهد (العرَاضة) العرض العسكري الذي يمر أمامه ، فيمر حملةُ الأعلام ، فطلبةُ المدرسة الحربية ، ثم سرايا الجيش النظامي سريةً سريةً ، يتقدمها أميرُها رافعاً يده بالتحية للوالي ، وبعد انتهاء مرور الجيش تمر الأسلحة الخفيفة ثم الرشاشات المحمولة على البغال ، ثم المدافع التي تجرها البغال . فإذا انتهى العرض العسكري تحول الوالي إلى قاعة الاستقبال ، فيستقبل العلماء وأعيانَ صنعاء ورجالَ الدولة وضباط الجيش ، ويدار عليهم أصناف المرطبات والحلويات فمجامر البخور ثم يُضَمَّخون بالعطر .

وقد ورث الإمام يحيى بن محمد حميد الدين هذه العادات والتقاليدَ بعد دخوله صنعاء في صفر سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٩م) ، في أعقاب الحرب العالمية الأولى التي هزمت فيها الدولة العثمانية هي وحليفتها ألمانيا ، فسلم محمود نديم باشا الوالي العثماني بأمر من السلطان محمد رشاد ما كانت الدولة العثمانية تَحكُمه من اليمن إلى الإمام يحيى الذي استُدعي من السُّودة عاصمته المؤقتة إلى صنعاء ، فسار على سَنَن الولاة العثمانيين ، فكان يخرج من داره في أزهى ملابسه المُزركشة ،

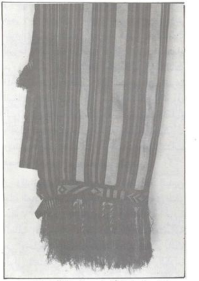


● الجلاية التي كان يلبسها الامام .

وأصدقاء والده في مثل هذه المناسبة السَّارَّة . وما أروع منظر الأطفال وقد عادوا إلى بيوتهم وهم يحملون من المال مقداراً لا يحلم طفل بجمعه في سائر الأيام الأخرى ، وجيوبه مملوءة بالحلويات والكعك التي أعطيت له أثناء تطوافه في بيوت الأعمام والأخوال والأقارب فيفرغ جيوبه مما فيها ، ثم يَعُدُّ حصيلة العيد من المال ليرى مَن مِن إخوته أو مِن زملائه قد جمع أكثر من غيره .

فإذا كان العيدُ عيدَ الفطر فإن ربَّ الأسرة يُخرج ما يجب عليه وعلى من يعوله من زكاة الفطر ، من أوسط ما يطعم أهله ، وإعطائها من يستحقها في ذلك اليوم قبل صلاة العيد ، كما هي السنة ثم يتجه الناسُ إلى المَشهد (الجَبَّانة) زرافاتٍ ووحداناً لأداء صلاة العيد .

وتتدلى من عمامته المزركشة ذُؤابتان ، إحداهما من اليسار ، ويصل هُدبها إلى أعلى صدغه الأيسر ، والأخرى يرسلها خلفه ، فتصل إلى وركه ، ويمشي على قدميه متوشحاً سيفه ، ويمشي خلفه أولاده ، وكبار رجال دولته ، ثم يعود بعد الصلاة والخطبتين راكباً جواده الأبيض . وأمامه عكْفَتُه (حرسه الخاص) ينشدون الزَّوامل (وهو نشيد خاص بالقبائل) ، وأمامهم حاملو الطبول وهي تقرع قرعاً يسمى السَّراحي ، وهو قرع يتناسب مع حركة الأقدام عند المشي . ولما شاخ الإمام كان يركب عربة يجرها جوادان في الذهاب إلى الجَبَّانة وفي العودة منها إلى داره ، ثم يجلس عند نافذة فوق الباب الرئيسي لداره فيستعرض الجيش ، كما كان يفعل الولاة العثمانيون على نحو ما سبق بيانه ، وإذا



● المصنف وكان يُلتحف به فيتدلى أحد طرفيه من فوق الكتف الأيسر إلى الأمام ، ويلف من الخلف ليظهر الطرف الآخر من الجانب الأيمن ويوضع خلف الجنبية .

انتهى العرض تحول الإمام إلى مجلسه يستقبل المهنئين له بالعيد من العلماء والأعيان ورجال الدولة وضباط الجيش وكبار التجار وغيرهم وهو جالس ، ويضع على ركبتيه قُوّارة وهي قطعة مربعة مؤلفة من أنواع متعددة من البَزّ حتى لا تتسخ الجَلّاية المُزَرْكَشة ، المصنوعة من الحرير الخالص وخيوط الذهب التي يرتديها ، وذلك خلال تقبيل المهنئين ركبتيه ، إذ كان لا يقف لأحدٍ مسلماً فيصافحه مصافحة الند للند ، إلا لنفر معدود ، أبرزهم شيخ الإسلام علي بن علي اليَدُومي ، وسيدنا حُسَين بن علي العَمْري ، وسيف الإسلام أحمد بن قاسم حميد الدين ، وسيف الإسلام محمد بن المحسن ، وأما بقية العلماء الكبار فإن الإمام كان يكتفي منهم بتقبيل يده ، وما عدا ذلك فجميعهم يقبلون ركبتَيْه ، وحينما يفرغ المهنئون من السلام على الإمام يُقدَّم لهم الكعك وجعالة العيد ويُطيَّبون بماء الورد أو بالعطر ، ثم تدار عليهم مجامرُ العُود وبعد ذلك ينصرفون .

عيد الأضحى عشرة أيام :

وينتشر الناس في ذلك اليوم لزيارة الأرحام ، وصلتهن بما يعتادين من المال في مثل هذه المناسبات ، ويسمى العُوَّادَة أو العَسْب ، ثم يتبادل الأصدقاء والأحباب الزيارات وتبادل التهاني ، والدعاء لبعضهم البعض عند المصافحة بما كان شائعاً آنذاك ، مثل « أعادكم الله إلى أمثال هذا العيد في سلامة وعافية وزكّى أعمالكم الصّالحات » .

وإذا كان ذلك اليومُ هو يومَ عيد الأضحى فإن الاهتمام عند من يملك أُضْحِيَّة يَنْصبُّ على البحث عن جزار ، ليذبح له أُضحيته التي تسمى « العَليف » لمضي عام عليها ، وهي تُعْتَلف في مقصورة خاصة في البيت بجوار المطبخ تدعى « المَحْنَذة » .

وفي اليوم الثاني من أيام العيد يخرج الناسُ وهم يرفلون في ملابسهم الزاهية الألوان ،

المتعددة الأصناف والأجناس ، فيذهبون مع موكب الإمام للدورة إلى أحد أرباض صنعاء ، وغالباً ما تكون إلى جبل نُقُم المشرف على صنعاء من جهة الشرق ، ويخرج مع الإمام أولاده وأعيان دولته ، وسائر طبقات الناس مشاة وركبانا ، فمنهم من يمتطي الخيل ، ومنهم من يركب البغال ، ومنهم من يركب الحمير بحسب طبقاتهم ، والكثرة الساحقة يمشون على الأقدام ، وحينما يستقر الموكب في المكان الذي ينتهي إليه المَسير يتبارى بعض الخاصة من كبار رجال الدولة بالرمي على نَصَع (هدف) يُنْصب في مكان بارز ، ليشاهده النظارة ، فيعرفوا من هو الفائز بإصابته ، ثم تقام حَلْبة لسِبَاق الخيل ، يشترك فيها عددٌ من الفرسان ، وغالباً ما يكون في مقدمة المشتركين فيها بعضُ أبناء الإمام ، وتنتهي بالإعجاب الشديد للمُجَلي من الفرسان ، كما تقام حلقات للبَرَع (الرقص الشعبي) ، ثم يعلن بواسطة النفير (البورزان) قيام الإمام للعودة إلى صنعاء ، فتُقْرَع الطبولُ أمامَه ، وينشد عُكَفُتُه (حرسه) الزوامل المختلفة ، ويقوم سلاح الفرسان باستنهاض خيلهم لترقص على إيقاع الطبول ، كذلك فإن كلَّ فئة من الشباب من ذات المستوى الاجتماعي المتقارب تجتمع في صفوف متراصة متقابضة الأيدي ، تهزج بأقوال مسموعة ومحفوظة ، وهي تجري في حركات منتظمة سريعة أحياناً ، وبطيئة حيناً آخر ، وتنقسم إلى فريقين ، فريق ينشد البيت الأول ، وفريق ينشد البيت الآخر ، ثم يتتابع الإنشاد ، مثل قول الشاعر عبدالرحمن بن يحيى الآنسي :

يـاطَيْرُ يـاناشِـر بضَـوِّ بـاكِـرْ
أوْحَشْتَ بالفُرقَةْ غُصون الأشْجارْ
فـإنْ كُنتْ لا صِنعا اليَمن مُسـافِرْ
فبـالنبي والصالحين الأخيـارْ
أن تبلغ الأَحْبـاب سـلامْ عـاطِرْ
منّـا وعنّـا خُصَّـهُمْ بـاخبَـارْ
وكـلُّ أخْبـار الهَـوى نَـوادِرْ
يَحْمَى عليهـا المـا وتَبْـرَدَ النّـارْ

فإذا بلغ الموكبُ بابَ اليمن (وهو أحد أبواب سور صنعاء الستة) تفرق كثيرٌ من تلك الجموع ، وأخذ كلُّ واحد منهم يسير نحو الجهة التي يقصدها ، ويبقى بقية من تلك الجموع ترافق موكب الإمام حتى باب داره ، وهكذا دواليك في سائر أيام العيد ، وفي اليوم العاشر من عيد الأضحى ، وهو آخر أيامه ، ويسمى يوم النُّشُور ، يخرج موكبُ الإمام على نحو ما سبق ذكره ، فيتجه إلى مكانٍ ناءٍ عن العاصمة إلى حد ما ، لاختتام الاحتفالات بأيام العيد وتوديعه ، ثم يعود الموكبُ إلى بداية انطلاقه ، وتتفرق عنه جموع الناس .

لعب وغنـاء :

أما ما كان يفعله الفتيان والصبيان في أيام العيدَيْن من العادات الخاصة بهم فهو الانصراف بعد العصر إلى اللَّهو واللعب ، ولهم ألعاب كثيرة ، لا يتسع المقام لحصرها ووصفها في هذا البحث ، ومنها لعبة (القَاحِش) وهي خاصة بعيد الأضحى لتوافر مادة هذه اللعبة في هذا العيد ، وتعتمد على (الجلادَة) الكرة التي تصنع من قطع القماش المأخوذة من فضلات الملابس العتيقة فتكور ثم تخاط ، ثم تلف بجلدة إلية الكبش (الطِّلي) الذي قلما يخلو بيت من البيوت في غالب الأحوال من ذبح أُضْحِيَّة العيد فيه ، وذلك حينما لم تكن الكرة المصنوعة من المطاط (الكاوتش) الحديثة قد غزت اليمن ، وكانت هذه الكرة تسمى في صنعاء وذَمار ويَريم (الكُرْت) ، وفي مدينتي إبّ وتَعِز وغيرهما (الطُّبَّة) وكلتا هاتين التَّسْمِيَتَيْن مأخوذةٌ من اللغة التركية التي شاعت بعض مصطلحاتها في اليمن خلال الحكم العثماني لها . وبعد أن يتم إعداد الكرة ينقسم لاعبوها إلى فريقين ، ثم تلقى في الوسط ، فيندفع أفراد كل فريق إلى دفعها بعصاه

إلى هدف الفريق الآخر كما هو الحال في كرة القدم . وتسمى هذه اللعبة (القَاحِش) ، ولعلها مصحفة من جاحَش إذا زاحم القومُ بعضُهم بعضاً ، وهي تشبه ، إلى حد ما ، لعبة (الجُولْف) المعروفة في أوربا وأمريكا ، ولكن ليس للقاحش ما لتلك من نظم وقواعد يسير عليها اللاعبون . وقد اختفت هذه اللعبة منذ عشرين سنة ، وربما أكثر من ذلك .

ومن الألعاب التي كانت خاصة بعيد الأضحى أيضاً لعبة (القُشْعِي) ، وصفتها أن يغطي أحدُ الفتيان وجهَه بجلدة رأس كبش حديثة عهد بالسَّلخ ، فيبدو كأنه كبش ، لدقة إحكام وضعها على وجهه ، لولا أنه يمشي على رجلين ، فيلتفّ حولَه فتيانُ الحي وصبيانه ، فيجوبون معه الشوارع وأمامهم ضاربُ الطبل (المُرْفَع) ، فتثير حركاته الغريبة الضحك في المشاهدين ، وإن كانت رؤيته تُفزع أحياناً بعض الأطفال الصغار الذين لم يألفوا مشاهدة مثل هذا المنظر من قبل ، وقد اختفت هذه العادة منذ أكثر من عشرين عاماً .

أما ما تفعله النساء في أيام العيد ، ففي اليوم الأول منه ، في فترة ما بعد الظهيرة ، يجتمع فروع كل عائلة لدى أكبرهن سناً ، كالجدة أو الوالدة أو العمة أو الخالة أو ما شابه ذلك ، وفي بقية أيام العيد تتزاور ذوات القربى بعضهن لبعض . وتحملُ ربةُ كل بيت لمن تزور من أقربائها نصيباً مما أعدته في بيتها من كعك العيد ، وإذا كان لدى إحدى جاراتها أو إحدى قريباتها سبب للاجتماع عندها كالعرس أو الولادة فإنها تذهب عندها ، ويسمى هذا الاجتماع (التفرطة) ، ولا يحضر مثل هذا الاجتماع أحدٌ من الفتيات العازبات مطلقاً (منذ أن تكون الفتاة قد بلغت العاشرة أو قبلها حتى تتزوج) إذ كان من التقاليد المتعارف عليها أن تتوارى كل فتاة عن أنظار النساء من غير أهلها ، وإذا أريد معرفة أي فتاة لتخطب فما على أهل الراغب للزواج بها إلا أن يعملوا حيلة لاختطاف رؤيتها ، دون علمها أو علم أحدٍ من أهلها ، أو يكتفوا بما يعرفون عنها حينما كانت صغيرة أو بوصف من يعرفها .

وللفتيات نصيبٌ كبير من الأفراح في الأعياد ، إذ تنصب في كثير من أحواش البيوت المستورة أراجيح (جمع أرجوحة) ، وتسمى في اليمن المُدْرَهَة ، وجمعها (مداره) ، فتتقاطر إليها بنات الحي ، وتشدو من جاء دورُها للتأرجح ماغنٍّ لها من الغناء المناسب لتلك الحركة ، وتنصب الأرجوحة بصورة خاصة في حوش بيت ذهب أهله للحج ، فتكون في النهار للفتيات والنساء ، وبعد العشاء للرجال والفتيان ، ولكل من الجنْسيْن أقوال تنشد عند التأرجح .

ولهذه العادة أصلٌ في التاريخ ، فقد ورد في كتاب « السلوك في طبقات العلماء والملوك » لبهاء الدين الجَندي في ترجمة محمد بن عبدالله الجَزَري ما ملخصه :

« أخبرني والدي عن الفقيه أبي بكر السرددي أنه قال : كنت بلَحْج أعلم لبعض أعيانها ، فجرى في بعض الأيام ، في مجلس فيه جماعة يتعانون الأدب ذكر أبي نواس وأبياته ذوات الكافات التي يقول فيها :

أَنْعِمِي بالوَصْل ياسيدتي
وانحلينا عسلاً من عككِك

وكل منهم يدعي أنه يطيق شيئاً من مشابهتها فلم يطيقوا حتى قلت أبياتاً منها :

لَيْتَنِي يادار سلمى لَيْتَنِي
دكّة مفروشة من دِكَكِك

فرُويت الأبياتُ للجَزَري المذكور ، ثم ساقني المقدور إلى عدن ، وعرضت لي حاجة إلى الجَزَري ، فكتبت إليه بسبب حاجتي ، فلما وقف على رقعتي استدعاني إليه ، وأكرمني ، واستنشدني الأبياتَ فرويتها له . وكان في تلك السنة قد حَجّ الملكُ السلطانُ المظفر ، وعَزموا على عمل (مَداريه) وهي التي تسمى (الشَّجَمَات) ، وبعضهم يسميها

(أراجيح) ، وعمل غالبُ أعيان أهل عدن كلُّ واحد منهم أرجوحة ، وهي شيء يعتاد أهلُ اليمن عملَه لمن حَجَّ أولَ حجة ، وعند نصبها إذا كانت لرجل ذي رئاسة قام الشعراءُ بأشعار يمدحون مَنْ عَمِلها ومَن عُمِلَت له ، وواحد (المَدَاريْه) على وزن المفاعيل (مَدْرُوهة) على وزن مفعـولة ، وكـان الجَـزَري قـد عمـل (مَـدْرُوهة) بـاسم السلطان ، فأشار عليَّ أن أعمل شيئاً في ذلك المعنى ، فلما اجتمع الناسُ عند ذلك ، وأراد الشعراء إنشادَ مـا نظموه في ذلك المعنى ، أمرني بإنشاد ما قد عملتُ ، فقمتُ بقصيدةٍ في السلطان ، فرمى عليَّ بكسوةٍ جيدةٍ فتشبه به جماعةٌ من التجار ، ثم رمى لي بدَنانير من الذهب ، وفعل الحاضرون مثله ، فاجتمع لي من الذهب والفضة والكسوة شيء كثير » .

ويتبدل الزمن :

هذا ما كان عليه الحال في الاحتفال بالعيدين إلى ثلاثين سنة خلت ، أما اليوم فقد اقتصر الاحتفال بالعيدَيْن على بعض تلك العادات السالفة الذكر ، مثل شراء ملابس العيد التي يُراعى عند الشراء رغبة من سيُشترى له نوعاً ولوناً وخياطة ، ويفضل شراءُ الثياب المخيطة (الجاهزة) في الغالب ، ولا سيما الأطفال ، إذ أن كثيراً منهم قد رغب عن الأزياء اليمانية القديمة ، ومال إلى الأزياء الأفرنجية التي تقتضي أن يكون الرأس مكشوفاً . كما أن الاهتمام بصنع الكعك قد قلَّ عن ذي قبل ، ويتم إنضاجُه في كثير من الأوقات في (الأفران) العامة . وربما يُشترى من السُوق ما يقوم مقامه ، لأن المرأة اليوم لم يبق لديها من الصبر واحتمال متاعب الحياة ما كان لدى سلفها التي كانت تقوم بأعمال البيت كاملة ، بعد أن تيسرت لها وسائلُ الحياة الحديثة كـالمكانس ، والغسّـالات ، والخـلاّطـات الكهـربائيـة ، والمواقد الغازيـة ، والطواحين الآليـة ، وغيرهـا من الآلات التي غـزَت حياة الناس فقلبتها رأساً على عقب .

كـذلك فقـد اختفت من حياة النـاس اليوم عـاداتٌ وتقاليـدُ كثيرة ، مثـل ذهاب الـرجـال والنساء والأطفال إلى الحمامات العـامة إلا فيـما ندر ، لوجود سخّانات المياه الكهربائية في معظم البيوت ، ومثل السيارات التي استبدلها الناس بـالخيـل والبغـال والحمـير ، وزالت من حيـاة الأطفال عاداتهم التي كان أسلافهم يقومون بها قبل العيد وخلال أيامه .

فإذا حل العيدُ خرج ربُّ البيت مع أطفالـه لصلاة العيد في أقرب مسجد إلى منزله تقام فيه صلاة العيد ، وإذا رغب في الذهاب إلى مُصَلَّى العيد ركب سيارتَه لبعد المسافة ، ويعود بعد ذلك لزيارة أرحامه ثم أصدقائه ، ويخرج في أيام العيد مـع أطفالـه في سيارتـه للدورة (الفسحة) إلى المكان الذي يختاره لنفسه . وهكذا تُقضى أيام الأعياد . □



أريد ميتة طبيعية

● لاحظ « رابليه » وهو على فراش الموت ، أن أطباءه يتهامسون عن علاج جديد ، اقترح أحدهم أن يجُربه عليه .

فاستجمع الكاتب الشهير قواه ورفع رأسه وقال :

أيها السادة ، لاأريد تجارب ، كل ماأرجوه هو أن أموت ميتة طبيعية .



منتدى العربي

قضـــــية

التقنيـة الحيويّة بين تجارب التطبيـق وآمـال المسـتقبل

بقلم: الدكتور أنور أحمد عبدالله *

القرن القادم هو قرن التقنية الحيوية بلا جدال ، فقد انطلقت معامل البحث العلمي في كل القطاعات والعلوم ، تبحث عن كيفية الاستفادة من التقنية الحيوية وتطبيقاتها .

هذا المقال يستعرض بعض هذه الآفاق والتطبيقات ونتائجها .

يثير الحديث عن تقنية الهندسة الوراثية ومجموعة « البايوتكنـولوجيـا » المعقدة والمتنوعة إنتاجا وفائدة وكلفة ، جملة قضايا اجتماعية واقتصادية وقانونية ودينية وأخلاقية . إن الهدف من وراء تطوير هذا النوع من الجهد العلمى للإنسان هو محاولة تسخير قوى الخلية الحية لأهداف طبية وزراعية بالدرجة الأولى . وعليه فلا عجب ان قوبلت أنباء نشوء هذه التقنية باستحسان واسع من الأوساط العلمية والجماهيرية ، يضاهي ماناله ظهور الحاسوب « الكومبيوتر » من ترحيب بالغ كأداة عصرية متطورة في خدمة الإنسان ، وهو على أعتاب القرن الواحد والعشرين ، بيد أن هذا التفاؤل سرعان ما شابه خوف وقلق شديدان لدى قطاع واسع من الناس ، مبعثهما العواقب الوخيمة المترتبة على انتهاك حرمة التراث الوراثي للإنسان . وقلق علماء البيئة ومحبيها من نتائج إطلاق نباتات مخلقة في المختبرات ، على توازن

* باحث عربى ، يعمل مديراً لمشروع التقنية الحيوية ـ علوم النبات ـ بالدانمارك

الأرض وسلامة بيئتها ، هذا ناهيك عن الإجماع العام على صعوبة التحدي الذى وضع الإنسان نفسه أمامه ، المتمثل في محاولته سبر أغوار الخلية الحية بكل ما يتجسد فيها من عظمة الخالق سبحانه .

ولعل من المفيد ـ قبل الاسترسال في مناقشة جملة القضايا المثارة من جراء تطبيقات الهندسة الوراثية في مجالي الطب والزراعة ـ لاستكمال الصورة ، لابد من بحث الضرورات العصرية التي أدت إلى نشوء هذه التقنية ، ومن ثم نقدم استعراضا شاملا سريعا لما للهندسة الوراثية وماعليها .

الهندسة الوراثية : لماذا ؟ وكيف ؟

كانت نشأة مجموعة « البايوتكنولوجيا » بشكل عام ، والهندسة الوراثية بشكل خاص ، لضرورات عصرية ، أملتها الحاجة البشرية المتزايدة لاستنباط أساليب أكثر فعالية ، لحل بعض مشاكل الإنسان الحضارية ، في مجالي الطب والزراعة . فقد بدا واضحا للعلماء بأن أي محاولة جادة لعلاج أمراض العصر المستعصية (سرطان ، أمراض قلب ، سكري ، تشوهات خلقية وراثية) ، لايمكن أن تؤدي إلى نتائج إيجابية إلا عن طريق التعامل مع الحالة على مستوى الخلية الحية ، وعلى الأخص بالتعامل المباشر مع الشريط الوراثي الحاوي على « أرشيف » الصفات الوراثية للإنسان والحيوان . أما في الجانب الزراعي فلقد باتت واضحة للعيان ، تلك الآثار المدمرة المترتبة على تطبيقات الزراعة بعد الثورة الخضراء (التركيز على الاستخدام المكثف للأسمدة والمبيدات الكيميائية) على سلامة البيئة ، وبات من الضروري اتباع أساليب حيوية ، ليست كيميائية ، في التعامل مع متطلبات الزراعة في المستقبل ، حرصا على بيئة الأرض من التلف والخراب .

لقد كان إدارك حجم التحديات هذه ، والطموح البشري في مجابهتها والتغلب عليها دافعا لتوالي جهود العلماء عبر النصف الأول من هذا القرن التي اتخذت من الخلية الحية ساحة ضيقة لبحوث دقيقة معقدة ، حتى تكللت هذه الجهود العلمية في بداية خمسينيات هذا القرن باكتشاف أسرار بناء الحامض النووي DNA في الخلية الحية ، في أبجديته الرباعية ، وأمكن على إثرها تمييز ما لترتيب الاعلام الوراثي في جزيئة DNA من علاقة في صياغة « الشيفرة » الوراثية ، الخاصة بتجميع الأحماض الأمينية إلى بروتين معين . وهذا فتح الباب واسعا أمام العلماء ، لتحقيق ترجمة البناء الوراثي للبروتينات ، مما سهل عملية نسخها ، فبحقن البروتين المراد نسخه في الحامض النووي للكائنات الدقيقة (غالبا البكتيريا) أمكن استخدام الأخيرة كمعامل « بيولوجية » لتصنيع « البروتينات » النادرة ، ومن هذه التقنية استحدثت صناعة الأدوية الحيوية . وفي الجانب الزراعي ، فإن إيلاج جينات جديدة في الحامض النووي للكائن النباتي قد مكن النباتات من اكتساب صفات وراثية جديدة مرغوبة ، مما يسهم في زيادة كفاءة الإنتاج ، والاستغناء عن الكيميائيات المضرة بالبيئة .

الهندسة الوراثية في الحقل الطبي

تأتي في مقدمة الأدوية التي تم ابتكارها بالهندسة الوراثية بروتينات الدم المعروفة اختصارا (TPA) (أمكن نسخها في خلايا الثدييات) التي تستعمل بشكل واسع الآن في امريكا لوقف الأزمات القلبية . وهنالك هرمونات النمو للإنسان ، أو العقار المعروف اختصارا (EGF) الذى يلعب دورا في سرعة التئام الجروح ، وتجديد الأعصاب والتئام قرنية العين والأوعية الدموية ، أما « الأنسولين » المصنع حيويا فإنه يلاقي نجاحا لايستهان به في

علاج مرضى السكري . هذا إضافة إلى مجموعة الأدوية التي تزيد المناعة الطبيعية لجسم الإنسان ، مثل ليمفوكينز و CSFS اللتين تم تجريبهما في معالجة مرضى السرطان ونقص المناعة المكتسبة (الايدز) . وهناك المضادات الحيوية الجديدة المعروفة بسنتوكسين التي تقوم بالتهام السموم المفرزة في حالات الإصابة البكتيرية المعروفة ب Septic Shock . ويعتقد بأن كل واحد من هذه الأدوية الحيوية يمكن أن يحقق مبيعات عالية ، تتراوح ما بين نصف بليون إلى بليون دولار سنويا ، علما بأن التقنية « البايولوجية » قد أتاحت كفاءة عالية للتشخيصات المرضية للسرطان ، وأمراض القلب والاصابات الفيروسية مثل مرض (الايدز) .

وبعد فإن فعالية هذه الأدوية كانت مخيبة للآمال بدرجة ما ، وذلك لأنها ببساطة أثبتت فعالية أقل مما رسخ في أذهان الناس عنها في البداية ، علما بأن تطوير هذه الصناعة محدد بعدد البروتينات الممكن نسخها في البكتيريا ، إضافة إلى احتمالات ظهور بعض الآثار الجانبية الخطيرة من استعمال بعض هذه الأدوية (مثال على ذلك دواء انترليوكين) الذى كان مرشحا لعلاج السرطان . ولعل أحد أكبر المخاطر الوراثية المحتملة من استعمال الأدوية الحيوية هو احتمال وجود بقايا البكتيريا الحية أو أي شوائب أخرى في المستحضر النهائي . علما بأن شركات الأدوية تؤكد بأن هذه المشكلة الفنية يسهل الكشف عنها نظريا .

أما في مجال العلاج بإيلاج الجينات ، فإن هذا الحقل مازال مقصوراً على الحالات المرضية التي يسببها تلف جين وراثي واحد فقط ، مثل مرض نقص المناعة المركب الحاد (Scid) عند المواليد الجدد ، ومرض « بيتاثالاسيميا » الناتج عن نقص بروتين بيتاكلوبين ، إلا أن الطب سيبقى عاجزا فترة طويلة في المستقبل من التعامل مع الحالات المرضية الوراثية التي تشترك فيها مجموعة من الجينات معا

الهندسة الوراثية في الزراعة :

قد يغيب عن الكثيرين بأن حجم الإنجازات والتطبيقات المتوقعة للهندسة الوراثية في الزراعة أخطر وأكثر أهمية اقتصادياً (حجم مبيعات البايوتكنولوجيا في الزراعة تقدر بـ (١٠٠) بليون دولار سنويا) ، مما في الجانب الطبى . فبإنتاج البذور المحسنة وراثيا (DNA المطعمة) قد يصبح بالإمكان إنتاج نباتات ذات مقاومة طبيعية للآفات المرضية والفيروسية ، وهنالك إمكانية لنموها حتى في التربة الجافة الملوثة ، هذا إضافة إلى زيادة قيمتها الغذائية (زيادة نسبة البروتين . . .) ، أما الفوائد الأخرى المتوقعة فهي زيادة قدرة النباتات على امتصاص النتروجين ، وحمايتها من أخطار الصقيع المكلفة جدا (الخسائر قيمتها ١٤ بليون دولار) . أما في جانب الإنتاج الحيواني فإن استحداث الأمصال واللقاحات الحيوية الحديثة سيخفض الخسائر الناجمة عن الأمراض الشائعة في هذا الحقل ، مثل مرض « كوكسى دايوسيس » التي تكلف أمريكا وحدها ٣٠٠ مليون دولار سنويا . وكذلك حالات الإسقاط التلقائي للجنين عند الأغنام ، ولعل فى مقدمة قائمة المنتجات المرتقب تطبيقها هو هرمون (BST) الذي يتوقع له زيادة كفاءة إنتاج الحليب عند الأبقار بنسبة ٣٠٪ (مقابل زيادة في العلف قدرها ٦٪) .

إن قرار إطلاق هذه المنتجات والكائنات النباتية المخلقة في المعامل إلى البيئة قد أثار ضجة كبيرة بين أوساط الجماهير من جهة ، وجمعيات الدفاع وحماية البيئة من جهة أخرى ، وأوقع السلطات المسؤولة عن ترخيصها في حيرة شديدة .

الأخطار المحتملة كثيرة برأي المعارضة ، إذ أن الوجود الطاريء لهذه النباتات المخلقة في المختبرات قد يخل بالموازنة البيئية ، بطرق غير مقصودة ، فقد تتكاثر خارج حدود سيطرة العلماء والمختصين ، وقد تتحول إلى آفات وأدغال ، أو تنتقل إلى مناطق أخرى غير التي أريد لها ، أو قد تنقل جزئية «DNA» المطعمة إلى كائنات نباتية أخرى . وحتى في حالة الاقرار بوجود ديناميكية بيئية لاحتواء الأصناف الطارئة على البيئة فإن الخطر المتوقع ، مهما صغر ، سيكون تأثيريا ، ويزداد بازدياد عدد هذه الكائنات الجديدة في البيئة الواحدة . غير أن أهم ما يقلق علماء البيئة والأحياء هو أن إزالة الحواجز الوراثية الطبيعية ما بين الأنواع المختلفة ، سواء في المملكة النباتيةأو الحيوانية (وذلك بإمكانية التزاوج اللاجنسي ما بين خلايا نوعين من النبات أو الحيوان ، عن طريق هندسة دمج بروتوبلاست الخلايا بعضها ببعض) ، قد يؤثر بشكل سلبي على إمكانية استمرار التطور الطبيعي للكائنات الحية .

علما بأن هذه الحملة التي قادها جماعات محبي البيئة وأصدقاء الأرض ، قد أخر حاليا إطلاق هذه المنتجات المخلقة في المعامل إلى البيئة ، وبخاصة في كل من أمريكا والمانيا وايطاليا واليابان .



الاحتكار وارد عالميا واقليميا :

على الرغم من أن نشوء الهندسة الوراثية كان لضرورات عصرية ، سبق الحديث عنها ، إلا أن هذا التوجه في تطوير الأساليب الكفيلة بحل مشاكل الإنسان الحضارية ، قد بدا اقتصاديا مكلفا جدا ، فمشاريع البحوث التي استغرقت عشرات السنين ، واستنزفت عشرات البلايين من الدولارات ، لم تبدأ بإعطاء ثمارها الأولى إلا في العقد الماضي . وهذه التقنية هي صناعة عالم النصف الشمالي الغني المتقدم علميا وتقنيا، وعليه فإن الاحتكار وارد عالميا لا محالة، فبقاء النصف الجنوبي الفقير عاجزاً عن مواكبة مثل هذه التطورات العلمية، وبدون مساعدات من الهيئات الدولية (الأمم المتحدة مثلا)، لن يجد هذا العالم طريقه إلى « البايوتكنولوجيا »، لحل بعض مشاكله الراهنة . وتعد أمريكا وأوربا رائدتين في مجال « بايوتكنولوجيا » الطب، وصناعة الأدوية الحيوية، بالإضافة الى انكلترا في مجال الزراعة . واقليميا في مجتمعات « البايوتكنولوجيا »، فالاحتكار قائم بين الشركات العملاقة، مثل جنينتك، مونساتو، شرينغ بلو، ايستمان كوداك، سترنك، ايلي ليلي ELI LILLY ، آي سي آي ICI ، ساندوز ، سيباجيجي ، جينتكس الزراعية ، وبايوتكنيكا انترناشينال ، وتعد هذه نخبة قليلة من بين مئات الشركات التي صمدت إلى نهاية الطريق في القدرة على تمويل مرحلة البحوث الطويلة ، وصولا إلى مرحلة الإنتاج . ولا عجب إن شرعت هذه الشركات منذ الآن في استملاك وشراء شركات إنتاج البذور وصناعة الأدوية لاحتكار السوق مستقبلا.

يعد سعر الأدوية الحيوية عاليا جدا، وستبقى

الأسعار كذلك فترة ما، طالما بقي الانتاج مقتصرا على صناعتها حيويا داخل البكتيريا التي تعد صنعة مكلفة ومعقدة جدا. إلا أن التحول إلى المرحلة القادمة (الجيل الثالث للأدوية الحيوية) المتمثلة بامكانية إنتاج هذه الأدوية صناعيا، فإن الأسعار ستنخفض نسبيا، وستبقى تقنية تشخيص الجينات التالفة المسببة لبعض الأمراض الوراثية، وعملية العلاج بإيلاج جينات جديدة، أكثر مجالات الهندسة الوراثية تكلفة، هذا ناهيك عن تكلفة المضي في تطوير هذه التقنية المتمثلة في تحقيق مشروع المسح العام للارشيف الوراثي للإنسان، (هناك مابين ٥٠ ـ ١٠٠ ألف جين في الشريط الوراثي للإنسان) الذي قدرت له تكلفة إجمالية مقدارها ٣ بلايين دولار، وطباعة حوالي ٥٠٠٠ كتاب من الحجم المتوسط لاستيعاب شروح تركيب هذه «الشيفرات» الوراثية، ووظائفها.

ويبدو أن التطور الحاصل في الجانب الزراعي هو أقرب الى المعقولية بالنسبة للتكلفة والأسعار المقترحة للمنتوج، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار ما سيوفره استخدام البذور المحسنة وراثيا (بزيادة سعرية قدرها ٣٠٪) من ثمن المبيدات والأسمدة الكيمياوية (التقدير الاجمالي لكلفتها ٣٠ بليون دولار عالميا)، إضافة الى المردود الاقتصادي من جراء زيادة القيمة الغذائية لهذه المحاصيل، ولعل الحديث نفسه ينطبق على الفوائد المتوخاة في الجانب الحيواني.

ولكن يبدو أن هناك مشاكل اجتماعية، ستفرزها هذه المرحلة، منها بقاء المزارعين الصغار، غير الميسورين، خارج دائرة «البايوتكنولوجيا»، وبالتالي تركهم المهنة أمام المنافسة الحاصلة مع المزارع الكبيرة. علما بأن زيادة الانتاجية في الزراعة ستخلق وضعا شاذا بالنسبة للدعم السعري المقدم الى المزارعين في دول العالم الرأسمالي، والتي أصبح فيها التعامل مع فائض الإنتاج عبئا كبيراً على ميزانية معظم الدول.

الحكمة ثم العلم :

إذا كان الاختلاف حول المسائل الاقتصادية والاجتماعية وحتى القانونية نسبيا، والاسترسال فيها مثيراً للجدل، ولا يمكن بحال أن تبرر حجج المعارضة لرفض الهندسة الوراثية، فإن الجانب الأخلاقي الخاص بالعواقب المترتبة عن العبث بالخلية الحية ـ في نشوة علمية تنسينا حدود إمكانات العقل البشري ـ جدير بالاهتمام، ويستحق التعليق عليه في الختام. إن محاولة السيطرة على الكائن الحي، لأي هدف كان، ستبقى محدودة ونسبية، لأن الوقوف على أسرار الخلية الحية يتطلب الإلمام بكينونة الحياة نفسها، وآليتها، والتي هي بدورها مستحيلة التحقيق، لمجرد معرفة تركيب الجينات الوراثية للكائن الحي. بيد أن الإسراف في الشك يجب أن لايعيق أي مجهود إنساني وعقلاني في سبيل حياة أفضل للبشرية، وعليه يبدو أنه من السابق للأوان، إصدار حكم قاطع على جدوى الهندسة الوراثية وذلك لحداثة هذا العلم.

وبعد فإن الخيار كان صعبا، ولامناص من أن المضي في هذا الطريق، سيحدث منعطفا خطيرا في حياة الإنسان في القرن القادم. ولعل الغرب، وهو في أوج انتصاراته العلمية المادية، أحوج ما يكون إلى الحكمة التي عرفها الشرق، منذ زمن بعيد، كي لايقع في مزيد من المآزق المصيرية التي قد تتجاوز في خطورتها كل ما صنعه سابقا من حماقات علمية، كتكديس الأسلحة النووية، وتلويث بيئة الأرض، ولعل دقة الخطوة القادمة وخطورتها يتمثلان في إمكانية تحقيق رفاه أكثر للبشر، أو إفساد نواة الحياة. □



حوادث الطائرات..

إهمال أم خلل ؟

بقلم المهندسة : ريا عارف الرفاعي

السلامة هدف الطيران ، والمسافر الجوي محط الاهتمام . ومع أن عام ١٩٨٨ كان عاماً سيئاً للطيران ، لكثرة حوادث الطائرات خلاله ، فإن اجراءات السلامة لم تتدن عن مستواها خلاله . والمقال التالي يزيدك يقينا - أيها المسافر بالجو - أن سلامة الطيران تفوق كل وسائط النقل الأخرى ، على الرغم من حوادث الطائرات التي تقع بين حين وآخر !!

إن ما يشهده العالم من زيادة في الحركة الجوية ، تعود بداياته إلى ما بعد الحرب الكونية الثانية . وقد صاحب تلك الزيادة ، تطور كمي ونوعي في صناعة الطيران ، انعكس على سرعة الطائرات ، والسلامة ، وأنظمة المراقبة الجوية ، وطول مسافة الرحلات ، دون الحاجة للتوقف في سبيل التزود بالوقود . وتؤكد إحصائيات المنظمة الدولية للطيران - ايكاو - أن عدد المسافرين جواً ، ارتفع من ١٨ مليون مسافر في عام ١٩٤٦ إلى ٧٥٥ مليون مسافر عام ١٩٨٢ . وأن عدد المسافرين (الكيلو مترين) ازداد من ٥ر١٥ «ملياراً» إلى ١١٤٤ مليار مسافر (كيلومتري) في الفترة نفسها .

ونمضي أيضاً خطوة أخرى ، فنقول : إن سلامة الطيران سارت في تطورها على خط مواز لتطور الحركة الجوية . وكما يقول أحد خبراء حوادث الطائرات : لو طبقنا معدلات حوادث الطائرات التي سادت عام ١٩٥٥ نفسها على عدد المسافرين جواً في عام ١٩٨٥ (عددهم ٧٧٨ مليون مسافر) لدهشنا من كثرة وفيات الحوادث ، ولبلغ رقم الوفيات من حوادث الطائرات حوالي ٢٣٥٠٠ وفاة ، في حين أن عدد الوفيات الفعلي لم يتجاوز ١٠٦٧ فقط في حوادث الطائرات في ذلك العام .

وإذا استندنا إلى نتائج بحوث المشتغلين في حوادث النقل ، لوجدنا أن وفيات الحوادث لكل

مائة مليون مسافر (كيلومتري) تبلغ ٢ر٢ بالسيارات ، و٢ر٠ بالحافلات (الباصات) ، ٠٩ر٠ بالخطوط الحديدية ، و١٣ر٠ فقط في حوادث الطائرات للرحلات المنتظمة . وهذا ما يدفعني لأزعم ، وعلى درجة عالية من اليقين ، أن السفر بالجو أكثر وسائل النقل سلامة ، على الرغم من الحملات الإعلامية التي تصاحب حوادث الطائرات ، فتسبغ على الجو هالة من المخاطرة والمأساوية .

* ما نلاحظه اليوم ، من ارتفاع معايير السلامة في الطيران ، يمكن أن يعزىٰ إلى اعتماد الطيران على كم هائل من النظم والتعليمات القياسية والمعايير المشددة في مجال التصميم والتشغيل ، عممتها المنظمة الدولية للطيران المدني على الدول الأعضاء بالمنظمة . أما دور سلامة الطيران في اهتمام المنظمة فيتجلىٰ في :

* التشدد في منح تراخيص قيادة الطائرات ، للحصول على قباطنة جو ذوي كفاءة لا ينالها الشك .

* عدم السماح لشركات الطيران باستخدام طائرات لا تحمل شهادة صلاحية للطيران .

* مراقبة المطارات باستمرار ، وتصنيفها تبعاً لمستوىٰ التجهيزات المتوافرة فيها ، من إنارة وإنقاذ ومطافيء وغيرها .

* إخضاع المراقبات الجوية لنظم دولية مشددة .

ولذلك تتخذ سلطات الطيران المدني جميع السبل لتكثيف إجراءات الوقاية من حوادث الطائرات ، والمحافظة على نظام تدفق المعلومات عن الحوادث ، لإمداد بنك معلومات حوادث الطيران ، والإفادة من حصيلته إفادة قصوىٰ .

حادثة طيران وطائرة منكوبة

لسنا بحاجة للتفصيل في جميع المراحل ، فقد يكون بعضها معروفاً ، وما سنسرده هنا هو لتكتمل الصورة ، أما الجزء الآخر منها فهو تصور لما يحصل في كل المواقع . وفي جميع الأحوال فإن المعرفة تبدد الخوف .

عندما تقلع الطائرة ، ترتفع الحواجز بين قائدها والمسافرين . فيخبرهم عن خطة أعدها للرحلة ، عن ارتفاع الطيران ، ومراكز المراقبة التي سيجتازها ، وزمن الوصول ، ثم يتمنى لهم رحلة سعيدة .

ويتركهم بعد هذا لأمورهم ، ثم يفتح موجة اتصاله مع برج المراقبة ، فيدور بينه وبين المراقب الجوي اتصال مرح يتلقى خلاله التعليمات ليضبط أجهزته المرسلة على رمز الرحلة ، وهو غافل عما تخبئه الأقدار .

وفي موقع آخر ، على سطح الأرض ، وبالتحديد في برج المراقبة ، تظهر معلومات الطائرات من علامات النداء ومستوىٰ الطيران ، وسرعة الطائرة ، وعلامات ندائها ، والاتجاه . وتبدو هدفاً متحركاً ضمن مسار متعرج .

لكن . . . فجأة ينقطع الاتصال بين قمرة الطائرة والأرض . وقد يسمع في بعض الأحيان نداء استغاثة منها ، وقد تظل أحياناً على شاشة الرادار لتبث الأمل باحتمالات كثيرة ، حتى مع الطائرات المختطفة . لكن خيوط الأمل الواهية تنقطع عندما تختفي صورة الطائرة من شاشة الرادار . لحظة يسلّم بها من هناك بأن حدثاً خطيراً قد وقع في مكان ما .

ويتحول البرج إلى خلية نحل ، تتعالىٰ فيها أصوات النداء . مراقب القطاع الأعلىٰ ينادي ! ، مراقب القطاع الأوسط يصيح بالطائرة المنكوبة ، لكن النداء يضيع مع الرياح . وفجأة يعلو في البرج صوت منبعث من جهاز إرسال طائرة قريبة ، وينادي طيارها بهلع : أرىٰ بقربي طائرة تشتعل . . . إنها تهوي . يغمر القلوب في ذلك المكان الزجاجي إحباط وأسىٰ ، تطوف في أذهان هؤلاء ، في تلك اللحظة مشاعر



وأحاسيس وتداعيات حزينة ، تعلو فيها أصوات الأنين ، وصور الأشلاء والشظايا المتناثرة في موقع ما من العالم .

كيف يبدو مسرح الحادثة ؟

ما كنت أحب أن أثير في هذه السطور مشاعر الخوف والهلع والحزن والأسى لمحبي الحياة ، إنما اضطررت لذلك لإكمال الصورة ، كما نقلتها عن مشاهدي عيان ، اعتادوا رؤية مسارح حوادث الطائرات حتى الإدمان . وكما يقول هؤلاء من خبراء الحوادث : إن حطام الطائرة المنكوبة المحلقة على ارتفاع ٣٠ ألف قدم (١٤ر٩ كم) يتناثر ضمن دائرة لا تقل مساحتها عن أربعين كيلومتراً مربعاً ، مساحة من الفوضى تختلط فيها الأنقاض المعدنية ، وبقايا الأغصان المحطمة والأجساد بأديم الأرض .

بالتأكيد يهرع شهود الحادثة إلى الموقع ، وقد يصلون إليه قبل وصول سيارات الشرطة والإسعافات والإطفاء . تدفعهم أحياناً دوافع الخير ومد يد المساعدة ، أو الفضول ، أو الفساد . ثم يتوالى وصول المختصين بالإنقاذ . وليس أمر الانقاذ سهلاً ـ كما يتبادر إلى الأذهان ـ بل صعب ، إذ يستوجب الأمر إنقاذ الضحايا ، والمحافظة على الأمتعة والبضائع المتناثرة من عبث اللصوص والفضوليين ، والإبقاء على أنقاض الطائرة حتى وصول خبراء الحوادث . وأهم عمل يواجهه هؤلاء المنقذون هو العثور على تسجيلات الطائرة وحمايتها لحين الحاجة .

قائد الطائرة والطائرة

ويمكننا أن نقدم بعض أسباب الحوادث التي يعود معظمها إلى خطأ بشري ، واضعين في مقدمتها أهم المسببات :

السبب الأول : تدني كفاءة قائد الطائرة ، وتدهور تاريخه الطبي ، كاصابته بالجلطة ، أو إدمان التدخين والمسكرات من ناحية ، أو عدم معرفته للطريق الجوي الذي يسلكه ، أو الطائرة التي يقودها من ناحية أخرى ، نتيجة نقص التدريب والاطلاع .

السبب الثاني : الطائرة . وسأقف بعض الوقت عند الطائرة . إن تقدم عمر الطائرة ، ونقص صيانتها السنوية ، أو التقصير في الكشف الدوري عليها ، لا يعد من أسباب الحادثة فقط ، بل تشترك معه أيضاً أخطاء تعود إلى صنع الطائرة أثناء التصميم أو التصنيع . ومثل هذه العيوب قاتلة . إذ لا يمكن خلال تحليق الطائرة في الأجواء ، تلافي أي تصدع قد يحدث في جسد الطائرة نتيجة للعيوب الإنشائية ، أو عن ثقب في معدن الهيكل . ولا يمكن في الجو تلافي الضرر الذي يحدثه كسر « مزلاج » أحد الأبواب ، ولا يمكن في الجو تلافي توقف تدفق الوقود إلى المحرك ، أو السيطرة على طائرة فقدت محركها الذي اندفع في الجو ، أو أصيبت بعطل في



الأجهزة الإلكترونية الدقيقة . وأكثر الأعطال تأثيرا في الحوادث تصدع الهيكل ،وانثقاب جسم الطائرة ، مما يؤدي إلى سحب الركاب والطاقم والأمتعة إلى خارج الطائرة ، بفعل اختلاف الضغط بين داخل الطائرة المكيفة الضغط (إلى حوالي ٦٠٠ ميلمتر زئبق) ، وبين الجو الخارجي في مستوى طيران الطائرة على ارتفاع يصل أحياناً إلى ٣٠ ألف قدم ، حيث ينخفض في هذا الارتفاع الضغط الجوي إلى أكثر من النصف

وقد تختلط الأمور بعد الكارثة الجوية . فتعزى أسباب الحوادث إلى التخريب أو انفجار قنبلة ، وفي هذا التعليل خطأ مزدوج : لأنه يطمس الحقيقة العلمية ، ويخفي المتهم الحقيقي عن الكارثة . هل هي الشركة الصانعة ؟ أم هي الشركة التي تستخدم الطائرة ؟

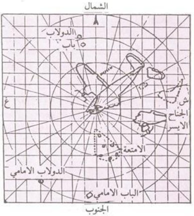
السبب الثالث : الخطأ البشري في تحميل الطائرة . إن تعبئة الطائرة بالركاب والأمتعة ، والبضائع والبريد لاتكفي لاكتمال الرحلة ، لأن سوء توزيع الحمولات على الطائرة بدون مراعاة مركز ثقلها قد يؤدي إلى خلق قوى إضافية على الطائرة ، أو يسبب اختلالاً في توازنها ، ويقود أحياناً إلى تصدع جسد الطائرة ، كانفصال الجناح أو الذيل .

وقد يتبادر إلى ذهن المسافر أحياناً أسئلة : لم لايسمح للمسافر بحمل ما يشاء من حمولات الدنيا خلال السفر ؟ هل يتم تحميل الطائرة بأمتعة المسافرين ، أو بضائع الشحن ، أو تعبئة الوقود في عنابر الوقود ، أو جلوس المسافرين في قمراتهم (الأمامية والوسطى والخلفية) عشوائياً ، تبعاً لأذواق الحمالين ، أو حسب رغبات مضيفات الطائرات ؟ والجواب عن ذلك لا !! لأن تحميل الطائرة يتم حسب خطة مسبقة ، تعدها عقول مختصة ، ذات خبرة وإطلاع ، تمزج في خطة التحميل بين : حدود الوزن الأعظم المسموح تحميله على الطائرة ، وتحدده عادة الشركة الصانعة للطائرة ، (ويختلف من طائرة لأخرى حسب طراز الطائرة) من ناحية ، وبين الإجهاد المسموح به على الطائرة ، أي توزيع الحمولة على السطح مقدرة بالكيلوغرام على السنتمتر المربع ، في كل من المقدمة والمؤخرة ، تبعاً لمركز ثقل الطائرة من ناحية أخرى .

المراقبة الجوية

على أننا نمضي باتجاه آخر أيضا ، لأسباب حوادث الطائرات ، لا يبتعد كثيراً عن الخطأ البشري ، بل ينبغي أن توجه إليه في معظم الأحيان أصابع الاتهام . إنها المراقبة الجوية والاخطاء البشرية والمادية : هي في نقص خبرة المراقبين الجويين ، أونقص كفاءتهم المهنية ، أو إهمالهم واستهتارهم ، كما هي أيضاً : في قدم التجهيزات والمعدات في أبراج المراقبة .

ولايقل دور المراقب الجوي في برج المراقبة عن دور قائد الطائرة في حوادث الطائرات . فالمراقب الجوي يضبط الانفصال بين الطائرات في الأجواء المزدحمة بالحركة الجوية في الاتجاهين : العمودي ،

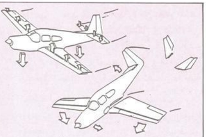


● مخطط توزيع انقاض طائرة منكوبة على مسرح الحادثة الجوية

للطائرات المحلقة في مستويات طيران مختلفة ، وفي الاتجاه الأفقي بين الطائرات المحلقة في مستوىً طيران واحد . والمراقب الجوي على اتصال دائم مع قائد الطائرة ، يزوده بالمعلومات التي يحتاجها أثناء الطيران . وتجتمع في برج المراقبة تقنية وسائل الاتصالات اللاسلكية والشاشات الرادارية التي تمكن المراقب من حفظ الانفصال بين طائرة وأخرى . فبواسطة الاتصالات اللاسلكية يتمكن المراقب الجوي من الاتصال ـ في وقت واحد ـ مع عدد كبير من الطائرات فوق المجال الجوي (قد يصل أحْياناً إلى مائة طائرة في الأجواء المزدحمة بالحركة) ، وبواسطة شبكات الاتصال الهاتفية المبرمجة يؤمن تنسيق الحركة . تساعده في ذلك مجموعة من الحواسيب الالكترونية ، كما تمده بالمعلومات محطات أرصاد جوية ، يعمل بها خبراء ومتنبئون جويون متمرسون بالعمل .

ويتقيد المراقب الجوي عادة بالمعلومات الجوية المحددة لكل مطار من ناحية ، ولأجواء الدولة ككل من ناحية أخرى . وعليه أن يعرف ويلم بجميع الخرائط والمخططات للفضاء الجوي الذي يعمل فيه ، أو الفضاء الجوي المجاور ، عليه أن يعرف المسارات والطرق الجوية ، وأن يعرف العوائق والمنشآت المرتفعة المحيطة بالمطارات ، ليتمكن من منع اصطدام الطائرات مع العوائق الأرضية من جهة ، ولمنع صدام الطائرات بعضها ببعض في الأجواء . ولمساندة عمل المراقبة الجوية من جهة أخرى .

تجمع معلومات الطيران وتحلل وتوضع في منهج ثم تعمم على شكل كتب خاصة بكل دولة ، تعرف عادة باسمها المختصر (AIP) (المعلومات الجوية المنشورة) ، كما تزود الأبراج والعاملون بالطيران وقادة الطائرات بنشرات جوية مستمرة ، تعرف باسمها المختصر أيضاً (NOTAM)، تبلغ عن التغيرات المستمرة والعوائق ومناطق العمل في مجالات الطيران



● شكلان لتوزيع الحمولات أحدهما نظامي والثاني مختل ، قد يؤدي إلى انفصال الذيل والجناح في الطائرة

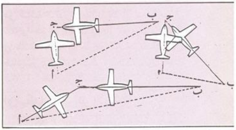
ليتجنبها الطيار أثناء هبوطه في المطار . كما تقدم المراقبات الجوية في بعض المطارات ، بثاً مباشراً عن معلومات الطيران الخاصة بمطارات الدولة .

لكنني أريد أن أتوقف قليلاً عند الخطأ البشري الذي يرتكبه المراقب الجوي في التنسيق بين طائرتين متجهتين باتجاهين متعاكسين في مستوى طيران واحد أو في مستويين مختلفين . وأزعم أن مثل هذا الخطأ قد يحدث نتيجة نقص كفاءة ذلك المراقب أو إهماله ، وربما نتيجة تعطل أجهزة المراقبة أو انخفاض في درجة أدائها . في حالات كهذه يزداد معدل احتمال حدوث تصادم بين طائرتين في الجو . إذ يفاجأ المراقب المهمل ، بهدفين يتجه أحدهما إلى الآخر . بسرعة فائقة على شاشة الرادار ، وما يلبثان أن يندمجا معاً في كتلة واحدة ثم يختفيان في عالم المجهول . ويدرك في تلك اللحظة أن كارثة جوية ـ تصادم بين طائرتين ـ قد وقعت ، وأنه كان وراء تلك الكارثة . لقد سبق السيف العذل .

الاصطدام بالعوائق الأرضية

من الأمور الثابتة في إحصاءات حوادث الطائرات ، أن معظم الحوادث تقع بجوار المطارات ، وبالتحديد خلال هبوط الطائرة أو

إقلاعها . فعند اقتراب الطائرة من المطار تخفف ارتفاعاتها رويداً رويداً ـ فتنتقل في ذلك من ارتفاعات الأجواء العليا (أكثر من أربعين ألف قدم) لتهبط إلى ارتفاع المطار ، متخذة في هبوطها انحداراً بزاوية محددة ، تضمن ملامسة الطائرة لسطح المهبط في موقع مناسب . وإذا واجهت الطائرة خلال تحليقها على ارتفاع منخفض ، أو خلال انحدارها بميل الهبوط أي منشأة عالية : كأبراج الإذاعة والتلفاز ، أو الأبنية العالية (ناطحات السحاب) ، أو خطوط نقل القدرة الكهربائية ، أو جبل مرتفع ، فقد تقع الكارثة الجوية في لحظات ، بعد اصطدام الطائرة بإحدى هذه العوائق ، إذا لم يتمكن الطيار من رؤيتها خلال الهبوط الليلي أو في الطقس السيء الذي تنعدم فيه الرؤية . ولذلك اشترطت منظمة الطيران الدولية ضرورة إنارة العوائق وصبغها بألوان مختلفة لتحذير الطائرات من الاصطدام بها ، إذا لم يكن بالإمكان منع إنشائها ضمن حدود مناطق الطيران المنخفض . وحادثة اصطدام الطائرة « الصينية » بخط كهربائي عالي التوتر عام ١٩٨٧ ماتزال ماثلة في الأذهان ، تذكر المختصين بمراقبة العوائق وترخيص إنشائها ، أن عليهم التزام جانب الحذر ، ودراسة تأثير إقامة العوائق قبل السماح ببنائها .



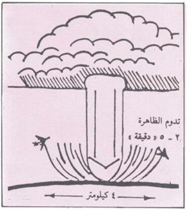
أشكال عن تلاق خاطىء بين طائرتين يؤدي إلى تصادم جوي وحوادث نتيجة أخطاء تنسيق المراقبة الجوية

انحراف الطائرة عن مسارها :

لسبب من الأسباب قد تتعطل أجهزة الطائرة ومؤشراتها بفعل العوامل الجوية ، ولا يتمكن قائدها من السيطرة عليها . فتنحرف عن طريقها الجوي المحدد ، أو تفقد مسارها ، وتدخل ـ عن غير قصد ـ ضمن اقليم معلومات طيران آخر . وينعدم الاتصال الصحيح بين الطائرة وأبراج المراقبة : مما يؤدي إلى كارثة جوية . فمرور أي طائرة عبر فضاء دولة ما ، يتم بموجب تصريح رسمي ، واختراق الطائرة مجالا جويا بدون إذن يمنح الحق للدولة بإسقاط هذه الطائرة المخالفة ، أو إجبارها على الهبوط في مطارات محددة . وقد تتعرض تلك الطائرة المنكوبة إلى خطر آخر نتيجة تحليقها فوق مناطق جوية ممنوعة أو خطرة ، مستخدمة للتدريب العسكري أحيانا . ونذكر الحادثة الجوية التي تعرضت لها طائرة كورية من طراز (بوينغ ٧٤٧) ، انحرفت عن مسارها إلى أجواء الاتحاد السوفيتي ، عام ١٩٨٣ ، فأسقطتها المقاتلات السوفيتية . كما نذكر حادثة الطائرة الإيرانية التي أسقطتها البحرية الأمريكية في مياه الخليج العربي .

التقلبات الجوية « وقص الريح »

قلة من الطيارين تمكنوا من التحكم بطائراتهم في مواجهة العواصف الرعدية في طبقات الجو العليا ، أو في مواجهة الظاهرة المعروفة باسم « قص الريح » Wind Shear التي عرفتها منظمة الطيران ـ ايكاو ـ بأنها تغير في اتجاه الريح أو في سرعتها ، تصاحبه تيارات هوائية صاعدة وهابطة ، يدعوها علماء الطقس (Microburst). إذ تنقل هذه التيارات خلال لحظات الطائرة عن مسارها أو ترفعها فوق مستوى انحدارها أثناء الهبوط ، مما يؤدي بها إلى كارثة محققة . وقد تسببت هذه الظاهرة بحدوث (٢٦) كارثة طيران في الولايات المتحدة



● التيارات الهوائية الصاعدة والهابطة MICRO BURST

وحدها . ويدرس علماء الطيران والطقس أساليب مواجهة تلك الظاهرة التي يكمن وراءها بعض الحوادث ، وقد تم تطوير أجهزة رادار خاصة للأرض (Sodar) ،واجهزة تحمل على الطائرة لإنذار الطائرات بوجود ظاهرة « قص الريح » ، كما تعد برامج لتدريب الطيارين على مواجهة تلك الظاهرة .

الطيور وراء حوادث الطائرات

قد يصعب التصديق أن الطيور ، تلك الحيوانات الجميلة ، قد تسبب حوادث الطائرات ، فقد ثبت أن الطيور تشكل خطراً كبيراً على عمليات الطيران باصطدامها بالطائرة أو بدخولها في محركاتها . وقد اهتمت جهات الطيران المدني بالدراسات الفنية لحماية المطارات والطائرات من خطر الطيور ، خلال مواسم هجراتها أو في مواطنها الأصلية . وتتجنب معظم المطارات زراعة الأشجار التي تجتذب الطيور إليها ، لإقامة أعشاشها بين أغصان تلك الأشجار ، لحماية المطارات والطائرات .

الوقاية أم جهود الإنقاذ

مع الضجيج الإعلامي المرافق لحوادث الطائرات ، ومع مشاعر الحسرة والآلام التي تخلفها الحادثة ، وتترك بصماتها في النفوس رهبة وخوفاً من الحوادث ، نتساءل : أترى لو علم الناس بآثار حوادث السيارات وعظم انتشارها ألا يزداد حذرهم منها ، وينقلب خوفهم من السفر بالطائرة إلى السيارة ؟ . السلامة في الطيران قضية لا تحتمل الجدل ،ويتطلب الطيران حدود أداء مرتفعة دائماً ، وكمالاً وانسجاماً . فمن المتعارف عليه في الطيران أنه بإهمال محرك الطائرة وجسدها ، لن نتمكن من الإقلاع بها ، وستبقى جاثمة على أرض المهبط ، مهما بذلت من جهود لإقلاعها .

وتتندر أسرة الطيران في كل مكان من العالم ، بالمغزى الكامن وراء قصة : عن خلاف وقع بين سكان قرية جبلية تقع على سفح منحدر جبلي زلق.فئة من هؤلاء تبنت فكرة بناء سياج على حافة المنحدر لحماية السكان والأولاد من السقوط إلى الهاوية ، والفئة الثانية قالت : بل نضع سيارة إسعاف في الوادي ، تلتقط الضحايا الذين يسقطون من حافة المنحدر وتنقذهم .

لكن الرأي السائد في الطيران يتفق مع رأي الفئتين في تلك القرية البعيدة : لا بد من قبول سياسة الوقاية من الحوادث كأفضلية أولى ، وأن تصحبها سبل الإنقاذ والمعالجة والإطفاء . وإن كان بعض الناس يرى أن سياسة إقامة سياج حول جرف المنحدر للوقاية أهم بكثير من التقاط الضحايا بسيارة إسعاف .

لكن جميع أنظمة الطيران تجمع بين الرأيين ، بين سبل الوقاية والإنقاذ ، ولذلك فإن الطيران يقدم واسطة النقل الأكثر أماناً وسلامة ، وراحة وعصرية ، في وقتنا الحاضر . □

انتظار

بقلم : مـــوريـــن دالي
ترجمة : أحمد حسين عودي*

أتمنى أن تفهمني منذ البداية ولا تظلمني ، فأنا لست غبية أو مغفلة ، بل أعرف تماماً واجبات الفتاة ومايجب أن تقوم به ومايجب أن لا تقوم به . إنني أخرج وحدى ، وأقرأ الكتب على أنواعها ،وأستمع للمذياع، وأعرف كم هو جميل ورائع أن ألبس تنورة خشنة من الصوف ، وكنزة خشنة الملمس ، وأطوى أكمامها لأكشف عن ذراعيّ ، وألبس الحلى والجوارب القصيرة . أحب الشعر الناعم والضفائر المتدلية على الأكتاف . أحب أن أضع قبعة على رأسي ولا أرغب في المنديل لأن وجهي يبدو كالوجوه التى تظهر عادة على صفحات الجرائد والمجلات .

أردت من هذا أن أكون واضحة ، وأنني لست ساذجة أو غبية ، بل أعرف هدفي وغايتي ، ولاشك أنك الآن تفهمني !

كيف التقيت به ؟ لقد كان الأمر مضحكا ! كان ذلك في ليلة ماطرة من ليالي الشتاء الباردة . لم أكتب وظيفتي.لقد زركش ضوء القمر أغصان الشجر وطلى أكوام الثلج بلون فضي مما شدنى الى الخروج من البيت . إن مكان التزلج لا يبعد كثيرا عن منزلنا ، ويمكنني وصوله في خمس دقائق إذا كانت الطريق سهلة وبلا منزلقات ، وهكذا خرجت . أتذكر يومها أن الأمر استغرق وقتا أطول ، لأنه كان على أن أرتق جوارب التزلج أولاً ، لا أدرى لماذا تتمزق الجوارب كثيراً عند أصابع القدم ! ربما لوجود قطعة معدنية في المزلاج عند الأصابع . سرحت شعرى بشدة لكنه بقى واقفا منفوشاً أشبه بالضباب على رأسي !

كان المزلاج نظيفا ومعلقا على الباب الداخلي ، لكنه بدا غريبا . فقد جهزته لعطلة عيد الميلاد . سارت الكلبة خلفى بكل خفة وتؤدة الى منعطف الشارع . إنها تألفني منذ اليوم الأول ، أخذت تلهث بجانبي وقد شكل نفسها الدافىء بالوناً صغيراً من الصقيع حول أنفها ،

وكان المزلاج يحك ظهرى بشكل عفوى أثناء سيري ، كان الليل هادئا وساكنا ، وملايين النجوم تتلألأ في السماء كأنها عيون العشاق تغازل محبيها . ماأروع هذا المنظر !

* كاتب ومترجم من القطر العربي الفلسطيني .



ركضت معظم الطريق ، وقد حالفني الحظ فلم أنزلق لأن الرصيف كان مكسوا بالرماد ، وكنت أشعر بجمرات الرماد الخامدة تسحق كالمفرقعات تحت قدمي وبين أصابعي ، فقد اعتدت على أن ألبس حذاء قديما عندما أذهب للتزلج .

كان عليّ أن أعبر حديقة أحد الجيران الخلفية ، حيث نما منذ الصيف الماضي عشب غير متطاول بين طبقات الثلج الرقيقة ، وتداخلت قشرة الثلج في الحفر الصغيرة بين بقايا الزرع ، فالناس قليلا مايعبرون هذه الطريق . وصلت الكوخ ألهث مقطوعة الأنفاس . ماأجمل الليل ! هذه الأكواخ تخص صديقة لنا . كانت أرضها مبللة من آثار المتزلجين ، وقد ارتسمت على جدرانها الخشبية صور من الجص ترمز الى الموت أو الى نهايات رومانسية !

البنات يدخلن ضاحكات وقد غطى الثلج شعورهن ، يمشين بخطا رشيقة سريعة ، هذا شاب يخطف طاقية فتاة شقراء ، ويحشرها في مكان فارغ ليثبت حبه لها ، ثم ينحني بسرعة يتفحص « قشاط » مزلاجه ببراءة ودون مبالاة .

لم يستغرق وضع المزلاج وقتا طويلا . علقت حذائي تحت مقعد منزوٍ كي أجده بسرعة عندما أعود . بدأ الثلج يتساقط قليلا في الخارج ولكنه سرعان مايذوب كما تذوب فقاقيع الصابون عند ملامستها ، لاأدري كيف يتساقط الثلج والنجوم ساطعة في السماء ! فلربما مازلت أرى ضوء النجوم يتلألأ في عيني كلما نظرت في الظلام ! انتظرت قليلا ، إن التزلج في مكان مزدحم أشبه بالقفز في دوامة الخيل المتحركة . المتزلجون في ألوانهم الضبابية يكشطون وجه الثلج ، ويصدرون ثرثرة ناعسة في هذا الليل الهادىء .

بعد فترة وجيزة كنت أدور بينهم ، أدور وأدور على طريق التزلج حيث الثلج كثيف . وفجأة ودونما سابق انذار أحاط خصري بذراعه ، كان دافئا ومحكما . ومن غير قصد قال : هل لي أن أتزلج معك ؟ وأمسك بيدي الأخرى . . وتزلجنا معا ، إنها ليست أول مرة أتزلج فيها مع شاب ، لقد أخبرتك أنني كثيرا ما كنت أخرج وحدي ولكن الأمر هذه المرة كان مختلفا تماما ، فقد كان الشاب لطيفا رقيقا .

لم أعد أتذكر عن أي شيء تحدثنا أولا ، بل لم أعد أتذكر فيما إذا كنا قد تحدثنا أم لا ؟ ولكنني أذكر أننا تزلجنا مدة طويلة ، وكنا نضحك كلما وصلنا الى منطقة الثلج ، لنعود الى الضحك من جديد ، لم نكن نضحك على شيء محدد ، لكن ذلك كان رائعا وجميلا جدا !

جلسنا نراقب المتزلجين من مكان مرتفع ، الطقس بارد لكنني شعرت بالدفء على الرغم من أنني كنت أجلس على كومة متجمدة من الثلج . رماني بقبضة من الثلج فتناثرت كراتها على شعري ، انحنى عليّ لينظف شعري .

التقطت انفاسي ، كان الليل ساكنا وقد تعلق القمر في كبد السماء كقطعة من بلور مذهب يضيء الأكواخ الدافئة ، والدخان ينساب من فوهات المداخن ليشكل ضبابا سخاميا . بدأت الأنوار تنطفىء تدريجيا في البيوت ، سمعت عويل كلب حزين كأنه يعتذر من النجوم ، ماأروع هذا كله .

بعد ذلك وقف ليقول : « من الأفضل أن نعود هل تسمحين بمرافقتك ؟ وهل تسكنين بعيداً ؟ لابأس . علينا أن نعود » .

ماأجمل العودة برفقته !

ذهب الى الأكواخ ليحضر الحذاء ، « الحذاء الأسود » قلت له ، نفس قياس . . ضحك . وكان مازال يبتسم ، عندما عاد . خلع عني المزلاج وربطه بشريط مبلل ورماه على كتفه ، ومد يده اليّ . انزلقت عن كومة الثلج ونظفت مقعد بنطلوني وانطلقنا عائدين الى البيت .

ازداد سقوط الثلج الآن . . كرات الثلج تكبر ، لكنها كانت تسقط بهدوء لتعلق بأغصان الشجيرات الصغيرة أو تندفع نحو جذوعها ،

كان الليل يرسم خيوطه السوداء والبيضاء ، كل شيء جميل ، غير أنني شعرت بالحزن والأسف لأن بيتنا قريب .

كان يتكلم برفق وحنان ، وكانت كل كلمة تبدو سرا من الأسرار !

سألني : هل تعجبك الحياة ؟ وهل أخطط للالتحاق بالكلية في العام القادم ؟ وهل يسكن ابن عمي في المنطقة ؟ وهل أعرف أخاه ؟

كان حديثه رقيقا جدا ، قال لي : كم أنت جميلة وكرات الثلج تتناثر على شعرك ! سألني : هل رأيت القمر قريبا من قبل ؟ وكان القمر يلاحقنا ويراوغنا ممازحاً ويختبيء وراء المداخن كلما التفت لأنظر اليه ، وأخيرا وصلنا .

كان نور الشرفة مايزال مضيئا . لقد اعتادت أمي أن تضيئه عندما أخرج في الليل . وقفنا برهة عند أسفل الدرج ، لقد تغير لون الثلج وأصبح قرنفليا تحت وهج النور الملون ، واستقرت بعض كرات من الثلج على شعره ، أخذ المزلاج ووضعه على كتفي قائلا : « طاب مساؤك . . سأتصل بك . . سأتصل بك » .

دخلت الغرفة وأخذت أراقبه من النافذة . وهو يمشي في الشارع . كان يصفر صفيراً ناعماً ، انتظرت حتى غرق الصوت في هدوء الليل ، ولم يعد باستطاعتي أن أميز ماأسمع : هل هو صفيره أم صفير قلبي الذى بدأ يصفر في الليل ، لقد توارى . . توارى تماما .

أصابتني رعشة ، لقد تغير الظلام ولم تعد النجوم إلا شظايا صغيرة تضيء في السماء ، وأخذ القمر يحملق نحو الأسفل بنظرة صفراء متجهمة ، الهواء مشبع بالبرد المفاجيء ، وعصفة ريح أخذت تلاحق آثار أقدامه لتضيع في النسيان !

كل ماقاله إنه سيتصل بي ، لم أستطع النوم طوال الليل،كان ذلك الخميس الماضى ، واليوم هو الثلاثاء ، وقد كتبت وظائفي ورتقت جواربي على الرغم من أنها ليست بحاجة الى رتق ، وانتهيت من حل الكلمات المتقاطعة ، واستمعت الى المذياع وترانى أجلس الآن ، أجلس فقط لأنني لا أستطيع التفكير بأى عمل آخر . لا أستطيع التفكير إلا بكرات الثلج الصغيرة المتساقطة ، وبمزلاجي وبضوء القمر وبليل الخميس !

الهاتف على الطاولة في ركن الغرفة ، يدير وجهه العتيق نحو الحائط حتى لا أرى نظراته الخبيثة !

لم أعد أقفز إذا رن جرس الهاتف ، إن قلبي يصلى لكن عقلي يضحك ! الليل هادىء خارج البيت حتى كدت أصاب بالوهن والخبل ، أما الثلج فأصبح كله أوساخا تشكل لونا داكنا ، والريح تهز الضوء المنعكس لتشكل من الأشجار ظلالا متحركة وغريبة على طول الزقاق . إنها تشبه ذراعيه الممدودتين كأنها تطلب شيئا أجهله ، وهكذا تراني أجلس هنا ولا أشعر بشيء .

إنى لست كئيبة لأنني عرفت ذلك فجأة ، لكنني لا أستطيع البقاء هنا الى الأبد ، أضحك وأضحك والدموع المالحة تنساب على جنبات فمي . عرفت ذلك فجأة . . عرفت ماعرفتْ النجوم منذ الأزل . . إنه لن يعود أبدا . . لن يعود .

مورين دالي في كلمات :

- مورين دالى (١٩٢١ - ؟)
- هاجرت مورين دالي من ايرلندا الى الولايات المتحدة وهى في الثالثة من عمرها .
- ونالت جائزة أول قصة قصيرة وهي في الخامسة عشرة من عمرها .
- طبعت روايتها الشهيرة « الصيف السابع عشر » وهي في السنه الأولى في كلية « روزري » .
- تتميز قصصها بفهم عميق لمشاكل المراهقين تماما كهذه القصة .

عن كتاب (قصص قصيرة رقم ١) فرجينيا ألون

الجديد في العلم والطب

إعداد : يوسف زعبلاوي

المرض المجهول أخطر الأمراض جميعاً

نشرت مجلة الاتحاد الطبي الأمريكية في عدد لها صدر في أواخر يونيو سنة ١٩٨٨ ، بحثاً مفصلا في مستوى الخدمات الطبية في الولايات المتحدة ، وقد ركز البحث على وحدات العناية بالحوادث والطوارىء ، وهي التي طالما اشتهرت بها مستشفيات الولايات المتحدة ، ولكن البحث فاجأنا بخلاف ما توقعنا ، فقد تدنّى مستوى العناية بضحايا الحوادث في تلك البلاد حتى حل الاهمال محل العناية ، بل أصبح سبباً من أسباب الموت الرئيسة ، إن لم نقل المرض المجهول الذي فاق سائر الأمراض الأخرى من حيث مجموعة الضحايا الذين يلاقون حتفهم ، لا بسبب المرض الذي يعانون منه أو الحوادث التي تعرضوا لها ، وإنما بسبب التأخر في حصولهم على العناية التي كانوا في حاجة ماسة اليها .

وأوردت المجلة أمثلة عديدة تؤكد ما ذهبت اليه . نذكر من هذه الأمثلة الحادث الذي تعرض له سائق دراجة في شمال كاليفورنيا ، وهي الولاية (الذهبية) الشهيرة بثرائها ، ونقل الشاب الى أحد المستشفيات القريبة من مكان الحادث ، ولكن الجراح لم يكن موجودا في المستشفى ، ومضت بضع ساعات دون أن يظهر الجراح ، على الرغم من أن ادارة المستشفى أبلغته لدى وصول الشاب الى المستشفى بخبر الحادث ، وبحالة الشاب الخطيرة ، وحاجته الملحة الى جراحة عاجلة ، ولما طال الانتظار في غرفة الطوارىء ولم يظهر الجراح ، نقلوا الشاب الى أحد المراكز المتخصصة بحالات الطوارىء والحوادث في مدينة سان فرنسيسكو ، وهنا اضطر الأطباء لبتر احدى ساقي الشاب .



ونذكر أيضا ما حدث لأحد هواة التزلج الذي تعرض لحادث ، تسبب له بتمزق طحاله ، ونقل الفتى الى أحد المراكز المتخصصة التابع لمستشفى نيفادا ، وانتظر دوره في قسم التصوير بالأشعة ، وطال انتظاره حتى لاقى حتفه قبل أن يجرى تصويره ، والخطأ هنا خطأ الطبيب الذي لم يعتقد أن المصاب في خطر ، وأن تصويره يجب أن يتم بأقصى سرعة .

ونذكر كذلك المرأة الحامل التي كسر عنقها ، فنقلت الى غرفة الطوارىء في « مركز آمي AMI » في بالم بيتش جاردنر ، وطال انتظار المرأة «٤,٥» ساعات قبل أن يأتيها أحد الجراحين الذي وافق على اجراء اللازم لها من بعد تردد ، واعتبر هذا الجراح ذا نخوة متميزة نظراً لأن سائر زملائه



الجراحين امتنعوا عن تولي أمر المرأة المسكينة ، وذلك خشية الغرامات الكبيرة التي كثيراً ما تفرض المحاكم الأمريكية على الجراحين دفعها ، سواء أخطأوا في أداء واجبهم ، أو لم يخطئوا ، ونجح الجراح الشهم بقدرة قادر على إنقاذ المرأة ، ذات العنق المكسور في اللحظة الأخيرة وقبل فوات الأوان .

يقول الدكتور وست : « لو اتفق لك (لا سمح الله) أن كنت ضحية أحد الحوادث في الولايات المتحدة ، وتسنّى لك قطع الولايات الخمسين من أقصاها الى أقصاها ، لما زادت احتمالات حصولك على العناية اللائقة على أكثر من ٢٪ » ، أي أن المرجح أنك لن تلقى العناية التي تحتاجها إلا في ولاية واحدة من مجموع الولايات الخمسين .

لا عجب إذن ، أن أصبح الاهمال أو التأخر في تقديم العناية لضحايا الحوادث هو سبب الموت الأول بين سكان الولايات المتحدة الذين تتراوح أعمارهم بين ١ ـ ٤٤ سنة ، إذ يبلغ عددهم (٢٥٠٠٠) نسمة سنويا ، علماً بأن مجموع عدد ضحايا الحوادث لا يزيد على ١٤٠,٠٠٠ نسمة .

ويواصل الدكتور وست تعقيبه فيؤكد أن ولايتين فقط من مجموع الولايات الخمسين ، يحق لهما أن تفخرا بشبكات شاملة ولائقة لتقديم العناية المتخصصة لضحايا الحوادث .

أما منطقة كولمبيا ، وهي التي توجد فيها العاصمة واشنطن ، و ١٩ ولاية أخرى فشبكات عناية الحوادث فيها إما غير شاملة وإما غير مستوفية .

وأما بقية الولايات وعددها ٢٩ ولاية ، فليس فيها أي شبكات للعناية بضحايا الحوادث على الاطلاق .

ويعجب المرء لهذا التردي الذي حل بمراكز عناية الحوادث والطوارىء في الولايات المتحدة ، فقد شهدت السبعينيات زيادة كبيرة في عدد تلك المراكز ، وذلك نتيجة توقف حرب فيتنام وعودة مستشفيات الميدان الكثيرة التي كانت فيها الى أرض الوطن .

ودبت الحماسة في شتى المدن لانشاء المزيد من هذه المراكز ، فأقدمت السلطات في ٢٣ مستشفى في مدينة لوس أنجلوس وحدها ، على اقامة المراكز المستوفية في مستشفياتها الى ٢٣ وذلك سنة ١٩٨٣ ، علماً بأن حاجة المدينة ومنطقتها لم تتطلب أكثر من ٨ مراكز حسب تقدير الخبراء آنذاك .

* كل شيء قابل للتجديد قابل للفناء . (سالوستوس)
* أصعب الأشياء ثلاثة : كتم السر ، وتحمل المسبة ، وحسن صرف الزمن . (شيلون)
* قلة الكلام دليل على الاقتدار والإصابة (طاليس)



تخسيس وزن الحيوان من أجل تخسيس وزن الانسان

توجهت أكاديمية العلوم الوطنية في الولايات المتحدة ، بدعوة غريبة ، تلفت النظر فقد حثت هذه الدعوى كافة المعنيين ، لا سيما العاملين في تربية المواشي ، حثتهم على تنشئة مواش نحيفة . . ففي ذلك ضمان ضد البدانة في الذين يأكلون لحوم تلك الماشية .

ورحبت مزارع الحيوان وصناعة اللحوم بتلك الدعوة أكبر ترحيب فقد تناقصت مبيعاتها بنسبة ١٣٪ خلال السنوات العشر الماضية وذلك تبعاً لقلق المستهلكين وتخوفهم من احتمالات الاصابة بأمراض القلب والسرطان وإحجام بعضهم عن أكل اللحوم أو شرائها ، وقد ثبت بما لا يقبل الشك ، أن البروتينات الحيوانية كفيلة بمضاعفة ما يحتويه الدم من الكولسترول والدهون،السعرات الحرارية،فلعل في وضع تلك الدعوة موضع التنفيذ ما قد يعيد الطلب على اللحوم الى سابق عهده فيعيد الانتعاش الى تلك المزارع والمصانع الى ما كان عليه قبل حوالي عقد من الزمن .

وما أسرع ما نجح أصحاب العلاقة في تنشئة جيل جديد من البقر يتميز بانخفاض في نسبة الدهنيات التي يحتويها لحمه ، وقد بلغ ذلك الانخفاض ١٠٪ بالمتوسط .

ولعل السؤال الأول الذي يتبادر الى ذهن المزارعين هنا يتصل بالطريقة التي اتبعوها في أمريكا حتى نجحوا في تنحيف الماشية .

لقد اعتمدت تلك الطريقة على تغذية الماشية بمزيد من الحشيش والتبن والحد من تغذيتها بالحبوب،أضف الى ذلك هرمونات النمو وبخاصة تلك التى تنشط نمو العضلات على حساب ما تحتويه من دهن وتضمن تلك الهرمونات أيضاً الحد من محتويات الدهن في لبن الماشية وهو ما حث عليه دعوة الأكاديمية أصلاً .

أما السؤال الثاني فيطرح نفسه حول مدى النجاح الذي حققوه في تخسيس الوزن في الانسان كنتيجة لتخسيسه في الحيوان ، لقد دلت الاحصاءات على ان هذا النجاح محدود أو معدوم . ذلك أن المستهلكين مازالوا يفضلون اللحم (المدهن) ويقبلون على شرائه وذلك حرصاً على طراوته ونكهته ، وعلى مرق اللحم الذي لا سبيل اليه مالم يكن اللحم (مدهناً) .

غاز الأوزون نعمة ونقمة

غاز الأوزون نعمة ونقمة في آن معاً فهو يوجد في الجو ، وفي طبقة الستراتوسفير بالتحديد على ارتفاع ١٥ ـ ٥٠ كيلو متراً ، ويشكل حزاماً واقيا يجنب الانسان والحيوان والنبات مضار الأشعة فوق البنفسجية التي تصدر عن الشمس ، فهو يكبح معظم تلك الأشعة ويكبح معها أشعة شمسية أخرى ضارة ، ويحول دون وصول أكثر هذه وتلك الى سطح الأرض ، ومع ذلك فلا مفر من أن تنفذ بعض هذه الأشعة عبر الحزام الواقي ولولا ذلك لما كان اللون البرونزي الذي يسعى اليه عشاق الحمامات الشمسية .

ولكن الاوزون غاز سام فهو قادر على تدمير الرئتين ، تماماً كما يدمر الاوكسجين الحديد بتحويله الى صدأ ، وكثيراً ما يموت الانسان تبعاً لذلك ، يموت لافتقار رئتيه الى الاوكسجين ، ونظراً لتلف رئتيه بالاوكسجين ، ذلك أن الاوزون صنف من الاوكسجين ، كما يعرف الجميع .

لا عجب إذن أن حرصت الهيئات البيئية على حماية حزام الأوزون في طبقات الجو العليا وعلى حماية الانسان من خطر الأوزون ، الغاز السام والملوث المنتشر كثيراً أو قليلاً في طبقات الجو السفلى .

والجديد في موضوع الأوزون ، من حيث هو ملوث ، هو ما توصلت اليه الدراسة الواسعة التي أجرتها في السنة الماضية وكالة البيئة في الولايات المتحدة ، فقد دلت هذه الدراسة على أن الاوزون الملوث يقضي على المحاصيل الزراعية بنسبة تفوق بكثير نسبة الـ ١٢٪ التي أثبتتها دراسات أخرى سابقة ، أما النسبة الجديدة فتصل الى ٣٠٪ ، ومعنى هذا أن الخسارة التي يسببها تلويث الاوزون للمزارعين الأمريكيين تقدر بحوالي ٢,٥ ـ ٣ آلاف مليون دولار !

من هنا كان اهتمام الوكالة المضاعف باعادة النظر في التلوث الناجم عن أوزون الهواء ، وفي وضع قيود جديدة ونسب أخرى شديدة بقصد مكافحة التلوث المذكور .

■■□□

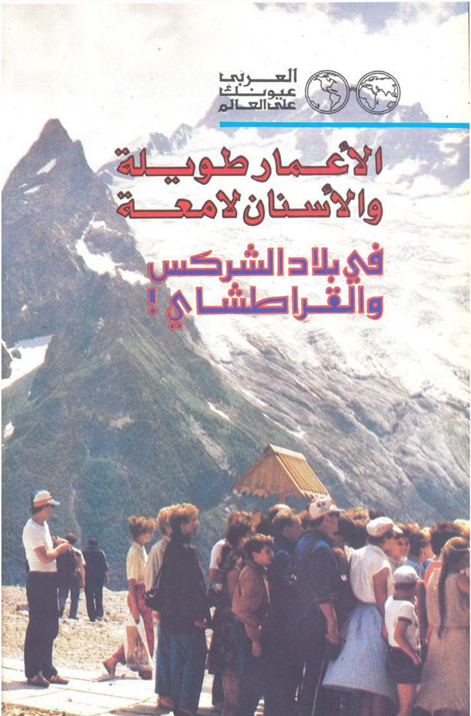
■ اعمل الواجب القريب منك . (جوته)

■ الغمد راض بلونه الأغبر ، مادام يصون حد السيف . (طاغور)

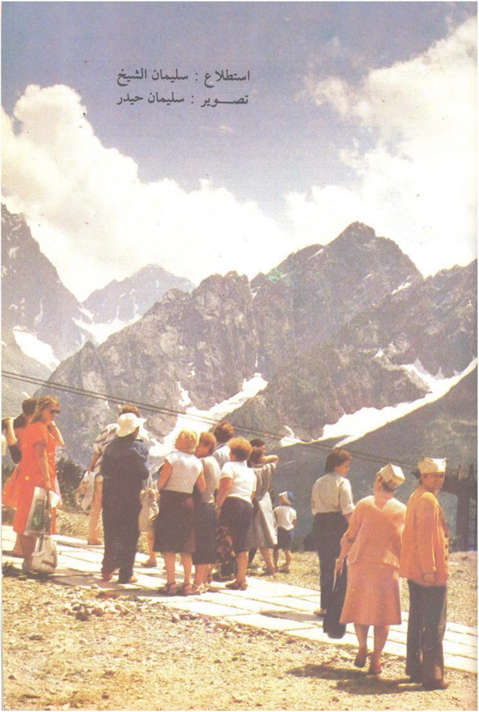
■ من عرف نفسه لم يضره ما قاله الناس فيه . (سفيان الثوري)

■ ليست العبرة في أن تكون عنيفا ، بل في أن تكون نافعا ومحبوبا . (روكفلر)

■ في الحب : الشبان يدفعون ثمن ما يفعلون ، والشيوخ يدفعون ثمن ما لا يفعلون . (بومارشيه)


العربي
عيونك
على العالم
الأعمار طويلة
والأسنان لامعة
في بلاد الشركس
والقراطشاي!

استطلاع : سليمان الشيخ
تصـــوير : سليمان حيدر



قليلون ، بل وربما نادرون ، أولئك الذين لايلبّسون أسنانهم الطبيعية بالذهب والفضة . في بلاد القفقاس ، خصوصا القفقاس الشمالي .

فهل هو الغنى والثراء ، أم هي العادات والتقاليد وراء ظاهرة الأسنان الملبسة بالذهب والفضة عند نساء القفقاس ورجالها على حد سواء ؟

لاهذا ، ولا تلك ، فوراء الظاهرة الإنسانية ، ظاهرة أخرى طبيعية ، تتمثل بغنى المنطقة بالينابيع المعدنية ، وقلة مادة الفلور الضرورية للاسنان في مياه الشرب ، ولأن الأمر كذلك ، فإن الأسنان سريعا ماتتآكل ، لذلك فإنهم يحفظونها بتلبيسها بالذهب والفضة .

مع ذلك فإن أعلى معدلات الأعمار قد سُجلت في المنطقة ، إذ أن متوسط عمر الإنسان هناك يقارب خمسا وسبعين سنة ، وتجاوز أعمار نسبة كبيرة من السكان المائة سنة ، فما هو السر ؟

عن منطقة (القراطشاي ـ شركاسيا) في القفقاس يدور استطلاعنا هذا .

(القراطشاي ـ شركاسيا) هي منطقة ذات حكم ذاتي ، داخل مقاطعة ستافربول التابعة لجمهورية روسيا الاتحادية في الاتحاد السوفيتي ، وفي قرية (بروفلنيوا) القريبة من مدينة ستافربول عاصمة المقاطعة ولد ميخائيل غورباشوف ، الزعيم الحالي للاتحاد السوفيتي .

تبلغ مساحة (قراطشاي ـ شركاسيا) حوالي ١٤,١٠٠ كيلومتر مربع .

واسمها الثنائي جاء من وجود قوميتي القراطشاي والشركس بصورة غالبة فيها .

يبلغ عدد السكان حوالى ٤٠٠ ألف نسمة ، أكثر من ثلثهم من قومية القراطشاي ، ويبلغ الشركس حوالي ٥٠ ألفا ، فيما يبلغ الأبازة أو الأباظة حوالي ٣٠ ألفا ، ويبلغ النوغاي حوالي ١٥ ألفا ، وهم من قوميات القفقاس المحلية ، وبقية السكان يتوزعون على بقية أمم الاتحاد السوفيتي وشعوبه كالروس والبيلوروس ، والأوسيت والتتار والأرمن والجيورجيين وغيرهم .

بين قوتين

ولغة القراطشاي والنوغاي تعود في جذورها إلى العائلة التركية اللغوية ، بينما تعود لغات الشعوب الأخرى المحلية إلى العائلة اللغوية القفقاسية .

والأبازة أو الأباظة هم المجموعة نفسها التي تنتمي إليها بعض العائلات التي حملت الاسم نفسه في مصر أو تركيا ، وقد هاجرت عائلات قفقاسية محلية كثيرة ـ والأباظة من بينهم ـ في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلى تركيا وسوريا والأردن وفلسطين والعراق ومصر ، نتيجة الصراع الطويل الذي قام بين الامبراطورية العثمانية وروسيا القيصرية ، ورفع سلاح الدين من قبل العثمانيين ، واستجابة بعض شعوب المنطقة وانحيازها للأتراك ، وبالتالي تهجيرها إلى آسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر .

ويقع القفقاس الشمالي بين بحر قزوين والبحر الأسود ، ويحد منطقة (قراطشاي ـ



● خريطة قراطشاي - شركسيا وسوتشي والمناطق المجاورة .

شركاسيا) من الشمال اقليم ستافربول وهي جزء منه ، فيها يحدها من الجنوب جمهورية جورجيا الاتحادية السوفيتية ، ويحدها من الشرق جمهورية كبارديا - بلكاريا ، ذات الحكم الذاتي ، ويحدها من الغرب منطقة الأوديغة ذات الحكم الذاتي التابعة لإقليم كراسنودار ، وكلها تقع ضمن جمهورية روسيا الاتحادية .

وقد دخل الإسلام إلى المنطقة - أعني قراطشاي - شركاسيا - في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، عن طريق بعض الدعاة من الأتراك العثمانيين والتتار ، وأغلبهم كانوا ينتمون إلى الطرق الصوفية التي انتشرت في أنحاء الأمبراطورية العثمانية وجوارها (خصوصا القادرية والنقشبندية) .

وقد خضعت المنطقة لحكم روسيا القيصرية بعد حروب عديدة مع الأتراك العثمانيين والإمارات المحلية . وقد تم تثبيت ذلك إثر مؤتمر برلين بعد الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٨م .

المدن المنتجعات

إذا كان البعض يفضل الدخول إلى القفقاس الشمالي من بوابته القصيرة ، أي من مطار المدينة المشهورة في المنطقة «مينرال‌نوفودي» فإننا وصلنا إليها عن طريق القطار ، حيث انطلقنا إليها من مدينة «سوتشي» الواقعة على البحر الأسود ، وشاهدنا الكثير من معالم القفقاس الشمالي بسهوله وجباله وطبيعته الجميلة الخلابة .

ومدينة مينرال نوفودي (المياه المعدنية) هي محطة أو معبر مهم للقفقاس الشمالي ، فيها مطار كبير ، ومحطة للسكك الحديدية وعدد سكانها ٨٠ ألف نسمة .

استقبلنا في محطة السكك الحديدية مرافقان هما بلال - صحافي من قومية القراطشاي - ويفجيني - مدير قسم السياحة في المنطقة ، وهو روسي - وكان الندى الصيفي مازال يكسو الطبيعة ، والناس والحيوانات والطيور مازالوا في الساعات الأخيرة من غفواتهم . أخذت السيارة تنهب بنا الطريق نهبا ، وأخذ سيل المعلومات عن المنطقة يهل ويتوالى :

إن المنطقة إحدى مناطق الاصطياف والمنتجعات المهمة في الاتحاد السوفيتي ، إن وجود ينابيع المياه المعدنية بكثرة في المنطقة قد حتم تحويل عشرات المدن فيها إلى مصحات للاستشفاء ومعالجة عشرات الأمراض . إضافة إلى أن الطقس معتدل ، لاتصل درجة الحرارة فيه بالصيف إلى ٣٠ درجة مئوية ، ولا تنخفض في



● فوج صاعد وآخر نازل ، ذلك هو الحال في محطة « تلفريك دونباي » ، حيث الجبال شاهقة ، والثلوج باقية طوال أيام السنة .

ـ طبيعة هادئة في مدينة قراطشايسك . أسفل



● فسحة للتأمل بجمال الطبيعة الخلاب في دونباي .



شتاء إلى ماتحت الصفر ، إلا في أندر الحالات ، وتوجد بها مزارع وحقول وغابات خضراء واسعة دائمة الاخضرار في معظم أشهر السنة .

وقد ذكر مرافقانا مدناً عدة تتم فيها معالجة عشرات الأمراض ، كأمراض المعدة والكبد ، والمفاصل ، والعظام ، والقلب ، والأعصاب ، والأذن والحنجرة والعيون ، والجلد مثل : دونباي ، وتيباردا ، ويسين توكي ، وبياتيغورسك ، وجيلازنوفودسك ، وكيسلو فودسك (تختص الأخيرة بعلاج القلب والشرايين ويرتادها بعض رواد الفضاء والأدباء والفنانين والزعماء السياسيين في الاتحاد السوفيتي وغيره من بلدان) ويوجد في هذه المدن عشرات المتخصصين في هذه الأمراض .

مازالت العتمة تلف الكون ، ومازلنا ننهب الطريق نهبا ، برودة الليل كانت تجبرنا على إغلاق نوافذ السيارة ، مع أننا كنا في الأسبوع الأول من شهر أغسطس/ آب (اللهاب كما يقولون في بلاد الشام) ، ويستمر حديث المرافقين : يشتهر إقليم ستافربول بتربية الخيول (وضمنه منطقة قراطشاي شركاسيا طبعا) ، ومن بينها الخيول العربية ، وهي مصدر مهم في الأسواق العالمية ، كما يشتهر بالزراعة (قمح وذرة ، وبنجر يتحول إلى سكر وخضراوات) ويستخرج منه الغاز والنفط ، وفيه صناعات كيميائية متقدمة ، وتصنع فيه آلالات ، والأسمدة والصناعات الخفيفة . وكما أن الإقليم جبلي ، فإن فيه سهولا واسعة وفسيحة ، وأشهر الأنهار التي تمر فيه نهر كوبان أو قوبان ، ويصل عدد السكان في الإقليم إلى حوالي مليونين ونصف مليون نسمة ، ومساحته حوالي ٨٠ ألف كيلومتر مربع .

ليرمنتوف قتيلاً !

بدأت خيوط الفجر تتسلل رويدا رويدا ، وبدأت ملامح الأشياء تتضح بصورة تدريجية ، قال المرافقان : ها نحن على مشارف مدينة بياتيغورسك ، إنها المدينة التي أحبها الشاعر ليرمنتوف ، صحيح أنه نُفي إليها في البداية نفيا ، بسبب أشعاره الثورية ضد السلطة القيصرية ، إلا أنه أحبها وعاش في منطقة القفقاس تسع سنوات ، واستوحى بعض قصائده من طبيعتها .

انحرف السائق نحو إحدى الغابات ، صراع العتمة والنور كان ما يزال مستمرا ، وإن كانت كفة النور قد أخذت بالرجحان ، وصلنا إلى قلب الغابة ، هواء منعش استقبلنا ، مع تغريد طيور ، وهدوء مريح .

هاهو تمثال ليرمنتوف ، لقد أقيم في سنة ١٩١٥ في المكان نفسه الذي قتل فيه الشاعر (ليرمنتوف من مواليد ١٨١٤) وقد أقيمت مبارزة إطلاق نار بين الشاعر ومنافسه مارتينوف سنة ١٨٤١ ، كان فيها مارتينوف أسرع من ليرمنتوف فأرداه قتيلا . تحيط بتمثال الشاعر تماثيل لأربعة نسور سوداء ترمز إلى الحزن .



الصحافي بلال

صغيرة وهادئة

تابعنا مسيرنا إلى مدينة قراطشايسك ، عاصمة قومية القراطشاي ، وهي مدينة حديثة صغيرة ، تقع على منحدر تحيط به الجبال ، على سور حديقة بلديتها تمثال لامرأة تحمل وعاء لبن رمزاً للضيافة .

وصلناها في الصباح الباكر ، فوجدنا رئيس بلدية المدينة ، رمضان كويتشوف ، ونائبته ، الينا يوسنكو ، بإنتظارنا على باب مبنى البلدية ، ثم اصطحبانا إلى أحد المطاعم لتناول الفطور . ذكر السيد رمضان ، أن عدد سكان المدينة يصل إلى ٢١ ألف نسمة ٤٠٪ منهم قراطشاي ، و ٤٠٪ روس ، والبقية من بقية القوميات السوفيتية ، ويصل عدد سكان المناطق المجاورة المحسوبة على المجلس البلدي للمدينة حوالي عشرة آلاف نسمة ، وقد أسست المدينة سنة ١٩٢٨ .

يمر نهر تيباردا بالمدينة ، وهو أحد فروع نهر كوبان (ينبع من جبال البروز دائمة الثلج) وأضاف السيد رمضان : إضافة للزراعة ، فإن الصناعة تمثل ركناً مهماً في حياة ناس المدينة ، إذ أن فيها مصانع للإلكترونيات والآلات الدقيقة .

حركة الناس خارج المطعم ازدادت ، وظهر نور الشمس ساطعاً دافئا .

تابعنا حديثنا على مقعد في حديقة البلدية عن الطقس والناس ، وانتخابات البلدية التي ستشهد أكثر من مرشح لها (وليس بالضرورة أن يكون المرشح حزبيا حسب القوانين الجديدة) . وتكلم السيد رمضان عن السياحة التي أصبحت موردا أساسيا للمنطقة ، خصوصا بسبب وجود مصيف دونباي الشهير فيها .

توجهنا بعد ذلك إلى نصب شهداء الحرب العالمية الثانية ، حيث نار الشهيد مازالت متقدة ، ونحت لأم تحمي ابنها ورجلين يدافعان ، وقد قامت معارك مهمة في المنطقة مع النازيين للسيطرة على نفط القفقاس .

علق السيد رمضان : لو سيطر الألمان على نفط باكو (عاصمة أذربيجان) وبقية المناطق التي يوجد فيها نفط ، لكان من الممكن أن يؤثر ذلك على نتائج الحرب .

توجهنا بعد ذلك إلى تيباردا ودونباي ، وهما لاتبعدان عن مدينة قراطشايسك إلا حوالي ٥٠ كيلومترا ، كان النهر يرافقنا في مسيرنا ، والتلال تحيط بنا من الجانبين وسهول خضراء تبرز بين التلال بين فترة وأخرى .

تابع السيد رمضان حديثه عن المدينة :

في المدينة (١١) مدرسة ثانوية ، و(٩) روضات للأطفال ، ويوجد مستشفى مركزي واحد ، سعته حوالي (٢٨٠) سريرا ، ويوجد أربعة مستشفيات أخرى ، يستوعب الواحد منها أقل من مائة سرير .

وفي المدينة داران للسينما ، وناد ثقافي ، وجريدة محلية تصدر بخمس لغات : القراطشاي ، الشركسية ، الروسية ، الأبازية ، والنوغاي . تم القضاء على الأمية في المنطقة منذ عشرات السنين ، ويتم تعليم لغة القراطشاي لأبنائها في الصفوف الابتدائية الثلاثة الأولى ، ثم يتم التعليم باللغة الروسية بعد ذلك ، إلا الأدب والتاريخ واللغة ، فإنه يتم تدريسها باللغة المحلية لأبناء القوميات المحلية .

وأضاف : ليس في المدينة مسجد ، إن بعض المساجد في القرى ، ولم يتقدم أحد لبناء مسجد في المدينة .

هدير الماء كان يطغى على كل الأصوات ، والسيارة توالي سيرها ، وقلما تزاحمها سيارة أخرى .

طريق الحرير

ذكر السيد يفجيني ـ مدير السياحة ـ أن في المنطقة عدة أديرة قديمة ، وبعضها يعود للقرن الثامن الميلادي (خضعت المنطقة للدولة البيزنطية في فترة من الفترات) ، وأضاف أن





● في قرية هيبيز فلكلور شركسي : ملابس ورقص وغناء وملامح شركسية .
المعمرون لهم فرقتهم الخاصة .
لاحظ الأسنان الملبسة لحمايتها من التآكل .





طريق الحرير بين أوربا وآسيا كان يمر من هذه المنطقة ، وقد وجد الناس بعض اللُقيات التي تشير إلى هذا الأمر . عن السياحة قال مديرها : يفد إلى المنطقة حوالي سبعمائة ألف سائح سنويا وهناك أماكن للتزلج في الشتاء ، وأماكن للاستجمام في الصيف ، و(٤٢) فندقا ومركزا للسائحين ، تصل درجة استيعابها اليومي إلى (٤٨٠٠) سرير في المنطقة كلها طبعا .

وأشهر الأماكن هو دونباي ، ونحن الآن في طريقنا إليه . . وعندما صادفنا مقلعا للحجارة ذكر السيد يفجيني : أن أحجار البناء تستخرج من هذا المقلع وبعضها ثمين كالمرمر ، وبعض حجارة الساحة الحمراء في موسكو من هذا المقلع وغيره من المقالع القريبة ، كما يتم نحت هدايا تذكارية من حجارة هذه المقالع .

نصل إلى بلدة تيباردا التي يصل عدد سكانها حوالي ثمانية آلاف نسمة ، والتي تشتهر بمصحاتها العلاجية وتحيط بها الغابات والتلال وتتخللها ، وفيها مصانع للآلات الدقيقة .

وقد حاول الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية المرور من ممر (اكسوا) القريب منها للوصول إلى البحر الأسود ، إلا أنهم فشلوا في ذلك .

يقوم بالقرب منها مصنع لتعبئة المياه الطبيعية (نارزان) ، وقد أخذت البلدة اسم النهر الذي يخترقها .

عندما يصبحون أسرى !

نتجاوز البلدة لندخل في محمية طبيعية ، لايتم الدخول إليها إلا بتصريح .

السيد جعفر سلبا قاروف ، مدير المحمية ، ذكر لنا أن المحمية أنشئت سنة ١٩٣٦ ، وأن مساحتها تصل إلى حوالي ٨٦ ألف هكتار ، وأن ارتفاعها يصل إلى ١١٣٠ مترا عن سطح البحر ، ثم قادنا إلى متحف المحمية ، وشرح لنا طبيعة حيوانات الغابة وطيورها ، وطبيعة الأسماك التي تعيش في بحيراتها ، وذكر لنا أن سمك



السيد ريم تتارشاؤ ا

« الفوريل » يغير لونه ، بل حتى وزنه حين ينتقل من البحر إلى النهر أو العكس .

وذكر أيضا أن طير « الكلوتشيسا » يأكل الحشرات المؤذية ، ويقوم مقام الطبيب في الغابة ، ثم ذكر طبيعة أحد أنواع الغزلان القفقاسية ، إذ أنه في الخريف وعندما يبدأ الصراع لأجل الاستحواذ على الإناث ، فإنه مهما حمى وطيس المعارك بين الغزلان فإنها لاتؤدي إلى الموت . وإذا ما أحس أحد الغزلان ضعفا أمام زميله فإنه يخر راكعا أمامه !

ثم صحبنا السيد جعفر لنتجول في المحمية ونرى طيورها وحيواناتها على الطبيعة ، فرأينا غزلانا وثيرانا برية ، وذئابا وأسودا وثعالب ، ودببة (أحدها أهداه الزعيم المجري جانيوس كادار للكاتب السوفيتي شولوخوف ، فما كان منه إلا أن أهداه للمحمية) ، ثم رأينا بجعا ونسوراً وببغاءات وغيرها .

سألت السيد جعفر عن ظاهرة التعايش الواضحة بين بعض الحيوانات التي اشتهرت بصراع بعضها مع بعض في الغابات الطبيعية ، فأجاب مبتسما : في الأسر تخف العداوات إن لم تختف ، ويقوم السلام بين ما هو متصارع ومتناقض ! فإنها كلها تصبح أسيرة !

دونباي ، دونباي

غادرنا المحمية ، ثم أخذ الشق بين الجبال الذي توجد فيه المحمية يضيق ، وظهرت بعض أشجار الغابة متقصفة مهروسة من جراء تساقط بعض صخور الجبال عليها . مازال النهر يرافقنا ، وخرير الماء مازال تسبيحة عالية الصوت ، تسيطر على المكان كله . هاهو النظر يسد أفقه بجبل عالٍ مدبب الرؤوس ، مكسو بالثلج ، تحز بدنه عدة جداول ، مصدرة خريراً هائلاً يعلو أي صوت آخر . بيوت قليلة ، معظمها من خشب ، موزعة في الشق المليء بأشجار الغابة ، المحاصر بالجبال من ثلاث جهات . تنظر فيكل نظرك وأنت ترقب العلو الشاهق للجبال المغطاة بالثلج والضباب .

معنى دونباي في لغة القراطشاي الثور البري ، وأحد رؤوس الجبل تشبه الثور البري . هكذاعلق أحد مستقبلينا في المكان ، وأضاف : انظر إلى ذلك الرأس انه يشبه المرأة النائمة ، فأطلقنا عليه اسم جبل « المرأة النائمة » أيضا ، وذلك يشبه الحصان ، وآخر يشبه الإبرة أو السن . هكذا حملت رؤوس الجبال الأسماء من واقع ماتشبه في حياة الناس ، وأعلى قمة في هذا الجبل (جبل دونباي) تبلغ ٤٠٤٥ مترا . ولايزيد عدد سكان القرية على ٦٠٠ شخص ، يتولون تقديم الخدمات للسائحين في المنطقة ، وفيها عدة فنادق ومطاعم ومقاه .

تفضلوا إلى الفندق ـ هكذا قال مرافقونا ـ إنه فندق السهل المشمس ، وجهنا النظر من شرفاته فبان منظر جمالي ، قلما يتكرر في الحياة ، ظهره محمي بالجبل وبعض أشجار الغابة ، وأمامه غابة ومحطة للعربات الكهربائية التي تصعد إلى قمة الجبل (تلفريك) ، بنيت منذ ١٢ سنة ، وعلى يمينه يظهر جانب آخر من الجبل مكسو بالثلج ، وتظهر رؤوسه المسننة . خرير الجداول يحفر في الذاكرة مكاناً له ، إضافة لما يحفر من أماكن في الصخور والأتربة . يلاعب الغيم الشمس ويتمازج معها ، فيحتل وجهها أحياناً ، ويتفرق عنها أحيانا أخرى ، وفي لحظة سريعة يغطيها بغماماته الشفافة .

نصعد بالعربات الكهربائية مع عشرات الناس ، طول طريق المحطة ٣ كيلومترات ، ويصل علوها إلى ٣٢٠٠ متر فوق سطح البحر ، وتستغرق الرحلة إليها حوالى ٢٠ دقيقة ، ينزل الراكب في محطة أولى بعد عشر دقائق ، ثم يركب عربة يمكن أن تحمل فردين مدة عشر دقائق أخرى ، كثافة الضغط أخذت تزداد كلما كان ارتفاعنا يزيد .

قسم من الجبل مغطى بالثلج ، وآخر ذاب عنه ، بدأنا نتمازج كما يتمازج غيرنا . الهواء صقيع ، لكنه منعش ، وحركة رشق كرات الثلج ، وتوجيهها نحو الآخرين تعيد دفئا مطلوبا للجسم .

تناولنا بعد ذلك طعاما شهيا بعد تعب ، وعندما أزف الرحيل نقلت العين للذهن تكوينا جماليا ، وتمنت الإرادة أن يبقى محفورا إلى الأبد في الذاكرة .

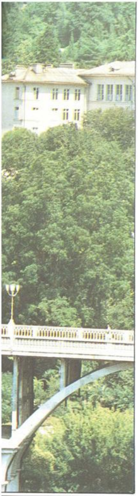
ستالين والمنفى

أثناء عودتنا علق مرافقنا بلال : لقد رصدت بعض الكلمات العربية التي تحدثت بها مع المترجم ، إنها تحمل معاني الكلمات نفسها في لغتنا مثل تاريخ ، كتاب ، سلام ، ساعات ، دقيقة ، خيار ، زيت ، وغيرها .

علقت : لاتنس أن لغتكم كانت تكتب بالحروف العربية منذ سنوات قليلة ، وأن تاريخا طويلا قد جمعنا ، وأن الإسلام عقيدة وتراث لكل المسلمين ، بغض النظر عن جنسياتهم وألوانهم وقومياتهم ، وبسبب هذا الأمر فإن الكثير من العادات والتقاليد والسلوكيات يمكن أن تصبح مشتركة .

والَيْنا السير ، ومررنا ثانية من قلب مدينة قراطشايسك . علق السيد بلال قائلاً : انظر إن

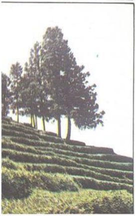


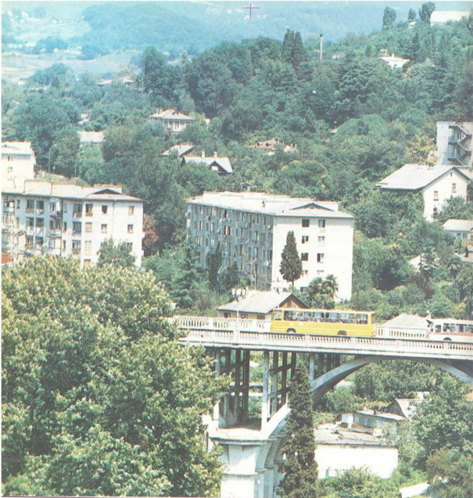


● (يمين) :
العروسة : صناعة تقليدية تجدها في الأسواق الشعبية السوفيتية . في مصنع المطاط في شركسك : المرأة تعمل كالرجل تماماً .

● (يسار)
سوتشي : مدينة ساحلية تقوم على تلال ، والمباني بين أشجار الغابة . (أسفل) مدرجات حقول الشاي في سوتشي . ومجمع إدارات الدولة في مدينة قراطشايسك : هدوء ، وعدم ازدحام .











مدينة (قراطشايسك) قامت عند النقطة التي يلتقي بها نهر كوبان برا فده تيبارداه .

صادفتنا عين مياه معدنية ، فنزلنا نشرب من مياهها التي تسقي من يطلبها ، ثم استأنفنا المسير متوجهين نحو مدينة شيركيسك .

قلت للسيد بلال : **آمل أن تتلقى سؤالي بدون إحراج أو حساسية ، إذ أنني أريد معرفة المزيد عن نفي شعب القراطشاي عن أرضه ووطنه زمن الحرب العالمية الثانية ، أثناء وجود ستالين على رأس الزعامة السوفيتية .**

علق السيد بلال : ولماذا الإحراج أو الحساسية ؟

إن الأمر قد حدث مع شعوب أخرى من شعوب الاتحاد السوفيتي ، تم نفيها إما إلى سيبيريا ، وإما إلى جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية .

سألت : **هل صحيح أن النفي حدث لبعض الشعوب المسلمة فقط ؟**

- أجاب : إن الأمر غير صحيح ، والصحيح أن أغلب الشعوب التي تم نفيها كانت مسلمة كالقراطشاي ، والشاشان انغوش ، وتتار القرم ، والبلقار ، وتم نفي المان الفولغا وبعض الأرمن واليونانيين والكالميك أيضاً .

سألت : **هل يمكن استعادة بعض الوقائع ؟**

- أجاب : أنا من مواليد سنة ١٩٣٨م ، وعندما تم نفي شعبنا في ٣ نوفمبر - تشرين الثاني - من سنة ١٩٤٤ ، كان عمري حوالي ٦ سنوات .

هل هناك سبب محدد لأمر النفي ؟

- قيل : إنه حدثت بعض الخيانات من قبل بعض الرجال من قومية القراطشاي ، وقيل أيضا : إن بعض المقربين من ستالين ، أغروه بتوسيع رقعة جورجيا (ستالين جورجي الأصل) وفعلا فإن بعض الجورجيين والأوسيت جاءوا للمنطقة وسكنوا فيها بعد نفينا . وقيل : إن موقع بلادنا مهم استراتيجياً .

وأضاف السيد بلال : لقد مات كثيرون منا أثناء النفي ، وتم نقلنا إلى آسيا الوسطى ، صحيح أنه تم إيواؤ نا في بيوت ، لكنها لم تكن مناسبة تماما ، وصحيح أيضا أنه تم توفير مدارس ابتدائية تعلم بالروسية فقط ، مع ذلك فإن الوطن يبقى هو الوطن ، والحنين إليه يبقى له الاعتبار الأول ، لقد وقع الظلم على شعبنا ، ولم يعد إليه اعتباره ، إلا بعد قرار مجلس السوفييت الأعلى ، زمن زعامة خروشوف ، وأعيد شعبنا إلى وطنه سنة ١٩٥٧ ، لذلك فإننا نحمل اعترافا بالجميل لخروشوف ، وتم توفير مميزات وأوليات خاصة لشعبنا وللشعوب التي تم نفيها من حيث السكن ، والخدمات والدراسة وغيرها .

في بلاد الشركس

ثم وصلنا الى مدينة شركاسيا بعد مسير ستين كيلومترا من مدينة قراطشايسك . وشركاسيا عاصمة المنطقة كلها ، وعدد سكانها حوالي ١١٠ آلاف نسمة . ذهبنا إلى مجلس نواب المنطقة فيها والتقينا بالسيد ريم تتارشاؤ ا ، النائب الأول لرئيس مجلس النواب ، مع مسؤ ولين آخرين عن الشؤ ون الأخرى في المنطقة ، وتوالى ذكر المعلومات : أسست المنطقة (قراطشاي - شركاسيا) ذات الحكم الذاتي ، في ١٢ يناير سنة ١٩٢٢ ، وفي سنة ١٩٢٦م أعيد النظر في هذا الأمر ، فأعلنت القاراتشاي منطقة ذات حكم ذاتي ، وأعلنت شركاسيا محافظة ، ثم أعيد تجميع القوميتين في منطقة ذات حكم ذاتي سنة ١٩٢٨ ، ثم نفي شعب القراطشاي سنة ١٩٤٤ ، وبقي الشركس . ثم أعيد جمع القوميتين سنة ١٩٥٧ ، وأعلنت المنطقة ذات حكم ذاتي داخل مقاطعة ستافربول .

ثم توالت التفصيلات المتعلقة بالصناعة (مواد بناء ، آلات ، أجهزة مذياع ، أصباغ ، استخراج الثروات المعدنية ، صناعة السكر ، المطاط ، المواد الغذائية وغيرها) .



السيدة سيفتلانا جمبوط

والزراعة ومزارع الدجاج والأبقار والخيول وغيرها .

وفي المنطقة حوالي ٤٥ ألف متخرج من معاهد عليا في شتى الاختصاصات ، (عدد السكان أربعمائة ألف نسمة تقريبا) ، وفيها حوالي ٦٧ ألف تلميذ وتلميذة ، وخمسة آلاف مدرس ، وفي المستشفيات ١١٥ سريرا لكل حوالي عشرة آلاف نسمة من السكان ، و٢٦ طبيبا لكل عشرة آلاف من السكان ، وفي منطقتنا ٢٢٩ ناديا ثقافيا ، و٢٠ مكتبة عامة ، و٥ متاحف كبيرة و٦٨ متحفا صغيرا ، ومسرح درامي كبير ، و٣ فرق مسرحية روسية ، وقراطشاي ، وشركسية ، و١٨ فرقة فولكلور .

وبعد ذلك قمنا بزيارة قرية شركسية اسمها هبيز .

فرقة معمرين

رافقتنا إلى القرية السيدة سيفتلانا جمبوط ، نائبة رئيس الجمعية الوطنية في المقاطعة ، تبعد القرية عن المدينة حوالي ٥٠ كيلومترا ، تحيط بالطريق مزارع وحقول خضراء ، فيها زراعات متعددة ، مثل الخضراوات والفواكه .

ويبلغ عدد سكان القرية ٥٢٠٠ نسمة ، كلهم من الشركس ، استقبلنا حشد من السكان بالطبول والزهور والأغاني عندما دخلنا نادي القرية الثقافي الذي بُني سنة ١٩٧٢ .

يحتوي النادي على قاعة عرض (أفلام ، ومسرح ، تتسع لستمائة فرد) ، وقاعة محاضرات ، ومكتبة أطفال ، ومكتبة للكبار ، وورشات للصناعات التقليدية ، ويتبع النادي بعض الفرق الرياضية .

ثم أخبرنا مرافقونا بأننا سنشاهد فرقة من المعمرين ، وهم يؤدون الرقص الشعبي الشركسي . جاءت الفرقة ، وكانت مكونة من ست نساء وستة رجال ، أصغرهم في السابعة والستين ، وأكبرهم في الرابعة والثمانين .
سبقهم « الاكورديون » بتقديم تمهيدي ، ثم رقصوا كالشباب - لا عكاكيز ، ولا أحد يستند على أحد - وتوالت فقرات الرقص ، وشارك فيها أطفال ، وصبايا ، وشبان ، ثم عادت فرقة المعمرين ، لباس رجالها هو اللباس الشركسي المعروف (غطاء الرأس الأسود - قلبق - ورداء أسود على صدره أماكن لوضع « الفشك » الرصاص ، وسروال أسود ، يليه جزمة سوداء) .

وقد ذكر لنا مرافقونا بأن هناك مدرسة للفنون يتعلم فيها من يرغب الفن على أصوله ، تتالت فقرات الرقص والغناء ، ورقصوا رقصات الأفراح والزواج ، وتعارف الشبان والفتيات والربيع ، وغنوا لنهر تيباردا ولبطولات الرجال .

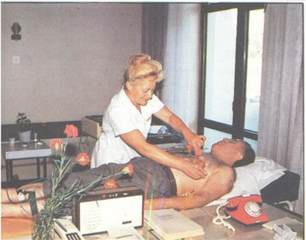
كانت ليلى على رأس فريق المعمرين ، عمرها ٨٢ سنة ومازالت تعمل في الزراعة ، معتدلة القوام والصحة ، لايعطيها الناظر من العمر في أحسن الأحوال أكثر من ستين سنة .

سألتها : من أين لك أيتها السيدة ، هذا النشاط والصحة والقوة ، وهذا العمر الطويل ؟

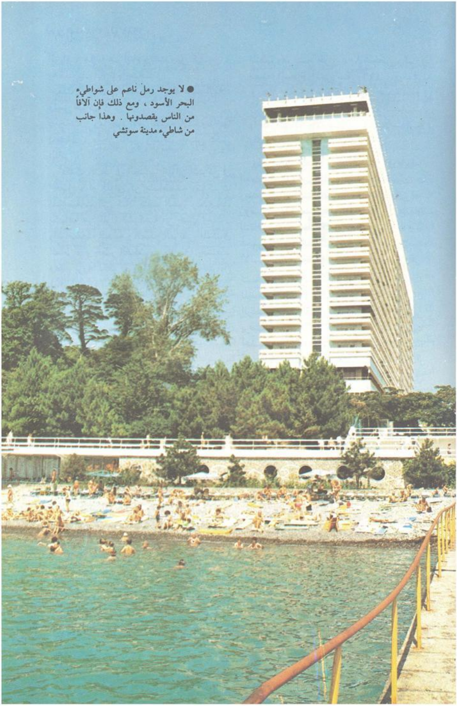
- فوجئت بالسؤال ، بل أحرجها ، أخيرا قالت :

- إن معدل الأعمار في بلادنا يطول ، ونبقى





● السوق الشعبي في ضاحية ماتسيستا بسوتشي - (أعلى) جلسة علاج بدريهمات قليلة في ضاحية ماتسيستا - (أسفل) .



● لا يوجد رمل ناعم على شواطيء البحر الأسود ، ومع ذلك فإن آلافاً من الناس يقصدونها . وهذا جانب من شاطيء مدينة سوتشي

خارج الاتحاد السوفيتي . تقع على البحر الأسود وتمتد شواطئها وشواطىء البلدات التي أصبحت ضمن بلديتها حوالي ١٥٠ كيلومتراً ، هكذا ذكر لنا المرافق ميخائيل الذي انضم إلينا بعد وصولنا للمدينة .

سألته : لماذا سمي البحر الأسود بالأسود ؟

علق : هناك عدة أقوال في هذا المجال من ذلك : إن شواطىء البحر الأسود كانت تحت السيطرة العثمانية حتى سنة ١٨٢٩ ، وقد أصبح ميناء سوتشي تابعا للامبراطورية الروسية حسب اتفاقية ادريانوبل ، وتذكر الرواية أن السكان المحليين كانوا يقاومون الأتراك بالنار ، فسمي الأتراك البحر بالأسود نظرا لأن البارود أسود ، وهناك رواية أخرى تقول : بأنه توجد حياة في المائة والخمسين مترا الأولى من سطح البحر في حين أن ماتحت ذلك لاتوجد فيه حياة ، حيث يكثر الكبريت والهيدروجين ، ولذلك سمي البحر بالبحر الأسود نظرا لهذه الخواص .

كان الوقت ظهرا عندما وصلنا المدينة بعد أن أمضينا حوالي ٢٧ ساعة في القطار المتجه من تبليسي عاصمة جورجيا ، والذي رأينا من نوافذه بعض موانىء البحر الأسود وأجزاء من طبيعة جبال القفقاس ، والأنفاق المنحوتة فيها لتسهيل مرور القطارات والسيارات .

وسوتشي مدينة خضراء مليئة بالغابات وأشجار النخيل ، ومزارع الشاي . عندما تنظر إلى بيوتها من عل فإنك تجد غابات بينها بيوت ، ومعظم أشجارها من الصنوبر ، والسرو ، والحور ، وأشجار الحمضيات . رطوبتها عالية جدا (تصل إلى حوالي ٩٠٪ مع أن درجة الحرارة في الأسبوع الأول من (أغسطس) لم تتجاوز الثلاثين درجة) . شوارعها منظمة وبيوتها جميلة ، وفنادقها تغص بالناس ، وشواطئها مزدحمة لا تجد فيها مساحة فراغ صغيرة كي تضع رحالك عليها ، ومع أن شواطئها قليلة الرمال ، إلا أن الناس كانوا يسبحون ويتجمعون حتى في المناطق الصخرية ويستريحون عليها ، وطقس المدينة ينتمي إلى طقس المناطق الحارة ، القريب من الاستوائي . و٨٠٪ من مساحة المدينة مليئة بالأشجار والحدائق .

أسست المدينة سنة ١٨٣٨م ، واعتبرها الروس أيام القيصرية ريفيرا القفقاس ، إذ أنه بُني فيها الكثير من أماكن الاستجمام . وتحولت أثناء الحرب العالمية الثانية إلى مدينة طبية عولج فيها أكثر من نصف مليون جندي وضابط ، وذكر السيد ميخائيل أن نصباً كبيراً أصبح في المراحل الأخيرة من تجهيزه سيقام تخليدا لدور المدينة في هذا المجال . وذك السيد ميخائيل أيضا : إن مدينة سوتشي هي جزء من اقليم كراسنودار القائم في القفقاس ، والتابع لجمهورية روسيا الاتحادية ، مساحته ٨٣ ألف كيلومتر مربع ، ويسكنه حوالي أربعة ملايين وثمانمائة وأربعة وثمانين ألف نسمة حسب احصاء سنة ١٩٨٤ . وعاصمة الاقليم مدينة كراسنودار وفيها منطقة الأوديغا ذات الحكم الذاتي .

في حديقة الصداقة

قادنا مرافقنا إلى حديقة الصداقة حيث التقينا بمديرتها السيدة لودميلا حيث ذكرت أن مساحتها حوالي هكتارين ، وفيها حوالي ٣٠٠ نوع من الشجر المثمر وغير المثمر . أشهرها شجرة ليمون برى تم تطعيمها بحوالي ٤٥ طعما من أنواع الليمون والبرتقال . من جميع أنحاء العالم لذلك سميت بشجرة الصداقة . وقد زار الحديقة وهذه الشجرة بالذات عشرات من رؤساء العالم .

خرجنا من الحديقة وتابعنا جولتنا في المدينة ، التي تحتوي على مسرح شتوي كبير بني سنة ١٩٣٦ ، وخمسة مسارح صيفية صغيرة ، وبها قاعة كبيرة للمهرجانات الموسيقية تتسع لحوالي ٢٥٠٠ فرد ، كما أن فيها ميناء للركاب والشحن ، ومحطة ضخمة للسكك الحديدية



● عيون المياه المعدنية متوافرة على جوانب الطرق ، ووجوه ضاحكة تغري بالشرب .

بنيت في الثلاثينيات من هذا القرن ، وقاعة كبيرة للسيرك .

ثم قابلنا رئيس العلاقات الخارجية في مجلس نواب المدينة السيد سيرجي فاسيليف ، فذكر أن فنادق ودور استجمام المدينة تستوعب ٨٥ ألف زائر يوميا يرتفع العدد إلى الضعف في موسم مايو ـ اكتوبر ، وذكر أن مؤسسات الاستجمام والراحة والكثير من المستشفيات وحتى المدارس تابعة لنقابات ومصانع في الاتحاد السوفيتي يستقبل فيها عمالها وأبناؤهم الذين يأتون للاستراحة والاستجمام .

استراحة لنوريلسك

المكاسب والخدمات وتسهيلات الحياة هي من أهم الظواهر في حياة العاملين السوفييت التي لاتخفى على أي مراقب متابع للحياة في الاتحاد السوفيتي ، فمن يزور أي مؤسسة فإنه سيجد كثيرا من الخدمات توفرها المؤسسة للعاملين فيها .

على سبيل المثال فإن مؤسسة استخراج الثروات الطبيعية في مدينة نوريلسك القطبية الشمالية ـ والتي تصل درجة حرارتها في الشتاء إلى حوالي ٧٠ درجة مئوية تحت الصفر ، وتستمر الليالي القطبية فيها (دون نهار) عدة شهور في السنة مما ينتج عن ذلك اضطرابات كثيرة ـ قد بنت تلك المؤسسة منتجعا للعاملين فيها بمدينة سوتشي.(يوجد غيره أيضا في موسكو ومنتجعان في مدينة نوريلسك نفسها) . حسب المعلومات التي نقلها لنا الدكتور ميخائيل تينياتكو رئيس أطباء المستشفى التابع للمنتجع في مدينة سوتشي . وأضاف : إن مهمتنا تقوم على علاج وإعادة تأهيل عمال المؤسسة ، وقد أسس هذا المنتجع منذ ثلاثين سنة ، تم تجديده وإعادة تأهيله عدة مرات ، آخرها كان سنة ١٩٨٧ ، ومساحته تصل إلى ٢٢ هكتاراً .

ويحتوي على ستة فنادق فيها حوالي ١٤٠٠ سرير للاستراحة والعلاج العائلي ، وتستقبل في السنة حوالي ٢٢ ألف نسمة بينهم حوالي سبعة آلاف طفل . ويعمل في المنتجع حوالي ألف عامل وعاملة طوال السنة ، ويبلغ سعر البطاقة للفرد الواحد حوالي ٢٠٠ روبل شهريا (حوالي ٢٥٠ دولاراً أمريكياً) تدفع النقابة عن العامل المنتسب إليها حوالي ٧٠٪ من قيمة البطاقة . ويوجد في المنتجع ٦٧ طبيباً اختصاصيا ، وعشرات غيرهم من الأطباء العامين ، وتتوافر في المنتجع علاجات متخصصة : للأعصاب ، والأسنان ، والعيون ، والأنف والأذن والحنجرة ، وأمراض النساء ، والقلب ، والجراحة وغيرها . ويتم العلاج بواسطة المياه المعدنية أيضاً .

انتوريست وداغوميز

في طريقنا لزيارة المركز السياحي في منطقة داغوميز ، وتبعد عن قلب المدينة حوالي خمسة وعشرين كيلومترا ، شاهدنا تلالا مكسوة بنباتات خضراء مرتبة ترتيبا متناسقا ، علق مرافقنا ميخائيل : إنها حقول الشاي ، وقد وصل محصوله بالمدينة في عام ١٩٨٧ إلى حوالي سبعة آلاف طن .

قابلنا بالمركز السيد بوريس لوسكوتوف نائب مدير المركز السياحي ، فذكر أن المركز يتبع شركة « انتوريست » السياحية السوفيتية ويحتوي على ثلاثة فنادق تستوعب ٢٥٠٠ سرير ، وإن العمل في هذه الفنادق يتم حسب الربح والخسارة . وذكر أنهم يوفرون العلاج أيضا حيث يتبع لهم مستشفى ، يتم فيه علاج بعض الحالات بواسطة المياه المعدنية ، ثم ذكر القاعات والمكتبات والملاعب التي تتبع الفنادق ، وذكر بعض المؤتمرات العالمية المهمة التي عقدت فيها مثل مؤتمر نزع السلاح الذي عقدته الأمم المتحدة في شهر نيسان ـ ابريل ١٩٨٨م .

مصح ومسبح

قبل أن تدخل المنطقة التي تسمى ماتسيستا فإن حاسة الشم عندك ستلتقط لا محالة رائحة الكبريت . وفعلا فإن شهرة المنطقة تقوم على المياه الكبريتية التي تتفجر عيونها في بعض أراضيها حيث تحولت إلى مادة علاجية منظمة منذ بداية هذا القرن . وقد تم بناء تسعة مستشفيات لعلاج حالات كثيرة تعتمد أساسا على المياه الكبريتية ، كأمراض القلب ، والروماتيزم ، وضغط الدم ، والأمراض العصبية والجلدية ، وأمراض العمود الفقري والأمراض النسائية ، والأسنان واللثة والأنف والأذن والحنجرة وغيرها .

وقد رافقتنا الدكتورة ديانا بلشوفا في زيارتنا لأحد هذه المستشفيات الذي تم تشغيله سنة ١٩٤٠ ، وبينت لنا على الطبيعة علاج كثير من الحالات بوساطة المياه الكبريتية التي يتم التحكم بحرارتها وكثافة المعدن فيها .

وذكرت إنهم عالجوا حالات مزمنة كثيرة لم يستطع الطب الحديث علاجها ، وأطرف ماذكرته الدكتورة ديانا : إن جلسة العلاج الواحدة التي تستمر أكثر من ربع ساعة تكلف ٤٠ كوبيك فقط ! أى (أقل من حوالي ٢٠ فلساً كويتياً) !

غادرنا المستشفى وبقيت رائحة الكبريت متداخلة في خياشيمنا إلى أن خرجنا من المنطقة كلها .

في طريق العودة إلى الفندق الذي كنا نسكنه، راجعت حصيلة جولتنا في المدينة فاعتقدت لأول وهلة أن حياتها لاتقوم إلا على كونها مسبحاً كبيراً وواسعاً ، وكونها مستشفى كبيراً أيضاً،إلا أن مشاهدتي لحقول الشاي ، وبساتين الحمضيات ومداخن بعض المصانع خارج المدينة ، خفف من ذلك الاعتقاد إلا أنه لم يلغه قط . □

العربي العدد ٣٦٨ يوليو ١٩٨٩ م

«بالونة» تنقذ مرضى القلب!

بقلم الدكتور أنيس فهمي

بدأب وإصرار يسعى العلماء إلى اقتحام المجهول بحثا عن حلول لمشاكل الإنسان المتعددة، ويوميا تحمل لنا الأنباء جديدا عن اكتشافات مثيرة ومهمة، منها الوسائل الجديدة لعلاج أمراض القلب، وخاصة الجلطة، أو انسداد الشرايين كالقسطرة، والبالونة، والدواء المذيب للجلطة.

ملايين من الناس يعانون من أزمات قلبية، بسبب انسداد أحد الشرايين التاجية، وما ينتج عنه من موت جزء من عضلة القلب (احتشاء القلب).

وتعد هذه الأزمات القلبية أهم سبب للوفاة في الوقت الحالي، ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلا، يموت حوالي ثلاثمائة وثلاثين ألف شخص كل عام بسبب الأزمات القلبية، وفي ألمانيا الاتحادية يصاب بهذه الأزمات حوالي مائة وخمسين ألف شخص كل عام. ولكن خلال السنوات العشر الأخيرة، اخترعت وسائل جديدة للتشخيص والعلاج، مما أدى إلى زيادة فرص النجاة من هول الأزمات القلبية.

قسطرة القلب

تبدأ القصة كإحدى القصص التي نقرؤها في الروايات الخيالية. كان ثمة مساعد طبيب شاب، تسيطر عليه فكرة تداعب خياله بطريقة مستمرة، لايستطيع منها فكاكا، هذه الفكرة تهدف إلى إدخال أنبوبة رقيقة من المطاط إلى قلبه، عن طريق وريد في ذراعه، ولكي يستطيع أن يفعل ذلك كان لابد من وجود ممرضة تناوله الأنبوبة المطاطية (أو القسطرة)، والآلات الجراحية الأخرى اللازمة لتحقيق فكرته، واستطاع الشاب أن يقنع إحدى الممرضات بهذه الفكرة، فوافقت، بل

ووضعت نفسها تحت تصرفه ، لكي يجري عليها هذه التجربة ، ورضيت أن يربطها فوق منضدة العمليات ، ولكن الشاب أجرى « قسطرة القلب » على نفسه تاركا الممرضة تنظر إليه في ذهول دون أن تستطيع أن تفعل شيئا !

ومع أن هذه القصة يصعب تصديقها ، إلا أنها قد حدثت في مستشفى بلدة « ايبرز فالده » ، القريبة من برلين ، في عام ١٩٢٩ . كان اسم هذا الشاب الشجاع « فيرنر فورسمان » ، وكان اسم الممرضة الشابة « جيردا ديتسين » . وقد حاول أحد الزملاء الذي قدم بالصدفة في ذلك الوقت أن ينتزع الأنبوبة من ذراع فورسمان ، ولكن فورسمان مع وجود « القسطرة » في قلبه والمرآة في يده ، اتجه بمنتهى الهدوء إلى جهاز لأشعة « اكس » ووقف أمامه ، وأخذ يلتقط لنفسه صورا كدليل وثائقي لهذه التجربة .

وقد مضى وقت طويل قبل أن تعرف أهمية هذه التجربة البطولية ، وأن تقدر حق قدرها من جانب زملائه المتشككين . وعندما نشر فورسمان تفاصيل تجربته في المجلة الطبية الأسبوعية ، وصف بأنه دجال ، وكان جزاؤه أن البروفسور « زاور بروخ » ، أشهر الجراحين الألمان في ذلك الوقت ، طرده من مستشفى برلين الجامعي .

وفي عام ١٩٣١ قدم فورسمان بحثا قصيرا في الاجتماع السنوي للجمعية الألمانية للجراحة عن « تجارب لتصوير الأوعية التاجية باستخدام الصبغات » ، وقد قوبل هذا البحث بالاستنكار والاستهزاء كما كتب فورسمان بعد ذلك في مذكراته . ولا شك أن فورسمان كان متقدما كثيرا على عصره ، ولذلك كان عليه أن ينتظر خمسة وعشرين عاما ، لكي يحصل على جائزة نوبل في الطب في عام ١٩٥٦ ، وكان قد عين قبل ذلك استاذا بالجامعة ، ومع ذلك فإن « قسطرة القلب » كانت تعد عملية محفوفة بالمخاطر . وعندما حدث لأخصائي القلب الأمريكي « ماسون جونز » في عام ١٩٥٧ ، أن انزلقت منه الانبوبة الرفيعة إلى أحد الأوعية التاجية نظر بهلع إلى شاشة أشعة « اكس » ، ولكن لم يحدث أي شيء ، بل استمر القلب في نبضاته دون تغيير ، وكان المعتقد حتى ذلك الوقت أن مثل هذا الحادث لابد أن ينتج عنه توقف القلب .

أما الآن فقد اتضح بجلاء أن مضخة القلب المعقدة بجهازها الدوري الذي يمدها بالغذاء - والذي يتكون من الأوعية التاجية المتشعبة - تستطيع أن تصمد لمثل هذه العملية ، وتعالج بطريقة مباشرة ، لأنه هنا ، بالضبط على وجه التحقيق ، في السراديب الخفية للأوعية التاجية ، يكمن خطر احتشاء القلب . فبعد انسداد أحد فروع الشريان التاجي يموت ذلك الجزء من القلب الذي يغذيه الشريان المسدود ، وقد ينتج عن ذلك تمزق في جدار القلب ، وهذه هي إحدى حالات الطوارىء الحرجة التي كان يقف أمامها الأطباء قبل عشر سنوات فقط حيارى عاجزين عن فعل أي شيء ، وكل ما كانوا يستطيعون عمله هو تسكين الألم وإراحة المريض في الفراش راحة تامة ، وذلك لتخفيف الاجهاد عن عضلة القلب ، وتقليل استهلاك الأوكسجين .

العقاقير المذيبة للجلطة

قبل عام ١٩٦٠ أجريت محاولات ناجحة لعلاج اضطرابات ضربات القلب التي تحدث نتيجة لجلطة في الشريان التاجي ، وذلك باستخدام صدمات كهربائية ضعيفة ، ولكن جميع الطرق والوسائل لإرجاع النبضات الطبيعية إلى قلب في حالة فوضى نبضية وجميع العقاقير التي كانت معروفة حتى ذلك الوقت لتقوية القلب وتنشيط نبضاته لم تستطع أن تزيل



● نموذج للأوعية التاجية التي تغذي القلب بالدم .

الجلطة الدموية ، وتمنع نسيج عضلة القلب من الموت .

وفي الستينيات أمكن اكتشاف مادة طبيعية ، تدعى « ستربتوكاينيز » ، استخلصت من نوع معين من البكتيريا ، ووجد أنها قادرة على إذابة جلطات الدم ، وذلك بإذابة مادة « الفيبرين » التي تجعل كرات الدم الحمراء تلتصق بعضا ببعض ، إلا أنه لم يكن من المستطاع إيصال هذه المادة إلى الذرات الصغيرة من الجلطة الدموية في الأوعية التاجية ، كما أن الأطباء لم يكن باستطاعتهم حقن جرعات كبيرة كافية منها ، لأن الآثار الجانبية لهذه المادة يمكن أن تحدث ضررا أكبر من الفائدة المرجوة منها ، ونتيجة لذلك كان الأطباء يترددون في استخدامها .

وأخيرا ، في عام ١٩٧٨ ، نجح البروفسور



● قسطرة كالتنباخ ذات الرأس الدقيق المستدير .

« بيتر رينتروب » في مستشفى جامعة « جوتنجن » بألمانيا الغربية للمرة الأولى في حقن مادة « ستريتوكاينيز » مباشرة في الأوعية التاجية المسدودة لمريض أصيب باحتشاء في عضلة القلب ، مستعينا في ذلك بالتصوير بأشعة « أكس » ، وباستخدام « قسطرة القلب » بطريقة معدلة . وعندئذ حدثت المعجزة المذهلة ، فبعد ست دقائق ذابت الجلطة ، وانفتح الشريان ، وبدأ الدم يتدفق كما كان ، والقلب ينبض بطريقة طبيعية من جديد ، واختفى الألم الشديد ، وأنقذ المريض من الموت .

لقد بدأ الأطباء في حقن الصبغات في الأوعية التاجية في عام ١٩٧٢ ، وهذه المواد يمكن التحكم فيها ، وفي الوقت نفسه تصويرها ، حيث تظهر كفروع دقيقة سوداء على شاشة

جهاز أشعة « اكس » واصبحت هذه الطريقة في التشخيص « الروتين » المتبع في الكشف على القلب . وأحدث جهاز يستخدم في هذا الغرض يجمع بين أشعة « اكس » وتقنية الكهرباء والحاسوب ، ويسمح بإعطاء صور للقلب على مستويات متعددة في وقت واحد ، وبذلك فإنه يقصر الزمن اللازم للكشف ، ويقتصد في جرعة الصبغات ، ويسمح بتسجيل فيلم للقلب باستخدام آلة التصوير أو مسجل « الفيديو » . إن الهدف من هذه العملية واضح ، فبالاضافة إلى إزالة الألم فإنه يجب إمداد الجزء الذي يوشك على الموت من عضلة القلب بالأكسجين بأسرع ما يمكن .

وفي هذه الحالة فإن كل ثانية من الوقت لها قيمتها ، وكلما نقل المريض إلى المستشفى بسرعة ازدادت فرص شفائه . وقد أمكن إنقاص معدل الوفاة في حالات « احتشاء القلب » الحادة بمقدار ٥٠٪ ، بحقن « الستربتوكاينيز » بالطريقة التي سبق ذكرها . ومع ذلك فليس من المتوقع أن يقل عدد حالات الإصابة بالأزمات القلبية ، إذ أنه من المعروف أن انعدام النشاط الرياضي والتدخين وضغوط العمل ، وتناول المواد الدهنية بكثرة ، من أهم العوامل المسببة لجلطة الشريان التاجي ، ومن ثم إلى احتشاء عضلة القلب ، ولذلك تعد جلطة الشريان التاجي من أمراض الحضارة . وبالاضافة إلى « الستربتوكاينيز » يوجد عقار آخر يدعى « يوروكاينيز » ، كما أنه تم اكتشاف مادة جديدة توجد في الدم ، تسمى (TPA) ، ولما كانت هذه المادة توجد في الدم بكميات ضئيلة ، فقد استطاعت إحدى شركات الأدوية انتاجها بواسطة تقنية الهندسة الوراثية . ولكن مادة (TPA) مع أنها تذيب الجلطة إلا أنها لاتمنع حدوث انسداد الشريان التاجي بجلطة أخرى مما يستلزم تكرار حقنها .

القسطرة البالونية

في عام ١٩٧٨ خطرت لأخصائي القلب « اندرياس جرونتزيش » في مدينة « درسدن » بألمانيا الشرقية فكرة غريبة ، وهي أن يلصق بنهاية القسطرة جيبا بداخله بالونة يمكن نفخها ، وبواسطة هذه القسطرة البالونية يمكن توسيع الجزء الضيق من الشريان التاجي ، وقد نجحت هذه الفكرة عند تجربتها ، وأمكن الضغط على المواد المترسبة على الجدار المبطن للشريان ، وتسطيحها بواسطة البالونة المنتفخة ، وبذلك يتسع مجرى الشريان .

وهكذا أثبتت هذه القسطرة البالونية التي سميت باسم « قسطرة جرونتزيش » قدرتها على التغلب على جلطة القلب ومن ثم نجاحها في علاج الاحتشاء .

ومع ذلك لم يتوقف البحث عن طرق جديدة ، فقد أعلن البروفسور « مارتن كالتنباخ » بمدينة فرانكفورت عن عملية جديدة مؤخرا ، فبدلا من البالونة ، يثبت في نهاية القسطرة رأس دقيق مستدير غير حاد ، يدور بسرعة بطيئة ، فيضغط المواد المترسبة على الجدار المبطن للأوعية الدموية ويسطحها . وفي أثناء ذلك يقوم الطبيب بتشغيل محرك صغير ، يدفع طرف القسطرة داخل الشريان ، وبعد ذلك يقوم الطبيب بتوسيع الأوعية الدموية بالقسطرة البالونية ، لكي يضمن عدم انسداد هذه الأوعية بصفة دائمة ، وبذلك يوفر على المريض العمليات الجراحية التي كانت تجري في هذه الحالات . وبعد هذا التطوير الذي حدث، يمكن إجراء التوسيع بالبالونة في أكثر من شريان من الشرايين التاجية . □

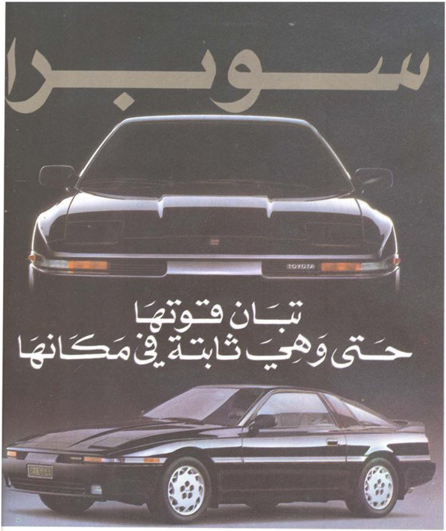


اللقاء الأخير

للشاعر : يس الفيل*

في حَبة القلبِ جُرحٌ أنت للأبد
أكادُ ألثُمُ فيكَ العمرَ ، ما خَطَرتْ
فكيفَ بي ولقاءُ الأمسِ يُوقظني
أدْنَيْتَني وَ أنا الظمآنُ ، مرتقبٌ
لكنْ وأنتَ وعينُ الماءِ جاريةٌ
أمَا اعتراكَ دوارٌ كادَ يكشفني ؟
أواه منكَ ، ومن حبٍ أبحتُ لَهُ
كأنما أنا يوما ماحنوتُ عَلَى
كأنما أنا ما أطلقت أبخرةً
كأنما أنا لم أقْرأ وبَين يَدي
ياليتَ أنَك لَمْ تَبْخل علىٰ شفةٍ
ياأيها الحبُّ : جهلي فيكَ أوقعني
هلا شَرحتَ لِيَ المجهولَ ، محتسباً
بعض الشروح فقد تَخضَرُّ في يَدِنا
حتى إذا ما التقينا ، واسترحت فَماً
قد نستردُّ زمانا فَرَّ منتحباً
ما كنت رحلة أعوامٍ ذوت ألَما
وإنما أنت أيامي التي عبرَتْ
يا رحلةَ العمرِ شوقُ العمرِ ، يحملني
إن جُدْتَ أو لَمْ تجدْ . سيانَ ما بيدي
ماحيلتي ، ليس بُعدي عنكَ طوع يدي
ذِكراك ، وانْتَشَلْتني مِن ظلام غدي
وسهمُ عينيكَ ممتد إلى كَبِدي ؟
لقطرةٍ ، رُبما أَبقتْ عَلى جَلَدي
برشفةٍ لَمْ تَجد ، حتى ولَم تَعُدِ
ورجفةُ الصدرِ لا تخفى عَلَى أَحَد
مالايباحُ إلى أنْ صارَ مِنْ عُقَدِي
هذا الهوى ، مثلما أَحْنو عَلَى وَلَدي
ولا استعذتُ له مِنْ نظرةِ الحَسَدِ
كفٌّ ، بها اخْتَلَط العفوي بالعَمَدِ
خطّت على الماءِ ، لكنْ أنتَ لَمْ تردِ
في الوهم يوماً ، وما أبقى على رَشَدي
أجْرَ المحبِ ، لما في القلب من أمدِ
أُمنيَّة ، ويعودُ اللحنُ للغردِ
على فمي ، واستراحت في يديكَ يدي
وضلَّ عنا من الاثنين للأحد
وخلفتْنَا جراحاً في يدِ الكَمَدِ
وحاضري ، وغدي الآتي ، وَبَعْدَ غدِ
إليكَ ، فارحمْ ، فإنَّ النارَ في كَبِدي
في حبة القلبِ جرحٌ أنْتَ للأبدِ

* شاعر من القطر العربي المصري .



جميع السيارات تتفاخر بقدرتها على السرعات العالية إلا سيارة واحدة، تبان قوتها بمجرد النظر اليها.
انها تويوتا سوبرا المدهشة صاحبة أولى المراتب في عالم السيارات الرياضية، بمزايا تكنولوجية متقدمة تتضاءل أمامها مزايا منافسيها: محرك ٦ سلندر و٢٤ صماما

اثبت سرعة استجابته في ميادين السباق. نظام تعليق مزدوج يذلل المنعطفات الحادة. تجهيز داخلية بلغت قمة الأناقة والابتكار. فاذا اردت سيارة تتوثب قوتها قبل تشغيلها سارع إلى سوبرا سارع اليها الآن، قبل فوات الأوان.

تويوتا
محرك
الصمامات

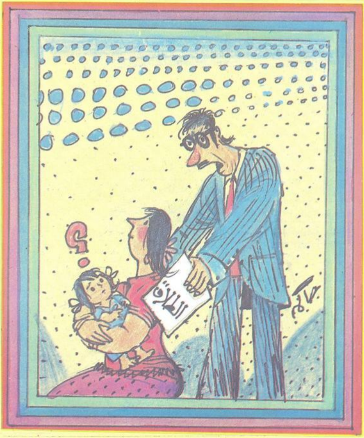
Committed to quality, always.

TOYOTA

مواصفات الموديل بال
قد تختلف حسب الأ

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



مبروك .. أم البنين



مبروك
أم البنين

إعداد : ريم الكيلاني

منذ مدة نشرت بعض الصحف العربية خبرا أثار موجة من النقاش ، يقول الخبر : ان سيدة أقدمت على التخلص من طفلتها . عقب ولادتها بساعات قليلة ، حتى لا يعلم زوجها بما ولدت ، فيوقع عليها يمين الطلاق . فهل ما زال هناك من يطلق زوجته لأنها انجبت بنتا ؟ وهل يصل الرعب بأم حداً تقتل معه ابنتها خشية الطلاق ؟ وهل ما زالت قضية الولد والبنت مثارة كما كانت منذ مئات السنين ؟

هذه قضية قديمة قدم التاريخ ، وعلى الرغم من أن القرن الواحد والعشرين يطرق أبوابنا ، فما زالت قضية إنجاب ذكور أو إناث تشغل أذهاننا ، وتحتل وقتا غير قليل من تفكيرنا .

فماذا لو قلّبنا معا صفحات التاريخ ، لنلقي ضوءا على جذور المشكلة ، أو أصول هذه المعتقدات الاجتماعية السائدة التي تفضل الولد على البنت ، والتي باتت جزءا منا ، وبتنا جزءا منها ، ولم يعد الخلاص قضية سهلة .

لننظر هل مسألة التفضيل هذه ميزة عربية وشرقية فقط ، أم أنها قضية إنسانية عامة ؟

عدت المرأة حسب شريعة حمورابي في عداد الماشية المملوكة ، فمن قتل بنتا لرجل مثلا ، كان عليه أن يسلمه ابنته ليقتلها ويملكها .

وفي اليونان القديمة ، كانت المرأة مسلوبة الحرية ، خاضعة لسلطة الرجل في كل شيء ، فهي لا ترث ، وليس لها حق التعلم ، واعتبرها الإغريق « رجسا من عمل الشيطان » .

أما عند الرومان ، فقد كان

لـرب الأسرة الحق في ضم من يشـاء من أبنائـه إلى أسرتـه ، ورفض من يشاء رفضه منهم . وغالبا ما كان ينطبق ذلك على الإناث . ومن العادات المألوفة عنـد الـرومـان أن تقـوم الأم بوضع وليدها في ساعاته الأولى عند قدمي الوالد ، فإذا ضمه بين يديه فقد قبله ابنا له ، أما إذا ركله بعيـدا ، فهو بـذلـك يشير للأم بأن هذا المولود غير مقبول داخل الأسرة ، فيقومان ببيعه معا ، سواء كان ذكرا أو أنثى ، وأبشـع صورة للمرأة تتجسد في الهند القديمة ، فقد كانت تنص القوانين هناك على ضـرورة حـرق المـرأة ، وهي حية ، مـع زوجهـا إذا تـوفي قبلها ، فهي حسب المعتقدات الهندية ، كائن غير معترف بها دون أن تنتمي لرجل من أهلها أو أقاربها .

وإذا كنا قد نسينا بعض هذه الحضـارات ، فهـل نسينـا تعصب الجاهلية تجـاه المولـود الأنثى ، والطريقة البشعة التي كان يتخلص الآباء من بناتهم ، لقد كانت البنت قبل الإسلام عارا على أهلها ، وكانت أفضل وسيلة للتخلص من عـارهـا آنـذاك وأدهـا بـالـتـراب ، وبالمقابل كانت للمـرأة مكانـة كبيرة في مجتمعات أخرى ، فلدى قبائل الأمازون ، كانت المرأة هي التي تحكم ، وإليها تنسب الأجيال ، كما أن الجيش قوامه من النساء ، وللمرأة حق في العمل والتعلم .

ولكن كـما حفظ التـاريـخ صوراً من إذلال المرأة ، حفظ أيضا صورا كانت فيها المرأة هي القـائـدة والملكـة والحـاكمـة القـوية ، مثـل سميـراميس ، وكليـوبترا ، وشجـرة الـدر ، والملكتين اليزابيث وفكتوريا ، وانـديرا غـانـدي ، وبي نـظير بوتو .

والآن ، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين ، ما الصـورة التي نـراهـا ونعيش فيهـا ؟ وهل مـا تـزال قضيـة الإناث والذكور مطروحة بهذه الحدة التي تستدعي قتـل أمٍّ لطفلها ؟ .

لماذا الولد :

تقول أم لست بنات وولد : بدأ كابوس البنات يلاحقني بعد ولادتي للبنت الثانية ، يومئذ لم يـأت زوجي لزيـارتي ، وحين وضعت البنت الثالثة ، لم يقبل عـودتي للبيت ، بل أبقـاني في منزل والدي ثلاثة شهور .

أخذ أهل زوجي بعد ذلك يلحون علي بمتابعة الحمـل ، لأحـظى أو ليحظوا هـم بولي عهد ، وبعـد خمس بنات فـرج الله كـربتي ، ورزقـني ولدا ، لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد اعتقد زوجي أن الله فتح علينا باب الأولاد ، وحملت للمـرة السـابعـة عـلى التوالي لأضيف إلى العائلة بنتا سادسة .

وتتحدث إحدى الطـالبات في المرحلة الثانوية عما تعانيه هي وأخـواتهـا من تصـرف أخيهم الأصغـر : نحن ثلاث بنـات وولـد ، والـدي يعـده الابن الوحيد في العائلة ، يسمح لـه بكـل شيء ولا يعترض عـلى طلباته ولا على سلوكه ، عـلى الرغم من أنه في أحيـان كثيرة يستغل حب والدي ويجلب له المتاعب بتهوره ، وكلما اعترضنا عـلى ذلك ، قـال : إن للولـد الحق في فعل مايشاء وليس لنا الحق في الاعتراض .

ويبـدي أب لأربعـة أولاد وجهة نظره قائلا : إن الرجولة الحقة لا تتمثل في القـدرة على الانجـاب فحسب ، بـل في القدرة على إنجاب الذكور .

وكـان الرأي الأخير لشاب في مقتبل العمر حيث قـال : من الأفضل للرجل والمرأة إنجاب مولود ذكر في البدايـة ، فهذا يريح الطرفين نفسيـا ، ويبعد الخـوف والـقلق مـن تكـرار إنجاب الإناث .

ويكاد مجموع هذه الآراء أن

يمثل وجهة نظر واحدة يرى في انجاب الولد ضرورة لخلق توازن نفسي واجتماعي .

جماعة هامشية :

هل من الممكن بعد عرضنا لهذه الآراء أن نعرف كيف أنه على الرغم من هذا التطور لا يزال المجتمع يرى الأمر بهذا الشكل ؟

يقول لويس ورث الباحث الاجتماعي : « تمثل النساء جماعة مختلفة عن غيرها حيث تتميز بخصائص فسيولوجية وبيولوجية ، وتعاني من عدم المساواة بالرجل . كما أن التنشئة الاجتماعية للمرأة ، تنمي لديها شعورا بكونها عضوا في جماعة هامشية ، وتجعلها تتقبل دورا خاصا بها ومختلفا عن الرجل في المجتمع » .

الدكتور « محمود عودة » استاذ علم الاجتماع بجامعة الكويت يعلق على مايقوله ورث قائلا : أن التفريق بين البنت والولد أمر غير قائم على الفروق والتميزات العضوية والجسمية بين الجنسين ، فالمرأة تتفوق على الرجل فسيولوجيا وبيولوجيا باعتبارها قادرة على أداء وظائف معينة (الحمل والانجاب) ليس بمقدور الرجل القيام بها ، وهذه الوظائف تفوق قدرة الرجل العضلية .

إذن فمنبع القضية ليس أساسه الفروقات الجسمية ، بل أسباب أخرى أوجدها الناس والمجتمع كذريعة لتبرير الوضع الاجتماعي للمرأة .

وتختلف نظرة المجتمع إلى الجنسين وتتفاوت تبعا للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية ، وإن ارتبط هذا أيضا بعوامل أخرى مثل القوة الجسمية والاختلافات البيولوجية . كذلك فقد ساهمت النظم الاجتماعية والحضارية بترسيخ الأفكار والمعايير التي تؤكد هذا التمييز ، فيبين بعضهم أهمية دور الرجل في المجتمع باعتباره القوة المتحملة للمسئولية والساعي لتأمين الرزق والنهوض بأعباء المجتمع ، بسبب قدراته وامكاناته الجسمية والعقلية ، وقد أثبتت الدراسات الاجتماعية أن الامكانيات العقلية تنمو وتتجدد بالمشاركة وتحمل المسئولية ، أي أن دور المرأة الاجتماعي والحضاري والاقتصادي يتجدد من خلال التفاعل بين النشاط العام والمسئولية العائلية .

ولكن ، استمرار وجود النظامين الأبوي والطبقي ساعد على إبراز فكرة تسلط فئة على أخرى أو تسلط الرجل على المرأة ، مما أدى إلى توارث الأفراد والجماعات لهواياتهم وانتماءاتهم الطبقية والحضارية . إلا أن هناك عددا من الدراسات الاجتماعية والاحصائية تشير إلى وجود النظام الأمهاتي لفترة ما ، لدى بعض القبائل العربية في شبه الجزيرة في العصر الجاهلي ، حيث كان نسب الأبناء في بعض القبائل يرجع للأم ، كما أصبحت بعض النساء صاحبات السلطة في العشيرة ، وانتسبت قبائل بأكملها إلى النساء مثل بني طهية وبني طاعنة .

ويستطرد الدكتور عودة : « نحن اليوم في عالم متحضر يجب فيه أن تتغير النظرة تجاه هذه الأمور وتسمو ، لكن مانعانيه حقا هو ذلك التقدم المادي الهائل الذي يسبق التقدم المعنوي والاجتماعي بمراحل كبيرة . فالقواعد والتشريعات التي تسنها الحركات العلمية والسياسية حول ضرورة تغيير الكثير من العادات والتقاليد البالية ، سمحت للمرأة بالتعلم وأعطتها حق العمل ، والوقوف إلى جانب الرجل في ميدان الحياة العملية ، ولكن

هذا في حقيقة الأمر لم يغير كثيراً ، فما تزال المرأة ظلا للرجل في البيت وأمام الناس تتبعه في كل شيء حتى وإن تعلمت أو عملت .

إن الشفاء الحقيقي من هذه الأزمة لن يكون إلا بالانسجام التام بين سياسة المجتمع والأفراد وبين واقع المرأة الاجتماعي الذي يشكل بالنسبة لها معاناة حقيقية .

فالحضارة هي التي تحدد معنى الذكر ومعنى الأنثى ، كما أن القيم والتقاليد والاتجاهات والرموز في كل مجتمع تترجم الاختلافات الجسمية بين الجنسين وتعززها ، والمرأة في غالبية المجتمعات النامية ليست غير مرئية الإنتاجية فقط ، وإنما هي غير مرئية جسميا واجتماعيا أيضا » .

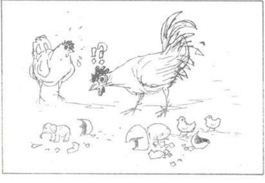
تقول الدكتورة « صديقة العوضي » رئيسة مركز الأمراض الوراثية بمستشفى الصباح : « تتحكم الكروموسومات الموجودة في الحيوان المنوي في جنس الجنين ، فمن المعروف علميا أنه يوجد ٢٣ زوجا من الكروموسومات في كل من البويضة والحيوان المنوي ، منها كروموسوم (س) في البويضة وكروموسوم (س،ص) في الحيوان المنوي ، فإذا أعطى الرجل الحيوان المنوي (س) تكون الجنين (س س) أو الأنثى ، وإذا أعطى الرجل الحيوان المنوي ص ، تكون الجنين (س ص) أو الذكر .

هذه قضية علمية قديمة ، باتت معروفة في الأوساط الاجتماعية » .وضمن حديثها عن الوراثة تقول الدكتورة العوضي : « لا يتدخل عامل الوراثة في قضية إنجاب إناث أو ذكور ، وليس لذلك علاقة على الإطلاق بقوة الرجل الجنسية أو بالفحولة على حد تعبير كبار السن » .

أما فيما يتعلق بإمكانية التحكم في الجنين في العصر الحالي ، فيقول الدكتور محمد أبو لغد اخصائي أمراض النساء والولادة : « الاعتزاز بإنجاب الذكور قضية لها جذور ممتدة عبر التاريخ ، وكان الكثير من أفراد المجتمع يجدون في الخزعبلات وأعمال السحر والشعوذة ضالتهم المنشودة ، فكان بعضهم يعتقد أن نوم طفل ذكر مع العروسين أو انتعال حذاء أثناء المعاشرة من شأنه أن يجعل المولود ذكرا ، بينما كان بعض السحرة يوحي للأم والأب أن النبوم على

مسئولية من ؟

ماذا لو انتقلنا من البحث في النظريات الاجتماعية إلى الواقع العلمي الذي غيّر كثيرا من معتقداتنا وأفكارنا ، ويرهن بالتجربة أن نوع الجنين قضية ليس للمرأة فيها أي دور . فإلى أي مدى نجحت هذه التجارب والنظريات العلمية في « إخلاء مسئولية » المرأة من هذه « الجريمة » ؟



الجانب الأيمن بعد الجماع له دور أيضا في انجاب ذكور ، هذا بالاضافة إلى بعض الأعشاب والمحاليل التي كان يعدها المشعوذون لنفس الغرض والتي كانت تجد رواجا كبيرا استمر حتى القرون الوسطى ووصل إلى أوروبا .

ومع التقدم العلمي الذي يحققه الطب كل يوم في هذا المجال ، فقد توصل بعض الخبراء لطريقة تمكنهم من التحكم بنوع الجنين ، وذلك إمّا بفصل الحيوانات المنوية (س ، ص) بواسطة تمرير تيار كهربائي ضعيف في محلول يحتوي على الحيوانات المنوية . وإما عن طريق استعمال القوة الطاردة المركزية ، ويقوم الطبيب بعد ذلك بعملية التلقيح الصناعي للبويضة بالحيوان المنوي الذكري أو الأنثوي حسب الرغبة . »

الوضع النفسي

على الرغم مما تؤكده النظريات العلمية والأبحاث الطبية حول قضية إنجاب الذكور والاناث ، فما زال الرجل يضع المرأة موضع الاتهام ، فيهددها بكل ما يملك من قوة وسلطة كرجل ، بالطلاق تارة ، والزواج من ثانية تارة أخرى ، مما يضع المرأة التي لم تنجب ذكرا في حالة نفسية مضطربة وسيئة . فماذا يقول الأطباء النفسيون في ذلك ؟ الدكتورة ماجدة البدرماني الاخصائية النفسية في عيادة أمراض النساء والولادة تقول : « تتفاوت ردود الفعل بين امرأة وأخرى تبعا لطبيعة شخصيتها ونوع العلاقة بينها وبين زوجها . كما أن العلاقة الطيبة بين المرأة وأهل زوجها تشكل لها حماية مؤكدة من تقلبات زوجها .

ولشخصية المرأة دور رئيسي في مثل هذه الحالات ، فالمرأة المتماسكة الناضجة شديدة الثقة بالنفس ، لا تؤثر على شخصيتها أو تهزها ولادة بنت أو اثنتين أو ثلاث ، أما المرأة ذات السمات الهستيرية الانطوائية الشديدة الحساسية ، فسرعان ما تستسلم لحادثة كتلك ، فنراها تنهار أمام أقل ردود فعل ، وتصاب باكتئاب نفسي شديد . إذا شعرت أن ما تقدمه لا ينال استحسان من حولها وبخاصة زوجها ، فهذا يشعرها بالإحباط ويجرح كبرياءها » وتكمل الدكتورة ماجدة : « لا شك أن المرأة تعاني نفسيا وجسديا خلال فترة الحمل وبعد الولادة نتيجة الضغط الذي تقع تحت طائلته بسبب زوجها ، وأحيانا بسبب من حولها من الناس ، فليس سهلا أن تلد المرأة ست مرات أو عشر مرات إرضاء لرغبة الزوج ، وإذا تحملت المرأة كل هذا العبء ، فهل يتحمل معها الرجل عبء تربية هذا الكم من الأبناء ورعايتهم ؟! .

إن لهذه القضية أبعاداً مختلفة تتفاوت حسب طبيعة المرأة ، ومستواها الاجتماعي والثقافي ، فالمرأة البسيطة غير المتعلمة مثلا ، مرنة أكثر من المرأة المتعلمة ، فهي لا تستهجن فكرة الزواج بغيرها ، ولا تمانع في إنجاب عدد كبير من الأطفال ، أما المرأة المتعلمة ، فهي لا تقبل الشريكة ، ولا تتحمل إنجاب عدد كبير من الأطفال ، مما يوقعها تحت ضغط هائل يكون سببا رئيسيا في إصابتها بالاكتئاب وتدهور حالتها الصحية والجسدية والنفسية أثناء الحمل أو بعده . »

ويمضي الأطباء مؤكدين صحة النظرية العلمية التي تخلي مسئولية المرأة تماما من قضية إنجاب ذكور أو إناث ، بينما ما تزال الأصوات تعلو ، وترتسم الابتسامة على الوجوه ، وتزغرد النساء فرحا بقدوم مولود ذكر ، ولا يستطيع أي من هؤلاء أن يخفي ملامح الضيق البادية على وجوه بعض الرجال إذا بشر بأنثى . □



حذار من فرك عينيك!

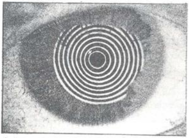
بقلم : الدكتورة سرى سبع العيش

قد يبدو أن فرك العينين أمر طبيعي ، ولكن الدراسات الطبية أكدت أن له تأثيراً ضاراً على قرنية العين ، فكيف ذلك . ولماذا ؟

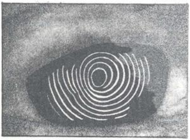
من منا لا يفرك عينيه عندما يشعر بحرقة خفيفة ، أو تخريش أو ألم واخز مباغت عندما تتعرض العين لتيار لافح ، أو غبار متساقط أو وهج ضوئي ، أو عندما يدخل جسم غريب في حرم العين ويندس تحت الجفن العلوي مثيرا للألم والإزعاج والدمع . بل يكفي أن تثار العين إذا سقط أحد الأهداب وثوى في أحد أرتاج الملتحمة العينية فيميل الإنسان بشكل عفوي لإغماض العين وفركها بالأصابع . هنالك ثمة علاقة وثيقة بين العين واليد ، تتألم الأولى وتستغيث وتبكي ، فتهرع الثانية ، لتسعفها ، وتبلسم أذيتها جسًا ودلكا وتجفف انهار دمعها . لكن المقصود بالتحذير ، هو دلك العينين يوميا وباستمرار ، أو الضغط عليها بشدة عدة مرات في اليوم ، سواء بسبب مرض مزمن يثير الشعور بالحكة ، أو الأكال

العيني ، أو بسبب اعتقاد خاطيء ، بأن الضغط على العينين بقبضتي اليد بشدة عدة مرات في اليوم ، يجلب الراحة للعينين ، أو يشفيهما من سوء الانكسار وقصر البصر ، أو ممارسة ذلك كنوع من طقوس العبادات والتأملات الروحية .

لقد كان أول من تنبه للعلاقة بين فرك العينين المتكرر ، واضطراب تحدب القرنية هو طبيب العيون البريطاني (فودرك ردلي) عام ١٩٦٦م ، وقد أثارت أبحاثه في حينها موجة من الأخذ والرد بين مؤيد ومعارض ومستهزيء بالفكرة .



صورة التنظير القرني قبل سنة من ممارسة الشخص لفرك العينين .



صورة التنظير القرني لنفس العين عند نفس الشخص بعد سنة من ممارسة فرك العينين وضغطهما بشدة كنوع من التأملات العبادية .

الحك يسبب مرض القرنية

ثم توالت الأبحاث ، التي تصف العلاقة السببية بين مرض القرنية أي «تمخرطها» والرمد الربيعي ، الذي يتكرر فيه احمرار العين والتهابها المثير للحكة الشديدة في الربيع والصيف ، وقد يأخذ شكلا مزمنا يمتد سنوات بين هجوع في الفصول الباردة ، وهيجان واضطراب في الفصول الدافئة الحارة . وما يعقب ذلك من تراجع في البصر ، وتشوه في تكور القرنية ، لا يفيد فيه التصحيح بالنظارة . ولا بالعدسات اللاصقة اللينة ، وحيث تتحدد شروط استعادة البصر بأحد أمرين ، إما تثبيت العدسات اللاصقة الصلبة النفاذة للاكسجين ، أو اللجوء إلى الخيار الجراحي بإجراء عملية ترقيع القرنية .

ومن خلال تجربتي الشخصية ، لاحظت أن جميع حالات تمخرط القرنية الحادة التي فحصتها ، كانت قد حدثت إثر دعك شديد عنيف للعينين من قبل الأطفال والشباب ، إما بسبب البكاء الشديد تمردا على أوامر الأبوين ، أو استدراراً لعطفهما لتلبية حاجات آنية ، أو بسبب آلام العين والشعور بالحكة الشديدة عند المصابين بالرمد الربيعي . وقد تراوح عمر المرضى المذكورين بين ٥ سنوات إلى ٢٧ عاما .

وفي تمخرط القرنية الحاد يأتي المريض بحالة طارئة ، حيث يعتم لديه البصر فجأة ، أو يغيب وتصاب قرنيته بالاستسقاء فتصبح ثخينة ، مملوءة بمياه بيضاء معتكرة ، بعد أن زال بريقها وانطفأت شفافيتها .

وقد وجد بعض الإخصائيين ، أن ثلثي المرضى المصابين بتمخرط القرنية المستتب المزمن هم مصابون ، أو كانوا في زمن ما مصابين بالرمد الربيعي ، وأن فرك العينين وحكهما المستمر عامل رئيسي في إحداث المرض .

علاقة مكتشفة

أما أحدث دراسة حول العلاقة بين تمخرط القرنية ، ودلك العينين فقد نشرت في كبرى مجلات طب العيون الأمريكية ، حيث وجد الباحث أن بعض المصابين بذلك المرض ، كانوا يقومون بدعك العين بقبضة اليد عدة مرات في اليوم كنوع من الرياضة الروحية التأملية . وتعليل ذلك هو أن القرنية طبقة شفافة من ألياف «كولجينية» فإذا دعكت بشدة حدث تمزق في طبقاتها العميقة ، وانحلال في طبقات السدى القرني ومن ثم يتداعى نسيج القرنية وتزداد رقته ، ويتعرض سطح القرنية لزيادة في التحدب والتمطط ، وتصبح ذات شكل قمعي أو مخروطي ، أي لها قمة دقيقة بارزة في منتصف القرنية وقاعدة عريضة عند محيطها ويصبح سطحها غير منتظم . ومن الصعب قياس درجة قصر البصر في هذه الحالة ، إلا بعد تثبيت العدسات اللاصقة . وكثيرا ما يمارس الأطفال عادة حك العينين وفركهما باستمرار إذا كانوا مصابين بقصر البصر ، فيعبرون عن صعوبة الرؤية بمحاولة فرك العين بقبضة اليد .

ومن السهل تشخيص مرض تمخرط القرنية بعد أن ارتقت وتقدمت وسائل تنظيرها وتصويرها . ومن السهل أيضا ، قياس مدى تحدبها في كل بقعة تمتد من مركزها وحتى محيطها ، بفضل مناظير القرنية التي تحتوي حواسيب دقيقة . فمنظار القرنية الضوئي يحتوي عددا من الحلقات المنتظمة المتمركزة حول بعضها بمسافات متساوية متناسقة ، تنعكس صور هذه الدوائر المضيئة على سطح القرنية الشفافة المراد فحصها . فإذا كان تحدب القرنية طبيعيا ، بدت صورة الدوائر المضيئة على سطح القرنية منتظمة المحيط والأبعاد . أما في القرنية المخروطية ، فتبدو الدوائر متعرجة مشوهة متراصة وغير منتظمة .

وأصبح من السهل قياس مدى ثخانة أو رقة القرنية في كل بقعة من سطحها ، بواسطة آلات قياس خاصة تعمل بالأمواج فوق الصوتية .

لأن معرفة سمك القرنية مهم جدا قبيل إجراء العمليات الجراحية عليها ، وعليه يعتمد القرار في اتباع شتى الأنماط الجراحية واختيار شتى الأساليب في الخياطة ونوع وشكل وهندسة الإبرة والخيط الجراحي .□

أغنى نساء العالم :



● إن من اغنى النساء هي الملكة « ولهلمينا » ، ملكة هولندا السابقة التي تنازلت عن العرش عام ١٩٤٨ لابنتها « جوليانا » ، وقد حكمت الملكة السابقة مدة ٥٠ سنة . ثروتها تزيد عن ٦٠٠ مليون دولار ، أما مجوهراتها فهي لا تقدر بثمن .

● وفي فرنسا تعدّ « سوزان فوليترا » من أغنى بنات فرنسا فقد ورثت ٤٠ مليون دولار ، إضافة إلى ٤٥ حصانا من أجود خيول السباق .

● وفي الهند تعدّ السيدة « سوماتي موراجي » من أكثر النساء ثراء ، فهي تملك أكثر من ٤٠٪ من البواخر العاملة في الهند .

هو.. .. هي

أفكارٌ على المحك

كم أننا تعيسات نحن النساء ، إذ نادرا ما نجد من يقف معنا حتى النهاية . ربما وقف شخص ما ، موقفا ايجابيا في فترة ما ، وربما ناصرنا آخر في موقف ما ، وقد يلقي آخر خطبة حماسية ، داعيا لحقوق المرأة ومساواتها بالرجل ، لكن من النادر أن تجد رجلا يقف مع المرأة حتى النهاية . وبعد أن عشت وقتا كافيا من الزمن مع زوجي ، بدأ الشك يراودني في احتمال وجود مثل هذا الشخص على الإطلاق ، وإن وجد فإنني أشك في أنه يعرف بالفعل ما المقصود بحق المرأة في المساواة .

قبل الزواج كان زوجي يبدو متحمسا إلى أقصى حد للمرأة وحقوقها . وكان يخوض النقاشات العاصفة ، يستشهد خلالها بأقوال لثوار ومصلحين ومفكرين مستنيرين حول حقوق المرأة ، ولكنني بعد الزواج عرفت أن الحماس الزائد لايعني الاقتناع الأكيد ، بل ربما يكون تمويها وتغطية على الموقف الحقيقي ، وأدركت أن النقاش والجدال والصوت العالي لايعني الكثير عندما تأتي ساعة الجد ، وتوضع الأفكار على المحك ، فبعد الزواج لاحظت أن زوجي بدأ يحصي علي لحظات وقوفي أمام المرآة ، معبرا عن فقدان صبره بسيل من التعليقات الساخرة عن أن المرأة هي المرأة ، لا فرق في ذلك بين ربة منزل وأستاذة جامعية . وإنه يتذمر إذا أوليت المنزل عناية أكبر ، حتى يبدو المنزل في أفضل صورة ممكنة أمام زوارنا الكثيرين ، وإنه لايتردد في إبداء الضيق إذا تحدثت في الهاتف مع صديقاتي ، ، وكأنه يريد إهمال مظهري بداعي الابتعاد عن الاهتمامات النسائية ، وإهمال شؤون المنزل لأبدو كأنني لا أهتم إلا بالقضايا الكبرى ، وألا أناقش إلا المسائل المهمة حتى بالهاتف .



وقد وصل الأمر به أخيرا إلى معارضتي عندما أخبرته أنني أود أن أقيم حفلة في العيد الأول لميلاد ابنتنا .

إنني أرى أن هذه الأمور هامشية تماما ، وأن حق المرأة لايمكن أن يؤخذ إذا وصلت الأمور إلى هذه الدرجة من السطحية . وأعتقد أن من حق ابنتنا الاحتفال بميلادها مادمنا قادرين على ذلك ، وأن قضية تحرير المرأة لن تتراجع إذا أقمنا هذه الحفلة . لكنني مع ذلك لا أريد أن أسبب شرخا لحياتنا العائلية ، لذا فإنني لا أدري بالفعل ما الذي يجب عمله مع اقتراب موعد عيد الميلاد كل يوم ؟

.. هي

محك الأفكار

لم يتطرق الشك يوما إلى ذهني حول حق المرأة في المساواة مع الرجل تماما . وكثيرا ما كنت أخوض النقاشات الحامية مع الآخرين حول هذا الحق النسائي الذي لاينازع ، كما أنني كثيرا ما أغضبت بعض ذوي الأفكار القديمة والمحافظة بسبب حماسي الكبير لحرية المرأة التي لاتحدها حدود ، باعتبارها مساوية للرجل مساواة تامة ، وليس بينه وبينها سوى الاختلافات « الفسيولوجية » .

لكنني كثيرا ما أمسك بنفسي متلبسا بفكرة هنا أو هناك حول المرأة ، مؤداها أنها كائن مختلف ، وأنها تهتم بأشياء أدنى قيمة من تلك التي يهتم بها الرجل ، وأن اهتمامها بالمظاهر أكبر بكثير من اهتمامها بجواهر الأشياء . وعلى الرغم من أنني أعتقد أن زوجتي أفضل حالا من غيرها ، وأكثر ثقافة ربما ، إلا أنها في مواقف معينة تسلك سلوك أي امرأة أخرى من حيث اهتمامها الشديد بالأمور الثانوية والمظاهر الخارجية ، فهي تقضي وقتا طويلا أمام المرآة ، وتهتم اهتماما مبالغا فيه في « الموديلات » الحديثة وآخر أخبارها ، وتولي ترتيب المنزل عناية كبيرة ، بحيث أشعر أن علي أن أسير على أطراف أصابعي ، حتى وأنا أتجول بين المطبخ والصالة . وهذه أمور لم تكن ظاهرة عندما أحببنا بعضنا وقررنا الزواج .

وقد قبلت كل هذا في البداية ، لكنني قاومت كثيرا قبل أن أوافق على شراء سيارة ، فالمواصلات العامة متوافرة ، وكثيرا ما حاولت إقناعها بأننا لسنا أفضل ممن يستخدمون هذه المواصلات .

وحتى عندما وافقت بعد جهد على أن أشتري سيارة اختلفنا على لونها ، فهي تريدها بلون وطراز معينين ، أما أنا فتكفيني أي سيارة ، ويرضيني أي طراز ..

أما آخر ما وصلت إليه زوجتي من أفكار فإقامة حفلة عيد ميلاد لابنتنا ، وهو أمر لم أكن أتخيله ، لكنني وقفت صلبا عنيدا في مواجهة هذا التدهور في اهتماماتنا وسلوكياتنا ، فضلا عن أنني لم أحتفل يوما بعيد ميلادي ، بل إنني كثيرا ما أنساه ، فأنا أشعر أنني إذا وافقت هذه المرة فإنني سأقبل أي طلب آخر من طلبات زوجتي ، وهذا مالن أرضاه مطلقا .

.. هو





طبيب الأسرة
قضايا منزلية

رغيف الخبز
مــاذا تعــرف عنـــه؟!

بقلم الدكتور : حسن فريد أبو غزالة

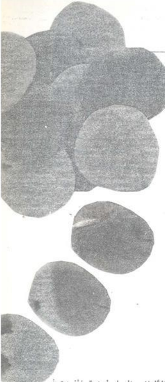
من غـريب الأمــر أن يستقطب البصل اهتمام بعض النـاس ،فيما هــم يجهلون رغيـف الخبـز ولا تستهويهم المعرفة به ، ولا يثير عندهم أي فضول ، هذا على الرغم من أن الخبز هـو عماد الـطعـام الأكـثر انتشارا بـين الناس بالمنطق الجغرافي .

قـد يكون الأرز هـو الأكثر استهلاكا حقا ، على اعتبار أن نصف سكـان العالم يتناولونـه طعاما رئيسا ، بل ربما يشكل ما يقارب نسبة (٨٠٪) من طعام أهل الصين واليابان وما جـاورهما من سكـان جنـوب شرق آسيا ، غـير أن القمـح الذي يقدر استهـلاكه بحـوالي ٣٠٪ من مجمل الحبوب ، يعد هو الأوسع انتشارا بين مختلف بلدان العـالم ، ويُشكل نصف طعامهم على وجه التقريب .

وأهل النبات المتخصصـون ينسبـون القمـح إلى فصيلة النبـات المعـروفـة بـالفصيلة النجيليـة ، التي ينتمي إليها الشعـير والـذرة والشـوفـان والـدُخن إلى جانب القمـح ، حيث أساس منفعة الناس منها هو التغذي على حبوبها ، وهي عادة عرفها الانسان منـذ عهد بعيـد جـدا ، حيث يقـدرون معرفة الانسان بها تتعدى المائة والخمسين قرنـا من الزمـان ، ولكنهم اختلفوا فيها بينهم ، أين ظهـرت هذه المعـرفة الأولى ؟ هل في جنوب شرق آسيا أم في منطقة الشرق الأوسط ؟ يؤكد المؤرخون من جانبهم أن سكان وادي النيـل من المصـريـين القدامى عرفوه قبل عام ٥٤٠٠ قبل الميلاد ، كما عرفه البابليون عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد ، ولكن القمح لم يصل إلى أوربا إلا عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد حيث شـاع وانتشر .

ومع كل هذا التاريخ العريق للقمـح وسعـة انتشـاره بـين شعـوب العالم المختلفة ، فإن القليل منهم يدركـون القيمـة الغـذائية لـرغيف الخبـز على الرغم من اعتمادهم الأساسي عليه في غذائهم .

لو تجاوزنا التفاصيل العلمية في تـركيب حبة القمـح ، كـما يحددها أهل الاختصاص فـإنه يمكن القول : إن الحبة عبـارة



عن ثلاثة أجزاء إذ تتركب من قشرة تشكل ١٢٪ من وزن الحبة ، ولب أبيض هو عماد تركيب الحبة ، لأنه يزن ٨٥٪ منها ، وما يتبقى هو الجنين الذي يزن ٣٪ الثلاثة بالمائة الباقية .

وتركيب القشرة كما يؤكده التحليل المخبري هو زلاليات (أو بروتين) وقدر من فيتامين (د) يضاف لها حامض يعرف باسم « حامض الفايتيك » وألياف (خشبية) سليولوزية غير قابلة للهضم ، أما اللب الذي هو عماد تركيب حبة القمح فليس سوى مادة نشوية بيضاء ، فيما أساس تركيب الجنين هو الزلال (البروتين) والدهون وفيتامين (د) .

وإذا ما تم طحن الدقيق ، فإن أصحاب الصنعة يفصلون اللب النشوي عما يعرف بالنخالة التي هي مزيج من القشرة والجنين ، ودرجة الفصل هذه ، هي التي تحدد نوع رغيف الخبز ولونه وقيمته الغذائية . وهو ما يعرف في لغتهم باصطلاح « معدل الاستخلاص » . فكلما قل المعدل قلت نسبة النخالة فيه ومال الرغيف إلى البياض ، وكلما زاد المعدل زادت نسبة النخالة ، ومال اللون إلى السمرة .

وغالباً ما يثور الجدل ويحتدم النقاش حول أفضلية هذا على ذاك ، وهو أمر يستوجب أن يحسمه الرأي العلمي ، فإلى أي جانب تقف وجهة النظر العلمية ؟

ربما كان رغيف الخبز الأبيض أكثر جاذبية للناس بدليل إقبال أغلبيتهم عليه بمعدل قد يفوق ٩٠٪ .

فيما الخبز الأسمر أو البني اللون ـ كما يسميه بعضهم ـ يقبل عليه ٨,٥٪ منهم ، وأقل من هذا المعدل يقبل على رغيف الخبز المصنوع من دقيق القمح الكامل دون استخلاص أي قدر من نخالته ، حيث لا يتجاوز مستهلكوه أكثر من ١,٥٪ من الناس ، غير أن الفوارق العلمية لا تسير موازية لرغبات الناس ولا تجامل قناعاتهم .

فالخبز الأبيض منخفض « معدل الاستخلاص » يبدو جذابا للناظر ، وأفضل توازنا وملمسا ، وأشهى طعما ، وأسهل مضغا ، هذا إلى أن الدقيق الأبيض عند الخبازين أقل تزنخا ، وأطول عمرا ، وأكثر بعدا عن التسوس والتلف والحشرات ، ولتدني نسبة الزلال والدهن فيه عن الدقيق الأسمر . ولكنه على الجانب الآخر أقل محتوى من الألياف السليولوزية المفيدة في تنشيط حركة الأمعاء ، مما يحول بين الانسان والمعاناة من الامساك ، وما يتبعه من مضاعفات ، هذا إلى أنه أقل زلالا ، وهو العنصر البناء للجسم ، وأقل احتواء على فيتامين (ب) وعلى أملاح الحديد والكالسيوم .

وعلى نقيض الخبز الأبيض يكون الخبز الأسمر أوفر نخالة بما فيها من زلال ودهن وألياف سليولوزية لكنه أقل جاذبية للناس ، وأثقل مضغا ، كما أنه عند الخبازين أكثر قابلية

للتزنخ ، وأقصر عمرا عند خزنه وأقرب إلى التلف . وعلينا أن نعترف أن زيادة منسوب النخالة عن حد معين - يقدرونه بحوالى ١٥٪ - يؤدي إلى تعطيل امتصاص الأملاح المعدنية والفيتامينات بسبب وفرة الحامض المعروف باسم « حامض الفيتيك » المانع لامتصاصها.

على أي حال ، فنسبة النخالة في رغيف الخبز الأبيض ربما تصل إلى معدل ٨٪ على حين ترتفع في الخبز الأسمر إلى ما يزيد عن ١٠٪ . وبالتالي ، فإن الفروق بين الخبز الأسمر والأبيض طفيفة ، إذا ما تجاوزنا الفروق السابق طرحها ، فالماء يشكل ما بين ربع الرغيف وثلثه ، والزلاليات (أو البروتين) يقدرونها بنسبة ٨٪ من الرغيف ، فيما يختلف منسوب الدهن بينهما حيث نجد نسبة الدهن في الرغيف الأبيض هي ١٪ فقط فيما هي ٣,٥٪ في الرغيف الأسمر.

ومن الطبيعي أن لا يحتوي رغيف الخبز على أي قدر كان من فيتامين (أ) أو فيتامين (ج) .

وفيما مضى كان رغيف الخبز الأبيض طعام الطبقة المميزة في المجتمع نظرا لارتفاع ثمنه بالمقارنة بثمن الرغيف الأسمر الذي كان مقصورا على الفقراء والكادحين من الناس ، ولكن الحال قد تغيرت مع وفرة الدقيق بفضل الصناعة الحديثة التي أتاحت للآلة أن تقوم على زراعة فدان من القمح خلال ثلاثين دقيقة ، مما كان ينجزه المزارع بيديه خلال ١٤ ساعة تقريبا . وهذا ما وفر لأهل الأرض قدراً من القمح قد يتجاوز ٥٠٠ مليون طن في العام الواحد ، أضف إلى هذا اقبال الحكومات في الدول المختلفة على دعم سعر رغيف الخبز ليبقى في متناول الناس عامة ، وبأسعار معقولة ومقبولة . يضاف إلى هذا محاولة تعويض رغيف الخبز الأبيض بما ينقصه من عناصر الغذاء ، فقامت السلطات المختصة بتدعيمه ، واضافة ما ينقصه من أملاح الحديد والكالسيوم والفيتامينات .

غير أن الجدل كثيرا ما يقوم حول أفضلية الخبز المحمص على الخبز الطري في التغلب على البدانة أو عند الملتزمين بالحمية الغذائية .

والواقع ، أن ذلك اعتقاد خاطيء ، لأن الخبز المحمص خبز طري فقد نسبة من مائه وفي تقدير المختصين أنه قد يكون أثقل مضغا وأصعب هضما ، فضلا عن إغرائه مستهلكه بالتهام كمية أكبر انطلاقا من قناعة خاطئة لأن الأساس هو تركيبه النشوي الذي لا يتأثر بالحرارة أو عملية التحميص .

أما عن انتفاخ الخبز أو تماسكه ، فهذا أمر يعود إلى فقاقيع غازية ولدتها الخميرة المضافة إلى الدقيق « التي لا اعتبار لها في الموازين الصحية » ساهم فيها تركيب زلالي يسمى الجلوتين ، يعطي العجين قوامه المطاطي الصمغي القابل للانتفاخ ، وبقدر ما يحوي الدقيق من هذا الجلوتين يكون انتفاخه ، وتكون فقاقيعه . □

كلما مرت الأيام

● قال الزوج لزوجته التي كانت أرملة قبل أن يتزوجها :
صدقيني أنني كلما مرت الأيام اشتد حزني على وفاة زوجك الأول .

مساحة ود!

سحر الشر!

في رواية «المعلم ومارغريتا» للروائي السوفيتي ميخائيل بولغاكوف، يهبط الشيطان إلى موسكو الثلاثينيات، يفشي للبعض أسرار الحياة، ويسلب البعض الآخر سر حياته، يفضح البعض ويرشو البعض الآخر، ويبعث الأفكار المستقرة لغيرهم، ويحرف مسار حياة آخرين. يقايض أحلام الناس بالمتع الآنية، ويجذبهم إلى حفلاته الصاخبة. وبغريزة الشر الأكيدة لديه ينفذ إلى تلك المناطق المظلمة في نفس الإنسان، ليقيم معها حوارا فيه خبث ودهاء ومكر، ما يلبث أن يتبارى فيه الطرفان.

وطوال الرواية يسيطر الشيطان على المشهد بأكمله، ويبدو الجميع إلى جانبه شخصيات باهتة، هشة ضعيفة مترددة. ويبدو هو حيوياً، واثقاً، لا مباليا، مندفعاً، ساخراً، ظريفاً، قوياً بلا حدود. وعندما يعود من حيث أتى يكون قد ترك عدداً من الفضائح والخيانات الصغيرة، وبعض حالات الاكتئاب، ومجموعة من نزلاء المصحات العقلية والمستلبين روحياً.

لكن الشيطان في هذه الرواية ليس شراً مطلقاً، وبعض ضحاياه من البشر لا يستحقون تعاطفنا، فبعضهم فاسد، وبعضهم مرتش، ولبعضهم الآخر من صفات الشر ما للشيطان نفسه، ولهم من الخبث والمكر ماله.

وما يقال عن هذه الشخصية ينطبق، بشكل أو بآخر، على شخصيات شريرة أخرى عرفها الأدب العالمي، مثل شخصية الشيطان في ملحمة الفردوس المفقود، لجون ملتون، وشخصية مفيستوفيليس في مسرحية فاوست، لغوته، وغيرهما. فكلها لها هذه القوة الطاغية، وهذا السحر الخالص الذي لا يتوافر في الشخصيات الخيرة. فليس هناك من هو أكثر طيبة، وربما شجاعة، من دون كيخوته، لكن طيبته وشجاعته لم تشفعا له ليكون أكثر من مثير للسخرية عبر العصور، وليس هنالك من هو أكثر نبلاً من هاملت، لكن هاملت قد يثير الأسى والتعاطف، إلا أنه لا يثير الإعجاب.

والسؤال الذي يطرح هنا: ما الذي يجعل هذه الشخصيات الشريرة نابضة بالحيوية في تلك الأعمال الأدبية؟ هل هي قوة الشر المطلقة التي قطعت آخر صلة لها بالخير، فبقيت عارية متحررة من أي قيد، فبدت بمثل هذه القوة المنطلقة؟ أم أنها تمثل ذلك الجزء الشرير من النفس البشرية، المكبوح أمام قوة العادات والتقاليد والأعراف والقوانين؟ أم هو سحر الممنوع وجاذبيته؟ أسئلة تلقى ولا تنتظر الإجابة، بل لتضاف إلى تلك الأسئلة الخالدة التي يطرحها الأدب العظيم. □

صلاح حزين

العربي العدد ٣٦٨ يوليو ١٩٨٩ م

بقلم : الدكتور حسن عباس

أسئلة وأجوبة

وردتنا رسائل من عدد من القراء الكرام تستوضح جملة من المسائل اللغوية ، وتطلب الاجابة عن بعض المشكلات التي تعرض لهؤلاء القراء ، أو لغيرهم .

ومن هذه الرسائل واحدة من السيد ابراهيم أحمد عبدالمنعم وهو من حي الابراهيمية في الاسكندرية بجمهورية مصر العربية يقول فيها :

« أنا طالب جامعي ، كتبت بحثا في التاريخ ، وقد لفت انتباهي أن الاستاذ المصحح كان يشطب « على » ويضع بدلا منها « عن » بعد كلمة اجابة ، وكأنه يريد لي أن أقول : اجابة عن السؤال وليس اجابة على السؤال ، ما وجه الصحة في ذلك وقد اعتدنا أن نسمع « اجابة على كذا . . » ؟

ونحن أيضا نجيب « عن » سؤال السائل بقولنا : إن الاجابة ـ وهي مصدر ـ تعني : التلبية كما قال الفرّاء .

ومن أسماء الله سبحانه وتعالى : المجيب ، « وهو الذي يقابل الدعاء والسؤال بالعطاء والقبول » . وهو اسم فاعل من أجاب يجيب .

والجواب معروف : رديد الكلام ، والفعل : أجاب يجيب « هذا ما ورد في لسان العرب ويضيف اليه : الاجابة رجع الكلام تقول : إجابة عن سؤاله ، وقد أجابه إجابة وجوابا وجابة .

ما الذي يجعل الحرف « عن » يلحق الاجابة حيثما وردت هذه الكلمة فعلاً أو اسماً ؟ دعنا نلتمس الاجابة عن سؤالنا هذا في البحث عن معاني الاجابة . إنها تعني الخرق ، والشق كما جاء في اللسان ، ويضيف اليهما الدكتور مصطفى جواد : والقطع والإبانة . ويورد اللسان حديث أبي بكر رضي الله عنه ، قال للأنصار يوم السقيفة : إنما جيبت العرب عنا كما جيبت الرحى عن قطبها أي خُرِقتْ العرب عنا ، فكنا وسطا ، وكانت العرب حوالينا كالرحى ، وقطبها الذي تدور عليه .

وانجاب عنه الظلام : انشق . وانجابت الأرض : انخرقت . ويزيد الدكتور مصطفى جواد هذه الجمل وضوحا بقوله في « قل ولا تقل » : وبهذا علمنا أن معنى « أجاب عنه » هو : شق عنه ، وأبان عنه ، وقطع عنه ، وخرق عنه . أي شق عنه الغموض ، أو الجهل ولا يجوز استعمال الحرف « على » ، فكما لا يقال شق الإبهام عليه ، ولا أبان الابهام عليه ، ولا خرق الابهام عليه ، كذلك لا يقال : أجاب عليه ، بل أجاب عنه ، أي السؤال .

واذ أريدت الظرفية فلا مانع من استعمال الحرفين معا ، يقال : أجاب المسؤول عن السؤال على ورقة ، كما يقال : تكلم المحامي عن موكله على القضية ، وذلك باستعمال حرفي

الجر « عن » و « على » ، ولكل منهما معناه وموضعه ، وان كانا في جملة واحدة ، ويضيف الدكتور جواد الى ذلك : أن « أجاب عليه » عند الفصحاء يفيد معنى « غطاه ، وغطى عليه » . ولما كانت الاجابة إبانة وافصاحاً وليست تغطية وجب أن نقول : أجاب عن ، وإجابة عن .

ومن السيد عبدالجبار علي حسن من مدينة الناصرية في العراق جاءتنا رسالة يقول فيها : « . . واحتدم الجدال بيننا حول صحة العبارة التي ترد كثيرا في نشرات الاخبار ، والتي تقول : وقد تكبدت القوات المهاجمة أعدادا كبيرة من القتلى والجرحى . حيث انصب الاعتراض على كلمة « تكبدت » ، فهل استعمالها صحيح في مثل هذا الموضع ؟ » وبالرجوع الى معاجم اللغة ، والى تفسير بعض المحدثين اتضح لنا الآتي :

إن المعاني التي يدور حولها الفعل « كابد » ليس بينها ما يدل على المعنى الذي يفيده الفعل « تكبد » في دلالته الجديدة ، وإنما هي ـ أي معاني فعل كابد ـ تدور حول التوسط والغلظة والقصد والمعاناة والمشقة . جاء في اللسان : « . . وفي حديث موسى والخضر سلام الله على نبينا وعليهما : فوجدته على كبد البحر أي على أوسط موضع من شاطئه . وكبد كل شيء : وسطه ومعظمه . . تكبدت الشمس السماء : صارت في كبدها . وكبد السماء : وسطها الذي تقوم فيه الشمس عند الزوال . يقول الليث : كبد السماء ما استقبلك من وسطها .

ومن معاني الكَبَد : الغلظة . تقول قوسٌ كَبداء : غليظة الكبد (أي الوسط) . وكَبَدَ كل شيء : عِظَم وسطه وغِلَظه ، وأرض كبداء ، وقوس كبداء أي شديدة ، وتكبد اللبنُ وغيره من الشراب : غلظ وخثر . والكَبَد : الشدة والمشقة . وفي التنزيل العزيز : «لقد خلقنا الانسان في كَبَد» . أي أنه خلق يعالج ويكابد أمر الدنيا وأمر الآخرة ، وقيل : في شدة ومشقة . قال أبو منصور : ومكابدة الأمر معاناة مشقته . ويقال تكبدت الأمر قصدته ومن ذلك قول القائل : يروم البلاد أيها يتكبد ، وتكبد الفلاة إذا قصد وسطها ومعظمها .

ولو رجعنا الى لغوي حديث وهو الدكتور مصطفى جواد لوجدناه يقول : إن تكبَّد على وزن «تَفعَّل» وإن تاءه وتاء أمثاله تدل على رغبة الفاعل في الفعل والمفعول به ، والعدو لم يرغب في الخسارة كما هو بديهي ! إن تكبد الشيء المائع لا مطمع فيه لتوجيه الخطأ في قولهم « تكبد خسارة » لأنه مشتق من الكبد ، وتكبدت الشمس السماء ، وتكبد فلان الفلاة ، والامر يدل على ارادة الفاعل للفعل ، فلا وجه لاستعارة جديدة كأن يقال (أراد العدو الدخول في وسط الخسارة) فإنه لا يريدها بل يريد الفوز والظفر والغلبة . والاستعمال الذي يجزم الدكتور مصطفى جواد بصوابه هو : « كابد العدو خسائر فادحة » أي قاسى منها واحتمل معاناتها وشدتها . فالمكابدة تأتي للمقاومة عامة والمنازلة والمنازعة مع مقاساة ومشقة .

ونحن نرى أن الفرق بين كابد وتكبد ينحصر في أن المعاناة والمشقة جبر لا اختيار في الفعل الأول ، وأنها اختيار محض في الفعل الثاني ، وليس هناك فاعل يطلب المعاناة والمشقة حبا فيها ! ولكن ألا يمكننا أن نلجأ الى تأويل مقبول يستقيم معه الاستعمال الحديث للفعل تكبد فنقول « إن العدو توسط المعركة وكان من نتيجة ذلك أن كابد الخسارة » ؟ فقد رغب في توسط المعركة ، وكانت الخسارة نتيجة لذلك لا رغبة في الخسارة ذاتها . □

● أعز الأشياء في زماننا شيئان : عالم يعمل بعلمه ، وعارف ينطق عن حقيقة .

(أبو الحسن الثوري)

«النطيلي» يرثي زوجته

اسمه أحمد بن عبدالله بن أبي هريرة ، وقد كان أعمى فغلب لقبه هذا على اسمه ، ولقب أيضا بالتطيلي لأنه من تطيلة وهي بلدة من بلدان الثغر الأعلى،أي ولاية سرقسطة بالاندلس.

يرجح محقق ديوانه أن تكون تطيلة مسقط رأس الشاعر وليست دار اقامته ، فقد استوطن اشبيلية ولم يكن قانعا بها ، وفي ذلك يقول :

فبالله ما استوطنتها قانعا بها
ولكنني سيف حواه قراب

ولم يتفق الدارسون على تاريخ ولادته كما لم يتفقوا على تاريخ وفاته ، ولكن الرواية ترجح أن يكون ولد حوالي عام ٤٨٥هـ ، وترجح أيضا أن تكون وفاته في عام ٥٢٥هـ أو نحو ذلك .

أما كرهه للاقامة في اشبيلية فمرده إلى خيبة أمله فيها وفي أهلها . ولو كان استوطنها أيام المعتمد بن عباد لما مل الإقامة فيها ، فإن أمثال التطيلي من الشعراء الأذكياء كانوا يحظون برعاية ذلك السلطان الأريب وكرمه . ولهذا السبب ـ أي لكرهه الاقامة في اشبيلية ـ لا تجد له صلة بحياة الناس فيها ، إلا أشياء يسيرة . ومن تلك الأشياء صحبته للشاعر ابي القاسم بن ابي طالب الحضرمي المنيشي الذي كان أهل اشبيلية يلقبونه (عصا الأعمى) ، ثم حضوره مجالس الشعراء والوشاحين باشبيلية ، وارتياده لبعض الحمامات العامة فيها فضلا عن ممدوحيه .

ومهما يكن سبب ضيقه بالعيش في اشبيلية ، فإن عماه هو الذي جلب له الكثير من شقائه ، ولكنه لا يكاد يذكره في شعره إلا قليلا ، وهو يذكره في معرض التوجع وشكوى الزمان قائلا :

أما اشتفتْ منّيَ الأيام في وطني
حتى تضايقَ فيما عَنَّ من وطر

ولا قضت من سواد العين حاجتها
حتى تكر على ما كان في الشعر

تراه في هذين البيتين يشكو العمى ويشكو فقدان الوطن . على أن مثله كان حريًّا به أن يظل قلقا ، فقد كان يعيش على ما يمده به أشخاص الممدوحين ، وهو مصدر للعيش غير آمن ، فاذا غضب منه أحدهم حجب عنه عطاءه ، فأسلمه للعوز .

ويدلنا شعره ـ لقلة أخباره الخاصة في المراجع الأدبية والتاريخية وندرتها ـ على اقتصاد في الطلب وعفة نفس ، فلم يكن يطلب الغنى ، ولم يعرف عنه جشع ولا بخل .

وقد اشتهر التطيلي بالموشحات حتى عُدَّ واحداً من أربعة وشاحين هم أفضل من ظهر في الأندلس .

انت أولى بالزيارة !

ونبئتُ ذاك الوجهَ غيرَّهُ البلى   على قُرْبِ عَهْدٍ بالطّلاقة والبِشْرِ
بكيتُ عليهِ بالدُّموعِ ولو أَبَتْ   بكيتُ عليه بالتجلُّدِ والصبر
فليتهمُ وارَوْا ذُكاءَ مكانَه   ولو عرفت في أَوْجُهِ الأَنْجُمِ الزُّهْر
وليتهمُ وَارَوْهُ بين جَوانحي
   على فَيْضِ دَمْعي واحْتدامِ لظى صدري
أُخْبِرَتي كيفَ استقرتْ بكِ النوَى
   على أنّ عندي ما يزيدُ على الخبر / ٣٣ظ
وما فعلتْ تلك المحاسنُ في الثَّرى   فقد ساءَ ظني بينَ أدري ولا أدري
يهوِّنُ وَجْدي أن وَجْهَكِ زَهْرةٌ
   وأن ثَرَاها من دموعي على ذِكْرِ
دَعيني أُعَلِّلْ فيكِ نفسيَ بالمنى   فقد خفتُ ألا نلتقي آخرَ الدهرِ
وإن تَسْتَطيبي فابْدَئيني بزورةٍ   فإنك أولى بالزيارةِ والبرِّ
مُنى أتمناها ولا يدَ لي بها   سوى خطرات لا تريش ولا تبري
وأحلامُ مذعورِ الكرى كلما أجتلي   سُروراً رآهُ وهو في صورةِ الذُّعْر
آمن لا والله ما زلتُ موفياً   ببينك لو أني أخذتُ له حِذْري
خُذي حدِّثيني هل أطقتِ علَى النّوى
   أُحَدِّثْكِ أني قد ضَعُفْتُ عن الصبر
مغالطةٌ لولا الأسى ما حملتُها   على مركب مما وصفت به وعر
وليتهمُ قد أجمعُوا عنكِ سلوة   لعشرينَ مَرَّتْ من فراقك أو عَشْر
وأذهلهمْ حبُّ التُراثِ فكفكفوا   به زفرةً تعتادُ أو عَبْرةً تجري
ولم يبقَ إلا ذكرةٌ ربما امترتْ   بقيةَ دمعِ الشوقِ في أكؤسِ الخَتْر
وأمّا أنا فالتَعْتُ والله لوعةً   هي الخمر لو سامحتِ في لَذّةِ السكر
أهزُّ لها عِطفيَ منْ غير نشوةٍ   على ما بجسمي من كلال ومن فَتْر
وأودِعُها عينيْ لا لِصَبابةٍ   ولكن لِتَمْري دَمْعَ عيني كما تمري
فلا تَبْعَدِي إن الصبابةَ خُطّةٌ   لِشَخْصِكِ في قلبي وان كانَ في القبر
ولا تَبْعَدي إني عليكِ لواجدٌ   ولكنْ على قدرِ الهوَى لا على قدري
ذكرتُكِ ذكرَ المرءِ حاجةَ نفسهِ   وقد قيل إن الميتَ مُنْقَطِعُ الذكر
ووالله ما وَفَّيْتُ رُزْءَكِ حَقّهُ   ولكنه شيءٌ أقمتُ به عذري

ألف الناس القول أن رائية جرير في رثاء زوجته خير مثال يذكر في هذا الباب القديم من أبواب الشعر العربي ، وما ذلك إلا لروعة قصيدة جرير وذيوع اسمه وشعره . ولكن تواضع اسم التطيلي وشهرته ، وبعده عن مراكز الثقافة العربية لا يحول دون الموازنة بين رائيته في رثاء زوجته وبين مرثية جرير ، فهي توازي رائية جرير إن لم تفقها بما تحفل به من عاطفة صادقة ومشاعر

فياضة كريمة ، ووفاء تنطق به كل كلمة .

تعذر عليه تصور وجهها وقد عبث به البلى ، فقد ألفه طلقا مستبشرا ، لذلك يفزع إلى البكاء ليطهر النفس من أدرانها ، ولكن الدموع تستعصى حينا ، فلا يجد إلا الصبر وهو في الحالين يكابد الألم ويشكو الفقد ، فإذا بكى أراحته الدموع وأفشت ضعفه ، وإذا صبر وتجلد احتفظ بوقاره الظاهر وازداد اضطرام النار في قلبه !

يقول : ليتهم واروا الشمس بدلا من ذلك الوجه الصبوح ، بل ليتهم واروه في صدري على كثرة ما يحتدم فيه من نار الشوق وحرقة الأسى . لقد أرقتني الظنون فهل الفتِ البعد عني ؟ إن لدي فيضا من حب غامر ، فلمن أبثه إن كنت لا ترجعين ؟ .

إن الظنون لتعبث بي ، وما يهوّن عليّ إلّا أن وجهك زهرة مازلت أحرص على أن أروي تربتها من أدمعي . ويبلغ بي الضيق مَبلغ الشك في لقاء يجمعنا ، فدعيني اذن أعلل النفس بالمنى ، ولكن هل لك أن تزوريني ؟ لئن فعلتِ فأنت أهل للبر وأولى بالزيارة . وهكذا لم يعد التحدث إليك ولا زيارتك إلا أمنيات تداعب الخيال ، وأحلام مذعور لايطمئن إلى نوم هادىء ، ومأن يرى طيفك حتى يفيق مذعورا . هل كان لي أن آمن من خوف المصاب ؟ لقد أخذني موتك على حين غرة .

ويعز على الشاعر أن تطول به مناجاة النفس ولا من مجيب ، فيعاوده الشوق إلى حديثها ، فيطلب اليها للمرة الثانية أن تحدثه عن البعد وما فعلت الاشواق !

أما هو فقد عيل صبره ، وضعف احتماله ، والتاع لوعة أفقدته صوابه ، كأنه ثملٌ فقد رشده لا جذلا فرحا بل مهموما متكدراً . يهز أعطافه ـ على ما بجسمه من وهن ـ من أثر تلك الخمرة دون أن ينتشي بها ، ويودعها عينيه لتسرع في تساقط الدموع ، ويعلو صوته مناديا : لا تبعدي فإن الشوق في قلبي مقيم وإن كنتِ نزيلة القبر ، وهو كبير لا بقدر استطاعتي ، بل بقدر ما أهواك . وقديما قيل ان الميت منقطع الذكر ، ولكنني اذكرك ذكرا لا ينقطع ، ولست بذلك أوفيك ما أنت أهل له من الوفاء ، ولكنني أرجو من انقطاعي اليك وشُغْلي بفقدك أن أبلغ شيئا أقيم به العذر .

وهذه مقتطفات من القصيدة وليست القصيدة كلها . وقد يلفت النظر قلة الصور الشعرية فيها ، وهذا صحيح ، ولكن جمالها لا يأتيها من وفرة هذه الصور بقدر ما يأتيها من صدق العواطف ونبل المشاعر والوفاء . ثم يأتيها أيضا من بساطة اللغة ودفق التعبير والعفوية التي تبعد عن التكلف . □

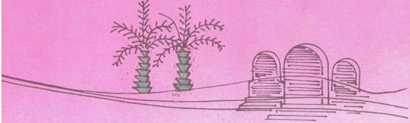
دعـــاء :

● «اللهم إني أسألك رحمة تهدي بها قلبي، وتجمع بها شملي، وتلم بها شعثي، وترد بها الفتن عني، وتصلح بها ديني، وتحفظ بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتبيض بها وجهي، وتلهمني بها رشدي، وتعصمني بها من كل سوء».

(من دعاء النبي عليه السلام).

أفق عانٍ

شعر / أحمد الخير*



آهةٌ تَدرجُ في عينيكَ أم تَغْتَسِلُ
أمْ شُحُوبٍ يجرحُ الضوءَ وما يندَمِلُ
أم صِبَا الرُّؤيا ونجواها التي تَرتَحل ؟
يا دياراً وسوَسَتها
من نُجيمات الليالي
قُبَلُ ،
وسبتها بُحّةُ الحُسنِ
التي تطرقُ او تَشتعلُ ،
مَن إلى سدرةِ عينيكِ
جَوَى ، يَنْدى
ومن يَبْتَهِلُ ؟

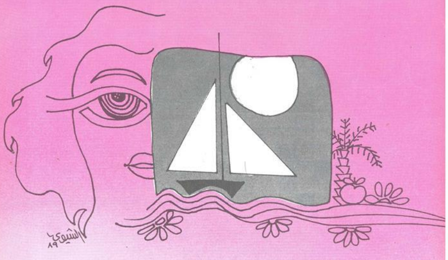
●●

أفق عانٍ ،
وسرتْ من لوينات هوى
تَقتتل
ودُموعٌ ترشِفُ الوصلَ الذي
يبزغُ إذْ ينتقلُ
ضاقت الرُّؤيا التي
رَفَّ لها الشعر
وَغَنَّتْ مقل
وأنا أسرِف في التقوى
ودرعي الوَجْدُ
والأمَلُ
مُورقا ، أهذي
وإنْ غصَّت بي الآماقُ
والسُّبُلُ
سوف ألقاها
وإنْ في كلمةٍ ساريةٍ
تختَلُ

---

* شاعر من القطر العربي السوري

عانٍ = اسير حسب ما جاء في قواميس اللغة



وسألقاها
ويحبو لارتعاشاتي المَدَى
والنفَل
وزُهورُ العِشق ،
واليُتمُ الذي في نَسْغِها
والجَبَلُ

●●

للّغات الألف بوحٌ
ريّق الأثداءِ
مقتبِلُ
للبَوادي ، وبِحارِ الصمتِ
حضنٌ وامِقٌ
خَضِلُ
للصواريخ حنايا تُزْهر

الحسْنَ ، إذا تَبْتَسل
لي ، لها الدُّنيا
إذا باحت نُسيمات الهَوى
والشُّعَلُ

●●

يا عُيون الوَجْدِ في الإبداع
إذ تثري ، وإذْ تَصِلُ
هَذْ هِدي النَسمة بالبسمةِ
إذ تَسري لها او تَكْتَحِلُ
واقرأي الكوكبَ آياً
يِ سنا لتحنانِ
تَكْتَمِلُ
هو ذا العالم عيناكِ
وقلبي ، والهَوَى والأزَلُ

الكلمات المتقاطعة



يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر فى المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذى سينشر فى العدد القادم .

كلمات أفقية

١ ـ شاعر مخضرم هجا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأهدر دمه ثم عفا عنه .
٢ ـ عاب أو مزّق ، ألَحَّ في الطلب .
٣ ـ بمعنى بماذا ، أحرف متشابهة ، أحرف متشابهة .
٤ ـ عبادة ، ضرب من الكتابة النثرية .
٥ ـ من كبار بلغاء العرب وخطبائهم في الجاهلية .
٦ ـ نبي الله يونس ـ عليه السلام ـ كما ورد اسمه في التوراة ، تجدها في راع .
٧ ـ حرف مكرر ، ظهر ، تجدها في زفس .
٨ ـ يقظ ، تالف وعتيق .
٩ ـ مربح ، قَرَعَ ، غير مَشوب .
١٠ ـ يوحى ، أرَق .

كلمات عمودية

١ ـ شاعر فحل اشتهر بالهجاء والرثاء والوصف والفخر .
٢ ـ طيب من دم دابة أشبه بالظبي ، غير راكب .
٣ ـ أكثر من ترداد القول ، شاعر أموي تغزّل بفتاة فسمي بها .
٤ ـ ظَهَر ، تجدها في موج .
٥ ـ شاعر أعمى من شعراء العهد العباسي عرف بشعوبيته .
٦ ـ نسبة شيء إلى آخر ، الاسم الأول لخطيب وشاعر جاهلي .
٧ ـ أخطأ ، تماثيل من حجارة .
٨ ـ صفة لضرب من الشعر الساحر ، زوجة أبي سفيان .
٩ ـ شاعر أموي اقترن اسمه باسم جرير .
١٠ ـ ولد الظبية ، نبات عَطِر .

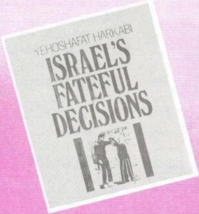
● حل مسابقة العدد الماضي يونيو ١٩٨٩م

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	ج	ب	ا	ل	ر	و	ك	ي	■	ج
٢	ب	ا	ل	■	ا	و	ل	ي	م	ب
٣	ل	س	ا	ن	■	ي	م	ا	ط	ل
٤	ا	ل	ب	ي	ر	ي	ن	ي	ه	■
٥	ر	■	ا	■	ز	ا	ج	ر	و	س
٦	ا	ط	ل	س	■	■	ا	■	■	و
٧	ر	■	ا	ل	ك	ا	ر	ي	ب	ي
٨	ا	ف	ش	ى	■	ط	و	د	و	س
٩	ت	ل	■	ط	و	ف	■	ز	ي	■
١٠	■	ج	ب	ا	ل	ا	ل	ا	ل	ب

كتاب الشهر

مكتبة العربي

قرارات "إسرائيل" الحاسمة



تأليف :
يهو شفاط هركابي
مراجعة :
محمد الظاهر *

الخطوة الأولى لمعرفة عدونا هي معرفة أسلوب تفكيره ، وطرق تحليله لقضاياه الرئيسية .

والكتاب الذي نعرضه اليوم نتاج فكر صهيوني ، معاد لنا ، لكنه مع ذلك يشير إلى كثير من نقاط الضعف في معسكر الأعداء . ومن هنا جاء الاختيار .

---

* كاتب من القطر العربي الاردني

أفضل اسم يمكن أن يطلق على هذا الكتاب الذي وضعه مدير الاستخبارات « الاسرائيلية » السابق ، المحاضر في الجامعة العبرية بالقدس ، في العلاقات الدولية ، وشؤون الشرق الأوسط ، يهو شفاط هركابي ، هو (كتاب « اسرائيل » الأسود) ، فهذا الكتاب الذي صدر بعنوان (قرارات « اسرائيل » الحاسمة) ISRAEL,S FATE-FUL DECISIONS) لايحمل صفة الحسم فقط ، وانما يحمل حسب العنوان الانجليزي ، صفة الشؤم ، وهذا يعني أن القرارات التي يجب على الكيان الصهيوني اتخاذها ، قرارات لايد للسياسي الصهيوني فيها ، فقد فرضتها العوامل الداخلية والخارجية ، والسياسات الخاطئة ، وهذا ما يشير إليه المؤلف في مقدمة كتابه حين يقول :

(إن الخيار المطروح أمامنا ليس بين الجيد والسيء وإنما بين السيء والأسوأ .)

وقد صدر الكتاب باللغة العبرية عام ١٩٨٦ ، في « تل ابيب » ، وقد صدرت منه أربع طبعات منذ ذلك التاريخ . أما النسخة الانجليزية التي اعتمدنا عليها في هذه المراجعة ، فقد صدرت في منتصف عام ١٩٨٨ . ويرجع الفضل في الرواج الكبير الذي حققه هذا الكتاب للقضايا المصيرية التي يطرحها بشكل حاسم جريء ، وللمكانة الاعتبارية للمؤلف .

وهذا الكتاب الذي جاء في مائتين وست وأربعين صفحة من القطع المتوسط ، يشتمل على مقدمة حديثة ، تحاول أن تضيف ما استجد من معلومات وتطورات سياسية على مضمون الكتاب ، وتشرح الأسباب التي دعت إلى تأليفه ، إضافة إلى خمسة فصول مهمة ، هي :

* الصراع العربي « الاسرائيلي » .
* المواقف السياسية للصهيونية و « اسرائيل » .
* الليكود في السلطة .
* الحركات القومية الدينية اليهودية .
* « إسرائيل » إلى أين ؟

أما الإهداء فقد جاء بالصيغة التالية :

(إلى ضحايا قادتهم : اليهود والعرب)

ومن هذا الإهداء يستنتج القارىء أن المؤلف يحاول التركيز على أخطاء القيادتين الصهيونية والعربية ، وخاصة إذا عرفنا أن المؤلف من أهم الدارسين الصهاينة للعقلية العربية ، فقد أصدر في أوائل السبعينيات كتابا ضخما بعنوان (مواقف العرب تجاه « اسرائيل ») ، حلل فيه العقلية العربية التي تحكم الموقف العربي تجاه اليهود ، منذ ظهور الإسلام ، حتى عام ١٩٧٠ .

معتدلون ومتطرفون

لكن المؤلف الذي درس المواقف العربية في مؤلفاته السابقة بشكل عميق مركز ، أراد أن يتجه في مؤلفه هذا إلى داخل الكيان الصهيوني ، لذلك لم يشر إلى الجانب العربي إلّا في الفصل الأول من الكتاب ، حيث أكد في



هذا الفصل على حقيقة واحدة ، وهي أن المعتدلين والمتطرفين من العرب ، هدفهم النهائي واحد ، هو تدمير « اسرائيل » . وأن المعتدلين والمتطرفين من اليهود ، هدفهم النهائي واحد ، هو إقامة « اسرائيل » الكبرى .

وفي هذا الفصل يحاول هركابي أن يطرح نظريته في إدارة الصراع ، وهذه النظرية تتمثل في الفصل بين الهدف النهائي وبين اللعبة السياسية ، مؤكدا على أنه من المستحيل على الطرفين ـ العربي و « الاسرائيلي » ـ حسم الصراع بالحرب ، ومؤكدا في الوقت نفسه أن الهامش المتاح أمام المعتدلين العرب ـ بما في ذلك التيار الرئيسي في منظمة التحرير الفلسطينية وفتح ـ والمعتدلين اليهود ، في مجال اللعبة السياسية هامش ضيق صعب ، مليء بالمخاطر . ذلك أن أي متطرف في الوطن العربي يطرح شعار تدمير « إسرائيل » ـ حتى إن كان غير جاد في هذا الطرح ـ ستجد تجاوبا جماهيريا منقطع النظير ، أما المعتدل العربي الذي يحاول تحقيق الهدف نفسه ، عن طريق الامكانات المتاحة ، وفهمه للظروف الدولية المعقدة ، فإنه سيقضي عمره في شرح ظروف الوضع وملابساته دون أن يحظى بالتأييد الجماهيري نفسه للشعارات المتطرفة ، والوضع نفسه ينطبق بحذافيره على المعتدلين والمتطرفين في الكيان الصهيوني .

ولما كان الكتاب في الأساس موجها إلى المجتمع « الاسرائيلي » ، وإلى الانسان « الاسرائيلي » ، فإننا نرى المؤلف يتوجه بكل ثقله إلى ما يدور في المجتمع المذكور ، لذلك نراه في الفصل الثاني ينطلق إلى تحليل الخلفية التاريخية للبنى الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي حكمت المواقف السياسية للمنظمات الصهيونية والحكومات « الاسرائيلية » ، ومنذ بداية هذا الفصل ندرك انحياز هركابي إلى جانب حزب العمل ، ضد الأحزاب « الاسرائيلية » الأخرى . فهذه الخلفية التاريخية تشير إلى أن حزب العمل الذي قام ـ في الأساس ـ على أكتاف المزارعين (GARDENERS) وحركات اليمين التي أقيمت على أكتاف الحرفيين (MECHAN ICS) ، يختلفان اختلافا جذريا في طريقة إدارة الصراع ، ففي حين كان حزب العمل يرى أنه يمكن الاستيلاء على فلسطين خطوة خطوة ، عن طريق شراء الأراضي وتعمير الأرض واستصلاحها ، كانت أحزاب اليمين ترى أنه يمكن تحقيق ذلك بالقوة ، وذلك بناء على آراء « جابوتنسكي » التي كانت تنظر إلى اليهودي على أنه « سوبرمان » جاء لتحقيق الحلم الموعود ، وأنه قادر على تحقيق ما يريد بالقوة ، وقادر على فرض إرادته على العالم . وهذا الاختلاف الجذري جعل من غير الممكن الوصول إلى حل وسط لإيجاد صيغة مشتركة « للأيديولوجية » السياسية التي ستقود الكيان الصهيوني ، لذلك كان لابد لحزب العمل الذي تَسَلَّم السلطة في الكيان الصهيوني منذ نشأته ، من تهميش دور الحركات والأحزاب اليمينية ، وتَسَلُّم زمام المبادرة من أجل ترسيخ البنى التحتية للمؤسسات الصهيونية في ذلك الكيان .

ويؤكد هركابي في هذا الفصل أن تَسَلُّم حزب العمل زمام الأمور في الحركة الصهيونية ، هو الذي أدى إلى قيام هذا الكيان ، وإلى استمرار وجوده ، وأن تهميش دور اليمين الصهيوني كان نعمة كبرى على ذلك الكيان .

في الفصل الثالث من هذا الكتاب يناقش المؤلف خطايا ـ وليس أخطاء ـ حزب الليكود ،

بعد تسلمه زمام السلطة عام ١٩٧٧ ، ويركز في هذا الفصل على قضيتين مهمتين :

القضية الأولى هي اتفاقية « كامب ديفيد » التي وقعها حزب الليكود مع السادات ، ومع تسليم المؤلف بأن هذه الاتفاقية هي أكبر إنجاز حققه الحزب ، إلا أنه يعتقد بأن الحزب قد تعامل مع هذه المعاهدة بغباء سياسي مطلق ، فهذا الحزب ، بدل أن يتعامل مع القضايا السياسية الرئيسة المتعلقة بهذه المعاهدة ، ركز جلّ اهتمامه على قضية ثانوية تافهة ، هي قضية مستعمرة ياميت الصهيونية التي أقيمت في صحراء سيناء ، بعد حرب عام ١٩٦٧ .

كذلك فإنه يؤكد أن هذا الحزب الذي وقع الاتفاقية ، لم يكن يعرف أن ضمن بنود الاتفاقية يتحتم عليه الانسحاب إن عاجلا أو آجلا من الضفة الغربية وقطاع غزة ، إن لم يكن حسب النسخة الفرنسية لقرار (٢٤٢) التي تنص على الانسحاب الكامل من الأراضي المحتلة ، فحسب النسخة الانجليزية التي تنص على الانسحاب من أراض محتلة . وهذا الحزب الذي وقع هذه المعاهدة هو الذي يتزعم الآن معارضة الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة .

إضافة إلى ذلك ، فإن هذا الحزب بدل أن يهيء الأجواء العربية من أجل تعميم نموذج اتفاقية كامب ديفيد على الوطن العربي ، بإتاحة المجال لإظهار مصداقيتها ، قام بوأدها في المهد ، حين فجر حرب لبنان التي قضت على كل الظروف الملائمة لاستمرارية هذه الاتفاقية .

غباء الليكود السياسي

أما القضية الثانية ، فهي قضية غزو لبنان ، وهو يعتقد أن حزب الليكود الذي فجر هذه الحرب لم يكن يدرك الأهداف السياسية البعيدة المدى لهذه الحرب ، فقد وضع الحزب ثلاثة أهداف لهذه الحرب ، هي :

* تدمير البنية العسكرية والسياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية .
* إخراج السوريين من لبنان .
* تشكيل حكومة لبنانية موالية ، تستطيع توقيع اتفاقية سلام مع الكيان الصهيوني .

وقد تعامل مع معطيات هذه الحرب بالغباء السياسي السابق نفسه ، مما جعل هذه الحرب وبالا على الكيان الصهيوني ، ذلك أن هذه الحرب عززت الوجود السوري في لبنان ، ولم توجد الحكومة القوية والحليفة القادرة على توقيع اتفاقية سلام ، بل أوجدت عدة قوى محلية معادية ، وزادت نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية وقوتها إضافة إلى هذا الخروج المخزي للقوات الصهيونية من لبنان .

ويعتقد المؤلف أن هذه الخطايا التي ارتكبها الليكود في حق الكيان الصهيوني ، وليدة المعطيات « الأيديولوجية » لهذا الحزب ، حيث يعد « بيغن » وريثا لأفكار « جابوتنسكي » الذي يعتقد « بسوبرمانية » الإنسان اليهودي ، وبقدرته على تحقيق أهدافه في كل الظروف بضربة واحدة .

وفي الفصل الرابع ، يحاول المؤلف أن يشرح الأحزاب القومية الدينية اليهودية ، من حيث نشأتها ، ومنطلقاتها الدينية ، وسياساتها « الميتافيزيقية » البعيدة عن أرض الواقع .

ويؤكد أن حرب عام ١٩٦٧ ، كانت مرحلة تحول مهمة ، في مسيرة الأحزاب اليمينية ، والأحزاب الدينية ، فقد سمحت هذه الحرب بخروج تلك الأحزاب من الهامش الضيق الذي وضعها فيه حزب العمل ، إلى ساحة الفعل السياسي المؤثر في القرار السياسي ، ذلك أن

هذه الحرب أكدت نظرية الشعب المختار القادر على إقامة الدولة اليهودية الجبارة التي ستكون وحدها في كفة ، والعالم في الكفة الأخرى ، كما ساهمت النكسة التي مني بها حزب العمل في حرب عام ١٩٧٣ ، في تصاعد وتيرة تلك الأحزاب ، وتأثيرها في الشارع الصهيوني ، مما جعل تلك الأحزاب تصبح هي صاحبة القرار في الوقت الراهن ، وهذا يعني من وجهة نظر المؤلف ، أن الغباء السياسي سيظل متحكماً في صنع القرار السياسي في الكيان الصهيوني ، إلى أن تنتهي الهيمنة اليمينية والدينية على الرأي العام الصهيوني .

نصائح للصهيونية

هذا الوضع السيء الذي يعيشه الكيان الصهيوني في هذا الوقت ، جعل المؤلف يخصص الفصل الخامس الأخير من هذا الكتاب لإسداء النصح للمؤسسات والأفراد في الكيان الصهيوني من أجل العمل على إصلاح ما يمكن إصلاحه ، قبل وقوع الكارثة الكبرى ، على يد الأحزاب الدينية وأحزاب اليمين . فهو يعتقد أن الكيان الصهيوني ليس ألمانيا ، ولا اليابان ولا ايطاليا حتى يستطيع تحمل نتائج الأخطاء السياسية الكبرى ، فأي خطأ سياسي من هذا النوع ، خطأ قاتل بالنسبة لهذا الكيان ، لذلك نراه في بداية هذا الفصل يحرض المفكرين والكتاب على أخذ دورهم في إظهار الحقائق ، وكشف الأوراق ، ويشن حملة عنيفة على تقاعس المثقفين والمفكرين ، وانسحابهم من الساحة ، وتركها للتلفاز الذي يسيطر عليه السياسيون الأغبياء .

كذلك فهو يشن حملة شعواء على أفكار الأحزاب اليمينية والأحزاب الدينية التي لا تعرف كيف تتعامل مع الظرف الموضوعي والواقع المعاش ، وإنما تركز جل اهتمامها على أساطير دينية « ميتافيزيقية » أو « جابو تنسكية » مثالية .

وهو يعتقد أن حزب العمل الذي أنشأ الكيان الصهيوني ، وأقام البنى التحتية له ، هو الحل الوحيد الممكن للخروج من المأزق .

وأيا كان الأمر ، أو الحقائق التي وردت في هذا الكتاب ، وأيا كانت توجهات الكاتب فإنه يتحتم على القارىء العربي أن يدرسه دراسة متعمقة ، حتى يعرف أبعاد المأزق الصهيوني ، وحتى يعرف خطوط السياسات البديلة التي سينتهجها حزب العمل في حالة توليه السلطة في الكيان الصهيوني ، لأن هذا الكتاب يؤكد أن حزب العمل يهدف إلى تحقيق حلم « اسرائيل الكبرى » ، ولكن بالطرق الدبلوماسية التي تعتمد على الفرص المتاحة .

إن هذا الكتاب الذي يصفة أبا إيبان ، وزير الخارجية الصهيوني السابق ، بأنه : (عمل فذ) ، والذي يقول عنه مراسل الغارديان « ايان بلاك » : إنه (صورة مأساوية للكارثة الوطنية للدولة اليهودية ، إذا لم تحدث تحولات حاسمة على مواقفها وسياساتها السياسية تجاه أعدائها) ، يمكن أن يكون وثيقة من أهم الوثائق في يد السياسي العربي ، ليعرف كيف يدير الصراع ، في حالة جمود السياسة الصهيونية على ما هي عليه ، وفي حالة حدوث تغيرات جذرية عليها . □

● ما دام لك ركن في القلب فستجد لك ركنا في البيت .

(مثل شعبي)



كتاب مسابقة البرق والغمام في سعاة الحمام

تأليف : ميخايل صباغ
عرض : الدكتور نقولا زيادة

لا يتناول هذا الكتاب ذو العنوان الجميل صفات الحمام وطبائعه وأنواعه فقط ، بل هو نوع من التحليق في العالم الفسيح لهذا الطائر الذي اتخذ رمزا للحب والسلام والجمال .

وقعت قبل أيام ـ مصادفة ـ على نسخة مطبوعة من هذا الكتاب النادر ، فرأيت بعد أن استمتعت بقراءته أن أشرك قراء مجلة العربي ، بهذه المتعة .

مؤلف الكتاب ، كما يظهر على الغلاف ، هو ميخاييل بن نقولا بن ابراهيم صباغ . وابراهيم صباغ ، جد المؤلف ، كان يعمل كاتباً عند ضاهر العمر الزيداني ، حاكم عكا والقسم الكبير من شمال فلسطين وجنوب لبنان (توفى مقتولا ١٧٧٥) ، وخلفه أحمد باشا الجزار . وقد قتل ابراهيم صباغ في السنة نفسها على يد الجزار .

وفي السنة التي قتل فيها ابراهيم صباغ ولد حفيده ميخاييل ، وكان أبوه قد ترك عكا . وتعلم ميخاييل على أيدي مدرسين خصوصيين ، يذكر منهم في ثنايا الكتاب الذي بين أيدينا ، الشيخ يوسف الخراشي ، وكان سن ميخاييل يوم تعلم على يد الشيخ يوسف خمس عشرة سنة . والمهم أن ميخاييل كان في مصر في شبابه ، وكان قد تعلم الفرنسية ، لذلك استخدمه نابليون بونابرت ترجمانا له أثناء حملته المصرية (١٧٩٨ ـ ١٨٠٣) . ولم يبق ميخاييل في مصر بعد انسحاب الفرنسيين ، فقد رافقهم إلى باريس ، واشتغل هناك في المكتبة الوطنية التي كانت قد

حصلت على عدد من المخطوطات (والمطبوعات) العربية ، فكانت له يد طولى في تنظيم المكتبة . وكان في عمله مرتبطا باثنين من كبار مستشرقي ذلك الوقت من الفرنسيين ، هما دوساسي وكاترمير .

والكتاب الذي نحن بصدد التحدث عنه مطبوع في باريس ، في المطبعة السلطانية سنة ١٨٠٥ م ، كما يبدو ذلك على الغلاف . وقد ترجم دوساسي الكتاب إلى الفرنسية ، وطبع الأصل العربي مع الترجمة في صفحات متقابلة .

في موقع الشاهد

درج عدد من مؤلفي الكتب على القول بأن صديقا طلب من المؤلف أن يشرح له كذا وكذا ، أو أن يصف له كيت وكيت ، أو أن يفسر له أمرا التبس عليه ، فيتقدم المؤلف إلى وضع كتاب قصير أو طويل لايهم .

وميخاييل بن نقولا بن ابراهيم صباغ ذكر سببا لتأليفه هذا الكتاب الصغير الذي جاء مع الترجمة في سبع وثمانين صفحة بحرف كبير . يقول المؤلف : « وبعده فإني كنت بالأمس بناد محشود من بني هذه البلاد (فرنسة) وقد التأمنا من كل عالم لبيب ، وشاعر أديب ، ومنطيقي بليغ ، وناشيء فصيح ، وعاقل رجيح ، فجلنا في مفاكهة ومنادمة ، أفضت بنا إلى مذاكرة الأشعار من اللغتين العربية والفرنساوية ، واقتضت النتيجة لموقع شاهد (لكوني موجودا) أنهم كلفوني لأنظم بيتين ، أضمنهما مراسلة من عاشق إلى إلف مفارق . ففكرت ريثما نظمتهما وأنشدتهم :

رُحْ يا حمام إلى الحبيبة مسرعاً
وأتِ الجواب فإنني مجنونُ
هاك الكتابَ بياض عيني ، والسوا
دمداده ، ثم السلام حنين

فحينما ترجمتها لهم ، وفهمتهم ما عنيت ، بحسب إمكاني ، وقد أدركوا ما ضُمِّنَا ، فاستحسنوا التشبيه . غير أنهم قالوا : هل شعراء العرب يشبهون الحمام بالساعي أو الرسول ؟ ولما خصوه بهذا التشبيه دون غيره من الطير ؟ فقلت : هذا ليس تشبيهاً ولا مثالاً بل حقيقة . . . . . » .

ولما فارق كل خل خليله ، على ما يقول المؤلف ، فبعد ذهابهم : « فكرت بانذهالهم ، فأخذتني الحمية ، حتى أن هجرت النوم في ليلتي ، وألفت هذه الرسالة ، وسميتها (مسابقة البرق والغمام في سعاة الحمام) » .

جعل ميخاييل صباغ الرسالة في خمسة فصول : الأول في تعريف الحمام ، والثاني في أحسن أنواعه وطباعه ومزاجه ، والثالث في أول من أرسله ومن بعده على التوالي ، والرابع في تربيته وتعليمه وكيفية إرساله بالبطاقة ، والخامس في بعض ما قاله العلماء المتقدمون .

لا أعتزم تلخيص هذا الكتاب ، ولكنني أود أن أقف عند بعض ما أورده المؤلف ، سواء كان من عنده أو مما نقله . فهو يقول (ص ٢٣) : « أسفل ذنب الحمامة ، مما يلي ظهرها ، بياض ، والحمامة هي دونا ذات طوق (أخضر أو أحمر أو أسود يحيط بعنقها) ، وكل طير عبّ وهدر فهو حمام (ويفسر العب بأنه شدة جرع الماء من غير تنفس والهدير هو ترجيع الصوت) .

وأحسن أنواع الحمام وأفطنه للتعليم ، على قول العراقيين (ص ٢٧) هو الأبيض المطوق . وينقل عن الإمام الشافعي قوله : « إنه يجوز المسابقة به ، لأنه يحتاج إليه في الحرب لنقل الأخبار » (ص ٢٩) .

ومن الطف ما نقله صباغ قول ابن قتيبة من كتاب عيون الأخبار : « لم أر شيئا (كذا) في الرجل والمرأة إلا رأيته في الحمام . رأيت حمامة لا تريد إلا ذكرها ، وذكرا لا يريد إلا انثايته (كذا) إلى أن يموت أحدهما . ورأيت حمامة يحاولها الذكر طويلا حتى تُبَلِّغَه ، وكذلك ذكرا تحاوله انثايته فما

يمكنها إلا بعد حين ، وأنني تمكن غير ذكرها ، وذكرا يوطي غير اثناثيته (كذا) . . . » ص ٢٩ و٣١) .

ويقول : إن زبل الحمام حار جدا . وأذكر أنا أنني سمعت مثل هذا القول من جدي لأمي ، وكان يربي الحمام ، لكن للأكل لا للمراسلات .

يروي المؤلف خبر نوح وإرسال الحمامة من الفلك (ص٣٥ و٣٦) ، ثم ينتقل إلى أيام نور الدين زنكي (٥٤١ - ٥٦٩هـ / ١١٤٦ - ١١٧٤ م) الذي ملك سورية ، واسترجع من الافرنج عددا من الحصون ، ويقول عنه : ثم إنه لما استقرت له الأمور . . . واستقامت له الأحوال ، جعل يتفكر في اتساع مملكته وامتدادها ، مع رغبته سرعة وصول الأخبار من أقطارها ، فأمر حينئذ أن يتخذ في كل قلعة وحصن من جميع بلاده من الحمايم ، واخترع تعليمها لكي تحمل الرسايل إلى الآفاق . . . » (ص ٣٩ و٤١) . ونحن نعرف أن نور الدين لم يخترع ، وإنما أعاد ترتيب البريد الزاجل وحسنه ونظمه .

« ومن بعده ترك ذلك إلى أن قام في بغداد الإمام الخليفة العباسي أحمد الناصر لدين الله ، (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ - ١٢٢٥ م) ، واعتنى بحمام الرسايل » (ص ٤٣) .

وقد انتهى أمر حمام الرسايل - فيما ذهب إليه ميخاييل صباغ - مع احتلال المغول لبغداد ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . ومن البديهي أن هذه النبذة التاريخية التي أوردها المؤلف هي دون الواقع بكثير ، فقد نسي المماليك وعنايتهم بالحمام الزاجل ، ومع ذلك فقد نقل ميخاييل صباغ عن شيخه يوسف الخراشي أنه كان برواق الاعجام بالأزهر رجل من نواحي تركستان ، وقد قال للشيخ إن بعض أكابر تلك الأطراف من بلاده لا يزالون يعتنون بالحمام للتراسل .

يتناول المؤلف في الفصل الرابع تربية الحمام وتعليمه وتدريبه ، ولا نعرف ، مما رواه ، فيما إذا كان هو أو أحد من أفراد أسرته أو الحكام الذين عمل جده عندهم كانوا يستعملون الحمام ، وإن كنا نرجح أن الجواب يكون نفيا ، ولا ندري فيما إذا كان ميخاييل صباغ عني حتى بتربية الحمام ، على أننا نرجح أنه كان قد حصل على المعلومات من مصدر ما ، حديث أو قديم ، إلا أنه لم يشر إليه .

يقول المؤلف : « إنه يجب أن تشتري أولا لذلك زوجا أو زوجين من الحمام ، غريبا كان أو بريا ، بحيث يكون أبيض مطوقا ، لأنه أفضل أنواعه . . وتصبر إلى أن يبيض ويستفرخ لكون الكبير عسر التعليم » .

« فحين يبرز بأفراخه الريش فيلزمك أن تطعمها من يدك ، وتسقيها من فمك . . . تفعل ذلك إلى أن تعلم أنها (شبعت ورويت) ، فتضعها أمامك وتداعبها ، وامش أمامها لتتبعك ، ورد عليها ، واجعل ذلك دأبك في النهار مرتين أو ثلاثا ، أنت أو الرجل الذي تقيمه



غلاف الكتاب

لذلك ، والقصد من هذا ليأخذ على الألفة ويعتاد الأنس » (ص ٥٥ و٥٧) . ويذهب المؤلف في وصف طريقة تدريب الحمام بقصد الإرسال بشيء من التفصيل خطوة خطوة ووقتا وقتا . ويحرص على تسريح الذكر والأنثى إما معا أو متابعة ، فذلك أدعى إلى العودة . والطرق المختلفة التي يجب أن تتبع موضحة بإيجاز جيد . (ص٥٧ و٥٩ و٦١) .

البطاقة والبطايقي

وبعد الحديث عن التسريح ، وهو إلى الآن يتحدث عن الحمام ، ينتقل إلى البطاقة والبطايقي ، والبطاقة يلزم أن تكون رقيقة جدا من الورق الحريري ، ولا يلزم بها زيادة شرح وكلام ، بل زبد الخبر أو المعنى الذي تقصده باختصار كلي . وتضعها تحت الجناح مغروزة به . وليكن الخيط رفيعا ومتينا جدا .

« ثم إن البطايقي يجب عليه أن لا يغفل من المراقبة حين تكون الحمامة مرسلة ، حتى إذا أقبلت وتأوت يدخل يمسكها ، وحالا . . . . يقتضي أن يُعلم (مولاه) لأن ربما يكون بالبطاقة خبر ضروري » . (ص ٦٩ و٧١) .

وهناك تحذير خاص متعلق بتصرف البطايقي : « ويحذر البطايقي حين يمسك الحمامة الآتية بالبطاقة أن يخرج البطاقة من جناحها ، بل يسلم الحمامة لسيده ليخرجها ، وذلك خشية من أن يكون بالبطاقة خبر لا يريد مولاه إعلانه ، حتى وإن كان البطايقي لا يعلم القراءة فلا يفعل ذلك كيلا (لئلا) تقع بمولاه ظنون ردية بحقه ، مثل أن يعطي البطاقة لقارٍ (كذا) ليفهم ما فيها أو أن يضع فيها شيئا لمآربه أو غير ذلك . والظنون تحتمل كثيرا . وأخيرا ليس هذا شغله » . (ص٧١ و٧٣) .

ويحذر من استعمال الحمام للتراسل في ثلاثة محلات ، ويضيف : « فالأسهل جدا ، الممكن مراسلته بين محلين (ص ٧٥) والتعليمات والارشادات التي وضعها ميخاييل صباغ ، والتي نقلنا بعضها هنا ، انتزعها ولا شك من الكتب التي وضعت من قبل لإرشاد القائمين على شؤون الدواوين ، وإرسال الحمام الزاجل ، مثل إرسال البريد كان مكانه هنا ، ومثل هذه الكتب كثيرة ، ولعل كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) كان أكثرها شيوعا أيام المؤلف ، أو لعله لجأ حتى إلى كتاب أصغر .

ويختم المؤلف كتيبه هذا ببعض ما قيل قديما في هذه الحمائم . وقد نقل بيتين من الشعر لأبي أحمد القيرواني ، (ص ١١) وهما :

عجبٌ تفوقُ الريحَ في طيرانِها
كاللمحِ بينَ غُدُوِّها ورواحِها
تأتي بأخبارِ الأمورِ سريعةً
مسيرُ شهرٍ تحتَ ريشِ جناحِها

وهناك قطعة نثرية من قلم القاضي الفاضل البياني وزير صلاح الدين وخدينه : « سرحت لا تزال أجنحتها تحمل من البطايق أجنحة ، وتجهز جيوش القاصد والأقلام أسلحة ، وتحمل من الأخبار ما تحمل الضمائر ، وتطوي بلمح البصر المسافة البعيدة إذا نشرت الجناح الطاير ، وقد دانت النجومُ فهي أنجمٌ ، ونفذت وللقضا أسهم ، وكادت تكون ملايكة ، لأنها رسل باعَدَ الله أسفارها وقرّبَها ، وقد جعلها كالبرق في غُدُوِها ورواحِها ، صدقَ العين وما كذّبها ، وأخذت عهوداً داء الأمانة في رقابها أطواقا ، وتزينت بين أقرانها بالصدق أعناقا » . (ص ٨١ و٨٣)

وفي الصفحة الأخيرة من الكتاب نقرأ العبارة التالية : « طبع بمباشرة يوسف حنا مَرسيل المدبّر العام للمطبعة السلطانية (J. J. MARCEL) » . وقد أضاف المترجم ، سلفستر دوساسي ، ثماني صفحات من الهوامش والشروح باللغة الفرنسية لمصلحة القراء من مواطنيه . □



مكتبة العربي

مختـــــارات

اسم الكتاب : الخيول الجامحة تأملات في زاوية حادة .
اسم المؤلف : يحيى الربيعان .
الناشر : شركة الربيعان للنشر والتوزيع ـ الكويت .
عدد الصفحات : ١٦٤ صفحة . قطع متوسط .
سنة النشر : ١٩٨٩م .

مجموعة من اللوحات الأدبية ، يقدمها الكاتب ممزوجة بتأملات والتقاطات ذكية ، مفرطة في الإحساس والحساسية ، واللوحات قصيرة مكثفة ، فيها قدر حاد من الوعي ، والقدرة الواضحة على استكناه جوهر الحدث ومدلولاته النفسية ، ينسجها الكاتب برقة وعذوبة ، ليقدم لقرائه ، نافذة رقيقة واسعة ، يطل منها على عوالم قد لا يعرفها .

□□□

اسم الكتاب : « الأمويون ، العباسيون ، الأندلسيون » ، سلسلة التعريف بالفن الإسلامي .
اسم المؤلف : وجدان علي بن نايف .
الناشر : الجمعية الملكية للفنون الجميلة ودار البشير للنشر والتوزيع عمان ـ الأردن .
عدد الصفحات : ٢٤٠ من القطع الكبير .
سنة النشر : ١٩٨٨م .

إضافة جديدة للمكتبة العربية ، يقدمها الكتاب الذي يعد الأول في سلسلة التعريف بالفن الإسلامي . وقد اختار الكاتب ثلاث فترات زاهية : هي العصر الأموي ، والعباسي ، والأندلسي ، ليقدم دراسة علمية متكاملة ، يتناول فيها شروط تطور الحضارة ونموها ، ثم يتناول أشكال الفنون المختلفة ، كفن العمارة ، والكتابة ، والرقش العربي ، والتصوير ، والفنون التطبيقية ، وبعد العرض العلمي ينتقل من خلال مقدمة تاريخية إلى دراسة العصور الثلاثة التي خصص الكتاب لتناولها ، ويقدم الكتاب عددا من اللوحات الملونة للأشكال المختلفة في الفن الإسلامي ، ليضيف على الكتاب لمسة جمالية رائعة .

□□□

اسم الكتاب : المستشرقون وآثار اليمن .
اسم المؤلف : د . محمد عبد القادر بافقيه .
الناشر : مركز الدراسات والبحوث ـ اليمن ـ صنعاء .
عدد الصفحات : ١٠٦٤ صفحة ، من القطع الكبير .
سنة النشر : ١٩٨٨م .

دراسة علمية موثقة لقصة المستشرق السويدي الكونت كارلو دي لندنبرج ، خلال الفترة من ١٨٩٥ الى ١٩١١م ، والكونت لندنبرج واحد من الجيل الثالث من المستشرقين ، تعلم اللغة العربية في بيروت ، واستمر في التردد على الشام ، إلى أن بدأ اهتمامه بلهجات اليمن ، وبدأت زياراته واتصالاته بأهل اليمن . ويتعرض الكتاب لنصوص الرسائل الموجهة الى

لندنبرج ومنه ، ثم الرسائل المتبادلة بين أشخاص آخرين وتتعلق بلندنبرج وعمله . والكتاب جهد علمي ضخم ، ينشر رسائل ووثائق لأول مرة . ويلقي أضواء كثيرة على حياة لندنبرج كمستشرق ، وآثاره ، ونتائج عمله .

□□□

اسم الكتاب : الثوب الفلسطيني (بالإنجليزية) .
اسم المؤلفة : جيهان رجب .
الناشر : كيجان بول - لندن .
عدد الصفحات : ١٦٠ صفحة من القطع الكبير .
سنة النشر : ١٩٨٩م .

يقدم الكتاب عرضا تفصيليا للثوب الفلسطيني ، والاختلافات فيه بين منطقة وأخرى في فلسطين ، ويقدم عرضا تاريخيا وفنيا لتطور شكل الثوب ، وجمالياته عبر تاريخ الأراضي المقدسة ، وكيف كان هذا التطور تعبيرا عن تطور تاريخي واجتماعي أيضا . وقد زود الكتاب بلوحات مصورة للثوب الفلسطيني ، موضحة جمالياته ، وكيفية تصميمه .

□□□

اسم الكتاب : تطور التعليم في الإمارات العربية المتحدة .
اسم المؤلف : محمد حسن الحربي .
الناشر : مطابع البيان التجارية - دبي - الإمارات .
عدد الصفحات : ١٣٦ من القطع المتوسط .
سنة النشر : ١٩٨٨م .

يقدم الكاتب جهدا توثيقيا في رصد تطور التعليم في الإمارات العربية ، فيبدأ مع البدايات الأولى للتعليم ، وكيف كان شكلها ، والموقف الاجتماعي منها ، ويرصد التطورات اللاحقة ، ومراحلها ، وبعد العرض التاريخي العام يقدم عرضا تفصيليا ، مزودا بالأرقام لمسيرة التعليم في كل إمارة من الامارات السبع على حدة ، ليقدم في النهاية رؤ ية شاملة لحركة التعليم وتطوراتها

□□□

اسم الكتاب : الأرض أولا .
اسم المؤلف : روكس بن زائد العزيزي .
الناشر : منشورات وزارة الثقافة والتراث القومي - الأردن .
عدد الصفحات : ١٦٦ صفحة من القطع المتوسط .
سنة النشر : ١٩٨٨م .

مسرحية تاريخية ، تدور أحداثها إبان حملة ابراهيم باشا ، - نجل محمد علي - والي مصر - على بلاد الشام ، وتعرض المسرحية من خلال وقائع تاريخية حقيقية لقيم الشهامة والمروءة والدفاع عن الأرض والانتماء للوطن . تقع المسرحية في خمسة فصول ، تصرف الكاتب في الأصل التاريخي للقصة ، وأضاف إليها ، وعدل فيها ، بدون خروج عن أصل الواقعة ، لتتوافق مع فنية الكتابة المسرحية والدرامية .

من دنيا الأمثال :

* من امتطى نمرا حار كيف ينزل عن ظهره . «مثل صيني» .
* استراح من لا عقل له . «مثل عربي» .
* لا تُرِ أحداً قرارة كيسك ، ولا قرارة نفسك . «مثل ايطالي» .
* يكون الضيف ذهبا ، ثم فضة ، ثم حديدا . «مثل روسي» .

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٦٨
يوليو ١٩٨٩

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ دينارًا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارًا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارًا
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٦٨ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ أغسطس ١٩٨٩ .

ارفق الحل مع هذا الكوبون
كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٦٨

١ ضمت عجائب الدنيا السبع عجيبتين أقيمتا على أرض اليونان وهما تمثال زيوس وتمثال ابوللو ، وعجيبتين أقيمتا على أرض مصر ، وهما هرم خوفو ومنارة الاسكندرية ، وضمت أيضا عجيبة واحدة أقيمت على أرض بابل ، وهي حدائق بابل المعلقة ، ترى أي الصروح التالية تمثل العجيبتين السادسة والسابعة من عجائب الدنيا السبع . . ؟

× ضريح (موسولوس) ومعبد (ارتيميس) وقد أقيما في آسيا الصغرى (تركيا حاليا) .

× سور الصين العظيم وتاج محل في الهند .

× برج بيزا المائل في ايطاليا وبرج ايفل في باريس بفرنسا . .

٢ لم كانت عجائب الدنيا سبعة في نظر انتيباتر ، وقومه الأغريق ، ولم تكن ستة ولا ثمانية . ؟

× لأن رقم (٧) كان مقدسا في نظرهم .

× لأنهم لم يعرفوا من العجائب إلا سبعة .

٣ ماوجه العجب في منارة الاسكندرية حتى اعتبروها عجيبة من عجائب الدنيا السبع . ؟

× نظرا لكونها أول منارة عرفها الانسان فى التاريخ .

× نظرا لكونها أعلى منارة في القرن الثاني قبل الميلاد .

× نظرا لأن قمتها كانت مطلية بالذهب .

٤ هرم خوفو الكبير هو أقدم عجائب الدنيا السبع ولاريب ، إذ يعود بناؤه إلى ما قبل ٤٠٠٠ سنة ، وهو أبقاها ، فهو الوحيد بينها الذى صمد حتى الآن ترى كم يبلغ عدد الكتل الحجرية التى يتكون منها هذا الهرم ؟

× أكثر من مليوني كتلة .

× حوالى مليون كتلة .

× حوالى نصف مليون كتلة .

٥ تمثال زيوس وتمثال ابوللو عجيبتان من عجائب الدنيا السبع ، ترى أي التمثالين كان الأضخم ؟

× تمثال ابوللو هو الأضخم ولولا ذلك لما سماه أهل اليونان (كولوسوس)

× تمثال زيوس هو الأضخم ، فزيوس كبير الآلهة في معتقدات اليونان ولابد من أن يكون تمثاله أكبر التماثيل .

٦ حدائق بابل المعلقة عجيبة من عجائب الدنيا السبع ولاريب ، أنشأها الملك نبوخذنصّر الثاني حسب قول الكثيرين ، ترى ماذا كان باعثه على انشائها ؟

× ارضاء زوجته

× ارضاء هواية راسخة في نفسه ، هواية البستنة .

× مضاهاة الحدائق التي زخرت بها برسيبوليس عاصمة فارس .

٧ الكتّاب الأغريق هم الذين تحدثوا عن عجائب الدنيا السبع وحددوها ، ترى أي الكتّاب الثلاثة كان أول من تحدث عن هذه العجائب ، وكان ذلك فى القرن الثانى قبل الميلاد ؟

× انتيباتر الصيداوي

× هوميروس صاحب الالياذة والاوديسا

× هيرودوتس أبو التاريخ .

٨ ماهو أضخم أهرامات العالم جميعا . ؟

× هرم خوفو

× هرم خفرع إن كنا نقصد الضخامة دون الارتفاع

× هرم كويتزا لكوتل الذى بناه الهنود الحمر في المكسيك .

٩ ماهو أضخم صرح شيده الإنسان حتى الآن ، وفي أي زمان ومكان ؟ . .

× هرم خوفو

× سور الصين العظيم .

× ناطحة السحاب في نيويورك .

١٠ تماثيل جزيرة ايستر (أو عيد الفصح) تماثيل عجيبة مذهلة ، ولاريب فحسبك أن أحد هذه التماثيل يبلغ وزنه (٩٠) طنا وارتفاعه (٩٫٥) أمتار ويعجب الانسان كيف تمكن أهل الجزيرة النائية من نقل تلك التماثيل الهائلة أو نصبها وصفّها في الموقع الذي اختاروه لها ، ترى كم يبلغ عدد تلك التماثيل ؟

× حوالى ١٠٠ تمثال

× حوالى ٥٠٠ تمثال

× حوالى ١٠٠٠ تمثال

١١ ماهو أجمل مباني العالم جميعا ؟

× تاج محل

× البيت الأبيض في واشنطن

× قصر فرساي في باريس

حل مسابقة العدد ٣٦٥

أبريل ١٩٨٩

١ ظهرت الطرق المعبدة أول ماظهرت ، في بلاد ما بين الرافدين ، أيام البابليين والآشوريين ، وكان الغرض منها تسهيل وصول الناس إلى المعابد .

٢ بلغ طول الطرق المعبدة الرومانية بمجموعها (٨٠,٠٠٠) كيلومتر ، وذلك في القرن الرابع الميلادي ، حين بلغت تلك الطرق أوجها ، وأوشكت الامبراطورية على السقوط .

٣ يذكر التاريخ أن عربة الخيول ظهرت أول ما ظهرت سنة ١٥٠٠ م ، وفي بلاد المجر على الأخص ، وحسبك دليلا على ذلك أن الاسم الذي أطلقه الانكليز وغيرهم من الأوربين على تلك العربة ، مشتق من اسم البلدة المجرية التي ظهرت فيها تلك العربة ، وهو كوكس .

٤ لقد تأخر اختراع الدراجة العادية عن اختراع السيارة حوالي ٥ سنوات ، فاختراع السيارة التي تسير بالبنزين يعود إلى سنة ١٨٨٥ ، بينما الدراجة العادية كما نعرفها اليوم لم يكتمل اختراعها إلا سنة (١٨٩٠) .

٥ ظهرت سيارة البنزين الأولى في أوربا وفي ألمانيا على وجه التحديد ، وكان ذلك سنة ١٨٨٥ ، حين شهدت مدينة مانهايم السيارة التي صنعها كارل بنز ، وكانت بلا سقف ، وتقوم على ثلاثة دواليب ، وتعتمد على إطارات مطاطية صلبة ، غير منفوخة ، ولا تزيد سرعتها عن ٨ أميال في الساعة .

٦ ظهرت السيارة البخارية الأولى في باريس سنة ١٧٦٩ ، وكانت السيارة الآلية (أي التي تسير تلقائيا وبقوة محركها) الأولى في التاريخ ، لكنها لم تعمر سوى ٢٠ دقيقة ، وقد ارتطمت بجدار وتحطمت .

٧ إشارة المرور الاوتوماتيكية الأولى ظهرت في لندن سنة ١٩٢٦ ، بيد أن العاصمة البريطانية عرفت طرازا بدائيا من إشارات المرور قبل ذلك بخمسين عاما ، أي سنة ١٨٦٨ ، وكانت تلك الاشارات الرائدة تعمل بالغاز ، وتركب على أعمدة يبلغ طولها ٧ أمتار . وقد ابتكرها المسؤولون الانكليز تأمينا لراحة أعضاء البرلمان ، ثم ما لبثت تلك الإشارات أن توقفت سنة ١٨٧٢ .

٨ شارلز جوديير ، المخترع الامريكي (١٨٠٠ - ١٨٦٠) ، هو الذي اخترع فلكنة المطاط سنة ١٨٣٩ ، والذي أسس

فيما بعد شركة لصنع إطارات السيارات تعرف باسمه ، وما زالت قائمة .

٩ قانون الراية الحمراء، سنة البرلمان البريطاني سنة ١٨٦٥ ، وظل معمولا به حتى سنة ١٨٩٦ ، وقد فرض هذا القانون على العربات الآلية (السيارات والقطارات) ألا تتجاوز سرعتها ميلين في الساعة . ومن طريف ما يذكر أنه فرض عليها أيضا أن يتقدمها رجل يسير أمامها ويلوح براية حمراء يحملها في يده ، وذلك بقصد تحذير الناس من العربة الآلية (الشيطانية) القادمة من خلفه ، وبقصد حمل تلك العربة على عدم تجاوز سرعة الرجل الذي يسير أمامها .

١٠ صحيفة لاماتان الفرنسية نظمت سباقا عالميا للسيارات ١٩٠٨، وكانت مسافة السباق ٢١,٧٢٥ كيلومترا، وفازت السيارة الالمانية (بروتوس) بالمرتبة الأولى في ذلك السباق ، لكنها عدت مخالفة ، فمنحت الجائزة الأولى للسيارة الامريكية التي جاءت في المرتبة الثانية ، وبلغت المدة التي قطعت خلالها تلك المسافة (١٧٠) يوما .

١١ مجموع السيارات التي صنعت حتى أواخر السبعينيات في أمريكا وأوربا وسائر بلدان العالم بلغ ٢٤٣ مليون سيارة .

١٢ بلغ مجموع ضحايا السيارات منذ ظهورها حتى سنة ١٩٨٦ (٢٥) مليون نسمة ، أي ما يزيد على مجموع ضحايا الحربين العالميتين الأخيرتين ، وسيبلغ هذا المجموع ٤٠ ـ ٥٠ مليون نسمة في نهاية القرن العشرين ، حسب تقدير الخبراء .

□□□

الفائزون في مسابقة العدد ٣٦٥ ابريل ١٩٨٩

الجائزة الأولى : سميرة مصطفى هجرس ـ الجيزة ـ جمهورية مصر العربية .
الجائزة الثانية : عبد الحميد غانم ـ دمشق ـ الجمهورية العربية السورية .
الجائزة الثالثة : سهيل موسى يوسف السكر ـ مدينة الملك خالد العسكرية ـ المملكة العربية السعودية .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ سالم عبدات ـ سالا ـ اندونيسيا .
٢ ـ سالمة على فرج ابديري ـ طرابلس ـ ليبيا .
٣ ـ هوبي محمد ـ مدينة ورززات ـ المملكة المغربية .
٤ ـ محمود محمد الطموني ـ السالمية ـ الكويت .
٥ ـ مسعود محسن العامري ـ حضرموت ـ اليمن الديمقراطي .
٦ ـ مراد عبد الغني محمود ـ عمان ـ الأردن .
٧ ـ محمد فال بن الطالب النافع ـ نواكشوط ـ موريتانيا .
٨ ـ نور الدين ياسين خضير ـ حي الكفاح ـ الجمهورية العراقية .



هشام الحمدوشي (بطل العرب)

معركة بلا سلاح

حقق أبطالنا العرب ، في أولمبياد الشطرنج الأخير ، المقام في سالونيك في اليونان ، نتائج تدعو الى الاعتزاز ، وبلغ عدد الفرق العربية المشاركة في هذا المهرجان أربع عشرة . ومن الملاحظ أن التصنيف الدولي لمعظم الفرق العربية المشاركة قد تحسن ، فالفريق المصري على سبيل المثال احتل مركز الصدارة بين الفرق العربية ، وجاء تصنيفه ٤٨ في الأولمبياد ، بعد أن كان ٥٧ في الأولمبياد السابق . واحتل الفريق السوري المركز الثاني بين الفرق العربية على الرغم من غياب بطله الدولي عماد حقي ، وجاء الفريق المغربي في المرتبة الثالثة بين الفرق العربية ، محققاً تقدماً دولياً رائعاً ، يعادل ٢٨ مركزاً الى الأمام ، (من ٨٨ الى ٦٦) . أما القفزة النوعية الكبرى فقد حققها الفريق الجزائري الذي انتقل من المركز ٩٦ الى المركز ٦٦ ، وجاء ترتيبه الرابع بين الفرق العربية ، تلاه فريق الإمارات الذي تقدم ثلاثة مراكز ، ثم الفريق الليبي متقدماً ١٥ مركزاً ، (من ٨٦ الى ٧١) ، وجاء بعدهم الفريق القطري ، فاللبناني ، فالبحريني ، فاليمني ، على التوالي ، وقد تراجع الفريق الفلسطيني بسبب غياب بطله عماد طه ، وجاء في نهاية القائمة قبل الفريق الموريتاني .

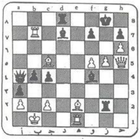
ومن الأبطال العرب الشباب الذين احتلوا مراكز مرموقة على الصعيد الفردي اللاعب المغربي هشام الحمدوشي (١٦ سنة) الذي جاء ترتيبه بعد بطل العالم جاري كاسباروف على الرقعة الأولى ، والمجري بورتيش والتركي أتاليك ، واحتل اسم هذا اللاعب العربي الفحل مركزاً رفيعاً في لوائح الشرف الدولية .

وفيما يلي دور جيد لأحد أبطالنا العرب والدور من الدفاع الصقلي

□ نعمان (اليمن الجنوبي) ■ فيريرا (البرتغال)

١ـ هـ٤	جـ٥
٢ـ ح ـ و٣	د٦
٣ـ د٤	جـ×د٤

مسألة العدد



٤ـ ح×د ٤ ح–و٦
٥ـ ح– جـ٣ أ ٦
٦ـ ف– ز ٥ هـ ٦
٧ـ و– هـ٢ ف–هـ٧
٨ـ و ٤ ح–جـ٦
٩ـ ت ت (طويل) و–جـ٧
١٠ـ ح–و ٣ ب ٥ !
١١ـ هـ ٥ د×هـ٥
١٢ـ و×د ٥ ح–د٧
١٣ـ ف×هـ٧ ح×هـ٧
١٤ـ ح–هـ٤ ت (الشكل)
فخ ظاهر
١٥ـ ح–د٦ ف–ب٧
١٦ـ ح–ز٥؟ حـ ٦
١٧ـ ح×ب ٧ و×ب٧
١٨ـ ح–و٣ ر(أ)–جـ٨!
١٩ـ ز ٣ و–جـ٧
٢٠ـ ف–ز٢ ح–جـ٦
(محررا الفيل)
٢١ـ م–ب ١ ح(د)×هـ٥
٢٢ـ ح×هـ٥ ح×هـ٥
٢٣ـ ز ٤ ح–جـ٤
٢٤ـ ف–هـ٤ و–هـ٥!
٢٥ـ جـ ٣ م–حـ٨
(مضطرا)
٢٦ـ و–د٣ ب ٤
٢٧ـ ف–ب٧؟ ر(و)–د٨
٢٨ـ و×د٨ ر×د٨
٢٩ـ ر×د٨+ م–حـ٧
٣٠ـ ر(حـ)–د١ ب×جـ٣!

ولا يجد الأبيض بداً من الاستسلام

الفائزون في مسابقة الشطرنج العدد ٣٦٥ ـ ابريل ٨٩

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ . حسن محمد داود ـ القاهرة / ج م ع
٢ . خالد ناصر ـ بغداد / العراق
٣ . هاني أبو دجيلة ـ عمان / الأردن
٤ . مراد بو سنينة ـ الوردية / تونس
٥ . عبدالرحمن نصر الدين ـ طرابلس / الجماهيرية الليبية

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ . أوس محمد حسني ـ الفروانية / الكويت
٢ . صالح علي عميس ـ صنعاء / اليمن
٣ . محمد مهدي النسعة ـ معان / الأردن
٣ . سعيد سعد نبهان ـ سودابايا / اندونيسيا
٥ . يماني شمس الدين ـ الجزائر / الجمهورية الجزائرية

حل مسابقة العدد رقم ٣٦٦ ـ مايو ١٩٨٩ م

١ ـ . . . . . و×حـ٣   ٢ – ز×حـ٣   ح – و٢ +   ٣ – م – ز ١   ح×حـ٣ (مات)
من إهداء صالح العيسي (اليمن)

حوار القراء

العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

ثلاثة ملايين عربي يطلبون "العربي"

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

● نريد أن نتحدث معكم حديث الإخوة ، ولابد أن نبدأ عن مجلتكم الرائعة (العربي) التي ساهمت مساهمة فذة ، وقل نظيرها في مختلف ميادين الثقافة ، منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، ومازالت تتألق في سماء الفكر والعلم ، وقد قدمت للجيل العربي المعاصر ، ولقراء العربية ، خدمة جليلة ، وعندما تذكر تشكر ، فهي غذاء فكري ، ومدرسة متنوعة الفصول ، كنا نحلق مع ما تطرحه عن القضايا العامة وعن العروبة والإسلام ، وفي الأدب والفنون وعن الطب والعلوم ، ولكن للظروف التي نمر بها انقطعت المجلة عنا ، وبتنا نتشوق لأي عدد يصل إلينا مع مسافر أو ضيف قادم ، نجد فيه ضالتنا ومتعتنا ، ويقربنا من العرب والإسلام ، نرسل إليكم هذه الرسالة ، لنسجل فيها طلبنا ، بل رجاءنا ، وهو أن تسعفونا بأعداد من المجلة ومطبوعاتها ، فإنه من غير الجائز أن لا تصل العربي إلى منطقة يسكنها أكثر من ثلاثة ملايين عربي ، وقراء العربية فيها كثيرون ، ونحن لدينا مؤسسة تعمل من أجل المحافظة على اللغة العربية والإسلام ، وتسعى لنشر الثقافة الإسلامية ، وسوف يكون لمجلتكم دور كبير ومشكور في التبليغ والتطور ، فلا تحرمونا من هذا السلاح .

القارىء : زهير رحيم

مؤسسة التبليغ والإرشاد الإسلامي - الأهواز

يمكن لكم الكتابة مباشرة - لوزارة الاعلام - الاعلام الخارجي - دولة الكويت .

□■□

الخط العربي

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

تحية طيبة

● إنني من قراء مجلة « العربي » منذ عدة سنوات ، والحمد لله لا يكاد يصدر عدد من أعدادها إلّا واقتنيته ، ولقد لمست عن كثب مقدار التطور الذي حدث في هذه المجلة (الأبواب الجديدة ، والمصادر المتنوعة للثقافة والمناهل العذبة للعلم والشعر) .

وإنني كمواطن عربي أولاً وأخيراً ، أشكر لكم وللإخوة القائمين معكم على الجهد الذي تبذلونه حتى تصدر المجلة في ثوبها القشيب ، وذلك لما فيها من موضوعات متنوعة . ولقد لاحظت اهتمام المجلة بموضوع « الخط العربي » ، وأسعدني ذلك لأنني أهتم به كناحية تعليمية عن طريق الدراسة ، ونحن العرب نجد أن الكلمة هي التي تعبر عن رأي الشخص سواء كانت مسموعة أو مقروءة أو مكتوبة . ولذا نود أن نجد مساحة للنشر عن الخط العربي ليستفيد الشباب المهتمون بالخط من الرواد الأوائل الذين أعطوا للخط فأعطاهم ، مثل محمد هاشم البغدادي ، وحامد الآمدى ، وسيد ابراهيم ، وكلهم من الرعيل الأول الذين مازالت خطوطهم مكتوبة حتى الآن .

القاريء المهندس : محمد مصطفى رزق
مصر الجديدة ـ القاهرة
جمهورية مصر العربية

تهتم المجلة بنشر موضوعات متنوعة عن الخط العربي ، ولقد لاحظت بالتأكيد الموضوع المنشور في العدد ٣٦٦ مايو ١٩٨٩ في باب (وجها لوجه) مع الفنان محمد سعيد الصكار ، حول الخط العربي ومدارسه ، وتاريخ نشأته ، والدراسات النقدية المتخصصة في هذا المجال .

□■□

الاستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● في البداية أشكركم كثيراً على اهتمامكم بقضايا الوطن العربي ، والعالم الاسلامي وتعريفكم بالمشاكل التي يعاني منها ، وبالأخص قضية فلسطين ، وكذلك اهتمامكم بقضايا الإسلام ، ووضع أفضل الحلول لها ، وكذلك مشاكل التبعية الاقتصادية والثقافية ، وإنني أفضل مجلة العربي على جميع المجلات التي غزت الأسواق هذه الأيام ، فهي تقف وحيدة بين هذا الكم الهائل تقاوم التبعية وتسعى إلى الاستقلالية وحرية الفكر ، وتأخذ بيد الأمة العربية نحو التحرر الاقتصادي والاجتماعي ، على عكس بعض المجلات الرائجة هذه الأيام .

وأنا من قراء « العربي » منذ عزمت القراءة والكتابة ، ولكنها انقطعت

العربي

«العربي»
تعود إلى
الجماهيرية
الليبية

حوار القراء

منذ عام ١٩٨٨ ، ولم يصلنا في الجماهيرية أي عدد ، وقد ترك ذلك فراغاً كبيراً ، وأنا حريص عليها لأنها من المجلات التي لابد لكل من أراد أن يثقف نفسه أن يقرأها لأسلوبها المبسط ومعلوماتها الثمينة المتجددة دائماً .

القارىء : ماجد عودة اعتيق

طرابلس : الجماهيرية العربية الليبية

يسعدنا أن نزف لك البشرى بأن المجلة قد عادت إلى محبيها وقرائها الأعزاء في الجماهيرية ، ويمكن الحصول عليها من موزع المجلة المعتمد في الجماهيرية ، المنشأة العامة للتوزيع والنشر والاعلان : ص.ب ٩٥٩ طرابلس .

□■□

العربي

حرية المرأة في الإسلام

● طالعت في العدد ٣٦٤ (مارس ١٩٨٩) مقالا عن « المرأة ند للرجل أم مكملة له » ؟ للدكتور محمد عمارة ، وأتصور أنها محاولة جادة وجريئة من « العربي » لطرح مثل هذه القضايا في هذا الوقت ، فقضية المرأة وعلاقاتها بالرجل قضية تطرق لها الإسلام وعالجها بمفهوم العصر . أما ما يرمي إليه بعض المتطرفين من التقليل من هذا الدور ، وسلب الحقوق التي جاء بها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا ، فإن من واجب الكتاب والباحثين العرب المسلمين أن يقفوا في وجوههم ويكشفوا عن نواياهم .

القارىء أرسلان محمد علي

كريتر : عدن ـ جمهورية اليمن الديمقراطية

□■□

رابطة الطالبات المسلمات الأندونيسيات

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

● يسرنا في رابطة الطالبات المسلمات الأندونيسيات التابعة للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد ، أن نرفع إليكم أجمل تحية لما تبذلونه من جهد كبير متواصل في خدمة الإسلام والمسلمين بكل طاقة وقوة . والرابطة تعتني بأمور التربية والثقافة ، ونحن دائما بحاجة إلى مزيد من المعلومات العامة عن العالم الإسلامي والوطن العربي ، وعن الأبحاث المعاصرة التي تقدمها مجلة « العربي » ، ولذلك نحن نحرص على متابعتها في مواعيدها ، ونحتفظ بنسخها في مكتبتنا الخاصة ، حتى تكون مرجعاً لبحوثنا ، وبهذا فنحن نرغب في أن تستمر المجلة بهذا النشاط والروح لخدمة الإسلام .

القارئة : ستي رحمة منير

اسلام آباد ـ باكستان

"العربي" والمسلمون في الهند

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

السلام عليكم ورحمة الله ،

● أحيطكم علماً بأن مدرسة « رياض الإسلام » الواقعة في بيكم فور غوندة ـ الهند ، من المدارس الإسلامية التي تخدم العلوم الشرعية واللغة العربية في الهند منذ القدم . والمدرسة تهتم باللغة العربية كتابة وخطابة ، وتقام ندوات أسبوعية وشهرية لتدريب الطلاب على أصول الخط العربي ، والكتابة العربية ، ونحن نستفيد كثيراً من « مجلة العربي » في تعضيد هذا البرنامج التعليمي ، كما أننا نقتني مطبوعات المجلة في مكتبة المدرسة ليستفيد منها الطلاب والأساتذة ورواد المكتبة . وبين فترة وأخرى تصلنا مجلات عربية وأخرى انجليزية وغيرها ، لكننا نعاني من نقص بعض مطبوعات مجلة « العربي » لما لها من رواد وقارئين ، وسنكون شاكرين لو تكرمتم بإرسال هذه المجموعات القيمة التي تصدر عن المجلة كي تساعدونا في أداء مهمتنا .

القارىء : محمد يوسف الأنصاري

أمين مدرسة رياض الاسلام

غوندة ـ يوبي ـ الهند

□■□

اقتراحات وردود

● **القارئة سلوى محمد من المكلا ـ عدن ـ جمهورية اليمن الديمقراطية** ، نشكرك على مشاعرك تجاه المجلة وستبقى كما عهدتيها منبراً للثقافة والعلم والأدب والكلمة الهادفة .

● **القارىء محمد محمود عثمان ـ جامعة بيروت العربية ـ كلية الهندسة ـ لبنان** ، يود أن تقوم المجلة باستطلاع عن التعليم في الكويت ، ودور جامعة الكويت في عملية التنمية البشرية ، ويبدي رغبته بعودة باب « من الحياة » .

● **القارىء عبدالله كايد من السياني ـ لواء إب بالجمهورية العربية اليمنية** ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع مصور عن التقدم الشامل الذي تشهده اليمن في جميع مناحي الحياة ، وأن يطرح في الاستطلاع حديثاً عن مضار « القات » ومخاطره ، والهدر الذي تتعرض له البلاد اقتصاديا والمشاكل الاجتماعية الناتجة عنه .

● **القارىء المهندس أحمد رشدي آدم من معهد المساحة الجوية بالهرم ـ بجمهورية مصر العربية** ، يقترح أن تقوم المجلة بنشر مقالات عن المساحة بخاصة المساحة الجوية ونقول له : إن المجلة نشرت ومازالت تنشر ـ بين فترة وأخرى ـ معلومات ومقالات تتضمن أموراً اقترحتها .

● **القارىء أكثم وكروج من حمص ـ كلية الهندسة الكيميائية والبترولية ـ سوريا** ، يرغب في الكتابة للمجلة عن موضوعات تتعلق بالكوارث التي تحدث لآبار النفط نتيجة الحرائق وكيفية السيطرة عليها ونقول له : إن صفحات المجلة مفتوحة لكل القراء الراغبين في المساهمة .

حوار القراء

● **القارىء يوسف محمد حسن ـ الحبيل ـ الأقصر بجمهورية مصر العربية** ، يشكو عدم وصول المجلة إلى مدينته بانتظام . ونخبره بأننا قد حولنا شكواه إلى موزع المجلة المعتمد ، مؤسسة الأهرام للتوزيع ، وقد وعد بتوفير نسخ إضافية من المجلة لكل القراء في مدينة الأقصر .

● **القارىء محمد حسن بدوي ـ ناي ـ محافظة القليوبية ـ جمهورية مصر العربية** ، يقول : إن وعي « مجلة العربي » دائم بابراز لوحات الفنانين العالميين ، ولكن هذه اللوحات لا تنشر باستمرار ، لهذا أرجو أن يكون ذلك بصورة دائمة .

● **القارىء أمين سعيد الحسن ـ دير الزور ـ سوريا** ، يقترح على المجلة القيام باستطلاع كامل حول جائزة نوبل ، وما هي وكيف يتم منحها ، ويطلب تقديم بعض التفاصيل عن معاني بعض مصطلحات العلوم اليونانية .

● **القارىء علي سلمان محمد الرشيد من كلية التربية بالمدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية** ، يقترح أن تقوم المجلة بإصدار مجلدات لأعدادها القديمة ، ومن ثم طرحها في الأسواق للبيع .

● **القارىء محمد أحمد الحاج ، من حلب ـ سوريا** ، يقدم تحية للعربي ويقول : إنها تشجعه على ارتياد الصحافة والتخصص في مجالها مستقبلا ، ويطلب من المجلة ، نشر موضوع عن نشأة الصحافة في الوطن العربي ، وتطورها وأهم مقومات العمل الصحفي الناجح .

● **القارىء المتاوي عبدالعالي ، من سيدي سليمان ـ المملكة المغربية** ، يطلب من المجلة أن تقدم معلومات عامة عن المملكة المغربية . ونحن الآن بصدد نشر استطلاع عن هذا القطر الشقيق نأمل أن تكون فيه من الفائدة والمعلومات ما يحقق طلبك .

● **القارىء هادي عبدالكريم معلا ، من محافظة اللاذقية ـ سوريا** ، لديه مجموعة من الأفكار والاقتراحات ، ويتخوف من أنه نتيجة تأخر المجلة في الوصول إلى محافظته لا تصل رسالته التي تحمل « كوبون » حل مسابقة العربي الثقافية ، ونطمئن جميع القراء أن الرسائل تصل في موعدها وليس هناك أي تخوف من أن المجلة قد تستبعد الرسائل التي لا تصل في الموعد .

● **القارىء أحمد عبدالخالق أحمد شمس الدين ، من قرية فاضل بمحافظة الجيزة ـ جمهورية مصر العربية** ، يقترح أن تقدم المجلة مسابقة لأعمال الشباب الرائدة في مجال القصة القصيرة أو الشعر ، ونشر القصة الفائزة أو القصيدة على صفحات المجلة .

● القارىء عبدالرحمن عبدالفتاح مخلوف - من القاهرة - جمهورية مصر العربية ، يطلب أن تنشر المجلة مواضيع تتعلق بالمسابقات الدولية التي تجري في كل عام لصيد الأسماك ، وتقديم معلومات عن طرق صيد الأسماك والمناطق التي يكثر فيها السمك ، والمصائد المشهورة دولياً ، وغيرها من الأمور المتعلقة بذلك . ونقول له : إن هناك كثيرا من الموضوعات قد نشرتها المجلة ، تتعلق بهذا القطاع المهم من الثروة السمكية ، سواء في الوطن العربي أو غيره . أما التخصص في ذلك فإن مجاله المجلات العلمية المتخصصة .

● القارىء حسن بني أحمد قباني - من حلب - سوريا ، يطلب معلومات إضافية عن « قنديل البحر المرعب » الذي جاء ذكره في مقال الأستاذ عبدالرحمن حريتاني « نافثات السم » في العدد (٣٦٣) لشهر فبراير ١٩٨٩ وكذلك مقارنته علمياً مع قنديل البحر الاسترالي .

● القارىء فتحي عبدالقادر العربقي - تعز - الجمهورية العربية اليمنية ، يستفسر عن سبب قلة الكمية الموزعة من كتاب « العربي » في تعز .

□■□

استدراك

● أشرنا في العدد ٣٦٦ مايو ١٩٨٩م في اللوحة المنشورة على غلاف الصفحة الأخيرة من المجلة إلى أن لوحة « هلال العيد » للفنان السوري رفيق اللحام ، والصحيح أن هذا الفنان من القطر الأردني الشقيق .

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

يوليو ١٩٨٩ م

المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا

تأليف

د. عبدالله عبدالرازق إبراهيم

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٣٩

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من
المسرح
العالمي

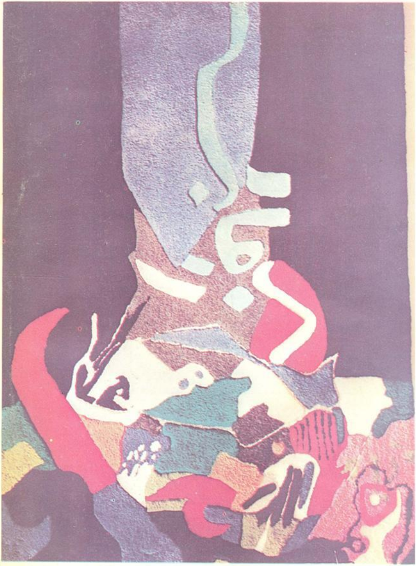
سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٣٨ يوليو ١٩٨٩

كازانوفا

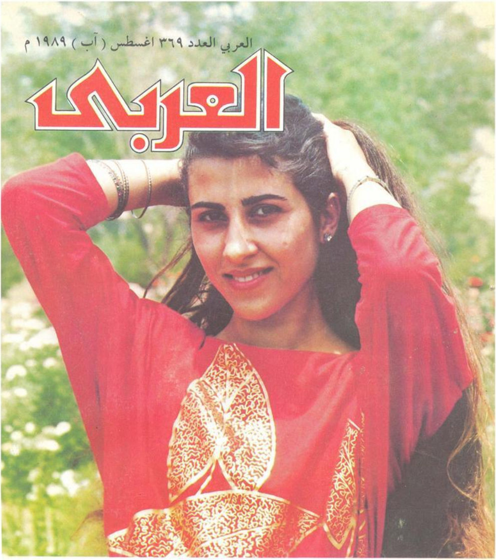
تأليف : جيوم أبولينير
ترجمة وتقديم : د. نادية كامل
مراجعة : يحيى حقي



تكوين - للفنان العراقي ضياء العزاوي

العربي العدد ٣٦٩ اغسطس (آب) ١٩٨٩ م

العربي



■ **مصايف العراق**
الطبيعة والتاريخ !

■ **اليونان**
وجه آخر بلا أقنعة !





أبنائي - للفنان الألماني جوته

العـــدد ٣٦٩ السـنة الثانية والثلاثون أغسطس ١٩٨٩

العربي

مجـــلة ثقـــافيـــة مصـــورة
تصـدر شهـريًا عـن وزارة الإعـلام بـدولـة الكـويت
للوطـن العـربي ولكل قـارئ للعـربيـة فـي العـالـم

رئيس التحرير
د. محمـــد الرميـــحي

عنوان المجلة

العربي
ص.ب: ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 الكويت
تلفون: ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيًا: "العربي" - الكويت
تلفون فاكسملي: ٢٤٢٤٣٧٥ - تلكس: MITR. 44041 KT
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL-ARABI
Issue No. 369 August 1989 - P.O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

الاشتراكات

ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - الإعلام الخارجي
وزارة الإعلام - ص.ب: ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة
مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

ثمن النسخة

الكويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسًا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا: جنيه استرليني ونصف
مصر ٣٥ قرشًا	سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ٢٥ فرنكًا
السودان ٢٥ قرشًا	لبنان ٥٠ ليرة	أمريكا ٣ دولارات

محتويات العدد

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

طب وعلوم :

استطلاعات مصورة :

أدب وفنون :

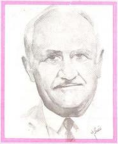


● اليونان : وجه آخر بلا أقنعة ٦٨



● مصايف العراق : الطبيعة والتاريخ

منتدى العربي :



وجهاً لوجه :
د. عبدالرحمن حميدة
ونديم شمسين ص٩٧

تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :



صورة الغلاف

انطلقت « بعثة العربي » إلى مصايف العراق تشهد وتعرض صورة تجمع بين الجمال والطبيعة وعراقة التاريخ في أحد أقطار وطننا العربي .

(طالع ص ١٣٢)

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع

عزيزي القارئ

السياحة على الورق

ونحن نعد موضوعات هذا العدد ، ونضعها بعضا مع بعض ، ونوازنها في ميزان الاختيار والتنقيح ، حرصنا أن يكون عدداً مقروءاً في معظمه لمعظم القراء ، فقراءة الصيف تحتاج إلى ميزان دقيق ، إذ هي تختلف عن قراءة الفصول الأخرى من العام . القارىء في تصورنا يريد أن يقرأ موضوعات تشبعه ولا ترهقه . . وهكذا كان .

فالاستطلاعان اللذان ننشرهما في هذا العدد فيهما عامل مشترك واحد ، هو إجازة الصيف ، وإذا كان الاستطلاع الأول عن اليونان ، وهي بلاد قريبة منا ، يؤمها السياح العرب ، ويعرفها كثيرون منذ فترة ليست بالقصيرة ، فإننا نقدمها هنا أكثر إشراقاً . أما الاستطلاع الثاني فهو يعرض كنوز العراق السياحية ، فالأقطار العربية غنية بالأماكن السياحية الجميلة التي تضاهي مثيلاتها في الخارج ، وقد آن الأوان أن نعرف تلك الأماكن ، ونحث أنفسنا على تطويرها ، كي تكون مقصداً للسائحين .

والسياحة لها علاقة بالنمو الاقتصادي ، لذلك فإن مقال د . نعيم الشربيني عن قضية تطوير الاقتصاد الوطني ، وتلبية احتياجات السكان المتنامية ، ليس اقتصادا فقط ، ولكنه يعرض نظرة مستقبلية للاقتصاد العربي ، متحررة من القيود النظرية . وهو إضافة للقارىء المتأني .

وإذا كانت الإضافة في الاقتصاد هنا عربية ، فإن بعض عاداتنا تقبنا شر بعض الأمراض ، كما يشرح الدكتور زياد الزعبي في مقاله « تآكل المفاصل والعادات العربية الأصيلة » ، حيث يتناول أسباب الالتهاب العظمي الغضروفي ، وعلاقة ذلك بالجلوس على الأرض ، وبممارسة الرياضة . ويشاركنا في العدد أيضا د . عبد الوهاب حومد ، فيكتب عن ذكرى ليلة لا تنسى ، مضى عليها أكثر من خمسين عاماً ، حين كان طالبا في باريس . كما يشاركنا د . شاكر مصطفى ، فيحاورنا حول التاريخ القطري في وطننا العربي ، ويكشف لنا عن مسئوليتنا فيما يجري اليوم على الساحة العربية من تمزقات أو تجمعات .

وعن التراث الشعبي وعنصر الخيال العلمي فيه يكتب لنا فاروق خورشيد ، مبيناً كيف حاول الإنسان بقوة التخيل الوصول إلى مايعوزه حتى حققه في دنيانا المعاصرة .

وعلى الرغم من أن الصيف يبعد القلق فإننا اخترنا أن ننشر مقالاً عن التعرف على حالات القلق ، تحسباً لما يجيء في الخريف والشتاء . أما الموضوع الذي أحدث ضجة في الأشهر القليلة الأخيرة ، في مجال العلم الحديث ، فهو الاندماج النووي البارد الذي لو نجحت تجاربه بشكل نهائي فسوف يحدث ثورة في الطاقة ، ولقد طلبنا من كاتب متخصص ، هو الدكتور سعود عياش ، أن يكتب لنا فيه ، فكان المقال الذي ننشره في هذا العدد . أما في عرض الكتب فقد اخترنا موضوعين : أحدهما عن القوى العاملة النسائية ، من خلال وجهة نظر جديدة حول أوضاع المرأة العاملة في الوطن العربي ، وثانيهما عن مشكلة (طفلي) ومحاولة للإجابة عن السؤال الذي يتردد كثيراً ، عن الفرق بين التخلف والعجز عن التعلم . كل هذا إضافة إلى ما تحفل به « العربي » عادة من موضوعات ، وأبواب مثل : « وجها لوجه » و « البيت العربي » و « القصة القصيرة » ، والموضوعات العلمية والثقافية العامة .

ترى هل حققنا هدف القراءة للصيف ؟

نرجو ذلك ، ونرجو لك ـ عزيزي القارىء ـ إجازة صيف ممتعة .

المحرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

أوراق صيف

الصيف هو ذروة حركة الشمس ، تتصاعد الشمس في حركتها حتى تصبح أقرب مايمكن منا ، فيصيبنا وهجها وقيظها ولفحها ، والصيف كذروة حركة هو كالحرب ذروة الدراما الانسانية ، وكالحب ذروة مشاعر الانسان ، وكما أن للحب قوانين خاصة به غير قانون الحياة اليومي ، وللحرب قوانين غير قوانين الأيام العادية ، فإن للصيف قوانينه وعاداته وإيقاعه ، وهي قوانين وعادات تولد من تأثرنا بذرى ايقاعه ، وبعذاباته وهجيره .

وفي الصيف يحلو لي أن أتنقل من كتاب إلى كتاب ، ومن موضوع إلى آخر ، تغييراً في عادة القراءة المنهجية المتصلة في بقية الفصول ، ومع الانتقال تتقافز الأفكار وتتنوع وتتعدد ، فأسجلها في مفكرة صغيرة تلازمني دوماً . وفي صيفنا هذا أعدت قراءة ماخطته يدي في هذه المفكرة ، فوجدت أنها مشروعات لم تتم ، ورؤوس أقلام لم تستوف ،

والتقاطات حادة حدة اللهيب ، بعضها يحتاج إلى إعادة نظر ، وبعضها الآخر قديم جديد . وهكذا تنوعت الأوراق ، كل ورقة هي لحظة إنسانية خالصة ، ارتبطت باللحظة التي كُتبت فيها ، بتوهج الروح ، وبقظة العقل ساعتها . ولأننا حين نكتب نعترف على أنفسنا ، فقد قررت أن أشرك القراء في هذه الاعترافات ، أنشرها ، وماكنت أظن لحظة كتابتها أنها للنشر ، ولكن الصيف يجعلنا نفعل كثيراً مما لم نكن نظن أنفسنا بقادرين على فعله .

ورقـــة أولـــى :

حكمت المحكمة

مطلوب من البقرة "حميدة" دفع تعويض عمّا تسببه من أضرار !

القضية بسيطة ـ أو هكذا تبدو أول وهلة ـ فقد نشرت إحدى الصحف الغربية أن إحدى المحاكم الامريكية قد حكمت بمبلغ من المال لابأس به على إحدى شركات التبغ الامريكية لأحد المدخنين تعويضاً له عن الضرر الذي أصابه من جراء التدخين . وكان الخبر جديداً ، فلأول مرة يصدر مثل هذا الحكم ، بعد أن تجاهلت المحاكم فترة طويلة مثل هذه القضايا ، أو حكمت بعدم المسئولية على شركات تبغ رفع بعض المتضررين عليها دعاوى مشابهة ، وإن سارت الأمور في هذا الاتجاه فلن نستغرب أن يرفع بعضهم قضية على (حميدة) البقرة ، يطالبونها فيها بدفع تعويض عن الأضرار التي سببتها زبدتها عندما يموت أحدهم بمضاعفات زيادة الكلوسترول !!

السؤال الذي أثار مخيلتي هو أن القانون يحكم دائماً ـ أو كان يحكم على الأقل ـ بالتعويض عندما ينشأ ضرر ما ، ناتج عن سوء قصد غير معلن ، كأن يسقط أحدهم من على درجات السلم ، لخلل في صناعة ذلك السلم ، وعندما يصاب بالكسور والرضوض فإن القانون يفترض حمايته ، وبالتالي تعويضه ، ولكن أن يعوض شخص ما ، عن ضرر أصابه ، بفعل اقترفه بإرادته ، وهو يعرف مسبقاً أن ذلك الضرر واقع عليه إن فعل ، فهنا الجديد في الأمر . حيث ان التحذير من تدخين السجائر أصبح معروفاً للعامة والخاصة ، فمعظم الأطباء ، وكل الحكومات ، وجميع الآباء والأمهات ، وكل المدارس ، ومعظم شبكات التلفاز ـ إن أردنا أن نذكر بعضها فقط ـ تحذر ليل نهار من أخطار التدخين ، المباشرة وغير المباشرة .

هل تحكم المحكمة بالتعويض لشخص يقذف بنفسه من النافذة؟

فأضرار التدخين معروفة ، فهل تعوض المحكمة شخصاً يقذف نفسه من نافذة في الدور الرابع ، وهو يصيح : هذا أسرع في النزول من المصعد ! بالطبع لن تنظر أي محكمة في الدنيا بتعويض هذا الشخص ، فليس هناك تعاطف مع أفكاره في سرعة النزول !

وقد يسأل بعض : ما العلاقة بين المدخن وقاذف نفسه من الدور الرابع ؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال أريد أن أسأل بدوري : هل نحن مسئولون عن حياتنا وتصرفاتنا أم لا ؟

إذا كان الجواب بنعم ـ وهو جواب معظم العقلاء ـ فإن المدخن وقاذف نفسه من الدور الرابع متساويان ، فهما يعرفان خطر فعلتيهما !

المشكلة أن هناك اعتقاداً يتزايد بأننا غير مسؤولين عن تصرفاتنا ، أو ـ على الأقل ـ هذا ماأوّلته تلك المحكمة التي حكمت للمدخن على شركة التبغ . هذا الاعتقاد المتزايد بأننا غير مسئولين عن تصرفاتنا تعززه مظاهر الحياة الحديثة أو العصر الذي نعيشه ، ففي هذا العصر يخضع الإنسان لأشكال شتى من الضغوط ، ضغوط النشأة ، وضغوط البيئة المحيطة ، وضغوط النظام الاقتصادي ، وضغوط النظام القيمي ، والنظام السياسي ، إلى درجة أن بعض المفكرين أعادوا النظر في المقولة التي سلمنا بها جميعاً من قبل : إن الإنسان مسئول عن حياته ، وبالتالي عن تصرفاته جميعها .

إذا أخذنا مثلاً واحداً فقط ، ولنقل الضغوط الاقتصادية ، فقد شهدت بريطانيا ضجة كبرى في سنة ١٩٨٦ ، حول ديون الأفراد ، فقد بلغت في ذلك العام اثنين وعشرين بليون جنيه ، وهي ديون أكثرها غير قابل للسداد ! كيف حدث ذلك ؟ حدث ببساطة نتيجة التسهيلات التي تقدمها المصارف وشركات البيع ومؤسساته ومحلاته ، عن طريق استخدام بطاقة التسهيلات الائتمانية البلاستيكية . فقد وجد كثيرون أنفسهم يصرفون ، أو قل يتبضعون ، أكثر من قدراتهم المالية ، وتراكمت عليهم ديون مع فوائدها التي تزداد يوماً بعد يوم . المشكلة كانت معقدة وخطيرة وضارة بالاقتصاد القومي البريطاني ، إلى درجة أن بعض المختصين طالبوا المؤسسات المالية بأن تقدم تبرعات لإنشاء مراكز خدمة عامة ، تسمى (مراكز النصائح المالية) ، يلجأ إليها الناس لتبصيرهم بالمشكلات التي يمكن أن يقعوا فيها إن هم تصرفوا مالياً بغير حذر كبير . القضية أن مشكلة بهذا الحجم لايحلها القانون ، فلو قرر كل دائنٍ ـ من المؤسسات ـ

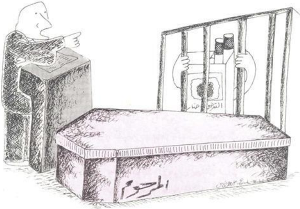
له دين على أفراد قلوا أو كثروا أن يرفع دعوى ضدهم لدخل نصف الشعب البريطاني السجن .

وبالمناسبة فإن الشعب البريطاني ليس هو الشعب الوحيد الواقع في هذه المشكلة ، فهنا في عالمنا الثالث قد وصلت الجرثومة نفسها ، جرثومة الشراء (بالأقساط) ، وهي تنتشر بشكل وبائي ، وهي لاتقف عند «تزوج اليوم وادفع غداً» أو «ادخل ابنك المدرسة اليوم وادفع غداً» أو «ابن بيتك وادفع غداً» ، أي أنها ليست مقصورة على تمويل الحاجات الأساسية للإنسان إنما هي ممتدة إلى الكماليات : اشتر سيارة اليوم وادفع غداً ، بل وسافر اليوم وادفع غداً . إذن هذه الضغوط التي تتراكم في البيئة الاقتصادية تدفع الناس دفعاً إلى الاقتراض ، دون وعي حقيقي بما يمكن أن يسببه هذا الاقتراض من مشكلات لاحقة .

جرثومة "العيش بالأقساط" تنتقل من الدول إلى الأفراد .. والعكس

الأهم من ذلك أن هذا الاقتراض ـ أو العيش بالأقساط ـ تحول من الفرد إلى الدولة ، وما مشكلة الديون الخارجية التي تنوء تحت كاهلها اليوم مئات الدول النامية ـ ومن بينها معظم أقطارنا العربية ـ إلا نتيجة هذه التسهيلات الائتمانية الدولية .

بيت القصيد أنه إذا كانت المسئولية الشخصية منتفية في حالة أضرار التدخين على المدخن على الرغم من علمه بها ، فترى أي مسئولية على الدول الفقيرة إن هي اقترضت لتقيم أود مواطنيها الجوعى ؟!

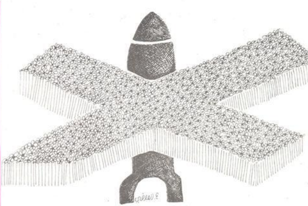


ورقــة ثـانيــة :

أمّنــا الأرض

شهدت بواكير هذا الصيف حدثاً مهماً على الصعيد السياسي الأوربي ، وهو قدوم (الخضر) ، والخضر هو الاختصار الذي أصبح معروفاً بأنه يرمز إلى أولئك الرجال والنساء في أوربا الذين لم يعودوا مقتنعين بسياسات دولهم وأحزابهم تجاه البيئة ومشكلاتها المتفاقمة التي تهدد الحياة الإنسانية برمتها بالخطر ، فقاموا ينادون بالإصلاحات البيئية ، وكان طريقهم السياسة ، فأسسوا الأحزاب ، وخاضوا الانتخابات ، وما أن ظهر عقد الثمانينات حتى أوجدوا لهم موطيء قدم في العمل السياسي الأوربي . كان دخولهم الأول على صعيد السياسة العليا في ألمانيا الغربية ، عندما سار في ٢٣ مارس ١٩٨٣ ، سبعة وعشرون شخصاً في شوارع بون - عاصمة ألمانيا الاتحادية - باتجاه البرلمان ، وكان السبعة والعشرون هم الأعضاء الجدد الممثلون لحزب الخضر في البرلمان الألماني . فكانوا أول حزب جديد في ألمانيا الغربية - منذ ثلاثين سنة وقتها - يدخل البرلمان . منذ ذلك الحين تصاعدت نشاطات حزب الخضر في معظم دول أوربا الغربية ، فأصبحوا أعضاء في المجالس المحلية ، وفي المجالس البلدية ، بل وفي البرلمانات الوطنية . وفي منتصف حزيران «يونيو» الماضي أصبح بعض (الخضر) أعضاء في البرلمان الأوربي . وقد أثارت نتائج تلك الانتخابات الأخيرة - انتخابات البرلمان الأوربي - حفيظة الأحزاب التقليدية في بلدان مثل فرنسا وإيطاليا وبريطانيا ، فأخذوا يعيدون حساباتهم من جديد ، والخضر في تقدير الكثيرين هم ظاهرة المستقبل ، ليس في أوربا وحدها - وهذا هو الأهم - بل في العالم ، فقد كانت مشكلات عالمنا الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية ، في المائتي سنة الماضية ، على الأقل ، مشكلات محلية ، أو على أكثر تقدير مشكلات إقليمية ، بما في ذلك الحروب والكوارث ، أما المشكلات البيئية فهي مشكلات عالمية حقا وحقيقة ، فقد أثبتت حوادث مثل «شارنوبل» في الاتحاد السوفيتي ، و «جرين أيلند» في الولايات المتحدة ، أن ما يحدث من كوارث بيئية على بعد ألوف الأميال هناك يتأثر بها البحر والأرض والزرع والإنسان في أقصى المعمورة ، فلابد إذن من الدفاع عن البيئة بشكل واسع وعلى نطاق عالمي .

إنــهـا جـريـمـة نرتكبها في حــق "أمّنــا الأرض"!



لكن مشكلات البيئة مثلها مثل مشكلة الديون حتى الآن ، لم نحسن معرفة نتائجها علينا . وفي الوطن العربي نشرت عشرات المقالات ، كتبها نخبة من المتخصصين عن تلوث الهواء والماء والبيئة بشكل عام ، وخطورة هذا التلوث على حياتنا ، وكذلك نحن في «العربي» هنا نشرنا مقالات متخصصة حول الموضوع نفسه ، ولم نكن الوحيدين في هذا النشر ، فقد ساهمت معظم وسائل الإعلام العربية في بيان خطورة تدهور الوضع البيئي ، إلا أننا حتى الآن ـ جميعاً ـ لم ننهض بشكل جاد وحقيقي عن طريق مؤسسات أهلية فاعلة ، للتحذيرمن مخاطر تدمير البيئة ، واتخاذ الخطوات اللازمة لوقف تدهور بيئتنا ، أي تحويل (الكلام) إلى (فعل) ، و (اللغة) إلى (سلوك) !



مجلة التايم الأسبوعية المعروفة ، أخذت منذ سنوات ، وفي أول كل عام ، تنشر على غلافها صورة لشخصية عامة ، (سواء كانت رجلا أو امرأة) ، اعترافاً بأهمية تلك الشخصية في التأثير على مجرى السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع العالمي ، وفي هذا العام نشرت التايم صورة الكرة الأرضية على غلاف الأسبوع الأول من يناير الماضي ، مربوطة بمجموعة من الحبال ، تكاد تتهاوى من الإعياء ، وكتبت تحتها (كوكب العام) ، بدلاً من (رجل العام) ، ونشرت في معظم صفحاتها الداخلية مقالات تظهر خطورة تدهور البيئة على حياة الانسان ، تعبيراً عن المدى الخطر الذي وصل إليه تدهور البيئة .

لقد أصبح مفهوم تأثير البيت الزراعي الزجاجي (الدفيئة - الصوبة) مفهوماً متداولا في الغرب Green House effect ، ومعناه العام أن الأرض بمحيطها البيئي وغلافها الجوي أخذت تتأثر بهذا العبث غير المنضبط في البيئة الذي يكاد يفتك بالإطار الحيوي لحياة الإنسان ويدمره . لقد أخرجت حركة الخضر مفاهيم الحفاظ على البيئة من غبار المصانع ورائحة مشتقات النفط وغيوم مراكز التجارب النووية ، وسرعان ما اكتشفت هذه الحركة أن القضية ليست وطنية أو إقليمية على أبعد تقدير ، بل إنها عالمية ، فخرجت أمهات مدن الشمال الأوربي محتجة على تصدير شحنات حليب الأطفال الملوث لدول العالم الثالث ، وسرعان ما تنامت الحركة ، كي تصبح عالمية ، لقد أصبح معروفاً الآن وبشكل علمي أن جزءاً في العالم مهددة بالغرق ، وأن هناك تشويشاً على المواصلات ، كل ذلك ناتج أساساً من العبث بالبيئة . لقد قرر (الخضر) أن يأخذوا الأمور بيدهم فأسسوا المصارف التي يوافقون طوعاً من خلالها على أن تحول بعض أرباحهم منها لحماية البيئة !

ولكن هل وصلت الرسالة إلينا ؟ ألا زلنا نتساءل بشيء من السذاجة : لماذا لم نر أمطاراً ، وإن جاءت فكسيل عارم ؟ ولماذا هذه الحرارة المرتفعة غير المألوفة ؟ ولماذا كل هذه الأشكال من الأمراض الجديدة التي تنتشر لدى الأطفال والنساء والرجال والتي لم نكن نعرفها من قبل ؟ إنها ببساطة نتيجة لزيادة تسخين الغلاف الجوي ، بما نفعله في أمنا الأرض .

وفي لاهاي في ابريل الماضي عقدت اتفاقية دولية لتأسيس هيئة ضمن الأمم المتحدة لصون الغلاف الجوي ، وقع عليها أقل من ربع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة فقط ، ولكن مازالت الدول الموافقة على هذه الاتفاقية محدودة العدد ومازالت الاتفاقية في حاجة إلى من يهتم بها بعد ذلك ، ويعول نشاط المؤسسات المزمع إقامتها من خلالها . إلا أن الرأي العام الغربي - يجب أن نعترف - قد بدأ يعي المشكلة ، وما نتائج الانتخابات في البرلمان الأوربي الأخير ، واكتساب الخضر لأصوات كثيرة ، إلا دليل على ذلك الوعي . ألا يجدر بنا نحن في الجامعة العربية ، وعلى المستوى الأهلي العربي ، وبالتعاون مع مؤسساتنا العلمية ، أن نتنبه إلى خطورة تدهور البيئة ، وخصوصا بيئتنا التي نعيش فيها ! والتي لم نستثمر كل إمكانياتها ، وانطلقنا لنصيبها بالتدهور



والإهمال ؟! وهل يكفي التنبيه إن آن الأوان لإنشاء إدارة خاصة في كل حكومة من حكوماتنا لتعنى بالتلوث البيئي وإدارة أخرى في جامعة الدول العربية .

عندما يختنق التاريخ بين جدران مبنى يحيط به الإهمال

ورقة ثالثة :

الانفعال للمعرفة

لا أعرف كيف تذكرت وأنا أطوف مع صديقي الفنان حلمي التوني على معروضات المتحف الإسلامي بالقاهرة قبل أسابيع قليلة كلمات أستاذنا الكبير ، زكي نجيب محمود ، فقد قرأت عنه مرة قوله : (يجب أن نحرص على شحن المعرفة بالانفعال لها) . لقد كان ذلك اليوم مشهوداً عندما اقترح الصديق أن نذهب إلى شيء آخر ، ونرى أشياء أخرى في القاهرة ، المكتظة بالناس وبالمظاهر الحديثة ، فقضينا سحابة نهار كامل في المتحف الإسلامي ، نطوف بمقتنياته . بعض المعلومات عنها يشرحها المأذون عن هذا القسم أو ذاك ، ومعظمها يزيدها أو يصححها صديقي الفنان التوني . أخذنا نطوف بالأقسام المكتظة بالمعروضات ، وصور الحياة والناس في قاهرة المعز ، قاهرة المماليك ، قاهرة شجرة الدر ، تتزاحم ، لتخرج من مجرد كونها معروضات صماء إلى حد تكاد تنبض فيه بالحياة .

لقد كان درساً عميقاً عن الحياة والثقافة والتجارة والصناعة ، وعن السلم والحرب ، وعن السنوات السمان والسنوات العجاف ودورات النهر العظيم الذي يطفح أعواماً بالخير ويختبر حب الناس له أعواماً أخرى بالانحسار .

هذا التاريخ المكتظ بالأحداث والرجال العظام ينحصر في مبنى ، هو إلى الإهمال أقرب منه إلى التحديث ، في الوقت الذي نجد فيه جماعات من الناس على هذه الأرض ، أو شعوباً ، لاتجد لها تاريخاً ، فتتصيد لها أسطورة تحييها ، وتبعث فيها الروح ، كي تحرك الناس إلى العمل والجد ، ونحن نضع وراء ظهورنا كل هذا التاريخ الحقيقي الذي شهد على الزمان وشهد له ، وهو تاريخ ، كما يقول - مرة أخرى - زكي نجيب محمود : «لو قسمناه على أهل الأرض جميعاً لكفاهم دافعاً شريفاً نحو هدف شريف» . هذا التاريخ يحصر في مبنى يحتاج الى تجديد وتطوير للمعروضات ، ليستطيع الغريب قبل القريب أن يستمتع بالتطواف بها ،

يتفهمها وينصت بخياله إلى مطارق الحدادين والنجارين والحرفيين في كل فن وهم يضيفون إلى الخبرة الانسانية خبرة جديدة . وقفت أمام أحد الأبواب الضخمة التي يضمها المتحف ، ونقلت هذه العبارة المنقوشة على الخشب : (لمولانا السلطان المالك الملك الأشرف أبي النصر قانصوه الغوري ، سلطان الإسلام والمسلمين ، قاتل الكفرة والمشركين ، محيي العدل في العالمين ، أبي الفقراء والمساكين ،خلد الله ملكه بمحمد وأهله) . قلت وأنا أغادر المكان بعد جولة مشبعة : ألا يحق لمثل هذه الآثار العظيمة أن توضع في مكان مناسب وطريقة تناسبها ؟ نظر إليّ صديقي الفنان التوني وابتسم ، دون أن يرد ، واكتفيت أنا بذلك .

ورقــة رابعـــة :

أستاذنا الذي رحل سيد عويس

نعت أخبار القاهرة في شهر حزيران «يونيو» الماضي انتقال أحد أساتذة الاجتماع ، وهو المرحوم سيد عويس ، إلى الدار الآخرة ، وكتب بعض مريديه ومحبيه بعض ما عرفوه عنه ، وقد عرفت المرحوم عن قرب ، فقد كان لي شرف التتلمذ على يديه ، وأن تربطنا علاقة صداقة علمية ، امتدت سنوات .

كثير منا قد تعلم في مدارس وجامعات، وقام بتدريسه أساتذة أفاضل، ولكن بعض الاساتذة فقط نذكرهم بوضوح، ونذكر تأثرنا بهم، إنه الجانب الإنساني الذي شدني للمرحوم سيد عويس، فلم يكن التدريس عنده أو البحث عملاً «روتينياً» ، يبغي من ورائه مركزاً أو جاهاً، بل كان عشقه للمعرفة في صورة العلاقات الانسانية، وهذا ما تدلنا عليه الموضوعات التي كان يهتم ببحثها، ففي قمة عطائه أهدى المكتبة العربية، هتاف الصامتين : «ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الإمام الشافعي بالقاهرة»، و«الخلود في التراث الثقافي المصري»، ومجموعة اخرى من الكتب الاجتماعية القيمة، ثم أخيراً وقبل وفاته بسنوات كتب أول سيرة حياة اجتماعية هي «التاريخ الذي أحمله على ظهري» . والحديث عن سيد عويس رحمه الله يأخذنا باتجاهين : الأول - كما قلت - قدرته على التواصل الانساني ، فقد كان يحمل بين أضلعه قلباً كبيراً ، وكنت سألته مرة في إحدى المناسبات ، وهو يطلب أحد الكتب الحديثة التي تناولت الكتابة عنها في هذا المكان ، قلت له : ألا زلت تتابع

رحل عاشق الكلمة.. والمعرفة.. والتواصل الانساني



● د . سيد عويس

وتقرأ بهذه الهمة ؟ قال : الباحث منا كصاحب رصيد في «بنك» إن سحب منه دون أن يضيف إليه أفلس ، فكانت حكمة جديدة ، تضاف الى ما سمعته منه من حكم .

ولكن ما سوف يحسب لسيد عويس في النهاية في مجال علم الاجتماع ، هو تأصيله المعرفي في هذا النوع الجديد من العلوم علينا ـ نحن العرب ـ فقد عرف مصادره الغربية دون انبهار ، وحاول تأصيله كعلم عربي ، فلم يخف عن سيد عويس أن علم الاجتماع قد نشأ في الغرب ، نتيجة ازمة فعلية ، سادت المجتمع الغربي ، وجاءت ابحاث علم الاجتماع الغربي بمثابة حلول ، واستجابة لتحديات مطروحة بالفعل ، كان يعاني منها ذاك المجتمع بمختلف تلوناته الاجتماعية

والسياسية ، وأن علم الاجتماع الغربي دخل بعد ذلك في خليط معرفي بين ما هو (ايديولوجي) عقائدي وبين ما هو انعكاس لواقع موضوعي . من هنا كان سيد عويس يرى خطورة النقل دون تفكير من علم اجتماع غربي إلى علم اجتماع عربي ، ومن هنا تأتي اهمية تأصيله في الدراسات التي قام بها ، لقد كان يرى أن علم الاجتماع العربي يجب أن يكون أداة تنويرية وأداة عقلنة للذهن العربي والواقع العربي .

وكان يعرف العقبات الكبيرة في إشكالية تكيف ومواءمة مفاهيم ومناهج ونظريات علم الاجتماع الغربي ، لتلائم خصوصية الواقع العربي النسبي ، وكان يرى ان ازمة العلوم الاجتماعية العربية ليست ازمة معرفية ، بمقدار ماهي ازمة حضارية . كانت المعادلة لديه واضحة لدارس العلوم الاجتماعية، عليه ان يتحرر من الآخر (الغرب)، ومن الذات التقليدية، وأن يكون ابن عصره ومجتمعه في آن واحد .

تحتاج كتابات سيد عويس ومفاهيمه التي طرحها، وأمضى حياته يدأب في متابعتها الى دراسة تحليلية اوسع من هذه العجالة ، وتبقى محاولاته في النهاية من ابرز أعمال علماء الاجتماع العرب ، رحمه الله رحمة واسعة ، بقدرما أضاء من عقول ، وأنار من بصائر . وعندما غادرنا في صمت أحاطت وسائل إعلامنا العربية موته بصمت مخجل . مرة ثانية فليرحمنا الله جميعاً .

الورقة الأخيرة :

ماذا يقرأ المسلمون الفرنسيّون ؟

الأزهري عون صديق عربي من تونس، يعيش في فرنسا منذ زمن طويل، مثله مثل عشرات الآلاف من أبناء الشمال الغربي الافريقي - أو قل الملايين - يبحث عن لقمة عيش له ولأولاده . هذا الصديق لا يتعاطى التجارة او الأعمال المعروفة الاخرى ، إنه كُتبي على الطريقة القديمة ، تتصل به في المنزل ، وتترك له خبراً أين أنت ، ثم يأتيك بقوائم الكتب التي لديه تختار منها ما تشاء . وهي دائماً أرخص من سعر الكتب في المكتبات . عندما أمر بباريس أقوم بمهاتفة الأزهري ، ونقضي بعض الوقت ، لا في اختيار الكتب إنما في الحديث الشامل ايضاً . سألته هذه المرة ماذا يقرأ قراؤك العرب في فرنسا ، أو قل لي : أي الكتب أكثر رواجاً



لديهم ؟ فقال دون تردد : إنها كتب التراث . كل أشكال التراث . ولا زالت كلماته منذ أن قالها تتردد في ذهني، فهناك في فرنسا مئات الألوف من العرب المسلمين الذين يحاولون جاهدين متابعة ثقافتهم العربية الاسلامية ، ونتيجة لوضعهم الاقتصادي والمعيشي المتدني لم ينظموا انفسهم حتى الآن في مجتمع غربي منظم ، كي يدافعوا عن حقوقهم الثقافية ، وما يصلهم من كتب ومطبوعات هي في اقل القليل ، لأنها كتجارة ليست رابحة ، بدليل صديقي الازهري الذي لا يزال ، منذ أن عرفته ، يستخدم رجليه في الانتقال ، ويوفر دريهمات محدودة لعياله بعد كل هذه المشقة.

بيت القصيد هنا مئات الألوف ، هؤلاء الذين يحتاجون على الاقل الى رعاية ثقافية . هناك إذاعة محلية عربية في باريس ، تنقل لهم ثقافتهم ، وتسمعهم القرآن الكريم ، ولكن ذلك في باريس فقط ، وليس خارجها ، ومن العرب المسلمين خارج باريس من هم أضعاف من بداخلها . إن هذه التجمعات العربية والاسلامية في عواصم ومدن أوربية كبيرة هم أولى بالرعاية ، ورعايتهم تحتاج فقط الى جهود أولية للتنظيم ، ثم تترك أمورهم لهم يديرونها كما يريدون . والمتابع لما ينشر عن احوال المسلمين العرب في أوربا يعرف المشكلات الصعبة التي يواجهونها .

وعلى الرغم من ذلك فهم شديدو التمسك بدينهم ، ولا يبقى علينا من جهد إلا ربطهم بأوطانهم . في بريطانيا وحدها (١,٥) مليون ونصف مليون مسلم ، يذهب منهم ١,٢ مليون الى المساجد للصلاة ، بشكل منتظم . وهم بالمناسبة اربعة اضعاف عدد السكان اليهود في بريطانيا . ان المسلمين في بريطانيا، والعرب المسلمين في فرنسا ، قوة بشرية كبرى يمكن الاستفادة منها على كل الأصعدة ، نحتاج فقط الى تنظيم الاتصال بها ، ومساعدتها على تنظيم نفسها ، وقد تستطيع الجهود التطوعية العربية الأهلية ان تعطي الكثير في هذا المقام .

● ● ●

تلك أوراق صيف ، أردت أن أشارك القاريء فيها ، علها تثير في نفسه ما يستأهل التفكير . وكل صيف وأنتم طيبون .

محمد الرميحي

من دفتر

الذكريات





(الحياة مجموعة من الخبرات المتنوعة ، وليس بالضرورة أن تتشابه وتتكرر ، إنما كثير من الخبرات منفردة تضيف معنى جديدا للحياة ، وتعطيها لذة التراكم ، وقد اختارت العربي مجموعة من المتميزين العرب ليروي كل بطريقته الخاصة بعضا من ذكرياته التي أصبحت دروسا في الحياة) .

أنا والوزير

بقلم : الدكتور عبد السلام العجيلي

في يوم من أيام خريف عام ١٩٥٧ انزلقت السيارة التي كنت أقودها على الطريق في جبل لبنان ، بين صوفر وشتورا ، فتدهورت نحو هوة عميقة على أيمن الطريق ، إلى أن أوقفتها عن انحدارها قبل الهوة بقليل صخرةٌ ألصقت واقي الصدمة بعجلتيها الأماميتين . كان حادثا مروعا نجوت منه بأعجوبة ، إلا أن أعصابي تحملته في حينه بهدوء ، بل إنني وجدت فيه مادة لكتابة فصل جعلته مدخلاً لرواية كنت - قبل يومين من ذلك الحادث - وعدت بكتابتها صديقي المرحوم رياض طه لينشرها مسلسلة في مجلة «الأحد» وهي الرواية التي ظهرت بعد ذلك باسم « باسمة بين الدموع » .

نعم ، تحملت أعصابي ذلك الحادث في حينه بهدوء ، ولكنني حين أتذكر تفاصيله الآن ، بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما ، أكاد أصاب برجفة من الهلع ، وأعجب من جمود أحاسيسي أمام ما كنت فيه على قاب قوسين أو أدنى من الهلاك . ومثل هذا العجب يتملكني عند تذكر الحادثة التي سأرويها في السطور التالية .

كنت في ربيع عام ١٩٣٧ طالبا في صف متقدم في مدرسة التجهيز في حلب ، وهي الثانوية الرسمية الوحيدة في تلك المدينة آنذاك ، كما كنت فيها رئيسا للجنة الطلاب . وكانت بلادنا ، سورية ، في ذلك الحين تغلي بالنقمة على فرنسا ، الدولة المنتدبة على وطننا ، لإتفاقها مع تركيا على تسليم هذه الأخيرة لواء الاسكندرونة السوري العربي . نظّمنا لذلك مظاهرات الاحتجاج الصاخبة التي كانت تنطلق من مدرستنا إلى قلب

المدينة فتغلق أسواقها ويشل الإضراب الحركة والمرافق المختلفة فيها ، ونحن نهتف في تظاهرنا بسقوط فرنسا المستعمرة ونطالب حكومتنا الوطنية بأن تنسحب من الحكم وتنضم إلى جانب الشعب في محاربته تلك الدولة الغاشمة .

وإذا كنت وصفت تلك الحكومة بالوطنية فلأنها كانت كذلك حقا . فقد تشكلت بعد نضال عنيف قبلت فرنسا بعده التفاوض مع الكتلة الوطنية التي قادت كفاح الشعب السوري من أجل الاستقلال ، فتألفت وزارة من هذه الكتلة أشرفت على المفاوضات . وكان وزير المعارف فيها هو الدكتور عبد الرحمن الكيالي ، ابن حلب نفسها . ولما تواصلت مظاهرات الطلاب وأخذت شكلا شاملا ، جاء الوزير الكيالي من العاصمة إلى مدينته ليهدىء الحال.

دعانا الوزير ، نحن أعضاء لجنة الطلاب ، إلى مقابلته وقال لنا ماأراد قوله في هذا المجال . وختم كلامه بأن الحكومة لاتملك الصبر على ما نسببه بتظاهراتنا من تشويش وفوضى وتعطيل في المرافق ، وإنه في حال استمرارنا فيها سيضطر إلى إغلاق كل مدرسة يشارك تلامذتها بها . تركناه على أن نلزم زملاءنا بالسكينة وأن نستأنف الدوام على الدروس بكل انتظام في الغد .

وجاء الغد بغير ما وعدنا به ، إذ لم تنفع محاولات التهدئة التي قمنا بها فيه عند رفاقنا . وكان رد وزير المعارف على تصرفنا سريعاً ، إذ أصدر في الحال أمره بإيقاف الدروس في ثانويتنا التي هي رأس الحربة في كل التظاهرات اسبوعين كاملين قابلين للتمديد . . .

قد يستهين الكثيرون بخطورة هذه الضربة ، إلا أني كنت أقدرها في ذلك الحين حق التقدير . كانت الامتحانات العامة على الأبواب ، وهذا الإيقاف للدراسة يعني ضياع سنة كاملة على التلاميذ بكل فئاتهم . فتوجهت إلى حيث اتخذ الوزير مقره في مدرسة الصنائع قرب قلعة حلب الشهيرة ، وطلبت مقابلته .

تلقاني الدكتور عبد الرحمن الكيالي رحمه الله متجهما ، وبادرني بالتقريع على إخلاف ما وعدت به ، بصفتي ممثلا للطلاب ومتكلما باسمهم من التوقف عن التظاهر منذ اليوم . وعندما ترك لي مجال الكلام لم أحاول التنصل مما قاله،بل أعطيته الحق فيه ، ثم قلت : ولكنك يا سيدي اتخذت قرارا ظالما . قال : كيف ؟ قلت : أنزلت بالطلاب وهم غير مسؤولين العقاب الذي لايستحقه غير المسؤول عن الإخلاف ، وهو أنا ، وهذا هو الظلم يا صاحب المعالي !

فسألني : ماذا تعني ؟ قلت : أعني أن تعاقبني أنا . . اطردني من المدرسة اسبوعين أو أكثر ، وتكّرم بالغاء قرارك بإيقاف الدروس . تطلع الرجل إليّ بإمعان ثم قال : حسناً ، أنت طلبت هذا بلسانك . سآمر بفتح الثانوية ، أما أنت فاعتبر نفسك مفصولا من الدراسة فصلا نهائيا ، ولن تقبلك أي مدرسة في هذه البلاد ستجد قرار الطرد عند مدير مدرستك .

خرجت من مكتب الوزير فارغ الرأس ، أحس بخواء في تفكيري ، لا أستطيع معه أن أركز به على موضوع ما . طُرِدت ، ضاع كل عمري السالف وتلاشت أمانيّ وآمالي في المستقبل .

وحين انتهيت بعد سير طويل في أزقة حلب القديمة إلى ثانوية التجهيز ودخلت مكتب مديرها ، تلقاني هذا بوجه عابس وقال لي بلهجة بين التأنيب والإشفاق : أَمَرَنا معالي الوزير باستئناف التدريس في كل الصفوف . فيما يتعلق بك ، سمح لك أن تعود إلى صفك ، وهو ينصحك بأن تحسن قيادة زملائك في الظروف الحرجة !

و هكذا عدت إلى الدراسة ولم أحرم منها . كان الخطر الذى حسبت أنه نزل بي آنذاك كبيرا ، إلا أني ما شعرت حياله بحزن ولا خوف . □

حوار حول التاريخ القطري

بقلم : الدكتور شاكر مصطفى

كنا مجموعة ممن يعملون في التاريخ ، جمعتنا المصادفة على هامش مؤتمر ، ودار الحديث بين هزل وجد ، فأمر من هنا ونكتة من هناك ، وكانت أحاديثنا تتطاير تطاير بعض الأوز البري الذي يلتقط صيده من النهر في سرعة السهام ، ثم ينطلق هارباً في الفضاء . لكن التشويه المهني سرعان ما جرفنا ، فإذا بنا منخرطون في جدلية جادة حول دولنا العربية القطرية تاريخا وتكوينا . وكل واحد من الحاضرين يدلي بدلوه ، وقلت :

الذي أعرفه أن جميع دولنا على الإطلاق إنما قامت بأمر استعماري ، بتسوية بين الطامعين الأجانب . فنحن نمثل توازن التجزئات الاستعمارية التي دمرتنا في القرن التاسع عشر . كانوا يقررون ولا يطلبون حتى بصماتنا ! ما من حدود في الأقطار العربية على الإطلاق ، سواء بين بعضها بعضاً أو بينها وبين الدول الأخرى المجاورة وضعها عربي أو اشترك في وضعها عربي . كل التواقيع على وثائق الحدود التي نتمترس وراءها ، وندافع بشراسة عنها ، وضعها المستعمرون ، خاصة الانكليز والفرنسيون والطليان والأسبان ، خطان فقط نجيا ، في سنة ١٩٣٢م وضع العرب خطاً بين اليمن والسعودية . وفي أعقاب مشكلة البوريمي كانوا موجودين لوضع الخط الآخر . ومضحك حتى البكاء أن نكون ضدها حتى الموت منذ قرن أو أكثر ، وأن نكون معها حتى الموت بعد الاستقلالات وحرية المصير ! .

بين الأنانيات والرغبات

وانقسم القوم بين من يعد الحدود الإقليمية صورة عن الواقع الإقليمي ، وبين من يعدها الشؤم كله ، ويدعو إلى نسفها . وكل من الطرفين يأتي على رأيه بالشواهد . حتى « فيلم الحدود » لدريد لحام دخل في الجدل والاستشهاد ، وقال أحد الحاضرين :

المنطقة العربية كانت دواماً دولاً إقليمية ، ما عرفت الوحدة المركزية إلا في العهد الأموي العتيق القصير ، ثم انفرطت الدولة الكبرى دولاً ودويلات وأهواء ملوك ومغامرين .

وأجاب زميل كان يستمع ، وقد جعّدت السنون وجهه ، وإن أوقدت عينيه :

تلك نظرة قاصرة ، تنظر إلى شخوص المسرح على الخشبة ، ولا تنتبه إلى تكوين المسرح كله بمن فيه وما فيه . التاريخ ليس هو الرشيد والمستعصم ونابليون وشارلكان . إنه نسيج لا أشد منه تعقيداً ولا أكثر منه تشابكا ، وما يظهر منه على السطح أقل كثيراً جداً مما يختفي . الجمديات التي تنسلخ من المحيط المتجمد الشمالي تدفن في الماء تسعة أعشارها ، وتبرز العشر فوق الماء . الدول الإقليمية ـ ولو أعانتها الجغرافيا ـ كانت وما تزال إلى اليوم تمثل أنانيات الحكام وأهواءهم ، ولا تمثل رغبات الشعوب .

ويتهمون التاريخ العربي بالتفتت . ويقول قائلهم : إنه مجرد خصومات سياسية ، تنتهي بتلمظ السيوف بالدماء . ما جلست مجلساً نفتح فيه هذا الحديث إلا سمعت ذلك . نحن لقنّاهم التاريخ معارك وأنياباً . صورة تاريخنا في أنفسنا لا أبشع ولا أشد مأساوية وقتاما . السواد يخترقها ويعيش فيها ، وإن كان الذين يرددون ذلك لا يدرون عن التاريخ ، ولا عن تلك الصورة إلا أقل من اليسير ، وقد لا يدرون شيئاً ، ولكنها الصورة المريحة لمن لا يريد أن يلتفت إلى الوراء .

وفي اعتقادي المتواضع أنه ليس هناك تاريخ متماسك أعمق التماسك ، موحد أقوى الوحدة ، وقد راعى مثله العليا ما استطاع كالتاريخ العربي . ما عليكم إلا أن تغيروا موقع آلة التصوير فقط ليتغير المنظر إلى عكسه !

إنا نكتفي بما يطفو على السطح من أقذار السياسة ، وننسى التيار العميق الذي يحرك النهر . الذين ينسجون ذلك التاريخ على أساس نزاعاته السياسية فقط محقون . كله نزاعات وخصومة كما تعض الثعابين بعضها بعضا . كله تمزقات لا تكاد تتصل قطعة منه بأخرى (بالغزو أم نتيجة ضعف الحكام أم بالتراضي بينهم) إلا انقطعت قطعة ثالثة في جانب آخر ، فهي تُغْزَى وتنهب وتدمر . ولا يكاد حاكم يموت حتى تتناول الأنياب تراثه بالمقاسمة أو بالاستيلاء . لا تكاد تجد وحدة سياسية قامت إلا على أنقاض وحدة أخرى أو أكثر ، ولكن !



الوجـــه الآخـــر

ولكن أما ينظر هؤلاء أولاً إلى الوجه الآخر للتـاريخ ، إلى وجهـه الثقـافي ، والاجتمـاعي والاقتصادي ؟ الثقافة العربية في نسيجها المتين ما تزال تجمع ١٨٥ مليـون عربي في مـدى فكري واحد . ليكن القرآن الكريم قاعدتها الضخمة ، أو لتكن اللغة . ولكن أما كانت وما تزال توحد الناس بين مشرق ومغرب ؟ لقد كانت تنسج كل يوم ما تنقضه السياسة كل يـوم . كزوجـة أوليس، بطل الالياذة، التي كانت تنقض في الليل ما تنسجه في النهار في انتظار زوجها ! الكتاب الذي كان يسافر ـ وهو مخطوط فرد ـ من أقصى بخارى وسمرقند إلى موريتانيا والأندلس كان حبالاً غير منظورة ، متصلة بحبل القرآن ، تربط المشـرق والمغـرب . أما كتـاب ابن عبـد ربـه « العقـد الفريد » في المغـرب فقد كـان كتاباً شامـلاً في الأدب ، فلما قرأه المشارقة قالوا : بضاعتنا ردت الينا ؟ والعلماء أما كانوا يهاجرون شرقاً وغرباً بين أقصى الأنـدلس وأقصى الهند وبـلاد التـرك ، ويجدون في كل مكـان ترحيبـاً ومورد رزق ما شاءوا المقـام ؟ فابن بطوطة وهو الرحالة المتنقـل قد عمـل قاضيـاً في دمشق وفي الهنـد وسـرنـديب والصـين ، ولم يقل لـه أحـد : إنـك غـريب ! والحلاق العادي كان يهجر مصر إلى البصرة أو فاس ، فيجد في صنف الحلاقين كل المعونة التي يريد . ويجد هنا وهناك من يعينه بالمال والعدة ، ليتابع العمل في مهنته ، وقد يجدون له الزوجة أيضاً ، في تضامن تعجز عنه النقابات العمـالية الحالية . لا شأن له ولا لهم بعواصف السياسة التي تمر فوق رؤوسهـم بمصائبها . والتاجر تمر بضاعته في القوافل بجوار فريقين يتحاربان فلا يمسها أحد . دنيا السياسة لأهلها ، ودنيا الناس للناس الذين يوحدهم موقف واحد من الثقـافة والحياة !

غابـــة واحـــدة

ويحدثونك عن اللؤم والغدر وخيانات الحكام بعضهم لبعض بين إقليم وإقليم ، بل يتحدثون عن جرائم ظلم ونهب وعدوان . أنا لا أنكر شيئاً من ذلك ، ولكن هل قرأ هؤلاء الذين يزدرون تاريخهم الخاص لهذه المفاسد فيه ، تواريخ الأمم الأخـرى ؟ لو فعلوا لـوجـدوا تـاريخنـا تـاريـخ القديسين أحياناً أمام الآخرين . ليس ثمة تاريخ لأمة على الأرض لم ينتهك فيه « قدس » الإنسان بأقل مما انتهك في التاريخ العربي . ولم يصب من الأحقاد والتمزق والدسائس والجرائم الدنيئة ما يزري ، لكل ما جرى عبـر التاريـخ العربي في أقـطاره المختلفة . هـل أتاك حـديث التـاريـخ الفرنسي في جرائمه وجنونه ودناءته ؟ هل أتاك حـديث الانكليزي أو الأسبـاني أو الـروسي أو الايطالي ؟ قذارة الإنسان واحدة بكـل مكان ، طينته التي صنع منها هي طين الأرض ، فأوحالها ما تزال عالقة به ، مؤثرة في أعماق وجدانـه ! فلمـاذا نطالب أنفسنـا ظلماً بأن نكـون وحدنـا المثاليين ؟ ولماذا هذه « الماسوشية » التي نجلد بها



أجسادنا صباح مساء ؟ التاريخ الإنساني كله غابة واحدة ، فيها النسر والقمري ، وفيها الخرتيت والضبع والأفاعي ذات الفحيح ! .

أقول هذا لأصل إلى أن الدول الاقليمية السابقة إنما قامت وكثرت وتقاتلت بسبب أنانيات الحكام ، دون أن ننسى بالطبع أبداً عامل التباعد الجغرافي الذي أعانهم على ما غرقوا فيه ومهد لهم .

على أن المشكلة ليست في التاريخ نفسه ، ولكن في معظم من كتبوا التاريخ . لقد سجلوا العابر السياسي ، وهو الأقذار الطافية على السطح ، ولم يروا ولا استطاعوا تسجيل التيار العميق . ربما كان الذين سجلوا التراجم منهم فعلوا شيئاً ، سجلوا من خلالها التاريخ الفكري للعرب كله ، كما لم يسجله أي تاريخ على الأرض دقة وشبكات متتالية من الأساتذة والطلاب وطلاب الطلاب ، وسجلوا خلاله وفي ثناياه الكثير من التاريخ الاقتصادي الاجتماعي ، لكنهم مع الأسف لم يصلوا ذلك كله بالتاريخ السياسي ، كأنهما عالمان مختلفان ، ذكروه عرضاً فهو على الرغم من شموله الأقطار العربية كلها من وراء كل الفسيفساء السياسية التي يصنعها الحكام ، كان فتاتاً من الفتات ، فنحن نتعامل مع ما كتبوا كالعميان في مصنع الخزف ، نلوح بالعصا لنعرف الطريق ، فإذا بنا نكسر الآنية .

وسأل سائل من القوم :

هذا قد يكون صحيحاً كله ، ولكن ألست ترى أن رواية التاريخ السياسي كانت العمود الفقري الذي قامت عليه تواريخ الناس ، وتاريخنا نحن معها ؟ ثم أليس التاريخ القطري حقيقة واقعة ، وقد كتبنا تواريخنا قطراً قطراً من قبل ، بل وقطراً منفصلاً عن الآخر أيضاً ؟ وانبرى الزميل يجيب . قال :

السؤال شقان ، وفي كل منها مغالطة فكر ! صحيح أن تواريخ الأمم الأخرى تقدم التاريخ السياسي ، ولكنها جهدت حتى فنيت العيون ، لتبرز بجانبه التاريخ الثقافي والاجتماعي والاقتصادي الذي يلمها ، ويجعل منها وحدة متماسكة ، يؤدي فيها التاريخ دوره الموحد . أما نحن فنتكلم عن صلاح الدين ألف مرة ، أكثر مما نتكلم عن أزمته الاقتصادية . ونحصي معارك الردة وما تلاها ، ولا نكاد نذكر الانقلاب الاجتماعي الذي رافقها ، وكان في قاعدتها . وتمر بنا شخوص المنصور أو الرشيد والبرامكة دون أن نتنبه أو ننبه إلى الخيوط النفسية أو المرضية أو الاقتصادية التي تحركها . . هذا شق !

عيال على الغرب

أما الثاني حول قطرية التاريخ التراثي ، فنحن فيه عيال على الغرب . وكاد بعض الحضور يصيح ، فطمأنه المتحدث بيده وتابع :

بلى ! نحن فيه عيال على الغرب أكثر منا على أنفسنا . صحيح أن كتبنا التراثية تتحدث عن الأقطار والدول فيها ، ولكننا لم نأخذ هذه الطريقة عنها كما أخذناها عن الغرب ، ولم نلتزم بشروطها التي كان يلتزم بها الأولون ، وهي شروط الربط بين الأقاليم والأقطار بقدر ما أخذناها عن الغرب الذي كان همه أن يقيم من كل قطر فينا كياناً مستقلاً منفصلاً عن غيره .

والأولون منا معذورون ، فالبعد الجغرافي كان يرهقهم عنتا ، ويمنعهم من رؤية ما وراءه في الأرض ، فهم يتلمسون ذلك تلمساً . ولكن ما عذرنا نحن بعد هذه الثورة في الاتصالات اليوم ؟ ولقد كانت حدود الدول في القديم محدودة الآفاق بالإطار الجغرافي ، وبإطار قوة الحاكم ، ومدى طول سيفه ، فهي تتسع تارة وتضمر أخرى ، وتشمل اليوم منطقة وتدع غداً أخرى ، لم تكن ذات إطار محدد . يصل الفاطميون شمالي الشام ، ثم ينكفئون فيتقوقعون في مصر . ويمتد المرابطون ثم الموحدون إلى الأندلس ، ثم يكتفون بالمغرب الأقصى . ويمتد العباسيون ما بين تونس والهند

وتركستان ، ثم يصبحون إمارة صغيرة حول بغداد . وكلها دول . ويسجلها الأقدمون دولاً في إطار الإسلام الموحد والثقافة العربية الشاملة .

أما اليوم فنحن نؤرخ الدولة الإقليمية على أنها كيان قائم بذاته ، كما يؤرخ الفرنسي لفرنسا والأسباني لمملكته الخاصة . لا نسجل الوشائج العميقة التي تربط المغربي بالمشرقي ، ولا نأبه بها ، مع أنها الأصل والأساس . بهذا المفهوم والمنهج نحن . بلى ! عيال على الغرب ، نقلده ونحن مسرورون ، وينظر إلى حماستنا ويبتسم . لقد انتصر على الوحدة العربية بأيدي أبنائها أنفسهم ، وباسم الحداثة والموضوعية ! نحن في ذلك نساهم دون أن ندري في تمزيق أنفسنا .

المنظــــور الوحدوي

لست أريد بهذا ألا يكتب كاتب أو مؤرخ عن قطره ، أبداً ما إلى هذا أقصد ، ولكنني بلى أريد أن يبقى المنظور الوحدوي في خلفية جميع تواريخنا القطرية . هل رأيتم مؤرخاً فرنسياً يسجل تاريخ البروفانس إلا وعينه ترمق فرنسا كلها ؟ وهل يكتب انكليزي تاريخ ويلز أو اسكوتلنده دون أن يصله رحمياً بالتاريخ الانكليزي ؟ ومن ذا الذي يكتب في ايطاليا تاريخ صقلية وحدها ، ويهمل التاريخ الايطالي كله ؟ إن المنظور الوحدوي هو الذي نفتقده ، وافتقاده هو الذي يسهم في زيادة الحواجز الاقليمية بين أقطارنا ، ويفتح أعيننا دهشة كالمبهورين حين نشهد لقاء أحدها بالآخر لقاء أخوة صحيح !

إنني لأترحم على الطبري وابن الجوزي وابن الأثير والعيني ، حتى لأكاد أنتهج منهجهم الحولي ، كتبوا تاريخنا ممزقاً سنة بعد سنة ، ولكن كتبوه شاملاً ، كانت نظراتهم تقوم على وحدة الوطن العربي الإسلامي . حتى المؤرخين الاقليميين ، وحتى مؤرخي المدن لم يكونوا يفتقدون هذا المنظور الشامل شرقاً وغرباً ، سواء في الأحداث السياسية أو في تراجم الرجال . لم يكن تفتت السلطة يستتبع في وعيهم التاريخي تفتيت الأقطار وانفصال بعضها عن بعض .

البنية التاريخية الواحدة كانت على الدوام سائلة على أقلامهم وفي جباههم . وقال المتسائل :

كأنك تقول : إن ظهور تواريخ باسم المغرب أو العراق أو اليمن هو قفزة إلى الوراء ، إن لم تشمل التاريخ العربي ، وأنا أراه ضرورة وقفزة إلى الأمام في كل الأحوال . إنه على الأقل يمهد السبيل ، لجمع هذه التواريخ الإقليمية فيما بعد ، تماماً كما نشهد اليوم لقاء الدول الاقليمية وتعاونها أو اتحادها .

لو كان الأمر بهذه السهولة الساذجة لحمدته . ولكننا لا ندري أننا بهذه العملية التجزيئية القادمة إلينا مع العواصف الغربية (واسمحوا لي أن أكرر هذا) إنما نبني بأيدينا ، وبشكل عميق ونهائي ، الاقليمية السياسية .

نعطيها الأسس الراسخة ومبررات الوجود ، ندمر وحدتنا الثقافية الاجتماعية . إن هدم الحواجز بعد بنائها في نفوس الأبناء والناس أصعب كثيراً وأدهى بكثير مما نتصور ، إنها تترك جروحاً وتشوهات في الروح القومية ، ما تصيبها هزة إلا وتعود فتنكسر . إن تسجيل وجهات النظر التي تؤيد الوضع القطري ، وتعمل على بلورته ، ولا تنظر إلى المدى الرحب الذي يتصل به رحمياً ، لا يقزم الرؤية فحسب ، ولكن يقتلها .

إنها جراح في الروح ! إننا لا نتعامل مع حجر واسمنت نشيده ونحطه ونغير شكله ، ولكن نتعامل مع أبنية فكرية إنسانية ، متى استقرت فمالها من هادم ولا مغير . إننا ننتحر عربياً ولا ندري ! فإما كتابة التاريخ العربي من منطلق وحدوي أو فليبق ممزقاً لدى الطبري وابن الأثير حتى يأتي من يكتبه تاريخ أمة واحدة .

أربع مقولات

وقال قائل :
كأنك بهذه الخطبة العصماء دون كيشوت العصر ، تدين . . .

أنا لا أدين أحدا أبداً ، وإنما أدين النظرة الضيقة ، أدين هذه الغواية التي ركضت بنا ، فنحن عاكفون عليها . أدين ذلك التناقض الذي نعيشه ، نثبت الحدود الإقليمية بأيدينا وأسناننا ، ونريد بعد هذا أن نقيم الوحدة من فوق ذلك . اقتسمنا كالورثة الفاسدين إرثنا ، وراح كل فريق منا ينفرد بقطعة منه ، والهوة بين الأقطار تعمق وتعمق . وإذا كان المستقبل لأهل الكتل الكبرى فإننا نصنع قبورنا بأيدينا ، فالناس تمشي إلى التجمع والتكتل ونحن نسير بالعكس الى التمزق والكتل الصغرى ، كالذي يروى الحديث النبوي عن القوم الذين ركبوا سفينة ، فقال كل منهم هذا مكاني أصنع به ما أشاء فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا .

وسأل سائل مَلّ الحديث والاستماع :
إلى أين تريد أن تصل بنا في هذا الحديث السياسي التاريخي في وقت معاً ؟ لقد ضاع علينا الطريق !

بول فاليري ، الشاعر الفرنسي المشهور ، له كلمة في التاريخ ، قال : إنه أخطر كيمياء ابتدعها العقل البشري ، إنه يقدم الأدلة والحجج لكل من يطلبها ، ويبيع وثائقه لكل مشتر . وإنما أردت إلى مقولات أربع :

الأولى : أن كل تمزقاتنا التي نشهدها ونعاني في تاريخها . وكل جماعة تصوغها على هواها ، فللإقليمي تاريخه ، وللماروني تاريخه ، وللبربري وللقبطي أيضاً . المستقبل تبنيه التواريخ الكبرى ! المنطلقة من الأرواح الكبرى الشاملة ، لا المجتمعات الثانوية الفسيفسائية .

الثانية : أن التاريخ الحقيقي ليس تاريخ الحكام ، فإنهم أهون شيء فيه ، فخصوماتهم التي سالت بها السيوف ، وذبحت الشرايين ، وحفيت سنابك الخيل ، كانت أشباحاً عابرة في التاريخ ، أما التاريخ الحقيقي فهو تاريخ مئات الألوف من رجال العلم الذين نسجوا وحدة هذه الأمة بين شرق وغرب ، وهو تاريخ الملايين بعد الملايين من الصناع والتجار والزراع الذين آمنوا وظلوا يؤمنون بأمرين : الانتاج وأخوة العربي للعربي ، وهو تاريخ الفنانين ومشيدي الأبنية الخالدة وصاغة السيوف المجوهرة والأباريق والمحراب المزخرف والمئذنة التي تعلو لتذكر الناس أن الله أكبر ! . إن تاريخنا موحد بهم . ولو أنك لا تستطيع أن تتبين ملامح واحد منهم ! هؤلاء هم هيكل البناء التاريخي وحجارته وأعمدته . أما الحكام فليسوا أكثر من الزخارف السطحية على الجدران ، تبهر ولكنها لا تقيم هيكلا .

الثالثة : أن كتابة التاريخ القطري دون منظور عربي شامل ليس نقصاً فحسب ، ولكنه إساءة للتاريخ القومي وجرح لعنفوانه ! ، إنه توطيد وتدعيم للقطرية ، ولتجزئة ما وحده الله والدين والثقافة .

الرابعة : أن بناء الإقليمية والقطرية تاريخياً ، ثم الاتجاه إلى الوحدة ، أمران متناقضان ، فالبنية الفكرية تغوص في الأعماق لتصبح جزءاً من التكوين ، وهيهات أن يستعاد التكوين ! .

ونظر المتحدث أخيراً في أصحابه وقال :
هل كشفتم يا ترى مسؤليتكم في هذا الذي يجري اليوم على الساحة العربية من تمزقات أو تجمعات ؟ وهل كشفت موقفي ؟ □

تعريفات

- المواجهة هي أقصر الطرق للوصول إلى الهدف .
- الطفولة هي أصدق فترة يمر بها الإنسان على امتداد رحلة حياته .



تقاسيم

شعر : جمال عبد الجبار علوش*

غَنَّيْتُ حُسْنَكِ ، لا غَنَّيْتُ أحزاني
أمضيتُ خلفَكِ مُذْ عَلَّقْتِنِي عُمُراً
ما كان أسعدني فيه وأشْقاني
وصنْتُ وجهَكِ بِمَّا قَدْ يُحِيطُ بِهِ
بما تَقَدَّس مِنْ آياتِ حرماني
غَذَّيْتُهُ في لَظَى الأوقاتِ ما وَسِعَتْ
أنساغُه البيضُ مِنْ شرياني الفاني
وحينَ عُجْتُ صباحَ الوعدِ أسْأَلُهُ
وِرْداً تَبَسَّم عَنْ أنيابِ شيطانِ !
في أعْلَى الشرفةِ عصفُورٌ
في الأسفلِ نافذةٌ حَيْرَى
يبتهجُ العصفُور بفجرٍ يحمل طاقَتَهُ
من لغةِ الموتِ
وتصطفقُ النافذةُ الحَيْرَى
حينَ يَئِنُّ سجينٌ مِنْ لَسْعِ سِيَاطِ
الحقدِ ويبكي
زوجَتَهُ
والطفلَ السابعَ
والعَفْوَ الدَّوْلِيَّ
وأشياءَ أُخْرَى .
في أعْلَى الشرفةِ عصفورٌ
في الأَسْفَلِ نافذةٌ
في القلب الفاجعةُ الكُبْرَى !

تردّينَ آلآءنَا في المساء
تقولينَ :
عِلُّوا دِمَاءَ الضَّحَايَا
وَغَنُّوا مَعَ الريحِ عَنْ موطنٍ
صارَ في الراحلينَ
وَمَا زَالَ مِنْهُ عَلَى وَجْنَةِ الإنْتِظَارِ
بَقَايا !
تردّينَ آلآءنَا
تضحكينَ
تقولينَ : كُلُّ التقاريرِ مَوْبُوءَةٌ
والبسوسُ
لها عَوْدَةٌ للديارِ
ولعبةُ موتٍ جديدِ التفاصيلِ
يَمْتَدُّ مِنْ (طَنْجَةَ) الروحِ
حتى (ظفارْ)
تقولينَ عَنْ كاهنِ الحَيِّ أشياء :
يأتي صباحٌ
ولكنْ بلا دهشةٍ أو ضياء
ويأتي زمانٌ تئِنُّ لَهُ أضْلُعُ
البيد
تبكي الرُّبَى
حينَ يَكْتَظُّ وادي الغَضَا
بالدماءِ !

* شاعر من دير الزور ـ القطر السوري .



النمو الاقتصادي

لماذا يتعثر في الوطن العربي ؟

بقلم : الدكتور نعيم الشربيني *

إذا كانت قضية تطوير الاقتصاد الوطني ، وتلبية احتياجات السكان المتنامية ، هي أخطر التحديات التي تواجهها دول العالم الثالث ، وفي قلبها الوطن العربي ، فإن التجارب العالمية المختلفة ، تؤكد ضرورة توافر شروط أساسية ، لتصل عملية النمو الاقتصادي إلى مستواها المنشود ، فما هذه الشروط ؟ وهل أخذت بها التجارب العربية في النمو الاقتصادي . . ؟

كان العرب في صدر الإسلام يعملون في الزراعة والرعي والتجارة ، والعالم من حولهم لا يختلف كثيرا عنهم . وكانوا في القرون الوسطى يعملون في صناعات الحديد والزجاج والتشييد ، ويحملون مشاعل الحضارة والنور المعرفي ، والعالم من حولهم مبهور ، ينهل من ذلك المصدر ، ويتعلم وينقل ويتثقف ويتطور على أيديهم . العرب على مشارف القرن الواحد والعشرين مازالوا يعملون في الزراعة والرعي والتجارة ، والعالم من حولهم يعمل في صناعات المحركات النفاثة والطاقة النووية والاتصالات الالكترونية . ماذا حدث ؟ وكيف نستفيد مما حدث لنطور أنفسنا ومجتمعاتنا ؟

إن أهمية معرفة ماحدث ، وكيف نستفيد

* اقتصادي أول بدائرة غرب افريقيا الاستوائية بالبنك الدولي بواشنطن .

منه ، ليس من أجل حياة أفضل للجيل الحاضر فقط ، لكن من أجل أجيال قادمة لمّا تولد بعد . هذه هي مسئولية المثقفين العرب إزاء أنفسهم وأمتهم .

وإن إثـارة الأسئلة حـول مشـاكلنـا الاقتصادية ، لابد أن تدفعنا للاستفادة من تجارب عالمية عديدة ، تراكمت خلال القرنين الماضيين . ولاشك أن الاقتصاديين سيتوقفون كثيرا عند ظاهرة النمو الاقتصادي ، بحسبانها من أهم الظواهر ذات التأثير المتميز على الاقتصاد العالمي خلال تلك الفترة الطويلة ، فالنمو الاقتصادي محصلة عدة عوامل ، تتضافر فيما بينها ، لتوسيع القاعدة الانتاجية في المجتمع توسيعا مستمرا على مر الزمن ، وعلى الرغم من تباين هذه العوامل باختلاف البلاد ، بل حتى بالنسبة للبلد الواحد في فترات زمنية متفاوتة ، فإننا نجد قاسما مشتركا بينها .

ما النمو الاقتصادي ؟

هناك خاصيتان متلازمتان للنمو ، لايجوز التفكير في واحدة منها دون الأخرى . الخاصية الأولى الاستهلاك المتزايد للسلع والخدمات على مر الزمن . ويظهر هذا بوضوح في الاستهلاك العائلي ، خاصة للسلع المعمرة ، والخدمات المتميزة . فاستهلاك سلع مثل السيارات والثلاجات والغسالات الميكانيكية وكل المعدات للأعمال المنزلية والأغراض الترفيهية يتباين بين الأسر المختلفة وفقا لمستوى الدخل في كل منها .

أما الخدمات المتميزة ، مثل السياحة الداخلية والدولية ، أو التعليم الأجنبي ، أو العلاج المتخصص ، فيتباين استهلاكها كذلك بين الأسر المختلفة وفقا لمستوى الدخل في كل منها ، بل حتى بالنسبة للأسرة الواحدة على مر الزمن . الخاصية الأولى في عملية النمو الاقتصادي إذن هي الزيادة المطردة للاستهلاك ، سواء في السلع (المعمرة وغير المعمرة) أو الخدمات وبخاصة المتميزة منها .

أما الخاصية الثانية فتتمثل في زيادة إنتاج المجتمع سنة بعد أخرى ، وعقدا بعد آخر ، وذلك عن طريق خلق وحدات إنتاجية جديدة ، أو التوسع في حجم الوحدات الانتاجية القائمة . ويتحقق ذلك التوسع الانتاجي عن طريق زيادة استثمارات المجتمع التي يتم تمويلها من مدخرات الأسر على مر الزمن . وبطبيعة الحال يؤدي هذا التوسع الانتاجي إلى زيادة العمالة وارتفاع دخول العاملين ، وهو ما يسمح بزيادة الاستهلاك وزيادة الاستثمار ، وهو ما يؤدي مرة أخرى إلى زيادة الانتاج . . وبعبارة أخرى فإن النمو الاقتصادي يحتوي على آلية ذاتية ، تسمح بالاستمرار فيه على مر الزمن .

من هنا تتضح غرابة الوضع الاقتصادي في الأقطار العربية النفطية التي حصلت على ريع غير متوقع بارتفاع أسعار النفط أثناء السبعينيات ، مما سمح للمجتمع ككل بالتوسع السريع في الاستهلاك دون أن يقابله توسع يذكر في الانتاج ، لأن إشباع الحاجات الاستهلاكية قد تم عن طريق الاستيراد ، وعلى الرغم من توسع القاعدة الانتاجية في الأقطار النفطية خلال الخمسة عشر عاما الماضية فإن معظم الحاجات الاستهلاكية في تلك الأقطار مازال يتم إشباعه عن طريق الاستيراد .

علاقات «ديناميكية» دائرية

وبالنظر إلى عدة مجتمعات مارست النمو الاقتصادي قبل غيرها ، مثل المجتمعات الصناعية القديمة والحديثة ، استطاع الاقتصاديون الوصول إلى نتائج مهمة ، يمكن أن تنطبق على المجتمعات النامية ، مثل مجتمعنا العربي ، من أهم هذه النتائج وجود علاقة طردية بين حجم الانتاج في المجتمع من ناحية ، وحجم السكان ومستوى دخل الفرد في المتوسط

من ناحية أخرى . العلاقة بين الانتاج والسكان علاقة «ديناميكية» ، دائرية ، فنمو حجم الانتاج يتطلب نمو حجم العمالة ، وهذا يؤدي بالضرورة إلى نمو حجم السكان الذي يؤدي بدوره إلى نمو الاستهلاك ، وهو ما يؤدي إلى اتساع الأسواق أمام الوحدات الانتاجية ، بما يحفزها لزيادة حجم الانتاج ، وهكذا . والمحك الحقيقي لنجاح عملية النمو الاقتصادي هو الزيادة المطردة لمستوى دخل الفرد في المتوسط ، وهو ما يتوقف على العلاقة بين معدل نمو الانتاج ومعدل نمو السكان ، فإذا زاد الانتاج بمعدل أعلى من زيادة السكان ارتفع دخل الفرد في المتوسط ، وإذا حدث العكس تدهور مستوى دخل الفرد في المتوسط .

واصطلاح الانتاج ينطبق على النشاط الاقتصادي في الوحدات الانتاجية الصغيرة التي يعمل فيها فرد واحد أو أسرة واحدة بمعدات بدائية وطاقات حيوانية لتغطية بعض حاجاتهم الاستهلاكية ، مثلما ينطبق على المصانع العظيمة التي يعمل فيها عدة آلاف من العمال بمعدات الكترونية وطاقات كهربائية هائلة . ولا يقتصر الانتاج على سلع مثل الغذاء والملابس ومواد البناء ، وإنما يشمل الخدمات ، كالتعليم والصحة والاتصالات . وبالنظر إلى المجتمع ككل ، فإنه إذا ما أضفنا جميع السلع والخدمات التي تنتجها الوحدات الانتاجية باختلاف أشكالها وأحجامها على مدى فترة معينة (اصطلح على أن تكون عاما كاملا) فإننا نصل إلى ما يطلق عليه الاقتصاديون «الناتج القومي الاجمالي» . هذا التعميم من مستوى الوحدة الانتاجية إلى مستوى المجتمع ينطبق على المجتمعات الإنسانية ، بغض النظر عن مستوى التقدم الاقتصادي فيها ، أو التنظيم السياسي الذي يحكمها . ومجموع الناتج القومي الاجمالي في هذه البلاد جميعا هو الانتاج العالمي .

ولقد بلغ حجم الانتاج العالمي عام ١٩٨٥ مايقرب من (١٠٦٠٠) عشرة آلاف وستمائة مليار دولار ، منها حوالي (٢٠٠٠) ألفي مليار دولار ، نصيب البلاد النامية ، أي ١٩٪ من المجموع . والجدير بالذكر أن حجم الناتج في العام نفسه في الأقطار العربية مجتمعة كان في حدود ٣٣٠ مليار دولار ، وهو ما يعادل ٣٪ من حجم الانتاج العالمي .

وإذا كان من الصعب تقييم عملية النمو الاقتصادي في وطننا العربي قبل الخمسينيات لعدم توافر البيانات الاحصائية من ناحية ، ولأن فكرة القومية العربية المنادية بوطن واحد لم تكن قد توطدت في عقول الناس من ناحية أخرى ، لكن من الثابت أنه لو نظرنا إلى الأقطار العربية النفطية كمجموعة ، والأقطار العربية غير النفطية كمجموعة أخرى ، فإننا نلاحظ أنه في عام ١٩٦٠ كان مجموع الناتج القومي الإجمالي في الأقطار غير النفطية ككل يزيد عن مثيله في الأقطار النفطية مجتمعة . على أن تباين معدلات النمو في المجموعتين أثناء الستينيات قد أدى إلى انعكاس هذه الصورة . ففي خلال فترة ١٩٦٠ - ١٩٧٠ زاد مجموع الناتج القومي الاجمالي في الأقطار غير النفطية بمعدل ٣,٣٪ سنويا ، بينما زاد مجموع الناتج القومي الاجمالي في الأقطار النفطية بمعدل ٦,٨٪ سنويا . وكانت النتيجة أن الناتج القومي في الأقطار النفطية قد زاد عن نظيره في البلاد غير النفطية عام ١٩٧٠ بما يعادل الخمس ، أما في السبعينيات (١٩٧٠ - ١٩٧٩) فقد ارتفع معدل نمو الناتج القومي في المجموعتين ، لكنه كان في حدود ١٦٪ سنويا في الأقطار النفطية ، بينما وصل إلى حوالي ٦,٥٪ سنويا في الأقطار غير النفطية ، وهو ما أدى إلى ارتفاع الناتج القومي في الأقطار النفطية إلى مايقرب من ثلاثة أمثال نظيره في الأقطار غير النفطية عام ١٩٨٠ م .

وبعبارة أخرى ، فإنه ابتداء من عام

١٩٦٠ ، قد ضاعفت الأقطار العربية غير النفطية الناتج القومي بحلول عام ١٩٧٥ ، أي خلال ١٥ سنة ، بينما استطاعت الأقطار النفطية مضاعفة ناتجها القومي بحلول عام ١٩٧٠ ، أي خلال ١٠ سنوات فقط ، ثم ضاعفته بعد ذلك بمرتين بحلول عام ١٩٧٥ ، أي خلال خمس سنوات فقط ، وذلك نتيجة لأعلى معدلات نمو في السبعينيات حظيت بها أي مجموعة من الدول .

العمل البشري يتقدم على رأس المال

حتى نفهم طبيعة عوامل النمو الاقتصادي في الأقطار العربية عموما، ربما كان من الأفضل إلقاء نظرة على الساحة العالمية ، فلقد تبين من الدراسات العديدة عن الاقتصاديات الصناعية في غرب أوربا وأمريكا الشمالية واستراليا أن نمو الناتج القومي كان نتيجة تضافر ثلاثة عوامل أساسية : أولها زيادة حجم قوة العمل وتحسن نوعيتها ، وثانيها استمرار تراكم رأس المال ، وثالثها تحسن حالة المعرفة على وجه العموم ، والمعرفة الفنية على وجه الخصوص ، وانتشار تطبيقاتها ، سواء في المهارات المتطورة أو في المعدات التقنية الجديدة ، وهو مايطلق عليه مجازا اصطلاح «التقدم التقني» .

بل لقد أمكن قياس المساهمات النسبية لكل من هذه العوامل ، واتضح منها أن عنصر العمل (كمّا ومهارات) كان يعد مسئولا عن أكبر مساهمة نسبية في نمو الناتج القومي . تزيد عن النصف في كل البلاد التي تمت دراستها ، وتصل إلى الثلثين في عدد لابأس به من تلك الدراسات . بينما ساهم عنصر رأس المال (بما يحتويه من تقدم تقني) في نمو الناتج القومي بنسبة تتراوح بين الثلث وأقل من النصف بقليل .

والجدير بالذكر أن هذا النوع من الدراسات الكمية عن نمو الاقتصاد العربي لما يتم بعد ، نتيجة لعدم توافر البيانات الاحصائية اللازمة لفترات طويلة عن المتغيرات الكلية من الناتج القومي إلى المدخلات اللازمة من عمل ورأس مال . وربما كان الاستثناء الوحيد ـ حسب علم الكاتب ـ هو الدراسات الكمية التي تمت في الخمسينيات عن نمو الزراعة المصرية ، والتي قامت بها مدرسة من الاقتصاديين القياسيين ، بقيادة أستاذنا الدكتور محمد محمود الإمام ، ومنها يتضح أهمية عنصر العمل في نمو الانتاج الزراعي .

ويمكن تلخيص نتائج دراسات النمو الاقتصادي التي ظهرت عالميا خلال الثلاثين عاما الماضية في عدة أمور ذات أهمية خاصة في مجال رسم السياسات الاقتصادية :

أولا : أن التقدم الفني والمعرفي من أهم عناصر النمو الاقتصادي في العالم بأسره .

ولابد من الإشارة إلى أنه حتى تساهم هذه المعرفة في التطور الاقتصادي كان لابد من امتصاص هذه المعرفة ، وتطبيقها في ثلاثة مجالات : في مجال رأس المال ، حيث تظهر الأفكار الجديدة في صورة مخترعات ، تترجم عاجلا أو آجلا إلى معدات رأسمالية جديدة ، قادرة على إنتاج سلع جديدة تماما ، أو انتاج سلع قديمة بكفاءة أعلى وتكاليف أقل . وفي مجال العمل ، حيث تتطلب الطاقات الانتاجية المتطورة تحسنا في المهارات الموجودة عن طريق التدريب أو مهارات جديدة يفرزها النظام القائم . وفي مجال التنظيم والإدارة ، حيث يربط رجال الأعمال ما يظهر في الأسواق من معدات جديدة بما هو مطلوب في أسواق العمل من مهارات متطورة . ومساهمة المعرفة في النمو الاقتصادي تتوقف على هذه التطبيقات جميعا ، وفي آن واحد .

ثانيا : أن تراكم رأس المال الذي كان مصاحبا لعملية النمو الاقتصادي حدث بطبيعته في صورتين متلازمتين :

زيادة حجم المدخرات (رأسمال نقدي) ،

واستخدام المدخرات المتزايدة في تمويل الإنشاءات والمعدات الرأسمالية والبنية التحتية اللازمة لعملية الانتاج (رأسمال عيني) . بعبارة أخرى ، فإن ازدياد المدخرات كان شرطا ضروريا ، لكنه لم يكن كافيا لتراكم رأس المال على الصعيد الدولي . أما الشرط الكافي فكان في استثمار تلك المدخرات في إنشاء المصانع والموانيء والمطارات ، وتركيب المعدات والآلات ، ومد الطرق والجسور وشبكات الكهرباء ، واقامة المساكن والمدارس والمستشفيات . ولقد حدث هذا في الأقطار العربية منذ الخمسينيات ، لكن معدلات التغير كانت ملحوظة في الأقطار النفطية على الأخص منذ السبعينيات ، حينما قفز حجم المدخرات قفزات كبيرة مع ارتفاع أسعار النفط ، وهو ما أتاح الموارد اللازمة مباشرة لتمويل الاستثمارات الضخمة في البنية التحتية لتلك المجتمعات .

عناصر أساسية تنقصنا

ثالثا : أن كثيرا من الوحدات الانتاجية الكبيرة والحكومات المستنيرة في مختلف البلاد أصبحت تخصص موارد لايستهان بها لتطوير الأبحاث والمعرفة الفنية ، من أجل إفراز مخترعات جديدة ، تساهم في تعميق عملية التنمية الاقتصادية ، وفي زيادة أرباح المساهمين ، سواء عن طريق المنتجات الحديثة أو تحسين أداء الوحدات الانتاجية القائمة وكفاءتها .

هذا الاتجاه ، وإن كان قد بدأ في الشركات الأمريكية ، ودعمته اتفاقات الحكومة الفيدرالية الأمريكية خلال الأربعين سنة الماضية ، إلا أنه قد انتشر بسرعة ، سواء في الشركات العالمية الكبرى ، أو في بعض الحكومات الجادة في دعم الصناعة في بلادها . والجدير بالذكر هنا أن هذا الاتجاه لما يبدأ بعد في الوطن العربي بصورة جادة ، أو على النطاق الذي يستحقه .

رابعا : أن تطوير مهارات العاملين أصبح الشغل الشاغل للحكومات والشركات الكبرى ، فزاد الانفاق على التعليم العام والفني . ولا تكاد أي شركة تخلو من نظم تدريب العاملين فيها على استخدام التقنية الجديدة . صحيح أن حكومات كثيرة قد رفعت شعار الاهتمام بالتعليم ، لكن العبرة في كيفية استخدام نظام التعليم لدفع عجلة التنمية الاقتصادية ، فمجرد زيادة الإنفاق القومي على التعليم بأوجهه المختلفة لايضمن بالضرورة خدمة أهداف التنمية ، أو الإسراع بمعدلات النمو الاقتصادي . وفي وطننا العربي ، على الرغم من ارتفاع الانفاق الحكومي على التعليم ، وعلى الرغم من تخرج أعداد متزايدة من الطلبة ، فإن نظم التعليم عندنا تمر بأزمة ، لعدم قدرتها على الوفاء باحتياجات التنمية الاقتصادية من القوة العاملة والمهارات من ناحية ، وتزايد البطالة المقنعة والسافرة بين صفوف المتعلمين من ناحية أخرى .

خامسا : أنه حتى لو توافرت كل العناصر السابقة ، فقد أوضحت الدراسات العديدة أن التنمية الاقتصادية لاتتم مالم تتوافر الأعداد الكافية والنوعيات المتميزة من المنظمين ورجال الأعمال القادرين على تحمل المخاطر اللازمة لإقامة المشروعات الانتاجية وإدارتها لإشباع حاجات المستهلكين . والمخاطرة هي المحك الأساسي لقدرات رجال الأعمال ، فعن طريقها يتم تصنيفهم وفرزهم إلى قادرين وغير قادرين . غير القادرين يتم استبعادهم بطريقة أو بأخرى عن مجالات الانتاج ، أما القادرون فيتم تصنيف قدراتهم وفرزها وفقا لمقاييس أخرى ، من أهمها المعرفة الفنية والمالية والإنسانية . المعرفة الفنية لا تنحصر في تقنية الإنتاج وحسب ، وإنما تمتد إلى تطورات الأسواق والأذواق . أما المعرفة المالية فتشمل التخطيط المالي والإدارة المالية التي تربط النواحي الفنية بتكاليف المشروعات وإيراداتها ، لضمان تحقيق الأرباح في الأمد

الطويل ، أما المعرفة الإنسانية فتقوم على تنظيم العاملين ، وترتيب الحوافز لهم ، بما يحقق كفاءة إنتاجية عالية للمشروعات . هذه الأنواع المختلفة من المعرفة تحدد في النهاية حجم المشروعات التي يضطلع بها رجال الأعمال ، وفقا لتباين قدراتهم . والجدير بالذكر هنا أنه في وطننا العربي ، نتيجة تدخل الدولة في المجال الإنتاجي ، فإن عامل المخاطرة في كثير من الأحيان أصبح شبه معدوم ، وبالتالي فإن مديري المشروعات الانتاجية ليسوا دائما من خيرة المهيئين للإدارة ، كما أن اختيار مديري المشروعات لايتم ، في معظم الأحيان ، وفقا لقدراتهم المعرفية ، وإنما لاتصالاتهم بالسلطة ، أو لعلاقاتهم العائلية . من هنا نستطيع فهم فشل معظم مشروعات القطاع العام في كثير من الأقطار ، كما نستطيع فهم صعوبات مشروعات القطاع الخاص ، وعدم قدرتها على إشباع حاجات السوق المحلي ، أو على الدخول في السوق العالمي بثقة ونجاح .

وهكذا ، نصل في نهاية المطاف إلى التعرف على بعض العوامل الموضوعية التي تستطيع شرح (لماذا تنمو بعض المجتمعات ، ولماذا يتعثر بعضها الآخر ؟). ولما كان التعثر هو حظ أقطارنا حتى الآن ، فلا يسعنا إلا أن نحاول أن نفهم بوضوح طبيعة كل عنصر من العناصر الانتاجية التي تؤثر على نمو الاقتصاد العربي . لابد لنا أولا أن نفهم «ديناميكية» عنصر العمل كمًّا ونوعا ، تلك التي تدخل في النمو الاقتصادي بما تعارف الاقتصاديون على تسميته رأس المال البشري .

كما لابد لنا ثانيا أن نفهم قضية تكوين رأس المال بشقيه المالي والعيني ، حتى ندرك لماذا أخطأت بعض النظريات الاقتصادية (النيوكلاسيكية) ، عندما افترضت أن التنمية وتراكم رأس المال مرادفان مرتبطان . كما لابد لنا أخيرا أن ننظر إلى التقدم المعرفي والتقني ومدى مساهمته في النمو الاقتصادي ، من منظور عالمي ، حتى نقتنع بأن التعثر ليس بالضرورة مكتوبا علينا إلى الأبد . لابد لنا أن نحلل ، أو ندقق في هذه القضايا المصيرية ، حتى نتعرف أين نحن ، وأين العالم من حولنا ، حتى نستطيع اللحاق بالركب العالمي . □

- لايحق لأحد تربية أولاده دون إحاطتهم بالكتب لا سيما إذا كان يستطيع شراءها . (هنري بيتشر)
- أعرف شيئا واحدا هو أن الوحيدين بينكم الذين سيكونون سعداء بالفعل هم أولئك الذين سعوا وعرفوا كيف يخدمون . (البرت شوايتزر)
- الفن الحقيقي ليس هو أن تقول الشيء الصحيح في الموضع الصحيح فقط ، بل أن تمتنع عن قول الشيء الخطأ في اللحظة الحرجة . (دوروثي نفل)
- إنني أوجس خيفة من ثلاث جرائد ، أكثر مما أوجس ذلك من مائة ألف مقاتل . (نابليون)
- الجهال كفاكهة الصيف ، يسهل الحصول عليها ، ويصعب الاحتفاظ بها . (فرنسيس بيكون)



نابليون

شمائل المغني وآداب الغناء في التراث العربي

بقلم : محمد الأسعد قريعة*

مثلما للموسيقا قواعدها و « سلالمها » ، فإن للمغني وللموسيقي شمائل وصفات ، ولمهنة الغناء آداب وقواعد ، كتب عنها العرب من قبل وضمنوها كتبهم وتراثهم . فهل يلتزم الطرب والغناء السائدان في أيامنا هذه بالقواعد التي جاءت في كتب أسلافنا ؟

قال أحمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف المعروف بتلميذ الكندي : « لم تزل هذه الصناعة - صناعة الموسيقا - إذا طلبت حق الطلب ، وتبع كل محمول - مجهول - فيها حتى يحاط بمعرفته ، تتقدم سائر التعاليم عند الفلاسفة بالشرف ، فإنهم كانوا يرون أن علم العدد وعلم الهندسة وعلم النجوم دون علم اللحون في الشرف » .

وللغناء في الإنسان أثر عجيب ، من تصفية الذهن ، وتهدئة الأعصاب ، ودفع السأم ،



* أستاذ التربية الموسيقية بالمعهد الصادقي في القطر العربي التونسي .

وبعث السرور ، بل وله قدرة على دفع بعض الأمراض النفسية والعصبية . ولعل ذلك من الأسباب التي جعلت الغناء يرافق الإنسان ، ويحظى عنده بالعناية والاهتمام منذ تفطّن لتأثيره السحري هذا عليه ، في أزمنة موغلة في القدم .

وما كان للغناء أن ينفذ إلى أعماق النفس ، وأن يحرك وشائجها مهما بلغت الألحان من السحر والجمال ، ما لم تتهيأ له الأداة الصالحة ، وهي المغني المُجيد .

فالمغني ركن أساسي ومهم في العمل الموسيقي ، ويتحمل قسطاً كبيراً من المسؤولية في نجاح العمل أو فشله ، خاصة في التقاليد الموسيقية المقامية التي تعتمد في جانب كبير منها على الصوت البشري ، وإمكانياته في الأداء والتعبير . وكم من لحن ثري جيد مرّ بنا مرّ الكرام ، دون أن يترك فينا أثراً يذكر ، وكم من لحن ترنّمنا به ورددناه ، على بساطة فيه ، والفضل في ذلك يرجع الى المغني الذي أعطاه من روحه ومن ذوقه ما جعل النفوس تتعلق به وتطرب له .

وقد وضع بعض أسلافنا من العرب ، ممن اهتموا بالكتابة عن الفن الموسيقي ، جملة من الشروط والشمائل الواجب توافرها عند المغني ، حتى يقترب من الكمال في هذه الصناعة التي تدعو - حسب رأي ابن خلدون - « إلى مخالطة الملوك والأعاظم في خلواتهم ، ومجالس أنسهم ، ولها بذلك شرف ليس لغيرها » . ونسوق من بين هؤلاء الحسن بن أحمد علي الكاتب ، (عاش في القرن السادس للهجرة) ، وأحمد بن الطيب العلمي المغربي ، صاحب كتاب « الأنيس المطرب » .

وتنقسم هذه الشروط والشمائل إلى ثلاثة أقسام : أولها الشمائل الخَلْقية ، وثانيها المهارات الفنية ، وثالثها الصفات الذاتية . سنتناولها فيما يلي واحداً واحداً بشيء من الإيجاز .

الشمائل الخَلْقية :

لعل أول ما يجب أن يتصف به المغني حسن الصوت وجماله ، وهو من مستلزمات الغناء العربي ، وبدونه يستحيل على المغني أداء الألحان بطريقة يطرب لها السامع . وقد ميز العرب الأصوات الجميلة تمييزاً دقيقاً ، وعدوها نعمة سامية ، يختص بها بعض الناس دون بعضهم الآخر . غير أن الصوت - وشأنه في ذلك شأن كل ما يتصل بجسم الإنسان - يسير إلى الضعف وذهاب الرونق والحسن ، ما لم يتعهده صاحبه بالعناية اللازمة ، والرعاية المتواصلة ، ومن ذلك مثلاً النوم الكافي ، والرياضة المعتدلة ، والهواء النقي ، وكثرة الغناء ، والتمارين على الغناء ، والأكل الصحي ، واجتناب السهر الطويل ، واجتناب ترك الغناء ، وعدم الغناء بطبقة تعلو طبقة الصوت الطبيعية ، والابتعاد عن الخمر والتدخين والماء المثلج .

وقد أخبرنا التاريخ أن زرياب كان يختبر أصوات التلاميذ المراد تعليمهم ، متبعاً في ذلك طريقة علمية مضبوطة دقيقة ، وكان لا يقبل إلا أصحاب الصوت الندي الصافي .

والصفة الخَلْقية الثانية الواجب توافرها عند المغني ، سلامة النطق من كل عيب ظاهر ، إلى جانب القدرة على إظهار الحروف عامة ، وحروف الصفير خاصة ، وهي : « السين ، والصاد ، والزاي ، فإنها إذا ظهرت وخرجت صافية زادت في بهاء الصوت وحُسنه جداً ، ووقعت موقعاً مستحباً مستلذاً » .



المهـارة الفنيـة :

تحتـاج كـل صنـاعـة إلى جملة من المهـارات والتقنيات التي يتحتم إتقانها والإحاطة بها ، بما يضمن النجاح والتفوق . على أن التفوق يحتاج فيها يحتاج إلى روح الخلق والابتكـار ، وموهبـة الخيال الواسع والذوق الرفيع ، وهي أشيـاء لا تتأتى لكل الناس ، ولهم فيها درجات مختلفة

والغنـاء من الصنائـع التي تحتـاج إلى كثـير من المهـارات والخبرات التي تكتسب بمـرور السنين الطوال ، وبكثير من الجهد والعناء والصبر ، الى جانب وجود الدافع الذاتي القوي ، والاستعداد الفطري لممارسة هذه الصناعة . ولعـل أول ما يحتاجه المغني معرفة أسرار الموسيقا ودقائقها ، من حيث أنها علم ينقسم إلى علمين ، أولهما : علم التأليف الذي يبحث في كل ما يتصل بالأنغام ، من حيث حدوثها ونسبها وائتلافهـا وتنافرها ، وتـركيباتهـا وأنمـاطهـا التي تعـرف اليـوم بـاسم (الطبوع والمقامات) . ولا شك في أن اكتساب مهـارة العزف عـلى إحدى الآلات اللحنيـة ، وبخاصة آلة العود ، يساعد كثيراً ، بل ويعـد ضرورياً للإحاطة بعلم التأليف . وقلّ ما نجد في تاريخ الغناء العربي القديم والمتوسط مغنياً لا يجيد العـزف على آلـة العود ، وإن وجـد فلا يسمى مغنياً ، بل كان يطلق عليه اسم « الشادي » .

والعلم الثاني علم الإيقاع الذي يعرّفـه ابن سينا بأنه « تقدير مالزمان النقـرات » . ويعرفـه الفارابي بأنه « النقلة على النغم في أزمنة محدودة المقادير » ، فيحتاج الإحساس به إلى طبع سليم مستقيم . غـير أن معـرفـة طبيعـة الإيقـاعـات والنسب الـواقعـة بـين نقـراتهـا ومـواقـع القـوة والضعف فيها تساعد المغني على حسن التصرف في الحليات والزخارف اللحنية ، وحسن تصريف الهـواء المـدفـوع إلى خـارج الفم والأنف أثنـاء الغناء ، بما يضمن الأداء السليم من كل تقطع يخرج به عن القصد والاعتدال .

ويحسن بنا ونحن نتحدث عن المهارات الفنية للمغني ، أن نورد نصاً روي عن ابن سريج مغني مكة (٦٣٤ - ٧٢٦م) الذي قال عنه معبـد ، مغني المدينة المتوفي (٧٤٣م) على تنـافس كان بينهمـا : « لو جـاء في الغناء قـرآن مـا جـاء إلا هكذا » . تقول الرواية : « قـال مالـك بن أبي السمح : سألت ابن سريج عن قـول الناس : فلان يصيب وفلان يخطيء ، وفلان يحسن وفلان يسيء ، فقال : المصيب المحسن من المغنين هو الـذي يُشْبع الألحـان ويملأ الأنفـاس ، ويعدل الأوزان ، ويفخّم الألفاظ ، ويعرف الصواب ، ويقيم الإعـراب ، ويستـوفي النغم الـطوال ، ويحسن مقاطيع النغم القصار ، ويصيب أجناس الإيقاع ، ويختلس مواقع النبرات ، ويستوفي ما يشـاكلهـا في الضـرب من النقـرات » (كتـاب الأغاني ، ١ : ٣١٥) .

وينتهي بنا المطاف في القسم الثاني إلى الحديث عن الزخارف الصوتية التي يحلي بها المغني غناءه ، ولا غنى له عنها إذا رام الإجادة ، وبعث الطرب في النفـوس ، والـزخـارف بنـوعيهـا ، اللحني والإيقاعي تعد عنصراً مهماً وثابتاً في كل التقاليد الموسيقية المنتمية إلى العائلة المقامية التي تتميز بتحركهـا وفق خط لحني أفقي ، بـل إن دور الزخارف اللحنية يتجاوز أحياناً مجرد التحلية إلى إعطاء الطابع المميز لمقام ما ، أو للون موسيقي معين . وقد تفطن العرب المتقدمون لهذه الخاصية وأولوها ما تستحق من الاهتمام والعناية . فنرى زريـاب يقسم عمله في تعليم الغناء إلى ثـلاث مراحل ، فيبدأ التلميذ بإلقاء القصيد أو الموشح بمصاحبة دف ، حتى يتعلم مختلف مواقع النّبر في الإيقاع ، ثم يقوم الأستاذ بتعليم اللحن بأبسط أشكاله ، وفي مرحلة ثالثة - وهي الأخيرة - يقع إتقـان الـزائـدة اللـحنيـة ؛ أي الحـليـات والزخارف . وهـذا ما يـدلنا عـلى أهمية إتقـان الزخارف في الغنـاء العربي ، وقـد اهتم بعض المؤلفين الموسيقيين العرب بإعطاء اسم لكل نوع

من الزخارف ؛و المواضع المُعينة ، نورد فيها يلي بعضها ، وهي :

النبرات ، والشذرات ، والصرخات ، والنهدات ، والضجرات ، والزجرات ، والتدريج ، والتغليقة ، والتفخيم ، والتأوه ، والنوح ، والاستغاثة ، والقهقهة ، والشهقات ، والهمزة .

الصفات الذاتية :

لئن كان المغني يسعى في العصور المتقدمة إلى الاتصاف بجملة من الشمائل والمناقب ، تؤهله لمجالسة الملوك والأمراء والأعيان ، فهو اليوم مطالب بالجد في اكتساب الكثير منها ، لأنه - مع غزو وسائل الإعلام المرئية والمسموعة كل البيوت - أصبح محط أنظار الملايين ، وأصبح في كثير من الأحيان قدوة لملايين الشباب في لباسه ومظاهر حياته العامة ، بل حتى الخاصة ، وكم من تسريحة شعر أو « موضة » غزت العالم تقليداً لهذا المغني أو لتلك المغنية . ولم تهمل الكتب التراثية هذا الجانب أيضاً ، وأولته ما يستحق من الاهتمام والاعتناء ، بل وتشددت في المزايا الذاتية والصفات النفسية والأخلاقية التي يتحتم على المغني الاتصاف بها ، حتى يحافظ على نبل هذه الصناعة وشرفها .

ومن ذلك مثلاً ما أورده محمد بن الطيب العلمي المغربي في كتابه « الأنيس المطرب » ، إذ يقول : « ينبغي أن يكون المغني حسن الخلق ، جميل الخُلق ، له حلاوة ، وعليه طلاوة ، لطيف الإشارة ، مستعذب العبارة ، حافظاً للمُلح والأخبار والنوادر والأشعار ، عالماً بمعاني الكلام ، عارفاً بما يليق بكل مقام ، غير عتاب ولا نمّام ، كتوما للأسرار ، راغباً في الأخيار وعن الأشرار ، وجوارحه سالمة من العيوب ، وشمائله تميل القلوب ، صنعته معجبة ، وأحاديثه مطربة » .

ويقول الحسن : « يستحب من المغني أن لا يلوي شدقه ، ولا يعوج عنقه ، ولا ينحني ، ولا يتقاعس ، ولا يحرك بدنه أجمع ، ولا يشنج عينيه ، ولا يتحرك البتة من جهة إلى جهة . وأحسن الإشارة ما كانت بالعين والحاجب والكف والمناكب والرأس قليلاً » .

ونختم هذا القسم الثالث بمقتطف من فقرة أوردها الحاج إدريس بن جلون المغربي ، في مقدمة « كتاب الدروس الأولية في الموسيقا الأندلسية » ، تحدث فيها عن الصفات التي يجمل بالمغني التحلي بها ، يقول : « يجب على المنشد التمسك بالوقار والحشمة ، غير أن ذلك لا يمنع المغني من رسم معاني الكلمات على صفحة وجهه ، فيكون مبتسماً في المكان الذي يعبر عن الفرح والسرور ، متأثراً في محل الألم والأسى ، منشرحاً عند وصف الطبيعة وإقبالها والتلذذ بجمالها ، منقبضاً ساعة توديعها ، وعند ذكر الفراق والبعاد . وهكذا من المعاني وما تعبر عنها هذه الأنغام » .

ويحسن بنا ونحن ننتهي من هذا المقال أن نورد تتمة النص الذي كنّا استهللنا به حديثنا هذا ، لانطباقه على الكثير من أحوال الغناء والمغنين عندنا في هذه الأيام . يواصل ابن الطيب السرخسي قائلاً : « ولما تعلقّ باسم هذه الصناعة دون معناها ، سقّاط العوام فادعوا منها ما لا يحسنون ، واكتسبوا بها من قوم لا يفهمون ، وضعها ذلك عند من عدم التحصيل ، فأما المُحصلون ، فإنهم لم يروا أن يُلزموا من أصاب عَتْب من أخطأ ولا من علم نقص من جهل ، بل وفّوا الصناعة حقها ، وعرفوا لها قدرها ، ونظروا إلى علمها بعين التعظيم والتكرمة ، ووقّروا من صنعها بالبر والمواساة » . □

* حب الجمال هو : حب لكل شيء في أسمى الصور .
(عباس محمود العقاد)

أرقام

بقلم : محمود المراغي

صناعة الحرب

يتفق كثيرون حول أن العالم يدخل عصراً جديداً ، تتراجع فيه فكرة المواجهة ، إنه عصر من طراز خاص ، يزداد فيه الاعتماد على العقل ، حتى باتت التقنية المتقدمة والمعلومات المبرمجة أغلى وأهم سلعة في التداول ، بل أصبحت في الوقت نفسه مبرراً للتواصل ، « والاعتماد المتبادل » بين الدول ، كما أصبحت عاملاً يساعد على تقليل أهمية الحدود السياسية ، كحدود فاصلة ، تحتضن الأمة والشعب الواحد الذي يعتمد على الذات .

إنه عالم جديد ، أو هكذا تبدو بوادره الآن ، وهو عالم تأخذ فيه القوة معنى آخر ، غير امتلاك أكبر « ترسانة » للسلاح ، وأكبر حجم من الجيوش .

السؤال : قبل أن تمضي جهود خفض التسلح ، وخفض التوتر ، كيف كانت هذه الساحة التي ترتكز على فكرة دمار الآخرين ، والتفوق عن طريق تحطيمهم ؟

الأرقام الأخيرة للبنك الدولي تقدم الإجابة .

من يدفع أكثر ؟

لنأخذ عاما يسبق سنوات التحول ، ولنقل عام ١٩٨٥ .

في ذلك العام القريب أنفق العالم (٩٠٠) مليار دولار على الأغراض العسكرية ، بما يساوي ٦٪ من الإنفاق العام .

وبمعنى آخر فإن بين كل ستة عشر دولاراً تنفقها الدول دولاراً واحداً لأغراض الدفاع ، وخمسة عشر دولاراً لكل أغراض الحياة الأخرى ، ولم تكن هذه النسبة واحدة في كل مناطق العالم .

كان الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية خارج دائرة الحصر ، فحتى ذلك التاريخ (١٩٨٥) لم يكن الاتحاد السوفيتي قد أذاع أرقام إنفاقه العسكري (وهو ما تم أخيراً) . وحتى ذلك التاريخ وبالأخذ في الحسبان فترة زمنية مناسبة (١٩٧٤ - ١٩٨٥) كانت الدول الصناعية بطبيعة الحال تستأثر بأكبر حجم من الإنفاق العسكري ، وكانت الولايات المتحدة تتصدر المجموعة ، بينما كانت الدول النامية التي تنفق قدراً أقل تسجل نسبة أعلى من الإنفاق ، بالقياس لناتجها القومي .

بالأرقام كانت أمريكا اللاتينية استثناء يلفت النظر ، فإنفاقها العسكري لم يتجاوز (١,٥٪) من ناتجها القومي ، بينما سجلت منطقة الشرق الأوسط وشمال افريقيا أعلى معدل ، حيث يتراوح الإنفاق على الأغراض العسكرية فيهما بين (١١٪) و (١٤٪) من الناتج القومي ، خلال

سنوات (٧٤ ـ ١٩٨٥) ، وكانت النسبة في شرق آسيا (٧٪) وفي جنوبها (٤٪) .

وبمقياس آخر هو : انفاق الحكومة المركزية ، فإننا نجد أن النفقات العسكرية تصل إلى ربع الميزانية في الولايات المتحدة ، وتهبط إلى ١٨٪ في بعض الأقطار العربية ، كمصر ، بينما ترتفع إلى ثلث الميزانية في بعض الأقطار التي تواجه أزمات أمنية .

في كل الأحوال كانت ميزانية الدفاع عبئاً غير قليل ، ليس بالنسبة للإنفاق العام فقط ، بل بالنسبة للعبء على موازين المدفوعات ، وحصيلة العملة الأجنبية أيضاً . ووفقاً للأرقام المتاحة فإن (٥٪) من واردات الدول النامية أسلحة .

آثار مختلفة :

يختلف رجال الاقتصاد حول أثر الإنفاق العسكري ، فبعضهم يعتقد أنه أثر إيجابي ، فمن خلال الاستعداد العسكري تشهد البلدان تطوراً تقنياً ضرورياً ، ويجري تدريب الأفراد وتزويدهم بالمهارات ، بل وتتوافر فرص للعمل ، وتدفع الصناعات العسكرية الصناعة المدنية وراءها .

على الجانب الآخر ، يعتقد بعضهم أن الأثر سلبي ، فالبديل للإنفاق العسكري المرتفع مشروعات ضرورية للتنمية . ومن خلال دراسة حول حقبتي الخمسينيات والستينيات في (٦٩) بلداً ، اتضح أن زيادة الإنفاق العسكري تأتي على حساب النمو الاقتصادي والإنتاج الزراعي ، وتزداد وطأة السلبيات ، وتقل الإيجابيات ، بالنسبة للدول النامية ، فالإنفاق لايتجه لتصنيع وتقنية ، بل يتجه ، في معظم الأحيان ، لبندين فقط : رواتب العسكر ، واستيراد السلاح .

هل تتغير هذه الصورة تحت تأثير مايجري الآن ؟ وهل ينكمش الإنفاق العسكري ، وتتجه الجهود للتنمية والرفاهية ؟

الواضح أن ذلك هو الهدف بالنسبة للدول المتقدمة ، ولكن ماذا عن الدول النامية ؟

يرتبط الأمر حسب ظننا بثلاثة عوامل :

الأول : القدرة الاقتصادية ، حيث تراكمت الديون ، وتفاقمت أزمات الغذاء ، وزاد الاعتماد على الخارج ، وأصبح ضغط الإنفاق وإعادة توجيه الموارد أمرين ضروريين في معظم بلدان العالم الثالث .

الثاني : مدى الحاجة ، وأي قدر من التوتر والأزمات يدفع لمزيد من التسلح أو لمزيد من الاسترخاء .

الثالث : العامل الخارجي ، فعلى احتكارات السلاح الآن أن تتخذ قراراً : هل توجه جهودها لصناعات أخرى ، أم تتجه لأسواق الدول النامية ، فتصدر لها الأزمات ، ومن بعدها السلاح ؟

وقد يقول بعض : إن العديد من مناطق التوتر يشهد الآن انفراجاً وتراجعاً للأزمة . والسؤال : أي المناطق وأي الأزمات ؟ هل كل المناطق ، وكل الأزمات ، أم تلك المناطق التي تشهد مواجهة أو خطر مواجهة بين العملاقين ؟

إن روح « التعاون بدلا من المجابهة » ، و « التنمية بدلاً من التسلح » ، تنتشر الآن ، وإذا كانت البداية من الشمال ، فإن الأمل أن يمتد ذلك الى الجنوب ، فليست دولة قوية تلك التي تملك الصواريخ ولاتملك القمح اللازم للرغيف ، وليست أمة رشيدة تلك التي تستطيع أن تحل مشاكلها بالسياسة فتلجأ الى الحرب .

إن القرن الواحد والعشرين لابد أن يكون شيئاً آخر . هكذا علمتنا تجربة القرن العشرين التي شهدت أكبر قدر من الحروب ، وأكبر قدر من الدمار ، وأوسع تدمير للموارد . □



العادات العربية هل لها علاقة بأمراض المفاصل ؟

بقلم : الدكتور زياد محمد الزعبي *

اكتسح دول العالم الثالث - نتيجة لانفتاحها على الدول الغربية - كثير من سلوكيات الحياة ، وعاداتها اليومية ، منها استبدال الأرض بالمقاعد الوثيرة عند الجلوس للراحة أو تناول الطعام ، وممارسة العمل الوظيفي . ويرى بعض أطباء العظام أن هذا التبديل له انعكاسات صحية سلبية - كتآكل المفاصل - تعاني منها الدول الغربية ، وينصحون بالعودة للعادات القديمة . فهل هذا ممكن ؟!

في مارس عام ١٩٨٩ ، قامت الأميرة ديانا وزوجها ، ولي العهد البريطاني ، الأمير تشارلز ، بزيارة إلى منطقة الخليج العربي ، في الوقت الذي كان فيه الانجليز - بصفة عامة - يتندرون على أميرتهم الجميلة التي كانوا يرونها من خلال التلفاز البريطاني ، حيث كانت تضطر للجلوس على الأرض مجاملة لأهل المنطقة ، وكانت هناك أيضا تعليقات يومية ساخرة ، تطلقها الصحافة الشعبية الانجليزية . في ذلك الوقت كان حوار مختلف يدور في أحد المعاهد

* جراح عظام وباحث في الطب بمستشفى أبوظبي المركزي .

العلمية المتخصصة في لندن ، بين باحث عربي ومجموعة من كبار جراحي العظام اللندنيين وأساتذة علم الأمراض وميكانيكا المفاصل ، حول ظاهرة انتشار مرض تآكل مفصل الورك عند سكان أوربا وأمريكا من البيض ، وندرته أو انعدامه في المناطق الأخرى من العالم ، ومنها وطننا العربي.

وظيفة مفصل الورك

ومفصل الورك يربط بين رأس عظمة الفخذ ـ وهي عظمة كروية الشكل تقريبا ـ وبين الحق ، وهو نقرة في عظام الحوض ، ويقوم هذا المفصل بوظيفتين رئيسيتين :ـ

الأولى : حمل الجسم أثناء الوقوف والحركة ، والثانية : تحريك الرجلين في جميع الاتجاهات . ولكي يستطيع هذا المفصل القيام بهاتين الوظيفتين لابد له من أن يتصف بصفات خاصة ، أولها شكله كدائرة عظمية وسط نقرة مجوفة ، قطرها أوسع بقليل من قطر الدائرة العظمية . وثاني هذه الصفات الأربطة القوية التي تحيط بهذا المفصل ، وتقوي الجراب المحيط به ، مما يمنع خلعه . وثالثها تلك العضلات القوية التي نراها ممتدة من الحوض إلى عظم الفخذ من جميع جوانب هذا المفصل ، وحين انقباضها يتحرك هذا المفصل في الاتجاه الذي تنقبض فيه هذه العضلات أو تنبسط ، واتساع هذه الحركات يختلف من شخص لآخر ، ومن الطفولة إلى الكهولة ، حيث تتناقص هذه الحركات مع مرور الزمن وتقدم العمر ، وذلك بسبب تيبّس العضلات ، وهدم الغضروف المغطي للعظم . وعلاوة على القدرة على الحركة التي يتمتع بها هذا المفصل ، والمرونة العالية التي يمتاز بها ، فإنه يعد من أعقد المفاصل من حيث ميكانيكية عمله ، والقوى المتحكمة فيه . وإلى وقت قريب كانت معرفة القوى المتحكمة في عمل هذا المفصل وآلية حركتها من الموضوعات الشائكة في جراحة العظام ، وظلت هذه المعرفة **مبهمة** ، حتى بدأ جراحو العظام ، وبمساعدة هندسية كبيرة ، يفكرون في استعمال المفاصل الصناعية البديلة لهذا المفصل في حالة تلفه . ومن أسباب تلف هذا المفصل الالتهاب الجرثومي الذي قد يصيبه ، ويسبب تدمير الغضروف الذي يغطي طرفي العظام في أي مفصل . وهذا الغضروف يكون ناعم الملمس ليقوم بتسهيل حركة المفصل . كما أن الخلع الوركي الولادي ، والكسور ، قد تؤدي بعد فترة طويلة إلى النتيجة نفسها .

إن الغضروف الذي يبطن العظم عند المفصل هو من أهم عوامل محافظة المفصل على حيويته . ويتراوح سمكه بين ملليمتر واحد وأربعة ملليمترات ، وهو على درجة عالية من النعومة ، وله قابلية غير منظورة للانضغاط ، لأن ٧٥٪ من مكوناته عند سن الطفولة ماء ، ولكن هذه الكمية من الماء تتناقص مع تقدم السن ، مما يؤدي إلى هبوط قدرة هذا المفصل على الانضغاط .

وحتى نحافظ على ميزات هذا الغضروف لابد من دراسة كيفية بقائه حيا ، فمن المعروف أن تغذية النسيج الغضروفي تختلف عن بقية الأنسجة ، فهو لا يتغذى عن طريق الدم ، كما هو الحال في العضلات أو العظام أو الجلد ، إنما يتغذى بطريقتين ، الأولى عن طريق ارتشاح الموادالغذائية والاكسجين من الأنسجة المجاورة له ، مثل العظام ، والثانية عن طريق السائل اللزج الذي يتكون في المفصل ، ويساعد على الحركة وكي يستطيع هذا السائل اللزج ، المليء بالمواد الغذائية والاكسجين ، أن يغذي الغضروف ، فلا بد له من أن يصل إلى كل جزء منه ، وهذه الطريقة على درجة كبيرة من الأهمية : لأنها تلعب دورا « كبيرا » في تغذية المفصل عند بعض الناس ، ولا تقوم بهذا الدور عند آخرين ، وهذا ما نعتقد أنه من أسباب التلف الذي يصيب بعض المفاصل ، إذ أن مفاصلهم لاتتغذى جيدا خلال سني عمرهم الطويلة ، وينتهي الحال إلى نشوء حالة الالتهاب العظمي الغضروفي الأولي ، أي دون سبب أولي معروف .

وهذه الحالة المرضية هي التي تنتشر في أوربا وأمريكا وغير موجودة عندنا.

الالتهاب العظمي الغضروفي:

هو ذاك التغيير الذي يحدث في الغضروف المبطن للمفصل، ويؤدي إلى خشونته أولا، ثم تآكله، حتى يصل إلى كشف العظم الذي يقع تحت هذا الغضروف، وتعريته، وهنا تبدأ مرحلة الألم والصعوبة في الحركة. ولقد صنف هذا المرض على أنه التهاب، وإن كان لا تنطبق عليه مواصفات الالتهاب الجرثومي أو الروماتيزمي، وما زالت البحوث والآراء تتوالى لمعرفة الأسباب، ولترجيح مسبب له على بقية الأسباب، لكن المؤكد أن التلف الذي يصيب هذا المفصل أو غيره يختلف عن حالة التدمير الناتجة عن مرض الروماتويد. والعلماء أكثر ميلا «للتأكيد» بأن هذه الحالة إنما هي اهتراء ميكانيكي للغضروف الذي يغلف أطراف العظام عند المفاصل، وما التغيرات الأخرى إلا نتائج جانبية لهذا الاهتراء.

وتقول البحوث الاحصائية: إن ٥٪ من البيض الذين يسكنون أمريكا وأوربا يصابون بهذا الالتهاب العظمي الغضروفي في سن الخمسين، وأن هذه النسبة تزداد إلى ٤٠٪ في سن الثمانين.

وتؤكد الأبحاث والدراسات الإحصائية التي أجريت على سكان المناطق الآسيوية والافريقية أن فرصة حدوث الالتهاب العظمي الغضروفي في مفصل الورك نادرة جدا جدا. وكذلك أكدت بعض البحوث الحديثة في الوطن العربي نتائج مشابهة.

ولدراسة هذه الظاهرة، واستقراء نتائج البحوث، والفوارق بينها، ومحاولة إيجاد الأسباب، تبين أن العرب بشكل خاص، والآسيويين والأفارقة بشكل عام، يستعملون - أو على الأقل كانوا يستعملون - مفاصل الورك بشكل مختلف عما يستعمله الأوربيون والأمريكيون.

الجلوس على الأرض يحمي

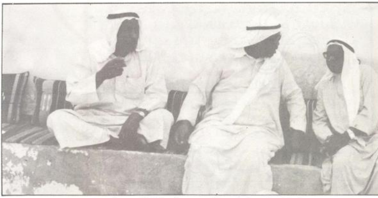
كان العربي الذي وصل الثمانينات من عمره يمشي لقضاء حاجته، ويركب الخيل والإبل، وكان إذا جلس يجلس على الأرض ساعات طويلة من النهار والليل. أما الإنسان الأوربي من الجيل نفسه، فإنه يمشي، ويركض، ويركب السيارة أو الحافلة، وإذا جلس يجلس على مقعد، سواء للراحة أو للطعام.

وبقليل من المقارنة ندرك أن معظم اللحظات الحياتية اليومية بين العربي والأوربي متشابهة، ولكن الاختلاف يبرز عند الجلوس في أوقات الراحة أو تناول الطعام، فالعرب كانوا يجلسون على الأرض، والأوربيون على الكراسي. فهل لعب هذا الفارق دورا في وقاية العربي من الحالة «المرضية» المسماة الالتهاب العظمي الغضروفي؟

للإجابة عن هذا السؤال حاولتُ دراسة جميع الأسباب المؤكدة والاحتمالية التي تؤدي لحدوث مثل هذه الحالة، وتوصلت إلى أنه لا خلاف جوهري في هذه الأسباب بين العرب والغربيين، وبقي السبب الميكانيكي، حيث تتواصل حركة المفصل طوال اليوم، خاصة عند الجلوس على الأرض، هذه العادة العربية الأصيلة التي نقضي في ممارستها ساعات طويلة من النهار والليل، وبخاصة عند البدو والفلاحين الذين ليس لديهم صالونات ومقاعد وثيرة.

وعند دراسة هذا السبب تبين وجود الاختلاف.

فالجلوس على الأرض يؤدي إلى ثني المفصل حتى النهاية، وحتى تصل الركبة إلى الصدر، وفي الجلسة التي سميت «التربيعة» تنفرج الرجلين. وإذا تخيلنا شكل المفصل نجد أن رأس عظمة الفخذ المستديرة قد دارت ١٨٠ درجة. أما الجلسة المفضلة لتناول الطعام فهي ثني إحدى الرجلين بشكل كامل، والأخرى بشكل جزئي. ولقد ثبت بالتحليل الميكانيكي لهذه الحركات والأوضاع أن مفصل الورك يمكث



المجالس العربية في البيوت أوما يسمى في منطقة الخليج « بالديوانية »

في أوضاع مختلفة مدة ساعات ، أي أن كل جزيئة من جزيئات رأس عظمة الفخذ تلامس كل جزيئة من جزيئات الفقرة .

هذا الدوران ينتج عنه ما يلي : أولا : استمرارية تحرك السائل المغذي للمفصل ، وبالتالي إمكانية وصوله إلى جميع أجزاء الغضاريف التي تغطي عظام المفصل . وثانيا : استمرارية ليونة المفصل مع تقدم السن . ولإثبات النتيجة الأولى درست بالتعاون مع متخصصين في ميكانيكية المفاصل هذه الحركات ، ودور السائل في إطعام الغضروف وتغذيته ، ووصلنا إلى نتيجة حاسمة ، هي أن لهذه الحركات والأوضاع دورا كبيرا في المحافظة على حيوية الغضروف المغطي للمفصل . أما النتيجة الثانية فلقد كان إثباتها أسهل : حيث درسنا قدرة العربي المسن على تحريك مفصل الورك . ووجدنا أنها تفوق قدرة الأوربي بكثير ، لكنها تتشابه مع ما وجده أحد الباحثين في هونج كونغ عند الصينيين .

وللرياضة القديمة دور

وإذا كانت العادات العربية في الجلوس والحركة والرياضة - ركوب الخيل والإبل - وأداء الواجبات الدينية للمسلم تساعد على انعدام - أو ندرة حدوث - تلف مفصل الورك ، فما حال الأجيال العربية الشابة التي ابتعدت عن ممارسة هذه العادات ، فاختفت بالتالي المجالس العربية من البيوت ، بعد أن استبدلوها - تقليدا لأوربا - بالمقاعد الوثيرة ، وبعد أن فرضت الحياة الوظيفية الجلوس على كرسي المكتب ساعات طويلة ، وبعد أن دخلت السيارة وسيلة للركوب ، وكرة القدم رياضة بديلة لركوب الخيل ؟ أعتقد أننا سنبدأ في مواجهة هذه المشكلة بعد أعوام ، حين يصل جيل الشباب الحالي إلى سن الشيخوخة .

وقد يعترض بعض الباحثين في طب العظام بأن الجلوس على الأرض يسبب تلف مفصل الركبة ، وفي عمر أقل بكثير مما يحدث عند الأوربيين ، ونكون بذلك حافظنا على مفصل ودمرنا الآخر . ولكن الدراسات أثبتت أن التلف في مفصل الركبة عندنا لاتزيد نسبته عن نسبة المصابين به في الدول المتقدمة ، كما أن الإصابة بالتلف عندنا لاتؤدي إلى النتيجة الاكلينيكية نفسها ، وأن الألم عند مرضانا أقل ، ومستوى حركة المفصل ودرجتها يبقيان أفضل ، والسبب هو « الجلوس على الأرض أيضا » . □

العربي - العدد ٣٦٩ أغسطس (آب) ١٩٨٩ م

حكايات طبية

عندما بدأت أتذوق الجمال في الطب

بقلم : الدكتور غسان حتاحت *

يقول برتراند راسل : « في علم الرياضيات نستشعر ذلك الجمال البارد الذي نحس به عندما نتأمل تمثالا رائعا من الرخام » .

ولا أذيع سرا إذا قلت إنني خلال سني الدراسة لم يسعدني الحظ بتذوق هذا الجمال في علم الرياضيات وإن كنت أحسست كثيرا ببرودته . ولا عجب في ذلك ، فأذواق الناس متباينة مختلفة .

وليس اختلافي في تقدير الجمال مع برتراند راسل فقط ، بل إن هذا الاختلاف كان أكبر بكثير مع بعض أساتذتي في كلية الطب .



من هؤلاء أذكر أستاذا كان يدرسنا بعض الدروس السريرية ، أي أنه كان يأتي بمريض إلى قاعة الدرس ، ثم يشرح لنا عن حالته أثناء وجوده . وكالعادة ينتقي الأساتذة المرضى الوصفيين الذين تبدو عليهم أعراض المرض ، وعلاماته بصورة واضحة جلية ، وكان هذا الأستاذ يبدأ درسه بجملة لا أذكرها الآن إلا ويرتفع ضغط الدم لدى (في تلك الأيام لم يكن لدي ارتفاع في الضغط) ، إذ كان يستهل الدرس بقوله : إن حالة هذا المريض جميلة جدا ، بل هي في منتهى الجمال ، وننظر إلى المريض البائس ، وإلى القيح والصديد اللذين يغطيان موضع آفته ، ونعجز - ربما عن بلادة في الإحساس لدينا - عن تذوق الجمال في ذلك ، أو في حالته ككل .

لاشك أن مريضنا كان أشد عجزا منا عن تذوق ذلك الجمال أيضا .

ولا بأس أن تكون حالة المريض وصفية كما تذكرها الكتب ، لكن أن نصفها بالجمال وهي جد قبيحة فذلك أمر آخر . وحتى لو كانت جميلة حقا فليس ذلك بالكلام الذي يقال أمام المريض المسكين ، فما من أحد مريضا أو غير مريض ، يرضى بأن يقال إن مصيبته جميلة .

وأستاذ آخر كان يدرسنا عن « الحالات الجميلة » في العيادة الخارجية للمستشفى ، وجاءه أحد المرضى ، وكان شيخا عجوزا مصابا بضخامة البروستات التي تؤدي إلى صعوبة شديدة في التبول ، وتقطع فيه ، وطلب الأستاذ من هذا الشيخ العجوز أن يبول أمام الموجودين ، وهم عشرات من طلاب الطب وطالباته . وشعر المريض بالحرج الشديد ، وهو في أحسن الظروف لايستطيع أن يبول بيسر وسهولة ، فكيف به أمام جمع غير قليل من طلاب الطب وطالباته ؟ وتحامل على نفسه ، وحاول ، وعجز عن ذلك ، ثم رفض أن يتابع الفحص وخرج حزينا كسيراً .

لست أدرى أي حرص على العلم دفع أستاذنا إلى هذا الطلب الغريب ، نحن نصدق المريض إذ يصف شكواه ونصدق الأستاذ عندما يحكي عن طريقة التبول لدى المصابين بتلك الحالة ، ولكن أن نجبر إنسانا على أن يرينا « جمال » الحالة المرضية لديه أمام جمع كبير ، فتلك - فيما أعتقد - قسوة وأي قسوة .

من هنا ترون عجزي - حتى ذلك الوقت - عن تقدير الجمال في الطب ، لكن الشيء بالشيء يذكر . أحد أساتذتنا في أمريكا - وهو كبير القدر مشهور الاسم - كان يطوف في جولة على الأطفال المرضى ، محاطا بمايشبه الجناحين الكبيرين من المقيمين والأطباء وطلاب الطب والممرضات ، ورأى طفلا صغيرا يبكي في سريره - ربما لأنه بلل ثيابه - فما كان من هذا الأستاذ جليل القدر إلا أن رفع الطفل الباكي إلى صدره ، وهو يرى ثيابه المتسخة ، ويشم الرائحة الكريهة المزعجة ، وأخذ يربت على ظهر الطفل ويناغيه ويداعبه ، حتى سكت الطفل ، غير مكترث بأن ثيابه - ثياب الأستاذ - غدت متسخة ، تنبعث منها الرائحة الكريهة .



وإذ أذكر تلك الحادثة بعد سنوات غير قليلة ،لا أشك أن كل الموجودين آنذاك شعروا بالاحترام المتزايد والاكبار لهذا الأستاذ الكبير .

وأعتقد أنني منذ تلك اللحظة بدأت أتذوق الجمال الحقيقي في الطب ، وأقدر اللمسة الانسانية فيه ، وذلك في الحقيقة هو منتهى الجمال ، الجمال الدافيء الحي .□

مواقف إنسانية

ليلة لا تنسى !

بقلم : الدكتور عبد الوهاب حومد

عندما تقوم الحروب وينتشر الدمار فإن أشياء كثيرة تتقوض وتنهار . إرادة الخير في الإنسان وحدها يمكن أن تقوم من بين الأنقاض ، لتقاوم وتبشر بقيم جديدة ، ووحدها يمكن أن تنشر رايتها بين أنقاض الخراب ، لتبشر بعالم آخر .

كانت تلك الليلة هي الثالثة والعشرين من حزيران عام ١٩٤٠ ، وقد مضى عليها الآن خمسون عاما ، ولكن كل خلية من خلايا جسدي لا تزال تحياها ، كلما عادت الى ساحة ذاكرتي أحاسيسها العنيفة .

يومها كنت طالبا في جامعة باريس ، وكانت المدينة المتصابية تحيا حياتها الحلوة التي أكسبتها شهرتها كعاصمة للنور ، على الرغم من أنها كانت تعيش منذ تسعة شهور في أجواء الحرب العالمية الثانية .

حتى ذلك الوقت كانت جيوش « الفوهرر » النازي قد ابتلعت في نزهات عسكرية كلا من النمسا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ ، وحطمت بولونيا الشجاعة بعد مجزرة رهيبة ، ثم قبعت على خطها الدفاعي (سيغفريد) تهضم فرائسها بهدوء ، وكأنها « لماظة أيام كأحلام نائم » وترقب بعيني ذئب جائع ما يجري وراء قباب « ماجينو » الفرنسي ، استعدادا لما تضمره لجارتها اللدودة من مفاجآت .

كأنها من كوكب آخر !

ومع ذلك فإن المدينة التي خبت في الشوارع أنوارها ، ظلت سادرة في غوايتها وأحلامها الوردية ، ولم تستطع الإذاعة التي بح صوتها ، من ايقاظها لتعيدها إلى عالم الواقع الملموس ، حتى خُيِّل إليّ أنها مدينة من كوكب آخر سقطت على كوكب لا تعرف شيئاً عما يجري فيه .

فمكتبة كلية الحقوق ، ومكتبة السانت جنيفييف اللتان تشرفان على قبة البانيتون - مقبرة العظماء - ظلتا مشرعتي الأبواب لرواد العلم المتزاحمين على المقاعد والمراجع ، وأساتذتنا لا يتأخرون دقيقة واحدة عن القيام بأعباء مسئولياتهم الثقيلة . حتى هذا الأستاذ الذي تخطى الثمانين ، والمشهور بنكاته اللاذعة ، ظل يحضر الى المدرج مع دقات الساعة ، ويصعد إلى المنبر ثقيل الخطا مستندا إلى كتفي طالبين متطوعين ، وأمامه موظف « التشريفات » الذي يخطر ببذلته السوداء ، وملامحه الصارمة ، وسلسلته الحديدية الوهاجة ، الملتفة حول رقبته



وصدره ، لكي يجلسه على كرسيه الوثير ، ثم ينسحب ليعود بعد انتهاء المحاضرة . وهو تقليد خاص بهذه الجامعة العريقة ، من شأنه أن يمتع القلب ويبهج العين ، بمسحته الارستقراطية الكهنوتية .

وفي الحياة العادية ، كانت المقاهي تستقبل روادها كما كانت تفعل وهي في أكثر مواسمها ازدهاراً . وكانت سهرات « الأوبرا » تنشر كل ليلة في أجواء أبهائها وصالوناتها المترفة أحدث الأزياء وأشدها تحديا ، على قامات نصف عارية ، جاءت لتستمتع بسماع الموسيقا الكلاسيكية ، وتتقلب في الأجواء المخملية الناعمة .

وللأمانة لم تكن موسيقا فيردى أو بيتهوفن أو سان سيباستيان باخ هي التي تجذبني إلى أمسيات الأوبرا ، فأنا أنتمي إلى بيئة يشجيها الموال والعَتابا ، ويسكرها الموشح الأندلسي والقدود الحلبية ، وتتمايل على أنات المغني وهو يكرر مائة مرة يا ليل يا عين ، دون أن يكل أو يمل . ولكن الذي كان يغريني رغبة في زيادة الاطلاع على مدنية غريبة عنا ، في أرقى أوساطها وطبقاتها ، في وقت كنت لا زلت فيه حديث عهد بها .

هكذا إذن كنا « نعيش الحرب » . وسوف تكشف محاكمة « ريوم » التي جرت لقادة « الجمهورية الثالثة » عن مدى التقصير الذي ارتكبوه في عدم إعداد الأمة لحرب لم تكن مفاجئة أو غير متوقعة .

ولم تعد الأوضاع مستقرة :

ولكن « الأوضاع المستقرة في الجبهة » ـ على حد تعابير البيانات العسكرية اليومية ـ لم تبق مستقرة . فقد فقدت صوابها ذات صباح من أيام حزيران هذا ، حينما انقضت بواشق الجو على أحياء باريس الغربية لتغرقها في جحيم من الحمم والمتفجرات ، ثم لتغادرها في أمان بعد أن خلّفت وراءها دماراً مفزعاً ، وألف قتيل تناثرت

أشلاؤهم ذات اليمين وذات اليسار . وفهمت فيالق دروع « البانزر » مغزى الضربة ، فانقضت من خنادقها الحصينة تقتلع المعاقل والحصون الفرنسية ، لا يقف أمامها جبل ولا يحد من تقدمها نهر ، حتى أغرقت الشمال كله ، ونزلت إلى العاصمة فأحاطت بها كما يحيط السوار بالمعصم . وإذن « فإن معركة فرنسا قد بدأت » كما جاء في بلاغ للقيادة العليا للقوات الحليفة .

غير أن الحكومة تسللت في جنح الظلام الى مدينة « تور » ، بعد أن كانت قد أذاعت في النهار بأنها ستدافع عن باريس من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت . يومها فقط فهم الناس ما يختلج في ضمير الغد ، فقذفوا بأنفسهم في دروب الهجرة الجماعية إلى الأرياف والمدن الأخرى ، وعلى أي وسيلة نقل تيسرت .

وتغلبت اعتبارات السلامة على انفعالات النفس ، فألقيت بنفسي إلى أحضان المجهول ، وتسلقت آخر قطار قدر له أن يخرج من باريس إلى « بوردو » ، مع أواخر المغادرين . وحين وصلتها عرفت أن الحكومة قد سبقتنا إليها ، فقد غادرت « تور » لأنها لم تعد آمنة على سلامة قراراتها فيها ، وهي في مرمى المدافع الألمانية .



ولقد أذهلني وأقلقني ما لقيته من زحام في المدينة المحافظة حيثما اتجهت وأنى قصدت . وغصت الحدائق العامة « بنزلائها » الذين لم يجدوا مأوى يأوون إليه في فندق أو مدرسة . وكان بدهياً أن نقرأ لوحة على باب كل فندق كتب عليها (مكتمل) ومع ذلك فقد كنت أشعر بحسرة وألم حين أستدل على فندق ، وحين أصله بعد بحث ونصب تلطمني على وجهي هذه الكلمة الكريهة .

ولم يتخل الله عني في محنتي ، فيسر لي مسكناً مريحاً عند أسرة كريمة حقاً ، قبلتني ضيفاً عليها أكثر مني مستأجراً ، لأن الأجر الذي اقترحته عليّ بعيد جداً عن واقع الظروف التي كانت تبرر الاستغلال ، وربما لأنها عرفت أنني من المنطقة المباركة التي أنجبت المسيح عليه السلام ، فزينت لي الغرفة بالشموع والصلبان ، ولم يتغير سلوكها قط ، بعد أن عرفت بأنني مسلم . ولم تمض إلا أيام قليلة على وصول الحكومة ، حتى أحاطت الفرق الألمانية بمدينة بوردو ، ولكنها لم تدخلها بناء على طلب ملح من المريشال بيتان وجهه إلى هتلر . وبدأت مفاوضات الهدنة ، وتم التوقيع عليها ، وفرح من فرح ، وبكى من بكى ، ولكن يوم ٢٢ حزيران قد نشر نسائم من الآمال المعسولة في رئات الذين يحلمون برؤية أوطانهم ذات يوم ، بل وفي أوصال الذين يرغبون في البقاء أحياء .

العودة إلى الملاجيء :

ونام الناس على حرير ، يدغدغهم رجاء خادع بأن الكوابيس انتهت . ولكن ما إن حان منتصف الليل وأعلن المذيع نهاية نشرة الأخبار حتى أخذت أصوات انفجارات قوية تهز المباني بشدة خيل إلي معها ، وأنا أقفز من سريري أن زلزالاً قوياً ضرب المنطقة . وحين اندفعت إلى البهو وجدت الشيخ صاحب البيت وزوجته يتدافعان إلى غرفة كنتها الحامل ليكونا إلى جانبها في شدتها ، وليحيطاها بالأمان الذي تفتقده من

جراء وجود زوجها في الجبهات القتالية . ولم يكن أمامنا من حل ، والقصف لا زال مستمراً ، إلا أن ننتقل إلى أقرب ملجأ ، وكان قبو كلية الآداب .

ولم تكن هذه أول مرة ننزل فيها إلى الملاجيء ، لتجنب القصف الجوي ، فقد سبق لنا أن بادرنا إليها مراراً في باريس ، إلا أنها كانت أقرب إلى النكتة منها الى الحماية ، وإلى عرض أزياء ملابس الليل منها إلى الاعتبارات الحربية ،

أما الليلة ، فالذعر آخذ بالمفاصل وفي لون الوجوه ، وفي التصرفات الهستيرية . ولقد بقيت من تلك الليلة انطباعات انسانية في نفسي عن المعاني السامية التي تمثلت في حنو الأمهات على صغارهن ، والمغامرة بحياتهن في سبيل بقائهم ، فكانت لوحة حية لن تقدر ريشة أي عبقري على تخليدها بالألوان ، أو بالصور الشعرية .

كان الملجأ واسعاً ، والملتجئون إليه كثراً ، وكان مضاءً بنور ضعيف باهت ، إلا أنني استطعت أن أرى التمديدات الصحية على سقفه ، وأن أميز الحجارة المستطيلة الضخمة التي يتشكل منها . وكان الوجوم يشل حركة العضلات في كل وجه نظرت إليه . ويقينا فإن الآخرين رأوا الظاهرة ذاتها على وجهي ولكن كان فرق بين خوفي وخوفهم . فقد كنت غريباً وفي مقتبل العمر ، وليس لي من أخاف عليه .

وكان أكثر ما يخيفنا أن تسقط قنبلة على البناء التاريخي أو على بناء مقابل ، فينسد باب الملجأ أو ينكسر أحد أنابيب الماء أو الغاز ، فنموت خنقاً أو غرقاً ، كما حدث قبل ذلك لكثير من الملاجيء .

وتوقف القصف في أخريات الليل ، وخرجنا من الملجأ ، واستقبلتنا نسمات الصبح الطرية التي أعادت إلى الوجوه ألوانها ، وإلى الأعصاب المتوترة هدوءها ، وإلى النفوس الشعور المتألق بحب الحياة وقيمتها .

نظرة وداع أخيرة :

بعد ذلك بساعات ، نقلت الاذاعة بياناً للقيادة الألمانية تقدم فيه اعتذارها عما حدث ، بسبب خطأ وقعت فيه القيادة الميدانية . وزحف الأحياء في اليوم التالي إلى ساحة الكتدرائية الكبرى ليلقوا نظرة وداعية أخيرة على ألفي تابوت مجللة بالسواد ، صفت صفوفاً متوازية وألقيت نظرة أخيرة مثلهم ، دون أن يكون لي بينهم واحد أبكيه ، غير أنني أحسست بأنني أبكيهم جميعاً كإخوة في الانسانية ظلمتهم السياسة . ومع ذلك فقد وقفت إلى جانب دخول بلادي الحرب بعد تلك الليلة بستة عشر عاماً في مجلس الوزراء ، رداً للعدوان ، وذوداً عن حقوق قومية مهضومة ترخص الحياة في سبيلها . □


● عباس العقاد

* زمان الغاب : طفل لاعب عذب جميل . وزمان الانسان : شيخ عابس الوجه ثقيل .
(أبو القاسم الشابي)

* المحطات الزمنية ثلاث : أمس دابر ، وحاضر مأمول ، وغد مرتقب .
(د . أحمد أمين)

* بعض الحركة عجز عن السكون ، وبعض السكون عجز عن الحركة .
(عباس العقاد)

* أصعب الأمور أن يعرف الانسان نفسه ، وأسهلها أن يعظ غيره .
(طاليس)

الخيال العلمي في الأدب الشعبي

بقلم : فاروق خورشيد

الخيال الشعبي العلمي ـ بعد تحديد معنى العلم في دنيا الخيال ـ لم يقف عند حد ، بل حاول أن يستغل ما يعرف استغلالا روائيا بارعا ، ثم حاول بقوة التخيل الوصول إلى ما يعوزه نتيجة محدودية المعرفة ، ليحقق ما يحققه الخيال العلمي الروائي نفسه في دنيانا المعاصرة .

تميز الإنسان بطموحه الدائم إلى اكتشاف مالا يعرف ، وإلى ريادة ما يجهل ، وإلى الحلم بتخطى عجزه ومحدوديته ، وضآلة طاقته ،

وقد قاده هذا إلى دنيا العلم ، وإلى المعرفة الكاملة بدنياه التي يعيش فيها ، ثم إلى معرفة ما حوله من عوالم وأكوان ، ثم قاده أيضا إلى أن ينتج كمًّا هائلا من الأعمال الفنية التي تتخطى محدوديته وضآلة طاقته إلى الحلم بتجاوز هذه المحدودية ، وضآلة الطاقة ، إلى حيث يصول ويجول متخطيا عقبات الزمن والمكان ، ومثبتا ـ في دنيا الفن ـ قدرته على تجاوز المحدود ، والممنوع والمتعذر ، وسبق الخيال الفني في كل الأحيان المنجزات العلمية والثقافية للإنسان ، وحقق الإنسان في أدبه بعض أحلامه ورؤاه ، وظل بعضها الآخر قيد الاجتهاد

العلمي الساعي إلى تحقيقه ، وجعله حقيقة واقعة وممارسة ، ومن هنا امتلأت مكتبة الأدب العالمي بنوع روائي مميز هو رواية الخيال العلمي .

الحقيقة والخيال

أدب الخيال العلمي هو ذلك الأدب الذي يقوم على حقيقة علمية معروفة ، ينطلق منها الخيال الروائي ، ويسخرها في تحقيق أحلام الإنسان وطموحاته ، والتمرد على محدوديته عن طريق خياله الروائي وقدرته القصصية . ومن هذا المفهوم نستطيع أن نقول : إن هذا الأدب على الرغم من تصدره المكتبات الحديثة ليس وليد اليوم ، وإنما عرفته آداب البشرية وإبداعاتها منذ البدء ، وأنه صحبها عبر مسيرتها الحضارية

كلها ، فكانت كل مرحلة من مراحل التطور الحضاري تقيم أدب خيالها العلمي المبني على ما حققته في هذه المرحلة من كشوف علمية ، وتقدمات تقنية ، ويعكس مدى طموحها إلى المزيد من الكشوف التي تسخر كل الإمكانيات المتاحة للإنسان طموحه في أن ينقلب على محدوديته البشرية . وسنجد في أعمال سويف

وويلز وغيرهما من الكتاب صورة من صور انعكاس المرحلة على خيال كتاب أدب الخيال العلمي وطموحاتهم ، فرحلات جاليفر والرحلة إلى القمر والرحلة في باطن الأرض ، وآلة الزمان ، والرجل الخفي وخارق الجدران ، وعشرون فرسخا تحت سطح البحر ، تبدأ كلها من كشوف علمية محددة ، وتطمح بخيالها أن يتجاوزها الإنسان ويتخطاها ، وهناك أعمال روائية كثيرة ، استغلت المسلمات العلمية ، أو شبه العلمية المعروفة في عصر كتابها ، وأبدعت أدب الخيال العلمي . فإذا ما تركنا عصور العلم التجريبي إلى ما قبله مباشرة دخلنا في مرحلة العلم الحدسي الذي يقوم على المشاهدة والملاحظة ، مع إكمال هذه الملاحظات بتصورات غامضة ، غير محددة ، ترتبط بالديانات الوثنية القديمة ، وعالم الطقوس المعبدية ، ودنيا الكهانة والسحر ، فقد ارتبطت المعرفة في المرحلة البدائية لحياة الإنسان بالكهنة الذين احتكروها وسخروها لإحكام سيطرتهم على الناس ، وربطوا بين ما عندهم من علم وبين مكانتهم كوسطاء بين البشر وآلهتهم البدائية الأولى ، ولهذا فقد مزجوا معارفهم بكثير من الطقوس والكلمات الغامضة ، وغلفوها بالغطاء الديني الذي يبنى أساسا على الخوف ، فالآلهة البدائية آلهة قسوة وعنف ، وآلهة انتقام وتهديد ، ورضاها لا يتأتى إلا بالقرابين ، والعطاء الجزيل الذي يكوّن ثروات الكهنة ، ويحكم سيطرتهم الكاملة على العقول والضمائر ، ثم على القدرات الاقتصادية للناس . وهنا برزت كلمة السحر لتعبر عن هذه المعارف الغامضة والمحتكرة ، وهذه الممارسات التي تمتزج فيها الخرافات بالطقوس بالخوف ، وأخيراً بالمعارف التي اكتسبها هؤلاء الكهنة وتناقلوها نتيجة دراساتهم للآلهة البدائية ، ورموزها الحيوانية والمعدنية والنباتية والفلكية على السواء . ومن هنا نستطيع أن نقول : إن الأدب الشعبي الذي اعتمد في انطلاقاته الروائية والقصصية على السحر ، كان قريبا جدا - من حيث المنهج - من الأدب العلمي المعروف اليوم ، مع وضع الفارق بين السحر كعلم غيبي وبين العلم التجريبي اليقيني الذي هو العطاء العلمي اليوم ، في الاعتبار . ومن هنا فإن استخدام الطاقة ، والقوة الذرية ، والمعرفة الالكترونية ، تقابل عند أصحاب الخيال العلمي الآن ، استخدام الجن عند كتاب هذا اللون من الأوائل أو الشعبيين ، فقد أعلن الكهنة أنهم يسخرون الجان - هذه المخلوقات الخفية ذات القدرات التي تفوق قدرات البشر - في الاتصال بالآلهة ، وفي تحقيق الأعمال التي تبدو مستحيلة لعجز قوى الإنسان المحدودة عن إحداثها .

مراحل الثقافة الأولى

وجود الجان فكرة راسخة في المعتقد القديم ، فالإنسان في مراحل ثقافته الأولى كان يؤمن بوجود قوى أقوى منه ، تعيش معه على الأرض ، وتؤثر فيه وفي أعماله ومقدراته ، هذه القوى المخفية عن رؤيته هي القوى التي اختفت عن بصره هي ما سماه الجن ، والديانات كلها لم تنف هذه **المسلمة التي رسخت منذ المعبد القديم في الضمير البشري ، بل لقد جعلت الأديان من (الجان) حقيقة ماثلة ، وساوت بينهم وبين الإنسان من حيث ضرورة خضوعهم للدين ، وإيمانهم بالرسالات ، وصحة عبادتهم لله ، وقسمتهم إلى جان مؤمن خيّر ، وجان شرير كافر . ويبرز نبي الله سليمان عليه السلام في المعتقد الديني باعتباره مسخر الجان لطاعته ، ومعاقب كل من خالفه من الجن الشرير أو الكافر ، يسجنه في قماقم مطلسمة بخاتم سليمان ، كعقوبة أزلية له على كفره وشره .** وهكذا تكرس وجود الجان كقوى حقيقية ، وكمسلمة معترف بها . وانطلاق أدب الخيال العلمي الشعبي إلى استعمال الجان في تحقيق التفوق على الواقع الإنساني المجهض ، يبدو

منطقيا في ضوء هذه المسلمة . ومن هنا فعلت روايات الخيال الشعبي بمحاولة تسخير الجان لخدمة الإنسان ، وتمكينه من التغلب على محدوديته ، فالجان أصحاب القدرات الخارقة كفيلون بكسر حواجز الزمان والمكان بالنسبة للإنسان . وقد سار استخدام الجان في هذه الأعمال في طريقين : الطريق الأول هو استخدام السحر ، أو علم الكهنة في إخضاعهم لإرادة البطل ، وهو هنا عادة البطل الشرير ، وهم هنا غالبا من الجن الكافر الشرير . والطريق الثاني هو استعمال ذخائر كفيلة بتسخيرهم كاللوح المرصود ، أو خاتم سليمان ، أو شعرات تحرق فترغم الجني على الظهور . وهذه الذخائر تكون عادة في حوزة البطل الخيّر الذي يدافع عن الحق والإيمان ، وهؤلاء الجان غالبا ما يكونون من الجان المؤمن الذي أخطأ خطأ ما ، ويقضي مدة عقوبته مسخرا لصاحب الرصد الذي يتحكم فيه ، يخدمه ويلبي كل مطالبه ، فإن انتهت مدة عقوبته تحرر ، وغدا من الجان الأحرار الخيرين .

ومن المفهوم أن هؤلاء الجان إنما حبسهم سيدنا سليمان عليه السلام عقوبة لهم على أخطائهم ، وأن الأقدار أو الصدف الروائية أو الإرادة الخيرة التي تعمل لصالح البطل هي التي وضعت هذه الذخائر في طريقه . وعن طريق تسخير هذا الجن الخادم يحقق الخيال الأدبي الشعبي ، ما يحققه الخيال العلمي الآن بتسخيره للمخترعات والصناعات الحديثة ، فالجني قادر على أن يحمل البطل عبر المكان وعبر الزمان أيضا ، والجني قادر على شن حروب لا تقل في تصوراتها عن حروب الصواريخ والقنابل الذرية ، والحروب الكيمياوية ، والجني قادر على أن يغوص بالبطل إلى أعماق المحيطات ، أو يعلو به إلى أجواز الفضاء . والجني آخر الأمر قادر على إحداث مالا يحدث ، أي مالا يحدث في حدود قدرات الإنسان المحدودة والعاجزة ، كنقل الصوت ، ونقل الإنسان نفسه في لحظات إلى أماكن الأحداث ، مهما بعدت ، ومهما تناءت .

التحول والطيران

لعل الخيال الشعبي تجاوز حدود الخيال العلمي حين حلم بظاهرة التحول ، فحولها إلى مقولة فنية يستخدمها في عمله الروائي ، فأقصى ما وصل إليه الخيال العلمي في هذا المجال هو فكرة الرجل الزائف ، أو فكرة الرجل المخلوق بصنع الإنسان مثل فرانكشتين ، ولكن الخيال الشعبي قفز إلى فكرة قدرة الإنسان على أن يحول إنسانا آخر ، أو كائنا حيا آخر من صورة إلى صورة ، وهو ما نعرفه في الليالي وغيرها بقدرة الساحر على (سخط) البطل الروائي إلى صورة كلب أو حمار أو بقرة ، وهذه الفكرة قائمة على فكرة (الطوطم) البدائية القديمة إلى حد ما ، كما هي قائمة على إيمان ديني راسخ ، بأن العقوبة الحاضرة في الدنيا هي (سخط) الكافر المتمرد إلى صخرة ، أو إلى صورة مشوهة تختلف عن صورته الأولى . وفكرة التحول هذه لعبت دورا بارزا ورئيسيا في الكثير من الحكايات الشعبية العربية القديمة ، وبخاصة في حكايات ألف ليلة وليلة ، وهي قائمة على مسلّمة دينية ، وعقائدية قديمة لدى الشعوب السامية بعامة .

والقدرة على قهر الشكل الإنساني نفسه مرتبطة ارتباطا كاملا بالقدرة على قهر المكان ،



بأن ينتقل بسرعة تفوق سرعة الضوء من مكان إلى مكان ، وهؤلاء - أي أصحاب هذه القدرات - هم من عرفوا في الحكايات الشعبية العربية ، أهل الخطوة ، وقد برزت هذه (التسمية) في أدب الصوفية ، وفي سيرة الظاهر بيبرس ، وفي سيرة سيف بن ذي يزن ، وفي العديد من الحكايات الشعبية السيارة ، وهي على غموضها في الكثير من الحكايات ، حيث تتركز على موهبة شخصية للبطل ، تظهر في غير هذه الأعمال طموحا إلى عبور السماء ، والطيران فيها من مكان إلى مكان ، أي أن إمكانية الطيران في السماء طموح شعبي قديم ، سواء على أرض الواقع ، حيث تبرز تجربة عباس بن فرناس وثوبه من الريش ، ومحاولته تطبيق دراسته على طيران الطيور ، وميكانيكية أجنحتها التي تحملها عبر السماء ، أو على أرض الخيال الشعبي الذي تحقق فيه الطيران عبر السماء ، إما عن طريق ركوب الجان المسخر لخدمة البطل ، أو عن طريق البساط السحري ، وهو الصورة المقابلة لبساط سيدنا سليمان عليه السلام الذي ملأ حديثه القصص الديني ، صاحب المعتقد الراسخ في أعماق الجماهير ، أو عن طريق الحصان الوهمي المصنوع بالحكمة الذي يحمل صاحبه طائرا في امتداد الفضاء بفضل لوالب معينة يحركها صاحبه فتتحرك ، وهنا نقترب كثيرا جدا من جو المخترع العلمي ، القائم على الصنعة الإنسانية ، لا على القدرات الخارقة للجان والسحرة ، فهذا الحصان السحري مصنوع بالحكمة والمعرفة ، وتركب أجزاؤه بعضها في بعض ، ويطير بصاحبه خاضعا لمجموعة من اللوالب والآلات ، وهو أقرب صورة إلى الطيران الآلي المعاصر .

اختلطت الرؤيتان

الخيال الشعبي هنا تجاوز دنيا المعجزات إلى تخيل دنيا المنجزات الإنسانية ، فكان متنبئا فنيا لما حققه الإنسان بفضل العلم و (الحكمة) ورغبة الإنسان في أن يرتاد عالمه كله ، وأن يعرف ما يدور في كل جزء من أجزائه ، وقاده طموحه إلى قهر حاجز المكان الذي يربطه بمكان لا يتحول عنه إلا بوسائل لا تسمح له بالمعرفة بمعناها الحقيقي ، وتحرك الإنسان في المكان طموح جريء ، ولكن ثبوته في مكانه ، لتأتي له كل الأمكنة حيث يكون ، فيعرف كل ما يدور حوله من أحداث في بقاع بعيدة عنه ، كان هذا هو التحدي للخيال الشعبي ، وقد حقق تغلبه عليه بفضل تطلعه إلى (صندوق التواجيه) الذي ظهر في سيرة « علي الزيبق » ، والذي هو نتاج حكمة الحكماء وصنعتهم لإنتاج سحر الكهان وجنهم ، ولو أنها مسبوقة في دنيا السحر والجن بفكرة البنورة المسحورة التي عرفها سحرة أوربا ، والمرآة المسحورة التي عرفت في أساطير الشرق الأقصى ، وفكرة غدير المياه الصافية التي مسها السحر ، وعرفت في أساطير الشعوب القديمة .

وقد اختلطت الرؤيتان معاً في كثير من الأحيان ، أعني رؤية (الحكمة) ورؤية (السحر) ، مما يؤكد أن الإنسان العربي القديم قد حاول إنجاز بعض المنجزات القائمة على المعرفة التجريبية ، إلى جوار امتلاء حياته بالمنجزات الخيالية التي تحققت في دنيا رؤياه الابداعية ، واستندت إلى العلم الغيبي أو السحر . وفي كتاب التيجان لوهب بن منبه حكاية المغارة واللصوص الثلاثة ، والحكاية تقول : إن هؤلاء اللصوص حين دخلوا المغارة خرج عليهم أسد مهول يسد عليهم الطريق ، ولكنهم لاحظوا أن الأسد يظهر حين يتعدون مكانا معينا ، ويختفي حين يتجاوزون هذا المكان ، وحين حفروا في هذا المكان وجدوا (دواليب ولواليب معقدة) حين حطموها بطلت حركة الأسد ، وأمكنهم أن يتجاوزوه إلى ما بعده ، ليظهر لهم تنين ينفث النار والشرار ، وبحكم التجربة السابقة يبحثون عن مكان حركة التنين ، ويبطلون حركته بتحطيم الآلات المتحكمة في هذه الحركة ، إلى أن يصلوا إلى كنز

المغارة . ونحن هنا أمام صناعة محكمة ، تقوم على معرفة بعدة علوم ، أهمها علم الميكانيكا . واستغلال القصاص لهذه المعارف القديمة يشابه تماما استغلال الروائي المعاصر لمنجزات التقنية الحديثة في أحداثه الروائية العلمية . وفكرة الاختفاء عالجتها روايات الخيال العلمي أكثر من مرة وبأكثر من طريقة ، واشتهرت روايات عن المادة التي تخفي جسد الإنسان بعد تناوله إياها ، وعن الأجهزة التي يوضع فيها جسد الإنسان لتسلط عليه أشعة بعينها فيختفي عن الأنظار ، واستندت كلها على نظرية الإبصار ، وانعكاس الضوء على الذرات الكثيفة ، ولكن الخيال الشعبي سبق هذا كله بحكاية (طاقية الاخفاء) التي تخفي من يلبسها عن العيون ، أو الخاتم الذي يديره لابسه في أصبعه فيختفي تماما عن الأنظار ، أو الكحل الذي يتكحل به صاحبه فيغدو خفيا ، وكلها أدوات صنعها السحرة ، أو الجان أو الحكماء ، في مزيج يؤكد اختلاف المعطيات الغيبية بمعلومات معروفة لدى طائفة معينة من الناس ، لتحقيق حلم يراود وجدان الناس كلهم .

اليقين منطلق للخيال

هذا الاختلاط بين عالم المعرفة التجريبية ، وعالم المعرفة الظنية ، زاد عليه بعد ثالث في بعض أعمال الخيال الشعبي ، وهو بعد المعرفة اليقينية ، وذلك في الروايات والقصص التي قامت حول دنيا البحر وعالمه ، فكثير من الأحداث الروائية التي جاءت بها ، وبخاصة في ألف ليلة ، وفي حكايات السندباد على الأخص ، تقوم أساسا على المعارف والمعلومات والملاحظات التي نقلها الجغرافيون العرب القدماء ، والبحارة والرحالة والتجار المغامرون ، مما شاهدوه وعاينوه في رحلاتهم من ظواهر غريبة في البحر أو في الجزر النائية فيه ، فالمعرفة اليقينية المشاهدة أساس لانطلاقات الخيال الروائي هنا ، ولكن تجاورها المعرفة التجريبية التي سمحت ببناء السفن العابرة للمحيطات ، وسمحت بالإبحار في هذه المحيطات على أسس من علوم الفلك ، وعلوم البحار أيضا ، ويجاورهما أو يغلفهما معاً المعرفة الظنية أو ما بقي في الأذهان والقلوب من معطيات السحر القديمة . والخيال الشعبي - في هذه القصص على الأخصّ - قام بتوظيف كل هذه المعارف بأنواعها المختلفة توظيفا روائيا بارعا ، ومزجها في نسيج مغامراته وأحداثه القصصية ، محاولا تحقيق أحلام الإنسان في الخلاص من محدوديته وعجزه ، ومحاولا أيضا تحقيق طموح الإنسان إلى المعرفة ، والمزيد من المعرفة ، وتوظيف هذه المعارف لتحقيق طموحاته وأحلامه في إحكام سيطرته على العالم الذي يعيش فيه حين يستطيع خياله الروائي أن يدخله في كل ماهو مجهول ، ليصبح بقدرة الإبداع معلوما وممارسا ومألوفا . ولعل أبرز صور هذا الطموح تتجلى في غوص الأديب الشعبي إلى أعماق الأرض ، في محاولته لتصور نوع الحياة الذي يمكن أن يكون موجودا في داخلها ، وقد قدم أعمالا روائية تتخيل وجود أشجار وأنهار ومساكن وحيوانات تعيش وتتحاب وتتصارع في وجود مشابه للحياة فوق سطح الأرض ، أو للحياة التي يعرفها هو ويمارسها . وهو الموقف نفسه الذي وقفه في الحياة في أعماق المحيطات ، تلك الحياة التي تخيل إمكان اشتراكه فيها بتناول عقار سحري معين ، يجعله قادرا على الحياة في الماء ، فإذا ما دخل هذه الحياة وجدها تشابه دنياه ، وجدها مليئة بالمهالك العديدة المليئة بالمخلوقات البحرية الغريبة العديدة التي تحكمها الغرائز نفسها التي تحكم الانسان ، فهي تتصارع على السيطرة والتفوق ، وتشن الحروب بعضها على بعض طمعا في إحكام السيطرة على كنوز البحر التي تخيل الإنسان أنها مدفونة هناك في انتظار الإنسان الجسور الذي يستطيع الاستيلاء عليها ، وإخراجها إلى سطح الأرض . □

أخلاق العلماء

من نيوتن إلى هوكنج

بقلم : الدكتور عبدالعظيم أنيس

لا شك أن النبوغ والعبقرية يجلبان المجد والخلود لأصحابها ، ولكنهما على الرغم من ذلك لا يحولان بين العبقري أو العالم وانحيازه لذاته البشرية ، مهما صغر الثمن أو تدنى الأسلوب الذي يشبع به أهواءه ونزعاته .

ولحظ العباقرة أن الذاكرة البشرية لا تحفظ لنا إلا ما يصدر عنهم ، حسنا كان أم سيئا .

في تاريخ المشادات العلمية بين العلماء حول « من اكتشف ماذا أولا » ، تحتل قصة المشادة بين نيوتن ، العالم البريطاني الرياضي الشهير وأحد مؤسسي الفيزياء الحديثة ، وبين الفيلسوف والرياضي الألماني الكبير ليبنتز وضعا خاصا ، لأنها أثارت في كل أوربا حساسيات وطنية خاصة ، وتورطت فيها أقلام عديدة في اتهامات لا صلة لها بالعلم ، وإنما لها صلة بالسياسة ومناخ التنافس البريطاني الألماني القائم آنذاك حول السيطرة على قلب أوربا وعلمها .

والقصة بدأت باكتشاف كل من العالمين الكبيرين ، نيوتن وليبنتز ، لفرع حديث في الرياضيات ، هو علم التفاضل والتكامل الذي مثل ثورة في العلوم الرياضية آنذاك ، وأصبح الأساس الصلب لمعظم أبحاث الفيزياء منذ ذلك الحين .

ولقد ادعى كل منهما أنه صاحب الاكتشاف الأول ، وأن الآخر أخذ عنه . وحول هذه القضية دار الجدل العنيف . لكن الثابت الآن من الناحية التاريخية أن كلا منهما قد اكتشف بشكل مستقل مبادىء هذا العلم ، وإن كان ليبنتز هو السابق في النشر العلمي لأبحاثه ، قبل نيوتن بسنوات طويلة ، على الرغم من أن نيوتن كان قد اكتشف تلك المبادىء قبله بسنوات .

إلا أن الملفت للنظر فهو سلوك نيوتن المشين من الناحية الشخصية في تلك المشادة ، وهو السلوك الذي يوضح أن العَالِم حتى وإن كان يحتل مركزا عالميا مرموقا ، مثل نيوتن ، ليس منزها عن التورط في أحط أساليب السلوك

الشخصي ، عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن مكتشفاته بالحق أو بالباطل .

ولقد لفت الأنظار إلى هذه القضية كتاب صدر حديثا للعالم البريطاني المقعد الفذ « ستيفن هوكنج » الذي يحتل اليوم كرسي الرياضيات نفسه الذي كان يشغله نيوتن في جامعة كمبردج . فقد أصدر « هوكنج » كتابا للرجل العادي عن تطورات الفيزياء الحديثة ، عنوانه « تاريخ موجز للزمن . . من الخبطة الكبيرة إلى الثقوب السوداء » ، ووضع في خاتمة الكتاب تعريفا بثلاثة علماء ، تمثل اكتشافاتهم في الفيزياء نقطة تحول رئيسية في تاريخ هذا العلم ، ومحاولاتهم لفهم الكون . وهم نيوتن وجاليليو وآينشتين !

ومع أن « هوكنج » يشغل كرسي نيوتن اليوم في جامعة كمبردج إلا أنه لم يتردد في فضح نيوتن وأساليبه فيما يتعلق بهذه المشادة التاريخية بينه وبين ليبنتز . ومن « هوكنج » نعرف أن معظم المقالات التي كتبت آنذاك دفاعا عن موقف نيوتن كانت في حقيقة الأمر بقلم نيوتن نفسه ، وإن نُشرت بتوقيع بعض أصدقائه !

وعندما اتسعت المشادة في أوربا ارتكب ليبنتز خطأ اللجوء إلى الجمعية الملكية البريطانية مناشدا إياها أن تتدخل في الأمر . وإذ كان نيوتن هو رئيس هذه الجمعية فقد قام بتشكيل لجنة « محايدة » للتحقيق في الأمر ، وإصدار تقرير عنه ، ولقد اتضح بعد ذلك أن كل أعضاء اللجنة هم من أصدقاء نيوتن . ولم يكتف هذا الأخير بذلك ، وإنما كتب بنفسه تقرير اللجنة ، وتولى نشره باسم الجمعية الملكية ، متهما ليبنتز بالسطو العلمي ! وبعد ذلك بسنوات قليلة مات ليبنتز ، فأعلن نيوتن شماتته في هذا الحدث ، لأنه نجح في « كسر قلب » خصمه !

ليست الأولى !

ولقد اتضح أن هذه المشادة العلمية بين نيوتن وليبنتز في أوربا لم تكن النزاع العلمي الأول بين نيوتن وزملائه من العلماء ، فقد سبقه نزاعه مع الفلكي البريطاني جون فلامستين .

كان فلامستين هو المسؤول عن المرصد الملكي البريطاني في « جرينتش » ، وبصفته هذه كانت لديه بيانات فلكية مهمة عن أرصاد تفيد نيوتن خلال تأليفه لكتابه العظيم « البرنسيبيا » . وفي مبدأ الأمر زود فلامستين زميله نيوتن بما كان يطلبه من بيانات ، وأشاد نيوتن بذلك في الطبعة الأولى من كتابه « البرنسيبيا » ، إلا أن فلامستين عاد فأحجم بعد ذلك عن تزويد نيوتن بمزيد من البيانات الفلكية .

ولم يكن نيوتن مستعدا لقبول هذا الموقف . ولذا سعى إلى تعيين نفسه عضوا في مجلس إدارة المرصد ، ومن هذا الموقع دبر في الخفاء عملية الاستيلاء على هذه البيانات ونشرها بواسطة عدو فلامستين اللدود ، الفلكي إدمون هالي .

ولم يتردد فلامستين في أن يلجأ إلى القضاء



● نيوتن

دفاعا عن موقفه ، ونجح في نهاية الأمر في الحصول على حكم من المحكمة ، يمنع نشر البيانات المسروقة . وقرر نيوتن أن ينتقم برفع اسم فلامستين من كل طبعات « البرنسيبيا » التالية !

خلال زمن هاتين المشادتين بين نيوتن وفلامستين من ناحية ، وبين نيوتن وليبنتز من ناحية أخرى ، كان نيوتن قد ترك جامعة كمبردج والعمل الأكاديمي عموما ، وشُغِلَ بالعمل السياسي المعادي للكاثوليكية في كمبردج ، ثم أصبح عضوا في البرلمان ، وكوفيء على مواقفه الموالية للسلطة الحاكمة بتعيينه مديرا لدار « سك النقود » في لندن ، وهو منصب ذو أهمية كبيرة آنذاك ، وذو راتب مغر . ومن موقعه هذا ساق نيوتن الكثيرين إلى المقصلة بتهمة محاولة تزييف النقود !

ولقد شغل نيوتن في أواخر حياته بمحاولة تحديد زمن بعض الأحداث المهمة التي وردت في التوراة ، والغريب أن صاحب كتاب « البرنسيبيا » الشهير عدّ تلك المحاولات العقيمة المتعلقة بالكتاب المقدس أهم إنجازات حياته العلمية !

يبقى بعد ذلك أن نتساءل : كيف طاوعت « هوكنج » نفسه أن يورد كل هذه الحقائق التاريخية عن نيوتن ، وهو العالم الذي يشغل كرسي نيوتن في جامعة كمبردج ؟

مقعد لكنه متفائل !

إن قصة « ستيفن هوكنج » وحياته الشخصية والعلمية تنبيء عن شخصية فذة ، تمتاز بالأمانة العلمية ، والاستقامة الشخصية ، والذكاء النادر . ولولا هذه الصفات ما استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه وهو الرجل المصاب بالشلل والعاجز عن الكلام !

والغريب أن « هوكنج » يقول في مقدمة كتابه أنه باستثناء المرض الذي أصابه في العشرينيات من عمره ، فإنه يحسب نفسه رجلا محظوظا في كل أمر آخر ! لقد أصابه مرض غريب في جهازه الحركي ، أقعده عن الحركة ، وألزمه البقاء في كرسيه معظم حياته ، ثم أصيب بالتهاب رئوي عام ١٩٨٥ واضطر الأطباء إلى إجراء عملية له لإنقاذ حياته ، فَقَدَ بسببها القدرة على الكلام . ومنذ ذلك الوقت أُعِدَّ له حاسوب « كمبيوتر » خاص يستخدمه في التخاطب مع تلاميذه في قاعة المحاضرات ، ومع الناس عموما . ولم يمنعه وضعه هذا من السفر إلى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ودول أوربا الأخرى ، والتباحث مع علمائها في أدق القضايا ، بل إنه يقول : إنه بدأ في إملاء كتابه هذا قبل إصابته بالالتهاب الرئوي ، وعندما أجريت له العملية ، وظن الأطباء أنه قد لا يعيش ، كان « هوكنج » حزينا ، لأنه لن يكمل كتابه .

لكن « هوكنج » عاش على الرغم من ذلك ، وعاد إلى استخدام الحاسوب « الكمبيوتر » في إكمال هذا الكتاب وإصداره . وقد نجح الكتاب نجاحا منقطع النظير ، وعد كتاب « أفضل مبيعات » لعام ١٩٨٨ م ، فقد وزعت منه مئات الألوف من النسخ .

ومن يقرأ كتاب « هوكنج » سوف تدهشه - لا شك - روح التفاؤل الغريبة التي تسود حديثه ، والابتسامة التي تبدو من خلال كلامه ، بل وروح الفكاهة التي تأسر قارئه . على أن الأهم من كل ذلك هو المادة العلمية التي يحتويها الكتاب . □

إن الأداة التي تنتج العلك هي نفسها التي تنتج الرأي العام في الولايات المتحدة الأمريكية .

جون كينيث غالبريث

العربي - العدد ٣٦٩ أغسطس (آب) ١٩٨٩ م

أفكار الأمس

(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

معارضة الثقافة

بقلم/ سلامة موسى
١٨٨٨ - ١٩٥٨

في كل أمة أفراد يؤثرون التفكير الأسلوبي الموروث ، ويلتزمون العادات ، ويخشون الابتداع . ومما يذكر عن جريدة « التيمس » التي تقرؤها الطبقة الثرية في انجلترا أنها كانت تقاطع كلمة « سفلس » إلى سنة ١٩١٦ ، لأن هذه الكلمة اسم لأحد المرضين الزهريين المشهورين . ولما كانت الطبقة التي تجد « التيمس » قراءها بينها تتجنب هذه الكلمة في حديث أفرادها الذين ربما يقعون في هذا المرض ، فإن « التيمس » جارتهم في هذا النفاق أكثر من قرنين .

والناس يتنفسون بعقولهم كما يتنفسون برئاتهم ، وهم يحتاجون إلى حركة الفكر كما يحتاجون إلى حركة الهواء ، كي يصحوا وينتعشوا . ولكنهم أيضاً يعتادون الأفكار المحبوسة ، كما يعتادون الهواء المحبوس ، وعندئذ يمرضون ، فيفقدون صحة الجسم والعقل . فلكي تنمو أذهاننا ، وكي نربي أنفسنا بالثقافة البشرية العامة يجب أن نعيش في جو حُرّ ، تكفل حريته وتصونها حكومة عصرية مستنيرة ، تعلم أنه ليس في الطبيعة قرار ، وأن كل ما فيها يتغير . وأننا لم نصل بعد إلى المجتمع الأمثل ، حتى نستقر على مؤسساته ، ونقول : إنه ليس في الدنيا ، ولن يكون ، أبدع منها . ولذلك يجب - كي

* من كتاب التثقيف الذاتي الطبعة الأولى ١٩٤٧

نحصل على ثقافة حرّة تربينا - أن نجيز النقد لجميع مؤسساتنا الاجتماعية ولا نضع أي قيد ، أو نعين أي حد ، بمنع التفكير الحر .

والحكومات المستبدة ، مثل حكومات ألمانيا وإيطاليا سابقاً ، وأسبانيا الآن - ونحن في عام ١٩٤٧ م - قد أحرقت الكتب ، ووضعت غرامات باهظة على كل من يرغب في إنشاء جريدة أو مجلة ، وجعلت للصحفيين والكتّاب عقوبات قاسية خاصة على ما ينشرونه . وهذا إلى قصر التعليم على عدد معين من الطلبة . ولا يمكن لشاب في مثل هذه الظروف أن يربي نفسه ، لأنه لن يجد الكتب الحرة النزيهة التي تربي ، ولن يجد الجرائد والمجلات الحرة التي تنير . فالشرط الأساسي للتثقيف الذاتي أن نعيش في جو فكري ، يجيز التأليف وإنشاء الجرائد والمجلات ، بدون فرض غرامة مالية ، أو إيجاد صعوبات قانونية ، يقصد منها إلى تقييد التأليف والنشر . ولا عبرة بالدعاوى التي تقال في فرض هذه الغرامات ، أو وصفها بأنها ضمانات ، كما لا عبرة بدعوى الحماية للتقاليد ، لأن النهاية التي نصل إليها من كل هذه الدعاوى هي تقييد الحرية الفكرية التي هي حق لكل أمة عصرية ، لا يصح أن يمس أو ينتهك ، بل هي حق لكل فرد ضد أمته ، ولكل أمة ضد حكومتها .

وحسب القارىء أن يعرف أن فنلندا يقل سكانها عن أربعة ملايين ، ومع ذلك فيها ٢٠٩ من الجرائد اليومية ، و٥٥٧ مجلة أسبوعية وشهرية . ولكل من هذه الصحف قوة التوليد في الثقافة . هذا التوليد الذي هو الفرق الأساسي بين أمم الغرب الناهضة وأمم الشرق القاعدة .

ولا قيمة لاستقلال تناله أمة بعد التخلص من الاستعمار إذا كان المستبدون سيتولون الحكم ، ويثقلونها بقيود الفكر والحسم .

بل إني حين أقارن بين الشعوب العربية التي رزحت تحت الاستعمار ، وتعذبت به سنين ، وبين الشعوب العربية الأخرى التي لم تعرف الاستعمار ، بل عاشت « مستقلة » ، أجد أن كلمة النهضة تنطبق على تلك الشعوب التي أذلها الاستعمار ، ولكنه في الوقت نفسه بعث فيها حركات ناهضة ، بالاتصال بالثقافة الأوربية العصرية ، فاستطاعت أن تتخلص من بعض تقاليدها ، وأن تتمدن ، وتحيا الحياة العصرية .

* إني أعجب للإنسان الذي يغسل وجهه مرتين كل يوم، ولا يجرب غسل قلبه ولو مرة واحدة كل عام.

«ميخائيل نعيمة»



فارس بلنسية



مُدافع ، أبو الحمـلات ، قائد الأعنّة

بقلم : الدكتور شاكر الفحام

بلنسية مدينة مشهورة ، من أمصار الأندلس الموصوفة ، وحواضرها المقدمة ، تقع في شرقي الأندلس ، في سهل فسيح منبسط ، كثير الخصب ، يرويه النهر الأبيض ، ولا يفصل بينها وبين ساحل البحر المتوسط الغربي سوى ثلاثة أميال . فيها تجلت عبقرية فارس بلنسية ، وعظمت بطولته وتضحيته . فهل أنصفه التاريخ ؟

لقد ورد في كتاب « المغرب » لابن سعيد عن بلنسية : « قد خصها الله بأحسن مكان ، وحفها بالأنهار والجنان ، فلا ترى إلا مياها تتفرع ، ولا تسمع إلا أطيارا تسجع ، ولا تستنشق إلا أزهارا تنفح . . . ولها البحيرة التي تزيد في ضياء بلنسية ضحوة الشمس عليها . ويقال : إن ضياء بلنسية يزيد على ضوء سائر بلاد الأندلس . وجوها صقيل أبداً ، لا ترى فيه ما يكدر خاطراً ولا بصراً ، لأن الجنات والأنهار أحدقت بها ، فلم يثر بأرجائها تراب من

مسير الأرجل وهبوب الرياح فيكدر جوها . . . ولها البحر على القرب ، والبر المتسع . . . جامعة لخيرات البر والبحر . . . وأهلها خير أهل الأندلس ، يسمون عرب الأندلس . . . » .

وكانت مدينة بلنسية قصبة لكورة بلنسية ، تتبعها أقاليم كثيرة .

القنبيطور وبلنسية

لقيت بلنسية أياما صعابا ، نكدات في حروبها مع الاسبان الذين طمعوا فيها ، ووالوا غاراتهم عليها . ومن يقوى على نسيان تلك المأساة المروعة التي قام بها القنبيطور (المبارز) الذي حاصر بلنسية عشرين شهرا ، وبعد أن دخلها صلحاً سنة ٤٨٨ هـ قلب لأهلها ظهر المجن ، فنكث عهوداً قد أبرمها ، وعاث في بلنسية فساداً ، فانتهك حرماتها ، وأحرق أهلها ، وكان ممن أحرقهم القاضي ابن جحاف والي بلنسية ، والأديب أبو جعفر بن البني الشاعر المشهور ، ثم حول مسجدها الجامع إلى كنيسة .

وبكى ابن خفاجة ، شاعر الأندلس ، مصاب بلنسية أحر بكاء :

عاثَتْ بساحتِكِ الظِّبَا يا دارُ
ومحا محاسنَكِ البِلَى والنارُ
فإذا تَرَدَّدَ في جنابِكِ ناظِرٌ
طالَ اعتبارٌ فيكِ واستِعْبَارُ
أرضٌ تقاذَفَتِ الخطوبُ بأهلِهَا
وتَمَخَّضَتْ بخرابِهَا الأقْدَارُ
كَتَبَتْ يدُ الحدثانِ في عرصَاتِهَا
« لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ »

ولم يصبر أهل بلنسية على ما نزل بهم من الظلم الفادح ، وما لقيهم من الحيف والجور ، فتذامروا وتداعوا لطرد المغتصب الدخيل ، واستعانوا بقوة من المرابطين هبت لنجدتهم ، فاستعادوا البلد الحبيب سنة ٤٩٥ هـ ، بعد أن ظل يرسف في أغلاله سبع سنين عجافاً مشؤومات ، فأنطقوا بأفعالهم الكريمة ألسنة الشعراء التي كانت حبيسة ، وبدأوا من جديد يبنون بلنسية العزيزة الغالية على قلوب أبنائها ، بعد أن غادرها الأعداء الحاقدون خراباً يباباً ، وقاعاً صفصفاً ، قد زرعوا في أرضها الحرائق والدمار والموت .

أفضل أيام بلنسية

ومضت بلنسية تعاني ما تعانيه الأندلس الصابرة من تقلب الأحداث ، حين اضطرب أمر المرابطين وخلفهم الموحدون ، وكثر الثائرون والمنتهزون في أطراف الأندلس ، واشتد عدوان الاسبان المغيرين .

ولعل أجمل أيامها في عهودها الأخيرة كانت بعد أن استطاع ملك الموحدين يوسف بن عبدالمؤمن أن يضم بلنسية إلى حوزته ، ثم اختار لها أبا الحجاج يوسف بن سعد بن محمد بن سعد بن مردنيش ، من رجالات قبيلة جذام اليمنية ، والياً عليها وعلى جهاتها . واستقرت ولاية الرئيس أبي الحجاج بالبلاد الشرقية من الأندلس مدة حياته .

ولما توفي أبو الحجاج سنة ٥٨٢ هـ تخلف جملة من الولد الرؤساء ، تولوا ورأسوا وشهروا بالبلاد الأندلسية الشرقية .

ثم ضعفت سيطرة الموحدين على الأندلس بعد الملوك الثلاثة : يوسف بن عبدالمؤمن ، والمنصور ، والناصر ، ودبت الفتنة في بلاد الأندلس ، وهبت ريح الخلاف والشقاق بين أهلها ، وعادت نذر الشر قوية مرعبة ، وبدأت غارات الاسبان تغادي بلنسية وتراوحها ، وتراجعت في نفوس الأندلسيين روح الفتوة والفروسية والبذل والفداء ، بل توارت ، لتحل محلها روح الجبن والتخاذل والخور والهزيمة .

المحارب المنقذ

وفي ظلام هذا الليل الدامس من الضعف والاستخذاء ظهر مدافع ، أبو الحملات ، قائد الأعنة ، فتى عربيا ، قد ورث قيم البطولة ، بطولة العرب الكرام الأولين ، ولقن منذ نشأته أن الدفاع عن الحمى ، وأن مجاهدة المعتدين على أطراف الوطن أقدس المقدسات . كان لا ينفك يردد : (إنْفِرُوا خِفافاً وثِقالاً وجَاهِدُوا بأمْوالِكُم وأنْفُسِكُم في سَبِيلِ الله) (سورة التوبة ، الآية ٤١) .

عاش مدافع في كنف أبيه ، والي بلنسية ، أبي الحجاج يوسف بن سعد بن محمد بن سعد بن مردنيش الجذامي ، وترأس بعد وفاة أبيه ، كما ترأس إخوته ، ولكنه ظل الفتى الندب ، المؤمن بالمثل والقيم ، لم تغره مباهج الدنيا ، ومظاهر الملك والسلطة ، وأبى إلا أن يكون الوفي لمبادئه التي شب عليها ، الباذل نفسه ودمه فداء لها .

كان يحس دائما أن قدره أن يكون البطل المظفر ، أو الشهيد المكرم ، وكان دائم الترنم بسير الأبطال والشهداء الذين نذروا نفوسهم وقدموا أرواحهم دفاعاً عن الأندلس العربية . إنهم قدوته ومطمحه والغاية التي يتشوف إليها .

وكان لا يفتأ يذكر ما قام به جده سعد بن محمد بن سعد بن مردنيش ، سنة ٥٢٨ هـ ، من الدفاع عن مدينة إفراغة التي حاصرها الاسبان الحصار الطويل الشديد ، واستطاع ببسالته وصبره ونجدته واستماتته ، أن يوقف تقدم الأعداء ، حتى وصلت نجدة المرابطين ، واستنقذ المدينة ، بمعونتهم ، من براثن العدو .

ثم كان لا يفتأ يذكر ما قام به والي بلنسية ، عبدالله بن محمد بن سعد بن مردنيش ، أخو جده ، من الاستبسال في مقاومة الأعداء ، حتى قضى شهيداً كريماً في معركة البسيط سنة ٥٤٠ هـ .

وهب مدافع يذود عن الأرض التي أحب . لم يهن ولم يجزع ، بل كان على رأس تلك الفئة القليلة التي نذرت نفسها للدفاع عن الوطن ، ووقفت تصد غارات الاسبان الذين استطالوا على البلاد ، واجترحوا من الجرائم أفدحها وأفظعها ، لا يذكرون إلاّ ولا ذمة (قَدْ بَدَتِ البَغْضاءُ مِنْ أفْواهِهِم وما تُخْفي صُدُورُهُم أكْبَرُ) (سورة آل عمران ، الآية ١١٨) .

صبر وصمود

كان مدافع لا ينفك يعارك ويقاتل ، لا تفل عزيمته قلة من معه ، واستخذاء الآخرين من حوله ، وتتابع العدوان الاسباني الذي لا يتوقف ولا يتلبّث .

كان أبدا في المقدمة ، ينتظر الشهادة ، يراها قدره وقسمته . وفي معركة ضارية من تلك المعارك القاسية تكالب عليه الأعداء ، وأحاطوا به يطعنونه من كل جانب ، يشفون ما يغلي في صدورهم من حقد وغيظ ، وتألق وجه مدافع مشرقاً وضاء ، وتطلع إلى السماء يشهدها على ظلم الظالمين ، وأقدم إقدام بطل ما عرف التراجع والنكوص قط ، ومضى على غلوائه ، مشرع الراية ، كالعهد به دائما ، باسم الثغر ، طلق المحيا ، يهتف بصوت ملؤه الإيمان والثقة : (وعَجِلْتُ إلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ) (سورة طه ، الآية ٨٤) .

ولقي مدافع ما أحب ، وسقط شهيداً في معركة البطولة والفداء ، مقدما غير محجم . لقد قضى في ربيع العمر ، وريعان الفتوة ، أتمّ ما كان شبابا ونضارة ، وقدم نفسه ودمه فداء وطنه وبلده « إنّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرَّوْعِ أنْفُسَنا » .

بكاه الشعر وأنكره التاريخ

وبكت بلنسية ابنها البار ، وبطلها العظيم الذي أبى إلا أن يكون النور الساطع في ظلمة الليل البهيم ، يهدي من أحب سلوك سبيل

الرشاد ، يدفع عن وطنه ، مستبسلاً مستميتاً ، دون أمل في النصر أو رجاء ، ولكن ليضرب مثلا ، ويكون قدوة للأجيال ، يعلمها كيف يكون القتال والاستماتة ، دفاعا عن الحمى ، وذودا عن الأرض .

وراح شعب بلنسية ، ومن ورائه شعب الأندلس ، يردد كلمات أبي الحسن علي بن حزمون التي قالها في رثاء مدافع أبي الحملات قائد الأعنة ، تمجيداً للبطولة ، وإذكاء للحماسة ، وإشادة بالبطل الذي سل سيفه ، ووقف حياته مرابطاً مشاغراً ، يدفع العدوان عن أرضه وبلاده حتى وافاه اليقين :

يا عينُ بكّي السراج الأزهرا النّيرا اللامعْ
وكان نعم الرتاجْ فكُسِّرا كي تنثرا مدامعْ
من آل سعد أغرّ مثلُ الشهاب المتقدْ
يبكي جميع البشرْ عليه لما أنْ فُقِدْ
والمَشْرَفِيُّ الذَّكر والسمهريُّ المطَّرِدْ
شَقَّ الصفوف وَكَرْ على العدوِّ مُتَّئِدْ

وبعد ، فهاذا كان نصيب مدافع ، أبي الحملات ، قائد الأعنة ، ابن أبي الحجاج يوسف في كتب المؤرخين ؟

لقد قلّبْتُ مئات الصفحات ، أستجلي حديث هذا البطل الكبير الذي قضى مجاهداً صابراً محتسباً ، فكان كل ما حصلت عليه نصف سطر ضائع في كتاب لسان الدين بن الخطيب يقول : « وكان مدافع قد استشهد شابا ، وفي حياة أخيه أبي السلطان عزيز بن يوسف بن سعد صاحب جزيرة شقر . . . » .

هل يصح لي هنا أن أقول : ما أصدق الشعر ، وما أظلم التاريخ ؟ □

افتح لهم الأبواب

● روي أن المنصور العباسي قدم للحج ، فكان يخرج الى الطواف في آخر الليل مستقرئا ، فيطوف ويصلي ويدعو ، وحدث أن خرج ذات ليلة فسمع رجلا يقول : اللهم اني اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ، فاقتصد المنصور في سعيه حتى ملأ مسامعه من قوله ، ثم خرج من الطواف وأرسل الى الرجل فقال له : ما هذا الذي سمعتك تذكر من ظهور البغي والفساد في الأرض ؟ فو الله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني وآلمني .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين : ان أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها ، قال المنصور : أنت آمن على نفسك ، قال : ان الله استرعاك أمور المسلمين واموالهم ، فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجّابا ، في أيديهم السلاح ، ثم سجنت نفسك فيها ، وبعثرت عمالك في جباية الأموال وجمعها ، وأمّر هؤلاء على أن لا يصل اليك من علم خبر الناس الا ما أحبوا ، وأن لا تطلع من أمورهم الا على ما أرادوا ، وأن لا يخرج لك عامل فيخالف أمورهم ويطرح رأيهم إلا تصبوه « عابوه وشتموه » عندك ، واغتابوه ، حتى تسقط منزلته ويصغر قدره .



فبكى المنصور وقال : ليتني لم أخلق في الدنيا ، ثم قال : كيف أحتال لنفسي ؟ قال : افتح الأبواب ، وسهل الحجاب ، وانتصر للمظلوم ، واقمع الظالم ، وخذ الفيء والصدقات مما حل وطاب ، وقسمه بالعدل والحق ، وأنا الضامن على الذين هربوا منك أن يأتوك ويشايعوك على صلاح أمورهم وأمورك وصلاح رعيتك .



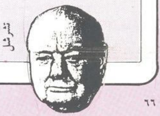
في الصميم

● عندما يكون الناس متفقين معي ، أشعر بأنني مخطيء .
اوسكار وايلد

● كثير من الزيجات بائسة وتعيسة ، لأن الزوج كان يتناول العشاء مع زوجته بدلا من سكرتيرته .
تشرشل

● ليس عيبا أن يكون المرء فقيرا ، ولكنه أمر مزعج جدا .
سيدني سميث

● لسانه يدور باستمرار في حلقه ، بحيث أن الصدى ينبغي أن ينتظر موته ليردد آخر أقواله .
كونغريف



■ قاموس الظرفاء :

الثرثار : هو ذلك الشخص الذي يتكلم عندما ترغب في أن يصغي إليك .

المتعصب : شخص لا يمكنه تغيير رأيه ولا يريد تغيير الموضوع .

المؤرخ : رجل يسير إلى الوراء .



ضحكات عربية

■ كذبنا ، فكذب

● أنشد بشار بن برد قصيدة في مدح المهدي ، فلم يعطه شيئا ، فقيل له : إنه لم يستعذب شعرك يا أبا معاذ . فقال بشار : والله لقد قلت فيه قصيدة لو أثنى بها أحد على الدهر ، ما خشي صروفه . ولكننا كذبنا فيه القول فكذّب هو أملنا فيه .

□□□

■ حافظ والأب والابن

● دخل رجل يكرهه حافظ إبراهيم على مجلس كان فيه حافظ مع بعض أصدقائه . ولاحظ الأصدقاء تأفف حافظ من وجوده ، وبعد أن خرج الرجل بقليل دخل شاب فسلم عليه حافظ سلاما فاترا . ولما سأله أحد أصدقائه عن هذا الشاب قال : إنه ابن اللئام « اللي آم » .

□□□

نصف الحقيقة

● قال الكاتب دو ولش لزميله دار لنكور : أتدري أننا - أنا وأنت - أعظم ناشرين في أوربا ؟

فقال دار لنكور : يمكن أن يكون في كلامك هذا نصف الحقيقة .

من القلب

أمر لا يصدق

● وقفت سيدتان أمام لوحة الميلاد للرسام رامبرانت في متحف اللوفر ودار بينهما هذا الحوار :

- لماذا كل هذا البؤس الذي يظهر في اللوحة يا عزيزتي ؟

- أنت تعلمين أن هؤلاء الأشخاص كانوا فقراء ، ويعانون من مصاعب مالية .

- هذا أمر لا يصدق ، ليس معهم مال ويطلبون من رامبرانت أن يرسم لهم لوحة زيتية !



رامبرانت

تمت عبيدة

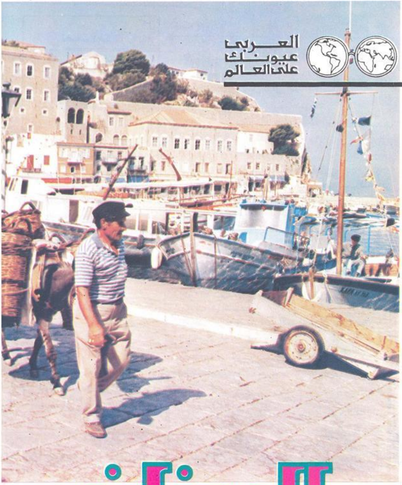
● كانت لرجل من العرب امرأة رعناء . دخل عليها يوما وهي مغضبة ، فقالت : مالك لا تشبب بي كما يشبب الرجال بنسائهم ، فقال : إني أفعل ! وأنشدها :

تمت عبيدة إلا في ملاحتها
والحسن منها بحيث الشمس والقمر
ما خالف الظبي منها حين تبصرها
إلا سوالفها والجيد والنظر
قل للذي عابها من حاسد حنق
أقصر فرأس الذي قد عيب للحجر

■ لماذا ؟

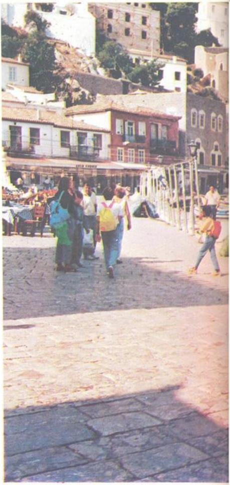
● كان تريستان برنار في كواليس أحد المسارح عندما اصطدم به عامل يحمل فوق كتفه ساعة كبيرة من تلك التي تعلق على الجدران ، فرماه العامل أرضا ، فما كان من برنار إلا أن التقط قبعته ثم قال للعامل : لماذا لا تحمل ساعة يدوية كما يفعل سائر الناس ؟





اليونان

وجه آخر بلا أقنعة!



«عن يونان أخرى حاولنا أن نبحث ،
ـ بعيدا عن السياحة والسياح
والجزر والصور الملونة ـ
عن الضفة الأخرى
التي لايراها آلاف الزائرين
الذين يكتفون بالاستمتاع بالشمس
والبحر والخصوصية المفرطة .
إلى اليونان مهد الحضارة والتاريخ ،
أم اليونانيين سادة البحار وملوك التجارة
والمطاعم والسمسرة ،
هبطنا ذات يوم !»

استطلاع :
محمود عبدالوهاب
تصـوير :
طالب الحسيـــني

لكل ماهو يوناني وقع غريب في نفسي ، وقع يمتد في الذاكرة إلى سنوات بعيدة . في صباي الباكر ، ونحن مازلنا تلاميذ صغارا ، وفي بداية عهدنا بالرجولة الباكرة ، كنا نتجمع مجموعة أصحاب في مقهى بمدينتنا العربية الصغيرة . كان صاحب المقهى «الخواجة ديمتريو» ـ كما كنا نسميه ـ وكان مقهاه أنظف مقاهي المدينة وأجملها ، يتناوب الخدمة فيها هو وزوجته المفرطة البدانة وابنه ميخائيل . وكنا ـ ككل أهل المدينة ـ نسمى مقهاهم مقهى «الإجريج» ، وكان «ديمتريو» صديقا لكل زبائنه ، بدءا من كبار الموظفين إلى صغار الطلبة .

وفي زمان لاحق ، بعد هذا الزمان ، قضيت ليلة شتوية أقطع الطريق من مدينتنا إلى الميناء ،

لكي أودع أخي المسافر إلى اليونان ليعمل مهندسا بحريا على ظهر سفينة يونانية ، وظل أخي سبع سنوات هناك ، يرسل إلي الرسائل ، يحكي لي عن البحار والموانيء ، ولكنه بعد كل ميناء يعود إلى «بيريه» الميناء اليوناني ، ويفتنني بالبيوت التي يحكي عنها ، وبالبشر الذين يعاشرهم .

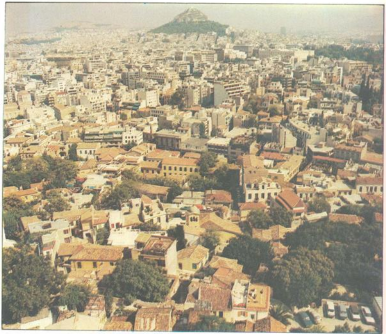
وبعد ذلك الزمان ـ بزمان طويل ـ هبطت مطار أثينا الدولي ، في الثانية والنصف صباحا ، لتستقبلنا عاصمة اليونان استقبالا بلا مودة ، كانت سيارات الأجرة في يومها السادس من الإضراب ، ولم نجد سيارة تنقلنا من المطار بحقائبنا وأمتعتنا .

اقترب منا شاب يوناني رقيق ، ابتسم في وجوهنا ، سألنا هل نبحث عن سيارة ؟. لم ينتظر إجابتنا ، قال لنا : سيارات الأجرة مضربة ، صديق لي سينقلكم بسيارته الخاصة ، سيتقاضى ستة آلاف دراخمة فقط ! كنت من سؤال الأصدقاء قبل السفر أعلم أن سيارة الأجرة لاتزيد أجرتها من المطار إلى وسط المدينة عن ٥٠٠ ـ ٦٠٠ دراخمة ، وبدأت المساومة ، وهزمنا الليل والحقائب والإضراب ، فقد رضي بخمسة آلاف فقط ! أي عشرة أمثال الأجرة الطبيعية المقررة ، وانطلقت السيارة تنهب شوارع أثينا في ليلة صيف حارة .

جيرة الأقوياء

على أطراف أوربا تقع ، وتحديدا في أقصى الطرف الجنوبي لمنطقة جنوب شرق أوربا ، وهي بذلك شبه جزيرة محاطة بالماء من ثلاث جهات ، من الشمال الغربي والشمال الشرقي محاطة على الترتيب بكل من يوغسلافيا ، وألبانيا وتركيا وبلغاريا . وقد كان لموقعها هذا تأثير طويل ومعقد على تاريخها كله ، فامتداد شواطئها على البحر الأبيض المتوسط ، ومئات الجزر التابعة لها ، جعل من البحر وأعماله مصدرا مهما للعلاقات الإنتاجية ، والنشاط الاجتماعي في الجزء المطل على البحر ووجودها مطلة على البحر الأبيض ، بؤرة الدنيا . وقلب حركة التاريخ ، ساهم كثيرا في أن تطل اليونان على العالم ، وتنقل معارفها وحضارتها إلى آفاق الدنيا . ووقوعها في منطقة البلقان جعلها عرضة لموجات الهجرة والغزاة والعابرين ، فظل جزء من أراضيها تابعا لتركيا (السلطنة العثمانية) حتى بداية هذا القرن فقط !، وفي الحرب العالمية الثانية اجتاحتها مع كل البلقان جيوش هتلر ، وبدأ صراع القوى العظمى حولها ، حتى تم الاتفاق بين روزفلت وتشرشل من جهة ، وستالين من جهة أخرى على أن تكون كل البلقان ماعدا تركيا واليونان منطقة نفوذ سوفيتي .

وتبلغ مساحة اليونان ١٣٢ ألف كيلومتر مربع ، وعدد سكانها يزيد عن عشرة ملايين نسمة (احصاءات منتصف ١٩٨٦ م) ، ومتوسط نصيب الفرد من الدخل القومي الاجمالي ٣٦٨٠ دولارا في السنة ، أي مايعادل ٣٠٦ دولارات في الشهر تقريبا (الدولار الواحد يساوي ١٤٧ دراخمة) ، ومتوسط الدخل هذا ـ كما يقول كثير من اليونانيين ـ متوسط مبالغ فيه ، فعلى الرغم من أن الأرقام صحيحة ، وتعلنها حكومة اليونان ، ويوردها البنك الدولي في تقاريره ، فإن اليونانيين يقولون هذا هو المتوسط النظري ، عندما نوزع إجمالي الدخل القومي على إجمالي عدد السكان ، ولكن الحقيقة أن السكان لا يحصلون على نصيبهم بالتساوي ، كما تقول نتائج هذه القسمة العجيبة . ويبلغ المعدل السنوي للتضخم ٢٧٪ بعد أن كان في عام ١٩٨٦ ٢٠٪ فقط ، ولذلك فإن الأسعار تقفز بجنون ، وحتى عام ١٩٨٠ كان معدل التضخم ١٠٪ فقط . ويعتمد الاقتصاد اليوناني في الأساس على الخدمات ، وعلى رأسها السياحة ، ويكوّن قطاع الخدمات ٥٤٪ من



● منظر عام لمدينة أثينا كما تبدو من فوق الاكروبولس .



● خريطة اليونان : بعض المدن وبعض الجيران

هيكل الانتاج اليوناني ، بينما تساهم الزراعة بـ ١٧٪ فقط والصناعة بـ ٢٩٪ ، ويبلغ إجمالي ديون اليونان ٢٠٨٦٢ مليون دولار حتى أوائل عام ١٩٨٧ م ، يبتلع سداد الأقساط والفوائد مانسبته ١٤,٧٪ من إجمالي الناتج القومي ، وما قيمته ٣٢٪ من قيمة عائدات صادرات السلع والخدمات .

وكان انضمامها إلى السوق الأوربية المشتركة في أواسط الثمانينيات سببا إضافيا لتلتهب الأسعار ويزداد عبء الحياة وتكاليفها.

اكتشافات أولية

في الطريق من المطار إلى قلب المدينة سألنا سائق السيارة عن موقع فندقنا بالنسبة إلى قلب



● أفواج السياح في زيارة
لـ «بقايا» الآثار القديمة .

أثينا ، وعندما علمنا أنه بعيد عنها طلبنا منه أن يساعدنا في البحث عن فندق آخر في قلب العاصمة ، تحسبا لاستمرار إضراب سيارات الأجرة ، وبدأت مساومة جديدة . قال لنا : إنه سيذهب أولا إلى فندق يعرفه ، وإذا لم نجد فيه مكانا ، فإنه سيزيد الأجرة مقابل بحثه معنا ، وأسعدنا الحظ ، ووجدنا غرفة في الفندق الذي ذهبنا إليه ويقع الفندق في قلب منطقة تجوال المشاة في وسط العاصمة ، وهي المنطقة التي لايسمح للسيارات بدخولها ، وهبطنا على الرصيف ، ووقف أحدنا بجوار الحقائب وحمل الآخر حقيبته وذهب للفندق .

سألنا عن عامل يحمل الحقائب فقال لنا موظف الاستقبال : لاتوجد لدينا هذه الخدمة ، فحملنا حقائبنا وسرنا إلى بوابة الفندق .

أمام الفندق مباشرة مقهى صغير ، يقدم وجبات الإفطار الخفيفة مع الشاي والقهوة ، وفي الصباح الباكر وأنا أفتح الشرفة وجدت عامل الفندق يعبر المسافة بين باب المقهى وباب الفندق حاملا لنا إفطارنا ، ولكي أتأكد ، طلبت منه أن يغير لنا قطعة الفطيرة التي أحضرها بنوع آخر ، ووقفت أرقبه من الشرفة ، فوجدته ذاهبا حاملا الطبق ، وغير الفطيرة وعاد إلينا .

عند هبوطنا سألت عن الفرق في سعر الغرفة مع الإفطار وبدونه . فاكتشفت أن الفرق يصل إلى حوالي ٧٥٠ دراخمة . عبرت المسافة بين الفندق والمقهى ، وقرأت أسعار الفطائر والقهوة والشاي ، واكتشفت أن الفندق يتقاضى من الفرد الواحد منا ٥٠٠ دراخمة بلا وجه حق إلا لعبور العامل ثلاثة أمتار بين بابي المقهى والفندق .

بدأنا جولة الصباح الأولى ، ومحاولة التعرف على المدينة . خلف الفندق ميدان السنتجيا حيث يطل عدد من الفنادق الكبرى على الميدان ، ومن جانب آخر نصب الجندي المجهول ، حيث يتجمع عشرات السياح لمشاهدة منظر تغير الحرس ، في قلب الميدان عدد متلاصق من مقاهي الرصيف ، ويقف السقاة يلوحون لك ويهتفون عليك ، يكادون يجذبونك من يديك للجلوس في المقاهي . بامتداد الشارع الطويل الذي يبدأ بميدان السنتجيا ، وينتهي بساحة أمونيا ، تنتشر العمارة اليونانية ، بيوت لها طعم ومذاق ، شكل عمارة قريب من النمط المنتشر في المدن العربية العريقة ، كدمشق والاسكندرية ، والقاهرة . على يمين السائر المتجه إلى ساحة أمونيا تنتصب أكاديمية الفلسفة ، مبنية على الطراز الأغريقي : الأعمدة ، السلالم ، الطابق الواحد ، وعلى الأعمدة تنتصب تماثيل لرموز اليونان الخالدة : سقراط ، أفلاطون ، أرسطو ، أبوللو .

الأرصفة عالم آخر ، باعة أوراق يانصيب يتفننون في عرض أوراقهم ، باعة جائلون يعرضون الملابس ، معروضات لمحلات تخرج بضاعتها على الرصيف .

واليوناني تاجر حتى أظافر قدميه ، يعرض بضاعته ، يقترح عليك تذوقها ، يبتسم ، يشير بيديه وتعبيرات وجهه وكلماته الحميمة ، ليقنعك أن بضاعته لامثيل لها في السوق كله ، وأنك ستربح لو اشتريت . تسأل عن السعر ، فيبتسم ، ويسألك هو ، كم كيلوجراما تريد ! . عند هذا الحد من التفاوض كنا ننصرف .

في ساحة أمونيا ينتصب تمثال من الصدف الأخضر لطائر البحر الخارج من الماء ناشرا جناحيه ، وجذعه على هيئة إنسان ، وعلى امتداد الأرصفة الدائرية المحيطة بالساحة تنتشر الأكشاك ، وباعة اليانصيب ، والمتسكعون ، والمقاهي . داخل المقاهي تسمع رنين زهر النرد ولعبة الطاولة ، وبعض الاشخاص الواقفين يلعبون « الثلاث ورقات » ، يديرها الرجل بين يديه ويقلبها على وجوهها ، ويسألك أين الصورة ، وهي لعبة قمار لاتتم إلا بالنقود ،

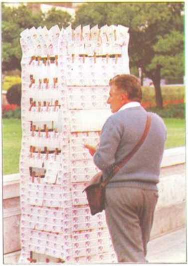
وبين الزحام عليك أن تسير على الأرصفة لتنتقل من جانب إلى جانب آخر ، أو لتهبط وتستقل مترو الأنفاق إلى ميناء «بيريه» .

السفن المشرعة

فور خروجنا من محطة المترو عند الوصول إلى بيريه شممنا رائحة اليود التي تعبق في أجواء الموانيء ، البحر يواجه «المترو» و«الاوتوبيس» ، ولأن الشارع ضيق فالزحام شديد . على الشارع المطل على البحر تنتشر مكاتب السفر ووكالات الشركات البحرية . في المرسى ثلاث سفن شحن كبيرة ، والعمال منهمكون في تعبئتها ، وفي طرف الميناء مراكب صغيرة للسفر والتنقل بين الجزر التابعة لليونان .

بيريه لاتبدو كمدينة منفصلة ، بل هي أقرب لتكون امتدادا وضاحية ، المسافة بينها وبين أثينا بمترو الأنفاق تستغرق عشرين دقيقة فقط . داخل الشوارع المتعامدة مع شارع الميناء تنتشر محلات لوازم البحر ، تبيع أدوات مختلفة ومتباينة ، بدءا من الحبال إلى أدوات الصيد ، والمقاهي والمطاعم الرخيصة ، وفي الشوارع ينتصب سوق الخضراوات وسوق السمك . على مقهى في الشارع كان الحديث عاليا والأصوات عربية . جلسنا مع أربعة من العرب يعملون في البحر على إحدى المراكب اليونانية ، أقدمهم يعمل منذ تسع سنوات ، وأحدثهم منذ ثلاث سنوات ، المركب التي يعملون عليها مخصصة للشحن ، وهم يطوفون العالم ، ينقلون بضاعة من هنا إلى هناك ، وقد تطول بهم الرحلة قبل أن ترسو بهم المركب في ميناء ، وفوق ظهرها لاركاب ولا بشر غير طاقمها ، وهم خليط من الجنسيات ويقولون : إن الرواتب لاتوازي الجهد ولا المشقة ، وسماسرة العمل امتصوا دماءهم في البداية ، فلا يستطيع عامل أن يلتحق بسفينة أو يعمل لدى شركة مباشرة ، ولكن كل فرص العمل يحتكرها عدد من «السماسرة» الذين يتقاضون نصف راتب سنة . ويجزم بعضهم أن هناك تواطؤا بين بعض موظفي الشركات و«السماسرة» ، حيث ترفض الشركات العمال عند تقدمهم إليها مباشرة ، بحجة عدم الحاجة إلى عمال ، ليفاجأوا بأن الشركة نفسها قبلت عمالا آخرين ، ولكنهم تقدموا من خلال «سمسار» .

والأسطول البحري اليوناني يمتد في كل بحار الدنيا ، واليونان سادس دولة في العالم من حيث الأسطول التجاري وحجم عملياته . ولقطاع النقل البحري وعالم الأساطيل قواعد خاصة ، وعالم مغلق على أصحابه ، وعائداته بالملايين ، وأصحابه يتحكمون في جزء مهم من تجارة العالم ، ولذا فإنهم يمثلون قوى لايقترب منها أحد . وشركات الملاحة شركات عملاقة ، لاتكتفي بلعبة المال فقط ، ولكنها تلعب في بحار السياسة والاقتصاد ، مستمدة قوتها من



● باعة « اليانصيب » مشهد متكرر

سفنها المشرعة التي تجوب مياه العالم حاملة السلع والوقود والثروة .

المسجد والكنيسة

حرص اليونانيين على تأكيد هويتهم وشخصيتهم أمر دونه الموت ، وعلى الرغم من خضوع مناطق من اليونان الحالية للسيطرة أوقاتا طويلة ، فإنهم يحملون كراهية شديدة لهذه الفترة ، وهم شديدو الحرص على إهمالها ، وفي الوقت نفسه يؤكدون على كل ما هو يوناني ، وكل ما هو كنسي ، وعندما هبطنا سالونيك كنا ندرك أن هذه المدينة كانت من التابعية العثمانية فترة زمنية طويلة ، امتدت من القرن الخامس عشر الميلادي ، ولم تنضم إلى اليونان إلا في عام ١٩١٢ م ، وعندما تحررت حدثت مذبحة هائلة في المدينة ، واندفع اليونانيون لهدم المساجد ، ودثر الآثار التركية ، والإفراط في بناء الكنائس ، حتى أقاموا في شارع جانبي خلف قوس النصر الكبير الذي مر منه الملك قسطنطين الأول ، والذي تحررت سالونيك في عهده ، أقاموا كنيسة على الرصيف ، مبنى صغير من الخشب والزجاج الملون ، والمبنى أقرب للكشك المتسع منه إلى البناء ، أقاموه لأنهم لم يجدوا أرضا خالية ليشيدوا عليها كنيسة ضخمة ، وعلى الرغم من ذلك فقد استولوا على المسجد الكبير الذي كان بالمدينة ، وحولوه إلى كنيسة تدق فيها الأجراس ، علها تنسيهم مرارة الفترة التركية . ولعل أصدق تعبير عن إحساس اليونانيين بالفترة التركية هو ما صوره أعظم روائييهم ، ومن أعظم روائيي القرن العشرين كازنتزاكس في معظم أعماله ، وهو يصور- مثلا - الوالي التركي في رواية (المسيح يصلب من جديد) كشخص ثقيل كريه شهواني عبثي دموي ، وعلى الرغم من أنه في معظم الرواية



● يقرأ الأرقام الفائزة في سحب « اليانصيب » .



● يسألان عن موعد السحب الجديد .

يطل على القرية فقط من شرفته ، لكن مجرد وجوده ووصفه لمشهد الشرفة يمنح القارىء إحساسا بثقل الهواء وعفنه الذي يحيط بهذا الوالي .

تقع سالونيك في أقصى الطرف الشمالي الشرقي لليونان ، وهي أقرب للحدود التركية ، حولها تنتشر الأماكن التاريخية ، غربها المنطقة التي ولد بها الاسكندر الأكبر ، وبقايا القصر الذي ولد فيه ، والذي لم يتبق منه إلا ساحة فيها بعض البلاطات الملونة وبضعة أنصاف أعمدة .

وشرق سالونيك مدينة «كاڤالا» ، وهي تبعد عنها ١٥٧ كم ، وفيها البيت الذي ولد فيه محمد علي باشا الذي دخل التاريخ بولايته لمصر ، وتجربة الدولة الحديثة التي أقامها فيها . واسم المدينة كما هو في كل كتب التاريخ التي درسناها بالعربية «قولة» وهو نطق مغاير لاسمها الصحيح ، والسبب أننا نقلناه عن الأتراك ، والأتراك ينطقون الواو «ڤا» ، ومن هنا قولهم «لمروة» مرڤت ، ولولد «ڤالد» ، والقاف حرف عربي خالص ، يبدو أننا استبدلناه بالكاف ، ظنا منا أن أصل الكاف في الاسم هو قاف ، وقفت أسأل (هيلين) ، عاملة الاستقبال في الفندق الذي أقمنا فيه في سالونيك «عن كيفية الذهاب إلى «كاڤالا» ، قالت لي : إنها لاتعرفها . قلت لها لتقريب الأمر إليها : حيث ولد محمد علي - نظرت إليّ باستغراب ، استدارت وسألت زميلتها : هل تعرفين محمد علي ؟ ردت زميلتها : أوه ! نعم ، إنه نبي المسلمين . ولم أجد مفرا من الذهاب إلى مكتب تأجير السيارات ، سألت الموظف ، قال لي : إنه ليس أمامي إلا استئجار سيارة أجرة ، عدت إلى موظفة الاستقبال ، قلت لها : إن مدينة «كاڤالا» تقع إلى الشرق على بعد كذا ، وعجيب **ألا تُعْرَف مدينة فيها أثر تاريخي مهم** ، فردّت بسرعة : مهم لماذا ؟ أنا أعرف المنطقة التي ولد فيها الاسكندر الأكبر كراحة يدي ، وقد زرتها خلال فترة الدراسة من الابتدائي إلى نهاية الثانوية بما يعادل مرتين كل سنة ، وفي امتحان نهاية العام كنت أرسم تخطيطا للقصر ، وأكتب نبذة عن **تاريخه وتاريخ الاسكندر** ، أما محمد علي فلم أسمع عنه قبل الآن .

استوقفنا سيارة أجرة في الطريق ، بدأنا المساومة ، ثالث سائق توصلنا معه إلى مبلغ



ظنناه معقولا : ستة آلاف دراخمة ذهابا وعودة وانتظارا هناك نصف ساعة فقط ، قبلنا هذا المبلغ لأننا مازلنا نتذكر الخمسة آلاف دراخمة التي دفعناها من مطار أثينا إلى وسط البلد .

اخترقت بنا السيارة قلب الريف اليوناني ، الطريق صاعد هابط ، في مرتفعات ووديان ، على جانبي الطريق تمتد الخضرة والقرى والمزارع ، وأشجار الزيتون والكروم . وصلنا إلى كافالا بعد ساعتين ، سألنا عن الحي القديم ، وذهبنا إليه ، الشوارع بالغة الضيق لاتكاد تتسع لمرور السيارة ، ويخشى أن تصطدم جوانبها بالمباني القديمة . ظلت السيارة تصعد هضبة صغيرة في أعلاها ينتصب تمثال لمحمد علي باشا راكبا حصانه ، وبجواره البيت ، والبيت على قمة الربوة ، يطل على البحر مباشرة ، والبناء ذو طابقين مهمل إهمالا شديدا ، وعلى الرغم من ذلك يبدو على البيت الخالي تماما أنه بيت لثري من تجار الدخان ،



● رصيف ميناء « بيريه » : السفن مشرعة والمسافرون متأهبون .

تسع غرف ، صالات كبيرة ، أسرّة خشبية ملتصقة بالحائط . طوال طوافي بالبيت الرطب المعتم كنت أتساءل : أي أفكار كانت تطوف بذهن الصبي محمد وهو هنا ؟ أي أحلام راودته وهو ينظر إلى البحر ؟ وأي آمال كانت في خاطره وهو يلعب في حديقة البيت التي صارت مهملة ؟ وكلما خطت قدمي خطوة تساءلت : ترى هل خطا هنا الخطوة نفسها ؟ هل جلس هنا يوما حيث أطوف وأطأ وأنظر ؟ قطع سائق السيارة عليّ تداعياتي ، وقطع على زميلي المصور لتجميع النفايات .

اخترقت السيارة بنا الريف اليوناني لنعود إلى سالونيك مرة أخرى .

من هنا ولدت تركيا

في سالونيك يقع البيت الذي ولد فيه وعاش فترة طويلة مصطفى كمال أتاتورك ، أبو تركيا الحديثة ، وعندما انفصلت سالونيك عن تركيا وعادت إلى اليونان ، اشترى الأتراك البيت الملاصق لهذا البيت ، وأقاموا مبنى القنصلية



● منزل كمال أتاتورك مازال محتفظا به داخل مبنى القنصلية التركية في « سالونيك » .

لقطاته ، ليذكرنا أن نصف الساعة قارب على الانتهاء . عند الهبوط وقفنا أمام الأوقاف المصرية ، وهي واحدة من المشكلات المعلقة بين مصر واليونان ، الأوقاف تمتد على مساحة شارع بأكمله طولا ، وتمتد عمقا ، ليتفرع أمامها ثلاثة شوارع ، وهي تكية وسبيل ، ومدرسة ، وكلها مغلقة . بعضها استخدمه التجار كمخازن ، وحراسها حولوه إلى مكان التركية ، وأحاطوا المبنى بسور ضخم ، لكي يظل بيت أبي تركيا الحديثة في أراضي تركيا ، وفق العرف الدولي الذي يقضي بأن أراضي البعثات الدبلوماسية تعد أراضي لهذه الدول .

بيت أتاتورك على النقيض من بيت محمد علي ، من حيث العناية والنظافة والرعاية ، ذهبنا إلى القنصلية ، ولأن اليوم يوم أحد لم يكن بها إلا موظفو الأمن . حاولنا أن يمنحنا المسؤول

منهم إذنا بالدخول ، فرفض رفضا قاطعا ، قلنا له نحن قادمون من بلاد بعيدة وسنغادر سالونيك عند الفجر ، فأصر على الرفض ، ومع الإلحاح والمساومة ومائة دولار قبل أن يحادث السكرتير في المنزل ، فوافق السكرتير على أن ندخل دون تصوير ، ومع مائة دولار ثانية وكثير من الإلحاح وافق على أن يحادث القنصل وقال له ما قلناه نحن ، ونقل بأمانة وجهة نظرنا ، فوافق على أن ندخل مع آلة التصوير ونلتقط الصور . في الحديقة شجرة رمان



● غرفة نوم كمال أتاتورك : فراشه وأغراضه

مزهرة ، زرعها كمال أتاتورك ، وفي الداخل كل متعلقاته : ثيابه ، أدواته الشخصية ، أواني الطعام ، فراشه ، كتبه ، عصاه ، قبعته ، متحف كامل ، مرتب ومنسق ومعتنى به ، احتفاء منهم بالمكان الذي عاش فيه الضابط مصطفى كمال أتاتورك فترة طويلة ، حيث كان يخدم في سالونيك .

وفي هذه الفترة بزغت فكرة حزب الاتحاد والترقي الذي قاد به أتاتورك تركيا إلى البعث الجديد الذي اختاره لها .

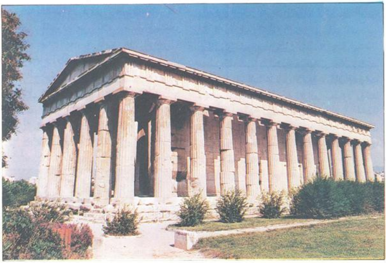
يونانيون حتى العظم

عدنا إلى أثينا صباح الاثنين ، كان إضراب سائقي سيارات الأجرة مازال مستمرا ولكننا تعلمنا ، فلم نبحث عن سيارة ، أخذنا «اتوبيس» خدمة ركاب المطار ، نقلنا إلى ميدان السنتجيما ، ومنه قطعنا المسافة إلى الفندق سيرا على الأقدام .

سألنا : ألم تبد بادرة انتهاء لإضراب سيارات الأجرة ؟ قالوا : اليوم ستعقد جولة جديدة من المفاوضات . وبدأ محدثنا في وزارة العمل يستفيض في شرح أسباب الإضراب وآلياته . قال لنا : إن الحكومة أصدرت قرارا بأن منطقة المدينة ستتناوب سيارات الأجرة دخولها ، بمعنى أن السيارات ذات الأرقام الفردية تدخل يوما ، وذات الأرقام الزوجية يوما آخر ، وذلك لتخفيف الزحام والضغط في شوارع المدينة ، وهاج أصحاب سيارات الأجرة وبدأوا يلوون ذراع الحكومة ، وأعلنوا عن إضرابهم ، ورفضوا دخول المدينة كليا ، وأصيبت حركة النقل بالتوتر ، وازداد الضغط على وسائل النقل العامة وازدحمت المركبات ، ولكن الحكومة مصرة على تنفيذ القرار مهما طال زمن الإضراب .

وقد ظل الاضراب قائما حتى غادرنا اليونان كلها .

في وزارة الثقافة التقينا مديرة التخطيط الثقافي ، حاولت معها الاقتراب من تفسير لظواهر كثيرة قالت : نحن حريصون أن نظل يونانيين حتى العظم ، وعلى الرغم من اختلاطنا واندماجنا الشديد بأوربا فإننا حريصون على هويتنا وشخصيتنا القومية ، لأننا لو فقدناها ، فسنصبح مسخا تائها وسط شعوب المنطقة ، وأعترف أننا لانجد جهدا شديدا ، لتأكيد ذلك



● مبنى برلمان أثينا القديمة هو المبنى الوحيد الذي مازال قائما بشكل كامل .

وتثبيته ، ادخل أي بيت ، مهما كان شكله ، ستجد الحياة داخله يونانية : العادات ، والتقاليد ، نمط الحياة ، الألفاظ ، الصيحات ، طريقة التعبير ، استخدام الأيدي في الإشارة وتوضيح معاني الكلام ، (ونحن في هذا مشتركون مع دول المتوسط في هذه العادة) ، ونحن في هذه الوزارة ننسق مع وزارة التربية في تدريس مناهج تؤكد هذا الاتجاه ، وتدعمه ، ونحن ندرس بجانب هذا الفنون الجميلة ، لأننا ندرك أن ارتقاء الذوق العام سيجعل المواطن يكتشف الجمال الرائع الذي تحتويه هويته القومية ، وتقدم الوزارة خدمات الأسعار الخاصة للموظفين والطلاب والصغار دون السادسة عشرة ، وأنا لا أتفق مع الرأي القائل إن لدى اليونانيين بعض الاستعلاء ، ولكن نحن سادة العالم ، قدمنا الحضارة عندما كانت البشرية طفلا أعمى ، وقدمنا الآداب والفنون عندما كانت الروح الإنسانية بهيمية ، وفي التاريخ الحديث كتبنا ملاحم فوق جبال اليونان دفاعا عن حريتنا وكرامة أراضينا ، نحن قدمنا كازنتزاكس ، وثيودرس وكنافيس دريتوس وماريا كالاس ، بعد الرموز الخالدة : أرسطو ، وسقراط وأفلاطون ، وارشميدس ، وفيثاغورس ، وقائمة طويلة ، كل واحد منهم له فضل في تاريخ الجنس البشري . ونحن أول من أرسى القيم الخالدة وعرّفها ، وقلنا إنها الحق والخير والجمال ، وعلمنا العالم المنطق والفكر الرياضي ، وعلى الرغم من ذلك نحن بسطاء مغرقون في حب الحياة والإقبال عليها ، ولأننا نحب الحياة ، فنحن نعرف كيف نقدمها للآخرين ، وكيف نسهلها لهم .

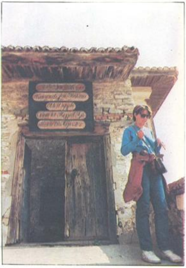
حياة لم تتغير

تستطرد محدثتي مديرة التخطيط الثقافي بوزارة الثقافة في الحديث بعد أن انضمت الينا زميلة لها من قسم التراث والثقافة القومية ، تقولان ردا

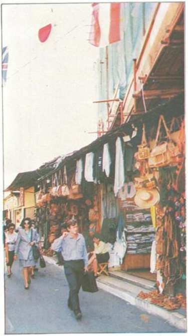


● الأوقاف الإسلامية في « كافالا » : إهمال ومخازن ونفايات .

على تساؤلاتي : الحياة لم تتغير في الريف ، وبعيدا عن المدن الكبرى ، مازالت التقاليد سائدة ، فالبنت تتزوج من يرتضيه الأهل ، صحيح هناك قدر من المرونة ، ولكن لايصل الأمر أبدا إلى الخروج عن رضا الأسرة ، والأسر مازالت متمسكة بمعايير التكافؤ الاجتماعي والاقتصادي ، ولا تنظر برضا إلى زيجات بين طبقات متفاوتة ، والأبناء طوال فترة دراستهم مقيمون في بيت العائلة ، والأب ينفق ، ولكن فور تخرج الابن وتوليه عمله ، فإنه إذا لم يستقل بسكن - وهذا غير مقبول قبل الزواج - فإنه يساعد والده في نفقات المعيشة إذا كان الأب غير مقتدر . وعند الزواج تساعد الأسرة الابناء ، ولكن هذا ليس إلزاما ، لكنه سائد بدرجة كبيرة في الريف ، واحتفالات الزواج تتم على الطريقة اليونانية ، الرقص الشعبي الذي يشارك فيه الكل كبارا وصغارا رجالا ونساء وفيه الشواء والنبيذ ، وفي الميلاد يتم الاحتفال بعد أسبوع



● باب بيت محمد علي في « كافالا » .



● في الشوارع القديمة باعة « التذكارات » يمنحون الطرقات مذاقا خاصا .

من ولادة الطفل ، عند التعميد ، وعادة يقام الاحتفال في بيت «اشبين» الطفل ، وهو أبوه الروحي الذي يعمده ويختار له الاسم ، ويسارع الأهل والأصدقاء لتقديم الهدايا التي غالبا ماتكون من الذهب .

أقول متسائلا : ألا تدركين سيدتي أن هناك تشابها كبيرا بين التقاليد اليونانية وكثير من التقاليد العربية ؟ تقول : نحن في منطقة تأثير حضاري متبادل ، ونحن نشكل مع الوطن العربي إقليما جغرافيا ، والحضارة العربية بدأت بعد ترجمة الحضارة اليونانية .

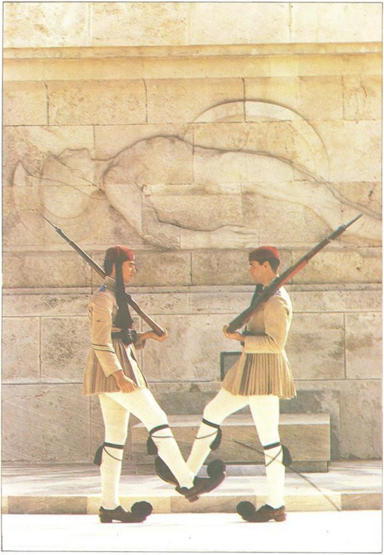
وموقفنا الجغرافي . وقربنا من الوطن العربي ، ساهما كثيرا في تشابه العادات والتقاليد . وأعقب ممازحا حتى هذا تدسين فيه الحضارة اليونانية ؟! فتضحك بطيبة سيدة عجوز وتقول : لا تنس أنني يونانية حتى العظم .

العائدون إلى الوطن

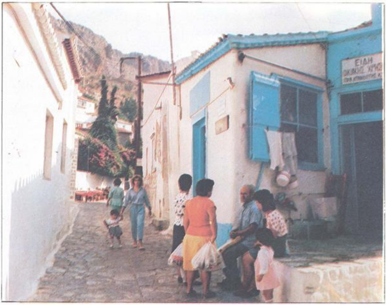
في الفندق ، في إدارة حكومية ، في مطعم ، في شارع ، أينما التفت تصطدم بيوناني أو يونانية تتحدث العربية ، تحكي مدام تريزا ، يونانية ، ولدت وعاشت في القاهرة وعملت فترة طويلة هناك حتى عام ١٩٨٢ ، عادت إلى اليونان ، تقول : جئت إلى هنا أنا وزوجي ، بعد أن أصبحت كلفة الحياة في مصر صعبة ، تصورت أنني هنا سأستريح كثيرا ، ولكنني أعمل الآن في الحكومة ، وزوجي يعمل مهندسا في شركة خاصة ، ويضطر للتغيب أسبوعا كاملا بعيدا عن البيت ، ونكاد نستطيع أن نحيا نحن وبناتنا الثلاث . صحيح أن أهلي هنا ، أأتلف مع الحياة على الرغم من أن بيوتنا في القاهرة كانت يونانية بكل تفاصيلها اليومية ، لكن هناك شيئا لا أستطيع تفسيره فهناك شيء ما مفقود .

«ميشيل» مترددتيل في مطعم بأكبر فنادق أثينا ، الفندق يطل على ساحة سنتجما ، في منتصف الخمسينيات ، عندما كان عمره خمس عشرة سنة غادر أبوه الاسكندرية ، وجاء معه ، وطوال فترة العشاء كان يطوف بين الموائد ، ويأتي إلينا يتحدث بالعربية ، ويحكي عن النادي «الأجريجي» بالاسكندرية ، ونادي الصيد ، والبحر ، ويسأل عن أسماء أماكن وبنايات ، وشوارع ، ويصف أين كان بيته . في آخر مرة جاء إلينا قلت له : ألم تقطع صلتك بكل هذا واسترحت ؟ نظر إلي وأغمض عينيه ، وقال بالانكليزية : نحن الغرباء الذين انقسمنا إلى نصفين ، وضاع قلبنا بين وطنين .

عاملة الهاتف في الفندق نفسه عندما ذهبت لأجري مكالمة دولية ، ولأنني بالطبع لم أكن



● مشهد تغير الحرس أحد المشاهد التي يحرص زائرو أثينا على متابعتها .



● في جزيرة « أدلب » الشوارع الضيقة والبيوت البيضاء صورة للشوارع والقرى التقليدية .

مقيما في هذا الفندق الكبير فإن النظام يقضي بأن أتحدث من الكابينة ، وأسدد نقدا ، وعندما عرفت أنني عربي أبدت عرضا بألا تأخذ النقود ، قالت : إنها من حي شبرا بالقاهرة ، وبالطبع دفعت النقود ومعها «بقشيش» سخي ، فقد كانت تتحدث العربية بطلاقة ، حيث إنها لم تعد إلا منذ ثلاثة أعوام فقط .

بقايا أحجار ما قبل الميلاد

أخـذنـا «الاوتـوبيس» لنـذهـب إلى «الأكروبولس» ، فوق الهضبة الشهيرة التي تستلقي تحتها أثينا ، تتناثر الآثار اليونانية القديمة ، عمرها يعود إلى أكثر من ٢٥٠٠ عام ، أى ماقبل الميلاد ، وبفعل الزمن فقد تهاوت معظم هذه الآثار ، ولم يبق منها إلا أطلال وبقايا أعمدة وحفر الأساس ، ولافتات تقول : هنا كان كذا ، وهنا كان كيت ، والمبنى الذي مازال قائما بشكل يكاد يكون كاملا هو المعبد المقدس لآلهة أثينا (Eigora) ، وكان بمثابة البرلمان ، وهو أول برلمان في التاريخ ، وحول المعبد والبرلمان كانت تدور الحياة والبيع والشراء ، فالبرلمان بموقعه يتوسط المدينة كلها ، وداخله كانت تدور المناقشات ، وتبرم العقود ، وتعلن الحرب ، ويتفق الزعماء أو يختلفون ، وعلى الرغم من قلة الآثار اليونانية قياسا بعديد من المدن العربية كالقاهرة ، والأقصر ، وبغداد ، ودمشق ، وصنعاء وغيرها فإن اليونانيين يتفننون في بيع المنطقة إلى السياح ، وهنا جانب من ذكاء اليوناني التاجر ، وبائع الخدمات قريب من «الأكروبولس» منطقة بلاكا ، والمنطقة كلها هي

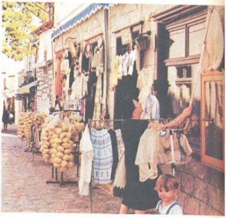
الجزء القديم ، شوارع ضيقة ، بيوت ذات طابق واحد ، بيضاء ، الورود والخضرة تتدلى من نوافذها وعلى أبوابها ، الشوارع مبلطة ، وصاعدة هابطة ، وداخل الشوارع وفي نهايتها تنتشر المحلات التي تبيع المصنوعات التقليدية ، وفي المقاهي في الليل لاتجد مقعداً تجلس عليه ، حيث يصعد أهل أثينا والسياح الهضبة المقدسة ويقضون سهراتهم إلى وقت متأخر من الليل في مقاهي البلاكا ومطاعمها ، وساحاتها ، وتفوح رائحة الشواء ، ويلمع النبيذ اليوناني في الأكواب الزجاجية ، ودندنات عازفي الموسيقا ودقات الأقدام ، ونقرات الأصابع على المنضدة ، والغناء الدافىء الشجي الذي يتسلل إلى الروح حتى وإن كنت لاتفهم اللغة ، ولا تحتسي النبيذ ، ولا تأكل اللحم الذي لاتعرف إن كان مصدره خنزيراً أم بقراً ؟ ولكن المكان والغناء والنور الخافت والهضبة العالية المقدسة والبشر الذين يضحكون ويبتسمون ويتوادون دون سابق معرفة ، كل هذا يجعلك قريبا من المكان ، متفاعلا مع كل من ما حولك .



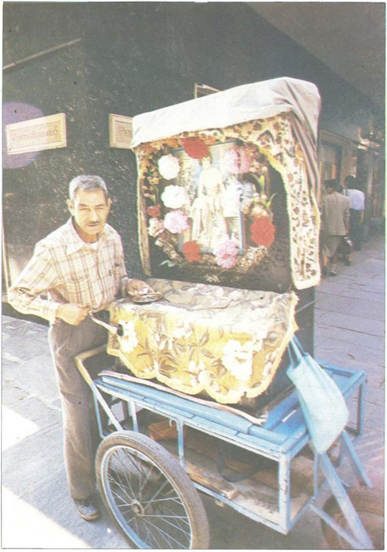
● المساومة سر التجارة في كل اليونان : ساوم في أفخم المحلات أو مع باعة الأرصفة .

الجمال البسيط

عدنا لبيريه مرة أخرى ذات صباح ، لنستقل مركبا متجهين إلى جزيرة أدلب ، ساعة ونصف ساعة ، بالدلفين الطائر ، ووصلنا إلى الجزيرة . الجزيرة نموذج مصغر لقرية يونانية ، البيوت ذات الطابق والطابقين ، البيوت كلها باللون الأبيض ، والأبواب زرقاء ، والبغال والحمير هي وسيلة الانتقال ، ومعظم مباني القرية «بنسيونات» ، وفنادق صغيرة ، وعلى التل المشرف على القرية تنتصب الكنيسة ، على بواباتها بقايا سعف النخيل ، والسكان إما يعملون بالزراعة خلف التل ، وإما يعملون بالفندقة وخدمة السياح . عند سفح التل من الجهة الثانية السفح المواجه للبحر هو جانب الفندقة ، والحياة مفرطة في البساطة ، الناس تسير بأي



● محلات مدخل حي « بلاكا » تتفنن في عرض محتوياتها على الأرصفة .



● عازف البيانولا : على وجهه كل متاعب عمره، ومازال يطوف الشوارع ، ويبيع الموسيقا والذكريات .



● المقاهي فن اليونانيين العظيم ، ففي كل زاوية وتقاطع وشارع مقاه ورواد .

ثياب ، وكيفما شاءوا ، والبيوت والفنادق بالغة النظافة . وفي تجوالنا بالشوارع تتسلل نظراتنا خلف الأبواب المفتوحة حيث تبدو الخضرة والزهور والمفروشات الناصعة البياض ، واحساس بالجو البيتي الهادىء النظيف يغريك بأن تدخل وتجلس باسترخاء وتمدد ساقيك .

في شارع آخر وعند ركنه ينتصب مخبز القرية ، تفوح روائح الفطائر بشدة ، فطائر محشوة بالجبن أو اللحم أو المربى أو شرائح الفاكهة المسكرة ، وخلف المخبز سوق الخضراوات ، أربعة محلات تعرض ما لديها ، وحمال ينقل البضاعة على حماره من رصيف الميناء إلى المحلات ، بعض الفنادق الصغيرة ومعظم البيوت تزرع العنب في كرمات منزلية صغيرة تظلل المساحة أمام البيت ، وتحتها تتوزع المقاعد والمناضد .

جمال مفرط في بساطته ونظافته وطبيعته ، جعل من أدلب ومئات الجزر الأخرى محطة وصول لملايين من السائحين، الذين يهبطون إلى المطار ومنه مباشرة إلى الجزيرة ثم إلى طريق العودة ، لايحاولون أبدا اقتحام المدينة ، ولا الذهاب إلى التلوث والضجيج والبنايات الاسمنتية ، والطرق «الاسفلتية» .

على المقهى الذي يواجه الميناء يجلس الرواد ، سواء قصيروالاقامة أو المقيمون فترة طويلة ، ويتعارف الرواد ويتحادثون ، ويسأل كل منهم الآخر : أين كنت مساء الأمس ؟ لم نرك في المقهى ! . ويقول ثان : مررنا أمام فندقكم وأطلقنا صفيرا تحت نافذتكم ولم نلمح ضوءا ، وعلاقات بسيطة تتناغم مع بساطة المكان وجماله الذي يغري الجوالين السريعين أمثالنا بالإقامة طويلا ، مع كثير من الكتب وبعض الصحاب ، ولكن الاستمتاع بالجمال ترف آخر لا يستطيعه الكثيرون .

الجانب الآخر

ويتدفق على اليونان ملايين السياح سنويا . وفي آخر احصائية متاحة كان عدد السياح الذين دخلوها في صيف ١٩٨٧ ثمانية ونصف مليون سائح ، أنفقوا مليونين و٨٣٣ ألف دولار امريكي ، ويفتن السائحون بجزر اليونان ، ويهرعون إليها ، وكثير من البطاقات المصورة واللوحات والتقويمات الملونة تحفل بصور مختلفة لهذه الجزر ، حتى السينما العالمية صورت أكثر من فيلم فيها ، ولم نذهب إلى الجزر التي تقدمها السينما واللوحات والبطاقات المصورة والأفلام التسجيلية في التلفاز . ذهبنا نحاول أن نرى اليونانيين أنفسهم ، نقترب من ضفة النهر الأخرى ، حاولنا أن نرى فقط ، وأن نقترب ، وأن نقدم صورة عامة للجانب الآخر من النهر ! □



بجوار كوب من الماء

قصة قصيرة بقلم : عبده جبير *

كان كل شيء قد بدا على الأرجح كأنه لحظة الختام للجميع ، وهم يقفون أو يجلسون حول سريرها النحاسي العالي الذي كانت دائما (على الرغم من مشقة صعوده والهبوط منه) مصرة على وجودها فوقه ، وبالتأكيد هي الآن أشد إصرارا وهي تحس أنها راحلة .

« رمزي » هو الابن الأصغر لابنها الأصغر ، يجلس الآن بجوارها فوق السرير ، من جهة رأسها ، يحاول بتحريك نصفه الأعلى ألا يحجب وجهها عن أفراد الأسرة المنبوذين (بالنسبة لها) ، والذين تكتظ بهم الغرفة الآن ، وهو يبدو قلقا من حركة قدميه المتدليتين ، دون أن يقصد .

كان « رمزي » هو آخر اسم نطقت به السيدة « نهاز » ، آخر أحفاد الأسرة الملكية ، (وآخر شخصية من بين الذين أصروا على أن يدفنوا في وطنهم بعد الغربة الطويلة في أوربا) ، وكانت تقول له ، وهي تدلله بسبب شعره الأصفر ، وعينيه الزرقاوين : أنت الوحيد الأكيد ، أما الآخرون فهم « ركش » .

كانت تكرر ذلك ، وتنطق الكلمة الأخيرة بصوت مرتفع ، تؤكد فيه على كل حرف ، كما كانت تتعهد دوما وأبدا بأن تخصه ببعض العطايا : مسبحة يسر مطعمة بالفضة ، عصاة ملوية اليد من خشب الأبنوس مطعمة بسن الفيل ، والأدهى من ذلك تخصه : بطربوش مستعمل ، تآكلت مع الزمن حوافه بفعل « العتة » ، فبانت بطانته ، وكانت تؤكد على أن هذه أدوات الإمارة لأبيها ، آخر أمير من الأسرة المالكة ، وكانت تعني على الأخص ، نقل الأثر للحفيد الذي تأكدت من صفاء دمه بسبب شعره الأشقر ، وعينيه الزرقاوين ، ولم يكن « رمزي » يبالي ، بل إنه وبلماحية مختلطة بتقلب في المزاج كان يضايقه من نفسه (لأنه ترسخ في ذهنه من كلام المحيطين به أنه قد ورثه عنها) ، كان يقول ، من ورائها في الغالب : « سيدة مجنونة ، تعيش في الأوهام » ، لكن هذه ، على أي حال ، لحظة مختلفة ، لحظة النهاية الحتمية التي يشك فيها البعض ، ويتوقها البعض من الأشخاص التسعة الذين يحتشدون الآن في الغرفة ، لابسبب أي شيء ، إلا الوفاء لهذه اللحظة بقلب خالص ، وخوفا من مشاحنات العتاب التي يمكن أن تقع بعد كل تقصير في مثل هذه الأحوال ، وليس من أجل المال أو الجاه الذي كان يعرف الجميع أبدا ، من

* روائي وكاتب من القطر العربي - المصري

بين التسعة أشخاص (ماعدا « رمزي » كما يتصورون جميعا) أنه لم يبق منه شيء ، بالإضافة إلى ماعقدته السيدة « نهاز » من آمال على « رمزي » ، ولم يكن هذا شيئا جديدا ، فمنذ أول يوم ولد فيه ، كانت ترتيبات هذه المسألة قد عقدت بشكل نهائي .

والآن ، في هذا الموقف الصعب ، بدأ الزمن يلعب لعبته السخيفة ، المنطوية على قسوة لايمكن أن يتوقعها أحد ، والجميع (ربما بمن فيهم السيدة « نهاز » نفسها) يتمنون أن ينقضي الوقت ، وتنتهي مراسم الدفن ، حتى يذهب كل منهم إلى مصالحه ، لكنها لما تمت بعد ، وإن كانت تعاني آلاما وخيالات من الضعف الذي حل بها منذ تمددت على الفراش ، ودخلت في الغيبوبة منذ الصباح الباكر ، ومع ذلك يعاني كل منهم بشكل مختلف ، ربما لأن خاطرا يمر بباله : عن أنه ربما يجد نفسه في هذا الموقف الحتمي ، وربما لأنه يكرهها من أعماق قلبه ، وربما لأنه يود الخلاص من هذا الموقف ، خاصة أن آخرين ، ممن هم على علاقة عمل أو مودة ، كانوا يفدون وهم يمشون على أطراف أصابعهم في الصالة المجاورة ، ولاشيء حي



فيهم سوى وجوههم الخالية من التعبير، كأنهم رسموا على لوحة جمّد الفنان فيها الملامح عند حد الرعب.

ولكن السيدة « نهاز » ، وكالمرات الثلاث السابقة (التي كان كل من حضرها منهم يذكرها جيدا) لم تفاجئهم ، بل كررت المشهد الأخير بشكل فج ، انتفضت ، وعدلت رقدتها ، ومدت يدها اليمنى إلى الوسادة ، ورفعتها خلف ظهرها ، وحدقت بهم مما اضطرهم إلى الانسحاب ، واحدا وراء الآخر ، دون أن تلحظ هي ذلك ، لأن كل شيء حولها الآن في الغرفة الخفيفة الضوء (الدولاب البني ذا الحليات المزركشة من عند الأركان ، الدولاب ذا المرآة « البلجيكي » الخارجية ، « الشوفينيرة » التي لم يبق على أرففها سوى زجاجات العطر الفارغة ، والمشجب الخالي الذي ليس فيه سوى روب قديم بنفسجي حائل اللون) ، كل شيء ، كان يتساوى مع أجسادهم ، بل مع الأشباح .

لكن السيدة « نهاز » تشبثت بكم « رمزي » الذي كانت تعرفه ، ليس لأن موقعه بجوارها على سريرها العالي فقط ، بل من رائحته التي ألفتها منذ اللحظة التي ولد فيها أيضا .

قالت السيدة « نهاز » : أنت هنا يا « رمزي » ؟ لم لاتذهب وتتمشى في الحديقة ، هناك عند الأكمة الشرقية ؟ » .

وقلّبت السيدة (نهاز) حدقتي عينيها ، وأخذت أنفاسها ترتفع ، وكأن شيئا يدفع رئتيها بعذاب إلى الخارج .

- « أنت لك هذه الحديقة ، ولأبيك ما بعدها من أراض تبتعد عنها كثيرا كثيرا ، أنت لك إذن أغلب الأراضي ، جل الأرض ، لك الأرض الخصبة المورقةكلها ، هناك حيث أشجار الرمان الأحمر تمتد وتمتد حتى امتداد البحيرة الصافية بما فيها من البط ، البط الأزرق والبط الأخضر ، البط لك ، أميال طويلة ، تمشي هناك فتطلع الطواويس عليك » .

حاولت السيدة « نهاز » أن تضحك ، إلا أنها شهقت بشكل جعل « رمزي » (الذي كان يحاول أن يتماسك دون أن ينفجر) نفسه ينتفض ، ويمد يده ، بشكل تلقائي ، لوالده الذي يقف طوال الوقت شاعرا بالضعة التي كانت قد أحاطته بها من جراء تقريعها الدائم له :

- أنت ذو شعر أسود ، أنت لست من السلالة .

مد يده لرمزي بكوب الماء ، لأن « رمزي » هو الوحيد الذي كان من الممكن أن تقبل من يديه شيئا ، بعد أن أكدت مرارا أن الآخرين جميعهم يريدون الخلاص منها بالسم - الذي جلبوه من الافاعي - لا بشيء آخر غيره :

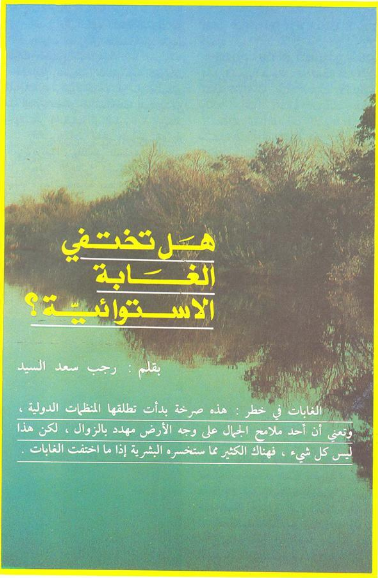
- « لاتخف يا رمزي من الطواويس ، إنها تداعبك واصنع من ريشها الجميل صورا تعلقها خلف مخدعك » .

وغابت السيدة (نهاز) حتى التوت ركبتاها ، ولم تتحرك الأشباح من حولها ، ولكن « رمزي » مد يده ليريح جسدها النحيل .

اعتدلت السيدة (نهاز) ، وانتفض جسدها بقوة جديدة .

- « أنتم يا من هناك ، أنت ياسليم ، من أجل ولدك رمزي لك ما بعد الحدائق الشرقية . أنت لك هناك ولزوجك من أجل بطنها التي حملت رمزي ، نصف الصندوق لها منه « الطنطيف » ، وغطا الصدر ، أما الخواتم والعقود وكل اللآلىء فهو للحبيبة عروس الحبيب « رمزي » ، متى تتزوج عروسك الشقراء بنت الأمير ؟ » . الثلاثة الذين مازالوا في الحجرة الآن ، السيد « سليم » والد « رمزي » والسيدة « صافيناز » والدته ، وابن العم الأشيب اللحية « سليمان » ، وقد بدأوا يتألمون إلى حد أنهم أظهروا كرههم لها وبعضهم يحدق ببعض ، إلا أن السيدة « نهاز » وفرت عليهم مزيدا من هذا الوقت القاسي . قالت : « رمزي » ومالت برقبتها للمرة الأخيرة .

وضع « رمزي » كوب الماء على الطاولة الصغيرة ونزل من السرير العالي . □



هـل تختـفي الغـابة الاسـتوائيـّة؟

بقلم : رجب سعد السيد

الغابات في خطر : هذه صرخة بدأت تطلقها المنظمات الدولية ، وتعني أن أحد ملامح الجمال على وجه الأرض مهدد بالزوال ، لكن هذا ليس كل شيء ، فهناك الكثير مما ستخسره البشرية إذا ما اختفت الغابات .

أعدت «اليونسكو» اتفاقية للحفاظ على (التراث العالمي) ، اشتملت على تعريف للتراث الطبيعي بأنه :

- المعالم الطبيعية المؤلفة من التكوينات الفيزيائية أو البيولوجية ، أو من مجموعات هذه التكوينات التي لها قيمة عالمية استثنائية من وجهة نظر الجماليات أو العلوم .

- التكوينات «الجيولوجية» أو «الفيزيوغرافية» ، والمناطق المحددة بدقة التي تمثل موطن الأجناس الحيوانية أو النباتية المهددة ، ولها قيمة عالمية استثنائية من وجهة نظر العلم أو المحافظة على الثروات .

واشترط في هذا التعريف أن تكون مساحة المواقع كبيرة ، مثل حزام الغابات الاستوائية المطيرة .



● تتميز الغابة الإستوائية بالتنوع الشديد في أشجارها ونباتاتها .

وهكذا ، فإننا قد نلتفت إلى حدودنا الجغرافية على الخريطة ، فلا نجدنا مشاركين في ملكية أجزاء من حزام الغابات الاستوائية ، ولكننا ، طبقا لاتفاقية اليونسكو هذه ، لا نستطيع أن نبتعد عن المشاركة في تحمل مسئولية صيانة هذا النظام البيئي المهدد بخطر التلاشي . لقد أصبح الاهتمام بقضايا البيئة ومشاكلها يتخطى الحدود المحلية ، ويتطلب تضافر الجهود الدولية ، لأن التأثيرات والأضرار الناجمة عن تلك المشاكل لا تقتصر على مواقع بعينها من خريطة العالم ، بل تنعكس . - وربما بمعدلات أكبر - على الجيران البعيدين . وأحيانا ، يكون للظاهرة البيئية آثارها التي تغطي أرجاء المعمورة .

الغابات تتبدد

يقول العالم الأمريكي «بول ريتشاردز» في كتابه «الغابة الاستوائية المطيرة» الصادر في عام ١٩٧٣ : (لن يحل عام ألفين إلا ويكون معظم الغابات الاستوائية المطيرة قد هدد) .

لقد كانت الغابات الاستوائية تغطي ١٥ مليون كيلومتر مربع ، أو جزءاً من عشرة أجزاء من مساحة سطح الكرة الأرضية ، في شكل حزام يمثل نصف مجموع مساحات الغابات الموجودة على اليابسة . فما هو الحال الآن ؟ .

تشير صور الأقمار الصناعية إلى أن المساحة قد اختزلت بمقدار الثلث ، وإلى أن خسارة بمعدل ٢٪ تحيق بهذه المساحة سنويا . وأظهرت هذه الصور أن ٨٠ ألف كيلومتر مربع من الغابات العذراء قد تم إحراقها ، في سنة ١٩٨٧ ، في البرازيل وحدها ، بغرض تعرية الأرض ، لاستخدامها في الزراعة والبناء .

وهذا ما دفع علماء البيئة إلى رسم صورة للوضع في نهاية هذا القرن ، وقد خسر العالم

غاباته الاستوائية ، إلّا بقعتين كبيرتين ، واحدة غرب الأمازون ، والثانية في وسط زائير . وإذا استمر الحال على ما هو عليه ، فإن هاتين البقعتين سوف يلحق بهما الدمار مع منتصف القرن القادم .

إن كلمة غابة تستدعي على الفور كلمة شجرة . والأشجار هي الشكل الرئيسي للخضرة في الغابات . ولكن ، ينبغي ألّا نتجاهل المكونات الأخرى للبيئة التي تشتمل أيضا على : الشجيرات ـ الأعشاب ـ الطحالب ـ الفطريات ـ الحشرات ـ الزواحف ـ الطيور ـ الحيوانات الثديية ـ التربة ـ الماء ـ الهواء . وهذه كلها مكونات أساسية لبيئة الغابات ، وكل منها مرتبط بغيره ومعتمد عليه .

الغابات الاستوائية تزخر بما يقرب من ثلاثمائة نوع مَن الأشجار . وهذا التنوّع ينتظم كل أرجاء الغابة الاستوائية في ترتيب طبيعي عجيب ، فمن النادر أن تجد في هذه الغابة الفسيحة شجرتين متجاورتين من نوع واحد . وقد أحصى أحد العلماء ١١٧ نوعا مختلفا من الأشجار في منطقة لا تزيد مساحتها عن $\frac{1}{4}$ ١ كيلومتر مربع .

والنبات العالق عبارة عن نبات ينمو على نبات آخر ، ويفترش جذوع الأشجار وفروعها . والمعروف من النباتات العالقة في العالم ينتمي إلى ٢٨ ألف نوع ، تحتوي غابات أواسط أمريكا وجنوبها منها على ١٥ ألف نوع ، أهمها :



● التقطيع العشوائي لأشجار الغابات ، أحد الاسباب التى تهددها .

وفي الغابة المطيرة ، تنمو الأشجار والنباتات في أربعة مستويات :

المستوى الأدنى ، وهو عبارة عن طنفسة من النباتات القصيرة ، تليها مجموعات من النخيل ، ثم أنواع من أشجار الظل ، مثل الصبار والسراخس ، وتتراوح أطوالها بين ١٨ و ٣٨ مترا ، وهي تكوّن فيما بينها السقف الكثيف المتشابك للغابة المطيرة . وأخيرا ، تأتي طبقة الأشجار الضخمة التي يصل طولها إلى ٦٠ مترا ، وتمتد مثل مظلة فوق غيرها من النباتات .

ولا يعتمد غنى الحياة النباتية في الغابات على الكم فقط ، بل على التنوّع أيضا ، ففي الوقت الذي لا يزيد فيه عدد أصناف الأشجار في الغابات الشمالية على بضع عشرات ، نجد

الأناناسيات ـ الصبّار الشجري ـ الأشنات ـ الحزازيات ـ السراخس .

عالم الحيوان

كذلك ، فإن عالم الحيوان في الغابة الاستوائية لا يقل تنوعا عن عالم النبات . ويعيش في هذه الغابة نصف ما يعيش في العالم من أنواع الحيوانات ، ابتداء من الحشرات ،

وأهمها الخنافس والنمل ،وانتهاء بغوريلا الجبال التي تعيش في وسط افريقيا ، مرورا بعشرات الأنواع من الطيور والنسانيس والسناجب والقنافذ والنمور والخنازير وآكلات النمل والتماسيح . أمّا الفراشات ، فهي أشد تنوعا في منطقة الأمازون . ففي جولة مدتها ساعة واحدة في الغابة البرازيلية ، جمع أحد العلماء ٧٠٠ فراشة من أنواع مختلفة ، بينما يبلغ عدد أنواع الفراشات في أوربا كلها ٣٢١ نوعا .

هذه بعض ملامح هذا الجزء من التراث الطبيعي العالمي المهدد بالزوال . ويقدر علماء «البيولوجيا» أن حوالي عشرة آلاف نوع من الكائنات الحية يفقد كل عام مع اختفاء أجزاء من الغابة الاستوائية . ويقولون : إن أكثر الأنواع عرضة لخطر الانقراض هي أنواع من الحشرات ، وبخاصة الخنافس . وهم يجدون بعض الصعوبة في إقناع الآخرين بأن انقراض مثل هذه الأنواع (عديمة النفع) يمثل كارثة بيئية لها انعكاساتها الاقتصادية السلبية ، فما يزال وعي العامة - بل حتى بين فئات المتعلمين - بما يسمى الاتزان البيئي ، ناقصا . وعلى أي حال ، وبمنطق المنفعة الذي يعرفه الجميع ، فإن تدمير الغابة إهدار لمئات الأنواع من الكائنات الحية ، وبخاصة النباتية ، العظيمة النفع للإنسان . وعلى سبيل المثال ، فإن ربع عدد العقاقير المستخدمة في الولايات المتحدة الأمريكية الآن ، مشتق من نباتات الغابات الاستوائية . وما يزال المجال مفتوحا أمام الصيادلة ، إذ أن معظم أنواع النباتات في هذه الأدغال لم تختبر خواصه الدوائية حتى الآن .

ويشكك الاقتصاديون في قدرة أي محاولة لحساب الخسائر المترتبة على تدمير موارد الثروات غير المحدودة الموجودة في الغابات الاستوائية المطيرة . فهذه الغابات هي الآن عماد اقتصاديات كثير من الدول الواقعة على خط الاستواء . وطبقا لبيانات البنك الدولي ، فإن ٢٠٠ مليون إنسان في العالم يعتمدون في حياتهم اليومية على الغابات الاستوائية . ويمثل سكان الغابة الأصليون ربع هذا العدد ، أما الباقون ، فقد تم دفعهم إلى الغابات ، تنفيذا لسياسات إقليمية .



● أنواع من الأبقار تعيش في المناطق الاستوائية

وثمة دول أخرى ، بعيدة عن خط الاستواء ، ولكن حياة الملايين من البشر فيها تعتمد على الغابات ، فهي المصدر الأساسي لخشب الوقود في معظم بلدان العالم الثالث ، وتبلغ قيمة إجمالي الإنتاج السنوي من أخشاب الغابات الاستوائية ٨ بلايين دولار .

وتشير الإحصائيات إلى أن أكثر من بليون

أن الحرائق المتعمدة وغير المتعمدة التي تلتهم مساحات ضخمة من الغابة الاستوائية هي المسئولة ، ضمن عوامل أخرى ، عن التغيرات المناخية وبعض الظواهر الطبيعية المؤسفة ، في كثير من بقاع الأرض . فالغازات الناتجة عن هذه الحرائق هي واحد من الأسباب التي أدت إلى النقص في سمك طبقة الأوزون في منطقة القطب الجنوبي . وبسبب هذه الحرائق ، أيضا ، وبالاشتراك مع عمليات احتراق الوقود الإحفوري في أنشطة الإنسان المختلفة ، تتزايد نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو . والنتيجة ، هي تزايد متواصل في درجة حرارة مناخ الأرض (ظاهرة بيت النباتات الزجاجي) . فالمعروف أن غاز ثاني أكسيد الكربون يسمح لأشعة الشمس أن تصل إلى الأرض ، ولكنه يحجز الأشعة الحرارية المرتدة من الأرض .. يمنعها من مغادرة الغلاف الجوي ، فتحتفظ الأرض بها . ومع تزايد نسبة هذا الغاز في الجو ، تصبح الأرض (صوبة زجاجية) ، أو مصيدة كبيرة للحرارة .

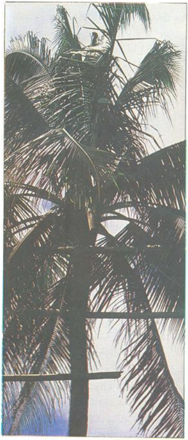
وفي الوقت نفسه ، فإن عملية احتراق أو إحراق الغابات يحرم الأرض من الأشجار التي هي العامل الأساسي في تخليص المناخ الأرضي من غاز ثاني أكسيد الكربون ، إذ تقوم بتحويله إلى أكسجين وأخشاب .

أرض بلا رجال

ما الذي يدفع الإنسان إلى إحراق الغابات ؟ ثمة أسباب واضحة :

أهم هذه الأسباب هو : توفير الأرض من أجل الزراعة .

وفي البرازيل ، تشجع الحكومة المزارعين على الهجرة إلى منطقة الأمازون لتعميرها ، وتمدهم بالإعانات ، تحت شعار أن الأمازون أرض بلا رجال تقدّم لرجال بلا أرض . وثمة برنامج حكومي في اندونيسيا لتهجير ملايين



● أشجار من غابات الأمازون

شخص - $\frac{1}{5}$ سكان الأرض - يعيشون في قلق ومعاناة نتيجة الفياضانات ونقص خشب الوقود ، ونضوب الماء ، وتدمير التربة الزراعية ، ونقص الإنتاج الزراعي . وهذه كلها نتائج أو ظواهر يتسبب فيها بشكل مباشر أو غير مباشر الفقدان المستمر لغطاء الأرض من الغابات الاستوائية المطيرة . ويرى علماء المناخ

السكان من المناطق المزدحمة إلى الجزر الخارجية القليلة الكثافة السكانية ، لاستيطانها بعد تعريتها من غطائها الكثيف .

وقد يتبادر إلى الذهن أن منطقة الغابات الاستوائية الرطبة تخفي تحت غطائها النباتي الكثيف تربة خصبة . إن ذلك ، للأسف ، غير صحيح . ففي الأراضي الزراعية نجد أن التربة هي المخزن الأساسي للخصوبة . أمّا في الغابة الاستوائية ، فإن معظم الأملاح المغذية للنباتات لا توجد في التربة ، فأوراق الأشجار التي تموت وتتساقط لا تصل أبدا إلى الأرض ، إذ تستبقيها الشبكة النباتية الكثيفة . وتؤدي الرطوبة المرتفعة ودرجة الحرارة العالية إلى تحللها بسرعة . وتقوم النباتات المعلقة بامتصاص الأملاح الناتجة عن تحلل الأوراق بواسطة جذورها الهوائية .

وهكذا ، فإن تعرية الأرض من غطائها الشجري يعني إزالة مخزن الأملاح الغذائية ، فتكون النتيجة مخيّبة بالنسبة للفلاحين الذين جاؤوا وراء حلم امتلاك الأرض وزراعتها ، فالتربة فقيرة جدا ، لدرجة لا يمكن معها أن تتحمل نمو المحصولات لأكثر من موسم واحد . ثم تترك المنطقة مكشوفة للشمس الاستوائية والأمطار الغزيرة ، لتتحول إلى أرض قاحلة قبيحة المنظر . ويحتاج الأمر إلى ٢٥ سنة لزرع غطاء جديد من الأشجار ، قد لا يماثل غطاءها الأصلي .

أمّا في أمريكا الوسطى ، فإن الهدف من إزالة الغابات توفير مساحات من الأراضي للرعي . وفي الخمسين سنة الماضية ، تضاعفت مساحات المراعي في أمريكا الوسطى ثلاث مرات ، على حساب الغابات طبعا . وبهذا المعدل ، يتوقع الخبراء أن تختفي الغابات هناك في نهاية هذا القرن .

ومن الأسباب المهمة أيضاً تجارة الأخشاب ، وهذه التجارة مسئولة عن ربع الخسائر السنوية في أشجار الغابة الاستوائية ، وهي تؤدي إلى تعرية ٥٠ ألف كيلومتر مربع على الأقل كل سنة . ويعد غرب إفريقيا وجنوب شرق آسيا مصدرين رئيسيين للأخشاب الاستوائية في العالم ، وتتم فيها عمليات تقطيع الأشجار بدون تنظيم أو إدارة جيدة لهذه الموارد الطبيعية ، لدرجة أن هذه التجارة تنحدر الآن . وقد سجلت ساحل العاج ونيجيريا أعلى معدل لتقطيع الأشجار في العالم ، وهما تواجهان اضمحلالا شديدا في مساحات الغابات داخل حدودهما . أما في جامبيا ، والسنغال ، وتوجو ، وبنين ، فتشير الدلائل إلى اختفاء الغابات من أراضيها فعلا . ويقول تقرير البنك الدولي : إن عشر دول فقط هي التي تقوم حتى الآن بتصدير منتجات الغابات الاستوائية ، ويشكك في قدرتها على الاستمرار في هذه التجارة لأكثر من عقد واحد فقط ، نظراً للتدهور الشديد في أحوال الغابات .

ويرى العاملون في مجال صيانة البيئة أن مصير الغابات الاستوائية المطيرة يمثّل أحد التحديات أمام المدنية الحديثة . وتحاول بعض الحكومات إصدار التشريعات لحماية ممتلكاتها من الغابات الاستوائية . وتقوم منظمات دولية وأهلية لحماية البيئة ، مهمتها إثارة الرأي العام العالمي لوقف عمليات اغتيال أشجار الغابات .

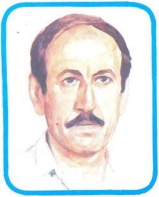
وليس لنا إلا أن نأمل في نجاح هذه الجهود ، لتبطل تنبؤات المتشائمين ، وتحتفظ الأرض - على الأقل - بما تبقى من غطائها الاستوائي . □

أحلى الكلام

● سئل ابن المقفع : من أدّبك ؟ فقال : أدبت نفسي ، إذا رأيت من غيري حسنا أتيته ، وإذا رأيت قبيحا أبيته .

وجهاً لوجه





د. عبد الرحمن حميدة و نديم شمسين

- المؤلفات الجغرافية عن الوطن العربي أقرب إلى نشرات وزارات السياحة.
- لاتزال مياهنا الاقليمية الغنية بالثروة السمكية البحرية مرتعاً للأساطيل الأجنبية.
- لن تستطيع التقنية مهما تعاظمت أن تحل المعضلة الغذائية المستفحلة حالياً في بعض الأقطار العربية إلا بكبح العبث السكاني.
- مازلنا في مرحلة الأخذ، ولما ندخل بعد مرحلة العطاء.

للدكتور عبدالرحمن حميدة رئيس قسم الجغرافيا بجامعة دمشق سابقا بضع عشرات من المؤلفات الجغرافية التي تبحث في تراث العرب الجغرافي وفي جغرافية الأقطار العربية ، وله اهتمام خاص بجغرافية العالم الثالث وجغرافية التخلف وجغرافية الجهل والجوع . وهو يتناول المباحث الأخيرة من خلال حرصه على تنبيه الجميع إلى المستقبل الخطير المنتظر ، اذا لم يعالجوا القضايا الحيوية بروح العقل والمعرفة والعلم ، ولا سيما فيما يتعلق بزيادة السكان وتناقص الموارد الغذائية واستغلال المصادر المائية والهدر . . وهو يأخذ على الجغرافيين العرب عدم مناقشة هذه الأمور المصيرية بحماسة ، وقد آلى على نفسه أن يطرق هذه المواضيع الخطيرة بأسلوب فيه الدعابة إلى جانب النقد وقول الحقيقة . أدار الحوار معه نديم شمسين عضو اتحاد الصحفيين العرب بدمشق وسكرتير تحرير المجلة الجغرافية السورية .

★ ازدهرت الجغرافية في العصر العباسي ، فما دواعي هذا الازدهار ؟ وكيف كانت النشأة ؟

شهد علم الجغرافية في فجر الحضارة العربية ازدهارا أثار إعجاب المستشرقين وعلماء أوربا ، وعلى الأخص في أوائل وأواسط العصر العباسي بعد أن أقام العرب امبراطورية مترامية الأطراف ، هذا في حين كان دور الخلافة العباسية يتمثل في التثبيت والتوطيد لأركان هذه الدولة الفسيحة التي بلغت مساحتها زهاء ٢٠ مليون كم٢ ، أو ما يقارب رقعة الاتحاد السوفيتي حاليا ، أو قارة أمريكا الشمالية برمتها . وكانت الدولة العربية تضم شعوبا شتى ، وقد اقتضت الضرورة الإدارية التعرف على مسالكها وممراتها ، وتقدير المسافات بين مدنها ، ومعرفة ثرواتها وخراجها ، والتعريف بأقوامها ولغاتهم وطباعهم ، فألفوا كتبا في هذا المجال ، كان وراءها ابن الفقيه ، وابن رسته ، وقدامة بن جعفر ، وكانت مؤلفاتهم هي المعتمد عليها لدى صاحب البريد ، أو ما يماثل في أيامنا وزير الداخلية ، مع كل ما يدخل في صلاحياته واختصاصاته .

مكانة دار الحكمة

ولم يتأخر العلماء العرب في اقتباس ما لدى الأمم الأخرى التي سبقتهم في هذا الميدان ، كالاغريق والهنود ، فنقلوا كتبهم إلى العربية ، وحفظوا العديد منها من الضياع ، وكان لدار الحكمة في عهد المأمون الدور المرموق ، وكان هذا الخليفة المستنير يجزل العطاء للعلماء ، فاستقطبت بغداد الكثيرين منهم ، وكان في عدادهم الجغرافيون ، كما اقتضت الهيبة والسطوة اللتان حظيت بهما الخلافة ، والمكانة التي اكتسبتها على الصعيد العالمي المعروف حينذاك ، تبادل السفارات مع الدول التي تخطب ودّ الخلافة ، كرحلة ابن فضلان إلى بلاد الخزر وبلغار الفولغا . كما لعبت العواصم العربية التي ظهرت بعد انفراط عقد هذه الدولة العظمى : كالقاهرة وقرطبة وفاس وبخارى ، دورا مماثلا لبغداد ، وإن كان على مقياس أصغر ، لأن حرية التنقل ضمن « دار الإسلام » ظلت على حالها تقريبا ، فتعددت كتب « المسالك والممالك » ، وظهرت كتب رحلات ، لعل أهمها كتاب « صورة الأرض »

لابن حوقل الذي تجول في كل الأقطار الإسلامية ، والصحراء الكبرى ، حتى أواسط نهر الفولغا ، ورحلة ابن جبير ، وبعده ابن بطوطة .

كما اهتم بعض الجغرافيين بدراسة الثروات المعدنية مثل أبي دلف الخزرجي ، أو بالجغرافية الفلكية أو الرياضية كالبيروني .

العرب - والأصالة الجغرافية

★ متى بدأ المد العلمي الجغرافي بالانحسار والتراجع ؟

أصيبت الجغرافية العربية بالانحطاط بدءا من أواسط القرن الثاني عشر الميلادي ، أي في العصر الذي سقطت فيه بغداد أمام جحافل البرابرة التتر بقيادة هولاكو من الشرق ، وسقوط قرطبة من الغرب . في الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام ومصر وتونس ترزح تحت هجمات الفرنجة الصليبيين ، فلم تعد تقدم مؤلفات ذات أصالة ، ويعود ذلك لتقطع أوصال الخلافة سياسيا ، وهيمنة الأساطيل البرتغالية والاسبانية والجنوية على البحر ، حيث صارت تعرقل العلاقات بين مغرب الامبراطورية العربية الإسلامية ومشرقها ، وأكبر برهان على ذلك وقوع السفير المغربي المتجول ، والجغرافي الرحالة « الحسن الوزان » ، أسيرا بأيدي القراصنة الطليان تجاه جزيرة جربة التونسية ، والذي اشتهر في أوربا باسم « يوحنا ليون الأسد الغرناطي » ، والذي تمت ترجمة كتابه « وصف أفريقيا » من الايطالية إلى الفرنسية والانكليزية والالمانية والاسبانية ، وأخيرا للعربية ، حيث ظهرت ترجمات له في ١٩٧٩ و ١٩٨٠ .

ولا وجود حاليا لجغرافية عربية أصيلة ، على الرغم من وجود أكثر من ثلاثين جامعة تدرس فيها هذه المادة ، لأنها تستقي من ترجمات الكتب الأجنبية التي قام بها جغرافيون أجانب ، أو تنسج على منوالها . فلا زلنا في مرحلة الأخذ ، ولمّا ندخل بعد مرحلة العطاء ، مما يجعل قراءة الكتب الجغرافية العربية غير مشوقة بالموازنة مع المؤلفات الأجنبية الغنية بالمقارنات والأشكال والرسوم التوضيحية والخطوط البيانية والصور الملونة المعبرة . هذا فضلا عن أن أطروحات « الدكتوراة » التي نال بها عشرات الجغرافيين العرب المعاصرين درجتهم الأكاديمية ، ما تزال دون ترجمة ، وكأن تأليفها كان لمصلحة الدول الغربية والشرقية .

ويكفي أن نرجع إلى الكتب التي تحمل عنوان « الوطن العربي » ، أو « الأطالس العربية » ، كي نصطدم بجهل العديد من المؤلفين بأسماء وأعلام ومدن من الوطن العربي ، فتظهر مدينة آسفي بالمغرب تحت اسم « صافي » ، والخمس في ليبيا باسم « حمص » ، أما سبته فتمنح اسم « كويتا » ، وقسنطينة الجزائرية تحت اسم « القسطنطينية » ، أو غير ذلك كثير ، مما ينزع الثقة ، ويعيق تداول الكتاب الجغرافي العربي بين الأقطار العربية ، ويشجع الاعتماد على الكتب الأجنبية التي تدرس أقطار الوطن العربي بشتى اللغات من انكليزية وفرنسية وروسية والمانية .

مسئولية لا بد من تحملها

★ إلى أي مرحلة وصلنا في طريقنا نحو مدرسة جغرافية عربية معاصرة ؟

قال الفيلسوف لابردير : إن الحقائق التي لا نحب سماعها هي التي نجني من معرفتها أكبر الفوائد ، وقال الفيلسوف غرسيّه : إن الذين لا يحاولون التخلص من أغلالهم هم أهل لها .

رسالة الجغرافيين العرب الآن كبيرة جدا ، وهم يتحملون قسطا كبيرا من المسؤولية في تقصيرهم بتقديم صورة أمينة عن أحوال وطنهم الكبير ، وعجزهم عن فرض أنفسهم علميا ، عن طريق دراساتهم ، لتقديمها لأولي الأمر من

المسؤولين ، كي يستنيروا بها ، وترجمة ما كتبه الجغرافيون الأجانب عن بلادنا من مؤلفات رصينة ، بحيث تكون الجغرافيا في خدمة المجتمع ، وفاعلة نفعية (براغماتية) قبل أن تكون مادة « أكاديمية » صرفة ، تبعث على السأم ، وتبدو مليئة بالطلاسم والغموض .

الجغرافيون والتنمية

★ مشاكل الوطن العربي جغرافية في جوهرها ، كيف تستطيع الجغرافية تحدي هذا الواقع الحالي والانطلاق نحو تنمية عربية شاملة ؟

- على إثر هزيمة فرنسا أمام المانيا في حرب السبعين ، قال بسمارك بطل الوحدة الالمانية : يجيد الفرنسيون صنع الخمور وتذوقها ، ولكنهم يجهلون الجغرافيا . وقال مسؤول أمريكي كبير بعد الحرب العالمية الثانية : من المتعذر تقدير غرامة الجهل بالجغرافيا في السياسة .

وإذا تخلصنا من الحساسية التي نعاني منها عند الحديث عن مشكلاتنا وتعرضنا لمشكلات الأمة العربية ، وجدناها جغرافية ، أو بعبارة أخرى نابعة من ظواهر جغرافية التخلف التي لن ندركها إلا عند استشفافها من زاوية جغرافية بحتة .

فالمؤلفات الجغرافية التي تتعرض لجغرافية الوطن العربي هي أقرب لنشرات وزارة السياحة التي لا تذكر سوى مفاتن كل قطر ، وتسلط الأضواء الباهرة على بعض الإنجازات ، وتغفل المشكلات « والحقائق الجديدة التي لا يمكن رؤيتها إلا بعيون جديدة » التي تجابه الحكومات العربية والشعب العربي لأول مرة في تاريخهم ، وعلى رأس المشكلات العربية انعدام التوازي بين التفجر السكاني وبين التنمية الاقتصادية . هذا فضلا عن الديون التي تبلغ ٨٠٠ دولار لكل مواطن عربي أو أكثر من الدخل السنوي الفردي المتوسط على مستوى الأمة العربية قاطبة ، والتي تعمل الحكومات المدينة جاهدة على جدولتها ، أو تعمل على تخفيف دعمها للمواد الغذائية ، بناء على تدخل البنك الدولي ، مما يؤدي إلى التضخم وتململ الجماهير ، وتدني مستوى المعيشة عاما بعد عام ، نتيجة ضياع جميع جهود التقدم الاقتصادي عبثا وسدى .

أما مشكلة ضبط النسل ، أو على الأصح تحديده ، فهي آخر ما نفكر به ، فنحن نتكاثر بنسبة تزيد على ٣٪ سنويا ، أي يتضاعف عددنا مرة كل ٢٠ سنة تقريبا ، بينما تحتاج الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي إلى ٧٥ سنة لتحقيق ما ننجزه في عقدين من الزمن ، أما المانيا الغربية والنمسا فنموهما السكاني متوقف ، لأن كل أسرة تحسب ألف حساب لكل مولود جديد ، أي يجب أن يبدأ برنامج التخطيط من سرير الزوجية .

وتتعرض الأقطار العربية لهجرة مريعة في أدمغتها التي هي خميرة تطورها ، فتقدم للغرب ٨٪ من العقول المهاجرة ، علما بأن عدد العرب لا يمثل سوى ٤٪ من سكان الأرض . ويقدر اليابانيون أن تكلفة تكوين طبيب مختص تبلغ ١٧٥٠٠٠ ألف دولار . كما تهاجر رؤوس الأموال التي لا تجد مجالا للتوظيف والاستثمار في أوطان أصحابها لغموض الأنظمة الاقتصادية القائمة . والأمل في استرجاع رؤوس الأموال هذه يعادل في ضآلته الأمل في استرداد أدمغتنا المهاجرة .

★ تحدثتم عن التفجر السكاني ، والعقول المهاجرة ، وخروج الأموال العربية ، والديون ، والترف والكماليات .. نحن نعتقد أن المشكلة الغذائية في مقدمة المشاكل ، تليها المشكلة المائية .

ما هي مشكلتنا - في رأيك - أمن غذائي أم أمن مائي ؟

ـ الواقع من المستحيل فصل المشكلة الغذائية عن المشكلة المائية في وطننا العربي الذي تحتل الصحاري تسعة أعشار مساحته ، ولم نطرح حتى الآن شعار « الأمن المائي » .

لن تستطيع التقنية مهما تعاظمت أن تحل المعضلة الغذائية المستفحلة حاليا في الأقطار العربية إلا بكبح « العبء السكاني » الذي يقسر معظم الأقطار العربية على إنفاق أموالها لاستيراد الغذاء والدواء ، على حساب تشييد البنية التحتية .

فهناك تنافس رهيب في معظم أنحاء الوطن العربي بين المخصصات المائية للري ، وبين تأمين المياه للمدن التي تتزايد بصورة مذهلة كبقعة زيت ، وأحيانا على حساب أجود الأراضي الزراعية ، وهكذا تتقلص غوطة دمشق أمام زحف المباني ، مثلما تنكمش رقعة سهل المتيجة الجزائري أمام الأحياء السكنية ، علما بأن جمهورية تايوان تمنع البناء فوق الأرض الصالحة للزراعة .

والمشكلة التي تبعث على القلق هي أن أربعة أخماس المياه الجارية ، أو أنهار الوطن العربي ، إنما هي أنهار أجنبية المصدر ، عربية المعبر ، ولنتصور ما سيحدث لو أقامت أثيوبيا عددا من السدود على النيل الأزرق لتوليد الفحم الأبيض ، كما فعلت الولايات المتحدة على نهر التينسي ، أو كما تفعل تركيا على نهر الفرات . أما الاعتماد على المياه الجوفية المخزونة التي تعود للعصر المطير ، أي لعشرات الآلاف من السنين ، فهي غير متجددة ، وتشبه الثروة النفطية وقابلة للنضوب .

وفوق ذلك فإن التلوث الكبير الذي يصيب المياه ـ على قلتها ـ من جراء المخلفات الصناعية ، والمجاري العامة ، ومخلفات النفط ، يجعل قسما كبيرا من المياه غير صالحة للاستعمال والري ، والتلوث الذي يصيب التربة ويخربها ويجعلها أقل إنتاجية ، والتصحر الذي يحدثه الإنسان من جراء قطع الأشجار واقتلاع الأعشاب والرعي الجائر ، كلها عوامل إضافية ، ليست في مصلحة إنتاج المحاصيل الغذائية اللازمة .

التنمية والتكاثر السكاني

★ وماذا عن المشكلة السكانية وعواقبها ؟

ـ المشكلة السكانية حديثة جدا ، وهي حقيقة جديدة تتطلب النظر إليها بعيون جديدة ، إذ تعود للربع الثاني من هذا القرن ، على إثر انتشار اللقاحات ضد الجدري والسل ، وظهور المبيدات الحشرية ، لا سيما (د.د.ت) ، خلال الحرب العالمية الثانية ، والمضادات الحيوية كالبنسلين ومركبات السلفا ، وانتشار استعمال المياه الجارية النقية بالمدن . أو بعبارة أدق هبوط نسبة الوفيات ، وبقاء نسبة التوالد على حالها ، وعدم مواكبة التنمية الاقتصادية لذلك التكاثر الوثّاب العدّاء . وحتى اليابان نفسها لم تستطع تحقيق عملية انطلاقها بعد الحرب العالمية الثانية إلا بعد كبح جماح التكاثر السكاني فيها ، وتخفيضه إلى ١٪ بعد أن كان ٣٪ .

وقد قال بيير جورج منذ ثلاثين عاما : « لا تسير الأقطار المتخلفة نحو الفقر الذي بلغته منذ زمن بعيد ، إنما تسير الآن قدما نحو التسول » . وما علينا إلا الاختيار بين أن تحيا أجيالنا القادمة كالرجال أو كالسوائم التي تحمل الأثقال ، لأن سوء التغذية لدى الأطفال يخمد جذوة ذكائهم ، بحيث يستحيل تعليمهم وتنمية قدراتهم ، وبذلك يكثر الاجرام والجنوح ويتفشى البغاء والسرقات ، أو يضطرب المجتمع كله ، إذ تسير الجماهير عندئذ خلف كل من يلوح لها بالرغيف ، ولو كان الأعور الدجال !

ثروات الوطن العربي

★ من المؤكد أن الوطن العربي يملك ثروات وافرة من النفط والطاقة الشمسية والفوسفات ، ومن الثروات النباتية النخيل والصمغ والحمضيات . فإلى أي مدى تساهم هذه الثروات في تغيير الوضع الراهن ؟

- صحيح أن الوطن العربي يملك نصف احتياطي العالم من النفط ، ونصف احتياطي العالم من الفوسفات ، غير أن الاعتماد على « اقتصاد القطف » ، أو « الاقتصاد المنجمي » ، القائم على تصدير المواد الأولية الخام دون تصنيعها ، يجعل اقتصادنا خاضعا لقوانين العرض والطلب ، ولا يصمد أمام التحديات التي تواجه الأمة العربية ، كالانفجار السكاني الوثاب ، إذ يزيد سكان الوطن العربي سنويا بما يعادل سكان الجمهورية التونسية ، أو زهاء ٦ ملايين فم جديد ، ينشدون الغذاء ، فضلا عن ضرورة تأمين مجالات عمل لمليوني شاب ، ينزلون إلى سوق العمل ، ويستدعي تشغيل نصفهم في الصناعات الحديثة التي تستحق اسمها توظيف ٢٥ مليار دولار ، أو نصف عائدات النفط العربي التي لن تكفي كلها لتسديد أثمان المواد الغذائية في نهاية القرن الحالي ، هذا إذا توافرت السلع التموينية في السوق العالمية . كما ظهرت مؤخرا مشكلة الموارد المائية ، إذ هبط مخزون السد العالي الى النصف ، علما بأن أثيوبيا التي تقدم جبالها ٨٥٪ من مصادر مياه النيل ، لم تقم حتى الآن بأي مشروع لاستغلال الطاقة الكهربائية في أراضيها .

ويجب أن نتخلص من الأوهام السائدة حول الطاقة الشمسية التي لم يتجاوز مداها أجهزة تسخين المياه المنزلية والتدفئة فقط .

هذا ويمكن للثروة السمكية البحرية أن تلعب دورا مهما في سد العجز الغذائي ، ولكن للأسف ما تزال مياهنا الإقليمية الغنية ، كسواحل موريتانيا والمغرب على المحيط الأطلسي ، مرتعا ومجالا رحبا لكل الأساطيل الأجنبية التي تستأثر بأكثر من ٨٥٪ من حصيلة الصيد ، لافتقارنا إلى أسطول صيد حديث . كما أن الفوسفات يباع بسعر منخفض ، ولا يتم تصنيع أكثر من ١٠٪ لتحويله إلى سوبر فوسفات ، وكذلك شأن تكرير النفط ، ويمكن قول الشيء نفسه بالنسبة لحديد موريتانيا .

إن دراسة مشكلات الوطن العربي تقتضي التفكير الموضوعي المدعوم بأرقام ، لأننا أمام حقائق جديدة ، يجب النظر إليها بعيون جديدة بعيدة عن التشاؤم والإحباط ، وعن التفاؤل « الديماغوجي » اللذين لا يقومان على أساس متين ، لأن ترك الحبل على الغارب يجعل الطبيعة تفرض حلولها على شكل هجرة خارجية ، تصطفي الأخيار ، أو ما يسمى بهجرة العقول ، أو الحروب الأهلية التي يقدم لبنان انموذجا مثاليا لها ، أو المجاعات التي يعاني منها السودان الذي أطلق عليه تسمية « سلة الخبز العربي » ، ولكنها « سلة فارغة » . □

الحقد عند « جان جاك روسو »



« إنني لا أحمل حقدا لأحد ، ولا أفكر في إيذاء أحد ، لكنني حينما أرى الظلم يتزايد في هذا العالم أسلي نفسي بالتفكير في الجحيم الذي ينتظر هؤلاء الظالمين »



عشيق الليدي تشاترلي

رواية من تأليف : د . هـ . لورانس

بقلم : الدكتور أمين العيوطي

في الآداب العالمية روايات تحتفظ ـ على الرغم من مرور الأعوام ـ بدفئها الخاص ، وببريق إنساني أخاذ ، يزداد سطوعا مع تنامي المعرفة ، وبقدرة على إثارة الجدل ، منها رواية « عشيق الليدي تشاترلي » التي ترجم أول نص منها لأول مرة إلى اللغة العربية في سلسلة روايات الهلال القاهرية هذا العام .

ويسرنا أن نقدم هذه القراءة النقدية للرواية المهمة في هذه المناسبة .

لعل كلمتي (اتصال وانفصال) كلمتان تترددان في جنبات عالم « ليدي تشاترلي » على عديد من المستويات ، بل إنهما تترددان بمعان متعارضة على المستوى الواحد ، سواء كان مستوى شخصيا أو اجتماعيا أو حتى طبيعيا . إن « كليفورد » الذي يعود من الحرب مقعدا ، أصاب الشلل نصفه الأسفل ، يعيش مشدودا إلى مقعد متحرك أوصل به محرك يمكنه من التنقل في أرجاء منتزه قصره وغابته ، مثلما هو مشدود إلى جهاز « مذياع » يصله بالعالم صوتا دون اتصال حي مباشر ، أو إلى سيارة وعكازين ينتقل بهما إلى المنجم الذي يملكه . هو منذ البداية مشدود إلى آلة ، آلة التعدين والصناعة ، أو آلة الحرب التي أقعدته ، تتحكم فيه الآلة بقدر ما يتحكم فيها ، تأثرا أو تأثيرا متبادلين ، والمظهر الخارجي ليس في حقيقة الأمر إلا انعكاسا للواقع الداخلي الذي جفت فيه منابع الحس والفطرة ، وسيطرت فيه الإرادة والعقل . فلما كانت منابع الحياة الغريزية

قد جفت فيه فإنه لم يبق له إلا عقله ، ينعم به بكل المتعة والراحة النفسية التي يعجز عنها جسده . إنه يعشق الآن إدارة المناجم وتطويرها ، وإلهاب ظهرها ، حتى تنتج بأقصى إمكانياتها ، كأنه يفرض عليها إرادته ، هو رجل لا يحركه إلا استبداد الإرادة ، وسيطرة الأنا والفردية ، والاستشسار المستفز ، على الرغم من كل النعومة والتهذيب « الراقيين » اللذين يمارس بهما إرادته على الآخرين . فهو ، في حقيقة الأمر ، يعيش منفصلا عن الآخرين ، متقوقعا في ذاته المقعدة ، لا مكان في ذاته إلا لنفسه ، هو باختصار صورة لا للتفرد ، ولكن للفردية بكل معانيها وفلسفاتها التي سادت في إنجلترا منذ القرن الثامن عشر حتى الآن . إنه لا يرتبط حتى برجاله من حراس الصيد ، ورجال الغابات ، أو البستانيين والعمال إلا برابطة الأجر الذي يدفعه لهم ، وقد أدار ظهره لكل معنى إنساني يشده إليهم ، فهم ليسوا إلا خدماً مأجورين ، مجرد قطع من اللحم بلا أمل حتى في الخلود الروحي الذي يرجوه لنفسه ، وحين ترى « كونستانس » زوجته ، في هذا نوعا من الاستشسار المستفز ، يرد عليها قائلا :

« لن يكون هناك استفزاز ، بل نظام ، إذا كنت تسمين النظام استفزازا ، فلا بد أن تدر المناجم عائدا ، ولو أدى ذلك إلى أن يموت العمال جوعاً » .

- « لكنك لاتفكر فيهم حقا ، ما إذا ماتوا جوعا أم لا » .

- « صحيح ؟ إذا لم يكن ذلك الاعتبار الأول لدي ، فليكن هكذا لديهم ، وعليهم أن يخضعوا لسيطرتي أو أن يموتوا جوعا » .

بل إنه يرى أن الوعي بهم أسوأ ما يمكن أن يفعله سيد مع خدمه .

وهذا الموقف العام من جانب « كليفورد » ينسحب على كل العلاقات القريبة ، بل والحميمة ، فحين يدفع حارس الصيد مقعد « كليفورد » المتحرك ، فإن كلا منها ينظر أمامه مباشرة دون أي اتصال حي . فالحارس لا يملك إلا أن يفعل - من وجهة نظر « كليفورد » - ما يطلب منه . هو ليس إلا آلة أخرى ، بل هو ليس إلا حارس صيد وحسب ، وكما من اللحم الإنساني يتيح له هو الحياة ، « حيوانا نصف مروض ، به قدر من اللطف الحيواني ، وقدر من السوقية نصف الحيوانية » ، حتى أن « كونستانس تشاترلي » التي كانت تراودها أفكار عن الصداقة المتفهمة الممكنة بين الرجلين ، لا تملك إلا أن ترى أن مثل هذه الصداقة ممكنة إذا كانت هناك صداقة ممكنة بين الماء والنار . كان هناك تمارض قطعي بين الرجلين .

هذا الانفصال لا ينسحب على العلاقات الطبقية العامة فقط ، بل إنه على مستوى آخر ينسحب على العلاقة الحميمة بينه وبين « كونستانس » . تقول كلمات الرواية :

« في بعض النواحي كانا شديدي الألفة ، قريب أحدهما من الآخر ، غاية في القرب ، حين كان يمسك يدها أحيانا في هدأة المساء ، كان يبدو بينهما سلام هائل ووحدة رائعة ، كانا أقرب إلى روحين تحررا من الجسد وكل سأمه ، روحين يمضيان يدا بيد على طول الطريق العلوي الذي يحف بسماء الكمال » .

والحقيقة أن هذا الاتصال الجسدي الظاهري ليس اتصالا على الإطلاق ، ليس اتصالا حياً ، بل هو اتصال يتم عبر كلمات وتأملات فلسفية أفلاطونية أو حتى سقراطية ، تشغل العقل ولا تمس الجسد .

هي علاقة بين المد والجزر في آن واحد ، من المد العقلي المتأمل الذي يلاحق المجردات المطلقة

ورحلة الروح الأثيرية ، والجزر الجسدي حين تشعر المرأة بنداء الأنثى يصرخ فيها وهو عاجز عن تلبية ندائها . حتى هذا الاتصال يتم من خلال حوار عقلي عقيم ، لا يجيب نداء الأنثى اللامحدود ، وإن كان يبرر عقم الرجل الذي استعاض عن الجسد بالعقل العاجز الممدود ، حتى أن « كونستانس » تشعر ببرودة مروعة تسري في كيانها وهو يقبض على يدها ، كما لو كانت تتذكار صيد سوف يحمله إلى الجانب الآخر من القبر ، ويموج بداخلها شعور بالاكتئاب والتعاسة ، لأنه لايستطيع حقا أن يشعر بجسدها وهي تعيش معه مدفونة حتى وسطها .

وليس شلل نصف « كليفورد » الأسفل هو السبب المباشر في عدم وجود اتصال حقيقي بينه وبين الآخرين ، أو بينه وبين زوجته . « فقد كان شلله رمزيا فيه » . كان جزء منه مشلولا حتى قبل أن يصاب في الحرب . كان ذلك الجزء من الرجل الذي يستطيع أن يوقظ قلب المرأة مرة وإلى الأبد ميتاً فيه . وهو ميت في آلاف الرجال من أمثاله وكل النساء اللاتي لهن رجال مثله ، يعشن بقلوب لم توقظ . وربما كانت الكثيرات منهن يفضلن ذلك ، فالقلب المستيقظ ذات أخرى ، غريبة ، ومسئولية كبرى ، « فكليفورد » في نهاية الأمر ليس إلا زوجا يمتص حياة زوجته ، ويحاول أن يمتص إرادتها ويسحقها إلى لا شيء .

و« كونستانس » تدرك هذا فيه ، تدرك رغبته الخفية في إخضاعها لإرادته وعقله ، وترسل أنانيته الباردة وعقلانيته العاجزة تيارا باردا فيها . هي تحيا معه ، ترعاه ، تُعنى به ، لكنها تحيا معه راهبة متزوجة ، تؤرقها رغباتها الجسدية الملحة الثقيلة الوطأة ، ويؤرقها جسدها القوي الصحيح الذي يفيض حيوية ، وقد منى جسدها بزوج مقعد لا يمكنه أن يلبي احتياجاته . ولذا ترفض فكرته عن الخلود الخالص المجرد ، فالخلود ليس إلا فكرة ندركها بالعقل المجرد . أما بالنسبة لها فهو لا يمكن أن يكون شيئا غامضا نحسه ولا ندركه . أما الخلود الحقيقي بالنسبة للأنثى فيها فهو الدم واللحم والجسد ، أما ذلك الخلود الآخر الخالص المجرد الممتد الطويل فهو خلود ممل . الخلود هو خلود الجسد الذي أخرست الكارثة التي نزلت بها صوته ، والذي لا تستطيع أن تخرسه إلى الأبد .

حارس صيد وحيد متفرد

وليس هذا الانفصال ظاهرة فردية ، فعلى الجانب الآخر البعيد من القصر والمتنزه والغابة يعيش « باركين » ، حارس الصيد ، وحيدا في كوخه ، لا يتصل حتى بعالم قرية التعدين . أول ما نراه منه وحدته وتباعده عن الاتصال بالآخرين ، بعد أن هربت زوجته وهو في الحرب .

إنه لا يرتبط حتى بابنته التي ترك أمر تربيتها لأمه التي تعيش في القرية ، وهو لايقف ضد الزوجة الهاربة والمرارة التي خلفتها فيه ، بل ضد سارقي الصيد من عمال المناجم ، وضد الحواجز الطبقية ، وضد العالم بطل السخط والمرارة والنقمة ، وخاصة ضد النساء . وهو يحافظ على انفصاله بضراوة ، عزوفا عن الاتصال بالآخرين . الاتصال الحي الوحيد في حياته يقيمه مع الكلب الذي يتبعه ويشاركه كوخه ، مع أصوات الأشجار وهي تترنح وتتمايل وتحتك إحداها بالأخرى ، مع أصوات الريح والمطر وهي تتردد في جنبات الغابة ، مع طيور الحجل التي يربيها ويرعى احتضانها للبيض وصغارها حين تشق طريقها إلى الوجود . وسط هذا الانفصال البارد والاتصال الحي الدافىء يقف « باركين » متميزا حتى عن خلفيته الاجتماعية ، واضح الحضور ، متفردا لا فردا ، ولا ذاتا فردية واعية ، بل طبيعة لا واعية ، تتدفق فيه الحياة وقدراته المتفردة اليقظة ، مثلما يمكن أن تتدفق في كل أشكال الحياة . تفرده هو « تفرد الطيور والحيوانات البرية » ، وعلى الرغم من عدم

وسامته ، فإن هذا التفرد فيه يعطي « كونستانس » انطباعا بجمال في الرجل لا يوجد في كل الرجال .

هذا الانفصال بين الناس لا يتم على المستوى الشخصي فقط ، بل هو متحقق أيضا في إطار البيئة المنظرية التي تجري عليها الأحداث . فنحن منذ البداية نتحرك في عالم التعدين والصناعة ، عالم تتردد في مناجمه ضربات المطارق ، أصوات الانفجارات التي تودي بحياة بعض العمال ، قعقعة الآلات الدوارة ، وصليل غرابيل الفرز ، وتفوح فيه رائحة الأبخرة والأدخنة والفحم والحديد والكبريت ، ويحط فيه الهباب على أوراق الأشجار والأزهار ، يشوه الأرض كما لو كان تحذيرا من الآلهة ، وتقوم فيه بيوت العمال صفوفاً متعرجة ، بنيت على عجل بأسقفها الارتوازية ، عالما من الكآبة والقبح ، وتدوى فيه صفارات السكك الحديدية التي شقت لها الأنفاق وسط المرتفعات ، وتعقدت شبكاتها وتداخلت وسط المدن . وسط هذا كله يجلس « كليفورد » المقعد في مقعده المتحرك ، حيث الآلة امتداد لروحه بالقدر نفسه الذي تحولت فيه روحه وعقله ويده إلى آلة بلا حس أو شعور .



● غلاف الكتاب

وهي بيئة تقف على النقيض من بيئة الغابات ، وتلقي ظلالها عليها ، النار المتصاعدة من أفرانها تصبغ السماء بالليل ، وغبار الفحم يكسو ثمراتها ويحط على أشجارها . وحيوان الخُلد يسبح صاعدا إليها من جوف الأرض ، يتحسس الهواء بأنفه القرنفلي . هي عالم من أشجار البلوط والصنوبر والأرز والخوخ ، وأزهار البنفسج والنرجس ، وعشبات الأزهار الزرقاء ، والأوراق البضة الطرية النضرة والأوراق الميتة ، عالم تسمع فيه صداح الطيور ، ونقر نقار الخشب ، وصيحات الحجل المزهو وهو ينشر جناحيه ويسرع لالتقاط الحب . كما تسمع فيه للأشجار أصواتا بلا أصوات والبراعم تتفتح فيها .

هو عالم كامل من الحياة المتشابكة المعقدة المتداخلة ، تحسه ولا تسمعه ، وترى حركة الحياة فيه دون أن تراها .

نحن ، إذن ، أمام عالمين يقفان على طرفي نقيض . هذا التناقض في غرض البيئة لا يتسم بواقعية التفصيلات فحسب ، أو واقعية الاحساس ، بل بالرمزية أيضا . فإذا كان عالم الصناعة يتسم بالمادية ، فهو يرتبط أيضا بالعقل والفردية والصراعات الطبقية ، في حين يرتبط عالم الطبيعة بعالم الحس والإحساس والفطرة النقية . وإذا كانت البيئة الاجتماعية تفرض إحساس الفرد بنفسه ، وبالتالي عزلته وتقوقعه داخل هذه الذات ، فإن عالم الطبيعة الذي يتسم بالتفرد والتلقائية هو الذي يصل ما بين الأشياء ويشدها أحدها إلى الآخر ، أو بمعنى آخر ، إذا كانت البيئة الاجتماعية لا تعرف سوى لغة الذات العليا والعقل ، فإن البيئة الطبيعية هي لغة الذات السفلى والجسد . وهي اللغة التي تتعرف « كونستانس » ، في ومضة من ومضات اللاوعي ، حين يقع بصرها على حين غرة على جسد « باركين » ، وهو يغتسل في فناء كوخه

لغة الطبيعة

في ظلمة الغابة المتساقطة بدأت فجأة ترتجف دون قدرة على التحكم في نفسها ، كان جذع الرجل الأبيض قد بدا لها غاية في الجمال ، يشق الظلام ، الجسد المتماسك المقدس ، ذلك الجلد المتماسك الحريري ، غض الطرف عن وجه الرجل بشاربه الضاري ، وعينيه القاسيتين ، غض الطرف عن شخصيته الغبية ، كان جسده في حد ذاته مقدساً ، يشق الظلمة كأنه رؤيا .

وهي لحظة تقلق كيانها ، تشقه ، تفتح رؤيا كانت موصدة بداخلها ، فتشتعل القوى المكبوتة ، كل ما فيها يتكلم لغة ليس بها رخص الكلمات ، مشدود إلى الارتواء الخصب . وتحين اللحظة وهي تركع على ركبتيها تراقب أفراخ الحجل تتواثب نحو العشب ، دقيقة وغريبة ، ترتجف الحياة فيها وهي تلتقط الحب من راحتها ، فتبكي الخصب الذي حرمت منه ، وتحس الخواء بداخلها وحولها ، حتى يحتوي الحارس قدها المطوي على نفسه ، وبلا وعي منه أو وعي منها تهبه نفسها .

وفي تلك المرة ، للمرة الأولى في حياتها ، بعثت الرغبة فيها إلى الحياة فجأة .

وبقدر ما تتفتح « كونستانس » على الحياة ، بقدر ما يتفتح « باركين » أيضا عليها بعد عزلته وانفصاله عن الحياة ، وإدراكه لشيء آخر غير ذاته الموجعة ، تحقيقه لحياته الإنسانية الفردية لا يتم إلا من خلال الاتصال الحسي الذي يصل أقصى مدى له في الاتصال الجنسي الذي يوحده لا مع الأخرى فحسب ، بل مع الحياة .

غير أن هذا الاتصال يفتح عينيها على حقائق أخرى تمس الكيان الفردي ، والكيان الاجتماعي ، والنظام الاقتصادي والعلاقة بين الطبقات . فمن خلال هذا الاتصال الجسدي يبدأ القاريء في التحرك على العديد من المستويات التي تؤلف كيان الفرد ، والتي تجد لها نظيرا في العالم الخارجي . فواحد من الانطباعات التي تتولد في نفس « كونستانس » ، الرجل يلفها بذراعه ، وقد راح في سبات عميق ، انطباع بالدائرة الغريبة التي تتألف من الرجل والمرأة ، إنها ترى فيها نوعا من السجن تتلاشى فيها فرديتها لتعيش داخل الرجل ، لكنها لا تلبث أن تراجع نفسها .

لا ، ليس سجنا ، فلو أن المرء فكر بتلك الطريقة لكان سجنا حقا أن يكون له جسد على الإطلاق . وإذا أراد المرء أن يكون غاية في الحرية فعليه أن يتبخر إلى لا شيء . كانت تلك الحرية القاسية الصغيرة لدى فرد منفصل ، منفصل تماما أسوأ من سجن . كانت مجرد مسمار يخترق القلب . ومن الواضح أن « لورانس » لا يعني مجرد فردية « كونستانس » ، بقدر ما يعني نظاما اجتماعيا كاملا ، يرى في الفرد والفردية ذروة حركة التطور ، ونظاما اقتصاديا تجسد في فلسفة الفردية وحرية الفرد في العمل ، بحيث ألغى الحس الخلقي والتعاطف والاتصال الحقيقي الحي ، بحيث تحول المجتمع الإنساني إلى جزر منفصلة ، فالدفء الانساني ، لا الدفء الجسدي فقط ، هو وحده القادر على أن يعقد الصلات بين البشر ، مثل هذا الإدراك هو الذي يجعل « كونستانس » ترى أن الرجل يصلها بالحياة الحية الحقيقية ، ويحرر تدفق الحياة فيها .

و لحظة الإدراك هنا ليست إلا واحدة من العلامات على طريق تطور « كونستانس » الروحي ، فما تزال النزعة الطبقية التي تجعلها ترى في الرجل مجرد رجل عادي ، بل يداخلها الإحساس بالخزي أحيانا ، لأنها أقامت علاقة مع مجرد حارس صيد ، يعمل في خدمة زوجها . والرجل نفسه لا يخلو من مثل هذا الشعور : « ألا تشعرين أنك قد تدنيت بنفسك مع أمثالي ؟ » ، ويمهد هذا الإدراك من جانبيهما لصراع من نوع آخر بينهما ، صراع يباعد ولا يقرب ، يفصل ولا يصل ، فاتصالها بالطبقة الدنيا يولد فيها خوفا

طبقيا . فربما كانت هذه الطبقة التي سوف تدمرها وتدمر طبقتها في النهاية ، بل ربما كان الرجل يتشفى أنه قد دمر فيها شيئا حين جذبها إلى مستواه . وقد يلتقي الاثنان في صفاء اللهب الذي جمع بينهما ، لكن يداخل الرجل أيضا إحساس بأنها تزدريه في أعماقها ، ولا تبقى منه سوى لحظة الوصل . ويتولد فيها هي أيضا إحساس بعدوانية كامنة في الرجل ، لكن الصلة الحميمة تظل تشدهما رغم كل شيء .

بين عالمين

و« كونستانس »، فوق هذا ، موزعة على العالمين ، فهي لا تستطيع أن تنفصل عن طبقتها وثقافتها ، ولا تستطيع أن تتخلى عن الرجل ، فهي مشدودة إلى « كليفورد » وإلى أحاديثه المثقفة الغامضة ، وإلى البيئة الاجتماعية المرفهة ، وإلى الفلسفة والفن اللذين لا يمكن « لباركين » أن يشاركها فيها ، وهي مشدودة أيضا إلى تلك الصلة التي تربطها بدفء الحياة ، إنها تريد هذا وتريد ذاك .

لم تكن تريد أن تختار بينهما ، بل كانت تريدهما معا ، كانت تريد أن تحتفظ بكعكتها وأن تأكلها ، كان يثير حنقها أن تضطر إلى أن تقول : سوف آخذ هذا ، وأفقد الآخر . كانت غاضبة جدا من « باركين » لوضعها في مأزق . كانت في غاية الغضب عليه ، لأنها لم تكن تستطيع أن تفقده ، أما بالنسبة «لكليفورد» فلم يكن مجرد الرجل الذي فيه ما كانت تتشبث به ، بل كان كل ما كان يمثله ، ولم تكن تستطيع أن تفقد كل ما كان يمثله .

وربما تظن في لحظة أنها قادرة على أن تشتري مزرعة صغيرة يعيشان فيها معا ، لكن الرجل يرفض إلا أن يكون في بيئته ، يرفض أن يتحول إلى سيد مهذب ، يرفض أن يكون تابعا لامرأة . هي امرأة لا يمكنها إلى أن تكون سيدة راقية ، وهو رجل لا يمكنه إلا أن يكون عاملا . ويزداد تشبثه بموقفه ، بل بطبقته حين يصبح مسئولا عن العمال ، إنه يرفض في الحقيقة عدم تقبل المرأة له على علاته .

هذا الصراع يصل إلى ذروته حين تدرك أنها حامل ، ويقبل « كليفورد » أن تعطيه طفلا ، حتى لو كان من رجل آخر ، ولدا ووريثا يحارب به من أجل الإبقاء على منجمه وضيعته ، يحارب به طبقة العمال نفسها التي وهبته هذا الابن ، ليحافظ على سيادة طبقته ، وعلى إخضاع الطبقات الدنيا لإرادته الباردة القاسية ، حتى لو أدى الأمر إلى موت هذه الطبقات جوعا . هنا يدخل صراع « كونستانس » مع نفسها مرحلة حاسمة ، ويقودها هذا إلى قرار . إنها لن تأخذ طفل « باركين » وتسلمه إلى « كليفورد » ، فهي ترفض أن تأخذ على عاتقها أن تقرر للطفل حياته سلفا ، وكأنه لا رأي له ، ويساعدها على اتخاذ قرارها تباعد كليفورد عنها ، وانشغاله بتوسيع منجمه وتحديثه ، واستغراقه في عالم الصناعة .

وأمام عناد « باركين » لا تملك « كونستانس » إلا أن تهجر « كليفورد » . سوف تنزح إلى « اسكتلندا » ، وتبتاع مزرعة صغيرة وتنتظر أن يغير الرجل موقفه ، وأن يلحق بها . على هذه النهاية المفتوحة تنتهي « عشيق الليدي تشاترلي »، وتفتح الباب لبصيص من أمل ، يحمل في النهاية الرسالة الأخيرة التي يوصلها « لورانس »، حين يرفض الحارس أن يكون في بيته كلبا من الرتبة الدنيا ، وأن تكون « كونستانس » كلبا من الرتبة العليا .

ينبغي ألا تقام التماثيل إلا للأنذال ، فالشرفاء يحترزون منها .
« كليمنصو »

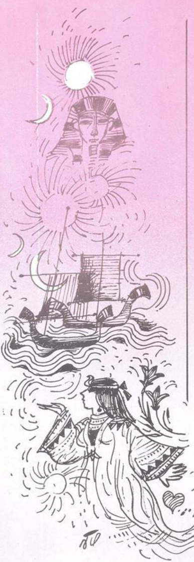
في حضرة مولانا النهر

شعر : محمود عبد الصمد زكريا*

في حَضْرَةِ مولانا النهرِ ـ الراحل عنّا صوبَ البحرِ ـ
يشبُّ الحلمُ
تشبُّ المثلُ القروية ، تطلبُني
يسعفُني الحُب ، فأجمعُ كلَّ جراحاتِ المثل القرويةِ من كفّي
أتمددُ في المجرى
يبدأُ تاريخُ العشقِ الأزليّ من البحرِ ،
وحتى أعلى نبضاتِ القلبِ الدافقِ من المنبع .
يقفون الآنَ عرايا
ويبيعون ثيابَ العرسِ النيليةِ من زمنِ الفيضانِ
بثمنٍ بخس
في ليلٍ لا يطلعُ فيه النجمُ
ويشرون الوهمَ بأجسادٍ تتصببُ عرقاً
يغلبُني النومُ ،
فألمحُ ثوبَك في الساحةِ ، يجلدُني
بسياطِ اليقظةِ ، تحملُني نظرتُك الملَكيَّةُ
تزرعُني في سابعِ أرضٍ ،
أَنْبُتُ نخلاً
ينبتُ كلٌّ منهم حَولي نخلا .
نائمةٌ كانتْ ،
تحلمُ بالعرسِ الريفيّ ، وكانتْ
تخفت بين توابيتِ الوادي أصواتُ الغرقى
قلبي يعصُره الجوعُ الأبديُّ إلى الرّيِّ الأبديّ



* شاعر وكاتب من القطر العربي المصري



فأخطفُ من آمونَ المنسأةَ الذهبيةَ
يأتيني هرولةً رَعْ
ألهبُ ظهرَ الشمسِ ، أدحْرجُ كُلَّ الأقمارِ أمامي
أحدو أسطولَ مراكبها الشمسيةِ
أسطعُ من بطنِ الوادي ، قافلةً من نورٍ
تستيقظُ
ترفلُ في ثوبِ المَلِكاتِ ، وتأمرُ حارسَهَا :
يا حارسَ هذا الوادي الطيبِ
زوّجْنـــــا
سأُلملمُ من جوعِ البحرِ ،
ومن جوعِ الظلماتِ ببطنِ الوادي كُلَّ الغرقى
أمنحُهُمْ عشقاً
في حضرةِ مولاتنا النهرِ - الراحلِ عنا -
قالوا عنكِ ، امرأةُ التاريخِ الحُبْلَى
بالزمنِ الحجريِّ الميتِ
لكني أسميتُكِ
أنثى مملكةِ الحبِّ
خَلَعْتُ عليكِ جميعَ الألقابِ المَلَكِيَّةِ
ونثرتُ على أقدامِكِ ،
كُلَّ فصولِ الأعوامِ ،
وطاردتُ بجفنيْكِ النومَ
وألبستُكِ وجهاً مَلَكِيًّا حُلْواً
يَمَّمْتُكِ شطرَ النهرِ ، وأجْلَسْتُكِ
- أنتِ الملكةُ - في القلبِ
عدوتُ ، تسابقُني أحلامي
أجمعُ أطرافَ الغدِ ،
في كفيَّ منسأةُ المُلْكِ ،
على رأسي التاجُ ،
وقُدّامي قطعانُ الأمَلِ
وقلتُ : مُريني يا مولاتي الملكة .

الشتاء والحب

قصة بقلم : ملك حاج عبيد

البرق يشق السماء بومضات قوية ، والرعد ينفجر صواعق داوية ، والمطر ينهمر غزيرا ، يرشق النوافذ بقطرات كبيرة ، تتسلل إلى الغرفة من حواف الخشب .

البحر يمتد أمامي سهلا من الرماد ، تجلده سياط مطر تنحدر من سماء ملبدة بغيوم سوداء ، وأصوات الموج تهدر ، وتتكسر على رصيف الميناء ، والزوارق تتأرجح على صفحة الخليج الصغير .

أحس بالبرد فأقترب من المدفأة ، يسري إليّ شعورٌ بالدفء والسعادة ، أحلم بأن يكون الجو صحوا في الغد ، لأذهب إلى المقهى البحري ، وأنعم بفنجان قهوة أرشفه ، وأرى لمعان الشمس من وراء الغيوم الداكنة ، وأرقب الزبد يطفو على قمم الأمواج ، وأحس الخفق الرقيق لأجنحة طيور النورس على صفحة الماء . يروق لي المنظر ، أبتسم ، أفرح ، أتمنى أن يتحقق الحلم ، يستخفني شعور بالمرح ، فأحس بأن الحياة حلوة ساحرة .

من الغرفة المجاورة تنبعث آهة ، إنها عمتي الراقدة في سريرها ، تأمل بشفاء لن يوافيها ، وتنتظر يوما لابد لها منه .

تخدش فرحتي ، ولكن ما زال الطريق أمامي طويلا لأفكر بالمرض والشيخوخة ، أحس بالشباب يملأ كياني ، فتعاودني الغبطة .

من المذياع تنبعث أغنية حلوة تقول :

« آه يا اسمراني اللون ، حبيبي الاسمراني لا عيوني نسيانه عيون ، حبيبي الاسمراني »

تضحك أمامي عيناه العميقتا السواد ، فأبتسم لوجهه العذب ، من خلفي تنبعث شهقة ، أذهب إلى غرفة عمتي ، أراها تختنق بالبكاء :

- ماذا حدث ؟

- لا شيء .

- ولكنك تبكين .

صمتت ، اقتربت من سريرها :

- هل أستدعي لك الطبيب ؟

- ما الذي يستطيع الطبيب أن يقدمه لي وقد حان السفر ؟

- لا تقولي ذلك يا عمتي .

- هذه هي الحقيقة ، سأسافر إلى حيث ينتظرني .

- من ؟

- ابن عمتي .

هل هي مريضة إلى درجة الهذيان ، أم أن روحها ستفيض الآن ، فترى مالا أستطيع أن أراه ؟ من الذي ينتظرها ؟ أهو ملاك الموت ؟ أم هي أرواح تطوف حولها وتناديها ؟ اعتراني الخوف ، ولكنني غالبت خوفي ، وسألتها :

- عن أي ابن عمة تتحدثين ؟

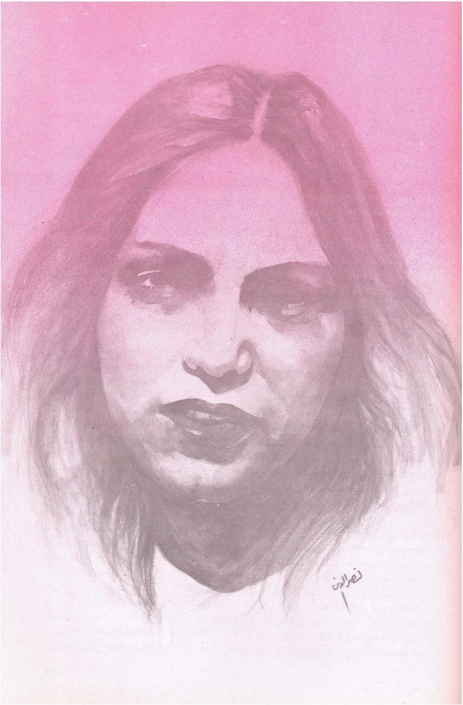
- عن أحمد ، ابن عمتي .

هل كان لعمتي عمة ؟ مذ وعيت على الدنيا وهي كبيرة العائلة ، فعن أي عصر سحيق تتحدث !

- ما الذي ذكرك به الآن ؟

- هذه الأغنية .

على الرغم مني ابتسمت ، كنت أظن أن كبار السن لا يلقون بالاً إلى الأغاني ، وحتى لو أنهم انتبهوا إليها لا يفهمونها ، بل يعدونها ضرباً من العبث ، أما أن يتأثروا بها إلى درجة



البكاء !

نظرت إليها بتعجب واهتمام :

قالت :

- كان أسمر ، أسود العينين ، وكنا . .

* كنتم ماذا ؟

- كنا نحب بعضنا .

حدقت فيها وكأنني أراها للمرة الأولى ، أي مفاجأة مذهلة لي أن أكتشف أن عمتي تحب ؟ رحت أتأمل الوجه الأسمر المغضن ، خصلات الشعر البيضاء التي تطل من تحت المنديل ، إنها في الخامسة والثمانين من عمرها ، أتكون قد أحبت حقيقة ؟ وهل كان في زمنها حب ؟

انساب صوتها هادئا عميقا ، وكأنه يأتيني من غور بعيد :

- لم يكن في البلد أجمل منه ، قامة فارعة ، عينان سوداوان كحيلان ، شاربان كثيفان ، عندما يمر في الطريق تقف الفتيات وراء النوافذ ينظرن إليه .

سرحت ببصرها بعيدا .

- كنا صغارا ، نزورهم ، ويأتون لزيارتنا ، نلعب ، نركض ، نصخب في الحارة ، حتى إذا حل المساء دخلنا إلى البيت لنكمل لعبنا فيه . كبرنا ، فُصل الصبيان عن البنات ، وفرض علينا الحجاب ، ثم مات جدي فوقع الخلاف بين أبي وعمي على الميراث ، كانت عمتي أم أحمد أشدهن خصاما ، فكرهها والدي ، وحرم علينا زيارتها ، انقطعنا سنوات عن رؤية بعضنا .

عندما رأيته بعد انتهاء القطيعة كنت في الرابعة عشرة من عمري ، وكان في السابعة عشرة ، التقت نظراتنا ، فغضضنا النظر ، وعندما أعدت النظر رأيت الإعجاب في عينيه ، فخفق قلبي .

لم يكن باستطاعتنا أن نلتقي ، فكان يتحين الفرص ليمر أمام بيتنا ، قد يرفع إليّ نظره ، وقد لا يرفع ، ولكنني كنت أنتظر هذه اللحظات السعيدة .

- ولماذا لم يتقدم ليخطبك ؟

- تقدم ، ولكن جدك رفضه .

- لماذا ؟

- لأن والده كان فقيرا ، ولأن جدك لم ينس أيام القطيعة مع أمه .

- ثم ؟

- لم يكن يصدق أن خاله قد رفضه لأنه فقير ، كان يقول لي : أيخجل خالي من مصاهرتي ؟ أينسى أنني ابن أخته ؟ ما العيب في أن أكون فقيرا ؟ إنني شاب أستطيع أن أفتت الصخر ، ليمهلني ، وعندئذ يرى ما الذي أستطيع أن أفعله .

* لماذا لم يمهله ؟

أطلقت تنهداً حزيناً وقالت :

- الأيام لم تمهلنا . وذات يوم جاء العسكر التركي ، وجمعوا كل شباب البلد الذين في سن التجنيد ، وبلغوهم أن عليهم الالتحاق بالجيش ، لأن الحرب قد قامت ، ومن يتخلف أو يهرب سيعدم .

ما زلت أذكر ليلة سفره :

وغابت تسترجع التفاصيل ، وانطلق صوتها يروي ، وكأن ما تتحدث عنه ماثل أمام عينيها .

- قالت أمي لأبي : سنذهب إلى أختك لتوديع أحمد .

نهرها قائلا : ما للنساء وتوديع الرجال ؟!

انطوت أمامه ضعيفة ، خائفة ، تمنيت حينئذ أن أبكي بصوت مرتفع ، أن أتمرغ على قدمي والدي ليسمح لنا بالذهاب ، ولكن نظرة من عينيه كانت كافية لتوقع الرعب في قلبي ، ما كنت أستطيع أن أصدق أنه سيذهب دون أن أراه ، ولكن حكم أبي لا يرد .

الليل طويل ، والجميع غارقون في النوم ، ووسادتي غارقة بدموعي ، وعيناي مفتوحتان تنتظران معجزة ، سمعت حركة تحت النافذة ، تسللت من فراشي ، وأطللت ، رأيته في ضوء فانوس الشارع الضئيل ، كاد قلبي يسكت من الفرح والخوف ، لو أن أحدا رآه لكانت نهايتي على يد أبي .

أشار إليّ أن أفتح الباب ، فخرجت من غرفتي على رؤوس أصابعي ، أمام غرفة أبي

تعثرت وسقطت على الأرض ، وسمعت صوته الجهوري يصرخ :

ـ من هناك ؟

من أعماق رعبي انبعث صوتي مرتعشا :

ـ أنا يا أبي ، أريد أن أشرب .

عاد إلى النوم ، سمعت غطيطه ، لكن الذعر جمدني ، ماذا لو تظاهر بالنوم ثم خطر له أن ينهض ويراني وأنا أفتح الباب الخارجي ؟

ولكن قوة خفية كانت تدفعني إلى الباب دفعا ، هبطت الدرج ، وفتحت الباب ، كان يقف أمامي بقامته الشامخة .

ـ ادخل بسرعة .

وقفنا على الدرج ، رددت الباب .

ـ جئت لأودعك .

انخلع قلبي ، تساقطت الدموع من عيني ، لم أكن أراه بوضوح ، ولكنني كنت أحس بوجوده يملأ كياني ، ما زلت حتى الآن أذكر لمعان عينيه السوداوين ، ونظرة دافئة انغرست في قلبي .

ـ لا تبكي ، سأعود ذات يوم ، وسيوافق خالي على أن أتزوجك .

ـ سأنتظرك يا أحمد .

من أعماق الليل انطلق أذان الفجر ، وسمعت خطوات أبي متجهة إلى الحمام ، وقف الدم في عروقي :

ـ أرجوك انصرف ، لقد استيقظ أبي .

ـ ما أقساه !

من عنقي انتزعت مصحفي الذهبي .

ـ ضعه حول عنقك يحميك .

مد يده ، تناول يدي بين يديه ، قبلها .

ـ ادع لي .

ـ ليعيدك الله سالما .

ذهب ، ولكنه لم يعد ، من كل شباب البلد الذين راحوا لم يرجع إلا اثنان ، طرق أحدهما الباب على عمتي وناولها المصحف :

ـ هذا أمانة من أحمد .

بلعت دموعي ، ما كان يحق لي أن أبكي ، فالحب في زماننا كان محرما ، ولكن يعلم الله أنني ما وضعت رأسي على الوسادة إلا بللتها .

كنت أتساءل : أي ضير سيلحق هذا الكون لو عاد ؟ لو رجع كنت سأتزوجه . في الحياة نصنع ما نريد ، ولكن ما الذي نستطيعه أمام الموت ؟

مرت السنوات وصورته لا تبارح خيالي ، تزوج إخوتي وأخواتي ، فرغ البيت ، لم يبق إلا أنا وجدك وجدتك .

لم تهف نفسي إلى الزواج ، الزوج إما أن يكون أحمد أو لا يكون .

تساءل الناس ، نسيني الناس ، دب الشيب إلى رأسي ، أخواتي أصبحن جدات ، مر على القصة . . . آه يا عمتي ، لقد مر عليها سبعون سنة .

هذه الأغنية أرجعتني إليه ، فكأنني الآن أراه واقفا في غبش الليل ، أرى لمعان عينيه ونظرته المودعة . أطلقت تنهدة :

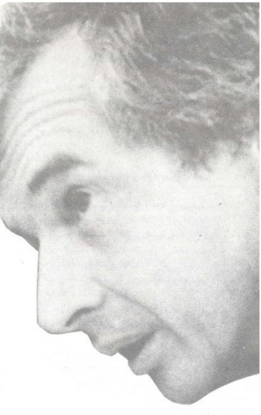
ـ يقولون من جرح قلبه في الدنيا يجبره الله في الآخرة ، حياتي كانت حزينة ، فهل سأكون سعيدة هناك ؟

أحس بألم يعتصر روحي ، أتأملها غائصة في سريرها ، تنتظر آخر أيام شتائها ، صغيرة ، منكسرة ، أي حب وأي نبل يعيشان في هذا الجسد المتهدم ؟!

سنوات وأنا أعيش معها وأجهلها ، مذ كنت صغيرة وأنا أراها تروح وتغدو ، تعمل وتساعد ، رعت أمها وأباها ، ربت إخوتها وأولادهم ، بنين وبنات ، كل من وقع في ورطة يذهب إليها ، تدافع ، تحمي ، تعطي ، وما خطر لي أنها أحبت ذات يوم ، وأنها ما تزال غارقة في حبها القديم المستحيل .

أذكر حبها لأخي أحمد ، تفضيلها له علينا جميعا ، هي التي اختارت الاسم ، وهي التي أصرت على التسمية ، وأسترجع نظرتها الحانية إليه ، نبرتها وهي تناديه . أتأمل الوجه الذابل وقد دبت إليه حمرة ما قبل الغروب ، ومن العينين سرت دموع .

يا عمتي المسكينة تذكرينه لأنك ذاهبة إليه ؟ ألصق وجهي على زجاج النافذة ، المطر ما زال ينهمر في الخارج ، وفي داخلي ينبعث حنان يتمنى أن يمسح آلام الناس جميعا . □



التعرّف على حالات القلق

بقلم : الدكتور عبدالستاز ابراهيم

في لحظات كثيرة تعرض للانسان بعض المواقف التي لا يملك نفسه فيها تماما ، وتستبد به الحيرة ، ويتملكه الاضطراب ، وقد تمتد هذه اللحظات أياما ، وقد تطول فتصبح حالة نفسية مستمرة لها آثارها ، ومنغصاتها التي يفسرها الآخرون عندما يشرحها صاحبها لهم بأنها حالة من حالات القلق .

فما هو القلق ؟ ما أنواعه وتأثيراته ؟

أتيح لنا ـ بحكم وضعنا المهني ـ أن نلتقي بكثيرين ممن تتملكهم المحن والأزمات . وما تكلمنا إلى أحد منهم إلا ووجدنا أن القلق ـ بين الغالبية العظمى منهم ـ هو مصدر المحن ورأس المشكلات . ويصف هؤلاء موضوع شكواهم بأسماء متباينة ، منها « انشغال البال » و « الهم » و « التوجس » و « الخوف » و « التشاؤم » و « متاعب الصحة والجسد » . وسنرى فيما بعد أن كل هذه الأسماء تمثل أوجها مختلفة لعملة واحدة : هي القلق .

وإذا سـألت الناس عـما يجعلهم يقلقـون فستجدهم يتحدثـون عن مصـدر القلق بصور شتى ، ويدركه كل منهم بمنظار مختلف ، فمنهم من يراه كعدو غريب وكريـه ، عرف طـريقه ، بطريقة ما ، إلى نفوسنا وأجسامنا ، موجها إياها نحو التعاسة والمرض . ومن الناس من يتحدث عن القلق بـأنـه إرث ثقيـل نقـل إليهم من أسلافهم ، كما نقلت إليهم صفـات جسمانيـة ونفسية أخرى بوراثة محتومة . وهناك من يحاول أن يطرح على القلق مسحة فلسفية ، فيراه ضريبة ندفعها لوجودنا ومعايشتنا للعصر الحـديث . ولهذا نجد الفيلسوف الفرنسي ، ألبير كامي ، يـرى أن هذا العصـر عصـر خـوف . ويصـور الشاعر « أودين » هذا العصر ، في قصيدة شعرية لـه ، حملت الاسم نفسه ، بـأنـه عصـر القلق والمعـاناة (١٩٤٧) . وهنـاك من يتحدث عن القلق ويصفه بأنه تجربة ضرورية تثري الحياة ، كما وصفه لنـا ، الأديب المصـري يحيى الـطاهر عبدالله الذي عاش تجربة قصيرة رائعة في الأدب والتأليف . لقد كان القلق بالنسبة لهذا الصديق الأديب ـ رحمه الله ـ طريقة لإثراء حيـاته الفنيـة والأدبية ، وكان يقول : إنه يبحث عن القلق ، بل ويخلقه ، لتستمر تجربته في الكتابة والتأليف . فـالقلق عند بعض النـاس إذن تجـربـة وخبـرة شخصية ، قد تعود عليهم بالنفع والفائدة .

القلق كجرس إنذار :

القلق كما يصوره علماء التحليـل النفسي ـ ويتفق معهم في ذلك علماء النفس المعاصرون ـ ما هو إلا نذير بأن هناك شيئا سيحدث ، ليهدد أمن الكائن وتوازنـه وطمأنينتـه ، إنه أشبـه بجرس الإنذار الذي يعد لمواجهة الخطر .

ولهـذا تعرض المـلاحـظات العـامـة لسلوك الناس ، بأن القلق هـو الاستجابـة التي تغلب عليهم ، عندما يجد الواحد منهم نفسه مقبلا على شيء مهم أو خـطير . ولهذا فمن الـطبيعي أن يزداد القلق عندما يكون الشخص ضحية أزمة صحية أو كارثة مادية ، أو تحت تأثير أشياء تهدد أمنـه أو حيـاتـه ، أو في المـواقف الاجتمـاعيـة المتأزمة .

ومن العسـير حقـا أن نضـع قـائمـة شـاملة بالمواقف المثيرة للقلق ، إلا أن المواقف التي تثير القلق تشترك فيها بينها في الخصائص التالية :

١ ـ إنها جميعا تتعلق بالمستقبل أو بأشياء مرتقبة .

٢ ـ إنها جميعا تنطوي على شيء مهدد أو مخيف .

٣ ـ إن التهديد في بعضها حقيقي ، والتهديد في بعضها الآخر ـ أو الخوف ـ ليس شيئا حقيقيا أكيدا ، بل يراه الفرد كذلك .

ومن هنا يجيء تعريفنا للقلق بأنه انفعال يتسم بالخوف والتوجس من أشياء مرتقبة ، تنطوي على تهديد حقيقي أو مجهـول . ويكون من المقبـول أحيانا أن نقلق للتحفز النشط ومواجهة الخطر ، لكن كثيرا من المواقف المثيرة للقلق لا يكون فيها الخطر حقيقيا ، بـل متوهما ومجهول المصـدر . ولهذا فإن القلق يشيع أكثر ما يشيع بين فئة من الناس يطلق عليها العلماء اسم « العصابيين » أي الفئة التعيسة من البشر التي تتوجس شرا من كل موقف ، ويعيش أفرادها لهذا في ازعاج دائم ، وخـوف . ولهذا نجـد من القلقين من ينـزعـج لأشياء غير مهددة بطبيعتها ، بل قـد تثير لـدى غيـرهم التقبل والاستحسـان . كمشهد بعض الحيوانات الأليفة ، أو السفر إلى مكان جديد ، أو الـدخول في عـلاقات اجتمـاعيـة أو جنسيـة مرغوبة . حتى النجاح والتفوق والحصول عـلى شيء كان يصعب تحقيقه قد لا تثير لدى الشخص الذي تتسم حياته بالقلق أكثر من الخوف ، بأن تنقلب هذا الأشياء السارة في المستقبل إلى كارثة محتمة .

ونحن لهذا نقول : إن الخـطر الذي يسبقه. القلق، عـادة ما يكـون خطرا متـوهما ومختلقا ، والخوف الذي يتملك النـاس في حالات القلق خـوف مجهـول المصـدر ، وغـامض ، وغـير

عقلاني . ومن ثم يجيء تعريف العلماء للقلق بأنه خوف من شيء مجهول المصدر ، وأنه حالة وجدانية غير سارة ، تتملك الشخص وتجعله يرى أخطارا غير حقيقة ذات مصدر غير معلوم للآخرين (جريست ١٩٨٧)

درجات القلق وأنواعه :

يتملكنا التوتر النفسي والقلق عندما نعلم أننا سنقبل على لحظة أو خبرة حاسمة (امتحان ، أو لقاء شخصي ، أو قرار) . ومن خلال هذا التوتر الذي نختبره قبل حدوث هذه المواقف نهيىء أنفسنا ، ونحاول أن نتسلح بما يمكن التسلح به من خبرة أو معرفة ، لمواجهة هذه المواقف بنجاح . وإذا أتيح لنا أن ننجح في هذه المواقف (فنؤدي مثلا أداء جيدا في الامتحان ، أو أن نتغلب على خجلنا وعوامل ضعفنا في اللقاءات الشخصية المهمة ، تاركين أثرا طيبا وإيجابيا في الآخرين) ، فإننا نشعر بالعرفان والشكر لمشاعر القلق السابقة لمساهمتها في الدفع الإيجابي نحو النجاح .

ويصور هذا الموقف (أو المواقف السابقة) نموذجا طيبا لما يسمى بالقلق الدافع . وهو قلق ضروري للنمو ، وللتطور بامكاناتنا نحو تحقيق كثير من الغايات الإيجابية . وهو قلق مؤقت ، وقليل الحدة ، ومنشط لامكانيات الكائن النفسية والعضوية ، بعبارة أخرى ، فإن هذا نوع صحي ومحمود من القلق ، وينطبق عليه قول العالم النفسي الامريكي كاتل (١٩٦١) بعد عرض كثير من نتائج بحوثه في هذا الميدان :

(بعض الناس يربط دائما بين القلق والمرض . لكن القلق لا يكون دائما علامة على المرض والعصاب . إن القلق يمكن أن يوجد بدرجات عالية دون عصاب . بل إنني أجد من نتائج دراساتي ما يؤكد أن وجود القلق قد يكون أحيانا علامة على الصحة والنضوج) .

على مثل هذا النوع من القلق الصحي قد ينطبق وصفنا السابق للقلق ، بأنه جرس إنذار مبكر في مواجهة الخطر . لكن القلق في أحيان كثيرة قد يكون أشد حدة من المواقف التي تثيره . ولهذا نجد من العلماء من يصف القلق بأنه جرس إنذار ، ولكنه إنذار أشد ضراوة وأخطر من الحريق الذي ينذر عنه (١٩٧٨ بيسك) . خذ على سبيل المثال نموذج الطالب الذي يتملكه القلق في يوم الامتحان بصورة تعوقه عن أداء الامتحان نفسه ، وبالهروب من الموقف كله ، أو ذلك الزوج الذي يتملكه الخوف من الضعف الجنسي عند معاشرته لزوجته بصورة قد تؤدي إلى إصابته « بالعُنّة الجنسية » ، أو تلك الزوجة الصغيرة التي يتزايد خوفها من الرجال لدرجة تمنعها من التوافق الجنسي السليم مع شريك حياتها ، أو تلك الأم التي تخشى على أبنائها من أخطار الحياة لدرجة توقف نموهم وتفاعلهم الإيجابي مع الحياة بحب وحرص مبالغ فيهما ، أو هذا الطفل الذي يوقفه خوف الانفصال من الأسرة عن الذهاب إلى المدرسة بالمرض أو التمارض كل صباح . وقد راجعتني في العيادة مرة سيدة ملكها الخوف من الكلاب ـ ثم كل الحيوانات فيما بعد ـ لدرجة أعاقتها عن أداء واجباتها الأسرية والشخصية الضرورية . في كل هذه الأمثلة تتمثل صور مختلفة مما يمكن أن نسميه بالقلق المرضي أو العصابي . وهو الذي يمثل الشكوى الرئيسية للغالبية العظمى من الناس ، عندما يتجهون لطلب العون النفسي ، وهو يمثل درجة مبالغا فيها من الانفعال بالأشياء لدرجة تعوق ـ ولا تيسر ـ الحياة البشرية ، وهو أيضا أنواع .

القلق العصابي (العُصاب)

كلمة عصاب مصطلح جرى على استخدامه علماء النفس والأطباء النفسيون لوصف طائفة من الأمراض النفسية التي يتميز أصحابها بالانفعال الشديد ، وعدم الاستقرار النفسي ، والتقلب



الانفعالي . ويسيطر على العصابيين عادة أعراض مرضية متنوعة منها الخوف ، والقلق ، والأحزان النفسية (الاكتئاب) ، والوساوس الفكرية .

ويمثل القلق العصابي الطائفة الرئيسية من العُصاب . ويعد أيضا سمة رئيسية في معظم الاضطرابات العصابية الأخرى . فنحن نجد القلق مستقلا كخاصية رئيسية في الشخصية ، ونجده مرافقا لكثير من الاضطرابات الانفعالية الأخرى كالخوف والوساوس والاكتئاب . والقلق العصابي هو انفعال شديد بمواقف أو أشياء لا تستدعي بالضرورة الانزعاج . والشخص في حالات القلق العصابي يجد حياته الوجدانية ، والفكرية ، والاجتماعية نهبا لهذا الشعور بحيث قد يجد الشخص نفسه عاجزا عن الحركة الايجابية والتفاعل العادي بالحياة .

والقلق العصابي يفتقد الخاصية الايجابية للقلق من حيث هو قوة إعداد وتهيؤ لمواجهة أزمات الحياة وتحدياتها . بل وقد يتدخل في تشويه نفس الغاية التي يهدف إليها فيكبل بدلا من أن ييسر التعامل مع الأزمات والأخطار . مما يزيد من تعرض الشخص للموقف المهدد . وربما صادفنا كثيرا من الحالات التي يتدخل القلق خلالها في الموقف بصورة سيئة . فالشخص الذي يؤدي به القلق إلى التلعثم المتتالي في الموقف الاجتماعي يجد نفسه ضحية لقلقه بصورة لا يحسد عليها . ونعلم أيضا أن هناك بعض الأشخاص ممن « يتجمد » في مواجهة الخطر بدلا من أن يستعد أو يتهيأ للاستجابات الملائمة .

ويأتي القلق العصابي بأشكال متعددة بحسب شدته وضراوته . فيكون إما حالة انفعالية شديدة ، أو يتزايد لدرجة أن يستجيب الجسم بالقشعريرة والرعدة ، وتوتر عضلات الجسم . أو يتحول في الحالات المتطرفة إلى نوبة حادة من الانزعاج والذعر . فالذعر درجة أشد من درجات القلق .

هذه بعض التصنيفات العلمية للقلق العصابي إلا أن الممارسة العملية تبين لنا أن هذه التصنيفات قد تربك أكثر مما تفيد . فالقلق ، وتحت أي اسم أو شعار ، هوانفعال مسرف في حدته ، يملك على الانسان مشاعره وتفكيره واستجاباته العضوية فيصيبها بالاضطراب والتوتر .

التعرف على القلق :

أقبلَ إلى شاب في الثالثة والثلاثين من العمر يعمل مهندسا ، يبدو على وجهه الشحوب والتعب ، تحيط بعينيه هالات سوداء

بدأ حديثه قائلا : إنني لا أنام ، وأظل طوال الليل أتقلب في سريري ، وعندما يأتي الصباح أشعر بصداع حاد ، وطنين من أثر ارهاق الليل والسهر . وما أن يمتد اليوم قليلا حتى يتزايد التعب والإعياء لدرجة أنني قد أنام على مكتبي .

كان واضحا أن هذا الشاب يعاني من حالة قلق شديدة ، بدأت آثارها تشمل الجسم (شعور بالاختناق وضيق النفس) فضلا عن الاحساس نفسه : اضطراب وخوف غير محدد المصدر .

وقد بدأ ذعره يتزايد مؤخرا ، وبعد محاولة تشجيعه للبحث عن الظروف الاجتماعية التي أحاطت به حديثا ، تبين أنه أعزب ، وانتقل للعمل في القطر العربي الذي تم لنا لقاؤه فيه ، وأنه كان قد تعرف في إحدى زياراته لبلده بفتاة

أسرع بخطبتها ، واتفق معها على أن يتم الزواج خلال زيارته القادمة . ولكنه تلقى منها قبل عودته التي كان يترقبها لإنهاء مراسيم الزواج ، رسالة تفيد برغبتها في إنهاء الخطبة . لقد أوضح أنه تسلم الرسالة في عمله وما أن عرف محتواها حتى أصبح كالتائه . وعندما أوى إلى مخدعه كان من الصعب عليه أن يسترخي أوينام ، وقام في منتصف الليل وهو يعاني من دوار شديد ورغبة في القيء ، وأخذ العرق البارد يتصبب منه . كان قلبه يدق في عنف ، ووجد صعوبة في التنفس العميق . وأخذ جزعه يتزايد متحولا إلى ارتعاشات في الجسم والأطراف . وتذكر أنه فكر : هأنذا وحيد وضائع . وتذكر أيضا مشاعره هذه الليلة ، كانت خليطا من الغضب والحنق ، والشعور بالامتهان ، والخوف من مواجهة الأهل والأصحاب . وأضاف وهو يسرد لنا أعراضه ومخاوفه . لقد فكرت في اليوم التالي أن أذهب إلى المستشفى ، لكنني كنت أعلم أنني تحت رحمة نوبة من القلق الشديد الحاد . وهأنذا هنا وبعد أن مضى على هذا الحادث أكثر من ستة شهور وعلى الرغم من أنني أعرف أن تصرفي أحمق ، ولكنه أمر ليس في استطاعتي أن أتجنبه .

ذكرنا هذه الحالة لأن الأعراض فيها تعد نموذجا فريدا للتغييرات التي تصيب الناس في حالات القلق والذعر . وهي تغيرات تمس الأركان الرئيسية الثلاثة لشخصية الانسان ، أي الجانب العضوي العضلي ، وجانب الوجدان أو الشعور ، ثم جانب التفكير .

فمن الناحية العضوية العضلية تحدث في حالات القلق تغيرات غير سارة ، يرى العلماء أنها نتيجة للاستثارة الشديدة التي تحدث فيما يسمى بالجهاز العصبي السمبثاوي (الاستثاري) . وهو أحد الأجهزة الرئيسية التي تنشط في مواقف الخطر والانفعال ، ويؤدي نشاطه إلى التأثير في الأعضاء المتصلة به ، فتجحظ العيون أو تضيق ، وتعرق الأيدي أو تبرد أطرافها ، وتتزايد دقات القلب وتتسارع ، وتنقبض الأوعية الدموية ، وتستثار بعض الغدد كالغدد الدمعية في حالات الحزن . . . الخ .

ونجد في حالات القلق ، أن التغيرات العضوية تمتد لتشمل : تسارع دقات القلب ، جفاف الفم ، الدوخة ، العرق الشديد ، الغصة وانحباس الصوت أحيانا ، الغثيان نتيجة لانقباض المعدة ! التنمل في اليدين والقدمين ، صعوبات التنفس التي تكون إما على شكل العجز عن التنفس العميق ، أو التنفس السريع المتلاحق ، وقد يجد الشخص نفسه في حالات القلق مشرفا على التهاوي أو الاغماء . وتحدث أيضا تغيرات عضوية عضلية لعل من أهمها تصلب عضلات الظهر والرقبة ، والتصلب على امتداد عضلات الذراعين حتى أسفل الكتفين ، وارتعاشات الأطراف والأصابع ، وزيادة اللوازم الحركية في الوجه وبالذات في منطقة الفم أو العينين نتيجة للتوتر العضلي الشديد في هاتين المنطقتين . ولهذا نجد أن كثيرا من المصابين بالقلق عادة ما يشكون من توترالعضلات ، والظهر ، وتقلبات المعدة .

وعادة ما يرتبط التعبير عن القلق بآلام الصدر ، وضيق التنفس ، مما يجعل الشخص يشك في الأمراض القلبية على الرغم من سلامة القلب . إلا أن هناك ما يبين أن الأشخاص الذين يتسم سلوكهم بالقلق المستمر والشكوى عادة ما يتعرضون فيما بعد لأمراض قلبية حقيقية ، وترتفع لديهم أيضا الحالات المرضية المرتبطة بارتفاع ضغط الدم .

من الناحية الوجدانية يكون الانفعال الغالب هو الخوف والتوجس ، وليس معروفاً ما اذا كان الخوف هو الذي يؤدي الى التغيرات العضوية التي تحدثنا عنها ، أو أنه نتيجة لها . ومن رأينا أن الخوف يدفع لإثارة التغيرات العضوية التي ما أن تحدث حتى يتزايد الخوف نتيجة لاضطراب هذه الوظائف والعجز عن التحكم فيها وضبطها ضبطا ناجحا . □



قضيـــة

بين الفكر والثقافة

بقلم : د. مصطفى النشار*

كثيراً ما نخلط بين مفهوم « الفكر » ومفهوم « الثقافة » ، ونستخدمهما كمترادفين ، فلا نميز بين الفكر والثقافة ، وبين « المفكر » و« المثقف » ، فكل مثقف ندعوه مفكرا ، وكل مفكر مثقفا . فإن جازت الثانية فهل تجوز الأولى ؟

لا تقدم الموسوعات والمعاجم تمييزا واضحا بين اصطلاحي الفكر والثقافة ، فقد عرّفت « دائرة المعارف الحديثة » الثقافة بأنها « لفظ شاع استخدامه حديثا ، ويقصد به مجموع صفات كالمعرفة والبصيرة والذوق السليم ، وعرّفت الرجل المثقف بأنه ذلك الذي « يجمع بين تلك الصفات أو يقترب منها » . وقد اعتمدت في ذلك التعريف على الاشتقاق اللغوي للكلمة ، حيث أن « الثقافة » في اللغة بمعنى التأدب والذكاء . فنقول ثقفت الحديث أي فهمته بسرعة .

وإذا نظرنا إلى ذلك التعريف فسنجد أنه ليس تعريفا ، فهو لا يكشف عن ماهية معينة أو مدلول ثابت لما نطلق عليه اسم « ثقافة » ، بل هو نظر إلى الثقافة من حيث أنها صفة ، أو صفات ، تحمل على موضوع معين ، وغلب عليها في التعريف السابق الصبغة الأخلاقية .

دائرة المعارف الحديثة

أما « الفكر » فقد اكتفت الموسوعة بإيراد بعض مشتقات اللفظ ومترادفاته ، كالتأمل والتفكير والتفكر ، ثم قالت : « إن التفكير من أبحاث علم النفس ، وهو عملية عقلية نزوعية ، تهدف إلى كشف حقيقة كل مشكلة من المشاكل التي تعترض الإنسان ، لهذا كان التفكير من الصفات التي ينفرد بها الإنسان ، إذ أن التفكير يحتاج إلى استجماع لتجارب الإنسان الماضية ، وإدراك العلاقات بينها في ضوء حقيقة ماثلة أمام الفرد ، فكل عملية تفكير هي في الحقيقة استخلاص حقيقة جديدة من ثنايا حقيقة قديمة ،

* كلية الآداب جامعة العين - الامارات العربية المتحدة

أو جملة حقائق ، ومثاله محمد أطول من محمود ، وحسين أطول من محمد ، إذن حسين ولا شك أطول من محمود .

فهذا الاستنتاج الأخير هو حقيقة اكتشفها العقل بالتفكير ، وذلك بمقارنة الحقيقتين السابقتين ، وإذا شاهد إنسان البرق وسمع الرعد وقال : إن السماء سوف تمطر ، فإن هذا الاستنتاج وصل اليه من مقارنة هذه المشاهد الحسية بالحقيقة العامة ، وهي أن البرق والرعد مقدمة لسقوط المطر . « فالتفكير في جميع صوره ما هو إلا محاولة العقل لحل مشكلة من المشاكل التي تواجهه » .

وهذا ليس تعريفا للفكر أيضا ، فقد تطرق المعرِّفون إلى تحليل لبعض العمليات الفكرية ، وتركوا الحديث عن « الفكر » وماهيته ، واستدلوا عليه بالنظر في أمثلة من العمليات الفكرية ، كعملية الاستنتاج أو الاستنباط ، فهذه عمليات فكرية ، وليست هي « الفكر » في ذاته . لقد فعلوا ما فعله (أوطيغرون) حينما سأله (سقراط) عن ماهية التقوى ، فقال : إنها في التقرب إلى الآلهة بممارسة الطقوس وتقديم القرابين لها . فكان رد (سقراط) أن ذلك مثال سلوكي على ما نسميه التقوى ، لكنه يريد أن يعرف من (أوطيغرون) ما الذي يجعل التقوى تقوى ؟ إن هذا هو أساس التعريف .

المعجم الفلسفي

وإذا تركنا هذه الموسوعات العامة ، وانتقلنا إلى المعاجم المتخصصة ، فسنجد الشيء نفسه ، وإن كنا نقترب هنا من التحديد المطلوب فالمعجم الفلسفي الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد عرَّف « الثقافة » بأنها « كل ما فيه استنارة للذهن ، وتهذيب للذوق ، وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد أو في المجتمع ، وتشتمل على المعارف والمعتقدات والفن والأخلاق وجميع القدرات التي يسهم بها الفرد في مجتمعه ، ولها طرق ونماذج عملية فكرية وروحية ، ولكل جيل ثقافته التي استمدها من الماضي وأضاف إليها ما أضاف في الحاضر ، وهي عنوان المجتمعات البشرية ، ويفرق بينها وبين الحضارة على أساس أن الأولى ذات طابع فردي وتنصب بخاصة على الجوانب الروحية ، في حين أن الحضارة ذات طابع اجتماعي ومادي » .

وهنا نلاحظ أنه ربما كان القول بأن الثقافة هي كل ما فيه استنارة للذهن يشير بالفعل إلى ماهية صورية للثقافة ـ تشير اليها لفظة « ما » التي لم يحدد المعرف محتوى لها ، من حيث أن الثقافة تعنى كما قال « دلتاي » اتساع المعرفة والوعي . ولكن استطراد المعرف أفسد التعريف ، حيث تطرق مقدما إلى استطرادات زائدة عن الحاجة من جهة ، كما ميز في هذه الاستطرادات تمييزا غير موفق بين الثقافة والحضارة حينما قال بأن الأولى ذات طابع فردي والثانية ذات طابع اجتماعي . فهو نفسه قد قال قبل ذلك : إن الثقافة لدى الفرد أو في المجتمع ، فهناك ثقافة الفرد . وثقافة الأفراد هي التي تتشكل منها ثقافة المجتمع ككل : فأي ثقافة لا تنفصل فيها ثقافة الفرد عن ثقافة مجتمعه إن كان هناك التوافق المطلوب بين الفرد ومجتمعه .

أما « الفكر » فقد عرف في هذا المعجم بأنه « بوجه عام ، جملة النشاط الذهني ، من تفكير واستنارة وإرادة ووجدان وعاطفة ، وهذا هو المعنى الذي قصده (ديكارت) بقوله : « أنا أفكر إذن أنا موجود » ، وانه « بوجه خاص ما يتم به التفكير من أفعال ذهنية . أسمى صور العمل الذهني بما فيه من تحليل وتركيب وتنسيق » .

خلط غير جائز

وواضح أن هذا التعريف يشتمل على دور منطقي ، فقد عرف الشيء بنفسه ، فالفكر هو « التفكير » أو « ما يتم به التفكير من أفعال ذهنية » ، كما أنه حسب أن الوجدان والإرادة

والعاطفة من الفكر ، وكم من فروق بينها وبين الفكر مما يعلمه المتخصصون جيدا . كما أن المعرِّف قد استدل على معنى « الفكر » بعبارات شعورية أطلقها أحد المفكرين . وكل ذلك خلط لا يجوز .

وعلى أي حال فنحن لم نذكر هذه التعريفات لمجرد نقدها ، بل ذكرناها لنوضح أننا كثيرا ما نستخدم الكثير من الألفاظ بمعنى واحد ، على الرغم من اختلاف مدلولاتها فعلا ، وكثيرا ما تختلط أمامنا المفاهيم ، لعدم دقتنا في استخدام الألفاظ ، بحيث يترتب على ذلك أن نستخلص نتائج خاطئة نتيجة لذلك اللبس في معاني الألفاظ المستخدمة .

جوهر الثقافة

وربما يكون من المناسب بعد ذلك أن نطرح ما نراه مميزا بين « الثقافة » و« الفكر » ، فإن الثقافة هي جميع المعتقدات والأفكار التي يتوصل إليها الفرد نتيجة اطلاعاته المختلفة حول طبائع الأمور ، سواء كانت طبيعية أو سياسية أو أخلاقية أو دينية . إذ أن الثقافة ـ في اعتقادي ـ تابعة للفكر ، وليس العكس كما يتصور البعض ، هي تابعة له منطقيا ، حيث أن الثقافة التي تتشكل لدى الأفراد والجماعات في أي عصر من العصور يصنعها مفكرو هذا العصر أو ذاك ، ويتلقاها هؤلاء الأفراد ، فيتشكل بناء عليها وعيهم ، وتتسع مداركهم ، وتنمو أفكارهم وتتجدد ، ومن ثم يلقبون بالمثقفين .

وإذا أردنا في ضوء ذلك أن نحدد معنى « الفكر » فهو كما في تعريف « المعجم الفلسفي » أسمى صور العمل الذهني ، حيث يرتبط الفكر بالإبداع ، فالمفكر هو المبدع الذي يستطيع بتأملاته الخروج عن دائرة المألوف ، ويرى ، من أبعاد أي موقف (ما لايراه) بقية الناس ، ومن ثم فهو يتحمل تبعة انهاض معاصريه وإيقاظ وعيهم باستمرار ، والاتجاه بهم ـ عن طريق ما يقدمه لهم من أفكار جديدة ـ إلى آفاق أرحب وأفضل .

وبالطبع فإن كل مفكر مثقف ، ولكن العكس غير صحيح كما قلنا في البداية ، فالمثقف يتلقى نتائج فكر عصره ويفهمه ، وإذا نجح المثقف في أن يزيد وعي معاصريه ، من خلال نقل هذا الفكر إليهم ، يكون قد أدى دوره كاملا ، وليس معنى ذلك أن نلقبه بالمفكر .

بين الثقافة والحضارة

وإذا ما أدركنا ذلك الفرق بين « المفكر » و« المثقف » يمكن أن نتصور علاقة الفكر والثقافة بالحضارة ، إذ أن كثيرا من الناس يتصورون خطأ أن الثقافة هي التي تصنع الحضارة ، أو هي علامة عليها ، وأن المثقفين هم روادها ومبدعوها ، ويقيسون تحضر المجتمع بما فيه من مثقفين !!

إن الحضارة بمظاهرها المتعددة ، من فلسفة وفنون وآداب وعلوم ، يبدعها الفلاسفة والفنانون والأدباء والعلماء . وفي كلمة واحدة يبدعها الأفراد في كل ميدان من تلك الميادين . ولا شك في أن ظهور الفكر الجديد والمنهج الجديد هو نقطة البدء لأي حضارة ناشئة أيا كانت . وانظر في حضارات العالم كافة قديمها وحديثها ، فستجد أنها قامت أول ما قامت على فكر جديد ومنهج جديد ، قدمه مفكروها ، وكان أن ساد هذا الفكر وذلك المنهج ، فأصبح هاديا للعلماء والأدباء والفنانين ، ثم صار حياة يحياها المثقفون أولا ، فالرجل العادي ثانيا .

ولكي نتمثل ما سبق يجب أن يقر في أذهاننا الفرق بين « الحضارة » و« المدنية » ، والفرق بينهما يكمن في أن الحضارة هي في ازدهار تلك المظاهر التي عددناها من قبل دون التساؤ ل عن منفعتها وما تحققه لنا من إشباع مادي . أما المدنية فهي ليست تلك المظاهر الحضارية في ذاتها ، بل هي تبدأ وتبدو حينما نتساءل عن تلك المنفعة

المادية التي نجنيها من تلك المظاهر ، فكأن لمظاهر الحضارة كافة ، جانبها الحضاري ، وجانبها المدني التقني النفعي .

وكثيرا ما نبه الفلاسفة - ومنهم شبنجلر - إلى أن الحضارة إذا ما وصلت المدى النهائي في إبداعاتها ، وتحولت الى مدنيّة كان في هذا بداية انحلالها فكأن « المدنيّة » تمثل مرحلة انحلال « الحضارة » وانهيارها ، وما ذلك إلا لأن التركيز في تلك المرحلة المدنية يكون على الجانب المادي النفعي وهو ليس مسئولية المفكرين والمبدعين ، بل هو مسئولية رجال التخطيط والتنفيذ . ففرق كبير إذن بين أن يكون لدينا « فكر » و« حضارة » ، وبين أن يكون لدينا « ثقافة » و« مدنية » ، فالأولى علامتها الإبداع ، والثانية علامتها الاتّباع .

وقد يكون الأمر هينا ويمكن تداركه إذا ما كنا نتبع في ثقافتنا فكرنا ، وفي مدنيتنا حضارتنا . ولكن الواقع يقول إننا نتبع في ثقافتنا فكر غيرنا وثقافته ، وفي مدنيتنا حضارة غيرنا ومدنيته .□



منتدى العربي

تعقيب

طه حسين في ميزان النقد العلمي

بقلم : د. محمد الدسوقي

كتب الدكتور أحمد علبي في عدد ديسمبر ١٩٨٨ من « العربي » مقالا بعنوان « طه حسين في ميزان النقد العلمي » ، تحدث فيه عن أربع قضايا ، تتناول أهم الجوانب الفكرية في حياة العميد الراحل ، وهذه القضايا هي : إسلاميات طه حسين ، ومصادر الفكر التاريخي لديه ، وموقفه من الأحزاب ، ودوره في كتابة القصة والرواية المعاصرة .

وهذا المقال على إيجازه الدقيق ، وما اشتمل عليه من لمحات نقدية طيبة ، يثير بعض القضايا التي تحتاج إلى مناقشة أو تعقيب ، ومن أهمها ما جاء عن الاستشراق ، وموقف العميد من الأحزاب ، ونقده للمنفلوطي ، والحبكة القصصية في أدبه .

وقد ورد كلام الدكتور أحمد عن الاستشراق في مستهل حديثه عن إسلاميات طه حسين ، فذكر أن منهجه فيها يعد أسلوبا تجديديا في البيئة العربية ، تلك البيئة التي سادها الركود والتقليد والغيبيات ، وفي هذا إفراط في مدح العميد ، يحذر الدكتور علبي منه ، كما أن فيه حكما قاسيا على البيئة العربية ، وهو حكم تأباه الموضوعية والأمانة العلمية ، ثم ربط بين منهج العميد في

كتاباته الإسلامية وما قام به الاستشراق من جهد فائق في دراسة حضارتنا ، فأشار إلى أن المستشرقين سبقونا إلى دراسة هذه الحضارة على هدى المنهج والتحقيق والموضوعية والمحبة أيضاً » ولكنه يستدرك قائلا :

« ولا عبرة ببعض الضالين المغرضين ، فهؤلاء نعثر عليهم في صفوف المستشرقين كما نجدهم بين ظهرانينا » .

فالمستشرقون ، كما يرى الدكتور علبي ، درسوا حضارتنا دراسة علمية موضوعية ، وأهل الأهواء منهم قلة ، وأصبحوا معروفين ، وهذا الرأي لا يأخذ به إلا المستشرقون ، ومن تتلمذوا عليهم ، وآمنوا بآرائهم ، ولا مجال لتشقيق القول في هذا الموضوع الذي تعددت فيه الدراسات المعاصرة التي أكدت في مجموعها أن الاستشراق لم يدرس حضارتنا على هدى المنهج والتحقيق والموضوعية والمحبة ، وإنما على هدى المصالح الاستعمارية والهيمنة الفكرية ، وكان العميد على الرغم من إعجابه بالمستشرقين يرى أن الاستعمار اعتمد عليهم في تحقيق أغراضه بطريقة علمية ، وأن هذه حقيقة لا شك فيها (انظر أيام مع طه



● طه حسين

حسين ص ٥٣) . ويكفي في هذا الإحالة على ما كتبه الدكتور طيب تيزيني بعنوان « من الاستشراق الغربي إلى الاستشراق الشرقي » الذي نشر بعدد يناير ١٩٨٨ من « العربي » ، ففيه تأكيد على أن الفكر الاستشراقي في صيغته الإجمالية العامة تعبير عن مصالح الاستعمار الرأسمالي الغربي تجاه بلدان الشرق ، وأنه من هذا المنطق حاول أن ينفي عن الحضارة الإسلامية أصالتها وعقلانيتها ، وأوما الدكتور طيب إلى أن بين العرب مفكرين يسيرون في ركاب ذلك الفكر على نحو من الأنحاء .

ويعلل الدكتور أحمد انتهاء العميد إلى حزب الوفد ، وتركه حزب الأحرار بالظروف السياسية والاجتماعية التي اكتوت فيها مصر بالاستبداد والجهل ، فضلا عن التطور الفكري للعميد .

والحقيقة التاريخية أن تحول العميد إلى حزب الوفد لا يرجع إلى أنه رأى في هذا الحزب تحررا وسعيا لتحقيق العدالة ، وإنما كان ذلك لأن العميد - كما أخبرني - تعرض في عهد صدقي سنة ١٩٣٢ م لأزمة اقتصادية شديدة ، بسبب موقفه من الحكومة ، وعدم الاستجابة لها في منح بعض الساسة درجة الدكتوراة الفخرية ، ومن ثم أحاله صدقي على المعاش دون أن يكون له معاش ، ولم تكن كتاباته السياسية تدر عليه شيئا ، فقد كان يكتب مجانا . ويقول العميد : في هذه الظروف جاءني مصطفى النحاس ومكرم عبيد ، وعرضا علي رئاسة تحرير جريدة « كوكب الشرق » ، وهي جريدة وفدية ، وكان راتبي منها مائة جنيه ، ومع هذا لم أوافق إلا بعد أن عرضت الأمر على الأحرار ، ونظرا لأن الأحرار والوفديين كانوا متآلفين ضد صدقي وافقوا على أن أتولى رئاسة تحرير تلك الجريدة .

واستطرد العميد : وكان عملي في « كوكب الشرق » بداية العلاقة بيني وبين مصطفى النحاس ، وازدادت هذه العلاقة وثاقة بمرور الأيام . وكنت أزوره كثيرا في منزله ، وكان

الرجل يستنصحني في بعض الأمور ، وكان يأخذ بما أشير عليه ، كما كان ينزل عند رأيي إذا اختلفنا .

فطه حسين لم يترك حزب الأحرار ويعمل مع الوفد ، لأن هذا الحزب أصبح في نظره أقرب إلى الجماهير من غيره ـ كما يذهب إلى هذا بعض الباحثين المعاصرين ـ وإنما كان العمل في « كوكب الشرق » بداية العلاقة بالوفد ، ثم قويت الصلة بين العميد ورئيس الحزب شيئا فشيئا ، حتى أصبح علما مرموقا من أعلام حزب الوفد ، ووزيرا في آخر وزارة رأسها مصطفى النحاس .

ولم يكن نقد العميد للمنفلوطي طلبا للشهرة ، كما ذكر الدكتور علبي في مقالته ، وإنما كان من وراء هذا النقد الشيخ عبدالعزيز جاويش ، فقد نشر في يوم الخميس الموافق ٢٤ /٤ /١٩٦٩ في يوميات جريدة « الأخبار » مقال عن التراث الحي ، جاء في مستهله أن كاتب المقال سأل العميد عن سبب نقده للمنفلوطي ، فقال له : لأن المنفلوطي كان أديبا مشهورا ، فأردت من وراء نقده الشهرة ، ولما قرأت هذا للعميد قال في انفعال : هذا الكاتب كذاب ، فأنا لم أقل له شيئا من هذا ، فضلا عن أن نقدي للمنفلوطي لم يكن القصد منه الشهرة بالنسبة لي ، والحقيقة أن الشيخ عبدالعزيز جاويش كان يكره المنفلوطي ، وهو الذي حرضني على الكتابة ضده ، فقلت للعميد : هل يعني هذا أن نقدكم للمنفلوطي كان نقدا سياسيا أكثر منه أدبيا ؟ فقال : هو ذاك ، ولكنني أستحي مما كتبته ضد المنفلوطي ، لأن ما كتبته لم يكن نقدا بالمعنى الصحيح ، وإنما كان بحثا في صحة المفردات التي كان يستعملها المنفلوطي من الناحية اللغوية ، وكنت أنشر هذا تحت عنوان « نظرات في النظرات » .

وأما الحبكة القصصية في أدب العميد فهي في نظر الدكتور علبي تنقصها الدقة الفنية ، وأرجع هذا إلى أن أدب القصة في الربع الأول من القرن العشرين كان يخطو خطواته الأولى ، وأرجعه أيضا إلى أسلوب العميد في الكتابة ، فهذا الأسلوب حال دون التعبير الذي يحلل الأحداث ويربط بينها في مهارة وإبداع فني .

والذي أود قوله في هذا أن كل ما كتبه العميد من قصص حقيقة ليس فيه خيال ، اللهم إلا بعض الأحداث القليلة ، كما أخبرني بذلك ، فلعل هذا كان من عوامل ضعف الحبكة القصصية لدى العميد ، وإن كنت لا أوافق الدكتور علبي على أن أسلوب العميد كان من أسباب هذا الضعف ، ومع هذا أرى أن الموضوع برمته لا يقضي فيه إلا ناقد متخصص في أدب القصة .

ويتصل بالقصة في أدب طه حسين الرواية التاريخية لديه ، وما قال الدكتور علبي عن هذه الرواية قد يصدق على « هامش السيرة » ، دون « الوعد الحق » ، فقد قال لي العميد إنه كان يفترض من الشخصيات والوقائع ما شاء له الخيال أن يفترض ، ولكنه فيما يتعلق بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان يلتزم بالحقيقة التاريخية ، ولا يعمل خياله فيها . □

هل تعلم ؟

- يبلغ طول حنجرة المرأة ثلاثة أرباع طول حنجرة الرجل .
- النساء أقل إصابة من الرجال بعمى الألوان .
- يولد (٢١) ذكرا مقابل ولادة (٢٠) أنثى ، ولكن مع تقدم العمر عند الجنسين يبلغ من يصل من النساء سن التسعين أربعة أضعاف من يبلغ ذلك من الرجال .

الجديد في العلم والطب

إعداد : يوسف زعبلاوي

بشرى جديدة للذين يعانون من أمراض القلب التاجية

تقول إحصاءات أمريكية : إن عدد الذين يتعرضون للنوبات القلبية سنوياً يبلغ (١,٥) مليونا ونصف مليون نسمة ، وأن عدد الذين يموتون منهم يبلغ (بالتحديد ٥٤٠,٠٠٠ نسمة) ، وهذه أرقام ضخمة ، كما لا يخفى ، وإن كانت قد تقلصت عما كانت عليه قبل بضع سنين ، حين بلغ عدد الموتى من الذين يتعرضون للنوبات القلبية ٧٠٠,٠٠٠ نسمة ، والفضل في تقلص هذا العدد إنما يعود للامتناع عن التدخين ، والإلتزام بقواعد الحمية السوية ، والاقبال على ممارسة المشي والرياضة ، فضلاً عن استعمال العقاقير الفعّالة .

وكان عقار (اللوبيد) آخر تلك العقاقير وأحدثها ، وقد قررت استعماله وكالة الغذاء والدواء في ١٩٨٩/١/١٨ ، لقدرته على تكييف الشحوم أو الدهون الموجودة في الجسم ، وقدرته على الحد من احتمالات الإصابة بمرض القلب التاجي ، واحتمالات الموت بسببه .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أمراض القلب التاجية هي من أخطر أمراض القلب جميعها ، فهي أخطر من أمراض القلب الفطرية التي تصيب الأطفال ، والتي قد تكون وراثية ، وأخطر أيضا من أمراض القلب الروماتزمية التي تصيب الفتيان والشباب غالباً ، والتي تراجعت وتناقصت كثيراً منذ الأربعينيات عقب انتشار المضادات الحيوية ، وعقب التقدم الباهر الذي أحرزته الجراحة .

أما تسميتها باسم أمراض القلب التاجية ، فنسبة إلى الشرايين التاجية ، فقد تقصر هذه الشرايين بمد عضلة القلب بالأوكسجين ، فتكون الإصابة بمرض القلب التاجي ، أو إن شئت (الذبحة التاجية الصدرية) أو (الخناق) ، أو (قلة التروية) أو (احتباس الدم) .

فهذه أسماء مختلفة لعلة واحدة ، أما الأسباب التي تؤدي إلى الإصابة بهذه العلة ، فغالباً ما تعزى إلى تصلب الشرايين أو ضيقها الذي يترتب عليه غالبا الانسداد الكامل للشرايين .

وتمتد هنا أصابع الاتهام مشيرة إلى مادة « الكوليسترول » ، فهذه المادة يصنعها الكبد ، وهي تشبه المواد الدهنية ، وتقوم بنشاط مزدوج ، فهي

تسهم في بنية الخلايا في الجسم ككل ، وتسهم أيضا في صنع عدد من هرموناته المختلفة . وللكوليسترول نشاط آخر سلبي ، بل هدام ، وغالبا ما يطغى على نشاطه النافع الذى ذكرنا فهو الذي يعمل على بناء الرواسب الشمعية التي تتراكم داخل الشرايين المتصلبة ، وبخاصة الشرايين التاجية في القلب ، وتؤدي إلى التعرض للنوبات القلبية ، ثم إلى الموت .

والكوليسترول نوعان لا نوع واحد ، نوع حميد وآخر رديء ، والرديء عدو القلب اللدود ، يتراكم على جدران الشرايين من الداخل ، فيسبب ضيقها وعرقلة سير الدم فيها . وهكذا تتكون أمراض القلب التاجية ، والجلطات، ويحدث الموت المفاجيء وغير المفاجيء وغير المفاجيء في كثير من الحالات .

أما الكوليسترول الحميد ، فمن شأنه أن يخفض نسبة الرديء ، ثم يخفض نسبة الكوليسترول الاجمالية في الدم ، وهو يضمن أيضا الحد من نسبة الشحوم في الجسم .

وهنا تتجلى ميزة العقار الجديد (اللوبيد) الكفيل بزيادة نسبة الكوليسترول الحميد في الدم ، وهو الكفيل أيضا بالحد من الكوليسترول الرديء فيه . ولكن هذه المزايا بالغة الأهمية ، مما لا يسمح بأخذها على علاتها والتسليم بنتائجها ، لذلك كانت الدراسات الواسعة النطاق التي أجراها العلماء في فنلندة ، والتي شملت نحو (٤٠٠٠) مريض ، واستغرقت خمس سنوات ، وقد استهدفت تلك الدراسات المركزة أمراض القلب التاجية فحسب ، وأثر عقار (اللوبيد) فيها ، علماً بأن هذه الأمراض أكثر انتشاراً في فنلندة منها في أي بلد آخر من بلدان العالم . ودلت الدراسات وتجاربها الميدانية على أن اللوبيد يزيد نسبة الكوليسترول الحميد بنسبة ١١٪ ، ويحد من نسبة الكوليسترول الاجمالية في الدم بنسبه ١٠٪ ، أما محتويات الشحوم في الجسم فيحد منها بنسبة (٣٥٪) . وهكذا ثبت للعلماء أن (اللوبيد) يقلل عدد الذين يموتون بسبب أمراض القلب التاجية بنسبة لا تقل عن ٣٤٪ .

والجدير بالذكر أن هذه الدراسات الفنلندية قد بلغت من العمق والدقة والشمول ما جعلها موضع ثقة في الأوساط الطبية والعلمية جميعها ، حتى وكالة الغذاء والدواء في واشنطن التي أقرت استعمال (اللوبيد) .

بقي أن نذكر أن (اللوبيد) ليس هو العقار الوحيد ، الذي يعالج أمراض القلب التاجية التي أقرتها وكالة الغذاء والدواء ، وأن الحمية والامتناع عن تناول الأطعمة الدهنية (لا سيما الحيوانية) ، وتخفيف الوزن ، فضلاً عن التمارين الرياضية ، تعد العلاج الأول الذي ينبغي لمرضى القلب أن يعتادوه بادىء ذي بدء ، حتى إذا لم يجد هذا العلاج عمدوا إلى تناول العقاقير التي أقرتها وكالة الغذاء والدواء ، لا سيما (اللوبيد) .

قلوب اصطناعية ولكنها عضلية لا بلاستيكية

الجراح العربي مجدي يعقوب الذي يحتل مكانة بارزة بين مختلف الجراحين في بريطانيا ، ويتمتع بشهرة عالمية في جراحة القلوب وزراعتها ، ينوي إجراء عملية رائدة من عمليات زرع القلوب ، وذلك في أواخر السنة الحالية (١٩٨٩) .

وتتميز العملية المرتقبة في أنها تستهدف زرع قلب اصطناعي ، لكنه قلب مصنوع من لحم وعضلات لا من مواد بلاستيكية أو ما إلى ذلك ، ومن عضلات المريض نفسه الذي تجرى له العملية .

والجدير بالذكر أن العضلة التي يصنع منها القلب تؤخذ من العضلات الهيكلية التي تتكون ملاصقة للعظام ، حيث أنها عضلات قوية للغاية ، بل أقوى بكثير من عضلة القلب الطبيعي .

غير أن عضلة القلب الطبيعي تتميز على كل ما سواها بأنها مقاومة للتعب أو الإرهاق ، وحسبك أنها تمكن القلب السليم من النبض ١٠٠,٠٠٠ مرة في ٢٤ ساعة ، أي ما يعادل ٢٥٠٠ مليون مرة على مدى عمر الإنسان . وحسبك أيضاً أنها كفيلة بضخ ما يقارب ٢٠٠٠ جالون من الدم في اليوم الواحد .

ولا ريب في أن العضلات الهيكلية أو العظمية لا تستطيع أداء هذه المهمة ، ولو قامت بها لأصيبت بالتقلصات الحادة وتوقفت عن العمل ، لكن الجراح مجدي يعقوب لم يعزم على إجراء العملية المنتظرة لولا يقينه من نجاح العلماء الانكليز في معالجة هذه العضلات العظيمة ، لتصبح مقاومة للتعب كعضلة القلب .

□□□

منافع جديدة لأشعة ليزر

كثرت استعمالات هذه الأشعة طبياً ، وتنوعت في المدة الأخيرة ، وكان آخرها محو البقع والتشويهات الخلقية أو ازالتها . تلك التشويهات التي تظهر على وجوه بعض المواليد أو على أجسامهم وهم في الأرحام قبل الولادة . وقد أصبح في الإمكان معالجة هذه البقع في الأطفال ، بحيث ينمو هؤلاء دون مضاعفات قد تسببها لهم تلك التشويهات .

يقول الدكتور (أوون تيان تان) ، أحد روّاد الاستعمال الجديد لأشعة الليزر ، وهو بروفيسور في كلية الطب في جامعة بوسطن : حققت أشعة الليزر نجاحا منقطع النظير ، إذ يستحيل على الإنسان اكتشاف مكان البقعة بعد محوها ، فالجلد يعود كما كان أصله في ذلك المكان ، وفي أي مكان آخر قريب منه أو بعيد عنه .

وتشمل تلك التشويهات البقع والوحمات واللطعات الحمراء الخمرية اللون التي كثيراً ما تغطي كل الوجه أو جزءاً منه .

سلامة البشرية في سلامة البيئة

مصلحة البيئة فوق مصلحة الجميع

أبرمت اتفاقية مونتريال بين (٣٠) دولة سنة ١٩٨٧ ، بقصد إنقاذ طبقة الأوزون بحظر صنع الفلوروكربونات ، واستعمالها بنسبة ٥٠٪ ، وذلك قبل حلول القرن الحادي والعشرين ، ذلك أن المستحضرات الكيميائية المذكورة هي السبب المباشر لتلف طبقة الأوزون الواقية ، وللثقب الذي اكتشفوه في تلك الطبقة في أجواء القارة القطبية الجنوبية . وقد ثبت لجمهور العلماء وجود تلك العلاقة السببية عندما قاموا بدراساتهم الميدانية ، سواء في أعالي الجو ، حيث يوجد الأوزون ، أم على سطح اليابسة . وقد توجهت الشركات الأمريكية التي تصنع الفلوروكربونات إلى البحث عن بدائل لهذه المستحضرات ، تؤدي مهمتها دون أن تلحق الأذى بالأوزون ، وقد نالت النجاح بعض تلك الشركات في ذلك الاتجاه .

والظاهر أن التلف الذي لحق بطبقة الأوزون كان أخطر مما تصور الناس ، فمع أن الثقب الذي ظهر في تلك الطبقة في أجواء القطب الجنوبي كان ثقباً موسمياً ، يظهر حيناً ويختفي حينا آخر ،إلا أنه كان يزداد سوءاً ،فقد ثبت للعلماء أنه ثقب أكثر تفاقما في كل مرة يظهر فيها عما كان عليه في المرة السابقة . والأهم من ذلك ما ثبت لعلماء البيئة الانكليز وغيرهم من أن طبقة الأوزون فوق القطب الشمالي أيضاً آخذة بالتلف ، وأن ثقباً شبيها بثقب أوزون القطب الجنوبي سيظهر في طبقة الأوزون الشمالية في فصل الربيع القادم . ولما كانت الشعوب الأوربية هي أول من يتضرر تبعاً لتلف طبقة الأوزون الشمالية جاءت المبادرات الأوربية التي ظهرت في شهر مارس الماضي (١٩٨٩) ، والتي اقتفت أثر اتفاقية مونتريال ، إن لم نقل نافستها ، وتخطت الحدود التي وقفت عندها .

وكانت أولى تلك المبادرات الاجتماع الذي عقده وزراء البيئة لدول السوق الأوربية المشتركة ، في بروكسل في مطلع شهر مارس الماضي ، وقرروا فيه الحد من صنع مستحضرات الفلوركربون بنسبة ٨٥٪ ، وذلك في أسرع وقت ممكن ، على أن يستكملوا حظر صنعها نهائياً قبل نهاية القرن العشرين .

ثم كانت المبادرة الثانية مؤتمر لندن الموسع ، وقد عُقد للغرض نفسه ، وفي الوقت نفسه تقريباً ، وفاجأ العالم بما لم يكن في الحسبان ، ذلك أن رئيسة الوزراء البريطانية التزمت فيه بسياسة خضراء ، تهدف إلى وقاية طبقة الأوزون ، وحماية البيئة على نطاق واسع . وقد احتضنت السيدة تاتشر هذه السياسة الجديدة بدفء فائق يذكرنا بمواقفها البيئية القديمة التي طالما غلب عليها البرود ، واشتهرت باللامبالاة .

وهكذا بدت أوربا متقدمة على أمريكا في حلبة حماية البيئة ووقاية طبقة الأوزون ، ولكن تقدمها هذا ما لبث أن تعرض لنكسة برد فعل سريع مفاجيء ، صدر عن واشنطن ، وبخاصة عن الرئيس جورج بوش ، فقد أعلن البيت الأبيض قرار أمريكا القاضي بوقف صنع الفلوروكربونات نهائيا قبل سنة ٢٠٠٠ وصرح أحد أعضاء الكونجرس عن المضي في سن قانون يقضي بالتخلص من كل الفلوروكربونات في غضون خمس سنوات .

ألا ترى - عزيزي القارىء - أن الولاء للبيئة إنما هو ولاء للبشرية ككل ، وأنه يرتفع فوق كل ولاء آخر ، سواء كان للقومية أو للاشتراكية أو غير ذلك . ولعل ذلك يصبح خطوة رائدة لظهور حكومة عالمية شاملة ، قد تتخطى النعرات ، وقد تضع حداً للحروب من أجل الصالح الإنساني العام ، بدءاً بوقاية الأوزون وحماية البيئة من شتى المخاطر التي تهددها .

□□□

القمعية عقار القلب المثالي

القمعية نبات أو عشب ذو زهر ناقوسي الشكل ، وقد يكون أرجواني اللون ، انتشر استعماله لاغراض طبية عديدة ، منذ أكثر من (١٠٠٠) عام . وقد استعمله الانكليز في معالجة السعال وتورم الغدد ، وانتشر استعماله أيضاً لمعالجة الصرع . ويقال : إن الفنان الهولندي فان جوخ استعمل القمعية عند اصابته بالصرع ، وأن تعلقه باللون الأصفر في لوحاته جاء نتيجة استعماله القمعية التي تسبب الاصفرار في الرؤية . وقد غلب استعمال القمعية في معالجة أمراض القلب على سائر استعمالاتها الأخرى ، وذلك منذ سنة ١٧٨٥ ، حين ظهر كتاب الدكتور وليم وذرنغ الذي كشف عن مزايا هذه العشبة في معالجة أمراض القلب ، وهي مزايا فريدة . وقد أجريت دراسات جديدة في الولايات المتحدة ، أكدت فاعلية القمعية وفوائدها الطبية الفذة ، وبخاصة فيما يتصل بالقلب .

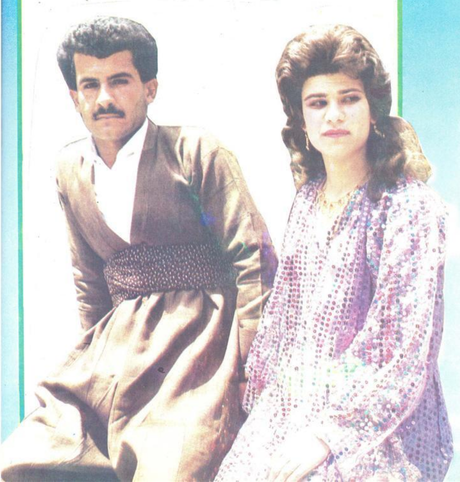
□□□

الإدمان يسبب الموت

انتشر إدمان المخدرات في الولايات المتحدة ، وانتشر معه التسمم بسبب الجرعات المضاعفة التي قد يقدم على تناولها المدمنون . وقد بلغ عدد الذين ماتوا بسبب التسمم (٢٤٩٢ شخصاً) ، أي ما يعادل ٥٨٪ من مجموع وفيات التسمم اجمالاً . هذا ما تؤكده إحصاءات سنة ١٩٨٠ ، أما إحصاءات سنة ١٩٨٦ فقد تضاعف فيها هذا الرقم ، حتى بلغ ٤١٨٧ شخصاً ، وتضاعفت فيها النسبة حتى بلغت ٧٣٪ .

مصايف العراق

الطبيعة والتاريخ !



استطلاع : سليمان الشيخ
تصوير : فهد الكوح



في فصل الصيف ، وتحت لفحات القيظ ، يتلمس الجميع فيء الأشجار وشواطىء البحار ، من أجل نسمات تلطف الجو وتحد من الحر . ومن هنا كانت انطلاقة «بعثة العربي» الى مصايف العراق التي تجمع بين جمال الطبيعة ، وعراقة التاريخ ، لتنقل للقارىء صورا من هذا الجمال الذي لاننتبه له كثيرا في أحد اقطار وطننا العربي .

«المصايف هي الأماكن التي يرتادها الناس في فصل الصيف» .

هكذا أجاب مرافق بعثة مجلة «العربي» عندما سألناه عما يعنونه بكلمة المصايف في القطر العراقي .

* عندما سألته : وهل يشمل ذلك كل الأماكن بغض النظر عما إذا كانت في منطقة جبلية أو سهلية أو صحراوية ، أو قائمة على بحر أو نهر ؟

ـ أجاب : حسب ما أعرف فإن أماكن الاصطياف لا تنحصر في أماكن مرتفعة أو منخفضة ، إنما كثيرة ومتعددة ومتنوعة ، فقد تجمع بين جمال الطبيعة والأثر التاريخي .

* تمسكنا بالتعبير الأخير ، وسألنا : وهل تتوافر هذه الأماكن بكثرة في القطر العراقي ؟

ـ أجاب وضحكة الارتياح تحتل محياه : أنى توجهت في هذا القطر الفسيح ـ مساحته ٤٣٨,٤٤٦ كم ـ فستجد فيه أثراً تاريخياً ، وستجد مناظر طبيعية جميلة أيضاً ، تجمع بين روعة الجبال وبهائها وشموخها ، وتموج الصحراء وانسيابها ، وتدفق الأنهار وعطائها المستديم خصباً واخضراراً ونماء ، ثم لا تنس البحر ، ففيه جمال ورقة على الرغم من فوران زبده أحياناً .

* علقت : إذن هناك تنوع في أماكن الاصطياف والسياحة .

ـ أجاب : تنوع غني وكثير .

* علقت : لا نستطيع أن نعطي كل هذا (الكثير) حقه من التعريف ، فلنختر بعض الأمثلة ، نجمع فيها تنوع ما هو موجود .

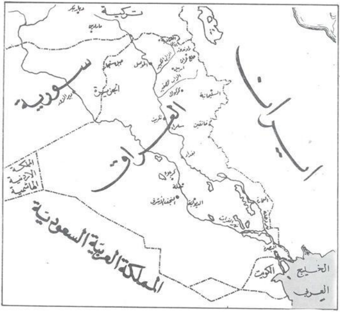
ـ قال : هو كذلك ، فلتختاروا ما تشاءون .

بابل تتجدد

فتوجهنا تواً إلى بابل التي يعني اسمها «باب الإله» باللغة الأكدية . وبابل الآن اسم لمحافظة ، كانت تُعرف بمحافظة الحلة من قبل ، وهي ما زالت مركزاً للمحافظة حتى الآن ، وتقع بالقرب من بابل الأثرية .

ومدينة بابل كانت من أهم مدن العالم في زمانها ، وقد شهدت أحداثاً كثيرة منذ إنشائها في الألف الخامس قبل الميلاد ، فتألقت وسادت أحياناً ، وأهملت وخبا بريق مجدها في أحيان أخرى .

نالت شهرة واسعة زمن المشرع الملك حورابي (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق.م) ، وأعيدت لها الشهرة والمجد زمن الملك نبوخذ نصر (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م) الذي كان أبرز ملوك العصر البابلي الثاني ، والذي ينسب إليه كثير من مبانيها المهمة التي تم ترميمها ابتداء من سنة ١٩٧٨م حتى الآن . تبعد عن بغداد حوالي ٩٠ كيلومتراً ، تلوح بجانبي الطريق بساتين نخيل وحمضيات ، فيذكر مرافقنا أن مشروع المسيب الزراعي الذي أقيم بين نهري دجلة والفرات لا يبعد كثيراً عن الطريق ، وهو غني بزراعة الحمضيات والنخيل ، ويزرع في المنطقة أيضاً الحنطة والشعير والخضراوات .



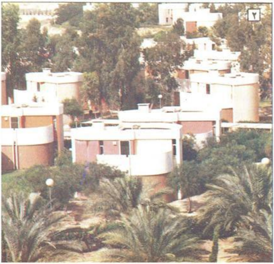
● خريطة تبين موقع الجمهورية العراقية ومصايفها

تبلغ مساحة بقايا مدينة بابل ٤١ كيلو متراً مربعاً ، ومن معالمها اللافتة للنظر التي تم ترميمها نموذج لبوابة عشتار ذات اللون الأزرق ، وهي بنصف حجم البوابة الأصلية ، كما ذكرت لنا السيدة شفيقة محمد جعفر ، أمينة متحف نبوخذ نصر .

وقد رأينا في المتحف حوالي ٥٠٠ لوحة ، تمثل تصورات الفنانين من مختلف أنحاء العالم لكيفية بناء برج بابل (زقورة) الذي كان يستعمل للأغراض الدينية والفلكية ، ويبلغ ارتفاعه ٩١ متراً ونصف متر ، ويتكون من سبع طبقات ، وفي أعلى البرج معبد صغير للإله مردوخ . وقد رافقتنا السيدة شفيقة للاطلاع على ما تم ترميمه من بقايا المدينة ، كشارع الموكب ، والقصر الجنوبي للملك نبوخذ نصر .
ثم نصل إلى الأجزاء السفلى لبوابة عشتار ، حيث توجد نقوش بارزة لحيوانات خرافية . وذكرت السيدة شفيقة أن جداريات أخرى مزججة لامعة جميلة كانت بالجدران ، استولى عليها الألمان الذين كانوا ينقبون في الموقع ابتداء من سنة ١٨٩٩ حتى سنة ١٩١٧ بقيادة العالم غولدوي ، وقد نقلوا أجزاء من بوابة عشتار أيضاً ، وهذه الآثار معروضة في متحف برجمون في ألمانيا الديموقراطية . ثم واصلنا تجوالنا في الموقع ، فشاهدنا على يميننا معبداً تمت صيانته ، كان مخصصاً للإلهة (نن - ماخ) ، أي السيدة العظيمة ، ثم شاهدنا عموداً اسطوانياً على يسار طريق الموكب ، ثم وصلنا إلى ما أطلق عليه الأثاريون اسم القصر الشمالي ، فشاهدنا بعض أجزائه ، حيث يربض في ساحته أهم أثر في بابل ، ويعد هذا الأثر رمز عظمتها ، ويتمثل في أسد منحوت من البازلت الأسود ، يربض على

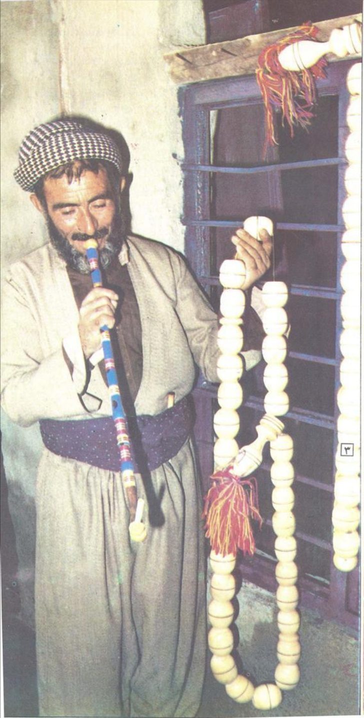


١



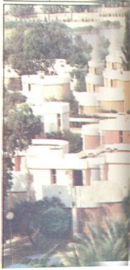
٢

١) صورة لحي من أحياء مدينة أربيل .
٢) بيوت مدينة الحبانية السياحية بين الأشجار وعلى حافة البحيرة .
٣) مبسم سيجارة ومسبحة من خشب شجر الاسفندار من الصناعات التراثية في محافظة دهوك .



٣





شكل إنسان ، ويبلغ طول الأسد حوالي متر ونصف متر ، كما أنه قد تم اكتشاف معبد لعشتار ، إلهة الحب والجمال ، ومعبد آخر يعد من أكبر معابد تلك الفترة ، وهو معبد نابو شخاري ، إله الحكمة .

جزيرة بغداد

لا يمكنك أن تدرك أهمية النخيل في حياة بغداد ، ودورها في توفير حزام من الخضرة الباسقة الشامخة ، إلا إذا ارتقيت برج جزيرة بغداد .

فسوف تفاجأ بالمنظر ، وتصيح بدهشة : كل هذا النخل ؟ وكل هذا الجمال !

يعلق السيد سعد محمد الزركة ، مدير وحدة جزيرة بغداد السياحية ، ونحن نراقب المنظر من البرج : ليس كل هذا نخيل ، فإن زراعة الحمضيات أيضاً مما تشتهر به منطقة الفحامة التي أقيمت فيها جزيرة بغداد .

* علقت : لولا النخيل والحمضيات لكان ما يحيط ببغداد صحراء جرداء إذن ، كالصحراء المحاذية لبساتين النخيل حسب ما أرى ؟

- علق السيد سعد : ما دام الماء موجوداً ، وما دام دجلة دائم الجريان ، فإن اللون الأخضر لم ينقطع عن ترصيع الصحراء بمساحاته .

* ومتى تم إنشاء هذه الجزيرة ؟

- قد لا تصدق أن هذه المدينة التي تصل مساحتها إلى ثلاثة كيلومترات مربعة ، وربما فيها إنشاءات ، قد تم إنجازها في فترة تقل عن ثلاث سنوات ، بدأت سنة ١٩٨١ ، وانتهت سنة ١٩٨٣ . وهي تبعد عن مركز مدينة بغداد حوالي عشرين كيلومتراً ، وكان نهر دجلة يجري في مكانها نفسه ، فحولناه ، وجعلناه يحيط بالجزيرة من جميع الجهات .

وقد رُبطت الجزيرة بطرق المدينة العامة بثلاثة جسور ، وتحيط بها أشجار النخيل والحمضيات ، وقد كلف إنشاؤها ٣٢ مليون دينار عراقي ، أي ما يعادل حوالى ١٥٠ مليون دولار أمريكي .

* وكم يرتفع هذا البرج الذي يكشف لنا جميع وحدات الجزيرة ، وأجزاء كثيرة من مدينة بغداد ؟

- علوه حوالي ٦٠ متراً ، نصف كرته السفلي فيه المياه ، والنصف الآخر مفتوح للجمهور للاطلاع على معالم [illegible]

* أرى شباناً وشابات يتراشقون بالمياه قرب إحدى النوافير ؟

- في الجزيرة عشرات النوافير الصغيرة والكبيرة ، وبما أن السنة الدراسية في نهايتها - كانت الزيارة في الأسبوع الأخير من شهر أيار « مايو » - فإن الجزيرة مليئة بالطلبة الذين يستعدون لامتحاناتهم ، وبينهم طبعا من يمرح أو يستروح .

* ما الطاقة الاستيعابية للجزيرة من الناس ؟

- يمكن أن تستوعب الجزيرة حوالي ٢٠ ألف زائر يومياً ، ويصل عددهم في الأعياد إلى ثلاثين ألف زائر في اليوم .

هذا وقد أشار السيد سعد إلى بعض منشآت الجزيرة ، كالقسم الخاص بألعاب الأطفال ، والمسرح الصيفي الذي تشبه مظلته الشراع الذي أطلق عليه اسم فنان المسرح الراحل حقي الشبلي ، ويستقبل هذا المسرح نشاطات مسرحية ، وعروضاً فنية أخرى ، وفي الجزيرة عشرات المطاعم الصغيرة والكبيرة ، منها مطعم خاص بالسمك «المسكوف» المشهور في بغداد .

وفيها قاعة للمؤتمرات ، وقاعة للأفراح ، وناد لرياضة (البولينغ) ، وعدة مراكز رياضية ، وعدة أحواض للسباحة ، ومرسى للزوارق في القسم الجنوبي من البحيرة ، ودار للسينما ، وفندق صغير ، وموقف كبير للسيارات .

نهبط من البرج فتستقبل رائحة الزهور أنوفنا ، وأرى عدة أنواع من الأشجار المثمرة



● السيد خليل اسماعيل خضر .

كالنخيل ، والرمان ، والمشمش وأشجار الزينة والزهور والحشائش ، موزعة في أماكن عديدة من البحيرة ، ثم أرى عناق الشعر للنحت .

أبيات من الشعر القديم والحديث متداخلة مع منحوتات تجريدية أو واقعية ، رخام المنحوتات أبيض ، والفنانون مبدعون حقاً في تقديم تمازج خلاق بين الملكة الابداعية الأولى عند العرب ، أعني الشعر ، وبين النحت الذي أصبح طابعاً مميزاً في القطر العراقي .

كي لا تُهدر المياه

تتوجه إلى غرب بغداد ، لا يتركك النخيل ، ولا خرير المياه ، بل يترافقان معك ، ويحكيان لك قصصاً عن الصحراء التي لولا الفرات ودجلة،ربما لم ينبت فيها عرق أخضر . توغل في توجهك ، فيسلمك دجلة إلى الفرات ، ها هي مدينة الفلوجة التي تبعد عن بغداد حوالي ستين كيلومتراً ، تستلقي على ضفاف نهر الفرات ، تودعها أسرارها ، وتأخذ من النهر سر الخصب فيه ، تشرب منه الماء ، وتسقي نخيلها وأشجار فواكهها الباسقة الريانة .

ثمة إشارة مكتوب عليها الحبانية ، فنأخذ منعطفاً على يسار الطريق ، ونمضي في طريق معبد بعناية .

ما زال النخيل يباريك ، وإن كان بأعداد أقل ، مساحة خضراء من الخضراوات تستلقي على جوانب قنوات المياه وحوافها التي تعلن عن وجودها في قلب الصحراء .

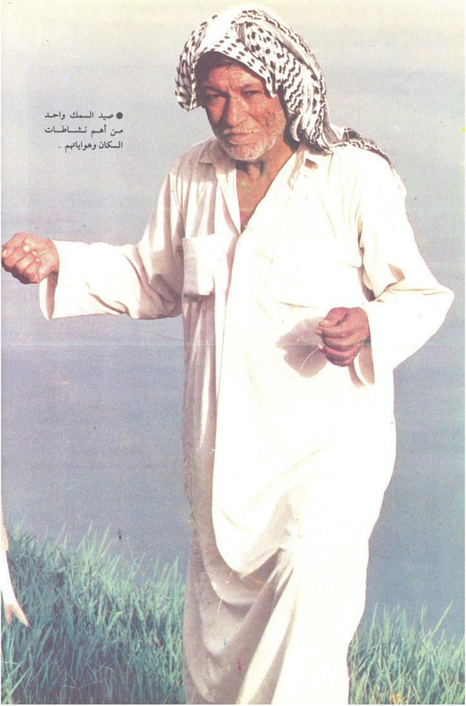
توغل في الطريق أكثر ، فلا تجد نفسك إلا والصحراء تحيط بك من جميع الجهات ، انهدام واسع على يمينك ، يدخل زرقة على لون الصحراء ، فتخال أنه الأفق البعيد للسماء ، تقترب أكثر ، فتظهر بعض المباني العالية ، وتعود إليك ألفة اللون الأخضر حول المباني ، ثم تكتشف أن الزرقة ما هي إلا بحيرة كبيرة ، إنها الحبانية ، تبعد عن الفلوجة حوالي ٢٠ كيلومتراً . أقيمت على أطرافها مدينة سياحية ، فيها حوالي ٥٣٠ داراً ، وفندق فيه حوالي ٣٠٠ غرفة .

يستقبلنا السيد محمد علي العاني ، مدير المدينة السياحية ، ويزودنا ببعض المعلومات عن المدينة :

ـ تم افتتاحها سنة ١٩٧٩ ، وبلغت تكاليفها ٣٠ مليوناً من الدنانير العراقية في ذلك الزمان ، وتبلغ مساحتها حوالي كيلومتر مربع . تحتوي إضافة إلى الدور (الشاليهات) والفندق على عدة مطاعم من مختلف المستويات ، وبها مدينة ألعاب للكبار والصغار ، وتحتوي على عدة مسابح ، وأقيم فيها نادٍ للزوارق واليخوت على ضفاف البحيرة .

وفيها عدة ملاعب رياضية ، وقاعة اجتماعات كبيرة ، ومسرح مكشوف ، يستوعب ٨٠٠ شخص ، يمكن أن تعرض على «شاشته» الأفلام «السينمائية» ، وكازينو على البحيرة ، اسمه كازينو الخيمة ـ كانت الخيمة موجودة فعلاً سنة ١٩٧٩ ، إلا أنها تمزقت ، فبقى المبنى الذي تحول إلى مقصف ـ وفي المدينة مكتبة ، وعيادة طبية ، وناد ليلي ، وغير ذلك من منشآت .

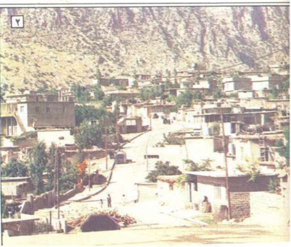
* سألت السيد محمد : هل صحيح أن بحيرة الحبانية اصطناعية ؟



● صيد السمك واحد من أهم نشاطات السكان وهواياتهم .



١



٢

١) شبان وشابات من الأكراد يهزجون ويدبكون في الحبانية .
٢) البلدة التي تصغر ، إنها العمادية .

- علق : إنها خزان مياه كبير ، فهي أرض منخفضة ، تم تحويل مياه نهر الفرات الزائدة إليها ، وإذا ما زاد منسوب مياهها فإنه يتحول إلى بحيرة الرزازة ،

* ما معدل زوار المدينة يومياً ؟

- المعدل اليومي للزوار في فصل الصيف يصل إلى ثمانية آلاف شخص ، وفي الشتاء إلى ثلاثة آلاف شخص .

* وما نسبة تشغيل مرافقها خصوصاً الدور والفندق ؟

- تصل النسبة في الأعياد والمناسبات الرسمية إلى ١٠٠٪ ، وأحياناً تزيد على ذلك .

نخرج من قاعة الاستقبال ، ونتجول في المدينة ، ونذهب إلى الدور «الشاليهات» ، بعضها ذو غرفة نوم واحدة وتوابعها - حمام ومطبخ وحديقة - وبعضها ذو غرفتين للنوم . أشجار البرتقال والنخيل والسرو والرمان تتداخل وتحيط بالمكان . السابحون والسابحات يملأون شواطيء البحيرة ، وبعضهم يسبح في مائها أو يستروح تحت المظلات . نركب زورقاً ، نجول به على البحيرة ، فيتولى زميلي المصور تصوير المدينة ومعالمها .

ثم نخرج ونوالي تجوالنا في مرافق المدينة ، ونصل إلى كازينو الخيمة العربية ، فنجلس على صخور البحيرة ، وفي مكان فسيح مقابل لمشرب الكازينو تماسكت مجموعة من الصبايا والشبان الأكراد ، وطفقوا يغنون ويهزجون ويرقصون ويدبكون ، وعندما هدهم التعب وران الهدوء على المكان ، برز صوت كركرة الموج وارتطاماته الخفيفة بالصخور ، عندئذ أطلق الخيال عنانه بالمدى الأزرق ، ولم يصح إلا على أصوات الزملاء وهم ينادون بعد أن سادت العتمة المكان .

خامس مرأى في العالم

لكي نصل إلى (المرأى) علينا أن نسير جنوب شرق بغداد مسافة تصل إلى حوالي أربعين كيلومتراً ، ودجلة يرافقنا ، والنخيل والحمضيات وأشجار مثمرة أخرى تلوح وتلمع باسقة خضراء .

نصل إلى بلدة المدائن ، فنتوجه إلى حيث يرقد الصحابي الجليل سلمان الفارسي ، ونقرأ الفاتحة على روحه ، وعلى بُعد أمتار قليلة نشاهد (طاق) إيوان كسرى ، فالمدائن كانت عاصمة له في زمن مضى . (والطاق) كان جزءاً من قصر كبير ، يعود عهده إلى منتصف القرن الثالث الميلادي ، ويعد أكبر طاق مشيد بالآجر في العالم ، وأعلاها حسب ما تذكر المصادر التاريخية ، وهو يقع بالقرب من نهر دجلة ، وارتفاع (الطاق) الحالي يصل إلى ٣٧ متراً .

وقد أقامت المؤسسة العامة للسياحة بالقرب من بقايا الإيوان خيمة عربيّة كبيرة من الشَّعْر ، تم تجهيزها بكل ما هو عربي الصنعة ، وفرشت أرضها بالبسط العربية أيضاً .

كما أقامت المؤسسة العامة للسياحة مجمعاً سياحياً بالقرب من المكان ، يشمل فندقاً ودوراً وشققاً ومسبحاً ومطعماً وكازينو .

وعلى بُعد أمتار قليلة من المكان أيضاً نرى بناء ضخماً ، يشبه شكله شكل «الزقورة» القديمة أو البرج القديم . إنه مرأى القادسية أو «بانوراما» القادسية . وهو أحدث مرأى في العالم



● السيد محمد العاني .

بعد مرائي (بانورامات) موسكو ولينينغراد وبلجيكا وكوريا الشمالية .

افتتح سنة ١٩٨٠ ، وأقيم على مساحة ٢٥٠٠ متر مربع ، بكلفة وصلت إلى سبعة ملايين ونصف مليون دينار عراقي . ارتفاع البناية يصل إلى ٢٨ متراً ، وإذا ما كانت الأبراج القديمة يمكن الوصول إلى أعلاها بدرج متتال ، فإن المصاعد الكهربائية قد تولت الأمر في هذا البناء الحديث .

وقد رسمت مشاهد معركة القادسية التي قامت بين العرب المسلمين ، وبين الفرس سنة ٦٣٧م ، ووزعت مشاهدها على لوحة أو شاشة دائرية من الكتان ، طولها ١١٠ أمتار ، وارتفاعها ١٥ متراً ، وتوزعت تفصيلات المعركة على مساحة تقدر بـ (١٦٤٠) متراً مربعاً . ويمكن الصعود لرؤية المرأى أو «البانوراما» بوساطة مصاعد كهربائية .

وتبلغ المسافة بين السياج والشاشة حوالي عشرة أمتار . ويشترك الصوت والضوء و «الديكور» في تجسيد المرأى . وبعض الأشكال والشخصيات تم تنفيذها بالرسم أحياناً ، وأخرى تم تنفيذها بالنحت والديكور في أحيان أخرى .

ومعركة القادسية من المعارك الفاصلة في تاريخ العرب ، حيث إنها فتحت أبواب العراق ، ثم فارس وما يليها أمام الجيوش العربية .

أحدث مجمع سياحي

الأماكن التاريخية كثيرة متنوعة في مدينة بغداد وحولها ، وربما تحتاج إلى مؤلفات كثيرة للحديث عنها ، وبما أننا اتبعنا اختيار بعض النماذج فقط ، فإننا نكتفي بما نقلنا ، لننطلق إلى شمال العراق ، حيث أن للتاريخ حكاياته ومواقعه ، وحيث للطبيعة جمالها وحضورها الأخاذ .

ننطلق من بغداد متوجهين إلى الموصل ، المدينة العربية العريقة ، وهي تبعد عنها حوالي ٤٠٠ كيلومتر . الطريق الذي سلكناه ممهد تمهيداً جيداً ، وهو ذو اتجاهين . تتوالى مشاهد صفراء وخضراء ، وبينها الماء أحياناً ، تارة تغلب الصحراء ، فنراها مترامية الأطراف ، واسعة ، وتارة أخرى يبرز الماء ، فتلازمه الزراعات الخضراء .

لم يتغير تكرار هذا المنظر إلا عندما وصلنا إلى بلدة بيجي القريبة من مدينة تكريت ، حيث أخذت تبرز سلسلة من الجبال القرعاء . قال مرافقنا : إنها سلسلة جبال حمرين . توالي سيرنا ، فتزداد مشاهد التلال والجبال حضوراً ، وتأخذ ألوان الطبيعة بالاكتساء بثوب أصفر ، إنه موسم حصاد القمح والشعير ، حقول تم حصادها ولم يبق منها إلا السيقان القصيرة الصفراء ، وحقول قليلة لما يتم حصادها بعد ، سنابلها صفراء قصيرة ، تنتظر المناجل ، أو سكاكين الحاصدات الحديثة . بعض الفلاحين يذرون محاصيلهم ليفصلوا الحب عن التبن ، والنوارج تدرس ، تقودها الخيول ، وتوالي دوراتها الرتيبة حول أكوام المحاصيل .

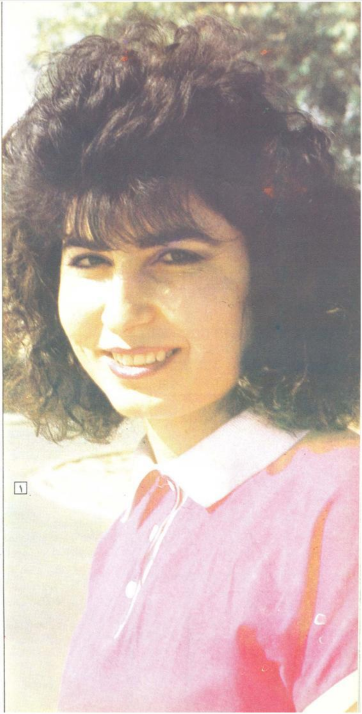
تلوح الموصل على تلال ، حرارة الجو مرتفعة ، تجاوزت ٣٥ درجة مئوية ، سور المدينة ما زال شاهداً على الأهمية التي احتلتها المدينة في الأيام الماضية . ونينوى أعني آثار نينوى عاصمة الآشوريين لا تبعد كثيراً عن المدينة .

نتجه إلى غرب الموصل ، زراعات القمح والشعير ما زالت تحتل التلال المحاذية ، لون التربة أسمر أو أحمر أحياناً . يلوح تجمع كبير لمياه زرقاء لامعة تحت أشعة الشمس .

* أهي بحيرة ؟

- يجيب مرافقنا : نعم البحيرة الناتجة عن بناء سد صدام ، حيث أقيم على نهر دجلة .

نوالي سيرنا ثم ندخل في انهدام بين تلال . تتوالى أمام أعيننا بيوت جاهزة متشابهة ، تحيط



١) وجه من العراق هرب من القيظ إلى المصايف .
٢) شبان يمرحون في جزيرة بغداد السياحية .
٣) ألعاب وصغار وكبار في مدينة الحبانية السياحية .



٢

٣





بها أشجار السرو والحور والصنوبر .

يعلق مرافقنا : ذلك هو مجمع سد صدام السياحي ، وهذه هي بيوته ومرافقه .

السيد غانم الشيباني ، مدير البلدة ـ أحياناً يطلقون عليها اسم مدينة ـ السياحية ، ذكر لنا أنها تبعد عن مدينة الموصل حوالي ٢٠ كيلومتراً ، وأن ارتفاعها يصل إلى ٨٥٠ متراً فوق سطح البحر ، وقد تم افتتاحها سنة ١٩٨٧ ، وتحتوي على ٤٥٠ وحدة سكنية متنوعة ، بأحجام مختلفة وأسعار مختلفة ، فهناك وحدة سكنية تحتوي على غرفة وصالة ومطبخ ، يدفع ساكنها إيجاراً مقداره (١٥) ديناراً يومياً ، وأخرى تحتوي على غرفتين للنوم وصالة ومطبخ ، يدفع ساكنها إيجاراً مقداره (٢٥) ديناراً ، وثالثة تحتوي على ثلاث غرف للنوم مع صالة ومطبخ ، وفيها ستة أسرة ، يدفع مستأجرها ٣١ ديناراً في اليوم ، كما أن هناك غرفا ذوات سريرين .

والطاقة الاستيعابية للبلدة تصل إلى ١٢٠٠ سرير ، وتحتوي ، إضافة إلى الدور ، على مطاعم متعددة ، وسوق مركزي ، وركن لألعاب الأطفال ، ودار للسينما ، ومسرح صيفي ، وملاعب رياضية عديدة ، ومحلات للخدمات الأخرى ، ومسبحان ، أحدهما للكبار والآخر للصغار .

وذكر السيد غانم أنهم بصدد تطوير ساحل البحيرة ، وتجهيز أماكن للسباحة ، وللزوارق واليخوت ، وبناء مطعم عائم ، وبناء مدينة ألعاب للكبار والصغار ، وبناء قاعة كبيرة للاجتماعات والحفلات تستوعب ٥٠٠ شخص .

وذكر أن الموسم الحالي لتشغيل البلدة الذي يصل إلى ١٠٠٪ يبدأ في شهر حزيران (يونيو) ، وينتهي في أوائل شهر تشرين الأول (أكتوبر) ، كما ذكر أن مرتادي البلدة عراقيون بالدرجة الأولى ، وبعض العرب ، وقلة من الأجانب ، خصوصاً ممن يعملون في المنطقة .

في محافظة دهوك

نغادر البلدة في صباح اليوم التالي ، ونتجه ثانية إلى الموصل ، وبعدها نتجه إلى مدينة دهوك ، مركز محافظة دهوك ، وهي تبعد عن مدينة الموصل حوالي ٧٣ كيلومتراً . ما زال اللون الأصفر يحتل التلال السمراء الحمراء ، إذ أن زراعة القمح والشعير من الزراعات الأساسية في الشمال .

ازداد الحيز الأخضر في التلال والجبال ، وبدأت أشجار الصنوبر وكروم التين والعنب والرمان تتكاثر كلما اقتربنا من المدينة . دهوك مدينة قديمة ، ربما يعود زمن وجودها إلى ما قبل الأشوريين ، وتقع في منحدر بين جبلين ، هما الأبيض والأسود . وهناك عدة اجتهادات في تفسير اسم المدينة ، منها ما أورده حميد المطبعي ، في كتابه «رحلتي إلى شمال العراق» ، جاء فيه :

«إن طائراً أسطورياً ، ضخم الحجم ، وغريب الشكل ، استهوته المنطقة ، فحط فيها ، وفي المكان الذي أقام فيه الطائر ، وفي صخرة كبيرة ، وجدت بيضتان ذاتا حجم هائل ، وقد أقيمت مدينة دهوك في المكان الذي عاش فيه الطائر ، ولذلك سميت بهذا الاسم الذي يتكون من مقطعين : (دو) بمعنى (اثنين) ، و(هيك) بمعنى (بيضة) .

توجهنا من دهوك إلى القرى والبلدان التابعة لها ، الطرق هنا تخترق الجبال ، وهي متعرجة تلتف حيناً ، وتنبسط في أحيان أخرى ، وتكثر على تلالها وجبالها أشجار الصنوبر ، والبلوط ، والاسفندار ـ خشبه أبيض ، تصنع منه المسابح الطويلة ـ وغيرها .

نصل الى بلدة زاويته ، بعد أن نسير ما يقارب ١٧ كيلومتراً من دهوك . وزاويته بلدة قديمة ، ينسبها بعض الناس إلى الأشوريين ، في حين أن اسمها يقترب من إيقاع اللغة الآرامية ،



● السيد محمد أمين البرزنجي .

ويعني زاوية . تكثر فيها الأشجار المثمرة ، وتحيط بها وتنمو بتلالها أشجار الصنوبر ، وترتفع حوالي ٨٥٠ متراً عن سطح البحر .

وفي البلدة دار استراحة ، وفندق سياحي صغير ، ومطاعم عديدة . وتجدر الإشارة إلى أن في المحافظات التابعة للحكم الذاتي منشآت تتبع المؤسسة العامة للسياحة ـ وهي مؤسسة حكومية مركزية ـ وأخرى تتبع الإدارة العامة للبلديات والمصايف ، وهي تتبع إدارة الحكم الذاتي في بعض محافظات الشمال .

ينابيع وشلالات

ثم نوالي السير ، فنصل إلى بلدة «سوارة توكا» التي تبعد ١٥ كيلومتراً تقريباً عن زاويته .

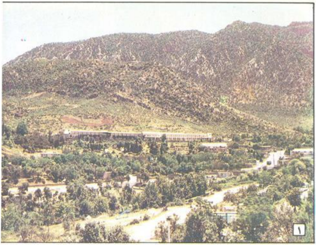
والوصول إليها عبر طريق لولبي جبلي ، وترتفع ١٥٠٧ أمتار عن سطح البحر . وأقصى درجة حرارة في فصل الصيف تصل إلى ٣٣ درجة مئوية . تطل هذه البلدة على واد سحيق ، تكثر فيه أشجار الفاكهة والسرو والاسفندار والصنوبر . وفي البلدة مؤسسات سياحية مناسبة للسائحين . وقد أقامت المؤسسة العامة للسياحة ٣٩ داراً ، سعتها ٢٠٠ سرير ، كما أن فيها «كابينات» سياحية ومنشآت سياحية أخرى ، بينها فندق صغيرة أقامته مصلحة المصايف .

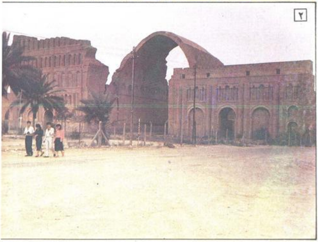
ثم نوالي السير ، فنمر ببلدة «أشاوة» ، وهي مصيف جميل ، اشتهر بشلاله الهادر ، يبعد عن مصيف سرسنك قرابة ٥ كيلومترات .

ثم نصل إلى سرسنك التي تعد من أشهر المصايف العراقية وأجملها ، ويستقبلنا في مكتب الناحية السيد خليل اسماعيل خضر ، مدير الناحية ، والمهندس تيدي عوديشو يوخانيس ، مدير المصايف في الناحية ، والسيد زهير صديق فتاح ، معاون مدير السياحة ، ويتولون الشرح والإجابة عن أسئلتنا . كلمة «سرسنك» بالكردية تعني رأس الصدر ، وهي تقع بين سلسلة جبال كاره ، وسلسلة جبال متينة .

وترتفع ١٠٥٠ متراً عن سطح البحر ، وتصل أعلى درجة حرارة فيها إلى ٣٤ درجة مئوية في الصيف تقريباً ، وتشتهر بزراعة العنب ، والرمان والخوخ والمشمش والاجاص والجوز واللوز ، وتزرع فيها الخضراوات أيضاً . وتصب وديانها في نهري الزاب والخابور . عدد سكانها حوالي أربعة آلاف نسمة ، في حين يصل عدد سكان الناحية كلها إلى حوالي تسعة آلاف وخمسمائة . تبعد عن دهوك ما يقارب ٤٢ كيلومتراً . وفي هذه البلدة مؤسسات سياحية عديدة ، بينها فندق سرسنك ، وهو قديم ، مبني من الحجر ، يعود بناؤه إلى الأربعينيات ، وهو مشيد على سفح جبل ، يطل على البلدة ويكشف معالمها ، ويواجهه على تلة مقابلة فندق شلير السياحي الجاهز .

وبالقرب من هذا الفندق دور عديدة ، و«كابينات» متنوعة مؤثثة ، وهناك أيضاً قرية نموذجية سياحية ، تحتوي على ٥٨ داراً ، وفي البلدة مسبح دولي أولمبي ، وتوجد قرية «كارة» السياحية المؤلفة من بيوت جاهزة ، بناها الفرنسيون وتضم ٥٦ داراً . وفيها كذلك صالة سينما ، ودار عرض مسرحي ، وبعض المنشآت السياحية الأخرى ، منها منشآت سياحية أهلية







١) سرسنك في حضن الجبال كأنها حديقة .
٢) طاق كسرى في بلدة المدائن .
٣) جانب من سور مدينة بابل بعد ترميمه .
٤) بوابة زيبار في بلدة العمادية


٤

أيضاً . والجدير بالذكر أن سرسنك شهدت أحد اجتماعات الجامعة العربية في بداية قيامها .

وفي بلدة «انشكي» التي تبعد عن سرسنك قرابة ١٥ كيلومتراً مجموعة من الشقق السياحية والمؤسسات السياحية الأخرى ، وتشتهر هذه البلدة بشلالاتها وهوائها العليل ، وفيها كهف طبيعي حُوِّل إلى مطعم .

وإذا ما رغب الإنسان التوجه إلى بلدة «العمادية» فإن عليه أن يمر ببلدة آرادن ، فيها مؤسسات سياحية أيضاً ، وهي تقع بالقرب من «اينشكي» ، يليها سولاف التي ترتفع ١٥٥٠ متراً عن سطح البحر ، وفيها شلالات جميلة ، ومؤسسات سياحية ، أشهرها فندق سولاف ، وشقق سولاف السياحية .

البلدة التي تصغر

يلفت نظرك العلو الشاهق للبلدة ، وشكلها البيضاوي ، فتقول إن اختيار مكانها كان بقصد المتعة ، وإنه موقع عسكري ممتاز ، فيجيبك السيد خليل مدير الناحية : إنها العمادية التي بناها عماد الدين زنكي سنة ٥٢٧هـ ، على صخرة محدودة المساحة ،تبعد عن سولاف ٥ كيلومترات ، والوصول إليها يقتضي المرور بطرق ملتوية ، ترتفع تدريجياً حتى تصل إلى ارتفاع ١٩٨٥ متراً عن سطح البحر ، هو ارتفاع هذه البلدة التي يصل عدد سكانها إلى ما يقارب ١٨ ألف نسمة .

* علقت : إن انهيار أي صخرة من هذه البلدة يسد الطريق العام ، ويقلل من مساحتها .

ـ قال السيد خليل : لقد انهارت صخرة فعلاً في الشتاء الماضي ، وسدت الطريق .

* علقت : هل يمكن القول عنها بأنها البلدة التي تصغر من حيث المساحة .

ـ قال : نعم ، إنها كذلك .

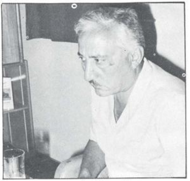
من آثارها الباقية بابان عليهما نقوش ، أحدهما اسمه باب الزيبار ، والثاني باب الموصل ، وفيها منارة المسجد الذي بناه عماد الدين زنكي ، والمنارة منحوتة من صخر الصوان ، كما أن درجها منحوت من الصخر نفسه .

هذا وتشتهر «العمادية» ببعض الصناعات التقليدية ، كمباسم التدخين الطويلة ، والمسابح المصنوعة من خشب الاسفندار .

ونحن في طريقنا للعودة إلى سرسنك ، شاهد زميلي المصور مجموعة من نساء الأكراد بملابسهن الملونة البراقة ، فطلب منهن أن يلتقط لهن بعض الصور ، فأبى بعضهن ، ووافق بعض آخر .

* سألت السيد خليل : لماذا تحب المرأة الكردية الألوان الحارة البراقة ، خصوصاً الحمراء ؟

ـ أجاب : أعتقد أنه لا يوجد في الأمر خصوصية ما ، فألوان ملابس المرأة في منطقة الخليج العربي ـ خصوصاً الملابس التقليدية ـ من الألوان الحارة ، كالأحمر والوردي والسماوي والأخضر وغيرها . ثم أضاف : وباعتقادي أن هذه الألوان الحارة تستهوي معظم نساء العالم ، لأنها بصريح العبارة تلفت نظر الرجال .



● السيد غانم الشيباني .

من صلاح الدين إلى القمة السوداء

عدنا من الطريق التي أتينا منها ، وصولاً إلى الموصل ، ثم توجهنا منها إلى أربيل التي تبعد ٨٦ كيلومتراً عنها . وأربيل عاصمة لمنطقة الحكم الذاتي لأبناء القومية الكردية الذي أعلن عن قيامه سنة ١٩٧٥م ، وهنا ثلاث محافظات في منطقة الحكم الذاتي ، هي : أربيل ، ودهوك ، والسليمانية .

وأربيل مدينة تاريخية قديمة ، جاء ذكرها زمن السومريين ، وعرفت قديماً باسم «أوربيلم» ، أو «اربا ايلو» عند البابليين والآشوريين . وما زالت قلعتها القديمة شاخصة بشكل دائري ، تحكي أجزاء من سيرتها ومجدها القديمين .

وأول المصايف التي تصل إليها بعد ٣٢ كيلومتراً من أربيل هو مصيف صلاح الدين الذي يقوم على جبل صلاح الدين ـ بيرمام قديماً ـ والطريق إليها متعرج بشكل حلزوني ، وترتفع ١٠٩٠ متراً عن سطح البحر .

استقبلنا في هذا المصيف محمد أمين البرزنجي ، مدير المصايف هنا ، فذكر لنا أن عدد سكانه خمسة آلاف نسمة ، يشتغل كثير منهم بالزراعة وتربية المواشي ، وتكثر فيه أشجار السرو والبلوط ، ومن أشهر أشجاره المثمرة الكرمة ، والتفاح والمشمش والخوخ ، والجوز واللوز ، وأن اقصى درجة للحرارة فيه تصل إلى ٣٢°م في الصيف ، وذكر أن اسم هذا المصيف جاء من اسم القائد صلاح الدين ، حيث تذكر بعض المصادر أنه عاش فترة في قرية ديوبين التي تبعد ثلاثة كيلومترات عن مصيف بلدة صلاح الدين .

وذكر السيد البرزنجي أن بلدةصلاح الدين تعد مصيفاً مشهوراً ، حيث تحتوي على مؤسسات سياحية جيدة ، منها بيوت حجرية وبيوت جاهزة ، ومخيمات و «كبائن» عديدة ، وفيها فندق صلاح الدين ، وهناك عشرات الفنادق والمؤسسات السياحية التي تتبع القطاع الخاص ، وفيها دار للسينما ، ودارمسرحية ، ومؤسسات سياحية أخرى .

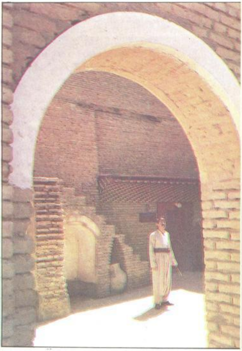
وعلى بعد تسعة كيلومترات ، وعلى جبل مرتفع يطل على أودية خصبة غنية بأشجار الفاكهة ، بنيت قرية «سرى رش» السياحيةسنة ١٩٧٦ ، و«سرى رش» تعني : القمة السوداء ، وتحتوي على فندقين وبيوت جاهزة ، وشقق سكنية ، وعدة مطاعم ، وعدة صالات للألعاب ، وسوق مركزي ، وعدة كازينوات ومسجدين ، وصالة احتفالات كبيرة ، ودار للضيافة ، ومنشآت سياحية أخرى . وتتوزع بين بيوت القرية أشجار مثمرة ، وورود ، وأشجار زينة .

وعلى بعد ١٨ كيلومتراً من مصيف صلاح الدين يقع مصيف «شقلاوة» ، حيث تتوزع بيوتها بين جبل « سفين » وجبل « سورك » (الأحمر) وتربته حمراء فعلاً .

ويرتفع مصيف شقلاوة ٩٦٦ متراً فوق سطح البحر ، وتعداد سكانه يزيد على ٢٠ ألف نسمة ، يعملون بالزراعة والأعمال التجارية والسياحية ورعي الأغنام ، وتكثر فيه الأشجار المثمرة ، مثل العنب والتين والجوز واللوز والخوخ والتفاح والإجاص . وفي مصيف هذه البلدة عدة مؤسسات سياحية حكومية ، وأخرى خاصة ، بينها قرية سياحية من الدور الجاهزة الموزعة بين الأشجار الوارفة الظلال ، وفندق شقلاوة السياحي ، وفيها أيضا عشرات الفنادق التي يملكها القطاع الخاص .

سهل اسمه حرير

وإذا ما رغب السائح في المضي بالطريق المعبد والاتجاه شرقاً ، فإنه سيرى سهلاً من أخصب سهول القطر العراقي ، يطلق عليه اسم «سهل حرير» ، وهناك قرية بهذا الاسم في هذا



● متحف أربيل ونمط العمارة القديم .

السهل ، وتتفجر فيه عدة عيون ، مما يزيده خصبا ، والزراعة فيه طوال السنة .

والبصل والثوم من أشهر المزروعات التي شاهدناها فيه ، وقد كانت ما تزال خضراء ، مما أضفى لوناً أخضر على السهل الذي يقع بين عدة جبال ، كما يشتهر هذا السهل بعسله الصافي أيضاً .

ثم يأخذ الطريق بالارتفاع ، إلى أن يصل إلى جبال (سبيلك) ، وهي امتداد لجبال حرير ، وتكثر فيها أشجار البلوط ، ثم يأخذ الطريق بالانحدار ، وصولاً إلى قرية خليفان ، حيث يمر بها فرع من فروع نهر الزاب الأعلى (أحد فروع دجلة) . ثم يلي القرية بعد كيلومترين شق طولي بين الجبال يصل امتداده إلى حوالي عشرة كيلومترات ، اسمه «كلي علي بك» . (وكلي) كلمة كردية تعني : مضيق ، وعلى بك هذا ، حسب ماهو متداول في المنطقة ، أحد الرجال الكبار الذين عاشوا فيها . والمضيق محاصر بين جبلي (كورك) و (نواذنين) ، وبيعد ٦٠ كيلومتراً عن شقلاوة ، وتتفجر في جنباته المياه ، خصوصاً شلاله الشهير (شلال كلي علي بك) الذي ينبع من عين (الأنا) ، وارتفاع ضغط الشلال يصل إلى ١٢ متراً ، وقد أقيم حوض دائري تحت الشلال ، عمق مائه يصل إلى مترين ، كما ذكر لنا السيد نوزاد عزيز قادر مدير كازينو الشلال ، وهذا الكازينو أنشأته إدارة المصايف منذ سنة ١٩٥٨ .

ويصب الشلال في نهر الزاب الأعلى ، ويبلغ ارتفاع الموقع حوالي ٨٠٠ متر فوق سطح البحر .

المعايشة الحية أفضل

ونظراً لهدير المياه الساقطة من الشلال ، فإن على المرء أن يصمت ويتأمل ، لأن هدير الماء يطغى على كل الأصوات . وفي المنطقة عدة مناطق سياحية أخرى ، مثل : شلالات بيخال ، وعيون جنديان ، وغيرهما من الأماكن السياحية الأخرى .

وتقع هذه المصايف قريبة من الحدود الشرقية للقطر ، أي قريبة من الحدود العراقية الإيرانية .

في حين أن مصايف محافظة دهوك تقع قريبة من الحدود الشمالية ، أي من الحدود العراقية التركية .

هذه حصيلة جولتنا التي قدمت ملامح من القسمات التاريخية والطبيعية للقطر العراقي ، وتبقى المشاهدة والمعايشة الحية دائما أفضل من القراءة أو الاستماع في كثير من الأحيان . □

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

أغسطس
١٩٨٩



رئيس التحرير : د. محمد الرميحي



يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

في هذا العدد



إضافة للأبواب الثابتة



الاندماج النووي البارد
وقائع اكتشاف القرن

بقلم : الدكتور سعود عياش

منذ ٤٠ عاما والفيزيائيون يحاولون توليد الطاقة بطريق الاندماج النووي . ولكن في مارس الماضي أعلن كيميائيان ـ أحدهما أمريكي والآخر بريطاني ـ أنهما تمكنا من توليد الطاقة من اندماج نووي ، بجهاز بسيط يشبه جهاز تحليل الماء في مختبرات المدارس . فهل يمكن أن يمثل هذا الاكتشاف حلا نهائيا لمسألة توفير الطاقة ، وضمان امداداتها لحقب زمانية طويلة ؟

في ٢٣ مارس الماضي أعلن ستانلي بونس ، رئيس قسم الكيمياء في جامعة يوتا ، ومارتن فلايشمان ، بروفسور الكيمياء الكهربائية في جامعة ساوثهامبتون البريطانية ، في مؤتمر صحفي عقد بجامعة يوتا الامريكية ، عن نجاحهما في تحقيق الاندماج النووي عند درجات الحرارة العادية ، باستخدام جهاز بسيط يشبه ما يستخدمه طلبة المدارس الثانوية في تجارب تحليل الماء . وأعلن الباحثان أيضا أن تجربة الاندماج البارد أنتجت أربعة أمثال الطاقة المستخدمة لإجراء التفاعل . ومن الجدير بالذكر أن بونس كان يعمل أثناء دراسته للدكتوراة تحت إشراف البروفسور فلايشمان .

كان لهذا الإعلان وقع الصدمة في الاوساط العلمية عامة ، وأوساط فيزياء الاندماج النووي بصورة خاصة . فعلى امتداد الأربعين سنة الماضية استثمرت الدول الصناعية المتقدمة أفضل إمكانياتها العلمية والتقنية ، وأكثر من ٢٠ بليون دولار ، دون أن يتمكن العلماء حتى الآن من تطوير مفاعل اندماج نووي للأغراض السلمية ، قادر على إنتاج كمية من الطاقة أكثر مما يستهلك . والآن يخرج علينا اثنان من الكيميائيين ، لا النوويين ، ذوي السمعة الاكاديمية الطيبة ، بأنهما نجحا في تحقيق ما عجزت عنه جهود مئات العلماء المتخصصين مدة أربعة عقود ، وباستخدام جهاز غاية في البساطة ، وكأن علماء فيزياء الاندماج النووي قضوا الأربعين سنة الماضية يبحثون في صحراء التيه .

أدى إعلان بونس وفلايشمان إلى ردود فعل متباينة في أوساط الفيزيائيين . فقد أنكر البعض صحة الاعلان ، وآثر البعض الآخر التعليق بحذر إلى أن تتوافر معلومات أكثر . وانتقد آخرون اللجوء إلى وسائط الإعلام العامة

للاعلان عن حدث علمي بمثل هذه الأهمية . فقد جرى العرف في الأوساط « الاكاديمية » على أن يتقدم الباحثون بتفاصيل اكتشافاتهم الجديدة إلى إحدى المجلات العلمية المتخصصة ، لعرضها على محكمين في مجال الاختصاص نفسه ، لابداء الرأي حول صحة ما يدعونه ، ومدى صلاحيته للنشر . وبعد ذلك فقط يمكن لأصحاب الاكتشاف اللجوء إلى وسائل الإعلام العامة لنشر اكتشافهم وتعميمه .

قام بونس وفلايشمان بإرسال ورقة علمية إلى مجلة « الطبيعة » البريطانية ، لنشر نتائج تجاربهما ، غير أن المحكمين بعد مراجعة الورقة طلبوا المزيد من التفاصيل ، قبل أن يتمكنوا من إصدار حكم على مدى صلاحية الورقة للنشر . وقد اعتذر بونس وفلايشمان عن تزويدهم بالمزيد من التفاصيل ، بدعوى ضيق الوقت وكثرة التزاماتها وارتباطاتها ، وآثرا بدل ذلك سحب الورقة . وقد تداولت أوساط الفيزيائيين مسودة الورقة ، وأجمع الكثيرون على أنها لا تحتوي على تفاصيل كافية تسمح للآخرين بإعادة التجربة للتأكد من صحة ادعاءات بونس وفلايشمان . وبذلك بقيت الأوساط العلمية تعيش المستوى نفسه من التشوش والارتباك اللذين أعقبا الإعلان الشهير .

الانشطار والاندماج النوويان

يمكن توليد مقادير ضخمة من الطاقة الحرارية من شطر أو دمج أنوية بعض الذرات . فأنوية الذرات الثقيلة ، مثل اليورانيوم ، يمكن أن تنشطر ، ويؤدي انشطارها إلى تكوين ذرات مواد جديدة ، وإصدار أشعة ، وتوليد حرارة . وعند استخدام الانشطار النووي لأغراض سلمية تستخدم الحرارة المتولدة لإنتاج البخار لتشغيل « توربينات » مربوطة بمولدات كهربائية ، وبهذه الطريقة يمكن تحويل الطاقة النووية إلى طاقة حرارية ، ثم إلى طاقة كهربائية . وبغية الحد من الآثار الضارة ، المصاحبة لتفاعل الانشطار النووي ، تتم السيطرة على التفاعل في قلب المفاعل النووي ، لضبط معدل التفاعل ، وكمية الحرارة المتولدة ، ومنع الاشعاعات النووية من التسرب . أما في الأغراض العسكرية فيتمثل أهم استخدامات الانشطار النووي بالقنبلة الذرية .

من جانب آخر يمكن لأنوية الذرات الخفيفة أن تنصهر أو تندمج معا ، مكونة عناصر نظيرة (أنوية تحتوي على العدد نفسه من البروتونات وأعداد متباينة من النيوترونات) أو عناصر جديدة . وتذكر بعض المصادر أنه يمكن من الناحية النظرية إجراء أكثر من ١٠٠ تفاعل نووي اندماجي بين أنوية العناصر الخفيفة كالهيدروجين والهيليوم والليثيوم والبيريليوم والبورون . ومنذ بداية أبحاث الاندماج النووي وقع الخيار على الدويتروم كمادة أولية للتفاعل . والدويتروم نظير للهيدروجين ، وتحتوي نواته على بروتون واحد ونيوترون واحد ، بينما تحتوي نواة ذرة الهيدروجين على بروتون واحد فقط . ومن الجدير بالذكر أن البروتون والنيوترون جسيمات دقيقة ، توجد في أنوية الذرات ، ولهما الكتلة نفسها ، غير أن للبروتون شحنة موجبة ، بينما النيوترون متعادل الشحنة . وقد وقع الخيار على الدويتروم بسبب وفرته الكبيرة في الطبيعة ، حيث توجد ذرة دويتروم واحدة بين كل ٦٥٠٠ ذرة هيدروجين . ونظرا لمخزون الهيدروجين الهائل في الطبيعة ، المتمثل بكميات مياه البحر الضخمة ، يمكن القول بأن موارد الدويتروم وفيرة جدا ، واستخلاصها أمر سهل .

إن فكرة الاندماج النووي بسيطة ، لكن تطبيقها العملي غاية في الصعوبة ، فالفكرة الأساسية في التفاعل هي تقريب نواتي دويتروم الواحدة من الأخرى ، بحيث تنصهر أو تندمج إحداهما بالأخرى . أما الأمر الصعب في التفاعل فهو أن للنواتين الشحنة الكهربائية الموجبة

نفسها ، مما يعني أنها ، تحت الظروف العادية ، تتنافران . وكلما قصرت المسافة بين النواتين ازدادت قوى التنافر والطرد . وللتغلب على هذه القوى يقوم العلماء بتزويد الأنوية بطاقة حركية ضخمة ، تسمح لها بالاصطدام والاندماج . وكان هذا الأمر يتم حتى الآن عن طريق رفع درجة حرارة الأنوية إلى ما يقارب ١٠٠ مليون درجة . وبعد مضي أربعة عقود من البحث والتجارب لمّا تنجح حتى الآن أي من محاولات الاندماج النووي بهذه الطريقة في إنتاج طاقة أكثر من الطاقة المستخدمة لإجراء التفاعل . وربما كان الاستثناء الوحيد هو القنبلة الهيدروجينية التي تعمل على أساس الاندماج النووي . ويذكر في هذا الصدد أن تحقيق الاندماج النووي عند تفجير قنبلة هيدروجينية يتطلب تفجير قنبلة نووية أولا ، لتوفير الظروف اللازمة لحصول الاندماج النووي . إن صعوبة توفير الشروط اللازمة للاندماج النووي هي العائق الأساسي أمام استخدامه في الأغراض السلمية . وأمّا على



● فيزيائيان من جامعة ييل الأميركية يتابعان ، إجراء تجارب الاندماج النووي البارد .

مستوى الطبيعة فإن أشهر تفاعلات الاندماج النووي تلك التي تحصل في قلب الشموس ، ومنها الشمس التي تزود الأرض باحتياجاتها الأساسية من الطاقة .

إن الاهتمام بالاندماج النووي ينبع من وفرة المادة الأولية - الديتروم - وكمية الطاقة الضخمة التي يمكن توليدها من التفاعل . فالحسابات تقول بأن دمج أنوية « الدويتروم » الموجودة في متر مكعب واحد من ماء البحر ينتج كمية من الطاقة ، تعادل الطاقة الناتجة عن حرق ٢٠٠٠ برميل نفط ، وأن كل كيلو متر مكعب من ماء البحر يحتوي على طاقة ، تعادل طاقة كل مخزون النفط العالمي المعروف . وإذا أخذنا في الاعتبار أن بحار العالم ومحيطاته تحتوي على أكثر من بليون كيلو متر مكعب من الماء ، يمكن القول أن طاقة الاندماج النووي تشكل مصدرا لا ينضب من الطاقة .

انطلاقا من الحقائق السابقة يمكن فهم (لماذا أثار إعلان بونس وفلايشمان اهتماما شديدا في الأوساط العلمية والحكومية والاقتصادية ؟) فبالنسبة للعلماء يعد الاكتشاف اختراقا في أصعب جبهات العلم وأعقدها ، وحلا سهلا لواحدة من أصعب المشكلات . فليس غريبا أن يقول البعض : إن هذا الاكتشاف إذا ثبتت صحته سيكون « اكتشاف القرن » . أما بالنسبة للأوساط الحكومية فإن تحقيق الاندماج النووي البارد يعني تقديم حل لإحدى المسائل الاستراتيجية المهمة ، وهي ضمان موارد الطاقة وإمداداتها على المدى الطويل .

مسارات تفاعل الاندماج النووي

يقول الفيزيائيون النوويون : إن التفاعل الاندماجي لنواتي ذرتي دويتروم يتخذ أحد ثلاثة مسارات هي :

(١) تندمج النواتان لتكوين التريتيوم وإطلاق بروتون وحرارة . والتريتيوم هو أحد نظائر



● مارتن فلايشمان (اليسار) وستانلي بونس (اليمين) يعرضان اكتشافهما أمام إحدى لجان الكونجرس الأمريكي ، وقد طلبا مبلغ ٢٥ مليون دولار لمواصلة أبحاثهما حول الاندماج النووي البارد .

الهيدروجين ، وتحتوي نواته على بروتون واحد ونيوترونين ، وهو عنصر مشع ، ويمكن التعرف عليه بقياس الإشعاعات الصادرة منه .

(٢) تندمج النواتان لتكوين نواة الهيليوم ـ ٣ التي تحتوي على بروتونين ونيوترون واحد ، وينطلق من التفاعل نيوترون واحد بطاقة محددة . ويمكن الكشف عن وجود النيوترونات ومعرفة عددها باستخدام أجهزة خاصة بذلك . والهيليوم ـ ٣ نظير عنصر الهيليوم ـ ٤ الذي يحتوي في نواته على بروتونين ونيوترونين . والمعروف أن الهيليوم ـ ٣ عنصر نادر في الطبيعة .

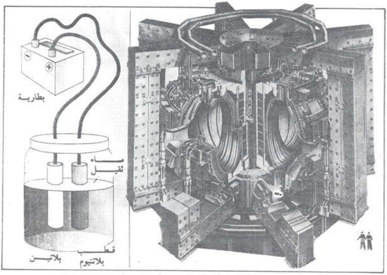
(٣) تندمج النواتان لتكوين الهيليوم ـ ٤ ، ويصاحب التفاعل إطلاق أشعة جاما . وهذه يمكن الكشف عنها باستخدام أجهزة خاصة أيضا .

إضافة إلى التفاعلات الثلاثة السالفة التي تقبلها الأوساط العلمية هناك رأي آخر يقول ـ اعتمادا على إعلان بونس وفلايشمان ـ : إنه يمكن للنواتين أن تندمجا لتكوين الهيليوم ـ ٤ وإطلاق حرارة بدل أشعة جاما ، غير أن هذا الرأي لما يثبت بعد ، وما زال ينتظر التأكيد النظري والعملي .

التجربة المثيرة

ذكر بونس وفلايشمان أنهما أجريا تجربة الاندماج النووي البارد في أنبوبة اختبار . فقد وضعا في الأنبوبة ماء ثقيلا ، يحتوي على بعض أملاح الليثيوم (ماء يتكون من الأوكسجين والدويتروم بدل الهيدروجين) ، وغمرا فيه قضيبا من معدن البلاديوم ، لفّ حوله سلك من البلاتين ، ثم ربط قضيب البلاديوم بالقطب السالب لمصدر كهربائي ، كبطارية السيارة ، وربط البلاتين بالقطب الموجب . وبالمناسبة يشبه هذا الجهاز ما يستخدمه طلبة المدارس الثانوية في تجارب تحليل الماء إلى مكوناته من الأوكسجين والهيدروجين .

ترك الجهاز جانبا أياما عديدة والتيار الكهربائي يمر في القطبين المغمورين ، ونتيجة مرور التيار الكهربائي تحلل الماء في الأنبوب إلى الاوكسجين والدويتروم . وقد تجمع الدويتروم ، ذو الشحنة الموجبة ، على قضيب



● مقطع في جهاز الاندماج النووي الحار شديد التعقيد (يمين) مقابل جهاز الاندماج النووي البارد شديد البساطة (يسار).

البلاديوم المتصل بالقطب الكهربائي السالب . وللبلاديوم تركيب بلوري شبكي ، ومن خصائصه أنه يمتص الهيدروجين ونظائره .

يقول بونس وفلايشمان : إن البلاديوم امتص الدويتروم داخل تركيبته الشبكية ، وأنه حين ازدادت أعداد أنوية الدويتروم داخل التركيبة اقترب بعضها من بعض بصورة شديدة ، بحيث اندمج بعضها ببعض ، وأدى الاندماج النووي إلى إطلاق حرارة ، بلغت - حسب ما ذكره بونس وفلايشمان - أربعة أضعاف الطاقة الداخلة في التفاعل .

لم يكن من السهل على الجماعة العلمية ، وبخاصة الفيزيائيين النوويين ، القبول بأنه يمكن التجاوز والاختزال لجهود أربعين سنة من الأبحاث والجهود المضنية بتجربة بسيطة ، كما لم يكن من السهل على الفيزيائيين التسليم بأن اثنين من الكيميائيين قد حققا إنجازات في حقل الفيزياء ، عجز عنها أفضل عقول الفيزيائيين . ومما زاد الأمر حرجا أن الفيزيائيين يقرون بإمكانية إحداث اندماج نووي بارد من الناحية النظرية ، لكنهم يدركون أن تحقيقه على مستوى عملي لإنتاج الطاقة غير ممكن ، لعدم توافر الشروط اللازمة لحصول التفاعل .

بين التأكيد والنفي

عقب إعلان بونس وفلايشمان سارع الباحثون ، في أكثر من ١٠٠ مختبر في دول العالم المختلفة ، لمحاولة إعادة تجربة الاندماج النووي والتأكد من صحتها ، غير أن النتائج التي أعلنت عملت على زيادة التشويش والارتباك السائدين في الأوساط العلمية . فعلى مسافة قصيرة من جامعة يوتا ، في جامعة بيرجهام يونج ، أعلن الفيزيائي ستيفن جونز أنه يعمل في موضوع الاندماج النووي البارد منذ سنين عديدة ، وأنه

كان قد اتفق مع مجموعة بونس وفلايشمان على أن لا يبادر أي من الطرفين إلى الإعلان عن أبحاثهما بصورة منفردة . ويقول جونز : إن التفاعل الذي أجراه أدى إلى اطلاق النيوترونات ، لكنه لم يؤد إلى توليد أي مقدار يذكر من الحرارة .

في معهد جورجيا للتقنية أعلنت مجموعة بحثية أنها تمكنت من تكرار تجربة بونس وفلايشمان ، وأن التجربة أدت إلى إطلاق النيوترونات ، مما يشكل دليلا على حصول الاندماج النووي . وبعد أيام من هذا الإعلان بادرت المجموعة إلى إصدار تصريح صحفي ، تراجعت فيه عما ذكرت ، وعزت النتائج إلى خلل في جهاز اكتشاف النيوترونات . ثم أعلنت مجموعة أخرى من جامعة تكساس أنها تمكنت من تكرار التجربة التي نتج عنها إطلاق نيوترونات وتوليد حرارة . وبعد أيام تراجعت المجموعة البحثية عما ذكرته ، ثم تراجعت عن التراجع . وقد جاءت تأكيدات أخرى عن النجاح في تكرار التجربة وقياس زيادة في عدد النيوترونات أو الطاقة الحرارية المتولدة من جامعات ومراكز أبحاث أخرى في الولايات المتحدة والهند والبرازيل والصين والاتحاد السوفيتي واليابان والإمارات العربية المتحدة . وفي إيطاليا أعلنت مجموعة بحثية أنها تمكنت من تحقيق الاندماج البارد دون استخدام الماء الثقيل ، إذ تم بدل ذلك استخدام معدن التيتانيوم وغاز الدويتروم لإحداث تفاعل الاندماج النووي تحت ضغوط ودرجات حرارة مختلفة . وقالت المجموعة الايطالية : إنها لاحظت إطلاق أعداد كبيرة من النيوترونات من التفاعل ، لكنها لمّا تتأكد بعد إن كانت الطاقة المتولدة كافية لتسويغ التطبيقات العملية مستقبلا .

من جانب آخر ، لم تتمكن أي من المجموعات البحثية في مراكز الأبحاث النووية الرئيسية في العالم من تأكيد أي من ادعاءات بونس وفلايشمان . ففي مختبر ارجون القومي في الولايات المتحدة ، قامت مجموعات بحثية بمحاولة تكرار تجربة الاندماج النووي البارد ، غير أنه بعد مضي شهر على بدء التجربة لم يجد الباحثون أي أثر يمكن أن يعزى للاندماج البارد . وقالت مجموعة أخرى : إنها لم تتمكن من اكتشاف أي زيادة في عدد النيوترونات فوق المستوى الموجود غالباً في البيئة . وفي مختبرات هارويل النووية ، في بريطانيا ، لم تتمكن المجموعات البحثية المختلفة من اكتشاف أي نيوترونات أو حرارة يمكن أن تعزى إلى ظاهرة الاندماج النووي البارد ، علما بأن التجارب في هارويل أجريت بمساعدة مارتن فلايشمان .

الخلاصة

بعد مضي وقت ليس بالقصير على إعلان بونس وفلايشمان عن نجاحهما في تحقيق تفاعل الاندماج النووي البارد ، لم تتمكن أي من المجموعات البحثية في العالم من تكرار نتائجهما بالكامل ، وإنما ذكرت مجموعات مختلفة أنها لاحظت زيادة في عدد النيوترونات التي يفترض أنها صدرت عن التفاعل . غير أن أيا من مختبرات الأبحاث النووية الرئيسية في العالم لم تتمكن من تأكيد أي من نتائج بونس وفلايشمان .

إن قصة الاندماج النووي البارد ما زالت على المستوى نفسه من الارتباك والتشويش منذ الإعلان عنها في ٢٣ مارس الماضي . فمقابل تأكيدات العديدين بعدم نجاحهم في تحقيق التفاعل ، يصرّ بونس وفلايشمان على صحة تجاربهما ، وأنهما سيكشفان المزيد من التفاصيل بعد الانتهاء من تسجيل حقوق براءة الاختراع . ومما يزيد من الارتباك والحيرة أن بونس وفلايشمان يتمتعان بسمعة طيبة ، وأن آراءهما ، في مجال اختصاصهما ، تؤخذ على محمل الجد ، فكيف يمكن أن يخاطرا برصيدهما « الاكاديمي »



● جهاز ليزر شديد التعقيد يستخدم في إجراء تفاعلات الاندماج النووي الحار .

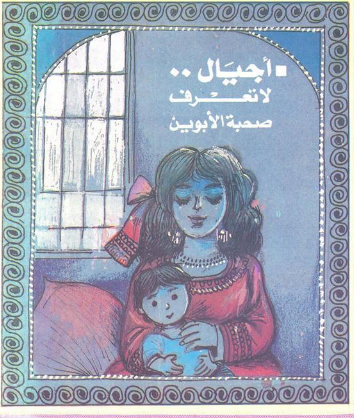
بالإعلان عن مثل هذا الكشف الخطير بطريقة استعراضية ؟

تختلف الآراء في الرد عن السؤال ، فمن قائل بأن إدارة الجامعة ضغطت على الباحثين للإعلان عن الكشف ، لتأكيد حقوق براءة الاختراع ، ومن قائل بأنها « الغيرة المهنية » والبحث عن الشهرة والمجد ، ومن قائل بأن الهدف هو جائزة نوبل . ولا يستبعد البعض أن تحاول بعض المصالح الاقتصادية الاستفادة من الإعلان الشهير لتحقيق مكاسب مادية .

الأمر المؤكد هو أن المسألة لن تستغرق الجماعة العلمية طويلا قبل إصدار تقييم علمي صحيح لحقيقة النتائج التي أعلن عنها بونس وفلايشمان . وقد تؤدي جملة التطورات التي صاحبت الإعلان عن الاندماج البارد إلى بعث الاهتمام به مرة أخرى . وإلى أن تتحقق إنجازات ملموسة في حقل الاندماج النووي الحار والبارد ، سيستمر العالم بالاعتماد على مصادر الطاقة الحفرية لتلبية معظم احتياجاته . □

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



■ موسيقا الرحم .. والحياة اللغوية للطفل



مُوسيقا الرَّحِم وَالحَياة اللغويّة للطفـل

بقلم : الدكتور سامي محمود علي

لا تبدأ حياة الطفل عندما يخرج مولوداً من رحم أمه ، بل قبل ذلك بكثير ، فليست الولادة سوى مرحلة من مراحل حياة الجنين التي تبدأ داخل الرحم ، وهناك يستمع الطفل إلى الأصوات الأولى التي تشكل إيقاع حياته بعد أن يخرج إلى الدنيا .

كل منا يعيش حياة قبل الحياة ، حياة لها خصائصها وطبيعتها ، إنها الحياة داخل الرحم التي لها امتداد في الماضي له تأثيره - دون شك - على الأيام التالية لما بعد الولادة . يستطيع من يزور متحف التاريخ الطبيعي في لندن أن يدخل حجرة صغيرة مظلمة ، تصميمها يشبه رحما كبيرا . في هذه الحجرة يسمع المرء نفس الأصوات التي يسمعها الجنين ، من دقات قلب الأم ، وصوت هضم طعامها وامتصاصه ، وغير ذلك من أصوات . إنها تجربة غريبة ، تجد وقعها على الوجوه التي تعود بالذاكرة في رحلة عبر الماضي البعيد .

لقد وجد أن لهذه الأصوات الجنينية التي يطلق عليها اسم « موسيقا الرحم » تأثيراً مهدئاً وملطفاً على الأطفال الذين يظهرون اضطرابا بعد الولادة ، لذلك فقد طبعت بعض الشركات هذه الموسيقا

الرحمية على أشرطة « تباع ، حيث ثبت أن لها تأثيرا يفوق فعل بعض الأدوية المهدئة للأطفال الذين لا يكفون عن الصراخ أو الهياج في شهورهم الأولى .

إن لذلك معنى آخر ، فالطفل الذي يولد لم يصادف الأصوات والضوضاء حوله لأول مرة ، بل إنه تعرف عليها وهو ما يزال جنينا لم ير النور . والحقيقة أن الأصوات الداخلية المتمثلة في دقات قلب الأم وضوضاء الهضم ليست هي التي يتأثر بها الجنين فقط لكنه يتأثر في الوقت نفسه بالضوضاء الخارجية التي يمكن أن تتعرض لها الأم ويتفاعل معها ، فنبضات قلب الجنين تزداد ، كما تضطرب حركته عند تعرض الأم لكل ما يثير فزعها أو اضطرابها .

وهكذا يعيش الجنين حياة الأم مثلها تماما ، وعبر الحبل السري تنتقل هرمونات الأم التي تؤثر بدورها على أجهزة الطفل وأنسجته . لكن السؤال الذي يطرح هو : هل هذه الضوضاء الداخلية أو الخارجية التي يتعرض لها الجنين تأثير على حياته بعد الولادة ؟

إن طفلنا البشري يولد ولديه حنين غريب لحياة الرحم . ولعلنا نقول بطريقة أخرى : إن الحياة الجنينية التي تمتد تسعة أشهر تبدو كأنها كانت غير كافية ، فإذا وضعنا طفلنا بعد ولادته مباشرة في ظروف مشابهة لحياته داخل الرحم ، وتركناه دون لفائف أو ملابس فإنه يتخذ الوضع نفسه الذي كان عليه في رحم أمه بثني رجليه ويديه ووضع أصبعه في فمه . كما أظهرت الأبحاث بصورة قاطعة أن الأطفال حتى سن الثلاثة أشهر الأولى من أعمارهم ينتابهم الخوف والاضطراب إذا كانت أمهاتهم قد تعرضن أثناء الحمل لحوادث أليمة أو صدمات نفسية ، أما الأطفال الذين ولدوا لأمهات عوملن بلطف ورعاية أثناء حملهن فإنهم أقل تأثرا بالخوف ، كما أنهم يبدون استعدادا أكثر للهدوء . وليس من قبيل المصادفة كذلك أن الطفل المولود يميل إلى النوم والراحة إذا وضع في سرير متأرجح ، وهو ما يعود به إلى حياته داخل الرحم ، حيث كان يتأرجح مع حركة الأم .

لكن ما يثير الدهشة في كل ذلك أن الطفل الرضيع قد لا يهتم بأي أصوات حوله في الوقت الذي يستجيب بشدة لصوت أمه ، ويهدأ ويكف عن البكاء إذا داعبته أمه بصوتها الحنون الرتيب . إن ذلك يبدو كأن هناك حبلا سريا آخر لم يقطع بعد الولادة ، لكنه متصل ، والطفل لا يستمد من هذا الحبل الغذاء والاوكسجين كما كان جنينا ، لكنه يستمد منه الآن ذكريات الدفء والسلام المرتبطين بحنان الأم وعطفها . إذن فالجنين يعيش في عالم من الأصوات ، يعايشها ويألفها ، ويمكن اعتبارها التجربة (بروفة) لحياته بعد الولادة في عالم الضوضاء .

لكن ما العلاقة بين ما يسمى « موسيقا الرحم » وبين تعلم الطفل الكلام واللغة ؟ هل يولد الطفل مزودا بالاستعداد الفطري لعملية



إن صوت الأم يعيد الطفل إلى حياة الهدوء والسلام في الرحم .

النطق ، أم أن عوامل البيئة هي وحدها التي تهيىء الطفل لنطق الحروف وإخراج الألفاظ ؟ إن هذه الاسئلة تثير قضية طال فيها الجدل ، لكننا الآن أمام مفاهيم جديدة ، يمكن أن تضيف أبعادا أخرى لهذه القضية .

عملية الكلام

إن عملية الكلام عند الطفل ليست من العمليات السهلة ، بل هي من أعقد ما يجب أن يتعلمه الطفل في سنوات حياته الأولى . وطريقة إخراج الألفاظ ترتبط بصورة مباشرة بالشفتين واللسان والأسنان والحبال الصوتية ، لكنها تتصل بصورة غير مباشرة وبأهمية أكثر بمناطق الترابط في لحاء المخ ، أو ما يسمى قشرة المخ . ومناطق الترابط هي المراكز المسئولة عن البصر والسمع واللمس ، وارتباط كل هذه المراكز في المخ بمركز الكلام الذي يقع - غالبا - في النصف الأيسر من المخ .

والحقيقة أن مناطق الترابط هذه تضم مساحة واسعة جداً من سطح المخ البشري ، بما لا يمكن مقارنته بأمخاخ أي من المخلوقات الحيوانية ، إضافة إلى أن مركز الكلام لا يوجد إلا في المخ البشري فقط . ولعلنا بذلك نكون قد اكتسبنا صفتنا الإنسانية التي مكنتنا من خلق الحضارة ، عن طريق تطور لغة التفاهم والاتصال عبر الأجيال في عمر تاريخنا كله . إن ما نريد أن نقوله هو أن الأجهزة المسئولة عن عملية الكلام عند الطفل ، سواء كانت شفتين ولسانا وأسنانا وحنجرة ، أو مناطق البصر والسمع واللمس والكلام في المخ ، يجب أن تعمل كلها معاً ، ولعل هذا يفسر لنا سبب تعقيد عملية الكلام لدى الطفل .

والطفل الوليد يبدأ بالصراخ ، وقد يمضي صراخ المولود حتى الأسبوع الخامس من عمره بلا مدلول ، إلا أن الخطوة الأولى في التطور تأتي بعد هذه الأسابيع إذ يأخذ الصراخ عنده معنى ولغة ، إنه يصرخ ليعلن عن سروره ، أو يصرخ معبراً عن نفوره من شيء أو كراهيته له ، ويختلف - دون شك - إيقاع الصراخ أو حدته في كل حالة ، فهو هادىء إذا كان مسرورا ، والثاني على عكس ذلك . واعتياد الطفل على الصراخ يجعله يشعر أنه يمكن أن يأتي به - أي بالصراخ - بإرادته ، فيعتاد منه التعبير الصوتي وتقليد الآخرين فيما بعد . وقد وجد أن تطور ملكة الكلام عند الطفل تتوقف على نمو الصراخ وكثرته ، خاصة الصراخ الدال على السرور .

من هنا نجد امتداد تأثر الطفل بضوضاء الرحم ، أو ما يسمى « موسيقا الرحم » ، فالطفل قد اعتاد على الأصوات جنينا ، واعتاد أن ينفعل معها - كما وضحنا - وهو في شهور حياته الأولى يظل متأثرا



على هذه الشاشة تتحول الأصوات إلى أشكال لمساعدة الطفل المصاب بالصمم على فهم معنى الكلام .

بذلك ، فهو ينفعل لأي تغير حادث في الوسط حوله أو في جنسمه بالصراخ ، فالتغير في البيئة المحيطة به هو الفعل ، وصراخه هو رد الفعل ، وبعد وقت قصير يجد نفسه قادرا على إحداث صوت ، كما أن اللُعَب التي تقدم إليه مثل « الشخاليل » يمكن أن تصدر صوتا . إن تآلفه مع الصوت وقدرته على إحداثه ، سرعان ما يتحولان إلى وسيلة لتلبية رغبة أو مطلب ، وخطوة بعد أخرى ، يتحول الصراخ إلى إيقاعات منتظمة ، ذات مقاطع صغيرة مثل : با - أو - ما - دا ، وهذه في الحقيقة أول مراحل الطفل لنطق الحروف وإخراج الألفاظ .

وسعادة الأبوين الظاهرة بنطق طفلهما لأحد حروف الهجاء تشجع الطفل على التكرار ، كما أنه يستشعر سرور المحيطين به عندما يحاول تقليد أحد هذه الأصوات ، وهو إن كان في شهور عمره الأولى يعرف من نبرة صوت الأم وحدّته ما الذي ترغبه أو تشعر به ، إلا أنه عندما يكبر قليلا يحاول أن يفهم معنى ما تقول ، ويرتبط ذلك في ذهنه بمفهوم معين .

ويمكن لتطور اللغة عند الطفل أن يسير في خطوات تأخذ في النمو مع تطور حالته « الفسيولوجية » بشكل عام ، لأن عملية الكلام - كما قلنا - ليست عملية قائمة بذاتها ، بل ترتبط بنمو حواس الطفل وتطورها ككل ، وتطور الكلام عنده يختلف مع اختلاف عمره ، ويمكن تحديد هذا التطور مع ملاحظة أن هذا التطور يختلف بين طفل وآخر ، وهذا في أغلب الأحيان لا يعني مرضاً أو قصورا ، فطاقة الطفل المحدودة قد تميل إلى نمو يختلف عن سواه ، فالطفل الذي يتكلم مبكراً - مثلا - يمكن أن يتأخر في قدرته على المشي ، والعكس صحيح كذلك .

والحقيقة أن هناك سؤالا ما يزال بلا إجابة : هل تعلّم اللغة عند الطفل يخضع لعوامل البيئة أم للوراثة ؟ قد لا يكون من السهل الاجابة بشكل قاطع ومؤكد ، إلا أن عدة حقائق يمكن أن تعطي المرء صورة كاملة لحقيقة هذه القضية .

فالملاحظ أن الأطفال ، في جميع أنحاء العالم ، وبصرف النظر عن جنسياتهم ولغتهم الأصيلة ، يخرجون الأصوات نفسها في الشهور الأولى من أعمارهم ، ثم تتغلب عوامل البيئة ونوعية اللغة المحيطة بهم في اكتسابهم لغة البلد الذي ينتمون إليه . إن ذلك يعني أن الطفل يولد ولديه استعداد فطري أو « بيولوجي » لتعلّم اللغة بالتفاعل مع البيئة ، فهناك « برمجة » كاملة لعملية الكلام ، تكون جاهزة في مخ الطفل ، لكنها تأخذ شكلها مع نمو الجهاز العصبي للطفل ، وتطوره وتفاعله مع عوامل البيئة المحيطة به . وقد لا يتفق هذا تماما مع ما جاء به « تشومسكي » فيما يعرف بالنظرية اللغوية التي يقول فيها : إن الأطفال يولدون ولديهم نماذج جاهزة للتركيب اللغوي ، أو بمعنى آخر ، أن الطفل يرث اللغة في رأيه عن طريق أنظمة لغوية ترثها الأجيال جيلا بعد جيل .

إن القضية كما نرى - قضية الوراثة . أو البيئة - لا يمكن القطع فيها بهذا أو بذاك ، بل إن المتفق عليه علميا أن لكل من الوراثة والبيئة تأثيرها على الفرد وتكوينه ، لكن ما يمكن أن يقال : انه قد يكون لأحدهما تأثير يفوق الآخر ، وبذلك نستطيع أن نقول : إن الطفل يولد ولديه استعداد « موروث » لتعلّم الكلام واللغة ، ثم يكون للبيئة اليد العليا في تحقيق هذا التعلّم أو عدم تحقيقه ، فالطفل يولد ولديه « مشروع » لتعلّم الكلام » ، لكن البيئة ، بعواملها المختلفة ، هي التي تنفذ هذا المشروع .

إن هذا يعطينا صورة واضحة عن أهمية البيئة ، ليس في تعلّم الكلام واللغة فقط ، بل في تعلم السلوك الإنساني نفسه . □

أجيال
لا تعرف صحبة الأبوين

بقلم : نادية يوسف

أثنان زائد واحد ، هكذا يصف الأوربيون عائلاتهم التي تتكون من أب وأم وطفل أو طفلين على الأكثر . ولكن ماذا عن العائلة الكبيرة ، هل انتهى عصرها مع تعقيد أساليب الحياة وارتفاع مستوى المعيشة وغير ذلك من التغيرات ؟

المقال التالي إلقاء للضوء على مشكلات الأسر الكبيرة .

لسنا في حاجة إلى إبراز أهمية أن تكون الأسرة الجديدة في حدود طفلين أو ثلاثة ، حيث صار طبيعياً أن يتكرر مشهد طفل في يد الأب وطفلة في ذراع الأم .

أما غير المألوف اليوم فهو أن نرى صورة الأم التي تمشي في الطريق وتجر خلفها سبعة أطفال أو أكثر ، وإذا كان هذا المنظر يتكرر كثيراً في الدول النامية ، فإن الأجيال الجديدة قد روعت حين استيقظت ذات صباح ، فوجدت الأطفال الأبرياء في أفريقيا يموتون بسبب عدم قدرتهم على الحصول على شربة ماء .

وعلى الرغم من أن قضية الأسرة الكبيرة قد حسمت منذ زمن ، خصوصاً في بلدان العالم المتقدم ، فلكل قاعدة دائماً شواذ ، فالأمر هناك لا يخلو أيضاً من عدد من العائلات التي اختارت ، بإرادتها أو بغيرها ، أن تكون من الأسر ذات العدد الضخم ، وكتب عليها أن تظل مطاردة بأسئلة محرجة :

هل كل هؤلاء الأطفال أبناؤك ؟ كيف أنجبتهم ؟ انظروا إلى هذا الجيش ؟ أين الوقت والنقود والصحة لرعاية كل هؤلاء ؟

وقد كان لزاماً على هذه



العائلات ، لندرتها وغرابتها ، أن تخضع لدراسات اجتماعية شاملة متعددة ، وأن تجيب عن كل التساؤلات التي تدور حول « سيكولوجية » الإنجاب ، وكيف تحسن رعاية أبنائها ، وما تعانيه من مشكلات .

أم البنين والبنات :

منذ سنوات قليلة قررت إحدى المؤسسات التي تعمل في طب النفس أن تستثمر هذه الظاهرة ، لكي تعرف عن يقين كيف أمكن للأسرة الكبيرة أن تصبح كبيرة ، وما دوافعها إلى ذلك .

كل الإحصائيات الحديثة تشير إلى أن إنجاب عدد كبير من الأطفال أمر غير مرغوب فيه في المجتمعات المعاصرة ، حتى أن ٤٪ فقط من الأسر هي التي أنجبت أكثر من ثلاثة أطفال .



والغريب أن كتب التربية الحديثة والعناية بالطفل لا يقرؤها إلا الأسر التي تنجب طفلاً أو طفلين ، وحتى لو حاولت الأسر الكبيرة الاستفادة من هذه الكتب فإنها لن تتمكن من ذلك ، لأن هذه الكتب صنعت خصيصاً من أجل الأسرة الصغيرة .

إن الأشخاص المشتغلين بالفكر يكتفون دائماً بطفل أو طفلين ، لذلك اختارت المؤسسة ٥٠ أسرة ، ممن أنجبوا أربعة أطفال فأكثر ، وتتراوح أعمار الأمهات فيها بين ٣٨ و ٤٠ سنة ، وكلهن بلا استثناء أجمعن على أن أمنيتهن الكبرى هي أن تخفت حدة الضوضاء التي يحدثها الأولاد في المنزل ، وأنها عادة لا تخفت إلا ساعة الطعام ، ليحل محلها ضوضاء الأطباق والملاعق .

قالت الأمهات أيضاً : إنهن يخصصن ٦٧ ساعة في الأسبوع لمسئوليات البيت والأولاد . بعض الأمهات يعملن خارج المنزل في مهن مختلفة ، ممرضات أو مدرسات أو في مهن كتابية ، أما الآباء فيعملون عمالاً ومهنيين ، وفي أحيان أخرى بمناصب إدارية متوسطة .

إن عدداً من الشائعات تخضع لها الأسرة الكبيرة العدد ـ هكذا أوضحت الدراسة ـ وعلى سبيل المثال ، فالآباء لا يستطيعون تذكر أسماء الأطفال وأعمارهم ، وأن كل الأطفال في الأسر الكبيرة غير متفوقين في مراحل التعليم المختلفة ، أو يتعثر في التعليم على الأقل واحد أو اثنان . ، وأن وجود الطفل في عائلة كبيرة يؤدي به إلى استعمال ملابس إخوته الكبار على الدوام ، وأنهم يعيشون في منزل جدرانه ملوثة وقذرة ، ولا يأكلون سوى « الخبز » ، و« الحبوب » « والمعكرونة » .

وفي الواقع أن هذه الشائعات صحيحة إلى حد ما ، وهذا لا يمنع أن عدداً كبيراً من العائلات الكبيرة العدد يعيشون في بحبوحة من العيش ، وأفضل حالاً من الأسر الصغيرة العدد ، وأنهم مهتمون بأولادهم ، قلقون عليهم ، غير أن هذا يكلفهم الكثير من الوقت والجهد والمال .

إن الدراسات الحديثة تثبت ، بشكل ما ، أن عدداً قليلاً من الأسر هي التي تخطط لكي تصبح أسرة كبيرة العدد ، ولكن الأمر في معظم الأحيان يسير حسب الأحوال ، وإن كانوا لا يألون جهداً في سبيل إسعاد صغارهم .

آباء وأمهات :

« سوزان » أم لثمانية أطفال وهي في السادسة والثلاثين من عمرها ، تعمل ممرضة بقسم العناية المركزة في مستشفى كبير . تقول : إنني أواجه مشكلة أطفالي بقدر كبير من المنطق والعقل وسرعة الحركة في مواجهة المشاكل والتحديات ، إنني أسعد دائماً لأنني أستطيع عمل أكثر من شيء في وقت واحد ، وتؤكد : « . . . تنظيم الوقت مهم جداً لسير الحياة اليومية العادية ، ولكنني كثيراً ما أسامح نفسي إذا أهملت في إنجاز شيء لأطفالي » .

ولكن الأمر ليس بهذه السهولة دائماً ، فلقد أثبتت الدراسة أن ٩٦٪ من الآباء في الأسر الكبيرة العدد يشعرون في أيام عديدة أنهم سيتحولون ، في وقت ما ، إلى مجانين ، إنهم يصرخون في وجوه أطفالهم ، أو يغرقون أنفسهم في حمامات ساخنة ، أو يجلسون منفردين مدة ساعات وراء أبواب مغلقة .

وتقول أم لخمسة أطفال ، تصف نفسها : إنني عصبية وغيورة وعاطفية الى أبعد الحدود ، أما زوجي فهو الهادىء في العائلة ، إنه من الرجال الأذكياء ، يعرف كيف يقي نفسه من عذاب الأولاد ، إنه من ذلك النوع الذي يتفادى المشاكل ، على العكس مني ، فأنا أحب مواجهة التحديات والصعوبات ، أما هو فعندما تتأزم الأمور في المنزل ، بسبب الأولاد ، فانه ينسحب في هدوء ، ليخرج أو لينام ، ولأذهب أنا وأولادي إلى حيث نشاء .

الدراسة تقول : إن الآباء - عموماً - يتميزون بالهدوء والنظام والحزم ، ويعدون أنفسهم مسئولين تماماً عن الإنفاق على الأسرة ، إنهم يعملون ساعات إضافية خارج المنزل ، ولذلك فإنهم عندما يعودون يطلبون الهدوء والراحة من عناء العمل ، ولا شيء غير ذلك .

والحق أن الأسرة الصغيرة أيضاً لها مشاكل ، فإن « آن » مثلاً لديها طفلتان جميلتان ، وهي فخورة بذلك طبعاً ، لأنها تشعر أن لديها الوقت الكافي للعناية بالصغيرتين وبنفسها وبزوجها أيضاً ، ولكن - والكلام لأم الطفلتين - الصعوبة الحقيقية تكمن في كيفية تسلية إحدى الطفلتين أثناء غياب الأخرى .

وعلى الرغم من صحة المقولة التي تؤكد أن الصداقة بين الإخوة شيء له قيمة كبيرة ، فإن الوقت والمال يحسبان من الأشياء المهمة التي يجب وضعها في الحسبان دائماً ،



العائلة الكبيرة ، هل ولى عهدها ؟

فقد أكدت ٤٦٪ من الأسر الكبيرة العدد أن عليها أن تكافح المشاكل الصحية لأطفالها . وقالت ٢٤٪ من الأسر بأن لديهم طفلاً مصاباً بتعثر واضح في التعليم . ونحو نصف هذه الأسر لديهم طفل أو أكثر مصاب بمشاكل نفسية وعصبية ، أما ٤٥٪ من الآباء فيؤكدون أن أحد أطفالهم يعاني من حساسية شديدة ، ويحتاج لمزيد من الحب والرعاية أكثر من الآخرين .

إن الصورة ليست بهذه القتامة دائماً ، ولكن هناك عدداً من الأسر الكبيرة العدد قد منحه الله طفلاً أو أكثر من الموهوبين في أي فرع من فروع العلم أو الفن .

الأطفال والمسؤولية :

والغريب في الأمر أن الأطفال الكبار في هذه الأسر يتحملون المسئولية في وقت مبكر جداً ، ربما أكثر مما تتحمله أعمارهم الصغيرة ، ذلك ما تقوله أم لسبعة : « ماذا أفعل ؟ إنني أفترض الصدق والأمانة والتصرف السليم من أولادي ، وأدعو الله أن يكون افتراضي صحيحاً ، بحيث لا أضطر لمراقبتهم في غدوهم ورواحهم ، لأنني لا أستطيع بأي حال من الأحوال أن أفعل ذلك مع سبعة أطفال » .

إن التفاعل بين أفراد الأسرة الواحدة لا بد أن يتم بدرجة ما ، فإذا كنت أباً لطفلين فإن هناك طريقاً واحداً فقط للتفاعل مع الطفلين ، وإيجاد وسيلة للتفاهم بينها ، أما إذا كانوا ثلاثة أطفال فأكثر فإن هناك أكثر من طريق لإحداث هذا التفاعل . هكذا يرى أصحاب الأسر الكبيرة العدد ، أما الدراسة فترى أن إمكانية التعاون والمشاركة والعراك أيضاً فموجودة بدرجة كبيرة ، ولهذا فإن الأطفال في الأسرة الكبيرة العدد لهم سياسة خاصة بمشاعر الحب بينهم . وتظهر هذه المشاعر على هيئة تقارب بين طفلين بحكم السن أو الجنس أو الاشتراك في غرفة نوم واحدة ، أو بين طفل كبير يعد نفسه مسئولاً عن أخيه الأصغر . أياً كان الأمر فإنه من المحال أن يظهر الأطفال الحب بعضهم لبعض بشكل متكامل تماماً ، ولكن الآباء يستغلون فرصة التقارب هذه ، للاستفادة منها في تهيئة جو مناسب للمذاكرة أو اللعب أو الطعام أو النوم ، ومنهم من يستغلها بطريقة أكثر فاعلية ، عندما يكلف الأخ الأكبر بتوضيح بعض الدروس لأخيه الصغير . . وهكذا يفلت الآباء من هذه المسئولية .

والحق أن هناك نوعاً من المساعدات لا يستطيع الطفل الكبير أن يقوم بها ، وهذه حالة أم لخمسة أطفال ، كتبت تقول : إن صغيرتنا ولدت معاقة ، برأس صغير وحجم مخ غير طبيعي ، ونظرها ضعيف أيضاً ، وهي تبلغ من العمر ٢١ شهراً ، لذا تحتاج لمساعدة منتظمة ، وتحس بالراحة مع شقيقاتها الفتيات ، إنهن يقدمن لها كل مساعدة ممكنة ، ولكنني - وهذا هو المهم - أحس بالذنب لأنني أحملهن فوق طاقتهن بالنظر إلى أعمارهن الصغيرة .

وتبقى المقولة المهمة هي أن اختيار عدد من الأطفال الذين ستنجبهم الأسرة ، مهم جداً لكي تستطيع التعرف على أفضل الطرق لتنشئتها ، وامكانيات الوالدين النفسية على الأقل لرعاية الصغير ، لأن طفلاً قوياً ومتعلماً يضيف قوة وشموخاً لمجتمعنا الخلاق الذي يحتاج لأن نفكر مرتين ، كي نعرف ما هو العدد الذي نستطيع أن نرعاه نفسياً واجتماعياً وليس مادياً فقط ، دون أن نتعرض - نحن - لضغوط نفسية لم تكن في الحسبان . □

هو.. هي

الشريك المخالف

يقال : إن أيام الزواج الأولى هي التي تحدد مصيره ، فإذا تم اجتياز الأشهر الأولى للزواج بسلام فإنه سيصمد ويستمر . وإلا فالنهاية غير سعيدة لحدث يفترض أن يكون سعيدا .

ومنذ تزوجنا ، وأنا حريصة على عدم إثارة أي مشكلة مع زوجي ، خاصة أنني عرفت ما يغضبه ويزعجه ، كما عرف هو ما يثيرني ويكدرني قبل الزواج . ولكن يبدو أن وجهة النظر التي تقول : إن الخلافات جزء أساسي من الحياة الزوجية صحيحة تماما ، فقد ثارت بيننا مشاكل لم نتوقعها قط ، ولم يكن لنا أن نتوقعها لبساطتها ، وسخفها أحيانا ، فقد لاحظت اهتمام زوجي ببعض التفاصيل الصغيرة ، وإعطائها أهمية أكبر بكثير من حجمها الحقيقي ، فقد بدأ يوجه إليّ الانتقاد ، لأنني مثلا أتأخر في النوم أيام العطل ، على الرغم من أنه قد قرر البقاء في المنزل وعدم الخروج ليمارس « راحته التامة وحريته المطلقة » كما يقول .

ثم بدأ بافتعال مشكلات صغيرة أخرى على هذا النحو ، فإذا قلت له : إن الطقس اليوم جميل ومناسب للخروج إلى البحر قال : إن الشاطىء سيكون مزدحما بأناس من كل لون ونوع . وإذا اقترحت عليه الذهاب لتناول العشاء في أحد المطاعم قال : إنه لا يحب التجمعات الكبيرة والأماكن العامة ، بل يفضل عليها الجلوس مع عدد محدود من الأصدقاء ، وإن آثرت تجنب المشاكل وجلست أشاهد التلفاز قال : إنني أهمله وأعطي للتلفاز اهتماما أكبر . وإن تصفحت مجلة أو قرأت كتابا قال : إن هذا منزل وليس مكتبة عامة ، فدعينا نتحدث !

إنني أخشى التحدث مع أحد حول هذه المشاكل ، لأنني أعلم كم هي صغيرة وتافهة ، ولكنها على الرغم من صغرها تشيع في منزلنا الصغير توترا لا يهدأ إلا عند ذهابنا إلى العمل . وكل ما أرجوه هو أن تكون هذه الفترة مرحلة عابرة من حياتنا الزوجية التي كانت خاتمة قصة حب تحدت صعابا كبيرة .

.. هي



اختلافات زوجيـّة

كثيرا ما سمعت من أصدقائي الذين سبقوني للزواج أنه ـ أي الزواج ـ « حالة » جديرة بالبحث والدراسة والتأمل ، ولأنني لست دارسا أو باحثا ، فإنني أتوقف لأتأمل حياتي الزوجية التي بدأت أخيرا ، لعلي أخرج باستنتاج ما ، أو خلاصة معينة حول هذا الأمر أو ذاك من شؤون الحياة الزوجية ، يزيد خبرتي ويثري معرفتي .

وآخر ما وقفت لأتأمله ، تلك المشكلات الصغيرة التي لا ينتبه لها أحد ولا يكترث لها الأزواج ، وقد توصلت إلى ما يشبه اليقين بأن هذه المشكلات الصغيرة هي التي تحسم أمر الزواج نحو النجاح أو الفشل ، فزوجتي امرأة ناضجة مهذبة لبقة ، وأهم من هذا كله أننا تزوجنا بعد قصة حب طويلة .

لكن هناك أشياء لا يمكنك اكتشافها في زوجتك إلا بعد الزواج . فأنا مثلا تعودت أن أستيقظ مبكرا لأبدأ يومي نشيطا ، وأنجز أكبر عدد ممكن من الأعمال ، أما زوجتي فإنها تفضل النوم حتى ساعة متأخرة ، مما يزعجني كثيرا . وأنا مثلا أحب أن أقضي وقتي بالحديث معها ومناقشتها ، وهي تفضل مشاهدة التلفاز بمسلسلاته السخيفة المملة . وهي تحب الخروج إلى شاطىء البحر أو إلى البر أو إلى أي مكان آخر ، فالمهم عندها هو الخروج من المنزل وكفى ، أما أنا فأحب أن أظل داخل منزلنا الهادىء الوادع ، حيث يمكنني الحصول على الراحة التامة والحرية المطلقة . هي تحب ارتياد الأماكن العامة والمنتزهات والحفلات التي تبدو لي صاخبة لا تحتمل . وأنا أفضل التجمعات الصغيرة ، حيث يمكن لكل الجالسين التعبير عن أنفسهم ، واستماع بعضهم الى بعض بوضوح ، مما يجعل الجلسة أكثر قربا وحميمية . وهكذا .

إن زواجنا ما زال في شهوره الأولى ، ونحن لما ننجب أطفالا بعد ، وأعترف بأنني لا أواجه مشكلات كبيرة ، وكثيرا ما أقنع نفسي بأنني سأعتاد على هذه الأمور في المستقبل عندما تواجهني المشكلات الحقيقية للحياة الزوجية ، وحينذاك ستسنح لي الفرصة لأكون حكيما بالفعل .

..هو





طبيب الأسرة قضايا منزلية

الطبيب مريض

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

يؤكد رأي شائع أن أسوأ المرضى هم الأطباء ، في وقت تسود فيه قناعة متناقضة بين الناس بأن الأطباء لا يمرضون ، لهذا تملك الدهشة عامة الناس ويسودهم الاستغراب إذا ما علموا بمرض طبيب ، لأنهم يفترضون فيه العلم بخفايا الأمور وأسرار الصحة والمرض ، مما يستطيع معه الطبيب أن يتفادى كل علة ، وأن يتقي كل مرض ، متغافلين عن الحقيقة بأن بعض الأمراض لا حيلة لأحد في تفاديها ، بل ربما كانت طبيعة العمل في الحقل الطبي تجعل الطبيب أقرب إلى الإصابة بالمرض والعدوى ، بدليل أن المؤسسات والهيئات الطبية تعوض الأطباء عن خطر الإصابة ، بما يعرف اصطلاحا ببدل العدوى أو بدل طبيعة العمل ، بل إن بعض الولايات الامريكية قد ذهبت إلى سنّ القوانين التي تحكم هذه الظاهرة ، وتنظم قواعد التعامل فيما عرف عندهم بتشريعات الطبيب المريض .

كما قام المجلس الطبي في بريطانيا بوضع قواعد قانونية ، تحكم أسلوب التعامل مع الطبيب المريض ، مما لا نجده في أي مهنة أخرى .

كثير من الأطباء الذين مارسوا الطبابة سنوات عديدة أصبح عسيرا عليهم أن يتقمصوا شخصية المريض ، ويصعب عليهم الاعتراف بهزيمتهم أمام المرض ، قناعة منهم أن اعترافهم هذا يهز الثقة فيهم ، ويشكك في كفاءتهم العلمية ، لهذا نجدهم يكابرون ويجاهدون في إخفاء العوارض الأولى ، إلى أن يعجزوا عن الاحتمال ، ولكن بعد فوات الفرصة في الكشف المبكر ، وبعد أن يتمكن المرض منهم ويصبح علاجه عسيرا بعد أن يستفحل ويتفاقم .

وغالبا ما يلجأ بعض الأطباء في بادىء الأمر إلى تقمص شخصية مزدوجة ، هي شخصية الطبيب إلى جانب شخصية المريض ، ولهذا فإن الطبيب المريض عادة ما يفقد التسلسل المنطقي المتبع في التشخيص والعلاج على السواء ، فنرى الطبيب يقوم بعملية عد تنازلي مع نفسه ، بدلا من العد التصاعدي

للتشخيص ، بمعنى أن الطبيب يفترض في أسباب العلة التي أصابته أسوأ الاحتمالات ، بدلا من أن يبدأ بالأبسط ، وهو هذا يتعاطى أقوى العقاقير وأشد الأدوية تأثيرا ، مما يعقد الأمر ، فطبيب ما ، قد يلاحظ عند السعال بصاقا فيه دم مثلا ، فيقفز إلى ذهنه احتمال الإصابة بسرطان الرئتين ، بينما الاحتمال الأولى أنه مجرد احتقان في الحلق .

من هنا كانت التقاليد الطبية تقضي بعدم تولي الطبيب علاج نفسه أو علاج أحد أفراد اسرته المقربين إليه ولكن الظاهرة السائدة هي ان يقصد الطبيب المريض - بعد أن يفشل في علاج نفسه ، ويضيع الفرصة الذهبية في تشخيص مبكر لمرضه ، وعلاج بسيط - إلى الاستعانة بطبيب صديق أو قريب ، وهو أمر يؤدي بالتالي إلى معاملة خاصة ، لأنه مريض متميز ، يستأثر بعناية خاصة ، مما أدى إلى ظاهرة غريبة في عالم الطب ، أطلقوا عليها اسم « مرض التوصية » الذي يتميز بحدوث كثير من المضاعفات والإشكالات التي يخشاها الطبيب المعالج على مريضه ، ويبررون هذا بزيادة الحرص الذي قد يدفع إلى نقيض ما نتطلع إليه ، وهو خطأ .

الإشعاع :

منذ أن ابتكر رونتجن أشعته السينية ، و الطب هو المجال الأرحب لاستعمالها في التشخيص ، غير أن أخطار هذه الأشعة على الكائن الحي لم تكن معروفة في أول عهدها ، فأسرف الأطباء في استعمالها دون حرص منهم على الوقاية ، فكان الثمن هو حياة الكثيرين ممن كانت هذه الأشعة مجال عملهم . وحتى عهد قريب كان تأثير هذه الأشعة المدمر على خلايا الدم والمتسبب في سقوط الشعر وسرطان الجلد أمراً شائعا مألوفا بين الأطباء ، ومن يعمل معهم في مجال الإشعاع ، غير أن هذا الأمر قد انحسر خطره مع إدراك مخاطر الاشعاع ، وابتكار أساليب الوقاية التي نجد من أبرزها حماية العاملين بعوازل من الرصاص ، وإلزامهم بحمل عدادات خاصة تقيس مدى تعرضهم للإشعاع ، حتى يمكن عزل من زادت نسبة تعرضه له ، وأصبح احتمال ضرره قائما ، في الوقت المناسب قبل استفحال الخطر .

أمراض القلب :

حتى عهد قريب كانت أمراض القلب التاجية شائعة بين جمهور الأطباء ، وتفوق في معدلاتها معدلات انتشارها بين عامة الناس . وربما كان التعليل المقبول لهذه الظاهرة هو انتشار عادة التدخين بين الأطباء ، قبل أن تعرف أخطاره



وأضراره على وجه التحديد ، حتى أن التدخين كان يبدو إحدى مقومات مظاهر الأطباء الشائعة ، وعادة مميزة من عاداتهم التي يتباهون بها .

طول العمر :

من المظاهر الساخرة التي سادت حتى عهد قريب أن يقدر معدل عمر الطبيب بحوالي ٥٧ عاما في المتوسط ، وهو الإنسان الذي يفترض فيه أن يدرك أسباب الصحة والمرض ، ويعمل من أجل الحياة ، بينما يصل متوسط عمر ضباط الجيش إلى ٧٥ عاماً ، وهم الذين نذروا أنفسهم للموت والتضحية . ولعل التعليل الذي ساقه بعض المختصين لهذه الظاهرة الغريبة هو أن الطبيب يقع تحت عبء الإجهاد الجسدي والتوتر النفسي ، فيما يقضي ضباط الجيش أيام العمر في ممارسة الرياضة البدنية ، وتوفر لهم إمكانيات الراحة الجسدية والنفسية دوما ، غير أن الحال في السنوات الأخيرة قد اختلف بالنسبة للأطباء ، حيث أصبح معدل العمر للطبيب أطول من معدل عمر الانسان العادي ، نظرا للإقلال من التدخين ، والحرص على تفادي الأسباب المدمرة الأخرى للصحة ، مثل الكوليسترول والدهنيات الأخرى وملح الطعام ، مما قلت معه احتمالات إصابة القلب أو ارتفاع ضغط الدم وتصلب الشرايين وما إلى ذلك من أمراض أخرى قاتلة .

الأمراض النفسية :

أكثر من دراسة جادة جرت في الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا لفهم الحالة النفسية للأطباء ، وماهية الأمراض العقلية الشائعة بينهم ، نظرا لخطورة معاناة الطبيب من مرض نفسي أو عصبي على أسرته من ناحية ، وعلى مرضاه من ناحية أخرى .

وقد أظهرت الدراسات الأخيرة أن معدلات الانتحار والإدمان بين الأطباء الأمريكيين والانجليز مرتفعة ، لدرجة تشكل ظاهرة خطيرة ، إذ قد تصل إلى ثلاثة أضعاف معدلاتها بين عامة الناس .

ولو تناولنا قضية الانتحار التي ترتفع معدلاتها بين الأطباء بصورة مثيرة للدهشة فإنها تؤكد سعة انتشار مرض الاكتئاب النفسي بين الأطباء.

الحياة الأسرية :

الصحة الاجتماعية دليلها الاستقرار الأسري للإنسان ، غير أنه من الملاحظ أن قضية الانتحار أو الشروع فيه أكثر احتمالا بين المطلقين من الأسرة الطبية ، بينما تتدنى النسبة بين المتزوجين الأسوياء السعداء في زواجهم ، المستقرين أسريًا .

وإذا كانت نسبة الانتحار بين المطلقين من عامة الناس تزيد بمعدل ثلاثة أضعاف معدلها عن أصحاب الأسر السوية السعيدة المستقرة ، فالأمر بين الأطباء يزيد ١٣ ضعفا ، ولعل تفسير هذه الظاهرة كما يرى علماء النفس هو :

١ - سهولة الحصول على العقاقير القاتلة بالنسبة للأطباء .

٢ - انتشار حالة الاكتئاب بين الأسرة الطبية .

٣ - تعامل الأطباء مع الصحة والمرض أزالت من نفوسهم مشاعر رهبة الموت ومواجهة قتل الذات .

والذي يشد الانتباه أن الطبيبات هن أكثر ميلا للانتحار من الأطباء الذكور ، بل الأغرب أن إحدى الدراسات قد أشارت إلى أن الطبيبات المتخصصات في الأمراض النفسية هن أكثر تلك الفئات انتحارا ، غير أن هذه الدعوى تحتاج إلى دراسة أشمل وأعمق لقبولها أو رفضها . لا غرابة إذن أن يقال : إن أسوأ المرضى هم الأطباء . □

اختيار

« كان علي أن أختار فاخترت » ، بهذه الجملة ذات الوقع الأليف والمعنى الملتبس أنهى صديقي حكاية فشله في زواجه ، وهو أمر كان متوقعا منذ البداية ، لكنه أصر على إتمامه إصرار طفل على اللعب بما يؤذيه .

كان مطالباً بأن يختار ، والاختيار حرية قبل أي شيء آخر ، وبكلمات أخرى ، كان صديقي مطالبا بأن يمارس حريته ، فأي جدل هذا الذي جعله مجبرا على ممارسة أمر يفترض أن يكون إراديا تماما . وواصل صديقي حديثه ، وكأنه ممثل على مسرح الحياة يلقي « مونولوجه » الأخير :

« دون اختيار نولد ، وتبسط أمامنا الحياة بعد ذلك ، بعدد لا ينتهي من الاختيارات : اختيار في الحب ، واختيار في اللعب ، واختيار في العمل ، واختيار في الصداقة ، واختيار في الاهتمامات ، واختيار في التوجهات ، اختيار فيما نقرأ وفيما لا نقرأ ، وفيما نشاهد أو لا نشاهد، وفيما نفعل أو لا نفعل ، وفيما نقول أو لا نقول . اختيارات لا تنتهي إلا بانتهاء الحياة ، ولا تتوقف إلا بتوقفها .

ولكن على الرغم من هذا الفضاء الفسيح من الاختيارات المتاحة ، فإنك لا تختار مستقبلك ، فالمستقبل هو الذي يختارك بقدر ما تختاره ، والحياة هي التي تأخذك في دوامة من الاختيارات : اختياراتك للآخرين واختيارات الآخرين لك . فعبر هذه الفرص المتاحة يقع عليك الاختيار بقدر ما يكون عليك أن تختار .

الاختيار حرية ، لكنها ليست حرية مطلقة ، بل حرية بها شبهة القيد . والاختيار حق ، لكنه الحق المشروط بحقوق الآخرين التي لا تنتهي ، والاختيار امتياز بشري خالص ، غير أنه في الوقت نفسه فتح لباب الحياة على حيرة تتجدد بتجدد الاختيارات ، وتتعدد بتعددها ، تستمر طالما استمرت الحياة .

الاختيار فرصة تمنحها الحياة لنا لاتخاذ القرار الصائب ، لكننا نكتشف أن القرار الصائب ليس هو بالضرورة القرار المناسب ، وإن القرار المناسب ليس هو بالضرورة المتوافر ، وإن توافر فانه ليس بالضرورة اختياراً مشروعا ، فينفتح باب الاحتمالات على مصراعيه نحو عبث الحياة التي تطلقك بقدر ما تقيدك ، وتوفر لك من الفرص بقدر ما تعيقك عن اغتنامها ، وتتيح لك من المتع بقدر ما تحرمك منها .

إنه وهم كبير ، يقدم لنا على شكل حقيقة شبه مطلقة ، سراب يتراءى لنا في محطات الحياة المصيرية العديدة ، وما علينا سوى الاختيار »

استمعت إلى صديقي حتى النهاية ، لم أناقش حديثه الذي لم أتفق معه كله ولم أرفضه كله ، واكتفيت بالصمت « الصاخب » الذي اشتعل بداخلي . كم هو صعب ورهيب أن تكون حرا؟ ! .

صلاح حزين

جمال العربية

□ صفحة لغة
□ هكذا غنى الأبناء

بقلم : الدكتور حسن عباس

مترادفات أسلوبية

اشتهرت مدينة همذان في تاريخ الثقافة والفكر العربيين بأسماء عدد من الأعلام ، منهم من ولد فيها واتخذها دار إقامة ، ومنهم من توسد ثراها ولم يكن من أبنائها . أما الأعلام ممن ولدوا فيها ففي مقدمتهم بديع الزمان الهمداني الذي توفي في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ، وكان شاعرا أديبا من أئمة الكتّاب ، وقد اشتهر بكتابيه « الرسائل » و « المقامات » . وأما من توفوا فيها ولم يكونوا من أبنائها ففي مقدمتهم ابن سينا أبو علي الفيلسوف الطبيب ذو الشهرة الواسعة .

على أن هناك كاتبا وشاعرا من همذان أيضا ، لم يترك من المصنفات إلا القليل ، ولكنها - على قلتها - كثيرة النفع ، عظيمة الفائدة ، أفضلها كتاب « الألفاظ الكتابية » . وهذا الكاتب الشاعر هو عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني الذي توفي في القرن العاشر الميلادي . وفي هذا الكتاب عكف الهمذاني على ألفاظ كان يتداولها كتاب الرسائل والدواوين ، فعمد إلى المترادفات منها أو المتشابهات في المعنى ، وتتبع استعمالاتها ودورانها في لغة أولئك الكتّاب وأساليبهم ، وجمع أعدادا كثيرة منها ، وصنفها في أبواب بحسب المعنى . وفي ذلك يقول : « فجمعت في كتابي هذا لجميع الطبقات أجناسا من ألفاظ كتاب الرسائل والدواوين البعيدة من الاشتباه والالتباس . . المحمولة على الاستعارة والتلويح ، على مذاهب الكتاب وأهل الخطابة ، دون مذاهب المتشدقين والمتفاصحين . . . ملتقطة من كتب الرسائل وأفواه الرجال . . . ومتخيرة من بطون الدفاتر ومصنفات العلماء ، فليست لفظة منها إلا وهي تنوب عن أختها في وضعها من المكاتبة ، أو تقوم مقامها في المحاورة إما بمشاكلة أو بمجانسة أو بمجاورة . فإذا عرفها العارف بها وبأماكنها التي توضع فيها كانت له مادة قوية وعونا وظهيرا » .

ومن أمثلة ما تخيره الهمذاني في كتابه من الألفاظ والعبارات المترادفة ما جاء بمعنى اصلاح الفاسد ، تقول : لمَّ فلان الشعث ، وضمَّ النَّشر ، ورمَّ الرث ، وسدَّ الثغر ، ورقع الخرق ، ورتق الفتق ، وأصلح الفاسد ، وأصلح الخلل ، وجمع الشتات ، وجبر الوهن .

وكل هذه العبارات تدور حول معنى الجمع بعد التفريق والإصلاح بعد الخلل . فإذا صلح الفاسد قلت استقام المائل ، وانشعب الصدع ، وانجبر الوهي ، وانحسم الداء ، وارتتق

الفتق ، واعتدل الميل ، واندمل الكلْم .

وفي باب اللوم ترد ألفاظ وعبارات يشيع استعمالها بين الأدباء والكتاب ، لم ينل منها الزمن ، ولم يفسدها طول العهد . تقول : لمت الرجل لوما ، وعذلته عذلا ، وأنَّبْتُه تأنيبا ، وقرَّعته تقريعا ، ووبخته توبيخا ، وبكَّته تبكيتا ، ولحيته لحيا ، وعنفته تعنيفا . فهي المعاتبة ، ثم اللوم ، ثم التقريع ، ثم التوبيخ ، ثم التأنيب .

ومن ضروب اللوم أيضا قولهم : استذم الرجل ، واستلامَ وألامَ إذا فعل فعلا يلام عليه فهو مليم ، وما زلت أتجرع فيك الملائم . ويقال : لام فلان غير مليم ، وذم غير ذميم ، وأنحى فلان على فلان باللائمة ، وأحال عليه بالتعنيف .

ومن العبارات الشائعة في باب التوبة قولهم : تاب الرجل من ذنبه ، وأناب ينيب إنابة ، وأفاء يفيء فيأ وفيئة . ويقال : غسل إساءته ، ومحا ذنبه ، وأعتب يعتب إعتابا ، والاسم العتبى وهي المراجعة ، وأقلع عنه إقلاعا ، ونزع عنه نزوعا . ويقال أعتب الرجل إذا تاب . ويقال استفاق استفاقة ، وارعوى ارعواء ، وانتهى انتهاء ، وارتدع ارتداعا ، وقد أقصر الرجل إقصارا . ويقال : أقصرت عن الشيء إذا نزعت عنه ، وقصرت عنه إذا عجزت عنه قصورا ، وقصرت فيه إذا فرطت فيه . ويقال إذا رجع عن توبته : ارتد ، وانتكث ، ونكص على عقبيه ، وارتكس .

وفي باب التمادي في الضلال تقول : تمادى الرجل في غيِّه ، وأوضع في جهله (والإيضاع : السير الشديد) ، وتتابع في عمايته ، وتاه في ضلالته ، ولجَّ في غلوائه ، وسدر في غيه ، ومضى في عمايته ، وتردّى في جهالته ، وجمح في غوايته ، وأمعن في إساءته ، وضرب في عشوائه .

وفي باب العفو تقول : عفوت عن فلان ، وصفحتُ عنه ، وتجاوزت عن ذنبه ، وأغضيت عنه جفني . ويقال : تغاضيت عنه ، أي تغافلت عنه ، وأقلت عثرته ، وأنهضته من كبوته ، وأنهضته من ورطته ، وكظمت غيظي ، وأبقيت عليه ، وأغضيت منه على قذى . ومن قول أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه : « فكم أغضي الجفون على القذى ، وأسحب ذيلي على الأذى ، وأقول : لعل وعسى » .

ويقال في باب الزلة والخطأ : كان ذلك من فلان زلة ، وهفوة ، وعثرة ، وسقطة ، وفلته ، وكبوة ونبوة . ومن الأمثال في هذا : لكل جواد كبوة ، ولكل صارم نبوة ، ولكل عالم هفوة .

ويقال في باب الغيظ : غضب الرجل غضبا ، واغتاظ اغتياظا ، وتضرم تضرما ، واحتدم احتداما ، واستشاط استشاطة ، وامتعض امتعاضا . وتقول : ضمد فلان على فلان ، وحرِد وعبِد ، وقد فارَ فائره ، وهاج هائجه ، ووجدته مغيظا ، و محَنقا ، ومُحفظا .

وخلاصة القول أن طول عمر اللغة العربية ، وكثرة التابعين ممن أودعوها أسرار فصاحتهم ، ونبوغ قرائحهم ، قد أغناها ، ووسع مجالات التعبير فيها ، بحيث يمكن إيصال المعنى الواحد بوسائل مختلفة ، وأساليب متنوعة ، فاللفظ زينة المعنى ، والمعنى عماد اللفظ .□

كيف أفعل ؟

المؤلف : لقد اكتشفت لأول مرة بعد عشر سنوات من التأليف أنني لا أصلح للتأليف إطلاقا .

الصديق : وهل تنوي اعتزال التأليف ؟

المؤلف : كيف أفعل ، وقد صرت شهيرا كما ترى ؟!

بعض محاسن "اليتيمة"

لقد سميت هذه القصيدة «اليتيمة» لأن قائلها مجهول . وقد وردت أربع روايات للقصيدة ، تبدأ كلها برواية القاضي أبي القاسم التنوخي ، وتنتهي بالشاعر المجهول ، إلا واحدة منها ذكرت أن القصيدة ربما كانت من نظم دوقلة المنبجي . ولم تزد على ذلك .

وهناك من الرواة من يدعي أنها من « غُفل » شعر ذي الرمة ، الشاعر الأموي المشهور . أما ناشر القصيدة المعاصر ، وهو الدكتور صلاح الدين المنجد ، فيعقب على ملاحظات الرواة بقوله : « .. أما دوقلة فلم تذكره الكتب والمصادر مطلقا . وقد وجدنا أن اسمه في سند ابن خير الحسين بن محمد المنبجي ، ولقبه دوقلة . وزعم عيسى اسكندر المعلوف أن اسمه دوقلة العبد ، وأنه أخذ ذلك من مخطوطة المكتبة الظاهرية ، وليس في مخطوطة الظاهرية هذا الاسم » .

من هذه الروايات ، ومن غيرها ، يتضح الخلط والاضطراب في نسبة القصيدة ، مما يرجح إبقاءها « يتيمة » ، ليس لأنها تسببت في مقتل ناظمها كما ذهبت إحدى الروايات فحسب ، بل لأن القطع في نسبتها إلى شاعر بعينه أمر متعذر .

وكما اختلف الرواة في نسبتها الى شاعر معين ، اختلفوا أيضا في القصة التي نسجت حولها . على أن هناك قصتين متداولتين لايتسع المقام لذكر أكثر من واحدة منهما : وهي رواية جرجي زيدان في مجلة الهلال ، وقد نشرها في مطلع هذا القرن : « ذكروا .. أن فتاة من بنات أمير من أمراء نجد ، بارعة الجمال ، اسمها دعد ، كانت شاعرة بليغة ، وفيها أنفة ، فخطبها الى أبيها جماعة كبيرة من كبار الأمراء ، وهي تأبى الزواج إلا برجل أشعر منها ، فاستحث الشعراء قرائحهم ، ونظموا القصائد ، فلم يعجبها شيء مما نظموه . . . وكان في تهامة شاعر بليغ ، حدثته نفسه أن ينظم قصيدة ، (ويذهب بها الى نجد) فالتقى في طريقه بشاعر (آخر) ، فلما اجتمعا باح التهامي لصاحبه بغرضه ، وقرأ له قصيدته ، فرأى أن قصيدة التهامي أعلى طبقة من قصيدته ، وأنه إذا جاء بها الى دعد أجابته الى خطبتها . فوسوس له الشيطان أن يقتل صاحبه ، وينتحل قصيدته ، فقتله ، وحمل القصيدة حتى أتى نجداً ، ونزل على ذلك الأمير ، وأخبره بما حمله على المجيء . فدعا الأمير ابنته ، فجلست بحيث تسمع وترى . وأخذ الشاعر ينشد القصيدة ، فأدركت دعد من

لهجته أنه ليس تهاميا ، ولكنها سمعت أثناء إنشاده أبياتا تدل على أن ناظمها من تهامة ، فعلمت بنباهتها أن الرجل قتل صاحب القصيدة ، وانتحل قصيدته ، فصاحت بأبيها « اقتلوا هذا ، فإنه قاتل بعلي » ، فقبضوا عليه واستنطقوه فاعترف .

والقصيدة مكونة من ٦١ بيتا ، وقد يزيد هذا العدد أو يقل تبعا للمخطوطة التي ننظر فيها ، وهي في أربع مخطوطات .

تبدأ القصيدة بالوقوف على الأطلال ، ثم يلي ذلك وصف دعد وصفا حسيا جميلا ، يليه غزل رقيق ، ينم عن مشاعر فياضة ، وتختتم بأبيات في الحكمة ورفعة النفس . وقد اخترنا بعض أبيات الوصف :

لهفي على دَعْدٍ وما حفلت
إلاّ بحرّ تلهّفي دَعْدُ

بيضاءُ قد لبس الأديمُ أديم
الحُسْنِ فهو لجلدها جِلْدُ «١»

ويزينُ فوديها إذا حَسَرت
ضافي الغدائرِ فاحِمٌ جَعْدُ «٢»

فالوجْهُ مثلَ الصبح مبيضٌ
والفَرْعُ مثلَ الليل مسوَدُّ «٣»

ضِدّان لّما استجمَعا حَسُنا
والضدُّ يُظهِرُ حُسْنَهُ الضِدُّ

وجَبينُها صَلْتٌ وحاجِبُها
شَخْتُ الخَطِّ أزجُّ مُمْتَدُّ «٤»

وكأنّها وَسْنَى إذا نَظَرَتْ
أو مُدْنَفٌ لَمّا يُفِقْ بَعْدُ «٥»

بفُتُورِ عَيْنٍ ما بها رَمَدٌ
وبِها تُداوى الأعْيُنُ الرُمْدُ

وتُريكَ عِرْنينًا به شَمَمٌ
وتُريك خدًّا لونُه الوَرْدُ «٦»

وتجيلُ مِسْوَاكَ الأرَاكِ على
رَتِلٍ كأنَّ رُضابه الشَّهْدُ «٧»

والجِيدُ منها جِيدُ جازئةٍ
تعطو إذا ما طالها المَرْدُ: «٨»

وكأنما سُقِيَتْ ترائبُها
والنحر ماء الحسنِ إذْ تبدو «٩»

وامتدَّ من أعضادِها قَصَبٌ
فَعْمٌ زهتْهُ مرافقٌ دُرْدُ «١٠»

ولها بَنانٌ لو أردْتَ له
عَقْداً بكفّكَ أمْكَنَ العَقْدُ «١١»

وانِعْصيان فما يُرى لهما
من نَعْمةٍ وبَضاضةٍ زَنْدُ

والبطْنُ مطويٌ كما طُويَتْ
بيضُ الرِّيَاطِ يصونُها المَلْدُ «١٢»

وبخصْرِها هَيَفٌ يُزَيِّنُه
فإذا تَنُوءُ يكادُ ينقَدُّ «١٣»

وَمَشَتْ على قَدَمَيْنِ خُصِّرَتا
وأُلينتا ، فتكامَلَ القَدُّ

«١» الأديم : الجلد . أي أن جلدها لبس جلدا آخر من الحسن .

«٢» الفودان : مثنى فود ، وهو معظم الشعر مما يلي كل أذن «٣» الفرع : الشعر «٤» صلت : واسع واضح . الشخت : الدقيق . الأزجّ : الدقيق الطويل «٥» مدنف : المريض و قد ثقل مرضه «٦» العرنين من كل شيء أوله ، وعرنين الأنف أوله ، وهو ما تحت مجتمع الحاجبين ، والشمم : الارتفاع «٧» الأراك : جمع أراكة ، شجر يستاك بأعواده له نكهة طيبة . والرتل : الثغر الذي فيه أسنان حسنة التنسيق ، كثيرة البياض «٨» الجازئة : الظبية ، تعطو : ترفع رأسها ، المرد : شجر الأراك . «٩» الترائب : موضع القلادة . والنحر : أعلى الصدر «١٠» الفعم : الممتلىء . الدرد : أي ليس بها نتوء عظم . «١١» بنان : الأصابع ، مفردها بنانة . «١٢» الرياط : الثياب اللينة الرقيقة . الملد : الشباب الناعم . «١٣» الهيف : دقة الخصر . تنوء : تنهض . ينقد : ينقطع . يقول : إن خصرها يكاد ينقطع لعظم أردافها ورقته .

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

دعوة للترشيح لجائزة الكويت لعام ١٩٨٩

تمشياً مع أهداف مؤسسة الكويت للتقدم العلمي وتحقيقا لأغراضها في تدعيم الانتاج العلمي وتشجيع العلماء والباحثين ، تقوم المؤسسة بتخصيص جوائز في مجالات العُلوم والآداب والفنون والتراث وذلك وفق برامجها السنوية . وتسجل المؤسسة من خلال هذه الجوائز اعترافها بالانجازات الفكرية المتميّزة التي تخدم التقدم العلمي وتساعد على النهوض بالمجهودات المبذولة لرفع المستوى الحضاري في مختلف الميادين :

وموضوعات جائزة الكويت لعام ١٩٨٩ في المجالات الخمسة هي كما يأتي :

١ ـ العلوم الأساسية : علم الوراثة .
Genetics

٢ ـ العُلوم التطبيقية : الهندسة الصناعية .
Industrial Engineering

٣ ـ العلوم الاقتصادية والاجتماعية : دور المرأة في التنمية في الوطن العربي .
The Role of Woman in Development in the Arab World

٤ ـ الفنون والآداب : النقد الأدبي .
Literary Criticism

٥ ـ التراث العلمي العرّبي والإسلامي : البيطرة وعلم الحيوان في التراث العربي .
Veterinary and Zoology in Arab Heritage

وتخصص المؤسسة سنويا في كل مجال من المجالات المذكورة جائزتين مقدار كل منهما (١٠,٠٠٠ د . ك) عشرة الآف دينار كويتي . جائزة لواحد (أو أكثر) من أبناء دولة الكويت وأخرى لواحد (أو أكثر) من أبناء البلاد العربية الأخرى . كما تقدم المؤسسة مع الجائزة النقدية درع المؤسسة وشهادة تقديرية تبين مميزات الانتاج بصورة مختصَرة .

ويتم منح جائزة الكويت وفق الشروط الآتية :

١ ـ يجب أن يكون الانتاج مبتكرا وذا أهمية بالغة بالنسبة الى الحقل المقدم فيه ومنشورا خلال السنوات العشر الماضية .
٢ ـ ألا يكون المرشح قد نال جائزة ، عن الإنتاج المقدم ، من أية جهة أخرى .
٣ ـ تقبل المؤسسة طلبات المتقدمين وترشيحات الجامعات والهيئات العلمية كما يحق للأفراد الحاصلين على هذه الجائزة ترشيح من يرونه مؤهلا لنيلها . ولا تقبل ترشيحات الهيئات السياسية .
٤ ـ يتضمن الترشيح السجل العلمي للمرشّح ونبذةً مختصرة عن حياته وانتاجه ومبررات ترشيحه لنيل الجائزة .
٥ ـ لا يعاد الانتاج المُقدَم الى مرسِله سواء فاز المرشحُ أو لم يفز .
٦ ـ لا تقبل الاعتراضات على قرارات المؤسسة بشأن منح الجوائز .
٧ ـ على الفائز أن يقدم محاضرة عن الانتاج الذي نال الجائزة بسببه .
٨ ـ تقبل الترشيحات ابتداء من ١٩٨٩/٤/١ ولغاية ١٩٨٩/١٠/٣١ مشفوعة بأربع نسخ من الانتاج المقدم .

ترسل الترشيحات ، والاستفسارات بشأن الجائزة ، على العنوان الآتي :

السيد مُدير عـام مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

ص . ب : ٢٤٥٢٦٣ الكويت . الصفاة 13113 ـ تلفون : ٢٤٢٥٨٩٨
ـ فاكس : ٢٤١٥٣٦٥ (٩٦٥) ـ تلكس : ٤٤١٦٠ كيفاس

نظرات نقدية في صناعة المعجم العربي

بقلم : الدكتور حامد صادق قنيبي *

المعجم كتاب يجمع بين دفتيه ألفاظ اللغة ، مفرداتها وتراكيبها والمعالم الحضارية فيها ، بغية شرحها وإيضاحها ، شريطة أن يرتب ترتيبا معينا . فما الجديد الذي جاء به هذا المقال ؟ .

صناعة المعجم تقوم على دعامتين أساسيتين هما : التعريف والتصنيف ، وهما متلازمتان ، تؤثر الواحدة في الأخرى . والمعجم الأوربي على الرغم من حداثته النسبية لم يحد عن الترتيب « الالفبائي » النطقي المطلق . وذلك لأن شخصية اللغات الأوربية تتسم بالإلصاق والنحت ، والألفاظ فيها وحدات مستقلة ، كل لفظ فيها يشكل مدخلا مستقلا .

أما المعجم العربي ، وهو العريق في أسبقيته لكثير من معاجم اللغات الأخرى ، فإن الترتيب فيه وإن تعددت مدارسه إنما يقوم على أساس من أن شخصية اللغة العربية تتسم بالاشتقاق والقياس ، وأن اللفظة فيها جزء من بناء متكامل ، وبينها وبين الأصل وشائج وعرى لا تنفصم .

الترتيب الصوتي

أما تعدد منهجيات ترتيب المداخل فيه فقد كان استجابة لتحقيق غايات معينة ، لم تخل بالجوهر الأساسي لطبيعة اللغة الاشتقاقية ، وإنما كانت خدمة تعليمية لمستعملي المعجم .

فالترتيب الصوتي التقليبي نبع أصلا من رغبة الخليل بن أحمد الفراهيدي في جمع اللغة

* أستاذ اللغة والأدب بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران ـ المملكة العربية السعودية .

وتدوينها ، درءا لطروء ظاهرة اللحن ، وتأكيدا على تعزيز صلة الأصوات العربية بتلاوة القرآن الكريم . وحقا لقد استحق الخليل بن أحمد الفراهيدي ريادة المعجم العربي ، لأنه استطاع بنظرية ترتيب الحروف ترتيبا صوتيا ، وتقليب جذور اللغة موضعيا ، أن يستدعي ألفاظ العربية ، ويؤكد ثبات أصوات حروفها . ثم توالت مدارس المعجم العربي ، وإن ظلت عالة عليه إلا أن كلا منها حاول أن يضيف جديدا .

فمدرسة القافية ، ورائدها أبو نصر اسماعيل الجوهري (من علماء القرن الرابع للهجرة) ، هدفت إلى تزويد المتأدبين والشعراء بالقوافي والأسجاع ، ولم تخرج عن الترتيب الأصولي الاشتقاقي إلا عند اعتماد أواخر الأصول محورا لترتيب المداخل ترتيبا ألفبائيا حقليا .

أما مدرسة الترتيب الالفبائي الأصولي (حسب أوائل اللفظ العربي) ورائدها محمود بن عمر جار الله الزمخشري ، فلقد سهلت على الدارسين استخدام المعجم ، وسلكت ألفاظ اللغة في عقد منتظم الحلقات ، أساسه الأسر اللفظية التي تتجمع حول أصل اشتقاقي واحد .

ثم إننا قد نرى مدارس أخرى تجمع بين أكثر من منهجية ، ولكل فيها يرى مذهب .

مشكلة الألفاظ الدخيلة

لقد حظيت مدرسة الترتيب الالفبائي (حسب أوائل الأصول) بالنصيب الأوفر من اهتمام المعجميين ، حتى أن الاتجاه الحديث اتجه لإعادة ترتيب المدارس الأخرى على طريقة « المصباح المنير وأساس البلاغة » . ولكن ما زالت الألفاظ المعربة والدخيلة مشكلة يتصدى المعجميون لحلها ، ذلك أن إدخالها متن اللغة ، واختلاطها بالأصول الاشتقاقية ، مدعاة للبلبلة والاضطراب . يقول الطاهر الزاوي في مقدمة (ترتيب القاموس المحيط ص ٤ : « ولطلاب العلم عذرهم في الانصراف عن مراجعته - قاموس الفيروز أبادي - إذ كيف يعلم طالب العلم أن يوسف في (أ س ف) ، وفيروز أباد في (ف ر ز) » .

وإذا نظرنا إلى الألفاظ المعربة التي دخلت متن اللغة العربية وجدنا اضطراب مداخلها واختلاف نظام ترتيبها في المعجم ، بسبب محاولة إلحاقها بالأبنية العربية وتطورها الدلالي . أضف إلى ذلك عدم الاتفاق على نطق موحد لها ، وهو ما اصطلحوا على تسميته بتعدد اللغات ، قال الجواليقي : « وكذلك تجد العرب إذا وقع إليهم ما لم يكن من كلامهم تكلموا به بألفاظ مختلفة » .

نماذج من المعرب

عند مطالعتنا - مثلا - للفظ (الأطربون) نرى تعدد لغاتها ، واختلاف المعاجم في إدراجها ، ولولا اعتمادنا على معجم (المساعد) لما استطعنا أن نقف على مفارقات وضعها في المصادر العربية ، لأن تجريدها يفضي حتما إلى تعدد احتمالات العثور عليها ، فهي في (التاج) في مادة (ط ر ب ن) ، وفي (التهذيب) في مادة (ذ م ر) ، وفي غيرهما في مادة (ط ر ب) .

وتحت مادة (ب ر س) نجد في (اللسان) لفظ (النبراس) ، على اعتبار النون زائدة ، كما نجد (البرنساء) ، على اعتبار النون زائدة ، وليس هناك رابط معنوي بين (النبراس والبرنساء والبرس) ، فالأول للمصباح ، والثاني لابن الإنسان . يقول محقق المعرب للجواليقي ص ٣٨٨ في (النبراس) : « لم يذكر أحد غيره - الجواليقي - أنه معرب ، وقد ذكره ابن دريد في (باب ما جاء على فعلال ونفعال) في الجمهرة (٣٨٦/٣) . وذكره (اللسان) في فصل النون ، وأشار إلى أنه ثلاثي ، وذكره قبل في فصل الباء ، وقال : (قال ابن سيده : وإنما

قضينا بزيادة النون ، لأن بعضهم ذهب إلى أن اشتقاقه من البرسن الذي هو القطن ، إذ الفتيلة في الأغلب إنما تكون من قطن) . وذكره الأزهري في الرباعي ، قال : (ويقال للسنان نبراس ، وجمعه النبارس) . و (الأجر) : الطوب المشوي ، فيه لغات ، قال صاحب المقرب ص ٦٩ : « وفيه لغات : آجُرٌّ ، بالتشديد . وآجُرٌ ، بالتخفيف . وآجُورٌ ويَاجُورٌ ، وآجُرُون وآجِرُون . وقد ذُكِرَ في اللسان في مادة (أ ج ر) » .

و (الإسفنط) : الخمر المعتقة . فيه سبع لغات (المعرب للجواليقي ص ٦٦) ، وذكر في أكثر من مادة : ففي (اللسان) ذكر في خمس مواد : (أصفد . أصفط . أسفط . أصفِند . سفط) . والمعروف أن (اللسان) ناقل عمن سبقه . وفي (تاج العروس) ذكر في مادتين : (سفط وصفط) .

و (جبريل) ، قال الجواليقي في المعرب (ص ١٦١) : إن فيه سبع لغات . وقد ذكره صاحب اللسان في ثلاث مواد : (جبر . جبرل . جبرن) ، وقال في (البحر المحيط) ٣١٧/١ : « وقد تصرفت فيه العرب على عادتها في تغيير الأسماء الأعجمية ، حتى بلغت فيه إلى ثلاث عشرة لغة » .

أمثلة أخرى

ومثل هذا كثير في المعربات والدخيل . وانظر - إذا شئت مزيدا - مداخل ولغات الطائفة التالية من الألفاظ : المنجنيق . رستاق. الطيلسان . العربون . الفالوذج . ابراهيم . بالإضافة إلى ما ورد عند ذكر معانيها من مفارقات .

وعلى أي حال ، فلقد انتهى مجمع اللغة العربية بالقاهرة من انتهاج المزاوجة بين النظام الالفبائي الأصولي (بحسب أوائل الألفاظ) ، والنظام الالفبائي النطقي المطلق ، لحل مشكلة إدراج الكلمات المعربة والدخيلة ، وهي في ازدياد كما أوضحنا ، فاعتبر كلمات : اسبرين . وتلفون . ونيوترون . ونيون . وأمثالها ، كل حروفها أصولا ، ونجدها بحسب ترتيب حروفها لا تحت جذر معين . وقريب من هذا النهج صنع العلايلي معجم (المرجع) . □

حلم :

● دخل أبو دلامة على الخليفة المنصور ذات يوم فأنشده :

إني رأيتك في المنا م وأنت تعطيني خيارة
مملوءة دراهما وعليك تأوين العبارة

فقال المنصور: «امض فأتني بخيارة أملؤها لك دراهم ودنانير» .

فغاب قليلا، وعاد يحمل قرعة كبيرة، فقال المنصور:

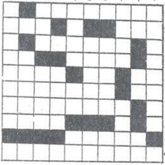
- ما هذا؟

- عفوك يا مولاي، لقد حلمت بالقرعة، ولكني نسيت، فلما رأيتها في السوق تذكرتها.

فضحك المنصور وأجازه.



الكلمات المتقاطعة



يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذى سينشر فى العدد القادم .

كلمات أفقية :

١ ـ فيلسوف ومؤرخ عربي يعد مؤسس علم الاجتماع .

٢ ـ يتمدّد دون أن ينقطع ، تيس جبلي له قرنان معقوفان .

٣ ـ مزمار في صيغة الجمع .

٤ ـ يكرم الضيف معكوسة ، جواب .

٥ ـ اترك ، تجدها في يباب ، يعيش زمناً طويلاً .

٦ ـ مودّة ، جغرافي ورحالة عربي ولد في القدس .

٧ ـ شاعر أندلسي رقيق العاطفة ، دقيق الوصف ، طريف التشابيه .

٨ ـ من أنبياء الله .

٩ ـ من سور القرآن الكريم .

١٠ ـ الاسم الأول لفيلسوف الهند طاغور .

كلمات عمودية :

١ ـ اسم لشاعر كتب قصيدة من ٦٠ ألف بيت تعرف بالشاهنامة .

٢ ـ فاقَ وتَميَّز ، حَسَب ، حرفان متشابهان .

٣ ـ متصل بالنجوم ، أمتن وأقوى .

٤ ـ موسيقي أندلسي أخذ الغناء عن اسحق الموصلي ، حرف جر .

٥ ـ جئن أو اثنين ، اشتد في العداوة .

٦ ـ يسيل دماً ، صفرة البيض ، برد شديد .

٧ ـ يقضي على ثورة أو تمرّد .

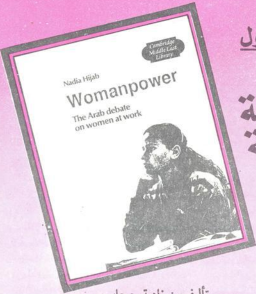
٨ ـ ضياء ، رقميّ .

٩ ـ اسم لفرعون شهير .

١٠ ـ جغرافي عربي كبير وصاحب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » .

● حل مسابقة العدد الماضي يوليو ١٩٨٩م .

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	■	ك	ع	ب	ب	ن	ز	هـ	ي	ر
٢	ا	■	ك	د	ش	■	ل	ج	■	ش
٣	ب	م	■	ا	ا	أ	■	ا	إ	ا
٤	ن	س	ك	■	ر	س	ا	ء	ل	■
٥	ا	ك	ث	م	ب	ن	ص	ي	ف	ي
٦	ل	■	ي	و	ن	ا	ن	■	ر	ا
٧	ر	ر	ر	■	ب	د	ا	■	ز	س
٨	و	ا	ع	■	ر	■	م	هـ	د	م
٩	م	ج	ز	■	د	ق	■	ن	ق	ي
١٠	ي	ل	هـ	م	■	س	هـ	د	■	ن



نقاش حول

القوّة العاملة النسائيّة في الوطن العربي

تأليف : نادية حجاب

عرض وتحليل : الدكتور ابراهيم أبو ربيع

وجهة نظر جديدة حول أوضاع المرأة العاملة في الوطن العربي ، أهم ما يميزها أنها شاملة وغير تقليدية ، وتطرح من الأسئلة حول المرأة العاملة بقدر ما تجيب عن غيرها .

إن أي تحليل علمي و « أكاديمي » للمسألة النسائية في العالم بشكل عام ، وفي المجتمع العربي بشكل خاص ، يتطلب بحثا تفصيليا في الدور الاجتماعي والوظيفي للمرأة ، وموقف الدين من المرأة ، والصلة بين المرأة والتغيرات الاجتماعية ، وعلاقة المرأة مع تطوير المجتمع وتحديثه .

وفي عصرنا هذا أخذ موضوع المرأة حيزا كبيرا من المناقشات ، لم تكن تطرح من قبل ، فهناك مثلا في العالم الغربي نقاش مستمر حول مهمات المرأة الاجتماعية ، ودورها السياسي والاقتصادي ، وحقها بالانتخاب . هذه المناقشات سمحت للمؤسسات « الأكاديمية » ، وبخاصة الجامعات في العالم الغربي ، باتخاذ الجنس (gender) مقياساً « أكاديميًّا » في الدراسات الإنسانية والاجتماعية ، مما أدى إلى ازدياد نسبة الطالبات في الجامعة .

إن أحد أهم العوامل التي أثرت - وما زالت تؤثر - على حاضر المرأة في أي مجتمع بما في ذلك المجتمعات « الاشتراكية » هو عامل الدين . إن كل الأديان العالمية ، بداية بالهندوسية والبوذية ونهاية باليهودية والمسيحية والاسلام ، اتخذت مواقف نظرية محددة من المرأة ، وقد أثرت هذه المواقف الدينية تأثيرا جذريا على مسألة « تحرير المرأة » في المجتمعات الحديثة ، وفي كثير من الأحيان فإن نقاش هذه المسألة لم يخرج عن حيز النقاش حول الدين وفلسفته وتأثيراته الاجتماعية والسياسية .

وفي هذا المجال فإن أي حركة نسائية عربية - باعتقادي - يجب أن تخضع الدين كنظرية وكفلسفة حياة لمقاييس المناقشات العلمية والعقلية الدائرة في المجتمع العربي حول المرأة ، وكذلك يجب النظر بجدية نحو الفلسفة الدينية ومدى تأثيرها على النساء في المجتمع .

النساء والتغير الاجتماعي

إن موضوع النساء والتغير الاجتماعي يتساوى في أهميته مع موضوع الدين والنساء ، فالتحولات الاجتماعية السريعة في كل المجتمعات الحديثة جرت على حساب النساء أكثر من الرجال . وحتى في مجتمع متقدم علميا وصناعيا كالمجتمع الامريكي مثلا ما زالت هناك الكثير من العوائق العملية التي تمنع المساواة الاجتماعية والعلمية بين المرأة والرجل ، فالرجال عادة يتخذون القرارات المهمة في معظم مجالات الحياة . وهذا بالتالي يؤدي إلى خلق فروق اجتماعية بين الرجل والمرأة[٩] . إن هذه الفروقات بدأت بالواقع مع حلول الثورة الصناعية في أوربا في القرنين السابع والثامن عشر ، وتشغيل النساء والأطفال في المصانع . هذا الاستغلال العملي للنساء خلال الثورة الصناعية انتقل أيضا لاستغلال نساء العالم الثالث مع التوسع الاقتصادي والعسكري للغرب خارج أوربا بعد القرن الثامن عشر . وكما نرى فإن النساء والأطفال مازالوا يشغلون مركزا اقتصاديا مهما في كثير من بلدان العالم الثالث ، وبخاصة الفقيرة منها . ولكن مع أهمية هذا المركز فإنه يعد متدنيا مقابل مركز الرجال الاقتصادي .

إن السؤال المطروح هنا هو أنه إذا كانت المرأة ، وبخاصة في العالم الثالث ، في علاقة تبعية مع الرجل ، والقرارات السياسية

والاجتماعية العليا في المجتمع في يده فما هو دورها في تطوير مجتمعها وتحديثه ؟

هذا هو السؤال الذي تحاول الكاتبة نادية حجاب الإجابة عنه . تناقش المؤلفة العديد من القضايا المعاصرة التي تخص المرأة ، وهذه القضايا يمكن تلخيصها كالتالي :

أولا : دور المرأة الاجتماعي .

ثانيا : موقف الدين - أي الاسلام - في هذه الحالة من المرأة .

ثالثا : علاقة المرأة مع التغير الاجتماعي .

رابعا : المرأة والتحديث .

تبدأ نادية حجاب كتابها باقتباس عن المحامية الكويتية بدرية العوضي التي تقول : إن المشكلة الرئيسية للنساء في الوطن العربي هي أنهن لا يعرفن حقوقهن القانونية ، والسبب الرئيسي لهذا الجهل هو أن النساء لم يشتركن في العملية القانونية أو في سن تشريعات . بعد ذلك تنتقل الكاتبة للحديث عن المرأة في الوطن العربي في السبعينيات من هذا القرن .

استعراض تاريخي

تؤرخ الكاتبة للمسألة النسائية في الوطن العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى أوائل الثمانينيات من هذا القرن . في تحليلها لهذه المسألة تتتبع الكاتبة القواعد النظرية التقليدية التي طرحها البرت حوراني في كتابه « الفكر العربي في عصر النهضة » ، فتتحدث عن موقف كل من الأفغاني ، ومحمد عبده ، والطهطاوي ، وقاسم أمين ، تجاه المرأة . والكاتبة تعتقد ، كما يعتقد حوراني ، أن هذه الشخصيات عكست فكرا « ليبراليا » في العصر الحديث ، وأكدت على أهمية تثقيف المرأة كعنصر إنساني فعال في المجتمع . وفي هذا الإطار لا تذكر أهمية مفكرين عرب آخرين ، طرحوا في كتاباتهم الصراعات العقلية والعملية التي مر بها المجتمع العربي (وبخاصة المصري) في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، كالشيخ حسن العطار ، والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي ، واللذين تنبع أهميتهما من الاحتكاك المباشر مع الأفكار الغربية ، ونقاش هذه الأفكار من وجهة نظر تشريعية وتاريخية . ولا شك أن هذين المؤلفين طرحا الأسس النظرية للفكر العربي الحديث ، بما يتعلق بالشريعة ، وبالقانون الوضعي والعلم والفلسفة الغربيين . في هذا السياق نرى أن ما تسميه الكاتبة « الامبريالية الثقافية » في الوطن العربي ، في النصف الأول من هذا القرن ، ما هو إلا صورة أخرى للسيطرة السياسية والاقتصادية للعالم الغربي على الوطن العربي . إن الاستعمار قد شجع الأقليات في الوطن العربي على إشغال مراكز إدارية وتعليمية مهمة في الوسط العربي . إلى جانب ذلك فإن الاستعمار شجع النساء الأجنبيات على الانخراط في الحياة الثقافية ، وهذا أدى إلى خلق فجوات بين النساء العربيات ، والنساء الأجنبيات ، في الوطن العربي .

بعد انتهاء الاستعمار ، تقول الكاتبة : إن الفكر القومي العربي حاول حل إشكالية المرأة في المجتمع العربي ، ولكن الفكر القومي جوبه بمقاومة اجتماعية وفكرية من أفكار السلفيين الإسلاميين . تذكر الكاتبة في هذا المجال أن الحركة الإسلامية جربت إعطاء صبغة جديدة لهوية المرأة وعلاقتها مع الرجل ، وذلك بالاعتماد على مفاهيم إسلامية ، وبحسب رأي الكاتبة فإن الحركة الإسلامية شجعت المرأة بلباسها الإسلامي على الانخراط في سلك التعليم والعمل خارج المنزل . فالمرأة حسب هذا المفهوم تستطيع أن تصبح معلمة أو صحافية أو مهندسة دون أن تخسر هويتها كامرأة مسلمة .

والفلسفة الإسلامية النظرية ترتكز على أهمية الإنسان (الرجل والمرأة) في النظرة الإلهية للكون . وترى الكاتبة أن الحركات الإسلامية

المعاصرة حاولت أن تعيد صورة الإنسان كما يصورها القرآن إلى مركز فكرها الاجتماعي وحركتها السياسية . وبالتالي فإن المرأة مساوية للرجل في صفاتها الإنسانية ، وإن كان يجب عليها أن تتبع الرجل في الميادين السياسية والاجتماعية . إلى جانب ذلك فإن الحركة الإسلامية اتخذت الحجاب سلاحاً لمقاومة الغرب ، وبخاصة ضد الاستعمار الثقافي الغربي ونتائجه السلبية بالنسبة للعائلة والمرأة المسلمة . فالكاتبة تقتبس كلمات امرأة مسلمة من مصر بقولها : إن الغرب عرف كيف يسيطر علينا ، وذلك بالقضاء على ثقافتنا الإسلامية عن طريق اختراق العالم الإسلامي بواسطة التقنية والبضائع الغربية . مما أدى إلى الاعتماد السياسي والاقتصادي على الغرب ، وفقدان الهوية الثقافية العربية عن طريق تطبيق أساليب مشوهة من نظرية التحديث . فالعالم الغربي في هذا المجال يريد من الانسان العربي أن يكون دائما في حاجة ثقافية وفكرية له . ولا شك أن الوطنيين الإسلاميين في الوطن العربي يتفقون على ضرورة المواجهة الثقافية والفكرية للغرب ، مما يضعهم على قدم المساواة في تحقيق الاستقلالية للشخصية العربية والإسلامية ، وفي ضرورة اتخاذ منهج فكري معين لتحقيق هذه الاستقلالية .

كما رأينا سابقا فإن النقاش حول المرأة العربية ليس نقاشا عن دورها في المجتمع فقط ، وإنما نقاش عن دور الإسلام أيضا . وفي هذا المجال تذكر الكاتبة أنه من الصعوبة بمكان أن ينتقل هذا النقاش حول المرأة خارج إطار الإسلام على الرغم من أن النظم السياسية الحاكمة في الوطن العربي قادرة بتفكيرها على أن تخرج عن إطار الإسلام . ولكن يجب علينا ان ننتبه إلى أن النقاش حول المرأة في الوطن العربي بشكل عام مرتبط بمسألة التحرر الوطني إلى جانب ارتباطه بالإسلام . وهذا يحتم على أبناء المجتمع العربي أن ينظروا بجدية إلى علاقة الدين بالمجتمع ، وعلاقة الدين بالمرأة . فأي عملية تطويرية في المجتمع العربي لن تنجح - كما تقول الكاتبة - إذا لم يأخذ المعنيون بأمور التطوير في الوطن العربي بعين الحسبان الدور الحيوي والفعال الذي يجب أن تشغله النساء في هذا المجال .

المرأة العربية والعمل

ما هو الدور العملي للنساء في الوطن العربي ؟ وما هي العلاقة بين الرجل والمرأة في ميدان العمل ؟ تبدأ الكاتبة بنقاش هذا الموضوع المهم بقولها : إن استيعاب المرأة في عملية تطوير المجتمع الشاملة تعد من أهم الخطوات لتحرير المرأة . ولكن من المشاكل الرئيسية أن هناك قليلا من النقاش الجدي والعام حول عملية التطوير في الوطن العربي . فمن التناقضات الرئيسية أن ميدان العمل ، وبخاصة في مصر والسودان والأردن ، لا يستطيع استيعاب الرجال للعمل ، مما يحجم دور المرأة في العملية التطويرية .

وتحذر الكاتبة من أن عملية التحديث على النمط الغربي لا تعني في كثير من الحالات تقدم المرأة في ميدان العمل ، فالتحديث قد يؤدي إلى خفض - وليس إلى إعلاء - مركز المرأة ، خاصة في المناطق الفلاحية ، حيث تشغل المرأة مركزا

عمليا مميزا عن الرجل . وبالاعتماد على هذا المفهوم فإن العملية التطويرية ، اقتصاديا واجتماعيا ، في الوطن العربي ، يجب أن تعتمد على خطة اجتماعية واعية ، بمقدورها تطوير الامكانية الانتاجية المحلية التي يمكن أن تؤدي نهائيا إلى دفع المعدل العام للدخل القومي .

بالاضافة إلى ذلك يجب تطوير علاقات إنتاجية جديدة على مستوى الثقافة المدرسية والجامعية . وبرأيي أن أي تقدم في وضع المرأة في المجتمع يجب أن يركز أكثر على القدرات الإنسانية ، وليس على التصنيع في المجتمع فقط .

وتذكر الكاتبة أن من أهم العوائق أمام التطوير الإنساني والاقتصادي في الوطن العربي هجرة الأدمغة ، فحسب الكثير من الاحصائيات ، وبخاصة التي قام بها الدكتور انطوان زحلان ، فإن نسبة هجرة الأطباء والعلماء والمهندسين من الوطن العربي إلى أوربا الغربية وشمال أمريكا تساوي ٥٠٪ في حالة الأطباء ، و ٢٣٪ في حالة المهندسين ، و ٥١٪ في حالة العلماء (حسب إحصائيات ١٩٧٦) . ولا شك أن هذه النسب عالية جدا ، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن العائلة والمجتمع والدولة يصرفون الكثير من الجهد والمال لتعليم أبنائهم ، وبخاصة في المجالات الحيوية التي لها علاقة بالعملية التطويرية .

بعد شرح العملية الانتاجية وموقف المرأة منها تنتقل الكاتبة إلى الحديث عن هجرة العمالة في الوطن العربي نفسه ، خاصة إلى أقطار الخليج العربي ، وتأثير هذه الهجرة الداخلية على النساء . إن هجرة العمال (الرجال خاصة) للتفتيش عن مصادر رزق جديدة ، أدت إلى ارتفاع نسبة عمل النساء في السودان مثلا . فالكاتبة تشير إلى أن نسبة ازدياد عمل النساء في السودان في سنة ١٩٨٣ كانت ٢٣٪ ، ولكن الكثير من النساء شغلن مراكز غير مهنية ، خاصة في المصانع ، وبعضهن اشتركن بالعملية التربوية ، مما أدى إلى احتكاك أكثر بين المرأة والمجتمع .

ومع هجرة الأزواج للتفتيش عن الرزق بدأ كثير من النساء يلعبن دورا جديدا في المجتمع ، خاصة بإدارة شؤون العائلة المختلفة . إن بروز دور المرأة يرجع إلى تنامي قوة مركزها المالي ، والكثير منهن ـ حسب رأي الكاتبة ـ يشجع هجرة الأزواج للبحث عن العمل ، لأن هذا يضمن لهن الاستقلالية المالية ، وحتى الشخصية ، لبُعد أزواجهن عنهن ، وحسب رأي الكاتبة فإن ظاهرة هجرة الأزواج أدت إلى نتيجتين متشابكتين في حياة النساء العربيات : النتيجة الأولى رفع مستوى المرأة المالي والاجتماعي ، والنتيجة الثانية اشتراك المرأة في اتخاذ القرارات بالنسبة لحياتها وحياة أولادها ، خاصة أن الرجل في المهجر بحاجة إلى استشارة زوجية في الكثير من القرارات والخطوات التي لها علاقة بحياته وحياة العائلة بشكل عام . □

من وصايا لقمان لابنه :



حدثنا أدب التاريخ الواثق، قال: إن من وصايا لقمان لابنه :

ـ احفظ قلبك في الصلاة، واحفظ نظرك في بيوت الناس، واحفظ لسانك في مجلس الناس، واحفظ بطنك من حلقومك، واذكر اثنين، وانس اثنين: اذكر الله والموت، وانس إحسانك إلى من أساء إليك!



من المكتبة العربية

ما مشكلة طفلي ؟

تأليف : ملتون براتن ، وسيليفيا أو. ريتشاردسون ، وتشارلز مانغل

عرض : د . عادل عبدالكريم ياسين

لا يعد كل من يرتبك من الأطفال أو يعجز عن أداء حركة ما ، أو يعجز عن التعبير عن نفسه بوضوح متخلفا ، فقد يكون عادي الذكاء ، لكنه « عاجز عن التعلم » . فما الفرق بين التخلف والعجز عن التعلم ؟ الكتاب الذي نعرض له فيما يلي محاولة للإجابة عن هذا السؤال .

يقع كثير من الآباء في الارتباك والحيرة حين يلحظون عدم قدرة صغيرهم على إمساك الأشياء بكلتا يديه ، أو يلحظون إفراطا في حركته واندفاعه ، كما يواجه المعلمون صعوبات في تدريس بعض الطلبة ، ممن يثيرون الشغب في حجرة الدراسة ، أو يقومون بمضايقة زملائهم ، أو يهملون في أداء واجباتهم ، أو يكرهون المدرسة والدروس . وتشير الدراسات إلى وجود ارتباط بين هذه المظاهر السلوكية والاضطراب في الوظيفة العقلية أو الإدراك ، كما تشير إلى معالجة كثير منها إذا تيسر تشخيصها في مرحلة مبكرة .

وقد يوصف هؤلاء - خطأ - أنهم متخلفون عقليا ، وقد يكون بينهم مثل تلك الحالات ، غير أن الدراسات الحديثة الجادة ترى أن تصف - ضمن معايير معينة - هؤلاء « بالعجز عن التعلم » ، فالطفل المتخلف عقليا يكون محدود الفهم والقدرة على التعلم ، أما الطفل « العاجز

* ترجم الكتاب الى العربية د . لطفي محمد الأسدي .

عن التعلم » فإنه طفل مختلف ، إذ لا يقل ذكاؤه عن المتوسط ، وتكون لمثل هذا الطفل قدرة حبيسة ، تتحول الى طاقة إيجابية إذا أحسن التعامل معها ، أو قد تتفجر عن سلوك طائش ، إذا لم نتفهمها . ويشير الكتاب إلى أن حوالي ١٠٪ من أطفال العالم يعانون من هذه المشكلة ، كما أن تشخيص المعلم المبكر لهذه الحالة قد يساعد على تقديم العون المناسب في مجابهة جوانب العجز .

ألف هذا الكتاب ثلاثة من العلماء البارزين في علم النفس التربوي ، تقصوا فيه أشكال العجز عن التعلم ، وسبل البحث عن العون . وقد حظي الكتاب بشهادات تقدير عديدة ، من جهات تهتم بهذا المجال . تقول « مجلة الطفل غير العادي » : « إن من بين جميع الكتب التي صدرت على مر السنين في التربية الخاصة ، هناك ثلاثة أو أربعة فقط تستحق القراءة والاقتناء ، وهذا الكتاب واحد منها » . ويقول قسم الطب النفسي للأطفال في جامعة هارفارد : « طلع علينا كتاب عملي ، يزخر بالمعلومات ، متين الأسلوب ، يخاطب آباء



غلاف الكتاب

الأطفال المصابين بالعجز عن التعلم وأمهاتهم . ويطيب لنا أن نزكيه باعتباره دليلا ممتازا في متاهة هذه الآراء المتصارعة في مجال العجز عن التعلم » .

ولقد أحسن « مركز تقويم وتعليم الطفل » في الكويت في اختياره وتقديمه ، كما أحسنت مؤسسة الكويت للتقدم العلمي في نشره ، إذ أنه يضيف إلى الحقل العام ، والحقل التربوي على وجه خاص ، معلومات قيمة ، لا تنحصر فائدتها في حقل العجز الخاص عن التعلم ، بل إنها تتيح فهما أفضل للعقل ، وكيفية عمله ، وهذا الفهم يتيح إمكانية وضع استراتيجيات للتعليم على نحو أوفى . ويشتمل الكتاب على عشرة فصول تقع في ٢٢٤ صفحة .

أذكياء ولكن أغبياء

هذا هو عنوان الفصل الأول الذي يناقش الأحكام غير الدقيقة التي تصدر عن العديد من الأطفال ، بسبب من التصنيف غير الدقيق لحالاتهم ، إذ قد يوصفون بالاضطراب الانفعالي ، أو بالتخلف العقلي ، دون أن يكونوا كذلك فعلا . وتتجسد المأساة في تحويل هؤلاء إلى مؤسسات خاصة ، لا ينبغي أن يكونوا فيها . إن وخاصة العجز عن التعلم ، لا تؤثر في الذكاء ، بل تؤثر في مناطق محددة تختص بالتعلم والسلوك بما يتعذر على بعضهم تعلم القراءة أو الكتابة أو التهجي أو الحساب ، على الرغم من قدراته في نواح أخرى . وهذا الطفل المتسم بالذكاء يدرك إخفاقه وعجزه عن مجاراة الآخرين بما يعجز عن إدراك كنهه ، ومن ثم ينعكس هذا كله على سلوكه ، ليبدو مشاغبا أو منعزلا . ويعقد الكتاب مقارنة بين الطفل المتخلف عقليا والطفل الذي يعاني من عجز عن التعلم ، إذ كثيرا ما يصنف العاجز عن التعلم كمتخلف عقليا ، فتخسر المجتمعات بعض الذين يتمتعون بذكاء عالٍ بسبب هذا الفهم

القاصر (ولولا حسن الحظ لجاء تصنيف اينشتاين وأديسون في قائمة المتخلفين عقليا بسبب حالة العجز عن التعلم التي صاحبتهما) .

إن علة « العجز عن التعلم » ما تزال مجهولة ، ولم يحسم العلم أمره فيها حتى الآن ، ويبحث الكتاب بعد ذلك في كيفية تمييز الأطفال المصابين بالعجز عن التعلم ، وكيفية تهيئة مصادر التشخيص والمعالجة ، للمساعدة على إعدادهم لممارسة حياة الكبار بنجاح .

أربع حكايات

يورد الفصل الثاني حكايات أربعة أطفال ، تثير الأسى واللوعة . فالطفل « بوبي » بدا متقد الذهن ، لكنه تجاوز بسوء سلوكه حدود الصبر لدى أبويه ومعلمته ، مما دفع أمه إلى التفكير بقتله مع أخويه ، والانتحار تخلصا من الضغط الذي عانته بسببه ، غير أن أملا جاء عن طريق طبيب نفسي ، اكتشف حالته وهو في العاشرة ، حيث حوله إلى مدرسة خاصة ، أنشئت لمعالجة المصابين بالعجز عن التعلم . فلم يكن الطفل متخلفا عقليا كما صدر الحكم عليه قبل اكتشاف حالته ، بل استطاع أن يتعلم ، وأن يضبط سلوكه كالأسوياء من أقرانه ، ووصل بعد سنوات ثلاث من الجد إلى مستواه الطبيعي ، وتخرج في المدرسة الثانوية ، ثم التحق بمعهد لدراسة علم المحاسبة .

ويعالج الفصل الثالث العجز عن التعلم إذ لا تتشابه أعراضه لدى مختلف الأفراد الذين يعانون منه .

فالطفلة (ربيكا) تعاني من صعوبة في القراءة ، لأنها لا تميز الاختلاف بين حروف الهجاء . والطفل (ميلت) يجيد القراءة ، غير أنه لم يستطع أن يتعلم عملية الطرح ، إذ لا يستوعب مفهوم اختلاف قيمة العدد عن غيره ، علما بأنه في العاشرة من عمره . ويعاني الطفل (تيم) صعوبة في استعمال المقص في الروضة ، قد يكون تحكمه العضلي قابلا للتحسن بما يتيح له تعلم الكتابة .

وتتبين مجموعة الأعراض الرئيسية في النقاط الآتية :

١ - **الانتباه ومستويات النشاط** : يكون الطفل مفرط النشاط ، دائب الحركة ، أو يبدو سمجا غليظا ، ويهرع لاستطلاع كل حركة غريبة بما يبدد انتباهه .

٢ - **الحركة ونمو الادراك** : يكون الطفل أخرق في تصرفاته ، فقد يرتطم بالأشياء ، ويتعثر بالسجادة ، وإناء الحليب ، وقد يجد صعوبة في استعمال أقلام التلوين أو في الكتابة ، أو في تزرير ملابسه . وقد يعاني من مشكلات إدراكية بصرية أو سمعية . ويضطرب الإدراك عند بعض الأطفال بالنسبة للاتجاهات : فوق ، تحت ، يمين ، يسار ، أمام ، خلف .

٣ - **اللغة ونمو الفكر** : تترافق اللغة والفكر ، ولا بد لهما أن ينموا معا عند الطفل العادي ، لكن هذا الترافق يختل لدى الأطفال الذين يعانون من العجز عن التعلم ، بسبب معاناتهم مشكلات إدراكية سمعية . ويبرز لديهم اضطراب في النطق . وينتقل الأمر إلى التجريد الذي يحتاج إلى ارتباط المفردة بالمفهوم ، وبالتالي القدرة على الاستنتاج والاستدلال .

٤ - **النمو الانفعالي والاجتماعي** : لا يمكننا حصر أنواع المشكلات الانفعالية وتباينها . ويتعرض الطفل العاجز عن التعلم عادة إلى تحديات تفوق قدراته ، فهو قد لا يحسن الجري أو الإمساك بالكرة ، أو فهم موضوع اللعبة ، فينكشف عجزه أمام أقرانه ، ونتيجة لذلك قد تتحطم « الأنا الداخلية » للطفل فيصبح فريسة للتوتر . ومن ثم قد يحاول تغطية عجزه بالصخب أو الجدل العقيم ، مما يتسبب في عدم

توافقه مع المجتمع ، فضلا عن اضطراباته النفسية .

دور الاختصاصي النفسي

يعرض الفصل السادس دور الاختصاصي النفسي الذي يقوّم القدرة العقلية للطفل العاجز عن التعلم ، عن طريق اختبارات مقننة ، متعددة الجوانب ، لفظية وغير لفظية . كما يبحث وجود المشكلات الانفعالية والاجتماعية وطبيعتها ، ويرشد الأبوين والمعلمات لاتخاذ ما يرونه صالحا لتحسين وضعه . وثمة مختصون آخرون يسعون لتقويم مدى تقدمه ، ولتعديل خطط علاجه ، ويكون هؤلاء مختصين في التربية الخاصة ، وهم الاختصاصي النفسي ، واختصاصي السمع ، (ليس في الأذن) ، والأخير يستخدم أجهزة متقدمة لمعرفة كيف تكون الترجمة الداخلية للسمع لدى الطفل .

ينتقل الكتاب في الفصل السابع إلى دور المدرسة في إعداد الطفل لمرحلة الرشاد وتنظيم تحصيله ، إذ قد لا تكون صفوف المدرسة النظامية مكانا مناسبا لعلاج الحالة . ولعل في تطبيق نظام المعلمة المتنقلة ، واستخدام غرفة المصادر ، فائدة لعلاج حالات العجز الطفيف عن التعلم . وخير ما نجده تلك النصائح التي تقدمها الدكتورة ايليس تومسون لمعلمة مثل ذلك الطفل ، إذ تقول : « جربوا الإصرار ، جربوا الاستقلال ، وجربوا تصميم مستوى الصعوبة حسب الطفل ، جربوا أي شيء ، عدا الازدراء والتوبيخ » . كما أنها تستصرخ المعلمين والمعلمات قائلة : « حسنوا التعليم يتحسن بذلك السلوك والتعلم » .

ويبحث الكتاب مرحلة « المراهقة » التي تشمل الفترة الحرجة (١٣ - ١٩ سنة) ، حيث تصاحبها تغيرات حيوية ، وضغوط داخلية ، تقود إلى الحيرة والاضطراب إزاء الدوافع والقوى الطائشة التي تتدفق داخل المراهقين .

وإذ تتسلط هذه على المراهق العاجز عن التعلم ، فإنه يجد صعوبة أكبر مما يجده المراهقون العاديون في التعامل فيها . فهو يلاقي صعوبة في التكيف مع أقرانه ، فلا بد من وضع برامج اجتماعية ، تخرجه من قوقعته الداخلية ، ليستطيع التعامل مع أقرانه في السن ، ومن الملاحظ أن هؤلاء قد يبدعون في عمليات « ميكانيكية » أو « الكترونية » بشكل غير عادي ، كما يمكنهم تشغيل « أي شيء » دون أن يكونوا قادرين على الإفصاح عن مبادىء تشغيله .

ولكن هل هناك صلة بين العجز عن التعلم وجنوح الأحداث ؟

هذا هو ما يعالجه الفصل العاشر - الأخير - إذ يعتقد المؤلفون بوجود هذه العلاقة دون سند علمي ، غير أنهم يدعون لاستقراء بعض إشاراتها ، فثمة طفل يعجز عن ضبط نفسه ، وآخر يحاول استخدام سكينه ضد من وصفه « بالتخلف » . والطفل الجانح يكون قد أخفق على الأغلب في القراءة ، فلا يفهم بالتالي الكثير من المدلولات مما يعرضه إلى مردودات سلبية .

فالمدارس تفرز إلى الشوارع هذا النوع من المخفقين الذين يكونون ضحايا بأشكال مختلفة ، لعدم النضج بما قد يقودهم إلى الجنوح . ويؤكد المؤلفون ضرورة رعاية الأم الحامل من الناحيتين الغذائية والطبية ، ورعاية جميع المواليد حتى نهاية السنة الأولى من أعمارهم ، حيث أن هذا يؤدي إلى تخفيض نسبة ما يعرف بمرض الدماغ - الذي قد يتسبب في العجز - إلى العشر . وهم يدعون إلى مساعدة الأطفال بتقصي أسباب الجنوح ، لضمان أن يعيشوا بهدوء وسلام ، من خلال فهم الأسباب التي تقودهم إلى الجنوح . وبذلك يمكننا أن نجعلهم مواطنين منتجين . □



مكتبة العربي

مختارات

اسم الكتاب : السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث
المؤلف : الشيخ محمد الغزالي
الناشر : دار الشروق
عدد الصفحات : ١٦٠ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٩م

يتناول الكاتب في هذا الكتاب رؤية الاسلام السمحة لكثير من القضايا والمسائل الخلافية التي شاع الحديث حولها ممن لايستندون على قاعدة علمية ، ولا قدرة فقهية ، فكثر الخلط والخطأ . ويذكر الكاتب بأن كتابه لإجلاء التشويه عن صورة الاسلام ، التشويه الذي يلصقه به أنصاف أو أعشار المتعلمين الذين يتصدرون القافلة ويثيرون الفتن بدل إطفائها .

ويعرض الكاتب لنماذج من سوء الاجتهاد وضيق الأفق ، في قضايا مثل الغناء وعمل المرأة وبعض العادات ، والقدر والجبر . ويطرح آراء مستندة الى دليل يوضح فيها خطأ معظم ما يذهب اليه البعض في تحريم كثير مما حلل الله ، ومما تقبل به سماحة الاسلام .

□□□

اسم الكتاب : من الأنين إلى الثورة
اسم المؤلف : د . عبد العزيز المقالح
الناشر : دار العودة بيروت
عدد الصفحات : ٢٢٦ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨م

إعادة قراءة لأحداث تاريخية مرت في تاريخ اليمن العريق ، وهي أحداث يرى المؤلف أن الوقوف عندها وقراءتها يثريان الحاضر ، وينيران علاقاته . وحاول المؤلف في كتابه الاقتراب من الأحداث التاريخية بقدر من الحياد الموضوعي ، ويؤكد المؤلف أن الشعوب كالأفراد ، عليهم أن يستوعبوا حركة التاريخ دون أن يقعوا أسرى له مهما كان تاريخهم يحفل بفترات متوهجة أو منطفئة ، وإلا وقع الجميع أفرادا وشعوبا أسرى خاضعين للزمن مستسلمين للتاريخ .

□□□

اسم الكتاب : العرب والعلم والثقافة
اسم المؤلف : أنطوان زحلان
الناشر : مركز دراسات الوحدة العربية
عدد الصفحات : ١٢٨ من القطع الصغير
سنة النشر : ١٩٨٨م

إضاءة جديدة من سلسلة دراسات مركز دراسات الوحدة العربية ، يقدم فيها المؤلف جهدا علميا لتوضيح العلاقة بين العلم والتقنية وحركة الشعوب ومستقبلها ، وفي الوقت نفسه يقدم عرضا علميا لموقفنا في الوطن العربي من قضية العلم والتقنية والتحدي الذي يواجهنا .

وقد بدأ العلم والتقنية منذ أوائل القرن التاسع عشر في تغيير أنماط الإنتاج والعلاقات الدولية والقوى والبنى الاجتماعية ، وهذا التغيير المتسارع في العالم كله لابد له أن يلقي بآثاره على كل الأقطار ، ولايستطيع قطر ما ، أن ينعزل عن هذه الآثار ، ولا أن يتجنبها ، ومن هذا المفهوم العلمي الشامل ، يحاول المؤلف أن يضع التحديات العلمية والتقنية التي تواجه الوطن العربي في إطارها الاقتصادي والسياسي المناسب .

اسم الكتاب : المكتبة العربية تاريخها ـ تراثها ـ حاضرها .
اسم المؤلف : د . يوسف نوفل
الناشر : دار الغد ـ القاهرة
عدد الصفحات : ٣٧٣ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨م

دراسات المؤلف عن المكتبة العربية منذ نشأتها وارتباطها بالحضارة العربية القديمة والحديثة ، وهو يعرض في صدر الكتاب للمكتبات العربية الشهيرة في التاريخ ، وأشهر الأعمال المحفوظة فيها ، ثم يتناول ديوان الشعر في الأدب العربي ، والمكتبة الادبية ، فيعرض كيف تكتب الكتب ، وتاريخ العرب من الخط والكتابة ، ودور النساخ في إثراء المكتبة العربية ، ثم يتعرض للمكتبة الأدبية ، وأخيرا مكتبة التراجم والسير والمكتبة الصحفية .

□□□

اسم الكتاب : تاريخ الحركة المسرحية في دولة الإمارات ٦٠/١٩٨٦
اسم المؤلف : عبد الإله عبد القادر
الناشر : دار الفارابي . اتحاد كتاب وأدباء الإمارات
عدد الصفحات : ٢٩٧ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨م

جهد توثيقي يقدمه المؤلف لتاريخ الحركة المسرحية في دولة الإمارات العربية المتحدة ، يمهد لها في البداية بفصل يعرض فيه جذور بدايات الحركة المسرحية وكيفية ظهورها ، ثم يقدم سجلا توثيقيا للنشاط وللحركة المسرحية خلال الفترة من ١٩٦٠م إلى ١٩٨٦م ، وهي فترة التغير الاجتماعي في أقطار منطقة الخليج العربي . ولأن الحركة العامة للثقافة في الإمارات لم يؤرخ لها ، ولأن الفنون وعلى الأخص المسرح ، قد وقعت في الهامش ، بعيدا عن مركز الاهتمام والوعي ، فإن التوثيق الذي يقدمه هذا الكتاب يعد خطوة ضرورية لتأريخ الحركة المسرحية ودراستها ومناقشة تطورها وكيفية تعضيدها .

□□□

اسم الكتاب : أطراف الغابة
اسم المؤلف : سنين عثمان ـ ترجمة سامي الرزاز
الناشر : مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت
عدد الصفحات : ٣٤٣ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٧م

عمل روائي ، « كلاسيكي » البناء ، يقدم التجربة الأفريقية في وجهها الطبقي ، فالإضراب الطويل الذي تصفه الرواية برؤية نقدية تاريخية هو تسجيل حي للتناقضات داخل المجتمعات الافريقية ، وقراءة للمستقبل الافريقي ، كما يراه المؤلف ، مرسوما على أفق التحولات الثورية في افريقيا .

والرواية لواحد من أهم الكتاب الأفارقة ، فمؤلفها روائي ، ومخرج سينمائي سنغالي ، بدأ حياته صياد سمك ، ومارس في « داكار » أعمالا شاقة ، واشتغل عاملا في ميناء « مرسيليا » ، وخاض نضالات أوصلته الى أن يغدو نقابيا ، ومن خلال عمله النقابي خاض معارك وطنية كثيرة من أجل حياة أفضل لأبناء وطنه . □

من طلب الأمر لم يعن عليه

● أراد عمر بن الخطاب أن يستعمل رجلا ، فبادر الرجل فطلب منه العمل ، فقال له عمر : والله لقد كنت أردتك لذلك ، ولكن من طلب الأمر لم يعن عليه .

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٦٩

أغسطس ١٩٨٩

جوائز المسابقة

الجائزة الأولى ٥٠ دينارًا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارًا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارًا
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الصفاة . الرمز البريدي 13008 - الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٦٩ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات إلينا هو ١٥ سبتمبر ١٩٨٩. والرجاء كتابة الاسم الثلاثي والعنوان البريدي واضحين - ورقم الهاتف إن وجد .

ارفق الحل مع هذا الكوبون
كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٦٩

١ عباس بن فرناس عالم عربي ، ومخترع أندلسي ، اشتهر بمحاولته الطيران لأول مرة في التاريخ العربي كله ، وكان متعدد المواهب لاريب ، وقد أبدع في أحد المجالات التالية ، فأي مجال هذا ؟

* الشعر
* الموسيقا
* الرحلات الجغرافية

٢ متى اخترع البراشوت ؟

* قبيل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)
* قبيل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)
* اخترع البراشوت في أواخر القرن الثامن عشر ، وقبل اختراع الطائرة بأكثر من مائة سنة

٣ أول بالون للطيران طار في فرنسا سنة ١٧٨٣ ، ترى من كان ركاب ذلك البالون في طلعته الأولى ؟

* الأخوان مونت جولفير ، وهما اللذان صنعا البالون .
* ديك وبطة وخروف
* رئيس البلدية ورئيس الشرطة

٤ الطائرات الحديثة التي نعرفها في الوقت الحاضر ، ترى من أي الطائرات الرائدة تم تطويرها ؟

* من الطائرات الشراعية
* من المناطيد أو البالونات

٥ الطائرة الأولى في التاريخ صنعها الأخوان رايت ، وأطلقا عليها اسم

(فلاير«١») ، وقد نجحت في الطيران صبيحة يوم ١٧ / ١٢ / ١٩٠٣ ، ترى كم بلغت سرعتها القصوى ؟
* حوالي (٥٠) كيلومتراً في الساعة
* حوالي (١٠٠) كيلومتر في الساعة
* حوالي (١٥٠) كيلومتراً في الساعة

٦ أكبر مطارات العالم تبلغ مساحته ٢٢١ كيلومتراً مربعاً ، ترى هل يقع هذا المطار في أمريكا أم في أوربا أم تراه يقع في الشرق الأوسط ؟ وما اسم هذا المطار ؟

٧ أكبر شركات الطيران في العالم ، من حيث مجموع الركاب الذين تنقلهم سنوياً ، هل هي شركة أمريكية أم أوربية أم غير ذلك ؟ أذكر الدولة التي تملك هذه الشركة !

٨ قاذفة القنابل الأولى في التاريخ ، ترى في أي الحربين العالميتين ظهرت أول ما ظهرت وقامت بغاراتها المدمرة على لندن ، العاصمة البريطانية ؟
* في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)
* في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)

٩ راج السفر الجوي عبر المحيط الأطلسي اعتباراً من سنة ١٩١٠ واستمر طوال ٢٧ عاماً ، وذلك بواسطة المناطيد أو الفنادق الطائرة كما سموها - ولكنه توقف فجأة ، وطويت صفحة السفر بالمناطيد قبل عام ١٩٣٧ م ، على .
* كانت المناطيد ألمانية ، وقد أقدمت أمريكا على شرائها بقصد افساح المجال لطائراتها .
* ألمانية النازية ، صاحبة تلك المناطيد ، هي التي قررت وقف خدماتها بسبب انهماكها في الاستعداد للحرب العالمية الثانية .
* الكارثة التي حلت بمنطاد هندنبرغ سنة ١٩٣٧ م .

١٠ ما هو سر قدرة الطائرة على الطيران ؟
* إنه في الذيل كما ثبت من تجارب عباس بن فرناس
* إنه في المراوح والمحرك
* إنه في جناحي الطائرة وفي ضغط الهواء الذي يتعرضان له .

١١ أي المطارات هو المطار الشغّال الأول في العالم ، من حيث مجموع الركاب الذين يغادرونه ويأتون إليه سنوياً ، ومن حيث عدد الطائرات التي تقلع من مدارجه وتهبط عليه ؟
* مطار شيكاغو الدولي في الولايات المتحدة
* مطار لندن الدولي
* مطار زيورخ الدولي في سويسرة

١٢ تضاعف مجموع عدد ركاب الطائرات في العالم ، وكما لا يخفى فقد بلغ مليوني راكب في سنة ١٩٣٧ ، ولكنه تضاعف أضعافاً في الأربعين سنة الماضية حتى بلغ في سنة ١٩٧٧ :
* ٧٥٠ مليون راكب
* ٥٠٠ مليون راكب
* ٢٥٠ مليون راكب

□

حل مسابقة

العـدد : ٣٦٦

مايو : ١٩٨٩

١ « عزيزة أمير » واسمها الأصلي مفيدة محمد ، وهي التي أسست بمالها أول شركة مصرية للأفلام السينمائية . وقد سمتها « إيزيس فيلم » كان ذلك سنة ١٩٢٦م وعقب قيام عزيزة أمير بالعمل على المسرح ببضعة شهور .

وتجدر الإشارة الى أن بهيجة حافظ وفاطمة رشدي ، قد حملتا مع عزيزة أمير وآسيا داغر لواء النهضة السينمائية الأولى في مصر ، في معزل عن الرجال .

٢ أطول فيلم سينمائي ناطق لم يكن « ذهب مع الريح » ، وإنما كان « لورانس العرب » وذلك بفارق دقيقتين فقط . فقد استغرق الأول ٣ ساعات و ٤٠ دقيقة بينما استغرق الثاني ٣ ساعات و ٤٢ دقيقة .

٣ أنشئت دار السينما في اطلانطا سنة ١٨٩٥م . وهي أقدم دار للسينما في العالم حسب تأكيد المرجع المعروف « جنس » .

٤ بلغ مجموع إيرادات « سلفستر ستالون » من فيلم « روكي (٤) » حوالي ٣٠ مليون دولار . ١٢ مليونا مخصصات ثابتة بالاضافة إلى ٢٠ مليونا حصيلة حصته من مردود العرض وبيع التذاكر .

٥ فيلم « الحرب والسلام » هو الذي يفوق سائر الأفلام السينمائية من حيث التكاليف والجهود التي أنفقت في سبيل اخراجه وانتاجه . فقد استغرق اخراجه ٤ سنوات (١٩٦٣ - ١٩٦٧م) ، وبلغت تكاليفه (٦١) مليون جنيه استرليني ، وجرى تصوير الفيلم في (٦٨) موقعا مختلفا ، وممن اشتركوا في التمثيل فيه (١٢٠,٠٠٠) جندي من الجيش الأحمر .

٦ شكسبير كاتب أو شاعر مفضل في نظر أرباب الصناعة السينمائية ، فقد أنتج هؤلاء ٣٠٠ فيلم على أساس روايات شكسبير . وتجدر الإشارة الى أن رواية « هاملت » وحدها كانت الأساس الذي اعتمد عليه لإنتاج ٤١ فيلما .

٧ الهند = ٧١٤ فيلما (زمن الواحد منها ساعة فما فوق) ، وذلك حسب احصاءات عام ١٩٧٩م .

اليابان = ٣٣٥ فيلما

فرنسا = ٢٣٤ فيلما

تركيا = ١٩٥ فيلما

الفلبين = ١٧٠ فيلما

انكلترا = ٣٨ فيلما

٨ جزيرة استثن هي التي يوجد فيها أكبر عدد من مقاعد السينما نسبيا ، إذ يبلغ عددها (٧٣٣) مقعدا ، ويبلغ عدد سكانها ٩٧١ نسمة

٩ ظهر الفيلم السينمائي الناطق الأول في التاريخ في المانيا ، سنة ١٩٢٢م . على أن الأفلام الناطقة لم تكتسح الميدان إلا سنة ١٩٢٧م ، حين ظهر الفيلم الأمريكي « مغني الجاز » وكان بطله « آل جونسون » .

١٠ نيويورك هي التي توجد فيها أضخم دار للسينما في العالم ، واسمها « قاعة مدينة الراديو للموسيقا » ، ويعود انشاؤها الى سنة ١٩٣٢ .

١١ بلغ مجموع إيرادات فيلم « ذهب مع الريح » (٣١٢) مليون دولار . وذلك لقاء عرض الفيلم طوال ٤٣ سنة . من سنة ١٩٣٩ - ١٩٨٢م .

وتجدر الإشارة الى فيلم (أي . تي E.T.) الذي بلغت ايراداته (٣٢٢) مليون دولار ، في فترة تزيد على سنة ونصف سنة قليلا (حزيران سنة ١٩٨٢ - يناير سنة ١٩٨٣م) ، ولكن قيمة هذه الإيرادات الفعلية تقل عن قيمة إيرادات « ذهب مع الريح » ، وإن أردت مزيدا من تفاصيل فعليك أن تقارن بين قيمة الدولار في الأربعينيات والخمسينيات وقيمته في الثمانينيات .

١٢ « انكلترا » هي التي شهدت عرض أول فيلم سينمائي ملون سنة ١٩٠٩م ، وكان الفيلم بلونين فقط ، أما الأفلام المتعددة الألوان فلم تظهر إلا سنة ١٩٣٠م ، وقد عرضت أول مرة في أمريكا .



شكسبير

الفائزون في مسابقة

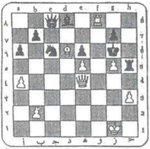
العدد : ٣٦٦

مايو : ١٩٨٩

- الجائزة الأولى : محمود محمد الطموني / دولة الكويت
- الجائزة الثانية : الدكتور محمد مصطفى السمري / الاسكندرية - جمهورية مصر العربية
- الجائزة الثالثة : نزار سليم محمد / المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ - عمر سالم المصري / جمهورية اليمن الشعبية الديمقراطية .
٢ - محمد أحمد علي الغريبي / صفاقس - الجمهورية التونسية .
٣ - حميدة محمد سيد أحمد / بورسودان - جمهورية السودان الديمقراطية .
٤ - عبد الزهرة عبد الجبار علي / البصرة - الجمهورية العراقية .
٥ - ليس صادق باقر / شركة زادكو - أبو ظبي - دولة الإمارات .
٦ - عبد العزيز عبد علي عبد النبي / المنامة - دولة البحرين .
٧ - هشام يوسف محمد / مخيم الوحدات - عمان - المملكة الأردنية الهاشمية .
٨ - ابتسام مختار الرمالي / طرابلس - ليبيا .





يعجب كثيرون من القراء عندما نشير في تحليلنا للأدوار من أن لاعباً ما ، يملك ميزة زوج الفيلة ، أو عندما نقول بأن قيمة الفيل النظرية تزيد عن قيمة الحصان بقليل ، فالحصان في نظرهم يملك طاقات جبارة بحركته الافعوانية الغريبة ، وقدرته الفائقة على القفز واختراق مواقع الخصم ، والهبوط في وسط تحصيناته المنيعة ، والقيام بالكش المضاعف للملك والوزير ، أو الوزير والرخ ، والفوز بأحدهما . غير أن اللاعب المتمرس يستطيع بسهولة أن يتنبأ بنقلات الحصان ويحدّ من أخطارها ، وامتلاك الفيل مقابل الحصان ، والأفضل من ذلك الفيلان ، إذ يمنح اللاعب إمكانات كبيرة للسيطرة على الرقعة ، في حين يمكن قصر دور الحصانين على مجرد الدفاع السلبي .

ويعد الفيل من القطع البعيدة المدى التي تستطيع السيطرة على الأوتار في جميع الاتجاهات ، فلو افترضنا أن أحد الفيلة يحتل مربعاً في وسط الرقعة لكان بإمكانه الانتقال الى ٣٢ مربعاً في الرقعة ، أي نصف الرقعة بالضبط ، وهكذا فإن مجال السيطرة الممكن أمام الفيلين هو كل الرقعة الخالية ، كما لا يخفى أن امتلاك فيل وحصان أو فيلين ضدّ ملك أعزل يؤدي الى الفوز بالدور ، في حين أن امتلاك حصانين في الشروط نفسها يؤدي الى التعادل .

ويقتضي الاستغلال الأمثل للطاقات الهجومية المدمرة الكامنة في الفيل اختيار اللحظة الحاسمة ، لتقديم البيدق الذي يسدّ طريق الفيل ، لفتح اللعبة ، وتمكين الفيل من السيطرة التامة على الأوتار التي تخترق قلب دفاعات الخصم .

والدور التالي من المباراة الدولية الكبرى المنعقدة في تيلبرغ في هولندا في العام الفائت ، بين الأستاذ اليوغوسلافي نيكولك ، ونظيره الألماني الغربي هوبنر ، وهو من الدفاع السلافي الذي كان في أوج مجده في ١٩٣٠م ، في مباراة بطولة العالم بين أليخين و يو ، ولكن شعبيته بدأت تتناقص منذ ذلك الحين ، لأنه يتيح للأبيض مقايضة فيل الوزير النشط بحصانه .

مسألة العدد ٣٦٩



مات ٣ من وضع الصديق يوسف العجوز (الكويت)

□ ب . نيكولك (يوغسلافيا)	■ ر . هوبنر (ألمانيا)
١) د ٤	د ٤
٢) جـ ٤	د × جـ ٤
٣) ح - و ٣	ج - و ٦
٤) ح - جـ ٣	جـ ٦
٥) أ ٤	ف - ز ٤
(ف - و ٥ هي النقلة النظامية)	
٦) ح - هـ ٥	ف - خـ ٥
٧) حـ ٣	هـ ٦
٨) ز ٤	ف - ز ٦
٩) ف - ز ٢	ف - ب ٤
١٠) ت	ح - د ٥
١١) ح - أ ٢	ف - هـ ٧
١٢) هـ ٤	ح - ب ٤
١٣) ح × ب ٤	ف × ب ٤
١٤) و ٤	و ٦
١٥) ح × ز ٦	حـ × ز ٦
(الأبيض يحصل على ميزة الفيلين)	
١٦) ف - هـ ٣	ح - د ٧
١٧) و - جـ ٢	و - هـ ٧
١٨) و × جـ ٤	جـ ٥
١٩) ر(أ) - جـ ١	جـ × د ٤
٢٠) و × د ٤	ف - أ ٥
٢١) و - د ٣	أ ٦
٢٢) ر(و) - د ١	ر - د ٨
٢٣) و - ب ٣	ح - ب ٨
٢٤) ر × د ٨ +	ف × د ٨
٢٥) هـ ٥	و × هـ ٥
(الأبيض يفتح الخطوط للفيلين الخطرين)	
٢٦) و × هـ ٥	م - و ٧
٢٧) ف - جـ ٥	و - د ٧
٢٨) ر - د ١	و - جـ ٨
٢٩) ف - د ٦	ح - جـ ٦
٣٠) ف - هـ ٤	ر - حـ ٦
٣١) ز ٥	ر - حـ ٥
٣٢) ر - و ١ +	م - ز ٨
٣٣) ر - و ٨ +	م - حـ ٧
٣٤) ف × ز ٦ + !	م × ز ٦
(بديعة)	
٣٥) و - د ٣ +	يستسلم
(الشكل)	
لو أخذ البيدق مات ٢	

□ ■ □

الفائزون في مسابقة الشطرنج العدد رقم (٣٦٦) مايو ١٩٨٩

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ . جرير خازر خليل - الكرك / الأردن
٢ . رنا محسن - بغداد / العراق
٣ . مجدى محمد جمعة - أسوان / ج . م . ع
٤ . لينا محمد ما مللي - رأس الخيمة / الإمارات
٥ . سارة بن لامين - طرابلس / ليبيا

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ . محمد الهادي الصَيَّاح - بوحجر / تونس
٢ . لمى طالب الضماد - دمشق / سوريا
٣ . عصام أحمد الغزاوي - دمياط / ج . م . ع
٤ . عبدالرزاق الشرمندي - كيرالا / الهند
٥ . مثنى علي الجميلي - الأنبار / العراق

حل مسألة العدد (٣٦٧) - يونيو ١٩٨٩

١) و × حـ ٥ ف × حـ ٥ ٢) و ٧ + (بالكشف) هـ ٥ ٣) ف × هـ ٥ (مات)

حوار القراء

العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

الوحدة الاقتصادية سلاح العرب

● الأستاذ/ الدكتور رئيس التحرير

يسرني أن أبعث إليكم مهنئا على ما تبذلونه من جهد في سبيل إظهار المجلة بالمظهر اللائق ، لقد أصبحت بفضل جهودكم الجبارة من أرقى المجلات لاحتوائها على جميع ما يبحث عنه القارىء .

لقد شد انتباهي موضوع بعنوان « الزراعة ياعرب الزراعة » الذي نشر في العدد ٣٦٠ نوفمبر ١٩٨٨ ، بقلم الدكتور سمير رضوان ، وأقول : إننا في أمس الحاجة الى مثل هذه المواضيع وتكثيفها ، فالوطن العربي في مقدوره أن يكون مكتفيا ذاتيا من الحبوب الغذائية لو تضافرت الجهود العربية ، فعلى سبيل المثال : هناك أرض زراعية شاسعة ، ومياه صالحة للري ، في السودان والعراق ومصر ، وهناك أقطار عربية باستطاعتها التمويل ، وأخرى لديها الأيدي العاملة المدربة .

أما في المجال الصناعي فالوطن العربي يملك من الخامات والمعادن ما يجعله في مصاف الدول الصناعية الكبرى القادرة على التصنيع . ومن هذه الدول تستطيع الأقطار العربية أو بعضها على الأقل أن تدرك بالطرق المناسبة التقنية الصناعية الغربية التي يتهيأ مجال للتدريب عليها ، والأمر يتطلب توحيد الجهود ، وذلك بإرادة وتصميم ووحدة اقتصادية ، تذوب فيها الخلافات السياسية ، ثم تختفي الحدود السياسية مستقبلا .

القارىء / سعيد عمران السليماني
أبها - المملكة العربية السعودية

□■□

شخصيات تاريخية من الجزائر

● الأستاذ/ الدكتور رئيس التحرير

نطالع كل شهر مجلتكم العزيزة « العربي » ، ونحترم كل ما يكتب فيها من فكر وقضايا مهمة للمسلمين والعرب ، لكن لنا عتاب عليك وأنت قائد هذه المسيرة العربية ، وهو عدم تسليط الضوء على شخصيات من تاريخ الجزائر ، فهناك الكثير من العلماء المسلمين العرب عاشوا في الجزائر ، مثل الإمام عبد الحميد بن باديس ، والإمام البشير الابراهيمي . وهؤلاء

على هذه الصفحات ... ترحب «العربي» بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

مفكرون جزائريون ، ومجاهدون أحرار ، صنعوا تاريخ الأمة العربية والإسلامية في الشمال الافريقي .

القراء / الصم القليبي المنور
أحمد حافور القادري /هواري أحمد المصري
الجامعة الإسلامية - المملكة العربية السعودية

ليس هناك تجاهل لأي شخصية عربية تاريخية ، ولكن هناك مساحة من الصفحات ، نخصصها في كل عدد لنتطرق الى شخصية تاريخية . والمجلة سبق أن نشرت لعلماء عرب من الشمال الافريقي ، ونتمنى عليكم متابعة الأعداد القادمة ، فستجدون التنوع الذي نحاول أن نسير عليه في خطة النشر .

العربي

يحيى حقي والخروج الى العالمية

● الأستاذ/ الدكتور رئيس التحرير

لقد جاء زادكم دسما ، في أيام مباركة ، تحتاج من الجميع الأناة والتمعن ألف مرة ومرة ، لاعادة النظر فيما حولنا ، وكالعادة جاءت مجلتكم ، وهي ذلك الصرح الثقافي الشامخ ، حافلة بالفن والشعر والاستطلاع ، والقصة والمناقشة الفريدة الشيقة ، وإنني قد سعدت كثيرا بالاستطلاع الخاص بالنفط الكويتي في بيوت الأوربيين الذي نشر في عدد ٣٦٥ ابريل ١٩٨٩ ، وكذلك سعدت وأعجبت بموضوع الكاتب الكبير يحيي حقي للأستاذ سليمان مظهر في باب « وجها لوجه » ، وأفدت منه ، خاصة في حديثه عن قصة « قنديل أم هاشم » ووصفه لها بأنها طلقة أصابت الهدف ، وكذلك حديثه عن الفكاهة ومفارقات الحياة ، بهذه الدقة والصراحة ، وهذا ما نتوسمه جميعا في أدبائنا الكبار ، وكذلك باب « قراءة نقدية في كتاب » - بيت الياسمين - للدكتور حامد أبو أحمد .



لي ملاحظة حول رأي الكاتب الكبير يحيى حقي عن الخروج الى العالمية ، وأقول : إن الأدب العربي في رواياته وقصصه ونقده وتاريخه وجميع فروعه قد دخل دائرة العالمية ، ولنا نحن - فعلا - تأثير قديم على فن الرواية في

حوار القراء

أوربا . والله أدعو أن يدفع أدبنا العربي وكتابه الى الأمام ، فلقد خطونا الخطوة الأولى ، وعلينا أن نستمر .

القاريء/ جمال سعد محمد
الزرقاء ـ محافظة دمياط ـ جمهورية مصر العربية

□■□

ردًا على د. الوردي

نشرت المجلة في عدد ٣٦٥ ابريل ١٩٨٩ مقالا للدكتور علي الوردي ـ « شخصيتك » ـ أود أن أعقب عليه : فالقول بأن العوامل الوراثية وحدها هي التي تبني الشخصية مردود عليه ، فنحن نعلم أن حالة الإنسان وتصرفاته وطباعه لا تثبت على نمط واحد طوال حياته ، بل تتغير من مرحلة لأخرى ، وأقصد هنا المرحلة العمرية ، نتيجة لتبدل في أفكاره ، وتراكم خبراته في الحياة على مر الأيام . أم أن د . الوردي يقصد أن يقول : إن على كل شخص أن يقنع بما هو عليه ، ولا يحاول بذل جهد مضاعف لتحسين أحواله ، لأنه مهما جد فلن يحقق أكثر مما تحققه له العوامل الوراثية ومهما سهر الليالي فلن يصل الى الكلأ ، فشخصيته تقف عائقا أمام كل تطوير !! هذا ما يستنتجه قاريء المقال وبخاصة الفقرة الأخيرة منه .

إنني مقتنعة تمام الاقتناع بأن باستطاعة الإنسان أن يغير في شخصيته تغيرا كبيرا ، ويستطيع أن يخلصها مما ترسب فيها من سلبيات التربية ومساويء البيئة التي نشأ فيها ، ليصل الى مستوى معين ينشده ، والإرادة والتصميم والنشاط في العمل عوامل تجعل ذلك ممكنا ، وهذا لا يمنع من القول بأن للتربية والبيئة دورا كبيرا في تكوين الشخصية ، ولكن يستطيع المرء أن يسعى للأفضل ، فالبيئة ليست مسيطرة على الإنسان بحيث تقيده وتمنعه من أن يطور مستوى معيشته .

« أما كلمة الحظ » التي تكررت في مقال د . الوردي فهي كلمة عامة نلجأ إليها دائما عندما لا نجد تفسيراً لنجاح شخص ما في الحياة أو فشله ، فالقضية في النهاية مرتبطة بالثقة بالنفس ، وبالإرادة والإصرار ، وبالشعور بالحافز الداخلي الذي ينبع من الإنسان نفسه ويحثه على التقدم .

القارئة/ ليلى عطية عرار
الزرقاء ـ الأردن

كذلك تلقت المجلة عدة تعقيبات على مقال د. علي الوردي من القراء : فواز اليونس (كلية الحقوق ـ جامعة حلب ـ سوريا) ، وخالد بصبوص (دمشق ـ سوريا) ، وحسن سالم الكسادي (المكلا ـ حضرموت ـ

جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) ، وتبدي جميع هذه الرسائل آراء متعارضة مع الفكرة التي أوردها الدكتور الوردي حول تكوين الشخصية .

□■□

اقتراحات وردود

● القارىء : حمدي محمد ابراهيم ـ من الجيزة ، بجمهورية مصر العربية ـ بعث بدراسة طويلة عن محتويات العدد ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ ، يستعرضه بالتفاصيل ، مما يدل على الجهد ، والتركيز الذي بذله في القراءة والكتابة . فنشكره على هذا المجهود الطيب .

● القارىء خالد محمود البنا ، من جامعة طنطا ، بجمهورية مصر العربية ، يقترح أن تقوم المجلة بمجموعة من الاستطلاعات العلمية المصورة عن منطقة الربع الخالي ، في الجنوب الشرقي للملكة العربية السعودية ، وعن الالكترونيات والتقنيات في الوطن العربي ، وأخيرا عن منطقة الصحراء الكبرى في أفريقيا .

● القارىء هاني محمد حسن ، الجيزة ، جمهورية مصر العربية ، يسأل في باب الشطرنج ؛ عن إمكانية نشر طريقة اللعب ، حتى يكون ما ينشر من أدوار مفهوما لمن لايعرف كيفية اللعب .

● القارىء أحمد المكنيس ، الرباط ، المغرب ، يطلب من الدكتور محمد عيسى صالحية أن يقدم معلومات إضافية عن العالم « السفياني » ، مؤلف كتاب سفير الكتب ، وعن الذهب الذي جاء ذكره في عدد (٣٦٢) يناير ١٩٨٩ أثناء عرض كتاب الشهر «التقنية عند المسلمين » .

● القارىء أيمن جمعة ـ حمص ـ سوريا ، يقترح أن يخصص باب لعرض المواضيع القانونية ، يشرح مواد القانون الأساسية بشكل مبسط موجز . فنقول له : إن هناك مجلات متخصصة في القضايا القانونية ، لكننا نحاول أن ننشر ما يردنا في القضايا العامة المتعلقة بالقانون وفروعه ، ولا مانع من تخصيص باب بهذا المعنى إذا دعت الحاجة .

● القارىء صلاح سالم الجابري ، حضرموت ، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، يشكو من قلة الأعداد التي تصل ، ويطلب زيادة كميتها المرسلة ، كما يقترح إشراك القراء في كتابة « واحة العربي » .

● القارىء عبدالإله خلو ، من حلب في سوريا ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن أهم الآثار الموجودة في الكويت ، وآخر التطورات الثقافية والعلمية فيها .

● القارىء أحمد إدريس أبوبكر ، من قنا بجمهورية مصر العربية ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن « مدينة الأقصر » وآثارها التاريخية . ونقول له : إن المجلة قامت باستطلاع عن تلك المدينة في العدد رقم (٣٤١) شهر (أبريل ١٩٨٧) بعنوان الأقصر ـ الحياة موت والموت حياة .

حوار القراء

● القارىء غنام حمدان السويد ، من محافظة الرقة - سوريا ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن مدينة « دير الزور » في سوريا .

● القارىء عبدالله بن سنور الحربي من الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة - المملكة العربية السعودية ، يقترح أن تخصص المجلة مساهمة أوسع لصفحات الثقافة والأدب .

● القارىء ماجد سعيد عامر من المنطقة الوسطى - سلطنة عمان ، يطلب الأعداد الأولى من المجلة وإمكانية إرسالها بالبريد ، ونقول له : يمكنك أن تكتب مباشرة للوكيل المساعد للإعلام الخارجي بوزارة الإعلام ، دولة الكويت ، للحصول على أي عدد من الأعداد السابقة من المجلة .

● القارىء أيمن حسن عباس من محافظة طرطوس - سوريا ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن الأماكن السياحية في سوريا .

● القارىء عبدالواحد أحمد عبدالحميد من أشمون - جمهورية مصر العربية ، يقترح أن تزيد المجلة عدد القصائد المنشورة .

● القارىء محمد بن مسعود بن عبدالله القري - صمم - سلطنة عمان ، يقترح زيادة عدد النسخ من كتاب « العربي » المخصصة للموزع حيث أن الكمية الموزعة في المكتبات لا تكفي السوق .

● القارىء جابر عبدالجواد أحمد من بني سويف ، جمهورية مصر العربية ، بعث بعض الاقتراحات للمجلة منها إعادة نشر استطلاعات المجلة في كتاب ، وإيجاد باب يهتم بتبسيط العلوم التطبيقية وعلوم الطبيعة .

● القارىء عامر محسن من المملكة العربية السعودية ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاعات عن سوريا والجزائر والأرجنتين ومنغوليا ونيجيريا ، وأن تتوسع في باب أرقام ، بحيث تعطي الأرقام والاحصاءات مساحة أكبر ويطلب من الدكتور رئيس التحرير أن يخصص أحد مقالات افتتاحية الشهر عن موضوع (الجامعة المفتوحة) .

● القارىء سلطان محمد الخالدي من الخبر المنطقة الشرقية - المملكة العربية السعودية ، يقول : إن المجلة نشرت في العدد (٣٠٨) يوليو ١٩٨٤ استطلاعا عن « عالم المسلمين في الاتحاد السوفيتي » ، جاء فيه أن أستاذاً اسمه اقجان بن جانتسباك الماشاني قال فيه : إنه ألف ثمانية كتب عن العالم العربي « الفارابي » واكتشف أن الفارابي أثبت أن هناك علاقة بين الموسيقا وحركة الأجرام في الكون - حبذا لو قامت المجلة بعرض لأبحاث هذا الأستاذ خاصة أن المجلة تهتم دائماً بنتاج العلماء ، وبخاصة المسلمين منهم وبدراساتهم .

● القارىء علاء السيد رجب من الدقهلية - جمهورية مصر العربية ، يقترح اضافة باب للمجلة بعنوان « هل تعلم » ، وأن تقوم المجلة باستطلاع عن مدينة المنصورة ، وزيارة معهد الكلى والمسالك البولية المجهز بأحدث ما توصل إليه العلم الحديث .

● القارىء محمد عبدالفتاح أحمد من محافظة المنيا - جمهورية مصر العربية ، يقترح أن يخصص باب ثابت تناقش فيه مشاكل الشباب وكيفية التغلب عليها ، وأن تنشر المجلة موضوعاً عن المساحة التصويرية .

● القارىء حسنين عبدالحليم زعزع من القاهرة - جمهورية مصر العربية ، بعث يشيد باستطلاع المجلة الخاص بمدن الصحراء الليبية المنشور في العدد ٣٦٤ مارس ١٩٨٩م .

● القارىء محمد خبازة من عين الدفلة - الجمهورية الجزائرية ، بعث يطلب زيادة عدد النسخ المرسلة من مجلة « العربي » ومطبوعاتها للجزائر لعدم توافر الكمية الكافية .

● تؤكد « العربي » للقارىء خالد أحمد من الكويت أن المجلة قامت مؤخراً بزيارة لمحافظة حضرموت بجمهورية اليمن الديمقراطية ومدنها الجميلة والتي منها مدينة المكلا . وستقوم المجلة بنشر الاستطلاع في عدد قادم ، علما بأن « العربي » سبق أن نشرت استطلاعاً عن « المكلا » في العدد رقم (٧٦) يونيو (١٩٦٥) .

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

أغسطس ١٩٨٩ م

الإنسان بين الجوهر والمظهر

(نتملك أو نكون)

تأليف : اريك فروم

ترجمة : سعد زهران

مراجعة : د. لطفي فطيم

٥٠٠ فلس

الكتاب رقم ١٤٠

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمي

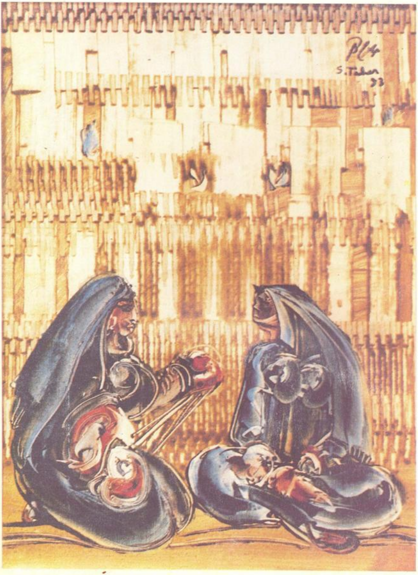
سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٣٩ أول أغسطس ١٩٨٩

نهدا تريزياس

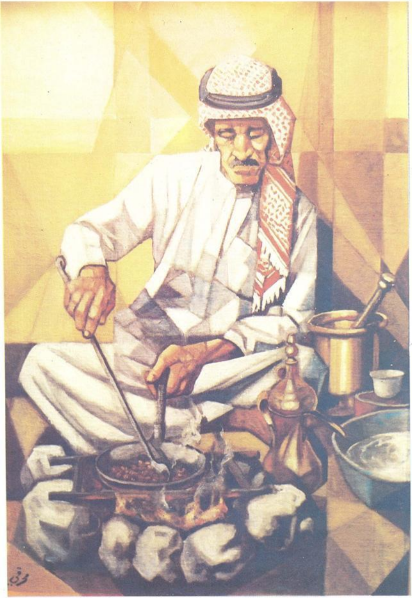
لون الزمن

تأليف : جيوم أبولينير
ترجمة وتقديم : نادية كامل
مراجعة : يحيى حقي



تكوين - للفنان المصري صلاح طاهر


صفر ١٤١٠هـ - سبتمبر (أيلول) ١٩٨٩م
العربي
"مالي"
والسنوات العجاف
من قمم الأطلس
إلى سواحل الأطلسي



تحميص القهوة على نار هادئة - للفنان البحريني عبدالله المحرقي

العـــدد ٣٧٠ السـنة الثانيـة والثـلاثـون سبتمبر ١٩٨٩

العربي

مجـــلة ثقــافيـــة مصـــورة
تصــدرشهـــريًا عـــن وزارة الإعـــلام بـدولـــة الكـويت
للوطـن العـربي ولكل قــارئ للعـــربيـــة فـي العــالـــم

رئـــيس التحـــريــر
د. محمّــــد الرميـــحي

AL-ARABI
Issue No. 370 Sep 1989. P. O. Box 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

عنـــوان المجـلة
العـــــربي
ص. بـــــ: ٧٤٨ ـ الصـفـــاة
الـرمـــزالـــبريـدي 13008 الكـويـت
تـلفـون: ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
بـرقـيـا: "العـــربي"- الكـويـت
تلفون فاكسملى: ٢٤٢٤٣٧٥ - تـلكس: MITR. 44041 KT
المـراسـلات بـاسـم رئـيـس التحـرير

الاشتراكات تُرسَل الطلبات إلى: قسـم الاشتراكات ـ الإعلام الخارجي
وزارة الإعـلام ـ ص.ب: ١٩٣ الكويت
علـى طالـب الاشـتراك تحويـل القيمة بموجب حوالـة
مصرفيـة أوشيك بالدينار الكويتي باسـم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

ثمـن النسخة

الكويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسًا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا: جنيه استرليني ونصف
مصر ٣٥ قرشًا	سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ٢٥ فرنكًا
السودان ٢٥ قرشًا	لبنان ٥٠ ليرة	أميركا ٣ دولارات

محتويات العدد

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

سياسة واقتصاد :

استطلاعات مصورة :

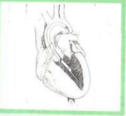
طب وعلوم :



● من قمم الأطلس إلى سواحل الأطلسي ص١٣٢

أدب وفنــون :

منتــدى العــربي :





المجـلـة
غـير ملتزمـة
بإعادة أي مادة
تتلقاها للنشر
والـــوزارة
غير مسؤولة
عـمـا ينشر
فيهـا من آراء.

تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :



صورة الغلاف

« مالي » .. الدولة الأفريقية المسلمة تعرضت لمحن كثيرة ، ولكن كان أخطرها الجفاف الذي ضرب الزرع والضرع مدة اثني عشر عاماً متواصلة ، لكنها لم تستسلم لهذا الخطر .

[طالع الاستطلاع ص ٦٨]

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع

الشكل والمضمون

لعلك تلاحظ منذ هذا العدد الذي بين يديك القفزة الإخراجية التي نحاول أن نقدمها لك ، وقد بدأت بالأعداد القليلة الماضية ، وتستكمل شكلها مع مطلع العام الجديد بإذن الله .

لقد سعينا لاستكمال المحاولة في هذا العدد ، والاستمرار في ذلك ، على أن تتضح تدريجياً ، لنقدم في بداية العام الجديد (أي بعد ثلاثة أعداد من هذا العدد) شكلاً متطوراً للإخراج الداخلي ، يواكب ما نحرص عليه في إغناء المادة التحريرية ، ولعل العناية بجناحي الإخراج والتحرير يظهر في هذا العدد .

ففي حديث الشهر على سبيل المثال ، نقدم لك تلخيصا مكثفاً لأحد أهم الكتب التي صدرت في الغرب حول نقد الفكر الغربي نفسه . وهو موقف يهمنا نحن العرب لسببين : الأول مراجعة نتاجنا الثقافي وتمحيصه ، والثاني النظر في أحوالنا من خلال عيوننا لا عيون الآخرين .

من هذا المنطلق تحاول « العربي » جاهدة أن تقدم أفكاراً وثقافة « نابعة لا تابعة » .

فيكتب لنا الدكتور مصطفى مُرسي عن قضية بالغة الدقة ، وهي الصراع على الموارد المائية .

ويكتب الدكتور محمود عبد الفضيل عن التطورات الحاصلة في فكرنا العربي ، وآفاق هذا التطور . كما يكتب الدكتور أسعد عبد الرحمن عن حق تقرير المصير ، وخصوصية هذا الأمر بالنسبة للشعب العربي الفلسطيني .

أما الدكتور سعيد السماهيجي فإنه يتابع الجديد في عالم أمراض العيون ، فيركز على مرض « الكتاراكت » ، وما توصل إليه الطب في علاجه بدون جراحة . ونقدم لك في مقالات مُركزة قضايا طبية أخرى مثل : المضخة الصغيرة التي تساعد مرضى القلب ، والمفاصل الاصطناعية التي أخذ الأطباء بزراعتها في عظمة الحوض ، ويتابع لك الدكتور ميخائيل تشيرنيشوف الجديد في الصناعة الكونية في العالم .

والعدد حافل أيضاً بالمقالات التي تتناول ما هو طريف في حياتنا ، كالمقال المتعلق بالأدب الساخر ، و المقال الآخر المتعلق « بالنعال » ، والصورة التي نقلها الشعراء والأدباء عنها في تراثنا العربي ، والطرائف والنوادر التي قيلت حولها .

ويكتب الاستاذ عبد الرزاق البصير عن العامية في لغتنا وتعاملنا ، وهل هي مشكلة في حياتنا أم لا ؟

وتأخذك « العربي » بأحد استطلاعيها الملونين إلى : « مالي » ، البلد الأفريقي المتاخم لحدودنا العربية ، وتنقل لك صوراً من حياة الناس فيها ، والمشاكل التي يعانون منها .

أما الاستطلاع الآخر فإنه ينقل لك تجربة محرري « العربي » وهم ينتقلون من قمم جبال الأطلس ، في المملكة المغربية إلى سواحل الأطلسي ، حيث سجلوا بالقلم وآلة التصوير معالم تلك البقاع والنشاط الإنساني فيها .

هذا عدا كثير من الموضوعات الأخرى التي وقف كُتابها يستجلون لك الجديد والمفيد في دنيا المعرفة والعلوم والثقافة . فإلى العدد . □

المحـــــرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

المثقفون !

هل اخترع المثقفون الثقافة حتى يدخلوا «لعبة» السياسة ؟

يقول المثل العربي : «إن هناك من كل لعبة شَبْعَة» ، والمثل لا يحتاج إلى كثير من التفسير ، فهل شبع العالم من لعبة المثقفين ؟ وهل اخترع المثقفون (الثقافة) حتى يدخلوا إلى (لعبة) السياسة وحتى يخرجوا منها متى ما شبعوا ؟

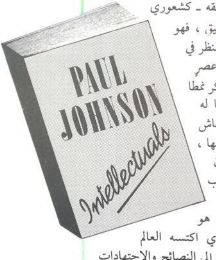
كانت هذه الأسئلة ومثلها تدور في خاطري وأنا أقرأ الكتاب المكثف الأفكار الذى صدر أخيراً بعنوان عريض واحد هو (المثقفون) ، وكان على قائمة الكتب الأكثر مبيعاً فترة من الوقت هذا العام* .

هناك نقاط تماس كثيرة بين الثقافة والسياسة . ولعل السياسة في عالم اليوم هي ثقافة بشكل ما . فالبسطاء والسذج فقط هم الذين يعتقدون أن هناك فاصلاً واضحاً وظاهراً بين الاثنتين : الثقافة والسياسة .

---

* Intellectuals- Paul Johnson- Widenfeid & Nicolson- 1988

المشكلة هي من قبيل تصدي الثقافة ، أو بالأحرى أفكار المثقفين ، لامتحان الزمن ، وهو امتحان عسير ، خاصة عندما تصبح تلك الأفكار قواعد سياسية ، يبني عليها مجتمع ـ أو مجتمعات كبيرة وضخمة ـ حاضراً ومستقبلاً .



لم أشعر أنني أغمط القارىء العربي حقه ـ كشعوري اليوم ـ وأنا أتناول هذا الكتاب بالشرح والتعليق ، فهو كتاب في مجمله يجعلنا ـ نحن العرب ـ نعيد النظر في الموقف الرومانسي الذي وقفناه من مفكري عصر النهضة الأوربية الغربية ، سواء أفرز ذاك الفكر نمطا في السياسة اشتراكيا أم رأسمالياً ، وكم نسبنا له من الحكمة غير الموجودة ، بشهادة الواقع المعاش اليوم ، وبشهادة مفكرين غربيين من البيئة نفسها ، يقفون موقف النقد لتلك الأفكار . لذلك فإن الاختصار والتعليق قد لا يستخلص من الكتاب كل ما يريد أن يقول ، ولكنني سأحاول .

ينطلق الكتاب من افتراض عريض ، هو أن الطابع الفكري ـ وبالتالي السياسي ـ الذي اكتسبه العالم الحديث الذي نعيشه ، يعود بالدرجة الأولى إلى النصائح والاجتهادات التي قدمها مفكرو عصر النهضة الأوربية للبشرية ! ولكن من هم هؤلاء المفكرون ؟

يختار بول جونسون ـ مؤلف الكتاب ـ مجموعة من المفكرين ، يمتد زمانهم من أواسط القرن الثامن عشر حتى النصف الأول من القرن العشرين الذي نشرف على نهايته . ويعرض المؤلف بالدراسة لمجموعة من المفكرين والكتاب ، من بينهم جان جاك روسو ، شيلي ، كارل ماركس ، هنريك ابسن ، تولستوى ، آرنست همنجواي ، برتولت برخت ، برتراند راسل ، جان بول سارتر ، ادموند ولسون ، فكتور جولنزس ، ليلين هلمن ، نورمن ميلرد ، جيمس بالدوين ، نعوم تشومسكي ، وغيرهم .

والمؤلف يرى ـ خاصة بالنسبة للأوائل منهم ـ أنهم ممثلون لتحول الفكر الغربي من التفكير الكنسي ، أو حتى التفكير المشعوذ الذي تجاوزه الناس ، إلى التفكير الحديث . والأسئلة التي يطرحها المؤلف : كيف

الفكر تفاعل مستمر بين الإنسان وواقعه

استطاع رجال كهؤلاء أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه من آراء تمكنوا بها من السيطرة على عقول الناس وأفكارهم ؟ وما السبل التي اتبعوها في الإقناع ؟ وما مدى التزامهم واحترامهم للحقيقة وقول الصدق فيما ذهبوا إليه ؟ وما مدى التزامهم هم أنفسهم بتطبيق المبادىء التي نادوا بها على أنفسهم ؟

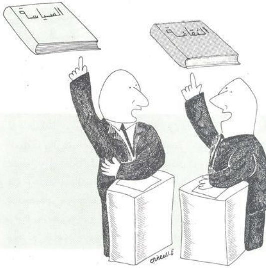
مثل هذه الأسئلة يجيب عنها الكاتب ، بكل ما تتمخض عنها من جاذبية وتناقض . ولا يأتي الكاتب الى موضوع خطير كهذا دون سلاح ، فهو - أي بول جونسون - من الكتاب البريطانيين المرموقين ، جمع بين الصحافة والعمل «الأكاديمي» ، ونالت كتاباته السابقة جوائز عديدة . وليسمح لي القاريء أن أختار بعض نماذج الكتاب والمفكرين الغربيين ، لأعرضها له هنا للتدليل على أن عنصر (القطيعة) - إن صح التعبير - يتضاءل ، وتبرز النسبية والإدراك للأمر الواقع . فالفكر تفاعل مستمر بين الإنسان وواقعه ، ولا يمكن ولا يجوز له أن يرتكب الخطأين : القطيعة والجمود ، فهو نسبي ومتجدد دائماً وإلا تحول إلى (تابو) .

جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨)

لم يمض زمان طويل على الاحتفالات الضخمة التي أقيمت في فرنسا بمناسبة مرور قرنين على قيام الثورة الفرنسية . وعندما تذكر تلك الثورة يذكر دائماً جان جاك روسو الذي توفي قبل عقد من نشوبها فقط . وروسو هو نتاج طبيعي للأحداث التي مرت بفرنسا منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وقتئذ كان الصراع بين الفكر الكنسي المشبع بالخرافة والذي بدأ يفقد تأثيره القوي على الناس وبين الأفكار الجديدة التي تحل التفكير العقلي محل التفكير الخرافي . كان روسو يعتقد أن لديه من المواهب وعمق البصيرة ما يساعده على زيادة سعادة الناس وهنائهم . وأهم الأفكار التي جاء بها ووجدت قبولاً لدى الناس هي الأفكار التربوية الحديثة التي نادى بها ، وهي ضرورة التخلص من حالة النفاق التي عمت بين الناس ، نتيجة تأثير بعضهم على بعض بقوة المال أو بالقوة الجسدية أو الذهنية أو الأخلاقية ، لدرجة جعلت بعضهم أغراباً عن بعض ، بل وعن أنفسهم . لقد عد روسو حالة النفاق تلك دليل مرض نفسي ، يفصل بين مظاهر الناس وحقيقة شعورهم ، ويخلق عندهم روح التنافس التي تقتل الروح الاجتماعية التي تقرب بين الناس .



جان جاك روسو



ويصل روسو في كل ذلك الى بيت القصيد ، وهو أن ثقافة المرء - لا ثروته الخاصة ولا مكانته الاجتماعية - هي التي تحدد سلوكه ، لذلك فإنه من الممكن تحسين سلوك الإنسان بتغيير ثقافته التي بُنيت أصلا على فكرة التنافس والحصول على الثروات التي تقود إلى استغلال بعض الناس لبعضهم الآخر .

صحيح أن أفكار روسو من السعة والتنوع بحيث تحتاج إلى صفحات ضخمة لاستيعابها ، ولكن الصحيح أيضا أن تلك الأفكار لم تكن من إبداعه الشخصي . لقد كان كاتباً فذاً ، بحيث استطاع أن يجمع كل تلك الأفكار الموجودة في زمنه ويعبر عنها بأسلوب جذاب جعلها تنتشر بسرعة في عقول الناس .

روسو مثل غيره من المفكرين ، حددت له ظروف نشأته موقفه الفكري . ولقد أصبح ذلك اليوم من الحكم السائدة ، أي أن قيم الباحث تحدد موقفه الفكري ، وقيمه نابعة من ظروفه الخاصة .

نشأ روسو في ظل أب متحجر العاطفة ، وفي سنة ١٧١٨ أرسله والده وهو طفل إلى دار إصلاحية الاطفال ، فقد كان يعتقد أن أخلاق روسو من السوء بحيث يستعصي تقويمها بين جدران المنزل . وبعد خمس

فقيم الباحث تحدد موقفه الفكري وتنبع من ظروفه الخاصة !



سنوات فر روسو من تلك الدار . وعلينا أن نتصور شكل التعامل في تلك الدار في الربع الأول من القرن الثامن عشر !! واختفى الفتى فترة . نشأته الصعبة - كما يرى المؤرخون - تركت في نفسه آثاراً لا تمحى من الحرمان العاطفي الذي كان كثيراً ما يدفعه إلى الإشفاق على نفسه والبكاء على الحالة التي وصل إليها ، خاصة بعد أن توفي أبوه واختطف الموت المرأة التي ربته وعطفت عليه .

كان روسو يكره مهنة النقاشة التي دُرب عليها ، فلما بلغ الخامسة عشرة فر من عمله ، وتحول من المذهب البروتستانتي إلى الكاثوليكي ، كي ينال العطف والرعاية من مدام فرنسوا لويس دي وارتيز التي كانت ترعى المتحولين إلى الكاثوليكية . وهكذا كان روسو ينشد العطف والرعاية هنا وهناك ، وقد تنقل بين ثلاث عشرة مهنة ، من بينها : نقاش ، خادم خاص ، طالب في معهد اللاهوت ، موسيقي ، موظف مدني ، مزارع ، مدرس ، أمين صندوق ، ناسخ نوتات موسيقية ، كاتب ، سكرتير خاص . وفي عام ١٧٤٩ حصل على وظيفة سكرتير للسفير الفرنسي في فينسيا ، وما لبث أن طرد منها بعد أقل من عام . ثم هرب من فينسيا كلها خشية الاعتقال ، فقد قال عنه رئيسه : «إن هذا الرجل مكتوب عليه الفقر إلى أن يموت بسبب ميوله الحقيرة ووقاحته المتناهية المتأصلة في نفسه النابعة من جنونه وغروره اللذين لاحد لهما» .

وما لبث بعد ذلك أن انصرف الى الكتابة ، ثم تعرف على عاملة مصبغة تصغره بعشر سنوات ، وقد أصبحت خليلته التي تشاركه حياته .

فرصة عمره واتته عندما قرأ إعلاناً في صحيفة ، نشرته أكاديمية (ديجون) للآداب ، تدعو فيه الكتاب لمسابقة في كتابة مقال عن مدى الأثر الذي تركه تقدم العلوم والآداب في تحسين أخلاق الناس وسلوكهم .

كان روسو يعرف أن معظم المتسابقين سوف يدافعون عن الآداب ، ويرجعون لها الفضل في تقدم أخلاق الناس ، أما هو فكان له رأي آخر ، كان يرى أن مدى ما يتمتع به الناس من صدق في التعبير وشعور بالحرية ومحافظة على الفضيلة عوامل تؤثر في تحسين أخلاق الناس ، وليس لتقدم العلوم والآداب شأن في ذلك . وقد كسب روسو المسابقة ، وما لبث بين ليلة وضحاها أن أصبح كاتبا شهيرا يشار إليه بالبنان . بعد ذلك أصبحت كتبه التي كتبها مثيرة لرجال الدين الذين هاجموها ، فزاد شهرة وانتشارا . أما الأفكار التي عبر عنها فهي ليست جديدة ، فمعظمها معالجات لقضايا جنسية صريحة إلى حد الوقاحة . ومن فنون الكتابة التي

كان يتبعها روسو لاجتذاب الأنظار دفاعه عن بعض الرذائل البغيضة كنكران الجميل والأنانية ، وكان يضع هذه الدعاوى في إطار فلسفي من المفروض أنه لا علاقة لتصرفاته الشخصية بها ، فهو يقول عن نفسه : «إنه رجل خلق ليحبه الناس ، وعاش طيلة حياته يبشر بالحب ، ويعلم الناس أن يحب بعضهم بعضاً» ، ولكن حياته الشخصية وتصرفاته مع أقرب المقربين إليه لم تكن تنم عن ذلك ، بل كانت على العكس .

فوالده لا يعني له إلا : كم سوف يترك له من المال عندما يموت .

أماالمرأة التي ربته فترة وقدمت له الحنان (مدام دي وارتيز) فقد ماتت معوزة ، بينما كان هو قد أصبح غنيا ومع ذلك لم يقدم لها المساعدة . أما خليلته التي عاشرها مدة ثلاثين عاماً فقد كتب عنها يقول : إنه لم يشعر بالحب أبداً نحوها . أما أولاده الذين جاء معظمهم بطريق غير شرعي فلم يعترف بهم ، ولم يمنحهم حتى اسمه ، وتخلص منهم جميعاً بإلقائهم أمام المستشفيات كي ينشأوا كلقطاء بعد ذلك .

كان روسو فوضويا في نظرياته وآرائه السياسية ، متناقضاً أحياناً حتى مع نفسه ، وعندما توفي قالت خليلته عنه : لقد كان رجلاً أحمق ، ولكنه يبعث على التسلية .

هذا الرجل هو الذي نظم مجموعة من الأفكار ، أصبحت بعد ذلك إحدى المصادر الفكرية للثورة الفرنسية ، في الوقت الذي كان هو كشخص أمثولة للحمق والفوضوية .

بيرسي شيلي (١٧٩٢ - ١٨٢٢)


بيرسي شيلي

شاعر ينحدر من صلب أحد البارونات الانجليز ، ومفكر انجليزي يدعو إلى ضرورة العيش وفقا لمقتضيات الطبيعة البشرية ، ووفقا لما يمليه العقل السليم ، وهو من أقوى أنصار الدعوة لمناصرة حق المفكرين والكتاب في هداية الناس نحو طريق الصواب . وهو يوضع في مقدمة الشعراء الذين يصفهم بأنهم «رجال التشريع والمباديء القويمة» . وضع شيلي نظريته في مقال أصبح من المقالات الأكثر شهرة في عالم الأدب ، وهو مقاله (دفاع عن الشعر) .

يقول شيلي في مقاله هذا : «إن الشعر ليس مجرد كلمات مصفوفة يقرؤها الناس فيطربون لنغماتها أو يتسلون بأفكارها ، إنه - أي الشعر - يجمع ما بين الإلهام الإلهي والقانون الوضعي والمعرفة البشرية ، وإن

أعظم أسرار الأخلاق تكمن في الحب الذي لا يعرف الأنانية

إصلاح المجتمع لا يتم إلا إذا كان دافع المصلح ينبع من إحساس أخلاقي» . ثم يضيف : «لقد حاولت الكنائس القيام بهذا الدور ، لكنها فشلت ، وحاول العلماء ذلك ، لكنهم فشلوا ، لأنهم لا يملكون المقومات العقلانية اللازمة للقيام بمثل هذا العمل . وقد عجز العقلانيون أن يقوموا بهذه المهمة لأن العقلانية وحدها لا تستطيع أن تخرج بنتائج أخلاقية بحتة تقدمها للناس فتصلح من شأنهم» . ويستطرد قائلا : «حتى لو اجتمع العقلانيون والعلماء معا للخروج بمبادىء أخلاقية فسوف يكون نتاج عملهم مجموعة من الكوارث والنكبات ، كما حدث عند قيام الثورة الفرنسية وما تلاها من حكم نابليون الدكتاتوري» . ثم يخرج من ذلك كله ليقول : «إن الشعر وحده هو الذي يستطيع أن يملأ الفراغ الأخلاقي ، ويعمل على إبداع قوة خلاقة قادرة على توسيع آفاق التفكير» . ثم يمضي فيقول : «إن أعظم أسرار الأخلاق تكمن في الحب ، أو في الخروج من طبيعتنا الشخصية ، والتعرف على حقيقة النفس البشرية وما تحويه من جمال في الفكر والعمل ، فالحب لا يعرف الأنانية وهو أبعد ما يكون عن الحذر والتروي قبل الإقدام ، والحب يشجع العمل الجماعي ويرعاه» .

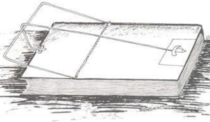
ويقول : «إن أقوى أسلحة الشاعر خياله ، ولابد للشاعر من استخدام هذا الخيال للغوص في أعماق النفس البشرية ، حتى يستطيع التعرف على معاناتها ، ثم يستخدم بعد ذلك قدرته على التعبير لإصلاح الناس وهدايتهم حتى يخرج إلى الوجود ما يمكن أن يسمى (شعر الحياة)» .

شيلي لم يكن يطالب في مقاله بحق الشاعر في الحكم على ما هو رديء وما هو صالح فقط ، بل كان يقدم نقداً موضوعياً «للمادية» التي أصبحت إحدى صيحات المجتمع الغربي الأعلى صوتا في القرن التاسع عشر ، ومع ذلك فهو نفسه لم يكن يؤمن بالدين ، بل وضع كتيبا صغيراً يعبر عن آرائه تلك ، أعطاه عنوان «الاضطرار إلى الإلحاد» ، أرسل نسخا منه إلى رؤساء الجامعات والأبرشيات . وقد عد عمله هذا استفزازياً ، فنال ما يستحقه ، وهو الطرد من الجامعة . والآراء التي كان ينادي بها شيلي في العلن لم تكن تطابق تصرفاته العائلية والاجتماعية . فلم يكن على علاقة طيبة بأسرته ، بل وصل به الأمر إلى اتهام أمه اتهامات أخلاقية خطيرة وليست صحيحة في الوقت نفسه . وكان يحيا حياة

بوهيمية ، ويحيط نفسه بفتيات يعشن حياة طليقة ، كما أنه لم يعرف الاستقرار في مكان واحد طيلة حياته ، وكان دائم التنقل بين الشقق المفروشة ، ويأتي بأولئك الفتيات الطليقات ـ بعد أن تزوج ـ إلى عش الزوجية ، مما اضطر جيرانه أكثر من مرة إلى مهاجمته وإرغامه على الرحيل من الجيرة . وعلى الرغم من وفاء زوجته له فإنه قد طردها كي يسافر مع إحدى عشيقاته . لقد كان شيلي أنانياً ومغروراً إلى أقصى حد ، كما كان ذا ميول منحرفة عن جادة الأخلاق القويمة ، وكان يعتقد أن على الآخرين أن يوافقوا على كل تصرفاته مهما كانت ، بل عليهم أن يستحسنوها . وكان كثير الاستدانة لينفق على ملذاته ، يطارده الدائنون إلى درجة أنه كان يخفي مكان إقامته . وبعد أن اضطرت زوجته لطلب الطلاق منه ـ بعد صبر طويل ـ أرغى وأزبد وغضب غضباً شديداً ، واتهمها بخيانة حبه الكبير ، وأنها تهدف إلى «تدمير رجل بريء يعاني من الكرب والعوز» ، وكتب لأحد أصدقائه يقول : «إنما كتبْتُ ما كتبْتُ لأضرب للناس المثل في الصداقة الحقة ، وأؤكد حبي الدائم للبشرية ، وحماسي المنقطع النظير للحق والفضيلة» .

وقد اقتنع شيلي بأن رد القروض للناس ليس واجبا أخلاقياً على رجل الفكر ، إذ يكفي أنه يقدم لهم أفكاراً لا تقدر بثمن !! وهذه وإن كانت خدمة إنسانية إلا أنها أثمن من المال بكثير !!

القاسم المشترك في مسلك شيلي مع كل من يتعامل معهم ، سواء كان تعامله يتعلق بالنواحي المادية أو الجنسية أو حتى بمن كانت تربطهم به علاقة عائلية كأبيه وأمه وأخواته وأطفاله أو بصداقات حميمة ، أو بمن كان يتعامل معهم تجارياً كناشري كتبه ، فالقاسم المشترك في كل علاقاته مع كل هؤلاء الناس هو أنه لم يكن يرى أصوب من وجهة نظره هو في طريقة التعامل ، وبعبارة أخرى أن خياله كان عاجزاً عن الوصول إلى وجهة نظر



هؤلاء الناس . وهذا أمر غريب حقاً ، فالخيال يرقد في أعماق نظريته عن التجديد السياسي الذي كان يبشر به ويدعو له . لقد لاقى شيلي حتفه وهو في شبابه ، إذ انقلب به قارب في عاصفة هوجاء أبى أن يحني لها رأسه فيخفض من سرعة قاربه ، ومات غريقاً .

كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣)

في الوقت الذي بدأت تظهر فيه علامات استفهام كبيرة حول نظرية كارل ماركس الاقتصادية وتعديلاتها ، والتي حولها بعضهم من نظرية اقتصادية تصح وتخطيء إلى «عقيدة» فإن الذي لانقاش فيه أن ماركس ترك من الأثر على عقول الناس وعلى الأحداث في عالم القرنين - التاسع عشر والعشرين - مالم يتركه أي مفكر آخر في العصر الحديث . والسر في ذلك ليس قدرة أفكار ماركس وتأثيرها على الآخرين ، بل يكمن السر في أن هذه الأفكار استطاعت أن تجد لها مجالاً للتطبيق العملي في دول من بينها اثنتين على الأقل من أكبر دول العالم ، وهما روسيا والصين ، واستطاعت نظريته أن تجد لها أنصاراً جاهدوا لتطبيقها .

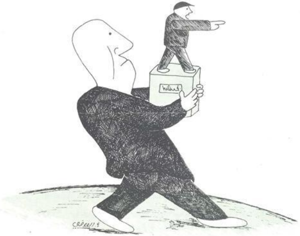
كارل ماركس كان ابن عصره - أي ابن القرن التاسع عشر - الذي كان يبحث ويفخر بوجود فلسفات علمية . ويتساءل الكاتب : هل أفكار ماركس علمية حقاً ؟ ويجيب : إن أفكار ماركس لم تكن علمية . كان يعتقد أنه وجد تفسيراً علمياً للسلوك البشري على مر التاريخ ، وأن تفسيره قريب من تفسير دارون عندما وضع نظريته عن «النشوء والارتقاء» . وصْف فلسفة ماركس بأنها فلسفة علمية هي (خرافة) انتقلت إلى العالم الخارجي - غير الماركسي - كما يقول الكاتب ، ولقيت قبولاً لدى الأكاديميين الغربيين ، لأنهم وجدوا فيها القوة الساحرة التي تروق لهم . ويتابع الكاتب القول : «ولو أن هتلر ، صاحب نظرية سيادة الجنس الآري ، كسب الحرب العالمية الثانية ، ونجح في ترويج فلسفته في (علم الأجناس) لاتخذت لنفسها المسمى نفسه والصفة التي أطلقت على الماركسية» ، أي أنها فلسفة علمية . . !

يتساءل الكاتب بعد ذلك : هل كان ماركس عالماً حقا ؟ وهل كان يتبع الطريقة العلمية في أبحاثه ؟ .. قبل أن نجيب عن ذلك ، نتتبع حياته ، فقد ولد في أحد مناطق بروسيا في العقد الثاني من القرن التاسع عشر (اختلفت المصادر في تحديد العام) ، وكان واحدا من تسعة إخوة ،



كارل ماركس

هل كان كارل ماركس عالماً حقاً يتبع الطريقة العلمية في أبحاثه ؟



لم يعمر منهم واحد سواه ، وله ثلاث أخوات . وبعد صدور القانون البروسي (عام ١٨١٦) الذي يحرم اليهود من الحصول على المراتب العليا في مجالي القانون والطب ، تخلى عن يهوديته ، واعتنق البروتستانتية . وبعد ذلك عَمَّدَ أولاده الستة في الكنيسة المسيحية ، وكان يبدو مسيحياً مخلصاً . وانتسب إلى مدرسة عليا تدرس اللاهوت ، وكان ملماً بالتلمود ، كما اشترك في تأليف بعض الموسوعات عن التلمود وكانت السمة المميزة - كما يقول الكاتب - لكل مؤلفاته أنها كانت تحمل ملامح التلمودية . فهي إما تعليق على ما يكتب عن التلمود أو نقد لما يكتبه الآخرون في هذا المجال . بعد أن حصل على الدكتوراة في الفلسفة دون أن يفلح في الحصول على كرسي للتدريس في الجامعة ، انصرف للصحافة ثم للعمل في السياسة . وبعد فشل ثورة باريس الشيوعية سنة ١٨٤٨ ، حيث شارك في كتابة (المنافستو) ، اضطر للهرب إلى انجلترا ، وظل هناك أربعا وثلاثين سنة إلى أن مات ، قضى معظمها في مكتبة المتحف البريطاني ، يجمع المعلومات لدراسة ضخمة كان يجريها عن الرأسمالية . نشر أول مجلد منها في حياته ، ولكن المجلدين الثاني والثالث نشرهما رفيقه فردريك انجلز بعد أن جمعها من مذكراته . عاش ماركس بين الكتب ، وشبه نفسه (بالآلة التي لا عمل لها إلا طحن الكتب) . وهنا يجيب

الكاتب عن تساؤلاته الأولى حول علمية ماركس ، فيقول : «لم يكن عالماً حقيقياً على الإطلاق فهو لم يكن يهتم بالبحث عن الحقيقة لاكتشافها فقط ، بل لإعلانها على الملأ . كان شاعراً كتب معظم إنتاجه الشعري عن حُبه لابنة الجيران التي تزوجها فيما بعد . وشعره كله ذو طابع يتسم بالفخر مع نزعة للتشاؤم والكراهية» .

كان كارل الكاتب يؤمن بالأخرويات وبحتمية دمار العالم ، أما ماركس الاقتصادي والسياسي فيبدو مولعاً برد الأمور إلى جذورها ، والبحث عن المبررات التي جعلت حدوث تلك الأمور شيئاً حتمياً ، دون أن يكلف نفسه عناء البحث عما سوف يتمخض عنه المستقبل . فأبحاثه قاصرة على الأمور التي حدثت ، لا الأمور التي سوف تحدث .

لقد استطاع ماركس بموهبته الشعرية أن يصوغ أفكاره في قالب دراماتيكي ، يجعل القراء يؤمنون بحتمية دمار الرأسمالية ، فقد كان يخمن ما سوف يحدث بالحدس لا بالتفكير العلمي .

ماركس الصحفي كان يتقن الجدل الصحفي ، ويطعم مقالاته بالحكم والأقوال المأثورة ، كأن يقول : «ليس للعمال بلد خاص بهم» ومن أقواله أيضاً «الألمان يفكرون ولكن الشعوب الأخرى تعمل» .

يبرر الكاتب فشل ماركس الاكاديمي ، خاصة في نقده القاسي لطريقة هيجل في التفكير ، بقوله : «لقد كان ينقصه - أي ماركس - شيء واحد ، هو الدافع الأخلاقي الذي يبرر سعيه الدءوب ليصبح باحثاً أكاديمياً ، وقد وجده أخيراً بالتعبير عن كراهيته للربا والمرابين . هذا الدافع فرض نفسه فرضاً بسبب المصاعب المالية التي كانت تواجهه ، والتي عبر عنها في كتاباته عن قضايا اليهود» .

سر الطلاق القائم بين الفكر الذي نادى به المثقفون وبين ممارساتهم

في الجدل الذي تم بينه وبين بعض تلاميذ هيجل حول اليهود يتبين لنا جزء من اساس دوافع تفكيره ، فقد طالب أحد هؤلاء التلاميذ (برونو بوار) في مقالة نشرها أن يتخلى اليهود عن الديانة اليهودية تماماً ، حتى يذوبوا في المجتمعات التي يقطنونها ، ورفض ماركس الفكرة القائلة بأن عداء اليهود للمجتمع الذي يعيشون فيه يرجع لأسباب عقائدية ، وأن تصرفاتهم يمكن القضاء عليها بسلخهم من ديانتهم ، فهو يرى رأياً آخر ، حيث يرى أن نزعة الشر في طباعهم هي نزعة اجتماعية واقتصادية ولا علاقة لها بالدين .

لقد كتب مرة : «ما الإله الدنيوي الذي يعبده اليهودي ؟ إنه المال



وقد تمكن اليهود بالتدريج من تعميم هذه الديانة العملية على المجتمع كله ، فالمال هو رب الأرباب في «اسرائيل» ، ولا يفوقه أي إله آخر ، إنه في رأيهم يسيطر على البشر كلهم ، فهم يعبدونه» .

هذه هي الفكرة الغائرة في وجدان ماركس ، لكونه يهودياً ، وكون اليهود في القرن التاسع عشر في أوربا في نظر شعوب تلك البلاد مرابين عبدة للمال ، حتى أصبح اليهودي شخصاً بغيضاً في أعين الناس ، فلابد من إلغاء فكرة الأفضلية والصواب عن النشاط المالي (الذي علمه اليهود للناس) .

تفسير ماركس لأسباب الفساد الذي يسود العالم في ذلك الوقت هو مزيج من سيطرة اليهود على المال وفلسفة روسو ، وقد طور نظريته هذه فيما بعد ليجعلها غير مقصورة على اليهود وحدهم ، بل على الطبقة البرجوازية بكاملها ، مستعيناً بالطريقة الجدلية التي اتبعها هيجل ، وبالفلسفة الألمانية في أدنى درجاتها . ومن الغريب حقاً أن يخلص من جدله ـ يقول الكاتب ـ إلى أن الدمار الذي لحق بالمجتمع لن يتم إصلاحه إلا بتقوية الطبقة العاملة التي لمّا تكن قد تشكلت آنذاك بعد . ولكن النتيجة التي وصل إليها هي من صميم الأفكار والمفاهيم اليهودية التي تقول : إن خلاص البشرية سوف يكون على يد الطبقة العاملة .

يستطرد الكاتب فيشير إلى أن أقوال ماركس قد يقابلها بعضهم بالثناء ، ومعارضتها قد تجلب لبعضهم الآخر الاستياء . ولكن سواء رضي الناس بها أو عارضوها ، فسوف يظل السؤال الحائر دون جواب شاف ، وهو : أين الحقيقة ؟ وأين الأدلة الحية ؟ وأين الوقائع الثابتة التي استند إليها ماركس ، والتي تثبت لنا أن تنفيذ مثل هذه الفلسفة والرؤى الخيالية من الأمور العلمية ؟

ويختم الكاتب هذا الفصل بملاحظة طريفة ، فيقول : «لقد عاش ماركس حياته كلها يدافع عن الطبقة العاملة ، وهو الذي كان يستخدم في بيته عاملة ، هي «هلن ديموت» التي كان يلقبها (لنشن) دون أن يكلف نفسه عناء إعطائها أي أجر !!

□□□

ويذهب الكتاب للحديث عن المفكرين الغربيين الآخرين : هنريك إبسن (١٨٢٨ ـ ١٩٠٦) ، وتولستوي (١٨٢٨ ـ ١٩١٠) ،

كم نسبنا إلى الفكر الغربي حكمة غير موجودة فيه ؟

وآرنست همنجواي (١٨٩٩ ـ ١٩٦١) ، وآخرين والمجرى الرئيسي لفكرة الكاتب أن هؤلاء ، قبل مساهماتهم الفكرية ، كانوا يخوضون حرباً مع مجتمعهم ـ هي في الأساس حرب عقائدية وليست أخلاقية ـ برفضهم المطلق أو النسبي لأشكال الممارسات المسيحية ، فقد غير كثير منهم مذهبه الديني ، أو تحول إلى الإلحاد ، كما أن معظمهم كانت علاقته مع أهله وأقربائه علاقة سلبية مثل تولستوي الذي وصفه الكاتب بأن أيامه الأخيرة «اتسمت بأعمال مليئة بالغيرة والنكاية والحقد والانتقام والمكر والخيانة وسوء الخلق» ، أو همنجواي الذي كان يصف والدته بأوصاف بذيئة .

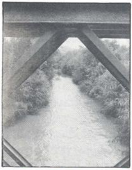
الأمور الدينية والعرقية والشخصية لعبت أدواراً مختلفة في تكوين الشخصيات والأفكار لمن نسميهم ـ بشكل عام ـ مفكري النهضة في الغرب ، كما أن المجرى الثانوي لفكرة الكاتب أن هناك في معظم الأوقات طلاقاً تاماً أو جزئياً بين الفكر الذي نادى به هؤلاء المثقفون وبين الممارسات الشخصية والاجتماعية على أرض الواقع ، وفوق ذلك أن الكثير من الأفكار التي جاءوا بها ـ وهذا هو الأهم ـ لم تصمد لامتحان الزمن !

فإذا كانت لم تصمد لامتحان الزمن في مجتمعاتها ، فكيف بها تصمد أو تصلح في مجتمعات أخرى ؟! همنجواي مثلاً والمفكرون الأمريكيون الآخرون كانوا يطالبون بتخليص الفكر الأمريكي من «الدودة الشريطية» ، على حد تعبير المفكر الأمريكي «رالف والدو أيمرسون» ، ويعنون بها الأفكار الاوربية . وخلفيات الثقافتين الامريكية والاوربية متقاربة ، فما بالنا بثقافات أخرى ومجتمعات أخرى ؟

□□□

لاشك أن هناك هامشاً مشتركاً في الفكر الانساني ، ولكن هذا الفكر ، إن لم يكن نابعاً ومتفاعلاً مع مجتمعه ، سيكون دخيلاً عليه ، وقد جاء الوقت الذي يجب أن نعيد فيه النظر من جانبنا ـ نحن العرب ـ في ما يمكن أن نستوعبه من الفكر الغربي والإنساني من جهة ،وفي ما نستطيع أن نبحث عنه في ثقافتنا من جهد خلاق . □

محمد الرميحي



النزاع على الموارد المائية تحدي العقد القادم

بقلم : الدكتور مصطفى عبدالعزيز مرسي *

ستواجه البشرية خلال القرن القادم تحديات كثيرة ، يبرز منها النقص في الموارد المائية ، مما يقوي احتمالات نشوء نزاعات إقليمية بسببه في مناطق عديدة من العالم ، ومنها الوطن العربي . فهل أعددنا خططا لمواجهة احتمالاته المختلفة ؟

الماء عنصر الحياة الأول ، والمادة التي أودع الله فيها سر هذه الحياة ، واستمرار البقاء والوجود والعمران . وقد برزت هذه الحقيقة الأساسية في قوله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، فسائر مايقع عليه الحس في الأرض من بهجة وحياة ونماء ونتاج أثر من آثار المياه .

وقد قرن العربي القديم في الصحراء العربية الماء بكل معنى خير ، وبكل منظر حسن ، وبكل فعل جميل . وكذلك كان سقي الماء والتصدق به من أهم الأعمال الخيرية المطلوبة التي يقوم بها الأهالي . واذا استقرأنا أمثال العرب القدماء وجدنا العديد من الأمثال التي تستمد من موضوع الماء في حالاته المختلفة ، سواء أكان سحابا أم مطرا أم سيلا ، أم ماء مستقرا في الأرض . وتكفي الاشارة ـ في هذا الصدد ـ إلى أن العرب لكثرة تشوقهم للغيث ، قد لقبوا ببني ماء السماء ، كما جاء في حديث أبي هريرة « أمكم هاجر يا بني ماء السماء » ، كما سموا المرأة الجميلة « ماء السماء » ، كما استعملوا الغوث بمعنى العون والمساعدة .

وقول هيردوت « إن مصر هبة النيل » ، إنما

* كاتب من القطر العربي المصري .

يعكس حقيقة مستمرة منذ آلاف السنين ، ومن هنا ظل يوم « وفاء النيل » منذ آلاف السنين عيدا مشهورا . وفي هذا اليوم كان المصريون القدامى ، ومازال أحفادهم يتذكرون أنشودة النيل المنقوشة على جدران المعابد القديمة التي تتغنى بالنيل ، وتقول في بعض أجزائها : « إنك تبعث الحياة في الحيوانات ، وتروي الصحراء البعيدة عن مياهك بالندى الذي يسقط من السماء ، إنك ابن الأرض البكر ، وهو الذي يقدم لنا الحبوب ، وينشط الحركة في المتاجر ، إنه سيد الأسماك ، ومساعد الطيور المائية على التحليق ، إنه منتج القمح والشعير . إذا كان النيل كسولا جفت فروعه ، وغمرت الناس حالة من البؤس . . . وإذا كان النيل بخيلا أقفرت البلاد وأجدبت ، وبكى الرجال الكبار والأطفال الصغار . إنه جالب المعونات ، والغنى بالزاد الزاخر بكل الطيبات . . . » .

شح الموارد المائية :

ولقد ساد الاعتقاد - فترة من الوقت - أن الموارد المائية متجددة بطبيعتها ، غير قابلة للاستنزاف والنضوب . وإذا ما نظرنا إلى العالم حولنا نلاحظ أن مستوى الماء الجوفي الذي يعتمد عليه كثير من الأراضي المروية بالولايات المتحدة الأمريكية ، قد انخفض في ٢٥٪ من المساحات الكلية بدرجة ملحوظة ، كما أن هناك وضعا مماثلا في المناطق المروية بجمهوريات وسط آسيا بالاتحاد السوفيتي ، وكذلك السهول الشمالية في الصين الشعبية ، حيث ظهرت أيضا مؤشرات الجفاف ، وهي السهول التي تمد الشعب الصيني بما يقارب ٢٥٪ من الإنتاج الزراعي .

كما نلحظ المجاعات الرهيبة التي تعرضت لها عدة بلدان أفريقية عانت من القحط عدة سنوات نتيجة النقص في هطول الأمطار التي يرجعها بعض العلماء إلى الاضطرابات في التوازن البيئي و « الأيكولوجي » الناجمة عن آثار التقنية العصرية التي أدت الى تلوث طبقة الأوزون ، واختفاء الغابات ، وتآكل الأنساق البيئية التي تستند إليها مقومات الحياة .

وفي الواقع أن الموارد المائية محدودة وتتناقص ، شأنها شأن الموارد الطبيعية الأخرى ، كما أن القضية لم تعد تقتصر على تقلص هذه الموارد المائية ، بل امتدت إلى تدهور نوعيتها وتلوثها لأسباب كثيرة ، لدرجة أن التنبؤات تشير الى أن ٢٥٪ من الموارد المائية التي يعتمد عليها - على مستوى العالم - ستكون مياها غير آمنة بحلول عام ٢٠٠٠ .

ومن هنا تزايد الاحساس بأن الاقتصاد في استخدام المياه في كل الأغراض ، أصبح ضرورة قصوى ، ليس فقط بسبب شح الموارد المائية وتضاؤلها ، بل أيضا نتيجة الانفجار السكاني الهائل ، مما أدى إلى تزايد الاهتمام والتفكير الجدي بمستقبل المياه ، ومستقبل الغذاء ، ومستقبل هذا الكائن الممتاز الذي خلقه الله من سلالة من ماء ، وفضله على كثير من خلقه تفضيلا .

وقد أدى تزايد ندرة المياة النسبية في كثير من مناطق العالم إلى البحث عن مصادر جديدة للمياه ، فبجانب المشروعات المتعددة التي تهدف الى ترويض مجاري الأنهار ، لتقليل الفاقد منها في المستنقعات والفروع والمصاب ، أمكن تحلية المياه المالحة من البحر والمصارف والمياه الجوفية ومخلفات الانسان ، واستنباط سلالات نباتية جديدة باستخدام تقنية الهندسة الوراثية ، قادرة على التعامل مع هذه المياه ، فضلا عن السعي للسيطرة على العلاقة بين التربة والجو والنبات والمياه المطلوبة .

توقعات مستقبلية

ويتسم الوطن العربي بأن الجزء الأكبر من أراضيه يقع في المنطقة الجافة وشبه الجافة من

العالم ، وما ينجم عن ذلك من ندرة في موارده المائية . وتشير دراسة أعدها فريق من الباحثين بالمركز العربي لدراسات المناطق القاحلة في سبتمبر عام ١٩٨٧م ، إلى أن الموارد المائية المتجددة في الوطن العربي تقدر بحوالي ٧٤ ,٠٪ من الموارد المائية على المستوى العالمي ، علما بأن الوطن العربي يشغل مساحة ١٤ مليون كم٢ ، أي حوالي ٩٪ من مساحة اليابسة . وأن معظم الأقطار العربية تقترب من حالة عدم التوازن بين حجم الموارد المائية المتاحة والطلب عليها ، وأن هناك بوادر أزمة مائية ، وعجزا مائيا ، سوف تظهر بوادره في نهاية هذا القرن .

ومن هنا ، فمن المتوقع نشوب صراعات - مستقبلا - نتيجة التنافس والنزاع حول الموارد المائية في منطقة الشرق الأوسط خلال القرن القادم ، خاصة بين الدول التي تتشارك في نظام مائي واحد ، وهي كثيرة متعددة .

فحوض نهر الأردن يوفر المياه لكل من سوريا والأردن وفلسطين المحتلة ، ومصادر المياه في أعالي نهر الأردن مستغلة حاليا إلى أقصى حد ممكن ، وهناك خطط لاستغلال نهر اليرموك - الرافد الوحيد لنهر الأردن - ببناء سد « الوحدة » على الحدود الأردنية السورية ، لمواجهة الاحتياجات المتزايدة للمياه . كما أن نصف مساحة فلسطين المحتلة يقع في المنطقة القاحلة ، وهي صحراء النقب ، مما يجعل مواردها الزراعية بالغة المحدودية ، ويجعل المياه مركزا محوريا في التخطيط « الاستراتيجي » الحالي والمستقبلي ، لذلك كان « البحث عن الماء » شعارا غير معلن لعديد من الأعمال الاستيطانية « الاسرائيلية » في الضفة الغربية . كما أن موقف « اسرائيل » ، تجاه المستقبل السياسي للضفة الغربية ، يرجع جزئيا إلى العامل المائي في الأراضي الفلسطينية .

ومن ناحية أخرى ، من الممكن أن تشهد دول حوض النيل نقصا حرجا وخطيرا في الماء مع نهاية القرن ، بسبب النمو السكاني ، إضافة إلى عدد من العوامل ، وأهمها ظاهرة الجفاف في منطقة تجمع الأمطار ، مما سيؤدي إلى تناقص المياه اللازمة للزراعة ، وأغراض الحياة الأخرى . كما أن حوض النيل - حتى القرن العشرين - كان أرضا بلا مزارعين . والى حين تتيح التغييرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية علاقات أكثر قربا بين سكان حوض هذا النهر ، فإن عملية التعاون بين أطرافه - أي بين دول المنبع ودول المصب - سوف تكون أمرا ضروريا وحافزا قويا لتوظيف مياه النهر بأسلوب أكثر ترشيدا .

وبالنسبة لنهري دجلة والفرات ، فإذا كانت المشكلة الأهم هي تلوث هذه المياه ، وتعد أشد خطرا من نقصان مواردها ، إلا أن ذلك لايعني استبعاد حدوث نزاعات بشأن توزيع موارد هذين النهرين على المستهلكين في المنطقة .

وفي الواقع ، فإنه بالنسبة لدول مجلس التعاون الخليجي ، فالأمر يبدو أكثر صعوبة ، فهي بحكم ظروفها المناخية وموقعها الجغرافي ، يصبح الماء رمزا للحياة ومرادفا لاستمرارها ، ويصبح توفيره مطلبا « استراتيجيا » غير قابل للتأجيل .

وبجانب البحث عن المياه الجوفية واستثمارها الى أبعد مدى ، فإن محطات تحلية مياه البحر أصبحت في مقدمة مصادر الحصول على المياه العذبة ، على الرغم من ارتفاع كلفتها .

ولاشك أن تناقص عطاء الموارد المائية في منطقة الشرق الأوسط ، في مرحلة ، تخطط فيها غالبية دوله للتوسع الى أكبر حد ممكن في الزراعة ، واستصلاح الأراضي لمواجهة المتوالية الهندسية للزيادة السكانية ، من شأنه أن يجعل أخطر أزمات اليوم والغد في هذه المنطقة تتركز في كيفية تدبير الاحتياجات اللازمة والحيوية من الماء العذب . □





(الحياة مجموعة من الخبرات المتنوعة ، وليس بالضرورة أن تتشابه وتتكرر ، إنما كثير من الخبرات منفردة تضيف معنى جديدا للحياة ، وتعطيها لذة التراكم ، وقد اختارت العربي مجموعة من المتميزين العرب ليرْوي كل بطريقته الخاصة بعضا من ذكرياته التي أصبحت دروسا في الحياة) .

صورة من بلدي

بقلم : فهد الدويري

وتسألني « مجلة العربي » ، المجلة التي يعتز بها كل عربي ، وكل العرب من محيطهم إلى خليجهم عن ذكرياتي . وكل إنسان في هذه الحياة له ذكريات تحلو أحياناً وتتعلقم أحايين ، ولكن ذكرياتي أنا على الأخص ـ أقصد ذكريات جيلي بكامله ـ نوع آخر يختلف عن باقي ذكريات الناس ، وإنك لتعجب من هذا القول ، ولكن إليك التفسير .

فيما بين عام ١٩٤٦ بالضبط وبين عام ١٩٧٦ حقبة غريبة من التاريخ مرت على جيلنا نحن من أبناء هذا الوطن العربي ، تراوحت بين حياة صعبة أصعب من أي لون من ألوان الحياة التي يمر بها البشر عادة ، وبين ما نحن فيه الآن من ثراء ونعمة ، وهكذا عاش جيلنا بين حال من التأخر بالغ الشدة وبين هذا الصعيد العالمي من الرقي والرغد الذي نعيشه الآن .

ولهذا فإن جيلنا تسنت له تجربة مدهشة غريبة لم تسنح مثلها لغيره من أجيال الماضي ، وتجربتنا ليست غريبة لأنها انقلبت من الضد في العسر إلى الضد في اليسر ، ولكن غرابتها هذه الفترة

القصيرة بالنقلة المفاجئة بين حال وحال . ولهذا فإن لجيلنا القدرة الأعمق على الشعور بالمعاناة التعسة ، ثم التنعم بالرخاء المفاجىء .

ولهذا فإن من أصعب مشاكلنا نحن ـ أقصد من جاوز الخمسين والستين من الكويتيين ـ أننا لا نستطيع تصوير ما كابدنا ، ولا تجسيد الفرق الهائل بين ما كنا عليه وما أصبحنا عليه بعد ذلك .

صدقوني أن أحدنا لا يستطيع أن يضع أمام أبنائه وأحفاده صورة صادقة عن كويت الأمس مقارنة بكويت اليوم .

نعمنا واستمتعنا بالقفزة المباركة . ولكن نقمتنا أننا نموت ونحن غير قادرين على تصوير ما كنا فيه . وهذه مشكلتنا يا أولادنا .

كيف نصور لهم هذه النقلة الهائلة التي تمت في فترة لا تزيد عن ربع قرن ؟ . كيف ننقل شاباً من شباب الكويت اليوم إلى عصر الأربعينيات الماضي ؟ .

على أنني لا آسى على ما فات ، صحيح أن هناك ذكريات تلتصق بالشباب في ذلك الزمن التصاقاً حميماً وحلواً ، ونستعيدها في ذاكرتنا استعادة حلوة ، ولكن هذا ينطبق على كل إنسان في كل عصر ، فالذاهب من الأيام أجمل من الحاضر مهما كان حاضراً بهيجاً وسعيداً ، ولكنني شخصياً لا أتمنى أن تعود أيامي الماضية اللهم إلا في السن ، وفي هذا استحالة .

إن الذي يتمناه الكهل الكويتي هو هذا الأكسير ، حجر الفلاسفة وحده هو الذي ربما يخلقه ، إن بقي على دنيا اليوم من يؤمن بحجر الفلاسفة ، وأعني أن ما يتمناه كهل الكويت اليوم هو :

دينار اليوم وشباب الأمس !!

ويبقى لدينا الأمل في أن نغمض العين في آخر دهرنا على كويت متمدينة ، إنسانية راقية ، مثقفة ، ثقافة تسودها روح المودة الإنسانية ، وحب البشرية ، ثقافة بشر تجاوزوا الحقد والطمع والضغينة والتعصب ، وعاشوا في وطن آمن ، يجمعهم مذهب واحد هو أن الإيمان عقيدة ، والحياة صلة حب بين الإنسان وأخيه الإنسان .

وآخر ما أتمنى أن أرى « العربي » التي عاصرتها طفلة وشابة ألا تزيدها الأعوام إلا جمالاً وانطلاقاً وانتشاراً . □



نحو فكر عربي جديد واغتيال العقل العربي

بقلم : الدكتور محمود عبدالفضيل

يجتاز الفكر العربي في لحظته الراهنة أزمة ، تثقل بمناخها ، ومظاهرها ، ونتائجها على كل جوانب حياتنا ، ولقد تعددت مساهمات تعليلها ورصد مظاهرها ، واقتراح سبل تجاوزها . وهذه محاولة فيها بعض التشخيص ، وبعض سبل التفاعل مع هذه الأزمة .

« اغتيال العقل » هو عنوان كتاب عن محنة الثقافة العربية ، تأليف الدكتور برهان غليون ، المفكر العربي السوري ، صدر عام ١٩٨٥ ، والكتاب يتحدث عن محنة العقل والفكر العربي عامة ، ووقوعه صريعا بين السلفية والتبعية للغرب . والكاتب يتحدث عن اغتيال العقل العربي بأسلوب مجازي يتعلق بمأزق العقلانية التحديثية والسلفية الأصولية من منظور عملية التقدم والنهضة العربية . ولكن عملية « اغتيال العقل العربي » لم تعدمقصورة على هذا المعنى المجازي نتيجة « حوار الطرشان » والمساجلات الفكرية العقيمة ، بل امتدت الحرب الأهلية الفكرية التي تدور رحاها اليوم على الصعيد العربي ، لاغتيال الأجساد والرموز التي تحمل هذا الفكر ، على نحو ما شاهدنا مؤخرا في حادثة اغتيال حسين مروة وحسن حمدان (مهدي عامل) وهما من أبرز المفكرين العرب على الساحة اللبنانية . وهكذا دخلت الحرب الأهلية الفكرية العربية مرحلة جديدة ، لم تعد فيها الأقلام والمساجلات الفكرية هي السلاح الأساسي ، بل لقد غدت طلقات الرصاص والرشاشات « أصدق أنباء من القلم » .

زمن الفتنة والافتتان بالقوة :

عندما كتب طه حسين عن الفتنة الكبرى في مرحلة صدر الإسلام ، لم يكن يدري أنه سيجيء زمن حديث - هو عصرنا الراهن -

تتجدد فيه روح الفتنة بين الفرق السياسية والمدارس الفكرية المختلفة ، وتتبدد قواها وطاقتها في خضم الصراعات والتناحرات العنيفة . ولقد شهدنا الفصل الأول من تراجيديا الفتنة والحرب الأهلية العربية عام ١٩٥٩ عندما تصادمت فصائل قوى التقدم العربية - القوى القومية ، والناصرية ، واليسارية الماركسية - في قمة المد التحرري الوحدوي الذي انطلق في أعقاب تأميم قناة السويس في يوليو ١٩٥٦ وتم تتويجه بإعلان الوحدة المصرية - السورية في فبراير ١٩٥٨ .

فماذا كان حصاد هذا الصدام ؟ كان سلسلة من الهزائم والانتكاسات نتيجة تغليب التناقضات الثانوية على التناقضات الأساسية ، وتأجيج نيران الصراعات الجانبية والزعامية على الخط الرئيسي للنهوض والتقدم . لقد بدأت مسيرة التراجع بانفصام الوحدة المصرية - السورية ، مروراً بنزيف حرب ، وانتهاء بهزيمة يونيو ١٩٦٧ التي ما زلنا نلعق جراحها حتى اليوم ، وبعد مرور عشرين عاما .

ومنذ صعود المد الإسلامي السياسي في المنطقة العربية خلال السنوات الأخيرة ، نكاد نشتم في أجزاء منها روح فتنة وحرب أهلية عربية جديدة تطل برأسها ، وتدق طبولها ، حيث تضيق مساحات الحوار وتتقلص دوائر التسامح الفكري والمذهبي ، وترتفع نبرات لغة التهديد والوعيد لدى بعضهم ، ولعلنا نلمس ذلك في بعض التصريحات والكتابات التي جاء في إحداها : « فشريعة الله لا يجوز ، بل لا يحل لنا أن نعرضها ليؤخذ عليها رأي البشر أيا كانوا بالموافقة أو عدم الموافقة ، إن شريعة الله نزلت لتُطبّق ، وليلتزم بها المسلمون طاعة وعبادة لله ، ومن يرفضها أو يعتقد أنها لا تصلح يعتبر مرتدا ، إن كان مسلما ويستتاب وإن لم يتب يقام عليه حد الردة » (راجع : جريدة الشعب التي تصدر في القاهرة العدد ٣٨٢ الصادر بتاريخ ٢٤ مارس ١٩٧٨) .

وهنا يتضح على الفور طابع التهديد والوعيد لكل من يجرؤ على طرح موضوع الشريعة الإسلامية للنقاش في تفاصيله وآلياته باعتباره موضوعا خارج دائرة اجتهاد البشر ، وأن كل من يناقش في مدى صلاحيتها يعد مرتدا ويقام عليه حد الردة . ولعلي أضيف هنا أن تلك اللهجة المتشددة التي تعبر عن مزاج حاد « جديد » لدى أنصار التيار الاسلامي تختلف بعض الشيء عن لهجة قيادات سابقة له ، كانت تتسم بقدر من روح التسامح والحوار والتفاهم الوطني بين القوى السياسية والتيارات الفكرية المختلفة .

ولعل السبب المباشر لذلك هو الافتتان بالقوة ، والشعور بأن انتصار الفكر الإسلامي يمر حتماً بتصفية الفكر المضاد ، وليس من خلال الحوار ومقارعة الحجة بالحجة ، بل من خلال التجريم والتكفير والتأليب بهدف المصادرة واغتيال الفكر المضاد .

ولعل الدرس الذي يجب استخلاصه من ثنايا التاريخ ، أن اغتيال الفكر والمفكرين لا يخدم قضايا التقدم والنهضة لأن التناقضات والخلافات يفرزها الواقع الموضوعي نفسه . فإذا نجح البعض في اغتيال ذلك المفكر أو ذاك الفنان وفي مصادرة ومنع تداول هذا الفكر أو ذاك ، فهل يمكن في نهاية الأمر اغتيال الواقع ؟

ولذا فإن أسلوب إدارة الصراع السياسي والفكري في المنطقة العربية خلال السنوات القادمة يعد هما أساسيا من هموم المستقبل العربي .

فهناك الخطاب والمشروع الليبرالي ، وهناك الخطاب والمشروع الإسلامي ، وهناك الخطاب والمشروع القومي - الناصري ، وهناك كذلك الخطاب والمشروع الاشتراكي . وكلها تعبر عن قوى وتيارات أصيلة في المجتمع العربي ، يصعب الغاؤها بقرار ، أو اعتقال هذا الفكر أو ذاك ، كما

دلت على ذلك التجارب الحية الممتدة منذ الثلاثينيات حتى يومنا هذا . ولكن أزمة الصراعات الفكرية والسياسية العربية الراهنة تكمن في عدد من المثالب التي نود ابراز بعض ملامحها .

من الفكر « المذهبي » إلى الفكر « التنفيذي »

لعل من أهم آفات الفكر السياسي العربي الراهن (على اختلاف مذاهبه) هو التركيز على المنطلقات المذهبية والعقائدية ، وإعادة ترديدها بصياغات مختلفة ، والاقتصار على التحليق في الفضاء «الايديولوجي» الذي يعد بمثابة نوع من الفضاء الخارجي دون محاولة ملامسة الواقع بمشاكله وتضاريسه المعقدة وطرقه الوعرة . ولذا فإن جزءا من الأزمة الراهنة للفكر السياسي العربي التي تحول دون وضوح الرؤية لدى صاحب الفكر ولدى خصومه السياسيين هو الاقتصار على ما يشبه « الوعظ والإرشاد » ، دون الاهتمام بترجمة المواقف المذهبية والعقائدية إلى فكر عملي وتنفيذي ، يتعامل مع الواقع بشكل مباشر وحي ، ويتفاعل معه بشكل خلاق .

ولعل تلك الخاصية التي تطبع الخطاب السياسي للقوى السياسية العربية (على اختلاف مواقعها الايديولوجية) كافة ، هي التي تجعلها تحتفظ بطبيعتها (الحلقية) ، ولا تستطيع أن تكسر حاجز العزلة الجماهيرية لكي تصل إلى عامة الناس وبسطائهم - على اختلاف مراتبهم - دون (ديماجوجية) وتدليس فكري ، يصل أحيانا إلى حد الشعوذة .

فالجماهير من ناحية ، والقيادات التنفيذية (التكنوقراطية والبيروقراطية) من ناحية أخرى ، لا تستهلك النظريات المبدئية ، ولا تتعامل مع أبجديات الفكر المجرد ، بل هي تريد أن تسمع ردودا ، وترى حلولا تفصيلية للمشاكل والأمراض المزمنة التي يزخر بها الواقع العربي على كافة الجبهات بحيث يمكن الربط بين البدايات والنهايات .

ولعلنا لا نغالي كثيراً إذا قلنا ، إن بعض القوى السياسية التقدمية التي رفعت شعارات التأميم في الماضي ، لم تكن تملك دراسات حول حجم المنشآت في القطاعات المختلفة ، ومدى الصلاحية للتأميم ، وفي أي مرحلة يصبح القرار حكيما وسليما ! ولذا عندما صعدت تلك القوى إلى السلطة في بعض الأقطار العربية لم تجد لديها دليلا أو هاديا يوضح كيفية وضع شعار التأميم موضع التطبيق دون تخبط وإهدار للموارد ، بل في بعض الأحوال لم يكن لديها مجموعة الاحصاءات الأولية التي تسمح لها بالحركة السليمة الفاعلة .

وبالمثل نجد أن القوى السياسية « الليبرالية » التي ترفع اليوم شعار نقل الملكية للقطاع الخاص ، لم تبذل الجهد الكافي لمعرفة كيف يمكن تطبيق مثل هذا الشعار في ضوء الأوضاع التاريخية الموروثة ، وفي ضوء إعادة رسم الحدود بين دوائر الملكية الخاصة ، ودوائر الملكية العامة في كل قطاع وفرع من فروع النشاط الاقتصادي على حدة .

كذلك عندما يرفع البعض شعار الإسلام هو الحل ، لا نجد شروحاً وتفصيلات توضح كيفية تشغيل النموذج الإسلامي - بصيغته المذهبية النقية - في ظل التضاريس الراهنة للمجتمع العربي التي تختلف تمام الاختلاف عن مجتمع « صدر الإسلام » .

وفي ظل هذا الغموض ، وذلك المستوى من العمومية في الطرح ، كيف نتوقع للفكر العربي أن يتقدم ، وأن تزول عمليات « الخندقة الفكرية » التي نعيشها اليوم ؟

إذ أنه عندما يتم الطرح والنقاش على مستوى الحلول العملية ، وعندما تتم ترجمة « الفكر المذهبي » إلى « فكر تنفيذي » تتسع آفاق

الرؤية ، وتتضح مساحات الحركة الممكنة ، وبالتالي نقاط الالتقاء والتأليف والتركيب بعيدا عن روح الخندقة الفكرية التي تغذيها الأفكار المذهبية المجردة ، حيث يتضخم حجم الخلافات بعيداً عن أرض الواقع وتغذيها النزعات الثأرية الموروثة من الماضي .

من « الشعاراتية » إلى « البرنامجية »

ويرتبط بهذه النقطة ضرورة الانتقال مما يمكن أن نسميه الشعاراتية ـ أي الاقتصار على ترديد الشعارات العريضة المدوية دون مضمون عملي محدد فقط ـ إلى « البرنامجية » التي تطرح حلولا وتصورات عملية محددة تحكمها رؤية « ايديولوجية »واضحة . فالمتأمل في الكتابات السياسية التي سادت في الوطن العربي خلال الأربعينيات والخمسينيات والستينيات ـ فترة صعود المدّ الشعبي ـ يجد أنها اقتصرت على طرح مجموعة عريضة من الشعارات الواعدة التي تصلح أحياناً لتعبئة الشارع السياسي في لحظات المدّ والفوران لكنها لا تقدم زادا وذخيرة حية بعيدة المدى .

فشعارات مثل « الوحدة ، الحرية ، الاشتراكية ، الديمقراطية ، الثأر ، الخبز ، السلام » التي سادت لدى التيارات القومية والتقدمية ، ومثل « القرآن دستورنا » ـ لدى التيار الديني ـ ظلت شعارات عامة مشوبة بالعاطفية والطوباوية ، دون أن تمتلىء بمضامين عملية تجيب عن تساؤلات ملحة يطرحها الواقع العربي المعاصر كل يوم .

واليوم ، وفي ظل التعقيدات والاحباطات التي يعيشها الوطن العربي ، وفي ظل بيئة عالمية متغيرة ومتحركة بسرعة شديدة لم نعهدها من قبل ، لم تعد الأمور المصيرية تحتمل الشعارات العامة والعريضة ، أو مجرد التأكيد على المنطلقات العقائدية الأساسية . وإنما أصبح الأمر يتطلب فكراً ملتزما ، وأيضا فكرا عمليا هاديا يخرج بنا من الظلمات إلى النور . ويطرح البدائل العملية ويقيم الفرص المتاحة ودرجات الحرية والمناورة التاريخية من ناحية ، وحجم العثرات والمخاطر والقيود الماثلة من ناحية أخرى .

نريد فكرا يترجم الشعارات إلى برامج ، والمعتقدات إلى نماذج عملية قابلة للتشغيل في الواقع العملي المعاش . نريد فكرا عربيا يمزج بين العقل والعاطفة ، بين الحلم والواقع،وبين العلم والسياسة .

تلك التحديات التي تواجه الفكر السياسي العربي عند نهاية الثمانينيات وعلى أعتاب التسعينيات . □

ـ اثنان يرضيان الله ، الأول من يخدمه من كل قلبه لأنه يعرفه ، والثاني من يطلبه من كل قلبه لأنه لايعرفه **(بانين)**

ـ الواجب هو إتمام الأعمال الماثلة أمامك الآن بدقة وأمانة ، إنه إتمام متطلبات اليوم . **(جوته)**

ـ لاتخافوا العظمة ، فبعض الناس يولد عظيما ، وبعضهم يحقق العظمة بنفسه ، وغيرهم يخلعها الناس عليهم كثوب يستأهلون أن يلبسوه . **(شكسبير)**

ـ إذا كان في « أنا » (نون) واحدة ، فإن في « نحن » (نونين) ، ومن ثم إذا حسبنا النون من النور فإن (نحن) أكثر نورا وإشراقا . **(حكيم)**



جوته



حق تقرير المصير: البعد الفلسطيني

بقلم : الدكتور أسعد عبدالرحمن

ما هو حق تقرير المصير ؟ وماذا يعني للشعب الفلسطيني في هذه المرحلة الدقيقة من نضاله ؟ لعل الكثيرين يستغربون طرح سؤال كهذا ، إذ أن هناك شعورا بأن القضية الفلسطينية هي مشكلة لاجئين ، يبحثون عن أرض ، وليس عن شعب يطالب بحقوقه . الكاتب هنا يناقش جذور القضية منذ بداية الصراع حول اقتسام الوطن العربي . ترى ما الجديد في الموضوع ؟

تعود بذور فكرة حق تقرير المصير إلى ما قبل قرنين من الزمان ، حينما صاغتها وتبنتها مجموعة من القادة ذوي الرأي المتميز ، من أمثال المفكر توماس جيفرسون ، والرئيس الأمريكي مونرو ، والزعيم السوفيتي لينين ، والرئيس الأمريكي ولسون ، ثم تعززت الفكرة ، وراجت ، في الهيئات والمواثيق ، وبخاصة هيئة الأمم المتحدة ورجالاتها . ولعل سر نجاح الفكرة يكمن في كونها قد انسجمت مع روح الأفكار التحررية في العالم ، وظلت مفعمة بالانتماء إلى المستقبل . ولذلك ، ما برحت الفكرة تتردد ، وتجد مداها في التنظير السياسي لقادة العالم المتعاقبين والمختلفين في فكرهم وأيديولوجياتهم ، بل إن شعار « حق تقرير المصير » قد شهد تحولا من فكر نبيل أو مبدئي أو حق نظري ، إلى حق وضعي قانوني تقره المواثيق والشرائع الدولية ، الأمر الذي تكرس في ميثاق الأمم المتحدة الموقع في سان فرانسيسكو عام

١٩٤٥ في مادتين (١) و (٥٥) . وفي السياق نفسه تبنت لجنة حقوق الإنسان والجمعية العامة للأمم المتحدة « شرعة الحقوق المدنية والسياسية » و « شرعة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية » اللتين تمت بلورتها في عام ١٩٥٤ ، واللتين اشتملتا على أوضح صيغ « حق تقرير المصير » وأكثرها تطورا . هذا عن الوضع العام ، فماذا عن الوضع الفلسطيني الخاص؟

نتيجة لتكالب قوى الاستعمار والصهيونية العالمية على الشعب العربي الفلسطيني ، تم استلاب الحقوق الأساسية الفلسطينية تباعا على مختلف الأصعدة ، منذ نهاية القرن التاسع عشر. فقد أنكر على الشعب الفلسطيني حقه في الحياة ، وحقه في أرضه وممتلكاته وجنسيته ، وحقه في العودة لأرضه ، بعد أن انتزع معظمه منها ، وحرم من حق تقرير المصير بما رتب له أكبر معاناة في تاريخ حركات التحرر في العصر الحديث . وما يزال هذا الشعب المعاني يتعرض لمقارفات الاستعمار الصهيوني لإجلاء البقية الباقية منه عن أرضه ، تحقيقا لأهداف قضم وضم وهضم لكل التراب الفلسطيني .

ومع أن الخط العام للتاريخ الحديث يسير باتجاه التحرر وإزالة الاستعمار إلا أن ذلك لم يصدق حتى الآن بالنسبة للشعب الفلسطيني . ولمتابعة التطورات وإيضاحها على هذا الصعيد ، لا بد من التعريج على مرحلتين زمنيتين ، تمتد أولاهما عبر سني النصف الأول من هذا القرن ، بينما تغطي الثانية معظم سني النصف الثاني .

(١) مرحلة سيطرة الاستعمار القديم :

تجمعت ضد شعب فلسطين في الشطر الأول من هذا القرن المعاهدات والتحالفات الاستعمارية ، أمثال معاهدة سايكس بيكو ، ووعد بلفور ، ومعاهدة فرساي ، إلى أن قرر مجلس الحرب الأعلى بسان ريمو في عام ١٩٢٠ وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني الذي أقرته عصبة الأمم في عام ١٩٢٢ . ولم يكن الشعب الفلسطيني ـ في كل تلك المعاهدات والمواثيق ـ طرفا أساسيا أو حتى ثانويا ، وبذا يتضح أن مصيره قد قرره التآمر السري بين دول الاستعمار ، ودون اعتبار لاستفتاء رأيه الذي تقره القوانين والأعراف الدولية . وقد انبرى الشعب الفلسطيني ـ والحالة هذه ـ لمقاومة ذلك الظلم الاستعماري ، فرفض وقاوم بكل ما يملك من إمكانات متواضعة كل السياسات والمشاريع التي حيكت في الخفاء وخصوصا في ظل سيطرة الاستعمار القديم على المؤسسات والقوانين الدولية .

لقد استند الشعب الفلسطيني في نضاله ذاك إلى الشرعية الدولية ، انسجاما مع ميثاق عصبة الأمم . فحتى عندما أقرت الجمعية العامة ، بموجب قرارها رقم (١٨١) تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ ، فإنها قد اعترفت صراحة بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره على قرابة نصف أرضه ، إلا أن الحرب التي شنتها « اسرائيل » عام ١٩٤٨ قد ابتلعت أجزاء إضافية ، ضمت إلى الأجزاء الممنوحة لها ، لتسيطر في نهاية تلك الفترة على (٧٧٪) من أرض فلسطين ، بعد أن كان مخصصا لها نظريا قرابة (٥٦٪) منها تبعا لقرار التقسيم ذاك . ومنذ ذلك الوقت يعاني الشعب الفلسطيني نتائج صفقة استعمارية واسعة لسلبه حقه في تقرير المصير حتى على الجزء المخصص له وفقا لقرار التقسيم عام ١٩٤٧ ، بل إن الاستعمار الصهيوني مضى في تكريس وجوده وتوسيعه بقوة الحراب وبقوة « قانون العودة » « الاسرائيلي » عام ١٩٥٠ الذي يتيح لأي يهودي من أي بقعة في الأرض أن يستوطن « الدولة الاسرائيلية » في خطوة مضادة لحق العودة للاجئين الفلسطينيين الذي أقرته الأمم المتحدة في كانون الأول « ديسمبر » ١٩٤٨ ، وظلت تكرره حتى يومنا هذا .

(٢) مرحلة سيطرة الشعوب :

غطت هذه الفترة الشطر الثاني من هذا القرن ، وامتدت حتى الآن ، وتمت فيها الإنجازات والتطورات الكبيرة التالية :

ا - انتصار واضح لحركات التحرر في العالم ، وانتقال عدد كبير من الشعوب والأمم من نطاق البلاد المستعمرة إلى عهد الدول المستقلة ، بما غيّر تركيبة الأمم المتحدة ، وأنهى عصر سيطرة الاستعمار القديم والجديد على المؤسسات الدولية وقوانينها .

ب - غياب الدور الفلسطيني عن الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٨ حتى منتصف الستينيات . ومع هذا التغييب ، غالبا ما نظر العالم إلى القضية الفلسطينية منذ عام ١٩٥٢ كمشكلة لاجئين ، ظلت عالقة في ردهات الأمم المتحدة سنوات طوالا . وجاء التحول الكبير عندما اعترفت المنظمة الدولية ، بدءا من عام ١٩٦٩ ، بالحقوق غير القابلة للتصرف للشعب الفلسطيني . ولا شك أن هذا التطور قد أوجده تألق العمل الفدائي الفلسطيني ، وتنامي دور منظمة التحرير الفلسطينية على الصعيدين العسكري والسياسي ، وتزايد قوتها كممثل للشعب الفلسطيني . وفي حين تحقق ذلك الإنجاز الفلسطيني على صعيد « البرلمان الدولي » (الجمعية العامة للأمم المتحدة) لم يحصل أي نجاح على صعيد « الحكومة الدولية » (مجلس الأمن الدولي) الذي سيطرت عليه إرادة الاستعمار القديم الجديد ، ومارست فيه حق النقض تجاه حقوق الشعب الفلسطيني .

قرارات وتوصيات

لقد توالت على الرغم من ذلك قرارات كثيرة في عديد من مؤسسات الأمم المتحدة ، حيث أيدت الجمعية العامة للمنظمة الدولية دائما حقوق الشعب الفلسطيني ، بل إن « الجمعية » تلك حثت دول العالم على تقديم المساعدة العملية للشعب الفلسطيني ، من أجل التحرر وممارسة حقوقه غير القابلة للتصرف . وفي هذا النطاق أصدرت الأمم المتحدة من القرارات والتوصيات ، لدعم حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ، ما زاد عددها حتى عام ١٩٨٩ عن خمسين قرارا وتوصية ، ولعل من أهم تلك القرارات القرار رقم (٣٢٣٦) عام ١٩٧٤ الذي أصدرته الجمعية العامة ، وملخصه إعادة التأكيد على حقوق الفلسطينيين في فلسطين ، وفي السيادة الوطنية ، وفي العودة مع المطالبة باحترام تلك الحقوق ، وإشراك الشعب الفلسطيني كطرف رئيسي في عملية السلام في الشرق الأوسط ، ومباشرة العالم دعم الفلسطينيين لاسترداد حقوقهم ، ومطالبة الأمين العام للأمم المتحدة الاتصال بمنظمة التحرير الفلسطينية ، ودعوتها عند مناقشة الشؤون الفلسطينية . وإعادة إدراج البند المعنون « قضية فلسطين » بدءا من الدورة الثلاثين للمنظمة الدولية .

هذا ، ولم يبق التأييد الدولي لحقوق الشعب الفلسطيني مقصوراً على التأييد المعنوي والسياسي اللفظي ، بل تعدى ذلك حتى أصبح أمرا واقعا ملموسا . ويتلخص ذلك التنامي الجديد نوعيا في التأييد الدولي للحق الفلسطيني كما يلي :

١ - منحت المنظمة الدولية منظمة التحرير الفلسطينية مركز مراقب في الأمم المتحدة في ١٩٧٤/١١/٢٢ .

٢ - طالبت الجمعية العامة مجلس الأمن بتحمل مسئولياته واتخاذ القرارات والإجراءات اللازمة لتمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقه في تقرير المصير ، وذلك ابتداءً من عام ١٩٧٥ .

٣ - أنشأت الجمعية العامة لجنة لممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه ، غير القابلة للتصرف ، في

١٠/١١/١٩٧٥ ، وإقرار توصياتها المتعاقبة منذ ذلك الوقت .

٤ ـ عقدت الجمعية العامة دورات خاصة لمناقشة القضية الفلسطينية ، كان من شأنها تعميق الوعي بجوانب القضية ، وتحريك الجهود الدولية ، لتمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقوقه المشروعة ، وكان ذلك بدءا من عام ١٩٨٠ .

٥ ـ اغتنمت الجمعية العامة كل الفرص الممكنة لترويج فكرة المؤتمر الدولي للسلام في الشرق الأوسط ، بهدف زيادة الوعي بالقضية ، وتحقيق التسوية الدولية ، فكان إعلان « جنيف » في عام ١٩٨٣ الذي أوضح حيثيات القضية من مختلف الجوانب التاريخية والسياسية والقانونية ، إضافة إلى وضع برنامج عملي لإنجاز الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني .

٦ ـ قررت الجمعية العامة في جنيف استحداث مقعد « فلسطين » في ١٣/١٢/١٩٨٨ على أن تشغله منظمة التحرير .

تعاظم التأييد الرسمي والشعبي

ومع تنامي التأييد العالمي الرسمي على صعيد الدول الأعضاء في الجمعية العامة للأمم المتحدة أو في مؤسساتها ومنابرها الدولية المختلفة ، تنامى التأييد لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره على الصعيد الأحادي أو الثنائي أو الجماعي للدول والكتل والمجموعات الدولية المختلفة . وما كان لذلك أن يحدث لولا تعاظم التأييد على المستوى الشعبي العالمي . وفي هذا السياق ، كان طبيعيا أن يبدأ هذا التأييد على مستوى الشعوب العربية التي واكبت القضية منذ البداية ، وخصوصا بعد تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ . ثم جاء المدد بعد ذلك من التأييد الشعبي العالمي ، ولكن بنسب متفاوتة ، كانت سريعة أحيانا ومتباطئة في أحيان أخرى . ومع ذلك ، فقد سجل التأييد العالمي تصاعدا ملحوظا ، وخاصة بعد الانتفاضة الفلسطينية في أواخر عام ١٩٨٧ ، وفي أعقاب إعلان « دولة فلسطين » وقرارات المجلس الوطني في أواخر عام ١٩٨٨ ، وما أعقبها من مواقف أوضح للتحول السياسي الفلسطيني ، أثناء انتقال الجمعية العامة من نيويورك لملاقاة رئيس منظمة التحرير في جنيف وفي أعقابه .

انطلق التأييد العربي بقمة الرباط في عام ١٩٧٤ بتأكيد الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، وبحقه في تقرير المصير ، وبوحدانية منظمة التحرير في تمثيل الفلسطينيين . وقد تأكد ذلك في مؤتمر فاس الذي أقر « قيام الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس » . ثم جاء القرار الأردني « بفك الارتباط » القانوني مع الضفة الغربية ليعطي زخما لموضوع المناصرة العربية والعالمية لممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه ، غير القابلة للتصرف ، ومن ضمنها حقه في تقرير مصيره ، وتكريس كل ذلك أيضا في مؤتمري القمة العربيين في الجزائر ١٩٨٨ والدار البيضاء ١٩٨٩ .

وثيقة ساوندرز

وعلى الصعيد العالمي تصاعدت موجات تأييد الحقوق الفلسطينية ، وحظيت المكاتب الإعلامية الفلسطينية المنتشرة في العالم بالاعتراف الدبلوماسي ، فاعترف الاتحاد السوفياتي صراحة بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني في مبادرتي بريجنيف عامي ١٩٨٢ و١٩٨٤ على التوالي ، ثم تلته بعض دول أوربا الشرقية وأوربا الغربية . ثم جاء الاعتراف العالمي الواسع (خارج العالم العربي) بقيام « دولة فلسطين » المعلنة في أواخر عام ١٩٨٨ ، وفتحت سفارات للدولة الجديدة

في شتى دول العالم . وكانت الولايات المتحدة الاستثناء في هذا السياق ، حيث سارت الأمور فيها وجرت التحولات ببطء شديد . فقد وقفت الإدارة الأمريكية في وجه الحقوق الفلسطينية طويلا ، حيث سجلت محافل الأمم المتحدة استخدام الولايات المتحدة حق النقض « الفيتو » (١٥) مرة ضد القرارات والتوصيات المتخذة لصالح القضية الفلسطينية حتى حزيران « يونيو » ١٩٨٩ . ومع ذلك بدأت الشقوق تظهر في الجدار الرسمي الأمريكي :

لقد كانت وثيقة ساوندرز عام ١٩٧٥ أول وثيقة أمريكية تشير إلى الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . ثم جاء البيان الأمريكي السوفياتي المشترك في عام ١٩٧٧ متضمنا ذلك المعنى .

ولكن الأمريكيين سرعان ما تراجعوا عنه ، وركضوا في اتجاه اتفاقات « كامب ديفيد » ، بل إن الولايات المتحدة أعلنت منذ عام ١٩٧٥ رفضها الرسمي إجراء أي اتصال مع منظمة التحرير الفلسطينية إلا وفق شروط محددة ، غير أنه في مواجهة العزلة الدولية التي أحاطت الموقف الأمريكي ، وبخاصة في عصر الانتفاضة والتحول السياسي الفلسطيني ، سارعت الولايات المتحدة إلى بدء « حوار جوهري » مع منظمة التحرير بدءاً من كانون الأول « ديسمبر » ١٩٨٨ .

إن تنامي التأييد العالمي لحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة في ممارسة حقوقه ، غير القابلة للتصرف ، لم ينبع من فراغ ، بل خلقته النضالات الطويلة للشعب الفلسطيني خلال الفترة السابقة ، وبخاصة بعد انطلاق ثورته المسلحة في عام ١٩٦٥ ، وانتفاضة الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة في أواخر عام ١٩٨٧ ، ثم ما سبقه وتبعه من « هجوم السلام » العربي الفلسطيني الذي بدأ خصوصا ابتداء من صدور قرارات القمة العربية في فاس ١٩٨٢ ، واكتسب زخما كبيرا من قرارات المجلس الوطني الفلسطيني في تشرين الثاني « نوفمبر » ١٩٨٨ ، وما أعقبها من تحولات سياسية فلسطينية أوضح ، نحو تحقيق تسوية سياسية للصراع في المنطقة ، وأخيرا قرارات مؤتمر القمة العربي في الدار البيضاء ١٩٨٩ .

لقد شكلت كل هذا التطورات مراحل البذر والزرع لتأسيس الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني ، وفي طليعتها حقه في تقرير المصير ، فهل تأتي مرحلة الحصاد ، أم تثبت الأرض السياسية الدولية أنها عاقر ؟ هذا هو السؤال ، هذا هو التحدي . □

---

* الشريف غريب ، والغريب ضيف الله .

(د . زكي مبارك)

* ليس المهم أن نستعيد شبابنا ، إنما الأهم أن نحتفظ بنعمة الشباب فتطول أيامها وأيامه .

(أفلاطون)

* هذه الدنيا : نضيق بها شعوراً اذا حيينا ، وتضيق بنا قبوراً اذا فنينا ، فرحم الله من سايرها ، ورحم الله من غادرها .

(مكرم عبيد)

* الحقيقة كالنور لا تخفى .

(مثل روسي)

الأدب الساخر

أو الكتابة بالكاريكاتير

بقلم : محمد محمود قرانيا

الأدب في إحدى صُورِه تجربة اجتماعية يستقيها الأديب من واقع مجتمعه الذي يعيش فيه ، متأثراً بما يعتمل فيه من أحداث سياسية أو ثقافية أو اقتصادية أو خلقية . . ما مظاهر هذه التجربة ؟ وعلى أي نحو تبدو ؟

التجربة الأدبية التي تدخل مختبر الأديب الفكري والنفسي ، تصطبغ بألوان فكره ونفسيته ، فتتخذ الشكل المناسب الذي تظهر فيه للناس ، ومن هنا وُجدت المذاهب والمدارس الأدبية ، وتحددت سمات الأساليب الفنية ، لذلك نرى التجربة الأدبية لدى الأدباء الكلاسيكيين مصبوغة بلونهم النازع إلى رصانة التقليد ، بينما نراها لدى الرومانسيين ممتزجة بتهويمات النفس وأحلام الحياة وتموجاتها والانخراط في أحضان الطبيعة ، في حين افترضها الواقعيون ذات جذور ضاربة في تضاريس الواقع الاجتماعي ، في الوقت الذي طالب فيه أصحاب مدرسة الفن للفن بالتنقيب عن الجمال ومقوماته داخل العمل الفني دون النظر إلى مبدعه أو المصادر الملهمة له .

مؤثرات تحيط بالأديب

والأديب الذي يتصدى للواقع الاجتماعي يخضع لمجموعة من المؤثرات الخارجية التي تحيط به في المنزل والشارع والعمل ، الوظيفي أو التجاري ، فتمتلىء بها نفسه وتتمثلها مخيلته ، ثم يعمد بعدها إلى تفريغها حين يريد تجسيدها عملاً فنياً متميزاً .

إن هذه المؤثرات الاجتماعية التي تحيط بالأديب تُزكي في نفسه روح الانفعال وتفعم قلبه

ز حواسه بالحيوية والنشاط ، وتظلُّ تمور وتضطرم في داخله حتى يعمد إلى تفريغ شحناتها في شكل يُعرف به الأديب ويتميز به عن سواه .

ولا يعني هذا في حال من الأحوال أن ينقل الأديبُ مادته عن الواقع الاجتماعي نقلاً تصويريا (فوتوجرافياً) فيغدو نتاجه باهتاً هزيلاً يقوم على رسم صورة طبق الأصل للواقع ، تبدو فيه الواقعية في أردأ أثوابها وأكثرها تهلهلا، وتشف عن قلم جاف وخيال محدود ، لا يؤثر في قاريء ولا يثبت أمام مبضع ناقد .

إن الواقعية في الأدب ليست تكراراً للواقع أو اجتراراً لما يحدث في الحياة ، على الرغم من ارتباطها الوثيق به ، وهي أشبه بالشجرة التي تضرب جذورها في الأرض وتتشبث بها ، وتدين لها بنمائها وحياتها،ولكنها تختلف عنها اختلافاً كبيراً في الصورة والشكل واللون .

النقد الساخر

والأدب النقدي الساخر ، لون من ألوان الأدب الاجتماعي الواقعي الذي يستمد نسقه وغناءه مما يحيط بالأديب ، وهو يدخل في إطار الأدب الهادف الموجه الذي يدّخر طاقة هائلة من المشاعر والانفعالات ، ويعوض النفس الإنسانية عن المعاناة العقلية في الحياة ، وينفسّ عن مكبوتاتها ، وبذلك تصبح الكتابة الساخرة ـ في كثير من الأحيان ـ علاجاً ناجعاً لمشكلات وأزمات اجتماعية وغير اجتماعية ، تُبصّر الآخرين بعواقب السلوك السيىء، وربما يتغلغل فيها الأديب ـ كما في الرسم « الكاريكاتيري » ـ إلى داخل النفس الإنسانية ليلمس ما يعتمل فيها من صراعات وأهواء وانحرافات وعقد ، ثم يعمد إلى تجسيدها وتضخيمها والسخرية منها سخرية لاذعة تصل إلى درجة التجريح .

والأديب الساخر فنان حساس ، سلاحه الصورة ، وذخيرته الجملة الموحية التي تحمل في ظلالها ، زخماً حاداً أو طاقة كبيرة مشحونة بمواد قد تكون متفجرة ، ومن الصورة والجملة تنشأ الكتابة الفنية ، ويظهر النصُّ كلوحة إنسانية خالدة لها أبعادها المؤثرة في النفس .

يقول الكاتب التركي المعاصر عزيز نيسين : « أعتقد أن السخرية كانت بالنسبة لي وسيلة من وسائل الدفاع منذ طفولتي ، ففي الابتدائية والمتوسطة ، كان محكوما عليَّ أن أنجح دوماً بينما يفشل آخرون ، وكنت صغيراً من حيث الحجم ـ حجم الجسم ـ والسن بين كبارٍ لهم شوارب ، لذا لم يكن أمامي أي وسيلة للدفاع عن نفسي سوى السخرية منهم، وعندما تطورت العملية ، وأخذت شكلها المكتوب ، تحولت من عملية فردية اجتماعية طبقية للدفاع عن الفقراء بشكل عام . . »

ولقد استطاع الجاحظ ساخر العربية الأول أن يصل إلى قمة هذا الفن الساخر في كتاباته المتقدمة زمنيا ، فكان في بخلائه فناناً بارعاً ، وكانت (رسالة التربيع والتدوير) خير ممثل للكتابة الفنية الساخرة ، وكأنَّ الجاحظ أراد أن يرسم فيها تعابيره المصورة « بالكاريكاتير » والألوان ، إذ لجأ إلى وصف الملامح الشخصية التي تشوه الشكل الخارجي ـ عن قصد منه ـ فَقَصَّر قامة الرجل وضخَّمهُ وعَرَّضه من وسطه حتى بدا لنا الجاحظ أشبه بمصور بارع يلتقط صوره بعدسة آلة تصوير حديثة وبطريقة « سينمائية » عجيبة ، كل ذلك دون أن ينسى رسم صورة هزلية لنفسية الرجل وتفكيره .

شعراء ساخرون

وبرع في الأدب العربي غير الجاحظ عدد من الشعراء والكتاب الذين جرت السخرية على أقلامهم ، فتركوا لنا آثارا رائعة كما في نقائض جرير والفرزدق والأخطل ، وسخريات ابن الرومي .

وفي العصر الحديث نبغَ المازني فَقَدَّم لقرّاء .

العربية أدباً ساخراً في لوحات راقية ، تحوي صوراً فنية رائعة . ولنقف لحظات أمام واحدة من لوحاته (البانورامية) التي يصور فيها أحد الثقلاء لدى زيارته بيت أقاربه ، وقد سلط فيها الأضواء على شكل الرجل الخارجي ، وصفاته النفسية ، فبدت صورة مميزة وفريدة في أدبنا المعاصر : « وأخيراً جاء العم . . وتلقيتُ قبلاته - وقاك الله السوء - هو شيءٌ كل ما فيه ثقيل ؛ تنفسه حشرجة ، وصوته ضوضاءة ، وضحكه قرقعة ، وقبلته كمص الماء من كوز نصفان ، وكرشه برج دبابة ، وشعرات شاربيه فتلاتُ حبل مقروضة ، وعينه - والعياذ بالله - شفرٌ متفتّل ، وجفنٌ محمرٌ لا هدب له ، وماءٌ يسيل ، وحاجباه شعرهما رقيقٌ من وراء ، وكثيفٌ من قدم ، وأذنهُ مسترخيةٌ من رأسها ومنكسرةٌ على وجهها كأذن الكلب ، ورأسُه على شكل البيضةِ ، وقد ذهب اكثرُ شعره وبقيت له طُرّةٌ ، شعراتها متفرقةٌ قليلةٌ كأنها الشوك ، وكان يأبى إلاّ أن يجلسني على ركبته ، ولا أكاد أفعل حتى تدفعني كرشهُ ، وتدحرجني ، فيقهقه ويطخطخ ، فيبحُّ ويسعل سعالا مشقوق الصدر ، ويسيل لعابه على ذقنه ، ويمسك جنبيه بيديه كأنما يجد فيهما وخزاً ، ولا يخطر له أن يخرج منديلاً . . ولثةٌ ذابلةٌ وأسنانٌ مسودّةٌ ، سفلاها خارجة من الحنك ، وعلياها متقاعسة . . . ولا أزال أنفر من هذا العم الذي رميت به من حيث لا أحتسب ، وأمي تدعوني بغمز العين أو إشارة اليد إلى المراضاة ، فلا يزيدني هذا إلاّ تقطيباً وجفوة وسوءَ خلق ، وهو لا يفطن إلى ما بي ولا يكفّ عن ملاطفتي وممازحتي ممازحةَ الفيل للقط ، كأنه موكل برياضتي على احتمال المكاره . . ! » .

أدباء اشتهروا بالسخرية

وفي الآداب الأجنبية وصلت إلينا كتابات ساخرة لعدد من أدباء الغرب والشرق على السواء من أمثال (تشودومير وبرناردشو ومارك توين) ، ممن عرفوا بين أقرانهم بالظرف والطرافة ، وقد أغنوا هذا الفن - مع أضرابهم - بما أضفوا عليه من وجداناتهم المرهفة ، فقدّموا للبشرية ألوانا أدبية محببة .

ولم يكن الأديب الساخر - أي أديب - في نظر قرائه إلا كاتباً موهوباً محبباً ولعل مردّ ذلك يعود إلى أن لدعاته وملاحظاته الضاحكة المضحكة تتسم بسمتين أصيلتين هما :

١ - الدعابة الحارة .

٢ - الصدق الصريح وليس المقصود بالصدق في الأدب والفن ، عكس الكذب ، وإنما الصدق مع النفس والآخرين فيما يصور ويبدع .

وليست غايةُ السخرية والتهكم في الفن الأدبي الإضحاكَ دائماً - مع أن الإضحاك من مستلزمات السخرية ، وشر البلية ما يضحك - ولكنْ ثمة أهداف وغايات أخرى لا تخفى على القارىء العادي ، ويبقى الإضحاك واسطة العقد في هذا اللون الكتابي شأنه في ذلك شأن الفن التمثيلي ، ولعل جميع الذين شاهدوا أعمال عادل إمام ، وفؤاد المهندس ودريد لحام في المسرح والتلفاز ضحكوا طويلا وهم يرون العيوب مجسّدةً تدمغ العصر كله بمياسمها ، إنها السخرية الهادفة والأسلوب المتطور الذي وصل إليه فن التمثيل (نصا - وعرضا) وايحاء .

مادة السخرية

إن نقاط الضعف البشري ، كالتظاهر والتباهي والخيلاء والغرور والبساطة والدجل والجهل والغباء والتسلط وغيرها أرض خصبة للمواقف « الكوميدية » من عهد (ارستوفانيس حتى يوجين اونيسكو) في العصر الراهن ، وأن الضحك حاجة إنسانية تتطلبها النفس بين الحين والآخر ، لأنه - حسب رأي برغسون - طاقة

مكبوتة تنطلق من عقالها عندما نقابل شيئا أقل مما أعددنا أنفسنا له ، وقد يرى المشاهد في المسرح وقاريء الأدب الساخر كثيرا من المتعة ما دام يملك الاستعداد النفسي لأنه يرى انعكاسا لنفسه في مرآة الفن الذي يساعده عن طريق التحوير والمبالغة على استعادة شعوره بالحياة .

هذه المسألة بالذات تقودنا إلى ما يمكن تسميته (العاطفية) والتي هي ألد أعداء الضحك إذ أن الأديب أو الفنان ، لكي يُحدِث تأثير الضحك يجب أن يتوقف القلب عن الشعور برهة ، لأن ما هو مضحك ـ حسب رأي برغسون ـ إنما يتوقف ويتوجه إلى العقل المحض ، وإن كشف عيوب الناس ، أو تسليط الضوء على مكامن المفارقة في موقف ما . على نحو مثير ، يثير الجزع أو الشفقة أو الرحمة ، وهذا كفيل بأن ينسخ الضحك ويطرده ، والإنسان المتأثر عاطفيا لا يضحك ، والموقف الكوميدي كي يثير الضحك لا بد أن يتجرد من العاطفة ، لأنه مشهد عقلي ، والإنسان يضحك من قَلْب ما هو مألوف ، وعكس ما هو معقول ، إلى صور غير معقولة أو مألوفة ، والأديب المتمكن من فنه ، هو الذي يستطيع الخروج من هذه المسألة ، بما يخدم الصورة الساخرة أو الموقف المضحك ، وقلب أوضاع اللغة ومنطقها ومدلولاتها واستخداماتها المألوفة التي تبعث على الضحك والتأمل . و (سر الصنعة) في تجسيد مواقف الضحك كلها هو (الكتابة بالكاريكاتير) في كل موقف وفي كل حادثة فيها اعوجاج وانحراف تلتقطه عين الفنان الفاحصة ، فتضخمه وتجسمه وتبرزه للعيان .

السخرية . . انتقام اجتماعي

والكاريكاتير لا يضحكنا في كل الأحوال ، لأن تصوير عاهة رجل فقير خليقة بأن تثير فينا الحزن لا الضحك ، كما أن السخرية ممن يَكِنُّ لهم الناس الاحترام ، سخريةٌ غير مضحكة وقد يكون لها أثرٌ منفر ، ذلك لأن الضحك ـ كما يراه برغسون ـ فعل اجتماعي ولا يتحقق في الأدب والفن ، إلا إذا كان واقعياً وافياً بالأغراض الاجتماعية والنفسية والفنية لأن الضحك يلزمه صدى ، وهو ـ في الأدب الساخر ـ انتقام اجتماعي وقصاصٌ رادعٌ من هؤلاء الناشزين الذي نجسد عيوبهم وأخلاقهم في النصوص الابداعية أو على خشبات المسارح .

إن الأدب الساخر انتقام اجتماعي لأن من نواميس الحياة أن المجتمع يحرص على تحسين البقاء بقدر ما يحرص على البقاء نفسه ، وغايته إلى ذلك هو التوافق العام والانسجام التام ، وأحد أسلحته في التقويم والردع ، هو السخرية والنقد الهادف . □

كسر القاف ·



طلب الشيخ ناصيف اليازجي ذات مرة من إحدى كريماته أن تأتيه بقنينة الحبر ، فجاءته بها قائلة : هاك القَنينة يا أبي . (ولفظت القنينة بفتح القاف) ولما كان اليازجي يصر على أن تلفظ العربية في بيته صحيحة صاح بابنته : اكسريها . فما كان من الصبية إلا أن ضربت بالقنينة عرض الحائط فكسرتها .

أرقام

بقلم : محمود المراغي

الفقراء أخف وزنًا !

كم يبلغ وزن طفلك عند الميلاد ؟

السؤال قد يبدو غريبا ، لكنه أحد الأسئلة التي أصبح الأطباء ورجال الاجتماع والاقتصاد والإحصاء يعنون بها !

هو واحد من أسئلة جديدة ، تحاول جهود الإحصاء اللحاق بها . أسئلة مثل :

× كم يبلغ طول قامة الإنسان في البلدان المختلفة ؟ وهل يزيد متوسط الطول جيلا بعد جيل أم يقل ؟

× كم طفلا في المتوسط يموت في عامه الأول ؟ وكم إنسانا تخطى حاجز السبعين ، وهو متوسط العمر في كثير من البلدان المتقدمة ؟

× كم يبلغ نصيب الفرد هنا وهناك من الطب والتمريض واستهلاك الدواء ؟

وكم يبلغ نصيب الفرد من التعليم والترفيه والثقافة ؟

بل تمتد الأسئلة الى عينة مثل : كم سيدة في العالم ، تعتمد على المطبخ الحديث ، بوسائل الطاقة الصناعية المعروفة ؟ وكم سيدة تعتمد على الطاقة التقليدية : فروع الأشجار ، وقش النباتات ؟ وكم يوما تستغرقه ربة البيت لتجمع هذا القش في كل شهر ؟

أسئلة كثيرة ، حاولت المنظمات الدولية ، ودوائر الإحصاء فيها ، ودوائر الإحصاء الوطنية الوصول الى إجابات عنها .

بالطبع يختلف الأمر ـ من حيث الدقة ـ عند تعداد السكان ، أو حصر الإنتاج الصناعي أو عدد تلاميذ المدارس ، ولكن تبقى الأرقام ـ مع بعض التحفظ ـ مؤشرا لنوع الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها هذا البلد أو ذاك .

وفي هذا السياق يأتي سؤالنا الأول :

ـ كم يبلغ وزن طفلك عند الميلاد ؟

أطباء وساسة

السؤال أضيف في التقرير السنوي المعروف باسم « تقرير عن التنمية في العالم » وظهرت نتائجه أول مرة عام ١٩٨٨ .

موضوع الإحصاء الجديد « الأطفال ناقصو الوزن عند الميلاد » ، أى من تقل أوزانهم عن (٢٥٠٠) جرام ، هذا الوزن هو وزن الدجاجة تقريبا ، لكنه يعني الكثير بالنسبة للساسة والاقتصاديين والأطباء في وقت واحد .

يهتم الأطباء بالمستقبل ، لذلك فهم يقولون : إن ميلاد الطفل بوزن أقل من المعتاد يزيد مخاطر الوفاة ، بل ويؤدي الى ضعف النمو ، ويزيد حالات التخلف .

وبالطبع ، يتخذ الأطباء إجراءات احتياطية للحفاظ على صحة الطفل « الناقص الوزن » ، و « الناقص النمو » .

أما الساسة والاقتصاديون فإنهم ينظرون لهذه المحاولات الإحصائية من حيث دلالتها الاجتماعية والاقتصادية ، إنها مؤشرات للفقر والتخلف ، أو الثراء والصحة ، فالأمر يرتبط ـ كما يقول الأطباء مرة أخرى ـ بسوء تغذية الأم ، فالأم ذات الصحة الوفيرة تنقل الصحة للأبناء ، والعكس صحيح ، وأحد مظاهر الصحة المعتلة ، بل ونقص تغذية الأم : الطفل تحت الكيلوجرامين ونصف .

وبعبارة أخرى ، لم يعد غريبا أن نردد العبارة : قل لي وزن وليدك فأقول لك ماهي صحة الأم ؟ ومانوع غذائها ؟ بل ـ وفي بعض الأحيان ـ ما حالتها الاقتصادية ؟

بصمات الواقع

نعم ، الأمر يتعلق بالحالة الاقتصادية ، صحيح أن هناك أغنياء يلدون أطفالا ناقصي الوزن ، وفقراء يتخطون حاجز الجوع والمرض ويقذفون بأطفال أصحاء ، ولكن ما « حكم العموم » ؟ ذلك ماتشير له الإحصاءات .

طبقا لتقرير البنك الدولي عن عام ١٩٨٨ الذي استند لتقارير منظمة الصحة العالمية ومنظمة الطفولة « اليونيسيف » فإن الأرقام تتصل بالفقر والثراء ، والتقدم والتخلف في العالم باستثناءات محدودة .

بين الدول المنخفضة والمتوسطة في الدخل تفاوت الموقف ، فبلغ أقصاه في الأكثر فقرا ، وكانت نسبة الأطفال تحت الوزن (٥٠٪) ـ أي نصف الأطفال ـ في بنجلاديش ، و (٢٨٪) في باكستان ، وربع الأطفال المواليد تماما في نيجيريا وغينيا الجديدة ، ولكن ، وفي المجموعة نفسها سجلت زامبيا معدلا طيبا ، فانخفض من هم تحت الوزن الى (٢٪) فقط ، كما سجلت الصين ورومانيا واليونان معدل (٦٪) ، وسجلت كل من تونس وباراجواي وشيلي (٧٪) .

هل اختلف الموقف عند الأغنياء ؟

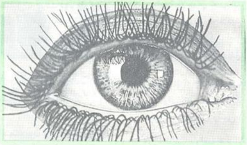
الإجابة بالأرقام : نعم ، فلم يصل أحد الى معدل يزيد عن ٧٪ ، سواء كان ذلك في الدول الصناعية ـ شرقا وغربا ـ مثل : ايطاليا ، بريطانيا ، الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفيتي ، أو كان في دول النفط : الكويت ، الإمارات ، السعودية ، ليبيا ، أي أن (٩٣٪) من أطفال هذه البلدان يولدون « فوق الوزن » ، وعلى العكس ، فقد هبطت النسبة الى (١٪) في اسبانيا ، و (٤٪) في كل من النرويج وايرلندا وهولندا ، بما يشير للصحة الوفيرة للأمهات .

استثناء من ذلك يأتي بلدان تقول إحصاءاتها الوطنية : إن نسبة الأطفال الذين يولدون فيهما تحت الوزن : صفر ، أما البلدان ـ وحسب إحصاءاتها ـ فهما مصر وكوريا الديموقراطية . وربما كان التفسير تراثا شعبيا يهتم بالأم الحامل وتلبية كل احتياجاتها .

الجهات الدولية اعتمدت على الإحصاءات المحلية ودراسات العينة والتدقيق الممكن وفي كل الأحوال كان للأرقام معناها .

وقبلها ، كانت الأرقام تقول : في بلاد الفاقة بافريقيا ، حيث زاد الفقر والمرض وسوء التغذية ، أصبح متوسط طول الطفل أقل من ذي قبل . . !

والآن يقولون : إنه أخف وزنا .
أليس لذلك دلالته ؟ □



علاج «للكتاراكت» بدون جراحة

بقلم الدكتور : سعيد السماهيجي

هل من الممكن الاستغناء عن العملية الجراحية لإزالة عتمة عدسة العين (الكتاراكت) ، ذلك المرض الذي يعاني من وطأته كثيرون ؟ .
البحث العلمي يقول إنه يمكن علاجه بالأدويه والعقاقير ، وهذه واحدة من محاولاتهم التي تستحق المتابعة والاهتمام .

يعد هذا المرض خلال كل عصور الحضارة الإنسانية ، من أهم أسباب فقد البصر ، وأكثرها شيوعا ، وكان الاعتقاد السائد في المجتمعات الإنسانية القديمة ، أن الروح أو المياه تنزل على العين ، فتحجب الإبصار ، لذا سميت عتمة العدسة « البيولوجية » « الكتاراكت » ، كناية عن مياه الشلال البيضاء التي يكون لونها أبيض دائما ، كلون الحدقة عند الإصابة « بالكتاراكت » . وقد استمرت هذه التسمية القديمة إلى يومنا هذا .

ويصاب الإنسان بهذا المرض عندما يبلغ من العمر (٥٥ ـ ٦٠ سنة) ، دون استثناء ، وهو على اختلاف أنواعه ودرجاته لابد أن يؤثر على البصر . ولحسن حظ الإنسان في القرن العشرين وجد علاج للعمى الناشيء عنه . وإن كان

يتطلب إجراء عملية جراحية للعين لإزالة مسبباته .

ولكن الأمل يراود ملايين البشر المصابين به في علاجه بدون جراحة . فهل يمكن وقف عملية تكوين « الكتاراكت » بقطر العين ، أو تناول العقاقير ، حتى يعود البصر إلى طبيعته ؟

للإجابة عن هذا السؤال المهم يجب معرفة النشاط الحيوي الطبيعي داخل العدسة ، ومعرفة عملية تكوين التعتيم .

المعروف للعلم الحديث أن تعتيم العدسة يحدث نتيجة عملية تخثر البروتينات داخل العدسة ، وهي من وجهة نظر الكيميائيين عملية غير قابلة للرجعة ، لذا توجهت أنظار العلماء في العصر الحديث إلى إزالة المسببات التي تؤدي إلى تكوين هذا التعتيم ، ولا يستطيع أفضل الأطباء في العالم حل هذه المعضلة ، وهي وقف عملية تكوين التعتيم في حالة تشكله إلا في المستقبل .

أدوية مقترحة :

ولقد اقترح العلماء مجموعتين رئيسيتين من الأدوية لتدخل في عملية العلاج :

المجموعة الأولى : تتكون من الأدوية التي تساعد على امتصاص المواد المعتمة في العدسة ، أو التي تساعد على تأخر تكوينها .

والمجموعة الثانية : تتكون من الأدوية التي تساعد على تحسين عمليات الميتابوليزم - عملية التمثيل الغذائي - في العدسة .

إن أدوية المجموعة الاولى التي افترض فيها أن تساعد على امتصاص مواد التعتيم لا تحمل في مفهومها أساسا علميا ، لأن عملية تخثر البروتينات تعد عملية غير قابلة للرجعة ، لذا كانت نتائجها غير مرضية .

فاقترح العلماء مواد كثيرة لمكافحة تكوين مواد التعتيم في العدسة ، ووضعوا نظرياتهم على أسس ومفاهيم خاطئة لتلك العملية .

فانتشرت نظرية المناعة على يد العالم « رومير » في بداية القرن العشرين التي تقول : إن سم (تكسين) يتكون في الجسم ضد العدسة ، وأبدى اقتراحه على الأطباء بأن يصارعوا (تكسين) بإعطاء حقنة من مادة « لينتوكالين » التي تحضر من بروتينات العدسة . واقترح العالم « سالوس » استخدام حقنة من مادة العدسة المعتمة في داخل الملتحمة التي سميت « كتاراكتوليزين » ، وهي جسم مضاد يسبب تحلل خلايا العدسة المعتمة . كما استخدم العالم سيلينجر مادة العدسة المعتمة من العجل . غير أن جميع هذه النظريات لم تحقق أي نتيجة إيجابية .



● اللون الابيض لحدقة العين يوضح انها مصابة بالكتاراكت

وتعد نظرية التأثير على عملية الميتابوليزم - التمثيل الغذائي - التي تؤدي باختلالها إلى نشوء التعتيم ، أكثر النظريات المقبولة علميا ، وذلك في حالة معرفة الأسباب ، كما في حالة الإصابة « بالكتاراكت » السكري والجلاكتوزي أو نقص الكالسيوم في العدسة .

ولقد أخطأ بعض العلماء فترة عندما اقترحوا استعمال الهرمونات النسائية والرجالية ، أو استعمال المزيج من هرمونات الغدد الدرقية ، أو مجموعات الفيتامينات (ج ، د ، ب) . وثبت أن كل هذه الطرق كانت غير مجدية .

وبفضل تقدم علم الكيمياء الحيوية في العصر الحديث ، خطا العلماء خطوات متقدمة مطردة ، في الوصول إلى حل في علاج التعتيم بالأدوية ، في حين عجز علماء أمراض العيون عن تحقيق هذه النتيجة عقوداً طويلة من الزمن .

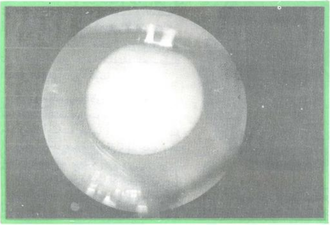
اكتشاف مهم :

واكتشف العلماء مادة تلعب دورا مهما في تطور تعتيم العدسة ، وهي مادة « كينون » ، ولقد نالت النظرية التي اعتمدت على هذا الاكتشاف المثير أهمية بالغة في مجال طب العيون ، كما أنها ارتقت إلى مصاف الاكتشاف ذي الأهمية البالغة في العلوم الطبية الحديثة .

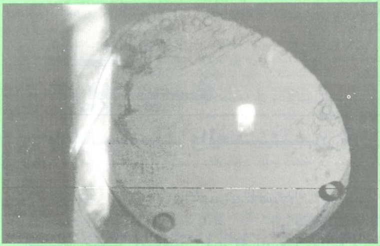
تتكون مادة « كينون » في العدسة نتيجة خلل في عملية التمثيل الغذائي للبروتينات ، حيث إن هذه المادة تتحد مع بروتينات العدسة ، مكونة مادة معتمة ، لذا تنصب كل المحاولات البحثية في منع اتحاد هذه المادة مع بروتينات العدسة ، حتى يمكن إيقاف عملية تكوين التعتيم ، أو على الأقل تأخير تطوره .

وتلعب أغشية كيس العدسة دورا مهما في تطور تعتيم العدسة ، حيث تعتمد وظيفة الغشاء الكيسي على مادة « سلفهيورين » التي توجد بكميات كبيرة في تلك الأغشية ، وفي حالة تأكسد هذه المادة فإنها تعمل على اختلال وظيفة الكيس الانفاذية . ومن الأشياء الغريبة أن هذه المادة تتأكسد بمادة « كينون » كذلك .

وبعد تعرف العلماء على عملية تعتيم العدسة في إطارها العلمي سهل عليهم البحث في مكافحة تكوين هذا التعتيم بالأدوية التي من المفترض أن تتحد مع مادة « كينون » ، لتمنع



العين بعد إجراء عملية استئصال الكتاراكت وبداخلها العدسة البلاستيكية التي تحتاجها العين تعويضا عن قوة العدسة المستأصلة



● العين تستمر باستعمال العدسة الشفافة بقطر العين مستقبلا

اتحادها مع بروتينات العدسة .

ولقد توصل العلماء إلى بعض المواد التي تحول بين « كينون » واتحادها مع بروتينات العدسة ، ومنها :

١ ـ مادة « كاتالين » : وتتكون من (هيدروسبيريدين ، ؛ فينوكسازون ، حامض كاربوكسيل) التي تستخدم في علاج أمراض العيون حديثا . وأثبتت التجارب العلمية على الحيوانات أن هذه المادة ـ كاتالين ـ تمنع تكوين التعتيم النفتاليني والالوكساني عند الحيوانات ، وظهرت نتائج مشجعة بالنسبة لتأثير مادة كاتالين على المستوى « الاكلينيكي » ، غير أنها ما تزال في حاجة إلى إثباتات علمية أكثر دقة .

٢ ـ ومن المواد التي تمنع اتحاد مادة كينون مع بروتينات العدسة مادة تسمى كونياكس صوديوم ديهيدرو أو ابتاتسين بوليسولفات التي لها خاصة الاتحاد مع مجموعة « سولفهيدريل » التي توجد في كيس العدسة ، فتمنعها وتحميها من التأكسد داخل الكيس . وتقوم في الوقت نفسه مادة « كونياكس » بتنشيط الإفرازات في السائل العيني ، في الحجرة الأمامية التي تكتسب بدورها إمكانات هائلة لتأدية وظيفتها في امتصاص التعتيم عند تكونها .

ولأن الأبحاث العلمية حول تأثيرات هذه المواد على تعتيم عدسة العين ما تزال تجري على الحيوانات ، فإنه من الصعب التنبؤ الآن بالوقت الذي يمكن أن يحصل العلماء فيه على النتائج العلمية الأكيدة ليتم تطبيقها على الإنسان ولكننا نثق أن علاج تعتيم عدسة العين « البيولوجية » ، بواسطة قطر العين ، أو تناول الأدوية بالفم أو بالحقن ، لن يستغرق وقتا طويلا ، حتى يصبح في متناول الإنسان ، لأن البحث العلمي بمناهجه ، وتراكماته ، ودأب رجاله ينطلق إلى آفاق لا تحدها حدود . □

نعال عربية
بالمسك والعنبر!

بقلم : خيرالدين عبدالله حسين*

الناسُ مثل زمانِهم — قدّ الحذاء على مثالِهِ
ورجالُ دهرِكَ مثل دهـ — ـرِكَ في تقلُّبِهِ وحالِهِ
وكذا إذا فَسَدَ الزما — نُ جَرَى الفسادُ على رجالِه.

هكذا تحدث الشاعر العربي بحصافة وحكمة عن مقادير الرجال وتقلبات الزمان . وهي موضوعات شُغل بها الأدب والشعر العربي منذ البداية ، ولكن اللافت للنظر هنا هو المثال المضروب في الشطر الثاني من البيت الأول ، فالشاعر لم يتوان عن التدليل على مطابقة حال الناس لحال زمانهم بمطابقة فرد الحذاء لفرده الآخر . ولأن حديثنا هنا يتناول الحذاء وقصته وصناعته واستعماله في حياتنا العربية منذ القدم ، فقد كان لافتا للنظر أن نجد للحذاء هذه الأهمية .

عرب البادية والنعال

البحث يضع أمامنا مزيدا من الأدلة على أن عرب الجاهلية لم يكونوا ـ كما يشاع عنهم ـ حفاة جفاة ، إذ عرف عنهم ارتداء النعال التي لم تكن وقفا على المتحضرين من أهل المدينة ، إلا أن عرب البادية لبسوا النعال البسيطة التي تمثل البداوة وخشونة الحياة ، على حين تفنن أهل المدن في صنعها ولبسها ، ومنها السبت والسمط .

والنعل في اللغة هو ما وقيت به رجلك من الأرض . نقول نعل نعلا وانتعل وتنعَّل : لَبِسَ النعل . ونعيد هنا ما قاله الجاحظ مؤكدا كون النعال من لباس العرب ، مع لبسهم الخفاف ، واستعمالهم لها ، يقول : « العرب تلهج بذكر النعال ، والعجم تلهج بذكر الخفاف » .

يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحث على لبس النعال : « من اتخذ نعلا فليستجدها » ، ويقول أيضا : « استكثروا من

*كاتب من القطر العربي العراقي .

النعـال ، فإن الرجـل لا يـزال راكبـا مـا دام منتعلا ».

ويروى عن الإمام علي كرم الله وجهه قوله : استجادة الحذاء وقاية للبدن ، وعون على الصلاة والطهور .

وهنـاك مثـل طـريف ، نقله الجـاحظ عن الهيثم ، يستـدل به عـلى أهمية النعـال بالنسبة للأعراب . « يمين » لا يحلف بها الأعرابي أبدا ، أن يقول : (لا أورد لك الله صادرا ، ولا أصدر لـك واردا ، ولا حططت رحلك ، ولا خلعت نعلك) .

وقد ورد ذكر النعال في القرآن الكريم في قصة موسى ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى : « إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى » .

وصار خلع النعل مطلوبا عند دخول المساجد والأماكن المقدسة عند المسلمين ، وكان الوليد بن المغيرة أول من خلع نعليه لدخول الكعبة .

النعل والحذاء

وتسمى النعل : الحذاء ، يقـال احتذى إذا لبس الحـذاء ، واحتـذى يحتـذي إذا انتعـل ، والحذو تعني التقدير أو القطع .

والحذوة كما شرحها ابن الأثير هي ما سقط من الجلود حين تنشر .

ويقول الشاعر العربي :

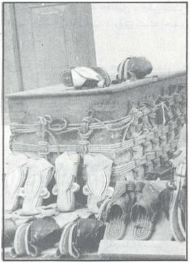
وَقِسْ بـالتجاربِ إغفـالَ الأمـورِ كَـمَا
تقيسُ نعـلًا بنعـلٍ حـينَ تحـذوهـا
أمـوالُنـا لـذوي الميـراثِ نَـجْمـلُهَـا
ودورُنَـا لخـرابِ الـدهـرِ نَبْنِيهـا !

ولم يعرف العرب النعال ويتفننوا في صنعها ولبسها فقط ، وإنما كتبوا فيها رسائل وكتبا ، كما تشير إلى ذلك رسالة جامعية للدكتـورة ابتسام الصفار ، والدكتور بدري محمد بكلية الآداب ـ جامعة بغداد ـ ومنها « النفحات العنبرية في نعال خير البرية » التي أضيفت إليها فصول جديدة ، وأصبح عنوانها « فتح المتعال في مدح النعال » .

وهذه الرسالة تشكل كتابا وحيدا في بابه ، مما وصل إلينا من التراث العربي القديم وقد كتبها التلمسـاني المقري أحمـد بن محمـد المتـوفى عـام ١٠٤١ .

أنواع الأحذية بلا حصر

ويكاد يكون من الصعب حصر أنواع الأحذية والنعال بتسمياتها المختلفة وأشكالها ، والخامات المصنوعة منها ، وبعضها يسمى بالشكل الـذي يظهر فيه ، وبعضها يسمى نسبة إلى البلد الذي صنع فيه . فمثلا النعال النجدية منسوبة إلى نجد في الجزيرة العربية ، وفي العصر العباسي عرفت أنواع من النعال كالمكاعب والمداسات والقباقيب (في الوقت الحاضر اقتصرت التسمية (قبقاب)



على الحذاء الذي يصنع من الخشب ، ويستعمل في الحمامات عادة) .

« والمشاية » وتصنع من الجلد الأحمر ، ويستعملها أهل الموصل وحلب ، ومن أنواع النعال أيضا البطان ، واستعملها القرويون في الأندلس ، والبلغة ، وهو الاسم الذي يطلق على نوع من الأحذية في المغرب العربي ، والباروة ، وتصنع من الحلفاء والقرق ، أو تصنع من الفلّين ، وترتديها النساء الصغيرات .

وفي العصر العباسي ، حيث ازداد الترف في كل مظاهر الحياة ، تفنن الناس في لبس الخِفاف والنعال ، وكانوا يبطنونها بالأقمشة والجلود ، وكانوا يتفننون في صنعها ، حتى قيل : إن بعضها كان يتسع لحفظ سكين أو منديل .

وقد ورد هذا الوصف في ذكر ما وجد في خزانة الخليفة هارون الرشيد ، فكان من ضمنها أربعة آلاف زوج من الخفاف . وقد ذكر عن السيدة زبيدة ، زوجة هارون الرشيد ، أنها اتخذت الخفاف المرصعة بالجواهر . وقد بالغ بعض نساء العصر العباسي في زينة خفافهن ، فكن ينقشن عليها الأشعار بالذهب ، وقد كتبت إحدى الظريفات على نعلها :

لم ألْقَ ذا شجنٍ يبوحُ بحبِّهِ
إلا حسبتُك ذلك المحبوبَا
حذراً عليكَ وإنني بكَ واثقٌ
ألا ينالَ سواي منكَ نصيبَا

ونعود إلى أنواع النعال فنقول : هناك « السمط »، أي النعل التي لا رقعة فيها ، ويرتديها المترفون . و« السبت » نوع آخر من النعال الجيدة التي افتخر الشعراء بلبسها ، ومدحوا لابسيها ، وسميت السبت ، لأن شعرها قد سبت منها ، أي حلق ، وكانت من النعال التي يرتديها الرسول صلى الله عليه وسلم .

«اللالكة » من الأحذية التي كانت تربط بأربطة ، و« الملسنة » هي صفة لشكل النعال ، فسميت بها ، أي أنها دقيقة على شكل اللسان ، وقيل : هي التي جعل لها لسان .

ما أحب العرب من النعال

ويبدو أن العرب لم يستحبوا لبس النعال التي وصفوها بأنها ممسوحة ، أي غير مخصرة - لا وسط لها - وكانوا يسمونها « الملس » . وروي عن الإمام علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، قوله : (لا تحتذوا الملس فإنها حذاء فرعون) .

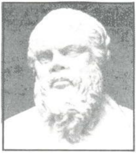
وهناك نعال تسمى « المخصوفة » ، أي « مخرزة » ، وكان الأعراب يلبسونها لكثرة تنقلهم وحركتهم ، ومثلها في ذلك مثل النعل المطبقة ذات الطاقين ، وكان يلبسها الشطار والعيارون .

ومن طرائف وصف النعال المترفة أن إحدى سيدات البلاط العباسي ، وهي أم الخليفة المقتدر ، كان يعمل لها نوع من النعال المبطن بالمسك والطيب .

ولم يكن غريبا أن يقول بشار بن برد في وصف نعل :

إذا وَضَعَتْ في مجلس القوم نعلَهَا
تَضَوَّع مِسْكاً ما أصابَ وعنبراً

ومن المعلوم أن صناعة النعال تقوم على حماية الصحة العامة للإنسان ، مع استجابتها لعناصر البيئة والتطور ، وتعد الأقطار العربية من أكثر الدول استعمالا لهذا النوع من الأحذية ، وعلى الرغم من ذلك لا يمكننا الوقوف على حجم التبادل التجاري لهذه الصناعة ، نظرا لعدم توافر إحصائيات دقيقة . واللافت للنظر أن بعض مصانع الأحذية في الدول الغربية ، وغيرها ، قامت بتصميم (موديلات) وأنواع حديثة ، غزت بها أسواق العرب !! □



سقراط



برخت

المفكّر ، من سقراط إلى برخت ، أيكون أو لا يكون ؟!

بقلم : خالد القشطيني

يحترق المفكر مرتين : الأولى وهو ينسج رؤاه مع أحلام الآخرين ، والثانية وهو يدفع عن نفسه عداء السلطة ، سواء اختلف معها أو اقترب منها .

وتاريخ البشرية بجميع حقبه وحلقاته حافل بنماذج الصراع بين المفكر والسلطة ، وحالة المسرحي الألماني برخت واحدة من هذه النماذج .

من أصعب المعضلات التي واجهت الفكر والمفكرين في التاريخ ، معضلة مهادنة السلطة ، ومواصلة البحث والانتاج في حدود ما يمكن ، أو تحدي السلطة ، ودعم التحرر الفكري بالموت من أجله . هذه حيرة قلما نجا منها أي مفكر حر ، يلتزم بأفكار لا تروق للمؤسسة القائمة ، أو الرأي العام السائد . وكان المثل الأول في هذه المسيرة سقراط الذي أبى

أن يتخلى عن أفكاره ، وشرب السم ليغذي بموته أفكاره بين شباب أثينا . وكان من هؤلاء أفلاطون الذي خالف سقراط في الإجابة عن هذا السؤال . رأى أفلاطون أن حياة المفكر أثمن وأهم في مواصلة البحث والتعليم من أن تهدر لمجرد التحدي وضرب المثال . ولمواصلة رسالته بالنحو العملي الذي رآه ، سلك سلوكا ملتويا ، وصاغ أفكاره بشكل حوار ، نقله عن سقراط ، وكأنه لا علاقة له به . وأعلن ذلك صراحة في جمهوريته ، فقال : « مالم يتظاهر الرجل الصالح ، فإنهم سيعذبونه ويسجنونه ، ويعمون عينيه ، ثم يصلبونه أخيراً » . وعندما شعر بشبح السلطة يهم بالانقضاض عليه هرب من أثينا .

وتكرر السؤال عبر التاريخ : أتهرب أو لا تهرب ؟ أتكون أو لا تكون ؟ وفي التاريخ العربي أجاب الحلاج عن السؤال بالنفي ، وواجه موته مستسلما . واكتسبت المعضلة خطورة خاصة في فجر النهضة الأوربية ، عندما بدأ العلماء والمفكرون يطرحون أفكاراً جديدة كلية ، وعلى درجة تهدد بنية الكيان الفكري الذي ساد أوربا في القرون الوسطى . وقد أعدم حرقا أول من تكلم عن كروية الأرض . هنا نجد عالما يتمسك برسالته ، ويدفع حياته ثمنا لها . بعد سنوات قليلة ظهر غاليليو غاليلي ، ودعا الى الفكرة نفسها ، لكنه عندما واجه الخيار بين الموت والإذعان للسلطة ركن الى الخيار الثاني ، بيد أنه في إطار هذا الخيار ، واستمراره على قيد الحياة ، لم يكرس حياته لخدمة السلطة ، وإنما لمواصلة أبحاثه العلمية التى أدت أخيراً الى قلب كثير من المسلمات الوهمية .

الاختيار الصعب

بعبارة أخرى لقد اختار طريق أفلاطون في تفضيل التقدم الفكري على الموت من أجل الفكر . وأثارت قصة « غاليليو » اهتمام المؤرخين والأدباء ، لكن لم يشغل بها أحد منهم ، كما شُغِلَ المسرحي الألماني برتولد برخت الذي ألف مسرحية شهيرة عنها ، وهي « حياة غاليليو غاليلي » . وأعاد كتابتها مرات ومرات بالانكليزية ثم بالالمانية ثم بالانكليزية ، وترك لنا نسخا مختلفة منها . لقد أصبحت حياة غاليليو بالنسبة له هوسا شخصيا ، لا يستطيع أن ينفض يديه منه . وأصبحت المسرحية في رأي الكثيرين أعظم ما تركه برخت للمسرح . وإذا قيل بأن لكل مؤلف كتاباً واحداً يمثله ، فهذه المسرحية تمثل هذا الكاتب الألماني تماما . وهي لا تمثله من حيث الفكرة أو الجودة فقط ، بل تمثله أيضا في النواحي الشخصية الذاتية .

أول ما يلفت النظر في برخت وغاليليو أنهما درسا الطب في مستهل حياتهما الجامعية ، وأبدى كل منهما اهتماما خاصا بالموسيقا والفنون . وعلى الرغم من أن برخت تحول الى المسرح ، فإنه في الواقع قد واظب على متابعة التطور العلمي في عصره ، ومواكبة مسيرته . وعانى كل منهما من اضطهاد السلطة ، وواجها السؤال القديم نفسه : الهرب ومواصلة العمل ، أو الموت والتحول الى رمز ؟ وقرر كل منهما قبول الخيار الثاني . وقُدِّمَ الاثنان الى التحقيق بسبب أفكارهما . وقد استمعت الى شريط مسجل لمحاكمة برخت ، وقرأت أقساماً من محاكمة غاليليو ، وراعني في الحالتين التلاعب اللفظي والشعري الذي لجأ إليه كل منهما في التملص من أسئلة المحققين ، وتفادي العقوبة . ونجا برخت كما نجا غاليليو من العقوبة ، وعاد الى برلين الشرقية ، ليواصل عمله فيها ، في إطار مشابه لإطار الإقامة الجبرية التى واصل فيها غاليليو عمله في فلورنسة . والغريب أن نجد تطابقا حتى في حياتهما الجنسية التى عرفت بالتهتك والأولاد غير الشرعيين .

هذه كلها نقاط جانبية ، النقطة الأساسية التي جذبت الكاتب الألماني الى العالم الايطالي دارت حول السؤال القديم نفسه : أيكون المفكر أو لا

يكون ؟ لقد اتهم الكثيرون برخت بالجبن والأنانية ، والهرب من مسؤولية المفكر ، في التصدي للاضطهاد والقهر والاستبداد ، وكشف نماذجها ووسائل ممارستها ، ولابد أن يعترف الانسان أن برخت جدير بلقب « الهارب الأكبر » ، فقد كان في الدفعة الأولى من المثقفين الألمان الذين هربوا من ألمانيا في الليلة الثانية من حريق الرايخشتاغ (١٩٣٣/٢/٢٧) . ويقال إنه كان الاسم الخامس في قائمة التصفية التي أعدها هتلر . ولجأ أولا الى فنلندا ، لكنه ما أن سمع بأن القوات الألمانية تقترب من حدودها حتى هرب الى الاتحاد السوفيتي . وبتدفق هذه القوات نحو الدولة السوفيتية شد رحاله ثانية وهرب الى أمريكا . وهناك أعطانا الجواب الأفلاطوني عن سؤالنا السابق ، بأن الأفضل للمفكر أن يبقى حيا ويواصل العمل من أن يموت موتا رمزيا ، وينقطع عن العمل . وفي الولايات المتحدة ، كتب برخت كثيراً من روائعه ، وعلى رأسها « حياة غاليليو غاليلي » التي ألفها بالتعاون مع الممثل الشهير شارلس لوتن . ومن هناك كرس قلمه ، للتنديد بالنازية وفضحها أمام العالم . في مسرحياته وأشعاره . ولكنه سرعان ما واجه محنة أخرى عند انتهاء الحرب وابتداء الحرب الباردة بين الغرب وأوربا الشرقية ، واندلاع هستيريا المكارثية التي تضمنت ملاحقة مئات اليساريين ومحاكمتهم ، وكان منهم برخت . لكنه لم يحاول أن يلعب أي دور بطولي أمام المحققين ، وحصر سلوكه وأجوبته في نطاق تخليص نفسه ، دون الإساءة الى أحد من زملائه .

المناورة

وما كادت تفرج عنه المحكمة ، حتى استقل أول طائرة وهرب مرة أخرى الى أوربا هذه المرة . وعلى الرغم من أنه اتخذ مقامه وبنى مسرحه في برلين الشرقية ، فإنه رفض اكتساب جنسيتها ، وآثر الإقامة بجواز سفر نمساوي ، وفي ذلك فذلكة احتياطية أخرى للهرب إذا اقتضى الأمر ، وأثار سلوكه في ألمانيا الشرقية نقدا كثيرا من زملائه اليساريين في الغرب : كيف سكت عما كان يجري فيها ؟ ومرة أخرى أعطاهم أجوبته الغاليلوية ، أي المناورة بالألفاظ .

وكان مدركا سلوكه هذا تماماً ، وعبر عنه في كثير من المواقف . روى في إحدى مسرحياته حكاية السيد المتسلط الذي أوقف رجلا وسأله : هل تخدمني ؟ فلم يجبه الرجل ، لكنه قام بخدمته ، حتى إذا مات ذلك السيد وقف الخادم فوق قبره ، وقال : « كلا لن أخدمك » . ولاشك أن المشهد الأخير من مسرحية غاليليو يعطينا شعور برخت نحو هذه المشكلة . إن تراجع غاليليو أمام محكمة التفتيش خيب أمل طلبة العلم في عصره ، لاسيما تلميذه الخاص أندريه . ووصل حنق التلميذ على جبن أستاذه حداً جعله ينقطع عن زيارته كليا . ولكنه في المشهد الأخير ، يمر بمسكن غاليليو في طريقه الى هولندا صدفة ، ويخطر له أن يزور أستاذه ، ونحصل عندئذ على ذلك المشهد الرائع . وفيه نجد غاليليو لا يهتم بغير أكله وشربه . وفي مرارة الخيبة يقول أندريه لأستاذه : « ويل للوطن الذي لا ينجب أبطالا » . ويرد عليه غاليليو بتلك الكلمة الشهيرة : « بل ويل للوطن الذي يحتاج الى أبطال » .

أندريه يشعر بالخزي من سلوك أستاذه وانهياره أمام المحكمة ، ويحدثه غاليليو عن شروط إقامته الجبرية ، لقد سمحوا له أن يبحث ويكتب ، ولكن عليه أن يسلم كل شيء الى الراهب الجالس في حراسته . هكذا أنهى كتابه الشهير المعروف بالدسكورسي : « مناقشة بشأن العلوم الجديدة » ، وسلمه لهم . أندريه ازداد غيظا واحتقارا ، ولكن غاليليو استغل غياب الراهب لحظات ، فأخرج نسخة ثانية من الكتاب ، كتبها سرا في ظلام الليل ، مما أدى الى إتلاف بصره .

وقال لتلميذه : « خبئه تحت سترتك » ، ثم سلمه المخطوطة . هنا ينقلب الموقف : « سيغير هذا كل شيء . لقد قلنا إنك ستموت ولا تتراجع . ولكنك خرجت وقلت : لقد تراجعت ، ولكنني سأعيش . قلنا : لقد تلطخت يداك . وها أنت تجيب : اليد الملطخة خير من اليد الفارغة » .

ويجيب غاليليو عن ذلك فيقول : « اليد الملطخة خير من اليد الفارغة . كلام واقعي ، كلام ينطبق على أنه العلم الجديد والأخلاق الجديدة » .

ومع ذلك فهي تتحرك

كلام ينطبق على برخت أيضا : عش لتواصل الصراع ، أو مت ويموت الصراع بموتك . هكذا كتب برخت مسرحيته في عام ١٩٣٨ . إنها أنشودة تمجد استقلال المفكر ومهمته الأساسية ، وهي التفكير والإنتاج . في مكان آخر من المسرحية يقول غاليليو : إنه مستعد للغوص في أحلك الظلمات ، من أجل أن يفهم حقيقة الضوء . في عام ١٩٤٥ أسقطت أمريكا قنبلتها الذرية على هيروشيما . وطرح السؤال : كيف أجاز العلماء لأنفسهم إنتاج هذا السلاح الرهيب ؟ وأجاب العلماء بأن هذا شيئاً لا يعنيهم . مهمتهم كانت اكتشاف الذرة وتفجيرها . رسالة العالم البحث عن الحقيقة ، ونشرها ، بصرف النظر عن النتائج . إنه موقف غاليليو ، ولكنه موقف لم يرق لبرخت الملتزم بخير الإنسان وسلام العالم . سرعان ماأدرك أن عليه أن يعيد كتابة مسرحيته . وشاركه في هذا الاجتهاد الممثل الكبير شارلس لوتن . وانكب الاثنان على كتابة مسرحية جديدة لحياة غاليليو غاليلي . وانتهى العمل في ١٩٤٧ .

في النسخة الجديدة ، يهبط العالم الكبير في نظر برخت عدة درجات ، فيصوره كجبان وأناني ومحب لمتع الحياة .

ولكن المناقشة الحيّوية لرسالة المفكر تتفجر بكامل قوتها في المشهد الأخير ، بعد تسليم مسودة الدسكورسي لأندريه . ينطلق غاليليو بخطبة طويلة ، يشكك فيها بشرف عمله ، ويندد بالعلماء الذين يتعامون عن مسؤولياتهم الإنسانية . ولايسعنا غير أن نشير على القراء أن يراجعوا هذا المشهد .

وبعودة برخت الى برلين أعاد كتابة المسرحية للمرة الثالثة بما يتناسب مع الظروف الجديدة . لقد أصبحت هوسا بالنسبة له ، وكتب كثيراً بشأن إخراجها والمدخل لمعالجتها ، وكيف يتعين على الممثل أن يتقمص شخصية بطلها . وليس من غريب الصدف أن تثير المسرحية هوسا مشابها في نفسي ، دفعني الى دراسة اللغة الألمانية من أجل مقارنة النصين الانكليزي والألماني ، وإعادة ترجمتها مرتين . إنها بدون شك من أروع أعمال المسرح المعاصر ، وتضم مشاهد خالدة ، كمشهد التلسكوب ، عندما وضع غاليليو مرصاده الصغير وسط القاعة ، وراح يتوسل بالحاضرين من علّيَة القوم أن ينظروا نظرة واحدة من خلاله الى كوكب المشتري . ووقفوا جامدين ، وقد أدركوا أن هذه النظرة ستكلفهم كل الكيان الفكري الوهمي الذي عاشوا عليه قرونا . وسيق غاليليو الى محكمة التفتيش وجعلوه يرى أدوات التعذيب ، فركع الى الأرض ، واعترف بأن الكرة الأرضية لا تتحرك . وعندما قبلوا اعترافه ونهض من ركعته ، ضرب الأرض بقدمه ، وتمتم لمن سمعه ، بكلمته الخالدة : « أبور سي موفي » ، أي : ومع ذلك فهي تتحرك . □

● البراكين تحرق حجارة أما الثورات فإنها تحرق رجالا .

(هوجو)

يحيـــا الـــوطن !

قصة للكاتب التركي : عزيز نيسين
ترجمة : صفوان الشلبي

ـ آه يا صديقي ، لو تعلم مشكلتي ، فأنا لست في عداد الأحياء ! قال ذلك بحسرة . بينما كنت وإياه نتمشى في ساحة السجن المركزي .

ـ لست وحدك يا عزيزي . ومن منا في عداد الأحياء ؟! احمد الله على كل شيء . هناك من هو في وضع أسوأ من وضعنا . صحتك ، ما شاء الله جيدة . يكفيك ذلك .

ـ كلا يا صديقي ، لم أقصد ما تعنيه ، أنا باختصار ميت ! كيف أشرح لك . أنت تراني الآن أمامك ، أليس كذلك . ولكن هذا لا يعني شيئا ، أنا لا وجود لي ، أنا لست حيا . أنا ميت ! لا تظنني مجنونا أو خرفا يا عزيزي ، ستفهم مني عندما أقص عليكَ قصتي من البداية : أول مرة علمت بها أنني ميت ، كنت في الثانية عشرة من عمري . نعم في الثانية عشرة . حتى ذلك الوقت ، لم يكن في بلدتي مدرسة حكومية . الأولاد يذهبون الى الكتّاب ، كتّاب الشيخ داود . وحين تم افتتاح أول مدرسة ابتدائية حكومية ، أرسل أهل البلدة أولادهم إليها . كان والدي من وجهاء البلدة . فأراد هو أيضا تسجيلي في تلك المدرسة . اصطحبني والدي إلى مدير المدرسة الذي طلب لتسجيلي شهادة ميلاد أو ما يدعى بدفتر قيد النفوس . أجابه والدي يومها :

ـ لم أخرج لابني قيدا . ألا ينفع دفتر قيد نفوسي ؟ أجاب المدير :

ـ مستحيل . لكن والدي ألح قائلا :

ـ عزيزي المدير ، لماذا لا يجوز وأنت تعلم أن لا فرق بيني وبين ابني . فكل ما هو لي هو ملك لابني الوحيد هذا . كما أن الشيخ داود لا يطلب دفتر قيد نفوس . فلماذا الإصرار ؟ ولما تبين لوالدي رفض المدير القطعي لتسجيلي بدون دفتر قيد ، اتجهنا سويا إلى كاتب الاستدعاءات في البلدة ، وكتب لنا استدعاء حملناه وذهبنا إلى دائرة الأحوال المدنية .

أخذ أحد الموظفين الاستدعاء من والدي ، وأخرج دفاتر وسجلات طويلة وبالية ، وبعد طول بحث وتدقيق ، ظهر عليه أنه وجد قيد والدي !

ـ هل اسمك رشيد ؟

ـ نعم .

ـ تاريخ ميلادك ، ١٨٩٧ . عنوانك ، محلّة ديرمان ، دخلة طاووس ، رقم الخان ٥١ قديم ، ٢٨ جديد . تزوجت من هاجر عام ١٩١١ ، ولك ابن وحيد اسمه أمين . أليس كذلك ؟

ـ صحيح .

قلت مخاطبا والدي :

ـ هل يعرفك هذا الرجل من قبل يا أبي ؟ إنه

يعرف كل شيء عنك !

أجاب والدي :

- لا بد أن يعرف كل شيء ياولدي ، فهو موظف دولة !

ثم استدار والدي نحو الموظف قائلا :

- سأسجل ابني في المدرسة الحكومية ، وقد طلب مدير المدرسة شهادة ميلاده . أريد أن أخرج لابني دفتر قيد نفوس ، فقد أهملت الأمر ولم أخرج له قيدا في حينه .

نظر الموظف الى والدي في شك وريبة قائلا :

- يا رجل ! أي ابن تتحدث عنه ؟ ألم أقل أن لك ابنا وحيدا ، وابنك الوحيد قد توفي !

أجاب والدي وقد بدت عليه علامات الدهشة والاستنكار :

- ماذا تقول يا حضرة الموظف ؟ ابني هو ذا هنا، حي يرزق ، وأشار إليّ .

- ما دام كل شيء بالقيد حتى هنا صحيحا. فالقيد يظهر أن ابنك قد توفي ، ونحن يا عزيزي لا نصدر شهادة ميلاد للأموات !

- أخبرني إذن متى توفي ولدي ؟

نظر الموظف إلى السجل ثم قال :

- جُند أمين في الجيش خلال الحرب العالمية الأولى . سقط شهيداً عام ١٩١٥ ، في معركة « تشناكاله » . أسقط قيده من السجل بموجب كتاب شعبة التجنيد رقم ٨٠/٣٣١ .

عبس والدي وصاح بالموظف بعصبية :

- أعد قراءة ما ورد بقيدي ، تقول أنني تزوجت عام ١٩١١ ؟

- نعم صحيح . هذا ما هو وارد هنا . تزوجت عام ١٩١١ .

- لكن ألا تلاحظ المغالطة هنا ، يا حضرة الموظف ؟ لو وُلد ابني يوم زواجي . فسيكون عمره عام ١٩١٥ ، أربع سنوات فقط . متى ذهب هذا الطفل للحرب ؟ ومتى استشهد ؟

بدت علائم الارتباك على وجه الموظف ، حدق بالسجل ، ثم اختلس نظرة إليَّ متحاشياً النظر إلى والدي وقال :

- السجل يظهر أن ابنك أمين ولد عام ١٨٩٦ . إذن عندما استشهد عام ١٩١٥ كان في التاسعة عشرة من عمره .

صاح والدي بدهشة قائلا :

- أتقول أن ابني ولد عام ١٨٩٦ ؟ على رسلك يا رجل ، متى وُلدت أنا إذن اقرأ لي ذلك أيضا .

- أنت من مواليد عام ١٨٩٧ .

- ما هذا يا حضرة الموظف ؟ أتقصد أنني أصغر من ابني سنا ؟

- ليس عندي سوى السجل .

التفت والدي نحو الموظفين سائلا بتهكم :

- يا سادة . هل هناك بينكم من هو أكبر من أبيه ؟

غضب الموظف وصاح بوالدي :

- أنا لا أسمح لك بالسخرية من سجلات الحكومة . باختصار ، نحن لا نصدر شهادة ميلاد لمتوفى . كفى ومع السلامة .

أخذني والدي وسأل عن مدير الدائرة ، حيث روى له ما سمعناه من موظف السجلات . أبدى المدير اهتماما بقصتنا ، وطوى الصحيفة التي كانت أمامه ، ودعانا لمرافقته إلى غرفة السجلات ليطلع بنفسه على حقيقة الأمر . قرأ المدير السجل عدة مرات . ثم قال وكأنه يحدث نفسه :

- القيد يورد استشهاد ابنك أمين عام ١٩١٥ .

خفت صوته وارتسمت على وجهه علامات الجدية والتفكير ، ثم هز رأسه وقال لوالدي:

- الأمر واضح . لقد تزوجتَ من امرأة أرملة ، ولها من زوجها القديم ولد اسمه أمين . إن أميناً هو ابن زوج امرأتك ، وحيث أن والده قد توفي . فقد بيّنت القيود أنك

والده ، وهذا يفسر كونه أكبر منك سنا .

لم أتمالك نفسي ، فعاودت البكاء والعويل ، مما دفع والدي أن يصيح بي قائلا :

ـ اخرس يا ولد . هل تظن أن السجل يعرف أكثر مني ابن من أنت ؟

انفرجت أسارير الموظف وقال للمدير:

ـ كلامك صحيح يا سيدي .

صاح والدي بالموظف بغضب قائلا :

ـ أكمل لنا قراءة القيد .

نظر الموظف إلى المدير ، فهز رأسه موافقا .

ـ هاجر ابنة بكر ، وُلدت عام ١٩٠٤ .

أجاب والدي منهجا :

ـ إن قيودكم عجيبة . زوجتي وُلدت عام ١٩٠٤ بينما أمين ولد عام ١٨٩٦ . هل سمعتم بأحد يُولد قبل أمه بثمان سنوات ؟

وقال المدير وعلى وجهه شبه ابتسامة :

ـ ليس هناك معضلة ، فالأمر غاية في البساطة وسأوضحه لكم : زوج هاجر الأول كان له ابن من زوجة غير هاجر . عندما توفيت زوجته الأولى ، تزوج من هاجر التي تصغر ابن زوجها بثمان سنوات . عندما توفي هذا الرجل ، تزوجت هاجر من رشيد الذي يصغر ابن زوجها الأول بسنة واحدة . وهذا واضح تماما فالقيود تظهر أن أميناً أكبر من زوجة أبيه بثمان سنوات ، ومن زوج زوجة أبيه بسنة واحدة .

صفق الموظفون وصاحوا بتملق :

ـ عظيم يا حضرة المدير ، عظيم . إنك تعرف كل شيء !

إلا أن والدي أسكتهم بصوته الغاضب:

ـ ماذا تقولون يا جماعة ؟ هل تدعون أنني تزوجت من هاجر وعمرها سبع سنوات وكان لها زوج قبلي ؟



أجاب المدير بصوت يدل على نفاد الصبر :
ـ حسنا ، إن لم يرق لك تفسيري لقيدك ، ففسره لنا لنرى .

أخذت دموعي تنهمر من عيني بغزارة ، فرق والدي لحالي وقال :
ـ لا تبك يا بني ، مالنا ومدارس الحكومة . سآخذك إلى كتّاب الشيخ داود ، وكفانا سماعا من هذه الخزعبلات .

مضى زمن طويل على هذه الحكاية إلى أن استُدعيت لخدمة العلم . ولكن كيف لي بإقناعهم أنه سبق لي وأديت واجبي ، حتى أنني سقطت شهيداً أيضا ؟ فالأموات لا يؤدون خدمة العلم .

أخذتني الشرطة العسكرية مخفورا الى شعبة التجنيد بتهمة التهرب من تأدية الواجب ، ولحقني والدي الى هناك ليوضح الأمور :

ـ إن لابني قيد وفاة في دائرة الأحوال المدنية ، يا حضرة الضابط : إن ابني هذا شهيد من شهدائنا في معارك التحرير . ولو كان على قيد الحياة لأخرجوا له دفتر قيد نفوس !

انفعل الضابط ظانا أن والدي يسخر منه :

ـ كيف تجرؤ على إنكار وجود هذا الشاب الواقف أمامي ؟ اذهب من هنا فورا ، وإلا وجهت إليك تهمة التحايل على القانون . ثم التفت إلى رجال الشرطة آمرا :

ـ خذوا الشاب الى المعسكر .

غمرني شعور عميق بالفرح وأنا أقف بين الأفراد في المعسكر . إذن أنا حي مثلهم ولست ميتا كما يدعي مدير دائرة الأحوال المدنية .

انتهت مدة الخدمة ، وسُرح جميع زملائي إلا أنا ، فلا سبيل إلى إعطائي شهادة اخراج دون دفتر قيد نفوس ، كَتَبَتْ وحَدتي إلى شعبة التجنيد طالبة قيدي ، وبعد شهر وصل الرد التالي : « إن الشخص موضوع كتابكم ، قد توفي أثناء تأدية الواجب في مناورة « درسيم » عام ١٩٣٨ » .

ـ هذه المعلومات خطأ . أنا لم أمت في « درسيم » ، بل في « تشناكاله » . لقد استشهدت دفاعا عن أرض الوطن ، وبإمكانكم الاستفسار عن ذلك من دائرة الأحوال المدنية في بلدتي . جرت المراسلات والمخاطبات مرة أخرى بين الدوائر المعنية ، واستمرت شهورا عديدة ، وأنا أنتظر في المعسكر ، إلى أن كان القرار النهائي « أنا ميت » . احتار الضابط في أمري ، وعندما لم يجد نتيجة من المراسلات والكتب ، قرر إعطائي كتابا ممهورا وموقعا من قِبَله يتضمن تأديتي لخدمة العلم ، وتم تسريحي بعد طول انتظار من الجيش .

عدت إلى بلدتي لأجد أن والدي قد تُوفي ، ثم تبيّن لي أن عليه قرضا لمصرف الحكومة الزراعي مقداره خمسة عشر ألف ليرة ، بالإضافة إلى ألفي ليرة لضريبة الدخل . وحيث أنني وريثه الوحيد فيجب عليّ تسديد ديونه . تابعتني ضريبة الدخل ، وجلبتني عن طريق رجال الأمن ، وعبثا حاولت إقناعهم أنني ميت ، وأنه بإمكانهم التحقق منْ صحة أقوالي من شعبة التجنيد ودائرة الأحوال المدنية :

ـ ألست ابن رشيد ؟ هل تنكر أنه والدك ؟

حاشا لله ، كيف أنكر والدي ؟ لكنني ميت ، شهيد بلا جدوى ، أصروا أن أسدد ديون أبي . أخيرا ، وافقت مكرهاً ، فلا سبيل للحصول على تركة والدي قبل تسديد الديون ، وقد كان للمرحوم بساتين وأراض وعقارات تقدر قيمتها بملايين الليرات . استدنت من أصدقاء المرحوم وسددت الديون . كنت سعيدا وأنا أدفع ضريبة الدخل ، لقد انتابني شعور بأنني حي . إلا أن هذا الاحساس لم يدم طويلا ، وكالعادة ، فلا سبيل لإثبات أنني ابن أبي دون دفتر قيد نفوس ، وهل يرث الميت

أباه ؟ أعيتني الوسيلة وأنا أحاول إثبات أنني حي . ألا تروني أقف أمامكم ؟ لقد أديت خدمة العلم كالأحياء تماما ، لقد دفعت ضريبة الدخل مثل كل مواطن ، لقد دفعت قيمة قرض والدي للمصرف مثل كل الناس ، ولكن لا حياة لمن تنادي . الجواب دائما هو نفسه « أنت بقيود الحكومة ميت رسميا » .

نصحوني باللجوء إلى القضاء ، عليّ أن أثبت أنني حي . اتفقت مع محام ليتولى قضيتي . انعقدت الجلسة تلو الجلسة ، سنتان اثنتان ، عرض خلالهما محامي خزينة الدولة أوراقا ووثائق رسمية ، كدت أصدق معها أنني ميت فعلا . وصدر الحكم : أنا ميت ، والدولة ستضع يدها على ما تركه لي والدي من مال . غرقت بالديون ، فأنا لا أستطيع عمل شيء بدون إثبات قيد حياة ، حتى فقدت أعصابي يوما ، وطفت بالشوارع أصرخ وأصيح بكلام وجدت نفسي على أثره معتقلا في أحد السجون :

ـ كيف تسجنوني وأنا ميت ؟ وهل يسجن الأموات ؟

وانهالوا عليّ بالضرب قائلين :

ـ ويل لك ، ومنذ متى يتكلم الأموات ؟

مهما حصل ، فقد سررت لاعتقالي وايداعي السجن ، هل تعلم لماذا يا صديقي ؟ كان هذا دليلا لي بأني على قيد الحياة . أطلق سراحي بعد فترة ، وواجهت بعدها ضغوطا شديدة :

ضاع الميراث بقرار من المحكمة . الدائنون يطالبون بأموالهم . أبواب العمل مقفلة في وجهي . قررت مغادرة بلدتي سرا واتجهت الى « استانبول » ، علّي أجد هناك وسيلة لكسب العيش . تعرفت هناك على فتاة ، ورغبنا بالزواج . ولكن كيف السبيل إلى الزواج ، والزواج يحتاج إلى دفتر قيد نفوس ؟ تزوجنا أخيرا بدون أوراق رسمية . وبما ادخرته من مال ، فتحت محلا تجاريا صغيرا ، سجلته باسم غيري ، فأنا ميت رسميا ولا أستطيع أن أكون صاحب محلي الخاص ! مضت سنة على هذه الحال لأكتشف أن من سجلت محلي باسمه ، قد أخذ كل شيء واختفى . ضاع المحل وضاع كل ما أملك ، لكن عند تحصيل الضريبة ، توجب عليّ دفعها بموجب العقد الموقع بيني وبين ذلك الرجل . إذ لافائدة من ادعاء الموت عند دفع الضرائب فلا أحد يصغي أو يصدق ما أقول !

سدت جميع السبل وضاقت الدنيا بي ، ولم يبق أمامي من وسيلة لسد رمق عائلتي سوى السرقة ! وحتى هذه الحال لم تدم طويلا ، فقد ألقي القبض عليّ ، ولم يجد معهم ما ادعيته عن حكاية موتي ، فالأموات لا تسرق !

عاودني بصيص من الأمل عند دخول السجن . أنا حي إذن . لكن يا لمفارقات القدر ! عندما أرغب بدخول المدرسة ، يقف الجميع في طريقي بحجة أنني ميت ! وعند دعوتي للجيش يؤكد الجميع أنني حي ! عند طلب حقي الشرعي بتركة والدي ، يقف الجميع ضدي حتى القضاء ! عند توديعي السجن فأنا حي ، وعند الزواج فأنا ميت !

هذه هي مشكلتي يا صديقي ، ولكنها بالمقارنة مع مشكلة أطفالي فليست بذات بال ، فأنا في قيود الحكومة كنت في زمان مضى حيا أرزق ، ثم استشهدت ، ولكن مابالك بأطفالي الأربعة ، فهم الآن ليسوا في عداد الأموات أو الأحياء ، أربعتهم لم يولدوا رسميا ، فما دام أبوهم ميتا فالأولاد لم يولدوا أبدا ، ايه ، بعد ثلاثة أيام وعندما تنتهي مدة محكوميتي ، سأدخل مرة أخرى في عداد الأموات !

انتهت فترة الاستراحة المعطاة لنا ، وصفر حارس السجن بصفارته آمرا بالعودة إلى زنزاناتنا . التفت صديقي إليّ وأكمل حديثه قائلا :

ـ « ايه » ماذا يمكن أن نقدم عشنا أم متنا ؟ المهم أن يرتفع اسم بلادنا عاليا . يحيا الوطن !



حكومة جنوب أفريقيا وتحدي المواثيق الدولية

الدكتورة : سعاد الشرقاوي*

يندهش كثيرون منا لعجز العالم ـ حكومات ومنظمات ـ عن كسر الصلف والتصلب الذي تواجه به حكومة جنوب افريقيا البيضاء مطالب الشعب الافريقي الأسود في المساواة وفي الحصول على حقوقه الانسانية في وطنه ، ولكن عندما تعرف السر الذي يكشف عنه هذا المقال ستخف الدهشة والعجب .

إن سياسة الفصل العنصري ، أو الأبارتيد APARTHEID التي تتبعها حكومة بريتوريا تعد حسب المواثيق الدولية جريمة ضد الانسانية . ويختلف الفصل العنصري أو (الأبارتيد) عن التمييز العنصري في أن الأبارتيد يتسم بالمنهجية ، وممارسة أعمال غير انسانية ، يكون الهدف منها إقامة وتسلط فئة عنصرية من البشر على فئة عنصرية أخرى واضطهادها .

ومظاهر الفصل العنصري عديدة ، منها ما يتعلق بالملكية الزراعية ، والتعليم ، والأجور ، والمرتبات ، والحواجز اللونية ، وتصاريح المرور ، وشهادات التسجيل .

ويقوم الفصل العنصري (الأبارتيد) في جنوب افريقيا على ثلاثة أركان قانونية :ـ

الأول : قانون الأرض الذي يعطي ٨٧٪ من أجود الأراضي وأخصبها للبيض .

* أستاذة بكلية الحقوق ـ جامعة القاهرة

الثاني : قانون العزل الاقليمي الذي يوزع السكان البيض في مناطق معزولة عن المناطق المخصصة للملونين .
الثالث : قانون التسجيل الذي يلزم كل مواطن بتحديد العرق الذي ينتمي إليه ، أي ما إذا كان أبيض أم ملونا .

تحدى المجتمع العالمى

وقد صدرت عن الأمم المتحدة عدة اعلانات ومواثيق للقضاء على جميع أشكال التمييز . منها اعلان الأمم المتحدة للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٦٣ ، ثم الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري التي اعتمدتها الجمعية العمومية في ٢١ ديسمبر سنة ١٩٦٥ ، وبدأ نفاذها في ٤ يناير سنة ١٩٦٩ بايداع ٢٧ دولة وثيقة التصديق أو الانضمام . ثم مجموعة من الاعلانات والمواثيق لمنع التمييز ضد المرأة سنة ١٩٦٧ ، واتفاقية تمنع التمييز في مجال التعليم وقد صدرت عن اليونسكو سنة ١٩٦٠ . واتفاقية المساواة في الأجور لدى تساوي قيمة العمل التى اعتمدها المؤتمر العام لمنظمة العمل الدولية في ٢٩ يونيو ١٩٥١ ودخلت حيز التنفيذ في ٢٣ مايو ١٩٥٣ .

غير أن نظرة القانون الدولي (للأبارتيد) أو الفصل العنصري تختلف عن نظرته للتمييز بكل أشكاله . فقد توصلت الأمم المتحدة الى صياغة نظرة المجتمع الانساني للفصل العنصري في الاتفاقية الدولية لقمع الفصل العنصري والمعاقبة عليها باعتبارها جريمة ضد الانسانية ، والتي اعتمدتها الجمعية العامة في ٣٠ نوفمبر ١٩٧٣ ، ودخلت حيز التنفيذ في ١٨ يوليو ١٩٧٦ بانضمام ٢٠ دولة إليها . وتعلن هذه الاتفاقية تجريم المنظمات والمؤسسات والأشخاص الذين يرتكبون جريمة الفصل العنصري .

وعلى الرغم من ذلك فإن حكومة بريتوريا تصر على اتباع سياسة الفصل العنصري أو الابارتيد . وتعجز المنظمات الدولية والاقليمية وكل دول العالم عن ثنيها عن هذه السياسة .

إن سر هذا التحدي يكمن في أن جنوب افريقيا تحتل مكانة فريدة وتتحكم في ثروات نادرة وهائلة .

وطالما هدد « بيتر بوتا » رئيس حكومة جنوب أفريقيا السابق بصفة منتظمة كل من يحاول فرض عقوبات على حكومة بريتوريا بقوله في اجتماع سياسي في سنة ١٩٨٥ « إن حفر الدول الغربية حفرة لدفن نظام جنوب افريقيا يؤذي هذه الدول الغربية في المقام الأول » . وقبل أربع سنوات من هذا التصريح قال « بيتر بوتا » : « إن الدول الغربية تقول إننا لا نستطيع أن نعيش بغيرها ، ولكن على هذه الدول أن تعترف أنها لاتستطيع أن تعيش بدوننا . إننا لا نقبل أن يملوا علينا ما يجب عمله في بلدنا ، وإلا فإنكم ستجدون أمتنا



الصغيرة - يقصد الأقلية البيضاء في جنوب أفريقيا - تعترض طريقكم » .

وبينما أدى القمع الذى كان يمارس في المناطق التي يسكنها السود طوال عام ١٩٨٥ وفي بداية سنة ١٩٨٦ الى تزايد الحملات لتوقيع عقوبات على بريتوريا ، فقد أوضحت حكومة جنوب أفريقيا أنها لن تقف مكتوفة الأيدي أمام هذه العقوبات .

تهديد الدول الصناعية

فما هي الوسائل التى تستطيع بها حكومة الأقلية البيضاء ممارسة ضغط مؤثر الى هذا الحد ؟

في أكتوبر سنة ١٩٨٥ أعلن « بيتر بوتا » امكانية وقف تصدير الكروم الى الدول التي تطبق عقوبات ضد نظامه مؤكدا بهذا أنه يستطيع أن يدفع مليون عامل امريكي الى البطالة خاصة في مجال صناعة السيارات والطائرات .

إن هذه الجملة القصيرة التى اصدرها رئيس دولة جنوب أفريقيا في ذلك الحين أثارت مخاوف في دول الغرب وذكرتها بما حدث سنة ١٩٧٣ خلال أزمة النفط ، وأثارت حوارا - خاصة في الولايات المتحدة - ، فيما يتعلق بتبعية الدول الغربية في مجال المعادن الاستراتيجية ، وخاصة تلك التي لا يوجد لها بديل وهي : الكروم والكوبالت والمنجنيز والبلاتين والفاناديوم .

وهذا ما دفع « دون فيوكا » رئيس لجنة العلوم والتقنية في مجلس النواب الأمريكي الى القول : « إن الكروم له نفس أهمية النفط في المدى الطويل ، ومع ذلك فنحن لا نتصور أي سياسة وطنية في هذا المجال » .

في سنة ١٩٨٥ استخدمت حكومة جنوب أفريقيا الحجة القائمة على المعادن الاستراتيجية لاقناع الغرب بأهميتها . وبدأت بريتوريا في اتخاذ خطوة جديدة كان مشكوكا في إقدامها عليها ، عندما أعلنت أنها ستصدر قرارات بمنع تصدير هذه المعادن الاستراتيجية . ومن الناحية الفنية فإن هذا ليس مستحيلا . إذ تستطيع بريتوريا أن تمنع تصدير المعادن الاستراتيجية بتكلفة قليلة نسبيا لها كرد على الجزاءات الاقتصادية ، إذ لا تمثل المعادن الاستراتيجية إلا ٥٪ من الصادرات الكلية لجنوب أفريقيا ، بينما يمثل الذهب ٥٠٪ من الصادرات ويمثل الفحم ١٥٪ من الصادرات . وستكون نتائج هذا الحظر بالتأكيد خطيرة .

ولقد تضمنت دراسة امريكية منشورة بعنوان : « عالم المعادن الاستراتيجية » « أنه بدون المعادن الاستراتيجية - الكروم والكوبالت والمنجنيز والبلاتين - لا يستطيع العالم أن يسير على النحو الذى يسير به الآن ، إذ لا يمكن انتاج محرك طائرة أو سيارة أو تسيير قطار ، أو بناء محطة تكرير نفط ، أو محطة توليد كهرباء ، أو نقل الأغذية بالطرق المستخدمة الآن ، أو انتاج كمبيوتر ، أو محطة تنقية مياه » . وسيكون لهذه الحالة تأثير بالغ على تشغيل العمال كما يضع اعدادا هائلة في حالة بطالة .

ثروة من المعادن الاستراتيجية

وجنوب افريقيا دولة الأبارتيد تحظى بنصيب مهم في انتاج المعادن الاستراتيجية بالنسبة للعالم بصفة عامة ، وبالنسبة للدول الغربية بصفة خاصة .

فهي المنتج الأول للكروم ، إذ تنتج ٣٣٪ من انتاج العالم . كما أن زيمبابوي - جارتها - منتج كبير آخر للكروم تصدره عن طريق جنوب افريقيا ، ويوجد في جنوب أفريقيا بين ٧٠ الى ٨٠٪ من احتياطي الكروم في العالم .

وهناك البلاتين والمعادن المعاونة له وتنتج جنوب أفريقيا نصف انتاج العالم تقريبا متساوية مع الاتحاد السوفيتي ، ويوجد ٨٤٪ من احتياطي العالم من هذه المعادن في جنوب أفريقيا ، والباقي في الاتحاد السوفيتي .

وهي ثانية دول العالم في انتاج المنجنيز بعد الاتحاد السوفيتي حيث يبلغ انتاجها ١٢٪ من الانتاج العالمي . كما أنها تملك ٥٠٪ من احتياطي العالم .

وتنتج جنوب افريقيا ٣٠٪ من انتاج العالم من الفاناديوم ولديها ٤٢٪ من الاحتياطي العالمي .

وتتحكم هذه الدولة العنصرية في تصدير الكوبالت من زائير وزامبيا لمروره عبر أراضيها في طريقه الى الولايات المتحدة التي تحصل على ٦١٪ من احتياجاتها من هذا المصدر .

يضاف الى ذلك انها تنتج ٥٩٪ من انتاج العالم من الذهب ، ١٥٪ من الماس ، ٢٣٪ من اليورانيوم ، على الرغم من أن هذه لا تعد معادن استراتيجية .

إن هذا الوضع الفريد يقوي نظام حكومة بريتوريا في مواجهة من ينادي بعقوبات اقتصادية أو سياسية عليها ، إذ يستحيل على من سيكونون أول ضحايا هذه العقوبات تطبيقها على جنوب افريقيا .

لقد اتبعت حكومة جنوب افريقيا منذ أكثر من عشرين عاما استراتيجية تُخضع بها الدول الغربية لها ، باللعب بمهارة في سياسة الأسعار ، واستخدام التقدم التقني والصناعي . فضلا عن التهديد ، والدخول في مفاوضات ، لتكوين اتحاد احتكارى للمواد والمعادن الاستراتيجية مع الاتحاد السوفيتي بحكم كونهما أكبر المنتجين والمصدرين لها .

ويضاف الى ذلك أن جنوب أفريقيا تتحكم اقتصاديا في الدول المحيطة بها ، باستثناء أنجولا وتنزانيا ، وتستطيع من ثم أن تمارس عليها ضغوطا فعالة .

الكفاح من الداخل هو البديل

ويخلص المتخصصون الى أن العقوبات الاقتصادية مسألة تلوح بها الدول الغربية من آن لآخر دون أن تستطيع الذهاب بها لمدى بعيد . كما أن تلويح جنوب افريقيا باتخاذ اجراءات اقتصادية انتقامية هو من قبيل الخدعة . ومن ثم فإن المجتمع الدولي في هذه الظروف عاجز من الناحية العملية عن فرض الاصلاحات الداخلية في جنوب افريقيا .

وتبقى الآمال معقودة على الكفاح الداخلي على الرغم من الارهاق الذي أصاب المعارضة ، ونجاح حكومة بريتوريا في وضع حركة مناهضة الأبارتيد في الثلاجة على حد تعبير وزير الإعلام « ستوفل فان درميرفي » .

وهذا ما دعا أحد أقطاب الجبهة الديمقراطية المعارضة في جوهانسبرج الى القول : « حقا إننا سنستمر ولكننا نحتاج الى طريقة جديدة للعمل ، ومن الصعب أن تجد حججا ضد اولئك الذين يقولون إن العنف هو طريقنا الوحيد » . □

المبادىء النظيفة


● سعد زغلول

سمع سعد زغلول أحدهم يطعن في بعض الأشخاص الذين تنقلوا بين الأحزاب ، فقال لمن حوله : بالعكس ، إنني أرى أنه من أصحاب المبادىء النظيفة . فدهش الحاضرون وسألوه : وكيف ذلك ؟ فأجاب : لأنه دائماً يغيرها حتى لاتتسخ !

حـــول مشكلة العامية

بقلم : عبدالرزاق البصير

ما تزال قضية استخدام اللهجة العامية في مجالات التعبير المختلفة ـ خاصة الشعر والمسرح ـ تثير اختلافات كثيرة منذ عدة عقود مضت . وهذا رأي في القضية يطرح بعض الحجج التي تنتصر للفصحى .

مشكلة اصطناع اللهجة العامية مشكلة لا تخلو من تعقيد ، فهي من جهة تجد الواقع يقول بأن من الصعب رفضها رفضا قاطعا لأنها لغة حياتنا اليومية ، يتحدث بها الصغير والكبير ، فيما يتعلق بحاجاتهم في مختلف نواحي الحياة ، ولا بـد أن يستدعي هـذا نوعـا من التعبير عن النفس في بعض الحـالات ، منها هـدهـدة الأم لطفلها عنـد النوم ، ويقـال مثل ذلـك في تعبير الانسان العادي عن نفسه في حالة فرحه وحزنه ، وفي حالة ملاقاته للمشاق والمصاعب في أوقات معينـة كالعمـل في البحر ، والعمـل المرهق في بعض الحالات . وقد نتج عن ذلك وجود أشعار ليس لها تأثير على من لم يعـايش تلك الحالات المعينة .

ويبدو أن بعض الناس توسع في ذلك فأخذ يكتب معبرا عن نفسه شعرا ونثرا معتقدا أنه لا يستطيع أن يُـوَصِّل مـا في نفسه لغيره إلا بهذه اللهجـة ، وأنه بـذلك يعبـر عن فئة كبيـرة من الناس ، مما جعل بعض الصحف تفرد صفحات لهذا اللون من التعبير والتفكير .

فأنت ترى من هذا أن مقاطعة اللهجة العامية مقاطعة تامة لا تخلو من صعوبة . ومع هذا فإنه لا يجوز لنا أن نترك هذه اللهجة في نمو مطرد لأن في ذلك خطرا على لغة القرآن كما أن في تعزيز اللهجة العامية أقوى وسيلة لتفتيت كيان هذه الأمة . وقد أدرك أعداء الأمة العربية هذا الأمر فبادروا إلى الدعوة لاصطناع اللهجة العامية معتمدين على ما ذكرناه من امتزاجها بالحياة اليومية . وقد تنبه كثير من علمائنا ومفكرينا القدامى إلى خطورة هـذا الأمر مما جعلهم يؤلفون الكتب موضحين ما ينشأ من أضرار حين نهمل قواعد لغة القرآن ، وذلك حين يكون تعبيرنا عن أفكارنا وعواطفنا بصورة فنية ، فهذا أبـو الحسن علي بن حمـزة الكسائي المتوفى عام ١٨٩ هـ يؤلف كتابا « ما تلحن فيه العامة » . وجاء أبو عبيدة المتوفى عـام ٢٠٩ هـ فصنع كتابا بعنوان « لحن العامة » ، وأبو حنيفة الدينوري المتوفى عام ٢٩٠ هـ كتب في الموضوع نفسه . وغير ذلك كثير .

خطر التدريس بالعامية

ومن المحقق أن أضـرار اصطنـاع اللهجة العامية في هذه الأيام أعظم منها فيـما مضى من

العصور ، لما للتلفاز ، والاذاعة والصحافة من أثر قوي على الناس . إذ أنها تلقانا في الصباح وفي المساء . ويكون خطرها أشد وأقوى حين يكون إلقاء الدروس في المدارس والمعاهد والجامعات باللهجة العامية لأنه يضعف اللهجة الفصحى في نفوس ناشئتنا إذ أنهم لا يتحدثون بها في منازلهم وبين أصدقائهم ، ولا يُحدثون بها في مدارسهم إلا في حالات معينة عندما يأتي تدريسهم للقرآن .

لهذا رأت جامعة الملك سعود أن تساهم مساهمة فعالة في معالجة هذه القضية ، وذلك بتمويل الدراسة التي قام بها « الدكتور مرزوق بن ضيتان بن تنباك » . وليس من شك أن هذه الجامعة قد قدمت خدمة جليلة ، خاصة وأن الذي قام بهذه الدراسة يحمل ثقافة عربية إسلامية عميقة ، مكنته من إدراك ما يقوم به أنصار اللغة العامية من عمل خطير على لغة القرآن ، وقد سلك في الدفاع عن اللغة الفصحى طريقا علميا ، فهو يعتمد على ذكر حجج الذين يسعون لتقوية اللغة العامية والفكر العامي ، يورد هذه الحجج بنصوصها ، ثم يفندها تفنيدا محكما معتمدا في ذلك على الأدلة القاطعة ، فهم يقولون إن الشعر العامي الذي نظمه أصحابه قبل انتشار التعليم ، وقبل انتشار الوعي وتفتح الفكر ، هذا الشعر ، يتضمن تاريخ تلك الحقبة ، ففيه نجد صورة متكاملة لحياة الناس في تلك العهود . هذه حجة تكاد تكون أقوى حجج الدعاة إلى الفكر العامي واللغة العامية . والرد عليها سهل يسير وهو : أن حفظ الشعر القديم شيء مرغوب فيه لما فيه من مضامين اجتماعية وتاريخية ، لكن هذا شيء والدعوة إلى تقوية اللهجة العامية في الوقت الحاضر شيء آخر .

مسئولية الوفود العربية

والحق أنك حين تقرأ هذا الكتاب تجد فيه متعة كبيرة تنبع من إخلاصه لهذه القضية ، من ذلك ما ذكره عن «ذلك الوفد الذي ذهب إلى (زنجبار) لينفي ما أشاعه حاكم تلك الدولة العربية من أن اللغة العربية لم تعد مستعملة في غالبية الأقطار العربية في قلب الجزيرة العربية ، وحين وصل الوفد استقبله الحاكم استقبالا حسنا وبالغ في إكرامه ، حتى أنه هيأ لأعضاء الوفد طائرة خاصة يتنقلون عليها لزيارة أنحاء دولته العربية الإسلامية بالأمس ، والأفريقية العلمانية اليوم ، وضم إليهم عددا من رجال استخباراته يرصدون حركاتهم ، وكل ما يقومون به من أفعال ـ كما هو متبع في مثل هذه الأحوال ـ فما كادت ترتفع بهم الطائرة وهم متوجهون إلى الدولة العربية المسحوقة حتى رفعوا عقائرهم بأبيات من الشعر العامي ، فسجل المرافقون عليهم ذلك ، واتخذوا هذا الموقف حجة يُحتج بها على أن بعض العرب لا يتكلمون اللغة العربية » . وليس هذا بالأمر الغريب فإن كثيرا من وفودنا لا يكونون في مستوى المسئولية التي يذهبون لأجلها .

علماؤنا واللهجة العامية

وعلى كل حال فإن هذه الدراسة قد تناولت كل ما يتصل بهذه القضية ، حيث أخبرنا الكاتب أن أعظم من جمع الشعر العامي هو « المرحوم عبدالله السليمان » وزير المالية السعودي ، حيث كلف المرحوم خالد الفرج بجمع هذا اللون من الشعر ، وأن يستعين بالشيخ عبدالله بن بليهد ، والشيخ بن سليمان معروف بسخاء يده ، فكان له ما أراد . وقد أراد أن يشترك الشيخ حمد الجاسر ، لكن الشيخ حمد تنبه واعتذر إلى الوزير لأنه لم يرد أن ينتقص عمل خالد الفرج .

وحين انتهى خبر هذا العمل إلى المجمع العلمي بدمشق كلف الدكتور منير العجلاني بأن يقوم بتوضيح ما في ذلك من أضرار . كما أن

الشيخ عبدالله بن خميس جمع الشعر العامي وكتب له مقدمة ضافية ، جاء فيها ما يفيد أن اللهجة العامية ليست واحدة ، وإنما هي عدة لهجات ، وأن جمعها والعناية بها يفتت اللغة العربية .

ومضى المؤلف في استقصاء من ألّف في الدراسات العامية ، أو من جمعها ، مستهلا هذا الفصل بكلمة للقاضي الانجليزي « ويلمر » يبين فيها أثر الصحافة على الناس ويحثهم فيها على اصطناع اللهجة العامية ، وقد تأثر به كل من سلامة موسى ولويس عوض . والحق أن المؤلف قد ألم إلماما شاملا بمن ألّف أو جمع كتبا في الدراسات باللهجة العامية . ومن الغريب أن الذين يقولون بأن سائر الناس لا يتذوقون ما يقال لهم شعرا أو نثرا إلا باللهجة العامية ، ينسون أو يتناسون ، أن الناس يستمعون إلى ما يرسله التلفاز ، وما تذيعه الاذاعة ، وما تنشره الصحف باللهجة المبسطة فيفهمونه حق الفهم . مما يؤكد أن قوة الوعي والثقافة في تزايد مستمر ، فعلى المخلصين أن يعتمدوا على هذا فلا يهبطوا إلى اللهجة العامية معتمدين على الحجج التي قدمناها ، وإنما عليهم أن يرفعوا جماهيرنا إليهم ، فلا ينشروا إلاّ باللهجة الفصحى المبسطة .

ندوة في مركز التراث الشعبي

وفي تقديري أن أهم فصول هذه الدراسة ، ذلك الفصل الذي عقده المؤلف لمناقشة الندوة التي ألقيت في (مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية) ومقره في قطر . فقد ناقش المؤلف بكل جرأة وصراحة ما قيل في تلك الندوة التي أقيمت في الدوحة من ١١-١٤٠٥/٢/١٥هـ الموافق ٤-١٩٨٤/١١/٨ وحضرها عدد كبير من المهتمين بالتراث العامي وعلماء الموروث الشعبي « الفولكلور » ، وأساتذة الجامعات بصفتهم الشخصية من أقطار الخليج والأقطار العربية ، وجامعة جنيف بصفتها المشرفة على الندوة . وتأتي خطورة هذه الندوة من أن الدعوات السابقة لهذه الندوة كانت تصدر عن آراء فردية ، يعبر بها أفراد من عامة الناس بشكل مقالات أو محاضرات أو كتب تحمل آراءهم ، وتعلن أهواءهم ، ويتعاطف معها من يستحسنها ويرفضها من يرفضها .

ولم تحتضن تلك الدعوات مؤسسات فكرية أو علمية تجمع بين التنظيم والتمويل كما هو الحال في هذه الندوة المنظمة أقوى تنظيم . ويتلخص ما طرح في هذه الندوة في أن العامية هي منبع أصالة الأمة العربية ، وأن الجذور الثقافية للأمة العربية كامنة في التراث العامي . . !

ونحن مع المؤلف حين يقول انه لم يكن يصدق ما قرأه بعينه من الفقرات المتضمنة لهذه الفكرة ، فإن أقل الناس إدراكا يعرف حق المعرفة بأن هذا القول أبعد ما يكون عن الحقيقة ، وهل يغيب عن عقل أي فرد من الأفراد بأن القرآن الكريم والشعر الجاهلي والاسلامي عامة - أبعد ما يكون عن اللهجة العامية - ذلك أمر لا يكاد يحتاج إلى توضيح ، على أن المؤلف قد وقف حول هذه الفكرة وقفة مفصلة ، وفندها تفنيدا لا مزيد عليه ، حيث تناول جميع ما طرح من أفكار في تلك الندوة موضحا أضرارها وضعف حجج أصحابها ، مما يعني بأننا لا نستطيع أن نورد تلك الأفكار ومناقشة المؤلف لها لضيق المجال . □

الحرية :

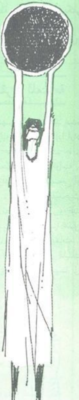
إن المدينة التي ألفت الحرية لا تذعن بسهولة إلا لأبنائها ومواطنيها.

« ميكيافيلي »



عزف على الرّباعيات

شعر الدكتور :
عيسى درويش



يا كبيرات الأماني كيف يرضيك زماني ؟
كلّما حققتُ حلماً فاضَ بالحلمِ كياني
يَقصُرُ العمرُ عَنِ الآ مالِ والعمرُ ثوانِ
فاستريحي جذوةَ الأحلامِ في بيتِ الأماني

* * *

عِزَّةُ النفسِ عَذابُ لا يساويها عذابُ
صَعِدَ الأدْنونَ للأعـ لى وأهْلُ الجودِ غابُوا
وَترى العالَمِ يَشقى ملءَ جَنْبَيْهِ اكتئابُ
فتحمَّلْ أيها الإنسانُ ما تَلْقى ففي الصَّبْرِ الثَّوابُ

* * *

ليس في الفاقةِ عيبٌ إنما العَيْبُ الكَسَلْ
نعمةُ الله تطوفُ الأ رْضَ سهلاً وجَبَلْ
فَخُذِ النعمةَ بالسَّعْـ ـيِ فما أحْلَى العَمَلْ
ينتهي الإنسانُ إذ عا شَ وقدْ ماتَ الأملْ

* * *

ذَهَبَ الفِكْرُ بعيداً في متاهاتِ الخَيالْ
فرأيتُ الله في الخلـ ـقِ وأشقاني السُّؤالْ
رَوْعَةُ الخلقِ بأنْ نَعْـ ـشَقَ في الكَوْنِ الجَمالْ
فلِمَا نَقْطَعُ هذا العُمْرَ في قيلٍ وَقالْ ؟

* * *

أبْحَرَتْ نفسي عميقاً في محيطِ الذكرياتِ
فَرأيْتُ العُمْرَ أياماً تَوالَتْ مسرعاتِ
وعميقُ الفكرِ يهديك لفهمِ الكائناتِ
يخرجُ الحَيَّ من المَيْتِ فما سرُّ الحياةِ ؟



□ في الصميم :

ـ أنا أكره المناقشات ، فهي مبتذلة ، وتجعلك أحياناً تبدل رأيك .

أوسكار وايلد

ـ لا تطرح عليَّ أسئلة . عندئذ لن أتلفظ بأي كذبة .

غولد شمث

ـ يمكن أن تكون الغلطة صحيحة ، إذ يكفي أن يخطيء من يرتكبها .

بيير داك

□ من القلب :

حدث في رحلة صيد

المعروف عن صيادي السمك بالسنارة ، أنهم قليلو الكلام والحركة ، وحدث أن اثنين منهم ذهبا في قارب إلى عرض البحر ، ورميا سنارتيهما ، وأمضيا أربع ساعات دون كلمة أو حركة . لكن ، في تلك اللحظة تحرك أحدهما ورفع قدمه .

فقال له رفيقه : اسمع يا هذا ، هذه المرة الثانية التي تحرك فيها قدمك خلال الأربع ساعات الماضية . فهل جئت هنا لتصطاد أم لترقص ؟

لطيف ولبق

كان مدير إحدى الشركات كثير اللطافة واللباقة مع موظفيه . وذات يوم اضطر إلى فصل أحد الموظفين ، فاستدعاه وقال له : لا أعلم يا بني كيف يمكن أن يستمر عمل الشركة بدون وجودك معنا ، ولكن الإدارة قررت أن تجرب ذلك ابتداء من أول الشهر القادم .

متعة وعمل

قال أحد أصحاب المؤسسات لأحد موظفيه : يا عزيزي ، إنني قلما أمزج المتعة بالعمل ولكنني اليوم سأقوم بذلك بصورة استثنائية . يا عزيزي ، أنت مطرود من العمل .

القرار للعمامة

اشتهر الإمام محمد عبده أيام توليه القضاء بأنه إذا أراد الحكم على متهم بالبراءة ، رفع عمامته إلى ظاهر رأسه ، وإذا أراد الحكم بالسجن أو خلافه ، عوج العمامة بحيث تغطي نصف جبهته . ووقف ذات يوم ليتلو حكماً على متهم ، فمد يده إلى عمامته . فصاح المتهم : أسوق عليك النبي أن لا تعوجها إلى الأمام .

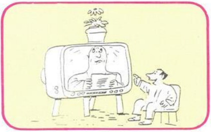


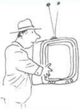
شكوى

وســروالاً شكــا عتقــاً وأمســى
يــراودني العتــاق فـما عتقـت
وكـم قــال لي : بــالله قِـلني
وهبني كنت عبـداً وانـطلقت
أما تـدري بـأني صبرت هـرِماً
وزاد عـليّ أني قــد فـتــقــت
فـدعني حيث قـلَّ النفـع مني
وعـاد من المحـال ولـو رتقت
ولا تـعبـأ بـتـقـليـبي لأني
بعمـر أبيـك نـوح قـد لحقت
ولم يـبـرح يجـدد كـل يـوم
عـلي النعي حتى قـد قـلقت
فقلت لـه عتقـت اليـوم مني
لأني في سـواك قـد اعـتـقـلت
فـأشعرت العمـامة في مقـالي
لـه فـاستحسَنت ما قـد نـطقت

□ قاموس الظرفاء :

الحرية : هي الحق في اختيار الذين سيُلقى على عاتقهم واجب الحد منها .
المحادثة : هي فن قول لا شيء بالتكلم كثيراً .
الخـطأ : الاسم الآخر للصـراحة في المجتمعـات المتحضرة .





أعرف ذلك

قال الممثل الانجليزي نيك أوليفر لصديقه : حين أعلنت الصحف أنني سـأظهـر في التلفاز ، بيع في اليوم التالي ١٦٠٠٠ جهـاز تلفـازي . فـأجابـه الصديق : أعـرف ذلك . فكل أصدقائي بـاعوا أجهزتهم .

□□□

□ ضحكات عربية :

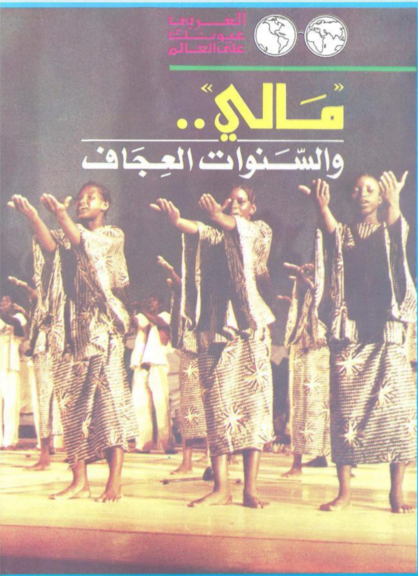
كيف ؟

قيـل لرجـل : عندك مـال وليس لك وارث إلا أمك فإن مُت ورثتْ المال وأتلفته فقال : إنها لا ترثني . قالوا له : كيف لا تـرثك وهي أمـك ؟ قال : لأن أبي طلقها قبل أنْ يموت .

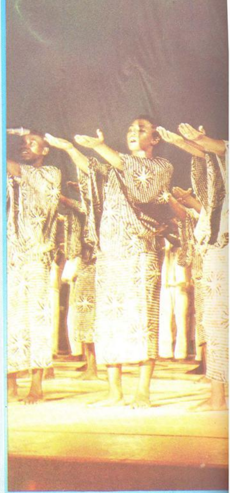
بشار والجنازة

مر ببشار بن برد قوم يسيرون مسرعين في جنازة ، فقال : ما لهـم مسـرعـون ، أتـراهـم سرقوه ؟

العربي - العدد ٣٧٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٨٩م



استطلاع : صـــادق يلي
تصويـر : فهـــد الكوح



« مـالي » . . كـمعـظم الـدول الافـريقية تضم تكـوينات بشـرية ، قبـائل كثيـرة مختلفة في التكـوين والأصـول ، ولكن يجمعها الانتمـاء لـوطن واحـد ، ودين واحـد هـو الإسلام . تعرضت لمحن كثيرة بعضها دخل ذاكرة التاريخ ، وبعضهـا الآخر مـازال متفاعـلا مع الحـاضر ، كالتأثيرات الفرنسية في اللغة والثقافة والسلوك . ولكن أخطر ما تعرضت له في تاريخها المعاصر هو الجفاف الـذي ضرب الزرع والضرع مدة اثني عشر عاما متواصلة ، وترك بصماته على كل مجالات الحياة ، ولكنها لا تستسلم ، إنما تنهض لتزيل آثاره ، وتهيىء حياة أفضل لأبنائها .

واجهنا عند بداية زيارتنا « مـالي » الإحساس الحاد بمشكلة الجفاف الذي فـرش ظله الكئيب على مختلف الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية فيها .

فقد شاهدنا وسمعنا آثار هذه المشكلة البيئية الحادة التي تعيشها منذ بداية السبعينات حتى الآن ، وتشاركها في معاناة آثارها ونتائجها دول افريقية عديدة ، مثل النيجر وتشاد وأثيوبيا والصومال والسنغال وزائير وغيرها . وإن اختلفت حدتها من دولة لأخرى تبعا لتوافر عناصر اقتصادية أخرى ، يمكن أن تغطي منها ـ أو تعوض بنائجها ـ بعض ما سببته هذه المشكلة من خسائر اقتصادية ضخمة .

ولكن المشكلة في « مالي » كانت حادة وقاسية .

بدأ الجفاف سنة ١٩٧٠م ، لكن الإحساس به من قبل الفلاحين الماليين لم يصل الى حد الخطورة إلا بعد عامين من بدايته ، أي عام ١٩٧٢م ، لتوافر مخزون من المياه في القنوات والترع من بقايا سنوات الوفرة السابقة . ولقد ترك الجفاف الذي امتد اثني عشر عاما متوالية آثارا سلبية حادة على اقتصاد هذه الدولة الذي يرتكز على الزراعة والثروة الحيوانية .

يقول الأستاذ « سعيد سيدي بيه » ، المدير المسؤول عن الثروة الحيوانية في وزارة الثروة الحيوانية والمراعي في العاصمة « باماكو » : إن الجفاف سبب لنا خسائر كبيرة في ثروتنا الحيوانية ، فقد نفق ما يقرب من نصف عددها ، واضطررنا الى بيع جانب كبير منها وتصديره الى البلاد المجاورة بأرخص الأسعار ، خوف موتها ، كما قمنا بذبح جانب آخر منها ، بهدف تجفيف لحومها ، فالماليون اعتادوا أكل اللحوم المجففة ، إنه القديد الذي جاء ذكره في كتب تراثنا الإسلامي الخالد ، ومع أن الجفاف قد انحسر ولله الحمد منذ عام ١٩٨٥م إلا أننا نحتاج الى سنوات عديدة لتعويض ما فقدناه خلال سنواته القاسية ، لذلك فإننا نبذل قصارى جهدنا لبناء السدود وحفر الآبار الارتوازية ، وعمل كل الاحتياطات اللازمة ، حتى لا تتكرر مأساة الجفاف التي ذقنا منها الأمرّين .

مدخل إلى « مالي »

تعد جمهورية « مالي » من أكبر دول غرب افريقيا الناطقة باللغة الفرنسية اتساعا ، إذ تبلغ مساحتها ٤٦٤,٧٢٥ ألف ميل مربع . وهي من الأقطار القليلة في العالم التي ليس لها منفذ بحري . ولها حدود مشتركة مع سبع دول أفريقية ، اثنتان منها عربيتان ، هما الجزائر وموريتانيا ، أما الدول الخمس الباقية فهي

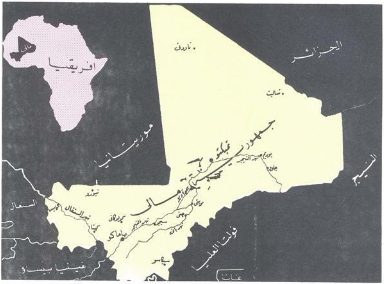


● المبنى الخاص بالمتحف الوطني للتاريخ في مدينة باماكو .

ساحل العاج وبركينوفاسو والسنغال وغينيا والنيجر . ويقدر عدد سكانها بنحو ثمانية ملايين ونصف مليون نسمة ، أما عاصمتها فهي مدينة « باماكو » التي تقع على نهر النيجر ، في الطرف الجنوبي الغربي للبلاد . ويدين أكثرية سكانها بالإسلام .

سنوات عجاف

يقول الأستاذ « باجورونومازانا » المدير العام المساعد في وزارة الزراعة في « مالي » عن تأثير الجفاف على الزراعة : لا يخفى ذلك الأثر السيىء الذى تركه الجفاف على مواردنا الزراعية ، فقد وصل النقص في الحبوب والذرة والفول السوداني الى ما يقرب من الثلثين من احتياجاتنا الغذائية ، ولولا المساعدة التي تلقيناها من بعض الدول الصديقة لحدثت مأساة كبيرة . لقد اضطر



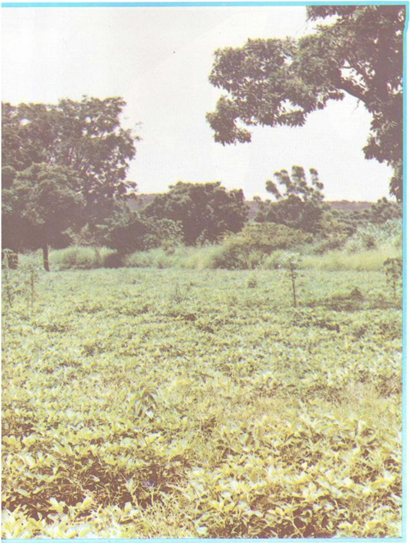
● خارطة مالي توضح أهم المدن والبلدان المحيطة بها .

الفلاح المالي أن يبيع بقرته ومحراثه وكل شيء يمكن أن يستغني عنه ، ليحصل على حفنة من ذرة أو صاع من دقيق . لقد باع كل شيء ، ولم يبق له شيء ، ولكن الله رحيم بعباده ، فقد هطلت

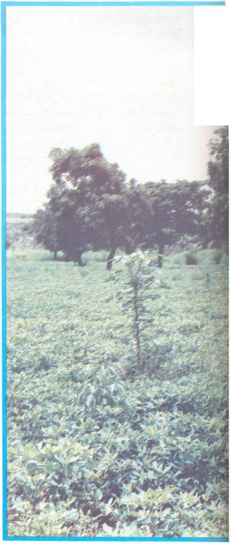
كميات لا بأس بها من الأمطار في السنتين الأخيرتين ، ونأمل أن تتوالى هذه الأمطار بالنزول ، كي تعوض سنوات الجفاف الطويلة التي مرت بنا ، والتي كانت أقسى ما مر « بمالي » خلال هذا القرن ، فقد أخبرنا الأهل والآباء أنهم لم يشهدوا مثلها إلا في عام ١٩١٣م ، حيث حل بهم جفاف ، ولكنه لم يستمر إلا بضع سنوات ،

وكانت آثاره أخف بالتأكيد من آثار الجفاف الذي أتى على كل شيء ، فالفلاح المالي لا يملك ما يشتري به البذور أو السماد ، إنه في محنة حقيقية ، ومع ذلك فالماليون مصممون على العمل وبذل الجهد ومواصلة الكفاح في سبيل تحقيق الاكتفاء الذاتي في مجال الغذاء ، حتى يحصل شعبنا على ما يحتاج إليه .

أما الأستاذ « محمدو جيرو » مدير إدارة التخطيط القومي في وزارة التخطيط في « مالي » فيتناول مشكلة الجفاف من زاوية أخرى قائلا : لاشك أن مشكلة الجفاف التي نعاني من آثارها من أكبر المشاكل التي واجهتها بلادنا في هذا القرن ، لقد أفسدت الخطط الخمسية التي كنا قد وضعناها لمشاريعنا التنموية بمجالاتها المختلفة ، بل إن الجفاف خلق لنا مشاكل أخرى ، منها مشكلة التصحر ، وهي من أخطر المشاكل التي تعاني منها مجموعة كبيرة من الأقطار الافريقية ، إن للتصحر كما تعلمون أخطارا كثيرة ، منها تهديد المناطق الزراعية عن طريق طمر المزروعات ، وانخفاض إنتاجية الأرض ، وانكماش الأراضي المنتجة زراعيا ، ويضيف الأستاذ محمد وجيرو قائلا : إن المشكلة الرئيسية



● تعد الأراضي الزراعية في دلتا نهر النيجر من أخصب المناطق الزراعية في مالي ، حيث تجود زراعة القطن والذرة والفول السوداني .



عندنا هي اعتماد الفلاح المالي على مياه الأمطار في ري مزروعاته ، فهو لا يعرف طريقة الري بالآلة ، حتى لو كانت بسيطة تدار باليد ، أو بواسطة الحيوان ، ففلاحنا لا يعرف هذا الأسلوب في الري ، علما بأن مياه نهر النيجر التي تمر في أراضينا مسافات تبلغ نحو ١٨٠٠ كيلو متر ، لم يستفد منها الفلاح قط ، لذلك يجب أن يتعلم فلاحنا طريقة ري الزراعة بتقنياتها الحديثة ، سواء الري بالتنقيط أو الري المحوري ، حتى نستطيع مواجهة بعض المصاعب التي قد تواجهنا في المستقبل .

الأولوية للزراعة

لقد أعطت « مالي » منذ استقلالها للزراعة أولوية وأهمية خاصة ، في محاولة منها لتلبية احتياجات السكان الغذائية أولا ، وتحقيق فائض غذائي يمكن تصديره الى الخارج ، حتى تزيد عائداتها من العملة الصعبة التي تمكنها من تغطية بعض مستورداتها من الخارج .

ولقد دفعها لهذا الاهتمام توافر امكانات الزراعة ، فنهر النيجر يخترق مسافات طويلة من البلاد ، والأراضي الصالحة للزراعة تبلغ نحو مليوني هكتار في جنوب البلاد .

وتعد « مالي » دولة زراعية ، حيث يشتغل أكثر من ٩٠٪ من سكانها بالزراعة ، ويشكل الدخل العائد من الزراعة ما بين ٦٤٪ - ٧٠٪ من ميزانية الدولة .

وعلى الرغم من وجود مصادر المياه النهرية التي يمكن استغلالها في الزراعة ، بعد تنظيم استغلالها - نهري النيجر وباني - فإن الزراعة فيها ماتزال تعتمد على الأمطار ، مما يعرضها لخطر الكوارث البيئية الناتجة عن الجفاف والتصحر ، كما حدث في السنوات الاثنتي عشرة المنصرمة .

لذلك يبدي المسئولون الماليون اهتماما كبيرا ببناء السدود ، إلا أن عجز مواردهم التمويلية لا يمكنهم من تحقيق طموحاتهم في هذا المجال

الحيوي الذي يحتاج الى تمويل مالي ضخم .

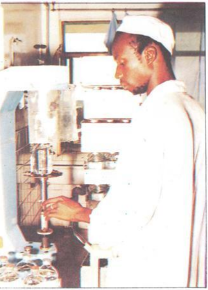
ولقد ساهمت بعض الصناديق العربية ، بالاشتراك مع مؤسسات دولية ، منذ سنوات ، في بناء سد « سلنجي » على نهر « سانكاراني » أحد روافد نهر النيجر ، منها الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية الذي قدم قرضا لجمهورية « مالي » ، قيمته خمسة ملايين دينار كويتي . ويهدف مشروع سد « سلنجي » الى توليد الطاقة الكهربائية بضغط حركة مياه النهر ، وتوفير المياه للزراعة ، ثم زيادة كفاءة النقل النهري عن طريق رفع منسوب المياه بمجري النهر ، كما يهدف الى استغلال الثروة السمكية التي ستوجد خلف خزان السد .

تنتج « مالي » سنويا حوالي ١٥٠ ـ ١٨٠ ألف طن من الفول السوداني ، من مساحة تبلغ نحو ١٥٠ ألف هكتار . والانتاج يستهلك محليا ، حيث يستخدم قسم منه غذاء يأكله الأهالي بعد تحميصه ، وقسم آخر يحول الى زيوت . وقد كانت « مالي » تصدر كميات كبيرة من الفول السوداني الى البلاد المجاورة ، لكنها لم تعد تفي بهذه الكميات بسبب انخفاض الإنتاج وعدم توافر فائض للتصدير ، كأثر من آثار الجفاف .

كما تجود زراعة القطن في « مالي » وبخاصة في المنطقة الجنوبية حيث خصص نحو ٥٠ ألف هكتار لزراعة القطن ، ولقد أقيم في مقاطعة « سيجو » الجنوبية مصنع للنسيج بالتعاون مع جمهورية الصين الشعبية ، ينتج جزءا من احتياجات البلاد من الأقمشة الشعبية ، مستخدما القطن المنتج في هذه المقاطعة ، أما مقاطعة « سيكاسو » فتشتهر بإنتاج الفواكه ، مثل المانجو والموز والليمون بالإضافة الى جميع أنواع الخضراوات . وسألنا الأستاذ « باجورو نومازانا » ، المدير العام للزراعة في « مالي » عن البرامج المستقبلية التي وضعتها وزارة الزراعة ، للنهوض بالزراعة والفلاح فأجابنا قائلا : « إن هدفنا الرئيسي من وضع برامج التنمية الزراعية هو ضمان توفير الغذاء للجميع ، ولا يمكننا تحقيق هذا الهدف مالم نعط لبرامج التنمية الزراعية الأولوية المطلقة ، ولهذا وجهنا جهودنا واهتمامنا منذ حصولنا على الاستقلال للفلاح المالي ، لأنه الركيزة الأولى لأي تنمية واصلاح نريد أن ننهض به ، ففتحنا المراكز الإرشادية الزراعية في كل قرية من قرانا لتوعيته بالفائدة التي تعود عليه باستخدام الأجهزة الزراعية الحديثة ، وأسلوب استخدامها ، وطريقة مكافحة الآفات الزراعية ، وكيفية استثمار الموارد المائية المتوافرة .

الميكنة الزراعية

وفي جولتنا الميدانية بمنطقة حوض نهر النيجر التقينا بالمهندس الزراعي حسني رياض ، وهو



● مصنع الأدوية في باماكو أنشيء بمساعدة من جمهورية الصين الشعبية .



● تقاسم المرأة الرجل في تحمل تبعات الحياة .

أحد الخبراء المصريين العاملين في « مالي » ، وكان برفقته مجموعة من الشباب الماليين عرفنا أنهم من المتخرجين في المعهد المتوسط - الزراعي بمدينة « سيجو » ، فسألناه أن يحدثنا عن مشاكل الزراعة وآفاقها في « مالي » ، فقال :

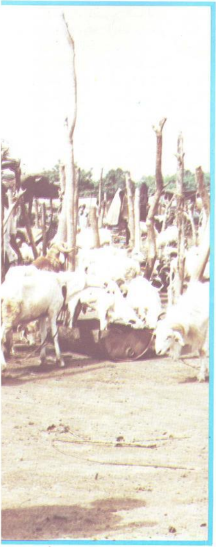
أنتم الآن في أخصب منطقة زراعية في « مالي » ، وهي منطقة دلتا نهر النيجر المشهورة بوفرة مياهها وخصب أراضيها ، حيث تجود زراعة الأرز والقطن ، والحقيقة أنه يمكن الاستفادة من هذه الأراضي الزراعية الخصبة على نطاق أوسع ، لو استخدمت الميكنة الزراعية ،

وأعني بالميكنة الزراعية الاستخدام الأمثل للمعدات الزراعية في الحرث أو الحصاد أو مقاومة الآفات الزراعية . فلو استطعنا أن نستخدم الميكنة الزراعية في الأراضي الشاسعة الموجودة في « مالي » ، وأقمنا شبكات ري بسيطة ، غير معقدة ، تخدم الأغراض الزراعية فستكون - بدون مبالغة - سلة غذاء بالنسبة لدول غرب افريقيا على الأقل . فالزراعة كما هو معروف أرض ومياه وظروف مناخية وتقنية ، سواء أكانت بشرية أو آلية ، والأرض موجودة وخصبة ،

والمياه متوافرة ، ويمكن عمل مشاريع خزانات للاستفادة منها في سنوات الجفاف . وبتخطيط دقيق لشبكات الري يمكن زراعة مساحات أكبر مما يزرع حاليا ، باستخدام كميات المياه المتوافرة

حاليا ، وكذلك بالمياه الجوفية التي لا تستخدم أبدا ، على الرغم من أنها ليست على عمق كبير ،

ويمكن استخدام الطرق الحديثة في الري ، مثل الري المحوري أو التنقيط ، ولا أتصور أن يكون ضعف التمويل - أي تدبير الأموال - هو السبب الرئيسي في عدم استغلال هذه الامكانات الطبيعية بالأسلوب الذي عرضته ، لأن الأموال يمكن الحصول عليها في شكل قروض من



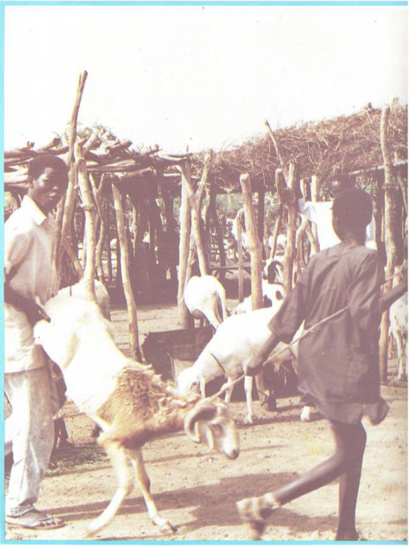
الصناديق العربية والمصارف والمؤسسات المالية الأجنبية والدولية وجميعها على استعداد للاقراض إذا ما تيقنت من جدية الاستثمار .

ثروة حيوانية

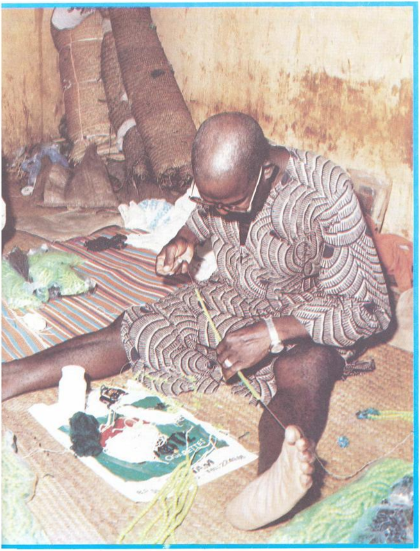
وإذا كانت الزراعة تحتل المرتبة الأولى بالنسبة للدخل القومي لجمهورية « مالي » ، فإن الثروة الحيوانية تأتي في المرتبة الثانية ، حيث تبلغ نسبة مساهمتها في الدخل القومي حوالي ١٧٪ .

وهناك ظاهـرتان ملفتتـان للنظر ، الأولى أن المزارعين الماليين هم الذين يقومون بتربية الماشية والأغنام في حظائر بالقـرب من مزارعهم ، ولا توجد بالتالي حرفة منفصلة للرعي كما في أقطار افريقية وعالمية أخرى ، كالصومال مثلا التي يمثل الرعاة فيها القطاع الرئيس للعمالة . أما الظاهرة الثانية فهي أن وزارة الداخلية في « مـالي » هي التي تجمع الاحصاءات والمعلومات الخاصة عن الثروة الحيوانية وتنظمها وتنشرها ، بالاشتراك مع الأطباء البيطريين ، لأن وزارة الداخلية هي التي تجمع الضرائب المقررة على الثـروة الحيوانيـة ، والأطباء البيطريون هم الذين يقومون بعـلاجها والعناية بها ، وتتوافر عندهم بـالتالي معلومـات واحصاءات عنها ، وإن لم تكن دقيقة تماما .

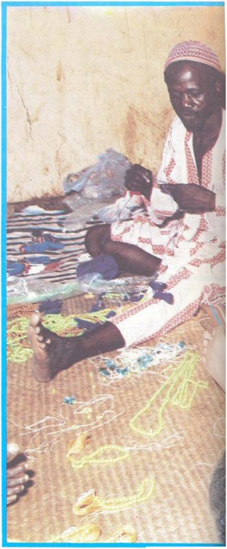
ويطلعنا الأستاذ « سعيد سيدي بيه » المـدير العام للانتاج الحيواني في وزارة الثروة الحيوانيـة والمـراعي في « بامـاكو » ، عـلى آخر احصـائية أصدرتها وزارة الـداخلية عن الثـروة الحيوانية واعـدادها في البـلاد لعام ١٩٨٧م ، وفيهـا أن الأبقار تقدر بأربعة ملايين وخمسمائة ألف بقرة ، والأغنام التي تشمل الخرفان والماعز يبلغ عددها نحو عشرة ملايين ، أمـا الجمال فعـددها نحـو ثلاثمائة ألف جمل ويقول الأستاذ « سعيد سيدي بيه » : إن هذه الأرقام لا تساوى نصف ما كانت عليه ثروتنا الحيوانية قبل أن يضربنا الجفاف ، إننا نحتاج الى سنوات طويلة حتى نحقق المستويات القديمة في الأعداد والنوعية .



● الثروة الحيوانية إحدى الركائز الاقتصادية المهمة لمالي ، إلا أن الجفاف قد أضر كثيرا بهذه الثروة .



● صناعة المسابيح وإعدادها ، إحدى الحرف الرائجة في أسواق مالي ، وبالقرب من المساجد المنتشرة في الأحياء السكنية .



وتصّدر « مالي » جانبا من ثروتها الحيوانية الى جيرانها ، وتعد ساحل العاج من أكبر المستوردين ، تليها موريتانيا ثم الجزائر ، وتقدر أعداد الماشية التي تصدرها « مالي » بنحو مليون رأس من البقر والخرفان هذا غير الأعداد التي تتسرب عن طريق الحدود الى البلدان المجاورة ، ولا يشملها الحصر السابق .

تجربة رائدة

إن المسئولين في « مالي » يسعون بكل ما يملكون من جهد وإمكانية الى تطوير الثروة الحيوانية وتنميتها ، للاستفادة من عائداتها ، سواء بالاستهلاك المحلي أو بالتصدير ، ولذلك استجابوا للمهندس الزراعي حسني رياض في محاولته إدخال علف البرسيم كغذاء للماشية في « مالي » ، ووفروا له كل الامكانات المطلوبة ، حتى يصل للنتائج المرجوة ، من تجربته الرائدة التي يحدثنا عنها صاحبها قائلا : لقد اعتادت الماشية في « مالي » من أبقار وأغنام أن تتغذى على الأعشاب التي تنمو طبيعيا في البلاد ، وأكثر هذه الأعشاب الطبيعية لا تحمل قيمة غذائية عالية ، وعلى الرغم من وجود أعداد كبيرة من الحيوانات فإنها نحيفة هزيلة ، لاتدر عائدا كبيرا من اللحوم أو الألبان ، ففكرت في إدخال محصول علفي كغذاء لهذه الحيوانات ، واخترت البرسيم لما له من مميزات كثيرة ، أولها أنه لا يحتاج الى عناية كبيرة في الزراعة ، ولا يحتاج الى كلفة عالية ، كما أن له قيمة غذائية عالية جدا ، وليس معنى هذا أنني سوف أضيف جديدا ، ولكن فكرة المشروع تنحصر في إقناع المزارعين ومربي الأغنام أن يتجهوا الى هذا النوع من المزروعات ، وقدمت فكرة المشروع الى الأمين العام للصندوق المصري للتعاون الفني لافريقيا ، فوافق عليها ، كما وافقت الحكومة المالية ، وانتهى الرأي بعد تقديم دراسة بيئية أن نزرع مساحة من الأرض ، تبلغ هكتارا واحدا في منطقة « سمنكور » التي تبعد

حوالي ٢٠ كيلومترا عن باماكو ، وفيها مركز للتدريب على الآلات الزراعية ، وأجهزة للري ، وعلى الرغم من أن الأرض التي تم اختيارها في هذه المنطقة ليست من المناطق الجيدة للزراعة فإنني وافقت عليها لأثبت لهم أن البرسيم يستطيع أن ينمو في أنواع مختلفة من التربة ، وقد نجحت التجربة التي كان هدفنا منها إقناع المزارع المالي الذي يربي الأغنام والأبقار بفائدة هذا العلف الأخضر في تغذية ماشيته ، وعند حسابنا للكلفة ، وجدنا أن الكيلو الواحد من البرسيم لا يكلف إلا نحو عشرة فرنكات افريقية ، وهي ما تسمى السيفا الافريقية ـ وكل ٢٧٠ سيفا افريقيا تساوي دولارا أمريكيا واحدا ، وهو مبلغ زهيد ، ومن المعروف أن البرسيم يحتوي على نسبة عالية من البروتين النباتي ، تصل الى نحو ٢٥٪ . ومن المؤمل أن تعمم هذه التجربة على مستوى واسع في السنوات القليلة القادمة . وزراعة البرسيم لا تحتاج الى أجهزة زراعية معقدة أو كبيرة ، كما أن كلفته المالية محدودة ، والأهم من كل ذلك أن عائده يغري بنشره على أوسع رقعة ، حتى يمكن تنمية الثروة الحيوانية بأقل تكلفة .

لغات وقبائل

إذا كانت مشكلة الجفاف قد تركت آثارا سلبية حادة على اقتصاد « مالي » المعتمد على الزراعة والثروة الحيوانية ، فإن الانسان فيها الذي كانت معاناته من آثار هذا الجفاف مباشرة وقاسية ، حاول مواجهة المصاعب بإرادة الحياة الراسخة فيه منذ بدأت تتكون على أرضه حياة إنسانية .

الإنسان في هذه البلاد تأتي جذوره من خليط من القبائل والأجناس التي تفاعلت معا ، وتداخلت علاقاتها ، وتشابكت مصالحها ، فكونت القبائل التي تشكل عصب الحياة الاجتماعية في هذه الدولة ، وإن غلب عليها أصول ثلاثة كبيرة ، واضحة المعالم ، في قلب هذه التشكيلة البشرية وهذه الأصول الثلاثة : الزنجية والبربرية والعربية ، يتوزع عليها السكان الذين يبلغون ـ تبعا لآخر احصاء ـ نحو ثمانية ملايين نسمة . ونستطيع القول بأن الأصول الزنجية هم غالبية في المنطقة الجنوبية من البلاد ، وحرفتهم الأولى الزراعة وتربية الأغنام ، أما الأصول البربرية والعربية فيتركزون في المناطق الوسطى والشمالية المتاخمة للحدود الجزائرية والموريتانية ، وأغلبهم يزاول تربية المواشي والاتجار بها .

وعن القبائل المشهورة في « مالي » وعلاقاتها فيما بينها ، يحدثنا الحاج « أحمدوكيتا » المعلم بالتعليم الثانوي في « باماكو » ، فيقول : أريد أن أؤكد لكم منذ البداية أن مجتمعنا يتكون من قبائل عديدة ، إلا أنه لا يوجد عندنا تعصب قبلي ، كما هو موجود في بعض البلدان الافريقية التي تمزقها القبلية ، وهذا بفضل الإسلام الذي تدين به غالبية السكان (٩٥٪ مسلمون) والذي لا يفرق بين جنس وجنس . ألم يقل نبينا « محمد صلى الله عليه وسلم » : « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ويضيف الحاج « أحمدوكيتا » : أما أشهر القبائل في « مالي » فهي « البمبارا » ويعيش أفرادها في وسط البلاد وغربها وجنوبها ، ويعملون بالزراعة وتربية الأغنام ، ثم « الفولانيون » وهم متفرقون في أنحاء البلاد ، وعملهم كذلك الزراعة وتربية الأغنام ، أما « الصنفاي » فيتركزون في الشمال والشرق ، وفي الشمال معهم الطوارق ، وهاتان القبيلتان تتميزان عن القبائل السابقة بالاشتغال بالتجارة والزراعة .

وفي غرب البلاد « المركا » ، وعملهم التجارة ، وفي المناطق الوسطى والشرقية « البوز » الذي يمتهنون حرفة صيد الأسماك من نهر النيجر وتجفيفها ، وفي المنطقة الجنوبية



● جانب من إحدى المصالح الحكومية في مدينة باماكو التي بنيت منذ أيام الاستعمار الفرنسي لمالي .

« بوبو » وأغلبهم وثنيون . أما العرب فيتركزون في شمال البلاد ، ويعملون بالتجارة وتربية الأغنام ، وفي غرب البلاد « المانينكا » ويعملون في الزراعة .

وجميع القبائل تدين بالإسلام ، ماعدا قبيلة « بوزو » و « المانينكا » اللتان تضمان اقليات وثنية ، وقبيلة « بوبو » ذات الأغلبية الوثنية .

ويضيف « أحمدو كيتا » أيضا : هناك سبع قبائل ترجع أصولها الى الأصول الزنجية ، وهي قبائل « البمبارا » و « السراكولي » و « بوزو » و « المانينكا » وهؤلاء ينحدرون من فروع قبيلة « الماندنجو الزنجية » ، أما قبائل « الصنفاي » و « الروجون » و « بوبو » فهم من أصول زنجية أخرى . أما العرب فهم من أصول عربية بطبيعة الحال ، ولكن قبيلة الفولانيين « يختلط فيها العنصر السوداني بالعربي ، ثم الطوارق وهم من أصول بربرية كما هو معروف .

وقبيلة « البمبارا » أكبر قبائل « مالي » ، وهم يمثلون أكثر من ٤١٪ من مجموع السكان ، فلا عجب إن انتشرت لغتهم « البمبارية » في أجزاء كبيرة من « مالي » ، إذ يتحدث بها نحو ٦٠٪ من السكان ، وهي اللغة السائدة في شوارع « باماكو » ، وهي لغة العمال والتجار ، أما اللغة الفرنسية فهي اللغة الرسمية للبلاد ، ويتم التعامل بها في وزارات الدولة وأجهزتها ، وهي لغة التخاطب في الشارع المالي ، خاصة المدن ، وتأخذ هذه اللغة أولوية التعليم في المدارس والمعاهد وذلك انعكاساً للتأثير الثقافي الفرنسي على البلاد الذي بدأ مع احتلال فرنسا « مالي » و الذي لم ينته ـ في هذا الجانب على الأقل ـ على

الرغم من استقلال هذه البلاد عن فرنسا منذ ١٩٦١م .

وهناك عدد من اللغات المحلية يتم التعامل بها في حدود قبائلها كاللغة « الفولانية » ، والسونكي ، وسوارابي ، وتماشيقو ، البوجو ، والسنفو .

يقول الأستاذ « حبيب الله سيلا » الذي قام مشكورا بجميع أعمال الترجمة من الفرنسية الى العربية لنا ، خلال وجودنا في « مالي » ، عن هذه اللغات : « إنها لغات وطنية أو محلية ، بدأ الناس هنا في كتابتها باللاتينية ، ووضع القواعد النحوية والصرفية لها ، فاللغة « البمبارية » مثلا تكتب وتدرس في مدارس « مالي » الآن ، وهناك نحو إحدى عشرة لغة في بلادنا وضعنا لها حروفا ، وكتبناها ، وقمنا بتأليف كتب لها ، فنحن نستخدم قواعد علوم اللغة ، ونطبقها على هذه اللغات . وأزيدكم بأننا ومن فرط حبنا للإسلام والعرب فإن بعض الشعراء في هذه القبائل يؤلفون الأشعار بلغتهم المحلية ، إلا أنهم يكتبونها بالحروف العربية ، فقد نظم والدي رحمه الله قصيدة بلغتنا المحلية « السولنكا » وكتبها بالحروف العربية ، كما أن في القبائل « الفولانية » كثيرا من الشعراء الذين يتقنون العربية ، وينظمون بها شعرا خاصة في المدائح النبوية . ولقد حاولت منظمة الدول الإسلامية التي تتخذ من المغرب مقرا لها ، مساعدتنا في كتابة لغاتنا المحلية بالحروف العربية ولكنها محاولة مازالت في طور البداية .

الاسلام يسود

تؤكد الدراسات التاريخية أن الفضل في انتشار الإسلام في بلدان غرب افريقيا ، و « مالي » على وجه الخصوص ، يعود الى حركة المرابطين ، والى الدور المميز للتجار والدعاة الوافدين من وادي النيل ومن المغرب .

كما أن دور المرابطين لم يقتصر على نشر الإسلام وتوسيع رقعته خلال القرن الحادي عشر الميلادي ، ولكنه شمل أيضا تخليص العقيدة الإسلامية من بعض الشوائب التي علقت بها بفعل التأثيرات المحلية ، ولبعد هذه المجتمعات عن قلب العالم الإسلامي الذي كانت المذاهب الفقهية قد تعددت فيه ، واتسعت علومها ، وتنوعت اجتهاداتها .

ومن الملامح المميزة ، المساعدة على انتشار الإسلام في هذه البلاد اعتناق رؤساء القبائل والملوك المحليين أي الفئات الحاكمة وصاحبة السلطة التي لم تجد في الإسلام مناهضا لسلطاتها ، إلا في ما تعارض مع مبادئه الأساسية ، ولذلك اقتنعت به ، وكان سهلا بالتالي انتشاره بين العامة بعد ذلك .

كما أكدت الدراسات التاريخية أن المرابطين الذين بدأوا باجتذاب زعماء قبائل « التكرور » و « الماندنجو » الزنجية الى الإسلام قد أرسلوا العلماء إليهم لتثقيفهم وتعليمهم مباديء الإسلام وفروضه ، وهم الذين نشطوا العلاقات التجارية والثقافية بين وسط القارة الافريقية وغربها ، وبين العالم الاسلامي ، لاسيما شمال افريقيا ، والدول الإسلامية التي كانت قائمة آنذاك في اسبانيا ، مما أتاح لهذه البلدان الافريقية التأثر ، ومن ثم الاستفادة من المدنية الإسلامية المزدهرة في ذلك الحين .

وأسس المرابطون مدينة « تمبكتو » ذات الشهرة التاريخية ، التي كانت تعد واحدة من أكبر المراكز الثقافية الاسلامية في افريقيا وأكثرها ازدهارا ، وأعلاها شأنا .

وقد بدأ دخول الإسلام في « مالي » باعتناق زعماء امبراطورية « مالي » له . ولقد كانت هذه الامبراطورية في عصر ازدهارها تضم جمهورية « مالي » في الوسط ، و « موريتانيا » الجنوبية في الشمال ، « السنغال » و « غينيا » في الغرب ، والأجزاء الشمالية من «ساحل العاج »، ثم جزءاً من دولة « فولتا العليا » (بركينوفاسو حاليا) في



● يمثل المسلمون في مالي نحو ٩٠٪ من السكان . وهنا حشد كبير افترش الأرض استعدادا لأداء صلاة الجمعة .

الجنوب ، وجمهورية النيجر في الشرق .

وقد بلغت هذه الامبراطورية ذروة مجدها خلال القرن الرابع عشر ، ثم تلاشى نفوذها ، واختفى دورها المؤثر في المسرح الافريقي في أواخر القرن السادس عشر .

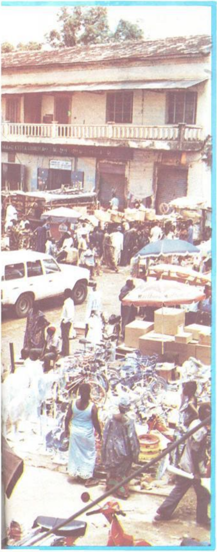
لقد كانت قبيلة « الماندنجو » الزنجية من أكثر قبائل غربي افريقيا تمسكا بالإسلام ، وتحمسا له ، ولقد حرص ملوكهم على بناء المساجد ونشرها في جميع أرجاء « مالي » ، كما سعوا في الدعوة للاسلام بين الوثنيين في محاولتهم نشر الإسلام ، وتوسيع دائرة المعتنقين له ، ولقد اقترنت جميع فتوحاتهم الحربية بالدعوة للإسلام ، بحيث كسب الإسلام بهم نصيرا قويا .

الطريقة القادرية

يقول الحاج « مودي سيلا » نائب جمعية مالي للوحدة والتقدم الإسلامي : إن تاريخ هذه الطرق ـ للأسف ـ حافل بذكريات مُرّة ، فقد حدثت صراعات طويلة بين فرق القادرية والتيجانية طوال القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، وقد ظل الفريقان يتبادلان التهم ، الى درجة التشكيك في سلامة الاعتقاد ، بل لقد شهد القرن التاسع عشر مواجهات دامية بين هاتين الطريقتين ، تخللها قتل وهدم لمدن وقرى ومدارس كانت مخصصة لحفظ القرآن ويضيف الحاج مودي سيلا :

لقد طويت هذه الصفحة المؤلمة ، وصارت قصصا وتاريخا مضى ، والطريقتان القادرية والتيجانية وإن بقيتا موجودتين ولهما مريدوهما في « مالي » إلا أن تأثيرهما وفاعليتها ليست على المستوى القديم نفسه .

وهناك تيار ديني قوى ومتنام في « مالي » ، له مؤيدون في أنحاء متفرقة من البلاد ، يناهض الطرق الصوفية ، ويكيل لها مختلف الاتهامات ،



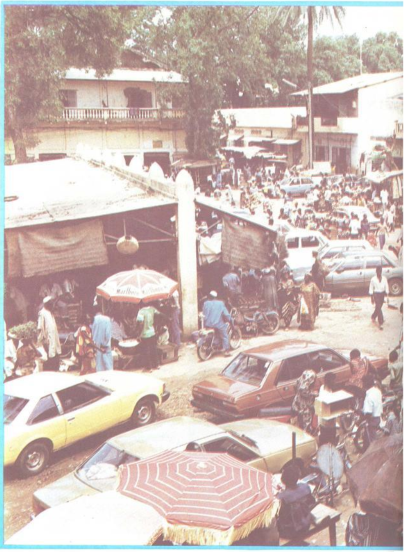
وأصحاب هذا التيار يسمون أهل السنة أو السلفيين ، ولهم دعاتهم ونشاطهم الديني الواسع في بعض المساجد والأندية الاجتماعية في البلاد .

وهم لا يكفون عن تسفيه ممارسات الطرق الصوفية ، وعدها بدعا مرفوضة ، وفي زيارتنا للجمعية المالية لوحدة وتقدم الإسلام ، وهي جمعية تمثل اتجاه أهل السنة في « مالي » قال رئيس الجمعية الحاج عمر لي : ربما يكون التساؤل الأول لديك ولدى أي مطلع على جمعيتنا عن سبب اختيار هذا الاسم للجمعية ، وإجابة عن هذا التساؤل أقول :

لقد مضى زمن طويل والمسلمون في « مالي » يعانون من الفرقة والتشتت ، ويتنافسون بالمذاهب الإسلامية والطرق الصوفية ، ولم يكن لهذه المنافسات والاختلافات المذهبية الحادة ما يبررها ، ولم يكن لها نتيجة سوى الاضرار بالاسلام والمسلمين .

ونسأل « الحاج عمر » عن مصادر تمويل الجمعية ، خاصة أن مشاريعها طموحة لموارد مالية ضخمة فيقول « المصدر الأول لتمويل الجمعية هو الاشتراكات التي يقدمها الأعضاء ، ومساهمات أهل الخير ، وقد استطعنا من هذا المصدر أن نؤثث فروعنا السبعة الرئيسية ، واستطعنا كذلك الحصول على بعض التبرعات





● أسواق باماكو : حركة دائبة وزحام وناس من مختلف المشارب والمآرب وبضاعة مزجاة .

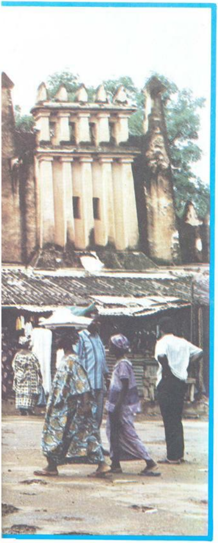
من عامة المسلمين وأهل الخير من خلال الاجتماعات التي ندعو إليها الماليين في المسجد الكبير في « باماكو » ، ولكنها بالطبع تبرعات وإعانات لاتمكننا من تنفيذ مشاريعنا الطموحة ، ولذلك فقد سعينا الى الأخوة في بعض الدول الصديقة ، واستطعنا الحصول على إعانات ومساعدات من الأخوة في الكويت والسعودية والعراق ومصر ، وتلقينا مساعدات من المنظمات الاسلامية ، ورابطة العالم الاسلامي في مكة المكرمة . كما سوف تعطينا حكومة « مالي » قطعة أرض لنبني عليها المقر الدائم للجمعية . ولكننا مازلنا نحتاج الى موارد مالية أكثر مما هو متاح لنا الآن ، حتى نتمكن من القيام بالأنشطة التي خططنا لها ونهدف الى تحقيقها . ولنا الآن اتصالات مع العديد من الجمعيات الإسلامية ، منها جمعية الدعوة الإسلامية في ليبيا ، ومع الجمعيات الإسلامية الموجودة في الكويت ، وقد تلقينا منهم وعدا بالمساعدة في بناء المقر الدائم للجمعية ، ولنا علاقات وثيقة مع رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة .

ونحن الآن بصدد التخطيط لإصدار مجلة تعني بالشؤون الإسلامية ، ونأمل أن يكون لنا في المستقبل القريب مجلات وصحف بالفرنسية والعربية ، عندما تتوافر لنا الإمكانات المالية المطلوبة ، والرجال أو العناصر المؤهلة تعليما وتدريبا ، للقيام بمهمة تحريرها وإصدارها .

التخطيط والطموحات

وكأي دولة نامية في العالم الثالث تحاول « مالي » أن تنتهج أسلوب التخطيط لمشاريعها التنموية في كل المجالات الانتاجية والخدمية .

والحق أن التخطيط في هذا البلد قد بدأ منذ زمن بعيد ، وقبل أن تنال استقلالها عام ١٩٦١م . فقد بدأت أولى الخطط الخمسية عام ١٩٥١م ، ثم توالت بعد ذلك حتى وصلت الى الخطة الخمسية الأخيرة التي تنتهي في ١٩٩١م .



● توضح هذه الصورة طابع البناء في مالي ، إنه بناء مميز يعود إلى عصور الإزدهار .

يلخص لنا الأستاذ « محمدو جيرو » مدير إدارة التخطيط القومي في « مالي » ، الوضع الاقتصادي الراهن في هذا البلد قائلا : الاقتصاد المالي بصفة عامة اقتصاد دولة في طريق النمو ، ولفهم هذا الاقتصاد يجب علينا أن نتعرف على المشاكل والصعوبات التي تواجهها « مالي » ، والتي تتصدرها مشكلة زيادة السكان .

فتعداد سكاننا تجاوز ثمانية ملايين نسمة وفقا لآخر احصاء ، ثانية هذه الصعوبات هي الكلفة العالية لإنشاء هياكل البنية التحتية لدولة واسعة المساحة ، مترامية الأطراف ، ونعني بالبنية التحتية تمهيد الطرق وإنشاء مولدات الطاقة الكهربائية ، بالإضافة الى الصرف الصحي ، وتغذية المدن بالمياه ، وغيرها من الخدمات ، علما بأننا لا نملك منفذا بحريا ، وأقرب ميناء لنا يبعد عنا مسافة تزيد عن ألف كيلو متر ، وهذا يكلف كثيرا في عمليات النقل . وقد رأيت آثار الجفاف الذي اجتاح البلاد منذ سنة ١٩٧٠م ، وهو مالم تشهد له « مالي » مثيلا منذ بداية هذا القرن ، فقد نقصت مياه الأمطار بنسبة ٧٠٪ ، ولك أن تتخيل حجم الخسارة التي تحملها اقتصاد البلاد ، خاصة في مجال الثروة الحيوانية أو الزراعة ، وهما المصدران الأساسيان اللذان يعتمد عليهما اقتصادنا حتى الآن .

لقد كان الوضع مؤلما ، فقد حدث عجز في مخزون الحبوب ، وكدنا أن نعجز عن تلبية احتياجات السكان في حدودها الدنيا من الخبز ، لولا المساعدات التي تلقيناها من بعض الدول الصديقة ، والمطلوب منا أن نقف على أقدامنا ولا نهار ، وأن لا تفشل لنا أي خطة ، ومجموع هذه الصعوبات أثر فعلا تأثيرا سلبيا على اقتصاد البلاد الذي يعتمد بالدرجة الأولى على الزراعة ، فللانتاج الزراعي أو الانتاج الريفي بعامة عائد يمثل أكثر من ٥٠٪ من الدخل القومي للدولة .

ويضيف مدير عام التخطيط قائلا : إننا نحاول أن نعطي للصناعة اهتماما في خططنا ، حيث إن نصيبها في مكونات الاقتصاد القومي ضعيف جدا ، وتتمثل نسبة مساهمتها في الاقتصاد بشكل عام ١٥٪ فقط ، وهي نسبة متدنية على الرغم من أهمية الصناعة . ولكننا نحاول .

لدينا مصنع للأدوية أقيم بالتعاون مع جمهورية الصين الشعبية ، وبدأ في الانتاج منذ عام ١٩٨٠م ، وانتاجه يغطي جانبا لابأس به من احتياجاتنا الدوائية ، ولدينا أيضا عدد من المصانع التي تلبي احتياجاتنا في بعض المجالات ، مثل مصنع الزيوت والصابون ، ومصنع للألبان ، وآخر للجلود ، ومصنع للأدوات الزراعية ، ومصنع للسكر كان انتاجه يفي بحاجة السكان ، لكنه لا يعمل بكامل طاقته الآن لنقص المساحة المزروعة بقصب السكر بسبب الجفاف .

ويضيف مدير التخطيط قائلا : إننا نولي عناية فائقة لقطاعي النقل والتجارة الخارجية ، لأهميتهما البالغة في الحركة الاقتصادية ، حيث يساهمان بنسبة ٣٥٪ من الدخل القومي ، ونحن نشترك مع السنغال في مرفق السكة الحديد حيث تعد من أكبر الشبكات الحديدية في افريقيا .

إننا لا نطمح الى تحقيق الرفاهية ، فنحن لا نملك مقوماتها حاليا ، لكننا نود تحسين مستوى المعيشة للإنسان في « مالي » . بتحقيق فرصة التعليم وتوفير العلاج ، وخلق فرص العمل والاكتفاء الذاتي في الغذاء وفق حدود معقولة من احتياجات الإنسان . نريد تحقيق هذه الأساسيات للإنسان باستخدام إمكاناتنا الطبيعية والبشرية قدر الامكان ، وإن كانت حتى الآن لا تكفي وحدها نظراً للظروف التي شرحناها ، فإننا نأمل في مساهمات الدول الصديقة والمؤسسات الدولية ، حتى نحقق بعض ما نصبو إليه .

وغادرنا « مالي » ونحن نأمل أن تنتهي آثار السنوات العجاف . □

طفولة الحجر

شعر : محمد الطوبي*

طفلٌ يحلمُ بعصافير أريحا وأناشيدِ الكَرْمَل
طفلٌ يأتي مفتوناً باللوزِ المزهرِ مِنْ معجزةِ الحُبّ
وَيَكْشِفُ لوعةَ بيسانْ
طفلٌ يقطفُ أقمارَ الجرحِ ويرسمُ شارةَ نصر
طفلٌ يُولَدُ من داليةِ الأحزان
طفلٌ يَتَعَمَّدُ بالزَّعْتَرِ والجَمْر
طفلٌ يسكنُ شَغَفَ الميلادِ ويُشْرِعُ خارطةَ الألوان
طفلٌ يقرأُ لغةَ الوطنِ الطالعِ مِنْ بَرْقِ العُمْر
طفلٌ مسكونٌ بأُبَّهَةِ الوَرْوَارِ
وَزَهْوِ السنبلةِ العاشقةِ
وتاريخِ النَّرْجِس
طفلٌ يلبسُ أغنيةَ الحَسُّونِ وَوَلَعَ النَّوْرَس
طفلٌ مَلِكٌ يصعدُ ملحمةَ العُشّاق
يسوقُ تراجيديا الأشواقِ لِمَلَكُوتِ الفَجْر
طفلٌ يمتلكُ قناديلَ الروحِ وجموحَ الغزلان
طفلٌ يمتشق « شُتولَ » طفولتِهِ
يدخلُ قدَّاسَ الشهداء
يرتِّلُ غبطتَهُ الخضراء
ويعلنُ في الدنيا بالحجرِ نَهارَ العِصْيَان

---

* شاعر من القطر العربي المغربي .



طفلٌ مَلِكٌ ، مَلِكٌ طفلٌ يمسكُ شهواتِ الحجَر
يخوضُ تراثَ الأرضِ
وينسفُ ذاكرةَ النِسْيان
طفلٌ سَفَكَ الشَّفَقَ الشّاسِعَ وَتَشَهَّى مَاشاءَ
وَأغْدَقَ فِي الشَّكِ الشُّعَرَاءَ
وَسَوَّى شَجَرَ الوَقْتِ
وَسَدَّدَ سطوتَهُ الفاتنةَ العليا لمرايا البَحْر
طفلٌ سَفَحَ الأسئلةَ الأُولى
طفلٌ أشْعَلَ أيقوناتِ الوطنِ الباهرةَ لَمّا
سَرَّحَ صفصافَ وَصاَيَاهُ الكنعانية
ضدَّ عصورِ الطُّغْيَان
طفلٌ يُستشهدُ يولدُ مِنْ أَرَقِ الحِرْمَان
طفلٌ زَفَّ فلسطينَ عَلَى تَوْقِيتِ فلسطين
أمامَ جنودٍ وبنادق تحرسُ ليلَ القَهْر
طفلٌ يَرْشُقُ بالمِقْلاعِ الطاغوتَ النّازِيَّ الملفوفَ الواقِفَ
تحتَ مظلةِ أمريكا
وَعَبَاءَةِ أمريكا
طفلٌ يخرجُ مِنْ وَجَعِ القدسِ رشيقاً
يَمْشي في دربِ الثَوْرَة
لِيُؤَسِّسَ مملكةَ الرَّيْحَان

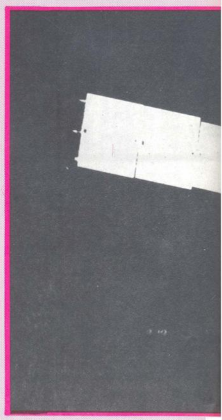


الصناعة الكونية
اليوم وغدًا

بقلم : ميخائيل تشيرنيشوف *

لم يعد الفضاء مساحة فارغة تنتظر من يرتادها . فقد شهدت السنوات الأخيرة نشاطات فضائية جديدة وتحول ارتياد الفضاء إلى تجارة تدر الملايين .
والمقال التالي استشراف لمستقبل هذا النشاط الفضائي الجديد الذي يطلق عليه اسم الصناعة الكونية .

* ميخائيل تشيرنيشوف : المحرر العلمي في وكالة نوفوستي السوفيتية



● المحطة المدارية «مير».

يوشك عهد «الاحتكار» العلمي لغزو الفضاء على الانتهاء، إذ أنه يتحول تدريجيا إلى ميدان للأغراض الصناعية. وتشير تقديرات بعض الخبراء إلى أن قيمة النشاط التجاري الفضائي قد تبلغ في أواخر القرن الجاري قرابة ٥٢ مليار دولار. ربما هناك بعض المبالغة في تلك التكهنات حول حلول «عصر حمى الذهب الفضائية» ومع ذلك لا يجوز نفي حقيقة نشوء الصناعة الفضائية ورغبة عدد كبير من الدول في المشاركة في هذا المضمار الحديث من النشاط.

«إنه مشهد رائع بالفعل!» بهذه العبارة علق رائد الفضاء السوري محمد فارس على ما رآه من على متن محطة «مير المدارية». وأضاف قائلا: «تأكدت شخصيا كم هو كبير، وطننا العربي؟!» إلا أن الرحلة الفضائية تعطي المشاركين فيها إلى جانب فرح الانفعالات فرصة رصد سطح كوكبنا من المدار. ويستفيد حاليا أكثر من تسعمائة مؤسسة ومنظمة سوفيتية في نشاطها اليومي من المعلومات الواردة من الأجهزة الكونية. وتعطي الاستثمارات في الفضاء أرباحا قدرها ٥٠٠٪! وصار استقصاء الطبيعة الأرضية وثروات كوكبنا من المدار واحدا من المضامير التي تتطور فيها العلاقات التجارية بسرعة خاصة. وثمة في العالم المعاصر أربع منظومات كونية تتخصص بدراسة كوكبنا انطلاقا من المدار وهي الأقمار الصناعية السوفيتية من سلسلة «كوزموس» ومنظومة «لاندسات» الأمريكية ومثيلتها «سبوت» الفرنسية و «ى. ر. س.» الهندية. وتوفر المنظومة السوفيتية اليوم صورا أكثر وضوحا لسطح الأرض إذ يمكن أن تتبين فيها أشياء يبلغ قطرها ٥ ـ ٦ أمتار. وتجدر الإشارة، على سبيل المقارنة، إلى أن قدرة التبيين التي تضمنها الصور الفرنسية تصل إلى ١٠ أمتار، والأمريكية ٣٠ مترا.

وقال فيكتور ياشينكو الذي يترأس الإدارة المركزية «للجيوديسيا» ووضع الخرائط لدى مجلس وزراء الاتحاد السوفيتي: نحن نبيع صورنا الفوتوغرافية الملتقطة من المدار إلى كل بلد يرغب في ذلك بسعر ثابت ـ ألف دولار للقطعة الواحدة. وهو ثمن أرخص من الفرنسي وأغلى من الأمريكي. ولدينا طلبيات

لتوريدها إلى البرازيل والأرجنتين واستراليا والصين الشعبية وفيتنام وبعض البلدان الأخرى ومنها الكويت مثلا .

وقد ساعد الاتحاد السوفيتي الهند ، في الماضي على إطلاق قمرين صناعيين تجريبيين لدراسة ثرواتها الطبيعية . وفيها بعد أطلقت الهند بالتعاون مع الاتحاد السوفيتي قمرا صناعيا آخر هو « ا . ر . س . » - ١ أ » هذه المرة على أساس تجاري . وأدت هذه الأجهزة الثلاثة وظائفها بشكل رائع ، وأعلن الخبراء الهنود أخيرا أن القمر الثالث ساعد على اكتشاف مكامن حجارة الماس والعقيق الأحمر في ولاية آندارا براديش .

والجدير بالذكر أن الأجهزة الكونية لا تقوم إلا بخطواتها الأولى في ميدان دراسة الثروات الأرضية ، ولها كفاءات كامنة واعدة بفوائد مغرية . ويعكف الخبراء السوفييت الآن على إيجاد آلات تصوير بالغة الحساسية من شأنها أن تلتقط من على متون الأقمار الصناعية صورا ذات قدرة تبيين تصل إلى مترين . وبأجهزة التصوير الفوتوغرافي والتلفازي نقص خطير هو عجز تلك الأجهزة عن التصوير ليلا وعبر طبقة كثيفة من الغيوم . إلا أن أجهزة « الرادار » تستطيع أن « ترى » سطح الأرض في كل ساعة من الليل والنهار مهما تكن ظروف الطقس .

والظاهر أن الأقمار الصناعية المختصة ستتمكن في المستقبل القريب جدا من التقاط صور كل رقعة من اليابسة أو المحيط في كل وقت يعده صاحب الطلبية ضروريا . وقد حققت الأقمار المختصة في الفترة الأخيرة تقدما عظيما لأنها تخدم أهداف صيادي السمك والباحثين عن النفط في بطون الجرف القاري .

والأقمار السوفيتية من هذه السلسلة تسمى (اوقيانوس) ومن أبرز مهام عصرنا حل المشاكل « الايكولوجية » التي غالبا ما تتعدى الحدود الدولية . ونظراً لأهمية هذه المشاكل بالنسبة لجميع دول العالم عمليا اقترح الاتحاد السوفيتي تأسيس منظومة فضائية دولية من شأنها أن تتولى رقابة وضع البيئة وتساعد الدول على حل المشاكل « الايكولوجية » العامة .



● اطلاق القمر الصناعي الهندي « ارس - ١ أ » بواسطة صاروخ « فوستوك » الحامل . في ساحة الاطلاق .

أمتن من الفولاذ الدمشقي

يعرف العرب جميعا تلك الأسطورة التي تتحدث عن حداد سقط سيفه من فوق جبل

«قاسيون» في هوة سحيقة وقد اكتسب هذا السيف أثناء سقوطه درجة خيالية من المتانة والمرونة، وهكذا نشأ الفولاذ الدمشقي المشهور. وقد ضاع سر صُنعه في أعماق العصور، إلا أن خبراء التعدين المعاصرين تعلموا إنتاج سبائك حديثة، لها صفات مثيرة، تفوق في بعضها الفولاذ الدمشقي الممتاز.

ويمكن الحصول عليها في «ظروف فضائية» حيث تنعدم قوة الجاذبية الأرضية على مواد ذات صفات فذة ومنها مثلا سبيكة متجانسة التركيب من النيكل والألمنيوم، مع العلم أن هذين المعدنين لايمكن جمعهما في الظروف الأرضية العادية. ويعني صهر السبائك الجديدة نوعيا في ظروف انعدام الوزن حدوث «ثورة» حقيقية في التقنية. وإلى جانب السبائك يمكن أن يصنع في ظروف المدار الكوني الزجاج البصري وشبه الموصلات والعقاقير الفريدة. وهناك قائمة بأكثر من ٦٠٠ مادة تكون لها خصائص ممتازة إذا ما أُنتجت في الفضاء.

ويعتقد معظم الخبراء السوفييت بأن العقاقير وشبه الموصلات ستكون، قبل غيرها، السلع الأولى التي سيبدأ إنتاجها في الفضاء في المستقبل القريب على أساس صناعي مسلسل. وتتخذ الآن في هذا الاتجاه الخطى العملية، إذ يخطط لأن تلتحم بمحطة «مير» المدارية: الوحدة الطبية «البيولوجية» والوحدة «التكنولوجية» لاختبار إنتاج السبائك المعدنية والمواد البيولوجية والعقاقير. ومن المتوقع أن تقام في الفضاء مستقبلا «مصانع» أوتوماتيكية ستغذيها طاقة أشعة الشمس. ومن شأن مثل هذه المصانع أن تعمل بالنظام الأوتوماتيكي ولن يرتادها طواقم الرواد إلا من حين إلى آخر لاستلام المنتوج الجاهز وشحنها بالخامات وتصليح المعدات.

البريد الالكتروني

كان ظهور الاتصالات الكونية بالنسبة لدول كثيرة حجة حاسمة وضعت حدا لشكوكها فيما إذا كان الفضاء موضعا مناسبا لاستثمار نقودها. وفي العالم المعاصر أكثر من مائة دولة تستفيد من وسائل الاتصال الكوني وحوالي ٢٠ دولة تملك أقمار الاتصال الوطنية وقرابة ١٠ دول لها منظومات كاملة لمثل هذه الأقمار. وقد أصبحت معدات الاتصال والأجهزة الكونية والصواريخ لوضعها في المدارات-منذ وقت طويل-سلعة تباع وتشترى. والاتحاد السوفيتي قد خرج أيضا إلى هذه السوق ويعرض على الزبائن مثلا أقماره «غوريزونت» للإتصال.

ومع أن الأجهزة الكونية لم تستطع بعد أن تلبي حاجات التلفاز والاتصال الهاتفي والبرقي بحجم كامل، وفي كل مكان مطلوب، فقد أنجبت التقنية الرائدة جيلا حديثا من النظم التي يمكن أن تسمى اصطلاحيا ـ بـ «البريد الألكتروني». وتظهر إمكانيات خيالية حقا في مجال نقل وتبادل المعلومات بفضل البحث «الكمبيوتري» عن المعلومات، والاتصال بواسطة الأقمار بالاتفاق مع ناسخات الصور والنصوص عن بعد. وتستعمل الأقمار الصناعية في الاتحاد السوفيتي لارسال نسخ الكترونية عن الصحف المركزية إلى العديد من مدن الاتحاد السوفيتي حيث تجرى طباعتها في المطابع المحلية. ويفترض أن تتخذ المكتبات الكبيرة العامة هذا الأسلوب في خدمة المستفيدين منها، وسترسل إليهم مستقبلا، نسخا الكترونية عن الكتب المطلوبة. كما أعد اليوم الخبراء العاملون في الميدان المصرفي والتجارة خطط تطبيق النظم الألكترونية الفضائية للحسابات المالية. وهي نظم أصبحت قيد الاستخدام في بعض الأماكن.

قبل فترة قصيرة بلغ وزن الأقمار المطلقة إلى

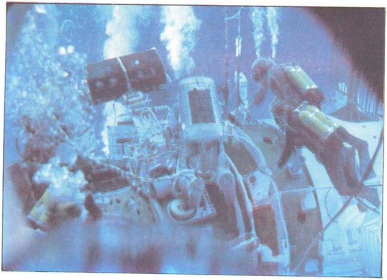
المدارات الثابتة حوالي ٢,٥ طن . وهذه هي حمولة صاروخ « بروتون » الناقل . ولكن ظهور صاروخ « اينيرغيا » العملاق الذي يستطيع أن يرفع أكثر من مائة طن من الشحنة إلى مدارات منخفضة و ١٨ طنا إلى مدارات أرضية ثابتة قد سمح -بنظر « بوريس غوبانوف »-كبير مصممي هذا الصاروخ - لنظم الاتصال المدارية أن تبلغ مستوى جيداً نوعيا بما في ذلك إنشاء نظام البث التلفازي المباشر بواسطة الأقمار ، وإنشاء شبكة هاتفية لتغطي كافة أراضي الاتحاد السوفيتي الذي تبلغ مساحته ٢٢,٤ مليون كيلومتر مربع .

تجارة الفضاء

لقد انطلق إلى الفضاء الخارجي أكثر من مائتي شخص من قوميات مختلفة بمن فيهم مواطنان عربيان - الأمير السعودي سلطان بن عبدالعزيز ورائد الفضاء السوري محمد فارس . وقد نظم الاتحاد السوفيتي مجاناً ودون مقابل ١٥ رحلة فضائية بمشاركة مواطنين أجانب . ويبيّن العمل ضمن إطار هذه الرحلات أن المشاركين في البعثات الدولية المختلطة يتلقون بالإضافة إلى النتائج العلمية فوائد عملية كثيرة . ولأن إطلاق كل سفينة فضائية يكلف مبالغ مالية باهظة قرر الإتحاد السوفيتي أن ينظم بعثات دولية فضائية مستقبلا في معظم الحالات على أساس تجاري .

ويكلف وجود رائد الفضاء الأجنبي على متن محطة مدارية سوفيتية ١٢ مليون دولار . وهذا التقدير مبدئي فهناك إمكانية للتعويض عن النفقات أو عن جزء منها بتوريد معدات أو أي شي آخر إلى الطرف السوفيتي. وللبعثة المأهولة فوائد وأفضليات عظيمة باعتبار أن البحوث والمهات العملية ترتدي فيها طابعا شاملا إذ تتضمن استقصاء طبيعة الأرض والتجارب التقنية والطبية البيولوجية . وهناك أدلة تشير إلى أن البعثة التي يشارك فيها رائد فضاء نمساوي ستكون أول رحلة تجارية مأهولة تنفذ باستعمال الهندسة الكونية السوفيتية . وقد تم توقيع الاتفاقات الخاصة بذلك ، ويعد الخبراء النمساويون للبعثة القادمة برنامجا جديا ومدروسا ، إذ أعلنوا أن النمسا لا تود أن تكون مشاركة مواطنها في هذه الرحلة « مجرد نزهة فضائية مسلية » .

وفيما يتعلق بإعداد رواد الفضاء الأجانب فقد سعى الإتحاد السوفيتي ولا يزال لإعطائهم التدريب المناسب الشامل كي يكونوا أعضاء كاملي الحقوق في الطاقم . وفي هذه الناحية يختلف الموقف السوفيتي بعض الشيء عن الممارسة المتبعة لدى وكالة الفضاء الاميركية (ناسا) وقد أشار إلى ذلك قبل وقت غير بعيد رائد الفضاء الفرنسي جان لوكرتيين الذي سبق له وشارك في البعثتين الفضائيتين باعتباره عضواً في الطاقم السوفيتي الفرنسي،وكان كذلك بديلا لرائد الفضاء الفرنسي الثاني ، باتريك بودري ، عندما كان هذا الأخير يتهيأ للرحلة على متن مكوك الفضاء الأميركي . وخلاصة القول أنه قد أتيحت لكرتيين فرصة فريدة تعرف خلالها على كلتا المدرستين السوفيتية والأميركية في استكشاف الفضاء ، لذا فإن ما يقوله بهذا الخصوص يكتسب مصداقية خاصة . وقد علق كرتيين على تجربته قائلاً : « إن الإعداد القاعدي يكاد لا يختلف بشيء في الإتحاد السوفيتي عنه في أميركا . أما إعداد الرواد المقبلين في قيادة السفينة ففيه فرق كبير . ففي الولايات المتحدة لا يتدرب على قيادة السفينة إلا الموظفون في « وكالة ناسا » ، فيما يعد الآخرون سواء أكانوا من رواد الفضاء الأجانب أو من المواطنين الأميركيين - ممثلي أي شركات صناعية - مجرد مسافرين ، ولذا فإنهم يتلقون قدرا أقل من الإعداد . صحيح أنه يوجد في الإتحاد السوفيتي بعض الاختلاف بين برنامجي إعداد قائد السفينة والرائد الباحث ، إلا أن



● تقليد انعدام الوزن في وسط مائي .

الفارق في هذه الحال أقل بكثير، ويمكنني التأكيد بأن جميع أفراد الطاقم يتلقون نفس الحجم تقريبا من التدريب . ويبدو لي أن مثل هذا الموقف على جانب أكبر من الصواب والفاعلية . وقد سمعت أن الاميركيين قد قرروا ، بدورهم ، أن يتخذوا من الأسلوب السوفيتي قدوة لهم . »

ويبقى هنا أن أضيف لكل ما قاله جان لو كرتيين أن الاتحاد السوفيتي وفرنسا اتفقا بعد اختتام بعثتها الكونية المختلطة التي استغرقت شهرا واحدا ، على مواصلة برامج البحوث الفضائية المشتركة في العقد القادم من السنين . ومفاد ذلك أن الرحلات البشرية المشتركة ستنظم لها بعد كل سنتين . ويبحث الطرفان الآن مسألة تزويد مكوك « هيرميس » الفرنسي والمحطات المدارية السوفيتية المستقبلية بعُقَد الالتحام ذات المواصفات الموحدة .

مطارات كونية

وبالإضافة لمشاركة رواد الفضاء الأجانب في الرحلات الكونية يمكن أن تكون هناك أشكال أخرى للتعاون التجاري . إذ تستطيع طواقم المحطات المدارية تنفيذ مختلف طلبيات الشركات الأجنبية المهتمة بالأمر . وأصبح أول عقد من هذا النوع ذاك الذي وقعته شركة « بايلوود سيستمز » مع الهيئات السوفيتية المختصة حول استخدام الأجهزة العلمية الموجودة على متن محطة « مير » لانتاج بلورات البروتينات الضرورية لصنع العقاقير الحديثة . وعلل ممثلو الشركة ضرورة اللجوء إلى الطرف السوفيتي بواقع أن رحلات المكوكات الاميركية لا تدوم عادة أكثر من ٧ ـ ١٠ أيام ، في حين أن عملية بلورة البروتينات تحتاج لأسابيع وحتى أشهر . وقد ادخر الخبراء السوفييت تجربة غنية

في هذا المجال إذ نفذوا مئات التجارب المناسبة . وأجمع ممثلو الشركة على أنه ليس هناك خطر من « تسرب » التقنية الأميركية بناء على شروط صارمة من الطرفين ويضيف الاميركيون قولهم : « من الأجدى أن يدور هنا الكلام عن الجهد الذي نبذله لكيلا نتخلف عن السوفييت في تطورنا التقني » . .

لقدتم التخطيط لأن تنفذ في سنوات ١٩٨٩ - ١٩٩٢ على متن قمر « فوتون » الصناعي جملة من التجارب التقنية التي أعدها خبراء شركة « كايزر تريدي » الألمانية الغربية . وسيقوم الطرف السوفييتي بالأبحاث المماثلة ، مع التركيز على الناحية النظرية ، بناء على طلب وكالة الفضاء الفرنسية (كنيس) .

وهناك لائحة طويلة بالعقود والاتفاقيات التي وقعت في الأونة الأخيرة ومغزاها أن حجم الأعمال في الفضاء سيتنامى من عام إلى آخر . وعلى ضوء ذلك لم تعد تبدو غريبة فكرة إنشاء مطار كوني دولي لإطلاق الأجهزة إلى الفضاء على أساس تجاري . وقد تقدمت استراليا بمبادرة ممتعة لقيت استحسانا لدى دول كثيرة بما فيها الإتحاد السوفييتي . ولإطلاق الصواريخ الكونية من أراضي استراليا فوائد عديدة إذ أن دوران الكرة الأرضية الذي يساعد الصاروخ على نقل الشحنة المفيدة يتجلى بالدرجة القصوى عند خط الاستواء .

وقد علق الكسندر دونايف ، رئيس الدائرة العامة للشؤون الفضائية في الاتحاد السوفييتي ، على مبادرة استراليا قائلا :

- لاشك في أن نقل الصواريخ الضخمة من بلادنا إلى استراليا عمل معقد جداً إلا أنه يبدو لنا مغريا على أساس أن إطلاق الصاروخ من منطقة استوائية يسمح بزيادة وزن الشحنة المفيدة . وفي هذه الحالة نستطيع أن نخصص عددا من صواريخنا من نوع « بروتون » لبرامج فضائية دولية ونستخدم عددا آخر منها لاحتياجاتنا ، ضمن أطر الاتفاقيات المناسبة . ومهما يكن من أمر ، فان المجتمع الدولي يحصل من هذا التعاون على أفضليات عظيمة في مجالات التقنية والاقتصاد وغير ذلك من المجالات .

وفي حين أن المطار الكوني الدولي يبقى مشروعا صوريا في أذهان الخبراء والصحافيين ، فمازالت دول كثيرة تضع المشاريع الفضائية التي تقوم على أساس امكانياتها الوطنية ومنها محطات مدارية عملاقة وصواريخ قوية ومكوكات . ويخطط الاتحاد السوفيتي لمواصلة استخدام محطة « مير » المدارية حتى مطلع التسعينيات على الأقل. وستزن هذه المحطة مع الوحدات الخمس الملتحمة بها قرابة ١٥٠ طنا وستتوافر فيها الظروف المناسبة لعمل ١٢ شخصا . أما الخطط المستقبلية الأخرى التي ذكرها أشهر الخبراء السوفييت مثل بوريس غوبانوف ، ويوري سيميونوف ، كبير مصممي مكوك « بوران » السوفيتي ، فهدفها إنشاء محطات أضخم في الفضاء المحيط بكوكبنا . وسيشهد مستقبل الطيران الفضائي بناء مشاريع على المدار وإنشاء المزيد من المكوكات ومراحل الصواريخ التي يمكن استخدامها مرات عديدة وهي عناصر قادرة على العودة إلى المطار بعد أداء وظائفها أثناء اطلاق السفينة . وكذلك الجرارات لتحريك الأجهزة الفضائية من مدار إلى آخر ومركبات خفيفة لنقل رواد الفضاء من مشروع إلى آخر □

تعليم التعليم

المطلوب من النظام التربوي في عصر المعلومات تعليم الطلاب أن يتعلموا ، وتعليمهم أن يفكروا ، وتعليمهم أن يبدعوا .

« باتريشيا اوبردين »

وجهاً لوجه



د. محمد عابد الجابري و د. فهمي جدعان

- العِلمُ لا يَنمُو بالاتصَالِ، بَل بالفصلِ بَينَ عَهدَين أو أكثر.
- الكِندِيّ كانَ أكثرَ قرباً لأرسطو مِنَ الفارابي وابن سينا.
- النظرةُ الأندلسِيّة المغربيّة تجاوزت منهجيّاً النظرةَ المشرقيّة.
- كثيرونَ ممّن يكتبُونَ عَن التراثِ لا يستوعِبُونه كما ينبغي.
- تستطيعُ النخبةُ المثقفةُ التي تتكلمُ عَن عِلمٍ ومَنهجيّةٍ أن تغيّرَ العَقلَ العَربيّ بسُهولةٍ.

كان الدكتور محمد عابد الجابري، المفكر المغربي، الأستاذ بجامعة محمد الخامس بالرباط ، قد أمضى بعض شهر آذار « مارس » من هذا العام ، أستاذا زائرا لكلية الآداب بجامعة الكويت ، وقد انتهزت « العربي » هذه الفرصة لترتب لقاء فكريا بينه وبين الدكتور فهمي جدعان أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الكويت ، فكان من ذلك هذا الحوار الذي دار بين هذين المفكرين « الأكاديميين » . في قضايا المشرق والمغرب ، والتراث والمناهج ، والنخبة والجمهور ، والعقل العربي ، والمثقفين ، والعرب والمستقبل والانتفاضة .

وقد تعرف المثقفون العرب على هذين المفكرين من خلال نتاجهما الذي تمثل لدى الدكتور الجابري خاصة في كتبه : « العصبية والدولة » ، « معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي » ، « نحن والتراث » ، « نقد العقل العربي » . وتمثل لدى الدكتور جدعان في كتبه : « أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث » ، « نظرية التراث » ، « المحنة » : بحث في جدليّة الديني والسياسي في الإسلام ، بالإضافة إلى أعماله المنشورة باللغة الفرنسية .

د . جدعان : من واجبي أولا أن أوجه إلى (العربي) شكرا خاصا ، إذ بادرت الى اغتنام فرصة وجودك هنا في الكويت ضيفا على كلية الآداب وقسم الفلسفة بجامعة الكويت، فرتبت أمر هذا اللقاء بيننا ، وجعلته مفتوحا لإثارة الحديث والحوار والسؤال حول القضايا التي يمكن لهذه الزيارة ولهذا اللقاء أن يثيراه .

ويقضي واقع الحال، وتقضي المواضعة في مثل هذه الظروف، أن يتوجه حديثنا الى قضايا تثير اهتمامنا المشترك، وتكون في الوقت نفسه موضع اهتمام خاص عند القارىء . والذي يبدو لي أن علينا أن نذير الحديث حول ثورة مركزية، نتحرك منها الى مسائل عدة، أرى أن تكون مما له مدخل في القضايا الثائرة في العالم الثقافي العربي المعاصر، وهي القضايا التي شغلتك في بعض كتاباتك مثلما شغلتني أنا أيضا، ومثلما تشغل جل الذين يحيطون بنا. وفي اعتقادي أن من حقك عليّ أن أبادرك أنا بالحديث، لأقول : إن لقاءنا هنا يختزل في عيني صورة من صور لقاء المشرق بالمغرب ، ويثير في شجون الوطن العربي الذي راودت وحدته عقول أجدادنا وأفئدتهم ، وهي تراود اليوم عقولنا نحن وأفئدتنا . لقد كان ذلك حلما دائما ، لم يبدده تزامن خلافتين وأكثر في أرجاء المشرق والمغرب في هذه الفترة أو تلك . واليوم نحاول أيضا أن نحول شيئا فشيئا ـ عبر حقول الألغام والهموم والآلام والحواجز والطوفان ـ هذا الحلم الكبير الى واقع، فنشهد جهودا كبيرة لتجمعات وحدوية ، وربما لا تكون فائدتها الوحيدة أنها تكسر حواجز التشتت

والتفرق، وتنسج خيوط حلم عزيز علينا في المشرق، وعزيز عليكم في المغرب. لكنني لا أملك وأنا أثير هذه الشجون أو أستثيرها، ونحن هنا معا، إبعاد هذا الشبح الذي يهجم على مخيلتي، إذ يصور لي، مثلما صور لكثيرين، أنني أتحدث مع صاحب نظرية مثيرة في العلاقة بين المشرق والمغرب، وهي نظرية لا تسر المشرقيين كثيرا، وكان لها عند بعض كتابهم صدى غير محمود، فقد انتهى كثير من قرائك إلى أنك قد كرست ضربا من القطيعة بين المغرب والمشرق، حين تكلمت وأعدت الكلام على « قطيعة » معرفية بين جناحي الوطن العربي، وقلت : إن ثمة مشروعين ثقافيين كبيرين، أحدهما نسبته الى المشرق، ممثلا بابن سينا والفارابي، وثانيهما نسبته الى المغرب ممثلا على وجه الخصوص بابن رشد. ولقد ذهبت فعلا الى أن ما سميته المشروع المشرقي مشروع ذو طابع غنوصي لا عقلاني، بينما المشروع المغربي أو الأندلسي هو مشروع ذو طابع عقلاني، وقررت أن كل واحد منها يعبر عن « روح » خاصة به، وأنه لا سبيل الى الجمع بينهما، فإن التقليد المغربي الممثل بابن رشد قد « قطع » قطيعة نهائية مع التقليد المشرقي الذي تمثله الغنوصية السينوية الهرمسية. ومع أنني شخصيا لا أعتقد أن هذه « القطيعة » كانت شاملة، فإنني، في هذه اللحظة على الأخص، لا أملك إلا أن أتساءل، في ضوء مذهبك هذا، عن الطريقة التي بها أفسر هذه الصلة العميقة التي تربطك بالمشرق الحديث والمعاصر، حيث أصبحت في حقيقة الأمر وجها مشرقيا، إذ تتردد مدعوا أو زائرا في مناسبات متعددة على جميع أقطار المشرق، وكتاباتك تلقى انتشارا طيبا عند مثقفي هذه الأقطار، فتجد الترحيب حينا والنقد أحيانا، وتجد من ينتصر لها، مثلما تجد من ينفر منها. ثم لا بُدَّ لي من أن أتساءل، في سياق قضية القطيعة هذه، عن مناطق الاتصال ومناطق الانقطاع، في حدود ثقافتي المشرق والمغرب. وهل هذه القطيعة هي حقيقية أم أنها مثيرة للبس فحسب، وأن الأمر على غير ما يتوهم الكثيرون ؟

بين ابن رشد وابن سينا

د. **الجابري** : أعتقد أن ما أثار الالتباس في أذهان قراء كثيرين هو استعمال كلمة (قطيعة). ولابد من شرح هذا المفهوم ليظهر المقصود منه : إن أول من استعمل هذا المفهوم هو فيلسوف العلم الفرنسي جاستون باشلار. وقد كانت النظرة السائدة من قبل أن العلم ينمو بالاتصال، مثلما تنمو الشجرة أو الجسم. القديم يؤسس الجديد، ويبقى حاضرا فيه بشكل من الأشكال. لكن باشلار، حين درس العلم، تبين أن العلم لا ينمو بالاتصال، وإنما ينمو عبر قطائع، أي على انفصالات، بمعنى أن العلم أو التفكير العلمي ينبني، في حقبة معينة، على مفاهيم تكون هي أساس إنتاج المعرفة والكشوف العلمية، الى أن تستنفد استنفادا كاملا، فتقع أزمة في الفكر العلمي، وهذه الأزمة لا تحل الا بظهور مفاهيم جديدة، تقطع العلاقة أو الصلة بالمفاهيم القديمة، أي يحدث بينها وبين هذه المفاهيم انفصام تام. ونقول : إن هناك قطيعة عندما لا يمكن أن نرجع القهقري من الجديد الى القديم، فهذا جهاز مفاهيمي وذاك جهاز مفاهيمي آخر. ومنذ جاليليو حدثت في ميدان العلم أنواع عديدة من القطيعة. وقد جاء « التوسير »، الفيلسوف الفرنسي المعروف، وطبق المفهوم والمنهج على العلاقة بين ماركس وهيجل، حيث كان ماركس الى حدود عام ١٨٤٨ على صلة مباشرة بهيجل، وكان تفكيره محكوما بالمناخ الهيجلي، وبالرؤية والإشكاليات الهيجليتين، ولا يتجاوزهما، ثم ما لبث، بعد أن انتقل الى تحليل الاقتصاد الرأسمالي تحليلا علميا رياضيا، أن « قطع » مع

ماركس الشاب، وانفصل عنه منهجيا، فأصبح شيئا آخر، وأصبح من الممتنع العودة من (رأسمال المال) الى (الايديولوجية الالمانية) مثلا، أو الى الكتابات الأولى. فهذا شيء وهذا شيء آخر، هذه مفاهيم وهذه مفاهيم أخرى. جئت أنا فيما بعد عندما درست ابن رشد فوجدت أن ابن سينا يتصل اتصالا مباشرا بالفارابي، فأنت تنتقل عبر خط واحد، من إخوان الصفا الى الفارابي، الى ابن سينا، الى الغزالي، الى السهروردي، الى الملا صدرا الشيرازي، الى الفكر الايراني الحالي والمدرسة القمّية. هذا خط، لكن عندما درسنا ابن رشد رأينا شيئا آخر، رأينا أن اشكالياته تختلف عن الإشكاليات التي طرحها ابن سينا والفارابي، وأن المفاهيم التي استعملها - على الرغم من كونها مشتركة بين الجميع في القرون الوسطى - تختلف في مضامينها عند ابن رشد عما هي عليه عند ابن سينا. ثم تعمقنا في أكثر هذه المفاهيم، وقلنا : لا، إن ابن رشد ليس استمرارا لابن سينا، وذلك خلافا لما كان جاريا من القول بأن الفلسفة في الأندلس استمرار للفلسفة في المشرق، فلقد تبين لي - وهناك نصوص وليست المسألة خيالا - أنه قد نشأت في الأندلس مدرسة تختلف تماما عن المدرسة في المشرق، لا من حيث المضمون الفلسفي أو المضمون الأيديولوجي اللذين يختلفان على كل حال من دولة الى دولة، ومن زمان الى زمان، ولكن من حيث المنهج والمفاهيم والرؤية والإشكالية.

الفلسفة في المشرق كانت محكومة بإشكالية التوفيق بين الدين والفلسفة، أي إشكالية علم الكلام، أما في المغرب والأندلس فلم يكن هناك علم كلام، ولا فرق، ولا تعدد، في المشرق أخذوا الميتافيزيقا لأنهم كانوا يحتاجون إليها في التوفيق بين الدين والفلسفة في علم الكلام. أما في المغرب فأخذوا الرياضيات والطبيعيات والفلك والطب والمنطق، وأصبح ارسطو هو الأصل، وأصبح المغرب يفكر تفكيرا ارسطيا محضا، خاليا من الافلاطونية المحدثة، والتأثيرات المشرقية من فارسية وغنوصية وهرمسية وغيرها.

فقلنا : ههنا (قطيعة)، بمعنى ان ابن رشد ليس استمرارا لفلسفة ابن سينا، ونحن لا نستطيع ان نعود من ابن رشد الى ابن سينا، مثلما يمكن ان نعود من ملا صدرا الشيرازي الى السهروردي مباشرة، ثم الى ابن سينا، فالفارابي. أما العودة من ابن رشد الى الفارابي فغير ممكنة. نحن نستطيع ان نعود من ابن رشد الى ابن باجة مباشرة، ثم من ابن باجة الى ابن حزم. ومعنى ذلك أن الاتصال الظاهري بين النظرتين المشرقية والمغربية لا ينبغي ان يخفي انفصالا أعمق بينهما. لقد عالج فلاسفة الإسلام الموضوعات نفسها، وتناولوا المشاكل نفسها، ولكن كما يقول هيجل ليس الموضوع هو الذي يميز فكرا فلسفيا معينا، وانما الروح التي يصدر عنها هذا الفكر والنظام الفكري الذي يستند إليه، ونحن، أي أنا أقول، ونحن نعتقد، أنه كان هناك روحان ونظامان فكريان في تراثنا الثقافي : الروح السينوية، والروح الرشدية، وبكيفية عامة : الفكر النظري في المشرق، والفكر النظري في المغرب، وهناك نوع من الانفصال بينهما، داخل الاتصال الظاهري. هذا الانفصال نرفعه الى درجة القطيعة الأبيستمولوجية أو المعرفية. هذه القطيعة ليست قطيعة سياسية، وليست قطيعة ثقافية عامة، ولا قطيعة حضارية، إنها قطيعة أبيستمولوجية، تمس. في آن واحد المنهج والمفاهيم والإشكاليات، ومع ذلك بقي هناك مَن لم يستوعب، الاستيعاب الكامل، هذه المسألة وهذه القطيعة، لقد استخدمت المصطلح استخداما إجرائيا، فاستطعت بتوظيفه هكذا أن أدرك إدراكا أكبر : خصوصية فكر المشرق، وخصوصية فكر المغرب، وحين تكلمت عن

هذه القطيعة لم يفهم أحد في المغرب أنها قطيعة سياسية أو حضارية، ولكن احتج في المشرق بعض الزملاء من الذين أجلُّهم على قضية القطيعة، وقالوا « كأنهم يمزحون معي »: إن في ذلك شيئا من الشوفينية المغربية، فاضطررت الى أن أوضح المسألة من جديد في الطبعة الثانية من كتاب «نحن والتراث»، والمسألة في نهاية الأمر هي ان الذين يرددون عني كلاما حول قطيعة بين المشرق والمغرب، قد قرأوا شيئا في الصحف فقط، ولم يرجعوا الى الكتب التي كتبتها.

خط الاتصال الثاني

د . **جدعان**: أعتقد أن هذا التوضيح ضروري ومفيد، ومع ذلك فمايزال في نفسي شيء من هذه المسألة، يبدو لي مهما، ويحتاج الى بيان، فأنا غير مقتنع بأن القطيعة التي تتكلم عنها قطيعة شاملة، إنني أعتقد أنها قطيعة مع تيار بعينه من التيارات الفكرية التي نجحت وتشكلت في المشرق. أنت تقول: إن ابن رشد ليس استمراراً لابن سينا والفارابي، على الرغم من اشتراكهم جميعا في القضايا والموضوعات نفسها، وأننا لا نستطيع ان نعود من ابن رشد الى ابن سينا ثم الى الفارابي، فهذه روح وتلك روح أخرى. هنا عقلانية أرسطية، وهناك غنوصية أفلاطونية محدثة وهرمسية، هذا صحيح لكنني أرى من وجه آخر أن بإمكاننا التفكير في تيار آخر، ورسم خط ثان غير هذا الخط الذي أشرت إليه، والذي يصل بين إخوان الصفا وابن سينا والفارابي. هذا الخط الثاني يتصل بابن رشد ويعود الى السجستاني والعامري والرازي والكندي، أعني أن هناك تيارا عقليا غير هرمسي، مبدؤه الكندي، ومنتهاه ابن رشد، ولا يمكن القول بأن هناك قطيعة بين ابن رشد وبين هذا التيار، وإنما هناك اتصال صريح.

د . **الجابري** : هذه مسألة أشرت إليها، ولست أذكر في أي موضع، لكن لي بعض التحفظات حول الأسماء التي ذكرتها، فالكندي لا علاقة له مع نظرية الفيض، الكندي كان أكثر قربا لارسطو من الفارابي وابن سينا، لكن كتبه هي عبارة عن رسائل صغيرة في العلوم. والرسالة الفلسفية الأساسية هي رسالته في الفلسفة الأولى التي كتبها لأحمد بن المعتصم. في هذه الفلسفة نكتشف أنه لا علاقة له مع إشكالية الفيض التي مثلها الفارابي وابن سينا. إذن إذا أردنا أن نقيم اتصالا بكيفية عامة نقول: إن الكندي لا يختلف مع ابن رشد، لكن ليس هناك اتصال، لان الكندي يقع بعده الفارابي وابن سينا وسلسلة طويلة. القطيعة والاتصال لا يكونان في وضع مثل هذا، فالقطيعة لا يمكن ان تكون ما بين ابن رشد والكندي، لأن الحقبة الزمنية ليست واحدة، والاتصال الزمني ليس واحدا. تكون القطيعة عندما يكون هناك اتصال، وليس من الضروري ان يكون زمنيا، لكنه اتصال على صعيد معرفي. ابن رشد لم يقطع مع الكندي، لأن الكندي كان قد جاوزه الآخرون ولم يكن هو السائد، فالذي كان سائدا هو ابن سينا والفارابي. أبو بكر الرازي غنوصي هرمسي، لا علاقة له مع ارسطو، ولا مع ابن رشد والتيار البرهاني العقلي.

موقع السجستاني وابن طفيل

د . **جدعان** : والسجستاني؟ رسائله التي نشرها د . بدوي تكشف بوضوح عن صلة بينه وبين ارسطو.

د . **الجابري** : لا ، ليس كل الاتصال، فإشكالية السجستاني بقيت إشكالية مشرقية، فهو من الذين خالطوا الفكر المسيحي، وهو من بيئة مسيحية أصلا.

د . **جدعان** : أنا أعني أبا سليمان المنطقي

السجستاني، ثم الرازي وهو ذو عقلانية صريحة.

د. **الجابري** : لا ، أبدا ، هو عقلاني في الطب مثلا، لكن رسائله غنوصية، وهو غنوصي ينكر النبوة، لأنه يقول: كل إنسان نبي أو يمكن أن يكون نبيا، السجستاني والكندي وكل هؤلاء الذين عاشوا في المشرق كانوا محكومين منهجيا بالإشكالية الكلامية، كان الفيلسوف لا ينتج المعرفة الفلسفية إلا مع مذهب كلامي معين أو ضده. هناك اختلاف بين بنية الفكر النظري في المشرق وبنية الفكر النظري في المغرب، هناك انقطاع.

د. **جدعان** : وابن طفيل أين تضعه في الخط المغربي ؟

د. **الجابري** : ابن طفيل مغربي، مغربي بكل ما في معنى الكلمة، يرتبط بابن رشد، وهو الذي قدمه وأبرزه، لكن اللبس الذي وقع هو ان ابن طفيل يقول في مقدمة (حي بن يقظان) إنه سيعرض الحكمة المشرقية كما رواها الشيخ الرئيس ابن سينا، فرسالة حي بن يقظان مكتوبة بقلم ابن طفيل، لكن مضمونها ـ بتصريح ابن طفيل ـ هو مضمون الفلسفة المشرقية. والذين يحكمون على ابن طفيل من خلال «حي بن يقظان» مخطئون. إن رأيه هو رأي النظرة المغربية.

د. **جدعان** : لكنه يأخذ على ابن باجة تقصيره في بلوغ غاية الفيلسوف من الاتصال.

د. **الجابري** : هو يعني ان ابن باجة مقصر في ان يكون مشرقيا في فلسفته، أي أنه لم يتبين نظرية الاتصال، وأنه غير مشرقي، والمهم هو إما أن تكون الثقافة العربية الأندلسية قد تقدمت في الساحة الشرقية نفسها، أو أنها قد تجاوزتها، والحقيقة أننا إذا أردنا أن نجد تاريخا حقيقيا للفلسفة العربية الإسلامية، وللفكر العربي الإسلامي فسنجد فيه شيئا من التقدم، وشيئا من الانتقال الى ما هو أبعد، فهذا التاريخ لا يمكن أن نجده إلا إذا بنيناه على أساس أن النظرة الأندلسية المغربية قد تجاوزت منهجيا النظرة المشرقية، والمشرق والمغرب هنا مسألة جغرافية، فلا أحد من المفكرين الأندلسيين والمغاربة، لا ابن حزم، ولا ابن رشد، ولا ابن خلدون، يمكن ان يقال عنه إنه مغربي غير عربي. ولست أدري لماذا تبقى هذه القضية قضية مشرق ومغرب، تثير الالتباس ؟!

التراث والمناهج :

د. **جدعان** : فلندع مسألة المشرق والمغرب، ولنتكلم على مسألة غير بعيدة عنها، وهي مسألة التراث، أريد أن ألاحظ في هذا الصدد أن سنوات العقد الحالي الذي يتجه الآن الى نهايته قد كانت حافلة بالنظر في هذه المسألة، وأنا نفسي كنت أحد الذين شغلهم هذا الموضوع، وأنت أيضا كنت، وما تزال، ممن عنوا بدراسة التراث وتحليله ونقده، ولاشك أنك تدرك معي مدى الاهتمام الواسع بالموضوع، ومدى الخطر الذي ينجم عن إغراق العقل العربي المعاصر بمجموعة من (المشاريع) الكبرى فيه. إن ما يبعث على الدهشة حقا هو أن جل الذين أقدموا على بناء مشاريع تراثية كبيرة يجهلون قطاعات كثيرة من التراث، ولا يحيطون منه إلا بقدر هزيل، وقد لا أستثني من هؤلاء إلا عدداً قليلا جدا، وأسمح لنفسي بإيراد اسمك الى جانب اسم محمد أركون. وربما فكرت أيضا بحسن حنفي، أما الآخرون فيكتبون أكثر مما يقرؤون، وينشدون الإثارة والضجيج أكثر مما ينشدون الفهم والإفهام. وبينهم من يتكلم عن المنهجية والمنهج اكثر مما يتكلم عن التراث نفسه بكثير، وقد اخترت أنت أيضا منهجا للبحث، ذا قاعدة ابيستيمولوجية، لا تحركها بواعث أيديولوجية مجانية، وإن كنت توظفها في نهاية المرحلة والأمر في أغراض أيديولوجية صريحة. ويبدو لي هذا أمرا مشروعا، فأنا أعتقد أن

الـرؤية البنيـوية، ومثلهـا اللسانيـة والفينومينولوجية، وغيرها، مفيدة دالة، تفصح كل واحدة منها عن جوانب لا تفصح عنها الرؤى أو المناهج الأخرى، وفضلا عن ذلك فإن ظاهرة التعدد في المناهج ليست جديدة، و (النص) الإسلامي نفسه كان قديما موضوعا لفهوم منهجية عديدة، لكن من الواضح أن التعدد في هذه المناهج يماثل التعدد في المذاهب والفلسفات، أعني أنه يضفي عليها سمة النسبية والتحديد وتقلبات الزمن الآتي القريب الذي عودنا منذ نصف قرن، على تطور مذهل سريـع في منـاهـج العلوم الإنسـانيـة والاجتماعية. فما الذي يبقى من قيمة لهذه المشاريع التراثية التي تشيّد؟ وكيف تتعامل أنت مع مادة التراث؟

إن هذا التساؤل لابد أن يثير اهتمامك الشخصي، مـادمت أحد أصحـاب هذه المشاريع، أعني مشروع «نقد العقل العربي»!

د. **الجابري**: أعتقد أن المسألة التي طرحتها تربطنا مباشرة بالقضية الأولى، وأقول لك بصراحة: إنني ألاحظ في كثير مما يكتب عن التراث أن أصحابه لا يستوعبون التراث كما ينبغي، أو لا يعرفون المناهج كما ينبغي.

التراث في الفكر عبارة عن شيء ينمو ويتراكم ويتناقض ويتصارع في الحياة، ولو أنه ماض. كيف ندرس هذا الكائن الحي الميت في الوقت نفسه؟ فهو ميت، أي ماض، بالنسبة لنا، لكنه حي فينا، هو ماض تفصلنا عنه أحيانا قطائع ابيستيمولوجية، وأحيانا مسافات زمنية، لكنه حي. أنت حين تقرأ الأدب الجاهلي تشعر أن بينك وبينه حياة. الآن: هل نستطيع أن نجمد فكرنا العربي الراهن في قوالب معينة؟ هناك من يقول: إن الديالكتيك يستطيع أن يستوعب ذلك، أي ان يتابع الحركة والحياة في ذاتها، أما أنا فقد أوضحت في كتابي (نحن والتراث) الخطوات أو المستويات التي أعالج فيها التراث: المعالجة البنيوية ثم التحليل التاريخي، ثم التحليل الايديولوجي. فحين يقدم التراث نفسه إلينا بصورة منظومة أو تركيب، لابد أن نفككه لكي نفهمه، وحين يقدم نفسه مفككا، مثلما هو الحال في (البيان والتبيين) عند الجاحظ، لابد لنا أن نكتشف بنيته لنفهمه، ثم نفككه فيما بعد. لابد من المعالجة البنيوية كمرحلة أولى. لكن لابد لنا من أن نلجأ الى التحليل التاريخي، لأنه هو مخبرنا الذي نقيس به النتائج والمسائل. ورجوعنا الى التاريخ هنا يختلف عن رجوع المؤرخ، فالمؤرخ يبدأ التاريخ من البداية، ولا يهمه الا التسلسل وربط الأسباب بمسبباتها إن أمكنه ذلك. أما نحن، فنرجع الى التاريخ في كليته، السابق واللاحق، ويهمنا أن نجد في سيره العام الشواهد التي تكشف عن هذه القوانين والأطروحات التي نستخلصها، فإذا تأكدنا، بالتحليل التاريخي، أن الأطروحات التي استخلصناها من التحليل البنيوي تشهد لها شواهد تاريخية اعتبرناها صحيحة. لكن المهمة لا تنتهي هنا، فإن المزاوجة بين المعالجة البنيوية والتحليل الايديولوجي هي الخطوة التالية، ولكن ليس من الضروري ان أبدأ بالتحديد بهذا أو بذاك، فأنا أحيانا أبدأ بالمعالجة البنيوية وأحيانا بـالتحليل الايـديولـوجي، حسب الموضوع. والمناهج بالنسبة لي كلها صالحة، لكن كلّ فيها يمكن أن يصلح له، أي أنها كلها صالحة، ولكن ليس بمفردها، والتراث واسع.

● النخبة والجمهور:

د. **جدعان**: الحديث عن التراث يفضي بالضرورة الى الحديث عن المشاريع «النهضوية» التي تنطلق من التراث أو تحيل إليه، وأمام هذه المشاريع التي يتطلع بعضها لأن يكون كبيراً كنت وما أزال، أسأل نفسي دوما: لمن يوجه الخطاب فيها؟ ألجمهور، أم للنخبة، أم لنخبة

النخبة؟ وأنا لا أملك إلا أن ألاحظ أن جميع الذين يصنعونها هم من الفلاسفة الذين لا يجيدون في الأغلب الأعم إلا لغتهم الخاصة. ولا أعتقد أنني في حاجة الى أن أدلل بخطاب مسهب على أن الآذان التي تصغي للفلاسفة قليلة نادرة، ثم ألاحظ أن التراث لم يوضع أصلا ليقرأه الفلاسفة، وإنما هو للناس والملأ والجمهور. وهؤلاء لا تربطهم بأقوال الفلاسفة وتنظيراتهم للتراث وغيره إلا أضعف الصلات وأوهنها، وهم في علاقاتهم بالتراث سيتوسلون لتمثله بالأدوات « الطبيعية » البسيطة التي جروا على استخدامها في تعاملهم مع وجوه الحياة الطبيعية العادية. وأية قراءة « فنية » للتراث، سواء أجاءت من رؤية بنيوية صارمة أم من نظرة لسانية مدققة، أم من رد فينومينولوجي لا يقدر عليه إلا المحترفون جدا، لن تعني لهم وعندهم شيئا، وسيفضلون على هذا كله ـ وأنا أرى أنهم على حق في ذلك ـ العودة الى النصوص مباشرة وفهما، وفقا لقواهم الطبيعية العادية، وللملكاتهم التي لم تألف أدوات التحليل التقنية. قد تكون أنت أفلحت في الوصول الى عدد أوسع من القراء، لكن جل الآخرين ينشدون التعمية والتجريد المصنوع، والمصطلح الثقيل الناشز، فإلى أين تذهب إذن هذه المشروعات المفلسفة؟ وأين هو موقعها من الناس؟

د. الجابري : من خصائص الفكر أنه يعيد إنتاجه باستمرار، وليس من الضروري أن يعيد إنتاجه بأحسن، بانتظار أن يعيد إنتاجه بطريقة أخرى، بطريقة أفضل، وبطريقة عملية. لننظر الآن الى الفكر العامي : عندما تفقد أم ابنها في حادثة سيارة، وتأتي نساء ليعزين هذه الأم ويواسينها يقلن لها : لقد جعل الله هذا سببا، ما كانت هذه السيارة إلا سببا! ماذا يعني السبب انه ليس السبب الفاعل، فالسبب الفاعل شيء آخر، ذلك قضاء وقدر، وهذه «مناسبة» جاءت، وكان المكتوب هذه المسألة. هذا الحديث يؤدي دورا كبيرا، فهو يعبر عن ثابت فكري في عقل الجماهير عندنا، وهو غياب السببية. السبب عندنا مناسبة، وليس هناك سبب فاعل. من أين جاءت هذه الفكرة؟ جاءت من نظرية الأشاعرة في الكسب، إذ يرجعون السببية الى العادة. ليس هناك أسباب تفعل، وإنما هناك عادات أو مناسبات جعلها الله مقترنة بأفعاله. هذا خطاب عالم، جاء في علم الكلام، ثم تدرج، وتحول، حتى أصبح بنية عقلية شعبية جماعية. قضية الجبر والمكتوب نحن نرجع بها الى السياسة، الى معاوية والأمويين، فهم الذين كرسوا فكرة الجبر : الله هو الذي ساق إلينا الخلافة قضاء وقدرا!

وما نسميه بالفكر العامي هو عبارة عن فكر عالم، تحول عبر العصور الى فكر عامي : عندما نتكلم نحن الآن كفلاسفة ومفكرين نخاطب نخبة، ونخاطب جيلا صاعدا متعلما، هذا الجيل الصاعد المتعلم نرجو أن يتحول شيئا فشيئا وينخرط في فكر آخر، أكثر تحررا من فكرنا، فيتجدد ذلك الفكر العربي. ومبدأ هذا التجديد النخبة، لأن النخبة هي التي تحرك المدارس. نحن نكرس الظلاميات في المدارس، نعلمهم اللامعقول، نحن ننتج فيها الجهل واللامعقول، ولو كان المعلم عندنا يشترك مع غيره في حد ادنى من المعقولية في المعالجة، ويختلف أيديولوجيا ومذهبيا مع غيره ماشاء، لكان تعليمنا يحمل قدرا أعلى من المعقولية، ولارتقى الفكر الشعبي الى مستوى معين من المعقولية. خذ مثالا : قبل خمسين سنة كان المغرب حافلا بالطرق الصوفية، وكان لكل شيخ طريقة، وكان كل فرد ـ أعوذ بالله ـ يؤمن بشيخ الطريقة أكثر مما يؤمن بالله ورسوله. قامت الحركة الوطنية وكانت هناك الحركة السلفية في الوقت نفسه، فوجهنا حملة شعواء على هذه الطرق، فتحول الأمر، وقضي نهائيا على الفكر الصوفي، وأصبح الانتماء الى الحزب،

وليس الى الطريقة، وذلك كله بفضل نخبة من السلفيين، ومن محمد عبده الى علال الفاسي، ونخبة من ممثلي الحركة الوطنية، من كان البادىء في النهاية؟ النخبة!، ونحن في هذه اللحظة التي نعيشها في الوطن العربي، تستطيع النخبة المثقفة التي تتكلم عن علم ومنهجية ولها استراتيجية في الكلام والخطاب ان تغير العقل العربي بسهولة .

العقل العربي :

د . جدعان : لعل هذه مناسبة تدعوني الى أن أفجر قضيتين : أما أولاهما فهي قضية (العقل العربي)، فالحقيقة أنه يتعذر المضي معك في الحديث دون إثارة قضية (العقل العربي) التي نسب إليك فيها القول بعقل عربي ثابت أزلي موهوم، وبأن لهذا العقل «ماهية ثابتة دائمة»، غير قابلة للتعديل والتطوير، وبأن للعرب ماهية عقلية نهائية، تحكم تفكيرهم وسلوكهم، وتلاحقهم عبر المكان والزمان. وفي مثل هذه القضية أيضا ينسب إليك من القول بأن العقل العربي عقل فقهي، أي عقل قياسي، يقيس الغائب على الشاهد، وإذا صح هذا القول فمعناه أن أحوال العقل العربي هي مما يبعث على اليأس والقنوط، يضافان الى حالة اليأس والقنوط من رأب الصدع الذي تثيره دعوى القطيعة المعرفية بين المشرق والمغرب. ما الذي يحدث حتى يصار الى ترجمة أقوالك على هذا النحو؟ ولست أحسب إلا أن لهذه الدعاوى أساسا ما، إذ لا نار بدون دخان، فمن أين تأتي الشبهة؟

د . الجابري : هناك أسباب أو عوامل يمكن أن تكون مصدرا لسوء الفهم. وأنا أستبعد تلك التي يمكن أن تنطوي على سوء نية. الإنتاج الفكري أو المفكر في العادة لا ينتج إلا عبر مفكر آخر، فأنا لا يمكن أن أنتج شيئا بدون أن أتعامل مع ابن رشد أو ابن خلدون أو الفارابي وغيرهم. ومشكلة الذين يأتون ويكتبون عني أنهم بكيفية من الكيفيات ينتجون عبر ما أكتب قد يؤيدون وقد يعارضون. هذا من حقهم، لكن يحدث أحيانا أن المنتج للأفكار عبر مفكر آخر لا يكون قد أستوعبه كل الاستيعاب، لا يكون قد دخل معه الى البيوت والسراديب التي دخل هو اليها، فأنا لكي أفكر وأنتج خطابا فكريا عن ابن خلدون مثلا يجب أن أكون قد درست جميع مؤلفاته، وعرفت وجهته السياسية، وعانيت مما عاناه، وتقمصته، حينئذ سأتفهمه وأفهمه، وأستطيع أن أنتج خطابا مؤيدا أو معارضا له مؤسسا بالمرجعية نفسها. أما أن آتي وأقرأ فصلا من كتاب، أو فقرة منه، أو مقالة عنه، ثم أدخل معارضا أو مادحا، فهذا إنتاج رديء جدا. وكثير مما قرأت عني هو من هذا النوع. المهم هو أن يدخل المنتج معك في نصوصك، في المنهج الذي اخترته، يتزوج معك زوجتك التي هي الثقافة العربية. هنا تعدد الأزواج جائز، وضروري. لقد قرأت مقالة من أعجب المقالات مما كتب عني، مقالة كلها سباب وهجوم على العرب، وعلى وسائل الاعلام العربي والمجلات والجرائد. . لماذا؟ لأنها أبرزت شخصا واحدا هو فلان، وأغفلت الآخرين. وهذا كلام لا يستحق الرد،

د . جدعان : نعم ، أنت محق في هذا، لكنك لم توضح مسألة العقل العربي الثابت الخالد.

د . الجابري : سأعيد قراءة ما قلت : فرقت بين عقل مكوَّن، وعقل مكوِّن، العقل المكوَّن العربي في الفقه وفي كذا وكذا. . وهذا بقي ثابتا، لكنْ هناك عقل مكوِّن، نحاول ان نحركه، ليكون عقلا مكوِّناً آخر. يبدو لي أنني أجد نفسي أحيانا مطالبا باستدعاء الكاتب أمامي، لأقرأ عليه ما كتبت.

د . جدعان : نعم أذكر تماما هذا التمييز المشهور عن اندريه لالاند الذي استعنت به في تحديد معنى العقل ومعنى الثقافة، ويبدو لي أنه تمييز وجيه، يساعد على تبديد سوء الفهم الذي تحدثنا عنه.□



"بستان عائشة" ومرحلة جديدة في شعر عبدالوهاب البياتي

بقلم : الدكتور حامد أبو أحمد

الشاعر عبدالوهاب البياتي واحد من أغزر شعراء العالم إنتاجا ، فهذا الديوان الأخير - بستان عائشة - الصادر عن دار الشروق بالقاهرة في فبراير ١٩٨٩ يحمل رقم ٢٠ في مجمل دواوينه التي أخذت تتوالى منذ عام ١٩٥٠م ، وهو العام الذي شهد مولد ديوانه الأول « ملائكة وشياطين » .

وفي هذا الديوان يواصل البياتي رحلة الحياة والشعر معاً ، مثلما نقول عن شاعر إسبانيا الكبير ، خوان رامون خمينيث ، الفائز بجائزة نوبل في الآداب ١٩٥٦ : إن حياته كانت متصلة بأعماله اتصالا وثيقا ، نقول عن شاعرنا العربي الكبير : إن الشعر كان - وما زال - بالنسبة له مبرر حياة ، ذلك أن تجربة البياتي الشعرية قد امتزجت ، منذ البداية ، بتجارب حياتية ثرية متنوعة ، ظل يغوص فيها إلى الأعماق ، عاما بعد عام ، ومرحلة بعد مرحلة ، وكأنه بروميثوس ، يريد أن يحوز شرف سرقة النار من أجل الناس . ومثل كل الشعراء العالميين الكبار تولد لدى البياتي وعي بأن عليه ألا يتوقف عند مرحلة واحدة ، يكرر نفسه بعدها ، ومن ثم تعرض لأزمة حادة عام ١٩٦٢ : كانت قد صدرت دواوينه السبعة الأولى حتى عام ١٩٦٠ (أضيف إلى هذه الدواوين السبعة فيما بعد ديوانه « النار والكلمات » الذي صدر عام ١٩٦٤ ، وتكوّن من هذه الدواوين بعد ذلك الجزء الأول من مجموعته الشعرية الكاملة) ، وأحس البياتي أنه يمكن أن يدخل إلى طريق مسدودة ، فعانى معاناة شديدة ، خرج بعدها ظافرا ، بعد أن اكتشف طرقا جديدة للتعبير ، فتلبس عمر

الخيام في مسرحية « محاكمة في نيسابور » ، ووصل إلى مرحلة الرؤيا الشاملة للكون والحياة في دواوينه التي صدرت بعد ذلك ، وهي « الذي يأتي ولا يأتي » (١٩٦٦) ، و« الموت في الحياة » (١٩٦٨) ، و « الكتابة على الطين » (١٩٧٠) . وكما يقول المستعرب الإسباني فيديريكو أربوس : « فإننا نلاحظ في هذه الدواوين الثلاثة ، منذ الوهلة الأولى ، رغبة الشاعر في تحويل مضمون كل قصائدها إلى مشروع موحد شامل ، أي محاولة كتابة قصيدة طويلة واحدة ، موزَّعة في ثلاثة كتب » . أي أن البياتي كان أحد رواد اتجاه « الديوان القصيدة » ، مثلما كان أحد رواد الشعر الحديث في أدبنا العربي المعاصر ، وكانت معاناته هي معاناة الشاعر الكبير الذي يفتح الأبواب ويمهد الطرق .

وقد كان البياتي منذ نشأته الأولى مؤهلا للوصول إلى ما بدأ يحققه في هذه المرحلة الثانية من إنتاجه الشعري الغزير . يقول في كتابه النثري « تجربتي الشعرية » ، وهو يتحدث عن طفولته : « كان تكويني النفسي من أساسه الرؤية الشاملة للأشياء ، والنفاذ إلى جوهر الأشياء الصغيرة التي هي مادة الشعر وينبوعه » .

وقد ظل البياتي يتطور باستمرار ، رافضا السكونية والجمود ، فجاءت كتبه خلال عقد السبعينيات تحمل تجديدا في اللغة والإيقاع ، وبناء القصيدة ، وتعمقا أكبر في الجانب الرمزي والموضوعات المألوفة ، وحضوراً أدبيا أكثر نشاطا للتصوف العربي القديم كما يقول أربوس . وفي هذا الديوان الأخير « بستان عائشة » نجد البياتي يقدم تجربة جديدة متميزة ، صحيح أنها تحمل الكثير من العناصر المبثوثة في أعماله السابقة ، ويظهر فيها الكثير من اللوازم المعروفة عن شاعرنا ، كما سوف نوضح فيما بعد ، ولكن العناصر الجديدة في هذا الديوان أكثر بروزا ، وتستدعي أن نتوقف عندها كثيرا .

نزعة التجديد

ويحدثنا البياتي نفسه عن نزعة التجديد المستمر في أعماله ، فيقول في كتابه « تجربتي الشعرية » : « لقد أدركت من خلال تجربتي أنه ليس من المعقول أن أتجمد أو أتوقف عند أشكال فنية من التعبير ، وإنما عليّ أن أتجدد باستمرار ، من خلال عملية الخلق الشعري ، كما تجدد الطبيعة نفسها بتعاقب الفصول » . ولأن البياتي لم يكن أبدا شاعرا يعيش في برج عاجي أو يجري وراء الكلمات المنمقة ، وإنما ظل دائما في حالة انفعال بما يحدث في العالم ، يرصد حركة الثورة العالمية ، ويحلق مع رموزها العالية ، وعندما كان يسقط أحدهم في الساحة شهيدا (مثل شي جيفارا) كان يعيش في جو من المعاناة القاتلة ، يطير بها من منفى إلى منفى ، كل هذا ـ كما يقول ـ قاده إلى إيجاد الأسلوب الشعري الجديد الذي يعبر به ، وهو أسلوب القناع ، لقد حاول أن يوفق بين ما يموت وما لا يموت ، بين المتناهي واللامتناهي ، بين الحاضر وتجاوز الحاضر ، وتطلب هذا منه معاناة طويلة في البحث عن الأقنعة الفنية ، وقد وجد هذه الأقنعة في التاريخ والرمز والأسطورة ، وكان في هذا الاختيار يهدف إلى التعبير ، من خلال قناع عن المحنة الاجتماعية والكونية .

بستان عائشة

يضم هذا الديوان اثنتين وستين قصيدة ، باعتبار أن القصيدتين الأخيرتين ، وهما « الدينونة » و « بانوراما أصيلة » ، على الرغم من اشتمالهما على عدد من القصائد (الأولى خمس والثانية سبع) فإن كلا منهما قصيدة واحدة ، مقسمة إلى عدة قصائد ، تحمل كل منها عنوانا قائما بذاته ، وضمن الكل في سلسلة واحدة . وقد حرص البياتي ـ على غير العادة ـ أن يضع

تواريخ كتابة عدد كبير من القصائد .

وإذا كانت قد وصفت طبيعة القصيدة عند البياتي ، وبخاصة في مرحلته الأولى ، بتركيز الشعور في الصورة الموحية ، والاكتفاء باللمسة السريعة والإيماءة الخاطفة على حد تعبير الدكتور عز الدين اسماعيل ، كما وصفت التجربة الشعرية عنده بأنها مكثفة إلى أقصى حدود التكثيف ، وثرية بالدلالات والرؤى العديدة المتنوعة ، كما قرر الدكتور صبري حافظ ، نقول : إذا كانت قصيدة البياتي قد وصفت بذلك في مرحلته الأولى ، فإن مستوى التكثيف والتركيز قد بلغ في هذا الديوان الأخير غاية المدى ، حتى لنجد بعض القصائد الكاملة مكونة من ثلاثة أبيات أو أربعة فقط ، وهي بالطبع ليست أبياتاً من البحور الخليلية الكاملة ، أو المجزوءة ، وإنما هي أبيات التفعيلة ، بمعنى أن البيت قد يكون عبارة عن كلمة أو كلمتين فقط ، ومن ذلك قصيدة « الوجه » التي تقول :

وجهان في المرآة :
فلا تكذب
فإن الله
يراك في المرآة

ولعلنا لا نجاوز الصواب إذا أطلقنا على مثل هذه القصيدة اسم القصيدة المقطعة ، أو القصيدة التوقيع ، ونقلنا هذه الكلمة الأخيرة (التوقيع) من دلالتها المعروفة في تراثنا ، وهي ما كان يعرف بأسلوب التوقيعات إلى دلالة حديثة أكثر عمقا وثراء ، وهي الخطاب الشديد الإيجاز الذي يسعى إلى التقاط فكرة مركزة جدا في عدد قليل من الكلمات ، بعد أن تبلورت داخل الآليات الفاعلة في ذهن الشاعر ، وانتقلت من المستوى السياقي (الانزياح الدلالي) إلى المستوى الاستبدالي (الاستعاري) الذي يجعل من هذا الانزياح شيئا طبيعيا ومألوفا في لغة الشعر .

وقد أحصينا هذه القصائد التوقيعية في الديوان فوجدناها تبلغ ٣٦ قصيدة ، بعضها يتكون من ثلاثة أبيات أو أربعة أو خمسة ، وكثير منها في حدود ستة أبيات أو سبعة ، وأكثرها طولا خمسة عشر بيتا . وهذا يعني أن عبدالوهاب البياتي قد بدأ يهتم اهتماما كبيرا بهذا النوع من القصائد ، حتى أصبح يشغل الجانب الأكبر في ديوانه الجديد . وإذا وضعنا في اعتبارنا أن القصائد الأخرى لا تخلو من تكثيف وتركيز فإننا نستطيع أن نؤكد بأن شاعرنا العربي الكبير أصبح يميل في هذه المرحلة الأخيرة إلى نمط القصيدة المركزة التي يريد أن يصل بها إلى هدفه بأقل الكلمات وأقل الصور .

التكثيف في المرحلة الأولى

أعلن البياتي عن مذهبه في التكثيف في المرحلة الأولى من حياته الشعرية بهذه الأبيات من ديوان « النار والكلمات » التي تقول :

سيداتي ، سادتي
خطبتي كانت قصيرة
وأنا أكره أن يستغرق اللفظ زماني
ولساني
ليس سيفا من خشب
كلماتي ، سيداتي ، من ذهب
كلماتي ، سادتي ، كانت عناقيد الغضب
وأنا لست بسكران ، ولكني متعب .

وقد رصد الدكتور صبري حافظ في مقال بعنوان « رحلة البياتي مع النيران والكلمات » ضمن كتاب « مأساة الإنسان المعاصر في شعر عبدالوهاب البياتي » المنشور في الستينيات ، نقول : رصد الدكتور حافظ دوافع هذا التكثيف في شعر البياتي الأول ، فقال : « وهناك ظاهرة أساسية أخرى في شعر البياتي ، وهي متعلقة بطبيعة بناء القصيدة عنده ، وبطريقة بلورة التجربة الشعرية داخلها . فالبياتي لا يملك الوقت الكافي لتنميق

الأغنيات ، ولكن الشعر عنده سلاح يستله من غمده في لحظة خاطفة حادا ومستعدا للمواجهة ، لذلك فإن التجربة الشعرية عنده تقدم في أقل عدد ممكن من الصور والألفاظ » ويمثل الدكتور حافظ لذلك بثلاث قصائد كاملة من دواوينه الأولى ، أولاها قصيدة « خيانة » (عشرة أبيات) من ديوانه الثالث « المجد للأطفال والزيتون » . وقد علق عليها بقوله : « بأقل عدد من الكلمات البسيطة كثف لنا البياتي أبعاد تجربة كبيرة مترامية الأطراف ، وقدم لنا قضية الخيانة الفكرية بصورة بسيطة جدا ، ولكنها تحمل في بساطتها هذه أفجع ألوان البشاعة » . والقصيدة الثانية هي قصيدة « المغني والقمر » (ثلاث حركات وتسعة أبيات) ، من ديوانه الثامن « النار والكلمات » ، وقد علق عليها أيضا بقوله : « إن التجربة الشعرية في هذه القصيدة مقدمة عبر أقل عدد ممكن من الكلمات والصور ، ولكنها محملة في الآن نفسه بأكبر طاقة ممكنة من الشعرية والرؤى » .



● غلاف الديوان

والقصيدة الأخيرة هي قصيدة « انتظار » من ديوانه السابع « كلمات لا تموت » (أحد عشر بيتا) . وقد جاء تعليقه عليها كما يلي : « هذه هي القصيدة كاملة . . تجربة شعرية طويلة جدا من ناحية كينونتها المكانية والزمانية ، مكثفة جدا ، ومبلورة في أقل عدد من الألفاظ » .

ولعله من الأنسب أن ننقل هنا إحدى هذه القصائد الثلاث التي وصفها الدكتور حافظ بأنها مكثفة جدا ، ونقارن بينها وبين إحدى القصائد المكثفة في ديوان « بستان عائشة » ، ولتكن القصيدة الأخيرة « انتظار » ، وهي تحمل خصائص القصيدتين الأخريين نفسها . تقول :

جلادك المسكين يضحك في غباء
قالوا له : عذّبه
حتى تصبغ الأرض الدماء
قالوا له : ماذا ؟
وفي عينيك عصف الكبرياء
يا أسود العينين ، يا حبي المخضب
بالدماء
يا عندليبي
إن أمك في المساء
في كل يوم تفتح الشباك لكن المساء
يمضي ولا تأتي
فتجهش في البكاء .

فهذه القصيدة ، كما نلاحظ ، على الرغم من قصرها ومن تكثيفها الشديد فيها غنائية واضحة ، والنزعة البشرية فيها بارزة ، وكذلك الاتجاه النضالي ، بل إن فيها جانبا « رومانتيكيا » لا يخفى على القارىء العادي .

قصيدتان بخصائص مشتركة

أما بالنسبة لديوان « بستان عائشة » فسوف نختار قصيدتين (وكل منها أيضا تحمل خصائص مشتركة في معظم قصائد الديوان) ، هما : قصيدة « الشهيد » ، وقصيدة « امرأة » .

وسبب اختيارنا للقصيدة الأولى أنها قريبة في المضمون من قصيدة « انتظار » السالفة الذكر، وذلك لأن الشهادة عند البياتي لا تكون في مجال الدفاع عن الأوطان فقط ضد الأجانب المعتدين بالمفهوم الوطني، أو ضد الكفار والمشركين بالمفهوم الديني، ولكن الشهيد ثائر يتحدى في ثورته الموت، كما سوف نقرأ في القصيدة التي تقول : « الشهيد »

يتوهج في نور المشكاة
متحدا في ذات الله
لا يفنى مثل شعوب الأرض
يتحدى في ثورته الموت

فهذه أيضا قصيدة كاملة مكونة من أربعة أبيات فقط. وكما نلاحظ فإنها تخلو تماما من أي نزعة بشرية، ذلك لأن صوت الشاعر ليس له وجود على الإطلاق، لا عن طريق « الأنا »، أو أي أسلوب شعري غنائي يَنِمّ عن صوته، وإنما تبدو الأبيات وكأنها مجرد تعريف للعنوان، وهو « الشهيد » المعرف بالألف واللام. والتعريف هنا مقصود، وله دلالة مهمة في فكر الشاعر الذي يرفع قيمة الثورة والتمرد على الأوضاع الظالمة، وعلى الرغم من بساطة الكلمات والصور وقربها من الفهم العقلي إلا أنها تنطوي على فلسفة عميقة، فهي تلخص فكر البياتي كله في كلمات قليلة وأبيات قليلة. أما النزعة الرومانتيكية فليس لها وجود أيضا، وبالإضافة إلى ذلك فإن الأبيات جاءت محملة ببعض الاكتشافات التي وصل إليها البياتي خلال مراحله المتطورة، ومشواره الطويل. فهذه الأبيات الأربعة تحمل فكرة الموت في الحياة (يتحدى في ثورته الموت) التي بلورها البياتي في دواوينه الصادرة خلال النصف الثاني من عقد الستينيات، كما يظهر فيها التوجه الصوفي واضحا، وهو الاتجاه الذي تبلور في شعره خلال عقد السبعينيات. وبذلك تكون قصيدة « الشهيد » في ديوان « بستان عائشة » أكثر تكثيفا، وأكثر إيجازا، وأكثر إدراكا للهدف، فضلا عما توجز من أفكار وتوجهات وتجارب سابقة.

والقصيدة الثانية هي قصيدة « امرأة » التي تقول :

تعود كل ليلة من قبرها النائي
إلى مدائن الصفيح
تمارس الحب مع الشيطان في بيوتها
تصهل مثل فرس في الريح
وكلما أدركها النعاس في تجوالها
عادت إلى الضريح.

فهذه قصيدة كاملة أيضا، مكونة من ستة أبيات، ونلاحظ فيها هي أيضا ما يلي : اطراح النزعة البشرية، خلوها من أي عنصر « رومانتيكي »، اشتمالها على مجموعة من الأفكار الجديدة التي اكتشفها الشاعر خلال مراحل تطوره الشعري، مثل استخدام أسلوب « القناع » (وذلك لأن المرأة هنا هي عائشة) والعودة الأبدية، والموت في الحياة، فضلا عن الرموز والإشارات التي تثرى دلالة الكلمات، وتوجه الذهن نحو البنى العميقة الكامنة خلف البنى السطحية للجمل وللقصيدة، ثم إن القصيدة موغلة أيضاً في التكثيف والإيجاز، وتتجه نحو الهدف بعدد قليل من الكلمات، وعدد قليل من الأبيات التي تشكل في النهاية قصيدة كاملة الأركان، ذات بناء عضوي واحد، وفكرة مركزة واحدة، وإن كانت متعددة الأبعاد، وترتكز على رؤية شاملة للكون والحياة.

ولا شك أن البياتي لم يصل إلى هذه المرحلة البالغة التركيز إلا بعد أن انصهر في تجارب أخرى شبيهة، ظلت تقربه مرحلة بعد مرحلة من هذا المفهوم الأخير للقصيدة، ففي قصيدة طويلة هي « الرحيل إلى مدن العشق » من ديوان « كتاب البحر » الصادر عام ١٩٧٣،

وهي قصيدة مكونة من أحد عشر مقطعا ، بعضها قصير وبعضها طويل ، نجد بعض المقاطع (وبالتحديد الثالث والرابع والخامس والسابع) مكونة من أربعة أبيات أو خمسة فقط ، ويشكل كل منها وحدة قائمة بذاتها ومندرجة ضمن الكل ، ولا يكاد ينقصها شيء عن قصائد الديوان الأخير اللهم إلا العنوان فقط ، ذلك أن كل قصيدة في ديوان « بستان عائشة » مهما صغر حجمها تحمل عنوانا ـ كما أسلفنا ـ أما في هذه القصيدة فالمقطوعات لا تحمل إلا أرقاما فقط . ولنأخذ مثلا المقطوعة رقم (٣) التي تقول :

بيكاسو في المنفى
يشعل باللون البحر وقصر الكاهنة العذراء
يتسول فوق القمة ضوء الشمس الزرقاء
يجلد ظهر المتسول ، يبكي في نهر الغربة
أزمان الغرباء

فهذه أبيات مكثفة سريعة موجزة تشبه قصائد ديوان « بستان عائشة » وتحتاج إلى عنوان فقط ، وهو واضح تمام الوضوح ، لأنها تتحدث عن الرسام الشهير « بيكاسو » ، ثم إنها تحاول رصد فكرة فيها قوة الشعر الحق وعمقه ودقته وامتداده إلى دلالات أوسع ورؤيا أشمل . وإذا قارنا بينها وبين قصيدة « امرأة » السالفة الذكر من جهة البنى النحوية والصرفية ، ومن الناحية الأسلوبية ، نجد أن هاتين المقطوعتين (أو بالأحرى القصيدة والمقطوعة) تستخدمان أسلوب الحكاية ، ومن ثم نجد الفعل المضارع هو سيد الموقف . ففي القصيدة نجد ثلاثة أفعال مضارعة (تعود ، تمارس ، تصهل) ، وفعلين ماضيين (أدركها ، وعادت) ، وفي المقطوعة نجد أربعة أفعال مضارعة (يشعل ، يتسول ، يجلد ، يبكي) وهي كل الأفعال في القطعة . أما الجمل النحوية فتأتي متوازية بدون حروف عطف ، حتى في إطار البيت الواحد (يجلد ظهر المتسول ، يبكي في نهر الغربة) ، فالتشابه إذن واضح بين هذه القطعة من « كتاب البحر » وبين كثير من قصائد « بستان عائشة » ، وهذا مجرد مثل من أمثلة متعددة يمكن أن نعثر عليها في دواوين البياتي السابقة ، وخاصة في المرحلة الثالثة التي تضم الدواوين المنشورة في المجلد الثالث من الأعمال الكاملة ، وهي « قصائد حب على بوابات العالم السبع » و« كتاب البحر » و« سيرة ذاتية لسارق النار » و« قمر شيراز » ، ويضاف إليها ديوان « مملكة السنبلة » المنشور عام ١٩٨٠م . إذن فهذا الاتجاه الجديد الكامل النضج قد ظهرت بواكيره الأولى في الدواوين السابقة على هيئة مقطوعات قصيرة داخلة ضمن قصائد طويلة ، ولكن البياتي في الديوان الأخير عمَد إلى أن تأخذ التجربة حيزها المحدود حتى تصل إلى الهدف من أقرب طريق وتلتقط الفكرة في سرعة وحزم وحسم معا . □

*** الحشرة قد تلسع جوادا أصيلا، ولكنها تبقى حشرة، والجواد يبقى أصيلا.**

*** من غربل الناس نخلوه، لذا فلنحذر الثرثرة وتناول الناس بما يعنينا وما لا يعنينا، فبهذا راحة وإراحة واطمئنان!**

«ميخائيل نعيمة»


ميخائيل نعيمة

أفكار الأقدمين

(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

فن السياسة وولاة الأمور

بقلم : رفاعة رافع الطهطاوي*
(١٨٠١ - ١٨٧٣)

إن الأصول والأحكام التي بها إدارة المملكة تسمى : فن السياسة الملكية ، وتسمى : فن الادارة ، وتسمى أيضاً : علم تدبير المملكة ، ونحو ذلك ، والبحث في هذا العلم ، ودوران الألسن فيه ، والتحدث به ، والمنادمة عليه في المجالس والمحافل ، كل ذلك يسمى « بوليتيقة » ، أي سياسة ، وينسب إليه فيقال : « بوليتيقي » ، أي سياسي . فالبوليتيقية هي كل ما يتعلق بالدولة وأحكامها وعلائقها وروابطها ، فقد جرت العادة في البلاد المتمدنة بتعليم الصبيان القرآن الشريف في البلاد الإسلامية وكتب الأديان في غيرها قبل تعليم الصنائع ، وهذا لا بأس به في حد ذاته ، ومع ذلك فمبادىء العلوم الملكية السياسية ، التي هي قوة حاكمة عمومية ، وفروعها ، مهملة في الممالك والقرى بالنسبة لأبناء الأهالي ، مع أن تعليمها أيضاً لهم مما يناسب المصلحة العمومية ، فما المانع من أن يكون في كل دائرة بلدية معلم يقرأ للصبيان ، بعد تمام تعليم القرآن الشريف والعقائد ومبادىء العربية ، مبادىء الأمور السياسية والإدارية ، ويوقفهم على نتائجها ، وهو فهم أسرار المنافع العمومية التي تعود على الجمعية وعلى سائر الرعية من حسن الإدارة والسياسة والرعاية في مقابلة ما تعطيه الرعية من الأموال والرجال للحكومة ، ويفيدهم أسباب إيجاب الحكومة على الأهالي أن تخدم وطنها بنفسها خدمة شخصية في العسكرية ، وأسباب الزام الأهالي بدفع حصة مخصصة من أموالهم بوصف خراج أو « ويركو » أو عوائد ، أو نحو ذلك من جبايات الحكومة القائمة في الدول الإسلامية مقام الزكاة المعطلة ، وكذلك ليعرف الأهالي

* الأعمال الكاملة تحقيق د . محمد عمارة المجلد الأول ص ٥١٧ - ٥٢٠ .

أسباب إيجاب الحكومة عليهم أن يتنازلوا عن شيء من أملاكهم وعقاراتهم عند الاقتضاء واحتياج الحكومة لذلك للمصلحة العمومية ، كتوسيع الطرق ، وما أشبه ذلك من العمليات التنظيمية . فإذا ارتكز في أذهان الصبيان من زمن شبوبيتهم أصول هذه السياسات الشرعية وفروعها ، وفهموا الأسباب والمسببات ، سهل عليهم عند بلوغ الرشد ، والوصول إلى كمال الرجولية ، إجراء مفعولها .

فاللائق أن يكون بكل ناحية معلم لمبادىء الإدارة ومنافع الجمعية العمومية في مقابلة ما تدفعه الجمعية للحكومة ، فإن هذا التعليم ، مع تقديمه للشخص المتعلم ، له تأثير معنوي في تهذيب الأخلاق ، ومنه تفهم الأهالي أن مصالحهم الخصوصية الشخصية لا تتم ولا تنجز إلا بتحقيق المصلحة العمومية ، التي هي مصلحة الحكومة ، وهي مصلحة الوطن ، فتذعن نفوسهم بأن الفوائد الخصوصية ليست في حد ذاتها مضمونة الحصول إلا في ضمن الفوائد العمومية المذكورة .

ولأن الحكومة تقتضي حاكماً ومحكوماً ، فلا يفهم الملك إلّا بالرعية ، ولا تفهم الرعية إلا بالملك ، فلهذا وجب أن نبين كلا منها ، ونبتدىء بولاة الأمور .

وولي الأمر هو رئيس أمته ، وصاحب النفوذ الأول في دولته ، وحاكم متصرف بالأصول المرعية في مملكته ، ولا توجد رعية في مملكة منتظمة بدون راع .

وقد تأسست الممالك لحفظ حقوق الرعايا ، بالتسوية في الأحكام ، والحرية ، وصيانة النفس والمال والعرض على موجب أحكام شرعية ، وأصول مضبوطة مرعية ، فالملك يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين .

ولما كانت السياسة جسيمة ، لا يقوم بها واحد اختص الملك بمعالي الأحكام وكلياتها ، وخلع بعض نفوذه في جزئيات الأحكام على المحاكم والمجالس ، وجعل لهم لوائح وقوانين خصوصية ، ترشد أفعالهم ولا يتعدونها . قال بعضهم : ليست في الدنيا جمعية منتظمة ولا مملكة معتدلة الأحكام ، إلا وتكون القوة فيها بالأصول العدلية ، فالأصول العادلة تصون ناموس الدولة عن الملامة ، ولهذا كان جميع ما أمضاه الملك السالف من الأحكام ، وأجرى مقتضاه بالفعل والتنجيز لا يسوغ لمن جاء بعده أن يخدشه ، ويبطل أحكامه التي جرى مقتضاها .

وذمة الملوك كذمة غيرهم ، تتأثر بالانبساط من الخير والانقباض من الشر ، فالذمة حكم وعدل ، تنفر غالباً من الظلم والجور ، فهي عنوان الخوف من الله تعالى في كونها تحمل الملوك على العدل ، ومما يحملهم على العدل أيضاً ويحاسبهم محاسبة معنوية الرأي العمومي ، أي رأي عموم أهل ممالكهم أو ممالك غيرهم ممن جاورهم من الممالك ، فإن الملوك يستحيون من اللوم العمومي ، فالرأي العمومي سلطان قاهر على قلوب الملوك والأكابر ، لا يتساهل في حكمه ، ولا يهزل في قضائه ، فويل لمن نفرت منه القلوب ، واشتهر بين العموم بما يفضحه من العيوب .

ومما يحاسب الملوك أيضاً على العدل والإحسان : التاريخ ، أي حكاية وقائعهم لمن بعدهم من ذراريهم وخلفهم من الأجيال الآتية ، فإن المؤرخ يذكر للأمة أخبار ملوكها ، فينتقل من العين الى الأثر ، ومن البيان الى الخبر ، فيبث محاسن الملوك ومثالبهم لأعقابهم ليعتبروا ، فدأب الملك العاقل أن يتبصر في العواقب ، وأن يستحضر في دائم أوقاته ، وفي حركاته وسكناته ، أن الله سبحانه وتعالى اختاره لرعاية الرعية ، وجعله ملكاً عليهم لا مالكاً لهم ، وراعياً لهم ، يعني ضامناً لحسن غذائهم حساً ومعنى ، لا آكلا لهم . □



مضخة صغيرة تساعد مرضى القلب

بقلم : الدكتور وجيه رفعت مندو*

بعد عمليات زرع القلوب البشرية ، وصنع قلوب صناعية بديلة للقلوب المريضة ، ابتكر العلماء مضخة صغيرة ، تدخل جوف القلب العليل ، لتساعده في العمل ريثما يتم علاجه . فكيف تعمل هذه المضخة ؟ وما مكوناتها ؟

أجريت مؤخرا في معهد تكساس للقلب بمدينة هيوستون الأمريكية ـ وهو واحد من أكبر المراكز العالمية ـ عملية وضع واستخدام مضخة صغيرة ، تقوم بمساعدة القلب في عمله سُميت (المضخة الدموية) ولا يزيد حجمها عن بضعة مليمترات ويمكن إدخالها لجوف القلب بدون عملية جراحية كبيرة .

وكما هو معروف فالقلب يتألف من أربع حجرات أهمها البطين الأيمن الذي يضخ الدم الوريدي الأزرق إلى الرئتين للتخلص من غاز ثاني اكسيد الكربون ومزجه بالأوكسجين ، والبطين الأيسر الذي يضخ الدم النقي الأحمر عبر الشريان الأبهر لتغذية مختلف أنسجة الجسم .

والدورة الرئوية قصيرة ، ومقاومتها قليلة ، ويمكن للبطين الأيمن القيام بها بقليل من الجهد والطاقة . أما البطين الأيسر فهو يضخ الدم إلى أنحاء الجسم وهي مسافة طويلة ذات مقاومة عالية ، ولهذا كانت مهمته أكبر وعمله أشق وأهم ، وهو ذلك الجزء من القلب الذي تُعوِّل عليه حياة الانسان ، فاذا ما ضعف نتيجة أسباب مرضية أو جراحية أو غيرها ، يفقد قدرته على الضخ بشكل كاف لاحتياج الجسم ، وقد يؤدي هذا إلى الوفاة . وبواسطة هذه المضخة الجديدة يمكن للانسان أن يعيش على الرغم من قصور عضلة القلب حيث تقوم المضخة بالجزء الكبير من العمل ، فتريح القلب ريثما يستطيع العودة

* اختصاصي جراحة القلب والصدر والأوعية الدموية بمستشفى حمد العام ـ الدوحة/ قطر .

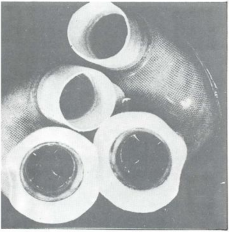
لنشاطه المعتاد ، وقد تتراوح هذه المدة من بضع ساعات حتى سبعة أيام .

كيف تعمل المضخة ؟

إنها تتكون من اسطوانة صغيرة من الفولاذ في داخلها توربين حلزوني صغير يدور بسرعة تصل إلى ٢٥ ألف دورة في الدقيقة ، وهي أربعة أضعاف سرعة دوران محرك سيارة السباق ، ونتيجة الدوران تسحب الدم من البطين الأيسر وتدفعه إلى الشريان الأبهر خلال أنبوبة صغيرة تصل بينهما . ولا يتعدى حجم المضخة بضعة مليمترات ، وحجمها يقارب حجم الممحاة المثبتة على طرف قلم الرصاص العادي ، ويمكن إدخال هذه المضخة الصغيرة بواسطة قسطرة رفيعة من أحد شرايين الفخذ وتمريرها عبر الشريان الأبهر لتوضع في البطين الأيسر ، وتستغرق هذه العملية البسيطة حوالي ٢٠ دقيقة ولا يلزمها تخدير عام . وتتصل المضخة خارج الجسم بمحرك الكتروني كهربائي صغير وذلك بواسطة أنبوبة رفيعة تشبه خيط المعكرونة يقوم بتحريك توربين المضخة . وآلية عمل مضخة الدم هذه تعتمد على مبدأ حلزون « أرخميدس » العالم الرياضي اليوناني الشهير الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد ، ويتألف من أنبوبة ملتفة بشكل حلزوني حول محور مائل داخل اسطوانة أكبر قليلا ، يوضع الطرف الأسفل من الأسطوانة في السائل ثم تحرك الأسطوانة حول محورها فيدخل السائل في الأنبوبة ويرتفع نتيجة الدوران حيث ينسكب من الطرف العلوي وهكذا يكون قد انتقل من مكان منخفض إلى مكان آخر مرتفع ، ويستخدم بعض المزارعين في الأرياف نفس المبدأ لنقل الماء من النهر المنخفض لري أراضيهم المرتفعة . وبفضل دوران المضخة السريع فهي تستطيع سحب ٤ لترات من الدم ودفعه في الدقيقة الواحدة ، وهذه الكمية كافية للانسان العادي في حالة الراحة ، فالقلب الطبيعي ، يضخ ما بين خمسة إلى ستة لترات من الدم في الدقيقة خلال المجهود اليومي العادي .

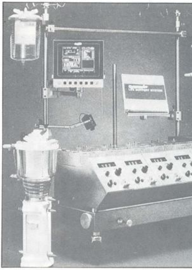
ومع أن تدفق الدم من هذه المضخة يختلف من حيث الكيفية عن تدفقه نتيجة ضخ القلب الطبيعي ، لكن الأطباء لم يروا أي آثار ضارة لهذا ، ولا تزال الدراسات قائمة لمعرفة الآثار الأخرى التي تترتب على استخدام هذه المضخة .

وهذه أول مرة تستخدم فيها هذه المضخة ، ففي ٢٦ ابريل (نيسان) ١٩٨٨ استخدمت المضخة على مريض يبلغ من العمر ٦٢ سنة حيث كانت قد أجريت للمريض زراعة قلب حديثة في معهد تكساس للقلب ، وبدأ جسمه يرفض القلب المزروع مما شل حركته وأحبط عمله وجعل حياة المريض مهددة ، ولذلك أدخلت المضخة الجديدة إلى قلب المريض المزروع وبدأت العمل ، أثناء ذلك أعطيت الأدوية المضادة للرفض ، وبدأ تأثيرها بالظهور واستعاد القلب نشاطه وعمله وبعدها أزيلت المضخة ببساطة بعد يومين من وضعها . وتفيد المضخة الجديدة هذه



● جهاز القلب الاصطناعي جارفيك ٧ .

المَرْضَى الذين يصابون بأزمات قلبية واحتشاءات حادة ، حيث يفقد القلب قدرته على الضخ وتتعلق حياة المريض بينْ الحياة والموت . وكذلك المَرْضَى الذين تجرى لهم عمليات على القلب ، ولا يستطيع القلب بعدها استعادة نشاطه وحركته مباشرة كما هو المألوف . كذلك عند المَرْضَى الذين يتعرضون لأزمات وقصور حاد في القلب أو احتشاءات خلال عملية القسطرة القلبية ، وهي ليست كثيرة الحدوث والحمد لله . وكذلك عند المَرْضَى الذين تجرى لهم عمليات زرع قلب ويرفض جسمهم القلب المزروع بشكل حاد مبكر . في كل هذه الحالات يحتاج القلب المريض إلى مساعدة مؤقتة ، ريثما يستريح ويعاود نشاطه ، وهذه الفترة تمتد من ساعات قليلة حتى سبعة أيام أحيانا . وقد استعملت هذه المضخة على مريضين آخرين في نفس المعهد كان آخرهما مريضة في الثانية والسبعين من العمر لم يستطع



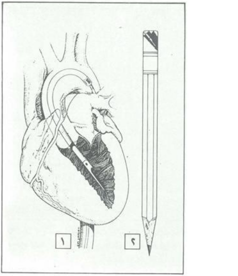
● جهاز القلب والرئتين المستعمل حاليا في عمليات القلب المفتوح لضخ واكسجة الدم .

قلبها معاودة عمله بعد انتهاء عملية وصل شرايين جديدة ، وقد أدخلت المضخة لجوف القلب واستمرت في العمل مدة ثلاثة أيام واستعاد القلب بعدها نشاطه ، فاستخرجت المضخة وتعافت المريضة وخرجت من المستشفى بسلام .

محاولات سابقة

وفكرة مساعدة القلب في عمله فكرة قديمة ، حيث كان أول من صمم آلة تقوم بعمل القلب هو « تشارلز لندنبرغ » الذي عبر المحيط الأطلسي بطائرة من محرك واحد بدون توقف ، فقد تفتق ذهنه عن تصميم آلة تسحب الدم الأزرق من الجسم حيث يمزج بالأوكسجين ويعاد لداخل الجسم ، وجاءت فكرته هذه نتيجة مرض أحد أقربائه بقصور عضلة القلب الذي سببه تلف أحد الصمامات ، ولكن لم توضع فكرته موضع التنفيذ العملي . وفي سنة ١٩٣٤ صمم الدكتور مايكل دبيكي في أمريكا - وهو من أصل عربي ويعد من أشهر جراحي القلب في العالم ، وكان مايزال آنذاك طالبا في كلية الطب - مضخة بسيطة لكي تسحب الدم من طرف وتضخه من طرف آخر بدون أن يلمس الدم أجزاء المضخة وذلك بواسطة مكبس دوار فوق أنبوب بلاستيكي مرن داخل علبة محكمة ، وقد عرفت هذه المضخة باسم (المضخة الدورانية) ولم يكن الدكتور دبيكي يعلم بأنه سيكون لهذه المضخة شأن عظيم ، ففي سنة ١٩٣٧ جاء الدكتور جان غيبون الأمريكي - وكان طبيبا متمرنا في الجراحة يومها - ووضع عددا من هذه المضخات بعضها مع بعض وكون منها جهاز القلب والرئتين وهو نفس مبدأ الجهاز المستعمل إلى يومنا هذا في عمليات القلب المفتوح ، حيث يقوم بعملي القلب والرئتين حينما تجري الجراحة على القلب،

ولولا هذا الجهاز لما كانت هناك جراحات قلبية كالتي نعرفها اليوم . فأثناء العمل الجراحي



١ المضخة داخل جوف البطين الأيسر وأنبوبة التروية الصغيرة داخل الأبهر ويرى طرف سلك التوصيل .

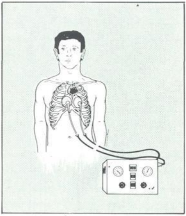
٢ حجم المضخة الجديدة بالنسبة لمحاة قلم الرصاص .

يوصل القلب بأنابيب عديدة للجهاز الذي يستأثر بالدم الأزرق الوريدي العائد للقلب ويمزجه بالأوكسجين ويخلصه من غاز ثاني اكسيد الكربون ثم يعيده أحمر نقيا إلى الشريان الأبهر عبر أنبوب آخر ، ويعزل القلب الطبيعي عزلا تاما أثناء ذلك وتجرى العملية اللازمة عليه ، وبعد الانتهاء يترك ليأخذ دوره الطبيعي بعد وقف جهازي القلب والرئة الصناعيين . وهكذا فتح باب واسع من أبواب التقدم عند بدء استخدام الجهاز . وتواصلت الجهود بعدها لتطوير جهاز يساعد القلب الضعيف ولا يستبدل وظيفته . ففي سنة ١٩٦١ صمم الدكتور روي كلاوس ، ومساعدوه جهازاً يعمل على سحب الدم وضخه مرة أخرى في الجسم بسرعة فائقة في توقيت معين قريب من زمن انقباض عضلة القلب وانبساطها وذلك خلال قسطرة أدخلت في أحد الشرايين الفخذية وقد عملت المضخة بنجاح ولكن لم يُتح استعمالها بشكل واسع . وفي سنة ١٩٦٢ صمم الدكتور كانترو ويتز جهازا مماثلا من حيث المبدأ لكن يعمل بواسطة بالون طويل يدخل للشريان الأبهر حيث ينتفخ وينكمش بسرعة عالية في توقيت معين مما يؤدي إلى إراحة عضلة القلب وتقليل المقاومة وزيادة التروية الدموية في شرايين القلب التاجية ، وقد استخدمت هذه المضخة لأول مرة في سنة ١٩٦٧ وسميت (مضخة البالون داخل الأبهر) وأثبتت التجارب فائدتها القصوى للمرضى ومساعدتهم على تخطي المراحل الصعبة لحين استعادة القلب لنشاطه وعمله . وتعد هذه المضخة اليوم أساسية وقلما يخلو مركز لجراحة القلب منها . واستمرت المحاولات لتصميم مضخات جديدة تشبه القلب بحركته ووظيفته ، فصمم منها الكثير دخلت كلها تحت اسم (الجهاز المساعد للبطين الأيسر) وما يستخدم اليوم من هذه الأجهزة نموذج يتألف من مضخة دورانية للدم تسحب الدم من الأذين الأيسر أو البطين الأيسر وتدفعه عبر الشريان الأبهر وذلك بواسطة جهاز كبير خارج الجسم ، وهو المحرك ، وآخر صغير يوضع داخل الصدر وهو الذي يقوم بضخ الدم . وبشكل عام فمعظم هذه الأجهزة كبيرة الحجم ومعقدة التركيب ، ويستلزم وضعها واستخراجها عمليات جراحية كما يستلزم الأمر مراقبة دقيقة للمريض بواسطة طاقم طبي وتمريضي متخصص ، كما يستلزم مراقبة وظيفة الجهاز والقلب ووظائف الجسم الأخرى بأجهزة الكترونية متطورة ، ومع ذلك فمعظم هذه الأجهزة لا تقوم إلا بحوالي ٣٠٪ من وظيفة القلب ولا تستطيع العمل إذا كان القلب متوقفا عن الحركة . أما المشاكل التي تترافق مع استخدام هذه المضخات فهي عديدة ولكل جهاز

اختلاطات خاصة به . أما المضخة الجديدة فلها ما يميزها عن باقي الأجهزة المساعدة ، فهي صغيرة الحجم جدا ويمكن إدخالها للقلب عبر أحد شرايين الفخذ بالتخدير الموضعي ، وهي تعمل مستقلة عن القلب حتى لو كان متوقفا ، وبعد وضعها وابتداء عملها لا يلزمها إلا مراقبة بسيطة ولا يستلزم الأمر أجهزة متطورة لمراقبة المريض أثناء عملها . وثمن هذه المضخة هو ٣٠٠٠ دولار وهو ثمن زهيد إذا ما قيس بتكاليف الأجهزة الأخرى وهي تستعمل مرة واحدة فقط ثم تُرمى بعد ذلك . وتعتقد الشركة المصنعة أن إدارة الأدوية والأغذية الأمريكية ستسمح باستخدام المضخة في أوائل سنة ١٩٨٩ .

القلب الصناعي

أما القلب الصناعي الكامل فقد صُمم وصُنِع وطُوِّر خلال سنوات عديدة ولم يُستعمل حتى عام ١٩٦٩ عندما استخدمه الدكتور دنتون كولي في هيوستون لأول مرة على أحد المرضى المهددين بالموت بعد عملية معقدة ، حيث لم يكن أمام الجراح خيار إلا استبدال قلب المريض بقلب صناعي ظل يعمل مدة ٦٤ ساعة أجريت أثناءها الترتيبات لزراعة قلب طبيعي وعندما توافر زرع قلب للمريض أوقف القلب الصناعي . وفي سنة ١٩٨١ واجهت الدكتور كولي مشكلة أخرى عندما توقف القلب فجأة عند أحد المرضى في غرفة العناية المركزة بعد أن أجريت للمريض عملية زرع شرايين جديدة ناجحة ، وأرجع المريض فورا لغرفة العمليات لكن المحاولات كلها فشلت لإعادة القلب للعمل ولم يعد هناك مفر ، فاستؤصل القلب واستُبدل بقلب صناعي كان قد طوره خبير اسمه « اكيوتسو » ، وقد ظل المريض على قيد الحياة عدة أيام حتى توافر قلب طبيعي زُرع له وأزيل القلب الصناعي . وكان آخر ما طور من أجهزة القلب الصناعي هو القلب المعروف باسم « جارفيك ٧ » الذي صنعه وطوره



● صورة إيضاحية تبين القلب الاصطناعي جارفيك ٧ داخل الصدر موصولا بالجهاز المشغل خارج الصدر .

الدكتور روبرت جارفيك من جامعة يوتا الأمريكية وهو يشبه القلب الطبيعي إلى حد ما من حيث شكله وآلية عمله ، وهو يضخ الدم بواسطة أغشية مطاطية داخل حجرات مغلقة تعمل بدفع غاز النيتروجين . ويتألف قلب « جارفيك ٧ » من جزأين : الأول وحجمه بحجم القلب الطبيعي تقريبا ومصنع من مواد بلاستيكية صلبة ناعمة الملمس لتسهيل مرور الدم فوقها ويحتوي على حجيرات صغيرة بها الأغشية المطاطية ، وهو يوصل بالشرايين الرئيسية ، كما كان القلب الطبيعي موصلا وذلك بالخياطة ، ويوضع داخل الصدر مكان القلب الطبيعي ، ويتصل خارج الجسم بالجزء الثاني وهو جهاز التحريك والتحكم والمراقبة وهو يشبه خزانة متوسطة الحجم عليها لوحات المراقبة والعدادات ومفاتيح التحكم . وقد جُرِّب هذا القلب على العديد من المرضى وأظهر نجاحا ملحوظا . وخلال الفترة مابين سنة ١٩٦٨ وحتى سنة ١٩٨٤ تم تركيب هذا القلب واستخدامه على أكثر من ٣٥٠ من الحيوانات تراوحت المدة

المستخدمة فيه من عشر ساعات حتى ٨٥ يوما . وقد زرع هذا القلب في أحد العجول وظل يعمل بشكل جيد وأبقى العجل حيا مدة سنة كاملة . وقد زُرع مثل هذا القلب حتى الآن في أكثر من ٣٥ مريضا في العالم ، واستخدم الجهاز مدة سبعة أشهر متواصلة على سيدة فرنسية مريضة .

ما يزال للقلب البشري السيادة

صحيح أن التقنية تطورت لحد بعيد بحيث يمكن انتزاع القلب ووضع آخر صناعي مكانه إلا أن الأمر ليس بهذه البساطة ، فالمضاعفات التي تترتب على تركيب القلب الصناعي والأجهزة المساعدة كثيرة وخطرة، وقد تكون مميتة أحياناً ولا يمكن القول إن مريض القلب الصناعي يعيش حياة طبيعية مثل بقية الناس فهذا أبعد ما يكون عن الصواب . فغالباً لا يغادر المريض المستشفى نتيجة المشاكل والاختلاطات التي يمر بها ولاحتياجه للمراقبة الدائمة المستمرة ، ولو سردنا جميع المضاعفات التي قد يمر بها المريض والمصاعب التي يعانيها بعد زرع القلب الصناعي لتردد أي واحد منا في أن يقبل مثل هذا القلب في أي يوم ولأي سبب كان . فمريض القلب الصناعي ، معرض للالتهابات أكثر بكثير من الشخص الطبيعي نتيجة وجود جسم غريب داخل جسمه ، ونظراً للتوصيلات التي تدخل عبر الجسم للقلب االصناعي حيث تسمح أيضا بمرور الجراثيم على حوافها وقد تؤدي إلى التهابات خطيرة . وقد يؤدي مرور الدم فوق الأجزاء الصلبة بشكل مستمر إلى تكسر الكريات وانحلال الدم وتسرب الخضاب إلى الكليتين وسدهما . أو قد يتجلط الدم في حجرات القلب فيوقفه عن عمله أو قد تسير خثرة صغيرة مع مجرى الدم لتسد شريانا في المخ أو الساق أو غيرهما فتكون العواقب وخيمة . وقائمة المضاعفات طويلة ، فالتهاب الكليتين وقصورهما ، وقصور الرئتين ، والمشاكل النفسية ، وتعطل الجهاز المفاجىء ، هي على سبيل المثال لا الحصر . بالإضافة إلى ذلك فالقلب الصناعي ليس عنده القدرة الذاتية على التكيف حسب احتياج المريض كالقلب الطبيعي الذي تزداد ضرباته ويزيد كمية الدم التي يضخها إذا ما تعرض الإنسان لمجهود أو انفعال أو تناول وجبة ثقيلة ، ولذلك تؤخذ هذه كلها بعين الاعتبار من خلال مفاتيح التحكم في القلب الصناعي فيزيد من الضربات ومن كمية الدم في الحالات التي يحتاج إليها المريض . ومع ذلك فقد ساعد القلب الصناعي على إنقاذ حياة الكثير من المرضى، وهو يعد الآن حلقة وصل وعاملا وسيطا مؤقتا عند توقف القلب الطبيعي عن العمل، وريثما يتوافر للمريض قلب بشري لزراعته فلا تزال الجهود تبذل لاختراع وتطوير أجهزة صناعية تكون أفضل وأرخص ، ومحاولة توفير طاقة محركة للقلب الصناعي من المواد النووية حتى يصغر حجمه ولإمكان احتوائه بالكامل داخل الصدر دون وصلات خارجية . وفي الوقت الراهن مازال زرع القلب البشري هو الحل الأمثل والمقبول لعلاج المرحلة النهائية من أمراض القلب المستعصية عند المرضى المناسبين . وتجرى عمليات نقل القلوب البشرية وزراعتها على نطاق واسع في العديد من المراكز العالمية وحتى في بعض الأقطار العربية . ويعيش الكثير من المرضى حياة أقرب ما تكون للطبيعية بقلوب غير قلوبهم منذ عدة سنوات . وقد ساعد على نجاح عمليات الزرع ، الاختيار الموفق للمريض وللقلب والتوافق التام في الأنسجة والزمر ، وسرعة نقل القلوب للمراكز الجراحية ، واكتشاف أدوية أكثر فاعلية وأقل خطورة مضادة للرفض ، وتطوير وسائل المراقبة الحيوية والنسيجية للقلب المزروع بشكل سهل وفعّال ، وأصبحت زراعة القلوب البشرية من الجراحات العادية اليومية في كثير من مراكز جراحة القلب العالمية .□

الزمن والكاتب الروائي

بقلم : غائب طعمة فرمان

يختلف الإحساس بالزمن بين فرد وآخر .

بعضهم يتعامل مع الزمن بصيغة التراكم التي قد تخلو من معنى غير عادي ، وبعضهم يتعامل معه بحساسية شديدة ، تصل إلى حد الرعب من تقادم أيامه ومضيها .

أما الفنان فإن تعامله يختلف عن ذلك . فكيف يتعامل الفنان الروائي مع الزمن ؟ .

لعل تأثر الإنسان بالزمن ، وإحساسه به أكثر بعدا ، وأعمق غورا من كل المؤثرات والأحاسيس التي تعتري الإنسان بمعزل عن إرادته ، وخارج حدود طاقته .

أنا لا أقصد بالزمن مقياس الحركة من حيث التقدم والتأخر « أو أسلوب وجود المادة المتعلق بترتيب الحوادث من قبل ومن بعد » ولا الزمن الفيزيائي ولا التاريخي ولا كل تلك المعاني المجازية التي ورثناها في أدبنا العربي ، وحفلت بها لغتنا العربية ، وقيلت فيها أشعار وحكم وأمثال تملأ أسفارا ضخمة . ولكنني أعني به الزمن الفسيولوجي ، عمر الإنسان ، تلك الفترة الزمنية التي وهبها الله لبني البشر على الأرض ، والمحسوبة بالدقائق ، والساعات والأيام ، والشهور ، والسنين ، حسب القيمة التي يمنحها الإنسان لحياته مقدرة بتلك المقاييس الزمنية المعروفة .

مرة واحدة فقط

إن الزمن بهذا المفهوم طاغ جبار مؤلف من قطرات الماء التي لن نلتقي بها غير مرة واحدة ، حين ننزل النهر ، كما تصورها الفيلسوف الاغريقي القديم،تتعاقب في نظام سرمدي لا سلطة لنا عليه . فاللحظة التي نتمتع بها من

عمرنا أو نبذرها تنفصل عنا إلى الأبد ، منتزعة معها ـ دون أن ندري أو تدري ـ شيئا من قيمتنا الإنسانية ، من رصيد طاقتنا الجسدية والذهنية وجدارتنا النفسية . والذين لا يحسون بهذه الخسارة التي لا تقدر ، سيدركون ذلك بعد فوات الأوان في أواخر العمر والطاقات في نضوب !

وشعور الفنان بالزمن ، وشعور الكاتب الروائي به بشكل خاص ، مضخم جدا ، لإحساسه العميق بأنه في سباق دائم مع الزمن ، ولربما في صراع ، والإحساس بالفقدان ، ولا سيما فقدان الزمن متأصل فيه ، وهو عنصر من عناصر مأساويته وقيمته في آن واحد لأن الحياة كلها معارك لإضفاء شيء من الديمومة لحياته ، ومن ثم لكل ما يتبنى من أفكار وعواطف وأمنيات .

مهمة الفنان والروائي في أبسط صورها ، هي محاولة التقاط اللحظات الزمنية من الوجود الإنساني في حركتها ، والإيهام على الأقل بالقدرة على تثبيتها وتسطيرها على الورق ، ومن هذه الناحية يمكن تسويغ المبالغة في قول « مالارميه » :
« العالم موجود ليحول إلى كتاب أو على العكس ، العالم غير موجود حتى يحول إلى كتاب » .

إن الفنان يخرج من ميوعة الزمن المتسربة من بين الأصابع ، إلى كثافة وجود ، وذلك عبر الجهد المتواصل والمؤلم للاستفادة من كل لحظات الحياة أو أكبر عدد ممكن منها في سبيل الغاية التي يختطها الكاتب أو الفنان لنفسه .

لقد سئل الرسام « شاغال » في أواخر عمره عن نسبة ما أنفقه من حياته على فنه ، فقال : تسعين بالمائة من حياتي أنفقته على كل شيء يخص فني وتطويره ، من زيارة المتاحف ، ومعارض الصور ، والمراقبة المستديمة للحياة ، والظلال النفسية على كل الوجوه والأشياء إلى غير ذلك . .

عدسة مفتوحة دائما

وقد وصف شيرود الكاتب الأمريكي نفسه فقال : « أنا كاميرا عدستها مفتوحة دائما » وعين الكاميرا الثاقبة هذه تجدها عند كل روائي أصيل . فلننظر مثلا إلى عدسة ليو تولستوي كيف سجلت لحظات من حياة سيبا ستوبول في شهر كانون الأول : « في جانب . . سيفيرينا يزيح النشاط النهاري هجوع الليل رويدا رويدا . مرت جماعة من الحراس مجلجلة ببنادقها ، والطبيب يخف إلى المستشفى ، خرج جندي ضئيل من مخبئه ، يغسل بالماء المتلج وجهه الملوّح ، متوجها نحو المشرق الطالع . . وعربة عالية ثقيلة صارخة تسحبها جمال تجرجر نفسها نحو المقبرة ، لتدفن الصرعى المضرجين بالدم ، وهي تكاد تمتلىء بهم إلى أعلاها . . ها أنت تدنو من الرصيف ، فتفعم أنفك رائحة معينة ، خليط من الفحم الحجري والروث ، والرطوبة ولحم البقر . . آلاف من ضروب الأشياء ـ من الخشب ، واللحم ، والنوريات ، والطحين والحديد وغير ذلك تتكوم قرب الرصيف ، وجنود من مختلف الوحدات ، بالركائب والبنادق ، وبغير زكائب وبنادق ، يتجمعون هنا ويدخنون ويتشاتمون ، ويتناقلون الحمولة ، وقوارب الأهالي المشحونة بأناس من مختلف الأوزاع ، جنودا وبحارة ، تجارا ونساء ، ما بين رسو على الرصيف وإقلاع عنه » .

تلك صورة من صور سيبا ستوبول أثناء الحرب .

إن الروائي مراقب للحياة اليومية دقيق الملاحظة ، شديد الإحساس . والحياة اليومية كما يقول فوستر الروائي الإنجليزي والمنظر للرواية « مملوءة بمعنى الزمن » وما دام الروائي موكلا بوصف الحياة الانسانية من خلال الزمن ، فلا بد أن يكون مراقبا مجيدا للحياة اليومية .

والروائيون ذوو المكانة هم الذين التقطوا من

نهر الحياة ، من الحياة اليومية المتحركة في الزمن أكثر وأعمق اللحظات ، مستعينين في ذلك بموهبتهم ، لأن الرواية تبدأ من الخاص وصولا إلى العام ، من خصوصية الحياة اليومية إلى شمولية الحياة الإنسانية ، وصاحب التجربة أو الحياة اليومية التي لا تخلو من شذوذ هو الذي يمكن أن يملك الحق في خلق القواعد . والقواعد بحد ذاتها لا تخلق حتى شبح تجربة ، والرواية تقيم صرحها على تجربة ومعرفة باليومي المعاش ، عبر الحواس الخمس المعروفة ، وعبر الذهن المتلقي المتقد المجنح بالخيال ، والشغوف بالدقائق المعبرة ، والتفاصيل التي تعطى النكهة لتلك الحياة ، وترتفع لتكوّن صورة شعب بكامله ، أمة لها مسيرة حياة ، ولها تاريخ ضارب في عمق التربة . والروائيون الكبار رسموا صورا خالدة لشعوبهم وتقاليدها .

صورة لوطن

والآن ، يستطيع القارىء ، أن يتصور عمق الأزمة- النفسية التي مر بها الكتاب والروائيون الذين تركوا أوطانهم لهذا السبب أو ذاك ، وانقطعوا عن الحياة اليومية ، عن المستجدّ في كل ما يحيط بالناس ، وما يؤثر فيهم . هناك من بقوا على ولائهم لماضيهم وظلت صورة الوطن منحوتة على شكل ذكريات في حرم ذاكرتهم الأمين .

« جيمس جويس » الذي هجر بلاده وهو في العشرين من العمر ، ظل طوال حياته يكتب عن وطنه حتى قال عنه هاري ليفين « كان ايرلنديا أكثر مما يجب » .

و« بونين » الكاتب الروسي الذي غادر بلاده بعد الثورة غير متفق معها ، هو الآخر ظل يكتب عن وطنه إلى آخر أيامه . مع أن الكاتبين عاشا في باريس التي توصف عادة « بمدينة النور » وهي أكثر حضارة وأيسر عيشا من البلد الذي غادراه . وهناك آخرون كثيرون من أمثالهما ، وهناك من نحا منحى آخر ، والتجأ الى التجريد . ولا حاجة إلى تفصيل ، لكنني فيما قلته أؤكد عمق العلاقة بين الكاتب والوطن الذي أنجبه ومبلغ الخسارة في ذلك ، والحسرة على سنيّ الانقطاع التي تظل شيئا لا يعوض بالنسبة للروائي . إن الطبيب والمهندس والممثل وحتى الرسام والشاعر - يستطيعون أن يطوروا مواهبهم ويصقلونها ، وهم بعيدون عن أوطانهم ، ينهلون من ينابيع المعارف الانسانية وحين يعودون إلى أوطانهم - وكثيرا ما يعودون - ، يستطيعون أن يوظفوا خبراتهم ويواكبوا الزمن إلى هذا الحد أو ذاك إلا الكاتب الروائي المكلف بمتابعة الزمن بلحظاته الحاسمة - إن لم أقل بالحياة اليومية المملوءة بمعنى الزمن - فسيجد عسرا شديدا في القفز عبر الفترة التي غاب فيها عن وطنه . وتلك خسارة لن نجدها عند أي منتج آخر من منتجي الثقافة . إنها نوع من البتر المؤلم ، والتجميد القسري لأهم حاسة من حواسه ، حاسة المراقبة والالتقاط . فارتباط الحاضر بالماضي لا يفهم ولا يستوعب بالشكل الصحيح إلا بمتابعة الماضي في مسيرته وصيرورته إلى حاضر عبر كل الأفراح والآلام ، ولحظات المخاض والولادة . ذلك هو قدر الكاتب الروائي أن يطيل النظر أو يخوض نهر الحياة اليومية ، وذلك ، في الوقت نفسه ، حكم الزمن على الكاتب المغترب . ومع ذلك فإن كل ذلك يبقى كلاما مجردا ، إذا لم تفتح كل الأبواب للكاتب ، ليرى حياة شعبه اليومية ، دون معوقات أو قوائم محظورات ، فإن الحرية أساس كل عمل فني صادق ومتكامل .

لقد شبه « ستندال » - ذات مرة - الروائي بحامل مرآة فإذا انعكست أوحال الطريق على هذه المرآة ، فاللوم لا يقع على حامل المرآة ، بل على الذين جعلوا الطريق موحلة . □

● العمل شرف يجب أن تصان أيامه من الفراغ ومن الضياع .   (ابن الجوزي)



قضيـــية

الصفـــوة بين الحـــاضر والمستقبل

بقلم : حافظ أحمد أمين

« من هم الصفوة في المجتمع ؟ وهل تظل معايير تحديد الصفوة ثابتة لا تتغير من عصر الى عصر ، أم أن هذه المعايير تختلف وترتبط بتغير أشكال الثروة وأنماط الإنتاج والمكتشفات العلمية ؟.

عن الصفوة والتساؤلات المرتبطة بها وعنها ، يثير الكاتب هذه القضية » .

صفوة الأمة هم أصحاب النفوذ والثراء والثقافة فيها . ولعل أهم مقاييس الرقي في أي أمة ، عدم انفصال العناصر الثلاثة عن بعضها ، أى أن يكون أصحاب الفكر ، وأصحاب الثراء من كبار المثقفين ، وأصحاب المناصب الكبيرة مستمتعين بالحياة الطيبة الهانئة .

وعندما نرى أثرياء المجتمع لا علاقة لهم بفكر راق أو فن رفيع ، أو نرى المديرين والوزراء لا يتمتعون بحياة رغدة أو بثقافة واسعة ، أو نرى المثقفين يعيشون حياة بائسة يائسة ، نحكم على المجتمع بأنه متأخر ، أو ـ على الأقل ـ نحكم بأنه غير قادر على التقدم .

ويحدث عدم القدرة على التقدم ـ وخاصة في عصور التغيرات العنيفة ـ نتيجة عدم الوعي بنوع المستقبل الذي يفرض نفسه ، وبسبب الجهل بالحاجات الجديدة للمجتمع.فعندما يسود هذا الجهل ، وتنعدم الرؤية الصحيحة للمستقبل ، يختلط الحابل بالنابل وينتشر القلق والاضطراب ، فتنعدم القدرة على التقدم .

مواصفات متغيرة للصفوة

وتتغير مواصفات الصفوة بتغير نوع الحضارة ، ففي وقت قصير نسبيا ، انتقل الثراء من أصحاب الأراضي الزراعية إلى أصحاب المصانع والبنوك ، أو إلى القائمين عليها ،

وتغيرت مواصفات المثقفين والفنانين بتغير المذاهب الفنية والمدارس الأدبية ، وتغيرت مواصفات أصحاب المناصب والنفوذ من أفراد يدعون إلى قيم الحضارة الزراعية ويحافظون عليها ، إلى أفراد ينتمون إلى مبادىء الحضارة الصناعية ويتمتعون بمهاراتها .

والآن تنهار الحضارة الصناعية بكل قيمها ونظمها ، ليس بسبب ضعف الإنتاج الصناعي ، وإنما بسبب ظهور تقنية جديدة ، فرضت الهجرة الواسعة من مهنة الصناعة إلى مهن أخرى حديثة ، تماما كما انهارت من قبل الحضارات الزراعية بسبب الهجرة الواسعة من الزراعة الى الصناعة .

وبانهيار الحضارة الصناعية ، تتغير صفوة المجتمع ، من أفراد يمتلكون المصانع أو يسيطرون عليها ، ومن مديرين يعملون على تدعيم نظم الحضارة ، ومن مثقفين يدعون الى قيمها ، إلى افراد يدركون شكل الحضارة الجديدة ، ويؤمنون بمعتقداتها ، ويدفعون مجتمعاتهم اليها .

**

وقد أدت التقنية الجديدة الى مضاعفة انتاج السلع الزراعية والصناعية فكان من نتائج هذا أن اشتد تنافس المنتجين لتصريفها ، واشتدت تطلعات الناس نحو استهلاكها ، وظنت الأغلبية أن زيادة استهلاك البضائع تعني دخولهم في زمرة « الصفوة » ، ذلك أنهم لم يدركوا أن زيادة الاستهلاك هذه كانت من مواصفات الأثرياء عندما كان الانتاج محدودا ، أما في ظل الحضارة الجديدة ، فلم تعد كثرة الاستهلاك من مواصفات الصفوة ، فالصفوة ـ بحكم التعريف ـ لا يمكن أن تكون أغلبية .

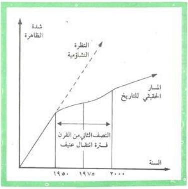
**

حضارة جديدة تبحث عن صفوتها

في كل حضارة ، تقوم صفوة المجتمع من المديرين بإدارة الإنتاج بكفاءة عالية ، وتقديم الحلول لما يظهر من مشكلات ، وقد انحصر معظم العمل في الحضارتين السابقتين في الإنتاج الزراعي والصناعي ، وانحصرت المشكلات فيما يهدد انتظام هذين الانتاجين ، أما الإنتاج الأساسي للأغلبية في الحضارة الجديدة ، فهو إنتاج الخدمات والمعلومات ، وهو انتاج يختلف في طبيعته عن السلع ، ويحتاج في ادارته الى ألوان جديدة من الكفاءة والموهبة .

وفي كل حضارة أيضا تقوم صفوة المثقفين بإمداد المجتمع بالأفكار والفنون التي تعمل على تدعيم الاستقرار والوحدة ، وبث روح الحماسة والانتماء ، وتنمية الذوق الرفيع ، وحب الخير والجمال . وقد كان دور المثقفين في الحضارتين السابقتين محصورا في الدعوة الى الوحدة الوطنية او الاتحاد القومي ، والانتماء الى الحزب أو الأمة ، وتنمية الأذواق التي تتفق مع الحياة في ظل الزراعة أو الصناعة ، فجاءت الحضارة الجديدة لتتطلب من المفكرين أدوارا أوسع وأشمل .

وفي كل حضارة تقوم صفوة الأثرياء بتدعيم قيم هذه الحضارة ، وذلك بإقامة المنشآت التي تدعو الى معتقداتها ، وتشجيع معتنقيها ، وتحفيز المتفوقين في مهاراتها . وقد كان دور الأثرياء في الحضارات السابقة محصوراً في تدعيم



قيم المجتمعات الزراعية ثم الصناعية ، فجاءت الحضارة الجديدة لتتطلب أدوارا أكثر إنسانية وإبداعا .

**

محنة الصفوة الجديدة

وقد أدى هذا الاختلاف الكبير بين مواصفات الصفوة في الحضارتين السابقتين ومواصفاتها في الحضارة الجديدة ، إلى إصابة المثقفين والمديرين والأثرياء - غير القادرين على التأقلم - بشعور عنيف من الإرهاق والإحباط والمرارة ، والإحساس بالمذلة والمهانة وضآلة الشأن ، فحاولوا إسقاط فشلهم هذا على بعض الرؤساء أو الوزراء ، دون أن يدركوا أن الأخرين هم ايضا ضمن الصفوة غير المتأقلمة - المصابة مثلهم بـالحيرة والقلق والاضطراب ، وبالتالي بأمراض القلب أو الضغط او النفس .

لقد ملأ الكتّاب ملايين الصفحات يشكون فيها أزمتهم ، وامتلأت المعارض والمسارح بكل الأعمال الغاضبة ، ورأينا السخط يسود المجالس والمؤتمرات ، بل حتى الأثرياء امتلأت منتدياتهم بالتذمر والشكوى ، دون أن يكلف أحد نفسه بتوجيه السؤال الهام : « لماذا نعيش عصرا لا تتطابق فيه مواصفات الأنواع الثلاثة من الصفوة؟ الأثرياء ، والمثقفون وأصحاب المناصب الكبيرة؟ » والإجابة عن هذا السؤال هو « إن تطابق هذه المواصفات لن يتم إلا اذا اشتركنا جميعا في بناء الصفوة الجديدة على أسس الحضارة القادمة ، تماما كما دعا نوح - عندما كان ينتظر الطوفان - الى ضرورة اشتراك الجميع في بناء السفينة ، وقال إنها الوسيلة الوحيدة للخلاص » .

الخلاص لن يكون إلا إذا آمن المثقفون بفكر جديد ، يؤهلهم لأن يصبحوا من أصحاب النفوذ ، وإلا اذا عاش اصحاب النفوذ حياة تؤهلهم لإصدار القرارات الصحيحة لحل مشكلات الحضارة الصناعية :

الحروب يجب ان تتوقف ، وذلك بالإسراع في القضاء على التعصبات القومية والدينية والعنصرية ، والوقوف أمام نفوذ تجار السلاح وألاعيبهم .

والتلوث يجب أن يتوقف ، فالغلاف الجوي للكرة الارضية لم يعد يتحمل الإفساد ، ومصادر الطاقة غير المتجددة في سبيلها الى النفاد .

والتزايد في سكان العالم يجب أن يتوقف ، وذلك بالإسراع في اخراج المتخلفين من تخلفهم ، فلا شيء يزيد عدد السكان كالتخلف .

والتعليم المتخلف يجب أن يتوقف ، وذلك بان يحل محله تعليم جديد يشجع الفكر الحر والابداع ، ويعمل على تربية انسان جديد ، يشارك ولا يعادى .

والادارة المتخلفة يجب أن تتوقف ، وذلك بأن يحل محل المدير المتسلط ، مدير يشيع روح التعاون والسعادة لدى العاملين .

وهكذا في كل شرور الحضارة الصناعية : كالبيروقراطية والمركزية والنمطية ،والتخصص الشديد ، يجب أن تعيها الصفوة الجديدة كل الوعي ، لكي تدعو الى نبذها ، واصدار القرارات للتخلص منها ، وإعداد الناس لاجتنابها .

إن مقدرة الانسان على التأقلم لا حدود لها ، فالانسان الذي استطاع أن يغوص في أعماق البحار ، ويسير على سطح القمر ، لا بد قادر على ان يعيش حضارة الخدمات والمعلومات . والتغيرات التي يصادفها الانسان طول الوقت ، ليست حتمية فقط ، بل إنها الحياة نفسها ، فالسكون هو الموت بعينه ، وكلما زادت التغيرات نوعا وشدة زادت قيمة الفرد الذي يستوعبها ويتأقلم معها . □

الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوي

مستحضر حديث لعلاج أمراض القلب التاجية

من المستحضرات الجديدة لعلاج أمراض القلب عقار اللوفاستاتين الذي يحد من محتويات الكولسترول في الدم بنسبة ٣٥٪ . ذلك أن اللوفاستاتين معدّ لعرقلة صنع الكولسترول في جسم الإنسان . ومن طريف مايذكر أن قصة اللوفاستاتين هذا بدأت في اليابان ، فقد تساءل العالم (أكيرو إندو) عما إذا كانت المواد العضوية الموجودة في التربة هي المسؤولة عن قتل البكتيريا الحاملة للكولسترول . وتساءل أيضاً عما إذا كان في الإمكان تطوير تلك المواد بحيث تعرقل صنع الكولسترول في الجسم . وتوصل العالم الياباني بعد فحص لمجموعة هائلة من المركبات (١٠,٠٠٠ مركب، أو نحو ذلك) إلى العثور على مُرَكب كفيل بكبح الأنزيم الرئيسي في عملية صنع الكولسترول . ولكن أكيرو إندو توقف هنا . فجاء علماء آخرون فأكملوا المهمة وقد اكتشفوا مركبات شبيهة بالمركب الذي عثر عليه العالم الياباني ، واكتشفوا الخصائص التي يتميز بها اللوفاستاتين أحد تلك المركبات فركزوا عليه وذلك اعتباراً من سنة ١٩٨٢ .

وانطلق العلماء بعد ذلك يجرون التجارب الواسعة النطاق على مركب لوفاستاتين وبلغ عدد الأشخاص الذين شملتهم تلك التجارب في غضون ٤ ـ ٥ سنوات أكثر من ٧٥٠ رجلاً ، وأثبتت تلك التجارب تميز اللوفاستاتين على عقاقير الكولسترول الأخرى السابقة مثل كولسترامين وحامض النكوتين ، فهذان العقاران يفيدان في الحالات التي لايكون فيها فائض الكولسترول كبيراً بخلاف لوفاستاتين ، وقد أثبت فاعلية ملحوظة في أولئك المرضى الذين تبلغ نسبة الكولسترول في دمهم ٣٥٠ ملغم أو أكثر ، ذلك أنه خفض تلك المحتويات ، كما دلت التجارب التي ذكرنا ، بنسبة تتراوح بين ٣٠٪ـ ٤٠٪ .

ونذكر في هذا الصدد قصة السيدة مادلون فوللر ، فقد شغفت هذه المرأة منذ الطفولة بلونين من الطعام البامية المقلية ، والفراخ المعدة مع بيض الدجاج ، والمغرقة بالمرق . واكتشف الأطباء أن مادلون تعاني من فائض الكولسترول (٣٢٤ ملغم) ومن ضيق الشرايين وقابليتها للانسداد . فأجروا لها (٣) عمليات تجاوز وهي في سن الأربعين ، ثم وصفوا لها عقار

لوفاستاتين فتناولته طوال أربعة شهور ، فماذا كانت النتيجة ؟ انخفضت نسبة الكولسترول في دم مادلون بنسبة ٤٠٪ أو أكثر ، فهبطت من ٣٢٤ ملغم إلى ١٥٦ ملغم وذلك في غضون ١٢٠ يوماً كما ذكرنا . وهذا فارق كبير ، أكبر من الفارق الذي حققه العقار في أكثر التجارب التي أجريت عليه ، وقد بلغ المتوسط ١٠٠ ملغم (٣٥٠ ملغم إلى ٢٥٠ ملغم) وبلغت نسبته بالمتوسط أيضاً مابين٣٠٪ ـ ٣٥٪ .

على أن اللوفستاتين لايكفي وحده ، ولايغني عن الحمْية في الأكل ولا عن ممارسة الرياضة . وقد دلت التجارب على أن الكولسترول عاد فارتفع ثانية بعد أن تم تخفيضه بواسطة اللوفاستاتين بنسبة بلغت ٤٠٪ في بعض الأحيان ، وذلك لعدم التزام المرضى بالحمية والرياضة التي أوصى بها الأطباء .

وتجدر الإشارة إلى أن اللوفاستاتين لايناسب مرضى الربو ولاينصح الأطباء بتناوله لمن يعاني من مضاعفات في الكبد .

وتجدر الإشارة بعد هذا إلى أن الأبحاث الرائدة التي قام بها عالمان (جوزيف جلود شتاين ومايكل براون) والتي استحقا عليها جائزة نوبل ، قد كشفت أن الكولسترول والدم نقيضان لايجتمعان كالزيت والماء ، وأن الكولسترول بحاجة إلى واسطة نقل تستطيع إدخاله إلى مجرى الدم ، وبينت تلك الأبحاث أيضا أن الليبوبروتين صنفان لاصنف واحد ، احدهما عالي الكثافة يعرف اختصاراً بـ HDL ، والثاني منخفض ، ويعرف بالاسم المختصر LDL . ويشار إلى الأول عادة باسم الكولسترول الحميد أو الكثافة ، ويوصف الثاني الذي ينقل الكولسترول ويدخله إلى مجرى الدم بأنه الكولسترول الخبيث .

□□□

عقاقير جديدة لمعالجة مرضى إجزام النشار

كان مرض الهرص من الأمراض التي يسهل تشخيصها على الأطباء ولايسهل علاجها ، بل إنه كان بلا علاج وغالباً ماااكتفى الطبيب بوصف المسكنات والمقويات وإسداء النصائح والإرشادات ، وهذا لايتنافى والمحاولات التي استهدفت علاج هذا المرض ، كسحب الدم من جسم المريض ثم إعادة حقنه فيه ، وسم الأفاعي ، والمعالجة بالحرارة والضوء ، أو بالاشعة السينية إلا أن تلك المحاولات كانت كلها عقيمة وبلا طائل ، وقد ثبت عقمها على مرّ الأيام .

وبقي هذا الوضع على حاله حتى مطلع السنة الحالية ١٩٨٩ ، فقد حملت الينا التقارير والنشرات الطبية خبر مستحضرات علاجية جديدة تساعد على الحد من مرض الهرص ،لكنها لم تضمن الشفاء منه ، ونذكر من

تلك المستحضرات (Acyclovir) وهو عقار جديد يؤدي إلى التباطؤ في تكاثر الفيروس ، فيقصر أمد استفحاله ويحد من الألم المبرح الذي يسببه ، ويساعد بالتالي على الخلاص من المرض في مدة وجيزة نسبياً .

وهناك مستحضر آخر يطلق عليه (Capsaicin) المادة الفعالة في هذا العقار مستمدة من الفلفل الأحمر البالغ الحرارة وهو معد ليمسح به الجلد فيعرقل إفراز المادة الكيميائية التي تحمل نبضات الألم وتنقلها بين خلايا الأعصاب ، ومتى يتوقف إفراز هذه المادة ، يتوقف الألم ، إن عاجلاً أو آجلا ، حقا قد لايكون هذا العقار بمثل فاعلية العقار الأول ولكن فاعليته قد ثبتت بنسبة ٧٥٪ أو أكثر .

وتجدر الإشارة بعد هذا إلى بعض الحقائق التي يجدر بقرائنا معرفتها عن مرض الهرص هذا ، إنه المرض الذي يسميه العامة حزام النار وهي تسمية تصور الألم الذي يصيب المريض ويطوق جسمه كالحزام بل كالأحزمة وهي مطابقة للتسمية الطبية . إذا أن كلمة (زوستر) تعني في اليونانية (حزام) أضف إلى ذلك أن أهل النرويج يستعملون لفظ حزام في تسمية المرض ويسمونه حزام الورود الجهنمية .

على أن أهم مايذكر عن مرض الهرص هذا صلته الوثيقة بمرض آخر هو جدرى الماء فهما شقيقان بقدر مايسبب الإصابة بكليهما فيروس واحد ، إلا أن جدرى الماء غالباً مايصيب الصغار بينما الهرص يصيب الكبار في أكثر الأحيان .

ذلك أن الشفاء من جدرى الماء لايعني دائما الخلاص من فيروسه بنسبة ١٠٠٪ اذا يتخلف بعض هذا الفيروس في بعض الأحيان ويختفي في نهايات أو جذور بعض أعصاب الرقبة والنخاع الشوكي . أي أن بقايا من الفيروس تبقي كامنة في تلك الجذور ، وأن تلك الجذور تظل مصابة بالجدري الكامن مدى الحياة .

ولابأس في ذلك مادام جهاز المناعة سليماً قويا ولكن جهاز المناعة هذا لايلبث أن يضعف بحلول الشيخوخة وقد يؤدي ضعفه إلى بعث تلك البقايا الكامنة واسترداد نشاطها مجدداً فيكون المرض الذي نحن بصدده .

والألم المبرح هو أبرز أعراض المرض يليه الطفح الجلدي الذي يظهر في غضون أيام من بداية الألم . وقد يعقب هذا الطفح تقرحات كالتي تظهر في حالة الإصابة بجدري الماء وقد تستغرق هذه التقرحات شهوراً ولكنها تزول في النهاية وقُلْ مثلَ ذلك في المرض نفسه فأكثر المصابين به يشفون منه دون مضاعفات ولكنه يبقى شهوراً عديدة في بعض المرضى المسنين .

من هنا كان الاهتمام البالغ الذي حظيت به أخبار المستحضرات الجديدة التي عُثر عليها أو ابتكرت لمعالجة مرض حزام النار .□

سلامة البشرية في سلامة البيئة

المناخ العالمي يزداد حرارة

احتدم الجدل قبل بضع سنوات بين فئتين من علماء المناخ ، إحداهما تقول بازدياد حرارة الجو في العالم ككل ، والفئة الأخرى تؤكد أن المناخ العالمي يزداد برودة سنة بعد سنة ، وينذر بعصر جليدي جديد في مستقبل قريب ، لكن هذا الجدل قد توقف نهائيا ، على ما يبدو ، وقد ظهرت نتائج الأبحاث والدراسات الميدانية التي كانت تجري في السنوات الأخيرة ، وأثبتت بالأرقام أن التحول في المناخ العالمي إنما هو تحول الى مزيد من الحرارة ، ولعل سنة ١٩٨٨ هي السنة الأشد حرارة بين السنين المائة والخمسين الماضية كلها ، وهي السنين التي مضت على البدء برصد الحرارة الجوية العالمية وتسجيلها في شتى بلدان العالم ، ومهما يكن من أمر فالسنوات الأربع التي تتميز بارتفاع درجة الحرارة على مدى فترة القرن ونصف القرن الماضية هذه السنوات كلها تقع في الثمانينيات ، بحيث يصبح هذا العقد الذي نمر بآخر صيف فيه هو العقد الأشد حرارة بين العقود الخمسة عشر الماضية دون منازع .

ولعل أكثر ما يبعث على الاطمئنان هو أن علم المناخ يحظى بمزيد من الأبحاث والدراسات الجادة في كثير من المراكز العلمية في العالم ، ونخص بالذكر من هذه المراكز وحدة البحث المناخي في جامعة انجليا الشرقية ومعهد جودارد التابع لوكالة الفضاء الامريكية (ناسا) ، فالعلماء والعاملون في هذين المركزين يقومون برصد حرارة الهواء على مستوى سطح الأرض ، وفي كثير من المحيطات في كل أنحاء العالم . من هنا كانت تقاريرهم أكثر شمولا من سواها ، وأحكامهم أكثر سدادا ، ذلك أن الإحصاءات وحدها لا تكفي ، وتسجيل الأرقام بحاجة إلى تأويل متأن محكم ، ليعطي الفائدة المتوخاة منه .

وتدل التقارير السالفة الذكر على أن حرارة الجو في العالم ارتفعت بمعدل ربع درجة مئوية خلال فترة ستين عاما بدأت سنة ١٨٨٠ (أي ١٨٨٠ - ١٩٤٠) ، ثم انخفضت بمقدار (١/٥) خُمس درجة مئوية خلال ٣٠ عاماأعقبت تلك الفترة ، (أي ١٩٤٠ - ١٩٧٠) ، ثم عادت فارتفعت ثانية بمقدار ثلث درجة مئوية خلال السبعينيات (١٩٧٠ - ١٩٨٠) ، أما في الثمانينيات فقد سجلت حرارة الجو في العالم ككل ارتفاعا سريعا ومطردا ، وتشير تنبؤات الحاسوب « الكمبيوتر » إلى أن هذا الارتفاع سيبلغ (٤) درجات مئوية في منتصف القرن الواحد والعشرين ، وبالقياس إلى

ما كانت عليه حرارة الجو في منتصف القرن ١٩ إذا استمرت حرارة الجو على ارتفاعها المطرد .

وتجدر الاشارة هنا الى التقرير المهم الذي وضعه الدكتور جيم هانسن ، أحد علماء معهد ناسا لدراسات الفضاء في نيويورك الذي رفعه إلى اللجنة المعنية ، التابعة لمجلس الشيوخ الأمريكي ، فبالإضافة إلى ذكر معدلات الارتفاع في حرارة الجو العالمي ، فإن التقرير المذكور يحاول تفسير تلك الظاهرة وردها إلى أسبابها الفعلية ، وهي كما يؤكد الدكتور هانسن تراكم الغازات في الجو ، وبخاصة غاز ثاني أكسيد الكربون وغاز أكسيد النترات وغاز الميثان ، فضلا عن مستحضرات الفلوروكربونات التي تتلف طبقة الأوزون ، ذلك أن هذه الغازات تسمح بسقوط الأشعة تحت الحمراء على سطح الأرض ، ولا تسمح لها بالانعكاس والارتداد إلى الفضاء ، بحيث تبقى هذه الأشعة الحارة على سطح الأرض ، فتسبب ارتفاع حرارة الجو على نحو ما أسلفنا ، وهذا هو ما يعرف بظاهرة البيت الزجاجي .

غير أن ظاهرة البيت الزجاجي ليست العامل الوحيد المسبب لارتفاع حرارة الجو ، وإن كانت العامل الأهم ، ونذكر من العوامل الأخرى الثورات البركانية والنشاط الشمسي .

□□□

مُضاعفات نقـص الزنـك

تحدثنا في عدد سابق عن الزنك ، وعن حاجة جسم الإنسان إليه ، فعلى ضآلة المقدار الذي يتطلبه الجسم من الزنك فإن حاجته لهذا الملح المعدني حاجة حيوية لابد من استيفائها ، عرف ذلك كثير من الشعوب القديمة وعرفه بخاصة المصريون ، وقد اعتمدوا على الزنك في إعداد الكثير من محاليل التطهير والتعقيم التي استعملوها في حياتهم اليومية وطقوسهم الدينية .

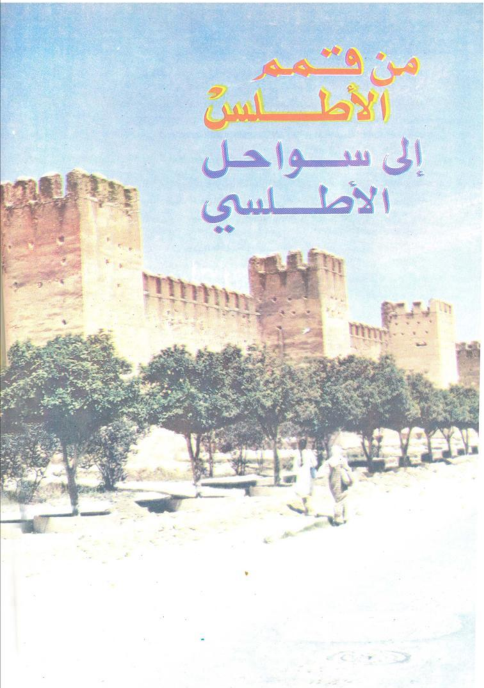
وتقدر الكمية التي يحتاجها جسم الإنسان من الزنك ١٥ ملبغراما في اليوم ويمكن الحصول على هذه الكمية في الخضراوات والجذور واللحم الأحمر الطازج . وكذلك الأكباد والكلى تمدُّ الجسم بمزيد من الزنك الذي يسهُل امتصاصه .

ومهما يكن من أمر فإن الحفاظ على الصحة السوية يتطلب الحفاظ على مستوى الزنك في الدم .

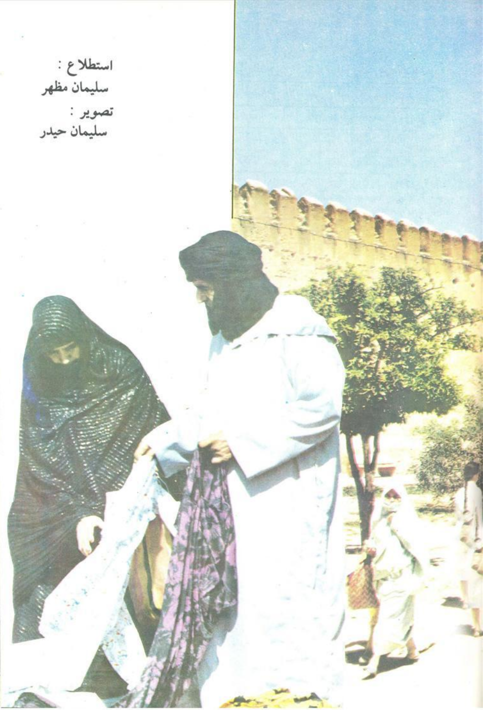
فلو نقص مقدار مايحتويه الجسم من الزنك لترتب على ذلك النقص الإصابة بعلل كثيرة مختلفة ، تتناسب خطورتها وكمية الزنك الناقصة ، وقد يؤدى نقصان الزنك ، في حالات خاصة أو نادرة ، إلى العنف في السلوك وقد ينتهي بصاحبه إلى الإجرام .

أما في الحالات العادية فإن نقص الزنك يتسبب بتكاثر حب الشباب ويسبب للمرأة بعض المضاعفات في أعضائها التناسلية . أما في الرجل فإن نقص الزنك يسبب عدم الخصوبة . وذلك إما لقلة المنويات أو لتكاسلها □

من قمم الأطلس إلى سواحل الأطلسي



استطلاع :
سليمان مظهر
تصوير :
سليمان حيدر



قال الصديق المغربي حسن القجيري لبعثة « العربي » وهي تخطط للرحلة عبر الأطلس الكبير الى الساحل الأطلسي : لـو أحسنتم التوقيت ومررتم « بإيمليشيل » ، فستشهدون أحد أجمل المواسم في المغرب ، موسم الخطوبة الذي تقيمه قبيلة « آيت أحديدو » التي تشتهر برقصها الشعبي ، فخلال ثلاثة أيام يكون الموسم مكاناً لسوق رائع الجمال زاخر بالألوان ، حيث يتجمع كل سكان الإقليم شباناً وشابات ، على أمل أن يلتقي كل منهم بشريك للحياة . . !

إلا أن البعثة حين وصلت ، كان موسم الخطوبة قد انتهى ، ولم يبق سوى المشهد الطبيعي الرائع الذي كان الموسم منعقدا في ظله ، حيث تمتزج الألوان الخبازية التي تعكسها الجبال ، بألوان خضراء فاقعة ، وأخرى سمراء فاتحة ، هي ألوان الحقول في السهول والسفوح طوال المسير عبر الطريق الطويل فوق جبال الأطلس الكبير .

الرحلة عبر الجبال لم تكن سهلة ، ولم يكن أمامنا إلا أن نستأجر سيارة « لاندروفر » سياحية تقطع بنا الطرق الجبلية الطويلة . كانت الخطة تهدف الى اختراق جبال الأطلس الكبير ، من مراكش ، وعبور الأطلس الأدنى حتى بلوغ الساحل الأطلسي عند أغادير ، ثم تجاوزه الى أقرب نقطة في الجنوب ، عند مدينة كـوليم ، مفتاح الصحراء المغربية التي لم يكن طريقنا إليها ممهداً .

كنا نعرف قدر المتاعب المتوقعة فوق سلسلة الجبال الأكثر ارتفاعا في المغرب ، ونحن نقطعها بسيارة مستأجرة ، دون دليل إعلامي ، فقد جربنا من قبل السير فوق الطرق الجبلية خلال الرحلة عبر جبال الريف المغربي ، من الغرب الى الشرق (العربي ٣٤٥ أغسطس ١٩٨٧) ، فالأطلس الكبير عبارة عن سلسلة جبلية ، تشتمل على مجموعات من الصخور القديمة والقمم الصاعدة التي تنافس قمم الألب ، وتغطيها الثلوج معظم السنة . ولكن الذي يشفع عن الجهد مع بداية الرحلة هو ذلك المشهد الرائع للجبل الكبير المغطى بالثلج ، والذي يعد من أجمل المناظر وأغربها في العالم ، فالأطلس وعر صعب المسالك ، يضم مشاهد طبيعية جامدة صارمة ، أما قممه فتبدو في كثير من الأحيان كئيبة ، مما جعلها منذ القدم مسرحاً للأساطير التي جاء أغلبها من مكان بعيد . إحدى هذه الأساطير إغريقية ، تحكي عن العملاق « أطلس » الذي حكم عليه سيد آلهة الأولمب « زيوس » أن يحمل السماء على كتفيه عقاباً له على تحديه ومقاتلته .

وتقول الأسطورة : إن البطل « بيرسي » قام بتحويله بعد ذلك الى جبل يسمى « أطلس » . لهذا قال الأقدمون : إن قبة السماء تستقر فوق جبال الأطلس . . . !

قبائل آيت عطا

جبال الأطلس كانت على مدى تاريخ المغرب حماية له وعزلة في آن واحد . وعلى الرغم من كثرة القمم الخالية من السكان ، فهناك بقربها أماكن للحياة الإنسانية ، هي السهول العالية التي يعيش في حماها الإنسان والحيوان . وقد كان الأطلس على مر العصور مكاناً للسكن والمرور ، ونقطة اتصال حيوية بين سكان الأقاليم المتاخمة للصحراء ، مثل زيز وتودرا ودرعة وسوس ، وبين سكان الأقاليم الصحراوية وبقية أنحاء البلاد ، وقد تعودوا على قطع الطرق الجبلية الوعرة التي تربط بين القرى ، حيث يسكن فلاحون مقيمون وبدو شبه رحل ، وهي قرى شهدناها طوال الطريق معلقة على مصاطب بين أراضي الجبل الوعرة التي لايستطيع سلوكها إلا الماعز ، وبين المساحات الخصبة الواقعة على المنحدرات تتناثر فيها هنا وهناك بيوت تتميز بالأصالة ، جدرانها مبنية بالآجر الطيني ، وسقوفها المسطحة مبنية بجذوع أشجار الصنوبر والأغصان المغطاة بالطين .

هكذا وجدنا أنفسنا في المراعي العالية بتلمست ، هنا وبين المراعي العالية يقيم أبناء قبائل « آيت عطا » ستة أشهر ، من ابريل الى اكتوبر ، بصحبة قطعانهم في المراعي حيث تجد عشبا مغذيا . ونلتقي بأحد رجال القبيلة وهو يسير دافعا بغله الراسخ الأقدام محملاً على الطريق ، إنه واحد من أبناء الأطلس الذين يتميزون بالاندفاع في عواطفهم وكرمهم ويرحبون بالغريب . الرجل رشيق مليح ، أبيض الوجه ، شعره يميل الى الصفرة ، تشعر فيه بنوع من التهذيب والدماثة وسهولة الانطلاق والاعتزاز بحياته الخشنة وسط الجبال .

ويتبسط الرجل في الحديث ، فهي فرصة يلتقي فيها بزوار من العرب وليس من السائحين الأجانب . ونعرف منه أن أبناء القبيلة ينقسمون



● خط سير الرحلة من مراكش الى اغادير مرورا بتارودانت وتزنيت وكولميم وتفراوت في الجنوب .

الى فلاحين مقيمين و« شبه رحل » ، الفرق بينهما يحدده حين يقول :

ـ إقامة شبه الرحل على أراضي المقيمين تخضع لتقاليد وعرف صارم ، فشبه الرحل يقومون بإعطاء جزء من محاصيلهم من القمح أو الشعير للمقيمين ، كتعويض لهم عن إقامتهم في أراضيهم خلال الشهور الستة المتعارف عليها ، والتي تحددها السلطة المحلية .

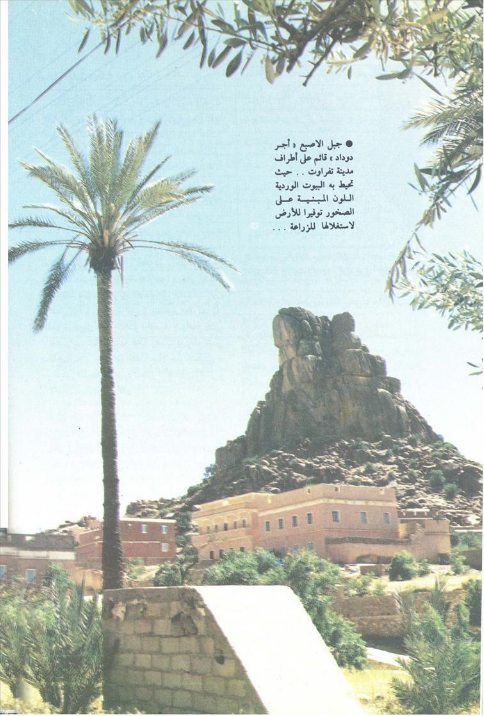
ويكون السؤال : ألا يمكن لأحد من شبه الرحل أن يعود الى المراعي قبل التاريخ المحدد ؟

ـ يجيب : إذا فعل فإنه يرغم على أداء غرامة باهظة أو يصادر قطيعه !

المركز الروحي لابن تومرت

واصلنا الطريق عبر الجبال في الطريق الى تارودانت ، الجبال والسهول والمجاري المائية المحيطة تتميز بجمال شعابها ، شعاب ضخمة عالية ضيقة ، يصل ارتفاع الجانب الداخلي من صخورها الى حوالي ٣٠ متراً . ونلتقي في الطريق بعين ماء عند سفح الجرف . يقول السكان بأن ماءها يشفي النساء من العقم !

عبر الهضاب العليا الى شعاب وادي دادس ،

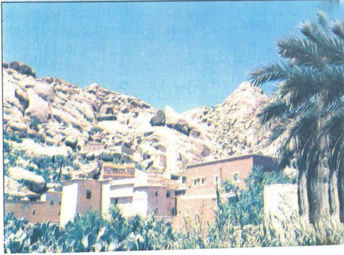


● جبل الاصبع « أجر دوداد » قائم على أطراف مدينة تفراوت . . حيث تحيط به البيوت الوردية اللون المبنية على الصخور توفيرا للأرض لاستغلالها للزراعة . . .



● الحمير والبغال هي وسيلة المواصلات الوحيدة في الجبال .

● تبدو الى اليمين المرتفعات الصخرية الجرانيتية مشكلة الجدار الخلفي لمدينة تفراوت والبيوت تستلقي تحت سفوحها . .



نحو أعالي الجبل ، نطل على مشهد طبيعي رائع ، تمتد خضرته على مدى البصر . وعند جبل امدغاس القائم على السفح الآخر للأطلس نصل الى إقليم هضبة البحيرات باتجاه ايميليشيل ، حيث يقام موسم الزهور في قرية قلعة « مكونة » . ومن هناك عدنا الى الطريق المرصوف ، لمواصلة الرحلة الى « تينمل » التي تضم أطلال أحد أشهر مساجد المغرب وأقدمها . كانت تينمل في القرن ١٨ الميلادي المركز الروحي لابن تومرت الموحدي ، ومازالت تقوم فيها مجموعة من الأقواس المتعددة الفصوص الرائعة الصنع .

نتجاوز المدينة الروحية لنخترق ممر « تيزى نتست » الجبلي الواقع على ارتفاع ٣٣٥٠متراً ، إنه آخر ممر جبلي كبير يصل الأطلس الكبير بالمحيط الأطلسي ، حيث مناخ آخر أكثر لطفاً ، ونسائم أكثر اعتدالاً ، الممر يوصل الى « تارودانت » المدينة الجميلة ، حاضرة إقليم سوس ، وعاصمة المغرب في عهد الملوك السعديين ، وبوابة الأطلس .

الجميلة تحرسها الأسوار

تارودانت كلها تختفي وراء الأسوار التي تحول بيننا وبين رؤية مابداخلها ، إنها أسوار تجذب بغموضها الزائرين ، تدعوهم الى الدخول واكتشاف أسرار التاريخ .

نتطلع الى تارودانت من أمام الأسوار ونحن نتذاكر المراحل التاريخية التي مرت بها . قبائل مصمودة المستقرة في بلاد سوس ، هي التي أسستها منذ عهد موغل في القدم ، وعندما جاء عقبة بن نافع مع الفتوح الإسلامية صمدت في وجهه طويلاً ، قبل أن يتمكن من فتحها بعد جهد كبير . وفي بداية القرن ١١م أصبحت عاصمة إمارة « شباء » التي أنشئت بمعاونة الفاطميين الافريقيين . وفي عام ١٠٥٦م جعلها المرابطون قاعدتهم العسكرية المتقدمة ، كمنطلق للجيوش ومركز للتموين في طريق حركتهم الاصلاحية المتجهة نحو الشرق والشمال ، وخلال حكم الموحدين استردت استقلالها . وبعد أن تعرضت للتدمير في القرن ١٤ عادت ترفع رأسها من جديد لتصبح عاصمة بلاد سوس .

وفي القرن ١٦ بلغت المدينة ازدهاراً كبيراً ، وأصبحت مركزاً مهماً للتجارة مع السودان ، وأخيرا في عهد محمد بن عبد الرحمن أصبحت مركز المقاومة ضد الغزاة البرتغاليين الذين استعمروا أغادير . وبعد أن سقطت القلعة البرتغالية في كاب رير ، فقدت تارودانت نفوذها ومركزها كعاصمة للسعديين ، حتى استطاع محمد الشيخ الاستيلاء على مراكش . ومع ذلك فقد استمرت عاصمة لإقليم سوس ، وانطلق منها الإشعاع العلمي والنهضة السياسية والاقتصادية ، وزاد ازدهارها في عهد مولاي اسماعيل عندما غزاها عام ١٦٨٧ . وفي أواخر القرن ١٩ أصبحت مركزاً للمقاومة ضد الحماية الاسبانية ، حتى وقع السلطان الأزرق أسيرا في خريف ١٩١٣م .

هذه الخلفية التاريخية كان لابد من تذكرها ، حتى ندرك قيمة المدينة وأسوارها التي مازال قائمة ، والتي كانت كلما انهار منها جزء ، خلال معارك الغزو ، أعيد ترميمه بمعرفة القادم الجديد . ونعيد تأمل الأسوار ، إنها مسننة قوية التحصين ، تفتح على المدينة من خلال خمس بوابات . الارتفاع حوالي عشرة أمتار ، والمحيط يمتد الى حوالي خمسة كيلومترات .

دار البارود ومولاي اسماعيل

صحبنا أحد أبناء تارودانت خلال جولتنا ، بعد أن دلفنا من إحدى بوابات المدينة الى قلبها ، سرنا بين معالم حدائق رائعة ، غرست على جوانب طرقاتها شجيرات الورد والزهور والرياحين وأشجار اللوز ودوالي الكروم . قال لنا

وهو يقف بنا عند مبنى تاريخي يحمل اسم « دار البارود » :

ـ كان هنا قصر مولاي اسماعيل السلطان المغربي الذي استقر فيه فترة من الزمن ، قبل أن يعود الى عاصمته مكناس . إن كل معالم تارودانت وبقايا هذا القصر تحكي الكثير عن السلطان الذي حكم المغرب مسيرة نصف قرن ، بين ١٦٧٢ و ١٧٢٧م ، وأقام خلال فترة منها في تارودانت .

لقد كان سلطاناً فذاً ، يحافظ على الرغم من حروبه العديدة وانتصاراته ، على إقامة جميع الاحتفالات الإسلامية بدقة . وكان يحمل أمامه المصحف أثناء قيامه بالتنزه عبر حدائقه ، وكان يتخذ القرآن قاعدة لسلوكه . وفي أي لحظة كان يوقف حصانه وينزل ليقبل الأرض ، وكان على لسانه دائماً اسم الله جل وعلا . وقد حقق من الانتصارات ماجعل التاريخ المغربي يحتفظ له بمكانة عالية ، بفضل جيشه القوي الذي استطاع به السيطرة على جميع القبائل المتمردة ، وتوطيد سلطته على جميع الأقاليم المغربية ، بعد أن استخلصها من المستعمرين .

ونواصل الجولة في تارودانت ، وندور بين رياضها الزاهرة وزيتونها وعنبها ورمانها ، وأزهارها التي تنسينا حدة الطبيعة وقسوتها وجفافها في الأطلس والجنوب المغربي .

الزرابي الأطلسية

تارودانت إحدى رموز المدن القديمة ، بمبانيها التاريخية وقنواتها وحدائقها وأسواقها وحرفها ، ومازالت على جدرانها تجاعيد الزمن ، وبين أزقتها الضيقة تتناثر ألغازه ، ومبانيها العتيقة تتكاتف وتتساند في حرص لتشي بتاريخ حافل بالأمجاد والصراعات ، وكل ركن من معالم المدينة يبدو قطعة فنية فريدة ، تم اقتطاعها من معالم تاريخ العصور الوسطى ، وميدان السراج يموج بالأهالي ببرانيسهم الزرقاء ، وهم ينسابون بين الحواة ومروضي الحيات والثعابين ولاعبي الورق .

في الأسواق التقليدية الكثيرة في الزنقات الضيقة نجد أنفسنا بين أنواع متباينة من أروع منتجات الحرف اليدوية والمنحوتات الحجرية والأسلحة والخناجر العتيقة . الدكاكين في الأزقة المسقوفة تزخر بألوان من الفنون والمجوهرات البربرية وأعمال التطريز والأخشاب المحفورة والمصبوغة والزرابي البدوية ، أو زرابي القبائل .

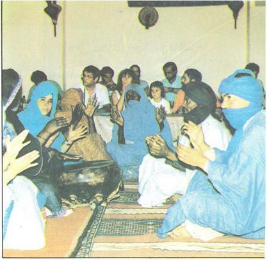
عن الزربية يقول المثل المغربي : « حيث تكون زربيتك يوجد بيتك » ، والزربية هي ما نعرفه بالسجاد الملون . تحكي أسطورة مغربية أن طائرا جاء من الشرق الأوسط ، وأسقط كمية من خيوط الصوف المتعددة الألوان . كان سقوط الصوف فوق صحن دار تجتمع عندها بعض الفتيات النساجات ، وعندما لم يعرفن أي لون يخترن ، استعملن جميع الألوان ، ولهذا فإن الزربية الحضرية اليوم تصنع بألوان سبعة ، هي ألوان قوس قزح .

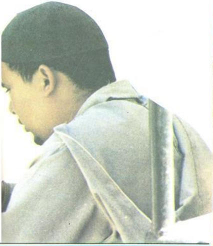
تتباين أنواع الزرابي بين مختلف الأقاليم ، بل وبين مختلف القبائل . من أبرز هذه الزرابي ماتعرضه دكاكين تارودانت . زرابي الأطلس الكبير ، وزرابي أقاصي الجنوب المستوحاة من البربر ، وهي من صوف الأغنام العالي القيمة الأبيض أو ذي اللون الكستنائي ، وسواء كانت سميكة أو رقيقة ، فإنها تتشكل من رسوم مشتركة : خطوط هندسية منكسرة ، وزوايا مفتوحة ، ومربعات أو معينات . ويقولون : إن من الممتع جدا الوقوف عليها بأقدام عارية !

الوادي الأخضر

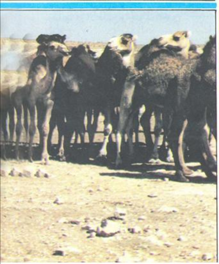
نغادر تارودانت ونحن لانريد أن ننساها ، فقد انطبعت في الذاكرة بأسوارها الشامخة وحدائقها المزهرة وبساتينها الخضراء وزرابيها الجلدية الأطلسية ، فهي بحق مدينة الهدوء والمتعة والروعة والجمال والتقاليد والتاريخ .

● في سوق السبت بمدينة كوليم : الفرقة الغنائية المصاحبة لرقصة « الجدرة » تستعد لأداء برنامجها الترفيهي للعائدين من السوق ، حيث يباع كل شيء حتى الجمال التي يأتي بها رجال الطوارق بملابسهم الزرقاء من صحراء الجنوب التي يذرعونها بقوافلهم في رحلات الشتاء والصيف ، قبل أن ينوخوا بجمالهم للراحة والتسوق . . ثم العودة الى الصحراء .

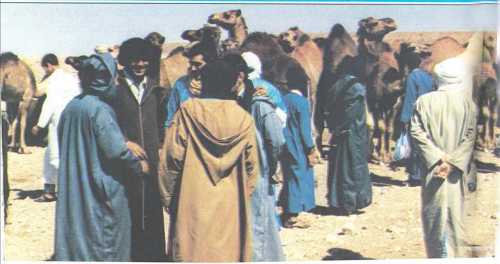












لم يبق أمامنا للوصول الى أغادير سوى ٨٢ كم ، بينما قطعنا من مراكش الى تارودانت ٢٧٦ كم .

المسافة الجديدة نقطعها هابطين من سفوح جبال الأطلس ، الأراضي حولنا خضراء خصبة ، ترويها مياه « وادسوس » الزاحفة من أعالي الأطلس ، لتصب في مياه المحيط . أشجار البندق واللوز والارجان التي تنتج نوعا متميزاً من الزيوت تمتد في المساحات السندسية على طول الطريق ، ونحن نخترق قرى أولاد ابراهيم وشراردة وعين شعيب ، حيث الصناعات التقليدية والأثاثات من الخيزران . على الجانبين تمتد المحميات البلاستيكية التي تحمي الفواكه والورود ، وبخاصة عند قرية « أبناء تايمة » ، وقرية « أولاد داحو » التي تبعد ٥٠كم عن تارودانت .

على طول الطريق الى السهول المشرفة على ساحل الأطلسي ، والتي تنتشر بالتدريج حوله ، نتنسم روائح المحيط . وعلى بعد - وكنقطة نهاية للأطلس - نجد أنفسنا على مشارف مدينة تستلقي لتستحم في الأمواج .

« أنزكان » مدينة المهجر

نحن الآن على مشارف أغادير ، حيث نتوقف عند بلدة لاتبعد عنها بأكثر من عشرة كيلومترات ، اسمها « أنزكان » ، إنها « المهجر » الذي هاجر إليه من بقي حياً من أهالي أغادير يوم فاجأهم الزلزال المدمر الذي جعل مدينتهم أثراً بعد عين ذات ليلة من ليالي فبراير ١٩٦٠م . في أنزكان عاش ابن أغادير الأصيل ، واستقر في مسكنه الجديد ، دون أن يفكر في العودة الى مدينته حتى بعد أن أعيد بناؤ ها ، إنه لايستطيع أن يتصور مرة أخرى ذكرى تلك الليلة المشؤومة . الصورة البشعة تحول بينه وبين الذهاب الى أغادير ، وتفرض عليه أن يجد لنفسه فرصة عمل في مستقره الجديد الذي تحول من قرية لايسكنها أكثر من ثمانية آلاف نفس الى مدينة يصل عدد سكانها الآن الى أكثر من مائة ألف نسمة .

قال لنا أحمد السوسي ، أحد أبناء أغادير المقيمين في أنزكان ، ونحن جلوس أمام مائدة عامرة بمختلف أنواع الحلويات واللحوم المشوية ، نشرب (الأتاي) - الشاي الأخضر - بالنعناع الذي لاتتذوق مثله أبداً إلا في المغرب :

- لقد هبط عليكم الليل الآن في أنزكان ، فلماذا لا تؤجلون سفركم الى أغادير مادامت معكم سيارتكم وسائقكم ، وتتجهون في الصباح لتشاهدوا أجمل المدن الشهيرة بالإقليم ؟ إذا وافقتم فسأكون مرافقكم الى هناك ، فلا تحتاجون الى دليل .

إذن فقد وجدنا دليلاً « قطاع خاص » بدل الإعلامي الرسمي ، فلا مانع من استكمال جولتنا عبر الجبال والصحارى قبل دخول أغادير . . !

« تيزنيت » ومجوهراتها التقليدية

انطلقت بنا السيارة مع الصباح في الطريق الى تيزنيت على مسافة ٩٢كم من أنزكان ، نقطعها دون أن نحس شيئاً من الملل أو كآبة الطريق ، على الرغم من أن جبال الأطلس الأدنى تعود لتحيط بنا من الجانبين ، مشكلة سوراً بين أغادير والإقليم الصحراوي . وهناك على ملتقى الطرق المؤدية الى الصحراء في الجنوب ، حيث كانت القوافل التجارية تتخذ طريقها عبر الجبال الى الشمال ، تربض تيزنيت . يقول لنا صاحبنا ونحن نخترق بوابة المدينة القديمة من إحدى فتحات أسوارها الحمراء التي تحيط بها وتفصلها عن المدينة الحديثة :

- تيزنيت لايمكن فصلها عن تاريخ مدينتي أغادير وتارودانت . وقد بدأت تاريخها كواحة خضراء تقصدها قوافل الصحراء ، حتى تأسست كمدينة على يد الولية الصالحة « لالا ازنينة » ،

عام ١٥٠٠ . وكانت هذه المرأة قد قضت جزءا كبيرا من عمرها على جانب النهر الأزرق المقدس . لهذا سنبدأ الزيارة بادئين بضريحها لقراءة الفاتحة ، ومشاهدة واحد من أبرز الآثار التاريخية التي تثير إعجاب الزوار ، الى جانب آثار أخرى تقف شاهدة على ماكان لهذه الواحة الخضراء بنخيلها وأشجارها ، وانسانها من ماض تليد . وإذا كانت المدينة القديمة محدودة داخل أسوارها التي يبلغ طول محيطها ستة كيلومترات ، فإن التحديث قد شملها ، وامتدت البيوت والدكاكين والفنادق والأسواق والمكاتب الحكومية لتدخل في نطاق المدينة الحديثة خارج السور ، بامتداد عدة كيلومترات . حين وصلنا مع ساعات الصباح الأولى كانت تيزنيت تحاول أن تستيقظ من غفوتها ، والهدوء يسيطر على كل شيء . كل البيوت لاتزيد عن طابقين ، والأبواب الخشبية الصغيرة تخفي وراءها الكثير من المنتجات والصناعات والمجوهرات التقليدية . لم نجد في ذلك الوقت الباكر إلا مشغلاً مفتوحاً في شارع باب الخميس يحمل اسم كنوز الجنوب . يستقبلنا صاحب المشغل ، حيسوبي محمد ، ليدور بنا داخل القاعات التي يضم كل منها نوعاً محدداً من المشغولات ، والتي تفنن في طريقة عرضها على الجدران وفي « الفاترينات » الزجاجية : زرابي ملونة ، ونحاسيات منقوشة ، وسيوف وخناجر ، وبنادق عتيقة ، وصوانٍ مشغولة ، وزجاجيات تقليدية ، ولكن أبرز كل ذلك الحلى الفضية الرائعة الجمال ، بنقوشها التي يتفنن العمال المدربون في تشكيلها من أسلاك رفيعة من الفضة ، بطريقة تثير الإعجاب ، تلتزم بالأشكال التقليدية التي اشتهرت بها تيزنيت طوال قرون . قال لنا حيسوبي :

- لا تتميز مدينتنا بمجوهراتها العتيقة فحسب ، فالأجمل من كل ذلك الأزياء الوطنية الجميلة الرائعة التي تضيف إليها المرأة التزنيتية النقوش الملونة الجميلة ، وبخاصة على ملاءة السوداء ، فتكسبها رونقاً ، وبهاء

تصحو تيزنيت وتنهض من غفوتها ، وتفتح أبواب دكاكينها ، وتمتلئ شوارعها وزنقاتها بالرجال والنساء المتجهين الى الأسواق ، العامرة بكل أنواع الصناعات التقليدية والمجوهرات الفضية والأزياء الزاهية التي تجذب السياح والسائحات الذين بدءوا يتوافدون على تيزنيت من خلال بوابة السور الرئيسية التي تفتح على الميدان الرئيسي ، حيث يقوم المسجد الكبير بصومعته ذات الطراز البربري الجنوبي . وأول مايتجه اليه الجميع هو سوق المجوهرات .

ساحة السوق واسعة ، تحيط بها من كل الجوانب الدكاكين والمشاغل التي تخصصت في المشغولات الفضية التقليدية . وندور بين المحلات التي تتزاحم عليها السائحات القادمات من الغرب ، لمشاهدة المعروضات قبل أن يفتحن حقائبهن للمساومة والشراء . المجوهرات المعروضة أغلبها من « البروشات » الصدرية البربرية ، والعقود المشغولة من حبات الكهرمان والاحجار الكريمة . السائحات لسن وحدهن من يشترين ، بل إن المواطنات أيضاً يشاركن في شراء هذه المجوهرات ، فهي أغلى وأثمن ماتورثه الأمهات لبناتهن .

في دكاكين تيزنيت نشاهد صوراً متباينة للصناعات التقليدية التي تعبر عن التمسك المستمر بالعودة الى الأصول . تكون الزرابى والمصنوعات الجلدية أهم عناصر الفنون التقليدية ، ولعل أبرز مايلفت النظر تلك المشغولات الصغيرة ، مثل الطرز والحلل والمصنوعات الخشبية .

كوليم ورقصة الجدرة

من تيزنيت نجد أمامنا اتجاهين ، أحدهما نحو الجنوب في الاتجاه الى كوليم ، بوابة الصحراء الجنوبية ، والثانى الى الشرق في الاتجاه الى

تفراوت . ونفضل مواصلة الطريق الصحراوي الجنوبي على أن نعود مرة أخرى الى الشرق مخترقين الأطلس من جديد الى تفراوت .

مدينة كوليم تقف شامخة على باب الصحراء ، جنوبي أغادير بحوالي ٢٠٠ كم . كل مبنى فيها يحكي ذكريات أحداث خالدة . الباب الواسع على الصحراء ساعد عبر مراحل التاريخ ، على تنمية أغادير وسوس الكبرى والأطلس الأدنى وازدهارها .

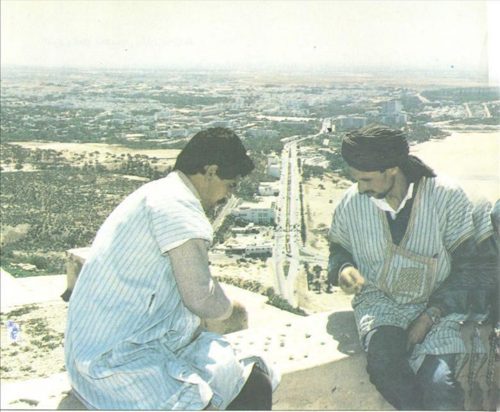
نحس هنا بالفارق الكبير بين المدن الجبلية التي مررنا بها وبين هذه المدينة ذات الطابع الصحراوي . حتى الطرق التي كانت في بعض الفترات مرصوفة بالقار « الاسفلت » اختفت تحت موجات الرمال التي تحملها الرياح بين الحين والحين قادمة من الجنوب ، حيث تمتد كثبان رملية على مدى البصر . الناس في الغالب ملثمون ، سواء الرجال أو النساء . الملابس وأغطية الرأس الزرقاء هي الطابع المعروف للسكان النازح أغلبهم من الجنوب . هؤلاء هم الرجال الزرق أو الطوارق الذين يذرعون الصحراء بقوافلهم في رحلات الشتاء والصيف . وفي كل يوم سبت يفترش الجميع ساحة السوق الكبير الذي يطلقون عليه اسم « سوق الجمال » على الرغم من أنه سوق لكل ما يمكن أن يخطر على البال : دواب ودواجن وماعز وجمال وفواكه وخضراوات وزرابي وقفاطين وجلابات وسيوف وخناجر وبنادق وأدوات وآلات من كل نوع وصنف . !

الجمال هي القاسم المشترك الأعظم في السوق ، فالجمل هو وسيلة المواصلات الرئيسية في الصحراء حتى الآن ، لم تستطع السيارات ولا الشاحنات إزاحته عن الطريق . والرجال الزرق القادمون في قوافلهم من قلب الصحراء يعرفون جيدا كيف يسوقون تجارتهم ، ولا بأس عندهم من أن تتم حركة البيع والشراء بالمقايضة كما كان أجدادهم يفعلون ، فالسلعة هي المطلوبة وليس المال .



● مشهد عام لأغادير القديمة والجديدة كما يبدو من فوق سور القصبة . الى أقصى اليسار تمتد الساحة الواسعة المعشوشبة التي كانت تقوم عليها أغادير قبل أن يدفنها الزلزال . . بينما المدينة الحديثة تقوم غير بعيد منها يخترقها طريق الحسن الثاني الذي يشرف على الشريط الساحلي الممتد عند أقدام نهر سوس ببيوته البيضاء التي تبدو في الصورة السفلى كأنها بجعة من بجعات الشاطيء الجميل .







وعندما ينتهي السوق فلابأس عندهم من التجمع قبل الرحيل حول المغنين والراقصين فيما يسمى « رقصة الجدرة » ، وهي رقصة شعبية لها فرقها الموسيقية والغنائية التي تحيي الحفلات في البيوت والمطاعم وفي مختلف المناسبات .

« الجدرة » هي أشهر الرقصات المميزة في الجنوب ، رقصة مغربية تعود جذورها الى أزمنة قديمة ، وهي تقدم دون آلات موسيقية ، عدا دقات رتيبة على دف كبير ، وطبلة هي عبارة عن « قدر » من فخار تغطى فوهته برق مشدود من الجلد . ويشكل مجموعة من الرجال دائرة حول الراقصة وهم يصفقون مع دقات القدر ، بينما هي راكعة على ركبتيها ، وقد أحاطت نفسها بملاءة سوداء أو زرقاء لاتكشف عن غير الكفين . وتحت أضواء راكية النار المشتعلة تحرك أصابعها في تعبيرات راقصة ، وهي تهز جذعها مع النغم يميناً وشمالاً . وفي لحظة معينة تسقط الحجاب عن وجهها ، بينما تواصل الرقص مغمضة العينين ، بينما هي تلصق على جبهتها ورقة نقد من فئة مائة درهم . ويتعالى صوت الطبل والتصفيق حتى يصل الى درجة معينة من الإثارة ، يعقبها توقف مفاجيء للراقصة التي تهوي في جلستها متربعة على الأرض ، بينما تنهض راقصة أخرى تحل محلها ، وتؤدي الدور نفسه ، ثم تليها ثالثة فرابعة ، ومع نهاية الأداء يتساقط « النقوط » من أوراق النقد عليهن من المشاهدين .

« تفراوت » مدينة الأساطير

نعاود التحرك من جديد باتجاه الشمال الشرقي الى قلب جبال الأطلس الأدنى . على طريق معبد ، تكثر فيه الوديان العميقة ، وعلى مسيرة مائة كيلومتر ، نجد أنفسنا وقد أحاطت بنا من الجانبين مرتفعات صخرية « جرانيتية » هائلة ، حمراء اللون ، كل جلمود منها يكاد يثبت على نقطة ارتكاز ضيقة صغيرة ، بينما تتساند الصخور الملساء الجرداء بعضها على بعض بطريقة تجعل الناظر اليها يخالها موشكة على السقوط ، وهو لايدرى أنها ثابتة ، تحافظ على توازنها بصورة لاتكاد تصدق . المشهد يبهر الأبصار ، وبخاصة مع حركة الشمس ، حيث تمتزج أشعتها مع ألوان الصخور التى تتغير ألوانها وتتباين مشكلة منظراً ساحراً خلاباً .

يقول لنا مرافقنا : هذا المشهد هو الذي جعل تفراوت - العريقة في القدم والتي أخذت اسمها الأصلى من اسم قبيلة كانت تعيش في المنطقة - تحمل الآن اسم « مدينة الأساطير » !

ونتساءل : أي أساطير ؟

يقول : انظروا حولكم الى رؤوس الصخور . هذا رأس الأسد الذي يحكي سكان المدينة أنه يحمي نساءهم من فضول الغرباء ، وهو يشرف على المدينة ليدافع عنها ضد كل من يحاول الاعتداء عليها .

وتحت ظلال جبل « اجردوداد » ، أي الأصبع القائم ، على أطراف المدينة ، ترتفع المباني الوردية اللون لتفراوت ، فالناس في المدينة التي ترتفع ١٥٠٠ متر عن سطح البحر ، يبنون بيوتهم على الصخور الهائلة الملساء التي تشكل أرضية البيت وجدرانه الخلفية ، سواء كان من طابق واحد أو من طابقين أو أكثر ، وهم إذ يفعلون ذلك إنما ليستغلوا كل شبر من المساحة القليلة من الأرض الطيبة القابلة للزراعة ، ليغرسوا فيها أشجار اللوز والأركان والنخيل .

الطريق « الاسفلتي » المرصوف يشق تفراوت ، فاصلاً بين البلدة القديمة والمدينة الحديثة .

نساء ولا رجال

تفراوت القديمة الى يسارنا ، تنهض في وسطها صومعة الجامع الوحيد في مواجهة الخلفية الصخرية ، تشهد الناس على قدرة الخالق العظيم . بيوت البلدة تستلقي في حضن الجبل

الصخري بجدرانها الحمراء وزخارف أبوابها الخشبية المليئة بالنقوش ، ونوافذها العتيقة المغلقة . البيوت لاتوحي بوجود حياة إنسانية داخلها ، فالنساء يختفين مع أطفالهن داخل البيوت الخالية من الرجال الذين انطلقوا بحثاً عن الرزق في المدن الكبيرة ، مثل أغادير والدار البيضاء ومراكش ، فلا يعودون إلا كل عدة شهور . ومع تولي المرأة مسئولية رعاية الأبناء والإنتاج الزراعي لمواجهة أعباء الحياة ، فإنها هي التي تزرع وتحرث في الحقل ، وهي التي تعبيء جرار الماء من الآبار ، وهي التي تتسلق الأشجار لتجمع اللوز والاركان والزيتون ، وهي التي تمارس الصناعة الوحيدة بالعمل في مشغل السجاد ، وهي التي تحمل الحمار بعيدان الذرة والحطب ، وتدفعه الى الدار ، وهي التي تؤدي في البيت دور الرجل والمرأة معاً حتى يعود الزوج . ومع ذلك فهي تعرف دائماً كيف تختفي داخل البيت ، وتغلق على نفسها وبناتها مزاليج الأبواب والنوافذ ، حتى لا يراهن غريب فإذا تصادف مرور السائحين والزوار أثناء وجودها في الطريق اختفت بسرعة وراء شجرة وهي تدير وجهها وترفع الحجاب على رأسها ، فينكشف صدرها عن العقود والأحجبة والتمائم النحاسية والفضية التي تزين جيدها . . !

ونتنقل من الجانب الأيسر الى الأيمن من الطريق ، فنجد أنفسنا في المدينة الحديثة التي تم بناؤها عام ١٩٦٠ ، واستخدم فيها الحديد والأسمنت أول مرة بدلاً من جذوع النخيل والطين . هنا نفاجأ بمظاهر الحياة التي تفتقدها البلدة القديمة . المقيمون ممن بقي من الرجال الذين لم يجدوا فرصتهم في المدن البعيدة يملأون الشوارع القليلة العتيقة ، يتحركون ويشترون ويبيعون ، ويحتسون « الأتاي » مع الحلوى في المقاهي والمطاعم وجوانب الطريق ، أو عند مداخل المحلات التي تعرض كل شيء : صناعات جلدية وشباشب وأحزمة وزرابي وقفاطين ومشغولات يدوية وأوانٍ نحاسية ، كلها تجذب مجموعات السياح الذين يضيق بهم « فندق الجنوب الكبير » ، الفندق السياحي الوحيد المشيد على الطراز الحديث .

أغادير عروس الأطلسي

وينتهي بنا المطاف بعد ذلك في أغادير ، متعة الأبصار ولؤلؤة الأطلسي .

اسمها بلغة القبائل البربرية يعني « مخزن الغلال » ، سر التسمية أنها المخزن الطبيعي لكنز القبيلة وثروتها الكبرى مما تنتجه أراضي سوس الخصبة التي تصب غلاتها في المدينة المستلقية عند مصب النهر وتحت أقدام جبل صخري تقوم على قمته القصبة . وكما تشيد القصبة عادة في أعلى مرتفع يشرف على المدينة ، فكذلك المخزن يحفر في أعلى صخرة برأس الجبل ويكون سفحه منحدراً بحيث يصعب على المعتدي بلوغه الى حيث تخزن القبيلة غلاتها وكنوزها .

فأغادير هي نهاية سهول سوس الزراعية ، ومخزن غلال الوادي الممتد حوالي مائتي كيلومتر ، حيث تندفع المياه عند هطول الأمطار ، مكونة نهر سوس الذي تصب مياهه في مياه المحيط . فهي بطبيعة موقعها مرسى طبيعي للسفن ، ومرفأ لصيد الأسماك ، ومقر لصناعات الانتاج الزراعي والبحري .

اليوم يعرفها الناس بأنها « عروس الجنوب » ، باعتبارها مصيفاً يقصده السائحون من كل مكان ، ومركزاً تجارياً مهماً له جاذبيته ، بلطف هوائه ، واعتدال مناخه ، ودفء شتائه ، وبرودة صيفه ، وصفاء شمسه ، وسحر شاطئه الناعم الذي تغسل رماله أمواج المحيط .

أغادير مدينة لها ماض ، ففي عام ١٥٠٥ أقام أحد أثرياء البرتغاليين قلعة صغيرة ، عرفت باسم « سانتا كروز ديكارير » ، في الموقع نفسه الذي قامت فيه أغادير ، قرب « أية فونتي » . بعد ست سنوات تم بيع القلعة للملك البرتغالي







● كل شيء في القصبة دفن تحت الأنقاض مع سكانها الثلاثة آلاف . . . ولم يبق إلا بقايا جدار وشاهد صغير يشير الى المكان الذي كانت تقوم فيه صومعة المسجد . . (الى اليمين) بينما أحد الحواة يعرض فنونه في الساحة الخارجية . .

في الصورة العليا مشهد عام لرصيف الميناء الذي يعد أحد أهم الموانيء الاولى في العالم من حيث الصيد البحري ، وخاصة صيد السردين الذي يصدر الى جميع أنحاء العالم .



مانويل ، وقام بتوسيعها واحتلال ماحولها ، حتى باتت مركزاً تجارياً نشطاً ألحقت به القرى المحيطة . ولكن على هذه المدينة تتابع الطامعون : قوى استعمارية عديدة ، فرنسية وألمانية ودنمركية ، بالاضافة الى البرتغالية والهولندية ، طمعت كلها في المدينة وموقعها الاستراتيجي على المحيط الأطلسي ، وأقامت بها مواقع لنفوذها ومحطات لخطوطها التجارية البحرية ، عن طريقها كان يتم التبادل التجاري في أغادير : أقمشة ومصنوعات حديثة من الغرب ، مقابل قصب السكر والتمر واللوز والجلد الخام والذهب الذي كانت تنقله القوافل من وراء الصحراء .

واستمر الحال كذلك حتى جاء سيدي محمد بن عبد الله العلوي عام ١٧٥٢ ، فأعاد بناء ماانهار منها خلال صراعات المستعمرين ، وجعل منها مركزاً تجارياً رئيسياً على المحيط الأطلسي .

قصة مدينتين

ذلك المركز التجاري هو الدور المهم الذي لعبته أغادير حتى القرن العشرين ، وإن تخللت ذلك فترات من الضعف ، وقد ارتبطت فيها الحياة الأخاذة على مر القرون بالملاحم والبطولات ، وظلت حتى اليوم على الرغم من تقلبات الزمن المدينة الساحرة ، جوهرة الجنوب ولؤلؤة سوس .

ولكن أشد الملاحم المأساوية جرت ذات ليلة من فبراير عام ١٩٦٠ ، حين فاجأها الزلزال المدمر الذي جعل المدينة وقلعتها أثراً بعد عين .

حكاية الزلزال ترتبط دائماً بأغادير حين يتحدث عنها الناس طوال ربع القرن الأخير . وكانت صورة هذه الحقيقة في أذهاننا ونحن نشهد المواقع الباقية خلال وقفتنا على قمة القصبة ، أو بقايا القلعة المطلة من جانب على حي فونتي بالمدينة الحديثة ، وعلى الميناء الهلالي المحمي في

بطن الخليج ، بينما تطل من الجانب الآخر على الساحة الواسعة التي كانت تحمل الاسم نفسه « أغادير » قبل أن يبتلعها الزلزال .

ماالذي يذكره أبناء أغادير من تلك الليلة الرهيبة ؟

الإجابة نسمعها من مرافقتنا المرشدة السياحية « عواطف » ، ونحن وقوف عند سور القصبة ، بعد أن أشارت الى ساحة واسعة جرداء ، قالت :

- هنا كانت أغادير القديمة . ضربة الزلزال أصابتها في ١٥ ثانية ، وأحالتها الى ركام ، دفن تحته ١٥ ألف إنسان ، غير الآلاف الثلاثة الذين دفنوا تحت ركام القصبة التي نقف عليها الآن .

قلنا لها ونحن نبغي سماع المزيد :

- لعل أباك حكى لك عن تفاصيل ماحدث ؟

أجابت في ابتسامة :

- لو كان أبي في أغادير تلك الليلة لما كنت أتحدث معكم الآن ، فما كان يمكن أن أولد !

شعرنا بالحرج وقد تنبهنا الى أنها لاتتجاوز الخامسة والعشرين ، وتجاوزت هي عن خطئنا غير المقصود ، وأسرعت تقول :

- كان أبي وقتئذ يشتغل بصيد السردين ، في تلك الليلة كان هو وزملاؤه في مركب الصيد ، يؤدون عملهم ليلاً في المياه القريبة من الساحل ، فقد كان من عادة الصيادين أن يغادروا بعد الغروب ، ثم يعودون بحصيلة صيدهم قبيل الفجر . من على بعد ، ومع انتصاف الليل ، سمعوا صوت انفجار رهيب ، وكأنما نفخ في الصور . مراكب الصيد اهتزت بهم وراحت تتقاذفها الأمواج . التفتوا ناحية المدينة فلم يشاهدوا أثراً لأضواء البيوت الخافتة التي كانت تنبعث عادة من النوافذ خلال الليل ، وتهديهم الى موقع الميناء . أسرعوا بالعودة ، ولكنهم لم يجدوا حتى المرفأ الذي كانوا قد انطلقوا منه ، كانت المدينة كلها قد اختفت ، ابتلعتها الأرض ، ولم يعد هناك شيء حي .

القصبة وحياة كل يوم

توقفت الفتاة ولم تستطع أن تزيد .

كانت آثار الكارثة وصورة ماحدث لاتحتاج لحديث آخر ، ونحن وقوف فوق القصبة ، نعم ، القصبة . ماذا جرى لهذه القصبة التى كانت قائمة شامخة تطل على المحيط الواسع ووادي سوس الأخضر السندسي ؟

لقد انقلب باطنها ظاهرها ، مقبرة ضخمة تضم في أحشائها أكثر من ثلاثة آلاف نفس كانوا هم كل سكانها ، لكن لاشواهد ولا قبور ، فليس هناك سوى بقايا بعض الأسوار تحيط بالتلة الترابية ، وباب القصبة الذى مايزال قائماً مفتوحاً يصعد إليه على درج يؤدي بنا الى داخل الأسوار .

داخل القلعة - وعلى الرغم من مرور حوالي ثلاثين عاماً على الزلزال الرهيب - ماتزال بقايا الحجارة والأنقاض تتناثر في الساحة الداخلية ، مختلطة بنباتات برية معشوشبة . كل مالايزال قائماً في الساحة بقايا جدران من جدران المسجد ، تخترقه ثغرة كبيرة ، كأنها آثار طلقة مدفع ضخم ، ثم رمز لشاهد صغير ، يشير الى أنه في هذا المكان كانت تقوم المئذنة (الصومعة) التي كان يرتفع من فوقها الأذان على ارتفاع ٢٣٦ متراً فوق سطح البحر .

في الساحة الخارجية تجري حياة أخرى : رجال وصبية ينتظرون السياح والزوار ، حواة ومروضو ثعابين يعرضون فنونهم وحركاتهم البهلوانية ، ويحيطون أعناق السائحات بالأفاعي ، ويلاعبونها ويقربونها من شفاههم دون خوف ، فقد أزالوا من قبل أنيابها التي تقذف السموم ، أما الجمال فهي مستعدة دائماً لحمل السياح والتجول بهم حول الساحة لالتقاط الصور التذكارية بجوارها ، بينما صبيان يحملان عنزتين ويدعوان السائحات لاحتضانها ومداعبتها مقابل درهم أو درهمين !

هكذا تجري الحياة فوق القصبة ، تماماً كما تجري في المدينة الحديثة .

الحياة عادت من جديد في أغادير ، لقد نهضت على قدميها ، ونفضت عن عيونها النوم ، تناست ذكريات الكارثة ، وعادت تعيش عصر يقظة وانفتاح ، لكنها حين تريد أن تنام هذه المرة فإنها تظل مفتوحة العينين ، أو هي في الحقيقة لاتنام على الإطلاق ، فشوارعها حية صاخبة طوال الليل ، وناسها يروحون ويجيئون في الشوارع الواسعة المضيئة ، ومقاهيها وملاهيها تضج بالموسيقا والغناء المغربي الأصيل . زوارها وسكانها يسترخون على الشرفات في مواجهة الشاطىء ، سائحوها يعودون الى نواديهم و « شاليهاتهم » الممتدة على طول الشاطىء ، يستلقون على المقاعد حول طاولات بيضاء متناثرة مشرعين صدورهم ناحية البحر .

أغادير تظل مستيقظة حتى مطلع الفجر ، عندئذ فقط يغلبها النوم ، لقد انقضى الليل ولم يعد هناك مايخشاه الناس في ضوء النهار ، كأنهم يتصورون أن الكارثة لاتنقض إلا خلسة في الظلام !

السردين الأغاديري

أغادير مركز تجاري وسياحي رئيسي الى جانب أنها تعد بوابة الجنوب .

ميناء صيد الأسماك الجديد تم توسيعه وتعميقه ، ومازال هناك مشروعات أخرى تبشر له بمستقبل أكثر ازدهاراً ، وعلى جانبيه تقوم المخازن المبردة الواسعة وغرف الثلاجات على طول الأرصفة .

الميناء يعرف حركة تجارية مزدهرة ، حيث تصدر المنتجات الفلاحية وغيرها من المواد التي ينتجها سكان المنطقة ، ويصدرونها الى أوربا والشرق . والمرفأ يعد حالياً أحد أهم الموانىء الأولى في العالم من حيث الصيد البحري ، كما أنه يشكل المكان الأمثل لازدهار التجارة الدولية بالمغرب ، وبخاصة تجارة السردين .

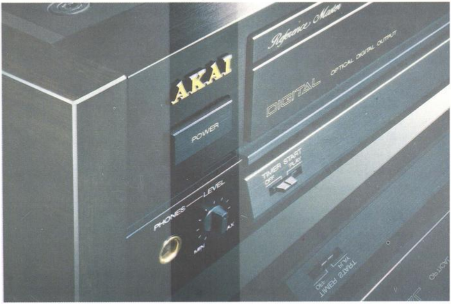
إن سردين أغادير يخرج من البحر مباشرة الى مصانع التعليب والتثليج التي يتجاوز عددها خمسين مصنعاً ، حيث يعلب السردين في يوم صيده ، وتنطلق السفن محملة بعشرات الألوف من علب السردين الشهي المغذي الطازج الى كل مكان من العالم ، كما تحول كمية كبيرة أخرى الى نوعين من الدقيق ، نوع يأكله الإنسان ، ونوع يأكله الحيوان .

بعيدا عن الميناء والشواطىء تتميز معالم أغادير بمسجدها الرئيسي ودار العدل وقاعة المدينة ، وشوارعها الرئيسية المتفرعة من ميدان الحسن الثاني ، وأجملها شارع الأمير مولاي عبد الله ، وشارع الحسن الثاني ، وشارع الجيش الملكي ، وشارع محمد الخامس . أما الأسواق المفتوحة والمغطاة فعامرة بكل قديم وجديد من أنواع الصناعات التقليدية .

وتنتهي إحدى جولات بعثة « العربي » في المغرب . كانت هذه المرة في أعالي الجنوب ، دون الوصول الى أدناه ، ولكنها جولة حية بين معالم طبيعة تخلب الألباب ، وتثير كل من يحب الفن والجمال ، طبيعة قوامها سهول مترعة بالخضرة والزهور والورود والفواكه ، وجبال تكسوها أشجار من كل نوع ، وتتناثر حولها شجيرات اللوز والزيتون والأركان والكروم ، وقمم تغطيها الثلوج طوال الشتاء وبعض الصيف ، ومياه معدنية طبيعية ، تتفجر ينابيعها نقية كالبلور الصافي من القمم والسفوح ، لتملأ بمائها الوديان ، وأسوار وقلاع وصوامع لاتخلو منها مدينة في السهول أو السفوح أو الجبال ، وأزياء وجلابات وقفاطين تقليدية مقصبة ومذهبة تؤكد أصالة التراث ، ثم فنون رفيعة وزخارف وفسيفساء تبرز على الجدران والنوافذ والأبواب والقاعات ، وتؤكد أن الفن الشعبي المغربي فن خالد ، يضمن لأبنائه الخلود والاستمرار . □

AKAI

العلامة الذهبية للانجاز



ان بلوغ العيد الستين يمنحنا سببا للتوقف أمام أكاى.
فان ستة عقود من الانجازات التكنولوجية هى بالتأكيد مما يستحق الفخر.
على ان المكافأة المتمثلة فى تقديم المتعة المنزلية الراقية الى كل
هؤلاء الناس لا تقل عظمة.
ان هدف أكاى، كشركة تقتصر على تصنيع الأجهزة
الصوتية واجهزة الفيديو، كان هو دائما " اخراج
مبتكر للصوت والصورة " . •
وها نحن نبلغ هدفنا مرات ومرات من جديد بسيل
متدفق من التجديدات الفنية التى مهدت
الطريق للأخرين كى يسيروا فيه، والتى تظهر الآن بأوضح ما يكون

فى نظامنا الخاص للاستجابة السريعة
Quick Response System واجهزتنا للاسطوانات المدمجة
CD القمة فى فن التكنيك، كما ستظهر قريبا -
فى اجهزتنا لمسجلات الفيديو S-VHS
بوضوحيتها الفائقة.
وبالطبع، أكاى ليست هى الشركة التى
تقبع راضية بأكاليل الغار.
لذلك ونحن نحتفل بماضينا المجيد، لك ان
تطمئن اننا نعمل اكثر من أى وقت مضى كى
نضمن فى الأعوام المقبلة ٦٠ عاما ذهبيا آخر.

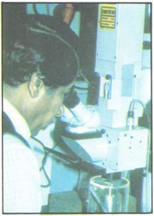
1929–1989
60TH ANNIVERSARY

Akai–Creative At Heart.

F KUWAIT: MORAD YOUSUF BEHBEHANI P.O. Box 146 Safat, 13002-Safat, Kuwait Tel: 4844000
RABIA: PENINSULAR DISTRIBUTION CO., LTD. P.O. Box 7997, Jeddah 21472 Tel: 671-4488
ENERAL ENTERPRISES COMPANY P.O. Box 363, Dubai Tel: 224131, 236575
TE OF OMAN: SUHAIL & SAUD BAHWAN P.O. Box 169, Muscat Tel: 793741
F BAHRAIN: AMBASSADOR STORE P.O. Box 237, Manama Tel: 253513
HMAD AL-UTHMAN & BROS LTD. P.O. Box 218, Doha Tel: 423507, 423508
N: UNIVERSAL ENTERPRISES COMPANY 31 Hotel Metropole Bldg., Mereweather Road, Karachi-17 Tel: 511611
SYRIA: ASSAD WATTAR P.O. Box 590, Damascus Tel: 338973
LEBANON: HI-FI CENTER P.O. Box 144, Hazmieh Tel: 916190
EGYPT: EL MOBAYAD SONS TRADING CO. P.O. Box 1323, Cairo Tel: 717322
CYPRUS: EVAGORAS G. PHYLACTOU LTD. 67A Saint Andrew Street, Limassol Tel: (337) 51-6360-
NIGERIA: ZABADNE & CO., LTD. 93 Broad Street, P.O. Box 736, Lagos Tel: 664305
DJIBOUTI: AU CHIC PARISIEN B.P. 149, 32, rue de Paris Tel: 351827

من مختبرات البحوث:

مفصل اصطناعي في عظم الحوض



بقلم المهندس : وسمي حسوني *

تعد عملية استبدال مفصل عظم الحوض ، في جسم إنسان ، بمفصل اصطناعي لأسباب صحية ، من العمليات الجراحية الشائعة البسيطة ، إلا أن خطر ارتخاء المفصل الاصطناعي ، أو تآكله ، على مر السنين سيبقى أمرا محتملا ، مما يجعل الأطباء في هذه الحالة يقومون بإعادة العملية لزرع المفصل مجددا ، لكنْ هناك جديد في هذا المجال .

ذلك أنه ليس لدى أطباء العظام والمهندسين المختصين في الميكانيكا الحيوية ، على الرغم من الخبرة العالية والممارسة الطويلة ، معلومات هندسية كاملة ، حول الظروف المسببة للارتخاء ، أو عن العوامل التي لا تمنع بقاءه ثابتا .

ولو عرف ذلك على أساس علمي هندسي دقيق لكان من الممكن غرس المفصل الاصطناعي بوضع مناسب لظروف القوى الميكانيكية الطبيعية المحيطة بالعظم داخل جسم الإنسان المصاب ، ولكان بالإمكان تجنب أسباب الارتخاء والتآكل بأسلوب أفضل .

لمعرفة سر ذلك أنيطت بالمختبر الميكانيكي الحيوي لمستشفى العظام ، التابع للجامعة الحرة ببرلين الغربية ، وبمساعدة مالية من المؤسسة الألمانية للبحوث ، مهمة اكتشاف الأسباب

* معهد تقنية اللحام بالجامعة الهندسية - برلين الغربية

الأنفة الذكر ، ولإيجاد كيفية الحل المطلوب لها .

فتم تطوير جهاز إرسال الكتروني قياسي ، أدخل في جوف مفصل من المفاصل الاصطناعية المستخدمة اعتياديا ، لتعويض المفاصل الطبيعية المصابة ، يرسل إشارات زمنية لاسلكية ، حول الظروف الحركية الخارجية المحيطة بالمفصل التي لا يمكن رؤيتها بالعين . وتُستقبل هذه الإشارات وتُلتقط بجهاز « مكروبروسيسور » ، وهو جهاز إجراء العمليات الحسابية والسيطرة على مكونات « الحاسب الالكترونية »،وقد صنع خصيصا لهذا الغرض حاسوب « كمبيوتر » يقوم بتخزين وحساب وتحليل للقوى والظروف المحيطة المؤثرة ، ومنها أسباب الارتخاء والتآكل .

في حالة غرس جهاز كهذا في جسم إنسان يجب أن تتوافر كل ضمانات الأمان والجودة الهندسية حول سلامة بقاء الجهاز وعدم تفككه ، وخلوه من أي عيب ، أو أي ردود فعل تكوّن خطراً على المريض ، ومن ثم على الجهاز الذي كلف ابتكاره وتصميمه وصنعه وغرسه جهدا كبيرا .

معضلات تقنية

لتصميم هذا الجهاز القياسي نظريا ، ولصنعه واستخدامه الفعلي بعد غرسه طبياً ، وجب حل معضلات تقنية معقدة منها :

- تصغير حجم هذا الجهاز الالكتروني إلى أدنى حد ممكن ، لضيق المجال المتوافر له في جسم الإنسان ، وليتم إدخاله في صندوق معدني واق أسطواني الشكل ، لا يتجاوز قطره عشرة مليمترات ، وارتفاعه لا يتجاوز عشرين مليمترا ، ويكون بالمتانة الميكانيكية التي تتحمل أضعاف ثقل الإنسان ، وعبء ضغوط تحركاته ، وعلى أن يكون من المعادن التي تتقبلها بيئة محيط جسم الإنسان الداخلية ، وأن لا تؤثر أو تتأثر بالإفرازات التي يفرزها جسم الإنسان داخليا .

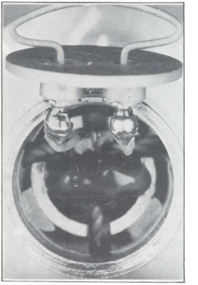
- إغلاق الصندوق المعدني بغطاء من المعدن نفسه ، بعد احتوائه على جميع محتويات الجهاز الالكتروني الحساس ، بعملية لحامية عالية الجودة ، تضمن المتانة الضرورية باجتيازها كل الاختبارات اللازمة التي تتم بالمعاينة والفحص الدقيق لاكتشاف العيوب الداخلية والخارجية في وصلات اللحام ذات الأهمية القصوى .

- إيجاد مصدر طويل الأمد ، لتزويد الجهاز بالطاقة اللازمة أثناء القياس ، وقد كان من غير الممكن استخدام البطاريات لكبر حجم أصغرها ، ولمحدودية فترة استعمالها ، ولاحتوائها على عناصر ضارة ، لها ردود فعل سامة ، لذا اخترع مصدر للطاقة ، يستمد طاقته من مجال مغناطيسي ، يسري من الخارج في ملف يولد طاقة كهربائية ، يعمل بها أثناء القياس لاسلكيا .

والأسلاك المستخدمة في الجهاز الالكتروني أسلاك رفيعة ، لايزيد سمكها عن خمسة وعشرين في الألف من المليمتر ، تلف على شكل ضفائر موصلة ، لا يزيد قطرها عن ربع مليمتر ، تلصق تحت مجهر ، على قطعة كيراميك من أكسيد الألمنيوم ، وهو خزف من نوع خاص ، عرضها ستة مليمترات ، وطولها خمسة عشر مليمترا أدخلت في المغلف المعدني - الصندوق الأسطواني - المصنوع من معدن التيتانيوم .

هذا المعدن العجيب

التيتانيوم معدن خفيف ، يزن السنتيمتر المكعب منه ٤,٥ أربعة غرامات ونصف غرام ، وله خاصية الصلابة والمقاومة العاليتين ضد عوامل البيئة المؤثرة كالضغط والحرارة والصدأ والتأكسد والتآكل . ولهذه المزايا وغيرها يستخدم هذا المعدن المسمى (المعدن العجيب) في صناعة الطائرات والمركبات الفضائية ، ولولاه ما وصلت الطائرات إلى سعتها وسرعتها الحاليتين .



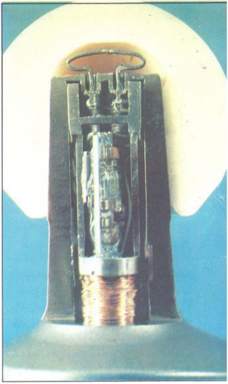
● صورة مكبرة للمغلف المعدني وغطائه من معدن التيتانيوم قبل لحامه ، ويلاحظ أن سمك غطاء المغلف ثلاثة أرباع مليمتر ، وأن سمك الغلاف الاسطواني مليمتران اثنان .

ويستخدم هذا المعدن في المنشآت البحرية ، وفي صنع وإكساء أجزاء المكائن والعجلات التي تطلب فيها الصلادة والمقاومة العاليتين ، وفي صناعة الحلى والساعات الثمينة . وميزة أخرى مهمة ، هي سبب آخر لاختياره هنا ، وهو تقبله في جسم الإنسان وعدم رفضه إياه ، فبيئة جسم الإنسان الداخلية لا ترضى بمعاشرة كل معدن دخيل .

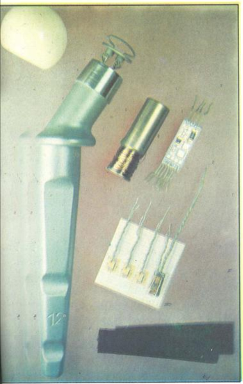
درجة حرارة انصهار التيتانيوم تقارب ألفاً وسبعمائة درجة مئوية ، أي أنه عندما يلحم غطاء المغلف ـ الصندوق ـ المعدني يجب أن تتوافر هذه الحرارة لصهره ، فمعظم عمليات لحام المعادن تتم بصهر حواف الأجزاء المراد لحامها بمصدر حراري معين ، وبزوال الحرارة يتجمد المعدن المنصهر خلال وقت مقداره أجزاء من الثانية ، وتتكون الوصلة اللحامية التي يجب أن تكون لها مميزات المعدن الأساسي الملحوم ، في حين أن المكونات الحساسة للجهاز الالكتروني لا تتحمل أكثر من مائة وسبعين درجة حرارية مئوية . وقد كانت هذه المشكلة إحدى المعوقات الرئيسية في مسار الانتقال بالجهاز المصنوع من التصور النظري إلى مجال التطبيق العملي ، أي وجب أن تتم عملية لحام الغطاء المعدني للمغلف بعد وضع جميع أجزاء محتويات الجهاز الالكتروني المرسل داخله ، دون إلحاق الإضرار بها بالحرارة المتولدة من عملية اللحام ، وقد أنيطت هذه المهمة بمعهد جامعي لتقنية اللحام .

وعلى عكس الجوانب الجيدة التي يمتاز بها معدن التيتانيوم فإن عملية لحامه تتطلب إجراءات خاصة ، بسبب امتصاصه عناصر مكونات الهواء بمجرد ملامسته لها (الاوكسجين والنيتروجين والهيدروجين) ، عند بلوغه درجة حرارة مقدارها مائتا درجة مئوية تقريبا إذ يصبح هشا سهل الكسر ، فيفقد بذلك قابليته للحام ، لذا وجب عزله عند اللحام عن الهواء المحيط به تماما ، بوضعه في وسط غازي وقائي ، أي في حجرة يزيد حجمها قليلا عن حجم الشيء الذي يراد لحامه ، مفرغة من الهواء ، مملوءة بغاز الأركون ذي النقاوة العالية ، بنسبة ٩٩,٩٩٪ ، وأن يكون للحجرة مدخل ومخرج للغاز ، أي يجب أن يكون فيها باستمرار جو وتيار من الغاز .

ولما كانت الأجزاء المكونة للجهاز الالكتروني المرسل داخل المغلف المعدني ، كما ذكر ، لا تتحمل أكثر من ١٧٠ درجة مئوية ، ولما كانت معظم أجزائه ملصقة على قاعدة كراميك ، وجب التفكير بإيجاد أسلوب لحام ، يصهر المعدن دون أن يؤدي إلى إيجاد منطقة حرارية واسعة حول بقعة الانصهار ، وقد وقع الاختيار بعد تجارب كثيرة على أسلوب اللحام النقطي بأشعة الليزر .



● مقطع مكروسكوبي لداخل الجهاز الالكتروني ، وقد ظهر في أعلى الصورة سلك الإرسال (الاريل) ، وهو مغطى بخزف من نوع خاص (كراميك أوكسيد الألمنيوم) لوقايته وعزله عن بيئة جسم الإنسان الداخلية .



● صورة مكبرة للمفصل الاصطناعي والأجزاء المكونة للجهاز الالكتروني ، وفي أعلى الصورة غطاء الكراميك لسلك الإرسال (الاريل) .

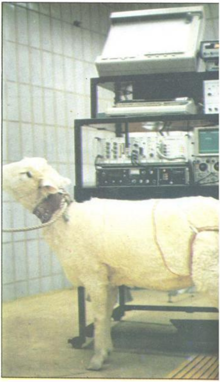
اللحام بالليزر

اللحام بأشعة الليزر أحد أساليب اللحام بالصهر ، مصدر حرارته التي تقارب خمسة وعشرين ألف درجة مئوية إشعاع يمكن تسليطه بؤريا (بعدسة جامعة) بدقة وتأثير ، مركزاً على نقطة قطرها يقارب بعض أجزاء من المليمتر ، وبسرعة زمنية خاطفة ، حدودها الزمنية أجزاء من الألف في الثانية ، أي يتم صهر سطح المعدن عندما تصيبه أشعة الليزر المنطلقة بنبضات ،

زمنية قصيرة ، مرحلة البحث والتطوير ، ودخل بشكل فعال وواسع مرحلة الاستخدام والتطبيق ، في مختلف المجالات العلمية والصناعية والطبية وغيرها ، وتستعمل أشعة الليزر كمصدر حراري متنوع الاستخدام في الصناعات المعدنية ، كأعمال اللحام والقطع والتثقيب الدقيق والتصليد ، وفي مجال تغير الخواص الميكانيكية والكيميائية والفيزيائية لأسطح المعادن .

وبعد ثماني سنوات من العمل والبحث المتواصل ، وبكلفة مالية تقارب مليون مارك ألماني ، تم صنع المفصل الاصطناعي القياسي بنجاح ، وتم زرعه في ساق حيوان لإجراء التجارب الأولية ، وللتأكد من فاعلية الجهاز ، ومن ثم زرع في عظم حوض رجل مصاب يبلغ من العمر الثانية والثمانين ، وقد كان رياضيا ، حصل في شبابه على جوائز كثيرة في رياضة القفز ، وبعد ذلك صار يمارس رياضة المشي ، ويقود عربة التسوق المحملة بالمواد الغذائية الأسبوعية ، ويصعد بها المدرجات العامة الكثيرة ، والجهاز مغروس فيه ، وهو مسرور وفخور في حمله هذا الجهاز الذي تحدثت عنه وسائل الإعلام الالمانية والعالمية بإعجاب .

وتشير نتائج القياسات إلى معلومات مفيدة ، سيلتزم بها الأطباء الجراحون في زرعهم للمفاصل الاصطناعية في المستقبل . وقد تمت معرفة كثير من المسائل التي كانت غامضة ، على الرغم من قصر المدة ، ومنها على سبيل المثال تأثير نوعيات الأحذية ، من حيث ارتفاع كعوبها أو انخفاضها ، وتأثير ذلك على عظم الحوض عند المشي أو الحركة ، وعن مقدار تأثير الثقل على العظم ، عند استخدام العكازات ، وغيرها من المعلومات . وسيغرس هذا المفصل القياسي في أشخاص آخرين لاكتشاف عدة أسباب وحلول كانت غامضة على مهندسي الميكانيكا الحيوية ، ثم على أطباء العظام حتى الآن . □



● خروف غرس في ساقه المفصل الاصطناعي القياسي ، لإجراء التجارب الأولية عليه ، للتأكد من فاعلية الجهاز الالكتروني المرسل ، وقد ظهرت أجهزة القياس .

فيحدث لحام نقطي ، على شكل بقع مدورة ، قطرها وعمقها في حدود أجزاء من المليمتر ، لهذه الحالة ، وتكون هذه البقع المنصهرة مرصوصة بعضها مع بعض ، فتكون بذلك وصلة لحامية .

لقد تخطى الليزر ، بخطا سريعة وفي فترة



حكايات طبية

صديقي « د » يلوي لسانه !

بقلم : الدكتور غسان حتاحت



عندما رأيت صديقي د (والدال هنا حرف مستعار على نمط اسم مستعار) يتحدث باللهجة الأمريكية أثناء مقابلة تلفازية في القناة الأجنبية ، دهشت كثيرا ، ذلك أن الطريقة التي كان يتكلم بها ويلوى بها لسانه كانت مليئة بالتصنع والتحذلق .

د . هذا طبيب سوري مغترب في الولايات المتحدة ، جاء إلى دمشق لحضور مؤتمر علمي ،ولزيارة البلاد والعباد . وكان يمكن أن أظن بعد أن سمعت طريقة كلامه أن اللهجة الأمريكية تغيرت بهذه الصورة ، منذ أن عدت من الولايات المتحدة قبل سنوات ، لولا أن مسلسلا أمريكيا حديثا عرض بعد المقابلة مباشرة ، ولم يكن أحد من ممثليه الأمريكيين يلوي لسانه كما لواه صديقي د .

ومعرفتي بـ (د) قديمة ، فقد كنا في المدارس الثانوية نجلس على مقعد واحد ، ثم درسنا معا في كلية الطب في دمشق ، والتقينا في أمريكا فترة غير قصيرة . وإن نسيت فلا أنسى أننا كنا نستظهر معا قصائد جرير والفرزدق وابن الرومي ، بل لا أنسى الشعر الذى يهجو فيه ابن الرومي رجلا اسمه دبس ويقول :

قولا لدبس شرّ مَنْ ... يطأ التراب ويرمسُ
تبا لدهر أنت فيه ... مقدم ومرأسُ
لو أن إبليساً رآك ... لكان ذعرا يبلسُ

ذلك أنني أطلقت على صديقي « د » اسم دبس تيمنا بالشخص المهجو ، فالتصق به هذا الاسم كالدبس فترة طويلة . ومن هنا جاء الحرف المستعار (د) .

لذلك كانت الصدمة قوية ، عندما رأيت زميلي هذا وهو يلوى لسانه محاولا التظاهر « بالتأمرُك » أكثر من الأمريكيين أنفسهم ، وكأنه يحاول أن يمحو ـ وهو في دمشق حاضرة بني أمية ـ كل أثر للغة العربية في لهجته .

لقد سمعت في أمريكا رالف نادر ، وهو المولود هناك ، ومن أهم المنحدرين من أصل عربي يتحدث بالانجليزية ، ولم يكن يلوي لسانه ، وكنت تستشف بقايا لهجة عربية في كلامه وهو المولود في أمريكا .

ولقد سمعت مرة طبيبا يهوديا يحكي عن اعتزازه بدينه فيقول : إن الدين في رأيه تراث وانتماء وثقافة ، أي أنه ماض وحاضر ومستقبل .



لذلك يحز في النفس أن نرى بعض العرب في أمريكا يحاولون أن ينسلخوا عن ماضيهم ولغتهم ودينهم ، كي ينصهروا في بوتقة المجتمع الأمريكي بصورة كاملة تامة . بل لقد سمعت أن بعضهم يحتفل يوم الرابع من تموز من كل عام وهو العيد الوطني لأمريكا بأن يرفع على سارية عالية أمام بيته علم النجوم اللامعة أوعلم النجوم والخطوط (العلم الأمريكي)، وهو مايفعله قليل من المتعصبين الأمريكيين .

أسمع عن ذلك وأذكر ماقرأته عن طاهر بن الحسين ، أنه عندما دخل بغداد منتصرا بعد مقتل الأمين واستتباب الأمر لجيوشه ، خرج سادات بغداد وأشرافها وأعيانها لاستقباله استقبالا حافلا مهيبا رائعا ، وهو أمر ما كان طاهر بن الحسين ليحلم به ، فسر بذلك ، لكن سروره كان يشوبه أسى عميق ، وقال لبعض صحبه:إنه كان يتمنى لو أن عجائز بوشنج ـ القرية الصغيرة التي ولد فيها ـ كنّ يرينه من فوق أسطح بيوتهن .

إن أي فخر وعز يبدو أعظم وأكبر في بلد المرء نفسه ، في مدينته أو قريته الصغيرة أوحيه ، حيث ولد ، ولئن لم يتح لنا أن نفخر في بلدنا فلا أقل من أن نذكرها ساعة الفخار .

ولا أظن أن طاهر بن الحسين لوعاد إلى بوشنج كان سيمشي بصورة متكبرة متحذلقة ، أو يركب الخيل بغرور ، أو يلوي لسانه بكلام غريب ، ولاشك أنه إن فعل ذلك فإن عجائز بوشنج لن يسررن برؤيته .

صديقي د . لو عشت في أمريكا مائة عام أو أكثر . فستبقى غريبا هناك ، وستظل ـ شئت أم أبيت ـ عربيا ، عربيا ، عربيا . . . . يادبس



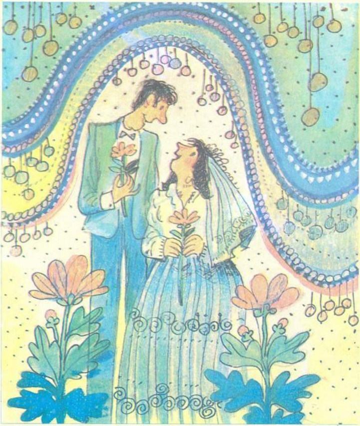
الحمامة والقنبلة

شعر : الدكتور كمال نشأت

أيتها الحمامةُ المُسَافِرَةْ
أَشْرَعْتِ ريشَكِ المغامرَ الصغيرْ
وَطرْتِ بين الوَجَعِ الأَسْودِ
وَانْتِفَاضِ الذَّاكِرَةْ
تقتحمين الأُفُقَ المُضَبَّبَ المجهول
وتتركين خلفَكِ الأَخْضَرَ والظَّلالْ
لِشَرَهِ التِّنِّينْ
وَكُلِّ أَفْعى مَاكِرَهْ
أيتها الحمامةُ المُسَافِرَهْ
كيف شَمَمْتِ الموتْ ؟
بالفِطْرَةِ كيف عرفتِ الخطرَ المخبوءْ ؟
قنبلةُ الخديعة
قد وضعوها وَسْطَ بيضِكِ البرِيء
وتحتَ صدرِكِ الرءومْ
تَسْتَدْفِىءُ الجريمه
لكنّكِ الحكيمه
حَلَّقْتِ قبلَ فَزَعِ القيامه
وليس من علامه
في دربك المربد بالقتامه
أيتها الحمامةُ المُسَافِرَهْ
في لهبِ الظهيره
أغرودةً طفليةً غريره
تستيقظُ الزهورُ في غصونها العِطاشْ
تستيقظ النجومُ في الجراحْ
تستيقظ الأعشاش
زقزقة
وعشكِ المهجور
يَحْتَلُّهُ خفَّاش
أيتها الحمامةُ المُسَافِرَهْ
تماوجي
وحلّقي
في الزرقةِ الآمنةِ الوسيعه
حمامةً وديعه
وغردي في عشكِ الجديد

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



■ الزواج في ميزان الحياة

الأنَـويَّـة

بقلم : الدكتور علي الوردي

الأنوية هي شعور الإنسان بذاته ، أي بالأنا ، وهذا الشعور ليس آتيا من فراغ، بل هو مرتبط بالشعور بغيره ، فليس في مقدور الإنسان أن يشعر بذاته ما لم يتصور شخصا أو أشخاصا ينظرون إليه ويقيمونه . فالأنا « والغير » متلازمان أو هما وجهان لشيء واحد .

إن الأنا محور الشخصية البشرية - كما أشرنا إليه آنفا ، فكل إنسان إذا شعر بالأنا يرغب في ارتفاع مكانتها في نظر الآخرين . إن الانسان بعد أن يشبع حاجاته الضرورية ، من مأكل وملبس ومسكن ، يأخذ بالتطلع نحو نيل المكانة العالية في مجتمعه ، وهو لا يقف عند حد في ذلك ، فكلما نال مكانة عالية تطلع إلى مكانة أعلى منها ، فهو في كفاح مستمر لا يهدأ ولا يفتر حتى يدركه الموت ، فيستريح ويريح !

الإشارة بالبنان

إن الأنوية يمكن اعتبارها أهم العوامل التي جعلت الإنسان حيوانا اجتماعيا . وقد أخطأ الفلاسفة القدامى حين قالوا : إن النزعة الاجتماعية غريزية في الإنسان ، ومن هنا شاعت بينهم مقولة ان الانسان اجتماعي بطبعه . وقد اتضح الآن علميا خطأ هذه المقولة . فالانسان الذي ينشأ بين الحيوانات منذ طفولته يصبح حيوانا مثلها . وقد عُثر على أفراد من هذا النوع غير قليلين كما هو مدون في المصادر العلمية .

إن الغريزة الاجتماعية لا تظهر إلا في بعض الحشرات كالنحل والنمل ، فالنحلة مثلا تتعاون مع مجتمعها وتخدمه تحت تأثير دافع غريزي فطري .

فهي حين تبني الخلية وتجمع العسل إنما تتحرك كالآلة المهيأة دون وعي أو اختيار أو إرادة ، وإذا وقف مانع في طريق عملها شعرت بالتوتر وأخذت تكافح من أجل إتمام عملها بكل جهدها .

أما الإنسان فيختلف عن النحلة . فهو كما قلنا ليست لديه غريزة تدفعه نحو خدمة مجتمعه ، بل هو يندفع في نشاطه الاجتماعي تحت تأثير شعوره بالأنا ، إذ هو يريد أن ترتفع مكانته في نظر الآخرين ، وهو لذلك يسعى نحو أي هدف يُكسبه تقدير الآخرين ويجنبه احتقارهم .

وبعبارة أخرى : إن النحلة حين تخدم مجتمعها لا تُبالي بتقدير أبناء نوعها لها ، بل هي تسير في عملها كالآلة الصمّاء . أما الإنسان فهو حين يخدم أفراد مجتمعه إنما يطلب تقديرهم ونيل المكانة العالية بينهم ، أو هو على الأقل يتجنب ما يؤدي إلى انخفاض مكانته بينهم .

كان العرب قديما يصفون صاحب المكانة العالية بأنه « يُشار إليه بالبنان » . ومعنى ذلك أنه صار ذائع الصيت والمكانة ، بحيث أخذ الناس يشيرون إليه عند مروره بهم . إن هذا في الواقع هو ما يطمح إليه كل إنسان في جميع المجتمعات البشرية ، ولكن الرمز يختلف من مجتمع إلى آخر . ففي المجتمعات المتقدمة لم يعد الإنسان يكتفي بأن يشير الناس إليه عند مروره بهم ، بل هو صار يطلب الجاه بوسائل أخرى ، هي الوسائل التي أبدعتها الحضارة الحديثة كالصحافة والإذاعة والتلفزة وغيرها .

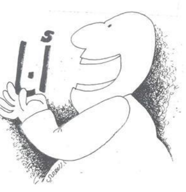
الأنوية في الطفل :

يكون الطفل البشري في بداية حياته كالحيوان ليس لديه شعور بالأنا ، غير أن هذا الشعور يظهر لديه وينمو تدريجياً بمرور الأيام . ومن علامات ظهور الأنا في الطفل أن يبشّ ويبدو عليه الزهو حين نمدحه ، ويمتعض حين نذمه . ونحن نستطيع أن نجعل الطفل يقوم بأي عمل نطلبه منه بمجرد أن نمدحه عليه ونشجعه .

إن ظهور الشعور بالغيرة لدى الطفل يدل على ظهور الشعور بالأنا فيه . والملاحظ أن الطفل يكون شديد الحساسية تجاه غيره من الأطفال . فنحن لا نكاد نمدح طفلا آخر أمامه ، أو نحمل ذلك الطفل ونتضاحك معه ، حتى يشعر هو بالغيرة الشديدة منه ، وقد يبكي أو يحتج علينا تحت تأثير دافع لا يعرف كنهه ! .

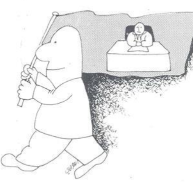
إن تجاهلنا للأنوية في الطفل كثيرا ما يؤدي إلى تكوين العقدة النفسية لديه . فقد اعتاد الناس في مجتمعنا على مداعبة الطفل الصغير بحضور أطفال آخرين . لذا فإننا لا ندرك الألم العميق الذي يشعر به الطفل حين نمدح طفلا آخر بحضوره ، إن أفراد العائلة كثيرا ما يفرحون بولادة طفل جديد لهم ، فهم يلتفون حوله ويناغونه ويضحكون له أمام إخوته الذين هم أكبر منه ، غافلين عما يحدثه ذلك من أثر سيِّىء في نفسيتهم . إن الطفل الجديد لم تتكون أنويته بعد ، وهو إذن لا يقدِّر اهتمامهم به ، بينما الأطفال الآخرون يشعرون بالغيرة منه ، وربما انتهزوا الفرصة فيما بعد للإساءة إليه انتقاما منه من حيث لا يقصدون أو لا يشعرون .

إن التربية القديمة كانت غافلة عن وجود الأنوية في الطفل ، فقد كانت تعتمد على العصا في تقويم سلوكه . ومن هنا جاءت المقولة التي أدركناها في طفولتنا وهي « العصا من الجنة » فقد كان الأب يأتي بابنه إلى « معلم الكُتّاب »



وهو يقول له : « اللحم لك والعظم لي » ويقصد بذلك أن المعلم يجوز له أن يُذيب لحم الطفل بعصاه ، وكان الكثيرون من الآباء يقسون في عقاب أطفالهم بحجة أن ذلك ينفعهم في كبرهم .

لا حاجة بنا إلى القول إن التربية الحديثة تجري على النقيض من ذلك . فرُبَّ كلمة لطيفة في مدح الطفل وتشجيعه أفضل كثيرا من استعمال العقوبة . وربما كان من الضروري استعمال العقوبة الخفيفة مع الطفل في بعض الأحيان ، ولكن من الأفضل أن تكون العقوبة معنوية بدلا من أن تكون مادية . فإن توبيخ الطفل على عمل سيِّىء قام به قد يكون أقوى أثراً من استعمال العصا . ولكن التوبيخ ينبغي ألا يكون مطلقا بل يجب أن يكون فيه مجال للاعتذار وإبداء الأسف ، فيشعر الطفل به أنه أخطأ وأن مجال العودة عن الخطأ مفتوح أمامه لكي يسترجع مكانته العالية التي كانت له من قبل .



وهناك خطأ آخر كنا نقترفه في تربيتنا القديمة هو أننا كنا نظن أنه كلما أكثرنا من توجيه المواعظ والنصائح المثالية إلى الطفل كان ذلك أدعى إلى تقويم سلوكه .

ويجب أن لا ننسى أن الطفل لا يتأثر بمواعظنا إذا كانت غير منسجمة مع القيم الاجتماعية السائدة في محيطه . فالطفل يرى الكبار حوله يقدرون الأشخاص حسب القيم السائدة ، وهو يطمح أن يكون في كبره من أولئك الأشخاص الذين ينالون التقدير من الناس ، وهو لا يبالي بعد ذلك بالمواعظ التي تقال بخلاف ذلك .

البالغون :

إن البالغين من الناس لا يختلفون في أساس طبيعتهم عن الأطفال . يقول أحد الباحثين : « الإنسان طفل كبير » وهذا قول قد لا يخلو من مبالغة ، غير أنه في الوقت نفسه لا يخلو من صواب .

فحين يكبر الطفل ويصبح بالغاً تظل الأنوية نشطة فيه ، ولكنها تختفي تحت طلاء من الادعاءات والمزاعم المصطنعة . إن الشخص البالغ لا يختلف عن الطفل من حيث رغبته في تقدير الآخرين له ومدحهم له ، غير أنه لا يظهر ذلك علنا وقد يتظاهر بالعكس منه . إن الطفل صريح لم يتعلم الرياء بعد ، ولهذا فالأنوية تبدو عليه بشكل مفضوح .

إن الشخص البالغ بحكم الأنوية التي تسيطر عليه يسعى نحو رفع مكانته في نظر الآخرين ، كما ذكرناه آنفا ، وهذه المكانة لا تقوم على أساس المواعظ التي يتحذلق بها الناس في اجتماعاتهم العامة ، بل تقوم على أساس القيم التي يتقيد الأشخاص بها فعلا في واقع حياتهم .

إن المواعظ المثالية قد تضع هدفا في الحياة

مخالفا للهدف الذي تسعى نحوه القيم الاجتماعية . فالمواعظ مثلا تحث الإنسان على عدم الاهتمام بالمال ، وهي تعد المال « وسخ الدنيا » بينما القيم الاجتماعية تقدر المال في الواقع تقديرا كبيرا وتجعل صاحبه موضع احترام الناس . فالفرد الذي ينشأ في مجتمع من هذا النمط سوف يندفع في سلوكه العملي نحو جمع المال بغية نيل المكانة العالية التي يطمح إليها . أما المواعظ التي تحثه على خلاف ذلك فهو لا يكترث لها ، فلا يحفظها ويتحذلق بها دون أن يتأثر بها عمليا .

إننا إذا أردنا تغيير مجتمع وجب علينا تغيير قيمه الاجتماعية . أما المواعظ والخطب والنصائح ، فهي لا تجدي في ذلك ، حتى ولو ملأنا الجو بها ليلا ونهاراً . وفي هذا يظهر مصداق قوله تعالى : « إن الله لا يُغيِّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

إن المجتمع الذي تكون مواعظه وخطبه مخالفة لقيمه الاجتماعية لا بد أن يظهر فيه داء ازدواج الشخصية ، وهذا موضوع طويل ربما عدنا إلى بحثه في فرصة أخرى .

الإنسان والحيوان :

إن الحيوانات بوجه عام ليس لديها شعور بالأنا،وقد يصح القول إن الحيوانات من المراتب العليا القريبة من الإنسان كالغوريلا والشمبانزي تحمل شيئا قليلا من الأنوية كما تملك درجة ضعيفة من الذكاء والتفكير . أما الحيوانات الأخرى فليس لديها من الأنوية شيء .

الكلاب مثلا ، تسير على شكل قطيع أحيانا ، ولكن هذا القطيع لا تحكمه قيم يجري تقدير الفرد بها كما هو الحال في المجتمع البشري . فالكلب يتغوط أو يقوم بالفعل الجنسي دون أن يهتم بنظرة غيره من الكلاب إليه . وإذا رفعت العصا على الكلب فإنه يهرب منك غير مكترث بنظرة القطيع اليه .

إن أفعال الحيوان بوجه عام ليست سوى سلسلة من الاستجابات للحوافز التي يتلقاها وهي استجابات غريزية في الغالب ، ولا يصحبها أي شعور بالأنا ، ولذلك فإن من الممكن التنبؤ بها قبل حدوثها .

أما الإنسان فهو لا يستجيب للحوافز ، إلا من خلال شعوره بالأنا . ولهذا نجد الاستجابات تتفاوت وتتنوع في الأفراد حسب تنوع الشعور بالأنا في كل واحد منهم .

لنتخيل أنك أجريت تجربة على بضعة أفراد من البشر ، فرفعت العصا على كل واحد منهم على نحو ما فعلت مع الكلب ، أرجح الظن أنهم لا يستجيبون لرفع العصا عليهم بشكل واحد ، فكل واحد منهم لا بد أن تكون استجابته نحوك مختلفة عن استجابات الآخرين قليلا أو كثيرا . فمنهم من يهرب منك ، ومنهم من يتوسل ويتضرع متسائلا عن سبب رفع العصا عليه ، ومنهم من يجاملك ويتزلف إليك ، ومنهم من يتحداك ويشتمك ، ومنهم من يفعل غير ذلك . إن كل واحد منهم يحاول أن يسلك تجاهك سلوكاً منسجماً مع شعوره بالأنا النابعة من نظرة غيره إليه حسب القيم الاجتماعية التي نشأ عليها .

وخلاصة القول إن كل فرد من البشر له شخصيته الخاصة به التي لا تشبهها شخصية أي فرد آخر . أما ما نريد أن نذكره هنا فهو أن الأنا محور الشخصية ، وانك حين تريد أن تنجح في معاملة أحد من الناس أو مجادلته أو التأثير عليه يجب أن تفهم أولا شخصيته ومحورها الأنوي ثم تخاطبه بما ينسجم معها . □

الزواج في ميزان الحياة

إعداد : ريم الكيلاني

حين قررت الارتباط به ، كانت ترى في حبهما الكبير وفي علاقتهما الحميمة ، عماد الحياة وأساسها المتين ، فمضت معه عابرة كل الجسور ، متجاهلة ما بينهما من تفاوت واختلاف ، لكن الخلافات التي بدأت صغيرة أخذت تنمو لتأكل بعد ذلك أساس البناء فتنخره حتى الانهيار .

هل الزواج مجرد علاقة حب تجمع بين اثنين ؟ وهل الحب وحده كفيل بالمحافظة على مسيرة الحياة الزوجية ، وقادر على حمايتها من التصدع ؟ وإذا مضت الحياة وسارت القافلة ، فهل هو بالضرورة واحة خضراء ؟

حين يتقدم شاب لطلب فتاة للزواج ، يقف الأهل حائرين بين الرفض والقبول في قضية مصيرية واضعين أمام أعينهم ظروف الأسرتين الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وغالبا ما يطلب أهل الفتاة فترة من الزمن للسؤال عن الشاب ، وعن كل ما يتعلق بالجانب الشخصي عنه وعن أسرته ، للخروج بقرار نهائي ، يعتقدون أنه هو القرار السليم ، ولكن ماذا يحدث لو أغفل الأهل بعض الاختلافات الجلية أو الخفية بين الطرفين ؟ هل سيكون أحد الزوجين قادرا على تجاهل مايراه في الشريك من صفات أو سلوكيات لا تتناسب معه ؟

من الحياة

تحكي إحدى السيدات تجربتها الشخصية في الزواج ، تقول :

« تزوجت ابن عمي بحكم تقاليد العائلة وأعرافها السائدة . كان كلانا يعلم أنه مختلف



عن الآخر ، فهو قد عاش حياته كلها في المدينة بين دراسة وعمل ، بينما لم أعرف في حياتي شيئا سوى القرية وحياة الناس فيها وأعمال البيت .

وحين انتقلت للعيش معه في المدينة ، لم أستطع أن أتخلى عن عاداتي التي نشأت عليها ، ولم يتمكن هو من مجاراتي في حياتي المعتادة . كنا نختلف في أشياء كثيرة ابتداء من طريقة ترتيب الأثاث ، إلى ذوقي في الملبس ، وطريقة طهي الطعام ، وانتهاء بعلاقتي مع الجيران ، ثم مع أصدقائه في العمل ، حتى وصلنا لمرحلة افتقدنا فيها الحوار والتفاهم ، فعاش كل منا في عالمه الذي اعتاد عليه ، دون أن يفكر أحدنا في تقديم جزء من التنازل للآخر . ونحن ما زلنا زوجين حتى الآن أمام الناس فقط ، وحرصا على مصلحة طفلينا . ولعل هذا هو القرار الوحيد الذي لم نختلف عليه » .

ويروي زوج تجربته قائلا : « كنت أعلم أنها من أسرة ثرية ، فترددت في التقدم لطلب يدها ، ولكن بحكم جيرتنا القديمة ، وجدت تشجيعا من أهلها ، بل ومنها هي أيضا . وحين تقدمت لخطبتها كنت واضحا في عرض حالتي المادية ، لم تأبه كثيرا لهذه المشكلة يومئذ فازداد إعجابي بها ، فقد كانت تقول دائما : « ليس بالمال وحده يحيا الحب » .

تزوجنا ، كان حبنا يزداد يوما بعد يوم ، ولم تكن تشعرني يوما بما يحتاجه البيت ، أخذت على عاتقها مسئولية كل شيء ، ومع الوقت تطور الأمر لتتحمل هي مسئولية الأطفال ، وملابسهم ومدارسهم وأشياء أخرى كثيرة ، فبدأت أشعر بأن أهميتي في البيت تتناقص بالتدريج ، وتقلص دوري لأصبح مجرد رجل وضع في أحد الأركان ليكمل الشكل الاجتماعي لهذه السيدة الثرية . كنت أكتم كل ذلك وأزاول عملي وحياتي الأسرية بشكل عادي ، إلى أن جاء يوم رأيتها تشتري لابنتنا الكبرى كمية كبيرة من الملابس وأدوات الزينة ، فاعترضت معتبرا ذلك تبذيرا لا ضرورة له . في هذا اليوم عرفت حجمي الطبيعي أمام زوجتي وأمام أبنائي ، فزوجتي لم تتردد في الإجابة عن اعتراضي بصوت لا يخلو من الحدة : المال مالي ، وأنا حرة التصرف به كما أشاء ، فلا تتدخل في شؤوني وشؤون أبنائي طالما أنك لا تصرف من مالك شيئا .

لم يكن سهـلا ـ عـلى الـرغم من استيـائي الشديد ـ هدم هذا البيت الذي يضم بين جدرانه أطفالا أبرياء ، فهم في هذه المرحلة من العمر بحاجة لوالد يرعاهم ويوجههم ، ويشرف على دراستهم ، وكان هذا أقصى ما يمكن أن أقدمه بعد أن تحددت مسئولياتي .

إن مثل هذه الحالات تتكرر كـل يوم ، وفي أكثر من بيت ، وهذا لا يعني أن كـل زواج لا يقـوم عـلى التكـافؤ مصيره الفشـل ، لكن احتمالات الفشل فيه غالبا أكبر .

ولا ينحصـر عدم التـوافق بالأمثلة السـابقة فحسب ، بل هناك أمثلة كثيرة أخرى قد تتشابه أو تختلف ، ولكنهـا جميعـا تنتهي بـالتصـدع والتشتت ، وقد تنتهي بالانهيار التام .

أرضية للاتفاق

لعل وجود قاعدة مشتركة بين الزوجين يجعل من قضية الوفـاق والتفاهم بينهـما أمرا ممكنـا ، ولكن إذا افتقـد الزوجـان تلك القـاعـدة قبـل الزواج ، أو افتقداها بعده ، هل ستمضي الحياة بالوتيرة نفسها أم أنها ستتغير ؟

الـدكتـور إبـراهيم عثمـان ، رئيس قسم الاجتماع بجامعة الكويت ، يقول :

« الزواج عقد أو اتفـاق ، ينتج عنـه جماعـة تتألف مبدئيا من شخصين ، يشتـركان معـا في مواجهة الحياة وظروفهـا المختلفة ، فـإذا كانت الشروط المبدئية للتكوين في أي جماعة متـوفرة كتب لها غالبا النجاح والتوفيق .

فالحرص على توفير مبدأ التكافؤ الزواجي أمر ضروري لنجاح الحياة ، وهو يشمل التكافؤ في الخلفيـة الاجتمـاعيـة والثقـافيـة والاقتصـاديـة للزوجين ، والتوجه الفكري والمستوى التعليمي والمشاركة في بعض الميول والهوايات ، والتشابه في النظرة العامة للحياة ، إضافة إلى قدرة كل منهما على إشباع الحاجات المتوقعة للطرف الآخر ،

ولعل التكافؤ الجنسي أو على الأقل الاستعـداد للمصارحة بشأنه من أهم العوامل لاستمرار حياة زوجية ناجحة ، بل إن هذه القضية قـادرة على تحطيم أي علاقة مهما كانت متكافئة .

ونحن كمجتمـع شرقي يعـطي للمتغيـرات الـوجـدانيـة أهميـة كبيـرة تسهم في الاستقـرار الأسري ، إلا أن مايحقق النجاح فعلا ، ويكون سببا رئيسيا في استمرار العلاقة ، تلك الظروف الموضوعية التي يحققها كل من الزوجين بما يرتبط بدوره داخل الأسرة وفي المجتمع » .

وأضاف د . عثمان : « ما يجب أن نراعيـه ونحن نعيش ضمن المجتمع هو ثقافته العامة ، وأعرافه السائدة ، فالمجتمع التقليدي القديم ما زال قائما في نفوسنا ، إن لم يكن في الظاهر ، وهو



يرى أن الرجل هو صاحب السلطة ، وبناءً عليه فقد لا يتقبل تلك العلاقات الأسرية التي تتخذ منهاجا مخالفا لقانون المجتمع ، فالرجل العصري أو المرأة العصرية يريان ضرورة الاشتراك معا في إبداء الرأي واتخاذ القرارات ، وقد يقنعان بنوع معين من اللباس والسلوك مخالف للآخرين ، معتقدين أن التكافؤ ينحصر في توافقهما داخل البيت فقط ، بينما هو في الحقيقة مرتبط إلى حد كبير بالمجتمع الواسع .

وهذا التناقض سوف يوصلهما للاصطدام بالمجتمع وبأعرافه السائدة » .

التكافؤ

التكافؤ في الحياة الزوجية ليس مجرد مشكلة قائمة قبل الزواج ، تنتهي بعد التأكد من تشابه وتوافق ظروف الطرفين ، بل هي قضية قد تطرأ في أي وقت، وربما بعد سنين طويلة من الزواج ، فقد يرث أحدهما مبلغا طائلا من أحد الأقارب ، فتتغير اهتماماته واتصالاته ، وقد يحتل الرجل مكانة مرموقة في المؤسسة التي يعمل بها ، فتتعدد أعماله وتكثر سفراته ، وربما تشعر المرأة بالشوق للتعليم ، فتركب مع أبنائها قطار العلم ، وتحط معهم في محطة التفوق ، لتحقق حلما كان يراودها منذ زمن بعيد .

هنا تبرز قضية التكافؤ ، كمشكلة فعلية دخيلة على الزوجين ، بعد أن أمضيا فترة هادئة من الحياة ، ويختلف قياس الأمور تبعا لشخصية الفرد ومدى ثقته بنفسه ، وقدرته على مواجهة التغيرات الجديدة ، وتقبلها كما هي بمرونة ، دون أن تؤثر على الهدوء أو السعادة التي تخيم على الأسرة ، فيتخذ البعض من ذكائه ومن رغبته في المحافظة على الوضع الجديد وسيلة لينهض بالطرف الآخر ، ويتيح له الفرصة لتكوين نفسه حضاريا وتعليميا ، بما يؤهله للمشاركة الفعلية في الحياة الجديدة ، بينما تذهب مجموعات أخرى للاعتقاد بأن المستوى الجديد لا يتناسب بأي شكل من الأشكال مع تاريخها القديم ، فتعمل على تمزيق صفحات هذا التاريخ ، لتبدأ البحث من جديد عن مستقبل آخر ، يتلاءم ووضعها الجديد ، وهذا ما يحدث عادة للأشخاص غير القادرين على التكيف مع الوضع الجديد ومسايرة ما يدور حولهم من تغيرات .

انسجام معاصر

إن التوافق بين الزوجين ، وبخاصة في الأمور الشخصية ، من شأنه خلق تجانس قوي بينهما ، مما يسهل عملية التكافؤ بينهما ، وعادة ما تتضح هذه الأمور بعد الزواج ، أمام ما يبديه كل من الزوجين من تقبل واحترام وتقدير متبادل .

يقول الدكتور قاسم الصراف ، أستاذ مساعد في علم النفس التربوي بكلية التربية بجامعة الكويت : « التكافؤ هو وجود أرضية مشتركة ، من شأنها خلق نوع من التفاهم بين الزوجين ، يساعد على حياة هادئة . فتقارب الزوجين في الخلفية الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية لا يعني بالضرورة تشابههما الكامل في كل من هذه المجالات ، بينما يكون للاختلاف في أي من المستويات بين الزوجين دور فعال في انعدام التوافق والتكافؤ بينهما ، وفي انعدام استقرار الرأي حول أمور كثيرة ، كتربية الأولاد أو إدارة البيت ، وحول شكل العلاقات مع الآخرين ونوعها .

ومع هذا التفاوت يفتقد الزوجان العلاقة الأسرية الحميمة المنشودة ، فيبدأ كل منهما بالبحث عن حياة أخرى . خارج نطاق الأسرة . وتصبح الأنا هي العنصر البارز ، وتتحول الحياة إلى جحيم ، بينما قد تستمر الحياة عند بعض الجماعات حفاظا على الشكل الاجتماعي العام أمام الأطفال على الأقل ، حتى لا ينتهي بهم الأمر للتشتت والتشرد . □

هو.. ..هي

خوفٌ عليه

لم أمسك زوجي بصحبة امرأة أخرى ، ولم يزلّ لسانه بما يفضح علاقة سرية له مع غيري ، ولم يطرأ على عاداته في الذهاب والإياب ، في الخروج من المنزل أو البقاء فيه ، أي تغير يذكر ، غير أنني لا أستطيع أن أهدأ أو أسيطر على مشاعري وأفكاري تجاهه . نعم ، إنني أغار عليه ، كما تغار على زوجها أي امرأة أخرى ، لكن هذه ليست مشكلتي ، مشكلتي أنني أخشى على زوجي ، أخاف عليه ومنه . وليس هذا الخوف بلا سبب على أي حال .



تزوجنا منذ عشرين عاماً ، كنت في السنة الأخيرة من دراستي الجامعية ، وكان هو في السنة الأولى ، شاباً ذكياً لامعاً مقبلاً على الحياة بحيويتها وصخبها وحركتها التي لم تكن تهدأ في تلك الأيام . وكان من أبرز المشاركين في النشاطات الطلابية ، لكنه لم يكن يهمل دراسته . فكان يُعطي كل شيء حقه ، لذا فقد كان من المتفوقين . كان يملك قلب شاب طموح ذكي ، لكنه كان يملك أيضاً عقل كهل أنضجته الحياة بتجاربها وخبراتها .

كان عقله أكبر من عمره ، وربما من أجل ذلك اختارني أنا التي أكبره بخمسة أعوام لأكون صديقته وحبيبته ثم زوجته :

كنت سعيدة بذلك ، وكان يبدو هو سعيداً أيضاً ، لكنني منذ الأشهر الأولى للزواج لم أثق بأنه كان سعيداً حقاً ، وكانت تلك بداية عذابي . ولكي أكون صادقة ، فقد كانت أيضاً بداية عذابه .

لم أكن أطيق أن أسمعه يتحدث عن إحدى زميلاته في الجامعة أو في العمل ، ولم أحتمل قط رؤيته يتحدث مع إحدى قريباته ، وشككت في كل مكالمة هاتفية حتى عرفت مصدرها . ونهشتني المخاوف حين كان يتأخر عن العودة في موعده المحدد . أما غيابه عن المنزل فكان يعني بالنسبة لي الجنون بعينه

وخلال سنوات زواجنا أنجبنا الأبناء ، وخططنا لضمان مستقبلنا ، وتمكنا من تأمين حياتنا العائلية ، لكن هذا كله لم يهدىء مخاوفي ، ولم يُسكت هواجسي . وكثيراً ما تمنيت أن يحدث ما بقيت مهددة بوقوعه ، وهو الانفصال ، على أن أعيش حياتي نهباً لمثل هذه المخاوف ، مخاوف من أن يتركني ويرتبط بأخرى في مثل سنه أو أصغر ، لكن ما يزيد عذابي ، أنه لا يفعل ما أخشى أن يفعله ، وتلك هي مشكلتي الحقيقية . □

..هي

عذابٌ لأجلها

لم أقدم على زواجي منها تحت أي ضغط من أي نوع كان ، وإن كان هناك مثل هذا الضغط فهو حبي الذي مازالت جذوته موجودة ، لكنها خفتت ليس مع مرور الزمن فقط ، بل مع سلوك زوجتي التي لا تستطيع إخفاء عواطفها ، كما أنها لا تستطيع إخفاء سلوكها ومخاوفها وحذرها تجاهي .

وقد قلت لها في أكثر من مناسبة : إن اختياري لها كان اختياراً واعياً وواضحاً ، وانني أتحمل مسؤولية هذا الاختيار ، فأنا أدرك فارق السن بيننا ، لكنني لا أعده سبباً لفشل زواجنا . وإن حدث وفشل ، بعد هذا العمر الطويل ، وبعد إنجاب الأولاد ، وبعد أن بقى من عمرينا أقل مما مضى ، فإن السبب بالتأكيد لن يكون فارق السن ، بل قد يكون أي سبب آخر . وكم هي عديدة ومختلفة تلك الأسباب التي يفشل من أجلها الزواج .

وعندما اخترت الزواج منها ، كان لي من الزميلات من هنَّ أصغر منها وأجمل وأذكى ، وأكثر تفوقاً في الدراسة . وبعد أن تزوجت كان لي من الزميلات والمعارف من يتفوقن عليها في أمور كثيرة ، لكن الحب لا يعرف المقاييس ، ولا يستسلم للظروف ، ولا يتقيد بالشروط . ولأنني كنت أدرك هذا تماماً فإنني تجاهلت إعتراضات أهلي وأهلها ، ولم أصغ « لنصائح » أحد قبل الزواج ، ولم أستسلم لأي نزوة بعده ، فالحب والزواج لا يعرفان النصائح .

واليوم ، بعد عشرين عاماً من الزواج وبعد إنجاب الأطفال فإنني مازلت مقتنعاً برأيي هذا ، ولم أحد عنه ، وكلما قلت هذا لزوجتي وافقتني تماماً على ما أقول . لكن هناك فرقاً كبيراً بين ما تؤمن به وتقوله ، وبين ما تفعله ، فخوفها من أن يأتي يوم أتركها فيه جعلها لا تهدأ ، وجعل شكوكها تتزايد في كل حركة من حركاتي أو تصرف من تصرفاتي . وإن كان هذا عذابها ، فعذابي أنني لا أعرف كيف أثبت لها أن هذا لن يحدث ، وأن زواجنا قد تجاوز مجال الفشل □

..هو





طبيب الأسرة

قضايا منزلية

العلك

أهو تسلية .. أم طعام ؟

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

العلك كما يعرفه أغلب الناس أنواع عديدة وأسماء شتى ، عند مختلف الشعوب والأقوام ، من أسمائه بالعربية : « اللبان » و « الليدن » و « المداغة » ، وبالانجليزية جم (Gum) ، أما العلك الحديث في أيامنا فقد أعد عجينته جون كيريتس الأمريكي عام ١٨٤٨ في مطبخ منزله ، بموقع يعرف باسم (بانجور - مينزر) ، واتخذ منه تسلية لنفسه ولأسرته معتمداً على المضغ الذي لا ينتهي حتى شاع وانتشر بين الناس ممن حوله .

وعندما انتقل السيد كيريتس إلى بورتلاند عام ١٨٨٥م اتخذ هذا العلك صنعة له وتجارة ، فأقام مصنعاً صغيراً ، لاقى نجاحاً كبيراً ، ودر عليه ربحاً وفيراً ، إذ أقبل عليه الناس ، واتخذوا منه صرعة جديدة للتسلية .

وحتى يزيد إقبال الناس ، ويؤكد قناعتهم ، فقد أضاف إليه شيئاً من السكر وقليلاً من طعوم الفواكه أو العرق سوس ، مما جعل العلك أكثر إغراء للناس عامة ، وللأطفال والنساء خاصة ، بل ربما أقنعهم بقيمته الغذائية الوهمية ، لهذا اكتسب العلك أسماء تجارية ، تلعب بقناعات الناس ، ومن تلك الأسماء : « كريمة السكر » ، و « الجبل الأبيض » ، وعرق « سوس لولو » . لكن أساس الصناعة لأنواعه جميعاً على يد كيريتس هو صمغ البارافين ، ثم زاد على ذلك أصماغاً أخرى لا ضرر فيها ولا نفع ، استخرجها من أحد أنواع أشجار الصنوبر المعروفة باسم سبروس ، وأطلق عليها اسم « العلم الأمريكي » ترويجاً لبضاعته .

هذا ما كان من أمر العلك الحديث ، ثم تحايل القوم من بعد كيريتس على تطويره وترويجه تحت شعارات شتى ، منها أنه يعين على الهضم لوفرة اللعاب الذي يفرزه ، فيساعد على هضم الطعام بما يحويه من خميرة البيتاين ، بل ربما أضافوا إلى العلك طعم النعناع ليقاوم آلام المغص ، أو عصير البيسين مما يحويه عصير المعدة تأكيداً لدور العلك في هضم الطعام في المعدة .

إن علك اليوم قد لا يكون

صورة مطابقة لما طلع به كيريتس الأمريكي على الناس ، ولكنه تطوير للفكرة التي قام بها أمريكي آخر ، يدعونه توماس آدمز عام ١٨٧٠ .

والغريب أن السيد آدمز هذا كان يحترف مهنة التصوير ، ولكنه تطلع إلى اختراع نوع جديد من المطاط ينافس به المطاط الطبيعي ، فعمد إلى شجرة تسمى « الشيكل » ، موطنها أمريكا الوسطى الاستوائية ، وهي قريبة الشبه بشجرة المطاط الأصلية ، وتفرز سائلاً صمغياً ، توهم آدمز أنه نوع جديد من المطاط .

ولكن محاولاته فشلت في تحقيق أحلامه ، ونجحت في ابتكار نوع من الأصماغ ، ينافس علك صاحبه الأول كيريتس ، فطلع على الناس بمادة تمضغ فلا تذوب ولا تهضم .

ومضت سنوات أصبح هذا الرجل بعدها يملك عشرين مصنعاً لهذا الشكل من العلك ، بل ربما تجاوزه إلى اختراع أجهزة آلية تبيع العلك لعابري الطريق في محطات السكك الحديدية ، اشتهرت بها مدينة نيويورك الأمريكية ، عرفت باسم « توتي فروتي » ، بعد أن أضاف إليه عصير الفواكه المختلفة .

بعيداً عن المضافات والمحليات والنكهات المختلفة ، نقول : إن العلك أساساً لا يضر ولا ينفع في تقدير جمهرة المختصين .

غير أن بعضاً من أطباء الأسنان قد يرى في المحليات المضافة ضرراً على الأسنان ، مما قد يعود بتسوس الأسنان .

أما المختصون في أمراض الجهاز الهضمي فيرون أن ماضغ العلك يبتلع قدراً كبيراً من الهواء ، يتسلل إلى المعدة ، ويؤدي إلى المغص والانتفاخ وعسر الهضم ، ولكن أصحاب العلك قاموا بإضافة النعناع وخميرة البيبسين ليواجهوا به تهم المعادين للعلك ، بل ربما عمدت بعض الشركات إلى إضافة مادة التايمول بحجة مفعولها المضاد للحيويات . وهكذا تدور المعركة ، وكل يرمي بالتهم ويدافع بالحجج .

هواة العلك من الأطفال والنساء يمارسون هوايتهم بعيداً عن ميدان المعركة ، وهم يصمون آذانهم ، ومن هنا رأت بعض الشركات أن تنتفع بهذا التعاطف وتلك الهواية ، فعمدت إلى إضافة بعض العقاقير ، تضيفها إلى العلك ليكون وسيلة سهلة محببة لفريق من المرضى ، ممن ينفعهم المضغ أكثر من ابتلاع الأقراص . ومن هنا طلعت علينا بعض الشركات بأنواع من العلك الطبي ، يحتوي على صمغ « الشيكل » وعقاقير مختلفة ، منها ما هو مضاد للحموضة مثلاً ، بل إن الصرعة الجديدة في ميدان محاربة التدخين اتخذت من العلك وسيلة يهرب بها المدخن من تدخين سيجارته ، بعد أن أضافت مادة النيكوتين إلى صمغ « الشيكل » ، لإقناع المدخن بالمتعة ، وتحاشيه ضرر غاز أول أكسيد الكربون السام ، أو سائل القطران المسبب للسرطان ، عملاً بالحكمة التي تقول : « شر واحد أخف من ثلاثة شرور » ، أو « أن العور أهون من العمى » .

غير أن هذا لن يغير من الحقيقة ، فالنيكوتين يمكن أن يتسرب إلى الدم عبر الغشاء المخاطي إذا لم يجد وسيلة للوصول إلى تلويث الرئتين .

مازالت المعركة تدور بين أصحاب المصلحة والتجارة وبين رجال البحث العلمي ، لهذا يصعب على الإنسان أن يحدد مصير المعركة ، ولمن سيكون لواء النصر ! لكن الأمر الذي قد لا يختلف عليه اثنان حتى الآن هو أن صمغ « الشيكل » - أساس مادة اللبان - مادة لا تضر ولا تنفع □



ردود سريعة

● السيد/ إحسان. ك. س. ـ المكلا ـ عدن ـ

ـ إنك تسأل أسئلة لا يجيب عنها سوى جراح تجميل، بعد الكشف الدقيق على حالتك، فالأنف الكبير أمر نسبي، والعملية الجراحية تختلف من إنسان لآخر، لهذا فإن تكاليفها تختلف، ومدة البقاء في المستشفى تختلف، والأفضل مراجعة جراح تجميل.

● السيد/ س. م. حي الثورة ـ اليمن الديمقراطية.

ـ عند تشخيص أمراض الأسنان لا بد من الكشف، فإن طبيب الأسنان هو المعتمد ولا حيلة لأحد في نقضه. وإذا كنت تعاني من ترسب عنصر الفلور في الأسنان، حيث أن زيادة نسبة الفلور في الماء من الممكن أن تكون سببا في تبقع الأسنان، ولا حيلة للطب في علاجه.

● السيد/ ف. ص. س. عدن ـ اليمن الديمقراطية.

ـ من الصعب تشخيص سبب معاناتك دون كشف طبي، لهذا لا نملك سوى النصيحة باستشارة طبيب أمراض جلدية مختص، يتولى الكشف، ويزودك بتقرير طبي.

● السيد/ جمال خليل ـ دمشق ـ سوريا.

ـ هناك أمل في الإنجاب، وبخاصة إذا ما عولج الالتهاب الذي تعاني منه، غير أن التقرير لا يكفي لإعطاء الطبيب صورة واضحة بمعزل عن الفحص والتاريخ المرضي.

● الأخت الآنسة همت ـ المحلة الكبرى ـ جمهورية مصر العربية.

ـ يصعب الإجابة عن تساؤلاتك عبر صفحات المجلة. فيا حبذا لو عرفنا العنوان الصحيح لنرسل إليك الإجابة برسالة.

● السيد يعقوب يوسف ـ تازة ـ المغرب :

ـ على ما يبدو أنك تقصد بالبرص مرضا اسمه الجذام، وسببه ميكروب قريب الشبه بميكروب الدرن (أو السل)، وهو مرض مزمن خبيث، يحتاج إلى علاج يطول، مع ضرورة عزل المريض إذا ماثبت أنه معد وناقل للمرض، ولكن لا علاقة للتغذية بهذا المرض. والأفضل فحص المخالطين وملاحظتهم، مع علاج المصاب على يد طبيب مختص، حتى لايتفاقم المرض ويستشري، لأن مخالطة المريض للسليم مباشرة من أهم أسباب الانتشار.

ونحمد الله إذ توافرت في زماننا عقاقير فعالة شافية، مما لم يتوافر في السنوات الماضية، حين كان المرض خبيثا مشوها ومدمرا وقاتلا. لهذا وجب مباشرة العلاج على الفور.

● السيد/ سعيد عمر محمد ـ المكلا ـ اليمن :

ـ شعورك بانتفاخ الأذن وانسدادها مع الضغط يعود إلى انسداد في قناة اوستاكيوس الموصلة من الحلق إلى الأذن الوسطى، وهو غالبا ما يحدث نتيجة التهاب الحلق أو الأذن، ويمتد إلى القناة، فيؤدي إلى انسدادها نتيجة احتقان الغشاء المخاطي المبطن. ولعل فحص طبيب الأذن المختص يكون أجدى لك لاكتشاف السبب وعلاجه. □

مساحة ود !

اليوم ٢٤ ساعة

كثيرا ما يجد الانسان نفسه منهمكاً بسؤال نفسه : كيف يمكن اللحاق بالزمن ؟ سؤال عبثي بالطبع ، ولكن هل تلك الأسئلة العبثية التي نوجهها لأنفسنا وللآخرين دون أن ندرك طابعها العبثي قليلة ، أو أننا نشعر باستحالة الاجابة عنها ؟

ليس هذا مدخلا نحو قضية فلسفية كبرى على أي حال ، بل تأمل في تلك الفجوة الكبيرة بين إيقاع الحياة الذي يتسارع باستمرار ، وبين لهث الانسان خلفها ، بين ضرورات الحياة اليومية التي تستهلك جزءا غير يسير من وقتنا وبين حاجتنا للراحة والاسترخاء ، بين متطلبات الانسان الروحية والنفسية وبين العجز عن تحقيقها . وبين متع الحياة العديدة التي تشاغلنا عن بعد أو عن قرب وبين عجزنا عن امتلاكها .

هناك عمل تقوم به ، وهناك مجتمع تنتمي اليه ، وهناك تطورات الفكر والثقافة والأدب والفن والسياسة والعلم والاقتصاد التي يجب عليك أن تعرف عن كل منها شيئا اذا أردت أن تظل مواكبا لشؤون الحياة ومستجداتها .

والى جانب هذا هناك عروض الموسيقا والمسرح والسينما والفنون الأخرى ، وهناك قراءة رواية أو كتاب أو مجلة أو صحيفة عليك أن تتابعها ، في وقت لم تعد فيه القراءة متعة خالصة ، بل تكاد تكون عملا مجهداً بما في ذلك قراءة الرواية أو القصة أو حتى الصحيفة اليومية .

وهناك الجلوس في المنزل لمشاهدة ما يبثه التلفاز من برامج تعطيك صورة ما يحدث في العالم من متغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية ، أو مجرد الجلوس مع الزوجة والأولاد الذين كثيرا ما تسرقك منهم الاهتمامات المتعددة والانشغالات التي لا تنحصر ، والواجبات الاجتماعية التي لا تنتهي ، فأنت في النهاية فرد في جماعة .

وهناك الخروج الى البحر أو البر أو الصحراء استجابة لنداء الطبيعة الساحرة أو مجالسة الأصدقاء أو السفر الذي زادت فوائده عن السبع في أيامنا .

بهجة أم عبث ، متعة أم يأس ذاك الذي يصيبك كلما حاولت القيام بكل ذلك في وقت لا يزيد يومه على أربع وعشرين ساعة .

صلاح حزّين

بقلم : الدكتور حسن عباس

"حال" وأحوالها

لم يكد يجتمع لكلمة واحدة من المعاني في العربيةبقدر ما اجتمع لكلمة حالَ المشتقة من الثلاثي « حول » . فالحول (بتسكين الوسط) السنة بتمامها وكمالها والجمع أحوال ، فإذا قلت : حال عليه الحَوْلُ حولاً كانت بمعنى أتى ، وأحَالَ الشيءُ واحتال : أتى عليه حول كامل ، فهو مُحول . ودارٌ مُحيلة : غاب عنها أهلها . وأرض مِستحالة : أيِ تُركت حولاً أو أحوالاً عن الزراعة . ورجل مستحال : في طرفي ساقه اعوجاج . ويقال إن كل شيء تغير عن الاستواء إلى العوج قد حال ، واستحال ، وهو مستحيل . والحوْل : الحيلة والقوة .

وقد أورد ابن سيدة اللغوي في كتاب « المخصص » معاني أخرى فقال : الحوْل والحَيْل والحِوَل والحيلة والحويل والمَحالة والاحتيال والتَّحوُّل والتَّحيُّل : كل ذلك يعني الحِذْق ، وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف . والحِيَل والحِوَل : جمع حيلة . وإذا قلت هذا رجل حُوَل وحُوَلة وحُوَّل وحَوَلْوَلْ كان معنى ذلك أنه محتال شديد الاحتيال . ورجل حُوَّل : بصير بتحويل الأمور . ويقال تحوَّل الرجل واحتال إذا طلب الحيلة . ومن أمثالهم : من كان ذا حيلة تحوَّل .

وإذا قلت : لا محالة من ذلك كنت تعني لابُدَّ ، وقد جاء في التهذيب : ويقولون في موضع لا بُدَّ لا مَحالة .

وجاء في « لسان العرب » : المحال من الكلام : ما عدل به عن وجهه . وحوَّلَهُ : جعله محالاً . . وكلام مستحيل ، أي محال . ويقال : أحلتُ الكلام أحيله إحالة إذا أفسدته .

وقد رُوي عن الخليل بن أحمد قوله : المُحال الكلام لغير شيء ، والمستقيم كلام لشيء ، والغَلط كلام لشيء لم تُرده ، واللَّغو كلام لشيء ليس من شأنك ، والكذب كلام لشيء تغُرُّ به .

والحَوْل اسم يجمع الحوالي . يقال حوالي الدار كأنها في الأصل حوالي . قال الأزهري : رأيت الناس حوالَه وحواليْه وحوْلَهُ وحَوْلَيْه . وفي حديث الاستسقاء : اللهم حوالينا ولا علينا : يريد اللهم انزل الغيث علينا في مواضع النبات لا في مواضع الأبنية . وحَاوَلَ الشيءَ مُحاولةً وحوالاً : رامه وطلبه . والحوال أيضا : كل شيء حال بين اثنين ، أي حائل بينهما كالحاجز . وعن ابن سيدة : وكل ما حجز بين اثنين فقد حال بينهما حولاً ، واسم ذلك الشيء الحِوال . أما حَوَالُ الدهر فهي : تَغَيُّرُهُ وَصرفه . ويقال : إن هذا لمن حِوَل الأيام ، أي من تقلُّبها وتغيُّرها .

وتَحوَّل عن الشيء : زال عنه إلى غيره . وحال الشيء نفسه يَحُول حولاً بمعنيين : يكون تغيراً ، ويكون تحولاً . يقول النابغة :

« ولا يحول عطاء اليوم دون غد » .

أي لا يحول عطاء اليوم دون عطاء غد كما جاء في اللسان .

وقد جاء في التهذيب : الحَوَل يجري مجرى التحويل ، يقال حولوا عنها تحويلاً وحِوَلاً . وقد قال الأزهري : التحويل مصدر حقيقي من حَوَّلت ، والحوال اسم يقوم مقام المصدر ، وقد جاء في القرآن الكريم : « لا يبغون عنها حِوَلاً » أي تحويلاً .

وحالَ الشيء حَولاً وحُؤولاً . . أي تحول . وفي الحديث : من أحال دخل الجنة . يريد من أسلم لأنه تحوَّل من الكفر إلى الإسلام . والحوالة : تحويل ماء من نهر إلى نهر ، والحائل : المتغير اللون . يقال : رماد حائل ، ونبات حائل إذا كان متغير اللون . وقد ورد عن الأزهري أنه سمع تفسير القول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، على أن الحول تعني الحركة . تقول حال الشخص إذا تحرك ، فكأن القائل إذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله يقول : لا حركة ولا استطاعة إلا بمشيئة الله . ومن ذلك الحديث : اللهم بك أصول وبك أحول أي أتحرك . وقيل حال بين الشيئين إذا منع أحدهما من الآخر . وفي حديث آخر ، بك أصاول وبك أحاول هو من المفاعلة ، وقيل المحاولة : طلب الشيء بحيلة .

والحال : ما كان عليه الإنسان من خير أو شر ، يذكر ويؤنث ، والجمع أحوال . يقال حالٌ فلان حسنة وحسنٌ ، والواحدة حالةٌ . يقال هو بحالة سوءٍ ، فمن ذكر الحال جمعه أحوالاً ، ومن أنثها جمعه حالات .

وحالات الدهر وأحواله : صروفه . والحال : الوقت الذي أنت فيه .

والحال : التراب اللَّيِّن الذي يقال له السهلة ، والحال الطين الأسود والحمأة . وفي الحديث أن جبريل قال لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل : أخذت من حال البحر فضربت به وجهه . وفي حديث الكوثر : حال المسك : أي طينه . والحال : اللِّبن . والحال : الرماد الحارُّ .

وحال الرجل : امرأته . قال الأعلم :

إذا أذكرتَ حالكَ غير عصرٍ
وأفسد صنعَها فيك الوَجيف

غير عصر : أي غير وقت ذكرها .

والحَوَل في العين : أن يظهر البياض في مؤخرها ويكون السواد من قبل المَاق . وقيل : الحَوَل : اقبال الحدقة على الأنف . والحَوْلة : العَجَب ، يقول الشاعر :

ومن حُولة الأيَّام والدهر أننا

ويقال : جاء بأمر حُولة : أي عجب . وتقول : رأيت أرضاً مثل الحُوَلاء إذا اخضرت وأظلمت خضرة ، واحوالَّت الأرض إذا اخضَّرت واستوى نباتها . والحِوَلُ أيضاً : الأخدود الذي تغرسُ فيه النخل على صف .

ونعود الى الفعل أحالَ ، فإذا اضفنا له حرف الجر « على » تغير معناه . فإذا قلت : أحال عليه ، صار المعنى استضعفه ، وأحال عليه بالسوط يضربه أي أقبل عليه . وأحلت عليه بالكلام أي أقبلت عليه ، ومن ذلك قول الفرزدق :

فكانت كذئب السُّوءِ لما رأى دماً
بصاحبه يوماً ، أحال على الدم

أي أقبل على الدم . وتقول في موضع آخر : أحال عليه الماء فيكون المعنى أفرغه ، ومن ذلك قول الشاعر :

يحيل في جدول تحبو ضفادعه . . . . .

أي يفرغ الماء ، وقريب منه المعنى الآخر وهو أحال الماء من الدلو أي صبَّه ، وأحال الليل : انصب على الأرض (كالماء) وأقبل . والحال أيضاً موضع اللِّبْد من ظهر الفرس ومن ذلك قول امرؤ القيس :

كميتٌ يَزِل اللِّبْدُ عن حال متنه . . . .

وإذا قلت حالاً بعد حال كنت تعني شيئاً بعد شيء ، هذا وما زال من معاني « حالَ » بقية ! . □

من روائع غزل جرير

هو جرير بن عطية . . بن تميم ، يلتقي بالفرزدق في جدهما الأعلى . . تميم ، وعلى الرغم من ذلك فقد تهاجيا هجاءً مقذعاً ، وصارا علمين على هذا الباب من أبواب الشعر ، فلا يذكر الهجاء إلا ويذكر جرير والفرزدق .

ولد جرير في اليمامة في عام ٦٥٠ م لسبعة أشهر ، فكان خديجاً . ويرجح الدارسون أنه نظم الشعر في أيام معاوية ، ومدح ابنه يزيدَ ، ونال منه جائزة كانت أول جائزة يفوز بها . ولما اشتد الصراع السياسي بين بني أمية وبين عبد الله بن الزبير وقف جرير إلى جانب القيسيين الذين يناصرون ابن الزبير وأخذ يهاجي اليمانيين انصار بني أمية ـ وعندما عظم الهجاء السياسي غادر جرير اليمامة واتجه إلى البصرة حيث التقى هناك بالهجائين وشعراء المناقضات ، على أن لقاءه بالحكم بن أيوب ـ ابن عم الحجاج وزوج ابنته وعامله على البصرة ـ كان نقطة تحول في حياة جرير وبداية لتوجه سياسي جديد ، حيث تحول ولاؤه من ابن الزبير إلى الأمويين . عمل الحكم على تزكية جرير أمام الحجاج فأعجب به جرير ومدحه وكان من جراء ذلك أن أعطاه الحجاج جارية اسمها أم حكيم أمامة ، فولدت له صبياً سماه موسى .

ثم وجهه الحجاج إلى عبد الملك بن مروان ، فلما استمع إليه نال منه حظوة .

بقي جرير مقرباً من الوليد بن عبد الملك أثيراً لديه ، وقد طال به العمر حتى جاوز الثمانين ولكنه لم يدم على ولائه للبيت الأموي لأسباب أهمها أن جرير كان قد تدخل في شئون الخلافة ، فحرّض الوليد على صرف الخلافة عن أخيه سليمان إلى ابنه عبد العزيز بن الوليد . وابتعد عن دار الخلافة أيضاً حين تولاها عمر بن عبد العزيز ، فلم يكن هذا الخليفة يقرب الشعراء أو يجيزهم . ولكن ابتعاده عن دار الخلافة لم يدم فقد مدح يزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك . وقد توفي جرير في اليمامة في عام ١١٥ هـ الموافق ٧٣٣ م . وكان الفرزدق قد مات قبله بستة أشهر ، وقيل بسنة .

شعر جرير « كثير السيرورة على الألسن ، شديد العلوق بالذاكرة ، مطاوع للغناء . وهو

شاعر وجداني مطبوع يجمع وضوح المعاني إلى فصاحة الألفاظ ومتانة التركيب وعذوبة السبك ، وقد امتاز جرير بالفنون الوجدانية : بالنسيب والغزل ، وبالرثاء وبالهجاء،ولجرير براعة في المديح والوصف ، وكان جرير ، يجيد الرجز ايضاً . وهجاء جرير حلو مرّ : هو حلو بما ألبسه شاعره من حسن اللفظ ، وقدم بين يديه من الغزل ليجعل السامع أكثر استعداداً لسماعه ، وهو مرّ أي ممض يتألم منه المهجوّ .

ويجمع النقاد على أن جريراً قد تفوق على أقرانه في الغزل والرثاء والهجاء ، وأنه قد تغلب على جميع الذين هاجوه ، ثم أخمل ذكرهم ما عدا الأخطل والفرزدق لأنها اجتمعا عليه ـ كما يقول الدكتور عمر فروخ ـ ولو تفرقا لغلبهما وأخمل ذكرهما أيضاً .

والأبيات التي اخترناها لم تكن من قصيدة قصرها جرير على الغزل بل كانت مقدمة لإحدى نقائضه في هجاء الأخطل .

يـا أمّ عمـرو ، جـزاكِ اللهُ مغفـرةً ، رُدّي عَـليَّ فـؤادي كـالـذي كـانـا

ألـستِ أملحَ مـن يمشي عـلى قـدم ، يـا أملحَ الناس كلَّ الناس إنسانـا ![1]

يَـلْقَى غـريمُكُمُ من غـير عُسْـرتِكم ، بـالبَـذْلِ بُخْلاً وبالإحسان حِرْمانـا[2]

قـد خنتِ مَنْ لم يكن يخشى خيـانَتَكم ، مـا كـنـت أوّلَ مـوثـوقٍ بـه خـانـا .

لقـد كـتمتُ الهـوى حتى تَهَيَّمَني ، لا أسـتـطيـعُ لهـذا الحب كِتْمانـا[3]

كـاد الهـوى يـومَ سَلْمـانَيْنِ يقتلني ، وكـاد يـقـتـلـني يـومـا بـبَـيْـدانـا .

لا بـارك الله في مـن كـان يَحْسَبُكـم ، إلاّ عـلى العهـد حتى كـان مـا كـانـا .

لا بـارك الله في الـدنـيـا إذا انـقـطـعت أسبـابُ دُنياكِ من أسبـاب دنيـانـا[4] .

مـا أحـدثَ الـدهـرُ ممّا تعلمـين لكم للحبـل صَرْماً ولا للعهـد نِسْيـانـا[5] .

إنَّ العيـونَ الـتي في طَـرْفهـا حَـوَرٌ ، قَـتَـلْـنَـنـا ثـم لَمْ يُحْيِينَ قَتْـلانـا[6] :

يَصْرَعْنَ ذا اللبِّ حتى لا حَـراكَ بـه ، وهُـنّ أضـعـفُ خـلـق الله أركـانـا !

يـا حبّـذا جبـلُ الـرَّيـانِ من جبـلٍ ، وحبـذا سـاكنُ الـرَّيّـانِ مـن كـانـا ،

وحـبـذا نـفـحـاتٌ مـن يمانـيـةٍ تـأتيك من قِبَـلِ الـريـان أحيـانـا[7]

---

١ ـ إنساناً تمييز من أملح . ـ أجمل الأشخاص في ال... كلهم .

٢ ـ الغريم : الدائن ، وهنا المحب . أنت تستط... أن تبذلي لي قربك ولكنك لا تفعلين . وأنا أبذل نفسي لك وأنت تبخلين علي . وأنا أحسن في محبتك وأنت ...ي . ـ هذا البيت مبني على إشارة إلى القرآن الكريم في حق الدائن والمدين : وإن كان ذو عسرة فنظرة (بفتح ...ن وكسر الظاء) إلى ميسرة (سورة البقرة ـ ٢٨) .

٣ ـ تهيمني الحب : كاد يذهب بعقلي .

٤ ـ لا لذة للعيش ، إذا ابتعدت عنك .

٥ ـ الصرم : القطع ، الهجر ، البعد .

٦ ـ الحور : شدة بياض العين وشدة اسوداد سوادها . يحيين فعل مضار ع مبني على السكون في محل جزم بحرف الجزم لم ، والنون نون النسوة وهي فاعل .

٧ ـ ما أحلى النسيم الذي يأتي من الجنوب (من جهة اليمن) .

ماء الحياة

قصة : للكاتب المنغولي تس . دورجفوتوف
ترجمة : يوسف حلاق

رأيت في نومي حلما . في هذا الحلم بدا لي كل شيء مضيء مظلما ، وكل مظلم مضيئا ، كما في النسخة السلبية للصورة تماما . اقترب مني المرحوم والدي ممتطيا ظهر جواده السنجابي ، وناولني إبريقا وهو يقول لي :

ـ خذ يا بني ، إنه ماء الحياة .

هتفت دون أن ألقي عليه السلام :

ـ « ماء الحياة !» . وخطفت الإبريق من يديه ، وأفرغت محتواه في جوفي دفعة واحدة . واخترقت دماغي فكرة :

ـ لقد شربت ماء الحياة ، فصرت الآن خالدا !

وبطريقة آلية صحت بكل ما فيّ من قوة :

ـ انظروا إليّ أيها الناس !

لم يعرف كوكبنا الأشيب مرة واحدة تلك الفرحة التي تتملك إنسانا ذاق ماء الحياة ، وأنا لا أستطيع أن أتمالك نفسي عن الضحك ، فقد كنت أحسب حتى الآن أن أعذب ما في الوجود هو أن تستيقظ بعد أن تكون قد رأيت في نومك أنك في عداد الأموات ، وأن تغتبط من كل قلبك وأنت تستيقظ وترى أنك لم تمت ، وأن ما رأيته ليس سوى أضغاث أحلام ، إلا أن فكرة أننا كلنا فانون على الرغم من هذا كله كانت تبعث في القلب القشعريرة .

أما الآن فما أعذب أن ترى نفسك في الحلم وقد صرت عصيا على الفناء . وكم كان بودي لو يستمر حلمي هذا إلى مالا نهاية . وتذكرت فجأة بعد أن تعبت من الاستمتاع بفرحتي زوجتي وأطفالي . ألقيت نظرة على الإبريق ، لكن الإبريق كان فارغا ، ما العمل ؟ ستقول زوجتي إنني لم أترك لها قطرة ماء واحدة ، وسيأخذ الأطفال في البكاء ، وفي لومي ونعتي بأنني من مخلفات الماضي سيهجرونني جميعهم من غيظهم ، ويتركونني وحيدا . انتحبت ولطمت ، وضربت على رأسي ، فما كان من والدي وقد رآني على هذه الحال إلا أن قدم لي إبريقا آخر من ماء الحياة قائلا :

ـ لا تبك يا بني .



وأردف يوصيني :

- اذكر يا بني أن ماء الحياة ليس جعة ، ولم يعد عندي منه قطرة واحدة ، حاول أن تنعم به على أكبر عدد ممكن من الناس .

فكرت أول الأمر أنه ينبغي علي أن أعطي زوجتي وأطفالي وأقاربي ، لكن رئيسي في العمل تسلل إلى ذهني دون استئذان ، متجاوزا دوره ، فقررت أن أهبّ إليه وإبريقي في يدي . لكن ما العمل مع صديقي دورج ؟ إننا ما زلنا حتى هذه الساعة نتناقش فيمن سيموت منا أولا فداء للآخر . وأخيرا قررت أن أعطيهم كلهم قطرة قطرة من ماء الحياة .

ثم اتخذت قراري بحجب الماء عن رئيس المحاسبين الذي اقتطع مني أجر ثلاثة أيام لتغيبي عن العمل وهو يقول لي : « القانون هو القانون!» ، ثم خطر لي أنه سيكون أمرا غير صحيح وسليم أن أمنح الخلود شابين يكتبان القصص الفكاهية بنجاح ، كما شطبت اسم جاري ، وهو زميلي في لعبة الشطرنج ، لسلاطة لسانه ، ثم اسم صديقي دورج أيضا (السافل ! هذا ما يستحقه ، لقد وجه إليّ إهانة شديدة بقوله : إن لدي مؤهلات ، لكنني لست إنسانا ذكيا !) .

وعندما كنت أضع علامة استفهام أمام اسم حماتي حذرني والدي قائلا :

إذا قلت لشخص ما : إنك أعطيته ماء الحياة فإن هذا الماء يفقد صفته السحرية ، ويتحول إلى جعة عادية . قدم المساعدة للناس من كل قلبك ، لا طلبا لشهرة أو مجد . اذكر هذا دائما يا بني !

قدم لي والدي هذه النصيحة ، وغاب . بقيت وحيدا مع إبريقي المملوء بماء الحياة ، وأخذت الأفكار المختلفة تراودني . هل هناك شيء أفضل من إنقاذ إنسان من الموت ؟ ألم تسمع بأنهم سينصبون تمثالا لمن يجد طريقة للشفاء من السرطان ؟ فأي تمثال إذن سيكون من نصيب من يهب الآخرين الخلود ؟

لكن مهلا ! ماذا أوصاني والدي ؟ قال على ما يبدو : إنك إن قلت لشخص إنك تعطيه ماء الحياة انقلب الماء جعة . وهكذا إذن لن يعرف أحد أنه أصبح خالدا بفضلي ، يا للشيطان ! ويا لأسفي ! ماذا فعلت بي يا والدي ؟ ماء الحياة أم الجعة ؟! ما الحل ؟ إذا أعطيت رئيسي ماء الحياة ولم يعرف أنني أنا الذي جعلته خالدا فإنه سيستمر في مضايقتي كعادته . إذن لعلي أهب الخلود لزوجتي على الأقل ؟ لكنها لن تعرف هي أيضا أنني أنا الذي جعلتها خالدة ، وأظل أنا الذي أعطيتها ماء الحياة ، وليس قلم أحمر شفاه ، أمسح أرض البيت ، وألقي القمامة ، وأحجز لها دورا في صالون التجميل ، لا لن يكون هذا أبدا !

المهم أنني أنا الذي شربت الإبريق المليء بماء الحياة ! وأنا وحدي الخالد ! وحدي الخالد ! والآخرون هاها ، لكن مهلا ، فلن يعرف أحد أنني صرت من الخالدين ، وبالتالي لن يحسدني أحد .

لكن عندي هناك بضعة أشخاص يجب أن يعرفوا سعادتي حتما . وبشكل عام ما قيمة أن تكون خالدا إذا لم تتمكن من الاستمتاع برؤية هؤلاء الأشخاص يموتون حسدا ؟

وأخيرا أدركت أنني لن أستطيع الاستمرار في الحياة إن لم أخبر أحدا بخلودي ، ولهذا قررت كتابة هذه القصة ، وبعد أن فرغت من كتابتها ، ووضعت اسمي بأحرف كبيرة تحتها ، سكبت عليها ماء الحياة الذي قررت ألا أعطيه لأحد . وبسبب الماء ماع كل ما كتبته واختلط ، كما أخذ ماء الحياة الذي شربته يفعل فعله المسكر فيّ ، فصرخت وأفقت من غيبوبتي .

كان السكون والظلام يخيمان على شقتنا ، ولم يشعرني بوجودي إلا صوت الساعة الموضوعة على الطاولة ، نعم ، ما أجمل أن ترى أحلاما عن الخلود ! □

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة.

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم.

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١										■
٢						■				
٣					■					■
٤			■					■		
٥				■					■	
٦			■							
٧				■					■	
٨		■				■		■		■
٩					■					
١٠						■				

كلمات أفقية

١ ـ فقيه مسلم من الأئمة الأعلام وصاحب كتاب الموطأ.
٢ ـ جمع غلام ، من أحفاد الرسول (ﷺ).
٣ ـ قصيد ينشد ، نديم.
٤ ـ للنداء ، غير خَبيث ، دَمَّر.
٥ ـ زور ، غير باسم.
٦ ـ تجدها في قَلَع ، مذهب إسلامي يلتزم السنّة.
٧ ـ طري ، رحيم معكوسة.
٨ ـ متضلّع في الدين.
٩ ـ من أنبياء الله اشتهر بشدة الحسن ، ملك يمني هزمه سيف بن ذي يزن.
١٠ ـ راهب نسطوري كان يدعو للتوحيد ، ابن النبي يعقوب عليه السلام وجدّ الأسباط اللاويين.

كلمات عمودية

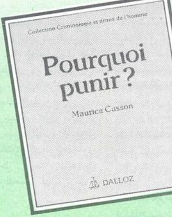
١ ـ من أعظم كتب النحو لابن هشام تكثر عليه الشروح.
٢ ـ أحد مؤسّسي المذاهب الأربعة الكبرى في الإسلام ، تجدها في نوح.
٣ ـ سواد بباطن الشفة واسم شائع لفتاة ، متعلق بالنفس.
٤ ـ عامل ، أرض يباب.
٥ ـ مكيف لا يحسن الإكثار منه ، مدرّسة.
٦ ـ متعلق بالسفر والسياحة.
٧ ـ إمام مسلم له مواقف مشهودة في معارضة المعتزلة حبس في عهد المأمون.
٨ ـ غابَ عن باله ، كتاب ، تجدها في رام.
٩ ـ قصة ، نسيان.
١٠ ـ صفة للخطر الشديد ، صنو هو.

حل مسابقة العدد الماضي أغسطس ١٩٨٩ م

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	ا	ب	ن	ح	ل	د	و	ن	■	ا
٢	ل	ز	ج	■	■	ا	■	و	ع	ل
٣	ف	■	م	ز	ا	م	ي	ر	■	ا
٤	ر	■	ي	ر	ق	ي	■	■	ر	د
٥	د	ع	■	ي	ب	■	ي	ع	م	ر
٦	و	د	■	ا	ل	م	ق	د	س	ي
٧	س	■	ا	ب	ن	ح	م	د	ي	س
٨	ي	■	ص	■	■	■	ع	ي	س	ى
٩	■	ا	ل	ع	ل	ق	■	■	■	■
١٠	ر	ا	ب	ن	د	ر	ا	ن	ا	ت

كتاب الشهر

مكتبة العربي



لمـاذا نُعـاقِبُ ؟

تأليف : موريس كوسون

عرض وتعليق : د . محمود الذوادي

إن كان هناك إجماع على أن الجريمة تستوجب العقاب ، فإن هناك اختلافا حول العقاب وأسلوبه ، ودرجة شدته وليونته ، والأطراف التي يحق لها القيام به .

اجتهاد في هذا المجال يتضمنه كتابنا لهذا الشهر .

كتاب « لماذا نُعاقِب ؟ » لعالم الاجتماع الكندي الفرنسي موريس كوسون هو الثالث الذي نشره منذ ١٩٨٠ حول قضايا الانحراف والجريمة في المجتمعات الغربية على الأخص . إن الكتاب الذي بين أيدينا يعد تكملة لكتابيه السابقين : « جنوح الأحداث لماذا ؟ » ، و« الضبط الاجتماعي للجريمة » . ويبدو كأن المؤلف بتأليفه لهذا الكتاب كان يمتثل لعرف ثقافي أكاديمي ، يتصف به التدريس في جامعات أمريكا الشمالية في ميدان التخصص في علم الإجرام ، فالطلاب المتخصصون في هذا المجال طالما يكونون مطالبين بدراسة مقررات (مواد) تركز على مبادىء علم الإجرام كعلم ، فجنوح الأحداث ، فعلم العقوبة .

يؤكد كوسون في مستهل كتابه هذا أن النقاش حول مسألة عقوبة المجرم المنحرف بالمجتمعات الغربية الحديثة قضية لن يطوى ملفها في القريب العاجل . ويعتقد المؤلف أن كتابه يمثل مساهمة منه لتحسين فهمنا لموضوع العقوبة الشائك .

وظيفة العقوبة

وإجابة عن العنوان الاستفهامي لكتاب « لماذا نُعاقِب ؟ » يقدم لنا مؤلفه كوسون تحليلاته وآراءه حول مسألة العقوبة في ١٨٣ صفحة من الحجم المتوسط ، فعقوبة الجاني في نظر صاحب الكتاب أمر ضروري . إذ أن العقوبة تؤدي أساسا وظيفتين للمجتمع وأفراده ، وهما : الأمن والعدالة ، فبالنسبة لوظيفة الأمن يذكر الكاتب أن لممارسة العقوبة على الجناة تأثيراً ردعيا مزدوجاً : عاما وخاصاً ، أي أن إنزال العقاب على المجرمين المنحرفين يقترن من ناحية بتأثير ردعي ، يشمل عامة الناس الذين ليس لهم سوابق جنائية ، وربما تحدثهم أنفسهم بارتكاب الجرائم والانحرافات ، ومن ناحية ثانية يكون له تأثير ردعي على أولئك الأشخاص الذين ارتكبوا جنايات وعوقبوا عليها في السابق .

وبالإضافة إلى كل ذلك ، فإن عقاب الجاني في بعض الحالات بالسجن مثلا يؤدي إلى حماية المجتمع ، خاصة من هؤلاء الأفراد ذوي السلوك الإجرامي الخطير على سلامة الناس وأمنهم ومجتمعهم . وعلى هذا الأساس يفسر صاحب الكتاب وجود ظاهرة عقوبة المجرم المنحرف في كل المجتمعات البشرية عبر تاريخها الطويل ، بغض النظر عن عوامل الزمان والمكان والثقافة لتلك المجتمعات . ولكن تشابه المجتمعات والحضارات الإنسانية في اللجوء إلى عقاب الجاني لا يعني بأي حال من الأحوال أن هذه الأخيرة قد طبقت فعلا العقوبات نفسها على جناتها ، فالمجتمعات البدائية مثلا طالما لجأت إلى أسلوب الأخذ بالثأر وسيلة لمعاقبة الجاني ، بينما تستعمل المجتمعات الحديثة السجون ومراكز الإصلاح والعقوبات المالية لعقاب المجرمين المنحرفين .

إن الموضوع الرئيسي الذي يركز عليه المؤلف اهتمامه أكثر من غيره في كتابه هذا،هو ضرورة ممارسة العدالة بخصوص حقوق الفرد الضحية للسلوك الانحرافي الإجرامي . ومن ثم فبيت القصيد هنا يتمثل في كيفية التوصل إلى إقامة العدالة بين الجاني والمجني عليه . ولا يعتقد كوسون أن قضية إقامة العدالة الجنائية يمكن البت فيها بطريقة حاسمة بالتفكير العقلي ، أو باللجوء إلى التفكير العلمي ، فالعلم الحديث - كما هو معروف - لا يعترف بأهمية القيم الإنسانية في تطرقه وتحليلاته للظواهر الاجتماعية على الأخص . وعلى هذا الأساس فالعلم في نظر صاحب الكتاب غير قادر على معالجة مسألة العدالة ، معالجة تتصف بالاتزان ، إذ أن إشكالية العدالة يتدخل فيها ، ويؤثر دائما على

طبيعتها ، عامل القيم ، كما جاء ذلك في تحليلات عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر للظاهرات الاجتماعية . وأمام هذا الوضع الإشكالي يقترح المؤلف بديلا لتحقيق مبدأ العدالة بين طرفي الإجرام أو الانحراف ، ويتمثل هذا في رأيه في البحث عن العدالة ، وفقا لما تمليه التقاليد والأعراف الثقافية للمجتمع أو المجموعة الإنسانية الصغيرة : « فمن المستحيل أن نحدد بدقة طبيعة العدالة ، دون الرجوع إلى معايير المجتمع أو المجموعة ، فعلى ضوء ذلك فقط يمكن لنا أن نكون فكرة عما تتطلبه العدالة ، وفقا للأعراف والتقاليد السائدة » .

إن التوصل إلى إعطاء ضحية الجريمة أو الانحراف حقها ، طبقا لتلك التقاليد والأعراف ، هو ما يطلق عليه الكاتب اسم القانون الطبيعي ، لكن كوسون يعترف بأن إقامة عدالة مثالية بين الجاني وضحيته ليست بالأمر السهل ، وذلك نظرا للعدد الهائل من العقبات التي يمكن أن تقف حجر عثرة أمام اكتشاف الحقيقة الفاصلة بالنسبة لدرجة مسؤولية كل من الجاني والضحية في الجناية . وأن أفضل السبل في رأي صاحب الكتاب لإقامة عدالة متزنة في القضايا الجنائية هو اللجوء إلى لغة الحوار بين الأطراف المعنية .

تهميش حقوق الضحية

إن الغياب شبه الكامل للضحية في الاجراءات القضائية يعد في رأي كوسون أهم النقائص التي تشكو منها النظم الجنائية في بعض المجتمعات الغربية المعاصرة ، ففي المجتمع الكندي مثلا ليس هناك وجود قانوني حقيقي للفرد الذي يقع ضحية لسلوك إجرامي . ومن ثم يتساءل المؤلف : « كيف يمكن لنا أن ننتظر إقامة نظام جنائي يتسم بالعدالة ، والحال أن الضحية ، وهي من أهم أطراف الجريمة أو الانحراف ، يقع تهميشها؟ » .

إن المحاكم في التشريع الكندي الحديث ليست مسؤولة قانونيا إلا بالاهتمام بمصالح كل من الجاني والمجتمع . ومن هذا المنطلق فالضحية لا تجد سنداً قانونيا في رحاب تلك المحاكم ، فدور الضحية في هذه الأخيرة لا يزيد عن كونه دور شاهد ، فالقضاة نادرا ما يأخذون بعين الاعتبار طلبات الضحية ساعة إصدار



الحكم على الجاني . إن تخاذل النظام الجنائي الكندي في السماح للضحية بالمشاركة مع القضاة في تحديد عقوبة الجاني أمر يصعب الدفاع عنه في نظر صاحب الكتاب ، فالباحثون في ميدان القضاء تُجمع نتائج بحوثهم على أن نوعية العقوبات وطبيعتها ، تلك التي تطالب بها الضحايا لجناتهم لا تختلف كثيراً عن العقوبات التي يقررها نظام العدالة الجنائية بالمجتمع الكندي .

فكوسون يرى أن كل ما تطالب به الضحايا بالنسبة لعقاب المجرمين المنحرفين هو أن تكون العقوبة مساوية للجريمة أو للانحراف ، وهو مطلب يستند إلى العرف الاجتماعي السائد بين أغلبية الناس . فالمؤلف ينادي إذن بنوع من العدالة في العقاب ، يشبه إلى حد كبير ما يسميه فقهاء الشريعة الإسلامية مبدأ القصاص .

وعلى الرغم من دعوة الكاتب الصريحة إلى ضرورة معاقبة المنحرفين والمجرمين ، فإنه يضع شروطا لذلك : « يعد المجرم مسؤولا مسؤولية كاملة عن جريمة إذا قام بارتكابها عن وعي وحرية اختيار » . أما المجرمون والمنحرفون الذين يقترفون جرائم وانحرافات لم يكونوا واعين بها ، أو لم يكونوا قادرين على السيطرة على أنفسهم وقت ارتكابها ، فصاحب الكتاب لا يدعو إلى معاقبتهم عقاباً يساوي الجريمة أو الانحراف الذي ارتكبوه ، بل هو يطالب بوضعهم مؤقتا في أماكن : مثل مستشفيات الأمراض العقلية بالنسبة للمصابين بمشاكل وأعراض نفسية ، تحمي المجتمع من أخطارهم . فتحديد طبيعة العقوبة بالنسبة للجاني وفقا لكونه مسؤولا أو غير مسؤول عن جنايته يُعطي في نظر كوسون العقوبة شرعيتها ، ويبتعد بها كل البعد عن صفة العشوائية .

فمن الواضح أن مثل هذا الموقف من العقوبة يشبه أيضا موقف الشريعة الإسلامية من ممارسة العقوبة ، فالمسؤولية هي أساس العقوبة في التشريع الإسلامي ، وبالتالي فليس هناك عقوبة للسلوك الحيواني في الشريعة الإسلامية ، وذلك خلافاً للتشريع الروماني القديم . كما أن عقوبة القصاص من القاتل مثلاً لها شروطها ، وهي أن يكون القاتل عاقلاً بالغاً ، فإن كان مجنونا أو صبياً لم يجب القصاص . وأن يكون قاصداً القتل ، فإن كان مخطئا فلا قصاص عليه ، وأن يكون القاتل مختاراً غير مكره .

العقوبة العادلة

وللوصول إلى إنزال عقوبة عادلة على الجاني يرى المؤلف أن عدداً من العوامل ينبغي وضعها بعين الاعتبار :

(١) الأضرار النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي ألحقها إجرام أو انحراف الجاني بالضحية .

(٢) السوابق الجنائية للجاني .

(٣) مدى مسؤولية المجرم أو المنحرف في ارتكاب جريمته أو انحرافه كما أشرنا سابقا .

(٤) درجة عقوبة المجرم أو المنحرف يجب



أن تكون متناسبة مع طبيعة الجريمة أو الانحراف الذي ارتكبه ضد الضحية .

ومن هنا يرى كوسون أن المحاكم لا يمكن لها أن تتوصل إلى إصدار أحكام تتصف بالعدالة إذا هي لم تمكن الضحية من المشاركة الكاملة في عملياتها القضائية والجنائية ، فالضحية في رأي المؤلف يمكن أن تزود القاضي بمعلومات ، تضيء له الكثير من الأمور التي من شأنها أن تسمح له بإصدار أحكام أكثر عدالة وإنصافا . ويتساءل صاحب الكتاب في هذا الصدد : « أليست الضحية هي الطرف الذي له تجربة مباشرة مع الجريمة ، وربما مع مرتكبها ؟ » أما في حالات جرائم القتل فكوسون يشجع مبدأ دعوة أقرباء الضحية للمشاركة في العمليات القضائية والجنائية التي تؤدي إلى الحكم على الجاني ، فمن المؤكد في نظر الكاتب أن ممارسة العدالة لا تجني أي شيء إيجابي من محاولتها تجاهل رأي الضحية وموقفها ، ومن ثم فصاحب الكتاب يعتقد أن مشاركة أكبر ، من الضحية ، بخصوص تحديد عقوبة الجاني سوف تجعل عملية العدالة أكثر تحضرا ، « فالحق الجنائي ليس حقاً جماعياً فحسب ، وإنما هو أيضا حق شخصي ، فمشاركة الضحية تجعل مستوى العدالة أكثر تحضرا » . إن مثل هذه الدعوة من كوسون ليست في الحقيقة غريبة عن الشريعة الإسلامية ، لأن شريعتنا لا تعطي الحق للضحية في المطالبة بإنزال عقوبة على الجاني مساوية للضرر الذي لحق بها فقط ، بل هي تمنح الضحية الحق أيضا في التخفيف أو إلغاء العقوبة (العفو) ، جملة وتفصيلا إن هي شاءت ذلك . إن هذا النوع من المشاركة المزدوجة الطبيعية نفسه يتوافر لأقرباء الضحية في حالة القتل العمد للضحية بفعل القاتل ، فأهل الضحية لهم الحق في المطالبة بالقصاص من الجاني أو العفو عنه . والقرآن يفضل العفو على القصاص . □

مع جبران خليل جبران :



جبران خليل جبران

« جمعت كل أحزاني في الخريف ، ودفنتها في بستاني ، وعندما رجع الربيع ، وعاد الصيف ليتزوج الأرض ، نبتت في بستاني أزهار بالغة الجمال .
تختلف عن جميع الأزهار الأخرى .
فجاء جيراني لكي ينظروا أزهار بستاني
وقالوا لي جميعهم :
إذا جاء الربيع ، وجاء معه وقت البذار ، أفلا تعطينا من بذور هذه الزهور لكي نزرعها في بساتيننا ؟ » .

سمك لا يشبع

○ اشترى غندر سمكا وقال لأهله : اطبخوه ، ونام ، فأكل عياله السمك ، ولطخوا يده . فلما صحا قال : هاتوا السمك ، فقالوا : قد أكلت.قال : لا . قالوا : شم يدك ، فشمها ، وقال : صدقتم ، أكلت ولكنني ما شبعت .



ثلاثية مصرية جديدة

"التاريخ الذي أحمله على ظهري"

"ماء الحياة"

"الشمار"

تأليف : الدكتور سيد عويس

عرض : محسن خضر

مثلما كانت ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة ، نوعا من التاريخ الأدبي للحياة المصرية بين الحربين العالميتين، كذلك يمكن اعتبار الكتب الثلاثة، من بين ما كتبه الدكتور سيد عويس قبل رحيله في يونيو الماضي ثلاثية من نوع آخر، كما تعرض سيرته الذاتية ، حسب ما يبدو من استعراضها .

كانت ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة « بين القصرين ـ قصر الشوق ـ السكرية » هى (بانوراما) لتاريخ مصر الاجتماعى بين الحربين ، كتبت من خلال عين الروائى وهذه الثلاثية الجديدة لعالم الاجتماع المصرى الكبير د . سيد عويس تلتقى مع ثلاثية نجيب محفوظ فى محاولتها تشريح المجتمع المصرى منذ الثلاثينيات حتى السبعينيات ، لكنه كتبها برؤية عالم الاجتماع باسلوب يجمع بين الذاتى والعام ، ويعكس الملامح الثقافية والاجتماعية والتاريخية للمجتمع المصرى ، ولهذا فاننا نحتار فى تصنيف هذا العمل : هل هو سيرة ذاتية لصاحبها أم تحليل شامل للمجتمع المصرى المعاصر كما تقدم ، أم رؤية علمية لتطور البحث الاجتماعى العربى المعاصر من خلال خبراته وتجاربه ، وهى تجارب وخبرات واقعية وأكاديمية معا ؟ وينبه المؤلف الى أنه يقدم دراسة حالة عن نفسه فى ضوء خبراته المنتظمة وغير المنتظمة . وربما يعكس هذا العمل القيم قصة صعود الطبقة المثقفة فى مصر من خلال دراسة حالة مؤلفها ، وقد يكون هذا العمل مزيجا من تلك التصنيفات السابقة .

تقع الثلاثية الجديدة فى ثلاثة أجزاء تحمل عناوين « التاريخ الذى أحمله على ظهرى » ، و « ماء

الحياة » ، و « الثمار » وقد صدرت الأجزاء الثلاثة عن دار الهلال بالقاهرة فى سلسلة كتاب الهلال على مدى عامين .

ومؤلف الثلاثية وهو عالم الاجتماع البارز د . سيد عويس يرى المجتمع المصرى بعينين : عين العالم الاجتماعى وعين رب الأسرة الذى يناضل فى سبيل حياة كريمة لأبنائه ضد الفقر الذى عايشه . والسمة الأساسية لأسلوب الثلاثية هى الصدق ، فلا يخجل المؤلف من ذكر أدق نقاط ضعفه ونقائصه ، كما أنه من أجل أن يكون أمينا مع نفسه ، ومع التاريخ تحدث بنفس الصراحة عن الآخرين ، فأزال أوهاما كثيرة وأقنعة لامعة عن أسماء كبيرة فى حياتنا الفكرية من التى تعامل معها فظهرت بحجمها الحقيقى دون مبالغة أو تضليل :

النبش بالأظافر : البذور :

يتناول الجزء الأول من الثلاثية الأرض والبذور ، أى بدايات الرحلة فى الحى الشعبى وسط أسرة فقيرة فى العشرينيات من هذا القرن ، والجزء الثانى اهتم بمرحلة الرجولة حتى الحصول على الدكتوراة ، وتجربة السفر الى الخارج للدراسة فى الأربعينيات والخمسينيات ، أما الجزء الثالث فيدور فى الستينيات فى مصر ومن خلال تطور أقدم مركز علمى للبحث الاجتماعى . . فى الوطن العربى . انها دورة الحياة فى صعودها الحى .

يتضمن الجزء الأول شقين متوازيين : الجذور الاسرية وتأثير الحى والرفاق . . فقد نشأ المؤلف فى اسرة بسيطة تصارع الفقر والحرمان ، وتؤمن بأن « الله مع المنكسرين جابر » « والرزق على الله » و « يقطع من هنا ويوصل من هنا » كان المؤلف الذكر الوحيد فى اسرته ، ونرى معه الطقوس المصاحبة للطفل الذكر كما يصف لنا حى الخليفة الشعبى فى قلب القاهرة ، والذى نشأ فيه بملامحه المميزة : وجود القرافات وزيارة الأضرحة والمساجد الشهيرة (السيدة عائشة ، السيدة نفيسة ، الامام الشافعى ، السيدة سكينة ، السيدة رقية ، الامام الليثى) وانتشار التسول ، وحفاة الاقدام ، وتعاطى المخدرات ، وظواهر الزار والمعتقدات الغيبية والبخور والأحجبة وعمليات الختان ، وعالم الفتوات وصراعاتهم . . ويشير الى أن أسماء المصريين تنسب للآلهة فى التراث المصرى ، فيسمى الأطفال بأسماء الآلهة والانبياء والقديسين والاولياء والعظماء والحكام . عاش المؤلف طفولة سعيدة فيقول « إن الحب الانسانى بألوانه يملأ على كيانى وعندى ما يكفينى منه وزيادة ، ومهما قابلت فى حياتى من منغصات من الناس فحبى يفيض عليهم » .

وهو يحدثنا عن أحزان الموت : موت الاب والعم والاخ والعمة « لماذا تركنى هذا الرجل وانا فى هذه السن الغضة وحدى؟ »لقد كانت وفاة الاب هى النكبة التى دفعته لترك المدرسة والنزول الى السوق ليستأنف العمل محل أبيه فى المتجر ، وقد استفاد من المناخ الثقافى الذى نشأ فيه ، خاصة جلسات أبيه المبكرة مع أصدقائه ، فسمع لأول مرة عن مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، والأفغانى ، ومحمد عبده ، والنديم ، وقاسم أمين .

كما تعكس سيرته المبكرة شعوره الوطنى وكراهيته للاحتلال الانجليزى « كلما أتذكر ما فعله سليم الأول من تجريد مصر من علمائها وفنانيها وعمالها المهرة وتراثها المادى والمعنوى وإرسالها الى ملكه ، من تلك اللحظة وأنا أثور على كل ما هو انجليزى » . فقد كان ذلك الشعور جزءاً من شعور الشعب المصرى كله ضد الاحتلال الانجليزى ، وأن الانجليز هم الأعداء الألداء .

الزواج المبكر فى سن التاسعة عشرة جعل المؤلف يكمل تعليمه فى مدرسة ليلية ليعوض تركه للدراسة الثانوية بعد وفاة أبيه ، ليعين فى مصلحة الحدود موظفا ، ويصر رغم أعبائه على أن يكمل دراسته العليا ، فيلتحق بمدرسة الخدمة الاجتماعية عند تأسيسها فى أول دفعة بها ضمت ٦٥ طالباً تلقى العلم فيها على يد جيل الرواد : د. عبدالعزيز القوصى ، اسماعيل القبانى ، د. محمد عوض محمد ، إلزا

ثابت ، د. حلمي السعيد ، حتى تخرج عام ١٩٤٠ في أول دفعة من الاخصائيين الاجتماعيين في مصر والوطن العربي . وينتقل للعمل في مؤسسات رعاية الأحداث بكوم امبو ومؤسسة الزفاف الملكي بالقاهرة ، ثم مديراً لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الأحداث بالقاهرة عام ١٩٤٣ ، ثم سفره مرتين للحصول على الدبلوم العالي في التربية من جامعة لندن ، ثم للحصول على الدكتوراة من جامعة بوسطن (٥٣ ـ ١٩٥٦) بالولايات المتحدة الأمريكية حيث تخصص في علم الاجرام من قسم الاجتماع .

وهو يشير في تجربة السفر الى الخارج الى ظاهرة التمييز العنصري في انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا . لقد اضطهدوه في فرنسا بسبب تأييد مصر لثورة الجزائر ، وفي أمريكا كانت التفرقة العنصرية ضد الملونين في أوج عنفوانها . ويحكي أن قسيسا امريكيا رفض مصافحته عندما علم أنه مسلم .

تطور مجال الخدمة الاجتماعية :

ونتابع مع المؤلف صعود العمل في مجال الخدمة الاجتماعية في مصر من خلال رحلاته وتنقله للعمل ، وتطوير المجتمع في قرية بهتاي ومصنع يس للزجاج ، ومؤسسة الزفاف الملكي وملجأ شارع منصور ، وملجأ السيوفية ، ومحلة الرواد كما قام بدراسة مشكلة الأطفال المشردين في مصر ، وساهم في تكوين اتحاد المشتغلين بالخدمة الاجتماعية بالقاهرة ، ثم عمله بمحكمة الأحداث وتأسيسه للمركز القومي للبحوث الجنائية مع آخرين . وهو الذي تحول في الخمسينيات الى « المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية » وقد طبق د. عويس طريقة خدمة الفرد في العمل ، ويشير الى تقدم مجال الخدمة الاجتماعية في مصر « كان تغير المناهج الاجتماعية ضرورة حتى يمكن القضاء على ظاهرة الازدواجية التي نواجهها في أمور عديدة في محيط الثقافة السائدة في المجتمع المصري » كما أشار الى أهمية دراسة المجتمع المصري المعاصر اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وسياسيا ، كما دعا الى الاهتمام المبكر بالتطوع الاجتماعي .

مكونات الثقافة المصرية :

ويحاول د. سيد عويس أن يحلل الثقافة المصرية ، ويردها الى مكوناتها الأساسية ، ويكشف عن نقاط القوة والضعف فيها . وهو ينبهنا الى تداخل الحلقات الحضارية في الثقافة المصرية . . صحيح أنني نتاج مصادر ثقافات عديدة : نتاج المصادر الثقافية الفرعونية والفارسية واليونانية والرومانية والمسيحية والعربية الاسلامية وما جاء بعدها من مصادر سواء أكانت تركية او مملوكية او غربية . أي أنني كمصري أحمل معظم هذه الثقافات لأنها ثقافات كانت في الغالب قديمة ذات أصالة انبتتها الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المصرية . وهي ثقافات مستمرة حتى الوقت الراهن ، صحيح أنني أتحدث



اللغة العربية ولكننى استخدم المئات بل الالاف من الالفاظ الفرعونية والقبطية . أى أن الثنائية التى يتشدق بها البعض من خلال ما يسمى الأصالة والمعاصرة هى ثنائية غير ذات موضوع . فالمصرى مصرى لأنه قديم متجدد وهو ايضا جديد وجذوره الثقافية لاتزال موغلة فى القدم .

ويشير المؤلف الى ديالكتيك الثورات فى مصر ، فالثورة العرابية على الرغم من فشلها تركت لمصر كادرا من القادة الوطنين ومنهم عبدالله النديم ، ومحمد عبده ، وقاسم امين ، وسعد زغلول ، وجاء بعدهم مصطفى كامل ومحمد فريد ، وسيد درويش ، وطلعت حرب ، واحمد شوقي ، وامين الخولى ، ولطفى السيد ، والرافعي ، والجاويش ، وعبدالعزيز فهمى . كما أن ثورة ١٩ قد انجبت من بعد قادة وطنيين تسلموا الأمانة وكان منهم مصطفى النحاس ، واسماعيل القبانى ، والمازنى ، وطه حسين ، ومصطفى صادق الرافعي ، والعقاد ، وسلامة موسى ، ويعقوب فام ، والحكيم ، وحسين فوزى ، وزكي مبارك ، والزيات ود. هيكل ، واحمد امين ، وحسن البنا واحمد حسين ، وغيرهم ممن قادوا ثورة يوليو ١٩٥٢ . ويأخذ المؤلف على محمد على باشا انه لم يهتم بتكوين القادة من المصريين ، ويصف الحاكم فى مصر بأن « مصرنا الخالدة فى ضوء تاريخها القديم المستمر كانت تضع حكامها على تباينهم فى مكانة رفيعة دائما ، وكان الشعب المصرى يقدس بعض حكامه » .

والمجتمع المصرى - كما يرى د. عويس - مجتمع وحدانى منذ قديم الزمان : اخناتون والمسيحية ثم الاسلام ، بل ان اصلاح اخناتون الدينى سبق اصلاح مارتن لوثر ب ٢٩ قرنا ، وتمكنت مصر من غزو غزاتها فى عقر عقولهم ومنحت مصر رغم هوانها وضعفها السياسى العالم المتحضر آنذاك نبضه الروحى وعقيدته الدينية وطمأنينته النفسية .

ويرى المؤلف أن مصر صدرت مفهوم العدالة الى العالم منذ صيحة بتاح حتسب عام ٢٧٠٠ ق.م (من يتخذ العدالة نبراسا له فينهج منهجها). والصفتان الأساسيتان للثقافة المصرية الأصلية هى القدم والاستمرار . . وقد واجهت مصادر ثقافية اخرى ، فالمصرى المعاصر نتاج المجتمع المصرى منذ اواخر القرن التاسع عشر وحتى الآن ، ويعترف د. سيد عويس بطول المسيرة الثقافية التى يجب أن يقفزها أعضاء المجتمع المصرى لكى يلحقوا بالمسيرة الانسانية فى تقدمها وفى تطهير مجتمعاتها من أدران الترهات والأفكار البالية والاساطير .

ويتحدث المؤلف بصراحة عن الشخصيات والاعلام التى تعامل معها خلال مسيرته ذات الثمانين عاما وتزيد ، ويلقى الضوء عليها بلا تزويق . ويضعها فى الحجم الحقيقى لها ، ويبدو أن ثقافتنا لم تتعود بعد على هذا النوع من الصدق والشجاعة والصراحة المؤلمة ويتبدى ذلك فى ردود الفعل العنيفة التى ظهرت فى مصر عند اصحاب هذه الشخوص التى تناولها المؤلف فى ثلاثيته . . وكما كان صادقا مع الآخرين . ويقص د. سيد عويس تجربته فى التدريس بجامعة الكويت فى الستينيات والتى لم تستمر إلا شهورا بسبب مرضه المفاجىء .

ثلاثية « التاريخ الذى أحمله على ظهرى » رحلة ممتعة مع عالم ممتع ، وهو كما يقول عن نفسه عاصر أحداثا منصبة فى تاريخ مصر ، فعاصر كلا من الحكام الخديوى عباس ، والسلطان حسين كامل ، والسلطان احمد فؤاد ، فالملك فاروق ، فرؤساء الجمهوريات محمد نجيب وجمال عبد الناصر وانور السادات وحسنى مبارك . . وعاش ثورتين كبيرتين (١٩ ، ٥٢) وعاصر حربين عالميتين ، واربع حروب مع اسرائيل ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٧٣ » .

ويقول « ويكفينى أننى عشت فى العصر الذى كان فيه ملء السمع والبصر كل من سيد درويش والمنفلوطي وشوقى وحافظ والرافعى والزيات والمازنى وطه حسين ود. هيكل والعقاد وبيرم التونسى واحمد امين وزكى مبارك ، وسلامة موسى وتوفيق الحكيم . .

ولهذا فهذه هى ثلاثية مصر أيضا فى أكثر من نصف قرن من الزمان . □

مكتبة العربي

مختـــارات



اسم الكتاب : يوميات المغنين والجواري « جزءان »
اسم المؤلف : كمال النجمي
الناشر : دار الهلال . مصر
عدد الصفحات : ٣٦٠ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨

جهد مبدع للكاتب العربي الكبير كمال النجمي ، يقدمه برشاقة بالغة ، وحس عال ، ودقة نادرة متضمناً وقائع أشهر المغنين والجواري في التاريخ العربي وسيرهم من واقع كتاب الأغاني للأصفهاني ، وقد اتبع الكاتب طريقة جديدة حين جمع كل ما كتب في الأصل عن مغن أو جارية . ثم كثف ، ولخص واستغنى عن الحشو .. وأفرد في يوميات متتالية وقائع الحياة وسيرها ، وعلى الرغم من جهد الكاتب وحرصه على المحافظة قدر الإمكان على أصل لغة الكتاب إلا أنه لم يستطع أن يحرم القراء من رشاقة أسلوبه وعذوبته الفائقة وشجنه العالي ، ليقدم في النهاية إضافة مهمة الى مكتبة التراث العربي .

■■

اسم الكتاب : التنمية والتعليم
اسم المؤلف : د . حسن الإبراهيم
الناشر : ذات السلاسل/ الكويت
عدد الصفحات : ١٩٤ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٩

دراسة تمزج بين الرؤية الأكاديمية والخبرة العملية ، حول علاقة التعليم والتنمية في الكويت والأقطار العربية ، ويضم الكتاب سبعة فصول يناقش فيها دور المعلم في مراحل التعليم الأولى ، ثم يقدم الكاتب في فصل تال عن تصوره للتنمية ، وبعد ذلك يوضح الصلة بين التعليم والتنمية ، وبين التعليم والنظام السياسي ، ويؤكد الكاتب ، أنه لأول مرة في التاريخ الإنساني نجد أن تطور المجتمع وازدهاره يرتكز بالدرجة الأولى على الجامعات ومراكز الأبحاث .

■■

اسم الكتاب : الشيخ يوسف بن عيسى القناعي
اسم المؤلف : نجاة عبد القادر الجاسم
الناشر : دار كاظمة للنشر/ الكويت
عدد الصفحات : ١٣٩ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٩

يتناول الكتاب سيرة حياة ومواقف واحد من رجالات الكويت ، الذين أثروا في الحياة العامة في التاريخ الحديث ، وهو واحد من جيل المستنيرين والإصلاحيين ، الذين ساهموا في تغيير حركة المجتمع ، وأثروا الحياة الاجتماعية والفكرية .

وقد بذلت الكاتبة جهداً علمياً ، في توثيق دور الشيخ يوسف بن عيسى ، من خلال الوثائق البريطانية ، وبالاطلاع على أوراقه الخاصة وبالاستماع الى شهادات الشهود ، من أسرته ، ومن المهتمين بحياته .

■■

اسم الكتاب : رسالة البصائر في المصائر
اسم المؤلف : جمال الغيطاني
الناشر : دار الهلال/ مصر
عدد الصفحات : ٢٧٤ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٩

أحدث انتاج الروائي المبدع جمال الغيطاني ، والذي ينصّب نفسه شاهداً على حقبة السبعينيات ،

حيث يغوص داخل نسيج المجتمع المصري .. ملاحقاً ما أحدثته هذه الحقبة من تغيرات ، وبحساسية جراح ، وبدقة اجتماعي ، وببراعة روائي متميز ، يقدم الغيطاني لوحات فنية عالية متتالية متتابعة ، يظنها الرائي منفصلة ، وهي متصلة اتصالاً غير منظور ، ومترابطة بدقة نسّاج قديم مولع بالحواشي والزخارف والمنمنمات .

■■

اسم الكتاب : مدارات الحداثة ، مقالات في الفكر المعاصر
اسم المؤلف : محمد سبيلا
الناشر : منشورات عكاظ/ المغرب
عدد الصفحات : ١٩٦ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٩

مجموعة من المقالات يناقش فيها الكاتب قضايا معاصرة حول الحداثة ، وقضاياها ، ويطرح رؤيته حول عدد من الأفكار التي مازالت تثير النقاش . فيتناول في مقالاته علاقة البنيوية بين المنهج والمذهب ، والجذور الاجتماعية للعنف ، والتخلف وتعثرات الحداثة العربية ، ويقدم عرضاً لآراء « فتجنشتين » حول فلسفة اللغة ، كما يقدم الكاتب رؤاه للمثقفين والسلطة وللتقنية كايديولوجيا . بالإضافة الى بعض المقالات الأخرى التي تجعل من الكتاب ، وجبة علمية ، متنوعة ، يقدم فيها الكاتب أفكاره ورؤاه حول كثير من القضايا والأفكار .

■■

اسم الكتاب : العروبة والإسلام
اسم المؤلف : مختار عزيز
الناشر : دار اقرأ للطباعة/ المغرب
عدد الصفحات : ١٧٦ من القطع الصغير
سنة النشر : ١٩٨٨

يناقش الكاتب العلاقة بين العروبة والإسلام ، وهو نقاش يبدأ من ضرورة مواجهة التحدي الذى تواجهه الأمة العربية ، ويقرر المؤلف أن هذا الموضوع لم يكن بحاجة الى مزيد من الكتابات بعد أن كتب فيه الأولون ، ولكن ، لأنّ الفكر العربي لم ينضج ، ولم يتطور ، بحيث يتجاهل دعوات البعض لجذبنا للخلف ، وإغراقنا في قضايا جدلية . ويسجل المؤلف حقيقة مؤلمة مفادها أن كثيراً من مواقف وأفكار الأموات من سلف هذه الأمة كان أكثر تقدمية من مواقف وأفكار بعض الأحياء فيها . □

كلمات من نور :


ملتون

* ليس الشقاء والتعاسة في أن يكون الإنسان ضريرا، بل في ألا يستطيع تحمل ذلك.
«الشاعر ملتون»

* أي جمال في الطبيعة يستطيع أن ينافس جمال المرأة التي تحب.
(لامارتين)

لن ينشر شيئا :


برنارد شو

جاءني صحفي ذات يوم ، وقد بلغ من ضعفي أن أذنت له بمحادثتي ، فإذا هو قد أتم عملية إجراء الحديث وحده ، فلما انصرف ، سمحت له بنشر الحديث على شرط أن يكتفي بما قلت ، ويحذف كل ما قال !

« شو »

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٧٠
سبتمبر ١٩٨٩

جوائز المسابقة :
الجائزة الأولى ٥٠ دينارًا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارًا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارًا
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :
الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :
مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٧٠ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ اكتوبر ١٩٨٩ .

ارفق الحل مع هذا الكوبون
كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٧٠

١
من أمثال العرب قولهم :
« أبخل من ذي معذرة » . .
فمن هو « ذو معذرة » هذا ؟

٢
ومثل آخر من أمثال العرب :
« أبت الدراهمُ إلاّ أن تُخرج أعناقَها . . »
والمعنى المقصود هنا هو أن الغنيّ لا يستطيع أن يكتم غناه ، ولكن للعرب أمثالاً أخرى تؤدي هذا المعنى ، فهل تستطيع تقديم مثل واحد من هذه الأمثال ؟ .

٣
« أخذه برمته » ، ما هي الرّمة وما المناسبة التي تمخضت عن هذا المثل ؟

٤
من الأمثال العربية قولهم :
« عند الرهان تعرف السوابق »
فأي الأمثال الدارجة في الوقت الحاضر يؤدي معنى هذا المثل القديم .

٥ « لا يعرف الهرَّ من البر » مثل يضرب في الجهالة ، ولكن ما معنى الهرّ والبرّ ؟

٦ أمثال عربية أخرى متواترة ، سقط منها النّعت فكان الفراغ في أولها . المطلوب ملء كل فراغ بنعته الصحيح .

. . . . مِنْ صِلْعه
. . . . مِنْ فَراش
. . . . مِنْ الأحنف

٧ يقول العرب : « أبرد من جِرْبِياء » فما جربياء هذه ؟

٨ « ابدأهم بالصراخ يَفِرّوا » فيمن يضرب هذا المثل ؟

٩ « لكل ساقطة لاقطة » مثل عربي آخر يضرب للحث على :

* حفظ اللسان
* عدم القلق على ما سقط وضاع ، إذ لابد من لاقط يعيده إلى صاحبه .

١٠ من أمثال العرب قولهم :
يُبلّغ الخَصْمُ بالقضم
فما معنى الخضم والقضم ؟ وما المقصود بالمثل ككل ؟

١١ يقول العرب فيما يقولون من أمثال :
لا تهرف بما لا تعرف
فما معنى الهرف ؟
* معناه الخَرَف
* معناه الإطناب في المدح
* معناه الرجم بالغيب

١٢ أمثال عربية متواترة ، سقطت أسماؤ ها فكان الفراغ في أواخرها . المطلوب ملء هذه الفراغات بالأسماء المناسبة .
أفْصح من . . . .
أبْصر من . . . .
أبْلغ من . . . . □

حل مسابقة العدد ٣٦٧

يونيو ١٩٨٩

١ البيروني هو مؤلف كتاب « القانون المسعودي » ، واسمه أبو الريحان محمد ابن أحمد الخوارزمي البيروني (٩٦٢ - ١٠٤٨ م) . اشتهر في علم الهيئة أو النجوم (أي علم الفلك) ، وهو العلم الذي ألف فيه كتابه المذكور .

٢ الاسكندرية في مصر هي المدينة التي ولد فيها بطليموس . وقد عاش في القرن الثاني للميلاد .

٣ المجسطي هو المرجع الفلكي العام الذي كتبه بطليموس عالم الفلك اليوناني في الاسكندرية ، في القرن الثاني للميلاد ، وقد أثبت فيه كروية الأرض ، لكنه أخفق في إدراك حقيقة النظام الشمسي ، وأكد أن الكرة الأرضية هي المركز الثابت الذي تدور الشمس حوله ، كما تدور الكواكب .

٤ تراجع جاليليو عن معتقداته الفلكية رضوخا للضغط والإكراه الذي تعرض له من قبل محاكم التفتيش ، ولولا تراجعه هذا لأنزلت فيه عقوبة الموت ، إلا أن تراجعه العلني هذا لم يقترن باقتناع فكري على الإطلاق ، بل إنه اشتهر بالإصرار على التمسك بالنظام « الكوبرنيكي » .

٥ هانس ليبرشي هو الذي صنع أول تلسكوب كاسر للأشعة في التاريخ ، على أن المذكور لم يكن عالم فلك أو رياضيات ، بل كان صانع نظارات .

٦ ليس اسحق نيوتن هو الذي اخترع التلسكوب العاكس (للأشعة) ، سنة ١٦٦٨ م ، أو جاليليو ، بل ليبرشي الهولندي ، هو الذي صنع أول تلسكوب كاسر للأشعة ، وذلك سنة ١٦٠٨ .

٧ ولد كوبرنيكوس في بروسيا الشرقية ، في بلدة ثورن الواقعة على نهر فستولا ، التابعة لملك بولندة آنذاك ، سنة ١٤٧٣ م ، ومات عن عمر يناهز ٧١ عاما ، وذلك سنة ١٥٤٣ م . كان قسيسا ومن رجال الكنيسة ، وكان له عم (أو خال) يشغل منصبا كبيرا من مناصبها ، إلا أن نجاته من محاكم التفتيش لم تكن بسبب هذا أو ذلك ، فقد تعمد كوبرنيكوس تجنب انتقام الكنيسة ، وذلك بتأجيل نشر كتابه حتى آخر يوم في حياته . ولم يدفع كتابه إلى المطبعة إلا حين كان كوبرنيكوس على فراش الموت .

٨ تيكو براهي الفلكي الدانمركي المعروف (١٥٤٦ - ١٦٠١) ، هو الذي فقد أنفه الطبيعي في مبارزة ، فقد بارز أحد النبلاء الشباب لخلافه معه حول أيهما كان المتفوق في الرياضيات ، وهزم تيكو ، ونجح الخصم في قطع شريحة كبيرة من أنفه .

٩ التلسكوب الروسي الموجود في زلنشوكسكايا ، في جبال القفقاس ، هو الأقوى ، لأنه أقوى تلسكوب عاكس في العالم دون أدنى ريب ، فمرآته عملاقة ، يبلغ قطرها (٦) أمتار - (٢٣٦ بوصة) - ووزنها ٧٠ طنا أو أكثر قليلاً .

١٠ تلسكوبات الراديو لاتكبر ولاتقرب ، وهي لا تتيح لك رؤية أجرام السماء إطلاقا . وتقتصر مهمتها على جمع موجات الراديو التي تأتينا من الفضاء ، بواسطة صحن هوائي ، لتنقل بعد ذلك إلى جهاز الاستقبال الخاص بالتلسكوب ، حيث تكتسب قوة ، ويصبح في الإمكان تسجيلها على الورق خطا متعرجا .

ويوجد أكبر تلسكوب راديو في العالم في اريكيبو في بورتوريكو ، أنشأته الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٦٣ م . ويبلغ قطر صحنه الهوائي ٣٠٥ أمتار !

١١ الاسطرلاب هو الجهاز الذي استعمله علماء الفلك المسلمون في قياس علو الأجرام السماوية ، وقد شاع استعماله في أوربا في القرن الخامس عشر الميلادي ، وذلك من قبل الملاحين والمستكشفين . □

الفائزون في مسابقة العدد ٣٦٧ يونيو ١٩٨٩

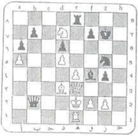
الجائزة الأولى : محمد عبد الله باروم / مكة المكرمة / المملكة العربية السعودية .

الجائزة الثانية : عبد الله محسن حمود الندابي / مسقط / عمان .

الجائزة الثالثة : غسان زهير صادق / الكويت .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ - جوهري توفيق / البيضاء / المغرب .
٢ - مراد علي معريش / الجزائر .
٣ - شذى سلمان داود / بغداد / العراق .
٤ - خليل وصفي درويش / عمان / الأردن .
٥ - عبد الله أحمد عباد العرامي / صنعاء / اليمن (الشمالي) .
٦ - حسن محمد حسن كاظم / الشارقة / دولة الإمارات .
٧ - حسين بدران حسين / تبوك / المملكة العربية السعودية .
٨ - حسين سالم محمد بامخرمة / حضرموت / اليمن (الجنوبي) .



معركة بلا سلاح

حفل أولمبياد الشطرنج الأخير ، المنعقد في سالونيك ، بالمفاجآت المثيرة ، أهمها حصول اللاعبين واللاعبات المغمورين من العالم الثالث على معظم ميداليات المهرجان التي كان يحصدها في العادة اللاعبون الكبار الذين فوجئوا بالمستوى الرفيع من اللعب للاعبين صغار لا خبرة لهم بمثل هذه اللقاءات الكبرى في محافل الشطرنج الدولية ، ومن هذه المفاجآت فشل الأستاذ السوفيتي الكبير ، إيفان ألفيست ، في الحصول على أكثر من التعادل ، بعد ٥٦ نقلة ، استغرقت ست ساعات ، مع اللاعب السوري محمود عقيل ، الطالب في كلية الهندسة ، وكذلك فوز اللاعب الجزائري ، بو دبية محفوظ ، حامل لقب بطل العرب للشباب في عام ١٩٨٦ ، على الاستاذ الدولي الدومينيكي المعروف مانيو .

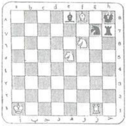
ومن اللاعبين العرب الذين أثبتوا حضوراً جيداً في هذا المهرجان نجيب صالح ، من الإمارات ، فقد فاز بالميدالية الفضية على الرقعة الخامسة ، والأردني حسين بطيخة الذي فاز بالبرونزية على الرقعة الرابعة .

ومن مفاجآت الأولمبياد الأخرى حصول اللاعبة المجرية ، جوديت بلغار ، (١٢ سنة) ، على الميدالية الذهبية وهي التي أرغمت السوفيتية ليفيتينا - إحدى المتحديات السابقات لبطلة العالم - على طلب التعادل في النقلة الثمانية ، وحصول اللاعبة السويدية ، بياكراملنج ، على البرونزية . ولم تترك للاعبات السوفيتيات الكبيرات سوى الفضية التي حصلت عليها ايلينا اخميلو فسكايا .

أما فريق الرجال السوفيتي فقد تصدر الأولمبياد دون منازع ، برصيد (١٧) نقطة ، وتقاسم بعده المركز الثاني أربع فرق هي انكلترا ، المجر ، السويد ، هولندا ، برصيد (١٤,٥) نقطة .

ونرى في الدور التالي مباراة مادل البلغارية مع ليتينسكايا السوفيتية التي استسلمت في النقلة الحادية والثلاثين .

● مسألة العدد ٣٧٠



مات ٣

من إهداء وانيس بسام (حلب)

□ مادل (المجر)	■ ليتينسكايا (السوفييت)		
١ ـ د ٤	ح ـ و ٦	١٦ ـ ر ـ جـ ١	حـ ٥
٢ ـ جـ ٤	هـ ٦	١٧ ـ حـ ٣	ح ـ حـ ٧
٣ ـ ح ـ و ٣	جـ ٥	١٨ ـ و ـ د ٢	و ـ و ٦
٤ ـ د ٥	هـ × د ٥	١٩ ـ ف ـ هـ ٢	ز ٥
٥ ـ جـ × د ٥	د ٦	٢٠ ـ ف ـ حـ ٢	و ـ ز ٦
٦ ـ ح ـ جـ ٣	ز ٦	٢١ ـ ر × جـ ٤	ر × جـ ٤
٧ ـ ف ـ و ٤	أ ٦	٢٢ ـ ف × جـ ٤	ز ٤
٨ ـ أ ٤	ف ـ ز ٧	٢٣ ـ حـ × ز ٤	حـ × ز ٤
٩ ـ هـ ٤	ف ـ ز ٤	٢٤ ـ ف ـ و ٤	ح ـ هـ ٥
١٠ ـ ف ـ هـ ٢	ف × و ٣	٢٥ ـ ف × هـ ٥؟ (لماذا ؟)ف × هـ ٥	
١١ ـ ف × و ٣	و ـ مـ ٧	٢٦ ـ م ـ و ١	ح ـ ز ٥
١٢ ـ ت (قصير)	ح (ب) ـ د ٧	٢٧ ـ و ـ هـ ٣ ؟	م ـ ز ٧
١٣ ـ أ ٥	ت	٢٨ ـ ف ـ د ٣ ؟	و ـ و ٦
١٤ ـ ر ـ هـ ١	ر (أ) ـ جـ ٨	٢٩ ـ م ـ هـ ٢	ر ـ هـ ٨
١٥ ـ ح ـ أ ٤	جـ ٤	٣٠ ـ ح ـ ب ٦؟ (رديئة) ف ـ و ٤	
		٣١ ـ ح ـ د ٧؟ (الشكل) و × ب ٢ +	

□□□

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج العدد ٣٦٧ يونيو ١٩٨٩م

الفائزون بلشتراك سنة كاملة :

١ ـ سليمان ابراهيم علي / ص.ب ٩١٥٨ ـ جدة ـ المملكة العربية السعودية

٢ ـ أحمد محمد يوسف قمباز / حلمية الزيتون ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

٣ ـ حسان حاج علي / حلب ـ الجمهورية العربية السورية

٤ ـ حسام العابد / قصيبة سوسة4041 ـ الجمهورية التونسية

٥ ـ مأمون علي اسماعيل عوير درويش / جامعة الكويت ـ كلية العلوم ـ دولة الكويت

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ حاتم الزواري / **110** شارع غرة جوان ـ سوسه ـ الجمهورية التونسية

٢ ـ عمر الخضري / ص.ب ١٨٠٧ ـ المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية

٣ ـ قاسم محمد قاسم بركات / ص.ب ٢٥٠ ـ عمان ـ المملكة الأردنية الهاشمية

٤ ـ ياسر محمد سيف الملوك / ص.ب ١٢٥٨٨ ـ صحار ـ سلطنة عمان

٥ ـ عبد الرحمن نصر الهاشمي / ص.ب ٣٩٩٣ ـ طرابلس ـ ليبيا

حل مسألة العدد ٣٦٨ ـ يوليو ١٩٨٩م

مفتاح الحل : و × و ٧ +

حوار القراء

العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

في حديث الشهر



● الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

لقد اطلعت على العدد ٣٦٦ مايو (أيار) ١٩٨٩ م من المجلة ، وازددت يقينا أنها مجلتي ومجلة كل قارىء للعربية ، وتعد بلا شك شمس الثقافة العربية التي تشرق علينا بنور المعرفة كل أول شهر ، ليمتد أثر أشعتها مضيئا ومسليا حتى يصدر منها العدد التالي ، لتتلقفه عقولنا قبل أيدينا .

اسمحوا لي أن أشيد بحديث الشهر « كل ما أحتاج إلى معرفته تعلمته وأنا في الروضة » ، فقد برز حسن اختياركم للمواضيع والكتب العربية والأجنبية ، وحسن صياغتكم وتلخيصكم لتلك الكتب والأفكار التي تحتويها في أسلوب سلس منظم ، يقترب من فكر القارىء العربي وعقليته ، كما أشيد بالنظرة الواسعة في إبراز النقاط والمقتطفات المهمة في الكتاب .

لقد كان مقالكم حقا خير فاتحة للعدد يشد الانتباه ويجذب العقول ، وكان خير مقدمة لموسوعة علمية عربية يجب اقتناؤها والحرص على الاحتفاظ بها .

القارىء : محمود حبيب قطب
- محافظة القليوبية - جمهورية مصر العربية

□□□

"إهدار المال العربي"

● الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

حسنا فعلتم بنشركم في العدد ٣٦٥ ابريل ١٩٨٩ م من المجلة الملف الواسع ، الغني بالمعلومات والآراء المتعددة عن شركات توظيف الأموال في مصر ، فهو يحمل وجهات نظر حول هذه الكارثة الاقتصادية التي ما كانت تحدث لو أن هناك وعيا اقتصاديا وتخطيطا علميا لاقتصاديات الأقطار العربية ، ويا حبذا لو أتبعتم هذا الملف بدراسة يقوم بها متخصصون في قضايا الاقتصاد العربي ، لما يجب أن تتخذه الأقطار العربية لمنع حدوث مثل هذه الكوارث الاقتصادية وإهدار « المال العربي » ، وما يصاحب ذلك من أزمات اجتماعية وسياسية نحن في الوطن العربي في غنى عنها .

القارىء : زغلول توفيق
بني سويف - جمهورية مصر العربية

العربي

كما وصلت رسائل عديدة تثني على الملف المنشور في عدد ٣٦٥ أبريل ١٩٨٩ . الخاص بشركات توظيف الأموال ، كذلك تعقب على بعض ما جاء من مقولات لكتّاب الملف ، فقد كتب لنا عدد من القراء من جمهورية مصر العربية وهم :

مختار قاسم عبد العزيز من مرسى مطروح ، وشاكر طه من دمياط ، ونبيل مصطفى أحمد من المنوفية ، ومجدي الورداني من الزرقا ، ورضا أحمد بيومي من كلية تجارة بنها ، ومحمود منصور رمضان من محافظة قنا .

□□□

العندم شجرة ودم الأخوين عصارة

نشر في العدد ٣٦٥ (ابريل ١٩٨٩ م) مقال عن « النباتات الطبية في سوقطرة » للاستاذ علي سالم باذيب ، مع صور نادرة تصدرت المقال ، دلت على حقيقة هذه النباتات التي تحدث عنها الكاتب ، وكانت كثيرا ما يرد ذكرها في المصنفات النباتية والعلمية القديمة عند العرب ، ولم يهتد الباحثون إلى تحليلها ، حتى أن شيخ العشابين داود الأنطاكي ، لم يتوصل إلى معرفة كنه دم الأخوين في كتاب « تذكرة الألباب » وجاء ذكرها غامضا في كتابه ، ثم لم يلبث أن اعتذر عن عدم معرفته ، والكلام الآن له « قيل : إنه دم الأخوين صمغ نخلة بالهند ، أو شجرة كحي العالم ، أو هو كبيره ، أو هو عصارة نبات حبر سقطرة ، والصحيح أننا لا نعرف أصله ، وإنما يجلب هكذا من نواحي الهند » بيد أن لي تعليقا على الموضوع ، إذ أود أن أشير إلى أن شجرة دم الأخوين كما سماها « الأستاذ علي سالم » لها اسم عند العرب القدماء ، وهو « العندم » ، ويقال لخشبها « البقّم » أما المقصود من عبارة دم الأخوين فهو عصارة الشجرة أو صمغها ، ولكن ليس المقصود الشجرة نفسها ، وعبارة دم الأخوين وعربيتها (الأيْدع) ، ويقال لدم الأخوين كذلك دم الاثنين ، ودم التنين ، ودم الثعبان ، وقناطر الدم ، واسمه المشهور بالمغرب « الشّيان » ويقال له بالسريانية « ورداد صيادي » وباللغة السندية « بانورت » .

وكان القدماء يعتقدون بأنها نتيجة دماء حيوانات متجمدة ، ولذا سميت بما معناه ذلك ، وقيل : « إن سبب التسمية يعود إلى أن كل فرع من فروع الشجرة يتشعب إلى اثنين لا أخوين » ، أما سبب التسمية بدم الثعبان فعلى التشبيه ، لأن كل غصن يحاكي في الالتواء الثعبان .

حوار القُرّاء

ولنا سؤال أخير نوجهه إلى كاتب المقال ، وهو لماذا أطلق على الجزيرة « سوقطرة » والمؤلفات التراثية تثبت بأن اسمها « سقطرى » .

القاريء : إحسان جعفر
اللاذقية - سوريا

□□□

الصفحات الخفيفة

● الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

أعجبني المقال المنشور في العدد ٣٦٤ مارس ١٩٨٩ م عن تزاوج الأجناس في الأدب العربي ، فالمقال كان غاية في الجمال ، حيث اشتمل على القصص الظريفة والطرائف المثيرة التي تجذب انتباه العقل نحو هذه المعلومات الممتعة ، فقد سلط الضوء على السمك الذي يشبه الإنسان ، وغير ذلك من القصص الخفيفة والمسلية ، أرجو أن تكثر المجلة من نشر مثل هذه الموضوعات التي تحتوي على الطرائف والحكايات الممتعة .

كما أتقدم لكل العاملين في المجلة بالشكر على الجهد الكبير الذي يقدم خدمة للثقافة العربية والإنسان العربي .

القاريء : شحات حسن
محافظة القليوبية - جمهورية مصر العربية

□□□

الصناعة النفطية العربية

إنني من المثابرين على قراءة مجلة « العربي » ومن الحريصين على اقتنائها دوما ، ولا عجب فهي غنية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا وتربويا ، ويكفينا غيرة محرريها وخصوصا رئيس تحريرها ، وانتقاء مقالات لكتّاب غيورين على العرب والعروبة ، وهذا ينطبق على حديث الشهر الممتع جدا ، ولأنه بقلم واع ، يعالج المشكلات العربية بنظرة علمية متطورة ، وبإمكانيات عربية ذاتية ، ويضع الحلول لبعضها ، ويحلل بعضها الآخر .

كما أنني من المتابعين المثابرين لأخبار الصناعة النفطية العربية ، وخصوصا الكويتية والخليجية ، لأنني أحد العاملين في هذا المجال .

وقد قرأت في العدد ٣٦٥ أبريل ١٩٨٩م في استطلاع العربي «عيونك على العالم» حول النفط الكويتي في بيوت الأوربيين ،عن شركة (Q8) الكويتية العالمية ،

وما فيه من معلومات مفيدة ، سلطت الضوء على تجربة فريدة تدل على وعي ، ونظرة بعيدة لمستقبل هذه الصناعة ، واستثمار بعيد المدى هو في النهاية خدمة للمواطن العربي ، وضمان لمستقبل شعوب المنطقة العربية ، كما أنني أشجع النبرة العربية الخالصة التي وردت على لسان الأستاذ ناصر السالم نائب رئيس مجلس إدارة شركة (Q8) بقوله : « إن من ضمن استراتيجية الشركة جذب العناصر الكويتية والعربية للعمل في فروع الشركة ، وهذا ما يدعونا للفخر والاعتزاز بالكفاءات الكويتية والعربية الموجودة ، وكذلك هو الطريق السليم لمعرفة أسرار هذه الصناعة ونقل الخبرة للوطن العربي .



القارىء : محمد راضي الحجي
مكتبة البيان ـ دير الزور ـ الشارع العام ـ سوريا

□□□

العـــربي

إضافة للرسالة التي قدمناها وردت رسائل تشيد بالعدد ٣٦٥ أبريل ١٩٨٩ م ، وباستطلاع « النفط الكويتي في بيوت الأوربيين » ، من القراء : خالد فاضل عوض من محافظة الدقهلية ـ جمهورية مصر العربية ، وفؤاد صبري ـ من بني علا ـ المغرب ، وخالد محمد أبو زيد من الاسكندرية ـ جمهورية مصر العربية ، ومحمد جمعة من سوريا ، وعبد العظيم النجار من سلاء ـ المغرب .

□□□

اقتراحات وردود قصيرة

● القارىء صلاح جميل ـ حلب ـ سوريا ـ يتساءل عن أسباب غياب بعض الأبواب من المجلة ، مثل « مكتشفون ومخترعون » « وحضارات سادت ثم بادت » ويقترح كذلك أن تركز المجلة على استطلاعات عن أمريكا الشمالية ، ويقترح أيضا وجود شخصية ثالثة في باب « هو وهي » تبين أي الزوجين على صواب .

● القارئة مريم صالح نور الدين سالم من إقليم كرد فان ـ السودان ـ تطلب زيادة كمية المرسل من المجلة إلى السودان ، حيث إن ما يصل لا يكفي حاجة السوق والقراء المتعطشين للثقافة الواعية المفيدة .

● القارىء عدنان يوسف ، من اربد ـ الأردن ـ يقول : إن مجلة « العربي » بسعرها الرمزي ومعلوماتها القيمة بمثابة هدية شهرية من « الكويت » إلى كل قارىء في وطننا العربي الكبير ، لقد اطلعت مؤخرا على أحد الكتب من سلسلة « كتاب العربي » ووجدت أن هذه السلسلة إضافة جديدة للمكتبة العربية ، وجهد تشكرون عليه ، وخطوة إلى الأمام في طريق نشر الثقافة الرصينة والمعلومات الموثقة .

حوار القراء

● القارئة عبير ، من حماة ، سوريا ، تقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن « ايطاليا » ، وكذلك نشر مقال يعرف القاريء « بالفن السريالي » .

● القاريء الدكتور بسام الخوري - جمهورية ألمانيا الديمقراطية - يقترح أن تقوم المجلة بإجراء مقابلات شخصية مع بعض المشاهير ، سواء في الوطن العربي أو خارجه . ونحن نقول : إن هناك شيئا من هذا تلاحظه في باب « وجها لوجه » أو في باب « من دفتر الذكريات » .

● القاريء خلف محمد ابراهيم البشابشه ، من الرمثا - الأردن ، يود أن يتعرف على تاريخ المجلة : متى صدرت ، ومعلومات عامة عن كيفية تحرير المجلة . ونقول له : إن المجلة شهرية ، تصدر عن وزارة الإعلام الكويتية ، صدر العدد الأول منها عام ١٩٥٨ ، وكذلك تصدر بصفة مستقلة مجلة « العربي الصغير » وهي شهرية و « كتاب العربي » وهو فصلي بصفة مؤقتة .

● القاريء حسن سالم الكسادي من المكلا - حضرموت - جمهورية اليمن الديمقراطية - يتساءل عن أسباب زيادة أسعار المجلة من شهر يناير ١٩٨٩ م العدد ٣٦٢ . ونقول له : إن سبب زيادة أسعار المجلة أمر طبيعي ، نظرا للتضخم الذي يحدث في العالم ، وهي زيادة قليلة إذا ما قيست بغيرها من المجلات ، والأسعار التي تباع بها .

● القاريء محمد مبارك أحمد من رأس العين - سوريا - أرسل بعض المعلومات العامة عن أكبر محيط وأكبر جبل وأكبر جزيرة في العالم .

● القاريء السيد محمد السيد شحاتة من محافظة الشرقية - جمهورية مصر العربية - يقترح زيادة المواضيع التي تهتم بقضايا السينما ومتابعة الجديد فيها .

● القاريء صبري يونس الفاخوري ، محافظة البحيرة - جمهورية مصر العربية - يقترح التوسع في المواضيع العلمية ، وخصوصا ما يتعلق برحلات الفضاء .

● القاريء عبد الرحمن حسين سلمان ، من محافظة الاسماعيلية - جمهورية مصر العربية - يقترح أن يخصص باب ينشر فيه بعض دواوين الشعر ، وكذلك مساهمات القراء ، وأن يرد عليهم أحد المتخصصين في مجال الشعر . ونحن نقول :

إن المجلة تخصص في كل عدد صفحات للشعر ، وكذلك هناك باب ثابت عنوانه « جمال العربية » يحتوي على بعض مما تقترح .

● القاريء د . خليل سعيد كرمول ـ الشعيلة ـ الأردن ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن « جمهورية رومانيا » حيث الطبيعة والثقافة .

● القاريء ناصر الشيخ من الرياض ـ المملكة العربية السعودية ـ يسأل عن كيفية الحصول على كتاب « الآلات في حياتنا » الذي عرض في العدد ـ ٣٦٥ أبريل ١٩٨٩ ، ونقول له ولجميع القراء الذين سألوا عن كيفية الحصول عليه بإمكانكم مراسلة « الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية » خيطان الكويت مباشرة .

● القاريء مصطفى البلوشي من ولاية سمائل سلطنة عمان ـ يقترح أن تقوم المجلة بزيارة إلى مقاطعة بلوشستان بالاتحاد السوفيتي لتقوم باستطلاع عن هذه المنطقة التي ترتبط بعلاقات خاصة مع بعض المناطق في الوطن العربي .

● القارئة منال محمد من طنطا ـ محافظة الغربية ، جمهورية مصر العربية تتساءل عن السبب الذي دفع المجلة بأن تنشر قصة واحدة فقط في العدد ٣٦٥ أبريل ١٩٨٩ م ـ حيث كانت قد عودتنا على نشر أكثر من قصة في كل عدد ونقول لها : إن ذلك لأسباب فنية ، ولضيق المساحة لم ينشر في هذا العدد القصة الثانية ـ وسوف تلاحظين في الأعداد التي تليها أن القصة لها من المساحة ما قد يلبي طلبك . □

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

سبتمبر ١٩٨٩ م

الأدب اللاتيني

ودوره الحضاري

تأليف : د. أحمد عتمان

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٤١

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٤٠ أول سبتمبر ١٩٨٩

وظيفة مربحة

تأليف: أ. ن. استروفسكي
ترجمة وتقديم: د. هاشم حمادي
مراجعة: د. فوزي عطية



فتاة الزنبق - للفنان الإنجليزي جون فردريك لويس

ربيع الأول ١٤١٠هـ - أكتوبر (تشرين أول) ١٩٨٩م

العربي

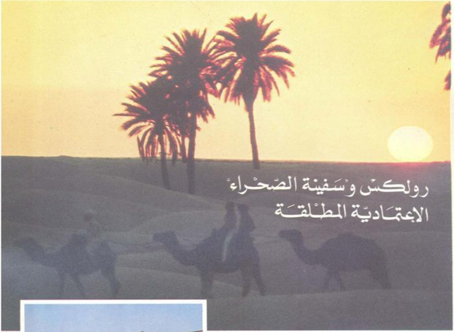


- حضارة الطين تصارع الزمن في حضرموت



- ألمانيا الديمقراطية .. الحياة والناس

- تشريح الإنسان بين العلم والدين!





في الصحراء، قليلة هي الأشياء التي يمكن الاعتماد عليها. في تلك الأماكن القاحلة قليلة الماء والكلأ، يعتبر الجمل من الضروريات التي لايمكن الاستغناء عنها. وهو رمز حيّ لقدرة التحمّل والصبر في حرارة الصحاري اللاهبة أثناء النهار، والباردة جداً أثناء الليل.

من دلائل أهميّة الجمل بالنسبة للعرب، انه كان الوحدة التي بها يقاس مهر العروس أو ديّة القتيل. يضاف لذلك أهميّته من ناحية الغذاء، الاستفادة من الحليب واللحم. وفي الكساء، وبر الجمل.

لتلك الأماكن من العالم، حيث الاستمرار والحياة هما دائماً للقويّ كثير التحمّل، أنتجت رولكس ساعة قويّة كثيرة التحمّل من الذهب الصافي عيار ١٨ قيراطاً أو من الفولاذ الذي لا يصدأ.

ساعة لا يدخلها الغبار أو الرمال إطلاقاً وذلك بفضل علبة الأويستر المصنوعة على مبدأ المحارة، وقفل السلامة الخارجي المثبت بطريقة ملولبة وبإحكام على هيكل الساعة. حركة الساعة المصنوعة قطعة قطعة يدويّاً ومجمّعة بكل إتقان ودقّة، لا تتأثر إطلاقاً بالرطوبة أو الماء أو التغيير المفاجئ للحرارة.



رولكس ديت جست، ذاتية الملء، من الذهب الأصفر عيار ١٨ قيراطاً.

ROLEX

رولكس

العــــدد ٣٧١ الســنة الثانيــة والثــلاثـون أكـتوبر ١٩٨٩

العربي

مجـــلة ثقــافيــة مصــورة
تصـدر شهــريًا عــن وزارة الإعـــلام بـدولــة الكـويـت
للوطـن العـربي ولكل قــارئ للعــربيـة ــفي العــالــم

رئـيس التحـــريــر
د. محمـّــد الرميّـــحي

عنـــوان المجـــلة

العــــربي
ص.بـ: ٧٤٨ ـ الصـفــاة
الرمــز البريــدي **13008** الكـويـت
تـلفـون: ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقـيًا: "العــربي" - الكـويـت
تلفون فاكسملي: ٢٤٢٤٣٧٥ - تـلكس: MITR. 44041 KT
المراسـلات باسـم رئـيس التحـريـر

AL-ARABI
Issue No.371 oct. 1989. P.O.Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

الاعـلانـات يتفـق عليهـا مـع الإدارة ـ قســم الاعـلانـات

الاشـتراكات تُرسَل الطلبـات إلى: قســم الاشتراكات ـ الإعلام الخارجي
وزارة الإعـلام ـ ص.ب: ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالـة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

ثمـن النسخـة

الكويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسًا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا: جنيه استرليني ونصف
مصر ٣٥ قرشًا	سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ٢٥ فرنكًا
السودان ٢٥ قرشًا	لبنان ٥٠ ليرة	أمريكا ٣ دولارات

محتويات العدد

قضايا عامة :

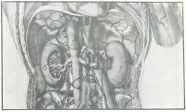
عروبة وإسلام :

طب وعلوم :

استطلاعات مصورة :



● ألمانيا الديمقراطية - الحياة والناس ... ص ٦٨



● تشريح الإنسان بعد الموت بين العلم والدين ص٥٠

أدب وفنون :



● وجها لوجه : أدونيس وجميل حتمل ... ص ٩٧

المجلة غير ملتزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر والوزارة غير مسؤولة عما يُنشر فيها من آراء.

منتدى العربي :

تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :



صـورة الغـلاف

في حضرموت حيث يمتزج التاريخ بشواهده المتعددة ، مع الطموح البشري في خلق مجتمع حديث ، شاهدت بعثة « العربي » خصوبة المكان وابداع الانسان .
[طالع الاستطلاع ص ١٣٢]

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

الكويت وهموم المسلمين

منذ فترة ليست بعيدة كتب المعلق البريطاني بيتر مانسفيلد دراسة عن أوربا الموحدة عام ١٩٩٢م ، وأظهر في تلك الدراسة ماهذه الخطوة من إيجابيات كثيرة ، ولكنه لاحظ أن أوربا - تلك التي تقول بحرية الإنسان وكرامته - توزع نفسها في إطار ديني ، وهو يشير الى طرد المسلمين البلغار من بلادهم ، لا لشيء جنوه إلا كونهم مسلمين ، هذا التقسيم على أسس دينية سماه الكاتب خطوة الى الخلف ، ومع أهمية قضية المسلمين البلغار فإن كثيراً من وسائل الإعلام الغربية ومسؤولين كثيرين لم يأخذوا هذه القضية مأخذ الجد على المستوى السياسي ، وعلى المستوى الثقافي ، على حين نجد أمراً صغيراً أقل بكثير من طرد آلاف المسلمين من ديارهم يشغل العالم فترة طويلة .

لقد قامت الكويت بشخص أميرها الشيخ جابر الأحمد بصفته أميراً لدولة عربية مسلمة ، يهمها شأن العرب والمسلمين ، وبصفته رئيساً لمنظمة المؤتمر الإسلامي ، بزيارة كل من تركيا وبلغاريا لدراسة الموضوع عن كثب ، والبحث عن حلول صحيحة له وقد كانت مبادرة الكويت هذه تأكيداً للسياسة الحكيمة التي تتبعها القيادة الكويتية التي لاتألو جهداً في التواصل مع أشقائها العرب وإخوانها المسلمين ، والبحث عن الحلول الجادة للمشكلات التي يواجهها بعضهم .

ونظراً لحرص سمو أمير الكويت على أن تسود العلاقات الطيبة بين جميع أبناء الأمة الإسلامية ، فقد بادر سموه بإرسال وزير الدولة للشئون الخارجية سعود العصيمي حاملاً رسالتين من سموه الى أخويه رئيسي موريتانيا والسنغال ، بمجرد تطور الأحداث الداخلية بين هذين البلدين ، معبراً فيها عن قلقه وقلق الأمة الإسلامية ، لما آلت إليه الأحداث من وقوع خسائر في الأرواح والممتلكات ، داعياً إياهما الى الحوار الأخوي الذي فيه مصلحة الشعبين .

وانطلاقا من حرص الكويت على أن تلعب دوراً فعالاً في الأسرة الدولية ، فقد قامت ممثلة في شخص أميرها بحضور مؤتمر قمة دول عدم الانحياز ، وفي كلمته أمام المؤتمر قال أمير الكويت قولة حق : « إن التحرر من قيود الديون يوازى التحرر من الاستعمار ، ويمهد الطريق لبناء المجتمع الانساني الجديد » .

وهو قول بليغ له أبعاده التاريخية على جميع المستويات العالمية .

وقد ربط سموه ذلك القول ببرنامج محدد من أربع نقاط اقترحه لمعالجة مشكلة الديون ، مع تحديد برنامج زمنى لعقد لقاء تحضره مجموعة الدول الدائنة وممثلو صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ، لتدارس الأسس والمعايير اللازمة للتنفيذ على أن يتم هذا اللقاء في مدة أقصاها ستة شهور . وقد لقيت مقترحات الأمير ترحيباً كبيرا لما تعكسه من اهتمام الكويت بهذه المشكلة العالمية المستعصية .

وقد أثبتت وقائع المؤتمر أن دور الكويت ودعوتها لإعادة الحوار بين الشمال والجنوب وتخفيف آثار الأزمة الاقتصادية التي تأخذ بخناق العالم ، كان دوراً مؤثراً ، ولقي استجابة وترحيباً واسعين من الدول ، وثناء من قادة العالم الثالث . وكان سمو أمير البلاد قد قام في إطار تحركه السياسي بزيارة مصر والعراق لتوطيد العلاقات العربية وتوكيدها ، كما قام برحلة الى الجمهورية الفرنسية ، وذلك لتنشيط العلاقات العربية الأوربية ، خاصة مع موقف فرنسا المتفهم لقضايا ديون العالم الثالث ، ثم أتبعها برحلة الى افريقيا ، إيماناً من الكويت بأن أفريقيا هى عمقنا الاستراتيجي في الوطن العربي ، وأن التعاون العربي الأفريقي هو تعاون ضرورة وحتمية مستقبل .

كل هذه الزيارات تأتي في الواقع إكمالاً لدور الكويت الحضاري والإنساني والإسلامي والعربي في تعزيز التعاون وتوثيقه ، في عالم أصبح اليوم متقارباً أكثر من أي وقت مضى . □

المحـــــرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

إزالة الحواجز أو خفض ارتفاعها!

بماذا نحكم على مايجرى في الدول الشيوعية من بولندا إلى الصين، مروراً بالاتحاد السوفيتي نفسه، وانتهاء بهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا؟

إن مايجري هناك يستحق النظر والدراسة.

قد يحق لبعضهم أن يصدر حكماً على الأمور التي تجري هناك على أنها إحدى الاحتمالات العديدة التى تؤدى إلى النتيجة نفسها، إنها بداية موت الايديولوجية الشيوعية. وقد يجوز لبعضهم أن يقول: إن الماركسية لم يعد لها مستقبل لقد كان لها ماض فقط.

وقد يقول بعض آخر بتحفظ: إنها أزمة في النظام الاشتراكي العالمي، يقوم هذا النظام الآن بمحاولات تجاوزها، وعلى الرغم من أن هذه المحاولات عسيرة فإنها الطريق الوحيد لتجاوز تلك الأزمة، وقد يفسرها آخرون بما يستطيعون تقديمه من حجج مؤيدة أو حجج مضادة، إلا أن مايبدو أمامنا شيء يستحق التسجيل والتأمل، ويستحق فوق كل

قد يتساهل الإنسان فترة على مستوى الإشباع المادي والمعنوي ولكن يرجاء حياة أفضل في المستقبل

ذلك أن نعرف ماذا يمكن أن تكون نتائجه ، ليس على أصحاب العلاقة المباشرة فقط ، وإنما على منطقتنا العربية القريبة جغرافيا من بعض بلدان النظام الاشتراكي ، وكذلك من حيث أن بعضنا قد أخذ ببعض تطبيقاته . إننا نشهد في الحقيقة نهاية عصر كامل من الاجتهادات الاقتصادية والسياسية ودخول عصر جديد .

الموضوع الذي نرى على السطح جزءا من تفاعلاته ، في بولندا وفي الصين وفي الاتحاد السوفيتي وكذلك هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا ، هل هو موضوع خاص بإدارة الاقتصاد الاشتراكي ، وأن هذا الاقتصاد قد أدير فترة طويلة بطريق الخطأ ، حتى تراكمت كل هذه السلبيات التي تحاول هذه المجتمعات أن تجد حلولاً لها ، ومظاهرها الطوابير الطويلة أمام مخازن السلع الأساسية التي ينتظر فيها رب ـ أو ربة ـ الأسرة الساعات الطوال حتى يحصل على قوت يومه وعياله ؟ وكذلك هذا التضخم الكبير في عملة هذا البلد أو ذاك التي لاتكاد تفي باحتياجات المأكل ـ دع عنك الملبس أو المسكن ـ للإنسان العادي ، أو في تراكم الديون بأرقام فلكية ، لايستطيع الدخل القومي أن يفي حتى باحتياجات خدمة الدين المترتبة عليها سنويا؟ أم أن القضية أكبر من ذلك بكثير؟ أى أن القضية مرتبطة بموضوع السياسة ، وموضوع الحريات العامة والشخصية ، والحوار غير المقيد الذي يتيح للناس أن يقرروا كيف يحكمون ، وكيف توزع السلع والخدمات بينهم ، وأن يشاركوا بملء حياتهم في تحمل الأعباء والنتائج ؟

بعضهم يقول بأولوية الموضوع الاقتصادي ، وآخرون يقولون بأولوية الموضوع السياسي ، ولكن الأهم من هذا وذاك أن شيئا مايحدث في هذه الأماكن ، شيء يثير كثيراً من الأسئلة قبل أن يقدم بعض الإجابات ، شيء سوف يؤثر على العلاقات الدولية في فترة قادمة من الزمن ، وشيء سوف يترك بصماته على نوعية الحياة لملايين من البشر في العقود القادمة .

ويبدو أن المجتمع ـ أى مجتمع انساني ـ له كيمياء خاصة ، هذه الكيمياء بعضها مشترك مع الجنس البشرى ، وبعضها خاص بثقافة معينة . ولكن كيمياء التفاعل هذه لايمكن إغفالها وإن عطلت أو جمدت فترة طويلة ، فلا بد لها أن تعاود العمل ، وربما بشكل أكثر حزما أو أعظم اضطرابا ، ولكن لابد لها في النهاية أن تعمل . هذه الكيمياء التفاعلية (أو الميكانيكية) هي بمنظور عام الإشباع (المادى) والإشباع (المعنوي) لحاجات الإنسان المختلفة ، ونقصد بالإشباع المادى توافر الحدود الدنيا من

وسائل الحياة والانتاج المعقولة التى تحفظ للانسان حياته وتحفظ لأسرته كرامتها ، أما الإشباع المعنوى فهو أن يعيش الانسان بكرامة إنسانيته ، ولايتنازل عن هذه الكرامة لأي سبب أيديولوجي على المدى الطويل .

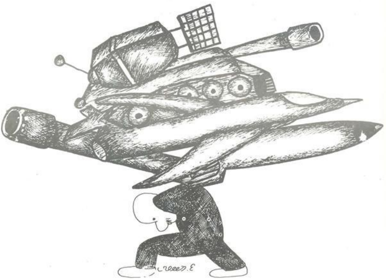
وقد يتساهل الإنسان فترة - في سبيل تحقيق إنجازات اجتماعية كبرى - عن مستوى معين من الإشباع المادي والمعنوي ، ولكن هذا التنازل يكون برجاء حياة أفضل في وقت ما ، في المستقبل ، وعندما يتبين له سقوط هذا الأمل في التقدم والرخاء - أى الحصول على اشباع مادى ومعنوى أفضل - يتحول للبحث عن طريق أو طرق أخرى ، يحقق من خلالها مايصبو إليه .

ونحن نعيش اليوم في مرحلة هذا التحول الكبير بالنسبة لأوربا الشرقية ، ولايُستبعد اليوم الذي يصل فيه هذا التحول الى بلدان شيوعية أخرى في الشرق الأقصى ، أو بلدان أخرى في أطراف عالمنا ، فاتها أن تأخذ بالحد المطلوب فيه توازن (الماديات) مع (المعنويات) .

بولندا الرمز والبداية :

عالمنا اليوم أصبح عالم تداخل عقائدي أوجد «دوزنة» في الفكر العالمي

في الأربعين سنة الماضية ، منذ أن قسم العالم في اجتماع يالطا إلى معسكر (اشتراكي) ومعسكر (رأسمالي) ، تبنت دول أوربا الشرقية ، تحت قيادة موسكو ، الحل الاشتراكي من أجل التقدم والبناء ، وطبق هذا الحل في بعض الأوقات تطبيقاً تعسفياً ، فأممت - على سبيل المثال - بعض مؤسسات الإنتاج التي هي من الصغر بحيث يتعذر ضبط إيقاعها فى الاقتصاد الوطنى ككل ، وأثبتت التجربة بعد التجربة أنه لايمكن القطع بصلاحية نموذج معين لإدارة السياسة والاقتصاد صلاحية مطلقة لكل المجتمعات ، وتنامى هذا الاعتقاد في إطار أوربا الشرقية التى اتسم التطبيق الاشتراكي فيها بسمتين رئيسيتين هما تعبير عما ساد في الاتحاد السوفيتي : السمة الأولى المركزية الشديدة في الاقتصاد والادارة ، والثانية محدودية الديمقراطية السياسية . وأدى ذلك إلى زيادة انحسار مشاركة الجماهير ، وسيطرة بيروقراطية جامدة ، هي بيروقراطية الدولة . وجرت محاولات واحدة إثر أخرى في بعض دول أوربا الشرقية للخروج من هذا المأزق فلم تنجح . كانت إحدى هذه المحاولات المبكرة فى المانيا الشرقية ١٩٥٣م ، ثم تبعتها هنغاريا عام ١٩٥٦ فقمعت بشدة ، وبعدها بحوالي اثنتي عشرة سنة انبثقت المحاولة الثالثة فى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ وتم قمعها بعنف



كذلك ، وأصبحت كل من محاولتي هنغاريا وتشيكو سلوفاكيا محاولة كلاسيكية يذكرها الإعلام الغربي بشكل دوري على أنها أحد مظاهر الانعتاق والتحرر التي حاولتها بعض دول أوربا الشرقية في الفهم الغربي للانعتاق والتحرر .

وقتذاك كانت موسكو تقود التوجهات السياسية لمعظم دول أوربا الاشتراكية من (المقود الخلفي) كما يقولون ، فلم ينجح أحد في محاولات الإصلاح .

وجاءت تجربة بولندا في الثمانينيات كي تتدرج في المطالبة وفي المناورات السياسية إلى حد الوصول إلى انتخابات مباشرة شبه حرة في (يونيو) حزيران الماضي ، وحصول نقابة عمال (تضامن) البولندية على ٣٥٪ من مقاعد البرلمان ، وهي المقاعد التي سمح لنقابة التضامن بخوض الانتخابات فيها ، وقد فازوا بكل المقاعد المسموح بها (١٦١ مقعداً) في البرلمان (ماعدا مقعد واحد) ، و٩٩ مقعداً من مائة مقعد في مجلس الشيوخ حيث شكلت نقابة التضامن مع (حزبي المزارعين والديمقراطيين) أغلبية

قيادة "تضامن" لحكومة في بلد شيوعي قد تصبح مثالاً يحتذى في المستقبل

كأنما قال السوفييت للغرب " تريدون اقتصاد بولندا ؟ إذن خذوه وادفعوا !

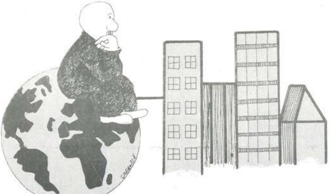
برلمانية عددها ٢٦٤ مقعداً في مقابل ١٧٣ مقعداً لحزب العمال البولندي المتحد (الحزب الشيوعي) وبذلك شكل الحزب الشيوعي البولندي الذي حكم طوال الأربعين سنة أقلية في تلك الانتخابات ، لم يستطع على إثرها تشكيل حكومة . وطلب من نقابة (تضامن) مع الأحزاب الصغيرة الأخرى أن تشكل حكومة بولندية جديدة ، مع احتفاظ الحزب الشيوعي ببعض المقاعد الوزارية المهمة ، مثل وزارتي الدفاع والداخلية .

هذا الأمر بحد ذاته يعني انقلاباً في إطار البناء السياسي لدول أوربا الشرقية ، ويشكل مثالاً قد يحتذى به في المستقبل في بقية هذه الدول .

الأمر إذن بدأ بتغير من تجمع نقابي عمالي مستقل ، دخلت معظم قياداته إلى السجن عندما أعلنت الأحكام العرفية في بولندا عام ١٩٨١ ، إلى مساهمة رئيسية في حكومة بلد شيوعي ، لقد استغنى العمال عن حزب العمال ، وبدأت التحليلات تخرج لنا ماعدنا من توقعات : هل هذه بداية النهاية للأنظمة الشيوعية في أوربا الشرقية ، وقد تلحقها بعض الأنظمة الأخرى ؟ أو هل يتدخل الاتحاد السوفيتي من جديد ، ليكرر ماتم في هنغاريا عام ١٩٥٦ ، وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ ؟ أو أن ذلك كله مناورة من السوفييت للتخلص من عبء الاقتصاد البولندي المريض مرضاً مزمناً ، ولايمكن لأحد أن يصلح شأنه إلا من خلال مساعدات ضخمة من الغرب ؟ وكأن حال السوفييت هنا يقول ماقاله فرانز فانون الذى ناضل فى صفوف الثورة الجزائرية ووثق لها ، فقد لاحظ بعد الاستقلال أن لسان حال المستعمر يقول : « تريدون الاستقلال ؟ خذوه وموتوا ! » .

وهنا : « تريدون اقتصاد بولندا ؟ خذوه وادفعوا ! » .

الاختلاف الذي يجب ملاحظته هنا أن ماحدث في بولندا قد حدث لأن موسكو قد بدأت منذ عام ١٩٨٥ تطبيق خطوات العلانية وإعادة البناء ، وهي خطوات أساسها إصلاح جذري للاقتصاد والسياسة ، فلم يعد الموقف القطعي المتصلب لما يحدث في أوربا الشرقية كما كان في السابق من رفض وعدم موافقة ، كما أنها - أي موسكو - تبدو متأكدة أن لاخوف على حلف وارسو . ليخ فاليسا نفسه ، قائد نقابة (تضامن) ، الحاصل على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٨٣ ، يؤكد من جديد أن الإصلاحات المرجوة إنما هي داخلية تمس الوضع الداخلي في بولندا ، ولاتمس تحالفات بولندا الخارجية ، بل إن قيادات (تضامن) تطلب من موسكو العون في مسيرة الاصلاح . هل هذا القول هو تكتيك مؤقت ، أم استراتيجية طويلة



المدى ؟ ستكشف لنا الأيام ذلك ، ولكن التعليق الأشمل الذى نقل عن فاليسا يشير إلى أمور أخرى ، لقد قال : « الآن بدأ من كان تحت العربة يهم بركوبها » .

ولكن مهما اختلفت الأسباب والتحليلات في تفسير مايحدث في بولندا تبقى القضية الأولى التي يمكن ملاحظتها هي أن تشكيل حكومة في دولة أوربية شرقية (اشتراكية) بقيادة من خارج الحزب الشيوعي ، تشكل بحد ذاتها ظاهرة لم يكن أحد يفكر في إمكانية حدوثها منذ سنوات قليلة ، وهي بحد ذاتها علامة بارزة في التحولات الجديدة .

نقابة « تضامن » ليست أيضا حركة مكونة من ملائكة ، فقد كان عدد أعضائها في بداية الثمانينيات يقدر بحوالى عشرة ملايين عضو ، وأصبح عددهم الآن لايتجاوز مليوني عضو ، كما أن قيادتها للحكومة ستضطرها لاتخاذ إجراءات اقتصادية صعبة ، ستؤثر أول ماتؤثر في مستوى معيشة مؤيديها ومناصريها ، بل لقد بدأت منذ الآن تشير إلى أن الاضطرابات المتكررة في القطاعات الانتاجية البولندية هى معيقة للاقتصاد ، بينما كانت الحركة إلى وقت قريب أول من يؤيد أى اضراب أو توقف عن العمل . إذن فإن اللعبة لمّا تنته تكتيكاتها بعد .

لذلك فإن المسرح البولندي السياسي سيكون مسرحاً مهماً للمشاهدين والمعلقين في الأشهر القليلة القادمة ، فهو مكان لاختبار

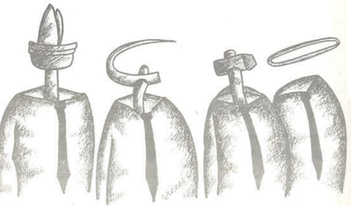
النوايا ، وهو مكان أيضاً لاختبار التوجهات ، وفوق ذلك كله لاختبار الصلابة عند هذا الفريق أو ذاك .

ربيع الصين :

في الوقت الذي يتذكر فيه العالم مرور واحد وعشرين سنة على ماعرف في الصحافة الغربية « بربيع براغ » ، أي المحاولات الإصلاحية التي جرت في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ وجرى قمعها في ذلك الوقت ، مازال هذا الإعلام يتذكر ماحدث في الصين ، في يونيو الماضي ، ويعيد اجتراره . ففي الصين ـ ذلك البلد العملاق الذي تبنى سياسات ليبرالية انفتاحية منذ عشر سنوات ، مبتعدةً قليلاً عن الطروحات التقليدية في الفكر الماركسي الماوي ـ بدأت محاولاته تلك بنقد التجربة القديمة ، تجربة ماوتسي تونج ، ونقد عبادة الفرد وتأليهه ، إلى نقد الكوادر الحزبية وتعرية فسادها ، وبدأت الأصوات تخرج إلى العلن مؤيدة الاصلاحات الجديدة ، وكانت لجملة الإصلاحات تلك آثار اجتماعية ، بعضها متوقع وبعضها لم يكن في الحسبان . وقد ثارت الشكوك شيئاً فشيئاً حول قدرة النظام في أن يحقق بكفاءة التغيرات الكبيرة المنتظرة من الإصلاحات الموعودة ، وقاد هذه الشكوك ـ للمفارقة ـ الطلاب في جامعة بكين ، ونقول (للمفارقة) لأن هؤلاء الطلاب أنفسهم هم الذي أشبعوا تثقيفاً بمبادىء الماركسية الماوية ، ولم يمنعهم ذلك من رصد الأخطاء ، والمطالبة بالانفتاح والتحرر . ويعني ذلك أن أي نوع من التثقيف القسري لايتجاوز القشور إلى اللب إن لم يحقق على أرض الواقع ، ماسميناه الاكتفاء المادي والمعنوي لأغلبية الناس .

فالطلاب يجدون ظروف معيشتهم وظروف عملهم بائسة ، والمثقفون ينتظرون بصبر ـ يتناقص أولا بأول ـ تحسين وضعهم الذى طالما وُعدوا به ، وكان ظهور (المواطن الجديد) يتأخر . وفي إطار البحث عن مخرج عمت الصين مناقشات ، بعضها يؤيد الانخراط في تقديم إصلاحات أكبر ـ حتى لو كانت نتائجها على المدى القصير سلبية ـ وبعضها الآخر ينادي بتشديد القبضة ، وعلى الطريقة التقليدية للسلطة في الصين ، حتى وقعت المواجهة في ميدان « تيان آن من » ، وهو الانفجار الذي تحدثت عنه كل وسائل الاتصال في العالم .

طلبة الصين الذين أشبعوا تثقيفاً بمبادئ ماو هم الذين طالبوا بالانفتاح والتحرر!



ومن سخرية القدر أن هذا الانفجار قد وقع نتيجة لخطوات الإصلاح في العشر سنوات الماضية ، فقد حققت تلك الخطوات الكثير من النتائج الإيجابية . فعلى صعيد زراعة الأرض مثلاً ، عندما اتخذت السلطات قرارا بتصفية الزراعة الجماعية وتحويلها إلى زراعة عائلية ، زادت أسعار المنتجات الزراعية . وزاد دخل الفلاحين ، حتى أن بعضهم أصبح في يده من النقود ـ كما نقلت التقارير وقتئذ ـ مالا يستطيع صرفه وتصاعدت وتيرة الإصلاح في المدن ، وجلبت الأموال للاستثمار من الخارج في مناطق حرة شملت أقاليم بكاملها . بعض هذه الإصلاحات لم يصاحبه التوفيق ، مما صعد قوة التيارات المحافظة لمقاومتها . ولكن هل انتهت المشكلة بإخلاء ساحة (تيان آن من) في مايو/أيار الماضي من المتظاهرين ، أو أن القضية الأساسية مازالت عالقة؟ وهي قضية تنتمي إلى صلب شكل الإدارة والسياسة ، وعلاقة قوانين السوق الاقتصادية بمركزية الاقتصاد والحوار بدلاً من التسلط .

يبدو أن ذلك لمَّا ينته بعد . وتنقل التقارير والدراسات التي صدرت منذ مايو الماضي الخلاف بين فصائل في الحزب الشيوعي الصيني ، بعضها مؤيد للإصلاحات ، وبعضها معارض لها قد طالب بتصفية هؤلاء (الليبراليين) الذين شقوا الحزب وشجعوا المعارضة .

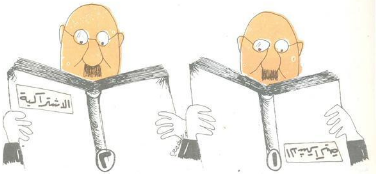
وستبقى هذه القضية عالقة ، يؤثر عليها بالطبع ما يحدث في أماكن أخرى من المعسكر الاشتراكي .

وفي أمـاكـن أخـرى :

في أماكن أخرى من الدول الاشتراكية ، وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي ، تجري مجموعة من الظواهر السياسية التي تلاحظ بشدة ، فلأول مرة يتحقق قيام إضراب في إحدى القطاعات الاقتصادية المهمة في الاتحاد السوفيتي ، وهي المناجم في الشمال ، بل ويعلن عن هذا الإضراب ، ويتابع ، ثم يحل بالطرق السلمية ، وتنقل وسائل الإعلام العالمية مطالب القوميات المختلفة في الاتحاد السوفيتي ، من جمهوريات البلطيق الثلاث إلى أرمينيا وأذربيجان وجورجيا . وبين ذلك كله توزع المجلات اليومية الغربية في موسكو ، وترفع الأخيرة كل أنواع الحظر على الكتابات والكتب والمنشورات ، ومنها كتابات وكتب لمواطنين سوفييت هربوا إلى الغرب في السابق ، وكانوا حتى فترة متأخرة يعدون من (المنشقين) .

في الوقت نفسه يتسرب عشرات الآلاف من المانيا الشرقية عن طريق هنغاريا ثم النمسا إلى ألمانيا الغربية . لقد كان الغرب لسنوات طويلة - خاصة الألمان - ينادون بشدة بفتح أبواب الهجرة ، لمن يريد ، من أوربا الشرقية إلى الغربية ، وبخاصة الألمان الشرقيين الذين تعدهم ألمانيا الغربية مواطنين ألمان ، وتعتبر أنها ممثلة للألمان بعامة . بعد الانفتاح الأخير نجد أن اللهجة السابقة عن تشجيع الهجرة قد تغيرت ، بل قامت المانيا الغربية بإغلاق قنصليتيها في برلين الشرقية وبودابست لإيقاف هذا النزف الإنساني ، وأخذت المانيا الغربية تطالب بتحسين المستوى الحياتي الإنساني للالمان الشرقيين ، « وهم في بلادهم » . وذلك أيضاً تطور آخر على صعيد أوربا . وفي تطور آخر في هنغاريا - على سبيل المثال - والتي من المفترض أن تعقد فيها انتخابات لأحزاب متعددة في وقت قريب لأول مرة ، يتصارع على حلبتها السياسيون الاصلاحيون والمتشددون ، وهم يراقبون مايحدث في بولندا عله يحدث في وقت لاحق في بلادهم .

ليخ فاليسا يقول : لقد حققنا الحرية .. الآن نريد الخبز !



مـــاذا يعني كـل هـذا التحوّل ؟

نعـود إلى سؤالنـا الأسـاسي : مـاذا تعني كـل هـذه الـظواهـر ، والاستجابات العديدة لها ؟ لا توجد إجابة قاطعة عن هذا السؤال ، فهناك أولا سوء إدارة في الاقتصاد لم يعد أحد ينكرها ، أدت في بعض البلدان إلى تراكم غير محتمل من السوء . بلد مثل بولندا ينتج البطاطس والشمندر ، تحول إلى إنتاج صناعات ثقيلة ، وفي المناجم ومصانع الحديد والصلب تكاد تنتمي لاقتصاد القرن التاسع عشر بدلاً من القـرن العشرين ، والنصف الثاني منه على الأخص ، وتغرق في ديون ، فهي مدينة للغرب بحوالى ٣٩ بليون دولار ، وللمعسكر الاشتـراكي بحوالي ٦ بـلايين روبـل . ويبلغ ماتدفعه لخدمة الدين ٣٫٥ بليون دولار سنوياً .

على سبيل المثال : يتم تخطيط مركزي للانتاج في بلاد أخرى ، يُحَمِّل مصنع الاثاث كذا طن من الإنتاج دون الالتفات إلى الشكل أو مستوى التصنيع ، فينتج المصنع أثاثاً بأحجام ضخمة ، ولايصلح للاستهلاك ، وإنما لتحقيق أهداف الخطة فقط ، وتضيع ملايين الوحدات المنتجة نتيجة المركزية في النقل والتخزين ! نعم كل ذلـك صحيح « إنـه سوء إدارة الاقتصاد » .

ولكن هل صحيح أيضاً أن فكرة الاشتراكية ، بمعناها الذي تبناه المعسكر الاشتراكي ، هي فكرة خطأ يجب أن تُهْمل وتُسْقط من الحساب ؟



هذا السؤال تصعب الإجابة عنه بمسئولية في هذا الوقت ، خاصة الإجابة عنه بإجابة قاطعة .

فالأفكار الرأسمالية التي يتبناها المعسكر الاشتراكي اليوم ، من إطلاق قوى السوق إلى الملكية الفردية ، هي أفكار بدأت تتخلل الواقع الاشتراكي العالمي وتحوله من قطعي متشدد وحرفي إلى معتدل مرن ، يأخذ بالحسبان أهمية مشاعر الإنسان وتطلعاته ، ولكن بالمثل لابد ألا ننسى أن هناك أفكاراً (اشتراكية) قد تخللت الواقع السياسي الغربي ، فقد قامت أحزاب اشتراكية تبنت أفكاراً اشتراكية معدلة مع تزاوجها بروح ديمقراطية ، وقد وصلت مثل هذه المجموعات التي أنشأت هذه الأحزاب في أوربا الغربية إلى الحكم ، ومثال على ذلك فرنسا وأسبانيا اليوم ، وبريطانيا الخمسينيات والستينيات ، وبعض دول أوربا الشمالية .

إذن حدث هناك تبادل وتلاقح في الأفكار بين الشمال والشمال ، أفكار الديمقراطية والحرية تتسلل إلى ماكان يسمى (المعسكر) خلف الستار الحديدي ، والعكس صحيح ، أصبح هناك (دَوْزَنَة) في الفكر العالمي ، وأصبح عالمنا اليوم عالم تداخل عقائدي ، وغدت بعض المطالبات السياسية القديمة غير ذات قيمة ، كالمطالبة مثلا بفتح هجرة الأوربيين الشرقيين إلى الغرب ، ومثل هذه الفكرة لاتمثل اليوم إلا أفكارا عاطفية خيالية ، ليس لها علاقة بواقع الحال .

وفي الدول الاشتراكية : هل ما يحدث هو تخل عن المسار الاشتراكي أو تعديل وتصحيح له ؟ هل هو تفكيك النظام الاشتراكي أو تعديل

العالم لاينتظرنا إذا كنا نقدم رجلاً ونؤخر أخرى



مساره ؟ وهل يستعاض في الإقناع والمشاركة عن القوة بصناديق الاقتراع ؟ إنها مرحلة سقوط الايديولوجيات ، فالايديولوجيات لاتنتعش إلا في أوقات احتدام الصراع ، والمراجعات العميقة التي تحدث الآن في المعسكر الاشتراكي ، كما هي المراجعات التي حدثت في المعسكر الرأسمالي عندما حولت الرأسمالية من رأسمالية بشعة مستغلة إلى رأسمالية بوجه إنساني ، هي ظاهرة عامة وسمة من سمات عصر بوجه إنساني .

يبدو أن المعسكر الاشتراكي يبحث أيضاً عن وجه إنساني للاشتراكية هاجسه الديمقراطية واحترام الحريات . إنها فترة حوار بين الشمال والشمال ، حوار يعتمد على مراجعة عميقة وجذرية لبعض الخيارات السابقة ، حوار يحمل بوادر وفاق أعظم وأكبر في هذا العالم الذي نعيش فيه ، والذي أصبحت أولوياته الحفاظ على السلام ونظافة البيئة ، وتوفير العيش الكريم للإنسان .

ومـــاذا عـــنـــا :

في بداية الحديث قلت : هذا التحول الذي نشهده في المعسكر الاشتراكي ، ماذا يعني بالنسبة لنا نحن في هذه المنطقة العربية ؟ وأعود من جديد لأقول : إن هذا الحوار والمراجعة بين الشمال والشمال ، بين المعسكرين الكبيرين يوصلهما إلى نقاط اتفاق كانت مدخلاً لنا ـ نحن في العالم الثالث ـ عندما كانت نقاط خلاف ، وقتها كانت بعض دول العالم الثالث تصطف مع هذا المعسكر أو ذاك على أساس نقاط الاختلاف الظاهرة بين هذين المعسكرين ، الآن لم يعد بالإمكان الحديث عن خلافات بين المعسكرين يمكن أن تفيد العالم الثالث أو الوطن العربي ، الصوت الأعلى الآن بناء الاجهزة والمؤسسات التي توكل إليها مهمات الحكم والمراقبة ومهمات الانتاج والتوزيع ، فقد غدت هي « الترمومتر » الأساسي الذي تقاس به نجاحات الاقتصاد والسياسة للأمم ، والاختلاف الجزئي في التطبيق لم يعد له شأن متى ما تأكدت حقوق المواطن المادية والمعنوية على حد سواء ، دون هذا التأكيد سوف نجد العالم من حولنا يغير تكتيكاته ليضبط إيقاعه على التقدم والتنمية ، ونعيش نحن متنقلين من اضطراب إلى اضطراب آخر ، نقدم رجلاً ونؤخر أخرى ، والعالم لاينتظرنا . □

محمد الرميحي

من دفتر

الذكريات





(الحياة مجموعة من الخبرات المتنوعة ، وليس بالضرورة أن تتشابه وتتكـرر ، إنما كثير من الخبرات منفـردة تضيف معنى جديـدا للحياة ، وتعطيها لذة التراكم ، وقد اختارت العربي مجموعة من المتميزين العرب ليروي كل بطريقته الخاصة بعضـا من ذكرياته التي أصبحت دروسـا في الحياة) .

حديث عن أبي

بقلم : الدكتور غازي القصيبي*

أول مـا تفتحت عيناي عليه كان قـوياً صاخباً بالحياة . ومرت سنوات ، وهزل وانحنى ، ومرت سنوات أخرى ، ومشيت وراء النعش مذهولاً ، لا أكـاد أصدق أن العمـلاق النابض بالحياة يحمل جسداً ضئيلاً ، بعيداً عن الحياة

قيل لي حين بدأت أعي ما حولي : « أبوك في الستين » ، ولم يكن الرقم يعني شيئاً لي حينئذ . وكبـرت قليلا ، وأدركت أن الستين تـرتبط في الأذهان بالشيخوخة ، وأصبت بالحيرة .

كـان أبي تجسيداً للعنفـوان ، فكيف يجتمـع عنفوان وكبر ؟ ! كـانت خطواتـه تهز الأرض ، وتبتلع الدرج قفزاً ، كان منتصبا كالرمح ، كان أوسم من رأيت من الرجال .

وقبل أن يودع الدنيا بأيام كان لقائي الأخير معه ، كان قد تجاوز التسعين ، بدا كأنه يعتذر بـالضعف عن الحيويـة التي لازمت شبابـه وكهـولته ، كـان يتجلد أمام الـزوّار ويصمُد ، يجلس بكامل هيئته ، يخشى أن تخونه الذاكرة ، أو ينـزلق لسانه بجملة لا معنى لهـا . اعتـرف للسنين بانتصارها على جسده ، لكنه لم يسمح لها بالتسلل الى روحه ، أو الاقتراب من ذهنه .

* شاعر ووزير سابق وسفير حالي للمملكة العربية السعودية في البحرين .

وبين المشاهد الأولى والمشاهد الأخيرة تومض مواقف وقصص ، في البداية لم يكن غير وجود مهيب (وعيف أحياناً) ، أقف عندما يجيء ، أقبل يده كلما رأيته ، أنظر الى الأرض وهو يحدثني . في النهاية ، أصبح الصديق الوديع ، ظل الوجود مهيبا (ولم يعد مخيفا) ، ظللت أقبّل يده كلما رأيته ، أتحدث إليه وعيناي لا تفارقان وجهه .

أذكر كيف علمني السباحة ، كنت في ذلك الوقت في السادسة ، كنا بمفردنا في البركة . كان يسبح ، وكنت أتعلق على حافة البِرْكة . نظر اليَّ وقال ببساطة متناهية :

ـ متى تنوي أن تسبح ؟

لم يقل شيئاً غير هذا ، لم يهدد ، ولم يوبِّخ ، ولم يلحّ ، مجرد سؤال وبعد ذلك بساعات كنت أسبح .

كان هذا أسلوبه في التعامل : التلميح الذي لا يجرح ، والإيماءة التى لاتُحرج ، لم يقل لي قط « صَلِّ ! » ولكنه ظل ، في كل رسالة تقريباً ، يذكرني بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصلاة . لم يقل لي قط « ذاكر ! » ، ولكن فرحه بكل نجاح أحققه كان أوضح من أن يخفيه ، لم يقل لي قط « حَسِّنْ خَطَّك ! » ولكنني سمعته يقول عن أحد أقربائي بمسمع مني « ليته يُحَسِّنُ خطَّه » .

أهدى لي ، وأنا على مشارف المراهقة ، كتابا دينيا ضخما ، وبعد ذلك بشهور أقبل عيد الفطر ، وأعطاني « العيدية » . قلت :

ـ هذه « عيدية » السنة الماضية نفسها ، لم تزد !

ـ ولماذا تزيد ؟

ـ لأنني أصبحت أكبر بسنة .

ـ وهل تتوقع أن تكبر « العيدية » معك ؟

ـ نعم ، لقد قرأت في الكتاب الذي أخذته منك أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال ما معناه : إنَّ طمع ابن آدم يزيد كلما ازداد سنه

ـ صدق الرسول عليه الصلاة والسلام ! ألم تقرأ في الكتاب شيئاً آخر ؟ ألم تجد فيه شيئاً عن القناعة ؟

قالها وهو يضحك ويضاعف « العيدية » .

ذات يوم ، وأنا في ذروة المراهقة المغرورة ، دخل مكتبه ليجدني فيه أتحدث بانفعال مع الساعي ، سألني بهدوء :

ـ لِمَ تصرخ أثناء حديثك معه ؟

ـ لأنه غبي .

ـ وهل هذا ذنبه ؟ لو أُعطي قدراً من الذكاء أتراه كان سيرضى بالبقاء في موقع يتحمل فيه إهانات مثلك ؟

عبر السنين ، ظلت كلماته تطن في أذنيَّ . كم تمنيت أن أقولها كلما سمعت رئيساً « ذكياً » يتذمر من مرؤوسه « الغبي » .

كان يؤمن « باقتسام » الأشياء ، حتى أصغر الهدايا كان يقتسمها مع الحاضرين . كانت طلبات الآخرين ترهقه . سألته مرة لِمَ لا يتجاهلها ، قال :

ـ لا يابني ، اليد العليا خير من اليد السفلى .

عندما كنت أحضر أطروحة الدكتوراة ، وأتبين لأول مرة أهمية الوثائق التاريخية ، طلبت منه أن يُدوِّن مذكراته ، وعرضت عليه أن أتفرغ بعض الوقت لمساعدته ، ولكنه رفض ، وألححت عليه ، في النهاية ، قال :

ـ هل تريدني أن أكتب ما يعرفه الناس جميعاً ؟ هذا لاقيمة له ، هل تريدني أن أذيع أسراراً هي عندي بمثابة الأمانات ؟ هذا مالا أستطيعه ، هل تريدني أن أكذب ؟

هذه الأيام ، كلما قرأت مذكرات شخصية عربية ، تذكرت موقفه من المذكرات ، وترحمت عليه ، وعلى الموقف .

كان أبي في حياته يعني أشياء كثيرة ، ولكنني لم أدرك كل ما يعنيه ، إلاّ بعد وفاته ، إنه كان مُعلِّماً موهوباً . □

وللإسلام علينا حق

بقلم : الدكتور عبدالعزيز كامل

سلوك الطريق الذي يقود الإنسان إلى ضميره ليس يسيراً ، إنه المصالحة الداخلية بين الحق والإرادة ، والمصالحة الخارجية بين الحق والحياة .

جاءت هذه المعاني إلى نفسي عند قراءة قوله تعالى « رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مناديا ينادي للإيمان أَنْ آمنوا بربكم فآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وكَفِّرْ عنا سيئاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ » . (آل عمران : ١٩٣) .

كلمة « آمَنَّا » هذه تحمل العقيدة والعمل معاً ، وضوح الفكرة ووضوح الطريق ، ثم تحمل مسئوليات العمل والصبر عليه بغير حدود ، إلا حدود الحياة ، فالإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل .

وحين نتكلم عن « حق الإسلام » إنما نتكلم عن « الحق المصاحب » لا « الحق العابر » ، فالعلاقة بالإسلام تعاقدية « ومن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى اللهِ وَهُوَ محسنٌ فقد استمسكَ بالعروةِ الوُثْقَى وإلى الله عاقبة الأمور » (لقمان : ٢٢) .

وهي علاقة تتشكل صورتها حسب تخصص الفرد وقدرته على العطاء . هناك أولا قدر مشترك في هذا التعاقد ، وهو ما يكون به المسلم مسلما في عقيدته وسلوكه . ثم هناك القدر التخصصي حسب فروع المعرفة التي يحتاج إليها المجتمع في تقدمه ، وكيف تتكامل هذه التخصصات لتكون موكبا منسجما متعاونـاً سائراً إلى غد أفضل . بعض هذا يقوم به أفراد ، وبعضه تقوم به مجامع ومنظمات ، وبعضه تقوم بـه الدولـة ، وبعضه تتعاون الدول الإسلامية فيما بينها على القيام به ، والبعض الآخر والأخير تعاون هذه الدول مع المجتمع العالمي على التنسيق بين معطيات الحضارات المتنوعة ، ومن بينها الحضارة الإسلامية ، في عالم معاصر يزداد ترابطا وتدارسا .

تكامل الحضارة الإسلامية

وفي دراسة الحضارة الإسلامية ، ينبغي ألا ننظر إليها كأنها مجرد تجميع لثمرات وإبداع ، يقوم الانتقاء فيها بدور كبير يخضع لاتجاهات الباحث وميوله وموقعه الاجتماعي ، ولكن باعتبارها صورة متكاملة .

ففي هذه الصورة يبدو الرباط بين العقيدة والشريعة ، وبينها وبين الأخلاق والسلوك اليومي . ونستطيع أن نتتبع خطوط الاتصال فيها

بين الدين والفن ، والاقتصاد والسياسة ، والأدب والإبداع العلمي وأخلاقياته ، فهناك فرق كبير بين حرية البحث العلمي وبين مجالات التطبيق في الحياة التي تحكمها الشرائع والقوانين ، وأقرب الأمثلة إلى ذلك بحوث هندسة الوراثة ، واحتمالات تطبيقاتها .

وإن على مؤرخ الحضارة أن يواجه هذه المهام : أن يدرس حضارته ، وكيف قامت وتكونت ، وأن يكون قادراً على تمثلها في مستويين أساسيين : الأول مستوى القطاع الزمني (كأنه يلتقط صورة « فوتوغرافية ») ، والثاني مستوى التحولات الزمنية (كأنها شريط سينمائي) . بعبارة أخرى أن يكون قادراً على تمثل الصور الزمنية في سكونها وحركتها معا . ولنتفق على تعبيرين : الصورة والمسار .

في الحضارة الإسلامية - وهي في هذا لا تختلف عن أي حضارة أخرى - صور متعددة ومتعاقبة ومتعاصرة . وعلينا أن نبحث عن الخطوط المشتركة في هذه الصور جميعاً ، كما تحس عندما ترى الصيني مثلا أنه صيني : بعينيه اللوزية ، ووجنته الأميل إلى البروز ، وبشرته الأميل الى السمك ، وشعره المسترسل ، هذا مع خلاف بين فرد وفرد هو من طبيعة الحياة البشرية . وأنت تحس الخطوط الحضارية المشتركة مع تغير في المستوى الحضاري ترتفع به موجة العطاء أو تنخفض ، وتندفع أو تبطيء . ولا تسلم حضارة من هذه التغيرات ، وإن استطاعت بعض الحضارات أن تجدد شبابها ، ولم يستطع البعض الآخر لعوامل داخلية أو خارجية ، فانطوت صحائفها ، ولم تبق منها إلا آثار على الأرض أو في المتاحف ، وفي مؤلفات عن إبداع كان ، ثم انقضى . ولا نستطيع أن ننكر - والتاريخ شاهد - توهج الحضارات وذبولها ويقظتها وصحوتها . والأمثلة أمامنا من الشرق والغرب : في مصر والهند والصين واليونان وقلب الجزيرة العربية وأطرافها ، هذا إلى حضارات أمريكا قبل الكشف الجغرافي كالمايا والإنكا والازتك ، وقد دمر منها الاسبان قدرا رهيبا من أجل إبادة أي مقاومة بشرية ، ومن أجل الاستيلاء على ما فيها من ثروات .

الإسلام حضارة متجددة

والحضارة الإسلامية من الحضارات المتجددة التي استطاعت البقاء والاستمرار على الرغم من كل ما لقيت من عنت ومحاولات إبادة ، ويكفي أن تذكر الحروب الصليبية وحروب المغول وعنف بعض الدول الاستعمارية ومحاولاتها محو الهوية الإسلامية من بعض الأقطار ، وقد تكررت فيها الصحوات بعد الكبوات .

ونستطيع في هذا الأمر أن نميز في العالم الإسلامي بين ثلاثة قطاعات :

الأول : شمال البحر المتوسط (بصفة عامة) وقد اشتد الضغط الأوربي على هذا القطاع ، حتى استطاع استعادة اسبانيا ، وغربت شمس الإسلام عن الأندلس ، وعن صقلية ، وبعض جزائر البحر المتوسط ، وأصبح هذا البحر والمسلمون يعيشون على شواطئه الجنوبية والشرقية وفي آسيا الصغرى ، ولهم جاليات في شرق أوربا ، بينما انحسر عن أكثر شواطئه الشمالية .

الثاني : ونستطيع أن نسميه - بحق - جسم الإسلام الممتد من شواطيء المحيط الأطلسي غربا ويضم الوطن العربي حيث مهد الإسلام واللقاء بين العقيدة الإسلامية واللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، ثم يمتد جناح شرقي له شعبة شمالية إلى قلب آسيا حتى غرب الصين وأجزاء من شرقها ، وشعبة جنوبية إلى إيران وأفغانستان وشبه القارة الهندية الباكستانية إلى اندونسيا والجزائر الآسيوية في المحيط الهادي كالفلبين . وفي هذا القطاع الشرقي نرى الإسلام

عقيدة ، واللغة العربية لغة دينية ، بينما استطاعت لغات أخرى - أو بقيت - مستخدمة في الحياة اليومية .

الثالث : القطاع الجنوبي ، وبخاصة في افريقية جنوب الصحراء الكبرى ، وفي أجزاء من جنوب شرق آسيا حيث الصراع أو الحوار بين العقائد . وأبرز شركاء الحوار : الإسلام والمسيحية ، وبخاصة الكنائس الأوربية والأمريكية ، وهي مزودة بقدرات وإمكانات كبيرة ، مما دعا الجماعات والجمعيات الإسلامية إلى مضاعفة الجهد وتوسيع مجالات التعاون وآفاقه بين قلب الإسلام - فكريا وماديا - وبين هذه الأقاليم التي لا تزال مفتوحة أمام الامتداد الديني .

ولكل قطاع مشكلاته وحقوقه

نعود إلى القطاع الشمالي وقد أخذت تتبدل صورة الإسلام فيه : كان قطاع التراجع ، فأصبح من قطاعات التقدم . ومع سهولة الاتصال وقيام الدول الجديدة في افريقية جنوب الصحراء ، وفي أجزاء من الوطن العربي وفي جنوب شرق آسيا ، ومع توافر فرص العلم والعمل في الأقطار الصناعية المتقدمة اتجهت تيارات الهجرة من الجنوب إلى الشمال ، واجتذبت مسلمين وغير مسلمين . وفي غرب أوربا الآن - ونحن على مطلع العقد الأخير من القرن العشرين - نحو ستة ملايين مسلم : في بريطانيا نحو مليونين ، وفي فرنسا بين مليونين وثلاثة ، وفي ألمانيا نحو مليون ، هذا إلى جانب وجود جاليات إسلامية في هولندا والسويد وسويسرا ، وهي جاليات مستقرة ، وقد زاد عدد المساجد في فرنسا فأصبح نحو ألف ، وفي بريطانيا نحو مائتين وخمسين ، هذا عن طريق تحويل شقق أو أدوار في منازل إلى مساجد وأماكن لقاء ، وتكونت في أوربا مجتمعات لها سلوكها المتميز عما حولها .

ولا يختلف الأمر عن هذا في العالم الجديد : الولايات المتحدة وكندا ودول الكاريبي وأمريكا اللاتينية ، حيث يقدر إجمالي عدد المسلمين الآن بنحو تسعة أو عشرة ملايين : الثلثان في الشمالية والثلث موزع بين الوسطى والجنوبية .

ولا نستطيع القول بأن مسلمي هذه المواطن الجديدة على كلمة سواء ، أو أن مشكلاتهم تشابه مشكلات إخوانهم في العالم الإسلامي ، فقد هاجروا ولقوا ظروفا جديدة تحتاج منهم إلى فكر جديد واجتهاد جديد ، هو ما يطلقون عليه في الإسلام المعاصر ، فقه الأقليات الإسلامية التي تبحث عن السماحة والأمن والنمو الهادىء والقدرة على تربية الأجيال الجديدة على مبادىء الإسلام ، دون أن ينفصلوا عن حياة الغرب الذي يعيشون فيه ، ولا عن حضارته السائدة المسيطرة الحاكمة .

ولقد استطاعت الشعوب الآسيوية والافريقية أن ترتبط ارتباطا عضويا بالحضارة الغربية : في الحياة اليومية ، في العمل المشترك ، في المصانع ، في الرياضة ، في الآداب والفنون : الموسيقا والسينما والمسرح ، وبقي المسلمون أو أكثرهم خارج دوائر الترابط اليومي ، ويكفي أن تدرس - بإمعان - عددا من الأفلام السينمائية لنرى فيها مكانة « العربي » والمسلم ، وسنرى الفوارق إذا قارناها بمكانة الآسيوي أو الافريقي ، الصور غير متشابهة ، ودرجات الاتصال والتفاهم متباينة . ويختلف معها شعور الرأي العام الغربي - المتأثر بمؤثرات معادية أو مصادقة أو متعاطفة - اقترابا أو ابتعادا عن الإسلام والجاليات الإسلامية والتعاون معها .

كما أننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن الجماعات اليمينية المتعصبة في بعض الأقطار الغربية التي لا ترحب بهذا المد الإسلامي ، ولا بموقف القوى الصهيونية التي انفردت بالميدان في بعض الأقطار ، واستطاعت الوصول إلى مراكز

التأثير على القرار السياسي والتمهيد له ، ومتابعته حتى صدوره وتعميقه لصالح « اسرائيل » .

ثم لك أن تتابع الدراسة لترى آثار ذلك في الحياة السياسية والأدبية والفكرية ، وما يصدر عن دور النشر من كتب تستطيع أن تعبر حدودها إلى الأقطار الإسلامية ، وتؤثر في صياغة الأفكار والمواقف ، وعلى ردود الأفعال ، وفي إبراز مواقف استفزازية لقطاعات من العالم الإسلامي ، وقد تكون بعض هذه الكتب لمؤلفين يحملون أسماء إسلامية .

وقضية كتاب « الآيات الشيطانية » لسلمان رشدي ما زالت حية منذ صدور الكتاب في خريف ١٩٨٨ ، وعلى الرغم من كل الضجة التي أثيرت حول الكتاب ، ولعله بسبب هذه الضجة انتشر الكتاب وأعيدت طبعاته ، وفي صيف ١٩٨٩ صدرت ترجمته الفرنسية ، وذلك بعد صدور الترجمتين الاسبانية والايطالية . واحتفظ الناشر الفرنسي « كريستيان بورجوا » باسم المترجم سرا . ولم ترض بعض دور العرض الكبرى كلافاييت وبرنتن في باريس أن تبيع الكتاب تحسبا لأي خطر . ولكن هذا لم يمنع الدور الأقل مكانة من عرض الكتاب ، وبلغ عدد النسخ المبيعة في يومين خمسا وستين ألفا (مجلة التايم ٣١ يوليو ١٩٨٩ ص ١٥) .

وهناك كتاب آخر ، لايقل سوءا عن « الآيات الشيطانية » يحمل اسم « الدائرة المغلقة » ، بقلم الكاتب والصحفي دافيد برايس جونز ، وهو من دار وايدنفلد ونيكلسون (لندن ١٩٨٩) وهو يتكون من مقدمة وثلاثة عشر فصلا وخاتمة . والكتاب عن الحياة العربية . وهو مختص في السيئات . وليته يعرضها بموضوعية ، ولكنه يختار من السيئات أشدها ، ثم يلوي أعناقها ، ويتستر وراء استشهادات كثيرة ، هي في ذاتها مجال واسع في الاختيار ، ثم يذكر الشبهات والإشاعات دون أن يحققها أو يرد عليها ، وهو يخلط بين الأسماء . والقارىء العادي حين يرى هذه الاقتباسات والمراجع والصفحات ، قد يغره هذا ويدعوه إلى التصديق ، فماذا لو كان القارىء غربيا بعيدا عن ميدان الأحداث ، ولا خبرة له بالرجال ، ولا وقت عنده للموازنة ؟

واضح أن هذا النوع من الإنتاج يستهدف النيل من العروبة والإسلام ، وأنه جزء من الحرب النفسية والفكرية التي تشنها بعض دوائر الغرب ، ولكن .

أين النقد والتقييم في حياتنا ؟

عند هذه المرحلة من الحديث أود أن أقف قليلا ، هل نتابع عرض المشكلات في القطاع الشمالي ثم الأوسط والجنوبي ؟ هل نذكر اشتعال الحروب والصراعات على مستوى الوطن الواحد ، وعلى مستوى الجيران ، بدءا من السنغال وموريتانيا في أقصى الغرب إلى الصراعات العرقية والطائفية والمذهبية في جنوب شرق آسيا ، مرورا بلبنان وما بين العراق وإيران ، وما يحدث في أفغانستان ؟ هل نذكر وضع « اسرائيل » بين القطاعين الافريقي والآسيوي من العالم الإسلامي ؟ هل نذكر ما تلقى الأقليات الإسلامية في الفلبين ، ولهذا نظائر - أو ما يقرب من النظائر - فيما يلقاه مسلمو بلغاريا ؟

ثم القطاع الجنوبي بكل الزحف التبشيري فيه ، وهو أمر ليس سريا ، وإنما له مؤتمراته ومنشوراته ، وهيئاته المتخصصة التي تعلن عن أهدافها ؟

ويمكن أن نتجه في الحديث نحو المسارعة إلى الاعتراف بأوجه النقص في حياتنا الإسلامية لنبادر بعد هذا إلى عرض خطة ذات شقين :

الشق الأول : هو حاجتنا إلى صياغة جديدة للحياة الإسلامية ، يتميز فيها أمران : أن نحقق ما يصبح به الإنسان إنسانا . وهذا أمر مشترك بين شعوب الأرض ، وقد أخذت به الدول التي

سبقتنا في الحياة المعاصرة إلى التقدم ، بدءاً من اليابان وكوريا شرقا ، إلى العالم الجديد غربا ، وأول هذا حسن إعداد الأجيال للحياة في نظرة متكاملة ، تكفل كرامة الفرد والمجتمع . الأمر الثاني ما يكون به المسلم مسلما : من عقيدة وخلق وثقافة . ذلك لأن أكبر عقبة في سبيل احترام الإسلام كحضارة عالية ما يمارسه المسلمون في واقع حياتهم من حروب داخلية وصراعات وتخريب لديارهم وثرواتهم ، مما يصرفهم عن حسن إعداد الجيل الجديد لحياة خصبة مثمرة ، وليس من العدل في شيء أن نلقي اللوم على غيرنا ونكتفي بإدانة الاستعمار وأعداء الإسلام .

الشق الثاني : هو الجانب الفكري ، ولو شئنا اصطلاحا أدق لقلنا : المناخ الفكري الذي تنبغي صياغته للمسلمين : كيف نفهم حضارتنا في شمولها وتكاملها ومسارها ؟ وكيف نعرضها على أبنائنا ، بحيث لا تكون مجرد سرد للأمجاد ، كأننا تراجمة في متحف ؟ علينا أن نبرز نقاط القوة لنزيدها قوة ، ونقاط الضعف حتى نحاول بقدر استطاعتنا تجنبها ، وهناك نقاط ضعف عميقة الجذور ، كأنها أمراض متوطنة ، تحتاج إلى معالجة وصبر وممارسة دائبة : ومن أبرزها طبيعة المعابر بين الأجهزة الحاكمة والشعوب . نريد أن تكون دعائمها الثقة المتبادلة والمسئولية المشتركة ولنصبر على تكوينها ، بحيث نستطيع التغلب على النزوات العابرة . نريد احترام الوقت فهو الحياة . نريد حب العمل والعلم والإبداع ، بحيث يصبح العمل سعادة ، والسعادة في رؤية الإنجاز . نريد أن ندعم روح الفريق وروح الجماعة .

وبعد : أليس من التناقض أن نؤمن في الدين أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد ، بينما يحيا الأفراد وهم يقدمون مصالحهم على مصالح الجماعة ؟

وأخيرا : أرجو القارىء الكريم أن يجعل ختام هذا الحديث قراءة ثانية لفقرته الأولى . □

هل اخترع العرب قلم الحبر ؟



● يعتقد كثيرون أن قلم الحبر الذي نعرفه اليوم هو من اختراع الأمريكي « لويس أديسون وترمان » ، في القرن الثامن عشر ، إلا أن المتتبع لتراثنا العربي يجد أن ذكره قد ورد في إحدى المخطوطات العربية التي ترجع إلى عصر الدولة الفاطمية ، وهذه المخطوطة هي كتاب « المجالس والمسامرات » لأبي حنيفة النعمان ، ويذكر فيه أن المعز لدين الله الفاطمي هو أول من أوعز لاختراع أقلام الحبر التي تحوي مخزنا للحبر ، فقد جاء في هذا الكتاب أن المعز لدين الله ذكر القلم فوصف فضله ، ثم قال : نريد أن نعمل قلما يكتب به بلا استمداد من دواة ، ويكون مداده من داخله ، فمتى شاء كتب به ما شاء ، ومتى شاء تركه ، فارتفع المداد ، وكان القلم منه ناشفا ، ويجعله الكاتب في كمه فلا يرشح شيء من مداده ، فيكون آلة عجيبة ، لم نعلم أنا سبقنا إليها ، ثم تكون دليلا على حكمة بالغة . فقلت : ويكون هذا يا مولانا ؟ قال : يكون إن شاء الله ، فما مر بعد ذلك إلا أيام حتى جاء الصانع الذي وصف له الصنعة بقلم من ذهب ، فأودعه المداد على مقدار الحاجة ، وكتب به أحسن كتاب ، ثم رفعه عن الكتاب ، فأمسك المداد ، فرأيت صنعة عجيبة ، لم أكن أظن أني أرى مثلها » .

لحنان في ليلٍ أزرق

لَيْلٌ أزرق
وبقايا أجنحةٍ تخفقُ في أغنيةٍ
حائرةٍ فوقَ الموجِ الملتاع
امرأةٌ وشعاع
يتهادَى نحوي نجمانِ اشتعلا في عَيْنَيْها
تسألني : مَنْ أنْتَ ؟ وَمِنْ أيْنَ أتَيْت؟
ياسيدتي : طيفٌ مِنْ خارجِ هذا الوَقْت
جئتُ مِنَ الأعشابِ الباكيةِ على
أقدامِ الرِّيح
كَيْ أعْبُرَ هذا الأفقَ الدامع
محزوناً وَجريحا

- ٢ -

صمتت كالموسيقا تَنْدَلِـعُ
بجوفِ الرُّوح

- ٣ -

نَفَذَتْ ببريقِ العَيْنَيْنِ إلى آخرِ
منعطفاتِ القَلْب
سألتني : إنْ كُنْتُ عَرَفْتُ الحُبّ
وأجبتُ :
الآنَ يفاجئني
مِنْ شرفاتِ الغَيْب

-٤-

حينَ لمستُ يَدَيْها
كانتْ أنغامُ أصابعِهَا
تعزفُني لحناً

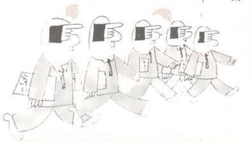
يتراقَصُ مِنْ بدءِ طفولَتِنَا
حَتّى آخر قَطْرة
تتساقَطُ مِنْ غَيْمَتِنَا
في حقلِ العُمْر
ياسيدتي : مَنْ أنْتِ ؟ وَمِنْ أيْنَ أتَيْتِ؟
وهل هذا الجذلُ الرقراقُ هو الحُبّ ؟
أخذْتني ، وَضَعتْني
مابينَ أمومةِ عَيْنَيْهَا
وصلاةِ القَلْب

وتراقَصْنَا
كُنّا لَحْنَيْنِ ، وَدِيعَيْن
بعيدَيْنِ ، قَرِيبَيْن
صغيرَيْن ، كبيرَيْن
سعيدَيْن ، حزينَيْن
وحيدَيْن ، كثيرَيْن
مضيئَيْن ، مُرِيبَيْن
سماءَيْن ، وكهفَيْن
ضحوكَيْن ، عبوسَيْن
ونجمَيْن ، طليقَيْن ، حبيسَيْن
وطيرَيْن ، خلِيَّيْن
مساءَيْن ، نهارَيْن
ربيعَيْن ، جميلَيْن
وصَيْفَيْن ، شتاءَيْن
عشيقَيْن ، حنونَيْن
يذوبانِ ، صفاءَيْن



شعر :
محمد ابراهيم أبو سنة

يموتانِ ، حياتَيْنْ
يعيشانِ ، فَنَارَيْنِ
ينامانِ ، كَظِلَّيْنْ
يقومانِ ، كَحُلْمَيْنْ
يروحانِ ، كَلِيلَيْنْ
يجيئانِ ، كَصُبْحَيْنْ
أصبحنا في هذا اَلتِّيه
المعشوشبِ صِنْوَيْنِ
شَبِيهَيْنْ
مَاصَلُحَا ، ليعودا
بعد لقائهما
ليكونا اثنَيْنِ



لغة الحوار في المسرح العربي مشكلة بلا حل!

بقلم : الدكتورة حياة جاسم محمد

المسرحية نوع أدبي يتميز عن الأنواع الأدبية الأخرى باختفاء صوت الشاعر أو الكاتب وانتفاء السرد ، فهي تتكون من خلال ما تقوم به الشخصيات من أفعال ، وما تتبادله من حوار ، ولكن هذا الحوار ظل مشكلة بلا حل ، فهل نكتب بالفصحى أم بالعامية أم بلغة ثالثة ؟ .

الحوار ثانوي في الرواية ، لأن الكاتب يسرد الأحداث ويطورها ، ويصف الشخصيات ويكشف عن نفسياتها ، أما في المسرحية فالحوار أساسي ، وهو مابه تقوم المسرحية وتتشكل ، حتى أن « رينيه ويلك » ، في النظرية الأدبية ، يجعل الأنواع الثلاثة المجردة هي : السرد ، والحوار ، والأغنية .

وظائف الحوار في المسرحية

إن للحوار في المسرحية وظائف خطيرة ، ويقسم « ميليت » و « بنتلي » في كتابهما « فن المسرحية » ، هذه الوظائف الى نفعية وغير نفعية . أما الوظيفة غير النفعية للحوار فهي أنه يروق ويمتع لما فيه من جماليات ، ولكن هذه

الوظيفة ثانوية إزاء الوظائف النفعية المتعددة للحوار ، وأهمها تطوير عقدة المسرحية ، أي مجموع أحداثها ، وطريقة ارتباط هذه الأحداث ، ويتم هذا التطوير عن طريق مصاحبة الأفعال التي تقع على خشبة المسرح ، والكشف عن الأفعال التي تقع خارج المسرح ، أو التي تحصل في ماضي المسرحية ، وكذلك الإشارة الى ما يتوقع حدوثه في المستقبل .

والوظيفة النفعية الأخرى للحوار هي الكشف عن الشخصيات بتوضيح أبعادها المظهرية والاجتماعية والنفسية ، وذلك يقتضي أن يكون الحوار مناسبا للشخصية من حيث عمرها مثلا ، ودرجة ثقافتها ، ونوع نفسيتها ، انبساطية كانت أو انطوائية ، حادة أو هادئة ، متفائلة أو متشائمة ، وما الى ذلك من الاختلافات النفسية الأخرى .

مشكلة اللغة في الحوار

إن اللغة هي أداة الحوار المسرحي على الرغم من وجود التمثيل الصامت الذي يظل استثناء لا يخرق القاعدة ، وعلى الرغم من تأكيد المسرح الحديث على الأصوات والأشياء في عروضه الى درجة كبيرة . وفي المسرح العربي تكون لغة الحوار مشكلة كبيرة تفرض نفسها على الشاعر أو الكاتب المسرحي ، وعلى القاريء أو المشاهد ، والدارس الباحث . ومصدر هذه المشكلة وجود ثنائية الفصحى والعامية في اللغة العربية . فانطلاقا من البديهات الفنية التي تقدمت لابد للشخصيات ، في المسرحية العربية ، أن تتكلم عربية ملائمة لمستواها الاجتماعي والثقافي ولتكوينها النفسي ، وهذا يعني أن الفصحى قد تبدو غير مناسبة للشخصيات التي لم تتعلم أو هي محدودة التعليم ، وأن العامية أنسب لها . وتكون النتيجة أن تختلف لغة المسرحيات العربية تبعا لاختلاف العامية في الأقطار العربية المختلفة ، وهو اختلاف كبير يقف حائلا دون التواصل الذى تسعى إليه المسرحية مع مشاهديها وقرائها ، وتظل فاعلية المسرحية محدودة بحدود القطر الذى كتبت بعاميته ، أو أقطار قليلة تفهم عامية ذلك القطر . وكون العامية المصرية بحكم انتشارها الواسع مفهومة في الأقطار العربية جميعها استثناء لا يقاس عليه ، ولا يغير من أبعاد المشكلة المدروسة ولا من النتائج المترتبة عليها .

استخدام الفصحى والعامية معا

لقد فرضت مشكلة اللغة نفسها على الكاتب المسرحي العربي منذ أول تجربة في كتابة المسرحية في العربية ، عام ١٨٤٧ ، وهي تجربة اللبناني مارون النقاش . وذهب الكتّاب المسرحيون العرب مذاهب مختلفة في مواجهة هذه المشكلة . فأما مارون النقاش نفسه فقد رأى أن يستخدم في مسرحيته الأولى « البخيل » الفصحى والعامية معا ، فاختار الفصحى للشخصيات التي تؤهلها خلفيتها الاجتماعية والثقافية لاستخدامها في الحوار ، في حين اختار للشخصيات الأخرى أن تتكلم العامية المحلية للقطر الذى تنتمي إليه ، فأم ريشا الخادمة تتحدث العامية اللبنانية ، وعيسى يتحدث العامية المصرية حين يتنكر بزي كاتب مصري ، ويتحدث غالي ونادر كما يتحدث أتراك قليلو المعرفة بالعربية . والى ذلك أشار النقاش نفسه في تقديمه مسرحية « البخيل » ، ووثق لذلك محمد يوسف نجم .

وأخذ بالطريقة نفسها ميخائيل نعيمة من لبنان ، في مسرحيته « الآباء والبنون » التي يعالج فيها صراع الجديد والقديم متمثلا في صراع الأبناء والآباء . وقد كتب هذه المسرحية عام ١٩١٦ ، ونشرها في كتاب عام ١٩١٧ . وقد ناقش هو الآخر قضية لغة الحوار في مقدمة كتبها لمسرحيته ، وبين أنه لم يجد حلا للمشكلة سوى

الجمع بين الفصحى للمتعلمين والعامية لغير المتعلمين ، وزاد على ذلك أن جعل إحدى الشخصيات تتكلم العامية وإن لم تكن أمية تماما ، لأن العامية توافق طباع تلك الشخصية ومداركها ، وأنه مال الى العامية في حديث الشخصيات المتعلمة مع غير المتعلمة « في بعض المشاهد التي تليق بها العامية أكثر من الفصحى » دون أن يحدد طبيعة هذه المشاهد .

وهناك بعض المسرحيات من النتاج المسرحي المعاصر تجمع بين الفصحى والعامية ، منها على سبيل المثال : « بلدي يابلدي » لرشاد رشدي ، « آه ياليل ياقمر » لنجيب سرور الذي استخدم في استهلالها (البرولوج) شعرا حرا بالفصحى والعامية في سائرها . « الوافد » ، « الخطاب » ، « ليلة مصرع جيفارا » لميخائيل رومان ، وكذلك « النار والزيتون » لألفريد فرج ، والصفحات الدرامية التي كتبها نعمان عاشور واستمدها من تاريخ الجبرتي وعنونها « شعب مصر » . ولم تشر أي من المسرحيات الأخيرة الى مشكلة الفصحى والعامية أو تبرر استخدامها معا .

الفصحى في المسرحية العربية

مازالت الفصحى وسيلة تعبير لدى الكثير من كتّاب المسرح العربي ، وقد اتضح هذا الاتجاه منذ بداية التجربة المسرحية العربية في انتاج الرائد الثاني أبي خليل القباني من سوريا ، فقد استخدم الفصحى في مسرحياته ، ما كان منها تاريخيا أو مستمدا من تراث القصص الشعبي أو مقتبسا أو مترجما . كذلك فعل سليم النقاش ونجيب الحداد فيا ترجما أو ألّفا من مسرحيات ، والشيخ سلامة حجازي في مسرحه الغنائي . فقد كان لفرقته مسؤول خاص عن اللغة مهمته ضبط الألفاظ ضبطا صحيحا ، ومراعاة أداء الممثلين لها أداء فصيحا لايشوبه لحن . وحرص علي أحمد باكثير على استخدام الفصحى في المسرحيات الكثيرة التي كتبها ، والتي تنوعت ما بين تاريخية وسياسية واجتماعية معاصرة . واستعمل توفيق الحكيم الفصحى في جل مسرحياته على اختلاف اتجاهاتها الفنية ، ولم يركن الى العامية إلا في القليل منها . أما في المسرحيات العراقية والمسرحيات السورية فتشكل الفصحى تيارا غالبا .

إن الفصحى بالطريقة التي استخدمت بها في المسرحية العربية ، قاصرة عن القيام بالمهمات الفنية المتوقعة منها ، وهو قصور ليس في طبيعة الفصحى نفسها ، لكن الكتّاب المسرحيين أحيانا ينطقون الشخصيات فصحى لا توجد إلا على صفحات الكتب القديمة ، وتضطرهم غرابة بعض المفردات إلى شرحها في هوامش ، وما يقال عن المفردات يصدق على التعابير وتكوين الجمل والصور والأخيلة . إن ذلك كله يبعد المسرحية عن روح العصر ويؤدي الى إنصراف الجمهور عنها ، فلا بد لكل مسرحية ، حتى التاريخية ، من أن تكون صادرة عن روح العصر ومنسجمة معه . والقصور الآخر يبدو في استخدام فصحى واحدة لشخصيات المسرحية جميعها مها اختلفت مستوياتها الاجتماعية والثقافية ، فيبدو غير المتعلم أو قليل التعليم بعيدا عن المعقولية والواقع وهو ينطق فصحى غريبة لا يستخدمها حتى مثقفو العصر .

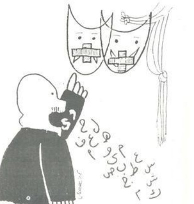
اللهجات العامية في المسرحية العربية

التزم الرائد الثالث للمسرح العربي يعقوب صنوع من مصر ، بالعامية لغة للحوار في جميع مسرحياته التي كتبها وقدّمها على المسرح المصري ابتداء من عام ١٨٧٠ ، وكان هدفه من تأسيس مسرحه ، كما ورد عنه ، إرشاد مواطنيه الى الطريق الذي يؤدي بهم الى الرقي والمدنية ، ولعل هذا دفعه لاختيار العامية لتناسب مدارك

الجمهور المصري حينذاك ، ولتناسب شخصيات مسرحياته ووضعياتها ، وكانت جميعها مستمدة من واقع المجتمع المصري المعاصر في وقته .

وتواصل استخدام العامية في الحوار لدى عدد من كتّاب المسرح المصري ممن جاء بعد صنوع ، وكذلك استعملها محمد عثمان جلال فيما ترجمه عن الفرنسية ، أو مصّره ، من ملاهٍ لموليير ومآسٍ لراسين ، حيث اختار الزجل المصري وسطاً ، وكذلك في المسرحية الوحيدة التي ألّفها . ويبرّر المترجم اختياره الزجل بأنه يتبع أصلها المنظوم ، ويجعل نظمها يفهمه العموم ، وأن اللغة الدارجة أنسب لهذا المقام ، وأوقع في النفوس عند الخواص والعوام ، ولكنه لم يدلل على رأيه ذاك فنيا .

وآثر الكاتب المسرحي المصري محمد تيمور العامية في جميع ما كتبه من مسرحياته إلا مسرحيته الأولى التي كتبها بالفصحى ثم أعاد كتابتها بالعامية لأنه وجد العامية ، كما يقول ، أكثر مطابقة للحقيقة والواقع . وتابعه في ذلك ، في



مصر أيضا ، ابراهيم رمزي ، وعباس علام في بعض مسرحياته معللا ما فعله بأنه فضل أن يتوجه الى الشعب مستخدما لغته لكي يتمكن من التصدي للملاهي التي يعرض فيها ما يسيء الى أخلاق الناس ويفسد آدابهم . كذلك استخدم سيد درويش ومنيرة المهدية العامية في مسرحهما الغنائي ، والريحاني في ملاهيه وهزلياته ، وعلي الكسار الذي ذكر أنه يريد مخاطبة الشعب بلغة يفهمها ، لكي يمكنه من معرفة أمراضه ووسائل علاجها . وقد لجأ إلى العامية يوسف وهبي في عدد من مسرحياته الجادة ، ومحمود تيمور في مسرحياته الواقعية المعاصرة ، وتوفيق الحكيم في بعض مسرحياته الأولى ، ومنها ، « المرأة الجديدة » (١٩٢٣) ، « حياة تحطمت » (١٩٣٠) ، وبعض مسرحياته ذات الفصل الواحد ، مثال : « الزمار » (١٩٣٢) ، « جنسنا اللطيف » (١٩٣٥) . وشهد النصف الثاني من الخمسينيات مرحلة جديدة في مسيرة المسرح المصري بدأت بعرض مسرحية « الناس اللي تحت » لنعمان عاشور ، وكان ذلك عام ١٩٥٦ . ومن أهم مميزات هذه المرحلة كما حدّدها الناقد جلال العشري ، التصاقها بالواقع المصري المعاصر في موضوعاتها وشخصياتها وحوارها ، ولذلك استبدلت الفصحى بالعامية ، وظهر جيل من كتاب المسرح المصري ، هو جيل مابعد ثورة ١٩٥٢ ، يستخدم العامية فيما يكتبه من مسرحيات جادة ملتزمة ، تتمتع بالنضج الفني الذي لم يتوافر لكثير من المسرحيات التي سبقتها . وترك لنا مسرح الستينيات في مصر تراثا مسرحيا كبيرا كانت العامية لغة حواره ، وأبرز كتابه : نعمان عاشور ، سعد الدين وهبة ، الفريد فرج ، يوسف ادريس ، رشاد رشدي ، ميخائيل رومان ، نجيب سرور ، محمود دياب ، علي سالم

وآخـرون ممن واصل معـظمهم الكتـابـة في السبعينيات وبعضهم في الثمانينيات .

وفي العـراق كتب يـوسف العـاني للمسـرح العراقي ، منذ بداية الخمسينيات ، مسرحيات ملتزمة تعالج قضايا سياسية واجتماعية من واقع العراق المعاصر حين كتابتها ، وهي مسرحيات كـما يذكـر العاني نفسـه ، كتبت لتمثـل ومُثلت بالفعل ، ولذلك جعل المؤلف كلا من الشخصية المسرحية والجمهور موضع اهتمامه .

إن إعادة كتابة الحوار بـالفصحى عند نشر المسرحية ليس حلا لمشكلة لغة الحوار في المسرحية العربية ، فمن البديهيات المعروفة أن المسـرحية تشاهد ، ولا يكتمل وجودها إلا بعرضهـا على خشبـة المسـرح . وإذن ، فمـازالت المشكلة قائمة ، وستظل المسرحية المكتوبة بالعامية محدودة الفاعلية بسبب عاميّتها تلك . وبـالإضافة الى ذلك ، فإن إعادة الكتابة تتطلب من الكـاتب جهدا فنيا ووقتا ، كما أن من العبث واللامعقول أن يكتب الكـاتب نسختين من كـل مسـرحيـة يؤلفها ، ولابد أنه غير مقتنع بإحداهما .

وفي المسرح الكويتي اتجاه واضح في معـالجة القضايا الاجتماعية المحلية والمعاصرة ، مما أدّى بكتّاب هذا النوع من المسرحيات الى اتخاذ العامية لغـة الحـوار . وتـطغى العـاميـة عـلى المسـرح الجزائري ، وتظهر واضحة في النتاج المسرحي في تونس والمغرب .

اللغة الثالثة

استخدم توفيق الحكيم الفصحى في أغلب مسرحياتـه،والعاميـة في القليل منهـا ، ولكنـه في مسـرحية « الصفقـة » ومن بعدهـا « الورطـة » جرّب استخدام لغة ثالثة ، كما يدعوها، ويحددها بأنها لغة التخاطب في الحياة اليومية ، ولكنها مع ذلـك قريبـة الى العربيـة الصحيحة . وهي لن تحتاج عند التمثيل الى نقلها الى العامية ، وبذلك لن يكـون للمسرحيـة نصان بـل نص واحد ، ينطقه الممثل عاميـا ويقرؤه القـاريء فصيحا .

إن ما يقترحه الحكيم ليس بقادر على أن يحقق للمسرحية العربية شمولية يحول استخدام العامية دون تحققهـا ، فـإن الارتفـاع بلغـة التخـاطب وتقـريبها من الفصحى ، في مصـر وحـدهـا ، بالمقترحات التي أشار إليها الحكيم يتطلب جهدا ووقتا من الأدباء والدارسين للاتفاق على الرخص والاختزالات والتغييرات المطلوبة لإيجاد اللغة الجديدة ، وإلا فان كل كاتب سيجتهد في ذلك ، وستتكون ، في مصر وحدها ، لغـات لا لغة واحدة جديدة ، ويصير الصـدع كسرا بـدل أن يُرأب . إن اللغة الثالثة الجديدة حـين تظهـر ، ستكون لغة المسرحيات المصرية ، لأنها قائمة ، أساسا ، على التقريب بين استعمالات العـامية المصرية والفصحى ، وإن لكل قطر عربي عاميته التي تختلف عن العاميات الأخرى في مفرداتهـا وتراكيبها وتكوين جملها ، ولذلك فإن إيجاد لغة ثالثة يقتضي وقتا وجهدا في كل قطر عربي ، أو في أحسن الأحوال في أقطار قليلة تتقارب عامياتها ، للاتفاق على التجاوزات والاختزالات المطلوبة . وعلى الرغم من ذلك ستظهر لغات جديدة بدلا من لغة واحدة منشودة ، بالإضافة الى أن اللغات الناتجة ستكـون لغات مصنـوعة وليست لغـات طبيعيـة تفرضهـا احتياجـات الواقـع ، وسيظل المسرح العربي ، بعد تلك الجهود كلها ، إقليميا لا يحقق التواصل الشامل المرجو له . وقد ناقش محمـد غنيمي هلال ، في كتـابه « النقـد الأدبي الحديث » اللغة الثالثة التي استخدمها الحكيم في مسـرحيتـه « الصفقـة » ، وأشـار الى ركـاكـة العبارات وعاميتها .

إن الدليل على قصور لغة الحكيم الثالثة يظهر في أن الحكيم نفسه لم يستخدمها في غير مسرحيته

المذكورتين سابقا ، ولم يستخدمها سواه من الكتاب المسرحيين في مصر على الرغم من مضي زمن طويل على دعوة الحكيم إليها ، ظهرت مسرحية « الصفقة » عام ١٩٥٦ ـ وكذلك لم تقم في الأقطار العربية الأخرى أي محاولة نظرية أو جهود عملية لإيجاد لغة ثالثة بديلة .

مشكلة بلا حل ؟

إذن ، هل هي مشكلة دون حل ؟ بدءا ، ينبغي الإشارة الى أن المسرح ، مثل أي فن آخر ليس الواقع نفسه ، وإنما هو فن وصنعة ، وله جمالياته المعروفة . وليست مهمة الفن ـ حتى الواقعي منه ـ نسخ الواقع وإنما إعتاؤه وتفسيره مستخدما في ذلك وسائل فنية مختلفة ، ومستعينا بخيال الجمهور الذي يسد الفراغات ويرى على المسرح ماقد تقصر طاقات العرض المسرحي عن توفيره . وكما يتقبل الجمهور مشهد غابة مرسومة على ستارة على أنها غابة حقيقية تجري فيها الأحداث ، وكما يستسيغ الجمهور نوعا معينا من الإنارة ويجد فيها ضوء القمر دونما قمر حقيقي ، كذلك ينبغي التعامل مع لغة الحوار في المسرحية على أنها لغة فنية لا لغة الواقع نفسه كما هي ، وتلك حقيقة يتفق عليها الباحثون .

إن استخدام الفصحى « المحدثة » المعاصرة في الحوار يمكن المسرح العربي من التغلب على المشكلة الفنية ، مشكلة مناسبة اللغة للشخصية ، وعلى ما يسببه استخدام العامية من محدودية وانغلاق ، ويحقق كذلك الارتفاع بلغة الجمهور ، فليس المفروض في المسرح أن يهبط بالجمهور ، وإنما يفترض فيه أن يرقى بالجمهور وهو يمتعه ويسلّيه ، وأن يسمو بمشاعره وأفكاره ولغته ، وذلك ما حققته وتحققه المسارح الجيدة في أنحاء العالم . وما يقال عن المسرح يصدق على وسائل الاتصال الجماهيري ، لاسيما التلفاز .

إن مشكلة لغة الحوار في المسرح العربي جزء من مشكلة أكبر هي الابتعاد عن الفصحى في التخاطب والحوار حتى في أوساط المثقفين وفي المناسبات الثقافية ، بل وحتى في التدريس على اختلاف مستوياته . وفي دروس اللغة العربية نفسها . وهذه المشكلة على خطورتها ، لم تحظ بالاهتمام والعناية اللازمين ، ولم تبذل جهود جادة من أجل البدء بتجاوزها . لن يكون إحلال الفصحى « المحدثة » المعاصرة محل العامية أمرا ميسورا ، ولكن يمكن تحقيق العسير حين يتوافر الاعتقاد بأهمية الهدف والاستعداد للعمل ، ألا نبدأ ؟ . □

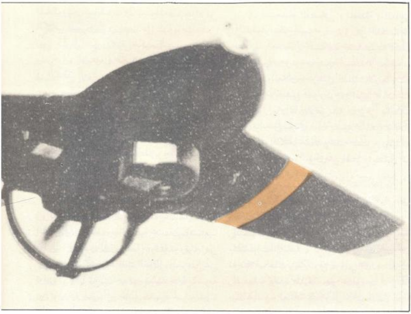
زمن نابليون

سئل برنارد شو مرة : في أي عصر كنت تفضل أن تعيش ؟
فأجاب : في عصر الامبراطورية الأولى ، ففي ذلك الزمان كان رجل واحد يزعم أنه نابليون .


نابليون

أنا عدو الشرح الطويل ، فهو يخدع إما من يقوم به أو من يصغي إليه ، وعادة مايخدع الاثنين معاً .

« غوته »



طائرة ركاب بدون طيّار .. وبلا وقـــود !!

بقلم : سعد شعبان

تحقق في كندا - في نهاية عام ١٩٨٧ - إنجاز سيكون له ما بعده في عالمي الطيران والفضاء . فقد أمكن تحليق طـائرة بـلا وقود ولا طيـار ، وأخذت حركتها من محرك كهربائي على متنها وهذا يعمل بطاقة اشعاعية تصل اليه من الأرض . فتحركت الأحلام لتسيير طائرة ركاب بلا وقود ، وشطحت الأحلام الى حد الاستغناء عن بعض الأقمار الصناعية وتصميم صاروخ فضائي يعمل بهذه الاشعاعات .



● طائرة بدون طيار

ليس العهد ببعيد عندما انقطع تدفق النفط عن أوروبا عام ١٩٧٣ إثر المقاطعة العربية عندما اندلعت الحرب بين العرب و «اسرائيل» ، ووقتها ظهرت الطوابير الطويلة أمام محطات البنزين ، وظهر الحصان في أغلب شوارع المدن الأمريكية والأوروبية ، وتصاعد الحديث عن أزمة الطاقة ، ومنذ ذلك الحين بدأ الغرب يفكر جديا في صور الطاقة البديلة للذهب الأسود . وجدَّ العلماء في بحوثهم سعيا وراء الاستقلال والبحث عن صورة أرخص لطاقة ظل العلماء يحلمون بها سنوات طوالا ، ولم يجدوا أيسر ولا أرخص من الطاقة الشمسية ، باعتبارها منحة إلهية توجد في الحياة بلا ثمن ، وكان من البحوث الرائدة في هذا المجال ، بحث يهدف الى تسييل غاز الهيدروجين الموجود في الهواء وحرقه ، فيحقق هدفين هما سهولة المصدر باعتباره أحد مكونات الهواء ، وسهولة الاحتراق لكونه غازا جيد الاحتراق ، لكنه يحتاج للأوكسجين كمؤكسد ، وهو أيضا موجود في الهواء . ويومها شطحت أحلام علماء الطيران ، لأن مثل هذا المصدر للطاقة لو تحقق لأمكن أن تطير الطائرة بلا توقف . فهي تستمد الهيدروجين من الوسط الذي تطير فيه ، ولكن ذلك يستلزم أن تتغير تصميمات محركات الطائرات ، وقد يتوارى بعضها الى عالم النسيان ، حتى تتلاءم مع الوقود الجديد . ومازالت بحوث العلماء ماضية في هذا السبيل وقد تتحقق يوما ما .

طائرة بلا طيار :

على نفس المضمار ظهرت في أواخر الحرب العالمية الثانية الطائرات الموجهة اليكترونيا التي تطير بلا طيار . شاع استخدامها في الحرب الكورية ثم حرب فيتنام . ومازالت تحقق كثيرا من الأهداف العسكرية دون التضحية بطيار لتنفيذها ، والإقلال من مخاطر تعرض الطائرة للدفاعات الجوية المعادية . وأغلب هذه الاستخدامات وأهمها الاستطلاع العسكري وكشف الأهداف المعادية ، أو بمعنى أدق التجسس لمعرفة مالدى الأعداء أو تبين تحركاتهم .

لذلك تجهز الطائرات التي بلا طيارين بأجهزة التصوير اللازمة لتصوير الأهداف المعادية التي تطير فوقها . فإذا كان الوقت نهارا ، استخدمت آلات التصوير العادية ، واذا تحول الوقت الى الليل وحل الظلام ، استخدمت آلات تصوير تعمل بالأشعة تحت الحمراء ، أو استخدمت أيضا آلات التصوير التلفازية الأكثر دقة والأكبر مدى .

ولأن الطائرة بلا طيار وليس مفروضا أن تعود الى أراضيها ـ وغالبا لا يتم لها ذلك ـ فإنه يلزم متابعتها وتوجيهها منذ وقت الاقلاع حتى تخترق مجال الأعداء وتقوم بمهامها الاستطلاعية .

ولذلك توضع على متن هذه الطائرات أجهزة اليكترونية تتعامل مع محطات التوجيه الأرضية التي تحقق لها سلامة الطريق المختار بعيدا عن الدفاعات

المضادة . كما تحقق التحكم في سرعتها وارتفاعها وتغيير اتجاهها من أجل المناورة في انجاز مهامها . كما تقوم الأجهزة الاليكترونية أيضا بمهمة نقل الصور لاسلكيا الى محطات المتابعة ، لأن عودة الطائرة ليست مضمونة بأفلام التصوير .

بذلك تتحقق سرعة نقل المعلومات في حينها ، وهو أمر لم يكن متاحا عند الاعتماد على الاستطلاع بواسطة الطائرات التي يقودها طيارون . لأن المعلومات كانت تأتي متأخرة بضع ساعات تستنفد في الطيران والعودة وتحميض الأفلام وتكبيرها ، ثم تفسير الصور ونقلها الى حيث يستفاد منها .

لقد تعددت استخدامات الطائرة بلا طيار فأصبح لها - الى جانب الاستطلاع بالتصوير - أدوار جديدة في مجالات الاستطلاع الاليكتروني والتشويش على الرادارات العسكرية ، أو حمل حمولات ناسفة لاسقاطها أو السقوط بها فوق أهداف معادية محددة وصغيرة الحجم .

كما استخدمت هذه الطائرات أيضا لتضليل الصواريخ المعادية ، باسقاطها سطوحاً معدنية كأوراق القصدير أو عبوات خفيفة تحمل ألياف معدنية لتنعكس عليها نبضات الرادار فتحدد لها أهدافا وهمية ، أو لتكشف مواقع انطلاق هذه الصواريخ .

الاليكترونيات والميكروويف :

ومع تقدم تقنية الاليكترونيات ، تقدمت صناعة أجهزة توجيه الطائرات بلا طيارين ، وأصبحت أكثر دقة وأبعد مدى . ومع تقدم استخدام الحواسب الالكترونية زودت كثير من الطائرات بأجهزة « الطيار الآلي » سواء الطائرات العسكرية أو المدنية لتستغنى عن التعامل مع المحطات الأرضية . فالطيار الآلي يقوم بمهام التحكم في الاقلاع والتوجيه والمناورة والتصوير والتشويش والاسقاط والتحكم في كل شيء حتى لحظة الهبوط .

ومن صور التقدم في تقنية الالكترونيات عامة بعد الحرب العالمية الثانية ، تركيز الأشعة اللاسلكية في حزم دقيقة للتحكم في اتجاهاتها وذلك بزيادة تردداتها .

والمعروف أن كل الموجات اللاسلكية هي في طبيعتها تموجات كهرو - مغناطيسية تنتقل في الهواء أو في الفضاء بسرعة الضوء التي تساوى ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية الواحدة . وكلما زاد تردد الموجات اللاسلكية قصرت أطوالها ونقص مدى انتشارها . وتقاس الترددات بوحدات يطلق عليها اسم « الكيلو هرتز » اى (الألف تردد في الثانية) أو « ميجاهرتز » أى (مليون تردد في الثانية) .

لقد تمثل هذا التقدم الاليكتروني في ابتكار الرادار في نهاية الحرب العالمية الثانية ، وأصبح قادرا على اكتشاف مواقع الطائرات المعادية ، الأمر الذى كان له أثره في وضع نهاية للغارات التي ركزها الألمان فوق الجزيرة البريطانية . بل وفي وضع نهاية للحرب ، لأن تقنية الرادار ظلت سرا لدى المعسكر الغربي حتى وضعت الحرب أوزارها .

ولم يتوقف التقدم في زيادة الترددات على الرادار ، فقد ظهرت الى الوجود محطات الانصالات المتعددة القنوات التي تطورت فيها بعد وأصبحت محطات « الميكروويف » أي الترددات متناهية القصر .

لقد أصبحت موجات « الميكروويف » قادرة على تحقيق التوجيه الدقيق نظرا لشدة تركيزها ، والانتقال في حزم موازية لسطح الأرض . وتحتاج أشعة « الميكروويف » الى هوائيات معدنية طبقية الشكل لنقلها من نقطة الارسال الى نقطة الاستقبال . ولقد نجحت موجات « الميكروويف » في خلق دنيا جديدة في عالم الاتصالات لأنه يمكن أن تحمل عليها آلاف المكالمات الهاتفية والإشارات .

وفي حقبة السبعينيات أنفقت الولايات المتحدة الأمريكية ما يزيد على ٢٠ مليون دولار ، لوضع خطة تستهدف تحويل الطاقة الشمسية الى طاقة كهربية على منصات كبيرة المساحة تعلق في الفضاء وتستهدف البحوث نقل هذه الطاقة بعد ذلك من الفضاء وبثها الى الأرض بأشعة « الميكروويف » ، لكن مازالت هذه البحوث داخل المعامل ، وتلقى

كثيرا من الاعتراض لأنها ستزيد تلوث الغلاف الجوى بالاشعاعات .

المفاجأة الكندية :

في ٤ سبتمبر عام ١٩٨٧ تحقق انجاز جديد في عالم الطيران ستكون له آثاره في المستقبل ، إذ أمكن لستة من الباحثين الكنديين في عالم الطيران اطلاق طائرة صغيرة في تجربة رائدة . ووجه التجديد أنها تطير بلا طيار وأيضا بلا وقود .

ولقد ارتفعت الطائرة في الهواء بدفع مروحة هوائية . واستطاعت أن تحلق على ارتفاع مئات قليلة من الأمتار فوق الغابات الكندية بسرعة بلغت ٣٥ كيلو مترا في الساعة .

ومن الناحية النظرية فإنه كان بوسع هذه الطائرة أن تظل في الجو لعدة أيام أو اسابيع أو حتى شهور ، لو أراد لها الباحثون ذلك . لأنها لم تكن تحمل وقودا



● الجناح الطائر

على الاطلاق ، ولكن تأتيها الطاقة من شعاع « ميكروويف » يرسل من الأرض .

لقد كانت الطائرة نموذجا صغيرا ، طول جناحها لا يزيد عن خمسة أمتار .

وقد قام الباحث الكندى « جو شليزاك » وزملاؤه في مركز أبحاث الاتصالات الكندي بتصميم هذا النموذج الذي يمكن اعتباره « طائرة بلا طيار » لكى يقوم بدور قمر صناعى للاتصالات . أي لكى ينقل الاذاعات المسموعة والمرئية التلفازية الى مناطق نائية لتوفير النفقات الباهظة للأقمار الصناعية .

والسؤال الذى يطرح نفسه هو ، كيف أمكن أن يطير هذا النموذج بدون محرك للاحتراق ؟ . والحقيقة أن عملية توجيهه والتحكم في اتجاهاته تمت بامداده بطاقة اشعاعية بواسطة «موجات « ميكروويف » وجهت اليه من الأرض في اتجاه رأسي الى أعلى ، حيث استقبلتها هوائيات معدنية مستطيلة الشكل ثبتت أسفل هيكل الطائرة وتحت أجنحتها . وقد قامت هذه الهوائيات بنقل هذه الطاقة لتتحول داخل النموذج الى تيار كهربى يعمل على تغذية المحرك الكهربى الذى يمد المروحة بالحركة الميكانيكية اللازمة ادارتها .

وفي المستقبل القريب سوف يطور الباحثون النموذج المصغر للطائرة التى حلقت في سبتمبر ١٩٨٧ ، الى نموذج كبير طوله ٣٥ مترا . وسيظل هذا النموذج المطور يطير في الهواء لعدة شهور ، معلقا فوق حقل من الهوائيات قطره عشرات الأمتار . ويقدر أنه سيستطيع أن يصعد حتى ارتفاع ١٩ كيلو مترا . وعندئذ سيكون في وسع هذه الطائرة نقل اذاعات المذياع والتلفاز وبثها فوق مساحة واسعة تعادل ولاية أمريكية كاملة . ويمكن أن يبقى هذا النموذج الذى لا يقل في حجمه عن طائرة عادية الى أجل غير مسمى .

وكالة ناسا تلتقط الخيط :

عقب هذه التجربة الكندية الرائدة ، شرع المصممون في وكالة الفضاء الأمريكية « ناسا » وفي

عدد كبير من الجامعات الأمريكية ، في صنع طائرات بدون طيارين ، لكى تعمل « بالميكروويف » . والهدف الذى يخططون له هو أن تتمكن هذه الطائرة من أداء مهام علمية فى أعالى الغلاف الجوى ومشارف الفضاء الخارجى . وربما تمتد المهام الى الاعمال العسكرية كمثل المراقبة والتصوير ، على غرار ما تقوم به الأقمار الصناعية التى تعمل في المدارات المنخفضة لأغراض التجسس . ولاشك أن مثل هذا الإنجاز سيكون أقل تكلفة من اطلاق قمر صناعى للقيام بنفس المهام ، لأن اطلاق القمر يحتاج لصاروخ دفع وتجهيز قاعدة اطلاق ، ومحطات توجيه .

وقد أدرك الباحثون الأمريكيون أن طائرة « الميكروويف » يمكن أن تقوم بمهام لا تستطيعها الطائرة العادية ، مثل عمليات الاستطلاع من ارتفاعات عالية ، ووقتئذ يمكن أن تزود طائرة « الميكروويف » بكاميرات للتصوير المتنوع . ويمكن أن تتعدد أغراض هذا الاستطلاع وتمتد الى غير الأغراض العسكرية مثل كشف المهربين ، ومراقبة زوارق الصيد على السواحل ، ومراقبة الأحوال الزراعية وتحديد أماكن الحرائق في الغابات ، وأحوال الطقس المحلية .

لقد تعاقدت وزارة الطاقة الأمريكية مع إحدى الشركات لتصميم طائرة « ميكروويف » تستطيع التحليق على ارتفاع ٢٢ كيلو مترا لدراسة تجميع غاز ثانى أوكسيد الكربون ، وظاهرة جديدة تعرف في الأوساط العلمية باسم « تأثير المحميات الزراعية » التى نطلق عليها اسم (الصوبة) وذلك لاستكمال دراسة وتأثير هذه المحميات على الغلاف الجوى ، وزيادة غاز ثاني اوكسيد الكربون فيه ، وتأثير ذلك على التغييرات التى تطرأ على طقس الارض . وقد اقترح مهندسو التصميم صنع طائرة ميكروويف يبلغ طول جناحها ٤٥ مترا ، ويمكنها حمل ٢٥٠ كيلو جراما من الاجهزة ، ليكون بوسعها البقاء في الفضاء إلى أجل غير مسمى وإذا تعطلت الطاقة الصادرة إليها من حقل الهوائيات فيمكن أن يقوم مولد ديزل بالعمل بدلا منها .



● كيفية تشغيل طائرة الميكروويف .

آمال المستقبل :

بعد نجاح تجربة طائرة « الميكروويف » ، شطح خيال العلماء الى تطوير هذا النجاح والقفز الى انجازات أكثر تقدما . وعلى سبيل المثال :

* إن وجود طائرة « الميكروويف » يعنى أنه في المستقبل القريب ، سيمكن لأى دولة من دول العالم الثالث تتوافر لديها طاقة كهربية رخيصة أن تحصل على مايعادل قمرا صناعيا للاتصالات .

* يتصور البعض إمكان استخدام « الميكروويف » في المستقبل في أغراض متطورة أكثر طموحا من امداد طائرة بالطاقة ، كاطلاق « سفينة فضاء » أو « شاحنة فضائية » الى مدارات منخفضة . ويشجع على ذلك

ما وصلت اليه تقنية المواد من تقدم في تخليق مواد خفيفة الوزن ، وما تحقق من نجاح فعلي في صناعة طائرة استطاعت خلال عام ١٩٨٦ الدوران حول الكرة الأرضية في قفزة واحدة دون حاجة الى التزود بالوقود .

* ونفس هذا النجاح يعني أنه من الممكن مستقبلا أن تحلق في السماء طائرة « ميكروويف » ذات حجم عادي ، وتظل في الهواء معلقة لمدة عشر سنوات لتقوم بأي مهام علمية أو عسكرية .

* ومن الناحية النظرية فإنه يمكن لطائرة « الميكروويف » أن تحمل ركابا ، ولكن سيتعين آنذاك متابعة مسار الطائرة لامدادها بطاقة « الميكروويف » بالتتابع كل مائتي كيلومتر تقريبا ، من محطات أرضية . لأن ذلك سيكون بلاشك أرخص من استخدام الطائرات الحالية التي تلتهم كميات خيالية من البنزين .

* يقترح بعض الباحثين تصميم « صاروخ فضائي » يعمل « بالميكروويف » ، يمكن استخدامه في رفع الأقمار الصناعية من مدار منخفض الى مدار أعلى ، حيث يمكن لهذه الأقمار أن تعمل في أغراض البث المباشر . لكن ذلك سيتطلب أجهزة إرسال لأشعة « الميكروويف » تكون بالغة القوة . وهو ما يتصور بعض العلماء أنه سيكون محل تطوير أثناء برنامج « حرب النجوم » الأمريكي .

حفنة من المصاعب :

شأن كل اكتشاف جديد ، يكون هناك جانب براق هو الإنجاز الذي يحققه ، لكن يقف أمامه عدد من المصاعب ، أو قد تكون له آثار ضارة .

وبالنسبة لطائرة « الميكروويف » توجد مخاطر بيئية وصحية عديدة يلزم الإشارة اليها .

فكل لون من ألوان الإشعاعات له مخاطر على صحة الإنسان التي تزيد من احتمالات الإصابة بالسرطان . ولاشك أن نشر عدد من محطات « الميكروويف » التي ترسل طاقاتها في الهواء ، ستكون بمثابة مصدر جديد من مصادر تلوث البيئة بالاشعاعات . وعلماء البيئة يشعرون بكثير من القلق ازاء مصير الذين سيعيشون بالقرب من حقول هوائيات « الميكروويف » ، وخاصة أن بعض الافتراضات تصور أن مساحة حقل الهوائيات اللازم ستكون في مساحة ملعب لكرة القدم . فكيف سيمكن لجيران هذا الحقل العيش الى جواره دون مخاطر ؟ .

ولكن المشجعين للمشروع يقولون بأنه من الممكن اقامة مثل هذه الحقول في أماكن نائية بعيدة عن التجمعات السكانية .

وعلى الرغم من أن المواد الخفيفة الوزن قد أصبحت حقيقة واقعة ، فإن هناك مصاعب أيضا في تصنيعها ، واستخدامها في طائرات « الميكروويف » ، أو صواريخ « الميكروويف » ، لأنها ستستغرق وقتا طويلا حتى تصعد الى مدارات عالية . إلا أن انخفاض تكاليفها الى درجة كبيرة تعادل ١ الى ٢٠ من الثمن ، أمر يغري بالتفكير ، ومحاولة تذليل المصاعب . □

تعبيرات راقصة

× يقولون إنها دينامو بشري . . تشحن كل شيء بكهربائها .
× الزمن حائك ثياب تخصص في اجراء التعديلات .
× شيئان نجدهما في الحياة بوفرة ، النصيحة الجيدة ، والمثل السيىء .
× الأفكار كالبراغيث ، تقفز من إنسان لآخر ، ولكنها لا تلسع كل إنسان .

أرقام ٦٨٧٠٥٣٤٠

بقلم : محمود المراغي

«السّقا» مشكلة سياسيّة !

من يصدق انه ما زال في مدن عالمنا الثالث من يتعذر عليه الحصول على مياه الشرب فيلجأ «للسقا» ويدفع اضعاف ما يدفعه من يتمتع بالمياه الصالحة للشرب، المنقولة عبر الانابيب؟

من يصدق ان نسبة هؤلاء ـ ووفقا لاحصاءات البنك الدولي ـ تصل الى ٢٣٪ من سكان الحضر في الدول النامية، وان النسبة ترتفع الى ٣٥٪ في افريقيا «جنوب الصحراء»؟

الظاهرة رصدتها المنظمات العالمية، وقالت انه نتيجة لذلك يدفع المواطن في نيجيريا للسقايين عشرة اضعاف ما يدفعه الاخرون الذين تصلهم المياه الى منازلهم، وترتفع النسبة الى ١٥ ضعفا في بيرو، وستين ضعفا في اندونيسيا، وتصل كحد اقصى ـ الى مائة ضعف في هاييتي!

الظاهرة مقلقة، ونحن على ابواب القرن الواحد والعشرين.. ومع ذلك فهي جزء من ظاهرة اوسع اسمها: مشكلة المرافق والخدمات في الدول النامية.

بعد الاستقلال

معظم هذه الدول التي نطلق عليها اسم «الدول النامية» تدخل ضمن الدول حديثة الاستقلال.. ولهذه الدول سماتها.

.. فهي في العادة فقيرة في الامكانيات اللازمة للبناء.

.. وفقيرة في المرافق التي تمثل ما نسميه «بنية اساسية» كالماء والكهرباء والطرق والصرف الصحي.

.. وفي نفس الوقت.. فهي غنية بالتطلعات، حتى اطلق علماء الادارة والتنمية كلمة «ثورة التطلعات او ثورة التوقعات» تعبيرا عن المناخ السائد في الدول حديثة الاستقلال والتي تعتقد شعوبها انه بالتخلص من الاستعمار والسيطرة على الثروة الوطنية، لا بد ان يتحسن مستوى المعيشة ويجني الفرد ثمار الاستقلال.

في مثل هذه الاحوال يكون الاندفاع لبناء المرافق الاساسية واردا.. ويكون الضغط الجماهيري شديدا لانجاز المزيد من الخدمات، والتي يجري تقديمها في العادة بتمويل حكومي، وبأقل من التكلفة.

نتائج متباينة

تختلف نتائج هذه السياسة من بلد الى اخر وفق ظروفه الاقتصادية، وتعداد سكانه، وحالة المرافق والخدمات.. ولكن وفي معظم الاحوال تمضي السنوات والصورة على هذا النحو :

.. المرافق والخدمات دون حد الاشباع.

.. القروض الخارجية يجري توجيهها للمرافق الداخلية غير المنتجة ماليا، فتتزايد القروض وتتزايد الأعباء، خصما من الدخل الجاري، المنخفض في العادة.

.. الانفاق لا يقابله انتاج سلعي، او انتاج خدمات للبيع بالسعر الاقتصادي فتكون

النتيجة: المزيد من التضخم وارتفاع الاسعار.

.. تتم المرافق في كثير من الحالات اعتمادا على الخبرة والاموال الاجنبية، فتأتي تكلفتها اضعاف التكلفة الحقيقية.

ولكن.. كيف تواجه الدول ذلك، وهي لا تستطيع الغاء التزامها تجاه مواطنيها؟

- في العديد من الحالات.. كان الحل ماليا، وفرديا، وفوضويا .

تتعقد مشكلة النقل في المدن الكبرى، فينسحب القطاع العام تدريجيا ويترك الفرصة للقطاع الخاص فتتدفق السيارات، وتضيق بها الطرق. فيتدخل اصحاب سلطة التشريع بفرض رسوم مرور تحد من حركة المرور، او تزيد من موارد الدولة. النموذج الأول - الحد من حركة المرور - جرى تطبيقه في سنغافورة حيث تقرر فرض رسوم على السيارات التي لا تحمل ركابا بأعداد كبيرة وتدخل للمناطق المزدحمة.. اما النموذج الثاني - وهو فرض رسوم لزيادة الموارد ومواجهة نفقات المرافق، فقد تم اخيرا - وعلى سبيل المثال - في مصر حيث يتزايد عدد الطرق «الاوتو ستراد» التي يجري المرور عليها نظير رسم محدود يدفعه المسافر في اول الطريق .

نفس المنطق - وبنصيحة من البنك الدولي او صندوق النقد الدولي - يجري تطبيقه في الماء والكهرباء والصرف الصحي.. حيث يجري تحريك اسعار استهلاك الماء والكهرباء وتقليل الدعم الموجه لها املا في زيادة الموارد وانقاص الاستهلاك.. حتى الصرف الصحي يجري استنباط اشكال لفرض رسوم عليه.. وحتى مياه الري تجري الدعوة لبيعها للفلاحين! .

الظاهرة مقلقة.. فمشكلة المرافق لم تحل، وميزانيات الحكومات لم تنصلح، واعباء المواطنين تتزايد .

نموذج القاهرة

القاهرة نموذج واضح لذلك.. فقد نمت عشوائيا.. امتدت جغرافيا.. تزايد سكانها بشكل غير مخطط.. بلغ عددهم في القاهرة الكبرى والتي تضم محافظة القاهرة واجزاء من الجيزة والقليوبية «١٢» مليون نسمة، يتحرك في دروب المدينة اكثر من نصفهم كل يوم. في مجال واحد هو مجال الحركة والنقل نرصد الآتي كنموذج لما نقول:

.. نصف مليون سيارة خاصة تتحرك .

.. «٣» الاف اوتوبيس بري ونهري وعربة ترام ومترو.. تنقل كل يوم «٢» مليون راكب .

.. «١٥٠» الف سيارة اجرة و«١٥» الفاً مما يسمى سيارة «سرفيس».

و.. في مهنة واحدة هي مهنة بائع متجول يتحرك في القاهرة «٣٠٠» الف بائع .

النتيجة: اختناق في الطرق والمواصلات - وقت ضائع في الانتقال وقضاء الحاجات - آلاف الساعات وآلاف الملايين تضيع كل سنة.. ومستوى منخفض من الخدمة .

المشكلة.. والحل

هل من حل لهذه الظاهرة التي تسود العالم الثالث؟ .

في التحليل نقول.. ان الظاهرة اتسعت نتيجة النمو غير المخطط وغير المتوازن.. حدث الاستقلال فاندفع الجميع للاصلاح.. لكن كان اصلاحا أحادي الجانب.. وبينما نمت الخدمات وزادت المرافق لم ينم قطاع الانتاج بنفس الدرجة، ولم تمتد يد المخطط لغير توزيع السكان وتحدث نوعا من التحكم في الحركة والانتشار.. وبينما تولت الحكومات الانفاق على هذه المشروعات.. فقد تخلت في كثير من الحالات عن وظيفتها الاساسية: التخطيط والتوجيه والتحكم في المتغيرات الاساسية للمجتمع.. لقد قامت الحكومات بأعباء الحكومات الاشتراكية وسلكت مسلك الحكومات الرأسمالية.. والحل - لدول محدودة الموارد - هو التخطيط.. والتخطيط.. والتخطيط، وحينذاك سيختفي «السقا» وتختفي معه الكثير من الاشياء التي تدخل باب «لزوم ما لا يلزم»! . □



المـرأة الأوربيّـة على مسـرح الحـُروب الصليبية

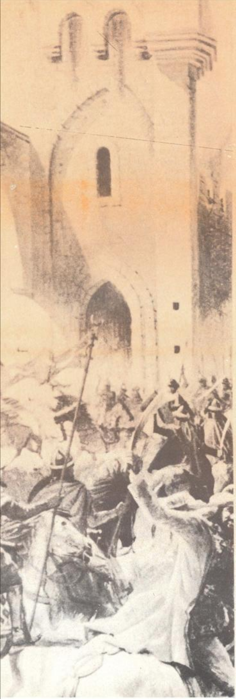
بقلم: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

من المعلومات المتواترة في كتب التاريخ ، أن المرأة الغربية في العصور الوسطى لم تلق قدراً كافياً من الاحترام والتقدير ، وأنها كثيراً ما كانت تتعرض للأذى والضرب والامتهان ، مما جعل الكنيسة تتدخل أكثر من مرة للتخفيف عنها . كيف كان موقف الكنيسة ؟ وماذا فعلت ؟

ربما كان من أطرف الاجراءات التي اتخذتها الكنيسة لرفع الظلم عن المرأة في تلك العصور ، ذلك المرسوم الذي صدر عن البابوية في القرن الثالث عشر ، والذي يحدد فيه حجم العصا التي يجوز استخدامها في ضرب المرأة ، فإذا كانت العصا مستوفية لشروط معينة من ناحيتي الطول والسمك ، فإن الضرب يكون جائزا مشروعا .

المرأة في ظل الاقطاع

علينا أن ندرك أن هذا الوضع السيِّىء الذي كانت عليه المرأة الأوربية في العصور الوسطى لم يشمل كل نساء المجتمع ، وإنما هناك فئات من النساء تمتعن بقدر كبير من حرية العمل والحركة ، ومارسن في الحياة العامة دوراً نشطاً ، ربما فاق دور الرجال . ذلك أن المجتمع الأوربي



الغربي في تلك العصور كان مجتمعا طبقيا تفاوتت فيه أقدار البشر وحقوقهم ، وفق الطبقة التي ينتمون إليها . وازداد هذا الطابع الطبقي وضوحا في حقبة ازدهار النظام الاقطاعي ، بين القرنين التاسع والثالث عشر للميلاد ، ففي ظل هذا النظام حرمت المرأة في طبقة الرقيق والأقنان من معظم الحقوق التي تكفل لها حياة بشرية كريمة ، في حين نعمت نساء النبلاء والفرسان بكل مظاهر الاحترام والتبجيل ، وتمتعن بامتيازات واسعة على الصعيدين السياسي والاجتماعي . وبقدر ما كان الفارس يمتهن زوجة القن أو ابنته ، بقدر ما كان ينحني أمام المرأة التي تنتمي إلى طبقته ، ويقبل يدها ، حتى قيل إن الفارس نصير الله والمرأة .

وفي ظل هذه التقاليد خرج الصليبيون من غرب أوربا في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد ، على هيئة حملات متتابعة ، قاصدين المشرق الاسلامي ، حيث نجحوا في تأسيس ثلاث إمارات كبرى في الرها وانطاكية وطرابلس ، ومملكة قوية في بيت المقدس ، عدا الكثير من الموانيء والحصون التي استولوا عليها . وكان للصليبيين في مستوطناتهم بالشرق نشاط واسع متعدد الأوجه ، أسهمت فيه المرأة بدور فعّال يتفق ومركزها الاجتماعي من جهة ، والأوضاع والتقاليد المتوارثة التي عاشت في ظلها في الغرب الأوربي من جهة أخرى .

قلة في النساء

هنا لا بد لنا من ملاحظة ، أن المجتمع الصليبي في الشرق ظل دائما يعاني من نقص في أعداد النساء الوافدات من غرب أوربا ، لأن الصليبي كثيرا ما كان يترك زوجته وأسرته في الغرب لرعاية مصالحه في غيابه ، أو تخوفا من مستقبل مبهم غير آمن . وهذا هو السر في أن نسبة لا يستهان بها من الصليبيين الذين استقروا

في الشرق ، قد تزوجوا مسيحيات شرقيات من طوائف الأرمن والسريان والروم الارثوذكس وغيرهم . هذا في حين لجأ دعاة الحروب الصليبية والمنظمون لها إلى جلب أعداد من النساء من غرب أوربا وجزر البحر المتوسط إلى بلاد الشام ، لسد حاجة المجتمع الصليبي في الشرق ، ومحاربة الأمراض الاجتماعية التي فشت في ذلك المجتمع . وقد استرعت هذه الحقيقة أنظار المسلمين المعاصرين ، فذكر العماد الأصفهاني أنه حدث سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) أن « وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة ، متحلية بشبابها وحسنها متزينة . وقد اجتمعن من الجزائر واندبن للجرائر ، واغتربن لاسعاف الغرباء ، وتأهبن لاسعاد الأشقياء . . . وأنهن لا يمتنعن من العزبان ، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان . . . وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، لا سيما فيما اجتمعت فيه غربة وعزبة . »



ومن هؤلاء النساء الوافدات من غرب أوربا من أسهمن في محاربة المسلمين دفاعا عن الكيان الصليبي الذي ظل أشبه بجزر متناثرة وسط محيط اسلامي واسع كبير . واسترعت هذه الحقيقة انتباه المؤرخين المسلمين المعاصرين أيضا ، فأشار أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار إلى تلك المرأة الافرنجية التي هاجمت أميرا مسلما ، وجرحته جرحا عميقا في وجهه لتثأر لزوجها القتيل .

شهادات المؤرخين

يقول العماد الأصفهاني الذي ربطته بصلاح الدين صلة المودة عن نساء الصليبيين : « وفي الفرنج نساء فوارس ، لهن دروع وقوانس . وكن في زي الرجال ، ويبرزن في حومة القتال ، ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات الحجال ، وكل هذا يعتقدنه عبادة ، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة ، ويجعلنه لهن عادة » . وفي حوادث سنة ٥٨٤ هـ ذكر ابن الأثير أنه شاهد بنفسه استيلاء صلاح الدين على قلعة برزية « ورأيت أنا من رأس جبل عال يشرف على القلعة امرأة (فرنجية) ترمي من القلعة عن المنجنيق ، وهي التي بطلت منجنيق المسلمين . فلما رأى صلاح الدين أن المنجنيق لا ينتفعون به ، عزم على الزحف » .

أما في ميدان النشاط السياسي ، فإن المرأة الصليبية مارست دوراً مهماً ، هو في الحقيقة دور متوارث ألفه المجتمع الأوربي في الغرب . فمن أركان النظام الاقطاعي في غرب أوربا أن الاقطاع كان يُورث للابن الأكبر أو للابنة الكبرى . كل ما في الأمر هو أنه كان يشترط في وريثة الإقطاع أن تكون تحت وصاية رجل - الزوج أو السيد الاقطاعي - حتى يتسنى لها النهوض بالوظيفة الأساسية للمقطع ، وهي الحرب . وهكذا كان للمرأة شخصيتها



● قال العماد الأصفهاني : (كان بين الفرنج نساء فوارس .. لهن دروس وقوانس .. وكن في زي الرجال .. ويبرزن في حومة القتال ..).

الاعتبارية التي أثارت طموحها في مجال السيطرة والسيادة ، وهي الصفات التي حملتها معها المرأة الغربية إلى الشرق زمن الحروب الصليبية .

نساء طلبن العون من المسلمين

لم تكتف المرأة الصليبية في الشرق بالسعي وراء تحقيق الزعامة لنفسها ، وإنما كانت تتصل بالقوى الاسلامية المجاورة أحيانا لطلب المساعدة ضد منافسيها السياسيين من الصليبيين .

من ذلك أنه حدث في أوائل القرن الثاني عشر للميلاد أن تزوج بوهيموند الثاني صاحب إمارة انطاكية الصليبية من الأميرة اليس ابنة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس ، وأنجبت له طفلة صغيرة هي الأميرة كونستانس . فلما قتل بوهيموند الثاني أرادت الأم - الأميرة اليس - أن تستأثر بحكم الإمارة ، وتحرم ابنتها صاحبة الحق الشرعي في الحكم . ولتحقيق غرضها ، لم تحجم الأميرة اليس عن التآمر ضد الصالح الصليبي العام ، فاتصلت بعماد الدين زنكي صاحب حلب ، وأرسلت إليه رسالة سرية تطلب مساعدته للوصول إلى حكم أنطاكية مقابل تعهدها بالتبعية له ، ومع الرسالة هدية وفرس مطهّم .

وفي أواسط ذلك القرن - الثاني عشر للميلاد - توفي ملك بيت المقدس ، تاركا ولي عهده القاصر - بلودين الثالث - تحت وصاية أمه ميلزاند . وكان أن استبدت ميلزاند بالأمور في المملكة حتى تسببت سياستها في إثارة العديد من المشاكل ، وإنزال أبلغ الضرر بالصليبيين حينذاك . وعندما بلغ ابنها سن الرشد رفضت الأم أن تتخلى عن شئون الحكم ، حتى أجبرت سنة ١١٥٢ على الموافقة على تتويج ابنها تحت تأثير الرأي العام . ومع ذلك فقد عز على ميلزاند أن تتخلى عن سلطانها ، فاتفقت مع بطرق بيت المقدس على أن يعاد تتويجها هي الأخرى مع ولدها ، ووضعت مشروعا لتقسيم المملكة الصليبية بينها وبينه !!

وفي المرحلة الحرجة التي كان يمر بها الكيان

الصليبي بالشام عندما أخذ صلاح الدين يتأهب لإنزال ضربته الكبرى بالصليبيين في حطين، قامت سيبل زوجة بوهيموند الثالث أمير انطاكية بارتكاب خيانة كبرى ضد القضية الصليبية، تحقيقا لطموحاتها ومصالحها الخاصة. ذلك أنها دأبت عندئذ على اجراء اتصالات سرية مع صلاح الدين، أطلعته فيها على خطط الصليبيين وتحركاتهم. ويذكر المؤرخ أبو شامة - صاحب كتاب الروضتين «وكانت امرأة إبرنس انطاكية - وتعرف بدام (مدام) سيبل في موالاة السلطان (صلاح الدين)، عينا له على العدو، وتهاديه وتناصحه، وتطلعه على أسرارهم، والسلطان يكرمها لذلك، ويهدي إليها أنفس الهدايا».

وأخيرا نكتفي بالاشارة إلى مرجريت زوجة لويس التاسع ملك فرنسا، وهو الملقب بالقديس. ذلك أن مرجريت لم تشأ أن تترك زوجها القديس لويس يخرج وحده على رأس حملته الصليبية الشهيرة على مصر في منتصف القرن الثالث عشر، وإنما حملت هي الأخرى شارة الصليب ورافقته. ويذكر جوانفيل - مؤرخ هذه الحملة - أن مرجريت كانت طوال إقامة زوجها في المشرق تقوم بدور المستشار الأول له، وصاحبة الرأى المسموع في الأمور كلها، حتى لو كان رأيها مخالفا لآراء مستشاريه.

ميلاد حنا الحزين

ومن المعروف أن الصليبيين في هذه الحملة استولوا على دمياط سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) لكنهم ظلوا ساكنين فيها قرابة خمسة أشهر قبل الشروع في الزحف جنوبا تجاه المنصورة. وطوال هذه الأشهر ظلت مرجريت توجه سياسة الملك، حتى إذا ما زحف الملك على رأس جيشه إلى داخلية البلاد، بقيت مرجريت في دمياط تقوم بدور حلقة الوصل بين الصليبيين في الداخل، والعالم الخارجي. وعلى أرض دمياط وضعت مرجريت وليدها الذي أسمته حنا الحزين لأنه ولد بعد وقوع أبيه في الأسر بثلاثة أيام.

وعندما تم الصلح مع المسلمين في مصر سنة ١٢٥٠ م، وأفرج عن لويس التاسع من محبسه بالمنصورة، غادر دمياط إلى بلاد الشام، حيث عزم على تجميع قواته، والعودة مباشرة إلى فرنسا التي كانت أمه الملكة بلانش تدير شؤونها في غيابه. ولكن مرجريت أشارت على زوجها الملك لويس بالبقاء في الشام حتى ينجز عملا يعيد إليه ماء وجهه بعد هزيمته وأسره في مصر. وكان أن أقام الملك لويس بالشام نحوا من أربع سنوات (١٢٥٠ - ١٢٥٤) محاولا دعم المجتمع الصليبي. وفي هذه الفترة، وضعت مرجريت ابنا آخر أسمته بطرس وهو الابن الثاني الذي أنجبته في الشرق، مما يوضح أن قسوة الظروف التي مر بها لويس التاسع لم تصرفه عن حياته العائلية، وأن هموم الملك القديس ومتاعبه لم تنس زوجته مرجريت نصيبها من الدنيا.

هذه الأمثلة قليل من كثير، وهي توضح أن المرأة الصليبية الغربية، كان لها دور على مسرح الحروب الصليبية في المشرق، أكبر مما يتصوره كثيرون. □

أوصيك بأولادي

شهد أعرابي مأدبة أقيمت عند الحجاج. فلما قُدِّمت الحلوى - ترك الحجاج الأعرابي حتى أكل منها لقمة ثم قال: من أكل من هذا ضربت عنقه. فامتنع الحاضرون كلهم عن الأكل. وبقى الأعرابي ينظر الى الحجاج مرة - والى الحلوى مرة أخرى ثم قال: «أيها الأمير.. أوصيك بأولادي خيرا» واندفع يأكل.



تشريح الإنسان بعد الموت بين العلم والدين

بقلم : الدكتور سامي محمود علي

في معظم العقائد القديمة والأديان ، يكتسب جسم الإنسان بعد الموت مكانة تصل إلى مرتبة القداسة ـ أحيانا ـ ، لكن الضرورات العلمية التي تتوخى مصلحة الإنسان عامة قد تفرض تشريحه ، وهنا يحدث تناقض بين الرؤيتين العلمية والدينية . فأيها يستحق الترجيح ؟

من القضايا التي تطرح دائما والتي تثار حولها تساؤلات ، قضية تشريح جسم الإنسان بعد موته . والحقيقة أن هذه التساؤلات تدور في معظمها حول تحريم أو عدم تحريم هذا التشريح ، وهي في هذا تتفق مع قضية أخرى تتصل بها ، وهي قضية نقل الأعضاء والتبرع بها بغرض زرعها في الأجسام المريضة . لكننا نرى أن تشريح جسم الإنسان ـ في بعض الأحوال ـ يتجاوز فائدته التعليمية أو القانونية إلى كونه مقياسا حقيقيا لمعرفة تأثير بعض الأدوية على أعضاء الجسم وأنسجته ، بل يمكن أن نعده تخطيطا للصحة العامة بكل ملامحها .

لقد كان الإنسان ـ ولا يزال ـ معنيا بنفسه مهتما بجسمه منذ فجر التاريخ . وكانت الدعوة المستمرة لمعرفة خصائص الجسم الإنساني وتفاصيله تتناقل عبر الأجيال كوسيلة لقهر المرض واكتساب الصحة ، لكن الإنسان اتخذ صورة الكائن المقدس الذي لا يجب العبث به بعد موته .

وعندما أراد المصريون القدماء تخليد موتاهم ، قاموا بتحنيط أجسامهم ، ولا شك أنهم اكتسبوا بعض المعلومات عن جسم الإنسان أثناء التحنيط ، لكن عملية التحنيط نفسها لم تكن أكثر من وسيلة لحفظ الجسم ، لذلك فإن الأعضاء والأحشاء كانت تنزع بدون عناية أو دراسة .



وعندما حل القرن الخامس قبل الميلاد ظهرت أفكار قيمة تتعلق بدراسة جسم الإنسان ، وقد اضطلع أبو قراط وغيره من أطباء اليونان القدامى بهذه الأفكار ، وكان الجسم في رأيهم عبارة عن مجموعة من الأجزاء المترابطة ، وأن المرض هو سوء أداء لوظيفة أحد هذه الأجزاء . حقا لقد كانت أفكارا عظيمة انتزعت الطب من مجاهل الخرافات وأعادت إليه صورته التي تعتمد على الدراسة والتجريب . وكان من نتيجة هذه الأفكار أن ظهر « جالينوس » في القرن الثاني الميلادي . كان « جالينوس » طبيبا اغريقيا مارس الطب في روما ، وبرز اهتمامه على وجه الخصوص بعلم التشريح . فقد ظهرت مؤلفاته التي تضم وصفا لعظام الإنسان وأحشاء الحيوان ، وكانت مؤلفاته عن التشريح بمثابة الكتاب المقدس لكل المشتغلين بالطب خلال الخمسة عشر قرنا التالية .

دور فاسليوس

وهكذا ظل علم التشريح يتأرجح بين الخرافة القائمة على معتقدات قديمة وبين مؤلفات « جالينوس » التي تعتمد أساسا على التشابه في تشريح الحيوان . ولم يتحول علم التشريح إلى دراسة حقيقية لجسم الإنسان قائمة على الفحص الفعلي للأنسجة والأعضاء إلا في عام ١٥٤٣ م عندما ظهر كتاب « نسيج جسم الإنسان » لمؤلفه البلجيكي « اندريا فاسليوس » . كان « فاسليوس » قد درس في جامعة « بادو » مبادىء علم التشريح ، إلا أنه اعتمد على ملاحظته الدقيقة ويده المدربة في فحص الأعضاء المختلفة والأنسجة والأربطة التي يحتويها جسم الإنسان . واستعان « فاسليوس » بواحد من الرسامين الكبار هو « ستيفن كالكار » الذي استطاع أن ينقل أفكار وملاحظات « فاسليوس » إلى صور في الكتاب الشيق « نسيج جسم الإنسان » .

كان هذا مدخلا تاريخيا مبسطا عن المراحل التي مر بها علم التشريح . فماذا عن القيمة الحقيقية لهذا العلم كما تظهرها أهميته في مجالات التعليم والطب والقانون ؟

الموتى يعلمون الأحياء . . !

ليس الموت وحده هو الذي يعطينا العبرة والعظة ، بل إن الموتى ـ أنفسهم ـ يقدمون للأحياء ما غاب عنهم ولم يفهموه ، إنه عطاء لم ينقطع ، بل تواصل حتى بعد الرحيل . ولعلنا من خلال هذا المفهوم ندرك أن تشريح الموتى بعد الوفاة في بعض الأحيان يمكن أن يقدم لنا أكثر من مجرد فائدة تعليمية أو كشف للكيفية التي حدثت بها الوفاة بما يحقق فائدة لرجال القانون .

إذن فالعلم لديه مبرراته ، وهي دون شك مبررات قوية تخدم الإنسان نفسه ، لكننا بداية نحب أن نلقي نظرة مبسطة على عملية التشريح نفسها . فالبعض يظن أن تشريح الإنسان بعد موته ليس أكثر من عملية شق أو فتح الجسم لفحصه وفحص أعضائه ، لكن الحقيقة أن التشريح يشمل ثلاث عمليات يكمل كل منها الآخر . فهناك أولا الفحص الدقيق لظاهر البدن من الخارج ، ثم تأتي الخطوة الثانية بفحص الأعضاء الكبيرة بعد فتح الجسم فتحة طولية تبدأ من أمام ـ في المنتصف تقريبا ـ كل كتف ليلتقي الخطان عند أسفل عظمة القص في منتصف الصدر ، ويستمر الشق حتى منطقة العانة أسفل الجسم ، ليبدو الفتح في النهاية على شكل حرف "Y" باللغة الانجليزية . وفي هذه الخطوة تفحص أعضاء الجسم مثل الكبد والكلى والمعدة والأمعاء والقلب والرئتين . وأخيرا تأتي الخطوة الثالثة وفيها تفحص عينات من الأنسجة المختلفة تحت المجهر « الميكروسكوب » .

وكان الطبيب الألماني « رودلف فيركو » قد اكتشف طريقته في تشريح الجسم في القرن التاسع عشر التي عمد فيها إلى نزع الأعضاء من الجسد عضوا عضوا ، ثم فحصه وتشريحه منفصلا . ثم جاء الدكتور « فريدريشن ألبرت زينكر » وابتكر طريقة أخرى تقوم على فحص العضو من خلال الجهاز الذي يضمه ، فمثلا تفحص الرئتان من خلال الجهاز التنفسي كله الذي ينزع من الجسم قطعة واحدة ، وهذه هي الطريقة المتبعة الآن . ويلاحظ من يقوم بالتشريح أي تغيير طرأ على العضو ، أو انحراف عن السواء ، ثم يفصل العضو ويتم تشريحه لمعرفة أي تغير عن ما هو طبيعي .

وتشريح العضو لا يتضمن فحصه وكشف ما به من تغير فقط ، لكنه يوزن وتقاس أبعاده لرصد أي تغيير إذا ما قورنت بالأبعاد والأوزان القياسية والثابتة علميا . وبعد أن تتم كل هذه الخطوات ، فإن أجزاء صغيرة من الأنسجة المختلفة تصبغ وتوضع في شمع البرافين لفحصها « ميكروسكوبيا » . وفي بعض الحالات تجرى اختبارات ميكروبية أو كيميائية على الأنسجة لبيان تأثير بعض المواد الغريبة على الجسم .

قد يكون المرفأ الأخير

التشريح إذن عدة عمليات تجرى على الجسم ، لا تهدف لمعرفة سبب الوفاة ، أو كيفية حدوث المرض فقط ، لكنها في الوقت نفسه تعد مقياسا لمعرفة مدى صلاحية بعض الأدوية المستخدمة ، ومقدار سميتها على الجسم ، خاصة تلك المستخدمة لعلاج مرض السرطان .

كذلك يقودنا التشريح ، لمعرفة العديد من الأمراض الجديدة التي تنشأ كنتيجة لعوامل البيئة ، أو مخاطر الصناعة . ومن الأمثلة التي كان للتشريح الفضل في كشفها نوع نادر من



● للتشريح فوائد كثيرة

الأمراض السرطانية هو « الانجيوساركوما » وهو ورم يصيب الكبد ، فقد لوحظ انتشار هذا المرض في العمال الذين يعملون في المصانع التي تستخدم مادة « الفنيل كلوريد » ، وكان ظهور الورم بصورة متكررة لدى هؤلاء العمال ـ كما أظهر التشريح ـ مقدمة لعمل دراسات وأبحاث ساهمت في التحكم في الحالة .

ومن الأغراض التي أفاد منها التشريح عمليات زرع صمامات القلب الصناعية التي استخدمت لأول مرة عام ١٩٦٠ م . فقد أعطى التشريح معلومات جيدة ، كما صحح نظريات قديمة ، عن شكل وحجم ونوعية هذه الصمامات ، وأعطى هذا كله مؤشرات لصنع أفضل نماذج لهذه الصمامات .

وأخيرا فإن التشريح هو المرفأ الأخير للأطباء إذا أصابتهم الحيرة عند تشخيص مرض ما . ولعلنا من هذا المنطلق ، نقول : إنه على الرغم من التقدم الرفيع جدا في استخدام وسائل التشخيص الحديثة ، فإن بعض الدراسات التي أجريت حول هذا الموضوع ، أكدت أن خطأ التشخيص كان في حوالي ٤٠٪ من المرضى الذين خضعوا للتشريح بعد وفاتهم .

ولكن ماذا يعني ذلك ؟ إن ذلك يعني في بساطة ، أن إحصائيات الصحة التي تتعامل مع أسباب الوفاة غير حقيقية ، حيث إنه لا يتم تشريح كل متوفى بطبيعة الحال ، وهذا يعطي انطباعا بأن ما يكتب في شهادات الوفاة عن الأسباب التي أدت إلى الوفاة غير دقيقة ، وهي بالتالي ليست وسيلة صادقة يمكن الاعتماد عليها لتخطيط برامج الرعاية الصحية .

التشريح بعد الموت

أخيرا ، ماذا يقول الدين حول هذه القضية ؟ . الحقيقة أن هناك تباينا واضحا في آراء العلماء والفقهاء حولها . فالتشريح بعد الموت له فوائد عدة من وجهة نظر العلم والطب ، وقد عددنا هذه الفوائد . لكن من المنظور الديني فإن الأمر يختلف ، فالتشريح بعد الموت مادة تشريعية جديدة أو هي عرف تعورف عليه ، لم يكن موجودا أو معروفا لدى علماء الشريعة القدماء ، وبالتالي فهو مثل كل القضايا الجديدة يخضع للاجتهاد الذي قد يتباين ويختلف .

عموما فالرأي الديني حول هذه القضية ينقسم إلى رأي مؤيد وآخر معارض . فالرأي المعارض يقول : إن للميت حرمة لا تقل عن حرمته وقت حياته . ويذكر أصحاب هذا الرأي ما رواه أبو داود بسنده إلى عمرة بنت عبدالرحمن عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، قال : « كسر عظم الميت ككسره حياً » . وينظر المؤيدون لهذا الرأي إلى عملية التشريح ، ونقل الأعضاء وزراعتها ، كأعراف طارئة ، وهي أعراف فاسدة من المنظور الإسلامي ، أو كما يقول الدكتور صوفي أبو طالب في كتابه (تطبيق الشريعة الاسلامية في البلاد العربية) : « الأعراف الطارئة لا تصلح لتخصيص النصوص الشرعية حتى لو أخذت شكلا عاما ، إذ أن مخالفة العرف الطارىء للنص يعدّ نسخا لهذا النص ، وهو غير جائز ، لأن مرتبة العرف أدنى مرتبة » .

في المقابل نجد رأيا آخر يبيح عملية التشريح بعد الموت لتحقيق مصلحة عامة للمسلمين وامتناع للضرر . ومن المؤيدين لهذا الرأي الأستاذ « عبدالله المشد » رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف فهو يقول : إن فقهاء المذهبين الحنفي والشافعي ، قد أجازوا تشريح جسد الميت لمصلحة راجحة ، مثل استخراج مال ابتلعه انسان ثم مات ، أو تشريح جسد إمرأة ميتة لاستخراج جنينها الذي ثبت بيقين للأطباء المختصين أنه مازال حيا في بطنها ، وكذلك أجازوا التشريح لإثبات جناية ليتحقق بها وجه العدالة والحق . كما أجازوا ذلك للتعليم من باب الوجوب الكفائي ، بمعنى أن ذلك الأمر واجب على فريق من أبناء الأمة ، فإذا قام به البعض سقط عن الجميع ، وذلك من قبيل المصلحة العامة مع امتناع الضرر ، والأصل في ذلك كله الإباحة وليس التحريم . لأن الحرام ثلاثة أقسام هي :

أولا : حرام لذاته ، وهو ما ورد في النص القرآني الصريح قطعي الثبوت والدلالة بحرمته ، مثل قوله تعالى « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُم وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ . . . » النساء (٢٣)

ثانيا : محرم لغيره ، وهو ما لم يرد به نص صريح قاطع بحرمته ، وذلك مثل المخدرات والاتجار فيها ، لأن ذلك يؤدي إلى إتلاف النفس والعقل والمال . وهذه من الكليات الخمس التي أوجب الله الحفاظ عليها ، وحرم إتلافها والتعدي عليها .

ثالثا : محرم حرمة عارضة ، مثل العقود التي وثقت أركانها وشروط صحتها ، ولكنها اشتملت على غش أو تدليس وذلك لقوله تعالى « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُم بَيْنَكُم بالبَاطِلِ » . النساء (٢٩) .

نميل للثاني

فنحن أمام رأيين لكل منهما حجته وأسانيده ، ولكننا نميل بالترجيح للرأي الثاني الذي يتفق مع ما يذهب إليه العلم من فوائد مؤكدة ، يتيحها تشريح جسم الإنسان بعد الموت لبعض ـ ولا نقول لكل ـ الحالات ، بما يحقق في النهاية صالح الإنسان ، وغاية الصحة التي ينشدها الجميع . □

بعض أعلام العرب

كان أبو الطيب المتنبي ابن سقاء . . وأبو العتاهية الشاعر المشهور كان يبيع الجرار . . وأبو تمام حبيب الطائي كان يخدم خياطا ، ويعمل عنده بدمشق .
والإمام أبو حنيفة كان بزازا أي تاجر حرير ، وأبو بكر الرازي الطبيب المشهور كان في شبابه يضرب بالعود ، ويتكسّب منه ، والحجاج بن يوسف الثقفي كان يعلم الصبيان هو وأبوه بالطائف ، ولكنه صار بعد ذلك آمر العراق وخراسان وسائر الشرق .

أسئلة صعبة حول وطن الحلم

بقلم : الدكتور محمد حافظ دياب

القراءة كنشاط إنساني واعٍ ، وضروري ، له مستويات متعددة ، تبدأ من المطالعة ، وتنتهي بالمشاركة في خلق المكتوب من خلال رؤية القارىء له . وحول فعل القراءة ودورها ، تعددت التعريفات والتفسيرات التي تتشابك في ساحاتها مدارس النقد الأدبي المختلفة .

القراءة ضرورة وليست ترفا ، وحديث مع عشاق القرون الخوالي ومبدعى العصر ، ومقياس لغنى الثقافة والهوية القومية ، شرط أن تقوم على الالتزام الحي بين حرية الكاتب الذى يواجه نفسه قبالة حرية القارىء . فبهذه الكيفية تكبر خارطة المكتوب ـ المقروء ، وتتجاوز تأثيرها وفعاليتها لكى تقترب من (وطن الحلم) كما أطلق عليها المؤرخ الانجليزى إدوارد جيبون .

إن هذا الوطن لم يعد قاصرا على « مكيافيلى » الذي كان يرتدى أفخر ثيابه ليقرأ الكلاسيكيات اللاتينية ، أو « بترارك » الذى مات وعينيه على حروف كتاب تضيئها له مائة شمعة موزعة فى زوايا غرفته ، أو « رونسار » الذي كان يتمدد براحة فى مسبحه ساعات طوالا ليعيد قراءة الإلياذة .

تنمية القراءة

ثم ان جهودا دائبة تبذل فى الوقت الحاضر لتنمية هذا الوطن بتجديد (مرفق) القراءة فيه عن طريق برامج محو الأمية ، وتشريعات رعاية المكتبات وإقامة مشروعات المكتبات المتنقلة فى مصر ، والمكتبات (الخفيفة) فى الولايات المتحدة ، والمكتبات العائمة فى النرويج وقطارات الثقافة فى فرنسا ، وتيسير نظم الإعارة البريدية ، ونوادي المكتبات ، وكفالة وسائل القراءة للمكفوفين ، ومحاولات استخداماتها التجريبية فى السجون والمستشفيات لعلاج بعض أمراض الجهاز العصبي ، وإعداد التصنيفات التى تشمل الكتب والمقالات والأبحاث التى تمت بصلة إلى تنمية نشاط القراءة وجماعاتها ومراكز أبحاثها ودورياتها ، إضافة إلى انتشار صناعة الكتب المسموعة أو المسجلة على أشرطة الكاسيت منذ بداية الثمانينيات فى أوربا وامريكا التى بلغ من رواجها أن ظهر منها فى الولايات المتحدة وحدها ، وحتى عام ١٩٨٦ ، نحو اثنى عشر ألف عنوان ، وهى صناعة تعتمد على إعادة اكتشاف الأذن فى نقل المعلومات ، خاصة لرجال الأعمال والمسنين والمكفوفين .

وفى مطلع الدولة الاسلامية ، يذكر التاريخ أنه بعد معركة بدر طلب النبى ـ صلى الله عليه

وسلم - إلى كل أسير فقير قارىء من أسرى قريش أن يعلّم عشرة من صبيان المدينة المسلمين الكتابة والقراءة ، بدل الفدية المالية ليطلقه .

بعد ذلك بدأ النبى فى تكوين جماعة من القراء لتكون عاملا داخليا للتثقيف ، ولحمل الدعوة إلى الخارج ، ينوّه عنها الواقدى بقوله : « كان من الأنصار سبعون رجلا شَبَبَة يسمون القراء ، كانوا إذا أمسوا أتوا ناحية المدينة ، فتدارسوا القرآن وصلّوا . حتى إذا كان وجاء الصبح ، استعذبوا من الماء ، وحطبوا من الحطب ، فجاءوا به إلى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أهلوهم يظنون أنهم فى المسجد ،وكان أهل المسجد يظنون أنهم فى أهليهم . فبعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجوا ، فأصيبوا فى بئر معونة » (المغازى للواقدى ، ٣٤٧/١٠) .

وقد وقعت هذه المذبحة - خصوصا والمغتالون دعاة عزّل - من الرسول موقعا أليما ، « فدعا على قتلتهم خمس عشرة ليلة » . لكن غضب الرسول وحزنه لاغتيال أصحابه ، لم يكن لأنهم كانوا عزّلا فقط ، ولا لأن الذين دعوهم هم الذين قتلوهم ، بل لأنهم كانوا القرّاء الجدد للجماعة الإسلامية الناشئة . فعندما بدأ النبى دعوته بمكة ، « لم يكن فيها أكثر من عشرين رجلا يقرءون ، ويكتبون » . وكان هذا يعنى عدم إمكان انتشار الإسلام الذى يفترض كتابه (القرآن) أناسا لا يحفظونه عن ظهر قلب فقط ، بل يتناقلونه كما أنزل ، كى لا تتسرب إليه أخطاء الذاكرة وأوهامها . من هنا كان حرص النبى منذ البداية على تعليم أصحابه والمقبلين الجدد على الإسلام . ادراكا منه للارتباط العميق بين القراءة والقراء من ناحية ، واستمرار الإسلام دين دعوة من ناحية أخرى . ويبدو أن هذه لم تكن الجماعة الوحيدة ، بدليل أنه أرسل بعد ذلك جماعات من القراء ، لتعليم الناس الإسلام والقراءة فى نجران وصنعاء وعمان .

هكذا ومنذ البداية ارتبط الإسلام دعوة ومصيرا بالقراءة بشقيها النظرى (المعرفة) ، والمهارة (التلاوة) .

قراءات ثلاث :

ومفهوم « القراءة » يمثل مسألة خلافية بين دارسيه ، نشأ عنها أبعاد ثلاثة لهذا المفهوم ، يمكن ان تعد فى آن معا مستويات ثلاثة متنامية لفاعلياته :

(١) البعد الأول الذى يقف عند تحريك النظر فوق الحروف والكلمات أو النطق بها ، ويعتمد الإحساس اللفظى بالعبارة قبل معناها عادة ، ويستهدف التحقيق الصوتى والمران اللسانى ، وهو لذلك أقرب إلى المطالعة . (٢) البعد الثانى الذى يقف عند حدود التلقى المباشر ، والاجتهاد فى أن يكون هذا التلقي مقرونا بأكبر قدر من (الأمانة) فى ادراك النص ، اعتقادا بأن معناه قد صيغ نهائيا ، فلم يبق إلا العثور عليه كما هو ، ومن ثم يقتصر على استعداد القارىء للتقبل السالب ، ودون الدخول فى محاورة النص وإضاءته .

ويرى الكاتب الفرنسى ، رولان بارت أن (داء) هذه القراءة أو بالحرىّ (عاهتها) الدائمة تكمن فى عجزها عن إدراك الرموز الموجودة فى النص - خاصة إذا كان نصا أدبيا - وإنكارها أنه ذو دلالات متعددة ، ويفسر هذا عجز هذه القراءة بعدم استطاعتها أن ترى فى النص إلا



معنى واحدا تركز عليه ، وهو غالبا معنى حرفى ، ولهذا فمن غير المجدى - لدى أصحابه - محاولة البحث عن معان أخرى بديلة ، أو حتى معان مكملة لذلك المعنى الحرفى . إذ على مايقول بارت « فى النص ، القارىء وحده يتكلم » وهو ما يعنى أن نسبة النص إلى مؤلف تعادل إيقاف النص وحصره وإعطاءه مدلولا نهائيا . إنها بتعبيره « إغلاق الكتابة » .

وثمة واقعة نقدية مشهورة فى هذا الصدد ، يذكرها « زكى نجيب محمود » (فى فلسفة النقد ، ص ١١١) حين أورد أن الناقد « ستانلى هايمن » علّق على قصة لروبى ماكولى بما يفيد اخفاءها إيماءات جنسية ، وأشار إلى أن تحويل بعض الأسماء النسائية فى القصة إلى أسماء مذكرة ، يمكن أن يساعد على إظهار هذا المعنى . ولن يحتاج ذلك إلى جهد كبير بسبب التقارب الشديد بين التذكير والتأنيث فى أسماء الشخصيات الرئيسية .

وحين قرأ المؤلف هذا التعليق سارع إلى إنكاره ، وأصر على أن قصته خالية مما ادعاه الناقد الذى رد عليه قائلا : « إنه ليؤسفنى أن السيد ماكولى يفضّل - لأى سبب من الأسباب - أن يحرم نفسه من أن يكون كاتب القصة الشائعة المتشعبة التى قرأتها له ثم وصفتها للقراء ، ويختار لنفسه بدلا من ذلك أن يكون كاتب القصة الهزيلة الفقيرة التى يصفها هو للقراء . وليس السيد ماكولى أول قاص أنتج نتاجا أدبيا خيرا مما يعلم ، وخيرا مما يريد أن يسلّم به ، ولعله لن يكون آخر قاص فى ذلك . ولست على استعداد للفرار من ميدان القراءة النقدية لقصة من القصص ، كلما هاج فى وجهى مؤلفها مصرًا على أن قراءتى لقصته لم تكن هى قراءته لها » .

(٣) أما البعد الثالث ، فالقراءة عبره لاتتوقف عند مجرد التلقى المباشر ، بل تساهم بوعى فى إعادة إنتاج وجهة النظر التى يحملها النص ، والكشف عن جوهره وتأويله ، بحيث تتحول إلى فعل إبداعى يؤدى إلى ذروة وظيفتها المولدة للدلالة .

القراءة والكتابة :

وتاريخية المكتوب لاتقوم على مجرد تواجد النص ، ولكن على تعرّف القارىء به وهو ما يعنى أن القراءة ليست رديفا للكتابة ، ولا فعالية تابعة لها . لقد كان التصور الشائع يعد أن هنالك عمليتين منفصلتين تماما هما : الكتابة التى تتم من قبل المؤلف ، والقراءة التى تحدث زمنيا بعد الكتابة ، ومن ثم لم يظهر فى هذا التصور مستوى لعلاقة عضوية بينهما ، فى حين أن هذه العلاقة لاتقوم إلا على أساس حوار متبادل ، من موقع سائل ومسئول يتبادلان أدوار السؤال والجواب . فالكاتب والقارىء يصنعان معا نصّهما ، ويكوّنان معا برهانه ولغته ودلالاته ، وهو ماعناه الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر بقوله : إنه « لما كانت العملية الإبداعية لاتستطيع أن تجد اكتمالها إلا فى القراءة ، ومادام على الكاتب أن يوكل الغير بمهمة استكمال مابدأه ، وما دام لايستطيع أن يشعر بنفسه بشكل أساسى تجاه عمله إلا من خلال وعى القارىء وحده ، فإن عملية الكتابة لابد أن تتطلب عملية قراءة كمقابل لها . ويستلزم هذان الفعلان المترابطان عاملين متميزين . ذلك أن جهد المؤلف وجهد القارىء المرافق له ، هما اللذان يبرزان للوجود ذلك الأثر الفكرى المحسوس والخيالى معا . فلا وجود للنص إلا بواسطة الآخرين ومن أجلهم » (مواقف ، ص ٩٣) .

وفى الستينيات تبلور فى فرنسا اتجاه قدمته جماعة (تيل كيل) التى تحتل مكانا مرموقا فى النقد الأدبى المعاصر ، وعُدَّ أن الكاتب هو قارىء أساسا . إذ يقرأ الواقع المحيط ، ثم يحلله كقارىء ويحوله إلى مادة للكتابة يتلقاها قارىء آخر ، يحللها بدوره فيصبح قارئا وكاتبا ، متفرجا وممثلا فى الوقت نفسه .

فمن وجهة نظر أصحاب هذا الاتجاه ، أن العلاقة بين كليهما تقوم على التكامل والتناوب ، وليس على التباعد والتنافر ، كما كان الظن قبلا .

فالكاتب الذى يستشف الواقع ويقرؤه ويتمثله وينقل قراءته له إلى نص مكتوب ومطبوع ، لم يتخل عن كونه قارئا فعالا . ولأنه قارىء وكاتب تكون علاقته بقارىء آخر وهو قارىء نصّه - علاقة عضوية متميزة ، لأن هذا القارىء بدوره يجب أن يكون فعالا ، بحيث يحوّل المادة الورقية المطبوعة بين يديه إلى أفكار ورؤى ،فيضحى بالتالى كاتباً وقارئا .

إن صورة (القارىء الضمنى) تكون حاضرة باستمرار ، فى وعى الكاتب . كذلك العكس ، حيث صورة الكاتب هي أيضا حاضرة ، فى وعي القارىء ، حتى لو كانت الصورتان مجردتين .

اللقاء السرى

ونظرا لهذه العلاقة المتميزة بين الكاتب والقارىء ، هناك نوع من اللقاء السرّى بينهما . نوع من الاجتماعات الممنوعة والتحريض المباشر ، ولهذا السبب عُد عمل الكتابة وفعل القراءة خطيرين أحيانا ، فقامت ضدهما مقصات الرقابة ، وكان الحريق هو الإجابة المفضلة فى مرات عديدة . فقد تم حرق أعمال الفيلسوف الإفريقى القديم « بروتاجوراس » في اثينا ، وقام جلاد باريس بقذف مؤلفات « فولتير » فى اللهب ، وأكره « أبيلار » ، فى القرن الثانى عشر ، على أن يقذف كتابه بيديه فى النار ، وحكم بحرق قراطيس « ابن حزم القرطبي » خلال حياته ، فخلد هذه الواقعة فى قصيدة له يقول فيها :

دعونى من إحراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدرى
فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس إذ هو في صدري
يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى



وبعد وفاة « دانتى » ، أحرق أحد الكرادلة كوميدياه ، واستغرق الجدل العقيم مائة وخمسين سنة ، من أجل الاعتراف بها . وحينئذ فقط ، أمكن تطويل العنوان ، ليصبح « الكوميديا الإلهية » بدل « الكوميديا » فقط كما وضعه « دانتى » . ولقد مثّلت (لائحة الكتب المحرمة) أداة بيد الحركة المناهضة لإصلاح الكنيسة فى أوربا الوسيطة .

وفى العصر الفكتورى ببريطانيا ، تقلّصت حرية القراءة ، وبقيت وقفا على البالغين ، طبقا للقاعدة الأخلاقية التى وضعها (بوْدسناب) وفحواها :

« هل يؤدي هذا الكتاب إلى تصاعد حمرة الخجل في وجنة انسان شاب ، ناهيك من شابة ؟» ، وأصبحت هذه القاعدة بمثابة معيار قانونى كحكم نهائى على الكتاب وقد امتدت حتى طالت رواية « ديفيد هربرت لورنس » عشيق الليدى تشاترلى التى قُدّمت مع مؤلفها إلى محكمة المجرمين المركزية بلندن .

حدث هذا ومثيله للحيلولة دون اللقاء بين الكاتب والقارىء ، أو بالأحرى لطمس العلاقة بينهما ، وتهشيمها ، وتحويلها إلى علاقة سطحية ، تتم فيها عمليتان منفصلتان : الكتابة المستقلة تماما عن القراءة ، أوما أطلق عليه نقاد تيل كيل « اللاقابلية للقراءة » .

في أزمة الكتابة

من هنا تكتسي مسألة الكتابة عن القراءة أهميتها ، حيث أن ما يوجد منها لايتجاوز طموحها الطرح التعميمي عن اتجاهات القارىء أو تأثيرات القراءة ، على الرغم من قدم هذه المسألة التي يمكن أن نلمحها بدءاً من اشارات أفلاطون إلى دور الفن في تمويه الحقيقة ، وأفكار ارسطو عن دور الشعر في تطهير العواطف ، مرورا بكتابات الجاحظ وعبدالقاهر الجرجاني وابن جني ، وانتهاء بعدد من المدارس الحديثة التي تركز على وجود « القارىء في النص » ، أو التي تنشغل بجماليات التلقي .

وفي وطننا العربي ، لايكاد المتتبع يجد اهتماما بهذه المسألة ، خلا محاولة رائدة نشرت في القاهرة عام ١٨٧٠ بشكل فصول مسلسلة على صفحات مجلة « روضة المدارس المصرية » التي تعد أول مجلة ثقافية عربية ، وكانت بعنوان « بث المعارف ، ونث العوارف » ، قدمها (ميخائيل أفندي عبدالسيد) أحد أنجب تلاميذ الطهطاوي . بعد ذلك بفترة طويلة ، قام محمد حامد الأفندي بدراسة عام ١٩٥٥ ، استهدفت التعرف على ميول القراء واهتماماتهم ، وقدم « السيد يس » عام ١٩٧٠ محاولة أخرى في إطار دراسته للمشكلات النظرية والمنهجية للتحليل الاجتماعي للأدب . ويقوم حاليا الباحث التونسي د . عبدالقادر بن الشيخ بإجراء بحوث تتصل بهذا المجال .

عموما يمكن القول أن أبحاث القراءة مازالت تعتريها صعوبات عديدة ، نتيجة عدم توافر الأرقام الصحيحة حول القراء واقتصارها على الدراسات ذات الطبيعة الاستطلاعية أو المسحية ، وعدم تحدد مسالكها أو أساليبها المنهجية .

وربما لهذا السبب تبذل هذه الأيام محاولات لتنمية مبحث سوسيولوجي حول القراءة ، يطلق عليه (علم اجتماع القراءة) ويتناول تحديد طابعها الاجتماعي ، ومجموعة الارتباطات والتعميمات التجريبية المتعلقة بالقضايا التي تلخص اطراد العلاقة بين ظاهرة القراءة وبين الجماعات والنظم الاجتماعية المكونة للبناء الاجتماعي .

على أي حال فإن كتابة واعية عن القراءة في وطننا العربي لابد أن تبدأ بتحليل لعمليات التغيير الاجتماعي والثقافي ومؤشراته ، وكشف نقاط البدء ، والتطوير ، ومعاينة لغنى استمرارية الشخصية القومية .

وهكذا كلما انطوت الصفحة الأخيرة من الكتاب تبقى القراءة محاورة حيّة متجددة ، وقصيدة عذبة . يقول « بوشكين » في مقطعها الأخير :

مهما تكن أيها القارىء
عدوا أو صديقا ، فانني أريد منك
أن نفترق أحبّة □

من أقوالهم



● خصص للتفكير في كل ما يقلقك نصف ساعة معينة وسط النهار ، ثم استغرق في النوم خلال تلك الفترة !

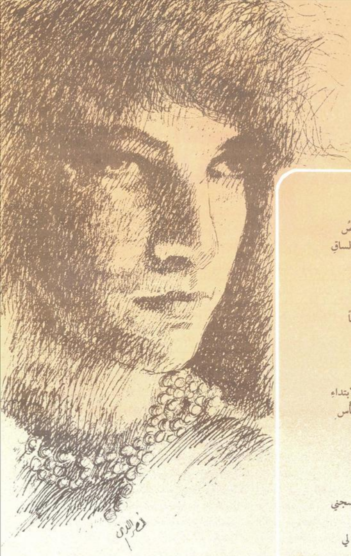
● أنجح طريقة تجلب بها النوم إلى عينيك ، هي أن تفكر في أن الوقت قدحان للاستيقاظ .

● المأدبة الصاخبة الفوضوية هي المأدبة التي يقيمها أحد جيرانك ولا يدعوك إليها !

أكثر من امرأة

شعر : شوقي بغدادي

لَمْ تكوني امْرَأَةً
كنتِ انسجامَ الصوتِ في الضَّجَّةِ
والإيقاعَ إذْ يَبْزُغُ في الضوضاءِ
حَوْلَ المرهقين
لَمْ تكوني جسداً
كنتِ ارْتِقَاءَ اللطفِ في المُضْغَةِ
والإشعاعَ إذْ يطفو على الأشياءِ
فوقَ النائمين
لَمْ تكوني حُلُماً
كنتِ يقينَ الكفِّ إذْ تَلْمِسُ
والعينَ التي ترعشُ في الضوءِ
وعيدَ القلبِ
إذ يقتحمُ الريفُ عليه البابَ
بالمزمارِ والطبلِ وشدوِ الراقصين
كنتِ تمشين على إيقاعِ قلبي
وأنا أمشي على إيقاعِ عَيْنَيْكِ
فإنْ أَبْطَأْتِ عَزَّاني الرنين
وإذَا أَسْرَعْتِ
أَوْشَكْتُ مِنَ اللهفةِ أنْ أغْدُو عدائياً
وَأَنْ أَبْدُو سخيفاً
عندما لا تصلين
يا لتلكَ الخلوةِ الملأَى
بأسرابِ العصافيرِ
وتفاحِ البساتينِ
ولغوِ العاشقين
حينَ تغدو حكمةُ الدنيا على ثَغْرِي
وفي فوضَى الأحاديثِ
وَإذْ يصبحُ للألفاظِ وجهانِ
كَأَنَّ اللغةَ الأخرى التي نبدعُها
غيرُ لغاتِ العالمين
تبدأُ الجملةُ في إنسانِ عَيْنَيْكِ
فيهتزُّ لها الجفنُ
فتنسابُ مع الخَدِّ
إلى دائرةِ الثَّغْرِ
فترمِي الشفةُ السفلَى إلى العليا
كلاماً ناقصاً
أُكْمِلُهُ عَنْكِ
بألفاظٍ مغطاةٍ بهمسٍ غامضٍ
أوْ باعتصارٍ للجبين
فإذا ظَلَّ مكانٌ فارغٌ



عَبَّأَهُ الشعرُ الذي يرقُصُ
والساقُ التي تأتي إلى الساقِ
فَتَلْتَفُّ عليها
ثُمَّ تَنْفَكُّ لِتَلْتَفَّ عليها
عندها تكتملُ الجملةُ
كَيْ أَفْهَمَ ما تعنينهُ حقّاً
وما لا تقصدين
لَمْ تكوني موسماً
كنتِ فصولَ العام
لا يختتمُ الحصادُ إلّا لابتداءِ
لَمْ تكوني رشفةً في الكأس
كنتِ الكأسَ
لا تفرغُ إلا لامتلاءِ
أنتِ مَنْ أُعلِنُ
والأُخرى التي أُضْمِرُ
أغلقتِ ، وَلَمْ أَشْعُرْ بسجني
كنتِ لي كُلَّ الفضاءِ
لَمْ تكوني امرأةً واحدةً لي
أنتِ لخصتِ مزاياهن
يا كُلَّ النساءِ !



فيلسوف أهمله الفلاسفة

بقلم : الدكتور أحمد أبوزيد

« يزخر تاريخ الفلسفة بعدد من الفلاسفة الذين لم ينالوا حظهم من الشهرة والذيوع ، وهذا واحد منهم ، قدم إسهامات رائعة في فلسفة التاريخ وعلم الجمال وعلوم اللاهوت ، بينما لم يقدم تأثيرا واضحا في الفلسفة الأكاديمية ، ولم ينل حقه من الدراسة والتعريف ».

تشهد الأوساط الثقافية و«الأكاديمية» في الخارج حركة نشطة، لإعادة النظر في كثير من الأعمال والحركات الفكرية، في ضوء المناهج والأساليب العلمية الحديثة من جهة، واكتشاف بعض الجوانب التي كانت مجهولة عن أصحاب هذه الأعمال، والعوامل التي تدخلت في تشكيل أفكارهم من جهة أخرى. وقد أدى ذلك النشاط الجديد إلى نتائج مثيرة وغريبة، قلبت موازين الأحكام حول كثير من المفكرين والعلماء والفلاسفة والأدباء. فقد عرف الناس مثلا : أن النتائج التي أعلن عالم النفس البريطاني الكبير سيريل بيرت، أنه توصل إليها من التجارب التي كان يقوم بها، هي نتائج مزيفة، اعتمدت على عمليات تزوير متقنة، للتدليل على أمور كان يؤمن بها مسبقا. كذلك عرف الناس أن عالمة الأنثربولوجيا الأمريكية الشهيرة مارجريت ميد، لم تعتمد في كتاباتها عن الفتاة المراهقة في جزر «ساموا» على المعلومات التي زعمت أنها جمعتها بنفسها، أثناء إقامتها الطويلة في تلك الجزر، بل إن جانبا كبيراً جداً من هذه (المعلومات) كان من صنع الخيال، ولا يمت إلى الواقع بصلة. كذلك عرف الناس كثيراً من الحقائق عن إدمان عالم النفس التحليلي زيجموند فرويد للكوكايين، كما عرفوا أن نظريته عن الجنس كانت نابعة ـ إلى حد ما، على الأقل ـ من علاقاته الجنسية الداعرة مع أخت زوجته. وهكذا. ولكن على الجانب الآخر أفلح بعض الباحثين الجادين في إلقاء كثير من الأضواء على مفكرين وكتاب وفلاسفة، طال إهمالهم، ولم يلقوا أثناء حياتهم ما يستحقون من اهتمام وتقدير، على الرغم مما تتميز به أعمالهم من عمق ينم عن اتساع الأفق وقوة التفكير



● روبين جورج كولنجوود

وجدية النظرة إلى الإنسان وإلى العالم.

وربما كان الفيلسوف البريطاني المغمور - نسبيا - روبين جورج كولنجوود (١٨٨٩ - ١٩٤٣) واحدا من أهم هؤلاء المفكرين، فقد تحالفت ضده ظروفه وشخصيته ومزاجه واتجاهاته الفلسفية ورؤيته للعالم وللحياة، وعداء زملائه من الفلاسفة، والتغيرات التي طرأت على الحركة الفكرية والاتجاهات الفلسفية، ورفضه السير في ركاب هذه التغيرات، وقد أهمل الفلاسفة «الاكاديميون» كولنجوود، وأغفلوا شأنه، بل وعاملوه بكثير من الاستخفاف. وأخيرا انتبهت إلى فلسفته بعض الهيئات العلمية، وبخاصة في أمريكا، وظهر حول فلسفته وآرائه ونظريته «الميتافيزيقية» على الأخص عدد كبير من الكتب والدراسات، بل وأصبحت كتاباته موضوعا لعدد من الرسائل الجامعية، كما أعيد نشر معظم أعماله. ولاقت هذه الأعمال كثيرا من العناية من المتخصصين في كثير من فروع الدراسات الانسانية، علاوة على الفلسفة بالمعنى الدقيق للكلمة، فلم تكن كتابات كولنجوود مقصورة على المسائل «الميتافيزيقية»، كما هو الشأن في كتابه «مقال في الميتافيزيقا» الذي نشره عام ١٩٤٠، وإنما تناولت هذه الكتابات موضوعات متنوعة عديدة، بدءاً من «فلسفة الفن» الى «المنهج الفلسفي»، الى «فكرة الطبيعة»، الى «مبادىء الفن»، الى «الدين والفلسفة»، فقد كان كولنجوود يرى موضوع الفلسفة واسعا سعة الحياة نفسها.

المضنون به أهله

والواقع أن تأثير كولنجوود في ما يمكن تسميته الفلسفة «الاكاديمية» ظل غاية في الضآلة، وإن كان الأمر على العكس من ذلك تماما بين غير الفلاسفة من المفكرين والمثقفين. وهو ينتمي بذلك الى تلك الفئة من الفلاسفة الذين ذاعت كتاباتهم وآراؤهم ذيوعا واسعا خارج النطاق «الأكاديمي» الضيق، وهم الذين يعد «برتراند رسل» أفضل مثال لهم في بريطانيا. ولذا فليس غريبا أن نجد أستاذا، مثل: لويس مينك الذي يعد من كبار المتخصصين في فلسفة كولنجوود، يقول: إن علماء التاريخ الذين لم يقرؤوا، منذ تخرجهم في الجامعة، كتابا واحدا في الفلسفة،

أقبلوا بنهم على قراءة كتاب كولنجوود عن (فكرة التاريخ)، وأن النقاد والمتخصصين في نظريات الفن كانوا يقبلون على كتابه عن (مباديء الفن) بالاقبال والشغف اللذين يقرؤون بهما أي كتاب متخصص، ومتميز في علم الجمال، وأنه على الرغم من أن كولنجوود لم يكن من رجال الدين فإن مدارس اللاهوت تعرف عن كتابه (الدين والفلسفة)، وعن آرائه في الدين، أكثر مما تعرف أقسام الفلسفة في الجامعات عن ذلك الكتاب. ولذا نجد كثيرا من الكتّاب - حسب قول مينك أيضا - يصفون كولنجوود بأنه الفيلسوف المغبون الذي يهمله الفلاسفة، بدون وجه حق، بل إن هناك من يعده على هذا الأساس أشهر مفكر مغبون في عصرنا الحديث.

وجانب من المسئولية عن هذا الإهمال والإغفال يقع على كاهل كولنجوود نفسه، فقد كان شديد الاعتزاز بآرائه وبشخصيته، إلى حد العجرفة والغرور، ولم يكن يأبه كثيرا بأن يكون قريبا من زملائه، بقدر ما كان يهتم بالتدليل على صحة آرائه، وفرض هذه الآراء، وان يكون محل احترام وتقدير لقدراته الخاصة. ولذا كان زملاؤه يصفونه بالغطرسة و«الدجاطيقية». ولم يكن يعطي كل وقته أو جهده للفلسفة بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما كان يجمع دائما بين الفلسفة والتاريخ، ويحاول التوفيق والتقريب بينها. وربما كان تأثير والده عليه هو السبب في اتجاهه هذا الاتجاه المتشعب، فقد كان أبوه رساما مصورا، أو من المهتمين بالبحوث والدراسات «الاركيولوجينية». وقد تلقى تعليمه في البيت حتى سن الثالثة عشرة، فأجاد اللاتينية واليونانية وهو في الثامنة من عمره، وأتيحت له فرصة هائلة للقراءة الحرة المتنوعة، كما ظل طوال حياته يمارس الرسم والتأليف، ثم التحق بجامعة اكسفورد عام ١٩٠٨، وحين تخرج تولى تدريس الفلسفة فيها، ابتداء من عام ١٩١٣، حتى تقاعده كاستاذ للميتافيزيقا عام ١٩٤١،

وقد تبدو هذه حياة عادية طبيعية مألوفة بالنسبة لأستاذ «أكاديمي»، ولكن وراء هذا المظهر الخارجي كانت تختفي أمور أخرى كثيرة، باعدت بينه وبين زملائه من الفلاسفة (الأكاديميين) الذين تعمدوا إهماله على الرغم من أستاذيته.

اهتمامات متعددة

فلقد أخذ علم الآثار «الاركيولوجيا» جانبا كبيرا من وقته في الفترة بين عام ١٩١١ - و ١٩٣٤، لدرجة أنه كان يعد حجة في العصر الروماني في بريطانيا، وله عن هذه الفترة أكثر من كتاب، مع أنه كان يشغل وظيفة تدريس الفلسفة في اكسفورد.

بل إن قصة اشتغاله بالفلسفة واهتمامه بها كانت تثير كثيرا من التحفظات إزاءه بين «الأكاديميين». وهو نفسه يعترف في (سيرته الذاتية) بأنه وجد نفسه يميل الى الفلسفة، ثم يهتم بها دون أن يفهم سبب ذلك، وأن المرة الأولى التي شعر فيها بأن الفلسفة تجذبه اليها كانت حين وقع في يده بطريق (الصدفة) كتابا بعنوان (نظرية الأخلاق عند «كانت»)، وكان عمره حينذاك ثمانية أعوام. وقد تصفح الكتاب من باب (الفضول)، فإذا به تنتابه موجة من الانفعال والأحاسيس المتلاطمة، ويسيطر عليه كثير من القلق، لأنه وجد نفسه يقرأ أشياء لا يستطيع فهمها، على الرغم من أنها مكتوبة بلغة انجليزية سليمة واضحة، لكن معاني الألفاظ كانت تثير فيه الحدة والارتباك والاضطراب، وأحس بأنه ينبغي عليه أن يفهم هذا الكلام، ومعاني هذه الألفاظ بأي شكل ومهما كان الثمن، كما أدرك أن موضوع الكتاب يجب أن يكون شغله الشاغل ومهمته الأساسية، على الرغم من أنه لم يكن يفهم محتويات الكتاب. وحين قرر أن ذلك العمل سوف يكون

بمثابة مهمة خاصة وشخصيته، وأنه سوف يؤلف بذلك جزءا من ذاته في المستقبل، شعر ـ كما يقول ـ بأن غشاوة قد رفعت عنه، وأن مصيره قد تقرر نهائيا. ومنذ ذلك الحين أصبح يخضع لشعور غريب، يقول: «إنني أنوء تحت عبء ثقيل، لا أستطيع تحديد طبيعته، إلا أن أقول: إنني يجب أن أفكر. أما عما يجب أن أفكر فيه فهذا مالم أكن أعرفه. وحين كنت أرضخ لذلك الأمر كان يسيطر عليّ الصمت والسكون، وأذهل تماما عما يدور حولي وأنا جالس بين الناس، أو أبحث عن العزلة والوحدة حتى أستطيع التفكير. ولست أستطيع حتى الآن أن أتبين بماذا كنت أفكر، إذ لم تكن هناك أسئلة محددة أسألها لنفسي، ولم تكن هناك موضوعات خاصة اوجه تفكيري نحوها، وإنما كان هناك فقط نوع من الاضطراب الذهني غير محدد وغير هادف، كما لو كنت أصارع وسط ضباب». وقد لا يرضى الفلاسفة الاكاديميون عن ذلك كل الرضى.

انتهاء للمعرفة الإنسانية

وزاد ابتعاد زملائه عنه أنه دون زملائه من فلاسفة اكسفورد، ظل حريصا على حمل لواء الفلسفة (النسقية)، بمعنى أنه كان يرى أن الفلسفة في صميمها عقلية ونسقية، وأنها محاولة لصياغة المعرفة الإنسانية في صورة نسقية. وكان فلاسفة اكسفورد قد تركوا ذلك الموقف وهذه النظرة في الفترة التي كان كولنجوود عاكفا فيها على إنجاز أعماله الرئيسية ومؤلفاته المهمة، وهي فترة تمتد الى حوالي ربع قرن، وذلك ابتداء من كتابه عن (الدين والفلسفة) الذي صدر عام ١٩١٦، حتى كتابه الأخير عن (اللواتايان الجديد) الذي صدر عام ١٩٤٢، أي قبل وفاته بسنة واحدة. كانت الفلسفة تتغير بسرعة هائلة في بريطانيا، وربما كان ذلك التغيير أوضح وأعمق في اكسفورد عنه في أي مكان آخر. كانت المثالية التي ينادي بها فلاسفة من أمثال: جرين وبرادلي قد بدأت تنحسر وتتوارى امام الواقعية التي كان يعتنقها كوك ويلسون وبريتشارد. ولكن هذه لم تلبث أن حلت محلها الفلسفة التحليلية. لكن كولنجوود الذي كان يعتز بفرديته وأصالته واستقلاله الفكري لم يحاول المشاركة أو السير في تيار هذه التغيرات. وكانت النتيجة أنه وجد نفسه يقف وحيدا، بل ويكاد يكون منبوذا من زملائه «الأكاديميين». وأغلب الظن أنه لم يكن يأبه بذلك كثيرا.

والمهم هو أن كولنجوود كان كثير الاهتمام بمشكلة البحث عن العلاقة بين الفلسفة والتخصصات الأخرى، في مجال الإنسانيات، وبخاصة التاريخ، فكتابه عن الدين والفلسفة محاولة لتحليل الدين، من حيث هو شكل من أشكال المعرفة. وكتابه الأساسي المهم المعروف باسم (خريطة المعرفة) الذي صدر عام ١٩٢٤، هو نوع من المشروع عن فلسفة الثقافة، وفيه يؤكد وحدة العقل التي تدور حول خمس صور من التجربة، وهي: الفن والدين والعلم والتاريخ والفلسفة. ومن هنا كانت أعمال كولنجوود تدور أيضا حول هذه الصور الخمس للتجربة الإنسانية، وتبعده بالتالي عن الفلاسفة البريطانيين المعاصرين له. ولكن تبقى بعد ذلك كله محاولته لدمج الفلسفة والتاريخ، فهذه المحاولة تعد أهم إسهاماته، بل واحدة من أهم الاسهامات التي قامت في القرن العشرين للتقريب بين الاثنين. ويعبر كتابه (فكرة التاريخ) الذي نشر بعد وفاته تعبيراً صادقاً قوياً عن هذه المحاولة الجديدة بالدراسة والتحليل. والطريف في الأمر هو أنه على الرغم من أن كولنجوود يكاد يكون غير معروف في وطننا العربي فإن كتاب (فكرة التاريخ) كان قد تم نقله إلى العربية منذ سنين، حين كانت هناك حركة جادة للترجمة في مصر. □

واحة العربي

في الصميم

- إن رجال الأعمال الأمريكيين نظاميون جدا ، فهم يمضغون غذاءهم على الجهة اليمنى من أفواههم ، وعشاءهم على الجهة اليسرى .

ايليا اهرنبرغ

- ليس التفكير ممنوعا في أن انجلترا لم تغز منذ سنة ١٠٦٦ إلا لأن الأجانب يخشون أن يضطروا إلى قضاء يوم أحدٍ فيها .

بير دانينوس

- الفرنسي يغني خطأ ، ويفكر تفكيرا صحيحا ، والألماني يغني بطريقة صحيحة ، ويفكر خطأ ، أما الإيطالي فلا يفكر ألبتة لكنه يغني .

هنري دو رينيه

قاموس الظرفاء

العظيم : شخص يعيش بين حاشية من الصعاليك .

الخطيب الماهر : هو ذلك الشخص الذي يستطيع قول القليل بأكثر ما يمكن من الكلمات .

الزوج : هو ذلك الرجل الذي يقف إلى جانب زوجته في الملمات التي ما كانت ستحدث لو لم يتزوجها .

من القلب

• غريق

كان أحد الانجليز يمر على ضفة نهر التايمز ، عندما سمع صوت استغاثة ، ولما نظر ناحية الصوت شاهد رجلا يحرك ذراعيه ويصيح بكل قواه طالبا النجدة ، فسأله : لماذا تصيح بهذا الشكل ؟

- ألا ترى أنني أغرق ؟

- وماذا سيفيدك الصياح ؟ هل تعتقد أنك ستعوم إذا رفعت صوتك ؟!

□□□

• دقة

غمرت الفرحة قلب « جون » عندما أنجبت زوجته قبل ربع ساعة طفلا ذكرا ، سماه « جون » على اسمه ، وفي تلك اللحظة قرع ساعي البريد الباب وقال :

رسالة مسجلة باسم السيد جون .

فسأله الأب السعيد : أي جون ، الأب أم الابن ؟

□□□

• لا يعرف

زلّت قدم عامل بناء فوقع من الطابق الخامس ، ومن حسن حظه هبط على كومة رمال فلم يُصب بسوء ، ولما تجمع الناس حوله ركض الشرطي نحوه ، وراح يبعد الناس عن المكان ، ثم اقترب من العامل وسأله :

- ماذا يحدث هنا ؟

- فرد العامل : لا أعرف ، لقد وصلت الآن .

• النحوي والخياط

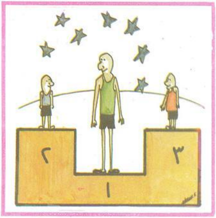
خرج نحويّ إلى مزرعة له ، وكان راكبا فرسه ، ووراءها مُهرها ، فأفلتت منه ومعها مُهرها ، فخرج يسأل عنها ، فمر بخياط فقال : ياذا النِّصاح وذات السم الطاعن في غير وغى لغير عِدى ، هل رأيت الخيفانة القباء ، يتبعها الحاسن المرهف كأن غرته القمر الأزهر ينير في حصره كالخلب الأجرذ ؟ فقال الخياط : اطلبها في تزلخ . فقال : ويلك ، ما تقول قبحك الله ؟ فما أفهم رطانتك . فقال الخياط : لعن الله أبغضنا لفظا وأخطأنا منطقا . □□□

• نظافة

سمع سعد زغلول أحدهم يطعن في بعض الأشخاص الذين تنقلوا بين الأحزاب فقال لمن حوله : بالعكس ، فأنا أراه من أصحاب المباديء النظيفة ، فدهش الحاضرون وسألوه : وكيف ذلك ؟

فأجاب : لأنه دائما يغيرها حتى لا تتسخ ! □□□





• صراحة

قل ما الذي يهمني
إن قام زيد أو قعد
أو إن ذهبت ماشيا
أو راكباً نحو البلد
أو كان زيد مُبتداً
أو فاعلا سدّ المسد
في النحو لا تقهرني
إلا تفاصيل العدد
وأفعل التفضيل كم
قد شذّ فيه وشرد
وغير هذا عُقَدٌ
تبًّا لهاتيك العُقَد
ترى بها قواعداً
بدون معنى أو زبد
مختومة جميعها
بـ « قِس عليه ما ورد »

العربي
عيونك على العالم

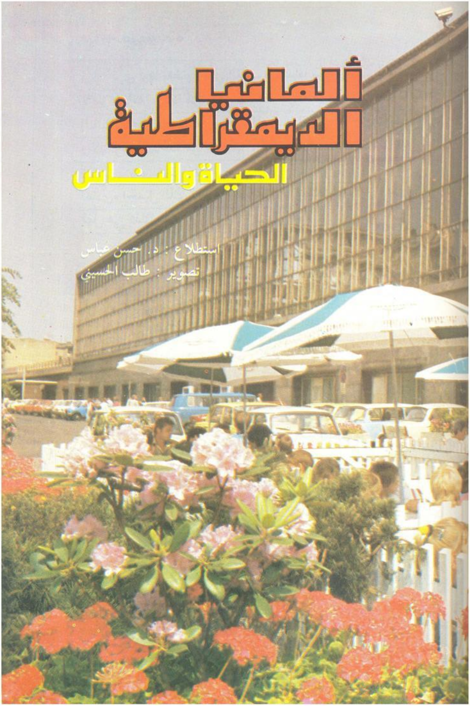


ألمانيا الديمقراطية

الحياة والناس

استطلاع : د. حسن عباس

تصوير : طالب الحسيني



يرى فيها بعضهم - في الغرب - امتدادا ساكنا أخضر للجزء الأكبر والأكثر حركة من المانيا ، ذلك الجزء الذي تشغله جمهورية المانيا الاتحادية ، بكل صخب المصانع الهادرة على أرضها ، والأبخرة المتصاعدة من مداخنها ، والقوة الاقتصادية الهائلة التي تمثلها . يرى فيها هذا البعض - بحسن نية أو بخبث - الركن الهادىء الجميل الذي لم تلوثه الصناعة ! ولم يفسد أبناءه ثراء فاحش فهل هي كذلك حقا ؟

في مثل هذه الأيام ، منذ أربعين سنة خلت ، ظهرت إلى الوجود دولة جديدة في المانيا ، عرفت منذ ذلك الحين بجمهورية المانيا الديمقراطية ، تمييزا لها عن شقيقتها « اللدود » المانيا الاتحادية التي أعلن عن تأسيسها قبل ذلك بشهر واحد . ولقد أدى إلى ظهور هاتين الدولتين في الفترة القلقة التي تفصل بين صمت المدافع في الثامن من أيار « مايو » عام ١٩٤٥ ، وبين السابع من اكتوبر عام ١٩٤٩ ، صراع إرادات وأهداف استراتيجية لدول كبرى منتصرة ، كانت تتفق - حتى ذلك الحين - على أشياء كثيرة ، أبرزها تجزئة المانيا ، ففي ذلك تعزيز لأمن العالم ، كما كان الحلفاء يرون .

وحين وصلنا برلين ، في أول زيارة تقوم بها « العربي » إليها ، كان الوقت ظهرا والجو صحوا ، والشمس تتوسط سماء صافية إلا من بعض الغيوم . ولكن المطمئن إلى الصحو والشمس المشرقة في أوربا كالمطمئن إلى زوج لعوب ، كلاهما يكتشف - ولو بعد حين - أنه مخدوع ! فسرعان ما تكاثفت الغيوم ، وحجبت وجه الشمس ، وتساقط المطر ، على أن مطر الصيف - كسحاب الصيف - لا يلبث أن يزول ، متيحا بذلك فرصة للطواف في برلين ، بكل ما يجتمع لها من حسن المنظر وجمال العمارة وسعة الشوارع وفخامة المباني وروعتها ، فهي قديمة جديدة ، ولهذا القدم والجدة قصة ليست بعيدة عن ذاكرة الناس ممن يعون أحداث الثلاثينيات والأربعينيات . كانت برلين آنذاك واحدة من أعظم عواصم الدنيا وأشدها خطرا ، لا يكاد يصدر تصريح فيها حتى تجد أصداء له في أقصى بلدان العالم وأدناها . على أن برلين نفسها كانت تحمل في رحمها جنينا خبيثا ، لم تستطع التخلص منه إلا بعد حرب ضروس ، حصدت ملايين البشر ، وأتت على مدن بأكملها .

كانت برلين واحدة من تلك المدن الالمانية الكثيرة التي أصابها دمار الحرب . وليست الأربعون سنة الماضية من عمر الدولة الفتية إلا الامتداد الزمني للحركة الدائبة ، والجهد الإنساني اللذين لولاهما لما استطاعت برلين وغيرها - من المدن الألمانية - أن تبعث من جديد لتغدو مدينة سلام وأمن .

الأنقاض تملأ الطرق

قال جونتر بيرجنر ، معاون دائرة الصحافة في مجلس المدينة : « هدمت برلين تماما خلال

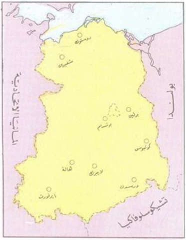
الحرب ، وتحول مركز المدينة إلى أنقاض تعوق الحركة . لم يكن فيها ماء ولا كهرباء ، وكان الناس ينامون على الأرصفة . كان التحدي الأكبر الذي واجهنا في ذلك الوقت هو إزالة الأنقاض وإعادة البناء والحياة » !

كان ينبغي للحياة أن تعود نشطة ، لمدينة ظلت تحفل بالحركة الدائبة في ميادين الإبداع الإنساني بعامة من ثقافة وفنون وعلوم وصناعة وتجارة ، على مدى تاريخ طويل . يرجع أول عهود المدينة إلى عام ١٣٠٧ ، حين اتحدت قريتا كولن وبرلين ، وتكون لهما مجلس بلدي مشترك . وفي أواسط القرن الخامس عشر عمل أمراء أسرة هوهنزولرن الأقوياء على إخضاع المدينة الصغيرة الناشئة ، وكانت تتمتع باستقلال نسبي ، بعيدا عن نفوذ النبلاء ، لكن برلين تأثرت كثيرا بحرب الثلاثين عاما الدينية ، بعد أن تورطت فيها بلدان عديدة في وسط أوربا ، وهي الحرب التي اتخذ منها الكاتب المسرحي الالماني الشهير ، برتولت بريخت ، خلفية مسرحيته المرموقة « الأم شجاعة وأولادها » .

بداية الظهور والتأثير

ظلت برلين على حالها دونما شيء يميزها عن غيرها ، إلى أن جاء أحد الأمراء من أسرة هوهنزولرن ، في أواخر القرن السابع عشر ، وأعلن نفسه ملكا على بروسيا ، واتخذها مقرا لإقامته ، وكان ذلك يؤذن ببدء جديد للمدينة . حينئذ أخذت مظاهر التطور تأخذ سبيلها إلى العاصمة الفتية ، وتأسس الشارع العريق « اونتر دين ليندن » .

منذ عامين احتفلت برلين العاصمة بمرور ٧٥٠ سنة على تأسيسها ، وقد شهدت تغيرات كثيرة في مسيرتها منذ نشأتها ، إلا أن التغيرات التي شهدتها في الأربعين سنة الماضية ، ومنذ أوائل السبعينيات بخاصة ، كانت الأكثر أهمية .



● خريطة المانيا الديمقراطية والدول المحيطة بها .

وبفضل إعادة البناء أصبحت برلين أول مدينة صناعية في المانيا الديمقراطية . على أن اللافت للنظر هو حركة العمران الهائلة التي وفرت السكن اللائق لأكثر من ثمانمائة ألف مواطن . لقد تزايد عدد سكانها بسبب الهجرة من الأقاليم ، حتى بلغ الآن مليونا ومائتي ألف ساكن . ورافق هذه الزيادة إنشاء ثلاثة أحياء سكنية جديدة ، لتضاف إلى الأحياء الثمانية السابقة ، وتتوافر لكل منها مظاهر الحياة ولوازمها الكاملة ، ففي كل حي ما يخصه من رياض الأطفال والمدارس ونوادي الشباب والمسارح ودور السينما ، وكل ما تقتضيه رفاهية العيش ويسره .

سور برلين والبوابة الشهيرة

يدهش الزائر حين يرى كل أمارات القدم على الأبنية التاريخية التي هدمت في الحرب ، ثم أعيد

بناؤ ها مجددا ، فلا يخطر له على بال إلا أنها قديمة ، وذلك عائد إلى فن العمارة الحديث ، إذ يراعى في البناء أن يشيد على طراز العمارة القديم ، بحسب القرن الذي شيد فيه المبنى أول مرة . ثم تكتسب مواد البناء من حجارة رملية أو طابوق الألوان الداكنة التي يفترض أن توالي السنين قد تركها على الجدران القديمة ، والأمثلة كثيرة ، فالسائر في شارع اونتردين ليندن العريق الذي يمتد شرقا ليصل إلى مركز برلين العاصمة ، ويمتد غربا مخترقا بوابة براندنبرج التي تقع اليوم في وسط سور برلين الفاصل بين شطري المدينة ، يرى المباني التاريخية المرممة ، أو التي أعيد بناؤ ها . إن ذكر البوابة والسور يقتضي وقفة قصيرة للتحدث عنهما . لم تكن الحدود مغلقة بين الجمهوريتين الألمانيتين بعد تأسيس المانيا الديمقراطية ، بل ظلت الطرق مفتوحة والاتصالات جارية ، لكن هذه الحدود المفتوحة صارت مصدر خطر ومتاعب للدولة الناشئة ، فقد انتشرت المضاربات بالعملات وكانت هناك محاولات للتخريب والتهريب والحض على العصيان واغراء الايدي العاملة الاختصاصية على مغادرة البلد ، وقد ترتب على ذلك خسائر قدرت بعشرات المليارات من الماركات باتت تهدد التجربة الاقتصادية الجديدة بالفشل لذا عمدت الجهات المختصة في المانيا الديمقراطية الى فرض سيطرتها على هذه الحدود ، وباشرت باقامة السور الذي يحيط ببرلين الغربية ليحكم السيطرة على حركة الدخول منها واليها .

صروح معمارية قديمة حديثة

إذا جاوزت بوابة براندنبرج ، واتجهت شرقا نحو مركز برلين العاصمة ، فسوف ترى المباني التاريخية التي تقدمت الإشارة إليها ، ومن تلك المباني جامعة همبولت العريقة التي أسسها العالم فيلهلم فون همبولت ، وتتلمذ فيها كارل ماركس ، وفريدريش انجلز ، وحاضر فيها فريديش هيغل ، ورأسها في مطلع القرن التاسع عشر الفيلسوف فيشته ، ثم أكاديمية العلوم التي أسست في عام ١٧٠٠ ، وكان من أساتذتها المشهورين فيلهلم لايبنتس ، والعالم الفيزيائي الأكبر البرت آنشتاين ، صاحب النظرية النسبية ، وغيرهم ، وفي الجامعة لوحة تذكارية تجمع بين آنشتاين وبين عدد من الأساتذة .

يتبع جامعة همبولت مستشفى الشاريتيه المشهور الذي عمل فيه كبار الأطباء العلماء ، مثل روبرت كوخ ، مكتشف عصيات كوخ المسببة لمرض السل ، وكان هذا المستشفى قد تأسس في عام ١٧١٠ ، ثم تحول إلى مؤسسة تعليمية وتمريضية ذاعت شهرتها في أوربا والعالم .

على بعد أمتار من مبنى الجامعة يقوم مبنى دار أوبرا الدولة ذات التقاليد العريقة ، وقد تم ترميمها في عام ١٩٨٦ ، ثم المكتبة الحكومية الالمانية التي تحتفظ بالمخطوطات ، وبالطبعات الأولى لمشاهير العلماء والأدباء والفلاسفة ، وكانت قد تأسست في عام ١٦٦١ ، وتقتني من الكتب أكثر من ستة ملايين مجلد ، وفيها تحفظ مخطوطات للأمم المتحدة واليونسكو .

وبالقرب من ساحة الأكاديمية تم إعادة بناء دار التمثيل ، وهي أثر معماري عظيم أبدعه المهندس كارل شينكل ، وقد أعيد افتتاحها بعد الترميم في عام ١٩٨٤ ، لتكون دارا للحفلات الموسيقية والمقر الثابت للاوركسترا السيمفونية البرلينية . ويجتمع للسائر في شارع اونتردين ليندن الاستمتاع بجماله وأناقته المعاصرتين ، وبالجلال الغابر الذي تنم مبانيه التاريخية عن بعض أسراره .

وفي مركز المدينة ، عند نهاية هذا الشارع ، تجد القصر الجمهوري ، ومبنى مجلس الشعب الملحق به ، وهو بناء حديث يمتاز بالأناقة وروعة



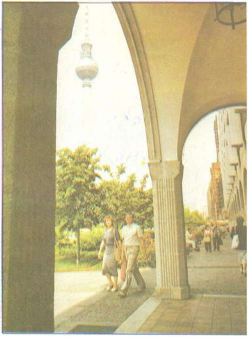
● بوابة براندنبرج التي تتوسط شارع أونتر دين ليندن ، وتفصل بين شرق برلين وغربها .

التصميم ، وهو - فضلا عن أنه المقر الرسمي لرئيس الدولة - مكان تقام في صالاته الفسيحة الرحبة حفلات ثقافية وعروض مسرحية وغنائية . وفي مركز المدينة أيضا مبنى المسرح الالماني ، وهو بناء يشبه في تصميمه دار أوبرا الدولة ، وكان قد شيد في عام ١٨٨٣ ، وتم ترميمه وأعيد افتتاحه للجمهور .

معالم ثقافية

الحديث عن المسارح ودور الأوبرا والعروض الموسيقية حديث طويل ، فلكل من هذه الدور تاريخ عريق ، ولا يفوتنا أن برلين كانت ، منذ مطلع هذا القرن ، إحدى أهم العواصم الثقافية في أوربا ، حسبنا أن نشير إشارة عابرة إلى مسرح « البرلينر انسامبل » ، وهو مسرح بريخت الذي يعد مزارا يقصده رواد هذا الفن الجميل من بقاع مختلفة من العالم ، وهذا المسرح يقع في أحد الشوارع المهمة في برلين ، هو شارع « فريدريش شتراسه » الذي كان يعرف بشارع الفن في العشرينيات والثلاثينيات ، ففي مسارحه عمل كبار المخرجين العالميين : ماكس رينهارت ، وارفين بسكاتور ، وغيرهما ، وعزفت موسيقا هانز ايسلر ، وردد ألحانه الممثل والمغني المشهور ايرنست بوش ، ومثلت على مسارحه مسرحيات جيرهارت هاوبتمان ، وفرانك فيدكند ، ورواد المسرح التعبيري الذي انطلقت ثورته من المانيا في الربع الأول من هذا القرن . وفي هذا الشارع أيضا آخر بيت سكنه بريخت ، وقد تحول الآن إلى متحف ومركز لدراسات المسرح ، كما يقع فيه مسرح المنوعات المشهور ، وهو نموذج لما تقتنيه المسارح الحديثة من أجهزة تقنية .

ومن المسارح ودور العرض إلى المتاحف التي يبلغ عددها في برلين وحدها ٢٤ متحفا . على الجهة اليمنى من شارع فريدريش شتراسه تقع جزيرة المتاحف ، وفيها متحف بوده الذي يحمل اسم العالم فيلهلم بوده ، وهو المتحف المختص بالآثار التي ترجع إلى بدايات العصر المسيحي البيزنطي ، وفيه أجنحة يكاد كل منها يكون متحفا قائما بذاته ، من ذلك مثلا المتحف المصري الذي يحتوي آثاراً من مصر القديمة ، ومتحف التماثيل ، ومعرض اللوحات ، ثم هناك متحف عصر ما قبل التاريخ ، ومتحف بيرجامون الذي يحوي آثار مدينة يونانية قديمة . وأكثر ما يلفت النظر هو متحف الشرق الأدنى الذي بني في عام ١٩٠٣ ، وفيه آثار عربية وإسلامية عديدة . وتعد بوابة عشتار من أهم مقتنيات هذا المتحف . تقول المسئولة عن جناح الشرق الأدنى : « نقلت بوابة عشتار البابلية إلى المانيا في



● في وسط المدينة حيث يظهر برج برلين .



● الساعة العالمية في ساحة اليكسندر ، أشهر الساحات في برلين .



● منظر برلين من البرج ، حيث يبدو شارع اونتر دين ليندن ، وفي وسطه سور برلين وبوابة براند برج الفاصلة بين شرق المدينة وغربها .

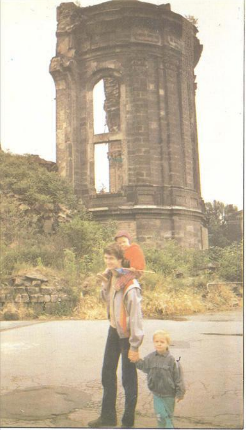
العشرينيات . وأسود بابل هذه أصلية ، وقد أحيطت ببناء حديث ، تشبه ألوانه الألوان الأصلية .

انظر إلى هذه الكتابة ، إنها كلمات نبوخذ نصر التي يقول فيها :

« أنا الملك الذي بنى هذه المدينة . . . ! »

عودة إلى المركز

مركز برلين القديمة يكاد يكون متحفا ، فهو الجزء الذي يعد النواة الأولى للمدينة ، وقد أصابه الدمار في الحرب ، وفيه مجلس المدينة ، وكنيسة نيقولاي ، ويسمى كله « حي نيقولاي » ، وقد حظيت مجموعة المباني القائمة فيه باهتمام خبراء من بلدان عديدة . على هذه البقعة القديمة تقوم مجموعة متناغمة من المباني التاريخية القديمة ، وأخرى جديدة تتناسب معها ، وفي هذا الحي يسكن حوالي ١٦٠٠ مواطن في مساكن جديدة ، وتنتشر فيه المطاعم ومقاهي الرصيف الجذابة . أما كنيسة نيقولاي - أقدم بناية في برلين - فهي تشغل وسط الحي ، وقد أعيد بناؤها في بداية الثمانينيات ، على نحو



● بقايا كنيسة في درسدن ـ مدينة الثقافة والفن ـ وقد هدمت في الحرب .

يتفق وما كانت عليه قبل الهدم . وكان قد تم تركيب قمتي برج الكنيسة ، البالغ ارتفاع كل منهما ٤٣ مترا ، على الأرض أولا ، ثم رفعتا بآلة رافعة ، وركبتا على البرج الضخم . ومن المباني القديمة الأخرى في هذا الحي قصر ايغرايم الذي يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وكذلك دار المحكمة الصغيرة التي يرجع تاريخ بنائها إلى العصور الوسطى .

برلين الحديثة

قد يتبادر إلى الذهن أن مباني برلين كلها أثرية قديمة ، وهذا نصف الحقيقة ، أما نصفها الآخر فتمثله برلين الحديثة بمصانعها ومتاجرها وشوارعها الواسعة الممتدة ، ومنها شارع كارل ماركس ، وشارع ليبكنشت ، وشارع لينين ، وشارع لايبزك ، وغيرها من الشوارع العديدة التي تنتشر على جوانبها الأحياء السكنية الجميلة ، وتلتقي في ساحات عامة متعددة ، أشهرها ساحة الأكاديمية وساحة اليكسندر ، وفيها الساعة العالمية التي تبين التوقيت في بلدان مختلفة .

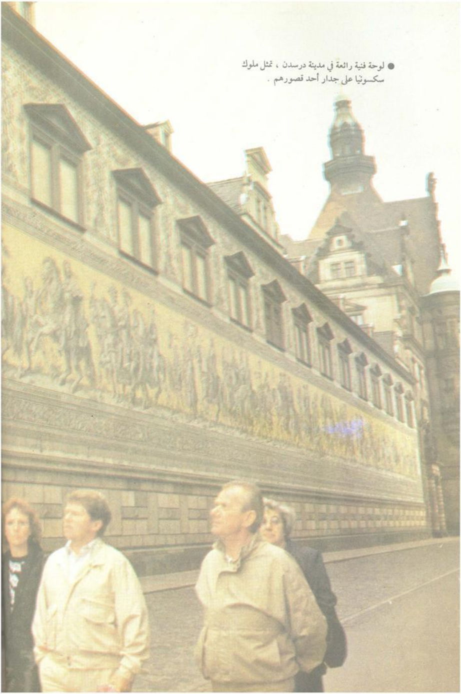
وفي ركن من هذه الساحة تمثال صغير للرسام هاينرش تسيله الذي تميزت رسومه بتصوير الحياة العامة ، ووصف العلاقات الاجتماعية السائدة بين الناس في برلين في مطلع هذا القرن ، تلك الرسوم التي ما زالت تحظى باهتمام الجمهور حتى الآن .

وفي برلين من الحدائق والبقع الخضراء ما يشغل مساحة من الأرض تقدر بحوالي ١٨٠٠ هكتار ، فضلا عن الغابات التي تغطي مساحة تقدر بـ ٧,٧٠٠ هكتار مربع ، ويضاف إلى كل ذلك بحيرات تبلغ مساحتها ٧٤٠ هكتارا مربعا ، وفي مقدمة تلك الحدائق حديقة حيوان برلين المترامية الأطراف ، وفي وسطها قصر فريدريشفيلده الفخم الذي أعادته أعمال الترميم ، إلى ما كان عليه من روعة قبل أن تصيبه ويلات الحرب . أما الحدائق الصغيرة المتناثرة فلا يكاد يخلو منها شارع .

الطريق إلى بوتسدام

بوتسدام مركز محافظة ، يبلغ عدد سكانها حوالي مليون و١٢٠ ألف مواطن ، يعمل ٣١٪ منهم في الصناعة ، و١٦,٤ ٪ في الزراعة . يرجع تاريخ تأسيس هذه المدينة إلى القرن الرابع عشر ، ولم تبلغ شأواً في التطور الحضري

● لوحة فنية رائعة في مدينة درسدن ، تمثل ملوك سكسونيا على جدار أحد قصورهم .

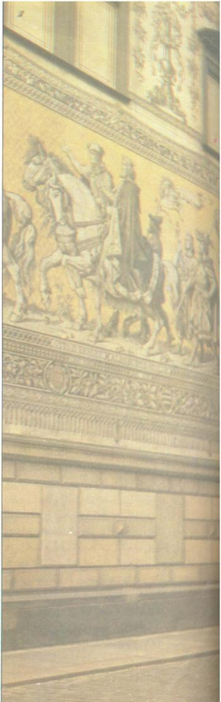


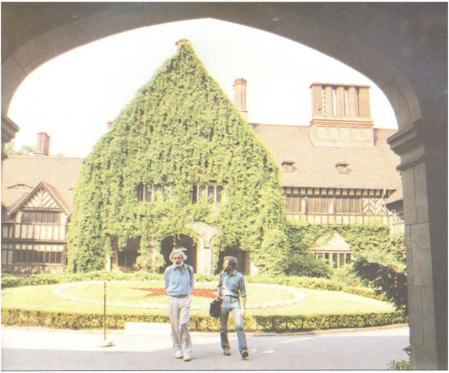
حتى القرن السابع عشر ، عندما اتخذت منها أسرة هو هنزلورن الحاكمة المقر الثاني بعد برلين . كانت المدينة آنذاك أشبه بمعسكر ، حيث يشكل الجنود غالبية السكان ، وفي القرن الثامن عشر أخذت تكتسب مظهرها الذي تبدو عليه الآن ، فشيدت قصور الملوك البروسيين ، وفي مقدمتها قصر سان سوسي وحدائقه البديعة ، وقصر نيوبلاس ، وبيت الشاي الصيني ، ثم أعقب ذلك تشييد الحمامات الرومانية والأبنية التاريخية الأخرى في الحدائق الفسيحة الواقعة غرب المدينة . ولكن الحرب لم تبق من الأبنية التاريخية الكثير .

إن الزائر ليدهشه جمال الطبيعة من أنهار صغيرة وبحيرات وحدائق بديعة ، وفي مقدمتها حديقة سان سوسي التي اشترك في تصميمها مهندسون فرنسيون وآخرون من انجلترا ، وذلك كله يوفر متعة الطواف بالقوارب في حضن الطبيعة الهادىء .

تعرف بوتسدام بشيئين يتداعيان إلى الذاكرة كلما ذكر اسم المدينة ، هما : روح بوتسدام ، ومعاهدة بوتسدام التي استسلمت المانيا الهتلرية بموجبها للحلفاء المنتصرين ، دون قيد أو شرط .

أما روح بوتسدام فهي الروح العسكرية الالمانية على النمط البروسي ، وقد تطورت عبر مرحلة تاريخية ، تمت خلالها بروسيا ، لتصبح أقوى ولاية المانية ، وصارت رمزا للتسلط الذي مارسته قيادتها المكونة من الارستقراطية الالمانية وأصحاب الأملاك والعسكريين الكبار الذين تحالفوا مع الرأسمالية الحديثة . وعندما تمت الوحدة الالمانية ، بقيادة بروسيا في عام ١٨٧١ ، عملت السلطة على إشاعة تلك الروح في المانيا كلها ، وقد أخذ أنصار هذا الاتجاه يكتشفون في أنفسهم ميلا للسيطرة على العالم . كانوا هم أنفسهم الذين أذكوا حماسة الروح الاستعمارية في المانيا بعد الهزيمة في الحرب العالمية الأولى ، ثم





● قصر شلوس سيسيليا نهوف في بوتسدام الذي وُقعت فيه معاهدة استسلام المانيا .

جاء النازيون إلى السلطة في عام ١٩٣٣ ليتمثلوا تلك الروح . أما الشيء الآخر الذي تعرف به المدينة فهو معاهدة الاستسلام . كان المتحالفون الكبار في الحرب ضد هتلر قد ناقشوا في اجتماعاتهم التي عقدوها في طهران ويالطا الشكل الذي سوف تكون عليه المانيا وأوربا بعد الحرب . وفي شهر تموز « يوليو » ، وآب « أغسطس » من عام ١٩٤٥ ، بعد الهزيمة الساحقة التي منى بها النازيون ، اجتمع رؤساء الدول المنتصرة الثلاث في قصر « شلوس سيسيليانهوف » في بوتسدام ووقعوا المعاهدة التي وضعت حدا لروح العداء ، وفرضت ـ في الوقت نفسه ـ شروطا على الشعب الالماني ، كان يقصد بها تأمين الديمقراطية وتحويله إلى شعب مسالم .

بين الشمال والجنوب

إن التكامل الاقتصادي الذي كان يقوم بين غرب المانيا الصناعي وشرقها الزراعي قبل الحرب ، يقوم الآن بين الشمال والجنوب ، ففي الوقت الذي ترجح فيه كفة الصناعة على الزراعة في برلين ومحافظات الجنوب ، ترجح كفة الزراعة على الصناعة في محافظات الشمال . على أن الأدبيات الاقتصادية الحديثة تشير إلى جنوح قوي نحو الصناعة ، فهي تعد الآن القطاع الاقتصادي القائد في المانيا الديمقراطية . ويقتضي التنويه إلى أن المصانع القائمة التي يبلغ عددها حوالي ٦٢٠٠ مصنع هي ملكية شعبية ، وقد اجتمعت غالبية هذه المصانع في ١٥٦ مجمعا

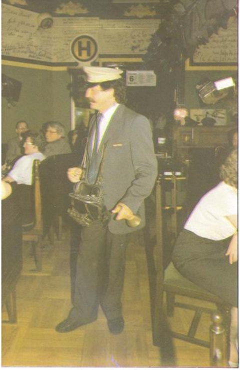
صناعيا ، تنتج حوالي ٧٠٪ من الدخل القومي . ويعمل في الحقل الصناعي أكثر من ثلاثة ملايين مواطن .

ويستكمل الانتاج الصناعي الكبير من خلال ٨٦ ألف مؤسسة تعاونية وحرفية خاصة ، بالدرجة الأولى في البناء والسلع الاستهلاكية ، وأعمال الخدمات . أما المراكز الصناعية التي تسهم إسهاما فعالا في الإنتاج الصناعي ، فهي العاصمة برلين ومدن هاله ولايبزك وكارل ماركس شتادت ودرسدن وكوتبوس . وتعلق جمهورية المانيا الديمقراطية أهمية كبيرة على علاقاتها مع الأطراف الأخرى في مجلس التعاضد الاقتصادي (المجموعة الاقتصادية للبلدان الاشتراكية) ، وترى في ذلك حافزا على التنمية الصناعية ، وتنظم هذه العلاقات اتفاقيات اقتصادية تظل سارية المفعول حتى عام ١٩٩٠ .

البداية من الصفر

قلت للدكتور هوينه : ما تقويمك للتجربة الاقتصادية والصناعية بوجه عام ؟

- إن أربعين سنة من تطور دولة لهي فترة طويلة نسبيا ، ولكنها تعني تطورا مستمرا لبلدنا . كانت البداية صعبة ، فقد بدأنا من الصفر . دمرت معظم المؤسسات الاقتصادية في الحرب ، وتحولت مدننا وقرانا إلى أنقاض . كنا بحاجة إلى كل شيء ، وكان علينا تغطية احتياجات مواطنينا . أكثر ما كان يؤرقنا هو المقارنة بيننا وبين المانيا الاتحادية ، فالصناعات كلها كانت قائمة هناك ، ولم يكن لدينا منها شيء ، لذلك ركزنا جهودنا على خلق الصناعات الثقيلة وتطويرها . أما الآن فإننا ننظر إلى تجربتنا بارتياح ، فقد بلغنا مستوى ملحوظا في كل مجالات الصناعة ، وتعد المانيا الديمقراطية اليوم الدولة العاشرة بين الدول المتقدمة صناعيا في العالم .



● مطعم المترو المشهور في مدينة درسدن وهو مطعم خاص .

لا يضيرنا أن نجلس في العربة العاشرة من القطار ما دمنا لم نتخلف عن الركب . ولا ننسى أننا بدأنا قبل أربعين عاما من نقطة الصفر !

هذه العبارة يكاد الزائر يسمعها من كل مسئول : فهو في الوقت الذي يتحدث فيه بكثير من المرارة عن أيام البداية ، يتحدث بكثير من الاعتزاز والثقة بالنفس عن الحاضر والمستقبل .

لفت انتباهي في حديث الدكتور هوينه قوله : « أكثر ماكان يؤرقنا هو المقارنة بيننا وبين المانيا الاتحادية » .

وأدركت مدى الحساسية التي تنطوي عليها هذه المقارنة ، حيث يبدو النظام الاقتصادي في الغرب هو الأكثر نجاحا ، والأوفر حظا في التفوق . ولهذا التفوق أسباب موضوعية ، ينبغي للمنصف ألا يغفل عنها ، منها أن غرب المانيا



● في مدينة باوتسن في الجنوب حيث يحتفل الصربيون الألمان بالزفاف .

كان - تاريخيا - مركز الصناعات الالمانية ، في حين كان شرق المانيا - تاريخيا - مركزاً مهما للزراعة . وليس غريباً - إذن - أن تكون المانيا الاتحادية دولة صناعية متطورة . ولكن التطور الصناعي الكبير الذي حققته المانيا الديمقراطية - وقد بدأت من الصفر كما مر بنا - يعد إنجازا مهما . ثم إن تعداد السكان في المانيا الاتحادية يجاوز ٣٥ مليونا ، في حين يقترب عددهم في المانيا الديمقراطية عن ١٧ مليون نسمة . وهناك عامل على جانب كبير من الأهمية ، وهو أن جزءا كبيرا من أموال مشروع مارشال الامريكي الذي خصص لدعم أوربا الغربية بعد الحرب قد اتجه إلى المانيا الاتحادية ، فأثر في الإسراع باعادة بناء الاقتصاد ، في الوقت الذي اعتمدت فيه المانيا الديمقراطية على مواردها ، وعلى دعم من الاتحاد السوفيتي .

مجمع الشاحنات

على بعد مائة كيلومتر جنوب برلين تقوم المنشآت الضخمة لمجمع الشاحنات في مدينة لودفيج شفيلده . ينتج هذا المجمع عدة أنواع وأحجام من الشاحنات والقلابات هي IFAW50, IFAL60 ، وكذلك ينتج شاحنتين أخريين ، إحداهما بحمولة ٣ أطنان والأخرى بحمولة طنين ، وينتج كذلك عربات تجرها الشاحنات ، ورافعات . يقول مسئول المصنع كلاوس جوريك ، تم إنشاء هذا المجمع في عام ١٩٧٨ ، يتألف من ٢٦ مصنعا ، موزعة على تسع محافظات .

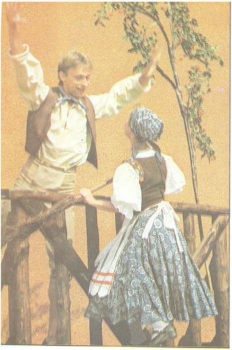
نحن نتنج سنويا حوالي ٣٠ ألف شاحنة ، وهذا العدد يضعنا في مصاف أكبر المصانع

الموجودة في مكان واحد في وسط أوربا . ويقول المسئول التجاري ايكهارد ريختر : يمكن القول بأن الأقطار العربية من أهم المستوردين لمنتجاتنا ، وأعني بذلك سوريا والأردن والعراق وغيرها ، وذلك بالإضافة إلى ايران والصين ، وقد صدرنا للأخيرة ٧٠ ألف شاحنة حتى الآن .

الثورة الخضراء

ومن حديث الصناعة إلى حديث الزراعة ، فهما معا دعامتا الاقتصاد في كل بلد . طرأ على الزراعة تحول جذري بعد عام ١٩٤٥ ، فقد انتزعت الملكية من كبار مالكي الأراضي بفضل الإصلاح الزراعي ، ووزعت على من يفلحون الأرض ويزرعونها ، أي على العمال الزراعيين السابقين ، وعلى صغار الفلاحين ، وسرعان ما اتضح أن إمكانية تحقيق زيادة في الإنتاج واستخدام التقنية العصرية في إطار مزارع فلاحية صغيرة أمر متعذر ، لذلك لجأ الفلاحون منذ الخمسينيات إلى تشكيل تعاونيات للإنتاج الزراعي ، وعلى هذا النحو تم الانتقال التدريجي إلى الإنتاج الزراعي الكبير الذي تستخدم فيه أساليب صناعية عصرية . وفي الوقت نفسه طرأت على حياة الفلاحين أساليب جديدة للعيش ، تزيل الفروق التي تقوم عادة بين أهل الريف وسكان المدن ، وتتوافر اليوم لأطفال الفلاحين فرص التحصيل العلمي نفسها وإمكانياته ، بقدر ما تتوافر لأطفال المدن .

طرأت تحولات كبيرة على حياة الفلاحين ، فالفلاح التعاوني يحصل على إجازة سنوية مدفوعة الأجر ، وتشييد البيوت السكنية في الريف عن طريق البناء الذاتي للمساكن ، وتقدم الدولة القروض لهذا الغرض . أصبحت دور الحضانة ورياض الأطفال منتشرة في جميع القرى ، وتسهل مرافق الخدمات العامة والأسواق الكبيرة والمطاعم والنوادي والمرافق الرياضية الحياة في الريف ، وتجعلها أكثر متعة ، كما تتوافر لسكان الريف العيادات الطبية ومراكز الممرضات القروية ، ضمانا للرعاية الصحية .



● في حديقة الطلائع للأطفال يقام في أول يونيو احتفال سنوي وعروض غنائية .

الحرف اليدوية

كانت الجولة في مجمع الشاحنات زيارة ميدانية لنوع من الصناعات الكبيرة ، لكن هناك قطاعا مهما آخر ، ينتمي إلى الصناعة لأكثر من سبب ، وهو الحرف اليدوية . تقول الإحصائيات الرسمية : إن هناك حوالي نصف مليون من الحرفيين وأصحاب المهن الحرة ، بين تسعة ملايين عامل في ألمانيا الديمقراطية ، وهم يحتلون مكانا راسخا في الحياة العامة ، وفي هيكلة الاقتصاد الوطني . ويقوم قطاع الحرف اليدوية



● مبنى جامعة كارل ماركس في مدينة لايبزك .

حاليا بتنفيذ أكثر من ثلثي الخدمات العامة وأعمال التصليح . ومن المقرر أن تزداد الخدمات حتى عام ١٩٩٠ بنسبة ٢٨٪ مقارنة بعام ١٩٨٥ . إن التجهيز المتنامي للمنازل بسلع استهلاكية ذات قيمة عالية ، والاحتياجات الجديدة لقضاء وقت فراغ مفيد ، وتنفيذ برنامج شامل لبناء المساكن ، مع نسبة عالية من أعمال الترميم والتحديث ، كل ذلك يؤدي إلى زيادة الطلب على خدمات الحرف اليدوية .

وهي في المانيا الديمقراطية على نوعين : فهناك مؤسسات وورش للحرف اليدوية العاملة تعاونيا أو لحسابها الخاص . ويوجد حوالي ٢٧٠٠ تعاونية إنتاجية للحرف اليدوية ، تضم ١٦٣ ألف عضو ، وهي تستفيد من الملكية التعاونية للإنتاج على أساس نظام خاص بها . ويحصل كل الأعضاء سنويا على نسبة من الربح ، إلى جانب الأجور التي يتقاضونها .

في درسدن زرنا غرفة الحرف اليدوية (على غرار غرفة التجارة) ، والتقينا مديرها الذي قال : لدينا ١١ ألف مصنع خاص (أي ملكية خاصة) ، و٢٦٦ تعاونية إنتاجية ، وقد تكونت هذه التعاونيات الإنتاجية من تجمع الحرفيين التعاونيين والحرفيين الذين يعملون لحسابهم الخاص . والتعاونية شكل من أشكال التنظيم ، يوفر للحرفيين كل ما يحتاجونه من المواد الخام .

والحرفيون يفيدون من التقدم العلمي ، فينتج المختصون منهم مكائن لطب العيون ، ومختبرات طبية ، وآلات موسيقية ، وغير ذلك كثير .

مطعم المترو (٦)

وفي المساء زرنا مطعما خاصا ، أي ملكية خاصة ، كل ما فيه طريف ، مدخله الذي يتكون من نصف عربة مترو ، ومقاعده ، وهي



● بوابة عشتار البابلية في متحف بيرجامون ببرلين .

مقاعد مترو « متقاعد » ، وقبعات الجباة المعلقة على عمود معدني يجاوز عددها مائة وخمسين قبعة ، وجدرانه التي كتب عليها المشاهير من رواده عبارات للذكرى مشفوعة بالتوقيع ، ثم غرفة قيادة المترو ، وقد وضعت في صدر المطعم ، ويبدو أنها حجزت لنا (أنا وزميلي المصور والمرافق) لأننا ضيوف قادمون من بلد صديق بعيد !

على أن الطرافة والذكاء وسرعة البديهة وروح الدعابة الساخرة تتمثل كلها في صاحب المطعم كارل هينز بيلمان . ويبدو أن صاحب المطعم كان سائقاً « للترام » في يوم ما ، أو كان محباً للركوب فيه ، لذلك جعل مطعمه يتخذ شكل عربة « ترام » . حيثما تلتفت تجد قطعة معدنية عليها حرف (H) ، وهو بالألمانية مختصر لكلمة « ترام » . وقد ذاع صيت هذا المطعم وصيت صاحبه ، فكتبت عنه صحف في بلدان مجاورة ، لذلك ليس غريباً أن تجد فيه ضيوفاً من تشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا والمانيا الاتحادية ، فضلاً عن ضيوفه القادمين من مدن المانية متعددة . شعار المطعم (٦ × ٦) ، وفي السادس من الشهر السادس يحتفل بعيد إنشائه السادس ، لذلك يقوم بطلاء أجساد ٦ فتيات بدلا من إضاءة ٦ شموع .

أما حديثه فيستغرق أكثر من ساعة ، هي كلها وقت للضحك والفكاهة ، ولا يخلو الأمر من تعليقات سياسية كقوله :

هناك أناس غادروا جمهوريتنا ، في وقت ما ، إلى المانيا الاتحادية (إلى الغرب) ، وهم الآن يبكون لأنهم أدركوا أن الشمس تشرق في الشرق أبداً !

وتعد مؤسسات الحرف اليدوية الخاصة



● فتيات يحتفلن باليوم الأول من يونيو في حديقة الطلائع ببرلين .

مؤسسات صغيرة تابعة غالبا للملكية عائلية ، تضم الواحدة منها عشرة من العمال ، كحد أقصى . ويوجد حاليا أكثر من ٨٠ ألف مؤسسة ، يعمل فيها حوالي ٢٦٠ ألف عامل .

أصدقاؤنا العرب

لا يسع العربي أينما ذهب إلا أن يبحث عن أشقائه العرب : أماكن وجودهم ، طبيعة الأعمال أو المهام التي أتت بهم حيث هم ، العلاقات القائمة بينهم وبين مضيفيهم من مواطني البلد الذي يوجدون فيه ، آثارهم الباقية ، وما إلى ذلك من شئون . ومن لنا من أشقائنا في جمهورية المانيا الديمقراطية مثل الصديق الدكتور عادل قرشولي ! ولكنه في لايبزك ! وماذا في ذلك ؟

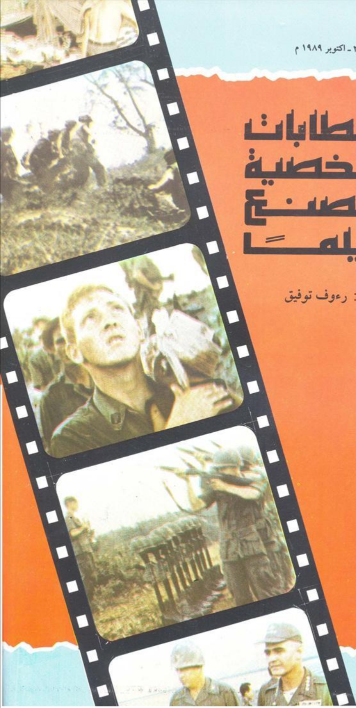
إنه عربي من سوريا ، وقد مضى على إقامته في المانيا الديمقراطية قرابة ربع قرن ، ويعمل أستاذا في مركز الدراسات العربية والافريقية التابع لجامعة كارل ماركس في لايبزك ، وله مؤلفات عديدة بالالمانية شعرا ونثرا . كان اللقاء في مركز الدراسات بالجامعة ، وقد شارك فيه البروفسور بريسلر ، المستعرب اللامع ، ورئيس المركز ، والدكتور شولتز . قال البروفسور بريسلر معرفا بالمركز : هو مركز للبحوث ، ولتدريس اللغة العربية وآدابها في المجال العربي ، وللبحوث المتصلة بأفريقيا غير العربية . يعمل فيه عدد من المختصين في العلوم الاجتماعية المختلفة ، منهم المؤرخون والاقتصاديون والحقوقيون والمختصون بالثقافة والأدب ، وعددهم أكثر من مائة باحث ، منهم المستعربون ومنهم المختصون بالشؤون الافريقية والهند ومصر القديمة والصين .

أما الدكتور قرشولي فقد قال في لقاء خاص : العرب في المانيا الديمقراطية جالية صغيرة ، أغلب أفرادها من الطلبة الموفدين ، وهم ملزمون بالمغادرة بعد انتهاء الدراسة . وهناك عدد قليل جدا غيرهم ممن يعملون إما أساتذة في بعض الجامعات ، أو يقيمون في المانيا لأنهم أزواج لسيدات المانيات ، ويقومون ببعض الأعمال الخاصة .

أما صورة العلاقات الرسمية التي تربط المانيا الديمقراطية بأقطار الوطن العربي ، فقد تحدث عنها وعن غيرها من الشؤون الالمانية الدكتور هاينتس ريتر فينتر ، نائب وزير الخارجية الذي استقبلنا في مكتبه بوزارة الخارجية في برلين ، فقال :

على الرغم من وجود علاقات دبلوماسية واقتصادية مع أكثر الأقطار العربية فإننا نتطلع دائما إلى تطويرها والوصول بها إلى مستوى أفضل . لنا علاقات وطيدة مع دولة الكويت مثلا ، فقد زار الرئيس هونيكر دولة الكويت في عام ١٩٨٢ ، وقام الشيخ صباح الأحمد نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية الكويتي بزيارة برلين في عام ١٩٨٦ . وهناك لجان مشتركة لبحث مسائل اقتصادية مع الكويت وسوريا والعراق ومصر . وقد وقفنا مواقف مؤيدة للقضايا العربية ، وكنا نتفهم المشكلات الناجمة عن استمرار الحرب العراقية الإيرانية ، وطالبنا بإيقافها والاحتكام إلى قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ . ولنا موقف مؤيد لحقوق الشعب الفلسطيني ، وقد كان للمنظمة مكتب في برلين ، ولكننا حولنا المكتب إلى سفارة دولة فلسطين بعد إعلان الدولة ، وكنا من أوائل المعترفين بدولة فلسطين .

لقد عقد في برلين مؤتمر من أجل عالم خال من الأسلحة النووية ، حضرته وفود عربية عديدة ، قال نائب الوزير : أنا أعلم أن « العربي » تصل إلى أقطار الخليج وإلى كل الأقطار العربية ، لذلك أرجو نقل صورة وافية عن جمهورية المانيا الديمقراطية إلى قراء « العربي » . وعدته خيرا وودعت مغادرا . . ! □



خطابات شخصية تصنع فيلماً

بقلم : رءوف توفيق

أعتقد أن هذا الفيلم لن يعرض في الأقطار العربية، ولا عن طريق أشرطة الفيديو، لسبب بسيط هو أن شركات التوزيع لن تتحمس لطرحه بالأسواق، فهو فيلم لا يحمل المواصفات التقليدية الشائعة، لا يحكي قصة، ولا يمثله نجوم مشهورون، أو حتى غير مشهورين، وإنما هو فيلم من نوع خاص، أثار اهتماما واسعا بين المفكرين ورجال السياسة، والنقاد والمتخصصين في صناعة السينما أيضا.

ومن هنا فكرت في تقديمه للقاريء العربي.

عنوان الفيلم: «عزيزتي أمريكا.. خطابات شخصية من فيتنام» أنتجته إحدى محطات التلفاز الأمريكية، وعرضته في البداية، داخل بعض المهرجانات السينمائية الدولية، وأحد المؤتمرات التي تندد بسياسة الحروب، ثم عرض بعد ذلك في عدد من دور السينما، الصغيرة الحجم، في أمريكا وأوربا، للسبب نفسه، إنه فيلم لا يجذب الجمهور الكبير الذي تعود على نوعية معينة من الأفلام.

وعلى الرغم من ذلك فقد عد المحللون هذا الفيلم، من أكثر الأفلام صدقا وواقعية عن حرب فيتنام، وما تعرض له الجنود الأمريكيون في تلك الحرب التي وصفها المؤرخون والباحثون بأنها من أبرز العورات في تاريخنا المعاصر، وأنها وصمة في جبين البشرية.

لماذا الخطابات الشخصية؟

والفيلم كما يُفصح عنه عنوانه، يعتمد على الخطابات الشخصية التي أرسلها الجنود الأمريكيون إلى الأهل والأصدقاء أثناء الحرب الفيتنامية. ومادة الفيلم مأخوذة أصلا من كتاب يحمل العنوان نفسه، ويعد من أكثر الكتب توزيعا في أمريكا، ومؤلفه «برنارد ايدلمان».

جاء المخرج الامريكي «بيل كوتيري» فاختار ستين خطابا من هذه الخطابات ليجسدها بالصوت والصورة، مستعينا بمختارات من الأفلام الوثائقية التي صُوِّرت واقعيا أثناء الحرب الفيتنامية.

• كما اتصل المخرج بأصحاب تلك الخطابات التي جاء ذكرها في الكتاب، سواء أكانوا هم على قيد الحياة، أم أحد من عائلاتهم، لكي يحصل منهم على الصور «الفوتوغرافية» التي كانوا يرسلونها لهم من مواقعهم العسكرية على أرض فيتنام.

ثم انتقل المخرج بآلات التصوير إلى بعض



● جنود امريكيون يلهون بالجماجم ، صورة من مخلفات احد الجنود القتلى بفيتنام

تلك المنازل الامريكية التي فقدت أبناءها في هذه الحرب ، ليصور متعلقاتهم الشخصية في حجراتهم الخاصة ، عندما كانوا ينعمون بدفء الأسرة وحنان الآباء والأمهات ، قبل أن يخدعهم القرار الأمريكي بضرورة الدفاع عن « شرف أمريكا » في هذه الحرب ، فتطوعوا بها مبهورين متحمسين ، ثم اكتشفوا هناك الخديعة الكاملة ، فسجلوها في خطاباتهم بلغة بسيطة ، لكنها مليئة بالمرارة والأسف ، وعادوا من الحرب ، إما داخل صناديق معدنية في شحنات الجثث ، أو مشوهين معاقين !

ولكن بقيت تلك الخطابات شاهداً على سخونة اللحظة ، وتلقائية التعبير ، وأمانة الوصف الدقيق للمشاعر والأحاسيس ، مما يعجز عنه أبرع المؤلفين الذين يحاولون التعبير عن هذه الحرب ، سواء في أعمال روائية أو سينمائية .

بدايات الخدعة

ويبدأ فيلم « عزيزتي أمريكا » مع البدايات الأولى للحماس وسط الشباب الامريكي الذي وجد نفسه مدفوعا للتطوع في هذه الحرب ، تحت تأثير الخطب السياسية والشعارات المنطوقة والمرسومة في محطات التلفاز ، وعلى ملصقات الشوارع ووحدات استقبال المتطوعين ، وقوة الدعاية في تبرير هذه الحرب .

وأول خطاب نراه - بالصوت والصورة - لمجند أمريكي يجلس على ضفاف إحدى البحيرات في فيتنام ، بعد وصوله ، وهو يكتب خطابا لأبيه ، يصف ما يراه : « الجو جميل هنا ، والحياة تبدو هادئة ، والمح وجوه أطفال صغار يلعبون ويبتسمون ، إنهم يبتسمون مثلنا (!!) » .

« ملحوظة إلى والدتي ، لا تنزعجي ، فأنا

بصحة جيدة » وتتوالى مشاهد شحن الجنود الامريكيين إلى فيتنام ، وتظهر على الشاشة أرقام وتواريخ : مارس ١٩٦٤ ، تم شحن مائة ألف جندي .

وخطاب آخر من جندي إلى أسرته : « أنا سعيد ، ولكنني آخذ حماما في الترع والمصارف ، فوسائل الراحة لا تتوافر هنا ، وعلى الرغم من ذلك فإنني أشعر بالقوة والسعادة ، لأنني سوف أقتل هؤلاء الفيتناميين » !

وينتقل الفيلم إلى لقطات تسجيلية ، لإحدى حفلات السمر داخل المعسكرات الامريكية على أرض فيتنام ، حيث تجري عمليات تنشيط روحهم المعنوية بالموسيقا والرقص والشراب .

واللقطات تتوالى مباشرة لإحدى هجمات الجنود الامريكيين داخل مستنقع كثيف على الأرض الفيتنامية ، بحثا عن « الأعداء » ، وتسجل هذه اللقطات الواقعية ، المأخوذة من الأرشيف العسكري ، مدى الإحساس بالخطر المرسوم على وجوه الجنود الأمريكيين ، وهم يخوضون في الظلام ، وسط المياه الآسنة والأعشاب ، مذعورين ، يتوقعون الضربة المفاجئة التي قد تأتيهم من خلف كل شجرة عملاقة ، أو كتلة من الأعشاب والنباتات المتوحشة !

اكتشاف الحقيقة

وتتغير النبرة في الخطابات ، ونسمع صوت جندي يكتب لصديقته : « كانت هذه أول مرة أدرك فيها معنى مواجهة الموت ، ولولا أنني حنيت رأسي ما كنت حيا حتى الآن . هناك زميل لي تحسس وجهه ، فاكتشف أنه فقد عينيه ، وآخر بجوارنا فوجئنا أنه مات » .

ثم لقطة لمراسل أمريكي لإحدى شبكات التلفاز ، ينقل لمشاهديه من الأرض الفيتنامية إحدى المعارك ، ثم يعلق قائلا : إن عدد قوات الجيش الامريكي المرسلة إلى فيتنام وصلت إلى ٣٠٠ ألف جندي ، والتاريخ ديسمبر ١٩٦٤ .

واللقطة التالية من داخل الأراضي الأمريكية ، حيث مصانع السلاح والذخيرة ، والآلات تتدفق طوال ساعات اليوم بمختلف الأنواع ، ولكن أغرب تلك اللقطات كانت من مصنع للخوذات ، وتلال الخوذات المرصوصة بعضها فوق بعض ، تشهد بعدد الرؤوس التي سترتديها .

ثم لقطات لموانىء الشحن ، والسفن الحربية التي تحمل المعدات وأسلحة القتل والدمار وتتجه إلى فيتنام .

ومن داخل فيتنام تأتي اللقطة المسجلة لإحدى عمليات الإنزال الامريكي ، وقصف قرية فيتنامية بالصواريخ والنابالم ، واحتراق المساكن والمدارس ، وألسنة النار التي تحاصر سكان القرية ، وأطفال صغار يفرون من الرعب والخوف في كل اتجاه .

وجندي أمريكي يكتب خطابا لوالديه ، يقول فيه : « أعتقد أنكما الآن مريضان من شدة القلق ، ولكنني أطمئنكما بأنني لما أصب بعد ، ولكن الموت الذي رأيته الأسبوع الماضي جعلني عجوزا جدا ، أشعر بالشيخوخة ، فقد رأيت ما يكفي من الحرب والدمار . وأصارحكما القول بأنني خائف ، ولكن ليس لدرجة الهروب أو الانسحاب ، فأنا ضابط في البحرية الامريكية ، وقائدي يشجعني دائما بأنه سيكون لي شأن في المستقبل . صلّيا من أجلي » .

ويعلق الفيلم على هذا الخطاب ، بأن كاتبه قد مات بعد كتابة خطابه بعشرة أيام في إحدى الغارات الفيتنامية !

ثم اليأس والرغبة في الفرار

وهكذا يستمر الفيلم في نسجه مشاهد الحرب ، مع مشاهد الخطابات في تصاعد درامي ، لم يخلقه مؤلف ، وإنما فرضته وقائع

تلك السنوات العصيبة ، وحقائق الأرقام التي تظهر على الشاشة ، لترصد التورط الأمريكي في دفع مئات الألوف من الجنود الصغار السن إلى الجبهة الفيتنامية ، وأرقام وأعداد القتلى والمصابين والمفقودين في كل ستة أشهر !

وهناك عودة الوعي للمجتمع الامريكي بعد اكتشافه خدعة هذه الحرب ، وردود الفعل في مظاهرات الرفض والاستنكار ، واللافتات التي تندد بالحرب ، وارتباك الإدارة الامريكية أمام الوضع المتدهور ما بين الاعتراف بالأمر الواقع ، وبين استمرار الغرور الأحمق وعدم إنهاء الحرب .

كل هذا من خلال الوثائق المصورة ، سواء من خطب الرئاسة الأمريكية ، أو من تصريحات وزارة الدفاع ، أو من شهادات بعض أعضاء الكونجرس .

ويستخدم الفيلم تلك المادة الوثائقية داخل غلاف من الأغاني التي اشتهرت في تلك السنوات ، مثل أغنية : « الثمانية عشرة » التي تقول كلماتها :

أنا صبي ، أنا رجل
عمري ثمانية عشرة ، ولا أدري ماذا أريد ؟
ثمانية عشرة ، وأشعر بالضياع ،
ثمانية عشرة ، وأريد الإنقاذ ،
أريد الهروب من هذا المكان !

وأغنية : « ولدت في أمريكا » التي تعد من أشهر الأغاني في تلك الفترة ، وتقول كلماتها :

ولدت في أمريكا ،
في منزل جميل ، بمدينة صغيرة ،
بعضهم وضع بندقية في يدي ،
وأرسلني بعيدا ، إلى أرض غريبة ،
لأقتل الرجل الأصفر !!

ولكن تبقى المادة الأساسية لهذا الفيلم، هي شحنة المشاعر من داخل الخطابات .

أحد تلك الخطابات كتبه جندي شاب ، يقول : « أشعر بالتعاسة ، لا أستطيع النوم ، لا أستطيع الاحتمال ، أصرخ أحيانا بلا فائدة ، ذهبوا بنا إلى « سايجون » ، وملاهي النساء والخمر ، ولكن بلا فائدة ، أريد العودة للوطن » .

حروب أخرى في المستقبل

وقد استعان المخرج الامريكي « بيل كوتيري » بكل المؤثرات البصرية التي توضح الحقيقة التي أراد تأكيدها طوال هذا الفيلم ، وهي أن جميع الجنود الامريكيين الذين دُفعوا إلى حرب فيتنام كانت أعمارهم ١٨ - ٢٠ عاما ، وأن غالبيتهم كانوا في سن التاسعة عشرة ، أي أنهم كانوا ما بين سن الصبا وبداية الشباب .

وهذه الحقيقة بالتحديد عجزت أغلب الأفلام الامريكية الروائية التي تناولت حرب فيتنام عن إظهارها ، لأسباب فنية تتعلق بعدم تطابق هذه السن مع النجوم المشهورين في السينما الامريكية ، حيث إن هؤلاء النجوم تزيد أعمارهم عن الثلاثين !

وعندما سئل مخرج الفيلم « بيل كوتيري » عن الأسس التي اعتمد عليها في اختيار الخطابات ؟ قال : « خطابات الشباب الصغار السن ، وعنصر الخوف والوحدة والإحساس بالعزلة والوحشة ثم اليأس ، ومن خلاصة الستين خطابا كان هناك الإحساس بالخديعة » .

- ما هو رأي أصحاب الخطابات الذين ما زالوا على قيد الحياة ؟ وكيف استقبلوا فكرة فيلمك ؟

- اتفقوا معي في وجهة نظري عن الحرب وأسبابها ونتائجها ، بل أكدوا لي أن السياسة الأمريكية لن تتورع عن القيام بحرب أخرى ، تُمارس فيها كل هذا الرعب يوما ما ، في المستقبل ، وفي أي مكان !! . □

AKAI

العلامة الذهبية للانجاز



ان بلوغ العيد الستين يمنحنا سببا للتوقف أمام أكاى.
فان ستة عقود من الانجازات التكنولوجية هى بالتأكيد مما يستحق الفخر.
على ان المكافأة المتمثلة فى تقديم المتعة المنزلية الراقية الى كل
هؤلاء الناس لا تقل عظمة.
ان هدف أكاى، كشركة تقتصر على تصنيع الأجهزة
الصوتية واجهزة الفيديو، كان هو دائما " اخراج
مبتكر للصوت والصورة " .
وها نحن نبلغ هدفنا مرات ومرات من جديد بسيل
متدفق من التجديدات الفنية التى مهدت
الطريق للآخرين كى يسيروا فيه، والتى تظهر الآن بأوضح ما يكون

فى نظامنا الخاص للاستجابة السريعة
Quick Response System واجهزتنا للاسطوانات المدمجة
CD القمة فى فن التكنيك، كما ستظهر قريبا -
فى اجهزتنا لمسجلات الفيديو S-VHS
بوضوحيتها الفائقة.
وبالطبع، أكاى ليست هى الشركة التى
تقبع راضية بأكاليل الغار.
لذلك ونحن نحتفل بماضينا المجيد، لك ان
تطمئن اننا نعمل اكثر من أى وقت مضى كى
نضمن فى الأعوام المقبلة ٦٠ عاما ذهبيا آخر.

1929–1989
60TH ANNIVERSARY

Akai–Creative At Heart.

STATE OF KUWAIT: MORAD YOUSUF BEHBEHANI P.O. Box 146 Safat, 13002-Safat, Kuwait Tel: 4844000
SAUDI ARABIA: PENINSULAR DISTRIBUTION CO., LTD. P.O. Box 7997, Jeddah 21472 Tel: 671-4488
U.A.E.: GENERAL ENTERPRISES COMPANY P.O. Box 363, Dubai Tel: 224131, 236575
SULTANATE OF OMAN: SUHAIL & SAUD BAHWAN P.O. Box 169, Muscat Tel: 793741
STATE OF BAHRAIN: AMBASSADOR STORE P.O. Box 237, Manama Tel: 253513
QATAR: AHMAD AL-UTHMAN & BROS LTD. P.O. Box 218, Doha Tel: 423507, 423508
PAKISTAN: UNIVERSAL ENTERPRISES COMPANY 31 Hotel Metropole Bldg., Mereweather Road, Karachi-17 Tel: 511611
SYRIA: ASSAD WATTAR P.O. Box 590, Damascus Tel: 338973
LEBANON: HI-FI CENTER P.O. Box 144, Hazmieh Tel: 916190
EGYPT: EL MOBAYAD SONS TRADING CO. P.O. Box 1323, Cairo Tel: 717322
CYPRUS: EVAGORAS G. PHYLACTOU LTD. 67A Saint Andrew Street, Limassol Tel: (337) 51
NIGERIA: ZABADNE & CO., LTD. 93 Broad Street, P.O. Box 736, Lagos Tel: 664305
DJIBOUTI: AU CHIC PARISIEN B.P. 149, 32, rue de Paris Tel: 351827



النافذة

قصة الكاتب البولوني : ياجي شانيفسكي *
ترجمة : ماريا ماوْجنسكا **
(عن البولونيــــة)

قال الأستاذ توتكا : أيها السادة ، حكى لنا القاضي عن كلفة دهان النوافذ ، فتذكرت نافذة ما ، كنت أنظر إليها كل يوم فيما مضى ، وهي ما أريد أن أحكي لكم عنها ، ولا علاقة لها بالغلاء والدهان ولا بالعمال المهرة ، لكن عندما تخطر لي كلمة « نافذة » فإنها تثير لديّ ذكرى خاصة مباشرة .

كانت شقتي في أحد الطوابق ، تطل على زقاق قديم ، في مواجهة نافذة أخرى ، على بعد عشرة أمتار ، وفي كل مساء كانت المرأة السمينة تسدل الستار على النافذة وتشعل الضوء ، فأرى على خلفية الستار ظلاً كبيراً يتحرك ، يختفي ثم يظهر من جديد ، وفي أحد الأيام رأيت ظلاً آخر ، إنه ظل رجل أصغر من المرأة السمينة بمرتين ، وفجأة اقترب الظلان والتصقا ، وقبّل أحدهما الآخر ، وتكرر هذا المشهد كل مساء ، ولم يكن من طبعي الاهتمام بعلاقات الحب بين الآخرين ، فأنا لست طفلاً ، وأعرف أن الرجل والمرأة يقبّل أحدهما الآخر منذ القدم حتى الآن ، وسيظلان كذلك قروناً أخرى ، ولهذا أقول لكم : إن ذلك لم يكن ممتعاً لي ولا جديداً ، بل كان كلعبة في مسرح خيال الظل .

في غروب أحد الأيام قُرع الباب ، ودخل رجل لا أعرفه ، نحيف منهك ، عصبي المزاج ، ولاحظت من نظرتي الأولى إليه أنه يكتم غضباً حاداً ، وعندما سألته عما يمكن أن أقدم له ورجوته أن يجلس ، بادرني بالكلام :

- يا سيدي ، قبل أن أشرح لك هدف زيارتي ، أقول لك : إنني أعرفك منذ أن رأيتك تتصدق على فقير ، وحييته بقبعتك حينها شكرك ، فأنت إنسان طيب نبيل .

فقلت له : يمكن أن يكون قد حدث ذلك ، ولكن ما علاقة . . . .

فقال ضيفي : لحظة ، سأشرح لك ، إضافة إلى ذلك أنت إنسان ، وأنا آسف جداً لما سأقول ، إن الناس يتحسسون كثيراً من هذا

* ياجي شانيفسكي (١٨٨٦ - ١٩٧٠) كاتب بولوني ساخر ، متعدد المواهب ، ترك آثاراً مهمة في القصة والرواية والمسرح ، من أهم اعماله : فتاة من الغابة - المرساة الذهبية - الأحداث النادرة - الحداد والنقود والنجوم - الإنسان المرح - حبيب من ورق - الحب والأشياء الهامة - المحامي والورود .

** ماريا ماوجنسكا - مستشرقة من بولندا .

الأمر ، أنت لست إنساناً صغيراً ، ومن المؤكد أنك تفهم كثيراً .
ـ لا ، أنا لا أتحسس من كبر سني ، من المؤكد أنني عشت كثيراً ، وفهمت لماذا يقولون عادة : إن الذي يفهم يُعْذِر .
ـ أجل ، اعذرني قبل كل شيء لأنني جئت دون دعوة .
هذه النافذة المواجهة لنا هي نافذة زوجتي التي هجرتني ، وأنا متأكد أنك رأيتها أكثر من مرة .
ـ حقاً ، كنت أرى امرأة هناك أحياناً ، تذكرني بالنساء اللواتي رسمهن « روبنز » ، هل هي زوجتك ؟
ـ هل قلت « روبنز » ؟ (ونظر إلي متردداً ، كأنه يريد أن يعرف هل هذا استحسان أم سخرية !) إنني أحب هذه المرأة يا سيدي ، ولا أستطيع أن أعيش بدونها ، اسمح لي يا سيدي أن أنظر إليها من هذه النافذة ، وإذا لم أرها فإنني



سأعيش في عذاب لا يطاق .

- طبعاً ، آه يا سيدي ، أنظر ، ولكنني لا أظن أن هذه الطريقة الرديئة يمكن أن تريحك كثيراً ، ويمكن أن ترى شيئاً يحزنك أو يخرجك عن طورك .

- هل تريد أن تقول : إنني سأرى عشيق زوجتي ؟ رأيته ، أعرف أنه هنا .

- لكن كن هادئاً - كنت أتحدث إليه بلطف - أشرت في حديثك إلى كبر سني ، وتجربتي ، ومعرفتي للحياة ، إنني أكرر لك يا سيدي أنك اخترت الطريقة الرديئة ، إن أفضل طريقة يرى فيها الإنسان حبيبته هي أن يحبها ، لا أن يرى عشيقها أو يتلصص عليها ، لأن في ذلك تمزيقاً لجراح القلب ، وأظن أن عليك أن تمسك نفسك قليلا ، وتبتعد عن هذا الحي ، حاول ، إذا استطعت ، أن تسافر فترة طويلة ، وإذا كان لديك في مكتبك صورة لهذه المرأة فالأفضل أن تخفيها في الأدراج كي لا تراها أبداً ، وإذا كانت هذه المرأة تخبىء أي أغراض فعليك أن تتخلص منها .

- إن أهم الأشياء التي لمستها تلك المرأة هي أنا نفسي ، كيف يمكن أن أتخلص من نفسي ؟ هل تنصحني أن أنتحر ؟

فأجبته : آه ، أنا لا أنصح أحداً بالانتحار ، هل تسمح لي أن أسألك : ماذا تعمل ؟

- أنا موظف في المؤسسة .

- هذا رائع ، لأنك تعمل من أجل كل الناس ، ولا أحد يستطيع أن يعدك سيئاً ، لأنك تضحي بشيء من سعادتك الشخصية ، لكن ، هل السعادة في رأيك هي المرأة فقط ؟ إنني أعرف كثيراً من الذين لا يريدون قضاء وقتهم إلى جانب امرأة ، إنهم يتناولون آلة « الماندولين » .

- أنا لا أحب « الماندولين » .

- هذا مجرد مثال ، بعض الناس يبحثون عن الأخطاء المطبعية في الصحف ، ويسرهم ذلك كثيراً ، كنت أعرف إنساناً تعيساً في زواجه ، وعلى الرغم من كبر سنه قرر أن يتابع الدراسة ، وأعرف شخصاً آخر تركته زوجته فبدأ بتربية زهرة « اللفكونيا » ، وحصل على نتائج باهرة ، ألا تهمك « اللفكونيا » ؟ .

- أجابني بلطف : أنت تعطيني أمثلة واقعية ونظرية جيدة ، لكن .

- آه ، في هذه الحالة اجلس هنا ، وانظر (ورأيت أن من الأفضل ألا يزعجني لأن لدي عملاً ضرورياً) .

كان ضيفي ينظر من النافذة وأنا أنحني برأسي على مكتبي ، عيناي مسمرتان على عملي ، وحين التفت اليه كانت ملامحه قد تغيرت كثيراً ، كانت مزيجاً من الغضب والألم - آه - توقعت أنه شاهد ظل منافسه ، ونظرت إلى ورقة كانت أمامي ، وفجأة انتصبت واقفاً في مكاني ، فقد أطلق ضيفي رصاصة من مسدسه باتجاه ظل وراء الستار .

سألني أحد السادة بعد قليل : وقتل ؟

- لا أريد أن أحكي لكم القصة الجديدة التي تنتهي بالمسدس ، كنت أحكي عن النافذة التي ذكرني بها القاضي الذي دفع ثمناً غالياً لدهان نافذته ، أما بالنسبة إلى ضيفي فقد كان شيئاً مؤلماً ، مأساة ، والنافذة هي نفسها .

بعد فترة سكن هناك أناس آخرون ، يبدو أنهم كانوا سعيدين ، كانت الزهور تتدلى من النافذة والأطفال يلعبون وراءها ، ومرة زارني ضيف آخر فابتسم ، وقال : ما ألطف هذه النافذة !

أما بالنسبة إليّ فإن هذه النافذة التي تتدلى منها الزهور ، ويطل منها الأطفال ما زالت مسكونة دائماً بثلاثة أشخاص مضحكين من مسرح خيال الظل ، تحولوا في لحظة معينة إلى كارثة ، مأساة .

وسألني أحد السادة : رائع ، ولكن هل قتل أم لم يقتل ؟

فأجبت :

قتل في أعماقي إلى الأبد إرادة التضحية بتقديم نصيحة جديدة إلى الناس . □

وجهاً لوجه





أدونيس وجميل حتمل

- الحداثة تُختزَلُ أحياناً لتصبحَ لعباً شكليّاً.
- بَعضُ المفكرينَ القدامى كانوا أكثرَ جُرأةً مِن مفكّري عصرِ النهضةِ.
- ليسَ هناك نتاج ثقافي عربيّ يُعبّر عن الهُويّةِ العربيةِ اليومَ كالشعرِ.
- أعتمدُ على مصادِرَ غربيّة لتوضيح نظريّةِ الشِعرِ الحديث.
- لايمكن لأيّ شِعرٍ أن يكون خارِجَ الواقِع !
- يُمكِن أن تكونَ القصيدةُ سِياسِيّةً وَغيرَ سياسِيّةٍ في آنٍ !

علي أحمد سعيد أو (أدونيس) الشاعر المفكر ، اسم كان يثير الجدل ، ومازال على امتداد المساحة التي تشغلها آراؤه أو أعماله الإبداعية . إنه كمن يلقي بالأسئلة ، فلا يجد إلا الأسئلة - أو الاتهام - رداً عن أسئلته . وفي هذا اللقاء لا تبتعد الأسئلة عن مدار الأسئلة ، حيث يحاول محاوره أن يتلمس نقاط التقاء في مسيرة «أدونيس» وآرائه ، هذه المسيرة التي تكاد تبلغ في مجال العطاء أكثر من أربعين عاماً ، حافلة بالشعر ، والحداثة ، والمعارك الفكرية ، والاتهامات ، والريادة ، والتساؤلات . وقد أجرى الحوار جميل حتمل .

* كنت قد تحدثت سابقاً عن الحداثة الثانية ، الآن تتحدث عما بعد الحداثة ، هل لأنك ترى أن الحداثة العربية كمرحلة قد أدت دورها وانتهت ، أم تحديداً لما وصلت إليه الآن ؟

حين تحدثت عن الحداثة ، لم أكن أقصد اتخاذ الحداثة كقيمة بحد ذاتها ، وإنما كنت أقصد التخلص من ثقل الفكر التقليدي المهيمن على الحياة العربية من جهة ، والتركيز على الإبداعية من جهة ثانية . وكنت أشدد باستمرار على أن الحداثة إطار ومناخ ، وأنها ليست نفياً لما سبقها . هذا ما يعنيه سؤالك لي : أين الحداثة ؟ أين الإبداعية العربية اليوم ؟ أذكر أولاً بأن عبارات : المحدث ، والإحداث ، والحداثة أخذت أساسا من الفكر الديني ، إلا أنها نقلت إلى إطار الفكر الأدبي ، وكان النقد بكامله - تقريباً - في العصر العباسي يتركز حول مشكلات الحداثة والإحداث ، لذلك أرى أن كل كلام عن الحداثة في المجتمع العربي اليوم ، يجب أن يوضع في إطاره التاريخي أولا . وإذا قارنا بين ما يكتب اليوم ، وما كان يكتبه ممثلو الحداثة الأول : أبو نواس ، وأبو تمام ، ولنضع معهما النفري والمتصوفين . أعتقد أن معظم الكتابات الشعرية المسماة اليوم حديثة ، لا توغل في مسألة اللغة الشعرية ، وفي مسألة العلاقة بين اللغة والعالم من جهة ، والعلاقة بين اللغة والذات من جهة ثانية ، كما أوغلت لغة هؤلاء الشعراء القدامى . هنالك شعراء أفراد قلائل ، أكملوا وفتحوا آفاقا جديدة دون شك ، لكن الكتابة الغالبة في الشعر العربي الحديث أقرب إلى القدامة منها إلى الحداثة ، لذلك نجد عند هؤلاء الأفراد حركة استقصاء إبداعية عالية .

وحين أقول : ما بعد الحداثة ، أو الحداثة الثانية ، فأنا أعني أننا نواجه اليوم مشكلات غير التي كنا نواجهها مثلا في أيام مجلة «شعر» : الخروج من الأطر التقليدية ، ومن الشكل الموحد ، ومن الوزن والقافية . المشكلة اليوم يمكن أن تكون : ماذا نقول ؟ ما الأفق الذي يفتحه الشاعر العربي للقارىء العربي ؟

*** لكنك تتحدث عن مرحلة ثانية، مرحلة أخرى، إذا صح التعبير، فهل هي إعلان عن انتهاء شيء سبقها؟**

لنقل انتهاء مرحلة مجلة «شعر»، اليوم لم يعد همّ الناقد أو الشاعر أن يتركز في تحديد الوزن وتحديد الشكل العمودي، وهل نكتب بشكل عمودي أم لا، نكتب بالقافية أم لا؟ فهذه مشكلات قد تجاوزناها، وكنا قد أثرناها في إطار محدد وتاريخي، كانت الكتابة فيها بالنثر أو التفكير فيها نوعا من الإثم. أما دعوتي للحداثة الثانية، فلأن الحداثة «الأولى»، كما مورست، تحولت إلى نوع من الفراغ أو الحلقة المفرغة، وصارت أشبه بساحة تقذف فيها اعتباطا باسم الحداثة آراء ونظريات وأفكار دون وعي دقيق أو فهم دقيق.

*** أفهم من كلامك أن الحداثة العربية، على المستوى الزمني، لا حاجة لها أن ''ت وجودها؟**

ـ لا، بمعنى أننا نحن الذين مهّدنا، فصار أمام الشاعر وسائل متعددة، كانت وسائله محدودة: أن يكتب قصيدة عمودية، أما الآن فتعددت طرق التعبير الشعري، فيستطيع الشاعر أن يكتب قصيدة نثر، أو قصيدة موزونة، وفقا للنسق التفعيلي الذي يشاء، بل صار في إمكانه أن يمزج بين الأنواع. هكذا تعددت لديه وسائل التعبير وإمكانياته واكتسبت مشروعيتها. الآن صارت قضيته ماذا لديه؟ ما عالمه الشعري؟ واذا تفحصت المدى الذي يتحرك فيه الشاعر الغربي، والمدى الذي يتحرك فيه الشاعر العربي، لرأيت أن مدى حركة الشاعر العربي محدود جدا. محدود بالسطح الاجتماعي وبالسطح السياسي «الإيديولوجي».

أما عالم الذات، والعالم الميتافيزيقي، والعالم الجنسي، والعالم الديني، والعالم السياسي ـ بالمعنى اليوناني للكلمة ـ والعالم المكتوب، فقلما تجد أن شاعرا عربيا يغوص في هذه العوالم، وهذا الغوص هو أبسط ما تفرضه الحداثة عليه. أقول باختصار: إن الحداثة الشعرية العربية، اليوم، تواجه عوامل كثيرة، بينها الإعلام ووسائله ـ خطر الاختزالية ـ ويتجلى على الأخص في اختزال الحداثة ـ باللعب ـ (كتابة نثر مثلا دون تنقيط أو فواصل، أو يقدم المفعول على الفاعل) اللعب الشكلي السطحي الذي يقدم للعين تشكيلا يختلف عن تشكيل القصيدة الموزونة. وهو خطر يتجلى في إلغاء المشكلية، بحيث تبدو الكتابة خالية من أي تساؤل حول مسألة النسيج الفكري الذي تصدر عنه قيم الكتابة (الدين، والميتافيزيقا، واللغة، والإنسان، والوجود) ويبدو تبعا لذلك حداثة قصاصات وملصقات، وكأن اللغة مجرد مفردات تجمع وتفرق، وتركب على سطح الورق، مفردات لا أرومة لها، ولا تربة، بعيدا عن الإحساس بالفاجع، وعن الإحساس كذلك باللامتنهى.

*** أنا لا أنسى كونك شاعراً، ولكنك تبدو كمن يقصر حديث الحداثة على الشعر فقط، مع ذلك لدي سؤال يتعلق بالمستوى الفكري للحداثة، وكأن الأسئلة التي طرحها من يسمون «رواد النهضة العربية» لم تجد أجوبتها إلى الآن، أو أنها قلصت، وكأن من المستحيل أن يعاد طرحها الآن على الرغم من مرور سبعين أو ثمانين عاماً؟**

ـ كانت أسئلة رواد النهضة من طبيعة

أيديولوجية في الغالب ، إنهم أعادوا أسئلة العرب في العصر اليوناني . كان العربي القديم يقول : كيف آخذ الفكر اليوناني وأظل مسلما ؟ وقال مفكر عصر النهضة ، أو مايسمى عصر النهضة : كيف آخذ الحضارة الغربية وأبقى مسلما ؟ هكذا حلت مشكلة الحضارة الغربية محل مشكلة الحضارة اليونانية . بل أذهب أبعد من ذلك ، كان مفكرو العرب القدامى - على الأخص ابن رشد - أكثر جرأة ، وأكثر تعمقا في طرح السؤال من المفكرين الذين سميناهم مفكري عصر النهضة . هنالك أشخاص ساروا في نمط ابن رشد ، ولكنهم لم يصلوا إلى ماوصل إليه ، ولم يطوروا ماانتهى إليه . وهؤلاء على أهميتهم أهملوا أيضا في حركة التغيير . إن أشخاصا مثل شبلي شميل ، ممن ساروا في التيار العلمي إجمالا أهملوا ، وأبرز أشخاص آخرون غيرهم .

بوادر جديدة

*** في عودة إلى الشعر ، تقول : إن الممارسة الشعرية العربية استنفدت نفسها . هل ينطبق هذا الحكم على تجربتك أيضا ؟**

- أين قلت ذلك ؟

*** في حوار معك ، قد نشر في إحدى المجلات العربية .**

- إذا كنت قد قلت هذا ، فبالمعنى الذي أشرت إليه سابقا ، وهو أن الإطار الذي نشأ فيه ، ماسميناه اصطلاحاً الحداثة ، والذى أعطته مجلة «شعر» سمته الرئيسة ، ماتزال الحركة الشعرية العربية الراهنة تعبر في حدوده تقريبا قليلا أو كثيرا . بهذا المعنى قلت : إن هذه الممارسة انتهت ، ويجب أن أنطلق إلى ماهو أبعد وأوسع ، هذا طبيعي ، وأنا شخصيا أعد تجربتي من ضمن هذه الممارسة ، وما أعمله اليوم إنما هو الخروج من هذه الممارسة ، وعمليا فقد بدأت هذا الخروج بتركي مجلة «شعر» عام ١٩٦٤ .

*** أنا لا أجري وراء المتناقضات . لكنك من قبل قلت : إن الشعر الحقيقي هو انتاج «المختلف» ، وإيصال الانفصال ؟ كيف ؟ .**

- من المفيد أن نتحدث عن هذه الأشياء على الرغم من صعوبتها ، حين نأخذ الشعر الجاهلي أو العباسي مثلا ، نجد أن الشعراء الذين يتبعون الخط المدرسي يسلكون طريقا افتتحه شاعر معين ، يراقبون كيف يستخدم لغته ، كيف يعبر عن الأشياء ، ماالموضوعات التي يتناولها ، ثم يدخلون في هذا العالم الذي أوجده شاعر ، ويقومون بالتنويع ، ويستفيدون منه بشكل أو بآخر ، أما الشاعر الحقيقي الذي يجدد ، فهو الذي يستفيد من طريقة تعامل من سبقه مع اللغة ، من طريقة استخدامه لهذه اللغة ، حيث يستوعب هذه الطريقة ويتمثلها ، ويوجد لغة جديدة مختلفة ، وعالما جديدا مختلفا ، وقد يكون مناقضا بدلا من أن يتابع الشاعر القديم في صوره في الألفاظ والعلاقات التي أقامها بينها وبين الأشياء ، مثلما يحدث الآن . فهنالك اليوم عدد قليل من الشعراء المبدعين ، يأخذ آخرون ألفاظهم وصورهم وصياغاتهم ، ويعيدون تركيب هذا كله بشكل أو بآخر ، وهذا لايجدد ولايعطي حيوية للتراث . بهذا المعنى أقول : يجب أن يحيا الشاعر في قلب التراث ، متأثرا باللغة وعبقريتها ، لكي يقدر في الوقت نفسه أن يوجد من هذه العبقرية عالما لم يسبقه إليه أي شاعر قبله . هذا ماأقصده بإيصال الانفصال ، أي أن تنفصل عما أنتج ، لكي تتأصل في الأداة المنتجة التي هي اللغة .

الشاعر والتراث

*** أنت تحكم على الثقافة العربية الحديثة بأنها قد جاءت عموما من الماضي - بمعناه الرجعي - أو من الخارج ، هل كانت القصيدة الجديدة التي مثلتها تجربتكم خارج هذا الحكم ؟**

حين أقول : إن الثقافة العربية السائدة هي إما استمرار للماضي أو تنويع عليه ، أو أنها اقتباس ، أقول بالمقابل : إن الشعر مختلف ، فإنني أعني أن الشاعر حين يكتب بلغة شعرية عربية مغايرة للغات الأخرى ، ويدرك سر هذه اللغة وعبقريتها وخصوصيتها ، فإنه بحكم ذلك مرتبط جذريا بالتراث العربي ، شاء أم أبى ، ومن هنا تأتي أهمية الشعر ، ومن هنا يمكن التوكيد على أنه ليس هنالك نتاج ثقافي عربي يعبر عن الهوية العربية اليوم ، كما يعبر الشعر، على الرغم من مشكلاته والمآخذ التي قد تؤخذ عليه .

*** تشير أيضا إ! أن كل مرحلة فكرية جديدة تجيء تعبيرا عن متغيرات محيطة . بم ترتبط الحداثة الشعرية العربية على هذا الأساس ؟**

- أولا استفدنا من التجربة الغربية ، خصوصا في بعض التنظيرات . فكما أخذنا من الصناعة والعلوم أخذنا من النقد والتنظيرات الغربية ، لكن الثقافة الغربية - وهنا وجه المفارقة - فصلتنا عن تراثنا ، فصلتنا عن عمقه الإبداعي ، وربطتنا بسطحه الظاهري . وسآخذ - هنا - نفسي مثلا ، فأنا تعرفت على التصوف من خلال السريالية ، واكتشفت أهمية أبي نواس وأبي تمام من خلال اكتشافي بودلير ومالارميه . فهذا لم أتعلمه مع الأسف،لا في الجامعة ولا في المدرسة ، وأعتقد أن هذا شأن الأجيال العربية كلها ، فلو كنا نظرنا إلى التصوف مثلا نظرة حديثة ، لكانت نظرتنا إلى السريالية مختلفة . هكذا تعرفت على أعمق مافي التراث العربي عبر قراءاتي لبعض الغربيين . اكتشفت سر مايسمونه الشرق بالمعنى الحضاري من رامبو . ولئن كان هناك شعر عظيم في أوربا ، فهو أولا الشعر الذي ثار على «أوربية» أوربا ، والذي ارتبط بهذا العالم المشرقي ، والذي انفصلنا عنه بعامل الاستعمار الثقافي الغربي ، ومؤسساتنا وأنظمتنا - مع الأسف - سارت مع هذا الاتجاه ومازال برامجنا ومؤسساتنا وكل جامعاتنا تسير في هذا الاتجاه .

حضارتنا والثقافة الغربية

*** كأنك هنا تقول : إن الغرب كان مفتاحا لفهم أنفسنا ؟**

- أنا هنا أتحدث عن نفسي ، لكن هذا المفتاح كان سلبيا ، يعني أن الثقافة الغربية لم ترد الانفتاح على حضارتنا ، بل بالعكس ، كانت تعلمنا مايحجبنا عن البعد الحضاري ، ولكنني أتحدث عن مسألة شخصية بحتة ، إن قراءاتي لبعض الشعراء الخلاقين نبهتني إلى أهمية شعرنا العربي ، وإلى أهمية الإبداعات العربية .

*** في جواب سابق لك ، قلت : إن الفكر العربي «النهضوي» ارتبط بالغرب (الفكرة الماركسية أو الفكرة القومية) . ألا تعتقد أن الحداثة الشعرية العربية ارتبطت بالغرب أيضا ، أعني مفاهيم الحداثة هذه ؟**

- المفاهيم نعم ، لقد أفدنا من التنظيرات جدا ، لكن هذه التنظيرات لو عدت إليها لوجدتها موجودة في تراثنا في شكل إشارات وآراء مقتضبة ولمعات نقدية . فكل ما يقال عن الشعر مثلا من أنه كشف وحدس وتخط وتجاوز ، تراه مبثوثا في تراثنا ، كما حدث في اليونان مثلا ، فبذور الأفكار اليونانية أو

معظمها كانت موجودة في الحضارات البابلية والمصرية والسومرية. لكن يأتي فضل اليونان وأهميتهم من أنهم وضعوا هذا الهواء المشترك في نظريات وفي أنساق فكرية. وتابع الغربيون هذا، بينها بقينا نحن أسرى الانطباعات. ولهذا، فإننا على مستوى النسق والنظرية أخذنا هذه الأشياء عبر الغرب، لكن علينا أن نعيد النظر فيها انطلاقا من اكتشافنا لحضارتنا. جلجامش مثلا أخذناها عن طريق الغرب، لكن قراءاتنا لجلجامش يجب أن تختلف عن قراءة الغرب لها، وهكذا.

*** هل يمكنك بمثل هذا الكلام أن ترد على من يتهمك بأن كثيراً مما قلته في نظرية الشعر أخذته عن نقاد غربيين وبشكل مطابق؟**

ـ أنا أشرت مرتين في بداية مجلة «شعر»، في دراستين قدمتهما، واحدة اسمها (محاولة لتعريف الشعر الحديث)، والأخرى (في قصيدة النثر)، أشرت إلى أنني أعتمد على مصادر غربية، لتوضيح نظرية الشعر الحديث. وقلت هذا في المقالة الثانية، (في قصيدة النثر)، حيث ذكرت أنني اعتمدت على تنظيرات في هذا الموضوع، وبخاصة على كتاب مشهور، وهو اطروحة دكتوراة (لسوزان برنار). لقد كررت وأكرر: إننا في بداية أعمالنا ونشاطاتنا كانت معرفتنا بالثقافة الأجنبية وباللغة محدودة، فاجتهدنا لننقل إلى القاريء العربي مناخا آخر مختلفا لكي يفكر فيه. ولدينا أخطاء ومآخذ كثيرة، وهذا من طبيعة الأعمال الأولية، أضف إلى ذلك أن القضايا التي كنا نجابهها، كانت جديدة، وليس في موروثنا النقدي مايفيدنا في بحثها وتحليلها. وهذا مما اضطرنا إلى الإفادة من النقد الأوربي وتحليلاته. لكننا وضعنا هذه الإفادة، أي ما اقتبسناه، في سياق جديد مختلف، وهذا هو المهم.

*** أنت تؤكد على الربط بين الثقافة والسياسة، ومن ضمنها الشعر، لكنك ترى أن القصيدة تقع خارج الايديولوجيا. كيف تحل ذلك؟**

ـ كلمة سياسة أصبحت فارغة، مثل كلمة حداثة، حين يتضمن أي شيء، فهذا يعني أنه لا يتضمن شيئا. السياسة لها مستويات: هنالك السياسة اليومية، والسياسة السياسية المهنية، والسياسة بمعنى بناء الإنسان لخلق عالم جديد، وبناء مؤسساته الجديدة بعظمة الإنسان، بهذا المعنى كل شيء سياسة حتى الحب، إذن في هذا المستوى: الشعر والثقافة وكل شيء سياسة. لكن يجب أن نفصل هنا بين التعبير الشعري والتعبير السياسي، لا يجوز أن يكون الشعر تابعا للسياسة السياسية، أي السياسة كمهنة أو السياسة كمؤسسة، أو للسياسة حتى كأيديولوجيا، ومن هنا تكون القصيدة سياسية وغير سياسية في الوقت نفسه.

معنى الواقع

*** في أحد تعريفاتك للشعر، تقول، إنه ما يناقض الواقع؟**

ـ الواقع له مستويات عديدة: هنالك واقع اللحظة التي نعيش فيها، وهناك واقع الأشياء المادية، وواقع الأشياء السياسية، والواقع المرئي، وهناك واقع وراء هذا الواقع المرئي، حين أقول: إن الشعر نقيض الواقع، أعني بذلك لا نقيض الواقع بالإطلاق، لأن هذا مستحيل، فنحن جزء من الواقع، لكنني أعني ضد الواقع المؤسس، المجمد، المباشر، المبتذل، المكرر الذي لا يساعد في الكشف عن حقيقة العالم، أو عن أسرار الحياة الإنسانية. بهذا المعنى يكون الشعر ضد هذا الواقع، لكن لا يمكن أن يكون الشعر هذا الواقع بالإطلاق، لأن الشعر تحديدا هو الواقع بأسمى تجلياته. لهذا عندما نحلل مثل هذه الأمور، يجب

أولا أن نتساءل عن المعنى المقصود بالكلام أو بالمصطلحات في سياقها الخاص . وأعتقد أن عدم تدقيقنا في المصطلحات ، أو التساؤل حولها ، هو الذي يوقع النقد العربي والحوار العربي الدائر بين المثقفين في سوء تفاهم غير مسوغ . ولو تفاهموا حول تحديد مصطلحاتهم ، لكان سوء التفاهم أقل بكثير ، لا يمكن لأي شعر حتى الرمزي أو اللاواقعي منه أن يكون خارج الواقع ، فهذا مستحيل ، ولكنني أفهم الواقع بشكل مختلف .

*** عن الشعر تقول : إن القارىء لا يمكن أن يغير نظرته له ، حتى يتغير منظوره الثقافي بكامله ، وإلى أن يحدث ذلك : هل يظل الشعر معزولا ؟ وهل تشعر أنت بمثل هذه العزلة ؟**

ـ أنا لست معزولا ، خذ الأشياء الواقعية : أولا شعري يقرأ في كل الأقطار العربية . ثانيا : إذا كان هنالك شعر أثر في اللغة العربية ، فأنا أعتقد أنني الأكثر تأثيرا بين الشعراء في اللغة الشعرية العربية اليوم . أنا لا أشعر بعزلة أو بأي أزمة على هذا المستوى . أشعر بأزمة على صعيد التطور العام في المجتمع العربي ، فنحن في نهايات القرن العشرين ، وما زلنا نمارس الرقابة ، ما زلنا نخاف من قصيدة ، نخاف من كتاب ، وهذا هو الذي يولد فيّ الشعور بالعزلة . لكنني شاعر أمارس لغة شعرية خاصة ، وأوجدت عالما شعريا متميزا . فأنا على العكس سعيد جدا ، لأن شعري مؤثر ومقروء في كل الأقطار العربية ، وآرائي منتشرة ، أحيانا في السر . وأحيانا في العلن . يعني على هذا المستوى لا أشكو على الإطلاق من أي أزمة ، وأزمتي هي أزمة عامة ، أزمة المجتمع العربي بعامة .

المثقف الرقيب

*** في إحدى حواراتك الأخيرة ، تقول : إن المثقف هو القامع الأول . ومن قبل كنت ترى مصدر القمع في السلطة ، فكيف تفسر هذه النقلة بين فهمين يبدوان متناقضين ؟**

ـ السلطة هي المسؤولة بوصفها صاحبة القرار ، هي المؤسسة التي تقرر وتنفذ . والمثقف هو الذي يفتي ويراقب ، من الذي كان يمنع مجلة «شعر» ، ويمنع الدواوين الآن ؟ ليس الشرطة مباشرة ، بل المثقفون الرقباء الذين يرفعون التقارير إلى الشرطة . أنا أعرف مثقفين يمارسون الرقابة وقراءة الكتب ، ويرفعون التقارير للسلطات لكي تمارس السلطات القرار . لأن القرار ليس بيد المثقفين ، إذن فالقامع الأول بالمعنى الثقافي العميق ، هو المثقف المرتبط بالسلطة .

تصور لو اتفق جميع المثقفين أن لا يكتبوا يوما واحدا ، ليضربوا يوما واحدا عن الكتابة انتصارا للحرية ، عندئذ ماذا تفعل السلطة ؟ تضعهم في السجن مثلا ؟ حسنا لِيناموا ليلة هنالك من أجل الحرية ، وعوضا عن أن يفعلوا ذلك ، انظر اليوم إلى صفحات المجلات والجرائد فسترى في معظمها دماء المثقفين تسيل عليها من كل جهة ، أي أنك لن تجد فيها سوى الأهاجي ، والشتائم والنقد الجارح والتشويه بمختلف أنواعه . من يقوم بهذا ؟ إنهم الكتاب المثقفون . اليوم لا تستطيع مثلا أن توقع بيانا من مثقفين مختلفين في وجهات النظر . بيان بحد أدنى مشترك ، هو منع مؤسسات الرقابة في الأقطار العربية ، لا تستطيع أن توقع ذلك ، وهنا أرجو أن لا يفهم نقدي للمثقفين على أنه مدح للشرطة ، كما قد يسارع إلى ذلك المثقفون أولئك ، شرطة آخرون ، وإذا كنت ضده هنا

فذلك لأني أساسا ضد الشرطة العقلية والثقافية .

*** ما دمنا في صدد الشأن الشخصي ، سأسألك عن الجائزة الدولية للشعر التي حصلت عليها منذ فترة : هل ترى أن وجودك الحالي في أوربا - أقصد الوجود الجغرافي - قد ساهم في تكريس هذا الموقف الاعتباري المطلوب لتجربة شعرية تمثلها ؟**

- السبب الجغرافي يساعد ، أعني أنه يسهل الاتصال والانتقال ، ويسهل العلاقات دون شك . كنا في وسط يصعب فيه التنقل والاتصال وهذا كان حاجزا ، لكن في النهاية يبقى كل هذا لاقيمة له إذا لم يكن للعمل الأدبي بحد ذاته قيمة ، فإذا كان للعمل الأدبي مثل هذه القيمة ، فإنه يفرض نفسه طال الزمن أو قصر ، لكن مثل هذه العوامل تساعد هذا العمل الأدبي على أن يفرض نفسه بسرعة أكبر .

*** ألا ترى أن الغرب لا يتعامل معنا بمثل هذه الموضوعية ، يعني أنه يقبلنا بمقدار ما نخضع له ؟**

- أعتقد أن هذه النظرة مبالغ فيها ، وهي تأتي منا في الدرجة الأولى أكثر مما تأتي منه ، نحن لدينا عقدة نقص تجاه الغربي ، ولا نصدق أن أيا منا قادر على أن يؤثر ، أو يوجد له بعدا شخصيا في الغرب ، لذلك فأي واحد من العرب يصل إلى مرتبة ما ، بدلا أن يقال عنه : إنه قادر ولديه عطاء كبير ، وأن الشعراء الغربيين ليسوا أفضل منه ، بدلا من هذا القول ، وهو قول صحيح ، يقال العكس : إن له علاقات وتابع ، هكذا . هذا مرض عند بعض المثقفين العرب ، أو عند معظمهم ، وهو مرض القصور ، أو من مركبات النقص التي تجعلنا لا ننظر إلى أنفسنا إلا بمنظار التبعية . الشعر العربي اليوم قادر على أن يؤثر في الشعر الفرنسي والغربي ، لكن لا أحد منا يرى ذلك ، والفرنسيون يرون ذلك . وصحيح أن مسألة الترجمات تخضع دون شك إلى اعتبارات كثيرة ، لكن ضمن هذه الاعتبارات هنالك أشياء تترجم ، لأنها تمثل قيمة ، أي : ماذا يعني دار (فايار) ، وهي دار كبيرة ، أن ترحب بكتاب مثلا لأبي العلاء المعري ، إذا لم يكن هذا الكتاب بحد ذاته قيّما ؟

قد لايكون لأحدنا علاقات في فرنسا ، لكن ماالذي يدعو ناشرا في السويد وناشرا في اسبانيا وناشرا في النرويج وفي تركيا واليابان والصين ، أن ينشروا له إذا لم يكن لأثره قيمة بحد ذاته ؟

*** أخيرا هل تحلم ؟ وما أجمل أحلامك ؟ ومامداها ؟**

- أن تكون العروبة فنا لتجاوز الكلام إلى الحياة ، أن تعرف كيف تكون جوابا عن تحديات العصر ، أن تجد حيويتها في السؤال لا في الجواب ، وفي المجهول لا المعلوم ، وفي اللامنتهي لافي المنتهى ، أن تحب الفكر الذي يرج ويقلق ، أن تحب الأدب الذي يدفع اللغة إلى حدود مالايعبر عنه ، وأن تحب اللغة التي لاتنطق بقدر ما تحفر . وتهبط ، وتغوص ، وتزلزل ، أن يقدر العربي فيها ، وباسمها ، أن يمارس السياسة حتى إن لم يكن من ورثة السلطة أو عضوا في حزب حاكم أو قائدا ، وأن يمارسها بوصفه مواطنا وفقا لحريته وأفكاره وقناعاته ، وأن يتمكن العربي فيها ، وباسمها ، من الذهاب إلى أي قطر عربي ، وأن يتنقل حيث يشاء في أي قطر عربي ، كما يتنقل في بيته ساعة يشاء وكما يشاء .

دون أحلام كهذه أخشى أن تصبح العروبة وطن أوهام ، وطنا للحكايات والخرافات ، وطنا يسكنه أشخاص غير مرئيين ، وطن أصداء وظلال ، وطن «أبالسة» «وعفاريت» و «جن» و «حوريات» . □

صدر العدد الجديد من:

أكتوبر ١٩٨٩



العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

رئيس التحرير: د. محمد الرميحي



يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين.

في هذا العدد:

- استطلاع عن قلعة في عُمان.
- همام .. قصة بالرسوم.
- «تسي رينج» يفهم درسه.. قصة عالمية.
- ذات الهمة.. الحلقة (١٠).
- الإسكندر الأكبر.. مسلسل تاريخي.
- من أيام الطفولة.. سليمان الفهد.





إضافة إلى الأبواب الثابتة:

- إسلاميات.
- كمبيوتر.
- ٨ صفحات لأخيك الصغير وأختك الصغيرة.
- دائرة معارف العربي الصغير.



نتيجة مسابقة العدد ٤٣

العربي - العدد ٣٧١ - اكتوبر ١٩٨٩ م



"حسيبة"

رواية من تأليف : خيري الذهبي

بقلم : غالب هلسا

رواية « حسيبة » لخيري الذهبي حدث متميز في الرواية السورية والعربية ، متميزة لتجنبها الكثير من مآزق الرواية العربية ، وبسبب اقتحامها لميادين جديدة في التجربة الروائية .

الرواية تدور في دمشق القديمة ، ابتداء من عشرينيات هذا القرن حتى خمسينياته . وعالم دمشق عالم مغلق ، لم يجرؤ إلا القلائل جدا على الكتابة عنه ، وكان ماكتبوه مزيجا من « الميلودراما » والمذكرات الشخصية . وهذا أحد أسباب تفردها .

سبب آخر لتفردها هو الروح الواقعية التي كتبت بها الرواية . شعرت في كثير من الأحيان وأنا أقرأ هذه الرواية أن هنالك مواقف كثيرة ، سوف تنتهي إلى « ميلودراما » نموذجية ، لكن قدرة الكاتب ونفاذه كانا يخرجان بالرواية من هذا المأزق ، ليقدما لنا عالما مأساويا بطوليا شديد الإقناع ، إن لقاء الشاب الباريسي (العربي الأصل) الثائر مع الفتاة الجميلة في البيت الذي يختفي فيه لقاء البطولة المثقفة مع البراءة معطى مثالي « لميلودراما » تنتهي بالزواج السعيد ، والخروج من كابوس المطاردة . ولكن قدرة الكاتب ونفاذه تجاوزا الميلودرامي إلى المأساوي البطولي .

والرواية مكتوبة بتقنية جديدة مهما كان تقييمنا لها ، تظل مغامرة جسورة ، تفتح طريقا جديدا للكتابة . أعني بذلك المزج بين أسلوب « البيان والتبيين » للجاحظ ، وإيقاع المسرح اليوناني . إن اللحظة الحاضرة تحتوي الأزمنة

كلها : الماضي كخلفية ، كقدر لمجتمع متخلف ، لا يستطيع التملص منه ، والمستقبل كنذير ، وبهذا يتحقق شرط مفهوم القدر في المسرح اليوناني .

ولكن هذا القدر قدر بشري ، وإن تقنع بأقنعة غيبية .

وأخيرا ـ وهذا الأهم ـ استطاعت هذه الرواية أن تخلق البطل « التراجيدي » ـ نعني به حسيبة ـ الذي يخوض صراعا مع قدره ، لاينتهي إلا بالدمار الذاتي .

هذا عن تفرد هذه الرواية ، أما سلبيتها الرئيسية فهي تحكم فكرة مسبقة متناقضة وغير مقنعة . لنبدأ بجانبها السلبي :

١ ـ الفكرة والرواية

يقدم لنا المؤلف نظرية طريفة عن المدينة الواحة ، الواقعة على طريق القوافل التجارية ، ومن خلال ذلك ـ وربما دون أن يقصد ـ يقدم لنا مفهوما للزمن وللتاريخ . إن الذين استقروا في تلك الواحات ـ المدن أناس « نسيتهم الأحلام القديمة ، أحلام الغزاة الكبار ، والمغامرين الكبار ، والعاشقين الكبار ، والتجار الكبار ، أولئك الذين قذفتهم يوما فيافي الصحراء العربية إنهم أحفاد أولئك الذين طردهم جفاف اليمن بعد إخفاق مغامرتهم الكبرى في التغلب على حموضة الصحراء المهاجمة ، فتفرقوا ، واجتازوا الصحارى ، تحملهم جمالهم المتعبة ، حتى رأوا واحة مسكينة ، فرأوا فيها الجنة المنتظرة ، وقالوا : سنرتاح قليلا حتى المحطة القادمة ، تلك المحطة التي لن يصلوها فيها بعد أبدا ، لأن الكسل والملل والانتظار مالبث أن سكن دماءهم الفائرة وحاصرتهم الصحراء ،* وقالوا : نوفر قليلا ، نوفر في الفرح ، نوفر في الحزن ، نوفر في التوق ، نوفر في المغامرة » .

وهكذا استسلموا لركود مديد ظاهري ، وازدادت هذه الواحات ركودا عندما تحولت عنها طريق القوافل التجارية ، « وفي فترات الانتظار الطويلة ، فترات تغير طرق التجارة الكبرى » يتولد تصميم قديم ، « يلح : لاداعي للتسرع ، سترجع القافلة وطرق القوافل والأرباح والغنى قريبا » ، لكن الحلم السبئي القديم يستثار عند « هؤلاء الأحفاد الصغار لأولئك المغامرين ، والمحاربين ، والحالمين والتجار الكبار ، « فكانوا » يفاجأون حين يسمعون أن واحدا من أبناء جلدتهم قد قرر كسر قيود الواحة والخروج إلى كبد المغامرة ، لذلك حين سمع « أبومنير » و « أبوسعيد » و « الشيخ يوسف » نبأ عودة صياح المسدي إليهم ، حملوه كل شوقهم القديم إلى تلك المغامرات ، والرحلات والأحلام التي كانت خبز أجدادهم اليومي ، قبل أن يرتاحوا قليلا في تلك الواحة ، فرأوا فيه تحقيق الحلم وإنجاز التوق » .

هذه هي النظرية التي يقدمها المؤلف ، وهي تأتي في سياق عودة صياح المسدي وابنته حسيبة من اختفائها في الجبل ، بعد أن شاركا في الثورة السورية ضد الفرنسيين ، إثر انتهاء الحلم الفيصلي بالاستقلال والوحدة . عادا ليسكنا في بيت قريبهما ، حمدان الجوقدار ، بعد أن انتهت الثورة ، وعندما لم يجدا مكانا يؤويهما . إن حمدان يرحب بقدومهما لأنهما أثارا عنده ، وعند أبناء الواحة الراكدة ، الحلم السبئي القديم .

ومن هنا تصبح الثورة السورية ـ في وجه من وجوهها ـ تمردا على الركود الروحي لأهل هذه الواحة المسماة دمشق .

المؤلف نفسه ، ومنذ البداية ، غير مقتنع بهذا التفسير ، فصياح انضم للثورة لأنه لم « يستطع العمل مُسْدِياً « ففابريقات » فرنسة وانكلترة كانت قد استولت على العالم الذي سحب منه صياح إلى السفربرلك .

«وحين انضم صياح المسدي إلى حارس حارات الشام ، حسن الخراط ، في هوجته في الغوطة ، كان يظن أنه سيستعيد عالمه القديم الهادىء ، حيث يخلو إلى عدته البسيطة ، ويسدى الحرير في تلك الدورة النسيجية الطويلة في صناعة الصبايات والالاجات والديما» .

وهذا يعني أن الدافع الرئيسي للثورة كان تغيير الهياكل الاقتصادية الاجتماعية ، هذا التغيير الذي أدى إلى بطالة العديد من أصحاب الحرف اليدوية ، وإلى تغيير موقعهم الاجتماعي .

أليس هذا سببا مقنعا للثورة ؟

إن هذه النظرية تطرح إشكاليات عديدة ، سواء على مستوى النص الروائي ، أو على مستوى علم الاجتماع . تطرح على المستوى الروائي انحياز الكاتب إلى القدر الذي لاراد له ، وخذلان حسيبة التي واجهت ذلك القدر وتغلبت عليه . يبدو لنا أنه حين يرى المؤلف أن الحاضر يطيع الماضي ، وأن الأموات يحكمون الأحياء ،فإن مأساة حسيبة هي أنها لم تخضع لقدرها ، بل لقد لبست ملابس الرجال ، وعاشت حياتهم حين شاركت في الثورة ،

يعني أيضا أنه كان على خالدية خانم أن ترضى بقدرها ، أن تكون زوجة لرجل تزوج عليها وهي في سن الثامنة عشرة . وهذا معناه أن تفقد الرواية كل شيء ، كل شيء مميز وجميل فيها . وهذه النظرية غير قادرة على سلب ماهو مميز وجميل فيها ، لأن تعاطفنا مع حسيبة وخالدية أقوى من كل التنظيرات . إن الماضي ، بكل تجلياته كقدر ، ينفيه الفعل الدرامي داخل هذه الرواية .

وعلى مستوى علم الاجتماع فإننا نعلم أن المعطيات الاجتماعية والوعي قادران على تبديل الماضي كقدر . قد يبدو الماضي طاغيا ، ولكنه ، عند تأمله بدقة سيتكشف عن قناع للحاضر . عندما تقرر حسيبة مثلا أن تقيم مصنعا للجوارب فإن مجموعة قيم الماضي تصبح مجرد لغة تعبر عن واقع محدد : إنها مهددة بالمجاعة الحقيقية هي وابنتها وحفيدها ، وماقامت به ليس استجابة لأرواح الأجداد ، بل لخصوبة روحها وجسارتها

٢ - التقنية الروائية

قلنا : إن هذه الرواية مكتوبة بتقنية جديدة على الرواية ، هي مزيج من أسلوب الجاحظ في « البيان والتبيين » وإيقاع المسرح اليوناني ، أو تلك النبرة الخطابية للمسرح اليوناني فماذا نعني بذلك ؟

في هذه الرواية لانجد البنية الروائية المتعارف عليها ، نعني بذلك تلك البنية العضوية المنسجمة ، حيث تصبح الأجزاء ذات وظيفة محددة : أن تشكل الوحدة الروائية ، بهذا لانستطيع أن نضيف جزءا آخر إلى الرواية ، أو أن نحذف منها جزءا ، والرواية بذلك تشبه عضوية الكائن ، حيث إن بتر عضو وإضافة عضو تؤدي إلى تشوه دائم .

في هذه الرواية نجد خروجا على مبدأ الوحدة العضوية ، فبمجرد أن يفتح حمدان الجوقدار الباب ، ليستقبل صياح وابنته حسيبة ، نرى المؤلف قد انتقل إلى شرح نظريته عن - الواحة - المدينة ، وعلاقتها بالقوافل القديمة . وهذا يتكرر كثيرا في الرواية ، فمن خلال مريم - وهي شخصية هامشية في الرواية - يحكي لنا المؤلف تاريخ حياة زوجها ، دون أن يكون لذلك أدنى علاقة بالخط الأساسي للرواية .

إنها تقنية الكتابة العربية كما في « البيان والتبيين» للجاحظ و « الكامل» للمبرد ، و « الأغاني» لأبي الفرج . إن الانتقال في هذه الكتابة من حدث إلى آخر لايتم عبر تسلسل تاريخي ، ولا عبر رباط عضوي بين الأحداث ،

ولكنه يتم عبر التداعي .

هذا يعني أن هذه التقنية محكومة بالشكل الروائي ، فالخروج عن التسلسل الروائي أضفى أبعادا جديدة على ذلك التسلسل ، وأدخلنا في عالم الرجال الذين لم يكن لهم دور كبير في البنية الروائية . من خلال هذا الخروج على التسلسل عرفنا خالدية وأزواجها ، فأصبحت حسيبة بالنسبة لنا أكثر وضوحا ، لقد أسهم كل هؤلاء الرجال في بناء شخصية حسيبة التي كانت تبني نفسها ضد الرجال الغائبين ، بما فيهم الأجداد والأسياد ، أي الأرواح المنتقمة .

روح المسرح اليوناني

تحدثنا عن اقتران هذه التقنية بإيقاع المسرح اليوناني وروحه ، وأعني بذلك شيئين :

الأول : تجسيد الظرف الاجتماعي بأرواح غيبية ، لها سمات مفهوم القدر في المسرح اليوناني وملامحه . وهذا ماسوف نفصله بعد قليل ، في الحديث عن بناء شخصية حسيبة .

الثاني : دمج وحدات الزمن الثلاث بعضها ببعض ، وهذا ماستحدث عنه ببعض التفصيل هنا ، وسوف أقدم بعض الأمثلة على ذلك .

حين دخل صياح المسدى وابنته إلى بيت حمدان ، بعد أن انتهت الثورة ، قدم صياح ابنته :

« هذه حسيبة ابنتي .

واتسعت عينا حمدان دهشة : حسيبة ابنتك ؟

ـ نعم ، كانت معي في الجبل .

بعد سنوات ، وفي جلسة صفاء ، وكانا جالسين في مقصف قصر شمعايا ، يلعبان الطاولة ، قال حمدان لحسيبة :

ـ كانت مفاجأة ، مفاجأة صعبة على التصديق أن أراك مكشوفة الوجه ، تمشين إلى جانبه في الحارات .

مثال آخر على ذلك هو عرض نظرية المؤلف عن المدن ـ الواحات ـ ، لتفسير الاستقبال الحماسي لصياح وحسيبة ، بعد عودتها من الجبل . والأمثلة كثيرة ، فلا داعي لزحم هذه الدراسة بها . فإلى أي شيء يشير استدعاء الأزمنة الثلاثة إلى اللحظة الحاضرة ؟ وكيف يخدم الموضوع الأساسي في الرواية ، ونعني به صراع الإنسان ضد القدر ؟

القدر هو أحد احتمالات الحاضر التي يخبؤها المستقبل . عندما نغرس هذا الاحتمال في اللحظة المعاشة ، فإننا نضفي على تلك اللحظة كثافة مأساوية ، وبكلمة أدق : جلالا تراجيديا . إن اللحظة الحاضرة تصبح ممرا يعبر به البطل نحو مصيره المأساوي . إن عظمة « ماكبث » هو أن مصيره ـ قدره ـ كان بالغ الوضوح بالنسبة له . إن ماتقوله هذه الحيلة الروائية هو أن المأساة ليست ذلك النتاج « الميلودرامي » لسخرية الأقدار ، بل نتاج اختيارنا على الأخص ، البطولة تختار المأساة ، لا الميلودراما .

٣ ـ المأساوي البطولي

تنبثق بطولة حسيبة ومأساويتها من كونها أرادت أن تتجاوز قدر المرأة ، أن تصوغ حياتها بيديها ، وليس بالخضوع للمواصفات الاجتماعية التي صاغها عالم الرجال ، أن تكون قيمها نابعة من ذاتها ، وليس من عالم الرجال والأسطورة والأجداد . إنها مأساة الفرد الموجه من الداخل ، في عالم موجه بالتقاليد ، حسب تحديد الأنماط التاريخية الذي يطرحه « ديفيد رايزمان » إنها مأساوية الفلاسفة والعلماء والشعراء ، أولئك الذين يسميهم « فوكو » المجانين الذين لم يستطيعوا أن يموهوا صوتهم بصوت المؤسسات القائمة .

حسيبة تعيش في ظل لعنة ، وجوهر بطولتها المأساوية أنها تتحدى تلك اللعنة . صامت سبعة أيام واعتكفت ثلاثة ، متوقعة أن يأتيها النور من الداخل ، وسوف يجعلها منسجمة مع كل المؤسسات ، ولكن الضوء لم يهل عليها . لقد تحدت قدرها وعليها أن تدفع الثمن .

خرجت حسيبة إلى الجبل ، ولبست ملابس الرجال ، وحملت أسلحتهم ، وحاربت إلى جوارهم . إن حمدان الذي تزوجها فيما بعد يقول لها :

« ألم تكوني تخجلين من المشي حاسرة الوجه ، تاركة كل هذا الحسن نهبا لتلك العيون النهمة الوقحة الجائعة » .

فقالت لترضيه :

« كنا فلاحين على قد حالنا ، نعيش في الجبل ، ونقاتل الفرنساوي ، ولم نكن نفكر في أن الوجه عورة ، (وتنهدت قليلا) ، إه الجهل عمى » .

وعندما (أصبحت) أنثى وزوجة كان عليها أن تصير تلميذة لخالدية خانم ، تتعلم على يديها مهنة الأنوثة وقدرها . وأنوثة مثل تلك التي يطالب بها مجتمعها لاتصاغ بالتعاليم والنصائح ، بل تصاغ عبر الخضوع الذي يلازمها منذ الولادة . لهذا أصبحت تعيش أنوثتها بوعي خارج عنها ، وعي الفرد الذي كسر التقاليد والمحرمات ، وخرج من أطر المؤسسة الاجتماعية . إنها تعلن فرديتها لخالدية عندما نصحتها بأن تزيل حاجبيها العريضين ، وقالت لها : حاجباك حاجبا رجل . فردت : « جئت إلى الحياة هكذا وسأبقى هكذا » .

أصبحت هي التي تتخذ القرار : فلتتزوج خالدية صياح ، وليصبح صياح شريكا في الدكان . وهي التي أقنعت زوجهابتخزين المواد التموينية ، لأن الحرب قادمة . أضفت على زوجها - الدكنجي الصغير - سمات الفرد المتميز المغامر ، صاحب المشاريع الكبيرة . تردد ولكنه وافق تحت إلحاحها .

وهكذا فحسيبة هي الفرد الذي لم يكتف بالخروج على تقاليد المؤسسة ، بل أراد أن يخضعها لإرادته .

لقد كانت خالدية هي التجربة « البروفة » الأولى للتمرد ، البذور الأولى لنشوء الفرد ، فعندما اقترن زوجها بزوجة أخرى ، وهي ماتزال في الثامنة عشرة من عمرها ، أصرت على الطلاق ، وحين حاول إعادتها رفضت إلا بتحقيق شرطها ، وهو أن يطلق الأخرى . زوجها الثاني كان بخيلا فظا ، فطلبت الطلاق منه . أما الثالث فقد أحبته . كانت إمكانية فنانة وعاشقة عظيمة ، وبهذا المزاج بنت أسطورته في داخلها ، والتزمت بها .

إن هذا التكوين الروحي لخالدية الفنانة المقموعة العاشقة المعطاءة هو الذي خلق تميزها عن المرأة العادية الراضية بقدرها ، وهو الذي جعلها بعد أن تخلى عنها زوجها الثالث ، وسلب



● غلاف الكتاب

منها كل ماتملك . تنصرف إلى إقامة عالم من العطور الناعمة والورود :

بدأت بتربية نباتات الزينة ، فجلبت الأصص ، وأخذت تشتري ، وتستعير ، وتستهدي ، ليتجمع عندها في أقل من سنتين أكبر مجموعة من نباتات الزينة في الحارة ، بل ربما في المدينة ، فأقامت جنة أرضية ، تعبر عن روحها الحساسة وتوقها للحياة . ولكن فرديتها التي تجلت في الإبداع ، وفي التطريز وإقامة جنة الورود والعطور ، كانت سلبية تجاه الرجل ، تكتفي بالرفض والانتظار ، وفي هذا نكتشف الفارق الأساسي بينها وبين حسيبة .

حسيبة « كانت المرأة الأولى التي استطاعت ترويض حمدان ، بل وربما كانت المرأة الأولى التي روضت رجلا في الحارة كلها » .

ولكن القدر الاجتماعي كان لحسيبة بالمرصاد ، فهنالك مرض غامض قد فتك بكل أبنائها الذكور ، ولم يترك إلا الفتاة الجميلة ، الرقيقة رقة تمنعها من مواجهة الحياة ، ولكنها ترفض قدرها . تقول لخالدية :

« خالدية خانم يجب أن أعطيه صبيا لن أستسلم أمام إرادة أولئك القساة » .

وكانت تلك هي البداية ، إذ توالت معارك حسيبة مع قدرها ، ولم تنته إلا بنهايتها ، معركتها مع أبيها صياح الذي رفض وصايتها ، ومع فياض الشيزري لتحويله إلى « دكنجي » ، ومعركتها مع قوانين السوق حين اشترت « الماكينات » اليدوية ، لصنع الجوارب ، وسيطرت على سوقها ، ثم هزيمتها أمام تطور تقنيات السوق حين دخلت المكائن التي تدار بالكهرباء .

إلا أن أقسى معارك حسيبة كانت مع ذاتها ، حين أحبت فياض الشيزرى كانت معركة مع رغبات الجسد الجامح ، ومع خصوبتها التي تبحث عن منقذ ، عن طفل ، ومع مجتمعها الذي يرفض زواج المرأة بمن هو أصغر منها سنا ، ومعركة مع ابنتها ، ومع الرجل الذي تحبه ، والذى حاولت قسره على حبها .

من هنا نكتشف الفارق بينها وبين خالدية . وقد تحرر جسدها من سيطرة القيم التي تقمعه ، وتحررت طاقاتها الفنية ، أطاعت جسدها ، واكتفت بذلك . جسدها الذي لا يرتوي كان ممنوحا ، ولم تكن تريد أكثر من ذلك . أما حسيبة فقد كانت تريد أن تمسك العالم بيديها وتعيد صياغته . على العالم أن يطيعها ، فلم تكن ترضى بأقل من ذلك . ولأن ظرفها الاجتماعي ، قدرها لم يكن يتيح لها ذلك ، دمرت نفسها ومن حولها .

سمات حسيبة هي السمات العميقة للثوري ، نقيض لنمط باني الحضارة الاوربية وامتداده في الوقت نفسه . حين يضع الثوري مشروعا لتغيير العالم فإن على العالم أن يطيع .

٤ ـ أقنعة القدر الاجتماعي

إن أهم مافي هذه الرواية أن الصراع بين الشخصيات ومعطياتها الاجتماعية لم يتم عبر وعي مضاف إليها ، بل تم برموز ومعطيات ذلك العصر .

إن هذه الأبنية التي أقيمت ، لتقمع كل تمرد ضد الواقع التقليدي ، لابد أن يكون أثرها معيقا للصراع ، وهذا ماقدمته الرواية بامتياز ، وهو مايجعلها تقف كواحدة من الروايات العربية المهمة .

هذه رواية مهمة في سياق الرواية السورية والعربية ، فهي قد قدمت أعمق طرح لقضية المرأة ، ومن خلال ذلك طرحت قضية الإنسان في العالم الثالث .□

المقهى

قصة بقلم : ليلى العثمان

في غفلة وجدت نفسي داخل المقهى المزدحم بأنماط البشر ، هاربون من الحياة ، ومن أنفسهم ، مواطنون وغرباء ، لوحت الشمس بشرتهم ، أصحاب عاهات يتكئون على العصي ، وبضعة مخنثين يثيرون ضجة خافتة ويتضاحكون ، عشاق صغار هاربون من عيون الأهل ، باحثون عن زحام يضيع وجوههم التي تتألق بفرح خائف .

وجدت لنفسي بين هذا الحشد مكانا . قدم الكرسي القديم تهتز تحتي . أثبت نفسي عليه وأنتظر مرور النادل الذي يتوزع بين الجالسين بنشاط عجيب .

جو المقهى يعبق بدخان السجائر ، والسيجار ، وروائح العرق ، والقهوة ، والشاي ، والمشروبات الأخرى التي ألمح ألوانها ولا أعرف أسماءها . الأصوات متداخلة ، حينا تكون كالهمس ، وحينا كالصراخ ، بعضها يدب إلى الأذن فتلتقط جزيئات منه ، وبعضها يتبعثر في المكان الواسع ، ويضيع مع الضجيج القادم من باب المقهى الذي يفتح ويُغلق دون فرصة للراحة ، لكنها فرصة لرئتي لاستلاب هواء جديد .

أخذت أتَسلّى بالنظر إلى أقدام الجالسين ، ذات الأحجام والأطوال المختلفة . هواية تلازمني دائما ، وأتصور أن أناقة الرجل تبدأ من قدميه . هاتان قدمان لرجل محظوظ لا شك أن زوجته تصحو باكرا من أجل تلميع حذائه ، وهو السيد الذي لا يعبر لسانه عن كلمة شكر .

هناك امرأة تحسب نقودها ، حذاؤها متآكل ، يشير إلى أنها عاملة ، لا تملك وقتا للاهتمام به . بعض جذور زرقاء تتوزع في ساقيها، وأصابعها التي تطل من رأس الحذاء تحمل طلاءها القديم المتقشر .

في الزاوية يجلس رجل كمشت التجاعيد وجهه ، حتى خيل إلي أن التجاعيد وصلت أطراف أصابعه . بدت قدماه داخل الحذاء مبعوجتين . يرتشف شايا أخضر ، ويهش بكفه الكسلى بضع ذبابات تتطاير ، بينما الجالس إلى طاولته يغرق وجهه في الجريدة ، لكن عينيه ساهمتان في اللاشيء . يرتدي حذاء ذا كعب عال ، لزوم قامته التي تبدو قصيرة .

تلك قدمان لَمّا تلامسهما الأرض القاسية بعد ، تعرتا إلا من براءتها وطراوتها . طفل يرتاح في حضن أمه ، ويعبث بأزرة فستانها الكبيرة . انحدرت عيناي إلى حذائها ذي اللون الأحمر الفاقع المزين بشريط أسود ينتهي بعقدة على شكل وردة ، والكعب رفيع جدا ،

استغربت كيف سيحمل وزنها الثقيل حين تقف ، وهلع قلبي حين تصور أنها ربما تقع ويقع الطفل ويتلوث بتراب الأرصفة وأوساخها .

شعرت بشيء يزعجني ، يختص معه رأسي الذي يبحث عن لحظة ما . انتبهت إلى أن الجالس عن يميني يهز قدمه اليمنى الممطوطة أمامه بشكل يدعو للقناعة بأنه يعاني من مرض عصبي ، خاصة أن عينيه المهمومتين تتراقصان دون أي تعبير . حين تابعت الاهتزاز تذكرت زميلا قديما ، شاركني ذات يوم نشاطا ما ، في إحدى المؤسسات ، وكنت أضغط على ركبته لتتوقف فيضحك شامتا بانزعاجي . لم أعد أراه ، فقد تزوج امرأة مومسا وتحول إلى أجوائها .

غيرت وضع جلوسي ، بحيث أعطيه ظهري الذي بلا عيون ، خشية أن ينتقل توتر أعصابه إليّ ، فاذا بعيني تصطدم بوجه الذي يجلس أمامي ، وقد داهمته شرقة حادة ، احتقنت لها حدقتاه ، وتطاير نثار الشاي من فمه ، وفتحتي أنفه ، ونال وجهي بعض الرذاذ الساخن . في المقهى المكتظ بزبائنه يكثر المتسولون ، يدخلون ويخرجون مارين بالطاولات ، نساء منحنيات للزمن المر ، متلفعات بألوان من الشوادر والعباءات ، رجال عجائز فقدوا أسنانهم وشعر رؤوسهم وضوء عيونهم . صبيات جميلات ، تقفز شهوات بعضهم إليهن وتفقدهن بكاراتهن . وأطفال زفرتهم الأمهات إلى الشوارع المخادعة ، حفاة ، ممزقو الأقدام ، متسخو الوجوه ، خشنو الأكف كأن الطفولة غادرتها . تراقب عيني الأيدي الكثيرة التي تمتد إلى الرواد . ترتد خائبة أو ظافرة ، والشفاه شاكرة أو لاعنة ، تتناثر كلماتها كالغبار ، وقد بح صوت الرجال فيها .

أحد الجالسين يحدث صديقه ، فتلتقط أذناي المشنفتان صوته :

- لا أدري متى بالضبط بدأ هذا الشقاء يزحف ! كيف يتكاثرون ؟

قال رفيقه بحزن :

- النساء البائسات كثيرات ، لا هم لهن سوى تفريغ هذا الشقاء . لا يملكن ثمن حبة تمنع الحمل .

- البعض يأكل ويبصق ، والآخرون يلحسون البصاق ، لا عدالة ، ولا رحمة .

صوت الآخر بحدة يؤكد لصاحبه :

- يوما بعد يوم ستجد أمعاء هؤلاء تقرض الحجارة .

ضحك بهزء حزين :

- نحتاج حينها لعمر بن الخطاب جديد .

بألم شديد يضغط على أسنانه ويكوم قبضته :

- والله حرام ، قلة تلتهم موائد الخير ، وكثيرون جياع .

قال صاحبه وهو يمسك بخصر سيجارته :

- انظر ، كل شيء صار كهذه السيجارة ، انظر كيف تلتهم الورق ، تحوله إلى رماد . هكذا يفعل الطغاة بهؤلاء البشر .

فاجأني إحساس بالغثيان وأنا أتصور الموائد العامرة في مدينتي ، حيث يذهب أغلبها هدايا لصناديق القمامة ، فتسمن الفئران ، وتفر القطط من طريقها جائعة البطون .

بطون النساء تختلف عن بطون الرجال ، تتكور مشدودة تحت ضغط الرجيم أو التنانير الضيقة . يبدو شكل امرأة حامل جميلا ، لكنها بالتأكيد لا تفكر بشيء بعد الولادة إلا بكيفية استرجاع رشاقتها . فإذا كانت اناقة الرجل تبدأ من قدميه فإن اناقة المرأة تبدأ من مساحة بطنها وصدرها . صوت أحدهم يصرخ بالنادل ، فيرتجف ، ويسقط كوب الماء الفارغ ، ويتناثر الزجاج ، ويبتعد أحد الأطفال الحفاة ، بينما تدوس قدم رجل سمين على بعضه ، ويصدر صوت أزيز ، تحتك له الأسنان نافرة . يحمل النادل عصبيته ، ويطرق فنجان الشاي الجديد

أمامي ، وينصرف بعد أن يلقي ورقة الحساب الذابلة المبللة ، فأكتم الغضب في صدري وعيناي تستقران على صدور الناس الجالسين . أكثرها متعب ، مثقل بالهموم . بعضها يبدو وقد مات منذ زمن طويل . قليل منها مشرع للهواء وللحياة ، كأن أصحابها يتحدون بالأمل كل يأس طارىء . ما الذي تحمله صدور الناس هذه من أحاسيس ، وحكايات ، ومتاعب ، وأسرار ، وأحقاد ، ومشاعر حلوة نادرة؟! شيء يثير الفضول ، وعالم الصدور غالبا ما ينعكس على الوجوه . يفور بركان فضول العين إلى الوجوه العديدة المختلفة . كل متناقضات الحياة موزعة عليها . وجوه بائسة تجعدت أحلامها ، وأخرى هدّل التعب جلدتها ، وأخرى موشاة بحزن عتيق ، شق له قنوات في تضاريسها . وجوه تطفح بالمرح أو بسعادة واعدة ، وجوه متفائلة ، وأخرى يفوح شؤمها ، عالم من الصور تحمله وجوه جميلة سبحان الله صانعها ، ووجوه مدعوكة لا تميز العين سرها . وجوه تدعوك للتأمل تنفرك وتغلق أمامك باب النظر . وجوه تنبثق فجأة ، تحس أنك تعرفها ، بالتأكيد تعرفها ، وأخرى تتساءل لماذا هي موجودة في الأصل ؟

صوت سعال خفيف يتسرب إلى أذني . ألتفت ناحية الصوت يستوقفني الوجه . تفرست فيه ، أكدت لنفسي .

- أنا أعرف هذا الوجه ، أعرفه جيدا .

أمسكت رأسي أشد عليه . أعصر ذاكرتي وكأنها برتقالة لما تستو بعد ، ألح عليها أن تذكرني بصاحب هذا الوجه : أين رأيته ؟ متى التقيته أول مرة ؟ هذه الخطوط العميقة في جبينه خطت لنفسها عمقا داخل وجداني ، فكيف أنساه ؟

كان النادل قد وضع فنجان القهوة أمامي حسب طلبي ، رشفت منه ثم عدت أتفرس في الوجه الذي أيقظ ذهني من تأملاته في الأقدام والبطون والوجوه . يجلس هادئا ، يقلب مجلة أجنبية ، وبين شفتيه سيجارة تكاد تنطفىء ويتناثر رمادها على بدلته الداكنة . لعله شعر بنظرتي المصوبة نحوه . التفت ، رفع حاجبيه بالسؤال الصامت : هل تريدين شيئا ؟ خفضت بصري والهمس بداخلي : لا أريد شيئا ، ولكن من أنت ؟ منذ شهور وذاكرتي تخونني وتحرجني . قبل سفري راجعت طبيبا بناء على إلحاح إحداهن . حتى هذه اللحظة لم أتذكر اسمها على الرغم من الأسماء المتقاذفة حولي من رواد المقهى . يومئذ كنت أزور أحد المعارض الفنية . حين رأتني هللت لقدومي ، فتحت ذراعين طويلين وحضنت جسدي النحيل :

- أهلا زينة ، يا للساعة المباركة ! أخيرا أراك بعد كل تلك السنوات .

تشمعت رموشي دهشة باستقبالها الحميم ، رددت ببلاهة :

- أهلا .

وانهالت سؤالاتها كالمطر :

- هاتي ما عندك ! ما أخبارك ؟ أحوالك ؟ ما أخبار هشام وحنان ؟ وماذا بعد أن تركت المدرسة ؟ سامح الله والدك . ما أخباره ذاك الذي لم يكن يسمح لك حتى بالنظر من فتحة الشباك ؟ هه . . . ما أخبار خالتك التي كانت تشكو من مرض السكر ؟ لقد أصاب والدتي المرض نفسه ، وكانت تعالج عند الدكتور نايف .



آه ، فتحت ذراعيها وعانقت الهواء إلى صدرها ، كمن تحضن رجلا تولعت بذكر اسمه . ثرثرتها تواصلت ، وأنا كالبلهاء أتصيد الكلمات لأربطها وأرد عليها ، لكنها تواصل دون توقف .

ـ الدكتور نايف ألا تذكرينه ، أم تتصنعين الغباء ؟ أحاول في هذه اللحظة أن أتذكر هذا الدكتور نايف الذي حاولت أمامها أن أتذكره فلم أفلح . من هو ؟ ولماذا تحدثت عنه بتلك الصورة المليئة بالدفء وبالشوق ؟

يومذاك غرست كفها في بطني تمازحني وتستفزني :

ـ الدكتور نايف ، ألا تذكرينه ؟ لقد تقابلت أمي وخالتك في عيادته ، تذكري كيف قرص خدك هكذا .

وشدت أصابعها على كتلة من لحم خدي ، توجعت ، ضحكت :

ـ هه ، تذكرتِ الآن ؟

لا أتذكر شيئا . أصرت في ذلك اليوم أنه جاء ليخطبني ، وأنني كنت ميالة إليه . تحدثت عني وكأنها تعرفني أكثر من نفسي ، وأنا أزوغ بذاكرتي مرتدة للسنوات التي تعنيها ، لكن حبالي بليت ، حتى اسمها لم أتذكره ، فجاء صوتها جادا منبها :

ـ اسمعي يا زينة ، أنت بحاجة إلى طبيب يغسل كسل ذاكرتك .

تلاقت عيناي بعيني النادل . هز رأسه ، قال بلهجته السريعة :

ـ حاضر ، فنجان قهوة ؟ سكر خفيف ؟ إنه الخامس .

هززت رأسي مبتسمة ، فرح بابتسامتي . مسكين ربما لم تبتسم له امرأة منذ أسبوع ، تلفت في المقهى ، الوجوه تغيرت ، الروائح جديدة . خلف الزجاج ينفرش وجه طفل يدق بكفه الضئيلة على الزجاج ، حين أنتبه إليه بكلي يمد لسانه ، ويقوم بحركة مخزية من يده ، ويفر بسرعة ، متصورا أنني سأشق الزجاج لأعاقبه .

أستدير إلى وجه صاحبي ، ما يزال في



مكانه . هو الذي يراقبني الآن . وأنا أتساءل : هل عرفني ؟ لماذا لا يبتسم إذن ؟ لماذا لا يتكرم ويقترب ويصافحني وينطق باسمي ويعرفني باسمه لأتذكره وأرتاح ، وأتأكد أن ما قاله لي الطبيب صحيح :

ـ نسيانك اسم إحدى صديقاتك لا يعني حاجتك إلى علاج ، إن ذاكرتنا كثيرا ما تركن للراحة ، تماما كالجسد ، قد تنسى في لحظة ما اختزنته سنوات ، لكنها تظل مثل صفحة السماء مهما حاصرتها الغيوم فإنها تصفو .

ربما أقنعتني كلمات الطبيب في حينها ، لكنني في اللحظة هذه أشك في أقواله ، فهذا الوجه الذي يفرض وجوده علي ليس غريبا . لماذا لا يبادر ؟ هل يخجل ؟ هل يخشى أن يسبب لي إحراجا ؟ ليس معي رجل ما ! من يدري ربما هو مثلي يعاني من مرض الذاكرة .

يا إلهي !! الإلحاح الشديد بحد ذاته مرض هو الآخر . أين قابلته ؟ في أي بلد ؟ أي سماء ؟ ربما في إحدى رحلاتي الجوية الكثيرة . قد يكون أسعفني من خوفي حين اهتزت الطائرة وصرخت . . أو . . ربما في إحدى البواخر الكبيرة حين فاجأني دوار كدت معه أفقد توازني وأنزلق إلى القاع ، فسارعت ذراعاه وأنقذتا عمري ، والتقت عيوننا في لحظة ميلاد ، جعلت وجهه يلتصق بلحم ذاكرتي كل هذه السنوات .

جسدي متراخ ، أشعر بأنني أستفيق من غفوة طارئة ، نقاط تتراقص أمام عيني وزخارف ملونة ، طعم القهوة تغير في فمي ، جفاف خشن تمدد على لساني ، خدر لذيذ يوقظني منه النادل :

ـ طلب آخر ؟

هدوء المقهى جعلني أدير رأسي متجولة . إنه شبه خال . الطاولات كثيرها نظيف لامع ، تتوسطه منفضة السجائر وأوراق الاستعمال . وقليلها لمّا تمتد له بعد يد النادل الآخر الذي يتوزع بين الطاولات والزبائن لتنظيفها ، ما تزال خاضعة لاهمال الذين تركوها ، علب سجائر فارغة ومبعوجة . زجاجات المشروبات وكؤوس الماء وفناجين شاي وقهوة ورماد متناثر وأوراق ممزقة ، لو كنت في وضع جيد لفتحتها وقرأت أسرارها . الكراسي بعضها مصفوف مرتاح ، وأخرى ما تزال متباعدة ومتقاربة تئن من وطأة تعبها وعرق الذين هجروها .

الأرض متسخة معفرة ببقايا البشر وبصمات المتسولين . لا أثر لكل الأقدام السليمة والمشوهة ، ولا للصدور التي زفرت لهاثها . ولا للوجوه التي نسيت نفسها في قنوات رأسي .

تمدد عنقي بكل الفضول إلى كل الاتجاهات ، أبحث عن الوجه الأليف المنسي في صندوق الذاكرة ، لكن الفراغ والصمت يواجهان جولة عيني حتى تقعا على الطاولة الأخيرة في الزاوية . يرتعش قلبي للمنظر ، رجل وامرأة ، عاشقان . الرأسان متحدان ، الكفان متشابكتان ، والشفتان لا أدري إن كانتا صامتتين أو هامستين . ضوء الظهيرة الحاد يسقط عليهما ، وينفرش تحت أقدامهما المسترخية بشكل مثلث غير منتظم الأضلاع .

وهمسة النادل :

ـ شيء آخر ؟ الساعة الآن الثالثة والنصف .

عيناه ترتدان إلى لوحة العاشقين المنزويين ، كأنه اعتاد وجودهما ، ثم إلي بشبه رجاء :

ـ شربت قهوة كثيرة . . الحساب .

رفعت قامتي بكسل ، فتحت حقيبتي ، سحبت كمّا من الأوراق النقدية ، وضعتها على الطاولة ، وخطوت نحو الباب المغلق . قبل أن أخرج نظرت إلى النادل الذي كان ينظر إلى النقود باندهاش واضح لا يخلو من فرح .

فتحت الباب ، كان خلفي وجه يطاردني ، يخترقني ، وينتصب في رأسي مصرا أن أتذكره . أمامي كان الشارع موحشا ، وفي قلبي إحساس بلوحة أخرى لعاشقين في مقهى آخر .□

بسرعة ، أهم معالم هذه المعالجة ، فكل من فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٣٦) ورينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) قد تصور أن الإنسان يستطيع أن يحقق تقدما لا حدود له ، بفضل جهوده الإرادية الواعية . وقد وضع فونتيبل (١٦٥٧ - ١٧٥٧) نظرية للتقدم الاجتماعي ، تقوم على أساس أن تراكم المعرفة العلمية هو أفضل طريق لتحقيق التقدم .

وقدم أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) نظريته المشهورة عن المراحل الثلاث التي تعكس عملية التقدم في التاريخ . وحتى بداية القرن العشرين اختلطت فكرتا التغير والتقدم لدى عالم الاجتماع الانجليزي هربرت سبنسر (١٨٣٠ - ١٩٠٣) الذي رأى أن التقدم الاجتماعي يسير في وفاق مع التقدم الكوني و « البيولوجي » ، وأن التطور الاجتماعي جزء من عملية طبيعية شاملة تحدث في الكون .

والفكر الاجتماعي في القرن التاسع عشر يقدم لنا أيضا بداية التمييز بين أنماط متعددة من المجتمعات ، فالسير هنري مين في كتابه (القانون القديم) (١٨٦١) يميز بين مجتمعات قائمة على المكانة الاجتماعية ، وأخرى على التعاقد ، وأن جوهر التطور هو الانتقال بالمجتمع من وضع المكانة الاجتماعية الى وضع التعاقد .

كما ميز تونيز (١٨٨٧) بين الجماعة والمجتمع ، حيث يسود الأولى طابع المحلية والعلاقات التلقائية الطبيعية ، أو مايسميه الإرادة الطبيعية التي تجد أساسها في العائلة أو القبيلة ، وفيه تعد الجماعة بمثابة تنظيم طبيعي ، يرتبط به الإنسان من الميلاد الى الممات ، ويشعر بالانتماء إليه ، وتسود الوحدة العضوية والقيم المشتركة والتناسق الداخلي ، أما المجتمع فيعرف الإرادة العاقلة أو الرشيدة ، حيث تسود قيم التعاقد والعمومية والانتماء إلى جماعات غير طبيعية كالنقابة أو الحزب . كذلك يفرق اميل دوركهايم (١٨٩٣) بين مجتمعات بسيطة وأخرى مركبة ، الأولى



● فرنسيس بيكون

يسودها التضامن الآلي الذي يقوم على التشابه في الأبنية والقيم السائدة والأفكار ، والثانية تقوم على التضامن العضوي الذي يعتمد على التباين الذي يؤدى إلى التكامل ، حيث يكون البناء الاجتماعي تنظيما للعناصر المتباينة .

هذه النماذج الثلاثة : (مين وتونيز ودوركهايم) ليست سوى أمثلة لعديد من الثنائيات التي قدمها الفكر الاجتماعي في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ومنها التمييز بين التقليدي والحديث ، والحضري والريفي ، والزراعي والصناعي ، لكن كل هذه المحاولات لم تخرج عن إقامة ثنائية بين نوعين من المجتمعات ، دون أن توضح لنا كيفية الانتقال من إحدهما الى الآخر ، .. والقوى التي تحكم هذا الانتقال . وتنتقد هذه الثنائية على أكثر من أساس ، فهي : أولا : تخلط بين مفاهيم التغير والتطور والنمو والتقدم . ثانيا : أن لها طابعا سكونيا جامدا ، وتفترض أن كل المجتمعات لابد أن تنضوي تحت أي من النمطين . ثالثا : تتضمن في ثناياها انحيازا للنموذج الغربي في التنمية ، وافتراض أن نموذج المجتمع الغربي هو غاية عملية التنمية ونهايتها .

من التنميـة الاقتصـاديـة
إلى التنميـة المجتمعية :

ذكرنا أن موضوع التنمية فرض نفسه على دراسات العلوم الاجتماعية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وعلى الأخص على استقلال دول آسيا وافريقيا ، ومرة أخرى كانت سرعة التطور التاريخي أكبر من التراكم العلمي و « الأكاديمي » ، فقد وضح مدى تخلف الدراسات العلمية عن استيعاب الحقائق الجديدة ، ومعالجة المشاكل المستحدثة التي طرحتها هذه البلدان . وكان علم الاقتصاد أسرع العلوم الاجتماعية استيعابا للموضوع . وبرزت التنمية الاقتصادية كأحد اهتمامات العلم الرئيسة ، وربما كان سبق علم الاقتصاد في هذا المضمار مرجعه أربعة أسباب :

أولها : أن الحكومات شجعت ذلك من حيث تركيزها على مشكلات التخلف الاقتصادي .

ثانيها : أن الآثار الاقتصادية الناجمة عن التخلف ، من بطالة وفقر وغيرها ، لها طابع العجلة .

ثالثها : أن علم الاقتصاد أكثر قدرة على التعبير الرقمي عن متغيراته .

رابعها : أن موضوع التنمية السياسية والاجتماعية قد يثير حساسيات وخلافات لاتوجد رغبة في إثارتها .

وتطرق بعضهم في التركيز على البعد الاقتصادي إلى حد اعتباره العنصر الوحيد لعملية التنمية ، ووصلوا إلى نوع من الحتمية الاقتصادية أو التقنية ، مؤداها أن كل المتغيرات التي تطرأ على المجتمع يمكن إرجاعها في نهاية الأمر إلى عوامل اقتصادية أو تقنية . يترتب على ذلك أن تصبح المدخلات الاقتصادية أو التقنية هي السبيل الوحيد لإحداث التغيير الاجتماعي .

ولاشك أن في ذلك تبسيطا شديدا لمفهوم التخلف ، لتداخل مختلف ظواهر الحياة الاجتماعية جدليا ، وتساندها وظيفيا . وبتقدم الدراسة في الموضوع اتضح شمول ظاهرة التنمية ، وأن التنمية الاقتصادية ماهي إلا أحد متغيرات الظاهرة التي تشمل متغيرات اجتماعية وسياسية أخرى مثل طبيعة البناء الاجتماعي والعدالة في توزيع الدخل والتكوين الفكري وبناء القيم في المجتمع والنظام السياسي والسياسات المتبعة . كما اتضحت العلاقة الوطيدة بين مختلف جوانب عملية التنمية ، فالتنمية الاقتصادية ترتبط بعديد من الجوانب الاجتماعية ، من حيث شروطها ونتائجها ، فنجاحها يتطلب وجود مؤسسات اجتماعية معينة ، وقيم ونظام تعليمي وخبرات فنية وتقنية ، فالقيم الاجتماعية التي تضبط السلوك الاجتماعي وتوجهه تمارس تأثيرا على عملية التنمية من حيث آثارها المباشرة على الحوافز وأنماط الاستهلاك وحجم المدخرات وحجم الأسرة . ويدخل في ذلك أيضا دور المعتقدات والتقاليد والعادات والأوضاع والالتزامات العائلية والقبلية ، كما تتطلب التنمية الاقتصادية اعتبار التعليم ، وما يتصل به كالتدريب المهني والبحث ، نوعا من الاستثمار ، وتوجيه سياسته وفقا لاحتياجات التنمية . ومن حيث الآثار والنتائج فإن التنمية الاقتصادية تطرح آثارا على أشكال المجتمع وأبنيته ، سواء فيما يتعلق بوضع الأسرة أو بدرجة العمران (التحضر السكني في المدن) أو بنسق القيم السائدة والعلاقات الاجتماعية والعلاقة بين الأجيال . كما أنها تستهدف في التحليل الأخير هدفا اجتماعيا ، هو توفير حد أدنى من الإشباع الاقتصادي اللازم لتحقيق رفاهية الإنسان . التنمية الاجتماعية من الناحية الأخرى تستهدف إقامة بناء اجتماعي ، يضمن استثمار إمكانات المجتمع البشرية والمادية أفضل استثمار ممكن ، ويضمن توزيع عائد التنمية الاقتصادية توزيعا عادلا . فالتنمية

الاجتماعية تستهدف إحداث تغييرات اجتماعية في أبنية المجتمع ووظائفه ، ويتضمن ذلك البناء السكاني ، والمؤسسات الاجتماعية ، ونسق القيم والمعايير السائدة . وهناك علاقة وطيدة بين البناء الاقتصادي لمجتمع ما ، والشكل السياسي له ، والقوى الفاعلة فيه .

ومن ناحية أخرى فإن التنمية الاقتصادية تتطلب درجة من الاستقرار السياسي الذي يدفع الى ازدياد معدلات الادخار ، ويخلق إطارا نفسيا ملائما للعمل المشترك ، كما تتطلب جهازا إداريا على درجة عالية من الكفاءة . نتج ذلك على المستوى « الأكاديمي » حركة مزدوجة من ناحية ازدياد اهتمام الاقتصاديين بالعوامل غير الاقتصادية في عملية التنمية ، ولعل دراسات روستو وهاجن وميردال أفضل أمثلة في هذا المجال . ومن ناحية أخرى تطور الاهتمام بموضوع التنمية في مجال الدراسات الاجتماعية الأخرى ، كعلم الإنسان (جيرتز) ، وعلم النفس (ماكليلاند) ، وعلم الاجتماع (موروليرنر) ، وعلم السياسة (الموند وفيربا) ، و (باي وكولمان وابتر) .

وعلى المستوى الحكومي اهتم المخططون بدور العوامل الاجتماعية في عملية التنمية ، مثل الاعتراف بدور القيم أو النظام الإداري في تعويق عملية التنمية أو الإسراع بها . وقد أشار العديد من برامج التخطيط في البلدان النامية إلى هذه الحقيقة . وكانت نتيجة هذه الحركة أن أصبحت التنمية الاقتصادية جزءا من كل ، وازداد الإدراك بأن تنمية الاقتصاد لايمكن فصلها عن تنمية المجتمع ككل وإطلاق قواه الكامنة .

إنها عملية شاملة ، متعددة الأبعاد والجوانب ، بمعنى أنها تشمل المجتمع بأسره ، بكل ما يتضمنه من أنماط سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية . فمن المسلم به لدى أغلب الباحثين أن المجتمع يمثل وحدة عضوية كلية مترابطة ، يتأثر كل جزء منها بالتغيير الذي يطرأ على باقي الأجزاء .

ما التنمية ؟

قضية التنمية إذن هي قضية تغير حضاري شامل ، يتناول كل أبنية المجتمع وأدواره ، ويشمل الجوانب المادية والإنسانية فيه . يترتب على ذلك أن أي نظرية في التنمية الاقتصادية أو السياسية مثلا لابد أن تنبثق عنها ، وترتبط بنظرية عامة في تطور المجتمع ، وأن تأخذ في اعتبارها جوانب المجتمع المختلفة التي تتعرض لعملية التنمية ، لذلك لابد من الأخذ بمنهج ينظر إلى الظاهرة التنموية في تكاملها ويسمح بالنظرة الشاملة للبناء الاجتماعي ككل .

وهكذا نخلص إلى أن التنمية ليست مجرد زيادة مستوى الدخل ، ولا مجرد تحقيق أهداف اقتصادية ، وليست مجرد استعارة الأنماط التقنية المتقدمة من الدول المتقدمة ، فالتنمية كقضية حضارية جوهرها تحقق الغايات الجماعية للأفراد في إطار المجتمع ، والسياسة التنموية هي تلك التي تسمح للأفراد وتنظيماتهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بمواجهة العقبات التي تحول دون ذلك ، وتمكنهم من إطلاق قواهم الكامنة ، لتحقيق هذه الأهداف ، بحيث يملك المجتمع قواه الدافعة من داخله ، ويصبح قادرا على تحقيق استقراره وتوازنه على طريق الغايات الجماعية للمجتمع . □

من حِكم عمر

× العاجز من عجز عن سياسة نفسه .
× العاقل من اعتبر يومه بأمسه .
× ربما بات المرء مسرورا ضاحكا ، والموت على باب داره واقفا .



احتضار البحار!

بقلم : الدكتور سمير رضوان

بحار الأرض ومحيطاتها مريضة . والأحياء البحرية يغتالها التلوث . لذلك فحياة الانسان الذي يعتمد في جزء من غذائه على هذه الأحياء أصبحت مهددة . ويرفع التلوث من حرارة الجو فتتمدد المياه في البحار ويرتفع منسوبها باستمرار . وقد تفضي هذه التغيرات البيئية يوما إلى طوفان يغمر اليابسة ويغرقها .

تلوثت بحار الأرض ومحيطاتها بما ألقى فيها الانسان من مخلفات صناعية وزراعية . وقد أصبح الكثير منها في حالة احتضار الآن . ومن ناحية أخرى يزداد متوسط حرارة الغلاف الجوي باطراد ، وذلك بسبب ما تنفثه الصناعة والسيارات من غاز ثاني اكسيد الكربون . ويفضي ذلك إلى تمدد حجم المياه مما يرفع من منسوبها فتغمر الشواطىء مع الزمن . ولقد بدأ الانسان المعاصر يشعر بوطأة هذه التغيرات البيئية العميقة ، ولكنه على الإجمال مازال لاهيا عن أخطارها المستقبلية ، ومازالت صرخات المختصين التحذيرية يطغى عليها

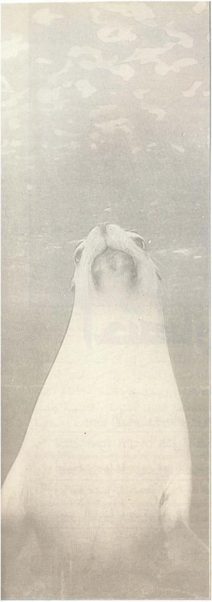
صخب الجشع الاستهلاكي الذي احتوى البشرية في العقود الأخيرة ، والذي زينته الدول الصناعية للإنسان في كل مكان .

تلوث البيئة البحرية :

نشأت الحياة الأولى منذ ٣ آلاف مليون سنة في أعماق المحيطات على هيئة خلايا مفردة بدائية . فقد كانت الحرارة على اليابسة حينئذ أعلى من أن تتحملها الأحياء . كما لم يكن غلاف الأوزون الذي يحمي الحياة من الأشعة فوق البنفسجية القاتلة قد نشأ بعد ، ومن ثم فلابد أن أوائل الأحياء قد نشأت في أعماق المحيط حيث لا تنفذ إليها هذه الإشعاعات القصيرة الموجة .

وتحتل المحيطات والبحار من مساحة الأرض أكثر مما تحتله اليابسة . والبيئة البحرية بيئة مميزة تعيش فيها حيوانات ونباتات وميكروبات خاصة في اتزان عددي دقيق ، حيث يعتمد بعضها على البعض الآخر . والطحالب الدقيقة والضخمة هي نباتات البيئة البحرية التي تصنع المواد العضوية من ثاني اكسيد الكربون فتوفر بذلك لجميع الأحياء الأخرى من حيوانات وميكروبات غذاءها ، وتمثل الأسماك والحيتان وغيرها من الحيوانات كالفقمة أرقى الحيوانات في البحر . كما توجد أعداد غفيرة من الحيوانات وحيدة الخلية ومن البكتيريا . والميزان العددي القائم بين هذه الأحياء مستقر منذ أحقاب طويلة لا يختل إلا في حدود ضيقة ، وهو في الواقع محكوم بالظروف البيئية السوية . فاذا اختلت هذه الظروف اختل التوازن ونشأت الكوارث . هذا هو في الواقع ما طرأ على البيئة البحرية في الزمن الحديث بسبب التلوث .

وها نحن نسمع كل يوم عن نفوق حيوانات بحرية راقية بأعداد تدعو إلى القلق . والحيوانات الراقية - كما هو معروف - تقع في ختام سلسلة الغذاء . وقد سمم التلوث هذه



● الفقمة - حيوان بحري وديع قتل التلوث منه الآلاف في بحر الشمال حتى أصبح مهددا بالانقراض .

السلسلة بكاملها ، وتتركز الآثار السامة في آخر السلسلة. ولسنا بحاجة إلى أن ننبه إلى الخطر الذي اصبح بذلك يهدد حياة البشر الذين يعتمدون على حيوانات البحر في جانب من غذائهم . ويتسبب النشاط الصناعي والزراعي في معظم التلوث الذى يحدث بأسلوب غير مباشر كما يقع بأسلوب مباشر . أما التلوث غير المباشر فيتعلق معظمه بما تحمله الأنهار التي تصب في البحار من ملوثات . وتشمل هذه نفايات المصانع القائمة على شواطىء الأنهار وهي غاية في الكثرة والتنوع ، فلكل صناعة نفايات خاصة بها . ومن أمثلة هذه النفايات حمض الكبريتيك المخفف الذي تتخلص منه مصانع الأصباغ ومواد الدهان . وتدل الاحصائيات على أن أنهار المانيا الغربية وحدها تستقبل كل يوم نحو ١٢٠٠ طن من هذا الحمض كنفاية صناعية . وتؤدي زيادة الحموضة في البحر إلى الإخلال بالميزان العددي السائد بين الأحياء البحرية . والأدهى من ذلك هو أن هذا الحمض غالبا ما يحتوي على كميات كبيرة من المعادن الثقيلة الذائبة فيه كالزئبق والكدميوم والرصاص وغيرها ، وكلها ضارة بالحياة .

تموت مختنقة

كذلك تستقبل البحار مع مياه الأنهار نفايات غنية بالهيدروكربونات ومشتقاتها الكلورية والفلورية . وهذه المواد تأتي من المصانع التي تنتج مضادات الأعشاب والحشرات ومن الأراضي الزراعية التي تُرش فيها المواد فتغسلها الأمطار ومياه الري وتحملها إلى الأنهار . ولقد أصبح معروفا أن هذه النفايات أيضا ضارة بالحياة وتفضي إلى أمراض الحساسية والسرطان ، أما مياه التبريد التي تستخدمها المفاعلات النووية فتتلوث بمقادير ضئيلة من الاشعاع يتركز مع الزمن في البحار . أضف إلى ذلك أن الأنهار تحمل إلى البحار مخلفات المجاري وكميات من الأسمدة الزراعية الذائبة ، وتحتوي المجاري على كميات كبيرة من أملاح الفوسفات الناتجة من مساحيق الغسيل ، كما تحتوي هي والأسمدة الزراعية على املاح النترات . هذه المواد بالذات تؤدي إلى زيادة طفرية في معدل تكاثر الطحالب مما يخل بالموازين العددية بين الأحياء . وما أن تموت هذه الطحالب حتى تترسب في القاع حيث تحللها البكتيريا فتتكاثر بسرعة مذهلة وتستهلك أثناء ذلك معظم الأوكسجين الذائب في الماء فتموت الأسماك والحيوانات الراقية مختنقة .

أما التلوث المباشر فيتعلق بالتخلص من النفايات مباشرة في البحار . وقد كان الاعتقاد سائدا في الدول الصناعية أن ميكروبات البحار كفيلة بتحليل كل ما يلقى في الماء من نفايات . لذلك فقد ألقيت كميات وأنواع من الكيماويات - لا يعلمها إلا الله - في أجواف المحيطات . ولكن البحوث أثبتت أن معدل تحلل مثل هذه النفايات في جوف المحيط بطيء أو معدوم ، نتيجة للظروف البيئية الصعبة هناك . فمتوسط درجة الحرارة يقترب من الدرجة الواحدة المئوية فقط وعندها توشك انشطة الميكروبات أن تتوقف . أضف إلى ذلك أن الأحياء في الأعماق السحيقة لا يتحمل أغلبها الضغط المرتفع الناشيء عن عمود الماء فوقها فالنفايات اذن محفوظة في ثلاجات طبيعية بمعزل عن معظم الميكروبات مما يحفظها من التحلل ، فهي بذلك اخطار تتربص بالأجيال القادمة . وتحرم قوانين بعض الدول الصناعية على المصانع القائمة على الأنهار أن تتخلص من النفايات في مياهها ، فأصبحت هذه المصانع تشحن النفايات في سفن وتنقلها لتلقى بها في عُرض البحر . هكذا يتم التخلص مثلا من النفايات المحتوية على حمض الكبريتيك المخفف ، ومن المخلفات الصلبة الناتجة عن معالجة المجاري في

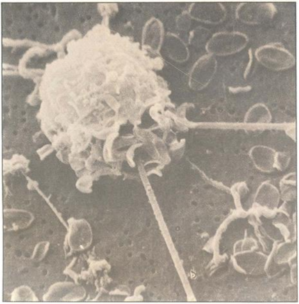
كثير من الدول الأوربية ، بل كثيرا ما تحرق النفايات شديدة السمية على السفن في عرض البحر ، وذلك بعد أن حرم حرقها على اليابسة . وهناك منظمات لمقاومة هذه الأنشطة غير المشروعة مثل حركة السلام الأخضر في أوربا ، أما الدول المطلة على البحار فكثيرا ما تتخلص مصانعها من نفايات مباشرة في البحر كما يحدث في الدانمارك مثلا . وقد يتلوث البحر نتيجة لكوارث طبيعية مثال ذلك ما حدث في الصيف الماضي في بحر الشمال من انفجار منصة «بايبر ألفا» للتنقيب عن النفط ، وانسياب ملايين الأطنان من النفط الخام على مدى ثلاثة اسابيع قبل التمكن من السيطرة على الحريق . ونشير هنا إلى أن بحر الشمال أصبح اليوم يحتوي على ما يزيد عن ١٤٠ منصة من هذا النوع لا يندر أن تتعرض لكوارث مشابهة . وقد حسب العلماء أن هذا البحر يستقبل سنويا ما يربو عن ١,٦ «مليون طن» من النفايات المختلفة مما جعله في عداد البحار المحتضرة ، بل مات الكثير من أجزائه .

احتضار البحار ظاهرة عالمية

وحتى لا يترسخ الانطباع لدى القارىء بأن بحر الشمال - الذى أشرنا إليه كمجرد مثال - هو البحر الوحيد الذي يحتضر ، يحسن أن نشير إلى أمثلة أخرى غيره . يصف المختصون البحر الابيض المتوسط بأنه «بالوعة مجاري» ، بما تصبه المدن الكبرى من مخلفات مثل مرسيليا وبرشلونة وجنوة والاسكندرية وبيروت . وتدل الدراسات على أن هذا البحر قد مات - أي ماتت أحياؤه - عند شواطىء برشلونة . كما يرى المسافر بالطائرة رأى العين مخلفات المجاري بلونها الرمادي الكئيب ممتدة في زرقة البحر حول مرسيليا لمئات الأمتار . وتدل دراسات أخرى على أن مائة ألف كيلومتر مربع على الأقل من بحر البلطيق ميتة ، وتحللت حيواناتها وتعفنت ، وانبعثت منها الروائح الكريهة . وإذا قفزنا إلى شواطىء القارة الاسيوية في الشرق أو إلى شواطىء العالم الجديد في الغرب وجدنا أن الصورة أقبح وأدعى - إلى الهلع والخوف . لقد تحدث العالم في الصيف الماضي عن فضيحة نفايات المستشفيات في نيويورك ومدن ساحلية مختلفة في ولاية كاليفورنيا ، حيث اكتظت مزابل أمريكا بالنفايات وأصبحت تستقبل فوق ما تتحمله طاقتها بمراحل . وكان من نتيجة ذلك أن سعى المسئولون إلى التخلص من حوالى ١٠ ملايين طن من نفايات المستشفيات في المحيط . واكتشفت هذه الفضيحة بعد أن حملت الأمواج بعض هذه النفايات إلى الشاطىء الذي تلوث بالدماء والحقن البلاستيكية والأدوية التي انتهت فترة صلاحيتها واكتظ بالأسماك النافقة .

الفيروسات والطحالب القاتلة

توضح المشاهدات اليومية كما تثبت نتائج البحوث البيئية أن الملوثات تفتك بالأحياء البحرية . وقد استطاع الباحثون تتبع بعض آثارها ووصفوها بدقة ، لكن معظمها مازال تحت الدراسة . ومن الحقائق التى عرفت أن النفايات تنهك أجهزة المناعة لدى الحيوانات البحرية وتضعفها ، مما يجعل هذه الأحياء غير قادرة على الدفاع عن نفسها ، إذا ما تعرضت لأوهى الغزوات من الميكروبات المعدية . فالملوثات مواد غريبة تصل إلى دماء الحيوانات إما مباشرة أو خلال ما تأكله هذه الحيوانات من مخلفات أو أحياء أخرى ملوثة ، فتشغل خطوط الدفاع الطبيعية في أجسام الحيوانات بهذا الخطر الذى يتكثف ويزداد يوما بعد يوم ، وربما سمع القارىء بموت الألوف من حيوانات الفقمة الوديعة على شواطىء بحر الشمال في الصيف



● صورة « بالميكروسكوب الالكتروني » لطحلب اسمه العلمي كريزوكروميولينا بوليليبس تسبب التلوث في تكاثره بالملايين وهو طحلب سام يقتل الأسماك التي تتغذى عليه في البحار .

الماضي ، وكانت تبدو على الحيوانات النافقة أعراض متشابهة ، فقد كان الحيوان يصاب بالتهاب رئوي حاد كما كان جهازه التنفسي يغزوه فيروس معين ـ عُزل ودُرس . ولولا ضعف أجهزة المناعة في الفقمة لما تسبب هذا الفيروس في نفوقها بحال . من ناحية أخرى دللت الدراسات البيئية على أن التلوث يفضي إلى خلل في الموازين السائدة بين الأحياء ، كما ذكرنا ، ومن نتائج هذا الخلل أن سادت في بعض المناطق البحرية أنواع وأجناس من الطحالب ، لم تكن موجودة من قبل إلا بأعداد قليلة . لكنها أصبحت اليوم تنفجر في نموها في مواسم معينة ـ في الربيع وبداية الصيف على وجه الخصوص ـ وعندما تموت هذه الكميات الهائلة من الطحالب تخلف في المياه بروتينات ومواد سكرية ترجُّها الأمواج بعنف فتنشأ كميات هائلة من الزبد (الرغوة) قد تغطي شواطىء بكاملها ، فتثير مخاوف المصطافين . غير أن أخطر مافي هذا الأمر هو أن خلل الميزان العددي بين الأحياء كثيرا ما يسمح بتكاثر أنواع نادرة من الطحالب السامة وهي عادة ـ محمره اللون أو بنية . والمعروف أن الأسماك تتغذى على الطحالب ، وأن الحيوانات الأضخم في البحر تتغذى على الأسماك . ويفضي التلوث كما ذكرنا إلى زيادة غير عادية في بعض الطحالب السامة التى تتسبب في تسمم الأحياء الأخرى ونفوقها . وأثبتت الدراسات أن هذه الطحالب السامة تزدهر يوما بعد يوم بفعل التلوث حتى أصبحت في العقود الأخيرة شائعة في بحار العالم بعد أن كانت نادرة أو معدومة تماما . ولقد غزت هذه الطحالب في السنوات الأخيرة الشواطىء الشرقية لأمريكا الشمالية فقتلت الأسماك



● قتل التلوث الأسماك ، فأحاطت بها النفايات من كل جانب .

والحيتان التي أكلت تلك الأسماك وأوشكت الحيتان أن تنقرض تماما في هذه الشواطىء . وأصبحت الطحالب السامة اليوم خطرا مرعبا يتهدد مزارع الأسماك على شواطىء العالم . ولدولة النرويج كمثال أكثر من ٣٠٠ مزرعة أسماك ضخمة إذا هلكت أسماكها كانت هذه كارثة اقتصادية لا تحتمل . وفي الصيف الماضي رصد الباحثون هذه الطحالب بالقرب من الشواطىء اليوغسلافية والايطالية من البحر الادرياتيكي . فهرب المصطافون خوفا ، فضربت الطحالب بذلك الموسم السياحي في هذين البلدين .

البحر يبتلع اليابسة

قد يتبادر إلى فهم القارىء أن التلوث جعل من البحر وحشا كاسرا يلتهم حتى الشواطىء . والواقع هو عكس ذلك . إذ أن التلوث أوهن البحر وأنهكه ، وظاهرة غمر اليابسة بمياه البحار سببها التلوث أيضا ، ولكن ليس تلوث البحر ، إنما تلوث الغلاف الجوى الذى ترتفع حرارته باطراد فتتمدد مياه البحر بفعل هذه الحرارة ، وترتفع مستوياته إلى حدود تغمر معها الشواطىء والجزر . وارتفاع متوسط حرارة الجو باستمرار - سببه كما وجد الباحثون - هو ارتفاع تركيز ثاني اكسيد الكربون في الجو من جراء حرق الوقود في المصانع والسيارات . ولكننى أود أن أذكر هنا ازدياد تركيز ثاني اكسيد الكربون في الغلاف الجوي الذي يحول دون تشتت الأشعة تحت الحمراء التى ترفع من حرارة الأرض في الفضاء الخارجي . وتدل الحسابات على أن الكرة الأرضية اصبحت تطلق ٢٠ مليار طن من غاز ثاني اكسيد الكربون في الجو سنويا . ويتوقع العلماء أن ترتفع حرارة الجو بمقدار يتراوح بين ٣ - ٥ درجات مئوية خلال السنوات الخمسين القادمة . ذلك مالم يعمل الإنسان على تقليل اطلاق ثاني اكسيد الكربون في الجو . وتدل الحسابات على أن مستوى سطح البحر قد ارتفع منذ بداية القرن الحالي ٢٠ سم بسبب تمدد الماء . كذلك تدل الحسابات على أن كل سنتيمتر واحد زيادة في ارتفاع مستوى الماء في البحر يؤدي إلى إغراق متر كامل من شواطىء الجزر والقارات . وغرق الجزر أصبح مشكلة خطيرة في بعض مناطق العالم . وعلى سبيل المثال، تبذل ألمانيا الغربية المجهودات والأموال في سبيل المحافظة على جزرها السياحية في بحر الشمال من الغرق . على أن أخطر ما في الأمر هو الخوف من كارثة حقيقية لا تُبقي ولا تذر إذا ظل ارتفاع الحرارة الجوية يجري بهذا المعدل ، فالخوف كل الخوف أن يصل الجو إلى درجة من الدفء تذوب معها الثلوج في القطبين بعد أن كانت دائمة التجمد . عندئذ سوف يأتي الطوفان الحقيقي .

إنها مفارقة عجيبة حقا . لقد نشأت الحياة في البحار ، فهل تراها تنتهي فيها ؟ □

الجديد في العلم والطب

إعداد : يوسف زعبلاوي

البوتاسيوم وارتفاع ضغط الدم

نشرت مجلة نيوانجلند الطبية في أوائل شهر مايو ١٩٨٩ بحثاً عن البوتاسيوم ، وفاعليته ، في الحد من ارتفاع ضغط الدم ، ذلك أن هذا الملح المعدني يساعد الجسم على إفراز الملح (ملح الطعام نفسه) ، وبالتالي على الحيلولة دون ارتفاع ضغط الدم . من هنا أكد البحث على المقولة بأن الإقلال من تناول البوتاسيوم يؤدي إلى ارتفاع ضغط الدم .

من هنا كان التشجيع على تناول الفاكهة والخضراوات ، نظراً لغناها بالبوتاسيوم . ويذكر البحث أن الموز والفراولة والبطاطس والبرتقال وعصير « جريب فروت » تأتي في الطليعة من حيث مقدار ما تحتويه من البوتاسيوم .

□□□

ايدو (٣) يشفي الجروح في ٢٤ ساعة

ابتكر العلماء السوفييت جهازا جديدا ، يسمى « ايدو ٣ » الذي ينتج مادة خاصة مؤكسدة ذات خصائص علاجية فريدة ، تلتئم بواسطتها الجروح أو البثور التي تظهر على الجلد خلال ٢٤ ساعة .

كما تمكن العلماء خلال يوم واحد من شفاء التهاب اللوزتين الحاد ، وكان هذا في حالة عجزت فيها المضادات الحيوية نفسها عن إزالة الالتهاب . والمادة الجديدة توقف تنامي الأورام الخبيثة ، وتحفز وظيفة الأكسدة في الكبد في جسم الإنسان .

وقال أحد صانعي الجهاز : إن في جسم الإنسان ثلاثة أنظمة لتعطيل فعل المواد الغريبة المسممة للجسم ، وهي نظام المناعة ونظاما الإفراز والأكسدة في الكبد فالمؤكسدات الاصطناعية للنظامين الأوَّلَيْن ابتكرت منذ زمن بعيد . أما الآن فأنشأنا مؤكسداً يفعل ما تفعله الكبد نفسها في هذا المجال .

طريقة العلاج الجديد تتم بإزالة السموم من الجسم عبر استخدام جهاز « ايدو ٣ » ، ويتكون الجهاز من خلية كهربائية كيميائية ومن وحدة الكترونية ، وبواسطته نحصل خلال عملية تفاعل من محلول ملح الطعام العادي على مستحضر ، إذا ما أدخل في الدم يؤكسد المواد السامة في الجسم ويجعلها غير ضارة .

□□□

زراعة الأعضاء والبدائل

جراحة زراعة الأعضاء كالقلب والكلى وقرنية العين والكبد جراحة حديثة نسبيا ، إذ لم يمض على عملية زرع القلب الأولى التي أجراها جراح جنوب أفريقيا ، الدكتور برنارد ، سوى عشرين عاما أو أكثر قليلا ، لكنها جراحة ناشطة ، وقد أحرزت من التقدم في المدة الأخيرة ما لم يكن في الحسبان ، إلا أنها جديرة بتحقيق المزيد من التقدم ، لا لأنه قريب المنال فحسب ، ولكن لأنه كفيل بإنقاذ الملايين الذين يموتون يوميا ، لقلة ما يتوافر من الأعضاء الموهوبة بالمقارنة مع الأعضاء المطلوبة .

ويتجلى التقدم الذي أحرزته هذه الجراحة أكثر في عدد ما أجرته من عمليات ابتداء من مطلع الثمانينيات ، وفي نسبة ما حققته من نجاح ، ففي سنة ١٩٨١ بلغ عدد القلوب المزروعة ٦٢ قلبا ، وقفز العدد فتضاعف ٢٢ ضعفا في سنة ١٩٨٧ ، وقل مثل ذلك في زراعة الكلى ، وقد بلغ ما زرع منها عام ١٩٨١ ٤,٩٠٠ كلية ، ثم بلغ ٩٠٠٠ كلية سنة ١٩٨٧ . أما عمليات زرع قرنية العين فقد تضاعفت آلافا في الثمانينيات ، حتى وصلت إلى (٣٥٠٠٠) قرنية مزروعة سنة ١٩٨٧ . وما كان هذا التقدم في الكم ليكون ذا قيمة كبيرة لو لم يقترن بتقدم في الكيف ، في النجاح الذي أحرزته تلك العمليات . وقد بلغت نسبة النجاح ٩٥٪ في عمليات القرنية والكلى ، و٨٢٪ في عمليات زرع القلوب ، ويصدق هذا كثيراً أو قليلاً على عمليات زرع الكبد ، (والحديث هنا مقتصر على ما يجري في الولايات المتحدة فحسب ، إذ لا تتوافر الإحصاءات المطلوبة في أي بلد آخر بقدر ما تتوافر في الولايات المتحدة) .

أجريت عملية زرع الكبد الأولى قبل نحو ٢٥ عاما ، وتمكن أربعة أجريت لهم عملية زرع الكبد عقب تلك العملية الرائدة من مغادرة غرفة العمليات معافين ، لكنهم لم يتمكنوا من مغادرة المستشفى وهم أحياء . ومضى الجراحون يحرزون المزيد من النجاح حتى وصلوا إلى نسبة نجاح مقدارها ٦٦٪ ، لكن حياة من أجريت لهم العمليات لم تمتد إلا سنة أو أكثر قليلا . وقفز عدد عمليات زرع الكبد في الولايات المتحدة من ٢٦ عملية سنة ١٩٨١ إلى ١٢٠٠ عملية في سنة ١٩٨٧ ، مسجلة بذلك زيادة كبيرة جدا ، بلغت نحو ٥٠ ضعفا .

وتجدر الإشارة هنا إلى المشاكل الأخرى التي تعاني منها جراحة زراعة الأعضاء بصورة عامة ، كمشكلة التأخير أو الوقت الذي يمضي على الأعضاء المراد زرعها ، فهذه الأعضاء لا تنتظر ، ولا سبيل إلى زرع الكلى بعد مضي ٤٨ ساعة على انتزاعها . أما الكبد فلا فائدة ترجى منها بعد مضي ١٠ ساعات ، وتقصر هذه المدة في حالة زرع القلوب ، حتى تبلغ (٣ - ٥) ساعات فقط .



وهناك مشكلة التبرع بالأعضاء ، ولعلها هي المشكلة الكبرى التي تعترض سبيل جراحة زراعة الأعضاء ، فالطلب كثير كثير ، والعرض قليل



قليل ، هذا على الرغم من أن المتبرع لا يخسر شيئا ، إذ أن تبرعه لا يوضع موضع التنفيذ إلا بعد موته ، ولو ذكرنا الآلاف الذين يموتون بسبب حاجتهم إلى كلى سليمة ، تحل محل كلاهم التالفة ، وذكرنا الملايين من الكلى السليمة التي توارى التراب مع أصحابها الموتى لتفنى مع جثثهم الفانية ، لعجبنا لإحجام الكثيرين عن التبرع بأعضائهم بعد موتهم .

ونذكر أيضا الأجسام المضادة التي نجحوا في هندستها « بيولوجيا » وتصنيعها ، لكي تهاجم الخلايا التي تسبب رفض الجسم للأعضاء المزروعة ، وقد جربوا هذه الخلايا المخلقة على حيوانات المختبر ، فعاشت سنتين عقب تلقيها الأعضاء المزروعة ، دون أن ترفض أجسامها تلك الأعضاء ، دون أدوية مانعة لمقاومة أجسامها للأعضاء المزروعة .

ونذكر كذلك النجاح الذي حقق بالاكتفاء بزرع خلايا متنوعة من الأعضاء ، بدلا من زرع تلك الأعضاء بكاملها ، كزرع بعض خلايا البنكرياس ، وبالتحديد تلك الخلايا التي تفرز الأنسولين ، عوضا عن زرع البنكرياس بكامله ، على أن هذا الأسلوب الذي ما زال قيد التجارب ، ليبشر مرضى السكري بقرب الفرج ، حين سيصبح في إمكانهم التخلص نهائيا من هذا المرض بعملية أو حقنة بسيطة ، يتلقون بها مستحضر الخلايا المطلوبة ، فلا تكاد تمضي ساعة بل دقائق يحصلون فيها على تلك الخلايا حتى يشفوا من مرض السكري الذي كان وما زال مستعصيا .

ونأتي أخيرا إلى ذكر المؤتمر الدولي الثاني عشر الذي عقدته جمعية زراعة الأعضاء في سيدني في استراليا ، في شهر أغسطس عام ١٩٨٨ م ، فقد تركزت الأبحاث في المؤتمر المذكور على زراعة (الأعضاء الحيوانية) في جسم الانسان ، وقد أكد أحد كبار العلماء (ريمتسما) أن الحل الوحيد لإنقاذ الملايين من موت محقق إنما هو بالاعتماد على زراعة أعضاء الحيوان في جسم الإنسان ، فأعضاء الإنسان المتاحة للزرع قليلة جداً ، والناس لا يقبلون على التبرع بها ، وإن هم أقبلوا كانت العقبة في تلف تلك الأعضاء ما لم توزع في غضون ساعات من انتزاعها ، (٤٨ ساعة للكلى) و (٣ - ٥ ساعات للقلوب) و (١٠ ساعات للكبد) .

وحسبنا الرجوع إلى بعض الأرقام لندرك مدى خطورة مشكلة العرض والطلب ، في ما يتصل بزراعة الأعضاء البشرية ، فالأعضاء المطلوبة تبلغ في السنة الواحدة ١٣٠٠٠ كلية ، و ٩٠٠ قلب ، و ٥٠٠ كبد ، و ٢٠٠ بنكرياس ، و ٢٠٠ رئة . ولا يزيد عدد الموتى المتبرعين بأعضائهم عن ٥٠٠٠ نسمة في السنة الواحدة . ولهذا دعا العالم السالف الذكر إلى تعميم الاعتماد على زراعة أعضاء الحيوان في جسم الإنسان ، وأعضاء الخنازير على وجه التحديد لأنها مقبولة في جسم الإنسان أكثر من أعضاء سائر الحيوان ، بما في ذلك القرود . وقد لقيت دعوته تأييدا شاملا في الأوساط الطبية في العالم كله ، ولا يقف في طريقها إلا جمعيات الرفق بالحيوان . □

سلامة البشرية في سلامة البيئة

تكنولوجيا استزراع النباتات

افتتح في مدينة ديزني بولاية فلوريدا الامريكية في اكتوبر الماضي معرض ، أطلق عليه اسم « الأرض » ، ويعد المعرض الذي يمثل أحد أجنحة مركز العلوم في المدينة معملا للتقنية الحيوية .

وقد لا تضاهي معروضات هذا الجناح غيرها من حيث الدقة والإبهار والاحترافات الخيالية ، إلا أنه من المنظور في المستقبل أن تشكل أهمية كبرى للبشرية .

ويستمتع زوار المعرض الجديد بمشاهدة النباتات التي تمكن العلماء من استنباتها من خلية واحدة ، باستخدام قانون الهندسة الوراثية .

وقد أصبح معروفا علميا في الوقت الحاضر أنه كل يوم يصبح خمسة أنواع من النباتات أو ستة في عداد الأنواع النادرة ، وذلك بسبب الأمطار الاستوائية التي تدمر خمسين هكتاراً من الغابات في كل دقيقة ، وهذا يعني أنه خلال خمسة عشر عاما مقبلة ، سوف يتم القضاء على نصف النباتات والفصائل النادرة في العالم .

وباستخدام هذه الطريقة يمكن المحافظة على الأنواع النادرة من النباتات .

ويقول مدير الأبحاث الخاصة بالمعرض : إن استخدام هذه الطريقة للحصول على نباتات معينة سوف ينتشر بمرور الأيام ، ويزداد الإقبال عليه ، خاصة أن هذه الطريقة جربت بنجاح على بعض أنواع الخضراوات والفواكه والنباتات الغذائية عموما ، مثل الفراولة والأناناس والفول السوداني .

ويذكر أن استخدام التقنية الحيوية يمكنه المساهمة في مجالات أخرى من مجالات الحياة اليومية ، مثل تجبين اللبن في أقل من الوقت الذي ينتج فيه الجبن في الوقت الراهن .

□□□

وباء آخر غير الأيدز

حذر العلماء وخبراء الأمراض المعدية ، في المؤتمر الذي عقدوه في مطلع شهر مايو ١٩٨٩ ، في العاصمة الامريكية واشنطن من وباء جديد ، سيظهر في مستقبل غير بعيد ، ولا يقل خطورة عن مرض الايدز نفسه ، وقد يكون هذا الوباء المنتظر من الامراض القديمة التي اقتصر انتشارها على مناطق أو جماعات محدودة حتى الآن .

ذلك أن فيروس حمى الضنك (dengue) قد بدأ يهدد أمريكا علنا ،

كما يقول الدكتور ستيفن مرر ، البروفسور في جامعة روكفلر ، فالحمى المذكورة قد انتشرت في بلدان البحر الكاريبي عندما انتشر فيروسها بواسطة البعوض ، ووصلت هذه الحمى إلى تكساس (مدينة هيوستون) قبل نحو سنتين ، وانتشرت في ١٧ ولاية .

□□□

كوارث زراعية بسبب الأوزون

تؤكد الدراسة التي أجرتها وكالة البيئة الامريكية أن الأوزون ، من حيث هو غاز ملوث ، قد ضرب المواسم الزراعية ، وأدى إلى إتلاف ما بلغت قيمته بين الفين وخمسمائة مليون دولار وبين ثلاثة آلاف مليون دولار سنوياً في المدة الأخيرة ، وفي هذا ضرر بالغ ، فهو يعادل أضعاف الضرر الذي يسببه نقص غاز الأوزون . وقد بلغ تقدير الضرر بنسبة ١٢٪ ، ومما يذكر أن الدراسة الأخيرة ـ استكملت في أواخر السنة الماضية ١٩٨٨ ـ تضمنت أبحاثا ميدانية على حقول القمح في نيويورك ، وهي حقول تجارب خاصة قائمة قرب « إثاكا » ، فتبين أن التلف الذي لحقها في صيف عام ١٩٨٨ قد بلغ نحو ٣٠٪ ، من هنا كانت القيود الشديدة التي وضعتها وكالة البيئة في الولايات المتحدة على مستويات التلوث بغاز الأوزون .

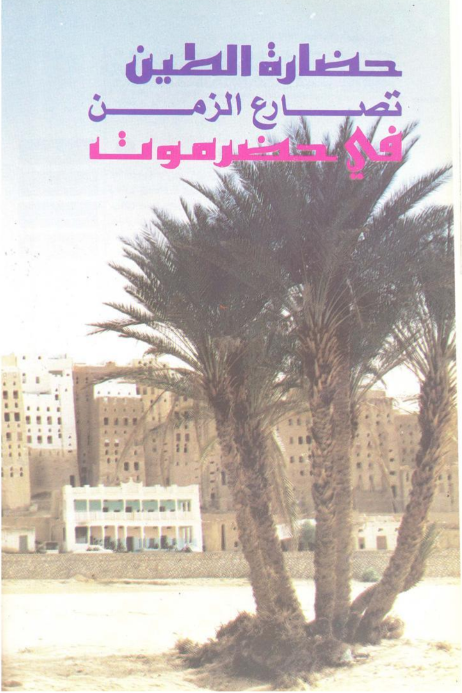
صدر تقرير عن إحدى مديريات الشرطة في بريطانيا دعا الضباط التابعين لهذه الدائرة وهي في منطقة (ميدلند) إلى القيام بواجبهم لحماية البيئة محليا وعلى نطاق عالمي أيضا ، ودعاهم إلى الإمتناع عن استعمال مستحضرات الايروزول التي تحتوي على الفلوروكربونات التي تسبب تلف الأوزون . وأعلن التقرير أن الاجراءات اتخذت لضمان نظافة البنزين الذي تستعمله سيارات الشرطة ، ولضمان خلوه من الرصاص ، فهو ملوث خطير سام ، وذلك قبل حلول سنة ١٩٩١ .

□□□

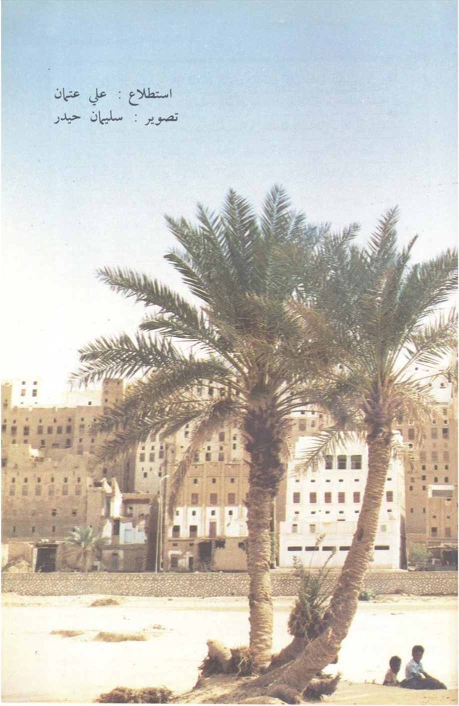
عودة سمك السالمون

كان يوم ١١ ابريل ١٩٨٩ يوم بهجة وفرح بالنسبة لأهل لندن ، فقد بدأ سمك « السالمون » يعود الى موطنه في نهر « التيمز » بعد تغيب طال أمده نحو قرنين . لا عجب إذن ، إن أقاموا احتفالا مهيبا في هذه المناسبة ، أقاموه في قاعة (وندسور جلدهول) ودعوا اليه دوق وندسور ليكون ضيف الشرف فيه ، كما دعوا اليه رجال الصناعة والتجارة العاملين في منطقة التيمز .

ومما يذكر أن نهر لندن كان غنيا بسمك السالمون قبل ٢٠٠ سنة ، ولكن التلوث الذي أصاب النهر كما أصاب أكثر الأنهار في العالم ، ما لبث أن فتك بالسمك ، فاختفى السمك من النهر تماما ، حتى سنة ١٩٧٤ حين ظهرت سمكة من سمك السالمون لأول مرة بعد مضي ١٤٠ عاماً . وأعقب ذلك ظهور المزيد من هذا السمك حتى اذا كانت السنة الماضية (١٩٨٨) أمكن تسجيل عودة ٣٢٢ من سمك السالمون العائد من البحر ، وهو سمك كبير ويسمى جرلز (Grilse) .


حضارة الطين
تصارع الزمن
في حضرموت

استطلاع : علي عثمان
تصوير : سليمان حيدر



على الرغم من أن لقاءنا الأول بالمكان كان مثيرا للضيق ، أمطار ورياح متربة ، وحرارة مرتفعة ، مصحوبة برطوبة عالية ، جعلتنا نسبح في العرق المتدفق من مسام جلودنا ـ خاصة في منطقة الساحل ـ إلا أن ابتسامة المواطنين الأسرة ، وكلماتهم الودودة البسيطة كحياتهم ، وواقعهم ، قد دفعتنا للتكيف السريع مع الجو المحيط . وسرعان ما استغرقنا غنى المكان والإنسان ، بالحيوية والخصوبة ، والإبداع . وتحت شمس حزيران (يونيو) اللاهبة انطلقوا بنا في سراديب وحارات قلوبهم ، ومدنهم ، وقراهم ، يكشفون لنا بصراحة مدهشة تفاصيل حياتهم ، وطموحاتهم الممزوجة بلمحات من تاريخ واديهم الطويل بحضارة الطين المنتصبة شواهدها في ربوعه .

وفي كل مكان ذهبنا إليه ذكرنا أهله باستطلاعات « العربي » لمدن واديهم : المكلا وشبام وسيئون وتريم التي نشرت على صفحاتها منذ ربع قرن من الزمان .

قبل أن نصل إلى مدخل مدينة « شبـام » ، أقـدم مـدن وادي حضرموت ، طلبنا من مرافقنا أن نترجل من السيارة حتى نلم بتفاصيل المعالم المحيطة بالمدينة ذات الشهرة العالمية ، بنمط عمارتها الفريد .

اعتلى زميلي المصور سطح إحدى البنايات في الضاحية الجديدة للمدينة ، تحت سفح الجبل المقابل لها ، وهي مجال الامتداد العمراني « لشبام » ، بعدما ضاقت هذه بأهلها . ورحنا نجول في المكان بأبصارنا ، رأينا بيوتا منهارة في الضاحية الجديدة بفعل الأمطار والسيول الناجمة عنها التي لم يعاصر مثلها أحد من أبناء المنطقة الأحياء ، كما قال لنا شيخ تجاوز عمره الثمانين ، وامتد البصر إلى عمق الوادي غربا ، فصدته رياح عنيفة مفاجئة ، وهي تتلاعب بذرات الطين الناعمة التي خلفتها مياه السيول على سطح مجرى الوادي الجاف ، والتي تصنع منها ستائر كثيفة حجبت أشعة الشمس التي كانت تبهر أضواؤها العيون .

وقبل أن تقترب منا الرياح المتربة ، كانت أنظارنا قد حطت على المدينة ، ولم تحد عنها . فقد شدنا تداخل اللون الأبيض الناصع الذي طليت به بنايات بكاملها ، وجميع أسطح البنايات بطوابقها العلوية ، مع اللون الطيني الذي يسود معظم اللوحة المعمارية المجسمة بالبيوت ، بتكوينها المتناغم كقطعة موسيقية متكاملة الإيقاع والنغمات .

وعبرت استفساراتنا المتتابعة عن دهشتنا



موقع المحافظة الخامسة (حضرموت) في اليمن الجنوبي

لوجود هذا الفن المعماري الرفيع الذوق ، في هذا المكان بظروفه المناخية والمعيشية الصعبة .

والتقط مرافقنا دهشتنا بالذكاء اليمني المعروف حين قال : « لا تعجبوا فهذا وجه من وجوه الملحمة التي يخوضها اليمني منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، إن صراعنا مع الزمن والطبيعة متعدد الأبعاد والاتجاهات ، ستتركم تكتشفون ذلك بملامستكم لواقعنا ، ثم نناقشكم فيها توصلتم إليه » .

وقبل ان ينهي حديثه ، لفتنا عاصفة ترابية ، فحجبت عنا المدينة ، وتعذر علينا استكمال تصويرها ، فقررنا التأجيل ليوم تال . وعند استعدادنا للعودة إلى مدينة « سيئون » جذب انتباه مرافقينا اليمنيين سحابة شديدة السواد ، قادمة من ناحية الشرق بسرعة ، فبدا الانزعاج على الوجوه ، وندّت عن أحدهم غمغمة مشحونة بالضيق ، فهمنا منها أنه يعني بأن هذه السحب هي سحب أمطار غزيرة . رد عليه آخر : « كفانا أمطارا ، وسيولا ، وخسائر ، فلقد حصلنا على كفايتنا لخمس سنوات كاملة قادمة » ، ثم استدرك : « عجيب أمر الطبيعة معنا ، إما جفاف يهلك الزرع والضرع

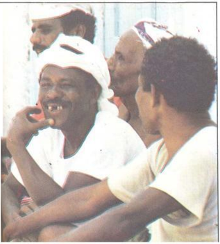
تقع محافظة حضرموت في المنطقة الشرقية ، ومساحتها الكلية ١٥٥٣٧٦ كيلومتراً مربعا . ويبلغ عدد سكانها ٦٨٥,٩٠٩ نسمة ، وفقا للتقديرات السكانية لعام ١٩٨٦ . يتوزعون إلى ٢٤٠,٢٣٤ حضريا ؛ ٣٥٥,٢٢٩ ريفياً ، ٩٠,٤٤٦ بدوياً . وعاصمتها الإدارية هي المكلا . كما تنقسم إلى ثماني مديريات ، هي : المكلا ، الشحر ، سيئون ، القطن ، دوعن ، العبر ، ثمود ، حجر .

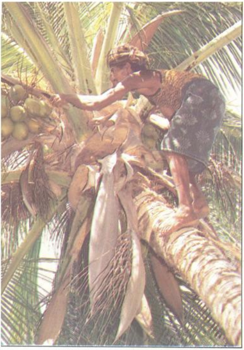
وبها مطاران يربطانها بعدن العاصمة ، وبعواصم المحافظات الأخرى ، وبالعالم ، وهما مطار الريان شرقي « المكلا » ، ومطار « الغرف » القريب من سيئون ، وفيها يقع أكبر أودية اليمن الصالحة للزراعة ، وهو غني بالنخيل والسكان .

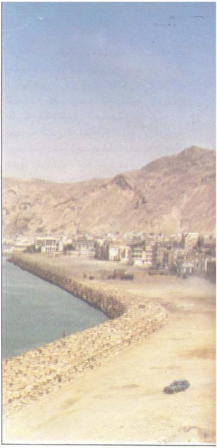


● مدينة المكلا ، وتبدو أحياؤها القديمة بنمطها المعماري المميز ، وألوانها الزاهية التي يسودها اللون الأبيض المتعانق بنعومة مع ألوان النوافذ المبهجة ، وارتفاعاتها المتدرجة من ساحل البحر إلى مدرجات الجبل .

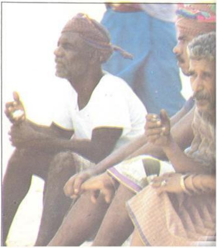
العليا يسار : فلاح يمني يجني ثمار شجرة (البابای) .
(تحت) : صيادون في لحظة راحة ، وآخر سعيد بصيده من سمك التونة الذي يمثل ٦٠٪ من جملة إنتاج الأسماك .











سنوات ، أو أمطار ننتظرها بلهفة ثم تأتي بكميات تفوق المعدلات الطبيعية ، وتحدث خسائر كبيرة » . في أثناء ذلك فاجأتنا الأمطار الغزيرة ، فعدونا تجاه السيارة نحتمي بها ، ثم غادرنا المكان الذي حط عليه الحذر والخوف من تكرار ما حدث في نهاية آذار (مارس) ، وأوائل نيسان (ابريل) الماضيين ، عندما استمر هطول الأمطار مدة ثماني عشرة ساعة متواصلة في بعض الأيام .

لم تكن أمطارا ، بل صنابير مفتوحة من السماء ، كما صورها لنا أحد المواطنين .

وقد لخصت هذه اللحظات المكثفة طبيعة الحياة في حضرموت بوجوهها المختلفة ، حيث يتفاعل التاريخ بحضوره الأسر ، مع الطموح الإنساني المشروع في حياة أفضل ، ودور ملائم ، المحكوم بمحدودية الموارد . ومن هنا بدأت رحلة « بعثة العربي » في المحافظة الخامسة « حضرموت » .

ملامح أولية

كان من الطبيعي ونحن في البداية أن نستجيب لإلحاح الذاكرة علينا باستحضارها لصور الحياة المختلفة منذ ربع قرن مضى ، كما جسدتها عيون « العربي » في استطلاعاتها للوادي في ذلك الحين . وعلى أي حال فالمقارنة ضرورية ، وموحية عند التعرف على الحاضر ، هكذا! بادرنا أحمد عوض باوزير ، الصحفي القديم ، مشرف قسم التراث والتحقيق بالمركز اليمني للأبحاث الثقافية ، فرع « المكلا » : « في ذلك الزمان ، كانت حضرموت موزعة بين سلطنتين - القعيطية والكثيرية - تفصل بينهما جمارك وبوابات ، ويحكم العلاقة بينهما قتال ، وصراعات واتفاقات ، يفصل فيها مستشار انجليزي . وكان لهذا الواقع انعكاساته السلبية على حياة الإنسان الحضرمي ، حيث لم يكن أمامه إلا أحد خيارين ، إما الهجرة أو قبول الحياة على مضض ، منها يدفع إلى التمرد والثورة » .

أما اليوم - كما تقول حقائق الواقع - فقد أصبحت حضرموت ، منذ اكتوبر ١٩٦٧ ، خامسة المحافظات الست التي تتكون منها جمهورية اليمن الديمقراطية ، بعد أن توحدت جميع محميات الجنوب وسلطناته مع عدن بقيادة الجبهة القومية ، مكونة الشطر الجنوبي من اليمن في العام نفسه .

وتنقسم المحافظة إلى الساحل وحضرموت الداخل ، الساحل يطل على بحر العرب جنوبا ، ويقع في نطاقه مدينة « المكلا » ، « والشحر » - ميناء حضرموت القديم - « وغيل باوزير » المشهورة بزراعة « التمباك » والحناء . أما حضرموت الداخل فتشمل الجزء الأكبر من الوادي ومدنه المهمة .

وقد حكم هذا التقسيم بالإضافة إلى تكويناتها « الجيولوجية » - النشاط الاقتصادي للسكان الذي يكاد ينحصر في مجالات ثلاثة - عدا قطاع الخدمات - وهي صيد الأسماك في الساحل ، والزراعة في الوادي ، ثم تحويلات المغتربين لذويهم ، بالإضافة إلى دور هامشي غير محسوس تلعبه الصناعة ، فهناك عدد من المصانع الصغيرة ، أهمها مصنع تعليب الأسماك وتجفيفها في « المكلا » وآخر لتعليب التمور في مديرية « سيئون » ، وبعض الصناعات الحرفية التي انكمش سوقها ، كصناعة الخوص والفضة التي شكا أصحابها في الشحر عند لقائنا بهم من تحول أذواق المشترين - خاصة النساء - من الفضة إلى الذهب ، فاقتصر نشاطهم على ترويج إنتاجهم على السياح في عدن والمطارات والفنادق ، وتلبية الطلبات الرسمية من هذه السلعة .

وعلى الرغم من أن المحافظة تملك إمكانات الصناعة السياحية ، بمناخ دافئ شتاء ، وشواهد أثرية متنوعة كمدينة « شبام » ، وقبر النبي هود ، وغيرها ، بالإضافة إلى شواطئ رائعة ،

وآبار مياه معدنية ، ثبت طبيا أنها تعالج عددا من الأمراض كالسكري ، والروماتيزم ، والأمراض الجلدية المستعصية ، إلا أن الحركة السياحية غير متطورة التأثير ، لعدم توافر أساسيات صناعة السياحة كالفنادق ، والاستراحات ، والدعاية وغيرها .

وعندما استفسرنا من السيد : أحمد المجيدي ، سكرتير الحزب بالمحافظة ، عن أسباب عدم استغلال هذه الامكانات قال : « إن صناعة السياحة تحتاج إلى استثمارات ضخمة ، والانفاق من الميزانية يحكمه - كما تعرف - أولوية الوفاء بالاحتياجات الأساسية والضرورية للناس في القطاعات الاستهلاكية والخدمية والاستثمار ، ونحن مع ذلك نسعى لتنشيط السياحة ، ولكن أين التمويل ؟! قلنا لماذا لاتفتحون المجال أمام المغتربين من أبناء المحافظة الذين يملكون إمكانات الاستثمار في هذا القطاع ؟ قال : « لقد دعوناهم ، وأعطينا تسهيلات استثارية منذ فترة ، ومازلنا ننتظرهم . »

وهناك حركة نشطة في البحث عن المعادن ، ولقد قرأنا في مجلة « نداء الوطن » اليمنية الأسبوعية « أن الأعمال المنجمية في مشروع وادي « مدن » للتنقيب عن الذهب تسير بوتائر عالية . وتهدف هذه الأعمال إلى معرفة مكامن خام الذهب واحتياطه ، وأفضل الطرق لاستخراجه ، ومن المتوقع الانتهاء من إنجازه خلال الأشهر القليلة القادمة .

أما عن النفط ، الحلم المقيم منذ نصف قرن مضى وأكثر ، فقد حملت أعمال البعثات الاستكشافية السوفيتية والفرنسية التي استمرت في بحثها بعد هروب الشركات الأخرى آمالا قوية لاحتمالات توافر النفط بكميات اقتصادية ويقال : إن بعض الآبار في شمال الوادي المتاخم للربع الخالي - محافظة شَبْوَة - قد تفجر فيها النفط . وحتى تتحقق الاحتمالات فإن الحلم في صنع المجتمع ينحت في صخور الجبال ، ورمل الصحراء ، وطين الوادي ، بحثا عن مسارب ، ليتجسد واقعا ملموسا من خلالها .

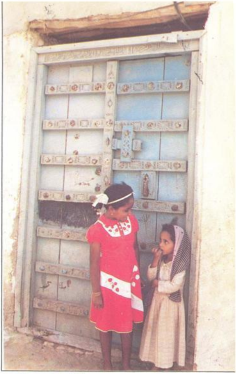
« المكلا والوجوه المتداخلة »

كانت البداية مدينة « المكلا » ، عاصمة حضرموت ، وثاني مدن اليمن الجنوبي ، عمرها يربو على تسعمائة عام ، فقد تأسست عام ١٠٣٥م . يلفت نظر زائرها موقعها الفريد ، المحصور بين بحر العرب والجبل المنتصب خلفها كحارس عملاق ، كان يصد عنها الطامعين فيما مضى ، لكنه يحول الآن بينها وبين الامتداد العرضي لارتفاع كلفة البناء على مدارجه المرغوبة لدى السكان ، فتمددت وتوسعت طوليا بموازاة البحر حيثما أتاح لها المكان الذي ضاق بسكانها فأقاموا منذ سنوات قليلة ، مدينة « المكلا » الجديدة على بعد خمسة عشر كيلو مترا غربا بمحاذاة الطريق الساحلي إلى عدن .

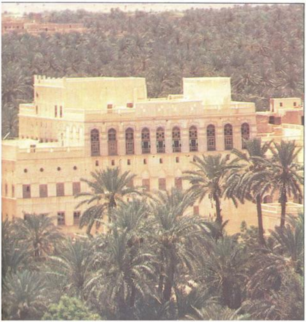
ولقد أدى تعرض المدينة إلى الغزو « الخرساني » في البناء إلى اختلال الوحدة والتناسق اللذين كانا يميزان طابعها المعماري ، ويكسبانها ملمحها الخاص .

عندما دخلناها كانت حرارة الجو المصحوبة بالرطوبة العالية التي تميز الساحل اليمني كله في أعلى درجاتها (٣٧°) ، ولم نفطن إلى وسيلة نتعامل بها مع العرق الغزير السيال من أجسامنا ، إلا عندما وجدنا معظم اليمنيين يستخدمون فوطة صغيرة لمسح العرق .

تشق بنا السيارة شوارع المدينة الحديثة المعبدة ونعبر جسرا حديثا ، يربط بين أحيائها على جانبي مجرى السيول المتجه إلى البحر . يشير المرافق إلى مدخل أحد الأحياء القديمة ، بين حي « المكلا » والشرج « قائلا : » هنا

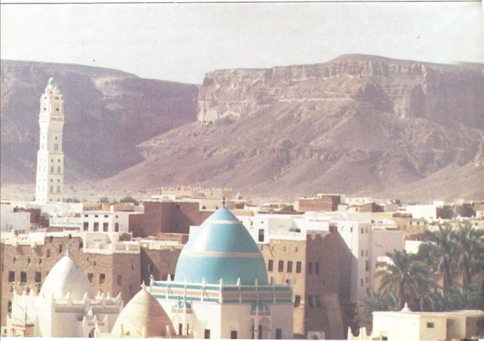






● نماذج من فن العمارة اليمنية مبنية بالطين .
(أعلى) :
- بوابة منزل قديم .
- منارة جامع المحضار بتريم ، ارتفاعها يزيد عن أربعين مترا .
- قصر الثورة (السلطان سابقا) بسيئون .
(أسفل) :
- قصر بمدينة تريم المشهورة بقصورها المتنوعة .
- جانب من مدينة سيئون .





كانت بوابة المدينة، هدمت بعد الاستقلال لتوسيع الطريق.

ويجوب بنا المرافق أحياء المدينة التي تبدلت أسماؤها القديمة، واتخذت أسماء حديثة، فحي «الديس» أصبح حي «اكتوبر»، و«المكلا» تحول إلى «السلام»، والبلاد إلى «الشهيد خالد»، وإن كنا لمسنا خلال تعاملنا اليومي مع الناس أن التغيير لم يتعد الاستعمال الرسمي حتى الآن.

شوارع المدينة القديمة الضيقة المتفرعة من الشارع الرئيس تغص بالمحلات التي تحصل على سلعها من مؤسسات القطاع العام المتنوعة النشاط، بأسعار محددة لاتلاعب فيها. وبالمقاهي التي يغشاها اليمنيون مرتدين «المعوز» المختلف الألوان، وهو قطعة من القماش المستورد من بعض الدول الآسيوية، يلفون بها الجزء الأسفل من أجسامهم ويسمونها «الفوطة».

حاولنا أن نجد «معوزين» متشابهين في النقشة والألوان فلم نوفق، وتساءلنا: لماذا لا يصنع محليا طالما أن إنتاجه مضمون التوزيع؟

توقعنا أن نرى «الجنبية» معلقة في أحزمة الرجال - خنجر اشتهر اليمنيون والعمانيون بتعليقه في الحزام لكن مرافقنا قال: لقد استغنى عنها يمنيو الجنوب بعد الاستقلال، ولم يعد مسموحا بحملها بعدما انتفت الحاجة إليها.

في المساء دخلنا الأسواق القديمة الضيقة، الشوارع والمحلات، كمعظم أسواق المدن العربية القديمة، يتم فيها تداول كل السلع المنزلية والنسائية، المسموح باستيرادها. وفيما قبل كان ارتياد هذه الأسواق مقصورا على النساء وحدهن، ولذلك كانت الحركة تموت فيها بعد المغرب. صادفنا بعض النساء بزيهن التقليدي الذي لم يتبدل، عباءة سوداء تغطي المرأة من الرأس حتى القدمين، وبها فتحة للعينين، وهن يمارسن هوايتهن التقليدية في الفرجة والمساومة.

وإذا كان موقع «المكلا» أثر في نموها العمراني، فإنه حكم نشاط سكانها الاقتصادي، فبالإضافة إلى الأعمال الإدارية في قطاع الخدمات الحكومية والمؤسسات العامة، تحظى الأنشطة المرتبطة بأعمال الميناء في منطقة «خَلْف» بحي «الشهيد خالد» الذي افتتحت مرحلته الأولى عام ١٩٨٥، بنسبة كبيرة من الأيدي العاملة، وكذلك أعمال صيد الأسماك الذي يمثل مصدر دخل رئيس لمدن الساحل اليمني، ومادة أساسية لوجبتهم اليومية الرئيسة، وغالبا ما تكون وجبة الغداء.

مدينة الشهداء السبعة

وإذا كان صيد الأسماك واحداً من أنشطة سكان المكلا، فهو أهم أنشطة سكان مدينة «الشحر» التي تبعد عن المكلا ٣٤ ميلا شرقا، وقد كانت الميناء القديم لحضرموت قبل أن تأخذ منها «المكلا» أنشطة الميناء بعد نشأتها.

وبمديرية «الشحر» ثلاث تعاونيات لصيد الأسماك، أكبرها وأقدمها المنشأة بالمدينة نفسها في فبراير ١٩٦٦.

وصيادو الاسماك كما يقول السيد: عوض عبيد بلسود، مسئول تعاونية «الشحر» ينقسمون إلى صياد [تعاوني]، وهو الذي يعمل على وسيلة إنتاج (القوارب والمعدات) المملوكة للتعاونية، وصياد [مالك] لوسيلة الانتاج. والتعاونية هي التي تتولى تصريف إنتاج جميع الصيادين وتسويقه، ولكن تختلف الأساليب المحاسبية لكل نوع منه، فالإنتاج اليومي للصياد التعاوني يتم تقسيم عائده بينه وبين التعاونية، نظير استخدامه وسائل الإنتاج بنسبة ٣٨٪ للتعاونية، و ٦٢٪ للصياد.

أما الصياد المالك وسيلة الإنتاج ، فينال ثمن إنتاجه الذي يسلمه للتعاونية نقدا ، ويدفع ١٨٪ ضريبة إنتاج وخدمة تعاونية .

وتشتهر « الشحر » كذلك بصناعة الفضيات « الخناجر والحلى المختلفة » ، ولكن انكمش نشاط هذه الصناعة الحرفية لأسباب كثيرة ، منها شيوع استخدام الذهب ، والتخلي عن اقتناء الخناجر ، كما أن الأنسجة الحديثة المستوردة أزاحت صناعة النسيج اليدوي .

ويعتز أبناء « الشحر » بعلمائها القدامى ، كالفقيه عبدالله بن عمر بامخرم الذي كان يلقب بالشافعي الصغير ، وصاحب دراسات في الفلك . والصيادون والمزارعون مازالوا يتبعون تقويما له حتى الآن . وسليمان المهري ، الملاح ، المولود في القرن العاشر الميلادي الذي ذكرته كتب التاريخ كمعاصر وصنو لابن ماجد البحار العربي الشهير .

وعن المدينة وتاريخها يقول عبدالرحمن الملاحي ، ابن المدينة ، الباحث المتفرغ في مركز الأبحاث اليمني : (الشحر من المدن القديمة ، فقد سميت قديما « ميناء اللبان » ، لأنه كان يُصدَّر منها ، ونُسب الساحل الجنوبي إليها في كتب الرحالة القدماء ، حيث كانوا يطلقون عليه اسم « الساحل الشحري » ، وعندها ينتهي خليج عدن ويبدأ المحيط الهندي ، وكانت بذلك نقطة اتصال بين افريقيا وآسيا ، وكانت تتحكم في فترة رسو السفن ، خاصة في الخريف عندما تتحرك الكتل المائية إلى الشحر التي سماها ابن ماجد وسليمان المهري « زحون الشحر »- وموقعها قد جذب إليها الطامعين ، فقد غزاها البرتغاليون في عام ١٥٢٢ م ولكن أبناءها استبسلوا في الدفاع عنها ، وتمكنوا من صدهم عنها بعد أن استشهد سبعة منهم في معركة عنيفة . ونحن نحتفل بذكراهم كل عام . كما أن مدفنهم الجماعي أصبح مزارا سياحيا » .

علاج السكري بالمياه المعدنية

لم نصدق عندما قالوا لنا : إن هناك عين مياه معدنية ، تشفي من السكري في أربعين يوما ، ومن الأمراض الجلدية ، فذهبنا إلى هناك : « الصويبر » ، التابعة لمديرية « الشحر » التي تمتلىء بعيون المياه المعدنية . واحة من النخيل حول عين مياه ، في منطقة كانت تستخدم لإناخة الجمال ، ثم أدرك الناس قيمة مياهها العلاجية بالتجربة ، فأجرى تلفاز عدن استطلاعا مصورا عنها ، فتدافع إليها المرضى من أنحاء اليمن الجنوبي . تذوقنا المياه ، طعمها يشبه طعم المياه الغازية إلى حد ما ، نتيجة تشبعها بالكبريت - سألنا واحدا من المرضى ، طاعنا في السن ، وهو عبيد سالم من محافظة المهرة قال « أعاني من السكري منذ فترة ، وأثر ذلك على نظري بشدة ، وعندما شاهدت برنامج « جولة الكاميرا » حول هذا المنبع حضرت ومعي أشرطة اختبار السكر ، قبل استخدامي للمياه ، كان لون الشريط يصل إلى أقصى درجات ألوانه ، وبعد خمسة وعشرين يوما من إقامتي الكاملة ، تراجعت الدرجات إلى المستوى الثاني ، ومازال أمامي خمسة عشر يوما وينتهي السكري تماما .

ولقد قامت « أكاديمية » الطب في بلغاريا بتحليل مياه عيون المياه المعدنية المنتشرة في هذه المنطقة ، وأكدت نتائج التحليل قيمتها العلاجية العالية لكثير من الأمراض ، كالتهابات الكبد المزمنة ، وأمراض البنكرياس ، والروماتيزم ، والسمنة ، وأمراض الغدد الدهنية .

بقي أن نسأل ، لماذا لايقوم المستثمرون من المغتربين الحضارمة والعرب باستثمار هذه المنطقة سياحيا وعلاجيا ، إنها دعوة من المسئولين ، وهناك بانتظارهم الدراسة والتنفيذ .



● مرضى السكري يقيمون حول عين مياه «الصويبر» .







● فلاحان من مزرعة الدولة ببور في قلب حقل برسيم .
- إعداد الشاي على البخار ، عدته كانت جزءا مهما من جهاز العروس في الوادي .
- المياه المعدنية في «الصويبر» .

في جولتنا بالمدينة نشاهد بقايا السور الذي أقامه حولها القعيطيون بعد استيلائهم عليها عام ١٨٦٧، وقد بقي منه البوابة الشمالية «سدة العيدروس»، وقد تم ترميمها بإشراف هيئة «اليونسكو» منذ سنوات قليلة، وهي تجسد الفن المعماري اليمني القديم.

كما شاهدنا التدمير الذي أحدثته سيول هذا العام، حيث ارتفعت مياه الأمطار إلى ثلاثة أمتار في المناطق المستوية، فانهار ٢١٧ منزلا انهيارا كاملا، وتضرر ٢٠٧٥ منزلا مازال ترميم ما يصلح منها جاريا، وعلى الرغم من اضرار السيول التي أدت إلى إشغال أبنية المدارس والأجهزة الحكومية بالسكان المتضررين فإن المدينة القديمة تواصل استمتاعها بالحياة، ومصارعة أمواج البحر بحثا عن الرزق.

الوعي والمتعة

في أثناء جولتنا المسائية في شارع فرعي من شوارع حي «المكلا»، جذب انتباهنا تدافع أعداد من الشباب باتجاه مكتبة عامة مجاورة لمسجد يغص برواده، دفعنا الفضول لمتابعتهم، فنحن في زمن ينحسر فيه الإقبال على الكتاب لصالح «التلفاز والفيديو» خاصة في دول العالم الثالث. وهنا يتدافع الشباب على مكتبة، لماذا؟

دخلناها، روادها كثيرون، منكبون على القراءة، استطلعنا محتوياتها، وهي كتب للتراث والفلسفة، والآداب، والأديان وغير ذلك من فروع المعرفة. حاورنا أمينها، قال: تأسست المكتبة عام ١٩٤١ باسم «المكتبة السلطانية»، تطورت بعد الاستقلال، وتبدل اسمها إلى «المكتبة الشعبية»، وهي الآن تعرف باسم مكتبة «الشهيد بامطرف»، تخليدا لذكرى المؤرخ الحضرمي محمد عبدالقادر بامطرف، المتوفى منذ عامين، وصاحب المؤلفات والدراسات العديدة حول حضرموت وتاريخها.

وتحتوي المكتبة على ١١,٣٠٠ كتاب في مختلف فروع المعرفة، عدا الدوريات، والاستعارة عامة، لكنها مقصورة على الذكور فقط، لأن طبيعة المجتمع المحافظة لا تسمح للبنات - حتى الآن - بالاستعارة المباشرة منها.

إن إقبال الشباب على القراءة والثقافة الذي رصدنا مظاهر كثيرة له في مدن المحافظة، يعكس رغبة دفينة لدى الانسان الحضرمي في ضرورة امتلاك الأدوات المعرفية التي تمكنه من تأكيد ذاته، وتعويض آثار التجهيل المتعمد في ماضيه، ويتجلى ذلك في الاعتزاز بالتاريخ، قديمه وحديثه، والسعي لتدوينه. لكل مدينة مؤرخ من أبنائها يعرف دقائق تاريخها ومراحله في إطار تاريخ اليمن كله.

متاحف في المدن الرئيسية تضم آثارا مكتشفة من مختلف العصور، مكتبات عامة وخاصة، دوريات شهرية ومطبوعات متنوعة جادة، تضم بين دفتيها إبداعات متدفقة في مجالات المعرفة، فقيرة في الشكل والإخراج، ولكن الرغبة المتشوقة للخروج من الشرنقة تبتكر وتبدع، وتتغاضى عن متطلبات الشكل الأنيق كما يقول لنا أديب شاب. نشاط مكثف لفروع اتحاد الكتاب والأدباء اليمنيين الذي يوحد بين مبدعي اليمن بشطريه. في سيئون دُعينا لحضور الأمسية الأسبوعية لفرع الاتحاد في دار الأديب الراحل علي أحمد باكثير التي تحولت إلى متحف يضم مؤلفاته وآثاره، كان الموضوع «من مفكرة الخامس من يونيو. النثرية والشعرية»، وكان ذلك في بداية شهر حزيران «يونيو». حضور كثيف، متعدد الأجيال، نجلس على الأرض بينهم، نسمع مناقشات ومداخلات واعية تمحض العقل وتثيره.

في « المكلا » استمتعنا بالقاء شعراء شباب من الجنسين لقصائدهم التي تحلق في الآفاق الإنسانية الرحبة ، وتتوغل في حنايا الذات بهمومها الممزوجة بهموم الوطن والأمة العربية . وأيا كان مستواها فإنها تعبر عن وجدان مترع بالحيوية والثراء .

ونلتقي في « سيئون » بالمؤرخ عبدالقادر أحمد الصبان الذي نال وسام المؤرخ العربي في فبراير ١٩٨٩ ، من اتحاد المؤرخين العرب ، ووسام الآداب والفنون اليمني الجنوبي عام ١٩٨٨ . تجاوز الخامسة والسبعين من العمر ، ومازال يعمل مسئولا عن المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار ، بمديرية « سيئون » ، وله ٢٨ كتابا ، وهو يمثل نموذجا حيا لروح هذه المنطقة يقول « بدأت الكتابة بعد أن تجاوزت الخامسة والأربعين من عمري في البداية كتبت « المقال » ، وكنا ننسخه بخط اليد لعدم وجود مطابع لدينا ، رأست تحرير مجلة « زهرة الشباب » في سيئون قبل الاستقلال بزمن . سجنت في هذا القصر الذي نجلس فيه - قصر السلطان السابق في سيئون - في سنة ١٩٦٠ ، بعد أن ألقيت قصيدة بمناسبة المولد النبوي ، تعرضت فيها لحالنا المتردي آنذاك ، والآن أعكف على الكتابات التاريخية . وقد أهدانا بعضها » .

وفي مدينة « تريم » زرنا مكتبتها الشهيرة المعروفة بمكتبة الأحقاف للمخطوطات

عمارة الطين

لايمكن لمن يزور وادي حضرموت ، ويتجول بين مدنه وقراه ، أن يمنع المتعة المصحوبة بالإعجاب من التسرب إلى نفسه ، وهو يشاهد نماذج العمارة المختلفة في المدن والقرى المتناثرة على جانبي الوادي التي تقام على منحدرات المرتفعات والجبال ، أو تلك الهاجعة في قلب مزارع النخيل وأشجار « العِلْب » - النبق - التي تنتشر بكثافة في الوادي وفروعه ، لأن النمط المعماري الذي تتميز به البيوت هو تجسيد لتفاعل الإنسان مع البيئة المحيطة عندما يستخدم إمكاناتها المتاحة ، وتوظيفها لتلبية احتياجاته ، وهي هنا الطين الذي يُخلط بأعواد القش (التبن) ، ويصنع منها الطوب (اللبن) الذي يطلى بالنورة - خلاصة الحجر الجيري - بعد بنائه ، وخشب أشجار « العِلْب » - ذات المكانة الأسطورية ، لقدمها واستخداماتها الاقتصادية المتنوعة-الذي يستخدم في السقوف والأعمدة والأبواب ، وليس كل طين يصلح للبناء ، لأن للطين الصالح أماكن محدّدة (كطين زَبْر) .

والاعجاب كذلك بابتكاره نظاما للتهوية والإضاءة ، يعتمد على توزيع الفتحات - نوافذ وفتحات تهوية - بكيفية تؤدي الى تخفيف حدة الحرارة في الصيف ، وترطيب الهواء .

والملفت للنظر تلك القيم الجمالية التي يخلقها التكوين المعماري الخارجي للبيوت ، الجامع بين تناغم ارتفاعاتها المتراوحة بين الطابقين والأربعة ، ورشاقة الخطوط وانطلاقها ، وتناسب مسطحات الفتحات للنوافذ والأبواب والتهوية مع المسطحات الكلية للحوائط . أو التنوع في ابتكار أشكال لنهايات حوائط السطوح . ويُبرز هذا التكوين المعماري التشكيلات اللونية المبهجة ، المكونة من تناغم وتناسق في ألوان الطلاء المتنوعة للأسطح والحوائط والنوافذ التي يغلب عليها اللون الأبيض المتداخل مع اللون الطيني . ألوان ناصعة مبهجة ، تبدو بها البيوت كالصبايا المقبلات على أعراسهن .

وعلى الرغم من أن هذا النمط يشيع في الوادي كله ، فقد لاحظنا بعض التمايزات للمدن عن القرى ، وكل مدينة عن الأخرى ،





● يحتفي الإنسان الحضرمي بالحياة ، فيعبر عن مشاعره بالرقص والغناء .

- الصورة العليا رقصة شعبية تؤديها فرقة حضرموت للرقص .

- الحناء للشاب ليلة عرسه (في سيئون) .





● يقال عن المرأة في الوادي : إنها «رجل ونصف» ، لأنها تقوم بأعمال الرجل في الزراعة (الصورة العليا) ، وفي اليمين يصنعن نماذج خشبية للعمارة اليمنية في وحدة إنتاجية بالشحر .

فالمستوى الاقتصادي لسكان المدن انعكس على عماراتهم، بحيث تعددت فيها القصور، وارتفعت الطوابق، وتلاصقت، وبرزت تأثيرات ثقافات المهاجر وفنونها، خاصة الاندونسية والماليزية في « تريم » و« سيئون »، والهندية في « المكلا »، وإن بدأت هذه الظاهرة تختفي نتيجة العودة الجماعية للمغتربين، ولارتفاع المستوى الثقافي العام مع انتشار التعليم بقيمه الجديدة.

وعند اختراقنا للوادي في طريقنا من « سيئون » إلى « المكلا »، جذب انتباهنا بعض الظواهر التي بدت نشازاً في سياق تشكيلة الوادي المعماري، كزحف « الخرسانة » المسلحة كمادة بناء، بدلا من الطين.

وعندما ناقشنا المسئولين بالمحافظة حولها قالوا: « إن هذه الظاهرة لن تستمر طويلا، لأن المكتب التنفيذي للمحافظة أصدر توجيها بالحد من استخدام هذه المواد داخل الوادي، إلا في أساسات البيوت فقط، لأن تجربة السيول هذا العام فرضت استخدامه في الأساسات كي تحميها من الانهيار، بالإضافة إلى أن المباني « الخرسانية » لا تلائم الجو الحار في الوادي، إلا إذا استخدمت مكيفات الهواء، وأسعار الطاقة الكهربائية العالية تحول دون انتشارها، ثم إننا نريد الحفاظ على طابع الوادي على الرغم من أنه يسبب لنا المشاكل في حالة السيول. وعموما فنحن نستخدم « النورة » في الطلاء حتى نتلافى تأثير الأمطار على المباني الطينية. »

« شيبام » تنادي

وإذا كان الوادي يمتلىء بالشواهد الأثرية التي تكشف عن أنماط الحياة وأبعادها في مختلف العصور التاريخية، كالقلاع المقامة على المرتفعات، أو المدن المطمورة في جوانب الوادي التي اكتشف بعضها بعثات التنقيب السوفيتية اليمنية المشتركة أو الفرنسية، أو اللوحات الجدارية التي تحمل حروف « الخط المسند » الذي يعده بعض المؤرخين أساس الكتابة العربية، إلا أن مدينة « شيبام » تنتصب وحدها في قلب الوادي، كشاهد على إبداعات « حضارة الطين » التي تصارع الأجيال الحالية ضد تعرضها لخطر الهدم، أو الضياع في ثنايا الزمن.

و« شيبام » التي يقول عنها نداء هيئة اليونسكو للعالم في ديسمبر ١٩٨٤: « بأنها من أكمل الشواهد على ما بلغه الفن والهندسة المعمارية، فهي تبهر المسافر الذي يكتشفها فجأة، بعد أن يكون قد عبر هضبة صحراوية ضخمة، إذ تتراءى له منبثقة في أعماق واد أخضر، وسط غابة من النخيل، منطلقة برشاقة نحو السماء، وتتكون المدينة من أبراج عالية من سبعة أدوار أو ثمانية، متراصة، متلاصقة ».

ولقد شهدت المدينة خلال العقود القليلة الماضية، ظهور أنماط جديدة من المساكن الحديثة، غير أنها نجحت في إقامة التوازن الدقيق بين مساحتها وعدد سكانها، بين ماضيها وحاضرها. هذا التوازن الذي يحافظ على هويتها. على أن الوادي بكامله، وعاصمته الرائعة، قد أصبحا مهددين بالخطر، نتيجة الأثر المشترك للسيول والفيضانات المدمرة، وقد جرفت الفيضانات خلال السنوات الأخيرة جزءاً من سد « موزا » الذي يقع في الشمال، على مقربة المدينة، وأزالت فيضانات هذا العام « سد الموزع » الذي بني منذ القرن العاشر الميلادي » وعند زيارتنا للمدينة التي تتكون من خمسمائة بيت، يسكنها الآن عشرة آلاف نسمة، وبعض بيوتها عمره الآن ٥٠٠ عام، شاهدنا التشققات في بعض البيوت من جراء الأمطار.

وقد تبنت اليونسكو عام ١٩٨٤ مشروع حماية « شبام » من خلال حملة دولية ، تسعى إلى ترميم الآثار والمواقع ذات القيمة التاريخية والثقافية والطبيعية الموجودة في وادي حضرموت وصيانتها ، وبوجه خاص التراث المعماري لمدينة « شبام » .

وعلى الرغم من نداء اليونسكو الموجه إلى العالم فإن المساهمة مازالت محدودة ، والأعمال التي تتم تتحملها حكومة اليمن الديمقراطي ، والمطلوب لحماية المدينة ، وتحريك السياحة فيها ، كما قال الاستاذ عبدالله الحويزي ، مسئول تنسيق الحملة مع اليونسكو ، هو ١٣٠ مليون دولار فقط . قلنا ونحن نغادر « شبام » : وهل عسير على أبناء الوطن العربي تدبير هذا المبلغ لحماية هذه المدينة الفريدة ؟

الزراعة هى الأصل

واصلنا رحلتنا في أنحاء الوادي نتابع وجوه الحياة المتعددة فيه ، ويستكمل مرافقنا معلوماته عن الوادي : « يصل عرض الوادي في أجزائه الشمالية الغربية من ١٥ - ٢٠ كيلو متراً ، وينتهي في الشرق عند سيحوت بكيلومتر واحد ، وبه عدد من الأودية الفرعية . ونشاط السكان الرئيس هو الزراعة ، ومحاصيله هي القمح والذرة العويجة والخضراوات و التمور .

ويمسك خيط الحديث منه ، المهندس الزراعي ، صالح عوض ، فيقول : إن المساحة الصالحة في الوادي زادت من ٣٪ من المساحة الكلية لحضرموت عام ١٩٧٣ إلى ٥,٥٪ عام ١٩٨٦ ، وتطورت المساحة المزروعة فعلا من ١,٠٪ عام ٧٣ إلى ٣,٣٪ عام ١٩٨٦ ، والزراعة في الوادي تتم وفق أنماط ثلاثة: مزارع تعاونية ، دولة ، ملكية خاصة . وبالوادي ١١ مزرعة تعاونية ، وعشر مزارع دولة . وهناك مشروعات لتطوير الزراعة في الوادي : الأول مشروع وادي حضرموت الزراعي ، وقد اكتملت المرحلة الأولى والثانية منه ، بتكاليف ٤٢ مليون دولار ، واستهدفت المرحلة الأولى إعداد البنية التحتية (شق طرق وقنوات) ، وإنشاء وحدة لتعبئة التمور ، وتأسيس جهاز للإرشاد الزراعي ، ثم إنشاء ١٥٠ هكتاراً كمزارع نموذجية .

والمرحلة الثانية إعداد ٣٣٦٠ هكتاراً للزراعة ، وأنجز ذلك بالفعل عام ١٩٨٨ ، وإعداد ٥٦ بئراً ارتوازية ، ولقد استخدمت طرق جديدة للري في هذه المساحات ، للحد من مفقود المياه ، فيتم ري ٦٠ هكتاراً بالرش والتنقيط ، و٥٠ هكتاراً بالأنابيب بدلا من القنوات ، كما كان متبعا بالطريقة التقليدية . كما تم حماية الوادي الرئيسي بإقامة ١٣ مسقطاً مائياً (مصالح) لتهدئة سرعة مياه الأمطار ، وتدرجها ، خاصة في وادي « عدم » « والمسيلة » ، وتم تهذيب شبكة (الري من مياه السيول) في منطقة « تريم » ، كما أدخلت الآليات الزراعية في مراحل البذر والحرث والحصاد .

والمشروع الثاني يتم بالاشتراك مع الاتحاد السوفيتي ، حيث يتم استطلاح أراض جديدة ، على مساحة ٧٠٠٠ فدان ، تم توزيعها على ثماني مزارع دولة ، تتراوح مساحة المزرعة من ٦٠٠ - ١١٠٠ فدان .

وفي قرية « بور » التابعة لمديرية « سيئون » زرنا مزرعة الدولة التي تأسست عام ١٩٧٤ ، وتنتج القمح والذرة الرفيعة والخضراوات . مساحة المزرعة الكلية ٧٦٣ فدانا ، المزروع منها ٦٥٤ فدانا ، والباقي قنوات ومنافع عامة .

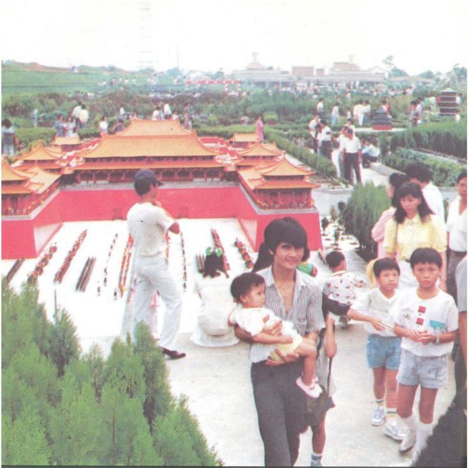
ونترك المزارعين يمهدون الأرض ، ويبعثون الحياة في قلب الوادي الذي قامت فيه حضارة متميزة ، شغلت حيزا مهما من مساحة الزمن العربي ، عساهم أن يعيدوا مجدها ، أو يحموا آثارها من الاندثار . □



عندما تحافظ الشعوب على تاريخها

تجربتان ثقافيتان من تايوان

بقلم : سليمان مظهر



بحيرة « الشمس والقمر » تكاد تكون أشهر المعالم ذات الطبيعة الساحرة في وسط تايوان . وحين كنا نخترق الطريق إليها من العاصمة تايبيه ، كان علينا أن نمر بعدد من المعالم التاريخية ، شهدنا خلالها كيف تحافظ الشعوب على تراثها وتقاليدها ، وكيف تعمل على إحياء ماضيها ومظاهر أصالتها .

الشعب في تايوان خليط من جماعات عرقية موغلة في القدم ، كانت هي صاحبة الأرض ، والثقافة والتاريخ ، انضمت إليها جماعات جديدة مهاجرة ، زاحفة من الصين الأم ، على فترات متتالية ، كان آخرها عقب الصراع « الأيديولوجي » ، في منتصف القرن العشرين الذي أدى إلى قيام جمهورية الصين الوطنية على جزيرة فورموزا . ومنذ قامت الدولة الجديدة نشأت رغبة عارمة في المحافظة على الجذور ، جذور قديمة ثابتة ، تمثل الأصول السكانية القبلية التي تضم تسع قوميات بدائية ، لها ثقافتها وتقاليدها وخبراتها . وجذور حديثة متشبثة ، تمثل المقيمين الجدد من المستوطنين الصينيين ، الحالمين بالعودة إلى الصين الأم ، المرتبطين بمعالمها وآثارها وتراثها . ومن خلال التمسك بالجذور جاء تحقيق تجارب ثقافية رائدة ، لعل أبرزها إنشاء « قرية فورموزا البدائية » ، وفتح « نافذة على الصين » .

نافذة على الصين

لماذا نافذة على الصين ؟

الحلم الدائم لسكان تايوان من أصحاب الأصول الصينية المهاجرة هو العودة إلى الصين الأم ، عندما يتم تحريرها كما يتصورون ، أو على الأقل عندما تتحدان ، وإذا لم يكن الجيل الحالي قادرا على ذلك ، فقد يستطيعه الجيل التالي ، ولكن كل ذلك لا يكون إلا بغرس التعلق بالوطن الأم في أذهان أبناء الشعب ، وفتح عيونهم على المعالم التاريخية الرئيسية التي تضمها أرض الصين منذ عهودها الامبراطورية القديمة التي لم يرها الأبناء ، والتي ما تزال محفورة في رؤوس الآباء والأمهات .

كان السبيل إلى ذلك إقامة مدينة قزمية نموذجية صغيرة ، أطلقوا عليها اسم « نافذة على الصين » ، تضم ٧١ نموذجا من أشهر معالم الصين التاريخية ، في منمنمات تم تصغيرها بنسبة واحد إلى ٢٥ ، تعبر عن الأساليب المختلفة للحياة في مختلف عصور المجتمع الصيني .

زرنا المدينة القزمية في منطقة لونجتان ، على مسافة ٣٥ كيلومترا ، جنوب غربي تايبيه . منشآت المدينة وحدها أقيمت على مساحة ٢٠ ألف متر مربع ، واستغرقت عملية إنشائها منذ بدأ تنفيذ مخططاتها عشر سنوات ، بدأت في عام ١٩٧٥ ، حتى تم افتتاحها في ٧ يوليو ١٩٨٤ . المعالم التاريخية البارزة في الوطن الأم التي أقيمت في المدينة صورة طبق الأصل من المعالم التي شهدناها قبل ذلك في مختلف أنحاء الصين الشعبية . أبرز هذه المعالم سور الصين العظيم الذي أحيطت به المدينة القزمية ، والمدينة المحرمة بقاعاتها وقصورها وأسوارها وتقاليدها وتماثيلها ، بما في ذلك ساحة تيان آن من ، ومعبد السماء في بكين ، وممر شويونج ، والباجودا البوذية لمعبد فوكنج في مقاطعة شانسي ، البالغ طولها الأصلي ٧٦ مترا بارتفاع ٢٢ طابقا أنشئت عام ١٠٥٦ (انظر العربي ٣٥٦ يوليو ، و ٣٥٩ اكتوبر ١٩٨٨) .

ويحتل نموذج للقصر الصيفي مساحة واسعة ، وكذلك نموذج للمعبد السماوي في شنتا الذي استغرق إنشاؤه في عصر شينج تسعين عاما ، بين ١٧٠٢ و ١٧٩٢ ، والمقام على ارتفاع ألف متر فوق سطح البحر ، وكان البلاط الامبراطوري ينتقل إليه خمسة شهور كل عام . وتبعد عنه قليلا قاعة إلهة السماء في معبد شيني بمقاطعة شانسي ، ويرجع تاريخ إنشائه إلى عام ١٠٢٣ في عصر سونج . تمثال الالهة الأم يتمثل في شكل الامبراطورة « دواجر توشي » تحيط بها تماثيل أربعين من نساء البلاط كل منها قطعة رائعة من كنوز الفن . وتشتهر عن هذه القاعة أسطورة تحكي عن انتشار المجاعة

والجفاف الذي غطى أراضي المنطقة وارتفعت ابتهالات الصلاة داخل قاعة إلهة السماء، فتساقطت على الفور أمطار غزيرة كانت كافية لزراعة ٤٠٠٠ هكتار من الارض..!

ومن أجمل النماذج مغارات لونجمان في لوينانج بمقاطعة هوتان التي بدأ نحتها في عام ٤٩٤م حتى ٦٧٦م، خلال عصر تانج، في أعلى قمة الجبل خلف معبد فنجسيان. المغارات تمثل الطراز الهندسي الصيني وأروع زخارف الفن مع تمثال هائل لبوذا القاعد القرفصاء، بطول ٨٥ قدما، وحوله الملائكة الحارسة والملوك وقوفا، بطول ٥٠ قدما.

مظاهر النهضة الحديثة

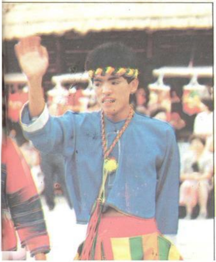
كل هذه المعالم يتمثل فيها أفراد الشعب وطوابير الجيوش الامبراطورية في تماثيل صغيرة يبلغ عددها ٥٠ ألف تمثال، طول كل منها يبلغ حوالي ٧ سنتيمترات، مصغرة بنسبة ١ إلى ٢٥، وشكلت بالنسبة نفسها الأشجار والطيور والحيوانات والحدائق ومختلف أنواع التماثيل. مصممو منشآت «نافذة على التاريخ» لم يكتفوا بالمعالم التاريخية في الصين الأم، لكنهم أضافوا إليها معالم حديثة، تعرض بالأرقام والبيانات مظاهر التطور الاقتصادي والاجتماعي والصناعي في تايوان، ليشهد الأبناء مدى النهضة التي بلغتها بلادهم خلال عدد قليل من السنين. من بين ذلك نماذج من المشروعات الصناعية وخطوط قطارات الأنفاق والسكك الحديدية المكهربة التي تربط تايبيه ببقية المدن الرئيسية، وكذلك أرصفة ميناء تايشونج، ومطاحن الدقيق، وصهاريج تخزين النفط والغاز، ومحطة الكهرباء الرئيسية، ورافعات الشحن، بالإضافة إلى الشاحنات البرية وسفن الشحن البحرية التي تنقل الصادرات والواردات. ومن أجمل النماذج مطار تايبيه وطائراته التي تتحرك على الأرض وتصعد وتهبط في مدارج المطار، وحديقة الحيوان، ومسجد تايبيه الكبير، ومنشآت جامعة تايوان، والقاعات التذكارية لشيانج كاي شك، وصن يات سين، والمتحف الوطني.

هنا يشهد الأبناء بالنماذج والأرقام والبيانات المتجددة حقيقة المعجزة الاقتصادية التايوانية وتطورها، وكيف استطاعت تايوان تحقيق فائض نقدي كبير، أخذ يتراكم في خزائنها، بسبب الزيادة الضخمة في صادراتها بالنسبة لوارداتها، وكيف تجاوز الاحتياطي النقدي ٧٣ بليون دولار، وما يزال يسجل ارتفاعا مطردا وراسخا، وكيف أصبحت الجزيرة، بحجمها المتواضع الذي لا يزيد عن ٣٦ ألف كيلو متر مربع، إحدى أغنى دول العالم، حتى أن دخل الفرد فيها بدأ يتجاوز هذا العام ٦ آلاف دولار. وقد تحقق كل ذلك من خلال قناعة بأنه «إذا أردت أن تبني بلدا غنيا، يجب عليك أولا أن تجعل الشعب غنيًّا، فإذا أثرى الأفراد ازدهر الوطن».

قرية فورموزا الحضارية

التجربة الثقافية الثانية نشهدها حين نصل إلى تايشونج، ثالث أكبر مدينة في جزيرة تايوان، ونلتقي في جنوبها الشرقي ببحيرة «الشمس والقمر» (صن مون ليك) وشواطئها. في هذه المنطقة نزور «قرية فورموزا التقليدية» التي تمثل مرحلة بدائية من مراحل الحضارة الصينية القديمة.

القرية تمتد على مساحة ٦٢ هكتارا (الهكتار = ١٠ آلاف متر مربع). وكان الهدف من إقامتها المحافظة على تراث تايوان منذ الزمن الذي كانت تستوطن الجزيرة فيه تسع قبائل أو قوميات، ما يزال المنحدرون منها يفخرون بجذورهم فيها، ويعتزون بانتمائهم إليها.


● تجربتان ثقافيتان من تايوان

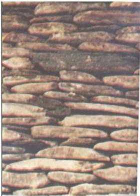
شهدنا معالم القرية مقسمة إلى تسعة أقسام ، تمثل أساليب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفنية لكل مجتمع من المجتمعات السكانية .

ففي نموذج مجتمع « يامي » الذين كانوا يسكنون جزيرة « لانيو » نشهد كيف تقوم حياتهم على صيد الأسماك . هنا القوارب الصغيرة ذات المجاديف التي يستخدمها فردان أو ثلاثة في ملكية خاصة ، وهناك القوارب الكبيرة للصيد التعاوني ، يشارك فيها بالجهد عدد من الأفراد ، يقسمون حصيلة الصيد بينهم بالتساوي . حياة أبناء القبيلة تقوم على الصيد وصناعة القوارب وتجفيف الأسماك وتمليحها . كل فرد يبذل جهدا مساويا لقدرات عمره . الجميع أسرة واحدة ليس لها زعيم . فكل منهم يعرف واجبه ، ويدرك حقوقه ، في ظل النظام التعاوني المشترك . وتتغير مهمات الأفراد حسب تغير الفصول والشهور . الرجال الناضجون يتولون صناعة السفن والقوارب وبناء البيوت وصيد الأسماك وصنع المشغولات المعدنية والأواني الفخارية . والنساء عليهن فلاحة الأرض وجمع الحصاد وإعداد الطعام ونسج الملابس . ويترك للكبار ، أصحاب الخبرات ، صناعة الصدريات الذهبية والخوذات الفضية وتصميم زخارف المباني « وديكوراتها » ، وكل ما يحتاج للمهارات الفنية .

المرأة قبل الرجل !

أما قرية قبيلة « آمي » أكبر المجتمعات القبلية فهي تستوطن سهول وادي تايتونج وسفوح مرتفعات وسط تايوان ، حيث الأنهار والقنوات والأراضي الخصبة الصالحة للزراعة . وهم يشكلون عدة تجمعات قروية أسرية ، يضم كل منها حوالي ٥٠٠ فرد من الأقارب . ولخصوبة أرضهم وسهولة ريها فقد برعوا في شئون الزراعة وحرث الحقول ، مستخدمين

● الرجال والنساء يعملون معا في المشغولات اليدوية من قش البامبو . وسنوات العمر لا تشكل معوقا بل تزيد قدرة المرأة في مجتمع « يامي » على الانتاج . ولا تمنع الجهود الشاقة التي يبذلها الجميع في فترات عامرة بالرقص والغناء يشارك فيها فتيان القبيلة وفتياتها .







الثيران . بالإضافة إلى اشتغال قلة منهم في الصيد النهري . ويتميز مجتمعهم الأسري بالتنظيم الإداري والمجالس القروية . وتلعب المرأة دورا متميزا في العشيرة ، بينما الرجال في حكم الأتباع والمرؤوسين .

وتتحمل المرأة مسئولية الحصاد وتجفيف المنتجات الزراعية وتخزينها ، سواء في القاعات المقامة خارج البيت مستقلة عنه ، أو على جوانب جدران الأكواخ السكنية المصنوعة من أعواد « البامبو » والقش ، والمبنية من طبقتين مزدوجتين ، بينما لكل كوخ بابان متباعدان ، بحيث لا يسمح للرياح العاصفة أن تدخل بشكل مباشر إلى داخل البيوت إذ تتكسر حدتها بين البابين غير المتقابلين . وتبرع النساء في الصناعات اليدوية الريفية ، وبخاصة في صنع الأواني الفخارية التي تستخدم في الطبخ

وهم يحرصون على الروابط الأسرية ، بحيث يخصص في كل كوخ غرفة للابن أو البنت عند الزواج ، فإذا زاد العدد ، بحيث لا يستوعبه الكوخ ، فإن الأب يقيم كوخا آخر على مساحة أخرى غير بعيدة من كوخ الأسرة .

وقبل انتقال العروسين إلى البيت الجديد يقام احتفال ديني في كوخ الوالدين ، تقدم خلاله فطيرة الأرز قربانا للآلهة ، مع دعوات بألا تنفصل عرى الروابط الأسرية بين البيتين . وتتميز الأكواخ من الداخل بالزخارف اللونية والرسوم وتماثيل إلهة السماء المنحوتة على الأعمدة الخشبية التي ترفع السقوف لتضمن لها الأمن والاستقرار .

القديم والحديث

النماذج التي تضمها قرية فورموزا الحضارية تتميز بأن كلا منها أقيم في بيئة طبيعية مماثلة للبيئة التي تعيش فيها كل قبيلة ، بجبالها وأنهارها وسفوحها وقنواتها وحقولها وحدائقها وأنماط مساكنها وبيوتها وتقسيماتها الداخلية وساحاتها الخارجية . أما ممثلو كل قبيلة فيرتدون زيهم الشعبي ، ويقومون بأداء رقصاتهم على أنغام موسيقاهم وطبولهم ، ويقفون أمام مشاغلهم الصناعية ينسجون وينحتون ويزخرفون ويؤدون كل الأعمال اليدوية التي يتميزون بها ، ويمارسون حياتهم تماما كما يعيشونها في بيئاتهم الأصلية ، حتى الطعام يقدم بالطريقة التقليدية نفسها ، بالأواني الفخارية ، دون اللجوء إلى أي أداة من الأدوات أو الآلات الحديثة .

الرجال يؤدون الدور نفسه الذي كانوا يؤدونه حسب طبيعة مجتمعهم ، والنساء يمارسن كل أعمالهن التي يمارسنها في قراهن ، والأطفال من حولهم يلعبون ويمرحون ويلهون دون اللجوء إلى أي نوع من الألعاب الحديثة . فصورة الحياة البدائية تعرض بطريقة طبيعية ، لا يمسها أي تجديد أو تحديث ، حتى يمكن الحفاظ على الماضي الذي لا يريدون أن يفقد أو يضيع مع دورة التاريخ .

المقابلة بين القديم والحديث تبدو فور اجتياز البوابة الفاصلة بين قرية فورموزا والجانب الآخر المواجه لها . هنا أنشئت حديقة أوربية رائعة على النمط الحديث ، تمتد على مساحة ستين ألف متر مربع ، تزهو بالخضرة والزهور والورود في أحواض منسقة تنسيقا بديعا ، تتناثر بينها النوافير ، بينما تتوسط الحديقة نافورة موسيقية ضخمة ، تتراقص مياهها بأشعة الليزر ، باستعراضات ملونة تقدم ٥٧٦ نوعا من التشكيلات على الأنغام الموسيقية المتباينة شرقية وغربية .

المشهد كله تطل عليه ثلاثة أبراج صينية ، أوسطها من خمس طبقات ، يرتفع إلى ٩٠٠ متر ، بينما البرجان الآخران من ثلاثة طوابق . الإطلالة من فوق البرج الأوسط تقدم مشهد متكاملا لقرية فورموزا ، ولبحيرة الشمس

والقمر ، ثم لمعالم تجربة ثقافية أخرى متميزة نطل عليها من بعيد « مجمع فوكوانج شان » .

تجربة مجمع ثقافي

« فوكوانج شان » تعني « جبل بوذا المضيء » . لفت أنظارنا ونحن نطل من فوق البرج حيث شهدنا على بعد تمثالا مذهبا هائلا ، يقوم على قمة الجبل ، قرب مدينة « كاوشنج » ، وهو يطل على ساحة واسعة تضم مجموعة من المباني متباينة الأشكال والأحجام .

قالت لنا مرافقتنا : هذا المجمع أقيم على مساحة لا تقل عن ٥٠ هيكتارا (نصف مليون متر مربع) . وهو تجربة ثقافية مثيرة من نوع خاص ، حتى ولو بدا لكم في صورة معبد بوذي !

في الطريق حدثتنا عن قصة إنشاء المجمع والرجل الذي أنشأه ، قالت : قبل اثنين وعشرين عاما ، في سنة ١٩٦٧ ، وقف الراهب العلامة شنج يون ، المسئول عن مكتب الخدمات البوذية في المنطقة ، يطل على هذا المكان الذي لم يكن سوى أرض مهملة على سفح الجبل ، تغطيها الأعشاب ، ولا تطؤها أقدام إنسان . وراح يتذكر المراحل التي مر بها منذ ترك بيته في شنجو وأصبح راهبا في سن الثانية عشرة ، ثم درس في الكلية الدينية في نانكين ، ليلتحق بعد ذلك بالدراسات العليا ، ليتخرج ، ويحصل على الدكتوراة ، ويعين مديرا لعدة مدارس ، ثم رئيسا لتحرير عدة صحف . وبعد الصراع المذهبي في الصين رحل إلى تايوان عام ١٩٤٩ . وراح يتابع طبع الدراسات البوذية ونشرها حتى تولى مسئولية مكتب الخدمات في كاوتشنج . وخطر له وهو يطل على هذه المساحة الواسعة من الأرض القريبة من مكتبه أنها مناسبة لتنفيذ مشروع طالما ملأ خياله . فقرر أن يبيع مقر مكتب الخدمات الذي كان قد أقيم بحصيلة صناديق النذور ، وأن يضيف إليها قيمة مبيعاته من الكتب والدراسات البوذية التي أخذ يطبعها بالملايين ويوزعها على أتباع البوذية المنتشرين في جميع أنحاء العالم ، حيث يتلقى منهم هبات ومعونات هائلة لتنفيذ مشروعه ، وقاد حملة ، شاركه فيها الأهالي والرهبان ، لإعداد الأرض التي أطلق عليها اسم « أرض بوذا الطاهرة » ، وبدأ بالجهد المشترك إقامة أول مباني « فوكوانج شان » عند أقدام سفح الجبل ، لتتدرج مبانيه الأخرى بعد ذلك صعوداً حتى القمة ، ليصبح خلال سنوات قليلة أضخم مجمع ثقافي ديني تعليمي اجتماعي صحي تشغل مبانيه مساحة نصف مليون متر مربع ، هو الأكثر شهرة في جميع أنحاء تايوان .

المشهد بالغ الإثارة ، وبخاصة عند قمة الجبل الذي يستقر عليه أضخم تمثال مذهب لبوذا ، طوله ١٢٠ قدما (حوالي ٣٥ مترا) ، يحيط بقاعدته ٤٨٠ تمثالا مذهبا لتلاميذه ، و ٣٠٠ تمثال لحواريه ، تمتد على طول الساحة المواجهة ، وحول جوانب الساحة أقيم ١٤ ألف و ٨٠٠ تمثال للرهبان البوذيين .

الأكثر إثارة هو المشاهد المجسدة المتتابعة في مجموعة القاعات الرئيسية التي تستقبل الزائرين ، والتي تمثل مراحل انتشار البوذية ، وحياة « جاوتامابوذا » ، وقصة الصراع بين الخير والشر ، والسبيل الخيّر للوصول إلى السمو ، وبلوغ « النيرفانا » ، من خلال اتباع طريق الفضيلة والأعمال الطيبة .

الكل في واحد

ولكن ليس هذا هو بيت القصيد بالنسبة للتجربة الثقافية المتميزة ، فالأهم هو ما أقيم في نطاق المجمع من معالم رئيسية ، تحقق الكثير من الخدمات للإنسان ، وتتناول كل مناحي

الثقافة ، بصرف النظر عن التوجه الديني . فقد تم في إحدى طبقات المجمع إقامة مدرسة ، تضم جميع مراحل التعليم من الرياض إلى التعليم العالي ، ولا يكتفى فيها بتدريس العلوم الدينية المتصلة بالبوذية ، ولكن التعليم يشتمل على المواد الحديثة ، بما فيها اللغات والرياضيات والعلوم الطبيعية والتقنية والبحثية ، ويلحق الخريجون بكلية الدراسات البوذية للحصول على درجة الأستاذية . ويسمح للقادمين من أي دولة في العالم بالالتحاق بهذه المعاهد . كما أن الإقامة والتغذية والتعليم بالمجان دون مقابل .

دراسة التمريض تهدف إلى تدعيم الهيئة الطبية في المستشفى التخصصي الذي يشكل أحد أقسام المجمع للخدمات الطبية والاجتماعية . هذا المستشفى يستقبل المرضى ، ويقوم بعلاجهم بالمجان .

يتبع الجهاز الطبي سيارات إسعاف طبية مجهزة لتلبية أي نداء لطلب العلاج . ولا يكتفي المستشفى بتلبية احتياجات المرضى ، ولكنه يزود المحتاجين منهم بالملابس والأغذية والأدوية دون مقابل . وضمن الأجنحة جناح مخصص للعجزة وكبار السن الذين يحتاجون للرعاية ، ويبحثون عن الراحة والأمان ، بالإضافة إلى جناح آخر لليتامى والأحداث ، يتلقون فيه العلم ، ويتمتعون بالحرية والسعادة والأمن الاجتماعي .

أما الجانب التثقيفي فيتم من خلال المكتبة التي تضم عشرات الآلاف من الكتب الدينية والأدبية والاجتماعية والعلمية والدراسات البوذية ، ومن خلال قسم خاص للنشر وطباعة الكتب بإشراف الجمعية الثقافية . كما يوجد متحف يضم الآثار التراثية للبوذية والمعروضات التاريخية التي تحكي تاريخ الحضارة في البلاد .

على الرغم من أن هذه التجربة الحية تقوم بها مؤسسة دينية بوذية فإنها نموذج يمكن أن يحتذى به لدعم الجهود الثقافية في أي مجتمع يؤمن بقيم الحياة وحرية البشرية . □





● تمثال بوذا ، وطوله ٣٥ مترا تحيط به تماثيل تلاميذه في مجمع فوكوانج شان . أما الصورة الثانية فلإحدى فتيات قبيلة آمي وهي تجتاز بقاربها النهر .

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



ضرورة فحص الطفل عند ولادته



أزمة المرأة في الأربعين

بين الحنين إلى الصبا الراحل ، والخوف من الشيخوخة القادمة ، تقف المرأة على حافة الأربعين ، خائفة ، يزيدها الخوف ذبولا ، فتقف حائرة بين العمر المنتصر والعمر المنكسر .

بقلم : نجوى قلعجي

مسكينة المرأة عندما تدرك سن الأربعين ، فمنذ الثلاثين يبدأ القلق والكآبة بغزوها خوفا من أفق الأربعين الشاحب . والنوادر التي تحكى عن علاقة المرأة بالعمر وتشبثها بالصبا لا تحصى ولا تعد ، ويقال : إنه ما من امرأة تعترف بوصولها إلى الثلاثين . وهذا واقع وليس مجرد نادرة تروى للتسلية . في السبعينيات وفي بيروت رغبت ذات مرة باجراء تحقيق صحفي حول هذا الموضوع مع عدد من النساء ، فأجريت اتصالا مع نساء من مختلف المجالات : كاتبات ، شاعرات ، رسامات ، ربات بيوت ، وسكرتيرات ، ولقد فوجئت أن نسبة عالية منهن رفضن هذه التهمة التي وجهتها إليهن أي «أنهن بلغن الأربعين» ، ولازال صوت إحداهن يرن في أذني وهي تجيب بغضب : «من قال لك إني في الأربعين» وأغلقت سماعة الهاتف دون أدنى مظهر للباقة . لكن المرأة التي تعاني أزمة العمر تحيا مأساة حقيقية ، تغطيها أحيانا بمثل هذا التصرف الإنكاري . لذا لا يصح الاكتفاء بإلقاء النوادر . فعلاقة المرأة مع العمر علاقة درامية .

فات أوان قوس قزح

إن مشكلة العمر عند المرأة مشكلة جوهرية، لا يعانيها الرجل بهذه الحدّة ولا بهذا الألم، بل على العكس تماما، فالرجل يبلغ استقراره العاطفي والمهني، في هذه السن «أي في الأربعين»، وانطلاقا من هذا العمر الناضج يبدأ بالتدرج المريح نحو قمم النجاح والسعادة، وفي هذا المجال يقول الفيلسوف برتراندراسل: إن الدبلوماسي والسياسي يتطور نحو مزيد من الوعي والتفهم ليدرك كمال ليونته الفكرية في السبعين. ونقيض هذا التطور المتنامي للرجل وخاصة بعد الأربعين، فإن هذا العمر الحرج يبدو بالنسبة للمرأة غالبا أضخم من سور الصين، بل هو حاجز لايمكن تجاوزه. ذات مرة قالت لي امرأة أربعينية وهي تقف بحسرة أمام واجهة لبيع الألبسة تنظر بحسرة إلى قميص وردي اللون «فات الأوان»، وعندما قلت لها: إذا كنت ترغبين في ارتدائه فلماذا لاتشترينه؟ أجابت: «لقد رأتني والدتي منذ سنتين أرتدي ثوبا ورديا، فنهرتني قائلة: دعي هذه الألوان لابنتك، إنها لم تعد تليق بك، لقد كبرت وهذه المرأة صادقة حقا، فإن الربيع ممنوع عليها بكل معانيه ومظاهره طالما أنها دخلت تحت سقف الخريف المنذر بغيوم الشيخوخة الرمادية، وهكذا تنسحب ألوان قوس قزح من المرأة التي تبلغ الأربعين ولا يبقى لها إلا لون الحسرة على ماضي الشباب وأيامه، وعلى الرغم منها تصاب بالشحوب، وتهبط حيويتها النفسية وشعورها بالفرح،والأهم من ذلك أنها تفقد أهمية وجودها وجدارتها في الحياة.

وهكذا تعنف «سميرة» (٥٠ عاما) شقيقتها «زهرة» (٤٥ عاما) لأنها تفكر بعد زواج أولادها أن تتعلم الخياطة، وتطمح إلى المزيد، تقول: ماذا لو تعلمتُ العزف على العود؟ فتسخر شقيقتها وتجيب: لستِ في حاجة إلى المال لتتعلمي الخياطة، ثم ألم تسمعي المثل الذي يقول: «بعد أن شاب ذهب إلى الكتّاب»! وما معنى أن تتعلمي العزف على العود، دعي هذا للمراهقات.

لكن «زهرة» أصرت لأنها اسم على مسمى، فهي تتجدد في كل فصل قالت: لاأريد أن أنطفىء مثل سراج انتهى زيته، إنني أحس بطاقة تنير أكثر من قنديل، فالحاجة المادية لاتدفعني إلى تعلم الخياطة، بل رغبة في اعطاء معنى لحياتي اليومية، أن استيقظ وليس أمامي الجدران التي تقول لي بشماتة: إنني أصبحت مثلها باردة، حمقاء بلهاء، بل أريد إنجاز أمر ممتع ومفيد يشعرني بأنني مازلت على قيد الحياة. فدليل الحياة ليس التنفس فقط، بل حيوية النفس. أما عزف العود فهذا حلم قديم منعني عنه زواجي المبكر، وشغلي بتربية الأولاد، واليوم وبعد أن أتممت واجباتي الأسرية، ماذا يمنعني من تحقيق هواية بريئة حيث أعبر من خلالها عن مشاعري وأبث أوتار العود همومي وأحلامي التي تحققت والتي لم تتحقق؟

«زهرة» نادرة بين النساء في موقفها من هذا العمر، ندرة زهرة الزنبق في حديقة مهجورة. فأكثرية النساء يستسلمن لكآبة وحزن سقيمين، ويدخلن في عمر عقيم ويخضعن لآراء الآخرين، وأكثر من هذا «يصبحن حساسات لأقل نظرة وأبسط ضحكة». أجل إن المرأة في الأربعين تصبح مثل زهرة شقائق النعمان الهشة، سريعة الانفراط تحت سياط النظرات اللاذعة، وتعيش حياة السقم والغم والعقم والعتم.

لاعمر للرجل وخمسة أعمار للمرأة

تقول «ميني غريغوار» وهي كاتبة عالمية مشهورة في الصحافة مهتمة بشئون المرأة : «ليس للرجل عمر ، لكن النساء يعشن بعمر مقسم على مراحل خمس : عمر المراهقة اللذيذ ، حيث رأسها ممتلىء بالأزهار ، وحذاؤها مسطح يداعب التراب ، هذا العمر ليس بعد أنوثيا ، ولايستمر لأكثر من خمسة عشر عاما . وفي العمر الثاني تنضج ثمار الرأس وتعطي رحيقها ، ويصبح هاجس الفتاة حبا وزواجا وأطفالا وتلتهم هذه الاهتمامات المرأة وتشغلها خلال خمسة عشر أو عشرين عاما .

ويأتي العمر الثالث : الذي يفاجىء النساء غالبا بمجيئه في الفترة الزمنية بين ٣٥ و٣٦ عاما حيث تضعف هرمونات الجسد الأنثوية وينتاب النساء شعور بأنهن على هامش أنوثتهن الخاصة ، رغم ذلك يبقى هذا العمر مقبولا ، فالوجه مازال مشرقا دون تجاعيد ، والحياة اخذت طريقها للاستقرار العاطفي والعائلي حيث تم بناء الحب والزواج والأولاد .

أما العمر الرابع : والذي تسميه «ميني غريغوار» «عمر العزلة» وعمر الهجرة والتخلي ، حيث تبلغ المرأة الأربعين ويأتي هذا العمر للمرأة كاكتشاف لايشبهه الحب والزواج والأولاد ولكن اكتشاف أمر تجهل بالضبط ما هو ، ولا تعرف كيفية تحديده .. كيف لا ؟! وهو زمن اكتشاف العزلة والوحشة والهامشية وهجر الأولاد وتخلي الزوج عن نظرات الإعجاب والرغبة .. لكن هناك بعض النساء يتجاوزن هذه المرحلة بسلام ويحولنها إلى عمر للطمأنينة .

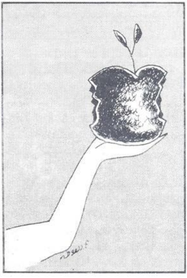
وبشكل عام فهذه هي مرحلة القلق الوجودي الكبير في حياة المرأة ، فالقلق يتصاعد يوميا مع اقتراب العمر الخامس ،عمر الشيخوخة الذي يأتي ليغلق حلقة المصير حيث تذهب المرأة تاركة خلفها «صورة» صباها - وهي تبتسم طبعا - معلقة فوق جدار غرفتها .

وكما رأينا فإن أطول عمر هو عمرها الرابع وأصعب عمر نوعيا هو العمر الرابع أيضا ، ولكن هذه حقيقة يخفيها الرجال والنساء ولا يتكلم أحد عنها وغالبا ما يسيِّجها صمت قاتل .

بيد أن «ميني غريغوار» تعقب مطمئنة النساء ، أن الاربعين هو «العمر الذي يمكن أن تكون فيه المرأة جميلة أيضا» وقد سبقها إلى هذا القول مثل شعبي قديم «إن الاربعين زهر البساتين» ويؤكد ذلك حديث الكثيرين ومنهم



كيركغارد الفليسوف ، الذي يرى أن جمال الروح أهم من جمال الجسد وأبقى . ورغم ذلك فالقول باستمرار الجمال بعد الأربعين في الوجه والقامة أو في انتقاله إلى النفس ، هو مجرد اعتقاد من شأنه تخفيف القلق وليس إلغاؤه . أما لماذا ؟ فلأنه يبقي المرأة كائنا للزينة فلا يصل لعمق المشكلة ولايمسك بجذورها ، وقد يكون من الأفضل رؤية الوضع النسائي في هذا المجال كما هو عليه ، لايجاد حلول وضعية وموضعية لهذا الداء ، فالنساء في الأربعين غالبا يصبحن بدون مستقبل (طالما أن المستقبل محدد بأمرين : الجمال والانجاب) ولا يتحدد أمامهن غير تلاشي الذات . وللأسف الشديد فإن هاجس الأربعين تحياه المرأة قبل هذا العمر بكثير ، وهاهي «سيمون دي بوفوار» ، تكتب «ذات يوم وأنا في الأربعين ، فكرت قائلة ، هاهي الشيخوخة في عمق المرأة ترقبني» إذ مهما تباين عمر المرأة ، ومهما تنوعت بيئتها الاجتماعية ، يبقى هذا العمر في كيانها هاجسا يردد أصداء مزعجة .



من الهامش إلى المتن

في إحصاء قام به «هارولد بورتنوا» (وهو أحد المهتمين بمجالات علم النفس والتربية في الكلمة المكتوبة والمسموعة في فرنسا) تقول طالبة لايتجاوز عمرها ١٩ عاما : «لاأستطيع أن أتصور نفسي في الخمسين ، هذا أمر محزن جدا إن الناس الذين بلغوا هذا العمر ، والذين أشاهدهم حولي هم منطفئون يحيون على ذكرياتهم وليس لديهم من أمل بشيء ، هذا فظيع» .

وهذه شهادة امرأة متزوجة ، أم لثلاثة أولاد ، زوجها معلم مدرسة ، وهي لاتعمل وتبلغ ٣٣ عاما تقول : «لدي انطباع أنني أقف على قمة وأنه ابتداء من الآن لن أفعل شيئا غير الهبوط» .

وفي هذا الصدد تقول الكاتبة «كوليت اودري» .

«إن امرأة تهرم ، هي امرأة لم تعد تصلح لشيء وتعيش ماتبقى من حياتها على الهامش» .

ماذا نقول بعد ؟! إن كلا من أطباء الصحة وأطباء الأمراض النسائية يؤكدون أن الأربعين هو عمر النضج الجسدي والصحي للمرأة ، حتى أن أزمة انقطاع الحيض لاتشكل أزمة إلا على صعيد التناسل ، فطاقة المرأة بعد انقطاع الحيض تصبح أكبر وأشد تركيزا ، في هذا المجال يبين الدكتور «ويليام براون» (وهو محلل نفسي أميركي اهتم بهذا الموضوع وآثاره الجسدية والنفسية) أن عددا كبيرا من النساء اللامعات

كن هشات وضعيفات قبل سن الخامسة والأربعين وأن طاقتهن لم تنطلق إلا مع هذه السن ويذكر منهن : القديسة «تيريزا دافيلا» و«فلورانس نايتنغيل رائدة الصليب الأحمر» «وجين آدامز» التي حازت على جائزة نوبل عام ١٩٢١ لجهودها من أجل السلام وحقوق المرأة «ودوروتيه ديكس» التي ناضلت حتى أقرت الولايات المتحدة أول شروط قانون حماية المعوقين والسجناء .

العمر المنتصر والعمر المنكسر

وإذا كان الطب قد بدأ يرى أن عمر الأربعين يمكن أن يشكل مرحلة السنوات الذهبية بالنسبة لصحة المرأة وطاقتها ، فان عالم الاقتصاد يضيف بعد أن يطالع احصائيات العمل النسائي أن هذا العمر «هو زمن العمل وزمن المردود» كذلك فإن عالم الاجتماع يرى فيه عمر اللباقة ، وعالم النفس اصبح بمستطاعه أن يرى فيه عمر التوازن الأفضل .

لكن النساء يبقين محشورات بين عمر بناتهن اللواتي بلغن الخامسة عشرة وعمر امهاتهن اللواتي بلغن الستين ويقفن في الأربعين بين العمر المنتصر والعمر المنكسر خائفات لاعمر لهن ولا لون ، يزيدهن الخوف من الذبول شحوبا وذبولا ، يعشن بين حنين إلى الصبا الراحل وخوف من الشيخوخة القادمة . لا يجرؤن على البوح بما يعانينه من ضياع . وتكاد تسر الواحدة منهن لنفسها : أجل ، الأولاد ماعادوا بحاجة لرعايتي لقد أتموا تعليمهم أو تزوجوا ، والزوج بدأت غيرته تخف ونظرته الولهى تجف فما معنى حياتي !.

كلمة أخيرة لحديث يلزم أن تكون له خلاصة : تماما كما أن المرأة تتساوى مع الرجل في البقاء فهي تتساوى معه في النماء وإذا كانت ثمة فروق في التكوين الجسدي والنفسي بين المرأة والرجل فإنهما يتساويان معا في البقاء وفي النماء ، في حق العيش والارتقاء ، وأول حق من حقوق المساواة بين المرأة والرجل في الشروط العامة هو حق المساواة في العمر ، فتماما كما يكتمل نضج الرجل في الأربعين وتبدأ مسيرته نحو تفتح طاقاته ونحو ذروة عطاءاته ، كذلك ليكن هذا العمر بالنسبة للمرأة نقطة بداية وليس نقطة نهاية .

وعلى المرأة قبل الرجل - وهذه مشكلتها هي - أن تعي أن نضجها يبدأ من الأربعين ، فلتكن هذه المرحلة من العمر لدينا انطلاقة جديدة نحو السنوات الأكثر طولا والأكثر غنى ، إذ بعد أن عاشت كلياً لأجل الزوج والأولاد ، تستطيع أن تلتفت قليلا إلى ذاتها ، وأن تستعيد ماضيعته من هوايات واهتمامات ، وبعد أن أدت واجبها نحن الزوج والأولاد ، أصبح بمقدورها ان تنظر إلى واجبها تجاه نفسها ، فترتقي بنفسها نحو الاهتمام بصحتها ورشاقتها والاهتمام بذوقها ومعرفتها والاهتمام بدائرة أوسع من دائرة الزوج والأولاد،الاهتمام بالمجتمع،حتى تكون الأربعون عتبة مرمرية تجتازها لتحقيق ماسمي حقا عمر الذوق واللباقة . □





فحص الطفل عند ولادته ضرورة ملحّة

بقلم : الدكتور عمر فوزي نجاري

فرحة الأم بقدوم مولود جديد إلى الأسرة ، ينسيها شهور الحمل الطويلة ، وما صاحبها من مشاكل صحية ونفسية ، ولكي تدوم السعادة لا بد من الإسراع لإجراء كشف طبي مبكر على صحة المولود للاطمئنان على سلامته ، وتجنيبه الكثير من المشاكل التي قد تترتب على إهمال مثل هذه القضية .

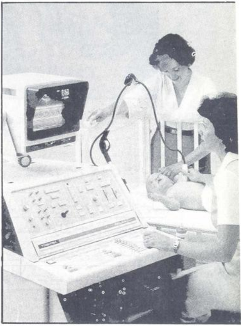
يقاس تقدم الأمة ورقيّها حسب مغاير اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية وصحية . ولعل المقياس الصحي من أبرز هذه المعايير ، حيث تظهر نسبة المواليد إلى نسبة الوفيات في بلد ما ، مدى رقيّ الأمة وتطورها .

وتكون هذه النسبة عادة منخفضة في البلدان المتقدمة ، فالطفل منذ ولادته يخضع لرقابة صحية جيدة ، ولضمان صحي جيد ، كما تشكل الولادات في المستشفيات أكثر من ٩٠٪ في تلك البلدان ، بينما لا تتجاوز هذه النسبة في بلدان العالم الثالث ٥٪ ، وهذا يعني أن غالبية المواليد في البلدان المتقدمة يخضعون منذ الولادة للكشف الطبي المبكر من قبل أطباء مختصين .

بينما لا تتجاوز نسبة الأطفال الذين يكشف عليهم عند الولادة في البلدان النامية ١-٢٪ ، ذلك أن الكشف الطبي الأول للطفل حتى في الولادات التي تتم في المستشفيات لا يشمل جميع الولادات ما لم يطلب الأهل ذلك ، أو ما لم تلاحظ على الطفل مشكلة مرضية .

أسرع للفحص المبكر :

لعل من الضروري هنا التأكيد على أهمية الكشف الطبي المبكر على صحة الطفل الآنية ، وعلى مستقبله الصحي بعامة ، لما قد يكشفه هذا الفحص الأولي من مشاكل صحية قد يكون



● جهاز للكشف عن صحة الطفل داخل رحم الأم.

علاجها الباكر وتدبيرها الآني منقذا لحياة الطفل. وكثيرا ما أتذكر حالات لأطفال تم إنقاذهم من موت كان محققا لو تأخر الأهل بعرض طفلهم على الطبيب، ومن هذه الحالات - على سبيل المثال لا الحصر - طفلة لها من العمر أربعة أيام، راجعني أهلها لأن ابنتهم لم تتغوط على الرغم من مرور أربعة أيام على ولادتها. وبسؤال الأهل تبين لي أن الطفلة تعاني من اقياءات صفراوية مستمرة، وبفحص الطفلة لوحظ وجود انتفاخ في البطن مع كبر حجمه، وبالكشف على فتحة الشرج تبين لي غياب فوهتها، وهذه الحالة تعني وفاة محققة للطفلة، ما لم يتم إجراء عمل جراحي اسعافي لها لإيجاد فتحة شرجية للطفلة. وقد تم ذلك وتحسنت حالة الطفلة، وهي الآن تمشي على قدميها.

من المسئول ؟

إن الاهتمام بصحة الطفل الوليد تبدأ من تكوينه في رحم أمه، وحتى اكتمال نموه وولادته، ولهذا نوصي الحوامل بمراجعة الطبيب بشكل دوري أثناء الحمل، لمراقبة حملهن وتزويدهن بالتعليمات والنصائح المناسبة، ولعل بعض أهم هذه الارشادات، العناية بالتغذية الجيدة من أجل صحة الحامل والجنين معا، والامتناع عن التدخين والمشروبات الكحولية، لما لها من تأثير ضار على صحة الأم والجنين. وتعد هذه من أهم الأسباب المؤدية للخداج ولولادة أجنة ناقصة الوزن مقارنة مع أقرانهم. وننصح الحوامل بعدم تناول أي دواء دون مشورة الطبيب، خاصة خلال فترة الحمل الأولى لما قد تسببه بعض الأدوية من تشوهات في الأجنة التي كثيرا ما نشاهدها في ممارستنا اليومية.

ولا شك في أن فترة الولادة من أهم الفترات التي تؤثر على المستقبل الصحي للطفل. ولذا يتوجب أن تتم الولادة في المشافي المختصة، وبإشراف اختصاصيين كي يتم اتخاذ الإجراءات الصحية المناسبة في حال حدوث طارىء ما، وهذا ما لا يمكن اتخاذه إذا ما تمت الولادة في منزل ناء أو قرية بعيدة.

تشوهات واضحة

ومن المشاكل التي قد يتعرض لها الأطفال حديثو الولادة ما هو ناجم عن ظروف الوضع كالورم الدموي الناتج عن انضغاط فروة الرأس بين جمجمة الطفل وحوض الأم ، ويظهر على شكل انبعاج في قمة الرأس غالبا ، وهو انبعاج طري القوام ذو حواف عظمية قاسية الملمس . وغالبا ما يزول هذا الانبعاج تلقائيا خلال فترة قد تصل إلى الأسبوعين ولا يحتاج لأي علاج .

هناك التشوهات الخلقية الولادية ، وهي الأسوأ ، كالتشوهات المشاهدة في الوجه المعروفة باسم « شفة الأرنب » وهي عبارة عن شق في الشفة العليا للطفل قد يمتد فيشمل قبة الحنك وقد يصل إلى اللهاة . ومثل هذا التشوه يحتاج لعلاج جراحي ولعناية تمريضية جيدة .

ومن التشوهات الأخرى المشاهدة ما يعرف باسم الأقدام القفداء الروحاء ، وهو تشوه خلقي أيضا يصيب ناحية القدمين ، ويظهر بميلان القدم نحو الداخل والأسفل ، ويبدو كأن الطفل يقف على حافة قدمه بدلا من أخمصها .

وهذا التشوه يصيب الأنسجة الرخوة للقدم ، فإذا أهملت معالجته إلى سن متأخرة ، يؤدي إلى تشوه في شكل عظام القدم ، ومن هنا كانت المعالجة الباكرة ضرورية جدا ، إذ كلما بكرنا في معالجة الطفل كانت المعالجة أجدى .

وأخرى خفية

ومن الأمراض التي قد تصاحب المواليد ، أمراض القلب مثلا ، كالثقب بين البطينين ، والثقب بين الأذينين ، وبقاء القناة الشريانية ، وهناك أيضا التشوهات المختلفة التي قد تحدث على مستوى الأنبوب الهضمي كالنواسير القصبية المريئية ، وغياب لمعة الأمعاء والانفتالات وغياب فوهة الشرج . وهذه التشوهات الخفية جميعها لا يمكن كشفها إلا من قبل طبيب مختص وقد يكون منقذا لحياة الطفل في بعض الحالات .

ومن التشوهات الأخرى المهمة التي قد يتأخر اكتشافها إلى ما بعد الفحص الدوري الأول ، وربما الثاني هو خلع الورك الولادي ، وهو آفة خلقية مزعجة جدا للطفل وأهله ، لما يسببه من اضطراب نفسي ، ولما يتركه من تشوه جمالي وجسماني ، ومن إعاقة لحركات الطفل الطبيعية ، هذا إذا تأخر اكتشاف المشكلة وتأخر بالتالي العلاج . وهنالك أيضا رباعي فاللو وهو مرض خلقي يصيب القلب ، وقد لا يكشف من الفحص الفيزيائي الأول للطفل ، إذ غالبا ما يتم اكتشافه بعد فترة من الولادة . وفيه لا يشفى المريض إلا بإصلاح العيب الخلقي جراحيا .

وهنالك أيضا الفتوق على اختلاف أشكالها ، كالفتق السري الذي يحدث في منطقة السرة ، والذي يتأخر ظهوره إلى ما بعد سقوط السرة لدى الطفل (الفتوق الصغيرة) .

أهمية الفحص الدوري :

تنبع أهمية الفحص الدوري للطفل خلال السنة الأولى من عمره من إمكانية هذا الفحص في كشف حالات مرضية باكرا ما أمكن ، وبالتالي اتخاذ الإجراءات المناسبة تجاه ما يمكن أن يطرأ على صحة الطفل من تدهور أو انحراف .

ولعل أهم ما في الفحص الدوري هو مراقبة نمو الطفل جيداً ، والتدخل لصالح الطفل في حالة ملاحظة أي اضطراب في نموه . □

هو.. هي

هوس ثقافي

لا أشك أبدا بذكاء زوجي ، ولا أنتقص أبدا من ثقافته ، ولا أقلل من حبه للعلم والثقافة والفن ، لكن مشكلته كما يبدو لي هي أنه لكثرة متابعاته الثقافية والأدبية نسى الحياة نفسها ، واكتفى بالنظريات والأفكار . وبدل أن يعيش الحياة كما هي ، عاش مع شخصيات الروايات التي يقرؤها ، أو الأفلام السينمائية التي شاهد منها الكثير ، وبدل أن يستمع إلى مشكلات الناس الحقيقية وهمومهم وربما أغانيهم ، هام عشقا بالموسيقا الكلاسيكية التي لا أشك بقيمتها الفنية الكبيرة ، لكنني أعتقد أنها بحاجة إلى أجواء خاصة ومزاج نفسي خاص لسماعها .

وهكذا كان علي منذ بداية حياتنا الزوجية أن أجاريه في كثير من « عاداته » الثقافية الكثيرة ، وفي الوقت نفسه بدأت أعمل على التخفيف من هذا « الهوس الثقافي » ، وحمى المتابعة التي كانت تتوزع على أكثر من مجال . ودون أن يشعر زوجي وجد نفسه منغمساً في حياة اجتماعية حقيقية ، يشاهد المشاكل الزوجية ، ويحاول أن يحلها ، ويراقب المشاكل العائلية لأصدقائنا ، ويستمع إلى اهتمامات قد لا تكون في جمال الروايات التي كان يقرؤها ، ولا في متعة المسرحيات التي كان يشاهدها ، أو في رقي الموسيقا التي كان يستمع إليها ، لكنها كانت حقيقية وواقعية ، وأهم من ذلك كله كانت مفيدة لشاب مثله خبر القراءة ، ولم يخبر الحياة ، وعاش الخيال قراءة وموسيقا ولم يعش الواقع . وشعرت بالاطمئنان وأنا أشاهد مركب حياتنا الزوجية سائراً بهدوء ، حتى كان مجيء طفلنا الأول .



عندئذ قام زوجي بمحاولته الأخيرة ليعود سيرته الأولى ، فقد ظن أن الأوان قد آن ليتركني منهمكة في رعاية الطفل ، ويعود لمشاهدة الأفلام والمسرحيات ، ومتابعة الندوات والحفلات ، لكنه نسي أنه الآن أصبح مسئولا عن طفل يبدأ خطواته الأولى على طريق الحياة ، وأن أطفالا آخرين في الطريق ليساهموا في تعمير الكون ويعطوا للحياة معنى وقيمة . وفي أحد الأيام كان زوجي منهمكا في قراءة رواية عندما بدأ طفلنا بالصراخ ، فأغلق الكتاب بهدوء ، ونظر إلى الطفل الباكي ، ثم حول نظره إلي ، وصمت قليلا ، ثم تمتم بكلمات لم أفهمها ، لكنني ميزت من بين جميع كلماته اسم « فرويد » . وقبل أن أسأله عن علاقة كل هذا بفرويد رأيته ينهض ويتوجه للطفل ويحتضنه بحنان .

.. هي



نظريّة وتطبيق

لم أكن أتوقع أن تكون النظريات التي نقرأ عنها والأفكار التي تشيع في كتب علماء النفس والاجتماع بعيدة عن الواقع إلى هذه الدرجة .

فقد كنت أعتقد بصحة نظرية فرويد التي تقول : إن حب المرأة لزوجها ينتقل بعد إنجاب الطفل الأول إلى الابن ، وأن الزوج يشعر بأن الاهتمام به بدأ يقل بالتدريج ، حتى يصل حداً قريباً من الإهمال بعد إنجاب مزيد من الأطفال . وأصارحكم بأنني كنت أخاف على نفسي من هذا المصير ، لكنني الآن بتّ مقتنعاً بعكس ذلك تماماً .

فقبل الزواج كنت أبدو في سباق مع الحياة ، أقرأ وأتابع الجديد في عالم الكتب ، وأستمع إلى المحاضرات والندوات ، وأستمع إلى الموسيقا العربية والكلاسيكية ، وأشاهد الأفلام السينمائية ، وأتابع الجديد في المسرح ، وأحب مشاهدة مباريات كرة القدم .

وقد حاولت أن أبقى هكذا بعد الزواج ، لكنه كان أمرا مستحيلا ، فمع الزواج وجدت نفسي منغمسا في عدد كبير ومتداخل من العلاقات الاجتماعية المتشابكة ، بأصدقائي ، وزملائي ، وأقاربي ، وصديقات زوجتي وزميلاتها وأزواجهن . وبالطبع كان من المستحيل استمرار متابعاتي تلك بالوتيرة نفسها ، فبدأت بالتدقيق في اختيار الأفلام السينمائية والمسرحيات التي كان عليّ مشاهدتها مع زوجتي ، وأوقفت الاستماع للموسيقا الكلاسيكية التي لا تحبها ، وتوقفت عن مشاهدة مباريات كرة القدم ، لأن زوجتي لا تطيقها ، وخفضت عدد المجلات والصحف التي كنت أقرؤها ، وأقلعت عن متابعة المحاضرات والندوات ، فلا مكان في الحياة الزوجية لكل هذا . لكنني كنت أقول لنفسي : إن هذا أمر مؤقت ، فما أن يأتي طفلنا الأول حتى تشغل زوجتي به ، وأعود سيرتي الأولى ، غير أن ما حدث كان العكس تماما .

لأن الطفل بحاجة إلى رعاية دائمة لذا فقد أضيفت إلى مهماتي بعض شؤون البيت ، والأعمال والشراء الذي ازداد مع قدوم الطفل ، ولم أعد أستطيع الخروج للسينما أو الذهاب إلى المسرح ، أو متابعة الندوات ، لأنني يجب أن أبقى مستعدا لأي طارىء قد يحدث للطفل ، ولم أتمكن من الاستماع للموسيقا الكلاسيكية لأنها تزعج الطفل النائم . وحتى قراءتي لم أتمكن من مواصلتها كما كنت آمل بسبب بكاء الطفل في أوقات غريبة ، اعتقدت فترة أنها كانت بتحريض من زوجتي .

ومع أنني كنت أخشى إهمال زوجتي لي بعد الطفل الأول والاهتمام به ، فإنه قد جاء عليّ وقت ، كدت أصرخ فيه متمنيا أن يكون فرويد على حق .

هو..



طبيب الأسرة

قضايا منزلية

ضغط الدم المرتفع
ماذا لو أهملنا علاجه ؟

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

كثير من الناس قد يخطئون في توهمهم بأن ضغط الدم مرض من أمراض الإنسان ، لأن الحقيقة أننا جميعاً لا حيلة لنا أن نعيش بمعزل عن ضغط الدم ، فهو الضمان الوحيد لتدفق أسباب الحياة واستمراريتها في كل خلية من خلايا الجسم ، حاملاً معه الغذاء والأكسجين ، ناقلاً معه الفضلات في أوبته . وربما قصدوا أن يعبروا عن ارتفاع ضغط الدم عن معدله الطبيعي فخانهم التعبير وقالوا : ضغط الدم .

ومادام هناك قلب ينبض ، وهناك دم يتدفق ، وشرايين لها جدران ذات عضلات تنقبض وترتخي ، فلابد أن يكون للدم ضغط ، فإذا مازاد أحد هذه العوامل عن حدّه فالمحصلة هي ارتفاع ضغط الدم عن معدله ، وإذا ماتدنى تعطلت أسباب الحياة .

والأطباء يذهبون الى القناعة بأن موطن العلة هو ضيق يعتري الشرايين الطرفية ، ذات المقاطع الصغيرة والمتوسطة في دورة الدم العامة في الجسم ، ولهذا فلا موضع لضغط الدم المرتفع في الأوردة أو الأوعية الشعرية أو الدورة الرئوية . كما يعدون الحد الأقصى لضغط دم إنسان بالغ طبيعي سليم هو ١٥٠ مليمتراً من الزئبق عند انقباض عضلة القلب ، لهذا سموه بالضغط الانقباضي ، ومقدار ٩٠ مليمتراً من الزئبق للضغط الانبساطي الذى يتوافق مع ارتخاء عضلة القلب .

والواقع أن ضغط دم الطفل عند ولادته يكون منخفضاً بما يقدر بحوالي ٧٥ مليمتراً من الزئبق للضغط الانقباضي ، و ٤٠ مليمتراً من الزئبق للضغط الانبساطي ، ويعبرون عنه بكسرٍ بسطه الضغط الانقباضي ، ومقامه الضغط الانبساطي ، ثم يزداد ارتفاعاً مع تقدم العمر وتوالي السنوات .

قد يذهب فريق من الأطباء الى إطلاق اسم المرض الصامت على ضغط الدم المرتفع ، لأن المعاناة فيه لا تصاحبها أعراض ولا علامات محددة واضحة المعالم تدل عليه ، وإنما هو قياس ضغط الدم العابر الذى يكشف عن هذه المعاناة مصادفة ، أما الأعراض والعلامات فتأتي متأخرة ، عند استفحال المرض ، بل ربما تكون مضاعفات خطيرة لا تحمد عقباها ، لهذا نصحوا وشددوا في نصيحتهم بضرورة الكشف المبكر والفحص الدوري .

مضاعفات القلب :

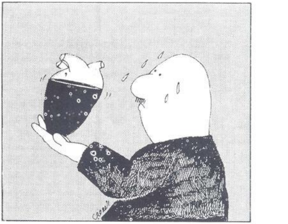
في بداية الأمر تتضخم عَضلة القلب ، حتى تتغلب على المقاومة الطرفية لدورة الدم ، بسبب ضيق الشرايين الصغيرة ، مما أحدثه

انقباض عضلات جدرانها ، ولكن دون معاناة ، وإذا ما استمر الحال وتفاقم الأمر ، وزاد ضغط الدم ارتفاعاً عن ذي قبل ، تعجز عضلة القلب عن المجاراة ، فتستسلم وترتخي وتصاب بهبوط ، وهذا هو فشل القلب الذي يعرف بهبوط القلب على ألسنة عامة الناس ، مما قد يكون سبباً شائعاً للوفاة بعد طول معاناة .

مضاعفات الأوعية الدموية :

في علم الطبيعة قانون يؤكد أن لكل فعل رد فعل ، ولهذا فزيادة ضغط الدم داخل تجويف أنبوبة الشريان تدفع عضلات الجدار الى مزيد من الانقباض ، مما يؤدى الى مزيد من ضيق مجرى الوعاء الدموي ، فتصل الحال الى أمرين أولهما حلقة مفرغة من زيادة ضغط الدم . وثانيهما دمار جدار الوعاء الدموي ، وموت عضلاته ، بل ربما انتهى الأمر الى انفجار بعد تمزق ، أو الى حدوث تجيّب وانتفاخ ، يعرف باسم « الانيوريزم » في لغة الطب .

إن العلاج المبكر المتواصل يكبح جماح ارتفاع ضغط الدم ، حتى لاينفلت الزمام من صاحبه ، كما يتطلب مواصلة العلاج واستمرارية الكشف الطبي طوال الحياة لدى طبيب مختص ، يتولى الإشراف الطبي ، وقياس ضغط الدم ، واستطلاع حال المصاب احترازاً من المضاعفات التي قد تداهم صاحبها دوما توقع ، ودون أعراض وعلامات سابقة للخطر واضحة المعالم تنذر بوقوعه .



علاج ضغط الدم المرتفع :

القاعدة الذهبية في الطب تؤكد أن علاج المرض يبدأ من البحث عن سببه ولو تقصينا أسباب ارتفاع ضغط الدم لطالعتنا حقيقة غريبة مذهلة هي : أن مابين ٨٠ - ٩٠٪ من المصابين بارتفاع ضغط الدم لانتبين لمعاناتهم سبباً محدداً أبداً ، وهذا النوع يُطلق عليه في الطب اسم ارتفاع ضغط الدم الأساسي أو الأوّلي ، ولهذا يتركز العلاج على تخفيض منسوب ضغط الدم ، والعودة به الى الحدود الطبيعية بأي وسيلة تتناسب وحال المريض وعمره .

ربما كانت هناك بعض العوامل التي يشار إليها بأصبع الاتهام ، أكدت الملاحظات مشاركتها في ترسيب المعاناة بضغط الدم المرتفع ، وهذه تؤخذ باعتبار الطبيب المعالج ، غير أن النظريات والاجتهادات لتفسير ارتفاع ضغط الدم تبقى مستثناة من الاعتبار عند علاج ضغط الدم المرتفع .

أما البقية الباقية وهم القلة من المرضى ، فقد نجد لارتفاع ضغط الدم لديهم سبباً محدداً ، فيصبح علاج هذا السبب - لو أمكن - كفيلا بعلاج ارتفاع ضغط الدم بالتبعية ، وهذا هو مانسميه ، « ارتفاع ضغط الدم الثانوي » .

فإذا ماعدنا الى ذكر العلاج فلابد أن نعود الى تأكيد البحث عن السبب واستئصاله أولاً ، غير

أن هناك طرائق عديدة أخرى، لايمكن الاستغناء عنها، خاصة إذا ماتعذر معرفة السبب في ارتفاع ضغط الدم كما هو الحال مع ارتفاع ضغط الدم الأساسي أو الأولي، ومنها :

أولاً : محاولة التخفيف من ضغوط الحياة على المصاب، سواء الضغوط النفسية، أو الاجتماعية، أو الجسمانية، وهذا يتطلب معونة الأهل والمجتمع مع الأسرة الطبية بالإضافة الى المختصين في علمي النفس والاجتماع .

ثانياً : تخفيض وزن المريض، والالتزام بحدود الأوزان الطبيعية للعمر والجنس، فالبدانة رفيق درب مستحب لارتفاع ضغط الدم .

ثالثاً : الامتناع عن تعاطي ملح الطعام أو التقليل منه بأقصى قدر ممكن، بعد أن ثبتت التهمة عليه في المساهمة في رفع ضغط الدم . والشعوب المسرفة في تناول ملح الطعام هم أكثر ضحايا هذه المعاناة .

رابعاً : العقاقير، وهذه أمرها معقد ومتشعب : تدخل في نطاق اختصاص الطبيب المعالج، وهي تتراوح بين مدرات البول وبين العقاقير التي تعطل التغذية العصبية لجدران الأوعية الدموية التي تؤدي الى توترها وانقباضها، فيصاب الإنسان بما يعرف باسم « بيتا بلوكر »، يضاف الى هذا قائمة طويلة من العقاقير المهدئة للنفس ولعضلة القلب، والعقاقير التي ترخي الشرايين وتوسع مجراها وتحد من مقاومتها لسريان الدم .

إن الأمر الذي يجب أن يدركه المصاب هو ضرورة الالتزام بما يحدده الطبيب المعالج من أدوية، وبما ينصح به، حيث لابد من الانتظام في المواعيد والاستمرارية في أخذ العلاج .

إن مريض أمراض ضغط الدم المرتفع عليه أن يتعايش مع مرضه، وأن يتحلى بالصبر الجميل على مواصلة العلاج سنين طويلة متعاقبة، بل ربما كانت رفيقة العمر كله في حال يصعب الحكم فيها بإمكانية الشفاء منها أو الخلاص من براثنها .

فربما يأتي ارتفاع ضغط الدم وهو لايحمل في حد ذاته لصاحبه معاناة ولا أعراضاً، مما يغري المصاب بالإهمال والتراخي، غير أن الغاية دائماً من العلاج هي الحذر من غدر المضاعفات التي لاترحم .

ردود سريعة

الرجال وسرطان الثدي

السيد غالب محمد - الاسكندرية - جمهورية مصر العربية

أمر سرطان الثدي مألوف ومعروف لدى النساء، لكنه لم يُعهد في عالم الرجال، واحتماله نادر، والأندر منه أن يصيب السرطان كلا الثديين معا .

وسرطان الثدي يظهر في أكثر من صورة، لكنه ينمو تدريجيا، والأغلب أن يكون صامتا بلا ألم، وتشخيصه يقوم على الشبهة، ولا يملك أي طبيب أن يؤكد الإصابة به، إلا بعد فحص عينة من الدم، تثبت وجود تغيرات سرطانية .

والصورة التي تصف بها معاناتك تبدو بعيدة كل البعد عما تتوهم، والأفضل لك استشارة طبيب مختص، ليحسم لك الأمر، وننصح بألا تذهب بعيدا مع المعاناة في صحبة الأوهام .

السيد/ عارف . ط - حماة - سورية

تلوُّن الجلد واحمراره في منطقة العجان، يوحي بالإصابة بعدوى فطرية، وهو أمر بحاجة الى كشف طبي، وعلاج مناسب، ولابد من استشارة اختصاصي الأمراض الجلدية، لكنه لا يستوجب القلق . □

مساحة ود!

عــــودة

للوهلة الأولى بدت « قريتي » هي « قريتي » ، المدخل المؤدي إلى ساحتها ، والسراي القديم الذي بقي شاهداً على وجود السلطة في هذه القرية النائية ، وبعض المنازل التي كسر الألفة بيني وبينها تقادم العهد بها ، واستحالة لونها ، ونمو الأعشاب بين حجارتها غير المنتظمة ، وإلى جانبها انتصبت بيوت ومنازل جديدة نضرة البنيان ، وارتفعت مبان عرفتها منخفضة ، وزالت مبان أخرى ، وشقت شوارع عريضة في القرية الصغيرة ، فغيرت وجه الأزقة التي عرفتها جيدا ، وتحولت الفسحات التي كانت ملاعب لأطفال ذلك الزمن إلى ساحات رحبة حديثة التصميم .

كانت تلك هي الزيارة الأولى « لقريتي » بعد أكثر من عشرين عاماً . « وقريتي » هي الاسم الذي أطلقه على هذه القرية التي عملت فيها خلال سنوات دراستي الجامعية .

لم أحاول نسج علاقات مع أحد أو مصادقة أحد من أهل القرية ، فقد كنت مهتما بدراستي الجامعية وقراءاتي الخارجية أكثر من الاهتمام بإقامة علاقات اجتماعية ، وكنت أكثر ميلاً لمراقبة القرية وهي تستيقظ مع ساعات الفجر الأولى ، ومشاهدة الحياة تدب في جسدها النائم .

لكن أهل القرية أصروا على انتزاعي من هذه الحالة غير المألوفة لديهم ، إلى أن نجحوا في إدخالي إلى عالمهم القروي البسيط ، وكأنما بترتيب مسبق وجدت الجميع يخاطبونني باعتباري واحدا منهم ، ويشيرون إلى قريتهم باعتبارها قريتي . ووجدت نفسي الحاضر الدائم في أماكن سهرهم ، وليالي سمرهم ، ومجالسهم الخاصة . وحين كان علي أن أغادر القرية لم أكن أتوقع ، ولا كانوا هم يصدقون ، أن الغياب سيستمر أكثر من عشرين عاماً .

ووقفت أتأمل وجه « قريتي » الذي تغير ، راقبت المارة والعابرين الذين بدت هيئاتهم أثناء المسير مألوفة لدي ، وخطواتهم وملامحهم ليست غريبة عني ، لكنهم لم يكونوا أهل قريتي الذين عرفتهم .

عرفت البيوت والشوارع القديمة ، لكنها لم تعرفني ، وعرفت مداخل القرية ومخارجها ، وطريق المدرسة ، وطريق الكروم القريبة ، وطريق المدينة المجاورة ، لكنها لم تألفني . هل هو تواطؤ الزمان مع المكان احتجاجا على رفضي حضن قريتي ، أم هو عقاب لي على خيانة عهد لم يكتب مع « قريتي » التي غادرتها كل هذه السنين ؟□

صلاح حزين

جمال العربية

□ صفحة لغة

بقلم : الدكتور حسن عباس

التصحيف والتحريف

الصحيفة هي التي يكتب فيها ، وتجمع على صحف وصحائف . وقد جاء في التنزيل : « إنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُوْلى صحف ابراهِيمَ وَمُوْسَى » ، ومعناها الكتب التي أُنزلت عليهما . والصحيفة إذ تجمع على صحف فذلك من باب جمع فَعِيلَةٍ على فُعُل ، كَسفِينَةٍ وسُفُن . والمُصَحِّف والصَّحَفِيُّ هو الذي يروى الخطأ عن قراءة الصحف . أما التصحيف فهو الخطأ في الصحيفة . قال فيه المعري : أصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيفة ، ولم يكن سمعه من الرجال ، فيغيره عن الصواب ، وقد وقع فيه جماعة من الأجلاء من أئمة اللغة وأئمة الحديث ، حتى قال الإمام أحمد بن حنبل : ومن يَعْرى من الخطأ والتصحيف ؟ لذلك تجد التصحيف يقل في مواضع ويكثر في أخرى ، على أن هذا الموضوع لا يخلو من طرائف وقع فيها المُصَحِّفون ، ثم انبرى بعض أئمة الأدب واللغة إلى حصرها وتصنيفها ، وقد وجدنا في بعضها فائدة لغوية فضلا عن طرافة . وإنما الذي ساعد على شيوع التصحيف قديماً أن العرب لم يكونوا يعجمون الحروف ، فلما أعجموا - أي وضعوا النقاط - زال اللبس ، وبان المعنى ، فاختفى التصحيف أو كاد . ومن هنا جاء القول الشائع : « يضع النقاط على الحروف » ، أي يبين المعنى بتحديد اللفظ وإزالة اللبس .

من ذلك ما جاء في كتاب « الصحاح » حيث يقول الأصمعي ، وهو من المقدمين في رواية الشعر : « كنت في مجلس شعبة ، فروى الحديث ، فقال : تسمعون جَرْش طير الجنة (بالشين) . فقلت : جَرْس ، فنظر إليَّ وقال : خذوها منه ، فإنه أعلم بهذا منا . والجَرْس هو الصوت ويقال : أجرس الحادي إذا حدا للإبل ، أي أصدر صوتاً .

وقد قرأ الأصمعي أيضاً على أبي عمرو بن العلاء شعر الحطيئة ، فقرأ قوله :

وغـــرّرتني وزعمتْ أنـ . . . . ـك لابِنٌ بالصيفِ تَامِرُ .

أي كثير اللبن والتمر ، فقرأها « لاتَنِي بالضيف تامُر » ، وهو يريد بذلك أنك لا تتوانى عن ضيفك تأمر بتعجيل القِرى إليه .

فقال له أبو عمرو : أنت والله في تصحيفك هذا أشعر من الحطيئة !

وقد روى أبو بكر بن الأنباري عن أبيه قوله : قرأ القَطْرُبُلِّي المؤدب على ثعلب بيت الشاعر الأَعْشَى :

فلو كنت في جُبٍّ ثمانين قامة
ورقيتِ أسباب السماء بسُلَّم

فقرأ في « حَبٍّ » (بالحاء المهملة) فقال له ثعلب : خرب بيتك ! هل رأيت حباً قط ثمانين قامة ! إنما هي « جُبٌّ » .

وفي كتاب « نزهة الألباء » قال أبو الحسن الطوسي : « كنا في مجلس اللحياني ، وكان عازما على أن يملي نوادر ضعف ما أملى ؟ فقال يوماً : تقول العرب : مثقل استعان « بذقنيه » . فقام إليه ابن السكيت وهو حدث (صغير) وقال : يا أبا الحسن ، إنما تقول العرب : مثقل استعان « بدقّيه » ، وهم يريدون أن الجمل إذا نهض للحمل وهو مثقل استعان بجنبيه . فقطع الإملاء . فلما كان في المجلس الثاني أملى : تقول العرب هو جاري « مكاشري » . فقام إليه ابن السكيت أيضاً وقال : أعزك الله ! وما معنى مكاشري ! إنما هي « مكاسري » (بالسين المهملة) أي كسر بيتي إلى كسر بيته . قال فقطع الإملاء ، فما أملى بعد ذلك شيئاً » .

وجاء في كتاب « ليس » لابن خالويه : الناس كلهم قالوا : قد بلغ فيه الشيب ، اذا وخطه القتيد (وهو أول ما يظهر من الشيب) إلا ابن الأعرابي ، فإنه قال بلغ (بالغين المعجمة) وصحّف . وهذا الكلام يعزى إلى رؤ بة ، وذلك أنه قال ليونس النحوي : إلى كم تسألني عن هذه الخزعبلات . . . وقد بَلّغَ منك الشيب ؟

ويرد في كتاب « الأمالي » لأبي علي القالي قول الأعشى :

تروحُ على آل المُحلّقِ جفنةٌ
كجابيةِ « الشَّيخِ » العراقيِّ تَفْهَقُ

وكان أبو محرز يرويه كجابية (السَّيح) ويقول : « الشيخ » تصحيف ، والسَّيح هو الماء الذي يسيح على وجه الأرض .

وجاء في كتاب ابن خالويه أيضا :

جمع المفضل والأصمعي مجلس فأنشد المفضل :

وذات هِدْمٍ عارٍ نواشِرُها
تصمِّتُ بالماءِ تَوْلباً جَدِعا

فقال الأصمعي : صحّفت ، إنما هو جَدِعًا ، أي سيء الغذاء ، فصاح المفضل ، فقال له : والله لو نفختَ في ألف شبّور لما أنشدته بعد هذا إلا بالدال . أما لسان العرب فيورد في مادة جَدَعَ الشرح التالي : جدع الغلام يجدع : ساء غذاؤه .

وقال الزبيدي : حدثني قاضي القضاة منذر بن سعيد قال : أتيت أبا جعفر النحاس فألفيته يملي في أخبار الشعراء شعر قيس بن معاذ المجنون حيث يقول :

خليليّ هل بالشام عينٌ حزينةٌ
تُبكّي على نَجدٍ لعلّي أُعينها
قد أسلمها الباكون إلا حمامةً
مُطوّقةً باتت وبات قرينُها

فلما بلغ هذا الموضوع قلت : باتا يفعلان ماذا ؟ أعزك الله ! فقال لي : وكيف تقول أنت يا أندلسي ؟ فقلت : بانت وبان قرينها . ويروي ابن فارس في المجمل عن محدثيه بيتاً أنشده أبو عمرو بن العلاء :

فما جَبُنُوا أنّا نَشُدُّ عليهمُ
ولكن رأوا ناراً تَحُسُّ وتَسْفَعُ

قال : فذكرت ذلك لشعبة فقال : ويلك ! إنما هو

فما جَبُنُوا أنّا نَشُدُّ عليهم
ولكن رأوا ناراً تحش وتسفعُ

قال الأصمعي : وأصاب أبو عمرو وأصاب شعبة ، ولم أر أحداً أعلم بالشعر من شعبة . أما المعنى فهو : تحشّ : توقد ، وتحس : تمس وتشوى ، وكلاهما تفيد معنى .

وذهب أبو عبيد في قولهم « لي عن هذا الأمر مندوحة » ، أي متسع ، إلى أنه من قولهم : انداح بطنه ، أي اتسع ، وهذا غلط وتصحيف ، لأن انداح : انفعل ، وتركيبه مُندوح ومَنْدُوحة على وزن مَفْعُولة ، وهي من تركيب نَدَحَ . والنّدح : جانب الجبل وطرفه وهو إلى السعة ، وجمعه أنداح . أفلا ترى إلى هذين الأصلين تبايناً وتباعداً ؟ فكيف يجوز أن يشتق أحدهما من الآخر ؟ □

جمال العربية

□ صفحة شعر
□ هكذا غنى الأدباء

عَذلتُ أهلَ العِشقِ حتى ذقتُه !

للمتنبي

يحار من تناط به مهمة اختيار قصيدة من جيد شعر المتنبي . فإذا تصفح الديوان وقف أمام عيون الشعر ودرر الكلام وذخائر الحكمة ، لا يعرف أي القصائد يختار وأيها يدع . ولكن الذي يغرى في هذه القصيدة التي وقع عليها الاختيار أنها تحمل من خصائص شعر المتنبي الكثير .

والمتنبي هو شاعر العربية الأشهر ، ظل على ألف عام أو أكثر شغل الناس ، وموضع الإعجاب والخصومة ، فيه تختلف الأجيال ، وحول شعره ونفسه الكبيرة يحتدم النقاش والجدل . وما أكثر الآراء التي قيلت فيه ، والأوصاف التي خلعت عليه . إنه أحمد بن الحسين . . الكوفي الشاعر المعروف بالمتنبي . كان أبوه يعرف بعيدان السقا . وكان مولد أبي الطيب في الكوفة سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م . واختلف في تسميته المتنبي ، منهم من عزا ذلك إلى ادعائه النبوة ، ومنهم من قال غير ذلك . كان « يخبط القبائل » كما قال هو نفسه ، أي ينتقل بينها ، وانتقل كذلك إلى بغداد وحلب وغيرها من بلاد الشام ومصر وبعضا من بلاد فارس .

قال هذه القصيدة في صباه يمدح بها أبا المنتصر ، شجاع بن محمد ، ولم يقتصر فيها على المديح ، بل جاوزه إلى وصف حاله وهو المحب العاشق . وانتقل إلى الحديث عن الحكمة التي استمدها من تاريخ الغابرين ، حتى بلغ الغاية من القصيدة وهي المديح . والقصيدة تفيض حيوية واندفاعا وإقبالا على الدنيا . هاهو يخوض تجربة الحب بكل تبعاتها من سهد وأرق ، حتى تبلغ فيه الصبابة غايتها واكتمال معناها . فإن غاية الشوق أن يبدو المحب على النحو الذي تصوره أبيات القصيدة ، وهو شوق تكل نار الغضى عن أن تحرق بمثل ما تحرق ناره ، وتنطفيء دونه ! وتعمل عوامل الطبيعة على إذكاء تلك النار ، فإذا لمع البرق ، أو تغنى الطائر ، أعاد له الذكرى حية قوية على أشد ما تكون الحياة والقوة .

ينتقل الشاعر بعد هذه المقدمة نقلة مفاجئة إلى الحكمة ، فيرى أن الناس يقيمون في منازل يتفرق أهلها عنها بالموت . ويضرب المثل بالملوك الغابرين ، ممن جمعوا الأموال الطائلة ، وحشدوا الجيوش الجرارة ، فذهبوا وذهبت ، وانتهى المطاف بهم إلى قبور ضيقة ، يرين عليها صمت حزين ، كأن الكلام قد حرم على أهلها . والحكمة المستفادة من ذلك كله هي أن الموت آت وإن كانت النفوس عزيزة ، والعاقل الفطن من لا يغتر بما جمع أو حشد .

يقف الشاعر وقفة قصيرة عند ذكر الشباب ، فيذكر فيه سواد الشعر قبل المشيب ، ونضارة الوجه وحسنه ، فيبكي هذا الشباب قبل زواله ، حتى يكاد جفنه يضيق بدموعه .

يجتمع للقصيدة كما بدت لنا صفات من القوة والضعف ، على أن صفات القوة فيها أظهر وأرجح ، فهي ـ على جزالة ألفاظها وفصاحة لغتها ـ سهلة يسيرة المنال ، وقد توافر لها من الصور الشعرية ومن الحكمة ما يضعها في مصاف روائع المتنبي ، ولكن انتقالها المفاجيء من وصف إلى وصف ، ومن أجواء شعرية إلى أخرى ، دون تمهيد ، هو أكثر ما يؤخذ عليها .

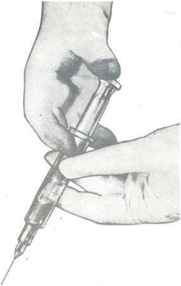
أَرَقٌ عَلَى أرق ومثلي يَأْرَقُ ... وَجَوًى يزيدُ وعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ(١)
جُهْدُ الصَّبَابَةِ أنْ تكونَ كما أُرَى ... عينٌ مسهَّدةٌ وقلبٌ يَخْفِقُ(٢)
مَالاَحَ بَرْقٌ أوْ تَرَنَّمَ طائرٌ ... إلا انْثَنَيْتُ وَلِي فؤادٌ شَيِّقُ(٣)
جَرَّبْتُ مِنْ نارِ الهَوَى ما تَنْطَفِي ... نارُ الغَضَى وَتَكِلُّ عَمَّا تُحْرِقُ
وَعَذَلْتُ أهْلَ العِشْقِ حتى ذُقْتُهُ ... فَعَجِبْتُ كيفَ يموتُ مَن لا يَعْشَقُ
وَعَذَرْتُهُمْ وعرفتُ ذنبي أنني ... عَيَّرْتُهُمْ فلقيتُ فيه ما لَقُوا
أَبَنِي أَبِينَا نحنُ أهلُ منازلٍ ... أبداً غرابُ البينِ فيها يَنْعِقُ(٤)
نبكي عَلَى الدنيا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ ... جَمَعَتْهُمُ الدنيا فَلَمْ يتفرقوا
أينَ الأكاسرةُ الجبابرةُ الأُلَى ... كَنَزُوا الكنوزَ فما بَقِينَ ولا بَقُوا
مِنْ كُلِّ مَنْ ضاقَ الفضاءُ بجيشِهِ ... حتى ثَوَى فحواهُ لحدٌ ضَيِّقُ(٥)
خُرْسٌ إذا نُودُوا كأن لَمْ يَعْلَمُوا ... أنَّ الكلامَ لَهُمْ حلالٌ مُطْلَقُ
والموتُ آتٍ والنفوسُ نفائسٌ ... والمُسْتَغِرُّ بما لَدَيْهِ الأَحْمَقُ
والمرءُ يَأْمُلُ والحياةُ شهيةٌ ... والشيبُ أوْقَرُ والشبيبةُ أنْزَقُ
وَلَقَدْ بكيتُ على الشبابِ وَلِمَّتِي ... مُسْوَدَّةٌ وَلِمَاءِ وجهي رَوْنَقُ(٦)
حَذَراً عليهِ قَبْلَ يومِ فِرَاقِهِ ... حتى لَكِدْتُ بماءِ جَفْنِي أَشْرَقُ
أَمَّا بنو أَوْسِ بنِ معنِ بنِ الرِّضَا ... فأعزُّ مَنْ تُحْدَى إليه الأَيْنُقُ(٧)
كَبَّرْتُ حولَ ديارِهِمْ لَمَّا بَدَتْ ... منها الشموسُ وليسَ فيها المَشْرِقُ
وعَجِبْتُ مِنْ أرضٍ سَحَابُ أكُفِّهِمْ ... مِنْ فوقِهَا وَصُخُورُهَا لا تُورِقُ
وَتَفُوحُ مِنْ طِيبِ الثَّنَاءِ روائحٌ ... لَهُمُ بِكُلِّ مكانةٍ تُسْتَنْشَقُ
مِسْكِيَّةُ النَّفَحَاتِ إلا أنها ... وَحْشِيَّةٌ بِسِوَاهُمُ لا تَعْبَقُ
أُمُرِيدَ مِثْلِ محمدٍ في عصرِنَا ... لا تَبْلُنَا بِطِلاَبِ مَالاَ يُلْحَقُ
لَمْ يَخْلُقِ الرحمنُ مِثْلَ محمدٍ ... أبداً وَظَنِّي أَنَّهُ لا يَخْلُقُ
ياذا الذي يَهَبُ الجزيلَ وعندَهُ ... أَنِّي عليه بأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ
أَمْطِرْ عَلَيَّ سحابَ جودِكَ ثَرَّةً ... وَانْظُرْ إِلَيَّ برحمةٍ لا أَغْرَقُ
كَذَبَ ابْنُ فاعلةٍ يقولُ بِجَهْلِهِ : ... ماتَ الكِرامُ وَأَنْتَ حَيٌّ تُرْزَقُ

□

---

(١) ـ الأرق : فقد النوم . والجَوَى : الحرقة ، من حزن أو عشق . (٢) ـ الجهد : الطاقة والوسع . الصبابة : رقة الشوق . (٣) ـ انثنيت : رجعت . (٤) ـ أبَنِي أبينا : يا إخواننا . (٥) ـ لحد : قبر . (٦) ـ اللمة من الشعر : ما جاوز شحمة الأذن . (٧) ـ الأينق : النياق ، جمع ناقة .

إنهم ينقلون نخاع العظام



بقلم : الدكتور عبداللطيف الرجال*

لم يجد العلماء والأطباء وسيلة لتحسين صحة الإنسان وتخفيف آلامه إلا سعوا إليها بالبحث والتجربة والتطوير . وهاهو العلم يقتحم مجال نقل نخاع العظم (نقي العظم) من شخص إلى آخر . فكيف تتم هذه العملية الخطيرة ؟ وإلى أي مدى يتحقق لها النجاح ؟

لقد بدأت عمليات نقل نخاع العظم في الغرب في أواخر الخمسينيات ، وأوائل الستينيات ، في محاولة معالجة مرض سرطان الدم (اللوكيميا) . ثم سعى الباحثون والأطباء لتطوير هذه العمليات ، واستخدام نتائجها في علاج أمراض أخرى ، غير سرطان الدم ، وحققوا إنجازات أولية جعلت السعي مستمرا ومطلوبا .

وعملية نقل نخاع العظم من العمليات التي تحتاج إلى عناية طبية فائقة ، وتعتمد على التحاليل المخبرية المكثفة ، في مراحل تحضير المريض للعملية وأثنائها ، ثم لمتابعة نتائجها ، وهي تحتاج إلى مدة علاج طويلة ، أدناها أربعون يوما ، وقد تصل هذه المدة إلى خمسة شهور كاملة أو ستة ، ولذلك كانت كلفتها عالية ، بالإضافة إلى أن غرفة العمليات لاتستخدم بأدواتها إلا مرتين فقط ، حرصا على عدم انتقال العدوى ، بأي وسيلة كانت ، لأي إنسان آخر ، أو حدوث اختلاطات للمريض أثناء إجراء العملية ، حيث تكون مقاومته شبه معدومة خلال هذه الفترة ، نتيجة لتدمير كرات الدم البيضاء المريضة التي تقوم بهذا الدور الحيوي . المرة الأولى عند سحب النخاع من المتبرع للمريض ، وهو لايخرج أبدا عن دائرة أقاربه من الدرجة الأولى ، والمرة الثانية

* استشاري طب الأطفال بمستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض - السعودية .

عند زرع النخاع في جسم المريض ، كما أنه يراعى عند إجراء هذه العملية ، منذ مراحلها التحضيرية وحتى نهايتها ، أن يكون جميع أفراد الفريق الطبي القائم بها ، بدءا من فني المختبر والأشعة وانتهاء بالأطباء ، معقمين تعقيما كليا خلال تعاملهم مع المريض . والعملية في حد ذاتها بسيطة جدا ، لاتحتاج إلى استخدام مبضع الجراح ، وإنما إلى استخدام إبرة خاصة لسحب نخاع العظم من عظم الورك ، تحت التخدير العام من المتبرع ، ثم زرعه عن طريق الحقن بالإبرة في المريض .

واحتمالات حدوث تعقيدات صحية ، كاحتمال حصول فشل كلوي أو رئوي أو كبدي أو حتى فشل الدورة الدموية ، أو احتمال حصول رفض الجسم للنخاع الغريب عنه بشكل حاد أو مزمن . كل هذه الاحتمالات تفرض ، بالإضافة إلى العناية والمتابعة المستمرة ، استخدام علاجات وأدوية خاصة عالية الكلفة .

ولقد أصبح إجراء هذه العملية يتم بشكل « روتيني » في بعض المستشفيات في الولايات المتحدة ودول أوربا الغربية والشرقية واليابان . وفي الوطن العربي يكاد يكون مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض هو المركز الطبي العربي الوحيد الذي تجرى فيه هذه العملية (على حد علمي) .

لماذا ينقل النخاع ؟

وهذه العملية تجرى لعلاج عدد من الأمراض التي كان يصعب علاجها من قبل ، ومنها :

أولا : السرطان ، وبخاصة سرطان الدم الذي يسمى أحيانا ابيضاض الدم « Leukemia » ، والورم اللمفاوي ، وهما الدافع الأول ، والأكثر شيوعا ، لإجراء مثل هذه العمليات ، وعادة تجرى العملية لعلاج بعض أنواع ابيضاض الدم ، وليس لجميع أنواعه ، وكذلك تتم عند وصول المرض إلى مرحلة معينة من السيطرة عليه ، وهنا يمكن أن يكون المريض نفسه هو المتبرع ، وقد يكون أحد أقرب الأقارب مثل الأخت أو الأخ ، وأحيانا يمكن أن يكون المتبرع أحد الوالدين ، ويندر أن يكون أحد الأقارب من خارج هذه الدائرة صالحين لاستخدامهم متبرعين .

ثانيا : بعض الأمراض التي يرافقها خطر يهدد الحياة ، نتيجة عجز نخاع العظم عن إنتاج نوع أو أنواع من الخلايا ، مثل فقر الدم اللاتنسجي « Aplastic anaemia » ، وهو فقر الدم الناتج عن عدم مقدرة إنتاج نخاع العظم « Stemcell » ، وهذا النوع من فقر الدم يكون غاية في الشدة . حيث يؤدي إلى عدم قدرة نخاع العظم على إنتاج الأنواع الرئيسية الثلاثة ، وهي : الكرات الحمراء ، والكرات البيضاء ، والصفائح . والمريض يكون بحاجة إلى أن يزود بهذه الخلايا الثلاث بشكل مستمر ، إذا لم يتم علاج هذا المرض .

وحاليا توجد طرق مختلفة لمعالجة هذا المرض ، غير عملية زرع نقي العظام ، مثل استخدام عقاقير مثبطات المناعة . وكذلك تستخدم عملية نقل نخاع العظم في مرض نقص المناعة المرتبطة « Sever Combined immune deficiency » ، حيث يفقد نخاع العظم القدرة على إنتاج الخلايا اللمفاوية . وبمرض تصخر العظم ، حيث يفقد نخاع العظم المقدرة على إنتاج الخلايا العظمية . وغيرها من الأمراض المختلفة التي سببها عدم قدرة نخاع العظم على إنتاج خلايا معينة ضرورية أساسية لاستمرار الحياة ، بحيث تستحيل الحياة أو تصعب بدونها .

ثالثا : بعض الأمراض الوراثية « Genetic D » تؤدي إلى إنتاج خلايا غير طبيعية من نخاع العظم ، مثل التالسيميا (فقر دم حوض البحر الأبيض المتوسط) أو نتيجة لنقص أنزيم .



رابعا : بعض الأورام الصلبة ، وبعض الأمراض المتفرقة .

كيفية إجراء العملية :

بعد التأكد من أن المريض بحاجة ماسة إلى عملية نقل نخاع العظم ، سواء منه نفسه ، كما في حالات السرطانات ، أو من غيره من بعض الأقارب ، تجرى تحليلات بسيطة لجميع أفراد أسرته ، لمعرفة نوعية الأنسجة ، وإذا وجد المتبرع المناسب ، يتم فحصه سريريا ومخبريا ، للتأكد من خلوه من الأمراض ، ثم تشرح العملية بخطواتها ، وأهميتها وملابساتها للمريض وأهله وللمتبرع ، والتأكيد على أن المتبرع لنخاع العظم لايتعرض إلى أي خطر ، سوى مخاطر التخدير العام ، وهي نادرة الحدوث ، وبنسبة غاية في البساطة ، وأن المتبرع بنخاع العظم مثل المتبرع بدمه ، يعوضه الجسم بسرعة وبدون أي مشاكل ، ويلزم المتبرع دخول المستشفى يوماً واحداً فقط ، أو يومين على الأكثر ، لسحب نخاع عظمه .

وقبل إعطائه للمريض ، يجب أن يمر المريض بما يسمي عملية التحضير ، وهي عبارة عن تدمير شبه كامل لجميع نخاع عظمه ، عن طريق العلاج بالأشعة ، أو استخدام بعض العلاجات المسممة للخلايا . والمستعمل منها حاليا ، في معظم الحالات ، عقارا « بيوسلفان » و « سيكلوفوسفمايد » ، أو غيرهما من العلاجات العديدة ، القادرة على قتل خلايا نخاع العظم .

وعملية التدمير هذه تتم خلال ثمانية أيام ، أربعة أيام لكل نوع من العقاقير ، حيث تحتاج إلى نوعين من العقاقير المسممة للخلايا حتى تكتمل . وخلال تلك الفترة تراقب خلايا دم المريض مخبريا ، حيث يلاحظ هبوط مستمر في جميع أنواع خلايا الدم : من كرات بيضاء ، وحمراء ، وصفائح ، وبعد انتهاء المدة المحددة للعلاج اللازم لتدمير نخاع العظم يعطى المريض ، عن طريق الحقن الوريدي ، نخاع العظم الجديد (من المتبرع) ، وهو عبارة عن كمية بسيطة ، تحسب بدقة بالمختبر ، ومقدارها تتراوح مابين ١٥٠ سم٣ ـ ٥٠٠ سم٣ ، حسب عمر المريض ، ووزنه ، وحالته المرضية التي استدعت إجراء هذه العملية له . ويعطى للمريض خلال ساعة أو ساعتين .

ونتيجة التحضير للمريض ، كما أسلفنا ، بعلاجات لتدمير نخاع عظمه الأصلي فإنه يتعرض لنقص حاد في عدد كريات الدم المختلفة من بيضاء وحمراء وصفائح ، ولذلك يعطى المريض مضادات حيوية مختلفة ، حسب الحاجة ، أو حسب نتائج عمليات نقل النخاع ، أو بشكل تقديري ، لمواجهة النقص في كريات الدم البيضاء الذي يعد فقدها أخطر على المريض من مكونات الدم الأخرى ، لأنها أداة جسم المريض في المقاومة والمواجهة لأى نوع من أنواع البكتيريا أو الفيروسات أو الفطريات ، وهذا الدور الحيوي من أهم وظائفها . وهنا يجب مراعاة عزل المريض كليا ، لمنع وصول عدوى إليه من أي مرض من أي جهة كانت . وبعد فترة تتراوح بين أسبوع إلى ثلاثة أسابيع ، وأحيانا فترة أطول من ذلك ، من يوم زراعة نخاع العظم الجديد تبدأ نتائجه بالظهور تدريجيا ، ويظهر ذلك بوضوح بمتابعة عدد خلايا الدم بأخذ عينة من دم المريض ، وعندما يلاحظ زيادة مستمرة في عدد الخلايا ، خاصة الخلايا البيضاء التي يؤخذ عددها معياراً لفك عزلة المريض ، فإذا أصبح عدد هذه الخلايا في الدم أكثر من ٥٠٠ خلية لكل مم٣ ، فإن ذلك يعني أنه أصبح بمقدور النخاع الجديد العمل بشكل جيد وكاف لإعطاء المريض المقدرة ـ ولو جزئيا ـ على محاربة الخمج Infection . وبالتالي يسمح للمريض بالخروج من عزلته ، والتحرك داخل المستشفى ، وزيارة بعض أقاربه له داخل غرفته ، لأن ذلك ممنوع



● زراعة نخاع العظم في المختبر

منعاً باتا خلال فترة العزل .

ويستمر نخاع العظم الجديد بالنمو ، كنمو النبتة الجديدة بالضبط ، وإذا قدر الله لنخاع العظم الجديد الظروف المناسبة للنمو بدون أي مشاكل ، سواء أكان خمج Infection ، أو رفض ، فإنه يستمر بالنمو والفاعلية .

احتمالات كبيرة للنجاح

وعلى الرغم من كل هذه التعقيدات ، والصور المتعددة الجوانب لهذه العملية ، فإن نتائجها مشجعة في كثير من الأحيان ، وتختلف نسب نجاحها من حالة إلى أخرى ، ويعتمد نجاحها ـ أو فشلها ـ على عوامل عديدة ، منها نوع المرض الأصلي الذي كان سببا في إجراء هذه العملية ، وكذلك الحالة الصحية العامة للمريض ، فكلما كانت صحته العامة جيدة ، ولم يكن هناك خلل بأي عضو من أعضاء جسمه ، خاصة الأعضاء الرئيسية منها كالكبد والكلي والرئتين والقلب ، كانت نسبة نجاح العملية أكبر ، وكذلك على عمر المريض ، فهي بالأطفال تعطي نتائج أفضل منها بالكبار ، وعلى التطابق الكامل بين نوع خلايا المتبرع والمريض نفسه ، فكلما كانت متطابقة تماما كان احتمال نجاحها أكبر .

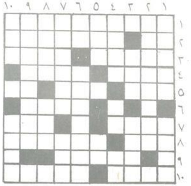
فمثلا نسبة نجاح عملية نقل نخاع العظم في حالات سرطانات الدم تبلغ حوالي ٦٠٪ في معظم مراكز العالم ، في حين أن نتائجها في مرض التالسيميا Thalacemia تبلغ ٨٠ ـ ٩٠٪ في الأطفال الذين تبلغ أعمارهم سنتين إلى ثلاث ، إذا وجد نخاع عظم مطابق كليا من متبرع قريب جدا كالأخ والأخت . وتنزل هذه النسبة إلى ٧٠٪ تقريبا في الأطفال الذين تبلغ أعمارهم فوق سبع سنوات للمرض نفسه وللظروف نفسها .

ومع هذا فإن العملية ـ كما ذكرنا ـ مازالت في مراحلها الأولى ، ونسبة المخاطر فيها وكلفتها مازالتا عاليتين وأقل مما يرضي الطموح الطبي ، إلا أن الأمل في الارتقاء بها وتطويرها وتخفيض كلفتها يتعاظم ، خاصة مع جهود الباحثين والأطباء الدءوبة التي تستفيد من معطيات العلم الحديث المتقدمة . □

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر فى المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذى سينشر فى العدد القادم .



كلمات أفقية

١ . أكبر نحاتي عصر النهضة من آثاره « داود » .
٢ . تألم ، من أعظم فناني عصر النهضة الايطاليين .
٣ . ننميه ونرفع من فعاليته ، جمع قد .
٤ . يخفي في نفسه ، فاكهة تمتلىء باللؤلؤ .
٥ . متأخر ، رفعة ومجد .
٦ . شمندر .
٧ . ذو علاقة بالدين ، دال على الصداقة .
٨ . أكثر أهمية ، فنان هولندي عاش ومات فقيرا تباع لوحاته بالملايين .
٩ . فنان فلمنكي شهير من فناني القرن ١٧ .
١٠ . يقوم بعمل في مستخدما الصخر أو الرخام ، تطريب وغناء .

كلمات عمودية

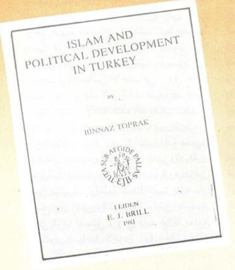
١ . فنان انطباعي فرنسي من فناني القرن ١٩ ، إسباني من أكبر سيرياليي العصر .
٢ . مدرسة فنية تهتم بالانطباع العام لا التفاصيل .
٣ . مُصاب ، نتصرّف بمرح وانطلاق .
٤ . أعدت من جديد ، شبع ، تجدها في حوت .
٥ . عابث ، أول فاراب وآخرها .
٦ . تذمر مشجوب ، هولندي من نوابغ فناني القرن ١٧ .
٧ . غير راضين ، قليل .
٨ . حَسَناً ، الأحرف الثلاثة الأولى من اسم فنان اقترن اسمه بفان جوخ .
٩ . الاسم الأول لصاحب « العشاء الأخير » .
١٠ . صبي ، يسيطر أو ينتشر .

● حل مسابقة العدد الماضي سبتمبر ١٩٨٩ م



كتاب الشهر

مكتبة العربي



الإسلام والتطوّر السياسي في تركيا

تأليف : بيناز توبراك / عرض وتعليق : جمال وردة

على الرغم من كل القوانين الأوربية الحديثة التي أدخلها أتاتورك إلى تركيا فقد فشل في بناء المجتمع الحضاري الجديد ، ذلك أنه أقحم الدين في معركة غير مجدية ، متجاهلاً الخصوم الحقيقيين لهذا البناء المنشود . وبذلك لم يحسن اختيار العجلات المناسبة لعربة التقدم والتحديث في بلاده .

الدين والسياسة قضية جدلية قديمة لقطبين متحركين ضمن معادلة ثابتة . يتجاذبان حيناً لدرجة الانصهار ، ويتنافران كنقيضين أحياناً ، ولكنهما أبداً متداخلان تأثراً وتأثيراً .

يقول « فرانك باركن » : هناك تشابه بين الدين والثورة ، فكلاهما يسعى لاختصار المسافة وتضييق الفجوة بين المعطيات الذهنية والمادية للحياة ، ولكن بأسلوبين مختلفين ، ففي حين تؤجج الثورة طموحات الطبقات المطحونة ، وتعمل على تصعيد أمانيها ، تحاول الأديان الحد من غلواء هذه المشاعر وتخفيفها ، وصولاً إلى الاستقرار والتجانس الاجتماعي . وفي حين تحطم الثورات هذه الفروقات عنوة وقهراً فإن الأديان تسعى لإذابة هذه الفروقات تطهراً واقتناعاً . ويفرق « دونالد سميث » بين فئتين من هذه العلاقة الناشئة : فهناك أنظمة دينية عضوية وشاملة ، ينعدم فيها التمايز بين الدين والدولة ، وعند ذلك تستمد السلطة السياسية شرعيتها من الدين مباشرة . وأنظمة كنسية تتميز بانفصام واضح بين الدين والسياسة ، وتبقى متقوقعة داخل كيانها المستقل ، وهي ذات علاقة معقدة مع القوى السياسية الأخرى . وفي الحقيقة هناك بعض الأديان تصر على ربط الأرض بالسماء ، من خلال مصعد صغير ، يتسع لراكب واحد فقط . فقد جعلت الخلاص الروحي والتطهير النفسي فردياً وذاتياً . إن الارتقاء إلى مرحلة « النيرفانا » في البوذية مثلاً يتم من خلال الإنسان وحده ، وليس من خلال القوانين الجماعية أو الاجتماعية للدولة .

لا كهنوت في الاسلام :

أما الهندوسية ففيها عزوف وترفع ، ليس عن السياسة فحسب ، بل عن الحياة كلها . وكذلك المسيحية ، فهي تنادي بالمجتمع المتسامح الفاضل ، من خلال الإنسان المتسامح الفاضل ، وعلاقتها مع السياسة أخلاقية بحتة ، وليست « أيديولوجية » كما في الإسلام الذي ربط بين الدين والدولة ، وزاوج بين الحق الإلهي والعدل الاجتماعي . كما يختلف الإسلام عن غيره من الأديان فقد أعطى الجميع حق التحدث بالدين والعمل بتعاليمه ونفى دور الوسيط . فلا كهنوت في الاسلام . وهكذا بقيت العلاقة بين العبد وربه مباشرة ، ولا حاجة لطرف ثالث يتمحور داخل مؤسسات خاصة ، لها سياساتها وأموالها وعقاراتها وسفراؤها ، وكأنها دولة داخل دولة ، كما أن التبتل والزهد والتنسك ليست فضائل مقدسة في الإسلام . وحين جاء الغرب بعلمانيته وفصل الدين عن الدولة ، أعاد للدين دوره القديم في مجتمعاتهم بعد أن امتزجت مصالحه مع السلطة ، وأصبح الدفاع عن مصالحه مرتبطاً بالدفاع عن تلك الأنظمة السياسية القديمة ، فكان لا بد من الصدام مع القوى الثورية الجديدة ، كما حدث في معظم الثورات الأوروبية الحديثة . وكان لزاماً على هذه الثورات أيضاً ، أن تحطم هذه العلاقة الناشئة بين الكنيسة والدولة .

وحين انهارت الدولة العثمانية أصيب أتاتورك بالذهول أمام فداحة هذا الإرث الكبير ، فسارع إلى دفن « الرجل المريض » قبل أن يلفظ نفسه الأخير ، وعجّل باستيراد القبعات الأوروبية وإلباسها لجمهور المعزين والمشيعين قبل أن يفيقوا من صدمة السقوط .

ولكن التاريخ يقول : إن « الأيديولوجيات » لا يبنيها فزع الكوابيس ، ولا انبهار أحلام اليقظة . ففي غمرة حماسه وانبهاره بالتفوق الأوربي استورد أتاتورك كل شيء ، القيم والرموز والأحرف اللاتينية والتقويم

الجريجوري ، لقد أخطأ حين عد الإسلام حجر عثرة أمام التقدم الحضاري ، وأخطأ مرة أخرى حين نظر في القشور والشكليات ، دون العمل على خلق المتغيّرات الاجتماعية اللازمة لإعطاء هذه المفاهيم الجديدة فكراً وقيماً . لقد نزع الوجدان من الجسد ، ناسياً أن الدين فطرة ومشاعر . لقد تصور أن الصراع الحضاري ينحصر بين الدين والدولة ، أو بين العلمانية وغير العلمانية ، بينما الصراع الحقيقي يمتد بين الجهل والعلم ، وبين العوز والاكتفاء ، وبين التكافؤ والاستغلال . وهذه الحقيقة فطن لها المثقفون الأتراك بعد نصف قرن من التجربة « الكمالية » ، حين اكتشفوا أن الخلل كامن في القوى الإنتاجية وعلاقاتها المعقدة ، وليس في القبعة أو الطربوش . وعن أثر الدين في السياسة التركية الحديثة قدم الكاتب التركي « بيناز توبراك » هذه الدراسة التي أعدها في الأصل كطروحة لنيل درجة الدكتوراة من جامعة نيويورك ، مستعرضاً التطور السياسي الذي طرأ على الساحة التركية منذ إعلان الجمهورية عام ١٩٢٣م ، وكيف استطاع الإسلام على الرغم من علمنة الدولة أن يلعب دوراً حاسماً في عملية التطور هذه . في عام ١٩٦٧ « كتب اندرو مانجو » : إن القارىء العادي للصحافة التركية يلحظ بأن السياسة هناك أصبحت ذات حس ديني واضح ، والواقع أن هذا الانطباع ليس جديداً ، فمنذ التحول السياسي الذي حدث عام ١٩٤٦ بإلغاء نظام الحزب الواحد أصبح الدين محوراً لمعظم البرامج الحزبية الجديدة ، وقبل ذلك أيضاً ، فخلال حرب الاستقلال (١٩١٩ - ١٩٢٠) اعتمد أتاتورك نفسه على أئمة المساجد وخطبائها في تعبئة الجماهير وتحفيزهم للدفاع عن وطنهم ضد الغزو الأجنبي ، وحتى بعد إعلان الجمهورية بقي الدين حافزاً ومُلهماً لأنصاره الذين عدوا حركته تجديداً للدم التركي . وحين أصدر شيخ الإسلام في الآستانة الفتوى المشهورة بتكفير أتاتورك ردّ عليه بفتوى مضادة من مفتي أنقرة ، تحمل تواقيع أكثر من ١٥٢ عالماً دينياً ، من مختلف مناطق تركيا ، بل إن المؤتمر الأول للجمعية الوطنية كان يضم ٧٣ عالماً دينياً من بين ٣٦١ . لقد استطاع رجال الدين في البداية تمهيد الطريق أمام حركة أتاتورك التجديدية ، معتبرين أن خلع السلطان لا يعني خلع الخلافة ، ولكن أتاتورك انقضّ عليهم بعد أن استتب له الأمر عام ١٩٢٨ .

حوار طريف :

وهناك حوار طريف بين أتاتورك وأحد الفلاحين البسطاء أثناء الحرب في الأناضول ، فقد استغرب أتاتورك من هذا الفلاح الذي مازال يحرث أرضه بكل هدوء واطمئنان ، فقال له : كيف تفعل ذلك والعدو على حدود وطنك ؟ فأجابه الفلاح : « يا باشا ! كان لي ثلاثة إخوة وولدان قتلوا جميعاً في اليمن وجاليبولي ، وأنا الآن المعيل الوحيد لثلاث عائلات تعتمد جميعاً على فأسي . إن حقلي هو وطني ، ولا تتوقع مني أن أترك الفأس وأحمل البندقية قبل أن أرى الأعداء بأم عيني وهم يطأون حقلي بأقدامهم » .

لم يفعل أتاتورك شيئاً يذكر في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية للريف التركي . لقد بقي « الأغوات » على حالهم ، يمارسون فوقيتهم واضطهادهم . وكذلك بقي « الأشراف » في المدن ، يمارسون استغلالهم ، وبقي الفلاح التركي والعامل التركي بين السندان والمطرقة ، حتى العلمانية المستوردة من أوربا لم يقم بتطبيقها بحذافيرها . فالعلمانية الغربية تضمن على الأقل حرية العقيدة وحرية التعبير ، لقد تجاهل أتاتورك

ذلك ، وأقام « ديكتاتورية » الحزب الواحد - الحزب الجمهوري الوطني - وفي حين أطلق الحريات لبعض الأقليات الدينية ، كاليهود والأرمن ، فقد صادر مفاهيم إسلامية ، وحجزها داخل حقيبته الدبلوماسية . إن أوربا لم تصادر المفاهيم الدينية . وفي دراسة حديثة أجراها الكاتب « ريتشارد روز » ، للمقارنة بين ٧٦ حزباً سياسياً في ١٧ بلداً أوربياً اكتشف أن هناك ٣٥ حزباً تنتمي إلى بعض المفاهيم الدينية ، وهي ذات صبغة دينية ، أو على الأقل هاجس ديني واضح ، وفي العهد العثماني كانت هناك اتفاقات سياسية ، ذات صبغة دينية ، كالمعاهدة الروسية العثمانية عام ١٧٧٤ بين كاترين الثانية وعبد الحميد الأول الذي كان له حق رعاية المسلمين في روسيا ، مقابل حماية كاترين للرعايا الأرثوذكس في الأمبراطورية العثمانية .

لقد ألغى أتاتورك المحاكم الشرعية ، واستعاض عنها بالقانون المدني السويسري ، والقانون الجنائي الايطالي ، والقانون التجاري الألماني ، ومنع تعدد الزوجات ، ولكن الإحصاءات تقول : إن نسبة تعدد الزوجات بعد نصف قرن من تلك القرارات تشكل ٢,٧٪ في الريف ، و ١,٦٪ في المدن الكبرى ، وشبه منعدمة في العواصم . والقضية إذن مجّرد وعي واستدراك بدليل اختفائها في العواصم ، كما أن نسبة الزواج المدني لا تزيد عن ٣٥٪ فقط . وحين صدرت هذه القرارات العلمانية بدأت الساحة السياسية تستمد الكثير من الثورات والانتفاضات المضادة ، وكان أهمها ثورة الشيخ سعيد في شرقي الأناضول ، فعلى الرغم من وصف حركته بالانفصالية الكردية ، فإن من أهم أهدافها المطالبة بعودة الخليفة « وحيد الدين » ، آخر سلاطين بني عثمان . ونشطت أيضاً الجماعات « النقشبندية » ، وبقيت هذه الانتفاضات مستمرة حتى عام ١٩٣٦م ، وبعد ذلك اتجهت إلى المعارضة السريّة ، بعد تصفية رموزها ومحاكماتهم ، وفي عام ١٩٤٦م وافق « عصمت اينونو » ، خليفة أتاتورك ، على مبدأ تعدد الأحزاب من أجل حملاته الانتخابية ، وكسب مزيد من الأصوات الفلاحية . وفي الحال تشكل ٢٤ حزباً جديداً ، منها ٨ على الأقل ذات اتجاهات إسلامية ، وأهمها حزب العدالة الاجتماعية ، وحزب المزارع والفلاح ، وحزب الحماية الاسلامية ، وحزب المحافظين . وكان الحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري ، يتنافسان في كسب أصوات الناخبين بمزيد من قرارات الانفتاح الديني . فعندما فاز الحزب الديمقراطي بالأغلبية « البرلمانية » عام ١٩٥٠ أصدر رئيس الوزراء « عدنان مندريس » قراراً برفع الحظر عن الأذان باللغة العربية ، وكان ذلك حدثاً جللاً ، عمت بموجبه البهجة ودموع الفرح كل الأقاليم التركية ، ثم بدأت سياسة ترميم المساجد القديمة ،وفتح المزارات المقدسة ، وبناء المساجد الجديدة ، ويقدرعدد المساجد التي تم تعميرها خلال عشر سنوات من تاريخ القرار بحوالي ١٥,٠٠٠ مسجد ، كما ارتفع عدد الجمعيات الإسلامية من ٩٥ إلى حوالي ٥,٠٠٠ جمعية .

الطربوش والاستغلال :

وفي عام ١٩٦١ انشق حزب العدالة عن الحزب الديمقراطي ، واستطاع هذا الحزب الجديد ، ذو الاتجاه الديني ، أن يوصل إلى السلطة ، عام ١٩٦٥ ، « سليمان ديميريل » رئيساً للوزراء . وقد حدث تحول خطير آخر داخل حزب الشعب الجمهوري ، حين أصبح

« بولند أجاويد » سكرتيراً عاماً للحزب ، وبدأ يمارس نقداً ذاتياً « للكوادر » القديمة التي باعدت بين الحزب والجماهير ، واعترف « أجاويد » للمرة الأولى بأن الصراع الحقيقي ليس بين الطربوش والقبعة ، بل بين الفقر والاستغلال ، وأن الأحزاب جميعها قد استغلت الدين كغطاء لإخفاء عجزها السياسي والاقتصادي والاجتماعي . وفي هذه الفترة ولد حزب جديد ، انشق عن حزب العدالة ، وأطلق عليه اسم حزب « الخلاص الوطني » ، وهو حزب إسلامي جديد ، يجمع بين التقدم العصري والروح الإسلامية . ويدعو الى صحوة جديدة في المجالين المادي والروحي معاً ، وقد أسسه الدكتور « نجم الدين اربكان » ، وهو شخصية علمية فذة ، فقد نال درجة الدكتوراة في الجامعة التقنية في أنقرة ، ثم سافر في بعثة علمية إلى المانيا ، حيث رجع مبهوراً بالتجربة الألمانية ، بعد الحرب العالمية الثانية ، وكيف استطاع الشعب الألماني بإخلاصه وتفانيه وبانضباطيته أن يخلق مجتمعاً حضارياً جديداً على أنقاض النازية المهزومة .

وأثناء اشتراكه في الحكم رفع وزير العدل (أحد أعضاء الحزب) قضية ضد مدير التلفاز ، لسماحه بعرض بعض الأفلام الإباحية عن حياة قبائل الأمازون البدائية ، كما يطالب الحزب برفع بعض التماثيل العارية من الحدائق والميادين . وقد استطاع الحزب الفوز بـ ٤٨ مقعداً في « البرلمان » التركي ، في انتخابات ١٩٧٣ ، حاصلاً على ١٢٪ من مجمل الأصوات ، إلا أنه بقي حزباً للمثقفين فقط ، بعيداً عن عمق الريف وحارات المدن .

وفي أواخر الستينات تغيرت المعادلة السياسية بدخول حزب العمل التركي الذي يضم الماركسيين الأتراك ، وأصبح الصراع الجديد بين اليمين واليسار .

الاسلام والعمل السياسي :

لقد لعب الإسلام دوراً بارزاً في إثراء العمل السياسي التركي ، فقد كان العامل الموجه بشكل أو بآخر لكل الأحزاب السياسية ، إذ أعطى للدولة العثمانية هويتها الدولية ، ووحد شخصيتها ، ومنحها الشرعية لقيادة العالم الإسلامي ، كما ساعد على خلق الاستقرار والتجانس الاجتماعي في مجتمع متعدد الجنسيات والقوميات . وفي فترة المد القومي ساعد أيضاً على رصّ الصفوف ضد القوى الأجنبية ، وعمل على إذكاء روح المقاومة والمعارضة « لديكتاتورية » الحزب الواحد . لقد دخل الإسلام معركة « الديمقراطية » التي انتهت بإعلان عام ١٩٤٦ وقبول النظام القديم مبدأ تعدد الأحزاب .

إن جذوة الدين التي حاول أتاتورك إخمادها لم تنطفيء ، بل ظلت نبراساً أخلاقياً وحافزاً للتحولات الاجتماعية والسياسية وللعدل الاجتماعي . □

حكم رومانية

من أقوال ماركوس اوريليوس انتونيوس الحكيم الروماني المأثورة قوله :

× من يستطيع أن يمنعك من أن تكون صالحا ؟

× الانهماك في الملذات أضر من الانهماك في الآلام .

× هل في حياة الإنسان أشياء أعظم من العدل والحكمة والشجاعة ؟



من المكتبة العربية

قصص الحبّ العربيّة: أغراضها وتطورها

تأليف : الدكتور عبد الحميد ابراهيم محمد
عرض وتعليق : أشرف مصطفى الهندي

حفظت لنا كتب التاريخ والأدب كثيرا من قصص الحب التي دارت في أروقة القصور أو بين مضارب الخيام العربية .
وتجاوزت شهرة بعض عشاق العرب أحيانا ، شهرة حكام وخلفاء وقادة . والكتاب الذي نعرض له فيما يلي متابعة لبعض قصص العشق والعشاق ، وتطورها ، وتنوع أغراضها .

« الحب » واحد من أهم المضامين في الآداب العالمية كلها ، ولا يكاد يخلو منه أدب من الآداب، ولا فن من الفنون.

وقد اهتم الباحثون بدراسة الناحية العاطفية عند العرب . والكتاب الذي نحن بصدده تناول قصص الحب العربية على أنها نوع من الأدب الذي انتشر بين عامة الشعب ، فركز على كشف طبيعة هذه القصص ، ثم تتبع تطورها على مرّ العصور وفي شتى المناحي ، ثم كشف عن الأسباب التي قعدت بها عن النمو الكامل والتطور الملموس .

معنى القصة

والقصة التي حرص المؤلف على استجلاء معانيها ، وإظهار حقيقتها ، ليست تلك القصة القصيرة التي عرفها العالم في القرن التاسع عشر ، وإنما قصد المؤلف - كما يقول في الفصل الأول - ذلك المعنى الذي جاء في القواميس العربية لهذه المادة ، واهتم بالطبيعة الخاصة للقالب القصصي

العربي ، وخرج المؤلف من بحثه في القواميس العربية بمعنى عام ، محدد للقصة ، وهو « المتابعة » ، فقص آثارهم : تتبعها بالليل أو في أي وقت كان ، وتقصى الخبر : تتبعه .

وقد انتشرت هذه القصص بين الناس انتشارا واسعا ، حتى أن ابن داود لم يجد فائدة من ذكر كثير من هذه الأخبار في كتابه « الزهرة » ، لأنها ـ على حد قوله ـ قد كثرت في أيدي الناس ، فقل من يستفيد منها . كما أن هناك نظرة إلى هذه الأخبار على أنها شيء لا يتحرى الدقة التاريخية ، وأنها حكايات شاعت بين الناس ، قد تزيدوا فيها كما قال قيس بن ذريح وهو يعتذر لقيس بن الملوح أمام ليلى . فإن قيسا المجنون قال : إنه رأى ليلى فقط ليلة الغيل ، ولكن الناس قد تزيدوا في ذلك . وهذه النظرة تفسر الاضطراب في الروايات التي قد تسند خبرا إلى قيس ، ثم نراه مسنداً إلى جميل ، أو شعرا إلى عروة ، ثم نراه منسوبا إلى ابن ذريح .

وهذه النظرة تنتشل فريقا من الباحثين من حيرتهم أمام هذا التزيُّد ، وذلك لأن عقل المؤرخ لا يستطيع أن يضفي على هذه القصص صفة الصدق الواقعي والوجود التاريخي ، وعلى الرغم من ذلك فقد نجح المؤلف في مسعاه ، وضمن دقة بحثه بحسن اختياره للشواهد أمام الكمّ الهائل الذي تجمع لديه من كتب الأدب .

أغراض قصص الحب

وفي الفصل الثاني من الكتاب سلك المؤلف مسلك باحث الأدب ، ونظر إلى ما في هذه القصص من دلالات أدبية وإشارات فنية ، ولم يطلب منها الصدق الواقعي والوجود التاريخي ، حتى لنجده يقول : « لا يهمني أن يكون قيس أو جميل أو عروة قد وجدوا تاريخيا ، وإنما الذي يهمني أنهم شخصيات قصصية ونماذج بشرية » ، ولذلك فإنه قد دقق في البحث للإجابة عن تساؤله المطروح ، وهو : هل كان لهذه القصص أغراض ، أم أنها كانت خبط عشواء ، تنبت كنبات الصحراء ، بدون غاية مرسومة أو هدف معلوم ؟ !

وقد انتهى المؤلف من بحثه إلى أن قصص الحب قامت بعدة أدوار لتنفيذ أربعة أغراض رئيسية هي :

التفسير والشرح لبعض مواقف شعرية : لا سيما إذا انطوت هذه الأشعار على بذور حكايات وقصص ، كأن يذكر الشاعر ليلة التقى فيها بحبيبته وما لاقى من الصعاب . وحين انتشرت هذه البذور وتلك الإشارات أراد الناس أن يفسروها ويشرحوها ، فاختلقوا حولها القصص والحكايات التي تفسر الأبيات وتصل بعضها ببعض . وكثيرا ما حاك القاص أو الخيال الشعبي أبياتا مشهورة أنشدها « كثير عزة » عن بكائه وعن خيبته وحسرته ، يقول :

أَقُولُ لماءِ العينِ أمْعِنْ لَعَلَّهُ
بِمَا لا يرى مِنْ غائِبِ الوجدِ يَشْهَدُ
فَلَمْ أَرَ مِثْلَ العينِ ضَنَّتْ بمائِها
عَلَيَّ ولا مِثْلي عَلَى الدمعِ يَحْسُدُ

كما أن هذه القصص قد أدت وظيفة التسلية : لا سيما بعد أن أظلت الحضارة العرب بعد الإسلام ، فتبعها ألوان من الترف واللذات ، وكثر الظرفاء والمضحكون ، فقامت القصة بدورها في التسلية في مجتمع حضاري .

كما استغلت في الإعلان والدعاية : وعرف كثير من الأذكياء قيمة القصة في الدعاية لفنهم ، والترويج لشعرهم ، وبخاصة أن هذه القصص تشيع بين العامة ، وتذيع وسط الشعب ، فاستغلوا القصص وحملوها ما يريدون أن يحملوها ، وجعلوها تنتقل وسط الناس ، لاهجة باسمهم ، مذكرة بهم . وقد برع في هذا النوع كل من حماد الراوية وعمر بن أبي ربيعة ، وكان عمر ذكيا ، فقد أكثر من الدعاية لفنه والترويج لشعره ، مرة برشوة المغنين والمغنيات حتى ينشدوا شعره ، كما جاء في الأغاني ، ومرة ثانية بإشاعة

هذا النوع من القصص التي أكثر من اختلاقها وترويجها .

وهناك قصص ذات أغراض تعصبية : حيث لم تستغل قصص الحب استغلالا شخصيا فحسب ، بل استغلت لأغراض تعصبية أيضا ، فقد عرف العرب في تاريخهم صراعا بين السادة والعبيد ، ونزاعات بين بعض وبعض ، فاستخدم كل فريق ما تيسر له من الأسلحة ، فكانوا ينتحلون الشعر ، ويختلقون الأحاديث تدعيما لنزاعاتهم ، وتأييدا لميولهم . فنالت بهذا القصص حظها من الانتحال والاختلاق ، بما يخدم فكرة الفريق المنتحل ، وينصر قضيته .

ومن الطبيعي أن يختلف كل فريق في سبب المهاجاة ، ثم يروح يؤلف القصص بما يرضي هواه ويشفي حاجته .

وهناك قصص ذات أهداف دينية : كأن تحث القصة على العفة والترغيب فيها والإثابة على الوفاء بالوعد والمكافأة على الصبر وكل العناصر الدينية الأخرى الكثيرة المتنوعة التي يستظل الحب بظلها .

تطور قصص الحب

وقد خصص له المؤلف ثلث الكتاب ، وفيه استعرض تطور قصص الحب عبر مختلف العصور العربية وأشكالها وألوانها المختلفة ، وذلك من عدة نواح رئيسية أهمها :

أولا : ناحية يتتبع فيها الباحث حكاية معيّنة ، وينظرها في مختلف المراجع ، ويراقب التطور والفروق بين هذه المراجع التي قد تكون فروقا شكلية ، كالاختلاف على اسم الخليفة الذي ترفع إليه القصة ، وقد تكون فروقا يسيرة ، كالاختلاف حول بعض أسماء شخوص القصة .

ثانيا : ناحية يتتبع فيها الباحث القصص المتشابهة ، ويراقب الفروق بينها ، وهي فروق لا تعدو الاختلاف في الأسماء ، أو زيادات في بعض الروايات ، بل إننا نلاحظ من الأمثلة التي أوردها المؤلف أن التقارب وصل بعض الروايات إلى حد استعارة التشبيهات والألفاظ . وعلة ذلك أن الرواة لم يكونوا ينظرون إلى هذه القصص نظرة أدبية خالصة ، وكذلك النقاد لم ينظروا إليها نظرة جدية تقومها وتنير لها السبل ، فتركوها للعامة يحكونها في مجالسهم ، ويتصرفون فيها تصرفا فطريا .

ثالثا : ناحية يتتبع فيها الباحث تطور هذه القصص مع تطور ظروف العصر ، وتأثرها بالتيارات الثقافية والاجتماعية ، كما نرى فيما يلي :

أ ـ حكايات الحب الحسية التي رويت حول ابن أبي ربيعة وغيره من شخصيات العصر الأموي ، وقد كانت حكايات من النوع الظريف التي لم تبتعد كثيرا عن الخلق العربي ، ولكن بعد أن أتى الاتصال بالأمم المجاورة ثمرته ، وبعد أن عرف العرب فلسفة « ماني » وإباحية « مزدك » كثرت القصص الماجنة والحكايات المنحرفة والحب الشاذ .

ب ـ قصص العشق العذرية : كانت تدور في العصور العربية الأولى (في العصر الجاهلي والعصر الأموي) حول عشق فتى لفتاة ، عشقا لا يشرك معها فيه غيره ، ولكن بعد ذلك نجد قصصا صوفية يتجاوز فيها العاشق حب البشر إلى حب الذات العليا ، حباً يملك عليه كل جوارحه ، ويجعله ينشد الأشعار الصوفية في محبوبه الذي لا يشرك في حبه أحدا .

ج ـ كثير من العرب في العصر الجاهلي وفي العصر الأموي كانوا يقدرون العاشق ، ويتعاطفون معه ، ويعدونه شخصية أرقى من غيرها ، ولكن هذه النظرة تغيرت عند كثير من الناس ، فأصبحوا ينظرون إلى العشاق نظرة سخرية ، ويعدونهم مرضى أصابهم الخلل في عقولهم والاضطراب في أفكارهم ، فكانوا يصفدونهم بالحديد ، ويضعونهم في دار تسمى

« دار المجانين » . وفي هذه الناحية يرى المؤلف أن قصص الحب حين عبرت عن المجون والشذوذ أو شفت عن الوجد الصوفي لم تتطور من الناحية الأدبية عن قصص الظرفاء والعذريين . وكل الفرق الذي حدث أنه بدل الظرف حل المجون ، وبدل العشق العذري حل العشق الصوفي . أما من الناحية الأدبية فما زالت القصة فقيرة ، فيها بذور فنية ، جاءت بمحض المصادفة ، وما زالت خبرا فقيرا ، سريعا متناثرا في بطون الكتب ، تختلط فيه الحقيقة بالوهم ، والتاريخ بالخيال ، اختلاطا لا يبّين عن شخصية التاريخ المحققة ولا عن شخصية الخيال المنطلقة .

وخلاصة هذا الفصل ، أن تطور قصص العشق كان ضئيلا ، لأن الراوي لم يكن على دراية بالعمل الذي لا ينبغي أن يختلط بالتاريخ اختلاطا يضيع شخصية كل منهما ، وإنما ظهر التطور بوضوح في السير الشعبية ، ثم بصورة أوضح عند شعراء الفرس والترك ، ثم بصورة أكثر وضوحا في الأدب العربي الحديث ، ورواية ليلى والمجنون لأحمد شوقي تعد رائدة في هذا المجال .

من قصص الحب العربية

وفي الفصل الرابع والأخير من هذا الكتاب تحدث الدكتور عبد الحميد ابراهيم محمد عن تقنية القصة القديمة ، ثم ذكر نماذج كاملة لهذه



● غلاف الكتاب

القصص اعتمد فيها على الكتب العربية القديمة مثل « التيجان » « لوهب بن منبه » ، واختار منه قصة لقمان بن عاد ، وقصة موطن الحب ، وكتاب « مصارع العشاق » لابن سراج ، واختار منه قصة « كتمت الهوى » ، وكتاب « تزيين الاسواق » لداود الأنطاكي ، ولم يكتف المؤلف بذكر هذه النماذج مجردة صماء ، بل حاول استنطاقها ، وقام بتحليلها ونقدها وقارنها بما يشبهها من نماذج أخرى . وهو بذلك قد أتاح للقاريء فرصة التذوق والاستمتاع بلا معاناة ، وبيّن بالنماذج التي قدمها ، أن أدبنا العربي غني بهذا النوع من القصص الجذاب ، وأن الامر لا يحتاج الا لحساسية خاصة تتلمس هذه القصص من بين بطون الكتب ، وتتفطن إلى هذا النوع من الأدب السهل السلس الذي لا ينبغي أن تقل العناية به عن العناية بالشعر والشعراء والرسائل والكتاب ، وغير ذلك من أنواع النثر التي فيها تأنق وصناعة ، وربما كان هذا النوع من النثر الذي ينطوي على شعبية ظاهرة وديمقراطية واضحة كونه يجري على ألسنة العامة في يسر وسلاسة ، وبعد عن التأنق والصناعة أصدق في الدلالة على نفوس منشيه ومتلقيه من هذا النوع الذي نشأ كثير منه في بلاط الخلافة .

إن هذا الكتاب قد أعطى للنثر الشعبي اهتماما خاصا ، أهمله كثير من الدارسين والباحثين ، والباحث الذي يفرض على نفسه مهمة البحث والتنقيب والتأريخ لأحد الجوانب المعتم عليها ، ويتصدى لتحليل أبعاد صورها في سبيل اظهارها ، وتوسيع معانيها ، فإنه يضع نفسه في موضع دقيق قد يعرضه للسقوط في حالة هبوب ريح أو في حالة ظهور عقدة أو عقبة كؤود تعيق خطواته . ولقد نجح الدكتور عبد الحميد ابراهيم محمد في مسعاه لأنه يملك خيوط لعبة التأليف وقواعدها ، فخرج كتابه إلى الناس باعتباره إحدى الدراسات الرائدة في هذا المجال . □



مكتبة العربي

مختارات

اسم الكتاب : جذور حركة القرامطة
اسم المؤلف : عبد المنعم غزير النصر
الناشـــر : مطبعة أسعد - بغداد
عدد الصفحات : ١٣٦ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧م

عرض تاريخي لبدء حركة القرامطة في التاريخ العربي الإسلامي، وخروجها على الدولة العباسية، ويعرض المؤلف بعد ذلك لتطورها ومضمون دعوتها وشيوخها، والنقد والاعتراضات اللذين ووجهت بهما .

▪▪▪

اسم الكتاب : الصناعة والتكامل الاقتصادي العربي
اسم المؤلف : د. يوسف حلباوي
الناشر : دار طلاس للنشر - دمشق
عدد الصفحات : ٢٤٥ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٩م

يقدم الكاتب في كتابه رؤية جديدة لكيفية تحقيق التكامل الاقتصادي العربي من خلال الصناعة، والكاتب الذي شغل فترة منصب المستشار الرئيس لدى منظمة التنمية الصناعية لهيئة الأمم المتحدة، يؤكد أن العصر الذي نعيش فيه هو عصر سمته الصناعة ذات الحجم الكبير، وإذا استمر الجهد العربي جهداً قطريا فإننا لن نتمكن من الخروج من دائرة التبعية . ويناقش المؤلف في كتابه نشأة الصناعة العربية، وتطورها خلال الأربعين عاما الماضية، ثم يعرض لمشاكل الصناعة العربية، وبعد ذلك يحلل السياسة الصناعية، ويقيم التنمية الصناعية الحالية والتنمية الصناعية البديلة . وفي القسم الثاني من الكتاب يناقش المؤلف قضايا التكامل الاقتصادي العربي وآفاقه .

▪▪▪

اسم الكتاب : الرحلة
اسم المؤلف : فكري الخولي
الناشر : دار الغد - القاهرة
عدد الصفحات : ٢٥٢ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧م

عمل روائي، يسجل فيه كاتبه سيرة حياته، بلا حرج ولا تكلف، ويقدم هذا السرد في قالب فني فريد، مستمد من فطرة فنية واضحة، وموهبة أصيلة، وتدور أحداث هذه الرواية كلها في أوساط العمال والفلاحين، وبخاصة في الشرائح الأكثر فقرا، ويقدم الكاتب الصورة بلا « رتوش » ولا تجميل لواقع مجتمعي الريف والعمال منذ مطلع هذا القرن .

▪▪▪

اسم الكتاب : صور من الماضي - المملكة العربية السعودية
اسم المؤلف : بدر الحاج
الناشر : دار رياض الريس للكتب والنشر - لندن
عدد الصفحات : ٢٢١ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٩م

دراسة عن تاريخ التصوير الشمسي من خلال أعمال مصورين عرب وأجانب، تتناول الحياة

السياسية والاجتماعية والعمرانية في المملكة العربية السعودية، خلال فترة ١٨٦٥ - ١٩٤٠م. ويضم الكتاب مجموعة من الصور النادرة التي التقطت لوقائع وأحداث في هذه الفترة التاريخية المهمة.

■■■

اسم الكتاب: عشت مع هؤلاء الأعلام
اسم المؤلف: عبد الله يوركي حلاق
الناشر: مجلة الضاد - حلب
عدد الصفحات: ٢٢٧ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر: ١٩٨٨م

يقدم المؤلف في كتابه وقائع وتفاصيل حياة عن أعلام عصره الذين عاصرهم، وهو واحد من جيل الرواد، ومؤسس وصاحب مجلة «الضاد» الأدبية، فيقدم ذكرياته مع الشاعر القروي رشيد سليم الخوري، وميخائيل نعيمة، وأم كلثوم، ومي زيادة، والأخطل الصغير بشارة الخوري، وأحمد حسن الزيات، وايليا أبو ماضي، وغيرهم. والكاتب لا يكتفي بتقديم ذكرياته معهم، بل يضيف إليها لمحة عامة عن كل شخصية منهم، وآثارها الفنية أو الأدبية من وجهة نظره.

اسم الكتاب: تعليم المواطن الأمريكي من أجل المستقبل
اسم المؤلف: إعداد لجنة التعليم بالمجلس القومي للعلوم في الولايات المتحدة.
ترجمة مكتب التربية العربي لدول الخليج
الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج
عدد الصفحات: ١٣٣ من القطع الكبير
سنة النشر: ١٩٨٧م

يقدم الكتاب خبرة الشعب الامريكي في مجال الرياضيات والتقنية في مناهج التعليم العام، متطرقا لظواهر التخلف التي اعترت هذه العلوم في الأزمة الأخيرة، وظواهر السبق الذي اتصفت به بعض دول العالم الأخرى مثل اليابان وبعض الدول الأوربية. ويتكون الكتاب في أصله الانجليزي من قسمين: خصص القسم الأول لعرض شامل للمشكلة التي تواجه التعليم في أمريكا، والقسم الثاني عبارة عن مرجع ودليل عملي، يورد ملخصات بعض الأبحاث التي تعنى بتدريس الرياضيات والعلوم والتقنية. وقد اقتصرت الترجمة العربية على تقديم القسم الأول من أصل الكتاب □

ولكن أبـي

قال المدرس للتلاميذ: يجب في قواعد الجمع أن يجمع كل صنف على حدة، ولا يصح جمع أصناف مختلفة معا.
وعلى الفور أجاب التلميذ: ولكن أبي يخلط رطل لبن مع رطل ماء، ويبيع رطلين للمشترين على الحساب.

في سنتيـن

قالت الحماة لزوج ابنتها وهي تزن نفسها، وزني الآن ستون كيلو غراماً أي أنني فقدت ٥ كيلو غرامات في شهرين.
قال الصهر: اذن استمري على ذلك، كي تنتهي في سنتين!

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٧١

أكتوبر ١٩٨٩

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ ـ الصفاة الرمز البريدي 13008 ـ الكويت «مسابقة العربي العدد ٣٧١» ، وآخر موعد لوصول الاجابات إلينا هو ١٥ نوفمبر ١٩٨٩ . والرجاء كتابة الاسم الثلاثي والعنوان البريدي واضحين ، ورقم الهاتف إن وجد .

ارفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٧١

١ في سنة ١٩١٢م غرقت سفينة كبيرة عملاقة (٤٦٣٠٠ طن) في مياه المحيط الأطلسي ، حين كانت تقوم برحلتها الأولى من بريطانيا الى أمريكا . ترى ماإسم تلك السفينة ؟

× التيتانيك .
× الباونتي .

٢ نشبت الحرب بين روسيا واليابان في مطلع القرن العشرين . ترى أي الدولتين انتصرت ؟ وأيهما هزمت في هذه الحرب ؟

× روسيا القيصرية هي التي انتصرت . ولا فخر لها في ذلك ، فقد كانت أكبر بكثير من اليابان .
× اليابان هي التي حققت النصر الساحق في تلك الحرب .
× اتفقت الدولتان على إنهاء الحرب دون أن يكون فيها منتصر أو مهزوم .

٣ من الحرائق الهائلة التي يذكرها التاريخ حريق لندن الذي وقع في القرن السابع عشر ، وحريق سان فرنسيسكو الذي وقع في القرن العشرين . ترى ماسبب اندلاع حريق سان فرنسيسكو ؟

× سببه «عقب» سيجارة ، ألقاه أحد المارة عن غير قصد .
× الحرب التي قامت بين الولايات المتحدة والمكسيك .
× الزلزال الذي ضرب سان فرنسيسكو فتسبب بالحريق .

٤ يذكر التاريخ أن النرويج لم تظفر باستقلالها إلا سنة ١٩٠٥م ، ترى أي الدول كانت تحكمها قبل ذلك ؟ .

× الدنمارك ، جارتها الصغيرة .

× السويد ، جارتها الكبيرة .
× بريطانيا ، الدولة الاستعمارية الكبرى آنذاك .

٥ « إميلين بنكهرست » امرأة انكليزية ، لمع اسمها في الربع الأول من القرن العشرين . ترى ما الإنجاز الذي اشتهرت به هذه المرأة ؟ .
× تزعمت الحركة النسائية التي حققت للمرأة حق الاقتراع .
× تزعمت الثورة على الأزياء النسائية القديمة التقليدية .
× أحدثت انقلاباً في ألوان الطعام وأساليب الطهي .

٦ من هو « صَن - يات - صِنْ » علماً بأنه اشتهر ولمع اسمه في أوائل القرن العشرين ؟
× كان صينياً ، وقد اشتهر بتأسيسه فن مصارعة الكراتيه .
× كان يابانياً ذاع صيته ، لأنه أسس أول مصانع السيارات في اليابان .
× كان من زعماء الصين ، وقد قاد الثورة الوطنية التي أطاحت بسلالة مانشو التي حكمت تلك البلاد زمناً طويلاً .

٧ تم اكتشاف القطب الشمالي سنة ١٩٠٩م . ترى من مكتشفه ؟ .
× البريطاني روبرت بيري
× الأمريكي الدكتور فردريك كول

٨ × تم اكتشاف القطب الجنوبي سنة ١٩١١م . ترى من المكتشف ؟
× المكتشف الانكليزي ، الكابتن روبرت سكوت ، كما يؤكد ذلك الانكليز .
× المكتشف النرويجي ، روالد اموندسن ، كما يؤكد ذلك أهل النرويج وسواهم .

٩ أين ظهرت الحركة الكشفية لأول مرة ؟
× في بريطانيا .
× في بلاد الصين .
× في فرنسا عقب الثورة الفرنسية .

١٠ كم بلغت المسافة التي قطعها البث الإذاعي الأول ؟ وعلى بعد كم كيلومتراً سمع البرنامج الرائد الذي اشتمل على مقطوعات موسيقية وبعض الأحاديث ؟
× ٢٤ كيلومتراً .
× ٢٤٠ كيلومتراً .
× ٢٤٠٠ كيلومتر .

١١ اشتهر « هنري فورد » بصنع سيارته المعروفة بطراز (T) . ترى كم بلغ مجموع ماصنعه من هذه السيارة ، علماً بأنه بدأ إنتاجها في وقت مبكر (سنة ١٩٠٩) ، وتوقف سنة ١٩٢٧ .
× نحو نصف مليون سيارة .
× نحو ١٥ مليون سيارة .
× نحو مليون ونصف مليون سيارة .

١٢ يذكر التاريخ ثورة الملاكمين في الصين ، تلك التي وقعت في مطلع القرن العشرين ، ترى ماذا استهدفت تلك الثورة ؟
× كانت ثورة رياضية ، قام بها الملاكمون ضد المصارعين التقليديين .
× كانت ثورة قومية داخلية ، استهدفت القضاء على الظلم والاستبداد ، شأنها في ذلك شأن الثورة الفرنسية .
× كانت ثورة قومية سياسية ، استهدفت التعبير عن البغضاء للأجانب ، والعداء للنفوذ الأجنبي في الصين .

حل مسابقة العدد ٣٦٨

يوليـــو ١٩٨٩

١ العجيبتان السادسة والسابعة هما ضريح موسولوس ومعبد أرتيميس ، وقد بني الضريح في بلدة هليكارناسوس ، وبني المعبد في بلدة إفيسوس ، في آسيا الصغرى (تركيا حاليا) .

٢ رقم (٧) كان مقدسا في نظر الاغريق ، وفي نظر الكثيرين غيرهم من أهل التاريخ القديم والوسيط ، لذلك حرص انتيباتر على ألا تزيد العجائب التي حددها عن (٧) .

٣ كانت منارة الاسكندرية أول منارة ظهرت في التاريخ . يعود بناؤها إلى سنة ٢٧٠ ق . م ، وقد بلغت من الارتفاع ١٢٢ مترا ، وكانت مقامة على جزيرة صغيرة ، تقع في مدخل مرفأ الاسكندرية .

٤ يبلغ عدد الكتل الحجرية التي يتكون منها هرم خوفو أكثر من مليوني كتلة ، (٢,٣٠٠,٠٠٠) كتلة بالتحديد .

٥ تمثال أبوللو هو الأضخم ، سموه كولوسوس أي العملاق ، فهو يبلغ من الارتفاع ٣٢ مترا وقد أقاموه في المدخل من مرفأ جزيرة رودس بحيث كان لا مفر للسفن من أن تمر من تحت التمثال وبين ساقيه إذا هي أرادت الدخول الى المرفأ . . تم انشاؤه فيما بين سنة ٣٠٥ ـ ٢٩٢ ق . م ودمرته الزلازل سنة ٢٢٤ ق . م .

٦ إرضاء زوجته أميتس هو الباعث على إنشاء الحدائق المعلقة فقد كانت من ميديا ، حيث الجبال والمراعي والأشجار ،فبنى لها الحدائق المعلقة لتسلو بها عن مسقط رأسها ، إلا أنها لم تكن معلقة بسلاسل أو ما إلى ذلك ، بل لم تكن أكثر من مصاطب مهّدها على سفح تل مرتفع ، كان يقع على ضفاف نهر الفرات وضمن القصر الملكي . على أن أكثر ما يبعث على العجب في الحدائق المعلقة شبكة الري التي ابتكرت من أجلها ، فقد جرّت تلك الشبكة الماء من نهر الفرات ، بل قل ضخّته ودفعته إلى أعلى ، إلى مصاطب الحدائق المعلقة تلقائيا .

٧ الكاتب اليوناني (انتيباتر) هو الذي سبق غيره في التحدث عن عجائب الدنيا السبع ، وقد عاش في صيدا في القرن الثاني قبل الميلاد .

٨ هرم الهنود الحمر في شولولاريفا في المكسيك هو أضخم أهرامات العالم جميعا ، فهو يبلغ من الحجم ٣,٣ ملايين متر مكعب ، أي بزيادة نحو ٥٠٪ على حجم هرم خوفو البالغ ٢,٥ مليوني متر مكعب .

٩ سور الصين العظيم هو أضخم صروح التاريخ دون أدنى ريب ، اكتمل بناؤه في القرن الثالث قبل الميلاد (٢٤٦ - ٢١٠ ق.م) .
ويبلغ طوله ٣٤٦٠ كيلومترا أي ما يعادل ٣ أضعاف طول بريطانيا ، ولهذا السور فروع لا يقل طولها عن ٢٨٦٠ كيلومترا . أما ارتفاعه فيتراوح بين ٤,٥ - ١٢ متراً . وسمكه يزيد على ٩ أمتار (٩,٨ أمتار) .

١٠ يبلغ عدد تماثيل جزيرة (ايستر) حوالي ١٠٠٠ تمثال ، وقد اكتشف الجزيرة وتماثيلها (جاكوب روجفن) الهولندي وذلك صبيحة عيد الفصح سنة ١٧٢٢ ، ومن هنا كانت التسمية .

١١ يجمع الكثيرون على أن تاج محل هو أجمل مباني العالم وأكثرها روعة وبهاء ، بناه امبراطور الهند (١٦٢٨ - ١٦٥٨) شاه جهان في مدينة اكرا ، وذلك كي تدفن فيه زوجته ممتاز محل ، وكان الامبراطور ينوي بناء (تاج محل) آخر على الضفة المقابلة من نهر يامونا ، وذلك كي يدفن فيه جثمانه ، ولكنه لم ينفذ خطته هذه ، وقد جرى دفنه في ضريح زوجته وغير بعيد عنها .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٦٨ يوليو ١٩٨٩

الجائزة الأولى : توفيق محمد السهلي / دمشق - سوريا

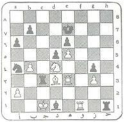
الجائزة الثانية : المنجي الوغلاني / مدنين - تونس

الجائزة الثالثة : محمد عبدالله أبو وعر / عمان - الأردن

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١) عبدالحفيظ عمر معاشر / كريتر - عدن - اليمن الديمقراطي
٢) شادية أحمد نصرة / دمنهور - مصر
٣) كتج محمد المدني / كيرلا - الهند
٤) هاني أبودحيلة / الجامعة الأردنية / عمان - الأردن
٥) شادي يوسف محمد / طرابلس - ليبيا
٦) سليم صالح علي محمد اليحيائي / بهلا - سلطنة عمان
٧) سليماني احميدة / الدار البيضاء - المغرب
٨) ماكانجو كامارا / غينيا « غرب افريقيا » - كوناكري

معركة بلا سلاح

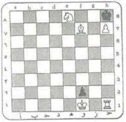


من المتفق عليه في الأوساط الشطرنجية أن أكبر صعوبة يلاقيها الأسود في الدفاع الفرنسي (١. هـ ٤ - هـ ٦) ، ان الأسود غالباً ما يجد صعوبة في نشر فيله الأبيض (فيل الوزير) الذي تشل حركته البيادق التي تحتل المربعات البيضاء المحيطة به في (د ٧) و (هـ ٦). ويرى العديد من المؤلفين الشطرنجيين أن استراتيجية الأبيض ينبغي أن تعتمد منذ البداية على التخطيط لنهاية الدور ، حيث يحتفظ الأبيض فيه بحصان ناشط مقابل فيل الأسود المشلول ، ثم يزحف على البيادق السود بملكه لاحراز نصر فني سهل . غير أن فيكتور كورشنوي السوفيتي الأصل السويسري الجنسية تحدّى نظرية الفيل الأسود الضعيف في مباراة بطولة العالم ١٩٧٤ ، واضطر كاربوف أن يلعب (٢. د ٤ - د ٥ - ٣. ح - د ٢) ونجم عن ذلك عدد من الأدوار المثيرة . ومع أن الأسود عانى في نشر فيله الضعيف إلا أنه لم يخسر فقط . وقد أفلح في نهاية الدور في تمكين فيله المشلول من القيام ببعض النشاط .

وقد تمكن كورشنوي في السنوات الأخيرة من الخروج بتنويعات مثيرة ، تمكنه من تحرير فيله الضعيف ، ففي اثنتين من مباريات البطولة لعام ١٩٨٤ ، استطاع كورشنوي على الرغم من النقلات الافتتاحية للدور التي كانت في صالح الأبيض من الناحية النظرية أن يلحق هزيمة ساحقة بخصميه بتعبئة الفيل عن طريق (د ٧) ثم (هـ ٨) .

وفي إحدى بطولات الفرق الحديثة المقامة في لوزان في سويسرا ١٩٨٥ لعب كورشنوي بالأسود مع البريطاني جون نن الذي كان يفضل بدوره تنويعاً آخر مضاداً للدفاع الفرنسي ، يهدف إلى استغلال فيل الوزير ، غير أن كورشنوي سرعان ما أثبت ثقته في أفكاره حول الدفاع الفرنسي بتبادل الوزراء واثنتين من القطع الصغرى ، والسماح لحصان « نن » باحتلال المربع المثالي (د ٤) ، ومرة أخرى استطاع الفيل الأسود الضعيف اختراق دفاعات الخصم والسير متبختراً بين صفوفه والتآزر مع بقية القطع السوداء لإحراز النصر .

مسألة العدد ٣٧١



مات ٢

من إهداء سعيد شكري (اليمن)

□ جون نن	■ فيكتور كورشنوي
١. هـ ٤	هـ ٦
٢. د ٤	د ٥
٣. ح - جـ ٣	ح - و ٦
٤. هـ ٥	ح (٦) - د ٧
٥. و ٤	جـ ٥
٦. ح - و ٣	ح - جـ ٦
٧. ف - هـ ٣	جـ × د ٤
٨. ح × د ٤	ف - جـ ٥
٩. و - د ٢	ح × د ٤
١٠. ف × د ٤	ف × د ٤
١١. و × د ٤	و - ب ٦
١٢. و × ب ٦	ح × ب ٦
١٣. ت ت	ف - د ٧
١٤. ف - د ٣	حـ ٥
١٥. ح - هـ ٢	م - هـ ٧
١٦. ح - د ٤ (مربع مثالي)	ز ٦
١٧. ز ٣	ف - جـ ٦
١٨. ر (د) - هـ ١	ح - د ٧
١٩. جـ ٣	ر (أ) - ز ٨

الأبيض يقوّي (د ٤) والأسود يهاجم جناح الملك .

٢٠. ر (حـ) - و ١	ز ٥
٢١. و ٥	ز ٤
٢٢. ر - هـ ٢	حـ ٤
٢٣. ب ٤ (م - د ٢ أفضل)	ح × ز ٣
٢٤. حـ × ز ٣	ف - أ ٤
٢٥. ح - ب ٢	ر - حـ ٣
٢٦. ر - ز ١	ر (و) - حـ ٨
٢٧. م - أ ٣	ر - جـ ٨ !
٢٨. م - ب ٢ (في الأخذ مات ٥)	أ ٦
٢٩. ر (١) - ز ٢	ف - د ١ !
٣٠. ر - هـ ٣	ح - ب ٦
٣١. ر - و ٢	ر - حـ ٨
٣٢. و × هـ ٦	و × هـ ٦
٣٣. ر - و ١	ح - أ ٤ +
٣٤. م - جـ ١	ر × جـ ٣ +
٣٥. يستسلم (الشكل)	

□■□

الفائزون في مسابقة الشطرنج العدد رقم (٣٦٨) يوليو ١٩٨٩م

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١) عبد الله سعيد عبد الله - العمرية/ الكويت
٢) جمال حسين الزروق - طرابلس/ الجماهيرية الليبية
٣) علي سعيد محمد - الأنبار/ الجمهورية العراقية
٤) نور الدين البوزيدي - سوسة/ الجمهورية التونسية
٥) محمد مهدي النسعة - معان/ المملكة الأردنية الهاشمية

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١) صفية زين العابدين - قرية مناقـذا/ الحصاحيصا/ السودان
٢) فراس نقشبندي - دير الزور/ الجمهورية العربية السورية
٣) خالد علي العميسي - صنعاء/ اليمن
٤) محمد اسحاق بن عبدي - نواكشوط/ الجمهورية الموريتانية
٥) فارس علي صالح الجميلي - قضاء الفلوجة/ الجمهورية العراقية .

حل مسألة العدد ٣٦٩ أغسطس ١٩٨٩

١. (ر - و ٨ +) (و × و ٨) ٢. (و - حـ ٧ +) (م × حـ ٧)
٣. ز × و ٨ (حصان) مات

حوار القراء

العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

مساهمة الكويت في نشر الثقافة العربية

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،
تحية طيبة وبعد ،

● لقد بهرت ، والحق يقال ، بالمجلة شكلا ومضمونا ، كيف لا وقد رأيت فيها العديد من الفوائد ، من الناحية الحضارية والأدبية والثقافية والعلمية والتاريخية والدينية وغيرها .

إننا كثيرا ما نتداول المعلومات القيمة المنشورة التي تنمي العقل وتهذب الذوق ، وتزودنا بالجديد من العلم والثقافة ، والمجلة في كل زاوية من المدرسة والحي والمنزل ، وقد عرفتنا بكثير من العادات والتقاليد لدى كثير من الشعوب . والكويت ترعى هذه المؤسسة الثقافية ، وتعطيها من الإمكانيات ما ييسر لها الصدور كل شهر بموعدها وبالقوة والنشاط البارزين ، بل وبتطور يزداد يوما عن يوم ، وهذه شهادة من الجميع .

إن الدعم الذي تقدمه الكويت للثقافة العربية والمحافظة على نشر اللغة العربية وتزويد القارىء العربي بالمعلومات عن وطنه العربي،كلها ارتبطت باسم الكويت .

القارىء : غازي بوجلبان
صفاقس - تونس

□□

تعليق حول موضوع تطويل الأطراف

● في عدد ابريل من عام ١٩٨٩ المرقوم ٣٦٥ ، كتب الدكتور وليد السباعي مقالا عن قضية تطويل الأطراف التي تعالج مشكلة قصر القامة .

وقد كتب إلينا القارىء محمد الطحاوي من الشرقية ، جمهورية مصر العربية ، يسأل عن إمكانية نجاح عملية إطالة عظام الساقين ، وكذلك عن التكاليف المالية للعملية . وكذلك كتب القارىء أحمد محمد ، من الاسكندرية ، يسأل عن مدى انتشار إجرائها في الأقطار العربية ، وهل هناك احتمال للمضاعفات بعد العملية . أما القارىء علي دياب ، من دمشق ، سوريا ، فيسأل عن العمر المناسب لإجرائها . وقد وصل كثير من الرسائل في هذا الاتجاه .

وعلى ما يبدو أن المعاناة من قصر القامة قد أصبحت قضية شائعة عامة ، لهذا حمل لنا البريد هذه الرسائل التي يتساءل أصحابها عن تفاصيل دقيقة ، ربما لم ترد في المقال ، كما يسألون عن أمور ما زالت تنتظر الأيام والتجربة للإجابة عنها إجابة حاسمة ، فالعملية الروسية الرائدة حديثة عهد ، وهي بهذا بحاجة إلى خبرة

على هذه الصفحات ... ترحب «العربي» بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

وتجارب ودراسات ، ولم تنل نصيبها من الشيوع والانتشار ، لهذا فهي ما زالت مقصورة على البلدان المتقدمة . ولا شك أن مزيدا من الصبر سوف يتيح للأسرة الطبية وفرة في المعلومات عن مدى نجاحها ، وعن احتمال وجود مضاعفات ، (وكيفية التغلب عليها) ، كما يتيح فرصة لمزيد من التجربة والمران . وهذا كله في صالح المرضى الذين يعلقون آمالا كبيرة على هذا الإنجاز الطبي الرائد ، لكنهم يستعجلون الأمر ، ويستبقون الأحداث ، ولهم في هذا عذرهم ، لكن الصبر والتروي ضروريان والأمل قريب بإذن الله في أن تشيع هذه العملية في أقطارنا العربية ، ويكتسب فيها أطباؤنا خبرة وتجربة ومعرفة شاملة .

□□

فن الإدارة الحديث

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

تحية طيبة وبعد ،

● أود أن أعرب عن إعجابي الشديد بمجلتنا الغراء « العربي » ، لما تحويه من مواضيع قيمة أدبية وعلمية ، تثري فكر القاريء العربي .

لقد اطلعت على العدد ٣٦٧ يونيو ١٩٨٩ ، وقد شدني عرض لكتاب « العالم والعرب سنة ٢٠٠٠ » لمؤلفه الدكتور محمد جابر الأنصاري في باب (من مكتبة العربي) ، ومن خلال قراءتي للعرض اتضح لي بأن الكاتب يتنبأ بمستقبل العالم ومستقبل العرب سنة ٢٠٠٠ ، معتمدا في ذلك على بعض الدراسات والأبحاث التي هي بمثابة مؤشرات للمستقبل القادم ، « مستقبل القوة الصفراء » والتي يقصد بها الدول الشرقية الآسيوية إن جاز التعبير « اليابان ، الصين ، كوريا ، الهند » ، ومن ثم يستطرد في عرضه حول دراسة في أحد فصول الكتاب ، تلقي الضوء على جذور التربية اليابانية ، وخصائصها المميزة ، وكيف استطاعت أن تجمع بين شعبية التعليم وارستقراطيته العلمية والفكرية ، ولم تؤخذ باللغات الأجنبية المتقدمة ، ولم تتميز بها على الرغم من مركزية التوجيه في النظام التربوي ، فإنه يقوم على مرونة ولا مركزية ملحوظة ، في تنظيم وزارة التربية والعلوم والثقافة .



فلو أمعنا النظر في ما كتبه الأستاذ رافع عبد الرحمن في عرضه سنجد أنه قد استخدم مصطلحات إدارية ، في حين أنه ينتقدها بشدة ، ويعتقد أنها معيقة للتقدم . وما أحب أن أوكده هنا أنه لولا علم الإدارة لما وصلت اليابان إلى ما وصلت إليه حاليا ، ولما وصلت إلينا مجلتنا الغراء ، وذلك بغض النظر عن الأمور الأخرى ، أي بافتراض توافر كل الإمكانات المادية والبشرية . هنا يلزمنا العنصر

حوار القراء

الإداري المنظم الكفؤ ، القادر على أن يكيف العلم الإداري الحديث حسب ظروف بيئته . إذن سنبقى أمام سؤال هو : كيف يمكن لنا أن نوفر هذا العنصر ؟ قد تكون الاجابة بافتتاح معاهد متخصصة ، وكليات تعمل على تدريب هذه العناصر ، وعقد الندوات . وهذا لا يكفي ، وبكل تأكيد نحن لا نقل عن شعوب العالم ذكاء ، بل يلزمنا الإطلاع ، والبحث المستمر في المراجع العلمية الحديثة ، وهنا تكمن مهمة مجلتنا الغراء ، لتضفي على نفسها حلة جديدة من حلل العلم والثقافة ، فماذا لو زودتنا مكتبة « العربي » ببعض المراجع العلمية في علم الإدارة ، وخصوصا الأبحاث والدراسات المستجدة في هذا المجال الفريد من مجالات العلوم الاجتماعية الذي لم يتجاوز عمره مائة عام ؟

القاريء : جلال محمد علي القيسي
صنعاء - الجمهورية العربية اليمنية

● تقوم المجلة بين فترة وأخرى بنشر ملخص لمجموعة من الكتب في باب مختارات من المكتبة العربية ، إضافة إلى الكتب التي يعرضها رئيس التحرير في حديث الشهر ، ونحن نرحب بكل ما يردنا من عرض للكتب ، مع الأخذ بعين الاعتبار صلاحية المادة للنشر .

□□

العربي

اتقان العربية

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،
تحية طيبة وبعد ،

● نحن طالبتان ألمانيتان ، ندرس اللغة العربية في جامعة « غرمير سهايم » ، في (المانيا الاتحادية) ، ويتطلب الأمر اطلاعنا على بعض المجلات العربية الجيدة للقراءة العامة . وقد سمعنا كثيراً عن مجلة « العربي » ، وما تحويه من موضوعات جادة واهتمام واسع بأمور اللغة العربية ، وكذلك الانتشار الواسع والتنوع في الموضوعات المنشورة ، وهذا كله يساعدنا على إتقان العربية ، واكتساب معرفة واسعة عن التقدم الذي وصلت إليه الأقطار العربية . وعليه فنحن بحاجة لتزويدنا بالمجلة بشكل دوري ، حتى تكون بين أيدينا في جميع الأوقات للقراءة والاطلاع وقت الحاجة ، ومن وقت لآخر .

لذا نسألكم عن إمكانية توفير أعداد من المجلة في المانيا الاتحادية ، كي يتسنى لأمثالنا الاطلاع عليها واقتناؤها . وختاما نقدم لكم خالص الشكر على ما تقدمونه للغة العربية ولنا من خدمات جليلة .

القارئة : استفني روسن — القارئة : كرن فارمك
المانيا الاتحادية

□□

اقتراحات
وردود

● **القاريء عبد العزيز السعيد ، من الرياض ـ المملكة العربية السعودية ـ** يطالب المجلة بأن تعمل على تجليد المجلة بشكل أفضل ، لأنها مجلة يحتفظ بها ، وهي ليست مجلة سيارة ترمى بعد قراءتها مباشرة ، فالاهتمام بالتغليف الجيد يعكس اهتمامكم بالمجلة نفسها ، وباحتفاظ القاريء بها .

● **القاريء خالد عشري عبد ربه ، من امبابة ـ الجيزة ـ جمهورية مصر العربية ـ** يقترح أن تقوم المجلة بالتوسع في الاستطلاعات عن قارة افريقيا ، لا سيما المناطق الجنوبية من القارة والمناطق الوسطى الحارة ، وتسليط الضوء على بعض القبائل الافريقية المشهورة هناك ، وعن عاداتها وتقاليدها ، وعما سببته المجاعة من دمار وفقر ، وعن الخطوات الناجحة للقضاء على المجاعات .

● **القاريء علاء بكري محمد ، من جامعة بنها ـ جمهورية مصر العربية ـ** يقترح تخصيص باب للمواهب الشابة للتعبير عن آرائها وأفكارها ، وتنمية هذه المواهب ، خاصة الأدبية والعلمية منها .

● **القاريء زياني محمد ـ البناية ، حي بن جرمة ، الجلفة ، الجزائر ـ** بعث برسالة يشيد فيها بدور المجلة ، ويقترح قيام المجلة باستطلاع عن الجزائر ، وعن النهضة الزراعية فيها على الأخص .

● **القاريء ياسر علي عوض ـ محافظة لحج ، جمهورية اليمن الديمقراطية ـ** يقترح إيجاد باب بعنوان « فنون وآداب » يخصص للسينما والمسرح .

● **القاريء محمد علي ، من البحرين ،** يقول : إن المجلة وصلت الى كوريا الجنوبية ، إلا أنها لم تدخل كوريا الشمالية ، كما أنها وصلت أمريكا الجنوبية ، إلا أنها لم تصل « نيكاراجوا » . بودنا لو تقوم المجلة باستطلاع شامل عن هذه المناطق .

● **القاريء محمود منصور رمضان ـ محافظة قنا ، جمهورية مصر العربية ـ** يشيد بالملف الذي نشر عن حياة الأديب العربي الكبير نجيب محفوظ ، في عدد ٣٦٦ مايو ١٩٨٩ بمناسبة حصوله على جائزة نوبل للآداب ، ويثمن الجهود التي بذلت لإخراجه .

● **القاريء محمد أحمد الأمين ـ مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ـ** يشيد باستطلاعي المجلة عن موريتانيا وليبيا ، في عددي (٣٦٣ ـ ٣٦٤) ، (فبراير ، مارس ١٩٨٩) ، ويقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن مدينة « شنقيط » ، من مدن الصحراء الموريتانية .


نجيب محفوظ

حوار القراء

● القاريء مصباحيها جواد ، من فاس ، المملكة المغربية ، يقترح زيادة المواضيع التي تتطرق لبعض الظواهر العلمية الخارقة ، مثل الأطباق الطائرة ، وزيادة المواد الأدبية مثل الشعر والقصة .

● القاريء أحمد محمد عبد الوهاب ، من كلية الطب ، بجامعة الأزهر ، بجمهورية مصر العربية ، يشيد بكتاب « العربي » وموضوعاته الشيقة ، ويطالب بزيادة كمية المرسل منه الى القاهرة ، لأنه يجد صعوبة في الحصول على نسخة منه في حالة تأخره في الذهاب للمكتبة التي توزع الكتاب .

● القاريء جمال أمين حسين ـ كلية الهندسة ، جامعة الاسكندرية ـ يقول : إنه قرأ بكل اهتمام ، في العدد ٣٦٥ ابريل ١٩٨٩ ، في باب من المكتبة العربية ، موضوع مراجعة كتاب « الآلات في حياتنا ، وكيف تعمل » ، ويرغب في شراء الموسوعة . ونقول له : إن الموسوعة من إصدار جمعية رعاية الطفولة العربية ، خيطان ، الكويت . ويمكنك مراسلتها مباشرة .

● القاريء سلالار مصطفى الجاف ـ بغداد ، الجمهورية العراقية ـ يشيد بالملف المنشور عن شركات توظيف الأموال في مصر ـ العدد ٣٦٥ ، ابريل ١٩٨٩ ـ فالقراء يفتقرون الى مواضيع كهذه .

● القاريء أسامة عبد المولى سند ، من القاهرة ـ جمهورية مصر العربية ـ يقترح تخصيص باب لتعلم لغة الحاسوب « الكمبيوتر » ، ومباديء هذه اللغة .

● القاريء أحمد زيدان ـ حلب ، سوريا ـ يود لو أن المجلة قامت باستطلاع عن سوريا ، بمدنها وقراها ، وما طرأ عليها من تطور عمراني وصناعي ملحوظ .

● القاريء محمد الأمجد سلامة ـ المرس ، الجمهورية التونسية ـ يشيد بالمجلة على نشرها مقال الدكتور شذى التركزلي ـ « الانشطار النووي » في عامه الخمسين ، عدد ٣٦٥ ابريل ١٩٨٩ ـ خاصة ونحن نعيش عصر العلوم والتقنية المتطورة الخارقة ، ويود أن ينتهز الفرصة ليطلب من العلماء العرب أن يعملوا على ترجمة الكتب العلمية الأجنبية ، كي يستفيد منها جيل الشباب العربي .





● **القارئة إيمان ياسين ، من دمشق ـ سوريا ـ** تود لو أنه تم نشر مواضيع مشابهة لما نشرته المجلة في عدد ٣٦٤ مارس ١٩٨٩ للأستاذ عبد الرحمن حمادي ، عن صورة العرب في السينما غير العربية ، نظرا لقلة المنشور في هذا المجال .

● **القارئة هناء أحمد نعاونة ـ النعيمة ـ اربد ، الأردن ـ** تقول : إنها قرأت في عدد ٣٦٥ ابريل ١٩٨٩م ، في باب « من دفتر الذكريات » ، للدكتور محمد جابر الأنصاري ، عن ذكرياته في مدينة المحرق ومدرسة « الهداية الخليفية » . فهل يمكن أن تقوم المجلة باستطلاع مصور عن هذه المدرسة الجليلة ؟ ونقول للقارئة : إن المجلة بصدد نشر استطلاع عن المدرسة وغيرها من المدارس القديمة في الخليج العربي في أعداد قادمة إن شاء الله .

● **القارىء زكي أحمد عبده المخلافي ـ تعز ، الجمهورية العربية اليمنية ـ** يقترح على المجلة أثناء القيام بالاستطلاعات أن تستغل الفرصة للقاء الجاليات العربية في البلاد التي تزورها بعثة المجلة ، لتقدم المهم عن حياتهم في تلك البلاد ، وكيف يعيشون ويمارسون حياتهم اليومية ، والمعلومات الاحصائية العامة عن أعدادهم ونسبة مواطني كل قطر عربي من المجموع .

● **القارىء محمود محمد عمر ، محافظة الجيزة ـ جمهورية مصر العربية ـ** يقترح أن تخصص المجلة بابا ثابتا للفن التشكيلي . □

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت
أكتوبر ١٩٨٩ م

مُستقبلنا المشترك

ترجمة : محمد كامل عارف
وعبد الإله مجبل النعيمي
مراجعة : الدكتور علي حجاج

٥٠٠ فلس
الكتاب ١٤٢

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

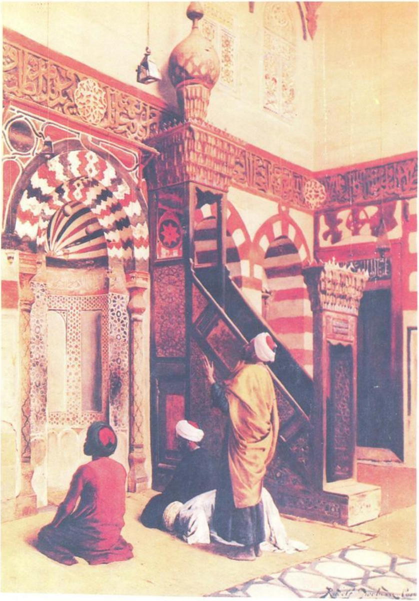
من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٤١ أول أكتوبر ١٩٨٩

مطعم القردة الحيّة

تأليف : غونكور ديلمان
ترجمة : نصرت مردان
مراجعة وتقديم : د. ابراهيم الداقوقي



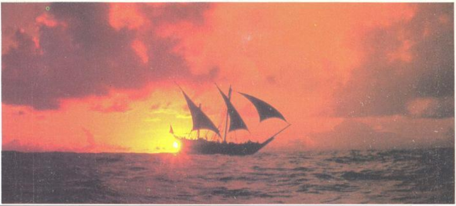
داخل المسجد - للفنان النمساوي رودلف سفوبودا

ربيع الآخر ١٤١٠هـ - نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٩م

العربي



- قناة السويس .. حياة متجددة
- كراتشي .. الأيام الزاهرة !
- سوق الفن الإسلامي



سفينة "صُحار"، مثل السفن التجارية العربية، صنعت من دون استعمال مسمار واحد فيها.

بعد حَوالي ١٢٠٠ عام، ينطلق السندباد البحري إلى البحر ثانية.

كان من المحتم على تيم سيفيرين، الكاتب المفتون بالرحلات الأسطورية، أن يجد نفسه ذات يوم يفكر في حكايات السندباد البحري القديمة. ويفترض بحكايات السندباد الموجودة في كتاب "ألف ليلة وليلة" أن تكون جرت مابين عام ٧٨٦ وعام ٨٠٩ ميلادية.



يوضع الزيت الواقي على الحبل المصنوع من شجر جوز الهند

يقول تيم: "ما من شك في أن شخصية السندباد قائمة على حقيقة تاريخية، فهو يرمز الى الظاهرة غير العادية لارتياد العرب البحار قبل نحو ألف ومئتي عام.

"كان هدفنا أن نشرح كيف تمكن السندباد والبحارة العرب الأوائل من القيام برحلة الستة آلاف ميل من عُمان إلى بحر الصين الجنوبي. ولكي نفعل ذلك، كان علينا أن نصنع سفينة مطابقة لسفينته قدر الامكان."

كانت السفن التجارية العربية الاولى مركبة من ألواح خشبية موصولة معاً بألياف شجر جوز الهند. وقد علمنا بأن ماركو بولو لم يكن معجباً بهذه الاساليب، وكذلك حال المؤرخين البحريين العصريين.

لقد صُنعت سفينة مطابقة للأصل لم يُضرب فيها مسمار واحد - بل جمعَت معاً بحبال من شجر جوز الهند بلغ طولها ٤٠٠ ميل.

اطلق على السفينة اسم "صُحار" وابحر تيم فيها على طريق التوابل القديم - عبر بحر العرب الى ميناء كانتون في جنوب شرقي الصين.

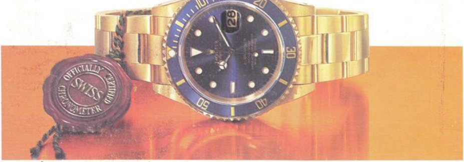
أثناء الرحلة، كان لابدّ من إجراء اصلاحات على دقة السفينة في مياه تعجّ بسمك القرش. وهدأت "صُحار" في منطقة الركود الاستوائية إلا أنّ السارية الرئيسية انشطرت إلى شطرين في المحيط الهندي. كانت البحار المواجهة لفيتنام مضطربة جداً بحيث ان خمسة من أشرعة "صُحار" تمزقت إرباً إرباً. ولكن بعد مضيّ سبعة أشهر ونصف، دخلت "صُحار" ميناء كانتون واستقبلت استقبال الابطال - وهكذا أصبحت أسطورة السندباد الآن حقيقة ثابتة.

طوال تلك الأشهر، اعتمد تيم على ساعة رولكس صبماريز المقاومة كلياً لتسرب الماء، وقد ساعدته هذه الساعة على القيام ثانية برحلات اخرى.

وهكذا فإن ساعات رولكس، التي حُملت الى أعلى الجبال، والى أعماق البحر، والى كلا القطبين، وعبر الصحارى، قد أصبحت جزءاً من حكايات "ألف ليلة وليلة".

ROLEX

رولكس



ساعة رولكس صبماريز ديت كرونومتر من الذهب عيار ١٨ قيراطاً. وهي متوفرة أيضاً بالفولاذ والذهب الأصفر عيار ١٨ قيراطاً أو بالفولاذ الذي لايصدأ.

العـــدد ٣٧٢ الســنة الثانية والثلاثون نوفــمبر ١٩٨٩

العربي

مجـــلة ثقـــافيـــة مصـــورة
تصـدر شهــريًا عــن وزارة الإعــلام بـدولـة الكـويـت
للوطـن العـربي ولكل قـارئ للعـربيـة فـي العـالـم

رئـيس التحـــريـر
د. محمـــد الرميـــحي

عنـوان المجلة

العـربي
ص.ب: ٧٤٨ ـ الصفـاة
الرمـز البريدي 13008 الكـويـت
تلفـون: ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيـا: "العـربي" - الكـويـت
تلفون فاكسملى: ٢٤٢٤٣٧٥ - تلكس: MITR. 44041 KT
المراسـلات باسـم رئـيس التحـريـر

AL-ARABI
Issue No 372 Nov. 1989 - P. O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

الاعلانات يتفـق عليهـا مـع الإدارة ـ قسـم الاعـلانـات

الاشتراكات تُرسَل الطلبات إلى: قسـم الاشتراكات ـ الإعلام الخارجي
وزارة الإعـلام ـ ص.ب: ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة
مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا   باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

ثمـن النسخة

الكـويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العـراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسًا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا: جنيه استرليني ونصف
مصر ٣٥ قرشًا	سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ٢٥ فرنكًا
السودان ٢٥ قرشًا	لبنان ٥٠ ليرة	أمريكا ٣ دولارات

محتويات العدد

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

سياسة واقتصاد :

استطلاعات مصورة :

طب وعلوم :



● كراتشي عاصمة السند والأيام الزاهرة ص٦٨



● طيور تخطف الجواهر والحلى ص ٨٨

تربية وعلم نفس :

أدب وفنون :

■ جمال العربية



منتدى العربي :

اجتماع :

تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :



صورة الغلاف

بمناسبة مرور مائة وعشرين عاما على افتتاح قناة السويس للملاحة ، رصدت بعثة مجلة « العربي » مظاهر الحياة الجديدة حول ضفتيها .
[طالع الاستطلاع ص ١٣٢]

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع

دورة الصداقة والسلام

خلال الأربعة عشر يوماً الأولى من هذا الشهر (نوفمبر ١٩٨٩) تستضيف الكويت أول دورة رياضية للدول الإسلامية ، هذه الدورة أطلق عليها بحق اسم دورة الصداقة والسلام ، وتعقد هذه الدورة على أرض الكويت ، لأنها أولاً رئيسة المؤتمر الإسلامي في دورته الحالية ، وثانياً لأن شعار الكويت منذ أن وجدت هو الصداقة والسلام ، فليس هناك أكثر من السلام والتفاهم مجالا حيويا لتقدم الشعوب وتفرغها لبنائها الداخلي وعلاقاتها الخارجية المتوازنة ، وليس هناك أفضل من الصداقة سداة لتمتين العلاقات بين الأقطار والشعوب .

ولم تكن إقامة هذه الدورة من المنظور التنظيمي للرياضة العالمية سهلة أو ميسرة ، ولكن الكويت بدأب أبنائها وعزيمتهم ذللت كل تلك الصعاب والعقبات التنظيمية التي يتشبث بها بعض الإداريين في المنظمات الرياضية الدولية ، وأصبح من حقنا كعرب وكمسلمين أن نقيم دورة رياضية ، يشترك فيها أبناء العرب والمسلمين في كل أقطارهم ، ليتعارفوا ويتنافسوا التنافس الشريف ، المنزه عن المقاصد عدا تقريب اللحمة وتمتين عرى الصداقة والمحبة .

وهكذا تجتمع فرق ثلاث وأربعين دولة إسلامية وعربية على أرض الكويت ، يتنافسون تنافساً شريفاً في خمس ألعاب مختلفة هي : كرة القدم ، والسلة ، واليد ، والطائرة ، وألعاب القوى .

هذا اللقاء يظهر اهتمام الكويت بالرياضة كطريق لبناء الشباب ، بجانب طرق أخرى منها الثقافة التي نقدمها في مجلتك هذه . وبالمناسبة نريد أن نهمس إلى كتابنا هذه المرة ببعض الملاحظات ، ونحن نعد لانطلاقة جديدة في مطلع السنة الميلادية المقبلة ـ بعد شهرين من الآن ـ وذلك أن من بعض ما نفاجأ به أحياناً أن نرى مقالاً منشوراً في إحدى الدوريات ، كنا قد وضعناه في خطة النشر « بالعربي » .

وما نريد قوله هنا أن الموضوعات المختارة للنشر نكون قد انتقيناها من بين مئات الموضوعات الصالحة للنشر ، بسبب كثرة ما يصل إلينا منها ، وهذا يستغرق منا وقتا يصل إلى حوالي ستة أشهر للقراءة الأولية والفرز والاختيار والتنسيق قبل دفعها إلى النشر ، وخلال هذا الوقت فإننا نحيط الكاتب علماً بأن مقاله قد قُبل وَوُضِع في خطة النشر .

إلا أننا نفاجأ بعد هذا كله بأن المقال منشور في مطبوعة أخرى ، ويحدث هذا ـ في تفسيرنا ـ بسبب استعجال الكاتب لنشر مقاله ، أو أنه قد أرسل المقال لأكثر من جهة في الوقت نفسه . وإن كانت الخطوة الأخيرة ليست مقبولة من حيث التصرف ، فإن الخطوة الأولى غير مبررة ، لأننا نعد بالنشر بمجرد أن يكون المقال جاهزاً ومناسباً .

وحتى نتفادى كل هذا الإرباك ، فإننا نطلب ـ وهو ليس بطلب كبير ـ أن يحيطنا الكاتب علماً بأنه قد أرسل المقال إلى جهة نشر أخرى .

وتحرص « العربي » انطلاقاً من احترامها لقرائها ومستواها ، أن تكون المادة المقدمة على صفحاتها قد كتبت خصيصاً لها ، ولم يسبق نشرها أو إلقاؤها في ندوة أو عبر أجهزة الإعلام الأخرى . ونحن نمارس هذا الحق لحساب قارىء « العربي » الذي يتوقع من مجلته الجديد المفيد دائما .

المحـــــرر

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

هل نحتاج إلى أن نتعلّم كيف نفكر؟

إحدى القضايا التي باتت ملحة على العقل العربي المعاصر قضية التفكير السليم ، أو التفكير العلمي - إن شئنا الدقة - وهي قضية مطروحة على أنظمتنا التربوية ، وعلى مجتمعاتنا بشكل أوسع ، وبدون إيجاد مسالك معقولة باتجاه فهم هذه القضية ، سنظل نسمع ونقرأ ونقول أموراً ما أنزل الله بها من سلطان ، تبدو جميلة في مظهرها ، ضارة كل الضرر بمجتمعنا العربي حاضره ومستقبله .

والمشاهد أن مظاهر التفكير الأعوج قد كثرت بين ظهرانينا ، فأفتى من لا يملك الحد الأدنى من مقومات الإفتاء في السياسة والدين والثقافة والاقتصاد ، واحتفلنا (بمجتهدين) غاية علمهم نتفٌ شاردة من بعض كتابات السلف والخلف ، ناقلين في أفضل الأحوال ، مرددين ما سمعوا ، أو قرؤوا في زمن وظروف مختلفة أشد الاختلاف عن ظروفنا وواقعنا ، وهم

في كل الأحوال ـ اجتهاداً أو نقلاً ـ لا يلمون بكل ما كتب أو قيل في ما يتعرضون له بالإفتاء من أمور الدنيا والدين .

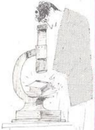
ولقد كان من جراء تعاظم ظاهرة الإفتاء بغير علم في أمور كثيرة أن زادت حيرة الناس في قضاياهم الأساسية ، قضايا دينهم وقضايا دنياهم . وتكثر في معظم صحفنا المقالات ذات البعد الواحد التي قد يشك في صحة بعض مقولاتها بعض الناس ، ولكنها قد تُصَّدق ويُؤمن بها بعض المجاميع من أهلنا ، فلا هي إلى الحق قادتهم ، ولا إلى الرشاد أوصلتهم .

التعليم بالتلقين

ولعل ما أوصلنا إلى هذه الحالة المؤسفة أننا لم نقدم واحداً من المناهج المهمة الأساسية لطلابنا حتى الآن على مقاعد الدراسة في التعليم العام ، أو الجامعي وهو منهج : أهميته القصوى أن نتعلم كيف نفكر ! وربما لم نفعل ذلك لأننا حينما (نقلنا) مناهج التعليم الحديث لم يكن فيها درس : تعلم كيف تفكر !

ولأن المؤسسة التعليمية عندنا قد وقعت طريدة في فخ التعليم بالتلقين ، بدلاً من التعليم المتفاعل ، ولأننا تقاعسنا عن تطوير نظام التعليم ومناهجه ، أسلمنا المجتمع لقمة سائغة لأنصاف المتعلمين والمجتهدين ، يصيغون قناعات جموع المواطنين ، دون أن نسلح هؤلاء المواطنين بالمقدرة العقلية القادرة على الفرز والفهم والنقد والاختيار .

خلل التفكير الأعوج صاحبنا ، فأورد بعضنا مورد التهلكة في الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، بل وحتى في العلم البحت . فأصبح لدينا بعد ذلك ـ نتيجة هذا الخلط ـ ما سميته مرة « رأي العوام » ، وسماه بعضنا « الرأي العام » ، والفرق واضح بين الاثنين .



التفكير السليم أصبح له مدارسه وكتبه وطرائقه ، وهي ليست ـ والحمد لله ـ طرائق خاصة بالمنهج الغربي في التفكير ـ إن أراد أحد اتهامها بذلك ـ بل هي خاصة على وجه الدقة بالمنهج الإنساني العقلي ، فكل إنسان يستخدم عقله الاستخدام الصحيح يمكن له أن يصل إلى منهج من التفكير سليم . ولعل من نافلة القول أن نذكر أن ديننا الإسلامي الحنيف قد جعل العقل مصدراً للتكليف ، والتفكير وسيلة للتدبير ، والحوار طريقاً للوصول

إلى الحق . وهي عناصر مهمة في صياغة التفكير السليم ، ولن يتعب الباحث المستقصي أن يجد من النصوص باتجاه العقلنة ما يفيد ويؤكد هذا المنهج .

ولكننا كثيراً ما نشاهد ونسمع ونقرأ في حياتنا اليومية العربية المعاصرة ما هو بعيد عن تقبل العقل والمنطق السليم له ، ويمكن أن يواجهنا ذلك في كثير من النصوص التي نقرؤها ، نصوص تمنع وتمنح وتوافق وتختلف ، وتنقل وتضيف . وأنت إن دققت في محتوى ما تعنيه وجدتها عن العقل أبعد .

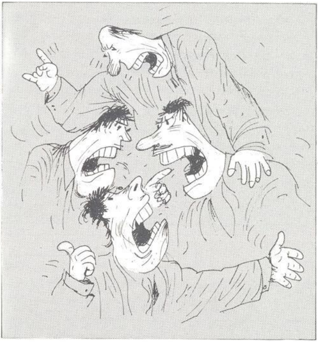
ليس للمتأخرين عذر !

صحيح أن العلوم الاجتماعية الحديثة تقول لنا : إنه لا توجد قراءة محايدة للنص ، فأنت حين تقرأ نصاً ما ، فإنما تقرأ بخلفيتك العلمية والسياسية والثقافية .. الخ ، ولكن من الصحيح أيضاً أن هناك نصوصاً تحتمل الاختلاف الجزئي ، وأن هناك نصوصاً (تصدم) العقل لأول وهلة ، فنحن نرى في بعض كتاباتنا العربية ـ وأنا أذكر هنا الشائع من الظواهر ، وما ينشر بعضه في الصحف ـ أن شخصاً يشفي المرضى بلمسهم بيده ، أو أن دواء عشبياً يشفي من الأمراض المستعصية ، وأن فلاناً من المتقدمين قد قال : كذا وكذا ، في ظاهرة جغرافية أو طبيعية أو طبية ، وأن كلامه ما زال صحيحاً بعد كل هذه السنين الطوال من التقدم العلمي ، وعشرات من الأمثلة المليئة بالخرافات والأوهام والخوارق والأساطير والقوى الخفية والغيبية تحاصرنا كل يوم في حياتنا اليومية . وذاك نقص عظيم في طرق التفكير السليم ، لأن تفسير كل ذلك هو الاعتقاد بوجود علاقات وهمية أو عرضية بين الظواهر الطبيعية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ، والتفكير السليم يدعونا دائماً الى التثبت من العلاقات بين الظواهر في واقع المحسوس لا المتخيل .

أمـة تنفعـل ولا تفـكر، تغلبـها العواطف فتهمـل العقـل!

وإذا كان للمتقدمين عذرهم في إرجاع بعض أسباب الظواهر (لعلاقات خفية) ، نظراً لبعدهم عن مناهج العلم فليس للمتأخرين عذر .

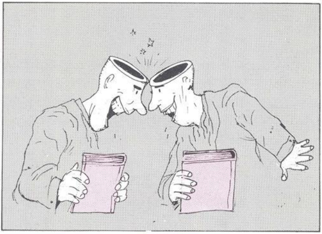
لقد أصبح التفكير علماً يمكن توظيفه في اكتشاف العلاقات بين الظواهر المختلفة ـ في العلوم الاجتماعية أو العلوم البحتة ـ من حيث



حُسْن الظّنّ المطلق بالعلماء السابقين كثيرًا مايقود الباحث إلى الضّلال

النوعية (الكيفية) أو من حيث الكمية (الرقمية) . وذلك للسيطرة والإفادة من الموارد جميعها لخدمة الإنسان في حياته الدنيا .

وأولى خطوات التفكير السليم هي عدم التسليم بكل ما يقال ويكتب وأخذه على علاته ، إن لم يكن له سند عقلي ظاهر ، فالإنسان كائن حي عرضة للعثرات ، يصيب ويخطيء ، وليس بالضرورة أن كل ما يقوله نهائي وقطعي ، كما أن القول بأن الرأي القديم صحيح فقط ، لأن المتقدمين قد قالوا به لا يعني القطع بصوابه ، فالرأي القديم حول ظاهرة من الظواهر ، قد قاله جيل عاش في وقت لم تكن البشرية قد اكتسبت فيه من الخبرة ما لديها الآن ، وبالقياس : فالأجيال القادمة سوف تتوافر لها خبرات أكبر وأوسع مما لدينا اليوم ، لأن العلم والخبرة حصاد متراكم ، وليس بدايات تتجدد كل يوم وفق أهواء بعضنا أو قصور إدراكهم .



العقـــــل سُـلطَــــــان

وهذا كلام لم يقله - لمن يريد العودة إلى الأصول - ديكارت وجاليليو وفرنسيس بيكون من علماء عصر النهضة الأوربية فقط ، ولكن قاله أيضاً - ودون أن يدخل الفخر من أجل الفخر في عقولنا - قاله مؤلفون وكتاب عرب قبل علماء عصر النهضة الأوربية بمئات السنين . ففي موضوع الشك في القديم يقول ابراهيم النظام (ت ٢٣١ هـ / ٨٤٥م) : « لم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد حتى يكون بينهما حال شك » .

ويقـــول الجـاحظ (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٩م) : « تعلم الشـك في المشكوك فيه تعلماً ، فلو لم يكن ذاك الا تعرف التوقف ثم التثبت ، والعوام أقل شكوكاً من الخواص لأنهم لا يتوقفون عن التصـديق ، ولا يرتـابون بأنفسهم ، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد أو التكـذيب المجرد » .

وإذا كان ديكارت - في الفكر الغربي - قد انتهى في شكه إلى تقنين الفكر ، فأعاد للعقل سلطانه ، فقد سبق من السلف - عدا من ذكرنا - محمد بن الحسن بن الهيثم ، وجابر بن حيان ، والفارابي ، وابن خلدون ، وابن رشد ، وآخرون مما لا يتسع المجال لذكر النصوص التي أوردوها .

كتابات الانفعال تثير حماساً ولا تنير عقلاً!

لغــة الحــوار غـــير الموضوعية تعبيرٌ عن خـواء العقــول، وتعصّبٌ غـيرُ مـبرر

يكفي أن نشير إلى ما قاله ابن الهيثم (٣٥٤ - ٤٣٠هـ / ٩٦٥م - ١٠٣٨م) الذي شك في قول المتقدمين بقوله : « إلا أن حسن الظن بالعلماء السابقين مغروس في طبائع البشر ، وأنه يكثر ما يقود الباحث إلى الضلال » . أو ما قاله جابر بن حيان (ت ٢٠٠هـ / ٨١٥م) في إعلاء التجربة والخبرة المباشرة : « ويجب أن نعلم أننا نذكر خواص ما رأيناه فقط دون ما سمعناه أو قيل لنا وقرأناه ، بعد أن امتحناه وجربناه ، فما صح عندنا أوردناه وما بطل رفضناه » .

نقول : إن التفكير والتدبير وإعلاء العقل ، منحى إنساني ، عرفه العقل الراجح ، وليس حجراً على فكر غربي أو شرقي ، وقد صلح به المجتمع ، ويمكن أن يصلح به أي مجتمع يتبناه ويؤكده ويؤطره .

المخاصمة في الحق

والذي لا جدال فيه أن بدايات التفكير الصحيح تقوم على أن المرء عندما يعمل فكره يخاصم من يقرأ لهم أو يستمع إليهم ، مخاصمة في الحق ، فما هو معقول يؤكده الحس والتجربة والخبرة ، وما هو غير ذلك يُشك فيه ويمحص ، وهناك الكثير من الطرق التي يستخدمها بعضهم للتأثير في مسار العقل والتفكير الصحيح ، ومنها (اللغة) التي يستخدمها الكاتب في مقاله أو دراسته ، أو الخطيب في حديثه للجمهور .

ونستطيع أن ندرب أنفسنا لنكون في مأمن من تأثير هذه اللغة إذا أخذنا بالتفكير في المعاني (الواقعية) وليس (الانفعالية) التي تقدم لنا في الخطاب العام . التفكير الانفعالي يكثر في مقالاتنا وخطبنا وفي أحاديث الناس فيما بينهم ، فإن ثارت قضية ما ، وانقسم بشأنها الناس ، وجدنا الكثير من الشحنات الانفعالية لدى هذا الفريق أو ذاك .

ففي الفترة الأخيرة - على سبيل المثال - ثار نقاش حاد حول قضية فقهية بين مفتي الديار المصرية وبين بعض المجتهدين حول بعض المعاملات المالية ، واحتدم النقاش في الموضوع على معظم صفحات الصحف العربية ، ونحن هنا لا نريد أن نأخذ موقفاً من هذا الفريق أو ذاك ، بقدر ما نود الإشارة إلى مستوى النقاش بين بعضهم الذي وصل في حده الأدنى إلى (الاتهام بالجهالة) و (التخوين في الذمم) ووصل في حده الأعلى إلى

الاستشهاد ببعض آراء المتقدمين ، دون إعمال للعقل للتقريب بين آراء السلف وواقع الحياة .

هذا النوع من المناقشات الانفعالية يسود معظم المشكلات المطروحة عندنا ، سواء كانت دينية أو سياسية أو أخلاقية أو ثقافية ، وهو بعيد عن التفكير العلمي السليم .

الخطابة الانفعالية قد تكون حافزاً له قيمة عندما توظف لحث الناس على القيام بعمل صار الاتفاق فيه شاملاً أو شبه شامل على أنه حق أو ضروري ، كأن نحمس الناس لتأييد الانتفاضة الفلسطينية ، وندفعهم إلى مؤازرتها بالجهد والمال ، فذلك حق غير مختلف فيه ، أو أن نقوم بتعبئة ضد عدو مغتصب ، يريد بأوطاننا الشر ، أي عندما يكون المطلوب حماساً وعاطفة . ولكن عندما يكون المطلوب أن يتخذ الناس قراراً في موضوع فيه وجهات نظر مختلفة تحتاج إلى إعمال الفكر ، أو في موضوعات إن طرحت انفعالياً تزيد من شرذمة الناس وتفرق بينهم ، كالموضوعات المذهبية والطائفية والسياسية ، فان تحكيم العقل هنا له صلة وثيقة بالتفكير السليم .

وزنُ اللغـــة

وفي الواقع أن القضية ليست بهذه البساطة ، ففوق أن نتاج المؤسسة التعليمية وممارسات أنساق المجتمع المختلفة لم تسهم في إيجاد طرق للتفكير العلمي ، فإن لغتنا تتحمل جزءاً من وزر النتيجة التي توصلنا اليها .

فاللغة وعاء الفكر ، وأداة التعبير ، وهي نتاج ثقافي لأوضاع الناس اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ، وهي تجدد نفسها ، وتطور أداءها بالحذف والإضافة والدقة والمرونة ، حسب تطور المجتمع وتقدمه .

ولغتنا العربية من اللغات الغنية بالأوصاف والتشبيهات والمحسنات التي تغري بعضهم بالاستخدام الانفعالي للكلمات والجمل .

وتحصين أنفسنا من الانسياق وراء بعض هذه المعاني التي تقودنا الى تفكير أعوج يحتاج الى تدرب على التخلص من المعاني والعبارات الانفعالية ، عن طريق استبدالها ، أو التفكير فيها بطريقة غير انفعالية . وكثير من المفردات في اللغة العربية ـ كما هي في اللغات الأخرى ـ مشحون بموقف انفعالي ، فرجعي ، تقدمي ، فاشي أو عنصري ، محافظ ، وغيرها

اللغـــة أداة التعبير عـــن الأفكـار، والإغـراق في مرونتها يُخـرج نصوصـًا بلا معـنى

من الأوصاف ، وكلها كلمات إن قبلناها على علاتها دون أن نطلب توضيحاً لها قريباً إلى الدقة قادتنا إلى تفكير خاطىء ، ومثل ذلك في الاجتماع والعلاقات الدولية والاقتصاد وكل مناشط الحياة . وإذا قلنا : إن أولويات التفكير العلمي هي الدقة ، فإن الدقة صفة مرتبطة ، وألزم ما تكون باللغة ، ولغتنا تزخر بكلمات لها أكثر من استخدام ، وفي كل استخدام للكلمة الواحدة معنى مغاير تماماً . هذه الخاصية تغري بعضهم بالتراكيب اللغوية ، فتصاغ منها مدونات ، تقرؤ ها فلا تجد فيها ثمرة ، ولا عقلاً ولا رأياً ، بقدر ما هي صياغات وتراكيب لفظية فقط .

ولعل مثالاً واحداً لكلمة واحدة ، مثلها مئات ، يوضح صحة ما نذهب إليه ، فنحن نقول : إن زيداً فتى ذكي ، للتدليل على تمتع زيد بقدرات ومهارات عقلية متميزة ، ولكننا بالحروف نفسها نقول : هذا طعام ذكي ، أي طيب الرائحة فواحها ، وبتصريف قليل نقول : ذكاه أي قتله .

صعوبـــة المســـألـــة

وكما قلت في بدء حديثي فإن المؤسسة التعليمية تتحمل مع بقية أنساق المجتمع المسئولية عن الحالة التي وصلنا إليها وهي البعد عن التفكير العلمي المنظم في حياتنا . فإن الحل على صعوبته ، يبدأ أيضاً من المؤسسة التعليمية . نود أن يكون في مدارسنا مساق تعليمي بعنوان : تعلم كيف تفكر ، لأن العلامات التي تدل على غياب التفكير السليم في مجتمعنا العربي ظاهرة في سلوك كثير من الناس . فالتعميم صفة قد تكون سائدة في أحاديثنا وكتاباتنا ، سواء أكانت خاصة بشعب أم طائفة أم ظاهرة ، وما أسرع أن نقع في مساويء التعميم ، وقد نجرب ذلك في ما نقرأ من الكتابات التي حولنا ، فقد ينساق بعض الكتّاب بعد أسطر قليلة عند مناقشتهم لموضوع إلى وضع التعميمات ، ويرافق التعميم التعصب الشديد غير المرن لفكرة أو موضوع ، دون النظر في سلبياته وإيجابياته والمقارنة بينهما ، ومن مظاهر غياب التفكير في مجتمعنا الاعتماد الكلي على النص الذي سبقنا وقال به المتقدمون ، أما الجانب الآخر في غياب التفكير السليم فهو استعداد عدد كثير منا للتنازل عن رأيه ، حتى لو كان سليما ، مجاراة لما يعرف (بالرأي العام) وأغلبه مكون من (رأي العوام) .



لا يمكن بالطبع أن نطالب أنفسنا بالتفكير العلمي في شؤون السياسة والاجتماع والاقتصاد كما يفكر المشتغلون بالعلم الطبيعي عن طريق منهج

الملاحظة الحسية والتجربة العلمية ، ووضع قوانين لتفسير الظواهر ، ولكن المطلوب أن نقلص الفجوة بين الصواب والخطأ والحق والباطل في شؤون حياتنا العامة ، فلا يمكن أن يكون النقيض وخلافه صحيحين في مسألة ما ، فأحدهما بالضرورة أقرب إلى الصحة النسبية عندما نحسب تداخل العوامل المؤثرة في المواقف الإنسانية ، كالقيم والمصالح والخلفية العلمية والتدريب ، فكل مشكلة لها علاقة بالإنسان وقيمه تحتوي على كثير من (المجهولات) التي لا نملك عنها معرفة ، وتختلف عن المشكلات العلمية البحتة ، إلا أن تعليم المعارف والمعلومات ليس بديلاً عن التفكير ، فالمعلومات مهمة ، إلا أن متابعتها في عصر ندعوه بعصر تفجر المعلومات ، لا يمكن الإحاطة حتى بسرعة تغيرها ، وهي ليست بديلاً عن التفكير ، فحتى العلماء الذين يتقنون مادة تخصصهم لا يتقنون بالضرورة مهارة التفكير .

فتعلم مهارات التفكير السليم مطلوب ولازم للإبداع والتجديد من جهة ، ولتمحيص ما هو موجود ، وإعمال العقل فيه من جهة أخرى . وللتفكير تعاريف مختلفة في مدارس مختلفة ، بعضها له صبغة أيديولوجية معينة ، وهناك أخطاء شائعة في اعتبار أن الشخص الماهر في الكلام ماهر في التفكير . وخطأ فادح آخر هو اعتبار الإنسان الفقير في التعبير الكلامي فقير في التفكير . نحن بحاجة للغة تعبر عن ذواتنا ، ولكن الاتساق اللغوي بحد ذاته ليس مساوياً للتفكير ، كما أن التفكير أنواع ، فهناك التفكير الخرافي والتفكير العلمي .



مؤسساتنا التعليمية غرقت في برامج التعليم بالتلقين وليس التعليم بالتفاعل!

خيار ثالث !

في التفكير العلمي يحدد العلماء نوعين من التفكير : الأول التفكير العمودي أو التقليدي ، والثاني التفكير المتوازي .

التفكير العمودي : هو التفكير الذي تنتقل فيه من مقدمات معينة ، عبر خطوات معينة ، كل واحدة منها تؤدي الى الأخرى ، فتصل إلى نتيجة لازمة عنها ، ويتجلى هذا التفكير في الرياضيات والمنطق في حياتنا اليومية ، إنه التفكير الغالب علينا الآن ، فقد تعلمنا مبادئه في المنزل والمدرسة والجامعة . أما التفكير الآخر الذي سماه العلماء التفكير المتوازي : فهو لب أسلوب المنظومات والطريقة الأحدث علمياً للتفكير ، وهي طريقة من طرق استخدام العقل لها تقنياتها الخاصة ، وهو تفكير استفزازي تحريضي ، وخطواته ليست متسلسلة ، بل تجاوزية ، وقد يقفز إلى الأمام أو إلى النهاية ، ثم يملأ الفجوات فيما بعد ، وبعكس التفكير العمودي الذي يستخدم النفي لإغلاق الباب في وجه طريق معين ، وبذلك يصبح الخيار محصوراً بنعم أو لا .

في التفكير المتوازي لا يوجد نفي على الإطلاق ، فهو ليس نعم أو لا ، بل هو نعم ولا ، وهو خيار ثالث ، قد يصح الناتج في وقت ما ، وقد يخطيء في وقت آخر .

ومن المهارات الأساسية للتفكير السليم مهارة جمع المعلومات وتنظيمها ومقارنتها . إن جمع المعلومات عن طريق المقابلة والتقصي والقراءة ، ومقارنتها بعضها ببعض ، إحدى المهارات الأساسية للتفكير السليم . ويشيع بيننا ضعف تجميع المعلومات في معظم مجالات نشاطنا ، ولا يتوافر للتلميذ أو الباحث أو الكاتب مصادر معلومات حديثة ، وإن توافر بعضها فإنه لا تتوافر إمكانيات المقارنة والتحليل ، لذلك فإن أي تعميمات كثيرة ناقصة يمكن دحضها بسهولة .

وإحدى المهارات الرئيسية في التفكير العلمي هي نقل تطبيق الحقائق والمباديء التي توصلنا اليها في مضمار ما ، لتطبيقها في مضمار مشابه . ونحن نرى هذا الضعف في تعليم مهارة نقل الخبرة في الأسئلة التي نطرحها على طلابنا ، فإن جاءت أسئلة آخر العام غير مطابقة لما هو موجود في الكتب ضج المجتمع بالشكوى التي تقود في بعض الأوقات الى أعمال عنف مع نقد شديد للمربين والمدرسين ، لأن الأسئلة ليست مطابقة للأسئلة التي أجاب

عنها طلابنا في زمن الدراسة ! والمفروض أن يكونوا قد اكتسبوا مهارات تؤهلهم لتقديم حلول للمشكلات (المشابهة) وليس (المطابقة) .

ونحن نرى أن من مظاهر الفقر في التفكير العلمي من جهة أخرى وعلى مستوى آخر هو ما يحدث في عملية اتخاذ القرارات ، سواء في المنظمة الصغيرة أو المتوسطة أو غيرها .

فمتخذ القرار هنا يبحث عن (مثال) سابق ، يستند إليه ولسان حاله يقول دائماً : ما الخطوات التي اتخذناها في حالة مشابهة سابقة ، بدلاً من ابتكار الحلول المناسبة لموضوعات ومشكلات متجددة ؟ ومن جهة أخرى فإن (القيم) التي يكونها المجتمع أساسية في عملية التفكير ، فنحن نفكر لتحقيق أهداف نراها مهمة ، وإذا فقدنا تحديد القيم التي نريد الوصول اليها بدقة في المجتمع فقدنا أحد عناصر التفكير السليم .

تعلم كيف تفكر

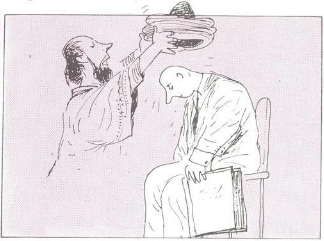
تتكاثر الكتابات العلمية في اللغات الأخرى حول تعلم التفكير ، بل ويزداد الكُتّاب في هذا الموضوع شهرة وانتشاراً ، وهناك كتب قليلة صدرت ضمن المكتبة العربية[1] ، ومقالات متفرقة ، إلا أن النشر والكتابة في هذا الموضوع بلغتنا العربية ما زالا قليلين ، وصعوبة تعليم التفكير صعوبة بالغة التعقيد ، حيث إن التفكير عملية غير ملموسة ، كما تكتنفها مفاهيم غامضة ، فهي ليست تعليم المنطق ، ولا تعليم الحاسوب ، ولا النقاش الحر وجمع المعلومات وتحليلها . إنها كل ذلك مجتمعاً .

لقد نجحت مجتمعات في تعليم مبادىء التفكير العلمي لطلابها كموضوع خاص أو كجزء من مواد عامة ، إلا أن عملية التفكير عملية بطيئة وتراكمية ، تبدأ بالتراكم المعرفي ، فمن لا يعرف لا يستطيع أن يفكر ، وأدوات المعرفة عديدة متشعبة .

وفي بعض المجتمعات التي يوجد فيها مؤسسات لتعليم الأبناء طرائق التفكير العلمي ، فإنهم يعمدون ، بعد اكتمال المعرفة أو نضوجها ، إلى التطبيق العملي بإلقاء النصوص التي تبدو متسقة ، لكن فيها تناقضاً

مطلوب أن ندرّس لأبنائنا كيفية التفكير العلمي الصحيح !

(١) من بين الكتب التي صدرت بهذا الخصوص كتابان من سلسلة عالم المعرفة في الكويت : رقم (٣) - « التفكير العلمي » للدكتور فؤاد زكريا . ورقم (٢٠) « الفكر المستقيم والتفكير الأعوج » ترجمة حسن سعيد الكرمي . ومقال الحسيني عايش (في الأردن) « تعليم التفكير » .



داخلياً ، ثم يقوم الطلبة باكتشاف هذا التناقض ، ثم ينتقل تعلم التفكير بوضع الطلبة في مواقف تفكيرية ، وتشجيعهم على استخلاص مبادىء معينة من هذه المواقف . إن الانتباه والدقة والمعرفة أدوات أساسية لتعلم مهارة التفكير .

ومهارة التفكير العلمي ، هي في الحقيقة عملية علمية ، تصب في مجرى التغيير الاجتماعي الهادف إلى تطوير المجتمعات ، فهي ليست مزية عقلية يتحلى بها الأفراد ، لكنها مع التراكم تصبح سمة للمجتمع ككل ، ويصبح العقل الجمعي للمجتمع خلاقاً قادراً على التعامل مع العصر ومتغيراته . إن سحب الجهالة التي تظلل كثيراً من المجتمعات ، مردها للانفعال وللحماسة وللقطع مع عدم اليقين ، والوقوع أسرى لما قاله القدماء ، غير مدركين لديناميكية الحياة وجدليتها وتفاعلها المستمر .

○○○

إن الزبد الذي يتطاير حولنا بكثافة ، يهددنا بالبقاء أسرى للتخلف ، غارقين في معارك بلا هدف ، نقاتل طواحين هواء ، ونخلق لأنفسنا مشكلات عبثية ، ونتطاحن بالاختلاف حولها دون التفكير فيها تفكيراً علمياً ، وهو سمة العصر وعنوان البقاء .

محمد الرميحي



(الحياة مجموعة من الخبرات المتنوعة ، وليس بالضرورة أن تتشابه وتتكرر ، إنما كثير من الخبرات منفردة تضيف معنى جديدا للحياة ، وتعطيها لذة التراكم ، وقد اختارت العربي مجموعة من المتميزين العرب ليروي كل بطريقته الخاصة بعضا من ذكرياته التي أصبحت دروسا في الحياة) .

عندما جاء السيّاب إلى الكويت

بقلم : الدكتور محمود السمرة

لا أذكر اليوم ، ولكنه كان من أيام ربيع سنة ١٩٦٤م ، كنت في ذلك اليوم في مجلة « العربي » ، مع أستاذنا الراحل الدكتور أحمد زكي ، وكنت يومئذ أنعم بظل وارف من نقاء إخوان الصفا والود في وزارة الإرشاد (وزارة الإعلام اليوم) : بدر خالد البدر ، وأحمد السقاف ، وعبد الرزاق البصير (أبو عدنان) ، مدير مكتبة الوزارة .

قال لي أبو عدنان في ذلك اليوم : ما رأيك في أن نزور بدر شاكر السياب ، فهو مريض يعالج في المستشفى الأميري . وعادت بي الذكريات إلى سنوات سابقة ، إذ ليست هذه أول مرة أسمع فيها أن بدر شاكر السياب يجيء إلى الكويت ، ففي عام ١٩٥٢ استطاع بدر أن يصل إليها عن طريق إيران في سفينة شراعية قاعها من الطين ، هاربا ، متخفيا ، على إثر ما عرف في تاريخ العراق الحديث باسم « انتفاضة تشرين » . وفي الكويت كان يعيش مع العمال العراقيين في حالة من البؤس والضنك بالغة ، حيث تتكدس الأعداد منهم في غرفة واحدة ، وبينهم المريض والمسلول . وعلمت أنه كان يجلس بعد الظهر معهم في المقاهي التي



يرتادونها . وذهبت إلى هذه المقاهي ، وكان موقعها في (الصفاة) آنذاك كما أذكر ، أتأمل في الوجوه باحثا عنه ، ولكنني لم أعثر عليه . وعدلت عن البحث ، عندما بدأت عيون الجالسين فيها تنظر إليّ بشك وارتياب .

وفي أثناء إقامته في الكويت التي امتدت إلى ستة أشهر ، نظم رائعته « أنشودة المطر » ، هكذا يقول بدر نفسه ، وهي قصيدة حافلة بالأمل في التغيير ، كما نظم فيها أيضا قصيدته الذائعة « غريب على الخليج » التي تمثل الإحساس بالغربة والشوق العارم للعودة إلى العراق :

الريح تصرخ بي : عراق
والموج يعول بي : عراق ، عراق ، ليس سوى عراق
البحر أوسع ما يكون ، وأنت أبعد ما تكون
والبحر دونك ، يا عراق
حتى الظلام هناك أجمل ، فهو يحتضن العراق .

وأفقت من هذه الذكريات لأتوجه و« أبو عدنان » لزيارته في المستشفى . وجو المستشفيات ، كل المستشفيات ، ثقيل ، حزين . وأخذنا نبحث عنه بين المرضى ، حتى وجدناه وسط الزحام ، جلدا على وضم ، كومة من العظم ، لا تزن إلا القليل القليل ، ولا تدرك أنها لإنسان ما زال حيا إلا من حركة العينين الزائغتين الحزينتين البائستين اللتين تنبئان بأن صاحبها ينتظر مصيره المحتوم في أية لحظة . وجرى الحديث في جو مشحون بالحزن على شاعر قمة في شعرنا الحديث ، لا تكاد تسمع الصوت منه إلا همسا بعد جهد وعناء . وهل يمكن أن يدور الحديث في هذا الجو إلا عن حالته الصحية ، وها هي أمامنا نراها ؟ !

لقد أسعدنا أبو غيلان من الخليج إلى المحيط بقصائده التي هزت أدق مشاعرنا : غريب على الخليج ، وأنشودة المطر ، وحفار القبور ، والمومس العمياء ، فبم أسعدناه ؟ وماذا لقي من دنيانا غير الإهمال ؟ وخرجنا من هذه الزيارة بحزن يسكننا ، أقلقني أياما وليالي ، حتى أنني لم أجد الشجاعة الكافية لزيارته ثانية .

ثم علمت أنه قد غادر المستشفى عائداً إلى عائلته في البصرة ، وبعد أيام وصلت إليّ رسالة منه ، لعلها ما زالت في ملفات « العربي » ، يشكرنا فيها على الزيارة ، ومع رسالته قصيدة يرجو أن تنشر في المجلة « وراجيا أن ترسلوا إلى قيمة المكافأة لأستعين بها على شراء الدواء اللازم » !! بدر شاكر السياب لا يجد حتى ثمن الدواء ! إذن هذا هو السر وراء حضوره إلى الكويت ، فالعلاج فيها مجاني ، والرعاية الطبية جيدة .

وسارعت بإرسال المكافأة إليه ، على أن تظهر القصيدة في أول عدد لَمّا يكتمل صف حروفه بعد ، وكان من عادة « العربي » أن يكون لها في المطبعة عددان مكتملا الإخراج يوم صدور العدد الجديد إلى السوق . وبعد شهر أو أكثر قليلاً ، وبعد صدور العدد الجديد من « العربي » بأيام ، حمل البريد إلينا في « العربي » الرسالة المسجلة التي أرسلناها إلى بدر ، وهي على حالها لم تفتح ، وقد كتب على المغلف : « المذكور قد توفي » ! ؟

وتأملت في الخط على المغلف ، إنه خطه هو !

ترى لماذا رد الرسالة دون أن يفتحها ؟

ولم أجد من تعليل سوى أنه لم يجد قصيدته منشورة في العدد الذي صدر ، والذي كان جاهزاً للتوزيع يوم إرساله قصيدته ، فظن ، وهو الشاعر المفرط الحس المسكون بالهواجس ، أن المجلة لا تعتزم نشر قصيدته ، وأنها تجود عليه بهذا المبلغ مساعدة منها لتمكينه من شراء الدواء .

ولم يطل غيابه في البصرة ، إذ سرعان ما عاد إلى الكويت ، لينزل في المستشفى نفسه ، وليفارق الحياة في الساعة الثانية والدقيقة الخمسين من بعد ظهر الرابع والعشرين من شهر كانون الأول من عام ١٩٦٤ .

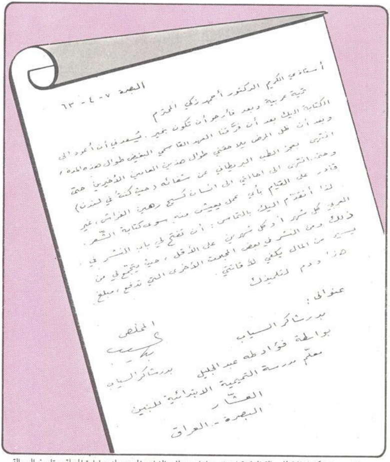
رحم الله أبا غيلان ، ولازالَ ثراه تبلله قطرات من أنشودة المطر ،

مطر . . . .

مطر . . . .

مطر . . . .

سيعشب العراق بالمطر .□



البصرة ٧-٤-٦٣

أستاذي الكريم الدكتور أحمد زكي المحترم

تحية عربية وبعد فأرجو أن تكون بخير . يسعدني أن أعود إلى الكتابة إليك بعد أن فرّقنا المرض القاسي البغيض طوال هذه المدة ، وبعد أن ظل المرض يلاحقني طوال هذين العامين الأخيرين حتى انتهى بعجز الطب البريطاني عن شفائه (حيث كنت في لندن) وحين انتهى إلى إحالتي إلى إنسان كسيح رهين الفراش ، غير قادر على القيام بأي عمل يعيش منه سوى كتابة الشعر .

لذا أتقدم إليك بالتماس : أن تفتح لي باب النشر في العربي كل شهر أو كل شهرين على الأقل ، حيث يتجمع لي من ذلك ومن النشر في بعض المجلات الأخرى التي تدفع مبلغ يسير من المال يكفي لإعاشتي .

هذا ودم لتلميذك

المخلص

بدر شاكر السياب

عنواني :

بدر شاكر السياب

بواسطة فؤاد طه عبد الجليل

معلم مدرسة التميمية الابتدائية للبنين

العشار

البصرة - العراق

● صورة زنكوغرافية للرسالة الوثيقة استخرجناها من ملف الشاعر الموجود لدى ادارة المجلة ، تاريخ الرسالة ١٩٦٣ ، وكان وصول المقال مناسبة لنشرها .

إلغاء ديون العالم الثالث ضرورة وليس اختيارًا

بقلم : الدكتور رمزي زكي

بعد الدعوة التي أعلنتها الكويت على لسان أميرها الشيخ جابر الأحمد الصباح أمام الأمم المتحدة ، لمطالبة العالم الصناعي بإلغاء ديون العالم الثالث ، لإنقاذ الاقتصاد العالمي كله ، بادرت بعض دول أوربا - على استحياء - بإلغاء جزء من ديونها المستحقة على بعض دول العالم الثالث . وفي مؤتمر قمة عدم الانحياز عادت الكويت لتؤكد بأن الأزمة التي تأخذ بخناق العالم لا تحل جزئياً ، وأن الوقت قد حان للبدء بإلغاء ديون الدول الأكثر فقراً .

ولأن المشكلة تؤرق الفكر الاقتصادي العالمي فقد طلبت « العربي » من أحد خبراء الديون العرب بأن يقدم هذا العرض العلمي الذي يؤكد على ضرورة إلغاء ديون العالم الثالث من أجل مستقبل أفضل للنظام الاقتصادي ١
الدولي .

تطورت ديون العالم الثالث ، وتفاقمت ، في ظل ظروف استثنائية غير عادية ، هي ظروف السبعينيات وأوائل الثمانينيات المضطربة ، حينما قفزت أسعار النفط وأسعار الفائدة ، وأتخمت الأسواق النقدية العالمية بأحجام هائلة من السيولة التي راحت آنذاك تبحث عن وسائل مربحة للاستثمار . وكان أهم هذه الوسائل إقراض دول العالم الثالث دون مراعاة لطاقاتها على السداد ، ودون احترام لقواعد الاحتراس المالي من جانب الدائنين . ومن المفارقات المدهشة في هذا الخصوص ، أن اغراق هذه الدول بالديون قد حدث في الوقت الذي كان فيه الاقتصاد الرأسمالي العالمي يشهد ركودا اقتصاديا شديداً ، تمثلت أهم معالمه في انخفاض تراكم رأس المال ، ومعدلات النمو الاقتصادي ، وارتفاع معدلات التضخم والبطالة ، في آن واحد ، فضلا عن تراجع معدلات نمو الانتاجية . كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن هذا النمو الفلكي الذي سجلته ديون العالم الثالث قد تزامن أيضا مع البيئة المضطربة غير العادية التي كان يشهدها نظام النقد الدولي ، حينما انهارت اتفاقية « بريتون وودز » بإعلان

الرئيس الامريكي السابق نيكسون فصم العلاقة التي كانت قائمة بين الدولار والذهب في أغسطس ١٩٧١ ، منهيا بذلك عصر ثبات أسعار الصرف ، و « مدشنا » في الوقت نفسه عصر تعويم العملات ، واضطراب أحوال النقد العالمي ، ونمو عمليات المضاربة في الأسواق النقدية ، وهو الأمر الذي خلق للبلاد المدينة مشكلات عويصة بشأن عدم قدرتها على التنبؤ بالعبء الحقيقي لخدمة ديونها الخارجية ، في ضوء عدم استقرار أسعار الصرف وأسعار الفائدة المعوقة ، ناهيك عن نمو نزعة الحماية ضد صادراتها .

ودلالة ذلك كله ، ببساطة شديدة ، أن هناك ظروفا استثنائية غير عادية في الاقتصاد الرأسمالي العالمي ، نسجت خيوطها المعقدة ، وهي تفرز أزمة المديونية العالمية . ولهذا يصبح من المنطقي لنا أن نقرر ، أن حل تلك الأزمة سيتطلب أيضا حلولا استثنائية غير عادية ، خاصة أن الحلول المالية و « التكنوقراطية » التي جربت حتى الآن ، مثل إعادة الجدولة ، والمزيد من الاقتراض ، والضغط على الواردات ، وتحويل الدين إلى أصول إنتاجية ، وبرامج التكيف الهيكلي لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ، كلها قد ثبت عدم جدواها . بل بات واضحا الآن فداحة آثارها المدمرة على البلاد المدينة ، لأنها تعطل التنمية ، وتعتصر هذه البلاد لحساب دفع الديون ، وترهن موارد البلاد المدينة ومستقبلها في قبضة الدائنين . كما أن التوصل إلى هذه الحلول غير العادية أصبح ضرورة ملحة الآن ، أكثر من أي وقت مضى ، في ضوء الاحتمالات المتزايدة لانفجار هذه الأزمة عالميا وتدميرها للدائنين والمدينين معا .

مقترحات لم يسمع لها أحد

لقد حاولت مجموعة البلاد النامية المدينة في السنوات الأخيرة ، عبر كثير من المؤتمرات والمنتديات والمحافل الدولية ، أن تطرح وجهات نظر معقولة جدا ، للتخفيف من عبء هذه الديون ، مثل مقترحات دول أمريكا اللاتينية في مؤتمر قرطاج ، ومقترحات الدول الافريقية في قمة هراري ، ومقترحات « الانكتاد » ومجموعة دول عدم الانحياز ، أملا في أن يتفهم الدائنون الموقف الحرج الذي تعيشه شعوب العالم الثالث ، من جراء تفاقم الدين وتعطيل التنمية . إلا أن تلك المقترحات لم تلق حتى الآن أي أذن صاغية من قبل الدائنين ، وإن كانت بعض الدول الدائنة ، مثل فرنسا ، قد قامت بإلغاء ديون بعض الدول الافريقية الفقيرة ، وقامت دول أخرى بإلغاء أجزاء من أصول ديونها المستحقة على بعض الدول ذات الوضع الحرج ، التي وصلت فيها الأمور إلى مستوى متفجر ، حيث تمور أوضاعها الاجتماعية والسياسية باحتمالات تفجر الثورة والتمردات الشعبية . فعدم تقديم التنازلات هنا ، قد يدفع هذه البلاد بعد يأسها ، أن تعلن بقرار منفرد منها توقفها عن الدفع ، وهو الأمر الذي قد يمثل بادرة تحتذى من صف طويل من البلاد المدينة . كما أن عدم التجاوب مع مطالب هذه البلدان قد يدفع بالقوى الوطنية واليسارية فيها لإحداث انقلابات « راديكالية » معادية للبلاد الدائنة ، وهو أمر لاشك يرعب الدائنين .

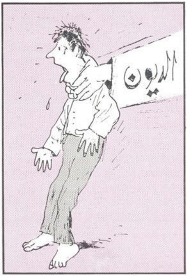
خلاصة ماسبق إذن ، هو أن الجو الآن أصبح مهيئا لتقبل وجهة النظر « الراديكالية » التي ما فتئت تطرح من حين لآخر ، وتنادي بإلغاء الديون المستحقة على العالم الثالث ، لأنه الحل الجذري للأزمة المتفاقمة الآن ، وهو حل تطور طرحه عبر مراحل تطور أزمة المديونية نفسها . فبادىء ذي بدء ، كان المنادون بهذا الاقتراح - وكاتب هذه السطور من بينهم - يرون التسوية العادلة لهذه الديون تتطلب إلغاء شطر مهم منها أثناء التفاوض على تسوية هذه الديون ، وأن هناك معايير موضوعية ، يمكن الاستناد عليها في

هذا الإلغاء . ذلك أن تراكم هذه الديون في السبعينيات قد انطوى ، في الحقيقة ، على علاقات استغلال واضحة ، وقعت البلاد المدينة ضحية لها . كما أن هناك مسئولية مشتركة بين الدائنين والمدينين ، وأخطاء فادحة ارتكبها الدائنون .

مقترحات ما قبل التفاقم

وفي كتابنا الذي صدر منذ أحد عشر عاما عن (أزمة الديون الخارجية ، رؤية من العالم الثالث ، القاهرة ١٩٧٨) ، وكانت ديون العالم الثالث آنذاك لم تتجاوز مبلغ ٣٢٥ بليون دولار ، حددنا عدداً من المعايير لإلغاء كثير من الديون ، من بينها :

* إلغاء جزء من الديون الذي يعادل قيمة فروق الأسعار العالمية ، حيث ثبت أن السلع والخدمات التي وفدت إلى البلاد المدينة ، في ضوء



القروض التي حصلت عليها ، كانت أسعارها تزيد عن مستوى الأسعار العالمية وقت التوريد ، بما لا يقل عن ٢٠٪ . وهو مايبدو واضحا في حالة القروض المقيدة Tied Loans التي ارتبطت بتمويل توريد صفقات سلعية وخدمية معينة من بلد الدائن .

* إلغاء الديون التي تمثل قيمة مشروعات أقامها الدائنون في البلاد المدينة ، ثم ثبت بعد ذلك فشلها ، وعدم جدواها ، بسبب أخطاء دراسات الجدوى ، وتوريد سلع ومعدات تقنية غير ملائمة لهذه المشروعات .

* إلغاء الديون التي استخدمت في تمويل شراء الأسلحة والأعتدة الحربية ، خاصة أن تلك الديون لا تعقد إلا في حالة « العلاقات الخاصة » التي يرتبط بها المدين مع الدائن ، وتوجد بينهما مصالح مشتركة سياسية ، وربما عسكرية ، وهو الأمر الذي يبرر هذا الإلغاء .

* إلغاء الديون التي استخدمت في تمويل ما يسمى مساعدات الغذاء ، أو تخفيضها بنسبة ارتفاع قيمتها فوق الأسعار العالمية وقت توريد هذه الأغذية للدول المدينة ، خاصة أن تلك الإمدادات الغذائية كانت تتم في ضوء شعارات براقة « إنسانية » ، تتنافى مع الشكل التجاري الذي تمت على أساسه . كما أن فائض السلع الغذائية الزراعية الذي استخدم في تمويل هذه القروض لم يكن له نفقة للفرصة البديلة Oppor-tunity Cost ، حيث أن الحفاظ على هذه الفوائض وتخزينها أمر مكلف تماماً ، وإغراق السوق العالمي بها كان من شأنه أن يخفض أسعارها عالميا .

وآنذاك لم يلتفت أحد من المسئولين في البلاد النامية المدينة إلى هذه المعايير وإمكانات التسلح بها عند التفاوض لتسوية الديون ، في وقت كانت المشكلة ما تزال في بدايتها .

الدول الدائنة تستفيد مرتين

أما الآن ، ومع النمر السرطاني لأرقام الديون المستحقة على دول العالم الثالث (١٤٥٠ بليون دولار في عام ١٩٨٨) ، ومع التطور الهائل الذي حدث في مبالغ خدمتها (الفوائد والأقساط التي بلغت في عام ١٩٨٦ حوالي ٩٦ بليون دولار) ، فإن طرح الإلغاء الكامل للديون أصبح يتزايد بشكل ملفت للنظر ، ويكتسب المزيد من الأنصار ، ويتسلح بكثير من الحجج الموضوعية .

وأول هذه الحجج ، أن البلاد الرأسمالية الصناعية قد استردت قيمة هذه الديون في شكل مزايا وعوائد مختلفة ، ساعدتها كثيراً على التخفيف من أزماتها الاقتصادية . ذلك أن تلك القروض الضخمة التي انسابت إلى هذه البلاد قد أدت ، وبشكل مباشر ، إلى زيادة صادرات السلع والخدمات من الدول الدائنة إلى الدول المدينة . حيث ان الشطر الأعظم من تلك القروض كان مقيداً ، أي مرتبطاً بشراء سلع وخدمات من الدول المانحة . وبذلك ساعدت تلك القروض على التخفيف من حدة البطالة ، وتعطيل الطاقات الإنتاجية ، وتقليل معدلات التضخم في البلاد الدائنة . بمعنى ، أنه لولا تلك القروض لكانت عمليات التردي التي حدثت في تراكم رأس المال والنشاط الاقتصادي في البلاد الرأسمالية الصناعية الدائنة أشد خطورة بكثير مما بلغته بالفعل .

ومعنى ذلك أيضا ، أن تلك القروض التي أعطيت للبلاد النامية يمكن النظر إليها على أنها كانت نوعاً من إعانات التصدير في البلاد المانحة التي ساعدتها كثيراً في تنشيط صادراتها ، وتقليل معدلات البطالة فيها ، والحد من حالات الكساد التي كانت تمسك بخناقها . ودليلنا على ذلك ، أنه بينما انخفضت صادرات البلاد الصناعية الرأسمالية فيما بينها ، في عقد السبعينيات والثمانينيات ، فإن صادراتها إلى البلاد النامية المدينة قد شهدت قفزات هائلة ، خلال مرحلة نمو المديونية في هذين العقدين .

والحجة الموضوعية الثانية التي تبرر إلغاء ديون العالم الثالث ، أن أسعار الفائدة المرتفعة قد مكنت البلاد الدائنة من نزح جانب كبير من الفائض الاقتصادي المتحقق في البلاد المدينة . وهذه الفوائد هي في التحليل الأخير ، دخول إضافية لايستهان بها ، مثلت موارد هائلة ، استفادت منها البلاد الدائنة . وقد قمنا بمحاولة سريعة لمعرفة حجم هذه الفوائد ، خلال فترة (١٩٧٥ - ١٩٨٦) ، فتبين لنا أنها وصلت إلى ٢٦٨ بليون دولار (المصدر : البنك الدولي ، جداول المديونية العالمية ١٩٨٨/٨٧ ، الجزء الأول ، ص ٣) ، وهي مبالغ التهمت تقريبا كل ثمار التنمية التي تحققت في الدول المدينة ، وتمثل في الوقت نفسه ، نسبة لايستهان بها من الدخول القومية في البلاد الدائنة . فإذا أضفنا إلى ذلك حجم الأرباح الهائلة التي تنزحها الاستثمارات الأجنبية المباشرة التي تملكها الدول الدائنة في الدول المدينة ، إضافة إلى الموارد التي تخسرها البلاد النامية من جراء علاقات التبادل اللامتكافئة في التجارة الدولية (تدهور شروط التبادل التجاري) ، فضلا عن الأموال الهائلة التي تهرب أو تُهرَّب من البلاد المدينة إلى البلاد الرأسمالية الصناعية ، والأرباح الناجمة عن صفقات السلاح الذي يورد للبلاد المدينة ، لاتضح لنا مدى هول الاستغلال الذي تئن من وطأته البلاد النامية في تعاملها مع المراكز الدائنة في منظومة الاقتصاد الرأسمالي العالمي .

استحالة التسوية

والحجة الموضوعية الثالثة التي تبرر ضرورة إلغاء ديون العالم الثالث تقول : إن هذا الإلغاء

ممكن أن يكون خطوة مهمة للخروج من الأزمة الاقتصادية العالمية . ذلك أن هذا الالغاء سوف يوفر موارد مالية هائلة للبلاد المدينة . وحينها تستغل هذه الموارد في التنمية ، وزيادة مستوى معيشة البلاد المدينة ، فإن واردات هذه البلاد من الدول الصناعية الدائنة سوف تتزايد ، وسوف تدور معها عجلات الإنتاج والاستثمار والعمالة والتصدير في الدول الدائنة .

ويرى الرئيس الكوبي ، فيدل كاسترو الذي يناصر إلغاء الديون ، أن هناك استحالة اقتصادية وسياسية وأخلاقية تمنع من تسوية هذه الديون . أما عن الاستحالة الاقتصادية ، فإنه في ضوء تردي الأحوال الاقتصادية في البلاد المدينة ، فإن استمرار دفع هذه الديون لن يعني إيقاف التنمية فحسب ، وإنما الرجوع للخلف ، وهو أمر يصعب قبوله . أما الاستحالة السياسية فتعني أنه في ظل تدهور مستوى المعيشة ، وتزايد البطالة والفقر ، فإن الإصرار على تسوية هذه الديون سيتم من خلال تضحيات لاتطاق ، وجحيم لاقبل لأي شعب بتحمله . وقد يتطلب الأمر فرض « الديكتاتورية » وسفك الدماء لإرغام الشعب على قبول السياسات الانكماشية التي تهدف لتوفير موارد تكفي لدفع الدين . أما الاستحالة الأخلاقية ، فإن كاسترو يعد البلاد النامية هي الدائنة للدول الرأسمالية الصناعية ؛ وذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار « الكميات الخرافية من الذهب والفضة التي تم استخراجها من أحشاء الشعوب ، والتي تكدست عبر القرون بعرق ودماء شعوبنا ، والتي قامت بتمويل عملية التطور في العالم الصناعي الذي يمثل الآن الدائن ، ويطالب بالسداد » . ناهيك عن أشكال الاستغلال والنهب المستمر لموارد هذه البلاد في ظل إطار العلاقات الاقتصادية الدولية غير المتكافئة .

هناك إذن مجموعة من الحجج القوية التي تبرر إلغاء هذه الديون . بيد أن السؤال الذي يثار الآن هو : ألن يسبب هذا الإلغاء تدميراً للبلاد الدائنة ، وبخاصة لنظامها المصرفي ؟ ومن سيتحمل كلفة الإلغاء ؟وكيف تمول هذه الكلفة؟

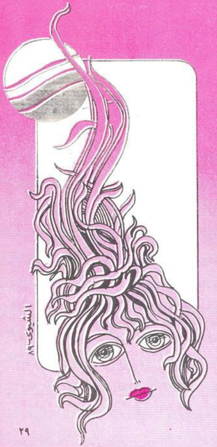
إن الكلفة المتوقعة من هذا الإلغاء تدور حول تريليون دولار ، وهو مبلغ يمكن أن تتحمله البلاد الرأسمالية الصناعية ،ولن يسبب لها تدميراً .

ويقول كاسترو في هذا الخصوص : « لقد استطاعت البلاد الرأسمالية الصناعية الدائنة ، خلال عصر فورة أسعار النفط ، أن تدفع زيادة في قيمة وارداتها من النفط بما لايقل عن تريليون دولار خلال هذه الفترة ، ولم يؤد ذلك إلى تدمير اقتصادياتها ، بل من الثابت أن حركة التجديدات في الإنتاج والنمو لم تتوقف ، واستطاعت تلك البلاد أن تتحمل هذه الكلفة » . ويعتقد كاسترو ، أنه من الممكن تدبير هذا المبلغ من خلال إحداث خفض في نفقات التسليح ، وإصدار سندات مدتها عشر سنوات ، مقابل هذا الخفض ، تعطى للمصارف والهيئات الدائنة ، مقابل ديونها المستحقة على العالم الثالث ، وبذلك لن تتأثر المصارف (البنوك) .

على أننا نسارع هنا بالتنبيه على أن إلغاء الديون ، وإن كان يمثل حلا « راديكاليا » وجذريا ، إلا أنه بالنسبة لدول العالم الثالث المدينة ، يجب أن يكون ذلك نقطة الانطلاق ، فليس هناك ما يضمن وقوعها مرة أخرى ، في فخ الديون وتزايد التبعية وحصار عملية التنمية ، مالم تعد النظر في خياراتها الاقتصادية والاجتماعية ، على النحو الذي يؤهلها لبناء تنمية مستقلة ، معتمدة على الذات ، وهو أمر يتطلب تعديلا حاسما في أنماطها الانتاجية والاستهلاكية والاستثمارية ، بما يتناسق مع هذه التنمية ، ويتمشى مع أوضاعها الاجتماعية والمرحلية ، وبما يعدل وضعها في منظومة الاقتصاد الرأسمالي العالمي . وتلك قصة أخرى . □

فواكه حجرية

شعر : محمد القيسي



حجرٌ ورمّان لأسْمَا
حجرٌ مُسَمّى
وهوى تسلسل في الخفاء
ورعْشَةٌ في الريح تَظْمَا
حجرٌ على أفقٍ ينامُ
وليس يعْرفُ كيف أدْمى
حجرٌ لأختي وهي تعبرُ راية وتقيم غيْما
حجرٌ لأغنية المنافي والسهوبِ توهّجتْ
عُشْباً ولُما
آختْ يَديَّ وأرْخَتْ لِقيام رُوحي
أرْخَتْ جَدائِلَها الدَّوالي وانهمى
شَفَقٌ عَلَى منديلِ أحْجارٍ ،
وآيةِ غبطةٍ تُتْلَى
وَنُعْمَى
حَجَرٌ وأعنابٌ لأسْمَا
حَجَرٌ وَأقْرَؤُهُ طويلا قبل أن
يَعْزِفُنِي عَلَى الصحراءِ كَرْمَا
حَجَرٌ وأقْرَأُ سيرةَ النعناعِ يَنْمُو صَاعِدًا
يَوْمًا فَيَوْمَا
وَيَقُولُ لِي وَأقُولُ :
بَرْقُوقٌ عَلَى خَدَّيْنِ مُدْمَى
سبحانَ مَنْ أسْرَى بِنَا
لِنَرَى الذي نَخْتَارُ إذْ تَخْتَارُ أسْمَا

أضواء على

علم النفس السّياسيّ

بقلم : الدكتور لطفي فطيم*

مع تطور الحياة وتعقدها تعددت مناهج البحث ، وانقسمت مختلف العلوم ، وتنوعت في التخصصات . ومنها علم النفس الذي تفرعت منه تخصصات عديدة ، منها علم النفس العام ، وعلم النفس الصناعي ، والاجتماعي ، وأخيراً علم النفس السياسي . فما مكونات هذا العلم الجديد ؟ وما مجالاته وميادينه ؟

عندما يرى القارىء عنوان هذا المقال ، فغالبا ما سيتبادر إلى ذهنه أننا سنبدأ بتعريف هذا العلم ، وتحديد مجاله وقضاياه الأساسية ، وطرق البحث فيه ، ثم نأتي بأمثلة تطبيقية أو دراسات ميدانية ، حتى تكتمل الصورة ، ويتم التعرف على هذا العلم الجديد .

لكن ـ لسوء الحظ ـ لا يمكن تقديم صورة بهذا التحديد لذلك العلم الجديد ، حيث إنه تخصص ناشيء ، يحاول شق طريقه للوجود ، كما أنه ، في حقيقته ، ليس إلا فرعا من فروع علم النفس ، ذلك العلم الذي يعاني من عدم اعتراف بعضهم بتفسيراته ونظرياته .

إلا أننا نستطيع أن نقول ـ دون خجل ـ : إن علم النفس السياسي قد اشتد عوده خلال السنوات العشر الأخيرة . صحيح أنه ما يزال تخصصاً صغيرا ، لا يعرفه كثيرون ، وليس له كيان « أكاديمي » معروف ، ولكن توجد على الأقل « الجمعية الدولية لعلم النفس السياسي » ، ويزيد عدد أعضائها على ألف ، ولها مجلة فصلية محكمة ، هي مجلة « علم النفس السياسي » ، كما ظهرت عدة كتب « أكاديمية » في مجاله .

علم متعدد الاختصاصات

علم النفس السياسي ، بحكم موضوعه ، مجال متعدد الاختصاصات ، فقد جذب إلى ميدانه أصحاب علم النفس الاجتماعي ، ونظريات الشخصية ، وعلم النفس المرضي و « الكلينيكي » ، مثلما جذب أصحاب علم السياسة والاقتصاد السياسي والعلاقات الدولية ، والمؤرخين ، وأصحاب الطب

* كاتب وأستاذ علم نفس من القطر العربي المصري ، يعمل في كلية التربية الأساسية ـ الكويت

النفسي ، إلى جانب أصحاب علم الاجتماع « والأنثروبولوجيا » ، ورجال القانون والتربية . وقد ظهر إلى الوجود استجابة للمشكلات السياسية الملحة لعصرنا الحالي ، خاصة تلك التي تمتد نتائجها وأبعادها ، بحيث تؤثر تأثيرا مدمرا في بني البشر ، مثل وصول بعض المجانين إلى قمة السلطة ، وظهور الأنظمة الشمولية ، وخطر الدمار النووي ، والصراع العربي « الاسرائيلي » ، وتحول المستعمرات السابقة إلى دول مستقلة ، والقضاء السافر على حياة الإنسان وحقوقه الإنسانية بحجج سياسية ، وغيرها من المشكلات المتجددة .

وسوف نحاول عرض هذا العلم الجديد من خلال تناول بعض قضاياه الرئيسية ، كما ظهرت تاريخيا . ولعل أول مؤلف كبير فيه هو كتاب « الطبيعة الإنسانية في مجال السياسة » الذي نشره جراهام والاس عام ١٩٢١م . وقد فسر المؤلف النشاط السياسي للبشر وفقا للأفكار التي سادت في وقته ، فاستند إلى قول دارون بتحكم الغرائز والانتخاب الطبيعي واللاعقلانية ، فكانت مصادر الحياة السياسية عنده هي حكم العامة ، ولا عقلانية اتخاذ القرار لدى الصفوة .

وخلال العقود الثلاثة التي تلت،سادت نظرية التحليل النفسي الفرويدي ، وما تزال ، وبدأت تقاليد هذا الاتجاه الذي فسر السياسة من خلال شخصيات القادة والزعماء بكتاب فرويد عن ليوناردو دافنشي ، ثم بتحليله للمجتمع في كتابيه الصغيرين « مستقبل وهم » و« الحضارة ومنغصاتها » ، وأصبح التحليل الذاتي النفسي لسير بعض الناس ودورهم في السياسة هو الاهتمام الأساسي ، بل أصبحت المعالجة النفسية للسياسة ببساطة هي مراجعة أثر الشخصية في السياسة . ومن الواضح أن مثل هذه المعالجة هي تناول ضيق الأفق ، ولكن آثار شخصيات الزعماء والقادة على الحياة السياسية للبشر كانت شيئاً جذاباً لا يمكن إنكار دوره .

الشخصية وعلم النفس السياسي

ويثير « دور الفرد في التاريخ » عددا من المسائل النظرية والمنهجية . ومن وجهة نظر علم النفس فإن أوسع معالجة للموضوع هي التي تتناول الموقف في مواجهة الطبع . وهو الأمر الذي شغل بال أصحاب نظريات الشخصية من جهة ، وأصحاب نظريات البحث عن دوافع السلوك وتفسير أسبابه من جهة أخرى ، وعندما ننظر إلى السياسة من هذه الزاوية فإن المسألة تتحول إلى « الإنسان في مواجهة الظروف » ، وتظهر هذه القضية بوضوح في حالات اعتلاء نواب الرئيس لمنصب رئيس الولايات المتحدة في ظل ظروف طارئة ، فهل نجح هؤلاء في القيام بدورهم السياسي ، لأنهم كانوا يتصفون بصفات شخصية معينة ، أم لأن ظروف الموقف فرضت ذلك ؟ ويميل بعضهم إلى القول بأن النجاح كان مرتبطا بالموقف .

ويميل معظم أصحاب علم النفس إلى تعريف الشخصية من خلال طباع أو استعدادات عامة ، تدفع المرء إلى السلوك بطريقة معينة ، بصرف النظر عن الزمن والموقف والدور . وقد وجد هذا الاتجاه ـ أي التركيز على الطبع ـ سنداً قويا في النصف الأول من القرن العشرين ، في الأفكار والتعاليم لنظرية التحليل النفسي والقياس النفسي ، ولكنه تعرض للانتقاد في النصف الثاني من هذا القرن ، حيث اتضح أن نتائج الدراسات لا تكشف عن ذلك الاتساق المحكم بين السلوك والشخصية في مختلف المواقف ، كما ادعى أصحاب نظريات الشخصية . ولذلك اتجه أصحاب علم النفس السياسي إلى بحث تشكيلة متنوعة من الطبائع أو مكونات الشخصية ، بما في ذلك الاتجاهات والدوافع وطريقة اتخاذ القرار وأساليب التفاعل مع الآخرين والاستجابة للضغوط والشدائد .

ويستتبع دراسة الشخصية مسألة : من سيصبح قائداً سياسيا ، أو ما علاقة ذات القائد بقضايا شعبه وهمومه ؟. في مقال لاسويل (١٩٣٠) ، وهو من أوائل من كتبوا في هذا الموضوع ، أن الصراعات الفردية الداخلية الشخصية تنقل أو تزاح إلى المسائل والقضايا العامة ، بحيث تصبح هموم الفرد هي هموم الشعب ، وتتخذ الصراعات الداخلية شكل المصالح العامة ، وأن الناس تدخل أو تندفع إلى الحياة السياسية تحت وطأة أسباب عصابية شخصية . وبناء على ذلك قال فيها بعد (١٩٤٨) : إن الحاجة التعويضية إلى السلطة هي دافع ذو قوة خاصة لدى السياسيين . لكن وجهة النظر هذه وجدت من يعارضها ويؤكد أنه لكي يكون المرء سياسياً ديموقراطياً ناجحاً يجب أن يتمتع بشخصية متوازنة صحيحة نفسياً .

ولقد كانت درجة الصحة النفسية للقادة السياسيين موضع شد وجذب بين كثيرين من كتاب علم النفس السياسي ، ومن أوائل من كتبوا فيها عالم النفس الامريكي المعروف اريك فروم الذي عرض مفهوم النرجسية (أو حب الذات والولع بها) لدى القادة السياسيين ، بوصفه دافعا قويا للسلوك السياسي . فيتميز هؤلاء القادة بدرجة عالية من النرجسية ، بل يمكن اعتبارها من أمراض المهنة ، أو من مزاياها !!

نرجسية القادة السياسيين

ولكن القائد النرجسي لا يستخدم سحره ، وهو ما يسمى الكاريزما (charisma) ، كوسيلة للنجاح السياسي فحسب ، بل هو يحتاج لمثل هذا النجاح والتصفيق من أجل الاحتفاظ بتوازنه النفسي والعقلي ، ففكرة عظمته وتنزهه عن الأخطاء يستمدها أساسا من أوهام النرجسية وخيلائها ، وليس من إنجازاته الحقيقية كإنسان ، ولا يعني هذا أن القائد مجرد « فقاعة جوفاء » ، أو أنه « خدعة كبرى » ، فقد يصح ذلك أحياناً ، ولكنه لا يصح دائماً . فكان وودرو ويلسون ، وفرانكلين روزفلت ، وونستون تشرشل ، مثلا من الشخصيات الشديدة النرجسية ، ومع ذلك فلم تكن تنقصهم الإنجازات السياسية المهمة .

ويعتقد اريك فروم أن مفهوم النرجسية من المفاهيم الكبرى التي أتى بها فرويد ، ولم تلاق حظها من العناية ، حيث اقتصر استخدامها على مجال الطفولة وتفسير الذهان . ولكن أهميتها العظمى تكمن - فيما يرى - في دورها بالنسبة للشخص العادي ، أو ما يسميه « الشخصية العصابية » ، فنحن جميعاً عصابيون . ويمكن فهم النرجسية عندئذ بأنها حالة من الخبرة ، يخبر فيها الشخص وحده دون سواه ، جسمه وحاجاته ومشاعره وأفكاره وممتلكاته ، أي كل شيء وكل شخص ينتمي إليه ، يخبر هذه الأشياء جميعا باعتبارها حقيقية واقعية ، تدفع سلوكه ونشاطه . أما كل شيء آخر ليس جزءاً منه أو لا يكون موضوعا لحاجة من حاجاته فلا أهمية له ، وليس واقعياً ، ولا يدرك إلا من خلال التصرف العقلي ، بينما يكون من الناحية الوجدانية لا طعم له ولا رائحة . وكل شخص - على قدر نرجسيته - له مقاييس للأشياء ، أو يكيل بمكيالين ، فكل ماله علاقة بشخصه له أهمية ووزن ، أما بقية العالم فلا قيمة له بدرجة أو بأخرى ، ولذلك نجد الشخص النرجسي يعاني من نقص حاد في القدرة على الحكم ، كما تنقصه القدرة على الموضوعية ، ويظهر ذلك بجلاء في مظاهر الخيلاء والعظمة الجوفاء . وهناك نوع آخر من النرجسية ، قد يبدو مناقضا ، ولكنه وجه آخر للشيء نفسه ، وهو ما يسمى « النرجسية السلبية » ، حيث يهتم الشخص اهتماماً مستمراً ومبالغا فيه بصحته ، يظل إلى درجة التوهم المرضي (الهيبوكوندريا) .

ولا يهمنا هذا المظهر كثيرا في مجال علم النفس السياسي ، ولو أن الجانبين يمتزجان ويتداخلان ، ويكفي أن نشير إلى هوس «هملر» ـ قائد الصاعقة النازي ـ بصحته . ويمتلىء التاريخ بأمثلة القادة الذين كان هوسهم بصحتهم مضرب الأمثال .

وغالبا ما يحقق النرجسي إحساسا بالأمان من خلال اقتناعه الذاتي التام بكماله وتفوقه على الآخرين وصفاته غير العادية ، ولا يكون ذلك عن طريق ارتباطه بالآخرين ، أو أي إنجاز حقيقي يقوم به هو نفسه ، وإنما من خلال ما ينعكس على ذاته من تقدير الآخرين له ، فتتضخم ذاته تضخما نرجسيا ، ويزداد تعلقه بهذه الصورة ، حيث إن قيمته وهويته تقومان عليها . وإذا تجرأ أحد على جرح نرجسيته ، بأن قلل من شأنه ، أو انتقده أو كشف زيفه ، ثارت ثائرته ، وأصبحت هناك مؤامرة عليه ، بل وعلى الأمة كلها . ولعل ذلك واضح من كثرة المؤامرات التي تكشفها أجهزة القائد أو تختلقها ، وأحكام الإعدام والخيانة العظمى التي تصدر على أعدائه . وتتضح شدة هذه الاستجابة العدوانية في حقيقة أن هذا الشخص لا يغفر أبداً لمن أساء إليه وجرح نرجسيته ، ويظل على الدوام يبحث عن الانتقام . ولعل في إصرار ضياء الحق على إعدام بوتو ، وقيام نميري بإعدام محمود طه ، شيئا من تلك النرجسية المجروحة . وعلى أي حال فإن الكثيرين لا يعون بنرجسيتهم هذه ، حيث إنها تَتَبَدّى في مظاهر لا تكشف عنها بشكل مباشر ، وتتخفى في قضايا سياسية عامة .

دوافع السلوك السياسي للقادة

غير أن النرجسية وحدها لا تكفي لتفسير التشعبات والتفرعات في سلوك القادة السياسيين ، وقد حاول أصحاب علم النفس السياسي تقديم أنماط متعددة الأبعاد ، حتى تستطيع استيعاب الاختلافات والفروق في توجهات هؤلاء القادة . فاقترح لاسويل (١٩٣٠) ثلاثة أنماط للقادة السياسيين هي : المثيرون أو المهيجون ، والإداريون ، والمنظرون . وأضاف باربر (١٩٦٥) نمطا هو : المشرعون . وقدم ستيورات (١٩٧٧) عدة أنماط للسياسيين السوفييت . ومن أشهر التفسيرات النفسية المعاصرة لسلوك الرؤساء ترجمة مازليش (١٩٧٧) لحياة ريتشارد نيكسون ، إذ يقول : إن حاجة نيكسون للمخاطرة بالفشل هي التي أودت بمستقبله السياسي في فضيحة ووترجيت . فهو دائما في حاجة إلى إثبات نفسه ووجوده ، ولذلك فهو يختلق الأزمات حتى يجاهد خوفه من الموت ، وذلك بالإضافة إلى بعض السمات الكامنة كالشك والتوجس والانعزال الاجتماعي وصعوبة اتخاذ القرار والحاجة إلى إيجاد عدو انفعالي يصب عليه جام غضبه .

وعاد باربر (١٩٨٥) فقدم تقسيما للرؤساء الامريكيين ، وقال : إن أخطر الأنواع هو ما سماه « السلبي النشط » ، مثل وودرو ويلسون ، وهربرت هوفر ، وليندون جونسون ، وريتشارد نيكسون . ويتميز هذا النمط بالمبالغة في الاهتمام بالذات ، واتباع مبدأ الكل أو لا شيء ، وإنكار إرضاء النفس ، والاهتمام الشديد بالتحكم في العدوان ، وعندما يتهدد مثل هذا الشخص خطر ما فإنه يميل إلى التصلب ، أو يتمسك بعناد بسياسة فاشلة ، وقد يركز غضبه على عدو شخصي ، ويجعله عدواً للأمة كلها .

وفي البحث عن دوافع السلوك لدى القادة السياسيين ، اعتبر أصحاب علم النفس السياسي أن هناك حاجات بعينها ، لها قوة دفع متميزة ، خاصة الحاجة إلى السلطة . وأثرت فكرة هرم الحاجات عند « مازلو » على فكر أصحاب علم النفس السياسي ، فاعتبر

كنوتسون (١٩٧٣) أن النشاط السياسي لا يحدث إلا إذا أشبعت أولا بعض الحاجات الأساسية . واعتبر انجلهارت (١٩٨١) أن رخاء ما بعد الحرب العالمية الثانية هو الذي خلق تنوع الحياة السياسية ، حيث إن الحاجات الأساسية للحياة قد أشبعت . وقال روشان (١٩٨٤) : إن الأنشطة اليسارية القوية في الستينيات إنما نشأت لإشباع حاجات نرجسية قوية .

الاقتصاد والسياسة

ومن القضايا الخلافية التي انقسم الرأي بشأنها في علم النفس السياسي دور العوامل الاقتصادية أو الواقع الاقتصادي في الحياة السياسية للقادة أو للجماهير . فهل الاقتصاد هو محرك التاريخ ؟ وهل تتكون الآراء السياسية تحت تأثير الضغوط الاقتصادية فحسب ، وألا يعبر الاقتصاد عن نفسه في نهاية الأمر بسلوك وتكوين نفسي معين ؟

هناك المدرسة الماركسية التي ترجع السلوك السياسي كله إلى حاجات الإنسان ، خاصة احتياجاته المادية . ويكون القائد السياسي هو المعبر عن هذه الحاجات ، بحيث تصبح هذه الحاجات حاجاته هو نفسه . ولكن حدثت تعديلات متعددة في هذه النظرة لدى الماركسيين أنفسهم . وعلى الجانب الآخر نجد تنويعاً على هذه الفكرة ، فالحياة الاقتصادية تؤثر ولكن تأثيرها عام هائم . فاعتبر كرامر (١٩٧١) أن الظروف الاقتصادية بشكل عام تلعب دوراً بارزا في نتائج الانتخابات . ورأى كندر (١٩٧٩) أن أحكام الناخبين (في البلاد التي تحدث فيها انتخابات حرة) يسيطر عليها التقدير العام أو الأحكام العامة بشأن الحياة الاقتصادية أكثر من سيطرة حالتهم هم المباشرة ، وهي مسألة خلافية في علم النفس السياسي ، وترتبط بالتوجهات الايديولوجية للباحثين . فكيف يمكن القول بأن المصالح الذاتية المباشرة تلعب دوراً أقل في تحديد اتجاهات الناخبين . ومع ذلك فقد أيَّدت نتائج عدة بحوث هذه الفكرة . ولكن يبدو أن الانتماء الحزبي والتعصب العرقي يلعبان دوراً أكبر ، والظاهر أن المصالح الذاتية تبرز على السطح ، وتكون أكثر فاعلية ، عندما تكون المكاسب إيجابية وواضحة للجميع ، أو عندما تهدد هذه المصالح تهديدا مباشرا وقويا ويكون الحل السياسي مؤكد الفاعلية . إلا أن الشواهد تشير إلى أن مثل هذا الوضع نادر الحدوث في الحياة السياسية العادية .

على أن الملاحظ على نطاق العالم في الفترة الأخيرة أن الظروف الاقتصادية الذاتية المباشرة أدَّت إلى تحركات سياسية عنيفة ، خاصة في الدول الفقيرة ، ولكنها لم تؤد إلى ظهور قادة سياسيين بالمعنى الأوسع لكلمة قائد سياسي .

السلوك السياسي والرأي العام

وترتبط بمسألة العامل الاقتصادي مسألة أخرى ، ذات خطر ، وهي الرأي العام . فهل يوجد فعلًا ما يسمى الرأي العام ؟ وإذا وجد فهل يمكن الوثوق به ؟ وهل يتصرف المواطنون تجاه الوقائع والأحداث السياسية بمنطق وعقل ؟ يرى بعضهم أنه لا يمكن الوثوق بالرأي العام ، وأنه غير متسق ولا منطقي . كما أن أجهزة الإعلام في العصر الحديث تزيف هذا الرأي العام ، ويستحيل أن تقدمه على حقيقته ، وأنها تلونه باللون الذي تختاره ، بحيث أصبح المرء لا يثق في استفتاءات الرأي العام . ويترتب على ذلك مسألة مشاركة الناس في الحياة السياسية التي تتراوح من مجرد الإدلاء بالأصوات في الانتخابات إلى الاشتراك في المظاهرات والاحتجاجات والاعتصامات ، والانتماء إلى مختلف المنظمات عن يقين واقتناع ، أو تولي المناصب السياسية والعامة .

ونجد هنا أيضا مزيجا من التفسيرات الاقتصادية والاجتماعية ، ومع ذلك فللتفسيرات النفسية دورها أيضاً . فمن أهم عناصر الإيجابية السياسية إحساس المرء أن صوته له قيمة ، وأن مشاركته ستسهم في تغيير الأوضاع . ولا ريب أن عزوف الكثيرين عن المشاركة في الحياة السياسية راجع إلى ذلك الاتجاه النفسي بالإحساس بعدم الجدوى واللامبالاة ، وأن الانتخابات في جميع الأحوال لن تأتي بجديد .

وانقسم الرأي ونتائج البحوث في هذه القضية كذلك . فبينت دراسات الرأي العام ـ على عكس ما ادعى لاسويل سابقا ـ أن الاشتراك في الحياة السياسية يدل على شخصية سوية ، ذات احترام لنفسها ، وعلى درجة من الإحساس بالاطمئنان والكفاءة . ولكن بينت دراسات أخرى لحالات بعض القادة السياسيين أنهم عادة ما يحسون بعدم الاطمئنان ، وأن نصيبهم قليل من تقدير الذات ، وأنهم عانوا من الحرمان في باكورة الحياة ، ومن قلة الإشباع للحاجات الشخصية والاجتماعية . وتؤيد هذه الدراسات ما ذهب إليه لاسويل من أن الاندماج في الحياة السياسية هو نوع من تعويض الإحساس بالعجز أو النقص .

وتتعرض دراسة سير الحياة النفسية للقادة السياسيين (السيكوبيوجرافيا) إلى الهجوم والنقد من حيث انها تكون عادة متميزة وملونة بوجهة نظر الكاتب .

التربية السياسية

أدت دراسات التحليل النفسي وتركيزها على نمو الشخصية ، وكذلك البحث عن الاستعدادات والميول مثل الانتماء إلى الأحزاب ، والتعصب بأشكاله المختلفة ، واللامبالاة ، وكراهية السياسة ، أدى كل ذلك إلى نشوء الاهتمام بالتربية السياسية للنشء .



وظهرت دراسات تفسر تنوع الاهتمامات السياسية بتنوع التربية السياسية . وبحثت هذه الدراسات في صفات المواطن الصالح ، والولاء للنظام ، وخضوع السلوك للقانون ، ومراعاة قواعد اللعبة السياسية . وبيّنت بعض النتائج أن الميل لتأييد النظام يعتمد بشكل عام على قدرته على حفظ الأمن والنظام . وأدى ذلك إلى نشوء فكرة أن التربية السياسية أساسية في تمكين التأييد للنظام . ولوحظ في الولايات المتحدة أن تفكير الأطفال السياسي يدور دائماً حول رئيس الجمهورية ، وفُسِّر ذلك بأن الرئيس يحتل مكانة الأب في نفوسهم . ولكن هذا التفسير ناهضه تفسير آخر يقول : إن اتجاهات الطفولة لا تستمر حتى المراحل المتأخرة من الحياة ، ومن ثم فإن تفسير السلوك السياسي بالتعلم الاجتماعي قد يكون أعمق وأقوى دلالة . ويقصد بالتعلم الاجتماعي التعلم القائم على المحاكاة ومراعاة التقاليد والأعراف . وأظهرت دراسات أخرى وجود عوامل أبقى أثراً في السلوك السياسي كالتصويت مثلا ، وهذه العوامل هي الحزبية والايديولوجيا والطبقة ، والعرق ، والدين ، والمنطقة الجغرافية ، وأن هذه الاتجاهات تُكْتسب مبكراً في الحياة ، مما لفت النظر إلى ضرورة البدء بالتربية السياسية منذ الطفولة .

وتزداد أهمية علم النفس السياسي ، ويزداد لجوء المفكرين إلى إسهاماته ، بسبب اتساع مجال السياسة ، خاصة في نهاية القرن العشرين ، فقد زاد الوعي السياسي لدى الشعوب بصفة عامة ، وحدثت تحولات جذرية في أكبر قوى دولية في العالم ، وأدركت مجتمعات بأسرها خطورة ترك مقاليد أمورها في أيدي كبار السن المصابين بتصلب الشرايين وغيرها من أمراض الشيخوخة ، وأصبح السلوك السياسي وفهم جذوره النفسية وعلاقته بالشخصية من الأمور التي تحتل تفكير المواطن والمثقف العادي .

ما هو الجديد

ولعل أحد وجوه جاذبية هذا العلم الجديد ، هو تحرره النسبي وانفتاحه ، وعدم وجود الكثير من القواعد الصارمة ، مما يسمح بالكثير من الأصالة والابتكار والخيال ، بشكل أكثر مما تسمح به علوم أخرى راسخة القدم . وهذا هو السبب أيضا في أن الغث يختلط بالسمين في مجال هذا العلم .

والذي لاشك فيه أن علم النفس السياسي قد جمع بين مسالك متعددة ، كانت موزعة قبل ذلك في مجالات العلوم الإنسانية التقليدية ، وذلك بسبب رؤيته المتميزة للسلوك السياسي التي تصدر عن زوايا للرؤية مختلفة عمّا درج عليه القدماء ، مثل الاتصالات ، والضغوط ، والعلاقات بين الأشخاص ، واللامعقولية ، وما إلى ذلك . ومصدر الخصب والنماء في هذا التخصص الجديد هو ما نراه هذه الأيام من تزايد نفوذ الاقتصاد السياسي داخل علم النفس السياسي ، وهو - كما هو معلوم - يقدم رؤية مختلفة تماما للسلوك الإنساني ، مما يبشر بمزيد من التفاعل الخصب الخلاق .□

البخيل

المخلص

قال بخيل لخادمه : « هات الطعام وإغلق الباب ، فقال الخادم : هذا خطأ يامولاي ، فإنما يقال : أغلق الباب وهات الطعام ، فسر منه سيده وقال : أنت حر لوجه الله لوفرة معرفتك » .

حول البرامج الأجنبيّة في التلفزة العربيّة

بقلم : الدكتور بدران عبدالرزاق بدران

منذ سنوات ، أثناء مناقشة منظمة اليونسكو لنظام اتصال عالمي جديد ، أثيرت تحذيرات من خطورة السيطرة الأمريكية على مجالات البث التلفازي العالمي ، وتأثيره السلبي على الثقافات القومية ، وهذا المقال يناقشُ القضية نفسها ، من زاوية عربية ، لكل البرامج الأجنبية .

إن دراسة أثر التلفاز وبرامجه على أي مجتمع هي من القضايا الملحة على أكثر من صعيد ، ولدراسته ينظر الإعلاميون عادة إلى عدة مؤشرات ، منها :ـ معدلات امتلاك أجهزة التلفاز في المجتمع ، وعدد محطات الإرسال ، ومدى تغطيتها لمساحة الوطن كله ، ومدة البث التلفازي ، ونوعية البرامج التي يتم بثها ، ومدى تفاعلها مع البيئة المحلية والجمهور ، ومتوسط ساعات المشاهدة ، وكذلك نسبة البرامج المنتجة محليا إلى المستوردة منها .

وسنركز اهتمامنا على النقطة الأخيرة ، في محاولة للتعرف على العوامل التي تقف خلف برمجة الدورات التلفازية العربية ، بمضامينها المحلية ، والمستوردة ، والتأثير المفترض لهذه البرامج على مستوى ثقافة المشاهد العربي .

تشير آخر الدراسات إلى أن محطات التلفزة العربية تستورد مابين ٤٠٪ ـ ٦٠٪ من برامجها من مصادر أجنبية ، أهمها الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ، وفرنسا والمانيا الغربية . وتحتل هذه البرامج مركزا مرموقا في البث التلفازي اليومي ، نظرا لأن معظمها برامج ترفيهية ، وإذا علمنا أن البرامج الترفيهية تحتل المرتبة الأولى في البث التلفازي العربي ندرك الأهمية التي تحظى بها هذه البرامج التي تعرض غالبا في ساعات المشاهدة المركزة ، بين السابعة والعاشرة مساء وتشير إحدى الدراسات

إلى أن ٥٢,٨٪ من مجموع ساعات البث التلفازي العربي مخصصة للبرامج الترفيهية، وتستهلك الجرعة الاخبارية ١٦,٣٪، وتليها الجرعة الثقافية التي لاتتجاوز ١١,٩٪، فالجرعة التربوية أو التعليمية ولها ١١,٢٪ ثم البرامج الدينية ولها ٦,٨٪ من مجموع ساعات البث.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك فروقا واضحة في حجم البرامج الأجنبية التي يتم عرضها بين قطر عربي وآخر، وكذلك بالنسبة لأنواع هذه البرامج أو مضامينها، فبعض الأقطار العربية تركز على استيراد البرامج الثقافية الخفيفة لمحطات التلفزة لدول مجلس التعاون الخليجي، بينما تستورد الأردن وسوريا ولبنان نسبة أكبر من البرامج «البوليسية» و«الكوميدية». وبعض هذه المحطات تبث ما لا يقل عن ٥٠٪ من ساعات الإرسال اليومي من البرامج الأجنبية، بينما لايصل حجم استخدام البرامج الأجنبية في بعضها الآخر إلى أكثر من ١٠٪ يوميا.

وقد اختار عدد من الأقطار العربية أن يفرد للبرامج الأجنبية قناة منفصلة، بينما تقدم قناة أخرى (تسمى أحيانا بالقناة الأولى أو الرئيسة) البرامج المحلية والعربية، كما يفعل التلفاز الأردني والسعودي والكويتي، بينما لجأت محطات عربية أخرى إلى تقديم البرامج الأجنبية في أوقات مختارة ضمن البرنامج اليومي، وبشكل خاص ضمن ساعات البث المسائي.

التبعية الإعلامية

يصف بعض الباحثين ظاهرة استيراد البرامج الأجنبية بالنسب التي تحدثنا عنها **«بالتبعية الإعلامية»**، وهو مصطلح يشمل كذلك اعتماد محطات التلفزة والصحف والإذاعة العربية في عرض برامجها الإخبارية وتحقيقاتها على ماتمده بها وكالات الأنباء العالمية من معلومات وأخبار وتحقيقات. ويتحدث بعضها الآخر عن مفهوم **«الأمن الثقافي»** الذي يوازي في أهميته الأمن العسكري والأمن الاقتصادي، ويقدمون في طروحاتهم حججا شتى، تبرر هذه التسمية: مصدرها الخوف من تأثير البرامج الأجنبية على مظاهر شتى لثقافتها المعاصرة.

ولكن ما الأسباب التي دعت محطات التلفزة في الوطن العربي إلى التوجه نحو الغرب بشكل رئيس ومطرد لشراء أو استئجار برامج مختلفة، أنتجت لأسواقها المحلية، وعدم اعتماد محطات التلفزة العربية على الصناعة المحلية العربية بشكل رئيس لملء ساعات البث اليومي لديها؟

السبب في ذلك يعود إلى أن معظم مؤسسات التلفزة في الوطن العربي قد ارتبط تأسيسها بشكل أو بآخر بجهة أجنبية - هي غالبا من أجهزة الدولة المستعمرة سابقا - أشرفت على كل القضايا المتعلقة باختيار نظام الإرسال المناسب، والهيكل الإداري والفني للمؤسسة، إلى جانب نواحي البرمجة المختلفة، من أجهزة ومعدات وأساليب تدريب، مما يجعل المحطة الجديدة تحمل سمات محطة الدولة المشرفة على تأسيسها وخصائصها نفسها.

وزيادة عدد ساعات البث التلفازي بشكل مطرد في العديد من الأقطار العربية، سبب ثان لاتجاهها إلى الخارج، حيث عجزت الصناعة المحلية عن إعداد البرامج التي تملأ مساحة هذا البث لأسباب مختلفة، منها ارتفاع تكلفة الانتاج البرامجي، وقلة عدد المختصين «والكوادر» الفنية المدربة. فكانت النتيجة الاعتماد المستمر على إنتاج الأسواق العالمية من أفلام ومسلسلات ومواد تلفازية متنوعة مما تهيمن عليه «هوليود» وغيرها من مراكز الانتاج السينمائي التلفازي، حيث تملك مخزونا ضخما من الأفلام والبرامج الاستعراضية والعلمية وغيرها، وتتولى توزيعها في العالم شبكة متطورة من الشركات التي تضع استراتيجيات تسويقية

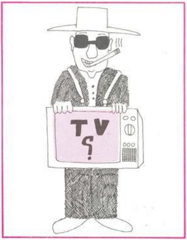
لكل منطقة بعد دراستها لاحتياجاتها من هذه المواد ، وتستخدم كل الأساليب التسويقية من تقديم حوافز وتسهيلات وخدمات يصعب مقاومتها .

أسباب أخرى :

إن كلفة البرامج الأجنبية تغري الجهات المسئولة عن البرمجة لأن سعر برنامج أجنبي ، مدته نصف ساعة ، أقل بكثير من تكاليف إنتاج برنامج محلي مشابه له . كما أن ثمن استئجار بعض المسلسلات يتراوح بين ٢٠٠ و ٦٠٠ دولار حسب نوع البرنامج والمحطة التي تستأجره .

كما أن شركات عديدة تلجأ إلى بيع أو تأجير برامجها بأسعار رخيصة ، عن طريق عرض برنامج في عدد من المحطات التلفازية بالتوالي من نسخة واحدة لهذا البرنامج .

ويعود السبب في رخص أثمان البرامج الأمريكية بشكل خاص إلى أن منتجيها يغطون تكلفة الإنتاج من السوق الأمريكية الكبيرة ، ثم



يبيعونها أو يؤجرونها بسعر زهيد في الخارج . وتستفيد هذه الشركات بتسويقها لهذه البرامج من ناحية كسب إعجاب جماهير التلفاز بالنمط الأمريكي ، مما يجعل لها شعبية تسهل تسويقها في هذه البلدان في المستقبل .

ومن الأسباب التي تذكر لتبرير عملية استيراد البرامج الأجنبية شعبيتها عند المشاهدين في أكثر من قطر عربي ، فهم يفضلونها لتنوع موضوعاتها ، ولاحتوائها على عناصر الحركة والسرعة والدراما ، ولمستواها الفني المرتفع ، قياسا بالبرامج المحلية . والواقع أن منتجي هذه البرامج يراعون عند إعدادها أن تكون ذات طبيعة عالمية ، وأن تحتوي على القاسم المشترك الذي يرضي كل الأذواق والمستويات .

وتلعب اللغة دورا مهما في اختيار مصدر البرامج الأجنبية ، فاللغة الانجليزية - وهي اللغة العالمية الأولى اليوم - تسهّل عملية تسويق البرامج الأمريكية والبريطانية والاسترالية ، بينما تقف حاجزا أمام تسويق اليابان لبرامجها التلفازية حتى إلى دول الشرق الأقصى .

مراقبة البرامج الأجنبية :

ويتولى فحص البرامج المستوردة ومراقبتها ، كما نعلم ، لجان متخصصة من داخل المؤسسات التلفازية ، يشارك في عضويتها أحيانا أفراد من خارج هذه المؤسسات ، وتقوم هذه اللجان بعملها لاستبعاد البرامج التي تمس المعتقدات الدينية والقيم والتقاليد الاجتماعية والسياسة العامة للدولة ، وكل مايثير نوازع العنف والعدوان والجنس .

وعلى الرغم مما سبق ، نلاحظ أن دراسات قام بها المركز العربي لبحوث المستمعين والمشاهدين ، وغيره من الجهات المختصة ، قد بينت أن عددا كبيرا من البرامج الأجنبية التي يتم عرضها في أجهزة التلفزة العربية لاتخلو من

مشاهد العنف والجريمة والإدمان على المخدرات والجنس ، وأن بعضها يحتوى على قيم وممارسات مغايرة للعادات والتقاليد المحلية . واستنتجت أن لهذه المضامين تأثيرات ضارة على الشباب والأطفال الذين يشاهدونها .

ويعود وجه القلق فيما يتعلق بمضامين هذه البرامج إلى بعض الخصائص التي تميز التلفاز عن غيره من وسائل الاتصال الجماهيرية من حيث تأثيره على المشاهد .

البرامج الأجنبية والثقافة العربية :

ونرى أن هذا الجدل حول سلبيات البرامج الأجنبية يجب أن يوظف لتوضيح الحقائق التالية :ـ

أولا : الخطأ الأساسي ، هو في تشغيل وسيلة اتصال جماهيرية ذات درجة تأثير عالية ، بنسبة كبيرة من المنتجات الثقافية المستوردة ، بدلا من الاكتفاء بتشغيلها فترة زمنية أقصر ، مع قدر أكبر من المنتجات الثقافية والترفيهية والإخبارية المحلية .

ثانيا : الخطأ ليس في مبدأ الاستيراد بعينه ، بل في الاختيار ، فهناك عدد كبير من البرامج الأجنبية ذات مستوى فني وثقافي مرتفع ، ينبغي التركيز عليها بدلا من استيراد الانتاج الهابط .

ثالثا : الدعوة إلى الانفتاح على الثقافات الأخرى لها مبررات حضارية أكثر من الدعوة إلى الانغلاق على النفس ، ومن هنا ندعو إلى الاطلاع على منجزات الثقافات الأخرى ، وبخاصة العلمية والفنية والتاريخية .

رابعا : يجب أن ينصب الجهد العربي على تطوير الشخصية الثقافية العربية ، لأن أساس التبادل الثقافي العالمي وضوح البنية الثقافية المحلية ، ومن هنا أصبحنا في حاجة إلى بلورة فكر عربي أصيل يستند إلى التراث الحضاري العربي وإلى القيم الدينية .

خامسا : يجب أن يعمل المبرمج العربي على تطوير أدوات قياس آراء المشاهدين ، وأن تجرى مسوح دورية لها ، وأن تنعكس نتائجها على نوعية البرامج التي يتم اختيارها وإنتاجها ، مع الربط دائما بين مضمون المادة الإعلامية وبين الواقع الاجتماعي والثقافي السائد في كل قطر عربي .

سادسا : يرتبط مفهوم «الأمن الثقافي» الذي أشرنا إليه بقدرة الأقطار العربية على إقامة صناعات ثقافية محلية ، يستثمر فيها الإنتاج الفني والأدبي العربي ليحل تدريجيا محل معظم الإنتاج الثقافي المستورد الذي لايمت بصلة لحاضرنا ولقيمنا وعاداتنا . ومن الضرورة أن يتم تشجيع التبادل الإعلامي العربي ، وأن يتم تجاوز الحساسيات السياسية التي تقف حجر عثرة أمام قيام سوق ثقافية عربية مشتركة .

كما يجب ألا ينظر المبرمج العربي إلى البرامج الأجنبية كبديل دائم للبرامج المحلية ، بل كبديل مؤقت ، أملته ظروف معينة ، ويجب على مؤسسات التلفزة العربية أن ترفع مستوى أجهزة البرمجة فيها ، وأن تشرك شخصيات مرموقة في مجالات العلم والأدب والثقافة في عملية اختيار البرامج الأجنبية التي تعرض ، حتى يرتفع مستوى مايشاهده المواطن العربي ، مع التوصية بزيادة المضامين الثقافية في برامج التلفزة العربية عن نسبتها الحالية - ١١,٩٪ - إلى نسبة أعلى تعكس أهميتها في التكوين الحضاري للإنسان العربي . □



● ما من إنتاج للعلم الحقيقي أو الفن الحقيقي إلا ما كان وليد التضحية ، لا وليد المنافع المادية .

(تولستوي)

صراع المدينة والقرية في الدول النامية

بقلم: الدكتور فضل أيوبي

تشهد دول العالم الثالث منذ الحرب العالمية الثانية ظاهرة النمو المتسارع لمدنها الرئيسية سكانا، وعمرانا، وبخاصة عواصمها التي تشكل مناطق جذب رئيسية، مما يزيد المشاكل والتعقيدات الاجتماعية والحضارية التي تعانيها هذه الدول.

نتيجة لمعدلات النمو التي عرفتها البلدان النامية خلال الفترة الواقعة ما بين ١٩٥٠ - ١٩٨٠، فقد حدث خلل واضح في التوازن الجهوي، وبخاصة في التركيب والتوزيع السكانيين في معظم هذه البلدان، نجمت عنه مشاكل اقتصادية واجتماعية بالغة التعقيد، ويتمثل هذا الخلل في تكوّن منطقة شديدة النمو الحضري - غالبا ما تكون العاصمة* وما حولها - تشكل المركز، بينما يلعب باقي البلاد دور المحيط المفتقر الى كل شيء، المجذوب الى هذا المركز.

فاذا عد النمو السكاني في العالم الثالث كابحا من كوابح التنمية، ومشكلة يجب معالجتها على المدى الطويل، فإن التركيز المتزايد للسكان في المدن الكبرى دون شك هو أكثر خطورة على المدى القصير. ولقد برزت هذه الظاهرة بوضوح في عديد من عواصم دول العالم الثالث كالقاهرة، وبيروت، والدار البيضاء، وتونس، ومكسيكو، وساو باولو، وسيئول، وغيرها.

مناطق للجذب والهجرة:

تمثل المنطقة المركزية التي قد تمتد على نسبة مهمة من التراب الوطني عادة عصب البلاد، ومركز الثقل فيها، فهي مقر الدولة، والوزارات، والمؤسسات، والشركات والمصارف (البنوك)، والصناعات بفروعها المختلفة، وعُقد المواصلات بأشكالها المتنوعة، وكل أنواع الاتصالات، وتؤوي غالبا نسبا عالية من السكان، قد تصل الى ٥٠٪، لذلك فإن أي اضطراب أو عدم استقرار فيها يهدد البلاد بكاملها بأوخم العواقب، وهذا ما تدركه جيدا القيادات السياسية في هذه البلدان، لكن على الرغم من هذا الادراك، فإن معظم الحكومات تبدو عاجزة عن الإحاطة بالموقف الذي تفجّر في مناطق كثيرة على هيئة ثورات غضب، أو مازال يتأجج في مناطق أخرى بفعل عوامل كثيرة، ذلك أن الزيادة السكانية السريعة للمناطق المركزية تدفع بالأمور الى حدودها القصوى من



● المساكن الفارهة، والحدائق، والشوارع الواسعة بعض الإغراءات الضاغطة التي تدفع أهل الريف إلى المدن.

كل الوجوه، بسبب تنوع الأزمات وتواليها: من السكن الى النقل، فالمدارس، والطرقات والمستشفيات، ومياه الشرب، والكهرباء والأمن، والغذاء والتلوث والضجيج والازدحام، الخ، بحيث أن الحكومات تجد نفسها مضطرة الى تخصيص استثمارات ضخمة في هذه المجالات تثقل ميزانياتها، وغالبا ما تستأثر المناطق المركزية بنصيب الاسد من هذه الاستثمارات، وتبقى نسب ضئيلة لباقي البلاد، مما يعني بقاءه في تخلفه، وتدهور شروط الحياة فيه، ومن ثم اشتداد التباين بينه وبين المنطقة المركزية، وهذا ما يشكل هاجسا مقلقا للمسؤولين في البلدان النامية. ويرتبط اكتظاظ السكان في الواقع بالزيادة الاقتصادية مباشرة، لاسيما وهو ضروري لها، فالاستثمارات العامة والخاصة في أي بلد نام تميل الى التركز في المنطقة المركزية، حيث تكون أكثر مردودية، وحيث تعمل على تحسين مستوى المعيشة، مما يؤدي الى جذب متزايد لسكان الأرياف. بعض البلدان التي اختارت لنفسها طريق التنمية الرأسمالية تعاني من صعوبات جمة في لجم تيارات الهجرة المتزايدة نحو المركز، بينما استطاعت البلدان الاشتراكية مراقبة تحركات السكان عن كثب، وضبط زيادة المناطق المركزية، وفي الوقت نفسه تمكنت بعض البلدان من التقليل من حجم الهجرة، عندما وصل الانتاج الاقتصادي فيها الى مستوى مرتفع بشكل كاف، بحيث أصبح في متناول الحكومة اعادة توزيع استثماراتها في مجموع البلاد، غير أن هناك أمثلة حديثة تظهر أنه حتى لو لم تصل البلاد بعد الى مرحلة مهمة في النمو الاقتصادي، فإن سياسة حكومية حصيفة لتحسين نوعية الحياة في مناطق البلاد الداخلية كفيلة بكبح نمو المنطقة المركزية.

نمو متسارع:

تنطبع ظاهرة تركز السكان في المنطقة المركزية بطابعين، هما: مستوى النمو الاقتصادي من جهة، والبنية السياسية للبلاد (أي الاستراتيجية



● ازدحام البشر يؤثر على سيولة الطرق وكفاءة الخدمات من مواصلات وسكن وكهرباء وماء وصرف صحي

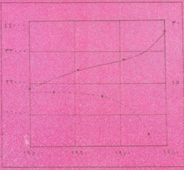
المتبعة في تنمية البلاد، رأسمالية كانت أو اشتراكية) من جهة أخرى .

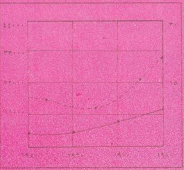
وتزداد نتائج توجه تيارات السكان نحو المناطق المركزية في العالم الثالث أهمية بفعل عوامل ديموغرافية أخرى، مثل: العدد المحدود جدا للمدن التي تستقبل المهاجرين، فعلى العكس مما هو عليه الحال في البلدان المصنعة، حيث تنتشر في المنطقة المركزية الواحدة العديد من المدن الكبرى، فإن معظم المناطق المركزية في الدول النامية لا تمتلك غير مدينة واحدة تصب فيها كل تيارات المهاجرين، وهناك عامل آخر يساعد على تفاقم المشكلة يتمثل في أن حركة الهجرة نفسها تندمج في نمو سكاني وطني هو نفسه ذو وتيرة عالية، فالبلدان النامية تواجه مشكلتين كبيرتين حاليا:ـ

الأولى: هي الزيادة الطبيعية العالية لسكان المدن الكبرى التي لا تعرف التوقف.

والثانية: هي نسبة سكان البلاد المتزايدة التي تعيش في المنطقة المركزية، والتي لا تكف هي أيضا عن الارتفاع، ففي الاكوادور وبنما، تزايدت نسبة السكان الذين يعيشون في المناطق المركزية بصورة مأساوية منذ عدة عقود. ففي سنة ١٩٥٢ كان يسكن في منطقتي كيتو وجاياكيل في الاكوادور ٣٠٪ من سكان البلاد، وفي سنة ١٩٨٢ وصلت هذه النسبة الى ٤٢٪، وفي عام ٢٠٠٠ سيعيش أكثر من نصف سكان البلاد في واحدة من هاتين المدينتين أو بالقرب منها. وفي بنما ارتفعت نسبة القاطنين في العاصمة من ٣١٪ سنة ١٩٥١ الى ٤٦٪ سنة ١٩٨٠، ومن المحتمل ان تتجاوز هذه النسبة ٥٠٪ سنة ١٩٩٠.

إن الزيادة السريعة لسكان المدن في الدول النامية تطرح مشاكل تخطيط خطيرة، تظهر بوضوح في المنطقة المركزية لأندونيسيا المسماة جابوتابيك التي تقوم عليها مدينة جاكرتا وما حولها، فقد بقي معدل الزيادة لهذه المنطقة خلال العشرين سنة الأخيرة أعلى من المعدل الوسطي لمجموع البلاد بشكل واضح، إذ زاد





ـــــــ الانتاج الخام الداخلي بالنسبة للفرد الواحد بالفرنك الفرنسي
ـ ـ ـ ـ المعدل السنوي للزيادة في المنطقة المركزية بالنسبة لكل ١٠٠٠ نسمة

● في فنزويلا: مثال لكفاءة توزيع الاستثمار، وعدم استئثار المنطقة المركزية به. فمع تزايد المستوى الاقتصادي خلال السبعينيات، تناقصت الهجرة إلى المدن

● في تايلاند كلما تطور النمو الاقتصادي وشهدت المدن ازدهارا زادت الهجرة نحو المنطقة المركزية.

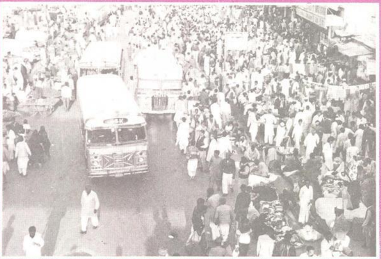
سكانها من ٦,٧ ملايين نسمة سنة ١٩٦١ الى أكثر من ١٣ مليون نسمة سنة ١٩٨١، وتقدر وزارة الأشغال العامة الأندونيسية أن إقامة نظام للنقل العام في جاكرتا سيكلف الحكومة ١,٢ مليار دولار خلال العشر سنوات القادمة، وأن هذا الرقم يزيد سبع مرات عن الميزانية التي خصصتها وزارة الأشغال لكل البلاد فيما بين ١٩٨٤ ـ ١٩٨٨، ومن جهة أخرى فإن تكاليف اقامة شبكة توزيع للمياه لمدينة واحدة ـ جاكرتا ـ سيمثل ٦٠٪ من الاعتمادات المخصصة في هذا المجال على المستوى الوطني خلال المخطط الرباعي الأخير.

أفضليات الاستثمار:

على الرغم من تكاليف الانجاز المرتفعة للبنى التحتية في المناطق المركزية، فإن هذه المناطق مفضلة أثيرة لدى حكومات الدول النامية من أجل الاستثمارات، وذلك لعدة أسباب:

أولها ذو طابع سياسي: فقد فرضت الزيادة السكانية في المناطق المركزية نفسها كأمر واقع، وأجبرت الحكومات على تخصيص غالبية الاستثمارات لها، وذلك من أجل ضمان نمو منسجم على الأقل، لتجنب فوضى سياسية كاملة، واضطرابات وقلاقل في مناطق هشة مكتظة بالسكان، لهذا نجد أنه من أجل المحافظة على الاستقرار السياسي يجري العمل على تطوير الخدمات الاجتماعية بالقدر الممكن كالمؤسسات الصحية، والتعليمية، والنقل، ووسائل الاتصال، والطرق، والمياه الخ.

ثانيها ذو طابع اقتصادي: فالمناطق المركزية، كمراكز حضرية ـ بما تمتلكه من موانىء وعقد مواصلات حديدية وبرية وجوية، وشبكات



● في المدينة تضيع كل الأحلام، ويتحول النازحون إلى باعة جائلين ومتسكعين، وكتلة زحام بشري هائلة

اتصال، ومؤسسات مالية، وثقل سياسي، ووجود صناعي متنوع متطور، وأسواق استهلاكية، وتسهيلات في التزود بالمواد الأولية، ووجود أيدي عاملة مؤهلة نسبيا تعد ذات مردودية سريعة هائلة، وبذلك تستقطب كل مشروع جديد. إضافة الى ذلك يجب الاشارة الى ظاهرتين مهمتين تتصف بها البلدان النامية: **البيروقراطية** الشديدة، ذات الأثر الواضح الكبير على سير عمليات الانتاج، وما توجده من فرص عمل إداري. **والسوق السوداء** المعروفة جيدا في كل مدن البلدان السائرة في طريق النمو تقريبا. هاتان الظاهرتان وما توجدانه من فرص للعمل، يلقى فيهما القادمون من الأرياف خلاصا من المستوى المتدني الذي يعيشون فيه، فإذا كان مستوى الحياة المرتفع نسبيا في المناطق المركزية هو الأصل في التركز السكاني في هذه المناطق، فإن تقليل الفرق في مستويات الحياة بين الريف والمدينة يمكن له أن يكبح تيارات المهاجرين، ويمكن لهذا الفارق أن يخفض على الأقل بشكلين:

الأول: عن طريق إبطاء الزيادة الاقتصادية في المنطقة المركزية.

الثاني: بواسطة رفع مستوى الحياة في المناطق الداخلية.

ويمكن لنا ان نجد أمثلة لهذين الشكلين بين ٤٦ بلدا شملتهم الدراسة المذكورة، فقد تباطأت الزيادة في المنطقة المركزية في كل من بيرو وتشيلي إبان الركود الاقتصادي الذي حدث في السبعينيات، والذي ترك آثاره على البلدان التي تمتلك بنى صناعية مهمة نسبيا، حيث نجد أن معدلات الزيادة المتعلقة بمدن: ليما، سانتياغو قد انخفضت عما كانت عليه خلال الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية بمرتين، غير أنه في البلدان القليلة التصنيع في المقابل،

حيث تكون معدلات صافي الهجرة نحو المدن الكبرى مستقلة عن الحالة الاقتصادية نسبيا (بلدان أفريقيا شبه الصحراوية بخاصة)، تبقى الهجرة ذات وتائر عالية، على الرغم من ضعف الزيادة الاقتصادية، لأنها مدفوعة غالبا بتدهور الانتاج الزراعي ونقص المواد الغذائية.

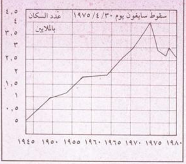
الاكتظاظ، والازدحام: كوابح طبيعية:

مثلما أسلفنا، فإن آثار الزيادة الاقتصادية الكلية على تركز السكان في البلدان شبه الصحراوية، تخضع لمؤثرات أخرى، ففي مصر حيث يعد معدل النمو الاقتصادي فيها متوسطا، وحيث يجب أن يكون تركز السكان فيها مرتفعا، نظرا لتسارع هذا النمو بعد الحرب العالمية الثانية الذي ارتفع بموجبه العائد الفردي بنسبة ٤٪ سنويا وفق المعطيات الرسمية للدولة فإن معدل زيادة السكان لمدينة القاهرة قد انخفض بين ١٩٦٦ - ١٩٨١، فالقاهرة هي احدى مدن العالم الأكثر اكتظاظا، وارتفع عدد سكانها خلال الفترة الواقعة بين ١٩٤٧ - ١٩٨١ من ٣,٦ الى أكثر من ١٠ ملايين نسمة، لذلك يبدو أنه من المحتمل أن تكون كثافة السكان فيها هي التي حدّت من آثار النمو الاقتصادي، إذ أن حجم العاصمة المصرية وكثافتها قد جعلا من غير المهم تطوير الصناعة فيها، فالمضاربات العقارية والاختناقات والازدحام الشديد وتعرقل السير زادت جميعها في تكاليف التنمية الصناعية والتجارية.

في مصر وبيرو وتشيلي تباطأ تركز السكان بسبب انخفاض الجذب الذي تمارسه المنطقة المركزية، كما أن سياسة الاستثمارات المخصصة لتحسين مستوى المعيشة في المناطق الداخلية قد لعبت دورا في تخفيض معدلات صافي الهجرة، لكن البلدان النامية التي يسمح لها اقتصادها بتخصيص استثمارات كافية لتطوير المناطق الريفية قليلة.

الاستثناء:

لقد قلنا سالفا أن البلدان النامية لا يمكن لها أن تستثمر في مناطق البلاد الداخلية، اذا لم تصل الى مستوى معين من النمو الاقتصادي، غير ان سيرلانكا تشكل استثناء لهذه القاعدة، وقد أثبتت أنه من الممكن تحسين مستوى الحياة في الارياف والمناطق البعيدة عن المراكز الحضرية، حتى لو كان مستوى النمو الاقتصادي متواضعا، ففي سنة ١٩٨٠، لم يكن الناتج الداخلي الخام للفرد الواحد أكثر من ٩٢٠٠ ف. ف، وعلى الرغم من ذلك استطاعت الحكومة تأمين توزيع خدماتها المتعلقة بالسكن، والغذاء والتعليم، والصحة، بصورة عادلة لكل مجموع التراب الوطني، فتراجعت نتيجة لذلك نسبة الأمية، ووفيات الأطفال، وسوء التغذية، بالمقارنة مع البلدان المجاورة التي لها المستوى الاقتصادي نفسه، وبذلك ارتفعت آمال الحياة بالنسبة لكل السكان. لقد كان لديموقراطية الخدمات الحكومية في سيرلانكا أثر كبير في



● نموذج لآثار التدخل الحكومي لوقف الهجرة إلى المدن، فقد أوقفت السلطات الحكومية الهجرة إلى العاصمة «هوشي منه» - سايغون سابقا - على الرغم من تزايدها المستمر طوال ثلاثين عاما.

التقليل من الفوارق والتباينات بين سكان الأرياف وأولئك الذين يقطنون المنطقة المركزية، وانعكس ذلك على حجم تيارات الهجرة، فقد تناقصت نسبة سكان البلاد الذين يعيشون في العاصمة كولومبو وضواحيها من ٢١,٣ الى ٢٠,٨٪ خلال الفترة الواقعة ما بين ١٩٤٦ و١٩٨١، وربما تكون سيرلانكا قد حصلت على هذا النجاح من خلال التباطؤ الواضح في نموها الاقتصادي، حيث ان الزيادة في الناتج الداخلي الخام للفرد الواحد، منذ سنة ١٩٤٥ مازالت ضعيفة، لأن اقتصاد البلاد مازال زراعيا بالدرجة الاولى، ويفتقر الى المراكز الصناعية الثقيلة.

إن مثال سيرلانكا يوضح تناقضات ظاهرة تركز السكان، فمن حيث المبدأ يعد تمركز الاستثمارات في المنطقة المركزية أفضل وسيلة لزيادة الانتاج، بينما يشكل عدم المركزية عقبة امام النمو الاقتصادي، لذلك يجد المسئولون في العالم الثالث انفسهم أمام خيارين صعبين: كيف يمكن كبح لجام الزيادة السكانية للمراكز الحضارية الكبرى دون ان تتوقف الزيادة الاقتصادية للبلاد؟

وتواجه حكومات البلدان ذات النظام الاشتراكي المشاكل نفسها، غير انها اختارت حلولا مختلفة، أثبتت نجاحها، فبفضل التخطيط والبرمجة أمكن لهذه البلدان أن تمارس رقابتها على حركات مجموع السكان، وهكذا فنسبة السكان الحضر الذين يعيشون في هافانا ثابتة منذ سنة ١٩٤٣، كما أن الحكومة الفيتنامية خفضت من سكان مدينة هوشي ـ منه (سايغون سابقا) من ٤,٥ ملايين نسمة سنة ١٩٧٥ الى ٣,١ ملايين نسمة عام ١٩٨٢، وذلك عندما أجْلت الحكومة حوالي ٨٪ من السكان نحو المناطق الداخلية سنويا، كما أن الصين في مناطق بيجنغ (بكين وشنغهاي) تمتلك معدلات زيادة سكانية أكثر انخفاضا في المنطقة، فاذا كانت حكومات الدول الاشتراكية تمارس سياسة صارمة بالنسبة للزيادة السكانية في المراكز الحضرية، ولتيارات الهجرة، إلا أنها بفضل سياسة عدم مركزية الاستثمارات، وبذل الجهود المتواصلة لرفع مستويات الحياة في داخل البلاد، أمكن لها تخفيض صافي الهجرة نحو المناطق المركزية.

الريف والمدينة معاً

بقيت المناطق الحضرية الكبرى مراكز جذب للسكان من الأرياف خلال السبعينيات، بالوتيرة نفسها التي كانت عليها خلال العقدين السابقين. وتشير هذه الاستمرارية إلى أن تركز السكان والصناعة مازالا يقدمان مزايا مهمة، ومع ذلك فقد تناقص معدل صافي الهجرة داخل عدد لا بأس به من البلاد النامية، هذا النقصان نتج عن أسباب مختلفة منها: رقابة الدولة على تحركات السكان، ومعدلات النمو في المدن، وذلك من أجل ضمان توازن «ديموغرافي»، أو حدوث أزمات اقتصادية، كتلك التي أصابت بيرو وتشيلي. غير أن النتائج التي يمكن استنباطها، تُظهر بجلاء أن السماح بنمو مشوه لجزء من البلاد على حساب باقي المناطق، عملية تسير في اتجاه مسدود، وهي محفوفة بالمخاطر، غير مضمونة النتائج، تسبب ارباكات وتناقضات في عملية التنمية، اذ أن الجذب الذي تمارسه المناطق المركزية لسكان باقي البلاد، بفضل ما تحققه من نمو اقتصادي، يمكن له أن يمتص كل ما تحققه من نجاحات، لذلك فان التنمية التي يمكن لها أن تضمن نمواً متوازناً لكل أرجاء البلاد، هي تلك التي تعمل على تنمية الريف والمدينة معا وإنهاء تلك الثنائية الجائرة الموروثة عن العهود الاستعمارية التي تسخر الريف لخدمة المدينة، واستبدالها بعلاقة تكاملية واندماجية، وذلك لتحقيق النمو المنسجم الكفيل وحده بتحقيق الأهداف المرجوة. □

الأغصان المائلة

قصة بقلم : رشاد أبو شاور*

زحام شديد ، تندفع الحافلات الصغيرة غاصة بالركاب ، مطلقة أبواقها ، مخلفة وراءها دخانا أسود ثقيلا كريه الرائحة ، مثيرة الغبار .

اندفع ولد صغير وراء « كُرته » ، فكادت سيارة فارهة أن تضربه لولا سرعة انتباه السائق الذي انعطف بالسيارة متفاديا الولد .

علق سائق الأجرة :

ـ ضاقت الدنيا بأهلها ، الأولاد ، ـ استاذ ـ قديماً كانوا يلعبون بين الحقول ، أو في الفسحات بين بيوت الحارات . تجار البناء ـ استاذ ، ـ قطعوا الأشجار ، وكدسوا البنايات ، وحولوا المدينة إلى « اسمنت » . أستاذ هل تستطيع أن تتنفس ؟!

حاول أحمد أن يأخذ نفسا عميقا ، فامتلأ صدره بالهواء الملوث الثقيل ، وبرائحة « المازوت » الأسود الذي تخلفه الحافلات الكبيرة والصغيرة .

نبهه صوت السائق الذي كان يراقبه في المرآة العاكسة أمامه :

ـ ها ، ماذا تقول ـ أستاذ ـ في حياتنا ؟

لم يعلق أحمد على كلام السائق . الجو حار ، خانق ، وعرقه يسيل على عنقه ، وظهره يشوى بجلد المقعد الملتهب .

إنه يراقب فقط ، يحاول أن يتذكر الشوارع ، الحارات ، الطرقات التي حفظتها ذاكرته طوال سنوات غربته .

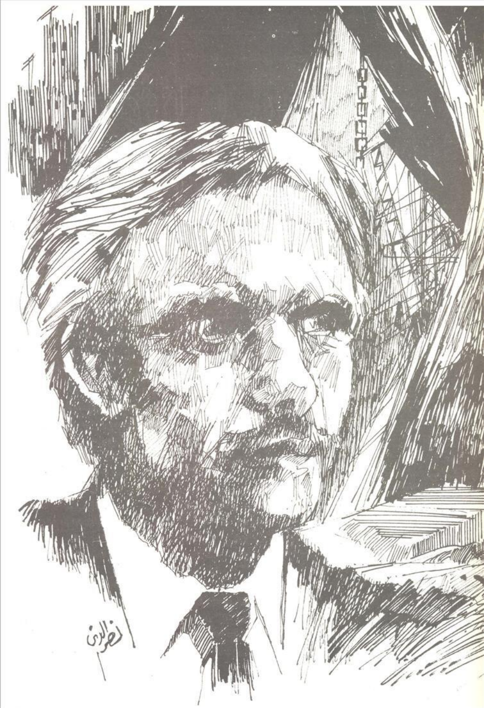
قال السائق :

ـ هناك ـ أستاذ ـ كانت حقول المشمش والزيتون ، كانت الخضرة . .

لم ير أحمد غير « اسمنت » بشع ثم تذكر حافزه للعودة : والدي كتب لي بكلمات كبيرة : احضر ، لقد حصلت على الدكتوراة ، وهذا يكفيك ، ماذا تنتظر ياولدي ؟! أنت كبرت ، وأنا ووالدتك كبرنا ، والدتك مريضة يادكتور أحمد ، وأنا تعبت من العمل ، أي والله تعبت ياولدي ، استشهاد أخيك هد حيلنا ، كسر ظهري ، وغير أمك تماما . عد ياولدي لعلك



* كاتب من القطر العربي الفلسطيني .



تساعدنا ، وتجبر بخاطر أمك التي ننقلها من طبيب إلى آخر بلا فائدة على الرغم من المال الذي نصرفه على الدواء وأجرة الأطباء .
- كم سنة قضيت في الغربة أستاذ ؟
انتبه إلى السائق ، رآه ينظر في المرآة ، رأى وجه السائق ، إنه يرى رأسه من الخلف ووجهه في المرآة ، أعجبته الفكرة ، تصلح لكتابة قصة ، لا تصلح لقطة طويلة في فيلم سينمائي ، الفم في المرآة يتكلم ، والرأس الأشيب من الخلف صامت .
- عشر سنوات
- هذا كثير يا استاذ
- . . . .
- مهنتنا أستاذ متعبة ، ركض بلا فائدة : في الشتاء نقضي الوقت في برودة السيارة ، وفي الصيف في جحيم السيارة ، والأدهى من هذا وذاك ، كل راكب له مزاج ، وكل راكب يريدك أن تمشي كما يريد ، كأنك عبد .
وساد صمت
مد السائق يده وفتح المذياع ، فتدفقت أغنية :
« دلعني وأنا دلعتو
مابيتدلع ابن الفلاح
ياعين ليا
يا »
وصرخ السائق وهو يغلق المذياع :
- اخرس يا . . . .
وخرست الأغنية
- تصور ياأستاذ أهذا بالله غناء ؟ هل يغنون هناك حيث كنت مثل هذا الغناء ؟ أنت أين كنت ؟
- الغناء هناك نظيف .
ولوى السائق رأسه .
- كنت في باريس ، في عاصمة النور (طالما جعت ، ونمت بلا نور ، ولادفء ، وعملت في المقاهي والمطاعم منظف صحون وطاولات ، لأتم دراستي ، ولأعود بالدكتوراة) .
- باريس ! يحكون أنها جميلة أستاذ !

- كل شيء جميل لأصحابه يا أخا العرب .
- ها أستاذ ، وصلنا ، من أين الطريق إلى بيتكم ؟
- والله ، والله . .
- يبدو أنك أطلت الغياب فعلا حتى نسيت موقع بيتكم ! إذا شئت نسأل عن بيتكم . . .
وضحك السائق وهو يضيف :
- دنيا ، دنيا عجيبة ، يضيع فيها الإنسان عن بيته ، الغربة والأسمنت .
كانت هناك حقول المشمش والزيتون .
تذكرت : كنا هناك ندرس تحت أشجار الزيتون ، نأكل الخس ، ونبتسم للبنات ، ونحلم بآتيات الأيام ، عمر كان يحلم بالذهاب إلى هوليوود وتمثيل أفلام كاوبوي مع غاري كوبر أين عمر الآن ؟ ، لقد رحل ، ولكنه لم يمثل مع غاري كوبر.عمر كان يبيع « الكاز » و « المازوت » بالصهريج الذي كان يجره حصان دائما . وعمر كان يردد عندما كان يرى أحد الأصحاب :
« هاي تشيك . . هاو ار يو بوي ، و . . . »
- أين أستاذ ؟ صرنا في نهاية المخيم ؟
عندك ، عندك لو سمحت .
- هل عرفت بيتكم ؟
- طبعا ، طبعا ، وهل يضيع الإنسان عن بيته ؟
- لم تقل لي أستاذ ، دكتوراة في ماذا . . ؟
- دكتور في الأدب .
- ظننتك طبيبا .
حاول أحمد أن يضحك
- (دكتوراة في الأدب ، أنا أحتاج لأطباء كثيرين ليخلصوني من أمراض حملتها بسبب جلوسي على المقاعد في المكتبات العامة ، تشنج القولون ، والآلام في الفقرات العجزية والقطنية) .
وقف وبجواره حقيبة كبيرة وأخرى صغيرة ، أخذ يراقب الوجوه ، لاأعرف أحدا ، ولا أحد يعرفني ، شد ظهره قليلا فسمع طقطقة فقراته ، تنفس هواء قليلا ، وسال عرقه بغزارة ، علق :

هناك يريدون الشمس ، أكثر مما نريد .

صور شهداء على الحيطان ، شعارات : عاشت فلسطين عربية ، وتحت ذلك وبخط مائل : لاتتبول هنا و . . .

كتل « أسمنت » رمادية ، رطوبة ثقيلة ، وعتمة على الرغم من الشمس الشرسة ، نظر إلى الناحية الغربية من المخيم لا أشجار زيتون ولاحقول خضرة !

فكر أن يسأل أحدا عن بيت أبي أحمد ، والده ، لكنه خجل من الفكرة ، كيف يسأل الناس عن بيتهم ؟ ماذا سيقولون لو عرفوه ؟ سيتهمونه بقلة الوفاء ، والنسيان والتعالي ؟!

وضع الحقيبتين وجلس على التراب ، قرأ ورقة النعي على جدار البيت المقابل بعد أن شدته ملامح وجه المنعي : الشاب محمد ال . .

تذكر أنه هو محمد فوراني ، صديقه القديم ، لاعب كرة القدم المدهش ، لقد كانوا ينادونه : ستيف ، لأنه يشبه ممثلا أمريكيا اسمه ستيف كوشران .

محمد فوراني مات في حادثة سير على طريق بغداد الشام ، وهو عائد من الكويت . هكذا يقول النعي ، وآل الفقيد و . . .

عاد إلى واقعه وتساءل : أين بيت أبي أحمد الذي حمل زوجته وابنه وهرب من فلسطين إلى لبنان وسورية ، وسكن في مخيم اليرموك قرب دمشق ، وتعذب حتى ملك بيتا ودكانا صغيرا ، وأنجب ابنا آخر في المنفى هو الشهيد محمود ؟ أين بيت أبي أحمد الذي كتب لابنه الدكتور في باريس راجيا إياه أن يعود ، لأن أمه قد تموت بعد أن تغرب إبن لها واستشهد الآخر ؟أين بيت أبي أحمد الذي كظم حزنه ، والذي قد يقتله القهر والانتظار ؟ أين الزيتون وظلاله والخس وأكواب الشاي وعمر ومحمد وابتسامات البنات والسماء الفسيحة وصوت القطار ؟

حمل الحقيبتين ومشى قليلا ، فرأى شجيرات رمادية ساكنة تماما ، مائلة حتى لتكاد أغصانها تلامس الأرض ، وصلها ، ودار حولها ثم سأل نفسه : أهذه الشجيرات هي كل ما بقي ؟! ثم تذكر كلام كلود الفرنسية التي قالت له ذات يوم : سأذهب معك لنعيش هناك في المخيم ، نجلس تحت الزيتون ، ونأكل الخس ، وننام بين جداول المياه ، أحمد أنت تطبخ جيدا وتحب جيدا ، وتحلم جيدا وأنا أريدك ، أنتم شعب مجنون ، وأنا مجنونة بكم .

تابع دورانه حول الشجيرات ثم تساءل : أين راح الشباب الذين أرادوا أن يكونوا ممثلين ولاعبي كرة قدم ، وشعراء ، وأساتذة ؟ شد جذعه فهبط الوجع إلى عظام الفخذين والأعصاب والشرايين ، ثم انتشر في المنكبين وصعد الى العنق والرأس .

اقترب أولاد صغار ، أخذوا يرددون :

« رن رن ياجرس
حول واركب عالفرس »

أخذ يردد معهم وهو يمسك الأغصان المائلة ويستنهضها مع جسده إلى أعلى . □

حماة واحدة :



الزائر : أصحيح أنك تزوجت شقيقة زوجتك المرحومة ؟

المتزوج : نعم ، لقد ماتت زوجتي ، فتزوجت شقيقتها ، ثم ماتت الثانية ، فتزوجت الشقيقة الثالثة .

الزائر : ولماذا لم تختر إلا تلك الشقيقات ؟

المتزوج : لكي لا يكون لي إلا حماة واحدة .

الأذن

جسر الهمسات والضوضاء

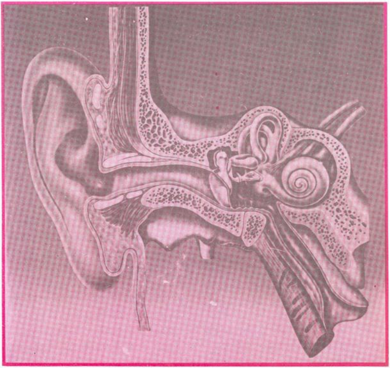
بقلم : الدكتور محمد الكبرا

الهمس ، الضوضاء ، اللغة أداة التواصل والتفاهم بين الكائنات الحية ، الموسيقا بإيقاعاتها ، الأصوات العالية ، الرعد ، كل هذه مفردات متنوعة للصوت ، تنتقل من مصدرها الخارجي عن طريق الأذن إلى مخ الإنسان الذي يترجمها إلى رموز ودلالات تساعده على الفهم . فما مكونات ووظائف الأذن التي قال عنها الشاعر : « والأذن تعشق قبل العين أحيانا » ؟

إن البحث في الآلية التي ينتقل فيها الصوت خلال الأذن ، يفرض التعرض لبعض الصفات الفيزيائية الأساسية للصوت ، حتى نتمكن من معرفة الأذن ودقة تكوينها ووظائفها . الصوت بالنسبة لنا إحساس ، أو ظاهرة وظيفية في جهاز السمع ، أما بالنسبة للفيزيائي فإن الصوت صورة من صور الطاقة ، تتمثل بشكل ضغط ، له مصدر ووسط ينتقل فيه بشكل موجي أو اهتزازي ، وله شدة وسرعة ، حسب الوسط الناقل . ومصادر الصوت كثيرة ، وهذه المصادر لديها القدرة على تحويل الطاقة الحركية المطبقة عليها إلى طاقة اهتزازية مميزة ، حسب نوعية مصدر الصوت . على سبيل المثال فإن ضغط الهواء على الحبال الصوتية يؤدي إلى اهتزازها ، وهذا الاهتزاز يحتاج إلى وسط كي ينتقل فيه ، فالصوت لاينتقل في فراغ .

انتشار الصوت :

إذا قذفنا حجرا في بركة ماء ، نلاحظ تموج سطح الماء بشكل موجات دائرية متسعة من المركز إلى المحيط ، والصوت ينتشر بهذه الآلية نفسها . إن المسافة بين قمة موجة وقمة موجة أخرى يعبر عن طول الموجة لهذا الاهتزاز . وفي كل موجة منطقة انضغاط من جزيئات الوسط الناقل ومنطقةمن التخلخل . إذا رمينا حجرا في بركة أكبر من الحجر الأول ، فسوف نشاهد أن ارتفاع الموجة عن سطح الماء يصبح أكبر من المرة السابقة . إن ارتفاع الموجة يعبر عن الشدة ، وتسمى سعة الموجة . وكنتيجة لذلك كلما كانت سعة الموجة كبيرة كانت شدة الصوت كبيرة . هذه الشدة أو الطاقة الصوتية تظهر بشكل ضغط ، ويحسب مقداره بالدينة (Dyne) على السنتيمتر المربع الواحد .



● مقطع لأقسام الأذن المختلفة .

هل ينتقل الصوت بسرعة واحدة في كل الأوساط ؟ إن ذلك يعتمد على مرونة الوسط الناقل وكثافته ، وبالتالي فلن تكون السرعة واحدة في كل الأوساط .

إن التواتر أو الاهتزاز أو الذبذبة ذات معنى واحد ، وتعني مقدار اهتزاز الجسم المصدر للصوت في الثانية الواحدة . ويطلق على وحدتها هيرتز (HZ) ، ولتواتر ألف هيرتز سوف يكون طول الموجة ٣٤, . م ، لأن سرعة الصوت = (التواتر × طول الموجة) . فاهتزازات حنجرة الطفل مثلاً تختلف عن اهتزازات حنجرة الرجل وذبذبتها ، وتختلف كذلك عن اهتزاز حنجرة المرأة بعامة .

الصيوان يجسم السمع :

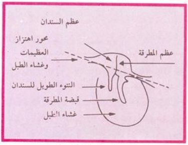
كما أن العينين تقدمان رؤية مجسمة ، كذلك فإن صيوان الأذن يجعل السمع مجسماً . فنحن نحتاج لأن نحدد مصدر الصوت . لكن كيف ؟ ليكن مصدر الصوت على يمين الشخص ، فالصوت سوف يصل إلى الأذن اليمنى قبل الأذن اليسرى ، بفارق زمني بسيط جداً ، وباختلاف بسيط في شدة الصوت ، حيث يحتاج

الصوت ليصل إلى الأذن اليسرى أن يلف زاوية ، فيقطع مسافة أطول . هذا الفارق الصغير يحسه الصيوان ، ويدركه الدماغ ، فنعرف مصدر الصوت . لكن إذا كان الصوت قادما من الأمام أو الخلف ، فكيف نحدد موقعه ؟

لقد وجد أن للصيوان دورا في ذلك أيضا . لنجرب أن نحرك مجموعة من المفاتيح أمام أو خلف شخص مغمض العينين ، فسيحدد جهة الصوت ، أما إذا قلب الصيوان للأسفل فسوف يخطيء في تقدير مكان الصوت بمقدار ٩٠ درجة ، أو يتوقع مكان المصدر توقعا ، كذلك يفيد الصيوان في تركيز الأمواج الصوتية وتوجيهها نحو مجرى السمع الظاهر ، وبخاصة ذات التواترات العالية . ولكن ما مجرى السمع الظاهر ؟ وما أهميته ؟

مزمار مسدود :

مجرى السمع الظاهر قناة غضروفية في قسمها الخارجي ، وعظمية من الداخل ، غير مستقيمة في اتجاهها ، وهذا يفيد لحماية غشاء الطبل . طول المجرى ٢,٥ ـ ٣ سم ، قطره ٧ـ٩ مم .



● مقطع جانبي لغشاء الطبل والعظيمات ومحور اهتزازها .

يعمل المجرى كمزمار أو مرنان مسدود ، وينطبق عليه ما ينطبق على المزامير المسدودة الطرف . نحن نعلم بتجربتنا أن ضغطا بقوة معينة هو أفضل ما يكون لعمل آلة موسيقية ما . على سبيل المثال عندما نعزف على مزمار مسدود ، فإننا ننفخ بقوة معينة لكي يعطي المزمار أشد الأصوات ، ولو أنقصنا القوة أو زدناها لقلت شدة الصوت الناتجة عنه .

تسمى ظاهرة حدوث الصوت الأشد « الرنين » أو « التجاوب » . وفي المجرى فإن الأصوات التي تحدث الرنين هي الأصوات التي يبلغ طول موجاتها أربعة أضعاف طول مجرى السمع (حسب قانون المزامير) . ويكون تواتر هذه الأصوات بحدود ٢٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ هرتز ، وهي التواترات التي يستعملها الإنسان في كلامه . إن هذا الرنين يؤمن زيادة في الشدة الصوتية على غشاء الطبل بمقدار ٨ ـ ١٠ D.B.وهذه الزيادة هي الأولى في سلسلة النقل والتقوية للطاقة الصوتية التي تقوم بها الأذن .

غشاء الطبل :

إن غشاء الطبل رقيق جدا ، وسماكته عُشر مليمتر ، مما يجعله شديد الحساسية . ويتركب من ثلاث طبقات : طبقة خارجية مشابهة لتركيب بشرة الجلد ، وطبقة داخلية تشبه مخاطية الأذن الوسطى ، وطبقة متوسطة ليفية . ووضع الألياف في الطبقة الأخيرة بالشكل الدائري والطولاني يجعل الغشاءمشدودا ، مما يزيد حساسيته واستقباله للاهتزازات الصوتية ، ولقد ذكرنا سابقا أن قوة مقدارها جزء من خمسة ملايين جزء من الغرام قادرة على هز غشاء الطبل الذي يهتز بسعة مقدارها عشر قطر ذرة الهيدروجين ، إذن فإن تغيرات الضغط الصوتية التي تقع على غشاء الطبل تتحول إلى اهتزاز بدقة متناهية .



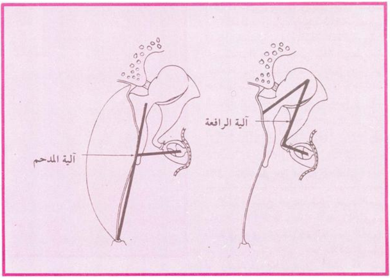
● مقطع لغشاء الطبل ، والأذن الوسطى وما يجاورها .

شكله مخروطي ، وقمته لداخل الأذن الوسطى ، ومائل على الجدار السفلي لمجرى الظاهر بزاوية مقدارها ٥٥ درجة . إن الشكل المخروطي ، والوضع المائل للغشاء ، يعطيانه مساحة أكبر في منطقة ضيقة . ويبلغ قطره ٩ مم ، ومساحته ٨٠ - ٩٠ مم٢ .

. كيف يهتز غشاء الطبل ؟ يهتز كصفيحة قائمة محمولة في قسمها العلوي على محور أمامي خلفي ، يمر من قسمه العلوي ، فحركته واهتزازه يشبهان التأرجح ، وهذا النوع من الحركة مفيد في استقبال الغشاء للأصوات الضعيفة جدا على الأخص . إن المساحة الكلية المهتزة من غشاء الطبل تبلغ ٥٥مم٢ ، وعندما يكون الصوت ضعيفاً يهتز قسمه السفلي. ولغشاء الطبل وظائف سمعية أخرى ، فهو حاجز واق لمكونات الأذن الوسطى الدقيقة ، كما يؤمن مسافة سمعية ميتة ، حيث إن الصوت داخل الأذن الوسطى ينكسر ، ويتبدد بسبب جدرانها غير المنتظمة ، وبسبب وجود أجواف مرتبطة بها كالخلايا الغشائية . هذه المسافة الميتة ضرورية ، حتى لاتؤثر الأصوات داخل الأذن الوسطى على صفاء السمع . كما أن غشاء الطبل يعمل على حماية النافذة المدورة ، ويمنع وصول الاهتزازات الصوتية إلى النافذة المدورة والبيضية في وقت واحد . ولو حدث ذلك ستبقى سوائل الأذن الباطنية ساكنة أو ضعيفة الحركة ، وهذا يؤثر سلبيا بشكل كبير على وظيفة السمع .

الأذن الوسطى ، صندوق الطبل :

الأذن الوسطى تجويف صغير غير منتظم ، يبلغ حجمه ٢ سم٣ . طوله الأمامي الخلفي ، والعلوي السفلي ١٥ مم ، وعرضه من الأعلى ٦ مم ،ومن الأسفل ٤مم . تتصل الأذن الوسطى أو (صندوق الطبل) في الأمام مع نفير (اوستاش) الذي ينفخ على البلعوم الأنفي ، وفي الخلف تتصل مع الخلايا الحشائية . في الوحشي يسدها غشاء الطبل ، وفي الأنسي (أي في الداخل) يحدها الجدار العظمي للحلزون الذي توجد به النافذة البيضية التي تسدها الركابة ،والنافذة المدورة التي يسدها غشاء رقيق . السلسلة العظمية داخل الأذن تتألف من المطرقة والسندان والركابة . المطرقة عظم صغير ، طوله يتراوح بين ٨ - ٩ مم ، له رأس وعنق وقبضة تلتصق على غشاء الطبل . السندان يتمفصل مع المطرقة ، ويتألف من جسم ونتوء صغير يمتد بشكل أفقي للخلف ، ونتوء طويل يمتد للأسفل موازيا لقبضة المطرقة ويتمفصل مع الركابة . الركابة تتألف من قاعدة وسويقتين ، القاعدة بيضوية ، مساحتها ٣,٢ مم٢ . في الأذن الوسطى عضلتان ، الأولى تسمى موتدة غشاء الطبل ، وترتكز على قبضة المطرقة ، والثانية تسمى عضلة الركابة ، وترتكز على عظم الركابة .



● إن آلية الرافعة والمدحم في الأذن الوسطى تشتركان لزيادة الشدة الصوتية .

إن هذا التركيب الدقيق للأذن الوسطى يخدم في أمور كثيرة سنهتم بما يخص السمع منها .

مضخة وناقلة للصوت :

لماذا هذا التركيب للأذن الوسطى ، وما حكمته ؟ كيف تنقل الأصوات ولماذا تقويها ؟ لنفترض أن إنسانا يسبح تحت الماء ، وناديناه بمكبر للصوت ، فإنه لن يسمعنا ، أو يكاد . بينما لو صدمنا حجرين أحدهما بالآخر تحت سطح الماء فإنه سوف يسمع صوت الصدم بوضوح . كيف نفسر ذلك ؟ إن الطاقة الصوتية في الحالة الأولى تضيع ، حيث ينعكس ٩٩٪ منها على سطح الماء ، بينما في الحالة الثانية تنتشر الطاقة الصوتية داخل الماء بسهولة فيسمعها السابح . يتضح لنا من هذا المثال أن سطح الماء يشكل حاجزا أو عائقا لدخول الاهتزازات الصوتية للماء ، وهذا هو الحاصل دوما عندما تدخل الاهتزازات الصوتية من الهواء للماء . تسمى هذه الظاهرة المعاوقة الصوتية . إن الشيء نفسه يحدث في الأذن ، حيث تدخل الاهتزازات الصوتية من الهواء إلى سوائل الأذن الباطنة ، فتضيع معظم الطاقة الصوتية . فماذا تفعل الأذن الوسطى لتفادي ذلك ؟ إنها تقوم بعمل التقوية للصوت بطاقة تعادل الطاقة التي خسرها الصوت عند دخوله الأذن الباطنة . ويتم ذلك بآليتين : آلية الرافعة الميكانيكية للعظميات السمعية ، والفرق في المساحة بين غشاء الطبل والنافذة البيضية .

١ ـ آلية الرافعة للعظميات : عند اهتزاز غشاء الطبل فإن المطرقة والسندان يهتزان كوحدة مشتركة ، ومحور الاهتزاز خط أمامي خلفي يمر أسفل عنق المطرقة ، ويمتد على طول النتوء الصغير للسندان . وبسبب الفرق في الطول بين قبضة المطرقة والنتوء الطويل للسندان اللذين

يهتزان أسفل محور الاهتزاز تحدث آلية الرافعة .

٢ ـ تأثير فرق المساحة : ذكرنا أن مجمل المساحة المهتزة من غشاء الطبل ٥٥ مم٢ وأن مساحة قاعدة الركابة ٣,٢مم٢ . لنلاحظ أن الاهتزاز الصوتي في مساحة ٥٥ مم٢ سوف يتجمع في مساحة ٣,٢ مم٢ . إن ذلك سوف يؤدي إلى تقوية الصوت بمقدار النسبة الموجودة بين المساحتين ، إن بمقدار (١٧) مرة . ويكون مجموع التقوية الصوتية : ١,٣×١٧=٢٢ مرة ، وهذه التقوية مقدارها ٣٠ ديسي بل D.B. هذه التقوية للصوت تعادل المقاومة أو المعاوقة الصوتية لدخول الصوت إلى الأذن الباطنة : تنقل قاعدة الركابة هذه الطاقات الصوتية للأذن الباطنة بحركتها إلى داخل النافذة البيضية ، وإلى خارجها بحركة مدحم عادية في حال الأصوات العادية .

لقد لوحظ أن الضغط المنقول بين غشاء الطبل والركابة كبير ، ويتراوح بين تواتر ٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ ، لذلك فإن الرنين الطبيعي وفعالية الأذن الخارجية والوسطى كبيرة في مجال تواتر كلام الإنسان .

جهاز حماية للأذن :

كما ذكرنا فإن الصوت شكل من أشكال الطاقة يظهر بشكل ضغط ، وقد يزداد هذا الضغط كثيرا في حال الأصوات العالية إلى درجة لاتتحملها الأذن ، ولدرجة تشكيل الخطر على مكونات الأذن الباطنة الحساسة . فماذا تفعل الأذن حيال الأصوات الشديدة ؟

إن عضلتي صندوق الطبل تعملان معا لدرء هذا الخطر ، ففي حال الصوت العالي فإن موتدة غشاء الطبل تسحب قبضة المطرقة للداخل ، وبذلك تشد وتوتر الغشاء ، مما يقلل اهتزاز غشاء الطبل والعظيمات ، فتقلل من شدة الصوت . أما عضلة الركابة فإنها تسحب القسم الأمامي من قاعدة الركابة للخارج ، وتبدل محور اهتزازها ، فيصبح على المحور الطويل لها ، وهذا يقلل من الطاقة الصوتية الداخلة للأذن الباطنة . هذا العمل العضلي يحدث بشكل انعكاس عصبي ، وهذا ما نشعر به عندما نتعرض لصوت عال ، حيث تتقلص عضلتا الأذن الوسطى فنشعر بألم في الأذن . هذا الانعكاس يبدأ عندما تصبح شدة الصوت بحدود ٧٠ ـ ٩٠ ديسي بل فوق عتبة السمع ، وأقل من ذلك عندما يكون الصوت بشكل ضجيج . إن عمل عضلات صندوق الطبل يحمي الحلزون الحاوي على التركيبات العصبية الحساسة التي قد تتأثر بالشدة الصوتية العالية . وكلما زادت شدة الصوت زادت شدة المنعكس ،وهو أكثر فعالية للأصوات ذات التواتر المنخفض ، حيث إنها تؤذي الأذن الباطنة أكثر من غيرها . لكن في حال الأصوات العالية جدا (انفجار قوي) لاتستطيع هذه العضلات أن تقدم الحماية في الوقت المناسب ، لأن منعكس تقلص العضلة ينتقل بسيالة عصبية ويحتاج إلى زمن قدره (١٠ ـ ٥٠ مل/ ثانية) حتى يحدث . إن هذا الزمن كاف للإضرار بالتركيبات الحساسة في الحلزون .

وهناك وظائف أخرى لعضلات الأذن الوسطى ، وهي زيادة الوظيفة السمعية للتواترات الصوتية المنخفضة والمتوسطة بشكل خاص . كذلك تقوم هذه العضلات بتخفيض الأصوات ذات التواترات المنخفضة والمشوشة التي قد تؤثر على وظيفة السمع ، وهذه تنشأ أثناء الكلام أو المضغ ، وتقلص عضلات الوجه وحركة الجسم .

إن دقة أجهزة الأذن وحساسيتها وأهميتها التي تتأكد من خلال وظائفها للإنسان تدفعنا للتأمل العميق في دقة الصانع الأكبر للكون وعظمته . وما أحرانا في تدبر قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ . « سورة القمر آية ٤٩ » . □

واحة العربي



□ في الصميم

● الفرق بين الجزار والجراح هو أن الجزار يقتل أولاً ثم يقطع

(تريستان برنار)

● إذا كان الأطباء يعطون المرضى مادة المورفين فغالباً مايفعلون ذلك ليتاح لهم « أي الأطباء » أن يناموا .

(د . اندريه سوبيران)

● من حسن حظ الأطباء أن الشمس تضيء انتصاراتهم ، والتراب يخفي أخطاءهم .

(نيكوليس)

● لكل طبيب مرضه المفضل .

(هنري فيلدنغ)

□ قاموس الظرفاء

الشباب : فترة من الكفاح في سبيل الوصول إلى الشيخوخة .

الضمير : جزء منك يؤلمك عندما تكون سائر أجزاء جسمك في سعادة تامة .

الفضيحة : هي الشيء الذي يجب أن يكون قذراً حتى يكون جيداً .

□ هل تعلم ؟

● بعد تحرير فرنسا من الاحتلال النازي ، سأل الجنرال ديغول أحد ضيوفه : هل تعلم ماذا أفعل عندما أود أن أعرف بماذا تفكر فرنسا ؟ فلما بانت علامات الحيرة والتردد على وجه الزائر ، أجاب ديغول : أسأل نفسي .



● ديغول

من القلب

موز وملح وقطار

● صعد أحدهم إلى القطار ، وكان يحمل كيساً من الموز . وما أن سار القطار حتى فتح كيس الموز وأخرج ورقة فيها بعض الملح ثم قشر الموزة الأولى وغمسها في الملح ورماها من النافذة ، وكذلك فعل في الموزة الثانية والموزة الثالثة والرابعة والخامسة .

وعندما قشر السادسة وأراد غمسها بالملح ، أمسك الراكب الذي يجلس أمامه بيده وقال له : قل لي ، لماذا تقشر الموز ثم تغمسه بالملح ثم تلقيه من النافذة ؟

- وهل تريدني أن أجيبك بصراحة ؟

- نعم ، أريد الحقيقة وبكل صراحة .

- حسناً . أنا لا أحب الموز مع الملح .

□□ ضحكات عربية

□ شكر

● قال « حارث بن محمد » سمعت « محمد بن مسلم) يقول : تكلم رجل في مجلس ابن عباس فأكثر الخطأ ، فالتفت عبدالله بن عباس إلى عبدٍ له فأعتقه ، فقال له الرجل : ماسبب هذا الشكر ؟ قال : إذ لم يجعلني الله مثلك .

□ مِنْ

● عن « أبي القاسم الحسن » قال : كتب بعض الناس « كتبت من طيس » يريد « كتبت من طوس » ، فقيل له في ذلك ، فقال : لأن « من » تخفض مابعدها .

فقيل : إنما تخفض حرفاً واحداً لابلداً له خمسمائة قرية .

□ نصف نجاح

● ألقى الواعظ جسمه المتعب على الكرسي ، وقال لزوجته : اليوم حاولت إقناع المصلين أن من واجب الأغنياء مساعدة الفقراء .

فسألته زوجته : وهل نجحت في إقناعهم ؟

فقال الواعظ : نصف نجاح ، فلقد نجحت في إقناع الفقراء بقبول المساعدة .

□ مديح

يامَنْ لهم في السَّجَايا ... عينٌ وجيمٌ وباءُ
ماطابَ لي في سواكم ... نونٌ وعينٌ وتاءُ
عهودُكم ليسِ فيها ... نونٌ وكافٌ وثاءُ
وَحَظُكُم كلَّ يومٍ ... ميمٌ ودالٌ وحاءُ
وإنني في حماكم ... شينٌ وياءٌ وخاءُ
لم يبقَ لي في بلائي ... صادٌ وباءٌ وراءُ
أنتم لكل فقيرٍ ... كافٌ ونونٌ وزاءُ
وفي أُكُفِّ نَدَاكُم ... باءٌ وسينٌ وطاءُ
هل عندَكُم نحو شيخٍ ... لامٌ وحاءٌ وظاءُ
وحسبُهُ من رضاكم ... عينٌ وطاءٌ وفاءُ
ديارُكم للأماني ... واوٌ وجيمٌ وهاءُ
شينٌ وباءٌ وعينٌ ... فيها وراءٌ وياءُ

□ كاريكاتير



الثعالبي
داعية الوحدة العربية

بقلم : شريف الراس

كانت مبادرة جميلة ومنصفة من القيادة السياسية التونسية الحالية عندما أصدرت قراراً رسمياً بإعادة الاعتبار إلى المجاهد العربي الكبير الشيخ عبد العزيز الثعالبي ، عليه رحمة الله ، والتعريف به على أنه مؤسس الحركة الوطنية للجهاد في سبيل استقلال تونس . فمن هو عبد العزيز الثعالبي ؟

إنه رجل عربي من تونس ، ولد سنة ١٨٧٤ ، وسافر في رحلة طويلة مليئة بالأشواك والعذاب ، واستمرت حتى عام ١٩٤٤ ، وتوفي في تونس أيضا . وكانت رحلته الطويلة الشاقة بحثا عن كنز أجمل من الشمس . كان يسافر في ذلك الزمن الصعب ، المخنوق بكوابيس الاحتلال الفرنسي والايطالي والبريطاني ، بحثا عن حبيبة اسمها : الوحدة العربية ، حيث العروبة والإسلام يشكلان مفهوما واحدا ، كما هو معروف عن أهلنا في أقطار المغرب جميعا .

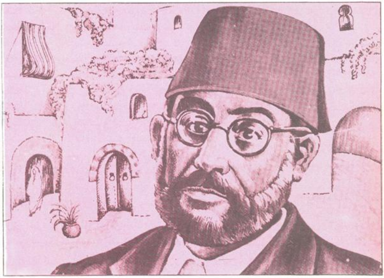
المعاهدة المشئومة

وفي سنة ١٨٨١ ، عندما بلغ الطفل سن السابعة ، وقع «باي تونس» المعاهدة الشهيرة التي تمنح الفرنسيين مايريده المستعمر المحتل ، فقامت ثورات شعبية مسلحة كثيرة ، نال منها الفرنسيون أشد الأذى ، غير أن الذي كان يخيفهم ويقض مضاجعهم شاب ملتح ، من خريجي معهد الزيتونة الديني ، على الرغم من أنه لم يكن يحمل بندقية أو خنجرا ، بل كان يحمل بيده قلما ، أي قلم !!

سئل ذلك الشاب يومذاك : ماذا تعمل يا عبد العزيز ؟

فأجاب : صحفيا ، عندما أنهيت دراستي في جامع الزيتونة أصدرت جريدة ، فأغلقها الحاكم العام الفرنسي بعد أيام ، فعدت وأصدرت جريدة ثانية ، فأغلقوها أيضا .

هذا «الصحفي» الشاب الفقير ، ذو النظارة الطبية ، كان يخيف الحاكم العام الفرنسي ، المعربد بقواته العسكرية ، وأجهزة الفتك والقمع الرهيبة التي تحت تصرفه ، لقد كان يخاف من كلام عبدالعزيز الثعالبي ، لأن هذا البطل الوطني النبيل كان يعرف كيف ينبه



● عبد العزيز الثعالبي

الشعب إلى ألاعيب المستعمر، ويفضح مؤامراته، وهو يدعو إلى مقاومة هذا المحتل الأجنبي، وطرده من البلاد، وهو يوقظ الناس إلى حقهم في الحياة الحرة، «فتونس للتونسيين»، ونحن شعب حي، وأحفاد أجداد عظام، منا النبي العربي العظيم، وعمر، وعلي، وسعد، وخالد، وصلاح الدين، فكيف نرضى بأن نكون عبيدا ؟!».

ولذلك كان من الطبيعي أن يغلق الفرنسيون جريدته، غير أن هذا الرجل الصلب العنيد، المصرّ على إصدار جريدة ثالثة، فاجأهم من باب أكثر خطرا وإقلاقا، جاءهم من باب الخطابة.

الخطيب المفوّه

كان الرجل ذو الطربوش الأحمر واللحية العطرة يقف في أكبر ساحة بتونس، ليلقي الخطابات الوطنية الحماسية الرائعة، والناس الكثيرون الذين غصت بهم الساحة الواسعة يكبّرون ويصفقون ويهتفون: «يحيا الوطن»، والنساء يزغردن في شرفات المنازل، والأطفال يقدمون باقات الورد للخطيب العظيم، والرجال يقولون: ما أحسن بلاغة هذا الرجل!! وما أجمل كلامه الذي يثير النخوة والحمية في القلب، ويزيد الوعي والمعرفة في الفكر!! سبحان الذي وهبه هذه القدرة العجيبة على الخطابة البليغة. إن عبدالعزيز الثعالبي يستطيع أن يستمر في الخطابة ست ساعات، لايتعب، ولايزل لسانه، بل يظل يحدث الناس بأجمل الكلام: «ياقوم، ياقوم، كنتم خير أمة أخرجت للناس، ياقوم، ياقوم، أنتم أهل الحضارة ورواد التقدم والحرية، ياقوم، ياقوم ...».

وأهل تونس يهللون ويكبرون، ويهتفون

بحياة الوطن ، وتعلو أصواتهم بعبارات التحية للخطيب المبدع ، والثناء عليه ، وبعضهم يلوح له بنسخة من الجريدة ، فالشيخ عبدالعزيز قد نفذ قراره ، وأصدر جريدة ثالثة ، متحديا عساكر الأجنبي المستعمر الذين كان يسميهم «البشعين» ، داعيا إلى طردهم من البلاد ، وتحرير الوطن من سيطرتهم ، وتحقيق الاستقلال . والجريدة تتسع انتشارا ، يوما بعد يوم ، ورسائل الإعجاب تصل إليه من مدن تونس جميعها ، ومن المغرب والجزائر وليبيا . وأصدقاؤه يخبرونه همسا بأن عين الحاكم العام قد احمرت عليه ، وأنه يزداد غضبا عليه ، وعلى جريدته وخطاباته ، وأنه لابد أن يبطش به .

النفي من وطن إلى وطن

وذات مساء ، وبينما كان الثعالبي يؤكد لبعض أصدقائه: «إننا في تونس لسنا شعبا منعزلا ، بل نحن جزء من أمة كبيرة ، أمة عظيمة» ، داهم جنود الاحتلال البشعون الرجل وأصدقاءه ، في مكتب الجريدة ، وصادروا كل مافيها ، وأغلقوها ، واعتقلوا الثعالبي وأبلغوه قرار الحاكم العام بنفيه إلى خارج وطنه ، إلى مصر .

ضحك الثعالبي وهو يقول : لو أن هذا الحاكم الأجنبي الأبله قرأ التاريخ ، وعرف من نحن ، لما قرر إبعادي إلى مصر ، فهو يظن أنه يقهرني إذ يبعدني عن وطني ، مع أن مصر مثل تونس ، وطني .

كان ذلك في عام ١٩٠١ ، أي عندما بلغ الثعالبي سن السابعة والعشرين ، كان شاباً شجاعاً عنيداً ، لايمكن أن يصبر على «الإبعاد» ، فها هو يعود متخفيا ، بعد أقل من سنة ، إلى تونس ، ويقول لأصدقائه في المخبأ :

أتدرون ما اكتشفت في مصر ؟ اكتشفت أننا لسنا وحدنا الذين نعاني مما نحن فيه ، فعندنا في تونس ظلم متجسد بالاستعمار الفرنسي ، وعندنا في مصر ظلم مماثل ، متجسد بالاستعمار البريطاني ، وفي القاهرة ، وفي أروقة الجامع الأزهر ، لقيت إخوانا عربا ، من سائر أقطار وطننا الكبير ، ومن أحاديثهم صرت واثقا كل الثقة ، من صحة نظريتي التي كنت أحدثكم عنها قبل سفري .

ياإخواني : نحن العرب أمة واحدة ، العرب كل العرب أعني ، لا أبناء المغرب العربي حسب .

والواقع أن «رحلة» الثعالبي الثانية لم تحدث إلا بعد ذلك بعشر سنوات ، أى في سنة ١٩١١ ، عندما بدأ العدوان الايطالي الهمجي على ليبيا ، وهب أهلها لمقاومة الغزو في معارك ضارية ، فقام الثعالبي بجمع المعونات والأموال والأسلحة من تونس ، ويرسلها إلى المجاهدين في ليبيا ، ويواصل طلب التبرعات ، والناس يقدمون له أكثر مما يطلب . كان يقول لهم : إذا تمكن أبناء شعبنا في ليبيا من أن يحققوا استقلال بلدهم ، فهذا سيؤدي إلى تحقيق استقلالنا هنا في تونس ، لأن حرية أي قطر من وطننا الكبير هي دعم للنضال من أجل تحرير أقطار وطننا الأخرى ، وهذا شيء يدركه الأجانب جيدا .

إلى باريس

وفي سنة ١٩١٩ كانت رحلة الثعالبي الثالثة ، فقد سافر إلى باريس هذه المرة . وعندها كانوا يسألونه : ماذا أخذت معك إلى باريس ؟

كان يجيب : أخذت معي كتابا عنوانه «تونس الشهيدة» ، كتبته باللغة الفرنسية ، حتى يفهمه الناس هناك . أردت أن يفهم أهل أوربا

قصتنا ، مأساتنا ، الظلم المريع الذي ينزل بنا ، لقد قالوا : إنهم ـ بعد أن انتهت الحرب العالمية ـ يريدون عقد مؤتمر دولي رفيع ، يقررون فيه إحقاق الحق في كل مكان ، حتى يعم السلام في كل مكان ، فقلت لنفسي : إذن أحمل «تونس الشهيدة» ، وأسافر إليهم .

سؤال : وماذا جلبت معك من المؤتمر ؟

جواب : جلبت هذه القيود الحديدية التي تكبل يدي .

قال الراوي : في عام ١٩١٩ أعيد الثعالبي من مؤتمر الصلح بباريس إلى تونس معتقلا مكبلا بالحديد ، وزج به في السجن .

حزب الثعالبي وأهدافه

قال الراوي : وأسس الشيخ عبدالعزيز الثعالبي حزبا وهو في سجنه بتونس ، وسمع الناس بمبادىء هذا الحزب ، فأعجبتهم كثيرا ، وأعلنوا إيمانهم بها . وكان من جملة المبادىء أن «العرب أمة واحدة ولابد أن تتوحد» .

كان ذلك في عام ١٩٢٠ ، وأهل تونس يطالبون بالإفراج عن قائدهم الوطني العظيم ، ويزداد تعلقهم به يوما بعد يوم ، فينتسبون إلى حزبه أفواجا أفواجا ، فكان رد المحتلين نفي الثعالبي من تونس ، وإبعاده عنها . كان ذلك في عام ١٩٢٣ . كان ميناء تونس يغص بالناس المودعين الغاضبين ، وفي النفوس اقتناع أكيد بأن الشيخ الثعالبي الذي يلوح لهم بيده فوق ظهر السفينة المغادرة ، سوف يعود خفية ، ويقود الحركة الوطنية ، ولكن السفينة التي مضت بعيدا رست به في ميناء الاسكندرية بمصر ، ثم سافر الرجل ـ الشعلة ـ إلى فلسطين وسورية ولبنان والعراق والحجاز والخليج العربي واليمن .

ويسألون الرصافي أن يحدثهم عن الشيخ الثعالبي ، فيقول : إنه أعظم خطيب عرفته أمتنا العربية . ويسألون الشيخ عزالدين القسام أن يحدثهم عن الشيخ الثعالبي فيقول : إنه بطل عربي عظيم ، شارك معنا في الثورة المسلحة .

ويسألون عنه أهل دمشق فيقولون : الثعالبي ربط حركة التحرر الوطني في أقطار المغرب العربي بحركة التحرر الوطني في أقطار المشرق العربي .

ويسألون عنه أهل بيروت فيقولون : إنه طاقة فكرية رائعة ، وأن ذهنه الوقاد منارة وطنية ، سواء في مقالاته أو خطاباته أو أحاديثه الشيقة المفيدة .

ويسألون عنه أهل القدس ، فيقولون : الثعالبي دلنا على طريق قويم ، كفيل بالتصدي للمخططات الصهيونية وإفشالها ، وكم نصحنا بأن ننشىء في القدس جامعة إسلامية على غرار الجامع الأزهر بمصر !!

ويسألون عنه أهل القاهرة ، فيقولون : الثعالبي ـ حسب علمنا ـ أول من نادى بتوحيد الأمة العربية من المحيط إلى الخليج .

ويسألون عنه أهل تونس ، فيقولون : غاب عنا الثعالبي في رحلته الأخيرة ثلاث عشرة سنة ، حتى عاد إلينا على الرغم من أنف المستعمرين ، في عام ١٩٣٦ ، عاد إلينا ليدعو إلى توحيد أقطار المغرب كخطوة لتوحيد المغرب كله مع بقية الأقطار العربية ، فكان جواب المستعمرين أن أرسلوا إليه من أطلق عليه النار غدرا .

س : وهل اغتالوه ؟

ج : نجا من الموت بأعجوبة ، وقتل بعض الذين كانوا حوله .

قال الراوي ، في سنة ١٩٤٤ توفي هذا المجاهد العربي الكبير في فراشه بتونس ، عليه رحمة الله . □

أرقام

بقلم : محمود المراغي

هل يفضلونها "عربية" ؟

خلال السنوات الأخيرة أصبح الاقتصاد الحر هو السائد في معظم الأقطار العربية ، بعد أن واجه انحسارا في الستينيات وجزء من السبعينيات . وخلال هذه السنوات تزايد دور « الرأسمالي الفرد » ، وأصبح السؤال عن حركة الأموال غير مقصور على ما تنفقه الحكومات أو تستثمره ، أصبح السؤال - على سبيل المثال - أين يستثمر الأفراد أموالهم ؟ أفي السوق المحلية أم الدولية ؟ وإذا اجتازت أموالهم الحدود : أإلى سوق عربي أم سوق عالمي ؟

وربما كان الحديث عن تصدير الأموال إلى الدول الصناعية المتقدمة غير جديد ، فالجديد أن نسأل عن الدائرة العربية ، وإلى أي حد كانت جاذبة لرأس المال العربي ؟

السؤال له مبرره على ضوء قوانين تشجيع الاستثمار ، والضمانات التي تتزايد عاما بعد عام في الأقطار العربية ، بما فيها الأقطار التي أخذت بنظام الاقتصاد الموجه .

والسؤال له مبرره والظروف الدولية على ما نعلم : مخاطر متزايدة ، وفوائد وأرباح متناقصة ، وحصار على فرص الاستثمار ، وتقلب في أسعار العملات بما يقلل القيمة الحقيقية للأموال العربية في الخارج .

لا نحتاج لتكرار الحديث عن الهجرة التي حدثت في أسواق المال خلال أكتوبر ١٩٨٧ ، وما أسفرت عنه من خسائر ، ولا نحتاج للحديث طويلا عن قرارات سياسية بخصوص الاستثمارات العربية في الخارج ، يكفي أن نذكر واقعتين :

الأولى ، في يناير ١٩٨٦ ، حين قرر الرئيس الأمريكي تجميد الأموال الليبية في المصارف الأمريكية ، وسريان ذلك على فروع لندن ، وعجز ليبيا عن سحب أموالها ، ولجوئها للقضاء الذي حكم لصالحها في النهاية .

الواقعة الثانية ، قصة مساهمة الكويت في « البريتش بتروليوم » ، وقرار لجنة الاحتكارات بتخفيض الحصة بنسبة (٥٥٪) ، مما اضطر الجانب الكويتي لبيع جزء من أسهمه .

المشاكل التي تصادف رأس المال العربي في الخارج لا تحتاج إذن إلى بيان . وعلى الجانب الآخر فإن الإغراءات - بالقوانين - للاستثمار في الوطن العربي لا تحتاج إلى « شرح » ، والسؤال : إلى أي حد انعكس ذلك على حركة المستثمرين الأفراد الذين لا يخضعون لقرار سياسي بالتواصل أو بالقطيعة ؟

مفاجأة الأرقام

طبقا لبيانات المؤسسة العربية لضمان الاستثمار فإن استثمارات الأفراد العرب التي

توجهت إلى أقطار عربية لم تتجاوز (٢٢٨) مليون دولار عام ١٩٨٧ . معنى ذلك :

١ ـ أن الاستثمار في ذلك العام قد تراجع عن سابقه الذي بلغ (٣٦١) مليون دولار .

٢ ـ أن العامين (المنخفض في الاستثمار أو المرتفع) لا يمثلان غير نسبة ضئيلة من الاستثمارات العربية في الخارج التي بلغت كمجموع (٤٠٠) مليار دولار عام (١٩٨٣) ، و (٣٥٠) مليارا عام (١٩٨٨) ، وذلك طبقا لما ورد في التقرير الاستراتيجي العربي لعام ٨٩ (الصادر عن مؤسسة (الأهرام) .

وبمزيد من التحليل نجد أن مجالات التجارة والمقاولات والمال والمصارف هي الأكثر جذبا ، حيث احتلت وحدها (٤٠٪) من الاستثمارات المهاجرة للأفراد في ذلك العام . واحتلت الزراعة والثروة الحيوانية والسمكية المكان الثاني (٣٠,٥٪) ثم جاءت الصناعة التي سجلت تراجعا لتحتل (٢١,٣٪) .

الملفت للنظر ـ وعلى عكس ما هو شائع ـ أن السياحة والعقارات لم تحتل غير (٧,٩٪) من الاستثمارات العربية للأفراد الموجهة لأقطار عربية في عام ١٩٨٧ .

من أين ، وإلى أين ؟

تسجل الأرقام ـ طبقا للتقرير الاستراتيجي ـ أن المملكة العربية السعودية كانت الأولى في تصدير الأموال إلى المنطقة العربية في ذلك العام ، فاحتل السعوديون وحدهم (٣٠٪) من الاستثمار الجديد خلال العام ، وجاءت الشركات العربية المشتركة في المكان الثاني (١٧٪) وهي شركات قد تكون بعض أموالها حكومية ـ ثم جاءت مصر في المكان الثالث ، فقد قام الرأسماليون المصريون بتصدير (٢٧) مليون دولار ، بنسبة (١١,٨٪) من جملة استثمارات الأفراد التي عبرت الحدود « العربية ـ العربية » ، بعدها جاءت الكويت (٩,٢٪) ، ثم كل من سلطنة عمان وسوريا (حوالي ٥٪) .
أما في ما يتعلق بحالة الاستقبال ، فإن السودان كانت هي الأولى ، والسبب مشروعات زراعية تبنتها الشركة العربية للاستثمار الزراعي ، بعدها وبنسب تكاد تتساوى (وهي ١٨,٣٪) جاءت الأردن ، ثم البحرين ، ثم مصر ، ثم الإمارات ، ثم المملكة المغربية .

خلال هذه المرحلة : احتلت دول مجلس التعاون نصف الاستثمار الكلي ، لكنها وجهت أيضا نصف رؤوس أموالها التي تحركت عربيا خلال العام إلى داخل المنطقة نفسها : منطقة دول مجلس التعاون عينها ، وبما يعكس تزايد التفاعل الاقتصادي بين دول المجموعة .

هذه الدلالات الواضحة

انتهت مرحلة الأرقام ، وبقيت الدلالات ، أو بقي السؤال : لماذا لا تتوجه الأموال العربية إلى السوق العربية ، على الرغم من مخاطر الخارج (عالميا) ، وإغراءات الداخل (عربيا) ؟ لماذا يحجم أصحاب الأعمال عن استثمار أموالهم داخل الوطن العربي بالقدر الكافي ؟ ولماذا يؤثرون قطاعات التجارة والمال والخدمات ؟

والجواب ليس صعبا ، فالقوانين والتعهد بعدم التأميم أو التعرض للمخاطر السياسية ، هذان العنصران لا يكفيان لجذب رأس المال ، فهما لا يخلقان فرصا للاستثمار أو يزيدان فرص الربح .

المعوقات تكمن في طبيعة المشكلة الاقتصادية في معظم الأقطار العربية المستقبلة لرأس المال ، فتدهور العملات ، وارتفاع نسبة التضخم ، يصنعان حالة من عدم الاستقرار والعجز عن التنبؤ والتخطيط . □

قصيدتان

شعر : صالح هواري



أغنيـــة

ونحن العصافير نحفر أحلامنا في الشجر
زوارقنا الريح ، تبحر في الصحو أو في المطر
نسافر والأغنيات جوازاتنا للسفر
لماذا ونحن عرائس هذا الزمان الأعر
نظل نغني ، نغني ، ويلقى علينا الحجر ؟

* * * *

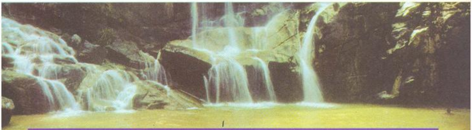
لنا كل يوم على شاطىء الواد عرس وعيد
عشقنا الغنا ، فتعلمت الأرض منا النشيد
نغني لأنّا نغني ، نطير لأنّا نريد
عيون البنادق دوما علينا تصب الوعيد
تهدم أعشاشنا فنعمرها من جديد

عاشقان

اثنان فوق المقعد الخشبي يشتعلان في لغة السكون
النار تمشي في اليدين وفي العيونْ تذوب أجنحة العيون
إن مرَّ بينهما نسيم يختنق
والماء من لمس الأصابع يحترق
هي في كتاب الورد ترسم عشها الذهبيّ
وهو يهيم في الصفحات منها ويأتلق
طير من الأسرار يخفق بين قلبيهما فيخترقان أعمدة الزمان
طال التأمل بي فصاح بي المكان :
صفر القطار وأنت أول من رآه العاشقان



مئات الهضاب الخضراء



آلاف من الشلالات



ومختلف انواع الحرف اليدوية

ماليزيا الفاتنة هنا تلتقي بالعديد من المنتجعات الجبلية الجميلة , وبمناظر الخضرة الجذابة والخلابة , ولقضاء الاجازات فى جو صحى منعش , حيث توجد العديد من الشلالات التى يمكن ان تتمتع بها العائلات والاسر , كما تشاهد ايضا مختلف أنواع الحرف والصناعات اليدوية التى سوف تفتنك وتبهرك ,

Visit Malaysia Year 1990

وهناك الكثير , والكثير غيرها , ماليزيا بانتظارك عام ١٩٩٠. وبعدها سوف نراك حتما خلال ١٩٩١ ماليزيا سوف تفتنك .

ماليزيا

ادارة تطوير السياحة الماليزية (وزارة التربية والسياحة)
الخطوط الجوية الماليزية , الميزانين / الرئيس , ص. ب ٤٧١٣. دبي / الامارات العربية المتحدة . هاتف : ٤٢٢١١١ فاكس : ٥٢٧٢٨٦ - ٤ - ٠٠٩٧١ مركز ردك بلازا , طريق المدينة , ص. ب ١٩٣٥ , جدة المملكة العربية السعودية . هاتف : ٦٤٤٧٨٣٩

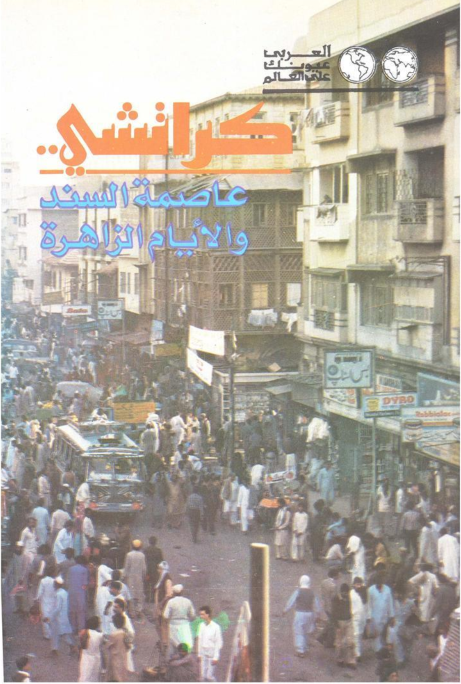
الاسم: ______________ الوظيفة: ______________

العنوان: ______________ التليفون: ______________

العربي
عيونك على العالم

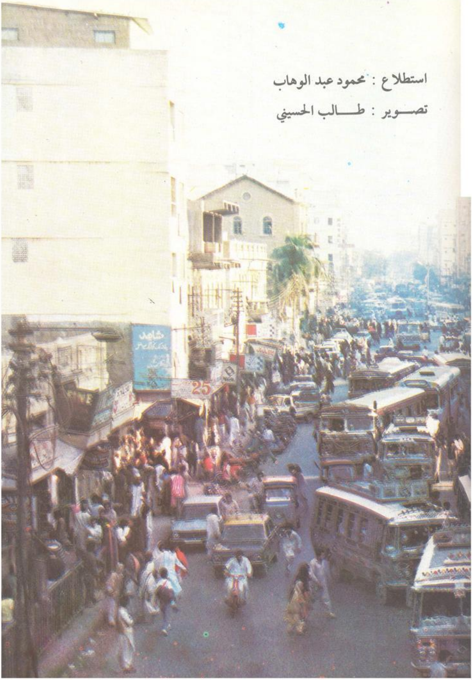
كراتشي

عاصمة السند والأيام الزاهرة



استطلاع : محمود عبد الوهاب

تصوير : طـــالب الحسيني



« كان الوقت ضحى . .

هبطنا كراتشي ضيفين على مدينة ذات عشرة ملايين نسمة ، تزدحم بهم وتضيق ، ووسط شوارعها الضيقة ، وقراها المغرقة في الفقر والإهمال ، كانت جولتنا .

وطوال تجوالنا كان يلح على ذاكرتنا تاريخها الطويل ، فهنا عاصمة السند (وبلاد تركب الأفيال) ، وهنا واحدة من مناطق الحضارات القديمة ، ووسط ذكرى التاريخ كانت وجوه الناس تحيط بنا فرحة . من إقليمهم وبأصوات الفقراء وصلت إلى الحكم رئيسة الوزراء ، ابنة مدينتهم وقبائلهم » .

لكل مدينة من المدن شخصية خاصة بها ، وتتكون ملامحها عبر مسيرة التاريخ على الطرقات والجدران والمنازل ، ليضيف كل يوم إليها ويمنحها مرور الزمن طبيعة خاصة بها ، تتأكد يوماً بعد يوم .

هكذا هي كراتشي . مر عليها تاريخ طويل عريق ، واكتسبت منه كل العراقة وكل أمراض القدم .

ازدحام البشر لاتخطئه عين : الفقر تقفز ملامحه في السلوك اليومي للناس ، سائقو سيارات الأجرة ، الحمالون ، المنادون ، الباعة الجائلون .

كانت في الزمن القديم عاصمة امبراطوريات كبرى ، وحضارات زاهرة ، كانت بموقعها ميناء ومرسى للسفن القادمة من الجهة المقابلة حيث شط العرب والتجارة العربية الرائجة ، مما جعلها منذ القدم مهبطاً للهجرات السكانية من البشر القادمين إلى الازدهار والتجارة ، وأضواء العواصم ، وبعد أن تأسست دولة باكستان عام ١٩٤٧ ، ظلت كراتشي عاصمة للدولة ، حتى انتقال العاصمة بعد ذلك إلى « إسلام آباد » في أوائل الستينيات ، وبدأت أضواء المدينة تخفت ، ولكن بقيت منها أضواء التاريخ وفنارة الميناء .

عاصمة السند

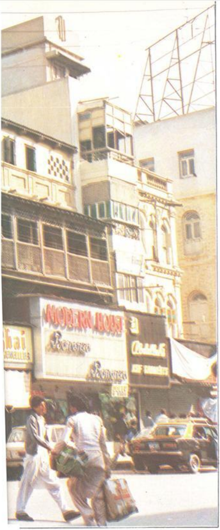
تعبير شائع في الأدبيات العربية ، وفي كل التراث العربي ، في ألف ليلة وليلة ، وفي رحلات السندباد ، وفي رحلات ابن بطوطة ، وفي كل قصص الرحالة والبحارة العرب ، وهو تعبير « بلاد الهند والسند ، بلاد تركب الأفيال » . وفي كل القصص القديمة كانت ترتبط بلاد السند والسفر إليها بالبحر والعجائب



● خريطة باكستان ، موضح عليها اقاليمها المختلفة والقوميات المتوزعة في كل إقليم .



● صناعات الرخام والنحاس من أكثر الصناعات شيوعا في كراتشي ، وتتأثر أذواق الصناع بتراث الفنون وتأثيرات الحضارات .



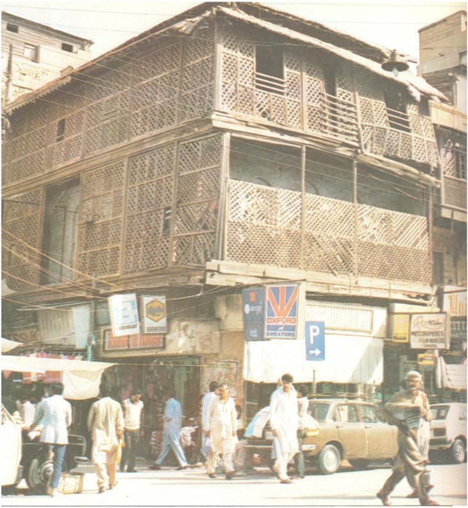
والجواهر والأفيال . على الساحل الغربي لشبه القارة الهندية تقع كراتشي ، وهي بموقعها هذا مواجهة تماما لسلطنة عمان ، وتمثل مع شاطيء عمان نقطتي انفراج الخليج العربي على المحيط الهندي .

وقد بدأ التجار المسلمون بالهبوط إلى ساحل كراتشي للتجارة ، مع بداية العام الهجري الثامن ، وظلت رحلات المسلمين منتظمة ، حتى تعرضت أعمالهم التجارية للنهب والقرصنة من قبل السكان المحليين . ولحماية التجارة الإسلامية قام القائد الإسلامي محمد بن القاسم ، عام ١١٢هـ ، بالسفر بنفسه الى شاطيء بلاد السند ، لتأمين التجارة الإسلامية ، واستقر هناك مع قواته ، وأسس قرية صغيرة على الميناء ، لاتبعد عن كراتشي أكثر من ٢٠ كيلومتراً ، ومازال هذا الموقع قائماً حتى اليوم ، وهو ميناء محمد بن القاسم ، على ساحل كراتشي حاليا . منذ ذلك التاريخ بدأ الوجود الإسلامي في بلاد السند ، وتغلغل منها إلى كل المنطقة ، وبدأ عصر الحكم العربي الإسلامي لهذه المنطقة من آسيا .

تاريخ وحضارات

ولقد شهدت كراتشي ، كجزء مما يعرف باقليم السند ، حضارات كثيرة ، أقيمت على ضفاف بحر العرب ، وداخل إقليم السند ، ومازالت أراضيها تحفل بكثير من الآثار التاريخية .

فبعد فترة الحكم الإسلامي الأول الذي بدأ على يد محمد بن القاسم ، خضع إقليم السند للدولة الغزنوية (٣٥١هـ ـ ٩٦٢م) ، وامتدت فتوحات الغزنويين من السند إلى كل الهند ، وامتدت الدولة زهاء ثلاثة قرون ، ازدهرت فيها التجارة مع العرب ، عبر بحر العرب ، حيث كان خليفة المسلمين في بغداد (الخليفة القادر) قد منح محمود الغزنوي ، مؤسس الدولة ، لقب « يمين الدولة » ، وحافظ على علاقة طيبة معه ، فاستمرت التجارة ، واطردت إلى الحد الذي بلغت فيه مايربو على ٢٠ ألف رحلة سنويا ، سواء بالزوارق أو بالمراكب بين كراتشي وميناء محمد بن القاسم والموانيء العربية المختلفة . وقد

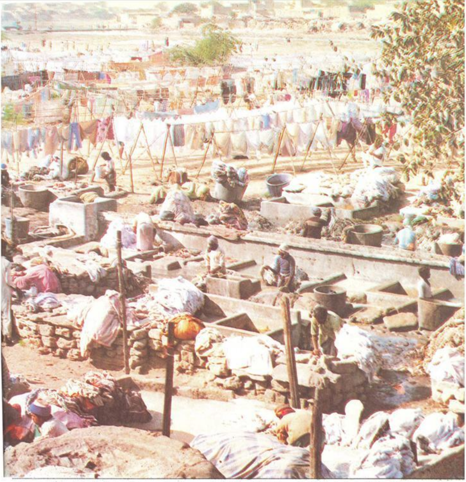


● الشارع الرئيسي في كراتشي : أنماط عمارة متباينة ، البيت الخشبي القائم يعود تاريخه الى أكثر من مائتي عام .

أرخ العالم العربي الفذ أبو الريحان البيروني لهذه المرحلة في دراساته للهند ومنطقة السند وحضارتها وديانتها وفلسفتها ، إذ كان قد صحب محمود الغزنوي في فتحه للهند ، وقضى هناك أربعين عاماً .

على مسيرة ساعة بالسيارة ، بعد كراتشي ، باتجاه الشرق الى عمق إقليم السند ، تقع مدينة « تاتا » ، وهي مدينة كانت مركزاً لامبراطوريات المغول الذين أنهوا حكم الغزنويين ، وأقاموا امبراطورية استمرت ثلاثة قرون .

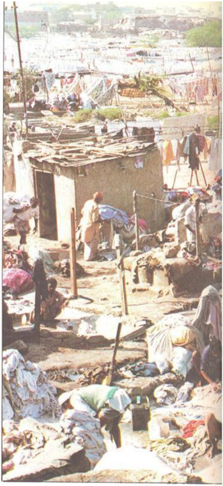
في « تاتا » أشهر معلمين تاريخيين إسلاميين من بقايا عصر المغول ، الأول هو مسجد « شاه



● المغسلة الجماعية على ضفاف النهر ، كل ملابس أهل كراتشي تغسل هنا ، وبعد الغسيل التجفيف تحت الشمس .

جيهان » ، الامبراطور الشهير في تاريخ الامبراطورية المغولية ، بنى المسجد الكبير صورة طبق الأصل من المسجد الأقصى ، مستخدماً أنواعاً من الحجارة الحمراء ، والرخام ، ومنمنمات الزينة التي مازالت آثارها باقية حتى اليوم ، وأمام بوابات المسجد تمتد حديقة منسقة ، تتوسطها نافورة مياه . وقد صمم المسجد بحيث يردد صدى الصوت بوضوح شديد ، حيث لم يكن في ذلك الوقت مكبرات للصوت ، وكان حرص الملك أن يكون المسجد كبيرا ، وفي الوقت نفسه يسمع كل المصلين القرآن وما يقوله الخطيب . ولو وقفت في أي ركن من المسجد ورفعت صوتك لسمعك من بداخله وخارجه . تحفة في العمارة أتمها الامبراطور في ثلاث سنوات فقط ، حيث بدىء العمل بالمسجد عام (١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م) ، وانتهى عام

● كراتشي عاصمة السند



وهي تضم مقابر أباطرة امبراطورية المغول من أول بابر حتى أورنك زيب ، آخر الأباطرة العظام الذي بدأت بعده الامبراطورية في التفتت . وقد شهدت « تاتا » ازدهاراً هائلاً في عصر الحكم المغولي ، وكما تذكر المصادر التاريخية فقد كان في « تاتا » في نهاية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ٤٠ ألف زورق ومركب تعمل في قطاع التجارة البحرية ، وكان هناك ٤٠ ألفاً من نساجي قماش « البفتة » والأثواب في المدينة ، وحرفيون من كل المهن ذوو مستوى عال ومهارة فائقة ، قارب تعدادهم ٢٠ ألف حرفي ، وأصحاب حوانيت وتجار حبوب وصرافون ، يقدر عددهم بـ ٦٠ ألفاً ، وكان يتم تصدير كميات كبيرة من المصنوعات اليدوية السندية ، بالإضافة الى ازدهار الزراعة في أراضي منطقة السند الخصبة ، وريفها الواسع

قرى مهملة

استأنفنا رحلتنا بعد مغادرة « تاتا » باتجاه الشرق قاطعين قلب الريف في منطقة السند . الطرق بالغة الضيق ، غير ممهدة ، والسيارة تتقافز بنا ، على جانبي الطريق الحقول الواسعة ، وتتجمع المساكن الريفية في دائرة صغيرة عند نهاية مساحة من الحقول ، تصغر هذه المساحة أو تكبر حسب مساحة القرية ، والبيوت بالغة الفقر ، والطرقات في القرية مزدحمة بشكل يفوق التصور ، فلا يمكن السير دون أن تصطدم بالمارة ، وتفسح لنفسك طريقا بالدفع بالمناكب . الإهمال والقذارة واضحان لكل عين ، الذباب يحوم في الجو ، يرسل طنينا حول معروضات الباعة الجالسين في الطرقات ، صور بنازير بوتو على الحافلات التي تشبه علب « السردين » ، وعلى جدران المقاهي الشعبية ، وفوق جدران البيوت ، فالسند هو إقليم عائلة بوتو ، وبأصوات أهل السند وصلت بنازير إلى الحكومة .

(١٠٥٧هـ/ ١٦٤٧م) . ويتسع المسجد لخمسة آلاف مصلٍ .

والامبراطور شاه جيهان هذا هو نفسه الذي بنى لزوجته الأثر الشهير المعروف بـ « تاج محل » ، وهو يلقب في التاريخ المغولي بالامبراطور المعماري .

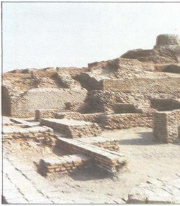
في محاذاة المسجد تقع مقبرة الأباطرة ، وهي مقبرة عظيمة ، مازالت بقاياها قائمة حتى اليوم ،

الريف والحياة في القرية لهما شكل مختلف تماما عن المدينة ، وتحتل القرى حالات خاصة تختلف كليا عن المدينة .

النشاط الأغلب للسكان في ريف منطقة السند هو الزراعة ، بالإضافة الى الصيد وبعض صناعة المنسوجات ، ويستأثر الريف والقطاع الزراعي بعدد كبير من السكان يعملون مزارعين وأجراء .

ومـازالت القبيلة حتى اليوم هي المسيطر الرئيسي على الريف ، والتقاليد القبلية لها سيطرة وقوة أكثر من أي شيء آخر عداها .

ففي القرية السندية تتركز عائلات بأكملها ، ويعين أكبر أعضائها الذكور رئيسا للقرية . وعلى الرغم من التغيرات الكثيرة التي حاولت الحكومة إدخالها الى القـريـة فـإن شكلها الاجتماعي لم يزل ، سادة من عائلة واحدة تتوارث الأرض ، وزراع مستأجرون من عائلات عديدة ، أدنى في الـدرجة الاجتماعية ، وأكثر مايكـون تـأثـير العادات القبلية وضـوحا في تقسيم الأراضي ، فـعـلى الـرغم مـن أن تـعـالـيم الإسـلام تنص على أن للإناث البنات حصة من ميراث



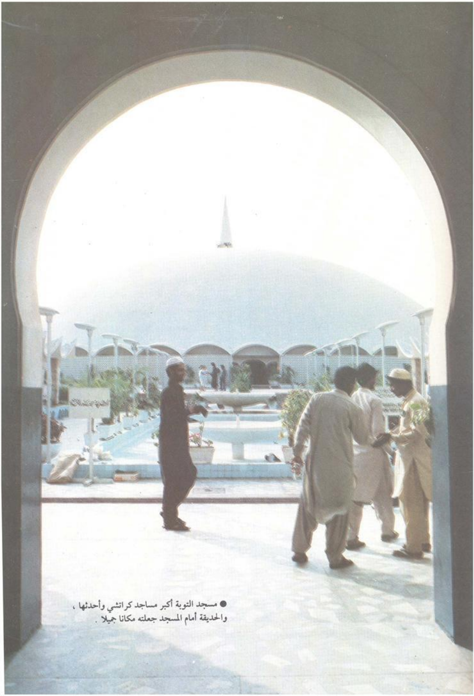
● بقايا مدينة « موهنجودارو » تعود الى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد .

الأب ، فإن التقاليد تقضي بأن الإرث يذهب للأبناء الذكور فقط ، وبالمثل فإن الأم الأرملة التي تستحق الربع لا تحصل على نصيبها من إرث زوجها . وتفسير ذلك أن العادات القبلية ترفض انتقال الثروة المتمثلة في الأراضي الى عائلة أخرى من خلال زوج الأخت أو الأم إذا تزوجت بعد وفاة الأب . ولذلك فإن زواج زوجة الأخ المتوفى حالة واسعة الانتشار في الريف كله .

ويحكي لنا حاجي ابراهيم عزيز ، وهو إمام أحد المساجد ، عن واقعة حدثت له في إحدى القرى في إقليم السند . كـان سيد القـريـة هـو فاضل شاه ، (ولقب شاه يطلق في باكستان على السادة الأشراف) ، ولم يكن لفاضل شاه سوى ابنة واحدة ، وكان لايفتأ يُـعـرب عن قلقه لعدم وجود ابن له ، يرث مكانته كسيد للقرية ، وكان خلال لقاءاته بأهل القرية في المسجد يؤكد للفلاحين - بحضور محدثنا حاجي ابراهيم - أن الابن وحـده هو الـذي يمكنه أن يـرث المكانـة الاجتماعية والسيادة ، فهو من صلب أشـراف ينتهـون بنسبهم الى النبي عليـه الـصـلاة والسلام !!

يستطرد محدثنا في سرد روايته فيقول : وظل فـاضل شـاه يمهد عـلى مسمع أهـل القـريـة لزواجه الثاني الذي بدأ يعد له العدة ، لعله يرزق بذكر ، وفجأة صدر قانون الأسرة في عام ١٩٥٨ الذي جعل الزواج الثاني صعبا إلا في ظروف غير عادية ، يترك تقديرها لممثل الحكومة المحلي في القرية ، ولما كان الممثل المحلي للحكومة على غير وفاق مع فاضل شـاه ، فإن خـطط الزواج قـد فشلت ، وبعد فترة جاء فاضل شاه الى المسجد ليقوم في أهل القرية ويحدثهم بأنه (اكتشف !!) من خلال أبحاثه الدينية بأن زوج البنت يمكن بسهولة أن يحل محل الابن ، وأنه سوف يبحث عن زوج لابنته يكون جديرا بالمكانة الاجتماعية ورئاسة القرية بالابنة والثروة في وقت واحد !

الـدين في القـريـة غـير الـدين في المـدينـة ،



● مسجد التوبة أكبر مساجد كراتشي وأحدثها ، والحديقة أمام المسجد جعلته مكانا جميلا .

والمؤسسة الدينية (المسجد) تلعب دوراً ، لكن هذا الدور ومكانة الدين نفسها تدخل ضمن إطار العادات القبلية .

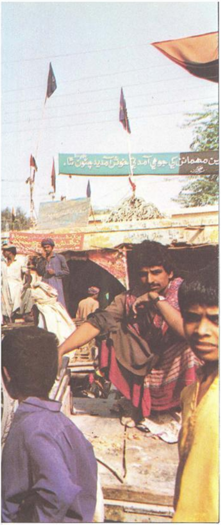
جلسنا في مقهى صغير للراحة . سائقنا كان قد عمل فترة في منطقة الخليج ، وأثناء عودته لبلاده أدى الفريضة المقدسة ، ولذلك فهو يقدم نفسه بلقب الحاج قبل ذكر اسمه ، ويفعل هذا اللقب مفعول السحر . عندما دخلنا المقهى كان واضحا أننا غرباء ، قدم نفسه لصاحب المقهى « حاجي أكرم » ، فقام رواد المقهى القلائل وأقبلوا يسلمون عليه ، ولم يجلس منهم أحد حتى جلس هو .

في أحاديث مع عامة الناس الفقراء سألنا أحدهم عن الخطايا الكبرى كما يعرفها من الدين فقال : « غش الجيران ، سرقة محصول الجار ، النظر الى امرأة شخص آخر ، عدم احترام الكبير » ، وفي آخر القائمة ، أي من المكروهات ، قال الشيخ العجوز : « وارتداء الملابس السوداء !! » .

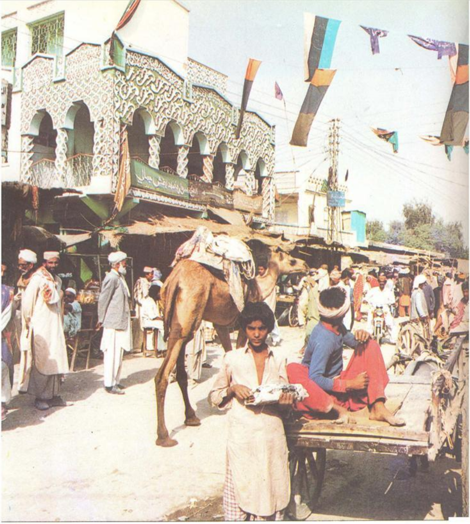
وتحفل أحاديث العامة عن الأمور الدينية بخليط من التراث والأسطورة وعادات القبيلة ، وهي كلها مفاهيم تتفق مع كونها ذات وظيفة لحماية المجتمع القائم على فكرة القبلية ، والسادة والأشراف .

ماقبل الميلاد

وصلنا الى « موهنجو دارو » ، عاصمة إقليم السند قبل الميلاد ، ومازالت بقايا المدينة باقية الى يومنا هذا ، ولم يتم الكشف عنها إلا في أوائل هذا القرن . وتعد « موهنجو دارو » اكتشافا أثريا مهما ، حيث قدم هذا الاكتشاف للتاريخ لأول مرة شكل حضارة السند وتفاصيل عنها ، وهي التي يعود تاريخها الى أكثر من ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، فهي حضارة تماثل حضارات السومريين في العراق والفراعنة في مصر . تقع بقايا المدينة التاريخية على مسافة ٣٥٠ كيلومتراً شرق



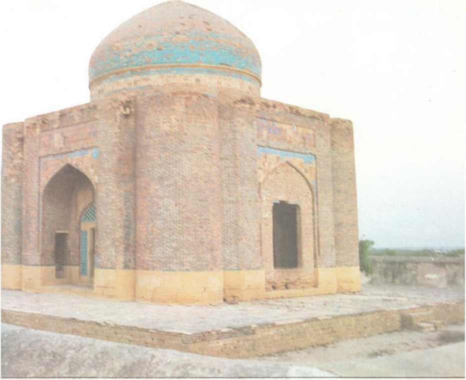
كراتشي . عند بوابة الدخول مخطط لخريطة قديمة ، توضح مسار السكان الأوائل لهذه المنطقة ، حيث بدؤ وا رحلتهم من نقطة تعرف حاليا بشط العرب ، وسارت سفنهم عبر الخليج العربي الى المحيط الهندي ، ثم رست عند



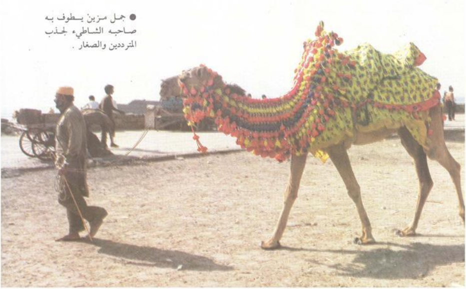
● شارع في قرية من قرى السند : الزحام والإهمال والفقر ، والباعة الجائلون والطرق غير الممهدة .

الساحل الشرقي للهند ، ومنه انطلقوا الى الداخل حيث أسسوا هذه المدينة .

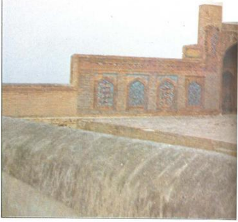
وتتمتع المدينة بأول نظام صرف صحي عرفه التاريخ ، وكذلك أول نظام لتغذية البيوت بمياه الشرب ، وداخل المدينة حمام للسباحة !! وفي بقايا الآثار والمخطوطات توجد موازين ودلائل تشير الى أنهم استخدموا نظاما عشريا للأوزان والمقاييس ، وفي داخل المدينة مدارس مختلفة ، فهناك مدارس لصغار السن ، ويتضح ذلك من شكل المقاعد الحجرية الصغيرة ، ومدارس



● جمل مزين يطوف به صاحبه الشاطيء لجذب المترددين والصغار .



● مقبـرة الأبـاطـرة المغـول العظام في مدينـة تاتـا ، أثـر لحضـارة عظيمـة ازدهـرت فترة طويلة في منطقة السند .



للصبيـة ، ثم للشباب ، وفي رسـومـاتهم تسـير النساء عاريات الصدور ، حتى زوجات الملك ، ورسـومـات لآلات زراعيـة متقـدمـة ، مثـل الشادوف الذي يستخدم حتى الآن في الري من الآبار ، وبعض الآلات كالمذراة والفأس ، وفي اللوحات الجدارية تسجيل لـرحلاتهم البحـرية التجارية مع السومريين .

ويؤكد كثير من الباحثين بـأن سكان مـدينة « مـوهنجو دارو » هم من السـومـريـين الـذين هـاجروا تحت ظـروف غير معـروفة ، وأسسـوا حضـارة لهم في منطقـة السنـد ، ظلت قـائمـة مـزدهرة حتى غـزو الاسكنـدر المقـدوني للهند وانهيارها وخضوعها لمرحلة استعمار جديدة ، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك .

على شاطيء بحر العرب

شأن كل المدن المطلة على البحار ، فإن نزهة سكان كراتشي على الشاطيء الرملي الذي تخرج إليـه العائـلات لتقضي يـومهـا ، حيـث يسبـح الرجال ، ولاتسبـح النساء الا بثيـابهن كاملة ، ويركبون الجمال ، ويأكلـون السمك ، وبعضهم يستـأجر زورقـا صغيـرا يمخر بـه عبـاب بحـر العرب ، يصطادون سمكا ثم يشوونه على سطح المـركب ، ويتنـاولـون الغداء ثم يعـودون ، أما الأقـل مقـدرة فيكتفي بـالجلوس عـلى الـرمـال ومشاهدة البحر أو التسلي بالألعاب التي يقدمها الجـائلون : ألعـاب للقـرود ، ألعـاب ورقص للأفاعي عـلى المزمـار ، باعـة يبيعون الفيشـار (الذرة المنفوشة) ، أو رؤوس الفجل المغموسة بالفلفل « الشطة » ، أو شرائح المانجو ، أوقطعاً من ثمار جوز الهند .

في شوارع المدينة

شـوارع كراتشي تمنحـك إحساسا بالقـدم ، فالمباني قديمة ، والشوارع مزدحمة ، ومازال هناك بعض المباني من أيام الاحتلال البريطاني . تركنا الشوارع الرئيسية ، ودخلنا الأحياء الأكثر فقرا :

مجمـوعة من البيـوت الصغيـرة والأخصـاص ، والشـوارع الضيقة ، وكـل عـدد من الشـوارع تتوسطها ساحة كبيرة ، تستخدم كمكان جماعي لنشر الملابس (هكذا في الطريق) ، وعلى ضفة النهر توجد أكبر مغسلة يمكن أن تراها عيناك ، أسرة متنامية يقارب عددها خمسين فرداً ، إخوة وأبناء عمومة وأبناء خؤ ولـة ، يحتكرون غسيـل ملابس كل سكان كراتشي ، أو على وجه الدقة ٩٠٪ منهم .

يذهب أحد الأفراد الأسرة بالغسيل الى هذا المجمـع في الصبـاح ، وهنـاك نـظام ، إمـا أن تتسلمـه مجففـا أو غـير مجفف ، وتبـدأ العـائلة

الغسالة في العمل ، يتراكم لديها الغسيل ، فتبدأ الوحدة الأولى بغمر الملابس بالماء ، ثم تنقلها الى من تليها ، فتدعكها بالصابون ، وترسلها الى من تليها ، فتبدأ مرحلة ضرب الغسيل بالأرض الاسمنتية مرات عديدة ، ثم تنقله الى من يليها ، فتغمره في ماء نظيف ، ثم ترسله الى آخر وحدة ، فتقوم بالعصر ثم بالتجفيف .

تتم كل هذه العمليات على شاطيء النهر . أحواض في الأرض من الأسمنت ، ارتفاع الحوض لايتجاوز ٥٠ سم ، وهي أحواض متجاورة ، بحيث يسهل نقل الثياب من وحدة الى أخرى ومن حوض الى آخر . وتحتل هذه العائلة التي تحتكر غسل الثياب مساحة طويلة بامتداد البصر على شاطيء نهر السند العريق .

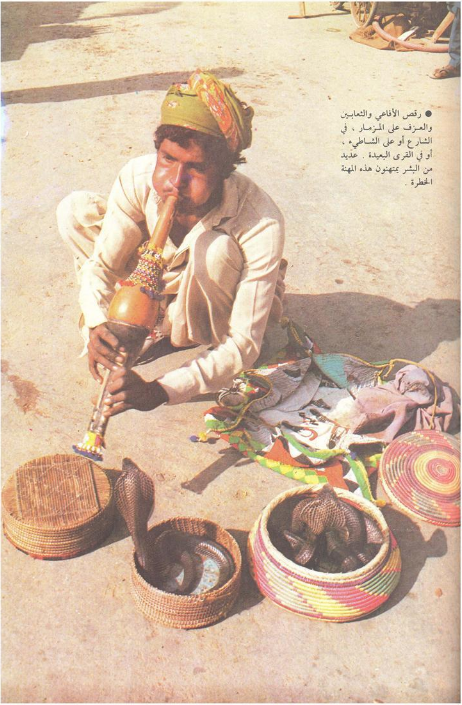
شوارع الفقراء الضيقة المتلاصقة هي أفضل مناخ لاشتعال الخلافات العرقية ، واحد من هذه الخلافات حدث في ليلة ألهبت كراتشي كلها أثناء وجودنا بها . محل صغير أقرب مايكون للكشك ، في حي من أكثر الأحياء فقراً ، اعتاد عسكري « الدرك » أن يحصل من صاحب المحل على أتاوة ، فالمحل يبيع أشرطة الفيديو وأصناف البقالة ، وفي الليلة الموعودة رفض صاحب المحل دفع الأتاوة ، لأن الشرطي ضاعفها ، ومع الخلاف ضرب الشرطي صاحب المحل ، والتهبت الحارة ، فالشرطي من البنجاب ، وهو حتى إن كان يمثل الحكومة إلا أنه لا يحق له أن يضرب الناس وقامت معركة امتدت الى جيران الشارع نفسه ، بين فريقين ، وجنى الشرطي على أبناء قبيلته ، دون أن يتسبب أحدهم في بدء النزاع الذي أسفر عن حرق محل ومقتل شخص وإصابة سبعة أشخاص !

نزاع دائم

ويمثل أهل السند القومية الثانية من حيث العدد في باكستان التي تتوزعها قوميات أربع ، هي : البنجاب ، والسند ، والباختون ، والبلوش . وأهل البنجاب هم الأكثر حظوة وسيطرة ونفوذاً ومالا . وبين القوميات الأربع قدر من عدم التوافق وعدم التجانس ، بل تصل الى حد عدم رد السلام على أهالي القوميات الأخرى ، ويتضح عدم التوافق أكثر كلما توغلنا في الريف ، بعيداً عن الحضر ، وعلى الرغم من ذلك فإن المدن الحضرية تحفل بتوترات عرقية ونار ساخنة تحت الجلد ، تنتظر المناسبة لإطلاقها ، ولعل المناسبة الصحية الوحيدة في السنوات القليلة الماضية كانت هي الذهاب الى صناديق الاقتراع ، حيث اكتسحت بنازير بوتو - التي مازالت والدتها تعيش في كراتشي - أصوات أهل السند ، وفور نجاحها علت صورها وصور والدها « ذو الفقار علي بوتو » واجهات المحلات ، وأضافوا الى اسمه لقب الشهيد !!

وفي الريف كان البسطاء من رواد المقاهي عندما تشير الى صورة « ذو الفقار » يقولون بوقار : الشهيد ، ثم يقرؤ ون الفاتحة . والى اليوم مازالت أرملة « بوتو » تعيش في منزل الأسرة الذي خصص منه جزء ليكون مقراً لحزب الشعب ، واحتفظت أرملته بجزء لها تعيش فيه . وأثناء وجودنا هناك حلت ذكرى وفاة « ذو الفقار علي بوتو » ، وطوال اليوم والتلفاز يذيع القرآن الكريم ، وبرنامجاً تسجيلياً عن حياته منذ كان طفلا صغيرا ، وصوراً له في المحافل الدولية ، وفي لقاءات له بأبناء باكستان فيلم طويل استغرق ساعتين ونصف ساعة ، لم يذكر المعلق اسمه دون ذكر لقب الشهيد ، وفي المساء ألقت ابنته خطابا رسميا للأمة ، ثم ذهبت الى الحزب لإقامة حفل تأبين لذكراه ، كل ذلك والتلفاز يبث على الهواء الاحتفال بذكرى الشهيد !!

كان لموقع كراتشي تأثير بالغ ومهم على تاريخها وحضارتها ، ومازال الى اليوم يتضح للمدقق والمتأمل لما خلف السطح والظاهر ، فكراتشي بموقعها كمنفذ بحري مهم على الشاطيء الغربي ، جعل منها بوابة لكثير من القادمين الى



● رقص الأفاعي والثعابين والعزف على المزمار ، في الشارع أو على الشاطيء ، أو في القرى البعيدة . عديد من البشر يمتهنون هذه المهنة الخطرة .



● سوق الأقمشة الرئيسية سوق مسقوف ، تباع فيه المنسوجات الباكستانية الشهيرة .

شبه القارة الهندية ، وكان موقعها على مقربة من الجزء الجنوبي لأفغانستان وإيران سببا في تأثرها بكل الدويلات التي قامت هنا ، ومطمعاً لكل الغزاة الحالمين بالتوسع الى داخل الهند ، إلا أن التأثير الأكبر ظل لحركة السفن المحملة بالتجارة ذهابا وعودة ، حركة وانتقالا بين المرافيء والموانيء المختلفة ، وقد كان لخصوبة أراضي منطقة السند ، وتنوع طبيعتها دور في ازدهار حركة التجارة ، فمنطقة السند ، بالاضافة الى الزراعة ، غنية بالموارد الطبيعية ، وأشهرها الرخام والنحاس الذى يتفنن أهل المنطقة في

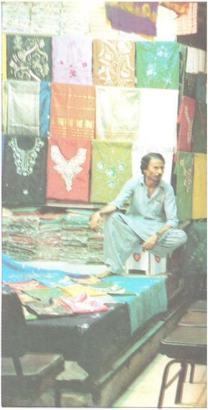
صياغته وتشكيله ، وكان تأثير الفترة المغولية على الحضارة العامة لمنطقة السند أكثر مايكون وضوحا في الثقافة العامة والذوق ، ففي مصانع الرخام والنحاس يتفنن الصناع في تشكيل الخامين الى تحف فنية رائعة : تماثيل جميلة ، نماذج بيوت وقصور تتجلى فيها روعة الأعمدة التي يشتهر بها الطراز الفريد للعمارة المغولية ، بالإضافة الى نماذج فنارات ومناضد وشطرنج وأطباق ومصابيح ، بينما يتفنن الصناع في تشكيل النحاس وطليه بألوان زاهية فريدة ، أو نقش زهور ومنمنمات على الصواني وأواني الزهر

النموذجين ، سواء من خلط بين المنمنات أو الألوان على اختلاف استخدامها في كلا النموذجين ، الى الحد الذي أصبح معروفا لدى خبراء السجاد الباكستاني فور رؤيتهم للقطعة .

وقد تأثرت منطقة السند بتنوع طبيعتها ، ووجود الغابات والجبال ، فازدهرت أعمال الصيد وتجارة الجلود والفراء ، كما كثر عدد السياح الذين يهوون الصيد ورحلات الجبال . وقد كان من الممكن لهذه التأثيرات المختلفة الكامنة في التراث الاجتماعي أن تتفاعل وتسهم في الإضافة الى (الشخصية الباكستانية) ، ولكن المؤكد والحقيقي أن الإرث القبلي ، والأسطورة ، والدين ، مازالت هي العوامل التي تشكل الشخصية والثقافة العامة أو تمنع تطورها . ولأن هذه العوامل الثلاثة ليست ثابتة ، بل متغيرة - حسب الفهم العام ، تتغير بتغير الإقليم وتراثه ، فإنه للأسف لايمكن القول بأن هناك (شخصية باكستانية) ، بقدر ماهناك شخصيات ، فأبناء لاهور ، عاصمة البنجاب ، غير أبناء كراتشي ، عاصمة السند ، ومفهوم الدين في قرى لاهور غير مفهوم الدين ووظيفته في قرى السند ، وعديد من الاختلافات التي لم تساعد على تطور ونمو حقيقيين ، وفي الوقت نفسه جعلت اقتراب اثنين من إقليمين مختلفين أقرب مايكون الى اصطدام ناقلتي ألغام وسط بحر من القبيلة والتراث المختلف والخلافات الكامنة تحت السطح .

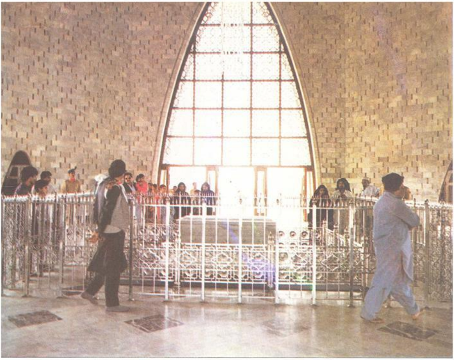
أولياء الله

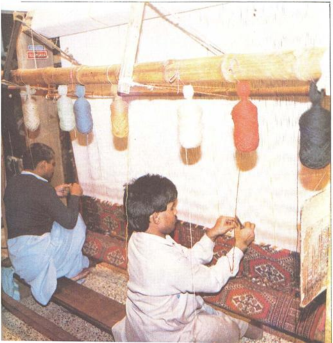
من أهم معالم كراتشي مسجد التوبة ، وضريح محمد علي جناح ، وهما معلمان يحرص أي زائر لكراتشي على زيارتهما . فوق ربوة صغيرة تحيط بها الحدائق من كل جانب يقع ضريح محمد علي جناح ، وكأنه يطل على كراتشي ، حتى بعد وفاته ، الضريح تحفة معمارية ، القبر من الرخام ، نقشت عليه آيات



والقدور التي تستخدم للزينة ، وهي كلها تشكيلات متأثرة بالتراث الجمالي المنتشر في نمط العمارة والبناء والزخرفة للعصر المغولي ، ويرتبط بتأثيرات تلك الفترة النقش والزخرفة على الحرير ، سواء كان ثيابا أو «إيشاربات نسائية » ، وأكثر النقوش شيوعا الطاووس وعقود الزهر .

وتتضح تأثيرات التيارات الأجنبية في الثقافة العامة في منطقة السند في مثال آخر ، وهو صناعة السجاد ، حيث تأثرت هذه الصناعة بنموذجين شهيرين في هذه الصناعة ، ونعني بهما نموذج السجاد الأفغاني ، ونموذج السجاد الإيراني ، ويقدم الصناع الباكستانيون نموذجا هو مزج بين





● الصورة العليا لضريح محمد علي جناح ، حيث تحول الى مزار للزوار وطالبي حاجات يطوفون بالضريح . الى اليسار صناعة السجاد التي تأثرت بجيرانها وتراثها الفني ، فابتكرت أشكالا يتميز بها السجاد الباكستاني .

من القرآن الكريم ، وعبارات التوحيد . داخل الضريح زوار لا ينقطعون ، يأتون للزيارة (والبركة) أو يصطحبون مريضا يطلبون له الشفاء ، وعلى الرغم من أن محمد علي جناح كان رجل سياسة ، ولم ينكر ذلك في حياته ، ولم يدع أنه من رجال الدين ، إلا أن العامة حولوا ضريحه في كراتشي ، وضريح الشاعر محمد إقبال في لاهور ، الى مزارين دينيين . وإذا كان الشاعر محمد إقبال لا يخفي نزعاته الدينية ، فإن محمد علي جناح ، ومن واقع النصوص التاريخية ، يقول نصا في خطاب علني له أمام الجمعية التأسيسية لباكستان في أغسطس ١٩٤٧ :

« وإذا ما أردنا أن نجعل هذه الدولة الباكستانية العظيمة سعيدة ومزدهرة ، فإننا يجب أن نركز كلية على رفاهية الشعب فقط ، وبخاصة الجماهير والفقراء ، واذا ماعملتم في تعاون ، ودفنتم خلافاتكم ، فمن المحتم أن تصيبوا النجاح ، ولابد أن نبدأ العمل بهذه الروح ، وبمرور الوقت فإن كل الحزازات بين الأغلبية والأقلية ، وبين الهندوس والمسلمين ، ستختفي ، إنكم أحرار ، أحرار في الذهاب الى معابدكم ، وأحرار في الذهاب الى مساجدكم ، أو الى أي مكان آخر للعبادة في دولة باكستان ، بمقدوركم الانتماء الى أي ديانة أو طائفة أو عقيدة . هذا شيء لاعلاقة له بأمور الدولة !! » .

هكذا كان يفكر محمد علي جناح ، وهكذا حكم باكستان سنوات قليلة قبل وفاته ، لم تسمح له بأن يرسخ ويكرس فكرة العمل من أجل رفاهية الجموع والفقراء ، وفكرة الحرية العقائدية ، وأنها لاتشكل علاقة بأمور الدولة ، ولكن الإعلام ورجال الدين حولوا الرجل لدى العامة في النهاية الى وليّ من أولياء الله الصالحين ، يزار ضريحه ، ويستجاب الدعاء فيه ، ويتبرك الناس به ، ويتخذون منه وسيلة الى الله لقبول دعائهم ، عملا بقوله تعالى : « وابتغوا إليه الوسيلة » ، وهذه الوسيلة قد تكون صلاة أو عملا صالحا أو السؤال بحق الصالحين من العباد !!

على مقربة من الضريح يقع مسجد التوبة ، وهو يتسع لخمسة آلاف مصل ، بنيان أبيض ، صحنه شديد الاتساع ، بدون أعمدة ، على الجدران من الداخل آيات قرآنية مكتوبة بخط جميل ، ومنبر قصير لايزيد ارتفاعه عن سبع درجات ، وحول المسجد حديقة واسعة ، تضفي على البنيان جمالا ورونقاً .

بلاد تركب الأفيال وبلاد تركب الصعب

في طريقنا الى المطار كان مذياع سيارة الأجرة يذيع إعادة لخطاب بنازير بوتو في ذكرى رحيل والدها ، استدرجنا سائق سيارة الأجرة الى الحديث ، قال بحماس من ينهي موضوعا معلقا : أنا أعرف الله وأخافه وأعبده وأعمل بأوامره ، ولكنني أعطي صوتي لمن يأتي إلي بالغذاء والمأوى والعلاج ، وليس لمن يعلمني كيف أصلي أو كيف أصوم ، فقد علمني شيخ في المسجد وأعطيته احترامي ومحبتي .

وعندما خرجت السيارة الى الشوارع الواسعة حرك السائق مؤشر المذياع ليستقر به على موجة تبث موسيقا هادئة ، وعلق قائلا : لقد سمعت كلامها هذا بالأمس ، والأمس أصبح ماضينا ، ونحن الفقراء لانقف كثيرا عند الماضي ، لشوقنا الى تحسن أوضاعنا في المستقبل .

وأدركت أن السائق البسيط ، على الرغم من تبسيطه لأشياء كثيرة ، قد وضع النقط فوق الحروف ، فالتحدي هو : كيف تصبح الحياة وتتطور في بلاد السند ، البلاد التي تركب الأفيال .

هل تستطيع أن تركب بدلا منها الصعب ، لتتطور الحياة ويختفي الفقر ، وتتحقق الرفاهية للجماهير والفقراء ؟ هذا هو الحلم بالأيام الزاهرة . □



طيور تخطف الجواهر والحليّ

بقلم : الدكتور محمد رشاد الطوبي*

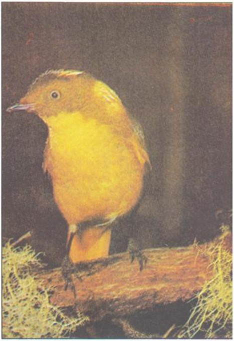
* استاذ علم الحيوان بكلية العلوم جامعة القاهرة - وعضو مجمع اللغة العربية .

إذا هبطت أمامك حدأة من السماء ، وخطفت قطعة من اللحم ، أو فرخاً صغيراً من أفراخ الدجاج ، لتأكله ، فهذا أمر طبيعي ، أما إذا تسلل طائر إلى حجرتك ، وخطف منها ساعتك الذهبية أو خاتمك الماسي فهذا هو العجب العجاب .



● كومة من الأدوات المنزلية البراقة اختطفها « الطائر المعرش الرمادي » من داخل المنازل .





● تتمتع الذكور في « الطيور المعرشة » بريش ملون جذاب .

الواقع أن خطف بعض الطيور الصغيرة الملونة مثل تلك المجوهرات أو الأدوات البراقة من المنازل ليس حديث خرافة ، بل هو من الوقائع الحقيقية التي تم إثباتها بالأدلة القاطعة ، فهناك مجموعة خاصة من الطيور لجأت إلى تلك العادة الشاذة ، وهي خطف كل مايقع عليه بصرها من الأدوات الصغيرة البراقة .

قد تكون بعض تلك الأدوات لا قيمة لها على الإطلاق ، ومنها على سبيل المثال « لعبة أطفال » أو فرشة أسنان » أو مشط أو ملعقة لامعة أو مقص أظافر أو مطواة أو كوب من الزجاج أو الألمنيوم أو ابريق قهوة » ، أو غيرها من الأدوات المنزلية الصغيرة التي يستطيع الطائر حملها ، كما أنها قد تكون أيضاً من المعادن النفيسة التي يعتز بها أصحابها ويحرصون عليها ، ومنها مثلا « عقد من اللؤلؤ » ، أو سوار ذهبي ، أو خاتم ، أو قرط ماسي ، أو غيرها من أدوات الزينة عند السيدات .

النظارات المخطوفة

إن تلك « الطيور الخطافة » لا تعيش إلا في استراليا وغانا الجديدة ، ولا توجد على الإطلاق في غيرهما من بلدان العالم . وقد بدأ التعرف على تلك العادة السيئة التي تمارسها تلك الطيور عند نهاية القرن الماضي ، حيث وقعت أول حادثة من هذا النوع . وهي تتلخص في أن أحد سكان استراليا كان يعيش في منطقة نائية من غرب استراليا ، في حوض « نهر الاورد » ، وكانت المنطقة التي يسكنها تكاد تكون خالية من السكان ، لأنها توجد في منطقة منعزلة تماما . وقد وضع هذا الرجل نظارته الطبية فوق منضدة في شرفة المنزل ، ثم ترك الشرفة وذهب إلى الداخل ليستبدل بالكتاب الذي كان يقرأ فيه كتاباً آخر ، ولم يبق في الداخل سوى ثوان معدودة ، ولما عاد إلى الشرفة مرة أخرى لم يجد النظارة الطبية ، بل إنها اختفت تماما كما لو كانت الأرض قد انشقت وابتلعتها .

وفي حادثة مماثلة كان هناك شخص آخر ، اعتاد وضع عينه الزجاجية أثناء الليل على الطاولة الصغيرة المجاورة للفراش ، وفي صباح أحد الأيام كما كانت عادته في كل صباح مد يده ليأخذها من مكانها ، ويضعها في محجر عينه أثناء النهار ، ولكنه لم يجد لها أي أثر على الإطلاق ، وقد عثر عليها فيما بعد في أحد الأعشاش القريبة من المنزل ، وهو عش واحد من تلك « الطيور الخطافة » .

وفي حادثة ثالثة كانت إحدى السيدات تضع عقدها اللؤلؤي الغالي الثمن على مائدة الزينة ، وكانت تلك المائدة قريبة من النافذة ، وفي الصباح الباكر ، وكانت ماتزال تتمطى في الفراش ، شاهدت طائرا صغيرا يدخل من النافذة ،ويهبط بسرعة خاطفة على العقد ويحمله معه إلى الخارج ، حيث اختفى إلى الأبد ، وقد أخذ علماء الطيور بعد ذلك يحذرون المواطنين من وضع المجوهرات أو المصنوعات الذهبية أو الأحجار الكريمة مكشوفة داخل حجرة النوم ، بل يجب وضعها في علب كبيرة ، وقاية لها من تلك « الطيور الخطافة » ، فهي في أغلب الأحوال لا تأخذ معها إلا كل ما خف حمله وغلا ثمنه .

كما أصبح بعد ذلك من المألوف في استراليا خروج فرق من الكشافة والجوالة في أيام الآحاد والعطلات الرسمية إلى الخلاء ، بحثا عن أعشاش تلك الطيور والتنقيب عن محتوياتها على مثل تلك المجوهرات ، ولم تكن جهودهم تذهب عبثا ، بل كانوا يكافأون في كثير من الحالات بالعثور على بعض تلك النفائس في محتوياتها عن الجنيهات الذهبية ، وذلك في وقت كانت فيه مثل تلك الجنيهات وسيلة للتعامل بين الناس ، وليست تلك الأوراق المطبوعة المستخدمة في الوقت الحاضر .



الطيور المعرشة

بدأ بعد ذلك علماء الطيور والباحثون في طبائعها أو سلوكياتها البحث عن سر تلك الظاهرة التي ليس لها مثيل بين مختلف الطيور الأخرى ، حيث أثبتت المشاهدات العديدة المتكررة حدوث مثل تلك السرقات الصغيرة ، وأخذوا في متابعتها دون كلل ، ووضح لهم فيها بعد أن تلك الطيور لها هواية خاصة ، هي جمع كل ما هو براق أو لامع من مختلف الأدوات المنزلية أو المجوهرات ، وخصوصامن المنازل الموجودة في الخلاء ، بالقرب من أعشاشها ، وأنها تجمع تلك الأشياء وتفرشها على الأرض في مواجهة العش الذي تقيم فيه ، ويعيش داخل هذا العش عادة زوج من الطيور (ذكر وأنثى) ، ويصبح كل ما يجمع من تلك الأدوات من مقتنياتها الخاصة ، تزهوان بامتلاكها ، وتطربان كلما زادت حصيلة تلك المسروقات عند مدخل العش .

ويطلق العلماء حاليا على تلك الطيور اسم « الطيور المعرشة » Bower — birds ، وذلك لأن كل واحد منها يبني لنفسه عريشا خاصا ، يلجأ إليه ويعيش فيه ، وتطلق كلمة « العريش » في معاجم اللغة على كل ما يستظل به ، أو يقام لتنمو فوقه النباتات المتسلقة ، ومنها « عريش الكرم » ، وهو المعروف عند عامة الناس باسم « تكعيبة العنب » . وقد ترتفع بعض تلك العُرُش التي تبنى من القش والألياف إلى ما يقرب من ثلاثة أمتار في بعض الأنواع .

« والطيور المعرشة » غاية في الجمال ، وخصوصا الذكور ، حيث إن لكل منها فوق رأسه عرفا قابلا للانتصاب ، أو له فوق جسمه غطاء من الريش ، ألوانه جذابة ، وله بريق ولمعان ، وذلك بخلاف الأنثى التي ليس لها مثل هذا الريش الملون . وتلك القاعدة العامة بين



● تقف الأنثى في سكون شامل لمراقبة جميع «الاستعراضات الغزلية» التي يقوم بها الذكر.

تلك الطيور، ولايشذ عن تلك القاعدة سوى نوع واحد فقط، فيه الذكر والأنثى متشابهان، ولا يختلف أحدهما عن الآخر في لونهما المعتم، ويطلقون على هذا النوع اسم «البستاني الأغبر»، وذلك لأنه يزرع أمام عشه حديقة من الطحالب، ثم ينثر فوقها أزهارا مختلفة الأشكال والألوان، يقطفها من النباتات البرية، ومن البساتين المجاورة، كما ينثر أيضا بعض الفواكه الموسمية الطازجة ذات الألوان الزاهية، مما يعطي الممشى الممتد أمام العش مظهر بستان حقيقي.

وهناك أيضا أنواع أخرى من «الطيور المعرشة» لاتزرع مثل تلك الحدائق الصغيرة أمام أعشاشها، بل تستعيض عن ذلك باختطاف الأدوات المنزلية البراقة وأدوات الزينة والقواقع والأصداف البحرية اللامعة بوضعها في مواجهة العش، كما ذكرنا من قبل. ومن الأنواع التي تجمع مثل تلك الأدوات البراقة ما يعرف باسم «الطائر المعرش الرمادي الكبير»، فهو كبير الحجم، رمادي اللون، ولا يتوانى عن اقتحام المنازل من النوافذ المفتوحة متى لمح بداخلها ما يلفت النظر من الأدوات التي يحتاج إليها لزركشة الممشى المواجه لمدخل عشه.

وتنتمي «الطيور المعرشة» إلى «رتبة العصفوريات»، وهي مجموعة من الطيور كبيرة، تضم بين جنباتها آلاف الأنواع من العصافير والسنونو والعندليب وأبي فصادة والكناري وعصافير الجنة والغربان وغيرها، وهي تنشط جميعها في فصل الربيع نشاطا واسع النطاق، وتبدأ في بناء أعشاشها استعدادا للتكاثر.

وقد وجد بعد عديد من الدراسات المتعلقة بسلوك الطيور أن الأنثى من تلك الطيور تقف ساكنة أمام العش، ويقف الذكر في مواجهتها، حيث يقوم بعدة استعراضات غزلية، للفت نظرها، ويستمر في متابعة تلك الاستعراضات، وهي ساكنة مبهورة بتحركاته البطيئة أحيانا، والعنيفة في أحيان أخرى، حتى تقتنع تماما بأنه جدير بحبها ورضاها، ويكون في وجود تلك المماشي المفروشة بالورود والرياحين، أو المغطاة بالأدوات اللامعة البراقة، ما يضفي على المكان بأسره كل روعة وجمال.

ويتم بعد ذلك التزاوج بين الذكور والإناث، ثم تبدأ الأنثى وضع البيض داخل العش، وتستمر فترة الحضانة بعض الوقت، وهو يختلف باختلاف النوع، ثم تخرج الأفراخ الصغيرة بعد فقس البيض وهي عارية تماما دون ريش، ولا تستطيع إطعام نفسها بنفسها، بل تعتمد في ذلك على الطيور الكبيرة التي ترعاها، وتدفع عنها كل اعتداء، كما أنها تحضر لها الطعام يوميا من خارج العش.

ولله في خلقه شئون. □



الأوزون

درع الحياة الواقي : نقصه خطر، وزيادته خطر

بقلم : الدكتور أسعد الاسطواني

عجيب أمر الأوزون ! إن التوازن الدقيق الذى يفرضه هذا العنصر من أجل بقاء الإنسان يكتسب أهمية قصوى بمنظور مستقبل الكرة الأرضية . فعند انعدام الأوزون في الجزء الأعلى من الغلاف الجوي ترشح الإشعاعات ما فوق البنفسجية ، لتصبح الحياة كلها مهددة بشكل مريع ، ولكن إذا ازدادت عرضا كثافة الأوزون في الجزء الأسفل من الغلاف الجوي فإن النتائج الحيوية والبيئية لهذه الزيادة لن تكون أقل خطرا .

قبل سنوات لم يكن أحد يهتم بهذا الدرع الواقي الجاثم على بعد عشرات الكيلومترات فوق رؤوسنا ، والذي يحمي الأرض من عدوان الإشعاعات مافوق البنفسجية . ويؤكد الكثيرون اليوم بأن هذا الدرع اصبح مليئا بالثقوب ، ومتصدعا من بعض جهاته . وهكذا تحرك العلماء والصناعيون وبدءوا يدقون ناقوس الخطر ، ويتجندون لمجابهته . وكان ذلك أضعف الإيمان : فإذا انعدمت هذه الطبقة الغازية ، فمن الطبيعي أن لانوجد هنا للكلام عنها .

وعلى الرغم من أن الأوزون يشكل نسبة

ضئيلة في الجو ، لاتتجاوز واحدا من المليون من محتواه الكامل ، وأقل بما لايقاس من مقدار الآزوت والأكسجين ، فإنه يقوم بدور لايمكن التعويض عنه ، وذلك بامتصاصه القسم الأعظم من طيف الاشعاعات مافوق البنفسجية التي تعمل على إفساد المادة الحية وانحلالها . ومن هنا فإن تضاؤل الأوزون التدريجي أضحى مثيرا للقلق البالغ : فلقد تناقص بنسبة ٢,٥٪ في الفترة الواقعة ما بين عامي ١٩٧٩ و١٩٨٥ في جميع المنطقة الكائنة بين خطي العرض ٥٣ شمالا و٥٣ جنوبا .

وإنه لمشهد مأساوي عندما نرى الآثار المدمرة لهذه لإشعاعات ، فالسرطانات الجلدية تزداد مع انخفاض الدفاعات المناعية عند الإنسان ، بل نشاهد نتائج أكثر خطورة من أجل البقاء ، إذ يتعطل نمو النباتات ، وتموت الجسيمات المتناهية في الصغر التي تقوم بتركيب المواد البروتينية ، تلك اللبنات الأساسية المجددة للخلايا التي تمنح جسم الانسان القدرة والحياة .

المتهم الرئيس لنقص الأوزون :

تشير أصابع الاتهام إلى أن المسؤول الأول لانخفاض نسبة الأوزون في الغلاف الجوي العلوي هو مادة الكلوروفلورو كاربون Chloro Fluoro Carbon، وقدتم تصنيع هذه المادة في عدة استعمالات : فهي تستعمل بنسبة ٣٠٪ - من خلال بعض المواد الأشنية أو الطحالب في - تجهيز جزء من أثاث البيوت ، وبنسبة ٣٠٪ في التبريد والتجميد ، ونسبة ٣٠٪ أيضا في الاسطوانات أوالعبوات الرذاذية ، بينما لاتصل نسبتها في المواد الحالية المخصصة في الالكترونيات إلى أكثر من ١٠٪ .

وتتكون أسرة الكلوروفلورو كاربونات من ١٥ فردا ليست كلها متساوية في الخطورة ، لكن أكثرها استخداما رقم ١١ و ١٢ إذ بلغ مقدارهما ٨٠٠,٠٠٠ من أصل مليون من الأطنان . وهما وإن كانا الأرخص ثمنا إلا أنهما الأكثر ضررا بالنسبة للأوزون . ولذلك اجتمع ممثلو ٢٧ بلدا في مدينة مونتريال في كندا ، في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٧ ، وقرروا تجميد إنتاج الكلوروفلورو كاربون عند المقدار الذي كان عليه في عام ١٩٨٦ ، وذلك حتى عام ١٩٩٣ ، وتخفيض إنتاجه بنسبة ٢٠٪ بدءا من عام ١٩٩٣ ، وبنسبة ٥٠٪ بدءاً من عام ١٩٩٨ .

ولاجدال في أن استعمال هذه المواد في الاسطوانات الرذاذية (الغازية السائلة) ليست ضرورية في الحياة اليومية ، حتى لو كانت عملية جدا ، وكان عدم اشتعالها يشكل ميزة أمنية هائلة عند صنعها وتخزينها واستعمالها . واذا كانت الاشنيات مريحة جدا فانه من الممكن التعويض عنها في حشو المقاعد والأسِرّة والوسادات بمواد أخرى .

وبالمقابل فإن التبريد أمر أساسي للحفاظ على عدد من المنتوجات الغذائية والصيدلانية ، وبخاصة في بلدان العالم الثالث التي توجد كلها تقريبا في المنطقة الاستوائية ، أو بالقرب منها ، تلك البلدان التي يجب عليها العناية بغذائها وبصحتها إذا أرادت لنفسها أن تتطور . ويجب أن لاننسى بأن تحسين صحة البيئة والصحة العامة ، وبالتالي إطالة عمر الإنسان ، والسعي إلى التقدم في جميع النواحي التي هي من خصائص العالم المتقدم ، لم يكن ممكنا لولا هذه السلسلة الطويلة من التبريد . وأخيرا فإن المواد الحالة ضرورية أيضا من أجل صنع أدق أنواع الالكترونيات ، وعلى الأخص العسكرية منها .

وبالإضافة إلى عدم اشتعالها فإن إحدى المزايا الأساسية للكلوروفلورو كاربونات هي ديمومتها ، وهذا ما جعل منها ندا وعدوا للأوزون ، فراحت تسعى لتهديمه . وهكذا

وبسبب ثباتها الهائل فإن ذرات الكلوروفلورو كاربون تصل بدون تغيير أو تبديل خلال ١٠ أعوام إلى ١٥ عاما إلى الطبقات العليا من الجو ، حيث تحدث تفاعلات كيماوية معقدة جدا بفعل الاشعاعات الشمسية ، تتفكك في أثنائها ذرات هذه المادة ، محررة جميع مكوناتها ، فيمتزج بعضها مع عناصر أخرى ، لتتولد مادة جديدة ، هي مونو أوكسيد الكلور ، سوف تكون قادرة على هدم ذرات الأوزون .

الوجه الآخر من العملة :

ويظل هذا المشهد ناقصا إذا لم نواجه أيضا ما يجري في الطبقات السفلى من الجو ، فإذا كان ٩٠٪ من ذرات الأوزون تهنأ بالعيش في أعالي الجو ، على علو يتراوح ما بين ١٢ إلى ٤٠ كيلومترا فإن ما تبقى منها في الأسفل ينتشر ضمن شريط لايتجاوز مداه ٨ إلى ١٧ كيلومترا ، حسب خط العرض ، حيث يقوم هذا « الأكسجين الرفيع » بدور أساسي يتناساه البعض ، من أجل سلامة البيئة على وجه الكرة الأرضية .

وبالتأكيد فإن الأوزون يقوم بدور آخر ، فعندما تمتص ذرات الأوزون الأشعة مافوق البنفسجية ، فإنها تسخن أيضا ، وتنقل حرارتها إلى الطبقات الجوية السفلى ، حيث تتبدل ساحات الضغط الجوي ، فتعدل الحركة في أعالي الجو ، مما قد يؤثر ويسهم في إعادة توزيع المناخ فوق سطح الكرة الأرضية .

وهكذا ، وبخلاف ماتراه على بعد عشرات الكيلومترات إلى الأعلى ، ازداد مقدار الأوزون في الطبقات السفلى من الجو ، منذ بداية القرن العشرين بتأثيرات متبادلة بين التلوث الصناعي وزيادة أعداد البشر ونشاطاتهم اليومية . ويتنبأ الاختصاصيون ، بمعدل الوتيرة التى تسير عليها الأمور حاليا ، أن يتضاعف مقدار الأوزون في الطبقة الجوية السفلى ، والذي بلغ مقدار ٤٠



إلى ٦٠ جزءا من المليار ، أي نصف المقدار الأعظم المقبول المحدد بـ ١٢٠ جزءا من المليار .

وفي المدى الطويل فإن ازدياد نسبة الأوزون في الطبقات السفلية من الجو إذا ما أضيف إلى زيادة نسبة غـاز الفحم (والتي ازدادت منذ بدء الثورة الصناعية الى ٢٥٪ بسبب الاستخدام المستمر المتنامي لمختلف المحروقات كالفحم الحجري والنفط والغاز الطبيعي) سوف يسهم بحجز الإشعاعات ما فوق البنفسجية الصادرة عن الأرض ، فيؤدي إلى تسخين التربة والجو المحيط ، وإلى ارتفاع الحرارة الاجمالية على وجه البسيطة .

ولقد اتفق جميع الخبراء على التأكيد بأن ازدياد معدل غاز الفحم في الجو إلى ضعف ما كان عليه في عام ١٨٥٠ ، أي في بدايات الثورة الصناعية في الغرب ، قد يرفع بمقدار ٤ درجات الحرارة الوسطية للأرض أيضا . ولسوف تتوزع هذه الزيادة بشكل غير متكافيء في أرجائها المختلفة ، فإذا لم يكن هذا التوزيع واضحا في المناطق الاستوائية فإنه قد أخذ وضعا مؤثرا في المناطق الشمالية . وفي المدى القصير ، سوف يسهم ارتفاع درجة الحرارة هذا في تقليص مساحات شاسعة من الأراضي التي تتعرض للثلوج ، وإلى زوال جزء قد يكون مهما من الرف الجليدي في القطب الشمالي .

ماذا يعني كل ذلك ؟ إنه يعني ، وبكل بساطة ، اتساع المحيطات ، وارتفاع مستويات البحور . وقد يكون الأمر طفيفا ، ولكنه كافٍ لتبديل مواقع الكتل الهوائية التي تنظم المطر والمناخ في الأرجاء المختلفة من الأرض ، ولتقوم بالتالي بتبديل المناطق والرقع للإنتاج الزراعي والموارد المائية .

ولسوف تتأثر النباتات مرة أخرى بهذه الزيادات المنافية للطبيعة . ولقد بينت بعض الدراسات الحديثة بأن مضاعفة الأوزون سوف تنقص بمقدار ٢٠٪ إلى ٣٠٪ من مردود إنتاج الحبوب . وإذا لم يظهر حتى الآن أي برهان تجريبي لإيجاد علاقة سببية بين هذين الحادثين ، فإن زيادة مقدار الأوزون قد أقحمت إلى جانب الأمطار الحمضية كسبب عامل في إفناء بعض الغابات الأوروبية خلال الأعوام الأخيرة .

ويقتضي الأمر منا التذكير بهذه الأخطار بشكل مستمر ، وما تشمل من تهديد وقلق بالنسبة لمستقبل البشرية . فإذا لم نكن واثقين من حدوث الأسوأ فاننا سوف نرتعد خوفا إذا لم نستعد منذ الآن لمجابهته . لقد علمتنا دروس التاريخ أن نتوجس من الحرب ، وكان الحق بجانبنا ، لأن ذلك كان هو الأسوأ ، ولكن التدهور السريع للبيئة سوف يظل عدونا الرئيس في زمن السلم . □

البنزين والزمارة :

● اشترى أحد أثرياء الحرب الريفيين سيارة جميلة ، وركب عائدا إلى بلدته فرحا مسرورا ، وقبل الوصول توقفت السيارة ، فنزل السائق وأخذ يفحص الآلة ، وأخيرا قال متكدرا : إن البنزين قد نفد يا سيدي .

الحق عليك يا غبي فإنك ظللت من حين ركوبنا وانت تزمر بدون انقطاع .



وجهاً لوجه





د. مازن المبارك و د. أحمد قدّور

- اللغةُ تاريخٌ فكريّ للأمّةِ يصلُ بينَ أجيالِها.
- ينبغي للتعليمِ في كلّ مراحلِهِ أن يكونَ بالعربيّة.
- نقل ثمراتِ التقدّم العلميّ والفكري لا يستتبع تبنّي اللغاتِ التي كتِبَ بها، وإلّا تخلّت معظمُ الشعوبِ عن لغاتها الأصليّة.
- يُمكنُ الاستعانةُ بالمصطلحاتِ الأجنبيّةِ مؤقتاً حتى يتمّ إيجادُ بدائلَ عربيّةٍ لها.

الدكتور مازن المبارك واحد من الأساتذة الذين أسهموا في تطوير التعليم والثقافة على أسس متينة ، وهو ممّن جمع بين التراث والمعاصرة في منهجه اللغويّ الذي يستند أساساً إلى وعي لغويّ قوميّ ، وتجديد واعٍ ، يرفض كلّ المحاولات الرامية إلى اقتلاع جذورنا الثقافية . وقد نشأ الدكتور المبارك في دمشق ، وهو من مواليد عام ١٩٣٠م . ولا شك في أنّ البيئة العلمية التي عايشها في مطلع حياته قد أثرّت في توجيه خطاه القادمة . ويأتي في مقدّمة ذلك أهل بيته ، وكلّهم يشتغلون بالعلم ، جدّه هو محمّد المبارك ، وأبوه هو عبد القادر المبارك ، وإخوته عرف الدارسون والقرّاء آثارهم . وكان في تلك البيئة أيضاً رجال كثر ، وانبثق بين ظهرانيهم أول مجمع للغة العربية ، هو المجمع العلمي العربي بدمشق .

وجوانب الدكتور المبارك متعدّدة ، فهو باحث ، كتب أكثر من خمسة عشر كتاباً في اللغة والأدب والثقافة ما بين تأليف وتحقيق ، وهو أستاذ تخرّجت أجيال كثيرة على يديه في مراحل التعليم الأوليّ والجامعيّ وفي الدراسات العليا ، وهو محاضر بارز ، وعضو مشارك في الندوات الجماهيرية والمؤتمرات العلمية .

يحاوره في هذا اللقاء الدكتور أحمد محمد قدّور ، وهو باحث متخصص في اللغة ، وكاتب له بحوث ومقالات متعدّدة منشورة في الدوريات العربية .

* بدأتم منذ عام ١٩٦٣م بالدعوة إلى وعي لغويّ ، على أساس أنّ من مبادىء وعي الأمة لنفسها أن تعي لغتها . والسؤال الآن : ما الأسس التي قامت عليها دعوتكم ؟ وما الذي طرأ عليها من تغيّر ونحن في أواخر الثمانينيات ، أي بعد مرور ربع قرن من الزمان ؟

إنّ الوعي اللغويّ يعني إدراك أنّ اللغة ليست مجرد رموز تستعمل للتفاهم بين أبناء المجتمع الواحد ، ولكنّها تاريخ فكريّ للأمة ، يصل بين أجيالها ماضياً وحاضراً ومستقبلاً . ومنظار يحدّد كلّ مفهوم تعارفت الأمة عليه ، فمن خلال ألفاظها ، لا ألفاظ غيرها ، يدرك أبناء الأمة ما حولهم من حقائق الحياة والكون ، وبها يعبّرون عن أفكار أمتهم . وعلى هذا تكون اللغة الوجه

الآخر ، أو الصورة الناطقة ، للفكر الذي يخصّ الأمة . وإني أرى ، من جهة أخرى ، أنّ الوعي السياسي والقومي عند الأمة لا يبلغ مداه الأبعد ما لم يقترن بوعي لغوي سليم . وقد كشفت أحداث السنوات الأخيرة في المنطقة العربية أنّ اللغة هي العامل الأساسي في الوحدة ، ولذلك اتجه أصحاب الدعوات الإقليمية ، وما يزالون ، إلى التهوين من أهمية اللغة ، سعياً إلى التقاطع والانزواء وقوقعة المجتمعات الضيقة . ولن يؤدي هذا إلا إلى تفكيك وحدة الأمة ، والإكثار من كياناتها المتجزئة ، وإنشاء أجيال بلا هوية قومية .

فالوعي اللغويّ يستند إلى أنّ اللغة هي وسيلة للتواصل التاريخي والفكري ، ومنظار مستقبلي ، يضمن السلامة للأجيال الصاعدة ، وهي أيضاً أساس للوحدة السياسية ، تدفع إليها ، ثم تحافظ عليها. ولست أرى ـ رداً على الشق الآخر من سؤالك ـ تغييراً طارئاً على الأسس التي ذكرتها ، وكلّ ما يمكن أن يكون من جديد على الوعي اللغويّ هو أنّ ما مضى على الدعوة إلى الوعي اللغويّ أثبت صدقها في التوجه ، وأثرها في أجيال الأمة . وهذا ما يجعل إيماننا يزداد بضرورة العمل على تعميق العملية التربوية والتعليمية ، لكي تعمل اللغة عملها في التوحيد ثقافة وسياسة .

العربية والتعليم العالي

*** برز بُعَيْد الاتصال بالثقافات الأجنبية الاهتمام بقضية التعريب ، لاستيعاب علوم العصر وفنونه وآدابه ، وتطويع لغتنا للمعطيات الحديثة . ولا شكّ في أنّ الجهود المتواصلة ، منذ أكثر من نصف قرن ، قد رسّخت وجود العربية الفصحى لغةً حيّة ومتطورة في مختلف الميادين ، لكنّ أسئلة ما تزال تطرح على هذا النحو مثلاً : هل اللغة العربية قادرة على أن تكون لغة التعليم في مراحل التعليم العالي واختصاصاته كافة ؟ وهل تصلح اللغة العربية للتأليف العلمي ، ولا سيّما في العلوم المتطوّرة أو المبتكرة حديثاً ؟ وهل في العربية من المصطلحات ما يكفي لسدّ حاجة البحث العلمي والتأليف فيه على نحو ما رأينا من تطوّر العلوم ؟**

ـ لست أشكّ في أنّ العربية يجب أن تكون لغة التعليم في مراحله كلّها . وهي لغة قادرة على التعبير في العلوم المختلفة . كانت كذلك في الماضي حين عبّر بها العلماء ، وألفوا بها ، في الفلسفة والطبّ والفلك والكيمياء والرياضيات وغيرها ، ولم نجد أحداً يماري أو يجادل في استجابة العربية لأدقّ ما أرادوا التعبير عنه من المعاني في تلك العلوم ، وغيرها من سائر المعارف .

ثم تغيّرت الحال في هذا العصر ، فقد سَبَقَنا غيرُنا في ميادين العلوم ومناحٍ أخرى من الثقافة ، وبدأنا نأخذ عنهم ، لإنهاض أنفسنا ، مما كنا نعاني من توقف وتقهقر . لكنّ نقل العلم بأفكاره وحقائقه شيء ، ونقله بلغته شيء آخر ! فالأجانب الذين نقلوا عنا في الماضي الزاهر ، إنما نقلوا علومنا ، ولم ينقلوا لغتنا بالضرورة ، والأمم المعاصرة اليوم أيضاً تتناقل العلوم والثقافات ، ولا تتناقل اللغات . وفي تجارب كثيرة معاصرة نجد ما يثبت ذلك ، ففي تجارب الاتحاد السوفيتي واليابان ، وحتى « إسرائيل » ذلك الكيان المختلق ، ما يدل على أنّ نقل ثمرات التقدّم العلميّ والفكريّ لا يتطلّب المحافظة على اللغة التي تتضمن تلك الثمرات ، كي يكون النقل صحيحاً . إذ أنّ هذا يعني تخلّي معظم شعوب العالم عن لغاتها الأصلية ، حتى يصحّ استمدادها العلم والحضارة !

ثمّ إنّ إبقاء العلوم باللغات الأجنبية التي كُتبت بها يعني أنّ فئة قليلة من العرب اطلعت على ما جاء عن الفرنسيين ، وقلّة قليلة أخرى عرفت ما كتبه الإنكليز ، وآخرين اطلعوا على ما ألفه الألمان ، وهكذا تعرف كلّ طائفة ما كُتب من العلم باللغة التي أتقنوها ، فلا هم جميعاً عرفوا كلّ ما كُتب ، ولا جمهور المتعلمين عرفوا شيئاً عن ذلك . هذا إضافة الى نشوء ما يدعى بمراكز القوى العلمية ، إذ يكون للثقافة الإنكليزية نفوذ هنا مثلاً ، على حين يكون للألمان نفوذ مماثل هناك ، وهكذا . ويختلف الأمر حين ننقل العلم إلى العربية ، عن طريق أساتذة أتقنوا اللغتين موضوع الترجمة ، ومارسوا اختصاصهم بكفاءة ، لأننا ننقل - أو نستطيع النقل إن شئنا - من علوم الأمم كافة إلى الناطقين بلغتنا كافة ، فتكثر النوافذ ، وتعمّ الفوائد .

المصطلحات الأجنبية مؤقتاً

أما المصطلحات فلا يصحّ أن تكون عائقاً ، أو تتخذ حجّة في وجه التعريب ، ونقل العلوم من لغاتها الأصلية ، إذ لا يضير العربية اليوم أن يستخدم العلماء مرحليا المصطلحات الأجنبية بلغاتها ، على أن يجتهد المؤلفون في وضع أدقّ ما يقابلها في العربية ، أو شرحها وتحليل مدلولها في هوامش البحوث ، إلى أن تؤدي الجهود الناشطة أكلها في إيجاد المصطلحات الدقيقة والموحدة . أما أن يتوقف التعريب بحجّة أنّ المصطلحات غير دقيقة ، أو غير موحدة ، فأمر لا يخدم إلا أعداء العرب والعربية ، فالجهود الفردية والتنسيق الجماعي الممكن هما السبيل إلى الاستقرار في توليد المصطلحات .

الجامعات والبحث العلمي

*** وجدت من خلال حديثك السابق أنّ هناك سؤالا يمكن أن يطرح حول دور الجامعات العربية في التعريب ، وفيها يتطلبه البحث العلمي بعامة . علما بأن هذه الجامعات ما تزال تعاني من فقدان التوازن بين التعليم ، بوصفه عملاً تربوياً ، هدفه إعداد الكفاءات البشرية لعملية التنمية والتقدم الحضاري من جهة ، والبحث العلمي الذي يعمل على ابراز الإبداعات ، بعيداً عن القيود التي ترهق العمل التعليمي من جهة أخرى . والسؤال هو : ما مدى وفاء الجامعات بمتطلبات البحث العلمي عموماً ؟ وما السبل التي تنهض بالبحث العلمي ، في ضوء اقتصار بعض الجامعات على تخريج حملة الشهادات ، ممن يصلحون للوظائف ؟**

- مرت أكثر الجامعات العربية بمرحلة كان الهدف فيها تهيئة المتعلمين الذين تحتاج إليهم الدولة في إدارة وزاراتها ومؤسساتها بعامة ، ومؤسساتها التربوية بخاصة ، فكانت الجامعات تحقّق ذلك الهدف ، وتلبي تلك الحاجة . ثم زادت الحاجة كماً ، وتنوعت كيفاً ، فقامت الجامعات بإنشاء العديد من الكليات والمعاهد الجديدة ، سدّا لتلك الحاجة ، فنشأت كلّيات ومعاهد للزراعة والصناعة والإعلام والصحافة وغيرها ، أمّا البحث العلمي فقد كان يقوم في نطاق تلك الجامعات حيناً ، ومنفصلاً عنها حيناً آخر ، وكان من ذلك ظهور مراكز للدراسات والبحوث العلمية المختلفة . ولكنّ الحقيقة أنّه ما زالت مشكلة المزج بين رسالة التعليم ورسالة البحث العلمي قائمة في كثير من الجامعات العربية . ومن الجدير بالذكر أن بعض الجامعات حاولت التغلب على المشكلة بوضع نظام يتيح

لـلأستاذ الجامعي أن يتفرغ مـدة قصيرة ، لا تتجاوز سنة واحـدة ، تكون خـالصـة للبحث العلمي في بلد الجامعة أو في مكان آخر . لكنّ هذا النظام - كما أعلم - لم يعط النتيجة المرجوة منـه . والأفضل في رأيي هـو مـا جـرت عليـه جـامعات أخرى من تأسيس مـراكـز مخصّصـة للبحث العلمي ، بعيـداً عن العمـل التعليمي المرهق .

توظيف اللسانيات

*** يطرح بعض المفكرين والـدارسين في إطار مـا يعـرف بقضيـة التـراث والمعـاصرة أفكـاراً تتصـل بـتـوظيف اللسانيات Linguistique في دراستنا اللغـويـة ، وقـد سبـق هـذا اختـلاف الدارسين عندنا حول مناهج الدراسة اللغوية ، لا سيّما ما اتصل بالوصفية والمعيارية . فما رأيكم بداية بتوظيف المعطيات اللسـانيـة الـوافدة ؟ وهـل تتوقعون منافسة يمكن أن تكـون بين فقه اللغة واللسانيات المترجمة ؟**

- أنت تعـرف بـأنني لا أنـظر إلى التـراث والمعاصرة ، أو القديم والحديث ، تلك النظرة الحادّة التي تقبل هـذا وترفض ذاك . فـلا مجال عنـدي لإجلال القـديم لقـدمـه ، أو لاحتقـار الحديث لتأخر زمانه ، فكلّ قديم كان حديثاً في عصره ، وكلّ حديث يغدو قديماً حين يتجاوزه الزمن . وعلى هذا فأنا أنظر في الدراسات القديمة والحديثة مستوضحاً الحقائق والمناهج والنتائج ، وأدع ما سوى ذلك من الأسماء والمصطلحات .

وأظنّ أنني لا أستطيع في هذا المجال الحكم الدقيق على الذين كتبوا في الـدراسات اللغـوية عنـدنا ، لأنهم ليسـوا على رأي واحـد أو منهج واحـد ، فهم كثيـرو الاختـلاف ، متعـددو المذاهب ، بل لعل لكل واحـد منهم مذهبـاً في الدرس يخالف غيره فيه . وإنّ أغرب ما في الأمر حقّاً هو أنّ عدداً من الدارسين الشباب ، لا سيّما الوافدين من الجامعات الأجنبية ، يصرّون على البداية من درجة الصفر ، تجـاهلاً لجهود من سبقهم أو مـا زال يعاصرهـم . ولعلّك تـذكـر إصـراري على الإشـارة إلى جميع السـابقين من الدارسين وإن كان الباحث يخـالفهم ولا يأخـذ بشيء من آرائهم ، لأنّ هذا قاعدة من قواعـد البحث الصحيح .

ومهـما يكن من أمر فـإنني أرى أنّ من عـدّة الباحث أن يكون متقناً للغة التي يدرس ويكفينا في هذا الصـدد ، للحكم عـلى ما يكتبـه بعض الدارسين المبشرين بالحداثة أن ننظر في أسلوب درسهم واستعمـالهم للدلالات ، وليس هـذا الشرط شرطاً تعجيزياً ، هدفه إحباط المـواهب الشابة ، إنّما هو شـرط بديهي ، إذ كيف يتسنّى للمـرء أن يصدّق من يـزعم أنه سيـأتي بنظرية رياضية ، وأنت تـراه يخطيء في تعـداد الأرقام وعمليات الجمع والطرح ؟ ! كذلك أرى أنّ من عدّة الباحث أن يكون عارفاً بالمناهج الدراسية ، قديمها وحديثها ، حتى يأمن الزلـل والخلط بين هذا المنهج وذاك . وهناك أيضاً ضـرورة إدراك الباحث للغاية التي يرمي إليها في بحثه .

أما من حيث قيام منافسة بـين فقه اللغـة أو علوم العربية من جهـة ، واللسانيـات من جهة أخـرى ، فأنـا أنـظر إلى الأمـر من زاويـتين : الأولى : الإفادة من اللسانيات ، وهو أمر وارد ومشروع في جميع ما عرفنـا من دراسات لغـوية عربية ، قديمة وحديثة ، عـلى أن تكون الخطا مدروسة ، كيلا نوقع الضيم على لغتنا ، كما فعل عدد من الدارسين . ومن الجدير بالذكر هنا أنّ الإفادة من الجديد لا تعني عندي ضرورة تطويع اللغة للانقياد للمعطيات الأجنبية بأي شكل من

الأشكال ، فهناك خصائص ذاتية ، تجعل هذه اللغة مختلفة عن تلك ، وكلّ محاولة للقسر أو التعميم تبقى مرفوضة . والزاوية الثانية هي اللسانيات ، من حيث الاختصاص المعرفي ، وهذا أمر يمكن قبوله على أساس الإضافة والزيادة ، لا على أساس إحلال هذا محلّ ذاك ، فاختصاص اللسانيات الذي نراه يدرّس في أقسام اللغات الأجنبية يشمل الأصوات والصرف والقواعد والدلالة ، ضمن بحث نظري معمّق ، لا يسعى إلى فرض القواعد وتعليمها ، بل يسعى إلى وصف الحقائق وتعليلها . وهذا مقبول إن أحسنا البناء على شاكلته ، وتفاصيل هذا الأمر تطول .

الفصحى والعاميات

*** في سياق الجدل الذي ما يزال يدور حول الفصحى والعاميات طرح بعض الأساتذة فكرة : حتمية العناية بالعربية الفصحى ، لكنّ أصواتاً من طرف آخر تُسمع حول المحافظة على تراث العاميات في الحياة والدرس العلمي . والسؤال الآن : ما الأسس التي تقوم عليها فكرة العناية الحتمية بالعربية الفصحى ؟ وما رأيكم في هذا الشكل الجديد من مناصرة العاميات عن طريق إدخالها في البحث العلمي ، تحت ستار الحياد الأكاديمي ؟**

- اسمح لي بتوضيح لعله فاتني حين أجبتك عن السؤال السابق ، وهو أن التراث ليس على سوية واحدة ، فمن التراث ما يستمد قيمته من مجرد كونه تراثاً ، ومنه ما يستمد قيمته من كونه تراثاً أولاً ، ومن كونه ما زال حيا فعالاً ، يفيد الوارثين في حياتهم الحاضرة والمقبلة . ولا منازعة في الإفادة من التراث الحيّ ، أما التراث الآخر فحسبه أن يعامل معاملة الآثار التي تحفظ في المتاحف .

وإحياء التراث ينبغي أن يكون ضابطه المصلحة العامة للأمة ، فما وافقها أحييناه ، وما لم يتفق معها جمّدناه . وواضح أنّ الفصحى بالمعنى التاريخي تراث ، ولكنه تراث حيّ فعّال ، ولذلك وجب أن نعمل على تطويرها والمحافظة على كيانها . أما العاميات فليست كذلك ، لأنها أولاً عاميات شعوب وأقطار ومدن وقرى وأحياء ، وهي نتاج مرحلة من مراحل الضعف والتجزئة والتخلف . فأيّها أولى بالإحياء والتطوير الفصحى الواحدة الموحدة ، أم العاميات التي لا تكاد تُحصى كثرةً والتي تفرّق ولا تجمّع ؟ ثم إننا في عصر تطلع وحدوي ، والفصحى وحدها هي التي تصلنا بتراثنا الديني والفكري والثقافي ، وهي وحدها التي تجمع بين شعوبنا على اختلاف الأقطار وكثرة الحدود . فلا مناص من العناية بالفصحى إذا صدقنا في توجهنا وأدركنا من أثرها ما رأينا .

أما ما يتصل بالحياد العلمي ، وما أشبه ذلك ، فأنا أعلم أنّ الأمم تسخّر العلوم على اختلاف أنواعها لمصلحة شعوبها وتحقيق غاياتها . فإذا كانت غاية العرب اليوم تحقيق وحدتهم ، فكيف يصحّ في الأفهام أن يتخذوا من موضوع العاميات وسيلة للتفريق والتمزيق ، على حين أنّ أمامهم لغة واحدة وموحِّدة ، هي الفصحى التي وعت أعظم تراث عرفه الناس . ومهما قيل تستراً على غايات لم تعد مجهولة ، من ضرورة الحياد في البحث العلمي حتى تكون نتائجه صحيحة ، فإنّ هذا ليس المعيار الوحيد الذي تقاس به الأمور ، لأنّ النفع والضرر أهمّ من ذاك المعيار وأبقى . فإحياء دراسات العاميات في بعض الجامعات العربية ، أو السعي إلى إحياء

العاميات لدى جهات أخرى ، ليس بالأمر الخفيّ الذي يتطلّب كشفاً ، بل هو موجة معلنة ، لها دعاتها وأنصارها ، ولها إمكانات تفوق ما تنفقه بعض الدول على أهمّ مجالاتها .

المعجم والموسوعات

*** استكمالاً لما ورد حول العناية بالعربية الفصحى أريد أن أعرف رأيكم حول المعجم العربي المنشود ، وهو المعجم الذي ما زال حلماً . كما أودّ أن تذكروا لنا شيئاً حول الموسوعات التي تؤلف هنا وهناك ، لا سيّما وأنت تشارك في معظمها .**

ـ حديث المعجم المنشود حديث ذو شجون ، فقد تتابعت على اقتراحه السنون ، وتكاثرت الشروط والمناقشات ، ولقد صدقت حين وصفته بأنّه حلم ، فهو كذلك ، لكنّه حلم وأمل مشروع ، لأنّ ما قيل حوله وما كتب يؤكدان ضرورة تحقيقه ، خدمة لأبناء هذه اللغة الذين يتوقون دوماً إلى تحقيق ما عرفوه من منجزات الحضارة لدى الأجانب . ومن حقّهم أن يكون للغتهم معجم على غرار ما رأوا في المعاجم الأجنبية . ولكنّ دون تحقيق هذا المعجم صعوبات جمّة ، لعلّ أهمّها ضعف التنسيق بين الجهات القادرة على إنجازه . هذا مع توافر الإمكانات المادية والعناصر البشرية الجديرة بالنهوض به . أمّا إذا قصدت أن أبدي لك رأيي في خطّة هذا المعجم فلن تظفر بجديد ، لأنّ عشرات البحوث والمقالات أتت على معظم ما يمكن أن يكون عليه المعجم المنشود من مادة وتبويب وإخراج ، وما سوى ذلك .

ولا شك في أن هذا العصر قد شهد حركة تأليف معجمية واسعة ، لكنّ الحاجة ما زالت تدعو إلى إنجاز معاجم جديدة ، لأنّ اللغة في تطوّر مستمّر ، وتطوّرها يتناول المعاني الجديدة والألفاظ المستحدثة ، وهي معانٍ وألفاظ متجدّدة متكاثرة ، لا تقف عند حدّ ، ولا تنتهي عند زمان معيّن . ولقد كان الاتجاه إلى تأليف الموسوعات الشاملة واحداً من اتجاهات التأليف المعجمي في هذا العصر . ولا شكّ في أنّ المحاولات الأولى في هذا الصدد كانت رائدة ، لكنّها لم تتتابع على ما ينبغي ، فكان الانقطاع الذي شهده هذا الاتجاه . وفي سبيل تلافي هذا الانقطاع أسس مشروع « الموسوعة العربية » في دمشق ، وهي موسوعة شاملة لكلّ العلوم . وسوف أتحدث عنها وعن مشروع آخر هو معجم « العماد » الموسوعي ، نزولاً عند رغبتك ، علماً بأنّ هناك مشروعات أخرى ، تتبناها بعض الأقطار الشقيقة في هذا المجال أو غيره من مجالات الثقافة .

وتهدف « الموسوعة العربية » إلى توفير مرجع علمي عربي ، يتناول جميع جوانب المعرفة ، ويضع بين يدي القارىء العربي المعارف الإنسانية ، ويعرفه بقضايا العصر وعلومه ، ويوثّق صلته بتراثه وماضيه ، ويلبّي الحاجة الثقافية للمجتمع العربي . وتضّم هذه الموسوعة أقساماً : الحضارة العربية ، والآداب واللغات ، والعلوم الإنسانية ، والعلوم البحتة ، والعلوم الطبّية ، والعلوم القانونية والاقتصادية ، والتربية والفنون . ويعمل في هذه الموسوعة عدد كبير من المحرّرين والخبراء ، وقد رصدت لها إمكانيات جيدة . وهناك اتجاه آخر ، يجمع بين المعجمية والموسوعية ، ويمثّله معجم « العماد » في اللغة والعلوم والفنون والاعلام ، وهو معجم موسوعي ، يُؤَلَّف الآن في دمشق ، على طريقة المعاجم العربية في ترتيبه ، ويختلف عن الموسوعة في إيجاز تعريفاته وبحوثه . ولا شكّ في أنّ كلاً من هذه الاتجاهات المعجمية يلبّي جانباً من حاجة القارىء العربي ، وهي حاجة متجددة ، لا تلبّيها إلا معاجم دائمة التطوّر والتجديد . □

أفكار لا تموت

(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .



هل نؤلف أو نترجم؟

ماهيَ حَاجَةُ الأقطار العَربيّة اليَوم؟

أحمد لطفي السيد *
١٨٧٢ - ١٩٦٣

الترجمة هي الطريق الطبيعي لنقل العلوم الى بلادنا ، وهي الطريق الذي سلكته كل مدنية من المدنيات الماضية ، سواء في ذلك الرومان والعرب وأوربا في نهضتها الحديثة . الترجمة عندي ضرورية في هذا العصر الى حد أني لا أظن أنه تصح المعارضة بينها وبين التأليف . إنما يكون التأليف بنقد المذاهب الموجودة في العلوم المختلفة ، وبيان الفاسد والصحيح منها ، والزيادة على النظريات المعروفة بنظريات جديدة ، واكتشاف ما كان من قبل مجهولا . وهذا النوع من التأليف ليس موجودا في بلادنا ، بل الموجود منه هو مختصرات دراسية للطلبة في المدارس . وهذا ضروري في هذا الوقت . ولا أشك في أنكم تسألونني عن التأليف على المعنى الأول ، ذلك التأليف الذي يقوم به العلماء الذين يزيدون على الموجود من النظريات العلمية ، ويفتحون ببحوثهم آفاقا جديدة للرقي العلمي من بعدهم . لسنا وحدنا ، من أجل تخلفنا في العلوم المختلفة ، بحاجة الى الترجمة ، بل الواقع أنك لا تجد مؤلفا قيما في الأدب أو في العلم يظهر في أية أمة إلا ويترجم باللغات

* مجلة الهلال العدد الثالث المجلد ٣٣ عام ١٩٢٤ .

الأخرى . وإذا كانت هذه هي حال الأمم التي نتعلم منها كل شيء فكيف بنا وقد وقفت الحركة العلمية في بلادنا منذ زمان طويل ؟ ولهذه المناسبة أؤكد لك أن الحاجة أشد ما تكون مساسا الآن ، الى أن تشرع الحكومة بإنشاء دار ترجمة ، تقوم بنقل أمهات الكتب في العلوم المختلفة الى اللغة العربية .

ـ أيهما أولى بالتقديم الآداب أم العلوم ؟

* الواقع ان الحركة الأدبية تتقدم الحركة العلمية دائما . كذلك كانت سنة الأولين . فإن الآداب اليونانية قد تقدمت العلم اليوناني . والآداب العربية تقدمت العلم العربي . والنهضة الحديثة في أوربا بدأت بالآداب ثم ثنت بالعلوم . فلسنا إذن مختارين في أن نبدأ بأيهما شئنا .

وأهم ما نتفع به من الآداب الأوربية هو أنماط الكتابة وطرائق ترتيب الفكر . فترجموا من أي لغة شئتم ، فما ترجمتموه سيأخذ الطابع العربي بعد ذلك أيا كان مصدره . لكل أمة أدب خاص يأتلف وتقاليدها القومية واعتقاداتها الدينية وعاداتها وأخلاقها ومركزها الجغرافي . أما في العلوم فإن المستوى العلمي في الأمم الراقية التي يحسن الأخذ عنها يكاد يكون واحدا . فليس التمييز في الأخذ عن الألمانية أو عن الفرنسية أو عن الانجليزية مهما في ذاته ، بل المهم هو الابتداء منذ اليوم ، لأن كل يوم من أيام التأخير في الابتداء يؤخر في النتيجة لا أياما فقط ، بل سنوات طوالا .

وربما كنت أميل ، فيما يتعلق بالفلسفة ، الى ترجمة اليونانيين ، وعلى الخصوص ارسطو طاليس ، حتى لا تقع رجة عنيفة بين برامجنا العلمية وبين عقائدنا القومية . وأما في الآداب فترجمة المعاصرين أجدى . وأما في العلوم فخير لنا أن ننقل الى بلادنا أحدث الكتب .

وأظن أن حاجتنا أشد مساسا الى ترجمة دائرة معارف عامة ، كدائرة المعارف الكبرى الفرنسية أو الانجليزية ، فنضيف إليها ما ينقصها مما هو خاص بنا . ولا شك في أن سفرا كهذا سيكون جليل الأثر جدا في المعاهد العلمية التي لا تعلم فيها اللغات الأجنبية ، بل مثل هذا الكتاب يمكن اعتباره بحق في حالتنا الحاضرة المرقاة الأولى الى البحث العلمي المفيد . ويحزنني أن أصرح بأن محاولة مثل هذا النقل تفوق طوق الواحد ، وطوق الجماعة الحرة ، بل لابد من مداخلة الحكومة ، فهي وحدها القادرة على مثل ذلك . لقد كانت الحكومة فيما مضى تعلم النشء ليصلحوا لإدارة الحكومة فقط . وعندي أن الوقت قد حان لتعليم العلم للعلم . وهذا الغرض لا يتحقق إلا بإنشاء جامعة يكون التعليم فيها حرا من القيود ، وتكون إدارتها موكولة الى أساتذتها الذين يجب أن يكون جلهم من كبار الأساتذة . □

أغرب الوصايا :



● أوصت أرملة في فيينا أن تذهب جوقة من الموسيقيين مرة في السنة إلى قبرها في مثل يوم وفاتها ، فتعزف على القبر أنغاما شجية ساعة من الزمن .

● وأوصى أديب أن تباع جثته بعد موته ، وأن تسدد بثمنها بعض ديونه .



الليل .. الرحم

مجموعة قصصية من تأليف : محمد روميش

بقلم : حسين عيد

«إن الكتاب الذين تناولوا القرية المصرية في أعمالهم الإبداعية كثيرون ، لكن قليلا منهم من غاص إلى أعماقها بصدق ، ملتحما بترابها وطينها ، متقبلا كل مافيها بوَله ، حتى قبلته القرية عاشقا متيما لها ، فأسبغت عليه نعمتها ، وفتحت له مكنوز أسرارها .

من هذا النوع النادر من الكتّاب ، كان محمد روميش في مجموعته القصصية «الليل .. الرحم »

شاد محمد روميش بناء القصص الفني في هذه المجموعة على محورين أساسيين ، أولهما التجسيد المرئي أو الحضور القوي لأبعاد المكان الخارجية في القرية بأدق تفاصيله . ساعده على تحقيق هذا التجسيم عدد من العوامل هي : الوحدة الفنية المتكاملة لقصص المجموعة ، والاستفادة من تقنيات الفن السينمائي في تقديم زوايا الرؤية والاعتماد على الصورة ، وتوظيف لغة بسيطة ، سلسة ، ذات قاموس هائل مستوحى من مفردات البيئة ، ومن خبرات معيشية واسعة بالقرية ، مع فهم واع لطبيعة المكان ، واستيعاب كامل لطقوسه وشعائره وعاداته وموروثه الشعبي .

وسأتناول كلا من هذه العوامل بشيء من التفصيل .

الوحدة الفنية لقصص المجموعة :

جاء اختيار الكاتب لقصصه السبع التي كونت المجموعة اختيارا موفقا ، لأنها شكلت فيما بينها وحدة فنية ، تكاملت فيما بينها ، لتبعث

الحيوية في حياة قرية بعينها، هي قرية «تلبانة»، وتشيد أركانها المختلفة ببساطة متناهية. إنها بساطة الفنان التي تظهر عمله عفويا تلقائيا، لكنها تخفي وراءها جهدا شديدا.

تعدد زوايا الرؤية:

استفاد محمد روميش من تقنيات الفن السينمائي في خلق حضور قوي أو تجسيد مرئي لأبعاد المكان، من خلال استخدامه لتعدد زوايا الرؤية،وفن المونتاج أو القطع،والانتقال الزماني والمكاني، في تقديم مشاهد متتالية، تعتمد المشهد وحدة للبناء، وإن جاوره أحيانا بصوت الراوي التقليدي معقبا أو معلقا على الأحداث. والأمثلة عديدة، سأعرض لبعض منها من قصة «النشيد من الأفق الغربي»:

تبدأ القصة بمشهد افتتاحي لحقل «الوسية» في الظهيرة من خلال لقطة بعيدة: «ثم توارى الجحيم.. كانت تصبه الشمس، فتصنع الحقل، حقل «الوسية» الواسع، فرنا كبيرا، يشوي مابه من ناس. ومن بعيد، من حيث تلتقي السماء بحقل القطن، أقبلت نسمات تجفف العرق، تعانق رؤوس الشجيرات، تموج اللوزات المتفتحة بلونها الأبيض الشاهي، فيبدو القطن بحرا كبيرا صاخبا، يغطي الزبد صفحة مائه..»

هذه اللقطة البعيدة «تبقى على العلاقة بين الناس ومايحيط بهم»، وهي تصور من مسافة كبيرة، و«تستخدم أيضا كإطار مكاني لتحديد اللقطات الأكبر، وهي لهذا السبب تسمى أحيانا (اللقطات المؤسسة)»، وهي هنا تؤسس لعلاقة أساسية، تسود غالبية قصص المجموعة، وهي اضطرار الفلاحين للعمل كأجراء في حقل «الوسية» من أجل لقمة العيش، وهي لقطة موحية، فهي تمثل حقل «الوسية» وكأنه فرن يشوي مابه من ناس، حتى غدا قطعة من الجحيم (جحيم الاستغلال البشري) من ناحية، لكنها من ناحية أخرى تبرز من طيات هذا الجحيم محصول القطن، وقد تحول بشكل جمالي، إلى بحر صاخب يغطي الزبد ماءه.

يلي ذلك قطع، وانتقال إلى مشهد آخر، عبارة عن لقطة كبيرة لوجه بطلة القصة «ست أبوها»:

«وابتسمت ست أبوها، وهي تتخفف من الخرق التي تلفها فوق رأسها وحول رقبتها عازلة أشعة الشمس من أن تحيل وجهها التفاحي البشوش، قطعة فحم».

إن اللقطة الكبيرة التي «تضخم حجم الشيء مئات المرات، فإنها تميل إلى رفع أهمية الأشياء، وتوحي في الغالب بمغزى رمزي». والمغزى هنا سيتضح فيما بعد، لأن «ست أبوها» تحافظ على وجهها من أجل حبيبها «ابراهيم»، وعندما تفقده بعد ذلك فإنها لاتهتم في نهاية القصة بالحفاظ عليه، فتحرقه الشمس. كما أن ظهور وجهها «التفاحي البشوش» يوحي بالإقبال على الحياة والتطلع المتفائل إلى المستقبل.

قطع ليتسع المشهد، ويظهر ابراهيم داخل «الكادر» في لقطة متوسطة:

«وأطال ابراهيم تأمل ست أبوها، وأسقط في قلبه، ملاحة البنية، ووقف بعينيه على خديها المتوردين.

«ست أبوها مش للغيط يأولاد».

هذه اللقطة الثنائية بدت «كطريقة لتوكيد سيطرة شخص على آخر» فأظهرت مشاعر ابراهيم تجاه «ست أبوها»، بما يقوده للانتقال تلقائيا ليحث نفسه معجبا بفتاته، وبأنها لم تخلق لشقاء «الغيط»، وتكون هذه اللقطة أيضا تمهيدا للانتقال مباشرة إلى الحلم.

قطع، مونتاج مكاني، أي الانتقال من المكان الحالي إلى مكان آخر: «رآها بكرت في داره، كنستها وجزءا من الحارة، ملأت

«البلاص» من الترعة ، ورجعت في يدها حزمة حبابحر ، أخضر معطر ، تقربه إلى أنفه .
- قوم ياابراهيم السمس علو الدنيا .
- ياشيخه سيبيني شوية .
- وحياة سيدي ذى النون م اسيبك»
هذا المشهد الحلم يتداعى منطقيا عن تطلعه إلى حبيبته «ست أبوها» ، فيراها في بيت الزوجية المرغوب تباشر مهامها المنزلية وتداعبه .

لكن الواقع يعود قاسيا ، يلح ، ليقطع الحلم ، بمشهد آخر للقطة قريبة : «واعترضت ساق ابراهيم شجرتا قطن ، تشابكت فروعهما ، شق طريقه وسط الأغصان المتشابكة ، أحس اللسع ونقط دم صغيرة قانية متجمعة على ركبته ، مسح الدم بقطعة قطن دسها خلسة في عبه . .»

هذه المشاهد المتتابعة ، ذات اللقطات المتنوعة ، لجزء من صفحة البداية ، لقصة «النشيد من الأفق الغربي» ، تصور بشكل مقنع حضورا مجسما لجزء من واقع القرية مستفيدا من تقنيات الفن السينمائي .

توظيف لغة بسيطة

اللغة هي أداة الكاتب المبدع في مجال الأدب الذي يعتبر «الوسيلة لتوصيل التجارب ، والتجارب نفسها لاتحدث على صورة ألفاظ ، وتجارب المؤلف يجب أن تترجم إلى الألفاظ التي هي رمز لها ، لكي يستطيع القاريء أن يحيل هذه الرموز بدوره إلى تجارب ، وفي كلا الحالين لابد من تخيل تلك التجارب» .

لغة قصص محمد روميش لاتميل إلى التأنق اللغوي ، بل هي لغة بسيطة ، سلسة ، تضيء انتماء الكاتب لقريته ولناسها البسطاء ، فكان منطقيا أن ينعكس هذا الانتماء في استخدامه لغة حياتهم اليومية مضمخة بقدرات فنية ، لتتنامى داخل وجدانه معبرة عن عالم القرية . فجاءت مفرداته دقيقة ، واضحة ، مركزة ، مشحونة ، موجزة تملك في تتابعها ثراء امتداد غيطان الريف ، وتستلهم جماليات نحتها من أرض واقع القرية .

دراسة اللغة في هذه المجموعة تحتاج إلى بحث كامل ، لكنني سأكتفي بالقاء بعض الأضواء الكاشفة على بعض ملامحها :

«الشمس هناك على مدد الشوف كحفرة مملوءة بالأوالح المتوهجة ، وهي لقربها ، تستطيع - كما يقول عم زناتي - أن تخطفها بيدك . . أبو قردان عائد ليقضي ليلة فوق أشجار الجميز العجوز حول قريتنا ، جماعات ، جماعات ، كأثواب القماش الدبلان تحملها الرياح . . في الحقل ، خرج الناموس . .»

انظر لهذا الافتتاح القوي المتفجر باسم «الشمس» لقصة «الليلة الجاية» ثم الوقوف عندها مستدركا هناك «وكأنها ليست أي شمس ولكنها شمس ممددة في موقع معين» . ثم التوقف ثانية ، منبها موقظا حواس القاريء ، ليستطرد منميا ، ايقاعاً متصاعداً على «مدد الشوف» .

انظر لهذا التتابع الموسيقى المتنامي بجرسه الهاديء النابع من نبت القرية . إنه لم يقل : «على مدد البصر» أو «على امتداد النظر» ، بل نقلنا مباشرة إلى جو القرية ليكتمل (إحياء) المعنى بتشبيه مستمد من البيئة ، حين بدت الشمس «كحفرة مملوءة بالأوالح المتوهجة» ، ثم يضيف إلى هذا التشبيه تشبيها آخر ، يؤكد قربها الشديد أو هو يبالغ في تقريبها - كعادة أهل الريف - بأنك يمكن أن تخطفها بيدك . وانظر أيضا لاختيار لفظ (تخطفها) لأنها شيء نتمنى جميعا لو نملكه أو نقتنصه بمعنى أصح . ثم يضع الكاتب نقطتين ، يتريث خلالهما بصر القاريء قليلا ، للانتقال إلى ملمح آخر داخل إطار الصورة نفسه عن أبي قردان .

ويجب أن يلاحظ القاريء أن كل تشبيهات محمد روميش ، نابعة من البيئة القروية ،

كمشهد أبي قردان الذي شبهه بأثواب القماش «الدبلان» التي تحملها الرياح ، ولايفوتك تكرار كلمة جماعات التي تعطي إيقاعا حركيا ، كحركة أجنحة الطيور خلال طيرانها . هذا الملمح نفسه نجده عندما تتذكر إحدى الشخصيات بيوت عائلة (السوالم) «التي سمع من أبيه أنها قامت كالنبات الشيطاني» .

هنا تشبيه يوحي بعدم شرعية بيوت عائلة (السوالم) ، وأن ثراءها قام على غير حق ، وأنها احتلت مكانتها في القرية دون استحقاق أو عرق ، تماما كالنبات «الشيطاني» الذي يبزغ فجأة دون مبررات ، دون أن يضع أحد بذرته أو يمهد له الأرض ، وأيضا ـ ربما ـ يحتل مكانا غير مناسب .

ويكون منطقيا أيضا مع كاتب هذا دأبه أن يكون حوار شخصياته بمفرداتها الحية نفسها ، وإن أعمل فيه قدراته الفنية من تكثيف وتركيز ، ليأتي معبرا عنها ، باعثا فيها دفقات حياة نضرة متتالية .



● غلاف الكتاب

وأورد هنا نموذجا واحدا من كثير ، حين يتحاور عجوزان في قصة «النشيد من الأفق الغربي» ، وهما «عواد» رفيق ابراهيم في أزمة مماته في الغربة ، و«ست أبوها» الصابرة التي لم تتزوج بعد موت عشيق صباها .

ـ «تب ريحي نفسك شوية» .

ـ ياواد ياعواد الراحة بعد لقا الله» .

حوار موجز حي مؤثر ، ولاتنس جملة : «ياواد ياعواد» وهي تخاطبه على الرغم من أنه عجوز ، عجوز لكنها إحدى لازمات أهالي الريف التي ترادف أيًّا من اكتشافاتهم (الذكية) فجاء وقعها بليغا ، أي كأنه كشف ، تلفت نظره إلى أهميته ، مظهرة في الوقت نفسه ضآلة العجوز عواد إزاء خبراتها العميقة بالحياة .

فهم واع لطبيعة المكان

لعل حياة الكاتب العريضة بقرية «تلبانة» ، وما اكتسبه من خبرات عميقة بالحياة فيها ، إضافة إلى انتمائه وحبه العميق لها ، كانا وراء استيعابه الكامل لطبيعة المكان بكل مايكتنفه من عادات وطقوس وشعائر وموروث شعبي . وهو ماكفل له ـ أو كان عاملا مهما ـ بعث المكان حيا في ثنايا قصصه ، وكان سندا أساسيا في إبراز الرؤية التي تبلورها .

دائرة الحياة الحزينة للسكان :

إزاء التجسيد المرئي لأبعاد المكان المبني موضوعيا في القصص ، ضفر محمد روميش خلاله بناء دراميا لمصائر شخصياته . ونجد أن القصص من هذه الزاوية يمكن تقسيمها إلى قسمين ، يمثل القسم الأول القصة المشهد ، وتتضمن قصص «فرح سلامة» و«الليلة الجاية» ، و«طرح المجد» و«عين الحياة نظيرة» ، وهي قصص قصيرة نسبيا ، يتوافر في كل منها عنصر الوحدة الزمنية ، وفي فترة زمنية محدودة قد تمتد عدة ساعات ، إضافة إلى أنها

تعالج فكرة محددة ، وعادة يتوافر فيها وحدة منظور زاوية التصوير التي تتبع شخصا بعينه خلال تحولاته النفسية المختلفة ، أما القسم الثاني فيمثل القصة المطردة الأحداث ، ويتضمن قصص «النشيد في الأفق الغربي» ، و«كل شيء حقيقة» ، و«الليل الرحم» ، وهي ممتدة الطول ، تطرد للأمام في الزمن الذي قد يستغرق سنوات طويلة ، وتعالج موضوعا أشمل وأوسع في الحياة الإنسانية ، وتتنوع فيها زوايا الرؤية التي تتبع مصائر بشرية متعددة .

ولو راقبنا مصائر الشخصيات التي تتبلورها رؤى هذه القصص، لوجب أن نستعيد قصتين : الأولى «فرح سلامة» ، لأنها توضح المنغصات المالية التي يعانيها أب ، حين يرضخ لمطلب ابنه ويزوجه ، ويتكبد في سبيل ذلك رهن قنطاري قطن من المحصول الذي لما يجنه بعد ، إضافه إلى رهن الجاموسة وغرفة معيشة في بيته ، أما القصة الثانية فهي «الليلة الجاية» فسوف يتم استبعادها لاحقا ، بعد أن تتضح مبررات هذا الاستبعاد .

مركز ثقل

والآن لو أعدنا ترتيب قصص المجموعة الخمس الباقية حتى يتيسر للقاريء من خلالها تتبع مصائر الشخصيات ، لرأينا أن قصة «النشيد في الأفق الغربي» تمثل مركز ثقل للمجموعة ، فهي أطول قصص المجموعة على الإطلاق ، وفيها تتجسد مصائر الشخصيات ، مبلورة رؤية الكاتب ، حتى تكاد القصص الباقية أن تغدو عبارة عن تعميق أو توسيع أو إضافة لأحد جوانبها . فيها شخصيتان رئيسيتان هما «ابراهيم سالم» و«ست أبوها» محبوبته . يبدآن من أرض مشتركة ، فكلاهما أجير في أرض (الوسية) ، يخضغان في العمل لقهر الطبيعة (القاسي) ، وقهر خولي (الوسية) وعنفه الضاري مع الأجراء بلسانه وبذراعه الثقيل ، لكنهما يتخففان من ضغط هذا الواقع باللجوء إلى الحلم ، حلم الزواج المشروع والهناء القادم .

لكن حلمهما سرعان مايتبدد حين يأتي الانجليز مع عساكر «الهجانة» و«الغفر» ويحاصرون القرية ، ويجمعون كل رجال البلد ، ليأخذوهم للعمل (سخرة) في حفر الطرق اللازمة وشقها لمد السكك الحديدية . وهناك تحت قسوة المعاملة اللاانسانية يموت ابراهيم . لكن «ست أبوها» تصر على أن تبقى وفية لحبيبها الراحل ولاتتزوج أبدا .

شخصيتان متوازيتان بائستان تشتركان في معاني المعاناة من أجل لقمة العيش بالعمل كنفرين أجيرين في حقل (الوسية) ، يقبلان على مضض قهر الواقع المحلي ، لكن قهر الواقع الخارجي (الممثل في المحتل الأجنبي وأعوانه) سرعان مايتدخل ، فنجد ابراهيم يتقبل هذا القهر الجديد ، بهذه القدرة المتوارثة لدى أهل الريف منذ أجداد الجدود بالقبول والرضا والتحلي بالصبر إزاء المكاره ، فيقول «وهو كله شغل يابوخليل .. في غيطان الوسية .. في جبل الانجليز .. في أرض العمدة .. كله شغل .. كله شغل .. وبني آدم .. علا «أو نزل» نصيبه كله لقمة عيش .. هدمة تستر جسده .. والآخر حتتين قطن على فمه ووراء ظهره» .

إنه إرث قديم وفلسفة حياة ، تورث القناعة والرضا ، وتصل إلى حد الزهد في مباهج الدنيا ، وتوجز أمر الحياة مهما علا شأن صاحبها أو نزل ، بأنه إلى الموت سائر ، حيث لامهرب ، هكذا انقضت صفحة ابراهيم . أما «ست أبوها» فلم يشفع لها أنها كانت ذات يوم (بنت أصول) ، فحين مات حبيبها (اختارت) طريقها ، فنعمت بسعادة ذاتية عظيمة ، رافضة مايقدمه لها هذا الواقع من فتات وهمي للسعادة (بالزواج من آخر) ، ففقدت ملامحها الأنثوية

(التي رأى فيها ابراهيم يوما أنها ليست للغيط) ، وتحملت الحياة كرجل بإصرار وعناد وفخار .

بمعنى آخر ، فلاح القرية دائما محاصر ، محكوم عليه أن يعيش داخل دائرة جهنمية حزينة ، مليئة بالقهر والمعاناة ، وهو يتقبلها مؤمنا مستسلما ، صاغرا ، كما فعل أجداده جميعا في سنوات خلت ، فإذا عن لأحدهم ، (توفيق في قصة طرح المجد) ، أن يرفض هذا الواقع ، ويحاول الخروج من دورته المفزعة ، متمسكا بأصله العريق وماضيه السابق ، يكون مآله الجنون .

هل ثمة مخرج ؟

والوجه الآخر المقابل لهذا النموذج هو (نظيرة في قصة عين الحياة . . نظيرة) فهي «بلا أصل ، وبلا فصل وبلا حكاية ، شبت في دار جابر أفندي ، أمها كانت قبلها خادمة في دار جابر أفندي ، لم تر لها أبا ، ولولا أن اسمه منقوش على ختمها ماعرفت اسمه» ، لكنها تعاني الأمرين من زوجها ومن واقعها الضاري ، وعلى الرغم من ذلك تناضل بإصرار من أجل لقمة العيش ، وتضطر أن ترضخ للقاء جنسي عابر من أجل توفير ثمن كيلة قمح ، على الرغم من أنها ترفض إغراء آخر لممارسة الجنس من أجل المتعة ، وتدافع عن زوجها . وهي في النهاية تعي واقعها جيدا ، فهي تكرر «قسمتي كده» !» ، وتقبل واقعها برجولة (كما فعلت ست أبوها) .

إذن لابد أن يتساءل القاريء : هل هناك ثمة مخرج - منطقي - من هذه الدائرة؟

قد يبدو المخرج في الاختيار البديل الذي كان مطروحا في تلك الفترة الزمنية ، فوقتها لم يكن المصريون قد عرفوا الهجرة أو الاغتراب في العمل في الأقطار العربية الشقيقة ، في رفض حياة النهار (الكد والتعب) ، والاندماج في حياة الليل ، حتى ليغدو الأمر وكأنه تمرد فردي على واقع صعب ، لكن لهذا الاختيار متاعبه أيضا ، فرجال الليل «في النهار يحلمون بالقبض عليهم . . البنادق تقف لاتطلق الرصاص . . في أحلامهم دائما مكسورون أمام رجال الأمن «اتفقوا ذات مرة طوال حديث ليلة . . أنهم في أحلامهم أضعف منهم في واقعهم . . في الأحلام دائما يسحبهم رجال الأمن مربوطين بالحبال . . نهارهم مقبض مخيف بالأحلام» .

إنهم هاربون دوما من السلطة المدنية ، مسربلين بقدرهم الغامض الذي لافكاك منه حتى في أحلامهم ، فهذا الحل أيضا محكوم عليه بالفشل . □

الهدية على مقدار مهديها

ذات يوم زار الأديب توفيق ضعون صديقه الشاعر نعمة قازان وهو صاحب مصنع أحذية ، فظفر من المصنع بحذاء هدية ومن صديقه الشاعر بهذين البيتين :

لقد أهديت توفيقاً حذاء ... فقال الحاسدون وما عليه ؟
أما قال الفتى العربي يوماً ... شبيه الشيء منجذب إليه ؟



فرد الصديق على هذه التحية بأحسن منها :

لو كان يهدى الى الإنسان قيمته ... لكنت استأهل الدنيا ومافيها
لكن تقبلت هذا النعل معتقداً ... أن الهدايا على مقدار مهديها

البيان في أسباب نزول القرآن

بقلم : حسين أحمد أمين

قوله تعالى : (لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ) المائدة (٢٨)

نزلت في ولديْ آدم هابيل وقابيل ، قدّم كل منهما قرباناً إلى الله ، وإذ تقبّل الله قربان هابيل دون قربان أخيه ، هدّده قابيل بالقتل ، فردّ عليه أخوه بما جاء في الآية .

والمعنى الوارد هنا هو نفسه الوارد في الكثير من آيات الإنجيل التي تنهى أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام عن الردّ على العنف بالعنف ، وتأمرهم بأن يديروا خدّهم الأيسر لمن صفعهم على خدهم الأيمن ، وهو نفسه الوارد في الآية القرآنية التي تصف المسلمين بأنهم قوم إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما .

غير أن الأيام تمضي حتى بتنا في زمن قد نسي فيه كثيرون من المسلمين والنصارى ما أوصى به كتاباهم المنزّلان ، وأضحو ، وهم الأخوة أشبه بقابيل الذي طوّعت له نفسه قتل أخيه (فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ) المائدة (٣٠) وأضحى بعض الديار الإسلامية أشبه ببيت قد انقسم أهله على أنفسهم ، ولا يغطي سقفه غير جزء من مساحة أرضه .

وقد دفعت الفتن الطائفية في تلك الديار بعض المفكرين إلى القول ، بأن أفضل العلاقات بين أفراد الطوائف الدينية المختلفة هي تلك التي تسود بين الملحدين من كل طائفة ، ممن قد تلاشت لديهم العقيدة ، وجمع بينهم الشك في صحة الأديان جميعاً . فهنا يختفي التعصب وضيق الأفق ، والشك المتبادل والحيطة والحذر ، ويصبح من المتصوَّر والممكن أن تقوم الصداقة الحرة ، والألفة الحقيقية ويضحى شعارهم بيت الشاعر القروي :

سلام على كفر يوحد بيننا
وأهلا وسهلا بعده بجهنّم

غير أنه من المؤسف ـ في اعتقادي ـ أن يكون للإلحاد مثل هذا الفضل ، ولا يكون للعاطفة الدينية ، ومن المحزن أن نرى المتدينين في كل من الطائفتين قد غلبت عليهم مشاعر الشقاق والمرارة والشك إزاء متديني الطائفة الأخرى ، في الوقت الذي تجابه الأديان كلها قوى عاتية تعارضها وتسعى إلى هدمها جميعاً ، هي أعتى وأبلغ خطراً مما كانت عليه في أي عصر مضى .

لقد كانت ثمة أزمات كتلك التي عرفها

الإسلام وقت محنة خلق القرآن ، أو التي عرفتها أوربا في عصر الإصلاح الديني ، غير أنها كانت أزمات داخل الدين ، في حين نجد الأزمة الراهنة تتمثل في هجوم ضد الدين ، سواء أجاء هذا الهجوم من جهة الماركسية ، أم الإنسانية ، أم المادية العلمية ، أم نمط الحياة المعاصرة . وقد زاد عدد أولئك الذين بات الدين لا يلعب دورا كبيراً أو صغيراً في حياتهم ، ولا يعرفون القيم الدينية التي هي الوسيلة الأكيدة لمقاومة فقر الحياة الروحية في المجتمع الحديث ، فبدون هذه القيم لا يمكن أن يكون ثمة سلوك متجانس ، ويضحي سلوك الفرد مجموعة من التصرفات وردود الفعل لا رابط يجمع بينها .

وقد أحست الكنائس المتصارعة في الغرب بهذا الخطر الذي يتهددها جميعاً في السنوات الأخيرة ، فسعت بنجاح إلى رأب الصدع بينها ، وفتح باب الحوار من أجل إقامة جبهة متحدة ضد العدو الحقيقي ، بل ومدت جميعها يدها إلى اليهودية والإسلام للمشاركة في الدفاع ، وأعلنت أن المطلوب هو مجرد احترام الدين في حد ذاته ، وتقدير العاطفة الدينية حيثما وجدت ، وأيا كان موضوعها ، في سبيل إحداث التقارب وتحقيق التلاقي .

يحدث هذا في العالم المسيحي في الوقت الذي يشهد فيه بعض أقطارنا مناوشات دامية لا بين أتباع الديانات السماوية وبين الكفار والزنادقة ، وإنما بين أهل الكتب المنزلة أنفسهم ، كتب أوصت هؤلاء بأن يديروا الخد الأيسر ، وأوصت أولئك بأن يقولوا : سلاماً ، وأثنت جميعها على موقف الأخ إذ يقول لأخيه : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يدك لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ .

إن تلاقي أتباع الديانات المختلفة ليس إلا مظهراً واجبا آخر من المظاهر المتزايدة لتلاقي الحضارات والشعوب في عصرنا هذا . ولا يعني هذا مطالبة أتباع أي دين باطراح أي حقيقة جوهرية فيه ، وإنما يعني تجاوزنا للخلاف والنزاع ، بل وتجاوزنا للاستماع في صبر ، والجدال في تأدب ، وإلى التفتح الذي يمكننا من الاستفادة والتعلم من الآخرين ، ومن إقامة علاقات إيجابية خصبة معهم .

نحن لا ندعو إلى ما يسمى بالتسامح أو الاحتمال ، فكلمة "Tolerance" إن جاز استخدامها في القرن السابع عشر وقت كتابة « جون لوك » لرسالته الشهيرة في التسامح لمقاومة « ما ساد » في زمنه من اضطهاد ديني ، فهي لا تعني اليوم غير قلة الاكتراث بين الحقيقة الروحية والخطأ الروحي ، ولا سند لها على الإطلاق من حب الآخرين واحترامهم .

هي كلمة توحي في واقع الأمر بنوع من الاحتقار للدين نفسه . فإن قال لي امرؤ : إنه (يحتملني) فالمؤكد أنه ليس صديقي . وإن قال : إنه (يتسامح مع آرائي) فالمؤكد أنه لا يحترم هذه الآراء . وفي اعتقادي أن من الواجب في زمننا هذا أن يتجاوز المسلمون والمسيحيون الاحتمال والتسامح ، إلى الاعتراف والمعايشة ، مقرين بأن ثراء الروح البشرية والفكر الإنساني هو في الاطلاع على كنه الرؤى المتباينة ، ومحاولة الغوص في أعماقها للاستفادة من الجديد الفريد الإبداعي المتميز فيها ، وبأن معيار رقي الفرد وعظمته الروحية هو مدى فهمه وتوفيره لكل ضروب الفكر التي أسهمت في تشكيل البشرية . □



منتدى العربي

قضـــــية

الغربــاء وتنمية التخلف

بقلم : الدكتور عبدالرحمن زكي ابراهيم

« إشكالية التنمية في العالم الثالث ترتبط بعوامل كثيرة ، منها ما هو من تراكم الظروف التاريخية والعوامل الثقافية والاجتماعية ، ومنها ما هو خارجي ، ولكنه يؤثر في تكريس التخلف واستمرار بلدان العالم الثالث في إطار التبعية .

وهذا المقال يناقش قضية دور العامل الخارجي وآثاره الخطيرة » .

يقصد بتنمية التخلف تلك التنمية التابعة المشوهة التي تمت في السنوات الأخيرة ، في غالبية دول العالم الثالث ، والتي كان هدفها الرئيسي اللحاق بمستوى التقدم في الدول الغربية ، وتقليد أساليب الحياة فيها . وسعيا وراء هذا الهدف فقد صيغت جهود التنمية وأولوياتها ، ليس على أساس تحسين مستوى معيشة الإنسان العادي ، بل من أجل تحقيق معدلات عالية لنمو الناتج القومي الإجمالي ، دون الاهتمام بتركيبة هذا الناتج ، ولا بكيفية توزيعه على السكان . وقد كانت النتيجة عدم إمكان تحقق هذا الهدف أصلا ، مع استثناء فئة قليلة من السكان بثمار تلك الجهود ، ودفع غالبية السكان نحو هامش الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، ولا تستفيد ماديا ولا معنويا من التنمية ، ولا صوت لها في السياسة ، وتزداد فقرا في بلدها الذي يصير مرتعا للاحتكارات الأجنبية ، وأولئك الذين يدورون في فلكها من ملاك الأراضي وكبار الرأسماليين ورجال الحكم وأدوات القهر .

ونعني بالغرباء عن العالم الثالث الشركات العابرة للقومية والمؤسسات الاقتصادية الدولية .

وللغرباء أدوار شديدة التنوع والاختلاف ، فالشركات العابرة للقومية هي نتاج تنظيمي

للقوانين الأساسية للتطور الرأسمالي في حقبته الراهنة . وقد استدعت هذه القوانين ضرورة جعل العمليات الأساسية للإنتاج وإعادة الانتاج - التراكم وتنظيم مجالات العمل والتسويق والتوزيع - تتم على صعيد عالمي . أما المؤسسات الاقتصادية الدولية - وبخاصة البنك الدولي وصندوق النقد الدولي - فهي أكثر جماعات الضغط الخارجي تطرفا ، من أجل استمرار تنمية التخلف . وتعكس هذه المؤسسات مصالح الشركات العابرة للقومية من خلال مطالبة الدول النامية بتنفيذ الشروط والضوابط والوصايا التي تكفل تحقيق هذه المصالح حاليا ومستقبلا .

أداة الاستعمار الجديد :

والشركات العابرة للقومية أداة للاستعمار الجديد الذي يمثل عملية الانتقال من الاستعمار القديم بأساليبه الوحشية وغير الاقتصادية إلى أساليب متطورة ، غاية في التعقيد ، في استغلال البلاد النامية ونهبها . وهي أساليب تهدف - كما كان الحال في عصر الاستعمار القديم - إلى العمل على إبقاء هذه البلاد في وضع متخلف ، وتابع ، داخل الاقتصاد الرأسمالي العالمي ، وإبعادها بشتى الوسائل عن انتهاج استراتيجية التنمية المستقلة ، حتى تؤدي المهام نفسها التي أدتها إبان عصر الاستعمار القديم ، وهي أن تكون مصدرا رخيصا للمواد الخام ، وأسواقا واسعة لتصريف المنتجات ، ومجالا خصبا للربح الفاحش الذي يتعدى حدود الشرف والأمانة والتوسط والاعتدال .

وتتنوع صور النشاط الدولي للشركات العابرة للقومية . ويمكن تقسيم هذه الأنشطة إلى صور ترتبط بملكية أصول معينة في البلاد النامية ، كالاستثمار الأجنبي المباشر ، وإلى صور لا تحتوي على عنصر الملكية ولا ترتبط به ، مثل عقود الخدمات في مجالي النفط والتعدين ، وعقود الإدارة والترخيصات والاستشارات الهندسية . على أن الأنشطة غير المرتبطة بالملكية التي تؤدي إلى تراكم نفوذ هذه الشركات وقدرتها في الحصول على الأرباح والنمو قد تعددت إلى حد كبير ، وزادت أهميتها الاستراتيجية .

الاستثمارات والقروض الأجنبية :

تسيطر الشركات العابرة للقومية على حركة الاستثمار ، وعلى المصارف الكبرى ، وإمكانية الاقتراض من السوق العالمي ، والتي لها قولها فيما تمنحه الحكومات الغربية لهذه الدولة أو تلك من قروض . وكقاعدة عامة لا يقبل رأس المال الأجنبي على الاستثمار في الدول النامية إلا إذا حصل على مزايا وشروط غير عادية تفوق بشكل واضح ، معدلات الربح التي يحصل عليها في البلدان الرأسمالية المتقدمة . وهذا شرط متوافر ، حيث تعطى تسهيلات ومزايا خاصة للمستثمرين الأجانب ، تتمثل في منح الإعفاءات الضريبية ، وتخفيف الرسوم



الجمركية على بعض الواردات . وهذه أشياء لها كلفتها التي تعني ضياع موارد محتملة ، أو ابتلاع موارد حكومية ، كان من الممكن استخدامها في أغراض أخرى ، تفيد التنمية المحلية . ومادام القصد من الاستثمار الأجنبي هو الحصول على الأرباح والعوائد الأخرى للاستثمار ، ونقلها إلى الخارج ، فإن الأثر الصافي على موازين مدفوعات البلاد النامية المضيفة - عادة - ما يكون سالبا . ويعني ذلك أن هناك عملية دائمة للإنقاص من قاعدة الموارد القومية ، وبالتالي الخصم من الطاقة الاقتصادية للدولة النامية المضيفة .

والاختيار الاستراتيجي للتحالف مع الشركات العابرة للقومية يجبر الدول النامية على الدخول في مرحلة توسع رهيبة في الاستثمار ، تتركز في قطاع البنية الأساسية ، بقصد اكتساب رضا هذه الشركات وإغرائها . ويعمل هذا التحالف بصورة مطردة على زيادة تفريغ السيادة الاقتصادية للدول النامية من مغزاها ومحتواها العملي . وبالتالي تجد الدولة أن معايير الاقتصاد المدول هي التي تصبح أكثر فعالية من المعايير القومية ، في تحريك الموارد المحلية . ومن ناحية أخرى تتميز الدول التي تستقطب استثمارات الشركات العابرة للقومية بمستوى شديد الارتفاع من عدم المساواة ، ومن عدم التكافؤ في مستويات النمو بين المناطق والأقاليم . وهذه أمور تدفع نحو التحلل القومي .

والبلاد الأكثر إثارة لاهتمام الشركات العابرة للقومية هي نفسها تلك البلاد التي تمثل مواقع أمامية في مديونية العالم الثالث ، وهي نفسها الأكثر مسئولية من تجارة العالم الثالث الاجمالية مع بقية مناطق العالم . ولقد أثبتت التجارب التاريخية أن تزايد الاعتماد على التمويل الأجنبي ، وما يترتب عنه من تزايد المديونية الخارجية ، يؤدي إلى إحكام طوق التبعية للخارج بشكل متزايد . ذلك أنه في ظل المديونية الخارجية تصبح البلاد مجبرة على أن تحول بشكل منتظم أجزاء محسوسة من ناتجها القومي وفاء لالتزاماتها الخارجية . ومن ناحية أخرى أدت المديونية الخارجية المتزايدة إلى توسيع نطاق التعامل الخارجي في مجال التجارة الخارجية مع الدول التي قدمت لها الديون . كذلك فإن إتاحة التمويل الأجنبي يلعب في أحيان كثيرة دورا حاسما في اختيار مشروعات التنمية ، حيث يجري إعطاء أولوية للمشروعات التي يتوافر لها تمويل أجنبي . ويعني ذلك أن أولويات التنمية لا تتحدد وطنيا في ضوء الاحتياجات الحقيقية للتنمية المستقلة ، وإنما تتحدد خارجيا بما تمنحه هذه الدولة أو تلك من تمويل ، مما لا بد أن يؤدي إلى تشويه التنمية واختلالها وتعثرها .

التبعية التقنية :

ويرتبط الاعتماد المتزايد على التمويل الأجنبي بمظهر ثان للتبعية ، وهو التبعية التقنية ، فمفتاح التقنية بيد الشركات العابرة للقومية ، فهي التي تركز التطور التقني في قبضتها ، وعلى الدول النامية التي ترغب في نقل التقنية أن تدفع الثمن الباهظ ، من أجل استيراد آلات ومعدات مرتفعة التكاليف وباهظة التشغيل ، وباهظة الصيانة ، وأقل وفاء لتحقيق الغرض الاجتماعي المنشود . كما يؤدي الاعتماد المتزايد على استيراد التقنية الغربية إلى تصفية التقنية المحلية ، واستخدام أساليب قد لا تتواءم مع الظروف المحلية والسعي لاستجلاب الخبرة الأجنبية في كل صغيرة وكبيرة ، وإهمال الخبرات المحلية على نحو يفاقم ظاهرة هجرة العقول . وكم من خبير من أبناء العالم الثالث يحضر إلى منطقته المتخلفة التي نشأ فيها متحدثا باسم شركة عالمية ، حاملا جواز سفر أمريكياً .

والتقنية في نظر الشركات العابرة للقومية ليست قوة لازمة للمساعدة في حل المشكلات

القومية المحلية ، فقد دأبت هذه الشركات على اختيار الفنون الانتاجية التي تمكنها من تحقيق هدفها الأساسي ، وهو مضاعفة الربح . وتلك الفنون عادة ما تكون مكثفة لرأس المال . وهذا النوع من الفنون ذو قدرة محدودة في المساهمة في حل مشكلات البطالة في البلدان النامية التي تتميز بوفرة عنصر العمل فيها .

خلق نطاق الاستهلاك وتوسيعه :

وهناك نمط خاص من السيطرة غير المباشرة ، تتمتع به الشركات العابرة للقومية ، ويمكنها من التلاعب بالأوضاع الثقافية للبلد المستورد للتقنية ، ويمكن تسميته السيطرة من خلال التحكم في « سيكولوجية » الاستهلاك . ولا تفتقر هذه الشركات إلى أساليب خلق نطاق الاستهلاك وتوسيعه ، فقد تطور لهذا الهدف فرع كامل من البحوث في مجال تقنية التلاعب « بسيكولوجية » الاستهلاك ، تمكن من مواءمة الطلب لخصائص المنتج المطلوب تسويقه ، لا العكس . ونتيجة لذلك استطاعت هذه الشركات ـ من خلال وسائل الإعلام ـ أن تخلق طلبا ليست هناك حاجة إلى إشباعه . ولك أن تلقي نظرة على إعلانات التلفاز في البلاد الرأسمالية والنامية ، فسوف تجد عملية ناجحة



لخلق طلب بغير احتياج إلى إشباع في سوق لم تعد لها نظرية ولم يبق لها قانون .

وهذه العملية نفسها تحمل معها أنماطا للتفكير والقيم والسلوك ـ تطورت في المجتمعات الغربية ـ إلى مجتمعات العالم الثالث ، بغض النظر عن إنسانيتها أو شيوع قبولها اجتماعيا . ففي بلدان العالم الثالث تتبنى الأقلية الغنية ـ المرتبطة بالمشروعات الأجنبية اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ، بل وحضاريا ـ أنماط الاستهلاك والسلوك السائد في الدول الرأسمالية المتقدمة ، فتدفع الطبقات الوسطى والدولة والمجتمع كله باتجاه استهلاكي ، يبدد كل فائض ، يتبقى بعد تحويل أرباح الشركات الأجنبية وفوائد أقساط الديون . وهكذا تتضاءل المدخرات المحلية ، ويزداد عجز الاقتصاد القومي عن الاعتماد على الذات . كما أن هذا النهم الاستهلاكي يذيب القيم الخلقية ، ويفتح المجال واسعا أمام الرشوة والفساد والدعارة ، وما إلى ذلك .

مطالب صندوق النقد الدولي :

وتأتي الضغوط الخارجية لتعزيز الاتجاه نحو تدعيم تنمية التخلف ، عن طريق تركيز المؤسسات الاقتصادية الدولية ، لا سيما صندوق النقد الدولي على برامج التأقلم . وتملي هذه البرامج إجراءات تحقق تدويلا متزايدا للاقتصاد المحلي ، تحت غطاء استعادة التوازن في هذا الاقتصاد . وهذه الإجراءات تضمن أن يتم تحديد اختيارات البلد الاقتصادية بالأسواق الأجنبية والمصارف الأجنبية ووكالات التنمية الأجنبية التي تعارض عادة احتياجات البلد الداخلية . ومن الأهمية بمكان أن نشير هنا إلى أهم الملامح التي يطلب صندوق النقد الدولي من الدول النامية تنفيذها ، وهي :

(١) تشجيع الاستثمارات الخاصة

الأجنبية ، وذلك عن طريق خلق مناخ استثماري ملائم ، وحصولها على موارد الطاقة والأراضي والمواد الخام بأسعار رخيصة ، والسماح لها بحرية تحويل أرباحها للخارج ، وتصفية أعمالها في أي وقت تشاء .

(٢) تحويل كثير من الشركات والهيئات والنشاطات العائدة للقطاع العام إلى القطاع الخاص .

(٣) تخفيض القيمة الخارجية للعملة الوطنية ، وإقامة ما يسمى السوق التجارية للنقد الأجنبي ، وإلغاء الرقابة على الصرف ، وإباحة حيازة النقد الأجنبي للأفراد والهيئات خارج القطاع العام .

(٤) إلغاء الدعم السلعي الموجه للمواد التموينية التي يستهلكها الفقراء ومحدودو الدخل ، وإطلاق تحديد أسعارها طبقا للكلفة الاقتصادية .

(٥) زيادة الضرائب على السلع والخدمات .

(٦) زيادة أسعار الفائدة المدينة والدائنة .

(٧) تخفيض حجم التوظيف الحكومي وتجميد الأجور .

وليس يخفى أن البلاد النامية التي ترضخ لهذه المطالب ، عليها أن تقبل بالإدارة الخارجية المباشرة لاقتصادياتها ، ليس فقط لضمان تسديد ديونها ، بل ولضمان بقائها خاضعة لشروط عمل الرأسمالية على النطاق العالمي ، وتشديد استغلالها .

ومن ناحية أخرى فإن التطبيق العملي لهذه المطالب قد تمخض عن نتائج بالغة الخطورة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في البلاد التي قبلت هذا الوضع . فقد زادت الأحوال الاقتصادية سوءاً ، وتراجع النمو الاقتصادي ، وتعطلت الطاقات الإنتاجية عن الدوران . ولم يهبط العجز في ميزان المدفوعات ، ولم ينخفض الميل للاستدانة ، ولم ينعش الاقتصاد الخاص الأجنبي الاقتصاد المحلي . كما ظل التضخم بارتفاع مستمر ، وأهملت الاحتياجات الأساسية للمواطنين ، وزادت بطالتهم ، واتسعت الفروق بين الطبقات ، لا سيما بين الأقلية الغنية وأغلب السكان الذين يتدهور مستوى معيشتهم تحت التأثير المزدوج لجمود التنمية وارتفاع الأسعار. □

هــل تعــلم ؟



● أنه يوجد في أذربيجان السوفياتية التي يقارب عدد سكانها خمسة ملايين نسمة أكثر من ألف وثمانمائة دار سينمائية وجهاز عرض ، منها ألف ومئتان في المناطق الريفية .

● أنه عند الاحتفال بعقد الزواج لدى قبائل الزولو من الزنوج في افريقيا يقسم العريس أمام عروسه على مشهد من الحاضرين قائلا : لينزف الدم من كل عرق من عروق جسمي ، ولتفترسني التماسيح ، ولتمزقني الصاعقة إلى شطرين ، ولتحل علي كل المصائب والنوائب ، إن كنت أخون يوما زوجتي ، ولا أكون وفيا لها !

صدر العدد الجديد من:

نوفمبر
١٩٨٩



العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

رئيس التحرير: د. محمد الرميحي



يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين.

في هذا العدد:

- استطلاع عن صناعة الحلوى في البحرين.
- الشرطي الصغير - موضوع محلي.
- همام .. مسلسل بالرسوم.
- ذات الهمة. الحلقة (١١).
- مسلسل عن قناة السويس.
- قصة بالرسوم (عم محمود الفلسطيني).



إضافة الى الأبواب الثابتة:

- إسلاميات.
- كمبيوتر.
- ٨ صفحات لأخيك الصغير وأختك الصغيرة.
- دائرة معارف العربي الصغير.



نتيجة مسابقة العدد ٤٤

قصة مترجمة:

الريّح الموسميّة

تأليف : أنيت سوان*

ترجمة : زهير شفيق روميّة

أطلت كوفيني من نافذة البيت على منحدرات الهضبة ، وبئر القرية المشاعة ، وحقول الأرز الزاهرة التي تومض في السديم الملتهب لشمس العصر . كانت ثمة سحابة داكنة على صفحة السماء الزرقاء ، وبالضبط في المكان الذي رسمت فيه أوراق أشجار الخبز [1] خطوطها الكثيبة . حدقت إليها معتقدة بأن ذلك فأل ، ينذر بنحس : « إنها الغيمة الأولى في زرقة سمائي »

سوّت المرأة العجوز المقرفصة عند باب المنزل سترتها فوق نهديها المهزولين ، وتناولت المزيد من التانبول في الصينية .

- سألت « هل لديك شاي تقدمينه لصديقة مسكينة ؟ » .

« لاشاي أقدمه لواحدة مثلك » ردت كوفيني بنزق « هذه هي المرة الثانية التي تأتين فيها إلى هنا بقصص خطيرة . لماذا تخبرينني بهذه الأمور ؟ أثمة احتمال بأنك لاتعرفين أن جوزى وأنا متزوجان ؟ لِمَ يتوجب عليّ أن أهتم بماضيه ، ومافائدة ذلك لك على كل حال ؟ »

- « كلمات لاذعة من شفتين حلوتين . طبعا نعرف جميعا أنكما متزوجان ياصغيرة . إنه لزوج جدير بالإطراء أيضا ، على اعتبار أنكما من الطبقة المنغلقة على نفسها ، وهو محظوظ بالتأكيد لحصوله على مهرك الكبير . إننى أرمي تحذيرك فحسب . هل بمقدورك التخمين لماذا هربت آزلين من القرية في اليوم نفسه الذي زفّك فيه جوزى عروسا إلى بيته ؟ إننى أحاول مساعدتك ، لكنني لن آتى ثانية . وبحق السماء لاتجعلي زوجك يعلم أننى أخبرتك » . قالت كوفيني :

« لن أكون سخيفة إلى هذا الحد ، هل تسمحين بالانصراف الآن ؟ عندى أشياء أفضل أن أعملها من أن استمع إلى ثرثرتك » .

عندما ذهبت المرأة تترنح نازلة على الهضبة ، أغلقت الفتاة الباب واتكأت عليه لاهثة . وغزت الدموع الوجه الأنسي لجفنيها ، وفي مكان ما داخلها بدا كأن مطرقة صغيرة تتهشم بشكل رنّان ، محطمة السعادة التي ادخرتها العام الماضي . وتفجرت غيرة قوية في قلبها على قوة وشباب بعلها .

---

* ولدت انيت سوان في كولومبو ، سيلان (الآن سيريلانكا) عام ١٩١٧ . كانت صحفية مستقلة ، نشرت العديد من القصص القصيرة والقصائد والمقالات . اذيعت كتاباتها المختلفة في البرنامج الانجليزي لهيئة الاذاعة في سيريلانكا .

(١) شجر الخبز : شجر من فصيلة الخبزيات ذو ثمار كبيرة تشتمل على لب نشوي يستعمل كالخبز .

أغمضت عينيها تسترجع ذكريات اليوم الذي التقته أول مرة في بيت والدها . كان هناك سمسار الزواج حيث تمت المقارنة بين خريطتي البروج [٢] ، وقُبل الاقتراح من الوالدين قبل أن يُستدعى جوزى .

كانت الزيارة مفاجئة ، وكانت تمشط شعرها الفاحم الطويل على الشرفة الخلفية عندما قفزت أختها الصغرى الدرجات :

« إنه آت على الطريق مع الخالة مارغريت ! »

« من ، أبتها السخيفة ؟ » وعندئذ رأته . عرفت غريزيا من يكون ، فتسارعت نبضات قلبها . دخلت أمها مسرعة لترتدى أفضل سار [٣] قرنفلي لديها ، وتسوى شعرها ، بينما قدم والدها من الحقول للقائه ، خرجت إليه فيما بعد ، وحيته باحتشام مطبقة راحتي يديها معا .

وبعد ذلك ، جلست هناك ونظرت إليه بعين فاحصة مدة عشرين دقيقة ، جديرة بأن تذكر الآن بينما راح يتحدث إلى والديها .

لم يكن ثمة مجال للإسراع بيوم عرسها بما يكفي ، كانت رائعة جدا في حبها . كان أجمل عرس عرفته القرية منذ سنين ، زخرفت مقدمة البيت فبدت كواجهة مؤقتة من الخيش الملون . ياردات وياردات من أغطية الأسرة استؤجرت من المصبغين الذين يسكنون على مسافة أميال من البيت . حولت هذه الأغطية قلب المنزل إلى بلاط ناصع البياض . دوت الموسيقا عبر بوق مثبت على سطح البيت ، معلنة الحدث السعيد . وأنّت الموائد المزينة بالأزهار تحت أثقال اللحم المعرق والملون . كانت أغلفة الهدايا التي دفعت إلى يدي والدها من قبل الضيوف مملوءة بسخاء . وقفت كوفيني بقدِّها وأناقتها فظهرت في أوج مجدها الزفافي كعرس مركيز صمم ليبدو كزنبقة النيلوفر الرائعة . ارتجفت عندما ربطت إبهامها اليسرى مع إبهام جوزى بخيط حريري ، وصب الحليب فوقه من إبريق فضي . تذكرت متألمة : « الخيط واه جدا ومع ذلك قوي جدا ! إنه لي ، الآن ، للأبد »

قضيا شهر العسل في الاستراحة بين هضاب دينيايا الجميلة . لكن حتى حينئذ لم تكن وحيدة تماما مع رجلها ، لأن تقاليد القرية تقضي بأن يرافقهما بعض الأقارب لإرسال الأخبار التي تنص على أن كل شيء كان حسنا ، وشهر العسل ناجحا ، وذلك قبل أن ينطلقا عائدين أخيرا إلى بيتهما الحقيقي .

كانت تعيش من أجل بيتها الحقيقي ، ومن أجل الكثير ! اعتاد جوزى أن يكون طوال اليوم بعيدا في فندقه بالمدينة . كانت تخدمه عندما يرجع فتقدم له وجبة الرز ليأكل وهي جالسة قربه باحترام . فيما بعد ، كانا يخرجان معا في ضوء النجوم الخافت يستنشقان شذا الريح فوق حقول الأرز ، ويراقبان رقص اليراعات فوق شجر الكوزرينا ويتحدثان قليلا ، لأن من يكون سعيدا لاحاجة به للكلام .

ابتعدت عن الباب أخيرا ودلفت إلى المطبخ . كانت قد نسيت أن تعرض الأرضية للبخار استعدادا لوجبة الصباح التالية . أضرمت النار في المدفأة ، وحاولت أن تتخيل من كانت تلك المرأة - أزلين - تشبه . كانت قد أخبرتها العجوز بكل شيء وعلى الرغم من استيائها أدركت وجود شيء من الحقيقة في كلامها . سمعت الاسم من قبل عند بئر الاستحمام أو في ساحة السوق . وكلما كانت تقترب كان اللغو يتوقف فجأة .

لم تكن تعير ذلك أي انتباه ، لكنها الآن فهمت كل شيء . كانت العجوز قد حكت لها أن جوزى وأزلين كانا حبيبين . كان ذلك غزلا سريا . وكانا يشاهدان غالبا معا في الليالي التي يكون القمر فيها بدرا قرب النهر في أحد المنتجعات هناك ، أو على

---

(٢) خريطة البروج : رسم للسماء كان المنجمون يستعملونه لكشف الطوالع .

(٣) الساري : ثوب ترتديه النسوة الهندوسيات مؤلف من بضع ياردات من النسيج الرقيق يلف بها الجسم بحيث يشكل أحد طرفيه تنورة ويشكل الآخر غطاء للرأس أو الكتف .

السبيل المؤدي إلى المعبد . كان والد آزلين زعيم القرية ومن طبقة أعلى من جوزى بعدة درجات ، عندما اكتشف قصتها الغرامية العنيفة ، عاقب آزلين بصرامة ، وفرض عليها الإقامة الجبرية في البيت . زار الزعيم والدي جوزى مهددا بعواقب وخيمة إذا تطورت قصتهما .

جرت مفاوضات أخرى مباشرة لتزويج جوزي ، حدد يوم ميمون خلال ثلاثة شهور وزوج جوزى من كوفيني .

هربت آزلين في اليوم نفسه الذي أتى جوزى بكوفيني إلى بيته عروسا ! وبدا أن الزعيم منذئذ قد تبرأ من ابنته حتى أنه منع ذكر اسمها بحضوره .

شرعت كوفيني على نحو آلي بعلي قدر الماء ، وبدأت تنخل الطحين . تساءلت عن مكان آزلين . ماذا عنت تلك العفريتة عندما قالت : « أنا أحذرك فحسب ؟ » أكان ثمة احتمال بأن جوزى مابرح يلتقى آزلين ؟ ربما أبقاها خليلة في عش حب سري خارج القرية . كانت ثمة تلك الأيام والليالي التي يسافر فيها خارج القرية ، ولكن من الواضح أنها للعمل ، تمنت أن يكون باستطاعتها ايجاد طريقة لاكتشاف الحقيقة .

كانت مشغولة بطبخ وجبة العشاء وعقلها مازال مشوشا عندما اقتحم أفكارها صوت جوزي الهادىء وخطواته الخفيفة . قال :

« السينما الجوالة نصبت خيامها في القرية ، هل ترغبين بمشاهدة عرض هذه الليلة ؟ »

أجابت بفتور : « لا أشعر بالراحة الكافية . ربما يحصل ذلك في يوم آخر » .

ـ « يجب أن أذهب إلى كولومبو غدا سنشترى بضائع للفندق »

لم تجب . فكرت يائسة بأنه ذاهب إليها . بل إنه لذاهب إليها !

بعد رجوعه وأثناء قيامها بواجباتها ، تراءى لكوفيني أن الأيام تسبب لها مللا لاينتهى ، إن الحقد على المجهول أخذ الآن يلسع قلبها كدبور . أمسى الشك والخوف رفيقيها الدائمين . أخذت تحس عدم الاكتراث في جوزى ، وراقبته سرا محاولة تخمين أفكاره . تساءلت في نفسها عما سيحدث إذا لم يعد يستطيع إخفاء نواياه . هل سترغم على تركه حينئذ لترجع إلى ذويها جبانة مهزومة ؟ لقد قررت أنه أولى بها أن تنتحر قبل أن يحدث ذلك .

بدأت تتجنب الحلقات الصغيرة للقرويين الذين ينشرون الإشاعات معللة ذلك بالمرض . في البداية ، قلق أصدقاؤها . وفيما بعد ، أخذوا يتركونها وحيدة .

أخيرا ، فقد جوزي أعصابه فحدثها غاضبا :

ـ « تمنيت أن أعرف مابك . أصبحت شخصية مختلفة كليا ، لم لاتدعينني آخذك إلى الطبيب ؟ »

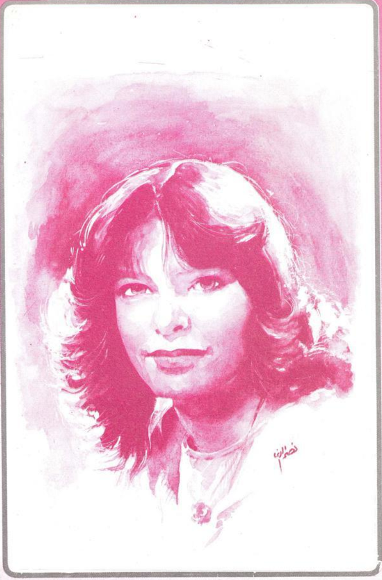
ـ « كلا ، كلا ياجوزي . ربما أحزنتني الوحدة بينما كنت غائبا » .

« سنرتب شيئا ما . سعادتك تعني الكثير لي ، ياعزيزتي . سأحضر لك رفيقة . »

وصلت الرفيقة ، كان اسمها ليلى وتبلغ من العمر عشر سنوات ، لكنها تعد ناضجة بالنسبة لعمرها . وجدت كوفيني فيها معينة عظيمة لها في شؤون العمل اليومي الروتيني .

في شهر شباط أصبحت الحرارة لاتطاق . عطشت الأرض الجافة ، فيبست المحاصيل وجفت الآبار . في كل مساء ، تقوم النساء ، على شكل رتل طويل ، برحلة إلى النهر لجلب الماء . راقبت كوفيني النسوة اللواتى يعدن بمرح ، وهن راجعات بقدورهن المحمولة على رؤوسهن أو جنوبهن ، لم ترد الالتقاء بهن ، لذلك كانت تذهب مع ليلى بعد أن يحل الظلام . عندما تكون هناك ، كانت تتذكر أن آزلين اعتادت لقاء جوزى بمحاذاة النهر وربما في الموضع نفسه حيث نزلت لملء القدر ، فأصبح كرهها لآزلين خطيرا .

هبت الريح الموسمية بعنف مفاجىء عندما غدت الحرارة في أسوأ درجاتها ، شاهدت كوفيني السحاب الكثيف يتكوم بشكل جبلى فوق بعضه ، وأصبح الخوف داخلها مصدر عذاب شديد لها . روعت بالعواصف مذ كانت طفلة . كان جوزى غائبا من



جديد وكانت تعبر عن شكرها لليل . كان الصمت مزعجا والهواء الثقيل في أول المساء مخيفا . نادت كوفيني ليل :

« دعينا ندخل ونشعل المصباح . هل تسمعين الرعد من بعيد . ستصبح عاصفة قاسية » .

هطل المطر بعد عدة ساعات عندما كانتا تستعدان للنوم . وأخذ يتساقط بغزارة خلال دقائق . قصف الرعد ولمع البرق المشعَّبُ بقوة على النوافذ،كان صوت الريح متوعدا ، وسال الماء فوق سرير كوفيني بالضبط من شق حدث في السطح المسقوف بالقش .

صرخت بصوت أعلى من العاصفة :

« ياليل ، أحضري الدلو بسرعة »

تضاعفت الشقوق خلال فترة قصيرة ، فاندفعتا في أرجاء المنزل لإحضار أوعية تتسع للماء المتسرب .

« من المستحيل أن نذهب للسرير ، ياليل . لنجلس وننتظر قرب المدفأة حتى تخمد العاصفة . إن رأسي جدّ مصدوع . أشعر وكأنه على نار » .

« اسمعي ! ثمة قرع على الباب »

« لايمكن أن يكون جوزي . لا يتوقع حضوره حتى الغد » .



« لاتفتحي الباب . ياكوفيني . إن أمي تقول دائما بأن العفاريت تمشي خارج أوكارها في ليلة كهذه » .

استمر القرع ومضت دقائق عند ذلك حملت كوفيني المصباح وتكلمت متأنية :

« إنه قرع ملح . يجب أن نرى من يكون »

جفلت ليل إلى الوراء فأمرتها كوفيني :

« احملي المصباح ! إنني احتاج كلتا اليدين لمعالجة الباب » ارتجفت يداها عندما أمسكتا بالمزلاج . فجأة ، انحل فدار الباب على مفصليه مفتوحا فاندفع المطر بعنف على وجهها ، وللحظة ، لم تر أيّ شيء ، لكن أشعة المصباح بينت وجها نحيلا لامرأة كانت تحدق إليها من قلب العاصفة . عبرت مخيلتها قصص القرية الغريبة حول قدوم العفاريت في مثل هذه الليلة . لكن قبل أن تتمكن من إغلاق الباب ثانية مشت المرأة باضطراب تريد الدخول وانتحبت :

« بحق السماء ، امنحيني المأوى . رجعت إلى والدي لكنه طردني ، ولا أحد ممن أعرف سيؤويني . حينذاك تذكرت أن جوزي قد تزوج . أنت زوجته أليس كذلك ؟ ربما لم يكن واجبا أن آتي إلى هنا لكن ليس لدى القوة لأذهب أبعد من ذلك » .

تضاءل صوتها كثيرا عندما قالت كلماتها الأخيرة ، فأوصدت كوفيني الباب بعنف بوجه العاصفة الهادرة ، ودكت مزلاج البيت واستدارت نحو المرأة المستلقية على الأرضية . وعرفت من تكون خلال لحظة فصاحت :

« ما اسمك ؟ إنه آزلين ، أليس كذلك ؟ وهل يمكنني أن أسأل أين زوجي »

« زوجك ؟ إذن ليس هنا، هل أخطأت البيت ؟ أوه ، الألم ، لقد عاد ثانية ، أوه من فضلك لاتطرديني » .

وقفت كوفيني برهة ترتعش من الغضب ثم رأت ماشأن المرأة ! صرخت باستعجال :

« ياليل ، ساعديني في إدخال المرأة إلى غرفة النوم ،

يجب أن نجفف ثيابها حالا . لا وقت لدينا لنضيعه » .

لم تعرف كوفيني قط ـ على وجه الدقة ـ كيفية خروجها في ظلام العاصفة الهوجاء إلى بيت القابلة .

في الخارج ، عبر الليل الشاسع اللامحدود ، ضربتها العوامل الجوية الغاضبة المزمجرة من كل جانب . كانت زعقات الريح وفرقعة الرعد والاندفاع القارص للمطر شبيهة بأصوات ألف عفريت تتراءى لها ، وكأنهم يطاردونها ويسخرون منها عندما كانت تركض متعثرة ببريكات المطر المتصلة تحت جنح الوهج الباهت لمشعلها الذي شق طريقا ضبابيا أمامها .

لكنها تابعت طريقها منهكة . كانت تنشج من الجهد ومن الإمساك بإحكام بساريها المبتل عندما كانت تهب عليه الريح . أخيرا وصلت إلى هناك ، فأخذت تصعد درجات الشرفة وتخربش على الباب وتئن كمعتوه .

« دعيني أدخل ، دعيني أدخل ، دعيني أدخل ، » .

ولدت آزلين طفلة لكنها سرعان ماماتت . حصل ذلك حينما هدأت العاصفة تماما ، ساعة انبثاق الفجر الرمادي الكئيب .

أرهقت القابلة وكوفيني التي بكت . قالت القابلة :

« بذلت مابوسعي . كانت منقوصة التغذية وهزيلة جدا بحيث لم تستطيع الصمود أمام عذاب المخاض . ومن ثم كل تلك الفضيحة ! ترى من سيأخذ الطفلة ؟ أعرف أن والدها لن يفعل ذلك . لم يسامحها قط لفرارها مع ليونوريو » .

اندهشت كوفيني :

« ليونوريو ؟ من يكون ؟

« لماذا ، ألم تعرفي ؟ أوه لقد نسيت،قدمت حديثا إلى هنا ، كان ليونوريو حامي عاهرات القرية،بهيمة جلفا في صورة إنسان ، لاأحد يدرك تماما ما الذي جعلها تهرب معه . كان والدها على ما أظن صارما للغاية معها بعد أن ماتت أمها،كان قد أعد خطة مفصلة لتزويجها من رجل أعمال ثري يبلغ عمره ضعفي عمرها تقريبا . على كل حال ، الشيء التالي الذي سمعناه هو أن ليونوريو طعن بسكين حتى الموت خلال شجار ، لم تكن ثمة أخبار عن آزلين . من الغرابة أن ترجع إلى قريتها لتموت .

بعد أن قدم رجال الشرطة وأخذوا الجثة والطفلة بعيدا ، وقفت كوفيني عند الباب المفتوح تنتظر رجوع جوزي . كانت عيناها ماتزالان مبللتين . انهمر المطر ثانية ، لكن الشمس كانت تشعشع عبر رذاذه . فكرت « إنها شمسي وشمس جوزي . كم حجبت ضياءها بالغيرة التي أكلت قلبي . يا لآزلين الميتة المسكينة ! إنه لمن دواعي سروري أن بيتي كان مأواها الأخير . ربما إذا وافق جوزي نستطيع تبني الطفلة التي لن يطالب بها أحد » . □

هل تعلم :

● ان المصريين كانوا يصبغون الزجاج منذ ٨٠٠٠ عام ؟

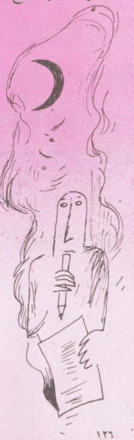
● أن أكبر ناقوس في العالم يوجد في موسكو ، إذ يبلغ زنته ٢٢٠ طنا . وقد صنع في سنة ١٧٣٤ ، لكي يقام على الكرملين ، فسقط وقت وضعه ، وبقي في مكانه إلى الآن ؟

● أن العبقري قلما يكون أكبر إخوته ، وقلما يكون ابنا لأبوين صغيرين في السن ؟



تمرُّ القوافل

شعر : محمود مفلح



وحين بدأتُ الكتابةَ ،
قالوا : توهمتَ ،
ما أنتَ إلا ضجيجُ السَّفَر
وما أنتَ إلا غبارُ الزمانِ ، الزمانِ الحَجَر
وما أنتَ إلا ! !
وليلى التي كنتَ في مقلتيها تنمي عصافيرِ شعرك ،
« وليلى » التي كنت - حينَ التراشق بين القبائِل - تأوي إليها
وتمنحُها بعض خبز الطريقِ ، وتمنحُها ضوءَ ذاك القمَر
« وليلى » التي كنت . . . .
ضاقتْ بكلِّ العصافيرِ كلِّ المواعيدِ ، كلِّ البطاقاتِ
كلِّ الصُّوَر
وها هي تضحكُ ضحكاً سخياً
تلوحُ من شُرْفَةِ البحر
والموجُ يوشكُ أنْ يعتليك ،
وليس وراءك إلا النصالُ
وليس أمامَك إلا الرمالُ
وإلا الطريقُ ، الطريقُ الحُفَر

□□□

وما زلتَ تكتبُ عن زرقةِ الماءِ
تذرفُ زيتاً بقِنديلِ « عكًا »
تخبِّيءُ « بيروتَ » بينَ الضلوع
وما زلتَ تبحثُ عن سَمَكٍ للعشاءِ اللذيذ
تقدم « للأرنباتِ » الصغيرة أحلى الكلامِ ،
وتحكي عن الموسمِ المُنْتَظَر .
تنمقُ هذا الكلامَ العتيدَ أمامَ الذين يموتون صبراً
وتصنعُ لؤلؤةً للعيونِ التي غارَ في محجرَيْها البَصر
وما زلت يا أيها البهلوانُ الجديدُ
تراقصُ حَيَّاتِكَ « الرائعاتِ » وَتُخْرِجُ من كُمِّكَ المُترهِّلِ قِطاً
وتستنبتُ القمحَ في الماءِ
تزرعُ في كلِّ جرحٍ قَمَر
وما زلتَ تُشْعِلُ جَمرَ العشيَّةِ
تبتلعُ النَّصْلَ ، تُخْرِجُ بيضاً ولوزاً
وحولَكَ يضحكُ هذا الترابُ ، الترابُ ، البَشر .



لقد بدأ النومُ
كل الذين أمامَك في حلمِهِمْ يغرقون
فعولن فعولن فعولن فعول
ولكنه الوقت كالسيفِ
والسيفُ أهونُ ما يُشْهِرُون .

□□□

وعندَ المساءِ
تعودُ وحيداً
وكالنهرِ في آخرِ الصيفِ
كالقاربِ المترنحِ بينَ الصخورِ
ويصهلُ فيكَ الصهيلُ
وتعلمُ أنكَ وحدَكَ بينَ الصراخِ وبينَ الصَّدَى
وتشتاقُ ظَهْرَكَ كُلُّ المَدَى ! !
تَضُمُّ الجناحينِ خوفَ العواصفِ
تأوي إلى شارعٍ جانبيِّ ، وتشربُ شيئاً من الخوفِ
في عتمةِ القلبِ تبزغُ « بيسان »
تمتدُّ فيكَ الجراحُ
وتنهضُ كُلُّ المآذنِ كُلُّ المساكنِ مغسولةً بالمَطر
ويمتدُّ ذاكَ الطريقُ الطويلُ
يطولُ الطريقُ الطريقُ القَذِر
وتصرخُ أينَ الزمانُ المضيءُ ؟
وأينَ زمانُ المناهلِ ؟ أينَ الضفافُ السخيةُ بالعطر ؟
أين ارتعاشاتُ ذاكَ الوَتر ؟ !

□□□

تَمُرُّ القوافلُ قُرْبَكَ
تُلقي عليكَ السلامَ وبعضَ الطعامِ وتَمْضِي
تعودُ القوافِلُ تُلقي عليكَ الطعامَ وبعضَ السلامِ وتَمْضِي
تَمُرُّ القوافلُ تُلقي عليكَ السهامَ وَتَمْضِي
تَمُرُّ ، تَمُرُّ
فلا من سلامٍ ولا من طعام
ولا من حَجَــــر

اعداد : يوسف زعبلاوي

الطاقة النووية والاندماجية بين الحرارة والبرودة

من المعروف أن هناك قنابل ذرية وقنابل نووية (هيدروجينية) ، وأن قوة تفجير القنابل النووية أكبر وأضخم من قوة تفجير القنابل الذرية ، وقد نجح العلماء في السيطرة على الطاقة الذرية ، وهي التي يتم توليدها بتحطيم الذرات أو انشطارها ، ولكنهم لمّا ينجحوا بعد في السيطرة على الطاقة النووية ، وهي التي يتم توليدها باندماج الذرات لا بانشطارها . ولا عجب في عدم نجاحهم هذا ، فهم يحاولون توليد الطاقة بالطريقة التي يتم توليدها بها في الشمس وفي سائر نجوم السماء ، ولو نجحوا لكان في ذلك بداية عهد جديد من حياة البشرية على سطح البسيطة ، عهد طاقة رخيصة نظيفة لا متناهية ، وحسبك أن المفاعلات النووية المرتقبة سيكون في مقدورها توليد الطاقة التي تحتاجها مدينة نيويورك طوال يوم أو يومين على سبيل المثال ، من كوب ماء من البحر ، وذلك بتكاليف زهيدة ، وبدون أي تلويث .

ومضى العلماء يبذلون الجهود ، ويسعون إلى تحقيق تلك الأماني التي بدت في أول الأمر كالأحلام ، وما أسرع ما ظهرت المنافسة في هذا الميدان بين الولايات المتحدة من جهة وبين دول غرب أوربا من جهة ثانية (فرنسا والمانيا على وجه التحديد) . وما لبثت جهود العلماء الأمريكيين أن تفوقت قليلا أو كثيرا على جهود العلماء الأوربيين ، ذلك أن بيت القصيد في تلك المحاولات جميعها هو المال ، فتوليد الطاقة الاندماجية يشترط حرارة فائقة - (١٠٠) مليون درجة مئوية - وتوليد هذه الحرارة الخيالية يتطلب أوعية تستطيع احتواء تلك الحرارة دون أن تذوب وتتلاشى ، ولم يجد العلماء مناصا من الاعتماد على المجالات المغناطيسية ، لتقوم بمهمة الوعاء لتلك الحرارة الجهنمية ، ولم يجدوا مفرا من الإفادة من أشعة ليزر في هذا الصدد . ولا يخفى أن هذا وذاك يكلفان أموالا باهظة .

وتركزت جهود العلماء الامريكيين فيما يسمى جهاز أو مفاعل « توكاماك » الذي أقاموه في جامعة برنستون ، والذي بدأ تشغيله سنة ١٩٨٢ . لقد بلغت تكاليف « توكاماك » هذا ٣١٤ مليون دولار ، وبلغت الحرارة التي يستطيع توليدها (٣٠٠) مليون درجة مئوية .

أما جهود العلماء الاوربيين - وهي جهود مشتركة - فقد اتخذت لها مركزا في مدينة « كلهام » في بريطانيا ، وتكللت بمفاعل تورس (torus) الكبير الشبيه بالجهاز الأمريكي « توكاماك » .

على أن المفاعلين ما زالا في منتصف الطريق إن لم نقل في أوله ، إذ أن الطاقة التي يولدانها ما زالت أقل بكثير من الطاقة التي ينفقانها ، إلا أنهما اقتربا كثيرا من نقطة التعادل بين الطاقتين . ولا يدري أحد متى يحققان الغاية المرجوة من الطاقة الاندماجية ، وهي توليد مقادير هائلة من الطاقة ، بمقادير ضئيلة منها . وبدت هذه الغاية بعيدة جدا للكثيرين ، وبدت خيالية وأقرب إلى الأحلام في نظر السياسيين . من هنا كان موقف الكونجرس السلبي من هذه الجهود ، فقد امتنع عن رصد المخصصات اللازمة أو الكافية للتقدم في هذا السبيل لتوليد الطاقة الاندماجية .

□□□

ألياف نباتية تخفض نسبة الكوليسترول

تكاثرت في السنوات الأخيرة المستحضرات الخاصة بالحد من نسبة الكوليسترول في الدم . وقد تحدثنا في الأعداد السابقة عن اللوبيد واللوفاستاتين وغيرهما ، ولم تكد تلك الأعداد تصل إلى قرائنا حتى فاجأتنا أنباء الطب والعلم بخبر اكتشاف علاج آخر جديد للكوليسترول ، اسمه (بسيليوم) Psyllium ، وقوامه ألياف تصنع من قشور البذور والحبوب التي توجد في وجبات الفطور ، والتي تدخل في صنع بعض المسهلات الواسعة الانتشار . وقد دلت التجارب على أن باستطاعة هذه الألياف تخفيض محتويات الكوليسترول في الدم بنسبة ٤,٨٪ ، وكذلك تخفيض محتويات الليبوبروتين الخبيث (بالمقارنة مع الليبوبروتين الطيب) بنسبة ٨,٨٪ ، أما الجهة التي أجرت هذه التجارب فجامعة منيسوتا بالتعاون مع مركز « هَنِبِّن » الطبي في « مينا بوليس » في الولايات المتحدة .

□□□

علاج جديد لسرطان الثدي

اكتشف الباحثون في مركز السرطان في متشيغان بأمريكا أن أحد البروتينات الموجودة في خلايا الثدي - واسمه ماماستاتين (mammastatin) يفيد في معالجة سرطان الثدي ، ويساعد على تشخيص هذا المرض الخبيث في وقت مبكر . فقد دلت الأبحاث والتجارب على أن نقصان البروتين المذكور في بعض النساء يجعلهن أكثر عرضة للإصابة بسرطان الثدي ، ذلك أن الخلايا السرطانية تعاني من نقص ما فيها من ماماستاتين .



الكحول بديل جديد لوقود السيارات!

تحظى شؤون البيئة من الرئيس الامريكي بوش اهتماما كبيرا ، وليس أدل على ذلك من قانون الهواء النقي الذي أصدره في شهر (يونيو) حزيران الماضي (١٩٨٩) . ويقضي مشروع القانون الجديد بألا يقتصر صنع السيارات في أمريكا على إنتاج السيارات المألوفة التي تعتمد البنزين وقودا ، ويفرض على مصانع السيارات الأمريكية ، ككل ، العمل على تطوير السيارات التي تسير بالكحول ، بحيث يصبح باستطاعتها إنتاج مليون سيارة من هذه السيارات سنويا ، وذلك ابتداء من سنة ١٩٩٧ م .

والمقصود هنا السيارات التي تتخذ الايثانول أو الميثانول وقودا أو مصدرا للطاقة التي تسيرها ، فهذان الكحولان ذوا بنية بسيطة التركيبة ، تضمن لهما الاحتراق شبه الكامل ، إذا كان المحرك سويا ، بحيث لا يخرج من عادم السيارات التي تسير بهما سوى الماء وثاني أكسيد الكربون ، أي أن هذه السيارات الكحولية لا تلوث الجو بمثل الغازات الخانقة والسامة التي تخرج من عوادم سيارات البنزين ، والتي عدت عدو البيئة رقم (١) ، بقدر ما ثبتت مسؤوليتها عن الأمطار الحمضية ، وعن تلف الأوزون في طبقات الجو العليا . أضف إلى ذلك أن سيارات البنزين هي التي تلوث الهواء الذي نتنفسه بغاز أول أكسيد الكربون ، وبغاز الأوزون الملوّث ، وغير ذلك من عشرات الملوِّثات الضارة .

والطريف أن الايثانول يستخرج من المحاصيل الزراعية ، فالقمح والذرة وقصب السكر والشمندر تحتوي على الكاربوهيدرات ، وتفرز الايثانول إذا عولجت بالخميرة .

نأتي الآن إلى الجدوى ، فما لم تثبت جدوى الكحول من حيث تكاليف إنتاجه وفاعليته فإنه من الصعب أن يحل محل البنزين ، ويصبح الوقود البديل في المستقبل المنظور ، ذلك أن النظافة أو حماية البيئة وحدها لا تكفي ، ولا بد للايثانول والميثانول أن يثبتا الفاعلية في الأداء ، وعدم الغلاء في الانتاج ، ليصبحا وقود السيارات البديل ، أو المنافس على أقل تقدير .

وأول ما يذكر في هذا الصدد هو أن استخراج الايثانول من المحاصيل الزراعية ذو كلفة عالية ، ويستأثر المزارع بنصيب كبير من تلك التكاليف . وحسبك أن ثلث الأراضي الزراعية في بريطانيا يجب أن تسخر لزراعة



المحاصيل التي تجود بالايثانول إذا اتجهت الرغبة إلى تعميم هذا الوقود في بلاد الانكليز ، أما في الولايات المتحدة فلا مفر من تخصيص ٥٠٠ مليون فدان لزراعة تلك المحاصيل ، الأمر الذي قد يحرم المزارع الامريكي من الزراعة لأي غرض آخر ، بقصد تحقيق الأمن الغذائي ، ومن أجل التصدير . أضف إلى ذلك أن عملية تخمير المحاصيل ، واستخراج الايثانول منها ، عملية مكلفة أيضا ، وقد فوجئت الأوساط المعنية بالتقرير الذي وضعه جون مارو ، الخبير المتخصص في دائرة الطاقة الذرية في بريطانيا ، فقد أثبت هذا التقرير الذي صدر سنة ١٩٨٧ أن تكاليف إنتاج الايثانول من القمح والذرة وما إلى ذلك تبلغ (٣) أضعاف تكاليف إنتاج النفط ، فلا عجب إذن إن تطلع المعنيون في بريطانيا وأمريكا وغيرها إلى تقنية جديدة ، تقوم على أساس الهندسة « البيولوجية » ، وتضمن إنتاج الايثانول بتكاليف زهيدة ، أو على الأقل غير باهظة .

وتختلف قصة الميثانول عن قصة الايثانول اختلافا كبيرا ، فالعلة ليست في تكاليف إنتاجه ، وهي لا تزيد على (٥٠) سنتا للبرميل الواحد من الميثانول ، إنما العلة في قلة فاعلية هذا الكحول ، وهي تقدر بنصف فاعلية النفط ، أضف إلى ذلك أنه لا يسمح بخلطه مع (البنزين) كما هي الحال مع الايثانول . والأسوأ من ذلك أن الميثانول سام ، ويتلف المعادن ، ولا تصلح لتعبئته الأواني المعدنية العادية ما لم يخلط ، وإذا استنشق أحد أبخرته فقد يفقد بصره ، أو يصاب بالسرطان .

والميثانول ضار بالبيئة ، سواء كان إنتاجه من الغاز الطبيعي أو من الفحم الحجري ، فهو يسهم في تفاقم ظاهرة البيت الزجاجي في حالة استخراجه من الغاز ، ويفرز غاز ثاني أكسيد الكربون بكميات مضاعفة إذا جرى استخراجه من الفحم الحجري .

■ الحوت الأزرق في خطر !

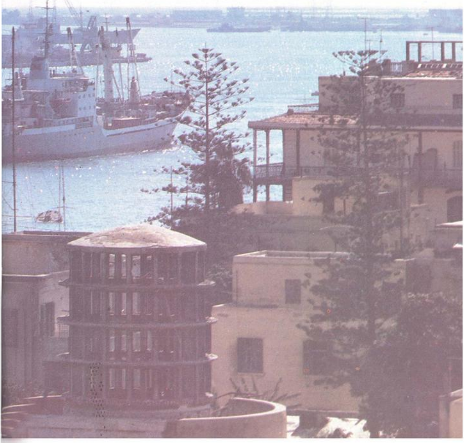


الحوت الأزرق ـ أكبر مخلوق عرفته الكرة الأرضية ـ في سبيله إلى الانقراض . هذا ما كشف عنه تقرير الهيئة الدولية لصيد الحيتان ، وقد صدر في أواخر شهر حزيران (٨٩) ، فقد قامت هذه الهيئة بعملية مسح شاملة ، شملت شواطيء القارة القطبية الجنوبية ، واستغرقت حوالي (١٠) سنوات ، حتى جاء التقرير الذي تضمن الإحصاءات والنتائج التي تمخضت عنها تلك العملية المطولة . وحسبنا الإشارة إلى أن مجموع الحيتان الزرقاء في إحدى المناطق التي شملها المسح ، لم يجاوز ٤٥٣ حوتا ، وطالما أكدت التقديرات بأن عدد الحيتان فيها لا يقل عن (٤٠٠٠) حوت .

مئة وعشرون عاماً على افتتاح

قناة السويس:

تحديات مستمرة
وحياة متجددة





استطلاع : علي عتمان

تصوير : طالب الحسيني



منذ مائة وعشرين عاماً ، وبالتحديد في ١٨ (أغسطس) آب ١٨٦٩ ، التقت مياه البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، بعد أن انقضت المعاول على السد المؤقت في البحيرات المرة . وبعد ثلاثة شهور ـ في ١٧ (نوفمبر) تشرين الثاني ١٨٦٩ ـ أعلن رسمياً في حفل باذخ ، ما زالت وقائعه تثير الدهشة ، عن افتتاح قناة السويس للملاحة العالمية . ومنذ ذلك الوقت دارت حول القناة أحداث كثيرة ، وصراعات عنيفة ، دفع الشعب المصري ثمنها تبعية ، وانكساراً وفقداناً للاستقرار ، ولكنه كان دائماً متحدياً ، حتى عاش أيام زهوه وانتصاره ، عندما ملك القناة . فراح ينمي المجتمع الحضري الذي نشأ حولها وبسببها . واليوم تدفعه تحديات الحاضر الى اقتحام المستقبل الصعب .

في الصباح الباكر من يوم ربيعي دافيء ، من شهر (مارس) آذار ، خلفنا مدينة القاهرة بصخبها وضجيجها الذي لا يتوقف ، وامتداداتها العمرانية المتواصلة على رمال الصحراء في شمالها الشرقي ، باتجاهنا إلى مدينة الاسماعيلية التي تبعد عن القاهرة حوالي ١٢٠ كيلومتراً . وهي واسطة محافظات القناة الثلاث ، والمقر الرئيسي لهيئة قناة السويس البحرية .

مع اقترابنا من مشارف الاسماعيلية ، حملت لنا النسمات الصباحية الرطبة رائحة منعشة لفواكه مختلطة بعطر أزهار متوهجة تفتحا وألوانا على رؤوس الحقول والأشجار . الخضرة تتزايد وتتكثف مع تواري اللون الأصفر . حدائق تلي حدائق ، وأشجار متعانقة بكثافة تصنع خميلة جميلة فوق الطريق القديم الجديد ، باعة الفاكهة الطازجة يتوزعون على الطريق : برتقال ، يوسفي ، فراولة ، موز ، فالاسماعيلية تشتهر بإنتاج الفاكهة ، خاصة الصيفية كالمانجو ، والبطيخ والشمام ، بالإضافة إلى الموالح والفول السوداني ، فطبيعة التربة حولها ، سواء كانت رملية ناعمة أو خشنة ، تصلح لهذه الأنواع من المحاصيل الزراعية .

دخلنا المدينة ، وتوجهنا إلى مقر هيئة قناة السويس ، مع المرافق الذي كان بانتظارنا . مقر إدارة الهيئة أو مبنى الإرشاد مقام على ضفاف بحيرة التمساح ، ومكون من ثلاثة عشر طابقاً ، يعلوها برج لإرشاد السفن ، مزود بأحدث الأجهزة اللاسلكية ، لتيسير عملية الاتصال بالسفن العابرة ، وبمكاتب حركة الملاحة ، وكذلك بأجهزة قوية للرصد ، يمكن بواسطتها مراقبة حركة الملاحة في القناة في الأيام الجيدة الرؤية إلى القنطرة شمالاً ، والبحيرات المرة جنوباً .

قابلنا بعض المسئولين بالهيئة ، ثم اتجهنا الى الفندق ، وهو على بعد خطوات من مبنى

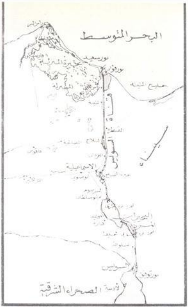
الإرشاد ، ويطل على بحيرة التمساح . أنهينا الاجراءات ، وصعدنا إلى الغرف ، أزاح عامل الفندق ستائر النوافذ ، فبدا المشهد رائعا : سفن مبحرة في الممر المائي داخل البحيرة ، (قوارب آلية « لنشات » سريعة ، تتحرك باتجاهات مختلفة ، مجموعات من الصيادين في قواربهم الصغيرة ينتشرون على سطحها ، أندية وشواطىء خاصة متجاورة على ضفافها ، سكون مياهها إلا من حركة أمواج خفيفة ، ولونها الصافي ، يغريان بالقفز إليها .

واسطة العقد :

غادرنا الفندق ، واتجهنا إلى المدينة . الاسماعيلية مدينة خدمات ، يسكنها موظفو الحكومة ، والعاملون في هيئة قناة السويس وشركاتها ، والعاملون في الصناعات الخفيفة ، وتتخذها جامعة قناة السويس مقراً لها ، وهي جامعة حديثة ، موزعة على مدن القناة الثلاث ، تقل فيها التخصصات النظرية لصالح التخصصات العلمية المرتبطة بطبيعة أنشطة المنطقة .

مدينة هادئة ، حدائقها التي تتركز في المناطق المحاذية للقناة نضرة الخضرة ، وأشجارها منسقة ، نظافة ملموسة في قسمها الأول - كان يطلق عليه الحي الافرنجي ، حيث نشأت مدينتا بور سعيد والاسماعيلية ، على حَيَّيْن ، أولهما الحي الافرنجي ، وكان يسكنه الأجانب ، في مقابل حي العرب الذي استمد اسمه من ساكنيه - ولذلك كان تخطيط الحي الأول وتنظيمه يحظى بالاهتمام دون الآخر ، فشوارعه متسعة ومجملة بالأشجار المستورد بعضها من أوربا . في قسم من هذا الحي الذي يسكنه حالياً كبار الموظفين والتجار ، وتتركز فيه معظم المصالح الحكومية .

دخلنا قلب الحي التجاري : ازدحام شديد ، وأصوات بشرية متداخلة مع ضجيج كل وسائل



● خريطة قناة السويس ..

النقل البرية التي عرفتها البشرية . شريط « السكة الحديد » يخترق المدينة ، ويقطع الثلاثيني أكبر شوارعها ، ومنه تتفرع الأسواق المختلفة .

أحياء جديدة تضاف إلى المدينة في الشمال والغرب كحيّ الشيخ زايد ، وأحياء كانت قائمة عشوائياً يعاد تخطيطها ، كحي السلام ، صناعات جديدة تنشأ على بعد اثني عشر كيلو متراً من المدينة .

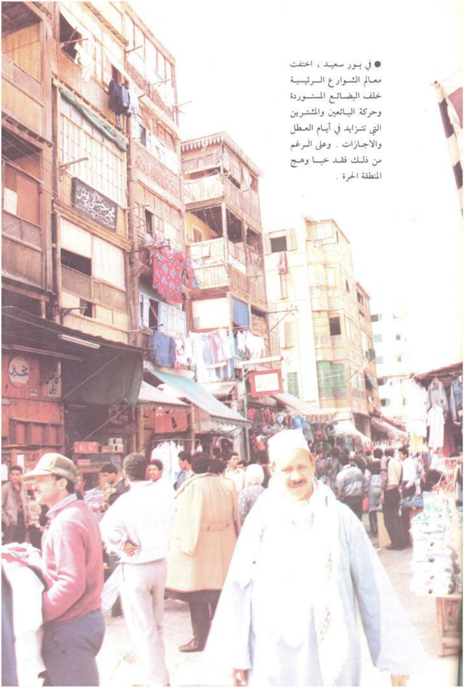
خرجنا من نطاق المدينة إلى الجنوب ، فاستوقفتنا لافتة يقوم بتعليقها شابان ، مكتوب عليها «استراحة الدبابات » ، سألنا عن التسمية فأشار مرافقنا إلى عدد من الدبابات المحطمة ، إنها دبابات « إسرائيلية » حاولت دخول المدينة أثناء حرب اكتوبر ١٩٧٣م ، فأوقفتها قذائف المدافعين عن المدينة . والتقط لها زميلي المصور بعض الصور ، وواصلنا سيرنا بين المزارع في طريق ضيق : المزارعون يعكفون على أعمالهم الحقلية المختلفة ، أسر كاملة تعمل في الأرض ،







● من قلب الرماد تنهض مدن القناة لتتدفق في شرايينها الحياة المتجددة بتجدد الأجيال . أعلى شارع رئيسي في بور سعيد ، وأطفال في حديقة مكتبة الطفل ، وجانب من ترسانة بور سعيد لبناء السفن .



● في بور سعيد ، اختفت معالم الشوارع الرئيسية خلف البضائع المستوردة وحركة البائعين والمشترين التي تتزايد في أيام العطل والاجازات . وعلى الرغم من ذلك فقد خبا وهج المنطقة الحرة .

محاصيل متنوعة . ونتوقف لنسأل فلاحاً عن محاصيله وظروف العمل ، فيشير بأصبعه : هذا حوض فول سوداني ، وذلك سمسم ، والذي أعمل فيه طماطم . وهذا العام جاءنا صقيع شديد ، أثر على الزرع ، وكما ترون ضمرت حبات الطماطم ، واخضرارها تحول إلى لون محروق . نحاول التغلب على آثاره .

ونعود إلى الاسماعيلية ليلاً : الحركة هادئة تماماً ، والليل هنا طويل ورومانسي ، الجميع في البيوت ، ونحن في الفندق نتابع إرسال محطة القناة التلفازية .

لا بدائل تغني عنها :

كان من الطبيعي والنشاط الاقتصادي والاجتماعي لمحافظات القناة يعتمد في القسم الأساسي منه على الحركة في قناة السويس ، أن يدور حوارنا مع الدكتور مهندس نبيل الهلالي ، مدير التحركات في الهيئة ، عن احتمالات المستقبل ، في ضوء متغيرات عالمية كثيرة ، لها تأثيرها على هذا الممر المائي الدولي ، منها نمو حركة التجارة الدولية ، والاتجاهات الجديدة في بناء السفن ، والتوسع في بناء خطوط أنابيب النفط .

عرفنا قبل الالتقاء به أنه يعمل في الهيئة منذ واحد وثلاثين عاماً . استقبلنا بود شديد ، وأثنى على مجلة « العربي » عبر مسيرتها الطويلة . شدني إليه هدوؤه وعينان تشعان بذكاء وقاد ، وذاكرة حاضرة بأدق التفاصيل .

بدأ معنا حديثه « بأن أهمية القناة لا تقف عند تأثيرها على المنطقة المحيطة بها اجتماعياً واقتصادياً وحدها ، وإنما تتجاوزها إلى المستوى الوطني ، فالعالمي ، فالعائد من دخلها يعد أحد المكونات الرئيسية للدخل القومي لمصر ، وأهميتها العالمية تؤكدها صدارتها لكل الممرات المائية المصنوعة في العالم ، وتنامي حركة الملاحة الدولية عبرها ، ولذلك فإننا نقوم بإعداد الدراسات حول المتغيرات التي ذكرتها أنت على سبيل المثال ، من خلال متابعتنا الدقيقة ، وأضيف لها المتغيرات التي تؤثر على أسواق النفط وأسعاره ، وكذلك التطورات العالمية لاستخدامات الطاقة وبدائلها ، لأن كل هذه المتغيرات تؤثر حتماً على حركة العبور بالقناة ، وكذلك على مشاريع تطويرها .

ويقول مدير التحركات بالهيئة : « كانت الهيئة قد أعدت مشروعاً طموحاً ، - يساير تطورات بناء ناقلات النفط العملاقة ، والحاويات ، ويزيد طاقة القناة التصريفية إلى ٤٣,٨٠٠ سفينة سنوياً ، بمعدل ١٢٠ سفينة يومياً ، ويتم تنفيذه على مرحلتين ، ولكن قرب انتهاء المرحلة الأولى بدأت تظهر بعض العوامل المؤثرة على حركة سفن النقل ، مما جعلنا نؤجل تنفيذ المرحلة الثانية مؤقتاً ، لأن العائد قد لا يساوي الكلفة . فقد كلفت المرحلة الأولى ١,٣ بليون دولار .

وعلى الرغم من أن عدد السفن العابرة للقناة - وفقاً لاحصائياتها - في العامين الماضيين كان أقل من الأعوام السابقة لظروف كثيرة ، منها استمرار حرب الخليج وقصف الناقلات ، وخفض دول الخليج العربي لإنتاجها من النفط ، فإن زيادة حمولة السفن العابرة عوضت النقص في عددها .

وظلت نسبة العائد المتحصل ثابتة ، وهذا الوضع جعل عمليات التطوير تقف عند توسيع المجرى الملاحي وتعميقه لزيادة عرض البواخر العابرة ، خاصة الفارغة ، وقد عبرت القناة العام الماضي سفن من حمولة ٥٥٥ ألف طن فارغة ، كما أكد الدكتور نبيل الهلالي الذي أضاف : « في العام الماضي ظهرت بعض التغيرات التي نعدها مشجعة ، ومنها :

(١) وصول السفن التي بنيت أثناء إغلاق القناة إلى نهاية عمرها الافتراضي ، وعند بناء بدائلها سيكون لنا بالتأكيد رأي في حجمها

ونوعيتها ، من خلال علاقتنا الوطيدة مع « الترسانات » العالمية لبناء السفن .

(٢) ظهور ارتفاع طفيف في أنوال النقل - خارج القناة - سيدفع لاختيار الأرخص في الكلفة .

(٣) التحسن في الاقتصاد الأمريكي سيكون له تأثيره على العملات التي يتم بها سداد رسوم العبور (لا نعتمد في تحصيل الرسوم على عملة واحدة ، بل على سلة عملات ووحدات السحب الخاصة) .

(٤) ظهور تصميمات جديدة لناقلات النفط ، وهذا معناه أننا نجحنا في ربط بناء السفن بالقناة . وهذه التغييرات الجديدة دفعتنا إلى إعادة التفكير في دراسات الجدوى عن مستقبل قناة السويس خلال ربع قرن قادم ، حتى يمكننا تحديد ما يمكن إضافته للقناة .

وإننا نثق أن القناة لن تفقد مكانتها لأسباب عديدة ، نستخلصها من دراسات علمية دقيقة ، يجريها مكتبنا الاقتصادي الذي يتابع التطورات الاقتصادية العالمية ، واقتصاديات النقل على وجه الخصوص . كما أن بدائل القناة سواء كانت ناقلات عملاقة أو أنابيب نفط لن تغني عنها » .

جولة بحرية :

بعد لقائنا مع مدير التحركات في هيئة قناة السويس بدأنا جولة في بحيرة التمساح : قارب « لنش » صغير من أسطول الهيئة ، يشق بنا مياه البحيرة الهادئة ، في دورة تتماشى مع ضفافها شرقاً وغرباً . قافلة السفن القادمة من الشمال تواصل إبحارها باتجاه البحيرات المرة ، فالسويس . ناقلات نفط ضخمة ، وناقلات بضائع ، وحاويات - التوجه الجديد في مجال النقل البحري وتطوير الحاويات وزيادة عددها - وبين كل سفينة وأخرى مسافة ثابتة .

يقترب « اللنش » من شاطيء البحيرة الغربي ، فنلمح مبنى بديعاً ، تظهر بعض ملامحه من بين أشجار كثيفة ، رائعة التنسيق . ويشير مرافقنا إلى حيث تتجه أنظارنا قائلاً : « هذه جزيرة الفرسان » . فتتداعى إلى الذاكرة صور قريبة مختلطة بصور أبعد منها في الزمن ، تصدرت فيها هذه الجزيرة بمبناها مقدمة الأحداث ، عندما كانت تصنع مصائر أجيال من أبناء القطر المصري زمنا طويلاً في غيبتها ، وتلح صورة منها في الثبات على شاشة الذاكرة ، فأتأمل بعض تفاصيلها ، إنها الصورة الأولى الأقدم في الشريط .

خديوي مصر ، اسماعيل ، بجسامته لخم والأوسمة والنياشين التي ترصع صدره ، والخيلاء ترتسم على محياه ، يقف على درجات النصر ، مستقبلاً كبار مدعويه من ملوك وأباطرة وأمراء وبعض مثقفي أوربا الذين دعاهم مع حشد هائل ، بلغ ثمانية آلاف مدعو ، لحضور حفل افتتاح قناة السويس ، منذ مائة وعشرين عاماً كاملاً .

قدم الجميع من بور سعيد صباح يوم ١٧ (نوفمبر) تشرين الثاني ١٨٦٩ ، في موكب بحري ، تتقدمهم « اليخت » المحروسة » ، واليخت الفرنسية الملكية « الايجيل » أو النسر ، بعد انتهاء احتفالات دامت يومين توقفت بعدها السفن على صفحة بحيرة التمساح ، وبدأوا الاحتفالات التي قيل : إن مصر لم تشهد في تاريخها احتفالات عظيمة تماثلها . كلفت فوق مليون ونصف مليون جنيه مصري ، وكلفة حفر القناة كلها أربعة عشر مليوناً ونصف مليون جنيه .

ويستدير « اللنش » ليعود إلى قلب البحيرة ، ثم إلى المرسى . نلمح « ورشا » هندسية وهياكل سفن ، فنسأل عاملي « اللنش » عنها فيقولان : إنها ورش شركة التمساح لبناء السفن ، إحدى شركات هيئة القناة السبع للأعمال البحرية ،







● في قناة السويس تتعدد الأنشطة ووسائل الحياة .

« بمبوطي » يروج بضاعته بميناء بور سعيد (أعلى اليمين) .

● غرفة مراقبة الملاحة في القناة والتحكم فيها بالاسماعيلية (تحت يمين) .

● عربة الخديوي اسماعيل التي شهدت افتتاح القناة في متحف بور سعيد .

● سفن تدخل القناة من مدخلها الجنوبي عند بور توفيق .

● المعدية التي تربط بور سعيد ببور فؤاد (تحت يسار) .







أربع منها في بور سعيد ، واثنتان في الاسماعيلية ، وترسانة السويس البحرية في السويس . وبعض هذه الشركات تجميع لشركات مؤممة ، كانت قائمة بالأعمال البحرية من قبل ، وبعضها منشأ بعد تأميم القناة .

يقول رئيس قطاع الشركات بالهيئة ، فريد سليمان : « أنشئت هذه الشركات بهدف أساسي ، وهو أن تكون أداة تنفيذية لمشروعات هيئة قناة السويس، وكذلك بغرض أعمال الصيانة لأسطول القناة المكون من « الكراكات » و « اللنشات » ، وكذلك لبناء وحدات عائمة جديدة ، لتعزز أسطول الهيئة كلما دعت الحاجة، ولقد قامت هذه الشركات - كل شركة في مجالها - بتنفيذ عدد من المشاريع في مصر وبعض الأقطار العربية ، مثل مراسي « المعديات » في بور سعيد ، ورصيف الحاويات فيها ، وميناء طرطوس بسوريا ، ودرنة بليبيا . وحالياً تتم الخطوات النهائية للاشتراك في تنفيذ ثلاثة عشر رصيفاً لميناء « أم قصر » بالعراق ، ونقوم بدراسة تكرير المياه في شمال العراق ، وسنبدأ قريباً بإنشاء رصيف « طابا » . وتملك الشركات « كوادر » فنية قادرة على المساهمة في الأنشطة البحرية والنيلية . وإجمالي قيمة هذه الشركات سنة (٨٧ - ١٩٨٨) بلغ ١٩٤ مليون جنيه . ورأس مالها العامل ٨٩ مليون جنيه ، ورأس المال المستثمر ٢٧٤ مليون جنيه » .

لكل مدينة ملامحها

وصلنا الى المنفذ الجمركي الجنوبي لبورسعيد، توقفنا أمام البوابة الجمركية ، لنثبت آلات التصوير ، حتى يسهل علينا مغادرة المدينة بلا تأخير بعد انتهاء مهمتنا داخلها . الدخول إليها سهل ، أما الخروج منها فيمثل مشكلة لزائرها والمقيم فيها ، حيث يجب عليه دفع الرسوم الجمركية على مشترياته من السلع التي لم تحصل جماركها من المنبع - أي قبل الشراء - وهذا يستغرق وقتاً لشدة الزحام . وتحايل بعض رواد المدينة عند خروجهم لتخفيض الرسوم التي تطلب منهم ، ولمحاولة مسئولي الجمارك التضييق على عصابات تهريب البضائع التي يستغل فيها بعض التجار داخل المدينة وخارجها عددا كبيرا من الصبية والنساء الفقراء .

وندخل بورسعيد ، المدينة ذات الشهرة المدوية في العالم كله منذ سنة ١٩٥٦ والتي كانت نموذجاً لأبناء العالم الثالث في مرحلة المواجهة الحادة والمباشرة للاستعمار في الخمسينيات والستينيات من هذا القرن ، أشد ما تغيرت ملامحها ، وكذلك مكانتها ، وإن لم تفقد تميزها الذي أكسبها إياه موقعها ، وهو في الوقت نفسه نقطة ضعفها .

فإذا كان للسويس القابعة في ظل جبل عتاقة وحضن البحر تاريخ ممتد في الزمان كميناء قديم ، فإن الصناعات النفطية ، ومرور الحجاج عبرها إلى الأراضي المقدسة أعطاها سمة المدينة العملية . أما الاسماعيلية فقد أكسبتها فاكهتها الصيفية المميزة رائحتها ، وأعطتها الطرق المفتوحة على ريف مصر ومدن شرق الدلتا إحساساً بالأمان ، جعلها أقرب للمحافظة في السلوك الحياتي عن قرينتيها ، وهي قانعة نهاراً بالعمل والحركة والنشاط وتنام الليل قريرة العين .

أما بورسعيد فموقعها المميز ، كشبه جزيرة تحيطها المياه من كل جانب ما عدا شريطين ضيقين يربطانها بالدلتا غرباً ، وبالقاهرة جنوباً ، وكونها ميناء مشرعا على العالم كله ، بما يعنيه من انفتاح في السلوك وجرأة في الحركة ، واحتكاك بالجنسيات المختلفة ، سواء بالتعايش عندما كانت تستوطنها بعض الجاليات الأوربية ، أم بالتعامل معها من خلال أنشطة الميناء ، كل ذلك

جعل أبناءها يشعرون بفتوة الصبا ، فيقبلون على الحياة بخفة مبهجة ، ويتعاملون مع الآخرين بمرونة الواثق ، فالبحر رزقه واسع حتى ولو كان غير معلوم ، والمدينة هادئة نظيفة ، تعج بالحركة ، ومستواها المعيشي متمايز عما حولها ، ولذلك استقطبت هجرة متزايدة من أبناء المناطق المجاورة ، أقامت في أطرافها . وبعد عشر سنوات من عدوان ١٩٥٦ توقفت الحياة في أوصالها ، ككل مدن القناة وهاجر أبناؤها الى أحضان الوطن ولكن على الرغم من البعثرة في ريف مصر ظل لهم ما يجمعهم ويميزهم . وَلَهٌ بتناول الأسماك ، وقدرة في التعبير عن الفرح من خلال « الضمة » تجمع تلقائي من الرجال والشباب ، يشارك بترديد مقاطع من أغاني « السمسمية » خلف المؤدي الرئيسي لها ، والموقعة على آلة بدائية مكونة من طبق مركب عليه خمسة أوتار ، بصحبة طبل مزدوج (بونجز) وملعقتين . وأغاني « السمسمية » بإيقاعاتها القوية المبهجة ، حتى ولو تحولت كلماتها من التشبيب بالحبيب إلى الحنين للأهل ، والصحبة ، ومسقط الرأس .

لكل تبدل ثمن :

نجوب شوارع المدينة باحثين عن معالمها . الضواحي الجديدة تتقدم بحدودها جنوباً وغرباً على حساب بحيرة المنزلة . المساحات الخالية في المدينة محدودة ، الازدحام شديد ، والحركة في الشوارع الرئيسية ، خصوصاً في قلب المدينة التجاري - حي العرب - كثيفة . تحولت حركة السيارات فيها الى اتجاه واحد . بعض الشوارع الرئيسة اختفت معالمها خلف الملابس والسلع المستوردة من دول جنوب شرق آسيا ، الباعة احتلوا جوانبها كشارع التجاري وشارع الحميدي . كثير من أصحاب المحلات بدلوا تخصصاتهم القديمة ، وتحولوا إلى بيع السلع المستوردة ، ولم يصمد منهم إلا القليل .

قال لنا واحد من أبناء المدينة تطوع لمرافقتنا : « لن تجدوا القديم الذي تبحثون عنه ، فالناس تغيروا ، والعلاقات حكمتها حسابات جديدة ، والتركيبة الاجتماعية في المدينة أصابها تبدل كبير ، وتغير المزاج العام ، حتى « السمسمية » و « الضمة » ، بعد أن كانت تعبيراً تلقائياً يمارسها بسطاء الناس في أوقات فراغهم ، دون مقابل ، في احتفالات الزواج ، والمناسبات الاجتماعية والوطنية المختلفة ، أصبحت لها فرق تمارسها كتجارة ، ووقعت كلماتها في الرتابة . ولولا فرقة الفن التلقائي التي تمارس نشاطها على مسرح « قصر الثقافة » لاندثر هذا الفن الجميل . حتى المقاهي التي كان لها دور اجتماعي مميز ، وكانت تشتهر بها بور سعيد ، تحول كثير منها إلى محلات تجارية » .

نحمل انطباعاتنا إلى اللواء سامي خضير ، محافظ بور سعيد ،ونسأله عن الحوار الدائر حول المنطقة الحرة ، وضرورة العودة بها إلى الهدف الأصلي من إقامتها ، وهو إنشاء صناعات للتصدير إلى السوق العالمي ، بما يسمح بجلب العملة الصعبة ، وإيجاد فرص عمل ، وتنشيط الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، بدلاً من ترويج سلع تنافس الإنتاج الوطني ، فقال : « لقد حدث خلال السنوات الثلاث الماضية تغير في مفاهيم رجال الأعمال ببور سعيد ، وفعلاً بدأت عملية تصنيع ما يتم « استيراده » . وعندنا حالياً مصنع للملابس الجاهزة ، ومصانع للحلويات والمنظفات ، وهناك مشروعات قيد التنفيذ ، كمصانع الأدوات والأحذية الرياضية ، ومشروع حديد التسليح ، وكذلك مشروع « لتخريد » السفن ، خصص له موقع في منطقة مثلث التفريعة ، وحاليا تتم دراسة مشروع استخراج أكسيد المغنسيوم المستخدم في الصناعات المتطورة من الملح المتوافر في منطقة الملاّحة



● « أم الخلول » واحدة من الأحياء المائية الصدفية تُصاد بالقرب من الشاطيء وتُفصل عن بقية القواقع والأصداف ، وتباع كأكلة شعبية مشهورة في بور سعيد .



● صيادو السمك بميناء « الأتكة » بالسويس في حالة تجهيز

جولـــة في الميناء :

وقمنا بجولة بحرية في ميناء بور سعيد الذي تمر فيه سنوياً أكثر من ٢٠ ألف باخرة ، وحوالي ٤٠٠ مليون طن من البضائع ، ونسبة كبيرة من تجارة مصر الخارجية استيراداً وتصديراً . ضفاف الميناء تضج بالحركة ، مبنى هيئة قناة السويس التاريخي في الضفة الغربية ، على يساره أحواض تفريغ البضائع تعتليها المخازن ، ورافعات عملاقة سألنا عنها مرافقنا فقال : هذا رصيف محطة تداول الحاويات ، طوله ٦٠٠ متر ، وعمقه ٤٢ قدماً ، وهو المرحلة الأولى من مشروع المحطة التي تديرها شركة تداول الحاويات.

وتابع جولتنا البحرية . ترسانة بور سعيد البحرية على الجانب الشرقي من الميناء ، وكذلك حوض إصلاح السفن . « المعديات » تعبر الميناء بالاتجاهين ، حاملة السيارات والأفراد . سفن تعبر الميناء ، وغيرها رابضة بانتظار تموين أو إصلاح أو دور للتفريغ . الدلافين تتكاثر متقافزة في الماء ، وطيور النورس البيضاء تحط على سطحه ، تلتقط صيدها ثم تطير في مجموعات عند أي حركة تقترب منها . قوارب « لنشات » (البمبوطية) - باعة « العاديات » لركاب السفن - رابضة في مراسيها ، بحثنا عن (البمبوطية) حول السفن العابرة كما كانوا يفعلون منذ نشأة الميناء - وهم يتحدثون بلغات عديدة لترويج سلعهم - فلم نجدهم ، سألنا عن سبب اختفائهم فقالوا لنا : إن إنشاء تفريعة القناة الجديدة ، شرق بورفؤاد ، جعل السفن تعبر الميناء بالاتجاهين دون توقف ، مما حال بين (البمبوطية) ومعاودة نشاطهم القديم ، فهجروه إلى غيره . وبقي منهم « لنشاتهم » التي تخدم في أعمال أخرى ، والرقصة الشعبية الرائعة - رقصة البمبوطية - التي تعبر عن أشواق إنسانية مبهجة ، تمتع بها محطات التلفاز العربية مشاهديها .

ورأينا من الميناء فنار بور سعيد الذي كان يرشد السفن وهي خارج الميناء بأضوائه المميزة ، قالوا لنا : سنحوله إلى معلم سياحي ، بعد أن أقمنا بديلاً عنه خارج المدينة ، وسنزوده بمصعد زجاجي خارجي كي تتاح لزائره مشاهدة المدينة بجميع معالمها ، لأنه أعلى مكان فيها . وتقترب من قاعدة تمثال « دي لسبس » في مدخل الميناء الذي أطاح به أبناء المدينة بعد خروج القوات المعتدية عام ١٩٥٦ ، فنتساءل : لماذا لم يوضع مكانه - حتى الآن - نصباً يجسد نضال الشعب ، أو رمزاً من رموز الوطن المرتبطة بهذا المرفق الحيوي ... ؟ !

رحلـــة عبـــور للقناة :

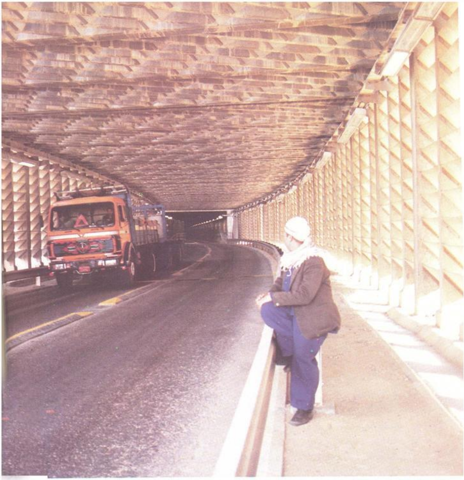
تصادف وصولنا لمرسى مبنى الهيئة - ونحن في عودتنا من الجولة البحرية - بعودة واحد من مرشدي السفن العابرة للقناة بزيه البحري المميز ، عائداً من مهمة قيادة سفينة من قافلة الجنوب . عرفنا عليه مرافقنا : قبطان « جمال » . قلنا له : ستعوضنا ما بددته الاجراءات ، فقد كنا نسعى لمصاحبة سفينة أثناء عبورها القناة ، ولكننا وجدنا أن الاجراءات تستغرق وقتاً طويلاً ، فهل نصحبنا في واحدة من رحلاتك ، فقال : « لتكن صحبتنا مع قافلة الجنوب ، من بورسعيد إلى السويس ، صباح الغد » .

ونحن نستقل معه « اللنش » إلى حاملة بضائع يونانية قال : بداية لا بد لأي سفينة ترغب في عبور القناة أن تخطر قسم التحركات بهيئة القناة بواسطة وكيل الشركة التابعة لها في بورسعيد ، أو السويس ، قبل وصولها بأربع وعشرين ساعة على الأقل ، بالبيانات الخاصة بها : اسمها ، جنسيتها ، غاطسها ، حمولتها ، وصولها ، ركابها . ثم عند وصولها « بوغاز » بورسعيد تطلب من سفينة الإرشاد الموجودة

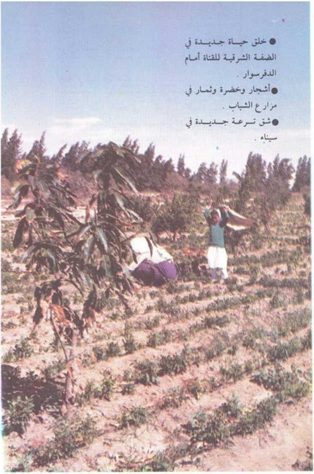
خارج البوغار « بالتلفون اللاسلكي » ، أو برفع إشارة معينة على صاريها ، مرشد ميناء ، ليقودها إلى مكان الرسو المحدد لها في الميناء . وبعد أن تستكمل السفينة إجراءاتها القانونية : جوازات ، حجر صحي ، تقدير رسوم عبور ، تموين ، تزود بالمعدات اللازمة لها أثناء عبورها القناة ، وهي أربعة حبال ـ على الأقل ـ لربطها ، وزورق أو زورقان ، تبعاً لحجمها ، للنزول إلى الماء ، وربطها إذا اقتضى الأمر ، وكشاف قوي يضيء القناة مسافة ١٢٠٠ متر ، إذا لم تكن مزودة بكشاف معتمد من الهيئة . يدفع وكيل السفينة الرسوم المقررة عليها التي يحددها مكتب قياسي الهيئة تبعاً لحمولة السفينة مقدماً ، والسفن الصغيرة التي تقل حمولتها عن ٣٠٠ طن تعفى من الرسوم . وترفع السفينة التي تتجاوز حمولتها الكلية ٣٠٠ طن إشارة معينة على صاريها ، تطلب بها مرشداً لعبور القناة ، والإرشاد إجباري لناقلات النفط ، وللسفن حاملة المواد الخطرة مهما كانت حمولتها ، توقف المرشد لحظة وقال : « سنصعد إلى حاملة البضائع التي ستنتظم في القافلة انتظاراً لإشارة البدء ، وأذكركم أنه تخرج من بورسعيد قافلتان يومياً ، الأولى في الساعة الواحدة صباحاً ، والثانية في السابعة صباحاً . وهذه قافلتنا . وأحياناً تدمج القافلتان في قافلة واحدة عند القيام من بورسعيد ، ثم يعاد تنظيمها على قافلتين عند تفريعة البلاح . وسرعة قافلتنا ستكون ١٤ كيلومتراً في الساعة . والقيادة ستكون لربانها ، ودوري سيقتصر على الإرشاد لأنني بحكم الخبرة ، أصبحت أعرف طبيعة المجرى المائي ، أعماقه ومنحنياته ، والأخيرة لها أهمية بالغة ، لأنه إذا انحرفت السفينة درجة واحدة فقد يؤدي ذلك إلى جنوحها ، ولذلك عمدت الهيئة في المرحلة الأولى من مشروع تطوير القناة إلى توسيع زوايا المنحنيات . نصل الى السفينة ، ونصعد سلمها البحري ، ونتعرف على ربانها . البحارة يتحركون على سطحها بنشاط . أطلقت السفينة صافرتها أكثر من مرة . دخلنا مع المرشد غرفة القيادة ، وتحركت القافلة ، كان ترتيب السفينة الثالثة . خلفنا ميناء بورسعيد . وانتظمت في المجرى المائي ، « الشمندورات » مثبتة بطول القناة . وصلنا إلى مركز الإشارة الأول في « رأس العش » ، ثم التينة ، الكاب ، القنطرة ، ووصلنا البلاح بعد أربع ساعات . توقفنا في الفرع الغربي من التفريعة ، ريثما تدخل آخر سفينة قادمة من السويس في الفرع الشرقي من التفريعة ، نغادر البلاح ثم نمر على مركز إشارة الفردان ، ونصل الى الاسماعيلية على بحيرة التمساح ، يودعنا القبطان « جمال » ، وهو يوصي زميله الذي حل محله علينا بعد أن أعطاه البيانات والملاحظات التي دونها ، ثم يغادر السفينة وهي مبحرة نحو الجنوب ، نصل إلى مركز إشارة طوسوم ثم الدفرسواز ، وهنا تنثال الخواطر والتأملات ، وتزداد الرغبة في تسجيل المكان بجميع تفاصيله ، فقد دخلت الدفرسوار التاريخ ولن تغادره أبداً . دخلنا البحيرات المرة الكبرى ، توقفت القافلة حتى تخلو القناة من قافلة الجنوب . وتابعنا الإبحار بعد توقف أربع ساعات . ونمر على كبريت ، جنيفة وشلوفة ، وأخيراً وصلنا إلى بورتوفيق بعد أربع وعشرين ساعة منذ دخلت السفينة بوغاز ميناء بورسعيد ، كانت فترة العبور الفعلي ثلاث عشرة ساعة ، والباقي قضيناه انتظاراً وإنهاء اجراءات . تخلى السفينة من المعدات المستأجرة كالكشاف والزوارق .

ونغادرها مع البحارة المشرفين على هذه المهمات . ويصعد إليها في الوقت نفسه مرشد الميناء ، ليخرج بها حتى منارة « زنوبيا » في البحر الأحمر ، على بعد أربعة كيلومترات من « الشمندورتين » الأخيرتين للقناة .

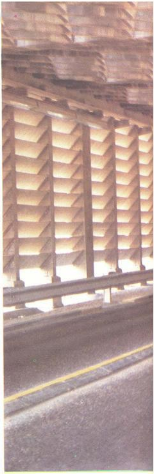
ونغادر الميناء إلى مدينة السويس .



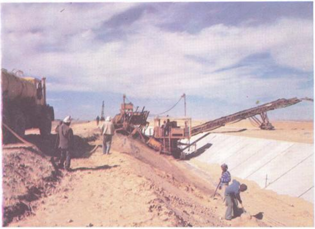




● خلق حياة جديدة في الضفة الشرقية للقناة أمام الدفرسوار .
● أشجار وخضرة وثمار في مزارع الشباب .
● شق ترعة جديدة في سيناء .



● ربط ضفتي قناة السويس بريا كان حلماً تحقق بعضه بنفق « الشهيد أحمد حمدي » الذي يبدو مدخله الجنوبي .



● السياحة نشاط ناهض ، آثار تاريخية ، وشواطيء ، وقرى سياحية ، ومتاحف اقليمية . ومنها متحف بور سعيد القومي .

أحلام قيد التنفيذ :

من المنفذ البحري ، شريان الحياة الرئيسي فيها ، وسبب وجودها منذ كان اسمها « كليزما » على عهد الفراعنة ثم سماها العرب « القلزم » حتى عرفت باسمها الحالي « السويس » الذي دخل جميع لغات العالم وتاريخه الحديث ، ومن لسانها الممتد في نهاية خليج السويس دخلناها ، فواجهتنا ضاحيتها بور توفيق الحديثة النشأة ، بشوارع منسقة نظيفة ، هادئة الحركة ، وبنايات حديثة ، « فيلات » وحدائق ، وقليل منها يرتفع إلى ستة طوابق ، وآثار طلقات ومقذوفات ما تزال عالقة ببعض الجدران التي لم يلحقها التدمير خلال سنوات الحرب ، حيث كانت نسبة التدمير في السويس تصل إلى ٨٥٪ من جملة مبانيها ومنشآتها ـ كما قال لنا محافظها ـ ولكنها تجاوزت ما خلفته الحرب بالترميم والتجديد والإنشاء . حركة التعمير ما تزال متواصلة ، ضواحي جديدة تنشأ باتجاه الصحراء غرباً ، حيث المجال الطبيعي للامتداد المستقبلي . حدائق كبيرة وصغيرة تملأ فراغاتها ، نصب تذكارية تنتشر في ميادينها ، غالبها يعبر عن تاريخها وأنشطتها البحرية .

دخلنا قلب المدينة ، تقتحمنا رائحة التاريخ الذي ما تزال بصماته واضحة في البنايات والأسماء والمساجد : مسجد الأربعين الذي يتوسط الحي الذي اكتسب اسمه منه ، مسجد سيدي عبد الله الغريب ، المنشأ في العصر الفاطمي ، نسبة إلى أبي يوسف بن يعقوب ، القائد الفاطمي الذي استشهد في معركة السويس ضد القرامطة . مدينة السويس يمتزج فيها القديم بالحديث ، وينشأ عنها نكهة تجمع بين العتيق وحيوية العصر ، الأنشطة الاقتصادية لأهلها ما تزال هي الأنشطة القديمة السائدة نفسها : خدمة الميناء البحري ، التجارة ، الصيد ، بناء السفن . ولكن مع الاستفادة من تطور الأساليب والوسائل وإضافات العصر الصناعي .

نخرج من قلبها إلى ضواحيها على ساحل الخليج الغربي : « شاليهات » حديثة للاصطياف .

نتجه إلى الجنوب ، منطقة الزيتية التي تحتضن معامل تكرير النفط ، وشركة الأسمدة ، ومحطة توليد الكهرباء الهائلة التي تستهلك المصانع ٨٥٪ من الطاقة المتولدة منها .

ونواصل اتجاهنا حتى ميناء الصيد ، « الأتكة » وهو الاسم الأجنبي « لعتاقة » ، الجبل البارز الذي تقع المدينة على سفحه الشرقي . ولا ندري لماذا لا يستمر الميناء بسماه العربي ؟ !

دخلنا الميناء بعد إجراءات طويلة تشابه ما واجهناه في ميناء صيد بور سعيد ، شاهدنا الصيادين يمارسون أنشطتهم المختلفة : بناء سفن صيد جديدة ، إصلاح شباك ، تموين السفن استعدادا « للسروح » (الإبحار) ، سفن عائدة بصيد وفير من الأسماك . يضم الميناء سفن صيد من موانىء البحر الأبيض المصرية : بور سعيد ، دمياط ، رشيد ، جاءت عبر القناة تسعى لرزقها من مياه البحر الأحمر الغنية بأسماكها المتنوعة . خرجنا من « الأتكة » لنمد أبصارنا صوب الجنوب ، حيث « الأدبية » ، ميناء البضائع ، ثم الطريق إلى « العين السخنة » بمرافقها السياحية الرائعة المستمرة باستقبال زوارها على مدار العام لروعة مياهها ، واعتدال جوها . عدنا إلى المدينة نجوب أحياءها ونتعرف على معالمها ، ونلتقي بمحافظها « أحمد تحسين شنن » ، فنسأله : ماذا بعد تعمير المدينة ، وتجديد مرافقها وأنشطتها ؟ فيحدثنا عن مشروع طموح لتطوير السويس قائلاً : « ستتغير الحياة بكاملها في مدينة السويس عندما يتم تنفيذ مشروع تطوير شمال خليج السويس ، على

مرحلتين ، الأولى تنتهي سنة ١٩٩٥ ، والثانية عام ٢٠٠٥ ، ومكونات هذا المشروع تنقسم إلى إنشاء منطقة حرة للصناعات الثقيلة ، بهدف التصدير للخارج بالدرجة الأولى . ثم استصلاح أراض زراعية . وكذلك إنشاء قرى سياحية كاملة على شاطىء الخليج ، وأخيراً تحويل ميناء الأتكة إلى ميناء صيد عالمي ، بإنشاء مصانع تعليب وثلج ، وتطوير المراكب ، وكذلك تطوير أرصفة الموانيء (ركاب وبضائع) بزيادة عمقها ، وإنشاء أرصفة جديدة .

العبور تحت القناة :

في الطريق من السويس إلى الإسماعيلية.، نقرأ لافتة عند قرية « الشلوفة » على بعد ١٧ كيلومتراً شمال السويس ، تشير إلى نفق الشهيد أحمد حمدي ، تغرينا اللافتة بمشاهدة هذا الطريق الذي يمر على عمق ٣٧ متراً تحت سطح مياه القناة ، ويربط ضفتيها . وحيث يتجسد الحلم المقيم في وجدان الإنسان العربي المصري وعقله لاعادة الحياة للطريق البري الذي كان يربط وادي النيل بسيناء ، ويربط مصر بفلسطين والشام . فقد تحول البرزخ الطبيعي بالقناة إلى مضيق صناعي ، أومائي صناعي . وكان الربط بين الضفتين يتم « بالمعديات » إلى جسر الفردان المتحرك الذي كان يستخدم في ساعات محدودة أثناء توقف الملاحة في القناة ، وكان يعبره قطار الشرق السريع الذي كان يتحرك من القاهرة إلى القدس ، فدمشق ، فتركيا ، ثم إلى أوربا ، ولكن كل هذه الوسائل كانت معرضة للمخاطر ، بالإضافة إلى ارتباطها بحركة الملاحة ، فجسر الفردان تعرض لاقتلاع قاعدة فتحته من مكانها إثر اصطدام ناقلة نفط ليبيرية به ، عندما انحرفت عن مسارها عام ١٩٥٤ ، وأعيد بناؤه ، ولكنه تعرض للتدمير في الحروب التي دارت على مسرح القناة .

لذلك فكر المسئولون المصريون بالاتجاه إلى بدائل تضمن ربط الضفتين ، واستمرار تدفق الحركة بينهما دون اعتراض لحركة الملاحة ، فقرروا إنشاء ثلاثة أنفاق تحت ممر القناة ، نفذ الأول منها ، وأجل الاثنان الآخران إلى حين ، مع استمرار استخدام « المعديات » السطحية في مواقعها القديمة ببورفؤاد ، والقنطرة ، فالفردان ، ونمرة (٦) بالاسماعيلية والدفرسوار ، وأخيراً بورتوفيق ، وتطويرها ، وزيادة عددها .

وعند المدخل الغربي لنفق الشهيد أحمد حمدي الذي استغرق تنفيذه ستة عشر شهراً من العمل المتواصل ، وكلف ١٠٥ ملايين جنيه ، التقينا بمسئول الوردية المسائية في غرفة التحكم الآلي ، أعلى جسم النفق ، وتابعنا معه من خلال شاشة تلفازية الحركة داخله ، وسألناه عن مكونات النفق فأجابنا . إنه يتكون من ثلاثة أجزاء ، أولها طريق للسيارات ، بحارتين مزدوجتين في الاتجاه ، عرض كل حارة ٣,٧٥٠ أمتار ، وثانيهما مدخلان للهواء النقي وسحب الهواء الفاسد من داخل النفق ، أما الثالث فطريق للمشاة .ويبلغ طوله من مدخليه ٥٩١٢ متراً ، موزعة على ثلاثة أجزاء ، (٢٢٨٨ متراً عند مدخله الغربي ، و ١٩٨٤ متراً عند مدخله الشرقي في سيناء ، و ١٦٤٠ متراً تحت القناة) . وجسم النفق أسطواني ، قطره الداخلي ١٠,٨٠ متراً ، والقطر الخارجي ١١,٦٠ متراً . والنفق مراقب من الداخل باثنتين وعشرين عدسة تلفازية .

ونغادر النفق ، ثم ننضم إلى قافلة السيارات المتجهة إلى القاهرة ، بعد أن أفصحت لنا منطقة القناة بأن الطموح بلا حدود ، والتحديات كثيرة ، ومع ذلك فالحياة تتجدد فيها ، والخضرة والنماء يمتدان مع امتدادها . □

AKAI

1929–1989
60TH ANNIVERSARY

شركة أكاي تقدم
الأفضل في أجهزة الفيديو.

لأكثر من ٦٠ عاما، قدمت لكم أكاي أحدث أجهزة الفيديو واكثرها إبداعا. وحاليا نقوم بذلك مرة أخرى. فأجهزة الفيديو الجديدة موديل VS-P9 و VS-R9 تقدم أفضل أداء فيديوي، وذلك سوية مع مزايا خاصة توجد عادة في مسجلات الفيديو الاكثر تطورا لدينا.
وعلى ذكر التطور، فإن مسجلات الفيديو عندنا تقدم بعض اكثر وظائف الفيديو البارعة والملائمة عبر سنوات. من بينها ذاكرة الوظيفة التالية والجديد... التى تدعك تبرمج مسجل الفيديو لأداء سلسلة من حتى أربع عمليات آلي...
ولمعرفة تفاصيل الأجهزة المتطورة والوظائف ذات التشغيل السهل وجودة الصورة والوثوقية، راجع الجيل التالي من أكاي.

Quick Start

Video Cassette Player
NEW VS-P9EV



لاعادة العرض فقط مع بدء سريع
• صورة ساكنة صافية • حركة بطيئة بخطوتين • تحكم لاسلكي عن بعد • وظائف آلية (تشغيل آلي للقدرة/ عرض آلي/ تكرار آلي/ إيقاف القدرة عند إخراج الكاسيت) • تصميم رقيق ومدمج • صندوق ملائم للسفر

Video Cassette Player
NEW VS-R9EV



نظام الجودة العالية HQ في التسجيل واعادة العرض
• بدء سريع • صورة ساكنة صافية • حركة بطيئة بخطوتين • تحكم لاسلكي عن بعد • وظائف آلية (تشغيل آلي للقدرة/ عرض آلي/ تكرار آلي/ إيقاف القدرة عند إخراج الكاسيت) • تصميم رقيق ومدمج • صندوق ملائم للسفر

NEXT GENERATION

ذاكرة الوظيفة التالية والجديدة ونظام الاستجابة السريعة من أكاي —

Video Cassette Recorder
VS-425



وظائف فيديوية بارعة أصبحت متوفرة
• نظام الاستجابة السريعة • ذاكرة الوظيفة التالية • إع... بسرعة متغيرة • حركة بطيئة وتأثيرات خاصة أخرى • تح... آلي بالتتبع ودوائر الجودة العالية HQ

Video Cassette Recorder
VS-465



ذاكرة الوظيفة التالية والحركة البطيئة المتغيرة
• نظام الرأس DX-3 • نظام الاستجابة السريعة • ذاكرة الوظيفة التالية • إعادة عرض بسرعة متغيرة • حركة بطيئة متغيرة • تأثيرات خاصة • تحكم ثنائي ورقمي آلي بالتتبع • دوائر الجودة العالية HQ

Video Cassette Recorder
VS-765



قمة مسجلات الفيديو من أكاي — مع وحدة تحكم عن بعد LCD
• نظام الرأس DX-4 • نظام الاستجابة السريعة • ذاكرة الوظيفة التالية • برمجة على الشاشة • إعادة عرض بسرعة متغيرة • حركة بطيئة متغيرة • تأثيرات خاصة • وحدة تحكم عن بعد متطورة ذات لوحة عرض بالبلورة السائلة LCD • تحكم ثنائي ورقمي آلي بالتتبع • دوائر الجودة العالية HQ • تسجيل لمدة ٨ ساعات • دبلجة صوتية

Akai–Creative At Heart.

...WAIT: **MORAD YOUSUF BEHBEHANI** P.O. Box 146 Safat, 13002-Safat, Kuwait Tel: 4844000
...IA: **PENINSULAR DISTRIBUTION CO., LTD.** P.O. Box 7997, Jeddah 21472 Tel: 671-4488
...ERAL ENTERPRISES COMPANY P.O. Box 363, Dubai Tel: 224131, 236575
...F OMAN: **SUHAIL & SAUD BAHWAN** P.O. Box 169, Muscat Tel: 793741
...HRAIN: **AMBASSADOR STORE** P.O. Box 237, Manama Tel: 253513
...D AL-UTHMAN & BROS LTD. P.O. Box 218, Doha Tel: 23507, 23508
...NIVERSAL ENTERPRISES COMPANY 31 Hotel Metropole Bldg., Mereweather Road,

SYRIA: ASSAD WATTAR P.O. Box 590, Damascus Tel: 338973
LEBANON: HI-FI CENTER P.O. Box 144, Hazmieh Tel: 916190
EGYPT: EL MOBAYAD SONS TRADING CO. P.O. Box 1323, Cairo Tel: 717322
CYPRUS: EVAGORAS G. PHYLACTOU LTD. 67A Saint Andrew Street, Limassol Tel: (337) 51-63604
NIGERIA: ZABADNE & CO., LTD. 93 Broad Street, P.O. Box 736, Lagos Tel: 664305
DJIBOUTI: AU CHIC PARISIEN B.P. 149, 32, rue de Paris Tel: 351827



● صحن من السيراميك التركي (ازنيك) . قدرت قيمته بسبعة آلاف جنيه استرليني ، ولكن وجد من يشتريه بمبلغ ١١,٥٠٠ جنيه استرليني .

سوق الفن الإسلامي

بقلم : عبود عطيه*

كما أن هناك سوقا لكل سلعة ، فإن للفن الإسلامي سوقه الخاص . لكنه سوق كبير متسع إتساع الأعمال الفنية التي تندرج تحت هذا العنوان الكبير .

تعريف بهذا السوق ، وحكايات وقصص عنه يقدمها لنا هذا المقال .

* كاتب من القطر العربي اللبناني

قدمت الحضارة العربية في عصور ازدهارها أعمالا فنية ذات تنوع يستحيل حصره : سجاد ومخطوطات ورسوم ، آنية خزفية ومعدنية وزجاجية ، مجوهرات وأسلحة . وكانت صناعة هذه الفنون تزدهر في مكان معين ، وفي مرحلة تاريخية معينة ، لتعود وينطمس ازدهارها في مكان آخر ، وكانت هذه الأماكن تتراوح ما بين الهند شرقا وأسبانيا غربا ، والمرحلة التاريخية ما بين القرن الثامن وحتى نهاية القرن التاسع عشر . وهكذا تبين لنا أن الأعمال الفنية المنقولة التي أنتجت في تلك البلدان ، والتي نجمعها اليوم تحت اسم « الفن الإسلامي » هي أكثر من أن تحصى كمًّا ونوعاً .

وإذا كان قد تم تجميع بعض هذه الأعمال في متاحف وطنية ، فإن عدد الأعمال الفنية الإسلامية التي ما تزال تباع في الأسواق فوق كل إحصاء ويفوق عشرات المرات موجودات المتاحف . ففي أوربا وحدها يباع سنويا ما بين ٤ آلاف و ٦ آلاف تحفة إسلامية حسب ازدهار السوق أو ركودها .

والسؤال هو : كيف يعامل سوق الفن عملا فنيا إسلاميا ؟ وما وضع هذا السوق في الفترة الحالية ؟ وما مشاكله ؟

لا سوق عربية للفن الإسلامي

قبل الدخول في التفاصيل ، نشير إلى أن المقصود بعبارة « سوق الفن الإسلامي » هو السوق الأوربي حيث المزادات العلنية الرسمية والخبراء ، وحتى المجموعات الكبيرة والهواة من عرب وايرانيين وأوربيين وغيرهم ، ومن المذهل أن يكون سوق الفن الإسلامي في الأقطار العربية ما يزال حتى الآن مجرد سوق متفرقات لا يخضع إلا للعرض والطلب ، وتنقصه الخبرة وتنظيم المبيعات . ولنأخذ على سبيل المثال بيروت ، حيث اشترى أحد الهواة خلال عام ١٩٨٥ نسخة من القرآن الكريم بمبلغ يوازي ٦٠٠ دولار تقريبا ، مع العلم أن النسخة عثمانية من النصف الأول للقرن السابع عشر ولا تنقصها أي ورقة ومحفوظة بشكل ممتاز ومزينة بالذهب والألوان وتزيد قيمتها على ٣٠٠٠ أو ٣٥٠٠ دولار . ومع إشتداد الأزمة الاقتصادية في لبنان منذ صيف ١٩٨٥ ، خرجت التحف والمجموعات الصغيرة من المنازل وعرضت للبيع بأي ثمن . وهكذا فإن مجموعة مؤلفة من تسع قطع من الخزف الإيراني (نيسا بور وكاشان) ويتراوح تاريخ صنعها ما بين القرن التاسع والقرن الثالث عشر بقيت أكثر من شهر في واجهة أحد متاجر الثياب القديمة دون أن تلفت الأنظار إليها ، حتى اختطفها أحد الخبثاء بما يوازي ١٠٠٠ دولار تقريبا ، وهو السعر الذي يدفعه هاو حقيقي ثمنا لقطعة متوسطة من هذه المجموعة ، ويمكننا أن نذكر ذلك البائع البيروتي الذي عرض للبيع مجموعة من ١٠ دنانير أموية من الذهب بألفي ليرة لبنانية للدينار الواحد ، أي ما يكاد يوازي قيمة الذهب فقط ، دون أن يأخذ بأي اعتبار لتاريخ الصك والنوعية والندرة وما شابه .



ويبدو أن تنظيم السوق في القاهرة ليس أفضل حالا مما هو عليه في بيروت . ويمكننا أن نقدم مثلا ، ذلك الفنان المصري الذي ليس خبيرا ، ولكنه صاحب ذوق رفيع واستطاع مؤخرا أن يشتري من أحد متاجر القاهرة خابية فاطمية (وعاء خزفيا كبيراً لتخزين المؤن) محفوظة بشكل جيد بحوالي مئة جنيه مصري فقط .

بإختصار يبدو أن سوق الفن الإسلامي في الأقطار العربية ما يزال بحاجة إلى وقت طويل قبل أن يدخل في عصر التنظيم الذي يمنع المفاجآت السيئة والمفارقات الكبيرة سواء أكان ذلك بالنسبة للبائع أم المشتري .

سوق الفن الإسلامي في أوربا

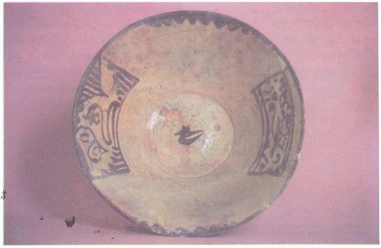
بشكل عام يمكن تقسيم تاريخ سوق الفن الإسلامي في أوربا إلى مراحل ثلاث :

١ ـ مرحلة ما قبل ١٩٧٤ ، التي كانت تتميز بما يأتي :

أ ـ معاملة التجار للأعمال الفنية الإسلامية وكأنها متفرقات تباع في المزاد العلني إلى جانب أثريات أخرى . ولو أخذنا دليل المبيعات في دار المزاد العلني البريطانية « سوتبي » ليوم ١٧ مارس ١٩٦٩ لوجدنا أنه يضم خليطا من الآثار الفرعونية والآسيوية الغربية واليونانية والرومانية وأخيرا الإسلامية .

ب ـ الأسعار المتدنية التي كانت تدفع آنذاك ثمنا للأعمال الفنية الإسلامية . ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال أن صحنا تركيا (ازنيك) بيع في







● ثلاثة من تسعة صحون ايرانية بيعت في بيروت بمبلغ ألف دولار

● نموذج لسجادة قديمة من العصر العثماني .





المزاد المذكور أعلاه بمبلغ ١٨٠ جنيهاً استرلينيا أعاد أحد التجار بيعه في لندن خلال العام الفائت بمبلغ ٧٧٥٠ جنيهاً استرلينياً .

ج - أمام الأسعار المتدنية وقلة الهواة ، كانت الخبرة شبه غائبة ، ولم يكن خبراء المبيعات آنذاك يكلفون أنفسهم عناء البحث عن أصل هذه القطعة أو تلك ، أو حتى ذكر مصدر قطعة معينة ، على الرغم من أن هذا المصدر لا يكون في بعض الأحيان قابلا للجدل .

هنا يمكننا أن نشير إلى أن سوق السجاد وحده هو الذي يشكل استثناء ، إذ أنه كان للسجاد في أوربا كما في الأقطار العربية التقدير الذي يستحق والهواة الذين يقدرونه وذلك منذ القرون الوسطى .

٢ - مرحلة تأسيس السوق ما بين ١٩٧٤ ومطلع الثمانينيات :

بعد الارتفاع المثير في أسعار النفط والحظر الذي فرضته الأقطار العربية على تصديره إلى الغرب سنة ١٩٧٣ ، انتبه تجار الفن إلى أن رجال الأعمال العرب والإيرانيين باتوا يملكون ثروات كبيرة . وبسرعة بدءوا بجمع الأعمال الفنية الإسلامية في سوق منظمة ، لها قاعات عرض خاصة بها ، ومزادات علنية خاصة أيضا ، وتميزت هذه المرحلة باضطرابات وتقلبات مثيرة قلما شهدها سوق الفن .

فمن ناحية ، ارتفعت الأسعار بين ليلة وضحاها بأشكال جنونية ، في ٨ ديسمبر ١٩٧٨ بيع في باريس إبريق خمرة إيراني من القرن الثالث عشر ، الإبريق مرمّم وطلاؤه الزجاجي مشقق ، ويكاد يكون دون أي جاذبية ، ومع ذلك فقد بيع بمبلغ ٨٠,٩٠٠ فرنك فرنسي ، أي بضعف ونصف ضعف السعر الذي كان متوقعا ؛ ومن ناحية أخرى ، ومقابل هذه الأسعار الخيالية ، كانت بعض التحف الحقيقية تباع بأبخس الأسعار ، ففي المزاد نفسه بيعت مزهرية من السيراميك في حالة ممتازة ، وتحمل ختم سلطان آباد وتعود إلى القرن الرابع عشر بمبلغ ٣٥,٧٧٠ فرنكاً فقط . وقد بيعت هذه المزهرية التي كانت بحوزة أحد الهواة الأرمن في القاهرة إلى مؤسسة دافيد سيميلنغ الدانمركية . وما بين بيع المزهرية ونقلها إلى الدانمرك انتبهت مديرية المتاحف الوطنية الفرنسية إلى أهميتها ، ففرضت حظراً على تصديرها من البلاد .

وتعود أسباب الاضطراب الذي ميز هذه المرحلة - حيث كانت كل المفاجآت متوقعة - إلى سببين رئيسين :

أولهما : قلة الخبرة عند الهواة وكان معظمهم آنذاك من الإيرانيين ، ففي ٩ اكتوبر ١٩٧٨ ، دفع أحد الهواة الإيرانيين ٣١,٧٧٠ فرنكاً ثمناً لوعاء نحاسي إيراني من القرن الرابع عشر ، قال عنه الخبير إنه : « مطعم بالفضة والذهب » وكان حريٌّ بالخبير أن يقول « مطعّم حديثاً بالفضة والذهب » لأن ذلك الوعاء لم ير الفضة ولا الذهب قبل بداية القرن العشرين . وفي اليوم



التالي اشترى أحد الهواة الايرانيين علبة أقلام ايرانية بمبلغ ٤٩٥ ألف فرنك فرنسي ، (أي ما كان يوازي آنذاك حوالي ١٠٠ ألف دولار) الأمر الذي يؤكد إصرار الهواة الإيرانيين على شراء بعض الأعمال مهما كان ثمنها ولو فاق هذا الثمن التقديرات المعقولة بعشرات المرات . الأمر الذي كان يؤدي تدريجيا إلى إبعاد الهواة الحقيقيين عن سوق باتوا عاجزين عن المضاربة فيها .

والسبب الآخر قلة الخبرة عند « الخبراء » ففي ٣١ مايو ١٩٧٩ ، بيع في باريس وبالمزاد العلني وعاء نحاسي صنع في مصر في القرن الرابع عشر ، ويحمل نصاً قرأه الخبير على أنه : « الأمير أسعد الأرشيدي الافنجكي وهو اسم وهمي لأننا لا نعرف أميرا يحمل اسماً كهذا ، والصحيح أن النص هو (الأسعد الأرشد الأفخر) وقد بيع هذا الوعاء بمبلغ ١٨,١٠٠ فرنك ، وهو السعر المعقول بالنسبة لقطعة تحمل اسم حاكم أو نصا تاريخيا . لكنه باهظ جداً بالنسبة لقطعة تحمل مجرد نعوت .

وإلى ذلك يمكننا أن نضيف الأخطاء التي كانت ترتكب عن جهل أو عن قصد إذ كان بعض الخبراء يرد أعمالا تفوح منها رائحة القرن العشرين إلى القرون الماضية اضافة إلى الوصف الأدبي كأن يقول أحدهم : « صحن إيراني من القرن العاشر جميل ونادر جداً » صحيح أن الصحن قد يكون إيرانياً ومن القرن العاشر ولكنه لا يكون جميلا على الاطلاق ، ويشبه إلى حد بعيد النماذج الفقيرة الخالية من أي روح والمصنوعة في القرن العشرين .

هنا يمكننا أن نشير إلى أن خبراء الفن الإسلامي في أوربا هم قلائل جدا . معظمهم من الأرمن أو الايرانيين . ونذكر على سبيل المثال أن خبرة الفن الإسلامي في فرنسا ، وحتى المقالات الصحفية التي تظهر حول هذا الموضوع في المجلات والصحف الفرنسية ، يكاد يحتكرها اثنان : مليكيان شيرفاني وآني كيفو ركيان . كما أن الخبراء بعدما لاحظوا الاندفاع المتهور عند الهواة الايرانيين ، راحوا ينسبون إلى إيران كل قطعة يحتاج البحث عن أصلها إلى بعض الاجتهاد . وهذه العادة السيئة مازالت مستمرة حتى الآن . في دليل المبيعات عند دار سوتبي ليوم ٢٦ ابريل ١٩٨٢ . وصف الخبير زجاجة زرقاء اللون طويلة العنق . بأنها من سوريا أو إيران « مع العلم بأنه لا غبار على أصلها السوري » .

وأخيراً تميزت تلك المرحلة بتطور مهم وهو ازدهار سوق المخطوطات والرسوم واستقراره، إضافة إلى الاستقرار الذي كان ينعم به السجاد ، وهكذا شاهدنا أحد الهواة الألمان يشتري نسخة من القرآن الكريم أهداها السلطان سليم الثاني إلى جامع أضنة سنة ١٥٧٤ بمبلغ ١٣٠,٤٠٠ فرنك ، والهاوي نفسه اشترى نسخة أخرى مغربية من القرن الثالث عشر بمبلغ ٨٥,٣٠٠ فرنك ، أي بأسعار طبيعية ومعقولة جدا .

٣ ـ مرحلة النضوج في الثمانينيات :

بعد تغير النظام في إيران وانسحاب عدد كبير من الهواة الإيرانيين من قاعات المزاد العلني (الذي اشترى علبة الأقلام بـ ٤٩٥,٠٠٠ فرنك أعدم رميا بالرصاص في إيران) اعتقد الكثيرون أن ضربة كبيرة وجهت إلى سوق الفن الإسلامي . ولكن ما حصل كان عكس ذلك .

فبعد فصل هذا السوق عن سوق الأثريات المتفرقات شهدت الثمانينيات تطورا مهما تمثل في فصل الفنون الإسلامية بعضها عن بعض ، بيعات لكل من المخطوطات والنقود والسجاد والآنية التزيينية والرسوم ، مزادات خاصة ، وهواة متخصصون في كل من هذه الفنون .

ويعود هذا التطور إلى انحسار عدد الباعة المتفرقين أمام باعة المجموعات الكبيرة . والمجموعات الكبيرة تكون عادة « محترمة » ،



● الشاه عباس وحكام بيجابور ، رسم فارسي من القرن السابع عشر اشتراه متحف المتروبوليتان في نيويورك بمبلغ ٢٤٢,٥٧٠ فرنكافرنسيا .

وأخطاء الخبراء تجاهها أقل من تلك التي يرتكبونها عادة أمام الأعمال المتفرقة والمجهولة ، من جهة أخرى انحسر المشترون الذين لا يفكرون لصالح هواة يشترون بتعقل وحذر . الأمر الذي سمح بدخول مضاربين أوربيين وأميركيين إلى جانب العرب والمتبقين من الإيرانيين . وهكذا وجدنا مؤسسة كريم سعيد في لندن تدفع مبلغ ٨٠ ألف جنيه استرليني في ابريل ١٩٨٢ ثمنا لنسخة مملوكية من القرآن الكريم كتبت « برسم مولانا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباي » ، وهو رقم قياسي يدفع ثمناً لمخطوطة اسلامية . وفي اليوم نفسه (٢٦ ابريل) دفع أحد الهواة ١١,٥٠٠ جنيه استرليني مقابل صحن تركي (ازنيك) كان ثمنه مقدراً بـ ٧٠٠٠ جنيه استرليني ، كما أن مخطوطة لأحد كتب العالم العربي المشهور البيروني نسخت في تركيا سنة ١٢٣١ بيعت بـ ٧٠ ألف جنيه استرليني في حين أنها كانت مقدرة بما يتراوح بين ٢٠ ، ٣٠ ألفاً فقط .

وفي ٢٤ حزيران ١٩٨٢ ، تمت بعثرة مجموعة كيفورك أسايان في المزاد العلني (وهو صهر الثرى المعروف غولبنكيان) . وجاءت النتيجة « الأكثر طبيعية » على حد تعبير المراقبين والخبراء . ويمكننا أن نذكر منها صورة الشاه عباس وحكام بيجابور التي تعود إلى القرن السابع عشر (٤١,٣ × ٣٠,٩ سم) والتي اشتراها متحف المتروبوليتان في نيويورك ، بمبلغ ٢٤٢,٥٧٠ فرنكاً فرنسياً . وهو سعر طبيعي وجيد بالنسبة إلى قطعة جيدة وذات نوعية عالية .

ولكن ، ولحسن الحظ فان ارتفاع أسعار الأعمال المهمة بهذه الأشكال المثيرة لم يبعد الهواة الصغار وأصحاب الامكانيات المتوسطة ، إذ ما يزال بالامكان شراء بعض الأعمال الجيدة بأسعار معقولة بالنسبة للهواة الصغار ، وخصوصاً في مجال الآنية المعدنية والخزفية وحتى في مجال الرسوم . ففي مايو ١٩٨٢ بيعت مجموعة كبيرة من الرسوم الإسلامية العائدة إلى مدارس مختلفة من راجستان (بوندي ، مروار ، جايبور ، كوتاه ، وبيكانير) وذلك بما يتراوح بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠٠ فرنك فرنسي . إذ يبدو أن الرسم الإسلامي الهندي ما يزال مجالا غير مستكشف .

باختصار ، بات سوق الفن الإسلامي يحقق مجالين مختلفين لنوعيتين من الزبائن : المخطوطات والرسوم إضافة إلى السجاد ، كمجال للاستثمار لهواة يحبون الطمأنينة ، والآنية المعدنية والخزفية ، للشجعان والمغامرين منهم . □

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع



قليل من الثقافة التربوية

كثير من الثمار الناضجة !



علم نفس الطفل وسلوك الأطفال

بقلم : الدكتور صفاء شعيا*

« الى جانب النمو الجسدي والعقلي للطفل هناك نمو آخر ، غير منظور ، وهو النمو النفسي الذي يتطور عبر مجموعة الخبرات والأحداث والانطباعات التي تشكل عالمه الداخلي ، وتلعب دوراً مهماً في تكوين شخصيته وتطورها في المستقبل . »

يعرف النمو علميا بأنه تطور فيزيائي وتكامل هيكلي قد حدث في جسم الإنسان ، كزيادة الطول والوزن ، وتغير الأعضاء الداخلية . وخلال عمليات النمو هذه هنالك تطور طبعي ، يأتي نتيجة للتغيرات الحادثة في جسم الإنسان وأعضائه .

في مراحل نمو الطفل يتعرض لضغوط نفسية تتفاعل

* كاتب من القطر العربي العراقي

مع البرمجة الطبيعية لحالة الطفل النفسية ، إما أن تكون وراثية ، بيئية ، أو حالات اجتماعية وعائلية ، كفقدان صديق عزيز ، أو انتقال العائلة الى مكان آخر ، مما يجعل الطفل مجبراً على تغيير مدرسته وأصدقائه . مما قد يؤثر عليه فترة ما . وأغلب الأطفال يتفاعلون مع الضغوط بتصرفات مختلفة على شكل أحلام ليلية ، أو التبول في فرشهم ، أو الخجل ، أو العصبية ، أو العناد ، أو ازدياد الخوف عند مشاهدة برامج تلفازية ، أو سماع قصة مخيفة . والوالدان هما أول من يعلم بهذه الأفعال ، وعند ملاحظة التغير في تصرفات أطفالها ، يجب عدم إهمالها وتركها للزمن لحلها .

الاضطراب والاختلال :

لكن الطفل المضطرب نفسيا ليس مختل العقل وإنما تكونت لديه حالة نفسية ، نتيجة تعرضه لأنواع من المشاكل التي واجهته ، ولرد الفعل عليها من قبل الوالدين ، هنا يجب التخفيف من الضغوط على الطفل ، التي قد تتطور وتصبح معقدة ، صعبة الحل ، وبخاصة في حالة انهماك الأهل في أمور تبعدهم عن التعرف على أعراض الضغوط وأسبابها ، كذلك يلعب الجهل دورا كبيرا في عدم التعرف على مثل هذه الأسباب .

لذا وجب على الآباء تهيئة جو نفسي ملائم للطفل ، وعدم وضعه في مأزق عائلي صعب ، بحيث يجعله يتفاعل وينفعل مع الأحداث التي تصاحب مجرى حياة الأسرة . ومما لاشك فيه أن قابلية التحمل أو الاستجابة لمثل هذه العوامل ، والحوافز تختلف درجتها بين طفل وآخر . كما أن فترة الحمل غير المريحة قد تؤثر على نفسية الطفل المولود ، وقد تصاحبه طوال فترة حداثته ، وقد تسبب له حالات مثل النزعة السلبية ، والحساسية ، والعداء المستمر ، والعصبية التي تؤدي دائما الى انفجاره بالبكاء .

إن العوامل الاجتماعية والعاطفية المحيطة بالأسرة لها تأثير بليغ على متابعة تقدم الطفل ، ومقياس سرعة تخلصه من المشكلة التي تأثر بها ، وتكسبه قدرة كبيرة على تحمل الأحداث المقبلة .

وكثير من الأسر ، تعتقد أن الطفل يجب أن يكتسب قالب أسرته من العادات والتصرفات ، حتى في مجال العمل على بناء مستقبله ، وهذا



ليس ضروريا ، فمما لاشك فيه أنه سيكتسب كثيرا من العادات ولكن ليس اكتسابا حرفيا .

وقد أجريت دراسات ضمن مناطق في دول العالم الثالث ، ومن خلالها تبين أن الأطفال القرويين استطاعوا أن يثبتوا أهميتهم في جميع الاختصاصات ، على عكس ماأثبت في تلك التجارب التي أجريت في مجتمعات متحضرة . إن أبناء تلك المجتمعات لم يحققوا ماحققه آباؤهم ، وهذا يؤيد الكلام السابق ، فليس من الضروري أن يتبع الطفل مواضع أقدام أسرته وخطاها .

المراهقة :

تعقب هذه المرحلة فترة المراهقة ، وهي من الفترات الطبيعية في حياة الفرد ، فيجب على الأسرة فهم هذه المرحلة على الأخص وإدراكها ، فالمحيط العائلي له تأثير بالغ على بلورة وتقدم فكر الطفل ومساعدته على تجاوزها بسلام . والمراهق الذى يمر بظروف طبيعية يقدر أن يلازم ويصاحب الأحداث مهما بلغت شدتها ، وعكسها بأسلوب يمكن ملاحظته عن طريق سلوكه وتصرفاته مع محيطه وبيئته . وقد يكون العكس هو الصحيح ، حيث تتولد للمراهق أزمة بسبب زملائه في المدرسة أو في بيته ، ففى هذه الحالة يجب على الأسرة الاستعانة بالمدرس أو المختص في حل المشكلة وتلافيها . كذلك يجب على الأسرة تقبل وتحمل السلوك غير المقبول اجتماعيا والذى قد يستمر مع المراهق لفترة ما ، حتى يتم تصحيح الوضع وتجاوز هذه المرحلة .

ولمعرفة سبب حدوث مثل هذا الاضطراب النفسي ، يجب دراسة مراحل تطور الطفل أولا ، وثانيا التعرف على السبب الذى كدره وأزعجه ، وخلق منه طفلا حركا ومتمرداً . وللوقاية يجب على الأهل عدم اهمال الطفل لفترة طويلة لئلا تنعكس بأسلوب سلبي قد يؤثر على مستقبله .

ومن المعروف أن الطفل يتأثر في حداثته بعاملين أساسين هما المجتمع والمدرسة . ويحتاج الطفل هذين العاملين ، لإبراز اهتمامه وحث عقله وتفكيره على النمو والتطور الطبيعي .

ويتكيف الطفل ويتدرب لهذين العاملين حسب القيم والأفكار والعادات المحيطة به مع تلك المجموعة البشرية من حوله ، المؤثرة على وضعه النفسي في ابراز قابلياته وأفكاره



وحركاته التي تحتاج الى التوجيه بين الحين والآخر .

الطفل والمجتمع :

بمقدور المجتمع « نظريا » ان يساعد الأطفال ويخلق منهم جيلا متطوراً نفسيا وصحيا ، وقادراً على تفادي الضغوط ومعرفة مصادرها . لهذا يجب على المجتمع عدم اهمال القيم الأساسية في خلق جيل صحي من خلال توجيه الارشادات وتطبيق النظم التي من شأنها التخلص من المشاكل التى لاضرورة لها . فالمدرسة مثلا ليست مكاناً للتعلم فقط ، ولكن لها تأثيرا بليغا في تهيئة الطفل وتنشئته من خلال خلق جو مريح وجيد ، وهو أمر له تأثير مباشر على نفسية الطفل وشخصيته . فالمدرس داخل الفصل له واجبان أساسيان ، الأول : هو اتاحة الفرصة التعليمية لتلاميذه ، والثاني : اعطاؤ هم نوعاً من الخبرة العملية التى اكتسبها خلال فترة حياته ، وهي خبرة تؤثر في عملية النضج الفكري للأطفال في المراحل المتأخرة من حياتهم .

ومن الضروري أن تكون للمدرس تقديراته المعقولة لقدرات الطفل ، وتفاعله الايجابي داخل الفصل ، وتعرفه الشامل على نقاط الضعف في ناحية ما ، ودراسة إمكانية تصحيح هذا الضعف .

وعلى هذا الضوء يمكن للمدرس أن يحدد مقدار التقدم أو التخلف الذى يؤثر على نفسية الطفل وتكوين شخصيته . وكثير من المدرسين يستعملون الأسلوب التوبيخي المستمر لايقاف التصرف الوقتي وغير المقبول الصادر عن الطفل . وبالمقابل يكون الطفل حساسا جدا ويتأثر بالتوبيخ لكن هذا لايعنى ترك الطفل يفعل مايشاء دون حساب ، وإنما يجب تصحيح ماقام به من عمل غير مقبول ولكن بصورة ايجابية .

وقد يواجه المدرسون مشاكل داخل الفصل الدراسي من تصرفات غريبة ، نتجت عن ظروف أسرية أو بيئية ، وقد تكون في بعض الحالات مشاكل دراسية معقدة .

وفي مثل هذه الحالات حيث تحدث التصرفات الفجائية وغير المقبولة فإنها تكون نتيجة لعدم ترابطها المنطقي ، وازدياد ترددها نتيجة لاثارة خارجية ، وهذا يوجب على الأسرة والمدرسة معرفة ماذا جرى في عالم الطفل الداخلي من أسباب جوهرية ، والمبادرة الفعلية الى حلها وتلاشيها جذريا ، وإعادة ثقة الطفل بنفسه لئلا تنعكس عليه سلباً بما يؤثر على حياته المقبلة . □

سل طبيب الأسنان :



المعلم : أين كنت أمس يا عزيزي ؟ ولماذا لم تأت إلى المدرسة ؟
التلميذ : تغيبت يا أستاذ لوجع بضرسي .
المعلم : وهل انتهى الوجع الآن ؟
التلميذ : لا أدري .
المعلم : كيف لا تدري ؟ ! هل من ألم بضرسك أم لا ؟
التلميذ : لا أدري ، فإن طبيب الأسنان خلع الضرس وأبقاه عنده .

قليل من الثقافة التربوية كثير من الثمار الناضجة!

بقلم: الدكتور حسان محمد حسان

كيف يمكن لوالدين غير متعلمين أن ينشئا ابناً مبدعاً؟ وكيف يمكن لسلطة قهرية أن تنشىء أبناء أسوياء؟

تساؤل، ومناقشة، واقتراح.

المقصود بتربية الأمهات والآباء توجيه برامج منظمة، عن طريق مؤسسات متخصصة، تتبع أساليب التربية المستمرة، بحيث يتم من خلالها إكسابهم معلومات ومهارات واتجاهات عن أفضل أساليب التعامل مع أبنائهم، وأفضل أساليب مساعدتهم على التحصيل الدراسي الجيد: قبل الالتحاق بالمدرسة، وبعد الالتحاق بها، وأثناء العطلات الصيفية والإجازات المعتادة.

ومثل هذه البرامج المنظمة ينبغي ألا تقتصر على المعلومات والنظريات، بل لابد أن تتاح فيها فرص التدريب الكافية، عن طريق استراتيجيات وأساليب متعددة، بحيث يكتسب الآباء والأمهات القدر اللازم من المعارف والدرايات المتجددة التي تساعدهم على فهم سلوك أولادهم، وتفسيره التفسير الأشمل، ثم مساعدتهم على عمليات التحصيل الجيد، والأداء السليم، طوال العام الدراسي، ثم أثناء الاختبار والتقويم.

الأسرة ونجاح التلميذ

وعلى هذا الأساس فليس المقصود أن تسهم الأسرة في نجاح التلميذ بطريقة صناعية مفتعلة - مثلما يحدث في الدروس الخصوصية - بل المقصود الفهم والهضم، الاقتناع والتمثل، بحيث يرتفع المستوى الحقيقي لتحصيل التلاميذ، بطريقة طبيعية تراكمية، تبدأ من بداية العام وليس قبيل الامتحان.

وبطبيعة الحال فمثل هذه البرامج لابد أن يشترك في تخطيطها وإعدادها، وتقديمها ومتابعتها، خبراء نفسيون وتربويون واجتماعيون، يشملون ميادين متعددة، مثل «سيكولوجية» الأطفال والمراهقين، والارشاد النفسي والاجتماعي، والتعلم والتقويم، والنشاط والترويح. وبذلك يستطيعون تغطية مجالات ومستويات متعددة في سلوك الآباء والأمهات، والتلاميذ والمعلمين.

وعندما تركز هذه البرامج على دور أولياء الأمور في التحصيل

الدراسي لأبنائهم فينبغي أن تحدد أفضل أساليب هذا الدور، والوقت المناسب لها، وأكثرها إثارة للابتكار، وحفزا للمواهب، بدلا من أساليب الحفظ والتلقين التي نعدها جميعا أنسب طرق النجاح والتفوق.

ومن المؤكد أنه لكي تنجح هذه البرامج في مجتمعاتنا العربية فلابد أن تسبقها دراسات جادة عميقة عن: كيف نربي أولادنا في المنزل والمدرسة؟ وما الدوافع والوسائل التي نستخدمها للاستثارة والحفز؟ وما أنواع الثواب والعقاب ودرجاتها وتوقيتاتها؟ وكيف يتوزع بناء القوة بين الأب والأم؟ وفي أي المواقف يظهر تأثير الأب أكثر؟ وفي أي المراحل يظهر تأثير الأم أكثر؟ وما أنواع العواطف والمشاعر واتجاهاتها بين الوالدين والأبناء؟ وفي أي مرحلة تبدأ المقارنة بالآخرين من الأقران أولاً ثم الكبار ثانياً؟ وفي أي مرحلة يبدأ الصغار في السلوك بطريقة الكبار؟ وهل تأتي هذه المرحلة طبيعية أم بدفع وقهر؟ وما الأساليب التي يعتمد عليها الطفل لاكتساب معارفه وتغيير اتجاهاته؟ وما الأساليب التي يعتمد عليها الآباء والأمهات لكي يساعدوا أولادهم على حل مسألة حساب أوقراءة نص أو كتابة موضوع إنشاء؟ وهل يشترك الإخوة الكبار في مساعدة الإخوة الصغار؟

عشرات الأسئلة والاستفسارات أزعم أنها غير مدروسة عربيا على الإطلاق، أو أن معلوماتنا عنها مشوشة مشوهة معتمدة على الرؤية أو الترجمة عن الكتب الأجنبية.



قضية الشرائح

وفي هذه الموضوعات لايصلح النقل أو الاقتباس، لأن هذه السلوكيات، وما يرتبط بها من مشاعر واتجاهات، تسقى من منابع الثقافة الشعورية واللاشعورية، بطريقة واضحة وخفية، جدلية ومعقدة، وبأساليب عميقة متجذرة، تبدو كأنها فطرية، في حين أنها موروثة اجتماعيا بتلقائية وبساطة، تختلف في جزئياتها وتفاصيلها من مجتمع إلى آخر، وربما من شريحة إلى أخرى، داخل المجتمع الواحد.

وقضية الشرائح هذه لايمكن النظر اليها من الناحية الطبقية بمفردها، بل من جوانب متعددة أيضا، منها: درجة تعليم الآباء والأمهات، وجذورهم الثقافية، والأساليب التي تربوا عليها، والنظم التي حكموا بها.

من هنا فثمة إشكاليات حقيقية نواجهها في هذه النقطة: فكيف نطلب من الآباء والأمهات الأميين مشاركة أطفالهم لرفع مستوى تحصيلهم؟

وكيف نطلب من الآباء والأمهات تدريب أطفالهم على الابتكار والإبداع في حين أنهم عاشوا ويعيشون مجتمعا سلطته متحكمة، وضغوطه قاهرة؟

ولهذا، في كثير من الحالات، تصبح أهداف الإبداع والابتكار، الاكتشاف

والاختراع ، شعارات أكثر منها مسارات ، بحكم ضغوط الأسرة والمجتمع الذي ينجح في وضع شعارات خلابة وتطلعات راقية ، من غير ترجمة فعلية وتطبيق حي .

مبررات تربية الآباء والأمهات :

ثمة مبررات كثيرة ، تدفعنا إلى ضرورة الاهتمام بهذا الموضوع ، لعل أهمها المبررات الخمسة التالية :

- أن الكثير من الآباء والامهات تربوا وسط ظروف وقوى ، فيها المرغوب الذي يجب استمراره ، والمندوب الذي يحسن استمراره ، والمكروه الذي ينبغي التخلص منه .

وبالفعل فقد تغير بعض هذه الظروف والقوى حاليا ، وينبغي أن يتغير بعضها مستقبلا ، لأنه من المستحيل أن نستمر أسرى هذه القيود والحدود .

- أن التغيرات الكاسحة التي تحيط بنا ، وتزحف من تحتنا ، تحتاج إلى بصر وبصيرة ، ذكاء وحرص ، لابد فيها أولا من جهد الأسرة وعطاء المنزل .

وعندما نقول أولا فالمقصود أن نقطة البداية تنطلق من العلاقات الأسرية والخلفية الثقافية التي تشكل الطفل وتربيه على قيم معينة وسلوكيات محددة .

- أن ضغوط الحياة الراهنة ، وإيقاعها السريع المتقلب ، وتحدياتها القاسية الحادة ، قطعت كثيرا من الروابط الاجتماعية ، ومزقت بعض مظاهر الحب والحنان التي كان يحظى بها الصغير من الأسرة الممتدة والأسرة الصغيرة ، وتكفى الإشارة إلى مجموعة علاقات حل محلها بديل تقني معاصر : فبعد أن كانت أغنيات المهد ، وحكايات الجدة والأم ، والصلة المباشرة المادية والمعنوية تساعد طفل الأمس على النوم ، تحلقت بعض أسر اليوم حول جهاز التلفاز ، لايلتقون بوجوههم ، بحكم أن الشاشة محور الاهتمام ، وبؤرة الاستقطاب .

ومع الضغوط والتحديات صار بعض الآباء والأمهات أميل للفردية والأنانية منهم للجماعية والإيثار .

صحيح أن مجتمعنا العربي لم يصل إلى درجة الأنانية والفردية الغربية إلا أن التحديات والصعوبات بدأت تحفر خطا قد يتحول إلى ندب عميق ، يمزق الأوصال ويفتت الصلات .

- أن تجديدات المنهج وطرائق التدريس داخل المدرسة يلزمها فهم ودعم وتعاون ومساعدة من المنزل ، وبعض هذه التجديدات ربما لن يتم اذا استمر المنزل بوسائله نفسها وطرائقه عينها .

من هنا لابد من إعادة تدريب الأمهات والآباء ، والحد الأدنى أننا إذا لم ننجح كل النجاح فقد ضمنا - على الاقل - ألا يصبح المنزل عقبة تحول ، وعائقا يمنع .

- أن بعض الآباء والأمهات لديهم نوعيات خاصة من الأبناء ، بعضهم معاق بدرجة من الدرجات في حاسة أو حواس ، وفي قدرة أو قدرات ، وبعضهم في طريقه إلى إعاقة أو مزيد من الإعاقات . وفي داخل الأسرة نفسها ربما نجد طفلا آخر لديه سمة أو سمات الابتكار والإبداع في فن من الفنون أو علم من العلوم .

وفي جميع هذه الحالات فإن هؤلاء الأطفال يحتاجون رعاية خاصة ، ومعاملة أسرية معينة ، بحيث تسهم مع المدرسة في تقليل نسب الإعاقة ، واستثمار إمكانات الفرد أفضل استثمار بشري ممكن .

والمعروف أن بعض أنواع إعاقة الأبناء ودرجاتها قد تترك آثارا نفسية وعصبية مرهقة على الوالدين ، لاسيما على الأم ، مما يتطلب برنامجا نفسيا وتربويا وصحيا متكاملا للإرشاد والتوجيه ، بحيث يتدربون على المعاملة الأفضل ، والأساليب الأنسب لتربية أبنائهم المعاقين وتعليمهم .

وإذا كانت المبررات الخمسة السابقة توضح لنا بالتحليل الاجتماعي ضرورة الاهتمام بإعادة تربية الآباء والأمهات ، لخدمة شخصية ومستوى تعليم أبنائهم ، فإن بعض الدراسات الميدانية تؤكد ذلك .

ومن هذه الدراسات دراسة أجريت بمدينة درام ، بولاية نورث كارولينا الأمريكية ، ونشرت عام ١٩٨٥م ، وكانت على عينة من الاطفال ، تتراوح اعمارهم بين ٤ ـ ١٤ سنة ، وعلى آبائهم وأمهاتهم أيضا .

وخلال هذه الدراسة كان الآباء والأمهات يحضرون اجتماعا أسبوعيا إرشاديا مدة ساعتين ، وفي التوقيت نفسه كان الأبناء يحضرون اجتماعا مماثلا في طابق آخر من المبنى نفسه .

وطبق الباحث على الأبناء مقياساً سلوكيا معيناً قبل هذه الاجتماعات وبعدها ، وحاول الباحث إدراك الصلة الاحصائية بين عدد مرات حضور الآباء لهذه الاجتماعات ، ومعدل استجابات أطفالهم على هذا المقياس . وتبين له في النهاية أن الأطفال الذين حضر آباؤهم ، مايزيد عن ٥٠٪ من اجتماعات الآباء ، حصلوا على معدل ٧,٩٨ في هذا المقياس ، في حين أن الأطفال الذين حضر آباؤهم ، أقل من ٥٠٪ من الاجتماعات ، حصلوا على ٤,٦١ فقط في هذا المقياس .

ومثل هذه النتيجة ـ وغيرها ـ تزيد ثقتنا في ضرورة الالتفات إلى دور المنزل في التحصيل الدراسي والتكيف الاجتماعي ، وضرورة إعادة تربية الآباء والأمهات لضمان نجاح الأبناء وتفوقهم . ويبقى تساؤل أخير نحاول بالنقطة التالية الإجابة عنه :

وسائل تربية الآباء والأمهات :

هناك عدد من الوسائل يمكن اقتراحها في هذا الصدد ، منها :

- تنظيم دراسات حرة مفتوحة ، لكل من يرغب من الآباء والأمهات ، بدون شرط أو قيود معينة ، ويمكن لكليات وأقسام متخصصة متنوعة الاشتراك في تقديم هذه الدراسات .
- تنظيم دورات تنشيطية مكثفة وعادية ، عن طريق مراكز خدمة المجتمع ، لتوعية الآباء والأمهات وتدريبهم على رفع مستوى كفاءة تحصيل أبنائهم .



- استثمار دور العبادة والاعلام ، والنوادي ، وغيرها من وسائل التربية غير النظامية ، لحفز الاهتمام بهذا الموضوع ، وإثارة الدوافع بالنسبة له ، وتقديم الخدمات الإرشادية اللازمة .
- تنظيم لقاءات وندوات للآباء والأمهات ، عن طريق الاخصائيين المتمرسين في هذا الميدان ، بحيث لاتكرر الأسرة دور المدرسة ، وفي الوقت نفسه لا تتعارض معها أو تناقضها .
- تدريب المعلمين أنفسهم على أفضل أساليب التعاون مع المنزل ، بحيث لاتستمر دائرة الاتهام قائمة : الأسرة تتهم المدرسة ، والمدرسة تتهم الأسرة ، بدون حلول ناجحة .
- تبادل الاتصال والتنسيق بين المدرسة والمنزل ، عن طريق السجلات ، والاتصال الهاتفي ، واللقاءات الدورية .

والمهم في كل هذه الوسائل والمقترحات أن يتأكد لدينا أن نقل الحلول غير منتج ، والتقليد والمحاكاة غير مفيدين ، لأن نجاح هذه الوسائل يعتمد على عوامل ثقافية ومجتمعية لها خصوصيتها الواضحة . وتميزها المستقل ، بحيث لابد للمفكر والمربي العربي من اكتشاف الوسائل والمقترحات المناسبة للثقافة العربية ومافيها من روابط وعلاقات اجتماعية ، وبناء للقوة يحكم الأسرة ويحكم المدرسة . □

هو.. هي

فنان ولكن..!

لكل رجل أحلامه ، وقد تكون لديه أوهامه أيضا . وأعتقد أن من حق كل منا أن تكون له أحلامه . وقد كان حلم زوجي منذ زمن طويل أن يكون كاتبا كبيرا ، يشار إليه بالبنان . لكن لأنه كان متفوقا بالمواد العلمية أثناء دراسته ، بالإضافة إلى ضغوط اجتماعية وعائلية ، وجد نفسه يكمل دراسته العلمية في الجامعة أيضا . ودون أن يدرى - حسب تعبيره - وجد نفسه طبيباً ، إلا أن حنينه للكتابة والأدب بقي موجودا ، وبقي هو يتحين الفرصة



لإخراج هذه « الموهبة المكبوتة » .

إلى هنا والمسألة بسيطة ، إلا أن الأمر بدأ يأخذ شكلا جديا ، وربما استفزازيا ، حين أخذ يكرر على مسامعي ، بأنني أنا والأطفال السبب الذي يحول دون إتمام مشاريعه الكتابية ، وأن مطالبي الكثيرة ، وضجة الأولاد وحركتهم الدائمة هي التي تعيقه عن الكتابة . وحين كنت أقول له : إنه لا يتبقى له من وقت بعد دوامه الطويل أثناء العمل ومتطلبات المراجعة وكذلك متطلبات متابعة الجديد في الطب ، كان يغضب ويثور ، ويسألني بطريقة كانت تبدو أحيانا مضحكة ، وأحيانا أخرى مزعجة ، وكيف كان تشيكوف ويوسف إدريس وغيرهما من الأطباء يجدون مثل هذا الوقت لإبداع قصصهم ومسرحياتهم .

لكن زوجي ليس من النوع الذي يقتنع بسهولة ، وكان لابد لي من إقناعه بعبث محاولاته . لذا اتخذت القرار .

قلت لزوجي : إنني مضطرة للسفر إلى حيث يقيم أهلي ، وأن هناك أموراً يجب أن أفعلها ، وحاجات يجب عليّ أن أقضيها . وحين نظرت في عينيه كادت الابتسامة تخونني ، حين لاحظت فيهما حزناً مفتعلاً على فراقي وفراق الأولاد ، لكنني تماسكت ومضيت ، وأنا شبه واثقة أنه لن يفعل أثناء غيابي شيئاً ، ولن يكتب « ملحمته العظيمة » .

إلا أنني لم أمكث هناك طويلا قبل أن يأتيني صوت زوجي عبر الهاتف ، يطلب مني الحضور فوراً . ولم أناقش ، ليس لأنني أعرف أن النقاش لايجدي على الهاتف ، بل لأنني كنت أخشى أن تفضحني ضحكتي على هذا الموقف العبثي . وكجزء من خداع النساء أخبرته أنني لن آتي سريعا ، ولكن بعد ساعات قليلة كنت أحزم حقائبي استعداداً للعودة .

..هي

مشاريعي المؤجّلة

لا أعتقد أنني بحاجة إلى القول بأنني أحب زوجتي وأطفالي ، ولكن لأنني لست شاعرا أو أديبا فإنني كثيرا ما أجد نفسي عاجزا عن شرح مدى حبي لهم . ولكنني كثيرا ما أمسك نفسي متلبسا بحالة غريبة بعض الشيء ، إذ يأتي عليّ وقت من الأوقات أحس بأن وجود زوجتي وأولادي إلى جانبي يوميا سنين متتالية ، بالإضافة إلى أن وجود الأطفال الدائم في المنزل يمنعني من تحقيق أشياء كثيرة كنت أظن أن بإمكاني تحقيقها

وحين كنت أقول لها : إن لي مشاريع كتابية ، أود أن أنجزها ، كانت ترد قائلة : إن الكاتب لا ينتظر حتى « يفرغ » المنزل من كل سكانه حتى يستطيع أن يكتب ، وإن قلت لها : إن الكتابة بحاجة إلى جو خاص ، استشهدت بأمثلة لا تحصى لكتاب وفنانين وشعراء كانوا يبدعون أعمالا عظيمة في ظروف أصعب ، وبما لا يقاس بظروفي ، وإن قلت لها : إن لكل كاتب أسلوبه الخاص وطريقته الخاصة في الكتابة ، وأن بعض المبدعين قد يبدعون في أسوأ الظروف ، بينما لا يبدع آخرون إلا إذا توافرت لهم أجواء هادئة مريحة تساعد على الكتابة والإبداع تكون في العادة قد وصلت إلى مرحلة متقدمة من الغضب ، لتخبرني معها أنه كان عليّ أن أكون من النوع الأول من الكتاب ، أو ألا أتزوج من الأساس لأتفرغ للكتابة التي لن تأتي .

ولكن أخيرا ، ودون قصد أو تدبير مني ، اضطرت زوجتي للسفر إلى مدينة أخرى حيث يقيم أهلها ، وأعترف بأنني فرحت في البداية لأن الفرصة قد واتتني أخيرا ، إلا أنني لم أظهر ذلك لزوجتي ، حرصا على عدم إغضابها أولا ، وحتى لا أتيح لها فرصة العودة عن قرارها بدافع العناد فيما لو عرفت حقيقة شعوري .

على أن ما حدث كان عكس ما توقعت تماما ، فما أن غابت زوجتي والأطفال ، حتى لفّت الوحشة المنزل ، وعم الهدوء ، لكنه كان هدوءا غير مريح ، فجلست في البيت غير مستقر فترة من الزمن ، خرجت بعدها إلى الشارع ، وعدت لرؤية أصدقائي القدماء ، ورجعت إلى عادة الجلوس على المقهى من جديد .

ولكن بعد أيام قليلة وجدت نفسي أمسك سماعة الهاتف ، وأطلب منها الحضور فورا .

وفي اليوم التالي كان المنزل يضج بالحيوية ، وأدركت أن مشاريعي المؤجلة لن تأتي أبداً .

.. هو





طبيب الأسرة
قضايا منزلية

في البيت مريض بارتفاع ضغط الدم

«أنت طبيب نفسك»

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

طبيب اليوم الأمهر هو الذي لا يصف لمريضه دواء ، فإذا لم يكن من الأمر بد فالعقاقير في أضيق الحدود ، بعد أن مضى زمان الوصفات المتخمة بالعقاقير وولى .

والطبيب المدرك لرسالة الطبابة هو الذي يقي السليم من المرض قبل أن يعالج المريض ، بل إن الوقاية في زماننا أصبحت درجات ومراتب ، فأولى الدرجات وبداية المراتب هي وقاية السليم ، وثاني الدرجات هي علاج المريض حتى لا يتفاقم مرضه ولا يتضاعف ، فهي إذن الوقاية من المضاعفات ، أما الدرجة الثالثة من مراتب الوقاية فهي تأهيل المصاب حتى لا يكون عالة على من حوله ، متطفلا على مجتمعه ، عبئا على ذويه وأهله .

في زماننا هذا تنازل الطبيب عن نصف مسؤوليته لمريضه ، وشاركه فيها لا طوعا واختيارا وإنما قسرا وإجبارا ، حيث لا حيلة للخلاص من محنة المرض إلا بتعاون المريض مع الطبيب بالإدراك السليم والطاعة ، وقديما قال شيخنا الطبيب الرازي :

« إذا كان الطبيب عالما والمريض مطيعا فلن تدوم العلة » .

على هذا الدرب يسير الأطباء وتسير الطبابة .

إن قائمة أمراض هذا الزمان لا سبيل لحصرها ، بعد أن طالت وتشعبت ، غير أن ارتفاع ضغط الدم يتربع على رأس القائمة بسبب ماتوافر له من ظروف وإمكانيات تتيح له أن يستشري ويستفحل ويتمكن من أكبر عدد من الضحايا .

بعض الناس قد يتوهم ويدعي أنه مصاب بمرض ضغط الدم ، ولو كان هذا الوهم والادعاء صحيحا فكل الأحياء من البشر مصابون بضغط الدم ، حيث أنه لا حيلة لمخلوق حي أن يخلو دمه من ضغط ، مادام فيه قلب يدق ، وشريان ينبض ، لأن الأموات هم الذين تخلو أجسادهم من ضغط الدم .

من الطبيعي أن يكون لدم الإنسان ضغط ، ولكنه ضغط دم طبيعي ، حيث أن هناك قلبا يعمل عمل المضخة عندما تنقبض عضلته وترتخي ، وبالتالي يكون لهذه المضخة الحية ضغط تدفع به الدم عبر الشرايين ، ثم إن هناك سائل الدم الذي يتراوح حجمه بين خمسة لترات وستة ، ويجري خلال عروق الدم وأوعيته ويضيف ضغطا الى ضغط القلب ، أما ثالثة الأثافي فهي شرايين الدم بما تمتلك من مرونة ومطاطية ، تشارك في صناعة ضغط دم البشر ، ولهذا كان لكل

إنسان ضغط دم ، بل كان الأصح لو قلنا إنهما ضغطان ، أولهما ضغط دم انقباضي ، يتوافق مع انقباض عضلة القلب ، وضغط دم ارتخائي ، يتوازى مع ارتخاء عضلة القلب .

ويقيسون ضغط الدم هذا بأجهزة خاصة ، هي أجهزة قياس الضغط المتنوعة الأشكال والأحجام والأنواع ، ويقدرونه بما يعادله من وزن عمود الزئبق ، حيث وجدوا أن ضغط دم الإنسان البالغ السليم يساوي (١٢٠ - ١٤٠ مليمترا) من الزئبق في حال الانقباض ، وسموه ضغط الدم الانقباضي ، وحوالي (٨٠ - ٩٠ مليمترا) من الزئبق في حال الارتخاء ، وسموه ضغط الدم الانبساطي .

ضغط الدم المرتفع : لو طرحنا السؤال الذي يراود فكر الجميع وهو : لماذا يرتفع ضغط الدم ؟ وما أسبابه ؟ فإننا لن نعثر على إجابة حتى يومنا هذا على الأقل في حوالي ٩٠٪ من المصابين ، لأنه لم تتكشف للطب أسرار ارتفاع ضغط الدم لدى غالبية المرضى . ومن هنا أطلقوا على هذا الحال اسم ارتفاع ضغط الدم الأساسي أو المبدئي ، بينما وجدوا في بقية الحالات التي تمثل ١٠٪ أسبابا يكون فيها ارتفاع ضغط الدم أحد مضاعفات مرض ما ، كما هو الحال في التهاب الكلى مثلا أو فشلها ، وهكذا . ومن هنا لا سبيل لنا في أن نخوض في الأمر الا بقولنا : إن في حياة الناس أسبابا تهيئهم للإجابة عن هذه العلة ، وهي في مجملها ضغوط تعصر أجساد الناس ونفوسهم ، وقد زادت قوتها في عصرنا الحاضر ، فزاد عدد ضحايا ضغط الدم المرتفع .

على أي حال فأمر معرفة ضغط الدم المرتفع ليس سهلا ، إذا لم نستعن بجهاز قياس ضغط الدم ، لأنه كما يقول الأطباء : مرض صامت ، لا يفصح عن نفسه ، ولا يكشف عن وجهه الكالح ، إلا برفقة مضاعفات خطيرة ، لا نتمناها لأحد ، كنوبة قلبية مثلا ، أو ذبحة صدرية ، أو جلطة في المخ أو نزيف ، أما ما يتوهمه بعض الناس من أن ضغط الدم المرتفع يسبب صداعا أو شعورا بالضيق وما إليه من قناعات لا أساس لها من الحقيقة فلابد أن نستبدلها بالوعي الإدراكي السليم لحقيقة ارتفاع ضغط الدم ، ووسائل الخلاص منه ، أو السيطرة عليه .



علاج ارتفاع ضغط الدم :

في جعبة الطب عقاقير لا حصر لها لعلاج ضغط الدم المرتفع ، لها مواقع شتى من الجسم تعمل فيها ، منها ما يرخي جدران الأوعية الدموية المتوترة ، ومنها ما يؤثر على الأعصاب فيهدئها ، ومنها ما يؤثر على القلب فيبطئه ، وهكذا ، ولكنها أمور تقع كلها تحت طائلة مسئولية الطبيب المعالج ، وفي نطاق معرفته وحدود تصرفه .

والمهم هو دور المريض الذى يشارك الطبيب في حمل جزء من المسؤولية ، إن لم تكن المسؤولية كلها ، لدرجة أن المصاب قد يستغني عن كل العقاقير ، فإذا لم يستطع فإن التقليل من جرعاتها ممكن في أحوال ارتفاع ضغط الدم الشديد .

مسؤولية المريض في العلاج والوقاية :

العقار المثالي الذي يحلم به الأطباء لما يولد بعد ، أو بمعنى آخر : ان الأدوية التي تفيد فائدة مطلقة ولا تضر مستعملها إطلاقا لما تتوافر للطب .

ومادامت العقاقير من مواد غريبة عن الجسم الحي ، فاحتمال وجود آثار جانبية ، غير مرغوب فيها ، أمر قائم ، ومن هنا فالتقليل من العقاقير ، إن لم يكن الاستغناء عنها نهائيا غاية مرغوبة

طبيا ، مع ضمان السيطرة على المرض .

وقد وجد الأطباء من خلال تجاربهم عبر السنوات المتعاقبة أن هناك أمورا يمكن للمصاب أن يلتزم بها ، وتغنيه عن عقاقير علاج ضغط الدم المرتفع ، في أحواله البسيطة المتوسطة ، كما تقلل حاجته الى العقاقير في أحوال الإصابة الشديدة ، وفي مايلي نعرض لبعض هذه الأمور :

١) تخفيف الوزن : من المؤكد أن البدانة تحمل معها احتمالات الخطر للقلب والدورة الدموية ، لهذا فالالتزام بالحدود الطبيعية المتفق عليها ، حسب جداول تتناسب مع العمر والسن والجنس ، يؤدي الى انخفاض ضغط الدم والسيطرة على ارتفاعه ، لدرجة تغني صاحبها عن كل علاج .

٢) الامتناع عن تناول ملح الطعام أو التقليل منه ما أمكن ، بعد أن ثبت أن هناك علاقة وثيقة بين الصوديوم وارتفاع ضغط الدم ، وهذا ينطبق على الأطعمة المعلبة التي تزيد فيها نسبة ملح الطعام كثيرا ، حتى أنها قد تصل الى ٢٥٠ ضعفا عن الأطعمة الطازجة .

٣) التدخين : اختلف القوم حول علاقة التدخين بارتفاع ضغط الدم ، لكنهم اتفقوا على أثر التدخين على القلب ونوباته إن ارتباط ارتفاع ضغط الدم بالنوبات القلبية يحتم على المدخن أن يتخلى عن عادته هذه ، فإن لم يستطع فلا أقل من التخفيف منها .

٤) القهوة : لم يجد الأطباء علاقة وثيقة أكيدة واضحة بين القهوة وارتفاع ضغط الدم ، لكنهم وجدوا علاقة بينها وبين ارتفاع منسوب الكوليسترول في الدم ، وعلى ما هو معروف فإن العلاقة وثيقة حميمة بين الكوليسترول وارتفاع ضغط الدم . وكما يقول المثل صديق عدوي هو عدوي أيضا .

٥) الكحول : الذين يدعون أن الكحول مفيد في توسيع الأوعية الدموية وارتخاء جدرانها ، وأنه يؤدي الى تخفيض ضغط الدم ، ربما غالطوا في قول الحقيقة كاملة لأن شرب الخمر يؤدي في مراحله التالية الى انقباض الأوعية الدموية ، وبالتالي يؤدي الى ارتفاع ضغط الدم ، وبهذا يكون شرب الكحول ضارا بأصحاب ضغط الدم المرتفع .

٦) الدهنيات : علاقة الدهنيات الحيوانية بارتفاع منسوب كوليسترول الدم لا جدال فيه ، وبالتالي لا جدال في احتمالات ارتفاع ضغط الدم ، وحدوث مضاعفات مع ترسب



هذا الكوليسترول في جدران الأوعية الدموية ، ومن هنا يجب على مريض ضغط الدم المرتفع تفادي الدهنيات الحيوانية والاستعانة عنها بالزيوت النباتية .

٧) السلوك الاجتماعي : لقد ثبت أن التوتر النفسي والاجهاد الجسدي ركنان أساسيان من أركان الإصابة بارتفاع ضغط الدم ، وعلى هذا فالاسترخاء النفسي والترويح الجسدي والراحة البدنية من أساسيات العلاج والوقاية التي لا يستغني عنها أي إنسان ، وهي ليست بذخا ولا مضيعة للوقت أو تبذيرا للمال والجهد .

٨) الرياضة : الرياضة لابد أن نتناول شقين منها : الشق الأول الرياضة العنيفة كحمل الأثقال والمصارعة ، وهي غير مرغوب فيها إطلاقا ، وعلى عكسها يكون الأمر مع الرياضة الخفيفة ، كما هو الحال مع المشي مثلا لمن يعاني من ضغط الدم وارتفاعه .

٩) الكالسيوم : كان هناك شك فيما مضى حول أثر الكالسيوم على ارتفاع ضغط الدم ، ولكن الأمور قد اتضحت بعد أن ثبت أن أملاح الكالسيوم تعمل على خفض ضغط الدم ، ولهذا كان تناول الأطعمة الغنية بالكالسيوم أمرا مرغوبا فيه : كشرب الحليب مثلا أو تناول الجبن وما إليه من الأطعمة الغنية بالكالسيوم . □

مساحة ود!

مفارقة

في إحدى المناسبات الاجتماعية وجدت نفسي منهمكا في حديث مع رجل عجوز احتفظت عيناه ببريق من الذكاء يشع من بين ثنايا وجهه المتغضن . وفجأة لاحظت أنه يقول كلاماً أقرب إلى الحوار الذي يمكن قراءته في رواية أو قصة . كانت ملاحظاته عن الحياة والناس تعكس خبرة كبيرة ، وردوده دقيقة واضحة ، لا إبهام فيها ، ومعرفته بالنفس الإنسانية عميقة . وفكرت ماذا ينقص هذا الرجل حتى يكون كاتبا ؟ إن كل ما لاحظته فيه يؤهله لأن يكون فنانا مبدعا أو كاتبا كبيرا أو شاعرا جيداً ، لكنه لكي يكون كاتبا عليه أن يتمرس بأساليب الكتابة ويكتشف سرها . وسر الكتابة غير سر الحديث ، وسر الحديث غير سر المعرفة ، وسر المعرفة غير سر الاكتشاف وغير سر النفاذ إلى العمق الإنساني ، فلكل من هذه المعارف سرها الخاص ، ولكل سحرها الخاص ، لكن أحدها لا يحل محل الآخر ولا يلغيه ، وقد يغنيه ويثريه ، وقد يزيده وضوحا وجمالا ، لكنه لا يحل محله .

وقد يكون كاتب ما ، عيي الكلام ، مملا مضجرا ، لكنه يكتب فنا أصيلا جميلا ، وقد يكون هناك كاتب عادي أو متوسط الموهبة الكتابية ، لكنه يجيد الحديث ، ويحوله إلى فن جميل راق . وقد يكون هناك شخص عادي مثل صاحبنا العجوز ، قادر على قول الحكمة السديدة ، والملاحظة الدقيقة ، والتقاط المفارقة الساخرة ، والنفاذ إلى عمق الآخرين ، وربما كان هناك شخص أليف ظريف جليس أنيس لكنه مع ذلك ليس كاتبا ولا مبدعا ، ولن يكون كذلك ، وهنا يكمن أحد أسرار الفن والحياة . فقد يكون الكاتب المبدع شخصا ثقيلا في الواقع ، وقد يكون الفنان الساخر شخصا متجهما في الحياة ، وقد يكون الشاعر العذب في قصائده ودواوينه فجًا ثقيل الظل على الطبيعة . ولكن في النهاية يبقى مقياس الإبداع هو الأثر الباقي ، سواء أكان قصة أم رواية أم قصيدة أم لوحة . ومهما كانت درجة الظرف أو الذكاء أو الدقة في التعبير أو المعرفة الإنسانية عند بعض فإن هذه المواهب كلها لن تساعده طالما ظل بلا أثر أو إنجاز يعكس هذه المواهب . سر صغير من أسرار الحياة التي تظل أغنى من الفن حتى لو كان بلا ضفاف . □

صلاح حزّين

العربي - العدد ٣٧٢ - نوفمبر ١٩٨٩ م

بقلم : الدكتور حسن عباس

دَلالاتُ الفِعلِ وَالزّمَن

يحلو لبعض المثقفين العرب ، وهو بصدد المفاضلة بين اللغات الأوربية واللغة العربية ، أن يقارن بين الفعل في اللغة العربية والفعل في تلك اللغات ، وبخاصة في اللغة الانجليزية ، من حيث دقة التعبير عن الزمن ، إذ أن في اللغة الانجليزية صيغا تعبر عن الماضي البعيد والماضي القريب والمستمر ، وغير ذلك ، في حين أن صيغة الفعل الماضي في اللغة العربية لا تعبر إلا عن الماضي بإطلاق ، دون تحديد لبعده أو قربه من زمن التكلم . ومثل هذا الافتتان باللغات الأوربية ، وبالانجليزية خاصة ، أصبح مألوفا لدينا ، ولكننا لا نخطىء تشخيصه ، فهو لا يعدو أن يكون جزءا من الاستلاب الثقافي من جهة ، وتضاؤل في الثقة بالتراث وبالنفس ، أدت إليه ظروف سياسية واجتماعية في العقدين الأخيرين على وجه الخصوص ، من جهة أخرى .

ولهذا الزعم أساس فيا ذهب إليه بعض المستشرقين ، ممن عنوا بدراسة النحو العربي . ويلخص الدكتور مهدي المخزومي أقوال المستشرق وليم رايت في هذا الصدد بقوله : إن الصيغ الزمنية للفعل العربي صيغتان اثنتان فقط ، أحدهما تعبر عن حدث تم وكمل من حيث صلته بغيره من الأعمال ، والأخرى تعبر عن حدث لم يتم ، حدث ابتدىء به ، واتصلت أحداثه ولَمّا ينته بعد . والتقسيم يؤدي إلى أن العربية إذا أرادت التعبير عن الماضي المطلق والماضي التام ، والماضي غير التام ، لم تجد من الأبنية إلا بناء (فَعَلَ) للتعبير عما لا يعبر عنه في الانجليزية إلا بعدة صيغ ، وإذا أرادت التعبير عن المستقبل باختلاف مجالاته الزمنية ، لم تجد إلا بناء (يَفْعَل) للتعبير عن الحاضر والمستقبل . ويستنتج الدكتور المخزومي من هذا القول أن العربية قد أهملت المجالات الزمنية التي يتضمنها الزمن الواحد كالماضي مثلا ، ولم يكن لديها من الأبنية ما تعبر به عن تلك المجالات . وكان الدكتور المخزومي قد سبق له أن بين استعمالات الأفعال ودلالاتها على نحو يسهم في الرد على ما ذهب إليه وليم رايت ، وما يذهب إليه هذا النفر من المثقفين العرب الذين أشرنا إليهم .

الدارس المتتبع للأفعال العربية ولأساليب العرب واستعمالاتهم يرى أن هناك ثلاثة أبنية ، اقترنت بالدلالة على الزمان ، وليس بنيتان فقط كما قرر وليم رايت . وهذه الأبنية هي : فَعَلَ - يَفعلُ - فاعِل .

أما البناء الأول ، وهو بناء فعل ، وهو الذي يراد به الفعل الماضي المطلق ، مجردا أو مزيدا ، فإن له من الدلالات في الاستعمال ما يمكن تلخيصها والتمثيل لها على النحو التالي :

- الدلالة على أن العمل قد تم في زمان ماض مطلق كقولهم : أكل القوم وشربوا ، « وهو

الاستعمال الأصل » ، والدلالة الأساس في بناء (فعل) .

ـ والدلالة على أن العمل كان قد تحقق في الماضي واستمر تحققه إلى اللحظة التي دار فيها الكلام ، وذلك كقوله تعالى : « واذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » .

ـ والدلالة على أن العمل كان قد حدث ، وحدث كثيرا ، ويمكن أن يحدث كثيرا أيضا ، وذلك حين يراد إلى إجراء بناء (فعل) مجرى الأمثال كالقول : روت الرواة ، واتفق المفسرون ، واتفق النحاة .

ـ والدلالة على أن العمل قد تم في أثناء الكلام ، ولم ينجز إلا بالكلام نفسه . وتندرج فيه ألفاظ العقود وعبارات القسم كقولهم : بعتك ، وزوجتك ، ونشدتك الله .

ـ والدلالة على أن العمل كأنه قد وقع ، لأن وقوعه أمر محقق . ويكثر بناء (فعل) بهذا المعنى في الموعد والوعيد والمعاهدات ، كقول جعفر بن يحيى في أحد توقيعاته : « كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما اعتدلت ، وإما اعتزلت » .

يقول الدكتور المخزومي : هذه الدلالات المختلفة التي أشرنا إليها هنا ، وغيرها ، إن هي إلا مخلفات حية لاستعمال بناء (فعل) قبل أن يحدد الاستعمال الحديث موضعه الخاص به ، ويقصر دلالته على حصول الحدث قبل زمن التكلم ، واقتران الدلالة على الزمان الماضي به .

والبناء الثاني هو بناء (يفعل) وهو يستعمل ، ويراد منه دلالات منها :

ـ أن يدل على العمل الذي لا يحدث في زمن خاص ، ولكنه يحدث في كل وقت ، ويدل على الدوام ، كقولهم : الإنسان يدبّر والله يقدّر .

ـ أو أن يدل على العمل الذي بدأ حدوثه في زمن التكلم ، ولما يتم بعد ، نحو : الله يعلم ما تعملون .

ـ أو أن يدل على العمل الذي يكون مستقبلا بالنسبة إلى ما حدث في الزمن الماضي الذي سبق زمان التكلم ، كقولهم : ذهب خالد إلى جاره يعوده . وقوله تعالى : « وزلزلوا حتى يقول الرسول » .

ـ أو أن يدل على نفي الحدوث في الزمن الماضي ، وذلك في كل مضارع مسبوق بلم ، نحو : لم يف خالد بوعده .

ـ أو أن يدل على نفي حدوث الفعل نفيا مستمرا إلى زمن التكلم ، وذلك في كل مضارع مسبوق بلمّا ، كقوله تعالى : « لما يقض ما أمره » .

ويرد الدكتور المخزومي على أقوال بول كراوس بقوله : فالزمن في المضارع في ضوء استعمالاته مختلف ، وليس عنصرا يميزه عن غيره من الأفعال ، بل قد يقال : إنه لا يعبر في نفسه عن فكرة الزمن ، ولكنه يدل أحيانا على أن العمل قد ابتدأ ، أو على أن العمل لم يتم ، أو على أن العمل مستمر الحدوث في الماضي والحاضر والمستقبل .

والبناء الثالث ما جاء على وزن (فاعل) ، ويراد به الفعل الدائم عند الكوفيين . وهذا البناء يدل في استعمالاته على الثبوت والدوام إذا استعمل وحده غير متصل بشيء بعد ، نحو : خالد قائم ، وهو من أجل هذا يستعمل استعمال الأسماء الجامدة التي لا تقترن بزمان معين ، والجملة من أجل ذلك معدودة في الجمل الاسمية .

أما إذا وليه شيء فله حكم آخر ، ويصبح الزمان من مستلزماته ، كما ذهب الفراء إليه في تفسير قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت » .

هذه هي استعمالات الأفعال العربية ودلالاتها على الزمن ، فانظر في ذلك وقارن ! □

جمال العربية

□ صفحة شعر

□ هكذا غنى الأدباء

زفرات شوق

للشاعر العرجي

تتصف شخصية الشاعر العرجي بصفات متباينة ، فهو يجمع الكرم إلى الإسراف ، ويجمع شرف المحتد إلى الصعلكة . ورقة المشاعر التي تتبدى في شعره إلى ضرب من الاندفاع في اللهو والمجون ينفر منها الناس أجمعين .

إنه عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فجده أو جد أبيه هو خليفة المسلمين الثالث ، بل إن عثمان بن عفان رضي الله عنه هو جده لأمه أيضا . ويشير العرجي في شعره إلى هذا النسب فيقول :

كأني لم أكن فيهم وسيطا

ولا لي نسبة في آل عمرو

وعمرو هذا هو أحد أبناء عثمان بن عفان كما تجمع على ذلك كتب الأدب والأنساب . ويلقب بالعرجي نسبة إلى ماءٍ له ، يقال له : العرج ، بالقرب من الطائف . ولا يعرف تاريخ ميلاده ، لكن وفاته كانت في عام ١٢٠ هـ .

ويكاد يخلو شعر العرجي من ذكر أهله ، ما عدا الإشارة إلى « نسبته في آل عمرو » التي تقدمت الإشارة إليها . أما زوجته فكانت عثيمة بنت بكير بن عثمان ، وأمها سكينة بنت مصعب بن الزبير ، فأهله جميعا من أشراف قريش ومن المقدمين في الإسلام ، ولكنه لم يحفظ لنسبه حرمة . وقد عرف عنه جمال المحيا ، وهو جمال ورثه عن أسرته ، ولكن كتاب « الأغاني » يذكر له نتوء الحنجرة وبروزها وخفة في شعر العارضين واللحية . وتأتي أهمية الصفات الجسدية في شاعر كالعرجي من أنه أنفق العمر في طلب اللذة والتشبيب بالنساء ، ولم تسلم منه أم محمد بن هشام المخزومي ، والي مكة ، ولا زوجته وأخته !

إن من يتصفح ديوانه لا يكاد يعثر على غير قصائد في الغزل وأوصاف النساء وشكوى الهجر والبعد . من ذلك هذه القصيدة التي قالها وهو قرب جبل سلع في المدينة المنورة . ويقول : أصابني وأنا بسلع أرق ، فارقني النوم على أثره ، وكان السبب في ذلك الأرق برق تبدى آخر الليل في صفحة السماء . كنت أرقب نوره من بعيد ، ومازال يتوالى وميضه حتى الصباح . فإذا كان المرء غريبا اعتراه شوق إلى أوطانه . وقد أجج هذا الشوق وميض البرق ونورُه الخاطف المتلاحق . ضاق احتمالي لما شفني من الوجد والبكاء ، فنبهت صاحبي لأبثه ما تنطوي عليه النفس وتعاني . وصاحبي هذا خالي البال ، لم يعبث به الهوى ، ولم يسهر الليل ،

بل ينام ملء جفونه ، تحسبه لشدة التصاقه بالفراش يشكو من آلام الظهر . فلما نبهته هب مذعورا والنوم غالب على عينيه ، حاول أن يكلمني ولكن ببحة في صوته لم تسعفه فشرق بريقه ! ولما استقام له الكلام جعل يلومني وهو في لومه أخرق ، يطلب لومه إلي أن أجمع قلبي وهو مفرق ، وكيف يجتمع وله أحباب في مكة وفي وادي وجّ بالطائف وفي المدينة ؟!

كان يمكن للقلب أن يشتد ويجتمع لو أن دور الأحباب قريبة متلاصقة، والشمل ملتئم وغصن الحياة معجب مونق ! إذن لا مندوحة عن البكاء إزاء ما هو كائن في الهجر والبعد . ولكن إلى متى يظل قلبي معلقا بالشجو والحزن ؟ كلما هممت بكتمان سري ووجدي حرض الأعداء على عيني ، فهي تفضحني ، وبسري تنطق عندما تسيل منها الدموع . . !

فالقصيدة لا تحفل بغير مشاعر المحبين ، وهي تكاد تخلو من أي معنى عميق ، ولكنها ترصد تجربة شعورية عميقة ، فكانت على شكل قصة قصيرة يتناوب فيها السرد والحوار . . !

أَرِقْتُ بِسَلْعٍ ، إِنَّ ذَا الشَّوْقِ يَأْرَقُ ... لِبَرْقٍ تَبَدَّى آخِرَ اللَّيْلِ يَخْفِقُ(1)
أُشِيمُ سَنَاهُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَرُبَّمَا ... تُشَامُ الْبُرُوقُ مِنْ بَعِيدٍ فَتَصْدُقُ(2)
فَمَا ذُقْتُ مِنْ نَوْمٍ ، وَمَازَالَ عَامِلاً ... إِلَى الصُّبْحِ ذَاكَ الْبَارِقُ الْمُتَأَلِّقُ
لَـ تَعْتَرِي الْمَرْءَ الْغَرِيبَ صَبَابَةٌ ... وَشَوْقٌ إِلَى أَوْطَانِهِ حِينَ يَبْرُقُ
فَنَبَّهْتُ لَمَّا شَفَّنِي الْوَجْدُ وَالْبُكَا ... أَخاً لِلَّذِي قَدْ غَالَنِي وَهْوَ مُطْرِقُ
عَزُوفاً عَنِ الْأَهْوَاءِ لَمْ يُحْيِ لَيْلَةً ... لِشَوْقٍ وَلَمْ يَرْفَعْ إِلَى الْجَنْبِ مِرْفَقُ
خَفِيّاً عَلَى ظَهْرِ الْفِرَاشِ كَأَنَّهُ ... بِهِ فَقْرٌ مِنْ حُبِّهِ النَّوْمَ مُلْصَقُ
فَهَبَّ وَمَا هَبَّتْ مِنَ الْعَجْزِ عَيْنُهُ ... وَمِنْ سِنَةٍ أَوْصَالُهُ لَا تُطَلَّقُ
إِذَا رَامَ تَكْلِيمِي بَدَاهُ بِبُحَّةٍ ... وَسَدَّ سَبِيلَ الْقَوْلِ رِيقٌ فَيَشْرَقُ
يَقُولُ فَيَلْحَانِي كَثِيراً ، وَإِنَّهُ ... إِذَا لَامَنِي عِلْمِي مِرَاراً لَأَخْرَقُ(3)
يُكَلِّفُنِي جَمْعاً لِقَلْبٍ مُفَرَّقٍ ... وَيَأْبَى اجْتِمَاعاً قَلْبُكَ الْمُتَفَرِّقُ
فَمِنْهُ فَرِيقٌ بِالْحَرَامِ ، وَبَعْضُهُ ... بِوَجٍّ ، وَبَعْضٌ بِالْمَدِينَةِ مُوثَقُ(4)
فَهَلَّا وَدَارُ الْحَيِّ مُصْقِبَةٌ بِهِمْ ... وَشَمْلُكَ مَجْمُوعٌ ، وَغُصْنُكَ مُونِقُ(5)
بَكَيْتَ لِمَا قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ ... مِنَ النَّأْيِ وَالْهِجْرَانِ إِنْ كُنْتَ تُشْفِقُ
إِلَى أَيِّ دَهْرٍ فَاقْتَدِهْ أَنْتَ هَكَذَا ... وَقَلْبُكَ بِالشَّجْوِ الْمُبَرِّحِ مُعْلَقُ
إِذَا رُمْتَ كِتْمَاناً لِوَجْدِكَ حَرَّشَتْ ... عَلَيْكَ الْعِدَى عَيْنٌ بِسِرِّكَ تَنْطِقُ
لَهَا شَاهِدٌ مِنْ دَمْعِهَا كُلَّمَا رَقَا ... جَرَى شَاهِدٌ مِنْ دَمْعِهَا مُتَرَقْرِقُ □

---

(١) سلع : جبل بالمدينة . (٢) أشيم سناه: أنظر نوره أين يتجه .
(٣) يلحاني : يلومني ويعيبني ، والأخرق : الأحمق .
(٤) الحرام : مكة المكرمة ، ووج : واد بالطائف ، والمدينة : هي المدينة المنورة .
(٥) مصقبة : مجاورة قريبة ، والمونق والأنيق : المعجب الحسن .

آفاق جديدة في علاج داء السُّكّر

بقلم : الدكتور صباح السامرائي

ظل داء السكر بلا علاج حتى عام ١٩٢١ حين اكتشف العالم « نانتنج » وزميله « بست » هرمون الانسولين فانقشعت عن النفوس غيوم سود ثقال . غير أن المرضى ما يزالون يضيقون ذرعا بحقن الانسولين التي لا بد منها في كل يوم ، والتي لا تخلو من منغصات ومضاعفات . وفي أواخر الثمانينيات من هذا القرن طرقت الهندسة الوراثية أبواب المرض الموصدة ، وذلك بتجارب ناجحة على الحيوانات ، فهل يحمل العقد القادم المفاجأة الكبرى ؟! .

إن داء السكر يقسم إلى نوعين ، النوع الأول هو « داء السكر المعتمد على الانسولين » والذي يسمى أيضا بداء السكر الطفولي فهو يصيب الأطفال عادة والشباب دون سن الأربعين ، وينشأ عن تلف الخلايا الفارزة للانسولين ، ولهذا فهو يستجيب للعلاج بحقن الانسولين . أما النوع الثاني فهو « داء السكر غير المعتمد على الانسولين » الذي يصيب الكبار عادة بعد سن الأربعين ، وهو لاينشأ عن قلة الانسولين أو تلف الخلايا الفارزة له ، وإنما عن عدم تحسس خلايا الجسم لهذا الهرمون ، ولهذا فهو يعالج بعقاقير أخرى غير الانسولين .

وحديثنا في هذا المقال عن دور الهندسة الوراثية في علاج داء السكر يتعلق بالنوع الأول ، وحيثما ذكرنا داء السكر فإننا نقصد داء السكر المعتمد على الانسولين .

الجسم يهاجم نفسه :

توجد مجموعة من الأمراض المعروفة طبيا تتصف بأن الجسم البشري يهاجم أحد أعضائه أو أنسجته ، إذ يقوم بصنع أضداد أو أجسام مضادة تهاجم ذلك العضو أو النسيج وتؤدي إلى إتلافه ، ويطلق على هذه المجموعة اسم

« الأمراض ذاتية المناعة » ، ويعتقد أن داء السكر ينتمي إلى هذه الأمراض ، إذ يقوم الجسم بصنع أضداد تهاجم الانسولين والخلايا الفارزة له في البنكرياس وتسمى « الخلايا البائية » .

ومن أجل إيضاح أكثر ، نقول : إن البنكرياس غدة كبيرة ذات قناة تفتح في الاثنى عشر وتقوم بإفراز خمائر تهضم الطعام . وبالإضافة إلى الوظائف الهضمية ، فإن غدة البنكرياس تحوي مجاميع خاصة من الخلايا المتناثرة هنا وهناك ، والخلايا نوعان ألفية وبائية ، وكما ذكرنا فإن الخلايا البائية هي التي تفرز هرمون الانسولين في الدم مباشرة دون قنوات . وهذه المجاميع من الخلايا المتناثرة في البنكرياس ، تسمى « جزر لانجرهانس » نسبة إلى اسم مكتشفها العالم الألماني « لانجرهانس » الذي ولد عام ١٨٤٧ وتوفى عام ١٨٨٨ .

كما يعتقد الأطباء أن داء السكر مرض وراثي ، أي أن ظاهرة مهاجمة الجسم للخلايا البائية تنتقل وراثيا . غير أن المرض لا يورث بالطرق الوراثية المعروفة ، بل إن المريض يرث عن أبويه الاستعداد للإصابة بالمرض ، وليس المرض نفسه ، ومن يرث هذا الاستعداد قد يظهر عليه المرض وقد لا يظهر اعتمادا على عوامل أخرى أهمها الظروف البيئية والغذائية وغير ذلك .

وقد استطاع الأطباء تحديد اثنتين من الجينات مسؤولتين عن داء السكر ، ورمزوا لهما بالرمزين « DR3,DR4 » وهما موجودتان في الكروموسوم السادس . وتتصف هاتان الجينتان بأنهما متغيرتان في الشكل ، فهما تختلفان في الأبناء عن الآباء ، وتختلفان من شخص لآخر ، وهذا يزيد صعوبة التنبؤ بوراثة المرض .



● اذا كانت الأم مريضة بالسكر ، وليس الأب فحدوث الاصابة بالداء وراثيا بنسبة ٢٥٪ .

الشفاء التام :

قبل ارتياد آفاق الهندسة الوراثية ، وجد العلماء إمكانية الشفاء من داء السكر باستعمال عقار مثبط للمناعة ، يدعى « سايكلوسبورين » ، فمن مجموع اثني عشر مريضا شخصوا قبل تلف خلاياهم الفارزة للانسولين ، أمكن شفاء أربعة ، ولم يعودوا بحاجة للانسولين ، ولدى أربعة آخرين أمكن تقليل جرعة الانسولين إلى النصف ، أما الباقون فلم يستفيدوا .

والمشكلة في هذه الطريقة العلاجية هي ضرورة تشخيص المرض قبل ظهور الأعراض ، وقبل تلف الخلايا البائية أي الخلايا التي تفرز الانسولين ، ومن أجل ذلك يجب فحص أقارب المرضى من الدرجة الأولى ، وهم - بسبب الوراثة - مرشحون للإصابة بالمرض ، فإذا وجدت في أجسامهم الأضداد أو الأجسام المضادة التي تهاجم الخلايا البائية ، فعندئذ تتركز



● اذا كان الأب مريضاً بالسكر ، وليست الأم فحدوث الاصابة بالداء وراثيا بنسبة ٥٪ .

الجهود الطبية لإيقاف هذا الهجوم قبل أن تتلف الخلايا البائية .

وبالطبع فإن هذه العملية عسيرة جدا ، وتحتاج إلى جهود مضنية ، وفوق هذا غير مضمونة النتائج . وهنا تبرز أهمية الهندسة الوراثية ، إذ أنها يمكن أن تلعب دورا مهما في الشفاء التام حتى بعد تلف الخلايا البائية تلفا كاملا .

الهندسة الوراثية :

منذ فتح آفاق الهندسة الوراثية فكر العلماء بإجراء تعديل على الحامض النووي DNA « أي هندسته وراثيا » في بعض الخلايا البشرية ، بحيث تعدو هذه الخلية قادرة على صنع الانسولين .

غير أن الفكرة ظلت مجرد أمنية أو حلم عزيز المنال حتى أواخر عام ١٩٨٧ ، حين قام فريق طبي باقتحام هذا الباب بقيادة الدكتور « رتشارد سيلدن » فلقد قام هذا الفريق الطبي بإجراء هندسة وراثية معقدة على جين بشري ، ثم زرع هذا الجين في خلية ليفية في أحد الفئران ، ونقلت هذه الخلية بعد ذلك إلى أنسجة فأر آخر ، وبعد اسبوعين ازداد مستوى الانسولين في الفأر الأخير وانخفض مستوى سكر الكلوكوز .

وعلى الرغم من أن هذه الخطوة قد فتحت آفاقا جديدة في علاج داء السكر ، فإن تطبيقها على الإنسان ليس سهلا ، ويؤكد الدكتور سيلدن أن هناك عقبتين رئيسيتين أمام تنفيذ هذه الفكرة الجريئة على الانسان .

العقبة الأولى هي أننا لا نستطيع استعمال الخلايا الموجودة في « جزر لانجرهانس » ، أي لا نستطيع برمجتها أو هندستها وراثيا لإنتاج الانسولين ، لأنها عرضة لمهاجمة الأضداد التي هاجمت أسلافها .

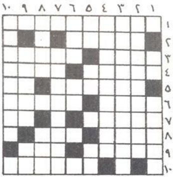
والعقبة الثانية هي عدم وجود ضمان أكيد على أن الخلايا بعد هندستها لإفراز الانسولين ، ستظل تفرزه بصورة منتظمة ، حسب حاجة الجسم ، وتأثير الظروف المحيطة به ـ ومما يؤكد صعوبة هذه العقبة ، أن خمسة من فئران الدكتور « سيلدن » التي زرعت فيها خلايا مهندسة وراثيا ماتت بسبب انخفاض سكر الكلوكوز في دمها ، فلقد ظلت تلك الخلايا تفرز الانسولين بلا توقف ، وظل الكلوكوز ينخفض شيئا فشيئا دون المستوى الطبيعي .

وعلى الرغم من هذه العقبات ، فإن العلم قد سلك أولى الخطوات في هذا الطريق . وعسى أن تشهد التسعينيات بهجة كبرى تفوق بهجة عام ١٩٢١ عند اكتشاف الانسولين ، وإن غدا لناظره قريب . □

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .



كلمات أفقية :

١ ـ روائي روسي مبدع وصاحب رائعة « الحرب والسلام » .
٢ ـ كثيرة النسل .
٣ ـ كسيف ، من أبطال الإلياذة والمتسبب في الحرب .
٤ ـ فمين مسبوقة بحرف تشبيه ، مريض هَدّه المرض .
٥ ـ أتعبني وأرهقني ، حرفان من سوف .
٦ ـ كادح مبعثرة ، انظري مليًّا معكوسة .
٧ ـ درس خاص بكنّ ، الاسم الأول لخطيب جاهلي .
٨ ـ مدعاة للريبة ، من أدوات الحرب قديما .
٩ . يسميّه مبعثرة ، قبر
١٠ ـ ميمونة .

كلمات عمودية :

١ ـ حرفان متشابهان ، الاسم الثاني لأديب مصري معاصر .
٢ ـ روائي مصري وكاتب معاصر .
٣ ـ شاعر ومسرحي انجليزي كبير .
٤ ـ روائي ومسرحي مصري ساخر بدون أل التعريف .
٥ ـ مودة ، تجدها في ناب ، حَزَن .
٦ . نار ، غير مطهي .
٧ . روائي فرنسي كبير .
٨ . احمرار ، فتنة .
٩ ـ يسير مع التيار ، هدم .
١٠ ـ مؤلف روسي كبير وصاحب «الجريمة والعقاب » معكوس .

● حل مسابقة العدد الماضي ـ اكتوبر ١٩٨٩ م



مكتبة العربي


Risalei ahlak.

Pouka

o

lijepom i ružnom ponašanju.

Po turskom

رسالة يوغسلافية في الأخلاق الإسلاميّة

تأليف : محمد قبطانوفيتش لوبيشاك

عرض وتحليل : د. جمال الدين محمد

« في أواخر القرن الماضي مرت على مسلمي يوغسلافيا ظروف استثنائية ، فقد كان عليهم التأقلم مع واقع جديد تمثل في الاحتلال النمساوي لبلادهم ، وفي الوقت نفسه الحفاظ على ثقافتهم الإسلامية الخاصة بهم ، فبدت بوادر نهضة بينهم ، كان من أبرز قادتها محمد قبطانوفيتش الذي نستعرض له هذا الكتاب » .

خلال دراستي وبحثي وتنقيبي في ذخائر الأدب اليوغسلافي ، قديمه وحديثه ، عثرت على رسالة يوغسلافية في الأخلاق الإسلامية ، كتبها رائد النهضة الأدبية للمسلمين اليوغسلاف ، الأديب اليوغسلافي محمد قبطانوفيتش لوبيشاك (١٨٣٩ - ١٩٠٢) في عام ١٨٨٣ ، (أي منذ حوالي مائة وسبعة أعوام) ، بعنوان « رسالة الأخلاق » درس في المسلك الجميل والمسلك القبيح .

وقد صدرت هذه الرسالة في ظروف خاصة بالنسبة للمسلمين في منطقة البوسنة والهرسك ، وذلك لأن عملية احتلال هذه المنطقة في عام ١٨٧٨ من جانب الامبراطورية النمساوية الهنغارية كانت حدثا حاسما ، أشعر المسلمين بالضياع ، وأثار بينهم الارتباك والاضطراب ، وسبب ذلك - فترة من الوقت - توقف النشاط الأدبي والثقافي الذي كان قد بدأ في الظهور في فترة الحكم التركي لهذه المنطقة . وفي مثل هذا الوضع



● سيرايفو عاصمة المسلمين في يوغسلافيا

النفسي والسياسي والاجتماعي الذي وقعت فيه هذه المنطقة انغلق المسلمون على أنفسهم أمام المستجدات والتأثيرات الخارجية ، ومرت الحياة الروحية والثقافية بعملية تردد « درامية » .

النهضة الروحية والأدبية

ثم بدأ تنظيم التعليم العام والخاص للمسلمين في منطقة البوسنة والهرسك ، وافتتحت بعض قاعات الاطلاع ، الأمر الذي أسهم بالتالي في ظهور أول جمهور فعلي من القراء .

يضاف إلى ذلك أن الحياة الثقافية والأدبية مرت بعملية تحول ونضوج ، من الجمود إلى التحرك والنشاط ، ومن العزلة الأدبية والثقافية إلى التفتح والانفتاح على آداب الشعوب المجاورة ، وعلى الابداعات الأصيلة المعبرة عن شخصية الشعب . وعُدّ آنذاك أن النشاط الأدبي وقوة الكلمة المكتوبة وتأثيرها العميق ضرورة ملحة ، من أجل أن يعود الإنسان إلى ذاته ، وأن يثوب إلى رشده ، ويفيق من سباته ، وأن يشفي ظمأه الروحي والثقافي . وهو في النهاية ضرورة حتمية لكي يثق المرء بقوته الذاتية ، من أجل مجابهة الاحتلال النمساوي الغاشم .

وحينذاك ، في نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الماضي ، ظهر أول جيل من الأدباء المسلمين الذين بدءوا يكتبون باللغة الشعبية (البوسنوية أو الصربوكرواتية) وبالحروف اللاتينية . وكان على رأس هذا الجيل محمد بك قبطانوفيتش الذي يرتبط اسمه بالبعث الروحي وبالنهضة الأدبية للمسلمين في البوسنة والهرسك في هذه الحقبة المتغيرة الحاسمة من تاريخهم ، ويرتبط نشاطه أيضا بالعمل على تخليص المسلمين من التأثيرات السلبية وبث روح الاستقلالية فيهم مع الانفتاح على القيم السلافية الخاصة بمنطقتهم .

قبطانوفيتش

ولد محمد قبطانوفيتش في قرية فيتيني ، عند لوبوشكو ، بمنطقة البوسنة ، وأنهى دراسته الأولية في مسقط رأسه ، ثم واصل دراسته في المدرسة « الرشيدية » (أي المدرسة الإعدادية) في موستار ، حيث تعلم التركية والعربية والفارسية ، واستكمل تعليمه بعد ذلك في المدرسة الإسلامية الثانوية بقرية لوبوشكو .

وخلال فترة الحكم العثماني مارس محمد قبطانوفيتش مختلف المهام الإدارية ، وتولى عدة مناصب بارزة في الجيش وفي الحياة المدنية ، وحصل على عديد من الأوسمة نظير خدماته وأنشطته ، وقام خلال فترة عمله الرسمي بجولة في أنحاء العالم ، زار فيها ايطاليا والنمسا والمجر ثم اليونان ومصر وتركيا وبلغاريا ورومانيا .

وأسهمت هذه الرحلات في توسيع مداركه وآفاقه وتنمية معارفه الثقافية والأدبية ، ولا شك أنها أثرت - إلى حد ما - على اختياراته السياسية .

وبوجود محمد قبطانوفيتش في البرلمان العثماني ، باعتباره ممثلا للشعب ، فقد أتيحت له الفرصة لأن يتأكد من حتمية انهيار الإدارة العثمانية آنذاك ، ومن سلبية رجال الشرق في مواجهة الحضارة الغربية النامية ، ولذا فقد أسرع بالتكيف مع الظروف الجديدة الناشئة عن الحكم النمساوي الهنغاري ، بهدف الاستفادة من المكاسب الثقافية والحضارية ، والدعوة لها ، والعمل على نشرها بين المسلمين في البوسنة والهرسك . وشارك ممثلي الشعب من المناطق المجاورة (صربيا وكرواتيا) في القيام بسلسلة من الأنشطة الثقافية والتعليمية واللغوية تهدف إلى اكتساب القيم الشعبية المحلية وتدعيمها .

رسالة الأخلاق

كتب على غلاف كتاب « رسالة الأخلاق » أنه أعدها للشباب المسلم في البوسنة والهرسك ، وأن المجلس التعليمي الاسلامي لمنطقة سيراييفو زينها بالأمثال الشعبية المحلية والعربية ، وقد وافق عليها رئيس العلماء المسلمين في هذه المنطقة ، وطبعت في سيراييفو ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣ م) على نفقة صندوق العلوم لمنطقة سيراييفو . وبلغ عدد صفحات الكتاب اثنتين وثلاثين صفحة .

ولم يكتب اسم المؤلف على غلاف الكتاب ، فبدا كأنه بدون مؤلف ، ولكن من المؤكد أن الكتاب قد أعده للنشر محمد بك قبطانوفيتش ، واستند في ذلك على كتب مماثلة طبعت باللغة التركية من قبل . وتأكدت هذه المعلومة بعد تقرير استخدام « رسالة الأخلاق » ككتاب مدرسي في الكتاتيب الإسلامية في تلك المنطقة .

ويشرح الكاتب في مقدمة كتابه الغرض الذي هدف إليه ، والمضمون الذي سعى إليه قائلا : « بتميز الإنسان عن الحيوان بالمعرفة والعقل والفكر ونطق الكلام . ولا يصل العقل البشري إلى الكمال إلا بتعلم الأمور غير المعروفة من الأشخاص المتعلمين ومن الكتب ، ولا يتم سمو البشرية إلا بتحلي طباع الإنسان بالنبل » .

وبشكل متتابع يتم عرض المضمون الأساسي لهذه الرسالة من خلال مجموعة من الدروس والمواعظ والتعليقات ، وهي كلها مرتبطة بأفكار محددة ، ذات طابع إسلامي وأخلاقي وتثقيفي وتعليمي ، وتتسم بالنبل . وكل كلمة في الرسالة وكل حرف فيها يهدف إلى رفع الروح المعنوية ، وإلى الوصول إلى الكمال الخُلقي .

ولا يمكننا على الإطلاق أن نعد « رسالة الأخلاق » نقاشا نظريا محضا ، بل هي على العكس من ذلك ، تعد مرجعا عمليا للمتطلبات المتعلقة بحسن تربية الأطفال والصغار بوجه عام . وقد عرض الكاتب الدروس في هذه الرسالة بأسلوب عملي واقعي واضح مباشر ، وبروح عقلانية تتفق مع مضمون المثل الشعبي وروحه . وقد قام المؤلف بتبسيط تعريفات

الفضائل والدروس المستفادة منها ، مستندا في ذلك إلى قواعد الأخلاق التقليدية والإنسانية العامة ، ووضع لنا على هذا النحو تصورا عاما للنبل والإنسانية والأدب .

وتشتمل « رسالة الأخلاق » على مفاهيم ، سجل الكاتب أسماءها باللغتين المحلية والتركية ، وهي : العبادة ، والعلم ، والرعاية ، والكذب ، والنميمة ، والنفاق ، والغيبة ، والإضرار ، والتكبر ، والحسد ، والتسكع ، والحيلة ، وقلة الحياء ، والسخرية ، والسباب ، والكلام القبيح ، والسرقة ، والعجز عن الكلام ، والتحقير ، والحقد ، والضغينة ، والصداقة ، والوفاء ، وحسن القرين ، والعجلة ، والعناد ، والنظافة ، والسخاء ، والبخل ، وتقديم العون ، والشفقة ، وحفظ الصحة ، والألفة ، والأدب ، والاحترام ، وحقوق الأخوة ، والعفة ، والحمية ، ورعاية حقوق الألفة .

ولم يفقد العديد من المفاهيم المذكورة في « رسالة الأخلاق » فعاليته حتى في عصرنا الحالي ، بل وما زال يحتل المرتبة الأولى في قائمة اهتمامات التربويين . والاختلاف بين عصرها وعصرنا يتمثل في تغيير ترتيب الأولويات بالنسبة لبعض هذه المفاهيم فقط ، إلا أنه من الواضح بالنسبة لأي قارىء أن كل هذه النصائح والدروس والمفاهيم يرتبط بعضها ببعض ، وتتشابك فيما بينها ، وهي كلها لا تخدم إلا هدفا تربويا وأخلاقيا واحدا ، وهو بناء شخصية الطفل ، فعن طريق التربية والتعليم يتحول الصغير إلى إنسان نبيل صادق ، قوي في خلقه وجسده ، مزود بالثقافة الواسعة ، متسم بالفضائل السامية .

مفهوم العلم

وعلى الرغم من أن المؤلف في ترتيبه للمفاهيم في « رسالة الأخلاق » يولي العبادة المكان الأول ، فإنه يمنح أهمية كبيرة للعلم ، فيقول : « إن الإنسان يحتاج إلى العلم أكثر من أي شيء آخر » ، أي أنه يعد العلم قبل كل شيء وفوق كل شيء .

واحتفاظ المرء بعلمه لنفسه فحسب ، ولنفعه الشخصي فقط ، يعني تحويله إلى رأسمال ميت . ولكي لا يحدث ذلك فقد عرف المؤلف جوهر العلم ومعناه ووظيفته بنصيحته التالية : « اكتسب العلم بغرض أن تعرف وأن تفعل الخير ، وتعلمه للآخرين » . وبعبارة أخرى فهو يقصد أنه ينبغي وضع العلم في خدمة الإنسان والخير ، ولا بد من الالتزام بنقله وتعليمه للآخرين .

وركز المؤلف ، في أكثر من مرة ، في رسالته ، على احترام شخصية الإنسان . وفي هذا المضمار تبرز ، في المقام الأول ، نصيحته للأولاد باحترام الوالدين والمدرس ومعلم الحرفة باعتبارهم من زراع الخير وصُنّاعه . ويلفت النظر بشكل خاص في هذه الرسالة الاحترام الكبير الذي يوليه المؤلف للمدرس ، والأهمية البالغة التي يمنحها لدوره .

وهذا التقدير الكبير لشخصية المدرس ، وهذا التبجيل لعمله التربوي ، وهو أمر ندر حدوثه في مجال الأدب آنذاك ، يؤكد أن المؤلف كان على إدراك ووعي بذلك العنصر التربوي الذي يقول : إنه لا يمكن توقع نجاح ملحوظ إذا كان هناك ولو قليل من النتوءات في العلاقة بين المدرس وتلميذه .

ووضع قبطانوفيتش معلم الحرفة والمهنة في مرتبة مساوية للمدرس ، وهذا يعد اعترافا منه باحترامه له وتقديره لدوره المهم في التعليم المهني حينما يعلم الصغار مهارة العمل باليد ، ويعد أيضا في الآونة نفسها تعبيرا من المؤلف عن احترامه للعمل اليدوي بوجه عام . ومما لا شك فيه أن مثل هذه التربية الصحيحة للصغار تساعد على تقييم الأعمال اليدوية والحرف بالمعايير نفسها

التي يقاس بها النشاط الثقافي والأدبي وغيره من الأنشطة .

رفض العلاج بالخرافات

كانت الشعوب اليوغسلافية قد تعرضت لمختلف المحن في الفترة التي أعد فيها قبطانوفيتش « رسالة الأخلاق » ونشرها . وفي مثل هذه الظروف ساءت أحوال الطب والعلاج والوعي الصحي . وفي مثل هذا الوضع من التخلف الثقافي كان من المحتم توقع رواج الأوهام والخرافات وما ينجم عنها من عواقب . وعلى سبيل المثال : بدلا من استخدام الأدوية والعقاقير الطبية المناسبة ، كان يتم من أجل الحفاظ على الصحة وعلاج الأمراض اللجوء إلى الخرافات ، وإلى مختلف ألوان البدع والاعتقادات والوسائل التي لا تمت بأي صلة إلى الطب ، وليست لها أي قيمة علمية وعملية ، بل إنها على العكس ، إذ تعرض صحة الإنسان للخطر في أغلب الأحوال .

وبسبب هذه الملابسات عالج قبطانوفيتش في رسالته موضوع حفظ الصحة بشيء من التفصيل والاسهاب ، بل واعتذر عن عدم إمكانيته ذكر المزيد من التفاصيل ، نظرا لضيق مساحة الكتاب . والمهم أنه نَوَّهَ إلى عدم اعترافه إلا بالأدوية كوسيلة مضمونة للحفاظ على الصحة ، وأضاف أنه لا يعترف إلا بالأدوية التي يقوم بإعدادها الصيادلة المتخصصون ، وأن كل ما عدا ذلك فهو مرفوض . ولا يمكن في هذا المضمار إنكار الحقيقة القائلة بأن النظرة الواعية لمحمد قبطانوفيتش بشأن الحفاظ على الصحة ، الواردة « برسالة الأخلاق » ، قد أثرت تأثيرا إيجابيا طيبا على نشر الوعي الصحي في منطقة البوسنة .

لقد كان الأديب محمد قبطانوفيتش الوحيد بين مسلمي البوسنة والهرسك الذي لم يستسلم لليأس ، وإنما دعا إخوانه إلى العمل ، وإلى التحرك وبذل الجهد ، وتمكن عن طريق القدوة الصالحة والكلمة المقنعة أن يبين لهم الطريق الصحيح الذي ينبغي أن يسلكوه .

ومن المؤكد أن « رسالة الأخلاق » تعد كتابا مدرسيا مفيدا ، ومرجعا تربويا تعليميا مهما في الأخلاق الإسلامية في منطقة البوسنة والهرسك . وقد قام هذا الكتاب بمهمة ووظيفة نبيلتين ، وأسهم في تربية الصغار ، وفي تقويم الكبار . واستحق الكتاب بشكله هذا أن يكون موجوداً في كل منزل بوسنوي ، كما استحق مؤلفه المزيد من التكريم والتبجيل . □

أقـــــــوال

● إن جروح الجنود الظافرين تبرأ أسرع من جروح الجنود المهزومين .

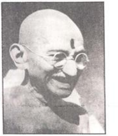
(حكيم)

● حارب عدوك بالسلاح الذي يخشاه ، لا بالسلاح الذي تخشاه أنت .

(غاندي)

● من لازم السكوت ، فإنه قد اختار ذلك ، إما بجهل أو بعلم ، فإن سكت بعلم فقد نطق بصدق ، وإن سكت بجهل فإنه قد كذب .

(ارسطو)



● غاندي

من المكتبة العربية



أدب الكدية في العصر العباسي

تأليف : أحمد الحسين / عرض : جاك صبري شماس*

كما كان للبلاط العباسي أدبه وأدباؤه ، كان للقاع الاجتماعي المتمثل في الشطار والعيارين والشحاذين أدبهم وأدباؤهم أيضا . وكانت لهم حكاياتهم التي ساهمت في بلورة واحد من أهم ألوان الأدب العربي القديم ، وهو أدب المقامة .

ومادة هذا الكتاب: الأدب الذي أنتجته هذه الفئات الشعبية في العصر العباسي .

زخرت الحياة الشعبية في العصر العباسي بظواهر لازالت تنتظر البحث ، وهذا الكتاب يتناول ظاهرة الأدب الذي أنتجه القاع الاجتماعي من الشحاذين والشطار والعيارين، وسائر فئات المكدين في العصر العباسي .

وقد نال هذا الأدب من الظلم مانال أصحابه ، حيث كان أدب الاعلام والبلاطات حتى عهد قريب صاحب الحظوة في اهتمام

* كاتب من القطر العربي السوري

الباحثين ، ولقد آن الأوان كيما نكشف بعضا من هذه الاوراق المهمة والغنية والمهملة في تراثنا .

لقد تناول ـ مؤلف الكتاب ـ أحمد الحسين ظاهرة الكدية ، وترجم للشعراء والكتاب المكدين ، وحلل إنتاجهم لينتهي إلى رسم صورة دقيقة لهذا اللون المتميز والمجهول من ألوان الأدب الشعبي العربي ، وكان المؤلف قد قام بجمع كتاب « أشعار الشحاذين في العصر العباسي » وتحقيقه ، وقامت دار الجليل بنشره .

يضم الكتاب بابين يتحدث فيهما المؤلف عن « مصطلحات الكدية » ، حيث يرى الفريق الأول أن « الكدية » لفظة عربية ، أما الفريق الثاني فيرى أن « أكدى » لفظة عربية مبدلة ، أما الرأي الثالث فيرى أن الكدية لفظة معربة .

قل لهم :

ليس بين أيدينا ما يشفي الغليل عن مجتمع المكدين ، والكتب التي حدثتنا عن أخبارهم وأحوالهم قليلة نظرا لضياع بعضها . وفي طليعة الكتب المفقودة « حيل المكدين » الذي لو وصلنا لكان قد أغنى وأفاد ، ولكن على الرغم من هذا الشح فإننا سنحاول في ضوء ما استخلصناه من النصوص الأدبية ان نلقى ضوءا على المدن التي كانت تعد مراكز استقطاب لتجمعاتهم ، وكذلك طوافهم على المنازل والمساجد التي كانت أهم الأماكن التي يكانوا يقصدونها ، وقد عرفت بعض فئاتهم بالكدية فيها ؛ نذكر منهم المكي ، الكدي ، المغلغل .

وقد قامت حيلة المغلغل على أن يترافق شخصان ، فاذا دخلا مدينة قصدا أنبل مسجد فيها ، فيقوم أحدهما في الصف الأول ، فإذا سلّم الإمام صاح الذي في آخر الصف بالذي في أول الصف : « يافلان ، قل لهم ، فيقول الآخر : قل لهم أنت ، أنا أيش ، فيقول : ويحك ولا تستح ، فلا يزالان كذلك وقد علقا قلوب الناس » . وقد روى الجاحظ عن أهل عصره أن السُّؤال كانوا « يمدون أعناقهم للجمعة انتظارا للصدقة والفائدة في أمور كثيرة » .

وعندما وصل المقدسي إلى شيراز أثار انتباهه فيها عدد المكدين ، وخاصة في أيام الجمع ، فقال : « ولا تسمع الخطبة من صياح السؤال » ، ووقوف المكدين على أبواب المساجد في الجمع والأعياد رغبة في جمع الصدقات وهي مشاهد لم تندثر ، فمازالت منتشرة حتى يومنا هذا ، ولم يكن المكدون يقصدون الجوامع فحسب ، بل كانوا يغشون الأسواق والساحات العامة يستجدون فيها ، ويسلون الناس بألعابهم . وتعد الجسور من بين معالم المدن التي كانوا يتخذونها للكدية . ومما جاء في حديث التنوخي عن بغداد « أنه كان بها في طرفي الجسر سائلان أعميان ، يتوسل أحدهما بأمير المؤمنين علي عليه السلام ، والآخر بمعاوية ويتعصب لهما الناس » .

ولكن قسما آخر آثر المكوث على التطواف ، فعاش عمرا مديدا يكدي في مدينة معينة فلايبرحها ، قانعا بما يناله . ومن قبيل النادرة التي تسلط الضوء على هذا ، أنه كان بأصفهان « رجل أعمى يطوف ويسأل فأعطاه مرة إنسان رغيفا ، فدعا له وقال : أحسن الله إليك ، وبارك عليك ، وجزاك خيرا ورد غربتك . فقال الرجل : ولم ذكرت الغربة في دعائك ، وما علمك بالغربة ؟ فقال : الآن لي ههنا عشرون سنة ماناولني أحد رغيفا صحيحا » .

أما طرق استجدائهم فرادى وجماعات فالأمر يرجع إلى سببين أولهما :ـ أن بعض الحيل التي يكدون بها تحتاج إلى أكثر من شخص في تنفيذها وقد مرت بنا نماذج من فئاتهم في المساجد .

وثانيهما : يرتبط بأسباب أمنية ، خشية تعرضهم للسلب والنهب . وقد انتقلت الكدية الجماعية من حيز الواقع إلى عالم الأدب كالذي

نجده في المقامة الساسانية لبديع الزمان الهمذاني ، وسائر مقامات الحنفي ، إذ كان بطلها يكدي مصطحبا كوكبة من الرجال ، وكلهم صاحب باع طويل في هذا الفن .

مراتب المكدين

وقد عرف هذا المجتمع نظام التلمذة ، حيث نجد لهم مراتب البهاليل ؛ وهم رؤساء المكدين ، وكذلك العريف والكاخان وقد ذكرهما خالويه المكدي دون توضيح آخر .

وكان لمجتمع الكدية لباس يثير انتباه الناس ، يختلف شكله بين جماعة وأخرى ، أما منازلهم فلا نجد وصفا شافيا لها ، ويستشف من المقامة الصورية للحريري أن الملكية لاتعود للفرد ، بل هي لجميع المكدين ، فقال : « ليس لها مالك معين ولا صاحب مبين ، إنما هي مصطبة المقتفين والمدروزين ، ووليجة المشقشقين ، والمجلوزين » . كما قام المؤلف بالإشارة إلى شعراء الكدية المشهورين ومنهم فرعون الساسي ، وأبو المخفف ، والأحنف العكبري وغيرهم .

ويتناول الفصل الثاني من الباب الثاني أغراض شعر المكدين ، وهي المديح والهجاء والفخر . وتعود الصلة بين الشعر والتكسب في جذورها البعيدة إلى فن المديح ، وهو من الأغراض الشعرية البارزة في مختلف العصور ، ونحن حين ندقق في مديح المكدين - مضمونا وشكلا - نجد معاني مستهلكة ومكررة ، وقد عجز الشاعر المكدي عن أن ينهض بها فنيا ليأسر القلوب ، ويهز أريحية الممدوح ، وهذا ما جعل مديحهم يتخلف أشواطا بعيدة عن مديح غيرهم . ولا نريد أن يظل الكلام على مديح المكدين بعيدا عن الشواهد التي تغني الجانب النظري ، فمن ذلك مدحهم الوزراء في مواقف قليلة لا تعبر عن حالة استمرار ودوام ، وكان أبو فرعون الساسي قد مدح الحسن بن سهل وزير المأمون مبتدئا بالوقوف على الديار ، ثم الانتقال إلى المديح ، ومن ثم الشكوى . وما يهمنا قوله مادحا :

الناس أشباه كما قد مُثِّلوا
وفيهمُ خير ، وأنت خيرهم
حاشا أمير المؤمنين أنه
خليفة الله ، وأنت صهرهم
إليك أشكو صبية وأمهم
لايشبعون ، وأبوهم قبلهم

وفي أحايين أخرى نجد المكدي يمدح من يصادفه دون تخصيص ، وهذه صفة لم نجدها من قبل عند الشعراء المداحين ، ولعل في ذلك بعض التعليل لما نراه من شيوع أسلوب التنكير في مقاطع المديح عندهم ، ونسوق مثالا لأن أحدهم استخدم أسلوب التنكير في مدحه فقال :

ألا فتى أروع ذا جمال
من عرب الناس أو الموالي
يعينني اليوم على عيالي
قد كثروا همي وقل مالي

أما الهجاء فقد كان سلاحا ذا حدين في عصوره المختلفة باستثناء العصر الحديث . وقد سار المكدون على هذا الغرار في شعرهم ، ولكن هجاءهم لم يرتبط بالخصومات القبلية ، بل كان استمرارا لدوافع الحرمان والإهانة ، ويروى أن الشاعر أبا دلف كان قد بعث خطابا أو كتابا إلى كاتب بالدينور يدعى « المشقاع » يطلب فيه قضاء بعض حوائجه ، فلما تجاهله « المشقاع » ولم يحقق مطلبه ابتدره الشاعر بهجاء لاذع :-

يامن يسائلني عن المشقاع
قد ضاع شعري عنده ورقاعي
كاتبته في حاجة عرضت لنا
فكأنني كاتبت وحش القاع
نعم الفتى لو لم تكن أخلاقه
ممزوجة بتوابل الفقاع

أما الشاعر «الاسكندري» فيفتخر بعلمه ومعرفته وبحيله فيقول :

أنا أبو قلمون في كل لون أكون
اختر من الكتب دونا فإن دهرك دون
زج الزمان بحمق إن الزمان زبون

والشاعر أبو دلف يفتخر فيقول :

على أني من القوم الـ بهاليل بني الغر
بني ساسان والحامي الـ حمى في سالف العصر
فنحن الناس كل النا س في البر وفي البحر

أدب الكدية :

يبحث «الفصل الثالث» في فنون النثر، حين نرى البدوي وقد طبع بالفطرة وبالفصاحة والبيان في خطبه، ويجب ألا نظن أن نفس البدوي التي فطرت على العزة والاعتدادبالنفس قد قبلت مواقف الذلة والانكسار لولا شدة المعاناة التي كان يعيشها، وكان الجوع والحرمان قد زعزعا القيم، وعبثا بالأصول والأعراف، فخرجت المرأة من خدرها المكنون تشكو جدب السنين، وتوالي المحن، ويجد القارىء في كتب الأدب باقات من خطب الأعرابيات تنضح مرارة وأسى. تقول إحداهن : «ياقوم سنة جردت وأيد جمدت، وحال جهدت، فهل من فاعل خير، وآمر بمير، رحم الله من يرحم، وأقرض من يقرض». وإذا كانت خطب المكدين قد فقدت عنصر الجدة، والطرافة إلا أنها ساهمت في تشكيل أدب المقامات، فمادتها الفكرية ومنهجها وطريقة نسجها واضحة الأثر في صياغة المقامات، وبمقدور القارىء أن يوازن بين خطب المكدين التي مرت بنا وعناصر الكدية التي عرضناها.

فللمكدين أمثالهم، ومناظراتهم، وقصصهم وأدبهم في الرحلات الجغرافية، لأن أدب المكدين كما جاء في «الفصل الخامس» له مكانة يشهد لها. فأدبهم من الأدب الشعبي الذي مثل لنا حياة فنية اجتماعية متميزة، وقد سلط الضوء عليهم بعض الكتاب، وفي طليعتهم الجاحظ والثعالبي، والتنوخي، والتوحيدي. فمكانة أدب الكدية ارتبطت بجوانب شتى وكان من بينها : أنه ساهم في انتقال شخصية المكدي من حيز الواقع إلى رحاب الأدب والفن، فأصبحت تلك الشخصية على أيدي بعض الأدباء العباسيين تنبض حياة، وتشع جاذبية وطرافة، وممن تأثر بهذا الجنس في الأدب الفرنسي شارل سوريل في قصته «تاريخ فرانسيون الحقيقي والهازل» وقصة «جين بلا» لمؤلفها لوساج. □

بعد أسبوع

يُحكى عن أحد كبار التجار، وكان قد بدأ حياته بداية متواضعة، أنه دخل وهو صبي مزرعة بطيخ، وسأل الفلاح عن ثمن بطيخة كبيرة، فقال الفلاح : «عشرة قروش» فقال الصبي : «لكن ليس معي سوى قرش واحد» فابتسم الفلاح، وأشار الى بطيخة صغيرة فجة لم تنضج بعد، قال : «هذه بقرش» فقال الصبي على الفور : «اتفقنا، لكن لا تقطفها الآن فسأعود وآخذها بعد أسبوع».



مكتبة العربي

مختارات

اسم الكتاب : عازف الشوارع
اسم المؤلف : محمد القيسي
الناشر : دار الكرمل - عمان
عدد الصفحات : ١٢٨ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨ م

مجموعة أعمال شعرية للشاعر الفلسطيني محمد القيسي ، يقدم تجربته في قصيدة النثر ، وبعض القصائد الشعرية ، وتتميز المجموعة بالنغم الحزين الذي يسود أعماله والتي هي أقل من البكائية وأقرب إلى التماسك . ويطور الشاعر في مجموعته الجديدة من نحت أسلوبه الشعري الذي يتسم بالعذوبة والرقة والحدة والألم ، مما يجعل من المجموعة كلها رسالة دافئة حادة ، تخترق شغاف الوجدان ، وتثير تساؤلات العقل .

■ ■ ■

اسم الكتاب : التنمية الصناعية في منطقة الخليج العربية - الإنجاز والتحديات .
اسم المؤلف : د . عبد الله حمد المعجل .
الناشر : منظمة الخليج للاستشارات الصناعية - الدوحة .
عدد الصفحات : ١٦٥ من القطع الكبير .
سنة النشر : ١٩٨٩ م

تعد التنمية هي التحدي الحقيقي الذي يواجه بلدان العالم ، وتتحدد قدرة المجتمعات النامية في تحقيق التنمية على مدى سيطرتها على المتغيرات التي تتحكم في نموها الاقتصادي ، وحتى تستطيع المجتمعات النامية إحداث التغير ، فإنه لا بد من إحداث التراكم الكمي الذي يؤدي إلى تنشيط عملية التقدم . ومن خلال هذا المنظور العلمي يقوم الكاتب باستعراض الواقع الحالي لمنطقة الخليج العربية ، والاستراتيجية الممكنة التحقيق للتنمية الصناعية القادرة على إحداث النقلة النوعية لمجتمع الخليج ، من مجتمع استهلاك إلى مجتمع إنتاج متقدم تقنيا ، قادر على التعامل بندية مع مجتمعات العالم المتقدمة .

■ ■ ■

اسم الكتاب : المخترع في فنون من الصنع .
اسم المؤلف : الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول ، تحقيق : د . محمد عيسى صالحية
الناشر : مؤسسة الشراع العربي - الكويت
عدد الصفحات : ٢٨٠ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٩ م

يعد كتاب « المخترع في فنون من الصنع » من أندر كتب الصناعات في التراث العربي الإسلامي ، فقد حوى الكتاب صناعات عز تداولها من قبل سابقيه ، والمؤلف هو أحد سلاطين الدولة الرسولية (نسبة إلى بن رسول) في اليمن ، ويذكر مؤرخو عصره أنه كان سلطاناً ذا همة عالية ، واشتغل بالعلم والكتابة ، ومد سلطانه حتى تولى أمر الحرم وكسوة الكعبة

المشرِفة . ويتكون الكتاب من عشرة فصول ، تناولت الفصول الستة الأولى منه ، وجزء من الفصل السابع ، صناعة الكتب ، وبعد ذلك يعرض لهندسة تفصيل الخيم ، ولصناعة (قنابل المولوتوف) التي كان العرب يسمونها تطبيب النفط ، وصناعة الفرقات ، وكيفية تنظيف الملابس بالبخار وصبغها .

والكتاب بنصه وبجهد المحقق العلمي إضافة جديدة مهمة للمكتبة العربية بتقديم كتاب مهم عن تطور النظام الصناعي العربي في فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية .

■ ■ ■

اسم الكتاب : كتمان
اسم المؤلف : حسب الله يحيى
الناشر : دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد
عدد الصفحات : ٢٣٨ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٩ م

مجموعة أعمال قصصية جديدة للكاتب العراقي حسب الله يحيى ، تضم المجموعة ٢٥ قصة ، منها ثماني عشرة قصة سبق نشرها في مجلات ودوريات أدبية .

وتتميز المجموعة بخصوصية أجواء وشخوص القاص الذي نجح في أعماله السابقة من تكوين عالم خاص به ، يتميز بالجرأة والنفاذ ورهافة اللغة وتعقيد الموقف معاً .

■ ■ ■

اسم الكتاب : أساطير أوربا عن الشرق .
اسم المؤلف : رنا قباني .
الناشر : دار طلاس للنشر ـ دمشق .
عدد الصفحات : ٢٣١ من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨ م

يدور الكتاب حول أساطير عن الشرق العربي والإسلامي ، اختلقها الغرب في مرحلة ما بعد الصليبيات ، على يد الرحالة والشعراء والمصورين الذين طافوا الشرق ، ونقلوا صورة عنه ، وأساطير صارت هي الأساس للقوالب العنصرية الجاهزة التي وضعت في أوربا ، وصارت مرجعا للحكم على الشرق والعرب ، فصورت أهل الشرق على أنهم خاملون ، وجهلة وفسقة وغارقون في الملذات . وتقوم المؤلفة بجهد علمي لتقدم تحليلا مستفيضا للصورة الخيالية للشرق التي خلقتها أوربا لنفسها حسبما وضعها كتابها ورسمها رساموها في لوحات فنية أخذت حظا وافيا من الذيوع والانتشار .

■ ■ ■

اسم الكتاب : ضد أمريكا ـ بانوراما في الفعل الإبداعي العالمي
اسم المؤلف : ترجمة منية سمارة ـ محمد الظاهر .
الناشر : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت .
عدد الصفحات : ١٤١ من القطع المتوسط .
سنة النشر : ١٩٨٩ م

جهد تجميعي وانتقائي جديد ، فريد في نوعه ، فقد قام المترجمان بجمع نصوص إبداعية عالمية لعدد من الكتاب اللامعين في أمريكا وأوربا وأمريكا اللاتينية التي تدين الولايات المتحدة على مواقفها من حريات العالم الثالث .

وفي الكتاب نصوص إبداعية رائعة ابتداء من وليم فوكنر وبابلو نيرودا وجارسيا ماركيز إلى حشد كبير من ألمع الكتاب المبدعين في أوربا وأمريكا . والكتاب وثيقة أدبية لكل أنصار حركة تحرير العالم الثالث ، وشهادات يقدمها أصحابها تنبض بالصدق والجرأة وشجاعة الموقف . □

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٧٢

نوفمبر ١٩٨٩

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ دينارًا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارًا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارًا
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الصفاة الرمز البريدي 13008 - الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٧٢ ، وآخر موعد لوصول الاجابات إلينا هو ١٥ ديسمبر ١٩٨٩ . والرجاء كتابة الاسم الثلاثي والعنوان البريدي واضحين ، ورقم الهاتف إن وجد .

ارفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٧٢

١ يذكر التاريخ أن الخليفة العباسي الواثق بالله ، رأى في منامه ان السد الذي أقامه ذو القرنين حول قوم (يأجوج ومأجوج) قد انهار ، فقرر ان يرسل بعثة استكشافية خاصة ، تذهب الى الصين وتحقق في أمر سور الصين العظيم ، وتعود إليه بحقيقة الامر ، ترى من اختار الخليفة لرئاسة تلك البعثة التي قامت بمهمتها في القرن التاسع الميلادي ؟

- سلّام الترجمان .
- أبو عبدالله محمد بن محمد الإدريسي .
- المقدسي (أبو عبدالله محمد بن أبي بكر) .

٢ كتاب « المسالك والممالك » يتمتع بشهرة واسعة بين كتب الأدب الجغرافي العربي ، ترى من كان مؤلف هذا الكتاب ؟

- ابن حوقل .
- الاصطخري .
- البلخي .

٣ « تحفة النظار من غرائب الأمصار وعجائب الاسفار » هو العنوان الذي اختاره ابن بطوطة لمذكراته ، على أن ابن بطوطة لم يكن مبتكر هذا العنوان ، وقد سبق لمكتشف آخر قبله أن وضع كتابا يحمل نفس هذا العنوان ، ترى من هذا المكتشف الآخر ؟!

- التميمي .
- التيجاني .
- البغدادي .

٤ شغل ابن بطوطة منصب القضاء في بلدين من البلدان التي زارها أثناء رحلاته ، وقد تولى ذلك المنصب طوال سنة ونصف سنة في أحدهما ، وتولاه لمدة خمس سنوات في البلد الآخر ، فأي بلد هذا وأي بلد ذاك ؟

٥ البيروني عالم معروف من علماء السلف الصالح ولكن البيروني كان رحالا مستكشفا بالاضافة الى كونه عالما ، ومما يذكر أن رحلاته اقتصرت على الهند أو كادت ، ترى ما عنوان كتابه الجغرافي الذي تمخضت عنه رحلاته ؟
- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة .
- تاج المفرق في تحلية علماء المشرق .
- المعجب في تلخيص المغرب .

٦ قضى ابن بطوطة ٢٨ سنة من حياته في الحل والترحال ، ترى كم كيلومترا قطع في تلك السنين ؟
- نحو (١٢٠,٠٠٠) كيلومتر .
- نحو (١٢٠٠٠) كيلومتر .
- نحو (٦٠٠٠) كيلومتر .

٧ - كتابان شهيران من كتب الأدب الجغرافي الاسلامي : كتاب « معجم البلدان » وكتاب « فتوح البلدان » فان كان البلاذري هو مؤلف الكتاب الثاني فمن مؤلف الكتاب الاول :
- ياقوت الحموي .
- السمعاني .
- ابو دلف .

٨ وصل الى بغداد سنة ٩٢١م مبعوث رسمي من قبل ملك الصقالبة ، وكان آنذاك « المش بن بلطوار » وكان المبعوث يحمل الى الخليفة المقتدر بالله رسالة مهمة يطلب فيها الملك الصقلبي من الخليفة العباسي ، ايفاد من يفقهه في الدين ، ويعرف قومه شرائع الاسلام ، وما أسرع ما شكل الخليفة البعثة واختار لها الرئيس المناسب ، ترى من كان الرئيس الذي اختاره .
- ابن حوقل .
- ابن فضلان .
- البلوي .

٩ شاع في عهد الخليفة العباسي الواثق بالله أن رفات أهل الكهف كان مايزال موجوداً في كهف على قمة أحد الجبال في بلاد الروم ، فكلف أحد المستكشفين بالتوجه الى حيث كان الكهف والتحقيق في مدى صدق الإشاعة ، وقام المستكشف بالمهمة وتبين له ان تلك الإشاعة لا تقوم على أساس من الصحة ، وأن احد الدجالين هو الذي نسجها وحرص على نشرها لكسب المال ، ترى من كان المستكشف الذي اختاره الخليفة لتلك المهمة ؟
- المراكشي .
- التونسي .
- المنجّم (محمد بن موسى) .

١٠ الادريسي عالم الجغرافيا والرحال المعروف ، وضع كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » بتكليف رسمي من أحد أمراء زمانه،ترى من الذي كلفه بوضع ذلك الكتاب ؟
- الامير النورماني روجر الثاني .
- الخليفة العباسي .
- أمير الاندلس .

١١ ياقوت الحموي صاحب كتاب معجم البلدان ، كان يوناني الجنس والمولد كما يؤكد التاريخ ، اذن لم كانت تسميته بالحموي ؟

١٢ شاهد ابن بطوطة صورته مرسومة على الجدران في أحد البلاد التي زارها ، فأين كان ذلك ؟
- في الصين .
- في الهند .
- في اندونيسيا . □

حل مسابقة العدد ٣٦٩

أغسطس ١٩٨٩

١ عبـاس بن فـرنــاس ، أحـد علماء الأندلس - قرطبة - المتوفى سنة ٨٨٨ م ، كان موسيقياً وعالم فلك ومخترعاً ، وكان أول من حاول الطيران في التاريخ العربي كله . وقد اعتمد في تلك المحاولة على سترة للطيران ، قوامها ريش وأجنحة .

٢ اخترع البراشوت قبل الحرب العالمية الأولى بأكثر من ١٢٥ عـامـاً ، سنـة ١٧٨٣ م على وجه التحديد ، وكان ذلك في فرنسا ، في مدينة مومبيلييه .

٣ الأخوان مونت جولفيير هما اللذان صنعا أول بالون للطيران سنة ١٧٨٣ م ، وقد اعتمد هذا البالـون في طيرانـه على الهواء الساخن .

٤ الطائرة الحديثة ، كما نعرفها ، لم تنبثق من البـالـونـات أو المنـاطيـد ، وإنما من الطائرات الشراعية والطائرات الورقية التي يلهو بها الأطفال ، ويعود الفضل الأكبر في تطوير الطائرات الشراعية إلى العـالم الانكليزي السـير جورج كـايلي (١٧٧٣ - ١٨٥٧) ، والعالم الألماني أوتو ليلنتال ١٨٤٨ - ١٨٩٦ .

٥ أول طـائرة في التـاريـخ هي طـائـرة (فلاير « ١ ») وقد نجحت في الطيران بتمام الساعة ١٠,٣٥ من صباح يوم ١٧ ديسمبر ١٩٠٣ م ، في كيتي هـوك ، في كـارولينا الشمـالية ، وبلغ ارتفـاعها في الجو بين ٢,٥ - ٣,٥ أمتار ، وسرعتها (٤٨) كيلو متراً في الساعة ، والمسافة التي قطعتها (١٢٠) قدماً ، والمدة التي أمضتها في الجو (١٢) ثانية .

٦ مـطار الملك خـالـد الـدولي قـرب الرياض ، هو أكبر مطارات العالم كلها ، تبلغ مساحته ٨٦ ميلاً مربعاً ، أو ٢٢١ كيلـومتراً مربعـاً ، ويبلغ ارتفاع برجه وهو اعلى أبـراج المطارات في العـالم ٧٤ متراً ، وقد افتتح في ١٤ / ١١ / ١٩٨٦م ، وبلغت تكـاليفـه ٢١٠٠ مليـون جنيه استرليني .

٧ شـركـة الايـروفلوت السـوفيتيـة ٩٧,٥٠٠,٠٠٠ راكب سنوياً .

٨ أول قاذفة قنابل في التاريخ هي منطاد زبلن ، وقـد انفرد بـاستعمـالها الجيش الالماني في الحرب العـالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وهكذا كانت الغارات الجوية الأولى ، غـارات مناطيـد (أو بـالـونـات صلبة) ، وكانت لندن هي التي تعرضت لتلك الغارات .

٩ « الفنـادق الطائـرة » كانت المنـاطيـد التجـاريـة (من طـراز زبلن) التي استعملت لنقل الركاب على نطاق واسع

عبر المحيط الأطلسي ، وقد استمرت خدمات هذه المناطيد من سنة ١٩١٠ - ١٩٣٧ ، حين اندلعت النيران في منطاد هندنبرغ ، في نيوجرسي ، فكانت كارثة الطيران التي ذهب ضحيتها ٣٥ راكباً ، والتي طوت صفحة المناطيد التجارية منذ ذلك الحين .

١٠ القدرة على الارتفاع في الجو هي أهم شروط الطيران دون أدنى ريب ، وبدونها لا تكون الطائرة طائرة ، وتتحقق هذه القدرة بفعل ضغط الهواء الواقع على جناحي الطائرة ، بل قُل الفرق بين ضغط الهواء الواقع على الجناحين من أعلى وضغطه الواقع عليها من أسفل ، ذلك أن الهواء يمرر من فتحتين ، إحداهما فوق الجناحين والأخرى تحتها ، ويمرر عبر الفتحة العلوية بسرعة تزيد قليلاً على السرعة التي يمرر بها عبر الفتحة السفلية .

١١ مطار شيكاغو الدولي في أمريكا هو المطار الشغّال الأول في العالم ، وتدل الإحصاءات على أن مجموع الركاب الذين غادروه وقدموا إليه سنة ١٩٨٦ بلغ ٥٤ مليون نسمة أو أكثر قليلاً .

١٢ تقدم الطيران وتضاعف الإقبال على السفر بالطائرات خلال الخمسين سنة الأخيرة حتى كانت القفزات التالية :-

السنة	مجموع ركاب الطائرات في العالم باستثناء الاتحاد السوفيتي
١٩٣٧	مليونا راكب
١٩٤٧	٢١ مليون راكب
١٩٥٧	٩٠ مليون راكب
١٩٦٧	١١ مليون راكب « مجموع ركاب مطار واحد فقط هو مطار كنيدي بنيويورك » .
١٩٧٧	٧٥٠ مليون راكب

الفائزون في
مسابقة العدد ٣٦٩
أغسطس ١٩٨٩

الجائزة الأولى : محمد سليمان الجبوري / العراق .

الجائزة الثانية : عبد الناصر علي أحمد عاطف / اليمن الديمقراطي .

الجائزة الثالثة : مصطفاوي فاطمة كهينة / الجزائر .

الفائزون
بالجوائز التشجيعية

١ - بلقاسم بن المولدي بلقاسم برهومي / تونس .

٢ - وسام عاطف المعايعة / سلطنة عمان .

٣ - البقالي فاطمة شعيب / المغرب .

٤ - ريم محمد عطية محمد نور / سوريا .

٥ - مها محمد حجاج / مصر .

٦ - مفيد جمال ياسين / الامارات .

٧ - محمد أحمد عمر / الصومال .

٨ - عبد الهادي أسعد البيانوني / السعودية .



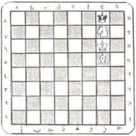
معركة بلا سلاح

على الرغم من عدم وجود جائزة نوبل للعب الشطرنج ، فإن العديد من الفائزين بهذه الجائزة في العصر الحديث من المتمرسين في هذه اللعبة ، وفي طليعة هؤلاء الكاتب المسرحي الايرلندي صموئيل بيكيت (نوبل للآداب ١٩٦٩) الذي كان يلعب الشطرنج الى درجة الإجادة ، وكان بطلا من كبار أبطالها في كلية ترينيتي في جامعة دبلن . وتحتوي إحدى رواياته الأولى (موري ١٩٣٨) على تسجيل لدور كامل بين بطل القصة الذي يعمل ممرضاً في مصحة عقلية وبين أحد النزلاء : « كان السيد اندون ، يلعب دوماً باللون الأسود ، وما أن يقدم إليه الأبيض حتى كان يغيب في إغماءة خفيفة دون أن يبدو عليه أي أثر من آثار الامتعاض » .

وكان أثر الشطرنج واضحاً على الهيكل الروائي لقصصه ، إذ كانت شخوصه تتحرك ضمن إطار محدد من القيود ، وكانت قدراتهم الهجومية تضمحل تدريجياً ، وما ان توشك على التلاشي حتى تجدها قد استعادت نشاطها فجأة ، كما لو كانت قطعة شطرنج خاملة أزيلت من طريقها العراقيل ، وهو يشبه ما يحدث في الشطرنج دوماً في نهايات الأدوار . وعند انتقال بيكيت من ايرلندا الى باريس قبيل الحرب العالمية الثانية أصبح صديقاً للرسام السيريالي الفرنسي مارسيل دوشامب الذي هجر الفن عدة سنوات ليصبح بطل فرنسا في الشطرنج ، ومن المؤسف أن أدب الشطرنج لم يحفظ لنا أي دور من الأدوار المثيرة بين بيكيت ودوشامب التي وصفها « ديدرو بير » كاتب سيرة بيكيت بقوله : « وكانت هذه الأدوار من أجمل الأدوار التي لعبها بيكيت في حياته وأكثرها إثارة وتشويقاً » .

وقد شارك دوشامب في تأليف كتاب عن نهايات الأدوار الذي كان يحتوي على نهايات تكون القطع فيها محدودة ، ويكون دور الملك فيها هجومياً بمقدار ماهو دفاعي . ويعد هذا الكتاب مصدراً لمسرحية بيكيت « نهاية اللعبة » . وروي عن بيكيت أنه قال موجهاً الممثل الذي كان يقوم بدور البطولة فيها : « يجب أن

مسألة العدد (٣٧٢)



مات ٤

إهداء من القارىء عادل ندا (ج . م . ع)

تكون كالملك الخاسر في لعبة الشطرنج منذ البداية ، ولكنه يقوم بحركات لا معنى لها شبيهة بالحركات المتخبطة للاعب السيء والتي يكون اللاعب الجيد قد استسلم في مثل ذلك الوضع منذ وقت بعيد » .

ومن الكتاب الأفذاذ الذين كان للشطرنج أثر كبير في حياتهم الروائي الفيلسوف الروسي ليو تولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠) صاحب « الحرب والسلام » . وقد حفظ لنا أدب الشطرنج العديد من أدواره الجميلة المثيرة نقتطف منها الدور التالي وهو من جامبيت الملك المقبول الذي يعد من أكثر الافتتاحيات إثارة وحماسة ، غير أننا لا ننصح الأبيض بلعبه (انظر العددين ٢٩٨ و ٣٥٦) لما ينطوي عليه من مزالق ومخاطر .

□ ليو تولستوي	■ مود (أياسنايا ١٩٠٦)
١ . هـ ٤	هـ ٥
٢ . و ٤	هـ×و ٤
٣ . ح - و ٣	ز ٥
٤ . ف - جـ٤	ز ٤
٥ . ح - هـ ٥	و-حـ٤+
٦ . م-و ١	د ٥
٧ . ف×د٥	و ٣
٨ . ز×و ٣	و-حـ٣+
٩ . م-هـ١	ز ٣
١٠ . د ٤	ز٢؟ (رديئة)
١١ . ر-ز١	و-حـ٤+
١٢ . م-هـ٢	ح-حـ٦
١٣ . ر×ز٢	جـ ٦
١٤ . ف×حـ٦	جـ×د٥
١٥ . ف×و٨	م×و٨
١٦ . و-هـ١	و-هـ٧
١٧ . ح-ج٣	و ٦
١٨ . ح×د٥	و-د٦
١٩ . و-ز ٣ (الشكل)	يستسلم □□

الفائزون في مسابقة الشطرنج العدد رقم (٣٦٩) أغسطس ١٩٨٩

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ - وائل عبد السلام / سوريا .
٢ - حسين الباروني / ليبيا .
٣ - نادية شاكر القبان / الكويت .
٤ - زكي غبد المجيد زكي ابراهيم / مصر .
٥ - محمد عبد الجليل بدران / العراق .

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ - عبد الرحمن الفاسي / المغرب .
٢ - عبد الحكيم محمد بامطرق / اليمن الديمقراطي .
٣ - م. عمر عبد الله / الأردن .
٤ - عبد المجيد عمر السبيل / السعودية .
٥ - جمال ابراهيم محمد عبد الغفار / البحرين .

حل مسألة العدد (٣٧٠) - سبتمبر ١٩٨٩م

١ . م-ب١ ف-حـ٥ ٢ . ر-ز٦ ثم مات بالنقلة الثالثة

حوار القراء

العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت



لبنان والعرب

● الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

أجل فيك نظرتك للأمور ، وأقدر عاليا تفهمك للأوضاع القائمة . في كل مكان نقرأ ما تكتب ، ونعمل جاهدين على أن نلحق بكلمتك التي تكتبها لنعمل بها . بعد اطلاعي وقراءتي العميقة لحديث الشهر المنشور في عدد ٣٦٧ - يونيو ١٩٨٩ - بعنوان « في لبنان المعذب علينا أن نقلع شوكنا بأيدينا » داخلتني مشاعر كثيرة ، ممزوجة بالحقد والغضب على كل من يرى لبنان في محنته ويقف مكتوف اليدين ، وفي يديه الحل ، وبالحزن والأسى على هذا الشعب الذي ما عرف طعم الراحة ، والذي شب أطفاله على صوت الرصاص وقذائف المدافع ، وبالسرور بما قام به مشكورا نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية الكويتي الشيخ صباح الأحمد الصباح ، ومن ساهم معه في السعي لتغيير الوضع وإخراج لبنان من عنق الزجاجة . إنها مشاعر غمرتني وأنا أقرأ الحديث ذا المعاني الكبيرة الذى نرى فيه بصيص نور في دنيا الظلام . وأنا وكل العرب في كل مكان نضم صوتنا إلى صوتك ، ونناشد كل الإخوان اللبنانيين أن يتناسوا خلافاتهم ، ويتناسوا مشكلاتهم ، لتصبح اليد باليد ويصنع الانتصار الكبير .

القارىء : ياسر عبد الوهاب جميدة

دير الزور - سوريا

● وردت للمجلة رسائل عديدة ، تبدي إعجابها وحماسها الشديد بالحديث ، والطريقة التي عالج بها موضوعا له مكان الصدارة بين هموم الإنسان العربي ، منها رسالة من الزميل د . غسان سلامة ، من باريس ، ومن القراء : يحيى السيد النجار - دمياط - جمهورية مصر العربية ، وعبد الرزاق عزرون - حمص - سوريا ، ومحمد العيسى - حلب - سوريا .

■ ■ ■

أهلاً بكم في لحج

● لقد قرأت فى صحيفة ١٤ أكتوبر اليومية الصادرة في بلادنا أن بعثة من مجلتكم قد زارت اليمن الديمقراطية في الفترة من ٣ إلى ١٢ يونيو ١٩٨٩ ، لإعداد استطلاع مصور عن وادي حضرموت بمدنه الرئيسة . وهذه هي الزيارة الثانية « للعربي » بعد الزيارة الأولى منذ ربع قرن وإنها لبادرة طيبة ولفتة كريمة أن تطوف مجلتكم بأرجاء بلادنا ، ولكن لفت انتباهي أن « العربي » لم تزر حتى الآن محافظة لحج ، على الرغم من غناها بتراثها التاريخي ، وطقسها المتنوع ، ومدنها

الجميلة ، وعاصمتها « الحوطة » التي يختلط فيها القديم بالجديد في مبانيها ، وحياتها .

إنني أوجه لكم دعوة لزيارة لحج ، ولا تنسوا أن لديكم أصدقاء كثيرين يتابعون بلهفة أعداد مجلتكم ، ونأمل أن نستقبلكم في لحج هذا العام أو في عام ١٩٩٠ ، فأهلا وسهلا بكم في أي وقت .

القارىء مهدي علي العمري
قرية الحداد - محافظة لحج - مركز الحوطة
اليمن الديمقراطية الشعبية

■■■

العرب والطيور الجارحة



● الاستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

قرأت في عدد (٣٦٧) يونيو ١٩٨٩ مقالا بعنوان « عن النسور والعقبان » للكاتب الدكتور محمد الطوبي ، وفيه جهد مبذول وبحث واضح ملموس . لدي توضيح لبعض المعلومات الموجزة ، منها أن الطيور الجارحة تنقسم إلى (٢٧٠) نوعا .

ولقد عرف العرب منذ القديم هذه الطيور ، وأطلقوا على العقبان أسماء وصفات كثيرة ، نذكر منها : « الكاسر ، العرارة ، الحذرية ، لقوة ، العنقاء » وقد اتخذ العرب من هذه الأسماء والصفات ما يشبهون به جيادهم . يقول امرؤ القيس مشبها :

كأني بفتخاء الجناحين لقوة .. دفوف من العقبان طأطأت شملالي

والعقبان بضم العين تطلق على الذكر والأنثى معا . أما (الغَرْن) بفتح الغين والراء فتطلق على ذكر العقبان .

والسهوم تطلق على أنثى العقاب يقول الراجز : عجب من سهوم وغَرْن . أضف إلى ذلك بأن لكل من ذكر العقاب وأنثاه كنية يكنى بها ، وهي كنى عديدة ، فمنها ما يكنى بها الذكر : (أبو الأشيم - أبو الحجاج - أبو حسان - أبو الدهر) ، أما كنى الأنثى فنذكر منها : (أم الحوار - أم الشعور - أم الهيثم) .

والعقبان تبيض ثلاث بيضات ، وتستمر الحضانة فترة أربعة أسابيع .

أما النسور فقد تعرض لها الدكتور الطوبي في مقاله دون أن يفرق بين القديم والجديد منها ، علما بأن هناك فصيلتين : احداهما نسور العالم الجديد (الامريكية) ، والأخرى نسور العالم القديم ، وتضم هذه الفصيلة (١٤) نوعا . والتشابه ما بين الفصيلتين ظاهري فقط .

القارىء : ماجد مصطفى نجار
ادلب - سوريا

حوار القراء

الكويت واحة الثقافة

الاستاذ الكبير رئيس التحرير ،
تحية طيبة وبعد ،

● بداية أحب أن أشير إلى أنني من قراء مجلة « العربي » منذ ثلاثين عاماً ، وقد يعجب المرء لذلك ، مع أن الأمر غاية في البساطة وهو أن أعداد مجلة « العربي » القديمة تباع في الميادين والساحات ومحلات بيع الكتب القديمة ، وقد آثرت منذ نعومة أظافري على أن أقتني هذه المجلة وغيرها من المجلات ، وكنت أشتري ، ومازلت أشتري ، الكتب من مصروفي أثناء الدراسة ، ومن أجري المادي أثناء الإجازة الصيفية ، لأنني أقوم بالعمل فيها ، لأنني من أسرة متوسطة الدخل ، كبيرة العدد ، ولكن كلنا والحمد لله ننعم بقسط كبير من التعليم ، ولدي كثير من الأصدقاء على الشاكلة نفسها ، وكلنا نحاول قراءة الكتب واقتناءها من على الأرصفة ، لأن أسعارها تكون رخيصة ، وننتظر أن تتوافر أعداد من الكتب أو المجلات القديمة ونذهب لشرائها ، وعندئذ يكون سعرها في متناول أيدينا ، وهذا هو حال كثير من شباب مصر ذوي الدخل المحدود والمتوسط .

وأحب أن أشيد هنا بمدى روعة وإبداع مجلة « العربي » على الرغم من أن لي بعض التحفظات ، وهذه الإشادة ليست مجاملة ، بل هي حقيقة واقعة ، فلقد قرأت وشاهدت عدداً غير قليل من المجلات ، وفي الواقع لم أجد مثل مجلة « العربي » في السعر وفي غزارة الموضوعات وتنوعها ، وفي الأسلوب الديمقراطي الذي يكفل حرية الرأي والفكر ، ومعظم أبواب المجلة الثابتة ممتازة لارتكازها على دعائم ثابتة ، ولإيمان أفرادها برسالتهم وواجبهم المقدس نحو أمتهم العربية والإسلامية . وأنا أستطيع أن أقول وبكل صراحة : إن الكويت استحقت عن جدارة أن تكون لواء وعلماً من أعلام التنوير في وطننا العربي المعاصر وهذا بفضل أبنائها .

القاريء : محمود الحسيني محمد
الاسكندرية - جمهورية مصر العربية

■■■

الأديب العالمي

● الحق أن محمود تيمور واحد من الأدباء الكبار القلائل الذين لهم الفضل الأكبر في بعث الحياة في أوصال أدبنا العربي ، وإثرائه بألوان فنية جديدة ، ولقد كان لجهوده الرائدة أعمق الأثر فيما جاء من إنتاج أدبي ، ورسم للأدباء طريقا من نور .

وإذا كانت قد سبقت قصص تيمور محاولات أخرى عديدة في تأليف القصة



● محمود تيمور

العربية ، كمحاولات المويلحي ، ولطفي جمعة ، وطاهر لاشين ، ومحمد تيمور ، وغيرهم ، فالذي لاشك فيه أن هذه المحاولات لم تكن في معظمها أكثر من إرهاصات أولية في علاج القصة ، ظلت في حاجة إلى موهبة أصيلة ناضجة ، لتتحول إلى قصص فنية مكتملة العناصر . وكان محمود تيمور هو صاحب هذه الموهبة الأصيلة التي أرست للقصة مكانا راسخا في أدبنا العربي ، ولم يكن ليوفق إلى شيء من ذلك لولا تلك المحاولات التي سبقته ، ومهدت لظهوره . وبالطريقة نفسها لم يكن نجيب محفوظ ومحمود البدوي ويوسف إدريس من أعلام القصة والرواية العربية . لقد شاركت دول كثيرة في الاعتراف بقيمة تيمور الأدبية والاستمتاع بفنه ، فترجمت تسعة من مؤلفاته إلى اللغة الفرنسية ، وثلاثة إلى الألمانية ، وثلاثة مجلدات إلى اللغة الروسية ، بالاضافة إلى مؤلفات عديدة ترجمت إلى عشر لغات أخرى ، بحيث يصدق عليه ، أكثر من أي أديب آخر ، وصف « الأديب العالمي » الذي يقرأ له بأكثر من خمس عشرة لغة . كما ألفت عنه كتب ودراسات أكثر من أي أديب آخر من المعاصرين .

ومن المعلوم أنه كان من طبقة ارستقراطية ثرية ، استطاع أن يتجاوب بالكثير من قصصه ورواياته مع أبناء الطبقة الفقيرة والمتوسطة ، تجاوبا عجز عنه الكثيرون من الأدباء الذين نشأوا في هاتين الطبقتين . وقل أن تعثر على أديب من أدباء الأجيال اللاحقة ، لم تكن له صلة وطيدة به ، ولم يتلق هداياه من الكتب ، وتوجيهاته الأدبية ونصائحه الشفوية أو المكتوبة ، فهو لا يهمل رسالة واحدة من الرسائل التي يرسلها إليه الأدباء الناشئون ، وما أكثر من أخذ بأيديهم في خطواتهم الأولى ، فقدم كتبهم أو قدمهم إلى الصحف ودور النشر بصورة تذكرنا بسلوك كبار أدباء الغرب . وهذا السلوك ما أحوجنا إلى أن يقتدي به الكثيرون من كتابنا .

مصطفى المعروفي
طنجة ـ المغرب

اقتراحات وردود قصيرة

● القاريء : محمود عبد الحميذ أحمد ، من القاهرة ، بجمهورية مصر العربية ، يسأل عن كيفية الحصول على بعض الكتب المنشورة في باب « مختارات من المكتبة العربية » . ونقول له : إن عليه الاتصال بالمكتبات التي ترد أسماؤها ضمن دور النشر التي أصدرت تلك الكتب .

● القارئة : سامية خلاوي ، من محافظة حمص ، بسوريا ، تطلب أن تقوم المجلة باستطلاع مصور عن المرأة العربية في سوريا ، وما تحقق لها من مكاسب على الصعيد الثقافي والاجتماعي والاقتصادي ، وما تبوأت من مراكز اجتماعية وعلمية وأدبية .

● القارئة : فاتن البدوي ، دمشق ، تطلب توسيع صفحة الرياضة الفكرية (الشطرنج) ، فهي من الصفحات القليلة جدا التي تنشر في مجلات عربية لها قيمة وسمعة ثقافية وأدبية كمجلة « العربي » .

● القاريء : علي أحمد ـ الإقليم الشمالي ـ السودان ـ يقول : المجلة لا تصل

حوار القُرَّاء

إلى منطقته منذ أكتوبر ١٩٨٨ م . وأن الظروف الصعبة تحول دون توجهه للعاصمة للحصول عليها .

● القاريء : محمود بدر مكتبي ، من حلب ، سوريا ، يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع مصور عن الجاليات العربية في أمريكا الجنوبية ، وعن فعاليتها ونشاطاتها الاقتصادية والاجتماعية .

● القاريء : فتحي مراد ، من ولاية بنزرت ، بالجمهورية التونسية ، يشكو من أن التواصل العربي بين أبناء المشرق والمغرب ليس بمستوى الأحداث والعلاقات والترابط . ونقول له : إن ما شاهده لايعدو عن حادث فردي ، لا يصح تعميمه .

● القارئان : أحمد منزل طهيمي ، من الحسكة ، وصالح محمد القولي ، من الرقة - بسوريا - يقولان إنهما معجبان بالعدد ٣٦٦ ، وبقصيدة « الأربعون » للشاعر خالد محادين . ويسألان إن كان له ديوان مطبوع أم لا . وإمكانية الحصول عليه . ونحن نحيل السؤال إلى الشاعر خالد ، وبانتظار إجابته .

● وصلتنا رسالة من القاريء : الشيخ أحمد معاوية ، من نواكشوط ، بالجمهورية الإسلامية الموريتانية ، يشكو فيها من صعوبة الحصول على مجلة « العربي » ومطبوعاتها ، نظرا لعدم توافرها في الأسواق ، ولعدم وجود الاشتراكات لصعوبة تحويل مبلغ الاشتراك ، ويقول : إنه حاول عدة مرات تحويل المبلغ عن طريق أحد المصارف إلا أنه فشل في ذلك .

● القاريء : محمد يسب موسى ، من دهوك بالجمهورية العراقية ، بعث يبدي رغبته في أن يكون مشتركا في المجلة . ونقول له : إن شروط الاشتراك منشورة في الصفحة الثالثة من المجلة ، وما عليك إلا أن تقوم بالاطلاع عليها .

● القاريء مهند الرشيد ، من حلب - سوريا ، يطلب المزيد من المعلومات عن تاريخ لعبة الشطرنج ، وطريقة لعبها .

● القارئة صباح كيالي ، من حلب - سوريا ، تسأل عن باب (هو . هي) ، هل يكتبه كاتب مختص أم أنه يكتب بمشاركة من القراء ؟ ونقول لها : إن الصفحات يكتبها محرر ، يعمل بالمجلة .

● القارئة المهندسة سهام محي الدين من محافظة الحسكة - سوريا ، تقول في رسالتها إنها اطلعت على مقال الدكتور ابراهيم سعد عن « النباتات الطبية والعطرية في الوطن العربي » في العدد ٣٥٦ (يوليو ١٩٨٨) ، وتريد معلومات اضافية عن نبات الدمسيسة الذي يساعد في علاج حصوة الكلى وتنشيط الكبد ، وأي المناطق التي ينمو فيها هذا النبات .

● القاريء عبد الله ابراهيم السلمان ، من منطقة بيان - الكويت ، بعث يسأل في حالة فوزه بالمسابقة الثقافية ، كيف يمكنه تسلم الجائزة المخصصة



للمسابقة . نقول له : إن المجلة تقوم بإرسال قيمة الجائزة بالبريد المسجل ، وكذلك في حالة الفوز بالاشتراك السنوي بالمجلة .

● القارىء ياسر محمود الصفطي ، من المحلة الكبرى - جمهورية مصر العربية ، يقول : إنه شاب من هواة الكتابة الأدبية ، لا سيما القصة القصيرة ، مثل كثير من الشباب العربي ، ولكن لا تتوافر له الكتب اللازمة لإتقان هوايته ، أو أنها غالية باهظة ، ويطلب تخصيص أحد أبواب المجلة لتعليم أساسيات الأدب المختلفة .

● القارىء محمد أبو علي نصار ، من المعهد العالي للتعاون والإرشاد الزراعي - جامعة اسيوط ، والقارىء عبد الرحمن محمد ، من الفيوم - جمهورية مصر العربية ، بعثا يبديان إعجابهما بالعدد ٣٦٧ يونيو ١٩٨٩ ، ويشيدان باستطلاع « مسلمو بريطانيا مواطنون أم مغتربون » ، ويطلبان أن تزداد الاستطلاعات المنشورة عن حال المسلمين في باقي البلاد الأوربية .

● القارىء عبدو كيفو ، من مدينة الثورة - سوريا ، يقترح قيام المجلة باستطلاع عن مدينته التي تقع على حافة نهر الفرات .

● القارىء أيمن السيد محمد علي ، من نجع حمادي - محافظة قنا - بجمهورية مصر العربية ، يشكو تأخر وصول المجلة إلى منطقته ، وقد قمنا بتحويل رسالتك إلى الموزع المعتمد (دار الأهرام للتوزيع) للنظر في الشكوى . □

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت
نوفمبر ١٩٨٩ م

الريف
في الرواية العربية

تأليف
الدكتور محمد حسن عبدالله

٥٠٠ فلس
الكتاب ١٤٣
المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت



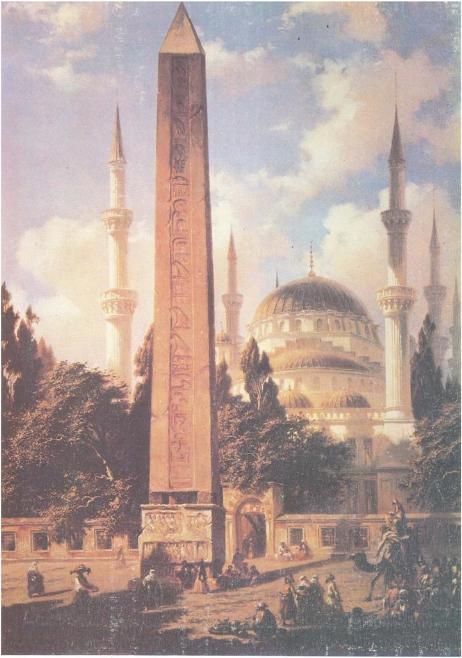
من المسرح العالمي

سلسلة شهرية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

الخزان العظيم

تأليف : بيتر ترسون
ترجمة : الشريف خاطر
مراجعة وتقديم : محمد الحديدي

العدد ٢٤٢ أول نوفمبر ١٩٨٩



مسلة هيبونا - اسطنبول - للفنان الفرنسي / آلان ليزيتز